

تفسير القرآن العظيم

للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل
ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي

٧٠١-٧٧٤هـ

تحقيق
أبي عمرو ناصر بن أحمد بن النجار الدمياطي

هذه الطبعة مقابلة على النسخة الأزهرية

الجزء الثالث

دار العقيدة

بسم الله الرحمن الرحيم



تفسير القرآن العظيم
للحافظ بن كثير
ط ١ - الإسكندرية، دار العقيدة، ٢٠٠٨
عدد الصفحات: ٧٣٦ صفحة
المقاس: ١٧ × ٢٤

دار العقيدة
الإسكندرية: ١٠١ ش الفتح باكوس ت: ٠٣/٥٧٤٧٣٢١ ف: ٠٠٢٠٣/٥٧٦٥٦٢١
القاهرة: ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ت: ٠٠٢٠٢/٢٥١٤٣١٧٤
E-mail: dar_alakida@yahoo.com

تفسير سُورَةُ الإِسْرَاءِ وهي مكية

ترتيبها ١٧ — وآياتها ١١١

قَال الإِمَام البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا آدَم بْن أَبِي إِيَاس، حَدَّثَنَا شُعْبَة عَنْ أَبِي إِسْحَاق قَال: سَمِعْت عَبْد الرَّحْمَن ابْن يَزِيد، سَمِعْت ابْن مَسْعُود ﷺ قَال فِي بَنِي إِسْرَائِيل وَالكَهْف وَمَرْيَم: إِنَّهُنَّ مِنْ العِتَاق الأُوَل، وَهُنَّ مِنْ تِلادِي.[1]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد عَنْ مَرْوَان أَبِي لُبَابَة، سَمِعْت عَائِشَة تَقُول: كَانَ رَسُول الله ﷺ يَصُوم حَتَّى نَقُول مَا يُرِيد أَنْ يُفْطِر، وَيُفْطِر حَتَّى نَقُول مَا يُرِيد أَنْ يَصُوم، وَكَانَ يَقْرَأ كُلّ لَيْلَة بَنِي إِسْرَائِيل وَالزُّمَر.[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

يُمَجِّد تَعَالى نَفْسه، وَيُعَظِّم شَأْنه، لِقُدْرَتِهِ عَلى مَا لا يَقْدِر عَلَيْهِ أَحَد سِوَاهُ، فَلا إِله غَيْره وَلا رَبّ سِوَاهُ، ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ، ﴿لَيْلًا﴾ أَيْ: فِي جُنْح اللَّيْل ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وَهُوَ مَسْجِد مَكَّة، ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وَهُوَ بَيْت المَقْدِس الَّذِي بِإِيلِيَاء مَعْدِن الأَنْبِيَاء مِنْ لَدُنْ إِبْرَاهِيم الخَلِيل عليه السلام، وَلِهَذَا جُمِعُوا لهُ هنالك كُلّهمْ فَأَمَّهُمْ فِي مَحَلَّتهمْ وَدَارهمْ، فَدَلَّ عَلى أَنَّهُ هُوَ الإِمَام الأَعْظَم، وَالرَّئِيس المُقَدَّم، صَلوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. وَقَوْله تَعَالى: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أَيْ: فِي الزُّرُوع وَالثِّمَار: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ أَيْ: مُحَمَّدًا ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أَيْ: العِظَام. كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾، وَسَنَذْكُرُ مِنْ ذَلكَ مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّة مِنْ الأَحَادِيث عَنْهُ ﷺ، وَقَوْله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أَيْ: السَّمِيع لأَقْوَال عِبَاده مُؤْمِنهمْ وَكَافِرهمْ، مُصَدِّقهمْ وَمُكَذِّبهمْ، البَصِير بِهِمْ، فَيُعْطِي كُلًّا مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

قَال الإِمَام أَبُو عَبْد الله البُخَارِيّ: حَدَّثَنِي عَبْد العَزِيز بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا سُليْمَان -هُوَ ابْن بِلال- عَنْ شَرِيك بْن عَبْد الله قَال: سَمِعْت أَنَس بْن مَالك يَقُول: لَيْلَة أُسْرِيَ بِرَسُول الله ﷺ مِنْ مَسْجِد الكَعْبَة: أَنَّهُ جَاءَهُ ثَلاثَة نَفَر قَبْل أَنْ يُوحَى إِليْهِ وَهُوَ نَائِم فِي المَسْجِد الحَرَام، فَقَال أَوَّلهمْ: أَيّهمْ هُوَ؟ فَقَال أَوْسَطهمْ: هُوَ خَيْرهمْ، وقال آخِرهمْ: خُذُوا خَيْرهمْ، فَكَانَتْ تِلكَ اللَّيْلة، فَلمْ يَرَهُمْ حَتَّى أَتَوْهُ لَيْلة أُخْرَى فِيمَا يَرَى قَلبه وَتَنَام عيناه وَلا يَنَام قَلبه -وَكَذَلكَ الأَنْبِيَاء تَنَام أَعْيُنهمْ وَلا تَنَام قُلُوبهمْ- فَلمْ يُكَلِّمُوهُ حَتَّى احْتَمَلُوهُ، فَوَضَعُوهُ عِنْد بِئْر زَمْزَم، فَتَوَلَّاهُ مِنْهُمْ جِبْرِيل فَشَقَّ جِبْرِيل، مَا بَيْن نَحْره إِلى لبَّته حَتَّى فَرَغَ مِنْ صَدْره وَجَوْفه، فَغَسَلهُ مِنْ مَاء زَمْزَم بِيَدِهِ حَتَّى أَنْقَى جَوْفه، ثُمَّ أَتَى بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَب فِيهِ تَوْر مِنْ ذَهَب مَحْشُوّ إِيمَانًا وَحِكْمَة فَحَشَا بِهِ صَدْره وَلغَادِيده -يَعْنِي عُرُوق حَلقه- ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلى السَّمَاء الدُّنْيَا، فَضَرَبَ بَابًا مِنْ أَبْوَابهَا، فَنَادَاهُ أَهْل السَّمَاء: مَنْ هَذَا؟ فَقَال: جِبْرِيل، قَالُوا: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مَعِي مُحَمَّد ﷺ، قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ إِليْهِ؟ قَال: نَعَمْ، قَالُوا: مرحبًا بِهِ وَأَهْلًا، يَسْتَبْشِر بِهِ أَهْل السَّمَاء لا يَعْلم أَهْل السَّمَاء بِمَا يُرِيد الله بِهِ فِي الأَرْض حَتَّى يُعْلمهُمْ، ووجد فِي السَّمَاء الدُّنْيَا آدَم، فَقَال لهُ جِبْرِيل: هَذَا أَبُوك آدَم فَسَلِّمْ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٣٩).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٩٢١)، وأحمد (٦/ ١٨٩)، وصححه الألباني.

عَلَيْهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ آدَم فَقَال: مَرْحَبًا وَأَهْلًا بِابْنِي، نِعْمَ الابْن أَنْتَ، فَإِذَا هُوَ فِي السَّمَاء الدُّنْيَا بِنَهَرَيْنِ يَطَّرِدَانِ فَقَال: «مَا هَذَانِ النَّهَرَانِ يَا جِبْرِيل؟». قَال: هَذَانِ النِّيل وَالفُرَات عُنْصُرهمَا.

ثُمَّ مَضَى بِهِ فِي السَّمَاء، فَإِذَا هُوَ بِنَهرٍ آخر عَلَيْهِ قَصْر مِنْ لُؤْلُؤ وَزَبَرْجَد، فَضَرَبَ بِيَدِهِ، فَإِذَا هُوَ مِسْك أَذْفَر فَقَال: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيل؟» قَال: هَذَا الكَوْثَر الَّذِي خَبَأَ لك رَبّك، ثُمَّ عَرَجَ إِلى السَّمَاء الثَّانِيَة، فَقَالَتْ المَلَائِكَة لَهُ مِثْل مَا قَالَتْ لَهُ الأُولى: مَنْ هَذَا؟ قَال: جِبْرِيل. قَالُوا: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد ﷺ قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَال: نَعَمْ. قَالُوا: مَرْحَبًا وَأَهْلًا وسهلاً، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلى السَّمَاء الثَّالِثَة، فَقَالُوا لَهُ مِثْل مَا قَالَتْ الأُولى وَالثَّانِيَة، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلى السَّمَاء الرَّابِعَة فَقَالُوا لَهُ مِثْل ذَلِكَ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلى السَّمَاء الخَامِسَة، فَقَالُوا لَهُ مِثْل ذَلِكَ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلى السَّمَاء السَّادِسَة، فَقَالُوا لَهُ مِثْل ذَلِكَ، ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلى السَّمَاء السَّابِعَة، فَقَالُوا لَهُ مِثْل ذَلِكَ، كُلّ سَمَاء فِيهَا أَنْبِيَاء قَدْ سَمَّاهُمْ قد وعيت مِنْهُمْ إِدْرِيس فِي الثَّانِيَة وَهَارُون فِي الرَّابِعَة وَآخَر فِي الخَامِسَة لَمْ أَحْفَظ اسْمه وَإِبْرَاهِيم فِي السَّادِسَة وَمُوسَى فِي السَّابِعَة بفضل كَلَام الله، فَقَال مُوسَى: رَبّ لَمْ أَظُنّ أَنْ تَرْفَع عَلَيَّ أَحَدًا، ثُمَّ عَلا بِهِ فَوْق ذَلِكَ بِمَا لا يَعْلمهُ إِلَّا الله ﷻ حَتَّى جَاءَ سِدْرَة المُنْتَهَى، وَدَنَا الجَبَّار رَبّ العِزَّة فَتَدَلَّى، حَتَّى كَانَ مِنْهُ قَاب قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ فِيمَا يُوحِي خَمْسِينَ صَلاة عَلى أُمَّتك كُلّ يَوْم وَلَيْلَة، ثُمَّ هَبطَ بِهِ حَتَّى بَلغَ مُوسَى فَاحْتَبَسَهُ مُوسَى، فَقَال: يَا مُحَمَّد مَاذَا عَهِدَ إِلَيْك رَبّك؟ قَال: «عَهِدَ إِليَّ خَمْسِينَ صَلاة كُلّ يَوْم وَلَيْلَة». قَال: إِنَّ أُمَّتك لا تَسْتَطِيع ذَلِكَ فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْك رَبّك وَعَنْهُمْ. فَالتَفَتَ النَّبِيّ ﷺ إِلى جِبْرِيل كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرهُ فِي ذَلِكَ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ جِبْرِيل أَنْ نَعَمْ إِنْ شِئْت، فَعَلا بِهِ إِلى الجَبَّار تَعَالى فَقَال وَهُوَ فِي مَكَانه: «يَا رَبّ خَفِّفْ عَنَّا، فَإِنَّ أُمَّتِي لا تَسْتَطِيع هَذَا». فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْر صَلَوَات، ثُمَّ رَجَعَ إِلى مُوسَى فَاحْتَبَسَهُ، فَلَمْ يَزَل يُرَدِّدهُ مُوسَى إِلى رَبّه حَتَّى صَارَتْ إِلى خَمْس صَلَوَات، ثُمَّ احْتَبَسَهُ مُوسَى عِنْد الخَمْس فَقَال: يَا مُحَمَّد وَالله لَقَدْ رَاوَدْت بَنِي إِسْرَائِيل قَوْمِي عَلى أَدْنَى مِنْ هَذَا فَضَعُفُوا فَتَرَكُوهُ، فَأُمَّتك أَضْعَف أَجْسَادًا وَقُلُوبًا وَأَبْدَانًا وَأَبْصَارًا وَأَسْمَاعًا، فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْك رَبّك، كُلّ ذَلِكَ يَلتَفِت النَّبِيّ ﷺ إِلى جِبْرِيل لِيُشِيرَ عَلَيْهِ وَلا يَكْرَه ذَلِكَ جِبْرِيل، فَرَفَعَهُ عِنْد الخَامِسَة، فَقَال: «يَا رَبّ إِنَّ أُمَّتِي ضُعَفَاء أَجْسَادهمْ وَقُلُوبهمْ وَأَسْمَاعهمْ وَأَبْصَارهمْ وَأَبْدَانهمْ فَخَفِّفْ عَنَّا». فَقَال الجَبَّار: يَا مُحَمَّد. قَال: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْك». قَال: إِنَّهُ لا يُبَدَّل القَوْل لَدَيَّ؛ كَمَا فَرَضْت عَلَيْك فِي أُمّ الكِتَاب، كل حَسَنَة بِعَشْرِ أَمْثَالهَا، فَهِيَ خَمْسُونَ فِي أُمّ الكِتَاب، وَهِيَ خَمْس عَلَيْك، فَرَجَعَ إِلى مُوسَى فَقَال: كَيْف فَعَلت؟ فَقَال: «خَفَّفَ عَنَّا أَعْطَانَا بِكُلّ حَسَنَة عَشْر أَمْثَالهَا». قَال مُوسَى: قَدْ وَالله رَاوَدْت بَنِي إِسْرَائِيل عَلى أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ فَتَرَكُوهُ، فَارْجِعْ إِلى رَبّك فَلْيُخَفِّفْ عَنْك أَيْضًا. قَال رَسُول الله ﷺ: «يَا مُوسَى؛ قَدْ -وَالله- اسْتَحْيَيْت مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ مِمَّا أَخْتَلف إِلَيْهِ». قَال: فَاهْبِطْ بِاسْم الله، قَال: فاسْتَيْقَظَ وَهُوَ فِي المَسْجِد الحَرَام.[1] هَكَذَا سَاقَهُ البُخَارِيّ فِي كِتَاب التَّوْحِيد، وَرَوَاهُ فِي صِفَة النَّبِيّ ﷺ عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي أُوَيْس، عَنْ أَخِيهِ أَبِي بَكْر عَبْد الحَمِيد عَنْ سُلَيْمَان بْن بِلال. وَرَوَاهُ مُسْلم عَنْ هَارُون بْن سَعِيد عَنْ ابْن وَهْب عَنْ سُلَيْمَان، قَال: فَزَادَ وَنَقَصَ، وَقَدَّمَ وَأَخَّرَ، وَهُوَ كَمَا قاله مُسْلم رَحِمَهُ اللهُ؛ فَإِنَّ شَرِيك بْن عَبْد الله بْن أَبِي نَمِر اضْطَرَبَ فِي هَذَا الحَدِيث، وَسَاءَ حِفْظه وَلَمْ يَضْبِطهُ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانه فِي الأَحَادِيث الأُخَر. وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَل هَذَا مَنَامًا تَوْطِئَة لِمَا وَقَعَ بَعْد ذَلِكَ، وَالله أَعْلَم.

وَقَدْ قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ: فِي حَدِيث شَرِيك زِيَادَة تَفَرَّدَ بِهَا، عَلى مَذْهَب مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ ﷺ رَأَى ربه يَعْنِي قَوْله: ثُمَّ دَنَا الجَبَّار رَبّ العِزَّة ﴿فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾». قَال: وَقَوْل عَائِشَة وَابْن مَسْعُود وَأَبِي هُرَيْرَة فِي حَمْلهمْ هَذِهِ الآيَات عَلى رُؤْيَته جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ أَصَحّ. وَهَذَا الَّذِي قَالهُ البَيْهَقِيّ رَحِمَهُ اللهُ فِي هَذِهِ المَسْأَلة هُوَ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٥١٧).

الحَقّ؛ فَإِنَّ أَبَا ذَرّ قَالَ: يَا رَسُول الله؛ هَل رَأَيت رَبّك؟ قَالَ: «نُور أَنَّى أَرَاهُ». وَفِي رِوَايَة: «رَأَيْت نُورًا». أَخْرَجَهُ مُسْلم رَحِمَهُ اللَّهُ. وَقَوْله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، عَنْ عَائِشَة أُمّ المُؤْمِنِينَ، وَعَنْ ابْن مَسْعُود، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي «صَحِيح مُسْلم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلا يُعْرَف لَهُمْ مُخَالف مِنْ الصَّحَابَة فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة بِهَذَا.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، أَخْبَرَنَا ثَابِت البُنَانِيّ، عَنْ أَنَس بْن مَالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «أُتِيت بِالبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّة أَبْيَض فَوْق الحِمَار وَدُون البَغْل، يَضَع حَافِره عِنْد مُنْتَهَى طَرَفه، فَرَكِبْته، فَسَارَ بِي حَتَّى أَتَيْت بَيْت المَقْدِس، فَرَبَطْت الدَّابَّة بِالحَلقَةِ الَّتِي يَرْبِط فِيهَا الأَنْبِيَاء، ثُمَّ دَخَلت فَصَلَّيْت فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْت. فَأَتَانِي جِبْرِيل بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْر، وَإِنَاء مِنْ لَبَن، فَاخْتَرْت اللَّبَن، فَقَال جِبْرِيل: أَصَبْت الفِطْرَة. قَال: ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلى السَّمَاء الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيل، فَقِيل: مَنْ أَنْتَ؟ قَال: جِبْرِيل. فَقِيل: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قِيل: وَقَدْ أُرْسِل إِلَيْهِ؟ قَال: قَدْ أُرْسِل إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا؛ فَإِذَا أَنَا بِآدَم، فَرَحَّبَ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلى السَّمَاء الثَّانِيَة، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيل، فَقِيل لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَال: جِبْرِيل. قِيل: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. فَقِيل: وَقَدْ أُرْسِل إِلَيْهِ؟ قَال: قَدْ أُرْسِل إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيْ الخَالَة: يَحْيَى، وَعِيسَى، فَرَحَّبَا بِي، وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلى السَّمَاء الثَّالِثَة، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيل، فَقِيل: مَنْ أَنْتَ؟ قَال: جِبْرِيل. فَقِيل: وَمَنْ مَعَك؟ فَقَال: مُحَمَّد ﷺ. فَقِيل: وَقَدْ أُرْسِل إِلَيْهِ؟ قَال: قَدْ أُرْسِل إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْر الحُسْن، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلى السَّمَاء الرَّابِعَة، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيل، فَقِيل: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَال: جِبْرِيل. فَقِيل: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. فَقِيل: وَقَدْ أُرْسِل إِلَيْهِ؟ قَال: قَدْ أُرسل إِلَيْهِ فَفُتِحَ البَاب، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيس، فَرَحَّبَ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ قَال: يَقُول الله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلى السَّمَاء الخَامِسَة، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيل، فَقِيل: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَال: جِبْرِيل. فَقِيل: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. فَقِيل: قَدْ بُعِث إِلَيْهِ؟ قَال: قَدْ بُعِثَ إِلَيْه. فَفُتِحَ البَاب؛ فَإِذَا أَنَا بِهَارُون فَرَحَّبَ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلى السَّمَاء السَّادِسَة، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيل، فَقِيل: مَنْ أَنْتَ؟ قَال: جِبْرِيل. قِيل: وَمَنْ مَعَك؟ فَقَال: مُحَمَّد. فَقِيل: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَال: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلى السَّمَاء السَّابِعَة، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيل، فَقِيل: مَنْ أَنْتَ؟ قَال: جِبْرِيل. قِيل: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. فَقِيل: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَال: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيم، وَإِذَا هُوَ مُسْتَنِد إِلى البَيْت المَعْمُور، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلهُ كُلّ يَوْم سَبْعُونَ أَلف مَلَك، ثُمَّ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ. ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلى سِدْرَة المُنْتَهَى، فَإِذَا وَرَقهَا كَآذَانِ الفِيلَة، وَإِذَا ثَمَرهَا كَالقِلال. فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْر الله مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَد مِنْ خَلق الله تَعَالى يَسْتَطِيع أَنْ يَصِفهَا مِنْ حُسْنهَا، قَال: فَأَوْحَى الله إِلَيَّ مَا أَوْحَى، وَفَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلّ يَوْم وَليْلة خَمْسِينَ صَلاة، فَنَزَلت حَتَّى انْتَهَيْت إِلى مُوسَى قَال: مَا فَرَضَ رَبّك عَلى أُمَّتك؟ قَال: قُلت: خَمْسِينَ صَلاة فِي كُلّ يَوْم وَليْلة. قَال: ارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف؛ فَإِنَّ أُمَّتك لا تُطِيق ذَلِكَ، وَإِنِّي قَدْ بَلوْت بَنِي إِسْرَائِيل وَخَبَرْتهمْ. قَال: فَرَجَعْت إِلى رَبِّي؛ فَقُلت: أَيْ رَبِّ! خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي. فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعت إِلى مُوسَى؛ فَقَال: مَا فَعَلت؟ قُلت: قَدْ حَطَّ عَنِّي خَمْسًا. قَال: إِنَّ أُمَّتك لا تُطِيق ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلى رَبّك؛ فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف لِأُمَّتِك. قَال: فَلَمْ أَزَل أَرْجِع بَيْن رَبِّي، وَبَيْن مُوسَى، وَيَحُطّ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا، حَتَّى قَال: يَا مُحَمَّد هِي خَمْس صَلَوَات فِي كُلّ يَوْم وَليْلة، بِكُلّ صَلاة عَشْر، فَتِلكَ خَمْسُونَ صَلاة، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلهَا كُتِبَتْ حَسَنَة، فَإِنْ عَمِلهَا كُتِبَتْ عَشْرًا. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، وَلم يَعْمَلهَا لَمْ تُكْتَب، فَإِنْ عَمِلهَا كُتِبَتْ سَيِّئَة وَاحِدَة. فَنَزَلت حَتَّى انْتَهَيْت إِلى مُوسَى فَأَخْبَرْته، فَقَال: ارْجِعْ إِلى

رَبَّك فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيف لأُمَّتِك؛ فَإِنَّ أُمَّتك لا تُطِيق ذَلِك»؛ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**لَقَدْ رَجَعْت إِلى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْت**»[1]. وَرَوَاهُ مُسْلم عَنْ شَيْبَان بْن فَرُّوخ، عَنْ حَمَّاد بْن سَلمَة بِهَذَا السِّيَاق، وَهُوَ أَصَحّ مِنْ سِيَاق شَرِيك.

قَال البَيْهَقِيّ: «وَفِي هَذَا السِّيَاق دَلِيل عَلَى أَنَّ المِعْرَاج كَانَ لَيْلَة أُسْرِيَ بِهِ عليه الصلاة والسلام مِنْ مَكَّة إِلى بَيْت المَقْدِس». وَهَذَا الَّذِي قَالهُ هُوَ الحَقّ الَّذِي لا شَكّ فِيهِ وَلا مِرْيَة. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة، عَنْ أَنَس رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ أُتِيَ بِالبُرَاقِ لَيْلَة أُسْرِيَ بِهِ مُسَرَّجًا مُلجَمًا لِيَرْكَبهُ، فَاسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ، فَقَال لهُ جِبْرِيل: مَا يَحْمِلك عَلَى هَذَا؟ فَوَالله مَا رَكِبَك قَطُّ أَكْرَم عَلى الله مِنْهُ. قَال: فَارْفَضَّ عَرَقًا.[2] وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، عَنْ إِسْحَاق بْن مَنْصُور، عَنْ عَبْد الرَّزَّاق، وَقَال: غَرِيب لا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثه. وَقَال أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو المُغِيرَة، حَدَّثَنَا صَفْوَان، حَدَّثَنِي رَاشِد بْن سَعِد، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر، عَنْ أَنَس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**لمَّا عُرِجَ بِي إِلى رَبِّي عز وجل مَرَرْت بِقَوْمٍ لهُمْ أَظْفَار مِنْ نُحَاس، يَخْمُشُونَ وُجُوههمْ وَصُدُورهمْ، فَقُلت: مَنْ هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيل؟ قَال: هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُوم النَّاس، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضهمْ**»[3]. وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد مِنْ حَدِيث صَفْوَان بْن عَمْرو بِهِ. وَمِنْ وَجْه آخَر لَيْسَ فِيهِ أَنَس، فَالله أَعْلم. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ سُليْمَان التَّيْمِيّ، عَنْ أَنَس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**مَرَرْت لَيْلَة أُسْرِيَ بِي عَلى مُوسَى؛ قَائِمًا يُصَلِّي فِي قَبْره**»[4]. وَرَوَاهُ مُسْلم مِنْ حَدِيث حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ سُليْمَان بْن طَرْخَان التَّيْمِيّ وَثَابِت البُنَانِيّ، كِلاهُمَا عَنْ أَنَس.

قَال النَّسَائِيّ: هَذَا أَصَحّ مِنْ رِوَايَة مَنْ قَال: سُليْمَان، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس. وَقَال أَبُو يَعْلى المَوْصِليّ فِي «مُسْنَده»: حَدَّثَنَا وَهْب بْن بَقِيَّة، حَدَّثَنَا خَالد، عَنْ التَّيْمِيّ، عَنْ أَنَس قَال: أَخْبَرَنِي بَعْض أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ لَيْلَة أُسْرِيَ بِهِ مَرَّ عَلى مُوسَى، وَهُوَ يُصَلِّي فِي قَبْره.[5] وَقَال أَبُو يَعْلى: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد بْن عَرْعَرَة، حَدَّثَنَا مُعْتَمِر، عَنْ أَبِيهِ قَال: سَمِعْت أَنَسًا: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ لَيْلَة أُسْرِيَ بِهِ مَرَّ بِمُوسَى، وَهُوَ يُصَلِّي فِي قَبْره، قَال أَنَس: ذَكَرَ أَنَّهُ حُمِل عَلى البُرَاق، فَأَوْثَقَ الدَّابَّة، أَوْ قَال: الفَرَس، قَال أَبُو بَكْر: صِفْهَا لي! فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**هِيَ كَذِهِ وَذِهِ**». فَقَال: أَشْهَد أَنَّك رَسُول الله، وَكَانَ أَبُو بَكْر رضي الله عنه قَدْ رَآهَا.[6] وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر أَحْمَد بْن عَمْرو البَزَّار فِي «مُسْنَده»: حَدَّثَنَا سَلمَة بْن شَبِيب، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن مَنْصُور، حَدَّثَنَا الحَارِث بْن عُبَيْد، عَنْ أَبِي عِمْرَان الجَوْنِيّ، عَنْ أَنَس بْن مَالك رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «بَيْنَا أَنَا نَائِم إِذْ جَاءَ جِبْرِيل عليه السلام، فَوَكَزَ بَيْن كَتِفَيَّ، فَقُمْت إِلى شَجَرَة فِيهَا كَوَكْرَيْ الطَّيْر، فَقَعَدَ فِي أَحَدهمَا، وَقَعَدْت فِي الآخَر، فَسَمَتْ وَارْتَفَعَتْ حَتَّى سَدَّتْ الخَافِقَيْن، وَأَنَا أُقَلِّب طَرْفِي، وَلوْ شِئْت أَنْ أَمَسّ السَّمَاء لمسست، فَالتَفَتّ إِلى جِبْرِيل عليه السلام كَأَنَّهُ حِلس لاطَ، فَعَرَفْت فَضْل عِلمه بالله عَليَّ، وَفُتِحَ لي بَاب مِنْ أَبْوَاب السَّمَاء، فَرَأَيْت النُّور الأَعْظَم، وَإِذَا دُون الحِجَاب رَفْرَف الدُّرّ وَاليَاقُوت، وَأُوحِيَ إِليَّ مَا شَاءَ الله أَنْ يُوحَى»[7]. ثُمَّ قَال: وَلا نَعْلم رَوَى هَذَا الحَدِيث إِلَّا أَنَس، وَلا نَعْلم رَوَاهُ عَنْ أَبِي عِمْرَان الجَوْنِيّ إِلَّا الحَارِث بْن عُبَيْد، وَكَانَ رَجُلًا مَشْهُورًا مِنْ أَهْل البَصْرَة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٢).
(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣١٣١)، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي»: صحيح الإسناد.
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٨٧٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٧٥).
(٥) صحيح: أخرجه أبو يعلى (٣٩٥٧)، وتقدم صحة الحديث.
(٦) صحيح: أخرجه أبو يعلى (٣٩٧٤).
(٧) ضعيف: أخرجه البزار (٥٨ - كشف) بسند ضعيف، وضعف الحديث الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٥٤٤٤).

وَرَوَاهُ الحَافِظ البَيْهَقِيّ فِي «الدَّلائِل»، عَنْ أَبِي بَكْر القَاضِي، عَنْ أَبِي جَعْفَر مُحَمَّد بْن عَلِيّ بْن دُحَيْم، عَنْ مُحَمَّد ابْن الحُسَيْن بْن أَبِي الحُسَيْن، عَنْ سَعِيد بْن مَنْصُور. فَذَكَرَهُ بِسَنَدِهِ مِثْله. ثُمَّ قَال: وَقَال غَيْره فِي هَذَا الحَدِيث فِي آخِره: «وَلطَّ دُونِي، أَوْ قَال: دُون الحِجَاب، رَفْرَف الدُّرّ وَاليَاقُوت». ثُمَّ قَال: هَكَذَا رَوَاهُ الحَارِث بْن عُبَيْد، وَرَوَاهُ حَمَّاد بْن سَلمَة عَنْ أَبِي عِمْرَان الجَوْنِيّ، عَنْ مُحَمَّد بْن عُمَيْر بْن عُطَارِد: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كَانَ فِي مَلإٍ مِنْ أَصْحَابه، فَجَاءَهُ جِبْرِيل، فَنكَتَ فِي ظَهْره، فَذَهَبَ بِهِ إِلى الشَّجَرَة، وَفِيهَا مِثْل وَكْرَيْ الطَّيْر، فَقَعَدَ فِي أَحَدهمَا وَقَعَدَ جِبْرِيل فِي الآخَر فتسامت بِنَا حَتَّى بَلغَتْ الأُفُق، فَلوْ بَسَطْت يَدَيَّ إِلى السَّمَاء لنِلتهَا، فَدُلِّيَ بِسَبَب، وَهَبَطَ النُّور، فَوَقَعَ جِبْرِيل مَغْشِيًّا عَلَيْهِ كَأَنَّهُ حِلس، فَعَرَفْت فَضْل خَشْيَته عَلى خَشْيَتِي، فَأُوحِيَ إِليَّ نَبِيًّا مَلكًا، أَوْ نَبِيًّا عَبْدًا، وَإِلى الجَنَّة مَا أَنْتَ؟ فَأَوْمَأَ إِليَّ جِبْرِيل، وَهُوَ مُضْطَجِع؛ أَنْ تَوَاضَعْ، قَال: قُلت: لا بَل نَبِيًّا عَبْدًا. قُلت: وَهَذَا إِنْ صَحَّ يَقْتَضِي أَنَّهَا وَاقِعَة غَيْر ليْلة الإِسْرَاء؛ فَإِنَّهُ لمْ يَذْكُر فِيهَا بَيْت المَقْدِس، وَلا الصُّعُود إِلى السَّمَاء، فَهِيَ كَائِنَة غَيْر مَا نَحْنُ فِيهِ، وَالله أَعْلم. وَقَال البَزَّار أَيْضًا: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عِيسَى، حَدَّثَنَا أَبُو بَحْر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ قَتَادَة، عَنْ أَنَس رضي الله عنه أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبّه ﷻ. وَهَذَا غَرِيب.

وَقَال أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا يُونُس، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن وَهْب، حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن عَبْد الرَّحْمَن الزُّهْرِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن هَاشِم بْن عُتْبَة بْن أَبِي وَقَّاص، عَنْ أَنَس بْن مَالك قَال: لـمَّا جَاءَ جِبْرِيل إِلى رَسُول الله ﷺ بِالبُرَاقِ فَكَأَنَّهَا أمرّت ذَنبهَا، فَقَال لهَا جِبْرِيل: مَهْ يَا بُرَاق. فَوَالله إِنْ رَكِبَك مِثْله. وَسَارَ رَسُول الله ﷺ، فَإِذَا هُوَ بِعَجُوزٍ عَلى جَانِب الطَّرِيق، فَقَال: «مَا هَذِهِ يَا جِبْرِيل؟» قَال: سِرْ يَا مُحَمَّد؛ قَال: فَسَارَ مَا شَاءَ الله أَنْ يَسِير، فَإِذَا شَيْء يَدْعُوهُ مُتَنَحِّيًا عَنْ الطَّرِيق يقول: هَلُمَّ يَا مُحَمَّد؛ فَقَال لهُ جِبْرِيل: سِرْ يَا مُحَمَّد. فَسَارَ مَا شَاءَ الله أَنْ يَسِير، قَال: فَلقِيَهُ خَلق مِنْ الخلق فَقَالُوا: السَّلام عَليْك يَا أَوَّل، السَّلام عَليْك يَا آخِر السَّلام عَليْك يَا حَاشِر، فَقَال لهُ جِبْرِيل: ارْدُدْ السَّلام يَا مُحَمَّد، فَرَدَّ السَّلام، ثُمَّ لقِيَهُ الثَّانِيَة، فَقَال لهُ مِثْل مَقَالته الأُولى، ثُمَّ الثَّالثَة كَذَلكَ، حَتَّى انْتَهَى إِلى بَيْت المَقْدِس. فَعُرِضَ عَليْهِ الماء والخمر وَاللَّبَن، فَتَنَاوَل رَسُول الله ﷺ اللَّبَن، فَقَال لهُ جِبْرِيل: أَصَبْت الفِطْرَة، وَلوْ شَرِبْت المَاء لغَرِقْت وَغَرِقَتْ أُمَّتك، وَلوْ شَرِبْت الخَمْر لغَوَيْت وَلغَوَتْ أُمَّتك، ثُمَّ بَعَثَ لهُ آدم فَمَنْ دُونه مِنْ الأَنْبِيَاء عَليْهِمْ السَّلام فَأَمَّهُمْ رَسُول الله ﷺ تِلكَ اللَّيْلة. ثُمَّ قَال لهُ جِبْرِيل: أَمَّا العَجُوز الَّتِي رَأَيْت عَلى جَانِب الطَّرِيق فَلمْ يَبْقَ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا ما بَقِيَ مِنْ عُمُر تِلكَ العَجُوز، وَأَمَّا الَّذِي أَرَادَ أَنْ تَمِيل إِليْهِ، فَذَاكَ عَدُوّ الله إِبْليس، أَرَادَ أَنْ تَمِيل إِليْهِ. وَأَمَّا الَّذِينَ سَلَّمُوا عَليْك فَإِبْرَاهِيم وَمُوسَى، وَعِيسَى عَليْهِمْ الصلاة والسَّلام.(1)

وَهَكَذَا رَوَاهُ الحَافِظ البَيْهَقِيّ فِي «دَلائِل النُّبُوَّة» مِنْ حَدِيث ابْن وَهْب، وَفِي بَعْض أَلفَاظه نَكَارَة وَغَرَابَة.

طَرِيق أُخْرَى: عَنْ أَنَس بْن مَالك، وَفِيهَا غَرَابَة وَنَكَارَة جِدًّا، وَهِيَ فِي سُنَن النَّسَائِيّ «المُجْتَبَى»، وَلمْ أَرَهَا فِي الكَبِير، قَال: أخبرنا عَمْرو بْن هِشَام، حَدَّثَنَا مَخْلد -هُوَ ابْن الحُسَيْن- عَنْ سَعِيد بْن عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن أَبِي مَالك، حَدَّثَنَا أَنَس بْن مَالك: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «أُتِيت بِدَابَّةٍ فَوْق الحِمَار، وَدُون البَغْل، خَطْوهَا عِنْد مُنْتَهَى طَرْفهَا، فَرَكِبْت وَمَعِي جِبْرِيل عليه السلام ، فَسِرْت فَقَال: انْزِل فَصَلِّ فَصَلَّيْت، فَقَال: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْت؟ صَلَّيْت بِطَيْبَة، وَإِليْهَا المهاجر، ثُمَّ قَال: انْزِل فَصَلِّ، فَصَلَّيْت، فَقَال: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْت؟ صَلَّيْت بِطُور سَيْنَاء حَيْثُ كَلَّمَ الله مُوسَى. ثُمَّ قَال: انْزِل فَصَلِّ، فَصَلَّيْت فَقَال: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْت؟ صَلَّيْت بِبَيْتِ لحْم حَيْثُ وُلدَ عِيسَى عليه السلام ، ثُمَّ دَخَلت بَيْت المَقْدِس، فَجُمِعَ لِيَ الأَنْبِيَاء عَليْهِمْ السَّلام فَقَدَّمَنِي جِبْرِيل عليه السلام حَتَّى أَمَمْتهمْ،

---

(1) إسناده ضعيف: أخرجه الطبري (١٥/ ٦)، وقال ابن كثير كما في «المتن»: في بعض ألفاظه نكارة وغرابة.

ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلى السَّماء الدُّنْيا، فَإِذَا فِيهَا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلى السَّماء الثَّانِيَة، فَإِذَا فِيهَا ابْنَا الخَالة عِيسَى وَيَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلى السَّماء الثَّالثَة، فَإِذَا فِيهَا يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلى السَّماء الرَّابعَة، فَإِذَا فِيهَا هَارُون عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلى السَّماء الخَامِسَة، فَإِذَا فِيهَا إِدْرِيس عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلى السَّماء السَّادِسَة، فَإِذَا فِيهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلى السَّماء السَّابِعَة، فَإِذَا فِيهَا إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ صَعِدَ بِي فَوْق سَبْع سَمَاوَات، وَأَتَيْت سِدْرَة الْمُنْتَهى، فَغَشِيَتْنِي ضَبَابَة، فَخَرَرْت سَاجِدًا، فَقِيل لِي: إِنِّي يَوْم خَلقْت السَّماوَات وَالأَرْض، فَرَضْت عَلَيْك وَعَلى أُمَّتك خَمْسِينَ صَلاة، فَقُمْ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتك؛ فَرَجَعْت إِلى إبراهيم فلم يسألني عن شيء، ثم أتيت موسى فَقَال: كم فَرَضَ الله عليك وعَلى أُمَّتك؟ قُلت: خَمْسِينَ صَلاة، قَال: فَإِنَّك لا تَسْتَطِيع أَنْ تَقُوم بِهَا لا أَنْت وَلا أُمَّتك، فَارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيف. فَرَجَعْت إِلى رَبِّي، فَخَفَّفَ عَنِّي عَشْرًا، ثُمَّ أَتَيْت مُوسَى فَأَمَرَنِي بِالرُّجُوع فَرَجَعْت فَخَفَّفَ عَنِّي عَشْرًا، ثُمَّ رُدَّتْ إِلى خَمْس صَلوَات، قَال: فَارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيف، فَإِنَّهُ فَرَضَ عَلى بَنِي إِسْرَائِيل صَلاتَيْنِ فَمَا قَامُوا بِهِمَا. فَرَجَعْت إِلى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَسَأَلته التَّخْفِيف، فَقَال: إِنِّي يَوْم خَلقْت السَّماوَات وَالأَرْض فَرَضْت عَلَيْك وَعَلى أُمَّتك خَمْسِينَ صلاة ، فَخَمْس بِخَمْسِينَ، فَقُمْ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتك، قَال: فَعَرَفْت أَنَّهَا مِنْ الله عَزَّ وَجَلَّ صِرَّى، فَرَجَعْت إِلى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَال: ارْجِعْ. فَعَرَفْت أَنَّهَا مِنْ الله تَعَالَى صِرَّى -يَقُول: أَيْ: حَتْم- فَلَمْ أَرْجِع».[1]

طَرِيق أُخْرَى: وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَام بن عَمَّار، حَدَّثَنَا خَالد بْن يَزِيد بْن أَبِي مَالك، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَنَس بْن مَالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَال: لَـمَّا كَانَ لَيْلة أُسْرِيَ بِرَسُول الله ﷺ إِلى بَيْت الْمَقْدِس، أَتَاهُ جِبْرِيل بِدَابَّةٍ فَوْق الحِمَار وَدُون البَغْل، حَمَلهُ جِبْرِيل عَلَيْهَا يَنْتَهِي خُفّهَا حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفهَا، فَلَمَّا بَلغَ بَيْت الْمَقْدِس وَبَلغَ الْمَكَان الَّذِي يُقَال لهُ: «**بَاب مُحَمَّد** ﷺ » أَتَى إِلى الحَجَر الَّذِي ثَمَّةَ، فَغَمَزَهُ جِبْرِيل بِأُصْبُعِهِ فَثَقَبَهُ، ثُمَّ رَبَطَهَا، ثُمَّ صَعِدَ، فَلَمَّا اسْتَوَيَا فِي صَرْحَة الْمَسْجِد، قَال جِبْرِيل: يَا مُحَمَّد؛ هَل سَأَلت رَبّك أَنْ يُرِيك الحُور العِين؟ فَقَال: «نَعَمْ». فَقَال: فَانْطَلقْ إِلى أُولئِكَ النِّسْوَة، فَسَلِّمْ عَلَيْهِنَّ، وَهُنَّ جُلُوس عَنْ يَسَار الصَّخْرَة، قَال: «فَأَتَيْتهنَّ فَسَلَّمْت عَلَيْهِنَّ، فَرَدَدْنَ عَليَّ السَّلام، فَقُلت: مَنْ أَنْتُنَّ؟» فَقُلنَ: نَحْنُ خَيْرَات حِسَان، نِسَاء قَوْم أَبْرَار، نُقُّوا فَلمْ يَدْرَنُوا. وَأَقَامُوا فَلمْ يَظْعَنُوا، وَخُلِّدُوا فَلمْ يَمُوتُوا. قَال: ثُمَّ انْصَرَفْت، فَلمْ أَلبَث إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى اجْتَمَعَ نَاس كَثِير، ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّن وَأُقِيمَتْ الصَّلاة، قَال: فَقُمْنَا صُفُوفًا نَنْتَظِر مَنْ يَؤُمّنَا. فَأَخَذَ بِيَدِي جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَدَّمَنِي، فَصَلَّيْت بِهِمْ. فَلَمَّا انْصَرَفْت قَال جِبْرِيل: يَا مُحَمَّد؛ أَتَدْرِي مَنْ صَلَّى خَلفك؟ قَال: قُلت: «لا»، قَال: صَلَّى خَلفك كُلّ نَبِيّ بَعَثَهُ الله تَعَالَى.

قَال: ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي جِبْرِيل، فَصَعِدَ بِي إِلى السَّماء، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلى البَاب اسْتَفْتَح، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَال: أَنَا جِبْرِيل. قَالُوا: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ؟ قَال: نَعَمْ. قَال: فَفَتَحُوا لهُ، وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِك وَبِمَنْ مَعَك. قَال: فَلَمَّا اسْتَوَى عَلى ظَهْرهَا إِذَا فِيهَا آدَم، فَقَال لِي جِبْرِيل: يَا مُحَمَّد؛ أَلا تُسَلِّم عَلى أَبِيك آدَم؟ قَال: قُلت: بَلى، فَأَتَيْته فَسَلَّمْت عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَليَّ، وَقَال: مَرْحَبًا بِابْنِي، وَالنَّبِيّ الصَّالح، قَال: ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلى السَّماء الثَّانِيَة فَاسْتَفْتَح فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَال: جِبْرِيل. قَالُوا: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَال: نَعَمْ. فَفَتَحُوا لهُ وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِك، وَبِمَنْ مَعَك. فَإِذَا فِيهَا عِيسَى، وَابْن خَالته يَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. قَال: ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلى السَّماء الثَّالثَة، فَاسْتَفْتَحَ، قَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَال: جِبْرِيل. قَالُوا: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَال: نَعَمْ. فَفَتَحُوا لهُ وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِك وَبِمَنْ مَعَك. فَإِذَا فِيهَا يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلى السَّماء الرَّابِعَة؛

(١) منكر : أخرجه النسائي (١/ ٢٢١)، وقال الألباني في «ضعيف سنن النسائي»: منكر.

فَاسْتَفْتَح، قَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَال: جِبْرِيل. قَالُوا: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. قَال: نَعَمْ؟ قَال: فَفَتَحُوا له، وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِك وَبِمَنْ مَعَك. فَإِذَا فِيهَا إِدْرِيس عَلَيْهِ السَّلَام ، قَال: فَعَرَجَ بِي إِلى السَّماء الخَامِسَة فَاسْتَفْتَح فَقَالُوا: مَنْ أَنتَ؟ قَال: جِبْرِيل. قَالُوا: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَال: نَعَمْ. فَفَتَحُوا له. وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِك وَبِمَنْ مَعَك. فإِذَا فِيهَا هَارُون عَلَيْهِ السَّلَام قَال: ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلى السَّماء السَّادِسَة فَاسْتَفْتَحَ قَالُوا: مَنْ أَنتَ؟ قَال: جِبْرِيل. قَالُوا: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَال: نَعَمْ. فَفَتَحُوا له. وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِك وَبِمَنْ مَعَك. وَإِذَا فِيهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام ، ثُمَّ عرَجَ بِي إِلى السَّماء السَّابِعَة فَاسْتَفْتَح جِبْرِيل، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَال: جِبْرِيل. قَالُوا: وَمَنْ مَعَك. قَال: مُحَمَّد. قَالُوا: وَقَدْ بُعِثَ؟ قَال: نَعَمْ. فَفَتَحُوا لَهُ وَقَالُوا: مَرْحَبًا بِك وَبِمَنْ مَعَك؟ وَإِذَا فِيهَا إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام ، فَقَال جِبْرِيل: يَا مُحَمَّد أَلا تُسَلِّم عَلى أَبِيك إِبْرَاهِيم؟ قَال: قُلت: بَلى فَأَتَيْته فَسَلَّمْت عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلام وَقَال: مَرْحَبًا بك يا بني وَالنَّبِيّ الصَّالح.

ثُمَّ انطَلَقَ بِي عَلى ظَهْر السَّماء السَّابِعَة، حَتَّى انْتَهَى بِي إِلى نَهَر عَلَيْهِ خِيَام الياقوت واللؤلؤ وَالزَّبَرْجَد، وَعَلَيْهِ طَيْر خُضْر، أَنْعَم طَيْر رَأَيْت. فَقُلت: يَا جِبْرِيل؛ إِنَّ هَذَا الطَّيْر لنَاعِم؟ قَال: يَا مُحَمَّد، آكِله أَنْعَم مِنْهُ. ثُمَّ قَال: يَا مُحَمَّد، أَتَدْرِي أَيّ نَهَر هَذَا؟ قَال: قُلت: لا، قَال: هَذَا الكَوْثَر الَّذِي أَعْطَاكَ الله إِيَّاهُ. فَإِذَا فِيهِ آنِيَة الذَّهَب وَالفِضَّة، يَجْرِي عَلى رَضْرَاض مِنْ اليَاقُوت وَالزُّمُرُّد، دِمَاؤُهُ أَشَدّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَن. قَال: فَأَخَذْت مِنْ آنِيَته آنِيَة مِنْ الذَّهَب، فَاغْتَرَفْت مِنْ ذَلكَ المَاء فَشَرِبْت، فَإِذَا هُوَ أَحْلى مِنْ العَسَل، وَأَشَدّ رَائِحَة مِنْ المِسْك، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَيْت إِلى الشَّجَرَة، فَغَشِيَتْنِي سَحَابَة فِيهَا مِنْ كُلّ لوْن، فَرَفَضَنِي جِبْرِيل، وَخَرَرْت سَاجِدًا لله عَزَّ وَجَلَّ فَقَال الله لي: يَا مُحَمَّد؛ إِنِّي يَوْم خَلقْت السَّماوَات وَالأَرْض، فرضت عَلَيْك وَعَلى أُمَّتك خَمْسِينَ صَلاة، فَقُمْ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتك. قَال: ثُمَّ انْجَلتْ عَنِّي السَّحَابَة، فَأَخَذَ بِيَدِي جِبْرِيل، فَانصَرَفْت سَرِيعًا. فَأَتَيْت عَلى إِبْرَاهِيم فَلَمْ يَقُل لي شَيْئًا، ثم أتيت عَلى مُوسَى، فَقَال: مَا صَنَعْت يَا مُحَمَّد؟ فَقُلت: فَرَضَ رَبِّي عَليَّ وَعَلى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاة. قَال: فَلنْ تَسْتَطِيعهَا أَنْتَ وَلا أُمَّتك، فَارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ أَنْ يُخَفِّف عَنْك، فَرَجَعْت سَرِيعًا حَتَّى انْتَهَيْت إِلى الشَّجَرَة، فَغَشِيَتْنِي السَّحَابَة، وَرَفَضَنِي جِبْرِيل، وَخَرَرْت سَاجِدًا، وَقُلت: رَبّ، إِنَّك فَرَضْت عَليَّ وَعَلى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاة، وَلنْ أَسْتَطِيعهَا أَنَا وَلا أُمَّتِي، فَخَفِّفْ عَنَّا. قَال: قَدْ وَضَعْت عَنْكُمْ عَشْرًا. قَال: ثُمَّ انْجَلتْ عَنِّي السَّحَابَة، وَأَخَذَ بِيَدِي جِبْرِيل، فَانْصَرَفْت سَرِيعًا، حَتَّى أَتَيْت عَلى إِبْرَاهِيم فَلَمْ يَقُل لي شَيْئًا، ثُمَّ أَتَيْت عَلى مُوسَى، فَقَال لي: مَا صَنَعْت يَا مُحَمَّد؟ فَقُلت: وَضَعَ رَبِّي عَنِّي عَشْرًا. قَال: أربعون صَلاة لنْ تَسْتَطِيعهَا أَنْتَ وَلا أُمَّتك، فَارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ أَنْ يُخَفِّف عَنْكُمْ». فَذَكَرَ الحَدِيث كَذَلكَ إِلى خَمْس صَلوَات وَخَمْس بِخَمْسِينَ، ثُمَّ أَمَرَهُ مُوسَى أَنْ يَرْجِع فَيَسْأَلهُ التَّخْفِيف فَقُلت: «إِنِّي قَدْ اسْتَحْيَيْت مِنْهُ تَعَالى».

قَال: ثُمَّ انْحَدَرَ فَقَال رَسُول الله ﷺ لجِبْرِيل: «مَا لي لمْ آتِ على سَماء إِلَّا رَحَّبُوا بِي، وَضَحِكُوا إِليَّ غَيْر رَجُل وَاحِد، فَسَلَّمْت عَليْهِ فَرَدَّ عَليَّ السَّلام، وَرَحَّبَ بِي، وَلمْ يَضْحَك إِليّ؟ قَال: يَا مُحَمَّد؛ ذَاكَ مَالك خَازِن جَهَنَّم، لمْ يَضْحَك مُنْذُ خُلقَ، وَلوْ ضَحِكَ إِلى أَحَد لضَحِكَ إِليْك». قَال: ثُمَّ رَكِبَ مُنْصَرِفًا، فَبَيْنَا هُوَ فِي بَعْض الطَّرِيق مَرَّ بِعِيرٍ لقُرَيْشٍ تَحْمِل طَعَامًا مِنْهَا جَمَل عَليْهِ غِرَارَتَانِ: غِرَارَة سَوْدَاء، وَغِرَارَة بَيْضَاء، فَلَمَّا حَاذَى بِالعِيرِ نَفَرَتْ مِنْهُ وَاسْتَدَارَتْ، وَصُرِعَ ذَلكَ البَعِير وَانْكَسَرَ. ثُمَّ إِنَّهُ مَضَى فَأَصْبَحَ، فَأَخْبَرَ عَمَّا كَانَ، فَلَمَّا سَمِعَ المُشْرِكُونَ قَوْله أَتَوْا أَبَا بَكْر فَقَالُوا: يَا أَبَا بَكْر؛ هَل لك فِي صَاحِبك؟ يُخْبِر أَنَّهُ أَتَى فِي لَيْلته هَذِهِ مَسِيرَة شَهْر ثم رَجَعَ فِي ليْلته، فَقَال أَبُو بَكْر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنْ كَانَ قَالهُ فَقَدْ صَدَقَ، وَإِنَّا لنُصَدِّقهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَد مِنْ هَذَا؛ نصدقه عَلى خَبَر السَّماء. فَقَال المُشْرِكُونَ لرَسُول الله ﷺ : مَا عَلامَة مَا تَقُول؟ قَال:

«مَرَرْت بِعِيرٍ لقُرَيْشٍ، وَهِيَ فِي مَكَان كَذَا وَكَذَا، فَنفَرَتْ العير مِنَّا وَاسْتَدَارَتْ، وَفِيهَا بَعِير عَلَيْهِ غِرَارَتَانِ: غِرَارَة سَوْدَاء وَغِرَارَة بَيْضَاء، فَصُرِعَ؛ فَانْكَسَرَ». فَلَمَّا قَدِمَتْ العِير سَأَلُوهُمْ، فَأَخْبَرُوهُمْ الخَبَر عَلَى مِثْل مَا حَدَّثَهُمْ النبي ﷺ، وَمِنْ ذَلكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْر الصِّدِّيق. وَسَأَلُوهُ فَقَالُوا: هَل كَانَ مَعَك فِيمَنْ حَضَرَ مُوسَى وَعِيسَى؟ قَال: «نَعَمْ». قَالُوا: فَصِفْهُمْ؟ قَال: «نَعَمْ. أَمَّا مُوسَى: فَرَجُل آدَم، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَال أَزْدعُمَان، وَأَمَّا عِيسَى فَرَجُل رَبْعَة، سَبْط، تَعْلُوهُ حُمْرَة، كَأَنَّمَا يَتَحَادَر مِنْ شَعْره الجُمَان». هَذَا سِيَاق فِيهِ غَرَائِب عَجِيبَة.[١]

رِوَايَة أَنَس رضي الله عنه عَنْ مَالك بْن صَعْصَعَة: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا هَمَّام قَال: سَمِعْت قَتَادَة يُحَدِّث، عَنْ أَنَس بْن مَالك: أَنَّ مَالك بْن صَعْصَعَة حَدَّثَهُ: أَنَّ نَبِيّ الله ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَة أُسْرِيَ بِهِ، قَال: **«بَيْنَمَا أَنَا فِي الحَطِيم -وَرُبَّمَا قَال قَتَادَة: فِي الحِجْر- مُضْطَجِعًا، إِذْ أَتَانِي آتٍ، فَجَعَل يَقُول لصَاحِبِهِ: الأَوْسَط بَيْن الثَّلاثَة، قَال: فَأَتَانِي فَقَدَّ -وَسَمِعْت قَتَادَة يَقُول: فَشَقَّ- مَا بَيْن هَذِهِ إِلى هَذِهِ».** وَقَال قَتَادَة: فَقُلت للجَارُودِ، وَهُوَ إِلى جَنْبِي: مَا يَعْنِي؟ قَال: مِنْ ثُغْرَة نَحْره إِلى شِعْرَته، وَقَدْ سَمِعْته يَقُول له: مِنْ قَصَّته إِلى شِعْرَته -قَال: فَاسْتُخْرِجَ قَلْبِي- قَال: فَأُتِيت بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَب مَمْلُوء إِيمَانًا وَحِكْمَة، فَغُسِل قَلْبِي، ثُمَّ حُشِيَ، ثُمَّ أُعِيدَ؛ ثُمَّ أُتِيت بِدَابَّةٍ دُون البَغْل وَفَوْق الحِمَار أَبْيَض- قَال: فَقَال الجَارُود: هُوَ البُرَاق يَا أَبَا حَمْزَة؟ قَال: نَعَمْ، يَقَع خَطْوه عِنْد أَقْصَى طَرْفه- قَال: **«فَحُمِلت عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيل عليه السلام، حَتَّى أَتَى بِي إِلى السَّمَاء الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيل: مَنْ هَذَا؟ قَال: جِبْرِيل. قِيل: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قِيل: أَوَ قَدْ أُرْسِل إِليْهِ؟ قَال: نَعَمْ. فَقِيل: مَرْحَبًا بِهِ، وَلنِعْمَ المَجِيء جَاءَ! قَال: فَفُتِحَ، فَلمَّا خَلصْت؛ فَإِذَا فِيهَا آدَم عليه السلام فَقَال: هَذَا أَبُوك آدَم فَسَلِّمْ عَليْهِ، فَسَلَّمْت عَليْهِ فَرَدَّ السَّلام ثُمَّ قَال: مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالح وَالنَّبِيّ الصَّالح. ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاء الثَّانِيَة، فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيل: مَنْ هَذَا؟ قَال: جِبْرِيل. قِيل: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قِيل: أَوَ قَدْ أُرْسِل إِليْهِ؟ قَال: نَعَمْ. قِيل: مَرْحَبًا بِهِ، وَلنِعْمَ المَجِيء جَاءَ، قَال: فَفُتِحَ، فَلمَّا خَلصْت، فَإِذَا عِيسَى وَيَحْيَى وَهُمَا ابْنَا الخَالة قَال: هَذَانِ يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلِّمْ عَليْهِمَا، قَال: فَسَلَّمْت فَرَدَّا السَّلام، ثُمَّ قَالا: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالح وَالنَّبِيّ الصَّالح. ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاء الثَّالثَة، فَاسْتَفْتَحَ؛ فَقِيل: مَنْ هَذَا؟ قَال: جِبْرِيل. قِيل: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قِيل: أَوَقَدْ أُرْسِل إِليْهِ؟ قَال: نَعَمْ. قِيل: مَرْحَبًا بِهِ، وَلنِعْمَ المَجِيء جَاءَ، قَال: فَفُتِحَ لنَا، فَلمَّا خَلصْت، فَإِذَا يُوسُف عليه السلام. قَال: هَذَا يُوسُف. قَال: فَسَلَّمْت عَليْهِ فَرَدَّ السَّلام، ثُمَّ قَال: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالح، وَالنَّبِيّ الصَّالح. ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاء الرَّابِعَة، فَاسْتَفْتَحَ جبريل فَقِيل: مَنْ هَذَا؟ قَال: جِبْرِيل. قِيل: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد، قِيل: أَوَقَدْ أُرْسِل إِليْهِ؟ قَال: نَعَمْ. قِيل: مَرْحَبًا بِهِ، وَلنِعْمَ المَجِيء جَاءَ، قَال: فَفُتِحَ لهما، فَلمَّا خَلصْت؛ فَإِذَا إِدْرِيس قَال: هَذَا إِدْرِيس فسلِّم عليه، قَال: فَسَلَّمْت عَليْهِ. فَرَدَّ السَّلام، ثُمَّ قَال: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالح وَالنَّبِيّ الصَّالح. قَال: ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاء الخَامِسَة، فَاسْتَفْتَحَ فَقِيل: مَنْ هَذَا؟ قَال: جِبْرِيل. قِيل: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قِيل: أَوَقَدْ أُرْسِل إِليْهِ؟ قَال: نَعَمْ. قِيل: مَرْحَبًا بِهِ، وَلنِعْمَ المَجِيء جَاءَ، قَال: فَفُتِحَ لنَا، فَلمَّا خَلصْت؛ فَإِذَا هَارُون عليه السلام، قَال: هَذَا هَارُون فَسَلِّمْ عَليْهِ. قَال: فَسَلَّمْت عَليْهِ فَرَدَّ السَّلام، ثُمَّ قَال: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالح وَالنَّبِيّ الصَّالح. قَال: ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاء السَّادِسَة فَاسْتَفْتَح، فَقِيل: مَنْ هَذَا؟ قَال: جِبْرِيل. قِيل: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قِيل: أَوَقَدْ أُرْسِل إِليْهِ؟ قَال: نَعَمْ. قِيل: مَرْحَبًا بِهِ، وَلنِعْمَ المَجِيء جَاءَ، فَفُتِحَ لهما، فَلمَّا خَلصْت؛ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى عليه السلام، قَال: هَذَا مُوسَى عليه السلام فَسَلِّمْ عَليْهِ. فَسَلَّمْت**

(١) إسناده ضعيف: فيه خالد بن يزيد بن عبد الرحمن وهو ضعيف.

عليْهِ، فَرَدَّ السَّلام، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بالأَخِ الصَّالح، وَالنَّبِيِّ الصَّالح. قَالَ: فَلمَّا تَجَاوَزْته بَكَى، قِيل لهُ: مَا يُبْكِيك؟ قَالَ: أَبْكِي، لأَنَّ غُلامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُل الجَنَّة مِنْ أُمَّته أَكْثَر مِمَّا يَدْخُلهَا مِنْ أُمَّتِي.

قَالَ: ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاء السَّابِعَة؛ فَاسْتَفْتَحَ، قِيل: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيل. قِيل: وَمَنْ مَعَك؟ قَالَ: مُحَمَّد. قِيل: أَوَقَدْ أرسل إليْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيل: مَرْحَبًا بِهِ، وَلنِعْمَ المَجِيء جَاءَ، قَالَ: فَفُتِحَ لنَا، فَلمَّا خَلصْت فَإِذَا إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَال: هَذَا إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَلِّمْ عَليْهِ. قَالَ: فَسَلَّمْت عَليْهِ؛ فَرَدَّ السَّلام، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بالابْنِ الصَّالح، وَالنَّبِيِّ الصَّالح. قَالَ: ثُمَّ رُفِعَتْ إِليَّ سِدْرَة المُنْتَهَى، فَإِذَا نَبْقهَا مِثْل قِلال هَجَر، وَإِذَا وَرَقهَا مِثْل آذَان الفِيلة، فَقَال: هَذِهِ سِدْرَة المُنْتَهَى، قَال: وَإِذَا أَرْبَعَة أَنْهَار: نَهَرَان بَاطِنَان، وَنَهَرَانِ ظَاهِرَان، فَقُلت: مَا هَذَا يَا جِبْرِيل؟ قَال: أَمَّا البَاطِنَان: فَنَهَرَانِ فِي الجَنَّة، وَأَمَّا الظَّاهِرَان: فَالنِّيل وَالفُرَات. قَال: ثُمَّ رُفِعَ إِليَّ البَيْت المَعْمُور.

قَال قَتَادَة: وَحَدَّثَنَا الحَسَن، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ رَأَى البَيْت المَعْمُور يَدْخُلهُ كُلّ يَوْم سَبْعُونَ أَلفًا، ثُمَّ لا يَعُودُونَ فِيهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلى حَدِيث أَنَس، قَال: ثُمَّ أُتِيت بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْر، وَإِنَاء مِنْ لبَن، وَإِنَاء مِنْ عَسَل- قَال: فَأَخَذْت اللَّبَن، قَال: هَذِهِ الفِطْرَة، وَأَنْتَ عَليْهَا وَأُمَّتك. قَال: ثُمَّ فُرِضَتْ الصَّلاة خَمْسِينَ صَلاة كُلّ يَوْم، قَال: فَنَزَلت حَتَّى انتهيت إِلى مُوسَى قَال: مَا فَرَضَ رَبّك عَلى أُمَّتك؟ قَال: فَقُلت: خَمْسِينَ صَلاة كُلّ يَوْم. قَال: إِنَّ أُمَّتك لا تَسْتَطِيع خَمْسِينَ صَلاة، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْت النَّاس قَبْلك، وَعَالجت بَنِي إِسْرَائِيل أَشَدّ المُعَالجَة، فَارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف عن أُمَّتِك، قَال: فَرَجَعْت فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، قَال: فَرَجَعْت إِلى مُوسَى؛ فَقَال: بِمَ أُمِرْت؟ قلت: بِأَرْبَعِينَ صَلاة كُلّ يَوْم. قَال: إِنَّ أُمَّتك لا تَسْتَطِيع أَرْبَعِينَ صَلاة كُلّ يَوْم، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْت النَّاس قَبْلك، وَعَالجت بَنِي إِسْرَائِيل أَشَدّ المُعَالجَة، فَارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف لأُمَّتِك. قَال: فَرَجَعْت فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخَر، فَرَجَعْت إِلى مُوسَى فَقَال: بِمَ أُمِرْت؟ فَقُلت: أُمِرْت بِثَلاثِينَ صَلاة. قَال: إِنَّ أُمَّتك لا تَسْتَطِيع ثَلاثِينَ صَلاة كُلّ يَوْم، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْت النَّاس قَبْلك، وَعَالجت بَنِي إِسْرَائِيل أَشَدّ المُعَالجَة، فَارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف لأُمَّتِك. قَال: فَرَجَعْت فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخَر، فَرَجَعْت إِلى مُوسَى فَقَال: بِمَ أُمِرْت؟ قُلت: بِعِشْرِينَ صَلاة كُلّ يَوْم. فَقَال: إِنَّ أُمَّتك لا تَسْتَطِيع عشرين صَلاة كُلّ يَوْم، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْت النَّاس قَبْلك، وَعَالجْت بَنِي إِسْرَائِيل أَشَدّ المُعَالجَة، فَارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف لأُمَّتِك. قَال: فَرَجَعْت فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا أُخَر، فَرَجَعْت إِلى مُوسَى فَقَال: بِمَ أُمِرْت؟ فَقُلت: أُمِرْت بِعَشْرِ صَلوَات فِي كُلّ يَوْم. فَقَال: إِنَّ أُمَّتك لا تَسْتَطِيع عشر صَلوَات كُلّ يَوْم، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْت النَّاس قَبْلك، وَعَالجْت بَنِي إِسْرَائِيل أَشَدّ المُعَالجَة، فَارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف لأُمَّتِك. قَال: فَرَجَعْت فَأُمِرْت بِخَمْسِ صَلوَات كُلّ يَوْم، فَرَجَعْت إِلى مُوسَى فَقَال: بِمَ أُمِرْت؟ فَقُلت: أُمِرْت بِخَمْسِ صَلوَات كُلّ يَوْم. فَقَال: إِنَّ أُمَّتك لا تَسْتَطِيع خمس صَلوَات كُلّ يَوْم، وَإِنِّي قَدْ خَبَرْت النَّاس قَبْلك، وَعَالجْت بَنِي إِسْرَائِيل أَشَدّ المُعَالجَة، فَارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف لأُمَّتِك. قَال: قُلت: قَدْ سَأَلت رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْت منه، ولكني أَرْضَى وَأُسَلِّم، فَنَفَذْت، فَنَادَى مُنَادٍ: قَدْ أَمْضَيْت فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْت عَنْ عِبَادِي»[1]. وَأَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث قَتَادَة بِنَحْوِهِ.

رِوَايَة أَنَس عَنْ أَبِي ذَرّ: قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن بُكَيْر، حَدَّثَنَا اللَّيْث، عَنْ يُونُس، عَنْ ابْن شِهَاب عَنْ أَنَس بْن مَالك قَال: كَانَ أَبُو ذَرّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُحَدِّث: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «فُرِجَ سَقْف بَيْتِي، وَأَنَا بِمَكَّة، فَنَزَل جِبْرِيل، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلهُ بِمَاءِ زَمْزَم، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَب مُمْتَلِئ حِكْمَة وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلى السَّمَاء، فَلمَّا جِئْت إِلى السَّمَاء قَال جِبْرِيل لخَازِنِ السَّمَاء: افْتَحْ. قَال: مَنْ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤)، وأحمد (٤/ ٢٠٨).

هَذَا؟ قَال: جِبْرِيل. قَال: هَل مَعَكَ أَحَد؟ قَال: نَعَمْ، مَعِي مُحَمَّد ﷺ. فَقَال: أُرْسِلِ إِلَيْهِ؟ قَال: نَعَمْ. فَلمَّا فَتَحَ عَلوْنَا السَّمَاء الدُّنْيَا، وإذا رَجُل قَاعِد عَلى يَمِينه أَسْوِدَة، وَعَلى يَسَاره أَسْوِدَة، فإذا نَظَرَ قِبَل يَمِينه ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَل شِمَاله بَكَى، فَقَال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالح وَالابْن الصَّالح. قُلت لجِبْرِيل: مَنْ هَذَا؟ قَال: هَذَا آدَم وَهَذِهِ الأَسْوِدَة عَنْ يَمِينه، وَعَنْ شِمَاله نَسَم بَنِيهِ، فَأَهْل اليَمِين مِنْهُمْ أَهْل الجنَّة، وَالأَسْوِدَة الَّتِي عَنْ شِمَاله أَهْل النَّار، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينه ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ عَنْ شِمَاله بَكَى. ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلى السَّمَاء الثَّانِيَة؛ فَقَال لخَازِنِهَا: افْتَحْ فَقَال لهُ خَازِنهَا مِثْل مَا قَال لهُ الأَوَّل فَفتَحَ، قَال أَنَس: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَاوَات آدَم، وَإِدْرِيس، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَإِبْرَاهِيم، وَلمْ يُثْبِت كَيْف مَنَازِلهمْ غَيْر أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَم فِي السَّمَاء الدُّنْيَا، وَإِبْرَاهِيم فِي السَّمَاء السَّادِسَة، قَال أَنَس: فَلمَّا مَرَّ جِبْرِيل بِالنبي ﷺ بِإِدْرِيس قَال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالح، وَالأَخ الصَّالح فَقُلت: مَنْ هَذَا؟ قَال: هذا إِدْرِيس، ثُمَّ مررت بِمُوسَى فقَال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالح وَالأَخ الصَّالح، قُلت: مَنْ هَذَا؟ قَال: مُوسَى، ثُمَّ مَرَرْت بِعِيسَى؛ فَقَال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالح وَالأَخ الصَّالح، قُلت: مَنْ هَذَا؟ قَال: عِيسَى ابن مريم، ثُمَّ مَرَرْت بِإِبْرَاهِيم، فَقَال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالح، وَالابْن الصَّالح، قُلت: مَنْ هَذَا؟ قَال: هَذَا إِبْرَاهِيم».

قَال الزُّهْرِيّ: فَأَخْبَرَنِي ابْن حَزْم أَنَّ ابْن عَبَّاس، وَأَبَا حَبَّة الأَنْصَارِيّ كَانَا يَقُولانِ: قَال النَّبِيّ ﷺ: «ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْت لمُسْتَوًى أَسْمَع فِيهِ صَرِيف الأَقْلام».

قَال ابْن حَزْم وَأَنَس بْن مَالك: قَال رَسُول الله ﷺ: «فَفرَضَ الله عَلى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاة، فَرَجَعْت بِذَلكَ حَتَّى مَرَرْت عَلى مُوسَى، فَقَال: مَا فَرَضَ الله عَلى أُمَّتكَ؟ قُلت: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلاة. قَال: فَارْجِعْ إِلى رَبّكَ، فَإِنَّ أُمَّتكَ لا تُطِيق ذَلكَ، فَرَجَعْت فَوَضَعَ شَطْرهَا، فَرَجَعْت إِلى مُوسَى، قُلت: وَضَعَ شَطْرهَا، فَقَال: ارْجِعْ إِلى رَبّكَ، فَإِنَّ أُمَّتك لا تُطِيق، فَرَجَعْت فَوَضَعَ شَطْرهَا، فَرَجَعْت إِليْهِ فَقَال: ارْجِعْ إِلى رَبّكَ؛ فَإِنَّ أُمَّتكَ لا تُطِيق ذَلكَ، فَرَاجَعْته فَقَال: هِيَ خَمْس وَهِيَ خَمْسُونَ، لا يُبَدَّل القَوْل لديَّ، فَرَجَعْت إِلى مُوسَى، فَقَال: ارْجِعْ إِلى رَبّكَ. قُلت: قَدْ اسْتَحْيَيْت مِنْ رَبِّي، ثُمَّ انْطَلقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلى سِدْرَة المُنْتَهَى، فَغَشِيَهَا أَلوَان لا أَدْرِي مَا هِيَ ثُمَّ أُدْخِلت الجنَّة فَإِذَا فِيهَا جنابذ اللُّؤْلُؤ، وَإِذَا تُرَابهَا المِسْك»[1]. هَذَا لفْظ البُخَارِيّ فِي «كِتَاب الصَّلاة»، وَرَوَاهُ فِي ذِكْر بَنِي إِسْرَائِيل وَفِي الحَجّ، وَفِي أَحَادِيث الأَنْبِيَاء مِنْ طُرُق أُخْرَى عَنْ يُونُس بِهِ، وَرَوَاهُ مُسْلم فِي «صَحِيحه» فِي «كِتَاب الإِيمَان» منه عَنْ حَرْمَلة عَنْ ابْن وَهْب، عَنْ يُونُس بِهِ نَحْوه.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا عَفَّان، حَدَّثنَا هَمَّام، عَنْ قَتَادَة، عَنْ عَبْد الله بْن شَقِيق، قَال: قُلت لأَبِي ذَرّ: لوْ رَأَيْت رَسُول الله ﷺ لسَأَلته، قَال: وَمَا كُنْت تَسْأَلهُ؟ قَال: كُنْت أَسْأَلهُ: هَل رَأَى رَبّه؟ فَقَال: إِنِّي قَدْ سَأَلته؛ فَقَال: «إني قَدْ رَأَيْته نُورًا أَنَّى أَرَاهُ». هَكَذَا قَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَة الإِمَام أَحْمَد، وَأَخْرَجَهُ مُسْلم فِي «صَحِيحه»، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة عَنْ وَكِيع عَنْ يَزِيد بْن إِبْرَاهِيم عَنْ قَتَادَة، عَنْ عَبْد الله بْن شَقِيق عَنْ أَبِي ذَرّ قَال: سَأَلت رَسُول الله ﷺ: هَل رَأَيْتَ رَبّك؟ قَال: «نُور أَنَّى أَرَاهُ»[2]. وَعَنْ مُحَمَّد بْن بَشَّار عَنْ مُعَاذ بْن هِشَام، حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ قَتَادَة عَنْ عَبْد الله بْن شَقِيق قَال: قُلت لأَبِي ذَرّ: لوْ رَأَيْت رَسُول الله ﷺ لسَأَلته، فَقَال: عَنْ أَيّ شَيْء كُنْت تَسْأَلهُ؟ قَال: كُنْت أَسْأَلهُ هَل رَأَيْت رَبّك؟ قَال أَبُو ذَرّ: قَدْ سَأَلت؛ فَقَال: «رَأَيْت نُورًا».

رِوَايَة أَنَس عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب الأَنْصَارِيّ رضي الله عنه: قَال عَبْد الله ابْن الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن مُحَمَّد

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

(٢) صحيح: تقدم.

الْمُسَيِّبِيّ، حَدَّثَنَا أَنَس بْن عِيَاض، عن يُونُس بْن يَزِيد قَال: قَال ابْن شِهَاب قَال: قال أَنَس بْن مَالك: كَانَ أُبَيّ بْن كَعْب يُحَدِّث: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «فُرِجَ سَقْف بَيْتِي، وَأَنَا بِمَكَّة، فَنَزَل جِبْرِيل فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاء زَمْزَم، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَب مُمْتَلِئ حِكْمَة وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَعَرَجَ بِي إِلى السَّمَاء، فَلَمَّا جَاءَ السَّمَاء الدُّنْيَا فافتتح فقال: من هذا؟ قال: جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد. قال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فافتح. فلما علونا السماء الدنيا إِذَا رَجُل عَنْ يَمِينه أَسْوِدَة، وَعَنْ يَسَاره أَسْوِدَة، فَإِذَا نَظَر عن يمينه ضحك، وَإِذَا نَظَرَ قِبَل شماله بَكَى، قَال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالح، وَالابْن الصَّالح، قَال: قلت لجِبْرِيل: مَنْ هَذَا؟ قَال: هَذَا آدَم، وَهَذِهِ الأَسْوِدَة الَّتِي عَنْ اليمين وَعَنْ شِمَاله نَسَم بَنِيه؛ فَأَهْل يَمِينه هُمْ أَهْل الجَنَّة، وَالأَسْوِدَة الَّتِي عَنْ شِمَاله هُمْ أَهْل النَّار، فَإِذَا نَظَرَ قِبَل يَمِينه ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَل شماله بَكَى، قَال: ثُمَّ عَرَجَ بِي جِبْرِيل حَتَّى أَتَى السَّمَاء الثَّانِيَة، فَقَال لخَازِنِهَا: افْتَحْ، فَقَال لهُ خَازِنهَا مِثْل مَا قَال خَازِن السَّمَاء الدُّنْيَا؛ فَفَتَحَ لهُ، قَال أَنَس: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَاوَات آدَم، وَإِدْرِيس، وَمُوسَى، وَإِبْرَاهِيم، وَعِيسَى، وَلَمْ يُثْبِت لي كَيْف مَنَازِلهمْ، غَيْر أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَم ؛ فِي السَّمَاء الدُّنْيَا، وَإِبْرَاهِيم فِي السَّمَاء السَّادِسَة، قَال أَنَس: فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَسُول الله ﷺ بِإِدْرِيس قَال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالح، وَالأَخ الصَّالح، قَال: قُلت: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيل قَال: هَذَا إِدْرِيس. قَال: ثُمَّ مَرَرْت بِمُوسَى فَقَال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالح، وَالأَخ الصَّالح، فَقُلت: مَنْ هَذَا؟ قَال: هَذَا مُوسَى، ثُمَّ مَرَرْت بِعِيسَى فَقَال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالح، وَالأَخ الصَّالح. قُلت: مَنْ هَذَا؟ قَال: هَذَا عِيسَى ابْن مَرْيَم. قَال: ثُمَّ مَرَرْت بِإِبْرَاهِيم؛ فَقَال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالح، وَالابْن الصَّالح. قُلت: مَنْ هَذَا؟ قَال: هَذَا إِبْرَاهِيم».

قَال ابْن شِهَاب: وَأَخْبَرَنِي ابْن حَزْم أَنَّ ابْن عَبَّاس وَأَبَا حَبَّة الأَنْصَارِيّ كَانَا يَقُولانِ: قَال رَسُول الله ﷺ : «ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْت لمُسْتَوَى أَسْمَع صَرِيف الأَقْلام». قَال ابْن حَزْم، وَأَنَس بْن مَالك: قَال رَسُول الله ﷺ : «فَرَضَ الله عَلى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاة، قَال: فَرَجَعْت بِذَلكَ حَتَّى أَمُرّ عَلى مُوسَى؛ فَقَال مُوسَى: مَاذَا فَرَضَ رَبّك عَلى أُمَّتك؟ قُلت: فَرَضَ عَليْهِمْ خَمْسِينَ صَلاة. فَقَال لي مُوسَى: رَاجِعْ رَبّك؛ فَإِنَّ أُمَّتك لا تُطِيق ذَلكَ، قَال: فَرَاجَعْت رَبِّي فَوَضَعَ شَطْرهَا، فَرَجَعْت إِلى مُوسَى؛ فَأَخْبَرْته؛ فَقَال: ارْجِعْ إِلى رَبّك، فَإِنَّ أُمَّتك لا تُطِيق ذَلكَ. فَرَجَعْت؛ فَقَال: هِيَ خَمْس، وَهِيَ خَمْسُونَ، لا يُبَدَّل القَوْل لديَّ، قَال: فَرَجَعْت إِلى مُوسَى؛ فَقَال: رَاجِعْ رَبّك. فَقُلت: قَدْ اسْتَحْيَيْت مِنْ رَبِّي، قَال: ثُمَّ انْطَلقَ بِي حَتَّى أَتَى سِدْرَة المُنْتَهَى قَال: فَغَشِيَهَا أَلوَان مَا أَدْرَى مَا هِيَ؟ قَال: ثُمَّ أُدخلت الجَنَّة؛ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذ اللُّؤْلُؤ؛ وَإِذَا تُرَابهَا المِسْك».[1] هَكَذَا رَوَاهُ عَبْد الله بْن أَحْمَد فِي «مُسْنَد أَبِيهِ»، وَليْسَ هُوَ فِي شَيْء مِنْ الكُتُب السِّتَّة، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ طَرِيق يُونُس، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ أَنَس عَنْ أَبِي ذَرّ مِثْل هَذَا السِّيَاق سَوَاء، فَالله أَعْلم.

رِوَايَة بُرَيْدَة بْن الحُصَيْب الأَسْلمِيّ: قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن المُتَوَكِّل، وَيَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم -وَاللَّفْظ لهُ- قَالا: حَدَّثَنَا أَبُو تُمَيْلة، أخبرنا الزُّبَيْر بْن جُنَادَة، عَنْ عَبْد الله بْن بُرَيْدَة، عَنْ أَبِيهِ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «لـمَّا كَانَ ليْلة أُسْرِيَ بِي -قَال: فَأَتَى جِبْرِيل الصَّخْرَة الَّتِي بِبَيْتِ المَقْدِس قَال: فَوَضَعَ أُصْبُعه فِيهَا، فَخَرَقَهَا فَشَدَّ بِهَا البُرَاق»[2]. ثُمَّ قَال البَزَّار: لا نَعْلم رَوَاهُ عَنْ الزُّبَيْر بْن جُنَادَة إِلَّا أَبُو تُمَيْلة، وَلا نَعْلم هَذَا الحَدِيث إِلَّا عَنْ بُرَيْدَة. وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير مِنْ «جَامِعه» عَنْ يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم الدَّوْرَقِيّ بِهِ، وَقَال: غَرِيب.

---

(١) صحيح : أخرجه عبد الله بن أحمد (٥/ ١٢٢)، (٥/ ١٤٣).

(٢) ضعيف : أخرجه الترمذي (٣١٣٢)، وقال: حسن غريب.
وقال الألباني في (الإسراء والمعراج) ص (٥٨): ولم تطمئن النفس لصحة هذا الحديث؛ لعدم شهرة الزبير، ولأنه خلاف حديث أنس الصحيح: (فربطه بالحلقة التي يربط بها الأنبياء).

رِوَايَة جَابِر بْن عَبْد الله ﷺ: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَعْقُوب، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ صَالح، عَنْ ابْن شِهَاب قَال: قَال أَبُو سَلمَة: سَمِعْت جَابِر بْن عَبْد الله يُحَدِّث: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ، يَقُول: «**لما كَذَّبَتْنِي قُرَيْش حِين أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْت المَقْدِس؛ قُمْت فِي الحِجْر فَجَلَّى الله لِي بَيْت المَقْدِس، فَطَفِقْت أُخْبِرهُمْ عَنْ آيَاته، وَأَنَا أَنْظُر إِلَيْهِ**»[1]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ طُرُق عَنْ الزُّهْرِيّ بِهِ.

وَقَال البَيْهَقِيّ: أخبرنا أَحْمَد بْن الحَسَن القَاضِي، حَدَّثَنَا أَبُو العَبَّاس الأَصَمّ، حَدَّثَنَا العَبَّاس بْن مُحَمَّد الدَّوْرِيّ، حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ صَالح بْن كَيْسَان، عَنْ ابْن شِهَاب قَال: سَمِعْت سَعِيد بْن المُسَيِّب يَقُول: إِنَّ رَسُول الله ﷺ حِين انْتَهَى إِلَى بَيْت المَقْدِس، لَقِيَ فِيهِ إِبْرَاهِيم، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَإِنَّهُ أُتِيَ بِقَدَحَيْنِ؛ قَدَح مِنْ لَبَن، وَقَدَح خَمْر، فَنَظَرَ إِلَيْهِمَا، ثُمَّ أَخَذَ قَدَح اللَّبَن؛ فَقَال جِبْرِيل: أَصَبْت، هُدِيت لِلفِطْرَة، لَوْ اخترت الخَمْر لغَوْت أُمَّتك، ثُمَّ رَجَعَ رَسُول الله ﷺ إِلَى مَكَّة؛ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ، فَافْتُتِنَ نَاس كَثِير كَانُوا قَدْ صَلَّوْا مَعَهُ.

وَقَال ابْن شِهَاب: قَال أَبُو سَلمَة ابْن عَبْد الرَّحْمَن: فَتَجَهَّزَ -أَوْ كَلمَة نَحْوهَا- نَاس مِنْ قُرَيْش إِلَى أَبِي بَكْر فَقَالُوا: هَل لك فِي صَاحِبك؟ يَزْعُم أَنَّهُ جَاءَ إِلَى بَيْت المَقْدِس، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَّة فِي لَيْلَة وَاحِدَة! فَقَال أَبُو بَكْر: أَوَقَال ذَلكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَال: فأشهد لَئِنْ كَانَ قَال ذَلكَ لقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: فَتُصَدِّقهُ فِي أَنْ يَأْتِي الشَّام فِي لَيْلَة وَاحِدَة ثُمَّ يَرْجِع إِلَى مَكَّة قَبْل أَنْ يُصْبِح؟ قَال: نَعَمْ، إِنِي أُصَدِّقهُ بِأَبْعَد مِنْ ذَلكَ؛ أُصَدِّقهُ بِخَبَرِ السَّمَاء. قَال أَبُو سَلمَة: فَبِهَا سُمِّيَ أَبُو بَكْر الصِّدِّيق. قَال أَبُو سَلمَة: فسمعت جَابِر بْن عَبْد الله ﷺ يُحَدِّث أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «لـمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْش حِين أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْت المَقْدِس قُمْت فِي الحِجْر، فَجَلَّى الله لِي بَيْت المَقْدِس، فَطَفِقْت أُخْبِرهُمْ عَنْ آيَاته، وَأَنَا أَنْظُر إِلَيْهِ».[2]

رِوَايَة حُذَيْفَة بْن اليَمَان ﷺ: قَال الإِمَام أَحْمَد: ثَنَا أَبُو النَّضْر، ثنا شَيْبَان، عَنْ عَاصِم، عَنْ زِرّ بْن حُبَيْش قَال: أَتَيْت عَلَى حُذَيْفَة بْن اليَمَان ﷺ، وَهُوَ يُحَدِّث عَنْ لَيْلَة أُسْرِيَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ يَقُول: فَانْطَلَقَا حَتَّى أَتَيَا على بَيْت المَقْدِس فَلمْ يَدْخُلاهُ. قَال: قُلت: بَل دَخَلهُ رَسُول الله ﷺ لَيْلَتَئِذٍ، وَصَلَّى فِيهِ. قَال: مَا اسْمك يَا أَصْلع؟ فَإِنِي أَعْرِف وَجْهك، وَلا أَدْرِي مَا اسْمك، قَال: قُلت: أَنَا زِرّ بْن حُبَيْش. قَال: فَمَا عِلمك بِأَنَّ رَسُول الله ﷺ صَلَّى فِيهِ لَيْلَتَئِذٍ؟ قَال: قُلت: القُرْآن يُخْبِرنِي بِذَلكَ، قَال: فَمَنْ تَكَلَّمَ بِالقُرْآنِ فَلجَ، اقْرَأْ. قَال: فَقُلت: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ قَال: يَا أَصْلع؛ هَل تَجِد صَلَّى فِيهِ؟ قُلت: لا. قَال: وَالله مَا صَلَّى فِيهِ رَسُول الله ﷺ لَيْلَتَئِذٍ، وَلوْ صَلَّى فِيهِ، لكتب عَليْكُمْ صَلاة فِيهِ، كَمَا كُتِبَ عَليْكُمْ صَلاة فِي البَيْت العَتِيق، وَالله مَا زَايَلا البُرَاق حَتَّى فُتِحَتْ لهُمَا أَبْوَاب السَّمَاء؛ فَرَأَيَا الجَنَّة وَالنَّار، وَوَعْد الآخِرَة أَجْمَع، ثُمَّ عَادَا عَوْدهمَا عَلى بَدْئِهِمَا، قَال: ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّى رَأَيْت نَوَاجِذه. قَال: وَيحدثوا أَنَّهُ رَبَطَهُ لا يَفِرّ مِنْهُ، وَإِنَّمَا سَخَّرَهُ لهُ عَالم الغَيْب وَالشَّهَادَة. قُلت: أَبَا عَبْد الله، أَيّ دَابَّة البُرَاق؟ قَال: دَابَّة أَبْيَض طَوِيل، هَكَذَا خَطْوه مَدّ البَصَر. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالسِيّ، عَنْ حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ عَاصِم بِهِ، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير مِنْ حَدِيث عَاصِم وَهُوَ ابْن أَبِي النَّجُود، بِهِ، وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صحيح. وَهَذَا الَّذِي قَالهُ حُذَيْفَة ﷺ نَفْي، وَمَا أَثْبَتَهُ غَيْره عَنْ رَسُول الله ﷺ مِنْ رَبْط الدَّابَّة بِالحَلقَةِ، وَمِنْ الصَّلاة بالبيت المَقْدّس مِمَّا سَبَقَ، وما سيأتي مُقَدَّم عَلى قَوْله، وَالله أَعْلم بِالصَّوَابِ.[3]

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٧١٠)، ومسلم (١٧٠).
(٢) **مرسل**: أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٥٩) بسند مرسل.
(٣) **حسن**: أخرجه الترمذي (٣١٤٧)، وقال: حسن صحيح، وأخرجه أحمد (٥/ ٣٩٢)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

رِوَايَة أَبِي سَعِيد سَعْد بْن مَالك بْن سِنَان الخُدْرِيّ: قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ فِي كِتَاب «دَلائِل النُّبُوَّة»: أخبرنا أَبُو عَبْد الله مُحَمَّد بْن عَبْد الله الحَافِظ، حَدَّثنَا أَبُو العَبَّاس مُحَمَّد بْن يَعْقُوب، حَدَّثنَا أَبُو بَكْر يَحْيَى بْن أَبِي طَالب، حَدَّثنَا عَبْد الوَهَّاب بْن عَطَاء، حَدَّثنَا أَبُو مُحَمَّد رَاشِد الحِمَّانِيّ، عَنْ أَبِي هَارُون العَبْدِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ ﵁ عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال لهُ أَصْحَابه: يَا رَسُول الله؛ أَخْبِرْنَا عَنْ ليْلة أُسْرِيَ بِك فِيهَا، قَال: «قَال الله ﷻ: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. قَال: فَأَخْبَرَهُمْ فقَال: «فبينا أَنَا نَائِم عِشَاء فِي المَسْجِد الحَرَام؛ إِذْ أَتَانِي آتٍ؛ فَأَيْقَظَنِي؛ فَاسْتَيْقَظْت، فَلمْ أَرَ شَيْئًا، وإذا أَنَا بِكَهَيْئَة خَيَال فَأَتْبَعْته بَصَرِي حَتَّى خَرَجْت مِنْ المَسْجِد، فَإِذَا أَنَا بِدَابَّةٍ أَدْنَى شَبَهًا بِدَوَابِّكُمْ هَذِهِ، بِغَالكُمْ هَذِهِ، مُضْطَرِب الأُذُنَيْنِ، يُقَال لهُ: البُرَاق، وَكَانَتْ الأَنْبِيَاء تَرْكَبهُ قَبْلِي؛ يَقَع حَافِره عِنْد مَدّ بَصَره، فَرَكِبْته، فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِير عَلَيْهِ إِذْ دَعَانِي دَاعٍ عَنْ يَمِينِي: يَا مُحَمَّد؛ انْظُرْنِي أَسْأَلك، يَا مُحَمَّد؛ انْظُرْنِي أَسْأَلك، فَلمْ أُجِبْهُ وَلمْ أَقُمْ عَليْهِ، فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِير عَلَيْهِ إذا دَعَانِي دَاعٍ عَنْ يَسَارِي: يَا مُحَمَّد انْظُرْنِي أَسْأَلك! فَلمْ أُجِبْهُ وَلمْ أَقُمْ عَليْهِ، فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِير إِذَا أَنَا بِامْرَأَةٍ حَاسِرَة عَنْ ذِرَاعَيْهَا، وَعَليْهَا مِنْ كُلّ زِينَة خلقهَا الله؛ فَقَالتْ: يَا مُحَمَّد انْظُرْنِي، أَسْأَلك، فَلمْ أَلتَفِت إِليْهَا، وَلمْ أَقُمْ عَليْهَا حَتَّى أَتَيْت بَيْت المَقْدِس، فَأَوْثَقْت دَابَّتِي بِالحَلقَةِ الَّتِي كَانَتْ الأَنْبِيَاء تُوثِقهَا بِهَا، فأَتَانِي جِبْرِيل ﵇ بِإِنَاءَيْنِ؛ أَحَدهمَا خَمْر، وَالآخر لبَن، فَشَرِبْت اللَّبَن، وتركت الخَمْر، فَقَال جِبْرِيل: أَصَبْت الفِطْرَة! فَقُلت: الله أَكْبَر الله أَكْبَر! فَقَال جِبْرِيل: مَا رَأَيْت فِي وَجْهك هَذَا؟ قَال: فَقُلت: بَيْنَمَا أَنَا أَسِير إِذْ دَعَانِي دَاعٍ عَنْ يَمِينِي: يَا مُحَمَّد؛ انْظُرْنِي أَسْأَلك فَلمْ أُجِبْهُ وَلمْ أَقُمْ عَليْهِ، قَال: ذَاكَ دَاعِي اليَهُود، أَمَا إِنَّك لوْ أَجَبْته أَوْ وَقَفْت عَليْهِ لتَهَوَّدَتْ أُمَّتك. قَال: فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِير إِذْ دَعَانِي دَاعٍ عَنْ يَسَارِي قَال: يَا مُحَمَّد؛ انْظُرْنِي أَسْأَلك، فَلمْ أَلتَفِت إليه، وَلمْ أَقُمْ عَليْهِ، قَال: ذَاكَ دَاعِي النَّصَارَى، أَمَا إِنَّك لوْ أَجَبْته، لتَنَصَّرَتْ أُمَّتك. قَال: فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِير إِذَا أَنَا بِامْرَأَةٍ حَاسِرَة عَنْ ذِرَاعَيْهَا عَليْهَا مِنْ كُلّ زِينَة خَلقَهَا الله تعالى، تقول: يَا مُحَمَّد انْظُرْنِي أَسْأَلك، فَلمْ أُجِبْهَا، وَلمْ أَقُمْ عَليْهَا، قَال: تِلكَ الدُّنْيَا، أَمَا إِنَّك لوْ أَجَبْتهَا، أَوْ أقمت عَليْهَا؛ لاخْتَارَتْ أُمَّتك الدُّنْيَا عَلى الآخِرَة.

قَال: ثُمَّ دَخَلت أَنَا وَجِبْرِيل بَيْت المَقْدِس، فَصَلَّى كُلّ وَاحِد مِنَّا رَكْعَتَيْنِ. ثُمَّ أُتِيت بِالمِعْرَاجِ الَّذِي تَعْرُج عَليْهِ أَرْوَاح بني آدم، فَلمْ يَرَ الخَلائِق أَحْسَن مِنْ المِعْرَاج، أَمَا رَأَيْت المَيِّت حِين يُشَقّ بَصَره طَامِحًا إِلى السَّمَاء، فَإِنَّمَا يُشَقّ بَصَره طَامِحًا إِلى السَّمَاء عَجَبه بِالمِعْرَاج، قَال: فَصَعِدْت أَنَا وَجِبْرِيل؛ فَإِذَا أَنَا بِملكٍ يُقَال لهُ: إِسْمَاعِيل، وَهُوَ صَاحِب السَّمَاء الدُّنْيَا، وَبَيْن يَدَيْهِ سَبْعُونَ أَلف مَلك، مَعَ كُلّ مَلك جنده مِائَة أَلف مَلك، قَال: وقَال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيل بَاب السَّمَاء قِيل: مَنْ هَذَا؟ قَال: جِبْرِيل. قيل: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قِيل: أَوَقَدْ بُعِثَ إِليْهِ؟ قَال: نعَمْ. فَإِذَا أَنَا بِآدَم كَهَيْئَتِهِ يَوْم خَلقَهُ الله ﷻ عَلى صُورَته، تُعْرَض عَليْهِ أَرْوَاح ذُرِّيَّته المُؤْمِنِينَ فيَقُول: رُوح طَيِّبَة، وَنَفس طَيِّبَة، اجْعَلُوهَا فِي عِلِّيِّينَ، ثُمَّ تُعْرَض عَليْهِ أَرْوَاح ذُرِّيَّته الفُجَّار فيَقُول: رُوح خَبِيثَة، وَنَفْس خَبِيثَة، اجْعَلُوهَا فِي سِجِّين. ثم مَضَيْت هنية فَإِذَا أَنَا بِأَخْوِنَةٍ عَليْهَا لحْم مُشَرَّح ليْسَ يَقْرَبهَا أَحَد، وَإِذَا أَنَا بِأَخْوِنَةٍ أُخْرَى عَليْهَا لحْم قَدْ أَرْوَحَ وَأَنْتَنَ، عِنْدهَا أُنَاس يَأْكُلُونَ مِنْهَا، قُلت: يَا جِبْرِيل؛ مَنْ هَؤُلاءِ؟ قَال: هَؤُلاءِ مِنْ أُمَّتك يَتْرُكُونَ الحَلال وَيَأْتُونَ الحَرَام.

قَال: ثُمَّ مَضَيْت هُنَيْة؛ فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ بُطُونهمْ أَمْثَال البُيُوت، كُلَّمَا نَهَضَ أَحَدهمْ خَرَّ يَقُول: اللَّهُمَّ؛ لا تُقِمْ السَّاعَة. قَال: وَهُمْ عَلى سَابِلة آل فِرْعَوْن، قَال: فَتَجِيء السَّابِلة فَتَطَؤُهُمْ، قَال: فَسَمِعْتهمْ يَضِجُّونَ إِلى الله ﷻ،

قَال: قُلت: يَا جِبْرِيل، مَنْ هَؤُلاءِ؟ قَال: هَؤُلاءِ مِنْ أُمَّتك ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾.

قَال: ثُمَّ مَضَيْت هُنَية؛ فَإِذَا أَنَا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل، قال: فتفتح على أفواههم ويلقمون من ذلك الجمر، ثم يخرج من أسافلهم، فسمعتهم يضجون إلى الله عز وجل. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

قَال: ثُمَّ مَضَيْت هُنَية؛ فَإِذَا أَنَا بِنِسَاءٍ يعلقن بِثُدُيِهِنَّ، فَسَمِعْتهنَّ يَضْجِجْنَ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ، قُلت: يَا جِبْرِيل مَنْ هَؤُلاءِ النِّسَاء؟ قَال: هَؤُلاءِ الزُّنَاة مِنْ أُمَّتك.

قَال: ثُمَّ مَضَيْت هُنَيَّة؛ فَإِذَا أَنَا بِأَقْوَامٍ يُقْطَع مِنْ جُنُوبهمْ اللَّحْم فَيُلقَمُونَهُ؛ فَيُقَال لهُ: كُل؛ كَمَا كُنْت تَأْكُل مِنْ لحْم أَخِيك، قُلت: يَا جِبْرِيل، مَنْ هَؤُلاءِ؟ قَال: هَؤُلاءِ الهمَّازُونَ مِنْ أُمَّتك اللَّمَّازُونَ.

قَال: ثُمَّ صَعِدْنَا إِلى السَّمَاء الثَّانِيَة؛ فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ أَحْسَن مَا خَلقَ الله عَزَّ وَجَلَّ، قَدْ فَضَل النَّاس فِي الحُسْن، كَالقَمَرِ لَيْلة البَدْر عَلى سَائِر الكَوَاكِب، قُلت: يَا جِبْرِيل مَنْ هَذَا؟ قَال: هَذَا أَخُوك يُوسُف، وَمَعَهُ نَفر مِنْ قَوْمه، فَسَلَّمْت عَليْهِ وسلم علي.

ثُمَّ صعدت إِلى السَّمَاء الثَّالثَة؛ وَاسْتَفْتَح فَإِذَا أَنَا بِيَحْيَى وَعِيسَى عليهما السلام، وَمَعَهُمَا نفر مِنْ قَوْمهمَا، فَسَلَّمْت عَليْهِمَا، وَسَلَّمَا عَليَّ.

ثُمَّ صعدت إِلى السَّمَاء الرَّابِعَة؛ فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيس قَدْ رَفَعَهُ الله مَكَانًا عليًا، فَسَلَّمْت عَليْهِ، وسلم عَليَّ.

قَال: ثُمَّ صعدت إِلى السَّمَاء الخَامِسَة، فَإِذَا أَنَا بِهَارُون، وَنِصْف لحْيَته بَيْضَاء، وَنِصْفهَا سَوْدَاء، تَكَاد لحْيَته تُصِيب سُرَّته مِنْ طُولهَا، قُلت: يَا جِبْرِيل، مَنْ هَذَا؟ قَال: هَذَا المُحَبَّب فِي قَوْمه، هَذَا هَارُون بْن عِمْرَان، وَمَعَهُ نَفر مِنْ قَوْمه، فَسَلَّمْت عَليْهِ وَسَلَّمَ عَليَّ.

ثُمَّ صَعِدْتُ إِلى السَّمَاء السَّادِسَة؛ فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى بْن عِمْرَان؛ رَجُل آدَم، كَثِير الشَّعْر، لوْ كَانَ عَليْهِ قَمِيصَانِ: لنَفَذَ شَعْره دُون القَمِيص، فَإِذَا هُوَ يَقُول: يَزْعُم النَّاس أَنِّي أَكْرَم عَلى الله من هَذَا؛ بَل هَذَا أَكْرَم عَلى الله تعالى مِنِّي. قَال: قُلت: يَا جِبْرِيل، مَنْ هَذَا؟ قَال: هَذَا أَخُوك مُوسَى بْن عِمْرَان ؛ وَمَعَهُ نَفر مِنْ قَوْمه، فَسَلَّمْت عَليْهِ، وَسَلَّمَ عَليَّ.

ثُمَّ صَعِدْتُ إِلى السَّمَاء السَّابِعَة، فَإِذَا أَنَا بِأَبِينَا إِبْرَاهِيم خَلِيل الرَّحْمَن، ساندًا ظَهْره إِلى البَيْت المَعْمُور كَأَحْسَن الرِّجَال، قُلت: يَا جِبْرِيل؛ مَنْ هَذَا؟ قَال: هَذَا أَبُوك إِبْرَاهِيم خَليل الرَّحْمَن عليه السلام، وَمَعَهُ نَفر مِنْ قَوْمه، فَسَلَّمْت عَليْهِ وسلم عَليَّ، وَإِذَا أَنَا بِأُمَّتِي شَطْرَيْنِ؛ شَطْر عَليْهِمْ ثِيَاب بِيض كَأَنَّهَا القَرَاطِيس، وَشَطْر عَليْهِمْ ثِيَاب رُمْد، قَال: فَدَخَلت البَيْت المَعْمُور، وَدَخَل مَعِي الَّذِينَ عَليْهِمْ الثِّيَاب البِيض، وَحُجِبَ الآخَرُونَ الَّذِينَ عَليْهِمْ ثياب رمْد -وَهُمْ عَلى خَيْر-، فَصَلَّيْت أَنَا وَمَنْ مَعِي فِي البَيْت المَعْمُور، ثُمَّ خَرَجْت أَنَا، وَمَنْ مَعِي، قَال: وَالبَيْت المَعْمُور يُصَلِّي فِيهِ كُلّ يَوْم سَبْعُونَ أَلف مَلك، لا يَعُودُونَ فيه إِلى يَوْم القِيَامَة.

قَال: ثُمَّ دُفِعَتْ لِيَ سِدْرَة المُنْتَهَى؛ فَإِذَا كُلّ وَرَقَة مِنْهَا تَكَاد أن تُغَطِّي هَذِهِ الأُمَّة؛ وَإِذَا فِيهَا عَيْن تَجْرِي يُقَال لهَا: سَلسَبِيل، فَيَنْشَقّ مِنْهَا نَهرَانِ: أَحَدهمَا: الكَوْثَر. وَالآخَر: يُقَال لهُ: نَهر الرَّحْمَة، فَاغْتَسَلت فِيهِ، فَغُفِرَ لِي مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِي وَمَا تَأَخَّرَ.

ثُمَّ إِنِّي دُفعتُ إِلى الجَنَّة، فَاسْتَقْبَلتْنِي جَارِيَة، فَقُلت: لمَنْ أَنْتِ يَا جَارِيَة؟ قَالتْ: لزَيْدِ بْن حَارِثَة، وَإِذَا أنا بِأَنْهَارٍ مِنْ مَاء غَيْر آسِن، وَأَنْهَار مِنْ لبَن لمْ يَتَغَيَّر طَعْمه، وَأَنْهَار مِنْ خَمْر لذَّة للشَّارِبِينَ؛ وَأَنْهَار مِنْ عَسَل مُصَفًّى، وَإِذَا

رُمَّانهَا كأنها الدلاء عِظَمًا، وَإِذَا أَنَا بِطَيْرِهَا كَأَنَّهَا بُختكُمْ هَذِه»، فقَال عِنْدهَا ﷺ: «إِنَّ الله تَعَالى قَدْ أَعَدَّ لعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْن رَأَتْ، وَلا أُذُن سَمِعَتْ، وَلا خطرَ عَلى قَلب بَشر». قَال: ثُمَّ عُرِضَتْ عَلَيَّ النَّار، فَإِذَا فِيهَا غَضَب الله وَزَجْره وَنِقْمَته، وَلوْ طُرِحَتْ فِيهَا الحِجَارَة وَالحَدِيد لأَكَلتْهَا، ثُمَّ أُغْلقَتْ دُونِي.

ثُمَّ إِنِّي دُفعتُ إِلى سِدْرَة المُنْتَهى فَتغَشَّانِي؛ فَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنه قَاب قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. قَال: ونزل عَلى كُلّ وَرَقَة مَلك مِنْ المَلائِكَة، قَال: وَفُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ، وَقَال: لك بِكُلِّ حَسَنَة عَشْر، فَإِذَا هَمَمْت بِالحَسَنَةِ فَلمْ تَعْمَلهَا كتبت لك حَسَنَة، فَإِذَا عَمِلتهَا كُتِبَتْ لك عَشْرًا؛ وَإِذَا هَمَمْت بِالسَّيِّئَةِ فَلمْ تَعْمَلهَا لمْ يُكْتَب عَليْك شَيْء، فَإِنْ عَمِلتهَا كُتِبَتْ عَليْك سَيِّئَة وَاحِدَة. ثُمَّ دفعت إِلى مُوسَى، فَقَال: بم أَمَرَكَ رَبّك؟ قُلت: بِخَمْسِينَ صَلاة. قَال: ارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف لأُمَّتِك؛ فَإِنَّ أُمَّتك لا يطيقون ذَلكَ، وَمَتَى لا تُطِيقهُ تَكْفُر. فَرَجَعْت إِلى رَبِّي فَقُلت: يَا رَبّ، خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي؛ فَإِنَّهَا أَضْعَف الأُمَم! فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، وَجَعَلهَا أَرْبَعِينَ، فَمَا زِلت أَخْتَلف بَيْن مُوسَى وَرَبِّي، كُلَّمَا أَتَيْت عَليْهِ قَال لي مِثْل مَقَالته حَتَّى رَجَعْت إِليْهِ؛ فَقَال لي: بِمَ أُمِرْت؟ فَقُلت: أُمِرْت بِعَشْرِ صَلوَات، قَال: ارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف لأُمَّتِك، فَرَجَعْت إِلى رَبِّي، فَقُلت: أَيْ رَبّ؛ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي فَإِنَّهَا أَضْعَف الأُمَم! فَوَضَعَ عَنِّي خَمْسًا، وَجَعَلهَا خَمْسًا، فَنَادَانِي مَلك عِنْدهَا: تمت فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْت عَنْ عِبَادِي، وَأَعْطَيْتهمْ بِكُلِّ حَسَنَة عَشر أَمْثَالهَا.

ثُمَّ رَجَعْت إِلى مُوسَى فَقَال: بِمَ أُمِرْت؟ فَقُلت: بِخَمْسِ صَلوَات. قَال: ارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف؛ فَإِنَّهُ لا يَئُودهُ شَيْء، فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف لأُمَّتِك، فَقُلت: رَجَعْت إِلى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْت». ثُمَّ أَصْبَحَ بِمَكَّة يُخْبِرهُمْ بِالأَعَاجِيبِ: «إِنِّي أَتَيْت البَارِحَة بَيْت المَقْدِس، وَعُرِجَ بِي إِلى السَّمَاء، وَرَأَيْت كَذَا وَكَذَا»، فَقَال أَبُو جَهْل -يَعْنِي: ابْن هِشَام-: أَلا تَعْجَبُونَ مِمَّا يقول مُحَمَّد؟! يَزْعُم أَنَّهُ أَتَى البَارِحَة بَيْت المَقْدِس، ثُمَّ أَصْبَحَ فِينَا؛ وَأَحدنَا يَضْرِب مَطِيَّته مُصْعِدَة شَهْرًا وَمُقْفِلة شَهْرًا، فَهَذِهِ مَسِيرَة شَهْرَيْنِ فِي ليْلة وَاحِدَة، قَال: فأخبرهم بِعِيرٍ لقُرَيْشٍ؛ لَمَّا كُنْت فِي مَصْعَدِي رَأَيْتهَا فِي مَكَان كَذَا وَكَذَا، وَأَنَّهَا نَفَرَتْ، فَلمَّا رَجَعْت رأيتها عِنْد العَقَبَة، وَأَخْبَرَهُمْ بِكُلِّ رَجُل وَبَعِيره كَذَا وَكَذَا، وَمَتَاعه كَذَا وَكَذَا، فَقَال أَبُو جَهْل: يُخْبِرنَا بِأَشْيَاء، فَقَال رَجُل من المشركين: أَنَا أَعْلم النَّاس بِبَيْتِ المَقْدِس، وَكَيْف بِنَاؤُهُ، وَكيف هَيْئَته، وَكَيْف قُرْبه مِنْ الجَبَل، فَإِنْ يَكُ مُحَمَّد صَادِقًا فَسَأُخْبِرُكُمْ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَسأُخْبِرُكُمْ، فَجَاءَ ذَلكَ المُشْرِك فَقَال: يَا مُحَمَّد، أَنَا أَعْلم النَّاس بِبَيْتِ المَقْدِس، فَأَخْبِرْنِي كَيْف بِنَاؤُهُ؟ وَكَيْف هَيْئَته؟ وَكَيْف قُرْبه مِنْ الجَبَل؟ قَال: فَرُفِعَ لرَسُول الله ﷺ بَيْت المَقْدِس مِنْ مَقْعَده، فَنَظَرَ إِليْهِ كَنَظَرِ أَحدنَا إِلى بَيْته: بِنَاؤُهُ كَذَا وَكَذَا، وَهَيْئَته كَذَا وَكَذَا، وَقُرْبه مِنْ الجَبَل كَذَا وَكَذَا. فَقَال الآخَر: صَدَقْت فَرَجَعَ إِليْهِمْ فَقَال: صَدَقَ مُحَمَّد فِيمَا قَال، أَوْ نحوه مِنْ هَذَا الكَلام.

وَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير بِطُولهِ عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الأَعْلى، عَنْ مُحَمَّد بن ثَوْر، عَنْ مَعْمَر، عَنْ أَبِي هَارُون العَبْدِيّ، وَعَنْ الحَسَن بْن يَحْيَى، عَنْ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ أَبِي هَارُون العَبْدِيّ بِهِ، وَرَوَاهُ أَيْضًا مِنْ حَدِيث محمد بن إِسْحَاق، حَدَّثَنِي رَوْح بْن القَاسِم عَنْ أَبِي هَارُون بِهِ، نَحْو سِيَاقه المُتَقَدِّم. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَحْمَد بْن عَبْدَة، عَنْ أَبِي عَبْد الصَّمَد عَبْد العَزِيز بْن عَبْد الصَّمَد، عَنْ أَبِي هَارُون العَبْدِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، فَذَكَرَهُ بِسِيَاقٍ طَوِيل حَسَن أَنِيق، أَجْوَد مِمَّا سَاقَهُ غَيْره، عَلى غَرَابَته، وَمَا فِيهِ مِنْ النَّكَارَة. ثُمَّ ذَكَرَهُ البَيْهَقِيّ أَيْضًا: مِنْ رِوَايَة نوح بْن قَيْس الحُدَّانِيّ، وَهُشَيْم، وَمَعْمَر عَنْ أَبِي هَارُون العَبْدِيّ، وَاسْمه عُمَارَة بْن جُوَيْن، وَهُوَ مُضَعَّف عِنْد الأَئِمَّة. وَإِنَّمَا سُقْنَا حَدِيثه هَاهُنَا، لَمَا فِي حديثه مِنْ الشَّوَاهِد لغَيْرِهِ، وَلمَا رَوَاهُ البَيْهَقِيّ: أَخْبَرَنَا الإِمَام

أَبُو عُثْمَان إِسْمَاعِيل بْن عَبْد الرَّحْمَن، أَنبأَنَا أَبُو نُعَيْم أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم البزاز، حَدَّثنَا أَبُو حَامِد ابْن بِلال، حَدَّثنَا أَبُو الأَزْهَر، يَزِيد بْن أَبِي حَكِيم قَال: رَأَيْت فِي النَّوْم رَسُول الله ﷺ قُلت: يَا رَسُول الله! رَجُل مِنْ أُمَّتك يُقَال لَهُ: سُفْيَان الثَّوْرِيّ لا بَأْس بِهِ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «لا بَأْس بِهِ»، حَدَّثنَا عَنْ أَبِي هَارُون العَبْدِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، عَنْك لَيْلَة أُسْرِيَ بِك قُلت: «رَأَيْت فِي السَّمَاء» فحدثته بِالحَدِيثِ، فَقَال لِي: «نَعَمْ». فَقُلت لَهُ: يَا رَسُول الله؛ إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتك يُحَدِّثُونَ عَنْك فِي المسرى بِعَجَائِب؟ فَقَال لِي: «ذَاكَ حَدِيث القَصَّاص».[1]

رِوَايَة شَدَّاد بْن أَوْس: قَال الإِمَام أَبُو إِسْمَاعِيل مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل التِّرْمِذِيّ: حَدَّثنَا إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم بْن العَلاء بْن الضَّحَّاك الزُّبَيْدِيّ، حَدَّثنَا عَمْرو بْن الحَارِث عَنْ عَبْد الله بْن سَالم الأَشْعَرِيّ، عَنْ مُحَمَّد بْن الوَلِيد بْن عَامِر الزُّبَيْدِيّ، حَدَّثنَا أَبُو الوَلِيد ابْن عَبْد الرَّحْمَن، عن جُبَيْر بْن نُفَيْر، حَدَّثنَا شَدَّاد بْن أَوْس قَال: قُلنَا: يَا رَسُول الله؛ كَيْف أُسْرِيَ بِك؟ قَال: «صَلَّيْت لأَصْحَابِي صَلاة العَتَمَة بِمَكَّة مُعْتِمًا، فَأَتَانِي جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلام بِدَابَّةٍ أَبْيَض أَوْ قَال: بَيْضَاء فَوْق الحِمَار وَدُون البَغْل، فَقَال: ارْكَبْ، فاستصعبت عَلَيَّ، فَرَازَهَا بِأُذُنِهَا، ثُمَّ حَمَلنِي عَلَيْهَا، فَانْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا، يَقَع حَافِرهَا حَيْثُ أدرك طَرْفهَا، حَتَّى بَلَغْنَا أَرْضًا ذَات نَخْل فَأَنْزَلنِي، فَقَال: صَلِّ، فَصَلَّيْت ثُمَّ ركبنا، فَقَال: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْت؟ قُلت: الله أَعْلم، قَال: صَلَّيْت بِيَثْرِب، صَلَّيْت بِطَيْبَة، فَانْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا، يَقَع حَافِرهَا حيث أدرك طَرْفهَا، ثُمَّ بَلَغْنَا أَرْضًا فقَال: انْزِل، فنزلت، ثُمَّ قَال: صَلِّ، فَصَلَّيْت، ثُمَّ رَكِبْنَا؛ فَقَال: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْت؟ قُلت: الله أَعْلم، قَال: صَلَّيْت بِمَدْيَن، صليت عِنْد شَجَرَة مُوسَى. ثُمَّ انْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا يَقَع حَافِرهَا حَيْثُ أَدْرَكَ طَرْفهَا، ثُمَّ بَلَغْنَا أَرْضًا بَدَتْ لنَا قُصُور، فَقَال: انْزِل، فَنَزَلت، فَقَال: صَلِّ، فَصَلَّيْت، ثُمَّ رَكِبْنَا فَقَال: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْت؟ قُلت: الله أَعْلم، قَال: صَلَّيْت بِبَيْتِ لحْم؛ حَيْثُ وُلدَ عِيسَى المسيح ابْن مَرْيَم، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى دَخَلنَا المَدِينَة مِنْ بَابهَا اليَمَانِيّ، فَأَتَى قِبْلَة المَسْجِد، فَرَبطَ فِيهِ دَابَّته، وَدَخَلنَا المَسْجِد مِنْ بَاب فيه تَمِيل الشَّمْس وَالقَمَر، فَصَلَّيْت مِنْ المَسْجِد حَيْثُ شَاءَ الله، وَأَخَذَنِي مِنْ العَطَش أَشَدّ مَا أَخَذَنِي، فَأُتِيت بِإِنَاءَيْنِ؛ فِي أَحدهمَا لبَن، وَفِي الآخَر عَسَل، أُرْسِل إِليَّ بِهمَا جَمِيعًا، فَعَدَلت بَيْنهمَا، ثُمَّ هَدَانِي الله عَزَّ وَجَلَّ، فَأَخَذْت اللَّبَن، فَشَرِبْت حَتَّى قرعت بِهِ جَبِينِي، وَبَيْن يَدَيَّ شَيْخ مُتَّكِئ عَلى مثواة لهُ؛ فَقَال: أَخَذَ صَاحِبك الفِطْرَة إِنَّهُ ليُهْدَى، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى أَتَيْنَا الوَادِي الَّذِي فِيهِ المَدِينَة، فَإِذَا جَهَنَّم تَنْكَشِف عَنْ مِثْل الزرابي، قُلت: يَا رَسُول الله، كَيْف وَجَدْتهَا؟ قَال: مِثْل الحُمَة السُّخْنَة، ثُمَّ انْصَرَفَ بِي، فَمَرَرْنَا بِعِيرٍ لقُرَيْشٍ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا، قَدْ أَضَلُّوا بَعِيرًا لهُمْ قَدْ جَمَعَهُ فُلان، فَسَلَّمْت عَليْهِمْ، فَقَال بَعْضهمْ: هَذَا صَوْت مُحَمَّد، ثُمَّ أَتَيْت أَصْحَابِي قَبْل الصُّبْح بِمَكَّة، فَأَتَانِي أَبُو بَكْر رضي الله عنه فَقَال: يَا رَسُول الله؛ أَيْنَ كُنْت اللَّيْلة؟ فَقَدْ التَمَسْتُك فِي مَظَانّك، فَقَال: عَلمْت أَنِّي أَتَيْت بَيْت المَقْدِس اللَّيْلة؟ فَقَال: يَا رَسُول الله، إِنَّهُ مَسِيرَة شَهْر، فَصِفْهُ لِي، قَال: فَفُتِحَ لِي صِرَاط كَأَنِّي أَنْظُر إِليْهِ، لا يَسْأَلنِي عَنْ شَيْء إِلَّا أَنْبَأْته عنه، فَقَال أَبُو بَكْر: أَشْهَد أَنَّك رسول الله، فقَال المُشْرِكُونَ: انْظُرُوا إِلى ابْن أَبِي كَبْشَة، يَزْعُم أَنَّهُ أَتَى بَيْت المَقْدِس اللَّيْلة! قَال: فقَال: إِنَّ مِنْ آيَة مَا أَقُول لكُمْ: أَنِّي مَرَرْت بِعِيرٍ لكُمْ بمَكَان، كَذَا وَكَذَا، قَدْ أَضَلُّوا بَعِيرًا لهُمْ، فَجَمَعَهُ فُلان، وَإِنَّ مَسِيرهمْ يَنْزِلُونَ بِكَذَا ثُمَّ بِكَذَا، وَيَأْتُونكُمْ يَوْم كَذَا وَكَذَا، يَقْدُمهُمْ جَمَل آدَم عَليْهِ مَسْح أَسْوَد وَغِرَارَتَانِ سَوْدَاوَانِ، فَلمَّا كَانَ ذَلكَ اليَوْم أَشْرَفَ النَّاس يَنْظُرُونَ حتى كَانَ قريب مِنْ نِصْف النَّهَار، حَتَّى أَقْبَلتْ

---

(١) **ضعيف جدًا**: أخرجه ابن جرير (١٥/ ١١)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٩٠)، وفيه أبو هارون العبدي: متروك، ومنهم من كذبه. شيعي.

العِير يَقْدُمهُمْ ذَلكَ الجَمَل الَّذِي وَصَفَهُ رَسُول الله ﷺ.[1] هَكَذَا رَوَاهُ البَيْهَقِيّ مِنْ طَرِيقَيْنِ عَنْ أَبِي إِسْمَاعِيل التِّرْمِذِيّ بِهِ، ثُمَّ قَال بَعْد تَمامه: هَذَا إِسْنَاد صَحِيح، وَرَوَى ذَلكَ مُفَرَّقًا مِنْ أَحَادِيث غَيْره، وَنَحْنُ نَذْكُر مِنْ ذَلكَ إِنْ شَاءَ الله مَا حَضَرَنَا. ثُمَّ سَاقَ أَحَادِيث كَثِيرَة فِي الإِسْرَاء كَالشَّاهِدِ لهَذَا الحَدِيث.

وَقَدْ رَوَى هَذَا الحَدِيث عَنْ شَدَّاد بْن أَوْس بِطُولِهِ الإِمَام أَبُو مُحَمَّد عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي حَاتِم فِي «تَفْسِيره» عَنْ أَبِيهِ عَنْ إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم بْن العَلاء الزُّبَيْدِيّ بِهِ، وَلا شَكَّ أَنَّ هَذَا الحَدِيث -أَعْنِي الحَدِيث المَرْوِيّ عَنْ شَدَّاد ابْن أَوْس- مُشْتَمِل عَلى أَشْيَاء؛ مِنْهَا مَا هُوَ صَحِيح كَمَا ذَكَرَهُ البَيْهَقِيّ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُنْكَر كَالصَّلاةِ فِي بَيْت لحْم، وَسُؤَال الصِّدِّيق عَنْ نَعْت بَيْت المَقْدِس، وَغَيْر ذَلكَ، وَالله أَعْلم.

رِوَايَة عَبْد الله بْن عَبَّاس رضي الله عنهما: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ قَابُوس، عَنْ أَبِيهِ قَال: حَدَّثَنَا ابْن عَبَّاس قَال: لَيْلة أُسْرِيَ بِرَسُول الله ﷺ، دَخَل الجَنَّة، فَسَمِعَ فِي جَانِبِهَا وجسًا فَقَال: «يَا جِبْرِيل؛ مَا هَذَا؟ قَال: هَذَا بِلال المُؤَذِّن، فَقَال رسول الله ﷺ حِين جَاءَ إِلى النَّاس: قَدْ أَفْلحَ بِلال! قد رَأَيْت لهُ كَذَا وَكَذَا. قَال: فَلقِيَهُ مُوسَى عليه السلام فَرَحَّبَ بِهِ. وَقَال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الأُمِّيّ، قَال: وَهُوَ رَجُل آدَم، طَوِيل سَبْط، شَعْره مَعَ أُذُنَيْهِ، أَوْ فَوْقهمَا، فقال: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيل؟ قَال: هَذَا مُوسَى قال: فمضي، فلقيه عيسي، فرحب به، وقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا عيسى، قَال: فَمَضَى، فَلقِيَهُ شَيْخ جَلِيل مُتَهَيَّب، فَرَحَّبَ بِهِ وَسَلَّمَ عَليْهِ، وَكُلّهمْ يُسَلِّم عَليْهِ، قَال: «مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيل؟ قَال: هَذَا أَبُوك إِبْرَاهِيم». قَال: وَنَظَرَ فِي النَّار فَإِذَا قَوْم يَأْكُلُونَ الجِيَف قَال: «مَنْ هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيل؟». قَال: هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لحم النَّاس، وَرَأَى رَجُلًا أَحْمَر أَزْرَق جِدًّا، قَال: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيل؟ قَال: هَذَا عَاقِر النَّاقَة. قَال: فَلمَّا أَتَى رَسُول الله ﷺ المَسْجِد الأَقْصَى قَامَ يُصَلِّي، فالتفت ثم التفت فَإِذَا النَّبِيُّونَ أَجْمَعُونَ يُصَلُّونَ مَعَهُ، فَلمَّا انْصَرَفَ جِيءَ بِقَدَحَيْنِ؛ أَحَدهمَا: عَنْ اليَمِين، وَالآخَر: عَنْ الشِّمَال، فِي أَحَدهمَا: لبَن، وَفِي الآخَر: عَسَل، فَأَخَذَ اللَّبَن فَشَرِبَ مِنْهُ، فَقَال الَّذِي كَانَ مَعَهُ القَدَح: أَصَبْت الفِطْرَة» إِسْنَاد صَحِيح، وَلمْ يُخَرِّجُوهُ.[2]

طَرِيق أُخْرَى: وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن، حَدَّثَنَا ثَابِت أَبُو زَيْد، حَدَّثَنَا هِلال، حَدَّثَنِي عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: أُسْرِيَ بالنبي ﷺ إِلى بَيْت المَقْدِس، ثُمَّ جَاءَ مِنْ لَيْلته فَحَدَّثَهُمْ بِمَسِيرِهِ، وَبِعَلامَةِ بَيْت المَقْدِس، وَبِعِيرهِمْ، فَقَال نَاس: نَحْنُ لا نُصَدِّق مُحَمَّدًا بِمَا يَقُول، فَارْتَدُّوا كُفَّارًا، فَضَرَبَ الله رِقَابهمْ مَعَ أَبِي جَهْل، وَقَال أَبُو جَهْل: يُخَوِّفنَا مُحَمَّد بِشَجَرَةِ الزَّقُّوم، هَاتُوا تَمْرًا وَزُبْدًا فَتَزَقَّمُوا، وَرَأَى الدَّجَّال فِي صُورَته رُؤْيَا عَيْن -لَيْسَ بِرُؤْيَا مَنَام- وَعِيسَى، وَمُوسَى، وَإِبْرَاهِيم، فسئل النَّبِيّ ﷺ عَنْ الدَّجَّال؟ فَقَال: «رَأَيْته فَيْلمَانِيًّا، أَقْمَر، هِجَانًا، إِحْدَى عَيْنَيْهِ قَائِمَة؛ كَأَنَّهَا كَوْكَب دُرِّيّ، كَأَنَّ شَعْر رَأْسه أَغْصَان شَجَرَة، وَرَأَيْت عِيسَى عليه السلام أَبْيَض، جَعْد الرَّأْس، حَدِيد البَصَر، مُبَطَّن الخَلق، وَرَأَيْت مُوسَى عليه السلام أَسْحَم آدَم، كَثِير الشَّعْر، شَدِيد الخَلْق. وَنَظَرْت إِلى إِبْرَاهِيم عليه السلام فَلمْ أَنْظُر إِلى إِرْب مِنْهُ إِلَّا نَظَرْت إِليْهِ مِنِّي، حَتَّى كَأَنَّهُ صَاحِبكُمْ، قَال جِبْرِيل: سَلِّمْ عَلى مالك فَسَلَّمْت عَليْهِ. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي زَيْد ثَابِت بْن يزيد عَنْ هِلال، وَهُوَ ابْن خباب بِهِ. وَهُوَ إِسْنَاد صَحِيح.[3]

طَرِيق أُخْرَى: قَال البَيْهَقِيّ: أَنْبَأَنَا أَبُو عَبْد الله الحَافِظ، أَنْبَأَنَا أَبُو بَكْر الشَّافِعِيّ، أَنْبَأَنَا إِسْحَاق بْن الحَسَن، حَدَّثَنَا الحُسَيْن بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا شَيْبَان، عَنْ قَتَادَة عَنْ أَبِي العَالِيَة قَال: حَدَّثَنَا ابْن عَمّ نَبِيّكُمْ ﷺ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما قَال: قَال

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٥٥).
(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه أحمد (١/ ٢٥٧)، وفيه قابوس بن أبي ظبيان: لين الحديث.
(٣) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ٣٧٤)، وأبو يعلى (٢٧٢٠) بسند صحيح.

رَسُول الله ﷺ : «رَأَيْت لَيْلَة أُسْرِيَ بِي مُوسَى بْن عِمْرَان؛ رَجُلًا طِوَالًا جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَال شَنُوءَة، وَرَأَيْت عِيسَى ابْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ مَرْبُوع الخَلق إلى الحُمْرَة وَالبَيَاض، سَبْط الرَّأْس». وَأُرِي مَالِكًا خَازِن جَهَنَّم وَالدَّجَّال فِي آيَات أَرَاهُنَّ الله إِيَّاهُ، قَال: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ فَكَانَ قَتَادَة يُفَسِّرهَا أَنَّ نَبِيّ الله ﷺ قَدْ لَقِيَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قَال: جَعَل الله مُوسَى هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيل. رَوَاهُ مُسْلم فِي «الصَّحِيح» عَنْ عَبْد بن حُمَيْد عَنْ يُونُس بْن مُحَمَّد عَنْ شَيْبَان، وَأَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث شُعْبَة عَنْ قَتَادَة مُخْتَصَرًا.[1]

طَرِيق أُخْرَى: قَال البَيْهَقِيّ: أَخْبَرَنَا عَلِيّ بْن أَحْمَد بْن عَبْدان، أنبأنا أَحْمَد بْن عُبَيْد الصفار، ثَنَا دُبَيْس المُعَدِّل ثَنَا عَفَّان قَال: ثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة عَنْ عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «لمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَّتْ بِي رَائِحَة طَيِّبَة، فَقُلت: مَا هَذِهِ الرَّائِحَة؟ قَال: مَاشِطَة بِنْت فِرْعَوْن وَأَوْلادها، سَقَطَ مشطها مِنْ يَدهَا فَقَالَتْ: بِسْمِ الله! فَقَالَتْ ابنة فِرْعَوْن: أَبِي؟ قَالَتْ: رَبِّي وَرَبّك وَرَبّ أَبِيك! قَالَتْ: أَوَلك رَبّ غَيْر أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبّك وَرَبّ أَبِيك الله! قَال: فَدَعَاهَا فَقَال: أَلك رَبّ غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبّك الله عَزَّ وَجَلَّ. قَال: فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاس فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا لتلقي فِيهَا قَالَتْ: إِنَّ لِي إِلَيْك حَاجَة، قَال: مَا هِيَ؟ قَالَت: تَجْمَع عِظَامِي وَعِظَام وَلَدِي فِي مَوْضِع، قَال: ذَاكَ لَك، لِمَا لَك عَلَيْنَا مِنْ الحَقّ، قَال: فَأَمَرَ بِهِمْ فَأُلْقُوا وَاحِدًا وَاحِدًا، حَتَّى بَلَغَ رَضِيعًا فِيهِمْ، فَقَال: يَا أُمَّهْ قَعِي وَلا تَقَاعَسِي، فَإِنَّك عَلَى الحَقّ». قَال: وَتَكَلَّمَ أَرْبَعَة وَهُمْ صِغَار: هَذَا، وَشَاهِد يُوسُف، وَصَاحِب جُرَيْج، وَعِيسَى ابْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَامُ. إِسْنَاد لا بَأْس بِهِ وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ.[2]

طَرِيق أُخْرَى: وقال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر وَرَوْح المعنى؛ قَالا: حَدَّثَنَا عَوْف عَنْ زُرَارَة بْن أَوْفَى، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «لمَّا كَانَ لَيْلَة أُسْرِيَ بِي وأصبحت بِمَكَّة فَظِعْت بأمري وَعَرَفْت أَنَّ النَّاس مُكَذِّبِيَّ» فَقَعَدَ مُعْتَزِلًا حَزِينًا فَمَرَّ بِهِ عَدُوّ الله أَبُو جَهْل، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَال لَهُ كَالمُسْتَهْزِئ: هَل كَانَ مِنْ شَيْء؟ فَقَال له رَسُول الله ﷺ : «نَعَمْ». قَال: وَمَا هُوَ؟ قَال: «إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَة». قَال: إِلَى أَيْنَ؟ قَال: «إِلَى بَيْت المَقْدِس». قَال: ثُمَّ أَصْبَحْت بَيْن ظَهْرَانَيْنَا؟ قَال: «نَعَمْ». قَال: فَلَمْ يره أنه يُكَذِّبهُ؛ مَخَافَة أَنْ يَجْحَده الحَدِيث إِنْ دَعَا قَوْمه إِلَيْهِ، فَقَال: أَرَأَيْت إِنْ دَعَوْت قَوْمك أَتُحَدِّثُهُمْ بِمَا حَدَّثْتنِي؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ : «نَعَمْ». فَقَال: هيا مَعْشَر بَنِي كَعْب بْن لُؤَيّ، قَال: فانتفضت إِلَيْهِ المَجَالس، وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَال: حَدِّثْ قَوْمك بِمَا حَدَّثْتنِي؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ : «إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَة». فَقَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَال: «إِلَى بَيْت المَقْدِس». قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْت بَيْن ظَهْرَانَيْنَا؟ قَال: «نَعَمْ». قَال: فَمِنْ بَيْن مُصَفِّق، وَمِنْ بَيْن وَاضِع يَده عَلَى رَأْسه مُتَعَجِّبًا لِلكَذِب -زعم-، قَالُوا: وَتَسْتَطِيع أَنْ تَنْعَت لَنَا المَسْجِد وفي القَوم مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ البَلَد وَرَأَى المَسْجِد؟ قَال رَسُول الله ﷺ : «فذهبت أَنْعَت فما زلت أنعت حَتَّى التَبَسَ عَلَيَّ بَعْض النَّعْت، قَال: فَجِيءَ بِالمَسْجِد -وَأَنَا أَنْظُر إِلَيْهِ- حَتَّى وُضِعَ دُون دَار عُقَيْل، أَوْ عِقَال فَنَعَتُّهُ، وَأَنَا أَنْظُر إِلَيْهِ، قَال: وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْت لَمْ أَحْفَظهُ، يقول عوف: قَال: فَقَال القَوْم: أَمَّا النَّعْت فَوَالله لَقَدْ أَصَاب»[3]. وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث عَوْف -وهو ابن أَبِي جَمِيلَة الأَعْرَابِيّ- بِهِ، وَرَوَاهُ البَيْهَقِيّ من حَدِيث النَّضْر بْن شُمَيْل وَهَوْذَة عَنْ عَوْف -وَهُوَ ابْن أَبِي جَمِيلَة الأَعْرَابِيّ، أَحَد الأَئِمَّة الثِّقَات- بِه.

رِوَايَة عَبْد الله بْن مَسْعُود رضي الله عنه: قَال الحَافِظ أبو بَكْر البَيْهَقِيّ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْد الله الحَافِظ، أخبرنا أَبُو عَبْد الله

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٣٣٩٦)، ومسلم (١٦٥) مختصرًا.
(٢) حسن : تقدم.
(٣) صحيح : أخرجه أحمد (١/ ٤٠٩)، وحسنه الحافظ في «الفتح» (٧/ ١٩٩)، وصححه السيوطي «في الدر المنثور».

مُحَمَّد بْن يَعْقُوب، حَدَّثَنَا السُّرِّيّ بْن خُزَيْمَة، حَدَّثَنَا يُوسُف بْن بُهْلُول، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن نُمَيْر، عَنْ مَالك بْن مِغْوَل، عَنْ الزُّبَيْر بْن عَدِيّ، عَنْ طَلحَة بْن مُصَرِّف، عَنْ مُرَّة الهَمْدَانِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود قَال: لـمَّا أُسْرِيَ بِرَسُول الله ﷺ، فَانْتَهى إِلى سِدْرَة المُنْتَهى وَهِيَ فِي السَّمَاء السَّادِسَة، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُصْعَد بِهِ حَتَّى يُقْبَض مِنهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَط بِهِ مِنْ فَوْقهَا حَتَّى يُقْبَض منها: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قَال: غَشِيَهَا فَرَاش مِنْ ذَهَب، وَأُعْطِيَ رَسُول الله ﷺ الصَّلوَات الخَمْس وَخَوَاتِيم سُورَة البَقَرَة، وَغُفِرَ لِمَنْ لا يُشْرِك بالله المُقْحِمَات، يَعْنِي: الكَبَائِر.[1] وَرَوَاهُ مُسْلم فِي «صَحِيحه» عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن نُمَيْر وَزُهَيْر بْن حَرْب، كِلاهُمَا عَنْ عَبْد الله بْن نُمَيْر بِهِ. ثُمَّ قَال البَيْهَقِيّ: وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ عَبْد الله بْن مَسْعُود طَرَف مِنْ حَدِيث المِعْرَاج، وَقَدْ رَوَاهُ أَنَس بْن مَالك عَنْ مَالك بْن صَعْصَعَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ، ثُمَّ عَنْ أَبِي ذَرّ عَنْ النَّبِيّ ﷺ. ثُمَّ رَوَاهُ مرة مُرْسَلًا مِنْ دُون ذِكْرِهِمَا، ثُمَّ إِنَّ البَيْهَقِيّ سَاقَ الأَحَادِيث الثَّلاثَة كَمَا تَقَدَّمَ.

قُلت: وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْن مَسْعُود بِأَبْسَط مِنْ هَذَا وَفِيهِ غَرَابَة، وَذَلِكَ فِيمَا رَوَاهُ الحَسَن بْن عَرَفَة فِي جُزْئِهِ المَشْهُور: حَدَّثَنَا مَرْوَان بْن مُعَاوِيَة، عَنْ قنان بْن عَبْد الله النهمِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو ظَبْيَان الجَنْبِيّ قَال: كُنَّا جُلُوسًا عِند أَبِي عُبَيْدَة ابْن عَبْد الله -يَعْنِي: ابْن مَسْعُود- وَمُحَمَّد بْن سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص، وَهُمَا جَالسَانِ، فَقَال مُحَمَّد بْن سَعْد لأَبِي عُبَيْدَة: حَدِّثْنَا عَنْ أَبِيك لَيْلَة أُسْرِيَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَال أَبُو عُبَيْدَة: لا، بَل حَدِّثْنَا أَنْتَ عَنْ أَبِيك؟ فَقَال مُحَمَّد: لَوْ سَأَلتنِي قَبْل أَنْ أَسْأَلك لفَعَلت، قَال: فَأَنْشَأَ أَبُو عُبَيْدَة يُحَدِّث -يَعْنِي عَنْ أَبِيهِ- كَمَا سُئِل قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَابَّةٍ فَوْق الحِمَار وَدُون البَغْل، فَحَمَلنِي عَلَيْهِ، ثُمَّ انْطَلَق يَهْوِي بِنَا، كُلَّمَا صَعِدَ عَقَبَة اسْتَوَتْ رِجْلاهُ كَذَلكَ مَعَ يَدَيْهِ، وَإِذَا هَبَطَ اسْتَوَتْ يَدَاهُ مَعَ رِجْلَيْهِ، حَتَّى مَرَرْنَا بِرَجُلٍ طِوَال سَبْط آدَم كَأَنَّهُ مِنْ رِجَال أَزْد شَنُوءَة، وهو يقول: فَيَرْفَع صَوْته يَقُول: أَكْرَمْته وَفَضَّلته. قَال: فَدَفَعنَا إِلَيْهِ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلام، فَقَال: مَنْ هَذَا مَعَك يَا جِبْرِيل؟ قَال: هَذَا أَحْمَد، قَال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الأُمِّيّ العَرَبِيّ، الَّذِي بَلَّغَ رِسَالة رَبّه، وَنَصَحَ لأُمَّتِهِ. قَال: ثُمَّ انْدَفَعْنَا، فَقُلت: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيل؟ قَال: هَذَا مُوسَى بْن عِمْرَان، قَال: قُلت: وَمَنْ يُعَاتِب؟ قَال: يُعَاتِب رَبّه فِيك، قُلت: فيرفع صَوْته عَلى رَبّه؟! قَال: إِنَّ الله قَدْ عَرَفَ لهُ حِدَّته. قَال: ثُمَّ انْدَفَعْنَا حَتَّى مَرَرْنَا بِشَجَرَةٍ كَأَنَّ ثَمَرهَا السُّرُج، تَحْتهَا شَيْخ وَعِيَاله، قَال: فَقَال لي جِبْرِيل: اعْمِدْ إِلى أَبِيك إِبْرَاهِيم، فَدَفعنَا إِلَيْهِ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ، فَرَدَّ السَّلام، فَقَال إِبْرَاهِيم: مَنْ هَذَا مَعَك يَا جِبْرِيل؟ قَال: هَذَا ابْنك أَحْمَد. قَال: فَقَال: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الأُمِّيّ، الَّذِي بَلَّغَ رِسَالة رَبّه، وَنَصَحَ لأُمَّتِهِ، يَا بُنَيّ إِنَّك لاقٍ رَبّك اللَّيْلة، وَإِنَّ أُمَّتك آخِر الأُمَم وَأَضْعَفهَا، فَإِنْ اسْتَطَعْت أَنْ تَكُون حَاجَتك أَوْ جُلّهَا فِي أُمَّتك فَافْعَل. قَال: ثُمَّ انْدَفَعْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلى المَسْجِد الأَقْصَى فَنَزَلت فَرَبَطْت الدَّابَّة فِي الحَلقَة الَّتِي فِي بَاب المَسْجِد الَّتِي كَانَتْ الأَنْبِيَاء تَرْبط بِهَا، ثُمَّ دَخَلت المَسْجِد فَعَرَفْت النَّبِيِّينَ مِنْ بَيْن رَاكِع وَقَائِم وَسَاجِد، قَال: ثُمَّ أُتِيت بِكَأْسَيْنِ مِنْ عَسَل وَلبَن، فَأَخَذْت اللَّبَن فَشَرِبْت، فَضَرَبَ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْكِبِي، وَقَال: أَصَبْت الفِطْرَة وَرَبّ مُحَمَّد. قَال: ثُمَّ أُقِيمَتْ الصَّلاة فَأَمَمْتهمْ، ثُمَّ انْصَرَفْنَا فَأَقْبَلنَا».

إِسْنَاد غَرِيب وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ، فِيهِ مِنْ الغَرَائِب: سُؤَال الأَنْبِيَاء عَنْهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ابْتِدَاء، ثُمَّ سُؤَاله عَنْهُمْ بَعْد انْصِرَافه، وَالمَشْهُور فِي الصِّحَاح -كَمَا تَقَدَّمَ- أَنَّ جِبْرِيل كَانَ يُعْلمهُ بِهِمْ أَوَّلًا؛ لِيُسَلِّم عَلَيْهِمْ سَلام مَعْرِفَة. وَفِيهِ أَنَّهُ اجْتَمَعَ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٩).

بِالأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَبْل دُخُوله المَسْجِد؛ وَالصَّحِيح أَنَّهُ إِنَّمَا اجْتَمَعَ بِهِمْ فِي السَّمَاوَات، ثُمَّ نَزَل إِلَى بَيْت المَقْدِس ثَانِيًا، وَهُمْ مَعَهُ، وَصَلَّى بِهِمْ فِيهِ، ثُمَّ إِنَّهُ رَكِبَ البُرَاق وَكَرَّ رَاجِعًا إِلَى مَكَّة، وَالله أَعْلَم.(١)

طَرِيق أُخْرَى: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هُشَيْم، أخبرنا العَوَّام عَنْ جَبَلَة بْن سُحَيْم عَنْ مؤثر بن عفازة عَنْ ابْن مَسْعُود عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «لقِيت ليْلة أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيم وَمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَتَذَاكَرُوا أَمْر السَّاعَة قَال: فَرَدُّوا أَمْرهمْ إِلَى إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَال: لا عِلم لِي بِهَا. فَرَدُّوا أَمْرهمْ إِلَى مُوسَى، فَقَال: لا عِلم لِي بِهَا. فَرَدُّوا أَمْرهمْ إِلَى عِيسَى فَقَال: أَمَّا وَجْبَتُهَا، فَلا يَعْلم بِهَا أَحَد إِلَّا الله عَزَّ وَجَلَّ، وَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي أَنَّ الدَّجَّال خَارِج قَال: وَمَعِي قَضِيبَانِ، فَإِذَا رَآنِي ذَاب، كَمَا يَذُوب الرَّصَاص، قَال: فَيُهْلكهُ الله، حَتَّى إِنَّ الحَجَر وَالشَّجَر يَقُول: يَا مُسْلم إِنَّ تَحْتِي كَافِرًا فتَعَال فَاقْتُلهُ. قَال: فَيُهْلكهُمْ الله، ثُمَّ يَرْجِع النَّاس إِلَى بِلادهمْ وَأَوْطَانهمْ، قَال: فَعِنْد ذَلكَ يَخْرُج يَأْجُوج وَمَأْجُوج، وَهُمْ مِنْ كُلّ حَدَب يَنْسِلُون، فَيَطَئُونَ بِلادهمْ، فَلا يَأْتُونَ عَلى شَيْء إِلَّا أَهْلكُوهُ، وَلا يَمُرُّونَ عَلى مَاء إِلَّا شَرِبُوهُ، قَال: ثُمَّ يَرْجِع النَّاس إِلَيَّ فَيَشْكُونَهُمْ، فَأَدْعُو الله عَلَيْهِمْ، فَيُهْلكهُمْ وَيُمِيتهُمْ حَتَّى تَجْوَى الأَرْض مِنْ نَتْن رِيحِهِمْ -أَيْ: تُنْتِن- قَال: فَيُنْزِل الله المَطَر، فَيَجْتَرِف أَجْسَادهمْ حَتَّى يَقْذِفهُمْ فِي البَحْر، فَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي: أَنَّ ذَلكَ إِذَا كَانَ كَذَلكَ أَنَّ السَّاعَة كَالحَامِل المُتِمّ، لا يَدْرِي أَهْلهَا مَتَى تَفْجَؤُهُمْ بِوِلادِهَا ليْلًا أَوْ نَهَارًا».(٢) وَأَخْرَجَهُ ابْن مَاجَهْ عَنْ بُنْدَار عَنْ يَزِيد بْن هَارُون عَنْ العَوَّام بْن حَوْشَب.

رِوَايَة عَبْد الرَّحْمَن بْن قُرْط أَخِي عَبْد الله بْن قُرْط الثُّمَالِيّ: قَال سَعِيد بْن مَنْصُور: حَدَّثَنَا مِسْكِين بْن مَيْمُون مُؤَذِّن مَسْجِد الرَّمْلة؛ حَدَّثَنِي عُرْوَة بْن رُوَيْم، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن قُرْط أَنَّ رَسُول الله ﷺ ليْلة أُسْرِيَ بِهِ مِنْ المَسْجِد الحَرَام إِلَى المَسْجِد الأَقْصَى كان بَيْن زَمْزَم وَالمَقَام، جِبْرِيل عَنْ يَمِينه وَمِيكَائِيل عَنْ يَساره، فَطَارَا بِهِ حَتَّى بَلغَ السَّمَاوَات العُلا، فَلمَّا رَجَعَ قَال: سَمِعْت تَسْبِيحًا فِي السَّمَاوَات العُلى مَعَ تَسْبِيح كَثِير، سَبَّحَتْ السَّمَاوَات العُلى مِنْ ذِي المَهَابَة مُشْفِقَات مِنْ ذي العُلُوّ بِمَا عَلا، سُبْحَان العَلِيّ الأَعْلى! سُبْحَانه وَتَعَالى. وَنَذْكُر هذا الحَدِيث عِنْد قَوْله تَعَالى مِنْ هَذِهِ السُّورَة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ ...﴾ الآيَة.(٣)

رِوَايَة عُمَر بْن الخَطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَسْوَد بْن عَامِر حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلمَة عَنْ أَبِي سِنَان، عَنْ عُبَيْد بْن آدَم وَأَبِي مَرْيَم وَأَبِي شُعَيْب: أَنَّ عُمَر بْن الخَطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ بِالجَابِيَة، فَذَكَرَ فَتْح بَيْت المَقْدِس، قَال: قَال أَبُو سَلمَة: فَحَدَّثَنِي أَبُو سِنَان، عَنْ عُبَيْد بْن آدَم قَال: سَمِعْت عُمَر بْن الخَطَّاب يَقُول لكَعْب: أَيْنَ تَرَى أَنْ أُصَلِّي؟ قَال: إِنْ أَخَذْت عَنِّي صَلَّيْت خَلف الصَّخْرَة، فَكَانَتْ القُدْس كُلّهَا بَيْن يَدَيْك. فَقَال عُمَر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ضَاهَيْت اليَهُودِيَّة، لا، وَلكِنْ أُصَلِّي حَيْثُ صَلَّى رَسُول الله ﷺ، فَتَقَدَّمَ إِلَى القِبْلة فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَبَسَطَ رِدَاءَهُ، وَكَنَسَ الكُنَاسَة فِي رِدَائِهِ، وَكَنَسَ النَّاس.(٤) فَلمْ يُعَظِّم الصَّخْرَة تَعْظِيمًا يُصَلِّي وَرَاءَهَا وَهِيَ بَيْن يَدَيْهِ، كَمَا أَشَارَ كَعْب الأَحْبَار، وَهُوَ مِنْ قَوْم يُعَظِّمُونَهَا حَتَّى جَعَلُوهَا قِبْلتهمْ، وَلكِنْ مَنَّ الله عَليْهِ بِالإِسْلام، فَهُدِيَ إِلَى الحَقّ؛ وَلهَذَا لمَّا أَشَارَ بِذَلكَ قَال لهُ أَمِير المُؤْمِنِينَ: ضَاهَيْت اليَهُودِيَّة، وَلا أَهَانَهَا إِهَانَة النَّصَارَى الَّذِينَ كَانُوا قَدْ جَعَلُوهَا

---

(١) **ضعيف**: فيه قنان بن عبد الله: قال الحافظ: مقبول. وفيه انقطاع؛ لأن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه. والحديث فيه غرائب لا تتفق مع الروايات الصحيحة.

(٢) **ضعيف**: تقدم.

(٣) **منكر**: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٧)، وفيه مسكين بن ميمون. قال الذهبي في ترجمته عن هذا الحديث: إنه منكر.

(٤) **ضعيف**: أخرجه أحمد (١/ ٣٨) وفيه عيسى بن سنان: لين الحديث.

مَزْبَلة مِنْ أَجْل أَنَّهَا قِبْلة اليَهُود، وَلكِنْ أَمَاطَ الأَذَى وَكَنَس عَنْهَا الكُنَاسَة بِرِدَائِهِ. وَهَذَا شَبِيه بِمَا جَاءَ فِي «صَحِيح مُسْلم» عَنْ أَبِي مَرْثَد الغَنَوِيّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«لا تَجْلسُوا على القُبُور، ولا تُصَلُّوا إِلَيْهَا»**.[1]

رِوَايَة أَبِي هُرَيْرَة ﵁ وَهِيَ مُطوَّلة جِدًّا وَفِيهَا غَرَابَة: قَال الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير فِي تَفْسِير سُورَة سُبْحَان: حَدَّثَنَا عَلِيّ بن سَهْل، ثَنَا حَجَّاج، ثَنَا أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ أَبِي العَالِيَة الرِّيَاحِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَوْ غَيْره -شَكَّ أَبُو جَعْفَر- فِي قَوْل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، قَال: جَاءَ جِبْرِيل إِلى النَّبِيّ ﷺ وَمَعَهُ مِيكَائِيل، فَقَال جبريل لِمِيكَائِيل: ائْتِنِي بِطَسْتٍ مِنْ مَاء زَمْزَم كَيْمَا أُطَهِّر قلبه، وَأَشْرَح لهُ صَدْره. قَال: فَشَقَّ عَنْهُ بَطْنه، فَغَسَلهُ ثَلاث مَرَّات، وَاخْتَلَفَ إِلَيْهِ مِيكَائِيل بِثَلاثِ طِسَاس مِنْ مَاء زَمْزَم، فَشَرَحَ صَدْره، ونزع مَا كَانَ فِيهِ مِنْ غِلّ، وَمَلأَهُ عِلْمًا وَحِلْمًا وَإِيمَانًا وَيَقِينًا وَإِسْلامًا، وَخَتَمَ بَيْن كَتِفَيْهِ بِخَاتَم النُّبُوَّة. ثُمَّ أَتَاهُ بِفَرَسٍ فحمل عَلَيْهِ، كُلّ خُطْوَة مِنْهُ مُنْتَهَى بَصَره أَوْ أَقْصَى بَصَره، قَال: فَسَارَ وَسَارَ مَعَهُ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلامُ قَال: فَأَتَى عَلَى قَوْم يَزْرَعُونَ فِي يَوْم، وَيَحْصُدُونَ فِي يَوْم، كُلَّمَا حَصَدُوا عَادَ كَمَا كَانَ، فَقَال النَّبِيّ ﷺ: **«يَا جِبْرِيل مَا هَذَا؟»**. قَال: هَؤُلاءِ المُجَاهِدُونَ فِي سَبِيل الله، تُضَاعَف لهُمُ الحَسَنَة بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْف، وَمَا أَنْفَقُوا مِنْ شَيْء فَهُوَ يَخْلُفهُ وَهُوَ خَيْر الرَّازِقِينَ. ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْم تُرْضَخ رُءُوسهمْ بِالصَّخْر، كُلَّمَا رُضِخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ، وَلا يَفْتُر عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْء، فَقَال: **«مَا هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيل؟»**. قَال: هَؤُلاءِ الَّذِينَ تَتَثَاقَل رُءُوسهمْ عَنْ الصَّلاة المَكْتُوبَة. ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْم عَلَى أَقْبَالهمْ رِقَاع، وَعَلى أَدْبَارهمْ رِقَاع، يَسْرَحُونَ كَمَا تَسْرَح الإِبِل وَالنَّعَم، وَيَأْكُلُونَ الضَّرِيع وَالزَّقُّوم وَرَضْف جَهَنَّم وَحِجَارَتهَا، قَال: **«فَمَا هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيل؟»**. قَال: هَؤُلاءِ الَّذِينَ لا يُؤَدُّون صَدَقَات أَمْوَالهمْ، وَمَا ظَلَمَهُمْ الله تَعَالى شَيْئًا، وَمَا الله بِظَلَّام للعَبِيد. ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْم بَيْن أَيْدِيهِمْ لحْم نَضِيج فِي قِدْر، وَلحْم آخر نِيء، قذر خَبِيث، فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ النِّيء الخَبِيث، وَيَدَعُونَ النَّضِيج الطَّيِّب، فَقَال: **«مَا هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيل؟»** فَقَال: هَذَا الرَّجُل مِنْ أُمَّتك تَكُون عِنْده المَرْأَة الحَلال الطَّيِّب، فَيَأْتِي امْرَأَة خَبِيثَة فَيَبِيت عِنْدهَا حَتَّى يُصْبِح، وَالمَرْأَة تَقُوم مِنْ عِنْد زَوْجهَا حَلالًا طَيِّبًا، فَتَأْتِي رَجُلًا خَبِيثًا فَتَبِيت مَعَهُ حَتَّى تُصْبِح. قَال: ثُمَّ أَتَى عَلَى خَشَبَة عَلى الطَّرِيق، لا يَمُرّ بِهَا ثَوْب إِلَّا شَقَّتْهُ، وَلا شَيْء إِلَّا خَرَقَتْهُ، قَال: **«مَا هَذَا يَا جِبْرِيل؟»** قَال: هَذَا مَثَل أَقْوَام مِنْ أُمَّتك يَقْعُدُونَ عَلى الطَّرِيق فَيَقْطَعُونَهُ، ثُمَّ تَلا: ﴿**وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ**﴾ الآيَة.

قَال: ثُمَّ أَتَى عَلَى رَجُل قَدْ جَمَعَ حُزْمَة عَظِيمَة، لا يَسْتَطِيع حَمْلهَا وَهُوَ يَزِيد عَلَيْهَا، فَقَال: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيل؟» قَال: هَذَا الرَّجُل مِنْ أُمَّتك، يَكُون عَلَيْهِ أَمَانَات النَّاس، لا يَقْدِر عَلى أَدَائِهَا، وَهُوَ يُرِيد أَنْ يَحْمِل عَلَيْهَا. ثُمَّ أَتَى عَلى قَوْم تُقْرَض أَلسِنَتهمْ وَشِفَاههمْ بِمَقَارِيض مِنْ حَدِيد، كُلَّمَا قُرِضَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ، لا يَفْتُر عَنْهُمْ مِنْ ذَلكَ شَيْء، فَقَال: «مَا هؤلاء يَا جِبْرِيل؟». فَقَال: هَؤُلاءِ خُطَبَاء الفِتْنَة. ثُمَّ أَتَى عَلى حَجَر صَغِير، يَخْرُج مِنْهُ ثَوْر عَظِيم، فَجَعَل الثَّوْر يُرِيد أَنْ يَرْجِع مِنْ حَيْثُ خَرَجَ فَلا يَسْتَطِيع، فَقَال: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيل؟». فَقَال: هَذَا الرَّجُل يَتَكَلَّم بالكلمة العَظِيمَة، ثُمَّ يَنْدَم عَلَيْهَا فَلا يَسْتَطِيع أَنْ يَرُدّهَا. ثُمَّ أَتَى عَلى وَادٍ فَوَجَدَ رِيحًا طَيِّبَة بَارِدَة وَرِيح مِسْك، وَسَمِعَ صَوْتًا، فَقَال: «يَا جِبْرِيل مَا هَذِهِ الرِّيح الطَّيِّبَة البَارِدَة؟ وَمَا هَذَا المِسْك؟ وَمَا هَذَا الصَّوْت؟». قَال: هَذَا صَوْت الجَنَّة تَقُول: يَا رَبّ ائْتِنِي ما وَعَدْتنِي، فَقَدْ كَثُرَتْ غُرَفِي وَإِسْتَبْرَقِي وَحَرِيرِي وَسُنْدُسِي، وَعَبْقَرِيِّي وَلُؤْلُؤِي وَمَرْجَانِي، وَفِضَّتِي وَذَهَبِي وَأَكْوَابِي وَصِحَافِي وَأَبَارِيقِي ومراكبي وَعَسَلي وَمَائِي وَلَبَنِي وَخَمْرِي، فَائْتِنِي

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٦١٣).

ما وَعَدْتنِي، فَقَال: لك كُلّ مُسْلم وَمُسْلمَة، وَمُؤْمِن وَمُؤْمِنَة، وَمَنْ آمَنَ بِي وَبِرُسُلي وَعَمِل صَالحًا، وَلمْ يُشْرِك بِي، وَلمْ يَتَّخِذ مِنْ دُونِي أَنْدَادًا، وَمَنْ خَشِيَنِي فَهُوَ آمِن وَمَنْ سَأَلنِي أَعْطَيْته، وَمَنْ أَقْرَضَنِي جَزَيْته، وَمَنْ تَوَكَّل عَلَيَّ كَفَيْته، إِنِّي أَنَا الله لا إِله إِلَّا أَنَا لا أَخْلُف المِيعَاد؛ وَقَدْ أَفْلحَ المُؤْمِنُونَ وَتَبَارَكَ الله أَحْسَن الخَالقِينَ، قَالتْ: قَدْ رَضِيت. قَال: ثُمَّ أَتَى عَلى وَادٍ فَسَمِعَ صَوْتًا مُنْكَرًا، وَوَجَدَ رِيحًا منتنة، فَقَال: «مَا هَذِهِ الرِّيح يَا جِبْرِيل؟ وَمَا هَذَا الصَّوْت؟» فَقَال: هَذَا صَوْت جَهَنَّم تَقُول: يَا رَبّ، ائْتِنِي ما وَعَدْتنِي فَقَدْ كَثُرَتْ سَلاسِلي وَأَغْلالي، وَسَعِيرِي وَحَمِيمِي؛ وَضَرِيعِي وَغَسَّاقِي وَعَذَابِي، وَقَدْ بَعُدَ قَعْرِي وَاشْتَدَّ حَرِّي، فَائْتِنِي كل ما وَعَدْتنِي. قَال: لك كُلّ مُشْرِك وَمُشْرِكَة، وَكَافِر وَكَافِرَة، وَكُلّ خَبِيث وَخَبِيثَة، وَكُلّ جَبَّار لا يُؤْمِن بِيَوْم الحِسَاب. قَالتْ: قَدْ رَضِيت. قَال: ثُمَّ سَارَ حَتَّى أَتَى بَيْت المَقْدِس، فَنَزَل فَرَبَطَ فَرَسه إِلى صَخْرَة، ثُمَّ دَخل فَصَلَّى مَعَ المَلائِكَة، فَلمَّا قُضِيَتْ الصَّلاة قَالُوا: يَا جِبْرِيل، مَنْ هَذَا مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد ﷺ. قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِل إِليْهِ؟ قَال: نَعَمْ. قَالُوا: حَيَّاهُ الله مِنْ أَخ وَمِنْ خَليفَة، فَنِعْمَ الأَخ، وَنِعْمَ الخَليفَة، وَنِعْمَ المَجِيء جَاءَ.

قَال: ثُمَّ لقِيَ أَرْوَاح الأَنْبِيَاء، فَأَثْنَوْا على رَبِّهِمْ، فَقَال إِبْرَاهِيم عليه السلام: الحَمْد لله الَّذِي اتَّخَذَنِي خليلًا، وَأَعْطَانِي مُلكًا عَظِيمًا، وَجَعَلنِي أُمَّة قَانِتًا يُؤْتَمّ بِي، وَأَنْقَذَنِي مِنْ النَّار وَجَعَلهَا عَليَّ بَرْدًا وَسَلامًا! ثُمَّ إِنَّ مُوسَى عليه السلام أَثْنَى عَلى رَبّه فَقَال: الحَمْد لله الَّذِي كَلَّمَنِي تَكْليمًا، وَجَعَل هَلاك آل فِرْعَوْن وَنَجَاة بَنِي إِسْرَائِيل عَلى يَدَيَّ، وَجَعَل مِنْ أُمَّتِي قَوْمًا يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ! ثُمَّ إِنَّ دَاوُد ؛ أَثْنَى عَلى رَبّه فَقَال: الحَمْد للهَّ الَّذِي جَعَل لي مُلكًا عَظِيمًا، وَعَلَّمَنِي الزَّبُور، وَأَلانَ لِيَ الحَدِيد، وَسَخَّرَ لِيَ الجِبَال يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْر، وَأَعْطَانِي الحِكْمَة وَفَصْل الخِطَاب. ثُمَّ إِنَّ سُليْمان عليه السلام أَثْنَى عَلى رَبّه فَقَال: الحَمْد لله الَّذِي سَخَّرَ لي الرِّيَاح، وَسَخَّرَ لي الشَّيَاطِين، يَعْمَلُونَ لي مَا شِئْت مِنْ مَحَارِيب وَتَمَاثِيل وَجِفَان كَالجَوَاب وَقُدُور رَاسِيَات وَعَلَّمَنِي مَنْطِق الطَّيْر وَآتَانِي مِنْ كُلّ شَيْء فَضْلًا وَسَخَّرَ لِي جُنُود الشَّيَاطِين وَالإِنْس وَالطَّيْر، وَفَضَّلنِي عَلى كَثِير مِنْ عِبَاده المُؤْمِنِينَ، وَآتَانِي مُلكًا عَظِيمًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، وَجَعَل مُلكِي مُلكًا طَيِّبًا ليْسَ فِيهِ حِسَاب! ثُمَّ إِنَّ عِيسَى عليه السلام أَثْنَى عَلى رَبّه عَزَّ وَجَلَّ فَقَال: الحَمْد لله الَّذِي جَعَلنِي كَلمَته، وَجَعَل مَثَلِي مَثَل آدَم، خَلقَهُ مِنْ تُرَاب ثُمَّ قَال لهُ «كُنْ» فَيَكُون، وَعَلَّمَنِي الكِتَاب وَالحِكْمَة وَالتَّوْرَاة وَالإِنْجِيل، وَجَعَلنِي أَخْلُق مِنْ الطِّين كَهَيْئَةِ الطَّيْر، فَأَنْفُخ فِيهِ فَيَكُون طَيْرًا بِإِذْنِ الله، وَجَعَلنِي أُبْرِئ الأَكْمَه وَالأَبْرَص، وَأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ الله، وَرَفَعَنِي وَطَهَّرَنِي، وَأَعَاذَنِي وَأُمِّي مِنْ الشَّيْطَان الرَّجِيم، فَلمْ يَكُنْ للشَّيْطَانِ عَليْنَا سَبِيل. قَال: ثُمَّ إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَثْنَى عَلى رَبّه عَزَّ وَجَلَّ فَقَال: «وكُلّكُمْ أَثْنَى عَلى رَبّه، وَإِنِّي مُثْنٍ عَلى رَبِّي فَقَال: الحَمْد للهَّ الَّذِي أَرْسَلنِي رَحْمَة للعَالمِينَ، وَكَافَّة للنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَأَنْزَل عَليَّ الفُرْقَان، فِيهِ بَيَان لكُلّ شَيْء، وَجَعَل أُمَّتِي خَيْر أُمَّة أُخْرِجَتْ للنَّاسِ، وَجَعَل أُمَّتِي أُمَّة وَسَطًا، وَجَعَل أُمَّتِي هُمْ الأَوَّلِينَ وَهُمْ الآخِرِينَ، وَشَرَحَ لي صَدْرِي، وَوَضَعَ عَنِّي وِزْرِي، وَرَفَعَ لي ذِكْرِي، وَجَعَلنِي فَاتِحًا وَخَاتِمًا». فَقَال إِبْرَاهِيم ؛: بِهَذَا فَضَلكُمْ مُحَمَّد ﷺ.

قَال أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ: خَاتَم النبوة فَاتِح بِالشَّفَاعَةِ يَوْم القِيَامَة. ثُمَّ أُتِيَ بِآنِيَةٍ ثَلاثَة مُغَطَّاة أَفْوَاههَا؛ فَأُتِيَ بِإِنَاءٍ مِنْهَا فِيهِ مَاء، فَقِيل: اشْرَبْ، فَشَرِبَ مِنْهُ يَسِيرًا، ثُمَّ دُفِعَ إِليْهِ إِنَاء آخر فِيهِ لبَن، فَقِيل لهُ: اشْرَبْ فَشَرِبَ مِنْهُ حَتَّى رُوِيَ، ثُمَّ دُفِعَ إِليْهِ إِنَاء آخَر فِيهِ خَمْر فَقِيل لهُ: اشْرَبْ فَقَال: لا أُرِيدهُ قَدْ رُوِيت، فَقَال لهُ جِبْرِيل: أَمَا إِنَّهَا سَتُحَرَّمُ عَلى أُمَّتك، وَلوْ شَرِبْت مِنْهَا لمْ يَتَّبِعك مِنْ أُمَّتك إِلَّا القَليل. قَال: ثُمَّ صَعِدَ بِهِ إِلى السَّمَاء فَاسْتَفْتَحَ فَقِيل: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيل؟ فَقَال: مُحَمَّد، قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِل إِليْهِ؟ قَال: نَعَمْ، قَالُوا: حَيَّاهُ الله مِنْ أَخ وَمِنْ خَليفَة، فَنِعْمَ الأَخ وَنِعْمَ الخَليفَة، وَنِعْمَ المَجِيء جَاءَ، فَفُتِحَ لهُمَا فَدَخَل، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ تَامّ الخَلق، لمْ يَنْقُص مِنْ خَلقه شَيْء، كَمَا يَنْقُص مِنْ خَلق النَّاس، عَنْ يَمِينه بَاب يَخْرُج مِنْهُ رِيح طَيِّبَة، وَعَنْ شِمَاله بَاب يَخْرُج مِنْهُ رِيح خَبِيثَة، إذا نَظَرَ إِلى البَاب الَّذِي

عَنْ يَمِينه ضَحِكَ وَاسْتَبْشَرَ، وَإِذَا نَظَرَ إِلى البَاب الَّذِي عَنْ شِمَاله بَكَى وَحَزِنَ. فَقُلت: يَا جِبْرِيل، مَنْ هَذَا الشَّيْخ التَّامّ الخَلق، الَّذِي لمْ يَنْقُص مِنْ خلقه شَيْء؟ وَمَا هَذَانِ البَابَانِ؟ فَقَال: هَذَا أَبُوك آدَم، وَهَذَا البَاب الَّذِي عَنْ يَمِينه بَاب الجَنَّة، إذا نَظَرَ إِلى مَنْ يدخله مِنْ ذُرِّيَّته ضَحِكَ وَاسْتَبْشَرَ، وَالبَاب الَّذِي عَنْ شِمَاله بَاب جَهَنَّم، إِذَا نَظَر إِلى مَنْ يدخله مِنْ ذُرِّيَّته بَكَى وَحَزِنَ.ثُمَّ صَعِدَ بِهِ جِبْرِيل إِلى السَّماء الثَّانِيَة، فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيل: مَنْ هَذَا مَعَك؟ فَقَال: مُحَمَّد رَسُول الله، قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِل محمد؟ قَال: نَعَمْ. قَالُوا: حَيَّاهُ الله مِنْ أَخ وَمِنْ خليفَة! فَنِعْمَ الأَخ، وَنِعْمَ الخَلِيفَة! وَنِعْمَ المَجِيء جَاءَ! قَال: فَدخل فَإِذَا هُوَ بِشَابَّيْنِ، فَقَال: يَا جِبْرِيل، مَنْ هَذَانِ الشَّابَّانِ؟ قَال: هَذَا عِيسَى ابْن مَرْيَم، وَيَحْيَى بْن زَكَرِيَّا ابْنَا الخَالة عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

قَال: فَصَعِدَ بِهِ إِلى السَّماء الثَّالثَة، فَاسْتَفْتَح، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ قَال: جِبْرِيل، قَالُوا: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد، قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِل؟ قَال: نَعَمْ، قَالُوا: حَيَّاهُ الله مِنْ أَخ وَمِنْ خليفَة! فَنِعْمَ الأَخ، وَنِعْمَ الخَلِيفَة! وَنِعْمَ المَجِيء جَاءَ! قَال: فَدخل فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ فُضِّل عَلى النَّاس فِي الحُسْن كَما فُضِّل القَمَر لَيْلة البَدْر عَلى سَائِر الكَوَاكِب، قَال: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيل الَّذِي قَدْ فُضِّل عَلى النَّاس فِي الحُسْن؟ قَال: هَذَا أَخُوك يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قَال: ثُمَّ صَعِدَ بِهِ إِلى السَّماء الرَّابِعَة، فَاسْتَفْتَح فقالوا: مَنْ هَذَا؟ قَال: جِبْرِيل، قَالُوا: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد، قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِل إِلَيْهِ؟ قَال: نَعَمْ، قَالُوا: حَيَّاهُ الله مِنْ أَخ وَمِنْ خليفَة! فَنِعْمَ الأَخ، وَنِعْمَ الخَلِيفَة! وَنِعْمَ المَجِيء جَاءَ! قَال: فَدَخل فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ، قَال: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيل؟ قَال: هَذَا إِدْرِيس عَلَيْهِ السَّلَامُ رَفَعَهُ الله مَكَانًا عَلِيًّا.

ثُمَّ صَعِدَ بِهِ إِلى السَّماء الخَامِسَة، فَاسْتَفْتَح، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ قَال: جِبْرِيل. قَالُوا: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِل إِلَيْهِ؟ قَال: نَعَمْ. قَالُوا: حَيَّاهُ الله مِنْ أَخ وَمِنْ خليفَة! فَنِعْمَ الأَخ وَنِعْمَ الخَلِيفَة وَنِعْمَ المَجِيء جَاءَ! قَال: فَدَخل فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ جَالس، وَحَوْله قَوْم يَقُصّ عَلَيْهِمْ، قَال: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيل؟ وَمَنْ هَؤُلَاءِ حَوْله؟ قَال: هَذَا هَارُون المُحَبَّب فِي قومه، وَهَؤُلَاءِ بَنُو إِسْرَائِيل.

ثُمَّ صَعِدَ بِهِ إِلى السَّماء السَّادِسَة، فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيل: مَنْ هَذَا؟ قَال: جِبْرِيل. قَالُوا: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد. قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِل إِلَيْهِ؟ قَال: نَعَمْ. قَالُوا: حَيَّاهُ الله مِنْ أَخ وَمِنْ خليفَة! فَنِعْمَ الأَخ، وَنِعْمَ الخَلِيفَة! وَنِعْمَ المَجِيء جَاءَ! فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ جَالس، فَجَاوَزَهُ فَبَكَى الرَّجُل، فَقَال: يَا جِبْرِيل! مَنْ هَذَا؟ قَال: مُوسَى. قَال: فَمَا بَاله يَبْكِي؟ قَال: زعم بَنُو إِسْرَائِيل أَنِّي أَكْرَم بَنِي آدَم عَلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا رَجُل مِنْ بَنِي آدَم قَدْ خَلفَنِي فِي دُنْيَا وَأَنَا فِي أُخْرَى، فَلوْ أَنَّهُ بِنَفْسِهِ لمْ أُبَال، وَلكِنْ مَعَ كُلّ نَبِيّ أُمَّته.

قَال: ثُمَّ صَعِدَ بِهِ إِلى السَّماء السَّابِعَة، فَاسْتَفْتَح، فَقِيل له: مَنْ هَذَا؟ قَال: جِبْرِيل. قِالوا: وَمَنْ مَعَك؟ قَال: مُحَمَّد، قَالُوا: أَوَقَدْ أُرْسِل إِلَيْهِ؟ قَال: نَعَمْ، قَالُوا: حَيَّاهُ الله مِنْ أَخ وَمِنْ خليفَة! فَنِعْمَ الأَخ، وَنِعْمَ الخَلِيفَة، وَنِعْمَ المَجِيء جَاءَ، قَال: فَدَخل فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ أَشْمَط جَالس عِنْد بَاب الجَنَّة عَلى كُرْسِيّ، وَعِنْده قَوْم جُلُوس، بِيض الوُجُوه، أَمْثَال القَرَاطِيس، وَقَوْم فِي أَلْوَانهمْ شَيْء، فَقَامَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي أَلْوَانهمْ شَيْء، فَدَخلُوا نَهَرًا، فَاغْتَسلُوا فِيهِ، فَخَرَجُوا وَقَدْ خَلص مِنْ أَلْوَانهمْ شَيْء، ثُمَّ دَخلُوا نَهَرًا آخر، فَاغْتَسلُوا فِيهِ، فَخرَجُوا وَقَدْ خلص مِنْ أَلْوَانهمْ شَيْء، ثُمَّ دَخلُوا نَهَرًا آخر فَاغْتَسلُوا فِيهِ، فَخَرَجُوا وَقَدْ خلصَتْ أَلْوَانهمْ، فَصَارَتْ مِثْل أَلْوَان أَصْحَابهمْ، فَجَاءُوا فَجَلسُوا إِلى أَصْحَابهمْ، فَقَال: يَا جِبْرِيل! مَنْ هَذَا الأَشْمَط؟ ثُمَّ مَنْ هَؤُلَاءِ البِيض الوُجُوه؟ وَمَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي أَلْوَانهمْ شَيْء؟ وَمَا هَذِهِ الأَنْهَار الَّتِي دَخلُوا فِيهَا فَجَاءُوا وَقَدْ صَفَتْ أَلْوَانهمْ؟ قَال: هَذَا أَبُوك إِبْرَاهِيم أَوَّل مَنْ شَمِطَ عَلى الأَرْض، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ البِيض الوُجُوه، فَقَوْم لمْ يُلبِسُوا إِيمَانهمْ بِظُلْمٍ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي أَلْوَانهمْ

شَيْء؛ فَقَوْم خَلطُوا عَمَلًا صَالحًا وَآخر سَيِّئًا، فَتَابُوا فَتَابَ الله عَلَيْهِمْ، وَأَمَّا الأَنْهَار؛ فَأَوَّلهَا: رَحْمَة الله. وَالثَّانِي: نِعْمَة الله. وَالثَّالث: سَقَاهُمْ رَبّهمْ شَرَابًا طَهُورًا.

قَال: ثُمَّ انْتَهَى إِلى السِّدْرَة، فَقِيل لهُ: هَذِهِ السِّدْرَة يَنْتَهِي إِلَيْهَا كُلّ أَحَد خَلا مِنْ أُمَّتك عَلى سُنَّتك، فَإِذَا هِيَ شَجَرَة يَخْرُج مِنْ أَصْلهَا أَنْهَار مِنْ مَاء غَيْر آسِن، وَأَنْهَار مِنْ لبَن لمْ يَتَغَيَّر طَعْمه، وَأَنْهَار مِنْ خَمْر لذَّة للشَّارِبِينَ، وَأَنْهَار مِنْ عَسَل مُصَفًّى، وَهِيَ شَجَرَة يَسِير الرَّاكِب فِي ظِلّهَا سَبْعِينَ عَامًا لا يَقْطَعهَا، وَالوَرَقَة مِنْهَا فعطية كُلّهَا، قَال: فَغَشِيَهَا نُور الخَلَّاق عَزَّ وَجَلَّ، وَغَشِيَتْهَا المَلائِكَة أَمْثَال الغِرْبَان حِين يَقَعْنَ عَلى الشَّجَرَة، للأمة قال: فَكَلَّمَهُ الله عِنْد ذَلكَ، فَقَال لهُ: سَل. قَال: إِنَّك اتَّخَذْت إِبْرَاهِيم خليلًا، وَأَعْطَيْته مُلكًا عَظِيمًا، وَكَلَّمْت مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَعْطَيْت دَاوُد مُلكًا عَظِيمًا، وَأَلَنْت لهُ الحَدِيد، وَسَخَّرْت لهُ الجِبَال، وَأَعْطَيْت سُليمَان مُلكًا، وَسَخَّرْت لهُ الجِنّ وَالإِنْس وَالشَّيَاطِين، وَسَخَّرْت لهُ الرِّيَاح، وأعطيته مُلكًا عظيمًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْده وَعَلَّمْت عِيسَى التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل، وَجَعَلته يُبْرِئ الأَكْمَه وَالأَبْرَص، وَيُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِك، وَأَعَذْته وَأُمّه مِنْ الشَّيْطَان الرَّجِيم، فَلمْ يَكُنْ للشَّيْطَانِ عَليْهِمَا سَبِيل. فَقَال لهُ ربه عَزَّ وَجَلَّ: وَقَدْ اتَّخَذْتُك خليلًا. وَهُوَ مَكْتُوب فِي التَّوْرَاة: حَبِيب الرَّحْمَن، وَأَرْسَلتُك إِلى النَّاس كَافَّة بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَشَرَحْت لك صَدْرك، وَوَضَعْت عَنْك وِزْرك، وَرَفَعْت لك ذِكْرك، فَلا أُذْكَر إِلَّا ذُكِرْت مَعِي، وَجَعَلت أُمَّتك خَيْر أُمَّة أُخْرِجَتْ للنَّاسِ، وَجَعَلت أُمَّتك أُمَّة وَسَطًا، وَجَعَلت أُمَّتك هُمْ الأَوَّلِينَ وَهُمْ الآخِرِينَ، وَجَعَلت أُمَّتك لا تَجُوز لهُمْ خُطْبَة حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّك عَبْدِي وَرَسُولِي، وَجَعَلت مِنْ أُمَّتك أَقْوَامًا قُلُوبهمْ أَنَاجِيلهمْ، وَجَعَلتُك أَوَّل النَّبِيِّينَ خلقًا، وَآخِرهمْ بَعْثًا وَأَوَّلهمْ يُقْضَى لهُ، وَأَعْطَيْتُك سَبْعًا مِنْ المَثَانِي لمْ يُعْطَهَا نَبِيّ قَبْلك، وَأَعْطَيْتُك خَوَاتِيم سُورَة البَقَرَة مِنْ كَنْز تَحْت العَرْش لمْ أُعْطِهَا نَبِيًّا قَبْلك، وَأَعْطَيْتُك الكَوْثَر، وَأَعْطَيْتُك ثَمَانِيَة أَسْهُم: الإِسْلام، وَالهِجْرَة، وَالجِهَاد، وَالصَّدَقَة، وَالصَّلاة، وَصَوْم رَمَضَان، وَالأَمْر بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْي عَنْ المُنْكَر. وَجَعَلتُك فَاتِحًا وخَاتِمًا، فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «فَضَّلنِي رَبِّي بِسِتٍّ: أَعْطَانِي فَوَاتِح الكَلام وَخَوَاتِيمه، وَجَوَامِع الحَدِيث، وَأَرْسَلنِي إِلى النَّاس كَافَّة بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَقَذَفَ فِي قُلُوب عدوي الرُّعْب مِنْ مَسِيرَة شَهْر، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِم وَلمْ تَحِلّ لأَحَدٍ قَبْلي، وَجُعِلتْ لِيَ الأَرْض كُلّهَا طَهُورًا وَمَسْجِدًا».

قَال: وَفَرَضَ عَليْهِ خَمْسِينَ صَلاة، فَلمَّا رَجَعَ إِلى مُوسَى قَال: بِمَ أُمِرْت يَا مُحَمَّد؟ قَال: بِخَمْسِينَ صَلاة، قَال: ارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف؛ فَإِنَّ أُمَّتك أَضْعَف الأُمَم، فَقَدْ لقِيت مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل شِدَّة، قَال: فَرَجَعَ النَّبِيّ ﷺ إِلى رَبّه عَزَّ وَجَلَّ فَسَأَلهُ التَّخْفِيف، فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرًا، ثُمَّ رَجَعَ إِلى مُوسَى فَقَال: بِكَمْ أُمِرْت؟ قَال: بِأَرْبَعِينَ، قَال: ارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف؛ فَإِنَّ أُمَّتك أَضْعَف الأُمَم، وَقَدْ لقِيت مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل شِدَّة، قَال: فَرَجَعَ النَّبِيّ ﷺ إِلى رَبّه فَسَأَلهُ التَّخْفِيف فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرًا، فَرَجَعَ إِلى مُوسَى فَقَال: بِكَمْ أُمِرْت؟ قَال: أُمِرْت بِثَلاثِينَ، فَقَال لهُ مُوسَى: ارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف؛ فَإِنَّ أُمَّتك أَضْعَف الأُمَم، وَقَدْ لقِيت مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل شِدَّة؛ قَال: فَرَجَعَ إِلى رَبّه فَسَأَلهُ التَّخْفِيف، فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرًا، فَرَجَعَ إِلى مُوسَى ؛ فَقَال: بِكَمْ أُمِرْت؟ قَال: بعشر ؛ قَال: ارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف؛ فَإِنَّ أُمَّتك أَضْعَف الأُمَم، وَقَدْ لقِيت مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل شِدَّة، قَال: فَرَجَعَ إِلى رَبّه ﷻ، فَسَأَلهُ التَّخْفِيف، فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرًا، فَرَجَعَ إِلى مُوسَى فَقَال: بِكَمْ أُمِرْت؟ قَال: أمرت بعشرين؛ قَال: ارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف؛ فَإِنَّ أُمَّتك أَضْعَف الأُمَم، وَقَدْ لقِيت مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل شِدَّة، قَال فَرَجَعَ عَلى حَيَاء إِلى رَبّه، فَسَأَلهُ، التَّخْفِيف فَوَضَعَ عَنْهُ خَمْسًا، فَرَجَعَ إِلى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَال: بِكَمْ أُمِرْت؟ قَال: بِخَمْسٍ، قَال: ارْجِعْ إِلى رَبّك فَاسْأَلهُ التَّخْفِيف؛ فَإِنَّ أُمَّتك أَضْعَف الأُمَم، وَقَدْ لقِيت مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل شِدَّة، قَال: قَدْ

رَجَعْت إِلى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْت، فَمَا أَنَا رَاجِع إِلَيْهِ؛ قِيل: أَمَا إِنَّك كَمَا صَبَرْت نَفْسك عَلى خَمْس صَلَوَات؛ فَإِنَّهُمْ يَجْزِينَ عَنْك خَمْسِينَ صَلاة؛ فَإِنَّ كُلّ حَسَنَة بِعَشْرِ أَمْثَالهَا، قَال: فَرَضِيَ مُحَمَّد ﷺ كُلّ الرِّضَا؛ قَال: وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَشَدّهمْ عَلَيْهِ حِين مَرَّ بِهِ، وَخَيْرهمْ لهُ حِين رَجَعَ إِلَيْهِ.[1] ثُمَّ رَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ مُحَمَّد بْن عُبَيْد الله، عَنْ أَبِي النَّضْر هَاشِم بْن القَاسِم، عَنْ أَبى جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ أَبِي العَالِيَة أَوْ غَيْره -شَكَّ أَبُو جَعْفَر- عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فَذَكَرَهُ بِمَعْنَاهُ، وَقَدْ رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِي، عَنْ أَبِي سَعِيد المَالِينِيّ، عَنْ ابْن عَدِيّ، عَنْ مُحَمَّد بْن الحَسَن السَّكُونِيّ البَالسِيّ بِالرَّمْلَةِ، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن سَهْل، فَذَكَرَ مِثْل مَا رَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْهُ. وَذَكَرَ البَيْهَقِيّ أَنَّ الحَاكِم أَبَا عَبْد الله رَوَاهُ عَنْ إِسْمَاعِيل بْن مُحَمَّد بْن الفَضْل بْن مُحَمَّد الشَّعْرَانِيّ، عَنْ جَدّه عَنْ إِبْرَاهِيم بْن حَمْزَة الزُّبَيْرِيّ، عَنْ حَاتِم بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنِي عِيسَى بْن مَاهَان -يَعْنِي أَبَا جَعْفَر الرَّازِيّ- عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ أَبِي العَالِيَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ فَذَكَرَهُ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذَكَرَ أَبُو زُرْعَة: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن نُمَيْر، حَدَّثَنَا يُونُس بْن بُكَيْر، حَدَّثَنَا عِيسَى ابْن عَبْد الله التميمي عَنْ أَبِي جَعْفَر الرَّازِيّ عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس البَكْرِيّ، عَنْ أَبِي العَالِيَة أَوْ غَيْره -شَكَّ عِيسَى- عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، أن رسول الله ﷺ قَال فِي قَوْله تَعَالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فَذَكَرَ الحَدِيث بِطُولِهِ كَنَحْوٍ مِمَّا سُقْنَاهُ.

قُلت: أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ قَال فِيهِ الحَافِظ أَبُو زُرْعَة الرَّازِيّ: يَهِم فِي الحَدِيث كَثِيرًا، وَقَدْ ضَعَّفَهُ غَيْره أَيْضًا وَوَثَّقَهُ بَعْضهمْ، والأظهر أَنَّهُ سَيِّئ الحِفْظ، فَفِيمَا تَفَرَّدَ بِهِ نَظَر. وَهَذَا الحَدِيث فِي بَعْض أَلْفَاظه غَرَابَة وَنَكَارَة شَدِيدَة، وَفِيهِ شَيْء مِنْ حَدِيث المَنَام مِنْ رِوَايَة سَمُرَة بْن جُنْدُب فِي المَنَام الطَّوِيل عِنْد البُخَارِيّ، وَيُشْبِه أَنْ يَكُون مَجْمُوعًا مِنْ أَحَادِيث شَتَّى، أَوْ مَنَام، أَوْ قِصَّة أُخْرَى غَيْر الإِسْرَاء، وَالله أَعْلَم.

وَقَدْ رَوَى البُخَارِيّ وَمُسْلم فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّزَّاق: أَنْبَأَنَا مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، أَخْبَرَنِي سَعِيد بْن المُسَيِّب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ حِين أُسْرِيَ بِهِ: «**لَقِيت مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَال: فَنَعَتَهُ فَإِذَا رَجُل حَسِبْته قَال: مُضْطَرِب، رَجِل الرَّأْس كَأَنَّهُ مِنْ رِجَال شَنُوءَة. قَال: وَلَقِيت عِيسَى، فَنَعَتَهُ النَّبِيّ ﷺ: رَبْعَة أَحْمَر كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاس -يَعْنِي: حَمَّامًا- قَال: وَلَقِيت إِبْرَاهِيم وَأَنَا أَشْبَه وَلَده بِهِ، قَال: وَأُتِيت بِإِنَاءَيْنِ، فِي أَحَدهمَا لبَن وَفِي الآخَر خَمْر، قِيل لي: خُذْ أَيّهمَا شِئْت؟ فَأَخَذْت اللَّبَن فَشَرِبْت، فَقِيل لي: هُدِيت الفِطْرَة -أَوْ أَصَبْت الفِطْرَة- أَمَا إِنَّك لوْ أَخَذْت الخَمْر غَوَتْ أُمَّتك**».[2] وَأَخْرَجَاهُ مِنْ وَجْه آخر عَنْ الزُّهْرِيّ بِهِ نَحْوه.

وَفِي «صَحِيح مُسْلم» عَنْ مُحَمَّد بْن رَافِع عَنْ حجين بْن المُثَنَّى، عَنْ عَبْد العَزِيز بْن أَبِي سَلمَة، عَنْ عَبْد الله ابْن الفَضْل الهَاشِمِيّ، عَنْ أَبِي سَلمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**لقَدْ رَأَيْتنِي فِي الحجْر، وَقُرَيْش تَسْأَلنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلُونِي عَنْ أَشْيَاء مِنْ بَيْت المَقْدِس لمْ أُثْبِتهَا، فَكُرِبْت كَرْبًا مَا كُرِبْت مِثْله قَطُّ، فَرَفَعَهُ الله لي أَنْظُر إِليْهِ، مَا سَأَلُونِي عَنْ شَيْء إِلَّا أَنْبَأْتهمْ بِهِ، وَقَدْ رَأَيْتنِي فِي جَمَاعَة مِنْ الأَنْبِيَاء، وإِذا مُوسَى قَائِم يُصَلِّي، وَإِذَا هُوَ رَجُل ضرب جَعْد كَأَنَّهُ مِنْ رِجَال شَنُوءَة، وَإِذَا عِيسَى ابْن مَرْيَم قَائِم يُصَلِّي، أَقْرَب النَّاس شَبَهًا بِهِ عُرْوَة بْن مَسْعُود الثَّقَفِيّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيم قَائِم يُصَلِّي أَقْرَب النَّاس شَبَهًا بِهِ صَاحِبكُمْ**

---

(١) ضعيف : أخرجه ابن جرير (١٥/ ٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٩٧)، وفيه أبو جعفر الرازي: صدوق سيئ الحفظ.
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم (٢٤٥).

-يَعْنِي: نَفْسه-، فَحَانَتْ الصَّلاة فَأَمَمْتهمْ، فلمَّا فَرَغْت قَال قَائِل: يَا مُحَمَّد؛ هَذَا مَالك صاحب النار، فسلِّم عليه، فَالتَفَتّ إِليْهِ، فَبَدَأَنِي بِالسَّلامِ».[1]

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن مِنْهَال، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ عَليّ بْن زَيْد، عَنْ أَبِي الصَّلت، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «رَأَيت لَيْلة أُسْرِيَ بِي لَمَّا انتهينا إِلى السَّمَاء السَّابِعَة فَنظَرْت فَوْق فَإِذَا رَعْد وَبَرْق وَصَوَاعِق، قَال: وَأَتَيْت عَلى قَوْم بُطُونهمْ كَالبُيُوتِ فِيهَا الحَيَّات تُرَى مِنْ خَارِج بُطُونهمْ، فَقُلت: مَنْ هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيل؟ قَال: هَؤُلاءِ أكلة الرِّبَا، فَلَمَّا نَزَلت إِلى السَّمَاء الدُّنْيَا نَظَرْت أَسْفَل مِنِّي، قَال: فَإِذَا أَنَا بِرَهْج وَدُخَان وَأَصْوَات، فَقُلت: ما هذا يَا جِبْرِيل؟ قَال: هَذِهِ الشَّيَاطِين، يحرفون عَلى أَعْيُن بَنِي آدَم، ألا يتفكروا فِي مَلكُوت السَّمَاوَات وَالأَرْض، وَلوْلا ذَلكَ لرَأَوْا العَجَائِب»[2]. وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد عَنْ حَسَن وَعَفَّان كِلاهُمَا عَنْ حَمَّاد بْن سَلمَة بِهِ. وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث حَمَّاد بِهِ.

رِوَايَة جَمَاعَة مِنْ الصَّحَابَة مِمَّنْ تَقَدَّمَ وَغَيْرهمْ: قَال الحَافِظ البَيْهَقِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْد الله -يَعْنِي: الحَاكِم- حَدَّثَنَا عبدان بْن يَزِيد بْن يَعْقُوب الدَّقَّاق بِهَمَذَانِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن الحُسَيْن الهمذاني، حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّد -هُوَ إِسْمَاعِيل بْن مُوسَى الفَزَارِيّ- حَدَّثَنَا عُمَر بْن سَعْد النصري مِنْ بَنِي نصر بْن قَعِين، حَدَّثَنِي عَبْد العَزِيز، وَليْث ابْن أَبِي سُليْم، وَسُليْمَان الأَعْمَش، وَعَطَاء بْن السَّائِب -بَعْضهمْ يَزِيد فِي الحَدِيث عَلى بَعْض- عَنْ عَليّ بْن أَبِي طَالب، وَعَبْد الله بْن عَبَّاس. وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار، عَمَّنْ حَدَّثَهُ، عَنْ ابْن عَبَّاس. وَعَنْ سُليْم بْن مُسْلم العُقَيْليّ، عَنْ عَامِر الشَّعْبِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود. وَجُوَيْبِر، عَنْ الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم؛ قَالُوا: كَانَ رَسُول الله ﷺ فِي بَيْت أُمّ هَانِئ رَاقِدًا، وَقَدْ صَلَّى العِشَاء الآخِرَة. قَال أَبُو عَبْد الله الحَاكِم: قَال لنَا هَذَا الشَّيْخ... وَذَكَرَ الحَدِيث فكتب المَتْن مِنْ نُسْخَة مَسْمُوعَة مِنْهُ، فَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا يَذْكُر فِيهِ عَدَد الدَّرَج وَالمَلائِكَة وَغَيْر ذَلكَ مِمَّا لا يُنْكَر شَيْء مِنْهَا فِي قُدْرَة الله إِنْ صَحَّتْ الرِّوَايَة.

قَال البَيْهَقِيّ: فِيمَا ذَكَرْنَا قَبْل فِي حَدِيث أَبِي هَارُون العَبْدِيّ فِي إِثْبَات الإِسْرَاء وَالمِعْرَاج كِفَايَة، وبالله التَّوْفِيق.[3]

قُلت: وَقَدْ أَرْسَل هَذَا الحَدِيث غَيْر وَاحِد مِنْ التَّابِعِينَ، وَأَئِمَّة المُفَسِّرِينَ، رَحْمَة الله عَليْهِمْ أَجْمَعِينَ.

رِوَايَة عَائِشَة أُمّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها: قَال البَيْهَقِيّ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْد الله الحَافِظ، أَخْبَرَنِي مُكْرَم بْن أَحْمَد القَاضِي، حدثنا إِبْرَاهِيم بْن الهَيْثَم البلدي، حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن كَثِير الصَّنْعَانِيّ، حَدَّثَنَا مَعْمَر بْن رَاشِد، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالتْ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُول الله ﷺ إِلى المَسْجِد الأَقْصَى أَصْبَحَ يُحَدِّث النَّاس بِذَلكَ، فَارْتَدَّ نَاس مِمَّنْ كَانُوا آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَسَعَوْا بِذَلكَ إِلى أَبِي بَكْر، فَقَالُوا: هَل لك فِي صَاحِبك؟ يَزْعُم أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلة إِلى بَيْت المَقْدِس، فَقَال: أَوَ قَال ذَلكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَال: لئِنْ كَانَ قَال ذَلكَ لقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: فَتُصَدِّقهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلة إِلى بَيْت المَقْدِس وَجَاءَ قَبْل أَنْ يُصْبِح؟ قَال: نَعَمْ، إِنِّي لأُصَدِّقهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَد مِنْ ذَلكَ؛ أُصَدِّقهُ فِي خَبَر السَّمَاء فِي غَدْوَة أَوْ رَوْحَة؛ فَلذَلكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْر: الصِّدِّيق رضي الله عنه.[4]

رِوَايَة أُمّ هَانِئ بِنْت أَبِي طَالب رضي الله عنها: قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن السَّائِب الكَلبِيّ عَنْ أَبِي صَالح بَاذَان عَنْ أُمّ هَانِئ بِنْت أَبِي طَالب فِي مَسْرَى رَسُول الله ﷺ، أَنَّهَا كَانَتْ تَقُول: مَا أُسْرِيَ بِرَسُول الله ﷺ إِلَّا

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٧٢).
(٢) **ضعيف**: تقـدم.
(٣) **ضعيف**: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٠٤)، فيه ليث بن أبي سليم ضعيف.
(٤) **إسناده ضعيف**: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٦٠) بسند ضعيف.

وَهُوَ فِي بَيْتِي نَائِم عِنْدِي تِلكَ اللَّيْلة، فَصَلَّى العِشَاء الآخِرَة، ثُمَّ نَامَ وَنِمْنَا، فَلَمَّا كَانَ قُبَيْل الفَجْر أَهَبَّنَا رَسُول الله ﷺ، فَلَمَّا صَلَّى الصُّبْح وَصَلَّيْنَا مَعَهُ قَال: «يَا أُمّ هَانِئ لَقَدْ صَلَّيْت مَعَكُمْ العِشَاء الآخِرَة كَمَا رَأَيْت بِهَذَا الوَادِي، ثُمَّ جِئْت بَيْت المَقْدِس، فَصَلَّيْت فِيهِ، ثُمَّ صَلَّيْت صَلاة الغَدَاة مَعَكُمْ الآن كَمَا تَرَيْنَ».[١]

الكَلبِيّ: مَتْرُوك بِمَرَّة سَاقِط. لكِنْ رَوَاهُ أَبُو يَعْلى فِي «مُسْنَده» عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل الأَنْصَارِيّ، عَنْ ضَمْرَة بْن رَبِيعَة، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي عَمْرو السَّيْبَانِيّ، عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ أُمّ هَانِئ بِأَبْسَط مِنْ هَذَا السِّيَاق، فَليُكْتَبْ هَاهُنَا.[٢]

وَرَوَى الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ مِنْ حَدِيث عَبْد الأَعْلى بْن أَبِي المُسَاوِر، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ أُمّ هَانِئ قَالتْ: بَاتَ رَسُول الله ﷺ لَيْلة أُسْرِيَ بِهِ فِي بَيْتِي، فَفَقَدْته مِنْ اللَّيْل، فَامْتَنَعَ مِنِّي النَّوْم مَخَافَة أَنْ يَكُون عَرَضَ لهُ بَعْض قُرَيْش، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَانِي، فَأَخَذَ بِيَدِي فَأَخْرَجَنِي، فَإِذَا عَلى البَاب دَابَّة دُون البَغْل وَفَوْق الحِمَار، فَحَمَلنِي عَليْهَا، ثُمَّ انْطَلقَ حَتَّى انتهى بِي إِلى بَيْت المَقْدِس، فَأَرَانِي إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يُشْبِه خلقه خَلقِي، وَيُشْبِه خَلقِي خَلقه، وَأَرَانِي مُوسَى آدَم، طَوِيلًا، سَبْط الشَّعْر، شَبَّهْته بِرِجَال أَزْد شَنُوءَة، وَأَرَانِي عِيسَى ابْن مَرْيَم رَبْعَة، أَبْيَض، يَضْرِب إِلى الحُمْرَة، شَبَّهْته بِعُرْوَة بْن مَسْعُود الثَّقَفِيّ، وَأَرَانِي الدَّجَّال مَمْسُوح العَيْن اليُمْنَى، شَبَّهْته بِقَطَنِ بْن عَبْد العُزَّى -قَال: وَأَنَا أُرِيد أَنْ أَخْرُج إِلى قُرَيْش فَأُخْبِرهُمْ بِمَا رَأَيْت». فَأَخَذْت بِثَوْبِهِ فَقُلت: إِنِّي أُذَكِّرك الله إِنَّك تَأْتِي قَوْمك يُكَذِّبُونَك، وَيُنْكِرُونَ مَقَالتك، فَأَخَاف أَنْ يَسْطُوا بِك، قَالتْ: فَضَرَبَ ثَوْبه مِنْ يَدِي، ثُمَّ خَرَجَ إِليْهِمْ فَأَتَاهُمْ -وَهُمْ جُلُوس- فَأَخْبَرَهُمْ مَا أَخْبَرَنِي، فَقَامَ جُبَيْر بْن مُطْعِم فَقَال: يَا مُحَمَّد لوْ كُنْت شَابًا كَمَا كُنْت؛ مَا تَكَلَّمْت بِمَا تَكَلَّمْت بِهِ وَأَنْتَ بَيْن ظَهْرَانَيْنَا. فَقَال رَجُل مِنْ القَوْم: يَا مُحَمَّد؛ هَل مَرَرْت بِإِبِلٍ لنَا فِي مَكَان كَذَا وَكَذَا؟ قَال: «نَعَمْ، وَالله قَدْ وَجَدْتهمْ قَدْ أَضَلُّوا بَعِيرًا لهُمْ، فَهُمْ فِي طَلبه». قَال: فَهَل مَرَرْت بِإِبِلٍ لبَنِي فُلان؟ قَال: «نَعَمْ، وَجَدْتهمْ فِي مَكَان كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ انْكَسَرَتْ لهُمْ نَاقَة حَمْرَاء، وَعِنْدهمْ قَصْعَة مِنْ مَاء فَشَرِبْت مَا فِيهَا». قَالُوا: فَأَخْبِرْنَا عِدَّتهَا وَمَا فِيهَا مِنْ الرُّعَاة. قَال: قَدْ كُنْت عَنْ عِدَّتهَا مَشْغُولًا فنام فَأُوتِيَ بِالإِبِل، فَعَدَّهَا وَعَلمَ مَا فِيهَا مِنْ الرُّعَاة، ثُمَّ أَتَى قُرَيْشًا فَقَال لهُمْ: «سَأَلتُمُونِي عَنْ إِبِل بَنِي فُلان، فَهِيَ كَذَا وَكَذَا، وَفِيهَا مِنْ الرُّعَاة فُلان وَفُلان، وَسَأَلتُمُونِي عَنْ إِبِل بَنِي فُلان، فَهِيَ كَذَا وَكَذَا، وَفِيهَا مِنْ الرُّعَاة ابْن أَبِي قُحَافَة وَفُلان وَفُلان، وَهِيَ مصبحتكم بِالغَدَاةِ عَلى الثَّنِيَّة». قَال: فَقَعَدُوا عَلى الثَّنِيَّة يَنْظُرُونَ أَصَدَقَهُمْ مَا قَال؟ فَاسْتَقْبَلُوا الإِبِل فَسَأَلُوهُمْ: هَل ضَلَّ لكُمْ بَعِير؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، فَسَأَلُوا الآخَر: هَل انْكَسَرَتْ لكُمْ نَاقَة حَمْرَاء؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالُوا: فَهَل كَانَتْ عِنْدكُمْ قَصْعَة؟ قَال أَبُو بَكْر: أَنَا وَالله وَضَعْتهَا، فَمَا شَرِبَهَا أَحَد، وَلا أَهْرَاقُوهُ فِي الأَرْض. فَصَدَّقَهُ أَبُو بَكْر، وَآمَنَ بِهِ، فَسُمِّيَ يَوْمئِذٍ: الصِّدِّيق.[٣]

فَصْـل: وَإِذَا حَصَل الوُقُوف عَلى مَجْمُوع هَذِهِ الأَحَادِيث صَحِيحهَا وَحَسَنهَا وَضَعِيفهَا، يَحْصل مَضْمُون مَا اتَّفَقَتْ عَليْهِ مِنْ مَسْرَى رَسُول الله ﷺ مِنْ مَكَّة إِلى بَيْت المَقْدِس وَأَنَّهُ مَرَّة وَاحِدَة؛ وَإِنْ اخْتَلفَتْ عِبَارَات الرُّوَاة فِي أَدَائِهِ، أَوْ زَادَ بَعْضهمْ فِيهِ أَوْ نَقَصَ مِنْهُ؛ فَإِنَّ الخَطَأ جَائِز عَلى مَنْ عَدَا الأَنْبِيَاء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَمَنْ جَعَل مِنْ النَّاس كُلّ رِوَايَة خَالفَتْ الأُخْرَى مَرَّة عَلى حِدَة؛ فَأَثْبَتَ إِسْرَاءَات مُتَعَدِّدَة، فَقَدْ أَبْعَدَ وَأَغْرَبَ، وَهَرَبَ إِلى غَيْر مَهْرَب، وَلمْ يَتَحَصَّل عَلى مَطْلب. وَقَدْ صَرَّحَ بَعْضهمْ مِنْ المُتَأَخِّرِينَ بِأَنَّهُ ؛ أُسْرِيَ بِهِ مَرَّة مِنْ مَكَّة إِلى بَيْت المَقْدِس فَقَطْ،

---

(١) إسناده ضعيف جدًا : أخرجه الطبري (١٥/ ٢)، وفي سنده محمد بن السائب الكلبي متروك الحديث، وكذلك ضعف أبي صالح باذان.

(٢) إسناده ضعيف : فيه أيضًا أبو صالح باذان، وهو ضعيف.

(٣) إسناده ضعيف جدًا : أخرجه الطبراني (٢٤/ ١٠٩٥) بسند ضعيف جدًا، فيه عبد الأعلى بن أبي المساور متروك الحديث.

وَمَرَّة مِنْ مَكَّة إِلى السَّماء فقطْ، وَمَرَّة إِلى بَيْت المَقْدِس وَمِنْهُ إِلى السَّماء، وَفَرِحَ بِهَذَا المَسْلك، وَأَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ بِشَيْءٍ يَخْلُص بِهِ مِنْ الإِشْكَالات، وَهَذَا بَعِيد جِدًّا، وَلَمْ يُنْقَل هَذَا عَنْ أَحَد مِنْ السَّلَف، وَلَوْ تَعَدَّدَ هَذَا التَّعَدُّد لأَخْبَرَ النَّبِيّ ﷺ بِهِ أُمَّته، ولنقلته النَّاس عَلى التَّعَدُّد وَالتَّكَرُّر.

قَال مُوسَى بْن عُقْبَة عَنْ الزُّهْرِيّ: كَانَ الإِسْرَاء قَبْل الهِجْرَة بِسَنَةٍ، وَكَذَا قَال عُرْوَة. وَقَال السُّدِّيّ: بِسِتَّة عَشَر شَهْرًا. وَالحَقّ: أَنَّهُ ؛ أُسْرِيَ بِهِ يَقَظَةً لا مَنَامًا، مِنْ مَكَّة إِلى بَيْت المَقْدِس، رَاكِبًا البُرَاق، فَلَمَّا انْتَهَى إِلى بيت المقدس بَاب المَسْجِد رَبَطَ الدَّابَّة عِنْد البَاب وَدَخَلهُ، فَصَلَّى فِي قِبْلته تَحِيَّة المَسْجِد رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أُتِيَ بِالمِعْرَاج -وَهُوَ كَالسُّلَّم ذُو دَرَج يُرْقَى فِيهَا- فَصَعِدَ فِيهِ إِلى السَّماء الدُّنْيَا ثُمَّ إِلى بَقِيَّة السَّماوَات السَّبْع، فَتَلَقَّاهُ مِنْ كُلّ سَماء مُقَرَّبُوهَا، وَسَلَّمَ عَلى الأَنْبِيَاء الَّذِينَ فِي السَّماوَات بِحَسَبِ مَنَازِلهمْ وَدَرَجَاتهمْ، حَتَّى مَرَّ بِمُوسَى الكَلِيم فِي السَّادِسَة، وَإِبْرَاهِيم الخَلِيل فِي السَّابِعَة، ثُمَّ جَاوَزَ مَنْزِلَتَيْهِمَا -صلى الله عليه وسلم وَعَلَيْهِمَا وَعَلى سَائِر الأَنْبِيَاء- حَتَّى انْتَهَى إِلى مُسْتَوًى يَسْمَع فِيهِ صَرِيف الأَقْلام، أَيْ: أَقْلام القَدَر بِمَا هُوَ كَائِن، وَرَأَى سِدْرَة المُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا مِنْ أَمْر الله تَعَالى عَظَمَة عَظِيمَة مِنْ فَرَاش مِنْ ذَهَب وَأَلْوَان مُتَعَدِّدَة، وَغَشِيَتْهَا المَلائِكَة، وَرَأَى هنالك جِبْرِيل عَلى صُورَته، له سِتّمائَة جَنَاح، وَرَأَى رَفْرَفًا أَخْضَر قَدْ سَدَّ الأُفُق. وَرَأَى البَيْت المَعْمُور، وَإِبْرَاهِيم الخَلِيل -بَانِي الكَعْبَة الأَرْضِيَّة- مسندًا ظَهْره إِلَيْهِ؛ لأَنَّهُ الكَعْبَة السَّماوِيَّة يَدْخُلهُ كُلّ يَوْم سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ المَلائِكَة يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ، ثُمَّ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ إِلى يَوْم القِيَامَة، وَرَأَى الجَنَّة وَالنَّار، وَفَرَضَ الله عَلَيْهِ هُنَالكَ الصَّلَوَات خَمْسِينَ، ثُمَّ خَفَّفَهَا إِلى خَمْس، رَحْمَة مِنْهُ وَلُطْفًا بِعِبَادِهِ، وَفِي هَذَا اعْتِنَاء عَظِيم بِشَرَفِ الصَّلاة وَعَظَمَتهَا، ثُمَّ هَبَطَ إِلى بَيْت المَقْدِس، وَهَبَطَ مَعَهُ الأَنْبِيَاء فَصَلَّى بِهِمْ فِيهِ لـَمَّا حَانَتْ الصَّلاة، وَيَحْتَمِل أَنَّهَا الصُّبْح مِنْ يَوْمئِذٍ، وَمِنْ النَّاس مَنْ يَزْعُم أَنَّهُ أَمَّهُمْ فِي السَّماء، وَالَّذِي تَظَاهَرَتْ بِهِ الرِّوَايَات: أَنَّهُ بيت المَقْدِس، وَلكِنْ فِي بَعْضهَا أَنَّهُ كَانَ أَوَّل دُخُوله إِلَيْهِ، وَالظَّاهِر أَنَّهُ بَعْد رُجُوعه إِلَيْهِ؛ لأَنَّهُ لَمَّا مَرَّ بِهِمْ فِي مَنَازِلهمْ جَعَل يَسْأَل عَنْهُمْ جِبْرِيل وَاحِدًا وَاحِدًا، وَهُوَ يُخْبِرهُ بِهِمْ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِق، لأَنَّهُ كَانَ أَوَّلًا مَطْلُوبًا إِلى الجَنَاب العُلْوِيّ، لِيُفْرَض عَلَيْهِ وَعَلى أُمَّته مَا يَشَاء الله تَعَالى، ثُمَّ لَمَّا فَرَغَ مِنْ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ، اجْتَمَعَ بِهِ هُوَ وَإِخْوَانه مِنْ النَّبِيِّينَ، ثُمَّ أَظْهَرَ شَرَفه وَفَضْله عَلَيْهِمْ بِتَقْدِيمِهِ فِي الإِمَامَة، وَذَلكَ عَنْ إِشَارَة جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلامُ لهُ فِي ذَلكَ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ البيت المَقْدّس فَرَكِبَ البُرَاق وَعَادَ إِلى مَكَّة بِغَلَس، وَالله سُبْحَانه وَتَعَالى أَعْلم.

وَأَمَّا عَرْض الآنِيَة عَلَيْهِ مِنْ اللَّبَن وَالعَسَل، أَوْ اللَّبَن وَالخَمْر، أَوْ اللَّبَن وَالمَاء، أَوْ الجَمِيع؛ فَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ فِي بَيْت المَقْدّس، وَجَاءَ أَنَّهُ فِي السَّماء، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون هَاهُنَا وَهَاهُنَا؛ لأَنَّهُ كَالضِّيَافَة للقَادِم، وَالله أَعْلم.

ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّاس: هَل كَانَ الإِسْرَاء بِبَدَنِهِ عَلَيْهِ السَّلامُ وَرُوحه، أَوْ بِرُوحِهِ فَقَطْ؟ عَلى قَوْلَيْنِ: فَالأَكْثَرُونَ مِنْ العُلَماء عَلى أَنَّهُ أُسْرِيَ بِبَدَنِهِ وَرُوحه يَقَظَة لا مَنَامًا، وَلا ينكر أَنْ يَكُون رَسُول الله ﷺ رَأَى قَبْل ذَلكَ مَنَامًا؛ ثُمَّ رَآهُ بَعْده يَقَظَة؛ لأَنَّهُ ﷺ كَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْل فَلق الصُّبْح، وَالدَّلِيل عَلى هَذَا قَوْله تَعَالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ فَالتَّسْبِيح إِنَّما يَكُون عِنْد الأُمُور العِظَام، فَلَوْ كَانَ مَنَامًا لمْ يَكُنْ فِيهِ كَبِير شَيْء، وَلمْ يَكُنْ مُسْتَعْظَمًا، وَلَما بَادَرَتْ كُفَّار قُرَيْش إِلى تَكْذِيبه، وَلَما ارْتَدَّتْ جَماعَة مِمَّنْ كَانَ قَدْ أَسْلمَ، وَأَيْضًا فَإِنَّ العَبْد عِبَارَة عَنْ مَجْمُوع الرُّوح وَالجَسَد، وَقَدْ قَال: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ ، وقد قَال تَعَالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قَال ابْن عَبَّاس: هِيَ رُؤْيَا عَيْن أُرِيهَا رَسُول الله ﷺ. رَوَاهُ البُخَارِيّ. وَقَال تَعَالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ وَالبَصَر مِنْ آلات الذَّات لا الرُّوح، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ حُمِلَ عَلى البُرَاق، وَهُوَ دَابَّة بَيْضَاء، بَرَّاقَة لها لمَعَان، وَإِنَّما يَكُون هَذَا للبَدَنِ لا للرُّوحِ؛ لأَنَّها لا تَحْتَاج فِي حَرَكَتها إِلى مَرْكَب تَرْكَب عَلَيْهِ، وَالله أَعْلم.

وَقَال آخَرُونَ: بَل أُسْرِيَ بِرَسُول الله ﷺ بِرُوحِهِ لا بِجَسَدِهِ، قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار فِي «السِّيرَة»: حَدَّثَنِي يَعْقُوب بْن عُتْبَة بْن الْمُغِيرَة بْن الأَخْنَس: أَنَّ مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان كَانَ إِذَا سُئِل عَنْ مَسْرَى رَسُول الله ﷺ ؟ قَال: كَانَتْ رُؤْيَا مِنْ الله صَادِقَة. وَحَدَّثَنِي بَعْض آل أَبِي بَكْر أَنَّ عَائِشَة كَانَتْ تَقُول: مَا فُقِدَ جَسَد رَسُول الله ﷺ ، وَلكِنْ أُسْرِيَ بِرُوحِهِ.

قَال ابْن إِسْحَاق: فَلَمْ يُنْكَر ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهَا؛ لِقَوْل الحَسَن: إِنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلَتْ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، وَلقَوْل الله فِي الخَبَر عَنْ إِبْرَاهِيم: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَال: ثُمَّ مَضَى عَلَى ذَلكَ فَعَرَفْت أَنَّ الوَحْي يَأْتِي للأَنْبِيَاءِ مِنْ الله أَيْقَاظًا وَنِيَامًا. فَكَانَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**تَنَام عَيْنَايَ، وَقَلبِي يَقْظَان**»، فالله أَعْلم أَيْ ذَلكَ كَانَ قَدْ جَاءَهُ وَعَايَنَ مِنْ الله فِيهِ مَا عَايَنَ عَلى أَيِّ حَالاته، كَانَ نَائِمًا أَوْ يَقْظَانًا، كُلّ ذلك حَقّ وَصِدْق. انْتَهَى كَلام ابْن إِسْحَاق. وَقَدْ تَعَقَّبَهُ أَبُو جَعْفَر بْن جَرِير فِي «تَفْسِيره» بِالرَّدِّ وَالإِنْكَار وَالتَّشْنِيع، بِأَنَّ هَذَا خِلاف ظَاهِر سِيَاق القُرْآن، وَذَكَرَ مِنْ الأَدِلَّة عَلى رَدّه بَعْض مَا تَقَدَّمَ، وَالله أَعْلم.

فَائِدَة حَسَنَة جَلِيلَة: رَوَى الحَافِظ أَبُو نُعَيْم الأَصْبَهَانِيّ فِي كِتَاب «دَلائِل النُّبُوَّة» مِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن عُمَر الوَاقِدِيّ، حَدَّثَنِي مَالك بْن أَبِي الرِّجَال عَنْ عمرو بْن عَبْد الله، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ قَال: بَعَثَ رَسُول الله ﷺ دِحْيَة بْن خَليفَة إِلى قَيْصَر، فَذَكَرَ وُرُوده عَلَيْهِ وَقُدُومه إِليْهِ. وَفِي السِّيَاق دَلالة عَظِيمَة عَلى وُفُور عَقْل هِرَقْل، ثُمَّ اسْتَدْعَى مَنْ بِالشَّام مِنْ التُّجَّار، فَجِيءَ بِأَبِي سُفْيَان صَخْر بْن حَرْب وَأَصْحَابه، فَسَأَلهُمْ عَنْ تِلكَ المَسَائِل المَشْهُورَة الَّتِي رَوَاهَا البُخَارِيّ وَمُسْلم كَمَا سَيَأْتِي بَيَانه، وَجَعَل أَبُو سُفْيَان يَجْهَد أَنْ يُحَقِّر أَمْره، وَيُصَغِّرهُ عِنْده، قَال فِي هَذَا السِّيَاق عَنْ أَبِي سُفْيَان: وَالله مَا يمنعني أَنْ أَقُول عَليْهِ قَوْلا أُسْقِطهُ مِنْ عَيْنه، إِلَّا أَنِّي أَكْرَه أَنْ أَكْذِب عِنْده كَذِبَة يَأْخُذهَا عَليَّ، وَلا يُصَدِّقنِي فِي شَيْء، قَال: حَتَّى ذَكَرْت قَوْله لَيْلَة أُسْرِيَ بِهِ قَال: فَقُلت: أَيُّهَا المَلك، أَلا أُخْبِرك خَبَرًا تَعْرِف أَنَّهُ قَدْ كَذَبَ؟ قَال: وَمَا هُوَ؟ قَال: قُلت: إِنَّهُ يَزْعُم لنَا أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ أَرْضنَا أَرْض الحَرَم فِي لَيْلة، فَجَاءَ مَسْجِدكُمْ هَذَا، مَسْجِد إِيلِيَاء، وَرَجَعَ إِليْنَا تِلكَ اللَّيْلة قَبْل الصَّبَاح. قَال: وَبِطْرِيقِ إِيلِيَاء عِنْد رَأْس قَيْصَر؟ فَقَال بِطْرِيق إِيلِيَاء: قَدْ عَلمْت تِلكَ اللَّيْلة. قَال: فَنَظَرَ إِليْهِ قَيْصَر. وَقَال: وَمَا عِلمك بِهَذَا؟ قَال: إِنِّي كُنْت لا أَنَام لَيْلة حَتَّى أُغْلق أَبْوَاب المَسْجِد، فَلمَّا كَانَ تِلكَ اللَّيْلة أَغْلقْت الأَبْوَاب كُلّهَا غَيْر بَاب وَاحِد غَلبَنِي، فَاسْتَعَنْت عَليْهِ بِعُمَّالي وَمَنْ يَحْضُرنِي كُلّهمْ، فعالجته فَغَلبَنِي، فَلمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نُحَرِّكهُ، كَأَنَّمَا نُزَاوِل بِهِ جَبَلًا، فَدَعَوْت إِليْهِ النَّجَاجِرَة، فَنَظَرُوا إِليْهِ فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا البَاب سَقَطَ عَليْهِ النِّجَاف وَالبُنْيَان، وَلا نَسْتَطِيع أَنْ نُحَرِّكهُ حَتَّى نُصْبِح فَنَنْظُر مِنْ أَيْنَ أَتَى؟ قَال: فَرَجَعْت، وَتَرَكْت البَابَيْنِ مَفْتُوحَيْنِ، فَلمَّا أَصْبَحْت غَدَوْت عَليْهِمَا فَإِذَا الحَجَر الَّذِي فِي زَاوِيَة المَسْجِد مَثْقُوب، وَإِذَا فِيهِ أَثَر مِرْبَط الدَّابَّة قَال: فَقُلت لأَصْحَابِي: مَا حُبِسَ هَذَا البَاب اللَّيْلة إِلَّا عَلى نَبِيّ، وَقَدْ صَلَّى اللَّيْلة فِي مَسْجِدنَا وَذَكَرَ تَمَام الحَدِيث.(١)

فَائِدَة: قَال الحَافِظ أَبُو الخَطَّاب عُمَر بْن دِحْيَة فِي كِتَابه «التَّنْوِير فِي مَوْلد السِّرَاج المُنِير» وَقَدْ ذَكَرَ حَدِيث الإِسْرَاء مِنْ طَرِيق أَنَس، وَتَكَلَّمَ عَليْهِ فَأَجَادَ وَأَفَادَ ثُمَّ قَال: وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الرِّوَايَات فِي حَدِيث الإِسْرَاء عَنْ عُمَر ابْن الخَطَّاب وَعَليّ وَابْن مَسْعُود وَأَبِي ذَرّ؛ وَمَالك بْن صَعْصَعَة؛ وَأَبِي هُرَيْرَة وَأَبِي سَعِيد؛ وَابْن عَبَّاس وَشَدَّاد بْن

---

(١) إسناده ضعيف : مرسـل.

أَوْس وَأُبَيّ بن كَعْب وَعَبْد الرَّحْمَن بْن قُرْط؛ وَأَبِي حَبَّة وَأَبِي لَيْلى الأَنْصارِيَّيْنِ؛ وَعَبْد الله بْن عَمْرو وَجَابِر وَحُذَيْفَة وَبُرَيْدَة؛ وَأَبِي أَيُّوب وَأَبِي أُمَامَة وَسَمُرَة بْن جُنْدُب؛ وَأَبِي الحَمْرَاء وَصُهَيْب الرُّومِيّ؛ وَأُمّ هَانِئ، وَعَائِشَة وَأَسْمَاء ابْنَتَيْ أَبِي بَكْر الصِّدِّيق -رضي الله عنهم أَجْمَعِينَ- مِنْهُمْ مَنْ سَاقَهُ بِطُولِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ اخْتَصَرَهُ عَلى مَا وَقَعَ فِي المَسَانِيد، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ رِوَايَة بَعْضهمْ عَلى شَرْط الصِّحَّة فَحَدِيث الإِسْرَاء أَجْمَعَ عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ واعترض فيه الزَّنَادِقَة المُلْحِدُونَ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

لـمَّا ذَكَرَ تَعَالى أَنَّهُ أَسْرَى بِعَبْدِهِ مُحَمَّد ﷺ عَطَفَ بِذِكْرِ مُوسَى عَبْده وَرَسُوله وَكَلِيمه أَيْضًا، فَإِنَّهُ تَعَالى كَثِيرًا مَا يَقْرُن بَيْن ذِكْر مُوسَى وَمُحَمَّد -عَلَيْهِمَا مِنْ الله الصَّلاة وَالسَّلام-، وَبَيْن ذِكْر التَّوْرَاة وَالقُرْآن؛ وَلهَذَا قَال بَعْد ذِكْر الإِسْرَاء: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يَعْنِي: التَّوْرَاة، ﴿وَجَعَلْنَـٰهُ﴾ أَيْ: الكِتَاب ﴿هُدًى﴾ أَيْ: هَادِيًا ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ أَيْ: لئَلَّا تَتَّخِذُوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أَيْ: وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا وَلا مَعْبُودًا دُونِي، لأَنَّ الله تَعَالى أَنْزَل عَلى كُلّ نَبِيّ أَرْسَلهُ أَنْ يَعْبُدهُ وَحْده لا شَرِيك لهُ.

ثُمَّ قَال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ﴾ تَقْدِيره: يَا ذُرِّيَّة مَنْ حَمَلنَا مَعَ نُوح، فِيهِ تَهْيِيج وَتَنْبِيه عَلى المِنَّة. أَيْ: يَا سُلالة مَنْ نَجَّيْنَا فَحَمَلنَا مَعَ نُوح فِي السَّفِينَة، تَشَبَّهُوا بِأَبِيكُمْ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فَاذْكُرُوا أَنْتُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ بِإِرْسَالِي إِلَيْكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيث وَفِي الأَثَر عَنْ السَّلف أَنَّ نُوحًا ؛ كَانَ يَحْمَد الله عَلى طَعَامه وَشَرَابه وَلبَاسه، وَشَأْنه كُلّه؛ فَلهَذَا سُمِّيَ عَبْدًا شَكُورًا.

قَال الطَّبَرَانِيّ: حدثنا عَلِيّ بْن عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِي حُصَيْن، عَنْ عَبْد الله بْن سِنَان، عَنْ سَعْد بْن مَسْعُود الثَّقَفِيّ قَال: إِنَّمَا سُمِّيَ نُوح عَبْدًا شَكُورًا؛ لأَنَّهُ كَانَ إِذَا أَكَل أَوْ شَرِبَ حَمِدَ الله.

وَقد قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَة، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْن أَبِي زَائِدَة، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي بُرْدَة، عَنْ أَنَس بْن مَالك رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«إِنَّ الله ليَرْضَى عَنْ العَبْد أَنْ يَأْكُل الأَكْلة، أَوْ يَشْرَب الشَّرْبَة، فَيَحْمَد الله عَليْهَا»**.[1] وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلم، وَالتِّرْمِذِيّ، وَالنَّسَائِيّ مِنْ طَرِيق أَبِي أُسَامَة بِهِ، وَقَال مَالك عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ: كَانَ يَحْمَد الله عَلى كُلّ حَال. وَقَدْ ذَكَرَ البُخَارِيّ هُنَا حَدِيث أَبِي زُرْعَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ رسول الله ﷺ قَال: **«أَنَا سَيِّد النَّاس يَوْم القِيَامَة...»** بِطُوله، وَفِيهِ: **«فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوح، إِنَّك أَنْتَ أَوَّل الرُّسُل إِلى أَهْل الأَرْض، وَقَدْ سَمَّاك الله عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لنَا إِلى رَبّك»**[2] وَذَكَرَ الحَدِيث بكماله.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٣٤)، والترمذي (١٨١٦)، وأحمد (٣/ ١١٧).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٦١)، ومسلم (١٩٤).

يقول تعالى: إنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب أي: تقدم إليهم، وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علوًا كبيرًا، أي: يتجبرون، ويطغون، ويفجرون على الناس، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي: أولى الإفسادتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: سلطنا عليكم جندًا من خلقنا، أولي بأس شديد، أي: قوة وعدة وسلطة شديدة، ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي: سلكوا بينها ووسطها، وتصرفوا ذاهبين وجائين، لا يخافون أحدًا، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزري وجنوده، سلط عليهم أولًا، ثم أديلوا عليه بعد ذلك، وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنحاريب وجنوده، وعنه أيضًا وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل. وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصة عجيبة؛ في كيفية ترقيه من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد، وأنه كان فقيرًا مقعدًا ضعيفًا، يستعطي الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس، فقتل بها خلقًا كثيرًا من بني إسرائيل.

وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثًا أسنده عن حذيفة مرفوعًا مطولًا، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث، والعجب كل العجب، كيف راج عليه مع إمامته وجلاله وقدره؟ وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب.

وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية، لم أر تطويل الكتاب بذكرها، لأن منها ما هو موضوع من وضع زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحًا، ونحن في غنية عنها، ولله الحمد. وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقًا من الأنبياء والعلماء.

وقد روى ابن جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى ابن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام، فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق، فوجد بها دمًا يغلي على كبا، فسألهم: ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر. قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفًا من المسلمين وغيرهم، فسكن.

وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه خلقًا منهم أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعليها، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾. وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المرة الآخرة، أي: إذا أفسدتم المرة الثانية، وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: يهينوكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أي: بيت المقدس

﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَيْ: فِي الَّتِي جَاسُوا فِيهَا خِلال الدِّيَار ﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أَيْ: يُدَمِّرُوا وَيُخَرِّبُوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ أَيْ: مَا ظَهَرُوا عَلَيْهِ، ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أَيْ: فَيَصْرِفهُمْ عَنْكُمْ، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أَيْ: مَتَى عُدْتُمْ إِلَى الإِفْسَاد ﴿عُدْنَا﴾ إِلَى الإِدَالَة عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا نَدَّخِرهُ لَكُمْ فِي الآخِرَة مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أَيْ: مُسْتَقَرًّا وَمَحْصَرًا، وَسِجْنًا لا مَحِيد لَهُمْ عَنْهُ.

قَال ابْن عَبَّاس: حَصِيرًا، أَيْ: سِجْنًا. وَقَال مُجَاهِد: يُحْصَرُونَ فِيهَا، وَكَذَا قَال غَيْره. وَقَال الحَسَن: فِرَاشًا وَمِهَادًا. وَقَال قَتَادَة: قَدْ عَادَ بَنُو إِسْرَائِيل، فَسَلَّطَ الله عَلَيْهِمْ هَذَا الحَيّ، مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابه، يَأْخُذُونَ مِنْهُمْ الجِزْيَة عَنْ يَد وَهُمْ صَاغِرُونَ.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يَمْدَح تَعَالَى كِتَابه العَزِيز، الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُوله مُحَمَّد ﷺ وَهُوَ القُرْآن؛ بِأَنَّهُ يَهْدِي لأَقْوَم الطُّرُق، وَأَوْضَح السُّبُل، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِهِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَات عَلَى مُقْتَضَاهُ ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أَيْ: وَيُبَشِّر الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أن ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾.

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ عَجَلَة الإِنْسَان، وَدُعَائِهِ فِي بَعْض الأَحْيَان عَلَى نَفْسه أَوْ وَلَده أَوْ مَاله بِالشَّرّ، أَيْ: بِالمَوْتِ، أَوْ الهَلاك وَالدَّمَار وَاللَّعْنَة وَنَحْو ذَلِكَ، فَلَوْ اسْتَجَابَ لَهُ رَبّه لَهَلَكَ بِدُعَائِهِ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ...﴾ الآيَة، وَكَذَا فَسَّرَهُ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي هذا الحَدِيثُ: «**لا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلا عَلَى أَمْوَالِكُمْ؛ أَنْ تُوَافِقُوا مِنْ الله سَاعَة إِجَابَة يَسْتَجِيب فِيهَا**»[1] وَإِنَّمَا يَحْمِل ابْن آدَم عَلَى ذَلِكَ عجلته وقلقه، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾.

وَقَدْ ذَكَرَ سَلْمَان الفَارِسِيّ وَابْن عَبَّاس رضي الله عنهما هَاهُنَا قِصَّة آدَم عليه السلام حِين هَمَّ بِالنُّهُوضِ قَائِمًا قَبْل أَنْ تَصِل الرُّوح إِلَى رِجْلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ جَاءَتْهُ النَّفْخَة مِنْ قِبَل رَأْسه، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى دِمَاغه عَطَسَ، فَقَال: الحَمْد لله، فَقَال الله: يَرْحَمك رَبّك يَا آدَم، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى عَيْنَيْهِ فَتَحَهُمَا، فَلَمَّا سَرَتْ إِلَى أَعْضَائِهِ وَجَسَده جَعَل يَنْظُر إِلَيْهِ وَيُعْجِبهُ، فَهَمَّ بِالنُّهُوض قَبْل أَنْ تَصِل إِلَى رِجْلَيْهِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ؛ قَال: يَا رَبّ عَجِّل قَبْل اللَّيْل.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾.

يَمْتَنّ تَعَالَى عَلَى خَلقه بِآيَاتِهِ العِظَام؛ فَمِنْهَا مُخَالَفَته بَيْن اللَّيْل وَالنَّهَار؛ لِيَسْكُنُوا فِي اللَّيْل، وَيَنْتَشِرُوا فِي النَّهَار لِلمَعَايِشِ وَالصَّنَائِع وَالأَعْمَال وَالأَسْفَار، وَلِيَعْلَمُوا عَدَد الأَيَّام وَالجُمَع وَالشُّهُور وَالأَعْوَام، وَيَعْرِفُوا مُضِيّ الآجَال المَضْرُوبَة لِلدُّيُونِ وَالعِبَادَات وَالمُعَامَلات وَالإِجَارَات وَغَيْر ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَال: ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أَيْ: فِي مَعَايِشكُمْ وَأَسْفَاركُمْ وَنَحْو ذَلِكَ، ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ الزَّمَان كُلّه نَسَقًا وَاحِدًا وَأُسْلُوبًا مُتَسَاوِيًا، لَمَا عُرِفَ شَيْء مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ

---

(١) **صحيح: تقدم.**

الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وَقَال تَعالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، وَقَال تَعالَى: ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، وَقَال: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾. وَقَال تَعالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. وَقَال تَعالَى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالى جَعَلَ اللَّيْل آيَة، أَيْ: عَلامَة يُعْرَف بِهَا، وَهِيَ الظَّلام وَظُهُور القَمَر فِيهِ، وَلِلنَّهارِ عَلامَة، وَهِيَ النُّور وظهور الشَّمْس النَّيِّرَة فِيهِ، وَفَاوَتَ بَيْن نُور القَمَر وَضِيَاء الشَّمْس؛ لِيُعْرَف هَذَا مِنْ هَذَا كَمَا قَال تَعالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إِلى قَوْله: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ...﴾ الآيَة. كَمَا قَال تَعالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ الآيَة.

قَال ابْن جُرَيْج: عَنْ عَبْد الله بْن كَثِير فِي قَوْله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قَال: ظُلْمَة اللَّيْل وسدفه النَّهار. وَقَال ابْن جُرَيْج: عَنْ مُجَاهِد: الشَّمْس آيَة النَّهار، وَالقَمَر آيَة اللَّيْل، ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ قَال: السَّوَاد الَّذِي فِي القَمَر، وَكَذَلِكَ خَلَقَهُ الله تَعالَى. وَقَال ابْن جُرَيْج: قَال ابْن عَبَّاس: كَانَ القَمَر يُضِيء كَمَا تُضِيء الشَّمْس، وَالقَمَر آيَة اللَّيْل، وَالشَّمْس آيَة النَّهار، فَمَحَوْنَا آيَة اللَّيْل: السَّوَاد الَّذِي فِي القَمَر. وَقَدْ رَوَى أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير مِنْ طُرُق مُتَعَدِّدَة جَيِّدَة: أَنَّ ابْن الكَوَّاء سَأَلَ أَمِير المُؤْمِنِينَ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب فَقَال: يَا أَمِير المُؤْمِنِينَ مَا هَذِهِ اللَّطْخَة الَّتِي فِي القَمَر؟ فَقَال: وَيْحك! أَمَا تَقْرَأ القُرْآن؟ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فَهَذِهِ مَحْوه. وَقَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: كُنَّا نُحَدَّث أَنَّ مَحْو آيَة اللَّيْل سَوَاد القَمَر الَّذِي فِيهِ ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أَيْ: مُنِيرَة، وَخَلَقَ الشَّمْس أَنْوَر مِنْ القَمَر وَأَعْظَم. وَقَال ابْن أَبِي نَجِيح عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ قَال: لَيْلًا وَنَهَارًا، كَذَلِكَ خَلَقَهُمَا الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

يَقُول تَعالَى بَعْد ذِكْر الزَّمَان وَذِكْر مَا يَقَع فِيهِ مِنْ أَعْمَال بَنِي آدَم: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وَطَائِره: هُوَ مَا طَارَ عَنْهُ مِنْ عَمَله -كَمَا قَال ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وغير واحد- مِنْ خَيْر وَشَرّ، وَيَلْزَم بِهِ وَيُجَازَى عَلَيْهِ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ وَقَال تَعالَى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، وَقَال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾، وَقَال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَقَال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ وَالمَقْصُود أَنَّ عَمَل ابْن آدَم مَحْفُوظ عَلَيْهِ، قَلِيله وَكَثِيره، وَيُكْتَب عَلَيْهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، صَبَاحًا وَمَسَاء.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا قُتَيْبَة، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، عَنْ أَبِى الزُّبَيْر، عَنْ جَابِر، سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**لِطَائِر كُلّ إِنْسَان فِي عُنُقه**»[1]. قَال ابْن لَهِيعَة: يَعْنِي الطِّيَرَة. وَهَذَا القَوْل مِنْ ابْن لَهِيعَة فِي تَفْسِير هَذَا الحَدِيث

(١) صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٣٩٠٥).

غَرِيب جِدًّا، وَاللهُ أَعْلم. وَقَوْله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ أَيْ: نَجْمَع لهُ عَمَله كُلّه فِي كِتَاب يُعْطَاهُ يَوْم القِيَامَة؛ إِمَّا بِيَمِينِهِ إِنْ كَانَ سَعِيدًا، أَوْ بِشِمَالِهِ إِنْ كَانَ شَقِيًّا ﴿مَنشُورًا﴾ أَيْ: مَفْتُوحًا يَقْرَؤُهُ هُوَ وَغَيْره، فِيهِ جَمِيع عَمَله مِنْ أَوَّل عُمْره إِلَى آخِره ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾.

وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أَيْ: إِنَّك تَعْلم أَنَّك لَمْ تُظْلم وَلَمْ يُكْتَب عَلَيْك غير مَا عَمِلت؛ لأَنَّك ذَكَرْت جَمِيع مَا كَانَ مِنْك، وَلا يَنْسَى أَحَد شَيْئًا مِمَّا كَانَ مِنْهُ، وَكُلّ أَحَد يَقْرَأ كِتَابه مِنْ كَاتِب وَأُمِّيّ.

وَقَوْله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ العُنُق؛ لأَنَّهُ عُضْو لا نَظِير لهُ فِي الجَسَد، وَمَنْ أُلْزِمَ بِشَيْءٍ فِيهِ فَلا مَحِيد لهُ عَنْهُ، كَمَا قَال الشَّاعِر:

اذْهَبْ بِهَا اذْهَبْ بِهَا ۞ طَوَّقْتهَا طَوْق الحَمَام

قَال قَتَادَة: عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، عَنْ نبي الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «**لا عَدْوَى وَلا طِيَرَة، وَكُلّ إِنْسَان أَلْزَمْنَاهُ طَائِره فِي عُنُقه**». كَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَام عَبْد بْن حُمَيْد رَحِمَهُ اللهُ فِي «مُسْنَده» مُتَّصِلًا فَقَال: حَدَّثَنَا الحَسَن ابْن مُوسَى، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، عَنْ أَبِي الزُّبَيْر، عَنْ جَابِر قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**طَيْر كُلّ عَبْد فِي عُنُقه**».[1] وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنَا عَبْد الله، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، حَدَّثَنِي يَزِيد أَنَّ أَبَا الخَيْر حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَة بْن عَامِر رضي الله عنه يُحَدِّث عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**لَيْسَ مِنْ عَمَل يَوْم إِلاَّ وَهُوَ يُخْتَم عَلَيْهِ، فَإِذَا مَرِضَ المُؤْمِن قَالَتْ المَلائِكَة يَا رَبّنَا عَبْدك فُلان قَدْ حَبَسْته فَيَقُول الرَّبّ جَلَّ جَلاله اخْتِمُوا لهُ عَلى مِثْل عَمَله حَتَّى يَبْرَأ أَوْ يَمُوت**»[2]. إسناد جَيِّد قَوِيّ، وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ وَقَال مَعْمَر عَنْ قَتَادَة: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾. قَال: عَمَله ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قَال: نُخْرِج ذَلِكَ العَمَل ﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾، قَال مَعْمَر: وَتَلا الحَسَن البَصْرِيّ ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ يَا ابْن آدَم بَسَطْت لك صَحِيفَتك، ووُكِّل بِكَ مَلَكَانِ كَرِيمَانِ، أَحَدهمَا: عَنْ يَمِينك، وَالآخَر: عَنْ يسارك، فَأَمَّا الَّذِي عَنْ يَمِينك فَيَحْفَظ حَسَنَاتك، وَأَمَّا الَّذِي عَنْ يسارك فَيَحْفَظ سَيِّئَاتك، فَاعْمَل مَا شِئْت، أَقْلل أَوْ أَكْثِرْ، حَتَّى إِذَا مُتّ طَوَيْت صَحِيفَتك، فَجُعِلَتْ فِي عُنُقك مَعَك فِي قَبْرك حَتَّى تخرج يَوْم القِيَامَة كِتَابًا تَلقَاهُ مَنْشُورًا، ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ الآيَة، فَقَدْ عَدَلَ وَالله مَنْ جَعَلك حَسِيب نَفْسك. هَذَا مِنْ حَسَن كَلام الحَسَن رَحِمَهُ الله.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّ: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ وَاتَّبَعَ الحَقّ وَاقْتَفَى آثار النُّبُوَّة؛ فَإِنَّمَا يحصّل عَاقِبَة ذَلِكَ الحَمِيدَة لنَفْسِهِ، ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أَيْ: عَنْ الحَقّ وَزَاغَ عَنْ سَبِيل الرَّشَاد؛ فَإِنَّمَا يَجْنِي عَلى نَفْسه، وَإِنَّمَا يَعُود وَبَال ذَلِكَ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أَيْ: لا يَحْمِل أَحَد ذَنْب أَحَد، وَلا يَجْنِي جَانٍ إِلَّا عَلى نَفْسه، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ﴾، وَلا مُنَافَاة بَيْن هَذَا وَبَيْن قَوْله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وَقَوْله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فَإِنَّ الدُّعَاة عَلَيْهِمْ إِثْم ضلالهم فِي أَنْفُسهمْ، وَإِثْم آخر بِسَبَبِ مَا أَضَلُّوا مَنْ أَضَلُّوا مِنْ غَيْر أَنْ يَنْقُص مِنْ أَوْزَار أُولئِكَ وَلا يَحْمِل عَنْهُمْ شَيْئًا، وَهَذَا مِنْ عَدْل الله وَرَحْمَته بِعِبَادِهِ. وَكَذَا قَوْله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إِخْبَار عَنْ عَدْله تَعَالى، وَأَنَّهُ لا يُعَذِّب أَحَدًا إِلَّا بَعْد قِيَام

(١) صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٣٩٣٨).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٤/١٤٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٥٤٣٢).

الحُجَّة عَلَيْهِ بِإِرْسَال الرَّسُول إِلَيْهِ، كما قال تَعَالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ﴾، وَكَذَا قَوْله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ إِلى غَيْر ذَلكَ مِنْ الآيَات الدَّالَّة عَلى أَنَّ الله تَعَالى لا يُدْخِل أَحَدًا النَّار إِلَّا بَعْد إِرْسَال الرَّسُول إِلَيْهِ، وَمِنْ ثَمَّ طَعَنَ جَمَاعَة مِنْ العُلَماء فِي اللَّفْظَة الَّتِي جَاءَتْ مقحمة فِي «صَحِيح البُخَارِيّ» عِنْد قَوْله تَعَالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

حَدَّثَنَا عبيد الله بْن سعد، حَدَّثَنَا يَعْقُوب، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ صَالح بْن كَيْسَان، عَنْ الأَعْرَج بِإِسْنَادِهِ إِلى أَبِي هُرَيْرَة عن النبي ﷺ قَال: **«اخْتَصَمَتْ الجنَّة وَالنَّار»** فَذَكَرَ الحَدِيث إِلى أَنْ قَال: **«وَأَمَّا الجنَّة فَلا يَظْلم الله مِنْ خَلقه أَحَدًا، وَإِنَّهُ يُنْشِئُ للنَّارِ خَلقًا فَيُلقَوْنَ فِيهَا. فَتَقُول: هَل مِنْ مَزِيد؟ ويلقون فيها وتقول: هل من مزيد؟ ثلاثًا»**. وَذَكَرَ تَمام الحَدِيث.[1] فإن هذا إِنَّما جَاءَ فِي الجَنَّة لأَنَّها دَار فَضل، وَأَمَّا النَّار فَإِنَّها دَار عَدْل، لا يَدْخُلها أَحَد إِلَّا بَعْد الإِعْذَار إِلَيْهِ وَقِيَام الحُجَّة عَلَيْهِ، وَقَدْ تَكَلَّمَ جَمَاعَة مِنْ الحُفَّاظ فِي هَذِهِ اللَّفْظَة، وَقَالُوا: لعَلَّهُ انْقَلبَ عَلى الرَّاوِي بِدَلِيل مَا أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَاللَّفْظ للبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر عَنْ هَمَّام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال النَّبِيّ ﷺ: **«تَحَاجَّتْ الجنَّة وَالنَّار»**. فَذَكَرَ الحَدِيث إِلى أَنْ قَال: **«فَأَمَّا النَّار فلا تَمْتَلئ حَتَّى يَضَع فِيهَا قَدَمه، فَتَقُول: قَطْ قَطْ. فَهُنَالكَ تَمْتَلئ ويزوي بَعْضهَا إِلى بَعْض، وَلا يَظْلم الله مِنْ خَلقه أَحَدًا، وَأَمَّا الجنَّة فينشئ الله لهَا خَلقًا»**[2]. بَقِي هَاهُنَا مَسْأَلة قَدْ اخْتَلفَ الأَئِمَّة -رَحِمَهُمْ الله تَعَالى- فِيهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَهِيَ: الوِلدَان الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ صِغَار وَآبَاؤُهُمْ كُفَّار مَاذَا حُكْمهمْ؟ وَكَذَا المَجْنُون وَالأَصَمّ والشَّيْخ الخَرِف، وَمَنْ مَاتَ فِي الفَتْرَة وَلمْ تَبْلُغهُ الدَّعْوَة؟ وَقَدْ وَرَدَ فِي شَأْنهمْ أَحَادِيث أَنا ذاكرها لك بِعَوْنِ الله وَتَوْفِيقه، ثُمَّ نَذْكُر فَصْلًا مُلخَّصًا مِنْ كَلام الأَئِمَّة في هذا، وَالله المُسْتَعَان.

فَالحَدِيث الأَوَّل: عَنْ الأَسْوَد بْن سَرِيع: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَليّ بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا مُعَاذ بْن هِشَام، حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ قَتَادَة، عَنْ الأَحْنَف بْن قَيْس، عَنْ الأَسْوَد بْن سَرِيع، أَنَّ نبي الله ﷺ قَال: **«أَرْبَعَة يَحْتَجُونَ يَوْم القِيَامَة: رَجُل أَصَمّ لا يَسْمَع شَيْئًا، وَرَجُل أَحْمَق، وَرَجُل هَرَم، وَرَجُل مَاتَ فِي فَتْرَة؛ فَأَمَّا الأَصَمّ فَيَقُول: رَبّ، قَدْ جَاءَ الإِسْلام وَمَا أَسْمَع شَيْئًا. وَأَمَّا الأَحْمَق فَيَقُول: رَبّ، لقد جَاءَ الإِسْلام وَالصِّبْيَان يَحْذِفُونِي بالبَعْرِ. وَأَمَّا الهَرَم فَيَقُول: رَبّ، لقَدْ جَاءَ الإِسْلام وَمَا أَعْقِل شَيْئًا. وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الفَتْرَة فَيَقُول: رَبّ، مَا أَتَانِي لك رَسُول. فَيَأْخُذ مَوَاثِيقهمْ ليُطِيعُنَّهُ. فَيُرْسِل إِليْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّار، فَوَالَّذِي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ، لوْ دَخَلُوهَا لكَانَتْ عَليْهِمْ بَرْدًا وَسَلامًا»**[3]. وَبِالإِسْنَادِ: عَنْ قَتَادَة، عَنْ الحَسَن، عَنْ أَبِي رَافِع عَنْ أَبى هُرَيْرَة: مثل هذا الحديث، غَيْر أَنَّهُ قَال فِي آخِره: **«مَنْ دَخَلهَا كَانَتْ عَليْهِ بَرْدًا وَسَلامًا، وَمَنْ لمْ يَدْخُلهَا يُسْحَب إِليْهَا»**[4]. وَكَذَا رَوَاهُ إِسْحَاق ابْن رَاهْوَيْهِ عَنْ مُعَاذ بْن هِشَام. وَرَوَاهُ البَيْهَقِيّ فِي كِتَاب «الاعْتِقَاد» مِنْ حَدِيث حنبل بْن إِسْحَاق، عَنْ عَليّ بْن

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٧٤٤٩).
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).
(٣) صحيح : أخرجه أحمد (٤/ ٢٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٨٨١).
(٤) صحيح : انظر «الصحيحة» (١٤٣٤).

عَبْد الله المَدِينِيّ بِهِ، وَقَال: هَذَا إِسْنَاد صَحِيح، وَكَذَا رَوَاهُ حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ أَبِي رَافِع، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «**أَرْبَعَة كُلُّهمْ يُدْلي على الله بحُجَّةٍ**»[1]، فَذَكَرَ نَحْوه، وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث مَعْمَر عَنْ هَمَّام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، فَذَكَرَهُ موقوفًا، ثُمَّ قَال أَبُو هُرَيْرَة: اقرءوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. وَكَذَا رَوَاهُ مَعْمَر عَنْ عَبْد الله بْن طَاوُس عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَوْقُوفًا.

الحَدِيث الثَّانِي – عَنْ أَنَس بْن مَالِك: قَال أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا الرَّبِيع، عَنْ يَزِيد بن أَبَان قَال: قُلْنَا لأَنَسٍ: يَا أَبَا حَمْزَة، مَا تَقُول فِي أَطْفَال الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سَيِّئَات فَيُعَذَّبُوا فَيَكُونُوا مِنْ أَهْل النَّار، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَسَنَات فَيُجَازَوْا بِهَا فَيَكُونُوا مِنْ ملوك أَهْل الجَنَّة، هم من خدم أهل الجنة»[2].

الحَدِيث الثالث –عَنْ أَنَس أَيْضًا: قَال الحَافِظ أَبُو يَعْلى: حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمَة، حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ لَيْث، عَنْ عَبْد الوَارِث، عَنْ أَنَس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «**يُؤْتَى بأَرْبَعَةٍ يَوْم القِيَامَة: بالمَوْلُود، والمَعْتُوه وَمَنْ مَاتَ فِي الفَتْرَة، والشَّيْخ الفَانِي الهَرِم كُلّهمْ يَتَكَلَّم بحُجَّتِهِ، فَيَقُول الرَّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالى لعُنُقٍ مِنَ النَّار: أبْرزْ. ويَقُول لهُمْ: إنِّي كُنْت أَبْعَث إِلى عِبَادِي رُسلاً مِنْ أَنْفُسهمْ، وَإِنِّي رَسُول نَفْسِي إِلَيْكُمْ، ادْخُلُوا هَذِهِ. قَال: فَيَقُول مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الشَّقَاء: يَا رَبّ، أَنَّى نَدْخُلهَا وَمِنْهَا كُنَّا نفرّ؟ قَال: وَمَنْ كتبت عَلَيْهِ السَّعَادَة يَمْضِي فَيَقْتَحِم فِيهَا مُسْرِعًا. قَال: فَيَقُول الله تَعَالى: أَنْتُمْ لرُسُلي أَشَدّ تَكْذِيبًا وَمَعْصِيَة، فَيُدْخِل هَؤُلاءِ الجَنَّة، وهَؤُلاءِ النَّار**»[3]. وَهَكَذَا رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار عَنْ يُوسُف بْن مُوسَى عَنْ جَرِير بْن عَبْد الحَمِيد بِإِسْنَادِهِ مِثْله.

الحَدِيث الرَّابع –عَنْ البَرَاء بْن عَازِب ﷺ: قَال الحَافِظ أَبُو يَعْلى المَوْصِلِيّ فِي «مُسْنَده» أَيْضًا: حَدَّثَنَا قَاسِم بْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا عَبْد الله –يَعْنِي ابْن دَاوُد– عَنْ عُمَر بْن ذَرّ، عَنْ يَزِيد بْن أَبِي أُمَيَّة عَنْ البَرَاء قَال: سُئِل رَسُول الله ﷺ عَنْ أَطْفَال المُسْلِمِينَ؟ قَال: «هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ»، وَسُئِل عَنْ أَوْلاد المُشْرِكِينَ؟ فَقَال: «هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ». فَقِيل: يَا رَسُول الله، مَا يَعْمَلُونَ؟ قَال: «الله أَعْلم بِهِمْ»[4]. وَرَوَاهُ عُمَر بْن ذَرّ عَنْ يَزِيد بْن أَبِي أُمَيَّة عَنْ رَجُل عَنْ البَرَاء عَنْ عَائِشَة فَذَكَرَهُ.

الحَدِيث الخَامِس – عَنْ ثَوْبَان: قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر أَحْمَد بْن عَمْرو بْن عَبْد الخَالق البَزَّار فِي «مُسْنَده»: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن سَعِيد الجَوْهَرِيّ، حَدَّثَنَا رَيْحَان بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا عَبَّاد بْن مَنْصُور، عَنْ أَيُّوب عَنْ أَبِي قِلابَة، عَنْ أَبِي أَسْمَاء، عَنْ ثَوْبَان: أَنَّ نبي الله ﷺ عَظَّمَ شَأْن المَسْأَلَة، قَال: «**إِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة جَاءَ أَهْل الجَاهِلِيَّة يَحْمِلُونَ أوثانهم عَلى ظُهُورهمْ، فيسألهم رَبّهمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا، لمْ تُرْسِل إِلَيْنَا رَسُولاً وَلمْ يَأْتِنَا لك أَمْر، وَلوْ أَرْسَلت إِلَيْنَا رَسُولاً لكُنَّا أَطْوَع عِبَادك. فَيَقُول لهُمْ رَبّهمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ تُطِيعُونِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَأْمُرهُمْ أَنْ يَعْمِدُوا إِلى جَهَنَّم فَيَدْخُلُوهَا، فَيَنْطَلِقُونَ حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْهَا وَجَدُوا لهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا، فَرَجَعُوا إِلى رَبّهمْ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا –أَوْ: أَجِرْنَا– مِنْهَا. فَيَقُول لهُمْ: أَلمْ تَزْعُمُوا أَنِّي إِنْ أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ تُطِيعُونِي؟ فَيَأْخُذ عَلى ذَلك مَوَاثِيقهمْ، فَيَقُول: اعْمِدُوا إِلَيْهَا فَادْخُلُوهَا. فَيَنْطَلِقُونَ حَتَّى إِذَا رَأَوْهَا فَرِقُوا وَرَجَعُوا، فَقَالُوا: رَبَّنَا فَرِقْنَا مِنْهَا، وَلا نَسْتَطِيع أَنْ نَدْخُلهَا. فَيَقُول: ادْخُلُوهَا دَاخِرِينَ**». فَقَال نَبِيّ الله ﷺ : «**لوْ دَخَلُوهَا أَوَّل مَرَّة كَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلامًا**»[5]. ثُمَّ قَال البَزَّار: وَمَتْن هَذَا الحَدِيث غَيْر مَعْرُوف إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه، لمْ يَرْوِهِ عَنْ أَيُّوب إِلَّا عَبَّاد، وَلا عَنْ عَبَّاد إِلَّا رَيْحَان بْن سَعِيد.

---

(١) صححه الألباني في «ظلال الجنة» (٤٠٤).

(٢) ضعيف : أخرجه الطيالسي (٢١١١)، وفيه يزيد بن أبان: ضعيف.

(٣) صحيح بطرقه : صححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٤٦٨)، وقال: صحيح بطرقه.

(٤) ضعيف : في الإسناد يزيد بن أمية القرني: جهله الحافظ الذهبي وابن حجر، وقد اضطرب في روايته أيضًا.

(٥) صحيح : أخرجه الحاكم (٤/ ٤٩٦)، وفي الإسناد ريحان بن سعيد. قال الحافظ: صدوق ربما وهم.

قُلت: وَقَدْ ذَكَرَهُ ابْن حِبَّان فِي «ثِقَاته»، وَقَال يَحْيَى بْن مَعِين وَالنَّسَائِيّ: لا بَأْس بِهِ. وَلمْ يَرْضَهُ أَبُو دَاوُد، وَقَال أَبُو حَاتِم: شَيْخ لا بَأْس بِهِ، يُكْتَب حَدِيثه وَلا يُحْتَجّ بِهِ.

الحَدِيث السَّادِس – عَنْ أبِي سَعِيد سَعْد بْن مَالك بْن سِنَان الخُدْرِيّ: قَال الإِمَام مُحَمَّد بْن يَحْيَى الذُّهْلِيّ: حَدَّثنَا سَعِيد بْن سُلَيْمَان، عَنْ فُضَيْل بْن مَرْزُوق، عَنْ عَطِيَّة، عَنْ أَبِي سَعِيد قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «الهَالك فِي الفَتْرَة وَالمَعْتُوه وَالمَوْلُود: يَقُول الهَالك فِي الفَتْرَة: لمْ يَأْتِنِي كِتَاب. وَيَقُول المَعْتُوه: رَبّ، لمْ تَجْعَل لِي عَقْلاً أَعْقِل بِهِ خَيْرًا وَلا شَرًّا. وَيَقُول المَوْلُود: رَبّ لمْ أُدْرِك العَقْل. فَتُرْفَع لهُمْ نَار، فَيُقَال لهُمْ: رِدُوهَا. قَال: فَيَرِدهَا مَنْ كَانَ فِي عِلم الله سَعِيدًا لوْ أَدْرَكَ العَمَل، وَيُمْسِك عَنْهَا مَنْ كَانَ فِي عِلم الله شَقِيًّا لوْ أَدْرَكَ العَمَل، فَيَقُول: إِيَّايَ عَصَيْتُمْ، فَكَيْف لوْ أَنَّ رُسُلِي أَتَتْكُمْ؟»[١]. وَكَذَا رَوَاهُ البَزَّار، عَنْ مُحَمَّد بْن عُمَر بْن هَيَّاج الكُوفِيّ، عَنْ عُبَيْد الله بْن مُوسَى، عَنْ فُضَيْل بْن مَرْزُوق بِهِ، ثُمَّ قَال: لا يُعْرَف مِنْ حَدِيث أَبِي سَعِيد إِلَّا مِنْ طَرِيقه، عَنْ عَطِيَّة عَنْهُ، وَقَال فِي آخِره: «فَيَقُول الله: إِيَّايَ عَصَيْتُمْ فَكَيْف بِرُسُلِي بِالغَيْبِ؟!».

الحَدِيث السَّابع – عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل ﷺ : قَال هِشَام بْن عَمَّار، وَمُحَمَّد بْن المُبَارَك الصُّورِيّ: حَدَّثنَا عَمْرو بْن وَاقِد، عَنْ يُونُس بْن حلبس، عَنْ أَبِي إِدْرِيس الخَوْلانِيّ، عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل، عَنْ نَبِيّ الله ﷺ قَال: «يُؤْتَى يَوْم القِيَامَة بِالمَمْسُوخ عَقْلاً وَبِالهَالكِ فِي الفَتْرَة، وَبِالهَالكِ صَغِيرًا، فَيَقُول المَمْسُوخ: يَا رَبّ لوْ آتَيْتَنِي عَقْلاً مَا كَانَ مَنْ آتَيْته عَقْلاً بِأَسْعَد مِنِّي». وَذَكَرَ فِي الهَالك فِي الفَتْرَة وَالصَّغِير نَحْو ذَلكَ، «فَيَقُول الرَّبّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي آمُرُكُمْ بِأَمر، فَتُطِيعُونِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُول: اذْهَبُوا فَادْخُلُوا النَّار. قَال: وَلوْ دَخَلُوهَا مَا ضَرَّتْهُمْ، فَتَخْرُج عَلَيْهِمْ قَوَابِض فَيَظُنُّونَ أَنَّهَا قَدْ أَهْلكَتْ مَا خَلقَ الله مِنْ شَيْء، فَيَرْجِعُونَ سِرَاعًا، ثُمَّ يَأْمُرُهُمْ الثَّانِيَة فَيَرْجِعُونَ كَذَلك، فَيَقُول الرَّبّ عَزَّ وَجَلَّ: قَبْل أَنْ أَخْلُقكُمْ عَلمْت مَا أَنْتُمْ عَامِلُونَ، وَعَلى عِلمِي خَلقْتُكُمْ، وَإِلى عِلمِي تَصِيرُونَ، ضُمِّيهِمْ فَتَأْخُذهُمْ النَّار».[٢]

الحَدِيث الثَّامِن – عَنْ أبِي هُرَيْرَة ﷺ **وَأَرْضَاهُ:** قَدْ تَقَدَّمَ رِوَايَته مُنْدَرِجَة مَعَ رِوَايَة الأَسْوَد بْن سَرِيع ﷺ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**كُلّ مَوْلُود يُولد عَلى الفِطْرَة، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَج البَهِيمَة بَهِيمَة جَمْعَاء، هَل تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاء؟**»[٣]. وَفِي رِوَايَة قَالُوا: يَا رَسُول الله، أَفَرَأَيْت مَنْ يَمُوت صَغِيرًا؟ قَال: «**الله أَعْلم بِمَا كَانُوا عَامِلِين**».[٤]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا مُوسَى بْن دَاوُد، حَدَّثنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن ثَابِت، عَنْ عَطَاء بْن قرة، عَنْ عَبْد الله بْن ضَمْرَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ عَنْ النَّبِيّ ﷺ –فِيمَا أَعْلم، شَكَّ مُوسَى– قَال: «**ذَرَارِيّ المُسْلمِينَ فِي الجَنَّة، يَكْفُلهُمْ إِبْرَاهِيم** عليه السلام »[٥]. وَفِي «صَحِيح مُسْلم» عَنْ عِيَاض بْن حمار عَنْ رَسُول الله ﷺ عَنْ الله عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَال: «**إِنِّي خَلقْت عِبَادِي حُنَفَاء**»[٣]. وَفِي رِوَايَة لغَيْرِهِ: «**مُسْلمِينَ**».

الحَدِيث التَّاسِع – عَنْ سَمُرَة ﷺ: رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَرْقَانِيّ فِي كِتَابه: «المُسْتَخْرَج عَلى البُخَارِيّ» مِنْ حَدِيث عَوْف الأَعْرَابِيّ، عَنْ أَبِي رَجَاء العُطَارِدِيّ، عَنْ سَمُرَة ﷺ عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**كُلّ مَوْلُود يُولد عَلى الفِطْرَة**». فَنَادَاهُ النَّاس: يَا رَسُول الله، وَأَوْلاد المُشْرِكِينَ؟ قَال: «**وَأَوْلاد المُشْرِكِينَ**». وَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثنَا

---

(١) ضعيف : فيه عطية العوفي: ضعيف، وهو شيعي مدلس.
(٢) ضعيف جدًا : في إسناده عمرو بن واقد: متروك.
(٣) صحيح : تقـدم.
(٤) صحيح : أخرجه أبو داود (٤٧١٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٥) صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٣٤٢٨).

عَبْد الله بْن أَحْمَد، حَدَّثَنَا عُقْبَة بْن مُكْرِم الضَّبِّيّ، عَنْ عِيسَى بْن شُعَيْب، عَنْ عَبَّاد بْن مَنْصُور، عَنْ أَبِي رَجَاء، عَنْ سَمُرَة قَال: سَأَلنَا رَسُول الله ﷺ عَنْ أَطْفَال المُشْرِكِينَ؟ قَال: **«هُمْ خَدَم أَهْل الجنَّة»**.(١)

الحَدِيث العَاشِر – عَنْ عَمّ حسناء: قَال الإمام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إسحاق -يعني الأزرق- أخبرنا رَوْح، حَدَّثَنَا عَوْف، عَنْ حسناء بِنْت مُعَاوِيَة -مِنْ بَنِي صَرِيم- قَالتْ: حَدَّثَنِي عَمِّي قَال: قُلت: يَا رَسُول الله، مَنْ فِي الجَنَّة؟ قَال: **«النَّبِيّ فِي الجنَّة، وَالشَّهِيد فِي الجنَّة، وَالمَوْلُود فِي الجنَّة، وَالوَئِيد فِي الجنَّة»**(٢). فَمِنَ العُلَماء مَنْ ذَهَبَ إِلى التوقف فِيهِمْ لِهَذَا الحَدِيث، وَمِنْهُمْ مَنْ جَزَمَ لَهُمْ بِالجَنَّةِ؛ لِحَدِيثِ سَمُرَة بْن جُنْدُب(٣) فِي «صَحِيح البُخَارِيّ» أَنَّهُ عليه الصلاة والسلام قَال فِي جُمْلَة ذَلكَ المَنَام، حِين مَرَّ عَلى ذَلكَ الشَّيْخ، تَحْت الشَّجَرَة وَحَوْله وِلدَان، فَقَال لهُ جِبْرِيل: «هَذَا إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهَؤُلاءِ أَوْلاد المُسْلِمِينَ وَأَوْلاد المُشْرِكِينَ». قَالُوا: يَا رَسُول الله وَأَوْلاد المُشْرِكِينَ؟ قَال: **«نَعَمْ وَأَوْلاد المُشْرِكِينَ»**. وَمِنْهُمْ مَنْ جَزَمَ لَهُمْ بِالنَّارِ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **«هُمْ مَعَ آبَائِهِمْ»**. وَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلى أَنَّهُمْ يُمْتَحَنُونَ يَوْم القِيَامَة فِي العَرَصَات، فَمَنْ أَطَاعَ دَخَل الجَنَّة، وَانْكَشَفَ عِلم الله فِيهِمْ بِسَابِقِ السَّعَادَة، وَمَنْ عَصَى دَخَل النَّار دَاخِرًا، وَانْكَشَفَ عِلم الله فِيهِ بِسَابِقِ الشَّقَاوَة. وَهَذَا القَوْل يَجْمَع بَيْن الأَدِلَّة كُلّهَا، وَقَدْ صَرَّحَتْ بِهِ الأَحَادِيث المُتَقَدِّمَة المُتَعَاضِدَة الشَّاهِد بَعْضهَا لبَعْضٍ. وَهَذَا القَوْل هُوَ الَّذِي حَكَاهُ الشَّيْخ أَبُو الحَسَن عَلِيّ بْن إِسْمَاعِيل الأَشْعَرِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَهْل السُّنَّة وَالجَمَاعَة، وَهُوَ الَّذِي نَصَرَهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَاب «الاعْتِقَاد»، وَكَذَلكَ غَيْره مِنْ مُحَقِّقِي العُلَماء وَالحُفَّاظ وَالنُّقَّاد. وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخ أَبُو عُمَر ابْن عَبْد البَرّ النَّمِرِيّ بعض ما تَقَدَّمَ مِنْ أَحَادِيث الامْتِحَان، ثُمَّ قَال: وَأَحَادِيث هَذَا البَاب لَيْسَتْ قَوِيَّة، وَلا تَقُوم بِهَا حُجَّة وَأَهْل العِلم يُنْكِرُونَهَا، لأَنَّ الآخِرَة دَار جَزَاء وَلَيْسَتْ دار عَمَل وَلا ابْتِلاء، وكيف يُكَلَّفُونَ دُخُول النَّار وَلَيْسَ ذَلكَ فِي وُسْع المَخْلُوقِينَ، وَالله لا يُكَلِّف نَفْسًا إِلَّا وُسْعهَا؟!

وَالجوَاب عمَّا قَال: إِنَّ أَحَادِيث هَذَا البَاب مِنْهَا مَا هُوَ صَحِيح -كَمَا قَدْ نَصَّ عَلى ذَلكَ غير واحد مِنْ أَئِمَّة العُلَماء-، وَمِنْهَا مَا هُوَ حَسَن، وَمِنْهَا مَا هُوَ ضَعِيف يَقْوَى بِالصَّحِيحِ وَالحَسَن، وَإِذَا كَانَتْ أَحَادِيث البَاب الوَاحِد مُتَعَاضِدَة عَلى هَذَا النَّمَط أَفَادَتْ الحُجَّة عِنْد النَّاظِر فِيهَا.

وَأَمَّا قَوْله: «إِنَّ الآخِرَة دَار جَزَاء»، فَلا شَكَّ أَنَّهَا دَار جَزَاء، وَلا يُنَافِي التَّكْلِيف فِي عَرَصَاتِهَا قَبْل دُخُول الجَنَّة أَوْ النَّار، كَمَا حَكَاهُ الشَّيْخ أَبُو الحَسَن الأَشْعَرِيّ عَنْ مَذْهَب أَهْل السُّنَّة وَالجَمَاعَة مِنْ امْتِحَان الأَطْفَال، وَقَدْ قَال الله تَعَالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، وَقَدْ ثبتت السنة فِي الصِّحَاح وَغَيْرهَا أَنَّ المُؤْمِنِينَ يَسْجُدُونَ لله يَوْم القِيَامَة، وأما المُنَافِق فلا يَسْتَطِيع ذَلكَ وَيَعُود ظَهْره طَبَقًا وَاحِدًا كُلَّمَا أَرَادَ السُّجُود خَرَّ لِقَفَاهُ(٤). وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» فِي الرَّجُل الَّذِي يَكُون آخِر أَهْل النَّار خُرُوجًا مِنْهَا؛ أَنَّ الله يَأْخُذ عُهُوده وَمَوَاثِيقه أَنْ لا يَسْأَل غَيْر مَا هُوَ فِيهِ، وَيَتَكَرَّر ذَلكَ مِرَارًا، وَيَقُول الله تَعَالى: يَا ابْن آدَم، مَا أَغْدَرك! ثُمَّ يَأْذَن لهُ فِي دُخُول الجَنَّة.(٥)

وَأَمَّا قَوْله: «وكَيْف يُكَلِّفهُمْ الله دُخُول النَّار وَلَيْس ذَلكَ فِي وُسْعهمْ؟» فَلَيْسَ هَذَا بِمَانِعٍ مِنْ صِحَّة الحَدِيث؛ فَإِنَّ الله يَأْمُر العِبَاد يَوْم القِيَامَة بِالجَوَازِ عَلى الصِّرَاط، وَهُوَ جِسْر عَلى جَهَنَّم، أَحَدّ مِنْ السَّيْف وَأَدَقّ مِنْ الشَّعْرَة،

---

(١) صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٢٥٨٦).
(٢) صحيح : أخرجه أبو داود (٢٥٢١)، وأحمد (٥/ ٥٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٣) صحيح : أخرجه البخاري (٧٠٤٧)، ومسلم (٢٢٧٥).
(٤) صحيح : أخرجه البخاري (٤٥٣٨).
(٥) صحيح : أخرجه البخاري (٧٦٤).

وَيَمُرّ الْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ كَالبَرْقِ، وَكَالرِّيح، وَكَأَجَاوِيد الخَيْل وَالرِّكَاب، وَمِنْهُمْ السَّاعِي، وَمِنْهُمْ المَاشِي، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْبُو حَبْوًا، وَمِنْهُمْ المَكْدُوش عَلى وَجْهه فِي النَّار.[1] وَلَيْسَ مَا وَرَدَ فِي أُولَئِكَ بِأَعْظَم مِنْ هَذَا؛ بَل هَذَا أَطَمّ وَأَعْظَم، وَأَيْضًا فَقَدْ ثَبَتَتْ السُّنَّة بِأَنَّ الدَّجَّال يَكُون مَعَهُ جَنَّة وَنَار، وَقَدْ أَمَرَ الشَّارِع الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُدْرِكُونَهُ أَنْ يَشْرَب أَحَدهمْ مِنْ الَّذِي يَرَى أَنَّهُ نَار؛ فَإِنَّهُ يَكُون عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلامًا، فَهَذَا نَظِير ذلك وَأَيْضًا فَإِنَّ الله تَعَالى أَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيل أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسهمْ، فَقَتَل بَعْضهمْ بَعْضًا حَتَّى قَتَلُوا -فِيمَا قِيل- فِي غَدَاة وَاحِدَة سَبْعِينَ أَلْفًا، يَقْتُل الرَّجُل أَبَاهُ وَأَخَاهُ وَهُمْ فِي عَمَايَة -غَمَامَة- أَرْسَلهَا الله عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ عُقُوبَة لَهُمْ عَلى عِبَادَتهمْ العِجْل، وَهَذَا أَيْضًا شَاقّ عَلى النُّفُوس جِدًّا، لا يَتَقَاصَر عَمَّا وَرَدَ فِي الحَدِيث المَذْكُور، وَالله أَعْلم.

فَصْل: فإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاس فِي وِلدَان المُشْرِكِينَ عَلى أَقْوَال؛ **أحْدهَا:** أَنَّهُمْ فِي الجَنَّة، وَاحْتَجُّوا بِحَدِيثِ سَمُرَة: أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَأَى مَعَ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْلاد المُسْلِمِينَ وَأَوْلاد المُشْرِكِينَ، وَبِمَا تَقَدَّمَ فِي رِوَايَة أَحْمد عَنْ حسناء عَنْ عَمّهَا: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«وَالمَوْلُود فِي الجَنَّة»**[2]. وَهَذَا اسْتِدْلال صَحِيح، وَلكِنَّ أَحَادِيث الامْتِحَان أَخَصّ مِنْهُ، فَمَنْ عَلمَ الله مِنْهُ أَنَّهُ يُطِيع جَعَل رُوحه فِي البَرْزَخ مَعَ إِبْرَاهِيم وَأَوْلاد المُسْلِمِينَ الَّذِينَ مَاتُوا عَلى الفِطْرَة، وَمَنْ عَلمَ مِنْهُ أَنَّهُ لا يُجِيب فَأَمْره إِلى الله تَعَالى، وَيَوْم القِيَامَة يَكُون فِي النَّار كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ أَحَادِيث الامْتِحَان، وَنَقَلهُ الأَشْعَرِيّ عَنْ أَهْل السُّنَّة، ثُمَّ إِنَّ هَؤُلاءِ القَائِلِينَ بِأَنَّهُمْ فِي الجَنَّة مِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلهُمْ مُسْتَقِلِّينَ فِيهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلهُمْ خَدَمًا لهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيث عَلِيّ بْن زَيْد عَنْ أَنَس عِنْد أَبِي دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَهُوَ ضَعِيف، وَالله أَعْلم.

وَالقَوْل الثَّانِي: أَنَّهُمْ مَعَ آبَائِهِمْ فِي النَّار، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِمَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل، عَنْ أَبِي المُغِيرَة، حَدَّثَنَا عُتْبَة بْن ضَمْرَة بْن حَبِيب، حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن أَبِى قَيْس -مَوْلى غُطَيْف- أَنَّهُ أَتَى عَائِشَة، فَسَأَلهَا عَنْ ذَرَارِيّ الكُفَّار، فَقَالتْ: قَال رَسُول الله ﷺ : **«هُمْ تَبَع لآبَائِهِمْ»**. فَقُلت: يَا رَسُول الله، بِلا عَمَل؟ فَقَال: **«الله أَعْلم بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ»**[3]. وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بْن حَرْب، عَنْ مُحَمَّد بْن زِيَاد الأَلْهَانِيّ، سَمِعْت عَبْد الله ابْن أَبِي قَيْس، سَمِعْت عَائِشَة تَقُول: سَأَلت رَسُول الله ﷺ عَنْ ذَرَارِيّ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَال: **«هُمْ من آبَائِهِمْ»**. قُلت: فَذَرَارِيّ المُشْرِكِينَ؟ قَال: **«هُمْ من آبَائِهِمْ»**. قلت: بِلا عَمَل ؟ قَال: **«الله أَعْلم بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ»**[4]. وَرَوَاهُ أَحْمَد أَيْضًا، عَنْ وَكِيع، عَنْ أَبِي عُقَيْل يَحْيَى بْن المُتَوَكِّل، وَهُوَ مَتْرُوك عَنْ مَوْلاته بهَيَّة، عَنْ عَائِشَة أَنَّهَا ذَكَرَتْ لرَسُول الله ﷺ أَطْفَال المُشْرِكِينَ فَقَال: **«إِنْ شِئْت أَسْمَعْتُك تَضَاغِيهِمْ فِي النَّار»**.[5]

وَقال عَبْد الله ابْن الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن أَبِي شَيْبَة، عَنْ مُحَمَّد بْن فُضَيْل بْن غَزْوَان، عَنْ مُحَمَّد بْن عُثْمَان، عَنْ زَاذَان، عَنْ عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَال: سَأَلتْ خَدِيجَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا رَسُول الله ﷺ عَنْ وَلدَيْنِ لهَا مَاتَا فِي الجَاهِليَّة، فَقَال: **«هُمَا فِي النَّار»**. قَال: فَلمَّا رَأَى الكَرَاهِيَة فِي وَجْههَا، قَال: **«لوْ رَأَيْت مَكَانهمَا لأَبْغَضْتهمَا»**. قَالتْ: فَوَلدِي مِنْك؟ قَال: **«فى الجنة»**، قَال: ثم قَال رسول الله ﷺ : **«إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْلادهمْ فِي الجَنَّة، وَإِنَّ المُشْرِكِينَ وَأَوْلادهمْ فِي النَّار»**. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾[6] وَهَذَا حَدِيث غَرِيب، فَإِنَّ مُحَمَّد بْن عُثْمَان هذا مَجْهُول الحَال، وَشَيْخه زَاذَان لمْ يُدْرِك عَلِيًّا، وَالله أَعْلم.

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (٢٨٨).
(٢) صحيح : تقـدم.
(٣) صحيح : أخرجه أبو داود (٤٧١٢)، وأحمد (٦/ ٨٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٤) صحيح : أخرجه أبو داود (٤٧١٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٥) ضعيف جدًا : أخرجه أحمد (٦/ ٢٠٨)، قال الحافظ في «الفتح»: حديث ضعيف جدًا؛ لأن أبا عقيل مولى بهية متروك.
(٦) ضعيف : أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (١/ ١٣٤)، وإسناده ضعيف.

وَرَوَى أَبُو دَاوُد مِنْ حَدِيث ابْن أَبِي زَائِدَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الشَّعْبِيّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : **«الوَائِدَة وَالمَوْءُودَة فِي النَّار»**[١]. ثُمَّ قَال الشَّعْبِيّ: حَدَّثَنِي بِهِ عَلقَمَة، عَنْ أَبِي وَائِل، عَنْ ابْن مَسْعُود. وَقَدْ رَوَاهُ جَمَاعَة عَنْ دَاوُد بْن أَبِي هِنْد، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ عَلقَمَة، عَنْ سَلمَة بْن قَيْس الأَشْجَعِيّ قَال: أَتَيْت أَنَا وَأَخِي النَّبِيّ ﷺ فَقُلنَا: إِنَّ أُمّنَا مَاتَتْ فِي الجَاهِلِيَّة، وَكَانَتْ تَقْرِي الضَّيْف وَتَصِل الرَّحِم، وَأَنَّهَا وَأَدَتْ أُخْتًا لنَا فِي الجَاهِلِيَّة لمْ تَبْلُغ الحِنْث، فَقَال: **«الوَائِدَة وَالمَوْءُودَة فِي النَّار إلاَّ أَنْ تُدْرِك الوَائِدَة الإِسْلام فَتُسْلم»**.[٢] وَهَذَا إِسْنَاد حَسَن.

وَالقَوْل الثَّالث: التَّوَقُّف فِيهِمْ، وَاعْتَمَدُوا عَلى قَوْله ﷺ : **«الله أَعْلم بِمَا كَانُوا عَامِلينَ»**. وَهُوَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث جَعْفَر بْن أَبِي إِيَاس، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس: سُئِل رَسُول الله ﷺ عَنْ أَوْلاد المُشْرِكِينَ قَال: **«الله أَعْلم بِمَا كَانُوا عَامِلينَ»**. وَكَذَلكَ هُوَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، عَنْ عَطَاء بْن يَزِيد، وَعَنْ أَبِي سَلمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ سُئِل عَنْ أَطْفَال المُشْرِكِينَ؟ فَقَال: **«الله أَعْلم بِمَا كَانُوا عَامِلينَ»**[٣]. وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلهُمْ مِنْ أَهْل الأَعْرَاف، وَهَذَا القَوْل يَرْجِع إِلى قَوْل مَنْ ذَهَبَ إِلى أَنَّهُمْ مِنْ أَهْل الجَنَّة؛ لأَنَّ الأَعْرَاف ليْسَ دَار قَرَار، وَمَآل أَهْلهَا إِلى الجَنَّة، كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِير ذَلكَ فِي سُورَة الأَعْرَاف، وَالله أَعْلم.

فَصْل: وَليُعْلمْ أَنَّ هَذَا الخِلاف مَخْصُوص بِأَطْفَال المُشْرِكِينَ، فَأَمَّا وِلدَان المُؤْمِنِينَ فَلا خِلاف بَيْن العُلمَاء، كَمَا حَكَاهُ القَاضِي أَبُو يَعْلى ابْن الفَرَّاء الحَنْبَلِيّ، عَنْ الإِمَام أَحْمَد أَنَّهُ قَال: لا يُخْتَلف فِيهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْل الجَنَّة. وَهَذَا هُوَ المَشْهُور بَيْن النَّاس، وَهُوَ الَّذِي نَقْطَع بِهِ إِنْ شَاءَ الله عَزَّ وَجَلَّ. فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخ أَبُو عُمَر ابْن عَبْد البَرّ، عن بَعْض العُلمَاء أَنَّهُمْ تَوَقَّفُوا فِي ذَلكَ، وَأَنَّ الوِلدَان كُلّهمْ تَحْت مشيئة الله ﷻ، قَال أَبُو عُمَر: ذَهَبَ إِلى هَذَا القَوْل جَمَاعَة مِنْ أَهْل الفِقْه وَالحَدِيث، مِنْهُمْ: حَمَّاد بْن زَيْد، وَحَمَّاد بْن سَلمَة، وَابْن المُبَارَك، وَإِسْحَاق بْن رَاهْوَيْهِ، وَغَيْرهمْ. قَالوا: وَهُوَ يُشْبِه مَا رَسَمَ مَالك فِي «مُوَطَّئِهِ» فِي أَبْوَاب القَدَر، وَمَا أَوْرَدَهُ مِنْ الأَحَادِيث فِي ذَلكَ، وَعَلى ذَلكَ أَكْثَر أَصْحَابه، وَليْسَ عَنْ مَالك فِيهِ شَيْء مَنْصُوص؛ إِلَّا أَنَّ المُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَصْحَابه ذَهَبُوا إِلى أَنَّ أَطْفَال المُسْلمِينَ فِي الجَنَّة، وَأَطْفَال الكفار خَاصَّة فِي المَشِيئَة. انْتَهَى كَلامه، وَهُوَ غَرِيب جِدًّا. وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو عَبْد الله القُرْطُبِيّ فِي كِتَاب «التَّذْكِرَة» نَحْو ذَلكَ أَيْضًا، وَالله أَعْلم.

وَقَدْ ذَكَرُوا فِي ذَلكَ أَيْضًا حَدِيث عَائِشَة بِنْت طَلحَة، عَنْ عَائِشَة أُمّ المُؤْمِنِينَ قَالتْ: دُعِيَ النَّبِيّ ﷺ إِلى جِنَازَة صَبِيّ مِنْ الأَنْصَار، فَقُلت: يَا رَسُول الله، طُوبَى لهُ، عُصْفُور مِنْ عَصَافِير الجَنَّة، لمْ يَعْمَل السُّوء وَلمْ يُدْرِكهُ؛ فَقَال: **«أَوَغَيْر ذَلكَ يَا عَائِشَة، إِنَّ الله خَلقَ الجَنَّة وَخَلقَ لهَا أَهْلاً وَهُمْ فِي أَصْلاب آبَائِهِمْ وَخَلقَ النَّار، وَخَلقَ لهَا أَهْلاً، وَهُمْ فِي أَصْلاب آبَائِهِمْ»**[٤]. رَوَاهُ أحمد، ومسلم، وَأَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ.

وَلـمَّا كَانَ الكَلام فِي هَذِهِ المَسْأَلة يَحْتَاج إِلى دَلائِل صَحِيحَة جَيِّدَة، وَقَدْ يَتَكَلَّم فِيهَا مَنْ لا عِلم عِنْده عَنْ الشَّارِع -كَرِهَ جَمَاعَة مِنْ العُلمَاء الكَلام فِيهَا- رُوِيَ ذَلكَ عَنْ ابْن عَبَّاس، وَالقَاسِم بْن مُحَمَّد بْن أَبِي بَكْر الصِّدِّيق، وَمُحَمَّد ابْن الحَنَفِيَّة وَغَيْرهمْ. وَأَخْرَجَ ابْن حِبَّان فِي «صَحِيحه»: عَنْ جَرِير بْن حَازِم، سَمِعْت أَبَا رَجَاء العُطَارِدِيّ، سَمِعْت ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما وَهُوَ عَلى المِنْبَر يَقُول: قَال رَسُول الله ﷺ : **«لا يَزَال أَمْر هَذِهِ الأُمَّة**

---

(١) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٤٧١٧) من حديث ابن مسعود، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٢) صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٧١٤٣).
(٣) **صحيح** : أخرجه البخاري (١٣٨٣)، ومسلم (٢٦٦٠) من حديث ابن عباس.
(٤) **صحيح** : تقـدم.

مُوَاتِيًا -أَوْ: مُقَارِبًا- مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا فِي الوِلْدَانِ وَالقَدَرِ»[1]. قَالَ ابْن حِبَّان: يَعْنِي أَطْفَال المُشْرِكِينَ. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو بَكْر البَزَّار، مِنْ طَرِيق جَرِير بن حَازِم بِهِ. ثُمَّ قَالَ: وَقَدْ رَوَاهُ جَمَاعَة عَنْ أَبِي رَجَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس مَوْقُوفًا.

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾.

اخْتَلَفَ القُرَّاء فِي قِرَاءَة قَوْله: ﴿أَمَرْنَا﴾ فَالمَشْهُور قِرَاءَة التَّخْفِيف، وَاخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهَا، فَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا أَمْرًا قَدَرِيًّا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾؛ فَإِنَّ الله لا يَأْمُر بِالفَحْشَاءِ، قَالُوا: مَعْنَاهُ أَنَّهُ سَخَّرَهُمْ إِلَى فِعْل الفَوَاحِش فَاسْتَحَقُّوا العَذَاب. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَاتِ فَفَعَلُوا الفَوَاحِش؛ فَاسْتَحَقُّوا العُقُوبَة. رَوَاهُ ابْن جُرَيْج عَنْ ابْن عَبَّاس، وَقَالَهُ سَعِيد بْن جُبَيْر أَيْضًا.

وَقَال ابْن جَرِير: وقد يَحْتَمِل أَنْ يَكُون مَعْنَاهُ جَعَلْنَاهُمْ أُمَرَاء. قُلت: إِنَّمَا يَجِيء عَلَى قِرَاءَة مَنْ قَرَأَ ﴿أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾، قَال عَلِيّ بْن طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس قَوْله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ يَقُول: سَلَّطْنَا أَشْرَارهَا فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكَهُمْ الله بِالعَذَابِ، وَهُوَ قَوْله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ الآيَة، وَكَذَا قَال أَبُو العَالِيَة، وَمُجَاهِد وَالرَّبِيع بْن أَنَس.

وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ يَقُول: أَكْثَرْنَا عَدَدهمْ، وَكَذَا قَال عِكْرِمَة، وَالحَسَن، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة. وَعَنْ مَالك عَنْ الزُّهْرِيّ: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أَكْثَرْنَا، وَقَدْ اسْتَشْهَدَ بَعْضهمْ بِالحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، حَيْثُ قَال: حَدَّثَنَا رَوْح بْن عُبَادَة، حَدَّثَنَا أَبُو نعامة العَدَوِيّ عَنْ مُسْلم بْن بُدَيْل عَنْ إِيَاس بْن زُهَيْر عَنْ سُوَيْد بْن هُبَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «خَيْر مَال امْرِئٍ لهُ مُهْرَة مَأْمُورَة، أَوْ سِكَّة مَأْبُورَة»[2]. قَال الإِمَام أَبُو عُبَيْد القَاسِم بْن سَلَّام رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابه «الغَرِيب»: المَأْمُورَة. كَثِيرَة النَّسْل، وَالسِّكَّة: الطَّرِيقَة المُصْطَفَّة مِنْ النَّخْل، وَالمَأْبُورَة مِنْ التَّأْبِير، وَقَال بَعْضهمْ: إِنَّمَا جَاءَ هَذَا مُتَنَاسِبًا، كَقَوْلِهِ: «مَأْزُورَات غَيْر مَأْجُورَات».

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُنْذِرًا كُفَّار قُرَيْش فِي تَكْذِيبهمْ رسول الله مُحَمَّدًا ﷺ، بِأَنَّهُ قَدْ أَهْلَكَ أُمَمًا مِنْ المُكَذِّبِينَ للرُّسُل مِنْ بَعْد نُوح، وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ القُرُون الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ آدَم وَنُوح عَلَى الإِسْلام، كَمَا قَالَهُ ابْن عَبَّاس: كَانَ بَيْنَ آدَم وَنُوح عَشَرَة قُرُون، كُلّهمْ عَلَى الإِسْلام. وَمَعْنَاهُ: أَنَّكُمْ أَيُّهَا المُكَذِّبُونَ لَسْتُمْ أَكْرَم عَلَى الله مِنْهُمْ، وَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَشْرَف الرُّسُل وَأَكْرَم الخَلائِق فَعُقُوبَتكُمْ أَوْلَى وَأَحْرَى. وَقَوْله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أَيْ هُوَ عَالم بِجَمِيع أَعْمَالهمْ، خَيْرهَا وَشَرّهَا، لا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا خَافِيَة سُبْحَانه وَتَعَالَى.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾.

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ مَا كُلّ مَنْ طَلَب الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنْ النَّعِيم يَحْصُل لهُ، بَل إِنَّمَا يَحْصُل لِمَنْ أَرَادَ الله مَا يَشَاء، وَهَذِهِ مُقَيِّدَة لِإِطْلاقِ مَا سِوَاهَا مِنْ الآيَات، فَإِنَّهُ قَال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ أَيْ: فِي الدَّار الآخِرَة ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ أَيْ: يَدْخُلهَا حَتَّى تَغْمُرهُ مِنْ جَمِيع جَوَانِبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أَيْ: فِي حَال كَوْنه مَذْمُومًا عَلَى سُوء تَصَرُّفه وَصَنِيعه، إِذْ اخْتَارَ الفَانِي عَلَى البَاقِي ﴿مَّدْحُورًا﴾ مُبْعَدًا مُقْصَيًا حَقِيرًا ذَلِيلًا مُهَانًا.

---

(١) **صحيح** : أخرجه ابن حبان (٦٧٢٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٥١٥).

(٢) **ضعيف** : أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٨)، وإسناده مرسل، وفيه مسلم بن بديل، وإياس بن زهير لم يوثقهما إلا ابن حبان. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٢٩٢٦).

رَوَى الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حُسَيْن، حَدَّثَنَا ذويد عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عروة عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالَتْ: قَال رَسُول الله ﷺ: «الدُّنْيَا دَار مَنْ لا دَار لهُ، وَمَال مَنْ لا مَال لهُ، وَلهَا يَجْمَع مَنْ لا عَقْل لهُ»[1]. وَقَوْله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ أَيْ: أَرَادَ الدَّار الآخِرَة وَمَا فِيهَا مِنْ النعيم وَالسُّرُور، ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أَيْ: طَلَب ذَلِكَ مِنْ طَرِيقه، وَهُوَ مُتَابَعَة الرَّسُول ﷺ، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أَيْ: قَلبه مُؤْمِن، أَيْ: مُصَدِّق مُوقِن بِالثَّوَابِ وَالجَزَاء؛ ﴿فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾.

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿ كُلًّا ﴾ أَيْ: كُل وَاحِد مِنْ الفَرِيقَيْنِ، الَّذِينَ أَرَادُوا الدُّنْيَا وَالَّذِينَ أَرَادُوا الآخِرَة نُمِدّهُمْ فِيمَا هم فيه ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ ﴾ أَيْ: هُوَ المُتَصَرِّف، الحَاكِم الَّذِي لا يَجُور، فَيُعْطِي كُلًّا مَا يَسْتَحِقّهُ مِنْ السَّعَادَة وَالشَّقَاوَة، فَلا رَادّ لحُكْمِهِ، وَلا مَانِع لمَا أَعْطَى، وَلا مُغَيِّر لمَا أراده؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ أَيْ: لا يَمْنَعهُ أَحَد وَلا يَرُدّهُ رَادّ. قَال قَتَادَة: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ أَيْ: مَنْقُوصًا، وَقَال الحَسَن وَغَيْره: أَيْ مَمْنُوعًا، ثُمَّ قَال: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا، فَمِنْهُمْ الغَنِيّ وَالفَقِير وَبَيْن ذَلِكَ، وَالحَسَن وَالقَبِيح وَبَيْن ذَلِكَ، وَمَنْ يَمُوت صَغِيرًا، وَمَنْ يُعَمَّر حَتَّى يَبْقَى شَيْخًا كَبِيرًا، وَبَيْن ذَلِكَ ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أَيْ: وَلتَفَاوُتهمْ فِي الدَّار الآخِرَة أَكْبَر مِنْ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُون فِي الدَّرَكَات فِي جَهَنَّم وَسَلاسِلهَا وَأَغْلالهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُون فِي الدَّرَجَات العُلى وَنَعِيمهَا وَسُرُورهَا، ثُمَّ أَهْل الدَّرَكَات يَتَفَاوَتُونَ فِيمَا هُمْ فِيهِ كَمَا أَنَّ أَهْل الدَّرَجَات يَتَفَاوَتُونَ؛ فَإِنَّ الجَنَّة مِائَة دَرَجَة، مَا بَيْن كُل دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «**إِنَّ أَهْل الدَّرَجَات العُلى ليَرَوْنَ أَهْل عِلِّيِّينَ كَمَا تَرَوْنَ الكَوْكَب الغَابِر فِي أُفُق السَّمَاء**»[2]. وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، وَفِي الطَّبَرَانِيّ مِنْ رِوَايَة زَاذَان عَنْ سَلمَان مَرْفُوعًا: «مَا مِنْ عَبْد يُرِيد أَنْ يَرْتَفِع فِي الدُّنْيَا دَرَجَة فَارْتَفَعَ إِلاَّ وَضَعَهُ الله فِي الآخِرَة أَكْبَر مِنْهَا». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.[3]

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾.

يَقُول تَعَالى -وَالمُرَاد المُكَلَّفُونَ مِنْ الأُمَّة-: لا تَجْعَل أَيهَا المُكَلَّف فِي عِبَادَتك رَبّك لهُ شَرِيكًا ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ عَلى إِشْرَاكك، ﴿مَّخْذُولًا﴾ لأَنَّ الرَّبّ تَعَالى لا يَنْصُرك، بَل يَكِلك إِلى الَّذِي عَبَدْت مَعَهُ، وَهُوَ لا يَمْلك لك ضَرًّا وَلا نَفْعًا، لأَنَّ مَالك الضُّرّ وَالنَّفْع هُوَ الله وَحْده لا شَرِيك لهُ.

وَقَدْ قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَد الزُّبَيْرِيّ، حَدَّثَنَا بَشِير بْن سلمان عَنْ سَيَّار أَبِي الحَكَم. عَنْ طَارِق بْن شِهَاب، عَنْ عَبْد الله -هو ابن مَسْعُود- قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَة فَأَنْزَلهَا بِالنَّاسِ، لمْ تُسَدّ فَاقَته، وَمَنْ أَنْزَلهَا بالله أوشك الله لهُ بالغِنَى، إِمَّا أجل عاجل، وإما غني عاجل**».[4] وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث بَشِير بْن سلمان بِهِ وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح غَرِيب.

---

(١) **ضعيف**: تقـدم.
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).
(٣) **موضوع**: أخرجه الطبراني (٦/ ٦١٠١)، وفيه عبد الغفور بن سعيد الأنصاري وضَّاع، وقال الألباني: حديث موضوع، انظر «الصحيحة» (٣٤٤).
(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٦٤٥)، والترمذي (٢٤٢٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾.

يَقُول تَعالى آمِرًا بِعبَادَتِهِ وَحْده لا شَرِيك لهُ؛ فَإِنَّ القَضَاء هَاهُنَا بِمَعْنَى الأَمْر. قَال مُجَاهِد: ﴿وَقَضَىٰ﴾ يَعْنِي: وَصَّى. وَكَذَا قَرَأَ ذلك أُبَيّ بْن كَعْب، وعبد الله بن مَسْعُود، وَالضَّحَّاكُ بْن مُزَاحِم: (وَوَصَّى رَبّك أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ)، وَلهَذَا قَرَنَ بِعِبَادَتِهِ بِرّ الوَالدَيْنِ، فَقَال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ أَيْ: وَأَمَرَ بِالوَالدَيْنِ إِحْسَانًا، كما قال في الآيَة الأُخْرَى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾. وَقَوْله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أَيْ: لا تُسْمِعهُمَا قَوْلًا سَيِّئًا حَتَّى وَلا التَّأْفِيف الَّذِي هُوَ أَدْنَى مَرَاتِب القَوْل السَّيِّئ ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أَيْ: وَلا يَصْدُر مِنك إِلَيْهِمَا فِعْل قَبِيح، كَمَا قَال عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح فِي قَوْله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أَيْ: لا تَنْفُض يَدك على والديك. وَلَمَّا نَهَاهُ عَنْ القَوْل القَبِيح، وَالفِعْل القَبِيح؛ أَمَرَهُ بِالقَوْل الحَسَن، وَالفِعْل الحَسَن؛ فَقَال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أَيْ: لَيِّنًا، طَيِّبًا، حَسَنًا بأدب، وَتَوْقِير، وَتَعْظِيم. ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أَيْ: تَوَاضَعْ لهُمَا بِفِعْلك، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ أَيْ: فِي كِبَرهمَا وَعِنْد وَفَاتهمَا ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾. قَال ابْن عَبَّاس ثُمَّ أَنْزَل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ﴾.

وَقَدْ جَاءَ فِي بِرّ الوَالدَيْنِ أَحَادِيث كَثِيرَة؛ مِنْهَا الحَدِيث المَرْوِيّ مِنْ طُرُق عَنْ أَنَس وَغَيْره، أَنَّ رسول الله لَمَّا صَعِدَ المِنْبَر قَال: «**آمِينَ، آمِينَ، آمِينَ**». فقالوا: يَا رَسُول الله، عَلامَ أَمَّنْت؟ قَال: «**أَتَانِي جِبْرِيل فَقَال: يَا مُحَمَّد، رَغِمَ أَنْف امرئ ذُكِرْت عِنْده فَلمْ يُصلِّ عليْك، فقُل: آمِينَ. فَقُلت: آمِينَ. ثُمَّ قَال: رَغِمَ أَنْف امرئ دَخَل عَلَيْهِ شَهْر رَمَضَان ثُمَّ خَرَجَ ولم يُغْفَر لهُ، قُل: آمِينَ. فَقُلت: آمِينَ. ثُمَّ قَال: رَغِمَ أَنْف رَجُل أَدْرَكَ أبويه -أَوْ أَحَدهمَا- فَلمْ يُدْخِلاهُ الجَنَّة، قُل: آمِينَ. فَقُلت: آمِينَ**».[1]

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هُشَيْم، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن زَيْد أخبرنا زُرَارَة بْن أَوْفَى عَنْ مَالك بْن الحَارِث عَنْ رَجُل مِنْهُمْ؛ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ يَقُول: «**مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا بين أَبَوَيْنِ مُسْلمَيْنِ إلى طَعَامه وَشَرَابه حَتَّى يَسْتَغْنِي عَنْهُ؛ وَجَبَتْ لهُ الجَنَّة البَتَّة، وَمَنْ أَعْتَقَ امرءًا مُسْلمًا كَانَ فِكَاكه مِنْ النَّار، يُجْزَى بِكُلِّ عُضْو مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ**»[2]. ثُمَّ قَال: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، سَمِعْت عَلِيّ بْن زَيْد، فَذَكَرَ مَعْنَاهُ، إِلَّا أَنَّهُ قَال: عَنْ رَجُل من قَوْمه يُقَال لهُ: مَالك، أَوْ: ابْن مَالك، وَزَادَ: «**وَمَنْ أَدْرَكَ وَالديْهِ أَوْ أَحَدهمَا فَدَخَل النَّار فَأَبْعَدَهُ الله**».[3]

حَدِيث آخَر: وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حدثنا حَمَّاد بْن سَلمَة، أخبرنا عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ زُرَارَة بْن أَوْفَى، عَنْ مَالك بْن عَمْرو القُشَيْرِيّ، سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَة مُسْلمَة فَهِيَ فِدَاؤُهُ مِنْ النَّار؛ مكان كُلّ عَظْم مِنْ عِظَامه محرره بِعَظْمٍ مِنْ عِظَامه، وَمَنْ أَدْرَكَ أَحَد وَالديْهِ، ثُمَّ لمْ يُغْفَر لهُ فَأَبْعَدَهُ الله ﷻ، وَمَنْ ضَمَّ يَتِيمًا بين أَبَوَيْنِ مُسْلمَيْنِ إِلى طَعَامه وَشَرَابه حَتَّى يُغْنِيه الله وَجَبَتْ لهُ الجَنَّة**».[4]

حَدِيث آخَر: وقال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَجَّاج وَمُحَمَّد بْن جَعْفَر، قَالا: حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ قَتَادَة، سَمِعْت

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٨٩٨)، ومسلم (١٠٧٩).
(٢) صحيح لغيره: أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٩٥).
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٤)، والطيالسي (١٣٢١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٤٣).
(٤) صحيح لغيره: أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٤)، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» صحيح لغيره (٣٥٤٣).

زُرَارَة بْن أَوْفَى يُحَدِّث عَنْ أَبِي بن مَالك القُشَيْرِيّ قَال: قَال النَّبِيّ ﷺ : **«مَنْ أَدْرَكَ وَالدَيْهِ أَوْ أَحَدهمَا ثُمَّ دَخَل النَّارِ مِنْ بَعْد ذَلكَ فَأَبْعَدَهُ الله وَأَسْحَقَهُ»**[١]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالسِيّ عَنْ شُعْبَة بِهِ وَفِيهِ زِيَادَات أُخَر.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَة، حَدَّثَنَا سُهَيْل بْن أَبِي صَالح، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«رَغِمَ أَنْف، ثُمَّ رَغِمَ أَنْف، ثُمَّ رَغِمَ أَنْف: رَجُل أَدْرَكَ والديه أحدهما أَوْ كِلاهُمَا عِنْد الكِبَر وَلَمْ يَدْخُل الجَنَّة»**.[٢] صَحِيح مِنْ هَذَا الوَجْه، وَلَمْ يخرجه سِوَى مُسْلم مِنْ حَدِيث أَبِي عَوَانَة، وَجَرِير وَسُلَيْمَان بْن بِلال عَنْ سُهَيْل بِهِ.

حَدِيث آخَر: وقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا رِبْعِيّ بْن إِبْرَاهِيم -قَال أَحْمَد: وَهُوَ أَخُو إِسْمَاعِيل ابْن عُلَيَّة، وَكَانَ يَفْضُل عَلَى أَخِيهِ- عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بن إِسْحَاق، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي سَعِيد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : **«رَغِمَ أَنْف رَجُل ذُكِرْت عِنْده فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْف رَجُل دَخَل عَلَيْهِ شَهْر رَمَضَان فَانْسَلَخَ قبل أن يُغْفَر لَهُ، وَرَغِمَ أَنْف رَجُل أَدْرَكَ عِنْده أَبَوَاهُ الكِبَر فَلَمْ يُدْخِلاهُ الجَنَّة»**، قَال رِبْعِيّ: وَلا أَعْلَمهُ إِلَّا قَال: **«أَوْ أَحَدهمَا»**[٣]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم الدَّوْرَقِيّ عَنْ رِبْعِيّ بْن إِبْرَاهِيم، ثُمَّ قَال: غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه.

حَدِيث آخَر: وقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يُونُس بن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن الغَسِيل، حَدَّثَنَا أَسِيد بْن عَلِيّ عَنْ أَبِيهِ علي بن عُبَيْد عَنْ أَبِي أُسَيْد -وَهُوَ مَالك بْن رَبِيعَة السَّاعِدِيّ- قَال: بَيْنَمَا أَنَا جَالس عِنْد رَسُول الله ﷺ إِذَا جَاءَهُ رَجُل مِنْ الأَنْصَار فَقَال: يَا رَسُول الله، هَل بَقِيَ عَلَيَّ مِنْ بِرّ أَبَوَيَّ شَيْء بَعْد مَوْتهمَا أَبَرّهمَا بِهِ؟ قَال: **«نَعَمْ، خِصَال أَرْبَع: الصَّلاة عَلَيْهِمَا، وَالاسْتِغْفَار لهُمَا، وَإِنْفَاذ عَهْدهمَا، وَإِكْرَام صَدِيقهمَا، وَصِلَة الرَّحِم الَّتِي لا رَحِم لكَ إِلاَّ مِنْ قِبَلهمَا، فَهُوَ الَّذِي بَقِيَ عَلَيْكَ بعد مَوْتهمَا من بِرّهمَا»**[٤]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن بْن سُلَيْمَان وَهُوَ ابْن الغَسِيل بِهِ.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا رَوْح، حَدَّثَنَا ابْن جُرَيْج، أَخْبَرَنِي مُحَمَّد بْن طَلْحَة بْن عبد الله بْن عَبْد الرَّحْمَن، عن أبيه، عَنْ مُعَاوِيَة بْن جَاهِمَة السُّلَمِيّ: أَنَّ جَاهِمَة جَاءَ إِلى النَّبِيّ ﷺ فَقَال: يَا رَسُول الله، أَرَدْت الغَزْو وَجِئْتُك أَسْتَشِيرك فَقَال: **«فَهَل لكَ مِنْ أُمّ؟»**. قَال: نَعَمْ. فقال: **«الزمها فَإِنَّ الجَنَّة تحت رِجْلَيْهَا»**. ثُمَّ الثَّانِيَة، ثُمَّ الثَّالثَة، فِي مَقَاعِد شَتَّى كَمِثْل هَذَا القَوْل.[٥] وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث ابْن جُرَيْج بِهِ.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا خَلف بْن الوَلِيد، حَدَّثَنَا ابْن عَيَّاش، عَنْ بحير بْن سَعْد، عَنْ خَالد بْن مَعْدَان، عَنْ المِقْدَام بْن مَعْد يَكْرِب الكندي عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«إِنَّ الله يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ، إِنَّ الله يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ الله يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ الله يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ، إِنَّ الله يُوصِيكُمْ بِالأَقْرَب فَالأَقْرَب»**[٦]. وَقَد أَخْرَجَهُ ابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث ابن عَيَّاش بِهِ.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يُونُس حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانة، عَنْ الأشعث بْن سُلَيْم، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَجُل مِنْ

---

(١) صححه الألباني في «الصحيحة» (٥١٥).

(٢) **صحيح** : أخرجه مسلم (٤٦٢٧).

(٣) **صحيح** : صححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٩٢٧).

(٤) **ضعيف** : أخرجه أبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه».

(٥) **حسن صحيح** : أخرجه النسائي (٦/ ١١)، وابن ماجه (٢٧٨١)، وقال الألباني: حسن صحيح. في «صحيح سنن النسائي» (٣١٠٤).

(٦) **صحيح** : أخرجه ابن ماجه (٣٦٦١)، وأحمد (٤/ ١٣١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

بَنِي يَرْبُوع قَال: أَتَيْت النَّبِيّ ﷺ فَسَمِعْته وَهُوَ يُكَلِّم النَّاس، يَقُول: «**يَد المُعْطِي العُليَا، أُمّك وَأبَاك، وأُخْتك وَأخَاك، ثُمَّ أدْنَاك أدْنَاك**».[1]

حَدِيث آخَر: قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر أَحْمَد بْن عَمْرو بْن عَبْد الخَالق البَزَّار فِي «مُسْنَده»: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن المُسْتَمِرّ العروقي، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن سُفْيَان، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن أَبِي جَعْفَر عَنْ لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم، عَنْ عَلْقَمَة بْن مَرْثَد عَنْ سُلَيْمَان بْن بُرَيْدَة عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ فِي الطَّوَاف حَامِلًا أُمّه يَطُوف بِهَا، فَسَأَل النَّبِيّ ﷺ: هَل أَدَّيْت حَقّهَا؟ قَال: «لا، وَلا بِزَفْرَةٍ وَاحِدَة»[2]. أَوْ كَمَا قَال. ثُمَّ قَال البَزَّار: لا نَعْلمهُ يُرْوَى إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه. **قُلت**: وَالحَسَن ابْن أَبِي جَعْفَر ضَعِيف، وَالله أَعْلَم.

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾.

قَال سَعِيد بْن جُبَيْر: هُوَ الرَّجُل تَكُون مِنْهُ البَادِرَة إِلى أَبَوَيْهِ، وَفِي نِيَّته وَقَلبه أَنَّهُ لا يُؤْخَذ بِهِ، وَفِي رِوَايَة: أنه لا يُرِيد إِلَّا الخَيْر بِذَلكَ، فَقَال: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ وَقَوْله: ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قَال قَتَادَة: للمُطِيعِينَ أَهْل الصَّلاة، وَعَنْ ابْن عَبَّاس: المُسَبِّحِينَ، وَفِي رِوَايَة عَنْهُ: المُطِيعِينَ المُحْسِنِينَ. وَقَال بَعْضهمْ: هُمْ الَّذِينَ يُصَلُّونَ بَيْن العِشَاءَيْنِ. وَقَال بَعْضهمْ: هُمْ الَّذِينَ يُصَلُّونَ الضُّحَى. وَقَال شُعْبَة: عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيِّب فِي قَوْله: ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قَال: الذي يُصِيبُ الذَّنْب ثُمَّ يَتُوبُ، وَيُصِيبُ الذَّنْب ثُمَّ يَتُوبُ، وَكَذَا رَوَاهُ عَبْد الرَّزَّاق عَنْ الثَّوْرِيّ وَمَعْمَر عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد عَنْ ابْن المُسَيِّب به. وَكَذَا قَال عَطَاء بْن يَسَار. وقال مجاهد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر: هُمْ الرَّاجِعُونَ إِلى الخَيْر. وَقَال مُجَاهِد عَنْ عُبَيْد بْن عُمَيْر فِي قوله: ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قال: هُوَ الَّذِي يذكر ذُنُوبه فِي الخَلاء، فَيَسْتَغْفِر الله مِنْهَا، وَوَافَقَهُ على ذلك مُجَاهِد. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أخبرنا مُحَمَّد بْن مَسْلم، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ عُبَيْد بْن عُمَيْر، فِي قَوْله: ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قَال: كُنَّا نَعُدّ الأَوَّاب الحَفِيظ أَنْ يَقُول: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَصَبْت فِي مَجْلِسِي هَذَا.

وقَال ابْن جَرِير: وَالأَوْلى فِي ذَلكَ قَوْل مَنْ قَال: هُوَ التَّائِب مِنْ الذَّنْب الراجع عن المَعْصِيَة إِلى الطَّاعَة، مِمَّا يَكْرَه الله إِلى مَا يُحِبّهُ وَيَرْضَاهُ، وَهَذَا الَّذِي قَالهُ هُوَ الصَّوَاب؛ لأَنَّ الأَوَّاب مُشْتَقّ مِنْ الأَوْب، وَهُوَ: الرُّجُوع، يُقَال: آبَ فُلان. إِذَا رَجَعَ، قَال الله تَعَالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾، وَفِي الحَدِيث الصَّحِيح: أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ إِذَا رَجَعَ مِنْ سَفَر قَال: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لرَبِّنَا حَامِدُونَ**».[3]

﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالى بِرّ الوَالدَيْنِ عَطَفَ بِذِكْرِ الإِحْسَان إِلى القَرَابَة وَصِلة الأَرْحَام، وكما تقدم فِي الحَدِيث: «**أُمّك وَأبَاك، ثُمَّ أدْنَاك أدْنَاك**».[4] وَفِي رِوَايَة: «**ثُمَّ الأَقْرَب فَالأَقْرَب**»[5]. وَفِي الحَدِيث: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَط لهُ فِي رِزْقه وَيُنْسَأ لهُ فِي أَجَله فَليَصِل رَحِمه**»[6]. وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا عَبَّاد بن يَعْقُوب، حَدَّثَنَا أَبُو يَحْيَى

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٨٠٦٧).
(٢) **ضعيف**: في إسناده ليث بن أبي سليم: متروك، والحسن بن أبي جعفر: ضعيف.
(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٥١١)، ومسلم (٢٣٩٢).
(٤) **صحيح**: تقدم.
(٥) حسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٤٩٢٩).
(٦) صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٥٩٥٦).

التَّيْمِيّ، حَدَّثَنَا فُضَيْل بْن مَرْزُوق، عَنْ عَطِيَّة، عَنْ أَبِي سَعِيد قَال: لـمَّا نَزلتْ هذه الآية ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ دَعَا رَسُول الله ﷺ فَاطِمَة فَأَعْطَاهَا «فَدَك»[1]، ثُمَّ قَال: لا نَعْلم حَدَّثَ بِهِ عَنْ فُضَيْل بْن مَرْزُوق إِلَّا أَبُو يَحْيَى التَّيْمِيّ، وَحُمَيْد بْن حَمَّاد بْن أبي الخَوَّار. وَهَذَا الحَدِيث مُشْكِل لوْ صَحَّ إِسْنَاده، لأَنَّ الآيَة مَكِّيَّة، وَ«فَدَك» إِنَّمَا فُتِحَتْ مَعَ خَيْبَر سَنَة سَبْع مِنْ الهِجْرَة، فَكَيْف يَلتَئِم هَذَا مَعَ هَذَا؟ فَهُوَ إِذًا حَدِيث مُنْكَر، الأَشْبَه أَنَّهُ مِنْ وَضع الرَّافِضَة، وَالله أَعْلم. وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلام عَلى المَسَاكِين وابن السَّبِيل فِي سُورَة بَرَاءَة بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته هَاهُنَا.

وقَوْله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ لـمَّا أَمَرَ بالإِنْفَاقِ نَهَى عَنْ الإِسْرَاف فِيهِ؛ بَل يَكُون وَسَطًا كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ ثُمَّ قَال مُنَفِّرًا عَنْ التَّبْذِير وَالسَّرَف: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أَيْ: أَشْبَاههمْ فِي ذَلكَ. وقَال ابْن مَسْعُود: التَّبْذِير: الإِنْفَاق فِي غَيْر حَقّ، وَكَذَا قَال ابْن عَبَّاس. وَقَال مُجَاهِد: لوْ أَنْفَقَ إِنْسَان مَاله كُلّه فِي الحَقّ لمْ يَكُنْ مُبَذِّرًا، وَلوْ أَنْفَقَ مُدًّا فِي غَيْر حَقّ كَانَ تبذيرًا. وَقَال قَتَادَة: التَّبْذِير: النَّفَقَة فِي مَعْصِيَة الله تَعَالى وَفِي غَيْر الحَقّ وَفِي الفَسَاد.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هَاشِم بْن القَاسِم، حَدَّثَنَا اللَّيْث، عَنْ خَالد بْن يَزِيد، عَنْ سَعِيد بْن أَبِى هِلال، عَنْ أَنَس بْن مَالك ﷺ أَنَّهُ قَال: أَتَى رَجُل مِنْ بَنِي تَمِيم إِلى رَسُول الله ﷺ فَقَال: يَا رَسُول الله، إِنِّي ذُو مَال كَثِير وَذُو أَهْل وَوَلد وَحَاضِرَة، فَأَخْبِرْنِي: كَيْف أُنْفِق؟ وَكَيْف أَصْنَع؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ : «تُخْرِج الزَّكَاة مِنْ مَالك، فَإِنَّهَا طُهْرَة تُطَهِّرك، وَتَصِل أَقْرِبَاءَك، وَتَعْرِف حَقّ السَّائِل وَالجَار وَالمِسْكِين». فَقَال: يَا رَسُول الله؛ أَقْلل لي؟ فقَال: «فَآتِ ذَا القُرْبَى حَقّه وَالمِسْكِين وَابْن السَّبِيل وَلا تُبَذِّر تَبْذِيرًا». فَقَال: حَسْبِي يَا رَسُول الله إِذَا أَدَّيْت الزَّكَاة إِلى رَسُولك؛ فَقَدْ بَرِئْت مِنْهَا إِلى الله وَإِلى رَسُوله فَقَال رَسُول الله ﷺ : «نَعَمْ، إِذَا أَدَّيْتهَا إِلى رَسُولي فَقَدْ بَرِئْت مِنْهَا، فلك أَجْرهَا، وَإِثْمهَا عَلى مَنْ بَدَّلهَا».[2]

وَقَوْله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أَيْ: فِي التَّبْذِير وَالسَّفَه، وَتَرْك طَاعَة الله، وَارْتِكَاب مَعْصِيَته، وَلهَذَا قَال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أَيْ: جَحُودًا؛ لأَنَّهُ أَنْكَرَ نِعْمَة الله عَلَيْهِ، وَلمْ يَعْمَل بِطَاعَتِهِ؛ بَل أَقْبَل عَلى مَعْصِيَته وَمُخَالفَته. وَقَوْله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أَيْ: وإِذَا سَأَلك أَقَارِبك وَمَنْ أَمَرْنَاك بِإِعْطَائِهِمْ، وَليْسَ عِنْدك شَيْء، وَأَعْرَضْت عَنْهُمْ لفَقْدِ النَّفَقَة ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أَيْ: عِدْهُمْ وَعْدًا بِسُهُولةٍ وَلين: إِذَا جَاءَ رِزْق الله فَسَنَصِلُكُمْ إِنْ شَاءَ الله، هَكَذَا فَسَّرَ قَوْله: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ بِالوَعْدِ: مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد.

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

يَقُول تَعَالى آمِرًا بِالاقْتِصَادِ فِي العَيْش ذَامًّا للبُخْل نَاهِيًا عَنْ السَّرَف: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، أَيْ: لا تَكُنْ بَخِيلًا مَنُوعًا لا تُعْطِي أَحَدًا شَيْئًا، كَمَا قَالتْ اليَهُود -عَلَيْهِمْ لعَائِن الله-: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أَيْ: نَسَبُوهُ إِلى البُخْل، تَعَالى وَتَقَدَّسَ الكَرِيم الوَهَّاب. وَقَوْله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أَيْ: وَلا تُسْرِف فِي الإِنْفَاق فَتُعْطِي فَوْق طَاقَتك وَتُخْرِج أَكْثَر مِنْ دَخْلك ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾. وَهَذَا مِنْ بَاب اللَّفّ وَالنَّشْر، أَيْ: فَتَقْعُد إِنْ بَخِلت مَلُومًا يَلُومك النَّاس وَيَذُمُّونَك وَيَسْتَغْنُونَ عَنْك، كَمَا قَال زُهَيْر بْن أَبِي سُلمَى فِي المُعَلَّقَة:

---

(١) ضعيف : فيه عطية العوفي: ضعيف، وحميد بن حماد وأبو يحيي: ضعيفان.

(٢) ضعيف : أخرجه أحمد (٣/ ١٣٦) فيه سعد بن أبي هلال لم يسمع من أنس، كما في «التهذيب»؛ فهو منقطع. وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٤٥٣).

وَمَـنْ كَـانَ ذَا مَـالٍ وَيَبْخَـلْ بِمَالِـهِ ❁ عَلَـى قَوْمِـهِ يُـسْتَغْنَ عَنْـهُ وَيُـذْمَمِ

وَمَتَى بَسَطْت يَدك فَوْق طَاقَتك قَعَدْت بِلا شَيْء تُنْفِقهُ فَتَكُون كَالحَسِيرِ، وَهُوَ الدَّابَّة الَّتِي قَدْ عَجَزَتْ عَنْ السَّيْر فَوَقَفَتْ ضَعْفًا وَعَجْزًا، فَإِنَّهَا تُسَمَّى الحَسِير، وَهُوَ مَأْخُوذ مِنْ الكَلال، كَمَا قَال تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أَيْ: كَلِيل عَنْ أَنْ يَرَى عَيْبًا، هَكَذَا فَسَّرَ هَذِهِ الآيَة بِأَنَّ المُرَاد هُنَا البُخْل وَالسَّرَف: ابْن عَبَّاس وَالحَسَن وَقَتَادَة وَابْن جُرَيْج وَابْن زَيْد وَغَيْرهمْ. وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث أَبِي الزِّنَاد، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**مَثَل البَخِيل وَالمُنْفِق كَمَثَل رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيد مِنْ ثديَيهما إلى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا المُنْفِق فَلا يُنْفِق إِلاَّ سَبَغَتْ - أَوْ وَفَرَتْ- عَلى جِلده، حَتَّى تُخْفِي بَنَانه وَتَعْفُو أَثَرهم، وَأَمَّا البَخِيل فَلا يُرِيد أَنْ يُنْفِق شَيْئًا إِلاَّ لَزِقَتْ كُلّ حَلقَة مَكَانهَا، فَهُوَ يُوَسِّعهَا فَلا تَتَّسِع**»[1]. هَذَا لَفْظ البُخَارِيّ فِي «الزَّكَاة».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ طَرِيق هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ زَوْجَته فَاطِمَة بِنْت المُنْذِر عَنْ جَدَّتهَا أَسْمَاء بِنْت أَبِي بَكْر قَالَتْ: قَال رَسُول الله ﷺ : «**أَنْفِقِي هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، وَلا تُوعِي فَيُوعِي الله عَلَيْك، وَلا تُوكِي فَيُوكِي الله عَلَيْك**». وَفِي لَفْظ: «**وَلا تُحْصِي فَيُحْصِي الله عَلَيْك**»[2]. وَفِي «صَحِيح مُسْلم» مِنْ طَرِيق عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ همام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «**إِنَّ الله قَال لِي: أَنْفِقْ أُنْفِق عَلَيْك**»[3]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ طَرِيق مُعَاوِيَة بْن أَبِي مُزَرِّد، عَنْ سَعِيد بْن يَسَار، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «**مَا مِنْ يَوْم يُصْبِح العِبَاد فِيهِ إِلاَّ وَمَلَكَانِ يَنْزِلانِ مِنْ السَّمَاء يَقُول أَحَدهمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُول الآخَر: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**»[4]. وَرَوَى مُسْلم، عَنْ قُتَيْبَة، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن جَعْفَر، عَنْ العَلاء، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَرْفُوعًا: «**مَا نَقَصَ مَال مِنْ صَدَقَة، وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بعفو أَنْفَقَ إلا عِزًّا، وَمَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ الله**»[4]. وَفِي حَدِيث أَبِي كَثِير عَنْ عَبْد الله ابْن عمرو مَرْفُوعًا: «**إِيَّاكُمْ وَالشُّحّ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلكُمْ، أَمَرَهُمْ بِالبُخْل فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالفُجُور فَفَجَرُوا**»[4]. وَرَوَى البَيْهَقِيّ مِنْ طَرِيق سَعْدَان ابْن نَصْر عَنْ أَبِي مُعَاوِيَة، عَنْ الأَعْمَش عن أبي بريدة عَنْ أَبِيهِ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «**مَا يُخْرِج رَجُل صَدَقَة حَتَّى يَفُكّ لحيَ سَبْعِينَ شَيْطَانًا**».[5]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدَة الحَدَّاد: حَدَّثَنَا سُكَيْن بْن عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم الهَجَرِيّ، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «مَا عَالَ مَنْ اقْتَصَدَ»[6]. وَقَوْله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ إِخْبَار أَنَّهُ تَعَالى هُوَ الرَّزَّاق القَابِض البَاسِط، المُتَصَرِّف فِي خَلقه بِمَا يَشَاء، فَيُغْنِي مَنْ يَشَاء وَيُفْقِر مَنْ يَشَاء لِمَا لهُ فِي ذَلكَ مِنْ الحِكْمَة، وَلِهَذَا قَال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أَيْ: خَبِيرًا بَصِيرًا بِمَنْ يَسْتَحِقّ الغِنَى وَمَنْ يَسْتَحِقّ الفَقْر، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لا يُصْلِحهُ إِلاَّ الفَقْر، وَلَوْ أَغْنَيْته لأَفْسَدْت عَلَيْهِ دِينه، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لا يُصْلِحهُ إلا الغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْته لأَفْسَدْت عَلَيْهِ دِينه**».[7] وَقَدْ يَكُون الغِنَى فِي حَقّ بَعْض النَّاس اسْتِدْرَاجًا وَالفَقْر عُقُوبَة عِيَاذًا بالله مِنْ هَذَا وَهَذَا.

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (١٤٤٣)، ومسلم (١٠٢١).
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (١٤٣٣)، ومسلم (١٠٢٥).
(٣) صحيح : أخرجه مسلم (٩٩٣).
(٤) صحيح : تقـدم.
(٥) صحيح : أخرجه البيهقي (٤/ ١٨٧)، وصححه الألباني، انظر «الصحيحة» (١٢٦٨).
(٦) ضعيف : أخرجه أحمد (١/ ٤٤٧)، وفي إسناده إبراهيم بن مسلم الهجري: ضعيف، وضعفه الألباني، وانظر «الضعيفة» (٤٤٥٩).
(٧) ضعيف : أخرجه البغوي في «شرح السنة» (٥/ ٢٣)، فيه صدقة بن عبيد الله: ضعيف، يروي عن هشام الكناني وهو مجهول.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾.

هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة دَالَّة عَلى أَنَّ الله تَعَالى أَرْحَم بِعِبَادِهِ مِنْ الوَالد بِوَلِدِهِ؛ لأَنَّهُ تعالى نَهى عَنْ قَتْل الأَوْلاد، كَما أَوْصَى بِالأَوْلادِ فِي المِيرَاث، وَكَانَ أَهْل الجَاهِلِيَّة لا يُورِّثُونَ البَنَات؛ بَل كَانَ أَحدهمْ رُبَّما قَتَل ابْنته لِئَلَّا تُكْثِر عَيْلته، فَنَهى الله تَعَالى عَنْ ذَلِكَ، وَقَال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ أَيْ: خَوْف أَنْ تَفْتَقِرُوا فِي ثَانِي الحَال؛ وَلِهَذَا قَدَّمَ الاهْتِمَام بِرِزْقِهِمْ فَقَال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾، وَقَال فِي الأَنْعَام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ أَيْ: مِنْ فَقْر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾. وَقَوْله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ أَيْ: ذَنْبًا عَظِيمًا. وَقَرَأَ بَعْضهمْ: (كَانَ خَطَأً كَبِيرًا) وَهُوَ بِمَعْنَاهُ. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود قُلت: يَا رَسُول الله؛ أَيّ الذَّنْب أَعْظَم؟ قَال: **«أَنْ تَجْعَل لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك»**. قُلت: ثُمَّ أَيّ؟ قَال: **«أَنْ تَقْتُل وَلدك خَشْيَة أَنْ يَطْعَم مَعَك»**. قُلت: ثُمَّ أَيّ؟ قَال: **«أَنْ تُزَانِي بِحَلِيلةِ جَارك»**.[1]

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾.

يَقُول تَعَالى نَاهِيًا عِبَاده عَنْ الزِّنَا، وَعَنْ مُقَارَبَته وَمُخَالطَة أَسْبَابه وَدَوَاعِيه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ أَيْ: ذَنْبًا عَظِيمًا، ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أَيْ: وَبِئْس طَرِيقًا وَمَسْلكًا.

وَقَدْ قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، حَدَّثَنَا حريز، حَدَّثَنَا سُلَيْم بْن عَامِر، عَنْ أَبِي أُمَامَة قَال: إن فَتَى شَابًّا أَتَى النَّبِيّ ﷺ فَقَال: يَا رَسُول الله، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا. فَأَقْبَل القَوْم عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ مَهْ. فَقَال: **«ادْنُهْ»**. فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، فَقَال: **«اجْلسْ»**. فَجَلَسَ، فَقَال: **«أَتُحِبُّهُ لأُمِّك؟»** قَال: لا وَالله، جَعَلَنِي الله فِدَاك. قَال: **«وَلا النَّاس يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ»**، قَال: **«أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِك؟»** قَال: لا وَالله يَا رَسُول الله، جَعَلَنِي الله فِدَاك. قَال: وَلا النَّاس يُحِبُّونَهُ لبَنَاتِهِمْ، قَال: **«أتحبه لأُخْتِك؟»** قَال: لا وَالله، جَعَلَنِي الله فِدَاك. قَال: **«وَلا النَّاس يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ»**، قَال: **«أَفَتُحِبُّهُ لعَمَّتِك؟»** قَال: لا وَالله، جَعَلَنِي الله فِدَاك. قَال: **«وَلا النَّاس يُحِبُّونَهُ لعَمَّاتِهِمْ»**، قَال: **«أَفَتُحِبُّهُ لخَالَتِك؟»** قَال: لا وَالله، جَعَلَنِي الله فِدَاك. قَال: **«وَلا النَّاس يُحِبُّونَهُ لخَالاتِهِمْ»**، قَال: فَوَضَعَ يَده عَلَيْهِ، وَقَال: **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبه، وَطَهِّرْ قَلبه، وحصِّن فَرْجه»**. قَال: فَلَمْ يَكُنْ بَعْد ذَلِكَ الفَتَى يَلتَفِت إِلى شَيْء.[2] وَقَال ابْن أَبِي الدُّنْيَا: حَدَّثَنَا عَمَّار بْن نَصْر، حَدَّثَنَا بَقِيَّة، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي مَرْيَم، عَنْ الهَيْثَم بْن مَالك الطَّائِيّ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «مَا مِنْ ذَنْب بَعْد الشِّرْك أَعْظَم عِنْد الله مِنْ نُطْفَة وَضَعَهَا رَجُل فِي رَحِم لا يَحِلّ لهُ».[3]

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾.

يَقُول تَعَالى نَاهِيًا عَنْ قَتْل النَّفْس بِغَيْرِ حَقّ شَرْعِيّ كَما ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«لا يَحِلّ دَم امْرِئٍ مُسْلم يَشْهَد أَنْ لا إِله إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاث: النَّفْس بِالنَّفْسِ، وَالزَّانِي المُحْصَن، وَالتَّارِك لدِينِهِ المُفَارِق للجَمَاعَةِ»**.[4] وَفِي السُّنَن: **«لزَوَال الدُّنْيَا أَهْوَن عِنْد الله مِنْ قَتْل مُسْلم»**.[5] وَقَوْله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ أَيْ: سُلطَة عَلى القَاتِل، فَإِنَّهُ بِالخِيَارِ فِيهِ؛ إِنْ شَاءَ قَتَلهُ قَوَدًا،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤١١٧)، ومسلم (١٢٤).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٦)، وصححه الألباني، انظر «الصحيحة» (٣٧٠).
(٣) ضعيف: ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٥١٧٣).
(٤) صحيح: تقـدم.
(٥) صحيح لغيره: تقـدم.

وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ عَلى الدِّيَه، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ مَجَّانًا كَمَا ثَبَتَتْ السُّنَّة بِذَلك، وَقَدْ أَخَذَ الإِمَام الحَبْر ابْن عَبَّاس مِنْ عُمُوم هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة، وِلايَة مُعَاوِيَة السَّلطَنَة أَنَّهُ سَيَمْلك، لأَنَّهُ كَانَ وَلِيّ عُثْمَان، وَقَدْ قُتِل عُثْمَان مَظْلُومًا ﷺ وَكَانَ مُعَاوِيَة يُطَالب عَلِيًّا ﷺ، أَنْ يُسَلِّمهُ قَتَلته حَتَّى يَقْتَصّ مِنْهُمْ لأَنَّهُ أُمَوِيّ، وَكَانَ عَلِيّ ﷺ يَسْتَمْهِلهُ فِي الأَمْر حَتَّى يَتَمَكَّن وَيَفْعَل ذَلكَ، وَيَطْلُب عَلِيّ مِنْ مُعَاوِيَة أَنْ يُسَلِّمهُ الشَّام فَيَأْبَى مُعَاوِيَة ذَلكَ حَتَّى يُسَلِّمهُ القَتَلة، وَأَبَى أَنْ يُبَايِع عَلِيًّا هُوَ وَأَهْل الشَّام، ثُمَّ مَعَ المُطَاوَلة تَمَكَّنَ مُعَاوِيَة وَصَارَ الأَمْر إِلَيْهِ، كَمَا تفاءل ابْن عَبَّاس وَاسْتَنْبَطَهُ مِنْ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة، وَهَذَا مِنْ الأَمْر العَجَب، وَقَدْ رَوَى ذَلكَ الطَّبَرَانِيّ فِي «مُعْجَمه» حَيْثُ قَال: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن عَبْد البَاقِي، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَيْر ابْن النَّحَّاس، حَدَّثَنَا ضَمْرَة بْن رَبِيعَة، عَنْ ابْن شَوْذَب، عَنْ مَطَر الوَرَّاق، عَنْ زَهْدَم الجَرْمِيّ قَال: كُنَّا فِي سَمَر ابْن عَبَّاس فَقَال: إِنِّي مُحَدِّثكُمْ بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِسِرٍّ وَلا عَلانِيَة، إِنَّهُ لَمَّا كَانَ مِنْ أَمْر هَذَا الرَّجُل مَا كَانَ -يَعْنِي عُثْمَان- قُلت لعَلِيّ: اعْتَزِل، فَلَوْ كُنْت فِي جحر طُلِبْت حَتَّى تُسْتَخْرَج فَعَصَانِي، وَايْم الله لَيَتَأَمَّرَنَّ عَلَيْكُمْ مُعَاوِيَه، وَذَلكَ أَنَّ الله تعالى يَقُول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ الآيَة، وَلَيَحْمِلَنَّكُمْ قُرَيْش عَلى سُنَّة فَارِس وَالرُّوم، وَلَيُقِيمُنَّ عَلَيْكُمْ النَّصَارَى وَاليَهُود وَالمَجُوس، فَمَنْ أَخَذَ مِنكُمْ يَوْمَئِذٍ بِمَا يَعْرِف نَجَا، وَمَنْ تَرَكَ -وَأَنْتُمْ تَارِكُونَ- كُنْتُمْ كَقَرْنٍ مِنْ القُرُون هَلكَ فِيمَنْ هَلكَ.

وَقَوْله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ قَالُوا: مَعْنَاهُ: فَلا يُسْرِف الوَلِيّ فِي قَتْل القَاتِل بِأَنْ يُمَثِّل بِهِ أَوْ يَقْتَصّ مِنْ غَيْر القَاتِل. وَقَوْله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أَيْ: إن الوَلِيّ مَنْصُور عَلى القَاتِل شَرْعًا، وَغَالِبًا وَقَدَرًا.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أَيْ: لا تَتَصَرَّفُوا له إِلَّا بِالغِبْطَةِ، ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾، ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وَقَدْ جَاءَ فِي «صَحِيح مُسْلم» أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال لأَبِي ذَرّ: «يَا أَبَا ذَرّ؛ إِنِّي أَرَاك ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبّ لَك مَا أُحِبّ لنَفْسِي، لا تَأَمَّرَنَّ عَلى اثْنَيْنِ، وَلا تَوَلَّيَنَّ مَال يَتِيم»[1]. وَقَوْله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ أَيْ: الَّذِي تُعَاهِدُونَ عَلَيْهِ النَّاس، وَالعُقُود الَّتِي تُعَامِلُونَهُمْ بِهَا؛ فَإِنَّ العَهْد وَالعَقْد كُلّ مِنْهُمَا يُسْأَل صَاحِبه عَنْهُ؛ ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أَيْ: عَنْهُ. وَقَوْله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أَيْ: مِنْ غَيْر تَطْفِيف، لا تَبْخَسُوا النَّاس أَشْيَاءَهُمْ، ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ قُرِئَ بِضَمِّ القَاف وَكَسْرهَا كَالقِرْطَاسِ، وَهُوَ: المِيزَان. قَال مُجَاهِد: هُوَ العَدْل بِالرُّومِيَّة. وَقَوْله: ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أَيْ: الَّذِي لا اعْوِجَاج فِيهِ وَلا انْحِرَاف وَلا اضْطِرَاب. ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أَيْ: لكُمْ فِي مَعَاشكُمْ وَمَعَادكُمْ؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أَيْ: مَآلًا وَمُنْقَلبًا فِي آخِرَتكُمْ. قَال سَعِيد عَنْ قَتَادَة: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أَيْ: خَيْر ثَوَابًا وعَاقِبَة. وَأَخبرنا ابْن عَبَّاس كَانَ يَقُول: يَا مَعْشَر المَوَالي، إِنَّكُمْ وُلِّيتُمْ أَمْرَيْنِ بِهِمَا هَلكَ النَّاس قَبْلكُمْ: هَذَا المِكْيَال وَهَذَا المِيزَان، قَال: وَذَكَرَ لنَا أَنَّ نَبِيّ الله ﷺ كَانَ يَقُول: «لا يَقْدِر رَجُل عَلى حَرَام ثُمَّ يَدَعهُ لَيْسَ بِهِ إِلاَّ مَخَافَة الله؛ إِلاَّ أَبْدَلهُ الله بِهِ فِي عَاجِل الدُّنْيَا قَبْل الآخِرَة مَا هُوَ خَيْر لهُ مِنْ ذَلكَ».[2]

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، يَقُول: لا تَقُل. وَقَال العَوْفِيّ عَنْهُ: لا تَرْمِ أَحَدًا بِمَا لَيْسَ لك بِهِ عِلم،

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (١٥٩).

(٢) إسناده ضعيف : أخرجه الطبري (١٥/ ٨٥) بسند ضعيف.

وَقَال مُحَمَّد ابْن الحَنَفِيَّة: يَعْنِي: شَهَادَة الزُّور. وَقَال قَتَادَة: لا تَقُل رَأَيْت. وَلَمْ تَرَ وَسَمِعْت. وَلَمْ تَسْمَع وَعَلِمْت. وَلَمْ تَعْلم، فَإِنَّ الله تَعَالى سَائِلك عَنْ ذَلكَ كُلّه. وَمَضْمُون مَا ذَكَرُوهُ أَنَّ الله تَعَالى نَهى عَنْ القَوْل بِلا عِلم، بَل بِالظَّنِّ الَّذِي هُوَ التَّوَهُّم وَالخَيَال، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾، وَفِي الحَدِيث: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنّ؛ فَإِنَّ الظَّنّ أَكْذَب الحَدِيث».[1] وَفِي «سُنَن أَبِي دَاوُد»: «بِئْسَ مَطِيَّة الرَّجُل: زَعَمُوا»[1]. وَفِي الحَدِيث الآخَر: «إِنَّ أَفْرَى الفِرَى أَنْ يُرِي عَيْنَيْهِ مَا لمْ تَرَيَا»[2] وَفِي الصَّحِيح: «مَنْ تَحَلَّمَ حُلْمًا كُلِّفَ يَوْم القِيَامَة أَنْ يَعْقِد بَيْن شَعِيرَتَيْنِ وَليْسَ بِعاقد».[3]

وَقَوْله: ﴿كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أَيْ: هَذِهِ الصِّفَات مِنْ السَّمْع وَالبَصر وَالفُؤَاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أَيْ: سَيُسْأَلُ العَبْد عَنْهَا يَوْم القِيَامَة، وَتُسْأَل عَنْهُ، وَعَمَّا عَمِلَ فِيهَا، وَيَصِحّ اسْتِعْمَال: «أُولئِكَ» مَكَان: «تِلكَ» كَمَا قَال الشَّاعِر:

ذُمَّ المَنَازِل بَعْد مَنْزِلَة اللِّوَى ۞ وَالعَيْش بَعْد أُولئِكَ الأَيَّام

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾.

يَقُول تَعَالى نَاهِيًا عِبَاده عَنْ التَّجَبُّر وَالتَّبَخْتُر فِي المِشْيَة: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أَيْ: مُتَبَخْتِرًا مُتَمَايِلًا مَشْي الجَبَّارِينَ، ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أَيْ: لنْ تَقْطَع الأَرْض بمشيتك، قَالهُ ابْن جَرِير، وَاسْتَشْهَدَ عَليْهِ بِقَوْل رُؤْبَة ابْن العَجَّاج:

وَقَائِم الأَعْمَاق خَاوِي المُخْتَرَقْ

وَقَوْله: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أَيْ: بِتَمَايُلك وَفَخْرك وَإِعْجَابك بِنَفْسِك؛ بَل قَدْ يُجَازَى فَاعِل ذَلكَ بِنَقِيضِ قَصْده، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيح: «بينا رَجُل يَمْشِي فِيمَنْ كَانَ قَبْلكُمْ، وَعَليْهِ بُرْدَانِ يَتَبَخْتَر فِيهِمَا؛ إِذْ خُسِفَ بِهِ الأَرْض، فَهُوَ يَتَجَلجَل فِيهَا إِلى يَوْم القِيَامَة»[4] وَكَذَلكَ أَخْبَرَ الله تَعَالى عَنْ قَارُون أَنَّهُ خَرَجَ عَلى قَوْمه فِي زِينَته، وَأَنَّ الله تَعَالى خَسَفَ بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْض، وَفِي الحَدِيث: «مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ الله، فَهُوَ فِي نَفْسه حَقِير وَعِنْد النَّاس كَبِير، وَمَنْ اسْتَكْبَرَ وَضَعَهُ الله، فهو فِي نَفْسه كَبِير وَعِنْد النَّاس حَقِير، حَتَّى لَهُوَ أَبْغَض إِليْهِمْ مِنْ الكَلب وَالخِنْزِير»[5]. وَقَال أَبُو بَكْر ابْن أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَاب «الخُمُول وَالتَّوَاضُع»: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم بْن كَثِير، حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن مُحَمَّد، عن أَبِي بَكْر الهُذَليّ قَال: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ الحَسَن إِذْ مَرَّ عَليْهِ ابْن الأهيم -يُرِيد المَنْصُور- وَعَليْهِ جِبَاب خَزّ، قَدْ نَضَدَ بَعْضهَا فَوْق بَعْض عَلى سَاقه، وَانْفَرَجَ عَنْهَا قَبَاؤُهُ، وَهُوَ يَمْشِي وَيَتَبَخْتَر، إِذْ نَظَرَ إِليْهِ الحَسَن نَظْرَة فَقَال: أُفّ أُفّ، شَامِخ بِأَنْفِهِ، ثَانِي عِطْفه، مُصَعِّر خَدّه، يَنْظُر فِي عِطْفَيْهِ، أَيّ حُمَيْق يَنْظُر فِي عِطْفه فِي نِعَم غَيْر مَشْكُورَة، وَلا مَذْكُورَة، غَيْر المَأْخُوذ بِأَمْرِ الله فِيهَا، وَلا المُؤَدَّى حَقّ الله مِنْهَا! وَالله أَنْ يَمْشِي أَحدهمْ طَبِيعَته يَتَلجْلج تَلجْلُج المَجْنُون؛ فِي كُلّ عُضْو مِنْهُ نِعْمَة، وَللشَّيْطَانِ بِهِ لعْنَة، فَسَمِعَهُ ابْن الأهيم فَرَجَعَ يَعْتَذِر إِليْهِ، فَقَال: لا تَعْتَذِر إِليَّ، وَتُبْ إِلى رَبّك، أَمَا سَمِعْت قَوْل الله تَعَالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾. وَرَأَى البَخْتَرِيّ العَابِد رَجُلًا مِنْ آل عَليّ يَمْشِي وَهُوَ يَخْطِر فِي مِشْيَته، فَقَال لهُ: يَا هَذَا، إِنَّ الَّذِي أَكْرَمَك بِهِ

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٠٤٣).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٧٠٤٢).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).
(٥) ضعيف جدًا: أخرجه أبو نعيم (٧/ ١٢٩) بسند ضعيف جدًا.

لم تكُنْ هَذِهِ مِشْيَته، قَال: فَتَرَكَهَا الرَّجُل بَعْد. وَرَأَى ابْن عُمَر رَجُلًا يَخْطِر فِي مِشْيَته فَقَال: إِنَّ للشَّيَاطِينِ إِخْوَانًا. وَقَال خَالد بْن مَعْدَان: إِيَّاكُمْ وَالخَطْر، فَإِنَّ الرَّجُل يَده مِنْ سَائِر جَسَده. رَوَاهُمَا ابْن أَبِي الدُّنْيَا. وَقَال ابْن أَبِي الدُّنْيَا: حَدَّثَنَا خَلف بْن هِشَام البَزَّار، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زِيد، عَنْ يَحْيَى، عَنْ سَعِيد، عَنْ يُحنس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي المُطَيْطَاء، وَخَدَمَتْهُمْ فَارِس وَالرُّوم، سُلِّطَ بَعْضهمْ عَلَى بَعْض».[1]

وَقَوْله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾، أَمَّا مَنْ قَرَأَ: ﴿سَيِّئَةً﴾ أَيْ: فَاحِشَة فَمَعْنَاهُ عِنْده: كُلّ هَذَا الَّذِي نُهِينَا عَنْهُ مِنْ قَوْله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ إِلى ههنا، فهو سيئة، مُؤَاخَذ عَلَيْهَا، ﴿مَكْرُوهًا﴾: عِنْد الله لا يُحِبّهُ وَلا يَرْضَاهُ. وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ عَلَى الإِضَافَة، فَمَعْنَاهُ عِنْده: كُلّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَوْله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إِلى ههنا، فَسَيِّئُهُ، أَيْ: فَقَبِيحه، مَكْرُوه عِنْد الله، هَكَذَا وَجَّهَ ذَلِكَ ابْن جَرِير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

يَقُول تَعَالى: هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاك بِهِ مِنْ الأَخْلاق الجَمِيلة، وَنَهَيْنَاك عَنْهُ مِنْ الصِّفَات الرَّذِيلة مِمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْك يَا مُحَمَّد لتَأْمُر بِهِ النَّاس. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أَيْ: تَلُومك نَفْسك وَيَلُومك الله وَالخَلق، ﴿مَّدْحُورًا﴾ أَيْ: مُبْعَدًا مِنْ كُلّ خَيْر، قَال ابْن عَبَّاس وَقَتَادَة: مَطْرُودًا. وَالمُرَاد مِنْ هَذَا الخِطَاب الأُمَّة بِوَاسِطَةِ الرَّسُول ﷺ، فَإِنَّهُ صَلوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ مَعْصُوم.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

يَقُول تَعَالى رَادًّا عَلى المُشْرِكِينَ الكَاذِبِينَ الزَّاعِمِينَ -عَلَيْهِمْ لعَائِن الله-: أَنَّ المَلائِكَة بَنَات الله، فَجَعَلُوا المَلائِكَة الَّذِينَ هُمْ عِبَاد الرَّحْمَن إِنَاثًا، ثُمَّ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ بَنَات الله، ثُمَّ عَبَدُوهُمْ فَأَخْطَئُوا فِي كُلّ مِنْ المَقَامَات الثَّلاث خَطَأً عَظِيمًا، فَقَال تَعَالى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أَيْ: خَصَّصَكُمْ بِالذُّكُور، ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ أَيْ: وَاخْتَار لنَفْسِهِ -عَلى زَعْمكُمْ- البَنَات؟! ثُمَّ شَدَّدَ الإِنْكَار عَلَيْهِمْ فَقَال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أَيْ: فِي زَعْمكُمْ أَنَّ لله وَلدًا، ثُمَّ جَعْلكُمْ وَلده الإِنَاث الَّتِي تَأْنَفُونَ أَنْ يَكُنَّ لكُمْ، وَرُبَّمَا قَتَلْتُمُوهُنَّ بِالوَأْدِ، فَتِلكَ إِذًا قِسْمَة ضِيزَى، وَقَال تَعَالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ للناس ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أَيْ: صَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الوَعِيد لعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُون مَا فِيهِ مِنْ الحُجَج، وَالبَيِّنَات وَالمَوَاعِظ، فَيَنْزَجِرُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ الشِّرْك وَالظُّلم وَالإِفْك ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أَيْ: الظَّالِمِينَ مِنْهُمْ، ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أَيْ: عَنْ الحَقّ وَبُعْدًا مِنْهُ.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

يَقُول تَعَالى: قُل يَا مُحَمَّد هَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ، الزَّاعِمِينَ أَنَّ لله شَرِيكًا مِنْ خَلقه، العَابِدِينَ مَعَهُ غَيْره لِيُقَرِّبهُمْ إِلَيْهِ زُلفَى: لوْ كَانَ الأَمْر كَمَا تَقُولُونَ: وَأَنَّ مَعَهُ آلهَة تُعْبَد لتُقَرِّب إِلَيْهِ وَتَشْفَع لدَيْهِ لكَانَ أُولئِكَ المَعْبُودُونَ يَعْبُدُونَهُ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ، وَيَبْتَغُونَ إِلَيْهِ الوَسِيلة وَالقُرْبَة، فَاعْبُدُوهُ أَنْتُمْ وَحْده كَمَا يَعْبُدهُ مَنْ تَدْعُونَهُ مِنْ دُونه، وَلا حَاجَة لكُمْ إِلى مَعْبُود يَكُون وَاسِطَة بَيْنكُمْ وَبَيْنه؛ فَإِنَّهُ لا يُحِبّ ذَلكَ وَلا يَرْضَاهُ؛ بَل يَكْرَههُ وَيَأْبَاهُ، وَقَدْ نَهَى عَنْ ذَلكَ

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي (٢٢٦١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠١).

عَلى أَلسِنَة جَمِيع رُسُله وَأَنبِيَائِهِ. ثم نزه نفسه الكريمة وقدسها فقَال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أَيْ: هَؤُلاءِ المُشْرِكُونَ المُعْتَدُونَ الظَّالِمُونَ فِي زَعْمهمْ أَنَّ مَعَهُ آلهَة أُخرى ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أَيْ: تَعاليًا كَبِيرًا؛ بَل هُوَ الله الأَحَد الصَّمَد، الَّذِي لمْ يَلد وَلمْ يُولد وَلمْ يَكُنْ لهُ كُفُوًا أَحَد.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

يَقُول تَعالى: تُقَدِّسهُ السَّماوَات السَّبْع وَالأَرْض وَمَنْ فِيهِنَّ، أَيْ: مِنْ المَخْلُوقَات، وَتُنَزِّههُ وَتُعَظِّمهُ، وتُجِّله وَتُكَبِّرهُ عَمَّا يَقُول هَؤُلاءِ المُشْرِكُونَ، وَتَشْهَد لهُ بِالوَحْدَانِيَّةِ فِي رُبُوبِيَّته وَإِلهِيَّته:

فَفِي كُلّ شَيْء لَهُ آيَة ۞ تَدُلّ عَلى أَنَّهُ وَاحِد

كَما قَال تَعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾.

وَقَال أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا عَليّ بْن عَبْد العَزِيز، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن مَنْصُور، حَدَّثَنَا مسكين بْن مَيْمُون مُؤَذِّن مَسْجِد الرَّمْلة حَدَّثَنَا عُرْوَة بْن رُوَيْم، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن قُرْط: أَنَّ رَسُول الله ﷺ لَيْلة أُسْرِيَ بِهِ إِلى المَسْجِد الأَقْصَى كَانَ بَيْن المَقَام وَزَمْزَم، جِبْرِيل عَنْ يَمِينه وَمِيكَائِيل عَنْ يَساره، فَطَارَا بِهِ حَتَّى بَلغَ السَّماوَات السَّبْع، فَلمَّا رَجَعَ قَال: «سَمِعْت تَسْبِيحًا فِي السَّماوَات العُلى مَعَ تَسْبِيح كَثِير، سَبَّحَتْ السَّماوَات العُلى مِنْ ذِي المَهَابَة، مُشْفِقَات لِذِي العُلُوّ بِما عَلا، سُبْحَان العَليّ الأَعْلى، سُبْحَانه وَتَعَالى».[1]

وَقَوْله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أَيْ: وَمَا مِنْ شَيْء مِنْ المَخْلُوقَات إِلَّا يُسَبِّح بِحَمْدِ الله، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أَيْ: لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحهمْ أَيُّهَا النَّاس؛ لأَنَّهَا بِخِلافِ لُغتكُمْ، وَهَذَا عَامّ فِي الحَيَوَانَات والنبات والجماد، وَهَذَا أَشْهَر القَوْليْنِ، كَما ثَبَتَ فِي «صَحِيح البُخارِيّ» عَنْ ابْن مَسْعُود أَنَّهُ قَال: كُنَّا نَسْمَع تَسْبِيح الطَّعَام وَهُوَ يُؤْكَل.[2] وَفِي حَدِيث أَبِي ذَرّ: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ أَخذَ فِي يَده حَصَيَات، فَسُمِعَ لهُنَّ تَسْبِيح كَحَنِينِ النَّحْل[3]، وَكَذَا فِي يَد أَبِي بَكْر وَعُمَر وَعُثْمان رضي الله عنهم أجمعين وَهُوَ حَدِيث مَشْهُور فِي المَسَانِيد. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة، حَدَّثَنَا زَبَّان، عَنْ سَهْل بْن مُعَاذ بن أَنَس، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه عَنْ رَسُول الله ﷺ: أَنَّهُ مر عَلى قَوْم وَهُمْ وُقُوف عَلى دَوَابّ لهُمْ وَرَوَاحِل، فَقَال لهُمْ: «ارْكَبُوهَا سَالمَة، وَدَعُوهَا سَالمَة، وَلا تَتَّخِذُوهَا كَرَاسِيّ لأَحَادِيثِكُمْ فِي الطُّرُق وَالأَسْوَاق، فَرُبَّ مَرْكُوبَة خَيْر مِنْ رَاكِبهَا، وَأَكْثَر ذِكْرًا لله تعالى مِنْهُ»[4].

وَفِي «سُنَن النَّسَائِيّ» عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو قَال: نَهَى رَسُول الله ﷺ عَنْ قَتْل الضِّفْدَع وَقَال: «نَقِيقهَا تَسْبِيح»[5]. وَقَال قَتَادَة عَنْ عَبْد الله بْن بابي، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو: أَنَّ الرَّجُل إِذَا قَال لا إِله إِلَّا الله، فَهِيَ كَلمَة الإِخْلاص، الَّتِي لا يَقْبَل الله مِنْ أَحَد عَمَلًا حَتَّى يَقُولهَا، وَإِذَا قَال: الحَمْد لله، فَهِيَ كَلمَة الشُّكْر الَّتِي لمْ يَشْكُر الله عَبْد قَطُّ حَتَّى يَقُولهَا، وَإِذَا قَال: الله أَكْبَر، فَهِيَ تَملأ مَا بَيْن السَّماء وَالأَرْض، وَإِذَا قَال: سُبْحَان الله، فَهِيَ صَلاة الخَلائِق الَّتِي لمْ يَدَع الله أَحَدًا مِنْ خَلقه إِلَّا قَرَّرَهُ بِالصَّلاةِ وَالتَّسْبِيح. وَإِذَا قَال: لا حَوْل وَلا قُوَّة إِلَّا بِالله، قَال: أَسْلمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلمَ.

---

(١) منكر: تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٧٩).

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه البيهقي (٦/ ٦٤) بسند ضعيف.

(٤) ضعيف بهذا التمام: انظر «ضعيف الجامع» (٧٨٣).

والجزء الأول صحيح وهو: «اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي» انظر «صحيح الجامع» (٩٠٨).

(٥) إسناده ضعيف: تقدم.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا وَهْب بن جَرِير، حَدَّثنَا أَبِي، سَمِعْت الصّقْعَبَ بْن زُهَيْر يُحَدِّث، عَنْ زَيْد بْن أَسْلم، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو؛ قَال: أَتَى النَّبِيّ ﷺ أَعْرَابِيّ عَلَيْهِ جُبَّة مِنْ طَيَالسَة، مَكْفُوفَة بِدِيبَاج أَوْ مزورة بِدِيبَاج فَقَال: إِنَّ صَاحِبكُمْ هَذَا يُرِيد أَنْ يَرْفَع كُلّ رَاعٍ ابْن رَاعٍ، وَيَضع كُلّ رَأْس ابْن رَأْس، فَقَامَ إِلَيْهِ النَّبِيّ ﷺ مُغْضَبًا فَأَخَذَ بِمَجَامِع جُبَّته فَاجْتَذَبَهُ، فَقَال: «**لا أَرَى عَلَيْكَ ثِيَاب مَنْ لا يَعْقِل**». ثم رَجَعَ رَسُول الله ﷺ فَجَلس فَقَال: «**إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاة دَعَا ابْنَيْهِ، فَقَال: إِنِّي قَاصّ عَلَيْكُمَا الوَصِيَّة: آمُركُمَا بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكُمَا عَنْ اثْنَتَيْنِ؛ أَنْهَاكُمَا عَنْ الشِّرْك بِالله وَالكِبْر، وَآمُركُمَا بلا إِله إلاّ الله، فَإِنَّ السَّمَاوَات وَالأَرْض وَمَا بينهما لوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّة المِيزَان وَوُضِعَتْ لا إِله إلاّ الله فِي الكِفَّة الأُخْرَى كَانَتْ أَرْجَح، وَلوْ أَنَّ السَّمَاوَات وَالأَرْض كَانَتَا حلقَة، فَوُضِعَتْ لا إِله إلاّ الله عَلَيْهِمَا لفصلتهما -أَوْ: لقصمتهما- وَآمُركُمَا بِسُبْحَان الله وَبِحَمْدِهِ؛ فَإِنَّهَا صَلاة كُلّ شَيْء، وَبِهَا يُرْزَق كُلّ شَيْء**»[1]. وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا، عَنْ سُليمَان بْن حَرْب، عَنْ حَمَّاد بْن زَيْد، عَنْ الصقعب بْن زُهَيْر بِهِ، أَطْوَل مِنْ هَذَا، تَفَرَّدَ بِهِ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي نَصْر بْن عَبْد الرَّحْمَن الأَوْدِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَعْلى، عَنْ مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ زَيْد ابْن أَسْلمَ، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ نُوح ابْنه؟ إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَال لابْنِهِ: يَا بُنَيّ، آمُرك أَنْ تَقُول: سُبْحَان الله؛ فَإِنَّهَا صَلاة الخَلق، وَتَسْبِيح الخَلق، وَبِهَا يُرْزَق الخَلق، قَال الله تَعَالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾»[2]. إِسْنَاده فِيهِ ضَعْف، فَإِنَّ الربذي ضَعِيف عِنْد الأَكْثَرِينَ. وَقَال عِكْرِمَة فِي قَوْله تَعَالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، قَال: الأُسْطُوَانَة تُسَبِّح، وَالشَّجَرَة تُسَبِّح. الأُسْطُوَانَة: السَّارِيَة. وَقَال بَعْض السَّلف: إن صَرِير البَاب تَسْبِيحه، وَخَرِير المَاء تَسْبِيحه، قَال الله تَعَالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَنْ مَنْصُور عَنْ إِبْرَاهِيم قَال: الطَّعَام يُسَبِّح وَيَشْهَد لهَذَا القَوْل آيَة السَّجْدَة فِي أول الحَجّ. وَقَال آخَرُونَ: إِنَّمَا يُسَبِّح مَنْ كَانَ فِيهِ رُوح يَعْنُونَ: مِنْ حَيَوَان أو نَبَات. وقَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قَال: كُلّ شَيْء فِيهِ رُوح يُسَبِّح؛ مِنْ شَجَر أَوْ شَيْء فِيهِ. وَقَال الحَسَن وَالضَّحَّاك فِي قَوْله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قَالا: كُلّ شَيْء فِيهِ الرُّوح.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن وَاضِح وَزَيْد بْن حُبَاب قَالا: حَدَّثَنَا جَرِير -أَبُو الخَطَّاب- قَال: كُنَّا مَعَ يَزِيد الرَّقَاشِيّ وَمَعَهُ الحَسَن فِي طَعَام، فَقَدَّمُوا الخِوَان، فَقَال يَزِيد الرَّقَاشِيّ: يَا أَبَا سَعِيد، يُسَبِّح هَذَا الخِوَان؟ فَقَال: كَانَ يُسَبِّح مَرَّة. قُلت: الخِوَان هُوَ المَائِدَة مِنْ الخَشَب، فَكَأَنَّ الحَسَن رَحِمَهُ اللَّهُ ذَهَبَ إِلى أَنَّهُ لَمَّا كَانَ حَيًّا فِيهِ خُضْرَة كَانَ يُسَبِّح، فَلَمَّا قُطِعَ وَصَارَ خَشَبَة يَابِسَة انْقَطَعَ تَسْبِيحه، وَقَدْ يُسْتَأْنَس لهَذَا القَوْل بِحَدِيثِ ابْن عَبَّاس: أَنَّ رَسُول الله ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ فَقَال: «**إِنَّهُمَا ليُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِير؛ أَمَّا أَحدهمَا فَكَانَ لا يستتر مِنْ البَوْل، وَأَمَّا الآخَر فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**». ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَة رَطْبَة فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، ثُمَّ غَرَزَ فِي كُلّ قَبْر وَاحِدَة، ثُمَّ قَال: «**لعَلَّهُ يُخَفِّف عَنْهُمَا مَا لمْ يَيْبَسَا**». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»[3]. قَال بَعْض مَنْ تَكَلَّمَ عَلى هَذَا الحَدِيث مِنْ العُلمَاء: إِنَّمَا قَال: «**مَا لمْ يَيْبَسَا**»؛ لأَنَّهُمَا يُسَبِّحَانِ مَا دَامَ فِيهِمَا خُضْرَة، فَإِذَا يَبِسَا انْقَطَعَ تَسْبِيحهمَا، وَالله أَعْلم.

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٥)، وصححه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ في تحقيق «المسند».
(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن جرير (١٥/ ٩٢)، وسنده ضعيف، وفيه موسى بن عبيدة ضعيف.
(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢١٦)، ومسلم (١١٠).

وَقَوْله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أَيْ: إِنَّهُ لا يُعَاجِل مَنْ عَصَاهُ بِالعُقُوبَةِ؛ بَل يُؤَجِّلهُ وَيُنْظِرهُ، فَإِنْ اسْتَمَرَّ عَلى كُفْره وَعِنَاده أَخَذَهُ أَخْذ عَزِيز مُقْتَدِر، كَمَا جَاءَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «**إِنَّ الله لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتهُ**». ثُمَّ قَرَأَ رَسُول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1] وَقَال تَعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، وَقَال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ الآيَتَيْنِ، وَمَنْ أَقْلَعَ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ كُفْر أَوْ عِصْيَان، وَرَجَعَ إِلى الله، وَتَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وَقَال هَاهُنَا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ كَمَا قَال فِي آخر فَاطِر: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إِلى أَنْ قَال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾.

يَقُول تَعَالى لِرَسُولِهِ مُحَمَّد ﷺ: وَإِذَا قَرَأْت يَا مُحَمَّد عَلى هَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ القُرْآن؛ جَعَلنَا بَيْنك وَبَيْنهمْ حِجَابًا مَسْتُورًا. قَال قَتَادَة وَابْن زَيْد: هُوَ الأَكِنَّة عَلى قُلُوبهمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أَيْ: مَانِع حَائِل أَنْ يَصِل إِلَيْنَا مِمَّا تَقُول شَيْء. وَقَوْله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أَي بِمَعْنَى: سَاتِر، كَمَيْمُونٍ وَمَشْئُوم بِمَعْنَى: يَامِن وَشَائِم، لأَنَّهُ مِنْ يُمْنهمْ وَشَأْمِهم. وَقِيل: مَسْتُورًا عَنْ الأَبْصَار فَلا تَرَاهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلكَ حِجَاب بَيْنهمْ وَبَيْن الهُدَى، وَمَال إِلى تَرْجِيحه ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَال الحَافِظ أَبُو يَعْلى المَوْصِلِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو مُوسَى الهَرَوِيّ إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا سُفْيَان عَنْ الوَلِيد بْن كَثِير، عَنْ يَزِيد بْن تَدْرُس، عَنْ أَسْمَاء بِنْت أَبِي بَكْر -رَضِيَ الله تَعَالى عَنْهَا- قَالَتْ: لَـمَّا نَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ جَاءَتْ العَوْرَاء أُمّ جَمِيل وَلهَا وَلوَلة وَفِي يَدهَا فِهْر وَهِيَ تَقُول: مُذَمَّمًا أَتَيْنَا -أَوْ: أَبَيْنَا؛ قَال أَبُو مُوسَى: الشَّكّ مِنِّي -وَدِينه قَلَيْنَا، وَأَمْره عَصَيْنَا. وَرَسُول الله ﷺ جَالس وَأَبُو بَكْر إِلى جَنْبه -أو قَال: معه- قَال: فَقَال أَبُو بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ أَقْبَلتْ هَذِهِ وَأَنَا أَخَاف أَنْ تَرَاك. فَقَال: «**إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي**». وَقَرَأَ قُرْآنًا اعْتَصَمَ بِهِ مِنْهَا: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ قَال: فَجَاءَتْ حَتَّى قَامَتْ عَلى أَبِي بَكْر، فَلمْ تَرَ النَّبِيّ ﷺ فَقَالتْ: يَا أَبَا بَكْر، بَلغَنِي أَنَّ صَاحِبك هَجَانِي. فَقَال أَبُو بَكْر: لا وَرَبّ هَذَا البَيْت مَا هَجَاك، قَال: فَانْصَرَفَتْ وَهِيَ تَقُول: لَقَدْ عَلمَتْ قُرَيْش أَنِّي بِنْت سَيِّدهَم.[2]

وَقَوْله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جَمْع كِنَان، الَّذِي يَغْشَى القَلب ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أَيْ: لِئَلَّا يَفْهَمُوا القُرْآن، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ وَهُوَ الثِّقَل الَّذِي يَمْنَعهُمْ مِنْ سَمَاع القُرْآن سَمَاعًا يَنْفَعهُمْ وَيَهْتَدُونَ بِهِ. وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أَيْ: إِذَا وَحَّدْت الله فِي تِلاوَتك وَقُلت: لا إِله إِلَّا الله، ﴿وَلَّوْا۟﴾ أَيْ: أَدْبَرُوا رَاجِعِينَ ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ وَنُفُور: جَمْع نَافِر، كَقُعُودٍ: جَمْع قَاعِد، وَيَجُوز أَنْ يَكُون مَصْدَرًا مِنْ غَيْر الفِعْل، وَالله أَعْلم. كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.
قَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ إِن المُسْلِمِينَ لَـمَّا قَالُوا: لا إِله إِلَّا الله،

---

(١) **صحيح**: تقدم.
(٢) **صحيح**: أخرجه الحميدي (٣٢٣)، والحاكم (٢/ ٣٦١)، وصححه الألباني، انظر «صحيح السيرة النبوية» (١٣٧).

أَنكَرَ ذَلكَ المُشْرِكُونَ، وَكَبُرَتْ عَليْهِمْ، وضاقها إِبْليس وَجُنُوده، فَأَبَى الله إِلَّا أَنْ يُمْضِيهَا وَيَنْصُرهَا ويفلجها وَيُظْهِرهَا عَلى مَنْ نَاوَأَهَا، إِنَّهَا كَلمَة مَنْ خَاصَمَ بِهَا فلج وَمَنْ قَاتَل بِهَا نُصِرَ، إِنَّمَا يَعْرِفهَا أَهْل هَذِهِ الجَزِيرَة مِنْ المُسْلِمِينَ، الَّتِي يَقْطَعهَا الرَّاكِب فِي ليَالٍ قَلائِل، وَيَسِير الدَّهْر فِي فِئَام مِنْ النَّاس لا يَعْرِفُونَهَا وَلا يُقِرُّون بِهَا.

قَوْل آخر فِي الآيَة: رَوَى ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي الحُسَيْن بْن مُحَمَّد الذَّارِع، حَدَّثَنَا رَوْح بْن المُسَيِّب أَوْ رَجَاء الكَلبِيّ، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن مَالك، عَنْ أَبِي الجَوْزَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ هُمْ الشَّيَاطِين. وَهَذَا غَرِيب جِدًّا فِي تَفْسِيرهَا، وَإِلَّا فَالشَّيَاطِين إِذَا قُرِئَ القُرْآن أَوْ نُودِيَ بِالأَذَانِ، أَوْ ذُكِرَ الله، انْصَرَفُوا.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

يُخْبِر تَعَالى نَبِيّه مُحَمَّدًا ﷺ بِمَا يَتَنَاجَى بِهِ رُؤَسَاء كُفَّار قُرَيْش حِين جَاءُوا يَسْتَمِعُونَ قِرَاءَته ﷺ سِرًّا مِنْ قَوْمهمْ، بِمَا قَالُوا مِنْ أَنَّهُ رَجُل مَسْحُور، مِنْ السِّحْر عَلى المَشْهُور، أَوْ: مِنْ السَّحْر، وَهُوَ: الرِّئَة، أَيْ: إِنْ تَتَّبِعُونَ -إِنْ اتَّبَعْتُمْ مُحَمَّدًا- ﴿إِلَّا بَشَرًا﴾ يَأْكُل، كَمَا قَالَ الشَّاعِر:

فَإِنْ تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ؟ فَإِنَّنَا ❁ عَصَافِير مِنْ هَذَا الأَنَام المُسَحَّر

وَقَال الرَّاجِز:

وَنسحر بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ

أَيْ: نغذي. وَقَدْ صَوَّبَ هَذَا القَوْل ابْن جَرِير. وَفِيهِ نَظَر؛ لأَنَّهُمْ أَرَادُوا هَاهُنَا أَنَّهُ مَسْحُور لهُ رِئِيّ يَأْتِيه بِمَا اسْتَمَعُوهُ مِنْ الكَلام الَّذِي يَتْلُوهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَال: شَاعِر، وَمِنْهُمْ مَنْ قَال: كَاهِن، وَمِنْهُمْ مَنْ قَال: مَجْنُون، وَمِنْهُمْ مَنْ قَال: سَاحِر؛ وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أَيْ: فَلا يَهْتَدُونَ إِلى الحَقّ، وَلا يَجِدُونَ إِليْهِ مَخْلصًا، قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق فِي «السِّيرَة»: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن مُسْلم بْن شِهَاب الزُّهْرِيّ، أَنَّهُ حُدِّثَ: أَنَّ أَبَا سُفْيَان ابْن حَرْب، وَأَبَا جَهْل ابْن هِشَام، وَالأَخْنَس بْن شَرِيق بْن عَمْرو ابْن وَهْب الثَّقَفِيّ -حَليف ابْن زُهْرَة- خَرَجُوا ليْلة ليَسْتَمِعُوا مِنْ رَسُول الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي بِاللَّيْل فِي بَيْته، فَأَخَذَ كُلّ وَاحِد مِنْهُمْ مَجْلسًا يَسْتَمِع فِيهِ، وَكُلّ لا يَعْلم بِمَكَانِ صَاحِبه، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لهُ حَتَّى إِذَا طَلعَ الفَجْر تَفَرَّقُوا، حَتَّى إِذَا جَمَعَتْهُمْ الطَّرِيق فَتَلاوَمُوا، وَقَال بَعْضهمْ لبَعْضٍ: لا تَعُودُوا، فَلوْ رَآكُمْ بَعْض سُفَهَائِكُمْ لأَوْقَعْتُمْ فِي نَفْسه شَيْئًا، ثُمَّ انْصَرَفُوا حَتَّى إِذَا كَانَتْ اللَّيْلة الثَّانِيَة عاد كُلّ رَجُل مِنْهُمْ إِلى مَجْلسه، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لهُ حَتَّى إِذَا طَلعَ الفَجْر تَفَرَّقُوا، حق إذا جَمَعَتْهُمْ الطَّرِيق، فَقَال بَعْضهمْ لبَعْضٍ مثل مَا قَال أَوَّل مَرَّة، ثُمَّ انْصَرَفُوا. حَتَّى إِذَا كَانَتْ اللَّيْلة الثَّالثَة، أَخَذَ كُلّ رَجُل منهم مَجْلسه، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لهُ حَتَّى إِذَا طَلعَ الفَجْر تَفَرَّقُوا، فجمعهم الطَّرِيق، فَقَال بَعْضهمْ لبَعْضٍ: لا نَبْرَح حَتَّى نَتَعَاهَد لا نَعُود فَتَعَاهَدُوا عَلى ذَلكَ ثُمَّ تَفَرَّقُوا. فَلمَّا أَصْبَحَ الأَخْنَس بْن شَرِيق، أَخَذَ عَصَاهُ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَان بْن حَرْب فِي بَيْته فَقَال: أَخْبِرْنِي يَا أَبَا حَنْظَلة عَنْ رَأْيك فِيمَا سَمِعْت مِنْ مُحَمَّد؟ قَال: يَا أَبَا ثَعْلبَة، وَالله لقَدْ سَمِعْت أَشْيَاء أَعْرِفهَا، وَأَعْرِف مَا يُرَاد بِهَا، وَسَمِعْت أَشْيَاء مَا عَرَفْت مَعْنَاهَا وَلا مَا يُرَاد بِهَا. قَال الأَخْنَس: وَأَنَا وَالَّذِي حَلفْت بِهِ. قَال: ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْده حَتَّى أَتَى أَبَا جَهْل فَدَخَل عَليْهِ بَيْته فَقَال: يَا أَبَا الحَكَم، مَا رَأْيك فِيمَا سَمِعْت مِنْ مُحَمَّد؟ قَال: مَاذَا سَمِعْت؟! قَال: تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْد مَنَاف الشَّرَف؛ أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا،

وَحَمَلُوا فَحَمَلنَا، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا، حَتَّى إِذَا تَجَاثَيْنَا عَلى الرَّكْب، وَكُنَّا كَفَرَسَيْ رِهَان قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ يَأْتِيه الوَحْي مِنْ السَّمَاء، فَمَتَى نُدْرِك هَذِهِ؟! وَاللهِ لا نُؤْمِن بِهِ أَبَدًا وَلا نُصَدِّقهُ. قَال: فَقَامَ عَنْهُ الأَخْنَس وَتَرَكَهُ.[1]

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ الكُفَّار المُسْتَبْعِدِينَ وُقُوع المَعَاد، القَائِلِينَ -اسْتِفْهَام إِنْكَار مِنْهُمْ لذَلكَ-: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أَيْ: تُرَابًا، قَالهُ مُجَاهِد. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما: غُبَارًا. ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة، ﴿خَلۡقًا جَدِيدًا﴾، أَي: بَعْدَمَا بُلِينَا وَصِرْنَا عَدَمًا لا يُذْكَر، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي المَوْضِع الآخَر: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، وقال تَعَالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ وهكذا أمر رسوله هاهنا أن يجيبهم فقال: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ إِذْ هُمَا أَشَدّ امْتِنَاعًا مِنْ العِظَام وَالرُّفَات ﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾. قَال ابْن إِسْحَاق: عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد: سَأَلت ابْن عَبَّاس عَنْ ذَلكَ، فَقَال: هُوَ المَوْت. وَرَوَى عَطِيَّة عَنْ ابْن عُمَر أَنَّهُ قَال فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: لوْ كُنْتُمْ مَوْتَى لأَحْيَيْتُكُمْ، وَكَذَا قَال سَعِيد بْن جُبَيْر، وَأَبُو صَالح، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَالضَّحَّاك. وَمَعْنَى ذَلكَ: أَنَّكُمْ لوْ فَرَضْتُمْ أَنَّكُمْ لوْ صِرْتُمْ موتًا -الَّذِي هُوَ ضِدّ الحَيَاة- لأَحْيَاكُمْ الله إِذَا شَاءَ؛ فَإِنَّهُ لا يَمْتَنِع عَليْهِ شَيْء إِذَا أَرَادَهُ.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْن جَرِير حَدِيث: «يُجَاء بِالمَوْتِ يَوْم القِيَامَة كَأَنَّهُ كَبْش أَمْلح، فَيُوقَف بَيْن الجَنَّة وَالنَّار، ثُمَّ يُقَال: يَا أَهْل الجَنَّة، أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. ثُمَّ يُقَال: يَا أَهْل النَّار. أَتَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُذْبَح بَيْن الجَنَّة وَالنَّار، ثُمَّ يُقَال: يَا أَهْل الجَنَّة، خُلُود بِلا مَوْت، وَيَا أَهْل النَّار؛ خُلُود بِلا مَوْت»[2]. وَقَال مُجَاهِد: ﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ يَعْنِي: السَّمَاء، وَالأَرْض وَالجِبَال، وَفِي رِوَايَة: مَا شِئْتُمْ فَكُونُوا، فَسَيُعِيدُكُمْ الله بَعْد مَوْتكُمْ. وَقَدْ وَقَعَ فِي التَّفْسِير المَرْوِيّ عَنْ الإِمَام مَالك عَنْ الزُّهْرِيّ فِي قَوْله: ﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ قَال: النَّبِيّ ﷺ. قَال مَالك: وَيَقُولُونَ: هُوَ المَوْت.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ أَيْ: مَنْ يُعِيدنَا إِذَا كُنَّا حِجَارَة أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلقًا آخر شَدِيدًا ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ أَيْ: الَّذِي خَلقَكُمْ وَلمْ تَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، ثُمَّ صِرْتُمْ بَشَرًا تَنْتَشِرُونَ، فَإِنَّهُ قَادِر عَلى إِعَادَتكُمْ، وَلوْ صِرْتُمْ إِلى أَيّ حَال، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾، وَقَوْله تَعَالى: ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ﴾ قَال ابْن عَبَّاس وَقَتَادَة: يُحَرِّكُونَهَا اسْتِهْزَاء، وَهَذَا الَّذِي قَالاهُ هُوَ الَّذِي تفهمه العَرَب مِنْ لُغَاتهَا؛ لأَنَّ «الإِنْغَاض» هُوَ التَّحَرُّك مِنْ أَسْفَل إِلى أَعْلى، أَوْ مِنْ أَعْلى إِلى أَسْفَل، وَمِنْهُ قِيل للظَّلِيم -وَهُوَ وَلد النَّعَامَة-: «نَغْضًا»؛ لأَنَّهُ إِذَا مَشَى عَجَّل فِي مشيته وَحَرَّكَ رَأْسه، وَيُقَال: «نَغَضَتْ سِنّه» إِذَا تَحَرَّكَتْ وَارْتَفَعَتْ مِنْ مَنْبَتهَا؛ قَال الرَّاجِز:

وَنَغَضَتْ مِنْ هَرَم أَسْنَانهَا

وَقَوْله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾ إِخْبَار عَنْهُمْ بِالاسْتِبْعَادِ مِنْهُمْ لوُقُوعِ ذَلكَ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا

---

(١) مرسل: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٠٦)، من طريق ابن إسحاق، وهو مدلس، وقد أرسله.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾. وَقَوْله: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أَيْ: احْذَرُوا ذَلكَ فَإِنَّهُ قَرِيب إِلَيْكُمْ سَيَأْتِيكُمْ لا مَحَالة؛ فَكُلّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. وَقَوْله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أَيْ: الرَّبّ تَعَالى، ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أَيْ: إِذَا أَمَرَكُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْهَا؛ فَإِنَّهُ لا يُخَالف وَلا يُمَانَع؛ بَل كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ أَيْ: إِنَّمَا هُوَ أَمْر وَاحِد بِانْتِهَارٍ، فَإِذَا النَّاس قَدْ خَرَجُوا مِنْ بَاطِنِ الأَرْض إِلى ظَاهِرِهَا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾. ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أَيْ: تَقُولُونَ كُلّكُمْ إِجَابَة لأَمْرِهِ وَطَاعَة لإِرَادَتِهِ. قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أَيْ: بِأَمْرِهِ، وَكَذَا قَال ابْن جُرَيْج. وَقَال قَتَادَة: بِمَعْرِفَتِهِ وَطَاعَته.

وَقَال بَعْضهمْ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾، أَيْ: وَلهُ الحَمْد فِي كُلّ حَال. وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيث: «لِيْسَ عَلى أَهْل لا إِله إِلاَّ الله وَحْشَة فِي قُبُورهمْ، وكَأَنِّي بِأَهْل لا إِله إِلاَّ الله يَقُومُونَ مِنْ قُبُورهمْ يَنْفُضُونَ التُّرَاب عَنْ رُءُوسهمْ يَقُولُونَ: لا إِله إِلاَّ الله». وَفِي رِوَايَة: «يَقُولُونَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾»(1) وَسَيَأْتِي فِي سُورَة فَاطِر. وَقَوْله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾، أَيْ: يَوْم تَقُومُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أَيْ: فِي الدَّار الدُّنْيَا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكما قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

يَأْمُر تَبَارَكَ وَتَعَالى عَبْده وَرَسُوله ﷺ، أَنْ يَأْمُر عِبَاد الله المُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا فِي مُخَاطَبَاتهمْ وَمُحَاوَرَاتهمْ الكَلام الأَحْسَن، وَالكَلمَة الطَّيِّبَة، فَإِنَّهُمْ إذا لمْ يَفْعَلُوا ذَلكَ نَزَغَ الشَّيْطَان بَيْنهمْ، وَأَخْرَجَ الكَلام إِلى الفِعَال، وَوَقَعَ الشَّرّ وَالمُخَاصَمَة وَالمُقَاتَلة، فإن الشيطان عَدُوّ لآدَم وَذُرِّيَّته مِنْ حِين امْتَنَعَ مِنْ السُّجُود لآدَم فعداوته ظَاهِرَة بَيِّنَة؛ وَلهَذَا نَهَى أَنْ يُشِير الرَّجُل إِلى أَخِيهِ المُسْلم بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الشَّيْطَان يَنْزَغ فِي يَده، أَيْ: فَرُبَّمَا أَصَابَهُ بِهَا.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ هَمَّام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«لا يُشِيرَنَّ أَحَدكُمْ إِلى أَخِيهِ بالسِّلاحِ، فَإِنَّهُ لا يَدْرِي أَحَدكُمْ لعَلَّ الشَّيْطَان أَنْ يَنْزَغ فِي يَده؛ فَيَقَع فِي حُفْرَة مِنْ نار»**(2). أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّزَّاق. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا حَمَّاد، أَنْبَأَنَا عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ الحَسَن قَال: حَدَّثَنِي رَجُل مِنْ بَنِي سَليط قَال: أَتَيْت النَّبِيّ ﷺ وَهُوَ فِي أَزْفَلة مِنْ النَّاس، فَسَمِعْته يَقُول: **«المُسْلم أَخُو المُسْلم لا يَظْلمهُ وَلا يَخْذُلهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا**(3) -قَال حَمَّاد: وَقَال بِيَدِهِ إِلى صَدْره- **وَمَا تَوَادَّ رَجُلانِ فِي الله فتفرق بَيْنهمَا إلاَّ بحدث يُحْدِثهُ أَحَدهمَا، وَالمُحْدِث شَرّ، وَالمُحْدِث شَرّ»**.(4)

---

(١) ضعيف جدًا : ضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٩٢٩).
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧).
(٣) حسن لشواهده : أخرجه أحمد (٥/ ٧١) (٤/ ٦٦، ٦٩) من طرق بمجموعها يحسن.
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٧١).

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾.

يَقُول الله تَعالَى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أَيُّهَا النَّاس، مَنْ يَسْتَحِقّ مِنكُمْ الهِدَايَة وَمَنْ لا يَسْتَحِقّ، ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بِأَنْ يُوَفِّقكُمْ لطَاعَتِهِ وَالإنَابَة إِلَيْهِ، ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أَيْ: إِنَّمَا أَرْسَلنَاكَ نَذِيرًا، فَمَنْ أَطَاعَكَ دَخَل الجَنَّة وَمَنْ عَصَاكَ دَخَل النَّار. وَقَوْله: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ: بِمَرَاتِبِهِمْ فِي الطَّاعَة وَالمَعْصِيَة، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كَمَا قَال تَعالَى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ﴾ وَهَذَا لا يُنَافِي مَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عن رَسُول الله ﷺ أنه قَال: «**لا تُفَضِّلُوا بَيْن الأَنْبِيَاء**»[1] فَإِنَّ المُرَاد مِنْ ذَلكَ هُوَ التَّفْضِيل بِمُجَرَّدِ التَّشَهِّي وَالعَصَبِيَّة، لا بِمُقْتَضَى الدَّلِيل، فَإِذَا دَلَّ الدَّلِيل عَلَى شَيْء وَجَبَ اتِّبَاعه، وَلا خِلاف أَنَّ الرُّسُل أَفْضَل مِنْ بَقِيَّة الأَنْبِيَاء، وَأَنَّ أُولِي العَزْم مِنْهُمْ أَفْضَلهمْ، وَهُمْ الخَمْسَة المَذْكُورُونَ نَصًّا فِي آيَتَيْنِ مِنْ القُرْآن فِي سُورَة الأَحْزَاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾، وَفِي الشُّورَى فِي قَوْله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾، وَلا خِلاف أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَفْضَلهمْ، ثُمَّ بَعْده إِبْرَاهِيم، ثُمَّ مُوسَى عَلَى المَشْهُور، وَقَدْ بسطنا هذا بِدَلائِلِهِ فِي غَيْر هَذَا المَوْضِع، وَالله المُوَفِّق.

وَقَوْله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ تَنْبِيه عَلَى فَضْله وَشَرَفه. قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن نَصْر، أَخْبَرَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ هَمَّام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**خُفِّفَ عَلَى دَاوُد القُرْآن، فَكَانَ يَأْمُر بدابته لتُسْرَج، فَكَانَ يقرأ قَبْل أَنْ يَفْرُغ**». يَعْنِي: القُرْآن.[1]

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾.

يَقُول تَعالَى: ﴿ قُلِ ﴾ يَا مُحَمَّد لهَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْر الله ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ مِنْ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد، فَارْغَبُوا إِلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ ﴿لا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ أَيْ: بِالكُلِّيَّة ﴿وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ أَيْ: يُحَوِّلُوهُ إِلَى غَيْركُمْ، وَالمَعْنَى: أَنَّ الَّذِي يَقْدِر عَلَى ذَلكَ هُوَ الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، الَّذِي لهُ الخَلق وَالأَمْر. قَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾، قَال: كَانَ أَهْل الشِّرْك يَقُولُونَ: نَعْبُد المَلائِكَة وَالمَسِيح وَعُزَيْرًا، وَهُمْ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ، يَعْنِي: المَلائِكَة وَالمَسِيح وَعُزَيْرًا. وَقَوْله تَعالَى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾، رَوَى البُخَارِيّ مِنْ حَدِيث سُلَيْمَان بْن مِهْرَان الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ أَبِي مَعْمَر عَنْ عَبْد الله فِي قَوْله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ قَال: نَاس مِنْ الجِنّ كَانُوا يُعْبَدُونَ فَأَسْلمُوا.[2] وَفِي رِوَايَة قَال: كَانَ نَاس مِنْ الإِنْس يَعْبُدُون نَاسًا مِنْ الجِنّ، فَأَسْلمَ الجِنّ وَتَمَسَّكَ هَؤُلاءِ بِدِينِهِمْ، وَقَال قَتَادَة: عَنْ مَعْبَد بْن عَبْد الله الزِّمَّانِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عُتْبَة بْن مَسْعُود، عَنْ ابْن مَسْعُود فِي قَوْله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾، قَال: نَزَلتْ فِي نَفَر مِنْ العَرَب كَانُوا يَعْبُدُون نَفَرًا مِنْ الجِنّ فَأَسْلمَ الجِنِّيُّونَ، وَالإِنْس الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بِإِسْلامِهِمْ، فَنَزَلتْ هَذِهِ الآيَة، وَفِي رِوَايَة عَنْ ابْن مَسْعُود: كَانُوا يَعْبُدُونَ صِنْفًا مِنْ المَلائِكَة، يُقَال لهُمْ: الجِنّ، فَذَكَرَهُ.[3]

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٤٥).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٣٠٣٠).

وَقَال السُّدِّيّ: عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾، قَال: عِيسَى، وَأُمّه، وَعُزَيْر. وَقَال مُغِيرَة عَنْ إِبْرَاهِيم: كَانَ ابْن عَبَّاس يَقُول فِي هَذِهِ الآيَة: هُمْ عِيسَى، وَعُزَيْر، وَالشَّمْس، وَالقَمَر. وَقَال مُجَاهِد: عِيسَى، وَالعُزَيْر، وَالمَلائِكَة. وَاخْتَارَ ابْن جَرِير قَوْل ابْن مَسْعُود لِقَوْلِهِ: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ وَهَذَا لا يُعَبَّر بِهِ عَنْ المَاضِي، فَلا يَدْخُل فِيهِ عِيسَى وَالعُزَيْر وَقَال: وَالوَسِيلة: هِيَ القُرْبَة، كَمَا قَال قَتَادَة؛ وَلهَذَا قَال: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾. وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ لا تَتِمّ العِبَادَة إِلَّا بِالخَوْفِ وَالرَّجَاء، فَبِالخَوْفِ يَنْكَفّ عَنْ المَنَاهِي، وَبِالرَّجَاءِ ينبعث على الطَّاعَات. وَقَوْله تَعَالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورًا﴾ أَيْ: يَنْبَغِي أَنْ يُحْذَر مِنْهُ، وَيُخَاف مِنْ وُقُوعه وَحُصُوله، عِيَاذًا بالله مِنْهُ.

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾.

هَذَا إِخْبَار مِنْ الله عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ قَدْ حَتَمَ وَقَضَى بِمَا قَدْ كتبه عِنْده فِي اللَّوْح المَحْفُوظ: أَنَّهُ مَا مِنْ قَرْيَة إِلَّا سَيُهْلِكُهَا بِأَنْ يُبِيد أَهْلهَا جَمِيعهمْ أَوْ يُعَذِّبهُمْ ﴿عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ إِمَّا بِقَتْلٍ أَوْ ابْتِلاء بِمَا يَشَاء، وَإِنَّمَا يَكُون ذَلِكَ بِسَبَبِ ذُنُوبهمْ وَخَطَايَاهُمْ، كَمَا قَال تَعَالى عَنْ الأُمَم المَاضِينَ: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾.

قَال سُنَيْد: عَنْ حَمَّاد بْن زَيْد، عَنْ أَيُّوب، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، قَال: قَال المُشْرِكُونَ: يَا مُحَمَّد؛ إِنَّك تَزْعُم أَنَّهُ كَانَ قَبْلك أَنْبِيَاء؛ فَمِنْهُمْ مَنْ سُخِّرَتْ لهُ الرِّيح، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحْيِي المَوْتَى، فَإِنْ سَرَّكَ أَنْ نُؤْمِن بِك وَنُصَدِّقك فَادْعُ رَبّك أَنْ يَكُون لنَا الصَّفَا ذَهَبًا. فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ: إِني قَدْ سَمِعْت الَّذِي قَالُوا؛ فَإِنْ شِئْت أَنْ نَفْعَل الَّذِي قَالُوا، فَإِنْ لمْ يُؤْمِنُوا نَزَل العَذَاب؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَعْد نُزُول الآيَة مُنَاظَرَة، وَإِنْ شِئْت أَنْ نَسْتَأْنِي بِقَوْمِك اسْتَأْنَيْت بِهِمْ. قَال: «يَا رَبّ، اسْتَأْنِ بِهِمْ»[1]. وَكَذَا قَال قَتَادَة، وَابْن جُرَيْج، وَغَيْرهمَا. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ جَعْفَر بْن إِيَاس، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: سَأَل أَهْل مَكَّة النَّبِيّ ﷺ أَنْ يَجْعَل لهُمْ الصَّفَا ذَهَبًا، وَأَنْ يُنَحِّي الجِبَال عَنْهُمْ فيزرعوا، فَقِيل لهُ: إِنْ شِئْت أَنْ نَسْتَأْنِي بِهِمْ، وَإِنْ شِئْت أَنْ نؤتيهم الَّذِي سَأَلُوا؛ فَإِنْ كَفَرُوا أُهلكوا كَمَا أَهْلَكْت مَنْ كَانَ قَبْلهمْ مِنْ الأُمَم. قَال: «**لا، بَل اسْتَأْنِ بِهِمْ**». وَأَنْزَل الله تَعَالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾.[2] وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث جَرِير بِهِ.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ سَلمَة بْن كُهَيْل، عَنْ عِمْرَان بْن الحكم، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: قَالتْ قُرَيْش للنَّبِيِّ ﷺ: ادْعُ لنَا رَبّك أَنْ يَجْعَل لنَا الصَّفَا ذَهَبًا وَنُؤْمِن بِك. قَال: «**وَتَفْعَلُونَ**»؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَال: فَدَعَا فَأَتَاهُ جِبْرِيل؛ فَقَال: إِنَّ رَبّك يَقْرَأ عَليْك السَّلام، وَيَقُول لك: إِنْ شِئْت أَصْبَحَ الصَّفَا لهم ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْد ذَلكَ عَذَّبْته عَذَابًا لا أُعَذِّبهُ أَحَدًا مِنْ العَالمِينَ، وَإِنْ شِئْت فَتَحْت لهُمْ أَبْوَاب التَّوْبَة وَالرَّحْمَة. فَقَال: «**بَل بَاب التَّوْبَة وَالرَّحْمَة**».[3]

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صححه الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (١٥٢).
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٢٤٢)، والحاكم (١/ ٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٤٢).

وَقَال الحَافِظ أَبُو يَعْلى فِي «مُسْنَده»: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل بْن عَلِيّ الأَنْصَارِيّ، حَدَّثَنَا خلف بْن تَمِيم المِصِّيصِيّ، عَنْ عَبْد الجَبَّار بْن عُمَر الأيلي، عَنْ عَبْد الله بْن عَطَاء بْن إِبْرَاهِيم، عَنْ جَدَّته أُمّ عَطَاء مَوْلاة الزُّبَيْر بْن العَوَّام قَالَتْ: سَمِعْت الزُّبَيْر يَقُول: لَـمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَاحَ رَسُول الله ﷺ عَلى أَبِي قُبَيْس: «يَا آل عَبْد مَنَاف؛ إِنِّي نَذِير». فَجَاءَتْهُ قُرَيْش فَحَذَّرَهُمْ، وَأَنْذَرَهُمْ، فَقَالُوا: تَزْعُم أَنَّك نَبِيّ يُوحَى إِلَيْك، وَأَنَّ سُلَيْمَان سُخِّرَ لَهُ الرِّيح وَالجِبَال، وَأَنَّ مُوسَى سُخِّرَ لَهُ البَحْر؛ وَأَنَّ عِيسَى كَانَ يُحْيِي المَوْتَى، فَادْعُ الله أَنْ يُسَيِّرَ عَنَّا هَذِهِ الجِبَال، وَيُفَجِّر لَنَا الأَرْض أَنْهَارًا؛ فنتخذها مَحَارِث فَنَزْرَع وَنَأْكُل، وَإِلَّا فَادْعُ الله أَنْ يُحْيِي لَنَا مَوْتَانَا فنكلمهم وَيُكَلِّمُونَا، وَإِلَّا فَادْعُ الله أَنْ يُصَيِّرَ لَنَا هَذِهِ الصَّخْرَة الَّتِي تَحْتك ذَهَبًا فَنَنْحِت مِنْهَا، وَتُغْنِينَا عَنْ رِحْلَة الشِّتَاء وَالصَّيْف؛ فَإِنَّك تَزْعُم أَنَّك كَهَيْئَتِهِمْ. قَال: فَبَيْنَا نَحْنُ حَوْله إِذْ نَزَل عَلَيْهِ الوَحْي، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قَال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ أَعْطَانِي مَا سَأَلْتُمْ، وَلَوْ شِئْت لَكَانَ، وَلَكِنَّهُ خَيَّرَنِي بَيْن أَنْ تَدْخُلُوا بَاب الرَّحْمَة فَيُؤْمِن مُؤْمِنكُمْ، وَبَيْن أَنْ يَكِلكُمْ إِلى مَا اخْتَرْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَتَضِلُّوا عَنْ بَاب الرَّحْمَة فَلا يُؤْمِن مِنْكُمْ أَحَد، فَاخْتَرْت بَاب الرَّحْمَة فَيُؤْمِن مُؤْمِنكُمْ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ إِنْ أَعْطَاكُمْ ذَلِكَ ثُمَّ كَفَرْتُمْ أَنَّهُ يُعَذِّبكُمْ عَذَابًا لا يُعَذِّبهُ أَحَدًا مِنْ العَالَمِينَ».(١) وَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ حتى قَرَأَ ثَلاث آيَات، وَنَزَلَتْ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآيَة.

وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أَيْ: نَبْعَث الآيَات، وَنَأْتِي بِهَا عَلى مَا سَأَل قَوْمك مِنْك؛ فَإِنَّهُ سَهْل عَلَيْنَا يَسِير لَدَيْنَا، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُون بَعْدَمَا سَأَلُوهَا، وَجَرَتْ سُنَّتنَا فِيهِمْ، وَفِي أَمْثَالهمْ أَنَّهُمْ لا يُؤَخَّرُونَ إِذا كَذَّبُوا بِهَا بَعْد نُزُولهَا، كَمَا قَال الله تَعَالى فِي المَائِدَة: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وَقَال تَعَالى عَنْ ثَمُود حِين سَأَلُوا آيَة -نَاقَة تَخْرُج مِنْ صَخْرَة عَيَّنُوهَا- فَدَعَا صَالِح عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبّه فَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنْهَا نَاقَة عَلى مَا سَأَلُوا، ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ أَيْ: كَفَرُوا بِمَنْ خَلَقَهَا وَكَذَّبُوا رَسُوله؛ عقروا النَاقة، فَقَال: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾، وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أَيْ: دَالَّة عَلى وَحْدَانِيَّة مَنْ خَلَقَهَا، وَصِدْق الرسول الَّذِي أُجِيبَ دُعَاؤُهُ فِيهَا، ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ أَيْ: كَفَرُوا بِهَا وَمَنَعُوهَا شِرْبهَا وَقَتَلُوهَا، فَأَبَادَهُمْ الله عَنْ آخِرهمْ وَانْتَقَمَ مِنْهُمْ، وَأَخَذَهُمْ أَخْذ عَزِيز مُقْتَدِر.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قَال قَتَادَة: إِنَّ الله تَعَالى يُخَوِّف النَّاس بِمَا شَاءَ مِنْ الآيَات لَعَلَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ وَيَذْكُرُونَ وَيَرْجِعُونَ؛ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الكُوفَة رَجَفَتْ عَلى عَهْد ابْن مَسْعُود رضي الله عنه، فَقَال: «يَا أَيُّهَا النَّاس، إِنَّ رَبّكُمْ يَسْتَعْتِبكُمْ فَأَعْتِبُوهُ»، وَهَكَذَا رُوِيَ أَنَّ المَدِينَة زُلْزِلَتْ عَلى عَهْد عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه مَرَّات؛ فَقَال عُمَر: أَحْدَثْتُمْ! وَالله لَئِنْ عَادَتْ لأَفْعَلَنَّ وَلأَفْعَلَنَّ. وَكَذَا قَال رَسُول الله ﷺ فِي الحَدِيث المُتَّفَق عَلَيْهِ: «**إِنَّ الشَّمْس وَالقَمَر آيَتَانِ مِنْ آيَات الله، وَإِنَّهُمَا لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَد وَلا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ الله عز وجل يرسلهما يُخَوِّف بِهِمَا عِبَاده، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلى ذِكْره وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَاره**»، ثُمَّ قَال: «**يَا أُمَّة مُحَمَّد، وَالله مَا أَحَد أَغْيَر مِنْ الله أَنْ يَزْنِي عَبْده أَوْ تَزْنِي أَمَته، يَا أُمَّة مُحَمَّد، وَالله لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَم لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**».(٢)

---

(١) ضعيف : أخرجه أبو يعلى (٦٧٩)، وفيه عبد الجبار بن عمر الأيلي: ضعيف، وعبد الله بن عطاء قال ابن معين: لا شيء.
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾.

يَقُول تَعَالى لرَسُولهِ ﷺ مُحَرِّضًا لهُ عَلى إِبْلاغ رِسَالته، وَمُخْبِرًا لهُ بِأَنَّهُ قَدْ عَصَمَهُ مِنْ النَّاس؛ فَإِنَّهُ القَادِر عَليْهِمْ وَهُمْ فِي قَبْضَته وَتَحْت قَهْره وَغَلبَته. قَال مُجَاهِد وَعُرْوَة بْن الزُّبَيْر وَالحَسَن وَقَتَادَة وَغَيْرهمْ، فِي قَوْله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ أَيْ عصمتك مِنهُمْ. وَقَوْله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾، قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا عَليّ بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَمْرو، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قَال: هِيَ رُؤْيَا عَيْن أُرِيهَا رَسُول الله ﷺ ليْلة أُسْرِيَ بِهِ، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ﴾: شَجَرَة الزَّقُّوم. وَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَد، وَعَبْد الرَّزَّاق وَغَيْرهمَا عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة بِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس. وَهَكَذَا فَسَّرَ ذَلكَ بِليْلةِ الإِسْرَاء: مُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالحَسَن، وَمَسْرُوق، وَإِبْرَاهِيم، وَقَتَادَة، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد، وَغَيْر وَاحِد، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ أَحَادِيث الإِسْرَاء فِي أَوَّل السُّورَة مُسْتَقْصَاة، ولله الحَمْد وَالمِنَّة. وَقد تَقَدَّمَ أَنَّ نَاسًا رَجَعُوا عَنْ دِينهمْ بَعْدَمَا كَانُوا عَلى الحَقّ؛ لأَنَّهُ لمْ تَحْمِل قُلُوبهمْ وَعُقُولهمْ ذَلكَ؛ فَكَذَّبُوا بِمَا لمْ يُحِيطُوا بِعِلمِهِ، وَجَعَل الله ذَلكَ ثَبَاتًا وَيَقِينًا لآخَرِينَ؛ وَلهَذَا قَال: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أَيْ: اخْتِبَارًا وَامْتِحَانًا. وَأَمَّا الشَّجَرَة المَلعُونَة فَهِيَ: شَجَرَة الزَّقُّوم، كمَا أَخْبَرَهُمْ رَسُول الله ﷺ : أَنَّهُ رَأَى الجَنَّة وَالنَّار، وَرَأَى شَجَرَة الزَّقُّوم، فَكَذَّبُوا بِذَلكَ حَتَّى قَال أَبُو جَهْل لعنه الله: هَاتُوا لنَا تَمْرًا وَزُبْدًا، فجَعَل يَأْكُل هَذَا بِهَذَا، وَيَقُول: تَزَقَّمُوا، فَلا نَعْلم الزَّقُّوم غَيْر هَذَا.[1] حَكَى ذَلكَ ابْن عَبَّاس، وَمَسْرُوق، وَأَبُو مَالك، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَغَيْر وَاحِد، وَكُلّ مَنْ قَال إِنَّهَا ليْلة الإِسْرَاء فَسَّرَهُ كَذَلكَ بِشَجَرَةِ الزَّقُّوم. وَقد قِيل المُرَاد: بِالشَّجَرَةِ المَلعُونَة: بَنُو أُمَيَّة، وَهُوَ غَرِيب ضَعِيف.[2]

قَال ابْن جَرِير: حُدِّثْت عَنْ مُحَمَّد بْن الحَسَن بْن زَبَالة، حَدَّثَنَا عَبْد المُهَيْمِن بْن عَبَّاس بْن سَهْل بْن سعد، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي قَال: رَأَى رَسُول الله ﷺ بَنِي فُلان يَنْزُونَ عَلى مِنْبَره نَزْو القُرُود، فَسَاءَهُ ذَلكَ، فَمَا اسْتَجْمَعَ ضَاحِكًا حَتَّى مَاتَ، قَال: وَأَنْزَل الله فِي ذَلكَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾[3] الآيَة.

وَهَذَا السَّنَد ضَعِيف جِدًّا؛ فَإِنَّ «مُحَمَّد بْن الحَسَن بْن زَبَالة» مَتْرُوك، وَشَيْخه أَيْضًا ضَعِيف بِالكُلِّيَّةِ، وَلهَذَا اخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّ المُرَاد بِذَلكَ ليْلة الإِسْرَاء، وَأَنَّ الشَّجَرَة المَلعُونَة هِيَ شَجَرَة الزَّقُّوم، قَال: لإِجْمَاعِ الحُجَّة مِنْ أَهْل التَّأْوِيل عَلى ذَلكَ، أَيْ: فِي الرُّؤْيَا وَالشَّجَرَة.

وَقَوْله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أَيْ: الكُفَّار، بِالوَعِيدِ وَالعَذَاب وَالنَّكَال، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أَيْ: تَمَادِيًا فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ الكُفْر وَالضَّلال، وَذَلكَ مِنْ خِذْلان الله لهُمْ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

---

(١) حسن : أخرجه أحمد (١/ ٣٧٤)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ٧٨)، فيه أبو زيد ثابت بن يزيد عن هلال، وهو ابن خباب: فيه كلام.
(٢) أخرجه الطبري (١٥/ ٧٧).
(٣) ضعيف جدًا : أخرجه ابن جرير (١٥/ ١١٢)، فيه محمد بن الحسن بن زبالة: متروك الحديث، والإسناد منقطع.

يذكر تعالى عداوة إبليس -لعنه الله- لآدم، عليه السلام، وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له، افتخارًا عليه، واحتقارًا له، ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ وقال أيضًا: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ يقول للرب جرأة وكفرًا، والرب يحلم وينظر، ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس يَقُول: لأَسْتَوْلِيَنَّ على ذُرِّيَّته إِلَّا قَليلًا. وَقَال مُجَاهِد: لأَحْتَوِيَنَّ. وَقَال ابْن زَيْد: لأُضِلَّنَّهُمْ. وَكُلّهَا مُتَقَارِبَة، وَالمَعْنَى أنه يقول: أَرَأَيْتُك هَذَا الَّذِي شَرَّفْته وَعَظَّمْته عَلَيَّ، لئِنْ أَنْظَرْتنِي لأُضِلَّنَّ ذُرِّيَّته إِلَّا قَليلًا مِنْهُمْ!

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

لـمَّا سَأَل إِبْلِيس النَّظِرة قَال الله لهُ: ﴿ٱذْهَبْ﴾ أي: فَقَدْ أَنْظَرْتُك، كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾، ثُمَّ أَوْعَدَهُ، وَمَنْ تبعه مِنْ ذُرِّيَّة آدم؛ جَهَنَّم، فقال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أَيْ: عَلى أَعْمَالكُمْ، ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾. قَال مُجَاهِد: وَافِرًا، وَقَال قَتَادَة: موفَّرًا عَلَيْكُمْ، لا يَنْقُص لكُمْ مِنْهُ.

وَقوْله تَعَالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قِيل: هُوَ الغِنَاء، قَال مُجَاهِد: بِاللَّهْوِ وَالغِنَاء، أَيْ: اسْتَخِفَّهُمْ بِذَلكَ. وَقَال ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قَال: كُلّ دَاعٍ دَعَا إِلى مَعْصِيَة الله عَزَّ وَجَلَّ. وقاله قَتَادَة، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير. وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يَقُول: وَاحْمِل عَلَيْهِمْ بِجُنُودِك خَيَّالتهمْ وَرَجِلتهمْ، فَإِنَّ «الرَّجْل» جَمْع «رَاجِل»، كَمَا أَنَّ «الرَّكْب» جَمْع «رَاكِب»، «وَالصَحْب» جَمْع «صَاحِب»، وَمَعْنَاهُ: تَسَلَّط عَلَيْهِمْ بِكُلِّ مَا تَقْدِر عَليْهِ. وَهَذَا أَمْر قَدَرِيّ كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أَيْ: تُزْعِجهُمْ إِلى المَعَاصِي إِزْعَاجًا، وَتَسُوقهُمْ إِليْهَا سَوْقًا، وَقَال ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قَال: كُلّ رَاكِب وَمَاشٍ فِي مَعْصِيَة الله. وَقَال قَتَادَة: إِنَّ لهُ خَيْلًا وَرِجَالًا مِنْ الجِنّ وَالإِنْس وَهُمْ الَّذِينَ يُطِيعُونَهُم. وتَقُول العَرَب: أَجْلبَ فُلان عَلى فُلان: إِذَا صَاحَ عَليْهِ، وَمِنْهُ: «نَهَى فِي المُسَابَقَة عَنْ الجَلب، وَالجَنَب»[1]، وَمِنْهُ اشْتِقَاق «الجَلبَة» وَهِيَ ارْتِفَاع الأَصْوَات.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ قَال ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد: هُوَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ إِنْفَاق الأَمْوَال فِي مَعَاصِي الله تَعَالى.

وَقَال عَطَاء: هُوَ الرِّبَا. وَقَال الحَسَن: جَمْعهَا مِنْ خَبِيث، وَإِنْفَاقهَا فِي حَرَام. وَكَذَا قَال قَتَادَة. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما: أَمَّا مُشَارَكَته إِيَّاهُمْ فِي أَمْوَالهمْ، فَهُوَ مَا حَرَّمُوهُ مِنْ أَنْعَامهمْ، يَعْنِي: مِنْ البَحَائِر وَالسَّوَائِب وَنَحْوهَا. وَكَذَا قَال الضَّحَّاك وَقَتَادَة. [وَ][2] قَال ابْن جَرِير: وَالأَوْلى أَنْ يُقَال: إِنَّ الآيَة تَعُمّ ذَلكَ كُلّه.

(١) أثر صحيح : أخرجه أحمد (٤/ ١٣٩)، وأبو داود (٢٩٨١). وقال الألباني: أثر صحيح، انظر «صحيح سنن أبي داود».
(٢) زيادة من (ط).

وَقَوْله: ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾، قَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَالضَّحَّاك: يَعْنِي أَوْلاد الزِّنَا. وَقَال عَلِيّ بن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: هُوَ مَا كَانُوا قَتَلُوهُ مِنْ أَوْلادهمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلم. وَقَال قَتَادَة: عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ: قَدْ وَالله شَارَكَهُمْ فِي الأَمْوَال وَالأَوْلاد، مُجِّسُوا وَهُوِّدُوا وَنُصِّرُوا وَصُبِغُوا غَيْر صِبْغَة الإِسْلام، وَجَزَّءُوا مِنْ أَموالهم جُزْءًا للشياطين، وَكَذَا قَال قَتَادَة سَوَاء. وَقَال أَبُو صَالح عَنْ ابْن عَبَّاس: هُوَ تَسْمِيَتهمْ أَوْلادهمْ: «عَبْد الحَارِث»، وَ«عَبْد شَمْس»، وَ«عَبْد فُلان». وقَال ابْن جَرِير: وَأَوْلى الأَقْوَال بِالصَّوَابِ أَنْ يُقَال: كُلّ مَوْلُود وَلَدَتْهُ أُنْثَى عَصَى الله فِيهِ بِتَسْمِيَتِهِ ما يَكْرَههُ الله، أَوْ بِإِدْخَالِهِ فِي غَيْر الدِّين الَّذِي ارْتَضَاهُ الله، أَوْ بِالزِّنَا بِأُمِّهِ، أَوْ بِقَتْلِهِ ووأده، وغَيْر ذَلكَ مِنْ الأُمُور الَّتِي يَعْصِي الله بِفِعْلِهِ بِهِ أَوْ فِيهِ، فَقَدْ دَخَل فِي مُشَارَكَة إِبْلِيس فِيهِ مَنْ وُلِدَ ذَلكَ الوَلد لهُ أَوْ مِنْهُ؛ لأَنَّ الله لمْ يُخَصِّص بِقَوْلِهِ: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ مَعْنَى الشَّرِكَة فِيهِ بِمَعْنًى دُون مَعْنًى؛ فَكُلّ مَا عُصِيَ الله فِيهِ أَوْ بِهِ أَوْ أُطِيعَ الشَّيْطَان فِيهِ أَوْ بِهِ، فَهُوَ مُشَارَكَة. وَهَذَا الَّذِي قَالهُ مُتَّجِه، وَكُلّ مِنْ السَّلف رَحِمَهُمْ الله فَسَّرَ بَعْض المُشَارَكَة، فَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيح مُسْلم» عَنْ عِيَاض بْن حمار أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**يَقُول الله عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي خَلقْت عِبَادِي حُنَفَاء، فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِين فَاجْتَالتْهُمْ عَنْ دِينهمْ، وَحَرَّمْت عَليْهِمْ مَا أَحْللتُ لهُمْ**»[1]. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**لوْ أَنَّ أَحَدهمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِي أَهْله قَال: بِسْمِ الله، اللهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَان وَجَنِّبْ الشَّيْطَان مَا رَزَقْتنَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّر بَيْنهمَا وَلد فِي ذَلكَ لمْ يَضُرّهُ الشَّيْطَان أَبَدًا**»[2].

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالى عَنْ إِبْليس أَنَّهُ يَقُول إِذَا حَصْحَصَ الحَقّ يَوْم يُقْضَى بِالحَقِّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ﴾ الآيَة.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ﴾ إِخْبَار بِتَأْيِيدِهِ تَعَالى عِبَاده المُؤْمِنِينَ وَحِفْظه إِيَّاهُمْ وَحِرَاسَته لهُمْ مِنْ الشَّيْطَان الرَّجِيم؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أَيْ: حَافِظًا وَمُؤَيِّدًا وَنَصِيرًا. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا قُتَيْبَة، حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة، عَنْ مُوسَى بْن وَرْدَان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**إِنَّ المُؤْمِن ليُنْضِي شَيَاطِينه كَمَا يُنْضِي أَحَدكُمْ بَعِيره فِي السَّفَر**»[3] يُنْضِي: أَيْ يَأْخُذ بِنَاصِيَتِهِ وَيَقْهَرهُ.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ لُطْفه بِخَلقِهِ فِي تَسْخِيره لعِبَادِهِ الفُلك فِي البَحْر، وَتَسْهِيله لمَصَالح عِبَاده، لابْتِغَائِهِمْ مِنْ فَضْله فِي التِّجَارَة مِنْ إِقْليم إِلى إِقْليم؛ وَلهَذَا قَال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أَيْ: إِنَّمَا فَعَل هَذَا بِكُمْ مِنْ فَضْله عَليْكُمْ، وَرَحْمَته بِكُمْ.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

يُخْبِر -تَبَارَكَ وَتَعَالى- أنه إِذَا مس الناس ضُرّ دَعَوْهُ مُنِيبِينَ إِليْهِ مُخْلصِينَ لهُ الدِّين؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ﴾ أَيْ: ذَهَبَ عَنْ قُلُوبكُمْ كُل مَا تَعْبُدُونَ غَيْر الله تَعَالى، كَمَا اتَّفَقَ لعِكْرِمَة بْن أَبِي جَهْل لمَّا ذَهَبَ فَارًّا مِنْ رَسُول الله ﷺ حِين فَتَحَ مَكَّة، فَذَهَبَ هَارِبًا، فَرَكِبَ فِي البَحْر ليَدْخُل الحَبَشَة، فَجَاءَتْهُمْ رِيح عَاصِف، فَقَال القَوْم بَعْضهمْ لبَعْضٍ: إِنَّهُ لا يُغْنِي عَنْكُمْ إِلَّا أَنْ

(١) صحيح : صححه الألباني في «الصحيحة» (٣٥٩٩).
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (١٣٨)، ومسلم (٢٥٩١).
(٣) صحيح : صححه الألباني في «الصحيحة» (٣٥٨٦).

تَدْعُو الله وَحْده. فَقَال عِكْرِمَة فِي نَفْسه: وَالله لئن كَانَ لا يَنْفَع فِي البَحْر غَيْره فَإِنَّهُ لا يَنْفَع فِي البَرّ غَيْره، اللَّهُمَّ لك عَلَيَّ عَهْد لئِنْ أَخْرَجْتنِي مِنْهُ لأَذْهَبَنَّ فأضعنَّ يَدِي فِي يده فَلأَجِدَنَّهُ رَءُوفًا رَحِيمًا!! فَخَرَجُوا مِنْ البَحْر، فَرَجَعَ إِلى رَسُول الله ﷺ، فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلامه رضي الله عنه وَأَرْضَاهُ. وَقَوْله تَعَالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أَيْ: نَسِيتُمْ مَا عَرَفْتُمْ مِنْ تَوْحِيده فِي البَحْر وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ دُعَائِهِ وَحْده لا شَرِيك لهُ. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ أَيْ: سَجِيَّته هَذَا، يَنْسَى النِّعَم وَيَجْحَدهَا إِلَّا مَنْ عَصَمَ الله.

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾.

يَقُول تَعَالى: أَفَحَسِبْتُمْ بِخُرُوجِكُمْ إِلى البَرّ أَمِنْتُمْ مِنْ انْتِقَامه وَعَذَابه؟ ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وَهُوَ: المَطَر الَّذِي فِيهِ حِجَارَة. قَالهُ مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ﴾ وَقَدْ قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، وَقَال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾، وَقَوْله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أَيْ: نَاصِرًا، يَرُدّ ذَلكَ عَنْكُمْ، وَيُنْقِذكُمْ مِنْهُ.

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾.

يَقُول -تَبَارَكَ وَتَعَالى-: ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ ﴾ أَيهَا المُعْرِضُونَ عَنَّا، بَعْدَمَا اعْتَرَفُوا بِتَوْحِيدِنَا فِي البَحْر وَخَرَجُوا إِلى البَرّ، ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ فِي البَحْر مَرَّة ثَانِيَة، ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ ﴾ أَيْ: يَقْصِف الصَّوَارِي وَيُغْرِق المَرَاكِب. قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْره: القَاصِف: رِيح البِحَار الَّتِي تَكْسِر المَرَاكِب وَتُغْرِقهَا. وَقَوْله: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ كُفْركُمْ وَإِعْرَاضكُمْ عَنْ الله تَعَالى. وَقَوْله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ قَال ابْن عَبَّاس: نَصِيرًا. وَقَال مُجَاهِد: نَصِيرًا ثَائِرًا. أَيْ: يَأْخُذ بِثَأْرِكُمْ بَعْدكُمْ. وَقَال قَتَادَة: وَلا نَخَاف أَحَدًا يَتْبَعنَا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلكَ.

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ تَشْرِيفه لبَنِي آدَم وَتَكْرِيمه إِيَّاهُمْ فِي خَلقه لهُمْ عَلى أَحْسَن الهَيْئَات وَأَكْمَلهَا؛ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: يَمْشِي قَائِمًا مُنْتَصِبًا عَلى رِجْليْهِ وَيَأْكُل بِيَدَيْهِ -وَغَيْره مِنْ الحَيَوَانَات يَمْشِي عَلى أَرْبَع وَيَأْكُل بِفَمِهِ-، وَجَعَل لهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَفُؤَادًا، يَفْقَه بِذَلكَ كُلّه وَيَنْتَفِع بِهِ، وَيُفَرِّق بَيْن الأَشْيَاء وَيَعْرِف مَنَافِعهَا وَخَوَاصّهَا وَمَضَارّهَا فِي الأُمُور الدِّينِيَّة وَالدُّنْيَوِيَّة. ﴿وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾، أَيْ: عَلى الدَّوَابّ مِنْ الأَنْعَام وَالخَيْل وَالبِغَال، وَفِي البَحْر أَيْضًا عَلى السُّفُن الكِبَار وَالصِّغَار. ﴿وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ أَي: مِنْ زُرُوع وَثِمَار، وَلُحُوم وَأَلبَان، مِنْ سَائِر أَنْوَاع الطُّعُوم وَالأَلوَان المُشْتَهَاة اللَّذِيذَة، وَالمَنَاظِر الحَسَنَة، وَالمَلابِس الرَّفِيعَة مِنْ سَائِر الأَنْوَاع، عَلى اخْتِلاف أَصْنَافهَا وَأَلوَانهَا وَأَشْكَالهَا، مِمَّا يَصْنَعُونَهُ لأَنْفُسِهِمْ، وَيَجْلبهُ إِليْهِمْ غَيْرهمْ مِنْ أَقْطَار الأَقَاليم وَالنَّوَاحِي.

﴿وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ أَيْ: مِنْ سَائِر الحَيَوَانَات وَأَصْنَاف المَخْلُوقَات. وَقَدْ اسْتُدِلَّ بِهَذِهِ الآيَة عَلى أَفْضَليَّة جِنْس البَشَر عَلى جِنْس المَلائِكَة. قَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ قَال: قَالتْ المَلائِكَة: يَا رَبّنَا، إِنَّك أَعْطَيْت بَنِي آدَم الدُّنْيَا، يَأْكُلُونَ مِنْهَا وَيَتَنَعَّمُونَ، وَلمْ تُعْطِنَا ذَلكَ، فَأَعْطِنَا فِي الآخِرَة.

فَقَال الله تَعَالى: وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا أَجْعَل صَالح ذُرِّيَّة مَنْ خَلقْت بِيَدَيَّ، كَمَنْ قُلت له: كن، فَكَانَ.[١] وَهَذَا الحَدِيث مُرْسَل مِنْ هَذَا الوَجْه، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ وَجْه آخر مُتَّصِلًا.

وَقَال الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن صَدَقَة البَغْدَادِيّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن عَبْد الله بْن خالد المِصيصِيّ، حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا أَبُو غَسَّان مُحَمَّد بْن مُطَرِّف، عَنْ صَفْوَان بْن سُلَيْم، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «إِنَّ المَلائِكَة قَالتْ: يَا رَبّنَا، أَعْطَيْت بَنِي آدَم الدُّنْيَا يَأْكُلون فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَيَلبَسُونَ وَنَحْنُ نُسَبِّح بِحَمْدِك، وَلا نَأْكُل وَلا نَشْرَب وَلا نَلهُو، فَكَمَا جَعَلت لهُمْ الدُّنْيَا فَاجْعَل لنَا الآخِرَة. قَال: لا أَجْعَل صَالح ذُرِّيَّة مَنْ خَلقْت بِيَدَيَّ، كَمَنْ قُلت لهُ: كُنْ، فَكَانَ».[٢]

وَقَدْ رَوَى ابْن عَسَاكِر مِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن أَيُّوب الرَّازِيّ، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن عَلِيّ بْن خَلف الصَّيْدَلانِيّ، حَدَّثَنَا سُليمَان بْن عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنِي عُثْمَان بْن حِصْن بْن عُبَيْدَة بْن عَلاق، سَمِعْت عُرْوَة بْن رُوَيْم اللَّخْمِيّ، حَدَّثَنِي أَنَس بْن مَالك، عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «إِنَّ المَلائِكَة قَالُوا: رَبّنَا، خَلقْتنَا وَخَلقْت بَنِي آدَم، وَجَعَلتهمْ يَأْكُلُونَ الطَّعَام، وَيَشْرَبُونَ الشَّرَاب، وَيَلبَسُونَ الثِّيَاب، وَيَتَزَوَّجُونَ النِّسَاء، وَيَرْكَبُونَ الدَّوَابّ، يَنَامُونَ وَيَسْتَرِيحُونَ، وَلمْ تَجْعَل لنَا مِنْ ذَلكَ شَيْئًا، فَاجْعَل لهُمْ الدُّنْيَا وَلنَا الآخِرَة. فَقَال الله عَزَّ وَجَلَّ: لا أَجْعَل مَنْ خَلقْته بِيَدَيَّ، وَنَفَخْت فِيهِ مِنْ رُوحِي كَمَنْ قُلت لهُ: كُنْ، فَكَانَ».[٣]

وَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا عَبْدَان بْن أَحْمَد، حَدَّثَنَا عُمَر بْن سَهْل، حَدَّثَنَا عبيد الله بْن تَمَّام، عَنْ خَالد الحَذَّاء، عَنْ بِشْر بْن شَغَاف، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْد الله بن عَمْرو قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَا شَيْء أَكْرَم عَلى الله يَوْم القِيَامَة مِنْ ابْن آدَم». قِيل: يَا رَسُول الله، وَلا المَلائِكَة؟ قَال: «وَلا المَلائِكَة، المَلائِكَة مَجْبُورُونَ بِمَنْزِلةِ الشَّمْس وَالقَمَر».[٤] وَهَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا.

﴿ **يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا** ﴾.

يُخْبِر تَبَارَكَ وَتَعَالى عَنْ يَوْم القِيَامَة أَنَّهُ يُحَاسِب كُل أُمَّة بِإِمَامِهِمْ. وَقَدْ اخْتَلفُوا فِي ذَلكَ؛ فَقَال مُجَاهِد وَقَتَادَة: أَيْ: بِنَبِيِّهِمْ، وَهَذَا كَقَوْلهِ تَعَالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾. وَقَال بَعْض السَّلف: هَذَا أَكْبَر شَرَف لأَصْحَابِ الحَدِيث؛ لأَنَّ إِمَامهمْ النَّبِيّ ﷺ. وَقَال ابْن زَيْد: بِكِتَابِهِمْ الَّذِي أُنْزِل عَلى نَبِيّهمْ مِنْ التَّشْرِيع. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير، وَرُوِيَ عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد أَنَّهُ قَال: بِكُتُبِهِمْ فَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون أَرَادَ هَذَا، وَأَنْ يَكُون أَرَادَ مَا رَوَاهُ العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ ﴾ أَيْ: بِكِتَابِ أَعْمَالهمْ. وَكَذَا قَال أَبُو العَاليَة وَالحَسَن وَالضَّحَّاك، وَهَذَا القَوْل هُوَ الأَرْجَح؛ لقَوْلهِ تَعَالى: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾. وَيَحْتَمِل أَنَّ المُرَاد بِإِمَامِهِمْ: أَيْ: كُلّ قَوْم بِمَنْ يَأْتَمُّونَ بِهِ؛ فَأَهْل الإِيمَان ائْتَمُّوا بِالأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَأَهْل الكُفْر ائْتَمُّوا بِأَئِمَّتِهِمْ،

---

(١) موضوع : أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ١٩٦)، فيه طلحة بن زيد: كذاب، وفيه خارجة بن مصعب: متروك.
(٢) ضعيف : ضعفه الألباني في «تخريج الطحاوية» (٣٤٢).
(٣) ضعيف : ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٩٨٠).
(٤) ضعيف : ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٩٨١).

كَمَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «**لِتَتْبَع كُلّ أُمَّة مَا كَانَتْ تَعْبُد، فَيَتْبَع مَنْ كَانَ يَعْبُد الطَّوَاغِيت الطَّوَاغِيت...**»[1] الحَدِيث.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وَهَذَا لا يُنَافِي أَنْ يُجَاء بِالنَّبِيِّ إِذَا حَكَمَ اللهُ بَيْنَ أُمَّته؛ فَإِنَّهُ لابُدّ أَنْ يَكُون شَاهِدًا عليها بِأَعْمَالِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾، وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾. وَلكِنَّ المُرَاد هَاهُنَا بِالإِمَام هُوَ: كِتَاب الأَعْمَال؛ وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أَيْ: مِنْ فَرْحَته وَسُرُوره بِمَا فِيهِ مِنْ العَمَل الصَّالح يَقْرَؤُهُ وَيُحِبّ قِرَاءَته، كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾. وَقَوْله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الفَتِيل هُوَ الخَيْط المُسْتَطِيل فِي شَقّ النَّوَاة.

وَقَدْ رَوَى الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار حَدِيثًا فِي هَذَا فَقَال: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَعْمَر، وَمُحَمَّد بْن عُثْمَان بْن كَرَامَة؛ قَالا: حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن مُوسَى، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قوله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ قَال: «يُدْعَى أَحَدهمْ فَيُعْطَى كِتَابه بِيَمِينِهِ، وَيُمَدّ لهُ فِي جِسْمه، وَيُبَيَّض وَجْهه، وَيُجْعَل عَلَى رَأْسه تَاج مِنْ لُؤْلُؤَة تتلألأ، فَيَنْطَلق إِلَى أَصْحَابه، فَيَرَوْنَهُ مِنْ بَعِيد فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ؛ ائتنا بِهَذَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي هَذَا، فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُول لَهُمْ: أَبْشِرُوا، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُل مِنْكُمْ مِثْل هَذَا. وَأَمَّا الكَافِر فَيُسَوَّد وَجْهه، وَيُمَدّ لهُ فِي جِسْمه، وَيَرَاهُ أَصْحَابه فَيَقُولُونَ: نَعُوذ بِالله مِنْ هَذَا -أَوْ: مِنْ شَرّ هَذَا- اللَّهُمَّ؛ لا تَأْتِنَا بِهِ. فَيَأْتِيهِمْ فَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ أَخْزِه. فَيَقُول: أَبْعَدَكُمْ الله! فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُل مِنْكُمْ مِثْل هَذَا»[2]. ثُمَّ قَال البَزَّار: لا يُرْوَى إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾. قَال ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَابْن زَيْد: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ﴾ أَيْ: فِي الحَيَاة الدُّنْيَا ﴿أَعْمَىٰ﴾ أَيْ: عَنْ حجج الله وَآيَاته وَبَيِّنَاته، ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أَيْ: كَذَلكَ يَكُون، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أَيْ: وَأَضَلّ مِنْهُ كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا، عِيَاذًا بِالله مِنْ ذَلكَ.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ تأييد رَسُوله صَلوَات الله عَلَيْهِ وَسَلامه وَتَثْبِيته وَعِصْمَته وَسَلامَته مِنْ شَرّ الأَشْرَار وَكَيْد الفُجَّار، وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ المُتَوَلِّي أَمْره وَنَصْره، وَأَنَّهُ لا يَكِلهُ إِلَى أَحَد مِنْ خَلقه؛ بَل هُوَ وَليّه وَحَافِظه وَنَاصِره وَمُؤَيِّده وَمُظَفِّره، وَمُظْهِر دِينه عَلَى مَنْ عَادَاهُ وَخَالَفَهُ وَنَاوَأَهُ فِي مَشَارِق الأَرْض وَمَغَارِبهَا، صلى الله عليه وسلم تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْم الدِّين.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٢١٥)، ومسلم (٢٦٩).

(٢) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٣١٣٦)، والحاكم (٢/ ٢٤٢)، وفيه عبد الرحمن بن أبي كريمة. قال الحافظ: مجهول الحال. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

قِيل: نَزَلتْ فِي اليَهُود، إِذْ أَشَارُوا عَلى رَسُول الله ﷺ بِسُكْنَى الشَّام بِلاد الأَنْبِيَاء، وَتَرْك سُكْنَى المَدِينَة. وَهَذَا القَوْل ضَعِيف؛ لأَنَّ هَذِهِ الآيَة مَكِّيَّة، وَسُكْنَى المَدِينَة بَعْد ذَلكَ. وَقِيل: إِنَّهَا نَزَلتْ بِتَبُوك، وَفِي صِحَّته نَظَر. قَال البَيْهَقِيّ عَنْ الحَاكِم، عَنْ الأَصَمّ، عَنْ أَحْمَد بْن عَبْد الجَبَّار العُطَارِدِيّ، عَنْ يُونُس بْن بُكَيْر، عَنْ عَبْد الحَمِيد بْن بَهْرَام، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن غَنْم؛ أَنَّ اليَهُود أَتَوْا رَسُول الله ﷺ يَوْمًا فَقَالُوا: يَا أَبَا القَاسِم؛ إِنْ كُنْت صَادِقًا أَنَّك نَبِيّ فَالحَق بِالشَّام؛ فَإِنَّ الشَّام أَرْض المَحْشَر وَأَرْض الأَنْبِيَاء، فَصَدَّقَ مَا قَالُوا، فَغَزَا غَزْوَة تَبُوك لا يُرِيد إِلَّا الشَّام، فَلَمَّا بَلغَ تَبُوك أَنْزَل الله عَلَيْهِ آيَات مِنْ سُورَة بَنِي إِسْرَائِيل بَعْدَمَا خُتِمَتْ السُّورَة: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ إِلى قَوْله: ﴿تَحْوِيلًا﴾ فَأَمَرَهُ الله بِالرُّجُوع إِلى المَدِينَة، وَقَال: فِيهَا مَحْيَاك وَمَمَاتك، وَمِنْهَا تُبْعَث.[1] وَفِي هَذَا الإِسْنَاد نَظَر، وَالأَظْهَر أَنَّ هَذَا لَيْسَ بِصَحِيح؛ فَإِنَّ النَّبِيّ ﷺ لمْ يَغْزُ تَبُوك عَنْ قَوْل اليَهُود، وَإِنَّمَا غَزَاهَا امْتِثَالًا لقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾، وقوله تَعَالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، وَغَزَاهَا ليَقْتَصّ وَيَنْتَقِم مِمَّنْ قَتَل أَهْل مُؤْتَة مِنْ أَصْحَابه وَالله أَعْلم. وَلوْ صَحَّ هَذَا لحُمِل عَلَيْهِ الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الوَلِيد بْن مُسْلم، عَنْ عُفَيْر ابْن مَعْدَان، عَنْ سُليْم بْن عَامِر، عَنْ أَبِي أُمَامَة ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «أُنْزِل القُرْآن فِي ثَلاثَة أَمْكِنَة: مَكَّة، وَالمَدِينَة، وَالشَّام».[2] قَال الوَلِيد: يَعْنِي بَيْت المَقْدِس، وَتَفْسِير الشَّام بِتَبُوك أَحْسَن مِمَّا قَال الوَلِيد: إِنَّهُ بَيْت المَقْدِس. وَالله أَعْلم. وَقِيل: نَزَلتْ فِي كُفَّار قُرَيْش، هَمُّوا بِإِخْرَاج رَسُول الله ﷺ مِنْ بَيْن أَظْهُرهمْ، فَتَوَعَّدَهُمْ الله بِهَذِهِ الآيَة، وَأَنَّهُمْ لوْ أَخْرَجُوهُ لمَا لبِثُوا بَعْده بِمَكَّة إِلَّا يَسِيرًا، وَكَذَلكَ وَقَعَ، فَإِنَّهُ لمْ يَكُنْ بَعْد هِجْرَته مِنْ بَيْن أَظْهُرهمْ -بَعْدَ مَا اشْتَدَّ أَذَاهُمْ لهُ- إِلَّا سَنَة وَنِصْف، حَتَّى جَمَعَهُمْ الله وَإِيَّاهُ بِبَدْرٍ عَلى غَيْر مِيعَاد، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُمْ، وَسَلَّطَهُ عَليْهِمْ، وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ، فَقَتَل أَشْرَافهمْ، وَسَبَى سراتهم، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أَيْ: هَكَذَا عَادَتنَا فِي الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلنَا وَآذَوْهُمْ. يُخرج الرَّسُول مِنْ بَيْن أَظْهُرهمْ، ويَأْتِيهِمْ العَذَاب. وَلوْلا أَنَّهُ صَلَّى الله تَعَالى عَليْهِ وَعَلى آلهِ وَسَلَّمَ رَسُول الرَّحْمَة لجَاءَهُمْ مِنْ النِّقَم فِي الدُّنْيَا مَا لا قِبَل لأَحَدٍ بِهِ؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

يَقُول -تَبَارَكَ وَتَعَالى- لرَسُولهِ ﷺ آمِرًا لهُ بِإِقَامَةِ الصَّلوَات المَكْتُوبَات فِي أَوْقَاتهَا: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ قِيل: لغُرُوبِهَا. قَالهُ ابْن مَسْعُود وَمُجَاهِد، وَابْن زَيْد. وَقَال هُشَيْم عَنْ مُغِيرَة عَنْ الشَّعْبِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: دُلُوكهَا: زَوَالهَا. وَرَوَاهُ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر. وَرَوَاهُ مَالك فِي تَفْسِيره، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ ابْن عُمَر، وَقَالهُ أَبُو بَرْزَة الأَسْلمِيّ، وَهُوَ رِوَايَة أَيْضًا عَنْ ابْن مَسْعُود، وَمُجَاهِد. وَبِهِ قَال الحَسَن، وَالضَّحَّاك، وَأَبُو جَعْفَر البَاقِر، وَقَتَادَة. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير، وَمِمَّا اسْتَشْهَدَ عَليْهِ مَا رَوَاهُ عَنْ ابْن حُمَيْد، عَنْ الحَكَم بْن بَشِير، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن قَيْس، عَنْ ابْن أَبِي ليْلى، عَنْ رَجُل، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله؛ قَال: دَعَوْت رَسُول الله ﷺ وَمَنْ شَاءَ مِنْ أَصْحَابه، فَطَعِمُوا عِنْدِي، ثُمَّ خَرَجُوا حِين زَالتْ الشَّمْس، فَخَرَجَ النَّبِيّ ﷺ فَقَال: «**اخْرُجْ يَا أَبَا بَكْر، فَهَذَا حِين دَلكَتْ**

(١) **ضعيف** : أخرجه البيهقي (٥/ ٢٥٤) وفيه شهر بن حوشب: صدوق كثير التدليس والأوهام، وأحمد بن عبد الجبار: ضعيف.
(٢) **ضعيف** : فيه الوليد بن مسلم: كثير التدليس والتسوية، وعفير بن معدان: ضعيف.

الشَّمْس»[١]. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ سَهْل بْن بَكَّار، عَنْ أَبِي عَوَانَة، عَنْ الأَسْوَد بْن قَيْس، عَنْ نُبَيْح العَنَزِي، عَنْ جَابِر عَنْ رَسُول الله ﷺ نَحْوه. فَعَلَى هَذَا تَكُون هَذِهِ الآيَة دَخَل فِيهَا أَوْقَات الصَّلَوَات الخمسة، فَمِنْ قَوْله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ -وَهُوَ ظَلامه، وَقِيل: غُرُوب الشَّمْس- أُخِذَ مِنْهُ الظُّهْر وَالعَصْر وَالمَغْرِب وَالعِشَاء، وَقَوْله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ يَعْنِي: صَلاة الفَجْر. وَقَدْ ثَبَتَتْ السُّنَّة عَنْ رَسُول الله ﷺ تَوَاتُرًا مِنْ أَفْعَاله وَأَقْوَاله، بِتَفَاصِيل هَذِهِ الأَوْقَات، عَلَى مَا عَلَيْهِ عمل أَهْل الإِسْلام اليَوْم، مِمَّا تَلَقَّوْهُ خلفًا عَنْ سَلف، وَقَرْنًا بَعْد قَرْن، كَمَا هُوَ مُقَرَّر فِي مَوَاضِعه، ولله الحَمْد.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قَال الأَعْمَش: عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ ابْن مَسْعُود وَعَنْ أَبِي صَالح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قَال: «**تَشْهَدهُ مَلائِكَة اللَّيْل وَمَلائِكَة النَّهار**».[٢] وَقَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أخبرنا مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ أَبِي سَلمَة وَسَعِيد بْن المُسَيِّب عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه عن النَّبِيّ ﷺ قَال: «**فَضْل صَلاة الجَمِيع عَلى صَلاة الوَاحِد خَمْس وَعِشْرُونَ دَرَجَة، وَتَجْتَمِع مَلائِكَة اللَّيْل وَمَلائِكَة النَّهار فِي صَلاة الفَجْر**». ويقول أَبُو هُرَيْرَة: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.[٣]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَسْبَاط، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ ابْن مَسْعُود، عَنْ النَّبِيّ ﷺ وَحَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قَوْله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، قَال: «**تَشْهَدهُ مَلائِكَة اللَّيْل وَمَلائِكَة النَّهار**»[٤]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، وَالنَّسَائِيّ، وَابْن مَاجَهْ، ثَلاثَتهمْ عَنْ عُبَيْد بْن أَسْبَاط بْن مُحَمَّد، عَنْ أَبِيهِ بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح. وَفِي لفْظ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، مِنْ طَرِيق مَالك، عَنْ أَبِي الزِّنَاد، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَة الليل وَمَلائِكَة النهار، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاة الصُّبْح وَفِي صَلاة العَصْر، فَيَعْرُج الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلهُمْ رَبّهمْ -وَهُوَ أَعْلم بِكُمْ-: كَيْف تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»[٥]. وَقَال عَبْد الله بْن مَسْعُود: يَجْتَمِع الحَرَسَانِ فِي صَلاة الفَجْر، فَيَصْعَد هَؤُلاءِ وَيُقِيم هَؤُلاءِ. وَكَذَا قَال إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَمُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة.

وَأَمَّا الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ ابْن جَرِير هَاهُنَا -مِنْ حَدِيث اللَّيْث بْن سَعْد، عَنْ زِيَادَة، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، عَنْ فَضَالة بْن عُبَيْد، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء، عَنْ رَسُول الله ﷺ فَذَكَرَ حَدِيث النُّزُول، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُول: مَنْ يَسْتَغْفِرنِي أَغْفِر لهُ، مَنْ يَسْأَلنِي أُعْطِه، مَنْ يَدْعُنِي فأستجب لهُ حَتَّى يَطْلُع الفَجْر». فَلِذَلِكَ يَقُول: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ فَيَشْهَدهُ الله، وَمَلائِكَة اللَّيْل، وَمَلائِكَة النَّهار.[٦] فَإِنَّهُ تَفَرَّدَ بِهِ زِيَادَة، وَلهُ بِهَذَا حَدِيث فِي «سُنَن أَبِي دَاوُد».

وَقَوْله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾: أَمْر لهُ بِقِيَامِ اللَّيْل بَعْد المَكْتُوبَة، كَمَا وَرَدَ فِي «صَحِيح مُسْلم»

---

(١) حسن: أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٣٧) من طريقين، يتقوى أحدهما بالآخر.
(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣١٣٥)، وابن ماجه (٦٧٠)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٦٣٥).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧١٧)، ومسلم (٦٤٩).
(٤) صحيح: تقدم.
(٥) صحيح: تقدم.
(٦) منكر بهذا اللفظ: أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٣٩)، فيه زيادة بن محمد. قال الحافظ: منكر الحديث.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ رَسُول الله ﷺ؛ أَنَّهُ سُئِلَ: أَيّ الصَّلاة أَفْضَل بَعْد المَكْتُوبَة؟ قَال: «صَلاة اللَّيْل».[١] وَلِهَذَا أَمَرَ تَعَالى رَسُوله بَعْد المَكْتُوبَات بِقِيَامِ اللَّيْل، فَإِنَّ التَّهَجُّد مَا كَانَ بَعْد نَوْم. قَالَهُ عَلْقَمَة، وَالأَسْوَد، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَغَيْر وَاحِد، وَهُوَ المَعْرُوف فِي لُغَة العَرَب. وَكَذَلِكَ ثَبَتَتْ الأَحَادِيث عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَتَهَجَّد بَعْد نَوْمه عَنْ ابْن عَبَّاس، وَعَائِشَة، وَغَيْر وَاحِد مِنْ الصَّحَابَة رضي الله عنهم كَمَا هُوَ مَبْسُوط فِي مَوْضِعه، ولله الحَمْد وَالمِنَّة.

وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: هُوَ مَا كَانَ بَعْد العِشَاء، وَيُحْمَل عَلى مَا بَعْد النَّوْم. وَاخْتُلِفَ فِي مَعْنَى قَوْله: ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ فَقِيل: مَعْنَاهُ أَنَّك مَخْصُوص بِوُجُوبِ ذَلِكَ وَحْدك، فَجَعَلُوا قِيَام اللَّيْل وَاجِبًا فِي حَقّه دُون الأُمَّة. رَوَاهُ العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس، وَهُوَ أَحَد قَوْلَيْ العُلَمَاء، وَأَحَد قَوْلَيْ الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ، واخْتَارَهُ ابْن جَرِير. وَقِيل: إِنَّمَا جُعِل قِيَام اللَّيْل فِي حَقّه نَافِلَة عَلى الخُصُوص، لأَنَّهُ قَدْ غُفِرَ لهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبه وَمَا تَأَخَّرَ، وَغَيْره مِنْ أُمَّته إِنَّمَا تكفر عَنْهُ صَلوَاته النَّوَافِل الذُّنُوب الَّتِي عَلَيْهِ، قاله مُجَاهِد، وَهُوَ فِي «المُسْنَد» عَنْ أَبِي أُمَامَة البَاهِلِيّ رضي الله عنه.

وَقَوْله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أَيْ: افْعَل هَذَا الَّذِي أَمَرْتُك بِهِ، لِنُقِيمَك يَوْم القِيَامَة مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدك فِيهِ الخَلائِق كُلّهِمْ، وَخَالقهمْ تَبَارَكَ وَتَعَالى.

قَال ابْن جَرِير: قَال أَكْثَر أَهْل التَّأْوِيل: ذَلِكَ هُوَ المَقَام الَّذِي يَقُومهُ مُحَمَّد ﷺ يَوْم القِيَامَة لِلشَّفَاعَةِ للنَّاسِ؛ لِيُرِيحَهُمْ رَبّهمْ مِنْ عظيم مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّة ذَلِكَ اليَوْم.

ذِكر مَنْ قَال ذَلك: حَدَّثنَا ابْن بَشَّار، حَدَّثنَا عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ صِلة بْن زُفَر، عَنْ حُذَيْفَة؛ قَال: يُجْمَع النَّاس فِي صَعِيد وَاحِد، يُسْمِعهُمْ الدَّاعِي، وَيَنْفُذهُمْ البَصَر، حُفَاة عُرَاة كَمَا خُلقُوا قِيَامًا، لا تُكَلَّم نَفْس إِلَّا بِإِذْنِهِ، يُنَادَى: يَا مُحَمَّد، فيَقُول: لبَّيْكَ وَسَعْدَيْك، وَالخَيْر فِي يَدَيْك، وَالشَّرّ لَيْسَ إِلَيْك، وَالمَهْدِيّ مَنْ هَدَيْت، وَعَبْدكَ بَيْن يَدَيْك، وَبك وَإِلَيْك، لا مَنْجَى وَلا مَلجَأ مِنْك إِلَّا إِلَيْك، تَبَارَكْت وَتَعَاليْت، سُبْحَانك رَبّ البَيْت.[٢] فَهَذَا المَقَام المَحْمُود الَّذِي ذَكَرَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ بُنْدَار عَنْ غُنْدَر، عَنْ شُعْبَة، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، بِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر، وَالثَّوْرِيّ عَنْ أَبِي إِسْحَاق بِهِ. وَقَال ابْن عَبَّاس: هَذَا المَقَام المَحْمُود مَقَام الشَّفَاعَة. وَكَذَا قَال ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد. وَقَالهُ الحَسَن البَصْرِيّ.

وَقَال قَتَادَة: هُوَ أَوَّل مَنْ تَنْشَقّ عَنْهُ الأَرْض يَوْم القِيَامَة، وَأَوَّل شَافِع، وَكَانَ أَهْل العِلم يَرَوْنَ أَنَّهُ المَقَام المَحْمُود الَّذِي قَال الله تَعَالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

قُلت: لرَسُول الله ﷺ تَشْرِيفَات يَوْم القِيَامَة لا يُشْرِكهُ فِيهَا أَحَد، وَتَشْرِيفَات لا يُسَاوِيه فِيهَا أَحَد؛ فَهُوَ أَوَّل مَنْ تَنْشَقّ عَنْهُ الأَرْض، وَيُبْعَث رَاكِبًا إِلى المَحْشَر، وَلهُ اللِّوَاء الَّذِي آدَم فَمَنْ دُونه تحت لوَائِهِ، وَلهُ الحَوْض الَّذِي لَيْسَ فِي المَوْقِف أَكْثَر وَارِدًا مِنْهُ، وَلهُ الشَّفَاعَة العُظْمَى عِنْد الله ليَأْتِيَ لِفَصْل القَضَاء بَيْن الخَلائِق، وَذَلكَ بَعْدَمَا يسأل النَّاس آدَم، ثُمَّ نُوحًا، ثُمَّ إِبْرَاهِيم، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، فَكُلّ يَقُول: لسْت لهَا. حَتَّى يَأْتُوا إِلى مُحَمَّد ﷺ فَيَقُول: «أَنَا لهَا أَنَا لهَا». كَمَا سَنَذْكُرُ ذَلكَ مُفَصَّلًا فِي هَذَا المَوْضِع إِنْ شَاءَ الله تَعَالى. وَمِنْ ذَلكَ أَنَّهُ يَشْفَع فِي أَقْوَام قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلى النَّار فَيُرَدُّونَ عَنْهَا، وَهُوَ أَوَّل الأَنْبِيَاء يَقْضِي بَيْن أُمَّته، وَأَوَّلهمْ إِجَازَة عَلى الصِّرَاط بِأُمَّتِهِ، وَهُوَ أَوَّل شَفِيع فِي الجَنَّة كَمَا ثَبَتَ فِي «صَحِيح مُسْلم».

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (١٩٨٣).
(٢) صحيح : أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٤٤).

وَفِي حَدِيث الصُّور[١]: أَنَّ المُؤْمِنِينَ كُلّهمْ لا يَدْخُلُونَ الجَنَّة إِلَّا بِشَفَاعَتِهِ، وَهُوَ أَوَّل دَاخِل إِلَيْهَا، وَأُمَّته قَبْل الأُمَم كُلّهمْ، وَيَشْفَع فِي رَفْع دَرَجَات أَقْوَام لا تَبْلُغهَا أَعْمَالهمْ، وَهُوَ صَاحِب الوَسِيلة الَّتِي هِيَ أَعْلَى مَنْزِلة فِي الجَنَّة لا تَلِيق إِلَّا لَهُ، وَإِذَا أَذِنَ الله تَعَالَى فِي الشَّفَاعَة فِي العصاة شَفَعَ المَلَائِكَة وَالنَّبِيُّونَ وَالمُؤْمِنُونَ، فَيَشْفَع هُوَ فِي خَلائِق لا يَعْلَم عِدَّتهمْ إِلَّا الله تَعَالَى، وَلا يَشْفَع أَحَد مِثْله، وَلا يُسَاوِيه فِي ذَلِكَ، وَقَدْ بَسَطْت ذَلِكَ مُسْتَقْصًى فِي آخِر كِتَاب «السِّيرَة» فِي بَاب الخَصَائِص، ولله الحَمْد وَالمِنَّة. وَلنَذْكُرْ الآن الأَحَادِيث الوَارِدَة فِي المَقَام المَحْمُود وبالله المُسْتَعَان. قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن أَبَان، حَدَّثَنَا أَبُو الأَحْوَص، عَنْ آدَم بْن عَلِيّ، سَمِعْت ابْن عُمَر يَقُول: إِنَّ النَّاس يَصِيرُونَ يَوْم القِيَامَة جُثًا، كُلّ أُمَّة تَتْبَع نَبِيّهَا، يَقُولُونَ: يَا فُلان، اشْفَعْ، يَا فُلان اشْفَعْ، حَتَّى تَنْتَهِي الشَّفَاعَة إِلَى النبي ﷺ فَذَلِكَ يَوْم يَبْعَثهُ الله مَقَامًا مَحْمُودًا.[٢] وَرَوَاهُ حَمْزَة بْن عَبْد الله عَنْ أَبِيهِ عَنْ النَّبِيّ ﷺ

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن عَبْد الحَكَم، حَدَّثَنَا شُعَيْب بْن اللَّيْث، حدثني اللَّيْث، عَنْ عُبَيْد الله بْن أَبِي جَعْفَر؛ أَنَّهُ قَال: سَمِعْت حَمْزَة بْن عَبْد الله بْن عُمَر، يَقُول: سَمِعْت عَبْد الله بْن عُمَر يَقُول: قَال رَسُول الله ﷺ: **«إِنَّ الشَّمْس لَتَدْنُو حَتَّى يَبْلُغ العَرَق نِصْف الأُذُن، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَم فَيَقُول: لَسْت صَاحِب ذَلِكَ، ثُمَّ بِمُوسَى فَيَقُول كَذَلِكَ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْفَع بَيْن الخَلْق، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذ بِحَلْقَةِ بَاب الجَنَّة، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثهُ الله مَقَامًا مَحْمُودًا»**[٣]. وَهَكَذَا رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي الزَّكَاة عَنْ يَحْيَى بْن بُكَيْر وعَبْد الله بْن صَالِح كِلاهُمَا عَنْ اللَّيْث بْن سَعْد بِهِ. وَزَادَ: **«فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثهُ الله مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدهُ أَهْل الجَمْع كُلّهمْ»**. قَال البُخَارِيّ: وَحَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَيَّاش، حَدَّثَنَا شُعَيْب بْن أَبِي حَمْزَة، عَنْ مُحَمَّد بْن المُنْكَدِر، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«مَنْ قَال حِين يَسْمَع النِّدَاء: اللَّهُمَّ رَبّ هَذِهِ الدَّعْوَة التَّامَّة وَالصَّلَاة القَائِمَة، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَة وَالفَضِيلَة، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْته حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْم القِيَامَة»**.[٤] انْفَرَدَ بِهِ دُون مُسْلِم.

حَدِيث أُبَيّ: وقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر الأَزْدِيّ، حَدَّثَنَا زُهَيْر بْن مُحَمَّد، عَنْ عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن عُقَيْل، عَنْ الطُّفَيْل بْن أُبَيّ بْن كَعْب، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«إِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة كُنْت إِمَام الأَنْبِيَاء وَخَطِيبهمْ، وَصَاحِب شَفَاعَتهمْ؛ غَيْر فَخْر»**.[٥] وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي عَامِر عَبْد المَلِك بْن عَمْرو العَقَدِيّ، وَقَال: حَسَن صَحِيح. وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن عُقَيْل بِهِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي حَدِيث أُبَيّ ابْن كَعْب فِي قِرَاءَة القُرْآن عَلَى سَبْعَة أَحْرُف، قَال رسول الله ﷺ فِي آخِره: **«فَقُلْت: اللَّهُمَّ؛ اغْفِرْ لأُمَّتِي، اللَّهُمَّ؛ اغْفِرْ لأُمَّتِي، وَأَخَّرْت الثَّالِثَة لِيَوْمٍ يَرْغَب إِلَيَّ فِيهِ الخَلْق، حَتَّى إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ»**.[٦]

حَدِيث أَنَس بْن مَالِك: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة، حَدَّثَنَا قَتَادَة، عَنْ أَنَس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«يَجْتَمِع المُؤْمِنُونَ يَوْم القِيَامَة فَيُلْهَمُونَ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا [إِلَى][٧] رَبّنَا فَأَرَاحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا. فَيَأْتُونَ آدَم فَيَقُولُونَ: يَا آدَم، أَنْتَ أَبُو البَشَر، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَته، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاء كُلّ شَيْء، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبّك حَتَّى يُرِيحنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا. فَيَقُول لَهُمْ آدَم: لَسْت**

---

(١) ضعيف : تقـدم.
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٤٧١٨).
(٣) صحيح : أخرجه البخاري (١٤٧٤)، والطبري (١٥/ ١٤٦).
(٤) صحيح : أخرجه البخاري (٥٧٩).
(٥) حسـن : أخرجه أحمد (٥/ ١٣٧)، والترمذي (٣٦١٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٧٨١).
(٦) صحيح : صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٧٨٤١).
(٧) في (ط): [على].

هُنَاكُمْ، وَيَذْكُر ذَنْبه الَّذِي أَصَابَ، فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ ﷻ مِنْ ذَلكَ، وَيَقُول: وَلَكِنْ ائْتُوا نُوحًا؛ فَإِنَّهُ أَوَّل رَسُول بَعَثَهُ الله إِلى أَهْل الأَرْض، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُول: لسْت هُنَاكُمْ، وَيَذْكُر خَطِيئَة سُؤَاله رَبّه مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلم فَيَسْتَحْيِي رَبَّه مِنْ ذَلكَ، وَيَقُول: وَلَكِنْ ائْتُوا إِبْرَاهِيم خَلِيل الرَّحْمَن. فَيَأْتُونَهُ فَيَقُول: لسْت هُنَاكُمْ، وَلَكِنْ ائْتُوا مُوسَى: عَبْدًا كَلَّمَهُ الله وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاة. فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُول: لسْت هُنَاكُمْ، وَيَذْكُر لهُمْ النَّفْس الَّتِي قَتَل بِغَيْرِ نَفْس، فَيَسْتَحْيِي رَبّه مِنْ ذَلكَ، وَلَكِنْ ائْتُوا عِيسَى عَبْد الله وَرَسُوله وَكَلمَته وَرُوحه. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُول: لسْت هُنَاكُمْ، وَلَكِنْ ائْتُوا مُحَمَّدًا: عبدًا غَفَرَ الله لهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبه وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي». قَال الحَسَن هَذَا الحَرْف: «فَأَقُوم فَأَمْشِي بَيْن سِمَاطَيْنِ مِنْ المُؤْمِنِينَ». قَال أَنَس: «حَتَّى أَسْتَأْذِن عَلى رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْت رَبِّي وَقَعْت لهُ أَوْ خَرَرْت سَاجِدًا لرَبِّي، فَيَدَعنِي مَا شَاءَ الله أَنْ يَدعنِي». قَال: «ثُمَّ يُقَال: ارْفَعْ مُحَمَّد، قُل يُسْمَع، وَاشْفَعْ تُشَفَّع، وَسَل تُعْطَهْ، فَأَرْفَع رَأْسِي، فَأَحْمَدهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَع، فَيَحُدّ لي حَدًّا فَأُدْخِلهُمْ الجَنَّة، ثُمَّ أَعُود إِليْهِ الثَّانِيَة، فَإِذَا رَأَيْت رَبِّي وَقَعْت أَوْ خَرَرْت سَاجِدًا لرَبِّي، فَيَدَعنِي مَا شَاءَ الله أَنْ يَدعنِي، ثُمَّ يُقَال: ارْفَعْ مُحَمَّد، قُل يُسْمَع، وَسَل تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّع، فَأَرْفَع رَأْسِي، فَأَحْمَدهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَع، فَيَحُدّ لي حَدًّا فَأُدْخِلهُمْ الجَنَّة، ثُمَّ أَعُود فى الثَّالثَة، فَإِذَا رَأَيْت رَبِّي وَقَعْت أَوْ خَرَرْت سَاجِدًا لرَبِّي، فَيَدَعنِي مَا شَاءَ الله أَنْ يَدعنِي، ثُمَّ يُقَال: ارْفَعْ مُحَمَّد، قُل يُسْمَع، وَسَل تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّع، فَأَرْفَع رَأْسِي فَأَحْمَدهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَع، فَيَحُدّ لي حَدًّا فَأُدْخِلهُمْ الجَنَّة، ثُمَّ أَعُود [فى][1] الرَّابِعَة فَأَقُول: يَا رَبّ، مَا بَقِيَ إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ القُرْآن». فَحَدَّثَنَا أَنَس بْن مَالك أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال: «فَيَخْرُج مِنْ النَّار مَنْ قَال لا إِله إِلاَّ الله وَكَانَ فِي قَلبه مِنْ الخَيْر مَا يَزِن شَعِيرَة، ثُمَّ يَخْرُج مِنْ النَّار مَنْ قَال لا إِله إِلاَّ الله وَكَانَ فِي قَلبه مِنْ الخَيْر مَا يَزِن بُرَّة، ثُمَّ يَخْرُج مِنْ النَّار مَنْ قَال لا إِله إِلاَّ الله وَكَانَ فِي قَلبه مِنْ الخَيْر مَا يَزِن ذَرَّة». أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث سَعِيد بِهِ وَهَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد عَنْ عَفَّان، عن حَمَّاد بْن سَلمَة عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس بِطُوله.[2]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يُونُس بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا حَرْب بْن مَيْمُون أَبُو الخَطَّاب الأَنْصَارِيّ، عَنْ النَّضْر بْن أَنَس عَنْ أَنَس، قَال: حَدَّثَنِي نَبِيّ الله ﷺ قَال: «إِنِّي لقَائِم أَنْتَظِر أُمَّتِي تَعْبُر الصِّرَاط، إِذْ جَاءَنِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَال: هَذِهِ الأَنْبِيَاء قَدْ جَاءَتْك يَا مُحَمَّد يَسْأَلُونَ» -أَوْ قَال: «يَجْتَمِعُونَ إِليْك»- «وَيَدْعُونَ الله أَنْ يُفَرِّق بَيْن جَمِيع الأُمَم إِلى حَيْثُ يَشَاء الله لغَمّ مَا هُمْ فِيهِ؛ فَالخَلق مُلجَمُونَ بِالعَرَق -فَأَمَّا المُؤْمِن فَهُوَ عَليْهِ كَالزَّكْمَة، وَأَمَّا الكَافِر فَيَغْشَاهُ المَوْت- فَقَال: انْتَظِرْ حَتَّى أَرْجِع إِليْك، فَذَهَبَ نَبِيّ الله ﷺ، فَقَامَ تَحْت العَرْش، فَلقِيَ مَا لمْ يَلقَ مَلك مُصْطَفًى، وَلا نَبِيّ مُرْسَل، فَأَوْحَى الله عَزَّ وَجَلَّ إِلى جِبْرِيل: أَنْ اذْهَبْ إِلى مُحَمَّد، وَقُل لهُ: ارْفَعْ رَأْسك، وسَل [تُعْطَ][3]، وَاشْفَعْ تُشَفَّع. فَشُفِّعْت فِي أُمَّتِي: أَنْ أُخْرِج مِنْ كُلّ تِسْعَة وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا وَاحِدًا. فَمَا زِلت أَتَرَدَّد إِلى رَبِّي ﷻ فَلا أَقُوم مِنْهُ مَقَامًا إِلاَّ شُفِّعْت؛ حَتَّى أَعْطَانِي الله ﷻ مِنْ ذَلكَ أَنْ قَال: يَا مُحَمَّد، أَدْخِل مِنْ أُمَّتك مِنْ خَلق الله ﷻ مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِله إِلاَّ الله يَوْمًا وَاحِدًا مُخْلصًا وَمَاتَ عَلى ذَلكَ»[4].

حَدِيث بُرَيْدَة رضي الله عنه: قَال الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل: حَدَّثَنَا الأَسْوَد بْن عَامِر، أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْرَائِيل، عَنْ الحَارِث بْن حَصِيرَة، عَنْ ابْن بُرَيْدَة، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ دَخَل عَلى مُعَاوِيَة فَإِذَا رَجُل يَتَكَلَّم، فَقَال بُرَيْدَة: يَا مُعَاوِيَة، تَأْذَن لي فِي

---

(١) زيادة من (ط).
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) في (ط): [تعطه].
(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٧٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٣٩).

الكَلام؟ فقَال: نَعَمْ -وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ يتكلم بِمِثْلِ مَا قَال الآخَر- فَقَال بُرَيْدَة: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يقُول: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَشْفَع يَوْم القِيَامَة عَدَد مَا عَلى الأَرْض مِنْ شَجَرَة وَمَدَرَة». قَال: أفترجوها أَنْتَ يَا مُعَاوِيَة وَلا يَرْجُوهَا عَلِيّ رضي الله عنه.(١)

حَدِيث ابْن مَسْعُود رضي الله عنه: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا عَارِم بْن الفَضْل، حَدَّثنَا سَعِيد بْن زَيْد، حَدَّثنَا عَلِيّ بْن الحَكَم البُنَانِيّ، عَنْ عُثْمَان، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ عَلقَمَة وَالأَسْوَد، عَنْ ابْن مَسْعُود قَال: جَاءَ ابْنَا مُلَيْكَة إِلى النَّبِيّ ﷺ، فَقَالا: إِنَّ أُمَّنَا كانت تُكْرِم الزَّوْج، وَتَعْطِف عَلى الوَلد -قَال: وَذَكَرَ الضَّيْف- غَيْر أَنَّهَا كَانَتْ وَأَدَتْ فِي الجَاهِلِيَّة، فَقَال: «أُمّكُمَا فِي النَّار». قَال: فَأَدْبَرَا وَالسُّوء يُرَى فِي وجوههما، فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُدَّا، فَرَجَعَا والسرور يُرَى فِي وجوههما رَجَاء أَنْ يَكُون قَدْ حَدَثَ شَيْء، فَقَال: «أُمِّي مَعَ أُمّكُمَا». فَقَال رَجُل مِنَ المُنَافِقِينَ: وَمَا يُغْنِي هَذَا عَنْ أُمّه شَيْئًا، وَنَحْنُ نَطَأ عَقِبَيْهِ. فَقَال رَجُل مِنَ الأَنْصَار -وَلَمْ أَرَ رَجُلًا قَطُّ أَكْثَر سُؤَالًا مِنْهُ- يَا رَسُول الله، هَل وَعَدَك رَبّك فِيهَا أَوْ فِيهِمَا؟ قَال: فَظَنَّ أَنَّهُ مِنْ شَيْء قَدْ سَمِعَهُ، فَقَال: «مَا سألته رَبِّي وَمَا أطمعني فِيهِ، وَإِنِّي لأَقُوم المَقَام المَحْمُود يَوْم القِيَامَة». فَقَال الأَنْصَارِيّ: يَا رَسُول الله، وَمَا ذَاكَ المَقَام المَحْمُود؟ قَال: «ذَاكَ إِذَا جِيءَ بِكُمْ حُفَاة عُرَاة غُرْلًا، فَيكُون أَوَّل مَنْ يُكْسَى: إِبْرَاهِيم عليه السلام، فيَقُول: اكْسُوَا خَلِيلِي، فَيُؤْتَى بِرَيْطَتَيْنِ بَيْضَاوَيْنِ فَيلبسهُمَا، ثُمَّ يُقْعِدهُ مُسْتَقْبِل العَرْش، ثُمَّ أُوتِيَ بِكِسْوَتِي فَأَلبسها، فَأَقُوم عَنْ يَمِينه مَقَامًا لا يَقُومهُ أَحَد. فَيَغْبِطنِي فِيهِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ، وَيُفْتَح نهر مِنْ الكَوْثَر إِلى الحَوْض، فَقَال المنافقون إِنَّهُ مَا جَرَى مَاء قَطُّ إِلَّا عَلى حَال أَوْ رَضْرَاض فَقَال رَسُول الله ﷺ: «حَاله المِسْك وَرَضْرَاضه التوم». فَقَال المُنَافِق: لَمْ أَسْمَع كَاليَوْم؛ فَإِنَّهُ قَلَّمَا جَرَى مَاء عَلى حَال أَوْ رَضْرَاض إِلَّا كَانَ لَهُ نَبْته؟ فَقَال الأَنْصَارِيّ: يَا رَسُول الله، هَل لَهُ نَبْت؟ فَقَال: «نَعَمْ، قُضْبَان الذَّهَب». قَال المُنَافِق: لَمْ أَسْمَع كَاليَوْم؛ فَإِنَّهُ قَلَّمَا يَنْبُت قَضِيب إِلَّا أَوْرَقَ وَإِلَّا كَانَ لَهُ ثَمَر قَال الأَنْصَارِيّ: يَا رَسُول الله، هَل لَهُ ثَمَرَة؟ قَال: «نَعَمْ، أَلوَان الجَوْهَر، وَمَاؤُهُ أَشَدّ بَيَاضًا مِنْ اللَّبَن، وَأَحْلى مِنْ العَسَل، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شربًا لا يَظْمَأ بَعْده. وَمَنْ حُرِمَهُ لَمْ يُرْوَ بَعْده».(٢)

وَقَال أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثنَا يَحْيَى بْن سَلمَة بْن كُهَيْل، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي الزَّعْرَاء، عَنْ عَبْد الله؛ قَال: ثُمَّ يَأْذَن الله عز وجل فِي الشَّفَاعَة، فيَقُوم رُوح القُدُس جِبْرِيل، ثُمَّ يَقُوم إِبْرَاهِيم خَلِيل الله، ثُمَّ يَقُوم عِيسَى أَوْ مُوسَى -قَال أَبُو الزَّعْرَاء: لا أَدْرِي أَيّهمَا قَال ثُمَّ يَقُوم نَبِيكُمْ ﷺ رَابِعًا، فَيَشْفَع لا يَشْفَع أَحَد بَعْده أَكْثَر مِمَّا شَفَعَ، وَهُوَ المَقَام المَحْمُود الَّذِي قَال الله عز وجل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.(٣)

حَدِيث كَعْب بْن مَالك رضي الله عنه: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا يَزِيد بْن عَبْد رَبّه، حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن حَرْب، حَدَّثنَا الزُّبَيْدِيّ، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْد الله بْن كَعْب بْن مَالك، عَنْ كَعْب بْن مَالك؛ قَال: إِن رَسُول الله ﷺ قَال: **«يُبْعَث النَّاس يَوْم القِيَامَة فَأَكُون أَنَا وَأُمَّتِي عَلى تَلّ، وَيَكْسُونِي رَبِّي عز وجل حُلَّة خَضْرَاء، ثُمَّ يُؤْذَن لي فَأَقُول مَا شَاءَ الله أَنْ أَقُول، فَذَلك المَقَام المَحْمُود».**(٤)

حَدِيث أَبِي الدَّرْدَاء رضي الله عنه: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا حَسَن، حَدَّثنَا ابْن لهِيعَة، حَدَّثنَا يَزِيد بْن أَبِي حَبِيب، عَنْ

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٧)، وفيه الحارث بن حصيرة: صدوق يخطئ، وأبو إسرائيل إسماعيل بن خليفة: صدوق سيئ الحفظ، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٣٢٣١).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (١/ ٣٩٨)، وفيه عثمان بن عمير: ضعيف، وضعف سنده الشيخ أحمد شاكر في «المسند».

(٣) ضعيف: أخرجه الطيالسي (٣٨٩٠)، وفيه أبو الزعراء: ضعيف.

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٤٥٦)، وابن حبان (٦٤٧٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٧٠).

عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «أَنَا أَوَّل مَنْ يُؤْذَن لهُ بالسُّجُودِ يَوْم القِيَامَة، وَأَنَا أَوَّل مَنْ يُؤْذَن لهُ أَنْ يَرْفَع رَأْسه، فَأَنْظُر إلى مَا بَيْن يَدَيَّ فَأَعْرِف أُمَّتِي مِنْ بَيْنِ الأُمَم، وَمِنْ خَلفِي مِثْل ذَلكَ، وَعَنْ يَمِينِي مِثْل ذَلك، وَعَنْ شِمَالي مِثْل ذَلكَ». فَقَال رَجُل: يَا رَسُول الله؛ كَيْف تَعْرِف أُمَّتك مِنْ بَيْن الأُمَم فِيمَا بَيْن نُوح إِلَى أُمَّتك؟ قَال: «هُمْ غُرٌّ مُحَجَّلُونَ مِنْ أَثَر الوُضُوء، لَيْسَ أَحَد كَذَلكَ غَيْرهمْ وَأَعْرِفهُمْ أَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ كُتُبهمْ بِأَيْمَانِهِمْ، وَأَعْرِفهُمْ تَسْعَى مِنْ بَيْن أَيْدِيهِمْ ذُرِّيَّتهمْ».[1]

حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة ﷺ: قَال الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا أَبُو حَيَّان، حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة ابْن عَمْرو بْن جَرِير، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: أُتِيَ رَسُول الله ﷺ بِلحْم، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاع وَكَانَتْ تُعْجِبهُ فَنَهَش مِنْهَا نَهْشَة، ثُمَّ قَال: «أَنَا سَيِّد النَّاس يَوْم القِيَامَة، وَهَل تَدْرُونَ مِمَّ ذَاك؟ يَجْمَع الله الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيد وَاحِد، يُسْمِعهُمْ الدَّاعِي وَيَنْفُذهُمْ البَصَر، وَتَدْنُو الشَّمْس فَيَبْلُغ النَّاس مِنْ الهم وَالكَرْب مَا لا يُطِيقُونَ وَلا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُول بَعْض النَّاس لبَعْض: أَلا تَرَوْنَ إلى مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلا تَرَوْنَ [إلى][2] مَا قَدْ بَلغَكُمْ؟ أَلا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَع لكُمْ إلى رَبِّكُمْ عَجَلَ؟ فَيَقُول بَعْض النَّاس لبَعْض: أبوكم آدَم، فَيَأْتُونَ آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَم، أَنْتَ أَبُو البَشَر، خَلقَك الله بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيك مِنْ رُوحه، وَأَمَرَ المَلائِكَة فَسَجَدُوا لك، فَاشْفَعْ لنَا إلى رَبِّك، أَلا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلغَنَا؟ فَيَقُول آدَم: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْم غَضَبًا لمْ يَغْضَب قَبْله مِثْله، وَلنْ يَغْضَب بَعْده مِثْله، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنْ الشَّجَرَة فَعَصَيْته، نَفْسِي! نَفْسِي! نَفْسِي! اذْهَبُوا إلى غَيْرِي، اذْهَبُوا إلى نُوح. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوح؛ أَنْتَ أَوَّل الرُّسُل إلى أَهْل الأَرْض، سَمَّاك الله عَبْدًا شَكُورًا، فَاشْفَعْ لنَا إلى رَبِّك، أَلا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلغَنَا؟ فَيَقُول نُوح: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْم غَضَبًا لمْ يَغْضَب قَبْله مِثْله؛ وَلنْ يَغْضَب بَعْده مِثْله، وَإِنَّهُ [قَدْ][3] كَانَتْ لي دَعْوَة عَلى قَوْمِي، نَفْسِي! نَفْسِي! نَفْسِي! اذْهَبُوا إلى غَيْرِي، اذْهَبُوا إلى إِبْرَاهِيم. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيم فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيم؛ أَنْتَ نَبِيّ الله وَخَليله مِنْ أَهْل الأَرْض، اشْفَعْ لنَا إلى رَبِّك أَلا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلغَنَا؟ فَيَقُول: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْم غَضَبًا لمْ يَغْضَب قَبْله مِثْله، وَلنْ يَغْضَب بَعْده مِثْله، فَذَكَرَ كَذَبَاته. نَفْسِي! نَفْسِي! نَفْسِي! اذْهَبُوا إلى غَيْرِي، اذْهَبُوا إلى مُوسَى. فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُول الله، اصْطَفَاك الله بِرِسَالاتِهِ وَبِكَلامِهِ عَلى النَّاس، اشْفَعْ لنَا إلى رَبِّك، أَلا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلغَنَا؟ فَيَقُول لهُمْ مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْم غَضَبًا لمْ يَغْضَب قَبْله مِثْله، وَلنْ يَغْضَب بَعْده مِثْله، وَإِنِّي قَدْ قَتَلت نَفْسًا لمْ أُومَرْ بِقَتْلهَا. نَفْسِي! نَفْسِي! نَفْسِي! اذْهَبُوا إلى غَيْرِي، اذْهَبُوا إلى عِيسَى. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى؛ أَنْتَ رَسُول الله وَكَلمَته أَلقَاهَا إلى مَرْيَم وَرُوح مِنْهُ -قَال: هكذا هو- وَكَلَّمْت النَّاس فِي المَهْد صَبِيًّا، فَاشْفَعْ لنَا إلى رَبِّك، أَلا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلغَنَا؟ فَيَقُول لهُمْ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْم غَضَبًا لمْ يَغْضَب قَبْله مِثْله، وَلنْ يَغْضَب بَعْده مِثْله -وَلمْ يَذْكُر ذَنْبًا- اذْهَبُوا إلى غَيْرِي، اذْهَبُوا إلى مُحَمَّد ﷺ. فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّد؛ أَنْتَ رَسُول الله وَخَاتَم الأَنْبِيَاء، وَقَدْ غَفَرَ الله لك مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبك وَمَا تَأَخَّرَ، فَاشْفَعْ لنَا إلى رَبِّك، أَلا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلغَنَا؟ فَأَقُوم فَآتِي تَحْت العَرْش فَأَقَع سَاجِدًا لرَبِّي -عَزَّ وَجَلَّ- ثُمَّ يَفْتَح الله عَليَّ وَيُلهِمنِي مِنْ مَحَامِده وَحُسْن الثَّنَاء عَليْهِ

---

(١) صحيح : صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٠).

(٢) سقط من (ط).

(٣) سقط من (ط).

مَا لمْ يفتحه علَى أحَد قبْلي، فيُقَال: يَا مُحَمَّد؛ ارْفَعْ رَأْسك، وَسَل تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّع، فَأَقُول: يَا رَبّ، أُمَّتِي أُمَّتِي. يَا رَبّ، أُمَّتِي أُمَّتِي! يَا رَبّ، أُمَّتِي أُمَّتِي. فَيُقَال: يَا مُحَمَّد؛ أَدْخِل مِنْ أُمَّتك مَنْ لا حِسَاب عَلَيْهِ مِنْ البَاب الأَيْمَن مِنْ أَبْوَاب الجنَّة، وَهُمْ شُرَكَاء النَّاس فِيمَا سواه مِنْ الأَبْوَاب، ثُمَّ قَال: وَالَّذِي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ لما بَيْن المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيع الجنَّة لكَمَا بَيْن مَكَّة وَهَجَر، أَوْ كَمَا بَيْن مَكَّة وَبُصْرَى». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ». [1]

وَقَال مُسْلم رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا الحَكَم بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا هِقْل بْن زِيَاد، عَنْ الأَوْزَاعِيّ، حَدَّثَنِي أَبُو عَمَّار، حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن فَرُّوخ، حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَة؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّد وَلد آدم يَوْم القِيَامَة، وَأَوَّل مَنْ يَنْشَقّ عَنْهُ القَبْر، وَأَوَّل شَافِع، وَأَوَّل مُشَفَّع». [2]

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ دَاوُد بْن يَزِيد الزَّعَافِرِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ سُئِل عَنْهَا فَقَال: «هِيَ الشَّفَاعَة». رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد عَنْ وَكِيع وَمُحَمَّد بْن عُبَيْد، عَنْ دَاوُد، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قَال: «هُوَ المَقَام الَّذِي أَشْفَع لأُمَّتِي فِيهِ». [3]

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عَلِيّ بْن الحُسَيْن؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة مَدَّ الله الأَرْض مَدّ الأَدِيم حَتَّى لا يَكُون لبَشَرٍ مِنْ النَّاس إلاَّ مَوْضِع قدمه». قَال النَّبِيّ ﷺ: «فَأَكُون أَوَّل مَنْ يُدْعَى، وَجِبْرِيل عَنْ يَمِين الرَّحْمَن، وَالله مَا رَآهُ قَبْلهَا، فَأَقُول أَيْ: رَبّ، هَذَا أَخْبَرَنِي أَنَّك أَرْسَلته إِلَيّ. فَيَقُول الله -تبارك وتعالى-: صَدَقَ. ثُمَّ أَشْفَع، فَأَقُول: يَا رَبّ عِبَادك عَبَدُوك فِي أَطْرَاف الأَرْض». قَال: فَهُوَ المَقَام المَحْمُود. [4] وَهَذَا حَدِيث مُرْسَل.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ قَابُوس بْن أَبِي ظَبْيَان، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَال: كَانَ النَّبِيّ ﷺ بِمَكَّة، ثُمَّ أُمِرَ بِالهِجْرَة، فَأَنْزَل الله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾. [5] وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: إِنَّ كُفَّار أَهْل مَكَّة لَمَّا ائْتَمَرُوا بِرَسُول الله ﷺ لِيَقْتُلُوهُ أَوْ يَطْرُدُوهُ أَوْ يُوثِقُوهُ، وأراد الله قِتَال أَهْل مَكَّة، أَمَرَهُ أَنْ يَخْرُج إِلَى المَدِينَة، فَهُوَ الَّذِي قَال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

وَقَال قَتَادَة: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، يَعْنِي: المَدِينَة ﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يَعْنِي: مَكَّة. وَكَذَا قَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ. وَهَذَا القَوْل هُوَ أَشْهَر الأَقْوَال. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يَعْنِي: المَوْت، ﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يَعْنِي: الحَيَاة بَعْد المَوْت. وَقِيل غَيْر ذَلِكَ مِنْ الأَقْوَال. وَالأَوَّل أَصَحّ، وَهُوَ اخْتِيَار ابْن جَرِير.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٨).
(٣) حسن لغيره: أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٤٥)، وأحمد (٢/ ٤٤٤)، والترمذي (٣١٣٧) وحسنه. وفيه داود بن يزيد: ضعيف. وأبوه: مقبول، ويشهد له الأحاديث المذكورة في معناه.
(٤) مرسل: أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٤٢).
(٥) ضعيف: أخرجه أحمد (١/ ٢٢٣)، والترمذي (٣١٣٩). قال الألباني: ضعيف الإسناد. في «ضعيف سنن الترمذي».

وَقَوْله: ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ قَال الحَسَن البَصْرِيّ فِي تَفْسِيرهَا: وَعَدَهُ رَبّه لينْزَعَنَّ مُلك فَارِس وَعِزّ فَارِس وَليَجْعَلنَّهُ لهُ، وَمُلك الرُّوم وَعِزّ الرُّوم وَليَجْعَلنَّهُ لهُ. وَقَال قَتَادَة فِيهَا: إِنَّ نَبِيّ الله ﷺ عَلمَ أَنْ لا طَاقَة لهُ بِهَذَا الأَمْر إِلَّا بِسُلطَانٍ، فَسَأَل سُلطَانًا نَصِيرًا لكِتَابِ الله، وَلحُدُودِ الله، وَلفَرَائِض الله، وَلإِقَامَةِ دِين الله فَإِنَّ السُّلطَان رَحْمَة مِنْ الله جَعَلهُ بَيْن أَظْهُر عِبَاده، وَلوْلا ذَلكَ لأَغَارَ بَعْضهمْ عَلى بَعْض فَأَكَل شَدِيدهمْ ضَعِيفهمْ. وَقَال مُجَاهِد: ﴿سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ : حُجَّة بَيِّنَة. وَاخْتَارَ ابْن جَرِير قَوْل الحَسَن وَقَتَادَة -وَهُوَ الأَرْجَح-؛ لأَنَّهُ لابُدّ مَعَ الحَقّ مِنْ قَهْر لمَنْ عَادَاهُ وَنَاوَأَهُ؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾. وَفِي الحَدِيث: «إِنَّ الله ليَزَع بِالسُّلطَانِ مَا لا يَزَع بِالقُرآنِ». أَيْ: ليَمْنَع بِالسُّلطَانِ عَنْ ارْتِكَاب الفَوَاحِش وَالآثَام مَا لا يَمْتَنِع كَثِير مِنْ النَّاس بِالقُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنْ الوَعِيد الأَكِيد وَالتَّهْدِيد الشَّدِيد، وَهَذَا هُوَ الوَاقِع.

وَقَوْله: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾: تَهْدِيد وَوَعِيد لكُفَّارِ قُرَيْش؛ بأنه قَدْ جَاءَهُمْ مِنْ الله الحَقّ الَّذِي لا مِرْيَة فِيهِ وَلا قِبَل لهُمْ بِهِ، وَهُوَ مَا بَعَثَهُ الله بِهِ مِنْ القُرْآن وَالإِيمَان وَالعِلم النَّافِع، وَزَهَقَ بَاطِلهمْ، أَيْ: اضْمَحَلَّ وَهَلكَ، فَإِنَّ البَاطِل لا ثَبَات لهُ مَعَ الحَقّ وَلا بَقَاء، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾. وَقَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ أَبِي مَعْمَر، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود قَال: دَخَل النَّبِيّ ﷺ مَكَّة وَحَوْل البَيْت سِتُّونَ وَثَلثِمَائَةِ نُصُب، فَجَعَل يَطْعَنهَا بِعُودٍ فِي يَده وَيَقُول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[1]. وَكَذَا رَوَاهُ البُخَارِيّ أَيْضًا فِي غَيْر هَذَا المَوْضِع، وَمُسْلم، وَالتِّرْمِذِيّ، وَالنَّسَائِيّ، كُلّهمْ مِنْ طُرُق، عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، بِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو يَعْلى: حَدَّثَنَا زُهَيْر، حَدَّثَنَا شَبَابَة، حَدَّثَنَا المُغِيرَة، حَدَّثَنَا أَبُو الزُّبَيْر، عَنْ جَابِر رضي الله عنه قَال: دَخَلنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ مَكَّة، وَحَوْل البَيْت ثَلثِمَائَةِ وَسِتُّونَ صَنَمًا يعبدون مِنْ دُون الله، فَأَمَرَ بِهَا رَسُول الله ﷺ فَأُكِبَّتْ لوُجُوهِهَا، وَقَال: «جَاءَ الحَقّ وَزَهَقَ البَاطِل إِنَّ البَاطِل كَانَ زَهُوقًا».[2]

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابه الَّذِي أَنْزَلهُ عَلى رَسُوله مُحَمَّد ﷺ، وَهُوَ القُرْآن الَّذِي لا يَأْتِيه البَاطِل مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلفه، تَنْزِيل مِنْ حَكِيم حَمِيد: إِنَّهُ ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: يُذْهِب مَا فِي القُلُوب مِنْ أَمْرَاض؛ مِنْ شَكّ وَنِفَاق وَشِرْك وَزَيْغ وَمَيْل -القُرْآن يَشْفِي مِنْ ذَلكَ كُلّه-، وَهُوَ أَيْضًا رَحْمَة يَحْصُل فِيهَا الإِيمَان وَالحِكْمَة وَطَلب الخَيْر وَالرَّغْبَة فِيهِ، وَليْسَ هَذَا إِلَّا لمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ؛ فَإِنَّهُ يَكُون شِفَاء فِي حَقّه وَرَحْمَة، وَأَمَّا الكَافِر الظَّالم نَفْسه بِذَلكَ فَلا يَزِيدهُ سَمَاعه القُرْآن إِلَّا بُعْدًا وتكذيبًا وَكُفْرًا، وَالآفَة مِنْ الكَافِر لا مِنْ القُرْآن كَقَوْلهِ تَعَالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وَالآيَات فِي ذَلكَ كَثِيرَة. قَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إِذَا

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٤٧٢٠)، ومسلم (١٧٨١).

(٢) صحيح : أخرجه الحافظ أبو يعلي.

سَمِعَهُ الْمُؤْمِن انْتَفَعَ بِهِ وَحَفِظَهُ وَوَعَاهُ، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ إنه لا يَنْتَفِع بِهِ وَلا يَحْفَظهُ وَلا يَعِيه، فَإِنَّ الله جَعَل هَذَا القُرْآن شِفَاء وَرَحْمَة للمُؤْمِنِينَ.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ نَقْص الإِنْسَان مِنْ حَيْثُ هُوَ؛ إِلَّا مَنْ عصم الله تَعَالَى، فِي حَالَتَيْ سرَّائه وضرَّائه، [فَإِنَّهُ][1] إِذَا أَنْعَمَ الله عَلَيْهِ بِمَالٍ وَعَافِيَة، وَفَتْح وَرِزْق وَنَصْر، وَنَال مَا يَرِيد، أَعْرَضَ عَنْ طَاعَة الله وَعِبَادَته وَنَأَى بِجَانِبِهِ. قَال مُجَاهِد: بَعُدَ عَنَّا. قُلت: وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾، وَقَوْله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾، وَبِأَنَّهُ إِذَا مَسَّهُ الشَّرّ -وَهُوَ المَصَائِب وَالحَوَادِث وَالنَّوَائِب- ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أَيْ: قَنَطَ أَنْ يَعُود يَحْصُل لهُ بَعْد ذَلكَ خَيْر، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾. قَال ابْن عَبَّاس: عَلى نَاحِيَته. وَقَال مُجَاهِد: عَلى حِدَته وَطَبِيعَته. وَقَال قَتَادَة: عَلى نِيَّته. وَقَال ابْن زَيْد: دِينه. وَكُلّ هَذِهِ الأَقْوَال مُتَقَارِبَة فِي المَعْنَى. وَهَذِهِ الآيَة -وَالله أَعْلَم- تَهْدِيد للمُشْرِكِينَ وَوَعِيد لهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾؛ وَلهَذَا قَال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أَيْ: مِنَّا وَمِنْكُمْ، وَسَيَجْزِي كُلّ عَامِل بِعَمَله، فَإِنَّهُ لا [يخفي][2] عَليْهِ خَافِيَة.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا وَكِيع، حَدَّثنَا الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ علقَمَة، عَنْ عَبْد الله -هُوَ ابْن مَسْعُود رضي الله عنه- قَال: كُنْت أَمْشِي مَعَ رَسُول الله ﷺ فِي حَرْث فِي المَدِينَة، وَهُوَ مُتَوَكِّئ عَلى عَسِيب، فَمَرَّ بقوم مِنْ اليَهُود، فَقَال بَعْضهمْ لبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنْ الرُّوح، فقال بَعْضهمْ: لا تَسْأَلُوهُ. قَال: فَسَأَلُوهُ عَنْ الرُّوح، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّد! مَا الرُّوح؟ فَمَا زَال مُتَوَكِّئًا عَلى العَسِيب، قَال: فَظَنَنْت أَنَّهُ يُوحَى إِليْهِ، فَقَال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فَقَال بَعْضهمْ لبَعْضٍ: قَدْ قُلنَا لكُمْ: لا تَسْأَلُوهُ.[3]

وَهَكَذَا رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم مِنْ حَدِيث الأَعْمَش بِهِ. وَلفْظ البُخَارِيّ عِنْد تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: عَنْ عَبْد الله ابْن مَسْعُود رضي الله عنه قَال: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيّ ﷺ فِي حَرْث وَهُوَ مُتَوَكِّئ عَلى عَسِيب إِذْ مَرَّ اليَهُود، فَقَال بَعْضهمْ لبَعْضٍ: سَلُوهُ عن الرُّوح، فَقَال: مَا رَابَكُمْ إِليْهِ. وَقَال بَعْضهمْ: لا يَسْتَقْبِلنَكُم بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ. فَقَالُوا: سَلُوهُ، فَسَأَلُوهُ عَنْ الرُّوح، فَأَمْسَكَ النَّبِيّ ﷺ فَلمْ يَرُدّ [عَليْهِمْ][4] شَيْئًا، فَعَلمْت أَنَّهُ يُوحَى إِليْهِ، فَقُمْت مَقَامِي، فَلمَّا نَزَل الوَحْي قَال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾.

وَهَذَا السِّيَاق يَقْتَضِي فِيمَا يَظْهَر بَادِي الرَّأْي أَنَّ هَذِهِ الآيَة مَدَنِيَّة، وَأَنَّهَا إنما أنزلت حِين سَأَلهُ اليَهُود عَنْ ذَلكَ

---

(١) في (ط) : [بأنه].

(٢) في (ط) : [لا تخفى].

(٣) صحيح : أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٧٩٤).

(٤) في (ط): [عليه].

بِالمَدِينَةِ، مَعَ أَنَّ السُّورَة كُلّهَا مَكِّيَّة! وَقَدْ يُجاب عَنْ هَذَا بِأَنَّهُ قَدْ يكون نَزلتْ عَلَيْهِ بِالمَدِينَةِ مَرَّة ثَانِيَة كَمَا نَزلتْ عَلَيْهِ بِمَكَّة قَبْل ذَلك، أَوْ أَنَّهُ نَزَل عَلَيْهِ [الوَحْي][1] بِأَنَّهُ يُجِيبهُمْ عَمَّا سَأَلُوهُ بِالآيَةِ المُتَقَدِّم إِنْزَالهَا عَلَيْهِ، وَهِيَ هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾، وَمِمَّا يَدُلّ عَلَى نُزُول هَذِهِ الآيَة بِمَكَّة مَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنا قُتَيْبَة، حَدَّثنا يَحْيَى بْن زَكَرِيَّا، عَنْ دَاوُد، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَال: قَالتْ قُرَيْش ليَهُودَ: أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَل عَنْهُ هَذَا الرَّجُل. فَقَالُوا: سَلُوهُ عَنْ الرُّوح. فَسَأَلُوهُ، فنَزَلتْ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. قَالُوا: أُوتِينَا عِلمًا كَثِيرًا، أُوتِينَا التَّوْرَاة، وَمَنْ أُوتِيَ التَّوْرَاة فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا. قَال: وَأَنْزَل الله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.[2]

وَقَدْ رَوَى ابْن جَرِير، عَنْ مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، عَنْ عَبْد الأَعْلى، عَنْ دَاوُد، عَنْ عِكْرِمَة؛ قَال: سَأَل أَهْل الكِتَاب رَسُول الله ﷺ عَنْ الرُّوح، فَأَنْزَل الله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. فَقَالُوا: يزعم أَنَّا لمْ نُؤْتَ مِنْ العِلم إِلَّا قَليلًا، وَقَدْ أُوتِينَا التَّوْرَاة، وَهِيَ الحِكْمَة، وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَة فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا. قَال: فَنَزَلتْ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ قَال: مَا أُوتِيتُمْ مِنْ عِلم فَنَجَّاكُمْ الله بِهِ مِنْ النَّار فَهُوَ كَثِير طَيِّب، وَهُوَ فِي عِلم الله قَليل.

وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ بَعْض أَصْحَابه، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار؛ قَال: نَزَلتْ بِمَكَّة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فلَمَّا هَاجَرَ رَسُول الله ﷺ إِلى المَدِينَة أَتَاهُ أَحْبَار يهُود، وَقَالُوا: يَا مُحَمَّد، أَلمْ يَبْلُغنَا عَنْك أَنَّك تَقُول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَفعَنَيْتنَا أَمْ عَنَيْت قَوْمك؟ فَقَال: «**كُلاًّ قَدْ عَنَيْت**». قَالُوا: إِنَّك تَتْلُو أَنَّا أُوتِينَا التَّوْرَاة وَفِيهَا تِبْيَان كُلّ شَيْء؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**هِيَ فِي عِلم الله قَلِيل، وَقَدْ آتَاكُمْ مَا إِنْ عَمِلتُمْ بِهِ اسْتقمتم**». وَأَنْزَل الله: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

وَقَدْ اخْتَلفَ المُفَسِّرُونَ فِي المُرَاد بِالرُّوحِ هَاهُنَا عَلى أَقْوَال: أَحَدهَا: أَنَّ المُرَاد أَرْوَاح بَنِي آدَم.

قَال العَوْفِيّ: عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ الآيَة: وَذَلكَ أَنَّ اليَهُود قَالُوا للنَّبِيِّ ﷺ: أَخْبِرْنَا عَنْ الرُّوح، وَكَيْف تُعَذَّب الرُّوح الَّتِي فِي الجَسَد، وَإِنَّمَا الرُّوح مِنْ الله، وَلمْ يَكُنْ نَزَل عَلَيْهِ فِيهِ شَيْء، فَلمْ يُحر إِليْهِمْ شَيْئًا، فَأَتَاهُ جِبْرِيل، فَقَال لهُ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فَأَخْبَرَهُم النَّبِيّ ﷺ بِذَلكَ، فَقَالُوا: مَنْ جَاءَك بِهَذَا؟ قَال: جَاءَنِي بِهِ جِبْرِيل مِنْ عِنْد الله. فَقَالُوا لهُ: وَالله مَا قَالهُ لك إِلَّا عدو لنا. فَأَنْزَل الله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآيَة. وَقِيل: المُرَاد بِالرُّوحِ هَاهُنَا جِبْرِيل. قَالهُ قَتَادَة، قَال: وَكَانَ ابْن عَبَّاس يَكْتُمهُ.

وَقِيل: المُرَاد بِهِ هَاهُنَا مَلك عَظِيم بِقَدْرِ المَخْلُوقَات كُلّهَا. قَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: قَوْله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ يَقُول: الرُّوح: مَلك.

وَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن عرس المِصْرِيّ، حَدَّثنَا وَهْب بْن رَوْق أبو هُبَيْرَة، حَدَّثنَا بِشْر بْن بَكْر، حَدَّثنَا الأَوْزَاعِيّ، حَدَّثنَا عَطَاء، عَنْ عَبْد الله بْن عَبَّاس؛ قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ لله مَلكًا لوْ قِيل لهُ التَقِمْ السَّمَاوَات السَّبْع وَالأَرَضِينَ بِلقْمَةٍ وَاحِدَة لفَعَل، تَسْبِيحه: سُبْحَانك حَيْثُ كُنْت»[3]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب بَل مُنْكَر.

---

(١) في (ط): [وحي].
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٢٥٥)، والترمذي (٣١٤٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٣) ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٣١٩٩).

وَقَال أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنِي عَلِيّ، حَدَّثَنِي عَبْد الله، حَدَّثَنِي أَبُو هزان يَزِيد بْن سَمُرَة صَاحِب قَيْسَارِيَّه، عَمَّنْ حَدَّثَهُ، عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالب رضي الله عنه أَنَّهُ قَال فِي قَوْله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ قَال: هُوَ مَلك مِنْ المَلائِكَة، لهُ سَبْعُونَ أَلف وَجْه، لكُلّ وَجْه مِنْهَا سَبْعُونَ أَلف لسَان، لكُلّ لسَان مِنْهَا سَبْعُونَ أَلف لُغَة، يُسَبِّح الله تَعَالى بِتِلكَ اللُّغَات كُلّهَا، يَخْلُق الله مِنْ كُلّ تَسْبِيحَة مَلكًا، يَطِير مَعَ المَلائِكَة إِلى يَوْم القِيَامَة.[1] وَهَذَا أَثَر غَرِيب عَجِيب، وَالله أَعْلم. وَقَال السُّهَيْلِيّ: رُوِيَ عَنْ عَلِيّ أَنَّهُ قَال: هُوَ مَلك لهُ مِائَة أَلف رَأْس، لكُلّ رَأْس مِائَة أَلف وَجْه، فِي كُلّ وَجْه مِائَة أَلف فَم، فِي كُلّ فَم مِائَة أَلف لسَان، يُسَبِّح الله تَعَالى بِلُغَاتٍ مُخْتَلفَة. قَال السُّهَيْلِيّ: وَقِيل: المُرَاد بِذَلكَ طَائِفَة مِنْ المَلائِكَة عَلى صُوَر بَنِي آدَم. وَقِيل: طَائِفَة يَرَوْنَ المَلائِكَة وَلا تَرَاهُمْ، فَهُمْ للمَلائِكَةِ كَالمَلائِكَةِ لبَنِي آدَم. وَقَوْله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، أَيْ: مِنْ شَأْنه، وَمِمَّا اسْتَأْثَر بِعِلمِهِ دُونكُمْ؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيْ: وَمَا أَطْلعَكُمْ مِنْ عِلمه إِلَّا عَلى القَليل، فَإِنَّهُ لا يُحِيط أَحَد بِشَيْءٍ مِنْ عِلمه إِلَّا بِمَا شَاءَ تَبَارَكَ وَتَعَالى. وَالمَعْنَى: أَنَّ عِلمكُمْ فِي عِلم الله قَليل، وَهَذَا الَّذِي تَسْأَلُونَ عَنْهُ مِنْ أَمْر الرُّوح مِمَّا اسْتَأْثَر بِهِ تَعَالى وَلمْ يُطْلعكُمْ عَليْهِ، كَمَا أَنَّهُ لمْ يُطْلعكُمْ إِلَّا عَلى القَليل مِنْ عِلمه تَعَالى وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ الله فِي قِصَّة مُوسَى وَالخَضِر أَنَّ الخَضِر: نَظَرَ إِلى عُصْفُور وَقَعَ عَلى حَافَّة السَّفِينَة، فَنَقَرَ فِي البَحْر نَقْرَة -أَيْ: شَرِبَ مِنْهُ بِمِنْقَارِهِ- فَقَال: يَا مُوسَى، مَا عِلمِي وَعِلمك وَعِلم الخَلائِق فِي عِلم الله إِلَّا كَمَا أَخَذَ هَذَا العُصْفُور مِنْ هَذَا البَحْر. أَوْ كَمَا قَال صَلوَات الله وَسَلامه عَليْهِ؛ وَلهَذَا قَال تبارك وتَعَالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وَقَال السُّهَيْلِيّ: قَال بَعْض النَّاس: لمْ يُجِبْهُمْ عَمَّا سَأَلُوا؛ لأَنَّهُمْ سَأَلُوا عَلى وَجْه التَّعَنُّت. وَقِيل: أَجَابَهُمْ. وَعَوَّل السُّهَيْلِيّ عَلى أَنَّ المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أَيْ: مِنْ شَرْعه، أَيْ: فَادْخُلُوا فِيهِ، وَقَدْ عَلمْتُمْ ذَلكَ؛ لأَنَّهُ لا سَبِيل إِلى مَعْرِفَة هَذَا مِنْ طَبْع وَلا فَلسَفَة، وَإِنَّمَا يُنَال مِنْ جِهَة الشَّرْع. وَفِي هَذَا المَسْلك الَّذِي طَرَقَهُ وَسَلكَهُ نَظَر، وَالله أَعْلم. ثُمَّ ذَكَرَ السُّهَيْلِيّ الخِلاف بَيْن العُلمَاء فِي أَنَّ الرُّوح هِيَ النَّفْس أَوْ غَيْرهَا، وَقَرَّرَ أَنَّهَا ذَات لطِيفَة كَالهَوَاءِ، سَارِيَة فِي الجَسَد كَسَرَيَانِ المَاء فِي عُرُوق الشَّجَر، وَقَرَّرَ أَنَّ الرُّوح الَّتِي يَنْفُخهَا المَلك فِي الجَنِين هِيَ النَّفْس، بِشَرْطِ اتِّصَالهَا بِالبَدَنِ، وَاكْتِسَابهَا بِسَبَبِهِ صِفَات مَدْح أَوْ ذَمّ، فَهِيَ إِمَّا نَفْس مُطْمَئِنَة، أَوْ أَمَّارَة بِالسُّوءِ. قَال: كَمَا أَنَّ المَاء هُوَ حَيَاة الشَّجَر، ثُمَّ يَكْسِب بِسَبَبِ اخْتِلاطه مَعَهَا اسْمًا خَاصًّا؛ فَإِذَا اتَّصَل بِالعِنَبَةِ وَعُصِرَ مِنْهَا صَارَ إما مُصْطَارًا أَوْ خَمْرًا، وَلا يُقَال لهُ مَاء حِينَئِذٍ إِلَّا عَلى سَبِيل المَجَاز، وهكذا لا يُقَال للنَّفْسِ رُوح إِلَّا عَلى هَذَا النَّحْو، وكذلك لا يُقَال للرُّوحِ نَفْس إِلَّا بِاعْتِبَارِ مَا تَئُول إِليْهِ. فَحَاصِل مَا يقول: أن الرُّوح أَصْل النَّفْس وَمَادَّتهَا، وَالنَّفْس مُرَكَّبَة مِنْهَا وَمِنْ اتِّصَالهَا بِالبَدَنِ، فَهِيَ هِيَ مِنْ وَجْه لا مِنْ كُلّ وَجْه. وَهَذَا مَعْنَى حَسَن، وَالله أَعْلم.

قُلت: وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاس فِي مَاهِيَّة الرُّوح وَأَحْكَامهَا، وَصَنَّفُوا فِي ذَلكَ كُتُبًا، وَمِنْ أَحْسَن مَنْ تَكَلَّمَ عَلى ذَلكَ الحَافِظ ابْن مَنْدَهْ فِي كِتَاب سَمِعْنَاهُ فِي الرُّوح.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

يَذْكُر تَعَالى نِعْمَته وَفَضْله العَظِيم عَلى عَبْده وَرَسُوله الكَرِيم ﷺ فِيمَا أَوْحَاهُ إِليْهِ مِنْ القُرْآن المَجِيد، الَّذِي لا يَأْتِيه البَاطِل مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلفه تَنْزِيل مِنْ حَكِيم حَمِيد. قَال ابْن مَسْعُود رضي الله عنه: «يَطْرُق النَّاس رِيح

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٥٦).

حَمْرَاء -يَعْنِي: فِي آخِر الزَّمَان- مِنْ قِبَل الشَّام، فَلا يَبْقَى فِي مُصْحَف رَجُل وَلا قَلبه آيَة»، ثُمَّ قَرَأَ ابْن مَسْعُود: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ الآيَة[1]. ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى شَرَف هَذَا القُرْآن العَظِيم، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ اجْتَمَعَتْ الإِنْس وَالجِنّ كُلّهمْ، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْل مَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُوله لَمَا أَطَاقُوا ذَلِكَ وَلَمَا اسْتَطَاعُوهُ، وَلَوْ تَعَاوَنُوا وَتَسَاعَدُوا وَتَظَافَرُوا؛ فَإِنَّ هَذَا أَمْر لا يُسْتَطَاع، وَكَيْف يُشْبِه كَلام المَخْلُوقِينَ كَلام الخَالق الَّذِي لا نَظِير لهُ، وَلا مِثَال لهُ وَلا عَدِيل لهُ؟! وَقَدْ رَوَى مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ مُحَمَّد بْن أَبِي مُحَمَّد، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر أَوْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلَتْ فِي نَفَر مِنْ اليَهُود جَاءُوا رَسُول اللهِ ﷺ ، فَقَالُوا لهُ: إِنَّا نَأْتِيك بِمِثْل مَا جِئْتَنَا بِهِ. فَأَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة[2]. وَفِي هَذَا نَظَر؛ لأَنَّ هَذِهِ السُّورَة مَكِّيَّة، وَسِيَاقهَا كُلّه مَعَ قُرَيْش، وَاليَهُود إِنَّمَا اجْتَمَعُوا بِهِ فِي المَدِينَة، فَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾، أَيْ: بَيَّنَّا لَهُمْ الحُجَج وَالبَرَاهِين القَاطِعَة، وَوَضَّحْنَا لَهُمْ الحَقّ وَشَرَحْنَاهُ وَبَسَطْنَاهُ، وَمَعَ هَذَا ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾، أَيْ: جُحُودًا لِلحَقّ وَرَدًّا لِلصَّوَاب.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا يُونُس بْن بُكَيْر، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنِي شَيْخ مِنْ أَهْل مِصْر قَدِمَ مُنْذُ بِضع وَأَرْبَعِينَ سَنَة، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ عُتْبَة وَشَيْبَة ابْنَيْ رَبِيعَة، وَأَبَا سُفْيَان ابْن حَرْب، وَرَجُلًا مِنْ بَنِي عَبْد الدَّار، وَأَبَا البَخْتَرِيّ أَخَا بَنِي أَسَد، وَالأَسْوَد بْن المُطَّلب بْن أَسَد، وَزَمْعَة بْن الأَسْوَد، وَالوَلِيد بْن المُغِيرَة، وَأَبَا جَهْل ابْن هِشَام، وَعَبْد الله بْن أَبِي أُمَيَّة، وَأُمَيَّة بْن خَلف، وَالعَاص بْن وَائِل، وَنَبِيهًا وَمُنَبِّهًا ابْنَيْ الحَجَّاج السَّهْمِيَّيْنِ؛ اجْتَمَعُوا -أَوْ مَنْ اجْتَمَعَ مِنْهُمْ- بَعْد غُرُوب الشَّمْس عِنْد ظَهْر الكَعْبَة، فَقَال بَعْضهمْ لبَعْضٍ: ابْعَثُوا إِلَى مُحَمَّد فَكَلِّمُوهُ وَخَاصِمُوهُ حَتَّى تُعْذَرُوا فِيهِ. فَبَعَثُوا إِلَيْهِ: أَنَّ أَشْرَاف قَوْمك قَدْ اجْتَمَعُوا لك لِيُكَلِّمُوك، فَجَاءَهُمْ رَسُول الله ﷺ سَرِيعًا وَهُوَ يَظُنّ أَنَّهُ قَدْ بَدَا لَهُمْ فِي أَمْره بَدَاء، وَكَانَ عَلَيْهِمْ حَرِيصًا، يُحِبّ رُشْدهمْ، وَيَعِزّ عَلَيْهِ عَنَتهمْ، حَتَّى جَلسَ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّد؛ إِنَّا قَدْ بَعَثْنَا إِلَيْك لِنُعْذَر فِيك، وَإِنَّا وَالله مَا نَعْلم رَجُلًا مِنْ العَرَب أَدْخَل عَلَى قَوْمه مَا أَدْخَلت عَلَى قَوْمك، لَقَدْ شَتَمْت الآبَاء، وَعِبْت الدِّين، وَسَفَّهْت الأَحْلام، وَشَتَمْت الآلهَة، وَفَرَّقْت الجَمَاعَة، فَمَا بَقِيَ مِنْ أَمر قَبِيح إِلَّا وَقَدْ جِئْته فِيمَا بَيْننَا وَبَيْنك! فَإِنْ كُنْت إِنَّمَا جِئْت بِهَذَا الحَدِيث تَطْلُب مَالًا، جَمَعْنَا لك مِنْ أَمْوَالنَا، حَتَّى تَكُون أَكْثَرنَا مَالًا، وَإِنْ كُنْت إِنَّمَا تَطْلُب الشَّرَف فِينَا سَوَّدْنَاك عَلَيْنَا، وَإِنْ كُنْت تُرِيد مُلكًا مَلَّكْنَاك عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيك بِمَا يَأْتِيك رَئِيًّا تَرَاهُ قَدْ غَلبَ عَلَيْك -وَكَانُوا يُسَمُّونَ التَّابِع مِنْ الجِنّ: الرَّئِيّ- فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ، بَذَلنَا أَمْوَالنَا فِي طَلب الطِّبّ حَتَّى نُبْرِئك مِنْهُ، أَوْ نُعْذَر فِيك.

فَقَال رَسُول الله ﷺ : **«مَا بِي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُكُمْ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُب أَمْوَالكُمْ وَلا الشَّرَف فِيكُمْ، وَلا المُلك عَليْكُمْ، وَلكِنَّ الله بَعَثَنِي إِليْكُمْ رَسُولًا، وَأَنْزَل عَليَّ كِتَابًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُون لكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالة رَبِّي، وَنَصَحْت لكُمْ؛ فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَليَّ أَصْبِر**

---

(١) ضعيف : أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٥٨)، وفيه إسحاق بن يحيى بن طلحة: متروك، «تهذيب الكمال» (٢/ ٤٩١).
(٢) ضعيف : أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٥٨) وفي إسناده محمد بن أبي محمد: مجهول.

لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم». أو كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم تسليمًا-. فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلادًا، ولا أقل مالًا، ولا أشد عيشًا منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق. وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم: قصي بن كلاب؛ فإنه كان شيخًا صدوقًا، فنسألهم عما تقول: حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولًا كما تقول! فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما بهذا بعثت! إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**». قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فاسأل ربك أن يبعث ملكًا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جنانًا وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولًا كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**». قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك؛ فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك**». فقالوا: يا محمد، أما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلًا. فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته، ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا أسفًا لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه.[1] وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائي، عن ابن إسحاق، حدثني بعض أهل العلم، عن سعيد بن جبير وعكرمة، عن ابن عباس، فذكر مثله سواء. وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشادًا لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرًا وعنادًا، فقيل للرسول ﷺ: إن شئت أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عذبتهم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة. فقال: «**بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة**». كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس والزبير بن العوام أيضًا عند قوله تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٦٤)، في إسناده مجهول.

بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ اليَنْبُوع: العَيْن الجَارِيَة، سَأَلُوهُ أَنْ يُجْرِي لَهُمْ عَيْنًا مَعِينًا فِي أَرْض الحِجَاز هَاهُنَا وَهَاهُنَا، وهذا سَهْل يسير عَلى الله تَعَالى لوْ شَاءَ لفَعَلهُ، وَلأَجَابَهُمْ إِلى جَمِيع مَا سَأَلُوا وَطَلَبُوا، وَلكِنْ علمَ أَنَّهُمْ لا يَهْتَدُونَ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

وقولهم: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ ﴾ ، أَيْ: أَنَّك وَعَدْتنَا أَنَّ يَوْم القِيَامَة تَنْشَقّ فِيهِ السَّمَاء وَتَهِي، وَتُدْلي أَطْرَافهَا، فَعَجِّل ذَلكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَسْقِطْهَا كِسَفًا، أَيْ: قِطَعًا، كَقَوْلِهِمْ: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآيَة. وَكَذَلكَ سَأَل قَوْم شُعَيْب مِنْهُ فَقَالُوا: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فَعَاقَبَهُمْ الله بِعَذَابِ يَوْم الظُّلَّة، إِنَّهُ كَانَ عَذَاب يَوْم عَظِيم، وَأَمَّا نَبِيّ الرَّحْمَة وَنَبِيّ التَّوْبَة المَبْعُوث رَحْمَة للعَالِمِينَ فَسَأَل إِنْظَارهمْ وَتَأْجِيلهمْ؛ لعَلَّ الله أَنْ يُخْرِج مِنْ أَصْلابهمْ مَنْ يَعْبُدهُ لا يُشْرِك بِهِ شَيْئًا، وَكَذَلكَ وَقَعَ؛ فَإِنَّ مِنْ هَؤُلاءِ الَّذِينَ ذُكِرُوا مَنْ أَسْلمَ بَعْد ذَلكَ وَحَسُنَ إِسْلامه، حَتَّى عَبْد الله بْن أَبِي أُمَيَّة الَّذِي تَبعَ النَّبِيّ ﷺ، وَقَال لهُ مَا قَال، أَسْلمَ إِسْلامًا تَامًّا وَأَنَابَ إِلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ قَال ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة: هُوَ الذَّهَب، وَكَذَلكَ هُوَ فِي قِرَاءَة ابْن مَسْعُود: (أَوْ يَكُون لك بَيْت مِنْ ذَهَب)، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أَيْ: تَصْعَد فِي سُلَّم وَنَحْنُ نَنْظُر إِلَيْك، ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ قَال مُجَاهِد: أَيْ: مَكْتُوب فِيهِ إِلى كُلّ وَاحِد وَاحِد صَحِيفَة: هَذَا كِتَاب مِنْ الله لفُلانِ ابْن فُلان، تُصْبِح مَوْضُوعَة عِنْد رَأْسه. وَقَوْله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ أَيْ: سُبْحَانه وَتَعَالى وَتَقَدَّس أَنْ يَتَقَدَّم أَحَد بَيْن يَدَيْهِ فِي أَمْر مِنْ أُمُور سُلطَانه وَمَلكُوته؛ بَل هُوَ الفَعَّال لِمَا يَشَاء، إِنْ شَاءَ أَجَابَكُمْ إِلى مَا سَأَلتُمْ، وَإِنْ شَاءَ لمْ يُجِبْكُمْ، وَمَا أَنَا إِلَّا رَسُول إِليْكُمْ، أُبَلِّغكُمْ رِسَالات رَبِّي وَأَنْصَح لكُمْ، وَقَدْ فَعَلت ذَاكَ، وَأَمْركُمْ فِيمَا سَأَلتُمْ إِلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَال الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنَا ابْن المُبَارَك، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَيُّوب عَنْ عُبَيْد الله بْن زَحْر، عَنْ عَلِيّ بْن يَزِيد، عَنْ القَاسِم، عَنْ أَبِي أُمَامَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «عَرَضَ عَليَّ رَبِّي ﷻ ليَجْعَل لي بَطْحَاء مَكَّة ذَهَبًا، فَقُلت: لا يَا رَبّ، وَلكِنْ أَشْبَع يَوْمًا وَأَجُوع يَوْمًا -أَوْ نَحْو ذَلكَ- فَإِذَا جُعْت تَضَرَّعْت إِليْك وَذَكَرْتُك، وَإِذَا شَبِعْت حَمِدْتُك وَشَكَرْتُك»[1]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي «الزُّهْد» عَنْ سُوَيْد بْن نَصْر، عَنْ ابْن المُبَارَك بِهِ. وَقَال: هَذَا حَدِيث حَسَن، وَعَليّ بْن يَزِيد يُضَعَّف فِي الحَدِيث.

---

(١) ضعيف جدًا : أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٤)، فيه علي بن زيد الألهاني وعبيد الله بن زحر: كلاهما ضعيف. وقال الألباني في «ضعيف الجامع الصغير»: ضعيف جدًا.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ ﴾ أَيْ: أَكْثَرهمْ ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾ وَيُتَابِعُوا الرُّسُل؛ إِلَّا اسْتِعْجَابهمْ مِنْ بَعْثه البَشَر رُسُلًا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ . وَقَال فِرْعَوْن وَمَلؤُهُ: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ وَكَذَلكَ قَالتْ الأُمَم لرُسُلهِمْ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ وَالآيات فِي هَذَا كَثِيرَة. ثُمَّ قَال تَعَالى مُنَبِّهًا عَلى لُطْفه وَرَحْمَته بِعِبَادِهِ: أَنَّهُ يَبْعَث إِلَيْهِمْ الرَّسُول مِنْ جِنْسهمْ، لِيَفْقَهُوا عَنْهُ وَيَفْهَمُوا مِنْهُ، لِتَمَكُّنِهِمْ مِنْ مُخَاطَبَته وَمُكَالمَته، وَلوْ بَعَثَ إِلى البَشَر رَسُولًا مِنْ المَلائِكَة لَمَا اسْتَطَاعُوا مُوَاجَهته وَلا الأَخْذ عَنْهُ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وَقَال تَعَالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾. وَلِهَذَا قَال هَاهُنَا: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ أَيْ: كَمَا أَنْتُمْ فِيهَا، ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ أَيْ: مِنْ جِنْسهمْ، وَلَمَّا كُنْتُمْ أَنْتُمْ بَشَرًا بَعَثْنَا فِيكُمْ رسولاً مِنْكُمْ لُطْفًا وَرَحْمَة.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.

يَقُول تَعَالى مُرْشِدًا نَبِيّه ﷺ إِلى الحُجَّة عَلى قَوْمه فِي صِدْق مَا جَاءَهُمْ بِهِ، إِنَّهُ شَاهِد عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ عَالم بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ، فَلوْ كُنْت كَاذِبًا [عَلَيْهِ][1] لانْتَقَمَ مِنِّي أَشَدّ الانْتِقَام، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾. وَقَوْله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أَيْ: عَليمًا بِهِمْ، بِمَنْ يَسْتَحِقّ الإِنْعَام وَالإِحْسَان وَالهِدَايَة، مِمَّنْ يَسْتَحِقّ الشَّقَاء وَالإِضْلال وَالإِزَاغَة؛ وَلِهَذَا قَال:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ تَصَرُّفه فِي خَلقه وَنُفُوذ حُكْمه، وَأَنَّهُ لا مُعَقِّب لهُ بِأَنَّهُ مَنْ يَهْدِهِ فَلا مُضِلّ لهُ، ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ أَيْ: يَهْدُونَهُمْ، كَمَا قَال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾. وَقَوْله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا ابْن نُمَيْر حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل، عَنْ نُفَيْع قَال: سَمِعْت أَنَس بْن مَالك يَقُول: قِيل: يَا رَسُول الله كَيْف يُحْشَر النَّاس عَلى وُجُوههمْ؟ قَال: «**الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلى أَرْجُلهمْ قَادِر عَلى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلى وُجُوههمْ**». وَأَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».[2]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حدثنا يزيد حَدَّثَنَا الوَليد بْن جُمَيْع القُرَشِيّ عَنْ أَبِيهِ حدثنا أبو الطُّفَيْل عَامِر بْن وَاثِلة عَنْ حُذَيْفَة بْن أَسِيد قَال: قَامَ أَبُو ذَرّ فَقَال: يَا بَنِي غِفَار، قُولُوا وَلا تَحْلفُوا، فَإِنَّ الصَّادِق المَصْدُوق حَدَّثَنِي: أَنَّ النَّاس يُحْشَرُونَ عَلى ثَلاثَة أَفْوَاج: فَوْج رَاكِبِينَ طَاعِمِينَ كَاسِينَ، وَفَوْج يَمْشُونَ وَيَسْعَوْنَ، وَفَوْج تَسْحَبهُمْ المَلائِكَة عَلى وُجُوههمْ وَتَحْشُرهُمْ إِلى النَّار». فَقَال قَائِل مِنْهُمْ: هَذَانِ قَدْ عَرَفْنَاهُمَا، فَمَا بَال الَّذِينَ يَمْشُونَ

---

(١) سقط من (ط).

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦).

وَيَسْعَوْنَ؟ قَال: «يُلقِي الله عَزَّ وَجَلَّ الآفَة عَلى الظَّهر حَتَّى لا يَبْقَى ظَهْر، حَتَّى إِنَّ الرَّجُل لتكُونُ لهُ الحَدِيقَة المُعْجِبَة فَيُعْطِيهَا بِالشَّارِفِ ذَات القَتَب، فَلا يَقْدِر عَليْهَا».[١]

وَقَوْله: ﴿عُمْيًا﴾، أَيْ: لا يُبْصِرُونَ. ﴿وَبُكْمًا﴾ يَعْنِي: لا يَنْطِقُونَ. ﴿وَصُمًّا﴾ لا يَسْمَعُونَ. وَهَذَا لا يَكُون فِي حَال دُون حَال جَزَاء لَهُمْ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا بُكْمًا وَعُمْيًا وَصُمًّا عَنْ الحَقّ، فَجُوزُوا فِي مَحْشَرهمْ بِذَلِكَ أَحْوَج مَا يَحْتَاجُونَ إِليْهِ، ﴿مَّأْوَنهُمْ﴾ أَيْ: مُنْقَلبهمْ وَمَصِيرهمْ ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قَال ابْن عَبَّاس: سَكَنَتْ. وَقَال مُجَاهِد: طَفِئَتْ، ﴿زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أَيْ: لَهَبًا وَوَهَجًا وَجَمْرًا، كَمَا قَال: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾.

يَقُول تَعَالى: هَذَا الَّذِي جَازَيْنَاهُمْ بِهِ مِنْ البَعْث عَلى العَمَى وَالبُكْم وَالصَّمَم جَزَاؤُهُمْ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ، لأَنَّهُمْ كَذَّبُوا ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أَيْ: بِأَدِلَّتِنَا وحججنا، وَاسْتَبْعَدُوا وُقُوع البَعْث، ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا﴾ أَيْ: بَالِيَة نَخِرَة، ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أَيْ: بَعْدَمَا صِرْنَا إِلى مَا صِرْنَا إِليْهِ مِنْ البِلى وَالهَلاك وَالتَّفَرُّق وَالذَّهَاب فِي الأَرْض نُعَاد مَرَّة ثَانِيَة؟! فَاحْتَجَّ تَعَالى عَليْهِمْ وَنَبَّهَهُمْ عَلى قُدْرَته عَلى ذَلِكَ بِأَنَّهُ خَلقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض، فَقُدْرَته عَلى إِعَادَتهمْ أَسْهَل مِنْ ذَلِكَ، كَمَا قَال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ وَقَال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وَقَال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. وَقَال هَاهُنَا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة يُعِيد أَبْدَانهمْ وَيُنْشِئُهُمْ نَشْأَة أُخْرَى، ويعيدهم كَمَا بَدَأَهُمْ. وَقَوْله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَيْ: جَعَل لإِعَادَتهمْ وَإِقَامَتهمْ مِنْ قُبُورهمْ أَجَلًا مَضْرُوبًا، وَمُدَّة مُقَدَّرَة لابُدّ مِنْ انْقِضَائِهَا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾. وَقَوْله: ﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أَيْ: بَعْد قِيَام الحُجَّة عَليْهِمْ ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إِلَّا تَمَادِيًا فِي بَاطِلهمْ وَضَلالهمْ.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾.

يَقُول تَعَالى لِرَسُولِهِ صَلوَات الله وَسَلامه عَليْهِ: قُل لهُمْ يَا مُحَمَّد: لوْ أَنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاس تَمْلكُونَ التَّصَرُّف فِي خَزَائِن الله لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَة الإِنْفَاق. قَال ابْن عَبَّاس وَقَتَادَة: أَيْ: الفَقْر. أَيْ: خَشْيَة أَنْ تُذْهِبُوهَا مَعَ أَنَّهَا لا تَفْرُغ وَلا تَنْفَد أَبَدًا؛ لأَنَّ هَذَا مِنْ طِبَاعكُمْ وَسَجَايَاكُمْ، وَلهَذَا قَال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾، قَال ابْن عَبَّاس وَقَتَادَة: أَيْ: بَخِيلًا مَنُوعًا. وَقَال الله تَعَالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ أَيْ: لوْ أَنَّ لهُمْ نَصِيبًا من مُلك الله لمَا أَعْطَوْا أَحَدًا شَيْئًا وَلا مِقْدَار نَقِير، وَالله تَعَالى يَصِف الإِنْسَان مِنْ حَيْثُ هُوَ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ الله وَهَدَاهُ؛ فَإِنَّ البُخْل وَالجَزَع وَالهَلع صِفَة لهُ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، وَلهَذَا نَظَائِر كَثِيرَة فِي القُرْآن العَزِيز، وَيَدُلّ هَذَا عَلى كَرَمه وَجُوده وَإِحْسَانه، وَقَدْ جَاءَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: **«يَد الله مَلأَى، لا يَغِيضهَا نَفَقَة، سَحَّاء اللَّيْل وَالنَّهَار، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض فَإِنَّهُ لمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينه».**[٢]

---

(١) ضعيف : أخرجه أحمد (٥/ ١٦٤)، والنسائي (٤/ ١١٦)، فيه الوليد بن جميع: صدوق يهم. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن النسائي» (٢٠٨٦).

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٣٢).

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾.

يُخْبِر تَعالى أَنَّهُ بَعَثَ مُوسَى بِتِسْعِ آيَات بَيِّنَات، وَهِيَ الدَّلائِل القَاطِعَة عَلى صِحَّة نُبُوَّته وَصِدْقه فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَمَّنْ أَرْسَلهُ إِلى فِرْعَوْن، وَهِيَ: العَصَا، وَاليَد، وَالسِّنِينَ، وَالبَحْر، وَالطُّوفَان، وَالجَرَاد، وَالقُمَّل، وَالضَّفَادِع، وَالدَّم، آيَات مُفَصَّلات. قَالهُ ابْن عَبَّاس. وَقَال مُحَمَّد بْن كَعْب: هِيَ اليَد، وَالعَصَا، وَالخَمْس فِي الأَعْرَاف، والطمسة وَالحَجَر. وَقَال ابْن عَبَّاس أَيْضًا وَمُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَالشَّعْبِيّ وَقَتَادَة: هِيَ يَده، وَعَصَاهُ، وَالسِّنِينَ، وَنَقْص الثَّمَرَات، وَالطُّوفَان، وَالجَرَاد، وَالقُمَّل، وَالضَّفَادِع، وَالدَّم. وَهَذَا القَوْل ظَاهِر جَلِيّ حَسَن قَوِيّ، وَجَعَل الحَسَن البَصْرِيّ السِّنِينَ وَنَقْص الثَّمَرَات وَاحِدَة، وَعِنْده أَنَّ التَّاسِعَة هِيَ: تَلقُّف العَصَا مَا يَأْفِكُون، ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أَيْ: وَمَعَ هَذِهِ الآيَات وَمُشَاهَدَتِهِمْ لَهَا كَفَرُوا بِهَا، ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، وَمَا نَجَعَتْ فِيهِمْ، فَكَذَلِكَ لَوْ أَجَبْنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ سَأَلُوا مثل مَا سَأَلُوا وَقَالُوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ إِلى آخِرهَا؛ لَمَا اسْتَجَابُوا وَلا آمَنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاء الله، كَمَا قَال فِرْعَوْن لمُوسَى وَقَدْ شَاهَدَ مِنْهُ مَا شَاهَدَ مِنْ هَذِهِ الآيَات قَال: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قِيل: بِمَعْنَى سَاحِر. وَالله تَعَالى أَعْلم. فَهَذِهِ الآيَات التِّسْع الَّتِي ذَكَرَهَا هَؤُلاءِ الأَئِمَّة هِيَ المُرَادَة هَاهُنَا، وَهِيَ المَعْنِيَّة فِي قَوْله تَعَالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فَذَكَرَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ: العَصَا، وَاليَد، وَبَيَّنَ الآيَات البَاقِيَات فِي «سُورَة الأَعْرَاف» وَفَصَّلهَا.

وَقَدْ أُوتِيَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آيَات أُخَر كَثِيرَة، مِنْهَا: ضَرْبه الحَجَر بِالعَصَا، وَخُرُوج الأَنْهَار مِنْهُ، وَمِنْهَا تَظْلِيلهمْ الغَمَامِ، وَإِنْزَال المَنّ وَالسَّلوَى، وَغَيْر ذَلكَ مِمَّا أُوتُوهُ بَنُو إِسْرَائِيل بَعْد مُفَارَقَتِهِمْ بِلاد مِصْر، وَلكِنْ ذَكَرَ هَاهُنَا التِّسْع آيَات الَّتِي شَاهَدَهَا فِرْعَوْن وَقَوْمه مِنْ أَهْل مِصْر، وَكَانَتْ حُجَّة عَلَيْهِمْ فَخَالفُوهَا وَعَانَدُوهَا كُفْرًا وَجُحُودًا. فَأَمَّا الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة قَال: سَمِعْت عَبْد الله بْن سَلمَة يُحَدِّث، عَنْ صَفْوَان بْن عَسَّال المُرَادِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَال: قَال يَهُودِيّ لصَاحِبِه. اذْهَبْ بِنَا إِلى هَذَا النَّبِيّ حَتَّى نَسْأَلهُ عَنْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ فَقَال: لا تَقُل لهُ نَبِيّ؛ فَإِنَّهُ لوْ سَمِعَك لصَارَتْ لهُ أَرْبَع أَعْيُن، فَسَأَلاهُ، فَقَال النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تُشْرِكُوا بالله شَيْئًا، وَلا تَسْرِقُوا، وَلا تَزْنُوا، وَلا تَقْتُلُوا النَّفْس الَّتِي حَرَّمَ الله إِلاَّ بِالحَقّ، وَلا تَسْحَرُوا، وَلا تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلا تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلى ذِي سُلطَان ليَقْتُله، وَلا تَقْذِفُوا مُحْصَنَة». أَوْ قَال: «لا تَفِرُّوا مِنْ الزَّحْف» -شُعْبَة الشَّاكّ- «وَأَنْتُمْ يَا يَهُود عَلَيْكُمْ خَاصَّة أَنْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْت». فَقَبَّلا يَدَيْهِ وَرِجْليْهِ وَقَالا: نَشْهَد أَنَّك نَبِيّ، وقَال: «فَمَا يَمْنَعكُمَا أَنْ تَتَّبِعَانِي؟». قَالا: لأَنَّ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعَا أَنْ لا يَزَال مِنْ ذُرِّيَّته نَبِيّ وَإِنَّا نَخْشَى إِنْ أَسْلمْنَا أَنْ تَقْتُلنَا يَهُود[1]. فَهَذَا حَدِيث رَوَاهُ هَكَذَا التِّرْمِذِيّ، وَالنَّسَائِيّ، وَابْن مَاجَهْ، وَابْن جَرِير فِي «تَفْسِيره» مِنْ طُرُق عَنْ شُعْبَة بْن الحَجَّاج بِهِ، وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح. وَهُوَ حَدِيث مُشْكِل، وَعَبْد الله بْن سَلمَة فِي حِفْظه شَيْء، وَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ، وَلعَلَّهُ اشْتَبَهَ عَليْهِ التِّسْع الآيَات بِالعَشْرِ الكَلمَات؛

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٩)، والترمذي (٢٧٣٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

فَإِنَّهَا وَصَايَا فِي التَّوْرَاة لا تَعَلُّق لَهَا بِقِيَامِ الحُجَّة عَلَى فِرْعَوْن، وَالله أَعْلَم. وَلهَذَا قَال مُوسَى لِفِرْعَوْن: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ أَيْ: حُجَجًا وَأَدِلَّة عَلَى صِدْق مَا جِئْتُك بِهِ، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، أَيْ: هَالِكًا. قَالَهُ مُجَاهِد وَقَتَادَة. وَقَال ابْن عَبَّاس: مَلعُونًا. وَقَال أَيْضًا هُوَ وَالضَّحَّاك: ﴿مَثْبُورًا﴾، أَيْ: مَغْلُوبًا. وَالهَالك كَمَا قَال مُجَاهِد يَشْمَل هَذَا كُلّه. قَال عبد الله بن الزبعري:

إِذْ [أُبَارِي][1] الشَّيْطَانَ فِي سُنَنِ الغَيِّ ❁ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُور

يعني هالك، وَقَرَأَ بَعْضهمْ بِرَفْعِ التَّاء مِنْ قَوْله: ﴿عَلِمْتَ﴾، وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالب، وَلكِنَّ قِرَاءَة الجُمْهُور بِفَتْح التَّاء عَلَى الخِطَاب لِفِرْعَوْن، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾. فَهَذَا كُلّه مِمَّا يَدُلّ عَلَى أَنَّ المُرَاد بِالتِّسْعِ الآيَات إِنَّمَا هِيَ مَا تَقَدَّمَ ذِكْره مِنْ العَصَا، وَاليَد، وَالسِّنِينَ، وَنَقْص مِنْ الثَّمَرَات، وَالطُّوفَان، وَالجَرَاد، وَالقُمَّل، وَالضَّفَادِع، وَالدَّم، الَّتِي فِيهَا حُجَج وَبَرَاهِين عَلَى فِرْعَوْن وَقَوْمه، وَخَوَارِق وَدَلائِل عَلَى صِدْق مُوسَى وَوُجُود الفَاعِل المُخْتَار الَّذِي أَرْسَلهُ. وَلَيْسَ المُرَاد مِنْهَا كَمَا وَرَدَ فِي هَذَا الحَدِيث؛ فَإِنَّ هَذِهِ الوَصَايَا لَيْسَ فِيهَا حُجَج عَلَى فِرْعَوْن وَقَوْمه، وَأَيّ مُنَاسَبَة بَيْن هَذَا وَبَيْن إِقَامَة البَرَاهِين عَلَى فِرْعَوْن؟! وَمَا جَاءَ هَذَا الوَهْم إِلَّا مِنْ قِبَل عَبْد الله بْن سَلمَة؛ فَإِنَّ لهُ بَعْض مَا يُنْكَر، وَالله أَعْلَم. وَلعَلَّ ذَيْنك اليَهُودِيَّيْنِ إِنَّمَا سَأَلا عَنْ العَشْر الكَلِمَات، فَاشْتَبَهَ عَلَى الرَّاوِي بِالتِّسْعِ الآيَات، فَحَصَل وَهْم فِي ذَلِكَ، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: يُخْلِيهِمْ مِنْهَا وَيُزِيلهُمْ عَنْهَا، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾. وَفِي هَذَا بِشَارَة لِمُحَمَّدٍ ﷺ بِفَتْح مَكَّة مَعَ أَنَّ هذه السُّورَة مَكِّيَّة نَزَلتْ قَبْل الهِجْرَة، وَكَذَلكَ وَقَعَ، فَإِنَّ أَهْل مَكَّة هَمُّوا بِإِخْرَاج الرَّسُول مِنْهَا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾؛ وَلهَذَا أَوْرَثَ الله رَسُوله مَكَّة فَدَخَلهَا عَنْوَة، عَلى أَشْهَر القَوْليْنِ، وَقَهَرَ أَهْلهَا، ثُمَّ أَطْلقَهُمْ حِلمًا وَكَرَمًا، كَمَا أَوْرَثَ الله القَوْم الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل مَشَارِق الأَرْض وَمَغَارِبهَا، وَأَوْرَثَهُمْ بِلاد فِرْعَوْن وَأَمْوَالهمْ وَزُرُوعهمْ وَثِمَارهمْ وَكُنُوزهمْ، كَمَا قَال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وَقَال هَاهُنَا: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أَيْ: جَمِيعكُمْ أَنْتُمْ وَعَدُوّكُمْ. قَال ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد، وَقَتَادَة وَالضَّحَّاك: ﴿لَفِيفًا﴾ أَيْ: جَمِيعًا.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابه العَزِيز وَهُوَ القُرْآن المَجِيد: إنه بِالحَقِّ نَزَل، أَيْ: مُتَضَمِّنًا للحَقِّ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ﴾ أَيْ: مُتَضَمِّنًا عِلم الله الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُطْلعكُمْ عَليْهِ، مِنْ أَحْكَامه وَأَمْره وَنَهْيه. وَقَوْله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أَيْ: وصل إِليْك يَا مُحَمَّد مَحْفُوظًا مَحْرُوسًا، لمْ يُشَبْ بِغَيْرِهِ، وَلا زِيدَ فِيهِ وَلا نُقِصَ مِنْهُ، بَل وَصَل إِليْك بِالحَقِّ، فَإِنَّهُ نَزَل بِهِ شَدِيد القُوَى، الأَمِين المَكِين المُطَاع فِي المَلأ الأَعْلى. وَقَوْله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ مُبَشِّرًا لمَنْ أَطَاعَك مِنْ المُؤْمِنِينَ، وَنَذِيرًا لمَنْ عَصَاك مِنْ الكَافِرِينَ. وَقَوْله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ أَمَّا قِرَاءَة مَنْ قَرَأَ بِالتَّخْفِيفِ، فَمَعْنَاهُ: فَصَّلنَاهُ مِنْ اللَّوْح المَحْفُوظ إِلى

(١) في (ط): [أجاري].

بَيْت العِزَّة -مِنْ السَّماء الدُّنْيَا-، ثُمَّ نَزَل مُفرَّقًا مُنَجَّمًا عَلى الوَقَائِع إِلى رَسُول الله ﷺ فِي ثَلاث وَعِشْرِينَ سَنَة، قَالهُ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس أيضًا. وَعَنْ ابْن عَبَّاس أَيضًا أَنَّهُ قَرأَ ﴿فَرَّقْنَاهُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ أَيْ: أَنْزَلنَاهُ آيَة آيَة، مُبيَّنًا مُفسَّرًا؛ وَلهَذَا قَال: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: لتُبلِّغهُ النَّاس وَتَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ، ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أَيْ: مَهْل، ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ أَيْ: شَيْئًا بَعْد شَيْء.

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾.

يَقُول تَعَالى لنَبيِّهِ مُحَمَّد ﷺ : ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّد لهَؤُلاءِ الكَافِرِينَ بِمَا جِئْتهمْ بِهِ مِنْ هَذَا القُرْآن العَظِيم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أَيْ: سَوَاء آمَنتُمْ بِهِ أَمْ لا، فَهُوَ حَقّ فِي نَفْسه، أَنْزَلهُ الله وَنوَّه بِذِكْرِهِ فِي سَالف الأَزْمَان فِي كُتُبه المُنَزَّلة عَلى رُسُله، وَلهَذَا قَال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أَيْ: مِنْ صَالِحِي أَهْل الكِتَاب الَّذِينَ يُمسَّكون بِكِتَابِهِمْ وَيُقِيمُونَهُ، وَلمْ يُبدِّلُوهُ وَلا حَرَّفُوهُ، ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هَذَا القُرْآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جَمْع ذَقَن، وَهُوَ أَسْفَل الوَجْه ﴿سُجَّدًا﴾ أَيْ: لله ﷻ شُكْرًا عَلى مَا أَنْعمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ جَعْله إِيَّاهُمْ أَهْلًا أن أَدْرَكُوا هَذَا الرَّسُول الَّذِي أُنْزِل عَلَيْهِ هَذَا الكِتَاب؛ وَلهَذَا يَقُولُونَ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أَيْ: تَعْظِيمًا وَتَوْقِيرًا عَلى قُدْرَته التَّامَّة، وَأَنَّهُ لا يُخْلف المِيعَاد الَّذِي وَعَدهُمْ عَلى أَلسِنَة الأَنْبِيَاء المُتَقدِّمِينَ عَنْ بَعْثَة مُحَمَّد ﷺ ، وَلهَذَا قَالُوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

وَقَوْله: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾، أَيْ: خُضُوعًا لله ﷻ وَإِيمَانًا وَتَصْدِيقًا بِكِتَابِهِ وَرَسُوله، ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ الله ﴿خُشُوعًا﴾، أَيْ: إِيمَانًا وَتَسْليمًا، كَمَا قَال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ وَقَوْله: ﴿ وَيَخِرُّونَ ﴾ عَطْف صِفَة عَلى صِفَة، لا عَطْف سجود عَلى سجود، كَمَا قَال الشَّاعِر:

إلى المَلـك القَـرْم وَابْـن الهُمَـام ۞ وَلَيْـث الكَتِيبَـة فِـي المُـزْدَحَم

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿قُلِ﴾ يَا مُحَمَّد لهَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ المُنْكِرِينَ صِفَة الرَّحْمَة لله عَزَّ وَجَلَّ المَانِعِينَ مِنْ تَسْمِيَته بِالرَّحْمَن: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أَيْ: لا فَرْق بَيْن دُعَائِكُمْ لهُ بِاسْم الله أَوْ بِاسْم الرَّحْمَن؛ فَإِنَّهُ ذُو الأَسْمَاء الحُسْنَى، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إِلى أَنْ قَال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وَقَدْ رَوَى مَكْحُول أَنَّ رَجُلًا مِنْ المُشْرِكِينَ سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ وَهُوَ يَقُول فِي سُجُوده: «يَا رَحْمَن يَا رَحِيم»[1]. فَقَال: إِنَّهُ يَزْعُم أَنَّهُ يَدْعُو وَاحِدًا، وَهُوَ يَدْعُو اثْنَيْنِ. فَأَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس، رَوَاهُمَا ابْن جَرِير.

وَقَوْله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ الآيَة. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هُشَيْم، حَدَّثَنَا أَبُو بِشْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة وَرَسُول الله ﷺ مُتَوَارٍ بِمَكَّة: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قَال: كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْته بِالقُرْآنِ، فَلمَّا سَمِعَ ذَلكَ المُشْرِكُونَ سَبُّوا القُرْآن، وَسَبُّوا مَنْ أَنْزَلهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ، قَال: فَقَال الله تَعَالى لنَبيِّهِ ﷺ : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أَيْ: بِقِرَاءَتك، فَيَسْمَع المُشْرِكُونَ فيسبوا

---

(١) ضعيف : أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٨٢) بإسناد مرسل.

القُرْآن، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عَنْ أَصْحَابك، فَلا تُسْمِعهُمْ القُرْآن حَتَّى يَأْخُذُوهُ عَنْك، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[(١)]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث أَبِي بِشْر جَعْفَر بْن إِيَاس بِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ الضَّحَّاك عَنْ ابْن عَبَّاس، وَزَادَ: فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى المَدِينَة سَقَطَ ذَلِكَ، يَفْعَل أَيّ ذَلِكَ شَاءَ.

وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي دَاوُد بْن الحُصَيْن، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا جَهَرَ بِالقُرْآنِ وَهُوَ يُصَلِّي تَفَرَّقُوا عَنْهُ، وَأَبَوْا أَنْ يستمعوا مِنْهُ، فَكَانَ الرَّجُل إِذَا أَرَادَ أَنْ يستمع مِنْ رَسُول الله ﷺ بَعْض مَا يَتْلُو وَهُوَ يُصَلِّي اسْتَرَقَ السَّمْع دُونهمْ فَرَقًا مِنْهُمْ، فإِن رَأَى أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ يَسْتَمِع، ذَهَبَ خَشْيَة أَذَاهُمْ فَلَمْ يستمع. فَإِنْ خَفَضَ صَوْته ﷺ لَمْ يستمع الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ مِنْ قِرَاءَته شَيْئًا، فَأَنْزَل الله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فَيَتَفَرَّقُوا عَنْك ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فَلا تسمع مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْمَع مِمَّنْ يَسْتَرِق ذَلِكَ دونهم؛ لعله يَرْعَوِي إِلَى بَعْض مَا يَسْمَع فَيَنْتَفِع بِهِ، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[(٢)] وَهَكَذَا قَال عِكْرِمَة، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَقَتَادَة: نَزَلت هَذِهِ الآيَة فِي القِرَاءَة فِي الصَّلاة. وَقَال شُعْبَة عَنْ أَشْعَث بْن سُلَيْم، عَنْ الأَسْوَد بْن هِلال، عَنْ عبد الله بْن مَسْعُود: لَمْ يُخَافِت بِهَا مَنْ أَسْمَعَ أُذُنَيْهِ.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا يَعْقُوب، حَدَّثَنَا ابْن عُلَيَّة عَنْ سَلمَة بْن عَلقَمَة عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ قَال: نُبِّئْت أَنَّ أَبَا بَكْر كَانَ إِذَا صَلَّى فَقَرَأَ خَفَضَ صَوْته، وَأَنَّ عُمَر كَانَ يَرْفَع صَوْته، فَقِيل لأَبِي بَكْر: لِمَ تَصْنَع هَذَا؟ قَال: أُنَاجِي رَبِّي ﷻ وَقَدْ عَلِمَ حَاجَتِي. فَقِيل: أَحْسَنْت. وَقِيل لعُمَر: لِمَ تَصْنَع هَذَا؟ قَال: أَطْرُد الشَّيْطَان وَأُوقِظ الوَسْنَان، قِيل: أَحْسَنْت. فَلَمَّا نَزَلتْ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ قِيل لأَبِي بَكْر: ارْفَعْ شَيْئًا، وَقِيل لعُمَر: اخْفِضْ شَيْئًا.[(٣)]

وَقَال أَشْعَث بْن سَوَّار عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: نَزَلتْ فِي الدُّعَاء.[(٤)] وكذا رَوَى الثَّوْرِيّ وَمَالك، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها: نَزَلتْ فِي الدُّعَاء[(٥)]. وكذلك قَال مُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَأَبُو عِيَاض وَمَكْحُول وَعُرْوَة بْن الزُّبَيْر. وَقَال الثَّوْرِيّ: عَنْ ابْن عَيَّاش العَامِرِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن شَدَّاد قَال: كَانَ أعراب مِنْ بَنِي تَمِيم إِذَا سَلَّمَ النَّبِيّ ﷺ قالوا: اللَّهُمَّ ارزقنا إِبِلًا وَوَلَدًا. قَال: فَنَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾.[(٦)]

قَوْل آخَر: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو السَّائِب، حَدَّثَنَا حَفْص بْن غِيَاث، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها: نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة فِي التَّشَهُّد: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[(٧)]. وَبِهِ قَال حَفْص عَنْ أَشْعَث بْن سَوَّار عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ مِثْله.

قَوْل آخَر: قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قَال: لا تُصَلِّ مُرَاءَاة للنَّاسِ وَلا تَدَعهَا مَخَافَة النَّاس.[(٨)] وَقَال الثَّوْرِيّ عَنْ مَنْصُور، عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ

---

(١) **صحيح :** أخرجه البخاري (٤٧٢٢)، ومسلم (٤٤٦).
(٢) أخرجه الطبري (١٥/ ١٨٥) ورجاله ثقات إلا أن داود بن حصين روايته عن عكرمة منكرة.
(٣) **إسناده ضعيف :** أخرجه الطبري (١٥/ ١٨٦) بسند ضعيف فيه انقطاع.
(٤) **إسناده ضعيف :** أخرجه الطبري (١٥/ ١٨٣) بسند ضعيف.
(٥) **صحيح :** أخرجه البخاري (٤٧٢٣)، ومسلم (٤٤٧).
(٦) **إسناده ضعيف :** أخرجه الطبري (١٥/ ١٨٤)، وسنده ضعيف مرسل.
(٧) **صحيح :** أخرجه الطبري (١٥/ ١٨٧).
(٨) **إسناده ضعيف :** أخرجه الطبري (١٥/ ١٢٥) بسند ضعيف، علي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس.

بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قَال: لا تُحْسِن عَلانِيَتها وَتُسِيء سَرِيرَتهَا. وَكَذَا رَوَاهُ عن عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ الحَسَن، بِهِ. وَهِشَام عَنْ عَوْف، عَنْهُ بِهِ. وَسَعِيد عَنْ قَتَادَة، عَنْهُ كَذَلِكَ.

قَوْل آخَر: قَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ فِي قَوْله: ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ قَال: أَهْل الكِتَاب يُخَافِتُونَ، ثُمَّ يَجْهَر أَحَدهمْ بِالحَرْفِ فَيَصِيح بِهِ، وَيَصِيحُونَ هُمْ بِهِ وَرَاءَهُ، فَنَهَاهُ أَنْ يَصِيح كَمَا يَصِيح هَؤُلَاءِ، وَأَنْ يُخَافِت كَمَا يُخَافِت القَوْم، ثُمَّ كَانَ السَّبِيل الَّذِي بَيْن ذَلِكَ، الَّذِي سَنَّ لَهُ جِبْرِيل مِنْ الصَّلَاة.

وَقَوْله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى، نزه نفسه عن النقائص فقال: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ ، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. وَقَوْله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ أَيْ: لَيْسَ بِذَلِيلٍ فَيَحْتَاج إِلَى أَنْ يَكُون لَهُ وَلِيّ أَوْ وَزِير أَوْ مُشِير بَل هُوَ تَعَالَى خَالق الأَشْيَاء وَحْده لا شَرِيك لَهُ، وَمُدَبِّرهَا وَمُقَدِّرهَا بِمَشِيئَتِهِ وَحْده لا شَرِيك لَهُ. قَال مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ لمْ يُحَالف أَحَدًا وَلمْ يَبْتَغِ نَصْر أَحَد.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ أَيْ عَظِّمْهُ وَأَجِلَّهُ عَمَّا يَقُول الظَّالِمُونَ المُعْتَدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يُونُس، أَنْبَأَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي أَبُو صَخْر، عَنْ القُرَظِيّ؛ أَنَّهُ كَانَ يَقُول فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ الآية. قَال: إِنَّ اليَهُود وَالنَّصَارَى قَالُوا: اتَّخَذَ الله وَلَدًا، وقال العَرَب: لَبَّيْكَ لبيك لا شَرِيك لك إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لك، تَمْلكهُ وَمَا مَلكَ. وَقَال الصَّابِئُونَ وَالمَجُوس: لوْلا أَوْلِيَاء الله لذَلَّ، فَأَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ .

وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا بِشْر، حَدَّثَنَا يَزِيد حَدَّثَنَا سَعِيد عَنْ قَتَادَة: ذَكَرَ لنَا أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كَانَ يُعَلِّم أَهْله هَذِهِ الآيَة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ ، الصَّغِير مِنْ أَهْله وَالكَبِير.(١) قُلت: وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيث أَنَّ رَسُول الله ﷺ سماها آيَة العِزّ(٢)، وَفِي بَعْض الآثَار: أَنَّهَا مَا قُرِئَتْ فِي بَيْت فِي لَيْلَة فَيُصِيبهُ سَرَق أَوْ آفَة. وَالله أَعْلَم.

وَقَال الحَافِظ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا بِشْر بْن سَيْحَان البَصْرِيّ، حَدَّثَنَا حَرْب بْن مَيْمُون، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن عُبَيْدَة الربذي، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: خَرَجْت أَنَا وَرَسُول الله ﷺ ويَدِي فِي يَده فَأَتَى عَلى رَجُل رَثّ الهَيْئَة فقَال: «أَيْ فُلان، مَا بَلغَ بِك مَا أَرَى؟». قَال: السَّقَم وَالضُّرّ يَا رَسُول الله. قَال: «أَلا أُعَلِّمك كَلِمَات تُذْهِب عَنْك السَّقَم وَالضُّرّ؟». قَال: لا، قَال: مَا يَسُرّنِي بها أن شَهِدْت بِهَا مَعَك بَدْرًا أَوْ أُحُدًا. قَال: فَضَحِكَ رَسُول الله ﷺ ، وَقَال: «وَهَل يُدْرِك أَهْل بَدْر وَأَهْل أُحُد مَا يُدْرِك الفَقِير القَانِع؟». قَال: فَقَال أَبُو هُرَيْرَة: يَا رَسُول الله، إِيَّايَ فَعَلِّمْنِي. قَال: «فَقُل يَا أَبَا هُرَيْرَة: تَوَكَّلت عَلى الحَيّ الَّذِي لا يَمُوت ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾» قَال: فَأَتَى عَلَيَّ رَسُول الله ﷺ وَقَدْ حَسُنَتْ حَالِي، قَال: فَقَال لِي: «مَهْيَمْ؟». قَال: قُلت: يَا رَسُول الله؛ لمْ أَزَل أَقُول الكَلِمَات الَّتِي عَلَّمْتنِي.(٣) إِسْنَاده ضَعِيف، وَفِي مَتْنه نَكَارَة.

آخِر تَفْسِير سُورَة سُبْحَان ولله الحَمْد وَالمِنَّة

---

(١) **إسناده ضعيف :** أخرجه الطبري (١٥/ ١٨٩) بسند ضعيف.
(٢) **إسناده ضعيف :** أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٩، ٣٤٠) بسند ضعيف، فيه زبان بن فائد: وهو ضعيف.
(٣) **ضعيف :** أخرجه أبو يعلى (٦٦٧١)، وسنده ضعيف.



تفسير سُورَةُ الكَهْفِ وهي مكية

ترتيبها ١٨ — وآياتها ١١٠

ذِكْر مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا وَالعَشْر الآيَات مِنْ أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا وَأَنَّهَا عِصْمَة مِنْ الدَّجَّال:

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ أَبِي إِسْحَاق قَال: سَمِعْت البَرَاء يَقُول: قَرَأَ رَجُل الكَهْف وَفِي الدَّار دَابَّة فَجَعَلَتْ تَنْفِر، فَنَظَرَ فَإِذَا ضَبَابَة، أَوْ: سَحَابَة، قَدْ غَشِيَتْهُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيّ ﷺ فَقَال: «**اقْرَأْ فُلان، فَإِنَّهَا السَّكِينَة تنزلت عِنْد القُرْآن**»، أَوْ: «**تَنَزَّلَتْ لِلقُرْآن**»[1]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث شُعْبَة بِهِ. وَهَذَا الرَّجُل الَّذِي كَانَ [يَتْلُوهَا][2] هُوَ أُسَيْد بْن الحُضَيْر كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِير سُورَة البَقَرَة.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، أَخْبَرَنَا هَمَّام بْن يَحْيَى، عَنْ قَتَادَة، عَنْ سَالِم بْن أَبِي الجَعْد، عَنْ مَعْدَان بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**مَنْ حَفِظَ عَشْر آيَات مِنْ أَوَّل سُورَة الكَهْف عُصِمَ مِنَ الدَّجَّال**»[3]. رَوَاهُ مُسْلِم وَأَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ، وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث قَتَادَة بِهِ، وَلَفْظ التِّرْمِذِيّ: «**مَنْ حَفِظَ الثلاث الآيَات مِنْ أَوَّل الكَهْف**». وَقَال: حَسَن صَحِيح.

طَرِيق أُخْرَى: قَال أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَجَّاج، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ قَتَادَة، سَمِعْت سَالِم بْن أَبِي الجَعْد يُحَدِّث، عَنْ مَعْدَان، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**مَنْ قَرَأَ العَشْر الأَوَاخِر مِنْ سُورَة الكَهْف عُصِمَ مِنْ فِتْنَة الدَّجَّال**»[4].

وَرَوَاهُ مُسْلِم أَيْضًا، وَالنَّسَائِيّ، مِنْ حَدِيث قَتَادَة بِهِ، وَفِي لَفْظ النَّسَائِيّ: «**مَنْ قَرَأَ عَشْر آيَات مِنْ الكَهْف**»، فَذَكَرَهُ.

حَدِيث آخَر: وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي «اليَوْم وَاللَّيْلَة» عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الأَعْلَى، عَنْ خَالِد، عَنْ شُعْبَة، عَنْ قَتَادَة، عَنْ سَالِم بْن أَبِي الجَعْد، عَنْ ثَوْبَان، عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «**مَنْ قَرَأَ العَشْر الأَوَاخِر مِنْ سُورَة الكَهْف فَإِنَّهُ عِصْمَة لَهُ مِنْ الدَّجَّال**»[5]. فَيَحْتَمِل أَنَّ سَالِمًا سَمِعَهُ مِنْ ثَوْبَان وَمِنْ أَبِي الدَّرْدَاء. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حُسَن، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، حَدَّثَنَا زَبَّان بْن فَايِد، عَنْ سَهْل بْن مُعَاذ بْن أَنَس الجُهَنِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «مَنْ قَرَأَ أَوَّل سُورَة الكَهْف وَآخِرهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنْ قَدَمه إِلَى رَأْسه، وَمَنْ قَرَأَهَا كُلّهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا مَا بَيْن الأَرْض إِلَى السَّمَاء»[6]. انْفَرَدَ بِهِ أَحْمَد وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ. وَرَوَى الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن مَرْدَوَيْهِ بِإِسْنَادٍ لَهُ غَرِيب، عَنْ خَالِد بْن سَعِيد بْن أَبِي مَرْيَم، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَة الكَهْف فِي يَوْم الجُمُعَة سَطَعَ لَهُ نُور مِنْ تَحْت قَدَمه إِلَى عَنَان السَّمَاء يُضِيء لَهُ يَوْم القِيَامَة، وَغُفِرَ لَهُ مَا بَيْن الجُمُعَتَيْنِ»[7]. وَهَذَا الحَدِيث فِي رَفْعه نَظَر، وَأَحْسَن أَحْوَاله الوَقْف. وَهَكَذَا رَوَى الإِمَام سَعِيد بْن مَنْصُور فِي «سُنَنه»: عَنْ هُشَيْم بْن بَشِير، عَنْ أَبِي هَاشِم، عَنْ أَبِي مِجْلَز، عَنْ قَيْس بْن عَبَّاد، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَال: «**مَنْ قَرَأَ سُورَة الكَهْف فِي يَوْم الجُمُعَة أَضَاءَ لَهُ مِنْ النُّور مَا بَيْنه وَبَيْن البَيْت العَتِيق**»[8] هَكَذَا وَقَعَ مَوْقُوفًا، وَكَذَا رَوَاهُ الثَّوْرِيّ عَنْ أَبِي هَاشِم بِهِ مِنْ حَدِيث أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ. وَقَدْ أَخْرَجَهُ الحَاكِم فِي «مُسْتَدْرَكه» عَنْ أَبِي بَكْر مُحَمَّد بْن

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦١٤)، ومسلم (٧٩٥)، وأحمد (٤/ ٢٥١).

(٢) في نسخة: [يتلو].

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٨٠٩)، وأبو داود (٤٣٢٣)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ١٥)، والترمذي (٢٨١١)، وأحمد (٦/ ٤٤٩).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٨٠٩)، وأحمد (٦/ ١٤٦)، والنسائي (٦/ ٢٣٥) في «الكبرى».

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٨٠٩).

(٦) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٩)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف، وزبان بن فائد: ضعيف أيضًا.

(٧) ضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٤٤٧).

(٨) صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٦٤٧١).

المُؤَمَّل: حَدَّثَنَا الفُضَيْل بْن مُحَمَّد الشَّعْرَانِيّ، حَدَّثَنَا نُعَيْم بْن حَمَّاد، حَدَّثَنَا هُشَيْم، حَدَّثَنَا أَبُو هَاشِم، عَنْ أَبِي مِجْلَز، عَنْ قَيْس بْن عَبَّاد، عَنْ أَبِي سَعِيد، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: «**مَنْ قَرَأَ سُورَة الكَهْف فِي يَوْم الجُمُعَة أَضَاءَ لَهُ مِنْ النُّور مَا بَيْنه وَبَيْن الجُمُعَتَيْنِ**»[1]. ثُمَّ قَال: هَذَا حَدِيث صَحِيح الإِسْنَاد وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وَهَكَذَا رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ فِي سُنَنه عَنْ الحَاكِم، ثُمَّ قَال البَيْهَقِيّ: وَرَوَاهُ يَحْيَى بْن كَثِير، عَنْ شُعْبَة، عَنْ أَبِي هَاشِم بِإِسْنَادِهِ: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**مَنْ قَرَأَ سُورَة الكَهْف كَمَا أنزلت كَانَتْ لهُ نُورًا يَوْم القِيَامَة**».[2] وَفِي «المُخْتَارَة» للحَافِظِ الضِّيَاء المَقْدِسِيّ من حديث عَبْد الله بْن مُصْعَب بن مَنْظُور بْن زَيْد بْن خَالد الجُهَنِيّ، عَنْ عَلِيّ بْن الحُسَيْن، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيّ مَرْفُوعًا: «مَنْ قَرَأَ سُورَة الكَهْف يَوْم الجُمُعَة فَهُوَ مَعْصُوم إِلى ثَمَانِيَة أَيَّام مِنْ كُلّ فِتْنَة، وَإِنْ خَرَجَ الدَّجَّال عُصِمَ مِنْهُ».[3]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّل التَّفْسِير أَنَّهُ تَعَالى يَحْمَد نَفْسه المُقَدَّسَة عِنْد فَوَاتِح الأُمُور وخواتيمها؛ فَإِنَّهُ المَحْمُود عَلى كُلّ حَال، وَلهُ الحَمْد فِي الأُولى وَالآخِرَة؛ وَلهَذَا حَمِدَ نَفْسه عَلى إِنْزَاله كِتَابه العَزِيز عَلى رَسُوله الكَرِيم مُحَمَّد صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ أَعْظَم نِعْمَة أَنْعَمَهَا الله عَلى أَهْل الأَرْض إِذْ أَخْرَجَهُمْ بِهِ مِنْ الظُّلُمَات إِلى النُّور، حَيْثُ جَعَلهُ كِتَابًا مُسْتَقِيمًا لا اعْوِجَاج فِيهِ وَلا زَيْغ، بَل يَهْدِي إِلى صِرَاط مُسْتَقِيم، وَاضِحًا بَيِّنًا جَلِيًّا، نَذِيرًا للكَافِرِينَ وبَشِيرًا للمُؤْمِنِينَ؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ أَيْ: لمْ يَجْعَل فِيهِ اعْوِجَاجًا وَلا زَيْغًا وَلا مَيْلًا، بَل جَعَلهُ مُعْتَدِلًا مُسْتَقِيمًا؛ ولهذا قال: ﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيمًا. ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أَيْ: لمَنْ خَالفَهُ وَكَذَّبَهُ وَلمْ يُؤْمِن بِهِ، يُنْذِرهُ ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ : عُقُوبَة عَاجِلة فِي الدُّنْيَا وَآجِلة فِي الآخِرَى ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أَيْ: مِنْ عِنْد الله الَّذِي لا يُعَذِّب عَذَابه أَحَد، وَلا يُوثِق وَثَاقه أَحَد، ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: بِهَذَا القُرْآن، الَّذِينَ صَدَّقُوا إِيمَانهمْ بِالعَمَل الصَّالح، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أَيْ: مَثُوبَة عِنْد الله جَمِيلة، ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ : فِي ثَوَابهمْ عِنْد الله وَهُوَ الجَنَّة خَالدِينَ فِيهِ، ﴿أَبَدًا﴾ دَائِمًا لا زَوَال لهُ وَلا انْقِضَاء، ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ ، قَال ابْن إِسْحَاق: وَهُمْ مُشْرِكُو العَرَب فِي قَوْلهمْ: نَحْنُ نَعْبُد المَلائِكَة وَهُمْ بَنَات الله.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أَيْ: بِهَذَا القَوْل الَّذِي افْتَرَوْهُ وَائْتَفَكُوهُ من علم ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي: أسلافهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ نُصِبَ عَلى التَّمْيِيز تَقْدِيره: كَبُرَتْ كَلمَتهمْ هَذِهِ كلمةً. وَقِيل: عَلى التَّعَجُّب، تَقْدِيره: أَعْظِمْ بِكَلمَتِهِمْ كَلمَة، كَمَا تَقُول: أَكْرِمْ بِزَيْدٍ رَجُلًا. قَالهُ بَعْض البَصْرِيِّينَ، وَقَرَأَ ذَلكَ بَعْض قُرَّاء مَكَّة ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ كَمَا يُقَال: عَظُمَ قَوْلك وعظم شَأْنك. وَالمَعْنَى عَلى قِرَاءَة الجُمْهُور أَظْهَر؛ فَإِنَّ هَذَا تَبْشِيع لمَقَالتِهِمْ وَاسْتِعْظَام لإِفْكِهِمْ؛ وَلهَذَا قَال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ﴾ أَيْ: ليْسَ لهَا مُسْتَنَد سِوَى قَوْلهمْ، وَلا دَليل لهُمْ عَليْهَا إِلَّا كَذِبهمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ؛ وَلهَذَا قَال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ . وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق سَبَب نُزُول هَذِهِ السُّورَة

---

(١) صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٦٤٧٠).
(٢) صحيح : صححه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٥١).
(٣) ضعيف جدًا : ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٠١٣).

الكَرِيمَة فَقَال: حَدَّثَنِي شَيْخ مِنْ أَهْل مِصْر قَدِمَ عَلَيْنَا مُنْذُ بِضْع وَأَرْبَعِينَ سَنَة، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: بَعَثَتْ قُرَيْش النَّضْر بْن الحَارِث، وَعُقْبَة بْن أَبِي مُعَيْط، إِلى أَحْبَار يَهُود بِالمَدِينَةِ، فَقَالُوا لَهُمْ: سَلُوهُمْ عَنْ مُحَمَّد، وَصِفُوا لهم صِفَته، وَأَخْبِرُوهُمْ بِقَوْلِهِ؛ فَإِنَّهُمْ أَهْل الكِتَاب الأَوَّل، وَعِنْدهمْ مَا لَيْسَ عِنْدنَا مِنْ عِلم الأَنْبِيَاء، فَخَرَجَا حَتَّى قدما المَدِينَة، فَسَأَلُوا أَحْبَار يَهُود عَنْ رَسُول الله ﷺ ، وَوَصَفُوا لَهُمْ أَمْره وَبَعْض قَوْله، وَقَالا: إِنَّكُمْ أَهْل التَّوْرَاة، وَقَدْ جِئْنَاكُمْ لِتُخْبِرُونَا عَنْ صَاحِبنَا هَذَا. قَال: فقالت لَهُمْ: سَلُوهُ عَنْ ثَلاث نَأْمُركُمْ بِهِنَّ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِهِنَّ فَهُوَ نَبِيّ مُرْسَل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل؛ فَرَوْا فِيهِ رَأْيكُمْ: سَلُوهُ عَنْ فِتْيَة ذَهَبُوا فِي الدَّهْر الأَوَّل، مَا كَانَ مِنْ أَمْرهمْ؟ فَإِنَّهُمْ قَدْ كَانَ لَهُمْ حَدِيث عَجِيب. وَسَلُوهُ عَنْ رَجُل طَوَّاف بَلَغَ مَشَارِق الأَرْض وَمَغَارِبهَا، مَا كَانَ نَبَؤُهُ؟ وَسَلُوهُ عَنْ الرُّوح، مَا هُوَ ؟ فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِذَلِكَ فَهُوَ نَبِيّ فَاتَّبِعُوهُ، وَإِنْ لَمْ يُخْبِركُمْ فَإِنَّهُ رَجُل مُتَقَوِّل، فَاصْنَعُوا فِي أَمْره مَا بَدَا لَكُمْ. فَأَقْبَل النَّضْر وَعُقْبَة حَتَّى قَدِمَا عَلى قُرَيْش، فَقَالا: يَا مَعْشَر قُرَيْش، قَدْ جِئْنَاكُمْ بِفَصْل مَا بَيْنكُمْ وَبَيْن مُحَمَّد، قَدْ أَمَرَنَا أَحْبَار يَهُود أَنْ نَسْأَلهُ عَنْ أُمُور، فَأَخْبَرُوهُمْ بِهَا فَجَاءُوا رَسُول الله ﷺ ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّد، أَخْبِرْنَا -فَسَأَلُوهُ عَمَّا أَمَرُوهُمْ بِهِ- فَقَال لَهُمْ رَسُول الله ﷺ : **«أُخْبِركُمْ غدًا بما سَأَلتُمْ عَنْهُ»**. وَلَمْ يَسْتَثْنِ فَانْصَرَفُوا عَنْهُ، وَمَكَثَ رَسُول الله ﷺ خَمْس عَشْرَة لَيْلَة لا يُحْدِث الله إليه فِي ذَلِكَ وَحْيًا، وَلا يَأْتِيه جبريل عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى أَرْجَفَ أَهْل مَكَّة وَقَالُوا: وَعَدَنَا مُحَمَّد غَدًا، وَاليَوْم خَمْس عَشْرَة قَدْ أَصْبَحْنَا فِيهَا لا يُخْبِرنَا بِشَيْءٍ عَمَّا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ؟! وَحَتَّى أَحْزَنَ رَسُول الله ﷺ مُكْث الوَحْي عَنْهُ، وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا يَتَكَلَّم بِهِ أَهْل مَكَّة، ثُمَّ جَاءَهُ جِبْرَائِيل عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ عند الله عَزَّ وَجَلَّ بِسُورَةِ أَصْحَاب الكَهْف؛ فِيهَا مُعَاتَبَته إِيَّاهُ عَلى حُزْنه عَلَيْهِمْ، وَخَبَر مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ أَمْر الفِتْيَة وَالرَّجُل الطَّوَّاف، وَقَوْل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.[1]

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾.

يَقُول تَعَالى مُسَلِّيًا لِرَسُولِهِ -صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ- فِي حُزْنه عَلى المُشْرِكِينَ لِتَرْكِهِمْ الإِيمَان وَبُعْدهمْ عَنْهُ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، وَقَال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، وَقَال: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ بَاخِع: أَيْ: مُهْلِك نَفْسك بِحُزْنِك عَلَيْهِمْ؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ يَعْنِي: القُرْآن. ﴿أَسَفًا﴾ يَقُول: لا تُهْلِك نَفْسك أَسَفًا. قَال قَتَادَة: قَاتِل نَفْسك غَضَبًا وَحُزْنًا عَلَيْهِمْ. وَقَال مُجَاهِد: جَزَعًا. وَالمَعْنَى مُتَقَارِب، أَيْ: لا تَأْسَف عَلَيْهِمْ؛ بَل أبلغهم رِسَالة الله، فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلّ عَلَيْهَا، فلا تَذْهَب نَفْسك عَلَيْهِمْ حَسَرَات.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالى أَنَّهُ جَعَل الدُّنْيَا دَارًا فَانِيَة مُزَيَّنَة بِزِينَةٍ زَائِلة، وَإِنَّمَا جَعَلهَا دَار اخْتِبَار لا دَار قَرَار، فَقَال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ . قَال قَتَادَة: عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ أَبِي سَعِيد، عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: **«إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَة حلوَة، وَإِنَّ الله مُسْتَخْلفكُمْ فِيهَا، فَنَاظِر مَاذَا تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاء؛ فَإِنَّ أَوَّل فِتْنَة بَنِي إِسْرَائِيل كَانَتْ فِي النِّسَاء»**[2]. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالى بِزَوَالهَا وَفَنَائِهَا وَفَرَاغهَا وَانْقِضَائِهَا وَذَهَابهَا وَخَرَابهَا، فَقَال تَعَالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ أَيْ: وَإِنَّا لَمُصَيِّرُوهَا بَعْد الزِّينَة إِلى

---

(١) ضعيف : أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٩١)، وفيه جهالة الشيخ من أهل مصر.
(٢) صحيح : تـقــدم.

الخَرَاب وَالدَّمَار، فَنَجْعَل كُلّ شَيْء عَلَيْهَا هَالكًا، ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ لا يُنْبت وَلا يُنْتَفَع بِهِ، كَمَا قَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس، فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ يَقُول: يُهْلك كُلّ شَيْء عَلَيْهَا وَيُبِيد. وَقَال مُجَاهِد: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا ﴾: بَلقعًا. وَقَال قَتَادَة: الصَّعِيد: الأَرْض الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَجَر وَلا نَبَات. وَقَال ابْن زَيْد: الصَّعِيد: الأَرْض الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَيْء، أَلا تَرَى إِلَى قَوْله تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ يَعْنِي: الأَرْض، وإن مَا عَلَيْهَا لفَانٍ وَبَائِد، وإن المَرْجِع لإِلى الله، فَلا تَأْسَ وَلا يَحْزُنك مَا تَسْمَع وَتَرَى.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾.

هَذَا إِخْبَار مِنْ الله تَعَالَى عَنْ قِصَّة أَصْحَاب الكَهْف عَلَى سَبِيل الإِجْمَال وَالاخْتِصَار، ثُمَّ بَسَطَهَا بَعْد ذَلِكَ فَقَال: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ يَعْنِي: يَا مُحَمَّد، ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ أَيْ: لَيْسَ أَمْرهمْ عَجِيبًا فِي قُدْرَتنَا وَسُلطَانِنَا؛ فَإِنَّ خلق السَّمَاوَات وَالأَرْض، وَاخْتِلاف اللَّيْل وَالنَّهَار، وَتَسْخِير الشَّمْس وَالقَمَر وَالكَوَاكِب، وَغَيْر ذَلكَ مِنْ الآيَات العَظِيمَة الدَّالَّة عَلى قُدْرَة الله تَعَالى، وَأَنَّهُ عَلى مَا يَشَاء قَادِر، وَلا يُعْجِزهُ شَيْء أَعْجَب مِنْ أَخْبَار أَصْحَاب الكَهْف، كَمَا قَال ابْن جُرَيْج، عَنْ مُجَاهِد: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾. يَقُول: قَدْ كَانَ مِنْ آيَاتنَا مَا هُوَ أَعْجَب مِنْ ذَلكَ. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ يَقُول: الَّذِي آتَيتك مِنْ العِلم وَالسُّنَّة وَالكِتَاب أَفْضَل مِنْ شَأْن أَصْحَاب الكَهْف وَالرَّقِيم. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: مَا أَظْهَرْت مِنْ حُجَجِي عَلى العِبَاد أَعْجَب مِنْ شَأْن أَصْحَاب الكَهْف وَالرَّقِيم. وَأَمَّا الكَهْف: فَهُوَ الغَار فِي الجَبَل، وَهُوَ الَّذِي لجَأَ إِلَيْهِ هَؤُلاءِ الفِتْيَة المَذْكُورُون.

وَأَمَّا الرَّقِيم: فَقَال العَوْفِيّ: عَنْ ابْن عَبَّاس: هُوَ وَادٍ قَرِيب مِنْ أَيْلة. وَكَذَا قَال عَطِيَّة العَوْفِيّ وَقَتَادَة.

وَقَال الضَّحَّاك: أَمَّا الكَهْف فَهُوَ غَار الوَادِي وَالرَّقِيم اسْم الوَادِي. وَقَال مُجَاهِد: الرَّقِيم: كان بنيانهم. وَيَقُول بَعْضهمْ: هُوَ الوَادِي الَّذِي فِيهِ كَهْفهمْ. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا الثَّوْرِيّ، عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾، قال: يَزْعُم كَعْب أَنَّهَا القَرْيَة. وَقَال ابْن جُرَيْج عَنْ ابْن عَبَّاس: الرَّقِيم الجَبَل الَّذِي فِيهِ الكَهْف. وَقَال ابْن إِسْحَاق عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: اسْم ذَلكَ الجَبَل بنجلوس. وَقَال ابْن جُرَيْج: أَخْبَرَنِي وَهْب بْن سُلَيْمَان، عَنْ شُعَيْب الجُبَّائِيّ: أَنَّ اسْم جَبَل الكَهْف بنجلوس، وَاسْم الكَهْف حيزم، وَالكَلب حمران. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَنْبَأَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كل القُرْآن أَعْلمهُ، إِلَّا: حَنَانًا وَالأَوَّاه، وَالرَّقِيم. وَقَال ابْن جُرَيْج: أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن دِينَار، أَنَّهُ سَمِعَ عِكْرِمَة يَقُول: قَال ابْن عَبَّاس: مَا أَدْرِي مَا الرَّقِيم، كِتَاب أَمْ بُنْيَان؟ وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس: الرَّقِيم: الكِتَاب. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: الرَّقِيم: لوْح مِنْ حِجَارَة، كَتَبُوا فِيهِ قِصَص أَصْحَاب الكَهْف، ثُمَّ وَضَعُوهُ عَلى بَاب الكَهْف. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ: الرَّقِيم: الكِتَاب، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾. وَهَذَا هُوَ الظَّاهِر مِنْ الآيَة، وَهُوَ اخْتِيَار ابْن جَرِير، قَال: الرَّقِيم: فَعِيل بِمَعْنَى مَرْقُوم، كَمَا يقال للمَقْتُول: قَتِيل، وَللمَجْرُوح: جَرِيح. وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ يُخْبِر تَعَالى عَنْ

أُولئِكَ الفِتْيَة الَّذِينَ فَرُّوا بِدِينِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ لِئَلَّا يَفْتِنُوهُمْ عَنْهُ، فَهَرَبُوا منهم فَلجَئُوا إِلى غَارٍ فِي جَبَل لِيَخْتَفُوا عَنْ قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا حِين دَخَلُوا -سَائِلِينَ مِنْ الله تَعَالى رَحْمَته وَلُطْفه بِهِمْ-: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أَيْ: هَبْ لَنَا مِنْ عِنْدك رَحْمَة تَرْحَمنَا بِهَا وَتَسْتُرنَا عَنْ قَوْمنَا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أَيْ: وَقَدِّرْ لنَا مِنْ أَمْرنَا هذا رَشَدًا، أَيْ: اجْعَل عَاقِبَتنَا رُشْدًا، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «وَمَا قَضَيْت لنَا مِنْ قَضَاء فَاجْعَل عَاقِبَته رُشْدًا».[1] وَفِي «المُسْنَد» مِنْ حَدِيث بُسْر بْن أَرْطَاة عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتنَا فِي الأُمُور كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْي الدُّنْيَا وَعَذَاب الآخِرَة».[2]

وَقَوْله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أَيْ: أَلْقَيْنَا عَلَيْهِمْ النَّوْم حِين دَخَلُوا إِلى الكَهْف، فَنَامُوا سِنِينَ كَثِيرَة، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أَيْ: مِنْ رَقْدَتهمْ تِلكَ، وَخَرَجَ أَحَدهمْ بِدَرَاهِم مَعَهُ لِيَشْتَرِيَ لَهُمْ بِهَا شَيْئًا يَأْكُلُونَهُ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانه وَتَفْصِيله؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أَيْ: المُخْتَلِفَيْنِ فِيهِمْ ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ قِيل: عَددًا. وَقِيل: غَايَة، فَإِنَّ الأَمَد الغَايَة، كَقَوْلِهِ:

سَبَقَ الجَوَاد إِذَا اسْتَوْلى عَلى الأَمَد

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

مِنْ هَاهُنَا شَرَعَ فِي بَسْط القِصَّة وَشَرْحهَا، فَذَكَرَ تَعَالى أَنَّهُمْ فِتْيَة -وَهُمْ الشَّبَاب- وَهُمْ أَقْبَل للحَقِّ، وَأَهْدَى للسَّبِيل مِنْ الشُّيُوخ الَّذِينَ قَدْ عَتَوْا وعسوا فِي دِين البَاطِل؛ وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَر المُسْتَجِيبِينَ لله تَعَالى وَلِرَسُولِهِ ﷺ شَبَابًا، وَأَمَّا المَشَايِخ مِنْ قُرَيْش فَعَامَّتهمْ بَقُوا عَلى دِينهمْ، وَلَمْ يُسْلم مِنْهُمْ إِلَّا القَلِيل. وهَكَذَا أَخْبَرَ تَعَالى عَنْ أَصْحَاب الكَهْف أَنَّهُمْ كَانُوا فِتْيَة شَبَابًا. وَقَال مُجَاهِد: بَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ فِي آذَان بَعْضهمْ القِرَطَة -يَعْنِي: الحَلق- فَأَلْهَمَهُمْ الله رُشْدهمْ، وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ، فَآمَنُوا بِرَبِّهِمْ، أَيْ: اعْتَرَفُوا لهُ بِالوَحْدَانِيَّة، وَشَهِدُوا أَنَّهُ لا إِله إِلَّا هُوَ.

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ : اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الآيَة وَأَمْثَالهَا غَيْر وَاحِد مِنْ الأَئِمَّة كَالبُخَارِيِّ وَغَيْره، مِمَّنْ ذَهَبَ إِلى زِيَادَة الإِيمَان وَتَفَاضُله، وَأَنَّهُ يَزِيد وَيَنْقُص، وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ كَمَا قَال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾، وَقَال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، وَقَال: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إِلى غَيْر ذَلكَ مِنْ الآيَات الدَّالَّة عَلى ذَلكَ. وَقَدْ ذُكِرَ: أَنَّهُمْ كَانُوا عَلى دِين عِيسَى ابْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَالله أَعْلم. وَالظَّاهِر أَنَّهُمْ كَانُوا قَبْل مِلَّة النَّصْرَانِيَّة بِالكُلِّيَّة؛ فَإِنَّهُمْ لوْ كَانُوا عَلى دِين النَّصْرَانِيَّة؛ لَمَا اعْتَنَى أَحْبَار اليَهُود بِحِفْظِ خَبَرهمْ وَأَمْرهمْ؛ لِمُبَايَنَتِهِمْ لَهُمْ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ قُرَيْشًا بَعَثُوا إِلى أَحْبَار اليَهُود بِالمَدِينَة يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ أَشْيَاء يَمْتَحِنُونَ بِهَا رَسُول الله ﷺ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِمْ أَنْ يَسْأَلُوهُ عَنْ خَبَر هَؤُلاءِ، وَعَنْ خَبَر ذِي القَرْنَيْنِ، وَعَنْ الرُّوح، فَدَلَّ هَذَا عَلى أَنَّ هَذَا أَمْر مَحْفُوظ فِي كُتُب أَهْل الكِتَاب، وَأَنَّهُ مُتَقَدِّم عَلى دِين النَّصْرَانِيَّة، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَقُول تَعَالى: وَصَبَّرْنَاهُمْ عَلى مُخَالفَة قَوْمهمْ وَمَدِينَتهمْ، وَمُفَارَقَة مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ العَيْش الرَّغِيد وَالسَّعَادَة وَالنِّعْمَة؛ فَإِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ غَيْر وَاحِد مِنْ المُفَسِّرِينَ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ١٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٤٠٤٧).

(٢) ضعيف: تقـدم.

مِنْ السَّلف وَالخَلف أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَبْنَاء مُلُوك الرُّوم وَسَادَتهم، وَأَنَّهُمْ خَرَجُوا يَوْمًا فِي بَعْض أَعْيَاد قَوْمهم، وَكَانَ لَهُمْ مُجْتَمَع فِي السَّنَة يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي ظَاهِر البَلد، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الأَصْنَام وَالطَّوَاغِيت وَيَذْبَحُونَ لها، وَكَانَ لَهُمْ مَلك جَبَّار عَنِيد يُقَال لهُ: دِقْيَانُوس، وَكَانَ يَأْمُر النَّاس بِذَلكَ وَيَحُثّهُمْ عَلَيْهِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ. فَلَمَّا خَرَجَ النَّاس لُمجْتَمَعِهِمْ ذَلِكَ، وَخَرَجَ هَؤُلاءِ الفِتْيَة مَعَ آبَائِهِمْ وَقَوْمهمْ، وَنَظَرُوا إِلى مَا يَصْنَع قَوْمهمْ بِعَيْنِ بَصِيرَتهمْ، عَرَفُوا أَنَّ هَذَا الَّذِي يَصْنَعهُ قَوْمهمْ مِنْ السُّجُود لأَصْنَامِهِمْ وَالذَّبْح لها لا يَنْبَغِي إِلَّا لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض، فَجَعَل كُلّ وَاحِد مِنْهُمْ يَتَخَلَّص مِنْ قَوْمه وَيَنْحَاز مِنْهُمْ وَيَتَبَرَّز عَنْهُمْ نَاحِيَة، وكان أَوَّل مَنْ جَلس مِنْهُمْ أَحَدهمْ، جَلسَ تَحْت ظِلّ شَجَرَة، فَجَاءَ الآخَر فَجَلسَ عِنْده، وَجَاءَ الآخَر فَجَلس إِليْهِمَا، وَجَاءَ الآخَر، فَجَلسَ إِليْهِمْ وَجَاءَ الآخَر وَجَاءَ الآخَر وجاء الآخر، وَلا يَعْرِف وَاحِد مِنْهُمْ الآخَر، وَإِنَّمَا جَمَعَهُمْ هُنَاكَ الَّذِي جَمَعَ قُلُوبهمْ عَلى الإِيمَان.

كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ البُخَارِيّ تَعْليقًا مِنْ حَدِيث يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ عَمْرَة عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالتْ: قَال رَسُول الله ﷺ : **«الأَرْوَاح جُنُود مُجَنَّدَة؛ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلفَ»**[1]. أَخْرَجَهُ مُسْلم فِي «صَحِيحه» مِنْ حَدِيث سُهَيْل عَنْ أبيه عن أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النبي ﷺ . وَالنَّاس يَقُولُونَ: الجِنْسِيَّة عِلَّة الضَّمّ. وَالغَرَض أَنَّهُ جَعَل كُلّ أَحَد مِنْهُمْ يَكْتُم مَا هُوَ فيه عَنْ أَصْحَابه خَوْفًا مِنْهُمْ، وَلا يَدْرِي أَنَّهُمْ مِثْله، حَتَّى قَال أَحَدهمْ: تَعْلمُونَ وَالله يَا قَوْم أنه مَا أَخْرَجَكُمْ مِنْ قَوْمكُمْ وَأَفْرَدَكُمْ عَنْهُمْ إِلَّا شَيْء، فَليُظْهِرْ كُلّ وَاحِد مِنْكُمْ ما بِأَمْرِهِ. فَقَال آخَر: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي وَالله رَأَيْت مَا قَوْمِي عَلَيْهِ، فَعَرَفْت أَنَّهُ بَاطِل، وَإِنَّمَا الَّذِي يَسْتَحِقّ أَنْ يُعْبَد وَحْده وَلا يُشْرَك بِهِ شَيْء هُوَ الله الَّذِي خَلَقَ كل شيء: السَّمَاوَات وَالأَرْض وَمَا بَيْنَهمَا. فقال الآخَر: وَأَنَا وَالله وَقَعَ لِي كَذَلِكَ. وَقَال الآخَر كَذَلِكَ، حَتَّى تَوَافَقُوا كُلّهمْ عَلى كَلمَة وَاحِدَة، فَصَارُوا يَدًا وَاحِدَة وَإِخْوَان صِدْق، فَاتَّخَذُوا لَهُمْ مَعْبَدًا يَعْبُدُونَ الله فِيهِ، فَعَرَفَ بِهِمْ قَوْمهمْ، فَوَشَوْا بِأَمْرِهِمْ إِلى مَلكهمْ، فَاسْتَحْضَرَهُمْ بَيْن يَدَيْهِ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ أَمْرهمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ بِالحَقِّ وَدَعَوْهُ إِلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ وَلهَذَا أَخْبَرَ تَعَالى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ وَ(لن) لنَفْي التَّأْبِيد، أَيْ: لا يَقَع مِنَّا هَذَا أَبَدًا؛ لأَنَّا لوْ فَعَلنَا ذَلكَ لكَانَ بَاطِلًا. وَلهَذَا قَال عَنْهُمْ: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أَيْ: بَاطِلًا وَكَذِبًا وَبُهْتَانًا.

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ أَيْ: هَلَّا أَقَامُوا عَلى صِحَّة مَا ذَهَبُوا إِليْهِ دَليلًا وَاضِحًا صَحِيحًا؟! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ، يَقُولُونَ: بَل هُمْ ظَالمُونَ كَاذِبُونَ فِي قَوْلهمْ ذَلكَ فَيُقَال: إِنَّ مَلكهمْ لَمَّا دَعَوْهُ إِلى الإِيمَان بالله أَبَى عَليْهِمْ وَتَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ، وَأَمَرَ بِنَزْع لبَاسهمْ عَنْهُمْ الَّذِي كَانَ عَليْهِمْ مِنْ زِينَة قَوْمهمْ وَأَجَّلهُمْ ليَنْظُرُوا فِي أَمْرهمْ لعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ عَنْ دِينهمْ الَّذِي كَانُوا عَليْهِ. وَكَانَ هَذَا مِنْ لُطْف الله بِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ فِي تِلكَ النَّظْرَة تَوَصَّلُوا إِلى الهَرَب مِنْهُ وَالفِرَار بِدِينِهِمْ مِنْ الفِتْنَة. وَهَذَا هُوَ المَشْرُوع عِنْد وُقُوع الفِتَن فِي النَّاس: أَنْ يَفِرّ العَبْد مِنْهُمْ خَوْفًا عَلى دِينه، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: **«يُوشِك أَنْ يَكُون خَيْر مَال أَحَدكُمْ غَنَمًا يَتَّبِع بِهَا شعف الجِبَال وَمَوَاقِع القَطْر يَفِرّ بِدِينِهِ مِنْ الفِتَن»**.[2]

فَفِي هَذِهِ الحَال تُشْرَع العُزْلة عَنْ النَّاس، وَلا تُشْرَع فِيمَا عَدَاهَا لمَا يَفُوت بِهَا مِنْ تَرْك الجَمَاعَات وَالجُمَع. فَلَمَّا وَقَعَ عَزْمهمْ عَلى الذَّهَاب وَالهَرَب مِنْ قَوْمهمْ، وَاخْتَارَ الله تَعَالى لهُمْ ذَلكَ، وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ بذلك فِي قَوْله: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أَيْ: وَإِذَا فَارَقْتُمُوهُمْ وَخَالفْتُمُوهُمْ بِأَدْيَانِكُمْ فِي عِبَادَتهمْ غَيْر الله،

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري معلقًا (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٦٣٨).
(٢) صحيح : تقــدم.

فَفَارِقُوهُمْ أَيْضًا بِأَبْدَانِكُمْ ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أَيْ: يَبْسُط عَلَيْكُمْ رَحْمَة يَسْتُرُكُمْ بِهَا مِنْ قَوْمكُمْ، ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ ﴿مِّرْفَقًا﴾ أَيْ: أَمْرًا تَرْتَفِقُونَ بِهِ. فَعِنْد ذَلِكَ خَرَجُوا هِرَابًا إِلى الكَهْف فَأَوَوْا إِلَيْهِ، فَفَقَدَهُمْ قَوْمهمْ مِنْ بَيْن أَظْهُرهمْ وَتَطَلَّبَهُمْ المَلك، فَيُقَال: إِنَّهُ لَمْ يَظْفَر بِهِمْ، وَعَمَّى الله عليهم خَبَرَهُمْ، كَمَا فَعَلَ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّد ﷺ وَصَاحِبه الصِّدِّيق حِين لجَأَ إِلى غَار ثَوْر، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْش فِي الطَّلب فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ مَعَ أَنَّهُمْ يَمُرُّونَ عَلَيْهِ، وَعِنْدَهَا قَال النَّبِيّ ﷺ حِين رَأَى جَزَع الصِّدِّيق فِي قَوْله: يَا رَسُول الله؛ لَوْ أَنَّ أَحَدهمْ نَظَرَ إِلى مَوْضِع قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا!! فَقَال: «**يَا أَبَا بَكْر؛ مَا ظَنّك بِاثْنَيْنِ الله ثَالثهما؟**».[1] وَقَدْ قَال الله تَعَالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فَقِصَّة هَذَا الغَار أَشْرَف وَأَجَلّ وَأَعْظَم وَأَعْجَب مِنْ قِصَّة أَصْحَاب الكَهْف وَقَدْ قِيل: إِنَّ قَوْمهمْ ظَفِرُوا بِهم وَوَقَفُوا عَلى بَاب الغَار الَّذِي دَخلُوهُ، فَقَالُوا: مَا كُنَّا نُرِيد مِنْهُمْ مِنَ العُقُوبَة أَكْثَر مِمَّا فَعَلُوا بِأَنْفُسِهِمْ فَأَمَرَ المَلك بِرَدْمِ بَابه عَلَيْهِمْ لِيَهْلكُوا مَكَانهمْ، ففعل ذَلكَ. وَفِي هَذَا نَظَر؛ وَالله أَعْلم؛ فَإِنَّ الله تَعَالى قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الشَّمْس تَدْخُل عَلَيْهِمْ فِي الكَهْف بُكْرَة وَعَشِيًّا، كَمَا قَال تَعَالى:

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

هَذَا دَلِيل عَلى أَنَّ بَاب هَذَا الكَهْف مِنْ نَحْو الشَّمَال؛ لأنه تَعَالى أَخْبَرَ أَنَّ الشَّمْس إِذَا دَخلَتْهُ عِنْد طُلُوعهَا تَزَاوَر عَنْهُ، ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أَيْ: يَتَقَلَّص الفَيْء يَمْنَة، كَمَا قَال ابْن عَبَّاس، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَقَتَادَة ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ أَيْ: تَمِيل. وَذَلكَ أَنَّهَا كُلَّمَا ارْتَفَعَتْ فِي الأُفُق تَقَلَّص شُعَاعهَا بِارْتِفَاعِهَا حَتَّى لا يَبْقَى مِنْهُ شَيْء عِنْد الزَّوَال فِي مِثْل ذَلكَ المَكَان؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أَيْ: تَدْخُل إِلى غَارهمْ مِنْ شِمَال بَابه، وَهُوَ مِنْ نَاحِيَة المَشْرِق، فَدَلَّ عَلى صِحَّة مَا قُلنَاهُ، وَهَذَا بَيِّن لمَنْ تَأَمَّلهُ وَكَانَ لهُ عِلم بِمَعْرِفَةِ الهَيْئَة وَسَيْر الشَّمْس وَالقَمَر وَالكَوَاكِب، وَبَيَانه: أَنَّهُ لوْ كَانَ بَاب الغَار مِنْ نَاحِيَة الشَّرْق لمَا دَخَل إِلَيْهِ مِنْهَا شَيْء عِنْد الغُرُوب، وَلوْ كَانَ مِنْ نَاحِيَة القِبْلة لمَا دخله مِنْهَا شَيْء عِنْد الطُّلُوع وَلا عِنْد الغُرُوب، وَلا تَزَاوَر الفَيْء يَمِينًا وَلا شِمَالًا، وَلوْ كَانَ مِنْ جِهَة الغَرْب لمَا دَخلتْهُ وَقْت الطُّلُوع، بَل بَعْد الزَّوَال وَلمْ تَزَل فِيهِ إِلى الغُرُوب، فَتَعَيَّنَ مَا ذَكَرْنَاهُ، ولله الحَمْد. قَال ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة: ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ : تَتْرُكهُمْ. وَقَدْ أَخْبَرَ الله تَعَالى بِذَلكَ، وَأَرَادَ مِنَّا فَهْمه وَتَدَبُّره، وَلمْ يُخْبِرنَا بِمَكَانِ هَذَا الكَهْف فِي أَيِّ البِلاد مِنْ الأَرْض؛ إِذْ لا فَائِدَة لنَا فِيهِ وَلا قَصْد شَرْعِيّ، وَقَدْ تَكَلَّفَ بَعْض المُفَسِّرِينَ فَذَكَرُوا فِيهِ أَقْوَالًا؛ فَتَقَدَّمَ عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَال: هُوَ قَرِيب مِنْ أَيْلة. وَقَال ابْن إِسْحَاق: هُوَ عِنْد نِينَوَى. وَقِيل: بِبِلادِ الرُّوم. وَقِيل: بِبِلادِ البَلقَاء، وَالله أَعْلم بِأَيِّ بِلاد الله هُوَ، وَلوْ كَانَ لنَا فِيهِ مَصْلحَة دِينِيَّة لأَرْشَدَنَا الله تَعَالى وَرَسُوله إِلَيْهِ، فَقَدْ قَال رسول الله ﷺ : «**مَا تَرَكْت شَيْئًا يُقَرِّبكُمْ إِلى الجَنَّة وَيُبَاعِدكُمْ مِنْ النَّار إِلاَّ وَقَدْ أَعْلمْتُكُمْ بِهِ**»،[2] فَأَعْلمَنَا تَعَالى بِصِفَتِهِ، وَلمْ يُعْلمنَا بِمَكَانِهِ، فَقَال: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾، قَال مَالك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ: تَمِيل: ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أَيْ: فِي مُتَّسَع مِنْهُ دَاخِلًا بِحَيْثُ لا تمسهم؛ إِذْ لوْ أَصَابَتْهُمْ لأَحْرَقَتْ أَبْدَانهمْ وَثِيَابهمْ؛ قَالهُ ابْن عَبَّاس.

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» (١٨٠٣).

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ حَيْثُ أَرْشَدَهُمْ تعالى إِلَى هَذَا الغَار الَّذِي جَعَلَهُمْ فِيهِ أَحْيَاء، وَالشَّمْس وَالرِّيح تَدْخُل عَلَيْهِمْ فِيهِ لِتَبْقَى أَبْدَانهمْ؛ وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. ثُمَّ قَال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾، أَيْ: هُوَ الَّذِي أَرْشَدَ هَؤُلاءِ الفِتْيَة إِلَى الهِدَايَة مِنْ بَيْن قَوْمهمْ، فَإِنَّهُ مَنْ هَدَاهُ الله اهْتَدَى، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَلا هَادِي لَهُ.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

ذَكَرَ بَعْض أَهْل العِلم أَنَّهُمْ لَمَّا ضَرَبَ الله عَلَى آذَانهمْ بِالنَّوْم، لَمْ تَنْطَبِق أَعْيُنهمْ لِئَلَّا يُسْرِع إِلَيْهَا البِلى، فَإِذَا بَقِيَتْ ظَاهِرَة لِلهَوَاءِ كَانَ أَبْقَى لَهَا، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾، وَقَدْ ذُكِرَ عَنْ الذِّئْب أَنَّهُ يَنَام فَيُطْبِق عَيْنًا وَيَفْتَح عَيْنًا، ثُمَّ يَفْتَح هَذِهِ وَيُطْبِق هَذِهِ -وَهُوَ رَاقِد- كَمَا قَال الشَّاعِر:

يَنَــام بِإِحْــدَى مُقْلَتَيْــهِ وَيَتَّقِــي ❁ بِــأُخْرَى الرَّزَايَــا فَهُــوَ يَقْظَــان نَــائِم

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ قَال بَعْض السَّلَف: يُقْلبُونَ فِي العَام مَرَّتَيْنِ.

قَال ابْن عَبَّاس: لَوْ لَمْ يُقْلبُوا لأَكَلَتْهُمْ الأَرْض.

وَقَوْله: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ قَال ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَقَتَادَة: الوَصِيد: الفِنَاء. وَقَال ابْن عَبَّاس: بِالبَاب، وَقِيل: بِالصَّعِيد، وَهُوَ التُّرَاب. وَالصَّحِيح أَنَّهُ بِالفِنَاءِ -وَهُوَ البَاب-، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أَيْ: مُطْبَقَة مُغْلَقَة. وَيُقَال: «وَصِيد»، وَ«أَصِيد». رَبَض كَلبهمْ عَلَى البَاب كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَة الكِلاب. قَال ابْن جُرَيْج: يَحْرُس عَلَيْهِمْ البَاب، وَهَذَا مِنْ سَجِيَّته وَطَبِيعَته، حَيْثُ يَرْبِض بِبَابِهِمْ كَأَنَّهُ يَحْرُسهُمْ، وَكَانَ جُلُوسه خَارِج البَاب؛ لأَنَّ المَلائِكَة لا تَدْخُل بَيْتًا فِيهِ كَلب -كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيح- **«وَلا صُورَة»**، **«وَلا جُنُب»**، **«وَلا كَافِر»** كَمَا وَرَدَ بِهِ فِي الحَدِيث الحَسَن.[1] وَشَمِلَتْ كَلبهمْ بركتُهُم، فَأَصَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ النَّوْم عَلَى تِلكَ الحَال. وَهَذَا فَائِدَة صُحْبَة الأَخْيَار؛ فَإِنَّهُ صَارَ لِهَذَا الكَلب ذِكْر وَخَبَر وَشَأْن. وَقَدْ قِيل: إِنَّهُ كَانَ كَلب صَيْد لأَحَدِهِمْ وَهُوَ الأَشْبَه. وَقِيل: كَان كَلب طَبَّاخ المَلِك، وَقَدْ كَانَ وَافَقَهُمْ عَلَى الدِّين فَصَحِبَهُ كَلبه فَالله أَعْلَم. وَقَدْ رَوَى الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة هَمَّام بْن الوَلِيد الدِّمَشْقِيّ، حَدَّثَنَا صَدَقَة بْن عُمَر الغَسَّانِيّ، حَدَّثَنَا عَبَّاد المِنْقَرِيّ، سَمِعْت الحَسَن البَصْرِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُول: كَانَ اسْم كَبْش إِبْرَاهِيم: «جَرِير»، وَاسْم هُدْهُد سُلَيْمَان: «عنقز»، وَاسْم كَلب أَصْحَاب الكَهْف: «قِطْمِير»، وَاسْم عِجْل بَنِي إِسْرَائِيل الَّذِي عَبَدُوهُ: «بهموت»، وَهَبَطَ آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالهِنْد، وَحَوَّاء بِجُدَّة، وَإِبْلِيس بدست بيسان، وَالحَيَّة بأصبهان. وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ شُعَيْب الجُبَّائِيّ أَنَّهُ سَمَّاهُ حمران. وَاخْتَلَفُوا فِي لَوْنه عَلَى أَقْوَال لا حَاصِل لَهَا وَلا طَائِل تَحْتهَا، وَلا دَلِيل عَلَيْهَا، وَلا حَاجَة إِلَيْهَا؛ بَل هِيَ مِمَّا يُنْهَى عَنْهُ؛ فَإِنَّ مُسْتَنَدهَا رَجْم بِالغَيْب.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أَيْ: أَنَّهُ تَعَالَى أَلقَى عَلَيْهِمْ المَهَابَة، بِحَيْثُ لا يَقَع نَظَر أَحَد عَلَيْهِمْ إِلَّا هَابَهُمْ، لَمَا أُلبِسُوا مِنْ المَهَابَة وَالذُّعْر، لِئَلَّا يَدْنُو مِنْهُمْ أَحَد وَلا تَمَسّهُمْ يَد لامِس، حَتَّى يَبْلُغ الكِتَاب أَجَله، وَتَنْقَضِي رَقْدَتهمْ الَّتِي شَاءَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِيهِم، لَمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ الحجة والحكمةالبَالِغَة، وَالرَّحْمَة الوَاسِعَة.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٣٢٢٥) (٥٩٦٠).

وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾.

يَقُول تَعَالَى: كَمَا أَرْقَدْنَاهُمْ بَعَثْنَاهُمْ صَحِيحَة أَبْدَانهمْ وَأَشْعَارهمْ وَأَبْشَارهمْ، لمْ يَفْقِدُوا مِنْ أَحْوَالهمْ وَهَيْئَاتهمْ شَيْئًا، وَذَلكَ بَعْد ثَلثِمِائَةِ سَنَة وَتِسْع سِنِينَ؛ وَلهَذَا تَسَاءَلُوا بَيْنهمْ: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أَيْ: كَمْ رَقَدْتُمْ؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، كأنه كَانَ دُخُولهمْ إِلى الكَهْف فِي أَوَّل نَهار، وَاسْتِيقَاظهمْ كَانَ فِي آخِر نَهار؛ وَلهَذَا اسْتَدْرَكُوا فَقَالُوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، أَيْ: الله أَعْلم بِأَمْرِكُمْ، وَكَأَنَّهُ حَصَل لهُمْ نَوْع تَرَدُّد فِي كَثْرَة نَوْمهمْ، فَالله أَعْلم. ثُمَّ عَدَلُوا إِلى الأَهَمّ فِي أَمْرهمْ إِذْ ذَاكَ وَهُوَ احْتِيَاجهمْ إِلى الطَّعَام وَالشَّرَاب، فَقَالُوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ أَيْ: فِضَّتكُمْ ﴿هَذِهِ﴾، وَذَلكَ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ اسْتَصْحَبُوا مَعَهُمْ دَرَاهِم مِنْ مَنَازِلهمْ لحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا، فَتَصَدَّقُوا مِنْهَا وَبَقِيَ مِنْهَا؛ فَلهَذَا قَالُوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أَيْ: مَدِينَتكُمْ الَّتِي خَرَجْتُمْ مِنْهَا، وَالأَلف وَاللَّام للعَهْدِ.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أَيْ: أَطْيَب طَعَامًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، وَقَوْله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ وَمِنْهُ الزَّكَاة الَّتِي تُطَيِّب المَال وَتُطَهِّرهُ. وَقِيل: أَكْثَر طَعَامًا، وَمِنْهُ: زَكَا الزَّرْع، إِذَا كَثُرَ، قَال الشَّاعِر:

قَبَائِلنَا سَبْع وَأَنْتُمْ ثَلاثَة ۞ وَللسَّبْعُ أَزْكَى مِنْ ثَلاث وَأَطْيَب

وَالصَّحِيح الأَوَّل؛ لأَنَّ مَقْصُودهمْ إِنَّمَا هُوَ الطَّيِّب الحَلال، سَوَاء كَانَ [كَثِيرًا أَوْ قَليلًا][1]. وَقَوْله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أَيْ: فِي خُرُوجه وَذَهَابه وَشِرَائِهِ وَإِيَابه، يَقُولُونَ: وليَتَخَفَّ كل ما يَقْدِر عَلَيْهِ، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أَيْ: يُعْلمَنَّ ﴿بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: إِنْ عَلمُوا بِمَكَانِكُمْ ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ يَعْنُونَ أَصْحَاب دِقْيَانُوس، يَخَافُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَطَّلعُوا عَلى مَكَانهمْ، فَلا يَزَالُونَ يُعَذِّبُونَهُمْ بِأَنْوَاعِ العَذَاب إِلى أَنْ يُعِيدُوهُمْ فِي مِلَّتهمْ الَّتِي هُمْ عَليْهَا أَوْ يَمُوتُوا، وَإِنْ واتوهم عَلى العَوْدة فِي الدِّين فَلا فَلاح لهم فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَة؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: أَطْلعْنَا عَليْهِمْ النَّاس؛ ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾. ذَكَرَ غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلف أَنَّهُ كَانَ قَدْ حَصَل لأَهْل ذَلكَ الزَّمَان شَكّ فِي البَعْث وَفِي أَمْر القِيَامَة. وَقَال عِكْرِمَة: كَانَ مِنْهُمْ طَائِفَة قَدْ قَالُوا: تُبْعَث الأَرْوَاح وَلا تُبْعَث الأَجْسَاد. فَبَعَثَ الله أَهْل الكَهْف حُجَّة وَدَلالة وَآيَة عَلى ذَلكَ. وَذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَحَدهمْ الخُرُوج ليَذْهَب إِلى المَدِينَة فِي شِرَاء شَيْء لهُمْ ليَأْكُلُوهُ تَنَكَّرَ وَخَرَجَ يَمْشِي فِي غَيْر الجَادَّة حَتَّى انْتَهَى إِلى المَدِينَة، وَذَكَرُوا أَنَّ اسْمهَا دقسوس، وَهُوَ يَظُنّ أَنَّهُ قَرِيب العَهْد بِهَا، وَكَانَ النَّاس قَدْ تَبَدَّلُوا قَرْنًا بَعْد قَرْن، وَجِيلًا بَعْد جِيل، وَأُمَّة بَعْد أُمَّة، وَتَغَيَّرَتْ البِلاد وَمَنْ عَليْهَا كَمَا قَال الشَّاعِر:

أَمَّا الدِّيَار فَإِنَّهَا كَدِيَارِهِمْ ۞ وَأَرَى رِجَال الحَيّ غَيْر رِجَاله

فَجَعَل لا يَرَى شَيْئًا مِنْ مَعَالم البَلد الَّتِي يَعْرِفهَا، وَلا يَعْرِف أَحَدًا مِنْ أَهْلهَا: لا خَوَاصّهَا وَلا عَوَامّهَا، فَجَعَل يَتَحَيَّر فِي نَفْسه وَيَقُول: لعَلَّ بِي جُنُونًا أَوْ مَسًّا أَوْ أَنَا حَالم، وَيَقُول: وَالله مَا بِي شَيْء مِنْ ذَلكَ وَإِنَّ عَهْدِي بِهَذِهِ البَلدَة

---

(١) في نسخة تقديم وتأخير.

عَشِيَّةَ أَمْس عَلى غَيْر هَذِهِ الصِّفَة، ثُمَّ قَال: إِنَّ تَعْجِيل الخُرُوج مِنْ هَاهُنَا لأَوْلى لي. ثُمَّ عَمَدَ إِلى رَجُل مِمَّنْ يَبِيع الطَّعَام فَدَفَعَ إِلَيْهِ مَا مَعَهُ مِنَ النَّفَقَة، وَسَأَلَهُ أَنْ يَبِيعهُ بِهَا طَعَامًا، فَلَمَّا رَآهَا ذَلِكَ الرَّجُل أَنْكَرَهَا وَأَنْكَر ضَرْبهَا، فَدَفعهَا إِلى جَاره، وَجَعَلُوا يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنهمْ وَيَقُولُونَ: لعَلَّ هَذَا قد وَجَدَ كنْزًا. فَسَأَلُوهُ عَنْ أَمْره، وَمِنْ أَيْنَ لهُ هَذِهِ النَّفَقَة؟ لعَلَّهُ وَجَدَهَا مِنْ كَنْز، ومَنْ أَنْتَ؟ فَجَعَل يَقُول: أَنَا مِنْ أَهْل هَذِهِ المدينة، وَعَهْدِي بِهَا عَشِيَّةَ أَمْس وَفِيهَا دِقْيَانُوس. فَنَسَبُوهُ إِلى الجُنُون، فَحَمَلُوهُ إِلى وَلِيّ أَمْرهِمْ، فَسَأَلهُ عَنْ شَأْنه وعن أمره، حَتَّى أَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِهِ -وَهُوَ مُتَحَيِّر فِي حَاله وَمَا هُوَ فِيهِ- فَلَمَّا أَعْلَمَهُمْ بِذَلكَ قَامُوا مَعَهُ إِلى الكَهْف -متولي البَلد وَأَهْلهَا- حَتَّى انْتَهَى بِهِمْ إِلى الكَهْف، فَقَال: دَعُونِي حَتَّى أَتَقَدَّمكُمْ فِي الدُّخُول لأُعْلم أَصْحَابِي، فَيُقَال: إِنَّهُمْ لا يَدْرُونَ كَيْف ذَهَبَ فِيهِ، وَأَخْفَى الله عَلَيْهِمْ خَبَره، وَيُقَال: بَل دَخَلُوا عَلَيْهِمْ، وَرَأَوْهُمْ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ المَلك وَاعْتَنَقَهُمْ، وَكَانَ مُسْلمًا فِيمَا قِيل وَاسْمه تيدوسيس، فَفَرِحُوا بِهِ وَآنَسُوهُ [بِالكَلام][1]، ثُمَّ وَدَّعُوهُ وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ، وَعَادُوا إِلى مَضَاجِعهمْ، وَتَوَفَّاهُمْ الله عَزَّ وَجَلَّ، فَالله أَعْلم. قَال قَتَادَة: وغَزَا ابْن عَبَّاس مَعَ حَبِيب بْن مَسْلمَة، فَمَرُّوا بِكَهْفٍ فِي بِلاد الرُّوم، فَرَأَوْا فِيهِ عِظَامًا، فَقَال قَائِل: هَذِهِ عِظَام أصحاب الكَهْف. فَقَال ابْن عَبَّاس: لقَدْ بَليَتْ عِظَامهمْ مِنْ أَكْثَر مِنْ ثَلثِمِائَةِ سَنَة. رَوَاهُ ابْن جَرِير.

وَقَوْله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: كَمَا أَرْقَدْنَاهُمْ وَأَيْقَظْنَاهُمْ بِهَيْئَاتِهِمْ أَطْلعْنَا عَلَيْهِمْ أَهْل ذَلكَ الزَّمَان، ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أَيْ: فِي أَمْر القِيَامَة، فَمِنْ مُثْبت لهَا وَمِنْ مُنْكِر، فَجَعَل الله ظُهُورهمْ عَلى أَصْحَاب الكَهْف حُجَّة لهُمْ وَعَلَيْهِمْ، ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أَيْ: سُدُّوا عَلَيْهِمْ بَاب كَهْفهمْ وَذَرُوهُمْ عَلى حَالهِمْ، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾. حَكَى ابْن جَرِير فِي القَائِلينَ ذَلكَ قَوْليْنِ:

أَحَدهمَا: إِنَّهُمْ المُسْلمُونَ مِنْهُمْ.

وَالثَّانِي: أَهْل الشِّرْك مِنْهُمْ، فَالله أَعْلم. وَالظَّاهِر أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا ذَلكَ هُمْ أَصْحَاب الكَلمَة وَالنُّفُوذ، وَلكِنْ هَل هُمْ مَحْمُودُونَ أَمْ لا؟ فِيهِ نَظَر؛ لأَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**لعَنَ الله اليَهُود وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُور أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالحِيهِمْ مَسَاجِد**» يُحَذِّر مَا فَعَلُوا[2]، وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عُمَر بْن الخَطَّاب ﷺ أَنَّهُ لَمَّا وَجَدَ قَبْر دَانْيَال فِي زَمَانه بِالعِرَاقِ أَمَرَ أَنْ يُخْفَى عَنْ النَّاس، وَأَنْ تُدْفَن تِلكَ الرُّقْعَة الَّتِي وَجَدُوهَا عِنْده فِيهَا شَيْء مِنْ المَلاحِم وَغَيْرهَا.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ اخْتِلاف النَّاس فِي عِدَّة أَصْحَاب الكَهْف، فَحَكَى ثَلاثَة أَقْوَال، فَدَلَّ عَلى أَنَّهُ لا قَائِل بِرَابِع، وَلَمَّا ضَعَّفَ القَوْليْنِ الأَوَّليْنِ بِقَوْلهِ: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾، أَيْ: قَوْلًا بِلا عِلم، كَمَنْ يَرْمِي إِلى مَكَان لا يَعْرِفهُ، فَإِنَّهُ لا يَكَاد يُصِيب وَإِنْ أَصَابَ فَبِلا قَصْد، ثُمَّ حَكَى الثَّالث وَسَكَتَ عَلَيْهِ أَوْ قَرَّرَهُ بِقَوْلهِ: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ دل عَلى صِحَّته وَأَنَّهُ هُوَ الوَاقِع فِي نَفْس الأَمْر.

وَقَوْله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إِرْشَاد إِلى أَنَّ الأَحْسَن فِي مِثْل هَذَا المَقَام رَدّ العِلم إِلى الله تَعَالى؛ إِذْ لا احْتِيَاج إِلى الخَوْض فِي مِثْل ذَلكَ بِلا عِلم، لكِنْ إِذَا أَطْلعْنَا عَلى أَمْر قُلنَا بِهِ وَإِلَّا وَقَفْنَا.

وَقَوْله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أَيْ: مِنْ النَّاس. قَال قَتَادَة: قَال ابْن عَبَّاس: أَنَا مِنْ القَليل الَّذِي اسْتَثْنَى الله

---

(١) في نسخة: الكلام.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٢).

عَزَّ وَجَلَّ، كَانُوا سَبْعَة. وَكَذَا رَوَى ابْن جَرِير عَنْ عَطَاء الخُرَاسَانِيّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُول: أَنَا مِمَّنْ اسْتَثْنَى الله عَزَّ وَجَلَّ وَيَقُول: عِدَّتهمْ سَبْعَة.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثنا ابْن بَشَّار، حَدَّثنا عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثنا إِسْرَائِيل، عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، ﴿مَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ قَال: أَنَا مِنْ القَلِيل، كَانُوا سَبْعَة، فَهَذِهِ أَسَانِيد صَحِيحَة إِلَى ابْن عَبَّاس وأَنَّهُمْ كَانُوا سَبْعَة، وَهُوَ مُوَافِق لِمَا قَدَّمْنَاهُ. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد قَال: لَقَدْ حُدِّثْت أَنَّهُ كَانَ عَلَى بَعْضهمْ مِنْ حَدَاثَة سِنّه وَضَح الوَرِق. قَال ابْن عَبَّاس: فَكَانُوا كَذَلِكَ لَيْلهمْ وَنَهَارهمْ فِي عِبَادَة الله يَبْكُون وَيَسْتَغِيثُونَ بِالله، وَكَانُوا ثَمَانِيَة نَفَر: مكسلمينا وَكَانَ أَكْبَرهمْ وَهُوَ الَّذِي كَلَّمَ المَلِك عَنْهُمْ، ومجسيميلنينا، وتمليخا، ومرطوس، وكشطونس، وبيرونس، وديموس، ويطونس قالوش، هَكَذَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَة، وَيَحْتَمِل أَنَّ هَذَا مِنْ كَلام ابْن إِسْحَاق أو مَنْ بَيْنه وَبَيْنه؛ فَإِنَّ الصَّحِيح عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُمْ كَانُوا سَبْعَة، وَهُوَ ظَاهِر الآيَة، وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ شُعَيْب الجُبَّائِيّ أَنَّ اسْم كَلبهمْ حمران، وَفِي تَسْمِيَتهمْ بِهَذِهِ الأَسْمَاء وَاسْم كَلبهمْ نَظَر فِي صِحَّته، وَالله أَعْلَم؛ فَإِنَّ غَالب ذَلِكَ مُتَلَقًّى مِنْ أَهْل الكِتَاب، وَقَدْ قَال تَعَالَى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ أَيْ: سَهْلًا هَيِّنًا؛ فَإِنَّ الأَمْر فِي مَعْرِفَة ذَلِكَ لا يَتَرَتَّب عَلَيْهِ كَبِير فَائِدَة، ﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ أَيْ: فَإِنَّهُمْ لا عِلم لَهُمْ بِذَلِكَ إِلَّا مَا يَقُولُونَهُ مِنْ تِلقَاء أَنْفُسهمْ ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أَيْ: مِنْ غَيْر اسْتِنَاد إِلَى كَلام مَعْصُوم، وَقَدْ جَاءَكَ الله يَا مُحَمَّد بِالحَقّ الَّذِي لا شَكّ فِيهِ وَلا مِرْيَة، فَهُوَ المُقَدَّم الحَاكِم عَلَى كُلّ مَا تَقَدَّمَهُ مِنْ الكُتُب وَالأَقْوَال.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾.

هَذَا إِرْشَاد مِنْ الله لرسوله ﷺ إِلَى الأَدَب فِيمَا إِذَا عَزَمَ عَلَى شَيْء لِيَفْعَلَهُ فِي المُسْتَقْبَل: أَنْ يَرُدّ ذَلِكَ إِلَى مَشِيئَة الله ﷻ، عَلَّام الغُيُوب الَّذِي يَعْلم مَا كَانَ وَمَا يَكُون وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْف كان يَكُون، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «**قَال سُلَيْمَان بْن دَاوُد عليه السلام: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَة عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَة**» وَفِي رِوَايَة: «**تِسْعِينَ امْرَأَة**»، وَفِي رِوَايَة: «**مِائَة امْرَأَة، تَلد كُلّ امْرَأَة مِنْهُنَّ غُلامًا يُقَاتِل فِي سَبِيل الله، فَقِيل لَهُ: -وَفِي رِوَايَة: فَقَال لَهُ المَلَك- قُل: إِنْ شَاءَ الله. فَلَمْ يَقُل، فَطَافَ بِهِنَّ فَلَمْ يَلد مِنْهُنَّ إِلاَّ امْرَأَة وَاحِدَة نِصْف إِنْسَان**»، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ قَال: إِنْ شَاءَ الله لَمْ يَحْنَث، وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ**»، وَفِي رِوَايَة: «**وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيل الله فُرْسَانًا أَجْمَعِينَ**».[1] وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّل السُّورَة ذِكْر سَبَب نُزُول هَذِهِ الآيَة فِي قَوْل النَّبِيّ ﷺ لَمَّا سُئِل عَنْ قِصَّة أَصْحَاب الكَهْف: «**غَدًا أُجِيبكُمْ**». فَتَأَخَّرَ الوَحْي خَمْسَة عَشَر يَوْمًا، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ بِطُولِهِ فِي أَوَّل السُّورَة فَأَغْنَى عَنْ إِعَادَته.

وَقَوْله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، قِيل: مَعْنَاهُ: إِذَا نَسِيت الاسْتِثْنَاء فَاسْتَثْنِ عِنْد ذِكْرك لَهُ، قَالَهُ أَبُو العَالِيَة، وَالحَسَن البَصْرِيّ. وَقَال هُشَيْم: عَنْ الأَعْمَش، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي الرَّجُل يَحْلف قَال: لَهُ أَنْ يَسْتَثْنِي وَلَوْ إِلَى سَنَة. وَكَانَ يَقُول: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فِي ذَلِكَ. قِيل لِلأَعْمَش: سَمِعْتَه عَنْ مُجَاهِد؟ قَال: حَدَّثَنِي بِهِ لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم، ترى ذَهَبَ كِسَائِي هَذَا. وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي مُعَاوِيَة عَنْ الأَعْمَش بِهِ. وَمَعْنَى قَوْل ابْن عَبَّاس: أَنَّهُ يَسْتَثْنِي وَلَوْ بَعْد سَنَة، أَيْ: إِذَا نَسِيَ أَنْ يَقُول فِي حَلفه أو كَلامه: إِنْ شَاءَ الله، وَذَكَرَ وَلَوْ بَعْد سَنَة، فَالسُّنَّة لَهُ أَنْ يَقُول ذَلِكَ لِيَكُونَ آتِيًا بِسُنَّةِ الاسْتِثْنَاء حَتَّى لَوْ كَانَ بَعْد الحِنْث. قَاله ابْن جَرِير رحمه الله، وَنَصّ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨١٩، ٣٤٢٤)، ومسلم (١٦٥٤).

عَلى ذَلكَ، لا أَنْ يَكُون رَافِعًا لِحِنْثِ اليَمِين وَمُسْقِطًا للكَفَّارَةِ، وَهَذَا الَّذِي قَالهُ ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ الصَّحِيح وَهُوَ الأَلْيَق بِحَمْل كَلام ابْن عَبَّاس عَلَيْهِ، وَالله أَعْلم.

وَقَال عِكْرِمَة: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إِذَا غَضِبْت. وهذا تفسير باللازم. وقد قال الطَّبَرَانِيّ: حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني، حدثنا سعيد بن سليمان، عن عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله. وَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن الحَارِث الجبيلي، حَدَّثَنَا صَفْوَان بْن صَالح، حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن مُسْلم، عَنْ عَبْد العَزِيز بْن حُصَيْن، عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أَنْ تَقُول: إِنْ شَاءَ الله. وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ أَيْضًا عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الاسْتِثْنَاء، فَاسْتَثْنِ إِذَا ذَكَرْت، وَقَال: هِيَ خَاصَّة بِرَسُول الله ﷺ، وَلَيْس لأَحَدٍ مِنَّا أَنْ يَسْتَثْنِي إِلَّا فِي صِلة مِنْ يَمِينه، ثُمَّ قَال: تَفَرَّدَ بِهِ الوَلِيد عَنْ عَبْد العَزِيز بْن الحُصَيْن.

وَيَحْتَمِل فِي الآيَة وَجه آخَر، وَهُوَ أَنْ يَكُون الله تَعَالى قَدْ أَرْشَدَ مَنْ نَسِيَ الشَّيْءِ فِي كَلامه إِلى ذِكْر الله؛ لأَنَّ النِّسْيَان مَنْشَؤُهُ مِنْ الشَّيْطَان، كَمَا قَال فَتَى مُوسَى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥۚ﴾، وَذِكْر الله تَعَالى يَطْرُد الشَّيْطَان، فَإِذَا ذَهَبَ الشَّيْطَان ذَهَبَ النِّسْيَان، فَذِكْر الله سَبَب للذِّكْر، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أَيْ: إِذَا سُئِلت عَنْ شَيْء لا تَعْلمهُ؛ فَاسْأَل الله تَعَالى فِيهِ، وَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ فِي أَنْ يُوَفِّقك للصَّوَابِ وَالرُّشْد فِي ذَلِك، وَقِيل غَيْر ذَلكَ فِي تَفْسِيره وَالله أَعْلم.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

هَذَا خَبَر مِنْ الله تَعَالى لِرَسُولهِ ﷺ بِمِقْدَار مَا لبث أَصْحَاب الكَهْف فِي كَهْفهمْ، مُنْذُ أَرْقَدَهُمْ الله إِلى أَنْ بَعَثَهُمْ، وَأَعْثَرَ عَلَيْهِمْ أَهْل ذلك الزَّمَان، وَأَنَّهُ كَانَ مِقْدَاره ثَلثمِائَةِ وتِسع سِنِينَ بِالهِلاليَّةِ، وَهِيَ ثَلاثمِائَةِ سَنَة بِالشَّمْسِيَّةِ، فَإِنْ تَفَاوَتَ مَا بَيْن كُلّ مِائَة سَنَة بِالقَمَرِيَّةِ إِلى الشَّمْسِيَّة ثَلاث سِنِينَ، فَلهَذَا قَال بَعْد الثَّلثمِائَةِ: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾.

وَقَوْله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ أَيْ: إِذَا سُئِلت عَنْ لُبْثهمْ، وَلَيْس عِنْدك عِلم فِي ذَلكَ وَتَوْقِيف مِنْ الله تَعَالى، فَلا تَتَقَدَّم فِيهِ بِشَيْءٍ، بَل قُل فِي مِثْل هَذَا: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ أَيْ: لا يَعْلم ذَلكَ إِلَّا هُوَ، أو مَنْ أَطْلَعَهُ الله عَلَيْهِ مِنْ خَلقه، وَهَذَا الَّذِي قُلنَاهُ: عَلَيْهِ غَيْر وَاحِد مِنْ عُلَماء التَّفْسِير؛ كَمُجَاهِدٍ وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلف وَالخَلف. وَقَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ هَذَا قَوْل أَهْل الكِتَاب، وَقَدْ رَدَّهُ الله تَعَالى بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ قَال: وَفِي قِرَاءَة عَبْد الله: (وَقَالُوا: وَلبثُوا) يَعْنِي أَنَّهُ قَالهُ النَّاس، وَهَكَذَا قَال -كما قال قَتَادَة-: مُطَرِّف بْن عَبْد الله، وَفِي هَذَا الَّذِي زَعَمَهُ قَتَادَة نَظَر؛ فَإِنَّ الَّذِي بِأَيْدِي أَهْل الكِتَاب: أَنَّهُمْ لبثُوا ثَلثمِائَةِ سَنَة مِنْ غَيْر تِسْع، يَعْنُونَ بِالشَّمْسِيَّةِ، وَلوْ كَانَ الله قَدْ حَكَى قَوْلهمْ لَمَا قَال: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ وظاهر الآيَة: إِنَّمَا هُوَ من إِخْبَار الله لا حِكَايَة عَنْهُمْ، وَهَذَا اخْتِيَار ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللَّهُ، وَرِوَايَةُ قَتَادَة قِرَاءَةَ ابْن مَسْعُود مُنْقَطِعَةٌ، ثُمَّ هِيَ شَاذَّة بِالنِّسْبَةِ إِلى قِرَاءَة الجُمْهُور؛ فَلا يُحْتَجّ بِهَا، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ﴾ أَيْ: أَنَّهُ لبَصِير بِهِمْ سَمِيع لهُمْ.

قَال ابْن جَرِير: وَذَلكَ فِي مَعْنَى المُبَالغَة فِي المَدْح، كَأَنَّهُ قِيل: مَا أَبْصَره وَأَسْمَعهُ وَتَأْوِيل الكَلام: مَا أَبْصَر الله لكُلِّ مَوْجُود وَأَسْمَعهُ لكُلِّ مَسْمُوع! لا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلكَ شَيْء. ثُمَّ رُوِيَ عَنْ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ

وَأَسْمِعْ ﴾ فلا أَحد أَبْصَر مِنْ الله وَلا أَسْمَع. وَقَال ابْن زَيْد: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ يَرَى أَعْمَالهمْ وَيَسْمَع ذَلكَ مِنْهُمْ سَمِيعًا بَصِيرًا. وَقَوْله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أَيْ: أَنَّهُ تَعالى هُوَ الَّذِي لهُ الخَلق وَالأَمْر، الَّذِي لا مُعَقِّب لحُكْمِهِ، وَلَيْسَ لهُ وَزير وَلا نَصِير، وَلا شَرِيك وَلا مُشِير، تَعَالى وَتَقَدَّس.

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾.

يَقُول تَعالى آمِرًا رَسُوله ﷺ بِتِلاوَةِ كِتابه العَزِيز، وَإِبْلاغه إِلى النَّاس ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أَيْ: غير مُغَيِّر لَها وَلا مُحَرِّف وَلا مؤول.

وَقَوْله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ عَنْ مُجاهِد: ﴿مُلْتَحَدًا﴾، قَال: مَلجأ. وَعَنْ قَتادَة: وَلِيًّا وَلا مَوْلًى. قَال ابْن جَرِير: يَقُول: وإِنْ أَنْتَ يَا مُحَمَّد لمْ تَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْك مِنْ كِتَاب رَبّك، أَي: فَإِنَّهُ لا مَلجأ لك مِنْ الله. كَمَا قَال تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ ، وَقَال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ﴾ أَيْ: سَائِلك عَمَّا فَرَض عَلَيْك مِنْ إِبْلاغ الرِّسَالة.

وَقَوْله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أَيْ: اجْلسْ مَعَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله، وَيُهَلِّلُونَهُ وَيَحْمَدُونَهُ، وَيُسَبِّحُونَهُ وَيُكَبِّرُونَهُ، وَيَسْأَلُونَهُ بُكْرَة وَعَشِيًّا، مِنْ عِبَاد الله سَوَاء كَانُوا فُقَرَاء أَوْ أَغْنِيَاء، أَوْ أَقْوِيَاء أَوْ ضُعَفَاء. يُقَال: إِنَّهَا نَزَلتْ فِي أَشْرَاف قُرَيْش، حِين طَلبُوا مِنَ النَّبِيّ ﷺ أَنْ يَجْلس مَعَهُمْ وَحْده، وَلا يُجَالسهُمْ بِضُعَفَاء أَصْحَابه؛ كَبِلالٍ وَعَمَّار وَصُهَيْب وَخَبَّاب وَابْن مَسْعُود، وَلْيُفْرِد أُولئِكَ بِمَجْلِسٍ عَلى حِدَة، فَنَهَاهُ الله عَنْ ذَلكَ، فَقَال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ﴾ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَصْبِر نَفْسه فِي الجُلُوس مَعَ هَؤُلاءِ، فَقَال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾. وَقَال مُسْلم فِي «صَحِيحه»: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله الأَسَدِيّ، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ المِقْدَام بْن شُرَيْح عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَعْد -هُوَ ابْن أَبِي وَقَّاص- قَال: كُنَّا مَعَ النَّبِيّ ﷺ سِتَّة نَفَر، فَقَال المُشْرِكُونَ للنَّبِيّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلاءِ، لا يَجْتَرِئُونَ عَلينَا. قَال: وَكُنْت أَنَا وَابْن مَسْعُود، وَرَجُل مِنْ هُذَيْل، وَبِلال، وَرَجُلانِ نَسِيت اسْمَيْهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْس رَسُول الله ﷺ مَا شَاءَ الله أَنْ يَقَع فَحَدَّثَ نَفْسه، فَأَنْزَل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ﴾[١] انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلم دُون البُخَارِيّ. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ أَبِي التَّيَّاح، قَال: سَمِعْت أَبَا الجَعْد يُحَدِّث، عَنْ أَبِي أُمَامَة، قَال: خَرَجَ رَسُول الله ﷺ عَلى قَاصّ يَقُصّ فَأَمْسَكَ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «قُصَّ، فَلأَنْ أَقْعُد غُدْوَة إِلى أَنْ تُشْرِق الشَّمْس أَحَبّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِق أَرْبَع رِقَاب».[٢]

وَقَال الإِمام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا هَاشِم، ثَنَا شُعْبَة، عَنْ عَبْد المَلك بْن مَيْسَرَة، قَال: سَمِعْت كُرْدُوس بْن قَيْس -وَكَانَ قَاصّ العَامَّة بِالكُوفَةِ- يَقُول: أَخْبَرَنِي رَجُل مِنْ أَصْحَاب بَدْر، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ يَقُول: «**لأَنْ أَقْعُد فِي مِثْل هَذَا المَجْلس أَحَبّ إِليَّ مِنْ أَنْ أُعْتِق أَرْبَع رِقَاب**». قَال شُعْبَة: فَقُلت: أَيّ مَجْلس؟ قَال: كَانَ قَاصًّا.[٣]

---

(١) صحيح: تقـدم.
(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٢٦١) من حديث أبي أمامة، وفيه أبو الجعد: غير معروف. قال الهيثمي (١/ ١٩٥): «إن كان هو الغطفاني فهو من رجال الصحيح، وإن كان غيره فلم أعرفه».
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٤).

وَقَال أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ فِي «مُسْنَده»: حَدَّثَنَا مُحَمَّد، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن أَبَان، عَنْ أَنَس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**لأَنْ أُجَالس قَوْمًا يَذْكُرُونَ الله مِنْ صَلاة الغَدَاة إِلى طُلُوع الشَّمْس، أَحَبّ إِليَّ مِمَّا طَلعَتْ عَليْهِ الشَّمْس، وَلأَنْ أَذْكُر الله مِنْ صَلاة العَصْر إِلى غُرُوب الشَّمْس أَحَبّ إِليَّ مِنْ أَنْ أُعْتِق ثَمَانِيَة مِنْ وَلد إِسْمَاعِيل، دِيَة كُلّ وَاحِد مِنهُمْ اثْنَا عَشَر أَلفًا**»[1]. فَحَسَبْنَا دِيَاتهمْ وَنَحْنُ فِي مَجْلس أَنَس، فَبلغَتْ سِتَّة وَتِسْعِينَ أَلفًا، وَهَاهُنَا مَنْ يَقُول: أَرْبَعَة مِنْ وَلد إِسْمَاعِيل، وَالله مَا قَال إِلَّا ثَمَانِيَة، دِيَة كُلّ وَاحِد مِنْهُمْ اثْنَا عَشَر أَلْفًا. وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا أحمد بْن إِسْحَاق الأَهْوَازِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَد الزُّبَيْرِيّ، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن ثَابت، عَنْ عَليّ بْن الأَقْمَر، عَنْ الأَغَرّ أَبِي مُسْلم -وَهُوَ الكُوفِيّ- أَنَّ رَسُول الله ﷺ مَرَّ بِرَجُلٍ يَقْرَأ سُورَة الكَهْف، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيّ ﷺ سَكَتَ فَقَال رسول الله ﷺ: «هَذَا المَجْلس الَّذِي أُمِرْت أَنْ أَصْبِر نَفْسِي مَعَهُمْ»[2]. هَكَذَا رَوَاهُ أَبُو أَحْمَد عَنْ عَمْرو بْن ثَابت عَنْ عَليّ بْن الأَقْمَر عَنْ الأَغَرّ مُرْسَلًا. وَحَدَّثَنَا يَحْيَى بْن المُعَلَّى، عَنْ مَنْصُور، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن الصَّلت، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن ثَابت عَنْ عَليّ بْن الأَقْمَر عَنْ الأَغَرّ عن أَبِي مُسْلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَة وَأَبِي سَعِيد قَالا: جَاءَ رَسُول الله ﷺ وَرَجُل يَقْرَأ سُورَة الحجر أَوْ سُورَة الكَهْف فَسَكَتَ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «هَذَا المَجْلس الَّذِي أُمِرْت أَنْ أَصْبِر نَفْسِي مَعَهُمْ»[3]. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حدثنا مُحَمَّد بْن بكر، ثَنَا مَيْمُون المَرَئِيّ، ثَنَا مَيْمُون بْن سِيَاه، عَنْ أَنَس بْن مَالك رضي الله عنه عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «**مَا مِنْ قَوْم اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ الله، لا يُرِيدُونَ بِذَلك إِلاَّ وَجْهه، إِلاَّ نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنْ السَّمَاء: أَنْ قُومُوا مَغْفُورًا لكُمْ، قَدْ بُدِّلتْ سَيِّئَاتكُمْ حَسَنَات**»[4]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَال الطَّبَرَانِيّ: ثَنَا إِسْمَاعِيل بْن الحَسَن، ثَنَا أَحْمَد بْن صَالح، ثَنَا ابْن وَهْب، عَنْ أُسَامَة بْن زَيْد، عَنْ أَبِي حَازِم، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن سَهْل بْن حُنَيْف، قَال: نَزَلتْ عَلى رَسُول الله ﷺ وَهُوَ فِي بَعْض أَبْيَاته: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، فَخَرَجَ يَلتَمِسهُمْ، فَوَجَدَ قَوْمًا يَذْكُرُونَ الله تَعَالى؛ مِنْهُمْ ثَائِر الرَّأْس، وَجَافّ الجِلد، وَذُو الثَّوْب الوَاحِد، فَلَمَّا رَآهُمْ جَلسَ مَعَهُمْ، وَقَال: «**الحَمْد لله الَّذِي جَعَل فِي أُمَّتِي مَنْ أَمَرَنِي الله أَنْ أَصْبِر نَفْسِي مَعَهُمْ**».[5] عَبْد الرَّحْمَن هَذَا ذَكَرَهُ أَبُو بَكْر ابْن أَبِي دَاوُد فِي الصَّحَابَة، وَأَمَّا أَبُوهُ فَمِنْ سَادَات الصَّحَابَة رضي الله عنهم.

وَقَوْله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، قَال ابْن عَبَّاس: وَلا تُجَاوِزهُمْ إِلى غَيْرهِمْ، يَعْنِي: تَطْلُب بَدَلهمْ أَصْحَاب الشَّرَف وَالثَّرْوَة. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أَيْ: شُغِل عَنْ الدِّين وَعِبَادَة رَبّه بِالدُّنْيَا ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أَيْ: أَعْمَاله وَأَفْعَاله سَفَه وَتَفْرِيط وَضَيَاع، وَلا تَكُنْ مُطِيعًا لهُ، وَلا مُحِبًّا لطَرِيقَتِهِ، وَلا تَغْبِطهُ بِمَا هُوَ فِيهِ، كَمَا قَال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

يَقُول تَعَالى لرَسُولهِ مُحَمَّد ﷺ: ﴿وَقُلِ﴾ يَا مُحَمَّد للنَّاسِ: هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ رَبّكُمْ هُوَ الحَقّ الَّذِي لا مِرْيَة فِيهِ وَلا شَكّ، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ هَذَا مِنْ بَاب التَّهْدِيد وَالوَعِيد الشَّدِيد، وَلهَذَا قَال:

---

(١) ضعيف: أخرجه الطيالسي (٢١٠٤)، وفيه يزيد بن أبان: ضعيف.
(٢) ضعيف جدًا: في إسناده عمرو بن ثابت: متروك، وهو مرسل.
(٣) ضعيف جدًا: في إسناده عمرو بن ثابت: متروك.
(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٤٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٥٠٤).
(٥) إسناده صحيح: أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٣٥) بإسناد صحيح.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾، أَيْ: أَرْصَدْنَا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ وَهُمْ الكَافِرُونَ بالله وَرَسُوله وَكِتَابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أَيْ: سُورهَا. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا ابْن لِهِيعَة، حَدَّثنَا دَرَّاج، عَنْ أَبِي الهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «لِسُرَادِقِ النَّار أَرْبَعَة جُدُر، كَثَافَة كُلّ جِدَار مثل مَسَافَة أَرْبَعِينَ سَنَة»(١). وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ فِي صِفَة النَّار، وَابْن جَرِير فِي «تَفْسِيره»: مِنْ حَدِيث دَرَّاج أَبِي السَّمْح بِهِ. وَقَال ابْن جُرَيْج: قَال ابْن عَبَّاس: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، قَال: حَائِط مِنْ نَار.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي الحُسَيْن بْن نَصْر، وَالعَبَّاس بْن مُحَمَّد، قَالا: حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِم، عَنْ عَبْد الله بْن أُمَيَّة، حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن حُيَيّ بْن يَعْلَى، عَنْ صَفْوَان بْن يَعْلَى، عَنْ يَعْلَى بْن أُمَيَّة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «البَحْر هُوَ جَهَنَّم». قَال: فَقِيل لَهُ: كَيْف ذَلِكَ؟ فَتَلا هَذِهِ الآيَة، أَوْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَة: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، ثُمَّ قَال: وَالله لا أَدْخُلهَا أَبَدًا -أَوْ: مَا دُمْت حَيًّا- لا تُصِيبنِي مِنْهَا قَطْرَة(٢). وَقَوْله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، قَال ابْن عَبَّاس: المُهْل: ماء غليظ مِثْل دُرْدِيّ الزَّيْت.

وَقَال مُجَاهِد: هُوَ كَالدَّم وَالقَيْح. وَقَال عِكْرِمَة: هُوَ الشَّيْء الَّذِي انْتَهَى حَرّه. وَقَال آخَرُونَ: هُوَ كُلّ شَيْء أُذِيبَ. وَقَال قَتَادَة: أَذَابَ ابْن مَسْعُود شَيْئًا مِنْ الذَّهَب فِي أُخْدُود، فَلَمَّا انْمَاعَ وَأَزْبَدَ قَال: هَذَا أَشْبَه شَيْء بِالمُهْل. وَقَال الضَّحَّاك: مَاء جَهَنَّم أَسْوَد، وَهِيَ سَوْدَاء وَأَهْلهَا سُود. وَهَذِهِ الأَقْوَال لَيْسَ شَيْء مِنْهَا يَنْفِي الآخَر؛ فَإِنَّ المُهْل يَجْمَع هَذِهِ الأَوْصَاف الرَّذِيلة كُلّهَا، فَهُوَ أَسْوَد مُنْتِن غَلِيظ حَارّ، وَلِهَذَا قَال: ﴿يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ﴾ أَيْ: مِنْ حَرّه، إِذَا أَرَادَ الكَافِر أَنْ يَشْرَبهُ وَقَرَّبَهُ مِنْ وَجْهه شَوَاهُ، حَتَّى يسقط جلد وَجْهه فِيهِ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد بِإِسْنَادِهِ المُتَقَدِّم فِي سُرَادِق النَّار عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «(مَاء كَالمُهْل) قَال: كَعَكَرِ الزَّيْت، فَإِذَا قَرَّبَهُ إِلَيْهِ سَقَطَتْ فَرْوَة وَجْهه فِيهِ»(٣). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي صِفَة النَّار مِنْ «جَامِعه»: مِنْ حَدِيث رِشْدِين بْن سَعْد، عَنْ عَمْرو بْن الحَارِث، عَنْ دَرَّاج بِهِ. ثُمَّ قَال: لا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيث رِشْدِين، وَقَدْ تُكُلِّمَ فِيهِ مِنْ قِبَل حِفْظه. هَكَذَا قَال، وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ حَسَن الأَشْيَب، عَنْ ابْن لِهِيعَة، عَنْ دَرَّاج، وَالله أَعْلَم. وَقَال عَبْد الله بْن المُبَارَك، وَبَقِيَّة بْن الوَلِيد: عَنْ صَفْوَان بْن عَمْرو، عَنْ عَبْد الله بْن بُسْر، عَنْ أَبِي أُمَامَة رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قَوْله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ قَال: «يُقَرَّب إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّههُ، فَإِذَا قُرِبَ مِنْهُ شَوَى وَجْهه، وَوَقَعَتْ فَرْوَة رَأْسه، فَإِذَا [شَرِبَهُ](٤) قَطَّعَ أَمْعَاءَهُ، يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾(٥). وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: إِذَا جَاعَ أَهْل النَّار اسْتَغَاثُوا بِشَجَرَةِ الزَّقُّوم، فَأَكَلُوا مِنْهَا، فاختلست جُلُود وُجُوههمْ، فَلَوْ أَنَّ مَارًّا مَرَّ بِهِمْ يَعْرِفهُمْ لَعَرَفَ جُلُود وُجُوههمْ فِيهَا، ثُمَّ يُصَبّ عَلَيهم العَطَش فَيَسْتَغِيثُونَ، فَيُغَاثُونَ بِمَاءٍ كَالمُهْل، وَهُوَ الَّذِي قَدْ انْتَهَى حَرّه، فَإِذَا أَدْنَوْهُ مِنْ أَفْوَاههمْ اشْتَوَى مِنْ حَرّه لُحُوم وُجُوههمْ الَّتِي قَدْ سَقَطَتْ عَنْهَا الجُلُود». وَلِهَذَا قَال تَعَالَى بَعْد وَصْفه هَذَا الشَّرَاب بِهَذِهِ الصِّفَات القَبِيحَة: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾، أَيْ: بِئْسَ هَذَا شرابًا، كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾، أَيْ حَارَّة كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾. ﴿وَسَآءَتْ

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٢٩)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٤٦٧٥).
(٢) ضعيف: أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٣٩)، وفيه محمد بن يحيي لم يوثقه غير ابن حبان. وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٠٢٣).
(٣) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٧٠)، والترمذي (٢٥٨٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».
(٤) في نسخة: [شرب].
(٥) ضعيف: تقدم.

مُرْتَفَقًا﴾ أَيْ: وَسَاءَتْ النَّار مَنْزِلًا، وَمَقِيلًا، وَمُجْتَمَعًا، وَمَوْضِعًا للارْتِفَاقِ، كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

لَـمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَال الأَشْقِيَاء ثَنَّى بِذِكْرِ السُّعَدَاء: الَّذِينَ آمَنُوا بالله، وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ، وَعَمِلُوا بِمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ مِنْ الأَعْمَال الصَّالِحَة، فَلَهُمْ جَنَّات عَدْن، وَالعَدْن: الإِقَامَة.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أَيْ: مِنْ تَحْت غُرَفهمْ وَمَنَازِلهمْ، قَال فِرْعَوْن: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ الآيَة. ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ أَيْ: مِنْ الحِلْيَة ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾، وَقَال فِي المَكَان الآخَر: ﴿وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾. وَفَصَّلهُ هَاهُنَا فَقَال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، فَالسُّنْدُس: ثِيَاب رِفَاع رِقَاق كَالقُمْصانِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا. وَأَمَّا الإِسْتَبْرَق: فَغَلِيظ الدِّيبَاج وَفِيهِ بَرِيق. وَقَوْله: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: الاتِّكَاء، قِيل: الاضْطِجَاع، وَقِيل: التَّرَبُّع فِي الجُلُوس، وَهُوَ أَشْبَه بِالمُرَادِ هَاهُنَا، وَمِنْهُ الحَدِيث الصَّحِيح: «**أَمَّا أَنَا فَلا آكُل مُتَّكِئًا**»[1] فِيهِ القَوْلانِ. وَالأَرَائِك: جَمْع أَرِيكَة، وَهِيَ السَّرِير تَحْت الحَجَلة، وَالحَجَلة: كَمَا يَعْرِفهُ النَّاس فِي زَمَانِنَا هَذَا بالباشخاناه، والله أَعْلَم.

قَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، قَال: هِيَ الحِجَال. قَال مَعْمَر: وَقَال غَيْره: السُّرُر فِي الحِجَال.

وَقَوْله: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أَيْ: نِعْمَتْ الجَنَّة ثَوَابًا عَلى أَعْمَالهمْ، ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أَيْ: حَسُنَتْ مَنْزِلًا وَمَقِيلًا وَمُقَامًا، كَمَا قَال فِي النَّار: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾، وَهَكَذَا قَابَل بَيْنَهُمَا فِي سُورَة الفُرْقَان فِي قَوْله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، ثُمَّ ذَكَرَ صِفَات المُؤْمِنِينَ فَقَال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾.

يَقُول تَعَالى بَعْد ذِكْره المُشْرِكِينَ المُسْتَكْبِرِينَ عَنْ مُجَالسَة الضُّعَفَاء، وَالمَسَاكِين مِنْ المُسْلِمِينَ، وَافْتَخَرُوا عَلَيْهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَحْسَابِهِمْ، فَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا بِرَجُلَيْنِ؛ جَعَل الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، أَيْ: بُسْتَانَيْنِ مِنْ أَعْنَاب مَحْفُوفَتَيْنِ بالنخل، المُحْدِقَة فِي جَنَبَاتِهِمَا، وَفِي خِلالهِمَا الزُّرُوع، وَكُلّ مِنْ الأَشْجَار، وَالزُّرُوع مُثْمِر مُقْبِل فِي غَايَة الجَوْدَة، وَلهَذَا قَال: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أَيْ: أَخْرَجَتْ ثَمَرهَا ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أَيْ: وَلَمْ تُنْقِص مِنْهُ شَيْئًا، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أَيْ: وَالأَنْهَار تخترق فِيهِمَا هَاهُنَا وَهَاهُنَا.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قِيل: المُرَاد بِهِ المَال. رُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَقَتَادَة. وَقِيل: الثِّمَار، وَهُوَ أَظْهَر هَاهُنَا، وَيُؤَيِّدهُ القِرَاءَة الأُخْرَى: (وَكَانَ لهُ ثُمْر) بِضَمِّ الثَّاء وَتَسْكِين المِيم، فَيَكُون جَمْع ثَمَرَة، كَخَشَبَةٍ وَخُشْب.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٣٩٨).

وَقَرَأَ آخَرُونَ ﴿ثَمَرٌ﴾ بِفَتْحِ الثَّاء وَالمِيم ﴿فَقَالَ﴾ أَيْ: صَاحِب هَاتَيْنِ الجَنَّتَيْنِ ﴿لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أَيْ: يُجَادِلُهُ وَيُخَاصِمهُ، يَفْتَخِر عَلَيْهِ وَيَتَرَأَّس: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أَيْ: أَكْثَر خَدَمًا وَحَشَمًا وَوَلَدًا. قَالَ قَتَادَة: تِلْكَ وَالله أُمْنِيَة الفَاجِر: كَثْرَة المَال وَعِزَّة النَّفَر.

وَقَوْله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أَيْ: بِكُفْرِهِ، وَتَمَرُّده، وَتَكَبُّره، وَتَجَبُّره، وَإِنْكَاره المَعَاد ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وَذَلِكَ اغْتِرَار مِنْهُ، لَمَّا رَأَى فِيهَا مِنَ الزُّرُوع وَالثِّمَار وَالأَشْجَار، وَالأَنْهَار المُطَّرِدَة فِي جَوَانِبهَا وَأَرْجَائِهَا، ظَنَّ أَنَّهَا لا تَفْنَى وَلا تَفْرُغ وَلا تَهْلك وَلا تَتْلف، وَذَلِكَ لِقِلَّةِ عَقْله، وَضَعْف يَقِينه بالله، وَإِعْجَابه بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتهَا، وَكُفْره بِالآخِرَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أَيْ: كَائِنَة، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أَيْ: وَلَئِنْ كَانَ مَعَاد وَرَجْعَة وَمَرَدّ إِلَى الله، لَيَكُونَنَّ لِي هُنَاكَ أَحْسَن مِنْ هَذَا لأَنِي محظي عِنْد رَبِّي، وَلَوْلا كَرَامَتِي عَلَيْهِ مَا أَعْطَانِي هَذَا، كَمَا قَالَ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، وَقَالَ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أَيْ: فِي الدَّار الآخِرَة، تَأَلَّى عَلَى الله ﷿. وَكَانَ سَبَب نُزُولهَا فِي العَاصِ بْن وَائِل، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانه فِي مَوْضِعه إِنْ شَاءَ الله تعالى، وَبِهِ الثِّقَة وَعَلَيْهِ التُّكْلان.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا أَجَابَهُ بِهِ صَاحِبه المُؤْمِن، وَاعِظًا لَهُ، وَزَاجِرًا عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الكُفْر بالله وَالاغْتِرَار: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾، وَهَذَا إِنْكَار وَتَعْظِيم لِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ جُحُود رَبّه الَّذِي خَلَقَهُ وَابْتَدَأَ خَلق الإِنْسَان مِنْ طِين، وَهُوَ آدَم ثُمَّ جَعَل نَسْله مِنْ سُلالَة مِنْ مَاء مَهِين، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾. أَيْ: كَيْف تَجْحَدُونَ رَبّكُمْ وَدَلالته عَلَيْكُمْ ظَاهِرَة جَلِيَّة، كُلّ أَحَد يَعْلمهَا مِنْ نَفْسه، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَد مِنَ المَخْلُوقَات إِلَّا وَيَعْلم أَنَّهُ كَانَ مَعْدُومًا ثُمَّ وُجِدَ، وَلَيْسَ وُجُوده مِنْ نَفْسه، وَلا مُسْتَنِدًا إِلَى شَيْء مِنَ المَخْلُوقَات؛ لأَنَّهُ بِمَثَابَتِهِ، فَعُلِمَ إِسْنَاد إِيجَاده إِلَى خَالقه، وَهُوَ الله لا إِله إِلَّا هُوَ خَالق كُلّ شَيْء، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أَيْ: لَكِنْ أَنَا لا أَقُول بِمَقَالَتِك، بَل أَعْتَرِف لله بِالوَحْدَانِيَّة وَالرُّبُوبِيَّة ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أَيْ: بَل هُوَ الله المَعْبُود وَحْده لا شَرِيك لَهُ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾: هَذَا تَحْضِيض وَحَثّ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أَيْ: هَلَّا إِذ أَعْجَبَتْك حِين دَخَلتهَا وَنَظَرْت إِلَيْهَا، فحمد الله عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْك، وَأَعْطَاك مِنَ المَال أَوْ الوَلد مَا لمْ [يُعْطَهُ][1] غَيْرك، وَقُلت ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، وَلِهَذَا قَال بَعْض السَّلف: مَنْ أَعْجَبَهُ شَيْء مِنْ حَاله، أَوْ مَاله، أَوْ وَلده، فَليَقُل: مَا شَاءَ الله لا قُوَّة إِلَّا بالله. وَهَذَا مَأْخُوذ مِنْ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة. وَقَدْ رُوِيَ فِيهِ حَدِيث مَرْفُوع أَخْرَجَهُ الحَافِظ أَبُو يَعْلى المَوْصِليّ فِي مُسْنَده. حَدَّثَنَا جَرَّاح بْن مَخْلد، حَدَّثَنَا عُمَر بْن يُونُس، حَدَّثَنَا عِيسَى بْن عَوْن، حَدَّثَنَا عَبْد المَلك بْن زُرَارَة، عَنْ أَنَس ﵁ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَا أَنْعَمَ الله عَلَى عَبْد نِعْمَة

---

(١) فِي نسخة: [يعط].

مِنْ أَهْل أَوْ مَال أَوْ وَلد فيَقُول: مَا شَاءَ الله لا قُوَّة إلاَّ بالله» فيَرَى فِيهِ آفَة دُون المَوْت.[١] وَكَانَ يَتَأَوَّل هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

قَال الحَافِظ أَبُو الفَتْح الأَزْدِيّ: عِيسَى بْن عَوْن عَنْ عَبْد المَلك بْن زُرَارَة عَنْ أَنَس: لا يَصِحّ حَدِيثه. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة وَحَجَّاج؛ حَدَّثَنِي شُعْبَة عَنْ عَاصِم بْن عُبَيْد الله، عَنْ عُبَيْد مَوْلى أَبِي رُهْم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: **«أَلا أَدُلّك عَلى كَنْز مِنْ كُنُوز الجنَّة؟ لا حَوْل وَلا قُوَّة إلاَّ بالله»**. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيح عَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال لَهُ: **«أَلا أَدُلّك عَلى كَنْز مِنْ كُنُوز الجنَّة؟ لا حَوْل وَلا قُوَّة إلاَّ بالله»**[٢]. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا بكر بْن عِيسَى، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَة، عَنْ أَبِي بَلج، عَنْ عَمْرو بْن مَيْمُون، قَال: قَال أَبُو هُرَيْرَة: قَال لِي نبي الله ﷺ: **«يَا أَبَا هُرَيْرَة، أَلا أَدُلّك عَلى كَنْز مِنْ كُنُوز الجنَّة تَحْت العَرْش؟»**. قَال: قُلت: نعم، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي! قَال: «أَنْ تَقُول: **لا قُوَّة إلاَّ بالله**». قَال أَبُو بَلج: وَأَحْسَب أَنَّهُ قَال: «**فَإِنَّ الله يَقُول: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ**». قَال: فَقُلت لعَمْرو قَال أَبُو بَلج: قَال عَمْرو: قُلت لأَبِي هُرَيْرَة: لا حَوْل وَلا قُوَّة إِلَّا بالله؟ فقَال: لا، إِنَّهَا فِي سُورَة الكَهْف: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

وَقَوْله: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ أَيْ: فِي الدَّار الآخِرَة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أَيْ: عَلى جَنَّتك فِي الدُّنْيَا الَّتِي ظَنَنْت أَنَّهَا لا تَبِيد وَلا تَفْنَى ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قَال ابْن عَبَّاس، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَمَالك عَنْ الزُّهْرِيّ: أَيْ: عَذَابًا مِنْ السَّمَاء. وَالظَّاهِر: أَنَّهُ مَطَر عَظِيم مُزْعِج، يُقْلع زَرْعهَا وَأَشْجَارهَا، وَلهَذَا قَال: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أَيْ: بَلقَعًا تُرَابًا أَمْلس، لا يَثْبُت فِيهِ قَدَم. وَقَال ابْن عَبَّاس: كَالجُرُز الَّذِي لا يُنْبِت شَيْئًا.

وَقَوْله: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾ أَيْ: غَائِرًا فِي الأَرْض، وَهُوَ ضِدّ النَّابع الَّذِي يَطْلُب وَجْه الأَرْض، فَالغَائِر يَطْلُب أَسْفَلهَا، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أَيْ: جَارٍ وَسَائِح، وَقَال هَاهُنَا: ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ وَالغَوْر: مَصْدَر بِمَعْنَى غَائِر، وَهُوَ أَبْلغ مِنْهُ، كَمَا قَال الشَّاعِر:

تَظَلّ جِيَاده نَوْحًا عَلَيْهِ ❁ تُقَلّده أَعِنَّتهَا صُفُوفَا

بمَعْنَى: نَائِحَات عَلَيْهِ.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾.

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ بِأَمْوَالِهِ أَوْ بِثِمَارِهِ عَلى القَوْل الآخر، وَالمَقْصُود أَنَّهُ وَقَعَ بِهَذَا الكَافِر مَا كَانَ يَحْذَر مِمَّا خَوَّفَهُ بِهِ المُؤْمِن؛ مِنْ إِرْسَال الحُسْبَان عَلى جَنَّته الَّتِي اغْتَرَّ بِهَا وَأَلْهَتْهُ عَنْ الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ وَقَال قَتَادَة: يُصَفِّق كَفَّيْهِ مُتَأَسِّفًا مُتَلهِّفًا عَلى الأَمْوَال الَّتِي أَذْهَبَهَا عَلَيْهَا ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ ﴾ أَيْ: عَشِيرَة أَوْ وَلد كَمَا افْتَخَرَ بِهِمْ وَاسْتَعَزَّ ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ اخْتَلفَ القُرَّاء هَاهُنَا؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقِف عَلى قَوْله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ﴾ أَيْ: فِي ذَلكَ المَوْطِن الَّذِي حَلَّ بِهِ عَذَاب الله، فَلا مُنْقِذ لهُ مِنْهُ، وَيَبْتَدِئ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِف عَلى: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ وَيَبْتَدِئ بِقَوْلِهِ: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ﴾. ثُمَّ اخْتَلفُوا فِي قِرَاءَة ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾؛ فَمِنْهُمْ مَنْ فَتَح

---

(١) ضعيف : فيه عبد الملك بن زرارة: ضعيف، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٠١٢).

(٢) صحيح : حديث أبي موسي أخرجه البخاري (٤٢٠٥، ٦٤٠٩)، وحديث أبي هريرة له طرق. منها ما رواه أحمد (٢/ ٣٣٥)، والحاكم (١/ ٢١)، وصححه، ووافقه الذهبي.

الوَاو، فيَكُون المَعْنَى: هُنَالكَ المُوَالاة لله، أَيْ: هُنَالكَ كُلّ أَحَد من مُؤْمِن أَوْ كَافِر يَرْجِع إِلَى الله، وَإِلَى مُوَالاته وَالخُضُوع لهُ إِذَا وَقَعَ العَذَاب، كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ وَكَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ كَسَرَ الوَاو مِنْ ﴿الوِلَايَةُ﴾ أَيْ: هُنَالكَ الحُكْم لله الحَقّ، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ ﴿الحَقُّ﴾ عَلَى أَنَّهُ نَعْت للوَلَايَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، وَمِنْهُمْ مَنْ خَفَضَ القَاف عَلَى أَنَّهُ نَعْت لله عَزَّ وَجَلَّ كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أَيْ: جَزَاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أَيْ: الأَعْمَال الَّتِي تَكُون لله ﷻ ثَوَابهَا خَيْر، وَعَاقِبَتهَا حَمِيدَة رَشِيدَة، كُلّهَا خَيْر.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَٱضْرِبْ﴾ يَا مُحَمَّد للنَّاسِ ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فِي زَوَالهَا وَفَنَائِهَا وَانْقِضَائِهَا ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: مَا فِيهَا مِنْ الحَبّ فَشَبَّ وَحَسُنَ، وَعَلاهُ الزهو وَالنَّوْر وَالنَّضْرَة، ثُمَّ بَعْد هَذَا كُلّه ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يَابِسًا ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أَيْ: تُفَرِّقهُ وَتَطْرَحهُ ذَات اليَمِين وَذَات الشِّمَال، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أَيْ: هُوَ قَادِر عَلَى هَذِهِ الحَال وَهَذِهِ الحَال، وَكَثِيرًا مَا يَضْرِب الله مَثَل الحَيَاة الدُّنْيَا بِهَذَا المَثَل، كَمَا قَال تَعَالَى فِي سُورَة يُونُس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ الآيَة، وَقَال فِي الزُّمَر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وَقَال فِي سُورَة الحَدِيد: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾. وَفِي الحَدِيث الصَّحِيح: **«الدُّنْيَا حلوة خضرة»**.[1]

وَقَوْله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أَيْ: الإِقْبَال عَلَيْهِ وَالتَّفَرُّغ لعِبَادَتِهِ خَيْر لكُمْ مِنْ اشْتِغَالكُمْ بِهِمْ وَالجَمْع لهُمْ وَالشَّفَقَة المُفْرِطَة عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

قَال ابْن عَبَّاس وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: الصَّلَوَات الخَمْس. وَقَال عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس: البَاقِيَات الصَّالِحَات: سُبْحَان الله، وَالحَمْد لله، وَلا إِله إِلَّا الله، وَالله أَكْبَر. وَهَكَذَا سُئِل أَمِير المُؤْمِنِينَ عُثْمَان بْن عَفَّان ﷺ عَنْ البَاقِيَات الصَّالِحَات: مَا هِيَ؟ فَقَال: هن لا إِله إِلَّا الله، وَسُبْحَان الله وَالحَمْد لله وَالله أَكْبَر وَلا حَوْل وَلا قُوَّة إِلَّا بالله. رَوَاهُ الإِمَام أَحمد: حدثنا أَبُو عَبْد الرحمن المُقْرِئ، حَدَّثَنَا حَيْوَة، أنبأنا أَبُو عُقَيْل، أَنَّهُ سَمِعَ الحَارِث مَوْلَى عُثْمَان ﷺ يَقُول: جَلَسَ عُثْمَان يَوْمًا وَجَلَسْنَا مَعَهُ،

(١) صحيح: تقدم.

فَجَاءَهُ الْمُؤَذِّن، فَدَعَا بِمَاءٍ فِي إِنَاء أَظُنّهُ أنه سَيَكُونُ فِيهِ مُدّ فتوضَّأ، ثُمَّ قَال: رَأَيْت رَسُول اللهِ ﷺ يَتَوَضَّأ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ قَال: **«مَنْ تَوَضَّأَ وُضُوئِي هَذَا ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى صَلاة الظُّهْر، غُفِرَ لهُ مَا كَانَ بَيْنهَا وَبَيْن الصُّبْح، ثُمَّ صَلَّى العَصْر غُفِرَ لهُ مَا بَيْنهَا وَبَيْن الظُّهْر، ثُمَّ صَلَّى المَغْرِب غُفِرَ لهُ مَا بَيْنهَا وَبَيْن العَصْر، ثُمَّ صَلَّى العِشَاء غُفِرَ لهُ مَا بَيْنهَا وَبَيْن المَغْرِب، ثُمَّ لعَلَّهُ يَبِيت يَتَمَرَّغ ليْلته، ثُمَّ إِنْ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى صَلاة الصُّبْح غُفِرَ لهُ مَا بَيْنهَا وَبَيْن صَلاة العِشَاء، وهي الحَسَنَات يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات»**. قَالُوا: هَذِهِ الحَسَنَات، فَمَا البَاقِيَات الصَّالِحَات يَا عُثْمَان؟ قَال: هِيَ لا إله إِلَّا الله، وَسُبْحَان الله، وَالحَمْد لله، وَالله أَكْبَر، وَلا حَوْل وَلا قُوَّة إِلَّا بالله. تَفَرَّدَ بِهِ.[1]

وَرَوَى مَالك: عَنْ عُمَارَة بْن عَبْد الله بْن صَيَّاد، عَنْ سَعِيد بْن الْمُسَيِّب، قَال: البَاقِيَات الصَّالِحَات: سُبْحَان الله، وَالحَمْد لله، وَلا إِله إِلَّا الله، وَالله أَكْبَر، وَلا حَوْل وَلا قُوَّة إِلَّا بالله. وَقَال مُحَمَّد بْن عَجْلان: عَنْ عُمَارَة، قَال: سَأَلنِي سَعِيد بْن الْمُسَيِّب عَنْ البَاقِيَات الصَّالِحَات؟ فَقُلت: الصَّلاة وَالصِّيَام. قَال: لمْ تُصِبْ. فَقُلت: الزَّكَاة وَالحَجّ. فَقَال: لمْ تُصِبْ، وَلكِنَّهُنَّ الكَلِمَات الخَمْس: لا إِله إِلَّا الله، وَالله أَكْبَر، وَسُبْحَان الله، وَالحَمْد لله، وَلا حَوْل وَلا قُوَّة إِلَّا بالله. وَقَال ابْن جُرَيْج: عن مجاهد أَخْبَرَنِي عَبْد الله بْن عُثْمَان بْن خثيم، عَنْ نَافِع بن سَرْجِس أَنَّهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ سَأَل ابْن عُمَر عَنْ البَاقِيَات الصَّالِحَات؟ قَال: لا إِله إِلَّا الله، وَالله أَكْبَر، وَسُبْحَان الله، وَلا حَوْل وَلا قُوَّة إِلَّا بالله، قَال ابْن جُرَيْج: وَقَال عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح مِثْل ذَلكَ. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ الحَسَن وَقَتَادَة فِي قَوْله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قَال: لا إِله إِلَّا الله، وَالله أَكْبَر، وَالحَمْد لله، وَسُبْحَان الله؛ هُنَّ البَاقِيَات الصَّالِحَات.

قَال ابْن جَرِير: وَجَدْت فِي كِتَابِي: عَنْ الحَسَن بْن الصَّبَّاح البَزَّار، عَنْ أَبِي نَصْر التَّمَّار، عَنْ عَبْد العَزِيز بْن مُسْلم، عَنْ مُحَمَّد بْن عَجْلان، عَنْ سَعِيد الْمَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«سُبْحَان الله، وَالحَمْد لله، وَلا إله إلاَّ الله، وَالله أَكْبَر: هُنَّ البَاقِيَات الصَّالحَات»**[2]. قَال: وَحَدَّثَنِي يُونُس، أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنَا عَمْرو بْن الحَارِث، أَنَّ دَرَّاجًا أَبَا السَّمْح حَدَّثَهُ، عَنْ ابْن الهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«اسْتَكْثِرُوا مِنْ البَاقِيَات الصَّالحَات»**. قِيل: وَمَا هي يَا رَسُول الله؟ قَال: **«المِلَّة»**. قِيل: وَمَا هِيَ يَا رَسُول الله؟ قَال: **«التَّكْبِير، وَالتَّهْلِيل، وَالتَّسْبِيح، وَالحَمْد لله، وَلا حَوْل وَلا قُوَّة إلاَّ بالله»**[3]. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَد مِنْ حَدِيث دَرَّاج بِهِ. وبه قَال ابن وَهْب: أَخْبَرَنِي أَبُو صَخْر: أَنَّ عَبْد الله بْن عَبْد الرَّحْمَن مَوْلى سَالم بْن عَبْد الله حَدَّثَهُ قَال: أَرْسَلنِي سَالم إِلى مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، فَقَال: قُل لهُ: القَنِي عِنْد زَاوِيَة القَبْر، فَإِنَّ لي إِليْك حَاجَة. قَال: فَالتَقَيَا فَسَلَّمَ أَحَدهمَا عَلى الآخَر، ثُمَّ قَال سَالم: مَا تَعُدّ البَاقِيَات الصَّالحَات؟ فَقَال: لا إِله إِلَّا الله، وَسُبْحَان الله وَالله أَكْبَر، وَلا حَوْل وَلا قُوَّة إِلَّا بِالله، فَقَال لهُ سَالم: مَتَى جَعَلت فِيهَا لا حَوْل وَلا قُوَّة إِلَّا بالله؟ قَال: مَا زِلت أَجْعَلهَا. قَال: فَرَاجَعَهُ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلاثًا فَلمْ يَنْزِع، قَال: فأثبت. قَال سَالم: أَجَل فأثبت، فَإِنَّ أَبَا أَيُّوب الأَنْصَارِيّ حَدَّثَنِي أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ وهُوَ يَقُول: **«عُرِجَ بي إِلى السَّمَاء، فَرَأَيْت إِبْرَاهِيم عليه السلام، فَقَال: يَا جِبْرِيل، مَنْ هَذَا مَعَكَ؟ فَقَال: مُحَمَّد. فَرَحَّبَ بي وسهل، ثُمَّ قَال: مُرْ أُمَّتك فَلتُكْثِرْ مِنْ غِرَاس الجَنَّة، فَإِنَّ تُرْبَتهَا طَيِّبَة، وَأَرْضهَا وَاسِعَة. فَقُلت: وَمَا غِرَاس الجَنَّة؟ قَال: لا حَوْل وَلا قُوَّة إلاَّ بالله»**.[4]

---

(١) **صحيح**: تقـدم.

(٢) **حسـن**: أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٥٥)، وإسناده حسن من أجل ابن عجلان: فإنه صدوق.

(٣) **حسن لغيره**: أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٥٥) بإسناد ضعيف، وفيه دراج أبو السمح، وروايته عن أبي الهيثم ضعيفة، ويشهد له الحديث السابق.

(٤) **حسن لغيره**: أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٥٥)، وأحمد (٥/ ٤١٨).

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَزِيد، عَنْ العَوَّام، حَدَّثَنِي رَجُل مِنْ الأَنْصَار مِنْ آل النُّعْمَان بْن بَشِير، عن النعمان بن بشير قَال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُول الله ﷺ وَنَحْنُ فِي المَسْجِد بَعْد صَلاة العِشَاء، فَرَفَعَ بَصَره إِلى السَّمَاء، ثُمَّ خَفَض حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فِي السَّمَاء شَيْء، ثُمَّ قَال: «أَمَا أَنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاء يَكْذِبُونَ وَيَظْلِمُونَ، فَمَنْ صَدَّقَهُم بِكِذْبِهِمْ وَمَالأَهُمْ عَلى ظُلمهمْ فَليْسَ مِنِّي، ولا أنا مِنْهُ، وَمَنْ لمْ يُصَدِّقهُمْ بِكِذْبِهِمْ، وَلمْ يُمالئهُمْ عَلى ظُلمهمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، أَلا وَإِنَّ سُبْحَان الله، وَالحَمْد لله، وَلا إِله إلاَّ الله، وَالله أَكْبَر هُنَّ البَاقِيَات الصَّالحَات»[(١)].

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا أَبَان، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير، عَنْ زَيْد، عَنْ أَبِي سَلَّام، عَنْ مَوْلَى لرَسُول الله ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«بَخٍ بَخٍ! لخَمْسٍ مَا أَثْقَلهنَّ فِي المِيزَان: لا إِله إلاَّ الله، وَالله أَكْبَر، وَسُبْحَان الله، وَالحَمْد لله، وَالوَلد الصَّالح يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبهُ وَالده»**. وَقَال: **«بَخٍ بَخٍ! لخَمْسٍ مَنْ لقِيَ الله مُسْتَيْقِنًا بِهِنَّ دَخَل الجَنَّة: يُؤْمِن بالله، وَاليَوْم الآخِر، وَبِالجَنَّةِ وَبِالنَّارِ، وَبِالبَعْثِ بَعْد المَوْت، وَبِالحِسَابِ»**[(٢)].

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا رَوْح، حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيّ، عَنْ حَسَّان بْن عَطِيَّة قَال: كَانَ شَدَّاد بْن أَوْس رضي الله عنه فِي سَفَر فَنَزَل مَنْزِلًا فَقَال لغُلامِهِ: ائْتِنَا بِالشَّفْرَةِ نَعْبَث بِهَا. فأنكرت عَليْهِ، فَقَال: مَا تَكَلَّمْت بِكَلِمَةٍ مُنْذُ أَسْلمْت إِلَّا وَأَنَا أَخْطِمهَا وَأَزُمّهَا غَيْر كَلمَتِي هَذِهِ، فَلا تَحْفَظُوهَا عَليَّ وَاحْفَظُوا مَا أَقُول لكُمْ: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«إِذَا كَنَزَ النَّاس الذَّهَب وَالفِضَّة، فَاكْنِزُوا هَؤُلاءِ الكَلمَات: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلك الثَّبَات فِي الأَمْر، وَالعَزِيمَة عَلى الرُّشْد، وَأَسْأَلك شُكْر نِعْمَتك، وَأَسْأَلك حُسْن عِبَادَتك، وَأَسْأَلك قَلبًا سَليمًا، وَأَسْأَلك لسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلك مِنْ خَيْر مَا تَعْلم، وَأَعُوذ بِك مِنْ شَرّ مَا تَعْلم، وَأَسْتَغْفِرك لمَا تَعْلم، إِنَّك أَنْتَ عَلَّام الغُيُوب»**[(٣)]. ثُمَّ رَوَاهُ أَيْضًا النَّسَائِيّ مِنْ وَجْه آخر عَنْ شَدَّاد بِنَحْوِهِ.

وَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن نَاجِيَة، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سَعْد العَوْفِيّ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا عمي الحُسَيْن، عَنْ يُونُس بْن نُفَيْع الجَدَليّ، عَنْ سَعْد بْن جُنَادَة رضي الله عنه قَال: كُنْت فِي أَوَّل مَنْ أَتَى النَّبِيّ ﷺ مِنْ أَهْل الطَّائِف، فَخَرَجْت مِنْ أَعْلى الطَّائِف مِنْ السَّرَاة غُدْوَة، فَأَتَيْت مِنًى عِنْد العَصْر، فَتَصَاعَدْت فِي الجَبَل ثُمَّ هَبَطْت، فَأَتَيْت النَّبِيّ ﷺ فَأَسْلمْت وَعَلَّمَنِي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ وَعَلَّمَنِي هَؤُلاءِ الكَلمَات: سُبْحَان الله، وَالحَمْد لله، وَلا إِله إِلَّا الله، وَالله أَكْبَر، وَقَال: «هُنَّ البَاقِيَات الصَّالحَات». وَبِهَذَا الإِسْنَاد: «مَنْ قَامَ مِنْ اللَّيْل فَتَوَضَّأَ وَمَضْمَضَ فَاهُ، ثُمَّ قَال: سُبْحَان الله مِائَة مَرَّة، وَالحَمْد لله مِائَة مَرَّة، وَالله أَكْبَر مِائَة مَرَّة، وَلا إِله إلاَّ الله مِائَة مَرَّة، غُفِرَتْ ذُنُوبه إلاَّ الدِّمَاء؛ فَإِنَّهَا لا تَبْطُل»[(٤)].

وَقَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس قَوْله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قَال: هِيَ ذِكْر الله؛ قَوْل: لا إِله إِلَّا الله، وَالله أَكْبَر، وَسُبْحَان الله، وَالحَمْد لله، وَتَبَارَكَ الله، وَلا حَوْل وَلا قُوَّة إِلَّا بِالله، وَأَسْتَغْفِر الله، وَصَلَّى الله عَلى رَسُول الله، وَالصِّيَام، وَالصَّلاة، وَالحَجّ، وَالصَّدَقَة، وَالعِتْق، وَالجِهَاد، وَالصِّلة، وَجَمِيع أَعْمَال الحَسَنَات، وَهُنَّ البَاقِيَات الصَّالحَات الَّتِي تَبْقَى لأَهْلهَا فِي الجَنَّة مَا دَامَتْ السَّمَاوَات وَالأَرْض. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: هن الكَلام الطَّيِّب. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ: هِيَ الأَعْمَال الصَّالحَة كُلّهَا. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير رحمه الله.

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧)، وفيه رجل لم يسم.

(٢) صححه الألباني في «الصحيحة» (١٢٠٤).

(٣) صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» (٣٢٢٨).

(٤) إسناده ضعيف: أخرجه الطبراني (٥٤٨٤) وفيه الحسين بن الحسن العوفي: ضعيف.

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ أَهْوَال يَوْم القِيَامَة، وَمَا يَكُون فِيهِ مِنْ الأُمُور العِظَام، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾، أَيْ: تَذْهَب مِنْ أَمَاكِنهَا وَتَزُول، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾، وَقَال: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ يَذْكُر تَعَالَى أنه تَذْهَب الجِبَال، وَتَتَسَاوَى المِهَاد، وَتَبْقَى الأَرْض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ أَيْ: سَطْحًا مُسْتَوِيًا لا عِوَج فِيهِ ﴿وَلَا أَمْتًا ﴾، أَيْ: لا وَادِي وَلا جَبَل، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ أَيْ: بَادِيَة ظَاهِرَة، لَيْسَ فِيهَا مَعْلَم لأَحَدٍ، وَلا مَكَان يُوَارِي أَحَدًا، بَل الخَلْق كُلّهمْ ضَاحُونَ لِرَبِّهِمْ، لا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَة. قَال مُجَاهِد وَقَتَادَة: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ لا خمر فِيهَا وَلا غَيَابَة. قَال قَتَادَة: لا بِنَاء وَلا شَجَر.

وَقَوْله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾، أَيْ: وَجَمَعْنَاهُمْ؛ الأَوَّلِينَ مِنْهُمْ وَالآخِرِينَ، فَلَمْ نَتْرُك مِنْهُمْ أَحَدًا، لا صَغِيرًا وَلا كَبِيرًا، كَمَا قَال: ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾، وَقَال: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾. وَقَوْله: ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ يَحْتَمِل أَنْ يَكُون المُرَاد: أَنَّ جَمِيع الخَلائِق يَقُومُونَ بَيْن يَدَيْ الله صَفًّا وَاحِدًا، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾، وَيَحْتَمِل أَنَّهُمْ يَقُومُونَ صُفُوفًا صُفُوفًا كَمَا قَال: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾. وَقَوْله: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ هَذَا تَقْرِيع لِلْمُنْكِرِينَ لِلْمَعَادِ، وَتَوْبِيخ لَهُمْ عَلى رُءُوس الأَشْهَاد، وَلِهَذَا قَال مُخَاطِبًا لَهُمْ: ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ أَيْ: مَا كَانَ ظَنّكُمْ أَنَّ هَذَا وَاقِع بِكُمْ وَلا أَنَّ هَذَا كَائِن.

وَقَوْله: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ أَيْ: كِتَاب الأَعْمَال الَّذِي فِيهِ الجَلِيل وَالحَقِير وَالفَتِيل وَالقِطْمِير، وَالصَّغِير وَالكَبِير، ﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أَيْ: مِنْ أَعْمَالهمْ السَّيِّئَة وَأَفْعَالهمْ القَبِيحَة، ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ﴾ أَيْ: يَا حَسْرَتنَا وَوَيْلنَا عَلى مَا فُرِّطَ فِي أَعْمَارنَا ﴿ مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ﴾ أَيْ: لا يَتْرُك ذَنْبًا صَغِيرًا وَلا كَبِيرًا، وَلا عَمَلًا وَإِنْ صَغُرَ إِلَّا أَحْصَاهَا، أَيْ: ضَبَطَهَا وَحَفِظَهَا. وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ بِإِسْنَادِهِ المُتَقَدِّم فِي الآيَة قَبْلهَا إِلى سَعْد بن جُنَادَة قَال: لَـمَّا فَرَغَ رَسُول الله ﷺ مِنْ غَزْوَة حُنَيْن، نَزَلْنَا قَفْرًا مِنْ الأَرْض لَيْسَ فِيهِ شَيْء، فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «اجْمَعُوا، مَنْ وَجَدَ عُودًا فَلْيَأْتِ بِهِ، وَمَنْ وَجَدَ حَطَبًا أَوْ شَيْئًا فَلْيَأْتِ بِهِ». فَمَا كَانَ إِلَّا سَاعَة حَتَّى جَعَلْنَاهُ رُكَامًا، فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذَا؟ فَكَذَلِكَ تُجْمَع الذُّنُوب عَلى الرَّجُل مِنْكُمْ كَمَا جَمَعْتُمْ هَذَا، فَلْيَتَّقِ الله رَجُل، وَلا يُذْنِب صَغِيرَة وَلا كَبِيرَة، فَإِنَّهَا مُحْصَاة عَلَيْهِ».(١)

وَقَوْله: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ﴾ أَيْ: مِنْ خَيْر وَشَرّ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ﴾. وَقَال تَعَالَى: ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ وَقَال تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ أَيْ: تَظْهَر المُخَبَّآت وَالضَّمَائِر.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيد، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاء**

(١) ضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٤٧٢).

يَوْم القِيَامَة يُعْرَف بِهِ»[1]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَفِي لَفْظ: «**يُرْفَع لكُلِّ غَادِرٍ لوَاء يَوْم القِيَامَة عِنْد اسْته بِقَدْرِ غَدْرَته، يُقَال: هَذِهِ غَدْرَة فُلان ابن فُلان**».

وَقَوْله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، أَيْ: فَيَحْكُم بَيْن عِبَاده فِي أَعْمَالهمْ جَمِيعًا، وَلا يَظْلِم أَحَدًا مِنْ خَلقه، بَل يَغْفِر وَيَصْفَح، وَيَرْحَم، وَيُعَذِّب مَنْ يَشَاء بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَته وَعَدْله، وَيَمْلأ النَّار مِنْ الكُفَّار وَأَصْحَاب المَعَاصِي، ثُمَّ يُنَجِّي أَصْحَاب المَعَاصِي وَيُخَلِّد فِيهَا الكَافِرِينَ، وَهُوَ الحَاكِم الَّذِي لا يَجُور وَلا يَظْلم، قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وَقَال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾. وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، أَخْبَرَنَا هَمَّام بْن يَحْيَى، عَنْ القَاسِم بْن عَبْد الوَاحِد المَكِّيّ، عَنْ عَبْد الله بْن مُحَمَّد ابْن عُقَيْل، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِر بْن عَبْد الله يَقُول: بَلغَنِي حَدِيث عَنْ رَجُل سَمِعَهُ مِنْ النَّبِيّ ﷺ فَاشْتَرَيْت بَعِيرًا ثُمَّ شَدَدْت عَليْهِ رَحْلي، فَسِرْت عَليْهِ شَهْرًا حَتَّى قَدِمْت عَليْهِ الشَّام، فَإِذَا عَبْد الله بْن أُنَيْس، فَقُلت للبَوَّابِ: قُل لهُ: جَابِر عَلى البَاب. فَقَال: ابْن عَبْد الله؟ فقُلت: نَعَمْ. فَخَرَجَ يَطَأ ثَوْبه فَاعْتَنَقَنِي وَاعْتَنَقْته، فَقُلت: حَدِيث بَلغَنِي عَنْك أَنَّك سَمِعْته مِنْ رَسُول الله ﷺ فِي القِصَاص، فَخَشِيت أَنْ تَمُوت أَوْ أَمُوت قَبْل أَنْ أَسْمَعهُ. فَقَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**يَحْشُر الله عَزَّ وَجَلَّ النَّاس يَوْم القِيَامَة -أَوْ قَال: العِبَاد- عُرَاة غُرْلاً بُهْمًا**». قُلت: وَمَا «**بُهْمًا**»؟. قَال: ليْسَ مَعَهُمْ شَيْء «**ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعهُ مَنْ بَعُدَ، كَمَا يَسْمَعهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا المَلِك، أَنَا الدَّيَّان، لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْل النَّار أَنْ يَدْخُل النَّار وَلهُ عِنْد أَحَد مِنْ أَهْل الجَنَّة حَقّ حَتَّى أقصه مِنْهُ، وَلا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْل الجَنَّة أَنْ يَدْخُل الجَنَّة وَلهُ عِنْد رَجُل مِنْ أَهْل النَّار حَقّ حَتَّى أقصه مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَة**». قَال: قُلنَا: كَيْف وَإِنَّمَا نَأْتِي الله ﷻ حُفَاة عُرَاة غُرْلًا بُهْمًا؟ قَال: «**بِالحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَات**»[2]. وَعَنْ شُعْبَة عَنْ العَوَّام بْن مُزَاحِم، عَنْ أَبِي عُثْمَان، عَنْ عُثْمَان بْن عَفَّان رضي الله عنه أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**إِنَّ الجَمَّاء لتَقْتَصّ مِنْ القَرْنَاء يَوْم القِيَامَة**».[3] رَوَاهُ عَبْد الله بْن الإِمَام أَحْمَد، وَلهُ شَوَاهِد مِنْ وُجُوه أُخَر، وَقَدْ ذَكَرْنَاهَا عِنْد قَوْله تَعَالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ وَعِنْد قَوْله تَعَالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

يَقُول تَعَالى مُنَبِّهًا بَنِي آدَم عَلى عَدَاوَة إِبْليس لهُمْ وَلأَبِيهِمْ مِنْ قَبْلهمْ، وَمُقَرِّعًا لمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْهُمْ، وَخَالفَ خَالقه وَمَوْلاهُ، الَّذِي أَنْشَأَهُ وَابْتَدَاهُ بِأَلطاف رَزَقَهُ غَذَّاهُ، ثُمَّ بَعْد هَذَا كُلّه وَالى إِبْليس، وَعَادَى الله، فَقَال تَعَالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟﴾ أَيْ: لجَمِيع المَلائِكَة كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيره فِي أَوَّل سُورَة البَقَرَة ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ أَيْ: سُجُود تَشْرِيف وَتَكْرِيم وَتَعْظِيم، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾.

وَقَوْله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أَيْ: خَانَهُ أَصْله، فَإِنَّهُ خُلقَ مِنْ مَارِج مِنْ نَار، وَأَصْل خَلق المَلائِكَة مِنْ نُور، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيح مُسْلم عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «**خُلقَتْ المَلائِكَة مِنْ**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٨٧)، ومسلم (١٧٢٧) من حديث أنس.
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٥١٤).
(٣) صحيح: تقـدم.

نُور، وَخُلقَ إِبْلِيس مِنْ مَارِج مِنْ نَار، وَخلقَ آدم مِمَّا وُصِفَ لكُمْ»[1]. فَعِنْد الحَاجَة نَضَحَ كُلّ وِعَاء بِمَا فِيهِ، وَخَانَهُ الطَّبْع عِنْد الحَاجَة، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ تَوَسَّمَ بِأَفْعَال المَلَائِكَة، وَتَشَبَّهَ بِهِمْ وَتَعَبَّدَ وَتَنَسَّكَ، فَلهَذَا دَخل فِي خِطَابِهِمْ وَعَصَى بِالْمُخَالفَةِ. وَنَبَّهَ تَعَالى هَاهُنَا على أَنَّهُ مِنْ الجِنّ، أَيْ: علِما أَنَّهُ خُلقَ مِنْ نَار، كَمَا قَال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، قَال الحَسَن البَصْرِيّ: مَا كَانَ إِبْلِيس مِنْ المَلَائِكَة طَرْفَة عَيْن قَطُّ، وَإِنَّهُ لأَصْل الجِنّ، كَمَا أَنَّ آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ أَصْل البَشَر. رَوَاهُ ابْن جَرِير بِإِسْنَادٍ صَحِيح.

وَقَال الضَّحَّاك عَنْ ابْن عَبَّاس: كَانَ إِبْلِيس مِنْ حَيّ مِنْ أَحْيَاء المَلَائِكَة، يُقَال لهُمْ الجِنّ خُلقُوا مِنْ نَار السَّمُوم مِنْ بَيْن المَلَائِكَة، قال: وَكَانَ اسْمه الحَارِث، وَكَانَ خَازِنًا مِنْ خُزَّانِ الجَنَّة، وَخُلقَتْ المَلَائِكَة مِنْ نُور غَيْر هَذَا الحَيّ. قَال: وَخُلقَتْ الجِنّ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي القُرْآن مِنْ مَارِج مِنْ نَار، وَهُوَ لسَان النَّار الَّذِي يَكُون فِي طَرَفهَا إِذَا التَهَبَتْ. وَقَال الضَّحَّاك أَيْضًا عَنْ ابْن عَبَّاس: كَانَ إِبْلِيس مِنْ أشراف المَلَائِكَة وَأَكْرَمهمْ قَبِيلة، وَكَانَ خَازِنًا على الجِنَان، وَكَانَ لهُ سُلطَان السَّمَاء الدُّنْيَا وَسُلطَان الأَرْض، وَكَانَ مِمَّا سَوَّلتْ لهُ نَفْسه مِنْ قَضَاء الله: أَنَّهُ رَأَى أَنَّ لهُ بِذَلكَ شَرَفًا على أَهْل السَّمَاء، فَوَقَعَ مِنْ ذَلكَ فِي قَلبه كِبْر لا يَعْلمهُ إِلَّا الله، وَاسْتَخْرَجَ الله ذَلكَ الكِبْر مِنْهُ حيث أَمَرَهُ بِالسُّجُودِ لآدَم: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾. قَال ابْن عَبَّاس: وقَوْله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أَيْ: مِنْ خُزَّانِ الجِنَان، كَمَا يُقَال للرَّجُل: مَكِّيّ، وَمَدَنِيّ، وَبَصْرِيّ، وَكُوفِيّ. وَقَال ابْن جُرَيْج، عَنْ ابْن عَبَّاس نَحْو ذَلكَ. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: هُوَ مِنْ خُزَّانِ الجَنَّة، وَكَانَ يُدَبِّر أَمْر السَّمَاء الدُّنْيَا. رَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث الأَعْمَش عَنْ حَبِيب بْن أَبِي ثَابِت عَنْ سَعِيد بِهِ. وَقَال سَعِيد بْن المُسَيِّب: كَانَ رَئِيس مَلَائِكَة سَمَاء الدُّنْيَا. وَقَال ابْن إِسْحَاق عَنْ خَلَّاد بْن عَطَاء، عَنْ طَاوُس، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كَانَ إِبْلِيس قَبْل أَنْ يَرْكَب المَعْصِيَة مِنْ المَلَائِكَة اسْمه عزازيل، وَكَانَ مِنْ سُكَّان الأَرْض، وَكَانَ مِنْ أَشَدّ المَلَائِكَة اجْتِهَادًا وَأَكْثَرهمْ عِلمًا، فَذَلكَ دَعَاهُ إِلى الكِبْر، وَكَانَ مِنْ حَيّ يُسَمَّوْنَ: حِنًّا. وَقَال ابْن جُرَيْج، عَنْ صَالح مَوْلى التَّوْأَمَة، وَشَرِيك بْن أَبِي نَمِر -أَحَدهمَا أَوْ كِلاهُمَا- عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: إِنَّ مِنْ المَلَائِكَة قَبِيلة مِنْ الجِنّ، وَكَانَ إِبْلِيس مِنْهَا، وَكَانَ يَسُوس مَا بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض، فَعَصَى، فَسَخِطَ الله عَليْهِ، فَمَسَخَهُ شَيْطَانًا رَجِيمًا، لعَنَهُ الله مَمْسُوخًا. قَال: وَإِذَا كَانَتْ خَطِيئَة الرَّجُل فِي كِبْر فَلا تَرْجُهُ، وَإِذَا كَانَتْ فِي مَعْصِيَة فَارْجُهُ. وَعَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر أَنَّهُ قَال: كَانَ مِنْ الجَنَّانِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي الجَنَّة. وَقَدْ رُوِيَ فِي هَذَا آثَار كَثِيرَة عَنْ السَّلف، وَغَالبهَا مِنْ الإِسْرَائِيليَّات الَّتِي تُنْقَل ليُنْظَر فِيهَا، وَالله أَعْلم بِحَال كَثِير مِنْهَا، وَمِنْهَا مَا قَدْ يُقْطَع بِكَذِبِهِ؛ لمُخَالفَتِهِ الحَقّ الَّذِي بِأَيْدِينَا، وَفِي القُرْآن غُنْيَة عَنْ كُلّ مَا عَدَاهُ مِنْ الأَخْبَار المُتَقَدِّمَة؛ لأَنَّهَا لا تَكَاد تَخْلُو مِنْ تَبْدِيل وَزِيَادَة وَنُقْصَان، وَقَدْ وُضِعَ فِيهَا أَشْيَاء كَثِيرَة، وَليْسَ لهُمْ مِنْ الحُفَّاظ المُتْقِنِينَ الَّذِينَ يَنْفُونَ عَنْهَا تَحْرِيف الغَالينَ وَانْتِحَال المُبْطِلينَ، كَمَا لهَذِهِ الأُمَّة مِنْ الأَئِمَّة العُلمَاء، وَالسَّادَة الأَتْقِيَاء، وَالبَرَرَة النُّجَبَاء، مِنْ الجَهَابِذَة النُّقَّاد، وَالحُفَّاظ الجِيَاد، الَّذِينَ دَوَّنُوا الحَدِيث وَحَرَّرُوهُ، وَبَيَّنُوا صَحِيحه مِنْ حَسَنه، مِنْ ضَعِيفه مِنْ مُنْكَره، وَمَوْضُوعه وَمَتْرُوكه وَمَكْذُوبه، وَعَرَّفُوا الوَضَّاعِينَ وَالكَذَّابِينَ وَالمَجْهُولينَ، وَغَيْر ذَلكَ مِنْ أَصْنَاف الرِّجَال، كُلّ ذَلكَ صِيَانَة للجَنَابِ النَّبَوِيّ وَالمَقَام المُحَمَّدِيّ، خَاتَم الرُّسُل وَسَيِّد البَشَر ﷺ أَنْ يُنْسَب إِليْهِ كَذِب، أَوْ يُحَدَّثُ عَنْهُ بِمَا ليْسَ مِنْهُ، فَرَضِيَ الله عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَجَعَل جَنَّات الفِرْدَوْس مَأْوَاهُمْ، وَقَدْ فَعَل.

وَقَوْله: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾، أَيْ: فَخَرَجَ عَنْ طَاعَة الله؛ فَإِنَّ الفِسْق: هُوَ الخُرُوج، يُقَال: فَسَقَتْ الرَّطْبَة، إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَكْمَامهَا، وَفَسَقَتْ الفَأْرَة مِنْ جُحْرهَا، إِذَا خَرَجَتْ مِنْهُ للعَيْثِ وَالفَسَاد. ثُمَّ قَال تَعَالى مُقَرِّعًا وَمُوَبِّخًا

---

(١) صحيح: تقدم.

لِمَنْ اتَّبَعَهُ وَأَطَاعَهُ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ أَيْ: بَدَلًا عَنِّي؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾. وَهَذَا المَقَام كَقَوْلِهِ بَعْد ذِكْر القِيَامَة وَأَهْوَالهَا، وَمَصِير كُلّ مِنْ الفَرِيقَيْنِ؛ السُّعَدَاء وَالأَشْقِيَاء فِي سُورَة يس: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾.

﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾.

يَقُول تَعَالَى: هَؤُلاءِ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ أَوْلِيَاء مِنْ دُونِي عَبِيد أَمْثَالكُمْ، لا يَمْلكُونَ شَيْئًا؛ لا أَشْهَدْتهمْ خلقي للسماوات وَالأَرْض، وَلا كَانُوا إِذْ ذَاكَ مَوْجُودِينَ؛ يَقُول تَعَالَى: أَنَا المُسْتَقِلّ بِخَلْقِ الأَشْيَاء كُلّهَا، وَمُدَبِّرهَا وَمُقَدِّرهَا وَحْدِي، لَيْسَ مَعِي فِي ذَلِكَ شَرِيك وَلا وَزِير، وَلا مُشِير وَلا نَظِير، كَمَا قَالَ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ الآيَة. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ قَال مَالك: أَعْوَانًا.

﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُخَاطِب بِهِ المُشْرِكِينَ يَوْم القِيَامَة عَلَى رُءُوس الأَشْهَاد، تَقْرِيعًا لَهُمْ وَتَوْبِيخًا: ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ أَيْ: فِي دَار الدُّنْيَا، ادْعُوهُمْ اليَوْم يُنْقِذُونكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾. وَقَوْله: ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾. وَقَالَ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾.

وَقَوْله: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾ قَال ابْن عَبَّاس وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد: مهادًا. وَقَال قَتَادَة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عَمْرًا البِكَالِيّ حَدَّثَ عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو قَال: هُوَ وَادٍ عَمِيق، فُرِّقَ بِهِ يَوْم القِيَامَة بَيْن أَهْل الهُدَى وَأَهْل الضَّلالَة. وَقَال قَتَادَة: ﴿مَّوۡبِقٗا﴾: وَادِيًا فِي جَهَنَّم. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن سِنَان القَزَّاز، حَدَّثَنَا عَبْد الصَّمَد، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن رهم، سَمِعْت أَنَس بْن مَالك يَقُول فِي قَوْل الله تَعَالَى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا﴾، قَال: وَادٍ فِي جَهَنَّم مِنْ قَيْح وَدَم. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: ﴿مَّوۡبِقٗا﴾ : عَدَاوَة. وَالظَّاهِر مِنْ السِّيَاق هَاهُنَا: أَنَّهُ المَهْلك، وَيَجُوز أَنْ يَكُون وَادِيًا فِي جَهَنَّم أَوْ غَيْره، إلا أَنَّ الله تَعَالَى أخبر أَنَّهُ لا سَبِيل لِهَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ، وَلا وُصُول لَهُمْ إِلَى آلهتهمْ الَّتِي كَانُوا يَزْعُمُونَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ يُفَرِّق بَيْنهمْ وَبَيْنهَا فِي الآخِرَة، فَلا خَلاص لواحد مِنْ الفَرِيقَيْنِ إِلَى الآخَر، بَل بَيْنهمَا مَهْلك، وَهَوْل عَظِيم وَأَمْر كَبِير.

وَأَمَّا إِنْ جَعَل الضَّمِير فِي قَوْله: ﴿بَيۡنَهُمَاۖ﴾ عَائِدًا إِلَى المُؤْمِنِينَ وَالكَافِرِينَ، كَمَا قَال عَبْد الله بْن عَمْرو: إِنَّهُ يُفَرِّق بَيْن أَهْل الهُدَى وَالضَّلالَة بِهِ. فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾. وَقَال: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾. وَقَال تَعَالَى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾، أَيْ: أَنَّهُمْ لَمَّا عَايَنُوا جَهَنَّم حِين جِيءَ بِهَا، تُقَاد بِسَبْعِينَ أَلْف زِمَام، مَعَ كُلّ زِمَام سَبْعُونَ أَلْف مَلك، فَإِذَا رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّار تَحَقَّقُوا لا مَحَالة أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَاب تَعْجِيل الهَمّ وَالحَزَن لَهُمْ، فَإِنَّ تَوَقُّع العَذَاب وَالخَوْف مِنْهُ قَبْل وُقُوعه عَذَاب نَاجِز. وَقَوْله: ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أَيْ: وليْسَ لَهُمْ طَرِيق يَعْدِل بِهِمْ عَنْهَا، وَلا بُدّ لَهُمْ مِنْهَا.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يُونُس، أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن الحَارِث، عَنْ دَرَّاج، عَنْ أَبِي الهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد، عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «إِنَّ الكَافِر لِيَرَى جَهَنَّم، فَيَظُنّ أَنَّهَا مُوَاقِعَته مِنْ مَسِيرَة أربعين سَنَة»[1].

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنا حَسَن، حَدَّثنَا ابن لهيعة، حَدَّثنَا دَرَّاج، عَنْ أَبِي الهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «يُنْصَب الكَافِر مِقْدَار خَمْسِينَ أَلْف سَنَة كَمَا لَمْ يَعْمَل فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّ الكَافِر لِيَرَى جَهَنَّم وَيظُنّ أَنَّهَا مُوَاقِعَته مِنْ مَسِيرَة أَرْبَعِينَ سَنَة»[2].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾.

يَقُول تَعَالَى: وَلَقَدْ بَيَّنَّا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآن، وَوَضَّحْنَا لَهُمْ الأُمُور، وَفَصَّلنَاهَا كَيْلا يَضِلُّوا عَنْ الحَقّ، وَيَخْرُجُوا عَنْ طَرِيق الهُدَى، وَمَعَ هَذَا البَيَان، وَهَذَا الفُرْقَان، الإِنْسَان كَثِير المُجَادَلة وَالمُخَاصَمَة، وَالمُعَارَضَة للحَقّ بِالبَاطِل، إِلَّا مَنْ هَدَى الله، وَبَصَّرَهُ لِطَرِيق النَّجَاة.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَان، أَخْبَرَنَا شُعَيْب، عَنْ الزُّهْرِيّ، أَخْبَرَنِي عَلِيّ بْن الحُسَيْن، أَنَّ حُسَيْن ابْن عَلِيّ أَخْبَرَهُ، أَنَّ عَلِيّ بْن أَبِي طَالب أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَة بِنْت رَسُول الله ﷺ لَيْلة، فَقَال: «أَلا تُصَلِّيَانِ؟». فَقُلت: يَا رَسُول الله؛ إِنَّمَا أَنْفُسنَا بِيَدِ الله، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثنَا بَعَثَنَا. فَانْصَرَفَ حِين قُلت ذَلِك، وَلَمْ يَرْجِع إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْته وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِب فَخِذه وَيَقُول: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾[3]. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴾.

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ تَمَرُّد الكَفَرَة فِي قَدِيم الزَّمَان وَحَدِيثه، وَتَكْذِيبهمْ بِالحَقّ البَيِّن الظَّاهِر، مَعَ مَا يُشَاهِدُونَ مِنْ الآيَات وَالدَّلالات الوَاضِحَات، وَأَنَّهُ مَا مَنَعَهُمْ مِنْ اتِّبَاع ذَلِكَ إِلَّا طَلَبهمْ أَنْ يُشَاهِدُوا العَذَاب الَّذِي وُعِدُوا بِهِ عِيَانًا، كَمَا قَال أُولَئِكَ لِنَبِيِّهِمْ: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، وَآخَرُونَ قَالُوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وَقَالتْ قُرَيْش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ إِلى غَيْر ذَلِكَ مِنْ الآيَات الدَّالَّة عَلى ذَلِكَ.

ثُمَّ قَال: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، مِنْ غَشَيَانهمْ بِالعَذَاب، وَأَخْذهمْ عَنْ آخِرهِمْ، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾، أَيْ: يَرَوْنَهُ عِيَانًا مُوَاجَهَة وَمُقَابَلة. ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ ﴾ أَيْ: قَبْل

---

(١) ضعيف : أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٦٥) من رواية دراج عن أبي الهيثم، وهي رواية ضعيفة، تقدم.
(٢) ضعيف : أخرجه أحمد (٣/ ٧٥) وإسناده ضعيف.
(٣) صحيح : أخرجه أحمد (١/ ٩١، ١١٢)، والبخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥).

العَذَاب مُبَشِّرِينَ مَنْ صَدَّقَهُمْ وَآمَنَ بِهِمْ وَمُنْذِرِينَ لِمَنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ. ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ الكُفَّار بِأَنَّهُمْ: يُجَادِلُون ﴿بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ﴾ أَيْ: لِيُضْعِفُوا بِهِ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الَّذِي جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُل، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلٍ لَهُمْ ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾، أَيْ: اتَّخَذُوا الحُجَج وَالبَرَاهِين، وَخَوَارِق العَادَات الَّتِي بُعِثَ بِهَا الرُّسُل، وَمَا أَنْذَرُوهُمْ وَخَوَّفُوهُمْ بِهِ مِنْ العَذَاب ﴿هُزُوًا﴾ أَيْ: سَخِرُوا مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ أَشَدّ التَّكْذِيب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾.

يَقُول تَعَالَى: وَأَيّ عِبَاد الله أَظْلَم مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ الله فَأَعْرَضَ عَنْهَا، أَيْ: تَنَاسَاهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا، وَلَمْ يُصْغِ لَهَا، وَلا أَلْقَى إِلَيْهَا بَالًا ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أَيْ: مِنْ الأَعْمَال السَّيِّئَة وَالأَفْعَال القَبِيحَة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أَيْ: قُلُوب هَؤُلاءِ ﴿أَكِنَّةً﴾ أَيْ: أَغْطِيَة وَغِشَاوَة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أَيْ: لِئَلَّا يَفْهَمُوا هَذَا القُرْآن وَالبَيَان، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أَيْ: صَمَمًا مَعْنَوِيًّا عَنْ الرَّشَاد ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

وَقَوْله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، أَيْ: وربّك يَا مُحَمَّد غَفُور ذُو رَحْمَة وَاسِعَة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، وَقَالَ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَحْلُم وَيَسْتُر وَيَغْفِر، وَرُبَّمَا هَدَى بَعْضهمْ مِنْ الغَيّ إِلَى الرَّشَاد، وَمَنْ اسْتَمَرَّ مِنْهُمْ فَلَهُ يَوْم يَشِيب فِيهِ الوَلِيد، وَتَضَع كُلّ ذَات حَمْل حَمْلهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ عَنْهُ محيد وَلا محيص وَلا مَعْدِل. وَقَوْله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أَيْ: الأُمَم السَّالِفَة وَالقُرُون الخَالِيَة أَهْلَكْنَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرهمْ وَعِنَادهمْ ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أَيْ: جَعَلْنَاهُ إِلَى مُدَّة مَعْلُومَة وَوَقْت مُعَيَّن، لا يَزِيد وَلا يَنْقُص، أَيْ: وَكَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيُّهَا المُشْرِكُونَ، احْذَرُوا أَنْ يُصِيبكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَشْرَف رَسُول وَأَعْظَم نَبِيّ، وَلَسْتُمْ بِأَعَزّ عَلَيْنَا مِنْهُمْ، فَخَافُوا عَذَابِي وَنُذُر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

سَبَب قَوْل مُوسَى لِفَتَاهُ -وَهُوَ يوشع بْن نُون- هَذَا الكَلَام أَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَاد الله بِمَجْمَع البَحْرَيْنِ، عِنْده مِنْ العِلم مَا لَمْ يُحِطْ بِهِ مُوسَى، فَأَحَبَّ الذهاب إِلَيْهِ، وَقَال لِفَتَاهُ ذَلِكَ: ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أَيْ: لا أَزَال سَائِرًا ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أَيْ: لا أزال سائرًا حتى أبلغ هَذَا المَكَان الَّذِي فِيهِ مَجْمَع البَحْرَيْنِ، قَال الفَرَزْدَق:

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى تَهَادَتْ نِسَاؤُهُمْ ۞ بِبَطْحَاء ذِي قَار عِيَاب اللَّطَائِم

قَال قَتَادَة وَغَيْر وَاحِد: هُمَا بَحْر فَارِس مِمَّا يَلِي المَشْرِق، وَبَحْر الرُّوم مِمَّا يَلِي المَغْرِب. وَقَال مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ: مَجْمَع البَحْرَيْنِ عِنْد طَنْجَة. يَعْنِي فِي أَقْصَى بِلاد المَغْرِب. فَالله أَعْلَم. وَقَوْله: ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ أَيْ:

وَلوْ أَنِّي أَسِير حُقُبًا مِنْ الزَّمَان. قَال ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللَّهُ: ذَكَرَ بَعْض أَهْل العِلم بِكَلامِ العَرَب أَنَّ الحُقُب فِي لُغَة قَيْس: سَنَة. ثُمَّ رُوِيَ عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو أَنَّهُ قَال: الحُقُب ثَمانُونَ سَنَة. وَقَال مُجاهِد: سَبْعُونَ خَرِيفًا. وَقَال عَلِيّ ابْن أَبِي طَلحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس، قَوْله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ، قَال: دَهْرًا. وَقَال قَتادَة، وَابْن زَيْد مِثْل ذَلكَ.

وَقَوْله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وَذَلكَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ أُمِرَ بِحَمْل حُوت مَمْلُوح مَعَهُ، وَقِيل لهُ: مَتَى فَقَدْت الحُوت فَهُوَ ثَمَّةَ، فَسَارَا حَتَّى بَلَغا مَجْمَع البَحْرَيْنِ، وَهُنَاكَ عَيْن يُقَال لها عَيْن الحَيَاة، فَنامَا هُنَالكَ وَأَصَابَ الحُوت مِنْ رَشَاش ذَلكَ المَاء، فَاضْطَرَبَ، وَكَانَ فِي مِكْتَل مَعَ يُوشَع، وَطَفَرَ مِنْ المِكْتَل إِلى البَحْر، فَاسْتَيْقَظَ يُوشَع عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَقَطَ الحُوت فِي البَحْر، فَجَعَل يَسِير فِيه، وَالمَاء لهُ مِثْل الطَّاق لا يَلتَئِم بَعْده؛ وَلهَذَا قَال تَعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أَيْ: مِثْل السَّرَب فِي الأَرْض. قَال ابْن جَرِيج: قَال ابْن عَبَّاس: صَارَ أَثَره كَأَنَّهُ حَجَر. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: جَعَل الحُوت لا يَمَسّ شَيْئًا مِنْ البَحْر إِلَّا يَبِس، حَتَّى يَكُون صَخْرَة. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُبَيْد الله بْن عَبْد الله، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب قَال: قَال رَسُول الله ﷺ حِين ذَكَرَ حَدِيث ذَلكَ: «مَا انْجَابَ مَاء مُنْذُ كَانَ النَّاس غَيْره، ثبت مَكَان الحُوت الَّذِي فِيهِ، فَانْجَابَ كَالكُوَّةِ حَتَّى رَجَعَ إِليْهِ مُوسَى فَرَأَى مَسْلكه فَقَال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾[1]». وَقَال قَتادَة: سَرَبَ مِنْ الجر حَتَّى أَفْضَى إِلى البَحْر، ثُمَّ سَلكَ فِيهِ فَجَعَل لا يَسْلُك فِيهِ طَرِيقًا إِلَّا جعل مَاء جَامِدًا.

وَقَوْله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أَيْ: المَكَان الَّذِي نَسِيَا الحُوت فِيهِ. وَنَسَبَ النِّسْيَان إِليْهِمَا وَإِنْ كَانَ يُوشَع هُوَ الَّذِي نَسِيَهُ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وَإِنَّمَا يَخْرُج مِنْ المَالح فِي أَحَد القَوْليْنِ. فَلمَّا ذَهَبَا عَنْ المَكَان الَّذِي نَسِيَاهُ فِيهِ مرحلة ﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا﴾ أَيْ: الَّذِي جَاوَزَا فِيهِ المَكَان ﴿نَصَبًا﴾، يَعْنِي: تَعَبًا ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ قَال قَتَادَة: وَقَرَأَ ابْن مَسْعُود: (وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان)؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ أَيْ: طَرِيقه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أَيْ: هَذَا هُوَ الَّذِي نَطْلُب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أَيْ: رَجَعَا ﴿عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أَيْ: طَرِيقهمَا ﴿قَصَصًا﴾ أَيْ: يَقُصَّانِ آثَار مَشْيهمَا، وَيَقْفُوَانِ أَثَرهمَا. ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، وَهَذَا هُوَ الخَضِر عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا دَلَّتْ عَليْهِ الأَحَادِيث الصَّحِيحَة عَنْ رَسُول الله ﷺ.

قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن دِينَار، أَخْبَرَنِي سَعِيد بْن جُبَيْر، قَال: قُلت لابْنِ عَبَّاس: إِنَّ نَوْفًا البِكَالِيّ يَزْعُم أَنَّ مُوسَى صَاحِب الخَضِر عَلَيْهِ السَّلَامُ ليْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِب بَنِي إِسْرَائِيل؟!

قَال ابْن عَبَّاس: كَذَبَ عَدُوّ الله، حَدَّثَنَا أُبَيّ بْن كَعْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيل، فَسُئِل: أَيّ النَّاس أَعْلم؟ فقَال: أَنَا. فَعَتَبَ الله عَليْهِ إِذْ لمْ يَرُدّ العِلم إِليْهِ، فَأَوْحَى الله إِليْهِ: أَنَّ لي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلم مِنْك. قَال مُوسَى: يَا رَبّ؛ وَكَيْف لي بِهِ؟ قَال: تَأْخُذ مَعَك حُوتًا تَجْعَلهُ بِمِكْتَل، فَحَيْثُمَا فَقَدْت الحُوت فَهُوَ ثَمَّ. فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلهُ بِمِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلقَ وَانْطَلقَ مَعَهُ بفتاه يُوشَع بْن نُون عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَة وَضَعَا رُءُوسهمَا فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الحُوت فِي المِكْتَل، فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي البَحْر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ وَأَمْسَكَ الله عَنْ الحُوت جِرْيَة المَاء، فَصَارَ عَليْهِ مِثْل الطَّاق، فَلمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبه أَنْ يُخْبِرهُ بِالحُوتِ، فَانْطَلقَا بَقِيَّة يَوْمهمَا وَليْلتهمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ الغَد قَال مُوسَى لفَتَاهُ: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾، وَلمْ يَجِد مُوسَى النَّصَب حَتَّى جَاوَزَ المَكَان الَّذِي أَمَرَهُ الله بِهِ، قَال لهُ فَتَاهُ:

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٧٣)، وفيه ابن إسحاق: مدلس، وقد عنعن.

﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾، قَال: فكَانَ للحُوتِ سَرَبًا، وَلِمُوسَى وَفتاهُ عَجَبًا فقال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قَال: فَرَجعَا يقُصَّانِ أثرهمَا حَتَّى انْتَهيَا إلى الصَّخْرَة، فَإِذَا رَجُل مُسَجًّى بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَال الخَضِر: وَأَنَّى بِأَرْضِك السَّلام؟ قَال: أَنَا مُوسَى. قَال: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيل؟ قَال: نَعَمْ، أَتَيْتُك لتُعَلِّمنِي مِمَّا عُلِّمْت رُشْدًا. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلم مِنْ عِلم الله عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلمهُ أَنْت، وَأَنْتَ عَلى عِلم مِنْ عِلم الله عَلَّمَكَهُ الله لا أَعْلمهُ. فَقَال مُوسَى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قَال لهُ الخَضِر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلى سَاحِل البَحْر، فَمَرَّتْ سَفِينَة فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُ، فَعَرَفُوا الخَضِر فَحَمَلُوهُمْ بِغَيْرِ نَوْل، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَة، لمْ يَفْجَأْ إِلَّا وَالخَضِر قَدْ قَلعَ لوْحًا مِنْ أَلْوَاح السَّفِينَة بِالقَدُّوم، فَقَال لهُ مُوسَى: قَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْل، فَعَمَدْت إِلى سَفِينَتهمْ فَخَرَقْتهَا لتُغْرِق أَهْلهَا؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۝٧١ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾» قَال: وَقَال رَسُول الله ﷺ: **«كَانَتْ الأُولى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا»**. قَال: **«وَجَاءَ عُصْفُور فنزل عَلى حَرْف السَّفِينَة، فَنَقَر فِي البَحْر نَقْرَة، فَقَال لهُ الخَضِر: مَا عِلمِي وَعِلمك فِي عِلم الله إلاَّ مِثْل مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُور مِنْ هَذَا البَحْر»**. ثُمَّ خَرَجَا مِنْ السَّفِينَة، فَبَيْنَمَا هُمَا يَمْشِيَانِ عَلى السَّاحِل، إِذْ أَبْصَرَ الخَضِر غُلامًا يَلعَب مَعَ الغِلمَان، فَأَخَذَ الخَضِر رَأْسه فَاقْتَلعَهُ بِيَدِهِ فَقَتَلهُ، فَقَال لهُ مُوسَى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾، قَال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، قَال: «وَهَذِهِ أَشَدّ مِنْ الأُولى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۝٧٦ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، قَال: مَائِل. فَقَال الخَضِر بِيَدِهِ ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ فَقَال مُوسَى: قَوْم أَتَيْنَاهُمْ فَلمْ يُطْعِمُونَا وَلمْ يُضَيِّفُونَا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فَقَال رَسُول الله ﷺ: **«وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ؛ حَتَّى يَقُصّ الله عَليْنَا مِنْ خَبَرهمَا»**.

قَال سَعِيد بْن جُبَيْر: كَانَ ابْن عَبَّاس يَقْرَأ: (وَكَانَ أَمَامهمْ مَلك يَأْخُذ كُلّ سَفِينَة صَالحَة غَصْبًا)، وَكَانَ يَقْرَأ: (وَأَمَّا الغُلام فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ).[1] ثُمَّ رَوَاهُ البُخَارِيّ عَنْ قُتَيْبَة، عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، فَذَكَرَ نَحْوه وَفِيهِ: **«فَخَرَجَ مُوسَى، وَمَعَهُ فَتَاهُ يُوشَع بْن نُون، وَمَعَهُمَا الحُوت، حَتَّى انْتَهَيَا إِلى الصَّخْرَة، فَنَزَلا عِنْدهَا»**، قَال: **«فَوَضَعَ مُوسَى رَأْسه فَنَامَ»**، قَال سُفْيَان: وَفِي حَدِيث غير عُمَرو قَال: **«وَفِي أَصْل الصَّخْرَة عَيْن يُقَال لهَا: الحَيَاة، لا يُصِيب مِنْ مَائِهَا شَيْء إلاَّ حَيِيَ، فَأَصَابَ الحُوت مِنْ مَاء تِلك العَيْن»**. قَال: **«فَتَحَرَّكَ، وَانْسَلَّ مِنْ المِكْتَل فَدَخَل البَحْر، فَلمَّا اسْتَيْقَظَ قَال مُوسَى لفَتَاهُ: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾»**. كذا قَال، وَسَاقَ الحَدِيث: **«وَوَقَعَ عُصْفُور عَلى حَرْف السَّفِينَة، فَغَمَسَ مِنْقَاره فِي البَحْر، فَقَال الخَضِر لمُوسَى: مَا عِلمِي، وَعِلمك وَعِلم الخَلائِق فِي عِلم الله إلاَّ مِقْدَار مَا غَمَسَ هَذَا العُصْفُور مِنْقَاره**. وَذَكَرَ تَمَامه بِنَحْوِهِ.[2]

وَقَال البُخَارِيّ أَيْضًا: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا هِشَام بْن يُوسُف، أَنَّ ابْن جُرَيْج أَخْبَرَهُمْ، قَال: أَخْبَرَنِي يَعْلى بْن مُسْلم، وَعَمْرو بْن دِينَار، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر يَزِيد أَحَدهمَا عَلى صَاحِبه، وَغَيْرهمَا قَدْ سَمِعْته يُحَدِّث عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر قَال: إِنَّا لعِنْد ابْن عَبَّاس فِي بَيْته إِذْ قَال: سَلُونِي. فَقُلت: أَيْ أَبَا عَبَّاس -جَعَلنِي الله

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٢٧).

فِدَاكَ- بِالكُوفَةِ رَجُل قَاصّ يُقَال لهُ: نَوْف، يَزْعُم أَنَّهُ لَيْسَ بِمُوسَى بَنِي إِسْرَائِيل؟ أَمَّا عَمْرو فَقَال لِي: قَال: كَذَبَ عَدُوّ الله! وَأَمَّا يَعْلى فَقَال لِي: قَال ابْن عَبَّاس: حَدَّثَنِي أُبَيّ بْن كَعْب قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مُوسَى رَسُول الله ذَكَّرَ النَّاس يَوْمًا، حَتَّى إِذَا فَاضَتْ العُيُون، وَرَقَّتْ القُلُوب، وَلَّى، فَأَدْرَكَهُ رَجُل، فَقَال: أَيْ رَسُول الله، هَل فِي الأَرْض أَحَد أَعْلَم مِنْك؟ قَال: لا. فَعَتَبَ الله عَلَيْهِ إِذْ لمْ يَرُدّ العِلم إِلى الله قِيل: بَلى. قَال: أَيْ رَبّ، وَأَيْنَ؟ قَال: بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ. قَال: أَيْ رَبّ، اجْعَل لي عَلمًا أَعْلم ذَلكَ بِهِ». قَال لي عمرو قَال: حَيْثُ يُفَارِقك الحُوت. وَقَال لي يَعْلى: خُذْ حُوتًا مَيِّتًا حَيْثُ يُنْفَخ فِيهِ الرُّوح فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلهُ فِي مِكْتَل، فَقَال لفَتَاهُ: لا أُكَلِّفك إِلاَّ أَنْ تُخْبِرنِي بِحَيْثُ يُفَارِقك الحُوت. قَال: مَا كَلَّفْت كَبِيرًا. فَذَلكَ قَوْله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ﴾ يُوشَع بْن نُون -لَيْسَتْ عن سَعِيد بْن جُبَيْر- قَال: فَبَيْنَا هُوَ فِي ظِلّ صَخْرَة، فِي مَكَان ثَرْيَان إِذْ تَضَرَّبَ الحُوت وَمُوسَى نَائِم، فَقَال فَتَاهُ: لا أُوقِظهُ. حَتَّى إِذَا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ أَنْ يُخْبِرهُ، وَتَضَرَّبَ الحُوت حَتَّى دَخَل البَحْر، فَأَمْسَكَ الله عَنْهُ جِرْيَة المَاء، حَتَّى كَأَنَّ أَثَره فِي حَجَر. قَال: فَقَال لي عَمْرو: هَكَذَا كَأَنَّ أَثَره فِي حَجَر، وَحَلَّقَ بَيْن إِبْهَامَيْهِ والتي تليانهما. قَال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾، قَال: وَقَدْ قَطَعَ الله عَنْك النَّصَب -لَيْسَتْ هَذِهِ عن سَعِيد- أخبر فَرَجَعَا فَوَجَدَا خَضِرًا. قَال: قَال عُثْمَان بْن أَبِي سلمان: «عَلى طِنْفِسَة خَضْرَاء عَلى كَبِد البَحْر». قَال سَعِيد بْن جُبَيْر: «مُسَجًّى بِثَوْبٍ قَدْ جَعَل طَرَفه تَحْت رِجْليْهِ، وَطَرَفه تَحْت رَأْسه». «فَسَلَّمَ عَليْهِ مُوسَى فَكَشَفَ عَنْ وَجْهه، وَقَال: هَل بِأَرْضٍ مِنْ سَلام؟ مَنْ أَنْتَ؟ قَال: أَنَا مُوسَى. قَال: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيل؟ قَال: نَعَمْ. قَال: فَمَا شَأْنك؟ قَال: جِئْتُك لِتُعَلِّمنِي مِمَّا عُلِّمْت رُشْدًا. قَال: يَكْفِيك التَّوْرَاة بِيَدك وَأَنَّ الوَحْي يَأْتِيك! يَا مُوسَى، إِنَّ لي عِلمًا لا يَنْبَغِي لك أَنْ تَعْلمهُ، وَإِنَّ لك عِلمًا لا يَنْبَغِي لي أَنْ أَعْلمهُ، فَأَخَذَ طَائِر بِمِنْقَارِهِ مِنْ البَحْر، فَقَال: وَالله مَا عِلمِي وَعِلمك فِي جَنْب عِلم الله، إِلاَّ كَمَا أَخَذَ هَذَا الطَّائِر بِمِنْقَارِهِ مِنْ البَحْر. حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَة وَجَدَا مَعَابِر صِغَارًا، تَحْمِل أَهْل هَذَا السَّاحِل إِلى هَذَا السَّاحِل الآخَر -عَرَفُوهُ- فَقَالُوا: عَبْد الله الصَّالح». قَال: فَقُلْنَا لسَعِيد: خضر؟ قَال: نَعَمْ. «لا نَحْمِلهُ بِأَجْر. فَخَرَقَهَا وَوَتَدَ فِيهَا وَتِدًا، قَال مُوسَى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ قَال مُجَاهِد: مُنْكَرًا «﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ كَانَتْ الأُولى نِسْيَانًا، والوسطى شَرْطًا، وَالثَّالثَة عَمْدًا، ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا﴾ حَتَّى لقِيَا غُلامًا فَقَتَلهُ». قَال يَعْلى: قَال سَعِيد: وَجَدَ غِلمَانًا يَلعَبُونَ فَأَخَذَ غُلامًا كَافِرًا ظَرِيفًا، فَأَضْجَعَهُ ثُمَّ ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ، فَقَال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ لمْ تَعْمَل بالحنث؟ وَابْن عَبَّاس قَرَأَهَا: (زَكِيَّة زَاكِيَة مُسْلمَة) كَقَوْلك: غُلامًا زَكِيًّا. فَانْطَلقَا فَوَجَدَا جِدَارًا يُرِيد أَنْ يَنْقَضّ فَأَقَامَهُ. قَال سعيد: بيده هَكَذَا، ورفع يده فَاسْتَقَامَ، ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قَال يَعْلى: حَسِبْت أَنَّ سَعِيدًا قَال: فَمَسَحَهُ بِيَدِهِ فَاسْتَقَامَ ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قَال سَعِيد: أَجْرًا نَأْكُلهُ ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ وَكَانَ أَمَامهمْ، قَرَأَهَا ابْن عَبَّاس: (أَمَامهمْ مَلك) يَزْعُمُونَ عَنْ غَيْر سَعِيد أَنَّهُ: هدد بْن بدد، وَالغُلام المَقْتُول اسْمه -يَزْعُمُونَ- حيسو. ﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ فَأَرَدْت إِذَا هِيَ مَرَّتْ بِهِ أَنْ يَدَعهَا بِعَيْبِهَا، فَإِذَا جَاوَزُوا أَصْلحُوهَا فَانْتَفَعُوا بِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُول: سَدُّوهَا بِقَارُورَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُول: بِالقَار. ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وَكَانَ هُوَ كَافِرًا ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ أَنْ يَحْمِلهُمَا حُبّه عَلى أَنْ يُتَابِعَاهُ عَلى دِينه ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ هُمَا بِهِ أَرْحَم مِنْهُمَا بِالأَوَّل الَّذِي قَتَل خَضِر. وَزَعَمَ غَيْر سَعِيد بْن جُبَيْر: أَنَّهُمَا أُبْدِلا جَارِيَة، وَأَمَّا دَاوُد بْن أَبِي عَاصِم فَقَال عَنْ غَيْر وَاحِد: إِنَّهَا جَارِيَة.[1]

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٢٦).

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: خَطَبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَنِي إِسْرَائِيل، فَقَال: مَا أَحَد أَعْلَم بِالله وَبِأَمْرِهِ مِنِّي. فَأَمَرَ أَنْ يَلقَى هَذَا الرَّجُل، فَذَكَرَ نَحْو مَا تَقَدَّمَ بِزِيَادَةٍ وَنُقْصَان، وَالله أَعْلَم.

وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: عَنْ الحَسَن بْن عُمَارَة، عَنْ الحَكَم بْن عُتَيْبَة، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، قَال: جَلَسْت عِنْد ابْن عَبَّاس، وَعِنْده نَفَر مِنْ أَهْل الكِتَاب، فَقَال بَعْضهمْ: يَا أَبَا العَبَّاس؛ إِنَّ نَوْفًا ابْن امْرَأَة كَعْب يَزْعُم عَنْ كَعْب: أَنَّ مُوسَى النَّبِيّ الَّذِي طَلَبَ العالم إِنَّمَا هُوَ مُوسَى بْن مِيشَا، قَال سَعِيد: فَقَال ابْن عَبَّاس: أَنَوْف يَقُول هَذَا يَا سَعِيد؟ قَال سعيد: فقُلت لهُ: نَعَمْ، أَنَا سَمِعْت نَوْفًا يَقُول ذَلِكَ. قَال: أَنْتَ سَمِعْته يَا سَعِيد؟ قَال: قُلت: نَعَمْ. قَال: كَذَبَ نَوْف. ثُمَّ قَال ابْن عَبَّاس: حَدَّثَنِي أُبَيّ بْن كَعْب، عَنْ رَسُول الله ﷺ: أَنَّ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيل سَأَلَ رَبّه فَقَال: أَيْ رَبّ؛ إِنْ كَانَ فِي عِبَادك أَحَد هُوَ أَعْلم مِنِّي فَدُلَّنِي عَلَيْهِ؟ فَقَال لهُ: نَعَمْ، فِي عِبَادِي مَنْ هُوَ أَعْلم مِنْك. ثُمَّ نَعَتَ لهُ مَكَانه، وَأَذِنَ لهُ فِي لُقِيّه، فخرج مُوسَى وَمَعَهُ فَتَاهُ، وَمَعَهُ حُوت مَلِيح، قَدْ قِيل لهُ: إِذَا حَيِيَ هَذَا الحُوت فِي مَكَان فَصَاحِبك هُنَالكَ، وَقَدْ أَدْرَكْت حَاجَتك. فَخَرَجَ مُوسَى وَمَعَهُ فَتَاهُ، وَمَعَهُ ذَلكَ الحُوت يَحْمِلانِهِ، فَسَارَ حَتَّى جَهَدَهُ السَّيْر، وَانْتَهَى إِلى الصَّخْرَة، وَإِلى ذَلكَ المَاء، وَذَلكَ المَاء مَاء الحَيَاة، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ خَلدَ، وَلا يُقَارِبهُ شَيْء مَيِّت إِلَّا حَيِيَ، فَلَمَّا نَزَلا وَمَسَّ الحُوت المَاء حَيِيَ، فَاتَّخَذَ سَبِيله فِي البَحْر سَرَبًا، فَانْطَلَقَا فَلَمَّا جَاوَزَا مُنْقَلَبه، قَال مُوسَى لفَتَاهُ: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، قَال الفَتَى —وَذَكَرَ—: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قَال ابْن عَبَّاس: فَظَهَرَ مُوسَى عَلى الصَّخْرَة، حين انْتَهَيَا إِليْهَا، فَإِذَا رَجُل مُتَلفِّف فِي كِسَاء لهُ، فَسَلَّمَ مُوسَى، فَرَدَّ عليه العالم؛ ثُمَّ قَال لهُ: مَا جَاءَ بِك إِنْ كَانَ لك فِي قَوْمك لشُغْل؟ قَال لهُ مُوسَى: جِئْتُك لتُعَلِّمنِي مِمَّا عُلِّمْت رُشْدًا ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ وَكَانَ رَجُلًا يَعْلم عِلم الغَيْب قَدْ عَلمَ ذَلكَ، فَقَال مُوسَى: بَلى. قَال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، أَيْ: إِنَّمَا تَعْرف ظَاهِر مَا تَرَى مِنْ العَدْل، وَلمْ تُحِطْ مِنْ عِلم الغَيْب بِمَا أَعْلم ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ وَإِنْ رَأَيْت مَا يُخَالفنِي. ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ وَإِنْ أَنْكَرْته ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلى سَاحِل البَحْر، يَتَعَرَّضَانِ النَّاس، يَلتَمِسَانِ مِنْ يَحْمِلهُمَا، حَتَّى مَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَة جَدِيدَة وَثِيقَة، لمْ يَمُرّ بِهِمَا شَيْء مِنْ السُّفُن أَحْسَن وَلا أَجْمَل وَلا أَوْثَق مِنْهَا، فَسَأَل أَهْلهَا أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَحَمَلُوهُمَا فَلمَّا اطْمَأَنَّا فِيهَا وَلجَّتْ بِهِمَا مَعَ أَهْلهَا، أَخْرَجَ مِنْقَارًا لهُ وَمِطْرَقَة، ثُمَّ عَمَدَ إِلى نَاحِيَة مِنْهَا فَضَرَبَ فِيهَا المنقار حَتَّى خَرَقَهَا، ثُمَّ أَخَذَ لوْحًا فَطَبَّقَهُ عليْهَا، ثُمَّ جلسَ عليْهَا يُرَقِّعهَا، فَقَال لهُ مُوسَى وَرَأَى أَمْرًا فظع بِهِ: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ أَيْ: مما تَرَكْت مِنْ عَهْدك، ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ ثُمَّ خَرَجَا مِنْ السَّفِينَة، فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْل قَرْيَة، فَإِذَا غِلمَان يَلعَبُونَ خَلفهَا، فِيهِمْ غُلام لَيْسَ فِي الغِلمَان غُلام أَظْرَف مِنْهُ، وَلا أَثْرَى وَلا أَوْضَأ مِنْهُ، فَأَخَذَهُ بِيَدِهِ وَأَخَذَ حَجَرًا فَضَرَبَ بِهِ رَأْسه حَتَّى دَمَغَهُ فَقَتَلهُ، قَال: فَرَأَى مُوسَى أَمْرًا فَظِيعًا لا صَبْر عَليْهِ صَبِيّ صَغِير قَتَلهُ لا ذَنْب لهُ قَال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ﴾ أَيْ: صَغِيرَة ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ أَيْ: قَدْ أَعْذَرْت فِي شَأْنِي.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ فَهَدَمَهُ، ثُمَّ قَعَدَ يَبْنِيه، فَضَجِرَ مُوسَى مِمَّا يَرَاهُ يَصْنَع مِنْ التَّكْليف، وَمَا ليْسَ له عَليْهِ صَبْر، فَقَال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ

أَجْرًا ﴾ أَيْ: قَدْ اسْتَطْعَمْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا، وَضِفْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا، ثُمَّ قَعَدْت تَعْمَل مِنْ غَيْر صَنِيعَة، وَلَوْ شِئْت لأُعْطِيت عَلَيْهِ أَجْرًا فِي عَمَله.

﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾، وَفِي قِرَاءَة أُبَيّ بْن كَعْب: (كُلّ سَفِينَة صَالِحَة) وَإِنَّمَا عِبْتهَا لأَرُدّهُ عَنْهَا، فَسَلِمتْ حِين رَأَى العَيْب الَّذِي صَنَعْت بِهَا، ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ أَيْ: مَا فَعَلته عَنْ نَفْسِي ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ وكان ابْن عَبَّاس يَقُول: مَا كَانَ الكَنْز إِلَّا عِلْمًا.

وَقَال العَوْفِيّ: عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: لَمَّا ظَهَرَ مُوسَى وَقَوْمه عَلى مِصْر، أَنْزَل قَوْمه مِصْر، فَلَمَّا اسْتَقَرَّتْ بِهِمْ الدَّار، أَنْزَل الله: أَنْ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله. فَخَطَبَ قَوْمه، فَذَكَرَ مَا آتَاهُمْ الله مِنْ الخَيْر وَالنِّعْمَة، وَذَكَّرَهُمْ إِذْ نَجَّاهُمْ الله مِنْ آل فِرْعَوْن، وَذَكَّرَهُمْ هَلاك عَدُوّهُمْ، وَمَا اسْتَخْلَفَهُمْ الله فِي الأَرْض، وَقَال: كَلَّمَ الله نَبِيّكُمْ تَكْلِيمًا، وَاصْطَفَانِي لنَفْسِهِ، وَأَنْزَل عَلَيَّ مَحَبَّة مِنْهُ، وَآتَاكُمْ الله مِنْ كُلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، فَنَبِيّكُمْ أَفْضَل أَهْل الأَرْض، وَأَنْتُمْ تَقْرَءُونَ التَّوْرَاة. فَلَمْ يَتْرُكْ نِعْمَة أنعمها عَلَيْهِمْ إِلَّا وَعَرَّفَهُمْ إِيَّاهَا. فَقَال لَهُ رَجُل مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل: هُمْ كَذَلِكَ يَا نَبِيّ الله، قَدْ عَرَفْنَا الَّذِي تَقُول، فَهَل عَلى الأَرْض أَحَد أَعْلم مِنْك يَا نَبِيّ الله؟ قَال: لا فَبَعَثَ الله جَبْرَائِيل إِلى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَال: إِنَّ الله يَقُول: وَمَا يُدْرِيك أَيْنَ أَضَع عِلْمِي؟ بَلى، إِنَّ عَلى شَطّ البَحْر رَجُلًا هُوَ أَعْلم مِنْك. قَال ابْن عَبَّاس: هُوَ الخَضِر. فَسَأَل مُوسَى رَبّه أَنْ يُرِيه إِيَّاهُ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ أَنْ ائْتِ البَحْر، فَإِنَّك تَجِد عَلى شَطّ البَحْر حُوتًا فَخُذْهُ، فَادْفَعْهُ إِلى فَتَاك، ثُمَّ الزَمْ شط البَحْر فَإِذَا نَسِيت الحُوت وَهَلكَ مِنْك، فَثَمَّ تَجِد العَبْد الصَّالح الَّذِي تَطْلُب. فَلَمَّا طَال سَفَر مُوسَى نَبِيّ الله، وَنَصِبَ فِيهِ سَأَل فَتَاهُ -عَنْ الحُوت، فَقَال لهُ فَتَاهُ وَهُوَ غُلامه-: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ لك، قَال الفَتَى: لقَدْ رَأَيْت الحُوت حِين اتَّخَذَ سَبِيله فِي البَحْر سَرَبًا فَأُعْجِبَ ذَلكَ مُوسَى، فرجع حَتَّى أَتَى الصَّخْرَة فَوَجَدَ الحُوت، فَجَعَل الحُوت يَضْرِب فِي البَحْر، وَيَتْبَعهُ مُوسَى، وَجَعَل مُوسَى يُقَدِّم عَصَاهُ يُفَرِّج بِهَا عَنْهُ المَاء يَتْبَع الحُوت، وَجَعَل الحُوت لا يَمَسّ شَيْئًا مِنْ البَحْر إِلَّا يَبِسَ حَتَّى يَكُون صَخْرَة، فَجَعَل نَبِيّ الله يَعْجَب مِنْ ذَلكَ، حَتَّى انْتَهَى بِهِ الحُوت إِلى جَزِيرَة مِنْ جَزَائِر البَحْر، فَلقِيَ الخَضِر بِهَا فَسَلَّمَ عَليْهِ، فَقَال الخَضِر: وَعَليْك السَّلام، وَأَنَّى يَكُون السَّلام بِهَذِهِ الأَرْض؟ وَمَنْ أَنْتَ؟ قَال: أَنَا مُوسَى. فقَال الخَضِر: صَاحِب بَنِي إِسْرَائِيل؟ قَال: نَعَمْ فَرَحَّبَ بِهِ، وَقَال: مَا جَاءَ بِك؟ قَال: جِئْتُك ﴿عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ يَقُول: لا تُطِيق ذَلكَ. قَال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ قَال: فَانْطَلقَ بِهِ، وَقَال لهُ: لا تَسْأَلنِي عَنْ شَيْء أَصْنَعهُ حَتَّى أُبَيِّن لك شَأْنه. فَذَلكَ قَوْله: ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.[1]

وَقَال الزُّهْرِيّ: عَنْ عُبَيْد الله بْن عَبْد الله بْن عُتْبَة بْن مَسْعُود، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّهُ تَمَارَى هُوَ وَالحُرّ بْن قَيْس بْن حِصْن الفَزَارِيّ فِي صَاحِب مُوسَى؛ فَقَال ابْن عَبَّاس: هُوَ خَضِر، فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيّ بْن كَعْب، فَدَعَاهُ ابْن عَبَّاس، فَقَال: إِنِّي تَمَارَيْت أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِب مُوسَى الَّذِي سُئِل السَّبِيل إِلى لُقِيّه، فَهَل سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَذْكُر شَأْنه؟ قَال: إِنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: بَيْنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَلأ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، إِذْ جَاءَهُ رَجُل فَقَال:

---

(١) **ضعيف الإسناد**: أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٨١)، وفيه عطية العوفي: ضعيف.

تَعْلم مَكَان رَجُل أَعْلم مِنْك؟ قَال: لا. فَأَوْحَى الله إِلى مُوسَى: بَلى، عَبْدَنَا خَضِر. فَسَأَل مُوسَى السَّبِيل إِلى لُقِيّه، فَجَعَل الله لهُ الحُوت آيَة، وَقِيل لهُ: إِذَا فَقَدْت الحُوت فَارْجِعْ فَإِنَّك سَتَلقَاهُ. فَكَانَ مُوسَى يَتْبَع أَثَر الحُوت فِي البَحْر، فَقَال فَتَى مُوسَى لمُوسَى: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾، قَال مُوسَى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ فَوَجَدَا عَبْدَنَا خَضِرًا، فَكَانَ مِنْ شَأْنهمَا مَا قَصَّ الله فِي كِتَابه.[1]

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ قيل مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لذَلكَ الرَّجُل العَالم وَهُوَ الخَضِر، الَّذِي خَصَّهُ الله بِعِلمٍ لمْ يَطَّلع عَلَيْهِ مُوسَى، كَمَا أَنَّهُ أَعْطَى مُوسَى مِنْ العِلم مَا لمْ يُعْطِهِ الخَضِر، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ سُؤَال بتطلف لا عَلى وَجْه الإِلزَام وَالإِجْبَار، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُون سُؤَال المُتَعَلِّم مِنْ العَالم. وَقَوْله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾، أَيْ: أَصْحَبك وَأُرَافِقك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أَيْ: مِمَّا عَلَّمَك الله شَيْئًا أَسْتَرْشِد بِهِ فِي أَمْرِي؛ مِنْ عِلم نَافِع وَعَمَل صَالح، فَعِنْدهَا ﴿قَالَ﴾ الخَضِر لمُوسَى ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ أَيْ: أَنت لا تَقْدِر أَن تُصَاحِبَنِي؛ لمَا تَرَى مِنْ الأَفْعَال الَّتِي تُخَالف شَرِيعَتك، لأَنِّي عَلى عِلم مِنْ عِلم الله مَا عَلَّمَكَهُ الله، وَأَنْتَ عَلى عِلم مِنْ عِلم الله مَا عَلَّمَنِيهِ الله، فَكُلّ مِنَّا مُكَلَّف بِأُمُورٍ مِنْ الله دُون صَاحِبه، وَأَنْتَ لا تَقْدِر عَلى صُحْبَتِي ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ فَأَنَا أَعْرِف أَنَّك سَتُنْكِرُ عَلَيَّ مَا أَنْتَ مَعْذُور فِيهِ، وَلكِنْ مَا اطَّلعْت عَلى حِكْمَته وَمَصْلحَته البَاطِنَة الَّتِي اطَّلعْت أَنَا عَليْهَا دُونك، ﴿قَالَ﴾ له مُوسَى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، أَيْ: عَلى مَا أَرَى مِنْ أُمُورك، ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ أَيْ: وَلا أُخَالفك فِي شَيْء، فَعِنْد ذَلكَ شَارَطَهُ الخَضِر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ أَيْ: ابْتِدَاء ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أَيْ: حَتَّى أَبْدَأك أَنَا بِهِ قَبْل أَنْ تَسْأَلنِي.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابن حُمَيْد حَدَّثَنَا يَعْقُوب عَنْ هَارُون بن عنترة عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَال: سَأَل مُوسَى رَبّه عَزَّ وَجَلَّ؛ فَقَال: أَيْ رَبّ أَيّ عِبَادك أَحَبّ إِليْك؟ قَال: الَّذِي يَذْكُرنِي وَلا يَنْسَانِي. قَال: فَأَيّ عِبَادك أَقْضَى؟ قَال: الَّذِي يَقْضِي بِالحَقّ وَلا يَتَّبِع الهَوَى. قَال: أَيْ رَبّ؛ أَيّ عِبَادك أَعْلم؟ قَال: الَّذِي يَبْتَغِي عِلم النَّاس إِلى عِلمه، عَسَى أَنْ يُصِيب كَلمَة تَهْدِيه إِلى هُدًى، أَوْ تَرُدّهُ عَنْ رَدًى. قَال: أَيْ رَبّ؛ فهل فِي أَرْضك أَحَد أَعْلم مِنِّي؟ قَال: نَعَمْ. قَال: فَمَنْ هُوَ؟ قَال: الخَضِر. قَال: فَأَيْنَ أَطْلُبهُ؟ قَال: عَلى السَّاحِل عِنْد الصَّخْرَة الَّتِي يَنْفَلت عِنْدهَا الحُوت. قَال: فَخَرَجَ مُوسَى يَطْلُبهُ، حَتَّى كَانَ مَا ذَكَرَ الله، وَانْتَهَى مُوسَى إِليْهِ عِنْد الصَّخْرَة، فَسَلَّمَ كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا عَلى صَاحِبه، فَقَال لهُ مُوسَى: إِنِّي أُرِيد أَنْ تصحبني. قَال: إِنَّك لنْ تُطِيق صُحْبَتِي. قَال: بَلى. قَال: فَإِنْ صَحِبْتَنِي ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قَال: فَسَارَ بِهِ فِي البَحْر، حَتَّى انْتَهَى إِلى مَجْمَع البحور، وَليْسَ فِي الأَرْض مَكَان أَكْثَر مَاء مِنْهُ، قَال: وَبَعَثَ الله الخُطَّاف، فَجَعَل يَسْتَقِي مِنْهُ بِمِنْقَارِهِ، فَقَال لمُوسَى: كَمْ تَرَى هَذَا الخُطَّاف رَزَأَ مِنْ هَذَا المَاء؟ قَال: مَا أَقَلّ مَا رَزَأَ! قَال: يَا مُوسَى، فَإِنَّ عِلمِي وَعِلمك فِي عِلم الله كَقَدْرِ مَا اسْتَقَى هَذَا الخُطَّاف مِنْ هَذَا المَاء. وَكَانَ مُوسَى قَدْ حَدَّثَ نَفْسه أن ليْسَ أَحَد أَعْلم مِنْهُ، أَوْ تَكَلَّمَ بِهِ، فَمِنْ ثَمَّ أُمِرَ أَنْ يَأْتِي الخَضِر. وَذَكَرَ تَمَام الحَدِيث فِي خَرْق السَّفِينَة وَقَتْل الغُلام، وَإِصْلاح الجِدَار، وَتَفْسِيره لهُ ذَلكَ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤).

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى وَصَاحِبه وَهُوَ الخَضِر: أَنَّهُمَا انْطَلَقَا لَمَّا تَوَافَقَا وَاصْطَحَبَا، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ لا يَسْأَلهُ عَنْ شَيْء أَنْكَرَهُ، حَتَّى يَكُون هُوَ الَّذِي يَبْتَدِئهُ مِنْ تِلقَاء نَفْسه بِشَرْحِهِ وَبَيَانه، فَرَكِبَا فِي السَّفِينَة، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الحَدِيث كَيْف رَكِبَا فِي السَّفِينَة، وَأَنَّهُمْ عَرَفُوا الخَضِر فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْل -يَعْنِي بِغَيْرِ أُجْرَة- تَكْرِمَة للخَضِرِ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّتْ بِهِمْ السَّفِينَة فِي البَحْر وَلجِجَتْ، أَيْ: دَخَلتْ اللُّجَّة قَامَ الخَضِر فَخَرَقَهَا، وَاسْتَخْرَجَ لوْحًا مِنْ أَلْوَاحهَا، ثُمَّ رَقَّعَهَا، فَلَمْ يَمْلك مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام نَفْسه أَنْ قَال مُنْكِرًا عَليْهِ: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وَهَذِهِ اللَّام لام العَاقِبَة، لا لام التَّعْليل، كَمَا قَال الشَّاعِر:

لِـدُوا للمَـوْتِ وَابْنُـوا للخَـرَابِ

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ قَال مُجَاهِد: مُنْكَرًا. وَقَال قَتَادَة: عَجَبًا. فَعِنْدهَا قَال لهُ الخَضِر مُذَكِّرًا بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ الشَّرْط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، يَعْنِي: وَهَذَا الصَّنِيع فَعَلته قَصْدًا، وَهُوَ مِنْ الأُمُور الَّتِي اشْتَرَطْت مَعَك أَنْ لا تُنْكِر عَليَّ فِيهَا؛ لأَنَّك لمْ تُحِطْ بِهَا خُبْرًا، وَلهَا دَخْل هُوَ مَصْلحَة وَلمْ تَعْلمهُ أَنْتَ، ﴿قَالَ﴾ أَيْ: مُوسَى ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أَيْ: لا تُضَيِّق عَليَّ وَتُشَدِّد، وَلهَذَا تَقَدَّمَ فِي الحَدِيث عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «**كَانَتْ الأُولى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا**».[1]

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾ أَيْ: بَعْد ذَلكَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَلعَب مَعَ الغِلمَان فِي قَرْيَة مِنْ القُرَى، وَأَنَّهُ عَمَدَ إِليْهِ مِنْ بَيْنهمْ، وَكَانَ أَحْسَنهمْ وَأَجْملهمْ وَأَضْوَأَهُمْ فَقَتَلهُ، فروى أَنَّهُ احْتَزَّ رَأْسه، وَقِيل: رَضَخَهُ بِحَجَرٍ. وَفِي رِوَايَة: اقتطفه بِيَدِهِ، فالله أَعْلم. فَلمَّا شَاهَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام هَذَا أَنْكَرَهُ أَشَدّ مِنْ الأَوَّل، وَبَادَرَ فَقَال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أَيْ: صَغِيرَة لمْ تَعْمَل الحِنْث، وَلا [عَمِلتْ][2] إِثْمًا بَعْد، فَقَتَلته ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أَيْ: بِغَيْرِ مُسْتَنَد لقَتْلهِ ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أَيْ: ظَاهِر النَّكَارَة. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فَأَكَّدَ أَيْضًا فِي التَّذْكَار بِالشَّرْطِ الأَوَّل، فَلهَذَا قَال لهُ مُوسَى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا﴾ أَيْ: إِنْ اعْتَرَضْت عَليْك بِشَيْءٍ بَعْد هَذِهِ المَرَّة ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أَيْ: قَدْ أَعْذَرْت إِليَّ مَرَّة بَعْد مَرَّة. قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن زِيَاد، حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن مُحَمَّد، عَنْ حَمْزَة الزَّيَّات، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، قَال: كَانَ النَّبِيّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا فَدَعَا لهُ بَدَأَ بِنَفْسِهِ، فَقَال ذَات يَوْم: «**رَحْمَة الله عَليْنَا وَعَلى مُوسَى، لوْ لبِثَ مَعَ صَاحِبه لأَبْصَرَ العَجَب، وَلكِنَّهُ قَال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾**» مُثْقَلة.[3]

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾.

---

(١) صحيح : تقـدم.
(٢) في نسخة: [حملت].
(٣) صحيح : أخرجه مسلم (٢٣٨٠).

يَقُول تَعَالى مُخبِرًا عَنْهُمَا: إنهما انْطَلَقَا بَعْد المَرَّتَيْنِ الأولين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ ورَوَى ابْن جرير عَنْ بن سِيرِين: أَنَّهَا الأَيْلة. وَفِي الحَدِيث: «حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْل قَرْيَة لئَامًا أَيْ: بُخَلاء».[1] ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ إِسْنَاد الإِرَادَة هَاهُنَا إِلى الجِدَار عَلى سَبِيل الاسْتِعَارَة، فَإِنَّ الإِرَادَة فِي المُحْدَثَات بِمَعْنَى المَيْل، وَالانْقِضَاض هُوَ السُّقُوط.

وَقَوْله: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾، أَيْ: فَرَدَّهُ إِلى حَالة الاسْتِقَامَة، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الحَدِيث أَنَّهُ رَدَّهُ بِيَدِهِ، وَدَعَّمَهُ حَتَّى رَدَّ مَيْله، وَهَذَا خَارِق، فَعِنْد ذَلِكَ قَال مُوسَى لهُ: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أَيْ: لأَجْل أَنَّهُمْ لمْ يُضَيِّفُونَا كَان يَنْبَغِي أَنْ لا تَعْمَل لهُمْ مَجَّانًا، ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أَيْ: لأَنَّك شَرَطْت عِنْد قَتْل الغُلام أَنَّك إِنْ سَأَلتنِي عَنْ شَيْء بَعْدهَا فَلا تُصَاحِبْنِي، فَهُوَ فِرَاق بَيْنِي وَبَيْنك، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أَيْ: بِتَفْسِيرِ ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

هَذَا تَفْسِير مَا أَشْكَل أَمْره عَلى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وما كَانَ أَنْكَرَ ظَاهِره، وَقَدْ أَظْهَرَ الله الخَضِر عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلى باطنه، فَقَال: إِنَّ السَّفِينَة إِنَّمَا خَرَقْتها لأَعِيبهَا لأَنَّهُمْ كَانُوا يَمُرُّونَ بِهَا عَلى مَلك مِنْ الظَّلَمَة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صَالحَة، أَيْ: جَيِّدَة ﴿غَصْبًا فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ لأَرُدَّهُ عَنْهَا لعَيْبِهَا، فَيَنْتَفِع بِهَا أَصْحَابهَا من المَسَاكِين، الَّذِينَ لمْ يَكُنْ لهُمْ شَيْء يَنْتَفِعُونَ بِهِ غَيْرهَا، وَقَدْ قِيل: إِنَّهُمْ أَيْتَام. وَ[قد][2] رَوَى ابْن جُرَيْج عَنْ وَهْب بْن سُليمَان عَنْ شُعَيْب الجَبَائِيّ: أَنَّ اسْم ذَلكَ المَلك هدد بْن بدد. وَقَدْ تقدم أَيْضًا فِي رِوَايَة البُخَارِيّ، وَهُوَ مَذْكُور فِي التَّوْرَاة فِي ذُرِّيَّة العيص بْن إِسْحَاق، وَهُوَ مِنْ المُلُوك المَنْصُوص عَليْهِمْ فِي التَّوْرَاة، وَالله أَعْلم.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذَا الغُلام كَانَ اسْمه: جيسُور. وَفِي الحَدِيث: عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ أُبَيّ بن كَعْب، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «الغُلام الَّذِي قَتَلهُ الخَضِر طُبِعَ يَوْم طُبِعَ كَافِرًا».[3] رَوَاهُ ابْن جَرِير: مِنْ حَدِيث أَبِي إِسْحَاق، عَنْ سَعِيد، عَنْ ابْن عَبَّاس بِهِ، وَلهَذَا قَال: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾، أَيْ: يَحْمِلهُمَا حُبّه عَلى مُتَابَعَته عَلى الكُفْر. قَال قَتَادَة: قَدْ فَرِحَ بِهِ أَبَوَاهُ حِين وُلد، وَحَزِنَا عَليْهِ حِين قُتِل، وَلوْ بَقِيَ [لكَانَ][4] فِيهِ هَلاكهمَا، فَليَرْضَ امْرُؤٌ بِقَضَاءِ الله، فَإِنَّ قَضَاء الله للمُؤْمِن فِيمَا يَكْرَه خَيْر لهُ مِنْ قَضَائِهِ فِيمَا يُحِبّ. وَصَحَّ فِي الحَدِيث: «لا يَقْضِي الله [لمُؤْمِنٍ][5] من قَضَاء إلاَّ كَانَ خَيْرًا له».[6] وَقَال تَعَالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وَقَوْله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، أَيْ: وَلدًا أَزْكَى مِنْ هَذَا، وَهُمَا أَرْحَم بِهِ مِنْهُ. قَالهُ ابْن جُرَيْج. وَقَال قَتَادَة: أَبَرّ بِوَالدَيْهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُمَا بُدِّلا جَارِيَة. وَقِيل: لَمَّا قَتَلهُ الخَضِر كَانَتْ أُمّه حَامِلًا بِغُلامٍ مُسْلم. قَالهُ ابْن جريج.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١١٩).
(٢) زيادة من (ط).
(٣) صحيح : أخرجه مسلم (٢٦٦١)، وابن جرير (١٦/ ٣).
(٤) في نسخة: [كان].
(٥) في نسخة: [للمؤمن].
(٦) صحيح : تقـدم.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

فِي هَذِهِ الآيَة دَليل عَلى إِطْلاق القَرْيَة عَلى المَدِينَة؛ لأَنَّهُ قَال أَوَّلًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾، وَقَال هَاهُنَا: ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ يَعْنِي: مَكَّة وَالطَّائِف. وَمَعْنَى الآيَة: أَنَّ هَذَا الجِدَار إِنَّمَا أصلحه؛ لأَنَّهُ كَانَ لغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَة، وَكَانَ تَحْته كَنْز لهُمَا. قَال عِكْرِمَة، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد: كَانَ تَحْته مَال مَدْفُون لهُمَا. وهذا ظَاهِر السِّيَاق مِنْ الآيَة، وَهُوَ اخْتِيَار ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللَّهُ. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: كَانَ تَحْته كَنْز عِلم. وَكَذَا قَال سَعِيد بْن جُبَيْر. وَقَال مُجَاهِد: صُحُف فِيهَا عِلم. وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيث مَرْفُوع مَا يُقَوِّي ذَلِكَ. قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر أَحْمَد بْن عَمْرو بْن عَبْد الخَالق البَزَّار فِي مُسْنَده المَشْهُور: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن سَعِيد الجَوْهَرِيّ، حَدَّثَنَا بِشْر بْن المُنْذِر، حَدَّثَنَا الحَارِث بْن عَبْد الله اليَحْصُبِيّ، عَنْ عَيَّاش بْن عَبَّاس القتباني، عَنْ ابن حُجَيْرَة، عَنْ أَبِي ذَرّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَفَعَهُ قَال: إِنَّ الكَنْز الَّذِي ذكر الله فِي كِتَابه: لَوْح مِنْ ذَهَب مُصْمَت مَكْتُوب فِيهِ: عَجِبْت لمَنْ أَيْقَنَ بِالقَدَرِ لمَ نَصِبَ؟! وَعَجِبْت لمَنْ ذَكَرَ النَّار لمَ ضَحِكَ؟! وَعَجِبْت لمَنْ ذَكَرَ المَوْت لمَ غَفَل؟! لا إِله إِلَّا الله مُحَمَّد رَسُول الله.[1] بِشْر بْن المُنْذِر هَذَا، يُقَال لهُ: قَاضِي المَصِيصَة. قَال الحَافِظ أَبُو جَعْفَر العُقَيْلِيّ: فِي حَدِيثه وَهْم. وَقَدْ رُوِيَ فِي هَذَا آثَار عَنْ السَّلف. فَقَال ابْن جَرِير فِي «تَفْسِيره»: حَدَّثَنِي يَعْقُوب، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن حَبِيب بْن نَدْبَة، حَدَّثَنَا سَلمَة عَنْ نُعَيْم العَنْبَرِيّ -وَكَانَ مِنْ جُلسَاء الحَسَن- قَال: سَمِعْت الحَسَن -يَعْنِي البَصْرِيّ- يَقُول فِي قَوْله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قَال: لوْح مِنْ ذَهَب مَكْتُوب فِيهِ: بِسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، عَجِبْت لمَنْ يُؤْمِن بِالقَدَرِ كَيْف يَحْزَن؟! وَعَجِبْت لمَنْ يوقن بِالمَوْتِ كَيْف يَفْرَح؟! وَعَجِبْت لمَنْ يَعْرِف الدُّنْيَا وتقلبها بِأَهْلهَا كَيْف يَطْمَئِنّ إِليْهَا؟! لا إِله إِلَّا الله مُحَمَّد رَسُول الله. وَحَدَّثَنِي يُونُس، أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي عَبْد الله بْن عياش عَنْ عُمَر مَوْلى غفرة قَال: إِنَّ الكَنْز الَّذِي قَال الله فِي السُّورَة الَّتِي يُذْكَر فِيهَا الكَهْف: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾، قَال: كَانَ لوْحًا مِنْ ذَهَب مُصْمَت مَكْتُوبًا فِيهِ: بِسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، عَجَب لمَنْ عَرَفَ [النَّار][2] ثُمَّ ضَحِكَ!! عَجَب لمَنْ أَيْقَنَ بِالقَدَرِ ثُمَّ نَصِبَ!! عَجَب لمَنْ أَيْقَنَ بِالمَوْتِ ثُمَّ أَمِنَ!! أَشْهَد أَنْ لا إِله إِلَّا الله، وَأَشْهَد أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْده وَرَسُوله. وَحَدَّثَنِي أَحْمَد بْن حَازِم الغِفَارِيّ، حَدَّثَنَا هنادة بِنْت مَالك الشَّيْبَانِيَّة، قَالتْ: سَمِعْت صَاحِبِي حَمَّاد بْن الوَلِيد الثَّقَفِيّ، يَقُول: سَمِعْت جَعْفَر بْن مُحَمَّد يَقُول فِي قَوْل الله تَعَالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قَال: سَطْرَانِ وَنِصْف لمْ يَتِمّ الثَّالث: عَجِبْت للموقن بِالرِّزْقِ كَيْف يَتْعَب! وَعَجِبْت للموقن بِالحِسَابِ كَيْف يَغْفُل! وَعَجِبْت للموقن بِالمَوْتِ كَيْف يَفْرَح! وَقَدْ قَال الله: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾، قَالتْ: وَذَكَرَ أَنَّهُمَا حُفِظَا بِصَلاحِ أَبِيهِمَا، وَلمْ يُذْكَر مِنْهُمَا صَلاح، وَكَانَ بَيْنهمَا وَبَيْن الأَب الَّذِي حُفِظَا بِهِ سَبْعَة آبَاء، وَكَانَ نَسَّاجًا. وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ هَؤُلاءِ الأَئِمَّة، وَوَرَدَ بِهِ الحَدِيث المُتَقَدِّم وَإِنْ صَحَّ، لا يُنَافِي قَوْل عِكْرِمَة: إنه كَانَ مَالًا؛ لأَنَّهُمْ ذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ لوْحًا مِنْ ذَهَب وَفِيهِ مَال جَزِيل، أَكْثَر مَا زَادُوا أَنَّهُ كَانَ مُودَعًا فِيهِ عِلم: وَهُوَ حِكَم وَمَوَاعِظ، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فِيهِ دَليل عَلى أَنَّ الرَّجُل الصَّالح يُحْفَظ فِي ذُرِّيَّته، وَتَشْمَل بَرَكَة عِبَادَته هُمْ فِي

---

(١) ضعيف : فيه بشر بن المنذر قاضي المصيصة. قال العقيلي: في حديثه وهم، وفي إسناده أيضًا الحارث بن عبد الله. قال الهيثمي: لا أعرفهما.

(٢) في نسخة: [الموت].

الدُّنْيَا وَالآخِرَة، بِشَفَاعَتِهِ فِيهِمْ، وَرَفْع دَرَجَتهمْ إِلى أَعْلى دَرَجَة فِي الجَنَّة، لتقَرّ عَيْنه بِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي القُرْآن، وَوَرَدَتْ بِهِ السُّنَّة. قَال سَعِيد بْن جُبَيْر: عَنْ ابْن عَبَّاس: حُفِظَا بِصَلاح أَبِيهِمَا، وَلمْ يَذْكُر لَهُمَا صَلاحًا. وَتَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ الأَب السَّابِع. وَقَوْله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾، هَاهُنَا أَسْنَدَ الإِرَادَة إِلى الله تَعَالى؛ لأَنَّ بُلُوغهمَا الحُلُم لا يَقْدِر عَلَيْهِ إِلَّا الله، وَقَال فِي الغُلام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾، وَقَال فِي السَّفِينَة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فَالله أَعْلم.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾، أَيْ: هَذَا الَّذِي فَعَلته فِي هَذِهِ الأَحْوَال الثَّلاثَة إِنَّمَا هُوَ مِنْ رَحْمَة الله بِمَنْ ذَكَرْنَا مِنْ أَصْحَاب السَّفِينَة، وَوَالدَيْ الغُلام، وَوَلدَيْ الرَّجُل الصَّالح ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ أَيْ: لكِنِّي أُمِرْت بِهِ، وَوُقِّفْت عَلَيْهِ، وَفِيهِ دَلالَة لمَنْ قَال بِنُبُوَّةِ الخَضِر عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾. وَقَال آخَرُونَ: كَانَ رَسُولًا. وَقِيل: بَل كَانَ مَلكًا. نَقَلهُ المَاوَرْدِيّ فِي تَفْسِيره. وَذَهَبَ كَثِيرُونَ إِلى أَنَّهُ لمْ يَكُنْ نَبِيًّا، بَل كَانَ وَليًّا، فَالله أَعْلم. وَذَكَرَ ابْن قُتَيْبَة فِي «المَعَارِف» أَنَّ اسْم الخَضِر: بليا بْن ملكان بْن فالغ بْن غابر بْن شالخ بْن أرفخشذ بْن سَام بْن نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالُوا: وَكَانَ يُكَنَّى أَبَا العَبَّاس، وَيُلقَّب بِالخَضِر، وَكَانَ مِنْ أَبْنَاء المُلُوك. ذَكَرَهُ النَّوَوِيّ فِي «تَهْذِيب الأَسْمَاء»، وَحَكَى هُوَ وَغَيْره فِي كَوْنه بَاقِيًا إِلى الآن ثُمَّ إِلى يَوْم القِيَامَة قَوْليْنِ، وَمَال هُوَ وَابْن الصَّلاح إِلى بَقَائِهِ، وَذَكَرُوا فِي ذَلكَ حِكَايَات وَآثَارًا عَنْ السَّلف وَغَيْرهمْ، وَجَاءَ ذِكْره فِي بَعْض الأَحَادِيث، وَلا يَصِحّ شَيْء مِنْ ذَلكَ، وَأَشْهَرهَا حَدِيث التَّعْزِيَة، وَإِسْنَاده ضَعِيف. وَرَجَّحَ آخَرُونَ مِنْ المُحَدِّثِينَ وَغَيْرهمْ خِلاف ذَلكَ، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾، وَبِقَوْل النَّبِيّ ﷺ يَوْم بَدْر: «**اللَّهُمَّ؛ إِنْ تُهْلك هَذِهِ العِصَابَة لا تُعْبَد فِي الأَرْض**»[1]. وَبِأَنَّهُ لمْ يُنْقَل أَنَّهُ جَاءَ إِلى رَسُول الله ﷺ وَلا حَضَرَ عِنْده، وَلا قَاتَل مَعَهُ، وَلوْ كَانَ حَيًّا لكَانَ مِنْ أَتْبَاع النَّبِيّ ﷺ وَأَصْحَابه؛ لأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مَبْعُوثًا إِلى جَمِيع الثَّقَليْنِ؛ الجِنّ وَالإِنْس، وَقَدْ قَال: «لوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّيْنِ مَا وَسِعَهُمَا إِلاَّ اتِّبَاعِي»[2]. وَأَخْبَرَ قَبْل مَوْته بِقَليلٍ أَنَّهُ لا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلى وَجْه الأَرْض، إِلى مِائَة سَنَة مِنْ ليْلته تِلكَ عَيْن تَطْرِف، إِلى غَيْر ذَلكَ مِنْ الدَّلائِل.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن آدَم، حَدَّثَنَا ابْن المُبَارَك، عَنْ مَعْمَر، عَنْ هَمَّام بْن مُنَبِّه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي الخَضِر قَال: «**إِنَّمَا سُمِّيَ خَضِرًا لأَنَّهُ جَلسَ عَلى فَرْوَة بَيْضَاء، فَإِذَا هِيَ تَحْته تَهْتَزّ خَضْرَاء**». وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ عَبْد الرَّزَّاق. وَقَدْ ثَبَتَ أَيْضًا فِي «صَحِيح البُخَارِيّ» عَنْ هَمَّام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**إِنَّمَا سُمِّيَ الخَضِر؛ لأَنَّهُ جَلسَ عَلى فَرْوَة، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزّ مِنْ خلفه خَضْرَاء**»[3]. وَالمُرَاد بِالفَرْوَةِ هَاهُنَا: الحَشِيش اليَابِس، وَهُوَ: الهَشِيم مِنْ النَّبَات. قَالهُ عَبْد الرَّزَّاق. وَقِيل: المُرَاد بِذَلكَ وَجْه الأَرْض. وَقَوْله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، أَيْ: هَذَا تَفْسِير مَا ضِقْت بِهِ ذَرْعًا، وَلمْ تَصْبِر حَتَّى أُخْبِرك بِهِ ابْتِدَاء، وَلمَّا أَنْ فَسَّرَهُ لهُ وَبَيَّنَهُ، وَوَضَّحَهُ وَأَزَال المُشْكِل، قَال: ﴿تَسْطِع﴾ وَقَبْل ذَلكَ كَانَ الإِشْكَال قَوِيًّا ثَقِيلًا فَقَال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فَقَابَل الأَثْقَل بِالأَثْقَل، وَالأَخَفّ بِالأخف، كَمَا قَال: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ وَهُوَ الصُّعُود إِلى أَعْلاهُ ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ وَهُوَ أَشَقّ مِنْ ذَلكَ، فَقَابَل كُلًّا بِمَا يُنَاسِبهُ لفْظًا وَمَعْنًى، وَالله أَعْلم.
فَإِنْ قِيل: فَمَا بَال فَتَى مُوسَى ذُكِرَ فِي أَوَّل القِصَّة ثُمَّ لمْ يُذْكَر بَعْد ذَلكَ؟ فَالجَوَاب: أَنَّ المَقْصُود بِالسِّيَاقِ إِنَّمَا هُوَ

---

(١) حسن صحيح: تقدم.
(٢) ضعيف بهذا السياق: والصحيح في ذكر موسى عليه السلام.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٠٢).

قِصَّة مُوسَى مَعَ الخَضِر، وَذِكْر مَا كَانَ بَيْنهما، وَفتَى مُوسَى مَعَهُ تَبع، وَقَدْ صَرَّحَ فِي الأَحَادِيث المُتقَدِّمَة فِي الصِّحَاح وَغَيْرِهَا أَنَّهُ يُوشَع بْن نُون، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَلِي بَنِي إِسْرَائِيل بَعْد مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذَا يَدُلّ عَلى ضَعْف مَا أَوْرَدَهُ ابْن جَرِير فِي «تَفْسِيره» حَيْثُ قَال: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا سَلمَة، حَدَّثَنِي ابْن إِسْحَاق، عَنْ الحَسَن بْن عُمَارَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عِكْرِمَة، قَال: قِيل لابْنِ عَبَّاس: لمْ نَسْمَع لفَتَى مُوسَى بِذِكْرٍ من حَدِيث وَقَدْ كَانَ مَعَهُ، فقال ابْن عَبَّاس فِيمَا يَذْكُر مِنْ حَدِيث الفَتَى، قَال: شَرِبَ الفَتَى مِنْ المَاء فَخلَدَ، فَأَخَذَهُ العَالم فَطَابَقَ بِهِ سَفِينَة، ثُمَّ أَرْسَلهُ فِي البَحْر، فَإِنَّهَا لتَمُوج بِهِ إِلى يَوْم القِيَامَة، وَذَلكَ أَنَّهُ لمْ يَكُنْ لهُ أَنْ يَشْرَب مِنْهُ فَشَرِبَ.[1] إسناد ضَعِيف، الحَسَن مَتْرُوك، وَأَبُوهُ غَيْر مَعْرُوف.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾.

يَقُول تَعَالى لنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾ أَيْ: عَنْ خَبَره. وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُ بَعَث كُفَّار مَكَّة إِلى أَهْل الكِتَاب، يَسْأَلُونَ مِنْهُمْ مَا يَمْتَحِنُونَ بِهِ النَّبِيّ ﷺ ، فَقَالُوا: سَلُوهُ عَنْ رَجُل طَوَّاف فِي الأَرْض. وَعَنْ فِتْيَة لا يُدْرَى مَا صَنَعُوا، وَعَنْ الرُّوح. فَنَزَلتْ سُورَة الكَهْف. وَقَدْ أَوْرَدَ ابْن جَرِير هَاهُنَا وَالأُمَوِيّ فِي «مَغَازِيه» حَدِيثًا أَسْنَدَهُ -وَهُوَ ضَعِيف- عَنْ عُقْبَة بْن عَامِر: أَنَّ نَفَرًا مِنْ اليَهُود جَاءُوا يَسْأَلُونَ النَّبِيّ ﷺ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا جَاءُوا لهُ ابْتِدَاء، فَكَانَ فِيمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ أَنَّهُ كَانَ شَابًّا مِنْ الرُّوم، وَأَنَّهُ بَنَى الإِسْكَنْدَرِيَّة، وَأَنَّهُ عَلا بِهِ مُلك فِي السَّمَاء، وَذَهَبَ بِهِ إِلى السَّدّ، وَرَأَى أَقْوَامًا وُجُوههمْ مِثْل وُجُوه الكِلاب.[2] وَفِيهِ طُول وَنَكَارَة، وَرَفْعه لا يَصِحّ، وَأَكْثَر مَا فِيهِ أَنَّهُ مِنْ أَخْبَار بَنِي إِسْرَائِيل، وَالعَجَب أَنَّ أَبَا زُرْعَة الرَّازِيّ -مَعَ جَلالة قَدْره- سَاقَهُ بِتَمَامِهِ فِي كِتَابه «دَلائِل النُّبُوَّة»، وَذَلكَ غَرِيب مِنْهُ، وَفِيهِ مِنْ النَّكَارَة أَنَّهُ مِنْ الرُّوم، وَإِنَّمَا الَّذِي كَانَ مِنْ الرُّوم الإِسْكَنْدَر الثَّانِي، [وَهُوَ][3] ابْن فيليبس المَقْدُونِيّ الَّذِي تُؤَرِّخ بِهِ الرُّوم. فَأَمَّا الأَوَّل: فَقَدْ ذَكَرَ الأَزْرَقِيّ وَغَيْره أَنَّهُ طَافَ بِالبَيْتِ مَعَ إِبْرَاهِيم الخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّل مَا بَنَاهُ، وَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، وَكَانَ معه الخَضِر عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَأَمَّا الثَّانِي: فَهُوَ إِسْكَنْدَر بْن فيليبس المَقْدُونِيّ اليُونَانِيّ، وَكَانَ وَزِيره أرسطاطاليس الفَيْلسُوف المَشْهُور، وَالله أَعْلم. وَهُوَ الَّذِي تُؤَرَّخ به مِنْ مَمْلكته مِلَّة الرُّوم، وَقَدْ كَانَ قَبْل المَسِيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَحْوٍ مِنْ ثَلثمِائَة سَنَة. فَأَمَّا الأَوَّل المَذْكُور فِي القُرْآن: فَكَانَ فِي زَمَن الخَلِيل كَمَا ذَكَرَهُ الأَزْرَقِيّ وَغَيْره، وَأَنَّهُ طَافَ مَعَ الخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالبَيْتِ العَتِيق لمَّا بَنَاهُ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَرَّبَ إِلى الله قُرْبَانًا، وَقَدْ ذَكَرْنَا طَرَفًا صَالحًا مِنْ أَخْبَاره فِي كِتَاب «البِدَايَة وَالنِّهَايَة». بِمَا فِيهِ كِفَايَة ولله الحَمْد. قَال وَهْب بْن مُنَبِّه: كَانَ مَلكًا، وَإِنَّمَا سُمِّيَ ذَا القَرْنَيْنِ؛ لأَنَّ صَفْحَتَيْ رَأْسه كَانَتَا مِنْ نُحَاس. قَال: وَقَال بَعْض أَهْل الكِتَاب: لأَنَّهُ مَلكَ الرُّوم وَفَارِس. وَقَال بَعْضهمْ: كَانَ فِي رَأْسه شِبْه القَرْنَيْنِ. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَنْ حَبِيب بْن أَبِي ثَابِت، عَنْ أَبِي الطُّفَيْل، قَال: سُئِل عَليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ؟ فَقَال: «كَانَ عَبْدًا نَاصِحًا لله عَزَّ وَجَلَّ فَنَاصَحَهُ، دَعَا قَوْمه إِلى الله، فَضَرَبُوهُ عَلى قَرْنه فَمَاتَ، فَأَحْيَاهُ الله، فَدَعَا قَوْمه إِلى الله فَضَرَبُوهُ عَلى قَرْنه فَمَاتَ، فَسُمِّيَ ذَا القَرْنَيْنِ»[4]. وَكَذَا رَوَاهُ شُعْبَة عَنْ القَاسِم بْن أَبِي بَزَّة عَنْ أَبِي الطُّفَيْل سَمِعَ عَليًّا يَقُول ذَلكَ. وَيُقَال: إِنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ ذَا القَرْنَيْنِ؛ لأَنَّهُ بَلغَ المَشَارِق وَالمَغَارِب، مِنْ حَيْثُ يَطْلُع قَرْن الشَّمْس وَيَغْرُب.

---

(١) **ضعيف جدًا** : أخرجه ابن جرير (١٥/ ٢٨١)، في إسناده الحسن بن عمارة: ضعيف متروك، وأبوه: غير معروف.
(٢) **ضعيف جدًا** : أخرجه ابن جرير (١٦/ ٨)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي: ضعيف، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١١٩٨).
(٣) سقط من (ط).
(٤) **صحيح** : أخرجه ابن جرير (١٦/ ٩)، وإسناده صحيح موقوف، ومثله لا يقال بالرأي، وهذا أحسن ما قيل في سبب تسميته.

وَقَوْله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أَيْ: أَعْطَيْنَاهُ مُلكًا عَظِيمًا، متمكنًا فِيهِ [له][1] مِنْ جَمِيع مَا يُؤْتَى المُلُوك؛ مِنَ التَّمْكِين، وَالجُنُود، وَآلات الحَرْب وَالحِصَارَات، وَلِهَذَا مَلكَ المَشَارِق وَالمَغَارِب مِنَ الأَرْض، وَدَانَتْ لهُ البِلاد، وَخضَعَتْ لهُ مُلُوك العِبَاد، وَخَدَمَتْهُ الأُمَم مِنَ العَرَب وَالعَجَم، وَلِهَذَا ذَكَرَ بَعْضهمْ أَنَّهُ إِنَّما سُمِّيَ ذَا القَرْنَيْنِ؛ لأَنَّهُ بَلغَ قَرْنَيْ الشَّمْس: مَشْرِقهَا وَمَغْرِبهَا.

وَقَوْله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ قَال ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَعِكْرِمَة، وَالسُّدِّيّ، وَقَتَادَة، وَالضَّحَّاك، وَغَيْرهمْ: يَعْنِي عِلمًا. وَقَال قَتَادَة أَيْضًا فِي قَوْله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ قَال: مَنَازِل الأَرْض، وَأَعْلامهَا. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ فِي قَوْله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ قَال: تَعْليم الأَلسِنَة. قَال: كَانَ لا يَغْزُو قَوْمًا إِلَّا كَلَّمَهُمْ بِلسَانِهِمْ. وَقَال ابْن لهِيعَة: حَدَّثَنِي سَالم بْن غَيْلان، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي هِلال، أَنَّ مُعَاوِيَة ابْن أَبِي سُفْيَان قَال لكَعْبِ الأَحْبَار: أَنْتَ تَقُول: إِنَّ ذَا القَرْنَيْنِ كَانَ يَرْبِط خَيْله بِالثُّرَيَّا؟!! فَقَال لهُ كَعْب: إِنْ كُنْت قُلت ذَلكَ فَإِنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾. وَهَذَا الَّذِي أَنْكَرَهُ مُعَاوِيَة ﷺ على كَعْب الأَحْبَار هُوَ الصَّوَاب، وَالحَقّ مَعَ مُعَاوِيَة فِي الإِنْكَار، فَإِنَّ مُعَاوِيَة كَانَ يَقُول عَنْ كَعْب: إِنْ كُنَّا لنَبْلُو عَليْهِ الكَذِب. يَعْنِي: فِيمَا يَنْقُلهُ، لا أَنَّهُ كَانَ يَتَعَمَّد نَقْل مَا ليْسَ فِي صُحُيفته، وَلكِنَّ الشَّأْن فِي صحيفته أَنَّهَا مِنْ الإِسْرَائِيليَّات، الَّتِي غَالبهَا مُبَدَّل مُصَحَّف، مُحَرَّف مُخْتَلق، وَلا حَاجَة لنَا مَعَ خَبَر الله تَعَالى وَرَسُول الله ﷺ إِلى شَيْء مِنْهَا بِالكُلِّيَّةِ، فَإِنَّهُ دَخَل مِنْهَا عَلى النَّاس شَرّ كَثِير وَفَسَاد عَرِيض. وَتَأْوِيل كَعْب قَوْل الله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ وَاسْتِشْهَاده [فِي ذَلكَ][2] عَلى مَا يَجِدهُ فِي صحيفته، مِنْ أَنَّهُ كَانَ يَرْبِط خَيْله بِالثُّرَيَّا غَيْر صَحِيح وَلا مُطَابِق؛ فَإِنَّهُ لا سَبِيل للبَشَر إِلى شَيْء مِنْ ذَلكَ، وَلا إِلى التَّرَقِّي فِي أَسْبَاب السَّمَاوَات، وَقَدْ قَال الله فِي حَقّ بِلقِيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أَيْ: مِمَّا يُؤْتَى مِثْلهَا مِنَ المُلُوك، وَهَكَذَا ذُو القَرْنَيْنِ، يَسَّرَ الله لهُ الأَسْبَاب، أَيْ: الطُّرُق وَالوَسَائِل إِلى فَتْح الأَقَاليم وَالرَّسَاتِيق وَالبِلاد وَالأَرَاضِي، وَكَسْر الأَعادي وَكَبْت مُلُوك الأَرْض، وَإِذْلال أَهْل الشِّرْك، قَدْ أُوتِيَ مِنْ كُل شَيْء مِمَّا يَحْتَاج إِليْهِ مِثْله سَبَبًا، وَالله أَعْلم. وَفِي «المُخْتَارَة» للحَافِظِ الضِّيَاء المَقْدِسِيّ، مِنْ طَرِيق قُتَيْبَة، عَنْ أَبِي عَوَانَة، عَنْ سِمَاك بْن حَرْب، عَنْ حَبِيب بْن حمار قَال: كُنْت عِنْد عَليّ ﷺ وَسَأَلهُ رَجُل عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ: كَيْف بَلغَ المشارق وَالمَغَارِب؟ فَقَال: سُبْحَان الله، سَخَّرَ لهُ السَّحَاب، وَقَدَّرَ لهُ الأَسْبَاب، وَبَسَطَ لهُ اليَد.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

قَال ابْن عَبَّاس: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يَعْنِي بِالسَّبَبِ: المَنزل. وَقَال مُجَاهِد: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾: مَنْزِلًا وَطَرِيقًا مَا بَيْن المَشْرِق وَالمَغْرِب. وَفِي رِوَايَة عَنْ مُجَاهِد ﴿سَبَبًا﴾ قَال: طريقًا فِي الأَرْض. وَقَال قَتَادَة: أَيْ أَتْبَعَ مَنَازِل الأَرْض وَمَعَالمهَا. وَقَال الضَّحَّاك: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أَيْ: المَنَازِل. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر فِي قَوْله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ قَال: عِلمًا. وَهَكَذَا قَال عِكْرِمَة وَعُبَيْد بْن يَعْلى وَالسُّدِّيّ. وَقَال مَطَر: مَعَالم وَآثَار كَانَتْ قَبْل ذَلكَ. وَقَوْله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أَيْ: فَسَلكَ طَرِيقًا حَتَّى وَصَل إِلى أَقْصَى مَا يُسْلك فِيهِ مِنَ الأَرْض مِنْ نَاحِيَة المَغْرِب، وَهُوَ مَغْرِب الأَرْض. وَأَمَّا الوُصُول إِلى مَغْرِب الشَّمْس مِنْ السَّمَاء فَمُتَعَذِّر، وَمَا يَذْكُرهُ أَصْحَاب القَصَص وَالأَخْبَار مِنْ أَنَّهُ

---

(١) زيادة من (ط).
(٢) في نسخة: [بذلك].

سَارَ فِي الأَرْض مُدَّة، وَالشَّمْس تَغْرُب مِنْ وَرَائِهِ، فَشَيْء لا حَقِيقَة لهُ، وَأَكْثَر ذَلكَ مِنْ خُرَافَات أَهْل الكِتَاب وَاخْتِلاق زَنَادِقَتهمْ وَكَذِبهمْ.

وَقَوْله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أَيْ: رَأَى الشَّمْس فِي مَنْظَره تَغْرُب فِي البَحْر المُحِيط، وَهَذَا شَأْن كُلّ مَنْ انْتَهَى إِلَى سَاحِله، يَرَاهَا كَأَنَّهَا تَغْرُب فِيهِ، وَهِيَ لا تُفَارِق الفَلَك الرَّابع الَّذِي هِيَ مُثْبَتَة فِيهِ لا تُفَارِقهُ. وَالحَمِئَة مُشْتَقَّة عَلَى إِحْدَى القِرَاءَتَيْنِ مِنْ الحَمْأَة، وَهُوَ: الطِّين، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أَيْ: طِين أَمْلس. وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانه.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يُونُس، أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب، حدثَّنِي نَافِع بْن أَبِي نُعَيْم، سَمِعْت عَبْد الرَّحْمَن الأَعْرَج، يَقُول: كَانَ ابْن عَبَّاس يَقُول: ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهَا: ذَات حَمْأَة. قَال نَافِع: وَسُئِل عَنْهَا كَعْب الأَحْبَار، فَقَال: أَنْتُمْ أَعْلم بِالقُرْآنِ مِنِّي، ولكني أَجِدهَا فِي الكِتَاب: تَغِيب فِي طِينَة سَوْدَاء. وَكَذَا رَوَى غَيْر وَاحِد عَنْ ابْن عَبَّاس. وَبِهِ قَال مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد. وَقَال أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن دِينَار، عَنْ سَعْد بْن أَوْس، عَنْ مِصْدَع، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ أَقْرَأَهُ: ﴿حَمِئَةٍ﴾. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: (وَجَدَهَا تَغْرُب فِي عَيْن حَامِيَة) يَعْنِي: حَارَّة. وَكَذَا قَال الحَسَن البَصْرِيّ.

وَقَال ابْن جَرِير: وَالصَّوَاب أَنَّهُمَا قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ، فَأيهما قَرَأَ القَارِئ فَهُوَ مُصِيب. قُلت: وَلا مُنَافَاة بَيْن مَعْنَيَيْهِمَا، إِذْ قَدْ تَكُون حَارَّة لُمجَاوَرَتهَا وَهَج الشَّمْس عِنْد غُرُوبهَا، وَمُلاقَاتهَا الشُّعَاع بِلا حائل، وَ﴿حَمِئَةٍ﴾: فِي مَاء وَطِين أَسْوَد، كَمَا قَال كَعْب الأَحْبَار وَغَيْره.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، أَخْبَرَنَا العَوَّام، حَدَّثَنِي مَوْلًى لعَبْدِ الله بْن عَمْرو، عَنْ عَبْد الله، قَال: نَظَرَ رَسُول الله ﷺ إِلى الشَّمْس حِين غَابَتْ فَقَال: «فِي نَار الله الحَامِيَة، فِي نَار الله الحَامِيَة، لوْلا مَا يَزَعهَا مِنْ أَمْر الله لأَحْرَقَتْ مَا عَلَى الأَرْض»[1]. قُلت: وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد عَنْ يَزِيد بْن هَارُون. وَفِي صِحَّة رَفْع هَذَا الحَدِيث نَظَر، وَلعَلَّهُ مِنْ كَلام عَبْد الله بْن عَمْرو مِنْ زَامِلتَيْهِ اللَّتَيْنِ وَجَدَهُمَا يَوْم اليَرْمُوك، وَالله أَعْلم. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن حَمْزَة، حَدَّثَنَا مُحَمَّد -يَعْنِي: ابْن بِشْر- حَدَّثَنَا عَمْرو بْن مَيْمُون، أَنْبَأَنَا ابْن حَاضِر أَنَّ ابْن عَبَّاس ذَكَرَ لهُ أَنَّ مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان قَرَأَ الآيَة الَّتِي فِي سُورَة الكَهْف: (تَغْرُب فِي عَيْن حَامِيَة) قَال ابْن عَبَّاس: فقلت لمُعَاوِيَة: مَا نَقْرَؤُهَا إِلَّا ﴿حَمِئَةٍ﴾، فَسَأَل مُعَاوِيَة عَبْد الله بْن عَمْرو: كَيْف تَقْرَؤُهَا؟ فَقَال عَبْد الله: كَمَا قَرَأْتهَا. قَال ابْن عَبَّاس: فَقُلت لمُعَاوِيَة: فِي بَيْتِي نَزَل القُرْآن. فَأَرْسَل إِلَى كَعْب فَقَال لهُ: أَيْنَ تَجِد الشَّمْس تَغْرُب فِي التَّوْرَاة؟ فَقَال لهُ كَعْب: سَل أَهْل العَرَبِيَّة فَإِنَّهُمْ أَعْلم بِهَا، وَأَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَجِد الشَّمْس تَغْرُب فِي التَّوْرَاة فِي مَاء وَطِين، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى المَغْرِب. قَال ابْن حَاضِر: لوْ أَنِّي عندكما أَفَدْتُك بِكَلام تَزْدَاد فِيهِ بَصِيرَة فِي ﴿حَمِئَةٍ﴾. قَال ابْن عَبَّاس: وَإِذًا مَا هُوَ؟ قُلت: فِيمَا يُؤْثَر مِنْ قَوْل تُبَّع، فِيمَا ذَكَرَ بِهِ ذَا القَرْنَيْنِ فِي تَخَلُّقه بِالعِلم وَاتِّبَاعه إِيَّاهُ:

بَلَغَ المَشَارِق وَالمَغَارِب يَبْتَغِي ۞ أَسْبَابَ أَمْر مِنْ حَكِيم مُرْشِد
فَرَأَى مَغِيب الشَّمْس عِنْد غُرُوبهَا ۞ فِي عَيْن ذِي خُلُب وَثَأْطٍ حَرْمَد

فَقَال ابْن عَبَّاس: مَا الخُلُب؟ قُلت: الطِّين بِكَلامِهِمْ. قَال: مَا الثأط؟ قُلت: الحَمْأَة. قَال: فَمَا الحَرْمَد؟ قُلت: الأَسْوَد. قَال: فَدَعَا ابْن عَبَّاس رَجُلًا -أَوْ غُلامًا- فَقَال: اكْتُبْ مَا يَقُول هَذَا الرَّجُل. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: بَيْنَا ابْن عَبَّاس يَقْرَأ سُورَة الكَهْف فَقَرَأَ: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ فَقَال كَعْب: وَالَّذِي نَفْس كَعْب بِيَدِهِ، مَا

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (١٦/ ١٢)، وفيه جهالة. وأخرجه أحمد (٢/ ٢٠٧)، وفيه من لم يسم.

سَمِعْت أَحدًا يَقْرَؤُهَا كَمَا أُنْزِلتْ فِي التَّوْرَاة غَيْر ابْن عَبَّاس، فَإِنَّا نَجِدهَا فِي التَّوْرَاة تَغْرُب فِي مَدَرَة سَوْدَاء. وَقَال أَبُو يَعْلى المَوْصِليّ: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن أَبِي إِسْرَائِيل، حَدَّثَنَا هِشَام بْن يُوسُف، قَال: فِي تَفْسِير ابْن جُرَيْج ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ قَال: مَدِينَة لهَا اثْنَا عَشَر أَلف بَاب، لوْلا أَصْوَات أَهْلهَا لسَمِعَ النَّاس وُجُوب الشَّمْس حِين تَجِب.

وَقَوْله: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أَيْ: أُمَّة مِنْ الأُمَم، ذَكَرُوا أَنَّهَا كَانَتْ أُمَّة عَظِيمَة مِنْ بَنِي آدَم.

وَقَوْله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ مَعْنَى هَذَا أَنَّ الله تَعَالى مَكَّنَهُ مِنْهُمْ، وَحَكَّمَهُ فِيهِمْ، وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ، وَخَيَّرَهُ: إِنْ شَاءَ قَتَل وَسَبَى، وَإِنْ شَاءَ مَنَّ أَوْ فَدَى، فَعُرِفَ عَدْله وَإِيمَانه، فِيمَا أَبْدَاهُ عَدْله وَبَيَانه. فِي قَوْله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أَيْ: من اسْتَمَرَّ عَلى كُفْره وَشِرْكه بِرَبِّهِ ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ قَال قَتَادَة: بِالقَتْل. وَقَال السُّدِّيّ: كَانَ يَحْمِي لهُمْ بَقَر النُّحَاس، وَيَضَعهُمْ فِيهَا حَتَّى يَذُوبُوا. وَقَال وَهْب بْن مُنَبِّه: كَانَ يُسَلِّط الظُّلْمَة، فَتَدْخُل أَجْوَافهمْ وَبُيُوتهمْ، وَتَغْشَاهُمْ مِنْ جَمِيع جِهَاتهمْ، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أَيْ: شَدِيدًا بَليغًا، وَجِيعًا أَليمًا، [وَفِي هَذَا](1) إِثْبَات المَعَاد وَالجَزَاء.

وَقَوْله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ أَيْ: تَابَعَنَا عَلى مَا نَدْعُوهُ إِليْهِ مِنْ عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لهُ: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أَيْ: فِي الدَّار الآخِرَة عِنْد الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ قَال مُجَاهِد: مَعْرُوفًا.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾.

يَقُول تَعَالى: ثُمَّ سَلك طَرِيقًا فَسَارَ مِنْ مَغْرِب الشَّمْس إِلى مَطْلعهَا، وَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ بِأُمَّةٍ قَهَرَهُمْ وَغَلبَهُمْ، وَدَعَاهُمْ إِلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ أَطَاعُوهُ وَإِلَّا أَذَلَّهُمْ، وَأَرْغَمَ آنَافهمْ، وَاسْتَبَاحَ أَمْوَالهمْ وَأَمْتِعَتهمْ، وَاسْتَخْدَمَ مِنْ كُلّ أُمَّة مَا يستعين بِهِ مع جُيُوشه عَلى أهل الإِقْليم المُتَاخِم لهُمْ. وَذُكِرَ فِي أَخْبَار بَنِي إِسْرَائِيل أَنَّهُ عَاشَ أَلفًا وَسِتّمِائَةِ سَنَة، يَجُوب الأَرْض طُولهَا وَالعَرْض، حَتَّى بَلغَ المَشَارِق وَالمَغَارِب.

وَلـمَّا انْتَهَى إِلى مَطْلع الشَّمْس مِنْ الأَرْض، كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أَيْ أُمَّة ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، أي: ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلهم ولا تسترهم من حر الشمس.

قال سعيد بن جبير: كانوا حمرًا قصارًا، مساكنهم الغيران، أكثر معيشتهم من السمك.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا سهل بن أبي الصلت، سمعت الحسن، وسئل عن قول الله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾؟ قال: إن أرضهم لا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياة، فإذا غربت خرجوا يتراغون كما ترغي البهائم. قال الحسن: هذا حديث سمرة. وقال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئًا، فهم إذا طلعت الشمس في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم. وعن سلمة بن كهيل أنه قال: ليس لهم أكنان، إذا طلعت الشمس طلعت عليهم، فلأحدهم أذنان يفترش إحداهما ويلبس الأخرى. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: هم الزنج.

وقال ابن جريج في قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، قَال: لمْ يَبْنُوا فِيهَا بِنَاء قَطُّ، وَلمْ يُبْنَ عَليْهِمْ فِيهَا بِنَاء قَطُّ، كَانُوا إِذَا طَلعَتْ الشَّمْس دَخَلُوا أَسْرَابًا لهُمْ حَتَّى تَزُول الشَّمْس، أَوْ دَخَلُوا البَحْر، وَذَلكَ أَنَّ أَرْضهمْ ليْسَ فِيهَا جَبَل. جَاءَهُمْ جَيْش مَرَّة، فَقَال لهُمْ أَهْلهَا: لا تَطْلعَنَّ عَليْكُمْ الشَّمْس وَأَنْتُمْ بِهَا. قَالُوا: لا نَبْرَح حَتَّى تَطْلُع الشَّمْس، مَا هَذِهِ العِظَام؟ قَالُوا: هَذِهِ جِيَف جَيْش طَلعَتْ عَليْهِمْ الشَّمْس هَاهُنَا فَمَاتُوا. قَال: فَذَهَبُوا هَارِبِينَ فِي الأَرْض.

---

(1) في نسخة: [وفيه].

وَقَوْله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ قَال مُجَاهِد، وَالسُّدِّيّ: عِلمًا. أَيْ: نَحْنُ مُطَّلِعُونَ عَلى جَمِيع أَحْوَاله وَأَحْوَال جَيْشه، لا يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْهَا شَيْء، وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أُمَمهمْ، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ الأَرْض، فَإِنَّهُ تَعَالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أَيْ: ثُمَّ سَلكَ طَرِيقًا مِنْ مَشَارِق الأَرْض، ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾، وَهُمَا جَبَلانِ مُتَنَاوِحَانِ، بَيْنهمَا ثُغْرَة يَخْرُج مِنْهَا يَأْجُوج وَمَأْجُوج عَلى بِلاد التُّرْك، فَيَعِيثُونَ فيهم فَسَادًا، وَيُهْلكُونَ الحَرْث وَالنَّسْل؛ وَيَأْجُوج وَمَأْجُوج مِنْ سُلالة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: **«إِنَّ الله تَعَالى يَقُول: يَا آدَم. فَيَقُول: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُول: ابْعَثْ بَعْث النَّار. فَيَقُول: وَمَا بَعْث النَّار؟ فَيَقُول: مِنْ كُلّ أَلف تِسْعمِائَةٍ وَتِسْعَة وَتِسْعُونَ إِلى النَّار، وَوَاحِد إِلى الجَنَّة. فَحِينَئِذٍ يَشِيب الصَّغِير، وَتَضَع كُلّ ذَات حَمْل حَمْلهَا». فيقال: إِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ مَا كَانَتَا فِي شَيْء إِلاَّ كَثَّرَتَاهُ: يَأْجُوج وَمَأْجُوج»**[1]. وَقَدْ حَكَى النَّوَوِيّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «شَرْح مُسْلم» عَنْ بَعْض النَّاس، أَنَّ يَأْجُوج وَمَأْجُوج خُلقُوا مِنْ مَنِيّ خَرَجَ مِنْ آدم، فَاخْتَلطَ بِالتُّرَاب فَخُلقُوا مِنْ ذَلكَ، فَعَلى هَذَا يَكُونُونَ مَخْلُوقِينَ مِنْ آدَم، وَليْسُوا مِنْ حَوَّاء، وَهَذَا قَوْل غَرِيب جِدًّا لا دَليل عَليْهِ؛ لا مِنْ عَقْل، وَلا مِنْ نَقْل، وَلا يَجُوز الاعْتِمَاد هَاهُنَا عَلى مَا يَحْكِيه بَعْض أَهْل الكِتَاب؛ لِمَا عِنْدهمْ مِنْ الأَحَادِيث المُفْتَعَلة، وَالله أَعْلم.

وَفِي «مُسْنَد الإِمَام أَحْمَد» عَنْ سَمُرَة، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «وَلد نُوح ثَلاثَة: سَام أَبُو العَرَب، وَحَام أَبُو السُّودَان، وَيَافِث أَبُو التُّرْك»[2]. فقال بَعْض العُلمَاء: هَؤُلاءِ مِنْ نَسْل يَافِث أَبِي التُّرْك. قَال: إِنَّمَا سموا هَؤُلاءِ تُرْكًا؛ لأَنَّهُمْ تَرَكُوا مَنْ وَرَاء السَّدّ مِنْ هَذِهِ الجِهَة، وَإِلَّا فَهُمْ أَقْرِبَاء أُولئِكَ، ولكِنْ كَانَ فِي أُولئِكَ بَغْي وَفَسَاد وَجَرَاءَة. وَقَدْ ذَكَرَ ابْن جَرِير هَاهُنَا عَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه أَثَرًا طَوِيلًا عَجِيبًا فِي سِيَر ذِي القَرْنَيْنِ، وَبِنَائِهِ السَّدّ، وَكَيْفِيَّة مَا جَرَى لهُ، وَفِيهِ طُول وَغَرَابَة، وَنَكَارَة فِي أَشْكَالهمْ وَصِفَاتهمْ، وَطُولهمْ وَقِصَر بَعْضهمْ وَآذَانهمْ. وَرَوَى ابْن أَبِي حَاتِم أَحَادِيث غَرِيبَة فِي ذلك، لا تَصِحّ أَسَانِيدهَا وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لاسْتِعْجَام كَلامهمْ وَبُعْدهمْ عَنْ النَّاس.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ قَال ابْن جُرَيْج عَنْ عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَجْرًا عَظِيمًا. يَعْنِي: أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَجْمَعُوا لهُ مِنْ بَيْنهمْ مَالًا يُعْطُونَهُ إِيَّاهُ؛ حَتَّى يَجْعَل بَيْنه وَبَيْنهمْ سَدًّا، فَقَال ذُو القَرْنَيْنِ بِعِفَّةٍ وَدِيَانَة وَصَلاح وَقَصْد للخَيْر: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أَيْ: إِنَّ الَّذِي أَعْطَانِي الله مِنْ المُلك وَالتَّمْكِين خَيْر لِي مِنْ الَّذِي تَجْمَعُونَهُ، كَمَا قَال سُليْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، وَهَكَذَا قَال ذُو القَرْنَيْنِ: الَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْر مِنْ الَّذِي تَبْذُلُونَهُ، وَلكِنْ سَاعِدُونِي ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أَيْ: بِعَمَلكُمْ وَآلات البِنَاء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ وَالزُّبُر: جَمْع زُبْرَة، وَهِيَ القِطْعَة مِنْهُ. قَالهُ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة: وَهِيَ كَاللَّبِنَةِ، يُقَال: كُلّ لبِنَة زِنَة قِنْطَار بِالدِّمَشْقِيّ، أَوْ تَزِيد عَليْهِ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢).
(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٩)، والترمذي (٣١٣٠) وفيه انقطاع وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٦١٣٢).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ أَيْ: وَضَعَ بَعْضه عَلَى بَعْض مِنْ الأَسَاس، حَتَّى إِذَا حَاذَى بِهِ رُءُوس الجَبَلَيْنِ طُولًا وَعَرْضًا، وَاخْتَلفُوا فِي مِسَاحَة عَرْضه وَطُوله عَلَى أَقْوَال، ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ أَيْ: أَجَّجَ عَلَيْهِ النَّار حَتَّى صَارَ كُلّه نَارًا ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ قَال ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ: هُوَ النُّحَاس. وزَادَ بَعْضهمْ: المُذَاب. وَيَسْتَشْهِد بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ﴾ وَلِهَذَا يُشَبَّه بِالبُرْدِ المُحَبَّر.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا بِشْر، حَدَّثَنَا يَزِيد، حَدَّثَنَا سَعِيد، عَنْ قَتَادَة، قَال: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا قَال: يَا رَسُول الله؛ قَدْ رَأَيْت سَدّ يَأْجُوج وَمَأْجُوج. قَال: «انْعَتْهُ لِي». قَال: كَالبَرْدِ المُحَبَّر، طَرِيقَة سَوْدَاء، وَطَرِيقَة حَمْرَاء، قَال: «قَدْ رَأَيْته».[1] هَذَا حَدِيث مُرْسَل. وَقَدْ بَعَثَ الخَلِيفَة الوَاثِق فِي دَوْلته بَعْض أُمَرَائِهِ، [وَجَهَّزَ][2] مَعَهُ جَيْشًا سَرِيَّة؛ لِيَنْظُرُوا إِلَى السَّدّ وَيُعَايِنُوهُ، وَيَنْعَتُوهُ لهُ إِذَا رَجَعُوا، فَتَوَصَّلُوا مِنْ بِلاد إِلَى بِلاد، وَمِنْ مَلك إِلَى مَلك، حَتَّى وَصَلُوا إِلَيْهِ، وَرَأَوْا بِنَاءَهُ مِنْ الحَدِيد وَمِنْ النُّحَاس، وَذَكَرُوا أَنَّهُمْ رَأَوْا فِيهِ بَابًا عَظِيمًا، وَعَلَيْهِ أَقْفَال عَظِيمَة، وَرَأَوْا بَقِيَّة اللَّبِن وَالعَمَل فِي بُرْج هُنَاكَ، وَأَنَّ عِنْده حَرَسًا مِنْ المُلُوك المُتَاخِمَة لهُ، وَأَنَّهُ عَالٍ مُنِيف شَاهِق، لا يُسْتَطَاع، وَلا مَا حَوْله مِنْ الجِبَال، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بِلادهمْ، وَكَانَتْ غَيْبَتهمْ أَكْثَر مِنْ سَنَتَيْنِ، وَشَاهَدُوا أَهْوَالًا وَعَجَائِب. ثُمَّ قَال الله تَعَالَى:

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨ ۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ يَأْجُوج وَمَأْجُوج: أَنَّهُمْ مَا قَدَرُوا عَلَى أَنْ يَصْعَدُوا [مِنْ][3] فَوْق هَذَا السَّدّ، وَلا قَدَرُوا عَلَى نَقْبه مِنْ أَسْفَله، وَلَمَّا كَانَ الظُّهُور عَلَيْهِ أَسْهَل مِنْ نَقْبه، قَابَل كُلًّا بِمَا يُنَاسِبهُ، فَقَال: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾، وَهَذَا دَلِيل عَلَى أَنَّهُمْ لمْ يَقْدِرُوا عَلَى نَقْبه، وَلا عَلَى شَيْء مِنْهُ. فَأَمَّا الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا رَوْح، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة، حَدَّثَنَا أَبُو رَافِع، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «**إِنَّ يَأْجُوج وَمَأْجُوج لَيَحْفِرُونَ السَّدّ كُلّ يَوْم، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاع الشَّمْس، قَال الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا. فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتهمْ، وَأَرَادَ الله أَنْ يَبْعَثهُمْ عَلَى النَّاس، حَفَرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاع الشَّمْس قَال الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا، فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ الله. ويستثني، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِين تَرَكُوهُ، فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاس، فَيُنَشِّفُونَ المِيَاه، وَيَتَحَصَّن النَّاس مِنْهُمْ فِي حُصُونهمْ، فَيَرْمُونَ سهامهم إِلَى السَّمَاء، فَتَرْجِع وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّم، فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْل الأَرْض، وَعَلَوْنَا أَهْل السَّمَاء، فَيَبْعَث الله عَلَيْهِمْ نَغَفًا فِي أَقْفَائهم فَيَقْتُلهُمْ بِهَا**». قَال رَسُول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ دَوَابّ الأَرْض لَتَسْمَن وَتَشْكَر شَكَرًا مِنْ لُحُومهمْ وَدِمَائِهِمْ**»[4]. وَرَوَاهُ أَحْمَد أَيْضًا عَنْ حَسَن -هُوَ ابْن مُوسَى الأَشْهَب عَنْ سُفْيَان، عَنْ قَتَادَة بِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام ابْن مَاجَهْ عَنْ أَزْهَر بْن مَرْوَان، عَنْ عَبْد الأَعْلَى، عَنْ سَعِيد ابْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة، قَال: حَدَّثَ أَبُو رَافِع. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي عَوَانَة، عَنْ قَتَادَة، ثُمَّ قَال: غَرِيب، لا نعرفه إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه. وَهذا إسناده جَيِّد قَوِيّ، وَلكِنْ فِي رَفْعه نَكَارَة، لأَنَّ ظَاهِر الآيَة يَقْتَضِي أَنَّهُمْ لمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ ارْتِقَائِهِ وَلا مِنْ نَقْبه، لإِحْكَام بِنَائِهِ وَصَلابَته وَشِدَّته، وَلكِنَّ هَذَا قَدْ رُوِيَ عَنْ كَعْب الأَحْبَار: أَنَّهُمْ قَبْل خُرُوجهمْ يَأْتُونَهُ فَيَلْحَسُونَهُ، حَتَّى لا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا القَلِيل، فَيَقُولُونَ: غَدًا نَفْتَحهُ، فَيَأْتُونَ مِنْ الغَد وَقَدْ

---

(١) مرسل : أخرجه ابن جرير (١٦/ ٢٣).
(٢) في نسخة: [ووجَّه].
(٣) سقط من (ط).
(٤) صحيح : أخرجه أحمد (٣/ ٥١٠)، والترمذي (٣١٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٢٢٧٦).

عَادَ كَمَا كَانَ، فَيَلحَسُونَهُ حَتَّى لا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا القَلِيل، فَيَقُولُونَ كَذَلكَ، فَيُصْبِحُونَ وَهُوَ كَمَا كَانَ، فَيَلحَسُونَهُ وَيَقُولُونَ: غَدًا نَفْتَحهُ، وَيُلهَمُونَ أَنْ يَقُولُوا: إِنْ شَاءَ الله، فَيُصْبِحُونَ وَهُوَ كَمَا فَارَقُوهُ فَيَفْتَحُونَهُ. وَهَذَا مُتَّجه، وَلعَلَّ أَبَا هُرَيْرَة تَلقَّاهُ مِنْ كَعْب؛ فَإِنَّهُ [كَانَ](1) كَثِيرًا مَا كَانَ يُجَالسهُ ويحادثه، فَحَدَّث بِهِ أَبُو هُرَيْرَة، فَتوَهَّم بَعْض الرُّوَاة عَنْهُ أَنَّهُ مَرْفُوع فَرَفَعَهُ، وَالله أَعْلم. ويؤكد مَا قُلنَاهُ مِنْ أَنَّهُمْ لمْ يَتمَكَّنُوا مِنْ نَقْبه وَلا نَقْب شَيْء مِنْهُ، وَمِنْ نَكَارَة هَذَا المَرْفُوع قَوْل الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة، عَنْ زَيْنَب بِنْت أَبِي سَلمَة، عَنْ حَبِيبَة بِنْت أُمّ حَبِيبَة بِنْت أَبِي سُفْيَان، عَنْ أُمّهَا أُمّ حَبِيبَة، عَنْ زَيْنَب بِنْت جَحْش زَوْج النَّبِيّ ﷺ -قَال سُفْيَان: أَرْبَع نِسْوَة- قَالتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيّ ﷺ مِنْ نَوْمه وَهُوَ مُحْمَرّ وَجْهه، وَهُوَ يَقُول: «**لا إله إلا الله! وَيْل للعَرَبِ مِنْ شَرّ قَدْ اقْتَرَبَ! فُتِحَ اليَوْم مِنْ رَدْم يَأْجُوج وَمَأْجُوج مِثْل هَذَا**». وَحَلَّق قُلت: يَا رَسُول الله؛ أَنَهْلكُ وَفِينَا الصَّالحُونَ؟ قَال: «**نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخبث**»(2). هَذَا حَدِيث صَحِيح، اتَّفَقَ البُخَارِيّ وَمُسْلم عَلى إِخْرَاجه مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، وَلكِنْ سَقَطَ فِي رِوَايَة البُخَارِيّ ذِكْر حَبِيبَة وَأَثْبَتَهَا مُسْلم، وَفِيهِ أَشْيَاء عَزِيزَة نَادِرَة قَليلة الوُقُوع فِي صِنَاعَة الإِسْنَاد، مِنْهَا رِوَايَة الزُّهْرِيّ عَنْ عُرْوَة وَهُمَا تَابِعِيَّانِ، وَمِنْهَا اجْتِمَاع أَرْبَع نِسْوَة فِي سَنَده كُلّهنَّ يَرْوِي بَعْضهنَّ عَنْ بَعْض، ثُمَّ كُلّ مِنْهُنَّ صَحَابِيَّة، ثُمَّ ثِنْتَانِ رَبِيبَتَانِ وَثِنْتَانِ زَوْجَتَانِ رضي الله عنهن. وَقَدْ رُوِيَ نَحْو هَذَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه. فَقَال البَزَّار: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مَرْزُوق، حَدَّثَنَا مُؤَمَّل بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا وُهَيب، عَنْ ابْن طَاوُس، عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: «**فُتِحَ اليَوْم مِنْ رَدْم يَأْجُوج وَمَأْجُوج مِثْل هَذَا**». وَعَقَدَ التِّسْعِينَ.(3) وَأَخْرَجَهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم: مِنْ حَدِيث وهيب بِهِ.

وَقَوْله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أَيْ: لمَا بَنَاهُ ذُو القَرْنَيْنِ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أَيْ: بِالنَّاسِ، حَيْثُ جَعَل بَيْنهمْ وَبَيْن يَأْجُوج وَمَأْجُوج حَائِلًا يَمْنَعهُمْ مِنْ العيث فِي الأَرْض وَالفَسَاد، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أَيْ: إِذَا اقْتَرَبَ الوَعْد الحَقّ ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أَيْ: سَاوَاهُ بِالأَرْضِ. تَقُول العَرَب: نَاقَة دَكَّاء، إِذَا كَانَ ظَهْرهَا مُسْتَوِيًا لا سَنَام لهَا، وَقَال تَعَالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أَيْ: مُسَاوِيًا للأَرْضِ. وَقَال عِكْرِمَة فِي قَوْله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ قَال: طَرِيقًا كَمَا كَانَ. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أَيْ: كَائِنًا لا مَحَالة.

وَقَوْله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾، أَيْ: النَّاس ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ: يَوْم يُدَكّ هَذَا السَّدّ، وَيَخْرُج هَؤُلاءِ فَيَمُوجُونَ فِي النَّاس، وَيُفْسِدُونَ عَلى النَّاس أَمْوَالهمْ، وَيُتْلفُونَ أَشْيَاءَهُمْ، وَهَكَذَا قَال السُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، قَال: ذَاكَ حِين يَخْرُجُونَ عَلى النَّاس. وَهَذَا كُلّه قَبْل يَوْم القِيَامَة وَبَعْد الدَّجَّال، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانه عِنْد قَوْله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾، وَهَكَذَا قَال هَاهُنَا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ قَال ابن زيد في قوله: ﴿تَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قَال: هَذَا أَوَّل يَوْم القِيَامَة ثم ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ على أَثَر ذَلكَ ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾. وَقَال آخَرُونَ: بَل المُرَاد بِقَوْلهِ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: يوم القيامة يختلط الإنس والجن. روى ابن جرير عن محمد بن حميد، عن يعقوب القمي، عن هارون بن عنترة، عن شيخ من بني فزارة في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، قَال: إِذَا مَاجَ الإِنْس وَالجِنّ، قَال إِبْليس: أَنَا أَعْلم لكُمْ عِلم هَذَا الأَمْر. فَيَظْعَن إِلى المَشْرِق فَيَجِد المَلائِكَة قَطَعُوا الأَرْض، ثُمَّ يَظْعَن إِلى المَغْرِب فَيَجِد المَلائِكَة بَطَنُوا الأَرْض، فَيَقُول: مَا مِنْ مَحِيص. ثُمَّ يَظْعَن يَمِينًا وَشِمَالًا

---

(1) سقط من (ط).
(2) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).
(3) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٤٧)، ومسلم (٢٨٨١).

إِلى أَقْصَى الأَرْض، فَيَجِد المَلائِكَة قَدْ بَطَنُوا الأَرض، فيَقُول: مَا مِنْ مَحِيص. فَبَيْنَما هُوَ كَذَلكَ إِذْ عَرَضَ لهُ طَرِيق كَالشِّرَاكِ، فَأَخَذَ عَليْهِ هُوَ وَذُرِّيَّته، فَبَيْنَما هُمْ عَلَيْهِ إِذْ هَجَمُوا عَلى النَّار، فَأَخْرَجَ الله خَازِنًا مِنْ خُزَّانِ النَّار، فَقَال: يَا إِبْلِيس؛ أَلَمْ تكُنْ لك المَنْزِلة عِنْد رَبّك؟! أَلَمْ تكُنْ فِي الجِنَان؟! فيَقُول: لَيْسَ هَذَا يَوْم عِتَاب، لوْ أَنَّ الله فَرَضَ عَليَّ فَرِيضَة لعَبَدْته فِيهَا عِبَادَة لمْ يَعْبُدهُ مِثْلهَا أَحَد مِنْ خَلقه. فيَقُول: فَإِنَّ الله قَدْ فَرَضَ عَليْك فَرِيضَة. فيَقُول: مَا هِيَ؟ فيَقُول: يَأْمُرك أَنْ تَدْخُل النَّار. فيَتلكَّأ عَليْهِ، فيَقُول بِهِ وَبِذُرِّيَّتِهِ بِجَنَاحَيْهِ فيَقْذِفهُمْ فِي النَّار، فتَزْفِر النَّار زَفْرَة، لا يَبْقَى مَلك مُقَرَّب، وَلا نَبِيّ مُرْسَل إِلَّا جَثَا لرُكْبَتَيْهِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث يَعْقُوب القُمِّيّ بِهِ. ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ وَجْه آخر عَنْ يَعْقُوب عَنْ هَارُون بن عَنْتَرَة، عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، قَال: الإِنْس وَالجِنّ يَمُوج بَعْضهمْ فِي بَعْض.

وَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثنَا عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن العَبَّاس الأَصْفهَانِيّ، حَدَّثنَا أَبُو مَسْعُود أَحْمَد بْن الفُرَات، حَدَّثنَا أَبُو دَاوُد الطَّيَالسِيّ، حَدَّثنَا المُغِيرَة بْن مُسْلم عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ وَهْب بْن جَابِر، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «إِنَّ يَأْجُوج وَمَأْجُوج مِنْ وَلد آدَم، ولوْ أُرْسِلُوا لأَفْسَدُوا عَلى النَّاس مَعَايِشهمْ، وَلنْ يَمُوت رَجُل منهم إِلاَّ تَرَكَ مِنْ ذُرِّيَّته أَلفًا فَصَاعِدًا، وَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِمْ ثَلاث أُمَم: تاويل وتاريس ومنسك»[1]. هَذَا حَدِيث غَرِيب، بَل مُنْكَر ضَعِيف. وَرَوَى النَّسَائِيّ: مِنْ حَدِيث شُعْبَة، عَنْ النُّعْمَان بْن سَالم، عَنْ ابن عَمْرو بْن أَوْس، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدّه أَوْس بْن أَبِي أَوْس مَرْفُوعًا: «إِنَّ يَأْجُوج وَمَأْجُوج لهُمْ نِسَاء يُجَامِعُونَ مَا شَاءُوا، وَشَجَر يُلقِّحُونَ مَا شَاءُوا، وَلا يَمُوت رَجُل مِنْهُمْ إِلاَّ تَرَكَ مِنْ ذُرِّيَّته أَلفًا فَصَاعِدًا»[2].

وَقَوْله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وَالصُّور كَما جَاءَ فِي الحَدِيث: قَرْن يُنْفَخ فِيهِ، وَالَّذِي يَنْفُخ فِيهِ إِسْرَافِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ كَما قَدْ تَقَدَّمَ فِي الحَدِيث بِطُوله، وَالأَحَادِيث فِيهِ كَثِيرَة. وَفِي الحَدِيث عَنْ عَطِيَّة، عَنْ ابْن عَبَّاس وَأَبِي سَعِيد مَرْفُوعًا: «**كَيْف أَنْعَم وَصَاحِب القَرْن قَدْ التَقَمَ القَرْن وَحَنَى جَبْهَته، وَاسْتَمَعَ مَتَى يُؤْمَر**». قَالُوا: كَيْف نَقُول؟ قَال: «**قُولُوا: حَسْبنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيل، عَلى الله تَوَكَّلنَا**»[3].

وَقَوْله: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ أَيْ: أَحْضَرْنَا الجَمِيع للحِسَاب، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَمَّا يَفْعَلهُ بِالكُفَّار يَوْم القِيَامَة: أَنَّهُ يَعْرِض عَليْهِمْ جَهَنَّم، أَيْ: يُبْرِزهَا لهُمْ وَيُظْهِرهَا؛ ليَرَوْا مَا فِيهَا مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال قَبْل دُخُولهَا؛ ليَكُونَ ذَلكَ أَبْلغ فِي تَعْجِيل الهَمّ وَالحَزَن لهُمْ. وَفِي «صَحِيح مُسْلم» عَنْ ابْن مَسْعُود قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**يُؤْتَى بِجَهَنَّم تُقَاد يَوْم القِيَامَة بِسَبْعِينَ أَلف زِمَام، مَعَ كُلّ زِمَام سَبْعُونَ أَلف مَلك يجرونها**»[4]. ثُمَّ قَال مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أَيْ: تَغَافَلُوا وَتَعَامَوْا وتصاموا عَنْ قَبُول الهُدَى، وَاتِّبَاع الحَقّ، كَما قَال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾، وَقَال ههنا: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أَيْ: لا يَعْقِلُونَ عَنْ الله أَمْره وَنَهْيه، ثُمَّ قَال: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (١٦/ ٨٨)، وقال الحافظ ابن كثير: حديث منكر ضعيف.
(٢) ضعيف: ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٣٢٠٩).
(٣) صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٧٩).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ ﴾ أَيْ: اعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يصح لَهُمْ ذَلِكَ وَيَنْتَفِعُونَ بذلك، ﴿ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴾، وَلِهَذَا أَخْبَرَ الله تَعَالى أَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّم يَوْم القِيَامَة مَنْزِلًا.

﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾.

قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ عَمْرو، عَنْ مُصْعَب قَال: سَأَلت أَبِي -يَعْنِي سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص-: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴾ أَهُمْ الحَرُورِيَّة؟ قَال: لا، هُمْ اليَهُود وَالنَّصَارَى، أَمَّا اليَهُود فَكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَمَّا النَّصَارَى فَكَفَرُوا بِالجَنَّة، وَقَالُوا: لا طَعَام فِيهَا وَلا شَرَاب، وَالحَرُورِيَّة الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْد الله مِنْ بَعْد مِيثَاقه. وكان سَعْد ﷺ يُسَمِّيهِمْ الفَاسِقِينَ. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَالب وَالضَّحَّاك وَغَيْر وَاحِد: هُمْ الحَرُورِيَّة. وَمَعْنَى هَذَا عَنْ عَلِيّ ﷺ: أَنَّ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة تَشْمَل الحَرُورِيَّة، كَمَا تَشْمَل اليَهُود وَالنَّصَارَى وَغَيْرهمْ، لا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي هَؤُلاءِ عَلَى الخُصُوص وَلا هَؤُلاءِ، بَل هِيَ أَعَمّ مِنْ هَذَا، فَإِنَّ هَذِهِ الآيَة مَكِّيَّة قَبْل خِطَاب اليَهُود وَالنَّصَارَى، وَقَبْل وُجُود الخَوَارِج بِالكُلِّيَّة، وَإِنَّمَا هِيَ عَامَّة فِي كُلّ مَنْ عَبَدَ الله عَلَى غَيْر طَرِيقَة مَرْضِيَّة، يحسب أَنَّهُ مُصِيب فِيهَا، وَأَنَّ عَمَله مَقْبُول، وَهُوَ مُخْطِئ، وَعَمَله مَرْدُود. كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ﴿٣﴾ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ﴾. وقوله تَعَالى: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ . وَقَال فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم ﴾ أَيْ: نُخْبِركُمْ ﴿ بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُمْ؛ فَقَال: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾، أَيْ: عَمِلُوا أَعْمَالًا بَاطِلَة عَلَى غَيْر شَرِيعَة مَشْرُوعَة مَرْضِيَّة مَقْبُولَة، ﴿ وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ أَيْ: يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْء، وَأَنَّهُمْ مَقْبُولُونَ مَحْبُوبُونَ.

وَقَوْله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ ﴾، أَيْ: جَحَدُوا آيَات الله فِي الدُّنْيَا، وَبَرَاهِينه الَّتِي أَقَامَ عَلَى وَحْدَانِيّته وَصِدْق رُسُله، وَكَذَّبُوا بِالدَّارِ الآخِرَة ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا ﴾، أَيْ: لا نُثْقِل مَوَازِينهمْ، لأَنَّهَا خَالِيَة مِن الخَيْر. قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن أَبِي مَرْيَم، أَخْبَرَنَا المُغِيرَة، حَدَّثَنِي أَبُو الزِّنَاد، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «**إنه ليأتي الرَّجُل العَظِيم السَّمِين يَوْم القِيَامَة لا يَزِن عِنْد الله جَنَاح بَعُوضَة**». وَقَال: «**اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:** ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا ﴾»[1]. وَعَنْ يَحْيَى بْن بُكَيْر عَنْ مُغِيرَة بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ أَبِي الزِّنَاد مِثْله. هَكَذَا ذَكَرَهُ عَنْ يَحْيَى بْن بُكَيْر مُعَلَّقًا، وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلم عَنْ أَبِي بَكْر مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ يَحْيَى بْن بُكَيْر بِهِ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيد، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي الزِّنَاد، عَنْ صَالح مَوْلَى التَّوْأَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «**يُؤْتَى بِالرَّجُل الأَكُول الشَّرُوب العَظِيم فَيُوزَن بِحَبَّةٍ فَلا يَزِنهَا**». قَال: وَقَرَأَ: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا ﴾[2]. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير: عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ أَبِي الصَّلت، عَنْ ابن أَبِي الزِّنَاد، عَنْ صَالح مَوْلَى التَّوْأَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ مَرْفُوعًا. فَذَكَرَهُ بِلَفْظِ البُخَارِيّ سَوَاء. وَقَال أَحْمَد بْن عَمْرو بْن عَبْد الخَالق البَزَّار: حَدَّثَنَا العَبَّاس بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا عَوْن بْن عُمَارَة، حَدَّثَنَا هشام بْن حَسَّان، عَنْ وَاصِل، عَنْ عَبْد الله بْن بُرَيْدَة، عَنْ أَبِيهِ قَال: كُنَّا عِنْد رَسُول الله ﷺ فَأَقْبَل رَجُل مِنْ

---

(١) **صحيح** : تقــدم.

(٢) **ضعيف بهذا السياق** : في إسناده صالح مولى التوأمة: ضعيف، والرواية الصحيحة الثابتة ما قبله.

قُرَيْش يَخْطِر فِي حُلَّة لهُ، فلَمَّا قَامَ عَلى النَّبِيّ ﷺ قال: «يَا بُرَيْدَة، هَذَا مِمَّنْ لا يُقِيم الله لهُ يَوْم القِيَامَة وَزْنًا»[1]. ثُمَّ قَال: تَفَرَّدَ بِهِ وَاصِل مَوْلى أَبِي عَنْبَسَة وَعَوْن بْن عُمَارة، وَلَيْسَ بِالحَافِظِ وَلَمْ يُتَابَع عَلَيْهِ. وَقَدْ قَال ابْن جَرِير أيضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا سُفْيَان عَنْ الأَعْمَش عَنْ شمر عَنْ أَبِي يَحْيَى، عَنْ كَعْب قَال: يُؤْتَى يَوْم القِيَامَة بِرَجُلٍ عَظِيم طَوِيل، فَلا يَزِن عِنْد الله جَنَاح بَعُوضَة، اقْرَءُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾.

وَقَوْله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟﴾، أَيْ: إِنَّمَا جَازَيْنَاهُمْ بِهَذَا الجَزَاء جهنم، بِسَبَبِ كُفْرهِمْ، وَاتِّخَاذهمْ آيَات الله وَرُسُله هُزُوًا، اسْتَهْزَءُوا بِهِمْ وَكَذَّبُوهُمْ أَشَدّ التَّكْذِيب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ عِبَاده السُّعَدَاء، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بالله ورسله، وصدقوهم فِيمَا جَاءُوا بِهِ بأن لَهُمْ جَنَّات الفِرْدَوْس. قَال مُجَاهِد: الفِرْدَوْس هُوَ: البُسْتَان بِالرُّومِيَّةِ. وَقَال كَعْب وَالسُّدِّيّ وَالضَّحَّاك: هُوَ البُسْتَان الَّذِي فِيهِ شَجَر الأَعْنَاب. وَقَال أَبُو أُمَامَة: الفِرْدَوْس: سُرَّة الجَنَّة. وَقَال قَتَادَة: الفِرْدَوْس رَبْوَة الجَنَّة وَأَوْسَطهَا وَأَفْضَلهَا. وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيث سَعِيد بْن بشير، عَنْ قَتَادَة، عَنْ الحَسَن، عَنْ سَمُرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ: «**الفِرْدَوْس: رَبْوَة الجَنَّة وأَوْسَطهَا وأَحْسَنهَا**»[2]. وَهَكَذَا رَوَاهُ إِسْمَاعِيل بْن مُسْلم عَنْ الحَسَن، عَنْ سَمُرَة مَرْفُوعًا؛ وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَة، عَنْ أَنَس بْن مَالِك مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ؛ وقد نقله ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللَّهُ. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «**إِذَا سَأَلْتُمْ الله الجَنَّة فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْس؛ فَإِنَّهُ أَعْلَى الجَنَّة وَأَوْسَط الجَنَّة، وَمِنْهُ تَفَجَّر أَنْهَار الجَنَّة**»[3].

وَقَوْله: ﴿نُزُلًا﴾ أَيْ: ضِيَافَة فَإِنَّ النُّزُل هو الضِّيَافَة. وَقَوْله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ: مُقِيمِينَ سَاكِنِينَ فِيهَا، لا يَظْعَنُونَ عَنْهَا أَبَدًا ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أَيْ: لا يَخْتَارُونَ غَيْرهَا، وَلا يُحِبُّونَ سِوَاهَا، وكَمَا قَال الشَّاعِر:

فَحَلَّتْ سُوَيْدَا القَلْب لا أَنَا بَاغِيًا ۞ سِوَاهَا وَلا عَنْ حُبِّهَا أَتَحَوَّل

وَفِي قَوْله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تَنْبِيه عَلى رَغْبَتهمْ فِيهَا وَحُبّهمْ لَهَا، مَعَ أَنَّهُ قَدْ يُتَوَهَّم فِيمَنْ هُوَ مُقِيم فِي المَكَان دَائِمًا أَنَّهُ يَسْأَمهُ وَيَمَلّهُ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا الدَّوَام وَالخُلُود السَّرْمَدِيّ، لا يَخْتَارُونَ عَنْ مَقَامهمْ ذَلِكَ مُتَحَوَّلًا وَلا انْتِقَالًا وَلا ظَعْنًا وَلا رِحْلَة وَلا بَدَلًا.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿قُل﴾ يَا مُحَمَّد: لَوْ كَانَ مَاء البَحْر مِدَادًا للقَلم الَّذِي تكتب بِهِ كَلِمَات ربي وَحِكَمه وَآيَاته الدَّالَّة عليه، لنَفِدَ البَحْر قَبْل أَنْ يَفْرُغ من كِتَابَة ذَلِكَ، ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ أَيْ: بِمِثْل البَحْر آخر، ثُمَّ آخر، وَهَلُمَّ جَرًّا، بُحُور تَمُدّهُ وَيُكْتَب بِهَا، لَمَا نَفِدَتْ كَلِمَات الله، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. قَال الرَّبِيع بْن أَنَس: إِنَّ مِثْل عِلم العِبَاد كُلّهمْ فِي عِلم الله، كَقَطْرَةٍ مِنْ مَاء البُحُور كُلّهَا، وَقَدْ أَنْزَل الله ذَلِكَ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾. يَقُول: لَوْ كان البحر مِدَادًا، وَالشَّجَر كُلّه أقلامًا، لانْكَسَرَتْ الأَقْلام وَفَنِيَ مَاء البَحْر وَبَقِيَتْ كَلِمَات الله قَائِمَة لا يُفْنِيهَا شَيْء، لأَنَّ أَحَدًا لا يَسْتَطِيع أَنْ يُقَدِّر قَدْره وَلا يُثْنِي عَلَيْهِ كَمَا يَنْبَغِي، حَتَّى يَكُون هُوَ الَّذِي يُثْنِي عَلى نَفْسه، إِنَّ رَبّنَا كَمَا يَقُول وَفَوْق مَا نَقُول، إِنَّ مَثَل نَعِيم الدُّنْيَا؛ أَوَّلهَا وَآخِرهَا، فِي نَعِيم الآخِرَة كَحَبَّةٍ مِنْ خَرْدَل فِي خِلال الأَرْض كُلّهَا.

---

(١) ضعيف : فيه عون بن عمارة: ضعيف، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٢٤٤).
(٢) صحيح : أخرجه ابن جرير (١٦/ ٣٨)، وصححه الألباني، انظر «الصحيحة» (٢٠٠٣).
(٣) صحيح : تـقـدم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

رَوَى الطَّبَرَانِيّ مِنْ طَرِيق هِشَام بْن عَمَّار، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، عَنْ عَمْرو بْن قَيْس الكُوفِيّ، أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان، أَنَّهُ قَال: هَذِهِ آخر آيَة أُنْزِلتْ.[1] يَقُول تَعَالى لرَسُولهِ مُحَمَّد -صَلوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ-: ﴿قُلْ﴾ لهَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ المُكَذِّبِينَ برِسَالتِك إليْهِمْ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فَمَنْ زَعَمَ أَنِّي كَاذِب فليَأْتِ بِمِثْل مَا جِئْت بِهِ، فَإِنِّي لا أَعْلم الغَيْب فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مِنْ المَاضِي؛ عَمَّا سَأَلتُمْ مِنْ قِصَّة أَصْحَاب الكَهْف، وَخَبَر ذِي القَرْنَيْنِ، مِمَّا هُوَ مُطَابِق فِي نَفْس الأَمْر، لوْلا مَا أَطْلعَنِي الله عَليْهِ، وأنا أُخْبِركُمْ ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ﴾ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلى عِبَادَته ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شَرِيك لهُ، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أَيْ: ثَوَابه وَجَزَاءَهُ الصَّالح؛ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو: مَا كَانَ مُوَافِقًا لشَرْع الله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرَاد بِهِ وَجْه الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَهَذَانِ رُكْنَا العَمَل المُتَقَبَّل، لابُدّ أَنْ يَكُون خَالصًا لله، صَوَابًا عَلى شَرِيعَة رَسُول الله ﷺ . وَقَدْ رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث مَعْمَر، عَنْ عَبْد الكَرِيم الجَزَرِيّ، عَنْ طَاوُس، قَال: قَال رَجُل: يَا رَسُول الله، إِنِّي أَقِف المَوَاقِف أُرِيد وَجْه الله، وَأُحِبّ أَنْ يُرَى مَوْطِنِي. فَلمْ يَرُدّ عَليْهِ رَسُول الله ﷺ شَيْئًا، حَتَّى نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.[2] وَهَكَذَا أَرْسَل هَذَا مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد.

وَقَال الأَعْمَش: حَدَّثَنَا حَمْزَة أَبُو عُمَارَة مَوْلى بَنِي هَاشِم، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب قَال: جَاءَ رَجُل إِلى عُبَادَة بْن الصَّامِت فَقَال: أَنْبِئْنِي عَمَّا أَسْأَلك عَنْهُ: أَرَأَيْت رَجُلًا يُصَلِّي يَبْتَغِي وَجْه الله، وَيُحِبّ أَنْ يُحْمَد، وَيَصُوم يَبْتَغِي وَجْه الله، وَيُحِبّ أَنْ يُحْمَد، وَيَتَصَدَّق يَبْتَغِي وَجْه الله، وَيُحِبّ أَنْ يُحْمَد، وَيَحُجّ وَيَبْتَغِي وَجْه الله، وَيُحِبّ أَنْ يُحْمَد؟ فَقَال عُبَادَة: ليْسَ لهُ شَيْء؛ إِنَّ الله تَعَالى يَقُول: أَنَا خَيْر شَرِيك، فَمَنْ كَانَ لهُ مَعِي شَرِيك فَهُوَ لهُ كُلّه لا حَاجَة لي فِيهِ.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن الزُّبَيْر، ثنا كَثِير بْن زَيْد، عَنْ رُبَيْح بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه قَال: كُنَّا نَتَنَاوَب رَسُول الله ﷺ ، فَنَبِيت عِنْده تَكُون لهُ الحَاجَة، أَوْ يَطْرُقهُ أَمْر مِنْ اللَّيْل فَيَبْعَثنَا، فَكَثُرَ المحتسبون وَأَهْل النُّوَب فَكُنَّا نَتَحَدَّث، فَخَرَجَ عَليْنَا رَسُول الله ﷺ فَقَال: **«مَا هَذِهِ النَّجْوَى؟ ألم أنهكم عن النجوى؟!»**. قَال: فَقُلنَا: تُبْنَا إِلى الله، أي نَبِيّ الله، إِنَّمَا كُنَّا فِي ذِكْر المَسِيح وَفَرِقْنَا مِنْهُ. فَقَال: **«أَلا أُخْبِركُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَف عَليْكُمْ مِنْ المَسِيح عِنْدِي؟»**. قَال: قُلنَا: بَلى. قَال: **«الشِّرْك الخَفِيّ أَنْ يَقُوم الرَّجُل يُصَلِّي لمَكَانِ الرجل»**[3]. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْر، حَدَّثَنَا عَبْد الحَمِيد -يَعْنِي ابْن بَهْرَام- قَال: قَال شَهْر بْن حَوْشَب: قَال ابْن غَنْم: لمَّا دَخَلنَا مَسْجِد الجَابِيَة أَنَا وَأَبُو الدَّرْدَاء، لقِينَا عُبَادَة بْن الصَّامِت، فَأَخَذَ يَمِينِي بِشِمَالهِ، وَشِمَال أَبِي الدَّرْدَاء بِيَمِينِهِ، فَخَرَجَ يَمْشِي بَيْننَا وَنَحْنُ نَنْتَجِى، وَالله أَعْلم بِمَا نتناجي، فَقَال عُبَادَة بْن الصَّامِت: إِنْ طَال بِكُمَا عُمْر أَحَدكُمَا أَوْ كِليْكُمَا، لتُوشِكَانِ أَنْ تَرَيَا الرَّجُل مِنْ ثَبَج المُسْلمِينَ -يَعْنِي مِنْ وَسَط- قرأ القُرْآن، عَلى لسَان مُحَمَّد ﷺ فَأَعَادَهُ وأبداه، وَأَحَلَّ حَلاله، وَحَرَّمَ حَرَامه وَنَزَل عِنْد مَنَازِله، لا يحور فِيكُمْ إِلَّا كَمَا يحور رَأْس الحِمَار المَيِّت. قَال: فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلكَ، إِذْ طَلعَ شَدَّاد بْن أَوْس رضي الله عنه وَعَوْف بْن مَالك فَجَلسَا إِليْنَا، فَقَال شَدَّاد: إِنَّ أَخْوَف مَا أَخَاف عَليْكُمْ أَيُّهَا النَّاس لمَا سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «مِنْ الشَّهْوَة الخَفِيَّة وَالشِّرْك»[4].

---

(١) **ضعيف** : فيه إسماعيل بن عياش، وروايته عن غير أهل بلده ضعيفة، وهذه منها.

(٢) **مرسل** : أخرجه ابن جرير (١٦/ ٤٠).

(٣) **حسن** : أخرجه أحمد (٣/ ٣٠)، وحسنه الألباني، انظر «صحيح الجامع الصغير» (٢٧٢٩).

(٤) **ضعيف** : أخرجه أحمد (٤/ ١٢٥)، وفيه شهر بن حوشب: ضعيف. وضعفه الألباني، انظر «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢١).

فَقَال عُبَادَة بْن الصَّامِت وَأَبُو الدَّرْدَاء: اللَّهُمَّ غفرًا! أولم يَكُنْ رَسُول الله ﷺ قَدْ حَدَّثنَا: «أَنَّ الشَّيْطَان قَدْ يَئِسَ أَنْ يُعْبَد فِي جَزِيرَة العَرَب». وأَمَّا الشَّهْوَة الخَفِيَّة فَقَدْ عرَفْنَاهَا، هِيَ شَهَوَات الدُّنْيَا؛ مِنْ نِسَائِهَا، وَشَهَوَاتهَا، فَمَا هَذَا الشِّرْك الَّذِي تُخَوِّفنَا بِهِ يَا شَدَّاد؟ فَقَال شَدَّاد: أَرَأَيْتُكُمْ لَوْ رَأَيْتُمْ رَجُلًا يُصَلِّي لرَجُل، أَوْ يَصُوم لرَجُل، أَوْ يَتَصَدَّق له أَتَرَوْنَ أَنَّهُ قَدْ أَشْرَكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، وَالله إنه مَنْ صَلَّى لرجل أَوْ صَامَ له أَوْ تَصَدَّقَ لهُ لقَدْ أَشْرَكَ. فَقَال شَدَّاد: فَإِنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يقول: «مَنْ صَلَّى يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ وَمَنْ صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ»(١). فقال عَوْف بْن مَالك عِنْد ذَلكَ: أَفَلا يَعْمِد الله إلى مَا ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهه مِنْ ذَلكَ العَمَل كُلّه، فَيَقْبَل مَا خَلص لهُ وَيَدَع مَا أُشْرِكَ بِهِ؟ فَقَال شَدَّاد عِنْد ذَلكَ: فَإِنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ الله يَقُول: أَنَا خَيْر قَسِيم لمَنْ أَشْرَكَ بِي، مَنْ أَشْرَكَ بِي شَيْئًا فَإِنَّ حشده عَمَله قَليله وَكَثِيره لشَرِيكِهِ الَّذِي أَشْرَكَ بِهِ، وأَنَا عَنْهُ غَنِيّ»(٢).

طَرِيق أُخْرَى لبَعْضِهِ: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا زَيْد بْن الحُبَاب، حَدَّثَنِي عَبْد الوَاحِد بْن زِيَاد، أَخْبَرَنَا عُبَادَة ابْن نُسَيّ، عَنْ شَدَّاد بْن أَوْس رضي الله عنه أَنَّهُ بَكَى فَقِيل له: مَا يُبْكِيك؟ قَال: شَيْء سَمِعْته من رَسُول الله ﷺ يقول: فذكرته فَأَبْكَانِي، سَمِعْت رَسُول الله يَقُول: «أَتَخَوَّف عَلى أُمَّتِي الشِّرْك وَالشَّهْوَة الخَفِيَّة». قُلت: يَا رَسُول الله، أَتُشْرِكُ أُمَّتك مِنْ بَعْدك؟ قَال: «نَعَمْ، أَمَا إِنَّهُمْ لا يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلا قَمَرًا، وَلا حَجَرًا وَلا وَثَنًا، وَلكِنْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالشَّهْوَة الخَفِيَّة: أَنْ يُصْبِح أَحَدهمْ صَائِمًا، فَتَعْرِض لهُ شَهْوَة مِنْ شَهَوَاته فَيَتْرُك صَوْمه»(٣). وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث الحَسَن بْن ذَكْوَان، عَنْ عُبَادَة بْن نُسَيّ بِهِ. وَعُبَادَة فِيهِ ضَعْف، وَفِي سَمَاعه مِنْ شَدَّاد نَظَر.

حَدِيث آخَر: قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثنَا الحسين بْن عَليّ بْن جَعْفَر الأَحْمَر، حَدَّثنَا عَليّ بْن ثَابِت، حَدَّثنَا قَيْس بْن أَبِي حُصَيْن، عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**يَقُول الله يَوْم القِيَامَة: أَنَا خَيْر شَرِيك، فمن أَشْرَكَ بِي أَحَدًا فهُوَ لهُ كُلّه**»(٤). وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثنَا شُعْبَة، سَمِعْت العَلاء يُحَدِّث، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ يَرْوِيه عَنْ ربه عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَال: «**أَنَا خَيْر الشُّرَكَاء، فَمَنْ عَمِل عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيء، وَهُوَ للَّذِي أَشْرَكَ**»(٥). تَفَرَّدَ بِهِ مِنْ هَذَا الوَجْه.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا يُونُس، حَدَّثنَا ليث، عَنْ يَزِيد -يَعْنِي ابْن الهَادِ- عَنْ عَمْرو، عَنْ مَحْمُود بْن لبِيد، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**إِنَّ أَخْوَف مَا أَخَاف عَليْكُمْ الشِّرْك الأَصْغَر**». قَالُوا: وَمَا الشِّرْك الأَصْغَر يَا رَسُول الله؟ قَال: «**الرِّيَاء، يَقُول الله يَوْم القِيَامَة إِذَا جُزِيَ النَّاس بِأَعْمَالهِمْ: اذْهَبُوا إِلى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَل تَجِدُونَ عِنْدهمْ جَزَاء**»(٦).

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن بُكَر، أَخْبَرَنَا عَبْد الحَمِيد -يَعْنِي ابْن جَعْفَر- أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ زِيَاد بْن مِينَاء، عَنْ أَبِي سَعِيد ابْن أَبِي فَضَالة الأَنْصَارِيّ -وَكَانَ مِنْ الصَّحَابَة- قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**إِذَا جَمَعَ الله الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ليَوْمٍ القيامة، ليَوْمٍ لا رَيْب فِيهِ، نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَل عَمِلهُ لله أَحَدًا، فَليَطْلُبْ ثَوَابه مِنْ عِنْد غَيْر الله، فَإِنَّ الله أَغْنَى الشُّرَكَاء عَنْ الشِّرْك**»(٧). وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بن بكر -وَهُوَ البُرْسَانِيّ- بِهِ.

---

(١) **ضعيف**: ضعفه الألباني، انظر «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٩).
(٢) **ضعيف**: ضعفه الألباني انظر «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢١).
(٣) **ضعيف**: أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٥)، وضعفه الألباني، انظر «ضعيف سنن ابن ماجه».
(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢/ ٣٠١) بإسناد صحيح، وصححه الألباني، انظر «الصحيحة» (٢٧٦٤).
(٥) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٢)، وصححه الألباني، انظر «صحيح سنن ابن ماجه».
(٦) **صحيح**: صححه الألباني، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١٥٥٥).
(٧) **حسن**: تقدم.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْد المَلك، حَدَّثَنَا بَكَّار، حَدَّثَنِي أَبِي -يَعْنِي عَبْد العَزِيز بْن أَبِي بَكْرَة- عَنْ أَبِي بَكْرَة ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ»**[1]. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا شَيْبَان، عَنْ فِرَاس، عَنْ عَطِيَّة عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، عَنْ رَسُول الله ﷺ أنه قَال: **«مَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ اللهُ بِهِ»**.[2]

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ شُعْبَة، حَدَّثَنِي عَمْرو بْن مُرَّة، قَال: سَمِعْت رَجُلًا فِي بَيْت أَبِي عُبَيْدَة، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْد الله بْن عَمْرو يُحَدِّث ابْن عُمَر، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«مَنْ سَمَّعَ النَّاس بِعَمَلِهِ سَمَّعَ اللهُ بِهِ سامع خَلقه وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ»**.[3] [قال][4] فَذَرَفَتْ عَيْنَا عَبْد الله. وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن يَحْيَى الأَيْلِيّ، حَدَّثَنَا الحَارِث بْن غَسَّان، حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَان الجَوْنِيّ، عَنْ أَنَس ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «تُعْرَض أَعْمَال بَنِي آدَم بَيْن يَدَيْ الله ﷻ يَوْم القِيَامَة فِي صُحُف مختومَة، فيَقُول الله: أَلْقُوا هَذَا وَاقْبَلُوا هَذَا. فَتَقُول المَلائِكَة: يَا رَبّ؛ وَالله مَا رَأَيْنَا مِنْهُ إلاَّ خَيْرًا. فَيَقُول: إِنَّ عَمَله كَانَ لغَيْرِ وَجْهِي، وَلا أَقْبَل اليَوْم مِنْ العَمَل إلاَّ مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهِي»[5]. ثُمَّ قَال: الحَارِث بْن غَسَّان رَوَي عَنْهُ جماعة، وَهُوَ بَصْرِيّ لَيْسَ بِهِ بَأْس. وَقَال ابن وَهْب: حَدَّثَنِي يَزِيد بْن عِيَاض، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن الأَعْرَج، عَنْ عَبْد الله بْن قَيْس الخُزَاعِيّ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «مَنْ قَامَ رِيَاء وَسُمْعَة لَمْ يَزَل فِي مَقْت الله حَتَّى يَجْلس»[6]. وَقَال أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي بَكْر، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن دِينَار، عَنْ إِبْرَاهِيم الهَجَرِيّ، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ عَوْف بْن مَالك، عَنْ ابْن مَسْعُود ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ أَحْسَنَ الصَّلاة حَيْثُ يَرَاهُ النَّاس، وَأَسَاءَهَا حَيْثُ يَخْلُو، فَتِلكَ اسْتِهَانَة اسْتَهَانَ بِهَا رَبّه عَزَّ وَجَلَّ».[7]

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر إِسْمَاعِيل بْن عَمْرو السَّكُونِيّ، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا ابْن عَيَّاش، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن قَيْس الكِنْدِيّ، أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان تَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. وَقَال: إِنَّهَا آخِر آيَة نَزَلَتْ مِنْ القُرْآن.[8] وَهَذَا أَثَر مُشْكِل، فَإِنَّ هَذِهِ الآيَة آخِر سُورَة الكَهْف، وَالكَهْف كُلّهَا مَكِّيَّة، وَلعَلَّ مُعَاوِيَة أَرَادَ: أَنَّهُ لَمْ يَنْزِل بَعْدهَا ما يَنْسَخهَا، وَلا يغير حُكْمهَا، بَل هِيَ مُثْبَتَة مُحْكَمَة، فَاشْتَبَهَ ذَلكَ عَلى بَعْض الرُّوَاة، فَرَوَى بِالمَعْنَى مَا فَهِمَهُ، وَالله أَعْلم. وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَلِيّ بْن الحَسَن بْن شَقِيق، حَدَّثَنَا النَّضْر بْن شُمَيْل، حَدَّثَنَا أَبُو قُرَّة، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيِّب، عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ فِي لَيْلَة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ كَانَ لهُ مِنْ النُّور مِنْ عَدَن أَبْيَن إِلى مَكَّة، حشوة المَلائِكَة»[9]. غَرِيب جِدًّا.

آخِر تَفْسِير سُورَة الكَهْف، ولله الحمد

---

(١) **صحيح** : أخرجه أحمد (٥/ ٤٥)، وأصل الحديث أخرجه البخاري (٤٦٩٩).
(٢) **صحيح** : صححه الألباني انظر «صحيح الجامع الصغير» (٦٦٠٩).
(٣) **صحيح** : صححه الألباني انظر «الصحيحة» (٢٥٦٦).
(٤) زيادة من (ط).
(٥) **ضعيف جدًا** : انظر «الضعيفة» (٢٦٧٢).
(٦) **موضوع** : في إسناده يزيد بن عياض: متروك. والحديث موضوع، قاله الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٥٧٤٣).
(٧) **ضعيف** : أخرجه أبو يعلي (٥٠١٧)، وفيه إبراهيم بن مسلم الهجري: ضعيف. وضعفه الألباني، انظر «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٨).
(٨) **ضعيف** : تقـدم.
(٩) **ضعيف** : ضعفه الألباني، انظر «ضعيف الترغيب والترهيب» (٩٧٦).

تفسير سُورَةُ مَرْيَمَ وهي مكية

ترتيبها ١٩ — وآياتها ٩٨

وَقَدْ رَوَى مُحَمَّد بْن إِسْحَاق فِي «السِّيرَة» مِنْ حَدِيث أُمّ سَلمَة، وَأَحْمَد بْن حَنْبَل عَنْ ابْن مَسْعُود فِي قِصَّة الهِجْرَة إِلى أَرْض الحَبَشَة مِنْ مَكَّة أَنَّ جَعْفَر بْن أَبِي طَالب ﷺ قَرَأَ صَدْر هَذِهِ السُّورَة على النَّجَاشِيّ وَأَصْحَابه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾.

أما الحُرُوف المُقَطَّعَة فقد تقدم في أول سُورَة البَقَرَة.

وقَوْله: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ أَيْ: هَذَا ذِكْر رَحْمَة الله بِعَبْدِهِ زَكَرِيَّا. وَقَرَأَ يَحْيَى بْن يَعْمَر: ﴿ذَكَّرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾. وَ﴿زَكَرِيَّآ﴾ : يُمَدّ وَيُقْصَر قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ. وَكَانَ نَبِيًّا عَظِيمًا مِنْ أَنْبِيَاء بَنِي إِسْرَائِيل، وَفِي «صَحِيح البُخَارِيّ»: أَنَّهُ كَانَ نَجَّارًا، وأنه كان يَأْكُل مِنْ عَمَل يَده فِي النِّجَارَة.

وَقَوْله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾. قَال بَعْض المُفَسِّرِينَ: إِنَّمَا أَخْفَى دُعَاءَهُ؛ لِئَلَّا يُنْسَب فِي طَلب الوَلد إِلى الرُّعُونَة لكِبَرِه. حَكَاهُ المَاوَرْدِيّ. وَقَال آخَرُونَ: إِنَّمَا أَخْفَاهُ؛ لأَنَّهُ أَحَبّ إِلى الله. كَمَا قَال قَتَادَة فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾: إِنَّ الله يَعْلم القَلب التَّقِيّ، وَيَسْمَع الصَّوْت الخَفِيّ. وَقَال بَعْض السَّلف: قَامَ مِنَ اللَّيْل عليه السلام وَقَدْ نَامَ أَصْحَابه، فَجَعَل يَهْتِف بِرَبِّهِ يَقُول خُفْيَة: يَا رَبّ يَا رَبّ يَا رَبّ. فَقَال الله لهُ: لبَّيْكَ لبَّيْك لبَّيْكَ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ أَيْ: ضَعُفْت وَخَارَتْ القُوَى، ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ أَيْ: اضْطَرَمَ المَشِيب فِي السَّوَاد. كَمَا قَال ابْن دُرَيْد فِي مَقْصُورَته:

إِمَّا تَرَى رَأْسِي حَاكَى لوْنه ❁ طُرَّة صُبْح تَحْت أَذْيَال الدُّجَا

وَاشْتَعَل المُبْيَضّ فِي مُسَوَدِّه ❁ مِثْل اشْتِعَال النَّار فِي جَمْر الغَضَا

وَالمُرَاد مِنْ هَذَا: الإِخْبَار عَنْ الضَّعْف وَالكِبَر، وَدَلائِله الظَّاهِرَة وَالبَاطِنَة.

وَقَوْله: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ أَيْ: وَلمْ أَعْهَد مِنْك إِلَّا الإِجَابَة فِي الدُّعَاء، وَلمْ تَرُدّنِي قَطُّ فِيمَا سَأَلْتُك.

وَقَوْله: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ قَرَأَ الأَكْثَرُونَ بِنَصْبِ اليَاء مِنْ ﴿ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾ عَلى أَنَّهُ مَفْعُول، وَعَنْ الكِسَائِيّ أَنَّهُ سَكَّنَ اليَاء، كَمَا قَال الشَّاعِر:

كَأَنَّ أَيْدِيهِنَّ فِي القَاع القَرِق ❁ أَيْدِي جَوَارٍ يَتَعَاطِينَ الوَرِق

وَقَال الآخَر:

فَتًى لوْ يُبَارِي الشَّمْس أَلقَتْ قِنَاعهَا ❁ أَوْ القَمَر السَّارِي لأَلقَى المَقَالدَا

وَمِنْهُ قَوْل أَبِي تَمَّام حَبِيب بْن أَوْس الطَّائِيّ:

تَغَايَرَ الشِّعْر مِنْهُ إِذْ سَهِرَتْ لهُ ❁ حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيه سَتَقْتَتِلُ

وَقَال مُجَاهِد وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ: أَرَادَ بالمولى العُصْبَة، وَقَال أَبُو صَالح: الكَلالة. وَرُوِيَ عَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عُثْمَان ابْن عَفَّان ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَؤُهَا: ﴿وَإِنِّي خَفَّتْ المَوَالِي مِن وَرَآءِي﴾ بِتَشْدِيدِ الفَاء، بِمَعْنَى: قَلَّتْ عَصَبَاتِي مِنْ بَعْدِي. وَعَلى القِرَاءَة الأُولى وَجْه خَوْفه: أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَصَرَّفُوا مِنْ بَعْده فِي النَّاس تَصَرُّفًا سَيِّئًا، فَسَأَل الله وَلدًا

يَكُون نَبِيًّا مِنْ بَعْده؛ لِيَسُوسَهُمْ بِنُبُوَّتِهِ ومَا يُوحَى إِلَيْهِ، فَأُجِيبَ فِي ذَلِكَ، لا أَنَّهُ خَشِيَ مِنْ وِرَاثَتِهِمْ لَهُ مَاله، فَإِنَّ النَّبِيّ أَعْظَم مَنْزِلة، وَأَجَلّ قَدْرًا مِنْ أَنْ يُشْفِق عَلَى مَاله إِلَى مَا هَذَا حُده: أَنْ يَأْنَف مِنْ وِرَاثَة عَصَبَاته لَهُ، وَيَسْأَل أَنْ يَكُون لَهُ وَلَد فَيَحُوزَ مِيرَاثه دُونهمْ، **هَذَا وَجْه.**

الثَّانِي: أَنَّهُ لَمْ يَذْكُر أَنَّهُ كَانَ ذَا مَال، بَل كَانَ نَجَّارًا، يَأْكُل مِنْ كَسْب يَدَيْهِ، وَمِثْل هَذَا لا يَجْمَع مَالًا، وَلاسِيَّمَا الأَنْبِيَاء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَزْهَد شَيْء فِي الدُّنْيَا.

الثَّالِث: أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ غَيْر وَجْه، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**لا نُورَث، مَا تَرَكْنَا فهو صَدَقَة**».[1] وَفِي رِوَايَة عِنْد التِّرْمِذِيّ بِإِسْنَادٍ صَحِيح: «**نَحْنُ مَعْشَر الأَنْبِيَاء لا نُورَث**». وَعَلَى هَذَا فَتَعَيَّنَ حَمْل قَوْله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي﴾ عَلَى مِيرَاث النُّبُوَّة؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أَيْ: فِي النُّبُوَّة، إِذْ لَوْ كَانَ فِي المَال لَمَا خَصَّهُ مِنْ بَيْن إِخْوَته بِذَلِكَ، وَلَمَا كَانَ فِي الإِخْبَار بِذَلِكَ كَبِير فَائِدَة، إِذْ مِنْ المَعْلُوم المُسْتَقَرّ فِي جَمِيع الشَّرَائِع وَالمِلَل -أَنَّ الوَلَد يَرِث أَبَاهُ، فَلَوْلا أَنَّهَا وِرَاثَة خَاصَّة لَمَا أَخْبَرَ بِهَا، وَكُلّ هَذَا يُقَرِّرهُ وَيُثْبِتهُ مَا صَحَّ فِي الحَدِيث: «**نَحْنُ مَعَاشِر الأَنْبِيَاء لا نُورَث، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَة**».

قَال مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ كَانَت وِرَاثَته عِلْمًا، وَكَانَ زَكَرِيَّا مِنْ ذُرِّيَّة يَعْقُوب. وَقَال هُشَيْم: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالد، عَنْ أَبِي صَالح فِي قَوْله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قَال: يَكُون نَبِيًّا كَمَا كَانَتْ آبَاؤُهُ أَنْبِيَاء. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة، عَنْ الحَسَن: يَرِث نُبُوَّته وَعِلمه. وَقَال السُّدِّيّ: يَرِث نُبُوَّتِي، وَنُبُوَّة آل يَعْقُوب. وَعَنْ مَالك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قَال: نُبُوَّتهمْ. وَقَال جَابِر بْن نُوح وَيَزِيد بْن هَارُون كِلاهُمَا، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالد، عَنْ أَبِي صَالح فِي قَوْله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قَال: يَرِث مَالِي، وَيَرِث مِنْ آل يَعْقُوب النُّبُوَّة. وَهَذَا اخْتِيَار ابْن جَرِير فِي تَفْسِيره.

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة أَنَّ رسول الله ﷺ قَال: «يَرْحَم الله زَكَرِيَّا وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مَنْ وَرَثه؟! وَيَرْحَم الله لُوطًا إِنْ كَانَ لَيَأْوِي إِلَى رُكْن شَدِيد!».[2]

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا جَابِر بْن نُوح، عَنْ مُبَارَك -هُوَ ابْن فَضَالة- عَنْ الحَسَن قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «رَحِمَ الله أَخِي زَكَرِيَّا مَا كَانَ عَلَيْهِ مَنْ وَرَثه مَاله حِين يقول: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾»[3]. وَهَذِهِ مُرْسَلات لا تُعَارِض الصِّحَاح، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أَيْ: مَرْضِيًّا عِنْدك وَعِنْد خَلقك، تُحِبّهُ وَتُحَبِّبهُ إِلَى خَلقك، فِي دِينه وَخُلُقه.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

هَذَا الكَلام يَتَضَمَّن مَحْذُوفًا، وَهُوَ: أَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى مَا سَأَل فِي دُعَائِهِ، فَقِيل: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وَقَوْله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾. قَال قَتَادَة وَابْن جُرَيْج وَابْن زَيْد: أَيْ لَمْ يُسَمَّ أَحَد قَبْله بِهَذَا الاسْم. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧).
(٢) **مرسل**: أخرجه ابن جرير (١٦/ ٤٨) مرسلاً عن قتادة والحسن.
(٣) **مرسل**: أخرجه ابن جرير مرسلاً عن الحسن.

وَقَال مُجاهِد: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أَيْ: شَبِيهًا، أَخَذَهُ مِنْ مَعْنَى قَوْله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أَيْ: شَبِيهًا. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: أَيْ: لَمْ تَلد العَوَاقِر قَبْله مِثْله. وَهَذَا دَلِيل عَلى أَنَّ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لا يُولد لهُ، وَكَذَلكَ امْرَأَته كَانَتْ عَاقِرًا مِنْ أَوَّل عُمْرِهَا، بِخِلافِ إِبْرَاهِيم وَسَارَة عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَإِنَّهُمَا إِنَّمَا تَعجَّبَا مِنْ البِشَارَة بِإِسْحَاق على كِبَرِهِمَا لا لعُقْرِهِمَا؛ وَلهَذَا قَال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ مَعَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ وُلدَ لهُ قَبْله إِسْمَاعِيل بِثَلاث عَشْرَة سَنَة، وَقَالتْ امْرَأَته: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا**﴾.

هَذَا تَعجُّب مِنْ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ حِين أُجِيبَ إِلى مَا سَأَل وَبُشِّرَ بِالوَلدِ، فَفَرِحَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَسَأَل عَنْ كَيْفِيَّة مَا يُولد لهُ، وَالوَجْه الَّذِي يَأْتِيه مِنْهُ الوَلد، مَعَ أَنَّ امْرَأَته عَاقِر لا تَلد مِنْ أَوَّل عُمْرِهَا مَعَ كِبَرِهَا. وَمَعَ أَنَّهُ قَدْ كَبِرَ وَعَتَا، أَيْ: عَسَا عَظْمه وَنَحَل، وَلمْ يَبْقَ فِيهِ لقَاح وَلا جِمَاع. وَالعَرَب تَقُول للعُودِ إِذَا يَبِسَ: عَتَا يَعْتُو عِتِيًّا وَعُتُوًّا، وَعَسَى يَعْسُو عُسُوًّا وَعُسِيًّا. وَقَال مُجَاهِد: ﴿عِتِيًّا﴾ بمعنى نُحُول العَظْم. وَقَال ابْن عَبَّاس وَغَيْره: ﴿عِتِيًّا﴾ يَعْنِي: الكِبَر. وَالظَّاهِر أَنَّهُ أَخصّ مِنْ الكِبَر.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا يَعْقُوب، حَدَّثَنَا هُشَيْم، أَخْبَرَنَا حُصَيْن، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: لقَدْ عَلمْت السُّنَّة كُلّهَا، غَيْرَ أَنِّي لا أَدْرِي: أَكَانَ رَسُول الله ﷺ، يَقْرَأُ فِي الظُّهْر وَالعَصْر أَمْ لا، وَلا أَدْرِي كَيْف كَانَ يَقْرَأُ هَذَا الحَرْف: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أَوْ عُسِيًّا[1]. وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد عَنْ سريج بْن النُّعْمَان، وَأَبُو دَاوُد عَنْ زِيَاد بْن أَيُّوب؛ كِلاهُمَا عَنْ هُشَيْم، بِهِ.

﴿قَالَ﴾ أَيْ: المَلك مُجِيبًا لزَكَرِيَّا عَمَّا اسْتَعْجَبَ مِنْهُ: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أَيْ: إِيجَاد الوَلد مِنْك وَمِنْ زَوْجَتك هَذِهِ لا مِنْ غَيْرِهَا ﴿هَيِّنٌ﴾ أَيْ: يَسِير سَهْل عَلى الله. ثُمَّ ذَكَرَ لهُ مَا هُوَ أَعْجَب مِمَّا سَأَل عَنْهُ، فَقَال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾.

﴿**قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۚ﴾ أَيْ: عَلامَة وَدَليلًا عَلى وُجُود مَا وَعَدْتنِي؛ لتَسْتَقِرّ نَفْسِي، وَيَطْمَئِنّ قَلبِي بِمَا وَعَدْتنِي، كَمَا قَال إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ﴾. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾ أَيْ: عَلامَتك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أَيْ: أَنْ تُحْبَس لسَانك عَنْ الكَلام ثَلاث ليَالٍ، وَأَنْتَ صَحِيح سَوِيّ، مِنْ غَيْر مَرَض وَلا عِلَّة. قَال ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَوَهْب، وَالسُّدِّيّ، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد: اعْتُقِل لسَانه مِنْ غَيْر مَرَض. وَقَال عبد الرحمن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ: كَانَ يَقْرَأ وَيُسَبِّح، وَلا يَسْتَطِيع أَنْ يُكَلِّم قَوْمه إِلَّا إِشَارَة.

وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أَيْ: مُتَتَابِعَات. وَالقَوْل الأَوَّل عَنْهُ، وَعَنْ الجُمْهُور أَصَحّ، كَمَا قَال تَعَالى فِي آل عِمْرَان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾. وَقَال مَالك عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ مِنْ غَيْر خَرَس.

---

(١) صحيح: أخرجه الطبري (١٦/ ٥١)، وإسناده صحيح، وأحمد (١/ ٢٥٧).

وَهَذَا دَليل عَلى أَنَّهُ لمْ يَكُنْ يُكَلِّم النَّاس فِي هَذِهِ اللَّيَالي الثَّلاث وَأيَّامها ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ أَيْ: إِشَارَة. وَلهَذَا قَال فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أَيْ: الَّذِي بُشِّرَ فِيهِ بِالوَلِدِ، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ: أَشَارَ إِشَارَة خَفِيَّة سَرِيعَة ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أَيْ: مُوَافقَة لهُ فِيمَا أُمِرَ بِهِ فِي هَذِهِ الأَيَّام الثَّلاثَة، زِيَادَة عَلى أَعْمَاله وشُكْرًا لله عَلى مَا أَوْلاهُ. قَال مُجَاهِد: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ: أَشَارَ. وَبِهِ قَال وَهْب، وَقَتَادَة. وَقَال مُجَاهِد فِي رِوَايَة عَنْهُ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ: كَتَبَ لهُمْ فِي الأَرْض. وَكَذَا قَال السُّدِّيّ.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

وَهَذَا أَيْضًا تَضَمَّنَ مَحْذُوفًا تَقْدِيره: أَنَّهُ وُجِدَ هَذَا الغُلام المُبَشَّر بِهِ، وَهُوَ: يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ الله عَلَّمَهُ الكِتَاب، وَهُوَ التَّوْرَاة الَّتِي كَانُوا يَتَدَارَسُونَهَا بَيْنهمْ، وَيَحْكُمْ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلمُوا للَّذِينَ هَادُوا، وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَار، وَقَدْ كَانَ سِنّه إِذْ ذَاكَ صَغِيرًا، فَلهَذَا نَوَّهَ بِذِكْرِهِ، وَبِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَليْهِ وَعَلى وَالدَيْهِ، فَقَال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾، أَيْ: تَعَلَّمْ الكِتَاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أَيْ: بِجِدٍّ، وَحِرْص، وَاجْتِهَاد، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أَيْ: الفَهْم وَالعِلم، وَالجِدّ وَالعَزْم، وَالإِقْبَال عَلى الخَيْر، وَالإِكْبَاب عَليْهِ، وَالاجْتِهَاد فِيهِ، وَهُوَ صَغِير حَدَث. قَال عَبْد الله بْن المُبَارَك: قَال مَعْمَر: قَال الصِّبْيَان ليَحْيَى بْن زَكَرِيَّا: اذْهَبْ بِنَا نلعَب. قَال: مَا للَّعِبِ خُلقْنَا. قَال: فَلهَذَا أَنْزَل الله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

وَقَوْله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يَقُول: وَرَحْمَة مِنْ عِنْدنَا. وَكَذَا قَال عِكْرِمَة وَقَتَادَة وَالضَّحَّاك. وَزَادَ: لا يَقْدِر عَليْهَا غَيْرنَا. وَزَادَ قَتَادَة: رَحِمَ بِهَا زَكَرِيَّا. وَقَال مُجَاهِد: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾: وَتَعَطُّفًا مِنْ رَبّه عَليْهِ. وَقَال عِكْرِمَة: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قَال: مَحَبَّة عَليْهِ. وَقَال ابْن زَيْد: أَمَّا الحَنَان فَالمَحَبَّة. وَقَال عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قَال: تَعْظِيمًا مِنْ لدُنَّا. وَقَال ابْن جُرَيْج: أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن دِينَار أَنَّهُ سَمِعَ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس [أَنَّهُ](1) قَال: لا وَالله، [مَا](2) أَدْرِي مَا ﴿وَحَنَانًا﴾.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ مَنْصُور، سَأَلت سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ قَوْله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فَقَال: سَأَلت عَنْهَا ابْن عَبَّاس فَلمْ يَحِر فِيهَا شَيْئًا، وَالظَّاهِر مِنْ [هذا](3) السِّيَاق أَنَّ قَوْله: ﴿وَحَنَانًا﴾ مَعْطُوف عَلى قَوْله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أَيْ: وَآتَيْنَاهُ الحُكْم وَحَنَانًا وَزَكَاة، أَيْ: وَجَعَلنَاهُ ذَا حَنَان وَزَكَاة. فَالحَنَان: هُوَ المَحَبَّة فِي شَفَقَة وَمَيْل، كَمَا تَقُول العَرَب: حَنَّتْ النَّاقَة عَلى وَلدهَا، وَحَنَّتْ المَرْأَة عَلى زَوْجهَا، وَمِنْهُ سُمِّيَتْ المَرْأَة حَنَّة مِنْ الحَنِة، وَحَنَّ الرَّجُل إِلى وَطَنه، وَمِنْهُ التَّعَطُّف وَالرَّحْمَة. كَمَا قَال الشَّاعِر:

تَحَنَّنْ عَليَّ هَدَاك المَليك ۞ فَإِنَّ لكُلِّ مَقَام مَقَالا

وَفِي «المُسْنَد» للإِمَام أَحْمَد عَنْ أَنَس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال: «يَبْقَى رَجُل فِي النَّار يُنَادِي أَلف سَنَة: يَا حَنَّان يَا مَنَّان»(4). وَقَدْ يُثَنَّى، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَل مَا وَرَدَ مِنْ ذَلكَ لُغَة بِذَاتِهَا. كَمَا قَال طَرَفَة:

أَبَا مُنْذِر أَفْنَيْت فَاسْتَبْقِ بَعْضنَا ۞ حَنَانَيْك بَعْض الشَّرّ أَهْوَن مِنْ بَعْض

وَقَوْله: ﴿وَزَكَوٰةً﴾ مَعْطُوف عَلى ﴿وَحَنَانًا﴾، فَالزَّكَاة الطَّهَارَة مِنْ الدَّنَس وَالآثَام وَالذُّنُوب. وَقَال قَتَادَة:

---

(١) سقط من (ط).
(٢) في نسخة: [لا].
(٣) زيادة من نسخة.
(٤) ضعيف جدًا: أخرجه أحمد (٣/ ٢٣٠)، وفيه أبو ظلال: هلال بن أبي هلال: ضعيف.

الزَّكَاة العَمَل الصَّالح. وَقَال الضَّحَّاك، وَابْن جُرَيْج: العَمَل الصَّالح الزَّكِيّ. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ طَهُر فَلَمْ يَعْمَل بِذَنْب.

وَقَوْله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ لَـمَّا ذَكَرَ تَعَالى طَاعَته لرَبِّهِ، وَأَنَّهُ خَلقَهُ ذَا رَحْمَة وَزَكَاة وَتُقًى، عَطَفَ بِذِكْرِ طَاعَته لوَالدَيْهِ وَبِرّه بِهِمَا، وَمُجَانَبَته عُقُوقهمَا قَوْلًا وَفِعْلًا، أَمْرًا وَنَهْيًا؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، ثُمَّ قَال بَعْد هَذِهِ الأَوْصَاف الجَمِيلة جَزَاء لهُ عَلى ذَلكَ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أَيْ: لهُ الأَمَان فِي هذِهِ الثَّلاثَة الأَحْوَال. وَقَال سُفْيَان بْن عُيَيْنَة: أَوْحَش مَا يَكُون الخَلْق فِي ثَلاثَة مَوَاطِن: يَوْم يُولد، فَيَرَى نَفْسه خَارِجًا مِمَّا كَانَ فِيهِ، وَيَوْم يَمُوت فَيَرَى قَوْمًا لمْ يَكُنْ عَايَنَهُمْ، وَيَوْم يُبْعَث فَيَرَى نَفْسه فِي مَحْشَر عَظِيم. قَال: فَأَكْرَمَ الله فِيهَا يَحْيَى بْن زَكَرِيَّا، فَخَصَّهُ بِالسَّلامِ عَليْهِ، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾. رَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْ أَحْمَد بْن مَنْصُور المَرْوَزِيّ عَنْ صَدَقَة بْن الفَضْل عَنْهُ.

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، قَال: كَانَ ابْن المُسَيِّب يَذْكُر قَال: قَال النبي ﷺ: «مَا مِنْ أَحَد يَلقَى الله يَوْم القِيَامَة إلاَّ ذَا ذَنْب، إلاَّ يَحيَى بْن زَكَرِيَّا»[1]. قَال قَتَادَة عن الحسن قال: قال النبي ﷺ: «مَا أَذْنَبَ وَلا هَمَّ بِامْرَأَةٍ». مُرْسَل. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب: حَدَّثَنِي ابْن العَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ قَال: «كُلّ بَنِي آدَم يَأْتِي يَوْم القِيَامَة وَلهُ ذَنْب إلاَّ مَا كَانَ مِنْ يَحْيَى بْن زَكَرِيَّا»[2]. ابْن إِسْحَاق هذا مُدَلِّس وَقَدْ عَنْعَنَ هَذَا الحَدِيث، فَالله أَعْلم.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا حَمَّاد، أَخْبَرَنَا عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ يُوسُف بْن مِهْرَان، عَنْ ابْن عَبَّاس، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «مَا مِنْ أَحَد مِنْ وَلد آدَم إلاَّ وَقَدْ أَخْطَأَ، أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ، لَيْسَ يَحْيَى بْن زَكَرِيَّا، وَمَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَقُول: أَنَا خَيْر مِنْ يُونُس بْن مَتَّى»[3]. وَهَذَا أَيْضًا ضَعِيف؛ لأَنَّ عَلِيّ بْن زَيْد بْن جُدْعَان لهُ مُنْكَرَات كَثِيرَة، وَالله أَعْلم. وَقَال سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة: أَنَّ الحَسَن قَال: إِنَّ يَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَام التَقَيَا، فَقَال لهُ عِيسَى: اسْتَغْفِرْ لِي؛ أَنْتَ خَيْر مِنِّي. فَقَال لهُ الآخَر: استغفر لِي؛ فأنت خَيْر مِنِّي فَقَال لهُ عِيسَى: أَنْتَ خَيْر مِنِّي؛ سَلَّمْت عَلى نَفْسِي وَسَلَّمَ الله عَليْك. فَعُرِفَ وَالله فَضْلهمَا.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

لَـمَّا ذَكَرَ تَعَالى قِصَّة زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَام وَأَنَّهُ أَوْجَدَ مِنْهُ فِي حَال كِبَره وَعُقْم زَوْجَته وَلدًا زَكِيًّا طَاهِرًا مُبَارَكًا، عَطَفَ بِذِكْرِ قِصَّة مَرْيَم فِي إِيجَاده وَلدهَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام مِنْهَا مِنْ غَيْر أَب، فَإِنَّ بَيْن القِصَّتَيْنِ مُنَاسَبَة وَمُشَابَهَة، وَلهَذَا ذَكَرَهُمَا فِي آل عِمْرَان وَهَاهُنَا، وَفِي سُورَة الأَنْبِيَاء يَقْرُن بَيْن القِصَّتَيْنِ؛ لتَقَارُب مَا بَيْنهمَا فِي المَعْنَى؛ لِيُدِلّ عِبَاده عَلى قُدْرَته وَعَظَمَة سُلطَانه، وَأَنَّهُ عَلى مَا يَشَاء قَادِر، فَقَال: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾، وَهِيَ: مَرْيَم بِنْت عِمْرَان، مِنْ سُلالة دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَام وَكَانَتْ مِنْ بَيْت طَاهِر طَيِّب فِي بَنِي إِسْرَائِيل، وَقَدْ ذَكَرَ الله تَعَالى قِصَّة وِلادَة أُمّهَا لهَا فِي سُورَة آل عِمْرَان، وَأَنَّهَا نَذَرَتْهَا مُحَرَّرَة، أَيْ: تَخْدُم مَسْجِد بَيْت المَقْدِس، وَكَانُوا يَتَقَرَّبُونَ بِذَلكَ ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا

---

(١) **حسن لغيره**: أخرجه ابن جرير (١٦/ ٥٨)، وإسناده مرسل. والحاكم (٢/ ٣٧٣)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) **ضعيف**: فيه ابن إسحاق مدلس، وقد عنعن.

(٣) **إسناده ضعيف**: فيه زيد بن جدعان: ضعيف، له منكرات كثيرة.

بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، وَنَشَأَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيل نَشْأَة عَظِيمَة، فَكَانَتْ إِحْدَى العَابِدَات النَّاسِكَات، الْمَشْهُورَات بِالعِبَادَةِ العَظِيمَة، وَالتَّبَتُّل وَالدُّءُوب، وَكَانَتْ فِي كَفَالَة زَوْج أُخْتهَا -وقيل: خالتها- زَكَرِيَّا، نَبِيّ بَنِي إِسْرَائِيل إِذْ ذَاكَ، وَعَظِيمهمْ الَّذِي يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فِي دِينهمْ، وَرَأَى لَهَا زَكَرِيَّا مِنْ الكَرَامَات الهَائِلة مَا بَهَرَهُ؛ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ فَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ يَجِد عِنْدهَا ثَمَر الشِّتَاء فِي الصَّيْف، وَثَمَر الصَّيْف فِي الشِّتَاء، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانه فِي سُورَة آل عِمْرَان، فَلَمَّا أَرَادَ الله تَعَالَى -وَلَهُ الحِكْمَة وَالحُجَّة البَالِغَة- أَنْ يُوجَد مِنْهَا عَبْده وَرَسُوله عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام أَحَد الرُّسُل أُولِي العَزْم الخَمْسَة العِظَام ﴿ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أَيْ: اعْتَزَلَتْهُمْ وَتَنَحَّتْ عَنْهُمْ، وَذَهَبَتْ إِلَى شَرْقِيّ المَسْجِد المُقَدَّس. قَال السُّدِّيّ: لِحَيْضٍ أَصَابَهَا. وَقِيل: لِغَيْرِ ذَلِكَ.

قَال أَبُو كُدَيْنَة عَنْ قَابُوس بْن أَبِي ظَبْيَان، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: إِنَّ أَهْل الكِتَاب كُتِبَ عَلَيْهِمْ الصَّلَاة إِلَى البَيْت وَالحَجّ إِلَيْهِ، وَمَا صَرَفَهُمْ عَنْهُ إِلَّا قِيل رَبّك: ﴿ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ قَال: خَرَجَتْ مَرْيَم مَكَانًا شَرْقِيًّا، فَصَلَّوْا قِبَل مَطْلع الشَّمْس. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، وَابْن جَرِير. وَقَال ابْن جَرِير أَيْضًا: حَدَّثَنَا إِسْحَاق ابْن شَاهِين، حَدَّثَنَا خَالد بْن عَبْد الله، عَنْ دَاوُد، عَنْ عَامِر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: إِنِّي لَأَعْلَم خَلْق الله لِأَيِّ شَيْء اتَّخَذَتْ النَّصَارَى المَشْرِق قِبْلَة؛ لِقَوْل الله تَعَالَى: ﴿ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾، وَاتَّخَذُوا مِيلَاد عِيسَى قِبْلَة. وَقَال قَتَادَة: ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ شَاسِعًا مُتَنَحِّيًا. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: ذَهَبَتْ بِقُلَّتِهَا تَسْتَسْقِي مِن المَاء. وَقَال نَوْف البِكَالِيّ: اتَّخَذَتْ لَهَا مَنْزِلًا تَتَعَبَّد فِيهِ فَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾، أَيْ: اسْتَتَرَتْ مِنْهُمْ وَتَوَارَتْ، فَأَرْسَل الله تَعَالَى إِلَيْهَا جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ أَيْ: عَلَى صُورَة إِنْسَان تَامّ كَامِل. قَال مُجَاهِد، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَابْن جُرَيْج، وَوَهْب ابْن مُنَبِّه وَالسُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ يَعْنِي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَام. وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ هُوَ ظَاهِر القُرْآن؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾. وَقَال أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ أَبِي العَالِيَة، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب قَال: إِنَّ رُوح عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ جُمْلَة الأَرْوَاح الَّتِي أُخِذَ عَلَيْهَا العَهْد فِي زَمَان آدَم عَلَيْهِ السَّلَام وَهُوَ الَّذِي تَمَثَّل لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. أَيْ: رُوح عِيسَى، فَحَمَلَتْ الَّذِي خَاطَبَهَا، وَحَلَّ فِي فِيهَا. وَهَذَا فِي غَايَة الغَرَابَة وَالنَّكَارَة، وَكَأَنَّهُ إِسْرَائِيلِيّ.

﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ أَيْ: لَمَّا تَبَدَّى لَهَا المَلَك فِي صُورَة بَشَر، وَهِيَ فِي مَكَان مُنْفَرِد، وَبَيْنَهَا وَبَيْن قَوْمهَا حِجَاب خَافَتْهُ، وَظَنَّتْ أَنَّهُ يُرِيدهَا عَلَى نَفْسهَا، فَقَالَتْ: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ أَيْ: إِنْ كُنْت تَخَاف الله، تَذْكِيرًا لَهُ بِالله، وَهَذَا هُوَ المَشْرُوع فِي الدَّفْع أَنْ يَكُون بِالأَسْهَل فَالأَسْهَل، فَخَوَّفَتْهُ أَوَّلًا بِالله عَزَّ وَجَلَّ.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر عَنْ عَاصِم قَال: قَال أَبُو وَائِل وَذَكَرَ قِصَّة مَرْيَم فَقَال: قَدْ عَلِمْت أَنَّ التَّقِيّ ذُو نُهْيَة حِين قَالَتْ: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أَيْ: فَقَال لَهَا المَلَك مُجِيبًا لَهَا وَمُزِيلًا مَا حَصَل عِنْدهَا مِنْ الخَوْف عَلَى نَفْسهَا: لَسْت مِمَّا تَظُنِّينَ، وَلَكِنِّي رَسُول رَبّك، أَيْ: بَعَثَنِي الله إِلَيْك، وَيُقَال: إِنَّهَا لَمَّا ذَكَرَتْ الرَّحْمَن انْتَفَضَ جِبْرِيل فَرَقًا، وَعَادَ إِلَى هَيْئَته، وَقَال: (إِنَّمَا أَنَا رَسُول رَبّك لِيَهَب لَك غُلَامًا زَكِيًّا). هَكَذَا قَرَأَ أَبُو عَمْرو ابْن العَلَاء أَحَد مَشْهُورِي القُرَّاء. وَقَرَأَ الآخَرُونَ: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ وَكِلَا القِرَاءَتَيْنِ لَهُ وَجْه حَسَن وَمَعْنًى صَحِيح، وَكُلّ تَسْتَلْزِم الأُخْرَى.

﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ أَيْ: فَتَعَجَّبَتْ مَرْيَم مِنْ هَذَا، وَقَالَتْ: كَيْف يَكُون لِي غُلَام، أَيْ: عَلَى أَيّ صِفَة يُوجَد هَذَا الغُلَام مِنِّي، وَلَسْت بِذَاتِ زَوْج، وَلَا يُتَصَوَّر مِنِّي الفُجُور؛ وَلِهَذَا قَالَتْ: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ

بَغِيًّا ﴾، وَالبَغِيّ: هِيَ الزَّانِيَة، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيث النَّهْي عَنْ مَهر البَغِيّ، ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أَيْ: فَقَال لَهَا المَلك مُجِيبًا لَهَا عَمَّا سَأَلَتْ: إِنَّ الله قَدْ قَال: إِنَّهُ سَيُوجَدُ مِنْك غُلامًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لك بَعْل، وَلا توجد مِنْك فَاحِشَة، فَإِنَّهُ عَلى مَا يَشَاء قَادِر؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أَيْ: دَلالة وَعَلامَة للنَّاسِ عَلى قُدْرَة بَارِئِهِمْ وَخَالقهِمْ، الَّذِي نَوَّعَ فِي خَلقهِمْ، فَخَلقَ آبَاهُمْ آدم مِنْ غَيْر ذَكَر وَلا أُنْثَى، وَخَلقَ حَوَّاء مِنْ ذَكَر بلا أُنْثَى، وَخَلق بَقِيَّة الذُّرِّيَّة مِنْ ذَكَر وَأُنْثَى إِلَّا عِيسَى، فَإِنَّهُ أَوْجَدَهُ مِنْ أُنْثَى بِلا ذَكَر، فَتَمَّتْ القِسْمَة الرُّبَاعِيَّة، الدَّالَّة عَلى كَمَال قُدْرَته وَعَظِيم سُلطَانه، فَلا إِله غَيْره وَلا رَبّ سِوَاهُ.

وَقَوْله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ﴾ أَيْ: وَنَجْعَل هَذَا الغُلام -رَحْمَة مِنْ الله- نَبِيًّا مِنْ الأَنْبِيَاء، يَدْعُو إِلى عِبَادَة الله تَعَالى وَتَوْحِيده، كَمَا قَال تَعَالى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، أَيْ: يَدْعُو إِلى عِبَادَة الله رَبّه فِي مَهْده وَكُهُولته. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحمن بْن إِبْرَاهِيم -دُحَيْم- حَدَّثَنَا مَرْوَان، حَدَّثَنَا العَلاء بْن الحَارِث الكُوفِيّ، عَنْ مُجَاهِد قَال: قَالتْ مَرْيَم عَلَيْهَا السَّلَامُ: كُنْت إِذَا خَلوْت حَدَّثَنِي عِيسَى، وَكَلَّمَنِي وَهُوَ فِي بَطْنِي، وَإِذَا كُنْت مَعَ النَّاس سَبَّحَ فِي بَطْنِي وَكَبَّرَ.

وَقَوْله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يَحْتَمِل أَنَّ هَذَا مِنْ تَمام كَلام جِبْرِيل لِمَرْيَم، يُخْبِرهَا أَنَّ هَذَا أَمْر مُقَدَّر فِي عِلم الله تَعَالى وقدرته وَمَشِيئَته، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون مِنْ خَبَر الله تَعَالى لِرَسُولِهِ مُحَمَّد ﷺ، وَأَنَّهُ كَنَّى بِهَذَا عَنْ النَّفْخ فِي فَرْجِهَا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ وَقَال: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾. قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أَيْ: إِنَّ الله قَدْ عَزَمَ عَلى هَذَا فَلَيْسَ مِنْهُ بُدّ. وَاخْتَارَ هَذَا ابْن جَرِير فِي «تَفْسِيره»، وَلَمْ يَحْكِ غَيْره، وَالله أَعْلم.

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَم: إنها لَمَّا قَال لَهَا جِبْرِيل عَنْ الله تَعَالى مَا قَال، أَنَّهَا اسْتَسْلمَتْ لِقَضَاءِ الله تَعَالى، فَذَكَرَ غَيْر وَاحِد مِنْ عُلمَاء السَّلف أَنَّ المَلك وَهُوَ جِبْرَائِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْد ذَلكَ، نَفَخَ فِي جَيْب دِرْعِهَا، فَنَزَلتْ النَّفْخَة حَتَّى وَلجَتْ فِي الفَرْج، فَحَمَلتْ بِالوَلدِ بِإِذْنِ الله تَعَالى، فَلمَّا حَمَلتْ بِهِ ضَاقَتْ ذَرْعًا بِه، وَلمْ تَدْرِ مَاذَا تَقُول للنَّاسِ، فَإِنَّهَا تَعْلم أَنَّ النَّاس لا يُصَدِّقُونَهَا فِيمَا تُخْبِرهُمْ بِهِ، غَيْر أَنَّهَا أَفْشَتْ سِرّهَا، وَذَكَرَتْ أَمْرهَا لأُخْتِهَا امْرَأَة زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَذَلكَ أَنَّ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ قَدْ سَأَل الله الوَلد فَأُجِيبَ إِلى ذَلكَ، فَحَمَلتْ امْرَأَته، فَدَخَلتْ عَليْهَا مَرْيَم، فَقَامَتْ إِليْهَا فَاعْتَنَقَتْهَا، وَقَالتْ: أَشَعُرْت يَا مَرْيَم أَنِّي حُبْلى؟ فَقَالتْ لهَا مَرْيَم: وَهَل عَلمْت أَيْضًا أَنِّي حُبْلى. وَذَكَرَتْ لهَا شَأْنهَا، وَمَا كَانَ مِنْ خَبَرهَا، وَكَانُوا بَيْت إِيمَان وَتَصْدِيق، ثُمَّ كَانَتْ امْرَأَة زَكَرِيَّا بَعْد ذَلكَ إِذَا وَاجَهَتْ مَرْيَم، تَجِد الَّذِي فِي جوفها يَسْجُد لِلَّذِي فِي بَطْن مَرْيَم، أَيْ: يُعَظِّمهُ وَيَخْضَع لهُ، فَإِنَّ السُّجُود كَانَ فِي مِلَّتهمْ عِنْد السَّلام مَشْرُوعًا، كَمَا سَجَدَ لِيُوسُف أَبَوَاهُ وَإِخْوَته، وَكَمَا أَمَرَ الله المَلائِكَة أَنْ تَسْجُدُ لآدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلكِنْ حُرِّمَ فِي مِلَّتنَا هَذِهِ؛ تَكْمِيلًا لتَعْظِيم جَلال الرَّبّ تبارك وتَعَالى.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَليّ بْن الحُسَيْن قَال: قُرِئَ عَلى الحَارِث بْن مِسْكِين -وَأَنَا أَسْمَع- أَخْبَرَنَا عَبْد الرَّحْمن ابْن القَاسِم قَال: قَال مَالك رَحِمَهُ اللَّهُ: بَلغَنِي أَنَّ عِيسَى ابْن مَرْيَم وَيَحْيَى بْن زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ابْنَا خَالة، وَكَانَ حَمْلهمَا جَمِيعًا مَعًا، فَبَلغَنِي أَنَّ أُمّ يَحْيَى قَالتْ لمَرْيَم: إِنِّي أَرَى أَنَّ مَا فِي بَطْنِي يَسْجُد لمَا فِي بَطْنك. قَال مَالك: أَرَى ذَلكَ

لتفْضِيل عِيسَى عليه السلام؛ لأَنَّ الله جَعَلهُ يُحْيِي المَوْتَى وَيُبْرِئ الأَكْمَه وَالأَبْرَص. ثُمَّ اخْتلفَ المُفَسِّرُون فِي مُدَّة حَمْل عِيسَى عليه السلام، فَالمَشْهُور عَنْ الجُمْهُور أَنَّهَا حَمَلتْ بِهِ تِسْعَة أَشْهُر، وَقَال عِكْرِمَة: ثَمانِيَة أَشْهُر، قَال: وَلهَذَا لا يَعِيش وَلد لثمانية أَشْهُر. وَقَال ابْن جُرَيْج: أَخْبَرَنِي المُغِيرَة بْن عثمان بْن عَبْد الله الثَّقَفِيّ، سَمِعَ ابْن عَبَّاس، وَسُئِل عَنْ حبل مَرْيَم؟ قَال: لمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ حَمَلتْ فَوَضَعَتْ. وَهَذَا غَرِيب، وَكَأَنَّهُ أخذه مِنْ ظَاهِر قَوْله تَعَالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، فَالفَاء وَإِنْ كَانَتْ للتَّعْقِيب، لكِنْ تَعْقِيب كُلّ شَيْء بِحَسْبِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ فَهَذِهِ الفَاء للتَّعْقِيب بِحَسَبِهَا.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّ بَيْن كُلّ صِفَتَيْنِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَقَال تَعَالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ فَالمَشْهُور الظَّاهِر وَالله عَلى كُلّ شَيْء قَدِير: أَنَّهَا حَمَلتْ بِهِ كَمَا تَحْمِل النِّسَاء بِأَوْلادِهِنَّ؛ وَلهَذَا لـمَّا ظَهَرَتْ مَخَايِل الحَمْل عليها، وَكَانَ مَعَهَا فِي المَسْجِد رَجُل صَالِح مِنْ قَرَابَاتِهَا، يَخْدُم مَعَهَا البَيْت المُقَدَّس، يُقَال لهُ: يُوسُف النَّجَّار، فَلمَّا رَأَى ثِقَل بَطْنهَا وَكِبَره، أَنْكَرَ ذَلكَ مِنْ أَمْرهَا، ثُمَّ صَرَفَهُ مَا يَعْلم مِنْ بَرَاءَتهَا وَنَزَاهَتهَا، وَدِينهَا وَعِبَادَتهَا، ثُمَّ تَأَمَّل مَا هِيَ فِيهِ، فَجَعَل أَمْرهَا يَجُوس فِي فِكْره، لا يَسْتَطِيع صَرْفه عَنْ نَفْسه، فَحَمَل نَفْسه عَلى أَنْ عَرَّضَ لهَا فِي القَوْل، فَقَال: يَا مَرْيَم، إِنِّي سَائِلك عَنْ أَمْر فَلا تَعْجَلِي عَليَّ. قَالتْ: وَمَا هُوَ ؟ قَال: هَل يَكُون قَطُّ شَجَر مِنْ غَيْر حَبّ، وَهَل يَكُون زَرْع مِنْ غَيْر بَذْر، وَهَل يَكُون وَلد مِنْ غَيْر أَب؟ فَقَالتْ: نَعَمْ وَفَهِمَتْ مَا أَشَارَ إِليْهِ، أَمَّا قَوْلك: هَل يَكُون شَجَر مِنْ غَيْر حَبّ، وَزَرْع مِنْ غَيْر بَذْر: فَإِنَّ الله قَدْ خَلقَ الشَّجَر وَالزَّرْع أَوَّل مَا خَلقَهُمَا مِنْ غَيْر حَبّ، وَلا بَذْر، وَهَل خَلْق يَكُون مِنْ غَيْر أَب: فَإِنَّ الله تَعَالى قَدْ خَلقَ آدَم مِنْ غَيْر أَب وَلا أُمّ. فَصَدَّقَهَا وَسَلَّمَ لهَا حَالهَا. وَلـمَّا اسْتَشْعَرَتْ مَرْيَم مِنْ قَوْمهَا اتِّهَامهَا بِالرِّيبَةِ، انْتَبَذَتْ مِنْهُمْ مَكَانًا قَصِيًّا، أَيْ: قَاصِيًا مِنْهُمْ بَعِيدًا عَنْهُمْ؛ لِئَلَّا تَرَاهُمْ وَلا يَرَوْهَا.

قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: فَلمَّا حَمَلتْ بِهِ، وَمَلأَتْ قُلَّتهَا وَرَجَعَتْ، اسْتَمْسَكَ عَنْهَا الدَّم، وَأَصَابَهَا مَا يُصِيب الحَامِل عَلى الوَلد؛ مِنْ الوَصَب وَالتَّوَحُّم وَتَغَيُّر اللَّوْن، حَتَّى فَطَرَ لسَانهَا، فَمَا دَخَل عَلى أَهْل بَيْت مَا دَخَل عَلى آل زَكَرِيَّا، وَشَاعَ الحَدِيث فِي بَنِي إِسْرَائِيل، فَقَالُوا: إِنَّمَا صَاحِبهَا يُوسُف، وَلمْ يَكُنْ مَعَهَا فِي الكَنِيسَة غَيْره، وَتَوَارَتْ مِنْ النَّاس، وَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونهمْ حِجَابًا، فَلا يَرَاهَا أَحَد وَلا تَرَاهُ.

وَقَوْله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أَيْ: فَاضْطَرَّهَا وَأَلجَأَهَا الطَّلق إِلى جِذْع النخلة، وهي نَخْلة فِي المَكَان الَّذِي تَنَحَّتْ إِليْهِ. وَقَدْ اخْتَلفُوا فِيهِ، فَقَال السُّدِّيّ: كَانَ شَرْقِيّ مِحْرَابهَا الَّذِي تُصَلِّي فِيهِ مِنْ بَيْت المَقْدِس. وَقَال وَهْب بْن مُنَبِّه: ذَهَبَتْ هَارِبَة، فَلمَّا كَانَتْ بَيْن الشَّام، وَبِلاد مِصْر ضَرَبَهَا الطَّلق. وَفِي رِوَايَة عَنْ وَهْب: كَانَ ذَلكَ عَلى ثَمانِيَة أَمْيَال مِنْ بَيْت المَقْدِس، فِي قَرْيَة هُنَاكَ يُقَال لهَا «بَيْت لحْم». قُلت: وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَحَادِيث الإِسْرَاء؛ مِنْ رِوَايَة النَّسَائِيّ عَنْ أَنَس رضي الله عنه وَالبَيْهَقِيّ عَنْ شَدَّاد بْن أَوْس رضي الله عنه أَنَّ ذَلكَ بِبَيْتِ لحْم، فَالله أَعْلم. وَهَذَا هُوَ المَشْهُور الَّذِي تَلقَّاهُ النَّاس بَعْضهمْ عَنْ بَعْض، وَلا تَشُكّ فِيهِ النَّصَارَى: أَنَّهُ بِبَيْتِ لحْم، وَقَدْ تَلقَّاهُ النَّاس، وَقَدْ وَرَدَ بِهِ الحَدِيث إِنْ صَحَّ.

وَقَوْله تَعَالى إِخْبَارًا عَنْهَا: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فِيهِ دَليل عَلى جَوَاز تَمَنِّي المَوْت عِنْد الفِتْنَة، فَإِنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهَا سَتُبْتَلى وَتُمْتَحَن بِهَذَا المَوْلُود الَّذِي لا يَحْمِل النَّاس أَمْرهَا فِيهِ عَلى السَّدَاد، وَلا يُصَدِّقُونَهَا فِي خَبَرهَا وَبَعْدَمَا كَانَتْ عِنْدهمْ عَابِدَة نَاسِكَة، تُصْبِح عِنْدهمْ -فِيمَا يَظُنُّونَ- عَاهِرَة زَانِيَة، فَقَالتْ: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾، أَيْ: قَبْل هَذَا الحَال ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أَيْ: لمْ أُخْلق وَلمْ أَكُ شَيْئًا. قَالهُ ابْن عَبَّاس.

وَقَال السُّدِّيّ: قَالتْ وَهِيَ تُطْلق مِنْ الحَبَل اسْتِحْيَاء مِنْ النَّاس: يَا لَيْتَنِي مِتّ قَبْل هَذَا الكَرْب، الَّذِي أَنَا فِيهِ، وَالحَزَن بِوِلادَتِي المَوْلُود مِنْ غَيْر بَعْل. ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ نَسْي فَتُرِكَ طَلَبه، كَخِرَقِ الحَيْض التي إِذَا أُلْقِيَتْ وَطُرِحَتْ لَمْ تُطْلَب وَلَمْ تُذْكَر. وَكَذَلِكَ كُلّ شَيْء نُسِيَ وَتُرِكَ فَهُوَ نَسْي. وَقَال قَتَادَة: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أَيْ: شَيْئًا لا يُعْرَف وَلا يُذْكَر وَلا يُدْرَى مَنْ أَنَا. وَقَال الرَّبِيع بْن أَنَس: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ وهُوَ السَّقْط.

وَقَال ابْن زَيْد: لَمْ أَكُنْ شَيْئًا قَطُّ. وَقَدْ قَدَّمْنَا الأَحَادِيث الدَّالَّة عَلى النَّهْي عَنْ تَمَنِّي المَوْت إِلَّا عِنْد الفِتْنَة، عِنْد قَوْله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

قَرَأَ بَعْضهمْ: (مَنْ تَحْتَهَا) بِمَعْنَى الَّذِي تَحْتَهَا. وَقَرَأَ الآخَرُونَ: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ عَلى أَنَّهُ حَرْف جَرّ. وَاخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي المُرَاد بِذَلِكَ مَنْ هُوَ؟ فَقَال العَوْفِيّ وَغَيْره عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ جِبْرِيل، وَلَمْ يَتَكَلَّم عِيسَى حَتَّى أَتَتْ بِهِ قَوْمهَا. وَكَذَا قَال سَعِيد بْن جُبَيْر وَالضَّحَّاك، وَعَمْرو بْن مَيْمُون وَالسُّدِّيّ وَقَتَادَة: إِنَّهُ المَلَك جبريل عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلام، أَيْ: نَادَاهَا مِنْ أَسْفَل الوَادِي. وَقَال مُجَاهِد: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ قَال: عِيسَى ابْن مَرْيَم. وَكَذَا قَال عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر عَنْ قَتَادَة، قَال: قَال الحَسَن: هُوَ ابْنهَا. وَهُوَ إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ سَعِيد ابْن جُبَيْر: أَنَّهُ ابْنهَا، قَال: أَوَلَمْ تَسْمَع الله يَقُول: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾؟ وَاخْتَارَهُ ابْن زَيْد وَابْن جَرِير فِي «تَفْسِيره».

وَقَوْله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أَيْ: نَادَاهَا قَائِلًا: لا تَحْزَنِي ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ وَشُعْبَة عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ البَرَاء بْن عَازِب: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قَال: الجَدْوَل. وَكَذَا قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: السَّرِيّ: النَّهَر. وَبِهِ قَال عَمْرو بْن مَيْمُون: نَهَر تَشْرَب مِنْهُ. وَقَال مُجَاهِد: هُوَ النَّهَر بِالسُّرْيَانِيَّةِ. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: السَّرِيّ: النَّهَر الصَّغِير بِالنَّبَطِيَّةِ. وَقَال الضَّحَّاك: هُوَ النَّهَر الصَّغِير بِالسُّرْيَانِيَّةِ. وَقَال إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ: هُوَ النَّهَر الصَّغِير. وَقَال قَتَادَة: هُوَ الجَدْوَل بِلُغَةِ أَهْل الحِجَاز. وَقَال وَهْب بْن مُنَبِّه: السَّرِيّ هُوَ رَبِيع المَاء. وَقَال السُّدِّيّ: هُوَ النَّهَر. وَاخْتَارَ هَذَا القَوْل ابْن جَرِير.

وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيث مَرْفُوع؛ فَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو شُعَيْب الحَرَّانِيّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن عَبْد الله البابلتي حَدَّثَنَا أَيُّوب بْن نَهِيك، سَمِعْت عِكْرِمَة مَوْلى ابْن عَبَّاس [يقول][1]، سَمِعْت ابْن عُمَر يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ السَّرِيّ الَّذِي قَال الله لِمَرْيَم: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نَهَر أَخْرَجَهُ الله لِتَشْرَب مِنْهُ»[2]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا مِنْ هَذَا الوَجْه، وَأَيُّوب بْن نَهِيك هَذَا هُوَ الحلبي، قَال فِيهِ أَبُو حَاتِم الرَّازِيّ: ضَعِيف. وَقَال أَبُو زُرْعَة: مُنْكَر الحَدِيث. وَقَال أَبُو الفَتْح الأَزْدِيّ: مَتْرُوك الحَدِيث. وَقَال آخَرُونَ: المُرَاد بِالسَّرِيِّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِهِ قَال الحَسَن وَالرَّبِيع بْن أَنَس وَمُحَمَّد بْن عَبَّاد بْن جَعْفَر، وَهُوَ إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ قَتَادَة، وَقَوْل عَبْد الرَّحْمَن ابْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، وَالقَوْل الأَوَّل أَظْهَر؛ وَلِهَذَا قَال بَعْده: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أَيْ: وَخُذِي إِلَيْك بِجِذْعِ النَّخْلة، قِيل: كَانَتْ يَابِسَة. قَالهُ ابْن عَبَّاس. وَقِيل: مُثْمِرَة.

قَال مُجَاهِد: كَانَتْ عَجْوَة. وَقَال الثَّوْرِيّ عَنْ أَبِي دَاوُد نُفَيْع الأَعْمَى: كَانَتْ صَرَفَانَة. وَالظَّاهِر أَنَّهَا كَانَتْ شَجَرَة، وَلكِنْ لَمْ تَكُنْ فِي إِبَّان ثَمَرهَا، قَالهُ وَهْب بْن مُنَبِّه، وَلِهَذَا امْتَنَّ عَلَيْهَا بِذَلِكَ، بِأَنْ جَعَل عِنْدهَا طَعَامًا

---

(١) زيادة من (ط).

(٢) ضعيف: أخرجه الطبراني (١٢/ ٣٤٦)، وفيه أيوب بن نهيك: ضعيف.

وَشَرَابًا فَقَال: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أَيْ: طِيبِي نَفْسًا؛ وَلهَذَا قَال عَمْرو بْن مَيْمُون: مَا مِنْ شَيْء خَيْر للنُّفَسَاءِ مِنْ التَّمْر وَالرُّطَب. وتَلا هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا شَيْبَان حَدَّثَنَا مَسْرُور بْن سَعِيد التَّمِيمِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن عَمْرو الأَوْزَاعِيّ، عَنْ عُرْوَة بْن رُوَيْم، عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالب قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «أَكْرِمُوا عَمَّتَكُمْ النَّخْلة؛ فَإِنَّهَا خُلقَتْ مِنْ الطِّين الَّذِي خُلق مِنْهُ آدَم ؛، وَليْسَ مِنْ الشَّجَر شَيْء يُلقَّح غَيْرهَا»[1]. وَقَال رَسُول الله ﷺ: «أَطْعِمُوا نِسَاءَكُمْ الوُلد: الرُّطَب، فَإِنْ لمْ يَكُنْ رُطَب فتَمْر، وَليسَ مِنْ الشَّجَر شَجَرَة أَكْرَم عَلى الله مِنْ شَجَرَة نَزَلتْ تَحْتهَا مَرْيَم بِنْت عِمْرَان»[2]. هَذَا حَدِيث مُنْكَر جِدًّا وَرَوَاهُ أَبُو يَعْلى عَنْ شَيْبَان، بِهِ. وَقَرَأَ بَعْضهمْ قوله: ﴿تَسَّاقَطْ﴾ بِتَشْدِيدِ السِّين، وَآخَرُون بِتَخْفِيفِهَا، وَقَرَأَ أَبُو نَهِيك: ﴿تَسْقُطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ وَرَوَى أَبُو إِسْحَاق عَنْ البَرَاء أَنَّهُ قَرَأَهَا: ﴿يَسَّاقَطْ﴾ أَيْ: الجِذْع، وَالكُلّ مُتَقَارِب.

وَقَوْله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أَيْ: مَهْمَا رَأَيْت مِنْ أَحَد ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ المُرَاد بِهَذَا القَوْل الإِشَارَة إِليْهِ بِذَلكَ؛ لا أَنَّ المُرَاد بِهِ القَوْل اللَّفْظِيّ؛ لئَلَّا يُنَافِي ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾. قَال أَنَس بْن مَالك فِي قَوْله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: صَمْتًا. وَكَذَا قَال ابْن عَبَّاس وَالضَّحَّاك، وَفِي رِوَايَة عَنْ أَنَس: صَوْمًا وَصَمْتًا، وَكَذَا قَال قَتَادَة وَغَيْرهمَا. وَالمُرَاد: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا صَامُوا فِي شَرِيعَتهمْ يَحْرُم عَليْهِمْ الطَّعَام وَالكَلام، نَصَّ عَلى ذَلكَ السُّدِّيّ وَقَتَادَة وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد.

قَال أبو إِسْحَاق، عَنْ حَارِثَة قَال: كُنْت عِنْد ابْن مَسْعُود، فَجَاءَ رَجُلانِ فَسَلَّمَ أَحَدهمَا وَلمْ يُسَلِّم الآخَر، فَقَال: مَا شَأْنك؟ قَال أَصْحَابه: حَلفَ أَنْ لا يُكَلِّم النَّاس اليَوْم. فَقَال عَبْد الله بْن مَسْعُود: كَلِّمْ النَّاس وَسَلِّمْ عَليْهِمْ، فإنما تِلكَ امْرَأَة عَلمَتْ أَنَّ أَحَدًا لا يُصَدِّقهَا أَنَّهَا حَملتْ مِنْ غَيْر زَوْج -يَعْنِي بِذَلكَ: مَرْيَم عليها السلام لِيكُون عُذْرًا لهَا إِذَا سُئِلتْ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير رَحِمَهُمَا الله. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد: لـمَّا قَال عِيسَى لمَرْيَم: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ قَالتْ: وَكَيْف لا أَحْزَن وَأَنْتَ مَعِي، لا ذَات زَوْج وَلا مَمْلُوكَة، أَيّ شَيْء عُذْرِي عِنْد النَّاس؟ ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ قَال لهَا عِيسَى: أَنَا أَكْفِيك الكَلام، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ قَال: هَذَا كُلّه مِنْ كَلام عِيسَى لأُمِّهِ. وَكَذَا قَال وَهْب.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَم حِين أُمِرَتْ أَنْ تَصُوم يَوْمهَا ذَلكَ، وَأَنْ لا تُكَلِّم أَحَدًا مِنْ البَشَر، فَإِنَّهَا سَتُكْفَى أَمْرهَا وَيُقَام بِحُجَّتِهَا، فَسَلَّمَتْ لأَمْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَاسْتَسْلمَتْ لقَضَائِهِ فَأَخَذَتْ وَلدهَا، ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ فَلمَّا رَأَوْهَا كَذَلكَ أَعْظَمُوا أَمْرهَا، وَاسْتَنْكَرُوهُ جِدًّا، وَ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أَيْ: أَمْرًا عَظِيمًا. قَالهُ مُجَاهِد وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ وَغَيْر وَاحِد. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن أَبِي زِيَاد، حَدَّثَنَا سيار حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن سُليْمَان، حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَان الجَوْنِيّ، عَنْ نَوْف البِكَالِيّ، قَال: وَخَرَجَ قَوْمهَا فِي طَلبهَا. وَكَانَتْ مِنْ

(١) موضوع: أخرجه أبو يعلي (٤٥٥)، وقال الألباني في «الضعيفة» (٢٦٣): «موضوع». وقال ابن كثير: «منكر جدًا».
(٢) موضوع: بنفس السند السابق. وقال الألباني في «الضعيفة» (٢٣٤): «موضوع».

أَهْل بَيْت نُبُوَّة وَشَرَف، فَلَمْ يُحِسُّوا مِنْهَا شَيْئًا، فرأوا رَاعِي بَقَر، فَقَالُوا: أرَأَيْت فَتَاة كَذَا وَكَذَا نَعْتهَا؟ قَال: لا، وَلكِنِّي رَأَيْت اللَّيْلَة مِنْ بَقَرِي مَا لمْ أَرَهُ مِنْهَا قَطُّ. قَالُوا: وَمَا رَأَيْت؟ قَال: رَأَيْتهَا اللَّيْلَة سُجْدًا نَحْو هَذَا الوَادِي.

قَال عَبْد الله بْن زِيَاد: وَأَحْفَظ عَنْ سيار أَنَّهُ قَال: رَأَيْت نُورًا سَاطِعًا. فَتَوَجَّهُوا حَيْثُ قَال لَهُمْ، فَاسْتَقْبَلَتْهُمْ مَرْيَم، فَلَمَّا رَأَتْهُمْ قَعَدَتْ وَحَمَلتْ ابْنهَا فِي حِجْرِهَا، فَجَاءُوا حَتَّى قَامُوا عَلَيْهَا، وَقَالُوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أَمْرًا عَظِيمًا، ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ أَيْ: يا شَبِيهَة هَارُون فِي العِبَادَة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أَيْ: أَنْتِ مِنْ بَيْت طَيِّب طَاهِر، مَعْرُوف بِالصَّلاحِ وَالعِبَادَة وَالزَّهَادَة، فَكَيْف صَدَرَ هَذَا مِنْك؟ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة وَالسُّدِّيّ: قِيل لَهَا: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ أَيْ: أَخِي مُوسَى، وَكَانَتْ مِنْ قبيلته، كَمَا يُقَال للتَّمِيمِيِّ: يَا أَخَا تَمِيم، وَللمُضَرِيِّ: يَا أَخَا مُضَر. وَقِيل: نُسِبَتْ إِلى رَجُل صَالح كَانَ فِيهِمْ اسْمه هَارُون، فَكَانَتْ تتأسى بِهِ فِي الزَّهَادَة وَالعِبَادَة. وَحَكَى ابْن جَرِير عَنْ بَعْضهمْ أَنَّهُمْ شَبَّهُوهَا بِرَجُلٍ فَاجِر كَانَ فِيهِمْ، يُقَال لهُ هَارُون.

وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر. وَأَغْرَب مِنْ هَذَا كُلّه؛ مَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بِن الحُسَيْن الهسنجاني، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي مَرْيَم، حَدَّثَنَا المُفَضَّل بْن أَبِي فَضَالة، حَدَّثَنَا أَبُو صَخْر عَنْ القُرَظِيّ فِي قَوْل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ قَال: هِيَ أُخْت هَارُون لأَبِيهِ وَأُمّه، وَهِيَ أُخْت مُوسَى أَخِي هَارُون الَّتِي قَصَّتْ أَثَر مُوسَى، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. وَهَذَا القَوْل خَطَأ مَحْض؛ فَإِنَّ الله تَعَالى قَدْ ذَكَرَ فِي كِتَابه أَنَّهُ قَفَّى بِعِيسَى بَعْد الرُّسُل، فَدَلَّ عَلى أَنَّهُ آخِر الأَنْبِيَاء بَعْثًا، وَليْس بَعْده إِلَّا مُحَمَّد، صَلوَات الله وَسَلامه عَليْهِمَا، وَلهَذَا ثَبَتَ فِي «الصحيح» عند البُخَارِيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «**أَنَا أَوْلى النَّاس بابْنِ مَرْيَم؛ إلا أنه ليْسَ بَيْنِي وبَيْنه نَبِيّ**»[1]. وَلوْ كَانَ الأَمْر كَمَا زَعَمَ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، لمْ يَكُنْ مُتَأَخِّرًا عَنْ الرُّسُل سِوَى مُحَمَّد، وَلكَانَ قَبْل سُليْمَان وَدَاوُد؛ فَإِنَّ الله قَدْ ذَكَرَ أَنَّ دَاوُد بَعْد مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْله تَعَالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فذَكَرَ القِصَّة إِلى أَنْ قَال: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ الآيَة. وَالَّذِي جَرَّأَ القُرَظِيّ عَلى هَذِهِ المَقَالة مَا فِي التَّوْرَاة بَعْد خُرُوج مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيل مِنْ البَحْر، وَإِغْرَاق فِرْعَوْن وَقَوْمه، قَال: وكانت مَرْيَم بِنْت عِمْرَان أُخْت مُوسَى وَهَارُون النَّبِيَّيْنِ - تَضْرِب بِالدُّفِّ هِيَ وَالنِّسَاء مَعَهَا، يُسَبِّحْنَ الله وَيَشْكُرْنَهُ عَلى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلى بَنِي إِسْرَائِيل؛ فَاعْتَقَدَ القُرَظِيّ أَنَّ هَذِهِ هِيَ أُمّ عِيسَى، وهي هَفْوَة وَغَلطَة شَدِيدَة، بَل هِيَ بِاسْم هَذِهِ، وَقَدْ كَانُوا يُسَمَّوْنَ بِأَسْمَاءِ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ، كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن إِدْرِيس، سَمِعْت أَبِي يَذْكُر عَنْ سِمَاك عَنْ عَلقَمَة بْن وَائِل، عَنْ المُغِيرَة بْن شُعْبَة قَال: بَعَثَنِي رَسُول الله ﷺ إِلى نَجْرَان، فَقَالُوا: أَرَأَيْت مَا تَقْرَءُونَ: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وَمُوسَى قَبْل عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا؟ قَال: فَرَجَعْت فَذَكَرْت ذَلكَ لرَسُول الله ﷺ، فَقَال: «**أَلا أَخْبَرْتهمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَسمَّون بالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالحِينَ قبْلهمْ**»[2]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلم وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن إِدْرِيس، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سِمَاك بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح غَرِيب، لا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيث ابْن إِدْرِيس.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يَعْقُوب، حَدَّثَنَا ابْن عُليَّة، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي صَدَقَة، عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ قَال: نُبِّئت أَنَّ كَعْبًا قَال: إِنَّ قَوْله: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ ليْسَ بِهَارُون أَخِي مُوسَى. قَال: فَقَالتْ لهُ عَائِشَة: كَذَبْت. قَال: يَا أُمّ المُؤْمِنِينَ، إِنْ كَانَ النَّبِيّ ﷺ قَالهُ فَهُوَ أَعْلم وَأَخْبَر، وَإِلَّا فَإِنِّي أَجِد بَيْنهمَا سِتّمِائَةِ سَنَة. قَال: فَسَكَتَتْ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٤٢).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٣٥).

وَفِي هَذَا التَّارِيخ نَظَر. وَقَال ابْن جَرِير أَيْضًا: حَدَّثنَا بِشْر، حَدَّثنَا يَزِيد، حَدَّثنَا سَعِيد، عَنْ قَتَادَة قَوْله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾. قَال: كَانَتْ مِنْ أَهْل بَيْت يُعْرَفُونَ بِالصَّلاح، وَلا يُعْرَفُونَ بِالفَسَادِ، وَمِنْ النَّاس مَنْ يُعْرَفُونَ بِالصَّلاحِ وَيَتَوَالدُونَ بِهِ، وَآخَرُونَ يُعْرَفُونَ بِالفَسَادِ وَيَتَوَالدُونَ بِهِ، وَكَانَ هَارُون مُصْلحًا مُحَبَّبًا فِي عَشِيرَته، وَلَيْسَ بِهَارُون أَخِي مُوسَى، وَلكِنَّهُ هَارُون آخَر. قَال: وَذَكَرَ لنَا أَنَّهُ شَيَّعَ جِنَازَته يَوْم مَاتَ أَرْبَعُونَ أَلفًا، كُلّهمْ يُسَمَّى هَارُون مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل.

وَقَوْله: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ أَيْ: أَنَّهُمْ لَمَّا اسْتَرَابُوا فِي أَمْرهَا، وَاسْتَنْكَرُوا قَضِيَّتهَا، وَقَالُوا لهَا مَا قَالُوا مُعَرِّضِينَ بِقَذْفِهَا، وَرَمْيهَا بِالفِرْيَةِ وَقَدْ كَانَتْ يَوْمهَا ذَلكَ صَائِمَة صَامِتَة، فَأَحَالتْ الكَلام عَليْهِ وَأَشَارَتْ لهُمْ إِلى خِطَابه وَكَلامه، فَقَالُوا مُتَهَكِّمِينَ بِهَا، ظَانِّينَ أَنَّهَا تَزْدَرِي بِهِمْ وَتَلعَب بِهِمْ: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾. قَال مَيْمُون بْن مِهْرَان: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ﴾ قَالتْ: كَلِّمُوهُ. فَقَالُوا: عَلى مَا جَاءَتْ بِهِ مِنْ الدَّاهِيَة تَأْمُرنَا أَنْ نُكَلِّم مَنْ كَانَ فِي المَهْد صَبِيًّا! وَقَال السُّدِّيّ: لمَّا أَشَارَتْ إِليْهِ غَضِبُوا، وَقَالُوا: لسُخْرِيَّتهَا بِنَا حِين تَأْمُرنَا أَنْ نُكَلِّم هَذَا الصَّبِيّ أَشَدّ عَليْنَا مِنْ زِنَاهَا. ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ أَيْ: مَنْ هُوَ مَوْجُود فِي مَهْده، فِي حَال صِبَاهُ وَصِغَره، كَيْف يَتَكَلَّم؟ ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ أَوَّل شَيْء تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ نَزَّهَ جَنَاب رَبّه تَعَالى، وَبَرَّأَ الله عَنْ الوَلد، وَأَثْبَتَ لنَفْسِهِ العُبُودِيَّة لرَبِّه.

وَقَوْله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ تَبْرِئَة لأُمِّهِ مِمَّا نُسِبَتْ إِليْهِ مِنْ الفَاحِشَة، قَال نَوْف البِكَاليّ: لـمَّا قَالُوا لأُمِّهِ مَا قَالُوا كَانَ يَرْتَضِع ثَدْيَهَ، فَنَزَعَ الثَّدْي مِنْ فَمه، وَاتَّكَأَ عَلى جَنْبه الأَيْسَر، وَقَال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ إِلى قَوْله: ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾. وَقَال حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ ثَابِت البُنَانِيّ: رَفَعَ أُصْبُعه السَّبَّابَة فَوْق مَنْكِبه، وَهُوَ يَقُول: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ الآيَة. وَقَال عِكْرِمَة: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أَيْ: قَضَى أن يُؤْتِينِي الكِتَاب فِيمَا مضَى. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا مُحَمَّد بن المصفى، حَدَّثنَا يَحْيَى بْن سَعِيد -هُوَ العَطَّار- عَنْ عَبْد العَزِيز بْن زِيَاد، عَنْ أَنَس بْن مَالك رضي الله عنه قَال: كَانَ عِيسَى ابْن مَرْيَم قَدْ دَرَسَ الإنجيل وَأَحْكَمَه وَهُوَ فِي بَطْن أُمّه، فَذَلكَ قَوْله: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾. يَحْيَى بْن سَعِيد العَطَّار الحِمْصِيّ مَتْرُوك.[١]

وَقَوْله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ قَال مُجَاهِد، وَعَمْرو بْن قَيْس، وَالثَّوْرِيّ: وَجَعَلنِي مُعَلِّمًا للخَيْر. وَفِي رِوَايَة عَنْ مُجَاهِد: نَفَّاعًا.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثنِي سُليْمَان بْن عَبْد الجَبَّار، حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن يَزِيد بْن خُنَيْس المَخْزُومِيّ، سَمِعْت وُهَيْب ابْن الوَرْد مَوْلى بَنِي مَخْزُوم قَال: لقِيَ عَالم عَالمًا هُوَ فَوْقه فِي العِلم فَقَال لهُ: يَرْحَمك الله! مَا الَّذِي أُعْلن مِنْ عَملي؟ قَال: الأَمْر بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْي عَنْ المُنْكَر، فَإِنَّهُ دِين الله الَّذِي بَعَثَ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ إِلى عِبَاده، وَقَدْ أَجْمَعَ الفُقَهَاء عَلى قَوْل الله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ وَقِيل: مَا بَرَكَته؟ قَال: الأَمْر بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ المُنْكَر أَيْنَمَا كَانَ.

وَقَوْله: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالى لمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن القَاسِم، عَنْ مَالك بْن أَنَس فِي قَوْله: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ قَال: أَخْبَرَهُ مَا هُوَ كَائِن مِنْ أَمْره إِلى أَنْ يَمُوت. مَا أَبيَنها لأَهْل القَدَر!

وَقَوْله: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ أَيْ: وَأَمَرَنِي بِبِرِّ وَالدَتِي، ذَكَرَهُ بَعْد طَاعَة الله رَبّه، لأَنَّ الله تَعَالى كَثِيرًا مَا يَقْرِن بَيْن الأَمْر بِعِبَادَتِهِ وَطَاعَة الوَالدَيْنِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾، وَقَال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

---

(١) ضعيف جدًا: فيه يحيى بن سعيد العطار: متروك.

وَقَوْله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أَيْ: وَلَمْ يَجْعَلنِي جَبَّارًا مُسْتكبِرًا عَنْ عِبَادَته وَطَاعَته وَبِرّ وَالدَتي، فَأَشْقى بِذَلكَ. قَال سُفْيَان الثَّوْريّ: الجَبَّار الشَّقِيّ: الَّذِي يقبل عَلى الغَضَب. وَقَال بَعْض السَّلف: لا تَجِد أَحَدًا عَاقًّا لِوَالدَيْهِ إِلَّا وَجَدْته جَبَّارًا شَقِيًّا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ قَال: وَلا تَجِد سَيِّئ المَلَكَة إِلَّا وَجَدْته مُخْتَالًا فَخُورًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

وَقَال قَتَادَة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ امْرَأَة رَأَتْ ابْن مَرْيَم يُحْيِي المَوْتَى، وَيُبْرِئ الأَكْمَه وَالأَبْرَص، فِي آيَات سَلَّطَهُ الله عَلَيْهِنَّ، وَأَذِنَ لَهُ فِيهِنَّ، فَقَالتْ: طُوبَى للبَطْنِ الَّذِي حَمَلك، وَطُوبَى للثَّدْيِ الَّذِي أُرْضِعْت بِهِ. فَقَال نَبِيّ الله عِيسَى عليه السلام مُجِيبهَا: طُوبَى لِمَنْ تَلا كِتَاب الله، فَاتَّبَعَ مَا فِيهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا شَقِيًّا.

وَقَوْله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ إِثْبَات مِنْهُ لِعُبُودِيَّتِهِ لله عز وجل، وَأَنَّهُ مَخْلُوق مِنْ خَلق الله، يَحْيا وَيَمُوت، وَيُبْعَث كَسَائِرِ الخَلائِق، وَلكِنْ لَهُ السَّلامَة فِي هَذِهِ الأَحْوَال الَّتِي هِيَ أَشَقّ مَا يَكُون عَلى العِبَاد، صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

يَقُول تَعَالى لِرَسُولِهِ مُحَمَّد -صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ-: ذَلكَ الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْك مِنْ خَبَر عِيسَى عليه السلام: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أَيْ: يَخْتَلف المُبْطِلُونَ وَالمُحِقُّونَ مِمَّنْ آمَنَ بِهِ وَكَفَرَ بِهِ، وَلهَذَا قَرَأَ الأَكْثَرُونَ (قَوْلُ الحَقّ) بِرَفْع قَوْل، وَقَرَأَ عَاصِم وَعَبْد الله بْن عَامِر ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾. وَعَنْ ابْن مَسْعُود أَنَّهُ: قَرَأَ (ذَلكَ عِيسَى ابْن مَرْيَم قَال الحَقّ). وَالرَّفْع أَظْهَر إِعْرَابًا، وَيَشْهَد لَهُ قَوْله تَعَالى: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ وَلَمَّا ذَكَرَ تَعَالى أَنَّهُ خَلقَهُ عَبْدًا نَبِيًّا، نَزَّهَ نَفْسه المُقَدَّسَة وقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ أَيْ: عَمَّا يَقُول هَؤُلاءِ الجَاهِلُونَ الظَّالمُونَ المُعْتَدُونَ؛ عُلُوًّا كَبِيرًا، ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أَيْ: إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَأْمُر بِهِ فَيَصِير كَمَا يَشَاء، كَمَا قَال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أَيْ: وَمِمَّا أَمَرَ بِهِ عِيسَى قَوْمه وَهُوَ فِي مَهْده، أَنْ أَخْبَرَهُمْ إِذْ ذَاكَ أَنَّ الله رَبّه وَرَبّهمْ، وَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ، فَقَال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ عَنْ الله صِرَاط مُسْتَقِيم، أَيْ: قَوِيم، مَنْ اتَّبَعَهُ رَشَدَ وَهُدِيَ، وَمَنْ خَالفَهُ ضَلَّ وَغَوَى.

وَقَوْله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ أَيْ: اختلفت أقوال أَهْل الكِتَاب فِي عِيسَى، بَعْد بَيَان أَمْره وَوُضُوح حَاله، وَأَنَّهُ عَبْده وَرَسُوله، وَكَلِمَته أَلقَاهَا إِلى مَرْيَم وَرُوح مِنْهُ، فَصَمَّمَتْ طَائِفَة مِنْهُمْ -وَهُمْ جُمْهُور اليَهُود عَلَيْهِمْ لعَائِن الله- عَلى أَنَّهُ وَلد زِنْيَة، وَقَالُوا: كَلامه هَذَا سِحْر. وَقَالتْ طَائِفَة أُخْرَى: إِنَّمَا تَكَلَّمَ الله. وَقَال آخَرُونَ: هُوَ ابْن الله، وَقَال آخَرُونَ: ثَالث ثَلاثَة. وَقَال آخَرُونَ: بَل هُوَ عَبْد الله وَرَسُوله. وَهَذَا هُوَ قَوْل الحَقّ، الَّذِي أَرْشَدَ الله إِليْهِ المُؤْمِنِينَ، وَقَدْ رُوِيَ نَحْو هَذَا عَنْ عَمْرو بْن مَيْمُون، وَابْن جُرَيْج، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلف وَالخَلف.

قَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قَال: اجْتَمَعَ بَنُو إِسْرَائِيل فَأَخْرَجُوا مِنْهُمْ أَرْبَعَة نَفَر، أَخْرَجَ كُلّ قَوْم عَالمهمْ، فَامْتَرَوْا فِي عِيسَى حِين رُفِعَ؛ فَقَال أحدهم: هُوَ الله هَبَطَ إِلى الأَرْض فَأَحْيَا مَنْ أَحْيَا، وَأَمَاتَ مَنْ أَمَاتَ، ثُمَّ صَعِدَ إِلى السَّمَاء -وَهُمْ اليَعْقُوبِيَّة- فَقَال الثَّلاثَة: كَذَبْت. ثُمَّ قَال اثْنَانِ مِنْهُمْ للثَّالثِ: قُل أَنْتَ فِيهِ. قَال: هُوَ ابْن الله -وَهُمْ النُّسْطُورِيَّة-، فَقَال الاثْنَانِ:

كَذَبْت. ثُمَّ قَال أَحَد الاثْنَيْنِ للآخَرِ: قُل فِيهِ. قَال: هُوَ ثَالث ثَلاثَة؛ الله إِله، وَهُوَ إِله، وَأُمّه إِله -وَهُمْ الإِسْرَائِيليَّة مُلُوك النَّصَارَى عَليْهِمْ لعَائِن الله! قَال الرَّابع: كَذَبْت، بَل هُوَ عَبْد الله وَرَسُوله، وَرُوحه وَكَلمَته -وَهُمْ المُسْلمُونَ- فَكَانَ لكُلِّ رَجُل مِنْهُمْ أَتْبَاع عَلى مَا قَالُوا، فَاقْتَتَلُوا فَظُهِرَ عَلى المُسْلمِينَ، فذَلكَ قَوْل الله تَعَالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. وقَال قَتَادَة: وَهُمْ الَّذينَ قَال الله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ قَال: اخْتَلفُوا فِيهِ فَصَارُوا أَحْزَابًا.

وَقَدْ رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ ابْن عَبَّاس، وَعَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر، وعَنْ بَعْض أَهْل العِلم، قَرِيبًا مِنْ ذَلكَ. وَقَدْ ذَكَرَ غَيْر وَاحِد مِنْ عُلمَاء التَّارِيخ مِنْ أَهْل الكِتَاب وَغَيْرهِمْ؛ أَنَّ قُسْطَنْطِين جَمَعَهُمْ فِي مَحْفِل كَبِير مِنْ مَجَامِعهِمْ الثَّلاثَة المَشْهُورَة عِنْدهمْ، فَكَانَ جَمَاعَة الأَسَاقِفَة مِنْهُمْ أَلفَيْنِ وَمِائَة وَسَبْعِينَ أُسْقُفا، فَاخْتَلفُوا فِي عِيسَى ابْن مَرْيَم عَليْهِ السَّلامُ اخْتِلافًا مُتَبَاينًا، فَقَالتْ كُل شِرْذِمَة فِيهِ قَوْلًا، فَمِائَة تَقُول فِيهِ قولاً، وَسَبْعُونَ تَقُول فِيهِ قَوْلًا آخر، وَخَمْسُونَ تَقُول [فيه][1] شَيْئًا آخر، وَمِائَة وَسِتُّونَ تَقُول شَيْئًا، وَلمْ يَجْتَمِع عَلى مَقَالة وَاحِدَة أَكْثَر مِنْ ثلاثمائة وَثَمَانِيَة مِنْهُمْ، اتَّفَقُوا عَلى قَوْل وَصَمَّمُوا عَليْهِ ومَال إِليْهِمْ المَلك، وَكَانَ فَيْلسُوفًا، فَقَدَّمَهُمْ وَنَصَرَهُمْ وَطَرَدَ مَنْ عَدَاهُمْ، فَوَضَعُوا لهُ الأَمَانَة الكَبِيرَة، بَل هِيَ الخِيَانَة العَظِيمَة، وَوَضَعُوا لهُ كُتُب القَوَانِين، وَشَرَعُوا لهُ أَشْيَاء، وَابْتَدَعُوا بِدَعًا كَثِيرَة، وَحَرَّفُوا دِين المَسِيح وَغَيَّرُوهُ، فَابْتَنَى حِينَئِذٍ لهُمْ الكَنَائِس الكِبَار فِي مَمْلكَته كُلّهَا، بِلاد الشَّام، وَالجَزِيرَة، وَالرُّوم، فَكَانَ مَبْلغ الكَنَائِس فِي أَيَّامه مَا يُقَارِب اثْنَيْ عَشَر أَلف كَنِيسَة، وَبَنَتْ أُمّه هيلانة قُمَامَة عَلى المَكَان الَّذِي صُلبَ فِيهِ المَصْلُوب الَّذِي تزعم اليَهُود والنصارى أَنَّهُ المَسِيح، وَقَدْ كَذَبُوا، بَل رَفَعَهُ الله إِلى السَّمَاء.

وَقَوْله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تَهْدِيد وَوَعِيد شَدِيد لمَنْ كَذَبَ عَلى الله، وَافْتَرَى وَزَعَمَ أَنَّ لهُ وَلدًا، وَلكِنْ أَنْظَرَهُمْ تَعَالى إِلى يَوْم القِيَامَة، وَأَجَّلهُمْ حِلمًا وَثِقَة بِقُدْرَتِهِ عَليْهِمْ؛ فَإِنَّهُ الَّذِي لا يُعَجِّل عَلى مَنْ عَصَاهُ، [بل][1] كَمَا جَاءَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: **«إِنَّ الله ليُمْلي للظَّالمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لمْ يُفْلتهُ»**[2]. ثُمَّ قَرَأَ رَسُول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَيْضًا عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: **«لا أَحَد أَصْبَر عَلى أَذًى سَمِعَهُ مِنْ الله، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لهُ وَلدًا وَهُوَ يَرْزُقهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»**[2]. وَقَدْ قَال الله تَعَالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ وَقَال تَعَالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾. وَلهَذَا قَال هَاهُنَا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة. وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيث الصَّحِيح المُتَّفَق عَلى صِحَّته، عَنْ عُبَادَة بْن الصَّامِت رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِله إِلاَّ الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْده وَرَسُوله، وَأَنَّ عِيسَى عَبْد الله وَرَسُوله، وَكَلمَته أَلقَاهَا إِلى مَرْيَم وَرُوح مِنْهُ، وَأَنَّ الجَنَّة حَق، وَالنَّار حَق، أَدْخَلهُ الله الجَنَّة عَلى مَا كَانَ مِنْ العَمَل»**.[3]

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ الكُفَّار يَوْم القِيَامَة: إِنَّهُمْ يَكُونُونَ أَسْمَع شَيْء وَأَبْصَره، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ

(١) زيادة من (ط).
(٢) **صحيح**: تقدم.
(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، أَيْ: يَقُولُونَ ذَلِكَ حِين لا يَنْفَعهُمْ وَلا يُجْدِي عَنْهُمْ شَيْئًا، وَلَوْ كَانَ هَذَا قَبْل مُعَايَنَة العَذَاب، لكَانَ نَافِعًا لهُمْ وَمُنْقِذًا مِنْ عَذَاب الله، وَلهَذَا قَال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أَيْ: مَا أَسْمَعهُمْ وَأَبْصَرهمْ ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يَعْنِي: يَوْم القِيَامَة ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: لا يَسْمَعُونَ وَلا يُبْصِرُونَ وَلا يَعْقِلُونَ، فَحَيْثُ يُطْلب مِنْهُمْ الهُدَى لا يَهْتَدُونَ، وَيَكُونُونَ مُطِيعِينَ حَيْثُ لا يَنْفَعهُمْ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ أَيْ: أَنْذِرْ الخَلائِق يَوْم الحَسْرَة ﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أَيْ: فُصِل بَيْن أَهْل الجَنَّة وَأَهْل النَّار، ودخل كُلٌّ إِلى مَا صَارَ إِليْهِ مُخَلَّدًا فِيهِ، ﴿وَهُمْ﴾ أَيْ: اليَوْم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عَمَّا أُنْذِرُوا بِهِ يَوْم الحَسْرَة وَالنَّدَامَة، ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ: لا يُصَدِّقُونَ بِهِ.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُبَيْد، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ أَبِي سَعِيد قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِذَا دَخَل أَهْل الجَنَّة الجَنَّة وَأَهْل النَّار النَّار، يُجَاء بِالمَوْتِ كَأَنَّهُ كَبْش أَمْلح، فَيُوقَف بَيْن الجَنَّة وَالنَّار، فَيُقَال يَا أَهْل الجَنَّة، هَل تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَال: فَيَشْرَئِبُّونَ فَيَنْظُرُونَ، وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْت. قَال: فَيُقَال: يَا أَهْل النَّار، هَل تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَال: فَيَشْرَئِبُّونَ فَيَنْظُرُونَ، وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْت. قَال: فَيُؤْمَر بِهِ فَيُذْبَح، قَال: وَيُقَال: يَا أَهْل الجَنَّة خُلُود وَلا مَوْت، وَيَا أَهْل النَّار خُلُود وَلا مَوْت**». قَال: ثُمَّ قَرَأَ رَسُول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وَأَشَارَ بِيَدِهِ، قَال: «**أَهْل الدُّنْيَا فِي غَفْلَة الدُّنْيَا**».[1] هَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، وَقَدْ أَخْرَجَهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم فِي «صَحِيحَيْهِمَا» مِنْ حَدِيث الأَعْمَش بِهِ، وَلفْظهمَا قَرِيب مِنْ ذَلكَ. وَقَدْ رَوَى هَذَا الحَدِيث الحَسَن بْن عَرَفَة، حَدَّثَنِي أَسْبَاط بْن مُحَمَّد، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَرْفُوعًا مِثْله، وَفِي «سُنَن ابْن مَاجَهْ» وَغَيْره، مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بْن عَمْرو عَنْ أَبِي سَلمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة بِنَحْوه. وَهُوَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ ابْن عُمَر. وَرَوَاهُ ابْن جُرَيْج قَال: قَال ابْن عَبَّاس، فَذَكَرَ مِنْ قِبَله نَحْوه، وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ عُبَيْد بْن عُمَيْر يَقُول فِي قَصَصه: يُؤْتَى بِالمَوْتِ كَأَنَّهُ دَابَّة، فَيُذْبَح وَالنَّاس يَنْظُرُونَ. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَنْ سَلمَة بْن كُهَيْل، حَدَّثَنَا أَبُو الزَّعْرَاء عَنْ عَبْد الله -هُوَ ابْن مَسْعُود- فِي قِصَّة ذَكَرَهَا. قَال: فَليْسَ نَفْس إِلَّا وَهِيَ تَنْظُر إِلى بَيْت فِي الجَنَّة وَبَيْت فِي النَّار وَهُوَ يَوْم الحَسْرَة، فَيَرَى أَهْل النَّار البَيْت الَّذِي كان قد أعده الله لهم لو آمنوا فيقال لهُمْ: لوْ آمنتم وعَمِلتُمْ صالحًا كان لكم هذا الذي ترونه في الجنة، فَتَأْخُذهُمْ الحَسْرَة، قَال: وَيَرَى أَهْل الجَنَّة البَيْت الَّذِي فِي النَّار، فَيُقَال: لوْلا أَنْ مَنَّ الله عَليْكُمْ.

وَقَال السُّدِّيّ عَنْ زِيَاد، عَنْ زِرّ بْن حُبَيْش، عَنْ ابْن مَسْعُود فِي قَوْله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ قَال: إِذَا دَخَل أَهْل الجَنَّة الجَنَّة، وَأَهْل النَّار النَّار، أُتِيَ بِالمَوْتِ فِي صُورَة كَبْش أَمْلح، حَتَّى يُوقَف بَيْن الجَنَّة وَالنَّار، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْل الجَنَّة، هَذَا المَوْت الَّذِي كَانَ يُمِيت النَّاس فِي الدُّنْيَا، فَلا يَبْقَى أَحَد فِي أَهْل عِلِّيِّينَ، وَلا فِي أَسْفَل دَرَجَة فِي الجَنَّة إِلَّا نَظَرَ إِليْهِ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْل النَّار، هَذَا المَوْت الَّذِي كَانَ يُمِيت النَّاس فِي الدُّنْيَا، فَلا يَبْقَى أَحَد فِي ضَحْضَاح مِنْ نَار، وَلا فِي أَسْفَل دَرْك مِنْ جَهَنَّم إِلَّا نَظَرَ إِليْهِ، ثُمَّ يُذْبَح بَيْن الجَنَّة وَالنَّار، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْل الجَنَّة هُوَ الخُلُود أَبَد الآبِدِينَ، وَيَا أَهْل النَّار هُوَ الخُلُود أَبَد الآبِدِينَ. فَيَفْرَح أَهْل الجَنَّة فَرْحَة لوْ كَانَ أَحَد مَيِّتًا مِنْ فَرَح لمَاتُوا، وَيَشْهَق أَهْل النَّار شَهْقَة لوْ كَانَ أَحَد مَيِّتًا مِنْ شَهْقَة لمَاتُوا. فَذَلكَ قَوْله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾. يَقُول: إِذَا ذُبِحَ المَوْت. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم فِي «تَفْسِيره».

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

وَقَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ مِنْ أَسْمَاء يَوْم القِيَامَة، عَظَّمَهُ الله وَحَذَّرَهُ عِبَاده. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ فِي قَوْله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ قَال: يَوْم القِيَامَة، وَقَرَأَ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾.

وَقَوْله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ الخَالق المَالك المُتصرِّف، وَأَنَّ الخَلق كُلّهمْ يَهْلكُون، وَيَبْقَى هُوَ تَعَالى وَتَقَدَّس، وَلا أَحد يَدَّعِي مُلكًا وَلا تَصرُّفًا، بَل هُوَ الوَارِث لجَمِيع خَلقه، البَاقِي بَعْدهمْ، الحَاكِم فِيهِمْ فَلا تُظْلم نَفْس شَيْئًا، وَلا جَنَاح بَعُوضَة وَلا مِثْقَال ذَرَّة. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذَكَرَ هُدْبَة بْن خَالد القَيْسِيّ، حَدَّثَنَا حَزْم بْن أَبِي حَزْم القُطَعِيّ، قَال: كَتَبَ عُمَر بْن عَبْد العَزِيز إِلى عَبْد الحَمِيد بْن عَبْد الرَّحْمَن صَاحِب الكُوفَة: أَمَّا بَعْد؛ فَإِنَّ الله كَتَبَ عَلى خَلقه حِين خَلقَهُمْ المَوْت، فَجَعَل مَصِيرهمْ إِليْهِ، وَقَال فِيمَا أَنْزَل [فِي][1] كِتَابه الصَّادِق الَّذِي حَفِظَهُ بِعِلمِهِ، وَأَشْهَدَ مَلائِكته عَلى خلقه: إنه يَرِث الأَرْض وَمَنْ عَليْهَا وَإِليْهِ يُرْجَعُون.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾.

يَقُول تَعَالى لنَبِيِّهِ مُحَمَّد ﷺ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وَاتْلُه عَلى قَوْمك هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الأَصْنَام، وَاذْكُرْ لهُمْ مَا كَانَ مِنْ خَبَر إِبْرَاهِيم خَليل الرَّحْمَن -الَّذِين هُمْ مِنْ ذُرِّيَّته، وَيَدَّعُون أَنَّهُمْ عَلى مِلَّته، وَقَدْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا- مَعَ أَبِيهِ، كَيْف نَهَاهُ عَنْ عِبَادَة الأَصْنَام، فَقَال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ أَيْ: لا يَنْفعك وَلا يَدْفع عَنْك ضَرَرًا.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾ يَقُول: وَإِنْ كُنْتُ مِنْ صُلبك، وَتَرَانِي أَصْغَر مِنْك؛ لأَنِّي وَلدك، فَاعْلمْ أَنِّي قَدْ اطَّلعْت مِنْ العِلم مِنْ الله عَلى مَا لمْ تَعْلمهُ أَنْت، وَلا اطَّلعْت عَليْهِ، وَلا جَاءَك بَعْدُ ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أَيْ: طَرِيقًا مُسْتَقِيمًا مُوَصِّلًا إِلى نَيْل المَطْلُوب وَالنَّجَاة مِنْ المَرْهُوب.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أَيْ: لا تُطِعْهُ فِي عِبَادَتك هَذِهِ الأَصْنَام، فَإِنَّهُ هُوَ الدَّاعِي إِلى ذَلكَ وَالرَّاضِي بِهِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. وَقَال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ أَيْ: مُخَالفًا مُسْتكْبِرًا عَنْ طَاعَة رَبّه، فَطَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ، فَلا تَتَّبِعهُ تَصِرْ مِثْله.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أَيْ: عَلى شِرْكك وَعِصْيَانك لمَا آمُرك بِهِ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ يَعْنِي: فَلا يَكُون لك مَوْلًى وَلا نَاصِرًا وَلا مُغِيثًا إِلَّا إِبْليس، وَليْسَ إِليْهِ وَلا إِلى غَيْره مِنْ الأَمْر شَيْء، بَل اتِّبَاعك لهُ مُوجِب لإِحَاطَةِ العَذَاب بِك، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ جَوَاب أَبِي إِبْرَاهِيم لوَلدِهِ إِبْرَاهِيم فِيمَا دَعَاهُ إِليْهِ أَنَّهُ قَال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى

---

(١) في نسخة: [من].

يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ﴾ يعني: إنْ كُنْت لا تُريد عِبادَتها ولا تَرْضاها، فانْتَهِ عَنْ سَبِّها وَشَتْمها وَعَيْبها، فإنَّك إنْ لَمْ تَنْتَهِ عَنْ ذَلكَ اقْتَصَصْت مِنْك وَشَتَمْتُك وَسَبَبْتُك، وَهُوَ قَوْله: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ قَالهُ ابْن عَبَّاس، وَالسُّدِّيّ، وَابْن جُرَيْج، وَالضَّحَّاك وَغَيْرهمْ.

وَقَوْله: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ قَال مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق: يَعْنِي دَهْرًا. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: زَمَانًا طَوِيلًا، وَقَال السُّدِّيّ: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ قَال: أَبَدًا. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة وَالعَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ قَال: سَوِيًّا سَالمًا، قَبْل أَنْ تُصِيبك مِنِّي عُقُوبَة. وَكَذَا قَال الضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَعَطِيَّة الجَدَلِيّ، وأبو مَالك، وَغَيْرهمْ وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير. فَعِنْدهَا قَال إِبْرَاهِيم لأَبِيهِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ كَمَا قَال تَعَالى فِي صِفَة المُؤْمِنِينَ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾. وَمَعْنَى قَوْل إِبْرَاهِيم لأَبِيهِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ يَعْنِي: أَمَّا أَنَا فَلا يَنَالك مِنِّي مَكْرُوه، وَلا أَذًى، وَذَلكَ لحُرْمَةِ الأُبُوَّة ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ أي: وَلكِنْ سَأَسْأَلُ الله تعالى فِيك أَنْ يَهْدِيك وَيغْفِر ذَنْبك؛ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْره: لطِيفًا. أَيْ: فِي أَنْ هَدَانِي لعِبَادَتِهِ وَالإِخْلاص لهُ.

وَقَال قَتَادَة وَمُجَاهِد وَغَيْرهمَا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ قَال: عَوَّدَهُ الإِجَابَة. وَقَال السُّدِّيّ: الحَفِيّ الَّذِي يَهْتَمّ بِأَمْرِه. وَقَدْ اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيم ﷺ لأَبِيهِ مُدَّة طَوِيلة، وَبَعْد أَنْ هَاجَرَ إِلى الشَّام وَبَنَى المَسْجِد الحَرَام، وَبَعْد أَنْ وُلدَ لهُ إِسْمَاعِيل وَإِسْحَاق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي قَوْله: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ وَقَدْ اسْتَغْفَرَ المُسْلمُونَ لقَرَابَاتِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ مِنْ المُشْرِكِينَ فِي ابْتِدَاء الإِسْلام، وَذَلكَ اقْتِدَاء بِإِبْرَاهِيم الخَليل فِي ذَلكَ، حَتَّى أَنْزَل الله تَعَالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ﴾ الآيَة. يَعْنِي: إِلَّا فِي هَذَا القَوْل فَلا تَتَأَسَّوْا بِهِ، ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالى أَنَّ إِبْرَاهِيم أَقْلعَ عَنْ ذَلكَ وَرَجَعَ عَنْهُ، فَقَال تَعَالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ أَيْ: أَجْتَنِبكُمْ وَأَتَبَرَّأ مِنْكُمْ وَمِنْ آلهَتكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُون الله، ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ أَيْ: وَأَعْبُد رَبِّي وَحْده لا شَرِيك لهُ؛ ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ وَعَسَى هَذِهِ مُوجِبَة لا مَحَالة، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيِّد الأَنْبِيَاء بَعْد مُحَمَّد ﷺ.

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾.

يَقُول تَعَالى: فَلمَّا اعْتَزَل الخَليل أَبَاهُ وَقَوْمه فِي الله، أَبْدَلهُ الله مَنْ هُوَ خَيْر مِنْهُمْ، وَوَهَبَ لهُ إِسْحَاق وَيَعْقُوب، يَعْنِي ابْنه وَابْن إِسْحَاق، كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾، وَقَال: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾، وَلا خِلاف أَنَّ إِسْحَاق وَالد يَعْقُوب، وَهُوَ نَصّ القُرْآن فِي سُورَة البَقَرَة: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾، وَلهَذَا إِنَّمَا ذَكَرَ هَاهُنَا إِسْحَاق وَيَعْقُوب، أَيْ جَعَلنَا لهُ نَسْلًا وَعَقِبًا أَنْبِيَاء، أَقَرَّ الله بِهِمْ عَيْنه فِي حَيَاته، وَلهَذَا قَال: ﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾، فَلوْ لمْ يَكُنْ يَعْقُوب قَدْ نُبِّئَ فِي حَيَاة إِبْرَاهِيم، لمَا اقْتَصَرَ عَليْهِ، وَلذَكَرَ وَلده يُوسُف؛ فَإِنَّهُ نَبِيّ أَيْضًا، كَمَا

قَال رَسُول الله ﷺ فِي الحَدِيث المُتَّفَق عَلى صِحَّته، حِين سُئِل عَنْ خَيْر النَّاس، فَقَال: «**يُوسُف نَبِيّ الله، ابْن يَعْقُوب نَبِيّ الله، ابْن إِسْحَاق نَبِيّ الله، ابْن إِبْرَاهِيم خَلِيل الله**»[1]. وَفِي اللَّفْظ الآخَر: «**إِنَّ الكَرِيم ابْن الكَرِيم ابْن الكَرِيم ابْن الكَرِيم: يُوسُف بْن يَعْقُوب بْن إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم**».[1]

وَقَوْله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي الثَّنَاء الحَسَن. وَكَذَا قَال السُّدِّيّ وَمَالك بْن أَنَس.

وَقَال ابْن جَرِير: إِنَّمَا قَال: ﴿عَلِيًّا﴾؛ لأَنَّ جَمِيع المِلَل وَالأَدْيَان يُثْنُونَ عَلَيْهِمْ وَيَمْدَحُونَهُمْ صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾.

لَـمَّا ذَكَرَ تَعَالى إِبْرَاهِيم الخَلِيل وَأَثْنَى عَلَيْهِ عَطَفَ بِذِكْرِ الكَلِيم، فَقَال: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قَرَأَ بَعْضهمْ: بِكَسْرِ اللَّام مِنْ الإِخْلاص فِي العِبَادَة. قَال الثَّوْرِيّ عَنْ عَبْد العَزِيز بْن رُفَيْع، عَنْ أَبِي لُبَابَة قَال: قَال الحَوَارِيُّونَ: يَا رُوح الله، أَخْبِرْنَا عَنْ المُخْلِص لله. قَال: الَّذِي يَعْمَل لله لا يُحِبّ أَنْ يَحْمَدهُ النَّاس. وَقَرَأَ الآخَرُونَ بِفَتْحِهَا بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ مُصْطَفًى، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ جَمَعَ الله لَهُ بَيْن الوَصْفَيْنِ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ المُرْسَلِينَ الكِبَار أُولِي العَزْم الخَمْسَة، وَهُمْ: نُوح وَإِبْرَاهِيم وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّد صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِمْ وَعَلى سَائِر الأَنْبِيَاء أَجْمَعِينَ.

وَقَوْله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ أَيْ: الجبل ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: من جانبه الأيمن مِنْ مُوسَى، حِين ذَهَبَ يَبْتَغِي مِنْ تِلْكَ النَّار جِذْوَة، [فَرَآهَا][2] تَلُوح فَقَصَدَهَا، فَوَجَدَهَا فِي جَانِب الطُّور الأَيْمَن مِنْهُ، عِنْد شَاطِئِ الوَادِي، فَكَلَّمَهُ الله تَعَالى، وَنَادَاهُ وَقَرَّبَهُ [فَنَاجَاهُ][3]. قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن بَشَّار، حَدَّثَنَا يَحْيَى -هُوَ القَطَّان-، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَطَاء بْن السائب عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ قَال: أُدْنِيَ حَتَّى سَمِعَ صَرِيف القَلَم. وَهَكَذَا قَال مُجَاهِد وَأَبُو العَالِيَة وَغَيْرهمْ، يَعْنُونَ صَرِيف القَلَم بِكِتَابَةِ التَّوْرَاة. وَقَال السُّدِّيّ: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ قَال: أُدْخِل فِي السَّمَاء فَكُلِّمَ. وَعَنْ مُجَاهِد نَحْوه.

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر عَنْ قَتَادَة: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ : نَجَا بِصِدْقِهِ. وقال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَبْد الجَبَّار ابْن عَاصِم، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سَلَمَة الحَرَّانِيّ، عَنْ أَبِي الوَاصِل، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ عَمْرو بْن مَعْد يَكْرِب قَال: لَـمَّا قَرَّبَ الله مُوسَى نَجِيًّا بِطُورِ سَيْنَاء، قَال: يَا مُوسَى، إِذَا خَلَقْت لك قَلْبًا شَاكِرًا وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَزَوْجَة تُعِين عَلى الخَيْر، فَلَمْ أَخْزُن عَنْك مِنْ الخَيْر شَيْئًا، وَمَنْ أَخْزُن عَنْهُ هَذَا فَلَمْ أَفْتَح لَهُ مِنْ الخَيْر شَيْئًا.[4]

وَقَوْله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ أَيْ: وَأَجَبْنَا سُؤَاله وَشَفَاعَته فِي أَخِيهِ، فَجَعَلْنَاهُ نَبِيًّا، كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، وَقَال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، وَقَال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ وَلِهَذَا قَال بَعْض السَّلَف: مَا شَفَعَ أَحَد فِي أَحَد شَفَاعَة فِي الدُّنْيَا، أَعْظَم مِنْ شَفَاعَة مُوسَى فِي هَارُون أَنْ يَكُون نَبِيًّا، قَال الله تَعَالى:

---

(١) **صحيح** : تقـدم.
(٢) في نسخة: [رآها].
(٣) في نسخة: [وناجاه].
(٤) **ضعيف** : فيه شهر بن حوشب: وهو صدوق، كثير الأوهام والإرسال.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾. قَال ابْن جَرير: حَدَّثَنا يَعْقُوب، حَدَّثَنا ابْن عُلَيَّة، عَنْ دَاوُد، عَنْ عِكْرِمَة قَال: قَال ابْن عَبَّاس قَوْله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ قَال: كَانَ هَارُون أَكْبَر مِنْ مُوسَى وَلكِنْ أَرَادَ وَهْب لَهُ نُبُوَّته. وَقَدْ ذَكَرَهُ ابْن أَبِي حَاتِم مُعَلَّقًا عَنْ يَعْقُوب -وَهُوَ ابْن إِبْرَاهِيم- الدَّوْرَقِيّ بِهِ.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾.

هَذَا ثَنَاء مِنْ الله تَعَالَى عَلَى إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم الخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ وَالد عَرَب الحِجَاز كُلّهمْ، بِأَنَّهُ ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾. قَال ابْن جُرَيْج: لَمْ يَعِد رَبّه عِدَّة إِلَّا أَنْجَزَهَا. يَعْنِي: مَا التَزَمَ عِبَادَة قَطُّ بِنَذْرٍ إِلَّا قَامَ بِهَا وَوَفَّاهَا حَقّهَا.

وَقَال ابْن جَرير: حَدَّثَنِي يُونُس، أَنْبَأَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن الحَارِث، أَنَّ سَهْل بْن عُقَيْل حَدَّثَهُ أَنَّ إِسْمَاعِيل النَّبِيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَدَ رَجُلًا مَكَانًا أَنْ يَأْتِيه، فَجَاءَ وَنَسِيَ الرَّجُل، فَظَلَّ بِهِ إِسْمَاعِيل، وَبَاتَ حَتَّى جَاءَ الرَّجُل مِنْ الغَد، فَقَال: مَا بَرِحْت مِنْ هَاهُنَا؟ قَال: لا. قَال: إِنِّي نَسِيت. قَال: لَمْ أَكُنْ لأَبْرَح حَتَّى تَأْتِينِي. فَلِذَلِكَ: ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ: بَلغَنِي أَنَّهُ أَقَامَ فِي ذَلِكَ المَكَان يَنْتَظِرهُ حَوْلًا حَتَّى جَاءَهُ. وَقَال ابْن شَوْذَب: بَلغَنِي أَنَّهُ اتَّخَذَ ذَلِكَ المَوْضِع سَكَنًا.

وَقَدْ روى أَبُو دَاوُد فِي «سُنَنه»، وَأَبُو بَكْر مُحَمَّد بْن جَعْفَر الخَرَائِطِيّ فِي كِتَابه «مَكَارِم الأَخْلاق» مِنْ طَرِيق إِبْرَاهِيم بْن طَهْمَان عَنْ بُدَيل بْن مَيْسَرَة، عَنْ عَبْد الكَرِيم -يَعْنِي: ابْن عَبْد الله بْن شَقِيق- عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْد الله ابْن أَبِي الحَمْسَاء قَال: «بَايَعْت رَسُول الله ﷺ قَبْل أَنْ يُبْعَث، فَبَقِيت لهُ عَلَيَّ بَقِيَّة، فَوَعَدْته أَنْ آتِيه بِهَا فِي مَكَانه ذَلِكَ، قَال: فَنَسِيت يَوْمِي وَالغَد، فَأَتَيْته فِي اليَوْم الثَّالِث وَهُوَ فِي مَكَانه ذَلِكَ، فَقَال لِي: «يَا فَتَى، لَقَدْ شَقَقْت عَلَيَّ، أَنَا هَاهُنَا مُنْذُ ثَلاث أَنْتَظِرك»[1]. لَفْظ الخَرَائِطِيّ، وَسَاقَ آثَارًا حَسَنَة فِي ذَلِكَ. وَرَوَاهُ ابْن مِنْدَه أَبُو عَبْد الله فِي كِتَاب «مَعْرِفَة الصَّحَابَة» بِإِسْنَادِهِ: عَنْ إِبْرَاهِيم بْن طَهْمَان، عَنْ بُدَيْل بْن مَيْسَرَة، عَنْ عَبْد الكَرِيم بِهِ.

وَقَال بَعْضهمْ: إِنَّمَا قِيل لَهُ: ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ لأَنَّهُ قَال لأَبِيهِ: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فَصَدَقَ فِي ذَلِكَ. فَصِدْق الوَعْد مِنْ الصِّفَات الحَمِيدَة، كَمَا أَنَّ خُلفه مِنْ الصِّفَات الذَّمِيمَة، قَال الله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. وَقَال رَسُول الله ﷺ: «آيَة المُنَافِق ثَلاث، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».[2] وَلَـمَّا كَانَتْ هَذِهِ صِفَات المُنَافِقِينَ، كَانَ التَّلَبُّس بِضِدِّهَا مِنْ صِفَات المُؤْمِنِينَ؛ وَلِهَذَا أَثْنَى الله عَلَى عَبْده وَرَسُوله إِسْمَاعِيل بِصِدْقِ الوَعْد، وَكَذَلِكَ كَانَ رَسُول الله ﷺ صَادِق الوَعْد أَيْضًا، لا يَعِد أَحَدًا شَيْئًا إِلَّا وَفَّى لهُ بِهِ، وَقَدْ أَثْنَى عَلَى أَبِي العَاصِ ابْن الرَّبِيع زَوْج ابْنَته زَيْنَب فَقَال: «حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي، وَوَعَدَنِي فَوَفَى لِي»[3]. وَلَـمَّا تُوُفِّيَ النَّبِيّ ﷺ، قَال الخَلِيفَة أَبُو بَكْر الصِّدِّيق: مَنْ كَانَ لَهُ عِنْد رَسُول الله ﷺ عِدَة أَوْ دَيْن، فَلْيَأْتِنِي أُنْجِز لهُ. فَجَاءَهُ جَابِر بْن عَبْد الله فَقَال: إِنَّ رَسُول الله ﷺ كان قَال: «لَوْ جَاءَ مَال البَحْرَيْنِ أَعْطَيْتُك هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا». يَعْنِي: مِلء كَفَّيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ مَال البَحْرَيْنِ أَمَرَ الصِّدِّيق جَابِرًا، فَغَرَفَ بِيَدِهِ مِنْ المَال، ثُمَّ أَمَرَهُ بَعْده، فَإِذَا هُوَ خَمْسمِائَةِ دِرْهَم فَأَعْطَاهُ مِثْلَيْهَا مَعَهَا.[4]

وَقَوْله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ فِي هَذَا دَلالة عَلَى شَرَف إِسْمَاعِيل عَلَى أَخِيهِ إِسْحَاق؛ لأَنَّهُ إِنَّمَا وُصِفَ بِالنُّبُوَّةِ فَقَطْ،

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٩٩٦) فيه عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق: مجهول، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣١١٠، ٣٧٢٩)، ومسلم (٢٤٤٩).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢٩٦)، ومسلم (٢٣١٤).

وَإِسْمَاعِيل وُصِفَ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالة، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيح مُسْلم» أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«إنَّ الله اصْطَفَى مِنْ وَلد إبْرَاهِيم إسْمَاعِيل ...»**[1] وَذَكَرَ تَمَام الحَدِيث، فَدَلَّ عَلَى صِحَّة مَا قُلْنَاهُ.

وَقَوْله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ هَذَا أَيْضًا مِنَ الثَّنَاء الجَمِيل، وَالصِّفَة الحَمِيدَة، وَالخلَّة السَّدِيدَة، حَيْثُ كَانَ مُثَابِرًا عَلَى طَاعَة رَبّه ﷻ، آمِرًا بِهَا لأَهْلِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِرَسُوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، وَقَال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أَيْ: مُرُوهُمْ بِالمَعْرُوفِ، وَانْهَوْهُمْ عَنْ المُنْكر، وَلا تَدَعُوهُمْ هَمَلًا؛ فَتَأْكُلهُمْ النَّار يَوْم القِيَامَة. وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيث عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : **«رَحِمَ الله رَجُلاً قَامَ مِنْ اللَّيْل فَصلَّى، وَأَيْقَظ امْرَأَته، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا المَاء. وَرَحِمَ الله امْرَأَة قَامَتْ مِنْ اللَّيْل فَصلَّتْ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهه المَاء»**[2]. أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد وَابْن مَاجَهْ. وَعَنْ أَبِي سَعِيد وَأَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنهما عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«إذَا اسْتَيْقَظَ الرَّجُل مِنْ اللَّيْل وَأَيْقَظ امْرَأَته، فَصلَّيَا رَكْعَتَيْنِ، كُتِبَا مِنْ الذَّاكِرِينَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَات»**.[3] رَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ، وَابْن مَاجَهْ، وَاللَّفْظ لَهُ.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

وهذا ذِكْرَ إِدْرِيس عليه السلام بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، بِأَنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا، وَأَنَّ الله رَفَعَهُ مَكَانًا عَلِيًّا، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي «الصَّحِيح»: أَنَّ رَسُول الله ﷺ مَرَّ بِهِ فِي لَيْلَة الإِسْرَاء وَهُوَ فِي السَّمَاء الرَّابِعَة. وَقَدْ رَوَى ابْن جَرِير هَاهُنَا أَثَرًا غَرِيبًا عَجِيبًا، فَقَال: حَدَّثَنِي يُونُس بْن عَبْد الأَعْلَى، أَنْبَأَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي جَرِير بْن حَازِم، عَنْ سُلَيْمَان الأَعْمَش، عَنْ شِمْر بْن عَطِيَّة، عَنْ هِلال بْن يَسَاف، قَال: سَأَل ابْن عَبَّاس كَعْبًا -وَأَنَا حَاضِر- فَقَال لَهُ: مَا قَوْل الله ﷻ لإِدْرِيس: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ فَقَال كَعْب: أَمَّا إِدْرِيس فَإِنَّ الله أَوْحَى إِلَيْهِ: إني أَرْفَع لك كُلّ يَوْم مِثْل عَمَل جَمِيع بَنِي آدَم، فَأَحَبَّ أَنْ يَزْدَاد عَمَلًا، فَأَتَاهُ خَلِيل لَهُ مِنْ المَلائِكَة، فَقَال: إِنَّ الله أَوْحَى إِلَيَّ كَذَا وَكَذَا، فَكَلِّمْ لِي مَلَك المَوْت فَلْيُؤَخِّرْنِي حَتَّى أَزْدَاد عَمَلًا فَحَمَلَهُ بَيْن جَنَاحَيْهِ، ثم صَعِدَ بِهِ إِلَى السَّمَاء، فَلَمَّا كَانَ فِي السَّمَاء الرَّابِعَة، تَلَقَّاهُمْ مَلَك المَوْت مُنْحَدِرًا، فَكَلَّمَ مَلَك المَوْت فِي الَّذِي كَلَّمَهُ فِيهِ إِدْرِيس، فَقَال: وَأَيْنَ إِدْرِيس؟ فَقَال: هُوَ ذَا عَلَى ظَهْرِي. قَال مَلَك المَوْت: فَالعَجَب! بُعِثْت وَقِيل لِي: اقْبِضْ رُوح إِدْرِيس فِي السَّمَاء الرَّابِعَة، فَجَعَلت أَقُول: كَيْف أَقْبِض رُوحه فِي السَّمَاء الرَّابِعَة وَهُوَ فِي الأَرْض؟ فَقَبَضَ رُوحه هُنَاكَ. فَذَلِكَ قَوْل الله: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾. وهَذَا مِنْ أَخْبَار كَعْب الأَحْبَار الإِسْرَائِيلِيَّات، وَفِي بَعْضه نَكَارَة، وَالله أَعْلم.

وَقَدْ رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ وَجْه آخر؛ عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّهُ سَأَل كَعْبًا، فَذَكَرَ نَحْو مَا تَقَدَّمَ، غَيْر أَنَّهُ قَال لِذَلِكَ المَلَك: هَل لك أَنْ تَسْأَلهُ -يَعْنِي: مَلَك المَوْت-: كَمْ بَقِيَ مِنْ أَجَلِي لِكَيْ أَزْدَاد مِنْ العَمَل؟ -وَذَكَرَ بَاقِيه- وَفِيهِ: أَنَّهُ لَمَّا سَأَلهُ عَمَّا بَقِيَ مِنْ أَجَله؛ قَال: لا أَدْرِي حَتَّى أَنْظُر. ثم نَظَرَ، ثُمَّ قَال: إِنَّك تَسْأَلنِي عَنْ رَجُل مَا بَقِيَ مِنْ عُمْره إِلَّا طَرْفَة عَيْن. فَنَظَرَ المَلَك تَحْت جَنَاحه إلى إدريس، فَإِذَا هُوَ قَدْ قُبِضَ عليه السلام وَهُوَ لا يَشْعُر بِهِ. ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ وَجْه آخر عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّ إِدْرِيس كَانَ خَيَّاطًا، فَكَانَ لا يَغْرِز إِبْرَة إِلَّا قَال: سُبْحَان الله، فَكَانَ يُمْسِي حِين يُمْسِي، وَلَيْسَ فِي الأَرْض أَحَد أَفْضَل عَمَلًا مِنْهُ. وَذَكَرَ بَقِيَّته كَالَّذِي قَبْله، أَوْ نَحْوه.

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٣٤٩٤).
(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٣٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

وَقَال ابن أَبِي نَجِيح: عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قَال: إِدْرِيس رُفِعَ وَلَمْ يَمُتْ، كَمَا رُفِعَ عِيسَى. وَقَال سُفْيَان عَنْ مَنْصُور، عَنْ مُجَاهِد فِي قوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قَال: السَّمَاء الرَّابِعَة. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قَال: رُفِعَ إِلَى السَّمَاء السَّادِسَة فَمَاتَ بِهَا. وَهَكَذَا قَال الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم. وَقَال الحَسَن وَغَيْره فِي قَوْله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قَال: الجَنَّة.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾.

يَقُول تَعَالَى: هَؤُلَاءِ النَّبِيُّونَ -وَلَيْسَ المُرَاد المَذْكُورِينَ فِي هَذِهِ السُّورَة فَقَطْ، بَل جِنْس الأَنْبِيَاء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ اسْتَطْرَدَ مِنْ ذِكْر الأَشْخَاص إِلَى الجِنْس- ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ الآيَة. قَال السُّدِّيّ وَابْن جَرِير رَحِمَهُ اللَّهُ: فَالَّذِي عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّة آدَم إِدْرِيس، وَالَّذِي عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّة مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوح: إِبْرَاهِيم، وَالَّذِي عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّة إِبْرَاهِيم: إِسْحَاق وَيَعْقُوب وَإِسْمَاعِيل، وَالَّذِي عَنَى بِهِ مِنْ ذُرِّيَّة إِسْرَائِيل: مُوسَى وَهَارُون وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ابْن مَرْيَم. قَال ابْن جَرِير: وَلِذَلِكَ فَرَّقَ أَنْسَابهمْ، وَإِنْ كَانَ يَجْمَع جَمِيعهمْ آدَم؛ لِأَنَّ فِيهِمْ مَنْ لَيْسَ مِنْ وَلَد مَنْ كَانَ مَعَ نُوح فِي السَّفِينَة، وَهُوَ إِدْرِيس فَإِنَّهُ جَدّ نُوح.

قُلت: هَذَا هُوَ الأَظْهَر: أَنَّ إِدْرِيس فِي عَمُود نَسَب نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ قِيل: إِنَّهُ مِنْ أَنْبِيَاء بَنِي إِسْرَائِيل، أَخْذًا مِنْ حَدِيث الإِسْرَاء، حَيْثُ قَال فِي سَلَامه عَلَى النَّبِيّ ﷺ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِح، وَالأَخ الصَّالِح. وَلَمْ يَقُل: وَالوَلَد الصَّالِح، كَمَا قَال آدَم وَإِبْرَاهِيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

وقال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا يُونُس، أَنْبَأَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي ابْن لَهِيعَة، عَنْ يَزِيد بْن أَبِي حَبِيب، عَنْ عَبْد الله ابْن محمد: أَنَّ إِدْرِيس أَقْدَم مِنْ نُوح، فَبَعَثَهُ الله إِلَى قَوْمه، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: لا إِله إِلَّا الله، وَيَعْمَلُوا مَا شَاءُوا، فَأَبَوْا، فَأَهْلَكَهُمْ الله عَزَّ وَجَلَّ. وَمِمَّا يُؤَيِّد أَنَّ المُرَاد بِهَذِهِ الآيَة جِنْس الأَنْبِيَاء، أَنَّهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَة الأَنْعَام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾. وَقَال تَعَالَى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

وَفِي «صَحِيح البُخَارِيّ»، عَنْ مُجَاهِد: أَنَّهُ سَأَل ابْن عَبَّاس أَفِي «ص» سَجْدَة؟ قَال: نَعَمْ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَة: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾، فَنَبِيكُمْ مِمَّنْ أُمِرَ أَنْ يَقْتَدِي بِهِمْ، قَال: وَهُوَ مِنْهُمْ. يَعْنِي: دَاوُد. وَقَال الله تَعَالَى فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ أَيْ: إِذَا سَمِعُوا كَلَامَ الله المُتَضَمِّن حُجَجه وَدَلَائِله وَبَرَاهِينه، سَجَدُوا لِرَبِّهِمْ خُضُوعًا وَاسْتِكَانَة، وَحَمْدًا وَشُكْرًا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَم العَظِيمَة. وَ«البُكِيّ»: جَمْع بَاكٍ فَلِهَذَا أَجْمَعَ العُلَمَاء عَلَى شَرْعِيَّة السُّجُود هَاهُنَا اقْتِدَاء بِهِمْ وَاتِّبَاعًا لِمِنْوَالِهِمْ. قَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ: عَنْ الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ أَبِي مَعْمَر، قَال: قَرَأَ عُمَر بْن الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُورَة مَرْيَم فَسَجَدَ، وَقَال: هَذَا السُّجُود، فَأَيْنَ البُكِيّ؟ يُرِيد: البُكَاء. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير، وَسَقَطَ مِنْ رِوَايَته ذِكْر «أَبِي مَعْمَر» فِيمَا رَأَيْت، فَالله أَعْلَم.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾.

ولـمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حِزْب السُّعَدَاء، وَهُمُ الأَنْبِيَاء عليهم السلام، وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنَ القَائِمِينَ بِحُدُودِ الله وَأَوَامِره، المُؤَدِّينَ فَرَائِض الله، التَّارِكِينَ لزَوَاجِرِهِ ذَكَرَ أَنَّهُ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ أَيْ: قُرُون أُخَر ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وَإِذَا أَضَاعُوهَا فَهُمْ لمَا سِوَاهَا مِنْ الوَاجِبَات أَضْيَع؛ لأَنَّهَا عِمَاد الدِّين وَقِوَامه، وَخَيْر أَعْمَال العِبَاد -وَأَقْبَلُوا عَلَى شَهَوَات الدُّنْيَا وَمَلاذِّهَا، وَرَضُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا، فَهَؤُلاءِ سَيَلْقَوْنَ غَيًّا، أَيْ: خَسَارًا يَوْم القِيَامَة. وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي المُرَاد بِإِضَاعَةِ الصَّلاة هَاهُنَا؛ فَقَال قَائِلُونَ: المُرَاد بِإِضَاعَتِهَا تَرْكهَا بِالكُلِّيَّة. قَالَهُ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، وَابْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، وَالسُّدِّيّ، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير، وَلِهَذَا ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ السَّلَف وَالخَلَف وَالأَئِمَّة، كَمَا هُوَ المَشْهُور عَنْ الإِمَام أَحْمَد، وَقَوْل عَنْ الشَّافِعِيّ: إِلَى تَكْفِير تَارِك الصَّلاة؛ لِلحَدِيثِ: **«بَيْنَ العَبْد وَبَيْنَ الشِّرْك تَرْك الصَّلاة»**(1). وَالحَدِيث الآخَر: **«العَهْد الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهمْ الصَّلاة فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»**.(2) وَلَيْسَ هَذَا مَحَلّ بَسْط هَذِهِ المَسْأَلَة.

وَقَال الأَوْزَاعِيّ: عَنْ مُوسَى بْن سُلَيْمَان، عَنْ القَاسِم بْن مُخَيْمِرَة فِي قَوْله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قَال: إِنَّمَا أَضَاعُوا المَوَاقِيت، وَلَوْ كَانَ تَرْكًا كَانَ كُفْرًا. وَقَال وَكِيع: عَنْ المَسْعُودِيّ، عَنْ القَاسِم بْن عَبْد الرَّحْمَن وَالحَسَن بْن سَعِد، عَنْ ابْن مَسْعُود: أَنَّهُ قِيل لَهُ: إِنَّ الله يُكْثِر ذِكْر الصَّلاة فِي القُرْآن ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾، وَ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾، وَ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ قَال ابْن مَسْعُود: عَلَى مَوَاقِيتهَا. قَالُوا: مَا كُنَّا نَرَى ذَاكَ إِلَّا عَلَى التَّرْك؟ قَال: ذَلِكَ الكُفْر. وَقَال مَسْرُوق: لا يُحَافِظ أَحَد عَلَى الصَّلَوَات الخَمْس فَيُكْتَب مِنَ الغَافِلِينَ، وَفِي إِفْرَاطهنَّ الهَلَكَة، وَإِفْرَاطهنَّ إِضَاعَتهنَّ عَنْ وَقْتهنَّ. وَقَال الأَوْزَاعِيّ: عَنْ إِبْرَاهِيم بْن يَزِيد: إِنَّ عُمَر بْن عَبْد العَزِيز قَرَأَ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ ثُمَّ قَال: لَمْ تَكُنْ إِضَاعَتهمْ تَرْكهَا، وَلَكِنْ أَضَاعُوا الوَقْت. وَقَال ابْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ قَال: عِنْد قِيَام السَّاعَة، وَذَهَاب صَالِحِي أُمَّة مُحَمَّد ﷺ يَنْزُو بَعْضهمْ عَلَى بَعْض فِي الأَزِقَّة. وَكَذَا رَوَى ابْن جُرَيْج عَنْ مُجَاهِد مِثْله. وَرَوَى جَابِر الجُعْفِيّ عَنْ مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَعَطَاء بْن أَبِي رَبَاح: أَنَّهُمْ مِنْ هَذِهِ الأُمَّة، يَعْنُونَ فِي آخِر الزَّمَان.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي الحَارِث، حَدَّثَنَا الحَسَن الأَشْيَب، حَدَّثَنَا شَرِيك، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن مُهَاجِر، عَنْ مُجَاهِد: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾. قَال: هُمْ فِي هَذِهِ الأُمَّة، يَتَرَاكَبُونَ تَرَاكُب الأَنْعَام وَالحُمُر فِي الطُّرُق، لا يَخَافُونَ الله فِي السَّمَاء، وَلا يَسْتَحْيُونَ النَّاس فِي الأَرْض. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد ابْن سِنَان الوَاسِطِيّ حَدَّثَنَا أَبُو عَبْد الرَّحْمَن المُقْرِئ حَدَّثَنَا حَيْوَة، حَدَّثَنَا بَشِير بْن أَبِي عَمْرو الخَوْلانِيّ، أَنَّ الوَلِيد بْن قَيْس حَدَّثَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا سَعِيد الخُدْرِيّ يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «يَكُون خَلف بَعْد سِتِّينَ سَنَة، أَضَاعُوا الصَّلاة، وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَات، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا، ثُمَّ يَكُون خَلف يَقْرَءُونَ القُرْآن لا يَعْدُو تَرَاقِيهمْ، وَيَقْرَأ القُرْآن ثَلاثَة: مُؤْمِن، وَمُنَافِق، وَفَاجِر». قَال بَشِير: قُلت لِلوَلِيد: مَا هَؤُلاءِ الثَّلاثَة؟ قَال: المُؤْمِن مُؤْمِن بِهِ،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨٢).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (١/ ٢٣١)، وابن ماجه (١٠٧٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

وَالْمُنَافِق كَافِر بِهِ، وَالفَاجِر يَأْكُل بِهِ.[١] وَهَكَذَا رَوَاهُ أَحْمَد عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الْمُقْرِئ به. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم أَيْضًا: حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مُوسَى، أَنْبَأَنَا عِيسَى بْن يُونُس، حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن موهب، عَنْ مَالك، عَنْ أَبِي الرِّجَال: أَنَّ عَائِشَة كَانَتْ تُرْسِل بِالشَّيْءِ صَدَقَة لأَهْل الصُّفَّة، وَتَقُول: لا تُعْطُوا مِنْهُ بَرْبَرِيًّا وَلا بَرْبَرِيَّة، فَإِنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «هُمْ الخَلف الَّذِينَ قَال الله تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾»[٢] هَذَا حَدِيث غَرِيب. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن الضَّحَّاك، حَدَّثَنَا الوَلِيد، حدثنا حريز، عَنْ شَيْخ مِنْ أَهْل الْمَدِينَة: أَنَّهُ سَمِعَ مُحَمَّد بْن كَعْب الْقُرَظِيّ يَقُول فِي قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ الآيَة. قَال: هُمْ أَهْل الغَرْب، يَمْلكُونَ وَهُمْ شَرّ مَنْ مَلكَ.

وَقَال كَعْب الأَحْبَار: وَالله إِنِّي لأَجِد صِفَة الْمُنَافِقِينَ فِي كِتَاب الله ﷻ شَرَّابِينَ للقَهَوَاتِ تَرَّاكِينَ للصَّلوَاتِ، لعَّابِينَ بِالكَعَبَاتِ، رَقَّادِينَ عَنْ العَتَمَات، مُفَرِّطِينَ فِي الغَدَوَات، تَرَّاكِينَ للجُمُعَاتِ، قَال: ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: عَطَّلُوا المَسَاجِد وَلزِمُوا الضَّيْعَات. وَقَال أَبُو الأَشْهَب العُطَارِدِيّ: أَوْحَى الله تعالى إِلى دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا دَاوُد؛ حَذِّرْ وَأَنْذِرْ أَصْحَابك أَكْل الشَّهَوَات، فَإِنَّ القُلُوب المُعَلَّقَة بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا عُقُولهَا عَنِّي مَحْجُوبَة، وَإِنَّ أَهْوَن مَا أَصْنَع بِالعَبْدِ مِنْ عَبِيدِي إِذَا آثَرَ شَهْوَة مِنْ شَهَوَاته عليَّ أَنْ أَحْرِمهُ طَاعَتِي.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا زَيْد بْن الحُبَاب، حَدَّثَنَا أَبُو السمح التَّمِيمِيّ، عَنْ أَبِي قَبِيل، أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَة بْن عَامِر قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنِّي أَخَاف عَلى أُمَّتِي اثْنَتَيْنِ: القُرْآن وَاللَّبَن، أَمَّا اللَّبَن فَيَتَّبِعُونَ الرِّيف، وَيَتَّبِعُونَ الشَّهَوَات، وَيَتْرُكُونَ الصَّلاة، وَأَمَّا القُرْآن فَيَتَعَلَّمهُ المُنَافِقُونَ، فَيُجَادِلُونَ بِهِ المُؤْمِنِينَ»[٣]. وَرَوَاهُ عَنْ حَسَن بْن مُوسَى عَنْ ابْن لهِيعَة، حَدَّثَنَا أَبُو قَبِيل، عَنْ عُقْبَة، بِهِ مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ، تَفَرَّدَ بِهِ.

وَقَوْله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أَيْ: خُسْرَانًا. وَقَال قَتَادَة: شَرًّا. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ وَشُعْبَة وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ أَبِي إِسْحَاق السَّبِيعِيّ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قَال: وَادٍ فِي جَهَنَّم، بَعِيد القَعْر، خَبِيث الطَّعْم. وَقَال الأَعْمَش: عَنْ زِيَاد، عَنْ أَبِي عِيَاض فِي قَوْله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، قَال: وَادٍ فِي جَهَنَّم مِنْ قَيْح وَدَم. وَقَال الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي عَبَّاس بْن أَبِي طَالب، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن زِيَاد بن زيار، حَدَّثَنَا شَرْقِيّ بْن قُطَامِي، عَنْ لُقْمَان بْن عَامِر الخُزَاعِيّ قَال: جِئْت أَبَا أُمَامَة صُدَيّ بْن عَجْلان البَاهِليّ فَقُلت: حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْته مِنْ رَسُول الله ﷺ. قَال: فَدَعَا بِطَعَام، ثُمَّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «لوْ أَنَّ صَخْرَة زِنَة عَشْر أَوَاقٍ قُذِفَ بِهَا مِنْ شَفِير جَهَنَّم، مَا بَلغَتْ قَعْرهَا خَمْسِينَ خَرِيفًا، ثُمَّ تَنْتَهِي إِلى غَيّ وَآثَام». قَال: وقُلت: ومَا غَيّ وَآثَام؟ قَال: بِئْرَانِ فِي أَسْفَل جَهَنَّم، يَسِيل فِيهِمَا صَدِيد أَهْل النَّار، وَهُمَا اللتَان ذَكَرَ الله فِي كِتَابه: ﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وَقَوْله فِي الفُرْقَان: ﴿وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.[٤] هَذَا حَدِيث غَرِيب وَرَفْعُهُ مُنْكَر.

وَقَوْله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أَيْ: إِلَّا مَنْ رَجَعَ عَنْ تَرْك الصَّلوَات، وَاتِّبَاع الشَّهَوَات، فَإِنَّ الله يَقْبَل تَوْبَته، وَيُحْسِن عَاقِبَته، وَيَجْعَلهُ مِنْ وَرَثَة جَنَّة النَّعِيم؛ وَلهَذَا قَال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾،

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٣٨) بسند ضعيف، وله طريق آخر يتقوى به، انظر «الصحيحة» (٢٥٨).
(٢) ضعيف: أخرجه الحاكم (١/ ٢٤٤) بسند ضعيف.
(٣) ضعيف: أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥)، وانظر «الضعيفة» (١٧٧٩).
(٤) ضعيف: أخرجه الطبري (١٦/ ١٠٠)، بسند ضعيف.

وَذَلِكَ لأَنَّ التَّوْبَةَ تَجُبّ مَا قَبْلَهَا، وَفِي الحَدِيث الآخَر: «التَّائِب مِنَ الذَّنْب كَمَنْ لا ذَنْب لَهُ»[1]. وَلهَذَا لا يَنْقُص هَؤُلاءِ التَّائِبُونَ مِنْ أَعْمَالهمْ الَّتِي عَمِلُوهَا شَيْئًا، وَلا قُوبِلُوا بِمَا عَمِلُوهُ قَبْلهَا فَيَنْقُص لَهُمْ مِمَّا عَمِلُوهُ بَعْدهَا؛ لأَنَّ ذَلِكَ ذَهَبَ هَدَرًا، وَتُرِكَ نَسْيًا، وَذَهَبَ مَجَّانًا، مِنْ كَرَم الكَرِيم، وَحِلم الحَلِيم. وَهَذَا الاسْتِثْنَاء هَاهُنَا كَقَوْلِهِ فِي سُورَة الفُرْقَان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾.

يَقُول تَعَالَى: الجَنَّات الَّتِي يَدْخُلهَا التَّائِبُونَ مِنْ ذُنُوبهمْ هِيَ: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أَيْ: إِقَامَة ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ بِظَهْرِ الغَيْب، أَيْ: هِيَ مِنَ الغَيْب الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَا رَأَوْهُ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ إِيقَانهمْ وَقُوَّة إِيمَانهمْ.

وَقَوْله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ تَأْكِيد لِحُصُول ذَلِكَ وَثُبُوته وَاسْتِقْرَاره، فَإِنَّ الله لا يُخْلف المِيعَاد وَلا يُبَدِّلهُ كَقَوْلِهِ: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أَيْ: كَائِنًا لا مَحَالَة.

وَقَوْله هَاهُنَا: ﴿مَأْتِيًّا﴾ أَيْ: العِبَاد صَائِرُونَ إِلَيْهِ وَسَيَأْتُونَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: ﴿مَأْتِيًّا﴾ بِمَعْنَى آتِيًا؛ لأَنَّ كُلّ مَا أَتَاك فَقَدْ أَتَيْته، كَمَا تَقُول العَرَب: أَتَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ سَنَة، وَأَتَيْت عَلَى خَمْسِينَ سَنَة، كِلاهُمَا بِمَعْنًى.

وقوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أَيْ: هَذِهِ الجَنَّات لَيْسَ فِيهَا كَلام سَاقِط تَافِه لا مَعْنَى لَهُ، كَمَا قَدْ يُوجَد فِي الدُّنْيَا.

وَقَوْله: ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ اسْتِثْنَاء مُنْقَطِع، كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أَيْ: فِي مِثْل وَقْت البُكُرَات وَوَقْت العَشِيَّات، لا أَنَّ هُنَاكَ لَيْلًا نَهَارًا، وَلَكِنَّهُمْ فِي أَوْقَات تَتَعَاقَب، يَعْرِفُونَ مُضِيّهَا بِأَضْوَاءٍ وَأَنْوَار، كَمَا قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ هَمَّام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَالَ: قَال رَسُول الله ﷺ: **«أَوَّل زُمْرَة تَلِج الجَنَّة صُوَرهمْ عَلى صُورَة القَمَر لَيْلَة البَدْر، لا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلا يَتَمَخَّطُونَ فِيهَا، وَلا يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتهمْ وَأَمْشَاطهمْ الذَّهَب وَالفِضَّة، مَجَامِرهمْ الأَلُوَّة، وَرَشْحهمْ المِسْك، وَلِكُلِّ وَاحِد مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخّ سَاقَيْهِمَا مِنْ وَرَاء اللَّحْم، مِنَ الحُسْن، لا اخْتِلاف بَيْنهمْ، وَلا تَبَاغُض، قُلُوبهمْ عَلَى قَلْب وَاحِد، يُسَبِّحُونَ الله بُكْرَة وَعَشِيًّا»**[2]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، مِنْ حَدِيث مَعْمَر بِهِ.

وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَعْقُوب، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ ابْن إِسْحَاق، حَدَّثَنِي الحَارِث بْن فُضَيْل الأَنْصَارِيّ، عَنْ مَحْمُود بْن لَبِيد الأَنْصَارِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: قَال رَسُول الله ﷺ: **«الشُّهَدَاء عَلَى بَارِق نَهَر بِبَابِ الجَنَّة، فِي قُبَّة خَضْرَاء، يَخْرُج عَلَيْهِمْ رِزْقهمْ مِنَ الجَنَّة بُكْرَة وَعَشِيًّا»**[3]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد مِنْ هَذَا الوَجْه. وَقَال الضَّحَّاك عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قَالَ: مَقَادِير اللَّيْل وَالنَّهَار.

وَقَالَ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن سَهْل، حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن مُسْلِم قَالَ: سَأَلت زُهَيْر بْن مُحَمَّد عَنْ قَوْل الله تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قَالَ: لَيْسَ فِي الجَنَّة لَيْل، هُمْ فِي نُور أَبَدًا، وَلَهُمْ مِقْدَار اللَّيْل وَالنَّهَار، يَعْرِفُونَ

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠) بسند ضعيف.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٤٥)، ومسلم (٢٨٣٤)، وأحمد (٢/ ٣١٦).
(٣) حسن: تقدم.

مِقْدَار اللَّيْل بِإِرْخَاءِ الحُجُب وَإِغْلاق الأَبْوَاب، وَيَعْرِفُونَ مِقْدَار النَّهَار بِرَفْعِ الحُجُب وَبِفَتْحِ الأَبْوَاب. وَبِهَذَا الإِسْنَاد عَنْ الوَلِيد بْن مُسْلم، عَنْ خُلَيْد عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ، وَذَكَرَ أَبْوَاب الجَنَّة فَقَال: أَبْوَاب يُرَى ظَاهِرهَا مِنْ بَاطِنهَا، فَتُكَلَّمَ وَتُكَلِّمَ، فَتُهمهم: انْفَتِحِي انْغَلِقِي ....، فَتَفْعَل. وَقَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فيها سَاعَتَانِ؛ بُكْرَة وَعَشِيّ، لَيْسَ ثَمَّ لَيْل وَلا نَهَار، وَإِنَّمَا هُوَ ضَوْء وَنُور. وَقَال مُجَاهِد: لَيْسَ بُكْرَة وَلا عَشِيًّا، وَلَكِنْ يُؤْتَوْنَ بِهِ عَلَى مَا كَانُوا يَشْتَهُونَ فِي الدُّنْيَا.

وَقَال الحَسَن وَقَتَادَة وَغَيْرهمَا: كَانَتْ العَرَب، الأَنْعَم فِيهِمْ مَنْ يَتَغَدَّى وَيَتَعَشَّى، [فَنَزَل][1] القُرْآن عَلَى مَا فِي أَنْفُسهمْ مِنْ النَّعِيم، فَقَال تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. وَقَال ابْن مَهْدِيّ عَنْ حَمَّاد بْن زَيْد عَنْ هِشَام عَنْ الحَسَن: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قَال: البُكُور يَرِد عَلَى العَشِيّ، وَالعَشِيّ يَرِد عَلَى البُكُور، لَيْسَ فِيهَا لَيْل.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا سليم بْن مَنْصُور بْن عَمَّار، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن زِيَاد قَاضِي أَهْل شمشاط عَنْ عَبْد الله بْن حُدَيْر عَنْ أَبِي سَلَمَة ابْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «مَا مِنْ غَدَاة مِنْ غَدَوَات الجَنَّة -وَكُلّ الجَنَّة غَدَوَات- إِلاَّ أَنَّهُ يُزَفّ إِلَى وَلِيّ الله فِيهَا زَوْجَة مِنْ الحُور العِين، أَدْنَاهُنَّ الَّتِي خُلقَتْ مِنْ الزَّعْفَرَان»[2]. قَال أَبُو مُحَمَّد: هَذَا حَدِيث مُنْكَر.

وَقَوْله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ أَيْ: هَذِهِ الجَنَّة الَّتِي وَصَفْنَا بِهَذِهِ الصِّفَات العَظِيمَة، هِيَ الَّتِي نُورِثهَا عِبَادنَا المُتَّقِينَ، وَهُمْ المُطِيعُونَ لله ﷻ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء، وَالكَاظِمُونَ الغَيْظ، وَالعَافُونَ عَنْ النَّاس، وَكَمَا قَال تَعَالَى فِي أَوَّل سُورَة المُؤْمِنُونَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إِلَى أَنْ قَال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَعْلَى وَوَكِيع قَالا: حَدَّثَنَا عُمَر بْن ذَرّ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ لِجِبْرَائِيل: «مَا يَمْنَعكَ أَنْ تَزُورنَا أَكْثَر مِمَّا تَزُورنَا؟». قَال: فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[3] إِلَى آخِر الآيَة. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ البُخَارِيّ، فَرَوَاهُ عِنْد تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: عَنْ أَبِي نُعَيْم، عَنْ عُمَر بْن ذَرّ بِهِ. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير: مِنْ حَدِيث عُمَر بْن ذَرّ، بِهِ. وَعِنْدهمَا زِيَادَة فِي آخِر الحَدِيث: «فَكَانَ ذَلِكَ الجَوَاب لِمُحَمَّدٍ ﷺ». وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: احْتَبَسَ جبريل عَنْ رَسُول الله ﷺ، فَوَجَدَ رَسُول الله ﷺ مِنْ ذَلِكَ وَحَزِنَ، فَأَتَاهُ جبريل فقال: يَا مُحَمَّد: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.[4]

وَقَال مُجَاهِد: لَبِثَ جبريل عَنْ مُحَمَّد ﷺ اثْنَتَيْ عَشْرَة لَيْلَة، وَيَقُولُونَ: قُلِيَ، فَلَمَّا جَاءَهُ، قَال: «يَا جبريل، لَقَدْ رِثْت عَلَيَّ، حَتَّى ظَنَّ المُشْرِكُونَ كُلّ ظَنّ». فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾. قَال: وَهَذِهِ الآيَة كَالَّتِي فِي الضُّحَى. وَكَذَلِكَ قَال الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم، وَقَتَادَة،

---

(١) في نسخة: [ونزل].
(٢) منكر: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٩٠)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٢١٧)، وفيه منصور بن عمار. قال ابن عدي: منكر الحديث.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٣١)، وأحمد (١/ ٢٣١).
(٤) ضعيف بهذا الإسناد: أخرجه الطبري (١٦/ ١٠٢)، وفيه عطية العوفي: ضعيف.

وَالسُّدِّيّ، وَغَيْر وَاحِد: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي احْتِبَاس جبريل. وَقَال الحَكَم بْن أَبَان عَنْ عِكْرِمَة قَال: أَبْطَأَ جبريل النُّزُول عَلَى رسول الله ﷺ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ نَزَل فَقَال لهُ النَّبِيّ ﷺ: «مَا نَزَلت حَتَّى اشْتَقْت إِلَيْك». فَقَال لهُ جِبْرِيل: بَل أَنَا كُنْت إِلَيْك أَشْوَق، وَلكِنِّي مَأْمُور. فَأَوْحَى إِلى جبريل أَنْ قُل لهُ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[1] الآيَة. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ غَرِيب.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ مُجَاهِد قَال: أَبْطَأَتْ الرُّسُل عَلَى النَّبِيّ ﷺ، ثُمَّ أَتَاهُ جِبْرِيل فَقَال لهُ: «مَا حَبَسَك يَا جِبْرِيل؟». فَقَال لهُ جِبْرِيل: وَكَيْف نَأْتِيكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَقُصُّونَ أَظْفَارَكُمْ، وَلا تُنَقُّونَ بَرَاجِمَكُمْ، وَلا تَأْخُذُونَ شَوَارِبَكُمْ، وَلا تَسْتَاكُونَ؟ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[2] إِلى آخِر الآيَة. وَقَدْ قَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر النَّحْوِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم الصُّورِيّ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن عَبْد الرَّحْمَن الدِّمَشْقِيّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، أَخْبَرَنِي ثَعْلَبَة بْن مُسْلِم، عَنْ أَبِي كَعْب -مَوْلى ابْن عَبَّاس-، عَنْ ابْن عَبَّاس عَنْ النَّبِيّ ﷺ: أَنَّ جبريل أَبْطَأَ عَلَيْهِ، فَذَكَرَ لهُ ذَلِكَ، فَقَال: وَكَيْف وَأَنْتُمْ لا تَسْتَنُّونَ، وَلا تُقَلِّمُونَ أَظْفَارَكُمْ، وَلا تَقُصُّونَ شَوَارِبَكُمْ، وَلا تُنَقُّونَ رَوَاجِبكم. وَهَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد عَنْ أَبِي اليَمَان، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش به وَنَحْوِهِ.[3]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سَيَّار، حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن سُلَيْمَان، حَدَّثَنَا المُغِيرَة بْن حَبِيب ختن مَالك بْن دِينَار، حَدَّثَنِي شَيْخ مِنْ أَهْل المَدِينَة، عَنْ أُمّ سَلَمَة قَالَتْ: قَال لي رَسُول الله ﷺ: «أَصْلِحِي لنَا المَجْلس، فَإِنَّهُ يَنْزِل مَلك إِلى الأَرْض لمْ يَنْزِل إِليْهَا قَطُّ».[3]

وَقَوْله: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ قِيل: المُرَاد بـ: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: أَمْر الدُّنْيَا، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: أَمْر الآخِرَة ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾: مَا بَيْن النَّفْخَتَيْنِ. هَذَا قَوْل أَبِي العَاليَة وَعِكْرِمَة، وَمُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَقَتَادَة فِي رِوَايَة عَنْهُمَا، وَالسُّدِّيّ، وَالرَّبِيع بْن أَنَس.

وَقِيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ مَا نستقبل مِنْ أَمْر الآخِرَة، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أَيْ: مَا مَضَى مِنْ الدُّنْيَا، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أَيْ: مَا بَيْن الدُّنْيَا وَالآخِرَة. يُرْوَى نَحْوه عَنْ ابْن عَبَّاس وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة وَابْن جُرَيْج وَالثَّوْرِيّ، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير أَيْضًا، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ قَال مُجَاهِد: مَعْنَاهُ مَا نَسِيك رَبّك. وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْهُ أَنَّ هَذِهِ الآيَة كَقَوْلهِ: ﴿وَالضُّحَى ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن مُحَمَّد بْن عَبْد الصَّمَد الدِّمَشْقِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُثْمَان -يَعْنِي: أَبَا الجُمَاهِر- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، حَدَّثَنَا عَاصِم بْن رَجَاء بْن حَيْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء يَرْفَعهُ قَال: **«مَا أَحَلَّ الله فِي كِتَابه فَهُوَ حَلال، وَمَا حَرَّمَهُ فَهُوَ حَرَام، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَة، فَاقْبَلُوا مِنْ الله عَافِيَته، فَإِنَّ الله لمْ يَكُنْ لِيَنْسَى شَيْئًا»**. ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.[4]

وَقَوْله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أَيْ: خَالق ذَلكَ وَمُدَبِّره، وَالحَاكِم فِيهِ، وَالمُتَصَرِّف الَّذِي لا مُعَقِّب

---

(١) مرسل: أخرجه الطبري (١٦/ ١٠٤)، وإسناده مرسل عن عكرمة.

(٢) ضعيف مرسل: الرواية الأولى عزاها ابن كثير لابن أبي حاتم، والرواية الثانية أخرجها الطبراني (١١/ ٤٣٢/ ١٢٢٤)، وأحمد (٥/ ١٦٧)، وفيها كعب مولي ابن عباس؛ قال أبو حاتم: لا يعرف إلا في هذا الحديث.

(٣) ضعيف: أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٦) وفيه الشيخ المبهم، وفيه أيضًا المغيرة بن حبيب؛ قال الأزدي: منكر الحديث. وقال ابن حبان: يُغرِب.

(٤) حسن لغيره: تقدم.

لحُكْمِهِ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ قَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس: هَل تَعْلم للرَّبِّ مَثَلًا أَوْ شَبِيهًا. وَكَذَلكَ قَال مُجاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَقَتَادَة، وَابْن جُرَيْج وَغَيْرهمْ. وَقَال عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس: لَيْسَ أَحَد يُسَمَّى الرَّحْمَن غَيْره، تَبَارَكَ وَتَعَالى، وَتَقَدَّسَ اسْمه.

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا (٦٩) ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ الإِنْسَان أَنَّهُ يَتَعَجَّب، وَيَسْتَبْعِد إِعَادَته بَعْد مَوْته، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾، وَقَال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ (٧٨) قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾.

وَقَال هَاهُنَا: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾. يَسْتَدِلّ تَعَالى بِالبَدَاءَةِ عَلى الإِعَادَة، يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالى قَدْ خَلقَ الإِنْسَان وَلمْ يَكُ شَيْئًا، أَفَلا يُعِيدهُ وَقَدْ صَارَ شَيْئًا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾. وَفِي «الصَّحِيح»: «يَقُول الله تَعَالى: كَذَّبَنِي ابْن آدَم، وَلمْ يَكُنْ لهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي، وَآذَانِي ابْن آدَم وَلمْ يَكُنْ لهُ أَنْ يُؤْذِيَنِي، أَمَّا تَكْذِيبه إِيَّايَ فَقَوْله: لنْ يُعِيدنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَليْسَ أَوَّل الخَلق بِأَهْوَن عَليَّ مِنْ آخِره، وَأَمَّا أَذَاهُ إِيَّايَ فَقَوْله: إِنَّ لي وَلدًا، وَأَنَا الأَحَد الصَّمَد الَّذِي لمْ يَلد وَلمْ يُولد وَلمْ يَكُنْ لهُ كُفُوًا أَحَد».[1]

وَقَوْله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أَقْسَمَ الرَّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالى بِنَفْسِهِ الكَرِيمَة، أَنَّهُ لابُدّ أَنْ يَحْشُرهُمْ جَمِيعًا، وَشَيَاطِينهمْ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله، ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾. قَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي قُعُودًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ﴾. وَقَال السُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾ يَعْنِي: قِيَامًا، وَرُوِيَ عَنْ مُرَّة عَنْ ابْن مَسْعُود مِثْله.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يَعْنِي مِنْ كُل أُمَّة. قَالهُ مُجَاهِد: ﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾. قَال الثَّوْرِيّ عَنْ عَليّ بْن الأَقْمَر عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ ابْن مَسْعُود قَال: يُحْبَس الأَوَّل عَلى الآخِر، حَتَّى إِذَا تَكَامَلتْ العِدَّة أَتَاهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ بَدَأَ بِالأَكَابِرِ فَالأَكَابِر جُرْمًا، وَهُوَ قَوْله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾.

وَقَال قَتَادَة: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾ قَال: ثُمَّ لنَنْزِعَنَّ مِنْ أَهْل كُل دِين قَادَتهمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ فِي الشَّرّ. وَكَذَا قَال ابْن جُرَيْج، وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلف. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾ (ثُمَّ) هَاهُنَا لعَطْفِ الخَبَر عَلى الخَبَر، وَالمُرَاد: أَنَّهُ تَعَالى أَعْلم بِمَنْ يَسْتَحِقّ مِنْ العِبَاد أَنْ يَصْلى بِنَارِ جَهَنَّم، وَيُخَلَّد فِيهَا، وَبِمَنْ يَسْتَحِقّ تَضْعِيف العَذَاب، كَمَا قَال فِي الآيَة المُتَقَدِّمَة: ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾.

---

(١) صحيح: تقدم.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن حَرْب، حَدَّثَنا غالب بْن سُلَيْمَان، عَنْ كَثِير بْن زِيَاد البُرْسَانِيّ، عَنْ أَبِي سُمَيَّة قَال: اخْتَلَفْنَا [ههنا][1] فِي الوُرُود؛ فَقَال بَعْضنَا: لا يَدْخُلهَا مُؤْمِن، وَقَال بَعْضهمْ: يَدْخُلُونَهَا جَمِيعًا، ثُمَّ يُنَجِّي الله الَّذِينَ اتَّقَوْا. فَلَقِيت جَابِر بْن عَبْد الله، فَقُلت لهُ: إِنَّا اخْتَلَفْنَا فِي [ذلك][1] الوُرُود. فَقَال: يَرِدُونَهَا جَمِيعًا وَقَال سُلَيْمَان مَرَّةً: يَدْخُلُونَهَا جَمِيعًا وَأَهْوَى بِأُصْبُعَيْهِ إِلى أُذُنَيْهِ، وَقَال: صُمَّتَا إِنْ لَمْ أَكُنْ سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «لا يَبْقَى بَرّ وَلا فَاجِر إِلاَّ دَخَلهَا، فَتَكُون عَلَى المُؤْمِن بَرْدًا وَسَلامًا، كَمَا كَانَتْ عَلى إِبْرَاهِيم، حَتَّى إِنَّ لِلنَّارِ ضَجِيجًا مِنْ بَرْدهمْ، ثُمَّ يُنَجِّي الله الَّذِينَ اتَّقَوْا وَيَذَر الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا»[2]. غَرِيب وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ.

وَقَال الحَسَن بْن عَرَفَة: حَدَّثَنَا مَرْوَان بْن مُعَاوِيَة، عَنْ بَكَّار بْن أَبِي مَرْوَان، عَنْ خَالد بْن مَعْدَان قَال: «قَال أَهْل الجَنَّة بَعْدَمَا دَخَلُوا الجَنَّة: أَلَمْ يَعِدنَا رَبّنَا الوُرُود عَلى النَّار؟ قَال: قَدْ مَرَرْتُمْ عَلَيْهَا وَهِيَ خَامِدَة». وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ ابْن عُيَيْنَة، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالد، عَنْ قَيْس بْن أَبِي حَازِم قَال: كَانَ عَبْد الله بْن رَوَاحَة وَاضِعًا رَأْسه فِي حِجْر امْرَأَته: فَبَكَى، فَبَكَتْ امْرَأَته، فقَال: مَا يُبْكِيك؟ فقَالتْ: رَأَيْتُك تَبْكِي فَبَكَيْت. قَال: إِنِّي ذَكَرْت قَوْل الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فَلا أَدْرِي أَنْجُو مِنْهَا أَمْ لا؟ وَفِي رِوَايَة: وَكَانَ مَرِيضًا.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا ابْن يَمَان، عَنْ مَالك بْن مِغْوَل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق: كَانَ أَبُو مَيْسَرَة إِذَا أَوَى إِلى فِرَاشه قَال: يَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلدنِي. ثُمَّ يَبْكِي، فَقِيل: مَا يُبْكِيك يَا أَبَا مَيْسَرَة؟ فَقَال: أُخْبِرْنَا أَنَّا وَارِدُوهَا، وَلَمْ نُخْبَرَ أَنَّا صَادِرُونَ عَنْهَا. وَقَال عَبْد الله بْن المُبَارَك عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ قَال: قَال رَجُل لأَخِيهِ: هَل أَتَاك [أَنَّك][3] وَارِد النَّار؟ قَال: نَعَمْ. قَال: هَل أَتَاك أَنَّك صَادِر عَنْهَا؟ قَال: لا. قَال: فَفِيمَ الضَّحِك؟ قَال: فَمَا رُئِيَ ضَاحِكًا حَتَّى لحِقَ بالله. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق أَيْضًا: أَخْبَرَنَا ابْن عُيَيْنَة، عَنْ عَمْرو، أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ ابْن عَبَّاس يُخَاصِم نَافِع بْن الأَزْرَق، فَقَال ابْن عَبَّاس: الوُرُود: الدُّخُول. فَقَال نَافِع: لا. فَقَرَأَ ابْن عَبَّاس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ وَرَدُوا أَمْ لا، وَقَال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أَوَرَدُ أَمْ لا؟ أَمَّا أَنَا وَأَنْتَ فَسَنَدْخُلُهَا، فَانْظُرْ هَل نَخْرُج مِنْهَا أَم لا؟ وَمَا أَرَى الله مُخْرِجك مِنْهَا بِتَكْذِيبِك. فَضَحِكَ نَافِع.

وَرَوَى ابْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء قَال: قَال أَبُو رَاشِد الحَرُورِيّ -وَهُوَ نَافِع بْن الأَزْرَق- ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾. فَقَال ابْن عَبَّاس: وَيْلك، أَمَجْنُون أَنْتَ؟ أَيْنَ قَوْله: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾، ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ وَالله إِنْ كَانَ دُعَاء مَنْ مَضَى: اللَّهُمَّ أَخْرِجْنِي مِنْ النَّار سَالمًا، وَأَدْخِلنِي الجَنَّة غَانِمًا.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن عُبَيْد المُحَارِبِيّ، حَدَّثَنَا أَسْبَاط، عَنْ عَبْد المَلك، عَنْ عُبَيْد الله، عَنْ مُجَاهِد قَال: كُنْت عِنْد ابْن عَبَّاس؛ فَأَتَاهُ رَجُل يُقَال لهُ: أَبُو رَاشِد -وَهُوَ نَافِع بْن الأَزْرَق- فَقَال لهُ: يَا بْن عَبَّاس، أَرَأَيت قَوْل الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾؟ قَال: أَمَّا أَنَا وَأَنْتَ يَا أَبَا رَاشِد فَسَنَرِدُهَا، فَانْظُرْ هَل نَصْدُر عَنْهَا أَمْ لا؟ وَقَال أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ: قَال شُعْبَة: أَخْبَرَنِي عَبْد الله بْن السَّائِب، عَمَّنْ سَمِعَ ابْن عَبَّاس

---

(١) زيادة من المسند.
(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٨)، وضعفه الألباني، انظر «ضعيف الجامع الصغير» (٦١٥٦).
(٣) في نسخة: [بأنك].

يَقْرَؤُهَا: (وَإِنْ مِنهُمْ إِلَّا وَارِدهَا) يَعْنِي: الكُفَّار. وَهَكَذَا رَوَى عمر بن الوَليد الشَّنيّ: أَنَّهُ سَمِعَ عِكْرِمَة يَقْرَؤُهَا كَذَلكَ: (وَإِنْ مِنهُم إِلَّا وَارِدهَا)، قَال: وَهُمْ الظَّلَمَة، كَذَلكَ كُنَّا نَقْرَؤُهَا. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، وَابْن جَرِير. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس قَوْله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ يَعْنِي: البَرّ وَالفَاجِر، أَلم تَسْمَع إِلى قَوْل الله لِفِرْعَوْن: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾، ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾؟ فَسَمَّى الوُرُود عَلى النَّار دُخولًا وَليْسَ بِصَادِرٍ.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ مُرَّة عَنْ عَبْد الله -هُوَ ابْن مَسْعُود-: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قَال رَسُول الله ﷺ: «يَرِد النَّاس النار كلهمْ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ عَنْهَا بأَعْمالهمْ»[1]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ عَبْد بْن حُمَيْد، عَنْ عُبَيْد الله، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ السُّدِّيّ به، وَرَوَاهُ مِنْ طَرِيق شُعْبَة، عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ مُرَّة، عَنْ ابْن مَسْعُود موقوفًا[2]. هَكَذَا وَقَعَ هَذَا الحَدِيث هَاهُنَا مَرْفُوعًا، وَقَدْ رَوَاهُ أَسْبَاط عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ مُرَّة عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود قَال: يَرِد النَّاس جَمِيعًا الصِّرَاط، وَوُرُودهمْ قِيَامهمْ حَوْل النَّار، ثُمَّ يَصْدُرُونَ عَنْ الصِّرَاط بِأَعْمَالِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرّ مِثْل البَرْق، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرّ مِثْل الرِّيح، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرّ مِثْل الطَّيْر، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرّ كَأَجْوَد الخَيْل، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرّ كَأَجْوَد الإِبِل، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرّ كَعَدْوِ الرَّجُل، حَتَّى إِنَّ آخِرهمْ مَرًّا رَجُل نُوره عَلى مَوضعي إِبْهَامَيْ قَدَمَيْهِ، يَمُرّ يَتَكَفَّأ بِهِ الصِّرَاط، وَالصِّرَاط دَحْض مَزَلَّة، عَلَيْهِ حَسَك كَحَسَكِ القَتَاد، حَافَّتَاهُ مَلَائِكَة، مَعَهُمْ كَلاليب مِنْ نار، يَخْتَطِفُونَ بِهَا النَّاس... وَذَكَرَ تَمَام الحَدِيث. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا خَلَّاد بْن أَسْلَمَ، حَدَّثَنَا النَّضْر، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاق، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ عَبْد الله قَوْله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قَال: الصِّرَاط عَلى جَهَنَّم مِثْل حَدّ السَّيْف، فَتَمُرّ الطَّبَقَة الأُولى كَالبَرْقِ، وَالثَّانِيَة كَالرِّيحِ، وَالثَّالثَة كَأَجْوَد الخَيْل، وَالرَّابِعَة كَأَجْوَد البَهَائِم، ثُمَّ يَمُرُّونَ وَالمَلَائِكَة يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. وَلِهَذَا شَوَاهِد فِي «الصَّحِيحَيْنِ» وَغَيْرهمَا؛ مِنْ رِوَايَة أَنَس، وَأَبِي سَعِيد، وَأَبِي هُرَيْرَة، وَجَابِر، وَغَيْرهمْ مِنْ الصَّحَابَة رضي الله عنهم.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يَعْقُوب، حَدَّثَنَا ابْن عُلَيَّة عَنْ الجَرِيرِيّ، عَنْ أَبِي السُّلَيْ عَنْ غُنَيْم بْن قَيْس قَال: ذَكَرُوا وُرُود النَّار، فَقَال كَعْب: تُمْسِك النَّار النَّاس كَأَنَّهَا مَتْن إِهَالة حَتَّى يَسْتَوِي عَلَيْهَا أَقْدَام الخَلَائِق؛ بَرّهمْ وَفَاجِرهمْ، ثُمَّ يُنَادِيهَا مُنَادٍ: أَنْ أَمْسِكِي أَصْحَابك، وَدَعِي أَصْحَابِي. قَال: فَتَخْسِف بِكُلِّ وَلِيّ لهَا، وَلَهِيَ أَعْلم بِهِمْ مِنْ الرَّجُل بِوَلدِهِ، وَيَخْرُج المُؤْمِنُونَ نَدِيَّة ثِيَابهمْ. قَال كَعْب: مَا بَيْن مَنْكِبَيْ الخَازِن مِنْ خَزَنَتهَا مَسِيرَة سَنَة، مَعَ كُلّ وَاحِد مِنْهُمْ عَمُود ذُو شُعْبَتَيْنِ، يَدْفَع بِهِ الدَّفْع فَيَصْرَع بِهِ فِي النَّار سَبْعمِائَةِ أَلف.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ أَبِي سُفْيَان، عَنْ جَابِر عَنْ أُمّ مُبَشِّر، عَنْ حَفْصَة قَالتْ: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ لا يَدْخُل النَّار إِنْ شَاءَ الله أَحَد شَهِدَ بَدْرًا وَالحُدَيْبِيَة». قَالتْ: فَقُلت: أَليْسَ الله يَقُول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قَالتْ: فَسَمِعْته يَقُول: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[3].

وَقَال أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا ابْن إِدْرِيس، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ أَبِي سُفْيَان، عَنْ جَابِر عَنْ أُمّ مُبَشِّر امْرَأَة زَيْد بْن حَارِثَة قَالتْ: كَانَ رَسُول الله ﷺ فِي بَيْت حَفْصَة، فَقَال: «لا يَدْخُل النَّار أَحَد شَهِدَ بَدْرًا وَالحُدَيْبِيَة». قَالتْ

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (١/ ٤٣٣)، وأخرجه الترمذي (موقوفًا) (٣١٦٠).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٣١٥٩).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٢٨٥) (٦/ ٣٦٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٢٨١).

حَفْصَة: أَلَيْسَ الله يَقُول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾[(١)]. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، عَنْ سَعِيد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«لا يَمُوت لأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ثَلاثَة مِنَ الوَلَد تَمَسّهُ النَّار، إلاَّ تَحِلَّة القَسَم»**.[(٢)]

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: قَال مَعْمَر: أَخْبَرَنِي الزُّهْرِيّ، عَنْ ابْن المُسَيِّب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلاثَة لَمْ تَمَسّهُ النَّار إلاَّ تَحِلَّة القَسَم»**. يَعْنِي: الوُرُود. وَقَال أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا زَمْعَة، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيِّب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«لا يَمُوت لمُسْلِمٍ ثَلاثَة مِنَ الوَلَد تَمَسّهُ النَّار إلاَّ تَحِلَّة القَسَم»**. قَال الزُّهْرِيّ: كَأَنَّهُ يُرِيد هَذِهِ الآيَة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[(٣)]. وَقَال ابْن جَرِير: حدَّثنا عِمْرَان بْن بَكَّار الكُلاعِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو المُغِيرَة، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن يَزِيد بْن تَمِيم، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عُبَيْد الله، عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: خَرَجَ رَسُول الله ﷺ يَعُود رَجُلًا مِنْ أَصْحَابه وَعِكًا، وَأَنَا مَعَهُ، ثُمَّ قَال: **«إِنَّ الله تَعَالى يَقُول: هِيَ نَارِي أُسَلِّطهَا عَلى عَبْدِي المُؤْمِن؛ لتَكُونَ حَظّه مِنْ النَّار فِي الآخِرَة»**[(٤)]. غَرِيب وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ مِنْ هَذَا الوَجْه.

وَحَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا ابن يَمَان، عَنْ عُثْمَان بْن الأَسْوَد، عَنْ مُجَاهِد قَال: الحُمَّى حَظّ كُلّ مُؤْمِن مِنْ النَّار، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن، حَدَّثَنَا ابْن لِهِيعَة، حَدَّثَنَا زَبَّان بْن فَائِد، عَنْ سَهْل بْن مُعَاذ بْن أَنَس الجُهَنِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «مَنْ قَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حَتَّى يَخْتِمهَا عَشْر مَرَّات، بَنَى الله لهُ قَصْرًا فِي الجَنَّة». فَقَال عُمَر: إِذًا نَسْتَكْثِر يَا رَسُول الله. فَقَال رَسُول الله ﷺ: **«الله أَكْثَر وَأَطْيَب»**[(٥)]. وَقَال رَسُول الله ﷺ: «(مَنْ قَرَأَ أَلف آيَة فِي سَبِيل الله، كُتِبَ يَوْم القِيَامَة مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقًا، إِنْ شَاءَ الله)[(٦)]، (وَمَنْ حَرَسَ مِنْ وَرَاء المُسْلِمِينَ فِي سَبِيل الله مُتَطَوِّعًا لا بِأُجرة سُلطَان، لمْ يَرَ النَّار بِعَيْنَيْهِ إلاَّ تَحِلَّة القَسَم، قَال الله تَعَالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾)[(٧)]، (وَإِنَّ الذِّكْر فِي سَبِيل الله يُضَاعَف فَوْق النَّفَقَة بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْف)».[(٨)] وَفِي رِوَايَة: «بِسَبْعِمِائَةِ أَلف ضِعْف».

وَرَوَى أَبُو دَاوُد عَنْ أَبِي الطَّاهِر، عَنْ ابْن وَهْب، عَنْ يَحْيَى بْن أَيُّوب وسعيد بن أبي أيوب، كِلاهُمَا عَنْ زَبَّان، عَنْ سَهْل، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَسُول الله ﷺ: **«إِنَّ الصَّلاة وَالصِّيَام وَالذِّكْر تُضَاعَف عَلى النَّفَقَة فِي سَبِيل الله بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْف»**[(٩)].

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة قَوْله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قَال: هُوَ المَمَرّ عَليْهَا. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن ابْن زَيْد بْن أَسْلمَ فِي قَوْله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قَال: وُرُود المُسْلِمِينَ المُرُور عَلى الجِسْر بَيْن ظَهْرَيْهَا، وَوُرُود المُشْرِكِينَ أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَقَال النَّبِيّ ﷺ: «الزَّالُّونَ وَالزَّالاَّت يَوْمَئِذٍ كَثِير، وَقَدْ أَحَاطَ بِالجِسْرِ يَوْمَئِذٍ سِمَاطَانِ مِنْ

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (٦/ ٢٨٥) (٦/ ٣٦٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٢٨١).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٦٣٢).
(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦١٦٤)، ومسلم (٤٧٦٦).
(٤) **صحيح**: أخرجه الطبري (١٦/ ١١١)، وصححه الألباني، انظر «الصحيحة» (٥٥٧).
(٥) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٧)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف، وزبان بن فائد: ضعيف، وضعفه الألباني، انظر «ضعيف الترغيب والترهيب» (٨٩٣).
(٦) **ضعيف**: ضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٧٨٦).
(٧) **ضعيف**: ضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٨١١).
(٨) **ضعيف**: ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (١٤٤٣).
(٩) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٢٤٩٨)، وفيه زبان بن فائد: ضعيف.

المَلائِكَة، دُعَاؤُهُمْ: يَا الله: سَلِّمْ سَلِّمْ»[1]. وَقَال السُّدِّيّ عَنْ مُرَّة، عَنْ ابْن مَسْعُود فِي قَوْله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قَال: قَسَمًا وَاجِبًا. وَقَال مُجَاهِد: حَتْمًا. قَال: قَضَاء. وَكَذَا قَال ابْن جُرَيْج.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ أَيْ: إِذَا مَرَّ الخَلائِق كُلّهمْ عَلَى النَّار، وَسَقَطَ فِيهَا مَنْ سَقَطَ مِنْ الكُفَّار وَالعُصَاة ذَوِي المَعَاصِي، بِحَسَبِهِمْ، نَجَّى الله تَعَالَى المُؤْمِنِينَ المُتَّقِينَ مِنْهَا بِحَسَبِ أَعْمَالهمْ، فَجَوَازهمْ عَلَى الصِّرَاط وَسُرْعَتهمْ بِقَدْرِ أَعْمَالهمْ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يَشْفَعُونَ فِي أَصْحَاب الكَبَائِر مِنْ المُؤْمِنِينَ، فَيَشْفَع المَلائِكَة وَالنَّبِيُّونَ وَالمُؤْمِنُونَ، فَيُخْرِجُونَ خَلقًا كَثِيرًا قَدْ أَكَلَتْهُمْ النَّار، إِلَّا دَارَات وُجُوههمْ وَهِيَ مَوَاضِع السُّجُود وَإِخْرَاجهمْ إِيَّاهُمْ مِنْ النَّار بِحَسَبِ مَا فِي قُلُوبهمْ مِنْ الإِيمَان، فَيُخْرِجُونَ أَوَّلًا مَنْ كَانَ فِي قَلبه مِثْقَال دِينَار مِنْ إِيمَان، ثُمَّ الَّذِي يَلِيه، ثُمَّ الَّذِي يَلِيه، ثُمَّ الَّذِي يَلِيه، حَتَّى يُخْرِجُونَ مَنْ كَانَ فِي قَلبه أَدْنَى أَدْنَي أَدْنَي مِثْقَال ذَرَّة مِنْ إِيمَان ثُمَّ يُخْرِج الله مِنْ النَّار مَنْ قَال يَوْمًا مِنْ الدَّهْر: لا إِله إِلَّا الله، وَإِنْ لمْ يَعْمَل خَيْرًا قَطُّ، وَلا يَبْقَى فِي النَّار إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَليْهِ الخُلُود، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلكَ الأَحَادِيث الصَّحِيحَة عَنْ رَسُول الله ﷺ ؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ الكُفَّار حِين تُتْلى عَليْهِمْ آيَات الله، ظَاهِرَة الدَّلالة، بَيِّنَة الحُجَّة، وَاضِحَة البُرْهَان أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ وَيُعْرِضُونَ عَنْ ذَلكَ، وَيَقُولُونَ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا، مُفْتَخِرِينَ عَليْهِمْ، وَمُحْتَجِّينَ عَلى صِحَّة مَا هُمْ عَليْهِ مِنْ الدِّين البَاطِل، بِأَنَّهُمْ: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أَيْ: أَحْسَن مَنَازِل، وَأَرْفَع دُورًا، وَأَحْسَن نَدِيًّا، وَهُوَ: مُجْمَع الرِّجَال للحَدِيثِ، أَيْ: نَادِيهِمْ أَعْمَر وَأَكْثَر وَارِدًا وَطَارِقًا، يَعْنُونَ: فَكَيْف نَكُون وَنَحْنُ بِهَذِهِ المَثَابَة عَلى بَاطِل، وَأُولئِكَ الَّذِينَ هُمْ مُخْتَفُونَ مُسْتَتِرُونَ فِي دَار الأَرْقَم بْن أَبِي الأَرْقَم وَنَحْوهَا مِنْ الدُّور عَلى الحَقّ؟ كَمَا قَال تَعَالى مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، وَقَال قَوْم نُوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾. وَلهَذَا قَال تَعَالى رَادًّا عَليْهِمْ شُبْهَتهمْ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أَيْ: وَكَمْ مِنْ أُمَّة وَقَرْن مِنْ المُكَذِّبِينَ، قَدْ أَهْلكْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ، ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أَيْ: كَانُوا أَحْسَن مِنْ هَؤُلاءِ أَمْوَالًا وَأَمْتِعَة، وَمَنَاظِر وَأَشْكَالًا. قَال الأَعْمَش: عَنْ أَبِي ظَبْيَان، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قَال: المَقَام: المَنْزِل، وَالنَّدِيّ: المَجْلس، وَالأَثَاث: المَتَاع، وَالرِّئْي: المَنْظَر. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: المَقَام: المَسْكَن، وَالنَّدِيّ: المَجْلس وَالنِّعْمَة وَالبَهْجَة الَّتِي كَانُوا فِيهَا. وَهُوَ كَمَا قَال الله لقَوْم فِرْعَوْن حِين أَهْلكَهُمْ وَقَصَّ شَأْنهمْ فِي القُرْآن: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ فَالمَقَام: المَسْكَن وَالنَّعِيم، وَالنَّدِيّ: المَجْلس وَالمَجْمَع الَّذِي كَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَقَال تَعَالى فِيمَا قَصَّ عَلى رَسُوله مِنْ أَمْر قَوْم لُوط؛ إِذ قَال: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ وَالعَرَب تُسَمِّي المَجْلس: النَّادِي. وَقَال قَتَادَة: لـمَّا رَأَوْا أَصْحَاب مُحَمَّد ﷺ فِي عَيْشهمْ خُشُونَة، وَفِيهِمْ قَشَافَة، فَعَرَّضَ أَهْل الشِّرْك بِمَا تَسْمَعُونَ: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾. وَكَذَا قَال مُجَاهِد وَالضَّحَّاك. وَمِنْهُمْ مَنْ قَال فِي الأَثَاث: هُوَ المَال. وَمِنْهُمْ مَنْ قَال: المتاع. وَمِنْهُمْ مَنْ قَال: الثياب. وَالرِّئْي: المَنْظَر، كَمَا قَالهُ ابْن عَبَّاس

---

(١) مرسل: أخرجه الطبري (١٦/ ١١١).

وَمُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: يَعْنِي الصُّوَر. وَكَذَا قَال مَالك: ﴿أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾: أَكْثَر أَمْوَالًا، وَأَحْسَن صُوَرًا. وَالكُلّ مُتَقَارِب صَحِيح.

﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿قُلۡ﴾ يَا مُحَمَّد لِهَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ بِرَبِّهِمْ، المُدَّعِينَ أَنَّهُمْ عَلَى الحَقّ وَأَنَّكُمْ عَلَى البَاطِل: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ أَيْ: مِنَّا وَمِنْكُمْ ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾ أَيْ: فَأَمْهَلَهُ الرَّحْمَن فِيمَا هُوَ فِيهِ حَتَّى يَلقَى رَبّه وَيَنْقَضِي أَجله ﴿إِمَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ يُصِيبهُ ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ بَغْتَة تَأْتِيه، ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حِينَئِذٍ ﴿مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ فِي مُقَابَلة مَا احْتَجُّوا بِهِ مِنْ خَيْرِيَّة المَقَام وَحُسْن النَّدِيّ. قَال مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾ فَلْيَدَعْهُ الله فِي طُغْيَانه. هَكَذَا قَرَّرَ ذَلكَ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللهُ. وَهَذِهِ مُبَاهَلة للمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلى هُدًى فِيمَا هُمْ فِيهِ، كَمَا ذَكَرَ تَعَالى مُبَاهَلة اليَهُود فِي قَوْله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أَيْ: ادْعُوا عَلى المُبْطِل مِنَّا وَمِنْكُمْ بِالمَوْتِ، إِنْ كُنْتُمْ تَدَّعُونَ أَنَّكُمْ عَلى الحَقّ، فَإِنَّهُ لا يَضُرّكُمْ الدُّعَاء، فَنَكَلُوا عَنْ ذَلكَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِير ذَلكَ فِي سُورَة البَقَرَة مَبْسُوطًا، وَللهِ الحَمْد، وَكَمَا ذَكَرَ تَعَالى المُبَاهَلة مَعَ النَّصَارَى فِي سُورَة آل عِمْرَان حِين صَمَّمُوا عَلى الكُفْر، وَاسْتَمَرُّوا عَلى الطُّغْيَان وَالغُلُوّ فِي دَعْوَاهُمْ أَنَّ عِيسَى وَلد الله، وَقَدْ ذَكَرَ الله حُجَجه وَبَرَاهِينه عَلى عُبُودِيَّة عِيسَى، وَأَنَّهُ مَخْلُوق كَآدَم، قَال تَعَالى بَعْد ذَلكَ: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ فَنَكَلُوا أَيْضًا عَنْ ذَلكَ.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا﴾.

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالى إِمْدَاد مَنْ هُوَ فِي الضَّلالة فِيمَا هُوَ فِيهِ، وَزِيَادَته عَلى مَا هُوَ عَلَيْهِ، أَخْبَرَ بِزِيَادَةِ المُهْتَدِينَ هُدًى، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾. وَقَوْله: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرهَا، وَالكَلام عَلَيْهَا، وَإِيرَاد الأَحَادِيث المُتَعَلِّقَة بِهَا فِي سُورَة الكَهْف ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾ أَيْ: جَزَاء ﴿وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا﴾ أَيْ: عَاقِبَة وَمَرَدًّا عَلى صَاحِبهَا.

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا عُمَر بْن رَاشِد، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير، عَنْ أَبِي سَلمَة ابْن عَبْد الرَّحْمَن قَال: جَلسَ رَسُول الله ﷺ ذَات يَوْم، فَأَخَذَ عُودًا يَابِسًا فَحَطَّ وَرَقه، ثُمَّ قَال: «إِنَّ قَوْل (لا إِله إِلاَّ الله، وَالله أَكْبَر، وَالحَمْد لله، وَسُبْحَان الله)، تَحُطّ الخَطَايَا كَمَا تَحُطّ وَرَق هَذِهِ الشَّجَرَة الرِّيحُ، خُذْهُنَّ يَا أَبَا الدَّرْدَاء قَبْل أَنْ يُحَال بَيْنك وَبَيْنهنَّ، هُنَّ البَاقِيَات الصَّالحَات، وَهُنَّ مِنْ كُنُوز الجَنَّة»[1]. قَال أَبُو سَلمَة: فَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاء إِذَا ذَكَرَ هَذَا الحَدِيث قَال: لأُهَلِّلنَّ الله، وَلأُكَبِّرَنَّ الله، وَلأُسَبِّحَنَّ الله، حَتَّى إِذَا رَآنِي الجَاهِل حَسِبَ أَنِّي مَجْنُون. وَهَذَا ظَاهِره أَنَّهُ مُرْسَل، وَلكِنْ قَدْ يَكُون مِنْ رِوَايَة أَبِي سَلمَة عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء، وَالله أَعْلم. وَهَكَذَا وَقَعَ فِي «سُنَن ابْن مَاجَهْ» مِنْ حَدِيث أَبِي مُعَاوِيَة، عَنْ عُمَر بْن رَاشِد، عَنْ يَحْيَى، عَنْ أَبِي سَلمَة، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء فَذَكَرَ نَحْوه.

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبري (٦/ ١٢٠)، وابن ماجه (٣٨١٣)، وفيه عمر بن راشد: ضعيف، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٩٤٧).

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا أَبو مُعَاوِيَه، حَدَّثنَا الأَعْمَش عَنْ مُسْلم عَنْ مَسْرُوق عَنْ خَبَّاب بْن الأَرَتّ قَال: كُنْت رَجُلًا قَيْنًا، وَكَانَ لِي عَلى العَاصِ بْن وَائِل دَيْن، فَأَتَيْته أَتَقَاضَاهُ، فَقَال: لا، وَالله لا أَقْضِيك حَتَّى تَكْفُر بِمُحَمَّدٍ فَقُلت: لا، وَالله لا أَكْفُر بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى تَمُوت، ثُمَّ تُبْعَث. قَال: فَإِنِّي إِذَا مِتّ ثُمَّ بُعِثْت جِئْتنِي وَلِي ثَمّ مَال وَوَلد فَأُعْطِيكَ. فَأَنْزَل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾، إِلى قَوْله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[1] أَخْرَجَهُ صَاحِبَا «الصَّحِيح» وَغَيْرهمَا، مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ الأَعْمَش بِهِ. وَفِي لفْظ البُخَارِيّ: كُنْت قَيْنًا بِمَكَّة، فَعَمِلت للعَاصِ بْن وَائِل سَيْفًا، فَجِئْت أَتَقَاضَاهُ فَذَكَرَ الحَدِيث، وَقَال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قَال: مَوْثِقًا.

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا الثَّوْرِيّ، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوق قَال: قَال خَبَّاب بْن الأَرَتّ: كُنْت قَيْنًا بِمَكَّة، فَكُنْت أَعْمَل للعَاصِ بْن وَائِل، قَال: فَاجْتَمَعَتْ لِي عَلَيْهِ دَرَاهِم، فَجِئْت لأَتَقَاضَاهُ، فَقَال لِي: لا أَقْضِيك حَتَّى تَكْفُر بِمُحَمَّدٍ. فَقُلت: لا أَكْفُر بِمُحَمَّدٍ حَتَّى تَمُوت ثُمَّ تُبْعَث. قَال: فَإِذَا بُعِثْت كَانَ لِي مَال وَوَلد. قَال: فَذَكَرْت ذَلِكَ لرَسُول الله ﷺ، فَأَنْزَل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إِلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: إِنَّ رِجَالًا مِنْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ كَانُوا يَطْلُبُونَ العَاصِ بْن وَائِل السَّهْمِيّ بِدَيْنٍ، فَأَتَوْهُ يَتَقَاضَوْنَهُ، فَقَال: أَلَسْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ فِي الجَنَّة ذَهَبًا وَفِضَّة وَحَرِيرًا، وَمِنْ كُلّ الثَّمَرَات؟ قَالُوا: بَلى. قَال فَإِنَّ مَوْعِدكُمْ الآخِرَة، فَوَالله لأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلدًا، وَلأُوتَيَنَّ مِثْل كِتَابكُمْ الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ. فَضَرَبَ الله مَثَله فِي القُرْآن فَقَال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إِلى قَوْله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[2]. وَهَكَذَا قَال مُجَاهِد وَقَتَادَة وَغَيْرهمْ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي العَاصِ بْن وَائِل.

وَقَوْله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قَرَأَ بَعْضهمْ بِفَتْحِ «الوَاو» مِنْ «وَلدًا» وَقَرَأَ آخَرُونَ بِضَمِّهَا وَهُوَ بِمَعْنَاهُ قَال رُؤْبَة:

الحَمْــــدُ للهِ العَزِيــــزِ فَــــرْدًا ۞ لَمْ يَتَّخِـذ مِــنْ وُلْــد شَــيْء وُلْــدًا.

وَقَال الحَارِث بْن حِلِّزَة:

وَلقَــــدْ رَأَيْــــتُ مَعَاشِــــرًا ۞ قَــــدْ ثَمَّــــرُوا مَــــالًا وَوُلْــــدَا

وَقَال الشَّاعِر:

فَليْــتَ فُلانًــا كَــانَ فِــي بَطْــنِ أُمِّــه ۞ وَليْــتَ فُلانًــا كَــانَ وُلْــد حِمَــار

وَقِيل: إِنَّ الوُلد بِالضَّمّ: جَمْع، وَالوَلد بِالفَتْح: مُفْرَد، وَهِيَ لُغَة قَيْس، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ إِنْكَار عَلى هَذَا القَائِل: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ يَعْنِي: يَوْم القِيَامَة، أَيْ: أَعَلِمَ مَا لهُ فِي الآخِرَة حَتَّى تَأَلَّى وَحَلفَ عَلى ذَلكَ، ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أَمْ لهُ عِنْد الله عَهْد سَيُؤْتِيهِ ذَلكَ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْد البُخَارِيّ: أَنَّهُ المَوْثِق. وَقَال الضَّحَّاك عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قَال: لا إِله إِلَّا الله فَيَرْجُو بِهَا. وَقَال مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قَال: شَهَادَة أَنْ لا إِله إِلَّا الله، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥)، وأحمد (٥/ ١١٠، ١١١).

(٢) صحيح: تقدم.

وَقَوْله: ﴿كَلَّا﴾ هِيَ حَرْف رَدْع لِمَا قَبْلهَا، وَتَأْكِيد لِمَا بَعْدهَا: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أَيْ: مِنْ طَلَبه ذَلِكَ، وَحُكْمه لِنَفْسِهِ بِمَا يَتَمَنَّاهُ، وَكُفْره بِاللهِ الْعَظِيم، ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أَيْ: فِي الدَّار الآخِرَة عَلَى قَوْله ذَلِكَ، وَكُفْره بِاللهِ فِي الدُّنْيَا ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أَيْ: مِنْ مَال وَوَلَد نَسْلُبهُ مِنْهُ، عَكْس مَا قَالَ: إِنَّهُ يُؤْتَى فِي الدَّار الآخِرَة مَالًا وَوَلَدًا زِيَادَة عَلَى الَّذِي لَهُ فِي الدُّنْيَا، بَلْ فِي الآخِرَة يُسْلَب مِنْ الَّذِي كَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أَيْ: مِنْ الْمَال وَالْوَلَد. قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قَالَ: نَرِثُهُ.

وَقَالَ مُجَاهِد: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ مَاله وَوَلَده. وَذَلِكَ الَّذِي قَالَ الْعَاص بْن وَائِل. وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر عَنْ قَتَادَة: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾: قَالَ: مَا عِنْده، وَهُوَ قَوْله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ وَفِي حَرْف ابْن مَسْعُود: (وَنَرِثُهُ مَا عِنْده). وَقَالَ قَتَادَة: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ لَا مَال لَهُ وَلَا وَلَد. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قَالَ: مَا جَمَعَ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَمِلَ فِيهَا، قَالَ: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ قَالَ: فَرْدًا مِنْ ذَلِكَ، لَا يَتْبَعهُ قَلِيل وَلَا كَثِير.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾.

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ الْكُفَّار الْمُشْرِكِينَ بِرَبِّهِمْ: أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونه آلِهَة؛ لِتَكُونَ [لهم][1] تِلْكَ الآلِهَة: ﴿عِزًّا﴾ يَعْتَزُّونَ بِهِمْ وَيَسْتَنْصِرُونَهَا. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ الأَمْر كَمَا زَعَمُوا، وَلَا يَكُون مَا طَمِعُوا، فَقَالَ: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أَيْ: يَوْم الْقِيَامَة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أَيْ: بِخِلَافِ مَا ظَنُّوا فِيهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

وَقَرَأَ أَبُو نَهِيك: (كُلٌّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ). وَقَالَ السُّدِّيّ: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أَيْ: بِعِبَادَةِ الأَوْثَان.

وَقَوْله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أَيْ: بِخِلَافِ مَا رَجَوْا مِنْهُمْ. وَقَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قَالَ: أَعْوَانًا. قَالَ مُجَاهِد: عَوْنًا عَلَيْهِمْ، تُخَاصِمهُمْ وَتُكَذِّبهُمْ. وَقَالَ الْعَوْفِيّ عَنْ بْن عَبَّاس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قَالَ: قُرَنَاء. وَقَالَ السُّدِّيّ: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قَالَ: الْخُصَمَاء الأَشِدَّاء فِي الْخُصُومَة. وَقَالَ قَتَادَة: قُرَنَاء فِي النَّار يَلْعَن بَعْضهمْ بَعْضًا، وَيَكْفُر بَعْضهمْ بِبَعْضٍ. وَقَالَ الضَّحَّاك: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قَالَ: أَعْدَاء. وَقَالَ ابْن زَيْد: الضِّدّ: الْبَلَاء. وَقَالَ عِكْرِمَة: الضِّدّ: الْحَسْرَة.

وَقَوْله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: تُغْوِيهِمْ إِغْوَاء. وَقَالَ الْعَوْفِيّ عَنْهُ: تُحَرِّضهُمْ عَلَى مُحَمَّد وَأَصْحَابه. وَقَالَ مُجَاهِد: تُشَلِّيهِمْ إِشْلَاء. وَقَالَ قَتَادَة: تُزْعِجهُمْ إِزْعَاجًا إِلَى مَعَاصِي اللهِ. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ: تُغْرِيهِمْ إِغْرَاء، وَتَسْتَعْجِلهُمْ اسْتِعْجَالًا. وَقَالَ السُّدِّيّ: تُطْغِيهِمْ طُغْيَانًا. وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد: هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾.

وَقَوْله: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أَيْ: لَا تَعْجَل يَا مُحَمَّد عَلَى هَؤُلَاءِ فِي وُقُوع الْعَذَاب بِهِمْ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أَيْ: إِنَّمَا نُؤَخِّرهُمْ لِأَجَلٍ مَعْدُود مَضْبُوط، وَهُمْ صَائِرُونَ لَا مَحَالَة إِلَى عَذَاب اللهِ وَنَكَاله؛ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾، ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾. قَالَ السُّدِّيّ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾: السِّنِينَ وَالشُّهُور وَالأَيَّام وَالسَّاعَات. وَقَالَ عَلِيّ ابْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قَالَ: نَعُدّ أَنْفَاسهمْ فِي الدُّنْيَا.

---

(١) زيادة من نسخة.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾.

يُخبر تعالى عَنْ أَوْلِيَائِهِ المُتَّقِينَ، الَّذِينَ خَافُوهُ فِي الدَّار الدُّنْيَا، وَاتَّبَعُوا رُسله، وَصَدَّقُوهُمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ، وَأَطَاعُوهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ، وَانْتَهَوْا عَمَّا عَنْهُ زَجَرُوهُمْ أَنَّهُ يَحْشُرُهُمْ يَوْم القِيَامَة وَفْدًا إِلَيْهِ، وَالوَفْد: هُمْ القَادِمُونَ رُكْبَانًا، وَمِنْهُ الوُفُود، وَرُكُوبهمْ عَلَى نَجَائِب مِنْ نُور، مِنْ مَرَاكِب الدَّار الآخِرَة، وَهُمْ قَادِمُونَ عَلَى خَيْر مَوْفُود إِلَيْهِ، إِلَى دَار كَرَامته وَرِضْوَانه. وَأَمَّا المُجْرِمُونَ المُكَذِّبُونَ للرُّسُل المُخَالِفُونَ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ يُسَاقُونَ عُنْفًا إِلَى النَّار، ﴿وِرْدًا﴾ عِطَاشًا. قَالَهُ عَطَاء، وَابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد. وَهَاهُنَا يُقَال: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا ابْن خَالد، عَنْ عَمْرو بْن قَيْس المُلَائِيّ، عَنْ ابْن مَرْزُوق: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قَال: يَسْتَقْبِل المُؤْمِن عِنْد خُرُوجه مِنْ قَبْره أَحْسَن صُورَة رَآهَا، وَأَطْيَبهَا رِيحًا، فَيَقُول: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُول: أَمَا تَعْرِفنِي؟ فَيَقُول: لا، إِلَّا أَنَّ الله قَدْ طَيَّبَ رِيحك وَحَسَّنَ وَجْهك. فَيَقُول: أَنَا عَملك الصَّالح، وَهَكَذَا كُنْت فِي الدُّنْيَا، حَسَن العَمَل طَيِّبه، فَطَالَمَا رَكِبْتُك فِي الدُّنْيَا، فَهَلُمَّ ارْكَبْنِي. فَيَرْكَبهُ، فَذَلِكَ قَوْله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قَال: رُكْبَانًا.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي ابْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا ابْن مَهْدِيّ، عَنْ شعبة، عَنْ إِسْمَاعِيل عَنْ رَجُل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قَال: عَلَى الإِبِل. وَقَال ابْن جُرَيْج: عَلَى النَّجَائِب. وَقَال الثَّوْرِيّ: عَلَى الإِبِل النُّوق. وَقَال قَتَادَة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قَال: إِلَى الجَنَّة. وَقَال عَبْد الله ابْن الإِمَام أَحْمَد فِي «مُسْنَد أَبِيهِ»: حَدَّثَنَا سُوَيْد بْن سَعِيد، أَخْبَرَنَا عَلِيّ بْن مُسْهِر، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنَا النُّعْمَان بْن سعد قَال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْد عَلِيّ رضي الله عنه فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قَال: لا، وَالله مَا عَلَى أَرْجُلهمْ يُحْشَرُونَ، وَلا يُحْشَر الوَفْد عَلَى أَرْجُلهمْ، وَلَكِنْ بِنُوق لَمْ يَرَ الخَلَائِق مِثْلهَا، عَلَيْهَا رَحَائِل مِنْ ذَهَب، فَيَرْكَبُونَ عَلَيْهَا، حَتَّى يَضْرِبُوا أَبْوَاب الجَنَّة. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير، مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق المَدَنِيّ بِهِ. وَزَادَ: عَلَيْهَا رَحَائِل الذَّهَب، وَأَزِمَّتهَا الزَّبَرْجَد، وَالبَاقِي مِثْله.

وَقد رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم هَاهُنَا حَدِيثًا غَرِيبًا جِدًّا مَرْفُوعًا، عَنْ عَلِيّ فَقَال: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو غَسَّان مَالك ابْن إِسْمَاعِيل النَّهْدِيّ، حَدَّثَنَا مَسْلمَة بْن جَعْفَر البَجَلِيّ، سَمِعْت أَبَا مُعَاذ البَصْرِيّ قَال: إِنَّ عَلِيًّا كَانَ ذَات يَوْم عِنْد رَسُول الله ﷺ، فَقَرَأَ عَلِيٌّ هَذِهِ الآيَة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ فَقَال: مَا أَظُنّ الوَفْد إِلَّا الرَّكْب يَا رَسُول الله. فَقَال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُمْ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورهمْ يُسْتَقْبَلُونَ -أَوْ يُؤْتَوْنَ- بِنُوق بِيض لَهَا أَجْنِحَة، وَعَلَيْهَا رِحَال الذَّهَب، شُرُك نِعَالهمْ نُور يَتَلَأْلَأ كُلّ خَطْوَة مِنْهَا مَدّ البَصَر، فَيَنْتَهُونَ إِلَى شَجَرَة يَنْبُع مِنْ أَصْلهَا عَيْنَان، فَيَشْرَبُونَ مِنْ إِحْدَاهُمَا، فَتَغْسِل مَا فِي بُطُونهمْ مِنْ دَنَس، وَيَغْتَسِلُونَ مِنَ الأُخْرَى، فَلا تَشْعَث أَبْشَارهمْ وَلا أَشْعَارهمْ بَعْدهَا أَبَدًا، وَتَجْرِي عَلَيْهِمْ نَضْرَة النَّعِيم، فَيَنْتَهُونَ -أَوْ فَيَأْتُونَ- بَاب الجَنَّة، فَإِذَا حَلقَة مِنْ يَاقُوتَة حَمْرَاء عَلَى صَفَائِح الذَّهَب، فَيَضْرِبُونَ بِالحَلقَةِ عَلَى الصَّفْيحَة، فَيُسْمَع لَهَا طَنِين يَا عَلِيّ، فَيَبْلُغ كُلّ حَوْرَاء أَنَّ زَوْجهَا قَدْ أَقْبَل، فَتَبْعَث قَيِّمهَا فَيَفْتَح لَهُ، فَإِذَا رَآهُ خَرَّ لَهُ -قَال مَسْلمَة: أُرَاهُ قَال: سَاجِدًا- فَيَقُول: ارْفَعْ رَأْسك، إِنَّمَا أَنَا قَيِّمك وُكِّلت بِأَمْرِك. فَيَتْبَعهُ وَيَقْفُو أَثَره، فَتَسْتَخِفّ الحَوْرَاء العَجَلَة، فَتَخْرُج مِنْ خِيَام الدُّرّ وَاليَاقُوت حَتَّى تَعْتَنِقهُ، ثُمَّ تَقُول: أَنْتَ حِبِّي، وَأَنَا حِبّك، وَأَنَا الخَالِدَة الَّتِي لا أَمُوت، وَأَنَا النَّاعِمَة الَّتِي لا أَبْأَس، وَأَنَا الرَّاضِيَة الَّتِي لا أَسْخَط، وَأَنَا المُقِيمَة الَّتِي لا أَظْعَن. فَيَدْخُل بَيْتًا مِنْ أُسّه إِلَى سَقْفه مِائَة أَلْف ذِرَاع، بِنَاؤُهُ عَلَى

جَنْدَل اللُّؤْلُؤ طَرَائِق: [أَحْمَر وَأَصْفَر][١] وَأَخْضَر، لَيْسَ مِنْهَا طَرِيقَة تُشَاكِل صَاحِبَتهَا، وَفِي الْبَيْت سَبْعُونَ سَرِيرًا، عَلَى كُلّ سَرِير سَبْعُونَ حَشِيَّة، عَلَى كُلّ حَشِيَّة سَبْعُونَ زَوْجَة، عَلَى كُلّ زَوْجَة سَبْعُونَ حُلَّة، يَرَى مُخّ سَاقهَا مِنْ وَرَاء الحُلَل، يَقْضِي جِمَاعهَا فِي مِقْدَار لَيْلَة مِنْ لَيَالِيكُمْ هَذِهِ، الأَنْهَار مِنْ تَحْتهمْ تَطَّرِد؛ أَنْهَار مِنْ مَاء غَيْر آسِن -قَالَ: صَافٍ لا كَدَر فِيهِ- وَأَنْهَار مِنْ لَبَن لَمْ يَتَغَيَّر طَعْمه، لَمْ يَخْرُج مِنْ ضُرُوع المَاشِيَة، وَأَنْهَار مِنْ خَمْر لَذَّة لِلشَّارِبِينَ، لَمْ يَعْتَصِرهَا الرِّجَال بِأَقْدَامِهِمْ، وَأَنْهَار مِنْ عَسَل مُصَفًّى، لَمْ يَخْرُج مِنْ بُطُون النَّحْل، فَيَسْتَحْلِي الثِّمَار، فَإِنْ شَاءَ أَكَل قَائِمًا، وَإِنْ شَاءَ قَاعِدًا، وَإِنْ شَاءَ مُتَّكِئًا. ثُمَّ تَلا: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ فَيَشْتَهِي الطَّعَام فَيَأْتِيه طَيْر أَبْيَض -وَرُبَّمَا قَال: أَخْضَر- فَتَرْفَع أَجْنِحَتهَا، فَيَأكل مِنْ جُنُوبهَا أَيّ الأَلْوَان شَاءَ، ثُمَّ تَطِير فَتَذْهَب، فَيَدْخُل المَلَك فَيَقُول: سَلام عَلَيْكُمْ ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَلَوْ أَنَّ شَعْرَة مِنْ شَعْر الحَوْرَاء وَقَعَتْ لأَهْل الأَرْض، لأَضَاءَتْ الشَّمْس مَعَهَا سَوَاد فِي نُور»[٢]. هَكَذَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَة مَرْفُوعًا، وَقَدْ رُوِّينَاهُ فِي المُقَدِّمَات مِنْ كَلام عَلِيّ رضي الله عنه بِنَحْوِهِ، وَهُوَ أَشْبَه بِالصِّحَّةِ، وَاللهُ أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أَيْ: عِطَاشًا، ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ مَنْ يَشْفَع لَهُمْ كَمَا يَشْفَع المُؤْمِنُونَ بَعْضهمْ لِبَعْضٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

وَقَوْله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ هَذَا اسْتِثْنَاء مُنْقَطِع، بِمَعْنَى: لَكِنْ مَنْ اتَّخَذَ عِنْد الرَّحْمَن عَهْدًا، وَهُوَ شَهَادَة أَنْ لا إِله إِلَّا الله، وَالقِيَام بِحَقِّهَا. قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قَال: العَهْد شَهَادَة أَنْ لا إِله إِلَّا الله، وَيَبْرَأ إِلَى الله مِنَ الحَوْل وَالقُوَّة، وَلا يَرْجُو إِلَّا الله عز وجل.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن خَالِد الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن الحَسَن الوَاسِطِيّ، عَنْ المَسْعُودِيّ، عَنْ عَوْن بْن عَبْد الله عَنْ أَبِي فَاخِتَة، عَنْ الأَسْوَد بْن يَزِيد قَال: قَرَأَ عَبْد الله -يَعْنِي ابْن مَسْعُود- هَذِهِ الآيَة: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ ثُمَّ قَال: اتَّخِذُوا عِنْد الله عَهْدًا، فَإِنَّ الله يَقُول يَوْم القِيَامَة: مَنْ كَانَ لَهُ عِنْد الله عَهْد فَلْيَقُمْ. قَالُوا: يَا أَبَا عَبْد الرَّحْمَن؛ فَعَلِّمْنَا. قَال: قُولُوا: اللَّهُمَّ فَاطِر السَّمَاوَات وَالأَرْض، عَالِم الغَيْب وَالشَّهَادَة، فَإِنِّي أَعْهَد إِلَيْك فِي هَذِهِ الحَيَاة الدُّنْيَا أَنك إِن تَكِلْنِي إِلَى عَمَلِي يُقَرِّبنِي مِنَ الشَّرّ وَيُبَاعِدنِي مِنَ الخَيْر، وَإِنِّي لا أَثِق إِلَّا بِرَحْمَتِك، فَاجْعَل لِي عِنْدك عَهْدًا تُؤَدِّيه إِلَيَّ يَوْم القِيَامَة، إِنَّك لا تُخْلِف المِيعَاد. قَال المَسْعُودِيّ: فَحَدَّثَنِي زَكَرِيَّا عَنْ القَاسِم بْن عَبْد الرَّحْمَن، أَخْبَرَنَا ابْن مَسْعُود: وَكَانَ يُلْحِق بِهِنَّ: خَائِفًا مُسْتَجِيرًا مُسْتَغْفِرًا رَاهِبًا رَاغِبًا إِلَيْك. ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ وَجْه آخَر عَنْ المَسْعُودِيّ بِنَحْوِهِ.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾.

لَمَّا قَرَّرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَة الشَّرِيفَة عُبُودِيَّة عِيسَى عليه السلام، وَذَكَرَ خَلْقه مِنْ مَرْيَم بِلا أَب، شَرَعَ فِي مَقَام الإِنْكَار عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، فَقَال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ أَيْ: فِي قَوْلكُمْ هَذَا ﴿شَيْـًٔا إِدًّا﴾ قَال ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة وَمَالِك: أَيْ: عَظِيمًا. وَيُقَال: إِدًّا بِكَسْرِ الهَمْزَة وَفَتْحهَا، وَمَعَ مَدّهَا أَيْضًا ثَلاث لُغَات أَشْهَرهَا الأُولَى.

---

(١) في نسخة تقديم وتأخير.

(٢) ضعيف : إسناده منقطع فيه أبو معاذ البصري: هو سليمان بن أرقم ضعيف، والإسناد بينه وبين عليّ منقطع.

وَقَوْله: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ أَيْ: يَكَاد يَكُون ذَلكَ عِنْد سَمَاعهنَّ هَذِهِ المَقَالة مِنْ فَجَرَة بَنِي آدَم، إعْظَامًا للرَّبِّ وَإجْلالًا؛ لأَنَّهُنَّ مَخْلُوقَات وَمُؤَسَّسَات عَلى تَوْحِيده، وَأَنَّهُ لا إِله إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ لا شَرِيك لهُ، وَلا نَظِير لهُ، وَلا وَلد لهُ، وَلا صَاحِبَة لهُ، وَلا كُفْء لهُ، بَل هُوَ الأَحَد الصَّمَد.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ۞ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ [الوَاحِد] [1]

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي عَلِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الله، حَدَّثَنِي مُعَاوِيَة، عَنْ عَلِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس قَوْله: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ قَال: إِنَّ الشِّرْك فَزِعَتْ مِنْهُ السَّمَاوَات وَالأَرْض وَالجِبَال وَجَمِيع الخَلائِق إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، فكَادَتْ أَنْ تَزُول مِنْهُ لعَظَمَةِ الله، وَكَمَا لا يَنْفَع مَعَ الشِّرْك إِحْسَان المُشْرِك، كَذَلكَ نَرْجُو أَنْ يَغْفِر الله ذُنُوب المُوَحِّدِينَ، وَقَال رَسُول الله ﷺ : **«لقِّنُوا مَوْتَاكُمْ شَهَادَة أَنْ لا إِله إلاَّ الله، فَمَنْ قَالهَا عِنْد مَوْته وَجَبَتْ لهُ الجَنَّة»**. فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، فَمَنْ قَالهَا فِي صِحَّته؟ قَال: **«تِلكَ أَوْجَب وَأَوْجَب»**. ثُمَّ قَال: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لوْ جِيءَ بِالسَّمَاوَات وَالأَرضِينَ وَمَا فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنهنَّ وَمَا تَحْتهنَّ، فَوُضِعْنَ فِي كِفَّة المِيزَان، وَوُضِعَتْ شَهَادَة أَنْ لا إِله إلاَّ الله فِي الكِفَّة الأُخْرَى، لرَجَحَتْ بِهِنَّ»**.[2] وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَيَشْهَد لهُ حَدِيث البِطَاقَة، وَالله أَعْلَم.

وَقَال الضَّحَّاك: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أَيْ: يَتَشَقَّقْنَ فَرَقًا مِنْ عَظَمَة الله. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن ابْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ أَيْ: غَضَبًا لله عَزَّ وَجَلَّ. ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ قَال ابْن عَبَّاس: هَدْمًا. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: ﴿هَدًّا﴾ يَنْكَسِر بَعْضهَا عَلى بَعْض مُتَتَابِعَات. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله ابْن سُوَيْد المَقْبُرِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، حَدَّثَنَا مِسْعَر، عَنْ عَوْن، عن عَبْد الله، قَال: إِنَّ الجَبَل ليُنَادِي الجَبَل بِاسْمِهِ: يَا فُلان، هَل مَرَّ بِك اليَوْم ذاكرًا لله عَزَّ وَجَلَّ؟ فَيَقُول: نَعَمْ وَيَسْتَبْشِر. قَال عَوْن: لهِيَ للخَيْرِ أَسْمَع، أَفَيَسْمَعْنَ الزُّور وَالبَاطِل إِذَا قِيل وَلا يَسْمَعْنَ غَيْره، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم أَيْضًا: حَدَّثَنَا المُنْذِر بْن شَاذَان، حَدَّثَنَا هَوْذَة، حَدَّثَنَا عَوْف، عَنْ غَالب بْن عَجْرَد، حَدَّثَنِي رَجُل مِنْ أهل الشَّام فِي مَسْجِد مِنًى قَال: بَلغَنِي أَنَّ الله لَمَّا خَلقَ الأَرْض وَخَلقَ مَا فِيهَا مِنْ الشَّجَر لمْ يَكُنْ فِي الأَرْض شَجَرَة يَأْتِيهَا بَنُو آدَم إِلَّا أَصَابُوا مِنْهَا مَنْفَعَة -أَوْ قَال: كَانَ لهُمْ فِيهَا مَنْفَعَة- وَلمْ تَزَل الأَرْض وَالشَّجَر بِذَلكَ حَتَّى تَكَلَّمَ فَجَرَة بَنِي آدَم بِتِلكَ الكَلمَة العَظِيمَة: قَوْلهمْ ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾، فَلَمَّا تَكَلَّمُوا بِهَا اقْشَعَرَّتْ الأَرْض وَشَاكَ الشَّجَر. وَقَال كَعْب الأَحْبَار: غَضِبَتْ المَلائِكَة وَاسْتَعَرْت النار، حِين قَالُوا مَا قَالُوا.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حدثنا الأَعْمَش، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن السُّلمِيّ، عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَال قَال رَسُول الله ﷺ : **«ما أَحَد أَصْبَر عَلى أَذًى يَسْمعه مِنْ الله: إنه يُشْرَك بِهِ وَيُجْعَل لهُ وَلد وَهُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَدْفَع عَنْهُمْ وَيَرْزُقهُمْ»**[2]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ». وَفِي لفْظ: **«إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لهُ وَلدًا وَهُوَ يَرْزُقهمْ وَيُعَافِيهِمْ»**.

وَقَوْله: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ أَيْ: لا يَصْلُح لهُ وَلا يَلِيق بِهِ؛ لجَلالهِ وَعَظَمَته؛ لأَنَّهُ لا كُفْء لهُ مِنْ

---

(١) فِي نسخة: [واحد].

(٢) صحيح: تقدم.

خَلقه؛ لأَنَّ جَمِيع الخَلائِق عَبِيد لهُ؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾. أَيْ: قَدْ علِمَ عَدَدهمْ مُنْذُ خَلقَهُمْ إِلى يَوْم القِيَامَة، ذَكَرهمْ وَأُنْثَاهُمْ، وَصَغِيرهمْ وَكَبِيرهمْ ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أَيْ: لا نَاصِر لهُ وَلا مُجِير إِلَّا الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، فَيَحْكُم فِي خَلقه بِمَا يَشَاء، وَهُوَ العَادِل الَّذِي لا يَظْلم مِثْقَال ذَرَّة وَلا يَظْلم أَحَدًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ يَغْرِس لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَات -وَهِيَ الأَعْمَال الَّتِي تُرْضِي الله ﷻ لِمُتَابَعَتِهَا الشَّرِيعَة المُحَمَّدِيَّة، يَغْرِس لهُمْ فِي قُلُوب عِبَاده الصَّالِحِينَ مَوَدَّة، وَهَذَا أَمْر لابُدّ مِنْهُ وَلا مَحِيد عَنْهُ، وَقَدْ وَرَدَتْ بِذَلِكَ الأَحَادِيث الصَّحِيحَة عَنْ رَسُول الله ﷺ مِنْ غَيْر وَجْه: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَة، حَدَّثَنَا سُهَيْل، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«إِنَّ الله إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيل فَقَال: يَا جِبْرِيل، إِنِّي أُحِبّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ»**. قَال: **«فَيُحِبّهُ جِبْرِيل»**. قَال: **«ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْل السَّمَاء: إِنَّ الله يُحِبّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ»**. قَال: **«فَيُحِبّهُ أَهْل السَّمَاء، ثُمَّ يُوضَع لهُ القَبُول فِي الأَرْض. وَإِنَّ الله إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيل فَقَال: يَا جِبْرِيل؛ إِنِّي أُبْغِض فُلانًا فَأَبْغِضْهُ»**. قَال: **«فَيُبْغِضهُ جِبْرِيل، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْل السَّمَاء: إِنَّ الله يُبْغِض فُلانًا فَأَبْغِضُوهُ»**. قَال: **«فَيُبْغِضهُ أَهْل السَّمَاء، ثُمَّ يُوضَع لهُ البَغْضَاء فِي الأَرْض»**[1]. وَرَوَاهُ مُسْلم مِنْ حَدِيث سُهَيْل. وَرَوَاهُ أَحْمَد وَالبُخَارِيّ مِنْ حَدِيث ابْن جُرَيْج، عَنْ مُوسَى بْن عقبة، عَنْ نَافِع مَوْلى ابْن عُمَر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ؓ عَنْ النَّبِيّ ﷺ بنحوه.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَكْر، حَدَّثَنَا مَيْمُون -أَبُو مُحَمَّد المرئي- حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبَّاد المَخْزُومِيّ، عَنْ ثَوْبَان ؓ عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«إِنَّ العَبْد لِيَلتَمِس مَرْضَاة الله فَلا يَزَال كَذَلِكَ، فَيَقُول الله ﷻ لِجِبْرِيل: إِنَّ فُلانًا عَبْدِي يَلتَمِس أَنْ يُرْضِيَنِي، أَلا وَإِنَّ رَحْمَتِي عَليْهِ. فَيَقُول جِبْرِيل: رَحْمَة الله عَلى فُلان، وَيَقُولهَا حَمَلة العَرْش، وَيَقُولهَا مَنْ حَوْلهمْ، حَتَّى يَقُولهَا أَهْل السَّمَاوَات السَّبْع، ثُمَّ يَهْبِط إِلى الأَرْض»**[2]. غَرِيب وَلمْ يُخَرِّجُوهُ مِنْ هَذَا الوَجْه.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَسْوَد بْن عَامِر، حَدَّثَنَا شَرِيك، عَنْ مُحَمَّد بْن سَعْد الوَاسِطِيّ، عَنْ أَبِي ظَبْيَة، عَنْ أَبِي أُمَامَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ المِقَة مِنْ الله -قَال شَرِيك: هِيَ المَحَبَّة- وَالصِّيت مِنْ السَّمَاء، فَإِذَا أَحَبَّ الله عَبْدًا قَال لِجِبْرِيل ؑ: إِنِّي أُحِبّ فُلانًا. فَيُنَادِي جِبْرِيل: إِنَّ رَبّكُمْ يَمِقُ -يَعْنِي: يُحِبّ- فُلانًا فَأَحِبُّوهُ -وأَرَى شَرِيكًا قَدْ قَال: «فَتَنْزِل لهُ المَحَبَّة فِي الأَرْض»، «وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا قَال لِجِبْرِيل: إِنِّي أُبْغِض فُلانًا فَأَبْغِضْهُ». قَال: «فَيُنَادِي جِبْرِيل: إِنَّ رَبّكُمْ يُبْغِض فُلانًا فَأَبْغِضُوهُ، قال: أَرَى شَرِيكًا قد قَال: «فَيَجْرِي لهُ البُغْض فِي الأَرْض»[3]. غَرِيب وَلمْ يُخَرِّجُوهُ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد الحَفَرِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز -يَعْنِي: ابْن مُحَمَّد- وَهُوَ الدَّرَاوَرْدِيّ عَنْ سُهَيْل بْن أَبِي صَالح عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ؓ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«إِذَا أَحَبَّ الله عَبْدًا نَادَى جِبْرِيل: إِنِّي قَدْ أَحْبَبْت فُلانًا فَأَحِبَّهُ. فَيُنَادِي فِي السَّمَاء، ثُمَّ يُنْزِل لهُ المَحَبَّة فِي أَهْل الأَرْض، فَذَلكَ قَوْل**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٣٧).
(٢) حسن: أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٩) وفيه محمد بن بكر: صدوق قد يخطئ.
(٣) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٩) فيه شريك القاضي: ثقة يخطئ كثيرًا، وأبو ظبية الكلاعي: مقبول.

الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾»[1]. وَرَوَاهُ مُسْلم وَالتِّرْمِذِيّ كِلاهُمَا عَنْ قُتَيْبَة، عَنْ الدَّرَاوَرْدِيّ بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح.

وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ قَال: حُبًّا. وَقَال مُجَاهِد عَنْهُ: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾، قَال: مَحَبَّة فِي النَّاس فِي الدُّنْيَا. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْهُ: يُحِبّهُمْ وَيُحَبِّبهُمْ، يَعْنِي: إِلى خَلقه الْمُؤْمِنِينَ. كَمَا قَال مُجَاهِد أَيْضًا. وَالضَّحَّاك وَغَيْرهمْ. وَقَال الْعَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس أَيْضًا: الْوُدّ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فِي الدُّنْيَا، وَالرِّزْق الحَسَن، وَاللِّسَان الصَّادِق. وَقَال قَتَادَة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ أَيْ: وَالله فِي قُلُوب أَهْل الإِيمَان، ذُكِرَ لَنَا أَنَّ هَرِم بْن حَيَّان كَانَ يَقُول: مَا أَقْبَل عَبْد بِقَلْبِهِ إِلى الله إِلَّا أَقْبَل الله بِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَرْزُقهُ مَوَدَّتهمْ وَرَحْمَتهمْ. وَقَال قَتَادَة: وَكَانَ عُثْمَان بْن عَفَّان رضي الله عنه يَقُول: مَا مِنْ عَبْد يَعْمَل خَيْرًا أَوْ شَرًّا إِلَّا كَسَاهُ الله ﷻ رِدَاء عَمَله.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ عَنْ الرَّبِيع بْن صُبَيْح، عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَال: قَال رَجُل: وَالله لأَعْبُدَنَّ الله عِبَادَة أُذْكَر بِهَا. فَكَانَ لا يُرَى فِي حِين صَلاة إِلَّا قَائِمًا يُصَلِّي، وَكَانَ أَوَّل دَاخِل إِلى المَسْجِد وَآخِر خَارِج، فَكَانَ لا يُعَظَّم فَمَكَثَ بِذَلِكَ سَبْعَة أَشْهُر، وَكَانَ لا يَمُرّ عَلى قَوْم إِلَّا قَالُوا: انْظُرُوا إِلى هَذَا المُرَائِي. فَأَقْبَل عَلى نَفْسه فَقَال: لا أَرَانِي أُذْكَر إِلَّا بِشَرّ، لأَجْعَلَنَّ عَمَلِي كُلّه لله ﷻ فَلَمْ يَزِدْ عَلى أَنْ قَلَبَ نِيَّته، وَلَمْ يَزِدْ عَلى العَمَل الَّذِي كَانَ يَعْمَل، فَكَانَ يَمُرّ بَعْد بِالقَوْم فَيَقُولُونَ: رَحِمَ الله فُلانًا، الآن، وَتَلا الحَسَن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾. وَقَدْ رَوَى ابْن جَرِير أَثَرًا أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلَتْ فِي هِجْرَة عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف. وَهُوَ خَطَأ؛ فَإِنَّ هَذِهِ السُّورَة بِتَمَامِهَا مَكِّيَّة، لَمْ يَنْزِل مِنْهَا شَيْء بَعْد الهِجْرَة، وَلَمْ يَصِحّ سَنَد ذَلِكَ، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ﴾ يَعْنِي القُرْآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّد، وَهُوَ اللِّسَان العَرَبِيّ المُبِين الفَصِيح الكَامِل؛ ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أَيْ: الْمُسْتَجِيبِينَ لله الْمُصَدِّقِينَ لِرَسُولِهِ، ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ أَيْ: عِوَجًا عَنْ الحَقّ، مَائِلِينَ إِلى البَاطِل. وَقَال ابْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد: ﴿قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ لا يَسْتَقِيمُونَ. وَقَال الثَّوْرِيّ عَنْ إِسْمَاعِيل -وَهُوَ السُّدِّيّ- عَنْ أَبِي صَالِح: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ عِوَجًا عَنْ الحَقّ. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: ﴿قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾: صُمًّا. وَقَال غَيْره: صُمّ آذَان القُلُوب. وَقَال قَتَادَة: ﴿قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾. يَعْنِي: قُرَيْشًا. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ فُجَّارًا. وَكَذَا رَوَى لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم عَنْ مُجَاهِد.

وَقَال ابْن زَيْد: الأَلَدّ: الظَّلُوم، وَقَرَأَ قول الله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾. وَقَوْله: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ أَيْ: مِنْ أُمَّة كَفَرُوا بِآيَاتِ الله، وَكَذَّبُوا رُسُله ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾. أَيْ: هَل تَرَى مِنْهُمْ أَحَدًا، ﴿أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾. قَال ابْن عَبَّاس وَأَبُو العَالِيَة، وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالضَّحَّاك، وَابْن زَيْد: يَعْنِي صَوْتًا. وَقَال الحَسَن وَقَتَادَة: هَل تَرَى عَيْنًا، أَوْ تَسْمَع صَوْتًا، وَالرِّكْز فِي أَصْل اللُّغَة هُوَ: الصَّوْت الخَفِيّ، قَال الشَّاعِر:

فتوجَّستْ رِكْزَ الأَنِيس فَرَاعَهَا ❁ عَنْ ظَهْر غَيْب وَالأَنِيس سَقَامهَا

آخِر تَفْسِير سُورَة مَرْيَم، ولله الحَمْد وَالمِنَّة. وَيَتْلُوهُ إِنْ شَاءَ الله تعالى تَفْسِير سُورَة طه، والحَمْد لله

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٣٧)، والترمذي (٣١٦١).

تفسير سورة طه وهي مكية

ترتيبها ٢٠ — وآياتها ١٣٥

رَوَى إِمَام الأَئِمَّة مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن خُزَيْمَة فِي كِتَاب «التَّوْحِيد» عَنْ زِيَاد بْن أَيُّوب، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن الْمُنْذِر الخزامي، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مُهَاجِر بْن مِسْمَار، عَنْ عُمَر بْن حَفْص بْن ذَكْوَان، عَنْ مَوْلى الحُرَقَة -يَعْنِي: عَبْد الرَّحْمَن بْن يَعْقُوب- عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الله قرأ طه، ويس قَبْل أَنْ يَخْلُق آدم بِأَلْفِ عَام، فَلَمَّا سَمِعَتْ المَلَائِكَة قَالُوا: طُوبَى لِأُمَّةٍ يَنْزِل عَلَيْهِمْ هَذَا، وَطُوبَى لِأَجْوَافٍ تَحْمِل هَذَا، وَطُوبِي لِأَلْسُنٍ تَتَكَلَّم بِهَذَا»[1]. هَذَا حَدِيث غَرِيب، وَفِيهِ نَكَارَة، وَإِبْرَاهِيم بْن مُهَاجِر وَشَيْخه تُكُلِّمَ فِيهِمَا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝٤ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

تَقَدَّمَ الكَلَام عَلَى الحُرُوف المُقَطَّعَة فِي أَوَّل سُورَة «البَقَرَة» بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الحُسَيْن بْن مُحَمَّد بْن شنبة الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَد -يَعْنِي الزُّبَيْرِيّ- أَنْبَأَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ سَالم الأَفْطَس، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: ﴿طه﴾ يَا رَجُل. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَمُحَمَّد بْن كَعْب، وَأَبِي مَالك، وَعَطِيَّة العَوْفِيّ، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَالضَّحَّاك، وَالسُّدِّيّ، وَابْن أَبْزَى، أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿طه﴾ بِمَعْنَى يَا رَجُل. وَفِي رِوَايَة عَنْ ابْن عَبَّاس، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالثَّوْرِيّ: أَنَّهَا كَلِمَة بِالنَّبَطِيَّة مَعْنَاهَا: يَا رَجُل. وَقَال أَبُو صَالح: هِيَ مُعَرَّبَة.

وَأَسْنَدَ القَاضِي عِيَاض فِي كِتَابه «الشِّفَا» مِنْ طَرِيق عَبْد بْن حُمَيْد فِي «تَفْسِيره»: حَدَّثَنَا هَاشِم بْن القَاسِم عَنْ ابْن جَعْفَر، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس قَال: كَانَ النَّبِيّ ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ عَلَى رِجْل وَرَفَعَ الأُخْرَى، فَأَنْزَل الله تَعَالى: ﴿طه﴾[2]، يَعْنِي: طَأْ الأَرْض يَا مُحَمَّد ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ ثُمَّ قَال: وَلا خفاء بِمَا فِي هَذَا مِنْ الإِكْرَام وَحُسْن المُعَامَلَة.

وقَوْله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ قَال جُوَيْبِر: عَنْ الضَّحَّاك: لَـمَّا أَنْزَل الله القُرْآن عَلى رَسُوله ﷺ، قَامَ بِهِ هُوَ وَأَصْحَابه، فَقَال المُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْش: مَا أُنْزِل هَذَا القُرْآن عَلى مُحَمَّد إِلَّا لِيَشْقَى! فَأَنْزَل الله تَعَالى: ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾. فَلَيْسَ الأَمْر كَمَا زَعَمَهُ المُبْطِلُونَ، بَل مَنْ آتَاهُ الله العِلم فَقَدْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا كَثِيرًا، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ مُعَاوِيَة، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«مَنْ يُرِدْ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّين»**.[3]

وَمَا أَحْسَنَ الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ فِي ذَلك، حَيْثُ قَال: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن زُهَيْر، حَدَّثَنَا العَلَاء بْن سَالم، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم الطَّالقَانِيّ، حَدَّثَنَا ابْن المُبَارَك، عَنْ سُفْيَان، عَنْ سِمَاك بْن حَرْب، عَنْ

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن خزيمة (٢٣٦)، وابن أبي عاصم (٢٦٩)، وفيه إبراهيم بن المهاجر: ضعيف، وشيخه عمر بن حفص: ضعيف، وضعفه الألباني في «ظلال الجنة» (٦٠٧).

(٢) **مرسل**: فالربيع بن أنس ليس صحابيًا.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

ثَعْلَبَة بْن الحَكَم قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «يَقُول الله تَعَالى للعُلَمَاءِ يَوْم القِيَامَة، إِذَا قَعَدَ عَلى كُرْسِيّه لقَضَاءِ عِبَاده: إِنِّي لمْ أَجْعَل عِلمِي وَحِكْمَتِي فِيكُمْ إِلاَّ وَأَنَا أُرِيد أَنْ أَغْفِر لكُمْ عَلى مَا كَانَ مِنكُمْ وَلا أُبَالِي»[1]. إِسْنَاده جَيِّد، وَثَعْلَبَة بْن الحَكَم هَذَا هُوَ اللَّيْثِيّ ذَكَرَهُ أَبُو عُمَر فِي «اسْتِيعَابه»، وَقَال: نَزَل البَصْرَة، ثُمَّ تَحَوَّل إِلى الكُوفَة، وَرَوَى عَنْهُ سِمَاك بْن حَرْب.

وَقَال مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾: هِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾، وَكَانُوا يُعَلِّقُونَ الحِبَال بِصُدُورِهِمْ فِي الصَّلاة. وَقَال قَتَادَة: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ لا، وَالله مَا جَعَلهُ شَقَاء، وَلكِنْ جَعَلهُ رَحْمَة وَنُورًا، وَدَليلًا إِلى الجَنَّة. ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾: إن الله أنزل كتابه وبعث رسله رحمة، رحم بها العباد؛ ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيها حلاله وحرامه.

وَقَوْله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ أَيْ: هَذَا القُرْآن -الَّذِي جَاءَك يَا مُحَمَّد- هُوَ تَنْزِيل مِنْ رَبّ كُلّ شَيْء وَمَليكه، القَادِر عَلى مَا يَشَاء، الَّذِي خَلقَ الأَرْض بِانْخِفَاضِهَا وَكَثَافَتهَا، وَخَلقَ السَّمَاوَات العُلى فِي ارْتِفَاعهَا وَلطَافَتهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيث الَّذِي صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيّ وَغَيْره: أَنَّ سُمْك كُلّ سَمَاء مَسِيرَة خَمْسِمِائَةِ عَام، وَبُعْد مَا بَيْنَهَا وَالَّتِي تَليهَا مَسِيرَة خَمْسِمِائَةِ عَام. وَقَدْ أَوْرَدَ ابْن أَبِي حَاتِم هَاهُنَا حَدِيث الأَوْعَال مِنْ رِوَايَة العَبَّاس عَمّ رَسُول الله ﷺ وَرَضِيَ الله عَنْهُ.

وَقَوْله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ تَقَدَّمَ الكَلام عَلى ذَلكَ فِي سُورَة الأَعْرَاف بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته أَيْضًا، وَأَنَّ المَسْلك الأَسْلم فِي ذَلكَ طَرِيقَة السَّلف، إِمْرَار مَا جَاءَ فِي ذَلكَ مِنْ الكِتَاب وَالسُّنَّة، مِنْ غَيْر تَكْيِيف وَلا تَحْرِيف وَلا تَشْبِيه وَلا تَعْطِيل وَلا تَمْثِيل.

وَقَوْله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أَيْ: الجَمِيع مُلكه وَفِي قَبْضَته، وَتَحْت تَصْرِيفه وَمَشِيئَته، وَإِرَادَته وَحُكْمه، وَهُوَ خَالق ذَلكَ، وَمَالكه وَإِلهه، لا إِله سِوَاهُ، وَلا رَبّ غَيْره.

وَقَوْله: ﴿وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾، قَال مُحَمَّد بْن كَعْب: مَا تَحْت الأَرْض السَّابِعَة. وَقَال الأَوْزَاعِيّ: إِنَّ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير حَدَّثَهُ: أَنَّ كَعْبًا سُئِل فَقِيل لهُ: مَا تَحْت هَذِهِ الأَرْض؟ قَال: المَاء. قِيل: وَمَا تَحْت المَاء؟ قَال: الأَرْض. قِيل: وَمَا تَحْت الأَرْض؟ قَال: المَاء. قِيل: وَمَا تَحْت المَاء؟ قَال: الأَرْض. قِيل: وَمَا تَحْت الأَرْض؟ قَال: المَاء. قِيل: وَمَا تَحْت المَاء؟ قَال: الأَرْض. قِيل: وَمَا تَحْت الأَرْض؟ قَال: المَاء. قِيل: وَمَا تَحْت المَاء؟ قَال: الأَرْض. قِيل: وَمَا تَحْت الأَرْض؟ قَال: صَخْرَة. قِيل: وَمَا تَحْت الصَّخْرَة؟ قَال: مَلك. قِيل: وَمَا تَحْت المَلك؟ قَال: حُوت مُعَلَّق طَرَفَاهُ بِالعَرْش. قِيل: وَمَا تَحْت الحُوت؟ قَال: الهَوَاء وَالظُّلمَة، وَانْقَطَعَ العِلم.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْد الله ابْن أَخِي ابْن وَهْب، حَدَّثَنَا عَمِّي، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عَيَّاش، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن سُليمان، عَنْ دَرَّاج، عَنْ عِيسَى بْن هِلال الصَّدَفِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الأَرَضِينَ بَيْن كُلّ أَرْض وَالَّتِي تَليهَا مَسِيرَة خَمْسِمِائَةِ عَام، وَالعُليَا مِنْهَا عَلى ظَهْر حُوت، قَدْ التَقَى طَرَفَاهُ فِي السَّمَاء وَالحُوت عَلى صَخْرَة، وَالصَّخْرَة بِيَدِ المَلك، وَالثَّانِيَة سِجْن الرِّيح، وَالثَّالثَة فِيهَا حِجَارَة جَهَنَّم، وَالرَّابِعَة فِيهَا كِبْرِيت جَهَنَّم، وَالخَامِسَة فِيهَا حَيَّات جَهَنَّم، وَالسَّادِسَة فِيهَا عَقَارِب جَهَنَّم، وَالسَّابِعَة فِيهَا سَقَر، وَفِيهَا إِبْليس مُصَفَّد بِالحَدِيدِ، يد أَمَامه وَيَد خَلفه، فَإِذَا أَرَادَ الله أَنْ يُطْلقهُ لمَا يَشَاء أَطْلقَهُ»[2]. هَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا، وَرَفْعه فِيهِ نَظَر.

---

(١) موضوع: أخرجه الطبراني (٣/ ٨٤/ ١٣٨١)، وقال الألباني: موضوع. انظر «الضعيفة» (٨٦٧).

(٢) منكر: فيه أبو عبيد الله: تغير بآخره، وعبد الله بن عياش: صدوق يغلط. والمتن فيه نكارة شديدة، ومخالفة للأحاديث الصحيحة، بأن إبليس نصب عرشه على الماء. وقال الألباني: (منكر). انظر «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢١٥٣).

وَقَال الحَافِظ أَبُو يَعْلى فِي «مُسْنَده»: حَدَّثَنَا أَبُو مُوسَى الهَرَوِيّ، عَنْ العَبَّاس بْن الفَضْل -قُلت: ابْن الفَضْل الأَنْصَارِيّ؟ قَال: نَعَمْ- عَنْ القَاسِم بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ مُحَمَّد بْن عَلِيّ، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله قَال: كُنْت مَعَ رَسُول الله ﷺ فِي غَزْوَة تَبُوك، فَأَقْبَلنَا رَاجِعِينَ فِي حَرّ شَدِيد، فَنَحْنُ مُتَفَرِّقُونَ بَيْن وَاحِد وَاثْنَيْنِ، مُنْتَشِرِينَ، قَال: وَكُنْت فِي أَوَّل العَسْكَر، إِذْ عَارَضَنَا رَجُل فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَال: أَيُّكُمْ مُحَمَّد؟ وَمَضَى أَصْحَابِي وَوَقَفْت مَعَهُ، فَإِذَا رَسُول الله ﷺ قَدْ أَقْبَل فِي وَسَط العَسْكَر عَلى جَمَل أَحْمَر، مُقَنَّع بِثَوْبِهِ عَلى رَأْسه مِنْ الشَّمْس، فَقُلت: أَيُّهَا السَّائِل، هَذَا رَسُول الله قَدْ أَتَاك. فَقَال: أَيُّهُمْ هُوَ؟ فَقُلت: صَاحِب البَكْر الأَحْمَر. فَدَنَا مِنْهُ، فَأَخَذَ بِخِطَام رَاحِلته، فَكَفَّ عَلَيْهِ رَسُول الله ﷺ فَقَال: أَنْتَ مُحَمَّد؟ قَال: «نَعَمْ». قَال: إِنِّي أُرِيد أَنْ أَسْأَلك عَنْ خِصَال، لا يَعْلمهُنَّ أَحَد مِنْ أَهْل الأَرْض إِلَّا رَجُل أَوْ رَجُلانِ. فَقَال رَسُول الله ﷺ : «سَل عَمَّا شِئْت». فَقَال: يَا مُحَمَّد أَيَنَامُ النَّبِيّ؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ : «تَنَام عَيْنَاهُ وَلا يَنَام قَلبه». قَال: صَدَقْت. ثُمَّ قَال: يَا مُحَمَّد، مِنْ أَيْنَ يُشْبِه الوَلد أَبَاهُ وَأُمّه؟ قَال: «مَاء الرَّجُل أَبْيَض غَلِيظ، وَمَاء المَرْأَة أَصْفَر رَقِيق، فَأَيّ المَاءَيْنِ غَلبَ عَلى الآخَر نَزَعَ الوَلد». فَقَال: صَدَقْت. فَقَال: مَا للرَّجُل مِنْ الوَلد، وَمَا للمَرْأَةِ مِنْهُ؟ فَقَال: «للرَّجُل العِظَام وَالعُرُوق وَالعَصَب، وَللمَرْأَةِ اللَّحْم وَالدَّم وَالشَّعْر». قَال: صَدَقْت. ثُمَّ قَال: يَا مُحَمَّد، مَا تَحْت هَذِهِ؟ -يَعْنِي: الأَرْض- فَقَال رَسُول الله ﷺ : «خَلق». فَقَال: فَمَا تَحْتهمْ؟ قَال: «أَرْض». قَال: فَمَا تَحْت الأَرْض؟ قَال: «المَاء». قَال: فَمَا تَحْت المَاء؟ قَال: «ظُلمَة». قَال: فَمَا تَحْت الظُّلمَة؟ قَال: «الهَوَاء». قَال: فَمَا تَحْت الهَوَاء؟ قَال: «الثَّرَى». قَال: فَمَا تَحْت الثَّرَى؟ فَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُول الله ﷺ بِالبُكَاءِ وَقَال: «انْقَطَعَ عِلم المخلوقين عِنْد عِلم الخَالق، أَيُّهَا السَّائِل: مَا المَسْئُول عَنْهَا بِأَعْلم مِنْ السَّائِل». قَال: فَقَال: صَدَقْت، أَشْهَد أَنَّك رَسُول الله. فَقَال رَسُول الله ﷺ : «أَيُّهَا النَّاس هَل تَدْرُونَ مَنْ هَذَا؟». قَالُوا: الله وَرَسُوله أَعْلم. قَال: «هَذَا جِبْرِيل ﷺ »[1]. هَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا، وَسِيَاق عَجِيب، تَفَرَّدَ بِهِ القَاسِم بْن عَبْد الرَّحْمَن هَذَا، وَقَدْ قَال فِيهِ يَحْيَى بْن مَعِين: لَيْسَ يُسَاوِي شَيْئًا. وَضَعَّفَهُ أَبُو حَاتِم الرَّازِيّ، وَقَال ابْن عَدِيّ: لا يُعْرَف. قُلت: وَقَدْ خَلطَ فِي هَذَا الحَدِيث، وَدَخَل عَلَيْهِ شَيْء فِي شَيْء، وَحَدِيث فِي حَدِيث، وَقَدْ يَحْتَمِل أَنَّهُ تَعَمَّدَ ذَلِكَ، أَوْ أُدْخِل عَلَيْهِ فِيهِ، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أَيْ: أَنْزَل هَذَا القُرْآن الَّذِي خَلقَ الأَرْض وَالسَّمَاوَات العُلى الَّذِي يَعْلم السِّرّ وَأَخْفَى، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾. قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قَال: السِّرّ مَا أَسَرَّ ابْن آدَم فِي نَفْسه ﴿وَأَخْفَى﴾ مَا أُخْفِيَ عَلى ابْن آدَم مِمَّا هُوَ فَاعِله قَبْل أَنْ يَعْلمهُ، فَالله يَعْلم ذَلِكَ كُلّه، فَعِلمه فِيمَا مَضَى مِنْ ذَلِكَ وَمَا بَقِيَ عِلم وَاحِد، وَجَمِيع الخَلائِق فِي ذَلِكَ عِنْده كَنَفْسٍ وَاحِدَة، وَهُوَ قَوْله: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾. وَقَال الضَّحَّاك: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قَال: السِّرّ: مَا تُحَدِّث بِهِ نَفْسك، وَأَخْفَى: مَا لمْ تُحَدِّث بِهِ نَفْسك بَعْد.

وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: أَنْتَ تَعْلم مَا تُسِرّ اليَوْم وَلا تَعْلم مَا تُسِرّ غَدًا، وَالله يَعْلم مَا تُسِرّ اليَوْم وَمَا تُسِرّ غَدًا.

وَقَال مُجَاهِد: ﴿وَأَخْفَى﴾ يَعْنِي: الوَسْوَسَة.

وَقَال أَيْضًا هُوَ وَسَعِيد بْن جُبَيْر: ﴿وَأَخْفَى﴾ أَيْ: مَا هُوَ عَامِله مِمَّا لمْ يُحَدِّث بِهِ نَفْسه.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أَيْ: الَّذِي أَنْزَل عَلَيْك القُرْآن: هُوَ الله الَّذِي لا إِله إِلَّا هُوَ

---

(١) ضعيف جدًا : فيه أبو القاسم ابن عبد الرحمن: ضعفه أبو حاتم، وقال فيه يحيي بن معين: ليس يساوي شيئًا. وقال ابن كثير: هذا حديث غريب جدًا وسياق عجيب.

ذُو الأَسْمَاء الحُسْنَى وَالصِّفَات العُلى. وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَان الأَحَادِيث الوَارِدَة فِي الأَسْمَاء الحُسْنَى فِي أَوَاخِر سُورَة الأَعْرَاف، ولله الحَمْد وَالمِنَّة.

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾.

مِنْ هَاهُنَا شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذِكْر قِصَّة مُوسَى، وَكَيْف كَانَ ابْتِدَاء الوَحْي إِلَيْهِ وَتَكْلِيمه إِيَّاهُ، وَذَلِكَ بَعْدَمَا قَضَى مُوسَى الأَجَل الَّذِي كَانَ بَيْنه وَبَيْن صِهْره فِي رِعَايَة الغَنَم، وَسَارَ بِأَهْلِهِ -قِيل: قَاصِدًا بِلاد مِصْر- بَعْدَمَا طَالَتْ الغَيْبَة عَنْهَا أَكْثَر مِنْ عَشْر سِنِينَ، وَمَعَهُ زَوْجَته، فَأَضَلَّ الطَّرِيق، وَكَانَتْ لَيْلَة شَاتِيَة، وَنَزَل مَنْزِلًا بَيْن شِعَاب وَجِبَال، فِي بَرْد وَشِتَاء، وَسَحَاب وَظَلام وَضَبَاب، وَجَعَل يَقْدَح بِزَنْدٍ مَعَهُ لِيُورِّيَ نَارًا، كَمَا جَرَتْ لَهُ العَادَة بِهِ، فَجَعَل لا يَقْدَح شَيْئًا، وَلا يَخْرُج مِنْهُ شَرَر وَلا شَيْء، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذْ آنَسَ مِنْ جَانِب الطُّور نَارًا، أَيْ: ظَهَرَتْ لَهُ نَار مِنْ جَانِب الجَبَل الَّذِي هُنَاكَ عَنْ يَمِينه، فَقَال لأَهْلِهِ يُبَشِّرهُمْ: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أَيْ: شِهَاب مِنْ نَار، وَفِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وَهِيَ: الجَمْر الَّذِي مَعَهُ لَهَب ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ دَلَّ عَلَى وُجُود البَرْد. وَقَوْله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دَلَّ عَلَى وُجُود الظَّلام.

وَقَوْله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أَيْ: مَنْ يَهْدِينِي الطَّرِيق، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ [كان][1] قَدْ تَاهَ عَنْ الطَّرِيق، كَمَا قَال الثَّوْرِيّ عَنْ أَبِي سَعْد الأَعْوَر، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ قَال: مَنْ يَهْدِينِي إِلَى الطَّرِيق، وَكَانُوا شَاتِينَ وَضَلُّوا الطَّرِيق، فَلَمَّا رَأَى النَّار قَال: إِنْ لَمْ أَجِد أَحَدًا يَهْدِينِي آتِيكُم بِنَارٍ تُوقِدُونَ بِهَا.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أَيْ: النَّار وَاقْتَرَبَ مِنْهَا، ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾. وَفِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، وَقَال هَاهُنَا: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ أَيْ: الَّذِي يُكَلِّمك وَيُخَاطِبك. ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَالب وَأَبُو ذَرّ وَأَبُو أَيُّوب، وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف: كَانَتَا مِنْ جِلد حِمَار غَيْر ذَكِيّ. وَقِيل: إِنَّمَا أَمَرَهُ بِخَلع نَعْلَيْهِ تَعْظِيمًا لِلبُقْعةِ. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: كَمَا يُؤْمَر الرَّجُل أَنْ يَخْلع نَعْلَيْهِ إِذَا أَرَادَ دُخُولَ الكَعْبَة. وَقِيل: لِيَطَأَ الأَرْض المُقَدَّسَة بِقَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْر مُنْتَعِل. وَقِيل غَيْر ذَلِكَ، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿طُوًى﴾، قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: هُوَ اسْم لِلوَادِي. وَكَذَا قَال غَيْر وَاحِد. فَعَلَى هَذَا يَكُون عَطْف بَيَان. وَقِيل: عِبَارَة عَنْ الأَمْر بِالوَطْءِ بِقَدَمَيْهِ. وَقِيل: لأَنَّهُ قُدِّسَ مَرَّتَيْنِ، وَطَوَى لَهُ البَرَكَة وَكُرِّرَتْ. وَالأَوَّل أَصَحّ، لِقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾. وَقَوْله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾، أَيْ: عَلَى جَمِيع النَّاس مِنْ المَوْجُودِينَ فِي زَمَانه.

وَقِيل: إِنَّ الله تَعَالى قَال: يَا مُوسَى، أَتَدْرِي لِمَ خَصَصْتُك بِالتَّكْلِيمِ مِنْ بَيْن النَّاس؟ قَال: لا. قَال: لأَنِّي لَمْ يَتَوَاضَع لِي أَحَد تَوَاضُعك.

وَقَوْله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ أَيْ: اسمع الآن مَا أَقُول لك وَأُوحِيه إِلَيْك: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ هَذَا أَوَّل وَاجِب عَلَى المُكَلَّفِينَ، أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ لا إِله إِلَّا الله وَحْده لا شَرِيك لَهُ.

---

(١) زيادة من نسخة.

وَقَوْله: ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ أَيْ: وَحِّدْنِي وَقُمْ بِعِبَادَتِي مِنْ غَيْر شريك، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ قِيل: مَعْنَاهُ صَلِّ لتَذْكُرنِي. وَقِيل: مَعْنَاهُ: وَأَقِمْ الصَّلاة عِنْد ذِكْرك لي. وَيَشْهَد لهَذَا الثَّانِي مَا قَال الإمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، حَدَّثنَا الْمُثَنَّى بْن سَعِيد، عَنْ قَتَادَة، عَنْ أَنَس عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «**إِذَا رَقَدَ أَحَدكُمْ عَنْ الصَّلَاة، أَوْ غَفَل عَنْهَا، فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، فَإِنَّ الله تَعَالى قَال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾**»[1]. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَنَس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «**مَنْ نَامَ عَنْ صلاة أَوْ نَسِيَهَا، فَكَفَّارَتهَا أَنْ يُصَلِّيهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لا كَفَّارَة لهَا إلاَّ ذَلك**».[2]

وَقَوْله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ أَيْ: قَائِمَة لا مَحَالة، وَكَائِنَة لابُدّ مِنْهَا. وَقَوْله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾. قَال الضَّحَّاك عَنْ ابْن عَبَّاس، إِنَّهُ كَانَ يَقْرَؤُهَا «أَكَاد أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي». يَقُول: لأَنَّهَا لا تَخْفَى مِنْ نَفْس الله أَبَدًا. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: عَنْ ابْن عَبَّاس: مِنْ نَفْسه. وَكَذَا قَال مُجَاهِد، وَأَبُو صَالح، وَيَحْيَى بْن رَافِع. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يَقُول: لا أُطْلع عَليْهَا أَحَدًا غَيْرِي.

وَقَال السُّدِّيّ: لَيْسَ أَحَد مِنْ أَهْل السَّمَاوَات وَالأَرْض إِلَّا قَدْ أَخْفَى الله عَنْهُ عِلم السَّاعَة، وَهِيَ فِي قِرَاءَة ابْن مَسْعُود: (إِنِّي أَكَاد أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي) يَقُول: كَتَمْتهَا من الخَلائِق، حَتَّى لوْ اسْتَطَعْت أَنْ أَكْتُمهَا مِنْ نَفْسِي لفَعَلت. وَقَال قَتَادَة: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، وَهِيَ فِي بَعْض القِرَاءَة: (أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي). وَلعَمْرِي لقَدْ أَخْفَاهَا الله مِنْ المَلائِكَة المُقَرَّبِينَ، وَمِنْ الأَنْبِيَاء وَالمُرْسَلينَ. قُلت: وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وَقَال: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أَيْ: ثَقُل عِلمهَا عَلى أَهْل السَّمَاوَات وَالأَرْض.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثنَا مِنْجَاب، حَدَّثنَا أَبُو تُمَيْلة، حَدَّثنِي مُحَمَّد بْن سَهْل الأَسَدِيّ، عَنْ وقاء قَال: أَقْرَأَنِيهَا سَعِيد بْن جُبَيْر ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ يَعْنِي: بِنَصْبِ الأَلف، وَخَفْض الفَاء، يَقُول: أُظْهِرهَا، ثُمَّ قَال: أَمَا سَمِعْت قَوْل الشَّاعِر:

دَابَ شَهْرَيْنِ ثُمَّ شَهْرًا دَمِيكًا ❁ بِأَرِيكَيْنِ يَخْفِيَانِ غَمِيرًا

قَال السُّدِّيّ: الغَمِير: نَبْت رَطْب يَنْبُت فِي خِلال يُبْس. والأريكين: مَوْضِع. وَالدَّمِيك: الشَّهْر التَّام. وَهَذَا الشِّعْر لكَعْبِ بْن زُهَيْر.

وَقَوْله سُبْحَانه وَتَعَالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أَيْ: أُقِيمهَا لا مَحَالة؛ لأَجْزِيَ كُلّ عَامِل بِعَمَلِهِ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ و ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾، المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أي: لا تتبعوا مَنْ كذَّب بالسَّاعِة، وأقْبَل علَى ملاذِّه في دُنْياه، وعصىَ مَوْلاه، واتَّبعَ هَوَاه، فمَنْ وافقهم عَلَى ذَلكَ فقَدْ خَابَ وخَسِرَ، ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: تهلك وتعطب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ⑰ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ⑱ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ⑲ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ⑳ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

هَذَا بُرْهَان مِنْ الله تَعَالى لمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُعْجِزَة عَظِيمَة وَخَرْق للعَادَةِ بَاهِر، دالٌّ عَلى أَنَّهُ لا يَقْدِر عَلى مِثْل هَذَا إِلَّا الله عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ لا يَأْتِي بِهِ إِلَّا نَبِيّ مُرْسَل. فقَوْله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ قَال بَعْض المُفَسِّرِينَ: إِنَّمَا

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (١١٠٤).
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤).

قَال لهُ ذَلكَ عَلى سَبيل الإِينَاس لهُ. وَقِيل: إِنَّمَا قَال لهُ ذَلكَ عَلى وَجْه التَّقْرِير، أَيْ: أَمَّا هَذِهِ الَّتِي فِي يَمِينك عَصَاك الَّتِي تَعْرِفهَا، فَسَتَرَى مَا نَصْنَع بِهَا الآن، ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ اسْتِفْهَام تَقْرِير. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ أَيْ: أَعْتَمِد عَليْهَا فِي حَال المَشْي ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أَيْ: أَهُزّ بِهَا الشَّجَرَة لِيَسْقط وَرَقهَا لتَرْعَاهُ غَنَمِي. قَال عَبْد الرَّحْمَن بْن القَاسِم عَنْ الإِمَام مَالك: والهَشّ: أَنْ يَضَع الرَّجُل المِحْجَن فِي الغُصْن، ثُمَّ يُحَرِّكهُ حَتَّى يَسْقُط وَرَقه وَثَمَره، وَلا يَكْسِر العُود، فَهَذَا الهَشّ، وَلا يَخْبِط. وَكَذَا قَال مَيْمُون بْن مِهْرَان أَيْضًا.

وَقَوْله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أَيْ: مَصَالح وَمَنَافِع وَحَاجَات أُخَر غَيْر ذَلكَ. وَقَدْ تَكَلَّفَ بَعْضهمْ لِذِكْرِ شَيْء مِنْ تِلكَ المَآرِب الَّتِي أُبْهِمَتْ، فَقِيل: كَانَتْ تُضِيء لهُ بِاللَّيْل، وَتَحْرُس لهُ الغَنَم إِذَا نَامَ، وَيَغْرِسهَا فَتَصِير شَجَرَة تُظِلّهُ، وَغَيْر ذَلكَ مِنْ الأُمُور الخَارِقَة للعَادَةِ. وَالظَّاهِر: أَنَّهَا لمْ تَكُنْ كَذَلكَ، وَلوْ كَانَتْ كَذَلكَ لمَا اسْتَنْكَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ صَيْرُورَتهَا ثُعْبَانًا، فَمَا كَانَ يَفِرّ مِنْهَا هَارِبًا، وَلكِنْ كُلّ ذَلكَ مِنْ الأَخْبَار الإِسْرَائِيليَّة، وَكَذَا قَوْل بَعْضهمْ: إِنَّهَا كَانَتْ لآدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَوْل الآخَر: إِنَّهَا هِيَ الدَّابَّة الَّتِي تَخْرُج قَبْل يَوْم القِيَامَة. وَرُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَال: كَانَ اسْمهَا مَاشَا. وَالله أَعْلم بِالصَّوَاب.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أَيْ: هَذِهِ العَصَا الَّتِي فِي يَدك يَا مُوسَى أَلْقِهَا. ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أَيْ: صَارَتْ فِي الحَال حَيَّة عَظِيمَة، ثُعْبَانًا طَوِيلًا، يَتَحَرَّك بِحَرَكَة سَرِيعَة، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزّ كَأَنَّهَا جَانّ وَهُوَ أَسْرَع الحَيَّات حَرَكَة، وَلكِنَّهُ صَغِير، فَهَذِهِ فِي غَايَة الكِبَر، وَفِي غَايَة سُرْعَة الحَرَكَة. ﴿تَسْعَىٰ﴾ أَيْ: تَمْشِي وَتَضْطَرِب. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْدَة، حَدَّثَنَا حَفْص بْن جُمَيْع، حَدَّثَنَا سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ وَلمْ تَكُنْ قَبْل ذَلكَ حَيَّة، فَمَرَّتْ بِشَجَرَةٍ فَأَكَلتْهَا، وَمَرَّتْ بِصَخْرَةٍ فَابْتَلعَتْهَا، فَجَعَل مُوسَى يَسْمَع وَقْع الصَّخْرَة فِي جَوْفهَا، فَوَلَّى مُدْبِرًا، فَنُودِيَ أَنْ: يَا مُوسَى؛ خُذْهَا، فَلمْ يَأْخُذهَا، ثُمَّ نُودِيَ الثَّانِيَة أَنْ خُذْهَا وَلا تَخَفْ، فَقِيل لهُ فِي الثَّالثَة: إِنَّك مِنْ الآمِنِينَ فَأَخَذَهَا.

وَقَال وَهْب بْن مُنَبِّه فِي قَوْله: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ قَال: فَأَلْقَاهَا عَلى وَجْه الأَرْض، ثُمَّ حَانَتْ مِنْهُ نَظْرَة، فَإِذَا أَعْظَم ثُعْبَان نَظَرَ إِليْهِ النَّاظِرُونَ، فَدَبّ يَلتَمِس كَأَنَّهُ يَبْتَغِي شَيْئًا يُرِيد أَخْذه، يَمُرّ بِالصَّخْرَةِ مِثْل الخَلفَة مِنْ الإِبِل فَيَلتَقِمهَا، وَيَطْعَن بِالنَّاب مِنْ أَنْيَابه فِي أَصْل الشَّجَرَة العَظِيمَة فَيَجْتَثّهَا، عَيْنَاهُ تُوقَدَانِ نَارًا، وَقَدْ عَادَ المِحْجَن مِنْهَا عُرْفًا، قِيل: شعره مِثْل النَّيَازِك، وَعَادَ الشُّعْبَتَانِ منها مِثْل القَليب الوَاسِع، فِيهِ أَضْرَاس وَأَنْيَاب لهَا صَرِيف، فَلمَّا عَايَنَ ذَلكَ مُوسَى وَلَّى مُدْبِرًا وَلمْ يُعَقِّب، فَذَهَبَ حَتَّى أَمْعَنَ وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ أَعْجَزَ الحَيَّة، ثُمَّ ذَكَرَ رَبّه فَوَقَفَ اسْتِحْيَاء مِنْهُ، ثم نُودِيَ: يَا مُوسَى أَنْ ارْجِعْ حَيْثُ كُنْت، فَرَجَعَ مُوسَى وَهُوَ شَدِيد الخَوْف. فَقَال: ﴿خُذْهَا﴾ بِيَمِينك ﴿وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾، وَعَلى مُوسَى حِينَئِذٍ مُدَرَّعَة مِنْ صُوف، فَدَخَّلهَا بِخِلالٍ مِنْ عِيدَان، فَلمَّا أَمَرَهُ بِأَخْذِهَا أَدْلَى طَرَف المُدَرَّعَة عَلى يَده، فَقَال لهُ مَلك: أَرَأَيْت يَا مُوسَى؛ لوْ أَذِنَ الله بِمَا تُحَاذِر أَكَانَتْ المُدَرَّعَة تُغْنِي عَنْك شَيْئًا؟ قَال: لا، وَلكِنِّي ضَعِيف، وَمَنْ ضَعْف خَلَقَ. فَكَشَفَ عَنْ يَده ثُمَّ وَضَعَهَا عَلى فَم الحَيَّة، حَتَّى سَمِعَ حِسّ الأَضْرَاس وَالأَنْيَاب، ثُمَّ قَبَضَ، فَإِذَا هِيَ عَصَاهُ الَّتِي عَهِدَهَا، وَإِذَا يَده فِي مَوْضِعهَا الَّذِي كَانَ يَضَعهَا إِذَا تَوَكَّأَ بَيْن الشُّعْبَتَيْنِ. وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أَيْ: إِلى حَالهَا الَّتِي تُعْرَف قَبْل ذَلكَ.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾

﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾.

وَهَذَا بُرْهَان ثَانٍ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ أَنَّ الله أَمَرَهُ أَنْ يُدْخِل يَده فِي جَيْبه، كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الآيَة الأُخْرَى، وَهَاهُنَا عيَّن تلك بِقَوْلِهِ: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾. وَقَال فِي مَكَان آخر: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾. وَقَال مُجَاهِد: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ كَفّه تَحْت عَضُده؛ وَذَلكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ إِذَا أَدْخَل يَده فِي جَيْبه ثُمَّ أَخرَجهَا، تَخْرُج تَتَلألأ كَأَنَّهَا فِلقَة قَمَر.

وَقَوْله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أَيْ: مِنْ غَيْر بَرَص وَلا أَذًى، وَمِنْ غَيْر شَيْن، قَالهُ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَقَتَادَة وَالضَّحَّاك وَالسُّدِّيّ وَغَيْرهمْ. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: أَخرَجهَا -وَالله- كَأَنَّهَا مِصْبَاح، فَعَلم مُوسَى أَنَّهُ قَدْ لقِيَ رَبّه ﷻ. وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾. وَقَال وَهْب قَال لهُ رَبّه: ادْنُهْ. فَلمْ يَزَل يُدْنِيه حَتَّى شَدَّ ظَهْره بِجِذْع الشَّجَرَة، فَاسْتَقَرَّ وَذَهَبَتْ عَنْهُ الرِّعْدَة، وَجَمَعَ يَده فِي العَصَا، وَخَضَعَ بِرَأْسِهِ وَعُنُقه.

وَقَوْله: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أَيْ: اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْن مَلك مِصْر، الَّذِي خَرَجْت فَارًّا مِنْهُ وَهَارِبًا، فَادْعُهُ إِلى عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَمُرْهُ فَليُحْسِنْ إِلى بَنِي إِسْرَائِيل وَلا يُعَذِّبهُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ طَغَى وَبَغَى، وَآثَر الحَيَاة الدُّنْيَا، وَنَسِيَ الرَّبّ الأَعْلى. قَال وَهْب بْن مُنَبِّه: قَال الله لِمُوسَى: انْطَلقْ بِرِسَالتِي فَإِنَّك بعيني وسمعي، وَإِنِّي مَعَك -أَيْدِي وَنصرِي- وَإِنِّي قَدْ أَلبَسْتُك جُنَّة مِنْ سُلطَانِي، لتَسْتَكْمِل بِهَا القُوَّة فِي أَمْرِي، فَأَنْتَ جُنْد عَظِيم مِنْ جُنْدِي، بَعَثْتُك إِلى خَلق ضَعِيف مِنْ خَلقي، بَطِرَ نِعْمَتِي، وَأَمِنَ مَكْرِي، وَغَرَّتْهُ الدُّنْيَا عَنِّي، حَتَّى جَحَدَ حَقِّي، وَأَنْكَرَ رُبُوبِيَّتِي، وَزَعَمَ أَنَّهُ لا يَعْرِفنِي، فَإِنِّي أُقْسِم بِعِزَّتِي لوْلا القَدَر الَّذِي وَضَعْت بَيْنِي وَبَيْن خَلقِي، لبَطَشْت بِهِ بَطْشَة جَبَّار، يَغْضَب لغَضَبِهِ السَّمَاوَات وَالأَرْض، وَالجِبَال وَالبِحَار، فَإِنْ أَمَرْت السَّمَاء حَصَبَتْهُ، وَإِنْ أَمَرْت الأَرْض ابْتَلعَتْهُ، وَإِنْ أَمَرْت الجِبَال دَمَّرَتْهُ، وَإِنْ أَمَرْت البِحَار غَرَّقَتْهُ، وَلكِنَّهُ هَانَ عَليَّ وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِي، وَوَسِعَهُ حِلمِي، وَاسْتَغْنَيْت بِمَا عِنْدِي، وَحَقِّي أَنِّي أَنَا الغَنِيّ لا غَنِيّ غَيْرِي، فَبَلِّغْهُ رِسَالتِي وَادْعُهُ إِلى عِبَادَتِي، وَتَوْحِيدِي وَإِخْلاصِي، وَذَكِّرْهُ أَيَّامِي، وَحَذِّرْهُ نِقْمَتِي وَبَأْسِي، وَأَخْبِرْهُ أَنَّهُ لا يَقُوم شَيْء لغَضَبِي، وَقُل لهُ فِيمَا بَيْن ذَلكَ قَوْلًا ليِّنًا؛ لعَلَّهُ يَتَذَكَّر أَوْ يَخْشَى، وَخَبِّرْه أَنِّي إِلى العَفْو وَالمَغْفِرَة أَسْرَع مِنِّي إِلى الغَضَب وَالعُقُوبَة، وَلا يُرَوِّعَنَّك مَا أَلبَسْته مِنْ لبَاس الدُّنْيَا، فَإِنَّ نَاصِيَته بِيَدِي، ليْسَ يَنْطِق وَلا يَطْرِف وَلا يَتَنَفَّس إِلَّا بِإِذْنِي، وَقُل لهُ: أَجِبْ رَبّك فَإِنَّهُ وَاسِع المَغْفِرَة، وَقَدْ أَمْهَلك أَرْبَعمِائَة سَنَة، فِي كُلّهَا أَنْتَ مُبَارِزه بِالمُحَارَبَة تَسُبّهُ وَتَتَمَثَّل بِهِ وَتَصُدّ عِبَاده عَنْ سَبِيله، وَهُوَ يُمْطِر عَليْك السَّمَاء، وَيُنْبِت لك الأَرْض، لمْ تَسْقَم وَلمْ تَهْرَم وَلمْ تَفْتَقِر، وَلوْ شَاءَ الله أَنْ يُعَجِّل لك العُقُوبَة لفَعَل، وَلكِنَّهُ ذُو أَنَاة وَحِلم عَظِيم، وَجَاهِدْهُ بِنَفْسِك وَأَخِيك، وَأَنْتُمَا تَحْتَسِبَانِ بِجِهَادِهِ، فَإِنِّي لوْ شِئْت أَنْ آتِيه بِجُنُودٍ لا قِبَل لهُ بِهَا لفَعَلت، وَلكِنْ ليَعْلم هَذَا العَبْد الضَّعِيف الَّذِي قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسه وَجُمُوعه أَنَّ الفِئَة القَليلة -وَلا قَليل مِنِّي- تَغْلب الفِئَة الكَثِيرَة بِإِذْنِي، وَلا تُعْجِبَنَّكُمَا زِينَته، وَلا مَا مُتِّعَ بِهِ، وَلا تَمُدَّا إِلى ذَلكَ أَعْيُنَكُمَا، فَإِنَّهَا زَهْرَة الحَيَاة الدُّنْيَا وَزِينَة المُتْرَفِينَ، وَلوْ شِئْت أَنْ أُزَيِّنَكُمَا مِنْ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ -ليَعْلم فِرْعَوْن حِين يَنْظُر إِليْهَا أَنَّ مَقْدِرَته تَعْجِز عَنْ مِثْل مَا أُوتِيتُمَا- فَعَلت، وَلكِنِّي أَرْغَب بِكُمَا عَنْ ذَلكَ، وَأَزْوِيه عَنْكُمَا، وَكَذَلكَ أَفْعَل بِأَوْليَائِي، وَقَدِيمًا مَا جَرَتْ عَادَتِي فِي ذَلكَ فَإِنِّي لأَذُودهُمْ عَنْ نَعِيمهَا وَرَخَائِهَا، كَمَا يَذُود الرَّاعِي الشَّفِيق إِبِله عَنْ مَبَارِك المعرَّة، وَمَا ذَاكَ لهَوَانِهِمْ عَليَّ، وَلكِنْ ليَسْتَكْمِلُوا نَصِيبهمْ مِنْ كَرَامَتِي سَالمًا مُوَفَّرًا لمْ تُكْلمهُ الدُّنْيَا. وَاعْلمْ أَنَّهُ لمْ يَتَزَيَّن لِي العِبَاد بِزِينَةٍ هِيَ أَبْلغ مما عِنْدِي مِنْ الزُّهْد فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا زِينَة المُتَّقِينَ، عَليْهِمْ مِنْهَا لبَاس يُعْرَفُونَ بِهِ مِنْ

السَّكِينَة وَالْخُشُوع، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوههمْ مِنْ أَثَر السُّجُود، أُولئِكَ أَوْلِيَائِي حَقًّا حَقًّا، فَإِذَا لَقِيتهمْ فَاخْفِض لَهُمْ جَنَاحك، وَذَلِّل قَلبك وَلسَانك، وَاعْلمْ أَنَّهُ مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا أَوْ أَخَافَهُ فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَبَادَأَنِي وَعَرَضَ لِي نَفْسه وَدَعَانِي إِلَيْهَا، وَأَنَا أَسْرَع شَيْء إِلَى نُصْرَة أَوْلِيَائِي، أَفَيَظُنُّ الَّذِي يُحَارِبنِي أَنْ يَقُوم لِي أَمْ يَظُنّ الَّذِي يُعَادِينِي أَنْ يُعْجِزنِي، أَمْ يَظُنّ الَّذِي يُبَارِزنِي أَنْ يَسْبِقنِي أَوْ يَفُوتنِي، وَكَيْف وَأَنَا الثَّائِر لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة لا أَكِل مُضطرهم إِلَى غَيْرِي. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ هَذَا سُؤَال مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَشْرَح لهُ صَدْره فِيمَا بَعَثَهُ بِهِ، فَإِنَّهُ قَدْ أَمَرَهُ بِأَمْرٍ عَظِيم وَخَطْب جَسِيم: بَعَثَهُ إِلَى أَعْظَم مَلك عَلَى وَجْه الأَرْض إِذْ ذَاكَ وَأَجْبَرهُمْ، وَأَشَدّهمْ كُفْرًا، وَأَكْثَرهمْ جُنُودًا، وَأَعْمَرهمْ مُلكًا، وَأَطْغَاهُمْ وَأَبْلغهمْ تَمَرُّدًا، بَلغَ مِنْ أَمْره أَنْ ادَّعَى أَنَّهُ لا يَعْرِف اللهَ، وَلا يَعْلم لرَعَايَاهُ إِلهًا غَيْره. وَهَذَا وَقَدْ مَكَثَ مُوسَى فِي دَاره مُدَّة وَلِيدًا عِنْدهمْ، فِي حِجْر فِرْعَوْن عَلَى فِرَاشه، ثُمَّ قَتَل مِنْهُمْ نَفْسًا فَخَافَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوهُ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ هَذِهِ الْمُدَّة بِكَمَالِهَا، ثُمَّ بَعْد هَذَا بَعَثَهُ رَبّه عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ نَذِيرًا يَدْعُوهُمْ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْده لا شَرِيك لهُ، ولهذا قَالَ: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أَيْ: إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ عِزِّي، وَنَصْرِي، وَعَضُدِي، وَظَهِيرِي، وَإِلَّا فَلا طَاقَة لِي بِذَلِكَ. ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ وَذَلِكَ لَمَّا كَانَ أَصَابَهُ مِنَ اللَّثَغ، حِين عَرَضَ عَلَيْهِ التَّمْرَة وَالْجَمْرَة، فَأَخَذَ الْجَمْرَة فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانه، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانه، وَمَا سَأَلَ أَنْ يَزُول ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ، بَل بِحَيْثُ يَزُول الْعِيّ، وَيَحْصُل لَهُمْ فَهم مَا يُرِيد مِنْهُ وَهُوَ قَدْر الْحَاجَة، وَلَوْ سَأَلَ الْجَمِيع لزَال، وَلكِنَّ الأَنْبِيَاء لا يَسْأَلُونَ إِلَّا بِحَسَبِ الْحَاجَة، وَلهَذَا بَقِيَتْ بَقِيَّة، قَالَ الله تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْن أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أَيْ: يُفْصِح بِالْكَلَام.

وَقَال الْحَسَن الْبَصْرِيّ: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ قَالَ: حَلَّ عُقْدَة وَاحِدَة، وَلَوْ سَأَلَ أَكْثَر مِنْ ذَلِكَ أُعْطِيَ. وَقَال ابْن عَبَّاس: شَكَا مُوسَى إِلَى رَبّه مَا يَتَخَوَّف مِنْ آل فِرْعَوْن فِي الْقَتِيل، وَعُقْدَة لسَانه، فَإِنَّهُ كَانَ فِي لسَانه عُقْدَة تَمْنَعهُ مِنْ كَثِير مِنَ الْكَلَام، وَسَأَلَ رَبّه أَنْ يُعِينهُ بِأَخِيهِ هَارُون يَكُون لهُ رِدْءًا، وَيَتَكَلَّم عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لا يُفْصِح بِهِ لسَانه، فَآتَاهُ سُؤْله، فَحَلَّ عُقْدَة مِنْ لسَانه. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذُكِرَ عَنْ عَمْرو بْن عُثْمَان، حَدَّثَنَا بَقِيَّة، عَنْ أَرْطَاة بْن الْمُنْذِر، حَدَّثَنِي بَعْض أَصْحَاب مُحَمَّد بْن كَعْب عَنْهُ قَالَ: أَتَاهُ ذُو قَرَابَة لهُ، فَقَال لهُ: مَا بِك بَأْس، لَوْلا أَنَّك تَلْحَن فِي كَلامك، وَلسْت تُعْرِب فِي قِرَاءَتك. فَقَال الْقُرَظِيّ: يَا ابْن أَخِي، أَلَسْت أُفْهِمك إِذَا حَدَّثْتُك؟ قَال: نَعَمْ. قَال: فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا سَأَلَ رَبّه أَنْ يَحِلّ عُقْدَة مِنْ لسَانه كَيْ يَفْقَه بَنُو إِسْرَائِيل كَلامه، وَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهَا. هَذَا لفْظه.

وَقَوْله: ﴿وَاجْعَل لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي﴾ وَهَذَا أَيْضًا سُؤَال مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَمْر خَارِجِيّ عَنْهُ، وَهُوَ مُسَاعَدَة أَخِيهِ هَارُون لهُ. قَال الثَّوْرِيّ عَنْ أَبِي سَعِيد عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّهُ قَال: فَنُبِّئَ هَارُون سَاعَة إِذ نُبِّئَ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذُكِرَ عَنْ ابْن نُمَيْر، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَة، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة: أَنَّهَا خَرَجَتْ فِيمَا كَانَتْ تَعْتَمِر، فَنَزَلتْ بِبَعْضِ الأَعْرَاب، فَسَمِعَتْ رَجُلًا يَقُول: أَيّ أَخ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَنْفَع لأَخِيهِ؟ قَالُوا: مَا نَدْرِي. قَال: أَنَا وَالله أَدْرِي. قَالَتْ: فَقُلت فِي نَفْسِي: فِي حَلفه لا يَسْتَثْنِي، إِنَّهُ لَيَعْلم أَيّ أَخ فِي الدُّنْيَا كَان أَنْفَع لأَخِيهِ. قَال: مُوسَى حِين سَأَلَ لأَخِيهِ النُّبُوَّة. فَقُلت: صَدَقَ وَالله. قُلت: وَفِي هَذَا قَال الله تَعَالَى فِي الثَّنَاء عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.

وَقَوْله: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ قَال مُجَاهِد: ظَهْرِي. ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أَيْ: فِي مُشَاوَرَتِي. ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ قَال مُجَاهِد: لا يَكُون الْعَبْد مِنَ الذَّاكِرِينَ الله كَثِيرًا حَتَّى يَذْكُر الله قَائِمًا وَقَاعِدًا وَمُضْطَجِعًا.

وَقَوْله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أَيْ: فِي اصْطِفَائِك لنَا، وَإِعْطَائِك إِيَّانَا النُّبُوَّة، وَبَعْثَك لنَا إِلى عَدُوِّك فِرْعَوْن فَلك الحَمْد عَلى ذَلكَ.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ﴾.

هذه إِجَابَة مِنَ الله لرَسُولهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا سَأَل مِنْ رَبِّه عَزَّ وَجَلَّ وَتَذْكِير لهُ بِنِعَمِهِ السَّالفَة عَلَيْهِ، فِيمَا كَانَ أَلْهَم أُمَّه حِين كَانَتْ تُرْضِعهُ، وَتَحْذَر عَلَيْهِ مِنْ فِرْعَوْن وَمَلئِهِ أَنْ يَقْتُلُوهُ؛ لأَنَّهُ كَانَ قَدْ وُلد فِي السَّنَة الَّتِي يَقْتُلُون فِيهَا الغِلْمَان، فَاتَّخَذَتْ لهُ تَابُوتًا، فَكَانَتْ تُرْضِعهُ ثُمَّ تَضَعهُ فِيهِ، وَتُرْسِلهُ فِي البَحْر -وَهُوَ النِّيل- وَتُمْسِكهُ إِلى مَنْزِلهَا بِحَبْل، فَذَهَبَتْ مَرَّة لتَرْبِطه، فَانْفَلتَ مِنْهَا وَذَهَبَ بِهِ البَحْر، فَحَصَل لهَا مِنَ الغَمّ وَالهَمّ مَا ذَكَرَهُ الله عَنْهَا فِي قَوْله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، فَذَهَبَ بِهِ البَحْر إِلى دَار فِرْعَوْن؛ ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾ أَيْ: قَدَرًا مَقْدُورًا مِنَ الله، حَيْثُ كَانُوا هُمْ يَقْتُلُونَ الغِلْمَان مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، حَذَرًا مِنْ وُجُود مُوسَى، فَحَكَمَ الله -وَلهُ السُّلطَان العَظِيم وَالقُدْرَة التَّامَّة- أَنْ لا يُرَبَّى إِلَّا عَلى فِرَاش فِرْعَوْن، وَيُغَذَّى بِطَعَامِهِ وَشَرَابه، مَعَ مَحَبَّته وَزَوْجَته لهُ، وَلهَذَا قَال الله تَعَالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أَيْ: عِنْد عَدُوِّك، جَعَلته يُحِبّك. قَال سَلمَة بْن كُهَيْل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ قَال: حَبَّبْتُك إِلى عِبَادِي. ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ قَال أَبُو عِمْرَان الجَوْنِيّ: تُرَبَّى بِعَيْنِ الله. وَقَال قَتَادَة: تُغَذَّى عَلى عَيْنِي. وَقَال مَعْمَر بْن المُثَنَّى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ حَيْثُ أَرَى. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ: يَعْنِي أَجْعَله فِي بَيْت المَلك، يَنْعَم وَيُتْرَف، وَغِذَاؤُهُ عِنْدهمْ غِذَاء المَلك، فَتِلكَ الصَّنْعَة.

وَقَوْله: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وَذَلكَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَقَرَّ عِنْد آل فِرْعَوْن، عَرَضُوا عَليْهِ المَرَاضِع فَأَبَاهَا، قَال الله تَعَالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فَجَاءَتْ أُخْته وَقَالتْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ تَعْنِي: هَل أَدُلّكُمْ عَلى مَنْ تُرْضِعهُ لكُمْ بِالأُجْرَةِ؟ فَذَهَبَتْ بِهِ وَهُمْ مَعَهَا إِلى أُمّه، فَعَرَضَتْ عَليْهِ ثَدْيهَا فَقَبِله، فَفَرِحُوا بِذَلكَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَاسْتَأْجَرُوهَا عَلى إِرْضَاعه، فَنَالهَا بِسَبَبِهِ سَعَادَة وَرِفْعَة وَرَاحَة فِي الدُّنْيَا، وَفِي الآخِرَة أَغْنَم وَأَجْزَل، وَلهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «مَثَل الصَّانِع الَّذِي يَحْتَسِب فِي صَنْعَته الخَيْر كَمَثَل أُمّ مُوسَى تُرْضِع وَلدهَا وَتَأْخُذ أَجْرهَا»[1]. وَقَال تَعَالى هَاهُنَا: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ﴾ أَيْ: عَليْك. ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يَعْنِي: القِبْطِيّ ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ وَهُوَ مَا حَصَل لهُ بِسَبَبِ عَزْم آل فِرْعَوْن عَلى قَتْله فَفَرَّ مِنْهُمْ هَارِبًا حَتَّى وَرَدَ مَاء مَدْيَن، وَقَال لهُ ذَلكَ الرَّجُل الصَّالح: ﴿لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ﴾ قَال الإِمَام أَبُو عَبْد الرَّحْمَن أَحْمَد بْن شُعَيْب النَّسَائِيّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَاب التَّفْسِير مِنْ «سُننه» قَوْله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ﴾. حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، أَنْبَأَنَا أَصْبَغ بْن زَيْد، حَدَّثَنَا القَاسِم بْن أَبِي أَيُّوب، أَخْبَرَنِي سَعِيد بْن جُبَيْر قَال: سَأَلت عَبْد الله بْن عَبَّاس عَنْ قَوْل الله عَزَّ وَجَلَّ لمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ﴾، فَسَأَلته عَنْ الفُتُون: مَا هُوَ؟ فَقَال: اسْتَأْنِفْ النَّهَار يَا بْن جُبَيْر، فَإِنَّ لهَا حَدِيثًا طَوِيلًا. فَلمَّا

---

(١) انظر «الضعيفة» (٤٥٠٠).

أَصْبَحْت غَدَوْت إِلى ابْن عَبَّاس؛ لأَنْتَجِزَ مِنْهُ مَا وَعَدَنِي مِنْ حَدِيث الفُتُون، فَقَال: تَذَاكَرَ فِرْعَوْن وَجُلَسَاؤُهُ مَا كَانَ الله وَعَدَ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَجْعَل فِي ذِمَّته أَبْنَاء وَمُلُوكًا.

فَقَال بَعْضهمْ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيل يَنْتَظِرُونَ ذَلكَ لا يَشُكُّونَ فِيهِ، وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يُوسُف بْن يَعْقُوب، فَلَمَّا هَلكَ قَالُوا: لَيْسَ هَكَذَا كَانَ وَعْد إِبْرَاهِيم. فَقَال فِرْعَوْن: فَكَيْف تَرَوْنَ؟ فأمروا وَأَجْمَعُوا أَمْرهمْ عَلَى أَنْ يَبْعَث رِجَالًا مَعَهُمْ الشِّفَار، يَطُوفُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيل، فَلا يَجِدُونَ مَوْلُودًا ذَكَرًا إِلَّا ذَبَحُوهُ. فَفَعَلُوا ذَلكَ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ الكِبَار مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل يَمُوتُونَ بِآجَالِهِمْ، وَالصِّغَار يُذْبَحُونَ، قَالُوا: يُوشِكُ أَنْ تُفْنُوا بَنِي إِسْرَائِيل، فَتَصِيرُوا أَنْ تُبَاشِرُوا مِنْ الأَعْمَال وَالخِدْمَة الَّتِي كانوا يَكْفُونَكُمْ، فَاقْتُلُوا عَامًا كُلّ مَوْلُود ذَكَر، فيقل أبناؤهم، وَدَعُوا عَامًا فَلا تَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَحَدًا، فَيَشِبّ الصِّغَار مَكَان مَنْ يَمُوت مِنْ الكِبَار، فَإِنَّهُمْ لنْ يَكْثُرُوا بِمَنْ تَسْتَحْيُونَ مِنْهُمْ فَتَخَافُوا مُكَاثَرَتهمْ إِيَّاكُمْ، ولن يُفْنُوا بِمَنْ تَقْتُلُونَ وَتَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ. فَأَجْمَعُوا أَمْرهمْ عَلى ذَلكَ. فَحَمَلتْ أُمّ مُوسَى بِهَارُون فِي العَام الَّذِي لا يُذْبَح فِيهِ الغِلْمَان، فَوَلدَتْهُ عَلانِيَة آمِنَة، فَلَمَّا كَانَ مِنْ قَابِل حَمَلتْ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَوَقَعَ فِي قَلبهَا الهَمّ وَالحَزَن -وَذَلكَ مِنْ الفُتُون يَا بْن جُبَيْر- مَا دَخَل عَليْهِ فِي بَطْن أُمّه مِمَّا يُرَاد بِهِ، فَأَوْحَى الله إِليْهَا: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، فَأَمَرَهَا إِذَا وَلدَتْ أَنْ تَجْعَلهُ فِي تَابُوت، ثُمَّ تُلقِيه فِي اليَمّ، فَلَمَّا وَلدَتْ فَعَلتْ ذَلكَ، فَلَمَّا تَوَارَى عَنْهَا ابْنهَا أَتَاهَا الشَّيْطَان، فَقَالتْ فِي نَفْسهَا: مَا فَعَلت بِابْنِي؟! لوْ ذُبِحَ عِنْدِي فَوَارَيْته وَكَفَّنْته، كَانَ أَحَبّ إِليَّ مِنْ أَنْ أُلقِيه إِلى دَوَابّ البَحْر وَحِيتَانه.

فَانْتَهَى المَاء بِهِ حَتَّى أَوْفَى بِهِ عِنْد فُرْضَة مُسْتَقَى جَوَارِي امْرَأَة فِرْعَوْن، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَخَذْنَهُ، فهممن أَنْ يَفْتَحْنَ التَّابُوت، فَقَال بَعْضهنَّ: إِنَّ فِي هَذَا مَالًا، وَإِنَّا إِنْ فَتَحْنَاهُ لمْ تُصَدِّقنَا امْرَأَة المَلك بِمَا وَجَدْنَا فِيهِ، فَحَمَلنَهُ كَهَيْئَتِهِ لمْ يُخْرِجْنَ مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى رفَعْنَهُ إِليْهَا، فَلَمَّا فَتَحَتْهُ رَأَتْ فِيهِ غُلامًا، فَأُلقَى عَليْهِ مِنْهَا مَحَبَّة لمْ يُلقِ مِنْهَا عَلى أَحَد قَطُّ، وَأَصْبَحَ فُؤَاد أُمّ مُوسَى فَارِغًا مِنْ ذِكْر كُلّ شَيْء، إِلَّا مِنْ ذِكْر مُوسَى. فَلَمَّا سَمِعَ الذَّبَّاحُونَ بِأَمْرِهِ، أَقْبَلُوا بِشِفَارِهِمْ إِلى امْرَأَة فِرْعَوْن ليَذْبَحُوهُ -وَذَلكَ مِنْ الفُتُون يَا ابْن جُبَيْر- فَقَالتْ لهُمْ: أَقِرُّوهُ، فَإِنَّ هَذَا الوَاحِد لا يَزِيد فِي بَنِي إِسْرَائِيل، حَتَّى آتِي فِرْعَوْن فَأَسْتَوْهِبهُ مِنْهُ، فَإِنْ وَهَبَهُ لِي كُنْتُمْ قَدْ أَحْسَنْتُمْ وَأَجْمَلتُمْ، وَإِنْ أَمَرَ بِذَبْحِهِ لمْ أَلُمْكُمْ. فَأَتَتْ فِرْعَوْن فَقَالتْ: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فَقَال فِرْعَوْن: يَكُون لك، فَأَمَّا لِي فَلا حَاجَة لِي فِيهِ. فَقَال رَسُول الله ﷺ: «وَالَّذِي يُحْلف بِهِ، لوْ أَقَرَّ فِرْعَوْن أَنْ يَكُون قُرَّة عَيْن لهُ، كَمَا أقرتْ امْرَأَته لهَدَاهُ الله كَمَا هَدَاهَا، وَلكِنْ حَرَمَهُ ذَلكَ».

فَأَرْسَلتْ إِلى مَنْ حَوْلهَا، إِلى كُلّ امْرَأَة لهَا لبَنٌ لِتَخْتَارَ لهُ ظِئْرًا فَجَعَل كُلَّمَا أَخَذَتْهُ امْرَأَة مِنْهُنَّ لتُرْضِعهُ لمْ يُقْبِل عَلى ثَدْيِهَا حَتَّى أَشْفَقَتْ امْرَأَة فِرْعَوْن أَنْ يَمْتَنِع مِنْ اللَّبَن فَيَمُوت فَأَحْزَنَهَا ذَلكَ، فَأَمَرَتْ بِهِ فَأُخْرِجَ إِلى السُّوق وَمَجْمَع النَّاس، تَرْجُو أَنْ تَجِد لهُ ظِئْرًا تَأْخُذهُ مِنْهَا، فَلمْ يَقْبَل.

وَأَصْبَحَتْ أُمّ مُوسَى وَالهًا، فَقَالتْ لأُخْتِهِ: قُصِّي أَثَره وَاطْلُبِيهِ، هَل تَسْمَعِينَ لهُ ذِكْرًا أَحَيّ ابْنِي أَمْ قَدْ أَكَلتْهُ الدَّوَابّ؟ وَنَسِيَتْ مَا كَانَ الله وَعَدَهَا فِيهِ، فَبَصُرَتْ بِهِ أُخْته عَنْ جُنُب وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ -وَالجُنُب: أَنْ يَسْمُو بَصَر الإِنْسَان إِلى شَيْء بَعِيد وَهُوَ إِلى جَنْبه وَهُوَ لا يَشْعُر بِهِ، فَقَالتْ مِنْ الفَرَح حِين أَعْيَاهُمْ الظُّؤْرَات أَنَا أَدُلّكُمْ عَلى أَهْل بَيْت يَكْفُلُونَهُ لكُمْ وَهُمْ لهُ نَاصِحُونَ. فَأَخَذُوهَا فَقَالُوا: مَا يُدْرِيك؟ مَا نُصْحهمْ لهُ هَل يعرفونه؟ حَتَّى شَكُّوا فِي ذَلكَ -وَذَلكَ مِنْ الفُتُون يَا ابْن جُبَيْر- فَقَالتْ: نُصْحهمْ لهُ وَشَفَقَتهمْ عَليْهِ رَغْبَتهمْ فِي صِهْر المَلك، وَرَجَاء مَنْفَعَة المَلك. فأرسلوها فَانْطَلقَتْ إِلى أُمّهَا، فَأَخْبَرَتْهَا الخَبَر، فَجَاءَتْ أُمّه، فَلَمَّا وَضَعَتْهُ فِي حِجْرهَا نَزَا إِلى ثَدْيِهَا فَمَصَّهُ، حَتَّى امْتَلأَ جَنْبَاهُ رِيًّا، وَانْطَلقَ البشراءُ إِلى امْرَأَة فِرْعَوْن يُبَشِّرُونَهَا أَنْ قَدْ وَجَدْنَا لابْنِك ظِئْرًا،

فَأَرْسَلتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ بِهَا وَبِهِ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا يَصْنَع بِهَا قَالَتْ: امْكُثِي تُرْضِعِي ابْنِي هَذَا، فَإِنِّي لم أُحِبّ شَيْئًا حُبّه قَطُّ. قَالتْ أُمّ مُوسَى: لا أَسْتَطِيع أَنْ أَدَع بَيْتِي وَوَلَدِي فَيَضِيع، فَإِنْ طَابَتْ نَفْسك أَنْ تُعْطِينِيهِ فَأَذْهَب بِهِ إِلى بَيْتِي، فَيكُون مَعِي لا آلُوهُ خَيْرًا فعلت فَإِنِّي غَيْر تَارِكَة بَيْتِي وَوَلَدِي. وَذَكَرَتْ أُمّ مُوسَى مَا كَانَ الله وَعَدَهَا فِيهِ، فَتعَاسَرَتْ عَلى امْرَأَة فِرْعَوْن، وَأَيْقَنَتْ أَنَّ الله مُنْجِز وَعْده، فَرَجَعَتْ بِهِ إِلى بَيْتهَا مِنْ يَوْمهَا، وَأَنْبَتَهُ الله نَبَاتًا حَسَنًا، وَحَفِظَهُ لِمَا قَدْ قَضَى فِيهِ. فَلَمْ يَزَل بَنُو إِسْرَائِيل، وَهُمْ فِي نَاحِيَة القَرْيَة، مُمْتَنِعِينَ مِنْ السُّخْرَة وَالظُّلم مَا كَانَ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَرَعْرَعَ قَالتْ امْرَأَة فِرْعَوْن لأُمِّ مُوسَى: أَزِيرِينِي ابْنِي، فَوَعَدتهَا يَوْمًا تُرِيها إِيَّاهُ فِيهِ، وَقَالتْ امْرَأَة فِرْعَوْن لِخُزَّانِهَا وَظُؤُرِهَا وَقَهَارِمَتهَا: لا يَبْقَيَنَّ أَحَد مِنكُمْ إِلَّا اسْتَقْبَل ابْنِي اليَوْم بِهَدِيَّةٍ وَكَرَامَة لأَرَى ذَلكَ فيه، وَأَنَا بَاعِثَة أَمِينًا يُحْصِي كل مَا يَصْنَع كُلّ إِنْسَان مِنكُمْ، فَلمْ تَزَل الهَدَايَا وَالنِّحَل وَالكَرَامَة تَسْتَقْبِلهُ مِنْ حِين خَرَجَ مِنْ بَيْت أُمّه إِلى أَنْ دَخَل عَلى امْرَأَة فِرْعَوْن، فَلَمَّا دَخَل عَلَيْهَا نَحَلته وَأَكْرَمَتْهُ، وَفَرِحَتْ بِهِ، وَنَحَلتْ أُمّه لِحُسْنِ أَثَرِهَا عَلَيْهِ ثُمَّ قَالتْ: لآتِيَنَّ بِهِ فِرْعَوْن فَلَيَنْحِلنَّهُ وَلَيُكْرِمَنَّهُ فَلَمَّا دَخَلتْ بِهِ عَلَيْهِ جَعَلهُ فِي حِجْره، فَتَنَاوَل مُوسَى لِحْيَة فِرْعَوْن يَمُدها إِلى الأَرْض، فَقَال الغُوَاة مِنْ أَعْدَاء الله لِفِرْعَوْن: أَلا تَرَى مَا وَعَدَ الله إِبْرَاهِيم نَبِيّه، إِنَّهُ زَعَمَ أَنْ يَرِثك وَيَعْلُوك وَيَصْرَعك فَأَرْسَل إِلى الذَّبَّاحِينَ لِيَذْبَحُوهُ وَذَلكَ مِنْ الفُتُون يَا بْن جُبَيْر بَعْد كُلّ بَلاء ابْتُلِيَ بِهِ وَأُرِيدَ بِهِ.

فَجَاءَتْ امْرَأَة فِرْعَوْن فَقَالتْ: مَا بَدَا لك فِي هَذَا الغُلام الَّذِي وَهَبْته لي؟ فَقَال: أَلا تَرَيْنَهُ يُزْعَم أَنَّهُ يَصْرَعنِي وَيَعْلُونِي، فَقَالتْ: اجْعَل بَيْنِي وَبَيْنك أَمْرًا يُعْرَف فيه الحَقّ، ائتِ بِجَمْرَتَيْنِ وَلُؤْلُؤَتَيْنِ، فقربهن إِلَيْهِ، فَإِنْ بَطَشَ بِاللُّؤْلُؤَتَيْنِ وَاجْتَنَبَ الجَمْرَتَيْنِ فاعرف أَنَّهُ يَعْقِل، وَإِنْ تَنَاوَل الجَمْرَتَيْنِ وَلمْ يُرِدْ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ، علمت أَنَّ أَحَدًا لا يُؤْثِر الجَمْرَتَيْنِ عَلى اللُّؤْلُؤَتَيْنِ وَهُوَ يَعْقِل. فَقَرَّبَ إِلَيْهِ فتنَاوَل الجَمْرَتَيْنِ، فَانْتَزَعَهُمَا مِنْهُ مَخَافَة أَنْ يُحْرِقَا يده فَقَالتْ المَرْأَة: أَلا تَرَى؟ فَصَرَفَهُ الله عَنْهُ بَعْدَمَا كَانَ قَدْ هَمَّ بِهِ، وَكَانَ الله بَالِغًا فِيهِ أَمْره. فَلَمَّا بَلغَ أَشُدّهُ -وَكَانَ مِنْ الرِّجَال- لم يَكُنْ أَحَد مِنْ آل فِرْعَوْن يَخْلُص إِلى أَحَد مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل مَعَهُ بِظُلم وَلا سُخْرَة حَتَّى امْتَنَعُوا كُلّ الامْتِنَاع، فَبَيْنَمَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَمْشِي فِي نَاحِيَة المَدِينَة، إِذَا هُوَ بِرَجُليْنِ يَقْتَتِلانِ، أَحَدهمَا فِرْعَوْنِيّ وَالآخر إِسْرَائِيلِيّ، فَاسْتَغَاثَهُ الإِسْرَائِيلِيّ عَلى الفِرْعَوْنِيّ، فَغَضِبَ مُوسَى غَضَبًا شَدِيدًا؛ لأَنَّهُ تَنَاوَلهُ وَهُوَ يَعْلم مَنْزِلته مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل وَحِفْظه لهُمْ، لا يَعْلم النَّاس إِلَّا إِنَّمَا ذَلكَ مِنْ الرَّضَاع، إِلَّا أُمّ مُوسَى، إِلَّا أَنْ يَكُون الله أَطْلَعَ مُوسَى مِنْ ذَلكَ عَلى مَا لمْ يُطْلع عَلَيْهِ غَيْره، فَوَكَزَ مُوسَى الفِرْعَوْنِيّ فَقَتَلهُ، وَليْسَ يَرَاهُمَا أَحَد إِلَّا الله عَزَّ وَجَلَّ وَالإِسْرَائِيلِيّ، فَقَال مُوسَى حِين قَتَل الرَّجُل: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾، ثُمَّ قَال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فَأَصْبَحَ فِي المَدِينَة خَائِفًا يَتَرَقَّب الأَخْبَار، فَأُتِيَ فِرْعَوْن فَقِيل لهُ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيل قَتَلُوا رَجُلًا مِنْ آل فِرْعَوْن فَخُذْ لنَا بِحَقِّنَا وَلا تُرَخِّص لهُمْ. فَقَال: ابْغُونِي قَاتِله وَمَنْ يَشْهَد عَلَيْهِ فَإِنَّ المَلك وَإِنْ كَانَ صَغْوُهُ مَعَ قَوْمه لا يَسْتَقِيم لهُ أَنْ يُقِيد بِغَيْرِ بَيِّنَة وَلا ثَبْت، فَاطْلُبُوا لي عِلم ذَلكَ آخُذ لكُمْ بِحَقِّكُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَطُوفُونَ ولا يَجِدُونَ ثَبْتًا إِذَا بِمُوسَى مِنْ الغَد قَدْ رَأَى ذَلكَ الإِسْرَائِيلِيّ يُقَاتِل رَجُلًا مِنْ آل فِرْعَوْن آخر، فَاسْتَغَاثَهُ الإِسْرَائِيلِيّ عَلى الفِرْعَوْنِيّ فَصَادَفَ مُوسَى قَدْ نَدِمَ عَلى مَا كَانَ مِنْهُ، وَكَرِهَ الَّذِي رَأَى فَغَضِبَ الإِسْرَائِيلِيّ وَهُوَ يُرِيد أَنْ يَبْطِش بِالفِرْعَوْنِيّ، فَقَال للإِسْرَائِيلِيّ لِمَا فَعَل بِالأَمْسِ وَاليَوْم: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، فَنَظَرَ الإِسْرَائِيلِيّ إِلى مُوسَى بَعْدَمَا قَال لهُ مَا قَال فَإِذَا هُوَ غَضْبَان كَغَضَبِهِ بِالأَمْسِ الَّذِي قَتَل فِيهِ الفِرْعَوْنِيّ، فَخَافَ أَنْ يَكُون بَعْدَمَا قَال لهُ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أَنْ يَكُون إِيَّاهُ أَرَادَ، وَلمْ يَكُنْ أَرَادَهُ، إِنَّمَا أَرَادَ الفِرْعَوْنِيّ، فَخَافَ الإِسْرَائِيلِيّ، وَقَال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾، وَإِنَّمَا قَال لهُ مَخَافَة أَنْ يَكُون إِيَّاهُ أَرَادَ مُوسَى لِيَقْتُلهُ، فَتَتَارَكَا وَانْطَلقَ الفِرْعَوْنِيّ فَأَخْبَرَهُمْ

بِمَا سَمِعَ مِنَ الإِسْرَائِيلِيِّ مِنَ الخَبَرِ حِينَ يَقُولُ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ الذَّبَّاحِينَ لِيَقْتُلُوا مُوسَى، فَأَخَذَ رُسُلُ فِرْعَوْنَ فِي الطَّرِيقِ الأَعْظَمِ يَمْشُونَ عَلَى هِينَتِهِمْ يَطْلُبُونَ مُوسَى، وَهُمْ لا يَخَافُونَ أَنْ يَفُوتَهُمْ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ شِيعَةِ مُوسَى مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ، فَاخْتَصَرَ طَرِيقًا حَتَّى سَبَقَهُمْ إِلَى مُوسَى، فَأَخْبَرَهُ، وَذَلِكَ مِنَ الفُتُونِ يَا ابْنَ جُبَيْرٍ.

فَخَرَجَ مُوسَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَدْيَنَ، لَمْ يَلْقَ بَلاءً قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ لَهُ بِالطَّرِيقِ عِلْمٌ إِلَّا حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ﷻ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: حَابِسَتَيْنِ غَنَمَهُمَا، فَقَالَ لَهُمَا: مَا خَطْبُكُمَا مُعْتَزِلَتَيْنِ لا تَسْقِيَانِ مَعَ النَّاسِ؟ قَالَتَا: لَيْسَ لَنَا قُوَّةٌ نُزَاحِمُ القَوْمَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ فُضُولَ حِيَاضِهِمْ. فَسَقَى لَهُمَا، فَجَعَلَ يَغْتَرِفُ فِي الدَّلْوِ مَاءً كَثِيرًا، حَتَّى كَانَ أَوَّلَ الرِّعَاءِ، فَانْصَرَفَتَا بِغَنَمِهِمَا إِلَى أَبِيهِمَا، وَانْصَرَفَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاسْتَظَلَّ بِشَجَرَةٍ، وَقَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، وَاسْتَنْكَرَ أَبُوهُمَا سُرْعَةَ صُدُورِهِمَا بِغَنَمِهِمَا حُفَّلًا بِطَانًا، فَقَالَ: إِنَّ لَكُمَا اليَوْمَ لَشَأْنًا. فَأَخْبَرَتَاهُ بِمَا صَنَعَ مُوسَى، فَأَمَرَ إِحْدَاهُمَا أَنْ تَدْعُوهُ، فَأَتَتْ مُوسَى فَدَعَتْهُ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لَيْسَ لِفِرْعَوْنَ وَلا لِقَوْمِهِ عَلَيْنَا سُلْطَانٌ، وَلَسْنَا فِي مَمْلَكَتِهِ. فَقَالَتْ إِحْدَاهُمَا: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ فَاحْتَمَلَتْهُ الغَيْرَةُ عَلَى أَنْ قَالَ لَهَا: مَا يُدْرِيكِ مَا قُوَّتُهُ وَمَا أَمَانَتُهُ؟ قَالَتْ: أَمَّا قُوَّتُهُ فَمَا رَأَيْتُ مِنْهُ فِي الدَّلْوِ حِينَ سَقَى لَنَا، لَمْ أَرَ رَجُلًا قَطُّ أَقْوَى فِي ذَلِكَ السَّقْيِ مِنْهُ، وَأَمَّا الأَمَانَةُ فَإِنَّهُ نَظَرَ إِلَيَّ حِينَ أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ، وَشَخَصْتُ لَهُ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنِّي امْرَأَةٌ؛ صَوَّبَ رَأْسَهُ، فَلَمْ يَرْفَعْهُ حَتَّى بَلَّغْتُهُ رِسَالَتَكَ، ثُمَّ قَالَ لِي: امْشِي خَلْفِي، وَانْعَتِي لِي الطَّرِيقَ. فَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا إِلَّا وَهُوَ أَمِينٌ. فَسُرِّيَ عَنْ أَبِيهَا وَصَدَّقَهَا، وَظَنَّ بِهِ الَّذِي قَالَتْ. فَقَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فَفَعَلَ، فَكَانَتْ عَلَى نَبِيِّ اللهِ مُوسَى ثَمَانِ سِنِينَ وَاجِبَةً، وَكَانَتْ سَنَتَانِ عِدَةً مِنْهُ، فَقَضَى اللهُ عَنْهُ عِدَتَهُ فَأَتَمَّهَا عَشْرًا.

قَالَ سَعِيدٌ -وَهُوَ ابْنُ جُبَيْرٍ-: فَلَقِيَنِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ مِنْ عُلَمَائِهِمْ قَالَ: هَلْ تَدْرِي أَيَّ الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قُلْتُ: لا. وَأَنَا يَوْمَئِذٍ لا أَدْرِي، فَلَقِيتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ثَمَانِيًا كَانَتْ عَلَى نَبِيِّ اللهِ وَاجِبَةً، لَمْ يَكُنْ نَبِيُّ اللهِ لِيَنْقُصَ مِنْهَا شَيْئًا، وَيَعْلَمُ أَنَّ اللهَ كَانَ قَاضِيًا عَنْ مُوسَى عِدَتَهُ الَّتِي كَانَ وَعَدَهُ، فَإِنَّهُ قَضَى عَشْرَ سِنِينَ. فَلَقِيتُ النَّصْرَانِيَّ فَأَخْبَرْتُهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: الَّذِي سَأَلْتَهُ فَأَخْبَرَكَ أَعْلَمُ مِنْكَ بِذَلِكَ. قُلْتُ: أَجَلْ وَأَوْلَى. فَلَمَّا سَارَ مُوسَى بِأَهْلِهِ كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّارِ وَالعَصَا وَيَدِهِ مَا قَصَّ اللهُ عَلَيْكَ فِي القُرْآنِ، فَشَكَا إِلَى اللهِ تَعَالَى مَا يَتَخَوَّفُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فِي القَتِيلِ وَعُقْدَةِ لِسَانِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةٌ تَمْنَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الكَلَامِ وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُعِينَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ يَكُونُ لَهُ رِدْءًا، وَيَتَكَلَّمُ عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لا يُفْصِحُ بِهِ لِسَانُهُ فَآتَاهُ اللهُ سُؤْلَهُ، وَحَلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ، وَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَارُونَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْقَاهُ فَانْدَفَعَ مُوسَى بِعَصَاهُ حَتَّى لَقِيَ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَانْطَلَقَا جَمِيعًا إِلَى فِرْعَوْنَ، فَأَقَامَا عَلَى بَابِهِ حِينًا لا يُؤْذَنُ لَهُمَا، ثُمَّ أُذِنَ لَهُمَا بَعْدَ حِجَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ قَالَ: فَمَنْ رَبُّكُمَا؟ [فَأَخْبَرَاهُ][1] بِالَّذِي قَصَّ اللهُ عَلَيْكَ فِي القُرْآنِ، قَالَ: فَمَا تُرِيدَانِ؟ وَذَكَّرَهُ القَتِيلَ، فَاعْتَذَرَ بِمَا قَدْ سَمِعْتَ. قَالَ: أُرِيدُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَتُرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَأَبَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: ائْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

---

(١) في نسخة: [فأخبره].

فَأَلقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى عَظِيمَة، فَاغِرَة فَاهَا مُسْرِعَة إِلى فِرْعَوْن، فَلَمَّا رَآهَا فِرْعَوْن قاصدة إِلَيْهِ خَافَهَا، فَاقْتَحَم عَنْ سَرِيره، وَاسْتَغَاثَ بِمُوسَى أَنْ يَكُفَّهَا عَنْهُ، فَفَعَل، ثُمَّ أَخْرَجَ يَده مِنْ جَيْبه فَرَآهَا ﴿بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ يَعْنِي: مِنْ غَيْر بَرَص، ثُمَّ رَدَّهَا فَعَادَتْ إِلى لوْنهَا الأَوَّل، فَاسْتَشَارَ المَلأ حَوْله فِيمَا رَأَى، فَقَالُوا لهُ: هَذَانِ سَاحِرَانِ ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾، يَعْنِي: مُلكهمْ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَالعَيْش، وَأَبَوْا عَلى مُوسَى أَنْ يُعْطُوهُ شَيْئًا مِمَّا طَلَبَ، وَقَالُوا لهُ: اجْمَعْ لهُمَا السَّحَرَة فَإِنَّهُمْ بِأَرْضِك كَثِير؛ حَتَّى تَغْلب بِسِحْرِك سِحْرهمَا. فَأَرْسَل إِلى المَدَائِن، فَحُشِرَ لهُ كُلّ سَاحِر مُتَعَالم، فَلمَّا أَتَوْا فِرْعَوْن قَالُوا: بِمَ يَعْمَل هَذَا السَّاحِر؟ قَالُوا: يَعْمَل بِالحَيَّاتِ. قَالُوا: فَلا وَالله مَا أَحَد فِي الأَرْض يَعْمَل بِالسِّحْرِ بِالحَيَّاتِ وَالحِبَال وَالعِصِيّ الَّذِي نَعْمَل، وما أَجْرنَا إِنْ نَحْنُ غَلبْنَا؟ قَال لهُمْ: أَنْتُمْ أَقَارِبِي وَخَاصَّتِي، وَأَنَا صَانِع إِليْكُمْ كُلّ شَيْء أَحْبَبْتُمْ. فَتَوَاعَدُوا يَوْم الزِّينَة وَأَنْ يُحْشَر النَّاس ضُحًى.

قَال سَعِيد بْن جُبَيْر: فَحَدَّثَنِي ابْن عَبَّاس أَنَّ يَوْم الزِّينَة الَّذِي أَظْهَرَ الله فِيهِ مُوسَى عَلى فِرْعَوْن وَالسَّحَرَة هُوَ يَوْم عَاشُورَاء. فَلمَّا اجْتَمَعُوا فِي صَعِيد قَال النَّاس بَعْضهمْ لبَعْضٍ: انْطَلقُوا فَلنَحْضُرْ هَذَا الأَمْر ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ يَعْنُونَ مُوسَى وَهَارُون اسْتِهْزَاء بِهِمَا، فَقَالُوا: يَا مُوسَى لقدرتهم بسحرهم ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾، ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾، ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ فَرَأَى مُوسَى مِنْ سِحْرهمْ مَا أَوْجَسَ فِي نَفْسه خِيفَة، فَأَوْحَى الله إِليْهِ أَنْ أَلقِ عَصَاك، فَلمَّا أَلقَاهَا صَارَتْ ثُعْبَانًا عَظِيمَة فَاغِرَة فَاهَا، فَجَعَلتْ العِصِيّ تَلتَبِس بِالحِبَال حَتَّى صَارَتْ جُرُزًا إِلى الثُّعْبَان تَدْخُل فِيهِ حَتَّى مَا أَبْقَتْ عَصًا وَلا حَبْلًا إِلَّا ابْتَلعَتْهُ. فَلمَّا عَرَفت السَّحَرَة ذَلكَ قَالُوا: لوْ كَانَ هَذَا سِحْرًا لمْ يَبْلُغ مِنْ سِحْرنَا كُلّ هَذَا، وَلكِنَّ هَذَا أَمْر مِنْ الله ﷻ، آمَنَّا بِالله وَبِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى، وَنَتُوب إِلى الله مِمَّا كُنَّا عَليْهِ. فَكَسَرَ اللهُ ظَهْر فِرْعَوْن فِي ذَلكَ المَوْطِن وَأَشْيَاعه، وَظَهَرَ الحَقّ، وَبَطَل مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾، وَامْرَأَة فِرْعَوْن بَارِزَة مُتَبَذِّلة تَدْعُو الله بِالنَّصْرِ لمُوسَى عَلى فِرْعَوْن وَأَشْيَاعه، فَمَنْ رَآهَا مِنْ آل فِرْعَوْن ظَنَّ أَنَّهَا إِنَّمَا ابْتَذَلتْ للشَّفَقَةِ عَلى فِرْعَوْن وَأَشْيَاعه، وَإِنَّمَا كَانَ حُزْنهَا وَهَمّهَا لمُوسَى. فَلمَّا طَال مُكْث مُوسَى بِمَوَاعِيد فِرْعَوْن الكَاذِبَة، كُلَّمَا جَاءَ بِآيَةٍ وَعَدَهُ عِنْدهَا أَنْ يُرْسِل مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيل، فَإِذَا مَضَتْ أَخْلفَ مَوْعِده، وَقَال: هَل يَسْتَطِيع رَبّك أَنْ يَصْنَع غَيْر هَذَا؟ فَأَرْسَل الله عَلى قَوْمه الطُّوفَان وَالجَرَاد، وَالقُمَّل وَالضَّفَادِع وَالدَّم آيَات مُفَصَّلات، كُلّ ذَلكَ يَشْكُو إِلى مُوسَى وَيَطْلُب إِليْهِ أَنْ يَكُفّهَا عَنْهُ، وَيُوَاثِقهُ عَلى أَنْ يُرْسِل مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيل فَإِذَا كَفَّ ذَلكَ عنه أَخْلفَ مَوْعِده وَنَكَثَ عَهْده. حَتَّى أَمَرَ الله مُوسَى بِالخُرُوج بِقَوْمِهِ، فَخَرَجَ بِهِمْ ليْلًا فَلمَّا أَصْبَحَ فِرْعَوْن وَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ مَضَوْا أَرْسَل فِي المَدَائِن حَاشِرِينَ فَتَبِعَهُ بِجُنُودٍ عَظِيمَة كَثِيرَة وَأَوْحَى الله إِلى البَحْر: إِذَا ضَرَبَك عَبْدِي مُوسَى بِعَصَاهُ فَانْفَلقْ اثْنَتَيْ عَشْرَة فِرْقَة، حَتَّى يَجُوز مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ التَقِ عَلى مَنْ بَقِيَ بَعْدُ مِنْ فِرْعَوْن وَأَشْيَاعه، فَنَسِيَ مُوسَى أَنْ يَضْرِب البَحْر بِالعَصَا، وَانْتَهَى إِلى البَحْر وَلهُ قَصِيف مَخَافَة أَنْ يَضْرِبهُ مُوسَى بِعَصَاهُ وَهُوَ غَافِل، فَيَصِير عَاصِيًا لله.

فَلمَّا تَرَاءَى الجَمْعَانِ وَتَقَارَبَا ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾. افْعَل مَا أَمَرَك بِهِ رَبّك فَإِنَّهُ لمْ يَكْذِب وَلمْ تَكْذِب. قَال: وَعَدَنِي أن إِذَا أَتَيْت البَحْر انْفَرَقَ اثْنَتَيْ عَشْرَة فِرْقَة حَتَّى أُجَاوِزهُ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْد ذَلكَ العَصَي، فَضَرَبَ البَحْر بِعَصَاهُ حِين دَنَا أَوَائِل جُنْد فِرْعَوْن مِنْ أَوَاخِر جُنْد مُوسَى، فَانْفَرَقَ البَحْر كَمَا أَمَرَهُ رَبه وَكَمَا وَعَدَ مُوسَى، فَلمَّا أَنْ جَازَ مُوسَى وَأَصْحَابه كُلّهمْ البَحْر، وَدَخَل فِرْعَوْن وَأَصْحَابه، التَقَى عَليْهِمْ البَحْر كَمَا أُمِرَ، فَلمَّا جَاوَزَ مُوسَى البَحْر قَال أَصْحَابه: إِنَّا نَخَاف أَنْ لا يَكُون فِرْعَوْن غَرِقَ وَلا نُؤْمِن بِهَلاكِهِ. فَدَعَا رَبه فَأَخْرَجَهُ لهُ

بِبَدَنِهِ حَتَّى اسْتَيْقَنُوا بِهَلاكِهِ. ثُمَّ مَرُّوا بَعْد ذَلكَ عَلى قَوْم يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنَام لَهُم: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. قَدْ رَأَيْتُمْ مِنَ العِبَر وَسَمِعْتُمْ مَا يَكْفِيكُمْ وَمَضَى، فَأَنْزَلَهُمْ مُوسَى مَنْزِلًا، وَقَال: أَطِيعُوا هَارُون فَإِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْته عَليْكُمْ، فَإِنِّي ذَاهِب إِلى رَبِّي. وَأَجَّلَهُمْ ثَلاثِينَ يَوْمًا أَنْ يَرْجِع إِلَيْهِمْ فِيهَا. فَلَمَّا أَتَى رَبّه وَأَرَادَ أَنْ يُكَلِّمهُ فِي ثَلاثِينَ يَوْمًا وَقَدْ صَامَهُنَّ لَيْلهنَّ وَنَهَارهنَّ، وَكَرِهَ أَنْ يُكَلِّم رَبّه وَرِيحُ فِيهِ رِيحُ فَم الصَّائِم، فَتَنَاوَل مُوسَى مِنْ نَبَات الأَرْض شَيْئًا فَمَضَغَهُ، فَقَال لهُ رَبّه حِين أَتَاهُ: لِمَ أَفْطَرْت -وَهُوَ أَعْلم بِالَّذِي كَانَ-؟ قَال: يَا رَبّ؛ إِنِّي كَرِهْت أَنْ أُكَلِّمك إِلَّا وَفَمِي طَيِّب الرِّيح. قَال: أَوَمَا عَلمْت يَا مُوسَى، أَنَّ رِيح فَم الصَّائِم أَطْيَب مِنْ رِيح المِسْك؟ ارْجِعْ فَصُمْ عَشْرًا ثُمَّ ائْتِنِي.

فَفَعَل مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا أُمِرَ بِهِ، فَلَمَّا رَأَى قَوْم مُوسَى أَنَّهُ لَمْ يَرْجِع إِلَيْهِمْ فِي الأَجَل سَاءَهُمْ ذَلكَ، وَكَانَ هَارُون قَدْ خَطَبَهُمْ وَقَال: إِنَّكُمْ قَدْ خَرَجْتُمْ مِنْ مِصْر، وَلقَوْمِ فِرْعَوْن عِنْدكُمْ عَوَارِي وَوَدَائِع، وَلكُمْ فِيهِمْ مِثْل ذَلكَ، وأنا أَرَى أَنْ تَحْتَسِبُوا مَا لكُمْ عِنْدهمْ وَلا أُحِل لكُمْ وَدِيعَة اسْتَوْدَعْتُمُوهَا وَلا عَارِيَة، وَلسْنَا بِرَادِّينَ إِليْهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلكَ، وَلا مُمْسِكِيهِ لأَنْفُسِنَا، فَحَفَرَ حَفِيرًا وَأَمَرَ كُلّ قَوْم عِنْدهمْ مِنْ ذَلكَ مِنْ مَتَاع أَوْ حِلية أَنْ يَقْذِفُوهُ فِي ذَلكَ الحَفِير، ثُمَّ أَوْقَدَ عَليْهِ النَّار فَأَحْرَقَهُ، فَقَال: لا يَكُون لنَا وَلا لهُمْ. وَكَانَ السَّامِرِيّ مِنْ قَوْم يَعْبُدُونَ البَقَر جِيرَان لبَنِي إِسْرَائِيل، وَلمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل فَاحْتَمَل مَعَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيل حِين احْتَمَلُوا، فَقُضِيَ لهُ أَنْ رَأَى أَثَرًا فَقَبَض مِنْهُ قَبْضَة فَمَرَّ بِهَارُون فَقَال لهُ هَارُون عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا سَامِرِيّ، أَلا تُلْقِي مَا فِي يَدك؟ وَهُوَ قَابِض عَليْهِ، لا يَرَاهُ أَحَد طُوال ذَلكَ فَقَال: هَذِهِ قَبْضَة مِنْ أَثَر الرَّسُول الَّذِي جَاوَزَ بِكُمْ البَحْر وَلا أُلقِيهَا لشَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَدْعُو الله إِذَا أَلقَيْتهَا أَنْ يَكون مَا أُرِيد. فَأَلقَاهَا وَدَعَا لهُ هَارُون، فَقَال: أُرِيد أَنْ يَكُون عِجْلًا فَاجْتَمَعَ مَا كَانَ فِي الحَفِيرَة مِنْ مَتَاع أَوْ حِلية أَوْ نُحَاس أَوْ حَدِيد فَصَارَ عِجْلًا أَجْوَف ليْسَ فِيهِ رُوح، لهُ خُوَار. قَال ابْن عَبَّاس: لا وَالله مَا كَانَ لهُ صَوْت قَطُّ، إِنَّمَا كَانَتْ الرِّيح تَدْخُل فِي دُبُره وَتَخْرُج مِنْ فِيهِ، فكَانَ ذَلكَ الصَّوْت مِنْ ذَلكَ. فَتَفَرَّقَ بَنُو إِسْرَائِيل فِرَقًا؛ فَقَالتْ فِرْقَة: يَا سَامِرِيّ، مَا هَذَا وَأَنْتَ أَعْلم بِهِ؟ قَال: هَذَا رَبّكُمْ، وَلكِنَّ مُوسَى أَضَلَّ الطَّرِيق. وقَالتْ فِرْقَة: لا نُكَذِّب بِهَذَا حَتَّى يَرْجِع إِليْنَا مُوسَى، فَإِنْ كَانَ رَبّنَا لمْ نكُنْ ضَيَّعْنَاهُ، وَعَجَزْنَا فِيهِ حِين رَأَيْنَاه، وَإِنْ لمْ يَكُنْ رَبّنَا فَإِنَّا نَتَّبِع قَوْل مُوسَى. وَقَالتْ فِرْقَة: هَذَا عَمَلُ الشَّيْطَان وَليْسَ بِرَبّنَا، ولن نُؤْمِن بِهِ وَلا نُصَدِّق. وَأُشْرِبَ فِرْقَة فِي قُلُوبهمْ الصِّدْق بِمَا قَال السَّامِرِيّ فِي العِجْل، وَأَعْلنُوا التَّكْذِيب بِهِ، فَقَال لهُمْ هَارُون: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾.

قَالُوا: فَمَا بَال مُوسَى وَعَدَنَا ثَلاثِينَ يَوْمًا ثُمَّ أَخْلفْنَا، هَذِهِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا قَدْ مَضَتْ. وَقَال سُفَهَاؤُهُمْ: أَخْطَأَ رَبّه فَهُوَ يَطْلُبهُ يَتْبَعهُ. فَلَمَّا كَلَّمَ الله مُوسَى، وَقَال لهُ مَا قَال، أَخْبَرَهُ بِمَا لقِيَ قَوْمه مِنْ بَعْده، ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا﴾ فَقَال لهُمْ: مَا سَمِعْتُمْ فِي القُرْآن، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرّهُ إِليْهِ، وَأَلقَى الأَلْوَاح مِنْ الغَضَب، ثُمَّ إِنَّهُ عَذَرَ أَخَاهُ بِعُذْرِهِ، وَاسْتَغْفَرَ لهُ، وَانْصَرَفَ إِلى السَّامِرِيّ فَقَال لهُ: مَا حَمَلك عَلى مَا صَنَعْت؟ قَال: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ وَفَطِنْت لهَا وَعَمِيَتْ عَليْكُمْ فقَذَفْتهَا ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾، وَلوْ كَانَ إِلهًا لمْ يُخْلَص إِلى ذَلكَ مِنْهُ، فَاسْتَيْقَنَ بَنُو إِسْرَائِيل بِالفِتْنَة، وَاغْتَبَطَ الَّذِينَ كَانَ رَأْيهمْ فِيهِ مِثْل رَأْي هَارُون، فَقَالُوا لجَمَاعَتِهِمْ، يَا مُوسَى؛ سَل لنَا رَبّك أَنْ يَفْتَح لنَا بَاب تَوْبَة نَصْنَعهَا، فَيُكَفِّر عَنَّا مَا عَمِلنَا. فَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمه سَبْعِينَ رَجُلًا لذَلكَ، لا يَأْلُو الخَيْر، خِيَار بَنِي إِسْرَائِيل، وَمَنْ لمْ يُشْرِك فِي العِجْل، فَانْطَلقَ بِهِمْ يَسْأَل لهُمْ التَّوْبَة، فَرَجَفَتْ بِهِمْ الأَرْض، فَاسْتَحْيَا نَبِيّ الله مِنْ قَوْمه وَمِنْ وَفْده حِين فَعَل بِهِمْ

مَا فَعَل، فَقَال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ اطَّلَعَ الله مِنْهُ عَلى مَا أُشْرِبَ قَلبه مِنْ حُبّ العِجْل وَإِيمَان بِهِ، فَلذَلكَ رَجفَتْ بِهِمْ الأَرْض، فَقَال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾. فَقَال: يَا رَبّ سَأَلتُك التَّوْبَة لقَومِي، فَقُلت: إِنَّ رَحْمَتِي كَتَبْتهَا لقَوْم غَيْر قَوْمِي، فَلَيْتَكَ أَخَّرْتنِي حَتَّى تُخْرجنِي فِي أُمَّة ذَلكَ الرَّجُل المَرْحُومَة. فَقَال لهُ: إِنَّ تَوْبَتهمْ أَنْ يَقْتُل كُلّ رَجُل مِنْهُمْ مَنْ لقِيَ مِنْ وَالد وَوَلد، فَيَقْتُلهُ بِالسَّيْفِ لا يُبَالِي مَنْ قَتَل فِي ذَلكَ المَوْطِن. وَتَاب أُولئِكَ الَّذِينَ كَانَ خَفِيَ عَلى مُوسَى وَهَارُون وَاطَّلعَ الله مِنْ ذُنُوبهمْ فَاعْتَرَفُوا بِهَا وَفَعَلُوا مَا أُمِرُوا، وَغَفَرَ الله للقَاتِل وَالمَقْتُول.

ثُمَّ سَارَ بِهِمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُتَوَجِّهًا نَحو الأَرْض المُقَدَّسَة، وَأَخَذَ الأَلْوَاح بَعْدَمَا سَكَتَ عَنْهُ الغَضَب فَأَمَرَهُمْ بِالَّذِي [أَمَرَهُمْ][1] بِهِ أَنْ يُبَلِّغهُمْ مِنْ الوَظَائِف فَثقُل ذَلكَ عَليْهِمْ، وَأَبَوْا أَنْ يُقِرُّوا بِهَا، فَنَتَقَ الله عَليْهِمْ الجَبَل كَأَنَّهُ ظُلَّة وَدَنَا مِنْهُمْ حَتَّى خَافُوا أَنْ يَقَع عَليْهِمْ فَأَخَذُوا الكِتَاب بِأَيْمَانِهِمْ وَهُمْ مُصْغُونَ يَنْظُرُونَ إِلى الجَبَل، وَالكِتَاب بِأَيْدِيهِمْ وَهُمْ مِنْ وَرَاء الجَبَل مَخَافَة أَنْ يَقَع عَليْهِمْ، ثُمَّ مَضَوْا حَتَّى أَتَوْا الأَرْض المُقَدَّسَة، فَوَجَدُوا مَدِينَة فِيهَا قَوْم جَبَّارُونَ خَلقهمْ خَلق مُنْكَر وَذَكَرُوا مِنْ ثِمَارهمْ أَمْرًا عَجِيبًا مِنْ عِظَمهَا، فَقَالُوا: يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ، لا طَاقَة لنَا بِهِمْ وَلا نَدْخُلهَا مَا دَامُوا فِيهَا، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ. قَال رَجُلانِ مِنْ الَّذِينَ يَخَافُونَ -قِيل لِيَزِيدَ: هَكَذَا قَرَأَه؟ قَال: نَعَمْ- مِنْ الجَبَّارِينَ، آمَنَا بِمُوسَى وَخَرَجَا إِليْهِ فَقَالُوا: نَحْنُ أَعْلم بِقَوْمِنَا، إِنْ كُنْتُمْ إِنَّمَا تَخَافُونَ مَا رَأَيْتُمْ مِنْ أَجْسَامهمْ وَعَدَدهمْ، فَإِنَّهُمْ لا قُلُوب لهُمْ وَلا مَنَعَة عِنْدهمْ فَادْخُلُوا عَليْهِمْ البَاب، فَإِذَا دَخَلتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالبُونَ، وَيَقُول أُنَاس: إِنَّهُمْ مِنْ قَوْم مُوسَى فَقَال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ بَنُو إِسْرَائِيل ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ فَأَغْضَبُوا مُوسَى، فَدَعَا عَليْهِمْ وَسَمَّاهُمْ فَاسِقِينَ، وَلمْ يَدْعُ عَليْهِمْ قَبْل ذَلكَ لمَا رَأَى مِنْ المَعْصِيَة وَإِسَاءَتهمْ حَتَّى كَانَ يَوْمئِذٍ. فَاسْتَجَاب الله لهُ، وَسَمَّاهُمْ كَمَا سَمَّاهُمْ فَاسِقِينَ، فحَرَّمَهَا عَليْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَة يَتِيهُونَ فِي الأَرْض، يُصْبِحُونَ كُلّ يَوْم فَيَسِيرُونَ ليْسَ لهُمْ قَرَار، ثم ظَلَّل عَليْهِمْ الغَمَام فِي التِّيه وَأَنْزَل عَليْهِمْ المَنّ وَالسَّلوَى، وَجَعَل لهُمْ ثِيَابًا لا تُبْلى وَلا تَتَّسِخ، وَجَعَل بَيْن ظَهْرَانَيْهِمْ حَجَرًا مُرَبَّعًا، وَأُمِرَ مُوسَى فَضَرَبَهُ بِعَصَاهُ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَة عَيْنًا فِي كُلّ نَاحِيَة ثلاث أَعْيُن، وَأَعْلمَ كُلّ سِبْط عَيْنهمْ الَّتِي يَشْرَبُونَ مِنْهَا فَلا يَرْتَحِلُونَ مِنْ مَنْقَلة إِلَّا وَجَدُوا ذَلكَ الحَجَر معهم بِالمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ بِالأَمْسِ.[2]

رَفَعَ ابْن عَبَّاس هَذَا الحَدِيث إِلى النَّبِيّ ﷺ، وَصَدَّقَ ذَلكَ عِنْدِي أَنَّ مُعَاوِيَة سَمِعَ ابْن عَبَّاس [يُحَدِّث][3] هَذَا الحَدِيث، فَأَنْكَرَ عَليْهِ أَنْ يَكُون الفِرْعَوْنِيّ الَّذِي أَفْشَى عَلى مُوسَى أَمْر القَتِيل الَّذِي قَتَل، فَقَال: كَيْف يُفْشِي عَليْهِ وَلمْ يَكُنْ عَلمَ بِهِ وَلا ظَهَرَ عَليْهِ إِلَّا الإِسْرَائِيليّ الَّذِي حَضَرَ ذَلكَ؟ فَغَضِبَ ابْن عَبَّاس، فَأَخَذَ بِيَدِ مُعَاوِيَة [وَانْطَلقَ][4] بِهِ إِلى سَعْد بْن مَالك الزُّهْرِيّ، فَقَال لهُ: يَا أَبَا إِسْحَاق؛ هَل تَذْكُر يَوْم حَدَّثنَا رَسُول الله ﷺ عَنْ قَتِيل مُوسَى الَّذِي قُتِل مِنْ آل فِرْعَوْن؟ الإِسْرَائِيليّ الَّذِي أَفْشَى عَليْهِ أَمْ الفِرْعَوْنِيّ؟ قَال: إِنَّمَا أَفْشَى عَليْهِ الفِرْعَوْنِيّ بِمَا

---

(١) في نسخة: [أمر].

(٢) قال ابن كثير: وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع، إلا قليلاً منه. ورجاله ثقات. وأخرجه أبو يعلي (٢٦١٨)، والطبري (١٦/ ١٦٤، ١٦٧).

(٣) في نسخة: [حَدَّث].

(٤) في نسخة: [فانطلق].

سَمِعَ مِنْ الإِسْرَائِيلِيّ الَّذِي شَهِدَ عَلى ذَلِكَ وَحَضَرَهُ. هَكَذَا رَوَاهُ الإمام النَّسَائِيّ فِي «السُّنَن الكُبْرَى» وَأَخْرَجَهُ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم فِي «تَفْسِيرَيْهِمَا» كُلّهم مِنْ حَدِيث يَزِيد بْن هَارُون بِهِ. وَهُوَ مَوْقُوف مِنْ كَلام ابْن عَبَّاس وَلَيْسَ فِيهِ مَرْفُوع إِلَّا قَلِيل مِنْهُ وَكَأَنَّهُ تَلَقَّاهُ ابْن عَبَّاس رضي الله عنه مِمَّا أُبِيحَ نَقْله مِنْ الإِسْرَائِيلِيَّات عَنْ كَعْب الأَحْبَار أَوْ غَيْره وَاللهُ أَعْلَم. وَسَمِعْت شَيْخنَا الحَافِظ أَبَا الحَجَّاج المِزِّيّ يَقُول ذَلِكَ أَيْضًا.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخَاطِبًا لمُوسَى عليه السلام: إِنَّهُ لبِثَ مُقِيمًا فِي أَهْل مَدْيَن فَارًّا مِنْ فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ، يَرْعَى عَلى صِهْره حَتَّى انْتَهَتْ المُدَّة وَانْقَضَى الأَجَل ثُمَّ جَاءَ مُوَافِقًا لقَدَرِ الله وَإِرَادَته مِنْ غَيْر مِيعَاد وَالأَمْر كُلّه لله تَبَارَكَ وَتَعَالى وَهُوَ المُسَيِّر عِبَاده وَخَلقه فِيمَا يَشَاء، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ قَال مُجَاهِد: أَيْ: عَلى مَوْعِد.

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر عَنْ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ قَال: عَلى قَدَر الرِّسَالة وَالنُّبُوَّة.

وَقَوْله: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ أَيْ: اصْطَفَيْتُك وَاجْتَبَيْتُك رَسُولًا لنَفْسِي، أَيْ: كَمَا أُرِيد وَأَشَاء. وَقَال البُخَارِيّ عِنْد تَفْسِيرهَا: حَدَّثَنَا الصَّلت بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا مَهْدِيّ بْن مَيْمُون، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: **«التَقَى آدَم وَمُوسَى، فَقَال مُوسَى: أَنْتَ الَّذِي أَشْقَيْت النَّاس وَأَخْرَجْتهمْ مِنْ الجَنَّة؟ فَقَال آدَم: أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاك الله برسالاته وَاصْطَفَاك لنَفْسِهِ وَأَنْزَل عَلَيْك التَّوْرَاة؟ قَال: نَعَمْ. قَال: فَوَجَدْته قَدْ كُتِبَ عَليَّ قَبْل أَنْ يَخْلُقنِي؟ قَال: نَعَمْ. فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»**. أَخْرَجَاهُ.[1]

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ أَيْ: بِحُجَجِي وَبَرَاهِينِي وَمُعْجِزَاتِي، ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ قَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: لا تُبْطِئَا. وَقَال مُجَاهِد عَنْ ابْن عَبَّاس: لا تَضْعُفَا. وَالمُرَاد: أَنَّهُمَا لا يَفْتُرَانِ فِي ذِكْر الله، بَل يَذْكُرَانِ الله فِي حَال مُوَاجَهَة فِرْعَوْن؛ لِيَكُونَ ذِكْر الله عَوْنًا لهُمَا عَليْهِ وَقُوَّة لهُمَا وَسُلطَانًا كَاسِرًا لهُ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: **«إِنَّ عَبْدِي كُلَّ عَبْدِي للَّذِي يَذْكُرنِي وَهُوَ مُنَاجِز قِرْنه»**.

وَقَوْله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أَيْ: تَمَرَّدَ وَعَتَا وَتَجَهْرَمَ عَلى الله وَعَصَاهُ، ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ هَذِهِ الآيَة فِيهَا عِبْرَة عَظِيمَة، وَهُوَ أَنَّ فِرْعَوْن فِي غَايَة العُتُوّ وَالاسْتِكْبَار وَمُوسَى صَفْوَة الله مِنْ خَلقه إِذْ ذَاكَ وَمَعَ هَذَا أُمِرَ أَنْ لا يُخَاطِب فِرْعَوْن إِلَّا بِالمُلاطَفَةِ وَاللِّين، كَمَا قَال يَزِيد الرَّقَاشِيّ عِنْد قَوْله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: يَا مَنْ يَتَحَبَّب إِلى مَنْ يُعَادِيه فَكَيْف بِمَنْ يَتَوَلَّاهُ وَيُنَادِيه؟! وَقَال وَهْب بْن مُنَبِّه: قُولا لهُ: إِنِّي إِلى العَفْو وَالمَغْفِرَة أَقْرَب مِنِّي إِلى الغَضَب وَالعُقُوبَة.

وَعَنْ عِكْرِمَة فِي قَوْله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ قَال: لا إِله إِلَّا الله. وَقَال عَمْرو بْن عُبَيْد، عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: أَعْذِرَا إِليْهِ، قُولا لهُ: إِنَّ لك رَبًّا وَلك مَعَادًا، وإِن بَيْن يَدَيْك جَنَّة وَنَارًا. وَقَال بَقِيَّة عَنْ عَليّ بْن هَارُون عَنْ رَجُل عَنْ الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم عَنْ النَّزَّال بْن سَبْرَة عَنْ عَليّ فِي قَوْله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ قَال: كَنِّهِ. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ: كَنِّهِ بِأَبِي مُرَّة. وَالحَاصِل مِنْ أَقْوَالهمْ: أَنَّ دَعْوَتهمَا لهُ تَكُون بِكَلام رَقِيق لَيِّن قَرِيب سَهْل؛ لِيَكُونَ أَوْقَع فِي النُّفُوس وَأَبْلغ وَأَنْجَع، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٣٦)، ومسلم (٢٦٥٢).

وَقَوْله: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أَيْ: لعَلَّهُ يَرْجِع عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ الضَّلال وَالهلَكَة، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أَيْ: يُوجِد طَاعَة مِنْ خَشْيَة رَبّه، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾. فَالتَّذَكُّر: الرُّجُوع عَنْ المَحْذُور، وَالخَشْيَة: تَحْصِيل الطَّاعَة. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ يَقُول: لا تَقُل أَنْتَ يَا مُوسَى وَأَخُوك هَارُون: أَهْلكْهُ، قَبْل أَنْ أَعْذِر إِليْهِ. وَهَاهُنَا نَذْكُر شِعْر زَيْد بْن عَمْرو بْن نُفَيْل، وَيُرْوَى لأُمَيَّة بْن أَبِي الصَّلت فِيمَا ذَكَرَهُ ابْن إِسْحَاق:

وَأَنْتَ الَّذِي مِنْ فَضْل مَنّ وَرَحْمَة ❁ بَعَثْت إِلى مُوسَى رَسُولاً مُنَادِيَا
فَقُلت لهُ: فَاذْهَبْ وَهَارُون فَادْعُوَا ❁ إِلى الله فِرْعَوْن الَّذِي كَانَ بَاغِيَا
فَقُولا لهُ: هَل أَنْتَ سَوَّيْت هَذِهِ ❁ بِلا وَتِد حَتَّى اسْتَقَلَّتْ كَمَا هِيَا؟
وَقُولا لهُ: أَأَنْت رَفَعْتَ هَذِهِ ❁ بِلا عَمَد أَرْفِقْ إِذَنْ بِك بَانِيَا
وَقُولا لهُ: أَأَنْت سَوَّيْت وَسْطهَا ❁ مُنِيرًا إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْل هَادِيَا؟
وقُولا لهُ: مَنْ يُخْرِج الشَّمْس بُكْرَة ❁ فَيُصْبِح مَا مَسَّتْ مِنْ الأَرْض ضَاحِيَا؟
وَقُولا لهُ: مَنْ يُنْبِت الحَبّ فِي الثَّرَى ❁ فَيُصْبِح مِنْهُ البَقْلُ يَهْتَزّ رَابِيَا
وَيَخْرُج مِنْهُ حَبّه فِي رُءُوسه ❁ فَفِي ذَاك آيَات لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا

وقوله عز وجل: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

يَقُول تَعَالى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى وَهَارُون عَلَيْهِمَا السَّلَام: إِنَّهُمَا قَالا مُسْتَجِيرَيْنِ بالله تَعَالى شَاكِيَيْنِ إِليْهِ: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ يَعْنِيَانِ أَنْ يَبْدُر إِليْهِمَا بِعُقُوبَةٍ، أَوْ يَعْتَدِي عَليْهِمَا، فَيُعَاقِبهُمَا وَهُمَا لا يَسْتَحِقَّانِ مِنْهُ ذَلكَ. قَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد: ﴿أَن يَفْرُطَ﴾: يَعْجَل. وَقَال مُجَاهِد: يَبْسُط عَليْنَا. وَقَال الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ يَعْتَدِي. ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أَيْ: لا تَخَافَا مِنْهُ، فَإِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَع كَلامكُمَا وَكَلامه، وَأَرَى مَكَانكُمَا وَمَكَانه، ولا يَخْفَى عَليَّ مِنْ أَمْركُمْ شَيْء، وَاعْلمَا أَنَّ نَاصِيَته بِيَدِي، فَلا يَتَكَلَّم وَلا يَتَنَفَّس وَلا يَبْطِش إِلَّا بِإِذْنِي وَبَعْد أَمْرِي، وَأَنَا مَعَكُمَا بِحِفْظِي وَنَصْرِي وَتَأْيِيدِي.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَليّ بْن مُحَمَّد الطَّنَافِسِيّ حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة عَنْ الأَعْمَش عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة عَنْ أَبِي عُبَيْدَة عَنْ عَبْد الله قَال: لَمَّا بَعَثَ الله عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى إِلى فِرْعَوْن قَال: رَبّ، أَيّ شَيْء أَقُول؟ قَال: قُل: هَيَّا شراهيا. قَال الأَعْمَش: فُسِّرَ ذَلكَ: الحَيّ قَبْل كُلّ شَيْء وَالحَيّ بَعْد كُلّ شَيْء. إِسْنَاد جَيِّد وَشَيْء غَرِيب. ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيث الفُتُون عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَال: مَكَثَا عَلى بَابه حِينًا لا يُؤْذَن لهُمَا، ثم أَذِنَ لهُمَا بَعْد حِجَاب شَدِيد.

وَذَكَرَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار: أَنَّ مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُون خَرَجَا فَوَقَفَا بِبَاب فِرْعَوْن، يَلتَمِسَانِ الإِذْن عَليْهِ، وَهُمَا يَقُولانِ: إِنَّا رُسُل رَبّ العَالمِينَ، فَآذِنُوا بِنَا هَذَا الرَّجُل. فَمَكَثَا فِيمَا بَلغَنِي سَنَتَيْنِ يَغْدُوَانِ وَيَرُوحَانِ لا يَعْلم بِهِمَا وَلا يَجْتَرِئ أَحَد عَلى أَنْ يُخْبِرهُ بِشَأْنِهِمَا حَتَّى دَخَل عَليْهِ بَطَّال لهُ يُلاعِبهُ وَيُضْحِكهُ فَقَال لهُ: أَيُّهَا المَلك، إِنَّ عَلى بَابك رَجُلًا يَقُول قَوْلًا عَجَبًا يَزْعُم أَنَّ لهُ إِلهًا غَيْرك أَرْسَلهُ إِليْك. قَال: بِبَابِي؟ قَال: نَعَمْ. قَال: أَدْخِلُوهُ فَدَخَل وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُون وَفِي يَده عَصًا فَلمَّا وَقَفَ عَلى فِرْعَوْن قَال: إِنِّي رَسُول رَبّ العَالمِينَ فَعَرَفَهُ فِرْعَوْن. وَذَكَرَ

السُّدِّيّ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ بِلاد مِصْر ضَافَ أُمّه وَأَخَاهُ وَهُمَا لا يَعْرِفَانِهِ وَكَانَ طَعَامهمَا لَيْلَتئِذِ الطَّعثلل -وَهُوَ اللُّفْت- ثُمَّ عَرَفَاهُ وَسَلَّمَا عَلَيْهِ، فَقَال لهُ مُوسَى: يَا هَارُون، إِنَّ رَبِّي قَدْ أَمَرَنِي أَنْ آتِي هَذَا الرَّجُل فِرْعَوْن فَأَدْعُوهُ إِلى الله [وَأَمَرَك][1] أَنْ تُعَاوِنني، قَال: افْعَل مَا أَمَرَك رَبّك. فَذَهَبَا وَكَانَ ذَلكَ لَيْلًا، فَضَرَبَ مُوسَى بَاب القَصْر بِعَصَاهُ فَسَمِعَ فِرْعَوْن فَغَضِبَ، وَقَال: مَنْ يَجْتَرِئ عَلى هَذَا الصَّنِيع؟ فَأَخْبَرَهُ السَّدَنَة وَالبَوَّابُونَ بِأَنَّ هَاهُنَا رَجُلًا مَجْنُونًا يَقُول: إِنَّهُ رَسُول الله، فَقَال: عَلَيَّ بِهِ. فَلَمَّا وَقَفَا بَيْن يَدَيْهِ قَالا وَقَال لهُمَا مَا ذَكَرَ الله فِي كِتَابه.

وَقَوْله: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أَيْ: بِدَلالَةٍ وَمُعْجِزَة مِنْ رَبّك، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أَيْ: وَالسَّلام عَليْك إِنْ اتَّبَعْت الهُدَى. وَلهَذَا لَمَّا كَتَبَ رَسُول الله ﷺ إِلى هِرَقْل عَظِيم الرُّوم كِتَابًا كَانَ أَوَّله: «**بِسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، مِنْ مُحَمَّد رَسُول الله إِلى هِرَقْل عَظِيم الرُّوم، سَلام عَلى مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى أَمَّا بَعْد: فَإِنِّي أَدْعُوك بِدِعَايَةِ الإِسْلام، فَأَسْلِمْ تَسْلم، وأَسْلِمْ يُؤْتِك الله أَجْرك مَرَّتَيْنِ**»[2]. وَكَذَلكَ لَمَّا كَتَبَ مُسَيْلمَة إِلى رَسُول الله ﷺ كِتَابًا صُورَته: مِنْ مُسَيْلمَة رَسُول الله إِلى مُحَمَّد رَسُول الله سَلام عَلَيْك أَمَّا بَعْد، فَإِنِّي قَدْ أُشْرِكتُ فِي الأَمْر مَعَك فَلك المَدَر وَلِيَ الوَبَر، وَلكِنْ قُرَيْش قَوْم يَعْتَدُونَ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ رَسُول الله ﷺ: «**مِنْ مُحَمَّد رَسُول الله إِلى مُسَيْلمَة الكَذَّاب؛ سَلام عَلى مَنْ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْد: فَإِنَّ الأَرْض لله يُورِثهَا مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَاده، وَالعَاقِبَة للمُتَّقِينَ**». وَلهَذَا قَال مُوسَى وَهَارُون عليهما السلام لِفِرْعَوْن: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: قد أخبرَنا الله فِيما أَوْحاه إِلينَا مِنَ الوَحْي المَعْصُوم، أن العَذابَ مُتمحِّضٌ لمنْ كذَّب بآيات الله وتولَّى عَنْ طاعَتِه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى (١٥) ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾. وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذب بقلبه وتولى بفعله.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْن أَنَّهُ قَال لمُوسَى، مُنْكِرًا وُجُود الصَّانِع الخَالق إِله كُلّ شَيْء وَربّه وَمَليكه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ أَيْ: الَّذِي بَعَثَك وَأَرْسَلك مَنْ هُوَ؟ فَإِنِّي لا أَعْرِفهُ، وَمَا عَلمْت لكُمْ مِنْ إِله غَيْرِي، ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾. قَال عَليُّ بْن أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْن عَبَّاس يَقُول: خَلَق لكلِّ شَيْء زَوْجَةً. وَقَال الضَّحَّاك: عن ابْنِ عبَّاس: جعل الإِنسانَ إِنسانًا، والحِمَار حِمارًا، والشَّاةَ شَاةً. وَقَال ليثُ بْن أَبِي سُلَيْم عَنْ مُجَاهِد: أَعْطَى كلَّ شيءٍ صُورَتَه. وقَال ابنُ أَبِي نُجَيح عَنْ مُجاهِد: سوَّى خَلْق كُلِّ دَابَّةٍ.

وقال سعيدُ بن جبير فِي قَوْله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قَال: أَعْطَى كُلّ ذِي خَلق مَا يَصْلُحهُ مِنْ خَلقه وَلمْ يَجْعَل للإِنْسَانِ مِنْ خَلق الدَّابَّة، وَلا للدَّابَّةِ مِنْ خَلق الكَلب، وَلا للكَلبِ مِنْ خَلق الشَّاة، وَأَعْطى كُلّ شَيْء مَا يَنْبَغِي لهُ مِنْ النِّكَاح، وَهَيَّأَ كُلّ شَيْء عَلى ذَلكَ، ليْسَ شَيْء مِنْهَا يُشْبه شَيْئًا مِنْ فِعَاله فِي الخَلق وَالرِّزْق وَالنِّكَاح. وَقَال بَعْض المُفَسِّرِينَ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، أَيْ: قَدَّرَ قَدَرًا، وَهَدَى الخَلائِق إِليْهِ، أَيْ: كَتَبَ الأَعْمَال وَالآجَال وَالأَرْزَاق، ثُمَّ الخَلائِق مَاشُونَ عَلى ذَلكَ ولا يَحِيدُونَ عَنْهُ وَلا يَقْدِر أَحَد عَلى الخُرُوج مِنْه، يَقُول رَبّنَا الَّذِي خَلقَ الخَلق، وَقَدَّرَ القَدَر، وَجَبَل الخَليقَة عَلى مَا أَرَادَ.

---

(١) في نسخة: [وأمر].

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧).

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أَصحّ الأَقْوَال فِي مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ فِرْعَوْن لَمَّا أَخْبَرَهُ مُوسَى بِأَنَّ رَبّه الَّذِي أَرْسَلهُ هُوَ الَّذِي خَلقَ وَرَزَقَ وَقَدَّرَ فَهَدَى؛ شَرَعَ يَحْتَجّ بِالقُرُونِ الأُولى -أَيْ: الَّذِينَ لمْ يَعْبُدُوا الله-، أَيْ: فَمَا بَالهمْ [إِذَا][1] كَانَ الأَمْر كَمَا تَقُول لمْ يَعْبُدُوه، بَل عَبَدُوا غَيْره؟ فَقَال لهُ مُوسَى فِي جَوَاب ذَلكَ: هُمْ وَإِنْ لمْ يَعْبُدُوهُ فَإِنَّ عَمَلهمْ عِنْد الله مَضْبُوط عَليْهِمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ بِعَمَلهِمْ فِي كِتَاب الله وَهُوَ اللَّوْح المَحْفُوظ وَكِتَاب الأَعْمَال ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ أَيْ: لا يَشِذّ عَنْهُ شَيْء، وَلا يَفُوتهُ صَغِير وَلا كَبِير، وَلا يَنْسَى شَيْئًا، يَصِف عِلمه تَعَالى بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْء مُحِيط، وَأَنَّهُ لا يَنْسَى شَيْئًا، تَبَارَكَ وَتَعَالى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ، فَإِنَّ عِلم المَخْلُوق يَعْتَرِيه نُقْصَانَانِ: أَحَدهمَا: عَدَم الإِحَاطَة بِالشَّيْءِ، وَالآخَر: نِسْيَانه بَعْد عِلمه، فَنَزَّهَ نَفْسه عَنْ ذَلكَ.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾.

هَذَا مِنْ تَمَام كَلام مُوسَى فِيمَا وَصَفَ بِهِ رَبّه عز وجل حِين سَأَلهُ فِرْعَوْن عَنْهُ، فَقَال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾، ثُمَّ اعْتَرَضَ الكَلام بَيْن ذَلكَ، ثُمَّ قَال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا ﴾، وَفِي قِرَاءَة بَعْضهمْ: ﴿ مَهْدًا ﴾ أَيْ: قَرَارًا تَسْتَقِرُّونَ عَليْهَا وَتَقُومُونَ وَتَنَامُونَ عَليْهَا وَتُسَافِرُونَ عَلى ظَهْرهَا. ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أَيْ: جَعَل لكُمْ طُرُقًا تَمْشُونَ فِي مَنَاكِبهَا كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾، ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾. أَيْ: أَلوان النَّبَاتَات مِنْ زُرُوع وَثِمَار، مِنْ حَامِض وَحُلو وَمُرّ، وَسَائِر الأَنْوَاع.

﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ﴾. أَيْ: شَيْء لطَعَامِكُمْ وَفَاكِهَتكُمْ، وَشَيْء لأَنْعَامِكُمْ لأَقْوَاتِهَا خَضِرًا وَيَابِسًا. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ أَيْ: لدَلالات وَحُجَج وَبَرَاهِين، ﴿ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ أَيْ: لذَوِي العُقُول السَّليمَة المُسْتَقِيمَة، عَلى أَنَّهُ لا إله إِلَّا الله وَلا رَبّ سِوَاهُ.

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾. أَيْ: مِنْ الأَرْض مَبْدَؤُكُمْ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ آدَم مَخْلُوق مِنْ تُرَاب مِنْ أَدِيم الأَرْض. ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أَيْ: وَإِليْهَا تَصِيرُونَ إِذَا مُتُّمْ وَبُليتُمْ، ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. وَهَذِهِ الآيَة كَقَوْلهِ تَعَالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾. وَفِي الحَدِيث الَّذِي فِي «السُّنَن»: أَنَّ رَسُول الله ﷺ حَضَرَ جِنَازَة، فَلمَّا دُفِنَ المَيِّت أَخَذَ قَبْضَة مِنْ التُّرَاب فَأَلقَاهَا فِي القَبْر، ثم قال: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ ﴾. ثُمَّ أَخَذَ أُخْرَى، وَقَال: ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ ثُمَّ أُخْرَى، وَقَال: ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾.[2]

وَقَوْله: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ يَعْنِي: فِرْعَوْن أَنَّهُ قَامَتْ عَليْهِ الحُجَج وَالآيَات وَالدَّلالات وَعَايَنَ ذَلكَ وَأَبْصَرَهُ، فَكَذَّبَ بِهَا وَأَبَاهَا؛ كُفْرًا وَعِنَادًا وَبَغْيًا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾.

---

(١) في نسخة: [إذ].

(٢) ضعيف جدًا ؛ فيه عبيد الله بن زحر: قال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات، وإذا روى عن علي بن يزيد أتى بالطامات. وللحديث طرق أخرى صحيحة في حثو التراب على القبر بعد الدفن.

يَقُول تَعَالى مُخبِرًا عَنْ فِرْعَوْن أَنَّهُ قَال لمُوسَى حِين أَرَاهُ الآيَة الكُبْرَى، وَهِيَ إِلقَاء عَصَاهُ، فَصَارَتْ ثُعْبَانًا عَظِيمًا، وَنَزَعَ يَده مِنْ تَحْت جَنَاحه، فَخَرَجَتْ بَيْضَاء مِنْ غَيْر سُوء، فَقَال: هَذَا سِحْر جِئْت بِهِ لتَسْحَرنَا، وَتَسْتَوْلِي بِهِ عَلى النَّاس، فَيَتْبَعُونَك وَتُكَاثِرنَا بِهِمْ، وَلا يَتِمّ هَذَا مَعَك، فَإِنَّ عِنْدنَا سِحْرًا مِثْل سِحْرك، فَلا يَغُرَّنَّك مَا أَنْتَ فِيهِ، ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أَيْ: يَوْمًا نَجْتَمِع نَحْنُ وَأَنْتَ فِيهِ، فَنُعَارِض مَا جِئْت بِهِ بِمَا عِنْدنا مِنْ السِّحْر فِي مَكَان مُعَيَّن وَوَقْت مُعَيَّن، فَعِنْد ذَلكَ ﴿قَالَ﴾ لهُمْ مُوسَى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وَهُوَ يَوْم عِيدهمْ وَنَوْرُوزهم وَتَفَرُّغهمْ مِنْ أَعْمَالهمْ واجتماعهم جَمِيعهمْ ليُشَاهِد النَّاس قُدْرَة الله عَلى مَا يَشَاء، وَمُعْجِزَات الأَنْبِيَاء، وَبُطْلان مُعَارَضَة السِّحْر لخَوَارِق العَادَات النَّبَوِيَّة، وَلهَذَا قَال: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ أَيْ: جَمِيعهمْ ﴿ضُحًى﴾، أَيْ: ضَحْوَة مِنْ النَّهَار؛ ليَكُونَ أَظْهَر وَأَجْلى وَأَبْيَن وَأَوْضَح. وَهَكَذَا شَأْن الأَنْبِيَاء، كُلّ أَمْرهمْ وَاضِح بَيِّن ليْسَ فِيهِ خَفَاء وَلا تَرْوِيج، وَلهَذَا لمْ يَقُل: «ليْلًا». وَلكِنْ نَهَارًا ضُحًى. قَال ابْن عَبَّاس: وَكَانَ يَوْم الزِّينَة يَوْم عَاشُورَاء. وَقَال السُّدِّيّ وَقَتَادَة وَابْن زَيْد: كَانَ يَوْم عِيدهمْ.

وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: يَوْم سُوقهمْ. وَلا مُنَافَاة. قُلت: وَفِي مِثْله أَهْلكَ الله فِرْعَوْن وَجُنُوده، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيح». وَقَال وَهْب بْن مُنَبِّه: قَال فِرْعَوْن: يَا مُوسَى؛ اجْعَل بَيْننَا وَبَيْنك أَجَلًا نَنْظُر فِيهِ. قَال مُوسَى: لمْ أُؤْمَر بِهَذَا إِنَّمَا أُمِرْت بِمُنَاجَزَتك إِنْ أَنْتَ لمْ تَخْرُج دَخَلت إِليْك، فَأَوْحَى الله إِلى مُوسَى: أَنْ اجْعَل بَيْنك وَبَيْنه أَجَلًا، وَقُل لهُ أَنْ يَجْعَل هُوَ. قَال فِرْعَوْن: اجْعَلهُ إِلى أَرْبَعِينَ يَوْمًا. فَفَعَل. وَقَال مُجَاهِد وَقَتَادَة: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ مُنَصَّفًا. وَقَال السُّدِّيّ: عَدْلًا. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ مُسْتَوٍ يتبيَّن النَّاس مَا فِيهِ، لا يَكُون صَوْب وَلا شَيْء يَتَغَيَّب بَعْض ذَلكَ عَنْ بَعْض، مُسْتَوٍ حَتَّى يُرَى.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخبِرًا عَنْ فِرْعَوْن أَنَّهُ لمَّا تَوَاعَدَ هُوَ بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلى وَقْت وَمَكَان مَعْلُومَيْنِ تَوَلَّى، أَيْ: شَرَعَ فِي جَمْع السَّحَرَة مِنْ مَدَائِن مَمْلكَته، كُلّ مَنْ يُنْسَب إِلى السِّحْر فِي ذَلكَ الزَّمَان، وَقَدْ كَانَ السِّحْر فِيهِمْ كَثِيرًا نَافِقًا جِدًّا كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾. ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾، أَيْ: اجْتَمَعَ النَّاس لمِيقَاتِ يَوْم مَعْلُوم وَهُوَ يَوْم الزِّينَة وَجلسَ فِرْعَوْن عَلى سَرِير مَمْلكَته، وَاصْطَفَّ لهُ أَكَابِر دَوْلته، وَوَقَفَتْ الرَّعَايَا يَمْنَة وَيَسْرَة، وَأَقْبَل مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتوكَّأ عَلى عَصَاهُ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُون، وَوَقَفَ السَّحَرَة بَيْن يَدَيْ فِرْعَوْن صُفُوفًا، وَهُوَ يُحَرِّضهُمْ وَيَحُثّهُمْ، وَيُرَغِّبهُمْ فِي إِجَادَة عَمَلهمْ فِي ذَلكَ اليَوْم، وَيَتَمَنَّوْنَ عَليْهِ وَهُوَ يَعِدهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ، يَقُولُونَ: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾. فـ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أَيْ: لا تُخَيِّلُوا للنَّاسِ بِأَعْمَالكُمْ إِيجَاد أَشْيَاء لا حَقَائِق لهَا، وَإِنَّهَا مَخْلُوقَة وَليْسَتْ مَخْلُوقَة، فتَكُونُونَ قَدْ كَذَبْتُمْ عَلى الله، ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾. أَيْ: يُهْلككُمْ بِعُقُوبَةٍ هَلاكًا لا بَقِيَّة [لهُ][1] ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قِيل: مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ تَشَاجَرُوا فِيمَا بَيْنهمْ فَقَائِل يَقُول: ليْسَ هَذَا بِكَلامِ سَاحِر، إِنَّمَا هَذَا كَلام نَبِيّ. وَقَائِل يَقُول: بَل هُوَ سَاحِر وَقِيل غَيْر هَذَا وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾. أَيْ: تَنَاجَوْا فِيمَا بَيْنهمْ، ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ هَذِهِ لُغَة لبَعْضِ العَرَب، جَاءَتْ هَذِهِ القِرَاءَة عَلى إِعْرَابهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ: ﴿إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ وَهَذِهِ اللُّغَة المَشْهُورَة، وَقَدْ تَوَسَّعَ النُّحَاة فِي

---

(١) في نسخة: [به].

الجَوَاب عَنْ القِرَاءَة الأُولى بِمَا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعه. وَالغَرَض: أَنَّ السَّحَرَة قَالُوا فِيمَا بَيْنهمْ: تَعْلمُونَ أَنَّ هَذَا الرَّجُل وَأَخَاهُ -يَعْنُونَ: مُوسَى وَهَارُون- سَاحِرَانِ عَالِمَانِ خَبِيرَانِ بِصِنَاعَةِ السِّحْر، يُرِيدَانِ فِي هَذَا اليَوْم أَنْ يَغْلبَاكُمْ وَقَوْمكُمْ، وَيَسْتَوْلِيَا عَلى النَّاس، وَتَتْبَعهُمَا العَامَّة، وَيُقَاتِلا فِرْعَوْن وَجُنُوده فَيَنْتَصِرا عَلَيْهِ وَيُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضكُمْ.

وَقَوْله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ أَيْ: وَيَسْتَبِدَّا بِهَذِهِ الطَّرِيقَة، وَهِيَ: السِّحْر، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُعَظَّمِينَ بِسَبَبِهَا، لَهُمْ أَمْوَال وَأَرْزَاق عَلَيْهَا، يَقُولُونَ: إِذَا غَلَبَ هَذَانِ أَهْلَكَاكُمْ وَأَخْرَجَاكُمْ مِنْ الأَرْض، وَتَفَرَّدَا بِذَلِك، وَتَمَحَّضَتْ لَهُمَا الرِّيَاسَة بِهَا دُونكُمْ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيث الفُتُون أَنَّ ابْن عَبَّاس قَالَ فِي قَوْله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ يَعْنِي: مُلكهمْ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَالعَيْش. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا نُعَيْم بْن حَمَّاد حَدَّثَنَا هُشَيْم عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق، سَمِعَ الشَّعْبِيّ يُحَدِّث عَنْ عَلِيّ فِي قَوْله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ قَال: يَصْرِفَا وُجُوه النَّاس إِلَيْهِمَا.

وَقَال مُجَاهِد: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ قَال: أُولُو الشَّرَف وَالعَقْل وَالأَسْنَان. وَقَال أَبُو صَالِح: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ أَشْرَافكُمْ وَسَرَوَاتكُمْ. وَقَال عِكْرِمَة: بِخَيْرِكُمْ. وَقَال قَتَادَة: وَطَرِيقَتهمْ المُثْلى يَوْمَئِذٍ بَنُو إِسْرَائِيل، كَانُوا أَكْثَر القَوْم عَدَدًا وَأَمْوَالًا، فَقَال عَدُوّ الله: يُرِيدَانِ أَنْ يَذْهَبَا بِهَا لأَنْفُسِهِمَا. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ بِالَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ.

وَقَوْله: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ أَيْ: اجْتَمِعُوا كُلّكُمْ صَفًّا وَاحِدًا، وَأَلْقُوا مَا فِي أَيْدِيكُمْ مَرَّة وَاحِدَة؛ لِتُبْهِرُوا الأَبْصَار، وَتَغْلبُوا هَذَا وَأَخَاهُ، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أَيْ: مِنَّا وَمِنْهُ، أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ وَعَدَنَا هَذَا المَلك العَطَاء الجَزِيل، وَأَمَّا هُوَ فَيَنَال الرِّيَاسَة العَظِيمَة.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ السَّحَرَة حِين تَوَافَقُوا هُمْ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾. أَيْ: أَنْتَ أَوَّلًا ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أَيْ: أَنْتُمْ أَوَّلًا [لنَرَى][1] مَاذَا تَصْنَعُونَ مِنْ السِّحْر وَلِيَظْهَر لِلنَّاسِ جَلِيَّة أَمْرهمْ ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾. وَفِي الآيَة الأُخْرَى أَنَّهُمْ لَمَّا أَلْقَوْا: ﴿وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ وَقَال هَاهُنَا: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَوْدَعُوهَا مِنْ الزِّئْبَق مَا كَانَتْ تَتَحَرَّك بِسَبَبِهِ وَتَضْطَرِب وَتَمِيد، بِحَيْثُ يُخَيَّل لِلنَّاظِرِ أَنَّهَا تَسْعَى بِاخْتِيَارِهَا، وَإِنَّمَا كَانَتْ حِيلَة، وَكَانُوا جَمًّا غَفِيرًا وَجَمْعًا كَبِيرًا، فَأَلْقَى كُلّ مِنْهُمْ عَصًا وَحَبْلًا حَتَّى صَارَ الوَادِي مَلآن حَيَّات، يَرْكَب بَعْضهَا بَعْضًا. وَقَوْله: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أَيْ: خَافَ عَلى النَّاس أَنْ يُفْتَنُوا بِسِحْرِهِمْ وَيَغْتَرُّوا بِهِمْ قَبْل أَنْ يُلْقِي مَا فِي يَمِينه، فَأَوْحَى الله تَعَالى إِلَيْهِ فِي السَّاعَة الرَّاهِنَة: أَنْ ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ يَعْنِي: عَصَاك ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ وَذَلِكَ أَنَّهَا صَارَتْ تِنِّينًا عَظِيمًا هَائِلًا، ذَا عُيُون وَقَوَائِم وَعُنُق وَرَأْس وَأَضْرَاس، فَجَعَلتْ تَتْبَع تِلْكَ الحِبَال وَالعِصِيّ، حَتَّى لَمْ تُبْقِ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا تَلقَّفَتْهُ وَابْتَلَعَتْه، وَالسَّحَرَة وَالنَّاس يَنْظُرُونَ إِلى ذَلِكَ عِيَانًا جَهْرَة نَهَارًا ضَحْوَة، فَقَامَتْ المُعْجِزَة، وَاتَّضَحَ البُرْهَان، وبطل ما كانوا يعملون. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾. وَقَال

---

(١) في نسخة: [ليرى].

ابن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي حَدَّثنَا مُحَمَّد بن مُوسَى الشَّيْبَانِيّ حَدَّثنَا حَمَّاد بن خَالد حَدَّثنَا ابْن مُعَاذ -أَحْسِبهُ الصَّائِغ- عَنْ الحَسَن، عَنْ جُنْدُب بْن عَبْد الله البَجَليّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِذَا أَخَذْتُمْ -يَعْنِي السَّاحِر- فَاقْتُلُوهُ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾. قَال: لا يُؤْمَن به حَيْثُ وُجِدَ»[1]. وَقَدْ رَوَى أَصْله التِّرْمِذِيّ مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا.

فَلَمَّا عَايَنَ السَّحَرَة ذَلكَ وَشَاهَدُوهُ -وَلَهُمْ خِبْرَة بِفُنُونِ السِّحْر وَطُرُقه وَوُجُوهه- عَلمُوا عِلم اليَقِين: أَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلهُ مُوسَى لَيْسَ مِنْ قَبِيل السِّحْر وَالحِيَل، وَأَنَّهُ حَقّ لا مِرْيَة فِيهِ، وَلا يَقْدِر عَلى هَذَا إِلَّا الَّذِي يَقُول للشَّيْءِ كُنْ فَيَكُون، فَعِنْد ذَلكَ وَقَعُوا سُجَّدًا لله، وَقَالُوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

وَلهَذَا قَال ابْن عَبَّاس وَعُبَيْد بْن عُمَيْر: كَانُوا أَوَّل النَّهَار سَحَرَة، وَفِي آخِر النَّهَار شُهَدَاء بَرَرَة. وَقَال مُحَمَّد بْن كَعْب: كَانُوا ثَمَانِينَ أَلفًا. وَقَال القَاسِم بْن أَبِي بَزَّة: كَانُوا سَبْعِينَ أَلفًا. وَقَال السُّدِّيّ: بِضْعَة وَثَلاثِينَ أَلفًا. وَقَال الثَّوْرِيّ عَنْ عَبْد العَزِيز بْن رُفَيْع عَنْ أَبِي ثُمَامَة: كَانَ سَحَرَة فِرْعَوْن تِسْعَة عَشَر أَلفًا. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: كَانُوا خَمْسَة عَشَر أَلفًا. وَقَال كَعْب الأَحْبَار: كَانُوا اثْنَيْ عَشَر أَلفًا.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا عَليّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثنَا مُحَمَّد بن عَليّ بْن حَمْزَة، حَدَّثنَا عَليّ بْن الحُسَيْن بْن وَاقِد عَنْ أَبِيهِ عَنْ يَزِيد النَّحْوِيّ عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس قال: كَانَتْ السَّحَرَة سَبْعِينَ رَجُلًا أَصْبَحُوا سَحَرَة، وَأَمْسَوْا شُهَدَاء. وقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي حَدَّثنَا المُسَيِّب بْن وَاضِح بِمَكَّة، حَدَّثنَا ابْن المُبَارَك قَال: قَال الأَوْزَاعِيّ: لَمَّا خَرَّ السَّحَرَة سُجَّدًا رُفِعَتْ لهُمْ الجَنَّة حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهَا. قَال: وَذُكِرَ عَنْ سَعِيد بْن سَلَّام: حَدَّثنَا إِسْمَاعِيل بْن عَبْد الله بْن سَليمَان عَنْ سَالم الأَفْطَس عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر قَوْله: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ قَال: رَأَوْا مَنَازِلهم تُبْنَى لهُمْ وَهُمْ فِي سُجُودهمْ. وَكَذَا قَال عِكْرِمَة وَالقَاسِم بْن أَبِي بَزَّة.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ كُفْر فِرْعَوْن وَعِنَاده وَبَغْيه، وَمُكَابَرَته الحَقّ بِالبَاطِل حِين رَأَى مَا رَأَى مِنْ المُعْجِزَة البَاهِرَة وَالآيَة العَظِيمَة وَرَأَى الَّذِينَ قَدْ اسْتَنْصَرَ بِهِمْ قَدْ آمَنُوا بِحَضْرَةِ النَّاس كُلّهمْ، وَغُلِبَ كُلّ الغَلب؛ شَرَعَ فِي المُكَابَرَة وَالبَهْت، وَعَدَل إِلى اسْتِعْمَال جَاهه وَسُلطَانه فِي السَّحَرَة، فَتَهَدَّدَهُمْ وَأَوْعَدَهم، وَقَال: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أَيْ: صَدَّقْتُمُوهُ ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾، أَيْ: وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِذَلكَ. وافْتَتُّمْ عَليَّ فِي ذَلكَ، وَقَال قَوْلًا يَعْلم هُوَ وَالسَّحَرَة وَالخَلق كُلّهمْ أَنَّهُ بَهْت وَكَذِب: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أَيْ: أَنْتُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمْ السِّحْر عَنْ مُوسَى وَاتَّفَقْتُمْ أَنْتُمْ وَإِيَّاهُ عَليَّ وَعَلى رَعِيَّتِي لتُظْهِرُوهُ، كَمَا قَال تَعَالى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ثُمَّ أَخَذَ يَتَهَدَّدهم فَقَال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أَيْ: لأَجْعَلنَّكُمْ مُثْلة وَلأَقْتُلنَّكُم وَلأُشَهِّرَنَّكُمْ. قَال ابْن عَبَّاس: فَكَانَ أَوَّل مَنْ فَعَل ذَلكَ رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَوْله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾. أَيْ: أَنْتُمْ تَقُولُونَ: إِنِّي وَقَوْمِي عَلى ضَلالة، وَأَنْتُمْ مَعَ مُوسَى وَقَوْمه عَلى الهُدَى، فَسَوْفَ تَعْلمُونَ مَنْ يَكُون لهُ العَذَاب وَيَبْقَى فِيهِ. فَلَمَّا صَال عَليْهِمْ بِذَلكَ وَتَوَعَّدَهُمْ هَانَتْ عَليْهِمْ أَنْفُسهمْ فِي الله ﷻ. ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أَيْ: لنْ نَخْتَارك عَلى مَا حَصَل لنَا مِنْ الهُدَى

---

(١) ضعيف: تقدم.

وَاليَقِين. ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يَحْتَمِل أَنْ يَكُون قَسَمًا، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون مَعْطُوفًا عَلى البَيِّنَات، يَعْنُونَ: لا نَخْتَارك عَلى فَاطِرِنَا وَخَالقنَا الَّذِي أَنْشَأَنَا مِنْ العَدَم، المُبْتَدِئ خَلْقنَا مِنْ الطِّين، فَهُوَ المُسْتَحِقّ للعِبَادَةِ وَالخُضُوع لا أَنْتَ ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾، أَيْ: فَافْعَل مَا شِئْت وَمَا وَصَلتْ إِلَيْهِ يَدك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَيْ: إِنَّمَا لك تَسَلُّط فِي هَذِهِ الدَّار، وَهِيَ دَار الزَّوَال، وَنَحْنُ قَدْ رَغِبْنَا فِي دَار القَرَار.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ أَيْ: مَا كَانَ مِنَّا مِنْ الآثَام، خُصُوصًا مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْر؛ لنُعَارِض بِهِ آيَة الله تَعَالى وَمُعْجِزَة نَبِيّه.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا نُعَيْم بْن حَمَّاد، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ أَبِي سَعِيد عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالى: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾، قَال: أَخَذَ فِرْعَوْن أَرْبَعِينَ غُلامًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، فَأَمَرَ أَنْ يُعَلَّمُوا السِّحْر بالفَرْمَا، وَقَال: عَلِّمُوهُمْ تَعْليمًا لا يَعْلمهُ أَحَد فِي الأَرْض. قَال ابْن عَبَّاس: فَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُوسَى، وَهُمْ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾. وَكَذَا قَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ. وَقَوْله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أَيْ: خَيْر لنَا مِنْك، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أَيْ: أَدْوَم ثَوَابًا مِمَّا كُنْت وَعَدْتنَا وَمَنَّيْتنَا وَهُوَ رِوَايَة عَنْ ابْن إِسْحَاق رَحِمَهُ اللَّهُ. وَقَال مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِي: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أَيْ: لنَا مِنْك إِنْ أُطِيعَ ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أَيْ: مِنْك عَذَابًا إِنْ عُصِيَ وَرُوِيَ نَحْوه عَنْ ابْن إِسْحَاق أَيْضًا. وَالظَّاهِر أَنَّ فِرْعَوْن -لعَنَهُ الله- صَمَّمَ عَلى ذَلكَ وَفَعَلهُ بِهِمْ، رَحِمَهم الله! وَلهَذَا قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْره مِنْ السَّلف: أَصْبَحُوا سَحَرَة وَأَمْسَوْا شُهَدَاء.

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

الظَّاهِر مِنْ السِّيَاق أَنَّ هَذَا مِنْ تَمَام مَا وَعَظَ بِهِ السَّحَرَة لفِرْعَوْن، يُحَذِّرُونَهُ مِنْ نِقْمَة الله وَعَذَابه الدَّائِم السَّرْمَدِيّ، وَيُرَغِّبُونَهُ فِي ثَوَابه الأَبَدِيّ المُخَلَّد، فَقَالُوا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ أَيْ: يَلقَى الله يَوْم القِيَامَة وَهُوَ مُجْرِم ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ كَقَوْلهِ: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾. وَقَال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾. وَقَال الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل أَخْبَرَنَا سَعِيد بْن يَزِيد عَنْ أَبِي نَضْرَة عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«أَمَّا أَهْل النَّار الَّذِينَ هُمْ أَهْلهَا، فَإِنَّهُمْ لا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلا يَحْيَوْنَ، وَلكِنَّ [أُنَاس][1] تُصِيبهُمْ النَّار بِذُنُوبِهِمْ فَتُمِيتهُمْ إِمَاتَة، حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحْمًا أُذِنَ فِي الشَّفَاعَة فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِر ضَبَائِر، فَبُثُّوا عَلى أَنْهَار الجَنَّة فَيُقَال: يَا أَهْل الجَنَّة أَفِيضُوا عَليْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَات الحِبَّة تَكُون فِي حَمِيل السَّيْل»**. فَقَال رَجُل مِنْ القَوْم: كَأَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ بِالبَادِيَة.[2] وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ مُسْلم فِي كِتَابه «الصَّحِيح» مِنْ رِوَايَة شُعْبَة وَبِشْر بْن المُفَضَّل؛ كِلاهُمَا عَنْ أَبِي مَسْلمة سَعِيد بْن يَزِيد بِهِ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذُكِرَ عَنْ عَبْد الوَارِث بْن عَبْد الصَّمَد بْن عَبْد الوَارِث قَال: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا حَيَّان سَمِعْت سُليْمَان التَّيْمِيّ عَنْ أَبِي نَضْرَة عَنْ أَبِي سَعِيد: أَنَّ رَسُول الله ﷺ خَطَبَ، فَأَتَى عَلى هَذِهِ الآيَة: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ قَال النَّبِيّ ﷺ: **«أَمَّا أَهْلهَا الَّذِينَ هُمْ أَهْلهَا، فَلا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلا**

---

(١) فِي نسخة: [ناس].

(٢) **صحيح**: تقدم.

يَحْيَوْنَ، وَأَمَّا الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَإِنَّ النَّار تَمَسّهُمْ، ثُمَّ يَقُوم الشُّفَعَاء فَيَشْفَعُونَ، فَتُجْعَل الضَّبَائِر، فَيُؤْتَى بِهِمْ نَهَرًا يُقَال لَهُ الحَيَاة -أَوْ الحَيَوَان- فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُت القِثَّاءُ فِي حَمِيل السَّيْل».[1]

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أَيْ: وَمَنْ لَقِيَ رَبّه يَوْم المَعَاد مُؤْمِن القَلْب، قَدْ صَدَّقَ ضَمِيره بِقَوْلِهِ وَعَمَله؛ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أَيْ: الجَنَّة ذَات الدَّرَجَات العَالِيَات، وَالغُرَف الآمِنَات وَالمَسَاكِن الطَّيِّبَات.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان أَنبَأَنَا هَمَّام حَدَّثَنَا زَيْد بْن أَسْلَمَ عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ عُبَادَة بْن الصَّامِت عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**الجَنَّة مِائَة دَرَجَة، مَا بَيْن كُلّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض، وَالفِرْدَوْس أَعْلاهَا دَرَجَة، وَمِنْهَا تَخْرُج الأَنْهَار الأَرْبَعَة، وَالعَرْش فَوْقهَا، فَإِذَا سَأَلْتُمْ الله فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْس**».[2] وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث يَزِيد بْن هَارُون عَنْ هَمَّام بِهِ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن عَبْد الرَّحْمَن الدِّمَشْقِيّ أَخْبَرَنَا خَالد ابْن يَزِيد بْن أَبِي مَالِك، عَنْ أَبِيهِ قَال: كَانَ يُقَال: الجَنَّة مِائَة دَرَجَة فِي كُلّ دَرَجَة مِائَة دَرَجَة، بَيْن كُلّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض، فِيهِنَّ اليَاقُوت وَالحُلِيّ فِي كُلّ دَرَجَة أَمِير يَرَوْنَ لَهُ الفَضْل وَالسُّؤْدُد. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «**إِنَّ أَهْل عِلِّيِّينَ لَيَرَوْنَ مَنْ فَوْقهمْ كَمَا تَرَوْنَ الكَوْكَب الغَابِر فِي أُفُق السَّمَاء؛ لِتَفَاضُل مَا بَيْنَهُمْ**». قَالُوا: يَا رَسُول الله، تِلْكَ مَنَازِل الأَنْبِيَاء. قَال: «**بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَال آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ**»[3]. وَفِي «السُّنَن»: «**وَإِنَّ أَبَا بَكْر وَعُمَر لَمِنْهُمْ وَأَنْعِمَا**».

وَقَوْله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أَيْ: إِقَامَة، وَهِيَ بَدَل مِنْ الدَّرَجَات العُلى ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ: مَاكِثِينَ أَبَدًا ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أَيْ: طَهَّرَ نَفْسه مِنْ الدَّنَس وَالخُبْث وَالشِّرْك، وَعَبَدَ الله وَحْده لا شَرِيك لَهُ، وصَدَّق المُرْسَلِينَ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ خَبَر وَطَلَب.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا أَنَّهُ أَمَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِين أَبَى فِرْعَوْن أَنْ يُرْسِل مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيل أَنْ يَسْرِي بِهِمْ فِي اللَّيْل، وَيَذْهَب بِهِمْ مِنْ قَبْضَة فِرْعَوْن. وَقَدْ بَسَطَ الله هَذَا المَقَام فِي غَيْر هَذِهِ السُّورَة الكَرِيمَة، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمَّا خَرَجَ بِبَنِي إِسْرَائِيل أَصْبَحُوا وَلَيْسَ مِنْهُمْ بِمِصْرٍ لا دَاعٍ وَلا مُجِيب، فَغَضِبَ فِرْعَوْن غَضَبًا شَدِيدًا وَأَرْسَل فِي المَدَائِن حَاشِرِينَ، أَيْ: مَنْ يَجْمَعُونَ لَهُ الجُنْد مِنْ بُلْدَانه وَرَسَاتِيقِهِ، يَقُول: إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَة قَلِيلُونَ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ثُمَّ لَمَّا جَمَعَ جُنْده وَاسْتَوْثَقَ لَهُ جَيْشه سَاقَ فِي طَلَبهمْ، ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾. أَيْ: عِنْد طُلُوع الشَّمْس ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أَيْ: نَظَرَ كُلّ مِنْ الفَرِيقَيْنِ إِلى الآخَر، ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ وَوَقَفَ مُوسَى بِبَنِي إِسْرَائِيل، البَحْرُ أَمَامَهمْ، وَفِرْعَوْنُ وَرَاءَهُمْ، فَعِنْد ذَلِكَ أَوْحَى الله إِلَيْهِ: أَن اضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي البَحْر يَبَسًا، فَضَرَبَ البَحْر بِعَصَاهُ، وَقَال: انْفَلِقْ بِإِذْنِ الله، ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أَيْ: الجَبَل العَظِيم. وأَرْسَل الله الرِّيح عَلى أَرْض البَحْر فَلَفَحَتْهُ حَتَّى صَارَ يَابِسًا كَوَجْهِ الأَرْض ولِهَذَا قَال: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ أَيْ: مِنْ فِرْعَوْن ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ يَعْنِي: مِنْ البَحْر أَنْ يُغْرِق قَوْمك. ثم قَال تَعَالى:

---

(١) صحيح: تقـدم.
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٣١٦)، والترمذي (٢٥٣١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ ﴾، أَيْ: البَحْر ﴿ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أَيْ: الَّذِي هُوَ مَعْرُوف وَمَشْهُور، وَهَذَا يُقَال عِنْد الأَمْر المَعْرُوف المَشْهُور، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾. وَكَمَا قَال الشَّاعِر:

﴿ أَنَا أَبُو النَّجْم وَشِعْرِي شِعْرِي ﴾

أَيْ: الَّذِي يُعْرَف وَهُوَ مَشْهُور، وَكَمَا تَقَدَّمَهُمْ فِرْعَوْن فَسلكَ بِهِمْ فِي اليَمّ، فَأَضَلَّهُمْ وَمَا هَدَاهُمْ إِلى سَبِيل الرَّشَاد، كَذَلك: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾.

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾.

يَذْكُر تَعَالى نِعَمه عَلى بَنِي إِسْرَائِيل العِظَام، وَمِننه الجِسَام، حَيْثُ نَجَاهُمْ مِنْ عَدُوّهُمْ فِرْعَوْن، وَأَقَرَّ أَعْيُنهم مِنْهُ وَهُمْ يَنْظُرُون إِلَيْهِ وَإِلى جُنْده قَدْ غَرِقُوا فِي صَبِيحَة وَاحِدَة، لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَد، كَمَا قَال: ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾.

وَقَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا رَوْح بْن عُبَادَة حَدَّثَنَا شُعْبَة حَدَّثَنَا أَبُو بِشْر عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: لَمَّا قَدِمَ رَسُول الله ﷺ المَدِينَة واليَهُود تَصُوم عَاشُورَاء، فَسَأَلَهُمْ فَقَالُوا: هَذَا اليَوْم الَّذِي أظهر الله فِيهِ مُوسَى عَلى فِرْعَوْن. فَقَال: «نَحْنُ أَوْلى بِمُوسَى فَصُومُوهُ»[1]. وَرَوَاهُ مُسْلم أَيْضًا فِي صَحِيحه.

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالى وَاعَدَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيل بَعْد هَلاك فِرْعَوْن إِلى جَانِب الطُّور الأَيْمَن، وَهُوَ الَّذِي كَلَّمَهُ الله تَعَالى عَلَيْهِ، وَسَأَل فِيهِ الرُّؤْيَة، وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاة هُنَاكَ، وَفِي غُضُون ذَلكَ عَبَدَ بَنُو إِسْرَائِيل العِجْل كَمَا يَقُصّهُ الله تَعَالى قَرِيبًا. وَأَمَّا المَنّ وَالسَّلوَى فَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلام عَلى ذَلكَ فِي سُورَة البَقَرَة وَغَيْرهَا. فَالمَنّ: حَلوَى كَانَتْ تَنْزِل [عَلَيْهِ][2] مِنْ السَّمَاء. وَالسَّلوَى: طَائِر يَسْقُط عَلَيْهِمْ فَيَأْخُذُونَ مِنْ كُلّ قَدْر الحَاجَة إِلى الغَد لُطْفًا مِنْ الله وَرَحْمَة بِهِمْ وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ، ولهذا قَال تَعَالى: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ أَيْ: كُلُوا مِنْ هَذَا الرِّزْق الَّذِي رَزَقْتُكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِي رِزْقِي فَتَأْخُذُوهُ مِنْ غَيْر حَاجَة وَتُخَالفُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ﴾ أَيْ: أَغْضَب عَليْكُمْ ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾. قَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما أَيْ: فَقَدْ شَقِيَ.

وَقَال شُفَيّ بْن مَاتع: إِنَّ فِي جَهَنَّم قَصْرًا يُرْمَى الكَافِر مِنْ أَعْلاهُ، فَيَهْوِي فِي جَهَنَّم أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قَبل أَنْ يَبْلُغ الصَّلصَال، وَذَلكَ قَوْله: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَوْله: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾، أَيْ: كُلّ مَنْ تَابَ إِلَيَّ تُبْت عَلَيْهِ مِنْ أَيّ ذَنْب كَانَ، حَتَّى إِنَّهُ تَابَ تَعَالى عَلى مَنْ عَبَدَ العِجْل مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل. وَقَوْله تَعَالى: ﴿ تَابَ ﴾ أَيْ: رَجَعَ عَمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ كُفْر أَوْ شِرْك. أَوْ مَعْصِيَة أَوْ نِفَاق.

وَقَوْله: ﴿ وَءَامَنَ ﴾ أَيْ: بِقَلبِهِ ﴿ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ أَيْ: بِجَوَارِحِهِ.

وَقَوْله: ﴿ ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ قَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: أَيْ ثُمَّ لمْ يَشْكُك. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: ﴿ ثُمَّ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٣٧)، ومسلم (١١٣٠).

(٢) في نسخة: [عليهم].

اهْتَدَىٰ ﴾، أَيْ: اسْتَقَامَ عَلَى السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ. وَرُوِيَ نَحوه عَنْ مُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف. وَقَال قَتَادَة: ﴿ ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾، أَيْ: لزمَ الإِسْلام حَتَّى يَمُوت. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ: ﴿ ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ أَيْ: عَلمَ أَنَّ لهَذَا ثَوَابًا، وَ(ثُمَّ) هَاهُنَا لتَرْتِيب الخَبَر عَلى الخَبَر، كَقَوْلِه: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾.

﴿ ۞ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾.

لـمَّا سَارَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبَنِي إِسْرَائِيل بَعْد هَلاك فِرْعَوْن ﴿ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وَوَاعَدَهُ رَبّه ثَلاثِينَ لَيْلة، ثُمَّ أَتْبَعَهَا لَهُ عَشْرًا فَتَمَّتْ أَرْبَعِينَ لَيْلة، أَيْ: يَصُومهَا لَيْلًا وَنَهَارًا. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيث الفُتُون بَيَان ذَلكَ. فَسَارَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُبَادِرًا إِلى الطُّور، وَاسْتَخْلَفَ عَلى بَنِي إِسْرَائِيل أَخَاهُ هَارُون، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي ﴾ أَيْ: قَادِمُونَ يَنْزِلُونَ قَرِيبًا مِنْ الطُّور، ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ أي: لتَزْدَادَ عَنِّي رضًا. ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾. أَخْبَرَ تَعَالى نَبِيّه مُوسَى بِمَا كَانَ بَعْده مِنْ الحَدَث فِي بَنِي إِسْرَائِيل وَعِبَادَتهمْ العِجْل الَّذِي عَمِلهُ لهُمْ ذَلكَ السَّامِرِيّ.

وَفِي الكُتُب الإِسْرَائِيلِيَّة: أَنَّهُ كَانَ اسْمه هَارُون أَيْضًا، وَكَتَبَ الله تَعَالى لهُ فِي هَذِهِ المُدَّة الأَلْوَاح المُتَضَمِّنَة التَّوْرَاة، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾. أَيْ: عَاقِبَة الخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِي المُخَالِفِينَ لأَمْرِي.

وَقَوْله: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾، أَيْ: بَعْدَمَا أَخْبَرَهُ تَعَالى بِذَلكَ، فِي غَايَة الغَضَب وَالحَنَق عَليْهِمْ، هُوَ فِيمَا هُوَ فِيهِ مِنْ الاعْتِنَاء بِأَمْرِهِمْ، وَتَسَلُّم التَّوْرَاة الَّتِي فِيهَا شَرِيعَتهمْ، وَفِيهَا شَرَف لهُمْ، وَهُمْ قَوْم قَدْ عَبَدُوا غَيْر الله، مَا يَعْلم كُلّ عَاقِل لهُ لُبّ وَحَزْم بُطْلان مَا هُمْ فِيهِ وَسَخَافَة عُقُولهمْ وَأَذْهَانهمْ، وَلهَذَا رَجَعَ إِليْهِمْ غَضْبَان أَسِفًا. وَالأَسَف شِدَّة الغَضَب.

وَقَال مُجَاهِد: ﴿ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ أَيْ: جَزِعًا. وَقَال قَتَادَة وَالسُّدِّيّ: ﴿ أَسِفًا ﴾ حَزِينًا عَلى مَا صَنَعَ قَوْمه مِنْ بَعْده، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ أَيْ: أَمَا وَعَدَكُمْ عَلى لسَانِي كُلّ خَيْر فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَحُسْن العَاقِبَة، كَمَا قَدْ شَاهَدْتُمْ مِنْ نُصْرَته إِيَّاكُمْ عَلى عَدُوّكُمْ، وَإِظْهَاركُمْ عَليْهِ، وَغَيْر ذَلكَ مِنْ أَيَادِيه عِنْدكم ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ أَيْ: فِي انْتِظَار مَا وَعَدَكُمْ الله، وَنِسْيَان مَا سَلفَ مِنْ نِعَمه، وَمَا بِالعَهْدِ مِنْ قِدَم. ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، ﴿ أَمْ ﴾: هَاهُنَا بِمَعْنَى (بَل) وَهِيَ للإِضْرَاب عَنْ الكَلام الأَوَّل، وَعُدُول إِلى الثَّانِي، كَأَنَّهُ يَقُول: بَل أَرَدْتُمْ بِصَنِيعِكُمْ هَذَا أَنْ يَحِلّ عَليْكُمْ غَضَب مِنْ رَبّكُمْ ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا ﴾، أَيْ: بَنُو إِسْرَائِيل فِي جَوَاب مَا أَنَّبَهُمْ مُوسَى وَقَرَعَهُمْ: ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ أَيْ: عَنْ قُدْرَتنَا وَاخْتِيَارنَا. ثُمَّ شَرَعُوا يَعْتَذِرُونَ بِالعُذْرِ البَارِد، يُخْبِرُونَهُ عَنْ تَوَرُّعهمْ عَمَّا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ حُليّ القِبْط، الَّذِي كَانُوا قَدْ اسْتَعَارُوهُ مِنْهُمْ، حِين خَرَجُوا مِنْ مِصْر، ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾. أَيْ: أَلقَيْنَاهَا عَنَّا.

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيث الفُتُون أَنَّ هَارُون عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الَّذِي كَانَ أَمَرَهُمْ بِإِلقَاءِ الحُلِيّ فِي حَفِيرة فِيهَا نَار. وفِي رِوَايَة السُّدِّيّ عَنْ أَبِي مَالك عَنْ ابْن عَبَّاس: إِنَّمَا أَرَادَ هَارُون أَنْ يَجْتَمِع الحُلِيّ كُلّه فِي تِلْكَ الحَفِيرَة وَيُجْعَل حَجَرًا وَاحِدًا حَتَّى إِذَا رَجَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرَى فِيهِ مَا يَشَاء ثُمَّ جَاءَ ذَلِكَ السَّامِرِيّ فَأَلقَى عَلَيْهَا تِلْكَ القَبْضَة الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثَر الرَّسُول، وَسَأَل هَارُون أَنْ يَدْعُو الله أَنْ يَسْتَجِيب لهُ فِي دَعْوَة فَدَعَا لهُ هَارُون وَهُوَ لا يَعْلم مَا يُرِيد فَأُجِيبَ لهُ، فَقَال السَّامِرِيّ عِنْد ذَلِكَ: أَسْأَل الله أَنْ يَكُون عِجْلًا. فَكَانَ عِجْلًا لهُ خُوَار، أَيْ: صَوْت اسْتِدْرَاجًا وَإِمْهَالًا وَمِحْنَة وَاخْتِبَارًا، ولهذا قال: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُبَادَة بْن البُخْتَرِيّ، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، أَخْبَرَنَا حَمَّاد عَنْ سِمَاك عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ هَارُون مَرَّ بِالسَّامِرِيِّ وَهُوَ يَنْحِت العِجْل، فَقَال لهُ: مَا تَصْنَع فَقَال: أَصْنَع مَا يَضُرّ وَلا يَنْفَع فَقَال هَارُون: اللَّهُمَّ أَعْطِهِ مَا سَأَل عَلَى مَا فِي نَفْسه وَمَضَى هَارُون وَقَال السَّامِرِيّ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلك أَنْ يَخُور، فَخَارَ، فَكَانَ إِذَا خَارَ سَجَدُوا لهُ، وَإِذَا خَارَ رَفَعُوا رُءُوسهمْ. ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ وَجه آخر عَنْ حَمَّاد وَقَال: أَعْمَل مَا يَنْفَع وَلا يَضُرّ. وَقَال السُّدِّيّ: كَانَ يَخُور وَيَمْشِي ﴿فَقَالُوا۟﴾، أَيْ: الضُّلَّال مِنْهُمْ الَّذِينَ افْتُتِنُوا بِالعِجْل وَعَبَدُوهُ: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أَيْ: نَسِيَهُ هَاهُنَا وَذَهَبَ يَتَطَلَّبهُ، كَذَا تَقَدَّمَ فِي حَدِيث الفُتُون عَنْ ابْن عَبَّاس وَبِهِ قَال مُجَاهِد. وَقَال سِمَاك عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿فَنَسِىَ﴾. أَيْ: نَسِيَ أَنْ يُذَكِّركُمْ أَنَّ هَذَا إِلهكُمْ. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ حَكِيم بْن جُبَيْر عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ قَال: فَعَكَفُوا عَلَيْهِ وَأَحَبُّوهُ حُبًّا لمْ يُحِبُّوا شَيْئًا قَطُّ، يَعْنِي مِثْله، يَقُول الله: ﴿فَنَسِىَ﴾، أَيْ: تَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الإِسْلام يَعْنِي السَّامِرِيّ، قَال الله تَعَالى رَدًّا عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيعًا لهُمْ وَبَيَانًا لفَضِيحَتِهِمْ وَسَخَافَة عُقُولهمْ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أَيْ: العِجْل، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أَنَّهُ لا يُجِيبهُمْ إِذَا سَأَلُوهُ، وَلا إِذَا خَاطَبُوهُ، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أَيْ: فِي دُنْيَاهُمْ وَلا أُخْرَاهُمْ. قَال ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: لا وَالله مَا كَانَ خُوَاره إِلَّا أَنْ يَدْخُل الرِّيح فِي دُبُره، [فَيَخْرُج][1] مِنْ فِيهِ فَيُسْمَع لهُ صَوْت. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي مُتُونِ الحَدِيثِ عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ أَنَّ هَذَا العِجْل اسْمه: بهموت. وَحَاصِل مَا اعْتَذَرَ بِهِ هَؤُلاءِ الجَهَلة: أَنَّهُمْ تَوَرَّعُوا عَنْ زِينَة القِبْط، فَأَلقَوْهَا عَنْهُمْ، وَعَبَدُوا العِجْل؛ فَتَوَرَّعُوا عَنْ الحَقِير، وَفَعَلُوا الأَمْر الكَبِير. كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث الصَّحِيح؛ عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر أَنَّهُ سَأَلهُ رَجُل مِنْ أَهْل العِرَاق عَنْ دَم البَعُوض إِذَا أَصَابَ الثَّوْب، يَعْنِي: هَل يُصَلِّي فِيهِ أَمْ لا؟ فَقَال ابْن عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: انْظُرُوا إِلى أَهْل العِرَاق قَتَلُوا ابْن بِنْت رَسُول الله ﷺ -يَعْنِي الحُسَيْن- وَهُمْ يَسْأَلُونَ عَنْ دَم البَعُوض.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَمَّا كَانَ مِنْ نَهْي هَارُون عَلَيْهِ السَّلَامُ لهُمْ عَنْ عِبَادَتهمْ العِجْل، وَإِخْبَاره إِيَّاهُمْ: إِنَّمَا هَذَا فِتْنَة لكُمْ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الَّذِي خلقَ كُلّ شَيْء فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا، ذُو العَرْش المَجِيد، الفَعَّال لمَا يُرِيد، ﴿فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ أَيْ: فِيمَا آمُركُمْ بِهِ وَاتْرُكُوا مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ.

﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أَيْ: لا نَتْرُك عِبَادَته حَتَّى نَسْمَع كَلام مُوسَى فِيهِ، وَخَالفُوا هَارُون فِي ذَلكَ وَحَارَبُوهُ وَكَادُوا أَنْ يَقْتُلُوهُ.

(١) في نسخة: [فتخرج].

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ مُوسَى عليه السلام حِين رَجَعَ إِلى قَوْمه، فَرَأَى مَا قَدْ حَدَثَ فِيهِمْ مِنَ الأَمْر العَظِيم، فَامْتَلأَ عِنْد ذَلكَ غيظًا، وَأَلقَى مَا كَانَ فِي يَده مِنَ الأَلوَاح الإِلهِيَّة، وَأَخذَ بِرأْسِ أَخِيهِ يَجُرّهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَة الأَعْراف بَسْط ذَلكَ، وَذَكَرْنَا هُنَاكَ حَدِيث: «لَيْسَ الخَبَر كَالْمُعَايَنَة». وَشَرَعَ يَلُوم أَخَاهُ هَارُون فَقَال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أَيْ: فَتُخْبِرنِي بِهَذَا الأَمْر أَوَّل مَا وَقَعَ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ أَيْ: فِيمَا كُنْت تقَدَّمْت إِلَيْك، وَهُوَ قَوْله: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾. قَال: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ ترقق لهُ بِذِكْرِ الأُمّ، مَعَ أَنَّهُ شَقِيقه لأَبَوَيْهِ؛ لأَنَّ ذِكْر الأُمّ هَاهُنَا أَرَق وَأَبْلغ، أي: فِي الحُنُوّ وَالعَطْف، وَلهَذَا قَال: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ الآيَة. هَذَا اعْتِذَار مِنْ هَارُون عِنْد مُوسَى فِي سَبَب تَأَخُّره عَنْهُ، حَيْثُ لمْ يَلحَقهُ فَيُخْبِرهُ بِمَا كَانَ مِنْ هَذَا الخَطْب الجَسِيم، قَال: ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾ أَنْ أَتْبَعك فَأُخْبِرك بِهَذَا فَتَقُول لِي: لمَ تركْتهمْ وَحْدهمْ، وَفَرَّقْت بَيْنهمْ، ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ أَيْ: وَمَا رَاعَيْت مَا أَمَرْتُك بِهِ حَيْثُ اسْتَخْلَفْتُك فِيهِمْ. قَال ابْن عَبَّاس: وَكَانَ هَارُون هَائِبًا مُطِيعًا لهُ.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾.

يَقُول مُوسَى عليه السلام للسَّامِرِيّ: مَا حَملك عَلى مَا صَنَعْت؟ وَمَا الَّذِي عَرَضَ لك حَتَّى فَعَلت مَا فَعَلت؟ قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ حَكِيم بْن جُبَيْر عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كَانَ السَامِرِي رَجُلًا مِنْ أَهْل باجرما وَكَانَ مِنْ قَوْم يَعْبُدُونَ البَقَر، وَكَانَ حُبّ عِبَادَة البَقَر فِي نَفْسه، وَكَانَ قَدْ أَظْهَرَ الإِسْلام مَعَ بَنِي إِسْرَائِيل، وَكَانَ اسْمُ السَّامريّ مُوسَى بْن ظفر. وَفِي رِوَايَة عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّهُ كَانَ مِنْ كَرْمَان. وَقَال قَتَادَة: كَانَ مِنْ قَرْيَة اسْمِها سَامِرَا.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ أَيْ: رَأَيْت جِبْرِيل حِين جَاءَ لهَلاكِ فِرْعَوْن ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أَيْ: مِنْ أَثَر فَرَسه، هَذَا هُوَ المَشْهُور عِنْد كَثِير مِنْ المُفَسِّرِينَ أَوْ أَكْثَرهمْ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَمَّار بْن الحَارِث، أَخْبَرَنَا عُبَيْد الله بْن مُوسَى، أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيل عَنْ السُّدِّيّ عَنْ أُبَيّ بْن عُمَارَة عَنْ عَليّ رضي الله عنه قَال: إِنَّ جِبْرِيل عليه السلام لَمَّا نَزل فَصَعِدَ بِمُوسَى عليه السلام إِلى السَّماء بَصُرَ بِهِ السَّامِرِيّ مِنْ بَيْن النَّاس، فَقَبَضَ قَبْضَة مِنْ أَثَر الفَرَس. قَال: وَحَمل جِبْرِيل مُوسَى عليهما السلام خَلفه حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ بَاب السَّماء صَعِدَ، وَكَتَبَ الله الأَلوَاح وَهُوَ يَسْمَع صَرِير الأَقْلام فِي الأَلوَاح فَلَمّا أَخْبَرَهُ أَنَّ قَوْمه قَدْ فُتِنُوا مِنْ بَعْده قَال نَزَل مُوسَى فَأَخَذَ العِجْل فَأَحْرَقَهُ. غَرِيب.

وَقَال مُجَاهِد: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ قَال: مِنْ تَحْت حَافِر فَرَس جِبْرِيل. قَال: وَالقَبْضَة مِلء الكَفّ، وَالقَبْضَة بِأَطْرَافِ الأَصَابع. قَال مُجَاهِد: نَبَذَ السَّامِرِيّ، أَيْ: أَلقَى مَا كَانَ فِي يَده عَلى حِليَة بَنِي إِسْرَائِيل، فَانْسَبَكَ عِجْلًا جَسَدًا لهُ خُوَار حَفِيف الرِّيح فِيهِ فَهُوَ خُوَاره. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَحْيَى، أَخْبَرَنَا عَليّ بْن المَدِينِيّ، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن زُرَيْع، حَدَّثَنَا عُمَارَة حَدَّثَنَا عِكْرِمَة: أَنَّ السَّامِرِيّ رَأَى الرَّسُول، فَأُلقِيَ فِي رَوْعه:

أَنَّكَ إِنْ أَخَذْت مِنْ أَثَر هَذَا الفَرَس قَبْضَة فَأَلقَيْتهَا فِي شَيْء فَقُلت لهُ: كُنْ فَكَانَ، فَقَبَض قَبْضَة مِنْ أَثَر الرَّسُول فَيَبِسَتْ أَصَابِعه عَلَى القَبْضَة فَلَمَّا ذَهَبَ مُوسَى للمِيقَاتِ وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيل قَدْ اسْتَعَارُوا حُليّ آل فِرْعَوْن فَقَال لهُمْ السَّامِرِيّ: إِنَّمَا أَصَابَكُمْ مِنْ أَجْل هَذَا الحُلِيّ، فَاجْمَعُوه. فَجَمَعُوهُ فَأَوْقَدُوا عَلَيْهِ فَذَاب، فَرَآهُ السَّامِرِيّ فَأُلقِيَ فِي رَوْعه: أَنَّك لوْ قَذَفْت هَذِهِ القَبْضَة فِي هَذِهِ فَقُلت: كُنْ فَكَانَ فَقَذَفَ القَبْضَة وَقَال: كُنْ فَكَانَ عِجْلًا جَسَدًا لهُ خُوَار فَقَال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾. وَلهَذَا قَال: ﴿فَنَبَذۡتُهَا﴾ أَيْ: أَلقَيْتهَا مَعَ مَنْ أَلقَى ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ أَيْ: حَسَّنَتْهُ وَأَعْجَبَهَا إِذْ ذَاكَ ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أَيْ: كَمَا أَخَذْت وَمَسِسْت مَا لمْ يَكُنْ لك أَخْذه وَمَسّه مِنْ أَثَر الرَّسُول، فَعُقُوبَتك فِي الدُّنْيَا أَنْ تَقُول: ﴿لَا مِسَاسَ﴾، أَيْ: لا تَمَاسّ النَّاس وَلا يَمَسُّونَك.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدًا﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة. ﴿لَّن تُخۡلَفَهُۥ﴾ أَيْ: لا مَحِيد لك عَنْهُ. وَقَال قَتَادَة: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾. قَال: عُقُوبَة لهُمْ، وَبَقَايَاهُمْ اليَوْم يَقُولُونَ: لا مِسَاس.

وَقَوْله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدًا لَّن تُخۡلَفَهُۥ﴾. قَال الحَسَن وَقَتَادَة وَأَبُو نَهِيك: لنْ تَغِيب عَنْهُ. وَقَوْله: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾. أَيْ: مَعْبُودك ﴿ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗا﴾ أَيْ: أَقَمْت عَلَى عِبَادَته، يَعْنِي: العِجْل ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ قَال الضَّحَّاك: عَنْ ابْن عَبَّاس وَالسُّدِّيّ: سَحَلهُ بِالمَبَارِدِ، وَأَلقَاهُ عَلَى النَّار. وَقَال قَتَادَة: اسْتَحَال العِجْل مِنْ الذَّهَب لحْمًا وَدَمًا، فَحَرَّقَهُ بِالنَّارِ، ثُمَّ أَلقَاه -أي: رَمَاده- فِي البَحْر، وَلهَذَا قَال: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن رَجَاء أَنْبَأَنَا إِسْرَائِيل عَنْ أَبِي إِسْحَاق عَنْ عُمَارَة بْن عَبْد الله وَأَبِي عَبْد الرَّحْمَن عَنْ عَليّ رضي الله عنه قَال: إِنَّ مُوسَى لَمَّا تَعَجَّل إِلَى رَبّه عَمَدَ السَّامِرِيّ فَجَمَعَ مَا قَدَرَ عَليْهِ مِنْ حُليّ نِسَاء بَنِي إِسْرَائِيل ثُمَّ صَوَّرَهُ عِجْلًا، قَال: فَعَمَدَ مُوسَى إِلَى العِجْل، فَوَضَعَ عَليْهِ المَبَارِد فَبَرَدَهُ بِهَا وَهُوَ عَلَى شَطّ نَهَر فَلمْ يَشْرَب أَحَد مِنْ ذَلكَ المَاء مِمَّنْ كَانَ يَعْبُد العِجْل إِلَّا اصْفَرَّ وَجْهه مِثْل الذَّهَب، فَقَالُوا لمُوسَى: مَا تَوْبَتنَا؟ قَال: يَقْتُل بَعْضكُمْ بَعْضًا. وَهَكَذَا قَال السُّدِّيّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِير سُورَة البَقَرَة، ثُمَّ فِي حَدِيث الفُتُون بَسْط ذَلكَ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ يَقُول لهُمْ مُوسَى عليه السلام ليْسَ هَذَا إِلهكُمْ، إِنَّمَا إِلهكُمْ الله الَّذِي لا إِله إِلَّا هُوَ. أَيْ: لا يَسْتَحِقّ ذَلكَ عَلَى العِبَاد إِلَّا هُوَ، وَلا تَنْبَغِي العِبَادَة إِلَّا لهُ، فَإِنَّ كُلّ شَيْء فَقِير إِليْهِ عَبْد لديه.

وَقَوْله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ نُصِبَ عَلَى التَّمْيِيز أَيْ: هُوَ عَالم بِكُلِّ شَيْء أَحَاطَ بِكُلّ شَيْء عِلمًا، وَأَحْصَى كُلّ شَيْء عَدَدًا فَلا يَعْزُب عَنْهُ مِثْقَال ذَرَّة، ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة جِدًّا.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾.

يَقُول تَعَالى لنَبِيِّهِ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم: كَمَا قَصَصْنَا عَليْك خَبَر مُوسَى، وَمَا جَرَى لهُ مَعَ فِرْعَوْن وَجُنُوده عَلَى الجَليَّة وَالأَمْر الوَاقِع، كَذَلكَ نَقُصّ عَليْك الأَخْبَار المَاضِيَة كَمَا وَقَعَتْ مِنْ غَيْر زِيَادَة وَلا نَقْص، هَذَا ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا﴾. أَيْ: مِنْ عِنْدنَا ذِكْرًا وَهُوَ القُرْآن العَظِيم، الَّذِي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ

حَمِيدٍ﴾ الَّذي لم يُعطَ نَبيّ مِنَ الأَنْبِيَاء مُنْذُ بُعِثُوا إِلى أَنْ خُتِمُوا بِمُحَمَّدٍ -صلَّى الله عَلَيهم وسَلَّم تَسْليمًا-، كِتَابًا مِثْله، وَلا أَكْمَل مِنْهُ، وَلا أَجْمَع لخبَرِ مَا سَبَق، وَخبَر مَا هُوَ كَائِن، وَحُكْم الفَصْل بَيْن النَّاس منه؛ ولهذا قَال تَعَالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أَيْ: كَذَّبَ بِهِ وَأَعْرَضَ عَنْ اتّبَاعه أَمْرًا وَطَلبًا، وَابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْره، فَإِنَّ الله يُضِلّهُ وَيَهْدِيه إِلى سَوَاء الجحِيم، وَلهَذَا قَال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا﴾ أَيْ: إِثْمًا كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ وَهَذَا عَامّ فِي كُلّ مَنْ بَلغَهُ القُرْآن مِنَ العَرَب وَالعَجَم أَهْل الكِتَاب وَغَيْرهِمْ، كَمَا قَال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ فَكُلّ مَنْ بَلغَهُ القُرْآن فَهُوَ نَذِير لهُ وَدَاع فَمَنْ اتَّبَعَهُ هُدِيَ، وَمَنْ خَالفَهُ وَأَعْرَضَ عَنْهُ ضَلَّ وَشَقِيَ فِي الدُّنْيَا، وَالنَّار مَوْعِده يَوْم القِيَامَة، ولهذا قَال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أَيْ: لا محِيد لهُمْ عَنْهُ وَلا انْفِكَاك ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾ أَيْ: وبِئْسَ الحِمْل حِمْلهم.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

ثَبَتَ فِي الحَدِيث أَنَّ رَسُول الله ﷺ سُئِل عَنْ الصُّور فَقَال: «قَرْن يُنْفَخ فِيهِ»[1]. وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيث الصُّور مِنْ رِوَايَة أَبِي هُرَيْرَة أَنَّهُ قَرْن عَظِيم، الدَّارةُ مِنْهُ بِقَدْرِ السَّمَاوَات وَالأَرْض، يَنْفُخ فِيهِ إِسْرَافِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَاءَ فِي الحَدِيث: «كَيْف أَنْعَم وَصَاحِب القَرْن قَدْ التَقَمَ القَرْن وَحَنَى جَبْهَته، وَانْتَظَرَ أَنْ يُؤْذَن لهُ؟». فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، كَيْف نَقُول؟ قَال: «قُولُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيل، عَلَى الله تَوَكَّلْنَا».[2]

وَقَوْله: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قِيل: مَعْنَاهُ زُرْق العُيُون مِنْ شِدَّة مَا هُمْ فِيهِ مِنْ الأَهْوَال. ﴿يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قَال ابْن عَبَّاس: يَتَسَارُّونَ بَيْنهمْ. أَيْ: يَقُول بَعْضهمْ لبَعْضٍ: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أَيْ: فِي الدَّار الدُّنْيَا، لقَدْ كَانَ لُبْثكُمْ فِيهَا قَليلًا، عَشَرَة أَيَّام أَوْ نَحْوهَا؛ قَال الله تَعَالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أَيْ: فِي حَال تَنَاجِيهمْ بَيْنهمْ، ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أَيْ: العَاقِل الكَامِل فِيهِمْ ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، أَيْ: لقِصَرِ مُدَّة الدُّنْيَا فِي أَنْفُسهمْ يَوْم المَعَاد؛ لأَنَّ الدُّنْيَا كُلّهَا وَإِنْ تَكَرَّرَتْ أَوْقَاتهَا، وَتَعَاقَبَتْ ليَاليهَا وَأَيَّامهَا وَسَاعَاتهَا، كَأَنَّهَا يَوْم وَاحِد، وَلهَذَا يَسْتَقْصِر الكَافِرُونَ مُدَّة الحَيَاة الدُّنْيَا يَوْم القِيَامَة، وَكَانَ غَرَضهمْ فِي ذَلكَ دَرْء قِيَام الحُجَّة عَليْهِمْ لقِصَرِ المُدَّة، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا كَانَ لُبْثكُمْ فِيهَا قَليلًا لوْ كُنْتُمْ تَعْلمُونَ لآثَرْتُمْ البَاقِي عَلى الفَانِي، وَلكِنْ تَصَرَّفْتُمْ فَأَسَأْتُمْ التَّصَرُّف، قَدَّمْتُمْ الحَاضِر الفَانِي عَلى الدَّائِم البَاقِي.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٤٢)، والترمذي (٢٤٣٩)، وصححه الألباني، انظر «صحيح سنن أبي داود».
(٢) صحيح: تقـدم.

يقول تعالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾، أي: هَلْ تَبْقَى يوم القِيامةِ أو تَزُولُ؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾، أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييرًا ﴿فَيَذَرُهَا﴾، أي: الأرْضَ ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: بساطًا واحِدًا. وَالقَاع: هُوَ المُسْتَوِي مِنْ الأَرْض، وَالصَّفْصَف تَأْكِيد لمَعْنَى ذَلكَ، وَقِيل: الَّذِي لا نَبَات فِيهِ، وَالأَوَّل أَوْلى، وَإِنْ كَانَ الآخَر مُرَادًا أَيْضًا بِاللَّازِم، ولهذا قَال: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾، أي: لا تَرَى فِي الأَرْض يَوْمئِذٍ وَادِيًا وَلا رَابِيَة، وَلا مَكَانًا مُنْخَفِضًا وَلا مُرْتَفِعًا، كَذَا قَال ابْن عَبَّاس، وَعِكْرِمَة، وَمُجَاهِد، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلف.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أَيْ: يَوْم يَرَوْنَ هَذِهِ الأَحْوَال وَالأَهْوَال، يَسْتَجِيبُونَ مُسَارِعِينَ إِلى الدَّاعِي، حَيْثُمَا أُمِرُوا بَادَرُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ إليه كَانَ هَذَا فِي الدُّنْيَا لكَانَ أَنْفَع لهُمْ، وَلكِنْ حَيْثُ لا يَنْفَعهُمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾. وَقَال: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾. وَقَال مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ: يَحْشُر الله النَّاس يَوْم القِيَامَة فِي ظُلمَة وَيَطْوِي السَّمَاء وَتَتَنَاثَر النُّجُوم، وَتَذْهَب الشَّمْس وَالقَمَر، وَيُنَادِي مُنَادٍ فَيَتَّبع النَّاس الصَّوْت يَؤُمُّونَهُ فَذَلكَ قَوْله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾. وَقَال قَتَادَة: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا يَمِيلُونَ عَنْهُ. وَقَال أَبُو صَالح: ﴿عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا عِوَج عَنْهُ.

وَقَوْله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ قَال ابْن عَبَّاس: سَكَنَتْ، وَكَذَا قَال السُّدِّيّ: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قَال سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي وَطْء الأَقْدَام. وَكَذَا قَال عِكْرِمَة وَمُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَالرَّبِيع بْن أَنَس وَقَتَادَة وَابْن زَيْد وَغَيْرهمْ. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ الصَّوْت الخَفِيّ، وَهُوَ رِوَايَة عَنْ عِكْرِمَة وَالضَّحَّاك. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: الحَدِيث، وَسِرّه، وَوَطْء الأَقْدَام، فَقَدْ جَمَعَ سَعِيد كِلا القَوْليْنِ، وَهُوَ مُحْتَمَل، أَمَّا وَطْء الأَقْدَام: فَالمُرَاد سَعْي النَّاس إِلى المَحْشَر، وَهُوَ مَشْيهمْ فِي سُكُون وَخُضُوع، وَأَمَّا الكَلام الخَفِيّ: فَقَدْ يَكُون فِي حَال دُون حَال، فَقَدْ قَال تَعَالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة، ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ أَيْ: عِنْده، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وَقَوْله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾. وَقَال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وَقَال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، وَقَال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ رَسُول الله ﷺ -وَهُوَ سَيِّد وَلد آدَم، وَأَكْرَم الخَلائِق عَلى الله عز وجل- أَنَّهُ قَال: «آتِي تَحْتَ العَرْش، فأَخِرّ لله سَاجِدًا، وَيَفْتَح عَليَّ بِمَحَامِد لا أُحْصِيهَا الآن، فَيَدَعنِي مَا شَاءَ الله أَنْ يَدَعنِي، ثُمَّ يَقُول: يَا مُحَمَّد، ارْفَعْ رَأْسك، وَقُل يُسْمَع، وَاشْفَعْ تُشَفَّع». قَال: «فَيَحُدّ لي حَدًّا، فَأُدْخِلهُمْ الجَنَّة ثُمَّ أَعُود». فَذَكَرَ أَرْبَع مَرَّات -صَلوَات الله وَسَلامه عَليْهِ وَعَلى سَائِر الأَنْبِيَاء-. وَفِي الحَدِيث أَيْضًا: «يَقُول تَعَالى: أَخْرِجُوا مِنْ النَّار مَنْ كَانَ فِي قَلبه مِثْقَال حَبَّة مِنْ إِيمَان. فَيُخْرِجُون خَلقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُول: أَخْرِجُوا مِنْ النَّار مَنْ

كَانَ فِي قَلبه نِصْف مِثْقَال مِنْ إِيمَان، أَخْرِجُوا مِنَ النَّار مَنْ كَانَ فِي قَلبه مَا يَزِن ذَرَّة، مَنْ كَانَ فِي قَلبه أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَال ذَرَّة مِنْ إِيمَان». الحَدِيث.[١]

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أَيْ: يُحِيط عِلمًا بِالخَلائِق كُلّهمْ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾. وَقَوْله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْر وَاحِد: خَضَعَتْ وَذَلَّتْ وَاسْتَسْلَمَتْ الخَلائِق لجَبَّارِهَا الحَيّ الَّذِي لا يَمُوت، ﴿ٱلْقَيُّومِ﴾: الَّذِي لا يَنَام وَهُوَ قَيِّم عَلى كُلّ شَيْء، يُدَبِّرهُ وَيَحْفَظهُ، فَهُوَ الكَامِل فِي نَفْسه الَّذِي كُلّ شَيْء فَقِير إِلَيْهِ لا قِوَام لهُ إِلَّا بِهِ.

وَقَوْله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة، فَإِنَّ الله سَيُؤَدِّي كُلّ حَقّ إِلى صَاحِبه، حَتَّى يَقْتَصّ للشَّاةِ الجَمَّاء مِنْ الشَّاة القَرْنَاء. وَفِي الحَدِيث: «يَقُول الله عَجَّلَّ: وَعِزَّتِي وَجَلالي لا يُجَاوِرنِي اليَوْم ظُلم ظَالم». وَفِي الصَّحِيح: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلم فَإِنَّ الظُّلم ظُلُمَات يَوْم القِيَامَة»[٢] وَالخَيْبَة كُلّ الخَيْبَة مَنْ لقِيَ الله وَهُوَ بِهِ مُشْرِك فَإِنَّ الله تَعَالى يَقُول: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ لـمَّا ذَكَرَ الظَّالِمِينَ وَوَعِيدهمْ ثَنَّى بِالمُتَّقِينَ وَحُكْمهمْ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لا يُظْلَمُونَ وَلا يُهْضَمُونَ، أَيْ: لا يُزَاد فِي سَيِّئَاتهمْ وَلا يَنْقُص مِنْ حَسَنَاتهمْ؛ قَالَهُ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَالضَّحَّاك، وَالحَسَن وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد، فَالظُّلم: الزِّيَادَة بِأَنْ يُحْمَل عَلَيْهِ ذَنْب غَيْره وَالهَضْم: النَّقْص.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

يَقُول تَعَالى: وَلـمَّا كَانَ يَوْم المَعَاد وَالجَزَاء بِالخَيْر وَالشَّرّ وَاقِعًا لا مَحَالة، أَنْزَلنَا القُرْآن بَشِيرًا وَنَذِيرًا بِلسَانٍ عَرَبِيّ مُبِين فَصِيح لا لبْس فِيهِ وَلا عِيّ ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أَيْ: يَتْرُكُونَ المَآثِم وَالمَحَارِم وَالفَوَاحِش ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وَهُوَ إِيجَاد الطَّاعَة وَفِعْل القُرُبَات ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أَيْ: تَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ المَلك الحَقّ الَّذِي هُوَ حَقّ، وَوَعْده حَقّ وَوَعِيده حَقّ وَرُسُله حَقّ وَالجَنَّة حَقّ وَالنَّار حَقّ، وَكُلّ شَيْء مِنْهُ حَقّ، وَعَدْله تَعَالى أَنْ لا يُعَذِّب أَحَدًا قَبْل الإِنْذَار وَبَعْثَة الرُّسُل وَالإِعْذَار إِلى خَلقه لئَلَّا يَبْقَى لأَحَدٍ حُجَّة وَلا شُبْهَة.

وَقَوْله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾. كَقَوْلِهِ تَعَالى فِي سُورَة: «لا أُقْسِم بِيَوْمِ القِيَامَة»: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ وَثَبَتَ فِي «الصَّحِيح» عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يُعَالج مِنْ الوَحْي شِدَّة، فَكَانَ مِمَّا يُحَرِّك بِهِ لسَانه، فَأَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة.[٣] يَعْنِي أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلامُ كَانَ إِذَا جَاءَهُ جِبْرِيل بِالوَحْي، كُلَّمَا قَال جِبْرِيل آيَة قَالهَا مَعَهُ مِنْ شِدَّة حِرْصه عَلى حِفْظ القُرْآن، فَأَرْشَدَهُ الله تَعَالى إِلى مَا هُوَ الأَسْهَل وَالأَخَفّ فِي حَقّه؛ لئَلَّا يَشُقّ عَليْهِ فَقَال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أَيْ: أَنْ نَجْمَعهُ فِي صَدْرك، ثُمَّ تَقْرَأهُ عَلى النَّاس مِنْ غَيْر أَنْ تَنْسَى مِنْهُ شَيْئًا ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾. وَقَال فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أَيْ: بَل أَنْصِتْ فَإِذَا فَرَغَ المَلك مِنْ قِرَاءَته عَليْك فَاقْرَأْهُ بَعْده، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أَيْ: زِدْنِي مِنْك عِلمًا. قَال ابْن عُيَيْنَة رَحِمَهُ اللَّهُ وَلمْ يَزَل ﷺ فِي زِيَادَة حَتَّى تَوَفَّاهُ الله عَجَّلَّ. وَلهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «إِنَّ الله تَابَعَ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٦٥)، ومسلم (٤٧١٢).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦، ٤٩٢٧).

الوَحْي على رَسُوله، حَتَّى كَانَ الوَحْي أَكْثَر مَا كَانَ يَوْم تُوُفِّيَ رَسُول الله ﷺ»[١]. وَقَال ابْن مَاجَهْ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر بْن أَبِي شَيْبَة حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن نُمَيْر عَنْ مُوسَى بْن عُبَيْدَة عَنْ مُحَمَّد بْن ثَابِت عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعنِي، وَزِدْنِي عِلماً، وَالحَمْد لله عَلَى كُلِّ حَال**»[٢]. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ أَبِي كُرَيْب عَنْ عَبْد الله بْن نُمَيْر بِهِ. وَقَال: غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه وَرَوَاهُ البَزَّار عَنْ عَمْرو ابْن عَلِيّ الفَلَّاس عَنْ أَبِي عَاصِم عَنْ مُوسَى بْن عُبَيْدَة بِهِ، وَزَادَ فِي آخِره: «**وَأَعُوذ بِالله مِنْ حَال أَهْل النَّار**».

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان، حَدَّثَنَا أَسْبَاط بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا الأَعْمَش عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: إِنَّمَا سُمِّيَ الإِنْسَان لأَنَّهُ عُهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ. وَكَذَا رَوَاهُ عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْهُ. وَقَال مُجَاهِد وَالحَسَن: تَرَكَ.

وَقَوْله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾ يَذْكُر تَعَالَى تَشْرِيف آدَم وَتَكْرِيمه وَمَا فَضَّلهُ بِهِ عَلَى كَثِير مِمَّنْ خَلقَ تَفْضِيلًا. وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَام عَلَى هَذِهِ القِصَّة فِي سُورَة البَقَرَة وَفِي الأَعْرَاف وَفِي الحِجْر وَالكَهْف. وَسَيَأْتِي فِي آخِر سُورَة ﴿ صٓ ﴾؛ يَذْكُر تَعَالَى فِيهَا خَلق آدَم وَأَمْره المَلَائِكَة بِالسُّجُودِ لهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا، وَيُبَيِّن عَدَاوَة إِبْلِيس لِبَنِي آدَم وَلأَبِيهِمْ قَدِيمًا، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أَيْ: امْتَنَعَ وَاسْتَكْبَرَ، ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾، يَعْنِي: حَوَّاء عليها السلام ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ أَيْ: إِيَّاكَ أَنْ يَسْعَى فِي إِخْرَاجك مِنْهَا فَتَتْعَب وَتَعْنَى، وَتَشْقَى فِي طَلَب رِزْقك، فَإِنَّك هَاهُنَا فِي عَيْش رَغِيد هَنِيء بِلا كُلفَة وَلا مَشَقَّة.

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ إِنَّمَا قَرَنَ بَيْن الجُوع وَالعُرْي؛ لأَنَّ الجُوع ذُلّ البَاطِن، وَالعُرْي ذُلّ الظَّاهِر.

﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ وَهَذَانِ أَيْضًا مُتَقَابِلَانِ، فَالظَّمأ: حَرّ البَاطِن، وَهُوَ العَطَش وَالضُّحَى: حَرّ الظَّاهِر.

وَقَوْله: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾. قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ دَلَّاهُمَا بِغُرُور ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الله تَعَالَى عَهِدَ إِلَى آدَم وَزَوْجه أَنْ يَأْكُلا مِنْ كُلّ الثِّمَار، وَلا يَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَة المُعَيَّنَة فِي الجَنَّة، فَلَمْ يَزَل بِهِمَا إِبْلِيس حَتَّى أَكَلا مِنْهَا وَكَانَتْ شَجَرَة الخُلد، يَعْنِي: الَّتِي مَنْ أَكَل مِنْهَا خلدَ وَدَامَ مُكْثه، وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيث ذِكْر شَجَرَة الخُلد فَقَال أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا شُعْبَة عَنْ أَبِي الضَّحَّاك سَمِعْت أَبَا هُرَيْرَة يُحَدِّث عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**إِنَّ فِي الجَنَّة شَجَرَة يَسِير الرَّاكِب فِي ظِلِّهَا مِائَة عَام مَا يَقْطَعهَا، وَهِيَ شَجَرَة الخُلد**». وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد.[٣]

وقوله: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن بْن أَشْكَاب حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَاصِم عَنْ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة عَنْ قَتَادَة عَنْ الحَسَن عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب قَال: قَال رَسُول الله ﷺ:

---

(١) **صحيح** : أخرجه مسلم (٥٣٣١).

(٢) **صحيح** : أخرجه ابن ماجه (٢٥١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٥٥)، وصححه الألباني دون لفظة: (وهي شجرة الخلد)، انظر «الصحيحة» (٣٥٣٦).

«إِنَّ الله خلقَ آدم رَجُلًا طِوَالًا، كَثِير شَعْر الرَّأس، كَأَنَّهُ نَخْلة سَحُوق، فَلَمَّا ذَاقَ الشَّجَرَة سَقطَ عَنْهُ لباسه، فَأَوَّل مَا بَدَا مِنْهُ عَوْرَته، فلَمَّا نَظَرَ إِلى عَوْرَته جَعَل يَشْتَدّ فِي الجَنَّة، فَأَخَذَتْ شَعْره شَجَرَة فَنَازَعَهَا، فَنَادَاهُ الرَّحْمَن: يَا آدَم مِنِّي تَفِرّ؟ فَلَمَّا سَمِعَ كَلام الرَّحْمَن، قَالَ: يَا رَبّ لا، وَلكِنْ اسْتِحْيَاء، أَرَأَيت إِنْ تُبْت وَرَجَعْت أَعَائِدِي إِلى الجَنَّة؟ قَال: نَعَمْ. فَذلكَ قَوْله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾»[1]. وَهَذَا مُنْقَطِع بَيْن الحَسَن وَأُبَيّ بن كَعْب فَلمْ يَسْمَعهُ مِنْهُ وَفِي رَفْعه نَظَر أَيْضًا.

وَقَوْله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قَال مُجَاهِد: يُرَقِّعَانِ كَهَيْئَةِ الثَّوْب، وَكَذَا قَال قَتَادَة وَالسُّدِّيّ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا جَعْفَر عَنْ عَوْن حَدَّثَنَا سُفْيَان عَنْ ابْن أَبِي لَيْلى عَنْ المِنْهَال عَنْ سعيد بن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قَال: يَنْزِعَانِ وَرَق التِّين، فَيَجْعَلانِهِ عَلى سَوْآتِهِمَا.

وَقَوْله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَة حَدَّثَنَا أَيُّوب بْن النَّجَّار عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير عَنْ أَبِي سَلمَة عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«حَاجَّ مُوسَى آدَم، فَقَال لهُ: أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْت النَّاس مِنْ الجَنَّة بِذَنْبِك وَأَشْقَيْتهمْ؟ قَال آدَم: يَا مُوسَى، أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاك الله بِرِسَالاتِهِ وَبِكَلامِهِ، أَتَلُومُنِي عَلى أَمْر قد كَتَبَهُ الله عَليَّ قَبْل أَنْ يَخْلُقَنِي»**. أَوْ: **«قَدَّرَهُ الله عَليَّ قَبْل أَنْ يَخْلُقَنِي»**. قَال رَسُول الله ﷺ: **«فَحَجَّ آدَم مُوسَى»**[2]. وَهَذَا الحَدِيث لهُ طُرُق فِي «الصَّحِيحَيْنِ» وَغَيْرهمَا مِنْ المَسَانِيد.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا يُونُس بْن عَبْد الأَعْلى أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب أَخْبَرَنِي أَنَس بْن عِيَاض عَنْ الحَارِث بْن أَبِي ذبَاب عَنْ يَزِيد بْن هُرْمُز قَال: سَمِعْت أَبَا هُرَيْرَة يَقُول: قَال رَسُول الله ﷺ: **«احْتَجَّ آدَم وَمُوسَى عِنْد رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَم مُوسَى قَال مُوسَى: أَنْتَ الَّذِي خَلقَك الله بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيك مِنْ رُوحه، وَأَسْجَدَ لك مَلائِكَته وَأَسْكَنَك فِي جَنَّته، ثُمَّ أَهْبَطْت النَّاس إِلى الأَرْض بِخَطِيئَتِك؟ قَال آدَم: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاك الله بِرِسَالتِهِ وَكَلامه، وَأَعْطَاك الأَلوَاح فِيهَا تِبْيَان كُلّ شَيْء، وَقَرَّبَك نَجِيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْت الله كَتَبَ التَّوْرَاة قَبْل أَنْ أُخْلق؟ قَال مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَام. قَال آدَم: فَهَل وَجَدْت فِيهَا ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ قَال: نَعَمْ. قَال: أَفَتَلُومنِي عَلى أَنْ عَمِلت عَملاً كَتَبَ الله عَليَّ أَنْ أَعْمَلهُ قَبْل أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَة؟»** قَال رَسُول الله ﷺ: **«فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»**.[2] قَال الحَارِث: وَحَدَّثَنِي عَبْد الرَّحْمَن بْن هُرْمُز بِذَلكَ عَنْ أَبِى هُرَيْرَة عَنْ رَسُول الله ﷺ.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾.

يَقُول تَعَالى لآدَم وَحَوَّاء وَإِبْلِيس: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أَيْ: مِنْ الجَنَّة كُلّكُمْ، وَقَدْ قَدَّمنا بَسْطَ ذَلكَ فِي سُورَة البَقَرَة. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، قَال: آدَم وَذُرِّيَّته وَإِبْلِيس وَذُرِّيَّته.

وَقَوْله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾، قَال أَبُو العَالِيَة: الأَنْبِيَاء وَالرُّسُل وَالبَيَان.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ قَال ابْن عَبَّاس: لا يَضِلّ فِي الدُّنْيَا وَلا يَشْقَى فِي الآخِرَة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أَيْ: خَالفَ أَمْرِي، وَمَا أَنْزَلته عَلى رَسُولي أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَنَاسَاهُ وَأَخَذَ مِنْ غَيْره

---

(١) ضعيف: تقدم.
(٢) صحيح: تقدم.

هُدَاهُ؛ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، أَيْ: ضَنْكًا فِي الدُّنْيَا فَلا طُمَأْنِينَة لهُ، وَلا انْشِرَاح لِصَدْرِهِ، بَل صَدْره ضَيِّق حَرَج لِضَلالِهِ وَإِنْ تَنَعَّمَ ظَاهِره وَلَبِسَ مَا شَاءَ وَأَكَل مَا شَاءَ وَسَكَنَ حَيْثُ شَاءَ فَإِنَّ قَلبه مَا لَمْ يَخْلُص إِلى اليَقِين وَالهُدَى فَهُوَ فِي قَلق وَحِيرَة وَشَكّ، فَلا يَزَال فِي رِيبَة يَتَرَدَّد فَهَذَا مِنْ ضَنْك المَعِيشَة.

قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قَال: الشَّقَاء. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، قَال: كُلّ مالٍ أَعْطَيْته عَبْدًا مِنْ عِبَادِي قَلَّ أَوْ كَثُرَ لا يَتَّقِينِي فِيهِ فَلا خَيْر فِيهِ وَهُوَ الضَّنْك فِي المَعِيشَة، وَقَال أَيْضًا: إِنَّ قَوْمًا ضُلَّالًا أَعْرَضُوا عَنْ الحَقّ، وَكَانُوا فِي سَعَة مِنْ الدُّنْيَا مُتَكَبِّرِينَ، فَكَانَتْ مَعِيشَتهمْ ضَنْكًا، ذَلكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الله لَيْسَ مُخْلفًا لَهُمْ مَعَايِشهمْ مِنْ سُوء ظَنّهمْ بالله، وَالتَّكْذِيب، فَإِذَا كَانَ العَبْد يُكَذِّب بالله، وَيُسِيء الظَّنّ بِهِ وَالثِّقَة بِهِ اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ مَعِيشَته؛ فَذَلكَ الضَّنْك. وَقَال الضَّحَّاك: هُوَ العَمَل السَّيِّئ وَالرِّزْق الخَبِيث. وَكَذَا قَال عِكْرِمَة، وَمَالك بْن دِينَار. وَقَال سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ أَبِي حَازِم، عَنْ أَبِي سَلمَة عَنْ أَبِي سَعِيد فِي قَوْله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، قَال: يُضَيَّق عَليْهِ قَبْره حَتَّى تَخْتَلف أَضْلاعه فِيهِ. وَقَال أَبُو حَاتِم الرَّازِيّ: النُّعْمَان بْن أَبِي عِيَاش: يُكَنَّى أَبَا سَلمَة. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثنا صَفْوَان أَنْبَأَنَا الوَليد أَنْبَأَنَا عَبْد الله بْن لهِيعَة عَنْ دَرَّاج عَنْ أَبِي الهَيْثَم عَنْ أَبِي سَعِيد قَال: قَال رَسُول الله ﷺ فِي قَوْل الله ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾. قَال: «ضَمَّة القَبْر لهُ»[1]. وَالمَوْقُوف أَصَحّ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم أَيْضًا: حَدَّثَنَا الرَّبِيع بْن سُليْمَان، حَدَّثَنَا أَسَد بْن مُوسَى حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة حَدَّثَنَا دَرَّاج أَبُو السَّمْح عَنْ ابْن حُجَيْرَة -وَاسْمه عَبْد الرَّحْمَن- عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «المُؤْمِن فِي قَبْره فِي رَوْضَة خَضْرَاء، يُفْسَح لهُ فِي قَبْره سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّر لهُ قَبْره كَالقَمَرِ ليْلة البَدْر، أَتَدْرُون فِيمَا أُنْزِلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؟ أَتَدْرُونَ مَا المَعِيشَة الضَّنْك؟». قَالُوا: الله وَرَسُوله أَعْلم. قَال: «عَذَاب الكَافِر فِي قَبْره، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ ليُسَلَّط عَليْهِ تِسْعَة وَتِسْعُونَ تِنِّينًا، أَتَدْرُون مَا التِّنِّين؟ تِسْعَة وَتِسْعُونَ حَيَّة، لكُلِّ حَيَّة سَبْعَة رُءُوس يَنْفُخُونَ فِي جِسْمه وَيَلسَعُونَهُ وَيَخْدِشُونَهُ إِلى يَوْم يُبْعَثُونَ»[2] رَفْعه مُنْكَر جِدًّا. وَقَال البَزَّار: حَدَّثَنَا مُحَمَّد ابْن يَحْيَى الأَزْدِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَمْر، حَدَّثَنَا هِشَام بْن سَعْد عَنْ سَعِيد بْن أَبِي هِلال، عَنْ ابْن حُجَيْرَة عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قَوْل الله ﷻ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾. قَال: «المَعِيشَة الضَّنْك الَّذِي قَال الله تعالى: إِنَّهُ يُسَلَّط عَليْهِ تِسْعَة وَتِسْعُونَ حَيَّة يَنْهَشُون لحْمه حَتَّى تَقُوم السَّاعَة»[3]. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثنا أَبُو الوَليد حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلمَة عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو عَنْ أَبِي سَلمَة عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قَال: «عَذَاب القَبْر»[4]. إِسْنَاد جَيِّد.

وَقَوْله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾، قَال مُجَاهِد وَأَبُو صَالح وَالسُّدِّيّ: لا حُجَّة لهُ. وَقَال عِكْرِمَة: عَمِيَ عَليْهِ كُلّ شَيْء إِلَّا جَهَنَّم. وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون المُرَاد أَنَّهُ يُبْعَث أَوْ يُحْشَر إِلى النَّار أَعْمَى البَصَر وَالبَصِيرَة أَيْضًا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾، وَلهَذَا يَقُول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أَيْ: لمَّا أَعْرَضْت عَنْ آيَات الله وَعَامَلتهَا مُعَامَلة مَنْ لمْ يَذْكُرهَا، بَعْد بَلاغهَا إِليْك تَنَاسَيْتهَا، وَأَعْرَضْت عَنْهَا

---

(١) ضعيف: فيه دراج، وروايته عن أبي الهيثم ضعيفة، وفي الإسناد أيضًا ابن لهيعة: ضعيف.
(٢) حسن: أخرجه الطبري (١٦/ ٢٢٨)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٥٢).
(٣) ضعيف جدًا: أخرجه البزار (٢٢٣٣)، وعلته: محمد بن عمر الواقدي. قال الحافظ: متروك الحديث.
(٤) حسن: قال الحافظ ابن كثير: إسناده جيد.

وَأَغْفلتها، كَذَلكَ اليَوْم نُعَامِلك مُعَامَلة مَنْ نسيك، ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ فَإِنَّ الجَزَاء مِنْ جِنْس العَمَل، فَأَمَّا نِسْيَان لفظ القُرْآن مَعَ فَهْم مَعْنَاهُ وَالقِيَام بِمُقْتَضَاهُ، فَلَيْس دَاخِلًا فِي هَذَا الوَعِيد الخَاصّ، وَإِنْ كَانَ مُتَوَعَّدًا عَلَيْهِ مِنْ جِهَة أُخْرَى، فإنه قَدْ وَرَدَتْ السُّنَّة بِالنَّهْيِ الأَكِيد وَالوَعِيد الشَّدِيد فِي ذَلِكَ.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا خَلف بْن الوَلِيد، حَدَّثَنَا خَالد عَنْ يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد، عَنْ عِيسَى بْن فَائِد، عَنْ رَجُل، عَنْ سعد بْن عُبَادَة ﷺ عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «مَا مِنْ رَجُل قَرَأَ القُرْآن فَنَسِيَهُ إِلاَّ لَقِيَ الله يَوْم يَلْقَاهُ وَهُوَ أَجْذَم»[1]. ثُمَّ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد مِنْ حَدِيث يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد عَنْ عِيسَى بْن فَائِد، عَنْ عُبَادَة بْن الصَّامِت عَنْ النَّبِيّ ﷺ فَذَكَرَ مِثْله سَوَاء.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾.

يَقُول تَعَالَى: وَهَكَذَا نُجَازِي المُسْرِفِينَ المُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ الله فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾، وَلِهَذَا قَال: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾. أَيْ: أَشَدّ أَلَمًا مِنْ عَذَاب الدُّنْيَا وَأَدْوَم عَلَيْهِمْ، فَهُمْ مُخَلَّدُونَ فِيهِ، وَلِهَذَا قَال رَسُول الله ﷺ لِلْمُتَلاعِنَيْنِ: «إِنَّ عَذَاب الدُّنْيَا أَهْوَن مِنْ عَذَاب الآخِرَة».[2]

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾.

يَقُول تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ ﴾ هَؤُلاءِ المُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْتهم بِهِ: يَا مُحَمَّد، كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الأُمَم المُكَذِّبِينَ بِالرُّسُل قَبْلهمْ فَبَادُوا، فَلَيْسَ لَهُمْ بَاقِيَة وَلا عَيْن وَلا أَثَر، كَمَا يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ مِنْ دِيَارهمْ الخَالِيَة الَّتِي خَلفُوهُمْ فِيهَا يَمْشُونَ فِيهَا: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾، أَيْ: العُقُول الصَّحِيحَة، وَالأَلْبَاب المُسْتَقِيمَة، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ وَقَال فِي سُورَة «الم السَّجْدَة»: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾. ثم قَال تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أَيْ: لَوْلا الكَلِمَة السَّابِقَة مِنْ الله، وَهُوَ أَنَّهُ لا يُعَذِّب أَحَدًا إِلَّا بَعْد قِيَام الحُجَّة عَلَيْهِ، وَالأَجَل المُسَمَّى الَّذِي ضَرَبَهُ الله تَعَالَى لِهَؤُلاءِ المُكَذِّبِينَ إِلَى مُدَّة مُعَيَّنَة، لَجَاءَهُمْ العَذَاب بَغْتَة. وَلِهَذَا قَال لِنَبِيِّهِ مُسَلِّيًا لَهُ: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، أَيْ: مِنْ تَكْذِيبهمْ لك، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴾ يَعْنِي: صَلاة الفَجْر، ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ يَعْنِي: صَلاة العَصْر، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ جَرِير بْن عَبْد الله البَجَلِيّ ﷺ قَال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْد رَسُول الله ﷺ فَنَظَرَ إِلَى القَمَر لَيْلَة البَدْر فَقَال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَر، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَته فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاة قَبْل طُلُوع الشَّمْس وَقَبْل غُرُوبهَا فَافْعَلُوا». ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَة.[3]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة عَنْ عَبْد المَلك بْن عُمَيْر عَنْ عُمَارَة بْن رؤبة قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «لَنْ يَلِج النَّار أَحَد صَلَّى قَبْل طُلُوع الشَّمْس وَقَبْل غُرُوبهَا»[4]. رَوَاهُ مُسْلم مِنْ حَدِيث

---

(١) انظر «الضعيفة» (١٣٥٤).
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٥٣١١)، ومسلم (١٤٩٣).
(٣) صحيح : أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٢).
(٤) صحيح : أخرجه مسلم (٦٣٤).

عَبْد المَلك بْن عُمَيْر بِهِ. وَفِي «المُسْنَد» وَ«السُّنَن» عَنْ ابْن عُمَر قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْل الجَنَّة مَنْزِلة مَنْ يَنْظُر فِي مُلكه مَسِيرَة أَلفَيْ سَنَة يَنْظُر إِلى أَقْصَاهُ كَمَا يَنْظُر إِلى أَدْنَاهُ، وَإِنَّ أَعْلاهُمْ مَنْزِلة لَمَنْ يَنْظُر إِلى الله تَعَالى فِي اليَوْم مَرَّتَيْن».(١)

وَقَوْله: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾، أَيْ: مِنْ سَاعَاته فَتَهَجَّدْ بِهِ، وَحَمَلهُ بَعْضهمْ عَلى المَغْرِب وَالعِشَاء، ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ فِي مُقَابَلة آنَاء اللَّيْل، ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾، وَفِي «الصَّحِيح»: «**يَقُول الله تَعَالى: يَا أَهْل الجَنَّة. فَيَقُولُونَ: لبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْك. فَيَقُول: هَل رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لنَا لا نَرْضَى، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلقك؟! فَيَقُول: إِنِّي أُعْطِيكُمْ أَفْضَل مِنْ ذَلكَ. فَيَقُولُونَ: وَأَيّ شَيْء أَفْضَل مِنْ ذَلكَ؟ فَيَقُول: أُحِلّ عَليْكُمْ رِضْوَانِي فَلا أَسْخَط عَليْكُمْ بَعْده أَبَدًا**»(٢). وَفِي الحَدِيث يقال: «**يَا أَهْل الجَنَّة: إِنَّ لكُمْ عِنْد الله مَوْعِدًا يُرِيد أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ. فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟! أَلمْ تُبَيِّض وُجُوهنَا، وتُثَقل مَوَازِيننَا، وَتُزَحْزِحنَا عَنْ النَّار، وَيُدْخِلنَا الجَنَّة؟! فَيَكْشِف الحِجَاب، فَيَنْظُرُونَ إِليْهِ، فوالله مَا أَعْطَاهُمْ خَيْرًا مِنْ النَّظَر إِليْهِ وَهِيَ الزِّيَادَة**».(٣)

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

يَقُول تَعَالى لنَبِيِّهِ مُحَمَّد ﷺ: لا تَنْظُر إِلى هَؤُلاءِ المُتْرَفِين وَأَشْبَاههمْ وَنُظَرَائهُمْ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنْ النَّعِيم، فَإِنَّمَا هُوَ زَهْرَة زَائِلة، وَنِعْمَة حَائِلة، لنَخْتَبِرهُمْ بِذَلكَ، وَقَليل مِنْ عِبَادِي الشَّكُور. وَقَال مُجَاهِد: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾، يَعْنِي: الأَغْنِيَاء فَقَدْ آتَاك خَيْرًا مِمَّا آتَاهُمْ. كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾، وكَذَلك مَا ادَّخَرَهُ الله تَعَالى لرَسُوله ﷺ فِي الدَّارِ الآخِرَة أَمْر عَظِيم لا يُحَدّ وَلا يُوصَف كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾، وَلهَذَا قَال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾. وَفِي الصَّحِيح: أَنَّ عُمَر بْن الخَطَّاب لَمَّا دَخَل عَلى رَسُول الله ﷺ فِي تِلكَ المَشْرُبَة الَّتِي كَانَ قَدْ اعْتَزَل فِيهَا نِسَاءَهُ، حِين آلى مِنْهُنَّ فَرَآهُ مُتَوَسِّدًا مُضْطَجِعًا عَلى رِمَال حَصِير، وَليْسَ فِي البَيْت إِلَّا صُبْرَة مِنْ قَرَظ وأهب مُعَلَّقَة، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَا عُمَر بِالبُكَاءِ فَقَال لهُ رَسُول الله ﷺ: «**مَا يُبْكِيك؟**». فَقَال: يَا رَسُول الله؛ إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَر فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ صَفْوَة الله مِنْ خَلقه. فَقَال: «**أَوَفِي شَكّ أَنْتَ يَا بْن الخَطَّاب؟ أُولئِكَ قَوْم عُجِّلتْ لهُمْ طَيِّبَاتهمْ فِي حَيَاتهمْ الدُّنْيَا**».(٤) فَكَانَ ﷺ، أَزْهَد النَّاس فِي الدُّنْيَا مَعَ القُدْرَة عَليْهَا، إِذَا حَصَلتْ لهُ يُنْفِقهَا هَكَذَا وَهَكَذَا فِي عِبَاد الله، وَلمْ يَدَّخِر لنَفْسِهِ شَيْئًا لغَدٍ.

وقَال ابْن أَبِي حَاتِم: أَنْبَأَنَا يُونُس، أَخْبَرَنِي ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي مَالك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ أَبِي سَعِيد: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**إِنَّ أَخْوَف مَا أَخَاف عَليْكُمْ، مَا يَفْتَح الله مِنْ زَهْرَة الدُّنْيَا**». قَالُوا: وَمَا زَهْرَة الدُّنْيَا يَا رَسُول الله قَال: «**بَرَكَات الأَرْض**»(٥). وَقَال قَتَادَة وَالسُّدِّيّ وَغَيْره: زَهْرَة الحَيَاة

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٣، ٦٤)، والترمذي (٢٥٥٣)، وفيه ثوير بن أبي فاختة: ضعيف. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (١٣٨١).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٥٥٥٢، ٣١٠٥).

(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩).

(٥) **صحيح**: أخرجه الطبري (١٦/ ٢٣٧).

الدُّنْيَا يَعْنِي: زِينَة الحَيَاة الدُّنْيَا. وَقَال قَتَادَة: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبْتَليَهُمْ. وَقَوْله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أَيْ: اسْتَنْقِذْهُمْ مِنْ عَذَاب الله بِإِقَامِ الصَّلاة، وَاصْبِرْ أَنْتَ عَلى فِعْلهَا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي حَدَّثنَا أَحْمد بْن صَالح، حَدَّثنَا ابْن وَهْب أَخْبَرَنِي هِشَام بْن سَعْد عَنْ زَيْد ابْن أَسْلمَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ عُمَر بْن الخَطَّاب كَانَ يَبِيت عِنْده أَنَا وَيَرْفَأ، وَكَانَ لهُ سَاعَة مِنْ اللَّيْل يُصَلِّي فِيهَا، فَرُبَّمَا لمْ يَقُمْ فَنقُول: لا يَقُوم اللَّيْلة كَمَا كَانَ يَقُوم، وَكَانَ إِذَا اسْتَيْقَظَ أَقَامَ -يَعْنِي: أَهْله- وَقَال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

وَقَوْله: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي: إِذَا أَقَمْت الصَّلاة أَتَاك الرِّزْق مِنْ حَيْثُ لا تَحْتَسِب، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، وَلهَذَا قَال: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾. وَقَال الثَّوْرِيّ: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾. أَيْ: لا نُكَلِّفك الطَّلب. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثنَا حَفْص بْن غِيَاث عَنْ هِشَام عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَل عَلى أَهْل الدُّنْيَا، فَرَأَى مِنْ دُنْيَاهُمْ طَرَفًا فَإِذَا رَجَعَ إِلى أَهْله فَدَخَل الدَّار قَرَأَ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، إِلى قَوْله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، ثُمَّ يَقُول الصَّلاة الصَّلاة رَحِمَكُمْ الله.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا عَبْد الله بْن أَبِي زِيَاد القَطَوانِيّ حَدَّثنَا سَيَّار حَدَّثنَا جَعْفَر عَنْ ثَابِت قَال: كَانَ النَّبِيّ ﷺ إِذَا أَصَابَهُ خَصَاصَة نَادَى أَهْله: «يَا أَهْلاهُ، صَلُّوا صَلُّوا»[1]. قَال ثَابِت: وَكَانَتْ الأَنْبِيَاء إِذَا نَزَل بِهِمْ أَمْر فَزِعُوا إِلى الصَّلاة. وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث عِمْرَان بْن زَائِدَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي خَالد الوَالبِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«يَقُول الله تَعَالى: يَا بْن آدَم، تَفَرَّغْ لعِبَادَتِي أَمْلأ صَدْرك غِنًى وَأَسُدّ فَقْرك، وَإِنْ لمْ تَفْعَل مَلأْت صَدْرك شُغْلاً وَلمْ أَسُدّ فَقْرك»**[2]. وَرَوَى ابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث الضَّحَّاك، عَنْ الأَسْوَد عَنْ ابْن مَسْعُود: سَمِعْت نَبِيّكُمْ ﷺ يَقُول: **«مَنْ جَعَل الهُمُوم هَمًّا وَاحِدًا: هَمّ المَعَاد؛ كَفَاهُ الله هَمّ دُنْيَاهُ. وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الهُمُوم فِي أَحْوَال الدُّنْيَا، لمْ يُبَالِ الله فِي أَيّ أَوْدِيَته هَلكَ»**[3]. وَرُوِيَ أَيْضًا مِنْ حَدِيث شُعْبَة، عَنْ عُمَر بْن سُليْمَان عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبَانَ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ زَيْد بْن ثَابِت سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمّه، فَرَّقَ الله عَليْهِ أَمْره وَجَعَل فَقْره بَيْن عَيْنَيْهِ، وَلمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لهُ. وَمَنْ كَانَتْ الآخِرَة نِيَّته جَمَعَ لهُ أَمْره، وَجَعَل غِنَاهُ فِي قَلبه، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَة»**[4].

وَقَوْله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أَيْ: وَحُسْن العَاقِبَة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة -وَهِيَ الجَنَّة- لِمَنْ اتَّقَى الله. وَفِي الصَّحِيح أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«رَأَيْت اللَّيْلة كَأَنَّا فِي دَار عُقْبَة بْن رَافِع، وَأَنَّا أُتِينَا بِرُطَبٍ مِنْ رُطَب ابْن طَاب، فَأَوَّلت ذَلكَ أَنَّ العَاقِبَة لنَا فِي الدُّنْيَا وَالرِّفْعَة، وَأَنَّ دِينَنَا قَدْ طَابَ»**[5].

---

(١) ضعيف مرسل: ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٧٦٠).
(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤٦٦)، وابن ماجه (٤١٠٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي وابن ماجه».
(٣) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤١٠٦)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».
(٤) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».
(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٠).

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ الكُفَّار فِي قَوْلهمْ: ﴿لَوْلَا﴾، أَيْ: هَلَّا ﴿يَأْتِينَا﴾ مُحَمَّد ﴿بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أَيْ: بِعَلامَةٍ دَالَّة عَلَى صِدْقه فِي أَنَّهُ رَسُول الله، قَال الله تَعَالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ يَعْنِي: القُرْآن العَظِيم الَّذِي أَنْزَلهُ عَلَيْهِ الله وَهُوَ أُمِّيّ لا يُحْسِن الكِتَابَة، وَلَمْ يُدَارِس أَهْل الكِتَاب، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ أَخْبَار الأَوَّلِينَ، بِمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي سَالف الدُّهُور بِمَا يُوَافِقهُ عَلَيْهِ الكُتُب المُتَقَدِّمَة الصَّحِيحَة مِنْهَا، فَإِنَّ القُرْآن مُهَيْمِن عَلَيْهَا يُصَدِّق الصَّحِيح، وَيُبَيِّن خَطَأ المَكْذُوب فِيهَا وَعَلَيْهَا، وَهَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ تَعَالى فِي سُورَة العَنْكَبُوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: **«مَا مِنْ نَبِيّ إلاَّ وَقَدْ أُوتِيَ مِنْ الآيَات مَا آمَنَ عَلى مِثْله البَشَر، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيته وَحْيًا، أَوْحَاهُ الله إِليَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَكْثَرهمْ تَابِعًا يَوْم القِيَامَة»**.[1] وَإِنَّمَا ذَكَر هَاهُنَا أَعْظَم الآيَات الَّتِي أُعْطِيهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ القُرْآن، وله مِنْ المُعْجِزَات مَا لا يُحَدّ وَلا يُحْصَر، كَمَا هُوَ مُودَع فِي كُتُبه، وَمُقَرَّر فِي مَوَاضِعه.

ثم قَال تَعَالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أَيْ: لوْ أَنَّا أَهْلكْنَا هَؤُلاءِ المُكَذِّبِينَ قَبْل أَنْ نُرْسِل إِليْهِمْ هَذَا الرَّسُول الكَرِيم، وَنُنْزِل عَليْهِمْ هَذَا الكِتَاب العَظِيم، لكَانُوا قَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قَبْل أَنْ تُهْلكنَا حَتَّى نُؤْمِن بِهِ وَنَتَّبِعهُ، كَمَا قَال: ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ يُبَيِّن تَعَالى أَنَّ هَؤُلاءِ المُكَذِّبِينَ مُتَعَنِّتُونَ مُعَانِدُونَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إِلى قَوْله: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾، وَقَال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾. وَقَال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ الآيَتَيْنِ. ثم قَال تَعَالى: ﴿قُلْ﴾، أَيْ: يَا مُحَمَّد، لِمَنْ كَذَّبَك وَخَالفَك، وَاسْتَمَرَّ عَلى كُفْره وَعِنَاده ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أَيْ: مِنَّا وَمِنْكُمْ ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾، أَيْ: فَانْتَظِرُوا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أَيْ: الطَّرِيق المُسْتَقِيم، ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ إِلى الحَقّ وَسَبِيل الرُّشْاد، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾. وَقَال: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾.

آخِر تَفْسِير سُورَة طه، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة

---

(١) صحيح: تقـدم.

تفسير سُورَةُ الأنبيَاءِ وهي مكية

قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، ثَنَا غُنْدَر، ثَنَا شُعْبَة، عَنْ أَبِي إِسْحَاق: سَمِعْت عَبْد الرَّحْمَن بْن يَزِيد، عَنْ عَبْد الله قَال: بَنُو إِسْرَائِيل، وَالكَهْف، وَمَرْيَم، وَطَه، وَالأَنْبِيَاء: هُنَّ مِنَ العِتَاق الأُوَل، وَهُنَّ مِنْ تِلادِي.[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾.

هَذَا تَنْبِيه مِنْ الله ﷻ عَلى اقْتِرَاب السَّاعَة وَدُنُوّهَا، وَأَنَّ النَّاس فِي غَفْلَة عَنْهَا، أَيْ: لا يَعْمَلُونَ لَهَا، وَلا يَسْتَعِدُّونَ مِنْ أَجْلهَا. وَقَال النَّسَائِيّ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن نَصْر، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عَبْد المَلِك أَبُو الوَلِيد الطَّيَالِسِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي سَعِيد، عَنْ النَّبِيّ ﷺ: ﴿فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ قَال: «فِي الدُّنْيَا»[2]. وَقَال تَعَالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وَقَال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ الآيَة. وَقَدْ رَوَى الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة الحَسَن بْن هَانِئ أَبِي نُوَاس الشَّاعِر أَنَّهُ قَال: أَشْعَر النَّاس؛ الشَّيْخ الطَّاهِر أَبُو العَتَاهِيَة حَيْثُ يَقُول:

النَّاس فِي غَفَلاتهِمْ ۞ وَرَحَا المَنِيَّة تَطْحَن

فَقِيل لهُ: مِنْ أَيْنَ أُخِذَ هَذَا؟ قَال: مِنْ قَوْله تَعَالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾.

وَرُوِيَ فِي تَرْجَمَة عَامِر بْن رَبِيعَة: مِنْ طَرِيق مُوسَى بْن عُبَيْد الآمِدِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَامِر بْن رَبِيعَة: أَنَّهُ نَزَل بِهِ رَجُل مِنْ العَرَب، فَأَكْرَمَ عَامِرٌ مَثْوَاهُ، وَكَلَّمَ فِيهِ رَسُول الله ﷺ، فَجَاءَهُ الرَّجُل فَقَال: إِنِّي اسْتَقْطَعْت مِنْ رَسُول الله ﷺ وَادِيًا فِي العَرَب، وَقَدْ أَرَدْت أَنْ أَقْطَع لك مِنْهُ قِطْعَة تَكُون لك وَلعَقِبك مِنْ بَعْدك. فَقَال عَامِر: لا حَاجَة لِي فِي قَطِيعَتك، نَزَلَتْ اليَوْم سُورَة أَذْهَلتْنَا عَنْ الدُّنْيَا: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالى أَنَّهُمْ لا يُصْغُونَ إِلى الوَحْي الَّذِي أَنْزَله الله عَلى رَسُوله وَالخِطَاب مَعَ قُرَيْش وَمَنْ شَابَهَهُمْ مِنْ الكُفَّار فَقَال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾، أَيْ: جَدِيد إِنْزَاله ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كَمَا قَال ابْن عَبَّاس: مَا لكُمْ تَسْأَلُونَ أَهْل الكُتُب عَمَّا بِأَيْدِيهِمْ، وَقَدْ حَرَّفُوهُ وَبَدَّلُوهُ، وَزَادُوا فِيهِ وَنَقَصُوا مِنْهُ، وَكِتَابكُمْ أَحْدَث الكُتُب بالله، تَقْرَءُونَهُ مَحْضًا لمْ يُشَبْ. وَرَوَاهُ البُخَارِيّ بِنَحْوِهِ.

وَقَوْله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَيْ: قَائِلِينَ فِيمَا بَيْنهمْ خُفْيَة ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يَعْنُونَ رَسُول الله ﷺ يَسْتَبْعِدُونَ كَوْنه نَبِيًّا لأَنَّهُ بَشَر مِثْلهمْ، فَكَيْف اخْتُصَّ بِالوَحْيِ دُونهمْ، وَلِهَذَا قَال: ﴿أَفَتَأْتُونَ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٣٩، ٤٣٧٠، ٤٦١٠).
(٢) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٠٩).

ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أَيْ: أَفَتَتَّبِعُونَهُ فتكُونُونَ كَمَنْ يَأْتِي السِّحْر، وَهُوَ يَعْلم أَنَّهُ سِحْر؟ فَقَال تَعَالى مُجِيبًا لَهُمْ عَمَّا افْتَرَوْهُ وَاخْتَلَقُوهُ مِنْ الكَذِب: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أَيْ: الَّذِي يَعْلم ذَلكَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَة، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَل هَذَا القُرْآن المُشْتَمِل عَلى خَبَرَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، الَّذِي لا يَسْتَطِيع أَحَد أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ، إِلَّا الَّذِي يَعْلم السِّرّ فِي السَّمَوَات وَالأَرْض.

وَقَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أَيْ: السَّمِيع لأَقْوَالكُمْ العَلِيم بِأَحْوَالكُمْ. وَفِي هَذَا تَهْدِيد لهُمْ وَوَعِيد.

وَقَوْله: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾: هَذَا إِخْبَار عَنْ تَعَنُّت الكُفَّار وَإِلحَادهمْ، وَاخْتِلافهمْ فِيمَا يَصِفُونَ بِهِ القُرْآن، وَحِيرَتهمْ فِيهِ، وَضَلالهمْ عَنْهُ، فَتَارَة يَجْعَلُونَهُ سِحْرًا، وَتَارَة يَجْعَلُونَهُ شِعْرًا، وَتَارَة يَجْعَلُونَهُ أَضْغَاث أَحْلام، وَتَارَة يَجْعَلُونَهُ مُفْتَرًى، كَمَا قَال: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾.

وَقَوْله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يَعْنُونَ كَنَاقَةِ صَالح، وَآيَات مُوسَى وَعِيسَى وَقَدْ قَال الله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ﴾ الآية. وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ: مَا آتَيْنَا قَرْيَة مِنْ القُرَى الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ الرُّسُل آيَة عَلى يَدَيْ نَبِيّهَا فَآمَنُوا بِهَا بَل كَذَّبُوا فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذَلكَ، أَفَهَؤُلاءِ يُؤْمِنُونَ بالآيَاتِ لوْ رَأَوْهَا دُون أُولئِكَ؟ كَلَّا بَل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ هَذَا كُلّه، وَقَدْ شَاهَدُوا مِنْ الآيَات البَاهِرَات وَالحُجَج القَاطِعَات، وَالدَّلائِل البَيِّنَات عَلى يَدَيْ رَسُول الله ﷺ مَا هُوَ أَظْهَر وَأَجْلى وَأَبْهَر وَأَقْطَع وَأَقْهَر مِمَّا شُوهِدَ مَعَ غَيْره مِنْ الأَنْبِيَاء، صَلوَات الله وَسَلامه عَليْهِمْ أَجْمَعِينَ.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم رَحِمَهُ اللَّهُ: ذُكِرَ عَنْ زَيْد بْن الحُبَاب، حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة، حَدَّثَنَا الحَارِث بْن يَزِيْد الحَضْرَمِيّ عَنْ عَلِيّ بْن رَبَاح اللَّخْمِيّ حَدَّثَنِي مَنْ شَهِدَ عُبَادَة بْن الصَّامِت يَقُول: كُنَّا فِي المَسْجِد وَمَعَنَا أَبُو بَكْر الصِّدِّيق رضي الله عنه يُقْرِئ بَعْضُنا بَعْضًا القُرْآن، فَجَاءَ عَبْد الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول وَمَعَهُ نُمْرُقَة وَزَرْبِيَّة، فَوَضَعَ وَاتَّكَأَ، وَكَانَ صَبِيحًا فَصِيحًا جَدِلًا فَقَال: يَا أَبَا بَكْر، قُل لمُحَمَّدٍ يَأْتِينَا بِآيَةٍ كَمَا جَاءَ الأَوَّلُونَ؟ جَاءَ مُوسَى بِالأَلْوَاح، وَجَاءَ دَاوُد بِالزَّبُورِ، وَجَاءَ صَالح بِالنَّاقَةِ، وَجَاءَ عِيسَى بِالإِنْجِيل وَبِالمَائِدَةِ. فَبَكَى أَبُو بَكْر رضي الله عنه، فَخَرَجَ رَسُول الله ﷺ، فَقَال أَبُو بَكْر: قُومُوا بنا إِلى رَسُول الله ﷺ نَسْتَغِيث بِهِ مِنْ هَذَا المُنَافِق، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّهُ لا يُقَام لي، إِنَّمَا يُقَام لله عز وجل». فَقُلنَا: يَا رَسُول الله؛ إِنَّا لقِينَا مِنْ هَذَا المُنَافِق، فَقَال: «إِنَّ جِبْرِيل قَال لي: اخْرُجْ فَأَخْبِرْ بِنِعَم الله الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَليْك وَفَضِيلته الَّتِي فُضِّلت بِهَا فَبَشَّرَنِي أَنَّه بعثني إِلى الأَحْمَر وَالأَسْوَد، وَأَمَرَنِي أَنْ أُنْذِر الجِنّ، وَآتَانِي كِتَابه وَأَنَا أُمِّيٌّ، وَغفَرَ ذَنْبِي مَا تَقدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ، وَذَكَرَ اسْمِي فِي الأَذَان، وأَيَّدني بِالمَلائِكَةِ، وَآتَانِي النَّصْر، وَجَعَل الرُّعْب أَمَامِي وَآتَانِي الكَوْثَر، وَجَعَل حَوْضِي مِنْ أَعْظم الحِيَاض يَوْم القِيَامَة وَوَعَدَنِي المَقَام المَحْمُود وَالنَّاس مُهْطِعُونَ مُقْنِعُو رُءُوسهمْ وَجَعَلنِي فِي أَوَّل زُمْرَة تَخْرُج مِنَ النَّاس وَأَدْخل فِي شَفَاعَتِي سَبْعِينَ أَلفًا مِنْ أُمَّتِي الجَنَّة بِغَيْرِ حِسَاب وَآتَانِي السُّلطَان وَالمُلك، وَجَعَلنِي فِي أَعْلى غُرْفَة فِي الجَنَّة فِي جَنَّات النَّعِيم فَليْسَ فَوْقِي أَحَد إِلَّا المَلائِكَة الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْش، وَأَحَلَّ لي وَلأُمَّتِي الغَنَائِم وَلمْ تَحِلّ لأَحَدٍ كَانَ قَبْلنَا». هَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا.[1]

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

(١) ضعيف: فيه ابن لهيعة ضعيف، وقال ابن كثير في تعليقه على الحديث: غريب جدًا.

يقول تعالى رادًّا على من أنكر بعثة الرسل من البشر: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالًا من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾. وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: سلوا أهل العلم من الأمم؛ كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين آتوهم بشرًا أو ملائكة؟ إنما كانوا بشرًا، وذلك من تمام نعم الله على خلقه، إذ بعث فيهم رسلًا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، أي: بل قد كانوا أجسادًا يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي: قد كانوا بشرًا من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئًا، كما توهمه المشركون في قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ أي: في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه، مما يأمر به وينهى عنه.

وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾، أي: الذي وعدهم ربهم ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، صدقهم الله وعده ففعل ذلك، ولهذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾، أي: أتباعهم من المؤمنين، ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، أي: المكذبين بما جاءت به الرسل.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾.

يقول تعالى منبهًا على شرف القرآن، ومحرضًا لهم على معرفة قدره: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قال ابن عباس: شرفكم. وقال مجاهد: حديثكم. وقال الحسن: دينكم. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أي: هذه النعمة وتتلقونها بالقبول، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾.

وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: أمة أخرى بعدهم. ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ﴾ أي: تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم، ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يفرون هاربين. ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ هذا تهكم بهم قدرًا أي قيل لهم قدرًا: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة. قال قتادة: استهزاء بهم؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعم.

﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ حِين لا يَنْفَعهُمْ ذَلكَ، ﴿فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أَيْ: مَا زَالتْ تِلكَ المَقَالة وَهِيَ الاعْتِرَاف بِالظُّلمِ، هِجِّيرَاهُمْ حَتَّى حَصَدْنَاهُمْ حَصْدًا وَخَمَدتْ حَرَكَاتهمْ وَأَصْوَاتهمْ خُمُودًا.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ خَلقَ السَّمَوَات وَالأَرْض بِالحَقِّ، أَيْ: بِالعَدْل وَالقِسْط؛ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ وأنه لمْ يَخْلُق ذَلكَ عَبَثًا وَلا لعِبًا كَمَا قَال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

وقَوْله تَعَالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، قَال ابْن أَبِي نَجِيح: عَنْ مُجاهِد: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ يَعْنِي: مِنْ عِنْدنَا يَقُول: وَمَا خَلقْنَا جَنَّة وَلا نَارًا وَلا مَوْتًا وَلا بَعْثًا وَلا حِسَابًا. وَقَال الحَسَن وَقَتَادَة وَغَيْرهمَا: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾، اللَّهْو: المَرْأَة بِلسَانِ أَهْل اليَمَن. وَقَال إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ﴾ مِنْ الحُور العِين. وَقَال عِكْرِمَة وَالسُّدِّيّ: المُرَاد بِاللَّهْوِ هَهُنَا: الوَلد. وَهَذَا وَالَّذِي قَبْله مُتَلازِمَانِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ﴾ فَنَزَّهَ نَفْسه عَنْ اتِّخَاذ الوَلد مُطْلَقًا، وَلاسِيَّمَا عَمَّا يَقُولُونَ مِنْ الإِفْك وَالبَاطِل، مِنْ اتِّخَاذ عِيسَى أَوْ العُزَيْر أَوْ المَلائِكَة، سُبْحَان الله ﴿عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

وَقَوْله: ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾. قَال قَتَادَة وَالسُّدِّيّ وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَمُغِيرَة بْن مِقْسَم: أَيْ: مَا كُنَّا فَاعِلِينَ. وَقَال مُجاهِد: كُلّ شَيْء فِي القُرْآن «إِنْ» فَهُوَ إِنْكَار.

وَقَوْله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾، أَيْ: نُبَيِّن الحَقّ فَيُدْحِض البَاطِل، وَلهَذَا قَال: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أَيْ: ذَاهِب مُضْمَحِلّ، ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾، أَيْ: أَيُّهَا القَائِلُونَ لله وَلد ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أَيْ: تَقُولُونَ وَتَفْتَرُونَ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالى عَنْ عُبُودِيَّة المَلائِكَة لهُ وَدَأْبهمْ فِي طَاعَته ليْلًا وَنهَارًا، فَقَال: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ﴾، يَعْنِي: المَلائِكَة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أَيْ: لا يَسْتَنْكِفُونَ عَنْهَا، كَمَا قَال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾، أَيْ: ولا يَتْعَبُونَ وَلا يَمَلُّونَ، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، فَهُمْ دَائِبُونَ فِي العَمَل ليْلًا وَنهَارًا، يطِيعُونَ قَصْدًا وَعَمَلًا، قَادِرُونَ عَليْهِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَليّ بْن أَبِي دُلامَة البَغْدَادِيّ أَنْبَأَنَا عَبْد الوَهَّاب بْن عَطَاء حَدَّثَنَا سَعِيد عَنْ قَتَادَة عَنْ صَفْوَان بْن مُحْرِز عَنْ حَكِيم بْن حِزَام قَال: بَيْنَا رَسُول الله ﷺ بَيْن أَصْحَابه إِذْ قَال لهُمْ: **«هَل تَسْمَعُونَ مَا أَسْمَع؟»**. قَالُوا: مَا نَسْمَع مِنْ شَيْء. فَقَال رَسُول الله ﷺ: **«إِنِّي لأَسْمَع أَطِيط السَّمَاء، وَمَا تُلام أَنْ تَئِطّ، وَمَا فِيهَا مَوْضِع شِبْر إِلاَّ وَعَليْهِ ملك سَاجِد أَوْ قَائِم»**[1]. غَرِيب وَلمْ يُخَرِّجُوهُ. ثُمَّ رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق يَزِيد ابْن زُرَيْع عَنْ سَعِيد، عَنْ قَتَادَة مُرْسَلًا. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: عَنْ حَسَّان بْن مُخَارِق عَنْ عَبْد الله بْن الحَارِث

---

(١) صحيح: تقدم.

ابْن نَوْفَل قَال: جَلسْت إِلى كَعْب الأَحْبَار وَأَنَا غُلام، فَقُلت لهُ: أَرَأَيت قَوْل الله تَعَالى للمَلائِكَةِ: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾. أَمَا يَشْغَلهُمْ عَنْ التَّسْبِيح الكَلام وَالرِّسَالة وَالعَمَل؟ فَقَال: فَمَن هَذَا الغُلام؟ فَقَالُوا: مِنْ بَنِي عَبْد المُطَّلب. قَال: فَقَبَّل رَأْسِي، ثُمَّ قَال لي: يَا بُنَيَّ، إِنَّهُ جُعِل لَهُمْ التَّسْبِيح كَمَا جُعِل لكُمْ النَّفَس، أَلَيْسَ تَتَكَلَّم وَأَنْتَ تَتَنَفَّس، وَتَمْشِي وَأَنْتَ تَتَنَفَّس؟

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾.

يُنْكِر تَعَالى عَلى مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونه آلهَة، فَقَال: بل ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾، أَيْ: أَهُمْ يُحْيُونَ المَوْتَى وَيُنْشِرُونَهُمْ مِنْ الأَرْض؟ أَيْ: لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْء مِنْ ذَلكَ، فَكَيْف جَعَلُوهَا لله نِدًّا وَعَبَدُوهَا مَعَهُ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالى أَنَّهُ لوْ كَانَ فِي الوُجُود آلهَة غَيْره لَفَسَدَتْ السَّمَوَات وَالأَرْض. فَقَال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ ﴾، أَيْ: فِي السَّماء وَالأَرْض ﴿لَفَسَدَتَا﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، وَقَال هَهُنَا: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أَيْ: عَمَّا يَقُولُونَ إِنَّ لهُ وَلدًا أَوْ شَرِيكًا، سُبْحَانه وَتَعَالى وَتَقَدَّس، وَتَنَزَّهَ عَنْ الَّذِي يَفْتَرُونَ وَيَأْفِكُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَقَوْله: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾، أَيْ: هُوَ الحَاكِم الَّذِي لا مُعَقِّب لحُكْمِهِ، وَلا يَعْتَرِض عَليْهِ أَحَد؛ لعَظَمَتِهِ وَجَلاله وَكِبْرِيَائِهِ، وَعِلمه وَحِكْمَته، وَعَدْله وَلُطْفه، ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾، أَيْ: وَهُوَ سَائِل خَلقه عَمَّا يَعْمَلُونَ، كَقَوْلِهِ: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾.

يَقُول تَعَالى: بل ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ﴾ يَا مُحَمَّد: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أَيْ: دَليلكُمْ عَلى مَا تَقُولُونَ، ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾، يَعْنِي: القُرْآن ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ﴾ يَعْنِي: الكُتُب المُتَقَدِّمَة، عَلى خِلاف مَا تَقُولُونَهُ وَتَزْعُمُون، فَكُلّ كِتَاب أُنْزِل عَلى كُلّ نَبِيّ أُرْسِل نَاطِق بِأَنَّهُ لا إِله إِلّا الله، وَلكِنْ أَنْتُمْ أَيُّهَا المُشْرِكُونَ لا تَعْلمُونَ الحَقّ، فَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ عَنْهُ، وَلهَذَا قَال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾، كَمَا قَال [تعالى]: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾. وَقَال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾. فَكُلّ نَبِيّ بَعَثَهُ الله يَدْعُو إِلى عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لهُ وَالفِطْرَة شَاهِدَة بِذَلكَ أَيْضًا، وَالمُشْرِكُونَ لا بُرْهَان لهُمْ، وَحُجَّتهمْ دَاحِضَة عِنْد رَبِّهِمْ، وَعَليْهِمْ غَضَب، وَلهُمْ عَذَاب شَدِيد.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

يَقُول تَعَالى رَادًّا عَلى مَنْ زَعَمَ أَنَّ لهُ -تَعَالى وَتَقَدَّس- وَلدًا مِنْ المَلائِكَة، كَمَنْ قَال ذَلكَ مِنْ العَرَب: إِنَّ المَلائِكَة بَنَات الله، فَقَال: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾، أَيْ: المَلائِكَة عِبَاد الله مُكْرَمُونَ عِنْده، فِي مَنَازِل عَاليَة وَمَقَامَات سَامِيَة، وَهُمْ لهُ فِي غَايَة الطَّاعَة قَوْلًا وَفِعْلًا، ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ: لا يَتَقَدَّمُونَ بَيْن يَدَيْهِ بِأَمْر، وَلا يُخَالفُونَهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، بَل يُبَادِرُونَ إِلى فِعْله، وَهُوَ تَعَالى عِلمه مُحِيط بِهِمْ، فَلا يَخْفَى عَليْهِمْ مِنْهُ خَافِيَة، ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وَقَوْله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فِي آيَات كَثِيرَة فِي مَعْنَى ذَلِكَ. ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ أَيْ: مِنْ خَوْفه وَرَهْبَته ﴿مُشْفِقُونَ ۝٢٨ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ أَيْ: مَنْ ادَّعَى مِنْهُمْ أَنَّهُ إِله مِنْ دُون الله -أَيْ: مَعَ الله- ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَيْ: كُلّ مَنْ قَال ذَلِكَ، وَهَذَا شَرْط، وَالشَّرْط لا يَلزَم وُقُوعه، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾. وَقَوْله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُنَبِّهًا عَلى قُدْرَته التَّامَّة، وَسُلطَانه العَظِيم فِي خَلقه الأَشْيَاء وَقَهْره لجَمِيع المَخْلُوقَات فَقَال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أَيْ: الجَاحِدُون لإِلهِيَّتِهِ العَابِدُونَ مَعَهُ غَيْره، أَلَمْ يَعْلمُوا أَنَّ الله هُوَ المُسْتَقِلّ بالخَلق، المُسْتَبِدّ بِالتَّدْبِيرِ، فَكَيْف يَليق أَنْ يُعْبَد [مَعَهُ][1] غَيْره أَوْ يُشْرَك بِهِ مَا سِوَاهُ، أَلَمْ يَرَوْا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أَيْ: كَانَ الجَمِيع مُتَّصِلًا بَعْضه بِبَعْضٍ مُتَلاصِق، مُتَرَاكِم، بَعْضه فَوْق بَعْض فِي ابْتِدَاء الأَمْر فَفَتَقَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ فَجَعَل السَّمَوَات سَبْعًا وَالأَرْض سَبْعًا وَفَصَل بَيْن سَمَاء الدُّنْيَا وَالأَرْض بِالهَوَاءِ، فَأَمْطَرَتْ السَّمَاء وَأَنْبَتَتْ الأَرْض، وَلهَذَا قَال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، أَيْ: وَهُمْ يُشَاهِدُونَ المَخْلُوقَات تَحْدُث شَيْئًا فَشَيْئًا عِيَانًا، وَذَلِكَ كُلّه دَلِيل عَلى وُجُود الصَّانِع الفَاعِل المُخْتَار، القَادِر عَلى مَا يَشَاء.

فَفِي كُلّ شَيْء لَهُ آيَة ۞ تَدُلّ عَلى أَنَّهُ وَاحِد

قَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عِكْرِمَة قَال: سُئِل ابْن عَبَّاس: اللَّيْل كَانَ قَبْلُ أَوْ النَّهار؟ فَقَال: أَرَأَيْتُمْ السَّمَوَات وَالأَرْض حِين كَانَتَا رَتْقًا، هَل كَانَ بَيْنهمَا إِلَّا ظُلمَة؟ ذَلكَ لتَعْلمُوا أَنَّ اللَّيْل قَبْل النَّهار. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن أَبِي حَمْزَة، حَدَّثَنَا حَاتِم عَنْ حَمْزَة بْن أَبِي مُحَمَّد عَنْ عَبْد الله بْن دِينَار عَنْ ابْن عُمَر أَنَّ رَجُلًا أَتَاهُ يَسْأَلهُ عَنْ السَّمَوَات وَالأَرْض ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾؟ قَال: اذْهَبْ إِلى ذَلكَ الشَّيْخ فَاسْأَلهُ، ثُمَّ تَعَال فَأَخْبِرْنِي بِمَا قَال لك. قَال: فذهَبْتُ إِلى ابْن عَبَّاس فسأَلْته، فَقَال ابْن عَبَّاس: نَعَمْ كَانَتْ السَّمَوَات رَتْقًا لا تُمْطِر، وَكَانَتْ الأَرْض رَتْقًا لا تُنْبِت، فَلمَّا خَلقَ للأَرْضِ أَهْلًا فَتَقَ هَذِهِ بِالمَطَرِ وَفَتَقَ هَذِهِ بِالنَّبَاتِ فَرَجَعَ الرَّجُل إِلى ابْن عُمَر فَأَخْبَرَهُ فَقَال ابْن عُمَر: قَدْ كُنْت أَقُول: مَا يُعْجِبنِي جَرَاءَة ابْن عَبَّاس عَلى تَفْسِير القُرْآن، فَالآن قد عَلمْت أَنَّهُ قَدْ أُوتِيَ فِي القُرْآن عِلمًا. وَقَال عَطِيَّة العَوْفِيّ: كَانَتْ هَذِهِ رَتْقًا لا تُمْطِر فَأَمْطَرَتْ، وَكَانَتْ هَذِهِ رَتْقًا لا تُنْبِت فَأَنْبَتَتْ.

وَقَال إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالد: سَأَلت أَبَا صَالح الحَنَفِيّ عَنْ قَوْله: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ قَال: كَانَتْ السَّمَاء وَاحِدَة فَفتقَ مِنْهَا سَبْع سَمَوَات، وَكَانَتْ الأَرْض وَاحِدَة فَفتقَ مِنْهَا سَبْع أَرْضِين.

وَهكَذَا قَال مُجَاهِد، وَزَادَ: وَلمْ تَكُنْ السَّمَاء وَالأَرْض مُتَمَاسَّتَيْنِ. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: بَل كَانَتْ السَّمَاء وَالأَرْض مُلتَزِقَتَيْنِ، فَلمَّا رَفَعَ السَّمَاء وَأَبْرَزَ مِنْهَا الأَرْض كَانَ ذَلكَ فَتْقهمَا الَّذِي ذَكَرَ الله فِي كِتَابه. وَقَال الحَسَن وَقَتَادَة: كَانَتَا جَمِيعًا فَفَصَل بَيْنهمَا بِهَذَا الهَوَاء.

---

(١) سقط من (ط).

وَقَوْله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، أَيْ: أَصْل كُلّ الأَحْيَاء منه. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الجُمَاهِر، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن بَشِير حَدَّثَنَا قَتَادَة عَنْ أَبِي مَيْمُونَة عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّهُ قَال: يَا نَبِيّ الله إِذَا رَأَيْتُك قَرَّتْ عَيْنِي وَطَابَتْ نَفْسِي فَأَخْبِرْنِي عَنْ كُلّ شَيْء، قَال: «كُلّ شَيْء خُلقَ مِنْ مَاء»[1]. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد حَدَّثَنَا هَمَّام عَنْ قَتَادَة عَنْ أَبِي مَيْمُونَة عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال: قُلت: يَا رَسُول الله، إِنِّي إِذَا رَأَيْتُك طَابَتْ نَفْسِي وَقَرَّتْ عَيْنِي فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلّ شَيْء؟ قَال: «كُلّ شَيْء خُلقَ مِنْ مَاء». قَال: (قُلت: أَنْبِئْنِي عَنْ أَمْر إِذَا عَمِلت بِهِ دَخَلت الجَنَّة. قَال: «أَفْشِ السَّلام، وَأَطْعِمْ الطَّعَام، وَصِل الأَرْحَام، وَقُمْ بِاللَّيْل وَالنَّاس نِيَام، ثُمَّ ادْخُل الجَنَّة بِسَلام»)[2]. وَرَوَاهُ أَيْضًا عن عَبْد الصَّمَد وَعَفَّان وَبَهْز عَنْ هَمَّام، تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد. وَهَذَا إِسْنَاد عَلَى شَرْط الشَّيخين إِلَّا أَنَّ أَبَا مَيْمُونَة مِنْ رِجَال السُّنَن، وَاسْمه سُلَيْم، وَالتِّرْمِذِيّ يصحح لهُ، وَقَدْ رَوَاهُ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة عَنْ قَتَادَة مُرْسَلًا، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾، أَيْ: جِبَالًا أَرْسَى الأَرْض بِهَا وَقَرَّرَهَا وَثَقَّلهَا؛ لِئَلَّا تَمِيد بِالنَّاسِ أَيْ: تَضْطَرِب وَتَتَحَرَّك، فَلا يَحْصُل لَهُمْ قَرَار عَلَيْهَا؛ لأَنَّهَا غَامِرَة فِي المَاء إِلَّا مِقْدَار الرُّبْع، فَإِنَّهُ بَادٍ لِلهَوَاءِ وَالشَّمْس لِيُشَاهِد أَهْلهَا السَّمَاء وَمَا فِيهَا مِنْ الآيَات البَاهِرَات وَالحِكَم وَالدَّلالات. وَلِهَذَا قَال: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾، أَيْ: لِئَلَّا تَمِيد بِهِمْ.

وَقَوْله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾، أَيْ: ثَغْرًا فِي الجِبَال، يَسْلُكُونَ فِيهَا طُرُقًا مِنْ قُطْر إِلَى قُطْر، وَإِقْلِيم إِلَى إِقْلِيم كَمَا هُوَ المُشَاهَد فِي الأَرْض، يَكُون الجَبَل حَائِلًا بَيْن هَذِهِ البِلاد وَهَذِهِ البِلاد، فَيَجْعَل الله فِيهِ فَجْوَة -ثَغْرَة- لِيَسْلُك النَّاس فِيهَا مِنْ هَهُنَا إِلَى هَهُنَا، وَلِهَذَا قَال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾، أَيْ: عَلَى الأَرْض، وَهِيَ كَالقُبَّة عَلَيْهَا، كَمَا قَال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، وَقَال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ وَالبِنَاء هُوَ نَصْب القُبَّة كَمَا قَال رَسُول الله ﷺ: **«بُنِيَ الإِسْلام عَلَى خَمْس»**[3]. أَيْ: خَمْس دَعَائِم، وَهَذَا لا يَكُون إِلَّا فِي الخِيَام كَمَا تَعْهَدهُ العَرَب ﴿مَحْفُوظًا﴾، أَيْ: عَالِيًا مَحْرُوسًا أَنْ يُنَال. وَقَال مُجَاهِد: مَرْفُوعًا. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْد الرَّحْمَن الدَّشْتَكِيّ، حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَشْعَث -يَعْنِي ابْن إِسْحَاق القُمِّيّ- عَنْ جَعْفَر بْن أَبِي المُغِيرَة عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس قَال رَجُل: يَا رَسُول الله، مَا هَذِهِ السَّمَاء قَال: «هذا مَوْج مَكْفُوف عَنْكُمْ»[4]. إِسْنَاده غَرِيب.

وَقَوْله: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، أَيْ: لا يَتَفَكَّرُونَ فِيمَا خَلقَ الله فِيهَا مِنْ الاتِّسَاع العَظِيم وَالارْتِفَاع البَاهِر، وَمَا زُيِّنَتْ بِهِ مِنْ الكَوَاكِب الثَّوَابِت وَالسَّيَّارَات فِي لَيْلهَا، وَفِي النَّهَارِ مِنْ هَذِهِ الشَّمْس الَّتِي تَقْطَع الفُلك بِكَمَالِهِ فِي يَوْم وَلَيْلَة، فَتَسِير غَايَة لا يَعْلم قَدْرهَا إِلَّا الله الَّذِي قَدَّرَهَا وَسَخَّرَهَا وَسَيَّرَهَا. وَقَدْ ذَكَرَ ابْن أَبِي الدُّنْيَا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابه «التَّفَكُّر وَالاعْتِبَار»: أَنَّ بَعْض عُبَّاد بَنِي إِسْرَائِيل تَعَبَّدَ ثَلاثِينَ سَنَة، وَكَانَ الرَّجُل مِنْهُمْ إِذَا تَعَبَّدَ ثَلاثِينَ سَنَة أَظَلَّتْهُ غَمَامَة فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ الرَّجُل شَيْئًا مِمَّا كَانَ يَحْصل لِغَيْرِهِ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى أُمّه، فَقَالتْ لهُ: يَا بُنَيّ، فَلعَلَّك أَذْنَبت فِي

---

(١) **ضعيف** : أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٥) وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٤٢٣٢).

(٢) **ضعيف** : أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٣٥٤) (وما بين قوسين صحيح يشهد له حديث عبد الله بن سلام في الصحيح).

(٣) **صحيح** : تقـــدم.

(٤) **ضعيف** : فيه جعفر بن أبي المغيرة: وهو ضعيف في حديثه عن سعيد بن جبير.

مُدَّة عِبَادَتك هَذِهِ؟ فَقَال: لا، وَالله مَا أَعْلم. قَالتْ: فَلعَلَّك هَمَمْت؟ قَال: لا، وَلا هَمَمْت. قَالتْ: فَلعَلَّك رَفَعْت بَصَرك إِلى السَّمَاء ثُمَّ رَدَدْته بِغَيْرِ فِكْر؟ فَقَال: نَعَمْ، كَثِيرًا. قَالتْ: فَمِنْ هَهُنَا أُتِيت. ثُمَّ قَال مُنَبِّهًا عَلى بَعْض آيَاته: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أَيْ: هَذَا فِي ظَلامه وَسُكُونه، وَهَذَا بِضِيَائِهِ وَأُنْسِهِ، يَطُول هَذَا تَارَة ثُمَّ يَقْصُر أُخْرَى، وَعَكْسه الآخر. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، هَذِهِ لهَا نُور يَخُصّهَا، وَفَلك بِذَاتِهِ وَزَمَان عَلى حِدَة، وَحَرَكَة وَسَيْر خَاصّ وَهَذَا بِنُور خَاصٍّ آخر وَفَلك آخر وَسَيْر آخر وَتَقْدِير آخر، و ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أَيْ: يَدُورُونَ.

قَال ابْن عَبَّاس: يَدُورُونَ كَمَا يَدُور المِغْزَل فِي الفَلكَة. وكذا قَال مُجَاهِد: فَلا يَدُور المِغْزَل إِلَّا بِالفَلكَةِ، وَلا الفَلكَة إِلَّا بِالمِغْزَل، كَذَلكَ النُّجُوم وَالشَّمْس وَالقَمَر، لا يَدُورُونَ إِلَّا بِهِ، وَلا يَدُور إِلَّا بِهن، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّد ﴿ٱلْخُلْدَ﴾، أَيْ: فِي الدُّنْيَا، بَل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة مَنْ ذَهَبَ مِنْ العُلمَاء إِلى أَنَّ الخَضِر عَلَيْهِ السَّلَام مَاتَ وَليْس بِحَيٍّ إِلى الآن لأَنَّهُ بَشَر سَوَاء كَانَ وَليًّا أَوْ نَبِيًّا أَوْ رَسُولًا وَقَدْ قَال الله تَعَالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾.

وَقَوْله: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّد ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أَيْ: أَنْ يَعِيشُوا بَعْدك، لا يَكُون هَذَا، بَل كُلّ إِلى فناء، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ أَنْشَدَ وَاسْتَشْهَدَ بِهَذَيْنِ البَيْتَيْنِ:

تَمَنَّى رِجَال أَنْ أَمُوت وَإِنْ أَمُتْ ❁ فَتِلْكَ سَبِيل لسْت فِيهَا بِأَوْحَد
فَقُل للَّذِي يَبْغِي خِلاف الَّذِي مَضَى ❁ تَهَيَّأ لأُخْرَى مِثْلهَا فَكَأَنْ قَد

وَقَوْله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، أَيْ: نَخْتَبِركُمْ بِالمَصَائِب تَارَة، وَبِالنِّعَم أُخْرَى؛ لِنَنْظُر مَنْ يَشْكُر وَمَنْ يَكْفُر وَمَنْ يَصْبِر وَمَنْ يَقْنُط، كَمَا قَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَنَبْلُوكُم﴾، يَقُول: نَبْتَليكُمْ، ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ بِالشِّدَّةِ وَالرَّخَاء، وَالصِّحَّة وَالسَّقَم، وَالغِنَى وَالفَقْر، وَالحَلال وَالحَرَام، وَالطَّاعَة وَالمَعْصِيَة، وَالهُدَى وَالضَّلالة.

وَقَوْله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أَيْ: فَنُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالكُمْ.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

يَقُول تَعَالى لنَبِيِّهِ صَلوَات الله وَسَلامه عَليْهِ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾، يَعْنِي: كُفَّار قُرَيْش، كَأَبِي جَهْل وَأَشْبَاهه، ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أَيْ: يَسْتَهْزِئُونَ بك وَيَنْتَقِصُونك، يَقُولُونَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾، يَعْنُونَ: أَهَذَا الَّذِي يَسُبّ آلهَتكُمْ وَيُسَفِّه أَحْلامكُمْ، قَال الله تَعَالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، أَيْ: وَهُمْ كَافِرُونَ بِالله وَمَعَ هَذَا يَسْتَهْزِئُونَ بِرَسُول الله ﷺ كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

وَقَوْله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أَيْ: فِي الأُمُور.

قَال مُجَاهِد: خَلقَ الله آدَم بَعْد كُلّ شَيْء مِنْ آخِر النَّهَار مِنْ يَوْم خَلقَ الخَلائِق، فَلمَّا أَحْيَا الرُّوح عَيْنَيْهِ وَلسَانه

وَرَأسه وَلَمْ يَبْلُغ أَسْفَله؛ قَال: يَا رَبّ اسْتَعْجِل بِخَلقِي قَبْل غُرُوب الشَّمْس. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، أَنْبَأَنَا مُحَمَّد بْن عَمْرو بن عَلقَمَة بْن وَقَّاص اللَّيْثِيّ، عَنْ أَبِي سَلمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**خَيْر يَوْم طَلعَتْ فِيهِ الشَّمْس يَوْم الجُمُعَة، فِيهِ خُلقَ آدَم، وَفِيهِ أُدْخِل الجَنَّة، وَفِيهِ أُهْبِطَ مِنْهَا، وَفِيهِ تَقُوم السَّاعَة، وَفِيهِ سَاعَة لا يُوَافِقهَا عَبْد مُؤْمِن يُصَلِّي** -وَقَبَض أَصَابِعه يُقَلِّلهَا- **فَسَأَل الله خَيْرًا إلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**».(1)

قَال أَبُو سَلمَة: فَقَال عَبْد الله بْن سَلام: قَدْ عَرَفْت تِلكَ السَّاعَة، هِيَ آخِر سَاعَات النَّهَار مِنْ يَوْم الجُمُعَة، وَهِيَ الَّتِي خَلقَ الله فِيهَا آدَم، قَال الله تَعَالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾. وَالحِكْمَة فِي ذِكْر عَجَلة الإِنْسَان هَهُنَا: أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ المُسْتَهْزِئِينَ بِالرَّسُول صَلوَات الله وَسَلامه عَليْهِ وَقَعَ فِي النُّفُوس سُرْعَة الانْتِقَام مِنْهُمْ وَاسْتُعْجِلتْ ذَلكَ فَقَال الله تَعَالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾، لأَنَّهُ تَعَالى يُمْلي للظَّالِم حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لمْ يُفْلتهُ، يُؤَجِّل ثُمَّ يُعَجِّل وَيَنْظُر ثُمَّ لا يُؤَخِّر وَلهَذَا قَال: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾، أَيْ: نِقَمِي وَحُكْمِي وَاقْتِدَارِي عَلى مَنْ عَصَانِي، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ المُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ أَيْضًا بِوُقُوع العَذَاب بِهِمْ تَكْذِيبًا وَجُحُودًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا وَاسْتِبْعَادًا، فَقَال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، قَال الله تَعَالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾، أَيْ: لوْ تَيَقَّنُوا [أَنَّهَا وَاقِعَة](2) بِهِمْ لا مَحَالة لَمَا اسْتَعْجَلُوا بِهِ، وَلوْ يَعْلمُونَ حِين يَغْشَاهُمْ العَذَاب مِنْ فَوْقهمْ وَمِنْ تَحْت أَرْجُلهمْ؛ ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، وَقَال فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾. وَقَال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فَالعَذَاب مُحِيط بِهِمْ مِنْ جَمِيع جِهَاتهمْ، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أَيْ: لا نَاصِر لهُمْ، كَمَا قَال: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

وَقَوْله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ أَيْ: تَأْتِيهِمْ النَّار بَغْتَة، أَيْ: فَجْأَة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أَيْ: تَذْعَرهُمْ فَيَسْتَسْلمُونَ لهَا حَائِرِينَ، لا يَدْرُونَ مَا يَصْنَعُونَ، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾، أَيْ: ليْسَ لهُمْ حِيلة فِي ذَلكَ، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أَيْ: وَلا يُؤَخِّر عَنْهُمْ ذَلكَ سَاعَة وَاحِدَة.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُسَلِّيًا لرَسُولهِ عَمَّا آذَاهُ بِهِ المُشْرِكُونَ مِنْ الاسْتِهْزَاء وَالتَّكْذِيب ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يَعْنِي: مِنْ العَذَاب الَّذِي كَانُوا يَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعه، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى

---

(1) صحيح: أخرجه مسلم (٨٥٤).

(2) في نسخة: [أنه واقع].

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالى نِعْمَته عَلى عَبِيده فِي حِفْظه لهُمْ بِاللَّيْل وَالنَّهار وَكِلاءَته وَحِرَاسَته لهُمْ بِعَيْنِهِ الَّتِي لا تَنَام فَقَال: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أَيْ: بَدَل الرَّحْمَن، يَعْنِي غَيْره، كَمَا قَال الشَّاعِر:

جَارِيَةٌ لمْ تَلْبَسِ المُرَقَّقَا ❁ وَلمْ تَذُقْ مِنَ البُقُول الفُسْتُقَا

أَيْ: لمْ تَذُقْ بَدَل البُقُول الفُسْتُق.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾، أَيْ: لا يَعْتَرِفُونَ بِنِعْمَةِ الله عَليْهِمْ وَإِحْسَانه إِليْهِمْ، بَل يُعْرِضُونَ عَنْ آيَاته وَآلائِهِ، ثُمَّ قَال: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ اسْتِفْهَام إِنْكَار وَ[تَقْرِير][1] وَتَوْبِيخ، أَيْ: أَلهُمْ آلهَة تَمْنَعهُمْ وَتَكْلؤُهُمْ غَيْرنَا ؟ لَيْسَ الأَمْر كَمَا تَوَهَّمُوا، وَلا كَمَا قد زَعَمُوا، وَلهَذَا قَال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أَيْ: هَذِهِ الآلهَة الَّتِي اسْتَنَدُوا إِليْهَا غَيْر الله لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْر أَنْفُسهمْ.

وَقَوْله: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قَال العَوْفِيّ: عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أَيْ: يُجَارُونَ. وَقَال قَتَادَة: لا يُصْحَبُونَ مِنْ الله بِخَيْرٍ. وَقَال غَيْره: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾: يُمْنَعُونَ.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ المُشْرِكِينَ: إِنَّمَا غَرَّهُمْ وَحَمَلهُمْ عَلى مَا هُمْ فِيهِ مِنْ الضَّلال أَنَّهُمْ مُتِّعُوا فِي الحَيَاة الدُّنْيَا وَنُعِّمُوا وَطَال عَليْهِمْ العُمُر فِيمَا هُمْ فِيهِ فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ عَلى شَيْء. ثُمَّ قَال وَاعِظًا لهُمْ: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾، اخْتَلفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهُ، وَقَدْ أَسْلفْنَاهُ فِي سُورَة الرَّعْد، وَأَحْسَن مَا فُسِّرَ بِقَوْلهِ تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: يَعْنِي بِذَلكَ ظُهُور الإِسْلام عَلى الكُفْر وَالمَعْنَى: أَفَلا يَعْتَبِرُونَ بِنَصْرِ الله لأَوْليَائِهِ عَلى أَعْدَائِهِ، وَإِهْلاكه الأُمَم المُكَذِّبَة وَالقُرَى الظَّالمَة، وَإِنْجَائِهِ لعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، وَلهَذَا قَال: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، يَعْنِي: بَل هُمْ المَغْلُوبُونَ الأَسْفَلُونَ الأَخْسَرُونَ الأَرْذَلُونَ.

وَقَوْله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ﴾، أَيْ: إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغ عَنْ الله مَا أُنْذِرُكُمْ بِهِ مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال، ليْسَ ذَلكَ إِلَّا عَمَّا أَوْحَاهُ الله إِليَّ، وَلكِنْ لا يُجْدِي هَذَا عَمَّنْ أَعْمَى الله بَصِيرَته وَخَتَمَ عَلى سَمْعه وَقَلبه، وَلهَذَا قَال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أَيْ: وَلئِنْ مَسَّ هَؤُلاءِ المُكَذِّبِينَ أَدْنَى شَيْء مِنْ عَذَاب الله؛ ليَعْتَرِفُنَّ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالمِين لأَنْفُسهمْ فِي الدُّنْيَا. وَقَوْله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ﴾ أَيْ: وَنَضَع المَوَازِين العَدْل ليَوْمِ القِيَامَة، الأَكْثَر عَلى أَنَّهُ إِنَّمَا هُوَ مِيزَان وَاحِد، وَإِنَّمَا جُمِعَ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّد الأَعْمَال المَوْزُونَة فِيهِ.

وَقَوْله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. وَقَال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وَقَال لُقْمَان: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) في نسخة: [تقريع].

يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلى اللِّسَان، ثَقِيلتَانِ فِي المِيزَان، حَبِيبَتَانِ إلى الرَّحْمَن: سُبْحَان الله وبِحَمْدِهِ، سُبْحَان الله العَظِيم».[١]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن إِسْحَاق الطَّالقَانِيّ، حَدَّثَنَا ابْن المُبَارَك عَنْ لَيْث بْن سَعْد حدثني عَامِر ابْن يَحْيَى عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيّ قَال: سَمِعْت عَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاص يَقُول قَال رَسُول الله ﷺ : «إِنَّ الله ﷻ يَسْتَخْلص رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلى رُءُوس الخَلائِق يَوْم القِيَامَة، فَيَنْشُر عَلَيْهِ تِسْعَة وَتِسْعِينَ سِجِلاً، كُلّ سِجِلّ مَدّ البَصَر، ثُمَّ يَقُول: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَتْك كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ قَال: لا يَا رَبّ. قَال: أَفَلَك عُذْر أَوْ حَسَنَة؟ قَال: فَيُبْهت الرَّجُل. فَيَقُول: لا يَا رَبّ. فَيَقُول: بَلى إِنَّ لك عِنْدنَا حَسَنَة وَاحِدَة لا ظُلم اليوم عَلَيْك. فَيَخْرُج لهُ بِطَاقَة فِيهَا أَشْهَد أَنْ لا إله إلاّ الله، وَأَشْهَد أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْده وَرَسُوله. فَيَقُول: أَحْضِرُوهُ. فَيَقُول: يَا رَبّ مَا هَذِهِ البِطَاقَة مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّات؟ فَيَقُول: إِنَّك لا تُظْلم قَال فَتُوضَع السِّجِلات فِي كِفَّة قَال: فَطَاشَتْ السِّجِلات وثَقُلتْ البِطَاقَة، قَال: وَلا يَثْقُل شَيْء بِسْم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم». وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث اللَّيْث بْن سَعْد به، وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن غَرِيب.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا قُتَيْبَة، حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة عَنْ عَمْرو بْن يَحْيَى عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيّ، عَنْ عَبْد الله ابْن عَمْرو بْن العَاص قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «تُوضَع المَوَازِين يَوْم القِيَامَة فَيُؤْتَى بِالرَّجُل، فَيُوضَع فِي كِفَّة، وَيُوضَع مَا أُحْصِيَ عليْهِ فَتَمَايلُ بِهِ المِيزَان، قَال: فَيُبْعَث بِهِ إِلى النَّار، قَال: فَإِذَا أُدْبِرَ بِهِ إِذَا صَائِح مِنْ عِنْد الرَّحْمَن ﷻ يَقُول: لا تَعْجَلُوا، فَإِنَّهُ قَدْ بَقِيَ لهُ. فَيُؤْتَى بِبِطَاقَةٍ فِيهَا: لا إِله إِلَّا الله، فَتُوضَع مَعَ الرَّجُل فِي كِفَّة حَتَّى يَمِيل بِهِ المِيزَان».[٢]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو نُوح قُرَاد، أَنْبَأَنَا لَيْث بْن سَعْد، عَنْ مَالك بْن أَنَس عَنْ الزُّهْرِيّ عَنْ عُرْوَة عَنْ عَائِشَة: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ : جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَال: يَا رَسُول الله، إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ يَكْذِبُونَنِي وَيَخُونُونَنِي وَيَعْصُونَنِي وَأَضْرِبهُمْ وَأَشْتُمهُمْ، فَكَيْف أَنَا مِنْهُمْ؟ فَقَال لهُ رَسُول الله ﷺ : «يُحْسَب مَا خَانُوك وَعَصَوْك وَكَذَبُوك، وَعِقَابك إِيَّاهُمْ وإِنْ كَانَ عِقَابك إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبهمْ كَانَ كَفَافًا لا لك وَلا عَلَيْك فإِنْ كَانَ عِقَابك إِيَّاهُمْ دُون ذُنُوبهمْ كَانَ فَضْلاً لك عَلَيهم، وَإِنْ كَانَ عِقَابك إِيَّاهُمْ فَوْق ذُنُوبهمْ اقْتُصَّ لهُمْ مِنْك الفَضْل الَّذِي يَبْقَى قِبلك». فَجَعَل الرَّجُل يَبْكِي بَيْن يَدَيْ رَسُول الله ﷺ وَيَهْتِف، فَقَال رَسُول الله ﷺ : «مَا لهُ؟! أما يَقْرَأ كِتَاب الله؟ ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾». فَقَال الرَّجُل: يَا رَسُول الله مَا أَجِد شَيْئًا خَيْرًا مِنْ فِرَاق هَؤُلاءِ -يَعْنِي عَبِيده- إِنِّي أُشْهِدك أَنَّهُمْ أَحْرَار كُلّهمْ.[٣]

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾.

قَدْ تَقَدَّمَ التَّنْبِيه عَلى أَنَّ الله تَعَالى كَثِيرًا مَا يَقْرِن بَيْن ذِكْر مُوسَى وَمُحَمَّد -صَلوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِمَا- وَبَيْن كِتَابَيْهِمَا، وَلهَذَا قَال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾.

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٦٤٦)، ومسلم (٢٦٩٤).
(٢) صحيح : تقـدم.
(٣) صحيح : أخرجه أحمد (٦/ ٢٨٠)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٩٠).

قَال مُجاهِد: يَعْنِي: الكِتَاب. وَقَال أَبُو صَالح: التَّوْرَاة. وَقَال قَتَادَة: التَّوْرَاة؛ حَلالَهَا وَحَرَامهَا، وَمَا فَرَّقَ اللهُ بَيْن الحَقّ وَالبَاطِل. وَقَال ابْن زَيْد: يَعْنِي النَّصر. وَجَامِع القَوْل فِي ذَلكَ أَنَّ الكُتُب السَّماوِيَّة تَشْتمل عَلى التَّفرِقَة بَيْن الحَقّ وَالبَاطِل، وَالهُدَى وَالضَّلال، وَالغَيّ وَالرَّشَاد، وَالحَلال وَالحَرَام، وَعَلى مَا يُحصِّل نُورًا فِي القُلُوب وَهِدَايَة وَخَوْفًا وَإِنَابَة وَخَشْيَة، وَلهَذَا قَال: ﴿ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ: تَذْكِيرًا لَهُمْ وَعِظَة. ثُمَّ وَصَفَهُمْ فَقَال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾، وَقَوْله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أَيْ: خَائِفُونَ وَجِلُونَ.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾، يَعْنِي: القُرْآن العَظِيم، الَّذِي لا يَأْتِيه البَاطِل مِنْ بَيْن يَدَيْهِ، وَلا مِنْ خَلفه، تَنْزِيل مِنْ حَكِيم حَمِيد، ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أَيْ: أَفَتُنْكِرُونَهُ وَهُوَ فِي غَايَة الجَلاء وَالظُّهُور؟

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ (٥٢) قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ خَليله إِبْرَاهِيم عليه السلام أَنَّهُ آتَاهُ رُشْده مِنْ قَبْل، أَيْ: مِنْ صِغَره أَلهَمَهُ الحَقّ وَالحُجَّة عَلى قَوْمه، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، وَمَا يُذْكَر مِنْ الأَخْبَار عَنْهُ فِي إِدْخَال أَبِيهِ لَهُ فِي السَّرَب وَهُوَ رَضِيع، وَأَنَّهُ خَرَجَ به بَعْد أَيَّام، فَنَظَرَ إِلى الكَوْكَب وَالمَخْلُوقَات، فَتَبَصَّرَ فِيهَا، وَمَا قَصَّهُ كَثِير مِنَ المُفَسِّرِينَ وَغَيْرهِمْ؛ فَعَامَّتهَا أَحَادِيث بَنِي إِسْرَائِيل، فَمَا وَافَقَ مِنْهَا الحَقّ مِمَّا بِأَيْدِينَا عَنْ المَعْصُوم قَبلْنَاهُ؛ لِمُوَافَقَتِهِ الصَّحِيح، وَمَا خَالفَ شَيْئًا مِنْ ذَلكَ رَدَدْنَاهُ، وَمَا لَيسَ فِيهِ مُوَافَقَة وَلا مُخَالفَة لا نُصَدِّقهُ وَلا نُكَذِّبهُ، بَل نَجْعَلهُ وقفًا، وَمَا كَانَ مِنْ هَذَا الضَّرْب مِنْهَا فَقَدْ تَرَخَّصَ كَثِير مِنْ السَّلف فِي رِوَايَتها وَكَثِير مِنْ ذَلكَ مما لا فَائِدَة فِيهِ وَلا حَاصِل لهُ مِمَّا يُنْتَفع بِهِ فِي الدِّين، وَلوْ كَانَتْ فائدة تَعُود عَلى المُكَلَّفِينَ فِي دِينهمْ لبَيَّنَتْهُ هَذِهِ الشَّرِيعَة الكَامِلة الشَّامِلة وَالَّذِي نَسْلُكهُ فِي هَذَا التَّفْسِير الإِعْرَاض عَنْ كَثِير مِنْ الأَحَادِيث الإِسْرَائِيلِيَّة لِمَا فِيهَا مِنْ تَضْيِيع الزَّمَان وَلِمَا اشْتَمَل عَليْهِ كَثِير مِنْهَا مِنْ الكَذِب المُرَوَّج عَليْهِمْ فَإِنَّهُمْ لا تَفْرِقَة عِنْدهمْ بَيْن صَحِيحهَا وَسَقِيمهَا، كَمَا حَرَّرَهُ الأَئِمَّة الحُفَّاظ المُتْقِنُونَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّة.

وَالمَقْصُود هَهُنَا أَنَّ اللهَ تَعَالى أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ آتَى إِبْرَاهِيم رُشْده مِنْ قَبْل، أَيْ: مِنْ قَبْل ذَلكَ.

وَقَوْله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أَيْ: وَكَانَ أَهْلًا لذَلكَ. ثُمَّ قَال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ هَذَا هُوَ الرُّشْد الَّذِي أُوتِيَهُ مِنْ صِغَره: الإِنْكَار عَلى قَوْمه فِي عِبَادَة الأَصْنَام مِنْ دُون الله عز وجل، فَقَال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أَيْ: مُعْتَكِفُونَ عَلى عِبَادَتهَا.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الحَسَن بْن مُحَمَّد الصَّبَّاح، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة الضَّرِير، حَدَّثَنَا سعد بْن طَرِيف عَنْ الأَصْبَغ بْن نُبَاته قَال: مَرَّ عَلِيٌّ رضي الله عنه عَلى قَوْم يَلعَبُونَ بِالشِّطْرَنْجِ، فَقَال: مَا هَذِهِ التَّمَاثِيل الَّتِي أَنْتُمْ لهَا عَاكِفُونَ؟ لأَنْ يَمَسّ [أَحَدكُمْ][1] جَمْرًا حَتَّى يُطْفَأ خَيْر لهُ مِنْ أَنْ يَمَسّهَا.[2]

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حُجَّة سِوَى صَنِيع آبَائِهِمْ الضَّلال، وَلهَذَا قَال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ

---

(١) فِي نسخة: [صاحبكم].

(٢) ضعيف جدًا: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥/ ٢٤١)، وفيه سعيد بن طريف وشيخه الأصبغ بن نباتة: وكلاهما متروك.

وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: الكَلام مَعَ آبَائِكُمْ الَّذِينَ احْتَجَجْتُمْ بِصَنِيعِهِمْ كَالكَلام مَعَكُمْ، فَأَنْتُمْ وَهُمْ فِي ضَلال، عَلى غَيْرِ الطَّرِيق المُسْتَقِيم. فَلَمَّا سَفَّهَ أَحْلامهمْ، وَضَلَّل آبَاءَهُمْ، وَاحْتَقَرَ آلهتهمْ؛ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ يَقُولُونَ: هَذَا الكَلام الصَّادِر عَنْك تَقُولهُ لاعِبًا أَوْ مُحِقًّا فِيهِ، فَإِنَّا لَمْ نَسْمَع بِهِ قَبْلك؟ ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أَيْ: رَبّكُمْ الَّذِي لا إِله غَيْره هُوَ الَّذِي خَلقَ السَّمَوَات وَالأَرْض وَمَا حَوَتْ مِنْ المَخْلُوقَات، الَّذِي ابْتَدَأَ خَلقهنَّ، وَهُوَ الخَالق لِجَمِيعِ الأَشْيَاء، ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أَيْ: وَأَنَا أَشْهَد أَنَّهُ لا إِله غَيْره وَلا رَبّ سِوَاهُ.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾.

ثُمَّ أَقْسَمَ الخَلِيل قَسَمًا أَسْمَعَهُ بَعْض قَوْمه لِيَكِيدَنَّ أَصْنَامهمْ، أَيْ: [لَيُحَرِّضَنَّ][1] عَلى أَذَاهُمْ وَتَكْسِيرهمْ بَعْد أَنْ يُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، أَيْ: إِلى عِيدهمْ، وَكَانَ لَهُمْ عِيد يَخْرُجُونَ إِلَيْهِ. قَال السُّدِّيّ: لَـمَّا اقْتَرَبَ وَقْت ذَلِكَ العِيد قَال أَبُوهُ: يَا بُنَيّ لَوْ خَرَجْت مَعَنَا إِلى [عِيدك][2] لأَعْجَبَك دِينَنَا فَخَرَجَ مَعَهُمْ، فَلَمَّا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيق أَلقَى نَفْسه إِلى الأَرْض، وَقَال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. فَجَعَلُوا يَمُرُّونَ عَليْهِ وَهُوَ صَرِيع فَيَقُولُونَ: مَهْ! فَيَقُول. إِنِّي سَقِيم، فَلَمَّا جَازَ عَامَّتهمْ وَبَقِيَ ضُعَفَاؤُهُمْ قَال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ فَسَمِعَهُ أُولئِكَ. وَقَال ابْن إِسْحَاق: عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ عَبْد الله قَال: لَـمَّا خَرَجَ قَوْم إِبْرَاهِيم إِلى عِيدهمْ، مَرُّوا عَليْهِ فَقَالُوا: يَا إِبْرَاهِيم، أَلا تَخْرُج مَعَنَا؟ قَال: إِنِّي سَقِيم. وَقَدْ كَانَ بِالأَمْسِ قَال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ فَسَمِعَهُ نَاس مِنْهُمْ.

وَقَوْله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ أَيْ: حُطَامًا، كَسَّرَهَا كُلّهَا، ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾، يَعْنِي: إِلَّا الصَّنَم الكَبِير عِنْدهمْ، كَمَا قَال: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾، وَقَوْله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: ذَكَرُوا أَنَّهُ وَضَعَ القَدُوم فِي يَد كَبِيرهمْ لعَلَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي غَارَ لنَفْسِهِ، وَأَنِفَ أَنْ تُعْبَد مَعَهُ هَذِهِ الأَصْنَام الصِّغَار فَكَسَّرَهَا.

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَيْ: حِين رَجَعُوا وَشَاهَدُوا مَا فَعَلهُ الخَلِيل بِأَصْنَامِهِمْ مِنْ الإِهَانَة وَالإِذْلال الدَّالّ عَلى عَدَم إِلهِيَّتهَا، وَعَلى سَخَافَة عُقُول عَابِدِيهَا؛ ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَيْ: فِي صَنِيعه هَذَا. ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أَيْ: قَال مَنْ سَمِعَهُ يَحْلف إِنَّهُ لَيَكِيدَنَّهُمْ ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾، أَيْ: شَابًّا ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَوْف، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن مَنْصُور، حَدَّثَنَا جَرِير بْن عَبْد الحَمِيد، عَنْ قَابُوس، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: مَا بَعَثَ الله نَبِيًّا إِلَّا شَابًّا، وَلا أُوتِيَ العِلم عَالم إِلَّا وَهُوَ شَابّ، وَتَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

وَقَوْله: ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: عَلى رُءُوس الأَشْهَاد فِي المَلإِ الأَكْبَر بِحَضْرَةِ النَّاس كُلّهمْ، وَكَانَ هَذَا هُوَ المَقْصُود الأَكْبَر لإِبْرَاهِيم عليه السلام أَنْ يَتَبَيَّن فِي هَذَا المَحْفِل العَظِيم كَثْرَة جَهْلهمْ، وَقِلَّة عَقْلهمْ فِي عِبَادَة هَذِهِ الأَصْنَام، الَّتِي لا تَدْفَع عَنْ نَفْسهَا ضَرًّا وَلا تَسْتَطِيع لهَا نَصْرًا، فَكَيْف يُطْلب مِنْهَا شَيْء مِنْ ذَلكَ؟

---

(١) فِي نسخة: [ليحرصن].
(٢) فِي نسخة: [عيدنا].

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ يَعْنِي: الَّذِي تَرَكَهُ لَمْ يُكَسِّرْهُ. ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُبَادِرُوا مِنْ تِلْقَاء أَنْفُسهمْ فَيَعْتَرِفُوا أَنَّهُمْ لا يَنْطِقُونَ، فإنَّ هَذَا لا يَصْدُر عَنْ هَذَا الصَّنَم لأَنَّهُ جَماد.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث هِشَام بْن حَسَّان عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «إنَّ إبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لمْ يَكْذِب غيْر ثَلاث؛ اثِنْتَيْنِ فِي ذَات الله؛ قَوْله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾. وَقَوْله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، قَال: وَبَيْنَا هُوَ يَسِير فِي أَرْض جَبَّار مِنَ الجبَابِرَة وَمَعَهُ سَارَة إذْ نَزَل مَنْزِلاً، فَأَتَى الجبَّار رَجُل فقَال: إنَّهُ نَزَل بأَرْضِك رَجُل مَعَهُ امْرَأَة أَحْسَن النَّاس، فَأَرْسَل إليْهِ فَجاءَ، فقَال: مَا هَذِهِ المرْأَة مِنْك؟ قَال: هي أُخْتِي. قَال: فاذْهَبْ فَأَرْسِل بِهَا إِلَيَّ فَانْطَلقَ إلى سَارَة فقَال: إنَّ هَذَا الجبَّار سَأَلنِي عَنْك فَأَخْبَرْته أنَّك أُخْتِي فَلا تُكَذِبِينِي عِنْده فإنَّك أُخْتِي فِي كِتَاب الله وَإِنَّهُ ليْسَ فِي الأَرْض مُسْلم غيْرِي وغيْرك. فَانْطَلَقَ بِهَا إبْرَاهِيم ثُمَّ قَامَ يُصلِّي فلمَّا أنْ دَخلتْ عليْهِ فرَآهَا أَهْوَى إليْهَا فتَنَاولها فأُخِذَ أَخْذًا شَدِيدًا، فقَال: ادْعِي الله لي وَلا أَضُرّك. فَدعَتْ لهُ فَأُرْسِل، فَأَهْوَى إليْهَا فتَنَاولها فأُخِذَ بمِثْلها أوْ أشَدّ ففَعل ذَلك الثَّالِثَة فَأُخِذَ فذَكَرَ مِثْل المرَّتَيْنِ الأُولَيَيْنِ فقَال: ادْعِي الله فَلا أَضُرّك فدَعتْ لهُ فَأُرْسِل ثُمَّ دَعَا أَدْنَى حُجَّابه فقَال: إنَّك لمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ. وَإنَّما أَتَيْتَنِي بشَيْطَانٍ أَخرِجْهَا وَأَعْطِهَا هَاجَر فَأُخْرِجَتْ وَأُعْطِيَتْ هَاجَر فَأَقْبَلتْ فَلمَّا أَحسَّ إبْرَاهِيم بمَجِيئِهَا انْفَتَل مِنْ صَلاته قَال: مَهْيَم؟ قَالتْ: كَفَى الله كَيْد الكَافِر الفَاجِر وَأَخْدَمَنِي هَاجَر».[1] قَال مُحَمَّد ابْن سِيرِينَ: كَانَ أَبُو هُرَيْرَة إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الحَدِيث قَال: فتلك أُمّكُمْ يَا بَنِي مَاء السَّمَاء.

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَوْم إِبْرَاهِيم حِين قَال لهُمْ مَا قَال: ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾، أَيْ: بِالمَلامَةِ فِي عَدَم احْتِرَازهمْ وَحِرَاسَتهمْ لآلِهَتِهِمْ، فَقَالُوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أَيْ: فِي تَرْككُمْ لهَا مُهْمَلة لا حَافِظ عِنْدهَا. ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أَيْ: ثُمَّ أَطْرَقُوا فِي الأَرْض، فَقَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، قَال قَتَادَة: أَدْرَكَتْ القَوْمَ حِيرَةُ سُوءٍ؛ فَقَالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، وَقَال السُّدِّيّ ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أَيْ: فِي الفِتْنَة. وَقَال ابْن زَيْد: أَيْ: فِي الرَّأْي. وَقَوْل قَتَادَة أَظْهَر فِي المَعْنَى، لأَنَّهُمْ إِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ حِيرَة وَعَجْزًا وَلِهَذَا قَالُوا لهُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، فَكَيْف تَقُول لنَا: سَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ، وَأَنْتَ تَعْلم أَنَّهَا لا تَنْطِق؟ فَعِنْدهَا قَال لهُمْ إِبْرَاهِيم لَمَّا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾، أَيْ: إِذَا كَانَتْ لا تَنْطِق وَهِيَ لا تَنْفَع وَلا تَضُرّ، فَلِمَ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُون الله، ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، أَيْ: أَفَلا تَتَدَبَّرُونَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ الضَّلال وَالكُفْر الغَلِيظ، الَّذِي لا يَرُوج إِلَّا عَلَى جَاهِل ظَالِم فَاجِر؟ فَأَقَامَ عَلَيْهِمْ الحُجَّة وَأَلْزَمَهُمْ بِهَا، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ الآيَة.

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١).

لـمَّا دُحِضَتْ حُجَّتهمْ، وَبَانَ عَجْزهمْ فظَهَرَ الحَقّ وَانْدَفَعَ البَاطِل، عَدَلُوا إِلى اسْتِعْمَال جَاه مُلكهمْ، فَقَالُوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، فَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا جِدًّا، قَال السُّدِّيّ: حَتَّى إِنْ كَانَتْ المَرْأَة تَمْرَض فَتَنْذِر إِنْ عُوفِيَتْ أَنْ تَحْمِل حَطَبًا لحرِيقِ إِبْرَاهِيم، ثُمَّ جَعَلُوهُ فِي جَوْبَة مِنْ الأَرْض، وَأَضْرَمُوهَا نَارًا فَكَانَ لهَا شَرَر عَظِيم وَلهَب مُرْتَفِع لمْ تُوقَد نَار قَطُّ مِثْلهَا، وَجَعَلُوا إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كِفَّة المَنْجَنِيق بِإِشَارَةِ رَجُل مِنْ أَعْرَاب فَارِس مِنْ الأَكْرَاد، قَال شُعَيْب الجُبَّائِيّ: اسْمه هَيْزَن، فَخَسَفَ الله بِهِ الأَرْض، فَهُوَ يَتَجَلجَل فِيهَا إِلى يَوْم القِيَامَة، فَلَمَّا أَلقَوْهُ قَال: «حَسْبِيَ الله وَنِعْمَ الوَكِيل». كَمَا رَوَاهُ البُخَارِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَال: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيل، قَالهَا إِبْرَاهِيم حِين أُلقِيَ فِي النَّار، وَقَالهَا مُحَمَّد حِين قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.[1]

وقال الحَافِظ أَبُو يَعْلى: حَدَّثَنَا أبو هِشَام، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن سُليْمَان، عَنْ أَبِي جَعْفَر، عَنْ عَاصِم، عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «لـمَّا أُلقِيَ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي النَّار قَال: اللهم إِنَّك فِي السَّمَاء وَاحِد، وَأَنَا فِي الأَرْض وَاحِد أَعْبُدك». وَيُرْوَى أَنَّهُ لَمَّا جَعَلُوا يُوثِقُونَهُ قَال: لا إِله إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانك، لك الحَمْد وَلك المُلك لا شَرِيك لك.[2] وَقَال شُعَيْب الجُبَّائِيّ: كَانَ عُمْره سِتّ عَشْرَة سَنَة، فَالله أَعْلم. وَذَكَرَ بَعْض السَّلف أَنَّهُ عَرَضَ لهُ جِبْرِيل وَهُوَ فِي الهَوَاء فَقَال: أَلكَ حَاجَة؟ فَقَال: أَمَّا إِليْك فَلا، وَأَمَّا مِنْ الله فَبَلى. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر - وَيُرْوَى عَنْ ابْن عَبَّاس أَيْضًا -قَال: لـمَّا أُلقِيَ إِبْرَاهِيم جَعَل خَازِن المَطَر يَقُول: مَتَى أُؤْمَر بِالمَطَرِ فَأُرْسِلهُ، قَال: فَكَانَ أَمْر الله أَسْرَع مِنْ أَمْره، قَال الله: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قَال: لمْ يَبْقَ نَار فِي الأَرْض إِلَّا طَفِئَتْ وَقَال كَعْب الأَحْبَار: لمْ يَنْتَفِع أَحَد يَوْمئِذٍ بِنَارٍ، وَلمْ تُحْرِق النَّار مِنْ إِبْرَاهِيم سِوَى وَثَاقه.

وَقَال الثَّوْرِيّ: عَنْ الأَعْمَش، عَنْ شَيْخ، عَنْ عَليّ بْن أَبِي طَالب: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قَال: بردت عليه حتى كادت تقتله، حتى قيل: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ قال: لا تضريه. وَقَال ابْن عَبَّاس وَأَبُو العَاليَة: لوْلا أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَال: ﴿وَسَلَٰمًا﴾. لآذَى إِبْرَاهِيم بَرْدهَا. وَقَال جُوَيْبِر عَنْ الضَّحَّاك: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، قَالُ: صَنَعُوا لهُ حَظِيرَة مِنْ حَطَب جَزْل، وَأَشْعَلُوا فِيهِ النَّار مِنْ كُلّ جَانِب فَأَصْبَحَ وَلمْ يُصِبْهُ مِنْهَا شَيْء حَتَّى أَخْمَدَهَا الله. قَال: وَيَذْكُرُونَ أَنَّ جِبْرِيل كَانَ مَعَهُ يَمْسَح وَجْهه مِنْ العَرَق فَلمْ يُصِبْهُ مِنْهَا شَيْء غَيْر ذَلكَ. وَقَال السُّدِّيّ: كَانَ مَعَهُ فِيهَا مَلك الظِّلّ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَليّ بْن الحُسَيْن حَدَّثَنَا يُوسُف بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا مَهْرَان حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالد عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو قَال: أُخْبِرْت أَنَّ إِبْرَاهِيم أُلقِيَ فِي النَّار قَال: فَكَانَ فِيهَا إِمَّا خَمْسِينَ وَإِمَّا أَرْبَعِينَ، قَال: مَا كُنْت أَيَّامًا وَليَالي قَطُّ أَطْيَب عَيْشًا إِذْ كُنْت فِيهَا، ووَدِدْت أَنَّ عَيْشِي وَحَيَاتِي كُلّهَا مِثْل عَيْشِي إِذْ كُنْت فِيهَا. وَقَال أَبُو زُرْعَة ابْن عَمْرو بْن جَرِير عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: إِنَّ أَحْسَن شَيْء قَال أَبُو إِبْرَاهِيم لـمَّا رُفِعَ عَنْهُ الطَّبَق وَهُوَ فِي النَّار، وَجَدَهُ يَرْشح جَبِينه قَال عِنْد ذَلكَ: نِعْمَ الرَّبّ رَبّك يَا إِبْرَاهِيم!! وَقَال قَتَادَة: لمْ يَأْتِ يَوْمئِذٍ دَابَّة إِلَّا أَطْفَأَتْ عَنْهُ النَّار إِلَّا الوَزَغ. وَقَال الزُّهْرِيّ: أَمَرَ النَّبِيّ ﷺ بِقَتْلهِ وَسَمَّاهُ فُوَيْسِقًا.[3] وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أبو عُبَيْد الله ابْن أَخِي ابْن وَهْب حَدَّثَنِي عَمِّي حَدَّثَنَا جَرِير بْن حَازِم أَنَّ نَافِعًا حَدَّثَهُ قَال: حَدَّثَتْنِي مَوْلاة الفَاكِه بْن المُغِيرَة

---

(١) **صحيح** : أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١).
(٢) **ضعيف** : ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٤٧٦٧).
(٣) **صحيح** : أخره أبو داود (٥٢٦٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

المَخْزُومِيّ قَالتْ: دَخلت عَلى عَائِشَة فَرَأَيْت فِي بَيْتهَا رُمْحًا فَقُلت: يَا أُمّ المُؤْمِنِين مَا تَصْنَعِين بِهَذَا الرُّمْح؟ فَقَالتْ: نَقْتُل بِهِ هَذِهِ الأَوْزَاغ إِنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«إِنَّ إِبْرَاهِيم حِين أُلقِيَ فِي النَّار لمْ يَكُنْ فِي الأَرْض دَابَّة إِلَّا تُطفِئ النَّار، غَيْر الوَزَغ فَإِنَّهُ كَانَ يَنْفُخ عَلى إِبْرَاهِيم»**. فَأَمَرَنَا رَسُول الله ﷺ بِقَتْلِه[1].

وَقَوْله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾، أَيْ: المَغْلُوبِينَ الأَسْفَلِينَ؛ لأَنَّهُمْ أَرَادُوا بِنَبِيِّ الله كَيْدًا، فَكَادَهُمْ الله وَنَجَّاهُ مِنْ النَّار، فَغُلبُوا هُنَالكَ. وَقَال عَطِيَّة العَوْفِيّ: لـمَّا أُلقِيَ إِبْرَاهِيم فِي النَّار جَاءَ مَلكهمْ لِيَنْظُر إِليْهِ، فَطَارَتْ شَرَارَة فَوَقَعَتْ عَلى إِبْهَامه فَأَحْرَقَتْهُ مِثْل الصُّوفَة.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝٧٣ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ۝٧٤ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيم إِنَّهُ سَلَّمَهُ الله مِنْ نَار قَوْمه، وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَيْن أَظْهُرهمْ مُهَاجِرًا إِلى بِلاد الشَّام إِلى الأَرْض المُقَدَّسَة مِنْهَا. كما قَال الرَّبِيع بْن أَنَس عَنْ أَبِي العَالِيَة عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب فِي قَوْله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾، قَال: الشَّام، وَمَا مِنْ مَاء عَذْب إِلَّا يَخْرُج مِنْ تَحْت الصَّخْرَة. وَكَذَا قَال أَبُو العَالِيَة أَيْضًا. وَقَال قَتَادَة: كانا بِأَرْضِ العِرَاق، فَأُنْجِيَا إِلى الشَّام، وَكَانَ يُقَال للشَّام: عماد دَار الهِجْرَة، وَمَا نَقَصَ مِنْ الأَرْض زِيدَ فِي الشَّام، وَمَا نَقَصَ مِنْ الشَّام زِيدَ فِي فِلسْطِين. وَكَانَ يُقَال: هِيَ أَرْض المَحْشَر وَالمَنْشَر، وَبِهَا يَنْزِل عِيسَى ابْن مَرْيَم عليه السلام، وَبِهَا يَهْلك المَسِيح الدَّجَّال.

وَقَال كَعْب الأَحْبَار فِي قَوْله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ إِلى حَرَّان. وَقَال السُّدِّيّ: انْطَلقَ إِبْرَاهِيم وَلُوط قِبَل الشَّام، فَلقِيَ إِبْرَاهِيم سَارَّة وَهِيَ ابْنَة مَلك حَرَّان، وَقَدْ طَعَنَتْ عَلى قَوْمهَا فِي دِينهمْ، فَتَزَوَّجهَا عَلى أَنْ [لا][2] يُغيرهَا. رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَهُوَ غَرِيب، وَالمَشْهُور أَنَّهَا ابْنَة عَمّه، وَأَنَّهُ خَرَجَ بِهَا مُهَاجِرًا مِنْ بِلادها. وَقَال العَوْفِيّ: عَنْ ابْن عَبَّاس: إِلى مَكَّة، أَلا تَسْمَع إِلى قَوْله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، قال عطاء ومجاهد: عَطِيةً. أَيْ: يُقْتَدَى بِهِمْ، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، أَيْ: يَدْعُونَ إِلى الله بِإِذْنِهِ وَلهَذَا قَال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ مِنْ بَاب عَطْف الخَاصّ عَلى العَامّ، ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾، أَيْ: فَاعِلِينَ لمَا يَأْمُرُونَ النَّاس بِهِ. ثُمَّ عَطَفَ بِذِكْرِ لُوط، وَهُوَ لوط بْن هَارَان بْن آزَر، كَانَ قَدْ آمَنَ بِإِبْرَاهِيم عليه السلام وَاتَّبَعَهُ وَهَاجَرَ مَعَهُ، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ فَآتَاهُ الله حُكْمًا وَعِلمًا، وَأَوْحَى إِليْهِ وَجَعَلهُ نَبِيًّا وَبَعَثَهُ إِلى سَدُوم وَأَعْمالها، فَخَالفُوهُ وَكَذَّبُوهُ فَأَهْلكَهُمْ الله وَدَمَّرَ عَليْهِمْ، كَمَا قَصَّ خَبَرهمْ فِي غَيْر ما مَوْضِع مِنْ كِتَابه العَزِيز، وَلهَذَا قَال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ۝٧٤ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

---

(١) **صحيح**: أخرجه النسائي (٥/ ١٨٩)، وابن ماجه (٣٢٣١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٧٩).
(٢) زيادة من نسخة وانظر «تفسير الطبري» (١٧/ ٤٧).

يُخبِر تَعالى عَنْ اسْتِجابَته لعَبْدِهِ وَرَسُوله نُوح عليه السلام حِين دَعَا عَلى قَوْمه لـمَّا كَذَّبُوهُ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، وَلهَذَا قَال هَهُنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾، أَيْ: الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ كَمَا قَال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وَقَوْله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أَيْ: مِنْ الشِّدَّة وَالتَّكْذِيب وَالأَذَى، فَإِنَّهُ لبِثَ فِيهِمْ أَلف سَنَة إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، يَدْعُوهُمْ إِلى الله عز وجل، فَلَمْ يُؤْمِن بِهِ مِنْهُمْ إِلَّا القَليل، وَكَانُوا يَقْصدون لأَذَاهُ وَيَتَوَاصَوْنَ قَرْنًا بَعْد قَرْن وَجِيلًا بَعْد جِيل عَلى خِلافه.

وَقَوْله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾، أَيْ: وَنَجَّيْنَاهُ وَخَلَّصْنَاهُ مُنْتَصِرًا مِنْ القَوْم، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أَيْ: أَهْلَكَهُمْ الله بِعَامَّةٍ، وَلَمْ يُبْقِ عَلى وَجْه الأَرْض مِنْهُمْ أَحَدًا إِذ دَعَا عَلَيْهِمْ نَبِيّهم.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾.

قَال أبو إِسْحَاق: عَنْ مُرَّة عَنْ ابْن مَسْعُود: كَانَ ذَلِكَ الحَرْث كَرْمًا قَدْ نبتت عَنَاقِيده، وَكَذَا قَال شُرَيْح. قَال ابْن عَبَّاس: النَّفْش الرَّعْي. وَقَال شُرَيْح وَالزُّهْرِيّ وَقَتَادَة: النَّفْش، بِاللَّيْل، زَادَ قَتَادَة: وَالهَمْل بِالنَّهَارِ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب وَهَارُون بْن إِدْرِيس الأَصَمّ؛ قَالا: حَدَّثَنَا المُحَارِبِيّ، عَنْ أَشْعَث، عَنْ أَبِي إِسْحَاق عَنْ مُرَّة، عَنْ ابْن مَسْعُود فِي قَوْله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾، قَال: كَرْم قَدْ أَنْبَتَ عَنَاقِيده فَأَفْسَدَتْهُ. قَال: فَقَضَى دَاوُد بِالغَنَم لصَاحِبِ الكَرْم، فَقَال سُلَيْمَان: غَيْر هَذَا يَا نَبِيّ الله! قَال: وَمَا ذَاكَ؟ قَال: تَدْفَع الكَرْم إِلى صَاحِب الغَنَم، فَيَقُوم عَلَيْهِ حَتَّى يَعُود كَمَا كَانَ، وَتَدْفَع الغَنَم إِلى صَاحِب الكَرْم فَيُصِيب مِنْهَا، حَتَّى إِذَا كَانَ الكَرْم كَمَا كَانَ دَفَعْت الكَرْم إِلى صَاحِبه، وَدَفَعْت الغَنَم إِلى صَاحِبهَا، فَذَلِكَ قَوْله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾. وَكَذَا رَوَى العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس.

وَقَال حَمَّاد بْن سَلَمَة: عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد حَدَّثَنِي خَلِيفَة عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: فحكم دَاوُد بِالغَنَم لأَصْحَابِ الحَرْث فَخَرَجَ الرِّعَاء مَعَهُمْ الكِلاب فَقَال لهُمْ سُلَيْمَان: كَيْف قَضَى بَيْنكُمْ؟ فَأَخْبَرُوهُ فَقَال: لوْ وُلِّيت أَمْركُمْ لقَضَيْت بِغَيْرِ هَذَا، فَأُخْبِرَ بِذَلكَ دَاوُد، فَدَعَاهُ فَقَال: كَيْف تَقْضِي بَيْنهمْ؟ قَال: أَدْفَع الغَنَم إِلى أصحاب الحَرْث، فَيَكُون لهم أَوْلادهَا وَأَلْبَانهَا وَسِلاؤُهَا وَمَنَافِعهَا، وَيَبْذُر أَصْحَاب الغَنَم لأَهْل الحَرْث مِثْل حَرْثهمْ، فَإِذَا بَلغَ الحَرْث الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَخَذَ أَصْحَاب الحَرْث، وَرَدُّوا الغَنَم إِلى أَصْحَابهَا.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن سُليْمَان، حَدَّثَنَا خَدِيج، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ مُرَّة، عَنْ مَسْرُوق قَال: الحَرْث الَّذِي نَفَشَتْ فِيهِ الغَنَم إِنَّمَا كَانَ كَرْمًا نفشتْ فِيهِ الغَنَمُ، فَلَمْ تَدَع فِيهِ وَرَقَة وَلا عُنْقُودًا مِنْ عِنَب إِلَّا أَكَلتْهُ، فَأَتَوْا دَاوُد فَأَعْطَاهُمْ رِقَابهَا فَقَال سُليْمَان: لا بَل تُؤْخَذ الغَنَم فَيُعْطَاهَا أَهْل الكَرْم فيَكُون لهُمْ لبَنهَا وَنَفْعهَا وَيُعْطَى أَهْل الغَنَم الكَرْم فَيَعْمُرُوهُ وَيُصْلحُوهُ حَتَّى يَعُود كَالَّذِي كَانَ ليْلة نَفَشَتْ فِيهِ الغَنَم ثُمَّ يُعْطَى أَهْل الغَنَم غَنَمهمْ وَأَهْل الكَرْم كَرْمهمْ. وَهَكَذَا قَال شُرَيْح، وَمُرَّة وَمُجَاهِد وَقَتَادَة، وَابْن زَيْد وَغَيْر وَاحِد.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن أَبِي زِيَاد، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، أَنْبَأَنَا إِسْمَاعِيل، عَنْ عَامِر قَال: جَاءَ رَجُلانِ إِلى شُرَيْح، فَقَال أَحَدهمَا: إِنَّ شاةَ هَذَا قَطَعَتْ غَزْلًا لِي. فَقَال شُرَيْح: نَهَارًا أَمْ لَيْلًا؟ فَإِنْ كَانَ نَهَارًا فَقَدْ بَرِئَ صَاحِب الشَّاة. وَإِنْ كَانَ لَيْلًا، فقد ضَمِنَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ ﴾ الآيَة. وَهَذَا الَّذِي قَالهُ شُرَيْح شَبِيه بِمَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَأَبُو دَاوُد وَابْن مَاجَهْ: مِنْ حَدِيث اللَّيْث بْن سَعْد، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ حَرَام بْن مُحَيِّصَة: أَنَّ نَاقَة البَرَاء بْن عَازِب دَخَلتْ حَائِطًا فَأَفْسَدَتْ فِيهِ فَقَضَى رَسُول الله ﷺ عَلى أَهْل الحَوَائِط حِفْظهَا بِالنَّهَارِ وَمَا أَفْسَدَتْ المَوَاشِي بِاللَّيْل ضَامِن عَلى أَهْلهَا.[1] وَقَدْ عُلِّلَ هَذَا الحَدِيث، وَقَدْ بَسَطْنَا الكَلام عَلَيْهِ فِي كِتَاب «الأَحْكَام»، وبالله التَّوْفِيق.

وَقَوْله: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل حَدَّثَنَا حَمَّاد عَنْ حُمَيْد أَنَّ إِيَاس بْن مُعَاوِيَة لَمَّا اسْتُقْضِي أَتَاهُ الحَسَن فَبَكَى، فَقَال: مَا يُبْكِيك؟ قَال: يَا أَبَا سَعِيد، بَلَغَنِي أَنَّ القُضَاة: رَجُل اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَهُوَ فِي النَّار، وَرَجُل مَال بِهِ الهَوَى فَهُوَ فِي النَّار، وَرَجُل اجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَهُوَ فِي الجَنَّة. فَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: إِنَّ فِيمَا قَصَّ الله مِنْ نَبَأ دَاوُد وَسُليمَان عليهما السلام وَالأَنْبِيَاء، حُكْمًا يَرُدّ قَوْل هَؤُلاءِ النَّاس عَنْ قَوْلهمْ، قَال الله تَعَالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ... ﴾، فَأَثْنَى الله عَلى سُليمَان وَلَمْ يَذُمّ دَاوُد. ثُمَّ قَال -يَعْنِي الحَسَن-: إِنَّ الله اتَّخَذَ عَلى الحكماء ثَلاثًا: لا يَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَليلًا، وَلا يَتَّبِعُوا فِيهِ الهَوَى، وَلا يَخْشَوْا فِيهِ أَحَدًا، ثُمَّ تَلا: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾، وَقَال: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾، وَقَال: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾. **قلت:** أَمَّا الأَنْبِيَاء عليهم السلام فَكُلّهمْ مَعْصُومُونَ مُؤَيَّدُونَ مِنْ الله عز وجل، وَهَذَا مِمَّا لا خِلاف فِيهِ بَيْن العُلَمَاء المُحَقِّقِينَ مِنْ السَّلف وَالخَلف، وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ فَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيح البُخَارِيّ» عَنْ عَمْرو بْن العَاص أَنَّهُ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِم فَأَصَابَ فَلهُ أَجْرَان، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلهُ أَجْر»**[2]. فَهَذَا الحَدِيث يَرُدّ نَصًّا مَا تَوَهَّمَهُ «إِيَاس» مِنْ أَنَّ القَاضِي إِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَهُوَ فِي النَّار، وَالله أَعْلم.

وَفِي «السُّنَن»: **«القُضَاة ثَلاثَة: قَاضٍ فِي الجَنَّة، وَقَاضِيَانِ فِي النَّار: رَجُل عَلِمَ الحَقّ وَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الجَنَّة، وَرَجُل حَكَمَ بَيْن النَّاس عَلى جَهْل فَهُوَ فِي النَّار، وَرَجُل عَلِمَ الحَقّ وَقَضَى بِخِلافه فَهُوَ فِي النَّار»**.[3] وَقَرِيب مِنْ هَذِهِ القِصَّة المَذْكُورَة فِي القُرْآن مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد فِي «مُسْنَده» حَيْثُ قَال: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن حَفْص، أَخْبَرَنَا وَرْقَاء عَنْ أَبِي الزِّنَاد عَنْ الأَعْرَج عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَانِ لهُمَا جَاءَ الذِّئْب فَأَخَذَ أَحَد الابْنَيْنِ، فَتَحَاكَمَتَا إِلى دَاوُد فَقَضَى بِهِ للكُبْرَى، فَخَرَجَتَا، فَدَعَاهُمَا سُليْمَان فَقَال: هَاتُوا السِّكِّين أَشُقّهُ بينهما فَقَالتْ الصُّغْرَى: يَرْحَمك الله هُوَ ابْنهَا، لا تَشُقّهُ فَقَضَى بِهِ للصُّغْرَى»**.[4] وَأَخْرَجَهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم فِي صَحِيحَيْهِمَا، وَبَوَّبَ عَلَيْهِ النَّسَائِيّ فِي كِتَاب القَضَاء (بَاب الحَاكِم يُوهِم خِلاف الحُكْم لِيَسْتَعْلم الحَقّ).

وَهَكَذَا القِصَّة الَّتِي أَوْرَدَهَا الحَافِظ أَبُو القَاسِم ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة «سُليمَان عليه السلام» مِنْ «تَارِيخه»، من طَرِيق الحَسَن بْن سُفْيَان عَنْ صَفْوَان بْن صَالح عَنْ الوَليد بْن مُسْلم، عَنْ سَعِيد بْن بشير، عَنْ قَتَادَة عَنْ مُجَاهِد

---

(١) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٣٥٦٩)، وابن ماجه (٢٣٣٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٨).
(٢) **صحيح** : أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).
(٣) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٣٥٧٣)، والترمذي (١٣٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود والترمذي».
(٤) **صحيح** : أخرجه البخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠)، وأحمد (٢/ ٣٢٢).

عَنْ ابْن عَبَّاس فَذَكَرَ قِصَّة مُطَوَّلة مُلخَّصهَا أَنَّ امْرَأَة حَسْنَاء فِي زَمَان بَنِي إِسْرَائِيل رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسهَا أَرْبَعَة مِنْ رُؤَسَائِهِمْ فَامْتَنَعَتْ عَلى كُلّ مِنْهُمْ فَاتَّفَقُوا فِيمَا بَيْنهمْ عَلَيْهَا، فَشَهِدُوا عليها عِنْد دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهَا مَكَّنَتْ مِنْ نَفْسهَا كَلبًا لَهَا قَدْ عَوَّدَتْهُ ذَلكَ مِنْهَا فَأَمَرَ بِرَجْمِهَا، فَلَمَّا كَانَ عَشِيَّة ذَلِكَ اليَوْم جَلسَ سُلَيْمَان وَاجْتَمَعَ مَعَهُ وِلْدَانِ مِثْله فَانْتَصَبَ حَاكِمًا وَتَزَيَّا أَرْبَعَة مِنْهُمْ بِزِيِّ أُولَئِكَ وَآخَر بِزِيِّ المَرْأَة وَشَهِدُوا عَلَيْهَا بِأَنَّهَا مَكَّنَتْ مِنْ نَفْسهَا كَلبًا: فَقَال سُلَيْمَان: فَرِّقُوا بَيْنهمْ فَسَأَل أَوَّلهمْ مَا كَانَ لوْن الكَلب؟ فَقَال: أَسْوَد. فَعَزَلهُ وَاسْتَدْعَى الآخَر، فَسَأَلهُ عَنْ لوْنه؟ فَقَال: أَحْمَر. وَقَال الآخَر: أَغْبَش. وَقَال الآخَر: أَبْيَض. فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ. فَحُكِيَ ذَلكَ لدَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاسْتَدْعَى مِنْ فَوْره بِأُولَئِكَ الأَرْبَعَة، فَسَأَلَهُمْ مُتَفَرِّقِينَ عَنْ لوْن ذَلكَ الكَلب فَاخْتَلفُوا عَليْهِ، فَأَمَرَ بِقَتْلهِمْ.

وَقَوْله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ الآيَة. وَذَلكَ لطِيبِ صَوْته بِتِلاوَةِ كِتَابه الزَّبُور، وَكَانَ إِذَا تَرَنَّمَ بِهِ يقف الطَّيْر فِي الهَوَاء فَتُجَاوِبهُ، وَتَرُدّ عَلَيْهِ الجِبَال تَأْوِيبًا؛ وَلهَذَا لَمَّا مَرَّ النَّبِيّ ﷺ عَلى أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ، وَهُوَ يَتْلُو القُرْآن مِنْ اللَّيْل، وَكَانَ لهُ صَوْت طَيِّب جِدًّا فَوَقَفَ وَاسْتَمَعَ لِقِرَاءَتِهِ وَقَال: «**لقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِنْ مَزَامِير آل دَاوُد**». قَال: يَا رَسُول الله؛ لوْ عَلمْت أَنَّك تَسْتَمِع لحَبَّرْته لك تَحْبِيرًا.[1]

وَقَال أَبُو عُثْمَان النَّهْدِيّ: مَا سَمِعْت صَوْت صَنْج وَلا بَرْبَط وَلا مِزْمَار مِثْل صَوْت أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، وَمَعَ هَذَا قَال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لقَدْ أُوتِيَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِير آل دَاوُد**».

وَقَوْله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ يَعْنِي: صَنْعَة الدُّرُوع. قَال قَتَادَة: إِنَّمَا كَانَتْ الدُّرُوع قَبْله صَفَائِح، وَهُوَ أَوَّل مَنْ سَرَدَهَا حِلقًا. كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾، أَيْ: لا تُوَسِّع الحَلقَة فَتُقْلق المِسْمَار، وَلا تُغْلظ المِسْمَار فَتَقُدّ الحَلقَة، وَلهَذَا قَال: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾، يَعْنِي: فِي القِتَال ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أَيْ: نِعَم الله عَليْكُمْ لمَا أَلهَمَ بِهِ عَبْده دَاوُد فَعَلَّمَهُ ذَلكَ مِنْ أَجْلكُمْ.

وَقَوْله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أَيْ: وَسَخَّرْنَا لسُلَيْمَان الرِّيح العَاصِفَة، ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ يَعْنِي: أَرْض الشَّام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾، وَذَلكَ أَنَّهُ كَانَ لهُ بِسَاط مِنْ خَشَب، يُوضَع عَليْهِ كُلّ مَا يُحْتَاج إِليْهِ مِنْ أُمُور المَمْلكَة وَالخَيْل وَالجِمَال وَالخِيَام وَالجُنْد، ثُمَّ يَأْمُر الرِّيح أَنْ تَحْمِلهُ فَتَدْخُل تَحْته ثُمَّ تَحْمِلهُ وَتَرْفَعهُ وَتَسِير بِهِ وَتُظِلّهُ الطَّيْر مِن الحَرّ إِلى حَيْثُ يَشَاء مِنْ الأَرْض، فَيَنْزِل وَتُوضَع آلاته وَحَشَمه قَال الله تَعَالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذُكِرَ عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة عَنْ أَبِي سِنَان، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر قَال: كَانَ يُوضَع لسُليْمَان سِتّمِائَةِ أَلف كُرْسِيّ، فَيَجْلس مِمَّا يَليه مُؤْمِنُو الإِنْس، ثُمَّ يَجْلس مِنْ وَرَائِهِمْ مُؤْمِنُو الجِنّ، ثُمَّ يَأْمُر الطَّيْر فَتُظِلّهُمْ، ثُمَّ يَأْمُر الرِّيح فَتَحْمِلهُمْ ﷺ . وَقَال عَبْد الله بْن عُبَيْد بْن عُمَيْر كَانَ سُليْمَان يَأْمُر الرِّيح، فَتَجْتَمِع كَالطَّوْدِ العَظِيم - كَالجَبَل - ثُمَّ يَأْمُر بِفِرَاشِهِ فَيُوضَع عَلى أَعْلى مَكَان مِنْهَا، ثُمَّ يَدْعُو بِفَرَسٍ مِنْ ذَوَات الأَجْنِحَة، فَتَرْتَفِع حَتَّى يَصْعَد عَلى فِرَاشه، ثُمَّ يَأْمُر الرِّيح فَتَرْتَفِع بِهِ كُلّ شَرَف دُون السَّمَاء وَهُوَ مُطَأْطِئ رَأْسه، مَا يَلتَفِت يَمِينًا وَلا شِمَالًا؛ تَعْظِيمًا لله عَزَّ وَجَلَّ وَشُكْرًا؛ لِمَا يَعْلم مِنْ صِغَر مَا هُوَ فِيهِ فِي مُلك الله عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى تَضَعهُ الرِّيح حَيْثُ شَاءَ أَنْ تَضَعهُ.

وَقَوْله: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أَيْ: فِي المَاء يَسْتَخْرِجُونَ الجَوَاهِر واللَّآلِئ وَغَيْر ذَلكَ، ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: غَيْر ذَلكَ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٢٠١٩)، وصححه الألباني في «الأدب المفرد» (٨٠٥).

وَقَوْله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ﴾ أَيْ: يَحْرُسهُ الله أَنْ يَنَالهُ أَحَد مِنْ الشَّيَاطِين بِسُوءٍ بَل كُلّ فِي قَبْضَته وَتَحْت قَهْره، لا يَتَجَاسَر أَحَد مِنْهُمْ عَلى الدُّنُوّ إِلَيْهِ وَالقُرْب مِنْهُ، بَل هُوَ مُحَكَّم فِيهِمْ إِنْ شَاءَ أَطْلَقَ وَإِنْ شَاءَ حَبَسَ مِنْهُمْ مَنْ يَشَاء، وَلهَذَا قَال: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾.

يَذْكُر تَعَالى عَنْ أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ أَصَابَهُ مِنْ البَلاء فِي مَاله وَوَلده وَجَسَده، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لهُ مِنْ الدَّوَابّ وَالأَنْعَام وَالحَرْث شَيْء كَثِير وَأَوْلاد كَثِيرَة، وَمَنَازِل مُرْضِيَة، فَابْتُلِيَ فِي ذَلِكَ كُلّه، وَذَهَبَ عَنْ آخِره، ثُمَّ ابْتُلِيَ فِي جَسَده، يُقَال: بِالجُذَام فِي سَائِر بَدَنه، وَلمْ يَبْقَ مِنْهُ سَلِيمٌ سِوَى قَلبه وَلسَانه يَذْكُر بِهِمَا الله عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى عَافَهُ الجَلِيس، وَأُفْرِدَ فِي نَاحِيَة مِنْ البَلد، وَلمْ يَبْقَ أَحَد مِنْ النَّاس يَحْنُو عَلَيْهِ سِوَى زَوْجَته، كَانَتْ تَقُوم بِأَمْرِهِ، وَيُقَال إِنَّهَا احْتَاجَتْ فَصَارَتْ تَخْدُم النَّاس مِنْ أَجْله، وَقَدْ قَال النَّبِيّ ﷺ: **«أَشَدّ النَّاس بَلاء الأَنْبِيَاء، ثُمَّ الصَّالحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَل فَالأَمْثَل»**[1]. وَفِي الحَدِيث الآخَر: **«يُبْتَلى الرَّجُل عَلى قَدْر دِينه فَإِنْ كَانَ فِي دِينه صَلابَة زِيدَ فِي بَلائِهِ»**[2]. وَقَدْ كَانَ نَبِيّ الله أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ غَايَة فِي الصَّبْر، وَبِهِ يُضْرَب المَثَل فِي ذَلِكَ. وَقَال يَزِيد بْن مَيْسَرَة: لمَّا ابْتَلى الله أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَهَابِ الأَهْل وَالمَال وَالوَلد، وَلمْ يَبْقَ شَيْء لهُ أَحْسَنَ الذِّكْر ثُمَّ قَال: أَحْمَدك رَبّ الأَرْبَاب، الَّذِي أَحْسَنْت إِلَيَّ، أَعْطَيْتنِي المَال وَالوَلد، فَلمْ يَبْقَ مِنْ قَلبِي شُعْبَة إِلَّا قَدْ دَخَلهُ ذَلِكَ، فَأَخَذْت ذَلِكَ كُلّه مِنِّي، وَفَرَّغْت قَلبِي، لَيْسَ يَحُول بَيْنِي وَبَيْنك شَيْء لوْ يَعْلم عَدُوِّي إِبْليس بِالَّذِي صَنَعْتَ حَسَدَنِي. قَال: فَلقِيَ إِبْليس مِنْ ذَلِكَ مُنْكَرًا. قَال: وَقَال أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبّ إِنَّك أَعْطَيْتنِي المَال وَالوَلد، فَلمْ يَقُمْ عَلى بَابِي أَحَد يَشْكُونِي لظُلمٍ ظَلمْته وَأَنْتَ تَعْلم ذَلِكَ وَإِنَّهُ كَانَ يُوَطَّأُ لِي الفُرُش فَأَتْرُكهَا وَأَقُول لنَفْسِي: يَا نَفْس إِنَّك لمْ تُخْلقِي لوَطْءِ الفُرُش مَا تَرَكْتُ ذَلِكَ إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهك. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَدْ ذُكِر عَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه فِي خَبَره قِصَّة طَوِيلة، سَاقَهَا ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم بِالسَّنَدِ عَنْهُ، وَذَكَرَهَا غَيْر وَاحِد مِنْ مُتَأَخِّرِي المُفَسِّرِينَ، وَفِيهَا غَرَابَة تَرَكْنَاهَا لحَال الطُّول. وَقَدْ رُوِي أَنَّهُ مَكَثَ فِي البَلاء مُدَّة طَوِيلة، ثُمَّ اخْتَلفُوا فِي السَّبَب المُهَيِّج لهُ عَلى هَذَا الدُّعَاء، فَقَال الحَسَن وَقَتَادَة ابْتُلِيَ أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ سَبْع سِنِينَ وَأَشْهُرًا، مُلقًى عَلى كُنَاسَة بَنِي إِسْرَائِيل، تَخْتَلف الدَّوَابّ فِي جَسَده، فَفَرَّجَ الله عَنْهُ، وَأَعْظَمَ لهُ الأَجْر، وَأَحْسَنَ عَليْهِ الثَّنَاء.

وَقَال وَهْب بْن مُنَبِّه: مَكَثَ فِي البَلاء ثَلاث سِنِينَ لا يَزِيد وَلا يَنْقُص. وَقَال السُّدِّيّ: تَسَاقَطَ لحْم أَيُّوب حَتَّى لمْ يَبْقَ إِلَّا العَصَب وَالعِظَام، فَكَانَتْ امْرَأَته تَقُوم عَليْهِ وَتَأْتِيه بِالزَّاد يَكُون فِيهِ، فَقَالتْ لهُ امْرَأَته لمَّا طَال وَجَعه: يَا أَيُّوب، لوْ دَعَوْت رَبّك يُفَرِّج عَنْك؟ فَقَال: قَدْ عِشْت سَبْعِينَ سَنَة صَحِيحًا فهل قَليل لله أَنْ أَصْبِر لهُ سَبْعِينَ سَنَة فَجَزِعَتْ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَتْ فَكَانَتْ تَعْمَل للنَّاسِ بِالأَجْرِ وَتَأْتِيه بِمَا تُصِيب فَتُطْعِمهُ، وَإِنَّ إِبْليس انْطَلقَ إِلى رَجُليْنِ مِنْ أَهْل فِلسْطِين كَانَا صَدِيقَيْنِ لهُ وَأَخَوَيْنِ، فَأَتَاهُمَا فَقَال: أَخُوكُمَا أَيُّوب أَصَابَهُ مِنْ البَلاء كَذَا وَكَذَا، فَأْتِيَاهُ وَزُورَاهُ، وَاحْمِلا مَعَكُمَا مِنْ خَمْر أَرْضكُمَا، فَإِنَّهُ إِنْ شَرِبَ مِنْهُ بَرِئَ، فَأَتَيَاهُ فَلمَّا نَظَرَا إِليْهِ بَكَيَا، فَقَال: مَنْ أَنْتُمَا؟ فَقَالا: نَحْنُ فُلان وَفُلان، فَرَحَّبَ بِهِمَا، وَقَال: مَرْحَبًا بِمَنْ لا يَجْفُونِي عِنْد البَلاء. فَقَالا: يَا أَيُّوب؛ لعَلَّك كُنْت تُسِرّ شَيْئًا وَتُظْهِر غَيْره، فَلذَلكَ ابْتَلاكَ الله، فَرَفَعَ رَأْسه إِلى السَّمَاء ثم قَال: هُوَ يَعْلم مَا أَسَرَرْت شَيْئًا أَظْهَرْت غَيْره

---

(١) **صحيح**: صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٩٩٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ١٧٢)، انظر «الصحيحة» (١٤٣).

وَلكِنَّ رَبِّي ابْتَلاني لِيَنْظُرُ أَأَصْبِرُ أَمْ أَجْزَع فقَالا لهُ: يَا أَيُّوب؛ اشْرَبْ مِنْ خَمْرنَا فَإِنَّك إِنْ شَرِبْت مِنْهُ بَرَأْت فقال: فَغَضِبَ وَقَال: جَاءَكُما الخَبِيث فَأَمَرَكُما بِهَذَا؟ كَلامكُما وَطَعَامكُما وَشَرَابكُما عَلَيَّ حَرَام. فَقَامَا مِنْ عِنْده، وَخَرَجَتْ امْرَأَته تَعْمَل للنَّاسِ فَخَبَزَتْ لأَهْل بَيْت لَهُمْ صَبِيّ فَجَعَلتْ لَهُمْ قُرْصًا وَكَانَ ابْنهمْ نَائِمًا فَكَرِهُوا أَنْ يُوقِظُوهُ فَوَهَبُوهُ لَهَا فَأَتَتْ بِهِ إِلى أَيُّوب فَأَنْكَرَهُ وَقَال: مَا كُنْت تَأْتِينِي بِهَذَا فَمَا بَالك اليَوْم فَأَخْبَرَتْهُ الخَبَر قَال: فَلَعَلَّ الصَّبِيّ قَدْ اسْتَيْقَظَ فَطَلَبَ القُرْص فَلَمْ يَجِدْهُ فَهُوَ يَبْكِي عَلى أَهْله فَانْطَلِقِي بِهِ إِلَيْهِ فَأَقْبَلتْ حَتَّى بَلغَتْ دَرَجَة القَوْم فَنَطَحَتْهَا شَاة لَهُمْ فَقَالتْ تَعِسَ أَيُّوب الخَطَّاء فَلَمَّا صَعِدَتْ وَجَدَتْ الصَّبِيّ قَدْ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَطْلُب القُرْص وَيَبْكِي عَلى أَهْله لا يَقْبَل مِنْهُمْ شَيْئًا غَيْره فَقَالتْ: رحم الله أَيُّوب. فَدَفَعَتْ إِلَيْهِ القُرْص وَرَجَعَتْ، ثُمَّ إِنَّ إِبْلِيس أَتَاهَا فِي صُورَة طَبِيب فَقَال لهَا: إِنَّ زَوْجك طَال سَقَمه، فَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَبْرَأ فَليَأْخُذْ ذُبَابًا فَليَذْبَحْهُ بِاسْم صَنَم بَنِي فُلان فَإِنَّهُ يَبْرَأ وَيَتُوب بَعْد ذَلكَ؟ فَقَالتْ ذَلكَ لأَيُّوب، فَقَال: قَدْ أَتَاكِ الخَبِيث، لله عَلَيَّ إِنْ بَرَأْت أَنْ أَجْلدك مِائَة جَلدَة. فَخَرَجَتْ تَسْعَى عَليْهِ، فَحُظِرَ عَنْهَا الرِّزْق، فَجَعَلتْ لا تَأْتِي أَهْل بَيْت فَيُرِيدُونَهَا، فَلَمَّا اشْتَدَّ عَليْهَا ذَلكَ، وَخَافَتْ عَلى أَيُّوب الجُوع، حَلقَتْ مِنْ شَعْرِهَا قَرْنًا، فَبَاعَتْهُ مِنْ صَبِيَّة مِنْ بَنَات الأَشْرَاف، فَأَعْطَوْهَا طَعَامًا طَيِّبًا كَثِيرًا، فَأَتَتْ بِهِ أَيُّوب، فَلَمَّا رَآهُ أَنْكَرَهُ، وَقَال: مِنْ أَيْنَ لك هَذَا؟ قَالتْ: عَمِلت لأُنَاسٍ فَأَطْعَمُونِي. فَأَكَل مِنْهُ، فَلَمَّا كَانَ الغَد خَرَجَتْ فَطَلبَتْ أَنْ تَعْمَل فَلَمْ تَجِد فَحَلقَتْ أَيْضًا قَرْنًا فَبَاعَتْهُ مِنْ تِلكَ الجَارِيَة فَأَعْطَوْهَا أَيْضًا مِنْ ذَلكَ الطَّعَام فَأَتَتْ بِهِ أَيُّوب، فَقَال: وَالله لا أَطْعَمهُ حَتَّى أَعْلم مِنْ أَيْنَ هُوَ؟ فَوَضَعَتْ خِمَارهَا، فَلَمَّا رَأَى رَأْسهَا مَحْلُوقًا جَزِعَ جَزَعًا شَدِيدًا، فَعِنْد ذَلكَ دَعَا الله ﷻ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وقَال ابْن أَبِي حَاتِم: ثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا حَمَّاد حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَان الجَوْنِيّ عَنْ نَوْف البِكَالِيّ: أَنَّ الشَّيْطَان الَّذِي عَرَجَ فِي أَيُّوب كَانَ يُقَال لهُ سُوط، قَال: وَكَانَتْ امْرَأَة أَيُّوب تَقُول: ادْعُ الله فَيَشْفِيك. فَجَعَل لا يَدْعُو، حَتَّى مَرَّ بِهِ نَفَر مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، فَقَال بَعْضهمْ لبَعْضٍ: مَا أَصَابَهُ مَا أَصَابَهُ إِلَّا بِذَنْبٍ عَظِيم أَصَابَهُ، فَعِنْد ذَلكَ قَال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. وَحَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا أَبُو سَلمَة، حَدَّثَنَا جَرِير بْن حَازِم، عَنْ عَبْد الله بْن عُبَيْد بْن عُمَيْر قَال: كَانَ لأَيُّوبَ عَلَيهِ السَّلَامُ أَخَوَان، فَجَاءَا يَوْمًا، فَلَمْ يَسْتَطِيعَا أَنْ يَدْنُوَا مِنْهُ مِنْ رِيحه، فَقَامَا مِنْ بَعِيد، فَقَال أَحَدهمَا للآخَر: لوْ كَانَ الله عَلمَ مِنْ أَيُّوب خَيْرًا مَا ابْتَلاهُ بِهَذَا؟ فَجَزِعَ أَيُّوب مِنْ قَوْلهمَا جَزَعًا لمْ يَجْزَع مِنْ شَيْء قَطُّ، فَقَال: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْت تَعْلم أَنِّي لمْ أَبِتْ ليْلة قَطُّ شَبْعَان، وَأَنَا أَعْلم مَكَان جَائِع فَصَدِّقْنِي. فَصُدِّقَ مِنْ السَّمَاء وَهُمَا يَسْمَعَانِ، ثُمَّ قَال: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْت تَعْلم أَنِّي لمْ يَكُنْ لي قَمِيصَانِ قَطُّ، وَأَنَا أَعْلم مَكَان عَارٍ فَصَدِّقْنِي. فَصُدِّقَ مِنْ السَّمَاء وَهُمَا يَسْمَعَانِ، ثُمَّ قَال: اللَّهُمَّ بِعِزَّتِك ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا ثم قَال: اللَّهُمَّ بِعِزَّتِك لا أَرْفَع رَأْسِي أَبَدًا حَتَّى تَكْشِف عَنِّي. فَمَا رَفَعَ رَأْسه حَتَّى كَشَفَ عَنْهُ.

وَقَدْ رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ وَجْه آخَر مَرْفُوعًا بِنَحْوِ هَذَا، فَقَال: أَخْبَرَنَا يُونُس بْن عَبْد الأَعْلى، أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي نَافِع بْن يَزِيد، عَنْ عُقَيْل، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ أَنَس بْن مَالك: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«إِنَّ نَبِيّ الله أَيُّوب لبِثَ بِهِ بَلاؤُهُ ثَمَانِي عَشْرَة سَنَة، فَرَفَضَهُ القَرِيب وَالبَعِيد، إِلَّا رَجُليْنِ مِنْ إِخْوَانه، كَانَا مِنْ أَخَصّ إِخْوَانه، كَانَا يَغْدُوَانِ إِليْهِ وَيَرُوحَانِ، فَقَال أَحَدهمَا لصَاحِبِهِ: تَعْلم وَالله لقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوب ذَنْبًا مَا أَذْنَبه أَحَد مِنْ العَالمِينَ. فَقَال لهُ صَاحِبه: وَمَا ذَاكَ؟ قَال: مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَة سَنَة لمْ يَرْحَمهُ الله فَيَكْشِف مَا بِهِ. فَلمَّا رَاحَا إِليْهِ لمْ يَصْبِر الرَّجُل حَتَّى ذَكَرَ ذَلكَ لهُ، فَقَال أَيُّوب عَلَيهِ السَّلَامُ: لا أَدْرِي مَا تَقُول، غَيْر أَنَّ الله ﷻ يَعْلم أَنِّي كُنْت أَمُرّ عَلى الرَّجُليْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ الله فَأَرْجِع إِلى بَيْتِي فَأُكَفِّر عَنْهُمَا كَرَاهَة أَنْ يُذْكَرَ الله إِلاَّ فِي حَقّ. قَال:**

وَكَانَ يَخْرُج فِي حَاجَته، فَإِذَا قَضَاهَا أَمْسَكَتْ امْرَأَته بِيَدِهِ حَتَّى يبلغ، فَلَمَّا كَانَ ذَات يَوْم أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ فَأَوْحَى الله إِلى أَيُّوب فِي مَكَانه: أَنْ ارْكُضْ برجلك هَذَا مُغْتَسَل بَارِد وَشَرَاب».[1] رَفْع هَذَا الحَدِيث غَرِيب جِدًّا. وقال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا حَمَّاد أَخْبَرَنَا عَلِيّ بْن زَيْد عَنْ يُوسُف بْن مِهْرَان، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: وَأَلْبَسَهُ الله حُلَّة مِنْ الجَنَّة، فَتَنَحَّى أَيُّوب فَجَلَسَ فِي نَاحِيَة، وَجَاءَتْ امْرَأَته فَلَمْ تَعْرِفهُ، فَقَالَتْ: يَا عَبْد الله، أَيْنَ ذَهَبَ هَذَا المُبْتَلَى الَّذِي كَانَ هَهُنَا؟ لَعَلَّ الكِلاب ذَهَبَتْ بِهِ أَوْ الذِّئَاب؟ فَجَعَلَتْ تُكَلِّمهُ سَاعَة. فَقَالَ: وَيْحك، أَنَا أَيُّوب. قَالَتْ: أَتَسْخَرُ مِنِّي يَا عَبْد الله؟ فَقَالَ: وَيْحك، أَنَا أَيُّوب، قَدْ رَدَّ الله عَلَيَّ جَسَدِي. وَبِهِ قَالَ ابْن عَبَّاس: وَرَدَّ عَلَيْهِ مَاله وَولده عِيَانًا وَمِثْلهمْ مَعَهُمْ. وَقَالَ وَهْب بْن مُنَبِّه: أَوْحَى الله إِلى أَيُّوب: قَدْ رَدَدْت عَلَيْك أَهْلك وَمَالك وَمِثْلهمْ مَعَهُمْ، فَاغْتَسِل بِهَذَا المَاء فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءَك وَقَرِّبْ عَنْ صَحَابَتك قُرْبَانًا، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ عَصَوْنِي فِيك. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة حَدَّثَنَا عَمْرو بْن مَرْزُوق، حَدَّثَنَا هَمَّام، عَنْ قَتَادَة عَنْ النَّضْر بْن أَنَس عَنْ بَشِير ابْن نَهِيك عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «لَمَّا عَافَى الله أَيُّوب، أَمْطَرَ عَلَيْهِ جَرَادًا مِنْ ذَهَب، فَجَعَلَ يَأْخُذ بِيَدِهِ، وَيَجْعَلهُ فِي ثَوْبه، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: يَا أَيُّوب، أَمَا تَشْبَع؟ قَالَ: يَا رَبّ، وَمَنْ يَشْبَع مِنْ رَحْمَتك؟»[2]. أَصْله فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَسَيَأْتِي فِي مَوْضِع آخَر.

وَقَوْله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَالَ: رُدُّوا عَلَيْهِ بِأَعْيَانِهِمْ، وَكَذَا رَوَاهُ العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس أَيْضًا، وَرُوِيَ مثله عَنْ ابْن مَسْعُود وَمُجَاهِد، وَبِهِ قَالَ الحَسَن وَقَتَادَة. وَقَدْ زَعَمَ بَعْضهمْ أَنَّ اسْم زَوْجَته رَحْمَة فَإِنْ كَانَ أَخَذَ ذَلِكَ مِنْ سِيَاق الآيَة فَقَدْ أَبْعَدَ النُّجْعَة وَإِنْ كَانَ أَخَذَهُ مِنْ نَقْل أَهْل الكِتَاب، وَصَحَّ ذَلِكَ عَنْهُمْ، فَهُوَ مِمَّا لا يُصَدَّق وَلا يُكَذَّب، وَقَدْ سَمَّاهَا ابْن عَسَاكِر فِي «تَارِيخه» -رَحِمَهُ الله تَعَالَى- قَالَ: وَيُقَال: اسْمهَا لِيَا بِنْت مَنْشَا بْن يُوسُف بْن يَعْقُوب بْن إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم، قَالَ: وَيُقَال: لِيَا بِنْت يَعْقُوب عَلَيْهِ السَّلَام زَوْجَة أَيُّوب، كَانَتْ مَعَهُ بِأَرْض البثينة.

وَقَالَ مُجَاهِد: قِيلَ لَهُ: يَا أَيُّوب، إِنَّ أَهْلك لك فِي الجَنَّة، فَإِنْ شِئْت أَتَيْنَاك بِهِمْ، وَإِنْ شِئْت تَرَكْنَاهُمْ لك فِي الجَنَّة، وَعَوَّضْنَاك مِثْلهمْ؟ قَالَ: لا، بَل اتْرُكْهُمْ لِي فِي الجَنَّة. قَالَ: فَتُرِكُوا لَهُ فِي الجَنَّة، وَعُوِّضَ مِثْلهمْ فِي الدُّنْيَا. وَقَالَ حَمَّاد بْن زَيْد، عَنْ أَبِي عِمْرَان الجَوْنِيّ، عَنْ نَوْف البِكَالِيّ قَالَ: أُوتِيَ أَجْرهمْ فِي الآخِرَة، وَأُعْطِيَ مِثْلهمْ فِي الدُّنْيَا. قَالَ: فَحَدَّثْت بِهِ مُطَرِّفًا فَقَالَ: مَا عَرَفْت وَجْههَا قَبْل اليَوْم. وَهكَذَا رُوِيَ عَنْ قَتَادَة وَالسُّدِّيّ وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أَيْ: فَعَلْنَا بِهِ ذَلِكَ رَحْمَة مِنْ الله بِهِ، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أَيْ: وَجَعَلْنَاهُ فِي ذَلِكَ قُدْوَة؛ لِئَلَّا يَظُنّ أَهْل البَلاء أنما فَعَلْنَا بِهِمْ ذَلِكَ لِهَوَانِهِمْ عَلَيْنَا، وَلِيَتَأَسَّوْا بِهِ فِي الصَّبْر عَلَى مَقْدُورَات الله وَابْتِلائِهِ لِعِبَادِهِ بِمَا يَشَاء وَلَهُ الحِكْمَة البَالِغَة فِي ذَلِكَ.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وَأَمَّا إِسْمَاعِيل فَالمُرَاد بِهِ ابْن إِبْرَاهِيم الخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَام، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْره فِي سُورَة مَرْيَم، وكذلك إِدْرِيس عَلَيْهِ السَّلَام. وَأَمَّا ذُو الكِفْل فَالظَّاهِر مِنْ السِّيَاق أَنَّهُ مَا قُرِنَ مَعَ الأَنْبِيَاء إِلَّا وَهُوَ نَبِيّ، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا كَانَ رَجُلًا صَالِحًا،

---

(١) صحيح: أخرجه أبو يعلى (٣٦١٧)، وابن حبان (٢٨٩٨).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٩، ٣٣٩١).

وَكَانَ مَلِكًا عَادِلًا، وَحَكَمًا مُقْسِطًا. وَتَوَقَّفَ ابن جَرير فِي ذَلِكَ، فالله أعلم. قَال ابن جُرَيْج عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ قَال: رَجُل صَالح غَيْر نَبِيّ، تَكَفَّل لِنَبِيِّ قَوْمه، أَنْ يَكْفِيه أَمْر قَوْمه، وَيُقِيمهُمْ لَهُ وَيَقْضِي بَيْنهمْ بِالعَدْل، فَفَعَل ذَلِكَ، فَسُمِّيَ: ذَا الكِفْل. وَكَذَا رَوَى ابْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد أَيْضًا.

وقال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن المُثَنَّى حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا وُهَيْب، حَدَّثَنَا دَاوُد، عَنْ مُجَاهِد قَالَ: لَـمَّا كَبِرَ اليَسَع قَالَ: لَوْ أَنِّي اسْتَخْلَفْت رَجُلًا عَلَى النَّاس يَعْمَل عَلَيْهِمْ فِي حَيَاتِي، حَتَّى أَنْظُر كَيْف يعمل؟ فَجَمَعَ النَّاس فَقَالَ: مَنْ يَتَقَبَّل مِنِّي بِثَلاثٍ أَسْتَخْلِفهُ؛ يَصُوم النَّهَار وَيَقُوم اللَّيْل، وَلا يَغْضَب؟ قَالَ: فَقَامَ رَجُل تَزْدَرِيه العينُ، فَقَالَ: أَنَا. فَقَالَ: أنتَ تَصُوم النَّهَار، وَتَقُوم اللَّيْل وَلا تَغْضَب؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَرَدَّهُ ذَلِكَ اليَوْم، وَقَالَ مِثْلَهَا فِي اليَوْم الآخَر، فَسَكَتَ النَّاس، وَقَامَ ذَلِكَ الرَّجُل فَقَالَ: أَنَا. فَاسْتَخْلَفَهُ قَالَ: فَجَعَل إِبْلِيس يَقُول لِلشَّيَاطِين: عَلَيْكُمْ بِفُلان. فَأَعْيَاهُمْ ذَلِكَ، فَقَالَ: دَعُونِي وَإِيَّاهُ. فَأَتَاهُ فِي صُورَة شَيْخ كَبِير فَقِير، فَأَتَاهُ حِين أَخَذَ مَضْجَعه لِلقَائِلَة -وَكَانَ لا يَنَام اللَّيْل وَالنَّهَار إِلَّا تِلْكَ النَّوْمَة- فَدَقَّ البَاب فَقَال: مَنْ هَذَا؟ قَال: شَيْخ كَبِير مَظْلُوم. قَال: فَقَامَ فَفَتَحَ البَاب، فَجَعَل يَقُصّ عَلَيْهِ، فَقَال: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْن قَوْمِي خُصُومَة، وَإِنَّهُمْ ظَلَمُونِي، وَفَعَلُوا بِي وَفَعَلُوا، وَجَعَل يُطَوِّل عَلَيْهِ حَتَّى حَضَرَ الرَّوَاح وَذَهَبَتْ القَائِلَة، فَقَال: إِذَا رُحْتُ فَأْتِنِي آخُذ لك بحَقّك. فَانْطَلَقَ وَرَاحَ، فَكَانَ فِي مَجْلِسه، فَجَعَل يَنْظُر هَل يَرَى الشَّيْخ فَلَمْ يَرَهُ، فَقَامَ يَتْبَعهُ، فَلَمَّا كَانَ الغَد جَعَل يَقْضِي بَيْن النَّاس، وَيَنْتَظِرهُ فَلا يَرَاهُ فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى القَائِلَة فَأَخَذَ مَضْجَعه، أَتَاهُ فَدَقَّ البَاب فَقَال: مَنْ هَذَا؟ قَال: الشَّيْخ الكَبِير المَظْلُوم. فَفَتَحَ لَهُ فَقَال: أَلَمْ أَقُل لك إِذَا قَعَدْتُ فَأْتِنِي؟ قَال إِنَّهُمْ أَخْبَث قَوْم، إِذَا عَرَفُوا أَنَّك قَاعِد قَالُوا: نَحْنُ نُعْطِيك حَقّك، وَإِذَا قُمْت جَحَدُونِي. قَال: فَانْطَلِقْ، فَإِذَا رُحت فَأْتِنِي. قَال: فَفَاتَتْهُ القَائِلَة، فَرَاحَ فَجَعَل يَنْتَظِرهُ وَلا يَرَاهُ، وَشَقَّ عَلَيْهِ النُّعَاس، فَقَال لِبَعْضِ أَهْله: لا تَدَعن أَحَدًا يَقْرَب هَذَا البَاب حَتَّى أَنَام، فَإِنِّي قَدْ شَقَّ عَلَيَّ النَّوْم. فَلَمَّا كَانَ تِلْكَ السَّاعَة أتاه، فَقَال لَهُ الرَّجُل: وَرَاءَك وَرَاءَك. قَال: إِنِّي قَدْ أَتَيْته أَمْس، وَذَكَرْت لَهُ أَمْرِي، فَقَال: لا وَالله لَقَدْ أَمَرَنَا أَنْ لا نَدَع أَحَدًا يَقْرَبهُ. فَلَمَّا أَعْيَاهُ نَظَرَ فَرَأَى كُوَّة فِي البَيْت، فَتَسَوَّرَ مِنْهَا، فَإِذَا هُوَ فِي البَيْت، وَإِذَا هُوَ يَدُقّ البَاب مِنْ دَاخِل. قَال: فاسْتَيْقَظَ الرَّجُل، فَقَال: يَا فُلان أَلَمْ آمُرك؟ قَال: أَمَّا مِنْ قِبَلِي وَالله فَلَمْ تُؤْتَ، فَانْظُرْ مِنْ أَيْنَ أُتِيت؟ قَال: فَقَامَ إِلَى البَاب، فَإِذَا هُوَ مُغْلَق كَمَا أَغْلَقَهُ، وَإِذَا الرَّجُل مَعَهُ فِي البَيْت فَعَرَفَهُ، فَقَال: أَعَدُوّ الله؟ قَال: نَعَمْ. أَعْيَيْتنِي فِي كُلّ شَيْء فَفَعَلت مَا تَرَى لأُغْضِبك. فَسَمَّاهُ الله ذَا الكِفْل؛ لأَنَّهُ تَكَفَّل بِأَمْرٍ فَوَفَّى بِهِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث زُهَيْر بْن إِسْحَاق عَنْ دَاوُد عَنْ مُجَاهِد بِمِثْلِهِ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن يُونُس حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر بْن عَيَّاش، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ مُسْلم قَال: قَال ابْن عَبَّاس: كَانَ قَاضٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيل، فَحَضَرَهُ المَوْت، فَقَال: مَنْ يَقُوم مَقَامِي عَلَى أَنْ لا يَغْضَب؟ قَال: فَقَال رَجُل: أَنَا. فَسُمِّيَ ذَا الكِفْل. قَال: فَكَانَ لَيْله جَمِيعًا يُصَلِّي، ثُمَّ يُصْبِح صَائِمًا، فَيَقْضِي بَيْن النَّاس. قَال: وَلَهُ سَاعَة يَقِيلهَا. قَال: فَكَانَ كَذَلِكَ فَأَتَاهُ الشَّيْطَان عِنْد نَوْمَته، فَقَال لَهُ أَصْحَابه: مَا لك؟ قَال: إِنْسَان مِسْكِين، لَهُ عَلَى رَجُل حَقّ وَقَدْ غَلَبَنِي عَلَيْهِ. قَالُوا: كَمَا أَنْتَ حَتَّى يَسْتَيْقِظ قَال: وَهُوَ فَوْق نَائِم، قَال: فَجَعَل يَصِيح عَمْدًا حَتَّى يُوقِظهُ. قَال: فَسَمِعَ. فَقَال: مَا لك؟ قَال: إِنْسَان مِسْكِين، لَهُ عَلَى رَجُل حَقّ. قَال: اذْهَبْ فَقُل لَهُ يُعْطِيك. قَال: قَدْ أَبَى. قَال: اذْهَبْ أَنْتَ إِلَيْهِ. قَال: فَذَهَبَ، ثُمَّ جَاءَ مِنْ الغَد، فَقَال: مَا لك؟ قَال: ذَهَبْت إِلَيْهِ فَلَمْ يَرْفَع بِكَلامِك رَأْسًا. قَال: اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُل لَهُ يُعْطِيك حَقّك. قَال: فَذَهَبَ ثُمَّ جَاءَ مِنْ الغَد حِين قَال. قَال: فَقَال لَهُ أَصْحَابه: اخْرُجْ فَعَلَ الله بِك، تَجِيء كُلّ يَوْم حِين يَنَام، لا تَدَعهُ يَنَام؟ فَجَعَل يَصِيح:

مِنْ أَجْل أَنِّي [إنسان][١] مِسْكِين، لوْ كُنْت غَنِيًّا؟ قَال: فَسَمِعَ أَيْضًا، فَقَال: مَا لك؟ قَال: ذَهَبْت إِلَيْهِ فَضَرَبَنِي. قَال: امْشِ حَتَّى أَجِيء مَعَك. قَال: فَهُوَ مُمْسِك بِيَدِهِ فَلَمَّا رَآهُ ذَهَبَ مَعَهُ نَثَر يَده مِنْهُ فَفَرَّ. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ عَبْد الله بْن الحَارِث وَمُحَمَّد بْن قَيْس، وابن حُجَيْرَة الأَكْبَر وَغَيْرهمْ مِنْ السَّلَف نَحْو من هَذِهِ القِصَّة، وَالله أَعْلم.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الجَمَاهِر، أَخْبَرَنَا سَعِيد بن بَشِير، حَدَّثَنَا قَتَادَة، عَنْ أَبِي كِنَانَة الأَخْنَس قَال: سَمِعْت الأَشْعَرِيّ وَهُوَ يَقُول عَلى هَذَا المِنْبَر: مَا كَانَ ذُو الكِفْل بِنَبِيٍّ، وَلكِنْ كَانَ -يَعْنِي: فِي بَنِي إِسْرَائِيل- رَجُل صَالح يُصَلِّي كُلّ يَوْم مِائَة صَلاة، فَتَكَفَّل لهُ ذُو الكِفْل مِنْ بَعْده، فَكَانَ يُصَلِّي كُلّ يَوْم مِائَة صَلاة، فَسُمِّيَ ذَا الكِفْل. وَقَدْ رَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر عَنْ قَتَادَة قَال: قَال أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيّ ... فَذَكَرَهُ مُنْقَطِعًا، وَالله أَعْلم.

وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَحْمَد حَدِيثًا غَرِيبًا فَقَال: حَدَّثَنَا أَسْبَاط بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ عَبْد الله بْن عَبْد الله، عَنْ سَعْد مَوْلى طَلحَة، عَنْ ابْن عُمَر قَال: سَمِعْت مِنْ رَسُول الله ﷺ حَدِيثًا لوْ لمْ أَسْمَعهُ إِلَّا مَرَّة أَوْ مَرَّتَيْنِ -حَتَّى عَدَّ سَبْع مَرَّات- وَلكِنْ قَدْ سَمِعْته أَكْثَر مِنْ ذَلكَ، قَال: «كَانَ الكِفْل مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، لا يَتَوَرَّع مِنْ ذَنْب عَمِلهُ، فَأَتَتْهُ امْرَأَة فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَارًا عَلى أَنْ يَطَأَهَا، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَد الرَّجُل مِنْ امْرَأَته، أَرْعَدَتْ وَبَكَتْ، فَقَال: مَا يُبْكِيك، أَكْرَهْتُك؟ قَالتْ: لا، وَلكِنْ هَذَا عَمَل لمْ أَعْمَلهُ قَطُّ وَإِنَّمَا حَمَلنِي عَليْهِ الحَاجَة. قَال: فَتَفْعَلينَ هَذَا وَلمْ تَفْعَليهِ قَطُّ؟ فنزَل فَقَال: اذْهَبِي فالدَّنَانِير لك. ثُمَّ قَال: وَالله لا يَعْصِي اللهَ الكِفْلُ أَبَدًا. فَمَاتَ مِنْ ليْلته، فَأَصْبَح مَكْتُوبًا عَلى بَابه: قَدْ غَفَرَ الله للكِفْل».[٢] هَكَذَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَة «الكِفْل» مِنْ غَيْر إِضَافَة، وَالله أَعْلم. وَهَذَا الحَدِيث لمْ يُخَرِّجْهُ أَحَد مِنْ أَصْحَاب الكُتُب السِّتَّة، وَإِسْنَاده غَرِيب، وَعَلى كُلّ تَقْدِير فَلفْظ الحَدِيث إِنْ كَانَ الكِفْل وَلمْ يَقُل «ذُو الكِفْل»، فَلعَلَّهُ رَجُل آخَر، وَالله أَعْلم.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

هَذِهِ القِصَّة مَذْكُورَة هَهُنَا وَفِي سُورَة «الصَّافَّات» وَفِي سُورَة «نون»، وَذَلكَ أَنَّ يُونُس بْن مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعَثَهُ الله إِلى أَهْل قَرْيَة «نِينَوَى» وَهِيَ قَرْيَة مِنْ أَرْض المَوْصِل، فَدَعَاهُمْ إِلى الله تَعَالى، فَأَبَوْا عَليْهِ وَتَمَادَوْا عَلى كُفْرهمْ، فَخَرَجَ مِنْ بَيْن أَظْهُرهمْ مُغَاضِبًا لهُمْ، وَوَعَدَهُمْ بِالعَذَاب بَعْد ثَلاث، فَلَمَّا تَحَقَّقُوا مِنْهُ ذَلكَ، وَعَلمُوا أَنَّ النَّبِيّ لا يَكْذِب، خَرَجُوا إِلى الصَّحْرَاء بِأَطْفَالهِمْ وَأَنْعَامهمْ وَمَوَاشِيهمْ، وَفَرَّقُوا بَيْن الأُمَّهَات وَأَوْلادهَا، ثُمَّ تَضَرَّعُوا إِلى الله عَزَّ وَجَلَّ وَجَأَرُوا إِليْهِ وَرَغَتْ الإِبِل وَفِصْلانهَا، وَخَارَتْ البَقَر وَأَوْلادهَا، وَثَغَتْ الغَنَم وحملانُها، فَرَفَعَ الله عَنْهُمْ العَذَاب، قَال الله تَعَالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

وَأَمَّا يُونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ ذَهَبَ فَرَكِبَ مَعَ قَوْم فِي سَفِينَة فَلجَّجْت بِهِمْ وَخَافُوا أَنْ يَغْرَقُوا فَاقْتَرَعُوا عَلى رَجُل يُلقُونَهُ مِنْ بَيْنهمْ يَتَخَفَّفُونَ مِنْهُ فَوَقَعَتْ القُرْعَة عَلى يُونُس فَأَبَوْا أَنْ يُلقُوهُ ثُمَّ أَعَادُوا القُرْعَة فَوَقَعَتْ عَليْهِ أَيْضًا فَأَبَوْا، ثُمَّ أَعَادُوهَا فَوَقَعَتْ عَليْهِ أَيْضًا قَال الله تَعَالى: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴾ أَيْ: وَقَعَتْ عَليْهِ القُرْعَة، فَقَامَ يُونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابه، ثُمَّ أَلقَى نَفْسه فِي البَحْر، وَقَدْ أَرْسَل الله سُبْحَانه مِنْ البَحْر الأَخْضَر -فِيمَا

---

(١) زيادة من (ط).

(٢) **ضعيف** : أخرجه أحمد (٢/ ٢٣)، وفيه سعد مولي طلحة: مجهول، والأعمش: مدلس. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٢٤٩٦).

قَال ابْن مَسْعُود- حُوتًا يَشُقّ البِحَار، حَتَّى جَاءَ فَالتَقَمَ يُونُس حِين أَلقَى نَفْسه مِنْ السَّفِينَة، فَأَوْحَى الله إِلَى ذَلكَ الحُوت أَنْ لا تَأْكُل لهُ لحمًا وَلا تُهَشِّم لهُ عَظْمًا، فَإِنَّ يُونُس لَيْسَ لك رِزْقًا، وَإِنَّمَا بَطْنك تَكُون لهُ سِجْنًا.

وَقَوْله: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ﴾ يَعْنِي: الحُوت، صَحَّتْ الإِضَافَة إِلَيْهِ بِهَذِهِ النِّسْبَة.

وَقَوْله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾، قَال الضَّحَّاك: لقَوْمِهِ. ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أَيْ: نُضَيِّق عَليْهِ فِي بَطْن الحُوت، يُرْوَى نَحْو هَذَا عَنْ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَغَيْرهمْ، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير، وَاسْتَشْهَدَ عَليْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾. وَقَال عَطِيَّة العَوْفِيّ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أَيْ: نَقْضِيَ عَليْهِ. كَأَنَّهُ جَعَل ذَلكَ بِمَعْنَى التَّقْدِير، فَإِنَّ العَرَب تَقُول قَدِرَ وَقُدِّرَ بِمَعْنًى وَاحِد، قَال الشَّاعِر:

فَلا عَائِد ذَاكَ الزَّمَان الَّذِي مَضَى ۞ تَبَارَكْت مَا تُقَدِّر يَكُنْ، فَلكَ الأَمْر

وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ أَيْ: قُدِّرَ.

وَقَوْله: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قَال ابْن مَسْعُود: ظُلمَة بَطْن الحُوت، وَظُلمَة البَحْر، وَظُلمَة اللَّيْل. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس، وَعَمْرو بْن مَيْمُون، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَمُحَمَّد بْن كَعْب، وَالضَّحَّاك، وَالحَسَن، وَقَتَادَة. وَقَال سَالم بْن أَبِي الجَعْد: ظُلمَة حُوت فِي بَطْن حُوت فِي ظُلمَة البَحْر. قَال ابْن مَسْعُود وَابْن عَبَّاس وَغَيْرهمَا: وَذَلكَ أَنَّهُ ذَهَبَ بِهِ الحُوت فِي البِحَار يَشُقّهَا حَتَّى انْتَهَى بِهِ إِلَى قَرَار البَحْر، حَتَّى سَمِعَ يُونُس تَسْبِيح الحَصَى فِي قَرَاره، فَعِنْد ذَلكَ وَهُنَالكَ قَال: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ ...﴾. وَقَال عَوْف: لـمَّا صَارَ يُونُس فِي بَطْن الحُوت ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ ثُمَّ حَرَّكَ رِجْليْهِ فَلمَّا تَحَرَّكَتْ سَجَدَ مَكَانه، ثُمَّ نَادَى: يَا رَبّ اتَّخَذْت لك مَسْجِدًا فِي مَوْضِع مَا اتَّخَذَه أَحَد. وَقَال سَعِيد بْن الحَسَن البَصْرِيّ: مَكَثَ فِي بَطْن الحُوت أَرْبَعِينَ يَوْمًا. رَوَاهُمَا ابْن جَرِير.

وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار، عَمَّنْ حَدَّثَهُ، عَنْ عَبْد الله بْن رَافِع -مَوْلى أُمّ سَلمَة- سَمِعْت أَبَا هُرَيْرَة يَقُول: قَال رَسُول الله ﷺ : «لـمَّا أَرَادَ الله حَبْس يُونُس فِي بَطْن الحُوت، أَوْحَى الله إِلى الحُوت أَنْ خُذْهُ، وَلا تَخْدِش لحمًا وَلا تَكْسِر عَظْمًا، فَلمَّا انْتَهَى بِهِ إِلى أَسْفَل البَحْر سَمِعَ يُونُس حِسًّا، فَقَال فِي نَفْسه: مَا هَذَا؟ فَأَوْحَى الله إِليْهِ وَهُوَ فِي بَطْن الحُوت: إِنَّ هَذَا تَسْبِيح دَوَابّ البَحْر. قَال: فَسَبَّحَ وَهُوَ فِي بَطْن الحُوت فَسَمِعَتْ المَلائِكَة تَسْبِيحه فَقَالُوا: يَا رَبّنَا إِنَّا نَسْمَع صَوْتًا ضَعِيفًا بِأَرْضٍ غَرِيبَة، قَال: ذَلكَ عَبْدِي يُونُس عَصَانِي فَحَبَسْته فِي بَطْن الحُوت فِي البَحْر قَالُوا: العَبْد الصَّالح الَّذِي كَانَ يَصْعَد إِليْك مِنْهُ فِي كُلّ يَوْم وَليْلة عَمَل صَالح؟ قَال: نَعَمْ، قَال فَشَفَعُوا لهُ عِنْد ذَلكَ فَأَمَرَ الحُوت فَقَذَفَهُ فِي السَّاحِل، كَمَا قَال الله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٞ﴾»[1]. رَوَاهُ ابْن جَرِير وَرَوَاهُ البَزَّار فِي «مُسْنَده»، مِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن إِسْحَاق عَنْ عَبْد الله بْن رَافِع، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة فَذَكَرَهُ بِنَحْوِهِ ثُمَّ قَال: لا نَعْلمهُ يُرْوَى عَنْ النَّبِيّ ﷺ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه بِهَذَا الإِسْنَاد.

وَرَوَى ابن عبد الحق من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن عبر الله بن سلمة عن علي مرفوعًا: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متّى؛ سبح لله في الظلمات».

وقد روى هذا الحديث بدون هذه الزيادة، من حديث ابن عباس، وابن مسعود، وعبد الله بن جعفر، وسيأتي أسانيدها في سورة «ن».

---

(١) ضعيف : أخرجه الطبري (١٧/ ٨١)، وفيه محمد بن إسحاق: مدلس وقد عنعن.

وقال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبُو عبيد الله أَحْمَد بْن عَبْد الرَّحْمَن ابْن أَخِي ابْن وَهْب، حَدَّثنَا عَمِّي حَدَّثَنِي أَبُو صَخْر، أَنَّ يَزِيد الرَّقَاشِيّ حَدَّثَهُ قَال: سَمِعْت أَنَس بْن مَالك -وَلا أَعْلم إِلَّا أَنَّ أَنَسًا يَرْفَع الحَدِيث إِلى رَسُول الله ﷺ- أَنَّ يُونُس النَّبِيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِين بَدَا لهُ أَنْ يَدْعُو بِهَذِهِ الكَلِمَات وَهُوَ فِي بَطْن الحُوت، قَال: اللَّهُمَّ لا إِله إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانك إِنِّي كُنْت مِنْ الظَّالِمِينَ. فَأَقْبَلَتْ هَذِهِ الدَّعْوَة تَحُفُّ العَرْش، فَقَالتْ المَلائِكَة: يَا رَبّ؛ صَوْت ضَعِيف مَعْرُوف مِنْ بِلاد غَرِيبَة؟ فَقَال: أَمَا تَعْرِفُونَ ذَاكَ؟ قَالُوا: لا، يَا رَبّ؛ وَمَنْ هُوَ؟ قَال: عَبْدِي يُونُس. قَالُوا: عَبْدك يُونُس الَّذِي لَمْ يَزَل يُرْفَع لهُ [عَمَل مُتَقَبَّل][1] وَدَعْوَة مُجَابَة؟ [قَال: نعم][1] قَالُوا: يَا رَبّ؛ أَوَلا تَرْحَم مَا كَانَ يَصْنَع فِي الرَّخَاء فَتُنْجِيه مِنْ البَلاء؟ قَال: بَلى. فَأَمَرَ الحُوت فَطَرَحَهُ فِي العَرَاء.[2]

وَقَوْله: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ ﴾، أَيْ: أَخْرَجْنَاهُ مِنْ بَطْن الحُوت وَتِلكَ الظُّلُمَات، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أَيْ: إِذَا كَانُوا فِي الشَّدَائِد وَدَعَوْنَا مُنِيبِينَ إِلَيْنَا، وَلاسِيَّمَا إِذَا دَعَوْا بِهَذَا الدُّعَاء فِي حَال البَلاء فَقَدْ جَاءَ التَّرْغِيب فِي الدُّعَاء بِهَا عَنْ سَيِّد الأَنْبِيَاء.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا إِسْمَاعِيل بْن عمر، حَدَّثنَا يُونُس بْن أَبِي إِسْحَاق الهَمْدَانِيّ، حَدَّثنَا إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد ابْن سَعْد، حَدَّثَنِي وَالِدِي مُحَمَّد عَنْ أَبِيهِ سَعْد [و] هُوَ ابْن أَبِي وَقَّاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَال: مَرَرْت بِعُثْمَان بْن عَفَّان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي المَسْجِد، فَسَلَّمْت عَلَيْهِ، فَمَلأَ عَيْنَيْهِ مِنِّي فَلَمْ يَرْدُدْ عَلَيَّ السَّلام، فَأَتَيْت عُمَر بْن الخَطَّاب فَقُلت: يَا أَمِير المُؤْمِنِينَ؛ هَل حَدَثَ فِي الإِسْلام شَيْء؟ مَرَّتَيْنِ، قَال: لا، وَمَا ذَاكَ؟ قُلت: لا، إِلَّا أَنِّي مَرَرْت بِعُثْمَان آنِفًا فِي المَسْجِد، فَسَلَّمْت عَلَيْهِ، فَمَلأَ عَيْنَيْهِ مِنِّي ثُمَّ لَمْ يَرْدُد عَلَيَّ السَّلام. قَال: فَأَرْسَل عُمَر إِلى عُثْمَان فَدَعَاهُ، فَقَال: مَا مَنَعَك أَنْ لا تَكُون رَدَدْت عَلى أَخِيك السَّلام؟ قَال: مَا فَعَلت. قَال سَعْد: قُلت: بَلى. حَتَّى حَلفَ وَحَلفْت، قَال: ثُمَّ إِنَّ عُثْمَان ذَكَرَ فَقَال: بَلى، وَأَسْتَغْفِر الله وَأَتُوب إِلَيْهِ، إِنَّك مَرَرْت بِي آنِفًا وَأَنَا أُحَدِّث نَفْسِي بِكَلِمَةٍ سَمِعْتهَا مِنْ رَسُول الله ﷺ لا وَالله مَا ذَكَرْتهَا قَطُّ إِلَّا تَغْشَى بَصَرِي وَقَلبِي غِشَاوَة. قَال سَعْد: فَأَنَا أُنَبِّئك بِهَا إِنَّ رَسُول الله ﷺ ذَكَرَ لنَا أَوَّل دَعْوَة ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيّ فَشَغَلهُ حَتَّى قَامَ رَسُول الله ﷺ فَاتَّبَعْته، فَلَمَّا أَشْفَقْت أَنْ يَسْبِقَنِي إِلى مَنْزِله ضَرَبْت بِقَدَمِي الأَرْض فَالتَفَتَ إِلَيَّ رَسُول الله ﷺ فَقَال: «مَنْ هَذَا؟ أَبُو إِسْحَاق» قَال: قُلت: نَعَمْ يَا رَسُول الله ﷺ، قَال: «فَمَه؟». قُلت: لا وَالله، إِلَّا أَنك ذَكَرْت لنَا أَوَّل دَعْوَة، ثُمَّ جَاءَ هَذَا الأَعْرَابِيّ فَشَغَلك. قَال: «**نَعَمْ، دَعْوَة ذِي النُّون، إِذْ هُوَ فِي بَطْن الحُوت: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِم رَبَّه فِي شَيْء قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ لهُ**»[3]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي «اليَوْم وَاللَّيْلة» مِنْ حَدِيث إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد بْن سَعْد عَنْ أَبِيهِ عن سَعْد بِهِ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثنَا أَبُو خَالد الأَحْمَر عَنْ كَثِير بْن زَيْد عَنْ المُطَّلب بْن حَنْطَب -قَال أَبُو خَالد: أَحْسَبهُ عَنْ مُصْعَب، يَعْنِي ابْن سَعْد- عَنْ سَعْد قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا بِدُعَاءِ يُونُس اسْتُجِيبَ لهُ»[4]. قَال أَبُو سَعِيد: يُرِيد بِهِ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي عِمْرَان بْن بَكَّار الكَلاعِيّ، حَدَّثنَا يَحْيَى بْن صَالح، حَدَّثنَا أَبُو يَحْيَى ابْن عَبْد الرَّحْمَن،

---

(١) زيادة من نسخة.

(٢) **ضعيف** : في إسناده يزيد الرقاشي: ضعيف.

(٣) **صحيح** : أخرجه أحمد (١/ ١٧٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٥٠٥).

(٤) **إسناده ضعيف** : أخرجه الحاكم (٢/ ٥٨٤)، وابن عدي (٦/ ٢٠٨٩)، وفيه المطلب بن عبد الله بن المطلب بن حنطب: صدوق كثير التدليس والإرسال.

حَدَّثَنِي بِشر بن مَنصُور، عَنْ عَليّ بن زَيْد، عَنْ سَعِيد بن المُسَيبّ قَال: سَمِعْت سَعْد بن مَالك -وهو ابن أبِي وَقَّاص- يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «اسْم الله الَّذِي إذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِل بِهِ أَعْطَى: دَعْوَة يُونُس بن مَتَّى». قَال: فقُلت: يَا رَسُول الله؛ هِيَ لِيُونُس خَاصَّة، أَمْ لِجَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ؟ قَال: «هِي لِيُونُس بن مَتَّى خَاصَّة وللمُؤْمِنِينَ عَامَّة، إذَا دَعَوْا بِهَا، أَلَمْ تَسْمَع قَوْل الله ﷻ: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، فَهُوَ شَرْط مِنْ الله لِمَنْ دَعَاهُ بِهِ»[1]. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن أَبِي سُرِيج، حَدَّثَنَا دَاوُد بْن المُحَبَّر بْن قَحْذَم المَقْدِسِيّ، عَنْ كَثِير بْن مَعْبَد قَال: سَأَلت الحَسَن، قُلت: يَا أَبَا سَعِيد اسْم الله الأَعْظَم، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِل بِهِ أَعْطَى؟ قَال: ابْن أَخِي؛ أَمَا تَقْرَأ القُرْآن! قَوْل الله تَعَالَى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾، إِلَى قَوْله: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، ابْن أَخِي، هَذَا هُوَ اسْم الله الأَعْظَم، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِل بِهِ أَعْطَى.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ عَبْده زَكَرِيَّا، حِين طَلَب أَنْ يَهَبهُ الله وَلَدًا، يَكُون مِنْ بَعْده نَبِيًّا. وَقَدْ تَقَدَّمَتْ القِصَّة مَبْسُوطَة فِي أَوَّل سُورَة مَرْيَم وَفِي سُورَة آل عِمْرَان أَيْضًا، وَهَهُنَا أَخْصَر مِنْهُمَا: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أَيْ: خُفْيَة عَنْ قَوْمه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أَيْ: لا وَلَد لِي وَلا وَارِث يَقُوم بَعْدِي فِي النَّاس، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دُعَاء وَثَنَاء مُنَاسِب لِلمَسْأَلَة. قَال الله تَعَالَى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أَيْ: امْرَأَته. قَال ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر: كَانَتْ عَاقِرًا لا تَلِد فَوَلَدَتْ. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ: عَنْ طَلْحَة بْن عَمْرو عَنْ عَطَاء: كَانَ فِي لِسَانهَا طُول فَأَصْلَحَهَا الله. وَفِي رِوَايَة: كَانَ فِي خَلقهَا شَيْء فَأَصْلَحَهَا الله. وَهَكَذَا قَال مُحَمَّد بْن كَعْب وَالسُّدِّيّ، وَالأَظْهَر مِنْ السِّيَاق الأَوَّل.

وَقَوْله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، أَيْ: فِي عَمَل القُرُبَات وَ[فعل][2] الطَّاعَات ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قَال الثَّوْرِيّ: رَغَبًا فِيمَا عِنْدنَا، وَرَهَبًا مِمَّا عِنْدنَا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس أَيْ: مُصَدِّقِينَ بِمَا أَنْزَل الله. وَقَال مُجَاهِد: مُؤْمِنِينَ حَقًّا. وَقَال أَبُو العَالِيَة: خَائِفِينَ. وَقَال أَبُو سِنَان: الخُشُوع هُوَ الخَوْف اللَّازِم لِلقَلْبِ لا يُفَارِقهُ أَبَدًا. وَعَنْ مُجَاهِد أَيْضًا ﴿خَاشِعِينَ﴾، أَيْ: مُتَوَاضِعِينَ وَقَال الحَسَن وَقَتَادَة وَالضَّحَّاك: ﴿خَاشِعِينَ﴾ أَيْ: مُتَذَلِّلِينَ لله ﷻ. وَكُلّ هَذِهِ الأَقْوَال مُتَقَارِبَة. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حدَّثنا عَلِيّ بْن مُحَمَّد الطَّنَافِسِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن فُضَيْل حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق، عَنْ عَبْد الله القُرَشِيّ عَنْ عَبْد الله بْن حَكِيم قَال: خَطَبَنَا أَبُو بَكْر ﷺ، ثُمَّ قَال: أَمَّا بَعْد، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله، وَتُثْنُوا عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْل وَتَخْلِطُوا الرَّغْبَة بِالرَّهْبَة وَتَجْمَعُوا الإِلْحَاف بِالمَسْأَلَة، فَإِنَّ الله ﷻ أَثْنَى عَلَى زَكَرِيَّا وَأَهْل بَيْته فَقَال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

هَكَذَا قَرَن الله تَعَالَى قِصَّة مَرْيَم وَابْنهَا عِيسَى عليه السلام بِقِصَّة زَكَرِيَّا وَابْنه يَحْيَى عليهما السلام، فَيَذْكُر أَوَّلًا قِصَّة

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن جرير (١٧/ ٨٢)، وفيه علي بن زيد: ضعيف.
(٢) زيادة من نسخة.

زَكَرِيَّا، ثُمَّ يُتْبِعهَا بِقِصَّةِ مَرْيَم، لأَنَّ تِلْكَ مُوطِّئَة لِهَذِهِ، فَإِنَّهَا إِيجَاد وَلد مِنْ شَيْخ كَبِير قَدْ طَعَنَ فِي السِّنّ، وَمِنْ امْرَأَة عَجُوز عَاقِر لمْ تَكُنْ تَلد فِي حَال شَبَابهَا، ثُمَّ يَذْكُر قِصَّة مَرْيَم، وَهِيَ أَعْجَب، فَإِنَّهَا إِيجَاد وَلد مِنْ أُنْثَى بِلا ذَكَر. هَكَذَا وَقَعَ فِي سُورَة آل عِمْرَان، وَفِي سُورَة مَرْيَم، وَهَهُنَا ذَكَرَ قِصَّة زَكَرِيَّا ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِقِصَّةِ مَرْيَم، فَقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ يَعْنِي: مَرْيَم عليها السلام، كَمَا قَالَ فِي سُورَة التَّحْرِيم: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.

وَقَوْله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، أَيْ دَلالَة عَلَى أَنَّ الله عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير، وَأَنَّهُ يَخْلُق مَا يَشَاء، وَإِنَّمَا أَمْره إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُول لهُ كُنْ فَيَكُون وَهَذَا كَقَوْله: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي حَدَّثنَا عَمْرو بْن عَلِيّ حَدَّثنَا أَبُو عَاصِم الضَّحَّاك بْن مَخْلد، عَنْ شبيب -يَعْنِي ابْن بشر- عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، قَال: العَالِمينَ: الجِنّ وَالإِنْس.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾.

قَال ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَقَتَادَة وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ فِي قَوْله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، يَقُول: دِينكُمْ دِين وَاحِد. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ فِي هَذِهِ الآيَة: بَيَّن لهُمْ مَا يَتَّقُونَ وَمَا يَأْتُونَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أَيْ: سُنَّتكُمْ سُنَّة وَاحِدَة. فَقَوْله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ إِنَّ وَاسْمهَا، وَأُمَّتكُمْ خَبَر إِنَّ، أَيْ: هَذِهِ شَرِيعَتكُمْ الَّتِي بَيَّنْت لكُمْ، وَوَضَّحْت لكُمْ، وَقَوْله: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ نُصِبَ عَلى الحَال، وَلهَذَا قَال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾، كَمَا قَال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾. وَقَال رَسُول الله ﷺ: «**نَحْنُ معشر الأَنْبيَاء أَوْلاد علاَت؛ دِيننَا وَاحِد**»[1]. يَعْنِي: أَنَّ المَقْصُود هُوَ عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لهُ بِشَرَائِع مُتَنَوِّعَة لِرُسُلِهِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾.

وَقَوْله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾، أَيْ: اختلفَتْ الأُمَم عَلى رُسُلهَا، فَمِنْ بَيْن مُصَدِّق لهُمْ وَمُكَذِّب، وَلهَذَا قَال: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة، فَيُجَازَى كُلّ بِحَسَبِ عَمَله: إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ. وَلهَذَا قَال: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ أَيْ: قَلبه مُصَدِّق، وَعَمِل عَمَلًا صَالحًا، ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾، أَيْ: لا يُكْفَر سَعْيه -وَهُوَ عَمَله- بَل يُشْكَر فَلا يُظْلم مِثْقَال ذَرَّة، وَلهَذَا قَال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾، أَيْ: نكتب جَمِيع عَمَله، فَلا يَضِيع عَليْهِ مِنْهُ شَيْء.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾. قَال ابْن عَبَّاس: وَجَبَ. يَعْنِي: قدرًا مقدَّرًا أَنَّ أَهْل كُلّ قَرْيَة أُهْلكُوا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ إِلى الدُّنْيَا قَبْل يَوْم القِيَامَة، هَكَذَا صَرَّحَ بِهِ ابْن عَبَّاس، وَأَبُو جَعْفَر البَاقِر، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد. وَفِي رِوَايَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ أَيْ: لا يَتُوبُونَ. وَالقَوْل الأَوَّل أَظْهَر، وَالله أَعْلم.

---

(١) **صحيح**: تقدم.

وَقَوْله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾: قَدْ قَدَّمْنَا أَنَّهُمْ مِنْ سُلالة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَل هُمْ مِنْ نَسْل نُوح أَيْضًا، مِنْ أَوْلاد يَافِث أَبِي التُّرْك، وَالتُّرْك شِرْذِمَة مِنْهُمْ، تُرِكُوا مِنْ وَرَاء السَّدّ الَّذِي بَنَاهُ ذُو القَرْنَيْنِ، وَقَال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾. وَقَال فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، أَيْ: يُسْرِعُونَ فِي المَشْي إِلى الفَسَاد. وَالحَدَب: هُوَ المُرْتَفِع مِنْ الأَرْض. قَالهُ ابْن عَبَّاس، وَعِكْرِمَة وَأَبُو صَالح وَالثَّوْرِيّ وَغَيْرهمْ، وَهَذِهِ صِفَتهمْ فِي حَال خُرُوجهمْ، كَأَنَّ السَّامِع مُشَاهِد لذَلكَ، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، هَذَا إِخْبَار عَالم مَا كَانَ وَمَا يَكُون الَّذِي يَعْلم غَيْب السَّمَوَات وَالأَرْض، لا إِله إِلَّا هُوَ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مُثَنَّى حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر حَدَّثَنَا شُعْبَة عَنْ عبيد الله بْن أَبِي يَزِيد قَال: رَأَى ابْن عَبَّاس صِبْيَانًا يَنْزُو بَعْضهمْ عَلى بَعْض، يَلعَبُونَ، فَقَال ابْن عَبَّاس: هَكَذَا يَخْرُج يَأْجُوج وَمَأْجُوج. وَقَدْ وَرَدَ ذِكْر خُرُوجهمْ فِي أَحَادِيث مُتَعَدِّدَة مِنْ السُّنَّة النَّبَوِيَّة.

فَالحَدِيث الأَوَّل: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَعْقُوب، حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ ابْن إِسْحَاق، عَنْ عَاصِم بْن عُمَر بْن قَتَادَة عَنْ مَحْمُود بْن لبيد عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ قَال سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**يفْتَح يَأْجُوج وَمَأْجُوج، فَيَخْرُجُونَ كَمَا قَال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، فَيَغْشَوْنَ النَّاس، وَيَنْحَاز المُسْلمُونَ عَنْهُمْ إِلى مَدَائِنهمْ وَحُصُونهمْ، وَيَضُمُّونَ إِليْهِمْ مَوَاشِيهمْ، وَيَشْرَبُونَ مِيَاه الأَرْض، حَتَّى إِنَّ بَعْضهمْ ليَمُرّ بِالنَّهْرِ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهِ حَتَّى يَتْرُكُوهُ يَابِسًا حَتَّى إِنَّ مَنْ بَعْدهمْ ليَمُرّ بِذَلكَ النَّهْر فَيَقُول: قَدْ كَانَ هَهُنَا مَاء مَرَّة، حَتَّى إِذَا لمْ يَبْقَ مِنْ النَّاس أَحَد إِلاَّ أَحَد فِي حِصْن أَوْ مَدِينَة قَال قَائِلهمْ: هَؤُلاءِ أَهْل الأَرْض قَدْ فَرَغْنَا مِنْهُمْ بَقِيَ أَهْل السَّمَاء. قَال: ثُمَّ يَهُزّ أَحَدهمْ حَرْبَته ثُمَّ يَرْمِي بِهَا إِلى السَّمَاء، فَتَرْجِع إِليْهِ مختضبة دَمًا -للبَلاءِ وَالفِتْنَة- فَبَيْنَمَا هُمْ عَلى ذَلكَ إِذ بَعَثَ الله عَزَّ وَجَلَّ دُودًا فِي أَعْنَاقهمْ كَنَغَفِ الجَرَاد الَّذِي يَخْرُج فِي أَعْنَاقه فَيُصْبِحُونَ مَوْتَى لا يُسْمَع لهُمْ حِسّ، فَيَقُول المُسْلمُونَ: أَلا رَجُل يَشْرِي لنَا نَفْسه، فَيَنْظُر مَا فَعَل هَذَا العَدُوّ قَال: فيتجرَّد رَجُل مِنْهُمْ مُحْتَسِبًا نَفْسه وقَدْ أَوْطَنَهَا عَلى أَنَّهُ مَقْتُول فَيَنْزِل فَيَجِدهُمْ مَوْتَى، بَعْضهمْ عَلى بَعْض، فَيُنَادِي: يَا مَعْشَر المُسْلمِينَ: أَلا أَبْشِرُوا إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوّكُمْ فَيَخْرُجُونَ مِنْ مَدَائِنهمْ وَحُصُونهمْ، وَيُسَرِّحُونَ مَوَاشِيهمْ، فَمَا يَكُون لها رَعْي إِلاَّ لُحُومهمْ، فَتَشْكُر عَنْهُمْ كَأَحْسَن مَا شَكَرَت عَنْ شَيْء مِنْ النَّبَات أَصَابَتْهُ قَطُّ**».(١) وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث يُونُس بْن بُكَيْر عَنْ ابْن إِسْحَاق بِهِ.

الحَدِيث الثَّانِي: قَال الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن مُسْلم أَبُو العَبَّاس الدِّمَشْقِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن يَزِيد بْن جَابِر، حَدَّثَنِي يَحْيَى بْن جَابِر الطَّائِيّ قَاضِي حِمْص، حَدَّثَنِي عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر بْن نُفَيْر الحَضْرَمِيّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّوَّاس بْن سَمْعَان الكِلابِيّ قَال: ذَكَرَ رَسُول الله ﷺ الدَّجَّال ذَات غَدَاة، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَة النَّخْل فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا، فسألناه فقلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال الغداة، فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل؟ فَقَال: «**غَيْر الدَّجَّال أَخْوف مِنِّي عَليْكُمْ، فَإِنْ يَخْرُج وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجه دُونكُمْ، وَإِنْ يَخْرُج وَلسْت فِيكُمْ فامْرُؤٌ حَجِيج نَفْسه، وَالله خَليفَتِي عَلى كُلّ مُسْلم، وَإِنَّهُ شَابّ جَعْد قَطَط، عَيْنه طَافِيَة، وَإِنَّهُ يَخْرُج خَلَّة بَيْن الشَّام وَالعِرَاق، فَعَاثَ يَمِينًا وَشِمَالاً، يَا عِبَاد الله اثْبُتُوا**».

---

(١) حسـن: أخرجه أحمد (٣/ ٧٧)، وابن ماجه (٤٠٧٩)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»، و«صحيح الجامع الصغير» (٢٩٧٣).

قُلنَا: يَا رَسُول الله، مَا لبْثه فِي الأَرْض؟ قَال: «أربعين يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْم كَشَهْرٍ، وَيَوْم كَجُمْعَةٍ، وَسَائِر أَيَّامه كَأَيَّامِكُمْ». قُلنَا: يَا رَسُول الله، فَذَاكَ اليَوْم الَّذِي هُوَ كَسَنَةٍ أتكفينا فِيهِ صَلاة يَوْم وَليْلة؟ قَال: لا، «اقْدُرُوا لهُ قَدْره». قُلنَا: يَا رَسُول الله، فَمَا إِسْرَاعه فِي الأَرْض؟ قَال: «كَالغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيح»، قَال: «فَيَمُرّ بِالحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَسْتَجِيبُونَ لهُ، فَيَأْمُر السَّمَاء فَتُمْطِر، وَالأَرْض فَتُنْبِت، وَتَرُوح عَليْهِمْ سَارِحَتهمْ وَهِيَ أَطْوَل مَا كَانَتْ ذُرًى وَأَمَدَّهُ خَوَاصِر، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا. وَيَمُرّ بِالحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَليْهِ قَوْله، فَتَتْبَعهُ أَمْوَالهمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ، ليْسَ لهُمْ مِنْ أَمْوَالهمْ شَيْء، وَيَمُرّ بِالخَرِبَةِ فَيَقُول لهَا: أَخْرِجِي كُنُوزك. فَتَتْبَعه كُنُوزهَا كَيَعَاسِيب النَّحْل. قَال: وَيَأْمُر بِرَجُلٍ فَيُقْتَل، فَيَضْرِبهُ بِالسَّيْفِ، فَيَقْطَعهُ جَزْلتَيْنِ رَمْيَة الغَرَض، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِل إِليْهِ يَتَهَلل وَجْهُه، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلى ذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ الله ﷻ المَسِيح ابْن مَرْيَم، فَيَنْزِل عِنْد المَنَارَة البَيْضَاء، شَرْقِيّ دِمَشْق بَيْن مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا يَدَهُ عَلى أَجْنِحَة مَلكَيْنِ، فَيَتْبَعهُ فَيُدْرِكهُ، فَيَقْتُلهُ عِنْد بَاب لُدّ الشَّرْقِيّ».
قَال: «فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلكَ إِذْ أَوْحَى الله ﷻ إِلى عِيسَى ابْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَام: أَنِّي قَدْ أَخْرَجْت عِبَادًا مِنْ عِبَادِي لا يَدَانِ لك بِقِتَالِهِمْ فَحَوِّزْ عِبَادِي إِلى الطُّور فَيَبْعَث الله ﷻ يَأْجُوج وَمَأْجُوج، وهم كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، فَيَرْغَب عِيسَى وَأَصْحَابه إِلى الله ﷻ فَيُرْسِل عَليْهِمْ نَغَفًا فِي رِقَابهمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْس وَاحِدَة. فَيَهْبِط عِيسَى وَأَصْحَابه، فَلا يَجِدُونَ فِي الأَرْض بَيْتًا إِلَّا قَدْ مَلأَهُ زَهَمهمْ وَنَتْنهمْ، فَيَرْغَب عِيسَى وَأَصْحَابه إِلى الله ﷻ، فَيُرْسِل الله عَليْهِمْ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ البُخْت، فَتَحْمِلهُمْ فَتَطْرَحهُمْ حَيْثُ شَاءَ الله».

قَال ابْن جَابِر: فَحَدَّثَنِي عَطَاء بْن يَزِيد السَّكْسَكِيّ عَنْ كَعْب -أَوْ غَيْره- قَال: فَتَطْرَحهُمْ بِالمُهبل، فَقُلت: يَا أَبَا يَزِيد وَأَيْنَ المُهَبَّل؟ قَال: مَطْلع الشَّمْس. قَال: «وَيُرْسِل الله مَطَرًا لا يُكِنّ مِنْهُ بَيْت مَدَر وَلا وَبَر أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَيَغْسِل الأَرْض حَتَّى يَتْرُكهَا كَالزَّلفَةِ، وَيُقَال للأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرك وَرُدِّي بَرَكَتك». قَال: «فَيَوْمئِذٍ يَأْكُل النَّفَر مِنْ الرُّمَّانَة وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَك فِي الرِّسْل، حَتَّى إِنَّ اللِّقْحَة مِنْ الإِبِل لتَكْفِي الفِئَام مِنْ النَّاس، وَاللِّقْحَة مِنْ البَقَر تَكْفِي الفَخِذ، وَالشَّاة مِنْ الغَنَم تَكْفِي أَهْل البَيْت». قَال: «فَبَيْنَمَا هُمْ عَلى ذَلِكَ، إِذْ بَعَثَ الله ﷻ رِيحًا طَيِّبَةً تَحْت آبَاطِهِمْ، فَتُقْبَض رُوح كُلّ مُسْلِم». أَوْ قَال: «مُؤْمِن». «وَيَبْقَى شِرَار النَّاس يَتَهَارَجُونَ تَهَارُج الحمير وَعَليْهِمْ تَقُوم السَّاعَة»[1]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِم، دُون البُخَارِيّ، فَرَوَاهُ مَعَ بَقِيَّة أَهْل «السُّنَن» مِنْ طُرُق عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن يَزِيد بْن جَابِر بِهِ، وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح.

الحَدِيث الثَّالث: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بِشْر، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَمْرو عَنْ ابْن حَرْمَلة. عَنْ خَالته قَالتْ: خَطَبَ رَسُول الله ﷺ وَهُوَ عَاصِب أُصْبُعه مِنْ لدْغَة عَقْرَب، فَقَال: «إِنَّكُمْ تَقُولُونَ: لا عَدُوّ لكُمْ، وَإِنَّكم لا تَزَالُونَ تُقَاتِلُونَ عَدُوًّا، حَتَّى يَأْتِيَ يَأْجُوج وَمَأْجُوج، عِرَاض الوُجُوه صِغَار العُيُون، صُهْب الشِّعَاف مِنْ كُلّ حَدَب يَنْسِلُونَ، كَأَنَّ وُجُوههمْ المَجَانّ المُطْرَقَة».[2] وَكَذَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم: مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ خَالد بْن عَبْد الله بْن حَرْمَلة المُدْلجِيّ، عَنْ خَالة لهُ عَنْ النَّبِيّ ﷺ، فَذَكَرَهُ مِثْله.

الحَدِيث الرَّابع: قَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِير آخِر سُورَة الأَعْرَاف مِنْ رِوَايَة الإِمَام أَحْمَد عَنْ هُشَيْم عَنْ العَوَّام، عَنْ جَبَلَة بْن سُحَيْم، عَنْ مُؤْثِر بْنِ عَفَازَة عَنْ ابْن مَسْعُود رضي الله عنه عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «لقِيت ليْلة أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيم وَمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَام، قَال: فَتَذَاكَرُوا أَمْر السَّاعَة، فَرَدُّوا أَمْرهمْ إِلى إِبْرَاهِيم، فَقَال: لا عِلم لي بِهَا.

---

(١) **صحيح** : أخرجه مسلم (٢١٣٧)، وأحمد (٤/ ١٨١).
(٢) **ضعيف** : أخرجه أحمد (٥/ ٢١٧)، وفي إسناده خالد بن عبد الله بن حرملة: مقبول وكان يرسل.

فَرَدُّوا أَمْرهمْ إلى مُوسَى فَقَال: لا عِلم لي بهَا. فَرَدُّوا أَمْرهمْ إلى عِيسَى، فَقَال: أمَّا وَجْبَتهَا فَلا يَعْلم بهَا أَحَد إلَّا الله، وَفِيمَا عَهِدَ إليَّ رَبِّي أَنَّ الدَّجَّال خَارِج، قال: وَمَعِي قَضِيبَانِ، فَإِذَا رَآنِي ذَابَ كَمَا يَذُوب الرَّصَاص، قَال: فَيُهْلكهُ الله إذَا رَآنِي، حَتَّى إن الحَجَر وَالشَّجَر يَقُول: يَا مُسْلم، إنَّ تَحتِي كَافِرًا، فَتَعَال فَاقْتُلهُ. قَال: فَيُهْلكهُمْ الله، ثُمَّ يَرْجِع النَّاس إلى بِلادهمْ وَأَوْطَانهمْ. قَال: فَعِنْد ذَلكَ يَخرُج يَأْجُوج وَمَأْجُوج، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَب يَنْسِلُونَ، فَيَطئُونَ بِلادهمْ، وَلا يَأْتُونَ عَلى شَيْء إلاَّ أَهْلَكُوهُ، وَلا يَمُرُّونَ عَلى مَاء إلاَّ شَرِبُوهُ. قَال: ثُمَّ يَرْجِع النَّاس إليَّ يَشْكُونَهُمْ، فَأَدْعُو الله عَليْهِمْ، فَيُهْلكهُمْ وَيُمِيتهُمْ حَتَّى تَجْوَى الأَرْض مِنْ نَتْن رِيحهمْ، وَيُنْزِل الله المَطَر، فَيَجْتَرِف أَجْسَادهمْ، حَتَّى يَقْذِفهُمْ فِي البَحْر، فَفِيمَا عَهِدَ إليَّ رَبِّي أَنَّ ذَلكَ إذَا كَانَ كَذَلكَ، أَنَّ السَّاعَة كَالحَامِل المُتِمّ، لا يَدْرِي أَهْلهَا مَتَى تَفْجَؤُهُمْ بِوِلادِهَا ليْلاً أَوْ نَهَارًا».[1] وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ: عَنْ مُحَمَّد بْن بَشَّار، عَنْ يَزِيد بْن هَارُون، عَنْ العَوَّام بْن حَوْشَب بِهِ، نَحْوه وَزَادَ: قَال العَوَّام: وَوُجِدَ تَصْدِيق ذَلكَ فِي كِتَاب الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير هَهُنَا مِنْ حَدِيث جَبَلَة بِهِ. وَالأَحَادِيث فِي هَذَا كَثِيرَة جِدًّا، وَالآثَار عَنْ السَّلف كَذَلكَ.

وَقَدْ رَوَى ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم: مِنْ حَدِيث مَعْمَر، عَنْ غَيْر وَاحِد، عَنْ حُمَيْد بْن هِلال عَنْ أَبِي الضَّيْف قَال: قَال كَعْب إذَا كَانَ عِنْد خُرُوج يَأْجُوج وَمَأْجُوج، حَفَرُوا حَتَّى يَسْمَع الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قَرْع فُؤُوسهمْ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْل قالوا: نَجِيء غَدًا فَنَخْرُج. فَيُعِيدهُ الله كَمَا كَانَ، فَيَجِيئُونَ مِنْ الغَد، فَيَجِدُونَهُ قَدْ أَعَادَهُ الله كَمَا كَانَ، فَيَحْفِرُونَهُ حَتَّى يَسْمَع الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قَرْع فُؤُوسهمْ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْل أَلقَى الله عَلى لسَان رَجُل مِنْهُمْ يَقُول: نَجِيء غَدًا فَنَخْرُج إنْ شَاءَ الله. فَيَجِيئُونَ مِنْ الغَد فَيَجِدُونَهُ كَمَا تَرَكوهُ، فَيَحْفِرُونَ حَتَّى يَخْرُجُوا، فَتَمُرّ الزُّمْرَة الأُولى بِالبُحَيْرَةِ فَيَشْرَبُونَ مَاءَهَا، ثُمَّ تَمُرّ الزُّمْرَة الثَّانِيَة فَيَلحَسُونَ طِينهَا، ثُمَّ تَمُرّ الزُّمْرَة الثَّالثَة فَيَقُولُونَ: قَدْ كَانَ هَهُنَا مَرَّة مَاء. ويَفِرّ النَّاس مِنْهُمْ، فَلا يَقُوم لهُم شَيْء، ثُمَّ يَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إلى السَّمَاء، فَتَرْجِع [إليْهِمْ][2] مُخَضَّبَة بِالدِّمَاءِ فَيَقُولُونَ غَلبْنَا أَهْل الأَرْض وَأَهْل السَّمَاء فَيَدْعُو عَليْهِمْ عِيسَى ابْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُول: اللَّهُمَّ لا طَاقَة وَلا يدين لنَا بِهِمْ، فَاكْفِنَاهُمْ بِمَا شِئْت. فَيُسَلِّط الله عَليْهِمْ دُودًا، يُقَال لهُ: النَّغَف فَيُفَرِّس رِقَابهمْ، وَيَبْعَث الله عَليْهِمْ طَيْرًا تَأْخُذهُمْ بِمَنَاقِيرِهَا فَتُلقِيهِمْ فِي البَحْر، وَيَبْعَث الله عَيْنًا يُقَال لهَا: الحَيَاة، يُطَهِّر الله الأَرْض وَيُنْبِتهَا، حَتَّى إنَّ الرُّمَّانَة ليَشْبَع مِنْهَا السَّكَن -قِيل: وَمَا السَّكَن يَا كَعْب؟ قَال: أَهْل البَيْت- قَال: فَبَيْنَمَا النَّاس كَذَلكَ، إذْ أَتَاهُمْ الصَّرِيخ أَنَّ ذَا السُّوَيْقَتَيْنِ يُرِيدهُ، قَال: فَيَبْعَث عِيسَى ابْن مَرْيَم طَليعَة سَبْعمِائَةٍ -أَوْ بَيْن السَّبْعمِائَةِ وَالثَّمَانمِائَةِ- حَتَّى إذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيق، بَعَثَ الله رِيحًا يَمَانِيَّة طَيِّبَة، فَيَقْبِض فِيهَا رُوح كُلّ مُؤْمِن، ثُمَّ يَبْقَى عَجَاج من النَّاس فَيَتَسَافَدُونَ كَمَا يَتَسَافَد البَهَائِم، فَمَثَل السَّاعَة كَمَثَل رَجُل يَطِيف حَوْل فَرَسه يَنْتَظِرها مَتَى تَضَع. قَال كَعْب: فَمَنْ قَال بَعْد قَوْلي هَذَا شَيْئًا أَوْ بَعْد عِلمِي هَذَا شَيْئًا فَهُوَ المُتَكَلِّف. هَذَا مِنْ أَحْسَن سِيَاقَات كَعْب الأَحْبَار، لمَّا شَهِدَ لهُ مِنْ صَحِيح الأَخْبَار وَقَدْ ثَبَتَ فِي الحَدِيث: أَنَّ عِيسَى ابْن مَرْيَم يَحُجّ البَيْت العَتِيق.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُليْمَان بْن دَاوُد حَدَّثَنَا عِمْرَان، عَنْ قَتَادَة عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي عُتْبَة، عَنْ أَبِي سَعِيد قَال: قَال رَسُول الله ﷺ **«ليُحَجَّنَّ هَذَا البَيْت وَليُعْتَمَرَنَّ بَعْد خُرُوج يَأْجُوج وَمَأْجُوج»**[3]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ البُخَارِيّ.

وَقَوْله: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾، يَعْنِي: يَوْم القِيَامَة إذَا وُجِدتْ هَذِهِ الأَهْوَال وَالزَّلازِل وَالبَلابِل، أَزِفَتْ

---

(١) حسن: تقدم.
(٢) في نسخة: [إليه].
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١٥٩٣)، وأحمد (٣/ ٢٧).

السَّاعة واقْتَرَبَتْ، فَإِذَا كَانَتْ وَوَقَعَتْ قَال الكَافِرُونَ ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أَيْ: مِنْ شِدَّة مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الأُمُور العِظَام، ﴿يَا وَيْلَنَا﴾، أَيْ: يَقُولُونَ ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، أَيْ: فِي الدُّنْيَا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يَعْتَرِفُونَ بِظُلْمِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ حَيْثُ لا يَنْفَعهُمْ ذَلكَ.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخَاطِبًا لأَهْل مَكَّة مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْش، وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ مِنْ عَبَدَة الأَصْنَام والأَوْثَان: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قَال ابْن عَبَّاس: أَيْ: وَقُودهَا. يَعْنِي كَقَوْلِهِ: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾.

وَقَال ابْن عَبَّاس أَيْضًا: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ بمَعْنِي: شَجَر جَهَنَّم. وَفِي رِوَايَة قَال: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. يَعْنِي: حَطَب جَهَنَّم، بِالزِّنْجِيَّة. وَقَال مُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَقَتَادَة: حَطَبهَا. وَهِيَ كَذَلكَ فِي قِرَاءَة عَليّ وَعَائِشَة رضي الله عنهما.

وَقَال الضَّحَّاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: ما يُرْمَي به فِيهَا. وَكَذَا قَال غَيْره، وَالجَمِيع قَرِيب.

وَقَوْله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾. أَيْ: دَاخِلُونَ، ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، يَعْنِي: لَوْ كَانَتْ - يَعْنِي: هَذِهِ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد الَّتِي اتَّخَذْتُمُوهَا مِنْ دُون الله- آلهَة صَحِيحَة لَمَا وَرَدُوا النَّار ولما دَخَلُوهَا، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أَيْ: العَابِدُونَ وَمَعْبُودَاتهمْ كُلّهمْ فِيهَا خَالدُونَ، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾، وَالزَّفِير خُرُوج أَنْفَاسهمْ، وَالشَّهِيق وُلُوج أَنْفَاسهمْ، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَليّ بْن مُحَمَّد الطَّنَافِسِيّ، حَدَّثَنَا ابْن فُضَيْل، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن -يَعْنِي المَسْعُودِيّ- عَنْ أَبِيهِ قَال: قَال ابْن مَسْعُود: إِذَا بَقِيَ مَنْ يَخْلُد فِي النَّار جُعِلُوا فِي تَوَابِيت مِنْ نَار، فِيهَا مَسَامِير مِنْ نَار، فَلا يَرَى أَحَد مِنْهُمْ أَنَّهُ يُعَذَّب فِي النَّار غَيْره، ثُمَّ تَلا عَبْد الله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث حَجَّاج بْن مُحَمَّد عَنْ المَسْعُودِيّ عَنْ يُونُس بْن خَبَّاب عَنْ ابْن مَسْعُود فَذَكَرَهُ.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، قَال عِكْرِمَة: الرَّحْمَة. وَقَال غَيْره: السَّعَادَة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، لَـمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَهْل النَّار وَعَذَابهمْ بِسَبَبِ شِرْكهمْ بالله، عَطَفَ بِذِكْرِ السُّعَدَاء مِنَ المُؤْمِنِينَ بالله وَرُسُله وَهُمْ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الله السَّعَادَة، وَأَسْلَفُوا الأَعْمَال الصَّالحَة فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. وَقَال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾، فَكَمَا أَحْسَنُوا العَمَل فِي الدُّنْيَا أَحْسَنَ الله [مَآبهمْ][1] وَثَوَابهمْ، فنَجَّاهُمْ مِنَ العَذَاب، وَحَصَل لَهُمْ جَزِيل الثَّوَاب، فَقَال: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا﴾ أَيْ: النَّار ﴿مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أَيْ: حَرِيقهَا فِي الأَجْسَاد.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الجرِيرِيّ عَنْ أَبِي عُثْمَان: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ قَال: حَيَّات عَلى الصِّرَاط تَلسَعهُمْ، فَإِذَا لَسَعَتْهُمْ قَال: حِسّ حِسّ.

---

(١) في نسخة: [مآلهم].

وَقَوْله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾، فَسَلَّمَهُمْ مِنَ المَحْذُور وَالمَرْهُوب، وَحَصَل لَهُمْ المَطْلُوب وَالمَحْبُوب. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن أَبِي سُرَيج، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن الحَسَن بْن أَبِي يزيد الهَمْدَانِيّ، عَنْ لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم، عَنْ ابْن عَمّ النُّعْمَان بْن بَشِير عَنْ النُّعْمَان بْن بَشِير، قَال: وَسَمِرَ مَعَ عَلِيّ ذَات لَيْلَة، فَقَرَأَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، قَال: أَنَا مِنْهُمْ، وَعُمَر مِنْهُمْ، وَعُثْمَان مِنْهُمْ، وَالزُّبَيْر مِنْهُمْ، وَطَلْحَة مِنْهُمْ، وَعَبْد الرَّحْمَن مِنْهُمْ -أَوْ قَال: سَعْد مِنْهُمْ- قَال: وَأُقِيمَتْ الصَّلاة فَقَامَ، وَأَظُنّهُ يَجُرّ ثَوْبه، وَهُوَ يَقُول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

وَقَال شُعْبَة: عَنْ أَبِي بِشْر عَنْ يُوسُف المَكِّيّ، عَنْ مُحَمَّد بْن حَاطِب قَال: سَمِعْت عَلِيًّا يَقُول فِي قَوْله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، قَال: عُثْمَان وَأَصْحَابه. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم أَيْضًا، وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث يُوسُف بْن سَعْد -وَلَيْسَ بِابْنِ مَاهَك- عَنْ مُحَمَّد بْن حَاطِب، عَنْ عَلِيّ فَذَكَرَهُ، وَلَفْظه: عُثْمَان مِنْهُمْ. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾: فَأُولَئِكَ أَوْلِيَاء الله يَمُرُّونَ عَلَى الصِّرَاط مَرًّا هُوَ أَسْرَع مِنْ البَرْق وَيَبْقَى الكُفَّار فِيهَا جِثِيًّا. فَهَذَا مُطَابِق لِمَا ذَكَرْنَاهُ. وَقَال آخَرُونَ: بَل نَزَلَتْ اسْتِثْنَاء مِنْ المَعْبُودِينَ، وَخَرَجَ مِنْهُمْ عُزَيْر وَالمَسِيح، كَمَا قَال حَجَّاج بْن مُحَمَّد الأَعْوَر عَنْ ابْن جُرَيْج وَعُثْمَان بْن عَطَاء عَنْ عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ثُمَّ اسْتَثْنَى فَقَال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ فَيُقَال: هُمْ المَلائِكَة وَعِيسَى، وَنَحْو ذَلِكَ مِمَّا يُعْبَد مِنْ دُون الله ﷻ. وَكَذَا قَال عِكْرِمَة وَالحَسَن وَابْن جُرَيْج.

وَقَال الضَّحَّاك: عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، قَال: نَزَلَتْ فِي عِيسَى ابْن مَرْيَم وَعُزَيْر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا الحُسَيْن بْن عِيسَى بْن مَيْسَرَة، حَدَّثَنَا أَبُو زُهَيْر، حَدَّثَنَا سَعْد بْن طَرِيف عَنْ الأَصْبَغ عَنْ عَلِيّ فِي قَوْله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، قَال: كُلّ شَيْء يُعْبَد مِنْ دُون الله فِي النَّار إِلَّا الشَّمْس وَالقَمَر وَعِيسَى ابْن مَرْيَم. إِسْنَاده ضَعِيف. وَقَال ابْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قَال: عِيسَى وَعُزَيْر وَالمَلائِكَة. وَقَال الضَّحَّاك: عِيسَى وَمَرْيَم وَالمَلائِكَة وَالشَّمْس وَالقَمَر. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر وَأَبِي صَالِح وَغَيْر وَاحِد. وَقَدْ رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم فِي ذَلِكَ حَدِيثًا غَرِيبًا جِدًّا، فَقَال: حَدَّثَنَا الفَضْل بْن يَعْقُوب الرّخَامِيّ حَدَّثَنَا سَعِيد ابْن مَسْلَمَة بْن عَبْد المَلِك، حَدَّثَنَا لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم عَنْ مُغِيث عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قَوْله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قَال: «عِيسَى وَعُزَيْر وَالمَلائِكَة»[1]. وَذَكَرَ بَعْضهمْ قِصَّة ابْن الزِّبَعْرَى وَمُنَاظَرَة المُشْرِكِينَ. قَال أَبُو بَكْر بْن مَرْدَوَيْهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَلِيّ بْن سَهْل، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن حَسَن الأَنْمَاطِيّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد بْن عَرْعَرَة، حَدَّثَنَا يزيد ابْن أَبِي حَكِيم، حَدَّثَنَا الحَكَم -يَعْنِي ابْن أَبَان- عن عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: جَاءَ عَبْد الله بن الزِّبَعْرَى إِلَى النَّبِيّ ﷺ فَقَال: تَزْعُم أَنَّ الله أَنْزَل عَلَيْك هَذِهِ الآيَة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾؟ فَقَال ابْن الزِّبَعْرَى: قَدْ عُبِدَتْ الشَّمْس وَالقَمَر وَالمَلائِكَة وَعُزَيْر وَعِيسَى ابْن مَرْيَم، كُلّ هَؤُلاءِ فِي النَّار مَعَ آلِهَتنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، ثُمَّ نَزَلَتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا

---

(١) إسناده ضعيف: فيه ليث بن أبي سليم: متروك. وسعيد بن سلمة الراوي عنه: ضعيف.

مُبْعَدُونَ ﴾[1]. رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو عَبْد الله فِي كِتَاب: «الأَحَادِيث المُخْتَارَة». وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا قَبِيصَة بْن عُقْبَة، حَدَّثَنَا سُفْيَان -يَعْنِي الثَّوْرِيّ- عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَصْحَابه عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾. قَال المُشْرِكُونَ: فَالمَلائِكَة وَعُزَيْر وَعِيسَى يُعْبَدُونَ مِنْ دُون الله؟ فَنَزَلَتْ: ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾. الآلهَة الَّتِي يَعْبُدُون، ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾. وَرُوِيَ عَنْ أَبِي كُدَيْنَة عَنْ عَطَاء بْن السَّائِب عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس مِثْل ذَلِكَ. وَقَال: فَنَزَلَتْ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي كِتَاب «السِّيرَة»: وَجَلَسَ رَسُول الله ﷺ فِيمَا بَلَغَنِي يَوْمًا مَعَ الوَلِيد بْن المُغِيرَة فِي المَسْجِد فَجَاءَ النَّضْر بْن الحَارِث حَتَّى جَلَسَ مَعَهُمْ، وَفِي المَجْلِس غَيْر وَاحِد مِنْ رِجَال قُرَيْش، فَتَكَلَّمَ رَسُول الله ﷺ فَعَرَضَ لَهُ النَّضْر بْن الحَارِث فَكَلَّمَهُ رَسُول الله ﷺ حَتَّى أَفْحَمَهُ، وَتَلا عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ثُمَّ قَامَ رَسُول الله ﷺ وَأَقْبَل عَبْد الله بْن الزِّبَعْرَى السَّهْمِيّ حَتَّى جَلَسَ، فَقَال الوَلِيد بْن المُغِيرَة لِعَبْدِ الله بْن الزِّبَعْرَى: وَالله مَا قَامَ النَّضْر بْن الحَارِث لابْنِ عَبْد المُطَّلِب آنِفًا، وَلا قَعَدَ، وَقَدْ زَعَمَ مُحَمَّد أَنَّا وَمَا نَعْبُد مِنْ آلِهَتِنَا هَذِهِ حَصَب جَهَنَّم. فَقَال عَبْد الله بْن الزِّبَعْرَى: أَمَا وَالله لَوْ وَجَدْته لَخَصَمْته، فَسَلُوا مُحَمَّدًا: أَكُل مَا يُعْبَد مِنْ دُون الله فِي جَهَنَّم مَعَ مَنْ عَبَدَهُ؟ فَنَحْنُ نَعْبُد المَلائِكَة، وَاليَهُود تَعْبُد عُزَيْرًا، وَالنَّصَارَى تَعْبُد عِيسَى ابْن مَرْيَم؟ فَعَجِبَ الوَلِيد وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي المَجْلِس مِنْ قَوْل عَبْد الله بْن الزِّبَعْرَى، وَرَأَوْا أَنَّهُ قَدْ احْتَجَّ وَخَاصَمَ. فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُول الله ﷺ فَقَال: «كُلّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَد مِنْ دُون الله فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ، إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِين وَمَنْ أَمَرَتْهم بِعِبَادَته».[2] وَأَنْزَل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ أَيْ: عِيسَى وَعُزَيْر وَمَنْ عَبَدُوا مِنْ الأَحْبَار وَالرُّهْبَان، الَّذِينَ مَضَوْا عَلَى طَاعَة الله فَاتَّخَذَهُمْ مَنْ يَعْبُدهُمْ مِنْ أَهْل الضَّلالَة أَرْبَابًا مِنْ دُون الله. وَنَزَل فِيمَا يَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ المَلائِكَة وَأَنَّهُمْ بَنَات الله: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾، إِلَى قَوْله: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. وَنَزَل فِيمَا ذُكِرَ مِنْ أَمْر عِيسَى، وَأَنَّهُ يُعْبَد مِنْ دُون الله وَعَجِبَ الوَلِيد وَمَنْ حَضَرَهُ مِنْ حُجَّته وَخُصُومَته: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ أَيْ: مَا وَضَعْت عَلَى يَدَيْهِ مِنْ الآيَات؛ مِنْ إِحْيَاء المَوْتَى، وَإِبْرَاء الأَسْقَام، فَكَفَى بِهِ دَلِيلًا عَلَى عِلم السَّاعَة، يَقُول: ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾. وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْن الزِّبَعْرَى خَطَأ كَبِير؛ لأَنَّ الآيَة إِنَّمَا نَزَلَتْ خِطَابًا لأَهْل مَكَّة فِي عِبَادَتهمْ الأَصْنَام الَّتِي هِيَ جَمَاد لا تَعْقِل لِيَكُونَ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا لِعَابِدِيهَا، وَلِهَذَا قَال: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾. فَكَيْفَ يُورَد عَلَى هَذَا المَسِيح وَالعُزَيْر وَنَحْوهمَا، مِمَّنْ لَهُ عَمَل صَالح وَلَمْ يَرْضَ بِعِبَادَةِ

---

(١) حسن: أخرجه الحاكم (٢/ ٣٨٥)، ورواه الخطيب في «الفقيه والمتفقه»، وصححه الحاكم، وأقره الذهبي.
(٢) حسن: تقدم.

مَنْ عَبَدَهُ؟ وَعَوَّل ابْن جَرِير فِي «تَفْسِيره» فِي الجَوَاب عَلَى أَنَّ «مَا» لِمَا لا يَعْقِل عِنْد العَرَب، وَقَدْ أَسْلَمَ عَبْد الله بْن الزِّبَعْرَى بَعْد ذَلِكَ، وَكَانَ مِنْ الشُّعَرَاء المَشْهُورِينَ، كَانَ يُهَاجِي المُسْلِمِينَ أَوَّلًا، ثُمَّ قَال مُعْتَذِرًا:

يَا رَسُولَ المَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي ❁ [رَاتِقٌ][1] مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُور

إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سُنَنِ الغَيِّ ❁ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُور

وَقَوْله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾، قِيل: المُرَاد بِذَلِكَ المَوْت. رَوَاهُ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ يَحْيَى بْن رَبِيعَة عَنْ عَطَاء. وَقِيل: المُرَاد بِالفَزَعِ الأَكْبَر: النَّفْخَة فِي الصُّور. قَالَهُ العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس، وَأَبُو سِنَان سَعِيد بْن سِنَان الشَّيْبَانِيّ، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير فِي «تَفْسِيره». وَقِيل: حِين يُؤْمَر بِالعَبْدِ إِلَى النَّار. قَالَهُ الحَسَن البَصْرِيّ. وَقِيل: حِين تُطْبَق النَّار عَلَى أَهْلهَا، قَالَهُ سَعِيد بْن جُبَيْر وَابْن جُرَيْج. وَقِيل: حِين يُذْبَح المَوْت بَيْن الجَنَّة وَالنَّار. قَالَهُ أَبُو بَكْر الهُذَلِيّ فِيمَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْهُ.

وَقَوْله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾. يَعْنِي: تَقُول لَهُمْ المَلائِكَة، تُبَشِّرهُمْ يَوْم مَعَادهمْ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورهمْ: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾. أَيْ: قَابِلُوا مَا يَسُرّكُمْ.

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾.

يَقُول تَعَالَى: هَذَا كَائِن يَوْم القِيَامَة ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾. كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وَقَدْ قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُقَدَّم بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنِي عَمِّي القَاسِم بْن يَحْيَى عَنْ عُبَيْد الله، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «**إِنَّ الله يَقْبِض يَوْم القِيَامَة الأَرْضِينَ، وَتَكُون السَّمَوَات بِيَمِينِهِ**»[2]. انْفَرَدَ بِهِ مِنْ هَذَا الوَجْه البُخَارِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن الحَجَّاج الرَّقِّيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مَسْلمة عَنْ أَبِي المواصِل عَنْ أَبِي المَلِيح الأَزْدِيّ عَنْ أَبِي الجَوْزَاء الأَزْدِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: يَطْوِي الله السَّمَوَات السَّبْع بِمَا فِيهَا مِنْ الخَلِيقَة، وَالأَرْضِينَ السَّبْع بِمَا فِيهَا مِنْ الخَلِيقَة، يَطْوِي ذَلِكَ كُلّه بِيَمِينِهِ، يَكُون ذَلِكَ كُلّه فِي يَده بِمَنْزِلَةِ خَرْدَلَة.

وَقَوْله: ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾. قِيل: المُرَاد بِالسِّجِلِّ: الكِتَاب. وَقِيل: المُرَاد بِالسِّجِلِّ هَهُنَا: مَلك مِنْ المَلائِكَة. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن العَلاء، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن يَمَان، حَدَّثَنَا أَبُو الوَفَاء الأَشْجَعِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْن عُمَر فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكِتَابِ﴾، قَال: السِّجِلّ مَلك، فَإِذَا صَعِدَ بِالاسْتِغْفَارِ قَال: اكْتُبْهَا نُورًا. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْ أَبِي كُرَيْب عَنْ ابْن يَمَان بِهِ.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: وَرُوِيَ عَنْ أَبِي جَعْفَر مُحَمَّد بْن عَلِيّ بْن الحُسَيْن: أَنَّ السِّجِلّ مَلك. وَقَال السُّدِّيّ فِي هَذِهِ الآيَة: السِّجِلّ مَلك مُوَكَّل بِالصُّحُفِ، فَإِذَا مَاتَ الإِنْسَان رُفِعَ كِتَابه إِلَى السِّجِلّ فَطَوَاهُ، وَرَفَعَهُ إِلَى يَوْم القِيَامَة. وَقِيل: المُرَاد بِهِ اسْم رَجُل صَحَابِيّ كَانَ يَكْتُب لِلنَّبِيِّ ﷺ الوَحْي. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا نَصْر بْن عَلِيّ الجَهْضَمِيّ، حَدَّثَنَا نُوح بْن قَيْس، عَنْ عَمْرو بْن مَالك، عَنْ أَبِي الجَوْزَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قَال: السِّجِلّ هُوَ الرَّجُل. قَال نُوح: وَأَخْبَرَنِي يَزِيد بْن كَعْب -هُوَ العَوْذِيّ- عَنْ عَمْرو بْن مَالك، عَنْ أَبِي الجَوْزَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: السِّجِلّ كَاتِب لِلنَّبِيِّ ﷺ. وَهَكَذَا رَوَاهُ

(١) فِي نسخة: [رائق].
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤١٢).

أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ عَنْ قُتَيْبَة بْن سَعِيد، عَنْ نُوح بْن قَيْس، عَنْ يَزِيد بْن كَعْب عَنْ عَمْرو بْن مَالك، عَنْ أَبِي الجَوْزَاء عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما قَال: السِّجِلّ كَاتِب للنَّبِيِّ ﷺ. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْ نَصر بْن عَلِيّ الجَهْضَمِيّ كَمَا تَقَدَّمَ، وَرَوَاهُ ابْن عَدِيّ مِنْ رِوَايَة يَحْيَى بْن عَمْرو بْن مَالك النُّكْرِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي الجَوْزَاء عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كَانَ لرَسُول الله ﷺ كَاتِب يُسَمَّى السِّجِلّ، وَهُوَ قَوْله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قَال: كَمَا يَطْوِي السِّجِلّ الكِتَاب، كَذَلكَ نَطْوِي السَّمَاء. ثُمَّ قَال: وَهُوَ غَيْر مَحْفُوظ.

وَقَال الخَطِيب البَغْدَادِيّ فِي «تَارِيخه»: أَنْبَأَنَا أَبُو بَكْر البُرْقَانِيّ، أَنْبَأَنَا مُحَمَّد بْن مُحَمَّد بْن يَعْقُوب الحَجَّاجِيّ، أَنْبَأَنَا أَحْمَد بْن الحُسَيْن الكَرْخِيّ، أَنَّ حَمْدَان بْن سعيد حَدَّثَهُمْ، عَنْ عَبْد الله بْن نُمَيْر، عَنْ عُبَيْد الله بْن عُمَر، عَنْ نَافِع، عَنْ ابْن عُمَر قَال: السِّجِلّ كَاتِب للنَّبِيِّ ﷺ. وَهَذَا مُنْكَر جِدًّا مِنْ حَدِيث نَافِع عَنْ ابْن عُمَر لا يَصِحّ أَصْلًا، وَكَذَلكَ مَا تَقَدَّمَ عَنْ ابْن عَبَّاس مِنْ رِوَايَة أَبِي دَاوُد وَغَيْره، لا يَصِحّ أَيْضًا. وَقَدْ صَرَّحَ جَمَاعَة مِنَ الحُفَّاظ بِوَضْعِهِ -وَإِنْ كَانَ فِي سُنَن أَبِي دَاوُد- مِنْهُمْ: شَيْخُنَا الحَافِظ الكَبِير أَبُو الحَجَّاج المِزِّيّ -فَسَّحَ الله فِي عُمْره، وَنَسَأَ فِي أَجَله، وَخَتَمَ لهُ بِصَالِحِ عَمَله-، وَقَدْ أَفْرَدْت هَذَا الحَدِيث جُزْءًا عَلى حِدَة ولله الحَمْد. وَقَدْ تَصَدَّى الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير للإِنْكَارِ عَلى هَذَا الحَدِيث، وَرَدَّهُ أَتَمَّ رَدّ، وَقَال: لا يُعْرَف فِي الصَّحَابَة أَحَد اسْمه السِّجِلّ، وَكُتَّاب النَّبِيّ ﷺ مَعْرُوفُونَ، وَليْسَ فِيهِمْ أَحَد اسْمه السِّجِلّ. وَصَدَقَ رَحِمَهُ اللهُ فِي ذَلكَ، وَهُوَ مِنْ أَقْوَى الأَدِلَّة عَلى نَكَارَة هَذَا الحَدِيث. وَأَمَّا مَنْ ذَكَرَ فِي أَسْمَاء الصَّحَابَة هذا، فَإِنَّمَا اعْتَمَدَ عَلى هَذَا الحَدِيث لا عَلى غَيْره وَالله أَعْلم. وَالصَّحِيح عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّ السِّجِلّ هِيَ الصَّحِيفَة، قَالهُ عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة وَالعَوْفِيّ عَنْهُ. وَنَصَّ عَلى ذَلكَ مُجَاهِد وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير؛ لأَنَّهُ المَعْرُوف فِي اللُّغَة فَعَلى هَذَا يَكُون مَعْنَى الكَلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكِتَابِ﴾، أَيْ: عَلى الكِتَاب، بِمَعْنَى المَكْتُوب؛ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أَيْ: عَلى الجَبِين وَلهُ نَظَائِر فِي اللُّغَة، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، يَعْنِي: هَذَا كَائِن لا مَحَالة يَوْم يُعِيد الله الخَلائِق خَلقًا جَدِيدًا، كَمَا بَدَأَهُمْ هُوَ القَادِر عَلى إِعَادَتِهِمْ، وَذَلكَ وَاجِب الوُقُوع لأَنَّهُ مِنْ جُمْلة وَعْد الله الَّذِي لا يُخْلف وَلا يُبَدِّل، وَهُوَ القَادِر عَلى ذَلكَ، وَلهَذَا قَال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع وابن جَعْفَر وعفَّانُ -المعنَى-؛ قَالُوا: حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ المُغِيرَة بْن النُّعْمَان، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: قَامَ فِينَا رَسُول الله ﷺ بِمَوْعِظَةٍ فَقَال: «**إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلى الله عز وجل حُفَاة عُرَاة غُرْلًا** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾»[1]. وَذَكَرَ تَمَام الحَدِيث. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث شُعْبَة ورواه البُخَارِيّ عِنْد هَذِهِ الآيَة فِي كِتَابه. وَقَدْ رَوَى ليْث بْن أَبِي سُليْم، عَنْ مُجَاهِد عَنْ عَائِشَة، عَنْ رَسُول الله ﷺ نَحْو ذَلكَ. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ قَال: نُهْلك كُلّ شَيْء كَمَا كَانَ أَوَّل مَرَّة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ (١٠٦) وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَمَّا حَتَّمَهُ وَقَضَاهُ لعِبَادِهِ الصَّالحِينَ، مِنْ السَّعَادَة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَوِرَاثَة الأَرْض فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وَقَال:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠).

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾. وَقَال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ الآية. وَأَخْبَرَ تَعَالى أَنَّ هَذَا مَكْتوب مَسْطُور فِي الكُتُب الشَّرْعِيَّة وَالقَدَرِيَّة، فهُوَ كَائِن لا مَحالة، وَلهَذَا قَال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾.

قَال الأَعْمَش: سَأَلت سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ قَوْله تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾؟ فَقَال: الزَّبُور: التَّوْرَاة، وَالإِنْجِيل، وَالقُرْآن. وَقَال مُجَاهِد: الزَّبُور: الكِتَاب. وَقَال ابْن عَبَّاس وَالشَّعْبِيّ وَالحَسَن وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد: الزَّبُور: الَّذِي أُنْزِل عَلى دَاوُد، وَالذِّكْر: التَّوْرَاة. وَعَنْ ابْن عَبَّاس: الزَّبُور: القُرْآن. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: الذِّكْر الَّذِي فِي السَّمَاء. وَقَال مُجَاهِد: الزَّبُور: الكُتُب بَعْد الذِّكْر، وَالذِّكْر: أُمّ الكِتَاب عِنْد الله. وَاخْتَارَ ذَلِكَ ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَذَا قَال زَيْد بْن أَسْلم: هُوَ الكِتَاب الأَوَّل. وَقَال الثَّوْرِيّ: هُوَ اللَّوْح المَحْفُوظ. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم: الزَّبُور: الكُتُب الَّتِي أُنْزِلتْ عَلى الأَنْبِيَاء، وَالذِّكْر: أُمّ الكِتَاب الَّذِي يُكْتَب فِيهِ الأَشْيَاء قَبْل ذَلكَ. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: أَخْبَرَ الله سُبْحَانه وَتَعَالى فِي التَّوْرَاة وَالزَّبُور وَسَابِق عِلمه قَبْل أَنْ تَكُون السَّمَوَات وَالأَرْض، أَنْ يُورِث أُمَّة مُحَمَّد ﷺ الأَرْض، وَيُدْخِلهُمْ الجَنَّة، وَهُمْ الصَّالحُونَ. وَقَال مُجَاهِد: عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، قَال: أَرْض الجَنَّة. وَكَذَا قَال أَبُو العَالية، وَمُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالشَّعْبِيّ، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ وَأَبُو صَالح، وَالرَّبِيع بْن أَنَس، وَالثَّوْرِيّ. وَقَال أَبُو الدَّرْدَاء: نَحْنُ الصَّالحُونَ. وَقَال السُّدِّيّ: هُمْ المُؤْمِنُونَ.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾. أَيْ: إِنَّ فِي هَذَا القُرْآن الَّذِي أَنْزَلنَاهُ عَلى عَبْدنَا مُحَمَّد ﷺ ﴿لَبَلَاغًا﴾: لمَنْفَعَة وَكِفَايَة ﴿لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾، وَهُمْ الَّذِينَ عَبَدُوا الله بِمَا شَرَعَهُ وَأَحَبَّهُ وَرَضِيَهُ، وَآثَرُوا طَاعَة الله عَلى طَاعَة الشَّيْطَان وَشَهَوَات أَنْفُسهمْ.

وَقَوْله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. يُخْبِر تَعَالى أَنَّ الله جَعَل مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَة للعَالمِينَ، أَيْ: أَرْسَلهُ رَحْمَة لهُمْ كُلّهِمْ، فَمَنْ قَبِل الرَّحْمَة، وَشَكَرَ هَذِهِ النِّعْمَة؛ سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة وَمَنْ رَدَّهَا وَجَحَدَهَا خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَة كَمَا قَال تَعَالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾. وَقَال الله تَعَالى فِي صِفَة القُرْآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾. وَقَال مُسْلم فِي صَحِيحه: حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عُمَر، حَدَّثَنَا مَرْوَان الفَزَارِيّ، عَنْ يَزِيد بْن كَيْسَان، عَنْ ابْن أَبِي حَازِم عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قِيل: يَا رَسُول الله، ادْعُ عَلى المُشْرِكِينَ قَال: «**إِنِّي لمْ أُبْعَث لعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْت رَحْمَة**»[1]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلم. وَفِي الحَدِيث الآخَر: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَة مُهْدَاة». رَوَاهُ عَبْد الله بْن أَبِي عرابة وَغَيْره، عَنْ وَكِيع، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَرْفُوعًا. قَال إِبْرَاهِيم الحَرْبِيّ: وَقَدْ رَوَاهُ غَيْره عَنْ وَكِيع فَلمْ يَذْكُر أَبَا هُرَيْرَة، وَكَذَا قَال البُخَارِيّ، وَقَدْ سُئِل عَنْ هَذَا الحَدِيث فَقَال: كَانَ عِنْد حَفْص بْن غِيَاث مُرْسَلًا.

قَال الحَافِظ ابْن عَسَاكِر: وَقَدْ رَوَاهُ مَالك بْن سَعِير بْن الخمس عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَرْفُوعًا. ثُمَّ سَاقَهُ مِنْ طَرِيق أَبِي بَكْر ابْن المُقْرِي وَأَبِي أَحْمَد الحَاكِم، كِلاهُمَا عَنْ بَكْر بْن مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم الصُّوفِيّ،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٥٩).

حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن سَعِيد الجَوْهَرِيّ عَنْ أَبِي أُسَامَة، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالد عَنْ قَيْس بْن أَبِي حَازِم عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله: «**إِنَّمَا أَنَا رَحْمَة مُهْدَاة**»[١]. ثُمَّ أَوْرَدَهُ مِنْ طَرِيق الصَّلت بْن مَسْعُود، عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة عَنْ مِسْعَر عَنْ سَعِيد بْن خَالد عَنْ رَجُل، عَنْ ابْن عُمَر قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الله بَعَثَنِي رَحْمَة مُهْدَاة، بُعِثْت بِرَفْعِ قَوْم وَخَفْض آخَرِينَ».[٢]

قَال أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن نَافِع الطَّحَّان، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن صَالح قَال: وَجَدْت كِتَابًا بِالمَدِينَةِ عَنْ عَبْد العَزِيز الدَّرَاوَرْدِيّ وَإِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد بْن عُمَر بْن عبد العزيز بن عُمَر بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْد العَزِيز بْن عَمْرو بْن عَوْف، عَنْ مُحَمَّد بْن صَالح التَّمَار عَنْ ابْن شِهَاب عَنْ مُحَمَّد بْن جُبَيْر بْن مُطْعِم، عَنْ أَبِيهِ قَال: قَال أَبُو جَهْل حِين قَدِمَ مَكَّة مُنْصَرِفَه عَنْ حَمْزَة: يَا مَعْشَر قُرَيْش، إِنَّ مُحَمَّدًا نَزَل يَثْرِب وَأَرْسَل طَلَائِعه، وَإِنَّمَا يُرِيد أَنْ يُصِيب مِنْكُمْ شَيْئًا، فَاحْذَرُوا أَنْ تَمُرُّوا طَرِيقه أَوْ تُقَارِبُوهُ فَإِنَّهُ كَالأَسَدِ الضَّارِي، إِنَّهُ حَنِق عَلَيْكُمْ؛ لأَنَّكُمْ نَفَيْتُمُوهُ نَفْي القِرْدَانِ عَنْ المَنَاسِم، وَالله إِنَّ لَهُ لسَحَرَة، مَا رَأَيْته قَطُّ وَلا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابه إِلَّا رَأَيْت مَعَهُمْ الشيطان، وَإِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ عَدَاوَة ابْنَيْ قَيْلَة -يَعْنِي الأَوْس وَالخَزْرَج- لَهُوَ عَدُوّ اسْتَعَانَ بِعَدُوٍّ، فَقَال لَهُ مُطْعِم بْن عَدِيّ: يَا أَبَا الحَكَم، وَالله مَا رَأَيْت أَحَدًا أَصْدَق لسَانًا وَلا أَصْدَق مَوْعِدًا مِنْ أَخِيكُمْ الَّذِي طَرَدْتُمْ، وَإِذْ فَعَلتُمْ، الَّذِي فَعَلتُمْ فَكُونُوا أَكَفّ النَّاس عَنْهُ. قَال أَبُو سُفْيَان ابْن الحَارِث: كُونُوا أَشَدّ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ، فَإِنَّ ابْنَيْ قَيْلَة إِنْ ظَفِرُوا بِكُمْ لمْ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّة، وَإِنْ أَطَعْتُمُونِي أَلجَأْتُمُوهُمْ خير كنابة، أَوْ تُخْرِجُوا مُحَمَّدًا مِنْ بَيْن ظَهْرَانَيْهِمْ، فَيَكُون وَحِيدًا مَطْرُودًا، وَأَمَّا ابْنَا قَيْلَة فَوَالله مَا هُمَا وَأَهْل دَهْلك فِي المَذَلَّة إِلَّا سَوَاء، وَسَأَكْفِيكُمْ حَدّهمْ، وَقَال:

سَأَمْنَحُ جَانِبًا مِنِّي غَلِيظًا ۞ عَلى مَا كَانَ مِنْ قُرْب وَبُعْد
رِجَال الخَزْرَجِيَّة أَهْل ذُلّ ۞ إِذَا مَا كَانَ هَزْل بَعْد جِدّ

فَبَلغَ ذَلكَ رَسُول الله ﷺ فَقَال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأَقْتُلنَّهُمْ ولأُصَلبَنَّهُم ولأَهْدِيَنَّهُمْ وَهُمْ كَارِهُونَ، إِنِّي رَحْمَة بَعَثَنِي الله، وَلا يَتَوَفَّانِي حَتَّى يُظْهِر الله دِينه، لي خَمْسَة أَسْمَاء: أَنَا مُحَمَّد وَأَحْمَد، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو الله بِي الكُفْر، وَأَنَا الحَاشِر الَّذِي يُحْشَر النَّاس عَلى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِب»[٣]. وَقَال أَحْمَد بْن صَالح: أَرْجُو أَنْ يَكُون الحَدِيث صَحِيحًا. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن عَمْرو، حَدَّثَنَا زَائِدَة، حَدَّثَنِي عَمْرو بْن قَيْس، عَنْ عَمْرو ابْن أَبِي قُرَّة الكِنْدِيّ، قَال: كَانَ حُذَيْفَة بِالمَدَائِنِ فَكَانَ يَذْكُر أَشْيَاء قَالهَا رَسُول الله ﷺ فَجَاءَ حُذَيْفَة إِلى سَلمَان، فَقَال سَلمَان يَا حُذَيْفَة إِنَّ رَسُول الله ﷺ كان يغضب فيقول، ويرضى فيقول، لقد علمت أن رسول الله ﷺ خَطَبَ فَقَال: «**أَيمَا رَجُل من امتي سَبَبْته سبةً فِي غَضَبِي أَوْ لعَنْته لعْنَة، فَإِنَّمَا أَنَا رَجُل مِنْ وَلد آدم أَغْضَب كَمَا يغْضَبُونَ، وَإِنَّمَا بَعَثَنِي الله رَحْمَة للعَالمِينَ فَأَجْعَلهَا صَلاة عَليْهِ يَوْم القِيَامَة**»[٤]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد عَنْ أَحْمَد بْن يُونُس عَنْ زَائِدَة.

فَإِنْ قِيل: فَأَيّ رَحْمَة حَصَلتْ لمَنْ كَفَرَ بِهِ؟ فَالجَوَاب مَا رَوَاهُ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن شَاهِين، حَدَّثَنَا إِسْحَاق الأَزْرَق، عَنْ المَسْعُودِيّ عَنْ رَجُل -يُقَال لهُ سَعِيد- عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله:

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢٣١)، وابن سعد في «الطبقات»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٢٣٤٥).

(٢) **ضعيف**: لأن في إسناده رجلاً لم يسم، ومعناه صحيح، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (١٥٨٠).

(٣) **ضعيف**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٢٥/ ١٥٣٢) بسند ضعيف.

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٧)، وأبو داود (٤٦٥٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾. قَال: مَنْ آمَنَ بالله وَاليَوْم الآخِر، كُتِبَ لهُ الرَّحْمَة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَمَنْ لمْ يُؤْمِن بالله وَرَسُوله عُوفِيَ مِمَّا أَصَابَ الأُمَم مِنْ الخَسْف وَالقَذْف. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث المَسْعُودِيّ، عَنْ أَبِي سَعْد -وَهُوَ سَعِيد بْن المَرْزُبَان البَقَّال- عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس فَذَكَرَهُ بِنَحْوِهِ، وَالله أَعْلم. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: عَنْ عَبْدَان بْن أَحْمَد، عَنْ عِيسَى بْن يُونُس الرَّمْلِيّ، عَنْ أَيُّوب بْن سُوَيْد، عَنْ المَسْعُودِيّ، عَنْ حَبِيب بْن أَبِي ثَابِت، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، قَال: مَنْ تَبِعَهُ كَانَ لهُ رَحْمَة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَمَنْ لمْ يَتْبَعهُ عُوفِيَ مِمَّا كَانَ يُبْتَلى بِهِ سَائِر الأُمَم مِنْ الخَسْف وَالمَسْخ وَالقَذْف.

﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى آمِرًا رَسُوله ﷺ أَنْ يَقُول للمُشْرِكِينَ: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾. أَيْ: مُتَّبِعُونَ عَلى ذَلِكَ، مُسْتَسْلمُونَ مُنْقَادُونَ لهُ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أَيْ: تَرَكُوا مَا دَعَوْتهمْ إِليْهِ؛ ﴿فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾ أَيْ: أَعْلمْتُكُمْ أَنِّي حَرْب لكُمْ، كَمَا أَنَّكُمْ حَرْب لِي، بَرِيء مِنْكُمْ كَمَا أَنْتُمْ بُرَآء مِنِّي، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾. وَقَال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾. أَيْ: ليَكُنْ عِلمك وَعِلمهمْ بِنَبْذِ العُهُود عَلى السَّوَاء، وَهَكَذَا هَهُنَا: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾، أَيْ: أعلمتكم بِبَرَاءَتِي مِنْكُمْ، وَبَرَاءَتكُمْ مِنِّي، لِعلمِي بِذَلك.

وَقَوْله: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾، أَيْ: هُوَ وَاقِع لا مَحَالة، وَلكِنْ لا عِلم لِي بِقُرْبِهِ وَلا بِبُعْدِهِ. ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾، أَيْ: إِنَّ الله يَعْلم الغَيْب جَمِيعه، وَيَعْلم مَا يُظْهِرهُ العِبَاد وَمَا يُسِرُّونَ، يَعْلم الظَّوَاهِر وَالضَّمَائِر، وَيَعْلم السِّرّ وَأَخْفَى، وَيَعْلم مَا العِبَاد عَامِلُونَ فِي أَجْهَارهمْ وَأَسْرَارهمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلى ذَلكَ، عَلَى القَليل وَالجَليل.

وَقَوْله: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أَيْ: وَمَا أَدْرِي لعَلَّ هَذَا فِتْنَة لكُمْ وَمَتَاع إِلى حِين.

قَال ابْن جَرِير: لعَلَّ تَأْخِير ذَلكَ عَنْكُمْ فِتْنَة لكُمْ، وَمَتَاع إِلى أَجَل مُسَمًّى. وَحَكَاهُ عَوْن عَنْ ابْن عَبَّاس، والله أَعْلم. ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾، أَيْ: افْصِل بَيْننَا وَبَيْن قَوْمنَا المُكَذِّبِينَ بِالحَقِّ. قَال قَتَادَة: كَانَتْ الأَنْبِيَاء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾. وَأُمِرَ رَسُول الله ﷺ أَنْ يَقُول ذَلكَ. وَعَنْ مَالك عَنْ زَيْد بْن أَسْلم: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا شَهِدَ قِتَالاً قَال: رَبِّ احْكُمْ بِالحَقِّ.

وَقَوْله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. أَيْ: عَلى مَا يَقُولُونَ وَيَفْتَرُونَ مِنْ الكَذِب، وَيَتَنَوَّعُونَ فِي مَقَامَات التَّكْذِيب وَالإِفْك، وَالله المُسْتَعَان عَليْكُمْ فِي ذَلكَ.

آخِر تَفْسِير سُورَة الأَنْبِيَاء عليهم السلام وَلله الحَمْد وَالمِنَّة

تفسير سورة الحج وهي مدنية

ترتيبها ٢٢ — وآياتها ٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

يَقُول تَعَالى آمِرًا عِبَاده بِتَقْوَاهُ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ بِمَا يَسْتَقْبِلُونَ مِنْ أَهْوَال يَوْم القِيَامَة وَزَلازِلهَا وَأَحْوَالهَا. وَقَدْ اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي زَلْزَلة السَّاعَة، هَل هِيَ بَعْد قِيَام النَّاس مِنْ قُبُورهمْ يَوْم نُشُورهمْ إِلى عَرَصَات القِيَامَة؟ أَوْ ذَلكَ عِبَارَة عَنْ زَلْزَلة الأَرْض قَبْل قِيَام النَّاس مِنْ أَجْدَاثهمْ؟ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾. فَقَال قَائِلُونَ: هَذِهِ الزَّلْزَلة كَائِنَة فِي آخِر عُمْر الدُّنْيَا، وَأَوَّل أَحْوَال السَّاعَة.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن بَشَّار حَدَّثَنَا يَحْيَى حَدَّثَنَا سُفْيَان عَنْ الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ عَلقَمَة فِي قَوْله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾. قَال: قَبْل السَّاعَة. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث الثَّوْرِيّ عَنْ مَنْصُور وَالأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ عَلقَمَة، فَذَكَرَهُ. قَال: وَرُوِيَ عَنْ الشَّعْبِيّ، وَإِبْرَاهِيم، وَعُبَيْد بْن عُمَيْر، نَحْو ذَلكَ.

وَقَال أَبُو كُدَيْنَة عَنْ عَطَاء، عَنْ عَامِر الشَّعْبِيّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ الآيَة. قَال: هَذَا فِي الدُّنْيَا قَبْل يَوْم القِيَامَة. وَقَدْ أَوْرَدَ الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير مُسْتَنَد مَنْ قَال ذَلكَ فِي حَدِيث الصُّور، مِنْ رِوَايَة إِسْمَاعِيل بْن رَافِع قَاضِي أَهْل المَدِينَة، عَنْ يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد، عَنْ رَجُل مِنْ الأَنْصَار، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، عَنْ رَجُل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الله لَمَّا فَرَغَ مِنْ خَلق السَّمَوَات وَالأَرْض خَلقَ الصُّور فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيل، فَهُوَ وَاضِعه عَلى فِيهِ شَاخِص بِبَصَرِهِ إِلى العَرْش يَنْتَظِر مَتَى يُؤْمَر». قَال أَبُو هُرَيْرَة: يَا رَسُول الله، وَمَا الصُّور؟ قَال: «قَرْن». قَال: فَكَيْف هُوَ؟ قَال: «قَرْن عَظِيم، يَنْفُخ فِيهِ ثَلاث نَفَخَات؛ الأُولى: نَفْخَة الفَزَع، وَالثَّانِيَة: نَفْخَة الصَّعْق، وَالثَّالثَة: نَفْخَة القِيَام لرَبِّ العَالمِينَ، يَأْمُر الله إِسْرَافِيل بِالنَّفْخَةِ الأُولى، فَيَقُول: انْفُخْ نَفْخَة الفَزَع، فَيَفْزَع أَهْل السَّمَوَات وَأَهْل الأَرْض، إِلاَّ مَنْ شَاءَ الله، وَيَأْمُرهُ فَيَمُدّهَا وَيُطَوِّلهَا وَلا يَفْتُر، وَهِيَ الَّتِي يَقُول الله تَعَالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾. فَيسير الله الجِبَال فَتَكُون سَرَابًا. وَتُرَجّ الأَرْض بِأَهْلهَا رَجًّا، وَهِيَ الَّتِي يَقُول الله تَعَالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾. فَتَكُون الأَرْض كَالسَّفِينَةِ المُوبَقَة فِي البَحْر تَضْرِبهَا الأَمْوَاج تَكْفَؤُهَا بِأَهْلهَا، وَكَالقِنْدِيل المُعَلَّق بِالعَرْش تُرَجِّحهُ الأَرْوَاح، فَيَمْتَدّ النَّاس عَلى ظَهْرهَا فَتَذْهَل المَرَاضِع، وَتَضَع الحَوَامِل، وَيَشِيب الوِلدَان، وَتَطِير الشَّيَاطِين هَارِبَة حَتَّى تَأْتِي الأَقْطَار، فَتَلقَاهَا المَلائِكَة فَتَضْرِب وُجُوههَا، فَتَرْجِع، وَيُوَلِّي النَّاس مُدْبِرِينَ، يُنَادِي بَعْضهمْ بَعْضًا، وَهُو الذي يَقُول الله تَعَالى: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ فَبَيْنَمَا هُمْ عَلى ذَلكَ إِذْ تَصَدَّعَتْ الأَرْض مِنْ قُطْر إِلى قُطْر، وَرَأَوْا أَمْرًا عَظِيمًا فَأَخَذَهُمْ لذَلكَ مِنْ الكَرْب مَا الله أَعْلم بِهِ، ثُمَّ نَظَرُوا إِلى السَّمَاء فَإِذَا هِيَ كَالمُهْل، ثُمَّ خُسِفَ شَمْسهَا وَخُسِف قَمَرهَا وَانْتَثَرَتْ نُجُومهَا ثُمَّ كُشِطَتْ عَنْهُمْ».
قَال رَسُول الله ﷺ: «وَالأَمْوَات لا يَعْلمُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلكَ».

قَال أَبُو هُرَيْرَة: ثُمَّ اسْتَثْنَى الله حِين يَقُول: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾. قَال: «أُولَئِكَ الشُّهَدَاء، وَإِنَّمَا يَصِل الفَزَع إِلَى الأَحْيَاء، أُولَئِكَ أَحْيَاء عِنْد رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ وَوَقَاهُمْ الله شَرّ ذَلِكَ اليَوْم وَآمَنَهُمْ، وَهُوَ عَذَاب الله يَبْعَثهُ عَلَى شِرَار خَلقه، وَهُوَ الَّذِي يَقُول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾»[1]. وَهَذَا الحَدِيث قَدْ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ، وَابْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم، وَغَيْر وَاحِد مُطَوَّلًا جِدًّا، وَالغَرَض مِنْهُ أَنَّهُ دَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الزَّلزَلة كَائِنَة قَبْل يَوْم السَّاعَة، وأُضِيفَتْ إِلَى السَّاعَة لِقُرْبِهَا مِنْهَا، كَمَا يُقَال: أَشْرَاط السَّاعَة، وَنَحْو ذَلِكَ، وَالله أَعْلم.

وَقَال آخَرُونَ: بَل ذَلِكَ هَوْل وَفَزَع، وَزِلزَال وَبِلبَال، كَائِن يَوْم القِيَامَة فِي العَرَصَات، بَعْد القِيَامَة مِنْ القُبُور. وَاخْتَارَ ذَلِكَ ابْن جَرِير وَاحْتَجُّوا بِأَحَادِيث:

الأَوَّل: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا يَحْيَى، عَنْ هِشَام، حَدَّثنَا قَتَادَة، عَنْ الحَسَن، عَنْ عِمْرَان بْن حُصَيْن أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال وَهُوَ فِي بَعْض أَسْفَاره، وَقَدْ تَفَاوتَ بَيْن أَصْحَابِهِ السَّيْر، رَفَعَ بِهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ صَوْته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾. فَلَمَّا سَمِعَ أَصْحَابه بِذَلِكَ حَثُّوا المَطِيّ وَعَرَفُوا أَنَّهُ عِنْد قَوْل يَقُولهُ، فَلَمَّا تَأَشَّبوا حَوْله قَال: «**أَتَدْرُونَ أَيّ يَوْم ذَاك؟ ذَاكَ يَوْم يُنَادَى آدَم** عَلَيْهِ السَّلَامُ **فَيُنَادِيه رَبّه** عَزَّ وَجَلَّ **فَيَقُول: يَا آدَم، ابْعَثْ بَعْثك إِلَى النَّار. فَيَقُول: يَا رَبِّ؛ وَمَا بَعْث النَّار؟ فَيَقُول: مِنْ كُلّ أَلف تِسْعمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فِي النَّار، وَوَاحِد فِي الجَنَّة**». قَال: فَأُبْلِسَ أَصْحَابه حَتَّى مَا أَوْضَحُوا بِضَاحِكَة، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَال: «**أَبْشِرُوا وَاعْمَلُوا، فَوَالَّذِي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتَا مَعَ شَيْء قَطُّ إِلاَّ كَثَّرَتَاهُ؛ يَأْجُوج وَمَأْجُوج، وَمَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَم وَبَنِي إِبْلِيس**». قَال: فَسُرِّيَ عَنْهُمْ ثُمَّ قَال: «**اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا، فَوَالَّذِي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاس إِلاَّ كَالشَّامَةِ فِي جَنْب البَعِير، أَوْ الرَّقْمَة فِي ذِرَاع الدَّابَّة**»[2]. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي -كِتَاب التَّفْسِير- مِنْ «سُنَنَيْهِمَا»، عَنْ مُحَمَّد بْن بَشَّار عَنْ يَحْيَى وَهُوَ القَطَّان عَنْ هِشَام وَهُوَ الدَّسْتُوَائِيّ عَنْ قَتَادَة، بِهِ بِنَحْوِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح.

طَرِيق أُخْرَى لِهَذَا الحَدِيث: قَال التِّرْمِذِيّ: حَدَّثنَا ابْن أَبِي عُمَر حَدَّثنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة حَدَّثنَا ابْن جُدْعَان عَنْ الحَسَن عَنْ عِمْرَان بْن حُصَيْن أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾. قَال: أُنْزِلت عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَة وَهُوَ فِي سَفَر، فَقَال: «**أَتَدْرُونَ أَيّ يَوْم ذَلِكَ؟**» فَقَالُوا: الله وَرَسُوله أَعْلم. قَال: «ذَلِكَ يَوْم يَقُول الله لِآدَم: ابْعَثْ بَعْث النَّار. قَال: يَا رَبّ وَمَا بَعْث النَّار؟ قَال: تِسْعمِائَةٍ وَتِسْعَة وَتِسْعُونَ إِلَى النَّار، وَوَاحِد إِلَى الجَنَّة». فَأَنْشَأَ المُسْلِمُونَ يَبْكُونَ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّة قَطُّ إِلاَّ كَانَ بَيْن يَدَيْهَا جَاهِلِيَّة». قَال: «فَيُؤْخَذ العَدَد مِنْ الجَاهِلِيَّة، فَإِنْ تَمَّتْ وَإِلاَّ كَمُلَتْ مِنْ المُنَافِقِينَ، وَمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَل الأُمَم إِلاَّ كَمَثَل الرَّقْمَة فِي ذِرَاع الدَّابَّة، أَوْ كَالشَّامَةِ فِي جَنْب البَعِير». ثُمَّ قَال: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبع أَهْل الجَنَّة». فَكَبَّرُوا، ثُمَّ قَال: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ

---

(١) **ضعيف**: تقـدم.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣١٦٨، ٣١٦٩)، والنسائي (١١٣٤٠) من «الكبرى»، وأحمد (٤/ ٤٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣١٦٩).

تكُونُوا ثُلُث أَهْل الجَنَّة». فكَبَّرُوا، ثُمَّ قَال: «إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تكُونُوا نِصْف أَهْل الجَنَّة». فكَبَّرُوا، قَال: وَلا أَدْرِي أَقَال الثُّلُثَيْنِ أَمْ لا.[١] وَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمد عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة بِهِ، ثُمَّ قَال التِّرْمِذِيّ أَيْضًا: هَذَا حَدِيث صَحِيح. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ سِعيد بن أبي عَرُوبة عَنْ الحَسَن عَنْ عِمْرَان بْن الحُصَيْن. وَقَدْ رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث سَعِيد ابْن أَبِي عَرُوبَة عَنْ قَتَادَة، عَنْ الحَسَن وَالعَلاء بْن زِيَاد العَدَوِيّ عَنْ عِمْرَان بْن الحُصَيْنِ فذَكَرَهُ. وَهَكَذَا رَوَى ابْن جَرِير عَنْ بُنْدَار، عَنْ غُنْدَر عَنْ عَوْف، عَنْ الحَسَن؛ قَال: بَلغَنِي أَنَّ رَسُول الله ﷺ لـمَّا قفَل مِنْ غَزْوَة العُسْرَة وَمَعَهُ أَصْحَابه بَعْدَمَا شَارَفَ المَدِينَة قَرَأَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ وَذَكَر الحَدِيث، فَذَكَرَ نَحْو سِيَاق ابْن جُدْعَان، فالله أَعْلم.

الحَدِيث الثَّانِي: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا ابْن الطَّبَّاع حَدَّثنَا أَبُو سُفْيَان المَعْمَرِيّ عَنْ مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة عَنْ أَنَس؛ قَال: نَزَلتْ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ....﴾ وَذَكَر، يَعْنِي: نَحْو سِيَاق الحَسَن عَنْ عِمْرَان، غَيْر أَنَّهُ قَال: «وَمَنْ هَلكَ مِنْ كَثْرَة الجِنّ وَالإِنْس». وَرَوَاهُ ابْن جَرِير بِطُوله مِنْ حَدِيث مَعْمَر بِه.

الحَدِيث الثَّالث: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا سَعِيد بْن سُلَيْمان، حَدَّثنَا عَبَّاد -يَعْنِي ابْن العَوَّام- حَدَّثنَا هِلال بْن خبَّاب عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَال: تَلا رَسُول الله ﷺ هَذِهِ الآيَة فَذَكَرَ نَحْوه وَقَال فِيهِ: **«إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْع أَهْل الجَنَّة»**. ثُمَّ قَال: **«إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُث أَهْل الجَنَّة»**. ثُمَّ قَال: **«إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْر أَهْل الجَنَّة»**. فَفَرِحُوا، وَزَادَ أَيْضًا: **«وَإِنَّمَا أَنْتُمْ جُزْء مِنْ أَلف جُزْء»**.[٢]

الحَدِيث الرَّابع: قَال البُخَارِيّ عِنْد هَذِهِ الآيَة: حَدَّثنَا عُمَر بْن حَفْص، حَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا الأَعْمَش، حَدَّثنَا أَبُو صَالح عَنْ أَبِي سَعِيد؛ قَال: قَال رسول الله ﷺ: **«يَقُول الله تَعَالى يَوْم القِيَامَة: يَا آدَم؛ فَيَقُول: لبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْك. فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ الله يَأْمُرك أَنْ تُخرِج مِنْ ذُرِّيَّتك بَعْثًا إِلى النَّار. قَال: يَا رَبِّ؛ وَمَا بَعْث النَّار؟ قَال: مِنْ كُلّ أَلف»**. أَرَاهُ قَال: **«تِسْعمِائَةٍ وَتِسْعَة وَتِسْعُونَ لهُ». «فَحِينَئِذٍ تَضَع الحَامِل حَمْلهَا وَيَشِيب الوَلِيد، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾»**. فَشَقَّ ذَلكَ عَلى النَّاس حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوههمْ. قَال النَّبِيّ ﷺ: **«مِنْ يَأْجُوج وَمَأْجُوج تِسْعمِائَةٍ وَتِسْعَة وَتِسْعُونَ وَمِنْكُمْ وَاحِد، ثم أَنْتُمْ فِي النَّاس كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاء فِي جَنْب الثَّوْر الأَبْيَض، أَوْ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاء فِي جَنْب الثَّوْر الأَسْوَد، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْع أَهْل الجَنَّة»**. فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَال: **«ثُلُث أَهْل الجَنَّة»**. فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَال: **«شَطْر أَهْل الجَنَّة»**. فَكَبَّرْنَا. وَقَدْ رَوَاهُ البُخَارِيّ أَيْضًا فِي غَيْر هَذَا المَوْضِع وَمُسْلم وَالنَّسَائِيّ فِي تَفْسِيره مِنْ طُرُق عَنْ الأَعْمَش بِهِ.[٣]

الحَدِيث الخَامِس: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا عمار بْن مُحَمَّد ابْن أُخْت سُفْيَان الثَّوْرِيّ وَعُبَيْدَة المعنى، كِلاهُمَا عَنْ إِبْرَاهِيم بْن مُسْلم عَنْ أَبِي الأَحْوَص عَنْ عَبْد الله قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«إِنَّ الله يَبْعَث يَوْم القِيَامَة مُنَادِيًا ينادي: يَا آدَم؛ إِنَّ الله يَأْمُرك أَنْ تَبْعَث بَعْثًا مِنْ ذُرِّيَّتك إِلى النَّار. فَيَقُول آدَم: يَا رَبِّ؛ مَنْ هُمْ؟ فَيُقَال لهُ: مِنْ كُلّ مِائَة تِسْعَة وتسعين»**. فَقَال رَجُل مِنْ القَوْم: مَنْ هَذَا النَّاجِي مِنَّا بَعْد هَذَا يَا رَسُول الله؟! قَال: **«هَل تَدْرُونَ مَا أَنْتُمْ فِي النَّاس إِلاَّ كَالشَّامَةِ فِي صَدْر البَعِير»**[٤]. انْفَرَدَ بِهَذَا السَّنَد وَهَذَا السِّيَاق: الإِمَام أَحْمَد.

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣١٦٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».
(٢) حسن: وهو شاهد للحديث السابق، وقد عزاه ابن كثير لابن أبي حاتم.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٤١)، ومسلم (٢٢٢).
(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٨)، وهو شاهد للحديث السابق.

الحَدِيث السَّادِس: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى عَنْ حَاتِم بْن أَبِي صَغِيرة حَدَّثَنَا ابْن أَبِي مُلَيْكَة أَنَّ القَاسِم بْن مُحَمَّد أَخْبَرَهُ عَنْ عَائِشَة عَنْ النَّبِيّ ﷺقَال: «**إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ يَوْم القِيَامَة حُفَاة عُرَاة غُرْلاً**». قَالَتْ عَائِشَة: يَا رَسُول الله الرِّجَال وَالنِّسَاء يَنْظُر بَعْضهمْ إِلَى بَعْض؟ قَال: «**يَا عَائِشَة، إِنَّ الأَمْر أَشَدّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكَ**».[1] أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

الحَدِيث السَّابِع: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، عَنْ خَالد بْن أَبِي عِمْرَان، عَنْ القَاسِم بْن مُحَمَّد عَنْ عَائِشَة؛ قَالَتْ: قُلت: يَا رَسُول الله، هَل يَذْكُر الحَبِيب حَبِيبه يَوْم القِيَامَة؟ قَال: «يَا عَائِشَة؛ أَمَّا عِنْد ثَلاث فَلا: أَمَّا عِنْد المِيزَان حَتَّى يَثْقُل أَوْ يَخِفّ فَلا، وَأَمَّا عِنْد تَطَايُر الكُتُب فإِمَّا يُعْطَى بِيَمِينِهِ أو يُعْطَى بِشِمَالِهِ فَلا، وَحِين يَخْرُج عُنُق مِنْ النَّار فَيَنْطوي عَلَيْهِمْ، وَيَتَغَيَّظ عَلَيْهِمْ، وَيَقُول ذَلِكَ العُنُق: وُكِّلت بِثَلاثَةٍ، وُكِّلت بِثَلاثَةٍ، وُكِّلت بِثَلاثَةٍ: وُكِّلت بِمَنْ ادَّعَى مَعَ الله إِلهًا آخَر، وَوُكِّلت بِمَنْ لا يُؤْمِن بِيَوْمِ الحِسَاب، وَوُكِّلت بِكُلِّ جَبَّار عَنِيد». قَال: «فَيَنْطَوِي عَلَيْهِمْ، وَيَرْمِيهِمْ فِي غَمَرَات، وَلِجَهَنَّم جِسْر أَرَقّ مِنْ الشَّعْر، وَأَحَدّ مِنْ السَّيْف، عَلَيْهِ كَلالِيب وَحَسَك يَأْخُذْنَ مَنْ شَاءَ الله، وَالنَّاس عَلَيْهِ كَالطَّرْفِ وكَالبَرْقِ وَكَالرِّيح، وَكَأَجَاوِيد الخَيْل وَالرِّكَاب، وَالمَلائِكَة يَقُولُونَ: رَبّ سَلِّمْ سَلِّمْ. فَنَاج مُسَلَّم، وَمَخْدُوش مُسَلَّم، وَمُكَوَّر فِي النَّار عَلَى وَجْهه».[2]

وَالأَحَادِيث فِي أَهْوَال يَوْم القِيَامَة وَالآثَار كَثِيرَة جِدًّا، لَهَا مَوْضِع آخَر، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾، أَيْ: أَمْر كَبِير وَخَطْب جَلِيل، وَطَارِق مُفْظِع، وَحَادِث هَائِل، وَكَائِن عَجِيب. وَالزِّلْزَال هُوَ: مَا يَحْصُل لِلنُّفُوسِ مِنْ الرُّعْب وَالفَزَع، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾. ثُمَّ قَال تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾. هَذَا مِنْ بَاب ضَمِير الشَّأْن وَلِهَذَا قَال مُفَسِّرًا لَهُ: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾. أَيْ: فَتَشْتَغِل لِهَوْل مَا تَرَى عَنْ أَحَبّ النَّاس إِلَيْهَا، وَالَّتِي هِيَ أَشْفَق النَّاس عَلَيْهِ تُدْهَش عَنْهُ فِي حَال إِرْضَاعهَا لَهُ، وَلِهَذَا قَال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، وَلَمْ يَقُل: مُرْضِع وَقَال: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أَيْ: عَنْ رَضِيعهَا قَبْل فِطَامه.

وَقَوْله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾. أَيْ: قَبْل تَمَامه لِشِدَّةِ الهَوْل، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ وَقُرِئَ ﴿سَكْرَى﴾ أَيْ: مِنْ شِدَّة الأَمْر الَّذِي قَدْ صَارُوا فِيهِ قَدْ دَهِشَتْ عُقُولهمْ، وَغَابَتْ أَذْهَانهمْ، فَمَنْ رَآهُمْ حَسِبَ أَنَّهُمْ سُكَارَى ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

يَقُول تَعَالَى ذَامًّا لِمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ، وَأَنْكَرَ قُدْرَة الله عَلَى إِحْيَاء المَوْتَى، مُعْرِضًا عَمَّا أَنْزَل الله عَلَى أَنْبِيَائِهِ، مُتَّبِعًا فِي قَوْله وَإِنْكَاره وَكُفْره كُلّ شَيْطَان مَرِيد مِنْ الإِنْس وَالجِنّ، وَهَذَا حَال أَهْل البِدَع وَالضَّلال المُعْرِضِينَ عَنْ الحَقّ المُتَّبِعِينَ لِلبَاطِل، يَتْرُكُونَ مَا أَنْزَل الله عَلَى رَسُوله مِنْ الحَقّ المُبِين، وَيَتَّبِعُونَ أَقْوَال رُءُوس الضَّلالَة الدُّعَاة إِلَى البِدَع بِالأَهْوَاءِ وَالآرَاء، وَلِهَذَا قَال فِي شَأْنهمْ وَأَشْبَاههمْ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. أَيْ: عِلْم صَحِيح ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ﴾. قَال مُجَاهِد: يَعْنِي الشَّيْطَان، يعني: كُتِبَ عَلَيْهِ كِتَابَة قَدَرِيَّة ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أَيْ: اتَّبَعَهُ وَقَلَّدَهُ ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾. أَيْ: يُضِلّهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَقُودهُ فِي

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).
(٢) ضعيف : أخرجه أحمد (٦/ ١١٠)، وإسناده ضعيف، فيه ابن لهيعة: ضعيف.

الآخِرَة إلى عَذَاب السَّعِير: وَهُوَ الحَارّ المُؤْلِم المُقْلق المُزْعِج. وَقَدْ قَال السُّدِّيّ، عَنْ أَبِي مَالك: نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة فِي النَّضْر بْن الحَارِث، وَكَذَلكَ قَال ابْن جُرَيْج.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا عَمْرو بْن سَلْم البَصْرِيّ، حَدَّثنَا عَمْرو بْن المحرم أَبُو قتَادَة، حَدَّثنَا المعمر، حَدَّثنَا أَبُو كَعْب المَكِّيّ؛ قَال: قَال خَبِيث مِنْ خُبَثَاء قُرَيْش: أَخْبِرْنَا عَنْ رَبّكُمْ مِنْ ذَهَب هُوَ أَوْ مِنْ فِضَّة هُوَ أَوْ مِنْ نُحَاس هُوَ؟ فَقَعْقَعَتْ السَّمَاء قَعْقَعَة -وَالقَعْقَعَة فِي كَلام العَرَب: الرَّعْد- فَإِذَا قِحْف رَأْسه سَاقِط بَيْن يَدَيْهِ. وَقَال ليث بْن أَبِي سُلَيْم عَنْ مُجَاهِد: جَاءَ يَهُودِيّ فَقَال: يَا مُحَمَّد أخبرني عَنْ رَبّك: مِنْ أَيّ شَيْء هُوَ؟ مِنْ دُرّ أَمْ مِنْ يَاقُوت؟ قَال: فَجَاءَتْ صَاعِقَة فَأَخَذَتْهُ.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾.

لـمَّا ذَكَرَ تَعَالى المُخَالف للبَعْثِ، المُنْكِر للمَعَادِ، ذَكَرَ تَعَالى الدَّلِيل عَلى قُدْرَته تَعَالى عَلى المَعَاد بِمَا يُشَاهَد مِنْ بَدْئِهِ للخَلقِ، فَقَال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ ﴾. أَيْ: فِي شَكّ ﴿مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾، وَهُوَ المَعَاد وَقِيَام الأَرْوَاح وَالأَجْسَاد يَوْم القِيَامَة؛ ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾، أَيْ: أَصْل بُرْئِهِ لكُمْ مِنْ تُرَاب، وَهُوَ الَّذِي خَلقَ مِنْهُ آدم عَلَيْهِ السَّلامُ: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أَيْ: ثُمَّ جَعَل نَسْله مِنْ سُلالة مِنْ مَاء مَهِين، ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ وَذَلكَ أَنَّهُ إِذَا اسْتَقَرَّتْ النُّطْفَة فِي رَحِم المَرْأَة، مَكَثَتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا كَذَلكَ، يُضَاف إِليْهِ مَا يَجْتَمِع إِليْهَا ثُمَّ تَنْقَلب عَلقَة حَمْرَاء بِإِذْنِ الله، فَتَمْكُث كَذَلكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ تَسْتَحِيل فَتَصِير ﴿مُّضْغَةٍ﴾: قِطْعَة مِنْ لحْم لا شَكْل فِيهَا وَلا تَخْطِيط، ثُمَّ يُشْرَع فِي التشكُّل وَالتَّخْطِيط، فَيُصَوَّر مِنْهَا رَأْس وَيَدَانِ، وَصَدْر وَبَطْن، وَفَخِذَانِ وَرِجْلانِ وَسَائِر الأَعْضَاء، فَتَارَة تُسْقِطهَا المَرْأَة قَبْل التَّشْكِل وَالتَّخْطِيط وَتَارَة تُلقِيهَا وَقَدْ صَارَتْ ذَات شَكْل وَتَخْطِيط، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾. أَيْ: كَمَا تُشَاهِدُونَهَا؛ ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. أَيْ: وَتَارَة تَسْتَقِرّ فِي الرَّحِم لا تُلقِيهَا المَرْأَة وَلا تُسْقِطهَا كَمَا قَال مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾.

قَال: هُوَ السِّقْط مَخْلُوق وَغَيْر مَخْلُوق، فَإِذَا مَضَى عَليْهَا أَرْبَعُونَ يَوْمًا وهي مُضْغَة أَرْسَل الله تَعَالى إِليْهَا مَلكًا فَنَفَخَ فِيهَا الرُّوح وَسَوَّاهَا كَمَا يَشَاء الله عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حَسَن وقبيح، وَذَكَر وَأُنْثَى، وَكَتَبَ رِزْقهَا وَأَجَلهَا، وَشَقِيّ أَوْ سَعِيد. كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث الأَعْمَش عَنْ زَيْد بْن وَهْب، عَنْ ابْن مَسْعُود؛ قَال: حَدَّثنَا رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِق المَصْدُوق: **«إِنَّ خَلق أَحَدكُمْ يُجْمَع فِي بَطْن أُمّه أَرْبَعِينَ ليْلة، ثُمَّ يَكُون عَلقَة مِثْل ذَلكَ ثُمَّ يَكُون مُضْغَة مِثْل ذَلكَ ثُمَّ يَبْعَث الله إِليْهِ المَلك، فَيُؤْمَر بِأَرْبَعِ كَلمَات بكَتْب عَمَله وَرِزْقه وَأَجَله وَشَقِيّ أَوْ سَعِيد، ثُمَّ يَنْفُخ فِيهِ الرُّوح»**.[1]

وَرَوَى ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير مِنْ حَدِيث دَاوُد بْن أَبِي هِنْد عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ عَلقَمَة عَنْ عَبْد الله؛ قَال: النُّطْفَة إِذَا اسْتَقَرَّتْ فِي الرَّحِم أخذها مَلك بِكَفِّهِ قَال: يَا رَبّ، مُخَلَّقَة أَوْ غَيْر مُخَلَّقَة؟ فَإِنْ قِيل: غَيْر مُخَلَّقَة. لمْ تَكُنْ

---

(١) صحيح: تقـدم.

نَسمَة، وَقذفتها الأَرْحَام دمًا، وَإِنْ قِيل: مُخَلَّقة. قَال: أَيْ رَبّ، ذَكَر أَوْ أُنْثَى؟ شَقِيّ أَوْ سَعِيد، مَا الأَجَل؟ وَمَا الأَثَر؟ وَبِأَيِّ أَرْض يَمُوت؟ قَال: فَيُقَال للنُّطْفَةِ: مَنْ رَبّك؟ فتَقُول: الله. فَيُقَال: مَنْ رَازِقك؟ فتَقُول: الله. فَيُقَال لهُ: اذْهَبْ إِلى أمّ الكِتَاب، فَإِنَّك سَتجِدُ فِيه قِصَّة هَذِهِ النُّطْفَة. قَال: فَتُخْلق فَتعِيش فِي أَجلها، وَتأْكُل رِزْقهَا، وَتطأ أَثرهَا، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَجلهَا مَاتَتْ فَدُفِنَتْ فِي ذَلكَ المكان، ثُمَّ تَلا عَامِر الشَّعْبِيّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾. فَإِذَا بَلغَتْ مُضْغَة نُكِّسَتْ فِي الخَلق الرَّابع فكَانَتْ نَسمَة، وَإِنْ كَانَتْ غَيْر مُخَلَّقَة قَذفتهَا الأَرْحَام دمًا، وَإِنْ كَانَتْ مُخَلَّقَة نُكِّسَتْ فِي الخَلْقِ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن يَزِيد المُقْرِئ حَدَّثنَا سُفْيَان، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار عَنْ أَبِي الطُّفَيْل عَنْ حُذَيْفَة بْن أَسِيد يَبْلُغ بِهِ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**يَدْخُل المَلك عَلى النُّطْفَة بَعْدمَا تَسْتَقِرّ فِي الرَّحِم بِأَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ خَمْس وَأَرْبَعِينَ، فيَقُول: أَيْ رَبّ، أَشَقِيّ أَمْ سَعِيد؟ فيَقُول الله، وَيُكْتَبَانِ. فيَقُول: أَذكَر أَمْ أُنْثَى؟ فيَقُول الله، وَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَب عَمَله وَأَثَره، وَرِزْقه وَأَجَله، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُف فَلا يُزَاد عَلَى مَا فِيهَا وَلا يُنْتَقَص**»[1]. وَرَوَاهُ مُسْلم مِنْ حَدِيث سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، وَمِنْ طرق أخر عَنْ أَبِي الطُّفَيْل بِنَحْوِ مَعْنَاهُ.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾. أَيْ: ضَعِيفًا فِي بَدَنه وَسَمْعه وَبَصَره وَحَوَاسّه، وَبَطْشه وَعَقْله ثُمَّ يُعْطِيه الله القُوَّة شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيلطُف بِهِ وَيُحَنِّن عَليْهِ وَالدَيْهِ فِي آنَاء اللَّيْل وَأَطْرَاف النَّهَار. وَلهَذَا قَال: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ﴾، أَيْ: يَتكَامَل القُوَى وَيَتَزَايَد، وَيَصِل إِلى عُنْفُوَان الشَّبَاب وَحُسْن المَنْظَر. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾، أَيْ: فِي حَال شَبَابه وَقُوَاهُ، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾، وَهُوَ الشَّيْخُوخَة وَالهَرَم وَضَعْف القُوَّة وَالعَقْل وَالفَهْم وَتَنَاقُص الأَحْوَال مِنْ الخَوْف وَضَعْف الفِكْر، وَلهَذَا قَال: ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾.

وَقدْ قَال الحَافِظ أَبُو يَعْلى أَحْمَد بْن عَليّ بْن المُثَنَّى المَوْصِليّ فِي «مُسْنَده»: حَدَّثنَا مَنْصُور بْن أَبِي مُزَاحِم، حَدَّثنَا خَالد الزَّيَّات، حَدَّثنِي دَاوُد أَبُو سُليْمَان عَنْ عَبْد الله بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن مَعْمَر بْن حَزْم الأَنْصَارِيّ عَنْ أَنَس بْن مَالك رَفعَ الحَدِيث قَال: «المَوْلُود حَتَّى يَبْلُغ الحِنْث، مَا عَمِل مِنْ حَسَنَة كُتِبَتْ لوَالدِهِ أَوْ لوَالدَتهِ، وَمَا عَمِل مِنْ سَيِّئَة لمْ تُكْتَب عَليْهِ وَلا عَلى وَالدَيْهِ، فَإِذَا بَلغَ الحِنْث أَجْرَى الله عَليْهِ القَلم، أَمَرَ المَلكَانِ اللَّذَانِ مَعَهُ أَنْ يُحَفِّظَا وَأَنْ يُشَدِّدَا، فَإِذَا بَلغَ أَرْبَعِينَ سَنَة فِي الإِسْلام أَمَّنَهُ الله مِنْ البَلايَا الثَّلاث: الجُنُون، وَالجُذَام، وَالبَرَص، فَإِذَا بَلغَ الخَمْسِينَ خَفَّفَ الله حِسَابه. فَإِذَا بَلغَ سِتِّينَ رَزَقَهُ الله الإِنَابَة إِليْهِ بِمَا يُحِبّ، فَإِذَا بَلغَ السَّبْعِينَ أَحَبَّهُ أَهْل السَّمَاء، فَإِذَا بَلغَ الثَّمَانِينَ كَتَبَ الله حَسَنَاته وَتجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاته، فَإِذَا بَلغَ التِّسْعِينَ غَفَرَ الله لهُ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبه وَمَا تَأَخَّرَ، وَشَفَّعَهُ فِي أَهْل بَيْته، وَكَانَ أَسِير الله فِي أَرْضه، فَإِذَا بَلغَ أَرْذَل العُمُر ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ كَتَبَ الله لهُ مِثْل مَا كَانَ يَعْمَل فِي صِحَّته مِنْ الخَيْر، فَإِذَا عَمِل سَيِّئَة لمْ تُكْتَب عَليْهِ»[2]. هَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا، وَفِيهِ نَكَارَة شَدِيدَة، وَمَعَ هَذَا فقد رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل فِي «مُسْنَده» مَوْقوفًا وَمَرْفُوعًا. فقَال: حَدَّثنَا أَبُو النَّضْر حَدَّثنَا الفَرَج حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن عَامِر عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الله العَامِليّ عَنْ عَمْرو بْن جَعْفَر عَنْ أَنَس قَال: إِذَا بَلغَ الرَّجُل المُسْلم أَرْبَعِينَ سَنَة أَمَّنَهُ الله مِنْ أَنْوَاع البَلايَا؛ مِنْ الجُنُون والجُذَام وَالبَرَص وَالجُذَام وإِذَا بَلغَ الخَمْسِينَ ليَّنَ الله حِسَابه فإِذَا بَلغَ

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (٢٦٤٤).
(٢) ضعيف : أخرجه أبو يعلي (٣٦٧٨)، وفيه خالد الزيات وشيخه: مجهولان.

السِّتِّينَ رَزَقَهُ الله إِنَابَة يُحِبّهُ عَلَيْهَا، فإِذَا بَلغَ السَّبْعِينَ أَحبَّهُ وَأَحبَّهُ أَهْل السَّماء، وَإِذَا بَلغَ الثَّمانِينَ تَقبَّل الله حَسَنَاته وَمَحَا عَنْهُ سَيِّئَاته، إِذَا بَلغَ التِّسْعِينَ غَفرَ الله لهُ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبه وَمَا تَأَخّرَ وَسُمِّيَ أَسِير الله فِي أَرْضه وَشُفِّعَ فِي أَهْله.[1] ثُمَّ قَال: حَدَّثَنَا هاشم حَدَّثَنَا الفَرَج، حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن عَبْد الله العَامِرِيّ عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن عَمْرو ابْن عُثْمَان عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر بْن الخَطَّاب عَنْ النَّبِيّ ﷺ مِثْله.

وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا[2]: حَدَّثَنَا أَنَس بْن عِيَاض، حَدَّثَنِي يُوسُف بْن أَبِي بُرْدَة الأَنْصَارِيّ عَنْ جَعْفَر بْن عَمْرو بْن أُمَيَّة الضَّمْرِيّ عَنْ أَنَس بْن مَالك أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «مَا مِنْ مُعَمَّر يُعمرَّ فِي الإِسْلام أَرْبَعِينَ سَنَة إِلاَّ صَرَفَ الله عَنْهُ ثَلاثَة أَنْوَاع مِنْ البَلاء: الجُنُون، وَالجُذَام، وَالبَرَص». وَذَكَرَ تَمَام الحَدِيث كَمَا تَقدَّمَ سَوَاء. وَرَوَاهُ الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: عَنْ عَبْد الله بْن شَبِيب، عَنْ أَبِي شَيْبَة، عَنْ عَبْد الله بْن عَبْد المَلك، عَنْ أَبِي قَتَادَة العذرِيّ عَنْ ابْن أَخِي الزُّهْرِيّ، عَنْ عَمّه عَنْ أَنَس بْن مَالك قَال: قَال رَسُول الله: «مَا مِنْ عَبْد يُعمَّر فِي الإِسْلام أَرْبَعِينَ سَنَة إِلاَّ صَرَفَ الله عَنْهُ أَنْوَاعًا مِنْ البَلاء، الجُنُون، وَالجُذَام، وَالبَرَص، فَإِذَا بَلغَ خَمْسِينَ سَنَة ليَّنَ الله له الحِسَاب، فَإِذَا بَلغَ سِتِّينَ سَنَة رَزَقَهُ الله الإِنَابَة إِلَيْهِ بِمَا يُحِبّ، فَإِذَا بَلغَ سَبْعِينَ سَنَة غَفرَ الله لهُ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبه وَمَا تَأَخّرَ، وَسُمِّيَ أَسِير الله، وَأَحبَّهُ أَهْل السَّماء، فَإِذَا بَلغَ الثَّمانِينَ تَقبَّل الله مِنْهُ حَسَنَاته، وَتَجاوزَ عَنْ سَيِّئَاته، فَإِذَا بَلغَ التِّسْعِينَ غَفرَ الله لهُ مَا تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبه وَمَا تَأَخَّرَ وَسُمِّيَ أَسِير الله فِي أَرْضه، وشفِّع في أَهْل بَيْته».

وَقَوْله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هَذَا دَليل آخَر عَلى قُدْرَته تَعَالى عَلى إِحْيَاء المَوْتَى، كَمَا يُحْيِي الأَرْض المَيْتَة الهَامِدَة وَهِيَ القَحْلة الَّتِي لا نَبْتَ فِيهَا ولا شَيْء. وَقَال قَتَادَة: غَبْرَاء مُتَهَشِّمَة. وَقَال السُّدِّيّ: مَيْتَة. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾. أَيْ: فَإِذَا أَنْزَل الله عَليْهَا المَطَر ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾، أَيْ: تَحَرَّكَتْ بِالنَّبَاتِ فَحَيِيَتْ بَعْد مَوْتهَا، ﴿وَرَبَتْ﴾، أَيْ: ارْتَفَعَتْ لمَّا سَكَنَ فِيهَا الثَّرَى، ثُمَّ أَنْبَتَتْ مَا فِيهَا مِنْ الأَلْوَان وَالفُنُون مِنْ ثِمَار وَزُرُوع وَأَشْتَات النَّبَاتات فِي اخْتِلاف أَلْوَانهَا وَطُعُومهَا وَرَوَائِحهَا وَأَشْكَالهَا وَمَنَافِعهَا، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أَيْ: حَسِن المَنْظَر طَيِّب الرِّيح.

وَقَوْله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾. أَيْ: الخَالق المُدبِّر الفَعَّال لمَا يَشَاء، ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. أَيْ: كَمَا أَحْيَا الأَرْض المَيْتَة وَأَنْبَتَ مِنْهَا هَذِهِ الأَنْوَاع؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أَيْ: كَائِنَة لا شَكّ فِيهَا وَلا مِرْيَة، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أَيْ: يُعِيدهُمْ بَعْدَمَا صَارُوا فِي قُبُورهمْ رِمَمًا، وَيُوجِدهُمْ بَعْد العَدَم، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾. وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يزيد، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلمَة، قَال: أَنْبَأَنَا يَعْلى بْن عَطَاء عَنْ وَكِيع بْن عدس، عَنْ عَمّه أَبِي رَزِين العُقَيْلِيّ وَاسْمه لقِيط بْن عَامِر أَنَّهُ قَال: يَا رَسُول الله، أَكُلّنَا يَرَى رَبّه ﷻ يَوْم القِيَامَة؟ وَمَا آيَة ذَلكَ فِي خَلقه؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**أَليْسَ كُلكُمْ يَنْظُر إِلى القَمَر مُخْليًا بِهِ؟**». قُلنَا: بَلى. قَال: «**فَالله أَعْظَم**». قَال: قُلت: يَا رَسُول الله، كَيْف يُحْيِي الله المَوْتَى؟ وَمَا آيَة ذَلكَ فِي خَلقه؟ قَال: «**أَمَا مَرَرْت بِوَادِي أَهْلك**

---

(١) ضعيف : أخرجه أحمد (٢/ ٢١٧)، وفيه يوسف بن أبي ذرة قال عنه ابن معين: لا شيء، وقال ابن حبان: منكر الحديث جدًا.
(٢) (٣/ ٢١٧).

مُمْحلاً؟». قَال: بَلى. قَال: «ثُمَّ مَرَرْت بِهِ يَهْتَزّ خَضِرًا؟». قَلت: بَلى. قَال: «فَكَذَلكَ يُحْيِي الله المَوْتَى، وَذَلكَ آيَته فِي خَلقه»[1]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث حَمَّاد بْن سَلمَة بِهِ.

ثُمَّ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثنَا عَليّ بْن إِسْحَاق، أَنْبَأَنَا ابْن المُبَارَك، أَنْبَأَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن يَزِيد بْن جَابِر، عَنْ سُليْمَان بْن مُوسَى، عَنْ أَبِي رَزِين العُقَيْليّ قَال: أَتَيْت رَسُول الله ﷺ فَقُلت: يَا رَسُول الله، كَيْف يُحْيِي الله المَوْتَى؟ قَال: «أَمَرَرْت بِأَرْضٍ مِنْ أَرْضِكَ مُجْدِبَة، ثُمَّ مَرَرْت بِهَا مُخْصِبَة؟». قَال: نَعَمْ. قَال: «كَذَلكَ النُّشُور».[2]

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي حَدَّثنَا عبيس بْن مَرْحُوم حَدَّثنَا بُكَيْر بْن السَّمِيط عَنْ قَتَادَة عَنْ أَبِي الحَجَّاج عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل قَال: مَنْ عَلمَ أَنَّ الله هُوَ الحَقّ المُبِين، وَأَنَّ السَّاعَة آتِيَة لا رَيْب فِيهَا، وَأَنَّ الله يَبْعَث مَنْ فِي القُبُور؛ دَخَل الجَنَّة.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

لـمَّا ذَكَرَ تَعَالى حَال الضُّلَّال الجُهَّال المُقَلِّدِينَ فِي قَوْله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾. ذَكَرَ فِي هَذِهِ حَال الدُّعَاة إِلى الضَّلالة مِنْ رُءُوس الكُفْر وَالبِدَع فَقَال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ أَيْ: بِلا عَقْل صَحِيح، وَلا نَقْل صَحِيح صَرِيح، بَل لِمُجَرَّدِ الرَّأْي وَالهَوَى.

وَقَوْله: ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾. قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْره: مُسْتَكْبِر عَنْ الحَقّ إِذَا دُعِيَ إِليْهِ. وَقَال مُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَمَالك عَنْ زَيْد بْن أَسْلم: ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾، أَيْ: لاوِيَ عُنُقه، وَهِيَ رَقَبَته، يَعْنِي: يُعْرِض عَمَّا يُدْعَى إِليْهِ مِنْ الحَقّ، وَيَثْنِي رَقَبَته اسْتِكْبَارًا، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾. وَقَال لُقْمَان لابْنِهِ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أَيْ: تُمِيلهُ عَنْهُمْ اسْتِكْبَارًا عَليْهِمْ. وَقَال تَعَالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

وَقَوْله: ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ قَال بَعْضهمْ: هَذِهِ لام العَاقِبَة؛ لأَنَّهُ قَدْ لا يُقْصَد ذَلكَ. وَيُحْتَمَل أَنْ تَكُون لام التَّعْليل. ثُمَّ إِمَّا أَنْ يَكُون المُرَاد بِهَا المُعَانِدِينَ، أَوْ يَكُون المُرَاد بِهَا أَنَّ هَذَا الفَاعِل لهَذَا إِنَّمَا جَبَلنَاهُ عَلى هَذَا الخُلُق الَّذِي يَجْعله مِمَّنْ يَضِلّ عَنْ سَبِيل الله.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ﴾، وَهُوَ الإِهَانَة وَالذُّل، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا اسْتَكْبَرَ عَنْ آيَات الله لَقَّاهُ الله المَذَلَّة فِي الدُّنْيَا وَعَاقَبَهُ فِيهَا قَبْل الآخِرَة؛ لأَنَّهَا أَكْبَر هَمّه وَمَبْلغ عِلمه، ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ أَيْ: يُقَال لهُ هَذَا تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾. كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي حَدَّثنَا أَحْمَد بْن الصَّبَّاح حَدَّثنَا يَزِيد بْن هَارُون أَنْبَأَنَا هِشَام عَنْ الحَسَن قَال: بَلغَنِي أَنَّ أَحَدهمْ يُحْرَق فِي اليَوْم سَبْعِينَ أَلف مَرَّة.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٤/ ١١)، وأبو داود (٤٧٣١)، وابن ماجه (١٨٠)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٢) حسن: تقدم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾.

قَال مُجَاهِد وَقَتَادَة وَغَيْرهمَا: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: عَلى شَكّ، وَقَال غَيْرهمْ: عَلى طَرَف. وَمِنْهُ حَرْف الجَبَل، أَيْ: طَرَفه، أَيْ: دَخَل فِي الدِّين عَلى طَرَف، فَإِنْ وَجَدَ مَا يُحِبّهُ اسْتَقَرَّ، وَإِلَّا انْشَمَرَ. وَقَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن الحَارِث، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَبِي بُكَيْر، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل عَنْ أَبِي الحُصَيْن، عَنْ سعيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، قَال: كَانَ الرَّجُل يَقْدَم المَدِينَة، فإذ وَلَدَتْ امْرَأَتُهُ غُلامًا وَنَتَجَتْ خَيْله قَال هَذَا دِين صَالح. وَإِنْ لمْ تَلد امْرَأَته، وَلمْ تُنْتَج خَيْله، قَال: هَذَا دِين سُوء.[1] وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن حَدَّثَنَا أَحْمد بْن عَبْد الرَّحْمَن حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَشْعَث بْن إِسْحَاق القُمِّيّ عَنْ جَعْفَر بْن أَبِي المُغِيرَة عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كَانَ نَاس مِنْ الأَعْرَاب يَأْتُونَ النَّبِيّ ﷺ فَيُسْلِمُونَ، فَإِذَا رَجَعُوا إِلى بِلادهمْ فَإِنْ وَجَدُوا عَام غَيْث، وَعَام خِصْب، وَعَام وِلاد حَسَن قَالُوا: إِنَّ دِينَنَا هَذَا لصَالح فتمَسَّكُوا بِهِ، وَإِنْ وَجَدُوا عَام جُدُوبَة وَعَام وِلاد سُوء وَعَام قَحْط، قَالُوا: مَا فِي دِيننَا هَذَا خَيْر. فَأَنْزَل الله عَلى نَبِيّه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾.[2]

وَقَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: كَانَ أَحَدهمْ إِذَا قَدِمَ المَدِينَة وهي أَرْض وبيئة، فَإِنْ صَحَّ بِهَا جِسْمه، وَنَتَجَتْ فَرَسه مَهْرًا حَسَنًا، وَوَلدَتْ امْرَأَته غُلامًا رَضِيَ بِهِ وَاطْمَأَنَّ إِليْهِ، وَقَال: مَا أَصَبْت مُنْذُ كُنْت عَلى دِينِي هَذَا إِلَّا خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَة -وَالفِتْنَة: البَلاء- أَيْ: وَإِنْ أَصَابَهُ وَجَع المَدِينَة، وَوَلدَتْ امْرَأَته جَارِيَة، وَتَأَخَّرَتْ عَنْهُ الصَّدَقَة أَتَاهُ الشَّيْطَان فَقَال: وَالله مَا أَصَبْت مُنْذُ كُنْت عَلى دِينك هَذَا إِلَّا شَرًّا. وَذَلكَ الفِتْنَة، وَهَكَذَا ذَكَرَ قَتَادَة وَالضَّحَّاك وَابْن جُرَيْج وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلف فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم: هُوَ المُنَافِق، إِنْ صَلحَتْ لهُ دُنْيَاهُ أَقَامَ عَلى العِبَادَة، وَإِنْ فَسَدَتْ عَليْهِ دُنْيَاهُ وَتَغَيَّرَتْ انْقَلبَ، فَلا يُقِيم عَلى العِبَادَة إِلَّا لمَا صَلحَ مِنْ دُنْيَاهُ، فإذا أَصَابَتْهُ فِتْنَة أَوْ شِدَّة أَوْ اخْتِبَار أَوْ ضِيق تَرَكَ دِينه وَرَجَعَ إِلى الكُفْر.

وَقَال مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أَيْ: ارْتَدَّ كَافِرًا.

وَقَوْله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾، أَيْ: فَلا هُوَ حَصَل مِنْ الدُّنْيَا عَلى شَيْء، وَأَمَّا الآخِرَة فَقَدْ كَفَرَ بِالله العَظِيم فَهُوَ فِيهَا فِي غَايَة الشَّقَاء وَالإِهَانَة، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أَيْ: هَذِهِ هِيَ الخَسَارَة العَظِيمَة، وَالصَّفْقَة الخَاسِرَة.

وَقَوْله: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ﴾، أَيْ: مِنْ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد يَسْتَغِيث بِهَا وَيَسْتَنْصِرهَا وَيَسْتَرْزِقهَا وَهِيَ لا تَنْفَعهُ وَلا تَضُرّهُ، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾. أَيْ: ضَرَره فِي الدُّنْيَا قَبْل الآخِرَة أَقْرَب مِنْ نَفْعه فِيهَا، وَأَمَّا فِي الآخِرَة فَضَرَره مُحَقَّق مُتَيَقَّن.

وَقَوْله: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾. قَال مُجَاهِد: يَعْنِي الوَثَن، يَعْنِي: بِئْسَ هَذَا الَّذِي دَعَا به مِنْ دُون الله مَوْلًى يَعْنِي وَليًّا وَنَاصِرًا، ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾، وَهُوَ المُخَالط وَالمُعَاشِر. وَاخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّ المُرَاد: لبِئْسَ ابْن العَمّ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٤٢).

(٢) ضعيف: ولا يصح لسبب النزول، وفي إسناده: جعفر بن أبي المغيرة، وروايته عن سعيد بن جبير: ضعيفة.

وَالصَّاحِب مَنْ يَعْبُد الله عَلَى حَرْف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾. وَقَوْل مُجَاهِد: إِنَّ الْمُرَاد بِهِ الوَثَن أَوْلَى وَأَقْرَب إِلَى سِيَاق الكَلَام، وَالله أَعْلَم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

لَـمَّا ذَكَرَ أَهْل الضَّلَالَة الأَشْقِيَاء، عَطَفَ بِذِكْرِ الأَبْرَار السُّعَدَاء مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ، وَصَدَّقُوا إِيمَانهمْ بِأَفْعَالِهِمْ، فَعَمِلُوا الصَّالِحَات مِنْ جَمِيع أَنْوَاع القُرُبَات، وَتَرَكُوا الْمُنْكَرَات؛ فَأَوْرَثَهُمْ ذَلِكَ سُكْنَى الدَّرَجَات العَالِيَات فِي رَوْضَات الجَنَّات. وَلَـمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَضَلَّ أُولَئِكَ وَهَدَى هَؤُلَاءِ، قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾.

قَال ابْن عَبَّاس: مَنْ كَانَ يَظُنّ أَنْ لن يَنْصُرَ الله مُحَمَّدًا ﷺ، فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾، أَيْ: بِحَبْلٍ ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، أَيْ: سَمَاء بَيْته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾، يَقُول: ثُمَّ لِيَخْتَنِق بِهِ. وَكَذَا قَال مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَعَطَاء، وَأَبُو الجَوْزَاء وَقَتَادَة، وَغَيْرهم. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، أَيْ: لِيَتَوَصَّل إِلَى بُلُوغ السَّمَاء، فَإِنَّ النَّصْر إِنَّمَا يَأْتِي مُحَمَّدًا مِنْ السَّمَاء، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذَلِكَ عَنْهُ، إِنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ. وَقَوْل ابْن عَبَّاس وَأَصْحَابه أَوْلَى وَأَظْهَر فِي الْمَعْنَى، وَأَبْلَغ فِي التَّهَكُّم؛ فَإِنَّ الْمَعْنَى: مَنْ كَانَ يَظُنّ أَنَّ الله لَيْسَ بِنَاصِرٍ مُحَمَّدًا وَكِتَابه وَدِينه، فَلْيَذْهَبْ فَلْيَقْتُل نَفْسه إِنْ كَانَ ذَلِكَ غَائِظه، فَإِنَّ الله نَاصِره لا مَحَالَة، قَال الله تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾. وَلِهَذَا قَال: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾. قَال السُّدِّيّ: يَعْنِي مِنْ شَأْن مُحَمَّد ﷺ. وَقَال عَطَاء الخُرَاسَانِيّ: فَلْيَنْظُرْ هَل يَشْفِي ذَلِكَ مَا يَجِد فِي صَدْره مِنْ غَيْظ.

وَقَوْله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾، أَيْ: القُرْآن ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، أَيْ: وَاضِحَات فِي لَفْظهَا وَمَعْنَاهَا، حُجَّة مِنْ الله عَلَى النَّاس، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾، أَيْ: يُضِلّ مَنْ يَشَاء، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء، وَلَهُ الحِكْمَة التَّامَّة، وَله الحُجَّة القَاطِعَة فِي ذَلِكَ، و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ أَمَّا هُوَ فَلِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَته وَعَدْله وَعِلْمه وَقَهْره وَعَظَمَته، لا مُعَقِّب لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيع الحِسَاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ أَهْل هَذِهِ الأَدْيَان الْمُخْتَلِفَة مِنْ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنْ اليَهُود وَالصَّابِئِينَ، وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَة البَقَرَة التَّعْرِيف بِهِمْ وَاخْتِلَاف النَّاس فِيهِمْ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوس وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا فَعَبَدُوا مَعَ الله غَيْره، فَإِنَّهُ تَعَالَى: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. وَيَحْكُم بَيْنهمْ بِالعَدْل، فَيُدْخِل مَنْ آمَنَ بِهِ الجَنَّة، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ إِلَى النَّار، فَإِنَّهُ تَعَالَى شَهِيد عَلَى أَفْعَالهمْ، حَفِيظ لِأَقْوَالِهِمْ، عَلِيم بِسَرَائِرِهِمْ وَمَا تُكِنّ ضَمَائِرهمْ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾.

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ الْمُسْتَحِقّ لِلعِبَادَةِ وَحْده لا شَرِيك لَهُ، فَإِنَّهُ يَسْجُد لِعَظَمَتِهِ كُلّ شَيْء طَوْعًا وَكَرْهًا وَسُجُود كُلّ شَيْء مِمَّا يَخْتَصّ بِهِ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾. وَقَال هَهُنَا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أَيْ: مِنْ الْمَلَائِكَة فِي أَقْطَار

السَّمَوَات، وَالحَيَوَانَات فِي جَمِيع الجِهَات؛ مِنْ الإِنْس وَالجِنّ وَالدَّوَابّ وَالطَّيْر، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾.
وَقَوْله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾، إِنَّمَا ذَكَرَ هَذِهِ عَلَى التَّنْصِيص؛ لأَنَّهَا قَدْ عُبِدَتْ مِنْ دُون الله، فَبَيَّنَ أَنَّهَا تَسْجُد لخَالِقِهَا، وَأَنَّهَا مَرْبُوبَة مُسَخَّرَة، ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي ذَرّ رضي الله عنه قَال قَال لِي رَسُول الله ﷺ: «**أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَب هَذِهِ الشَّمْس؟**». قُلت: الله وَرَسُوله أَعْلم. قَال: «**فَإِنَّهَا تَذْهَب فَتَسْجُد تَحْت العَرْش ثُمَّ تَسْتَأْمِر، فَيُوشِك أَنْ يُقَال لهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْت**»[1]. وَفِي «المُسْنَد» وَ«سُنَن أَبِي دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ» فِي حَدِيث الكُسُوف: «**إِنَّ الشَّمْس وَالقَمَر خَلْقَانِ مِنْ خَلْق الله، وَإِنَّهُمَا لا يَنْكَسِفَانِ لمَوْتِ أَحَد وَلا لحَيَاتِهِ، وَلكِنَّ الله عز وجل إِذَا تَجَلَّى لشَيْءٍ مِنْ خَلقه خَشَعَ لهُ**».[2]

وَقَال أَبُو العَالِيَة: مَا فِي السَّمَاء نَجْم وَلا شَمْس وَلا قَمَر إِلَّا يَقَع لله سَاجِدًا حِين يَغِيب ثُمَّ لا يَنْصَرِف حَتَّى يُؤْذَن لهُ، فَيَأْخُذ ذَات اليَمِين حَتَّى يَرْجِع إِلَى مَطْلعه. وَأَمَّا الجِبَال وَالشَّجَر فَسُجُودها بِفَيْء ظِلاله عَنْ اليَمِين وَالشَّمَائِل. وَعَنْ ابْن عَبَّاس قَال: جَاءَ رَجُل فَقَال: يَا رَسُول الله؛ إِنِّي رَأَيْتنِي اللَّيْلة وَأَنَا نَائِم كَأَنِّي أُصَلِّي خَلف شَجَرَة، فَسَجَدْتُ فَسَجَدَتْ الشَّجَرَة لسُجُودِي، فَسَمِعْتهَا وَهِيَ تَقُول: «اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدك أَجْرًا، وَضَع عَنِّي بِهَا وِزْرًا، وَاجْعَلهَا لِي عِنْدك ذُخْرًا، وَتَقَبَّلهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلتهَا مِنْ عَبْدك دَاوُد». قَال ابْن عَبَّاس: فَقَرَأَ رَسُول الله ﷺ سَجْدَة ثُمَّ سَجَدَ فَسَمِعْته وَهُوَ يَقُول مِثْل مَا أَخْبَرَهُ الرَّجُل عَنْ قَوْل الشَّجَرَة. رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ وَابْن حِبَّان فِي «صَحِيحه».[3]

وَقَوْله: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ أَيْ: الحَيَوَانَات كُلّهَا. وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيث عِنْد الإِمَام أَحْمَد: أَنَّ رَسُول الله ﷺ نَهَى عَنْ اتِّخَاذ ظُهُور الدَّوَابّ مَنَابِر (فَرُبَّ مَرْكُوبَة خَيْرٌ وَأَكْثَر ذِكْرًا لله مِنْ رَاكِبِهَا).[4]

وَقَوْله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: يَسْجُد للهِ طَوْعًا مُخْتَارًا مُتَعَبِّدًا بِذَلكَ، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، أَيْ: مِمَّنْ امْتَنَعَ وَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد ابْن شَيْبَان الرَّمْلِيّ، حَدَّثَنَا القَدَّاح عَنْ جَعْفَر بْن مُحَمَّد عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيّ قَال: قِيل لعَلِيٍّ: إِنَّ هَهُنَا رَجُلًا يَتَكَلَّم فِي المَشِيئَة. فَقَال لهُ عَلِيّ: يَا عَبْد الله، خَلقَك الله كَمَا يَشَاء أَوْ كَمَا شِئْت؟ قَال: بَل كَمَا شَاءَ، قَال: فَيُمْرِضك إِذَا شَاءَ أَوْ إِذَا شِئْت؟ قَال: بل إِذَا شَاءَ. قَال: فَيَشْفِيك إِذَا شَاءَ أَوْ إِذَا شِئْت؟ قَال: بل إِذَا شَاءَ. قَال: فَيُدْخِلك حَيْثُ شِئْت أَوْ حَيْثُ يشَاءَ؟ قَال: بَل حَيْثُ يَشَاء. قَال: وَالله لوْ قُلت غَيْر ذَلكَ لضَرَبْت الَّذِي فِيهِ عَيْنَاك بِالسَّيْفِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِذَا قَرَأَ ابْن آدَم السَّجْدَة اعْتَزَل الشَّيْطَان يَبْكِي، يَقُول: يَا وَيْله! أُمِرَ ابْن آدَم بالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلهُ الجَنَّة، وَأُمِرْت بالسُّجُودِ فَأَبَيْت فَليَ النَّار**»[5] رَوَاهُ مُسْلم. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد -مَوْلى بَنِي هَاشِم- وَأَبُو عَبْد الرَّحْمَن المُقْرِئ؛ قَالا: حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة، حَدَّثَنَا مِشْرَح بْن هَاعَان أَبُو مُصْعَب المَعَافِرِيّ، قَال: سَمِعْت عُقْبَة بْن عَامِر يَقُول: قُلت: يَا رَسُول الله، أَفُضِّلتْ

---

(١) **صحيح**: تقـدم.
(٢) أخرجه أبو داود (١/ ٣٠٦)، والنسائي (٣/ ١٤١)، وابن ماجه (١/ ٤٠١).
(٣) **حسن**: أخرجه الترمذي (٥٧٩، ٣٤٢٤)، وابن ماجه (١٠٥٣)، وفيه محمد بن يزيد وشيخه الحسن بن محمد: وكلاهما مقبول. وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» و«صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٤١).
(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٩)، وصححه الألباني عدا ما بين القوسين فإنها زيادة ضعيفة، انظر «الصحيحة» (٢١).
(٥) **صحيح**: أخرجه مسلم (٨١)، وابن ماجه (١٠٥٢).

سُورَة الحَجّ عَلى سَائِر القُرْآن بِسَجْدَتَيْنِ؟ قَال: «نَعَمْ، فَمَنْ لمْ يَسْجُد بِهِمَا فَلا يَقْرَأْهُمَا»(١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن لهِيعَة بِهِ، وَقَال التِّرْمِذِيّ: ليْسَ بِقَوِيٍّ. وَفِي هَذَا نَظَر؛ فَإِنَّ ابْن لهِيعَة قَدْ صَرَّحَ فِيهِ بِالسَّمَاع، وَأَكْثَر مَا نَقَمُوا عَليْهِ تَدْليسه.

وَقَدْ قَال أَبُو دَاوُد فِي المَرَاسِيل: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَمْرو بْن السَّرْح أَنْبَأَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي مُعَاوِيَة بْن صَالح، عَنْ عَامِر بْن جَشِيب عَنْ خَالد بْن مَعْدَان أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**فُضِّلتْ سُورَة الحَجّ عَلى القُرْآن بِسَجْدَتَيْنِ**»(٢). ثُمَّ قَال أَبُو دَاوُد: وَقَدْ أُسْنِدَ هَذَا يَعْنِي مِنْ غَيْر هَذَا الوَجْه وَلا يَصِحّ. وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر الإِسْمَاعِيليّ: حَدَّثَنِي ابْن أَبِي دَاوُد، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا الوَليد، حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرو، حَدَّثَنَا حَفْص بْن عنان، حَدَّثَنِي نَافِع، حَدَّثَنِي أَبُو الجَهْم: أَنَّ عُمَر سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ فِي الحَجّ وَهُوَ بِالجَابِيَة، وَقَال: إِنَّ هَذِهِ فُضِّلتْ بِسَجْدَتَيْنِ. وَرَوَى أَبُو دَاوُد وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث الحَارِث بْن سَعِيد العُتَقِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن مُنَيْن، عَنْ عَمْرو ابْن العَاص؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ أَقْرَأَهُ خَمْس عَشْرَة سَجْدَة فِي القُرْآن؛ مِنْهَا ثَلاث فِي المُفَصَّل، وَفِي سُورَة الحَجّ سَجْدَتَانِ.(٣) فَهَذِهِ شَوَاهِد يَشُدّ بَعْضهَا بَعْضًا.

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾.

ثَبَتَ فِي الصَّحِيحين: مِنْ حَدِيث أَبِي مِجْلز عَنْ قَيْس بْن عَبَّاد، عَنْ أَبِي ذَرّ أَنَّهُ كَانَ يُقْسِم قَسَمًا أَنَّ هَذِهِ الآيَة: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ نَزَلتْ فِي حَمْزَة وَصَاحِبَيْهِ، وَعُتْبَة وَصَاحِبَيْهِ، يَوْم بَرَزُوا فِي بَدْر.(٤) لفْظ البُخَارِيّ عِنْد تَفْسِيرهَا. ثُمَّ قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن المِنْهَال حَدَّثَنَا المُعْتَمِر بْن سُليْمَان سَمِعْت أَبِي حَدَّثَنَا أَبُو مِجْلز عَنْ قَيْس بْن عَبَّاد عَنْ عَليّ بْن أَبِي طَالب أَنَّهُ قَال: أَنَا أَوَّل مَنْ يَجْثُو بَيْن يَدَيْ الرَّحْمَن للخُصُومَة يَوْم القِيَامَة. قَال قَيْس: وَفِيهِمْ نَزَلتْ: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾، قَال: هُمْ الَّذِينَ بَارَزُوا يَوْم بَدْر عَليّ وَحَمْزَة وَعُبَيْدَة وَشَيْبَة بْن رَبِيعَة، وَعُتْبَة بْن رَبِيعَة وَالوَليد بْن عُتْبَة. انْفَرَدَ بِهِ البُخَارِيّ.(٥)

وَقَال سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾، قَال: اخْتَصَمَ المُسْلمُونَ وأَهْل الكِتَاب، فَقَال أَهْل الكِتَاب: نَبِيّنَا قَبْل نَبِيّكُمْ، وَكِتَابنَا قَبْل كِتَابكُمْ، فَنَحْنُ أَوْلى بِالله مِنْكُمْ. وَقَال المُسْلمُونَ: كِتَابنَا يَقْضِي عَلى الكُتُب كُلّهَا، وَنَبِيّنَا خَاتَم الأَنْبِيَاء، فَنَحْنُ أَوْلى بِالله مِنْكُمْ. فَأَفْلجَ الله الإِسْلام عَلى مَنْ نَاوَأَهُ، وَأَنْزَل: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾. وَكَذَا رَوَى العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس، وَقَال شُعْبَة: عَنْ قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾، قَال: مُصَدِّق وَمُكَذِّب. وَقَال ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد فِي هَذِهِ الآيَة: مَثَل الكَافِر وَالمُؤْمِن اخْتَصَمَا فِي البَعْث. وَقَال فِي رِوَايَة هُوَ وَعَطَاء فِي هَذِهِ الآيَة: هُمْ المُؤْمِنُونَ وَالكَافِرُونَ.

وَقَال عِكْرِمَة: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ﴾ قَال: هِيَ الجَنَّة وَالنَّار؛ قَالتْ النَّار: اجْعَلنِي للعُقُوبَة. وَقَالتْ الجَنَّة: اجْعَلنِي للرَّحْمَة.

---

(١) **ضعيف** : أخرجه أحمد (٤/ ١٥١)، وأبو داود (١٤٠٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».
(٢) **مرسل** : أخرجه أبو داود في «المراسيل» (٧٨).
(٣) **ضعيف** : أخرجه أبو داود (١٤٠١)، وابن ماجه (١٠٥٧)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».
(٤) **صحيح** : أخرجه البخاري (٣٩٦٦)، ومسلم (٣٠٣٣).
(٥) **صحيح** : أخرجه البخاري (٤٧٤٤).

وَقَوْل مُجَاهِد وَعَطَاء: إِنَّ الْمُرَاد بهذا الكَافِرُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ؛ يَشْمَل الأَقْوَال كُلّهَا، وَيَنْتَظِم فِيهِ قِصَّة يَوْم بَدْر وَغَيْرهَا، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُرِيدُونَ نُصْرَة دِين الله ﷻ، وَالكَافِرُون يُرِيدُونَ إِطْفَاء نُور الإِيمَان وَخِذْلان الحَقّ وَظُهُور البَاطِل، وَهَذَا اخْتِيَار ابْن جَرِير وَهُوَ حَسَن، وَلهَذَا قَالَ: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾، أَيْ: فُصِّلتْ لَهُمْ مُقَطَّعَات مِنْ نار، قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر: مِنْ نُحَاس، وَهُوَ أَشَدّ الأَشْيَاء حَرَارَة إِذَا حَمِيَ. ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾، أَيْ: إِذَا صُبَّ عَلى رُءُوسهمْ الحَمِيم، وَهُوَ المَاء الحَارّ فِي غَايَة الحَرَارَة. وَقَال سَعِيد: هُوَ النُّحَاس الْمُذَاب أَذَابَ مَا فِي بُطُونهمْ مِنْ الشَّحْم وَالأَمْعَاء. قَالهُ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَغَيْرهمْ. وَكَذَلِكَ تَذُوب جُلُودهمْ، وَقَال ابْن عَبَّاس وَسَعِيد: تَسَاقَط.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن الْمُثَنَّى، حدثنا إِبْرَاهِيم أَبُو إِسْحَاق الطَّالقَانِيّ، حَدَّثَنَا ابْن الْمُبَارَك، عَنْ سَعِيد ابْن يَزِيد، عَنْ أَبِي السَّمْح عَنْ ابْن حُجَيْرَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**إِنَّ الحَمِيم ليُصَبّ على رُءُوسهمْ فَيُنْفِذ الجُمْجُمَة حَتَّى يَخْلُص إِلى جَوْفه، فَيَسْلُت مَا فِي جَوْفه حَتَّى يَبْلُغ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ الصَّهْر، ثُمَّ يُعَاد كَمَا كَانَ**»[1]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ: مِنْ حَدِيث ابْن الْمُبَارَك، وَقَال: حَسَن صَحِيح. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي نُعَيْم عَنْ ابْن الْمُبَارَك بِهِ. ثُمَّ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن أَبِي الحَوَارِيّ، سَمِعْت عَبْد الله بْن السَّرِيّ، قَال: يَأْتِيه المَلَك يَحْمِل الإِنَاء بِكَلْبَتَيْنِ مِنْ حَرَارَته، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْ وَجْهه تَكَرَّهَهُ، قَال: فَيَرْفَع مِقْمَعَة مَعَهُ فَيَضْرِب بِهَا رَأْسه، فَيُفْرِغ دِمَاغه، ثُمَّ يُفْرِغ الإِنَاء مِنْ دِمَاغه، فَيَصِل إِلى جَوْفه مِنْ دِمَاغه، فَذَلِكَ قَوْله: ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾.

وَقَوْله: ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾، قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة حَدَّثَنَا دَرَّاج عَنْ أَبِي الهَيْثَم عَنْ أَبِي سَعِيد عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «لوْ أَنَّ مِقْمَعًا مِنْ حَدِيد وُضِعَ فِي الأَرْض فَاجْتَمَعَ لهُ الثَّقَلان مَا أَقَلُّوهُ مِنْ الأَرْض»[2]. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُوسَى بْن دَاوُد حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة عن دَرَّاج، عَنْ أَبِي الهَيْثَم عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «لوْ ضُرِبَ الجَبَل بِمِقْمَع مِنْ حَدِيد لتَفَتَّتَ، ثُمَّ عَادَ كَمَا كَانَ، وَلوْ أَنَّ دَلوًا مِنْ غَسَّاق يُهْرَاق فِي الدُّنْيَا لأَنْتَنَ أَهْل الدُّنْيَا»[3]. وَقَال ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾، قَال: يُضْرَبُونَ بِهَا، فَيَقَع كُلّ عُضْو عَلى حِيَاله، فَيَدْعُونَ بِالثُّبُور.

وَقَوْله: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا ﴾، قَال الأَعْمَش، عَنْ أَبِي ظَبْيَان، عَنْ سَلمَان قَال: النَّار سَوْدَاء مُظْلمَة، لا يُضِيء لهَبهَا وَلا جَمْرهَا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا ﴾.

وَقَال زَيْد بْن أَسْلم فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا ﴾، قَال: بَلغَنِي أَنَّ أَهْل النَّار فِي النَّار لا يَتَنَفَّسُونَ. وَقَال الفُضَيْل بْن عِيَاض: وَالله مَا طَمِعُوا فِي الخُرُوج، إِنَّ الأَرْجُل لمُقَيَّدَة، وَإِنَّ الأَيْدِي لمُوثَقَة، وَلكِنْ يَرْفَعهُمْ لهَبهَا، وَتَرُدّهُمْ مَقَامِعهَا.

وَقَوْله: ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾، وَمَعْنَى الكَلام: أَنَّهُمْ يُهَانُونَ بِالعَذَابِ قَوْلًا وَفِعْلًا.

---

(١) **حسن** : أخرجه الطبري (١٧/ ١٢٣)، والترمذي (٢٥٨٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٧٩).

(٢) **ضعيف** : أخرجه أحمد (٣/ ٢٩)، لأن دراجًا ضعيف في روايته عن أبي الهيثم، وفي الإسناد ابن لهيعة وهو ضعيف، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٣٤٩).

(٣) **ضعيف** : أخرجه أحمد (٣/ ٨٣)، وفيه أيضًا دراجًا وروايته في أبي الهيثم ضعيفة وفيه أيضًا ابن لهيعة وهو ضعيف وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢١٥١، ٢١٥٦).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾.

لـمَّا أَخْبَرَ تَعالى عَنْ حَال أَهْل النَّار -عِيَاذًا بِالله مِنْ حَالهمْ- وَمَا هُمْ فِيهِ مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال، وَالحَرِيق وَالأَغْلال، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الثِّيَاب مِنْ النَّار؛ ذَكَرَ حَال أَهْل الجَنَّة -نَسْأَل الله مِنْ فَضْله وَكَرَمه أَنْ يُدْخلَنا الجَنَّة- فَقَال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أَيْ: تَتَخَرَّق فِي أَكْنَافها وَأَرْجَائِهَا وَجَوَانِبهَا، وَتَحْت أَشْجَارهَا وَقُصُورهَا، يَصْرِفُونَهَا حَيْثُ شَاءُوا وأَيْنَ شَاءُوا، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ مِنْ الحِلْيَة ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾، أَيْ: فِي أَيْدِيهِمْ، كَمَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ فِي الحَدِيث المُتَّفَق عَلَيْهِ: «تَبْلُغ الحِلْيَة مِنَ المُؤْمِن حَيْثُ يَبْلُغ الوُضُوء»[1]. وَقَال كَعْب الأَحْبَار: إِنَّ فِي الجَنَّة مَلَكًا لَوْ شِئْت أَنْ أُسَمِّيه لسَمَّيْته، يَصُوغ لأَهْل الجَنَّة الحُلِيّ مُنْذُ خَلَقَهُ الله إِلى يَوْم القِيَامَة، لَوْ أُبْرِزَ قَلب مِنْهَا -أَيْ: سِوَار مِنْهَا- لَرَدَّ شُعَاع الشَّمْس، كَمَا تَرُدّ الشَّمْس نُور القَمَر.

وَقَوْله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، فِي مُقَابَلة ثِيَاب أَهْلِ النَّار الَّتِي فُصِّلتْ لَهُمْ، لِبَاس هَؤُلاءِ مِنْ الحَرِير؛ إِسْتَبْرَقه وَسُنْدُسه، كَمَا قَال: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾. وَفِي الصَّحِيح: «**لا تَلبَسُوا الحَرِير وَلا الدِّيبَاج فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ مَنْ لبِسَهُ فِي الدُّنْيَا لمْ يَلبَسهُ فِي الآخِرَة**»[2]. قَال عَبْد الله بْن الزُّبَيْر: وَمَنْ لَمْ يَلبَس الحَرِير فِي الآخِرَة لَمْ يَدْخُل الجَنَّة، قَال الله تَعَالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، وَقَوْله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

وَقَوْله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾، فَهُدُوا إِلى المَكَان الَّذِي يَسْمَعُونَ فِيهِ الكَلام الطَّيِّب، ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ لا كَمَا يُهَان أَهْل النَّار بِالكَلامِ الَّذِي يُرَوَّعون بِهِ وَيُقَرَّعُونَ بِهِ، يُقَال لَهُمْ: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وَقَوْله: ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾، أَيْ: إِلى المَكَان الَّذِي يَحْمَدُونَ فِيهِ رَبَّهِمْ، عَلى مَا أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ وَأَنْعَمَ بِهِ وَأَسْدَاهُ إِلَيْهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي «الصَّحِيح»: «**إِنَّهُمْ يُلهَمُونَ التَّسْبِيح وَالتَّحْمِيد كَمَا يُلهَمُونَ النَّفَس**».

وَقَدْ قَال بَعْض المُفَسِّرِينَ فِي قَوْله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، أَيْ: القُرْآن. وَقِيل: لا إِله إِلَّا الله. وَقِيل: الأَذْكَار المَشْرُوعَة ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾، أَيْ: الطَّرِيق المُسْتَقِيم فِي الدُّنْيَا، وَكُلّ هَذَا لا يُنَافِي مَا ذَكَرْنَاهُ، وَالله أَعْلَم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣).

يَقُول تَعَالى مُنْكِرًا عَلى الكُفَّار فِي صَدّهمْ المُؤْمِنِينَ عَنْ إِتْيَان المَسْجِد الحَرَام، وَقَضَاء مَنَاسِكهمْ فِيهِ وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. وَفِي هَذِهِ الآيَة دَلِيل أَنَّهَا مَدَنِيَّة، كَمَا قَالَ فِي سُورَة البَقَرَة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، وَقَال هَهُنَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، أَيْ: وَمِنْ صِفَتهمْ مَعَ كُفْرهمْ أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيل الله وَالمَسْجِد الحَرَام، أَيْ: وَيَصُدُّونَ عَنْ المَسْجِد الحَرَام مَنْ أَرَادَهُ مِنْ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَحَقّ النَّاس بِهِ فِي نَفْس الأَمْر، وَهَذَا التَّرْتِيب فِي هَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ أَيْ: وَمِنْ صِفَتهمْ أَنَّهُمْ تَطْمَئِنّ قُلُوبهمْ بِذِكْرِ الله.

وَقَوْله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾، أَيْ: يَمْنَعُونَ النَّاس عَنْ الوُصُول إِلى المَسْجِد الحَرَام، وَقَدْ جَعَلَهُ الله شَرْعًا سَوَاء، لا فَرْق فِيهِ بَيْن المُقِيم فِيهِ وَالنَّائِي عَنْهُ البَعِيد الدَّار مِنْهُ، ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾، وَمِنْ ذَلِكَ اسْتِوَاء النَّاس فِي رِبَاع مَكَّة وَسُكْنَاهَا، كَمَا قَالَ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾، قَال: يَنْزِل أَهْل مَكَّة وغَيْرُهم فِي المَسْجِد الحَرَام. وَقَال مُجَاهِد: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾، أَهْل مَكَّة وَغَيْرهمْ فِيهِ سَوَاء فِي المَنَازِل. وَكَذَا قَال أَبُو صَالِح، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن سَابِط، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر عَنْ قَتَادَة: سَوَاء فِيهِ أَهْله وَغَيْر أَهْله.

وَهَذِهِ المَسْأَلة اخْتَلَفَ فِيهَا الشَّافِعِيّ وَإِسْحَاق بْن رَاهَوَيْهِ بِمَسْجِدِ الخَيْف، وَأَحْمَد بْن حَنْبَل حَاضِر أَيْضًا، فَذَهَبَ الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللَّهُ إِلى أَنَّ رِبَاع مَكَّة تُمْلك وَتُورَّث وَتُؤَجَّر، وَاحْتَجَّ بِحَدِيثِ الزُّهْرِيّ عَنْ عَلِيّ بْن الحسين عَنْ عَمْرو بْن عُثْمَان عَنْ أُسَامَة بْن زَيْد قَال: قُلت: يَا رَسُول الله أتنزل غَدًا فِي دَارِك بِمَكَّة؟ فَقَال: «**وَهَل تَرَك لنا عَقِيل مِنْ رِبَاع؟**» ثُمَّ قَال: «**لا يَرِث الكَافِر المُسْلم، وَلا المُسْلم الكَافِر**».[1] وَهَذَا الحَدِيث مُخَرَّج فِي «الصَّحِيحَيْن»، وَبِمَا ثَبَتَ أَنَّ عُمَر بْن الخَطَّاب اشْتَرَى مِنْ صَفْوَان بْن أُمَيَّة دَارًا بِمَكَّة فَجَعَلها سِجْنًا، بِأَرْبَعَةِ آلاف دِرْهَم. وَبِهِ قَال طَاوُس وَعَمْرو بْن دِينَار. وَذَهَبَ إِسْحَاق بْن رَاهَوَيْهِ إِلى أَنَّهَا لا تُورَّث وَلا تُؤَجَّر. وَهُوَ مَذْهَب طَائِفَة مِنْ السَّلَف، وَنَصَّ عَلَيْهِ مُجَاهِد وَعَطَاء، وَاحْتَجَّ إِسْحَاق بْن رَاهَوَيْهِ بِمَا رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، عَنْ عِيسَى بْن يُونُس عَنْ عُمَر بْن سَعِيد بْن أَبِي حسين عَنْ عُثْمَان بْن أَبِي سُلَيْمَان، عَنْ عَلقَمَة بْن نَضْلة قَال: تُوُفِّيَ رَسُول الله ﷺ وَأَبُو بَكْر وَعُمَر، وَمَا تُدْعَى رِبَاع مَكَّة إِلَّا السَّوَائِب، مَنْ احْتَاجَ سَكَنَ وَمَنْ اسْتَغْنَى أَسْكَنَ.[2]

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: عن ابن مُجَاهِد، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو أَنَّهُ قَال: لا يَحِلّ بَيْع دُور مَكَّة وَلا كِرَاؤُهَا.

وَقَال أَيْضًا، عَنْ ابْن جُرَيْج: كَانَ عَطَاء يَنْهَى عَنْ الكِرَاء فِي الحَرَم. وَأَخْبَرَنِي أَنَّ عُمَر بْن الخَطَّاب كَانَ يَنْهَى أَنْ تُبوَّب دُور مَكَّة لأَنْ يَنْزِل الحَاجّ فِي عَرَصَاتهَا فَكَانَ أَوَّل مَنْ بَوَّبَ دَاره سُهَيْل بْن عَمْرو فَأَرْسَل إِلَيْهِ عُمَر بْن الخَطَّاب فِي ذَلِكَ، فَقَال: أَنْظِرْنِي يَا أَمِير المُؤْمِنِينَ، إِنِّي كُنْت امْرَأً تَاجِرًا، فَأَرَدْت أَنْ أَتَّخِذ بَابَيْنِ يَحْبِسَانِ لي ظَهْرِي قَال: فَذلك إِذًا. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ مَنْصُور، عَنْ مُجَاهِد أَنَّ عُمَر بْن الخَطَّاب قَال: يَا أَهْل مَكَّة لا تَتَّخِذُوا لدُورِكُمْ أَبْوَابًا لِيَنْزِل البَادِي حَيْثُ يَشَاء. قَال: وَأَخْبَرَنَا مَعْمَر عَمَّنْ سَمِعَ عَطَاء يَقُول: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ قَال: يَنْزِلُونَ حَيْثُ شَاءُوا. وَرَوَى الدَّارَقُطْنِيّ مِنْ حَدِيث ابْن أَبِي نَجِيح عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو

---

(١) **صحيح** : أخرجه البخاري (٤٢٨٢)، ومسلم (١٦١٤).
(٢) **ضعيف** : أخرجه ابن ماجه (٣١٠٧)، وفيه علقمة بن نضلة: تابعي ضعيف.

مَوْقُوفًا: مَنْ أَكَل كِرَاء بُيُوت مَكَّة أَكَل نَارًا.[١] وَتَوَسَّطَ الإِمَام أَحْمَد فَقَال: تُملك وَتُورَّث وَلا تُؤَجَّر، جَمْعًا بَيْن الأَدِلَّة، وَاللهُ أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، قَال بَعْض المُفَسِّرِينَ مِنْ أَهْل العَرَبِيَّة: البَاء هَهُنَا زَائِدَة، كَقَوْلِهِ: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ أَيْ: تُنْبِت الدُّهْن، وَكَذَا قَوْله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ تَقْدِيره: إِلْحَادًا، وَكَمَا قَال الأَعْشَى:

ضَمِنَتْ بِرِزْقِ عِيَالِنَا أَرْمَاحُنَا ❁ بَيْنَ المَرَاجِلِ وَالصَّرِيحِ الأَجْرَدِ

وَقَال الآخَر:

بِوَادٍ يَمَانٍ يُنْبِتُ العُشْبَ صَدْرُه ❁ وَأَسْفَلُه بِالمَرْخِ وَالشَّبَهَانِ

وَالأَجْوَد أَنَّهُ ضَمَّنَ الفِعْل هَهُنَا مَعْنَى: يَهِمّ؛ وَلِهَذَا عَدَّاهُ بِالبَاءِ، فَقَال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾، أَيْ: يَهِمّ فِيهِ بِأَمْرٍ فَظِيع مِنْ المَعَاصِي الكِبَار.

وَقَوْله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أَيْ: عَامِدًا قَاصِدًا أَنَّهُ ظُلم لَيْسَ بِمُتَأَوِّلٍ، كَمَا قَال ابْن جُرَيْج عَنْ ابْن عَبَّاس: هُوَ التَّعَمُّد. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿بِظُلْمٍ﴾ بِشِرْك. وَقَال مُجَاهِد: أَنْ يَعْبُد فِيهِ غَيْر الله. وَكَذَا قَال قَتَادَة وَغَيْر وَاحِد. وَقَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿بِظُلْمٍ﴾: هُوَ أَنْ تَسْتَحِلّ مِنْ الحَرَم مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْك مِنْ لسان، أَوْ قَتْل، فَتَظْلِم مَنْ لا يَظْلِمك، وَتَقْتُل مَنْ لا يَقْتُلك، فَإِذَا فَعَل ذَلِكَ فَقَدْ وَجَبَ العَذَاب الأَلِيم. وَقَال مُجَاهِد: ﴿بِظُلْمٍ﴾، يَعْمَل فِيهِ عَمَلًا سَيِّئًا. وَهَذَا مِنْ خُصُوصِيَّة الحَرَم: أَنَّهُ يُعَاقَب البَادِي فِيهِ الشَّرّ، إِذَا كَانَ عَازِمًا عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يُوقِعهُ، كَمَا قَال ابْن أَبِي حَاتِم فِي «تَفْسِيره»: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون أَنْبَأَنَا شُعْبَة عَنْ السُّدِّيّ أَنَّهُ سَمِعَ مُرَّة يُحَدِّث عَنْ عَبْد الله -يَعْنِي ابْن مَسْعُود- فِي قَوْله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، قَال: لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَرَادَ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْم وَهُوَ بِعَدَن أَبْيَن أذاقهُ الله مِنْ العَذَاب الأَلِيم. قَال شُعْبَة: هُوَ رَفَعَهُ لَنَا، وَأَنَا لا أَرْفَعهُ لَكُمْ. قَال يَزِيد: هُوَ قَدْ رَفَعَهُ. وَرَوَاهُ أَحْمَد عَنْ يَزِيد بْن هَارُون، بِهِ.

قُلت: هَذَا الإِسْنَاد صَحِيح عَلَى شَرْط البُخَارِيّ، وَوَقْفه أَشْبَه مِنْ رَفْعه؛ وَلِهَذَا صَمَّمَ شُعْبَة عَلَى وَقْفه مِنْ كَلام ابْن مَسْعُود. وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَسْبَاط، وَسُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ مُرَّة، عَنْ ابْن مَسْعُود مَوْقُوفًا، وَاللهُ أَعْلم. وَقَال الثَّوْرِيّ عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ مُرَّة، عَنْ عَبْد الله قَال: مَا مِنْ رَجُل يَهِمّ بِسَيِّئَةٍ فَتُكْتَب عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا بِعَدَن أَبْيَن هَمَّ أَنْ يَقْتُل رَجُلًا بِهَذَا البَيْت لأَذَاقَهُ الله مِنْ العَذَاب الأَلِيم. وَكَذَا قَال الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم. وَقَال سُفْيَان، عَنْ مَنْصُور، عَنْ مُجَاهِد: «إِلْحَاد فِيهِ: لا وَالله، وَبَلَى وَالله»، وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِد، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو مِثْله. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: شَتْم الخَادِم ظُلْمٌ فَمَا فَوْقه. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عَطَاء، عَنْ مَيْمُون بْن مِهْرَان، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، قَال: تِجَارَة الأَمِير فِيهِ. وَعَنْ ابْن عُمَر: بَيْع الطَّعَام إِلْحَاد.

وَقَال حَبِيب بْن أَبِي ثَابِت: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، قَال: المُحْتَكِر بِمَكَّة. وَكَذَا قَال غَيْر وَاحِد. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن إِسْحَاق الجَوْهَرِيّ، أَنْبَأَنَا أَبُو عَاصِم، عَنْ جَعْفَر بْن يَحْيَى، عَنْ عَمّه عُمَارَة بْن ثَوْبَان، حَدَّثَنِي مُوسَى بْن بَاذَان، عَنْ يَعْلَى بْن أُمَيَّة، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «احْتِكَار الطَّعَام بِمَكَّة إِلْحَاد».[٢] وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن عَبْد الله بْن بُكَيْر، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، حدثني عَطَاء

---

(١) ضعيف: انظر «الضعيفة» (٢١٨٦).

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (بلفظ احتكار الطعام في الحرم) (٢٠٢٠)، وفيه موسى بن باذان: مجهول. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير».

ابْن دِينَار، حَدَّثَنِي سَعِيد بْن جُبَيْر؛ قَال: قَال ابْن عَبَّاس فِي قَوْل الله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾، قَال: نَزَلتْ فِي عَبْد الله بْن أُنَيْس، أَنَّ رَسُول الله ﷺ بَعَثَهُ مَعَ رَجُلَيْنِ، أَحَدهمَا مُهَاجِر وَالآخَر مِنْ الأَنْصَار، فَافْتَخَرُوا فِي الأَنْسَاب، فَغَضِبَ عَبْد الله بْن أُنَيْس، فَقَتَل الأَنْصَارِيّ ثُمَّ ارْتَدَّ عَنْ الإِسْلام، ثُمَّ هَرَبَ إِلَى مَكَّة، فَنَزَلتْ فِيهِ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾[1]، يَعْنِي: مَنْ لجَأَ إِلَى الحَرَم بِإِلْحَادٍ، يَعْنِي: بِمَيْلٍ عَنْ الإِسْلام.

وَهَذِهِ الآثَار وَإِنْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الأَشْيَاء مِنْ الإِلْحَاد، وَلكِنْ هُوَ أَعَمّ مِنْ ذَلِكَ، بَل فِيهَا تَنْبِيه عَلَى مَا هُوَ أَغْلظ مِنْهَا، وَلهَذَا لـمَّا هَمَّ أَصْحَاب الفِيل عَلَى تَخْرِيب البَيْت، أَرْسَل الله عَلَيْهِمْ ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أَيْ: دَمَّرَهُمْ وَجَعَلهُمْ عِبْرَة وَنَكَالًا لكُلِّ مَنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ، وَلذَلكَ ثَبَتَ فِي الحَدِيث أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**يَغْزُو هَذَا البَيْت جَيْش، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاء مِنْ الأَرْض خُسِفَ بِأَوَّلهِمْ وَآخِرهِمْ**»[2]. الحَدِيث.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن كُنَاسَة، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن سَعِيد، عَنْ أَبِيهِ قَال: أَتَى عَبْد الله بْن عُمَر عَبْد الله بْن الزُّبَيْر، فَقَال: يَا بْن الزُّبَيْر، إِيَّاكَ وَالإِلحَاد فِي حَرَم الله فَإِنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**إِنَّهُ سَيُلحِدُ فِيهِ رَجُل مِنْ قُرَيْش، لوْ تُوزَن ذُنُوبه بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ لرَجَحَتْ**». فَانْظُرْ لا تَكُنْ هُوَ.[3] وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا هَاشِم، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن عَمْرو قَال: أَتَى عَبْد الله بْن عمرو عَبْد الله بْن الزُّبَيْر وَهُوَ جَالِس فِي الحِجْر فَقَال: يَا بْن الزُّبَيْر، إِيَّاكَ وَالإِلحَاد فِي الحَرَم فَإِنِّي أَشْهَد لسَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**يَحِلّهَا وَيَحِلّ بِهِ رَجُل مِنْ قُرَيْش، لوْ وُزِنَتْ ذُنُوبه بِذُنُوبِ الثَّقَلَيْنِ لوَزَنَتْهَا**». قَال: فَانْظُرْ لا تَكُنْ هُوَ[4]. لمْ يُخَرِّجْهُ أَحَد مِنْ أَصْحَاب الكُتُب مِنْ هَذَيْنِ الوَجْهَيْنِ.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝٢٦ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

هَذَا فِيهِ تَقْرِيع وَتَوْبِيخ لمَنْ عَبَدَ غَيْر الله وَأَشْرَكَ بِهِ مِنْ قُرَيْش، فِي البُقْعَة الَّتِي أُسِّسَتْ مِنْ أَوَّل يَوْم عَلَى تَوْحِيد الله وَعِبَادَته وَحْده لا شَرِيك لهُ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ بَوَّأَ إِبْرَاهِيم مَكَان البَيْت، أَيْ: أَرْشَدَهُ إِليْهِ وَسَلَّمَهُ لهُ، وَأَذِنَ لهُ فِي بِنَائِهِ. وَاسْتَدَلَّ بِهِ كَثِير مِمَّنْ قَال: إِنَّ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَوَّل مَنْ بَنَى البَيْت العَتِيق، وَأَنَّهُ لمْ يُبْنَ قَبْله، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيح» عَنْ أَبِي ذَرّ، قُلت: يَا رَسُول الله، أَيّ مَسْجِد وُضِعَ أَوَّل؟ قَال: «**المَسْجِد الحَرَام**». قُلت: ثُمَّ أَيّ؟ قَال: «**بَيْت المَقْدِس**». قُلت: كَمْ بَيْنهمَا؟ قَال: «**أَرْبَعُونَ سَنَة**»[5]. وَقَدْ قَال الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآيَة، وَقَال تَعَالَى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. وَقَدْ قَدَّمْنَا ذِكْر مَا وَرَدَ فِي بِنَاء البَيْت مِنْ الصِّحَاح وَالآثَار بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته هَهُنَا.

وَقَال تَعَالَى هَهُنَا: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ أَيْ: ابْنِهِ عَلَى اسْمِي وَحْدِي. ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ قَال قَتَادَة وَمُجَاهِد: مِنْ الشِّرْك، ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أَيْ: اجْعَلهُ خَالصًا لهَؤُلاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ

---

(١) ضعيف : في إسناده ابن لهيعة: ضعيف، وفيه عطاء بن دينار: صدوق؛ إلا أن روايته عن سعيد بن جبير من صحيفة.
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤).
(٣) صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ١٣٦)، وصححه الألباني انظر «الصحيحة» (٣١٠٨).
(٤) صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ٢١٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٤٦٢).
(٥) صحيح : تقـدم.

الله وَحده لا شَريك لهُ، فَالطَّائِف بِهِ مَعْرُوف، وَهُوَ أَخصّ العِبَادَات عِنْد البَيْت، فَإِنَّهُ لا يُفْعَل بِبُقْعَةٍ مِنَ الأَرْض سِوَاهَا ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾، أَيْ: فِي الصَّلاة، وَلهَذَا قَال: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، فَقرَنَ الطَّوَاف بِالصَّلاةِ، لأَنَّهُما لا يُشْرَعَانِ إِلَّا مُخْتَصّينَ بِالبَيْتِ، فَالطَّوَاف عِنْده، وَالصَّلاة إِلَيْهِ فِي غَالب الأَحْوَال، إِلَّا مَا اسْتُثْنِيَ مِنَ الصَّلاة عِنْد اشْتِبَاه القِبْلَة وَفِي الحَرْب وَفِي النَّافِلة فِي السَّفَر، وَالله أَعْلم.

وَقوْله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ أَيْ: نَادِ فِي النَّاس دَاعِيًا لهُمْ إِلى الحَجّ إِلى هَذَا البَيْت، الَّذِي أَمَرْنَاك بِبنَائِهِ، فَذُكِرَ أَنَّهُ قَال: يَا رَبّ، وكَيْف أُبَلِّغ النَّاس وَصَوْتِي لا يَنْفُذهُمْ؟ فَقَال: نَادِ وَعَليْنَا البَلاغ، فَقَامَ عَلى مَقَامه، وَقِيل: عَلى الحِجْر. وَقِيل: عَلى الصَّفَا. وَقِيل: عَلى أَبِي قُبَيْس. وَقَال: يَا أَيهَا النَّاس، إِنَّ رَبّكُمْ قَدْ اتَّخَذَ بَيْتًا فَحُجُّوهُ. فَيُقَال: إِنَّ الجِبَال تَوَاضَعَتْ حَتَّى بَلغَ الصَّوْت أَرْجَاء الأَرْض، وَأَسْمَعَ مَنْ فِي الأَرْحَام وَالأَصْلاب، وَأَجَابهُ كُلّ شَيْء سَمِعَهُ مِنْ حَجَر وَمَدَر وَشَجَر، وَمَنْ كَتَبَ الله أَنَّهُ يَحُجّ إِلى يَوْم القِيَامَة: لبَّيْكَ اللَّهُمَّ لبَّيْكَ. هَذَا مَضْمُون مَا رُوِي عَنْ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلف، وَالله أَعْلم. أَوْرَدَهَا ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم مُطَوَّلة.

وَقَوْله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، قَدْ يَسْتَدّل بِهَذِهِ الآيَة مَنْ ذَهَبَ مِنَ العُلَماء إِلى أَنَّ الحَجّ مَاشِيًا لمَنْ قَدَرَ عَليْهِ، أَفْضَل مِنْ الحَجّ رَاكِبًا، لأَنَّهُ قَدَّمَهُمْ فِي الذِّكْر، فَدَلَّ عَلى الاهْتِمام بِهِمْ وَقُوَّة هِمَمهمْ وَشِدَّة عَزْمهمْ. وَقَال وَكِيع، عَنْ أَبِي العُمَيْس، عَنْ أَبِي حلحَلة، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: مَا آسَى عَلَى شَيْء إِلَا أَنِّي وَدِدْت أَنِّي كُنْت حَجَجْت مَاشِيًا، لأَنَّ الله يَقُول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾. وَالَّذِي عَليْهِ الأَكْثَرُونَ: أَنَّ الحَجّ رَاكِبًا أَفْضَل؛ اقْتِدَاء بِرَسُول الله ﷺ فَإِنَّهُ حَجّ رَاكِبًا مَعَ كَمَال قُوَّته عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَوْله: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ يَعْنِي: طَرِيق، كَما قَال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾. وَقَوْله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أَيْ: بَعِيد. قَالهُ مُجَاهِد وَعَطَاء وَالسُّدِّيّ وَقَتَادَة وَمُقَاتِل بْن حَيَّان وَالثَّوْرِيّ وَغَيْر وَاحِد. وَهَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ تَعَالى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيم حَيْثُ قَال فِي دُعَائِهِ: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾، فَليْسَ أَحَد مِنْ أَهْل الإِسْلام إِلَّا وَهُوَ يَحِنّ إِلى رُؤْيَة الكَعْبَة وَالطَّوَاف، وَالنَّاس يَقْصِدُونهَا مِنْ سَائِر الجِهَات وَالأَقْطَار.

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾

قَال ابْن عَبَّاس: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾، قَال: مَنَافِع الدُّنْيَا وَالآخِرَة؛ أَمَّا مَنَافِع الآخِرَة فَرِضْوَان الله تَعَالى، وَأَمَّا مَنَافِع الدُّنْيَا فَما يُصِيبُونَ مِنْ مَنَافِع البُدْن والرِّبح وَالتِّجَارَات. وَكَذَا قَال مُجَاهِد، وَغَيْر وَاحِد: إِنَّهَا مَنَافِع الدُّنْيَا وَالآخِرَة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، قَال شُعْبَة وَهُشَيْم عَنْ أَبِي بِشْر عَنْ سَعِيد عَنْ ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الأَيَّام المَعْلُومَات: أَيَّام العَشْر. وَعَلَّقَهُ البُخَارِيّ عَنْهُ بِصِيغَةِ الجَزْم بِهِ، ويُرْوِي مِثْله عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ وَمُجَاهِد وَقَتَادَة وَعَطَاء وسعيد بْن جُبَيْر وَالحَسَن وَالضَّحَّاك وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَهُوَ مَذْهَب الشَّافِعِيّ، وَالمَشْهُور عَنْ أَحْمَد بْن حَنْبَل.

وَقَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَرْعَرَة، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ سُليْمان عَنْ مُسْلم البَطِين، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «مَا العَمَل فِي أَيَّامٍ أَفْضَل مِنْهَا فِي هَذِهِ». قَالُوا: وَلا الجِهَاد فِي سَبِيل الله؟ قَال:

«**وَلا الجِهَاد فِي سَبِيل الله؛ إلاَّ رَجُل يَخْرُج يُخَاطِر بِنَفْسِهِ وَمَاله، فَلَمْ يَرْجِع بِشَيْءٍ**»[١]. وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، وَأَبُو دَاوُد، وَالتِّرْمِذِيّ، وَابْن مَاجَهْ، وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَدِيث حَسَن غَرِيب صَحِيح. وَفِي البَاب عَنْ ابْن عُمَر وَأَبِي هُرَيْرَة وَعَبْد الله بْن عَمْرو وَجَابِر.

قُلت: وَقَدْ تَقَصَّيْت هَذِهِ الطُّرُق وَأَفْرَدْت لَهَا جُزْءًا عَلَى حِدَته. فَمِنْ ذَلكَ مَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عفَّان أَنْبَأَنَا أَبُو عَوَانَة عَنْ يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد عن مُجَاهِد عَنْ ابْن عُمَر قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّام أَعْظَم عِنْد الله، وَلا أَحَبّ إِلَيْهِ العَمَل فِيهِنَّ، مِنْ هَذِهِ الأَيَّام العَشْر؛ فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنْ التَّهْلِيل وَالتَّكْبِير وَالتَّحْمِيد».[٢] وَرُوِيَ مِنْ وَجْه آخَر عن مُجَاهِد عَنْ ابْن عُمَر بِنَحْوِهِ. وَقَال البُخَارِيّ: وَكَانَ ابْن عُمَر وَأَبُو هُرَيْرَة يَخْرُجَانِ إِلى السُّوق فِي أَيَّام العَشْر، فَيُكَبِّرَانِ وَيُكَبِّرُ النَّاس بِتَكْبِيرِهِمَا.

وَقَدْ رَوَى أَحْمَد عَنْ جَابِر مَرْفُوعًا؛ أَنَّ هَذَا هُوَ العَشْر الَّذِي أَقْسَمَ الله بِهِ فِي قَوْله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[٣]. وَقَال بَعْض السَّلَف: إِنَّهُ المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ﴾ وَفِي «سُنَن أَبِي دَاوُد»: أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يَصُوم هَذَا العَشْر.[٤] وَهَذَا العَشْر مُشْتَمِل عَلَى يَوْم عَرَفَة الَّذِي ثَبَتَ فِي «صَحِيح مُسْلم» عَنْ أَبِي قَتَادَة قَال: سُئِل رَسُول الله ﷺ عَنْ صِيَام يَوْم عَرَفَة؟ فَقَال: «**أَحْتَسِب عَلَى الله أَنْ يُكَفِّر السَّنَة المَاضِيَة وَالآتِيَة**»[٥]. وَيَشْتَمِل عَلَى يَوْم النَّحْر الَّذِي هُوَ يَوْم الحَجّ الأَكْبَر، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيث أَنَّهُ أَفْضَل الأَيَّام عِنْد الله. وَبِالجُمْلَةِ فَهَذَا العَشْر قَدْ قِيل: إِنَّهُ أَفْضَل أَيَّام السَّنَة، كَمَا نَطَقَ بِهِ الحَدِيث، وَفَضْله كَثِير عَلَى عَشْر رَمَضَان الأَخِير؛ لأَنَّ هَذَا يُشْرَع فِيهِ مَا يُشْرَع فِي ذَاك، مِنْ صَلاة وَصِيَام وَصَدَقَة وَغَيْره، وَيَمْتَاز هَذَا بِاخْتِصَاصِهِ بِأَدَاءِ فَرْض الحَجّ فِيهِ. وَقِيل: ذَاكَ أَفْضَل لاشْتِمَالِهِ عَلَى لَيْلَة القَدْر، الَّتِي هِيَ خَيْر مِنْ أَلْف شَهْر. وَتَوَسَّطَ آخَرُونَ فَقَالُوا: أَيَّام هَذَا أَفْضَل، وَلَيَالِي ذَاكَ أَفْضَل. وَبِهَذَا يَجْتَمِع شَمْل الأَدِلَّة، وَالله أَعْلَم.

قَوْل ثَانٍ فِي الأَيَّام المَعْلُومَات: قَال الحَكَم، عَنْ مِقْسَم، عَنْ ابْن عَبَّاس: الأَيَّام المَعْلُومَات: يَوْم النَّحْر، وَثَلاثَة أَيَّام بَعْده. وَيُرْوَى هَذَا عَنْ ابْن عُمَر وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَحْمَد بْن حَنْبَل فِي رِوَايَة عَنْهُ.

قَوْل ثَالث: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن المَدِينِيّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا ابْن عَجْلان، حَدَّثَنِي نَافِع، أَنَّ ابْن عُمَر كَانَ يَقُول: الأَيَّام المَعْلُومَات والمَعْدُودَات هُنَّ جَمِيعهنَّ أَرْبَعَة أَيَّام، فَالأَيَّام المَعْلُومَات: يَوْم النَّحْر وَيَوْمَانِ بَعْده، وَالأَيَّام المَعْدُودَات: ثَلاثَة أَيَّام بَعْد يَوْم النَّحْر. هَذَا إِسْنَاد صَحِيح إِلَيْهِ، وَقَالَهُ السُّدِّيّ. وَهُوَ مَذْهَب الإِمَام مَالك بْن أَنَس، وَيَعْضُد هَذَا القَوْل وَالَّذِي قَبْله قَوْله تَعَالَى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾، يَعْنِي بِهِ: ذِكْر الله عِنْد ذَبْحهَا.

قَوْل رَابع: إِنَّهَا يَوْم عَرَفَة وَيَوْم النَّحْر وَيَوْم آخَر بَعْده، وَهُوَ مَذْهَب أَبِي حَنِيفَة. وَقَال ابْن وَهْب: حَدَّثَنِي ابْن زَيْد بْن أَسْلم عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَال: المَعْلُومَات: يَوْم عَرَفَة وَيَوْم النَّحْر وَأَيَّام التَّشْرِيق.

وَقَوْله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ يَعْنِي: الإِبِل وَالبَقَر وَالغَنَم، كَمَا فَصَّلَهَا تَعَالَى فِي سُورَة الأَنْعَام، وأنها: ﴿ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ الآيَة.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٩٦٩).
(٢) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٢/ ٧٥)، وفيه يزيد بن أبي زياد: ضعيف.
(٣) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٧)، وفيه أبو الزبير: مدلس وقد عنعن.
(٤) أخرجه أبو داود (٢٤٣٧)، ورجاله ثقات، لكنه اختلف على هنيدة بن خالد في إسناده.
(٥) **صحيح**: أخرجه مسلم (١١٦٢).

وقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الآيَة مَنْ ذَهَبَ إِلى وُجُوب الأَكْل مِنْ الأَضَاحِيّ، وَهُوَ قَوْل غَرِيب، وَالَّذِي عَلَيْهِ الأَكْثَرُونَ أَنَّهُ مِنْ بَاب الرُّخْصَة أَوْ الاسْتِحْبَاب، كَمَا ثَبَتَ أَنَّ رَسُول الله ﷺ لَـمَّا نَحَرَ هَدْيه أَمَرَ مِنْ كُلّ بَدَنَة بِبَضْعَةٍ فَتُطْبَخ فَأَكَل مِنْ لَحْمهَا، وَحَسَا مِنْ مَرَقهَا. وقَال عَبْد الله بْن وَهْب: قَال لِي مَالك: أُحِبّ أَنْ يَأْكُل مِنْ أُضْحِيَّته؛ لأَنَّ الله يَقُول: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾. قَال ابْن وَهْب: وَسَأَلت اللَّيْث فَقَال لِي مِثْل ذَلكَ. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ: عَنْ مَنْصُور، عَنْ إِبْرَاهِيم: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾، قَال: كَانَ الْمُشْرِكُونَ لا يَأْكُلُون مِنْ ذَبَائِحهمْ، فَرَخَّص للمُسْلِمِينَ، فَمَنْ شَاءَ أَكَل، وَمَنْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَأْكُل. وَرُوِيَ عَنْ عَطَاء ومُجَاهِد نَحْو ذَلكَ.

قَال هُشَيْم: عَنْ حُصَيْن، عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾: هِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وَهَذَا اخْتِيَار ابْن جَرِير فِي «تَفْسِيره»، وَاسْتَدَلَّ مَنْ نَصَرَ القَوْل بِأَنَّ الأَضَاحِيّ يُتَصَدَّق مِنْهَا بِالنِّصْفِ، بِقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾، فَجَزَّأَهَا نِصْفَيْن: نِصْف للمُضَحِّي وَنِصْف للفُقَرَاءِ. وَالقَوْل الآخَر أَنَّهَا تُجَزَّأ ثَلاثَة أَجْزَاء: ثُلُث لَهُ، وَثُلُث يُهْدِيه، وَثُلُث يَتَصَدَّق بِهِ؛ لقَوْلِهِ تَعَالى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ وَسَيَأْتِي الكَلام عَلَيْهَا عِنْدهَا إِنْ شَاءَ الله وَبِهِ الثِّقَة.

وَقَوْله: ﴿ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾، قَال عِكْرِمَة: هُوَ الْمُضْطَرّ الَّذِي عَلَيْهِ البُؤْس: الضعيف. وَقَال مُجَاهِد: هُوَ الَّذِي لا يَبْسُط يَده. وَقَال قَتَادَة: هُوَ الزَّمِن. وَقَال مُقَاتِل بْن حَيَّان: هُوَ الضَّرِير.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾، قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: هُوَ وَضْع الإِحْرَام مِنْ حَلق الرَّأْس، وَلُبْس الثِّيَاب، وَقَصّ الأظفار، وَنَحْو ذَلكَ. وَهَكَذَا رَوَى عَطَاء وَمُجَاهِد عَنْهُ، وَكَذَا قَال عِكْرِمَة وَمُحَمَّد ابْن كَعْب القُرَظِيّ. وَقَال عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾، قَال: التَّفَث: المَنَاسِك.

وَقَوْله: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي: نَحَرَ مَا نَذَرَ مِنْ أَمْر البُدْن. وَقَال ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾: نَذْر الحَجّ وَالهَدْي وَمَا نَذَرَ الإِنْسَان مِنْ شَيْء يَكُون فِي الحَجّ.

وَقَال إِبْرَاهِيم بْن مَيْسَرَة عَنْ مُجَاهِد: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ قَال: الذَّبَائِح. وَقَال لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم، عَنْ مُجَاهِد: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾: كُلّ نَذْر إِلى أَجَل. وَقَال عِكْرِمَة: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾، قَال: نذر الحج. وَكَذَا رَوَى الإِمَام أَحْمَد وَابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عُمَر، حَدَّثَنَا سُفْيَان فِي قَوْله: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾، قَال: نُذُور الحَجّ. فَكُلّ مَنْ دَخَل الحَجّ فَعَلَيْهِ مِنْ العَمَل فِيهِ: الطَّوَاف بِالبَيْتِ وَبَيْن الصَّفَا وَالمَرْوَة، وَعَرَفَة، وَالمُزْدَلفَة، وَرَمْي الجِمَار، عَلى مَا أُمِرُوا بِهِ. وَرُوِيَ عَنْ مَالك نَحْو هَذَا.

وَقَوْله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ قَال مُجَاهِد: يَعْنِي الطَّوَاف الوَاجِب يَوْم النَّحْر. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا حَمَّاد، عَنْ أَبِي حَمْزَة قَال: قَال لِي ابْن عَبَّاس: أَتَقْرَأُ سُورَة الحَجّ؟ يَقُول الله تَعَالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ فَإِنَّ آخِر المَنَاسِك الطَّوَاف بِالبَيْتِ العَتِيق.

قُلت: وَهَكَذَا صَنَعَ رَسُول الله ﷺ فَإِنَّهُ لَـمَّا رَجَعَ إِلى مِنًى يَوْم النَّحْر بَدَأَ بِرَمْيِ الجَمْرَة، فَرَمَاهَا بِسَبْعِ حَصَيَات ثُمَّ نَحَرَ هَدْيه وَحَلَقَ رَأْسه ثُمَّ أَفَاضَ فَطَافَ بِالبَيْتِ. وَفِي «الصحيح» عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَال: أُمِرَ النَّاس أَنْ يَكُون آخِر عَهْدهمْ بِالبَيْتِ الطَّوَاف إِلَّا أَنَّهُ خَفَّفَ عَنْ المَرْأَة الحَائِض[1].

وَقَوْله: ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ فِيهِ مُسْتَدَلّ لمَنْ ذَهَبَ إِلى أَنَّهُ يَجِب الطَّوَاف مِنْ وَرَاء الحِجْر؛ لأَنَّهُ مِنْ أَصْل البَيْت الَّذِي بَنَاهُ إِبْرَاهِيم، وَإِنْ كَانَتْ قُرَيْش قَدْ أَخْرَجُوهُ مِنْ البَيْت حِين قَصُرَتْ بِهِمْ النَّفَقَة. وَلهَذَا طَافَ رَسُول الله ﷺ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٣٢٨).

مِنْ وَرَاء الحِجْر، وَأَخْبَرَ أَنَّ الحِجْر مِنْ البَيْت، وَلَمْ يَسْتَلم الرُّكْنَيْنِ الشَّامِيَّيْنِ؛ لأَنَّهُمَا لَمْ يُتَمَّمَا عَلى قَوَاعِد إِبْرَاهِيم العَتِيقَة. وَلهَذَا قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عُمَر العَدَنِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ هِشَام بْن حُجْر، عَنْ رَجُل، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: لـمَّا نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، طَافَ رَسُول اللهِ ﷺ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَال قَتَادَة عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ فِي قَوْله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، قَال: لأَنَّهُ أَوَّل بَيْت وُضِعَ للنَّاسِ. وَكَذَا قَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم. وَعَنْ عِكْرِمَة أَنَّهُ قَال: إِنَّمَا سُمِّيَ البَيْت العَتِيق؛ لأَنَّهُ أُعْتِقَ يَوْم الغَرَق زَمَن نُوح. وَقَال خُصَيْف: إِنَّمَا سُمِّيَ البَيْت العَتِيق؛ لأَنَّهُ لَمْ يَظْهَر عَلَيْهِ جَبَّار قَطُّ.

وَقَال ابْن أَبِي نَجِيح وَلَيْث، عَنْ مُجَاهِد: أُعْتِقَ مِنْ الجَبَابِرَة أَنْ يُسَلَّطُوا عَلَيْهِ. وَكَذَا قَال قَتَادَة. وَقَال حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ حُمَيْد عَنْ الحَسَن بْن مُسْلم، عَنْ مُجَاهِد: لأَنَّهُ لَمْ يُرِدْهُ أَحَد بِسُوءٍ إِلَّا هَلكَ. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ ابْن الزُّبَيْر قَال: إِنَّمَا سُمِّيَ البَيْت العَتِيق لأَنَّ الله أَعْتَقَهُ مِنْ الجَبَابِرَة. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل وَغَيْر وَاحِد، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن صَالح أَخْبَرَنِي اللَّيْث عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن خَالد عَنْ ابْن شِهَاب عَنْ مُحَمَّد بْن عُرْوَة عَنْ عَبْد الله بْن الزُّبَيْر قَال: قَال رَسُول اللهِ ﷺ : **«إِنَّمَا سُمِّيَ البَيْت العَتِيق لأَنَّهُ لمْ يَظْهَر عليْهِ جبَّار»**[1]. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ مُحَمَّد بْن سَهْل البخاري عَنْ عَبْد الله بْن صَالح بِهِ. وَقَال: إِنْ كَانَ صَحِيحًا. وَقَال التِّرْمِذِيّ: «هَذَا حَدِيث حَسَن غَرِيب». ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ وَجْه آخر عَنْ الزُّهْرِيّ مُرْسَلًا.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾

يَقُول تَعَالى: هَذَا الَّذِي أُمِرْنَا بِهِ مِنْ الطَّاعَات فِي أَدَاء المَنَاسِك، وَمَا لِفَاعِلِهَا مِنْ الثَّوَاب الجَزِيل. ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾. أَيْ: وَمَنْ يَجْتَنِب مَعَاصِيه وَمَحَارِمه، وَيَكُون ارْتِكَابهَا عَظِيمًا فِي نَفْسه؛ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أَيْ: فَلهُ عَلى ذَلكَ خَيْر كَثِير وَثَوَاب جَزِيل، فَكَمَا عَلى فِعْل الطَّاعَات ثَوَاب كَثِير وَأَجْر جَزِيل كَذَلكَ عَلى تَرْك المُحَرَّمَات وَاجْتِنَاب المَحْظُورَات. قَال ابْن جُرَيْج: قَال مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾. قَال: الحُرْمَة: مَكَّة وَالحَجّ وَالعُمْرَة، وَمَا نَهَى الله عَنْهُ مِنْ مَعَاصِيه كُلّهَا. وَكَذَا قَال ابْن زَيْد.

وَقَوْله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أَيْ: أَحْللنَا لكُمْ جَمِيع الأَنْعَام، وَمَا جَعَل الله مِنْ بَحِيرَة وَلا سَائِبَة وَلا وَصِيلة وَلا حَام.

وَقَوْله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ تَحْرِيم ﴿ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ الآيَة. قَال ذَلكَ ابْن جَرِير، وَحَكَاهُ عَنْ قَتَادَة.

وَقَوْله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ «مِنْ» هَهُنَا لبَيَانِ الجِنْس، أَيْ: اجْتَنِبُوا الرِّجْس الَّذِي هُوَ الأَوْثَان، وَقَرَنَ الشِّرْك بِالله بِقَوْل الزُّور، كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وَمِنْهُ شَهَادَة الزُّور.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي بَكْرَة قَال: قَال رَسُول اللهِ ﷺ : **«أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَر الكَبَائِر؟»**. قُلنَا: بَلى، يَا رَسُول الله؛ قَال: **«الإِشْرَاك بِالله، وَعُقُوق الوَالدَيْنِ»**. وَكَانَ مُتَكِئًا فَجَلسَ فَقَال: **«أَلا وَقَوْل الزُّور، أَلا وَشَهَادَة الزُّور»**. فَمَا

---

(١) **ضعيف** : أخرجه الترمذي (٣١٧٠) فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث: صدوق سيئ الحفظ. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

زَال يُكَرِّرهَا حَتَّى قُلنَا: ليتَهُ سَكَتَ.[١] وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مَرْوَان بْن مُعَاوِيَة الفَزَارِيّ، أَنْبَأَنَا سُفْيَان بْن زِيَاد عَنْ فَاتِك بْن فَضَالة، عَنْ أَيْمَن ابْن خُرَيْم قَال قَامَ رَسُول الله ﷺ خَطِيبًا فَقَال: «يا أَيّهَا النَّاس؛ عَدَتْ شَهَادَة الزُّور إِشْرَاكًا بِالله» -ثَلاثًا- ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾.[٢] وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ أَحْمَد بْن مَنِيع، عَنْ مَرْوَان بْن مُعَاوِيَة، بِهِ، ثُمَّ قَال: غَرِيب، إِنَّمَا نَعْرِفهُ مِنْ حَدِيث سُفْيَان بْن زِيَاد، وَقَدْ اخْتَلَفَ عَنْهُ فِي روايته هَذَا الحَدِيث، وَلا نَعْرِف لأَيْمَن بْن خُرَيْم سَمَاعًا مِنَ النَّبِيّ ﷺ، وَقَال الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُبَيْد حَدَّثَنَا سُفْيَان العُصْفُرِيّ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ حَبِيب بْن النُّعْمَان الأَسَدِيّ، عَنْ خُرَيْم بْن فَاتِك الأَسَدِيّ قَال: صَلَّى رَسُول الله ﷺ الصُّبْح، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَامَ قَائِمًا فَقَال: «عَدَلتْ شَهَادَة الزُّور الإِشْرَاك بِالله ﷻ»، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾.[٣] وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ: عَنْ عَاصِم بْن أَبِي النَّجُود عَنْ وَائِل بْن رَبِيعَة، عَنْ ابْن مَسْعُود أَنَّهُ قَال: تَعْدِل شَهَادَة الزُّور بِالشرك بِالله ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَة.

وَقَوْله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾. أَيْ: مُخْلِصِينَ لهُ الدِّين، مُنْحَرِفِينَ عَنْ البَاطِل قَصْدًا إِلى الحَقّ، وَلهَذَا قَال: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾. ثُمَّ ضَرَبَ للمُشْرِكِ مَثَلًا فِي ضَلاله وَهَلاكه وَبُعْده عَنْ الهُدَى، فَقَال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أَيْ: سَقَطَ مِنْهَا ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أَيْ: تَقْطَعهُ الطُّيُور فِي الهَوَاء، ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أَيْ: بَعِيد مُهْلك لمَنْ هَوَى فِيهِ، وَلهَذَا جَاءَ فِي حَدِيث البَرَاء: «**إِنَّ الكَافِر إِذَا تَوَفَّتْهُ مَلائِكَة المَوْت، وَصَعِدُوا بِرُوحِهِ إِلى السَّمَاء فَلا تُفَتَّح لهُ أَبْوَاب السَّمَاء، بَل تُطْرَح رُوحه طَرْحًا مِنْ هُنَاك**»[١]. ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَة، وَقَدْ تَقَدَّمَ الحَدِيث فِي سُورَة إِبْرَاهِيم بِحُرُوفِهِ وَأَلفَاظه وَطُرُقه. وَقَدْ ضَرَبَ تَعَالى للمُشْرِكِينَ مَثَلًا آخر فِي سُورَة الأَنْعَام، وَهُوَ قَوْله: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ الآيَة.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

يَقُول تَعَالى: هَذَا ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾. أَيْ: أَوَامِره؛ ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾. وَمِنْ ذَلكَ تَعْظِيم الهَدَايَا وَالبُدْن، كَمَا قَال الحَكَم، عَنْ مِقْسَم، عَنْ ابْن عَبَّاس: تَعْظِيمهَا اسْتِسْمَانهَا وَاسْتِحْسَانهَا. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا حَفْص بْن غِيَاث، عَنْ ابْن أَبِي ليْلى، عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ قَال: الاسْتِسْمَان وَالاسْتِحْسَان وَالاسْتِعْظَام. وَقَال أَبُو أُمَامَة ابن سَهْل: كُنَّا نُسَمِّن الأُضْحِيَّة بالبرية، وَكَانَ المُسْلمُونَ يُسَمِّنُونَ. رَوَاهُ البُخَارِيّ. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَة: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**دَم عَفْرَاء أَحَبّ إِلى الله مِنْ دَم سَوْدَاوَيْنِ**»[٤]. رَوَاهُ أَحْمَد وَابْن مَاجَهْ. قَالُوا: وَالعَفْرَاء هِيَ: البَيْضَاء بَيَاضًا ليْسَ بِنَاصِعٍ، فَالبَيْضَاء أَفْضَل مِنْ غَيْرهَا، وَغَيْرهَا يُجْزِئ أَيْضًا؛ لمَا ثَبَتَ فِي «صَحِيح البُخَارِيّ» عَنْ أَنَس أَنَّ رَسُول الله ﷺ: ضَحَّى بِكَبْشَيْنِ أَمْلحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ.[٥] وَعَنْ أَبِي سَعِيد: أَنَّ رَسُول الله ﷺ ضَحَّى بِكَبْشٍ أَقْرَن فَحِيل يَأْكُل فِي سَوَاد،

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٤/ ١٧٨)، وفي إسناده فاتك بن فضالة: مجهول، وأيمن بن خريم: ليس صحابيًا. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٦٣٨٧).
(٣) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٥٩٩)، والترمذي (٢٣٠٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود والترمذي».
(٤) حسن: أخرجه أحمد (٢/ ٤١٧)، والبخاري تعليقًا (١٠/ ٩)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٨٦١).
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٥٠، ١٥٩٧، ١٥٩٩).

وَيَنْظُر فِي سَوَاد وَيَمْشِي فِي سَوَاد[١]. رَوَاهُ أَهْل السُّنَن وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيّ، أَيْ: بكبش أسود فِي هَذِهِ الأَمَاكِن. وَفِي «سُنَن ابْن مَاجَهْ»، عَنْ أَبِي رَافِع: أَنَّ رَسُول الله ﷺ ضَحَّى بِكَبْشَيْنِ عَظِيمَيْنِ سَمِينَيْنِ أَقْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ مَوْجُوءَيْنِ.[٢] قِيل: هُمَا الخَصِيَّانِ. وَقِيل: هُمَا اللَّذَانِ رُضَّ خُصْيَاهُمَا وَلَمْ يَقْطَعهُمَا. وَالله أَعْلَم. وَكَذَا رَوَى أَبُو دَاوُد، وَابْن مَاجَهْ عَنْ جَابِر: ضَحَّى رَسُول الله ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَقْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ مَوْجُوءَيْنِ.[٣] وَعَنْ عَلِيّ ﷺ قَال: أَمَرَنَا رَسُول الله ﷺ أَنْ نَسْتَشْرِف العَيْن والآذان، وَأَنْ لا نُضَحِّي بِمُقَابَلَةٍ وَلا مُدَابَرَة وَلا شَرْقَاء وَلا خَرْقَاء.[٤] رَوَاهُ أَحْمَد وَأَهْل السُّنَن وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيّ، وَلَهُمْ عَنْهُ، قَال: نَهَى رَسُول الله ﷺ أَنْ يُضَحَّي بِأَعْضَب القَرْن وَالأُذُن.[٥] قَال سَعِيد ابْن المُسَيِّب: المعضَّب المنصَّف فَأَكْثَر. وَقَال بَعْض أَهْل اللُّغَة: إِنْ كُسِرَ قَرْنهَا الأَعْلى فَهِيَ قَصْمَاء، فَأَمَّا العَضْب؛ فَهُوَ كَسْر الأَسْفَل، وَعَضْب الأُذُن قَطْع بَعْضهَا. وَعِنْد الشَّافِعِيّ: أَنَّ الأُضْحِيَّة بِذَلِكَ مُجْزِئَة لكِنْ تُكْرَه.

وَقَال أَحْمَد: لا تُجْزِئ الأُضْحِيَّة بِأَعْضَب القَرْن وَالأُذُن لِهَذَا الحَدِيث. وَقَال مَالك: إِنْ كَانَ الدَّم يَسِيل مِنْ القَرْن لَمْ يُجْزِئ وَإِلَّا أَجْزَأَ. وَالله أَعْلَم.

وَأَمَّا المُقَابَلَة: فَهِيَ الَّتِي قُطِعَ مُقَدَّم أُذُنهَا، وَالمُدَابَرَة: مِنْ مُؤَخَّر أُذُنهَا. وَالشَّرْقَاء: هِيَ الَّتِي قُطِعَتْ أُذُنهَا طُولًا. قَالَهُ الشَّافِعِيّ. والخَرْقَاء: هِيَ الَّتِي خَرَقَتْ السِّمَة أُذُنهَا خَرْقًا مُدَوَّرًا، وَالله أَعْلَم. وَعَنْ البَرَاء قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«أَرْبَع لا تَجُوز فِي الأَضَاحِيّ: العَوْرَاء البَيِّن عَوَرهَا، وَالمَرِيضَة البَيِّن مَرَضهَا، وَالعَرْجَاء البَيِّن ظَلعهَا، وَالكَسِيرَة الَّتِي لا تُنْقِي»**[٦]. رَوَاهُ أَحْمَد وَأَهْل السُّنَن، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيّ، وَهَذِهِ العُيُوب تُنْقِص اللَّحْم لِضَعْفِهَا وَعَجْزهَا عَنْ اسْتِكْمَال الرَّعْي؛ لأَنَّ الشَّاء يَسْبِقُونَهَا إِلى المَرْعَى، فَلِهَذَا لا تُجْزِئ التَّضْحِيَة بِهَا عِنْد الشَّافِعِيّ وَغَيْره مِنْ الأَئِمَّة كَمَا هُوَ ظَاهِر الحَدِيث، وَاخْتَلَفَ قَوْل الشَّافِعِيّ فِي المَرِيضَة مَرَضًا يَسِيرًا عَلى قَوْلَيْنِ. وَرَوَى أَبُو دَاوُد عَنْ عُتْبَة بْن عَبْدٍ السُّلَمِيّ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ نَهَى عَنْ المُصْفَرَّة، وَالمُسْتَأْصَلة، وَالبَخْقَاء، وَالمُشَيَّعَة، والكَسْراء[٧]، فَالمُصْفَرَّة قِيل: الهَزِيلة. وَقِيل: المُسْتَأْصَلة الأُذُن. وَالمُسْتَأْصَلة: المَكْسُورَة القَرْن. وَالبَخْقَاء: هِيَ العَوْرَاء، وَالمُشَيَّعَة: هِيَ الَّتِي لا تَزَال تُشَيَّع خَلف الغَنَم وَلا تُتْبَع لِضَعْفِهَا. وَالكَسرَاء: العَرْجَاء. فَهَذِهِ العُيُوب كُلّهَا مَانِعَة مِنْ الإِجْزَاء، فَإِنْ طَرَأَ العَيْب بَعْد تَعْيِين الأُضْحِيَّة، فَإِنَّهُ لا يَضُرّ عيبه عِنْد الشَّافِعِيّ خِلافًا لأَبِي حَنِيفَة. وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَحْمَد، عَنْ أَبِي سَعِيد قَال: اشْتَرَيْت كَبْشًا أُضَحِّي بِهِ، فَعَدَا الذِّئْب فَأَخَذَ الأَلْيَة، فَسَأَلت النَّبِيّ ﷺ فَقَال: «ضَحِّ بِهِ»[٨]. وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيث: أَمَرَنَا رَسُول الله ﷺ أَنْ نَسْتَشْرِف العَيْن وَالأُذُن. أَيْ: أَنْ تَكُون الهَدِيَّة وَالأُضْحِيَّة سَمِينة حَسَنَة ثمِينَة، كَمَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَأَبُو دَاوُد، عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر قَال: أَهْدَى عُمَر نَجِيبًا فَأُعْطَى بِهَا ثَلثمِائَةِ دِينَار فَأَتَى النَّبِيّ ﷺ فَقَال: يَا رَسُول الله، إِنِّي أَهْدَيْت نَجِيبًا، فَأُعْطَيْت بِهَا ثَلثمِائَةِ دِينَار، أَفَأَبِيعهَا وَأَشْتَرِي بِثَمَنِهَا بُدْنًا؟ قَال: «لا، انْحَرْهَا

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٥٥٨)، وأبو داود (٢٧٩٦).
(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٣١٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».
(٣) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٢٧٩٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».
(٤) **ضعيف**: أخرجه أحمد (١/ ٥٠)، وأبو داود (٢٨٠٤)، والترمذي (١٤٩٨)، وضعفه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٤٦٣).
(٥) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (١٥٠٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».
(٦) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٨٠٢)، والترمذي (١٤٩٧)، والنسائي (٧/ ٢١٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٧) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٢٨٠٣)، وفيه يزيد بن مضر: مقبول. وأبو حميد الرعيني: مجهول وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».
(٨) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٣/ ٣٢)، وفيه جابر الجعفي: ضعيف. وشيخه محمد بن قرظة: مجهول.

إِيَّاهَا»[١]. وَقَال الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس: البُدْن مِنْ شَعَائِر الله. وَقَال مُحَمَّد بْن أَبِي مُوسَى: الوُقُوف وَمُزْدَلفَة وَالجِمَار وَالرَّمْي وَالحلق وَالبُدْن: مِنْ شَعَائِر الله. وَقَال ابْن عُمَر: أَعْظَم الشَّعَائِر البَيْت.

وقوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾، أَيْ: لكُمْ فِي البُدْن مَنَافِع، مِنْ لبَنهَا وَصُوفهَا وَأَوْبَارهَا وَأَشْعَارهَا وَرُكُوبهَا. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾. قَال مِقْسَم، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾. قَال: مَا لمْ تُسَمَّ بُدْنًا. وَقَال مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾. قَال: الرُّكُوب وَاللَّبَن وَالوَلد، فَإِذَا سُمِّيَتْ بَدَنَة أَوْ هَدْيًا ذَهَبَ ذَلكَ كُلّه. وَكَذَا قَال عَطَاء، وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ وَغَيْرهمْ. وَقَال آخَرُونَ: بَل لهُ أَنْ يَنْتَفِع بِهَا وَإِنْ كَانَتْ هَدْيًا إِذَا احْتَاجَ إِلى ذَلكَ، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَنَس: أَنَّ رَسُول الله ﷺ رَأَى رَجُلًا يَسُوق بَدَنَة قَال: «ارْكَبْهَا». قَال: إِنَّهَا بَدَنَة! قَال: «ارْكَبْهَا وَيْحكَ!». فِي الثَّانِيَة أَوْ الثَّالثَة.[٢] وَفِي رِوَايَة لمُسْلم، عَنْ جَابِر، عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «ارْكَبْهَا بِالمَعْرُوفِ إِذَا أُلجِئْت إِليْهَا»[٣]. وَقَال شُعْبَة، عَنْ زُهَيْر بن أَبِي ثَابِت الأَعْمَى، عَنْ المُغِيرَة بْن حذف، عَنْ عَلِيّ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَسُوق بَدَنَة وَمَعَهَا وَلدهَا، فَقَال: لا تَشْرَب مِنْ لبَنهَا إِلَّا مَا فَضَل عَنْ وَلدهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْم النَّحْر فَاذْبَحْهَا وَوَلدهَا.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾. أَيْ: مَحَلّ الهَدْي وَانْتِهَاؤُهُ إِلى البَيْت العَتِيق -وَهُوَ الكَعْبَة- كَمَا قَال تَعَالى: ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾. وَقَال: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾. وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلام عَلى مَعْنَى البَيْت العَتِيق قَرِيبًا، والله أعلم. وَقَال ابْن جُرَيْج عَنْ عَطَاء قَال: كَانَ ابْن عَبَّاس يَقُول: كُلّ مَنْ طَافَ بِالبَيْتِ فَقَدْ حَلَّ، قَال الله تَعَالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ لمْ يَزَل ذَبْح المَنَاسِك وَإِرَاقَة الدِّمَاء عَلى اسْم الله مَشْرُوعًا فِي جَمِيع المِلل. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾. قَال: عِيدًا. وَقَال عِكْرِمَة: ذَبْحًا. وَقَال زَيْد بْن أَسْلم فِي قَوْله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾: إِنَّهَا مَكَّة، لمْ يَجْعَل الله لأُمَّةٍ قَطّ مَنْسَكًا غَيْرهَا.

وَقَوْله: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ ﴾. كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَنَس قَال: أَتَى رَسُول الله ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ، فَسَمَّى وَكَبَّرَ وَوَضَعَ رِجْله عَلى صِفَاحهمَا.[٤] وَقَال الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، أَنْبَأَنَا سَلَّام بْن مِسْكِين، عَنْ عَائِذ الله المُجَاشِعِيّ، عَنْ أَبِي دَاوُد -وَهُوَ نُفَيْع بْن الحَارِث- عَنْ زَيْد بْن أَرْقَم قَال: قُلت أَوْ قَالُوا: يَا رَسُول الله؛ مَا هَذِهِ الأَضَاحِيّ؟ قَال: «سُنَّة أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيم». قَالُوا: مَا لنَا مِنْهَا؟ قَال: «بِكُلِّ شَعْرَة حَسَنَة». قالوا: فَالصُّوف؟ قَال: «بِكُلِّ شَعْرَة مِنْ الصُّوف حَسَنَة».[٥] وَأَخْرَجَهُ الإِمَام أَبُو عَبْد الله مُحَمَّد بْن يَزِيد ابْن مَاجَهْ فِي «سُنَنه» مِنْ حَدِيث سَلَّام بْن مِسْكِين بِهِ.

---

(١) ضعيف : أخرجه أبو داود (١٧٥٦)، وأحمد (٢/ ١٤٥)، وفي إسناده أبو جهم ابن الجارود: مقبول إذا توبع. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٢٣).
(٣) صحيح : أخرجه مسلم (٢٣٤٦).
(٤) صحيح : تقـــدم.
(٥) ضعيف : أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٨)، وفيه داود (نفيع بن الحارث): متروك. وضعفه الألباني في «مشكاة المصابيح».

وَقَوْله: ﴿فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾، أَيْ: مَعْبُودكُمْ وَاحِد، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِع الأَنْبِيَاء، وَنَسَخَ بَعْضهَا بَعْضًا، فَالجَمِيع يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لَهُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾. وَلهَذَا قَالَ: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾. أَيْ: أَخْلصُوا وَاسْتَسْلمُوا لِحُكْمِهِ وَطَاعَته. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾، قَال مُجَاهِد: المُطْمَئِنِّينَ. وَقَال الضَّحَّاك وَقَتَادَة: المُتَوَاضِعِينَ. وَقَال السُّدِّيّ: الوَجِلِينَ. وَقَال عَمْرو بْن أَوْس: المخْبِتُون الَّذِينَ لا يَظْلمُونَ، وَإِذَا ظَلمُوا لمْ يَنْتَصِرُوا. وَقَال الثَّوْرِيّ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ قَال: المُطْمَئِنِّينَ الرَّاضِينَ بِقَضَاءِ الله، المُسْتَسْلِمِينَ لهُ. وَأَحْسَن ما يُفَسَّر بِمَا بَعْده، وهُوَ قَوْله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أَيْ: خَافَتْ مِنْهُ قُلُوبهمْ.

﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أَيْ: مِنْ المَصَائِب. قَال الحَسَن البَصْرِيّ: وَالله لتصبرن أَوْ لتهلكن.

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قَرَأَ الجُمْهُور بِالإِضَافَةِ -السَّبْعَة-، وَبَقِيَّة العَشَرَة أَيْضًا، وَقَرَأَ ابْن السَّمَيْقَع: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بِالنَّصْبِ. وقال الحَسَن البَصْرِيّ: (وَالمُقِيمِي الصَّلاةَ)، وَإِنَّمَا حُذِفَتْ النُّون هُنَا تَخْفِيفًا، وَلوْ حُذِفَتْ للإِضَافَةِ لوَجَبَ خَفْض الصَّلاة. وقيل: عَلى سَبِيل التَّخْفِيف فَنُصِبَتْ، أَيْ: المُؤَدِّينَ حَقّ الله فِيمَا أَوْجَبَ عَليْهِمْ مِنْ أَدَاء فَرَائِضه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾. أَيْ: وَيُنْفِقُونَ مَا آتَاهُمْ الله مِنْ طَيِّب الرِّزْق عَلَى أَهْلِيهِمْ وأرقائهم وقراباتهم وَفُقَرَائِهِمْ وَمَحَاوِيجهمْ، وَيُحْسِنُونَ إِلَى خَلْق الله مَعَ مُحَافَظَتهمْ عَلى حُدُود الله، وَهَذِهِ بِخِلافِ صِفَات المُنَافِقِينَ، فَإِنَّهُمْ بِالعَكْسِ مِنْ هَذَا كُلّه كَمَا تَقَدَّمَ تَفْسِيره فِي سُورَة بَرَاءَة.

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُمْتَنًّا عَلى عباده فِيمَا خَلقَ لهُمْ مِنْ البُدْن، وَجَعَلهَا مِنْ شَعَائِره، وَهُوَ أَنَّهُ جَعَلهَا تُهْدَى إِلى بَيْته الحَرَام، بَل هِيَ أَفْضَل مَا يُهْدَى، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ الآيَة. قَال ابْن جُرَيْج: قَال عَطَاء فِي قَوْله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، قَال: البَقَرَة وَالبَعِير. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ ابْن عُمَر وَسَعِيد بْن المُسَيبَّ وَالحَسَن البَصْرِيّ. وَقَال مُجَاهِد: إِنَّمَا البُدْن مِنْ الإِبِل. قُلت: أَمَّا إِطْلاق البَدَنَة عَلى البَعِير فَمُتَّفَق عَليْهِ، وَاخْتَلفُوا فِي صِحَّة إِطْلاق البَدَنَة عَلى البَقَرَة عَلى قَوْليْنِ؛ أَصَحّهمَا: أَنَّهُ يُطْلَق عَليْهَا ذَلكَ شَرْعًا كَمَا صَحَّ في الحَدِيث. ثُمَّ جُمْهُور العُلمَاء عَلى أَنَّهُ تُجْزِئ البَدَنَة عَنْ سَبْعَة، وَالبَقَرَة عَنْ سَبْعَة، كَمَا ثَبَتَ بِهِ الحَدِيث عِنْد مُسْلم، مِنْ رِوَايَة جَابر بْن عَبْد الله وغيره قَال: أَمَرَنَا رَسُول الله ﷺ أَنْ نَشْتَرِكَ فِي الأَضَاحِيّ: البَدَنَة عَنْ سَبْعَة، وَالبَقَرَة عَنْ سَبْعَة.[1] وَقَال إِسْحَاق بْن رَاهَوَيْهِ وَغَيْره: بَل تُجْزِئ البَقَرَة عن سَبْعة وَالبَعِير عَنْ عَشْرَة. وَقَدْ وَرَدَ بِهِ حَدِيث فِي «مُسْنَد الإِمَام أَحْمَد» وَ«سُنَن النَّسَائِيّ» وَغَيْرهمَا، فَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أَيْ: ثَوَاب فِي الدَّار الآخِرَة. وَعَنْ سُليْمَان بْن يَزِيد الكَعْبِيّ، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «مَا عَمِل ابْن آدَم يَوْم النَّحْر عَمَلاً أَحَبّ إِلى الله مِنْ إِرَاقَة دَم، وإنه ليأْتِي يَوْم القِيَامَة بِقُرُونِهَا وَأَظْلافهَا وَأَشْعَارهَا، وَإِنَّ الدَّم ليَقَع مِنْ الله بِمَكَانٍ قَبْل أَنْ يَقَع مِنْ الأَرْض، فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا»[2]. رَوَاهُ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (١٤٩٣)، وابن ماجه (٣١٢٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي وابن ماجه».

ابْن مَاجَهْ، وَالتِّرْمِذِيّ وَحَسَّنَهُ. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ: كَانَ أَبُو حَازِم يَسْتَدِين وَيَسُوق البُدْن، فَقِيل لهُ: تَسْتَدِين وَتَسُوق البُدْن؟ فَقَال: إِنِّي سَمِعْت الله يَقُول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾. وَعَنْ ابْن عَبَّاس قَال قَال رَسُول الله ﷺ: «مَا أَنْفَقْت الوَرِق فِي شَيْء أَفْضَل مِنْ نَحِيرَةٍ فِي يَوْم عِيد»[1]. رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي «سُننه». وَقَال إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ: يَرْكَبهَا وَيَحْلُبهَا إِذَا احْتَاجَ إِلَيْهَا. وَقَال مُجَاهِد: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قَال: أَجْر وَمَنَافِع.

وَقَوْله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾، وَعَنْ المُطَّلب بْن عَبْد الله بْن حَنْطَب، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله قَال: صَلَّيْت مَعَ رَسُول الله ﷺ عِيد الأَضْحَى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أُتِيَ بِكَبْشٍ فَذَبَحَهُ فَقَال: **«بِسْمِ الله، وَالله أَكْبَر، اللَّهُمَّ هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي»**[2]. رَوَاهُ أَحْمَد وَأَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق عَنْ يَزِيد بْن أَبِي حَبِيب، عَنْ ابْن عَبَّاس عَنْ جَابِر قَال: ضَحَّى رَسُول الله ﷺ بِكَبْشَيْنِ فِي يَوْم عِيد، فَقَال حِين وَجَّهَهُمَا: «وَجَّهْت وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَات وَالأَرْض حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ المُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ، لا شَرِيك لهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْت وَأَنَا أَوَّل المُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ مِنْك وَلك، وعَنْ مُحَمَّد وَأُمَّته». ثُمَّ سَمَّى الله وَكَبَّرَ وَذَبَحَ الذبائح.[3] وَعَنْ عَلِيّ بْن الحُسَيْن، عَنْ أَبِي رَافِع: أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ إِذَا ضَحَّى اشْتَرَى كَبْشَيْنِ سَمِينَيْنِ أَقْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ، فَإِذَا صَلَّى وَخَطَبَ النَّاس أَمَر بِأَحَدِهِمَا وَهُوَ قَائِم فِي مُصَلَّاهُ فَذَبَحَهُ بِنَفْسِهِ بِالمُدْيَةِ ثُمَّ يَقُول: **«اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعهَا، مَنْ شَهِدَ لك بِالتَّوْحِيدِ وَشَهِدَ لي بِالبَلاغِ»**. ثُمَّ يُؤْتَى بِالآخَرِ فَيَذْبَحهُ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ يَقُول: **«هَذَا عَنْ مُحَمَّد وَآل مُحَمَّد»**. فَيُطْعِمهَا جَمِيعًا المَسَاكِين، وَيَأْكُل هُوَ وَأَهْله مِنْهُمَا[4]. رَوَاهُ أَحْمَد وَابْن مَاجَهْ.

وَقَال الأَعْمَش: عَنْ أَبِي ظَبْيَان، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾، قَال: قِيَامًا عَلى ثَلاث قَوَائِم، مَعْقُولة يَدهَا اليُسْرَى، يَقُول: بِسْمِ الله، وَالله أَكْبَر، اللَّهُمَّ مِنْك وَلك. وَكَذَلِكَ رَوَى مُجَاهِد وَعَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة وَالعَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس نَحْو هَذَا. وَقَال لَيْث: عَنْ مُجَاهِد: إِذَا عُقِلتْ رِجْلهَا اليُسْرَى قَامَتْ عَلى ثَلاث. وَرَوَى ابْن أَبِي نَجِيح عَنْهُ نَحْوه. وَقَال الضَّحَّاك: تعقل رجل واحدة فتكُون عَلى ثَلاث. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْن عُمَر: أَنَّهُ أَتَى عَلى رَجُل قَدْ أَنَاخَ بَدَنته وَهُوَ يَنْحَرهَا، فَقَال: ابْعَثْهَا قِيَامًا مُقَيَّدَة، سُنَّة أَبِي القَاسِم ﷺ.[5] وَعَنْ جَابِر: أَنَّ رَسُول الله ﷺ وَأَصْحَابه كَانُوا يَنْحَرُونَ البُدْن مَعْقُولة اليُسْرَى، قَائِمَة عَلى مَا بَقِيَ مِنْ قَوَائِمهَا.[6] رَوَاهُ أَبُو دَاوُد. وَقَال ابْن لَهِيعَة: حَدَّثَنِي عَطَاء بْن دِينَار أَنَّ سَالم بْن عَبْد الله قَال لسُليْمَان بْن عَبْد المَلك: قِفْ مِنْ شِقّهَا الأَيْمَن، وَانْحَرْ مِنْ شِقّهَا الأَيْسَر. وَفِي «صَحِيح مُسْلم»، عَنْ جَابِر فِي صِفَة حَجَّة الوَدَاع قَال فِيهِ: فَنَحَرَ رَسُول الله ﷺ بِيَدِهِ ثَلاثًا وَسِتِّينَ بَدَنَة، جَعَل يَطْعَنهَا بِحَرْبَةٍ فِي يَده.[7]

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر عَنْ قَتَادَة قَال: فِي حَرْف ابْن مَسْعُود: (صَوَافِن) أَيْ: مُعَقَّلة قِيَامًا. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ: عَنْ مَنْصُور عَنْ مُجَاهِد: مَنْ قَرَأَهَا: (صَوَافِن) قَال: مَعْقُولة. وَمَنْ قَرَأَهَا: ﴿صَوَافَّ﴾ قَال:

---

(١) **ضعيف جدًا**: أخرجه الدارقطني (٤/ ٢٨٢)، وفيه إبراهيم بن يزيد الخوزي. قال ابن حبان: روي مناكير كثيرة وأوهامًا غليظة. وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٥٢٤).
(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٨١٠)، والترمذي (١٥٢١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٣) **ضعيف**: تقدم.
(٤) **صحيح**: تقدم.
(٥) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٧١٣)، ومسلم (١٣٢٠).
(٦) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٧٦٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٧) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٢١٠).

تَصُفّ بَيْن يَدَيْهَا. وَقَال طَاوُس، وَالحَسَن، وَغَيْرهمَا: (فَاذْكُرُوا اسْم الله عَلَيْهَا صَوَافِي) يَعْنِي: خَالصَة لله ﷻ. وَكَذَا رَوَاهُ مَالك عَنْ الزُّهْرِيّ. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد: (صَوَافِي) لَيْسَ فِيهَا شِرْك كَشِرْكِ الجَاهِلِيَّة لأَصْنَامِهَا.

وَقَوْله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾، قَال ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد: يَعْنِي سَقَطَتْ إِلَى الأَرْض. وَهُوَ رِوَايَة عَنْ ابْن عَبَّاس، وَكَذَا قَال مُقَاتِل بْن حَيَّان. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يَعْنِي: نُحِرَتْ. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يَعْنِي: مَاتَتْ. وَهَذَا القَوْل هُوَ مُرَاد ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد، فَإِنَّهُ لا يَجُوز الأَكْل مِنْ البَدَنَة إِذَا نُحِرَتْ حَتَّى تَمُوت وَتَبْرُد حَرَكَتهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيث مَرْفُوع: «لا تُعْجِلُوا النُّفُوس أَنْ تَزْهَق».[1] وَقَدْ رَوَاهُ الثَّوْرِيّ فِي «جَامِعه»، عَنْ أَيُّوب، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير عن فُرَافِصَة الحَنَفِيّ عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب أَنَّهُ قَال ذَلِكَ، وَيُؤَيِّدهُ حَدِيث شَدَّاد بْن أَوْس فِي صَحِيح مُسْلم: «**إِنَّ الله كَتَبَ الإِحْسَان عَلَى كُلّ شَيْء، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَة، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْح، وَلْيُحِدَّ أَحَدكُمْ شَفْرَته، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَته**»[2]. وَعَنْ أَبِي وَاقِد اللَّيْثِيّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**مَا قُطِعَ مِنْ البَهِيمَة وَهِيَ حَيَّة فَهُوَ مَيْتَة**»[3]. وروَاهُ أَحْمَد وَأَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ.

وَقَوْله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾، قَال بَعْض السَّلَف: قَوْله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أَمْر إِبَاحَة. وَقَال مَالك: يُسْتَحَبّ ذَلِكَ. وَقَال غَيْره: يَجِب. وَهُوَ وَجْه لبَعْضِ الشَّافِعِيَّة. وَاخْتَلَفُوا فِي المُرَاد بِالقَانِع وَالمُعْتَرّ؛ فَقَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿الْقَانِعَ﴾: المُسْتَغْنِي بِمَا أَعْطَيْته وَهُوَ فِي بَيْته. ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾: الَّذِي يَتَعَرَّض لك وَيُلِمّ بِك أَنْ تُعْطِيَهُ مِنْ اللَّحْم وَلا يَسْأَل. وَكَذَا قَال مُجَاهِد وَمُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿الْقَانِعَ﴾: المُتَعَفِّف، ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾: السَّائِل. وَهَذَا قَوْل قَتَادَة وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَمُجَاهِد فِي رِوَايَة عَنْهُ. وَقَال ابْن عَبَّاس وَعِكْرِمَة وَزَيْد بْن أَسْلم وَالكَلْبِيّ وَالحَسَن البَصْرِيّ وَمُقَاتِل بْن حَيَّان وَمَالك بْن أَنَس: ﴿الْقَانِعَ﴾: هُوَ الَّذِي يَقْنَع إِلَيْك وَيَسْأَلك. ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾: الَّذِي يَعْتَرِيك يَتَضَرَّع وَلا يَسْأَلك. وَهَذَا لَفْظ الحَسَن. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: ﴿الْقَانِعَ﴾: هُوَ السَّائِل. ثم قَال: أَمَا سَمِعْت قَوْل الشَّمَّاخ:

لَمَال المَرْء يُصْلِحهُ فَيُغْنِي ❁ مَفَاقِره أَعَفّ مِنْ القُنُوع

قَال: يُغْنِي مِنْ السُّؤَال وَبِهِ قَال ابْن زَيْد. وَقَال زَيْد بْن أَسْلم: ﴿الْقَانِعَ﴾: المِسْكِين الَّذِي يَطُوف. ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾: الصَّدِيق وَالضَّعِيف الَّذِي يَزُور. وَهُوَ رِوَايَة عَنْ ابْنه عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد أَيْضًا. وَعَنْ مُجَاهِد أَيْضًا: ﴿الْقَانِعَ﴾: جَارك الغَنِيّ الَّذِي يُبْصِر مَا يَدْخُل بَيْتك، ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾: الَّذِي يَعْتَرِيك مِنْ النَّاس. وَعَنْهُ أَنَّ القَانِع: هُوَ الطَّامِع، وَالمُعْتَرّ هُوَ الَّذِي يَعْتَرّ بِالبُدْنِ مِنْ غَنِيّ أَوْ فَقِير. وَعن عِكْرِمَة نَحْوه، وَعَنْهُ: ﴿الْقَانِعَ﴾: أَهْل مَكَّة. وَاخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّ ﴿الْقَانِعَ﴾ هُوَ السَّائِل؛ لأَنَّهُ مِنْ أَقْنَعَ بِيَدِهِ إِذَا رَفَعَهَا للسُّؤَال، ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ مِنْ الاعْتِرَار، وَهُوَ: الَّذِي يَتَعَرَّض لأَكْل اللَّحْم.

وَقَدْ احْتَجَّ بِهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة مَنْ ذَهَبَ مِنْ العُلَمَاء إِلَى أَنَّ الأُضْحِيَّة تُجَزَّأ ثَلاثَة أَجْزَاء: فَثُلُث لصَاحِبِهَا يَأْكُلهُ، وَثُلُث يُهْدِيه لأَصْحَابِهِ، وَثُلُث يَتَصَدَّق بِهِ عَلَى الفُقَرَاء؛ لأَنَّهُ تَعَالَى قَال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾.

---

(١) ضعيف: أخرجه الدارقطني (٤/ ٢٨٣)، وإسناده ضعيف، وفيه سعيد بن سلام العطار: كذاب. وقال البخاري: يذكر بوضع الحديث، وكذبه أحمد. وضعفه الألباني في «إرواء الغليل» (٢٥٤١).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٥٥).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٨٥٨)، والترمذي (١٤٨٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وَفِي الحَدِيث الصَّحِيح أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال للنَّاسِ: «**إِنِّي كُنْت نَهَيْتُكُمْ عَنْ ادِّخَار لُحُوم الأَضَاحِيِّ فَوْق ثَلاث، فَكُلُوا وَادَّخِرُوا مَا بَدَا لكُمْ**»[1]. وَفِي رِوَايَة: «**فَكُلُوا وَادَّخِرُوا وَتَصدَّقُوا**». وَفِي رِوَايَة: «**فَكُلُوا وَأَطْعِمُوا وَتَصدَّقُوا**». وَالقَوْل الثَّانِي: أَنَّ المُضَحِّي يَأْكُل النِّصْف وَيَتَصدَّق بِالنِّصْفِ؛ لقَوْلِهِ فِي الآيَة المُتَقَدِّمَة: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾.

وَلقَوْلِهِ فِي الحَدِيث: «**فَكُلُوا وَادَّخِرُوا وَتَصدَّقُوا**».

فَإِنْ أَكَل الكُلّ؛ فَقِيل: لا يَضْمَن شَيْئًا؛ وَبِهِ قَال ابْن سُرَيْج مِنْ الشَّافِعِيَّة.

وَقَال بَعْضهمْ: يَضْمَنها كُلّهَا بِمِثْلهَا أَوْ قِيمَتهَا. وَقِيل: يَضْمَن نِصْفهَا. وَقِيل: ثُلُثهَا. وَقِيل: أَدْنَى جُزْء مِنْهَا. وَهُوَ المَشْهُور مِنْ مَذْهَب الشَّافِعِيّ.

وَأَمَّا الجُلُود فَفِي «مُسْنَد أَحْمَد»، عَنْ قَتَادَة ابْن النُّعْمَان فِي حَدِيث الأَضَاحِيّ: «فَكُلُوا وَتَصدَّقُوا، وَاسْتَمْتِعُوا بِجُلُودِهَا وَلا تَبِيعُوهَا».[2] وَمِنْ العُلَمَاء مَنْ رَخَّصَ فِي ذلك، وَمِنْهُمْ مَنْ قَال: يُقَاسِم الفُقَرَاء ثمنها وَالله أَعْلم.

مَسْأَلة: عَنْ البَرَاء بْن عَازِب قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ أَوَّل مَا نَبْدَأ بِهِ فِي يَوْمنَا هَذَا أَنْ نُصلِّيَ، ثُمَّ نَرْجِع فَنَنْحَر، فَمَنْ فَعَل ذلك فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْل الصَّلاة فَإِنَّمَا هُوَ لحْم عجَّله لأَهْلِهِ، ليْسَ مِنْ النُّسُك فِي شَيْء**»[3]. أَخْرَجَاهُ.

فَلهَذَا قَال الشَّافِعِيّ وَجَمَاعَة مِنْ العُلَمَاء: إِنَّ أَوَّل وَقْت الأضْحَى إِذَا طَلَعَتْ الشَّمْس يَوْم النَّحْر، وَمَضَى قَدْر صَلاة العِيد وَالخُطْبَتَيْنِ، زَادَ أَحْمَد: وَأَنْ يَذْبَح الإِمَام بَعْد ذَلِكَ، لَمَا جَاءَ فِي «صَحِيح مُسْلم»: «**وَأَنْ لا تَذْبَحُوا حَتَّى يَذْبَح الإِمَام**».[4]

وَقَال أَبُو حَنِيفَة: أَمَّا أَهْل السَّوَاد مِنْ القُرَى وَنَحْوهَم فَلهُمْ أَنْ يَذْبَحُوا بَعْد طُلُوع الفَجْر، إِذْ لا صَلاة عِيد عِنْده لهُمْ، وَأَمَّا أَهْل الأَمْصَار فَلا يَذْبَحُوا حَتَّى يُصَلِّي الإِمَام، وَالله أَعْلم.

ثُمَّ قِيل: لا يُشْرَع الذَّبْح إِلَّا يَوْم النَّحْر وَحْده. وقيل: يَوْم النَّحْر لأَهْل الأَمْصَار؛ لتَيَسُّرِ الأَضَاحِيّ عِنْدهمْ، وَأَمَّا أَهْل القُرَى فَيَوْم النَّحْر وَأَيَّام التَّشْرِيق بَعْده، وَبِهِ قَال سَعِيد بْن جُبَيْر.

وَقِيل: يَوْم النَّحْر وَيَوْم بَعْده للجَمِيع.

وَقِيل: وَيَوْمَانِ بَعْده، وَبِهِ قَال الإِمَام أَحْمَد.

وَقِيل: يَوْم النَّحْر وَثَلاثَة أَيَّام التَّشْرِيق بَعْده. وَبِهِ قَال الشَّافِعِيّ؛ لحَدِيثِ جُبَيْر بْن مُطْعِم: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**وأَيَّام التَّشْرِيق كُلّهَا ذَبْح**»[5]. رَوَاهُ أَحْمَد وَابْن حِبَّان.

وَقِيل: إِنَّ وَقْت الذَّبْح يَمْتَدّ إِلى آخِر ذِي الحِجَّة. وَبِهِ قَال إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَأَبُو سَلمَة ابْن عَبْد الرَّحْمَن، وَهُوَ قَوْل غَرِيب.

وَقَوْله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، يَقُول تَعَالى: مِنْ أَجْل هَذَا ﴿سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾، أَيْ: ذَلَّلنَاهَا لكُمْ، أي: جَعَلنَاهَا مُنْقَادَة لكُمْ خَاضِعَة، إِنْ شِئْتُمْ رَكِبْتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ حَلبْتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ ذَبَحْتُمْ، كَمَا قَال تَعَالى:

---

(١) **صحيح** : أخرجه مسلم (٩٧٧).
(٢) **ضعيف** : أخرجه أحمد (٤/ ١٥)، وفيه تدليس ابن جريج وانقطاع بين زيد وأبي سعيد.
(٣) **صحيح** : أخرجه البخاري (٥٥٤٥)، ومسلم (١٩٦١).
(٤) لفظ الحديث في «صحيح مسلم» (١٩٦٤).
(٥) **إسناده ضعيف** : أخرجه أحمد (٤/ ٨٢)، وابن حبان (٣٨٥٤)، وفي إسناده عبد الرحمن بن أبي الحسين لم يوثقه غير ابن حبان، وهو لم يلقَ جبير بن مطعم؛ فالإسناد منقطع.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. وَقَال فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يَقُول تَعَالى: إِنَّما شُرِعَ لكُمْ نَحْر هَذِهِ الهَدَايَا الضَّحَايَا؛ لتَذْكُرُوهُ عِنْد ذَبْحِهَا، فَإِنَّهُ الخَالق الرَّازِق، لأنه لا يَنالهُ شَيْء مِنْ لُحُومِهَا وَلا دِمَائِهَا، فَإِنَّهُ تَعَالى هُوَ الغَنِيّ عَمَّا سِوَاهُ. وَقَدْ كَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ إِذَا ذَبَحُوهَا لآلهَتِهِمْ وَضَعُوا عَلَيْهَا مِنْ لُحُوم قَرَابِينهمْ، وَنَضَحُوا عَلَيْهَا مِنْ دِمَائِهَا، فَقَال تَعَالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي حَمَّاد، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن المُخْتَار، عَنْ ابْن جُرَيْج قَال: كَانَ أَهْل الجَاهِلِيَّة يَنْضَحُونَ البَيْت بِلُحُوم الإِبِل وَدِمَائِهَا، فَقَال أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ: فَنَحْنُ أَحَقّ أَنْ نَنْضَح، فَأَنْزَل الله: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[1]. أَيْ: يَتَقبَّل ذَلكَ وَيَجْزِي عَلَيْهِ. كَمَا جَاءَ فِي «الصَّحِيح»: «**إِنَّ الله لا يَنْظُر إِلى صُوَرِكُمْ وَلا إِلى أَمْوَالكُمْ، وَلكِنْ يَنْظُر إِلى قُلُوبكُمْ وَأَعْمَالكُمْ**».[2] وَما جَاءَ فِي الحَدِيث: «(**إِنَّ الصَّدَقَة تَقَع فِي يَد الرَّحْمَن قَبْل أَنْ تَقَع فِي يَد السَّائِل**)[3]، وإِنَّ الدَّم ليَقَع مِنْ الله بِمَكَانٍ قَبْل أَنْ يَقَع عَلَى الأَرْض»[4]. كَمَا تَقَدَّمَ فِي الحَدِيث. رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ، وَالتِّرْمِذِيّ وَحَسَّنَهُ عَنْ عَائِشَة مَرْفُوعًا. فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ سِيقَ لتَحْقِيقِ القَبُول مِنْ الله لمَنْ أَخْلصَ فِي عَمَله، وَليْسَ لهُ مَعْنًى يَتَبَادَر عِنْد العُلَمَاء المُحَقِّقِينَ سِوَى هَذَا، وَالله أَعْلم.

وَقَال وَكِيع: عَنْ يَحْيَى بْن مُسْلم أَبِي الضَّحَّاك: سَأَلت عَامِرًا الشَّعْبِيّ عَنْ جُلُود الأَضَاحِيّ؟ فَقَال: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾، إِنْ شِئْت فَبِعْ، وَإِنْ شِئْت فَأَمْسِكْ، وَإِنْ شِئْت فَتَصَدَّقْ. وَقَوْله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾. أَيْ: مِنْ أَجْل ذَلكَ سَخَّرَ لكُمْ البُدْن ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أَيْ: لتُعَظِّمُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ لدِينِهِ وَشَرْعه وَمَا يُحِبّهُ وَما يَرْضَاهُ، وَنَهَاكُمْ عَنْ فِعْل مَا يَكْرَههُ وَيَأْبَاهُ. وَقَوْله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾. أَيْ: وَبَشِّرْ يَا مُحَمَّد المُحْسِنِينَ. أَيْ: فِي عَمَلهمْ، القَائِمِينَ بِحُدُودِ الله، المُتَّبِعِينَ مَا شُرِعَ لهُمْ، المُصَدِّقِينَ الرَّسُول فِيمَا أَبْلغَهُمْ وَجَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْد رَبّه ﷻ.

مَسْأَلة: وَقَدْ ذَهَبَ أَبُو حَنِيفَة وَمَالك وَالثَّوْرِيّ إِلى القَوْل بِوُجُوبِ الأُضْحِيَّة عَلى مَنْ مَلكَ نِصَابًا، وَزَادَ أَبُو حَنِيفَة اشْتِرَاط الإِقَامَة أَيْضًا وَاحْتَجَّ لهُمْ بِمَا رَوَاهُ أَحْمَد وَابْن مَاجَهْ بِإِسْنَادٍ رِجَاله كُلّه ثِقَات، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَرْفُوعًا: «**مَنْ وَجَدَ سَعَة فَلمْ يُضَحّ فَلا يَقْرَبَنَّ مُصَلَّانَا**»[5]. عَلى أَنَّ فِيهِ غَرَابَة وَاسْتَنْكَرَهُ أَحْمَد بْن حَنْبَل. وَقَال ابْن عُمَر: أَقَامَ رَسُول الله ﷺ عَشْر سِنِينَ يُضَحِّي.[6] رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ. وَقَال الشَّافِعِيّ وَأَحْمَد: لا تَجِب الأُضْحِيَّة، بَل هِيَ مُسْتَحَبَّة؛ لمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «ليْسَ فِي المَال حَقّ سِوَى الزَّكَاة»[7]. وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَحَّى عَنْ أُمَّته

---

(١) **مرسل**: من رواية ابن جرير ولم يسنده.
(٢) **صحيح**: تقدم.
(٣) **صحيح**: تقدم.
(٤) **ضعيف**: تقدم.
(٥) **حسن**: أخرجه أحمد (٢/ ٢٢١)، وابن ماجه (٣١٢٣)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».
(٦) **حسن**: أخرجه الترمذي (١٥٠٧)، وقال: حديث حسن. وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٤٧٥).
(٧) **منكر**: أخرجه ابن ماجه (١٧٨٩)، وفيه اضطراب. وقال الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه»: (منكر).

فَأَسْقَطَ ذَلكَ وُجُوبهَا عَنْهُمْ. وَقَال أَبُو سَرِيحَة: كُنْت جَارًا لأَبِي بَكْر وَعُمَر، فَكَانَا لا يُضَحِّيَانِ خَشْيَة أَنْ يَقْتَدِي النَّاس بِهِمَا. وَقَال بَعْض النَّاس: الأُضْحِيَّة سُنَّة كِفَايَة إِذَا قَامَ بِهَا وَاحِد مِنْ أَهْل دَار أَوْ مَحَلَّة سَقَطَتْ عَنْ البَاقِينَ لأَنَّ المَقْصُود إِظْهَار الشِّعَار. وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَحْمَد وَأَهْل السُّنَن، وَحَسَّنَهُ التِّرْمِذِيّ، عَنْ مخنف بْن سُلَيْم أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ يَقُول بِعَرَفَاتٍ: «**عَلَى كُلِّ أَهْلِ بَيْت فِي كُلِّ عَام أُضْحَاة وَعَتِيرَة هَل تَدْرُونَ مَا العَتِيرَة؟ هِيَ الَّتِي تَدْعُونَهَا الرَّجَبِيَّة**»[1]. وَقَدْ تُكُلِّمَ فِي إِسْنَاده. وَقَال أَبُو أَيُّوب: كَانَ الرَّجُل فِي عَهْد رَسُول الله ﷺ يُضَحِّي بِالشَّاةِ الوَاحِدَة عَنْهُ وَعَنْ أَهْل بَيْته فَيَأْكُلُونَ وَيُطْعِمُونَ حَتَّى تَبَاهَى النَّاس فَصَارَ كَمَا تَرَى[2]، رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ، وَابْن مَاجَهْ. وَكَانَ عَبْد الله بْن هِشَام يُضَحِّي بِالشَّاةِ الوَاحِدَة عَنْ جَمِيع أَهْله. رَوَاهُ البُخَارِيّ. فَأَمَّا مِقْدَار سِنّ الأُضْحِيَّة فَقَدْ رَوَى مُسْلم عَنْ جَابِر أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**لا تَذْبَحُوا إِلاَّ مُسِنَّة إِلاَّ أَنْ يَعْسُر عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذَعَة مِنْ الضَّأْن**»[3]. وَمِنْ هَهُنَا ذَهَبَ الزُّهْرِيّ إِلَى أَنَّ الجَذَع لا يُجْزِئ، وَقَابَلَهُ الأَوْزَاعِيّ فَذَهَبَ إِلَى أَنَّ الجَذَعَ يُجْزِئ مِنْ كُلّ جِنْس، وَهُمَا غَرِيبَانِ، وقال الجُمْهُور: إِنَّمَا يُجْزِئ الثَّنِيّ مِنْ الإِبِل وَالبَقَر وَالمَعْز، والجَذَع مِنْ الضَّأْن، فَأَمَّا الثَّنِيّ مِنْ الإِبِل فَهُوَ الَّذِي لَهُ خَمْس سِنِينَ وَدَخَل فِي السَّادِسَة، وَمِنْ البَقَر مَا لَهُ سَنَتَانِ وَدَخَل فِي الثَّالِثَة، وَقِيل: مَا لَهُ ثَلاث وَدَخَل فِي الرَّابِعَة. وَمِنْ المَعْز مَا لَهُ سَنَتَانِ. وَأَمَّا الجَذَع مِنْ الضَّأْن؛ فَقِيل: مَا لَهُ سَنَة، وَقِيل: عَشَرَة أَشْهُر، وَقِيل: ثَمَانِيَة أَشْهُر. وَقِيل: سِتَّة أَشْهُر، وَهُوَ أَقَلّ مَا قِيل فِي سِنّه، وَمَا دُونه فَهُوَ حَمَل، وَالفَرْق بَيْنهمَا أَنَّ الحَمَل شَعْر ظَهْره قَائِم وَالجَذَع شَعْر ظَهْره نَائِم، قَدْ انْعَدل صُدْغَيْنِ وَالله أَعْلَم.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾.

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ يَدْفَع عَنْ عِبَاده الَّذِينَ تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَأَنَابُوا إِلَيْهِ شَرّ الأَشْرَار وَكَيْد الفُجَّار، وَيَحْفَظهُمْ وَيَكْلَؤُهُمْ وَيَنْصُرهُمْ كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾. وَقَال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾. وَقَوْله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾. أَيْ: لا يُحِبّ مِنْ عِبَاده مَنْ اتَّصَفَ بِهَذَا وَهُوَ الخِيَانَة فِي العُهُود وَالمَوَاثِيق، لا يَفِي بِمَا قَال. وَالكُفْر: الجَحْد لِلنِّعَم، فَلا يَعْتَرِف بِهَا.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: نَزَلَتْ فِي مُحَمَّد وَأَصْحَابه حِين أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّة. وَقَال غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف: هَذِهِ أَوَّل آيَة نَزَلَتْ فِي الجِهَاد، وَاسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الآيَة بَعْضهمْ عَلَى أَنَّ السُّورَة مَدَنِيَّة، وَقَاله مُجَاهِد وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْن دَاوُد الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن يُوسُف، عَنْ سُفْيَان، عَنْ الأَعْمَش عَنْ مُسْلم -هُوَ البَطِين- عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: لَمَّا أُخْرِجَ النَّبِيّ ﷺ مِنْ مَكَّة، قَال أَبُو بَكْر: أَخْرَجُوا نَبِيّهمْ، إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، لَيَهْلكُنَّ. قَال ابْن عَبَّاس: فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٢٧٨٨)، والترمذي (١٥١٨)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (١٥٠٥)، وابن ماجه (٣١٤٧)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٦٣).

ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾، قال أَبو بَكْر رضي الله عنه: فَعَرَفْت أَنَّهُ سَيَكُونُ قِتَال[1]. وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد عَنْ إِسْحَاق بْن يُوسُف الأَزْرَق، بِهِ، وَزَادَ: قَال ابْن عَبَّاس: وَهِيَ أَوَّل آيَة نَزَلتْ فِي القِتَال. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير مِنْ «سُنَنَيْهِمَا»، وَابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث إِسْحَاق بْن يُوسُف، زَادَ التِّرْمِذِيّ: وَوَكِيع، كِلاهُمَا عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَدِيث حَسَن. وَقَدْ رَوَاهُ غَيْر وَاحِد عَنْ الثَّوْرِيّ، وَلَيْسَ فِيهِ ابْن عَبَّاس.

وَقَوْله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾، أَيْ: هُوَ قَادِر عَلَى نَصْر عِبَاده الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْر قِتَال، وَلَكِنْ هُوَ يُرِيد مِنْ عِبَاده أَنْ يَبْلُوَ جَهْدهمْ فِي طَاعَته، كَمَا قَال: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾، وَقَال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾. وَقَال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، وَقَال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾، وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة.

وَلِهَذَا قَال ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾: وَقَدْ فَعَل. وَإِنَّمَا شَرَعَ تَعَالَى الجِهَاد فِي الوَقْت الأَلْيَق بِهِ، لأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا بِمَكَّة كَانَ الْمُشْرِكُونَ أَكْثَر عَدَدًا، فَلَوْ أَمَرَ الْمُسْلمينَ وَهُمْ أَقَلّ مِنْ العَشْر بِقِتَال البَاقِينَ لشَقَّ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا لَمَّا بَايَعَ أَهْل يَثْرِب لَيْلَة العَقَبَة رَسُول الله ﷺ وَكَانُوا نَيِّفًا وَثَمَانِينَ، قَالُوا: يَا رَسُول الله، أَلا نَمِيل عَلى أَهْل الوَادِي -يَعْنُونَ أَهْل مِنًى- لَيَالِي مِنًى فَنَقْتُلهُمْ؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**إِنِّي لَمْ أُؤْمَر بِهَذَا**». فَلَمَّا بَغَى الْمُشْرِكُونَ، وَأَخْرَجُوا النَّبِيّ ﷺ مِنْ بَيْن أَظْهُرِهِمْ، وَهَمُّوا بِقَتْله، وَشَرَّدُوا أَصْحَابه شَذَر مَذَر، فَذَهَبَ مِنْهُمْ طَائِفَة إِلى الحَبَشَة، وَآخَرُونَ إِلى الْمَدِينَة، فَلَمَّا اسْتَقَرُّوا بِالْمَدِينَة، وَوَافَاهُمْ رَسُول الله ﷺ وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، وَقَامُوا بِنَصْرِهِ، وَصَارَتْ لَهُمْ دَار إِسْلام، وَمَعْقِلًا يَلجَئُونَ إِلَيْهِ، شَرَعَ الله جِهَاد الأَعْدَاء، فَكَانَتْ هَذِهِ الآيَة أَوَّل مَا نَزَل فِي ذَلكَ، فَقَال تَعَالَى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾. قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّة إِلى الْمَدِينَة بِغَيْر حَقّ، يَعْنِي: مُحَمَّدًا وَأَصْحَابه.

﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾، أَيْ: مَا كَانَ لَهُمْ إِلى قَوْمهمْ إِسَاءَة، وَلا كَانَ لَهُمْ ذَنْب، إِلَّا أَنَّهُمْ عَبَدُوا الله وَحْده لا شَرِيك لَهُ، وَهَذَا اسْتِثْنَاء مُنْقَطِع بِالنِّسْبَة إِلى مَا فِي نَفْس الأَمْر، وَأَمَّا عِنْد الْمُشْرِكِينَ فهو أَكْبَر الذُّنُوب، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾، وَقَال تَعَالَى فِي قِصَّة أَصْحَاب الأُخْدُود: ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ الْمُسْلمُونَ يَرْتَجِزُونَ فِي بِنَاء الخَنْدَق وَيَقُولُونَ:

لاهُمَّ لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا	**وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا**
فَأَنْزِلن سَكِينَة عَلَيْنَا	**وَثَبِّتْ الأَقْدَام إِنْ لاقَيْنَا**
إِنَّ الأُلى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا	**إِذَا أَرَادُوا فِتْنَة أَبَيْنَا**

---

(١) صحيح: أخرجه الطبري (١٧/ ١٢٢)، وأحمد (١/ ٢١٦)، والترمذي (٣١٧١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

فَيُوَافِقهُمْ رَسُول الله ﷺ وَيَقُول مَعَهُمْ آخِر كُلّ قَافِيَة، فَإِذَا قَالُوا: إِذَا أَرَادُوا فِتْنَة أَبَيْنَا قال: «أَبَيْنَا»، يَمُدّ بِهَا صَوْته.

ثُمَّ قَال تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، أَيْ: لوْلا أَنَّهُ يَدْفع عَنْ قَوْم بِقَوْمٍ ويَكْشِف شَرَّ أُنَاس عَنْ غَيْرهمْ بِمَا يَخْلُقهُ وَيُقَدِّرهُ مِنْ الأَسْبَاب؛ لفَسَدَتْ الأَرْض، [وَلأَهْلكَ][1] القَوِيّ الضَّعِيف.

﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾، وَهِيَ المَعَابِد الصِّغَار للرُّهْبَانِ، قَالهُ ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَأَبُو العَالِيَة وَعِكْرِمَة وَالضَّحَّاك وَغَيْرهمْ. وَقَال قَتَادَة: هِيَ مَعَابِد الصَّابِئِينَ، وَفِي رِوَايَة عَنْهُ: صَوَامِع المَجُوس. وَقَال مُقَاتِل بْن حَيَّان: هِيَ البُيُوت الَّتِي عَلى الطُّرُق.

﴿وَبِيَعٌ﴾ وَهِيَ أَوْسَع مِنْهَا، وَأَكْثَر عَابِدِينَ فِيهَا، وَهِيَ للنَّصَارَى أَيْضًا. قَالهُ أَبُو العَالِيَة وَقَتَادَة وَالضَّحَّاك وَابْن صَخْر وَمُقَاتِل بْن حَيَّان وَخُصَيْف وَغَيْرهمْ. وَحَكَى ابْن جرير عَنْ مُجَاهِد وَغَيْره: أَنَّهَا كَنَائِس اليَهُود. وَحَكَى السُّدِّيّ عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّهَا كَنَائِس اليَهُود. وَمُجَاهِد إِنَّمَا قَال: هِيَ الكَنَائِس. وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: الصَّلوَات: الكَنَائِس. وَكَذَا قَال عِكْرِمَة وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة: إِنَّهَا كَنَائِس اليَهُود. وَهُمْ يُسَمُّونَهَا صَلوتًا. وَحَكَى السُّدِّيّ عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّهَا كَنَائِس النَّصَارَى. وَقَال أَبُو العَالِيَة وَغَيْره: الصَّلوَات مَعَابِد الصَّابِئِينَ. وَقَال ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد: الصَّلوَات: مَسَاجِد لأَهْل الكِتَاب وَلأَهْل الإِسْلام بِالطُّرُقِ. وَأَمَّا المَسَاجِد فَهِيَ للمُسْلِمِينَ.

وَقَوْله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ فَقَدْ قِيل: الضَّمِير فِي قَوْله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ عَائِد إِلى المَسَاجِد؛ لأَنَّهَا أَقْرَب المَذْكُورَات. وَقَال الضَّحَّاك: الجَمِيع يُذْكَر فِيهَا اسْم الله كَثِيرًا.

وَقَال ابْن جَرِير: الصَّوَاب: لهُدِّمَتْ صَوَامِع الرُّهْبَان، وَبِيَع النَّصَارَى، وَصَلوَات اليَهُود وَهِيَ كَنَائِسهمْ، وَمَسَاجِد المُسْلِمِينَ الَّتِي يُذْكَر فِيهَا اسْم الله كَثِيرًا؛ لأَنَّ هَذَا هُوَ المُسْتَعْمَل المَعْرُوف فِي كَلام العَرَب. وَقَال بَعْض العُلَمَاء: هَذَا تَرَقٍّ مِنْ الأَقَلّ إِلى الأَكْثَر، إِلى أَنْ ينتهي إِلى المَسَاجِد وَهِيَ أَكْثَر عمارًا وَأَكْثَر عِبادًا، وَهُمْ ذَوُو القَصْد الصَّحِيح.

وَقَوْله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، وَصَفَ نَفْسه بِالقُوَّةِ وَالعِزَّة، فَبِقُوَّتِهِ خَلقَ كُلّ شَيْء فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا، وَبِعِزَّتِهِ لا يَقْهَرهُ قَاهِر، وَلا يَغْلبهُ غَالب، بَل كُلّ شَيْء ذَلِيل لدَيْهِ فَقِير إِليْهِ، وَمَنْ كَانَ القَوِيّ العَزِيز نَاصِره فَهُوَ المَنْصُور، وَعَدُوّهُ هُوَ المَقْهُور؛ قَال الله تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الرَّبِيع الزَّهْرَانِيّ، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد، عَنْ أَيُّوب وَهِشَام، عَنْ مُحَمَّد قَال: قَال عُثْمَان بْن عَفَّان: فِينَا نَزَلتْ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾. فَأُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارنَا بِغَيْرِ حَقّ، إِلَّا أَنْ قُلنَا: رَبّنَا الله، ثُمَّ مُكِّنَّا فِي الأَرْض، فَأَقَمْنَا الصَّلاة وَآتَيْنَا الزَّكَاة، وَأَمَرْنَا بِالمَعْرُوفِ، وَنَهَيْنَا عَنْ المُنْكَر، ولله عَاقِبَة الأُمُور فَهِيَ لِي وَلأَصْحَابِي. وَقَال أَبُو العَالِيَة: هُمْ أَصْحَاب مُحَمَّد ﷺ. وقَال الصَّبَّاح بْن سَوَادَة الكِنْدِيّ: سَمِعْت عُمَر بْن عَبْد العَزِيز يَخْطُب وَهُوَ

---

(١) في نسخة: [وأهلك].

يَقُول: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الآيَة، ثُمَّ قَال: أَلا إِنَّهَا لَيْسَتْ عَلى الوَالي وَحْده، وَلكِنَّهَا عَلى الوَالي وَالمُولَّى عَلَيْهِ، أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا لكُمْ عَلى الوَالي مِنْ ذَلكُمْ، وَبِمَا للوَالي عَليْكُمْ مِنْهُ، إِنَّ لكُمْ عَلى الوَالي مِنْ ذَلكُمْ، أَنْ يُؤَاخِذَكم بِحُقُوقِ الله عَليْكُمْ، وَأَنْ يَأْخُذ لبَعْضِكُمْ مِنْ بَعْض، وَأَنْ يَهْدِيكُمْ للَّتِي هِيَ أَقْوَم مَا اسْتَطَاعَ وَإِنَّ عَليْكُمْ مِنْ ذَلكَ الطَّاعَة غَيْر المَبْزُوزَة، وَلا المُسْتكْرَهة وَلا المُخَالف سِرّهَا عَلانِيَتهَا. وَقَال عَطِيَّة العَوْفِيّ: هَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

وَقَوْله: ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾. وَقَال زَيْد بْن أَسْلم: ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾: وَعِنْد الله ثَوَاب مَا صَنَعُوا.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾.

يَقُول تَعَالى مُسَلِّيًا نبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ فِي تَكْذِيب مَنْ خَالفَهُ مِنْ قَوْمه: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ إِلى أَنْ قَال: ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾، أَيْ: مَعَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الآيَات البَيِّنَات وَالدَّلائِل الوَاضِحَات. ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾، أَيْ: أَنْظَرْتهمْ وَأَخَّرْتهمْ، ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أَيْ: فَكَيْف كَانَ إِنْكَارِي عَليْهِمْ وَمُعَاقَبَتِي لَهُمْ. ذَكَرَ بَعْض السَّلف أَنَّهُ كَانَ بَيْن قَوْل فِرْعَوْن لقَوْمِهِ: أَنَا رَبّكُمْ الأَعْلى. وَبَيْن إِهْلاك الله لهُ أَرْبَعُونَ سَنَة.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنْ رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «إِنَّ الله ليُمْلي للظَّالمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لم يُفْلتهُ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.[1]

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾، أَيْ: كَمْ مِنْ قَرْيَة أَهْلكْتهَا ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أَيْ: مُكَذِّبَة لرسولها ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ قَال الضَّحَّاك: سُقُوفهَا، أَيْ: قَدْ خَرِبَتْ مَنَازِلها، وَتَعَطَّلتْ حَوَاضِرهَا. ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ أَيْ: لا يُسْتَقَى مِنْهَا وَلا يَرِدُهَا أَحَد بَعْد كَثْرَة وَارِدِيهَا وَالازْدِحَام عَليْهَا.

﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ قَال عِكْرِمَة: يَعْنِي المُبَيَّض بِالجِصّ. وَرُوِيَ عَنْ عَليّ بْن أَبِي طَالب وَمُجَاهِد وَعَطَاء وَسَعِيد ابْن جُبَيْر وَأَبِي المَليح وَالضَّحَّاك نَحْو ذَلكَ. وَقَال آخَرُونَ: هُوَ المَنِيف المُرْتَفِع. وَقَال آخَرُونَ: هو الشديد المَنِيع الحَصِين. وَكُلّ هَذِهِ الأَقْوَال مُتَقَارِبَة، وَلا مُنَافَاة بَيْنَهَا، فَإِنَّهُ لمْ يَحْمِ أَهْله شِدَّة بِنَائِهِ وَلا ارْتِفَاعه، وَلا إِحْكَامه وَلا حَصَانَته، عَنْ حُلُول بَأْس الله بِهِمْ، كَمَا قَال تبارك تَعَالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾.

وَقَوْله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، أَيْ: بِأَبْدَانِهِمْ وتفكرهم أَيْضًا، وَذَلكَ كَافٍ، كَمَا قَال ابْن أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَاب «التَّفَكُّر وَالاعْتِبَار»: حَدَّثَنَا هَارُون بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا سَيَّار، حَدَّثَنَا جَعْفَر، حَدَّثَنَا مَالك بْن دِينَار قَال: أَوْحَى الله تَعَالى إِلى مُوسَى عليه السلام: أَنْ يَا مُوسَى اتَّخِذْ نَعْليْنِ مِنْ حَدِيد وَعَصًا، وسِحْ فِي الأَرْض، ثُمَّ اطْلُبْ الآثَار وَالعِبَر، حَتَّى تَتَخَرَّق النَّعْلانِ، وتُكْسَر العَصَا. وَقَال ابْن أَبِي الدُّنْيَا: قَال بَعْض الحُكَمَاء: أَحْيِ قَلبك بِالمَوَاعِظِ، وَنَوِّرْهُ بالفِكْر، وَمَوِّتْهُ بِالزُّهْدِ، وَقَوِّهِ بِاليَقِينِ، وذَلِّله بِالمَوْتِ وقرره بِالفَنَاءِ وَبَصِّرْهُ فَجَائِع الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ صَوْلة الدَّهْر وَفُحْش تَقَلُّب الأَيَّام، واعْرِضْ عَليْهِ أَخْبَار المَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ مَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْله، وسِرْ فِي دِيَارهِمْ وَآثَارهمْ وَانْظُرْ مَا فَعَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وعما انْقَلبُوا. أَيْ: فَانْظُرُوا مَا حَلَّ بِالأُمَمِ المُكَذِّبَة مِنَ النِّقَم وَالنَّكَال،

(١) صحيح: تقـدم.

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، أَيْ: فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾، أَيْ: لَيْسَ العَمَى عَمَى البَصَر، وَإِنَّمَا العَمَى عَمَى البَصِيرَة، وَإِنْ كَانَتْ القُوَّة البَاصِرَة سَليمَة، فَإِنَّهَا لا تَنْفُذ إِلى العِبَر، وَلا تَدْرِي مَا الخَبَر، وَمَا أَحْسَن مَا قَالهُ بَعْض الشُّعَرَاء فِي هَذَا المَعْنَى وَهُوَ أَبُو مُحَمَّد عَبْد الله بْن مُحَمَّد ابن سارة الأَنْدَلُسِيّ الشنتريني، وَقَدْ كَانَتْ وَفَاته سَنَة سَبْع عَشْرَة وَخَمْسِمِائَةٍ:

يَا مَنْ يُصِيخ إِلى دَاعِي الشَّقَاء وَقَدْ ❁ نَادَى بِهِ النَّاعِيَانِ الشَّيْب وَالكِبَر
إِنْ كُنْت لا تَسْمَع الذِّكْرَى فَفِيمَ تَرَى ❁ فِي رَأْسك الوَاعِيَانِ السَّمْع وَالبَصَر؟
لَيْسَ الأَصَمّ وَلا الأَعْمَى سِوَى رَجُل ❁ لمْ يُهْدِهِ الهَادِيَانِ: العَيْن وَالأَثَر
لا الدَّهْر يَبْقَى وَلا الدُّنْيَا وَلا الفَلَك الـ ❁ أَعْلَى وَلا النَّيِّرَانِ: الشَّمْس وَالقَمَر
لَيَرْحَلنّ عَنْ الدُّنْيَا وَإِنْ كَرِهَا ❁ فِرَاقهَا الثَّاوِيَانِ: البَدْو وَالحَضَر

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

يَقُول تَعَالى لِنَبِيِّهِ -صَلوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ-: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾، أَيْ: هَؤُلاءِ الكُفَّار المُكَذِّبُونَ المُلحِدُونَ بِالله وَكِتَابه وَرَسُوله وَاليَوْم الآخِر، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾، أَيْ: الَّذِي قد وَعَدَ مِنْ إِقَامَة السَّاعَة وَالانْتِقَام مِنْ أَعْدَائِهِ، وَالإِكْرَام لأَوْلِيَائِهِ.

قَال الأَصْمَعِيّ: كُنْت عِنْد أَبِي عَمْرو ابْن العَلاء، فَجَاءَهُ عَمْرو بْن عُبَيْد: فَقَال: يَا أَبَا عَمْرو، هَل يُخْلف الله المِيعَاد؟ فَقَال: لا. فَذَكَرَ آيَة وَعِيد، فَقَال لهُ: أَمِنَ العَجَم أَنْتَ؟ إِنَّ العَرَب تَعُدّ الرُّجُوع عَنْ الوَعْد لُؤْمًا وَعَنْ الإِيعَاد كَرَمًا، أَوَما سَمِعْت قَوْل الشَّاعِر:

لَيَرْهَب ابْن العَمّ وَالجَار سَطْوَتِي ❁ وَلا أَنْثَنِي عَنْ سَطْوَة المُتَهَدِّد
فَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْته أَوْ وَعَدْته ❁ لَمُخْلف إِيعَادِي وَمُنْجِز مَوْعِدِي

وَقَوْله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، أَيْ: هُوَ تَعَالى لا يَعْجَل، فَإِنَّ مِقْدَار أَلف سَنَة عِنْد خَلقه كَيَوْمٍ وَاحِد عِنْده بِالنِّسْبَةِ إِلى حُكْمه، لِعِلمِهِ بِأَنَّهُ عَلى الانْتِقَام قَادِر، وَأَنَّهُ لا يَفُوتهُ شَيْء، وَإِنْ أَجَّل وَأَنْظَرَ وَأَمْلى، وَلِهَذَا قَال بَعْد هَذَا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: ثَنَا الحَسَن بْن عَرَفَة حَدَّثَنِي عَبْدَة بْن سُليْمَان عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو عَنْ أَبِي سَلمَة عَنْ أَبِي هُرَيْرَة: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «يَدْخُل فُقَرَاء المُسْلمِينَ الجَنَّة قَبْل الأَغْنِيَاء بِنِصْفِ يَوْم: خَمْسمِائَةِ عَام»[1]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث الثَّوْرِيّ عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو، بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح. وَقَدْ رَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَوْقُوفًا فَقَال: حَدَّثَنِي يَعْقُوب، ثَنَا ابْن عُليَّة، ثَنَا سَعِيد الجُرَيْرِيّ، عَنْ أَبِي نَضْرَة عَنْ سَمِير ابْن نَهَار قَال: قَال أَبُو هُرَيْرَة: يَدْخُل فُقَرَاء المُسْلِمِينَ الجَنَّة قَبْل الأَغْنِيَاء بِمِقْدَارِ نِصْف يَوْم. قُلت: وَمَا مِقْدَار نِصْف يَوْم؟ قَال: أَوَمَا تَقْرَأ القُرْآن؟ قُلت: بَلى. قَال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

وَقَال أَبُو دَاوُد فِي آخِر كِتَاب المَلاحِم مِنْ «سُنَنه»: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عُثْمَان، حَدَّثَنَا أَبُو المُغِيرَة، حَدَّثَنَا صَفْوَان،

---

(١) حسن صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٥٤)، وابن ماجه (٤١٢٢)، وقال الألباني: حسن صحيح. انظر «صحيح سنن الترمذي».

عَنْ شُرَيْح بْن عُبَيْد، عَنْ سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: «**إِنِّي لأَرْجُو أَنْ لا تَعْجِز أُمَّتِي عِنْد رَبّهَا أَنْ يُؤَخِّرهُمْ نِصْف يَوْم**». قِيل لسَعْدٍ: وَمَا نِصْف يَوْم؟ قَال: خَمْسِمِائَةِ سَنَة.[1] وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان، حَدَّثنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، قَال: مِنْ الأَيَّام الَّتِي خَلقَ الله فِيهَا السَّمَوَات وَالأَرْض. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ ابْن بَشَّار، عَنْ ابْن مَهْدِيّ. وَبِهِ قَال مُجَاهِد وَعِكْرِمَة. وَنَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَد بْن حَنْبَل فِي كِتَاب «الرَّدّ عَلى الجَهْمِيَّة». وَقَال مُجَاهِد: هَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَارِم مُحَمَّد بْن الفَضْل حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد عَنْ يَحْيَى بْن عَتِيق، عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ، عَنْ رَجُل مِنْ أَهْل الكِتَاب أَسْلمَ قَال: إِنَّ الله تَعَالى خَلقَ السَّمَوَات وَالأَرْض فِي سِتَّة أَيَّام، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وَجَعَل أَجَل الدُّنْيَا سِتَّة أَيَّام، وَجَعَل السَّاعَة فِي اليَوْم السَّابِع ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، فَقَدْ مَضَتْ السِّتَّة أَيَّام، وَأَنْتُمْ فِي اليَوْم السَّابِع، فَمَثَل ذَلكَ كَمَثَل الحَامِل إِذَا دَخلتْ شَهْرهَا، فَفِي أَيَّة لحْظَة وَلدَتْ كَانَ تَمَامًا.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

يَقُول تَعَالى لنَبِيِّهِ ﷺ حِين طَلبَ مِنْهُ الكُفَّار وُقُوع العَذَاب وَاسْتَعْجَلُوهُ بِهِ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أَيْ: إِنَّمَا أَرْسَلنِي الله إِليْكُمْ نَذِيرًا لكُمْ بَيْن يَدَيْ عَذَاب شَدِيد، وَليْسَ إِليَّ مِنْ حِسَابكُمْ مِنْ شَيْء، أَمْركُمْ إِلى الله؛ إِنْ شَاءَ عَجَّل لكُمْ العَذَاب، وَإِنْ شَاءَ أَخَّرهُ عَنْكُمْ، وَإِنْ شَاءَ تَابَ عَلى مَنْ يَتُوب إِليْهِ وَإِنْ شَاءَ أَضَلَّ مَنْ كُتِبَ عَليْهِ الشَّقَاوَة، وَهُوَ الفَعَّال لمَا يَشَاء وَيُرِيد وَيَخْتَار، ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، وَ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. أَيْ: آمَنَتْ قُلُوبهمْ وَصَدَّقُوا إِيمَانهمْ بِأَعْمَالهمْ.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، أَيْ: مَغْفِرَة لمَا سَلفَ مِنْ سَيِّئَاتهمْ وَمُجَازَاة حَسَنَة عَلى القَليل مِنْ حَسَنَاتهمْ. قَال مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ: إِذَا سَمِعْت الله تَعَالى يَقُول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فَهُوَ: الجَنَّة.

وَقَوْله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ قَال مُجَاهِد: يُثَبِّطُونَ النَّاس عَنْ مُتَابَعَة النَّبِيّ ﷺ. وَكَذَا قَال عَبْد الله بْن الزُّبَيْر: مُثَبِّطِين. وَقَال ابْن عَبَّاس: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾: مُرَاغِمِينَ. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وَهِيَ النَّار الحَارَّة المُوجِعَة، الشَّدِيد عَذَابهَا وَنَكَالهَا، أَجَارَنَا الله مِنْهَا، قَال الله تَعَالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقَدْ ذَكَرَ كَثِير مِنْ المُفَسِّرِينَ هَهُنَا قِصَّة الغَرَانِيق، وَمَا كَانَ مِنْ رُجُوع كَثِير مِنْ المُهَاجِرَة إِلى أَرْض الحَبَشَة، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْش قَدْ أَسْلمُوا، وَلكِنَّهَا مِنْ طُرُق كلها مُرْسَلة، وَلمْ أَرَهَا مُسْنَدَة مِنْ وَجْه صَحِيح، وَالله أَعْلم. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا يُونُس بْن حَبِيب، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد، حَدَّثَنَا شُعْبَة عَنْ أَبِي بِشْر عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٣٥٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

قَال: قرأَ رَسُول الله ﷺ بِمكَّة «النَّجْم»، فلَمَّا بَلغَ هَذَا المَوْضِع: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ قَال: فَأَلقى الشَّيْطَان عَلى لسَانه: «تِلكَ الغَرَانِيق العُلى، وَإِنَّ شَفَاعَتهنَّ تُرْتَجى». قَالُوا: مَا ذَكَرَ آلهتَنا بِخَيْرٍ قَبْل اليَوْم. فَسَجَدَ وَسَجَدُوا، فَأَنْزَل الله ﷻ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾.[1]

وَرَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْ بُنْدَار عَنْ غُنْدَر عَنْ شُعْبَة بِهِ بِنَحْوِهِ، وَهُوَ مُرْسَل. وَقَدْ رَوَاهُ البَزَّار فِي «مُسْنَده»، عَنْ يُوسُف بْن حَمَّاد عَنْ أُمَيَّة بْن خَالد عَنْ شُعْبَة عَنْ أَبِي بِشْر عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس فِيمَا أَحْسَب الشَّكّ فِي الحَدِيث: أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَرأَ بِمَكَّة سُورَة «النَّجْم» حَتَّى انْتَهَى إِلى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾، وَذَكَرَ بَقِيَّته. ثُمَّ قَال البَزَّار: لا نَعْلمهُ يُرْوَى مُتَّصِلًا إِلَّا بِهَذَا الإِسْنَاد. تفرد بِوَصْلهِ أُمَيَّة بْن خَالد وَهُوَ ثِقَة مَشْهُور. وَإِنَّمَا يُرْوَى هَذَا مِنْ طَرِيق الكَلبِيّ عَنْ أَبِي صَالح عَنْ ابْن عَبَّاس. ثُمَّ رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ أَبِي العَالِيَة، وَعَنْ السُّدِّيّ مُرْسَلًا. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ وَمُحَمَّد بْن قَيْس مُرْسَلًا أَيْضًا.

وَقَال قَتَادَة: كَانَ النَّبِيّ ﷺ عِنْد المَقَام إِذْ نَعَسَ، فَأَلقَى الشَّيْطَان عَلى لسَانه: «وَإِنَّ شَفَاعَتهَا لَتُرْتَجى، وَإِنَّهَا لَمَع الغَرَانِيق العُلى». فَحفِظَهَا المُشْرِكُونَ، وَأَجْرَى الشَّيْطَان أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَدْ قَرأَهَا، فَذَلَّتْ بِهَا أَلسِنَتهمْ، فَأَنْزَل الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ الآيَة، فَدَحَرَ الله الشَّيْطَان. ثُمَّ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُوسَى بْن أَبِي مُوسَى الكُوفِيّ حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق المُسيبي حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن فُلَيْح، عَنْ مُوسَى بْن عُقْبَة عَنْ ابْن شِهَاب قَال: أُنْزِلتْ «سُورَة النَّجْم»، وَكَانَ المُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ هَذَا الرَّجُل يَذْكُر آلهتَنا بِخَيْرٍ أَقْرَرْنَاهُ وَأَصْحَابه، وَلكِنَّهُ لا يَذْكُر مَنْ خَالفَ دِينه مِنْ اليَهُود وَالنَّصَارَى بِمِثْل الَّذِي يَذْكُر آلهتَنا مِنْ الشَّتْم وَالشَّرّ وَكَانَ رَسُول الله ﷺ قَدْ اشْتَدَّ عَليْهِ مَا نَالهُ وَأَصْحَابه مِنْ أَذَاهُمْ وَتَكْذِيبه، وَأَحْزَنَهُ ضَلالهمْ، فَكَانَ يَتَمَنَّى هُدَاهُمْ فَلَمَّا أَنْزَل الله سُورَة النَّجْم قَال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾، أَلقَى الشَّيْطَان عِنْدهَا كَلمَات حِين ذَكَرَ الله الطَّوَاغِيت فَقَال: «وَإِنَّهُنَّ لَهُنَّ الغَرَانِيق العُلى، وَإِنَّ شَفَاعَتهنَّ لَهِيَ الَّتِي تُرْتَجى». وَكَانَ ذَلكَ مِنْ سَجْع الشَّيْطَان وَفِتْنَته، فَوَقَعَتْ هَاتَانِ الكَلمَتَانِ فِي قَلب كُلّ مُشْرِك بِمَكَّة، وَذَلَّتْ بِهَا أَلسِنَتهمْ، وَتَبَاشَرُوا بِهَا، وَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ رَجَعَ إِلى دِينه الأَوَّل وَدِين قَوْمه. فَلَمَّا بَلغَ رَسُول الله ﷺ آخِر النَّجْم سَجَدَ وَسَجَدَ كُلّ مَنْ حَضَرَهُ مِنْ مُسْلم أَوْ مُشْرِك غَيْر أَنَّ الوَليد بْن المُغِيرَة كَانَ رَجُلًا كَبِيرًا فَرَفَعَ عَلى كَفّه ترابًا فَسَجَدَ عَليْهِ فَعَجِبَ الفَرِيقَانِ كِلاهُمَا مِنْ جَمَاعَتهمْ فِي السُّجُود، لسُجُودِ رَسُول الله ﷺ . فَأَمَّا المُسْلمُونَ فَعَجِبُوا لسُجُودِ المُشْرِكِينَ مَعَهُمْ عَلى غَيْر إِيمَان وَلا يَقِين -وَلمْ يَكُنْ المُسْلمُونَ سَمِعُوا الآيَة التي أَلقَى الشَّيْطَان فِي مَسَامِع المُشْرِكِينَ- فَاطْمَأَنَّتْ أَنْفُسهمْ لمَا أَلقَى الشَّيْطَان فِي أُمْنِيَّة رَسُول الله ﷺ ، وَحَدَّثَهُمْ بِهِ الشَّيْطَان أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَدْ قَرَأَهَا فِي السُّورَة فَسَجَدُوا لتَعْظِيم آلهتهمْ، فَفَشَتْ تِلكَ الكَلمَة فِي النَّاس، وَأَظْهَرَهَا الشَّيْطَان، حَتَّى بَلغَتْ أَرْض الحَبَشَة وَمَنْ بِهَا مِنْ المُسْلمِينَ -عُثْمَان بْن مَظْعُون وَأَصْحَابه-، وَتَحَدَّثُوا أَنَّ أَهْل مَكَّة قَدْ أَسْلمُوا كُلّهمْ، وَصَلَّوْا مَعَ رَسُول الله ﷺ وَبَلغَهُمْ سُجُود الوَليد بْن المُغِيرَة عَلى التُّرَاب عَلى كَفّه، وَحُدِّثُوا أَنَّ المُسْلمِينَ قَدْ أَمِنُوا بِمَكَّة، فَأَقْبَلُوا سِرَاعًا وَقَدْ نَسَخَ الله مَا أَلقَى الشَّيْطَان، وَأَحْكَمَ الله آيَاته، وَحَفِظَهُ مِنْ الفِرْيَة وَقَال الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

---

(١) مرسل: أخرجه الطبراني (١٧/ ١٣٢) بسند مرسل.

﴿٥٢﴾ ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

فَلَمَّا بَيَّنَ الله قَضَاءَهُ وَبَرَّأَهُ مِنْ سَجْع الشَّيْطَان انْقَلبَ الْمُشْرِكُونَ بِضَلالِهِمْ وَعَدَاوَتهمْ الْمُسْلِمِينَ وَاشْتَدُّوا عَلَيْهِمْ، وَهَذَا أَيْضًا مُرْسَل.

وَفِي «تَفْسِير ابْن جَرِير» عَنْ الزُّهْرِيّ عَنْ أَبِي بَكْر ابْن عَبْد الرَّحْمَن بْن الحَارِث بْن هِشَام نَحْوه. وَقَدْ رَوَاهُ الإمام أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ فِي كِتَابه: «دَلائِل النُّبُوَّة» فَلَمْ يَجُزْ بِهِ مُوسَى بْن عُقْبَة. سَاقَهُ مِنْ مَغَازِيه بِنَحْوِهِ، قَال: وَقَدْ روينا عَنْ ابن إِسْحَاق هَذِهِ القِصَّة.

قُلت: وَقَدْ ذَكَرَهَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق فِي «السِّيرَة» بِنَحْوٍ مِنْ هَذَا، وَكُلّهَا مُرْسَلات وَمُنْقَطِعَات، فالله أَعْلَم. وَقَدْ سَاقَهَا البَغَوِيّ فِي «تَفْسِيره» مَجْمُوعَة مِنْ كَلام ابْن عَبَّاس، وَمُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، وَغَيْرهمَا بِنَحْوٍ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ سَأَل هَهُنَا سُؤَالًا: كَيْف وَقَعَ مِثْل هَذَا مَعَ العِصْمَة المَضْمُونَة مِنْ الله تَعَالى لِرَسُولِهِ -صلوات الله وَسَلامه عَلَيْهِ-؟ ثُمَّ حَكَى أَجْوِبَة عَنْ النَّاس، مِنْ أَلطَفهَا: أَنَّ الشَّيْطَان أَوْقَع فِي مَسَامِع المُشْرِكِينَ ذَلكَ، فَتَوَهَّمُوا أَنَّهُ صَدَرَ عَنْ رَسُول الله ﷺ وَلَيْسَ كَذَلكَ فِي نَفْس الأَمْر، بَل إِنَّمَا كَانَ مِنْ صَنِيع الشَّيْطَان، لا من رَسُول الرَّحْمَن ﷺ ، وَالله أَعْلَم.

وَهَكَذَا تَنَوَّعَتْ أَجْوِبَة المُتَكَلِّمِينَ عَنْ هَذَا بِتَقْدِيرِ صِحَّته، وَقَدْ تَعَرَّضَ القَاضِي عِيَاض رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَاب «الشِّفَاء» لِهَذَا، وَأَجَابَ بِمَا حَاصِله.

وَقَوْله: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، هَذَا فِيهِ تَسْلِيَة له -صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ- أَيْ: لا يُهِيدَنَّك ذلك فَقَدْ أَصَابَ مِثْل هَذَا مَنْ قَبْلك مِنْ المُرْسَلِينَ وَالأَنْبِيَاء. قَال البُخَارِيّ: قَال ابْن عَبَّاس: ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إِذَا حَدَّثَ أَلقَى الشَّيْطَان فِي حَدِيثه، فَيُبْطِل الله مَا يُلقِي الشَّيْطَان، ويُحْكِم الله آيَاته. قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، يَقُول: إِذَا حَدَّثَ أَلقَى الشَّيْطَان فِي حَدِيثه. وَقَال مُجَاهِد: ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ يَعْنِي: إِذَا قَال. ويُقَال: ﴿أُمْنِيَّتِهِ﴾ قِرَاءَته، ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾: يقولون وَلا يَكْتُبُونَ. قَال البَغَوِيّ: وَأَكْثَر المُفَسِّرِينَ قَالُوا: مَعْنَى قَوْله: ﴿تَمَنَّى﴾، أَيْ: تَلا وَقَرَأَ كِتَاب الله، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أَيْ: فِي تِلاوَته. قَال الشَّاعِر فِي عُثْمَان حِين قُتِل:

تَمَنَّى كِتَابَ الله أَوَّل لَيْلَةٍ ۞ وَآخِرَهَا لاقَى حِمَام المَقَادِرِ

وَقَال الضَّحَّاك: ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾: إِذَا تَلا. قَال ابْن جَرِير: هَذَا القَوْل أَشْبَه بِتَأْوِيل الكَلام، وَقَوْله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ حَقِيقَة النَّسْخ لُغَة: الإِزَالَة وَالرَّفْع. قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة: عَنْ ابْن عَبَّاس: أَيْ فَيُبْطِل الله سُبْحَانه وَتَعَالى مَا أَلقَى الشَّيْطَان. وَقَال الضَّحَّاك: نَسَخَ جِبْرِيل بِأَمْرِ الله مَا أَلقَى الشَّيْطَان وَأَحْكَمَ الله آيَاته.

وَقَوْله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾، أَيْ: بِمَا يَكُون مِنْ الأُمُور وَالحَوَادِث، لا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَة.

﴿حَكِيمٌ﴾، أَيْ: فِي تَقْدِيره وَخَلقه وَأَمْره، لَهُ الحِكْمَة التَّامَّة، وَالحُجَّة البَالِغَة، وَلِهَذَا قَال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، أَيْ: شَكّ وَشِرْك، وَكُفْر وَنِفَاق، كَالمُشْرِكِينَ حِين فَرِحُوا بِذَلكَ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ صَحِيح، وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ الشَّيْطَان. قَال ابْن جُرَيْج: ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هُمْ المُنَافِقُونَ، ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هُمْ المُشْرِكُونَ. وَقَال مُقَاتِل بْن حَيَّان: هُمْ اليَهُود.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أَيْ: فِي ضَلال وَمُخَالفَة وَعِنَاد ﴿بَعِيدٍ﴾، أَيْ: مِنْ الحَقّ وَالصَّوَاب. ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾، أَيْ: وَليَعْلمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلم النَّافِع،

الَّذي يُفرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، المُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِه: أَنَّ مَا أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ هُوَ الحَقّ مِنْ رَبّك، الَّذي أَنْزَلَهُ بِعِلمِهِ، وَحَفِظَهُ وَحَرَسَهُ أَنْ يَخْتَلط بِهِ غَيْره، بَل هُوَ كِتَاب حكيم، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

وَقَوْله: ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾، أَيْ: يُصَدِّقُوهُ وَيَنْقَادُوا لَهُ، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾، أَيْ: تَخْضَع وَتَذِلّ لَهُ قُلُوبهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَيُرْشِدهُمْ إِلى الحَقّ وَاتِّبَاعه، وَيُوَفِّقهُمْ لِمُخَالفَةِ البَاطِلِ وَاجْتِنَابه، وَفِي الآخِرَة يَهْدِيهِمْ الصِّرَاط المُسْتَقِيم، المُوَصِّل إِلى دَرَجَات الجَنَّات، وَيُزَحْزِحهُمْ عَنْ العَذَاب الأَلِيم وَالدَّرَكَات.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ الكُفَّار إِنَّهُمْ لا يَزَالُونَ ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾، أَيْ: فِي شَكّ وريب مِنْ هَذَا القُرْآن. قَالَهُ ابْن جُرَيْج، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر وَابْن زَيْد: ﴿مِّنْهُ﴾ أَيْ: مِمَّا أَلْقَى الشَّيْطَان. ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ قَال مُجَاهِد: فَجْأَة. وَقَال قَتَادَة: ﴿بَغْتَةً﴾ بَغَتَ القَوْم أَمْر الله، وَمَا أَخَذَ الله قَوْمًا قَطُّ إِلَّا عِنْد سَكْرَتهم وَغِرَّتهمْ وَنِعْمَتهمْ، فَلا تَغْتَرُّوا بِالله، إِنَّهُ لا يَغْتَرّ بِالله إِلَّا القَوْم الفَاسِقُونَ. وَقَوْله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، قَال مُجَاهِد: قَال أُبَيّ بْن كَعْب: هُوَ يَوْم بَدْر. وَكَذَا قَال مُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير. وَقَال عِكْرِمَة وَمُجَاهِد فِي رِوَايَة عَنْهُمَا: هُوَ يَوْم القِيَامَة لا لَيْلَة لهم. وَكَذَا قَال الضَّحَّاك وَالحَسَن البَصْرِيّ. وَهَذَا القَوْل هُوَ الصَّحِيح، وَإِنْ كَانَ يَوْم بَدْر مِنْ جُمْلَة مَا أُوعِدُوا بِهِ لكِنَّ هَذَا هُوَ المُرَاد، وَلهَذَا قَال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وَقَوْله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أَيْ: آمَنَتْ قُلُوبهمْ وَصَدَّقُوا بِالله وَرَسُوله، وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَى مَا عَلِمُوا وَتُوَافِق قُلُوبهمْ وَأَقْوَالهمْ وَأَعْمَالهمْ.

﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أَيْ: لَهُمْ النَّعِيم المُقِيم، الَّذِي لا يَحُول وَلا يَزُول وَلا يَبِيد.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أَيْ: كَفَرَتْ قُلُوبهمْ بِالحَقِّ، وَجَحَدُوا بِهِ، وَكَذَّبُوا به، وَخَالَفُوا الرُّسُل، وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعهمْ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أَيْ: مُقَابَلَة اسْتِكْبَارهمْ وإعراضهم عَنْ الحَقّ، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أَيْ: صَاغِرِينَ.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عمَّنْ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيل الله ابْتِغَاء مَرْضَاته، وَطَلبًا لمَا عِنْده وَتَرَكَ الأَوْطَان وَالأَهْلِينَ وَالخِلَّانِ، وَفَارَقَ بِلاده فِي الله وَرَسُوله وَنُصْرَة لدِينِ الله، ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟﴾، أَيْ: فِي الجِهَاد ﴿أَوْ مَاتُوا۟﴾، أَيْ: حَتْف أَنْفهمْ، أي: مِنْ غَيْر قِتَال عَلى فُرُشهمْ، فَقَدْ حَصَلُوا عَلى الأَجْر الجَزِيل، وَالثَّنَاء الجَمِيل، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

وَقَوْله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، أَيْ: لَيُجْرِيَنَّ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْله وَرِزْقه مِنْ الْجَنَّة مَا تَقَرّ بِهِ أَعْيُنهمْ.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ أَيْ: الْجَنَّة. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَحْصُل لَهُ الرَّاحَة وَالرِّزْق وَجَنَّة النَّعِيم، كَمَا قَالَ هَهُنَا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أَيْ: بِمَنْ يُهَاجِر وَيُجَاهِد فِي سَبِيله، وَبِمَنْ يَسْتَحِقّ ذَلِكَ، ﴿حَلِيمٌ﴾ أَيْ: يَحْلُم وَيَصْفَح، وَيَغْفِر لَهُمْ الذُّنُوب، وَيُكَفِّرهَا عَنْهُمْ بِهِجْرَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَتَوَكُّلهمْ عَلَيْهِ.

فَأَمَّا مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيل الله مِنْ مُهَاجِر أَوْ غَيْر مُهَاجِر، فَإِنَّهُ حَيّ عِنْد رَبّه يُرْزَق، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. وَالأَحَادِيث فِي هَذَا كَثِيرَة كَمَا تَقَدَّمَ. وَأَمَّا مَنْ تُوُفِّيَ فِي سَبِيل الله مِنْ مُهَاجِر أَوْ غَيْر مُهَاجِر فَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة مَعَ الأَحَادِيث الصَّحِيحَة إِجْرَاء الرِّزْق عَلَيْهِ وَعَظِيم إِحْسَان الله إِلَيْهِ. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا المُسَيِّب بْن وَاضِح، حَدَّثَنَا ابْن المُبَارَك، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن شُرَيْح، عَنْ ابْن الحَارِث -يَعْنِي: عَبْد الكَرِيم- عَنْ ابْن عُقْبَة -يَعْنِي: أَبَا عُبَيْدَة ابْن عُقْبَة- قَال: حَدَّثَنَا شُرَحْبِيل بْن السِّمْط: طَال رِبَاطنَا وَإِقَامَتنَا عَلَى حِصْن بِأَرْضِ الرُّوم، فَمَرَّ بِي سَلْمَان -يَعْنِي: الفَارِسِيّ رضي الله عنه- فَقَال: إِنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا، أَجْرَى الله عَلَيْهِ مِثْل ذَلِكَ الأَجْر وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ الرِّزْق، وَأَمِنَ مِنْ الفَتَّانَيْنِ». وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.[1]

وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة حَدَّثَنَا زَيْد بْن بِشْر أَخْبَرَنِي هَمَّام أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا قَبِيل وَرَبِيعَة بْن سَيْف المَعَافِرِيّ يَقُولَانِ: كُنَّا بِـ«رُودِس»، وَمَعَنَا فَضَالَة بْن عُبَيْد الأَنْصَارِيّ صَاحِب رَسُول الله ﷺ فَمَرَّ بِجِنَازَتَيْنِ؛ إِحْدَاهُمَا قَتِيل، وَالأُخْرَى مُتَوَفًّى، فَمَال النَّاس عَلَى القَتِيل، فَقَال فَضَالَة: مَا لِي أَرَى النَّاس مَالُوا مَعَ هَذَا وَتَرَكُوا هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا قَتِيل فِي سَبِيل الله تعالى. فَقَال: وَالله مَا أُبَالِي مِنْ أَيّ حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْت، اسْمَعُوا كِتَاب الله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ حَتَّى آخِر الآيَة. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا عَبْدَة بْن سُلَيْمَان، أَنْبَأَنَا ابْن المُبَارَك، أَنْبَأَنَا ابْن لَهِيعَة، حَدَّثَنَا سَلَامَان بْن عَامِر الشعباني، أَنَّ عَبْد الرَّحْمَن بْن جَحْدَم الخَوْلَانِيّ حَدَّثَهُ، أَنَّهُ حَضَرَ فَضَالَة بْن عُبَيْد فِي البَحْر مَعَ جِنَازَتَيْنِ أَحَدهمَا: أُصِيبَ بِمَنْجَنِيق وَالآخَر تُوُفِّيَ، فَجَلَسَ فَضَالَة بْن عُبَيْد عِنْد قَبْر المُتَوَفَّى، فَقِيل لَهُ: تَرَكْت الشَّهِيد فَلَمْ تَجْلِس عِنْده؟ فَقَال: مَا أُبَالِي مِنْ أَيّ حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْت إِنَّ الله يَقُول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ إلى قوله: ﴿يَرْضَوْنَهُ﴾، فَمَا تَبْتَغِي أَيّهَا العَبْد إِذَا أُدْخِلت مُدْخَلًا تَرْضَاهُ، وَرُزِقْت رِزْقًا حَسَنًا، وَالله مَا أُبَالِي مِنْ أَيّ حُفْرَتَيْهِمَا بُعِثْت. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ يُونُس ابْن عَبْد الأَعْلَى، عَنْ ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي عَبْد الرَّحْمَن بْن شُرَيْح، عَنْ سَلَامَان بْن عَامِر قَال: كَانَ فَضَالَة بِـ«رُودِس» أَمِيرًا عَلَى الأَرْبَاع، فَخَرَجَ بِجِنَازَتَيْ رَجُلَيْنِ؛ أَحَدهمَا قَتِيل، وَالآخَر مُتَوَفًّى فَذَكَرَ نَحْو مَا تَقَدَّمَ.

وَقَوْله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾، ذَكَرَ مُقَاتِل بْن حَيَّان وَابْن جُرَيْج: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي سَرِيَّة مِنْ الصَّحَابَة، لَقُوا جَمْعًا مِنَ المُشْرِكِينَ فِي شَهْر مُحَرَّم، فَنَاشَدَهُمْ المُسْلِمُونَ لِئَلَّا

---

(١) حسن لغيره: رجاله ثقات عدا أبو عبيدة ابن عقبة، قال الحافظ: مقبول.

يُقَاتِلُوهُمْ فِي الشَّهرِ الحَرَامِ، فَأَبَى المُشْرِكُونَ إِلَّا قِتَالَهُمْ، وَبَغَوْا عَلَيْهِمْ، فَقَاتَلَهُمُ المُسْلِمُونَ، فَنَصَرَهُمُ اللهُ عَلَيْهِمْ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.(١)

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُنَبِّهًا عَلَى أَنَّهُ الخَالِقُ المُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، كَمَا قَالَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ ...﴾ الآيَةَ. وَمَعْنَى إِيلاجِهِ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَالنَّهَارَ فِي اللَّيْلِ: إِدْخَالُهُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا وَمِنْ هَذَا، فِي هَذَا فَتَارَةً يَطُولُ اللَّيْلُ وَيَقْصُرُ النَّهَارُ -كَمَا فِي الشِّتَاءِ، وَتَارَةً يَطُولُ النَّهَارُ وَيَقْصُرُ اللَّيْلُ -كَمَا فِي الصَّيْفِ.

وَقَوْلُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، أَيْ: سَمِيعٌ بِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، بَصِيرٌ بِهِمْ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ فِي أَحْوَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ. وَلَمَّا بَيَّنَ أَنَّهُ المُتَصَرِّفُ فِي الوُجُودِ الحَاكِمُ الَّذِي لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، قَالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، أَيْ: الإِلَهُ الحَقُّ الَّذِي لا تَنْبَغِي العِبَادَةُ إِلَّا لَهُ لأَنَّهُ ذُو السُّلْطَانِ العَظِيمِ، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ ذَلِيلٌ لَدَيْهِ، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أَيْ: مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْدَادِ وَالأَوْثَانِ، وَكُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِهِ تَعَالَى فَهُوَ بَاطِلٌ؛ لأَنَّهُ لا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلا نَفْعًا.

وَقَوْلُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وَقَالَ: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾، فَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلا رَبَّ سِوَاهُ لأَنَّهُ العَظِيمُ الَّذِي لا أَعْظَمَ مِنْهُ العَلِيُّ الَّذِي لا أَعْلَى مِنْهُ الكَبِيرُ الَّذِي لا أَكْبَرَ مِنْهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَعَزَّ وَجَلَّ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾.

وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الدَّلالَةِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، فَإِنَّهُ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا، فَيُمْطِرُ عَلَى الأَرْضِ الجُرُزِ الَّتِي لا نَبَاتَ فِيهَا، وَهِيَ هَامِدَةٌ يَابِسَةٌ سَوْدَاءُ قَحِلَةٌ، ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾.

وَقَوْلُه: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ الفَاءُ هَهُنَا لِلتَّعْقِيبِ، وَتَعْقِيبُ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ الآيَةَ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: أَنَّ بَيْنَ كُلِّ شَيْئَيْنِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَمَعَ هَذَا هُوَ مُعَقَّبٌ بِالفَاءِ، وَهَكَذَا هَهُنَا قَالَ: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، أَيْ: خَضْرَاءَ بَعْدَ يَبَسِهَا وَمُحُولِهَا. وَقَدْ ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ أَرْضِ الحِجَازِ أَنَّهَا تُصْبِحُ عَقِبَ المَطَرِ خَضْرَاءَ، فَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، أَيْ: عَلِيمٌ بِمَا فِي أَرْجَاءِ الأَرْضِ وَأَقْطَارِهَا وَأَجْزَائِهَا مِنَ الحَبِّ وَإِنْ صَغُرَ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، فَيُوصِلُ إِلَى كُلٍّ مِنْهُ قِسْطَهُ مِنَ المَاءِ فَيُنْبِتُهُ بِهِ، كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، وَقَالَ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ

---

(١) مرسل: فيه مقاتل بن حيان وابن جريج.

الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، وَقَال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ مِن مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ الآية. وَلهَذا قَال أُمَيَّة بْن أَبِي الصَّلت -أَوْ زَيْد بْن عَمْرو بْن نُفَيْل- فِي قَصِيدَته:

وَقُولا لَهُ مَنْ يُنْبِت الحَبّ فِي الثَّرَى	❁	فَيُصْبِح مِنْهُ البَقْل يَهْتَزّ رَابِيًا
وَيُخْرِج مِنْهُ حَبّه فِي رُءُوسه	❁	فَفِي ذَاكَ آيَات لِمَنْ كَانَ وَاعِيًا

وَقَوْله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، أَيْ: مُلكه جَمِيع الأَشْيَاء وَهُوَ غَنِيّ عَمَّا سِوَاهُ، وَكُلّ شَيْء فَقِير إِلَيْهِ وعَبِيدٌ لدَيْه.

وَقَوْله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي الْأَرْضِ﴾، أَيْ: مِنْ حَيَوَان وَجَمَاد وَزُرُوع وَثِمَار، كَمَا قَال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾، أَيْ: مِنْ إِحْسَانه وَفَضْله وَامْتِنَانه ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أَيْ: بِتَسْخِيرِهِ وَتَسْيِيرِهِ، أَيْ: فِي البَحْر العَجَاج، وَتَلاطُم الأَمْوَاج، تَجْرِي الفُلك بِأَهْلهَا بِرِيح طَيِّبَة، وَرِفْق وَتُؤَدَة، فَيَحْمِلُونَ فِيهَا مَا شَاءُوا مِنْ تَجَائِر وَبَضَائِع وَمَنَافِع، مِنْ بَلد إِلَى بَلد، وَقُطْر إِلَى قُطْر، وَيَأْتُونَ بِمَا عِنْد أُولَئِكَ إِلَى هَؤُلاءِ كَمَا ذَهَبُوا بِمَا عِنْد هَؤُلاءِ إِلَى أُولَئِكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَيَطْلُبُونَهُ وَيُرِيدُونَهُ. ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، أَيْ: لَوْ شَاءَ لأَذِنَ للسَّمَاءِ فَسَقَطَتْ عَلَى الأَرْض فَهلكَ مَنْ فِيهَا، وَلكِنْ مِنْ لُطْفه وَرَحْمَته وَقُدْرَته يُمْسِك السَّمَاء أَنْ تَقَع عَلَى الأَرْض إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلهَذا قَال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، أَيْ: مَعَ ظُلمهمْ كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. وَقَوْله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وَقَوْله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾. وَمَعْنَى الكَلام: كَيْف تَجْعَلُونَ لله أَنْدَادًا، وَتَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْره، وَهُوَ المُسْتَقِلّ بِالخَلْقِ وَالرِّزْق وَالتَّصَرُّف ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾، أَيْ: خَلقَكُمْ بَعْد أَنْ لمْ تَكُونُوا شَيْئًا يُذْكَر فَأَوْجَدَكُمْ، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، أَيْ: يَوْم القِيَامَة ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أَيْ: جَحُود.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ جَعَل لِكُلِّ قَوْم مَنْسَكًا. قَال ابْن جَرِير: يَعْنِي لِكُلِّ أُمَّة نَبِيّ مَنْسَكًا. قَال: وَأَصْل المَنْسَك فِي كَلام العَرَب هُوَ المَوْضِع الَّذِي يَعْتَادهُ الإِنْسَان وَيَتَرَدَّد إِلَيْهِ، إِمَّا لِخَيْرٍ أَوْ شَرّ. قَال: وَلهَذا سُمِّيَتْ مَنَاسِك الحَجّ بِذَلِكَ؛ لِتَرْدَادِ النَّاس إِلَيْهَا وَعُكُوفهمْ عَلَيْهَا. فَإِنْ كَانَ كَمَا قَال مِنْ أَنَّ المُرَاد: لِكُلِّ أُمَّة نَبِيّ جَعَلنَا مَنْسَكًا، فَيَكُون المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾، أَيْ: هَؤُلاءِ المُشْرِكُونَ، وَإِنْ كَانَ المُرَاد: لِكُلِّ أُمَّة جَعَلنَا مَنْسَكًا جَعْلًا قَدَرِيًّا، كَمَا قَال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، وَلهَذا قَال هَهُنَا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، أَيْ: فَاعِلُوهُ، فَالضَّمِير هَهُنَا عَائِد عَلَى هَؤُلاءِ الَّذِينَ لَهُمْ مَنَاسِك وَطَرَائِق، أَيْ: هَؤُلاءِ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ هَذَا عَنْ قَدَر الله وَإِرَادَته، فَلا تَتَأَثَّر بِمُنَازَعَتِهِمْ لك وَلا يَصْرِفك ذَلِكَ عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ الحَقّ، وَلهَذا قَال: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾، أَيْ: طَرِيق وَاضِح مُسْتَقِيم مُوَصِّل إِلَى المَقْصُود. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تَهْدِيد شَدِيد، وَوَعِيد أَكِيد، كَقَوْلِهِ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾. وَلهَذَا قَال: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ كَمَال عِلمه بِخَلقِهِ، وَأَنَّهُ مُحِيط بِمَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الأَرْض، فَلا يَعْزُب عَنْهُ مِثْقَال ذَرَّة فِي الأَرْض وَلا فِي السَّماء، وَلا أَصْغَر مِنْ ذَلكَ وَلا أَكْبَر، وَأَنَّهُ تَعَالى عَلمَ الكَائِنَات كُلّهَا قَبْل وُجُودهَا، وَكَتَبَ ذَلكَ فِي كِتَابه اللَّوْح المَحْفُوظ، كَمَا ثَبَتَ فِي «صَحِيح مُسْلم» عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ الله قَدَّرَ مَقَادِير الخَلائِق قَبْل خَلق السَّمَوَات وَالأَرْض بِخَمْسِينَ أَلف سَنَة، وَكَانَ عَرْشه عَلى المَاء**»[1]. وَفِي «السُّنَن» مِنْ حَدِيث جَمَاعَة مِنْ الصَّحَابَة: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**أَوَّل مَا خَلقَ الله القَلم قَال لهُ: اكْتُبْ. قَال: وَمَا أَكْتُب؟ قَال: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِن. فَجَرَى القَلم بِمَا هُوَ كَائِن إِلى يَوْم القِيَامَة**»[2]. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا ابْن بُكَيْر، حَدَّثَنِي ابن لهيعة، حدَّثني عَطَاء بْن دِينَار حَدَّثَنِي سَعِيد بْن جُبَيْر، قَال: قَال ابْن عَبَّاس: خَلقَ الله اللَّوْح المَحْفُوظ مَسِيرَةَ مِائَة عَام، وَقَال لِلقَلم قَبْل أَنْ يَخْلُق الخَلق وَهُوَ عَلى العَرْش تَبَارَكَ وَتَعَالى: اكْتُبْ. فَقَال القَلم: وَمَا أَكْتُب؟ قَال: عِلمِي فِي خَلقِي إِلى يَوْم تقوم السَّاعَة. فَجَرَى القَلم بِمَا هُوَ كَائِن فِي عِلم الله إِلى يَوْم القِيَامَة، فَذَلكَ قَوْله لِلنَّبِيِّ ﷺ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وَهَذَا مِنْ تَمَام عِلمه تَعَالى أَنَّهُ عَلمَ الأَشْيَاء قَبْل كَوْنهَا، وَقَدَّرَهَا وَكَتَبهَا أَيْضًا، فَمَا العِبَاد عَامِلُونَ قَدْ عَلمَهُ تَعَالى قَبْل ذَلِكَ، عَلى الوَجْه الَّذِي يَفْعَلُونَهُ، فَيَعْلم قَبْل الخَلق أَنَّ هَذَا يُطِيع بِاخْتِيَارِهِ، وَهَذَا يَعْصِي بِاخْتِيَارِهِ، وَكَتَبَ ذَلكَ عِنْده، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْء عِلمًا، وَهُوَ سَهْل عَليْهِ، يَسِير لدَيْهِ، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ المُشْرِكِينَ فِيمَا جَهِلُوا وَكَفَرُوا وَعَبَدُوا مِنْ دُون الله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾، يَعْنِي: حُجَّة وَبُرْهَانًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وَلهَذَا قَال هَهُنَا: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، أَيْ: وَلا عِلم لهُمْ فِيمَا اخْتَلقُوهُ وَائْتَفَكُوهُ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْر تَلقَّوْهُ عَنْ آبَائِهِمْ وَأَسْلافهمْ بِلا دَليل وَلا حُجَّة، وَأَصْله مِمَّا سَوَّل لهُمْ الشَّيْطَان وَزَيَّنَهُ لهُمْ، وَلهَذَا تَوَعَّدَهُمْ تَعَالى بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، أَيْ: مِنْ نَاصِر يَنْصُرهُمْ مِنْ الله فِيمَا يَحِل بِهِمْ مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال. ثُمَّ قَال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾، أَيْ: وَإِذَا ذُكِرَتْ لهُمْ آيَات القُرْآن، وَالحُجَج وَالدَّلائِل الوَاضِحَات عَلى تَوْحِيد الله، وَأَنَّهُ لا إِله إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ رُسُله الكِرَام حَق وَصِدْق ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾، أَيْ: يَكَادُون يُبَادِرُون الَّذِينَ يَحْتَجُّونَ عَليْهِمْ بِالدَّلائِل الصَّحِيحَة مِنْ القُرْآن، وَيَبْسُطُونَ إِليْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَلسِنَتهمْ بِالسُّوءِ، ﴿قُلْ﴾، أَيْ: يَا مُحَمَّد لهَؤُلاءِ: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أَيْ: النَّار

(١) صحيح: تقـدم.
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢٣١٩)، (٢١٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وَعَذَابهَا وَنَكَالهَا أَشَدّ وَأَشَقّ وَأَطَمّ وَأَعْظَم مِمَّا تُخَوِّفُونَ بِهِ أَوْلِيَاء الله الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَاب الآخِرَة عَلى صَنِيعكُمْ هَذَا أَعْظَم مِمَّا تَنَالُونَ مِنْهُمْ، إِنْ نِلتُمْ بِزَعْمِكُمْ وَإِرَادَتكُمْ.

وَقَوْله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أَيْ: وَبِئْسَ النَّار مَنْزِلًا وَمُقِيلًا وَمَرْجِعًا وَمَوْئِلًا وَمُقَامًا، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

يَقُول تَعَالى مُنَبِّهًا عَلى حَقَارَة الأَصْنَام وَسَخَافَة عُقُول عَابِدِيهَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾، أَيْ: لِمَا يَعْبُدُهُ الجَاهِلُونَ بِالله الْمُشْرِكُونَ بِهِ، ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾، أَيْ: أَنْصِتُوا وَتَفَهَّمُوا. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾، أَيْ: لَوْ اجْتَمَعَ جَمِيع مَا تَعْبُدُونَ مِنْ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد عَلى أَنْ يَقْدِرُوا عَلى خَلق ذُبَاب وَاحِد مَا قَدَرُوا عَلى ذَلكَ. كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَسْوَد بْن عَامِر حَدَّثَنَا شَرِيك عَنْ عُمَارَة بْن القَعْقَاع، عَنْ أَبِي زُرْعَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة -رَفَع الحديث- قَال: «**وَمَنْ أَظْلَم مِمَّنْ خَلَقَ خَلْقًا كَخَلْقِي! فَلْيَخْلُقُوا مِثْل خَلْقِي ذَرَّة أَوْ ذُبَابَة أَوْ حَبَّة**». وَأَخْرَجَهُ صَاحِبَا «الصَّحِيح»، مِنْ طَرِيق عُمَارَة عَنْ أَبِي زُرْعَة عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**قَال الله ﷻ: وَمَنْ أَظْلَم مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُق كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّة، فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَة**»[1]. ثُمَّ قَال تَعَالى أَيْضًا: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، أَيْ: هُمْ عَاجِزُونَ عَنْ خَلق ذُبَاب وَاحِد، بَل أَبْلغ مِنْ ذَلكَ، عَاجِزُونَ عَنْ مُقَاوَمَته وَالانْتِصَار مِنْهُ، لوْ سَلبَهَا شَيْئًا مِنْ الَّذِي عَليْهَا مِنْ الطِّيب، ثُمَّ أَرَادَتْ أَنْ تَسْتَنْقِذهُ مِنْهُ لمَا قَدَرَتْ عَلى ذَلكَ، هَذَا، وَالذُّبَاب مِنْ أَضْعَف مَخْلُوقَات الله وَأَحْقَرهَا، وَلهَذَا قَال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾. قَال ابْن عَبَّاس: الطَّالب: الصَّنَم، وَالمَطْلُوب: الذُّبَاب. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير، وَهُوَ ظَاهِر السِّيَاق. وَقَال السُّدِّيّ وَغَيْره: ﴿ٱلطَّالِبُ﴾: العَابِد، ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾: الصَّنَم. ثُمَّ قَال: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، أَيْ: مَا عَرَفُوا قَدْر الله وَعَظَمَته حِين عَبَدُوا مَعَهُ غَيْره مِنْ هَذِهِ الَّتِي لا تُقَاوِم الذُّبَاب لضَعْفِهَا وَعَجْزهَا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، أَيْ: هُوَ القَوِيّ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ وَقُوَّته خَلقَ كُلّ شَيْء، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

وَقَوْله: ﴿عَزِيزٌ﴾، أَيْ: عَزَّ كُلّ شَيْء فَقَهَرَهُ وَغَلبَهُ، فَلا يُمَانَع وَلا يُغَالَب؛ لعَظَمَتِهِ وَسُلطَانه، وَهُوَ الوَاحِد القَهَّار.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ يَخْتَار مِنْ المَلائِكَة رُسُلًا فِيمَا يَشَاء مِنْ شَرْعه وَقَدَره، وَمِنْ النَّاس؛ لإِبْلاغ رِسَالاته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، أَيْ: سَمِيع لأَقْوَال عِبَاده بَصِير بِهِمْ، عَليم بِمَنْ يستحقّ ذَلكَ مِنْهُمْ كَمَا قَال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

وَقَوْله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، أَيْ: يَعْلم مَا يَفْعَل بِرُسُلهِ فِيمَا أَرْسَلهُمْ بِهِ، فَلا يَخْفَى عَليْهِ شَيْء مِنْ أُمُورهمْ، كَمَا قَال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾،

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١)، وأحمد (٣٩٧٢).

إلى قَوْله: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾، فَهُوَ سُبْحَانه رَقِيب عَلَيْهِمْ، شَهِيد عَلى مَا يُقَال لهُمْ، حَافِظ لهُمْ، نَاصِر لجَنَابِهِمْ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآيَة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

اخْتلفَ الأَئِمَّة -رَحِمَهُمْ الله- فِي هَذِهِ السَّجْدَة الثَّانِيَة مِنْ سُورَة الحَجّ: هَل هِي مَشْرُوع السُّجُود فِيهَا أَمْ لا؟ عَلى قَوْليْنِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا عِنْد الأُولى حَدِيث عُقْبَة بْن عَامِر عَنْ النَّبِيّ ﷺ: «فُضِّلتْ سُورَة الحَجّ بِسَجْدَتَيْنِ، فَمَنْ لمْ يَسْجُدهُمَا فَلا يَقْرَأهُمَا».[1]

وَقَوْله: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾، أَيْ: بِأَمْوَالكُمْ وَأَلسِنَتكُمْ وَأَنْفُسكُمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

وَقَوْله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾، أَيْ: يَا هَذِهِ الأُمَّة، الله اصْطَفَاكُمْ وَاخْتَارَكُمْ عَلى سَائِر الأُمَم وَفَضَّلكُمْ وَشَرَّفكُمْ وَخَصَّكُمْ بِأَكْرَم رَسُول وَأَكْمَل شَرْع. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، أَيْ: مَا كَلَّفَكُمْ مَا لا تُطِيقُونَ، وَمَا أَلزَمَكُمْ بِشَيْءٍ فشَقَّ عَليْكُمْ إِلَّا جَعَل الله لكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، فَالصَّلاة -الَّتِي أَكْبَر أَرْكَان الإِسْلام بَعْد الشَّهَادَتَيْنِ- تَجِب فِي الحَضَر أَرْبَعًا، وَفِي السَّفَر تُقْصَر إِلى ثِنْتَيْن، وَفِي الخَوْف يُصَلِّيهَا بَعْض الأَئِمَّة رَكْعَة، كَمَا وَرَدَ بِهِ الحَدِيث، وَتُصَلَّى رِجَالًا وَرُكْبَانًا، مُسْتَقْبِلِي القِبْلة وَغَيْر مُسْتَقْبِليهَا. وَكَذَا فِي النَّافِلة فِي السَّفَر إِلى القِبْلة وَغَيْرهَا، وَالقِيَام فِيهَا يَسْقُط لعُذْرِ المَرَض، فَيُصَلِّيهَا المَرِيض جَالسًا، فَإِنْ لمْ يَسْتَطِعْ فَعَلى جَنْبه إِلى غَيْر ذَلكَ مِنْ الرُّخَص وَالتَّخْفِيفَات فِي سَائِر الفَرَائِض وَالوَاجِبَات وَلهَذَا قَال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بُعِثْت بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَة»[2]. وَقَال لمُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى حِين بَعَثَهُمَا أَمِيرَيْنِ إِلى اليَمَن: «بَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا»[3]. وَالأَحَادِيث فِي هَذَا كَثِيرَة، وَلهَذَا قَال ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، يَعْنِي: مِنْ ضِيق.

وَقَوْله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾، قَال ابْن جَرِير: نُصِبَ عَلى تَقْدِير: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، أَيْ: مِنْ ضِيق، بَل وَسَّعَهُ عَليْكُمْ كَمِلَّةِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيم. قَال: وَيُحْتَمَل أَنَّهُ مَنْصُوب عَلى تَقْدِير: الزَمُوا مِلَّة أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيم. قُلت: وَهَذَا المَعْنَى فِي هَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ الآيَة. وَقَوْله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾، قَال الإِمَام عَبْد الله بْن المُبَارَك عَنْ ابْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ قَال: الله عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَا قَال مُجَاهِد وَعَطَاء وَالضَّحَّاك وَالسُّدِّيّ وَمُقَاتِل بْن حَيَّان وَقَتَادَة.

وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، يَعْنِي: إِبْرَاهِيم؛ وَذَلكَ لقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

---

(١) ضعيف: تقدم.
(٢) حسن: تقدم.
(٣) صحيح: تقدم.

قَال ابْن جَرِير: وَهَذَا لا وَجْه لهُ؛ لأَنَّهُ مِنْ المَعْلُوم أَنَّ إِبْرَاهِيم لمْ يُسَمِّ هَذِهِ الأُمَّة فِي القُرْآن مُسْلمِينَ، وَقَدْ قَال الله تَعَالَى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾. قَال مُجَاهِد: الله سَمَّاكُمْ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْل فِي الكُتُب المُتَقَدِّمَة، وَفِي الذِّكْر، ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ يَعْنِي: القُرْآن. وَكَذَا قَال غَيْره.

قُلت: وَهَذَا هُوَ الصَّوَاب؛ لأَنَّهُ تَعَالَى قَال: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ثُمَّ حَثَّهُمْ وَأَغْرَاهُمْ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول ﷺ بِأَنَّهُ مِلَّة أَبِيهِمْ إبراهيم الخَلِيل، ثُمَّ ذَكَرَ مِنَّته تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الأُمَّة بِمَا نَوَّهَ بِهِ مِنْ ذِكْرِهَا، وَالثَّنَاء عَلَيْهَا فِي سَالِف الدَّهْر وَقَدِيم الزَّمَان، فِي كُتُب الأَنْبِيَاء، يُتْلَى عَلَى الأَحْبَار وَالرُّهْبَان، فَقَال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، أَيْ: مِنْ قَبْل هَذَا القُرْآن، ﴿وَفِي هَٰذَا﴾، وقد قال النَّسَائِيّ عِنْد تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: أَنْبَأَنَا هِشَام بْن عَمَّار حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن شُعَيْب أَنْبَأَنَا مُعَاوِيَة بْن سَلَّام أَنَّ أَخَاهُ زَيْد بْن سَلَّام أَخْبَرَهُ عَنْ أَبِي سَلَّام أَنَّهُ أَخْبَرَهُ قَال: أَخْبَرَنِي الحَارِث الأَشْعَرِيّ، عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «**مَنْ دَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّة فَإِنَّهُ مِنْ جِثِيّ جَهَنَّم**». قَال رَجُل: يَا رَسُول الله، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَال: «**نَعَمْ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، فَادْعُوا بِدَعْوَةِ الله الَّتِي سَمَّاكُمْ بِهَا: المُسْلِمِينَ، المُؤْمِنِينَ، عِبَاد الله**».[1] وَقَدْ قَدَّمْنَا هَذَا الحَدِيث بِطُولِهِ عِنْد تفسير قَوْله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ مِنْ سُورَة البَقَرَة، وَلهَذَا قَال: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أَيْ: إِنَّمَا جَعَلنَاكُمْ هَكَذَا أُمَّة وَسَطًا عُدُولًا خِيَارًا مَشْهُودًا بِعَدَالتِكُمْ عِنْد جَمِيع الأُمَم لتكُونُوا يَوْم القِيَامَة ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأَنَّ جَمِيع الأُمَم مُعْتَرِفَة يَوْمئِذٍ بِسِيَادَتِهَا وَفَضْلهَا عَلَى كُلّ أُمَّة سِوَاهَا، فَلهَذَا تُقْبَل شَهَادَتهمْ عَليْهِمْ يَوْم القِيَامَة، فِي أَنَّ الرُّسُل بَلَّغَتْهُمْ رِسَالة رَبّهمْ وَالرَّسُول يَشْهَد عَلَى هَذِهِ الأُمَّة أَنَّهُ بَلَّغَهَا ذَلكَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلام عَلَى هَذَا عِنْد قَوْله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. وَذَكَرْنَا حَدِيث نُوح وَأُمَّته بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته.

وَقَوْله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، أَيْ: قَابِلُوا هَذِهِ النِّعْمَة العَظِيمَة بِالقِيَام بِشُكْرِهَا، وأَدُّوا حَقّ الله عَليْكُمْ فِي أَدَاء مَا افْتَرَضَ، وَطَاعَة مَا أَوْجَب، وَتَرْك مَا حَرَّمَ، وَمِنْ أَهَمّ ذَلكَ إِقَام الصَّلاة، وَإِيتَاء الزَّكَاة: وَهُوَ الإِحْسَان إِلى خَلق الله، بِمَا أَوْجَبَ للفَقِيرِ عَلى الغَنِيّ، مِنْ إِخْرَاج جُزْء نَزْر مِنْ مَاله فِي السَّنَة للضُّعَفَاءِ وَالمَحَاوِيج، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانه وَتَفْصِيله فِي آيَة الزَّكَاة مِنْ سُورَة التَّوْبَة.

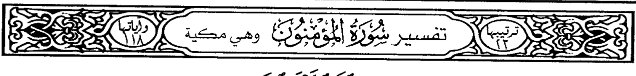
وَقَوْله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، أَيْ: اعْتَضِدُوا بِالله وَاسْتَعِينُوا وَاتكلوا عَليْهِ وَتَأَيَّدُوا بِهِ ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾، أَيْ: حَافِظكُمْ وَنَاصِركُمْ، وَمُظَفِّركُمْ عَلى أَعْدَائِكُمْ، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾، يَعْنِي: نِعْمَ الوَليّ، وَنِعْمَ النَّاصِر مِنْ الأَعْدَاء. قَال وُهَيْب بْن الوَرْد: يَقُول الله تَعَالى: ابْن آدَم، اذْكُرْنِي إِذَا غَضِبْتَ أَذْكُرك إِذَا غَضِبْتُ، فَلا أَمْحَقك فِيمَنْ أَمْحَق، وَإِذَا ظُلمْت فَاصْبِرْ، وَارْضَ بِنُصْرَتِي، فَإِنَّ نُصْرَتِي لك خَيْر مِنْ نُصْرَتك لنَفْسِك. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَالله تعالى أَعْلم، وله الحمد والمنة، والثناء والحسن والنعمة، وأسأله التوفيق والعصمة، في سائر الأفعال والأقوال.

هذا آخر تَفْسِير سُورَة الحَجّ، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم وشرَّف وكرَّم، ورضي الله تعالى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو يعلى (١٥٧١)، وابن خزيمة (٩٣٠)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح».



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنِي يُونُس بْن سُلَيْم قَال: أَمْلَى عَلَيَّ يُونُس بْن يَزِيد الأَيْلِيّ، عَنْ ابْن شِهَاب، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْدٍ القَارِيّ قَال: سَمِعْت عُمَر بْن الخَطَّاب يَقُول: كَانَ إِذَا نَزَل عَلَى رَسُول الله ﷺ الوَحْي، يُسْمَع عِنْد وَجْهه كَدَوِيِّ النَّحْل، فَمَكثنا سَاعَة، فَاسْتَقْبَل القِبْلَة وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فقال: «اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلا تَنْقُصنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلا تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلا تَحْرِمنَا، وَآثِرْنَا وَلا تُؤْثِر علَيْنَا، وَارْضَ عَنَّا وَأَرْضِنَا». ثُمَّ قَال: «لَقَدْ انُزِلت عَلَيَّ عَشر آيَات، مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخل الجَنَّة». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ حَتَّى خَتَمَ العَشْر.[1] وكذا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي تَفْسِيره، وَالنَّسَائِيّ فِي الصَّلاة، مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّزَّاق بِهِ، وَقَال التِّرْمِذِيّ: مُنْكَر، لا نَعْرِف أَحَدًا رَوَاهُ غَيْر يُونُس بْن سُلَيْم، وَيُونُس لا نَعْرِفهُ.

وَقَال النَّسَائِيّ فِي تَفْسِيره: أَنْبَأَنَا قُتَيْبَة بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا جَعْفَر، عَنْ أَبِي عِمْرَان، عَنْ يَزِيد بْن بَابَنُوس قَال: قُلنَا لعَائِشَة: [يا][2] أُمّ المُؤْمِنِين! كَيْف كَانَ خُلُق رَسُول الله ﷺ؟ قَالَتْ: كَانَ خُلُق رَسُول الله ﷺ القُرْآن، فَقَرَأَتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ حَتَّى انْتَهَتْ إِلى ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ قَالتْ: هَكَذَا كَانَ خُلُق رَسُول الله ﷺ.[3] وَقَدْ رُوِيَ عَنْ كَعْب الأَحْبَار، وَمُجَاهِد، وَأَبِي العَالِيَة، وَغَيْرهمْ: لـمَّا خَلَقَ الله جَنَّة عَدْن، وَغَرَسَهَا بِيَدِهِ، نَظَرَ إِلَيْهَا، وَقَال لَهَا: تَكَلَّمِي فَقَالتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. قَال كَعْب الأَحْبَار: لَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ الكَرَامَة فِيهَا. وَقَال أَبُو العَالِيَة: فَأَنْزَل الله ذَلكَ فِي كِتَابه.

وَقَدْ رُوِيَ ذَلكَ عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ مَرْفُوعًا، فَقَال أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا أبو المُغِيرَة ابْن سَلمَة، حَدَّثَنَا وُهَيْب، عَنْ الجُرَيْرِيّ، عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ أَبِي سَعِيد قَال: خَلقَ الله الجَنَّة لبِنَة مِنْ ذَهَب، وَلبِنَة مِنْ فِضَّة، وَغَرَسَهَا، وَقَال لهَا تَكَلَّمِي: فقَالتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فَدَخَلتْهَا المَلائِكَة فقَالتْ: طُوبَى لك، مَنْزِل المُلُوك![4] ثُمَّ قَال: وَحَدَّثَنَا بِشر بْن آدَم، وَحَدَّثَنَا يُونُس بْن عُبَيْد الله العُمَرِيّ، حَدَّثَنَا عَدِيّ بْن الفَضْل، حَدَّثَنَا الجُرَيْرِيّ عَنْ أَبِي نَضْرَة عَنْ أَبِي سَعِيد عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«خَلقَ الله الجنَّة لبِنَة مِنْ ذَهَب، وَلبِنَة مِنْ فِضَّة وَمِلاطهَا المِسْك»**. قَال [أبو بكر][2] البَزَّار: وَرَأَيْت فِي مَوْضِع آخَر فِي هَذَا الحَدِيث: **«حَائِط الجنَّة لبِنَة ذَهَب، وَلبِنَة فِضَّة، وَمِلاطهَا المِسْك، فَقَال لهَا: تَكلَّمِي. فَقَالتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. فَقَالتْ المَلائِكَة: طُوبَى لك، مَنْزِل المُلُوك»**. ثُمَّ قَال البَزَّار: لا نَعْلم أَحَدًا رَفَعَهُ إلا [عَدِيّ][5] بْن الفَضْل وَليْسَ هُوَ بِالحَافِظِ، وَهُوَ شَيْخ مُتَقَدِّم

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (١/ ٣٤)، والترمذي (٣٧٢١)، وفيه يونس بن سليم: مجهول، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».
(٢) زيادة من [ز].
(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٨)، والشطر الأول رواه مسلم (٧٤٦).
(٤) **صحيح موقوف**: كما أورده ابن كثير بإسناد موقوف، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧١٤).
(٥) في (ز): [علي].

المَوْت.[١] وَقَال الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَلِيّ حَدَّثَنَا هِشَام بْن خَالد، حَدَّثَنَا بَقِيَّة عَنْ ابْن جُرَيْج عَنْ عَطَاء عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: قَال النبيُّ ﷺ: «لـمَّا خَلقَ الله جَنَّة عَدْن، خَلقَ فِيهَا مَا لا عَيْن رَأَتْ وَلا أُذُن سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلى قَلب بَشَر. ثُمَّ قَال لها: تكَلَّمِي. فَقَالتْ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾»[٢]. بَقِيَّة عَنْ الحِجَازِيِّينَ: ضَعِيف. وَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُثْمَان بْن أَبِي شَيْبَة حَدَّثَنَا مِنْجَاب بْن الحَارِث، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن عِيسَى العَبْسِيّ عَنْ إِسْمَاعِيل السُّدِّيّ عَنْ أَبِي صَالح عَنْ ابْن عَبَّاس يَرْفَعهُ: «لـمَّا خَلقَ الله جَنَّة عَدْن بِيَدِهِ، وَدَلَّى فِيهَا ثِمَارهَا وَشَقَّ فِيهَا أَنْهَارهَا، ثُمَّ نَزَل إِلَيْهَا فَقَال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قَال: وَعِزَّتِي وَجَلالي لا يُجَاوِرنِي فِيك بَخِيل».[٣]

وَقَال أَبُو بَكْر ابْن أَبِي الدُّنْيَا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن الْمُثَنَّى البَزَّار حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن زِيَاد الكَلبِيّ حَدَّثَنَا يَعِيش بْن حُسَيْن عَنْ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة عَنْ قَتَادَة عَنْ أَنَس رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «خَلقَ الله جَنَّة عَدْن بِيَدِهِ، لبنَة مِنْ دُرَّة بَيْضَاء، وَلبنَة مِنْ يَاقُوتَة حَمْرَاء، وَلبنَة مِنْ زَبَرْجَدَة خَضْرَاء، مِلاطُهَا المِسْك، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤ، وَحَشِيشهَا الزَّعْفَرَان، ثُمَّ قَال لها: انْطِقِي قَالتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فَقَال الله: وَعِزَّتِي وَجَلالي، لا يُجَاوِرنِي فِيك بَخِيل». ثُمَّ تَلا رَسُول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.[٤]

فقَوْله تَعَالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، أَيْ: قَدْ فَازُوا وَسَعِدُوا، وَحَصَلُوا عَلى الفَلاح، وَهُمْ المُؤْمِنُونَ المُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الأَوْصَاف.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿خَٰشِعُونَ﴾: خَائِفُونَ، [سَاكِنُونَ][٥]. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد، وَالحَسَن وَقَتَادَة وَالزُّهْرِيّ. وَعَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالب رضي الله عنه: الخُشُوع: خُشُوع القَلب. وَكَذَا قَال إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: كَانَ خُشُوعهمْ فِي قُلُوبهمْ فَغَضُّوا بِذَلكَ أَبْصَارهمْ، وَخَفَضُوا الجَنَاح. وَقَال مُحَمَّد بْن سِيرِينَ: كَانَ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ يَرْفَعُونَ أَبْصَارهمْ إِلى السَّمَاء فِي الصَّلاة، فَلَمَّا نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ خَفَضُوا أَبْصَارهمْ إِلى مَوْضِع سُجُودهمْ. قَال ابْن سِيرِينَ: وَكَانُوا يَقُولُونَ: لا يُجَاوِز بَصَره مُصَلَّاهُ، فَإِنْ كَانَ قَدْ اعْتَادَ النَّظَر فَليُغْمِضْ. رَوَاهُ ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم. ثُمَّ رَوَى ابْن جَرِير عَنْهُ وَعَنْ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح أَيْضًا مُرْسَلًا: أَنَّ رَسُول الله كَانَ يَفْعَل ذَلكَ حَتَّى نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة. وَالخُشُوع فِي الصَّلاة إِنَّمَا يَحْصُل لمَنْ فَرَغَ قَلبه لها وَاشْتَغَل بِهَا عَمَّا عَدَاهَا، وَآثَرَهَا عَلى غَيْرهَا، وَحِينَئِذٍ تَكُون رَاحَة لهُ وَقُرَّة عَيْن، كَمَا قَال النَّبِيّ ﷺ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَالنَّسَائِيّ، عَنْ أنس عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «**حُبِّبَ إِليَّ الطِّيب وَالنِّسَاء، وَجُعِلتْ قُرَّة عَيْنِي فِي الصَّلاة**».[٦]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا مِسْعَر عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة عَنْ سَالم بْن أَبِي الجَعْد عَنْ رَجُل مِنْ أَسْلم أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**يَا بِلال أَرِحْنَا بِالصَّلاةِ**»[٧]. وَقَال الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: ثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، ثَنَا

---

(١) **إسناده ضعيف جدًا** : أخرجه البزار (٣٥٠٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٤)، وفيه عدي بن الفضل: متروك.
(٢) **ضعيف** : أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٨٤/ ١١٤٣٩)، وفي «الأوسط» (٧٣٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٤٧٧١).
(٣) **ضعيف** : فيه أبو صالح باذام: ضعيف. وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٥٥٢).
(٤) **ضعيف** : ضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢١٩٢).
(٥) في (ز) : [ساكتون].
(٦) **حسن** : أخرجه النسائي (٧/ ٦١)، وأحمد (٤/ ١٢٨)، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح».
(٧) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وأحمد (٥/ ٣٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

إِسْرَائِيل، عَنْ عُثْمَان بْن الْمُغِيرَة، عَنْ سَالِم بْن أَبِي الجَعْد، أَنَّ عبد الله بن مُحَمَّد ابْن الحَنَفِيَّة قَال: دَخلت مَعَ أَبِي عَلى صِهْر لَنَا مِنْ الأَنْصَار، فَحَضَرَتْ الصَّلاة، فَقَال: يَا جَارِيَة، ائْتِنِي بِوَضُوءٍ لعَلِّي أُصَلِّي فَأَسْتَرِيح. فَرَآنَا أَنْكَرْنَا عليْهِ ذَلكَ، فَقَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**قُمْ يَا بلال، فَأَرِحْنَا بِالصَّلاةِ**».[1]

وَقَوْله: ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ**﴾، أَيْ: عَنْ البَاطِل، وَهُوَ يَشْمِل الشِّرْك -كَمَا قَالهُ بَعْضهمْ-، وَالمَعَاصِي -كَما قَالهُ آخَرُونَ- وَمَا لا فَائِدَة فِيهِ مِنْ الأَقْوَال وَالأَفْعَال، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿**وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا**﴾ قَال قَتَادَة: أَتَاهُمْ وَالله مِنْ أَمْر الله مَا وَقَفَهُمْ عَنْ ذَلكَ.

وَقَوْله: ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ**﴾، الأَكْثَرُونَ عَلى أَنَّ المُرَاد بالزَّكَاةِ هَهُنَا زَكَاة الأَمْوَال، مَعَ أَنَّ هَذِهِ الآيَة مَكِّيَّة، وَإِنَّمَا فُرِضَتْ الزَّكَاة بِالمَدِينَةِ، فِي سَنَة اثْنَتَيْنِ مِنْ الهِجْرَة، وَالظَّاهِر أَنَّ الَّتِي فُرِضَتْ بِالمَدِينَةِ إِنَّمَا هِيَ ذَات النُّصُب وَالمَقَادِير الخَاصَّة، وَإِلَّا فَالظَّاهِر أَنَّ أَصْل الزَّكَاة كَانَ وَاجِبًا بِمَكَّة، كما قَال تَعَالى فِي سُورَة الأَنْعَام وَهِيَ مَكِّيَّة: ﴿**وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ**﴾. وَقَدْ يُحْتَمَل أَنْ يَكُون المُرَاد بِالزَّكَاةِ هَهُنَا زَكَاة النَّفْس مِنْ الشِّرْك وَالدَّنَس، كَقَوْلِهِ: ﴿**قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿**وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ**﴾ عَلى أَحَد القَوْلَيْنِ فِي تَفْسِيرها. وَقَدْ يُحْتَمَل أَنْ يَكُون كِلا الأَمْرَيْنِ مُرَادًا، وَهُوَ زَكَاة النُّفُوس وَزَكَاة الأَمْوَال، فإنه مِنْ جُمْلة زَكَاة النفوس، وَالمُؤْمِن الكَامِل هُوَ الَّذِي يَفْعَل هَذَا وَهَذَا، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ**﴾ أَيْ: وَالَّذِينَ قَدْ حَفِظُوا فُرُوجهمْ مِنْ الحَرَام، فَلا يَقَعُونَ فِيمَا نَهَاهُمْ الله عَنْهُ مِنْ زِنًى أَوْ لوَاط، ولا يَقْرَبُونَ سِوَى أَزْوَاجهمْ الَّتِي أَحَلَّهَا الله لَهُمْ، ومَا مَلَكَتْ أَيْمَانهمْ مِنْ السَّرَارِيّ، وَمَنْ تَعَاطَى مَا أَحَلَّهُ الله لهُ فَلا لوْم عَلَيْهِ وَلا حَرَج، وَلهَذَا قَال: ﴿**فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ**﴾ أَيْ: غَيْر الأَزْوَاج وَالإِمَاء ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ**﴾، أَيْ: المُعْتَدُونَ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا عَبْد الأَعْلى، حَدَّثَنَا سَعِيد، عن قَتَادَة: أَنَّ امْرَأَة اتَّخَذَتْ مَمْلُوكهَا، وَقَالتْ: تَأَوَّلت آيَة مِنْ كِتَاب الله: ﴿**أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ**﴾ فَأُتِيَ بِهَا عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه، وَقَال لهُ نَاس من أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ: تَأَوَّلتْ آيَة مِنْ كِتَاب الله عز وجل عَلى غَيْر وَجْههَا. قَال: فَضَرَبَ العَبْد وَجَزَّ رَأْسه، وَقَال: أَنْت بَعْده حَرَام عَلى كُلّ مُسْلم. هَذَا أَثَر غَرِيب مُنْقَطِع، ذَكَرَهُ ابْن جَرِير فِي تَفْسِير أَوَّل سُورَة المَائِدَة، وَهُوَ هَهُنَا أَلْيَق، وَإِنَّمَا حَرَّمَهَا عَلى الرِّجَال مُعَامَلَةً لهَا بِنَقِيضِ قَصْدهَا، وَالله أَعْلم.

وَقَدْ اسْتَدَلَّ الإِمَام الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ وَمَنْ وَافَقَهُ عَلى تَحْرِيم الاسْتِمْنَاء بِاليَدِ بِهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ**﴾، قَال: فَهَذَا الصَّنِيع خَارِج عَنْ هَذَيْنِ القِسْمَيْنِ، وَقَدْ قَال الله تَعَالى: ﴿**فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ**﴾. وَقَدْ اسْتَأْنَسُوا بِحَدِيثٍ رَوَاهُ الإِمَام الحَسَن بْن عَرَفَة فِي جُزْئِهِ المَشْهُور حَيْثُ قَال: حَدَّثَنِي عَلِيّ بْن ثَابِت الجَزَرِيّ، عَنْ مَسْلمَة بْن جَعْفَر، عَنْ حَسَّان بْن حُمَيْد، عَنْ أَنَس بْن مَالك، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «سَبْعَة لا يَنْظُر الله إِلَيْهِمْ يَوْم القِيَامَة، وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلا يَجْمَعهُمْ مَعَ العَاملين، وَيُدْخِلهُمْ النَّار أَوَّل الدَّاخِلِينَ، إلاَّ أَنْ يَتُوبُوا، فمن تَابَ تَابَ الله عَلَيْهِ: ناكح يَده، وَالفَاعِل وَالمَفْعُول بِهِ، وَمُدْمِن الخَمْر، وَالضَّارِب وَالدَيْهِ حَتَّى يَسْتَغِيثَا، وَالمُؤْذِي جِيرَانه حَتَّى يَلعَنُوهُ، وَالنَّاكِح حَليلة جَاره».[2] هَذَا حَدِيث غَرِيب، وَإِسْنَاده فِيهِ مَنْ لا يُعْرَف لجَهَالتِهِ، وَالله أَعْلم.

---

(١) صحيح: تقـدم.
(٢) ضعيف: تقـدم.

وَقَوْله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾، أَيْ: إِذَا اؤْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا، بَل يُؤَدُّونَهَا إِلى أَهْلِهَا، وَإِذَا عَاهَدُوا أَوْ عَاقَدُوا أَوْفُوا بِذَلك، لا كَصِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ قَال فِيهِمْ النبيُّ ﷺ: «**آيَة المُنَافِق ثَلاث: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**».[(١)]

وَقَوْله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾، أَيْ: يُوَاظِبُونَ عَلَيْهَا فِي مَوَاقِيتِهَا، كَمَا قَال ابْن مَسْعُود: سَأَلت رَسُول الله ﷺ فَقُلت: يَا رَسُول الله! أَيّ العَمَل أَحَبّ إِلى الله؟ قَال: «**الصَّلاة عَلى وَقْتهَا**». قُلت: ثُمَّ أَيّ؟ قَال: «**بِرّ الوَالِدَيْنِ**». قُلت: ثُمَّ أَيّ؟ قَال: «**الجِهَاد فِي سَبِيل الله**». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».[(٢)] وَفِي «مُسْتَدْرَك الحَاكِم» قَال: «**الصَّلاة فِي أَوَّل وَقْتهَا**».

وَقَال ابْن مَسْعُود وَمَسْرُوق فِي قَوْله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾، يَعْنِي: مَوَاقِيت الصَّلاة، وَكَذَا قَال أَبُو الضُّحَى، وَعَلقَمَة بْن قَيْس وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَعِكْرِمَة. وَقَال قَتَادَة: عَلى مَوَاقِيتهَا وَرُكُوعهَا وَسُجُودهَا. وَقَدْ افْتَتَحَ الله ذِكْر هَذِهِ الصِّفَات الحَمِيدَة بِالصَّلاةِ، وَاخْتَتَمَهَا بِالصَّلاةِ، فَدَلَّ عَلى أَفْضَلِيَّتهَا، كَمَا قَال رَسُول الله ﷺ: «**اسْتَقِيمُوا وَلنْ تُحْصُوا، وَاعْلمُوا أَنَّ خَيْر أَعْمَالكُمْ الصَّلاة، وَلا يُحَافِظ عَلى الوُضُوء إِلاَّ مُؤْمِن**»[(٣)]. وَلَمَّا وَصَفَهُمْ تَعَالى بِالقِيَام بِهَذِهِ الصِّفَات الحَمِيدَة، والفِعَال الرَّشِيدَة، قَال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾. وَثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**إِذَا سَأَلتُمْ الله الجَنَّة فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْس، فَإِنَّهُ أَعْلى الجَنَّة، وَأَوْسَط الجَنَّة، وَمِنْهُ تُفَجَّر أَنْهَار الجَنَّة، وَفَوْقه عَرْش الرَّحْمَن**».[(١)]

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَد إِلاَّ وَلهُ مَنْزِلان: مَنْزِل فِي الجَنَّة وَمَنْزِل فِي النَّار، فَإِنْ مَاتَ فَدَخَل النَّار وَرِثَ أَهْل الجَنَّة مَنْزِله، فَذَلك قَوْله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾**»[(٤)]. وَقَال ابْن جُرَيْج: عَنْ اللَّيْث، عَنْ مُجَاهِد: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ قَال: مَا مِنْ عَبْد إِلَّا وَلهُ مَنْزِلانِ: مَنْزِل فِي الجَنَّة، وَمَنْزِل فِي النَّار، فَأَمَّا الْمُؤْمِن فَيَبْنِي بَيْته الَّذِي فِي الجَنَّة، وَيَهْدِم بَيْته الَّذِي فِي النَّار، وَأَمَّا الكَافِر فَيَهْدِم بَيْته الَّذِي فِي الجَنَّة، وَيَبْنِي بَيْته الَّذِي فِي النَّار وَرُوِيَ عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر نَحْو ذَلكَ. فَالْمُؤْمِنُونَ يَرِثُونَ مَنَازِل الكُفَّار؛ لأَنَّهُمْ خُلقُوا لعِبَادَةِ الله تَعَالى، فَلَمَّا قَامَ هَؤُلاءِ الْمُؤْمِنُونَ بِمَا وَجَبَ عَليْهِمْ مِنْ العِبَادَة، وَتَرَكَ أُولئِكَ مَا أُمِرُوا بِهِ مِمَّا خُلقُوا لهُ، أَحْرَزَ هَؤُلاءِ نَصِيب أُولئِكَ لوْ كَانُوا أَطَاعُوا رَبّهمْ عز وجل، بَل أَبْلغ مِنْ هَذَا أَيْضًا، وَهُوَ مَا ثَبَتَ فِي «صَحِيح مُسْلم»، عَنْ أَبِي بُرْدَة بْن أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**يَجِيء يَوْم القِيَامَة نَاس مِنْ الْمُسْلمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَال الجِبَال فَيَغْفِرهَا الله لهُمْ، وَيَضَعهَا عَلى اليَهُود وَالنَّصَارَى**»[(٥)]. وَفِي لفْظ له: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة دَفَعَ الله لكُلِّ مُسْلم يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، فيقول: هَذَا فِكَاكك مِنْ النَّار**»[(٦)]. فَاسْتَحْلفَ عُمَر بْن عَبْد العَزِيز أَبَا بُرْدَة بِالله الَّذِي لا إِله إِلَّا هُوَ ثَلاث مَرَّات أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ عَنْ رَسُول الله ﷺ، قَال: فَحَلفَ لهُ.

قُلت: هَذِهِ الآيَة كَقَوْلهِ تَعَالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾. وَكَقَوْلهِ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ

---

(١) **صحيح**: تقدم.
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٩٦، ٥٥١٣).
(٣) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢٧٧، ٢٧٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».
(٤) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٤٣٤١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».
(٥) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٦٧).
(٦) **صحيح**: أخرجه مسلم (٤٩٦٩).

أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. وَقَدْ قَالَ مُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر: الجَنَّة بِالرُّومِيَّةِ: هِيَ الفِرْدَوْس. وَقَال بَعْض السَّلَف: لا يُسَمَّى البُسْتَان فِرْدَوْسًا إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهِ عِنَب، فَالله أَعْلم.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ ابْتِدَاء خَلق الإِنْسَان مِنْ سُلالة مِنْ طِين، وَهُوَ آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ، خَلقَهُ الله مِنْ صَلصَال مِنْ حَمَإٍ مَسْنُون. وَقَال الأَعْمَش، عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي يَحْيَى، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾. قَال: صَفْوَة المَاء. وَقَال مُجَاهِد: ﴿ مِن سُلَٰلَةٍ ﴾ أَيْ: مِنْ مَنِيّ آدَم.

وَقَال ابْن جَرِير: إِنَّمَا سُمِّيَ آدَم طِينًا لأَنَّهُ مَخْلُوق مِنْهُ. وَقَال قَتَادَة: اسْتَلَّ آدَم مِنْ الطِّين. وَهَذَا أَظْهَر فِي المَعْنَى، وَأَقْرَب إِلى السِّيَاق، فَإِنَّ آدَم عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلِقَ مِنْ طِين لازِب، وَهُوَ الصَّلصَال مِنْ الحَمَإِ المَسْنُون، وَذَلِكَ مَخْلُوق مِنْ التُّرَاب، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا عوف، حَدَّثَنَا قسامة بْن زُهَيْر، عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**إِنَّ الله خَلقَ آدَم مِنْ قَبْضَة قَبَضَهَا مِنْ جَمِيع الأَرْض، فَجَاءَ بَنُو آدَم عَلى قَدْر الأَرْض، جَاءَ مِنْهُمْ الأَحْمَر وَالأَسْوَد والأبيض، وَبَيْن ذَلكَ، وَالخَبِيث وَالطَّيِّب، وَبَيْن ذَلكَ**»[1]. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ طُرُق عَنْ عَوْف الأَعْرَابِيّ بِهِ نَحْوه، وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً ﴾ هَذَا الضَّمِير عَائِد عَلى جِنْس الإِنْسَان، كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾، أَيْ: ضَعِيف، كَمَا قَال: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾، يَعْنِي: الرَّحِم مُعَدّ لذَلكَ مُهَيَّأ لهُ، ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾، أَيْ: لِمُدَّةٍ مَعْلُومَة وَأَجَل مُعَيَّن، حَتَّى اسْتُحْكِمَ، وتنقل مِنْ حَال إِلى حَال، وَصِفَة إِلى صِفَة، وَلِهَذَا قَال هَهُنَا: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أَيْ: ثُمَّ صَيَّرْنَا النُّطْفَة، وَهِيَ المَاء الدَّافِق الَّذِي يَخْرُج مِنْ صُلب الرَّجُل، وَهُوَ ظَهْره -وَتَرَائِب المَرْأَة- وَهِيَ عِظَام صَدْرهَا، مَا بَيْن التَّرْقُوَة إِلى الثندوة- فَصَارَتْ عَلقَة حَمْرَاء عَلى شَكْل العَلقَة مُسْتَطِيلة، قَال عِكْرِمَة: وَهِيَ دَم. ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾، وَهِيَ قِطْعَة كَالبَضْعَةِ مِنْ اللَّحْم، لا شَكْل فِيهَا وَلا تَخْطِيط، ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾، يَعْنِي: شَكَّلنَاهَا ذَات رَأْس وَيَدَيْنِ وَرِجْليْنِ بِعِظَامهَا وَعَصَبهَا وَعُرُوقهَا.

وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ قَال ابْن عَبَّاس: وَهُوَ عَظْم الصُّلب. وَفِي الصَّحِيح مِنْ حَدِيث أَبِي الزِّنَاد، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**كُلّ جَسَد ابْن آدَم يَبْلى إِلاَّ عَجْب الذَّنَب، مِنْهُ خُلقَ، وَمِنْهُ يُرَكَّب**»[2].

﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ أَيْ: وجَعَلنَا عَلى ذَلكَ مَا يَسْتُرُهُ وَيَشُدّهُ وَيُقَوِّيه.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾، أَيْ: ثُمَّ نَفَخْنَا فِيهِ الرُّوح، فَتَحَرَّكَ وَصَارَ خَلقًا آخَر ذَا سَمْع وَبَصَر وَإِدْرَاك وَحَرَكَة وَاضْطِرَاب، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن مُسَافِر، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن حَسَّان حَدَّثَنَا النَّضْر -يَعْنِي ابْن كَثِير، مَوْلى بَنِي هَاشِم- حَدَّثَنَا زَيْد بْن عَلِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيّ بْن

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).

أَبِي طَالب ﷺ قَال: إِذَا تمَّتْ النُّطْفَة أَرْبَعَة أَشْهُر بُعِثَ إِلَيْهَا ملكٌ فَنَفَخَ فِيهَا الرُّوح فِي الظلمات الثلاث، فَذَلكَ قَوْله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، يَعْنِي: نَفَخْنَا فِيهِ الرُّوح. وَرُوِيَ عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ أَنَّهُ نَفْخ الرُّوح. قَال ابْن عَبَّاس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، يَعْنِي: به الرُّوح. وَكَذَا قَال مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالشَّعْبِيّ، وَالحَسَن، وَأَبُو العَاليَة، وَالضَّحَّاك، وَالرَّبِيع بْن أَنَس، وَالسُّدِّيّ، وَابْن زَيْد، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير.

وَقَال العَوْفِيّ: عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، يَعْنِي: نَنقله مِنْ حَال إِلى حَال إِلى أَنْ خَرَجَ طِفْلًا، ثُمَّ نَشَأَ صَغِيرًا ثُمَّ احْتَلَمَ، ثُمَّ صَارَ شَابًّا ثُمَّ كَهْلًا، ثُمَّ شَيْخًا هَرِمًا. وَعَنْ قَتَادَة وَالضَّحَّاك نَحْو ذَلكَ، وَلا مُنَافَاة فَإِنَّهُ مِنْ ابْتِدَاء نَفْخ الرُّوح شَرَعَ فِي هَذِهِ التَّنَقُّلات وَالأَحْوَال، وَالله أَعْلم. قَال الإِمَام أَحْمَد فِي «مُسْنَده»: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ زَيْد بْن وَهْب، عَنْ عَبْد الله -هُوَ ابْن مَسْعُود ﷺ- قَال: حَدَّثَنَا رَسُول الله ﷺ وَهُوَ الصَّادِق المَصْدُوق: **«إِنَّ أَحَدكُمْ ليُجْمَع خَلقه فِي بَطْن أُمّه فى أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُون علقَة مِثْل ذَلك، ثُمَّ يَكُون مُضْغَة مِثْل ذَلكَ، ثُمَّ يُرْسَل إِليْهِ المَلك، فَيَنْفُخ فِيهِ الرُّوح، وَيُؤْمَر بِأَرْبَعِ كَلمَات: رِزْقه، وَأَجله، وَعمَله، وَهَل هُوَ شَقِيّ أَوْ سَعِيد. فَوَالَّذِي لا إِله غَيْره: إِنَّ أَحَدكُمْ ليَعْمَل بعَمَل أَهْل الجَنَّة حَتَّى مَا يَكُون بَيْنه وَبَيْنهَا إِلاَّ ذِرَاع فَيَسْبِق عَليْهِ الكِتَاب فَيُخْتَم لهُ بعَمَل أَهْل النَّار فَيَدْخُلهَا، وَإِنَّ الرَّجُل ليَعْمَل بعَمَل أَهْل النَّار حَتَّى مَا يَكُون بَيْنه وَبَيْنهَا إِلاَّ ذِرَاع فَيَسْبِق عَليْهِ الكِتَاب فَيُخْتَم لهُ بعَمَل أَهْل الجَنَّة فَيَدْخُلهَا»**[1]. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث سُليْمَان بْن مِهْرَان الأَعْمَش.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة عَنْ الأَعْمَش عَنْ خَيْثَمَة قَال: قَال عَبْد الله - يَعْنِي ابْن مَسْعُود-: إِنَّ النُّطْفَة إِذَا وَقَعَتْ فِي الرَّحِم، طَارَتْ فِي كُلّ شَعْر وَظُفْر فَتَمْكُث أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ تتحدر فِي الرَّحِم فتكُون عَلقَة. وَقَال الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا حُسَين بْن الحَسَن، حَدَّثَنَا أَبُو كُدَيْنَة، عَنْ عَطَاء بْن السَّائِب عَنْ القَاسِم بْن عَبْد الرَّحْمَن عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْد الله قَال: مَرَّ يَهُودِيّ بِرَسُول الله ﷺ وَهُوَ يُحَدِّث أَصْحَابه، فَقَالتْ قُرَيْش: يَا يَهُودِيّ إِنَّ هَذَا يَزْعُم أَنَّهُ نَبِيّ. فَقَال: لأَسْأَلَنَّهُ عَنْ شَيْء لا يَعْلمهُ إِلَّا نَبِيّ. قَال: فَجَاءَهُ حَتَّى جَلسَ، فَقَال: يَا مُحَمَّد مِمَّ يُخْلق الإِنْسَان؟ فَقَال: «يَا يَهُودِيّ! مِنْ كُلّ يُخْلق، مِنْ نُطْفَة الرَّجُل وَمِنْ نُطْفَة المَرْأَة، فَأَمَّا نُطْفَة الرَّجُل فَنُطْفَة غَليظَة مِنْهَا العَظْم وَالعَصَب، وَأَمَّا نُطْفَة المَرْأَة فَنُطْفَة رَقِيقَة مِنْهَا اللَّحْم وَالدَّم». فقال اليهودي فَقَال: هَكَذَا كَانَ يَقُول مَنْ قَبْلك.[2]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُفْيَان عن عَمْرو عَنْ أَبِي الطُّفَيْل عَنْ حُذَيْفَة بْن أَسِيد الغِفَارِيّ قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«يَدْخُل المَلك عَلى النُّطْفَة بَعْدَمَا تَسْتَقِرّ فِي الرَّحِم بِأَرْبَعِينَ ليْلة، فَيَقُول: يَا رَبّ! مَاذَا؟ أَشَقِيّ أم سَعِيد؟ أَذَكَر أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقُول الله، فَيُكْتَبَانِ، فيقولان: ماذا؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله عز وجل: فيكتبان: وَيُكْتَب عَمَله وَأَثَره، وَمُصِيبَته وَرِزْقه، ثُمَّ تُطْوَى الصَّحِيفَة فَلَا يُزَاد عَلى مَا فِيهَا وَلا يُنْقَص»**[1]. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلم فِي «صَحِيحه» مِنْ حَدِيث سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ عَمْرو هُوَ ابْن دِينَار بِهِ نَحْوه، وَمِنْ طَرِيق أُخْرَى، عَنْ أَبِي الطُّفَيْل عَامِر بْن وَاثِلة، عَنْ حُذَيْفَة بْن أَسِيد أَبِي سُرَيحة الغِفَارِيّ بِنَحْوِهِ، وَالله أَعْلم.

وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْدَة، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن أَبِي بَكْر عَنْ أَنَس أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«إِنَّ الله وَكَّل بالرَّحِم مَلكًا، فَيَقُول: أَيْ رَبّ! نُطْفَة. أَيْ رَبّ! عَلقَة. أَيْ رَبّ! مُضْغَة. فَإِذَا**

---

(١) **صحيح** : تقـدم.

(٢) **ضعيف** : أخرجه أحمد (١/ ٤٦٥)، وفي إسناده عطاء بن السائب: صدوق اختلط في آخر عمره، وأبو كدينة: لم يثبت أنه روى عنه قبل الاختلاط.

أَرَادَ الله خَلقهَا قَال: يا رَبِّ! ذَكَر أَوْ أُنْثَى؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيد؟ فَمَا الرِّزْق وَالأَجَل؟ قَال: فَذَلِكَ يُكْتَب فِي بَطْن أُمِّه».[1] أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث حَمَّاد بْن زَيْد بِهِ.

وَقَوْله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، يَعْنِي: حِين ذَكَرَ قُدْرَته وَلُطْفه فِي خَلق هَذِهِ النُّطْفَة مِنْ حَال إِلَى حَال، وَشَكْل إِلَى شَكْل، حَتَّى تَصَوَّرَتْ إِلَى مَا صَارَتْ إِلَيْهِ مِنَ الإِنْسَان السَّوِيّ الكَامِل الخَلق، قَال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا يُونُس بْن حَبِيب، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، حَدَّثَنَا عَلِيّ ابْن زَيْد عَنْ أَنَس قَال: قَال عُمَر -يَعْنِي ابْن الخَطَّاب ﷺ-: وَافَقْت رَبِّي ووافقني فِي أَرْبَع: نَزَلت هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآيَة. قُلت أَنَا: فَتَبَارَكَ الله أَحْسَن الخَالِقِينَ، فَنَزَلتْ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.[2]

وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا آدَم بْن أَبِي إِيَاس حَدَّثَنَا شَيْبَان عَنْ جَابِر الجُعْفِيّ عَنْ عَامِر الشَّعْبِيّ عَنْ زَيْد بْن ثَابِت الأَنْصَارِيّ قَال: أَمْلَى عَلَيَّ رَسُول الله هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فَقَال مُعَاذ: فَتَبَارَكَ الله أَحْسَن الخَالِقِينَ! فَضَحِكَ رَسُول الله ﷺ فَقَال لَهُ مُعَاذ: مِمَّ [تَضْحَك][3] يَا رَسُول الله؟ فَقَال: «بِهَا خُتِمَتْ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾»[4]. جَابِر بْن زَيْد الجُعْفِيّ ضَعِيف جِدًّا، وَفِي خَبَرِه هَذَا نَكَارَة شَدِيدَة، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَة مَكِّيَّة، وَزَيْد بْن ثَابِت إِنَّمَا كَتَبَ الوَحْي بِالمَدِينَة، وَكَذَلِكَ إِسْلام مُعَاذ ابْن جَبَل إِنَّمَا كَانَ بِالمَدِينَة أَيْضًا، فَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يَعْنِي: بَعْد هَذِهِ النَّشْأَة الأُولَى مِنَ العَدَم تَصِيرُونَ إِلَى المَوْت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ يَعْنِي: النَّشْأَة الآخِرَة، ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يَعْنِي: يَوْم المَعَاد وَقِيَام الأَرْوَاح إِلَى الأَجْسَاد، فَيُحَاسِب الخَلائِق، وَيُوَافِي كُلّ عَامِلٍ عَمَله: إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾.

لَـمَّا ذَكَرَ تَعَالَى خَلق الإِنْسَان، عَطَفَ بِذِكْرِ خَلق السَّمَوَات السَّبْع، وَكَثِيرًا مَا يَذْكُر تَعَالَى خَلق السَّمَوَات وَالأَرْض مَعَ خَلق الإِنْسَان، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ وَهَكَذَا فِي أَوَّل (الم السَّجْدَة) الَّتِي كَانَ رَسُول الله ﷺ يَقْرَأ بِهَا صَبِيحَة يَوْم الجُمُعَة فِي أَوَّلهَا خَلق السَّمَوَات وَالأَرْض، ثُمَّ بَيَان خَلق الإِنْسَان مِنْ سُلالَة مِنْ طِين، وَفِيهَا أَمْر المَعَاد وَالجَزَاء وَغَيْر ذَلِكَ مِنَ المَقَاصِد.

فَقَوْله: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ قَال مُجَاهِد: يَعْنِي السَّمَوَات السَّبْع. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾. وَهَكَذَا قَال هَهُنَا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾، أَيْ: وَيَعْلم مَا يَلِج فِي الأَرْض وَمَا يَخْرُج مِنْهَا وَمَا يَنْزِل مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُج فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير، وَهُوَ سُبْحَانه لا يَحْجُب عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَلا أَرْضٌ أَرْضًا، وَلا جَبَل إِلَّا يَعْلم مَا فِي وَعْره، وَلا بَحْر إِلَّا يَعْلم مَا فِي قَعْره، يَعْلم عَدَد مَا فِي الجِبَال وَالتِّلال وَالرِّمَال وَالبِحَار وَالقِفَار وَالأَشْجَار ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٣٠٨)، ومسلم (٢٦٤٦).
(٢) ضعيف : في إسناده علي بن زيد: ضعيف.
(٣) في (ز) : [ضحكت].
(٤) ضعيف : أخرجه الطبراني في «الأوسط» وفي الإسناد: جابر الجعفي: ضعيف جدًا.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

يَذْكُر تَعَالى نِعَمه عَلى عَبِيده الَّتِي لا تُعَدّ وَلا تُحْصَى، فِي إِنْزَاله القَطْر مِنْ السَّمَاء ﴿بِقَدَرٍ﴾، أَيْ: بِحَسْب الحَاجَة، لا كَثِيرًا فَيُفْسِد الأَرْض وَالعُمْرَان، وَلا قَلِيلًا فَلا يَكْفِي الزُّرُوع وَالثِّمَار، بَل بِقَدْرِ الحَاجَة إِلَيْهِ مِنْ السَّقْي وَالشُّرْب وَالانْتِفَاع بِهِ، حَتَّى إِنَّ الأَرَاضِيَ الَّتِي تَحْتَاج مَاء كَثِيرًا لِزَرْعِهَا، وَلا تَحْتَمِل دِمْنَتهَا إِنْزَال المَطَر عَلَيْهَا يَسُوق إِلَيْهَا المَاء مِنْ بِلاد أُخْرَى كَمَا فِي أَرْض مِصْر، وَيُقَال لَهَا: (الأَرْض الجُرُز) يَسُوق الله إِلَيْهَا مَاء النِّيل، مَعَهُ طِين أَحْمَر يَجْتَرِفهُ مِنْ بِلاد الحَبَشَة فِي زَمَان أَمْطَارهَا فَيَأْتِي المَاء يَحْمِل طِينًا أَحْمَر، فَيَسْقِي أَرْض مِصْر، وَيَقَرّ الطِّين عَلى أَرْضهمْ لِيَزْدَرِعوا فِيهِ لأَنَّ أَرْضهمْ سِبَاخ يَغْلب عَلَيْهَا الرِّمَال، فَسُبْحَان اللَّطِيف الخَبِير الرَّحِيم الغَفُور.

وَقَوْله: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾، أَيْ: جَعَلْنَا المَاء إِذَا نَزَل مِنْ السَّحَاب يَخْلُد فِي الأَرْض، وَجَعَلْنَا فِي الأَرْض قَابِلِيَّة لَهُ؛ تَشْرَبهُ وَيَتَغَذَّى بِهِ مَا فِيهَا مِنْ الحَبّ وَالنَّوَى.

وَقَوْله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾، أَيْ: لَوْ شِئْنَا أَنْ لا تُمْطِر لَفَعَلْنَا، وَلَوْ شِئْنَا لَصَرَفْنَاهُ عَنْكُمْ إِلى السِّبَاخ وَالبَرَارِيّ وَالقِفَار لَفَعَلْنَا، وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا لا يُنْتَفَع بِهِ لِشُرْبٍ وَلا لِسَقْيٍ لَفَعَلْنَا، وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَاهُ لا يَنْزِل فِي الأَرْض بَل يَنْجَرّ عَلى وَجْهِهَا لَفَعَلْنَا، وَلَوْ شِئْنَا لَجَعَلْنَاهُ إِذَا نَزَل فِيهَا يَغُور إِلى مَدًى لا تَصِلُونَ إِلَيْهِ وَلا تَنْتَفِعُونَ بِهِ لَفَعَلْنَا، وَلكِنْ بِلُطْفِهِ وَرَحْمَته يُنْزِل عَلَيْكُمْ المَاء مِنْ السَّحَاب عَذْبًا فُرَاتًا زُلالًا، فَيُسْكِنهُ فِي الأَرْض وَيَسْلُكهُ يَنَابِيع فِي الأَرْض فَيُفَتِّح العُيُون وَالأَنْهَار وَيَسْقِي بِهِ الزُّرُوع وَالثِّمَار، تَشْرَبُونَ مِنْهُ وَدَوَابّكُمْ وَأَنْعَامكُمْ، وَتَغْتَسِلُونَ مِنْهُ وَتَتَطَهَّرُونَ وَتَتَنَظَّفُونَ، فَلَهُ الحَمْد وَالمِنَّة.

وَقَوْله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، يَعْنِي: فَأَخْرَجْنَا لَكُمْ بِمَا أَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أَيْ: بَسَاتِين، و ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أَيْ: ذَات مَنْظَر حَسَن.

وَقَوْله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، أَيْ: فِيهَا نَخِيل وَأَعْنَاب، وَهَذَا مَا كَانَ يَأْلَف أَهْل الحِجَاز، وَلا فَرْق بَيْن الشَّيْء وَبَيْن نَظِيره، وَكَذَلِكَ فِي حَقّ كُلّ أَهْل إِقْلِيم عِنْدهمْ مِنْ الثِّمَار مِنْ نِعْمَة الله عَلَيْهِمْ مَا يَعْجِزُونَ عَنْ القِيَام بِشُكْرِهِ.

وَقَوْله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾، أَيْ: مِنْ جَمِيع الثِّمَار، كَمَا قَال: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، وَقَوْله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كَأَنَّهُ مَعْطُوف عَلى شَيْء مُقَدَّر تَقْدِيره: تَنْظُرُونَ إِلى حُسْنه وَنُضْجه وَمِنْهُ تَأْكُلُونَ.

وَقَوْله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يَعْنِي: الزَّيْتُونَة. وَالطُّور: هُوَ الجَبَل، وَقَال بَعْضهمْ: إِنَّمَا يُسَمَّى طُورًا إِذَا كَانَ فِيهِ شَجَر، فَإِنْ عُرِّيَ عَنْهَا سُمِّيَ جَبَلًا لا طُورًا، وَالله أَعْلَم. وَطُور سَيْنَاء: هُوَ طُور سِينِينَ، وَهُوَ الجَبَل الَّذِي كُلِّمَ عَلَيْهِ مُوسَى بْن عِمْرَان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا حَوْله مِنْ الجِبَال الَّتِي فِيهَا شَجَر الزَّيْتُون.

وَقَوْله: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ قَال بَعْضهمْ: البَاء زَائِدَة وَتَقْدِيره: تُنْبِت الدُّهْن، كَمَا فِي قَوْل العَرَب: أَلْقَى فُلان بِيَدِهِ أَيْ: يَده. وَأَمَّا عَلى قَوْل مَنْ يُضَمِّن الفِعْل فَتَقْدِيره: تَخْرُج بِالدُّهْنِ، أَوْ تَأْتِي بِالدُّهْنِ، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَصِبْغٍ﴾، أَيْ: أُدْم، قَالهُ قَتَادَة: ﴿لِّلْآكِلِينَ﴾، أَيْ: فِيهَا مَا يُنْتَفَع بِهِ مِنْ الدُّهْن وَالاصْطِبَاغ.

كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع عَنْ عَبْد الله بْن عِيسَى عَنْ عَطَاء الشَّامِيّ عَنْ أَبِي أَسِيد -وَاسْمه مَالك بْن

رَبِيعَة- السَّاعِدِيّ الأَنْصَارِيّ ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**كُلُوا الزَّيْت وَادَّهِنُوا بِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَة مُبَارَكَة**»[1].

وَقَال عَبْد بْن حُمَيْد فِي «مُسْنَده» وَ«تَفْسِيره»: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق أَخْبَرَنَا مَعْمَر عَنْ زَيْد بْن أَسْلم عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُمَر أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**ائْتَدِمُوا بِالزَّيْتِ وَادَّهِنُوا بِهِ؛ فَإِنَّهُ يَخْرُج مِنْ شَجَرَة مُبَارَكَة**»[2].

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ، مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ عَبْد الرَّزَّاق. قَال التِّرْمِذِيّ: وَلا يُعْرَف إِلَّا مِنْ حَدِيثه وَكَانَ يَضْطَرِب فِيهِ، فَرُبَّمَا ذَكَرَ فِيهِ عُمَر، وَرُبَّمَا لَمْ يَذْكُرهُ.

قَال أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن أَحْمَد بْن حَنْبَل حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، حَدَّثَنِي الصَّعْب بْن حَكِيم بْن شَرِيك بْن نُمَيْلَة عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه قَال: ضِفْت عُمَر بْن الخَطَّاب ﷺ لَيْلَة عَاشُورَاء، فَأَطْعَمَنِي مِنْ رَأْس بَعِير بَارِد، وَأَطْعَمَنَا زَيْتًا، وَقَال: هَذَا الزَّيْت المُبَارَك الَّذِي قَال الله لِنَبِيِّهِ ﷺ.

وَقَوْله: ﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ** ﴾ يَذْكُر تَعَالى مَا جَعَل لِخَلْقِهِ فِي الأَنْعَام مِنَ المَنَافِع، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِهَا الخَارِجَة مِنْ بَيْن فَرْث وَدَم، وَيَأْكُلُونَ مِنْ حِمْلانِهَا، وَيَلْبَسُونَ مِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا، وَيَرْكَبُونَ ظُهُورهَا، وَيُحَمِّلُونَهَا الأَحْمَال الثِّقَال إِلى البِلاد النَّائِيَة عَنْهُمْ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ **وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ** ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ نُوح عليه السلام حِين بَعَثَهُ إِلى قَوْمه؛ لِيُنْذِرهُمْ عَذَاب الله وَبَأْسه الشَّدِيد، وَانْتِقَامه مِمَّنْ أَشْرَكَ بِهِ، وَخَالَفَ أَمْره وَكَذَّبَ رُسُله، ﴿ **فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ** ﴾ أَيْ: أَلا تَخَافُونَ مِنَ الله فِي إِشْرَاكِكُمْ بِهِ؟! ﴿ **فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟** ﴾ وَهُمْ السَّادَة وَالأَكَابِر مِنْهُمْ: ﴿ **مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ** ﴾ يَعْنُونَ: يَتَرَفَّع عَلَيْكُمْ، وَيَتَعَاظَم بِدَعْوَى النُّبُوَّة، وَهُوَ بَشَر مِثْلكُمْ فَكَيْف أُوحِيَ إِلَيْهِ دُونكُمْ؟ ﴿ **وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً** ﴾، أَيْ: لَوْ أَرَادَ أَنْ يَبْعَث نَبِيًّا، لَبَعَثَ مَلَكًا مِنْ عِنْده وَلَمْ يَكُنْ بَشَرًا، ﴿ **مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا** ﴾، أَيْ: بِبَعْثَةِ البَشَر ﴿ **فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ** ﴾ يَعْنُونَ بِهَذَا [أَسْلافهمْ][3] وَأَجْدَادهمْ وَالأُمَم المَاضِيَة. وَقَوْله: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ** ﴾، أَيْ: مَجْنُون فِيمَا يَزْعُمهُ، مِنْ أَنَّ الله أَرْسَلهُ إِلَيْكُمْ وَاخْتَصَّهُ مِنْ بَيْنكُمْ بِالوَحْي ﴿ **فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ** ﴾، أَيْ: انْتَظِرُوا بِهِ رَيْب المَنُون وَاصْبِرُوا عَلَيْهِ مُدَّة حَتَّى تَسْتَرِيحُوا مِنْهُ.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾.

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٤٤٩٨).
(٢) حسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (١٨).
(٣) في (ز): [آبائهم].

يقول تَعَالى مخبرًا عَنْ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ دَعَا رَبّه لِيَسْتَنْصِرهُ على قَوْمه، كَمَا قَالَ تَعَالى مُخْبِرًا عَنْهُ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾، وَقَال هَهُنَا: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾. فَعِنْد ذَلِكَ أَمَرَهُ الله تَعَالى بِصَنْعَةِ السَّفِينَة وَإِحْكَامها وَإِتْقَانها، وَأَنْ يَحْمِل فِيهَا مِنْ كُلّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، أَيْ: ذَكَرًا وَأُنْثَى مِنْ كُلّ صِنْف مِنْ الحَيَوَانَات وَالنَّبَاتَات وَالثِّمَار، وَغَيْر ذَلِكَ وَأَنْ يَحْمِل فِيهَا أَهْله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾، أَيْ: سَبَقَ فيه القَوْل مِنْ الله بِالهَلَاكِ، وَهُمْ الَّذِينَ لمْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنْ أَهْله كَابْنِهِ وَزَوْجَته، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أَيْ: عِنْد مُعَايَنَة إِنْزَال المَطَر العَظِيم لا تَأْخُذَنَّك رَأْفَة بِقَوْمِك، وَشَفَقَة عَلَيْهِمْ، وَطَمَع فِي تَأْخِيرهمْ لعَلَّهُمْ يُؤْمِنُون، فَإِنِّي قَدْ قَضَيْت أَنَّهُمْ مُغْرَقُونَ على مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الكُفْر وَالطُّغْيَان، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ القِصَّة مَبْسُوطَة فِي سُورَة هُود بِمَا يُغْنِي عَنْ إِعَادَة ذَلِكَ هَهُنَا.

وَقَوْله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كَمَا قَال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ وَقَدْ امْتَثَل نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا. كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ فَذَكَرَ الله تَعَالى عِنْد ابْتِدَاء سَيْره وَعِنْد انْتِهَائِهِ. وَقَال تَعَالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾، أَيْ: إِنَّ فِي هَذَا الصَّنِيع -وَهُوَ إِنْجَاء المُؤْمِنِينَ، وَإِهْلَاك الكَافِرِينَ- ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أَيْ: لَحُجَج وَدَلَالَات وَاضِحَات على صِدْق الأَنْبِيَاء فِيمَا جَاءُوا بِهِ عَنْ الله تَعَالى، وَأَنَّهُ تَعَالى فَاعِل لمَا يَشَاء، قَادِر عَلى كُلّ شَيْء، عَلِيم بِكُلِّ شَيْء.

وَقَوْله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أَيْ: لَمُخْتَبِرِينَ للعِبَادِ بِإِرْسَال المُرْسَلِينَ.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ أَنْشَأَ بَعْد قَوْم نُوح قَرْنًا آخَرِينَ، قِيل: المُرَاد بِهِمْ عَاد؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَخْلَفِينَ بَعْدهمْ، وَقِيل: المُرَاد بِهَؤُلَاءِ ثَمُود لقَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾، وَأَنَّهُ تَعَالى أَرْسَل فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ، فَدَعَاهُمْ إِلى عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، فَكَذَّبُوهُ وَخَالفُوهُ، وَأَبَوْا عَنْ اتِّبَاعه؛ لكَوْنِهِ بَشَرًا مِثْلهمْ، وَاسْتَنْكَفُوا عَنْ اتِّبَاع رَسُول بَشَرِيّ، فكَذَّبُوا بِلقَاءِ الله فِي القِيَامَة، وَأَنْكَرُوا المَعَاد الجُثْمَانِيّ، وقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أَيْ: بَعِيد بَعِيد ذَلِكَ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أَيْ: فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ الرِّسَالة وَالنِّذَارَة وَالإِخْبَار بِالمَعَادِ، ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾، أَيْ: اسْتَفْتَحَ عَلَيْهِمْ الرَّسُول وَاسْتَنْصَرَ رَبّه عَلَيْهِمْ فَأَجَاب دُعَاءَهُ، ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ أَيْ: بِمُخَالفَتِك وَعِنَادك فِيمَا جِئْتهمْ بِهِ، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: وَكَانُوا يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ مِنْ الله بِكُفْرِهِمْ وَطُغْيَانهمْ.

وَالظَّاهِر أَنَّهُ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ صَيْحَة مَعَ الرِّيح الصَّرْصَر العَاصِف القَوِيّ البَارِد، ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾.

وَقَوْله: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ﴾، أَيْ: صَرْعَى هَلكَى كَغُثَاءِ السَّيْل، وَهُوَ: الشَّيْء الحَقِير التَّافِه الهَالك، الَّذِي لا يُنْتَفع بِشَيْءٍ مِنْهُ.

﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أَيْ: بِكُفْرِهِمْ وَعِنَادهمْ، وَمُخَالفَة رَسُول الله، فَلْيَحْذَرْ السَّامِعُونَ أَنْ يُكَذِّبُوا رَسُولهمْ.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾، أَيْ: أُمَمًا وَخَلائِق، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾، يَعْنِي: بَل يُؤْخَذُونَ عَلى حَسَب مَا قَدَّرَ لهُمْ تَعَالى فِي كِتَابه المَحْفُوظ وَعَلمَهُ قَبْل كَوْنهمْ، أُمَّة بَعْد أُمَّة، وَقَرْنًا بَعْد قَرْن، وَجِيلًا بَعْد جِيل، وَخَلفًا بَعْد سَلف.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ قَال ابْن عَبَّاس: يَعْنِي: يَتْبَع بَعْضهمْ بَعْضًا، وهذه كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾.

وَقَوْله: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾، يَعْنِي: جُمْهُورهمْ وَأَكْثَرهمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، وَقَوْله: ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾، أَيْ: أَهْلَكْنَاهُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾، وَقَوْله: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ أَيْ: أَخْبَارًا وَأَحَادِيث للنَّاسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ بَعَثَ رَسُوله مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَخَاهُ هَارُون إِلى فِرْعَوْن وَمَلئِهِ، بِالآيَاتِ وَالحُجَج الدَّامِغَات، وَالبَرَاهِين القَاطِعَات، وَأَنَّ فِرْعَوْن وَقَوْمه اسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعهمَا، وَالانْقِيَاد لأَمْرِهِمَا؛ لكَوْنِهِمَا بَشَرَيْنِ، كَمَا أَنْكَرَتْ الأُمَم المَاضِيَة بَعْثَة الرُّسُل مِنْ البَشَر تَشَابَهَتْ قُلُوبهمْ، فَأَهْلكَ الله فِرْعَوْن وَمَلأَهُ، وَأَغْرَقَهُمْ فِي يَوْم وَاحِد أَجْمَعِينَ، وَأَنْزَل عَلى مُوسَى الكِتَاب وَهُوَ: التَّوْرَاة، فِيهَا أَحْكَامه وَأَوَامِره وَنَوَاهِيه، وَذَلكَ بَعْد مَا قَصَمَ الله فِرْعَوْن وَالقِبْط، وَأَخَذَهُمْ أَخْذ عَزِيز مُقْتَدِر، وَبَعْد أَنْ أَنْزَل الله التَّوْرَاة لمْ يُهْلك أُمَّة بِعَامَّةٍ، بَل أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِقِتَال الكَافِرِينَ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

ثُمَّ قَالَ تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ عَبْده وَرَسُوله عِيسَى ابْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ جَعَلهُمَا آيَة للنَّاسِ، أَيْ: حُجَّة قَاطِعَة عَلى قُدْرَته عَلى مَا يَشَاء، فَإِنَّهُ خَلقَ آدَم مِنْ غَيْر أَب وَلا أُمّ، وَخَلقَ حَوَّاء مِنْ ذَكَر بِلا أُنْثَى، وَخَلقَ عِيسَى مِنْ أُنْثَى بِلا ذَكَر، وَخَلقَ بَقِيَّة النَّاس مِنْ ذَكَر وَأُنْثَى.

وَقَوْله: ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾، قَال الضَّحَّاك عَنْ ابْن عَبَّاس: الرَّبْوَة: المَكَان المُرْتَفِع مِنْ الأَرْض، وَهُوَ أَحْسَن مَا يَكُون فِيهِ النَّبَات. وَكَذَا قَال مُجَاهِد وَعِكْرِمَة وَسَعِيد بن جُبَيْر وَقَتَادَة.

قَال ابْن عَبَّاس: وَقَوْله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يَقُول: ذَات خِصْب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يَعْنِي مَاء طاهِرًا. وَقَال مُجَاهِد: رَبْوَة مُسْتَوِيَة. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ اسْتَوَى المَاء فِيهَا. وَقَال مُجَاهِد وَقَتَادَة: ﴿وَمَعِينٍ﴾: المَاء الجَارِي. ثُمَّ اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي مَكَان هَذِهِ الرَّبْوَة [مِنْ أَيّ أَرْض هِيَ][1]؟ فَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم: لَيْسَ الرُّبَى إِلَّا بِمِصْر، وَالمَاء حِين يرسل يَكُون الرُّبَى عَلَيْهَا القُرَى، وَلَوْلا الرُّبَى غَرِقَتْ القُرَى. وَرُوِيَ عَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه نَحْو هَذَا، وَهُوَ بَعِيد جِدًّا.

وقال ابْن أَبِي حَاتِم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عَنْ سَعِيد ابْن المُسَيِّب فِي قَوْله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قَال: هِيَ دِمَشْق. قَال: وَرُوِيَ عَنْ عَبْد الله ابْن سَلام وَالحَسَن وَزَيْد بْن أَسْلم وَخَالد بْن مَعْدَان نَحْو ذَلكَ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ حَدَّثَنَا وَكِيع عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ سِمَاك عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قَال: أَنْهَار دِمَشْق. وَقَال لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم، عَنْ مُجَاهِد: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ قَال: عِيسَى ابْن مَرْيَم وَأُمّه حِين أَوَيَا إِلى غُوطَة دِمَشْق وَمَا حَوْلَهَا. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: عَنْ بِشْر بْن رَافِع، عَنْ أَبِي عَبْد الله ابْن عَمّ أَبِي هُرَيْرَة قَال: سَمِعْت أَبَا هُرَيْرَة يَقُول فِي قَوْل الله تَعَالى: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قَال: هِيَ الرَّمْلة مِنْ فِلَسْطِين.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد بْن يُوسُف الفِرْيَابِيّ، حَدَّثَنَا رَوَّاد بْن الجَرَّاح، حَدَّثَنَا عَبَّاد بْن عَبَّاد الخَوَّاص أَبُو عُتْبَة، حَدَّثَنَا السَّيْبَانِيّ، عَنْ ابْن وَعْلة عَنْ كُرَيْب السُّحُولِيّ، عَنْ مُرَّة البَهْزِيّ قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول لرَجُلٍ: «إِنَّك مَيِّتٌ بِالرَّبْوَةِ»[2]. فَمَاتَ بِالرَّمْلةِ. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا. وَأَقْرَب الأَقْوَال فِي ذَلكَ: مَا رَوَاهُ العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قَال: المَعِين: المَاء الجَارِي، وَهُوَ النَّهَر الَّذِي قَال الله تَعَالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾. وَكَذَا قَال الضَّحَّاك وَقَتَادَة: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: هُوَ بَيْت المَقْدِس. فَهَذَا وَالله أَعْلم هُوَ الأَظْهَر؛ لأَنَّهُ المَذْكُور فِي الآيَة الأُخْرَى، وَالقُرْآن يُفَسِّر بَعْضه بَعْضًا، وهو أَوْلى مَا يُفَسَّر بِهِ، ثُمَّ الأَحَادِيث الصَّحِيحَة، ثُمَّ الآثَار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

يَأْمُر تَعَالى عِبَاده المُرْسَلِينَ -عَلَيْهِمْ الصَّلاة وَالسَّلام أَجْمَعِينَ- بِالأَكْل مِنْ الحَلال، وَالقِيَام بِالصَّالح مِنْ الأَعْمَال فَدَلَّ هَذَا عَلى أَنَّ الحَلال عَوْن عَلى العَمَل الصَّالح، فَقَامَ الأَنْبِيَاء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِهَذَا أَتَمّ القِيَام، وَجَمَعُوا بَيْن كُلّ خَيْر قَوْلًا وَعَمَلًا وَدَلالة وَنُصْحًا، فَجَزَاهُمْ الله عَنْ العِبَاد خَيْرًا. قَال الحَسَن البَصْرِيّ فِي قَوْله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ قَال: أَمَا وَالله مَا أُمروا بِأَصْفَرِكُمْ وَلا أَحْمَرِكُمْ، وَلا حُلوكُمْ وَلا حَامِضكُمْ، وَلكِنْ قَال: انْتَهُوا إِلى الحَلال مِنْهُ. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر وَالضَّحَّاك: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يَعْنِي: الحَلال. وَقَال أَبُو إِسْحَاق السَّبِيعِيّ، عَنْ أَبِي مَيْسَرَة عَمْرو بْن شُرَحْبِيل: كَانَ عِيسَى ابْن مَرْيَم يَأْكُل مِنْ غَزْل أُمّه. وَفِي الصَّحِيح: «**مَا مِنْ نَبِيّ إلاَّ رَعَى الغَنَم**». قَالُوا: وَأَنْتَ يَا رَسُول الله؟ قَال: «**نَعَمْ، كُنْت أَرْعَاهَا عَلى قَرَارِيط لأَهْل مَكَّة**»[3]. وَفِي الصَّحِيح:

---

(١) في (ز): [في أي أرض الله هي].

(٢) **ضعيف** : فيه رواد بن الجراح: صدوق اختلط بآخره فتُرك.

(٣) **صحيح** : أخرجه البخاري (٢٢٦٢).

«إنَّ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُل مِنْ كَسْب يَده»[1]. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «إنَّ أَحَبّ الصِّيَام إلى الله صِيَام دَاوُد، وَأَحَبّ القِيَام إلى الله قِيَام دَاوُد، كَانَ يَنَام نِصْف اللَّيْل، وَيَقُوم ثُلُثه وَيَنَام سُدُسه، وَكَانَ يَصُوم يَوْمًا وَيُفْطِر يَوْمًا وَلا يَفِرّ إذَا لاقَى».[2]

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَان الحَكَم بْن نَافِع حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن أَبِي مَرْيَم عَنْ ضَمْرَة بْن حَبِيب: أَنَّ أُمّ عَبْد الله أخت شَدَّاد بْن أَوْس بَعَثَت إلى النَّبِيّ ﷺ بِقَدَح لبَن عِنْد فِطْره، وَهُوَ صَائِم، وَذَلِكَ فِي أَوَّل النَّهَار وَشِدَّة الحَرّ فَرَدَّ إلَيْهَا رَسُولهَا: «أَنَّى كَانَتْ لك الشَّاة؟». فَقَالَتْ: اشْتَرَيْتهَا مِنْ مَالِي. فَشَرِبَ مِنْهُ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ الغَد أَتَتْهُ أُمّ عَبْد الله أخت شَدَّاد فَقَالَتْ: يَا رَسُول الله! بَعَثْت إلَيْك بِلَبَنٍ مَرْثِيَة لك مِنْ طُول النَّهَار وَشِدَّة الحَرّ فَرَدَدْت إلَيَّ الرَّسُول فِيهِ؟ فَقَال لَهَا: «بِذَلِكَ أُمِرَتْ الرُّسُل، أَنْ لا تَأْكُل إلاَّ طَيِّبًا، وَلا تَعْمَل إلاَّ صَالِحًا»[3].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيح مُسْلم» وَ«جَامِع التِّرْمِذِيّ» وَ«مُسْنَد الإِمَام أَحْمَد» -وَاللَّفْظ لَهُ- مِنْ حَدِيث فُضَيْل بْن مَرْزُوق، عَنْ عَدِيّ بْن ثَابِت عَنْ أَبِي حَازِم عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاس! إنَّ الله طَيِّب لا يَقْبَل إلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ الله أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ، فَقَال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وَقَال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾». ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُل: «يُطِيل السَّفَر أَشْعَث أَغْبَر، وَمَطْعَمه حَرَام، وَمَشْرَبه حَرَام، وَمَلْبَسه حَرَام، وَغُذِّيَ بِالحَرَام، يَمُدّ يَدَيْهِ إلى السَّمَاء: يَا رَبّ! يَا رَبّ! فَأَنَّى يُسْتَجَاب لِذَلِكَ؟!»[4] وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن غَرِيب، لا نَعْرِفهُ إلَّا مِنْ حَدِيث فُضَيْل بْن مَرْزُوق.

وَقَوْله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أَيْ: دِينكُمْ يَا مَعْشَر الأَنْبِيَاء دِين وَاحِد وَمِلَّة وَاحِدَة، وَهُوَ الدَّعْوَة إلى عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لَهُ، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾، وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلام عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَة الأَنْبِيَاء، وأنَّ قَوْله: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مَنْصُوب عَلَى الحَال.

وَقَوْله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًاۖ﴾، أَيْ: الأُمَم الَّذِينَ بُعِثَتْ إلَيْهِمْ الأَنْبِيَاء.

﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أَيْ: يَفْرَحُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ الضَّلال؛ لأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ؛ وَلِهَذَا قَال مُتَهَدِّدًا لَهُمْ ومتوعِّدًا: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أَيْ: فِي غَيّهمْ وَضَلالهمْ ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أَيْ: إلى حِين حَيْنهمْ وَهَلاكهمْ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وَقَوْل: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ يَعْنِي: أَيَظُنُّ هَؤُلاءِ المَغْرُورُونَ أَنَّ مَا نُعْطِيهِمْ مِنْ الأَمْوَال وَالأَوْلاد لِكَرَامَتِهِمْ عَلَيْنَا وَمَعَزَّتهمْ عِنْدنَا؟! كَلَّا، لَيْسَ الأَمْر كَمَا يَزْعُمُونَ فِي قَوْلهمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، لَقَدْ أَخْطَئُوا فِي ذَلِكَ، وَخَابَ رَجَاؤُهُمْ، بَل إنَّمَا نَفْعَل بِهِمْ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا وَإِنْظَارًا وَإِمْلاء، وَلِهَذَا قَال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾. وَقَال تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾. وَقَال تَعَالَى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾. وَقَال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٠٧٣).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).
(٣) ضعيف: في إسناده أبو بكر ابن أبي مريم: ضعيف.
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٥).

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾، وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة.

قَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، قَال: مُكِر وَالله بِالقَوْمِ فِي أَمْوَالهم وَأَوْلادهم، يَا بْن آدَم، فَلا تَعْتَبِر النَّاس بِأَمْوَالِهِم وَأَوْلادهم، وَلكِنْ اعْتَبِرْهُمْ بِالإِيمَانِ وَالعَمَل الصَّالح. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُبَيْد حَدَّثَنَا أَبَان بْن إِسْحَاق، عَنْ الصَّبَّاح بْن مُحَمَّد، عَنْ مُرَّة الهَمْدَانِيّ حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن مَسْعُود رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الله قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاقكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقكُمْ، وَإِنَّ الله يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبّ وَمَنْ لا يُحِبّ، وَلا يُعْطِي الدِّين إلاَّ لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ الله الدِّين فَقَدْ أَحَبَّهُ وَالَّذِي نفسي بِيَدِهِ لا يَسْلم عَبْد حَتَّى يَسْلم قَلبه وَلسَانه، وَلا يُؤْمِن حَتَّى يَأْمَن جَاره بَوَائِقه». قَالُوا: وَمَا بَوَائِقه يَا نبيَّ الله؟ قَال: «غَشْمه وَظُلمه، وَلا يَكْسِب عَبْد مَالاً مِنْ حَرَام فَيُنْفِق مِنْهُ فَيُبَارَكَ فِيهِ، وَلا يَتَصَدَّق بِهِ فَيُقْبَل مِنْهُ وَلا يَتْرُكهُ خَلف ظَهْره إلاَّ كَانَ زَاده إِلى النَّار، إِنَّ الله لا يَمْحُو السَّيِّئ بِالسَّيِّئ وَلكِنْ يَمْحُو السَّيِّئ بِالحَسَنِ، إِنَّ الخَبِيث لا يَمْحُو الخَبِيث».(1)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، أَيْ: هُمْ مَعَ إِحْسَانهمْ وَإِيمَانهمْ وَعَمَلهمْ الصَّالح، مُشْفِقُونَ مِنْ الله خَائِفُونَ مِنْهُ، وَجِلُونَ مِنْ مُكْرِه بِهِمْ كَمَا قَال الحَسَن البَصْرِيّ: إِنَّ المُؤْمِن جَمَعَ إِحْسَانًا وَشَفَقَة وَإِنَّ المُنَافق جَمَعَ إِسَاءَة وَأَمْنًا.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، أَيْ: يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ الكَوْنِيَّة وَالشَّرْعِيَّة، كَقَوْلِهِ تَعَالى إِخْبَارًا عَنْ مَرْيَم عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أَيْ: أَيْقَنَتْ أَنَّ مَا كَانَ فَإِنَّمَا هُوَ عَنْ قَدَر الله وَقَضَائِهِ، وَمَا شَرَعَهُ الله فَهُوَ إِنْ كَانَ أَمْرًا فَمِمَّا يُحِبّهُ وَيَرْضَاهُ، وَإِنْ كَانَ نَهْيًا فَهُوَ مِمَّا يَكْرَههُ وَيَأْبَاهُ، وَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَهُوَ حَقّ، كَمَا قَال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أَيْ: لا يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْره، بَل يُوَحِّدُونَهُ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ لا إِله إِلَّا الله، أَحَدًا صَمَدًا، لمْ يَتَّخِذ صَاحِبَة وَلا وَلدًا، وَأَنَّهُ لا نَظِير لهُ وَلا كُفْء لهُ.

وَقَوْله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾. أَيْ: يُعْطُونَ العَطَاء وَهُمْ خَائِفُونَ أَنْ لا يُتَقَبَّل مِنْهُمْ؛ لِخَوْفِهِمْ أَنْ يَكُونُوا قَدْ قَصَّرُوا فِي القِيَام بِشُرُوطِ الإِعْطَاء، وَهَذَا مِنْ بَاب الإِشْفَاق وَالاحْتِيَاط، كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن آدَم حَدَّثَنَا مَالك بْن مِغْوَل، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن سَعِيد بْن وَهْب، عَنْ عَائِشَة أَنَّهَا قَالتْ: يَا رَسُول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هُوَ الَّذِي يَسْرِق وَيَزْنِي وَيَشْرَب الخَمْر، وَهُوَ يَخَاف الله عز وجل؟ قَال: «**لا يَا بِنْت أبي بكر، يا بنت الصِّدِّيق؛ وَلكِنَّهُ الَّذِي يُصَلِّي وَيَصُوم وَيَتَصَدَّق وَهُوَ يَخَاف الله عز وجل**»(2). وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث مَالك بْن مِغْوَل بِهِ بِنَحْوِهِ. وَقَال: «**لا، يَا بِنت الصِّدِّيق، وَلكِنَّهُمْ الَّذِينَ يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَلاَّ يُتَقَبَّل مِنْهُمْ** ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾». وقال الترمذي: روى هَذَا الحَدِيث مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن بْن سَعِيد، عَنْ أَبِي حَازِم عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ نَحْو هَذَا. وَهَكَذَا قَال ابْن عَبَّاس وَمُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ وَالحَسَن البَصْرِيّ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة.

---

(1) **ضعيف**: تقـــدم.

(2) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (١١٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

وَقَدْ قَرَأَ آخَرُونَ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، أَيْ: يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُونَ، وَهُمْ خَائِفُونَ. وَرُوِيَ هَذَا مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ كَذَلِكَ. قَالَ الإِمَامُ أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان حَدَّثَنَا صَخْر بْن جُوَيْرِيَّة حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل المَكِّيّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَلَف مَوْلَى بَنِي جُمَح، أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ عُبَيْد بْن عُمَيْر عَلَى عَائِشَة رضي الله عنها فَقَالَتْ: مَرْحَبًا بِأَبِي عَاصِم، مَا يَمْنَعك أَنْ تَزُورنَا أَوْ تُلِمّ بِنَا؟ فَقَالَ: أَخْشَى أَنْ أُمِلَّكِ فَقَالَتْ: مَا كُنْت لِتَفْعَل؟ قَالَ: جِئْت لأَسْأَلك عَنْ آيَة مِنْ كِتَاب الله ﷻ، كَيْفَ كَانَ رَسُول الله ﷺ يَقْرَؤُهَا. قَالَتْ: أَيَّةُ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ أو (الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا) فَقَالَتْ: أَيَّتهمَا أَحَبّ إِلَيْك؟ فَقُلت: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأَحَدهمَا أَحَبّ إِلَيَّ مِنْ الدُّنْيَا جَمِيعًا، أَوْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. قَالَتْ: وَمَا هِيَ؟ فَقُلت: (الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوْا). فَقَالَتْ: أَشْهَد أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَذَلِكَ كَانَ يَقْرَؤُهَا وَكَذَلِكَ أُنْزِلتْ، وَلَكِنَّ الهِجَاء حُرِّف.[1] إِسْمَاعِيل بْن مُسْلِم المَكِّيّ ضَعِيف. وَالمَعْنَى عَلَى القِرَاءَة الأُولَى وَهِيَ قِرَاءَة الجُمْهُور: السَّبْعَة وَغَيْرهمْ أَظْهَر؛ لأَنَّهُ قَالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ فَجَعَلَهُمْ مِنْ السَّابِقِينَ، وَلَوْ كَانَ المَعْنَى عَلَى القِرَاءَة الأُخْرَى لأَوْشَكَ أَنْ لا يَكُونُوا مِنْ السَّابِقِينَ، بَل مِنْ المُقْتَصِدِينَ أَوْ المُقَصِّرِينَ، وَالله تعالى أَعْلَم.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَدْله فِي شَرْعه عَلَى عِبَاده فِي الدُّنْيَا :أَنَّهُ لا يُكَلِّف نَفْسًا إِلَّا وُسْعهَا، أَيْ: إِلَّا مَا تُطِيق حَمْله وَالقِيَام بِهِ، وَأَنَّهُ يَوْم القِيَامَة يُحَاسِبهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ الَّتِي كَتَبَهَا عَلَيْهِمْ فِي كِتَاب مَسْطُور، لا يَضِيع مِنْهُ شَيْء، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ﴾، يَعْنِي: كِتَاب الأَعْمَال ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، أَيْ: لا يُبْخَسُونَ مِنْ الخَيْر شَيْئًا، وَأَمَّا السَّيِّئَات فَيَعْفُو وَيَصْفَح عَنْ كَثِير مِنْهَا لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ. ثُمَّ قَالَ مُنْكِرًا عَلَى الكُفَّار وَالمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أَيْ: فِي غَفْلَة وَضَلالَة ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾، أَيْ: القُرْآن الَّذِي أنزله عَلَى رَسُوله ﷺ.

وَقَوْله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾. قَالَ الحَكَم بْن أَبَان، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾، أَيْ: سَيِّئَة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾، يَعْنِي: الشِّرْك ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ قَالَ: لابُدّ أَنْ يَعْمَلُوهَا. وكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَالحَسَن وَغَيْر وَاحِد. وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾، أَيْ: قَدْ كُتِبَ عَلَيْهِمْ أَعْمَال سَيِّئَة لابُدّ أَنْ يَعْمَلُوهَا قَبْل مَوْتهمْ لا مَحَالة؛ لِتَحِقّ عَلَيْهِمْ كَلِمَة العَذَاب. وَرُوِيَ نَحْو هَذَا عَنْ مُقَاتِل بْن حَيَّان وَالسُّدِّيّ وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم، وَهُوَ ظَاهِر قَوِيّ حَسَن. وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي حَدِيث ابْن مَسْعُود: «**فَوَالَّذِي لا إِله غَيْره، إِنَّ الرَّجُل لَيَعْمَل بِعَمَل أَهْل الجَنَّة حَتَّى مَا يَكُون بَيْنه وَبَيْنهَا إِلاَّ ذِرَاع، فَيَسْبِق عَلَيْهِ الكِتَاب، فَيَعْمَل بِعَمَل أَهْل النَّار فَيَدْخُلهَا**».

وَقَوْله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾، يَعْنِي: حَتَّى إِذَا جَاءَ مُتْرَفِيهِمْ -وَهُمْ: السُّعَدَاء المُنَعَّمُونَ فِي الدُّنْيَا- عَذَاب الله وَبَأْسه وَنِقْمَته بِهِمْ ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾، أَيْ: يَصْرُخُونَ وَيَسْتَغِيثُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٦/ ٩٥)، وفيه أبو خلف مولى بني جمح: مجهول الحال.

وَقَوْله: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾، أَيْ: لا نُجيركم مِمَّا حَلَّ بِكُمْ، سَوَاء جَأَرْتُمْ أَوْ سَكَتُّمْ، لا مَحِيد وَلا مَنَاص وَلا وِزْر، لزِمَ الأَمْر وَوَجَبَ العَذَاب. ثُمَّ ذَكَرَ أَكْبَر ذُنُوبِهِمْ فَقَالَ: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أَيْ: إِذَا دُعِيتُمْ أَبَيْتُمْ، وإِنْ طُلِبْتُمْ امْتَنَعْتُمْ، ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾.

وَقَوْله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ فِي تَفْسِيره قَوْلانِ؛ أَحدهمَا: أَنَّ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حَال مِنْهُمْ حِين نُكُوصهمْ عَنْ الحَقّ وَإِبَائِهِمْ إِيَّاهُ، اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِ وَاحْتِقَارًا لهُ وَلأَهْلِهِ، فَعَلى هَذَا الضَّمِير فِي ﴿بِهِۦ﴾ فِيهِ ثَلاثَة أَقْوَال: **أحدها**: أَنَّهُ الحَرَم بمَكَّة ذُمُّوا لأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْمرُونَ فِيهِ الهجر مِنْ الكَلام. **الثَّانِي**: أَنَّهُ ضَمِير للقُرْآنِ، كَانُوا يَسمرُونَ وَيَذْكُرُونَ القُرْآن بِالهَجْرِ مِنْ الكَلام: إِنَّهُ سِحْر، إِنَّهُ شِعْر، إِنَّهُ كِهَانَة، إِلى غَيْر ذَلكَ مِنْ الأَقْوَال البَاطِلة. **وَالثَّالث**: أَنَّهُ مُحَمَّد ﷺ كَانُوا يَذْكُرُونَهُ فِي سَمَرِهِمْ بالأَقْوَال الفَاسِدَة، وَيَضْرِبُونَ لهُ الأَمْثَال البَاطِلة، مِنْ أَنَّهُ شَاعِر أَوْ كَاهِن أَوْ سَاحِر أَوْ كَذَّاب أَوْ مَجْنُون، فَكُلّ ذَلكَ بَاطِل، بَل هُوَ عَبْد الله وَرَسُوله، الَّذِي أَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِمْ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ الحَرَم صَاغِرِينَ أَذِلَّاء.

وَقِيل: المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أَيْ: بِالبَيْتِ يَفْتَخِرُونَ بِهِ ويعتقدون أَنَّهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ وَلَيْسُوا بهم، كَمَا قَال النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير مِنْ «سُنَنه»: أَخْبَرَنَا أَحْمَد بْن سُليْمَان، أَخْبَرَنَا عُبيد الله، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ عَبْد الأَعْلى، أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيد بْن جُبَيْر يُحَدِّث عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَال: إِنَّمَا كُرِهَ السَّمَر [حِين][1] نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾، فَقَال: مُسْتَكْبِرِينَ بِالبَيْتِ، يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْله، ﴿سَـٰمِرًا﴾، قَال: كَانُوا يَتَكَبَّرُونَ وَيَسْمُرُونَ فِيهِ وَلا يَعْمُرُونَهُ ويهجرونه وَقَدْ أَطْنَبَ ابْن أَبِي حَاتِم هَهُنَا [بِمَا هَذَا][2] حَاصِله.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُنْكِرًا عَلى المُشْرِكِينَ فِي عَدَم تَفَهُّمِهِمْ للقُرْآنِ العَظِيم، وَتَدَبُّرِهِمْ لهُ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ خُصُّوا بِهَذَا الكِتَاب الَّذِي لمْ يُنَزِّل الله عَلى رَسُول أَكْمَل مِنْهُ وَلا أَشْرَف، لاسِيَّمَا آبَاؤُهُمْ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الجَاهِليَّة حَيْثُ لمْ يَبْلُغهُمْ كِتَاب وَلا أَتَاهُمْ نَذِير فَكَانَ اللَّائِق بِهَؤُلاءِ أَنْ يُقَابِلُوا النِّعْمَة الَّتِي أَسْدَاهَا الله إليهم بِقَبُولِهَا، وَالقِيَام بِشُكْرِهَا وَتَفَهُّمِهَا، وَالعَمَل بِمُقْتَضَاهَا آنَاء اللَّيْل وَأَطْرَاف النَّهَار، كَمَا فَعَلهُ النُّجَبَاء مِنْهُمْ مِمَّنْ أَسْلمَ وَاتَّبَعَ الرَّسُول ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ. وَقَال قَتَادَة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾: إِذًا وَالله يَجِدُونَ فِي القُرْآن زَاجِرًا عَنْ مَعْصِيَة الله لوْ تَدَبَّرَهُ القَوْم وَعَقَلُوهُ، وَلكِنَّهُمْ أَخَذُوا بِمَا تَشَابَهَ بِهِ فَهَلكُوا عِنْد ذَلكَ.

ثُمَّ قَال مُنْكِرًا عَلى الكَافِرِينَ مِنْ قُرَيْش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، أَيْ: أَفَهُمْ لا يَعْرِفُونَ مُحَمَّدًا وَصِدْقه وَأَمَانَته وَصِيَانَته الَّتِي نَشَأَ بِهَا فِيهِمْ؟ أَيْ: أَفَيَقْدِرُونَ عَلى إِنْكَار ذَلكَ وَالمُبَاهَتَة فِيهِ؟ وَلهَذَا قَال جَعْفَر بْن أَبِي طَالب رضي الله عنه للنَّجَاشِيّ مَلك الحَبَشَة: أَيُّهَا المَلك؛ إِنَّ الله بَعَثَ إِلينا رَسُولًا نَعْرِف نَسَبه وَصِدْقه وَأَمَانَته. وَهَكَذَا

(١) في (ز) : [حتى].
(٢) في (ز) : [بهاذا].

قَال المُغِيرَة بْن شُعْبَة لنَائِبِ كِسْرَى حِين بَارَزَهُمْ. وَكَذَلكَ قَال أَبُو سُفْيَان صَخْر بْن حَرْب لملكِ الرُّوم هِرَقْل، حِين سَأَلَهُ وَأَصْحَابه عَنْ صِفَات النَّبِيّ ﷺ وَنَسَبه وَصِدْقه وَأَمَانَته، وَكَانُوا بَعْدُ كُفَّارًا لمْ يُسْلمُوا، وَمَعَ هَذَا لمْ يُمْكِنهُمْ إِلَّا الصِّدْق فَاعْتَرَفُوا بِذَلكَ.

وَقَوْله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [يَحْكِي][1] قَوْل المُشْرِكِينَ عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ [تقَوَّل][2] القُرْآن، أَيْ: افْتَرَاهُ مِنْ عِنْده، أَوْ أَنَّ بِهِ جُنُونًا لا يَدْرِي مَا يَقُول، وَأَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّ قُلُوبهمْ لا تُؤْمِن بِهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ بُطْلان مَا يَقُولُونَهُ فِي القُرْآن، فَإِنَّهُ أَتَاهُمْ مِنْ كَلام الله مَا لا يُطَاق وَلا يُدَافَع وَقَدْ تَحَدَّاهُمْ وَجَمِيع أَهْل الأَرْض أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ [إِنْ][3] اسْتَطَاعُوا، وَلا يَسْتَطِيعُونَ أَبَد الآبِدِينَ، وَلهَذَا قَال: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ يُحْتَمَل أَنْ تَكُون هَذِهِ جُمْلَة حَاليَّة، أَيْ: فِي حَالة كَرَاهَة أَكْثَرهمْ للحَقِّ، وَيُحْتَمَل أَنْ تَكُون خَبَرِيَّة مُسْتَأْنَفَة، وَالله أَعْلم.

وَقَال قَتَادَة: ذُكِرَ لنَا أَنَّ نَبِيّ الله ﷺ لقِيَ رَجُلًا فَقَال لهُ: «أَسْلمْ». فَقَال الرَّجُل: إِنَّك لتَدْعُونِي إِلى أَمْر أَنَا لهُ كَارِه. فَقَال نَبِيّ الله ﷺ: «وَإِنْ كُنْت كَارِهًا»[4]. وَذُكِرَ لنَا أَنَّهُ لقِيَ رَجُلًا فَقَال لهُ: «أَسْلمْ». فَتَصَعَّدَهُ ذَلكَ وَكَبُرَ عَليْهِ فَقَال لهُ نَبِيّ الله ﷺ: «أَرَأَيْت لوْ كُنْت فِي طَرِيق وَعْر وَعْث، فَلقِيت رَجُلاً تَعْرِف وَجْهه وَتَعْرِف نَسَبه، فَدَعَاك إِلى طَرِيق وَاسِع سَهْل، أَكُنْت مُتبعه؟» قَال: نَعَمْ. فَقَال: «فَوَالَّذِي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ، إِنَّك لفِي أَوْعَر مِنْ ذَلك الطَّرِيق لوْ قَدْ كُنْت عَليْهِ وَإِنِّي لأَدْعُوك إِلى أَسْهل مِنْ ذَلك لوْ دُعِيت إِليْهِ». وَذُكِرَ لنَا أَنَّ نَبِيّ الله ﷺ لقِيَ رَجُلًا فَقَال لهُ: «أَسْلمْ». فَتَصَعَّدَهُ ذَلكَ، فَقَال لهُ نَبِيّ الله ﷺ: «أَرَأَيْت فَتَيَيْك؛ أَحَدهمَا إِذَا حَدَّثَك صَدَقَك، وَإِذَا ائْتَمَنْته أَدَّى إِليْك أَهُوَ أَحَبّ إِليْك أَمْ فَتَاك الَّذِي إِذَا حَدَّثَك كَذَبَك وَإِذَا ائْتَمَنْته خَانَك؟». قَال بَل فَتَايَ الَّذِي إِذَا حَدَّثَنِي صَدَقَنِي، وَإِذَا ائْتَمَنْته أَدَّى إِليَّ، فَقَال النبيُّ ﷺ: «كَذَاكُمْ أَنْتُمْ عِنْد رَبِّكُمْ».

وَقَوْله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ قَال مُجَاهِد وَأَبُو صَالح وَالسُّدِّيّ: الحَقّ هُوَ الله ﷻ وَالمُرَاد: لوْ أَجَابَهُمْ الله إِلى مَا فِي أَنْفُسهمْ مِنْ الهَوَى وَشَرَعَ الأُمُور عَلى وَفْق ذَلكَ، ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾، أَيْ: لفَسَادِ أَهْوَائِهِم وَاخْتِلافهَا. كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي قَوْلهمْ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ثُمَّ قَال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾. وَقَال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾، فَفِي هَذَا كُلّه تَبْيِين عَجْز العِبَاد، وَاخْتِلاف آرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَأَنَّهُ تَعَالى هُوَ الكَامِل فِي جَمِيع صِفَاته، وَأَقْوَاله وَأَفْعَاله، وَشَرْعه وَقَدَره، وَتَدْبِيره لخَلقِهِ تَعَالى وَتَقَدَّس، فَلا إِله غَيْره وَلا رَبّ سِوَاهُ، ثم قَال: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾، يعني القُرْآن، ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾، قَال الحَسَن: أَجْرًا. وَقَال قَتَادَة: جُعْلًا، ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أَيْ: أَنْتَ لا تَسْأَلهُمْ أجرًا وَلا جُعْلًا وَلا شَيْئًا عَلى دَعْوَتك إِيَّاهُمْ إِلى الهُدَى بَل أَنْتَ فِي ذَلكَ تَحْتَسِب عِنْد الله جَزِيل ثَوَابه، كَمَا قَال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، وَقَال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾، وَقَال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وَقَال: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

---

(١) في (ز): [على].
(٢) في (ز): [يقول].
(٣) في (ز): [فما].
(٤) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٩٧٤).

وَقَوْله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد بْن جُدْعَان، عَنْ يُوسُف بْن مِهْرَان، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ رَسُول الله ﷺ أَتَاهُ فِيمَا يَرَى النَّائِم مَلَكَانِ، فَقَعَدَ أَحَدهمَا عِنْد رِجْلَيْهِ، وَالآخر عِنْد رَأْسه، فَقَال الَّذِي عِنْد رِجْلَيْهِ لِلَّذِي عِنْد رَأْسه: اضْرِبْ مَثَل هَذَا وَمَثَل أُمَّته. فَقَال: إِنَّ مَثَل هَذَا وَمَثَل أُمَّته كَمَثَل قَوْم سَفر انْتَهَوْا إِلى ورأس مَفَازَة، فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ مِنْ الزَّاد مَا يَقْطَعُونَ بِهِ الْمَفَازَة وَلا مَا يَرْجِعُونَ بِهِ، فبينا هُمْ كَذَلِكَ؛ إِذْ أَتَاهُمْ رَجُل فِي حُلَّة حِبَرَة، فَقَال: أَرَأَيْتُمْ إِنْ وردت بكم رِيَاضًا مُعْشِبَة، وَحِيَاضًا رُوَاء، تَتَّبِعُونِي؟ فَقَالُوا: نَعَمْ. قَال: فَانْطَلَقَ بِهِمْ، فَأَوْرَدَهُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَة وَحِيَاضًا رُوَاء، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا وَسَمِنُوا، فَقَال لَهُمْ: أَلَمْ أَلفكُمْ عَلَى تِلْكَ الحَال، فَجَعَلتم لِي إِنْ وَرَدْت بِكُمْ رِيَاضًا مُعْشِبَة وَحِيَاضًا رُوَاء أَنْ تَتَّبِعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى. قَال: فَإِنَّ بَيْن أَيْدِيكُمْ رِيَاضًا أَعْشَب مِنْ هَذِهِ، وَحِيَاضًا هِيَ أَرْوَى مِنْ هَذِهِ فَاتَّبِعُونِي. قَال: فَقَالَتْ طَائِفَة: صَدَقَ وَالله، لنَتَّبِعنهُ. وَقَالَتْ طَائِفَة: قَدْ رَضِينَا بِهَذَا نُقِيم عَلَيْهِ.[1]

وَقَال الحَافِظ أَبُو يَعْلَى المَوْصِلِيّ: حَدَّثَنَا زُهَيْر، حَدَّثَنَا يُونُس بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن عَبْد الله الأَشْعَرِيّ، حَدَّثَنَا حَفْص بْن حُمَيْد عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِنِّي مُمْسِك بِحُجَزِكُمْ: هَلُمَّ عَنْ النَّار! هَلُمَّ عَنْ النَّار! وَتَغْلِبُونَنِي، وتَقَاحَمُونَ فِيهَا تَقَاحُم الفَرَاش وَالجَنَادِب، فَأُوشِك أَنْ أُرْسِل حُجُزَكُمْ، وَأَنَا فَرَطكُمْ عَلى الحَوْض، فَتَرِدُونَ عَلَيَّ مَعًا وَأَشْتَاتًا، أَعْرِفكُمْ بِسِيمَاكُمْ وَأَسْمَائِكُمْ، كَمَا يُعْرَف الرَّجُل الغَرِيب مِنْ الإِبِل فِي إِبِله، فَيُذْهَب بِكُمْ ذَات اليَمِين وَذَات الشِّمَال، فَأُنَاشِد فِيكُمْ رَبّ العَالمِينَ: أَيْ رَبّ، قَوْمِي! أَيْ رَبّ، أُمَّتِي! فَيُقَال: يَا مُحَمَّد، إِنَّك لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدك؛ إِنَّهُمْ كَانُوا يَمْشُونَ بَعْدك القَهْقَرَى عَلى أَعْقَابهمْ. [لا ألفين]**[2] **أَحَدكُمْ يَأْتِي يَوْم القِيَامَة يَحْمِل شَاة لهَا ثُغَاء يُنَادِي: يَا مُحَمَّد، يَا مُحَمَّد؛ فَأَقُول: لا أَمْلك لك مِنْ الله شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْت. وَلأَعْرِفَنَّ أَحَدكُمْ يَأْتِي يَوْم القِيَامَة يَحْمِل بَعِيرًا لهُ رُغَاء يُنَادِي: يَا مُحَمَّد؛ يَا مُحَمَّد؛ فَأَقُول: لا أَمْلك لك شَيْئًا قَدْ بَلَّغْت. وَلأَعْرِفَنَّ أَحَدكُمْ يَأْتِي يَوْم القِيَامَة يَحْمِل فَرَسًا له حَمْحَمَة، فَيُنَادِي: يَا مُحَمَّد؛ يَا مُحَمَّد؛ فَأَقُول: لا أَمْلك لك شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْت. وَلأَعْرِفَنَّ أَحَدكُمْ يَأْتِي يَوْم القِيَامَة يَحْمِل سِقَاء مِنْ أَدَم يُنَادِي: يَا مُحَمَّد؛ يَا مُحَمَّد، فَأَقُول: لا أَمْلك لك شَيْئًا، قَدْ بَلَّغْت**».[3] وَقَال عَلِيّ بْن المَدِينِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن الإِسْنَاد، إِلَّا أَنَّ حَفْص بْن حُمَيْد مَجْهُول لا أَعْلم رَوَى عَنْهُ غَيْر يَعْقُوب بْن عَبْد الله الأَشْعَرِيّ القُمِّيّ.

قُلت: بَل قَدْ رَوَى عَنْهُ أَيْضًا أَشْعَث بْن إِسْحَاق، وَقَال فِيهِ يَحْيَى بْن مَعِين: صَالح. وَوَثَّقَهُ النَّسَائِيّ وَابْن حِبَّان.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾، أَيْ: لعَادِلُونَ [حَائِدون][4] مُنْحَرِفُونَ. تَقُول العَرَب: نَكَبَ فُلان عَنْ الطَّرِيق: إِذَا زَاغَ عَنْهَا.

وقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، يُخْبِر تَعَالى عَنْ غِلظهمْ فِي كُفْرهمْ، بِأَنَّهُ لوْ أَزَاحَ عِللهم وَأَفْهَمَهُمْ القُرْآن، لَمَا انْقَادُوا لهُ وَلاسْتَمَرُّوا عَلى كُفْرهمْ وَعِنَادهمْ وَطُغْيَانهمْ. كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

وَقَال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (٢٢٧٨)، وإسناده ضعيف.

(٢) في (ط): [فلأعرفن] والمثبت من مسند أبي يعلى.

(٣) قال الألباني: حسن صحيح، انظر «صحيح الجامع الصغير» (٧٨٤).

(٤) في نسخة: [جائرون].

مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ فَهَذَا مِنْ بَاب عِلمه تَعَالى بِمَا لا يَكُون لوْ كَانَ كَيْف كان يَكُون. قَال الضَّحَّاك: عَنْ ابْن عبَّاس: كُلّ مَا فِيهِ «لوْ» فَهُوَ مِمَّا لا يَكُون أَبَدًا.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ أَيْ: ابْتَلَيْنَاهُمْ بِالمَصَائِبِ وَالشَّدَائِد، ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أَيْ: فَمَا رَدَّهُمْ ذَلكَ عَمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ الكُفْر وَالمُخَالفَة، بَل اسْتَمَرُّوا على غَيِّهِمْ وَضَلالهمْ ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أَيْ: مَا خَشَعُوا، ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أَيْ: مَا دَعُوا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا مُحَمَّد ابْن حَمْزَة المَرْوَزِيّ، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ يَزِيد -يَعْنِي النَّحْوِيّ- عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَال: جَاءَ أَبُو سُفْيَان إِلى رَسُول الله ﷺ فَقَال: يَا مُحَمَّد؛ أَنْشُدك الله وَالرَّحِم، فَقَدْ أَكَلنَا العِلهِز -يَعْنِي الوَبَر وَالدَّم-، فَأَنْزَل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾. وَهكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيّ عَنْ مُحَمَّد ابْن عَقِيل، عَنْ عَلِيّ بْن الحُسَيْن، عَنْ أَبِيهِ، بِهِ. وأصل هذا الحديث فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، أَنَّ رَسُول الله ﷺ دَعَا عَلى قُرَيْش حِين اسْتَعْصَوْا فَقَال: «اللَّهُمَّ؛ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُف».(1)

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا سَلمَة بْن شَبِيب، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن إِبْرَاهِيم بن عُمَر بْن كَيْسَان، حَدَّثَنِي وَهْب بْن عُمَر بْن كَيْسَان قَال: حُبِسَ وَهْب بْن مُنَبِّه، فَقَال لهُ رَجُل مِنَ الأَبْنَاء: أَلا أُنْشِدك بَيْتًا مِنْ شِعْر يَا أَبَا عَبْد الله؟ فَقَال وَهْب: نَحْنُ فِي طَرَف مِنْ عَذَاب الله، وَالله تعالى يَقُول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾. قَال: وَصَامَ وَهْب ثَلاثًا مُتَوَاصِلة، فَقِيل لهُ: مَا هَذَا الصَّوْم يَا أَبَا عَبْد الله؟ قَال: أُحْدِثَ لنَا فَأَحْدَثْنَا. يَعْنِي: أُحْدِثَ لنَا الحَبْس فَأَحْدَثْنَا زِيَادَة عِبَادَة.

وَقَوْله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾. أَيْ: حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ أَمْر الله وَجَاءَتْهُمْ السَّاعَة بَغْتَة وأَخَذَهُمْ مِنْ عقاب الله مَا لمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ، فَعِنْد ذَلكَ [أُبْلسُوا](2) مِنْ كُلّ خَيْر، وَأَيِسُوا مِنْ كُلّ رَاحَة، وَانْقَطَعَتْ آمَالهمْ وَرَجَاؤُهُمْ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالى نعمته عَلى عِبَاده فِي أَنْ جَعَل لهُمْ السَّمْع وَالأَبْصَار وَالأَفْئِدَة، وَهِيَ العُقُول وَالفُهُوم، الَّتِي يَذْكُرُونَ بِهَا الأَشْيَاء، وَيَعْتَبِرُونَ بِمَا فِي الكَوْن مِنْ الآيَات الدَّالَّة عَلى وَحْدَانِيَّة الله تعالى، وَأَنَّهُ الفَاعِل المُخْتَار لمَا يَشَاء.

وَقَوْله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، أَيْ: مَا أَقَلّ شُكْركُمْ لله عَلى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَليْكُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالى عَنْ قُدْرَته العَظِيمَة وَسُلطَانه القَاهِر فِي بُرْئِهِ الخَليقَة، وَذَرْئِهِ لهُمْ فِي سَائِر أَقْطَار الأَرْض، عَلى اخْتِلاف أجناسهم وَلُغَاتهمْ وَصِفَاتهمْ، ثُمَّ يَوْم القِيَامَة يَجْمَع الأَوَّلينَ مِنْهُمْ وَالآخِرِينَ لمِيقَاتِ يَوْم مَعْلُوم، فَلا يَتْرُك مِنْهُمْ صَغِيرًا وَلا كَبِيرًا، وَلا ذَكَرًا وَلا أُنْثَى، وَلا جَليلًا وَلا حَقِيرًا، إِلَّا أَعَادَهُ كَمَا بَدَأَهُ؛ وَلهَذَا

(1) صحيح: تقدم.
(2) في (ز): [أيسوا].

قَال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾، أَيْ: يُحْيِي الرِّمَم وَيُمِيت الأُمَم. ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾، أَيْ: وَعَنْ أَمْره تَسْخِير اللَّيْل وَالنَّهار، كُلّ مِنْهُمَا يَطْلُب الآخر طَلَبًا حَثِيثًا يَتَعَاقَبَانِ لا يَفْتُرَانِ وَلا يَفْتَرِقَانِ بِزَمَانٍ غَيْرهمَا، كَقَوْلِهِ: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.

وَقَوْله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، أَيْ: أَفَلَيْسَ لكُمْ عُقُول تَدُلّكُمْ عَلى العَزِيز العَلِيم، الَّذِي قَدْ قَهَرَ كُلّ شَيْء، وَعَزَّ كُلّ شَيْء، وَخَضَعَ لهُ كُلّ شَيْء؟

ثُمَّ قَال مُخْبِرًا عَنْ مُنْكِرِي البَعْث الَّذِينَ أَشْبَهُوا مَنْ قَبْلهمْ مِنْ المُكَذِّبِينَ: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾، يَعْنِي: يَسْتَبْعِدُونَ وُقُوع ذَلكَ بَعْد صَيْرُورتهمْ إِلى البلى، ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، يَعْنُونَ: الإِعَادَة مُحَال، إِنَّمَا يُخْبِر بِهَا مَنْ تَلَقَّاهَا عَنْ كُتُب الأَوَّلِينَ وَاخْتِلافهمْ. وَهَذَا الإِنْكَار والتَّكْذِيب مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ تعالى إِخْبَارًا عَنْهُمْ: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

يُقَرِّر تَعَالى وَحْدَانِيّته وَاسْتِقْلاله بِالخَلقِ وَالتَّصَرُّف وَالمُلك؛ لِيُرْشِد إِلى أَنَّهُ الَّذِي لا إِله إِلَّا هُوَ، وَلا تَنْبَغِي العِبَادَة إِلَّا لهُ وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَلهَذَا قَال لِرَسُولِهِ مُحَمَّدﷺ أَنْ يَقُول لِلمُشْرِكِينَ العَابِدِينَ مَعَهُ غَيْره، المُعْتَرِفِينَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّهُ لا شَرِيك لهُ فِيهَا، ومَعَ هَذَا فَقَدْ أَشْرَكُوا مَعَهُ فِي الإِلهِيَّة، فَعَبَدُوا غَيْره مَعَهُ، مَعَ اعْتِرَافهمْ أَنَّ الَّذِينَ عَبَدُوهُمْ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا، وَلا يَمْلكُونَ شَيْئًا، وَلا يَسْتَبِدُّونَ بِشَيْء، بَل اعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ يُقَرِّبُونَهُمْ إِليْهِ زُلفَى: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾، فَقَال: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾، أَيْ: مَنْ مَالكهَا الَّذِي خَلقَهَا وَمَنْ فِيهَا مِنْ الحَيَوَانَات وَالنَّبَاتَات وَالثَّمَرَات، وَسَائِر صُنُوف المَخْلُوقَات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾. أَيْ: فَيَعْتَرِفُونَ لك بِأَنَّ ذَلكَ وَحْده لا شَرِيك لهُ، فَإِذَا كَانَ ذَلكَ ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أَنَّهُ لا تَنْبَغِي العِبَادَة إِلَّا للخَالقِ الرَّازِق لا لغَيْرِه.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ أَيْ: مَنْ هُوَ خَالق العَالم العُلوِيّ بِمَا فِيهِ مِنْ الكَوَاكِب النَّيِّرَات، وَالمَلائِكَة الخَاضِعِينَ لهُ فِي سَائِر الأَقْطَار مِنْهَا وَالجِهَات، وَمَنْ هُوَ رَبّ العَرْش العَظِيم، يَعْنِي: الَّذِي هُوَ سَقْف المَخْلُوقَات كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُد عَنْ رَسُول اللهﷺ أَنَّهُ قَال: «شَأْن الله أَعْظَم مِنْ ذَلكَ، إِنَّ عَرْشه عَلى سَمَوَاته هَكَذَا» وَأَشَارَ بِيَدِهِ مِثْل القُبَّة.[1] وَفِي الحَدِيث الآخَر: **«مَا السَّمَوَات السَّبْع وَالأَرْضُون السَّبْع وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنهنَّ فِي الكُرْسِيّ إِلاَّ كَحَلقَةٍ مُلقَاة بِأَرْضٍ فَلاة، وَإِنَّ الكُرْسِيّ بِمَا فِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلى العَرْش كَتِلكَ الحَلقَة فِي تِلكَ الفَلاة»**. وَلهَذَا قَال بَعْض السَّلف: إِنَّ مَسَافَة مَا بَيْن قُطْرَيْ العَرْش مِنْ جَانِب إِلى جَانِب مَسِيرَة خَمْسِينَ أَلف سَنَة، وَارْتِفَاعه عَنْ الأَرْض السَّابِعَة مَسِيرَة خَمْسِينَ أَلف سَنَة. وَقَال الضَّحَّاك عَنْ ابْن عَبَّاس: إِنَّمَا سُمِّيَ عَرْشًا لارْتِفَاعِهِ.

---

(١) ضعيف : ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٦٣٩).

وَقَال الأَعْمَش: عَنْ كَعْب الأَحْبَار: إِنَّ السَّمَوَات وَالأَرْض فِي العَرْش؛ كَالقِنْدِيل المُعَلَّق بَيْنَ السَّماء وَالأَرْض.
وَقَال مُجَاهِد: مَا السَّمَوَات وَالأَرْض فِي العَرْش إِلَّا كَحَلقَةٍ فِي أَرْض فَلاة.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا العَلاء بْن سَالم، حَدَّثَنا وَكِيع، حَدَّثَنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ عَمَّار الدهْني، عَنْ مُسْلم البَطِين، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: العَرْش لا يُقَدِّر أَحَد قَدْره. وَفِي رِوَايَة: إِلَّا الله ﷻ. وَقَال بَعْض السَّلف: العَرْش مِنْ يَاقُوتَة حَمْرَاء. وَلِهَذَا قَال هَهُنَا: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، يعني: الكَبِير، وَقَال فِي آخِر السُّورَة: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾، أَيْ: الحَسَن البَهِيّ فَقَدْ جَمَعَ العَرْش بَيْنَ العَظَمَة فِي الاتِّسَاع، وَالعُلُوّ وَالحُسْن البَاهِر، وَلِهَذَا قَال مَنْ قَال: إِنَّهُ مِنْ يَاقُوتَة حَمْرَاء. وَقَال ابْن مَسْعُود: إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ عِنْده لَيْل وَلا نَهَار، نُور العَرْش مِنْ نُور وَجْهه.

وَقَوْله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أَيْ: إِذَا كُنْتُمْ تَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ رَبّ السَّمَوَات وَرَبّ العَرْش العَظِيم، أَفَلا تَخَافُونَ عِقَابه وَتَحْذَرُونَ عَذَابه، فِي عِبَادَتكُمْ مَعَهُ غَيْره وَإِشْرَاككُمْ بِهِ؟ قَال أَبُو بَكْر عَبْد الله بْن مُحَمَّد ابْن أَبِي الدُّنْيَا القُرَشِيّ فِي كِتَاب «التَّفَكُّر وَالاعْتِبَار»: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم أَخْبَرَنَا عبد الله بْن جَعْفَر أَخْبَرَنِي عَبْد الله بْن دِينَار، عَنْ ابْن عُمَر قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ كَثِيرًا مَا يُحَدِّث عَنْ امْرَأَة كَانَتْ فِي الجَاهِلِيَّة عَلَى رَأْس جَبَل، مَعَهَا ابْن لَهَا يَرْعَى غَنَمًا فَقَال لَهَا ابْنهَا: يَا أُمَّاه، مَنْ خَلقَك؟ قَالَتْ: الله. قَال: فَمَنْ خَلقَ أَبِي؟ قَالَتْ: الله. قَال: فَمَنْ خَلقَنِي؟ قَالَتْ: الله. قَال: فَمَنْ خَلقَ السَّمَوَات؟ قَالَتْ: الله. قَال: فَمَنْ خَلقَ الأَرْض؟ قَالَتْ: الله. قَال: فَمَنْ خَلقَ الجَبَل؟ قَالَتْ: الله. قَال: فَمَنْ خَلقَ هَذِهِ الغَنَم؟ قَالَتْ: الله. قَال: فَإِنِّي أَسْمَع لله شَأْنًا، ثُمَّ أَلقَى نَفْسه مِنْ الجَبَل فَتَقَطَّعَ[1]. قَال ابْن عُمَر: كَانَ رَسُول الله ﷺ كَثِيرًا مَا يُحَدِّثنَا هَذَا الحَدِيث. قَال عَبْد الله بْن دِينَار: كَانَ ابْن عُمَر كَثِيرًا مَا يُحَدِّثنا بِهَذَا الحَدِيث.

قُلت: فِي إِسْنَاده عبد الله بْن جَعْفَر المَدِينِيّ وَالد الإِمَام عَلِيّ بْن المَدِينِيّ، وَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ، فَالله أَعْلم.

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أَيْ: بِيَدِهِ المُلك ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، أَيْ: مُتَصَرِّف فِيهَا، وَكَانَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ». وَكَانَ إِذَا اجْتَهَدَ فِي اليَمِين قَال: «لا وَمُقَلِّب القُلُوب». فَهُوَ سُبْحَانه الخَالق المَالك المُتَصَرِّف، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كَانَتْ العَرَب إِذَا كَانَ السَّيِّد فِيهِمْ فَأَجَارَ أَحَدًا، لا يُخْفَر فِي جِوَاره، وَلَيْسَ لمَنْ دُونه أَنْ يُجِير عَلَيْهِ لئَلَّا يَفْتَات عَلَيْهِ، وَلِهَذَا قَال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾، أَيْ: وَهُوَ السَّيِّد العَظِيم الَّذِي لا أَعْظَم مِنْهُ، الَّذِي لهُ الخَلق وَالأَمْر، وَلا مُعَقِّب لحُكْمِهِ، الَّذِي لا يُمَانَع وَلا يُخَالف، وَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لمْ يَشَأْ لمْ يَكُنْ. وَقَال الله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾، أَيْ: لا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَل لعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَقَهْره وَغَلبَته وَعِزَّته، وَحِكْمَته وَعَدْله، فَالخَلق كُلّهمْ يُسْأَلُونَ عَنْ أَعْمَالهمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾، أي: سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له، ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾، أي: فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره، مع اعترافكم وعلمكم بذلك؟

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾، وَهُوَ الإِعْلام بِأَنَّهُ لا إِله إِلَّا الله، وَأَقَمْنَا الأَدِلَّة الصَّحِيحَة الوَاضِحَة القَاطِعَة عَلى ذَلكَ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، أَيْ: فِي عِبَادَتهمْ مَعَ الله غَيْره، وَلا دَليل لهُمْ عَلى ذَلكَ، كَمَا قَال فِي آخِر السُّورَة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فَالمُشْرِكُونَ لا

---

(١) إسناده ضعيف: في إسناده عبد الله بن جعفر المديني – والد الإمام علي ابن المديني –: وقد تكلموا فيه.
وقال الحافظ في «التقريب»: ضعيف، يقال: تغير حفظه بآخره.

يَفْعَلُونَ ذَلِكَ عَنْ دَلِيل قَادَهُمْ إِلى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الإِفْك وَالضَّلال، وَإِنَّما يَفْعَلُونَ ذَلِكَ اتِّبَاعًا لآبَائِهِمْ وَأَسْلافِهِمْ الحَيَارَى الجُهَّال، كَمَا قَالَ اللهُ عَنْهُمْ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

يُنَزِّه تَعَالى نَفْسه عَنْ أَنْ يَكُون لهُ وَلد أَوْ شَرِيك فِي المُلك، فَقَال تَعَالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾، أَيْ: لوْ قُدِّر تَعَدُّد الآلهَة، لانْفَرَدَ كُلّ مِنْهُمْ بِمَا خَلقَ، فَمَا كَانَ يَنْتَظِم الوُجُود، وَالمُشَاهَد أَنَّ الوُجُود مُنْتَظِم مُتَّسِق، كُلّ مِنَ العَالم العُلوِيّ وَالسُّفْلِيّ مُرْتَبِط بَعْضه بِبَعْضٍ فِي غَايَة الكَمَال ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ﴾. ثُمَّ لكَانَ كُلّ مِنْهُمْ يَطْلُب قَهْر الآخَر وَخِلافه، فَيَعْلُو بَعْضهمْ عَلى بَعْض، وَالمُتَكَلِّمُونَ ذَكَرُوا هَذَا المَعْنَى وَعَبَّرُوا عَنْهُ بِدَلِيل التَّمَانُع، وَهُوَ أَنَّهُ لوْ فُرِضَ صَانِعَانِ فَصَاعِدًا، فَأَرَادَ وَاحِد تَحْرِيك جِسْم وَأَرَادَ الآخَر سُكُونه، فَإِنْ لمْ يَحْصُل مُرَاد كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا كَانَا عَاجِزَيْنِ، وَالوَاجِب لا يَكُون عَاجِزًا، وَيَمْتَنِع اجْتِمَاع مُرَادَيْهِمَا للتَّضَادّ، وَمَا جَاءَ هَذَا المُحَال إِلَّا مِنْ فَرْض التَّعَدُّد، فَيَكُون مُحَالًا، فَأَمَّا إِنْ حَصَل مُرَاد أَحَدهمَا دُون الآخَر، كَانَ الغَالب هُوَ الوَاجِب وَالآخَر المَغْلُوب مُمْكِنًا لأَنَّهُ لا يَليق بِصِفَةِ الوَاجِب أَنْ يَكُون مَقْهُورًا، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أَيْ: عَمَّا يَقُول الظَّالمُونَ المُعْتَدُونَ فِي دَعْوَاهُمْ الوَلد أَوْ الشَّرِيك عُلُوًّا كَبِيرًا.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أَيْ: يَعْلم مَا يَغِيب عَنْ المَخْلُوقَات وَمَا يُشَاهِدُونَهُ، ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أَيْ: تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَتَعَالى وَعَزَّ وَجَلَّ عَمَّا يَقُول الظَّالمُونَ وَالجَاحِدُونَ.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

يَقُول تَعَالى آمِرًا نَبِيّه مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَدْعُو بهذا الدُّعَاء عِنْد حُلُول النِّقَم: ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾، أَيْ: إِنْ عَاقَبْتهمْ [وإني شاهد][1] ذَلكَ فَلا تَجْعَلنِي فِيهِمْ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمد وَالتِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ: «وَإِذَا أَرَدْت بِقَوْمٍ فِتْنَة فَتَوَفَّنِي إِليْك غَيْر مَفْتُون».[2]

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾، أَيْ: لوْ شِئْنَا لأَرَيْنَاك مَا نُحِلّ بِهِمْ مِنْ النِّقَم وَالبَلاء وَالمِحَن.

ثُمَّ قَال تَعَالى مُرْشِدًا لهُ إِلى التِّرْيَاق النَّافِع فِي مُخَالطَة النَّاس، وَهُوَ الإِحْسَان إِلى مَنْ يُسِيء، ليَسْتَجْلب خَاطِره فَتَعُود عَدَاوَته صَدَاقَة وَبُغْضه مَحَبَّة، فَقَال تَعَالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ﴾، وَهَذَا كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، أَيْ: مَا يُلهَم هَذِهِ الوَصِيَّة أَوْ هَذِهِ الخَصْلة أَوْ الصِّفَة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أَيْ: عَلى أَذَى النَّاس، فَعَامَلُوهُمْ بِالجَمِيل مَعَ إِسْدَائِهِمْ إِليْهِمْ القَبِيح، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أَمَرَهُ الله أَنْ يَسْتَعِيذ مِنْ الشَّيَاطِين؛ لأَنَّهُمْ لا تَنْفَع

---

(١) في نسخة: [وأنا شاهد].

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

مَعَهُمُ الحِيَلَ وَلا يَنْقَادُونَ بِالمَعْرُوفِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا عِنْدَ الاسْتِعَاذَةِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: **«أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»**.[1]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أَيْ: فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِي، وَلِهَذَا أَمَرَ بِذِكْرِ اللهِ فِي ابْتِدَاءِ الأُمُورِ، وَذَلِكَ مَطْرَدَةٌ لِلشَّيَاطِينِ عِنْدَ الأَكْلِ وَالجِمَاعِ وَالذَّبْحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ، وَلِهَذَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَدْمِ وَمِنَ الغَرَقِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ المَوْتِ»**[2]. وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا كَلِمَاتٍ يَقُولُهُنَّ عِنْدَ النَّوْمِ مِنَ الفَزَعِ: **«بِسْمِ اللهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ»**.[3] قَالَ: فَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو يُعَلِّمُهَا مَنْ بَلَغَ مِنْ وَلَدِهِ أَنْ يَقُولَهَا عِنْدَ نَوْمِهِ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ صَغِيرًا -لا يَعْقِلُ أَنْ يَحْفَظَهَا- كَتَبَهَا لَهُ فَعَلَّقَهَا فِي عُنُقِهِ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ المُحْتَضَرِ عِنْدَ المَوْتِ، مِنَ الكَافِرِينَ أَوِ المُفَرِّطِينَ فِي أَمْرِ اللهِ تَعَالَى، [وَقِيلِهِمْ][4] عِنْدَ ذَلِكَ، وَسُؤَالِهِمُ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا؛ لِيُصْلِحَ مَا كَانَ أَفْسَدَهُ فِي مُدَّةِ حَيَاتِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ﴾ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ الرَّجْعَةَ فَلا يُجَابُونَ؛ عِنْدَ الاحْتِضَارِ وَيَوْمَ النُّشُورِ، وَوَقْتَ العَرْضِ عَلَى الجَبَّارِ، وَحِينَ يُعْرَضُونَ عَلَى النَّارِ، وَهُمْ فِي غَمَرَاتِ عَذَابِ الجَحِيمِ.

وَقَوْلُهُ هَهُنَا: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾، وَكَلَّا: حَرْفُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ، أَيْ: لا نُجِيبُهُ إِلَى مَا طَلَبَ، وَلا نَقْبَلُ مِنْهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: أَيْ: لا بُدَّ أَنْ يَقُولَهَا لا مَحَالَةَ كُلُّ

---

(١) صحيح : تقدم.
(٢) صحيح : أخرجه أبو داود (١٥٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٣) حسن : أخرجه أبو داود (٣٨٩٣)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٤) في (ز) : [قبلهم].

مُحْتَضَر ظَالِم. وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُون ذَلِكَ عِلَّة لِقَوْلِهِ: ﴿كَلَّآ﴾ أَيْ: لأَنَّهَا كَلِمَة، أَيْ: سُؤَاله الرُّجُوع لِيَعْمَل صَالِحًا هُوَ كَلام مِنْهُ وَقَوْل لا عَمَل مَعَهُ، وَلَوْ رُدَّ لَمَا عَمِل صَالِحًا وَلَكَانَ يَكْذِب فِي مَقَالَته هَذِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

[قال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل، فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار][1].

وَقَالَ مُحَمَّد بْن كَعْب الْقُرَظِيّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، قَال: فَيَقُول الْجَبَّار: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾. وَقَال عُمَر بْن عَبْد الله مَوْلَى غَفْرَة: [إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿كَلَّآ﴾: فإنما يقول: كذب][2]. وَقَال قَتَادَة فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ قَال: كَانَ الْعَلاء بْن زِيَاد يَقُول: لِيُنْزِلَنَّ أَحَدكُمْ نَفْسه أَنَّهُ قَدْ حَضَرَهُ الْمَوْت، فَاسْتَقَال رَبّه فَأَقَالهُ فَلْيَعْمَل بِطَاعَةِ الله ﷻ. وَقَال قَتَادَة: وَالله مَا تَمَنَّى [أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تمنى][3] أَنْ يَرْجِع فَيَعْمَل بِطَاعَةِ الله، فَانْظُرُوا أُمْنِيَّة الْكَافِر الْمُفَرِّط فَاعْمَلُوا بِهَا، وَلا قُوَّة إِلَّا بِالله. وَعَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب الْقُرَظِيّ نَحْوه. وَقَال أبو مُحَمَّد ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن يُوسُف، حَدَّثَنَا فُضَيْل -يَعْنِي ابْن عِيَاض- عَنْ لَيْث، عَنْ طَلْحَة بْن مُصَرِّف، عَنْ أَبِي حَازِم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: إِذَا وُضِعَ -يَعْنِي: الْكَافِر- فِي قَبْره، فَيَرَى مَقْعَده مِنْ النَّار، قَال: فَيَقُول: رَبّ، ارْجِعُونِ أَتُوب وَأَعْمَل صَالِحًا. قَال: فَيُقَال: قَدْ عَمَّرْت مَا كُنْت مُعَمَّرًا. قَال: فَيُضَيَّق عَلَيْهِ قَبْره، قَال: فَهُوَ كَالْمَنْهُوشِ يَنَام وَيَفْزَع، تَهْوِي إِلَيْهِ هَوَامّ الأَرْض وَحَيَّاتهَا وَعَقَارِبهَا.

وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عُمَرو بْن عَلِيّ، حَدَّثَنِي سَلَمَة بْن تَمَّام، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن زَيْد عَنْ سَعِيد بْن الْمُسَيَّب، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: وَيْل لأَهْل الْمَعَاصِي مِنْ أَهْل الْقُبُور! تَدْخُل عَلَيْهِمْ فِي قُبُورهمْ حَيَّات سُود -أَوْ: دُهْم- حَيَّة عِنْد رَأْسه وَحَيَّة عِنْد رِجْلَيْهِ، يَقْرُصَانِهِ حَتَّى يَلْتَقِيَا فِي وَسَطه، فَذَلِكَ الْعَذَاب فِي الْبَرْزَخ الَّذِي قَال الله تَعَالَى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. وَقَال أَبُو صَالِح وَغَيْره فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ يَعْنِي: أَمَامهمْ. وَقَال مُجَاهِد: الْبَرْزَخ: الْحَاجِز بَيْن الدُّنْيَا وَالآخِرَة. وَقَال مُحَمَّد بْن كَعْب: الْبَرْزَخ مَا بَيْن الدُّنْيَا وَالآخِرَة، لَيْسُوا مَعَ أَهْل الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَلا مَعَ أَهْل الآخِرَة يُجَازُونَ بِأَعْمَالِهِمْ. وَقَال أَبُو صَخْر: الْبَرْزَخ: الْمَقَابِر، لا هُمْ فِي الدُّنْيَا وَلا هُمْ فِي الآخِرَة، فَهُمْ مُقِيمُونَ إِلَى يَوْم يُبْعَثُونَ. وَفِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ تَهْدِيد لِهَؤُلاءِ الْمُحْتَضَرِينَ مِنْ الظَّلَمَة بِعَذَابِ الْبَرْزَخ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾، وَقَال: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أَيْ: يَسْتَمِرّ بِهِ الْعَذَاب إِلَى يَوْم الْبَعْث، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيث: «فَلا يَزَال مُعَذَّبًا فِيهَا» أَيْ: فِي الأَرْض.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا نُفِخَ فِي الصُّور نَفْخَة النُّشُور، وَقَامَ النَّاس مِنْ الْقُبُور ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾، أَيْ: لا تَنْفَع الأَنْسَاب يَوْمئِذٍ، وَلا يَرْثِي وَالِد لِوَلَدِهِ، وَلا يَلْوِي عَلَيْهِ، قَال الله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾،

---

(١) سقط من (ز).
(٢) في نسخة: [إذا قال الكافر رب ارجعون لعلي أعمل صالحًا، يقول الله تعالى: كلا كذبت].
(٣) زيادة من (ز).

أَيْ: لا يَسْأَل القَرِيب عَنْ قَرِيبه وَهُوَ يُبْصِرهُ وَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الأَوْزَار مَا قَدْ أَثْقَل ظَهْره وَهُوَ كَانَ أَعَزّ النَّاس عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مَا التَفَتَ إِلَيْهِ وَلا حَمَل عَنْهُ وَزْن جَنَاح بَعُوضَة، قَال الله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. وَقَال ابْن مَسْعُود: إِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة جَمَعَ الله الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ثُمَّ نَادَى مُنَادٍ: أَلا مَنْ كَانَ لهُ مَظْلَمَة فَلْيَجِئْ فَلْيَأْخُذْ حَقّه. قَال: فَيَفْرَح المَرْء أَنْ يَكُون لهُ الحَقّ عَلى وَالده أَوْ وَلده أَوْ زَوْجَته وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا؛ وَمِصْدَاق ذَلكَ فِي كِتَاب الله: قَال الله تَعَالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد مَوْلى بَنِي هَاشِم، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن جَعْفَر، حَدَّثَتْنَا أُمّ بَكْر بِنْت المِسْوَر بْن مَخْرَمَة، عَنْ عبيد الله بْن أَبِي رَافِع عَنْ المِسْوَر -هُوَ ابْن مَخْرَمَة- رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**فَاطِمَة بَضْعَة مِنِّي، يَقْبضني مَا يَقْبضها، وَيُنَشِّطني مَا يُنَشِّطها، وَإِنَّ الأَنْسَاب تَنْقَطِع يَوْم القِيَامَة غَيْر نَسَبِي وَسَبَبِي وَصِهْرِي**».[1] وَهَذَا الحَدِيث لهُ أَصْل فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ المِسْوَر بْن مَخْرَمَة أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**فَاطِمَة بَضْعَة مِنِّي، يَرِيبنِي مَا رَابهَا، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا**».[2]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر، حَدَّثَنَا زُهَيْر، عَنْ عَبْد الله بْن مُحَمَّد، عَنْ حَمْزَة بْن أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، عَنْ أَبِيهِ قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول عَلى هَذَا المِنْبَر: «**مَا بَال رِجَال يَقُولُونَ: إِنَّ رَحِم رَسُول الله ﷺ لا تَنْفَع قَوْمه؟ بَلى وَالله، إِنَّ رَحِمِي مَوْصُولة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَإِنِّي -أَيّهَا النَّاس- فَرَط لكُمْ إِذَا جِئْتُمْ. قَال رَجُل: يَا رَسُول الله، أَنَا فُلان ابْن فُلان، وقال أخوه: أنا فلان ابن فلان فَأَقُول لهُمْ: أَمَّا النَّسَب فَقَدْ عَرَفْت، وَلكِنَّكُمْ أَحْدَثْتُمْ بَعْدِي وَارْتَدَدْتُمْ القَهْقَرَى**»[3]. وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي مُسْنَد أَمِير المُؤْمِنِينَ عُمَر بْن الخَطَّاب مِنْ طُرُق مُتَعَدِّدَة عَنْهُ رضي الله عنه أَنَّهُ لَمَّا تَزَوَّجَ أُمّ كُلثُوم بِنْت عَلِيّ بْن أَبِي طَالب رضي الله عنهما قَال: أَمَا وَالله مَا بِي إِلَّا أَنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**كُلّ سَبَب وَنَسَب فَإِنَّهُ مُنْقَطِع يَوْم القِيَامَة إِلاَّ سَبَبِي وَنَسَبِي**»[4]. رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ وَالبَزَّار وَالهَيْثَم بْن كُليْب، وَالبَيْهَقِيّ وَالحَافِظ الضِّيَاء فِي «المُخْتَارَة» وَذَكَرَ أَنَّهُ أَصْدَقَهَا أَرْبَعِينَ أَلفًا إِعْظَامًا وَإِكْرَامًا رضي الله عنه. فَقَدْ رَوَى الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة أَبِي العَاص ابْن الرَّبِيع زَوْج زَيْنَب بِنْت رَسُول الله ﷺ مِنْ طَرِيق أَبِي القَاسِم البَغَوِيّ حَدَّثَنَا سُليْمَان بْن عُمَر بْن الأَقْطَع حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن عَبْد السَّلام عَنْ إِبْرَاهِيم بْن يَزِيد عَنْ مُحَمَّد بْن عَبَّاد بْن جَعْفَر سَمِعْت ابْن عُمَر يَقُول: قَال رَسُول الله ﷺ: «**كُلّ نَسَب وَصِهْر يَنْقَطِع يَوْم القِيَامَة إِلاَّ نَسَبِي وَصِهْرِي**». وَرُوِيَ فِيهَا مِنْ طَرِيق عَمَّار بْن سَيْف، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو مَرْفُوعًا: «سَأَلت رَبِّي عز وجل أَنْ لا أَتَزَوَّج إِلى أَحَد مِنْ أُمَّتِي، وَلا يَتَزَوَّج إِليَّ أَحَد مِنْهُمْ إِلاَّ كَانَ مَعِيَ فِي الجَنَّة فَأَعْطَانِي ذَلكَ»[5] وَمِنْ حَدِيث عَمَّار بْن سَيْف عَنْ إِسْمَاعِيل عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ: مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاته عَلى سَيِّئَاته وَلوْ بِوَاحِدَةٍ؛ قَالهُ ابْن عَبَّاس. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ: الَّذِينَ فَازُوا فَنَجَوْا مِنْ النَّار وَأُدْخِلُوا الجَنَّة. وَقَال ابْن عَبَّاس: أُولئِكَ الَّذِينَ فَازُوا بِمَا طَلبُوا وَنَجَوْا مِنْ شَرّ مَا مِنْهُ هَرَبُوا. ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ أَيْ: ثَقُلتْ

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٤/ ٣١٣)، وأصله في «الصحيحين» دون قوله: (وإن الأنساب إلخ): أخرجه البخاري (٣٧٦٧)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧٦٧)، ومسلم (٢٤٤٩).

(٣) حسن: أخرجه أحمد (٣/ ١٨)، وأبو يعلى (١٢٣٨).

(٤) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٤٥٢٧)، وانظر «الصحيحة» (٢٠٣٦).

(٥) ضعيف: أخرجه الحاكم (٣/ ١٣٧)، وفيه عمار بن سيف: ضعيف. وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٣٠٤٠).

سَيِّئَاته عَلَى حَسَنَاته؛ ﴿فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أَيْ: خَابُوا وَهَلكُوا، وباءوا بِالصَّفْقَةِ الخَاسِرَة. وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن أَبِي الحَارِث، حَدَّثَنَا دَاوُد بْن المُحَبَّر حَدَّثَنَا صَالح [المُرِّيّ][1]، عَنْ ثَابِت البُنَانِيّ وَجَعْفَر بْن زَيْد وَمَنْصُور بْن زَاذَان، عَنْ أَنَس بْن مَالك يَرْفَعهُ قَال: «إِنَّ لله مَلكًا مُوَكَّلًا بِالمِيزَانِ، فَيُؤْتَى بِابْنِ آدَم فَيُوقَف بَيْن يديِّ المِيزَان، فَإِنْ ثَقُل مِيزَانه نَادَى مَلك بِصَوْتٍ يُسْمِعه الخَلائِق: سَعِدَ فُلان سَعَادَة لا يَشْقَى بَعْدهَا أَبَدًا، وَإِنْ خَفَّ مِيزَانه نَادَى مَلك بِصَوْتٍ يُسْمِعه الخَلائِق: شَقِيَ فُلان شَقَاوَة لا يَسْعَد بَعْدهَا أَبَدًا».[2] إِسْنَاده ضَعِيف، فَإِنَّ دَاوُد بْن المُحَبَّر ضَعِيف مَتْرُوك.

وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ أَيْ: مَاكِثُونَ فِيهَا، دَائِمُونَ مُقِيمُونَ لا يَظْعَنُونَ.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا فَرْوَة بْن أَبِي المَغْرَاء، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سُلَيْمَان الأَصْبَهَانِيّ، عَنْ أَبِي سِنَان ضِرَار بْن مُرَّة عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي الهُذَيْل عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «إِنَّ جَهَنَّم لَـمَّا سِيقَ لهَا أَهْلهَا [تَلقَّاهُمْ][3] لهَبهَا ثُمَّ تَلفحهُمْ لفْحَة فَلمْ يَبْقَ لهُمْ لحْم إِلاَّ سَقَطَ عَلى العُرْقُوب»[4]. وَقَال ابْن مَرْدَوَيْهِ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن يَحْيَى القَزَّاز، حَدَّثَنَا الخَضِر بْن عَليّ بْن يُونُس القَطَّان، حَدَّثَنَا عُمَر بْن أَبِي الحَارِث ابْن الخَضِر القَطَّان، حَدَّثَنَا سعد بْن سَعِيد المَقْبُرِيّ عَنْ أَخِيهِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ فِي قَوْل الله تَعَالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ قَال: «تَلفحهُمْ لفْحَة فتسيل لُحُومهمْ عَلى أَعْقَابهمْ».[5]

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي: عَابِسُونَ. وَقَال الثَّوْرِيّ عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي [الأَحْوَص][6] عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قَال: أَلمْ تَرَ إِلى الرَّأْس المُشِيط الَّذِي قَدْ بَدَا أَسْنَانه وَقُلِّصَتْ شَفتَاهُ. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: أَخْبَرَنَا عَليّ بْن إِسْحَاق أَخْبَرَنَا عَبْد الله -هُوَ ابْن المُبَارَك رَحِمَهُ اللَّهُ- أَخْبَرَنَا سَعِيد بْن يَزِيد، عَنْ أَبِي السَّمْح عَنْ أَبِي الهَيْثَم عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾، قَال: تَشْوِيه النَّار، فَتُقَلَّص شَفته العُليَا حَتَّى تَبْلُغ وَسَط رَأْسه. وَتَسْتَرْخِي شَفته السُّفْلى حَتَّى تَضْرِب سُرَّته»[7]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ سُوَيْد بْن نَصْر عَنْ عَبْد الله بْن المُبَارَك بِهِ، وَقَال: حَسَن غَرِيب.

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾.

هَذَا تَقْرِيع مِنْ الله تعالى لأَهْل النَّار وَتَوْبِيخ لهم عَلى مَا ارْتَكَبُوهُ، مِنْ الكُفْر وَالمَآثِم وَالمَحَارِم وَالعَظَائِم الَّتِي أَوْبَقَتْهُمْ فِي ذَلكَ فَقَال تَعَالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أَيْ: قَدْ أَرْسَلت إِليْكُمْ الرُّسُل وَأَنْزَلت عَليْكُمْ الكُتُب، وَأَزَلت شُبهكُمْ، وَلمْ يَبْقَ لكُمْ حُجَّة تدلون، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ

---

(١) في (ز): [المذي].
(٢) ضعيف جدًا: فيه داود بن المحبر: متروك.
(٣) في نسخة: [يلقاهم].
(٤) ضعيف: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٦٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢٧٨)، وفيه محمد بن سليمان: ضعيف.
(٥) ضعيف: في إسناده سعد بن سعيد: لين الحديث، وأخوه عبد الله بن سعيد: متروك الحديث.
(٦) في (ز): [الأخوص].
(٧) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٥٩٠)، وإسناده ضعيف، فيه دراج بن أبي السمح: وروايته عن أبي الهيثم ضعيفة.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، إلى قوله: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾. وَلهذَا قَالُوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ أَيْ: قَدْ قَامَتْ علينَا الحُجَّة، ولكنْ كُنَّا أَشْقى مِنْ أَنْ نَنْقاد لها وَنَتَّبِعها، فَضَللنا عَنْهَا ولَمْ نُرْزَقها.

ثُمَّ قَالُوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، أَيْ: رُدّنا إلى الدار الدُّنْيا، فَإِنْ عُدْنَا إلى ما سَلفَ مِنَّا فَنَحْنُ ظَالِمُونَ مُسْتَحِقُّونَ للعُقُوبَة، كَما قَالوا: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ إلى قَوْله: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ أَيْ: لا سَبيل إلى الخُرُوج لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِالله إِذَا وَحَّدَهُ المُؤْمِنُونَ.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

هَذَا جَوَاب مِنْ الله تَعَالى للكُفَّارِ، إِذَا سَأَلُوا الخُرُوج مِنْ النَّار، وَالرَّجْعَة إِلى هَذِهِ الدَّار. يَقُول: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾ أَيْ: امْكُثُوا فِيهَا صَاغِرِينَ مُهَانِينَ أَذِلَّاء، ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أَيْ: لا تَعُودُوا إِلى سُؤَالكُمْ هَذَا، فَإِنَّهُ لا جَوَاب لكُمْ عِنْدِي. قَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قَال: هَذَا قَوْل الرَّحْمَن حِين انْقَطَعَ كَلامهمْ مِنْهُ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا عَبْدَة بْن سُلَيْمَان المَرْوَزِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن المُبَارَك، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة عَنْ أَبِي أَيُّوب، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَال: إِنَّ أَهْل جَهَنَّم يَدْعُونَ مَالكًا فَلا يُجِيبهُمْ أَرْبَعِينَ عَامًا، ثُمَّ يَرُدّ عَلَيْهِمْ: إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ. قَال: هَانَتْ دَعْوَتهمْ -وَالله- عَلى مَالك وَرَبّ مَالك، ثُمَّ يَدْعُونَ رَبّهمْ فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، قَال: فَيَسْكُت عَنْهُمْ قَدْر الدُّنْيَا مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ يَرُدّ عَلَيْهِمْ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قَال: فَوَالله مَا نَبَس القَوْم بَعْدهَا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَة، وَمَا هُوَ إِلَّا الزَّفِير وَالشَّهِيق فِي نَار جَهَنَّم، قَال: فَشُبِّهَتْ أَصْوَاتهمْ بِأَصْوَاتِ الحَمِير، أَوَّلهَا زَفِير وَآخِرهَا شَهِيق. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ سَلمَة بْن كُهَيْل، حَدَّثَنَا أَبُو الزَّعْرَاء قَال: قَال عَبْد الله بْن مَسْعُود: إِذَا أَرَادَ الله تَعَالى أَنْ لا يُخْرِج مِنْهُمْ أَحَدًا -يَعْنِي مِنْ جَهَنَّم- غَيَّر وُجُوههمْ وَأَلْوَانهمْ، فَيَجِيء الرَّجُل مِنْ المُؤْمِنِينَ فَيَشْفَع فَيَقُول: يَا رَبّ؛ فَيَقُول الله: مَنْ عَرَفَ أَحَدًا فَليُخْرِجْهُ، فَيَجِيء الرَّجُل مِنْ المُؤْمِنِينَ فَيَنْظُر فَلا يَعْرِف أَحَدًا، فَيُنَادِيه الرَّجُل: يَا فُلان أَنَا فُلان. فَيَقُول: مَا أَعْرِفك! قَال: فَعِنْد ذَلكَ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، فَعِنْد ذَلكَ يَقُول الله تَعَالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فَإِذَا قَال ذَلكَ أُطْبِقَتْ عَليْهِمْ النَّار فَلا يَخْرُج مِنْهُمْ أَحَد.(١)

ثُمَّ قَال تَعَالى مُذَكِّرًا لهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَمَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ وَأَوْليَائِهِ؛ فَقَال تَعَالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾، أَيْ: فَسَخِرْتُمْ مِنْهُمْ فِي دُعَائِهِمْ إِيَّايَ، وَتَضَرُّعهمْ إِليَّ، ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ أَيْ: حَمَلكُمْ بُغْضهمْ علي أَنْ نَسِيتُمْ مُعَامَلتِي ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أَيْ: مِنْ صَنِيعهمْ وَعِبَادَتهمْ، كَما قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أَيْ: يَلمِزُونَهُمْ اسْتِهْزَاء. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالى عَمَّا جَازَى بِهِ أَوْليَاءَهُ وَعِبَاده الصَّالِحِينَ، فقال تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ أي: على أذاكم لهم، واستهزائكم بهم؛ ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ أي: جعلناهم هم الفائزون بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار.

---

(١) إسناده حسن : عزاه لابن أبي حاتم وهو موقوف، والحديث إخبار بغيب، ومثله لا يقال بالرأي.

﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ (١١٣) قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾.

يَقُول تَعَالى مُنَبِّهًا لَهُمْ عَلى مَا أَضَاعُوهُ فِي عُمْرهمْ القَصِيرِ فِي الدُّنْيَا مِنْ طَاعَة الله تَعَالى، وَعِبَادَته وَحْده، وَلَوْ صَبَرُوا فِي مُدَّة الدُّنْيَا القَصِيرَة لفَازُوا كَمَا فَازَ أَوْلِيَاؤُهُ المُتَّقُونَ، ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ أَيْ: كَمْ كَانَتْ إِقَامَتكُمْ فِي الدُّنْيَا؟ ﴿ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ أَيْ: الحَاسِبِينَ، ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَيْ: مُدَّة يَسِيرَة عَلى كُلّ تَقْدِير، ﴿ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَيْ: لَمَا آثَرْتُمْ الفَانِي عَلى البَاقِي، وَلَمَا تَصَرَّفْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ هَذَا التَّصَرُّف السَّيِّئ، [وَلا][1] اسْتَحْقَقْتُمْ مِنْ الله سَخَطه فِي تِلْكَ المُدَّة اليَسِيرَة، فَلَوْ أَنَّكُمْ صَبَرْتُمْ عَلى طَاعَة الله وَعِبَادَته كَمَا فَعَلَ المُؤْمِنُونَ؛ لفُزْتُمْ كَمَا فَازُوا. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن الوزير، حَدَّثَنَا الوَلِيد، حَدَّثَنَا صَفْوَان، عَنْ أَيْفَع بْن عَبْد الكَلاعِيّ، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَخْطُب النَّاس، فَقَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الله إِذَا أَدْخَل أَهْل الجَنَّة الجَنَّة، وَأَهْل النَّار النَّار، قَال: يَا أَهْل الجَنَّة كَمْ لبِثْتُمْ فِي الأَرْض عَدَد سِنِينَ؟ قَالُوا: لبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْض يَوْم، قَال: لنِعْمَ مَا اتَّجَرْتُمْ فِي يَوْم أَوْ بَعْض يَوْم! رَحْمَتِي وَرِضْوَانِي وَجَنَّتِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ، ثُمَّ يقول: يَا أَهْل النَّار، كَمْ لبِثْتُمْ فِي الأَرْض عَدَد سِنِينَ؟ قَالُوا: لبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْض يَوْم، فَيَقُول: بِئْسَ مَا اتَّجَرْتُمْ فِي يَوْم أَوْ بَعْض يَوْم! نَارِي وَسَخَطِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ».[2]

وَقَوْله تَعَالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ أَيْ: أَفَظَنَنْتُمْ أَنَّكُمْ مَخْلُوقُونَ عَبَثًا بِلا قَصْد، وَلا إِرَادَة مِنْكُمْ، وَلا حِكْمَة لنَا؟! [وَقِيل: للعَبَثِ، أَيْ: لتَلعَبُوا وَتَعْبَثُوا، كَمَا خُلقَتْ البَهَائِم، لا ثَوَاب لهَا وَلا عِقَاب، وَإِنَّمَا خَلقْنَاكُمْ للعِبَادَةِ وَإِقَامَة أَوَامِر الله ﷻ.][3] ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ أَيْ: لا تَعُودُونَ فِي الدَّار الآخِرَة، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ يَعْنِي هَمَلًا.

وَقَوْله: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾، أَيْ: تَقَدَّس أَنْ يَخْلُق شَيْئًا عَبَثًا، فَإِنَّهُ المَلك الحَقّ، المُنَزَّه عَنْ ذَلكَ، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ فَذَكَرَ العَرْش؛ لأَنَّهُ سَقْف جَمِيع المَخْلُوقَات، وَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ كَرِيم، أَيْ: حَسَن المَنْظَر بَهِيّ الشَّكْل؛ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَليّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا عَليّ بْن مُحَمَّد الطَّنَافِسِيّ، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن سُليْمَان -شَيْخ مِنْ أَهْل العِرَاق- أَنْبَأَنَا شُعَيْب بْن صَفْوَان، عَنْ رَجُل مِنْ آل سَعِيد بْن العَاص قَال: كَانَ آخِر خُطْبَة خَطَبَهَا عُمَر ابْن عَبْد العَزِيز؛ أَنْ حَمِدَ الله، وَأَثْنَى عَليْهِ، ثُمَّ قَال: أَمَّا بَعْد، أَيُّهَا النَّاس فَإِنَّكُمْ لمْ تُخْلقُوا عَبَثًا، وَلنْ تُتْرَكُوا سُدًى، وَإِنَّ لكُمْ مَعَادًا، يَنْزِل الله فِيهِ للحُكْم بَيْنكُمْ، وَالفَصْل بَيْنكُمْ، فَخَابَ وَخَسِرَ وَشَقِيَ عَبْد أَخْرَجَهُ الله مِنْ رَحْمَته، وَحُرِمَ جَنَّة عَرْضهَا السَّمَوَات وَالأَرْض، أَلمْ تَعْلمُوا أَنَّهُ لا يَأْمَن غَدًا إِلَّا مَنْ حَذِرَ هَذَا اليَوْم وَخَافَهُ، وَبَاعَ نَافِدًا بِبَاقٍ، وَقَليلًا بِكَثِيرٍ، وَخَوْفًا بِأَمَانٍ، أَلا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مِنْ أَصْلاب الهَالكِينَ وَسَيَكُونُ مِنْ بَعْدكُمْ البَاقِينَ، حَتَّى تُرَدُّوا إِلى خَيْر الوَارِثِينَ؟ ثُمَّ إِنَّكُمْ فِي كُلّ يَوْم تُشَيِّعُونَ غَادِيًا وَرَائِحًا إِلى الله ﷻ، قَدْ قَضَى نَحْبه وَانْقَضَى أَجَله، حَتَّى تُغَيِّبُوهُ فِي صَدْع مِنْ الأَرْض فِي بَطْن صَدْع غَيْر مُمَهَّد وَلا مُوسَد، قَدْ فَارَقَ الأَحْبَاب وَبَاشَرَ التُّرَاب وَوَاجه

---

(١) في (ز) : [أن].
(٢) **مرسل ضعيف** : فأيفع بن عبد الكلاعي: تابعي صغير، وفي الإسناد الوليد بن مسلم: كثير تدليس التسوية.
(٣) سقط من (ز).

الحِسَاب، مُرْتَهَن بِعَمَلِهِ، غَنِيّ عَمَّا تَرَكَ فَقِير إِلَى مَا قَدَّمَ فَاتَّقُوا الله -عباد الله- قَبْل انْقِضَاء مَوَاثِيقه وَنُزُول المَوْت بِكُمْ، ثُمَّ رفع طَرَف رِدَائِهِ عَلَى وَجْهه، فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْله.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن نُصَيْر الخَوْلانِيّ، ثَنَا ابْن وَهْب أَخْبَرَنِي ابْن لهِيعَة، عَنْ أَبِي هُبَيْرَة، عَنْ حنش بْن عَبْد الله أَنَّ رَجُلًا مُصَابًا مُرَّ بِهِ عَلَى عَبْد الله بْن مَسْعُود، فَقَرَأَ فِي أُذُنه هَذِهِ الآيَة: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ حَتَّى خَتَمَ السُّورَة فَبَرِأ، فَذَكَرَ لرَسُول الله ﷺ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**بِمَاذَا قَرَأْت فِي أُذُنه؟**». فَأَخْبَرَهُ، فَقَال لَه: «**إنها إذا قرئت في أذنه أحرقته**»، ثم قال رَسُول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ رَجُلاً مُوقِنًا قَرَأَهَا عَلَى جَبَل لزَال**»[1]. وَرَوَى أَبُو نُعَيْم مِنْ طَرِيق خَالد بْن نِزَار، عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ مُحَمَّد بْن المُنْكَدِر، عَنْ مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم بْن الحَارِث عَنْ أَبِيهِ قَال: بَعَثَنَا رَسُول الله ﷺ فِي سَرِيَّة وَأَمَرَنَا أَنْ نَقُول إِذَا نَحْنُ أَمْسَيْنَا وَأَصْبَحْنَا: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ قَال: فَقَرَأْنَاهَا فَغَنِمْنَا وَسَلِمْنَا.[2] وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم أَيْضًا: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن وَهْب العَلَّاف الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو المُسَيِّب سلمة بْن سَلَّام حَدَّثَنَا بَكْر بْن خنيس عَنْ نَهْشَل بْن سَعِيد عَنْ الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم عَنْ عَبْد الله بْن عَبَّاس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «أَمَان أُمَّتِي مِنْ الغرَق إِذَا رَكِبُوا فِي السَّفن: بِسْم الله المَلِك الحَقّ، وَمَا قَدَرُوا الله حَقّ قَدْره، وَالأَرْض جَمِيعًا قَبْضَته يَوْم القِيَامَة، وَالسَّمَوَات مَطْوِيَّات بِيَمِينِهِ، سُبْحَانه وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ، بِسْم الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لغَفُور رَحِيم»[3].

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُتَوَعِّدًا مَنْ أَشْرَكَ بِهِ غَيْره، وَعَبَدَ مَعَهُ سِوَاهُ وَمُخْبِرًا أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِالله ﴿ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ ﴾، أَيْ: لا دَلِيل لهُ عَلَى قَوْله، فَقَال تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ وَهَذِهِ جُمْلَة مُعْتَرِضَة، وَجَوَاب الشَّرْط فِي قَوْله: ﴿ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ أَيْ: الله يُحَاسِبهُ عَلَى ذَلِكَ. ثُمَّ أَخْبَرَ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أَيْ: لَدَيْهِ يَوْم القِيَامَة لا فَلَاح لَهُمْ وَلا نَجَاة. قَال قَتَادَة: ذَكَرَ لنَا أَنَّ نَبِيّ الله ﷺ قَال لرَجُلٍ: «**مَا تَعْبُد؟**». قَال: أَعْبُد الله وَكَذَا وَكَذَا حَتَّى عَدَّ أَصْنَامًا، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**فَأَيهم إِذَا أَصَابَك ضُرٌّ فَدَعَوْته كَشَفَهُ عَنْك؟**». قَال: الله ﷻ [قَال: «**فَأَيهمْ إِذَا كَانَتْ لَك حَاجَة فَدَعَوْته أَعْطَاكَهَا؟**». قَال: الله ﷻ][4] قَال: «**فَمَا يَحْمِلك عَلَى أَنْ تَعْبُد هَؤُلاء مَعَهُ**». قَال: أَرَدْت شُكْره بِعِبَادَةِ هَؤُلَاءِ مَعَهُ أم حسبت أن يغلب عليه؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**تَعْلَمُونَ وَلا يَعْلَمُونَ**». فَقَال الرَّجُل بَعْد مَا أَسْلَمَ لقِيت رَجُلًا خَصَمَنِي.[5] هَذَا مُرْسَل مِنْ هَذَا الوَجْه، وَقَدْ رَوَى أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيّ فِي «جَامِعه» مُسْنَدًا عَنْ عِمْرَان بْن الحُصَيْن عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُول الله ﷺ نَحْو ذَلِكَ.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ هَذَا إِرْشَاد مِنْ الله تَعَالَى إِلَى هَذَا الدُّعَاء، فَالغَفْر إِذَا أُطْلِقَ مَعْنَاهُ: مَحْوه الذَّنْب وَسَتْره عَنْ النَّاس، وَالرَّحْمَة مَعْنَاهَا: أَنْ يُسَدِّدهُ وَيُوَفِّقهُ فِي الأَقْوَال وَالأَفْعَال.

آخِر تَفْسِير سُورَة المُؤْمِنُونَ

---

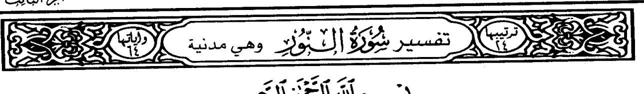
(١) **صحيح بشواهده**: أخرجه أبو يعلى والحكيم الترمذي وابن أبي حاتم، وابن السني (٦٣١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧).

(٢) **حسن**: أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٧٢٨)، وعزاه السيوطي إلى ابن السني وابن منده، وحسَّن إسناده.

(٣) **ضعيف جدًا**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٢٤) من طريق نهشل بن سعيد: متروك الحديث، والضحاك بن مزاحم: صدوق كثير الإرسال، ولم يلقَ ابن عباس.

(٤) سقط من (ز).

(٥) **مرسل**: ولم يعزه لأحد.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يَقُول تَعَالى: هَذِهِ ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ فِيهِ تَنْبِيه إلى الاعْتِنَاء بِهَا، وَلا يَنْفِي مَا عَدَاهَا. ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قَال مُجَاهِد وَقَتَادَة: أَيْ: بَيَّنَّا الحَلال وَالحَرَام وَالأَمْر وَالنَّهْي وَالحُدُود. وَقَال البُخَارِيّ: وَمَنْ قَرَأَ ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ يَقُول: فَرَضْنَاهَا عَلَيْكُمْ، وَعَلى مَنْ بَعْدكُمْ. ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أَيْ: مُفَسَّرَات وَاضِحَات ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة فِيهَا حُكْم الزَّانِي فِي الحَدّ، وَللعُلَمَاءِ فِيهِ تَفْصِيل وَنِزَاع؛ فَإِنَّ الزَّانِيَ لا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُون بِكْرًا وَهُوَ الَّذِي لمْ يَتَزَوَّج، أَوْ مُحْصَنًا وَهُوَ الَّذِي قَدْ وَطِئَ فِي نِكَاح صَحِيح وَهُوَ حُرّ بَالِغ عَاقِل، فَأَمَّا إِذَا كَانَ بِكْرًا لمْ يَتَزَوَّج، فَإِنَّ حَدّه جلد مِائَة كَمَا فِي الآيَة، وَيُزَاد عَلى ذَلِكَ أَنْ يُغَرَّب عَامًا عَنْ بَلده عِنْد جُمْهُور العُلَمَاء، خِلافًا لأَبِي حَنِيفَة رَحِمَهُ اللَّهُ، فَإِنَّ عِنْده: أَنَّ التَّغْرِيب إِلى رَأْي الإِمَام إِنْ شَاءَ غَرَّبَ، وَإِنْ شَاءَ لمْ يُغَرِّب. وَحُجَّة الجُمْهُور فِي ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ رِوَايَة الزُّهْرِيّ، عَنْ عُبَيْد الله بْن عَبْد الله بْن عُتْبَة بْن مَسْعُود، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة وَزَيْد بْن خَالد الجُهَنِيّ فِي الأَعْرَابِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ أَتَيَا رَسُول الله ﷺ فَقَال أَحَدهمَا: يَا رَسُول الله؛ إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا -يَعْنِي: أَجِيرًا- عَلى هَذَا، فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ، فَافْتَدَيْتُ مِنْهُ بِمِائَةِ شَاة وَوَلِيدَة، فَسَأَلت أَهْل العِلم؛ فَأَخْبَرُونِي أَنَّ عَلى ابْنِي جَلد مِائَة وَتَغْرِيب عَام، وَأَنَّ عَلى امْرَأَة هَذَا الرَّجْم؛ فَقَال رَسُول الله ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ الله تَعَالى، الوَلِيدَة وَالغَنَم رَدّ عَلَيْك، وَعَلى ابْنك جلد مِائَة وَتَغْرِيب عَام. وَاغْدُ يَا أُنَيْس -لِرَجُلٍ مِنْ أَسْلم- إِلى امْرَأَة هَذَا فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا»**. فَغَدَا عَليْهَا فَاعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا.[1] وَفِي هَذَا دَلالة عَلى تَغْرِيب الزَّانِي مَعَ جَلد مِائَة إِذَا كَانَ بِكْرًا لمْ يَتَزَوَّج، فَأَمَّا إِذَا كَانَ مُحْصَنًا وَهُوَ الَّذِي قَدْ وَطِئَ فِي نِكَاح صَحِيح وَهُوَ حُرّ بَالِغ عَاقِل فَإِنَّهُ يُرْجَم.

كَمَا قَال الإِمَام مَالك: حَدَّثَنِي بْن شِهَاب، عن عُبَيْد الله بْن عَبْد الله بْن عُتْبَة بْن مَسْعُود: أَنَّ ابْن عَبَّاس أَخْبَرَهُ: أَنَّ عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَامَ: فَحَمِدَ الله، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَال: أَمَّا بَعْد، أَيّهَا النَّاس؛ فَإِنَّ الله تَعَالى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالحَقّ وَأَنْزَل عَلَيْهِ الكِتَاب، فَكَانَ فِيمَا أُنْزِل عَلَيْهِ آيَة الرَّجْم، فَقَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، وَرَجَمَ رَسُول الله ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْده، فَأَخْشَى أَنْ يَطُول بِالنَّاسِ زَمَان أَنْ يَقُول قَائِل: لا نَجِد آيَة الرَّجْم فِي كِتَاب الله؛ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَة قَدْ أَنْزَلهَا الله، فَالرَّجْم فِي كِتَاب الله حَقّ عَلى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ مِنْ الرِّجَال وَالنِّسَاء، إِذَا قَامَتْ البَيِّنَة أَوْ الحَبَل أَوْ الاعْتِرَاف.[2] أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث مَالك مُطَوَّلًا. وَهَذِهِ قِطْعَة مِنْهُ فِيهَا مَقْصُودنَا هَهُنَا.

وَرَوَى الإِمَام أَحْمَد عَنْ هُشَيْم، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُبَيْد الله بْن عَبْد الله عَنْ ابْن عَبَّاس حَدَّثَنِي عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف: أَنَّ عُمَر بْن الخَطَّاب خَطَبَ النَّاس فَسَمِعْته يَقُول: أَلا وَإِنَّ نَاسًا يَقُولُونَ: مَا بَال الرَّجْم وَفِي كِتَاب الله الجَلد، وَقَدْ رَجَمَ رَسُول الله ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْده، وَلوْلا أَنْ يَقُول قَائِلون أَوْ يَتَكَلَّم مُتَكَلِّمون أَنَّ عُمَر زَادَ فِي كِتَاب

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٦٩٦)، ومسلم (١٦٩٨).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٨٢٩) (٦٨٣٠)، ومسلم (١٦٩١).

الله مَا لَيْسَ مِنْهُ لأَثْبَتُّهَا كَمَا نَزَلتْ.[١] وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث عُبَيْد الله بْن عَبْد الله. وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا عَنْ هُشَيْم، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ يُوسُف بْن مِهْرَان، عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ: خَطَبَ عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه فَذَكَرَ الرَّجْم فَقَال: لا تخدعنَّ عنه، فَإِنَّهُ حَدّ مِنْ حُدُود الله تَعَالى، أَلا وَإِنَّ رَسُول الله ﷺ قَدْ رَجَمَ وَرَجَمْنَا بَعْده، وَلوْلا أَنْ يَقُول قَائِلُونَ: زَادَ عُمَر فِي كِتَاب الله مَا لَيْسَ فِيهِ؛ لكَتَبْت فِي نَاحِيَة مِنْ المُصْحَف: وَشَهِدَ عُمَر بْن الخَطَّاب وَعَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف وَفُلان وَفُلان: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَدْ رَجَمَ وَرَجَمْنَا بَعْده، أَلا وإِنَّهُ سَيَكُونُ قَوْم مِنْ بَعْدكُمْ يُكَذِّبُونَ بِالرَّجْمِ وبالدجال وَبِالشَّفَاعَةِ، وَبِعَذَابِ القَبْر، وَبِقَوْمٍ يَخْرُجُونَ مِنْ النَّار بَعْدَمَا امْتَحَشُوا.[٢]

وَرَوَى أَحْمَد أَيْضًا عن يحيى القطان، عَنْ يَحْيَى الأَنْصَارِيّ، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيِّب، عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب: «إِيَّاكُمْ أَنْ تَهْلكُوا عَنْ آيَة الرَّجْم»[٣]. الحَدِيث. رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث سَعِيد، عَنْ عُمَر، وَقَال: صَحِيح. وَقَال الحَافِظ أَبُو يَعْلى المَوْصِليّ: حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن عُمَر القَوَارِيرِيّ، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن زُرَيْع، حَدَّثَنَا ابن عَوْن، عَنْ مُحَمَّد -هُوَ ابْن سِيرِينَ- قَال: نُبِّئْت عَنْ كَثِير بْن الصَّلت قَال: كُنَّا عِنْد مَرْوَان، وَفِينَا زَيْد، فَقَال زَيْد: كُنَّا نَقْرَأ: (الشَّيْخ وَالشَّيْخَة إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا البَتَّة)، قَال مَرْوَان: أَلا كَتَبْتهَا فِي المُصْحَف؟ قَال: ذَكَرْنَا ذَلكَ وَفِينَا عُمَر بْن الخَطَّاب؛ فَقَال: أَنَا أَشْفِيكُمْ مِنْ ذَلكَ، قَال: قُلنَا: فَكَيْف؟ قَال: جَاءَ رَجُل إِلى النَّبِيّ ﷺ قَال: فَذَكَرَ كَذَا وَكَذَا، وَذَكَرَ الرَّجْم، فَقَال: يَا رَسُول الله؛ اكْتُبْ لي آيَة الرَّجْم، قَال: «لا أَسْتَطِيع الآن»[٤]. هَذَا أَوْ نَحْو ذَلكَ. وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيّ عن مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، عَنْ غُنْدَر، عَنْ شُعْبَة، عَنْ قَتَادَة، عَنْ يُونُس بْن جُبَيْر، عَنْ كَثِير بْن الصَّلت، عَنْ زَيْد بْن ثَابِت بِهِ، وَهَذِهِ طُرُق كُلّهَا مُتَعَدِّدَة مُتَعَاضِدَة، وَدَالَّة عَلى أَنَّ آيَة الرَّجْم كَانَتْ مَكْتُوبَة فَنُسِخَ تِلاوَتهَا وَبَقِي حُكْمهَا مَعْمُولًا به، ولله الحمد.

وَقَدْ أَمَرَ رَسُول الله ﷺ بِرَجْم هَذِهِ المَرْأَة، وَهِيَ زَوْجَة الرَّجُل الَّذِي اسْتَأْجَرَ الأَجِير، لـمَّا زَنَتْ مَعَ الأَجِير، وَرَجَمَ رَسُول الله ﷺ مَاعِزًا وَالغَامِدِيّة، وَكُلّ هَؤُلاءِ لمْ يُنْقَل عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ جَلدَهُمْ قَبْل الرَّجْم، وَإِنَّمَا وَرَدَتْ الأَحَادِيث الصحاح المُتَعَدِّدَة الطُّرُق وَالأَلفَاظ بِالاقْتِصَارِ عَلى رَجْمهمْ، وَليْسَ فِيهَا ذِكْر الجلد، وَلهَذَا كَانَ هَذَا مَذْهَب جُمْهُور العُلمَاء، وَإِليْهِ ذَهَبَ أَبُو حَنِيفَة وَمَالك وَالشَّافِعِيّ -رَحِمَهُمْ الله-، وَذَهَبَ الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ إِلى أَنَّهُ يَجِب أَنْ يُجْمَع عَلى الزَّانِي المُحْصَن بَيْن الجلد للآيَةِ وَالرَّجْم للسُّنَّةِ، كَمَا رُوِيَ عَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عَليّ بْن أَبِي طَالب رضي الله عنه أَنَّهُ لمَّا أُتِيَ بشراحة، وَكَانَتْ قَدْ زَنَتْ وَهِيَ مُحْصَنَة، فَجَلدَهَا يَوْم الخَمِيس وَرَجَمَهَا يَوْم الجُمُعَة، ثم قَال: جَلدْتهَا بِكِتَابِ الله، وَرَجَمْتهَا بِسُنَّةِ رَسُول الله ﷺ. وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَحْمَد، ومسلم، وَأَهْل السُّنَن الأَرْبَعَة مِنْ حَدِيث قَتَادَة عَنْ الحَسَن عَنْ حِطَّان بْن عَبْد الله الرَّقَاشِيّ عَنْ عُبَادَة بْن الصَّامِت قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَل الله لهُنَّ سَبِيلاً، البِكْر بالبِكْرِ جَلد مِائَة وَتَغْرِيب سنة، وَالثَّيِّب بالثَّيِّبِ جَلد مِائَة وَالرَّجْم»**.[٥]

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: فِي حُكْم الله، لا ترجموهما وترثوا لهما فِي شَرْع الله، وَليْسَ المَنْهِيّ عَنْهُ الرَّأْفَة الطَّبِيعِيَّة عَلى إقامة الحَدّ، وَإِنَّمَا هِيَ الرَّأْفَة الَّتِي تَحْمِل الحَاكِم عَلى تَرْك الحَدّ فإنه لا يَجُوز له ذَلكَ.

---

(١) **صحيح** : أخرجه أحمد (١/ ٢٩).
(٢) **ضعيف من هذا الطريق** : أخرجه أحمد (١/ ٢٣)، وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، والروايات السابقة صحيحة.
(٣) **صحيح** : أخرجه الترمذي (١٤٣١) وصححه.
(٤) **إسناده منقطع** : عزاه ابن كثير لأبي يعلي، ورجاله ثقات غير أن ابن سيرين يقول: نبئت، ولم يذكر الواسطة فالإسناد منقطع.
(٥) **صحيح** : تـقـدم.

قَال مُجَاهِد: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ قَال: إِقَامَة الحُدُود إِذَا رُفِعَتْ إِلى السُّلطَان، فَتُقَام وَلا تُعطَّل، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر وَعَطَاء بْن أَبِي رَبَاح، وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيث: «تَعَافَوْا الحُدُود فِيمَا بَيْنكُمْ، فَمَا بَلَغَنِي مِنْ حَدّ فَقَدْ وَجَبَ»[1]. وَفِي الحَدِيث الآخَر: «لحَدّ يُقَام فِي الأَرْض خَيْر لأَهْلهَا مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»[2].

وَقِيل: المُرَاد: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، فَلا تُقِيمُوا الحَدّ كَمَا يَنْبَغِي مِنْ شِدَّة الضَّرْب الزَّاجِر عَنْ المَأْثَم، وَلَيْسَ المُرَاد الضَّرْب المُبَرِّح.

قَال عَامِر الشَّعْبِيّ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ قَال: رَحْمَة فِي شِدَّة الضَّرْب، وَقَال عَطَاء: ضَرْب لَيْسَ بِالمُبَرِّح، وَقَال سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة عَنْ حَمَّاد بْن أَبِي سُلَيْمَان: يُجْلد القَاذِف وَعَلَيْهِ ثِيَابه، وَالزَّانِي تُخْلع ثِيَابه، ثُمَّ تَلا ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ فَقُلت: هَذَا فِي الحُكْم؟ قَال: هَذَا فِي الحُكْم وَالجَلد. يَعْنِي: فِي إِقَامَة الحَدّ وَفِي شِدَّة الضَّرْب. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَبْد الله الأَوْدِيّ، حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ نَافِع بْن عُمَر عَنْ ابْن أَبِي مُلَيْكَة، عَنْ عُبَيْد الله بْن عَبْد الله بْن عُمَر: أَنَّ جَارِيَة لابْنِ عُمَر زَنَتْ، فَضَرَبَ رِجْلَيْهَا. قَال نَافِع: أَرَاهُ قَال: وظَهْرهَا. قَال: قُلت: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، قَال: يَا بُنَيّ وَرَأَيْتنِي أَخَذَتْنِي بِهَا رَأْفَة؟ إِنَّ الله لَمْ يَأْمُرنِي أَنْ أَقْتُلهَا، وَلا أَنْ أَجْعَل جَلدهَا فِي رَأْسهَا، وَقَدْ أَوْجَعْت حَيْث ضَرَبْت. وَقَوْله تَعَالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أَيْ: فَافْعَلُوا ذَلِكَ، أَقِيمُوا الحُدُود عَلى مَنْ زَنَى، وَشَدِّدُوا عَلَيْهِ الضَّرْب، وَلكِنْ لَيْسَ مُبَرِّحًا؛ لِيَرْتَدِع هُوَ وَمَنْ يَصْنَع مِثْله بِذَلِكَ، وَقَدْ جَاءَ فِي «المُسْنَد» عَنْ بَعْض الصَّحَابَة أَنَّهُ قَال: يَا رَسُول الله؛ إِنِّي لأَذْبَح الشَّاة وَأَنَا أَرْحَمهَا فَقَال: «وَلَك فِي ذَلِكَ أَجْر»[3].

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هَذَا فِيهِ تَنْكِيل لِلزَّانِيَيْنِ إِذَا جُلِدَا بِحَضْرَةِ النَّاس؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُون أَبْلغ فِي زَجْرهمَا، وَأَنْجع فِي رَدْعهمَا؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَفَضِيحَة إِذَا كَانَ النَّاس حُضُورًا. قَال الحَسَن البَصْرِيّ فِي قَوْله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي: عَلانِيَة، ثُمَّ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الطَّائِفَة: الرَّجُل فَمَا فَوْقه، وَقَال مُجَاهِد: الطَّائِفَة: رجل إِلى الأَلْف، وَكَذَا قَال عِكْرِمَة، وَلهَذَا قَال الإِمَام أَحْمَد: إِنَّ الطَّائِفَة تَصْدُق عَلى وَاحِد. وَقَال عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح: اثْنَانِ، وَبِهِ قَال إِسْحَاق بْن رَاهَوَيْه، وَكَذَا قَال سَعِيد بْن جُبَيْر ﴿طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قَال: يَعْنِي رَجُلين فَصَاعِدًا، وَقَال الزُّهْرِيّ: ثَلاث نَفَر فَصَاعِدًا.

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: حَدَّثَنِي ابْن وَهْب عَنْ الإِمَام مَالك فِي قَوْله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قَال: الطَّائِفَة أَرْبَعَة نَفَر فَصَاعِدًا؛ لأَنَّهُ لا يكون شَهَادَة فِي الزِّنَا دون أَرْبَعَة شُهَدَاء فَصَاعِدًا، وَبِهِ قَال الشَّافِعِيّ. وَقَال رَبِيعَة: خَمْسَة، وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: عَشْرَة، وَقَال قَتَادَة: أَمَرَ الله أَنْ يَشْهَد عَذَابهمَا طَائِفَة مِنْ المُؤْمِنِينَ أَيْ نَفَر مِنْ المُسْلِمِينَ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ مَوْعِظَة وَعِبْرَة وَنَكَالًا. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن عُثْمَان، حَدَّثَنَا بَقِيَّة قَال: سَمِعْت نَصْر بْن عَلقَمَة فِي قَوْله تَعَالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قَال: لَيْسَ ذَلِكَ لِلفَضِيحَةِ، إِنَّمَا ذَلِكَ لِيُدْعَى الله تَعَالى لهُمَا بِالتَّوْبَةِ وَالرَّحْمَة.

---

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (٤٣٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٢) حسن : أخرجه ابن ماجه (٢٥٣٨)، وأحمد (٢/ ١٠٢)، وفيه عيسى بن يزيد: مقبول، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».
(٣) صحيح : صححه الألباني في «الصحيحة» (٢٦).

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

هَذَا خَبَر مِنْ الله تَعَالى بِأَنَّ الزَّانِيَ لا يَطَأ إِلَّا زَانِيَة أَوْ مُشْرِكَة أَيْ: لا يُطَاوِعهُ عَلى مُرَاده مِنْ الزِّنَا إِلَّا زَانِيَة عَاصِيَة، أَوْ مُشْرِكَة لا تَرَى حُرْمَة ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾ أَيْ: عَاصٍ بِزِنَاهُ ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ لا يَعْتَقِد تَحْرِيمه. قَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَنْ حَبِيب بْن أَبِي عَمْرَة عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قَال: لَيْسَ هَذَا بِالنِّكَاحِ إِنَّمَا هُوَ الْجِمَاع، لا يَزْنِي بِهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِك، وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح عَنْهُ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ مِنْ غَيْر وَجْه أَيْضًا. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَعُرْوَة بْن الزُّبَيْر، وَالضَّحَّاك، وَمَكْحُول وَمُقَاتِل بْن حَيَّان، وَغَيْر وَاحِد نَحْو ذَلِكَ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: تَعَاطِيه، وَالتَّزْوِيج بِالْبَغَايَا أَوْ تَزْوِيج الْعَفَائِف بالفجار من الرجال.

وَقَال أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا قَيْس، عَنْ أَبِي حُصَيْن، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قَال: حَرَّمَ الله الزِّنَا عَلى الْمُؤْمِنِينَ. وَقَال قَتَادَة وَمُقَاتِل بْن حَيَّان: حَرَّمَ الله عَلى الْمُؤْمِنِينَ نِكَاح الْبَغَايَا، وَتَقَدَّمَ فِي ذَلِكَ فَقَال: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وَهَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾، وَقَوْله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ﴾ الآيَة، وَمِنْ هَهُنَا ذَهَبَ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل رَحِمَهُ اللَّهُ إِلى أَنَّهُ لا يَصِحّ الْعَقْد مِنْ الرَّجُل الْعَفِيف عَلى الْمَرْأَة الْبَغِيّ، مَا دَامَتْ كَذَلِكَ حَتَّى تُسْتَتَاب فَإِنْ تَابَتْ صَحَّ الْعَقْد عَلَيْهَا، وَإِلَّا فَلا، وَكَذَلِكَ لا يَصِحّ تَزْوِيج الْمَرْأَة الْحُرَّة الْعَفِيفَة بِالرَّجُل الْفَاجِر الْمُسَافِح حَتَّى يَتُوب تَوْبَة صَحِيحَة؛ لِقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَارِم، حَدَّثَنَا مُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان؛ قَال: قَال أَبِي: حَدَّثَنَا الْحَضْرَمِيّ، عَنْ الْقَاسِم بْن مُحَمَّد، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو رضي الله عنهما: أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اسْتَأْذَنَ رَسُول الله ﷺ فِي امْرَأَة يُقَال لَهَا: أُمّ مَهْزُول، كَانَتْ تُسَافِح وَتَشْتَرِط لَهُ أَنْ تُنْفِق عَلَيْهِ، قَال: فَاسْتَأْذَنَ رَسُول الله ﷺ، أَوْ ذَكَرَ لَهُ أَمْرهَا، قَال: فَقَرَأَ عَلَيْهِ رَسُول الله ﷺ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.[1]

وَقَال النَّسَائِيّ: أَخْبَرَنَا عَمْرو بْن عَلِيّ حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الْحَضْرَمِيّ، عَنْ الْقَاسِم بْن مُحَمَّد، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو قَال: كَانَتْ امْرَأَة يُقَال لَهَا: أُمّ مَهْزُول، وَكَانَتْ تُسَافِح، فَأَرَادَ رَجُل مِنْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ أَنْ يَتَزَوَّجهَا، فَأَنْزَل الله عز وجل: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قَال التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد بْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا رَوْح بْن عُبَادَة، عَنْ عُبَيْد الله بْن الأَخْنَس، أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن شُعَيْب، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدّه قَال: كَانَ رَجُل يُقَال لَهُ: مَرْثَد بْن أَبِي مَرْثَد، وَكَانَ رَجُلًا يَحْمِل الأَسَارَى مِنْ مَكَّة حَتَّى يَأْتِيَ بِهِمْ الْمَدِينَة، قَال: وَكَانَتْ امْرَأَة بَغِيّ بِمَكَّة يُقَال لَهَا: عَنَاق، وَكَانَتْ صَدِيقَة لَهُ، وَأَنَّهُ وَاعَدَ رَجُلًا مِنْ أُسَارَى مَكَّة يَحْمِلهُ، قَال: فَجِئْت حَتَّى انْتَهَيْت إِلى ظِلّ حَائِط مِنْ حَوَائِط مَكَّة فِي لَيْلَة مُقْمِرَة، قَال: فَجَاءَتْ عَنَاق فَأَبْصَرَتْ سَوَاد ظِلّ تَحْت الْحَائِط؛ فَلَمَّا انْتَهَتْ إِلَيَّ عَرَفَتْنِي؛ فَقَالَتْ: مَرْثَد؟ فَقُلت: مَرْثَد؛ فَقَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، هَلُمَّ فَبِتْ عِنْدَنَا اللَّيْلَة. قَال: فَقُلت يَا عَنَاق؛ حَرَّمَ الله الزِّنَا، فَقَالَتْ: يَا أَهْل الْخِيَام هَذَا الرَّجُل يَحْمِل أُسَرَاكُمْ. قَال: فَتَبِعَنِي ثَمَانِيَة وسلكت الخندمة فَانْتَهَيْت إِلى غَار أَوْ كَهْف فَدَخَلت فِيهِ فَجَاءُوا حَتَّى قَامُوا عَلى رَأْسِي فَبَالُوا، فَظَلَّ بَوْلهمْ عَلى رَأْسِي، فَأَعْمَاهُمْ الله عَنِّي، قَال: ثُمَّ رَجَعُوا، ورَجَعْت إِلى صَاحِبِي فَحَمَلته، وَكَانَ رَجُلًا ثَقِيلًا حَتَّى انْتَهَيْت

(١) حسن: أخرجه أحمد (٢/ ١٥٩)، والنسائي في «الكبرى»، ورجاله ثقات عدا الحضرمي. قال الحافظ: لا بأس به.

إِلى الإِذْخِر، فَفككْت عَنْهُ أكبله، فَجَعلت أَحْمِلهُ وَيُعِينني حَتَّى أَتَيْت بِهِ المَدِينَة، فَأَتَيْت رَسُول الله ﷺ ، فَقُلت: يَا رَسُول الله! أَنْكِح عَنَاقًا، أَنْكِح عنَاقًا -مَرَّتَيْنِ- فَأَمْسَكَ رَسُول الله ﷺ ، فَلَمْ يَرُدّ عَلَيَّ شَيْئًا حَتَّى نَزَلتْ: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فَقَال رَسُول الله ﷺ : «يَا مَرْثَد! ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فَلا تَنْكِحهَا»[1]. ثُمَّ قَال التِّرمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن غَرِيب، لا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ فِي كِتَاب النِّكَاح مِنْ «سُنَنهمَا» مِنْ حَدِيث عُبَيْد الله بْن الأَخْنَس بِهِ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي حَدَّثنَا مُسَدَّد أَبُو الحَسَن، حَدَّثنَا عَبْد الوَارِث، عَنْ حَبِيب المُعَلِّم، حَدَّثَنِي عَمْرو ابْن شُعَيْب عَنْ سَعِيد المَقْبُرِيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : **«لا يَنْكِح الزَّانِي المَجْلُود إلاَّ مِثْله»**. وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد فِي «سُنَنه» عَنْ مُسَدَّد، وَأَبِي مَعْمَر عَبْد الله بْن عَمْرو كِلاهُمَا عَنْ عَبْد الوَارِث بِهِ. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا يَعْقُوب، حَدَّثنَا عَاصِم بْن مُحَمَّد بْن زَيْد بْن عَبْد الله بْن عُمَر بْن الخَطَّاب، عَنْ أَخِيهِ عُمَر بْن مُحَمَّد عَنْ عَبْد الله بْن يَسَار -مَوْلى ابْن عُمَر- قَال: أَشْهَد لسَمِعْت سَالمًا يَقُول: قَال عَبْد الله: قَال رَسُول الله ﷺ : **«ثَلاثَة لا يَدْخُلونَ الجَنَّة، وَلا يَنْظُر الله إِليهِمْ يَوْم القِيَامَة: العَاقّ لوَالدَيْهِ، وَالمرْأَة المُتَرَجِّلة المُتَشَبِّهَة بِالرِّجَال، وَالدَّيُّوث. وَثَلاثَة لا يَنْظُر الله إِليْهِمْ يَوْم القِيَامَة: العَاقّ لوَالدَيْهِ، وَمُدْمِن الخَمْر، وَالمَنَّان بِمَا أَعْطَى»**[2]. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ عَنْ عَمْرو بْن عَلِيّ الفَلَّاس، عَنْ يَزِيد بْن زُرَيْع عَنْ عُمَر بْن مُحَمَّد العُمَرِيّ عَنْ عَبْد الله بْن يَسَار بِهِ.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثنَا يَعْقُوب، حَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا الوَلِيد بْن كَثِير، عَنْ قَطَن بْن وَهْب، عَنْ عُوَيْمِر ابْن الأَجْدَع، عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنْ سَالم بْن عَبْد الله بْن عُمَر قَال: حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن عُمَر: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«ثَلاثَة حَرَّمَ الله عَلَيْهِمْ الجَنَّة: مُدْمِن الخَمْر، وَالعَاقّ، وَالديوث الَّذِي يُقِرّ فِي أَهْله الخَبَث»**[3]. وَقَال أَبُو دَاوُد الطَّيَالسِيّ فِي «مُسْنَده»: حَدَّثَنِي شُعْبَة، حَدَّثَنِي رَجُل مِنْ آل سَهْل بْن حُنَيْف، عَنْ مُحَمَّد بْن عَمَّار، عَنْ عَمَّار بْن يَاسِر قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : **«لا يَدْخُل الجَنَّة دَيُّوث»**. يُسْتَشْهَد بِهِ لمَا قَبْله مِنْ الأَحَادِيث.

وَقَال ابْن مَاجَهْ: حَدَّثنَا هِشَام بْن عَمَّار، حَدَّثنَا سَلَّام بْن سَوَّار، حَدَّثنَا كَثِير بْن سُلَيْم عَنْ الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم، سَمِعْت أَنَس بْن مَالك يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلقَى الله طَاهِرًا مطهرًا فَليَتَزَوَّجْ الحَرَائِر»**[4]. فِي إِسْنَاده ضَعْف.

قَال الإِمَام أَبُو نَصْر إِسْمَاعِيل بْن حَمَّاد الجَوْهَرِيّ فِي كِتَاب «الصِّحَاح فِي اللُّغَة»: الدَّيُّوث: القُنْزُع وَهُوَ الَّذِي لا غَيْرَة لهُ. فَأَمَّا الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَبُو عَبْد الرَّحْمَن النَّسَائِيّ فِي كِتَاب النِّكَاح مِنْ «سُنَنه»: أَخْبَرَنَا مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل ابْن عُليَّة، عَنْ يَزِيد بْن هَارُون عَنْ حَمَّاد بْن سَلمَة وَغيْره، عَنْ هَارُون بْن رئاب، عَنْ عَبْد الله بْن عُبَيْد بْن عُمَيْر وَعَبْد الكَرِيم، عَنْ عَبْد الله بْن عُبَيْد بْن عُمَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس -عَبْد الكَرِيم رَفَعَهُ إِلى ابْن عَبَّاس، وَهَارُون لمْ يَرْفَعهُ- قَالا: جَاءَ رَجُل إِلى رَسُول الله ﷺ فَقَال: إِنَّ عِنْدِي امْرَأَة مِنْ أَحَبّ النَّاس إِليَّ وَهِيَ لا تَمْنَع يَد لامِس،

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣١٧٧)، وأبو داود (٣٠٥١)، والنسائي (٦/ ٦٦).

(٢) حسن صحيح: أخرجه النسائي (٢٥٦٢)، وأحمد (٢/ ٦٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي»، وفي «الصحيحة» (٦٧٤).

(٣) حسن: أخرجه أحمد (٢/ ٦٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣٦٦).

(٤) إسناده ضعيف: أخرجه ابن ماجه (١٨٦٢)، وفيه سلام بن سوار وشيخه كثير بن سليم: ضعيفان.

قَال: «طَلِّقْهَا». قَال: لا صَبْر لِي عَنْهَا، قَال: «اسْتَمْتِعْ بِهَا»(١). ثُمَّ قَال النَّسَائِيّ: هَذَا الحَدِيث غَيْر ثَابِت، وَعَبْد الكَرِيم لَيْسَ بِالقَوِيِّ، وَهَارُون أَثْبَت مِنْهُ وَقَدْ أَرْسَل الحَدِيث وَهُوَ ثِقَة، وَحَدِيثه أَوْلَى بِالصَّوَابِ مِنْ حَدِيث عَبْد الكَرِيم.

قُلت: وَهُوَ ابْن أَبِي المُخَارِق البَصْرِيّ المُؤَدِّب، تَابِعِيّ ضَعِيف الحَدِيث، وَقَدْ خَالَفَهُ هَارُون بْن رِئَاب وَهُوَ تَابِعِيّ ثِقَة مِنْ رِجَال مُسْلم، فَحَدِيثه المُرْسَل أَوْلَى، كَمَا قَال النَّسَائِيّ، لكِنْ قَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي كِتَاب الطَّلَاق عَنْ إِسْحَاق بْن رَاهَوَيْهِ، عَنْ النَّضْر بْن شُمَيْل، عَنْ حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ هَارُون بْن رِئَاب عَنْ عَبْد الله بْن عُبَيْد بْن عُمَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس مُسْنَدًا، فَذَكَرَهُ فهذا بِهَذَا الإِسْنَاد فَرِجَاله عَلَى شَرْط مُسْلم؛ إِلَّا أَنَّ النَّسَائِيّ بَعْد رِوَايَته لهُ قَال: «هَذَا خَطَأ وَالصَّوَاب مُرْسَل. وَرَوَاهُ غَيْر النَّضْر عَلَى الصَّوَاب».

وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيّ أَيْضًا وَأَبُو دَاوُد عَنْ الحُسَيْن بْن حُرَيْث أَخْبَرَنَا الفَضْل بْن مُوسَى، أَخْبَرَنَا الحُسَيْن بْن وَاقِد عَنْ عُمَارَة بْن أَبِي حَفْصَة عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فَذَكَرَهُ. وَهَذَا إِسْنَاد جَيِّد. وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاس فِي هَذَا الحَدِيث مَا بَيْن مُضَعِّف لهُ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ النَّسَائِيّ، وَمُنْكِر كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد: هُوَ حَدِيث مُنْكَر، وَقَال ابْن قُتَيْبَة: إِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهَا سَخِيَّة لا تَمْنَع سَائِلًا. وَحَكَاهُ النَّسَائِيّ فِي «سُنَنه» عَنْ بَعْضهمْ فَقَال: وَقِيل: سَخِيَّة تُعْطِي، وَرُدَّ هَذَا بِأَنَّهُ لوْ كَانَ المُرَاد لقَال: لا تَرُدّ يَد مُلتَمِس، وَقِيل: المُرَاد إِنَّ سَجِيَّتهَا لا تَرُدّ يَد لامِس، لا أَنَّ المُرَاد أَنَّ هَذَا وَاقِع مِنْهَا، وَأَنَّهَا تَفْعَل الفَاحِشَة، فَإِنَّ رَسُول الله ﷺ لا يَأْذَن فِي مُصَاحَبَة مَنْ هَذِهِ صِفَتهَا، فَإِنَّ زَوْجهَا وَالحَالة هَذِهِ يَكُون دَيُّوثًا، وَقَدْ تَقَدَّمَ الوَعِيد عَلَى ذَلكَ، وَلكِنْ لَمَّا كَانَتْ سَجِيَّتهَا هَكَذَا لَيْسَ فِيهَا مُمَانَعَة وَلا مُخَالفَة لمَنْ أَرَادَهَا لوْ خَلا بِهَا أَحَد أَمَرَهُ رَسُول الله ﷺ بِفِرَاقِهَا، فَلَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ يُحِبّهَا أَبَاحَ لهُ البَقَاء مَعَهَا؛ لأَنَّ مَحَبَّته لهَا مُحَقَّقَة وَوُقُوع الفَاحِشَة مِنْهَا مُتَوَهَّم، فَلا يُصَار إِلى الضَّرَر العَاجِل، لتَوَهُّمِ الآجِل، وَالله سُبْحَانه وَتَعَالى أَعْلَم.

قَالُوا: فَأَمَّا إِذَا حَصَلتْ تَوْبَة فَإِنَّهُ يَحِلّ التَّزْوِيج، كَمَا قَال الإِمَام أَبُو مُحَمَّد ابْن أَبِي حَاتِم رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالد، عَنْ ابْن أَبِي ذِئْب قَال: سَمِعْت شُعْبَة مَوْلى ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَال: سَمِعْت ابْن عَبَّاس وَسَأَلهُ رَجُل فَقَال لهُ: إِنِّي كُنْت أُلِمّ بِامْرَأَةٍ آتِي مِنْهَا مَا حَرَّمَ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ، فَرَزَقَ الله عَزَّ وَجَلَّ مِنْ ذَلكَ تَوْبَة، فَأَرَدْت أَنْ أَتَزَوَّجهَا، فَقَال أُنَاس: إِنَّ الزَّانِي لا يَنْكِح إِلَّا زَانِيَة. فَقَال ابْن عَبَّاس: لَيْسَ هَذَا فِي هَذَا، انْكِحْهَا فَمَا كَانَ مِنْ إِثْم فَعَلَيَّ. وَقَدْ ادَّعَى طَائِفَة آخَرُونَ مِنْ العُلمَاء أَنَّ هَذِهِ الآيَة مَنْسُوخَة. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالد، عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيَّب قَال: ذَكَرَ عِنْده: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ قَال: كَانَ يُقَال: نَسَخَتْهَا الَّتِي بَعْدهَا ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ قَال: كَانَ يُقَال: الأَيَامَى مِنْ المُسْلمِينَ.(٢) وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو عُبَيْد القَاسِم بْن سَلَّام فِي كِتَاب «النَّاسِخ وَالمَنْسُوخ» لهُ، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيِّب. وَنَصَّ عَلَى ذَلكَ أَيْضًا الإِمَام أَبُو عَبْد الله مُحَمَّد بْن إِدْرِيس الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة فِيهَا بَيَان حُكْم جَلد القَاذِف للمُحْصَنَةِ، وَهِيَ الحُرَّة البَالغَة العَفِيفَة، فَإِذَا كَانَ المَقْذُوف رَجُلًا فَكَذَلكَ يُجْلد قَاذِفه أَيْضًا، وَليْسَ فِي هذا نِزَاع بَيْن العُلمَاء فأما إن أَقَامَ القَاذِف بَيِّنَة عَلَى صِحَّة مَا قَالهُ رُدَّ عَنْهُ

(١) صحيح : أخرجه النسائي (٣٢٢٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

(٢) مرسل : أخرجه ابن الجوزي في «نواسخ القرآن»، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٥)، وهو مرسل لم يرفعه، ولا يجوز الاحتجاج بالمرسل.

الحَدّ؛ وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ فَأَوْجَبَ عَلى القَاذِف إِذَا لمْ يُقِمْ [البَيِّنَة][1] عَلى صِحَّة مَا قَاله ثَلاثَة أَحْكَام: أَحدهَا: أَنْ يُجْلد ثَمَانِينَ جَلْدَة، الثَّانِي: أَنَّهُ تُرَدّ شَهَادَته دائمًا، الثَّالث: أَنْ يَكُون فَاسِقًا لَيْسَ بِعَدْلٍ لا عِنْد الله وَلا عِنْد النَّاس، ثم قال تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، وَاخْتلفَ العُلَماء فِي هَذَا الاسْتِثْنَاء، هَل يَعُود إِلى الجُمْلة الأَخِيرَة فقَطْ؛ فَتَرْفع التَّوْبَة الفِسْق فقَط، وَيَبْقَى مَرْدُود الشَّهَادَة دَائِمًا وَإِنْ تَاب، أَوْ يَعُود إِلى الجُمْلتَيْنِ الثَّانِيَة وَالثَّالثَة؟ وَأَمَّا الجَلد: فَقَدْ ذَهَبَ وَانْقَضَى، سَوَاء تَابَ أَوْ أَصَرَّ ولا حُكِمَ لهُ بَعْد ذَلْكَ بِلا خِلاف، فَذَهَبَ الإِمَام مَالك وَالشَّافِعِيّ وَأَحْمَد بن حنبل إِلى أَنَّهُ إِذَا تاب قُبِلتْ شَهَادَته، وَارْتَفَعَ عَنْهُ حُكْم الفِسْق، وَنَصَّ عَلَيْهِ سَعِيد بْن المُسَيِّب سَيِّد التَّابِعِينَ، وَجَمَاعَة مِنْ السَّلَف أَيْضًا، وَقَال الإِمَام أَبُو حَنِيفَة: إِنَّمَا يَعُود الاسْتِثْنَاء إِلى الجُمْلة الأَخِيرَة فَقَطْ، فَيَرْتَفِع الفِسْق بِالتَّوْبَةِ وَيَبْقَى مَرْدُود الشَّهَادَة أَبَدًا، وَمِمَّنْ ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنْ السَّلَف: القَاضِي شُرَيْح وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَمَكْحُول وَعَبْد الرَّحْمَن بْن يزيد بْن جَابِر. وَقَال الشَّعْبِيّ وَالضَّحَّاك: لا تُقْبَل شَهَادَته وَإِنْ تَابَ إِلَّا أَنْ يَعْتَرِف عَلى نَفْسه أَنَّهُ قَدْ قَال البُهْتَان، فَحِينَئِذٍ تُقْبَل شَهَادَته، وَالله أَعْلم.

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾.

هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة فِيهَا فَرَج للأَزْوَاج، وَزِيَادَة مَخْرَج إِذَا قَذَفَ أَحدهمْ زَوْجَته وَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ إِقَامَة البَيِّنَة: أَنْ يُلاعِنهَا كَمَا أَمَرَ الله ﷻ، وَهُوَ أَنْ يُحْضِرهَا إِلى الإِمَام، فَيَدَّعِي عَلَيْهَا بِمَا رَمَاهَا بِهِ، فَيُحَلِّفهُ الحَاكِم أَرْبَع شَهَادَات بِالله فِي مُقَابَلة أَرْبَعَة شُهَدَاء، إِنَّهُ لِمنْ الصَّادِقِينَ، أَيْ: فِيمَا رَمَاهَا بِهِ مِنْ الزِّنَا، ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فَإِذَا قَال ذَلْكَ بَانَتْ مِنْهُ بِنَفْسِ هَذَا اللِّعَان عِنْد الشَّافِعِيّ وَطَائِفَة كَثِيرَة مِنْ العُلَماء، وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِ أَبَدًا وَيُعْطِيهَا مَهرهَا وَيَتَوَجَّه عَلَيْهَا حَدّ الزِّنَا، وَلا يَدْرَأ عَنْهَا العَذَاب إِلَّا أَنْ تُلاعِن، فَتَشْهَد أَرْبَع شَهَادَات بِالله: إِنَّهُ لِمنْ الكَاذِبِينَ، أَيْ: فِيمَا رَمَاهَا بِهِ، ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، ولهذا قال: ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴾ يَعْنِي: الحَدّ ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فَخَصَّهَا بِالغَضَبِ، كَمَا أَنَّ الغَالب أَنَّ الرَّجُل لا يَتَجَشَّم فَضِيحَة أَهْله وَرَمْيهَا بِالزِّنَا إِلَّا وَهُوَ صَادِق مَعْذُور، وَهِيَ تَعْلم صِدْقه فِيمَا رَمَاهَا بِهِ، وَلِهَذَا كَانَتْ الخَامِسَة فِي حَقّهَا أَنَّ غَضَب الله عَلَيْهَا، وَالمَغْضُوب عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي يَعْلم الحَقّ ثُمَّ يَحِيد عَنْهُ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالى لطفه بخلقه ورأفته بهم وشرعه لهم الفَرَج وَالمَخْرَج مِنْ شِدَّة مَا يَكُون بِهِمْ مِنْ الضِّيق، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أَيْ: لحَرِجْتُمْ وَلشَقَّ عَلَيْكُمْ كَثِير مِنْ أُمُوركُم؛ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ عَلى عِبَاده، وَإِنْ كَانَ ذَلْكَ بَعْد الحَلف وَالأَيْمَان المُغَلَّظَة ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِيمَا يَشْرَعهُ، وَيَأْمُر بِهِ وَفِيمَا يَنْهَى عَنْهُ، وَقَدْ وَرَدَتْ الأَحَادِيث بِمُقْتَضَى العَمَل بِهَذِهِ الآيَة، وَذِكْر سَبَب نُزُولهَا وَفِيمَنْ نَزَلت فِيهِ مِنْ الصَّحَابَة.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، أَخْبَرَنَا عَبَّاد بْن مَنْصُور، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: لَمَّا نَزَلتْ: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾، قَال سَعْد بْن عُبَادَة وَهُوَ سَيِّد

---

(١) في نسخة: [بينة].

الأَنْصَار ﷺ: أَهَكَذَا أُنْزِلتْ يَا رَسُول الله؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ : «**يَا مَعْشَر الأَنْصَار، أَلا تَسْمَعُونَ مَا يَقُول سَيِّدكُمْ؟**». فَقَالُوا: يَا رَسُول الله! لا تَلُمْهُ فَإِنَّهُ رَجُل غَيُور، وَالله مَا تَزَوَّجَ امْرَأَة قَطُّ إِلَّا بِكْرًا، وَمَا طَلَّقَ امْرَأَة قَطُّ فَاجْتَرَأَ رَجُل مِنَّا أَنْ يَتَزَوَّجهَا مِنْ شِدَّة غَيْرَته، فَقَال سَعْد: وَالله يَا رَسُول الله؛ إِنِّي لأَعْلم إِنَّهَا لحَقّ، وَإِنَّهَا مِنْ الله، وَلكِنِّي قَدْ تَعَجَّبْت أَنِّي لوْ وَجَدْت لكَاعًا قَدْ تَفَخَّذَهَا رَجُل لمْ يَكُنْ لي أَنْ أُهَيِّجهُ وَلا أُحَرِّكهُ، حَتَّى آتِي بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء، فَوَالله إِنِّي لا آتِي بِهِمْ حَتَّى يَقْضِي حَاجَته قَال: فَمَا لبِثُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَ هِلال بْن أُمَيَّة، وَهُوَ أَحَد الثَّلاثَة الَّذِينَ تِيبَ عَليْهِمْ، فَجَاءَ مِنْ أَرْضه عِشَاء، فَوَجَدَ عِنْد أَهْله رَجُلًا، فَرَأَى بِعَيْنَيْهِ وَسَمِعَ بِأُذُنَيْهِ فَلمْ يُهَيِّجهُ حَتَّى أَصْبَحَ، فَغَدَا عَلى رَسُول الله ﷺ ، فَقَال: يَا رَسُول الله، إِنِّي جِئْت عَلى أَهْلي عِشَاء فَوَجَدْت عِنْدهَا رَجُلًا فَرَأَيْت بِعَيْنِي وَسَمِعْت بِأُذُنِي، فَكَرِهَ رَسُول الله ﷺ مَا جَاءَ بِهِ وَاشْتَدَّ عَليْهِ، وَاجْتَمَعَتْ الأَنْصَار، وَقَالُوا: قَدْ ابْتُلينَا بِمَا قَال سَعْد بْن عُبَادَة، الآن يَضْرِب رَسُول الله ﷺ هِلال بْن أُمَيَّة، وَيُبْطِل شَهَادَته فِي النَّاس.

فَقَال هِلال: وَالله إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَجْعَل الله لي مِنْهَا مَخْرَجًا. وَقَال هِلال: يَا رَسُول الله؛ إِنِّي قَدْ أَرَى مَا اشْتَدَّ عَليْك مِمَّا جِئْت بِهِ، وَالله يَعْلم أَنِّي لصَادِق. فَوَالله إِنَّ رَسُول الله ﷺ يُرِيد أَنْ يَأْمُر بِضَرْبِهِ إِذْ أَنْزَل الله عَلى رَسُوله ﷺ الوَحْي، وَكَانَ إِذَا أُنْزِل عَليْهِ الوَحْي عَرَفُوا ذَلكَ فِي تَرَبُّد وَجْهه، يَعْنِي: فَأَمْسَكُوا عَنْهُ حَتَّى فَرَغَ مِنْ الوَحْي، فَنَزَلتْ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ الآيَة، فَسُرِّيَ عَنْ رَسُول الله ﷺ فَقَال: «**أَبْشِرْ يَا هِلال فَقَدْ جَعَل الله لك فَرَجًا وَمَخْرَجًا**». فَقَال هِلال: قَدْ كُنْت أَرْجُو ذَلكَ مِنْ رَبِّي ﷻ فَقَال رَسُول الله ﷺ : «**أَرْسِلُوا إِليهَا**». فأرسلوا إليها فَجَاءَتْ فَتلاهَا رَسُول الله ﷺ عَليْهِمَا، وذَكَّرَهُمَا وَأَخْبَرَهُمَا أَنَّ عَذَاب الآخِرَة أَشَدّ مِنْ عَذَاب الدُّنْيَا، فَقَال هِلال: وَالله يَا رَسُول الله لقَدْ صَدَقْت عَليْهَا، فَقَالتْ: كَذَبَ، فَقَال رَسُول الله ﷺ : «**لاعِنُوا بَيْنهمَا**». فَقِيل لِهِلالٍ: اشْهَدْ، فَشَهِدَ أَرْبَع شَهَادَات بِالله إِنَّهُ لمِنْ الصَّادِقِينَ، فَلمَّا كان فِي الخَامِسَة قِيل لهُ: يَا هِلال؛ اتَّقِ الله، فَإِنَّ عَذَاب الدُّنْيَا أَهْوَن مِنْ الآخِرَة، وَإِنَّ هَذِهِ المُوجِبَة الَّتِي تُوجِب عَليْك العَذَاب، فَقَال: وَالله لا يُعَذِّبنِي الله عَليْهَا، كَمَا لمْ يَجْلدنِي عَليْهَا، فَشَهِدَ فِي الخَامِسَة: أَنَّ لعْنَة الله عَليْهِ إِنْ كَانَ مِنْ الكَاذِبِينَ، ثُمَّ قِيل للمَرْأَةِ: اشْهَدِي أَرْبَع شَهَادَات بِالله إِنَّهُ لمِنْ الكَاذِبِينَ، وَقِيل لهَا عِنْد الخَامِسَة: اتَّقِي الله، فَإِنَّ عَذَاب الدُّنْيَا أَهْوَن مِنْ عَذَاب الآخِرَة، وَإِنَّ هَذِهِ المُوجِبَة الَّتِي تُوجِب عَليْك العَذَاب، فَتلكَّأَتْ سَاعَة، ثُمَّ قَالتْ: وَالله لا أَفْضَح قَوْمِي، فَشَهِدَتْ فِي الخَامِسَة: أَنَّ غَضَب الله عَليْهَا إِنْ كَانَ مِنْ الصَّادِقِينَ، فَفَرَّقَ رَسُول الله ﷺ بَيْنهمَا، وَقَضَى أَنْ لا يُدْعَى وَلدهَا لأَبٍ وَلا يُرْمَى وَلدهَا، وَمَنْ رَمَاهَا أَوْ رَمَى وَلدهَا فَعَليْهِ الحَدّ، وَقَضَى أَنْ لا بَيْت لهَا عَليْهِ وَلا قُوت لهَا، مِنْ أَجْل أَنَّهمَا يتفرقان مِنْ غَيْر طَلاق وَلا مُتَوَفًّى عَنْهَا، وَقَال: «**إِنْ جَاءَتْ بِهِ أُصَيْهِب أُرَيْسح حَمْش السَّاقَيْنِ فَهُوَ لهِلالٍ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَوْرَقَ جَعْدًا جُمَاليًّا خَدَلَّج السَّاقَيْنِ سَابِغ الأَليتَيْنِ فَهُوَ للَّذِي رُمِيَتْ بِهِ**». فَجَاءَتْ بِهِ أَوْرَق جَعْدًا جُمَاليًّا خَدَلَّج السَّاقَيْنِ سَابِغ الأَليَتَيْنِ، فَقَال رَسُول الله ﷺ : «**لوْلا الأَيْمَان لكَانَ لي وَلهَا شَأْن**». قَال عِكْرِمَة: فَكَانَ بَعْد ذَلكَ أَمِيرًا عَلى مِصْر، وَكَانَ يُدْعَى لأُمِّهِ وَلا يُدْعَى لأَبٍ.[1] وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد عَنْ الحَسَن بْن عَليّ عَنْ يَزِيد بْن هَارُون بِهِ نَحْوه مُخْتَصَرًا.

وَهَذَا الحَدِيث شَوَاهِد كَثِيرَة فِي الصِّحَاح وَغَيْرهَا مِنْ وُجُوه كَثِيرَة، فَمِنْهَا مَا قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عَدِيّ، عَنْ هِشَام بْن حَسَّان، حَدَّثَنِي عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ هِلال بْن أُمَيَّة قَذَفَ امْرَأَته

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد (١/ ٢٣٨)، وأبو داود (٢٢٥٦)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٢١٠١).

عِنْد النَّبِيّ ﷺ بِشَرِيكِ بْن سَحْمَاء، فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «**البَيِّنَة أَوْ حدّ فِي ظَهْرك**» فَقَال: يَا رَسُول الله! إِذَا رَأَى أَحدنَا عَلى امْرَأَته رَجُلًا يَنْطَلق يَلْتَمِس البَيِّنَة؟ فَجَعَل النَّبِيّ ﷺ يَقُول: «**البَيِّنَة وَإلاّ حدّ فِي ظَهْرك**». فَقَال هِلال: وَالَّذِي بَعَثَك بِالحَقِّ إِنِّي لَصَادِق، وَلَيُنْزِلنَّ الله مَا يُبَرِّئ ظَهْرِي مِنْ الحَدّ، فَنَزَل جِبْرِيل وَأَنْزَل عَلَيْهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ -فقرأ حَتَّى بَلغَ- ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فَانْصَرَفَ النَّبِيّ ﷺ فَأَرْسَل إِلَيْهِمَا فَجَاءَ هِلال فَشَهِد، وَالنَّبِيّ ﷺ يَقُول: «**إِنَّ الله يَعْلم أَنَّ أَحَدكُمَا كَاذِب، فَهَل مِنكُمَا تَائِب**». ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ، فَلَمَّا كَانَ عند الخَامِسَة وَقَفُوهَا وَقَالُوا: إِنَّهَا مُوجِبَة. قَال ابْن عَبَّاس: فَتَلَكَّأَتْ وَنَكَصَتْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِع، ثُمَّ قَالَتْ: لا أَفْضَح قَوْمِي سَائِر اليَوْم، فَمَضَتْ، فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «**أَبْصِرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَل العَيْنَيْنِ سَابِغ الأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَّج السَّاقَيْنِ فَهُوَ لِشَرِيك بْن سَحْمَاء**». فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلكَ. فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «**لَوْلا مَا مَضَى مِنْ كِتَاب الله لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْن**»[1]. انْفَرَدَ بِهِ البُخَارِيّ مِنْ هَذَا الوَجْه، وَقَدْ رَوَاهُ مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ ابْن عَبَّاس وَغَيْره.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مَنْصُور الرَّمَادِيّ، حَدَّثَنَا يُونُس بْن مُحَمَّد حَدَّثَنَا صَالح -وَهُوَ ابْن عُمَر- حَدَّثَنَا عَاصِم -يَعْنِي ابْن كُلَيْب- عَنْ أَبِيهِ، حَدَّثَنِي ابْن عَبَّاس قَال: جَاءَ رَجُل إِلى رَسُول الله ﷺ فَرَمَى امْرَأَته بِرَجُلٍ فَكَرِهَ، ذَلكَ رَسُول الله ﷺ فَلَمْ يَزَل يُرَدِّدُهُ حَتَّى أَنْزَل الله تَعَالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾ فَقَرَأَ حَتَّى فَرَغَ مِنْ الآيَتَيْنِ، فَأَرْسَل إِلَيْهِمَا فَدَعَاهُمَا فَقَال: «**إِنَّ الله تَعَالى قَدْ أَنْزَل فِيكُمَا**». فَدَعَا الرَّجُل فَقَرَأَ عَلَيْهِ فَشَهِدَ أَرْبَع شَهَادَات بِالله إِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأَمْسَكَ عَلى فِيهِ، فَوَعَظَهُ فَقَال لَهُ: كُلّ شَيْء أَهْوَن عَلَيْهِ مِنْ لَعْنَة الله، ثُمَّ أَرْسَلهُ فَقَال: لَعْنَة الله عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنْ الكَاذِبِينَ، ثُمَّ دَعَاهَا فَقَرَأَ عَليْهَا فَشَهِدَتْ أَرْبَع شَهَادَات بِالله إِنَّهُ مِنْ الكَاذِبِينَ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَأَمْسَكَ عَلى فِيهَا فَوَعَظَهَا، وَقَال: وَيْحك كُلّ شَيْء أَهْوَن مِنْ غَضَب الله، ثُمَّ أَرْسَلهَا فَقَالَتْ: غَضَب الله عَليْهَا إِنْ كَانَ مِنْ الصَّادِقِينَ. فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**أَمَا وَالله لأَقْضِيَنَّ بَيْنكُمَا قَضَاء فَصْلاً**». قَال: فَوَلَدَتْ فَمَا رَأَيْت مَوْلُودًا بِالمَدِينَةِ أَكْثَر غَاشِية مِنْهُ، فَقَال: «**إِنْ جَاءَتْ بِهِ لكَذَا وَكَذَا فَهُوَ لكَذا، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ لكَذَا وَكَذَا فَهُوَ لكَذَا**» فَجَاءَتْ بِهِ يُشْبِه الَّذِي قُذِفَتْ بِهِ.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا عَبْد المَلك بْن أَبِي سُلَيْمَان، قَال: سَمِعْت سَعِيد بْن جُبَيْر: قَال سُئِلت عَنْ المُتَلاعِنَيْنِ أَيُفَرَّقُ بَيْنهمَا؟ -فِي إِمَارَة ابْن الزُّبَيْر- فَمَا دَرَيْت مَا أَقُول، فَقُمْت مِنْ مَكَانِي إِلى مَنْزِل ابْن عُمَر، فَقُلت: يَا أَبَا عَبْد الرَّحْمَن؛ المُتَلاعِنَانِ أَيُفَرَّقُ بَيْنهمَا؟ فَقَال: سُبْحَان الله، إِنَّ أَوَّل مَنْ سَأَل عَنْ ذَلكَ فُلان ابْن فُلان، فَقَال: يَا رَسُول الله! أَرَأَيْت الرَّجُل يَرَى امْرَأَته عَلى فَاحِشَة، فَإِنْ تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ بِأَمْرٍ عَظِيم، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلى مِثْل ذَلكَ؟ فَسَكَتَ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَلَمَّا كَانَ بَعْد ذَلكَ، أَتَاهُ فَقَال الَّذِي سَأَلتُك عَنْهُ قَدْ ابْتُلِيت بِهِ؟ فَأَنْزَل الله تَعَالى هَذِهِ الآيَات فِي سُورَة النُّور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ حَتَّى بَلغَ ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فَبَدَأَ بِالرَّجُل فَوَعَظَهُ، وَذَكَّرَهُ وَأَخْبَرَهُ أَنَّ عَذَاب الدُّنْيَا أَهْوَن مِنْ عَذَاب الآخِرَة؛ فَقَال: وَالَّذِي بَعَثَك بِالحَقِّ مَا كَذَبْتك ثُمَّ ثَنَّى بِالمَرْأَةِ فَوَعَظَهَا وَذَكَّرَهَا وَأَخْبَرَهَا أَنَّ عَذَاب الدُّنْيَا أَهْوَن مِنْ عَذَاب الآخِرَة، فَقَالَتْ المَرْأَة: وَالَّذِي بَعَثَك بِالحَقِّ إِنَّهُ لَكَاذِب. قَال: فَبَدَأَ بِالرَّجُل فَشَهِدَ أَرْبَع شَهَادَات بِالله إِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ، وَالخَامِسَة أَنَّ لَعْنَة الله عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنْ الكَاذِبِينَ، ثُمَّ ثَنَّى بِالمَرْأَةِ، فَشَهِدَتْ أَرْبَع شَهَادَات بِالله إِنَّهُ لَمِنْ الكَاذِبِينَ، وَالخَامِسَة أَنَّ غَضَب الله

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٧٣، ٤٧٤٧، ٥٣٠٧).

عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ، ثُمَّ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا. رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ حَدِيث عَبْد المَلك بْن أَبِي سُلَيْمَان بِهِ. وَأَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن حَمَّاد حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَة، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم عَنْ عَلقَمَة، عَنْ عَبْد الله قَال: كُنَّا جُلُوسًا عَشِيَّة الجُمُعَة فِي المَسْجِد، فَقَال رَجُل مِنْ الأَنْصَار: أَحدنَا إِذَا رَأَى مَعَ امْرَأَته رَجُلًا فقتَلهُ قَتلتُمُوهُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ جَلدْتُمُوهُ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلى غَيْظ؟! وَالله لَئِنْ أَصْبَحْت صالحًا لأَسْأَلَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: فَسَأَلهُ، فقَال: يَا رَسُول الله! إِنَّ أَحدنَا إِذَا رَأَى مَعَ امْرَأَته رَجُلًا فقتَلهُ قَتلتُمُوهُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ جَلدْتُمُوهُ، وَإِن سَكَتَ سَكَتَ عَلى غَيْظ، اللَّهُمَّ احْكُمْ، قَال: فأنزلت آيَة اللِّعَان فكَانَ ذَلكَ الرَّجُل أَوَّل مَنْ ابْتُلِيَ بِهِ. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلم، فَرَوَاهُ مِنْ طُرُق عَنْ سُلَيْمَان بْن مِهْرَان الأَعْمَش بِهِ.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو كَامِل، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن سَعْد، حَدَّثَنَا ابْن شِهَاب، عَنْ سَهْل بْن سَعْد قَال: جَاءَ عُوَيْمِر إِلى عَاصِم بْن عَدِيّ، فَقَال لهُ: سَل رَسُول الله ﷺ أَرَأَيت رَجُلًا وَجَدَ رَجُلًا مَعَ امْرَأَته، فقتَلهُ أَيُقْتَلُ بِهِ، أَمْ كَيْف يَصْنَع؟ فَسَأَل عَاصِم رَسُول الله ﷺ، فَعَابَ رَسُول الله ﷺ المَسَائِل، قَال: فَلقِيَهُ عُوَيْمِر فَقَال: مَا صَنَعْت؟ قَال: مَا صَنَعْت! إِنَّك لمْ تَأْتِنِي بِخَيْرٍ، سَأَلت رَسُول الله ﷺ فَعَابَ المَسَائِل، فَقَال عُوَيْمِر: وَالله لآتِيَنَّ رَسُول الله ﷺ فَلأَسْأَلنَّهُ. فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ قَدْ أُنْزِل عَليْهِ فِيهَا. قَال: فَدَعَا بِهِمَا وَلاعَنَ بَيْنهمَا. قَال عُوَيْمِر: إِنْ انْطَلَقْت بِهَا يَا رَسُول الله لقَدْ كَذَبْت عَليْهَا. قَال: فَفَارَقَهَا قَبْل أَنْ يَأْمُرُهُ رَسُول الله ﷺ فَصَارَتْ سُنَّة المُتَلاعِنَيْنِ. وَقَال رَسُول الله ﷺ: «**أَبْصِرُوهَا؛ فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَم أَدْعَج العَيْنَيْنِ عَظِيم الأَلْيَتَيْنِ، فَلا أَرَاهُ إِلاَّ قَدْ صَدَقَ. وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أُحَيْمِر كَأَنَّهُ وَحَرَة فَلا أَرَاهُ إِلاَّ كَاذِبًا**». فَجَاءَتْ بِهِ عَلى النَّعْت المَكْرُوه.[1] أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» وَبَقِيَّة الجَمَاعَة إِلَّا التِّرْمِذِيّ مِنْ طُرُق عَنْ الزُّهْرِيّ بِهِ. ورواه البخاري أيضًا من طرق عن الزهري به، [فَقَال: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن دَاوُد أَبُو الرَّبِيع، حَدَّثَنَا فُلَيْح، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ سَهْل بْن سَعْد، أَنَّ رَجُلًا أَتَى رَسُول الله ﷺ فَقَال: يَا رَسُول الله! أَرَأَيت رَجُلًا رَأَى مَعَ امْرَأَته رَجُلًا أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْف يَفْعَل؟ فَأَنْزَل الله تَعَالى فِيهِمَا مَا ذَكَرَ فِي القُرْآن مِنْ التَّلاعُن، فَقَال لهُ رَسُول الله ﷺ: «**قَدْ قَضَى فِيك وَفِي امْرَأَتك**». قَال: فَتَلاعَنَا وَأَنَا شَاهِد عِنْد رَسُول الله ﷺ فَفَارَقَهَا، فَكَانَتْ سُنَّة أَنْ يُفَرَّق بَيْن المُتَلاعِنَيْنِ. وَكَانَت حَامِلًا فَأَنْكَرَ حَمْلهَا وَكَانَ ابْنهَا يُدْعَى إِليْهَا. ثُمَّ جَرَتْ السُّنَّة فِي المِيرَاث أَنْ يَرِثهَا وَتَرِث مِنْهُ مَا فَرَضَ الله لهَا][2].

وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن الضَّيْف، حَدَّثَنَا النَّضْر بْن شُمَيْل، حَدَّثَنَا يُونُس بْن أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ زَيْد بْن يثيع عَنْ حُذَيْفَة ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ لأَبِي بَكْر: «**لَوْ رَأَيْت مَعَ أُمّ رُومَان رَجُلاً مَا كُنْت فَاعِلاً بِهِ؟**». قَال: كُنْت وَالله فَاعِلًا بِهِ شَرًّا، قَال: «**فَأَنْتَ يَا عُمَر؟**». قَال: كُنْت وَالله فَاعِلًا، كُنْت أَقُول: لعَنَ الله الأَعْجَز فَإِنَّهُ خَبِيث. قَال: فَنَزَلتْ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾[3] ثُمَّ قَال: لا نَعْلم أَحَدًا أَسْنَدَهُ إِلَّا النَّضْر بْن شُمَيْل عَنْ يُونُس بْن أبي إِسْحَاق، ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ حَدِيث الثَّوْرِيّ عَنْ أَبِي إِسْحَاق عَنْ زَيْد بْن يثيع مُرْسَلًا، فَالله أَعْلم.

وَقَال الحَافِظ أَبُو يَعْلى: حَدَّثَنَا مُسْلم بْن أَبِي مُسْلم الجَرْمِيّ، حَدَّثَنَا مَخْلد بْن الحُسَيْن، عَنْ هِشَام عَنْ

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٧٤٥)، ومسلم (١٤٩٢).
(٢) سقط من [ز].
(٣) **ضعيف الإسناد**: أخرجه البزار (٢٢٣٧)، فيه إسحاق بن الضيف: صدوق يخطئ ولم يتابعه أحد.

ابْن سِيرِينَ عَنْ أَنَس بْن مَالك ﷺ قَال: لأَوَّل لعَان كَانَ فِي الإِسْلام: أَنَّ شَرِيك بْن سَحْمَاء قَذَفَهُ هِلال بْن أُمَيَّة بِامْرَأَتِه، فَرَفعَتْهُ إِلى رَسُول الله ﷺ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**أَرْبَعَة شُهُود، وَإِلاَّ فَحدّ فِي ظَهْرك**». فَقَال: يَا رَسُول الله؛ إِنَّ الله يَعْلم أَنِّي لصَادِق وَلَيُنْزِلنَّ الله عَلَيْك مَا يُبَرِّئ بِهِ ظَهْرِي مِنْ الجلد، فَأَنْزَل الله آيَة اللِّعَان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ إِلى آخِر الآيَة، قَال: فَدَعَاهُ النَّبِيّ ﷺ فَقَال: «**اشْهَدْ بِالله إِنَّك لِمنْ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَيْتها بِهِ مِنْ الزِّنَا**». فَشَهِدَ بِذلكَ أَرْبَع شَهَادَات، ثُمَّ قَال لهُ فِي الخَامِسَة: «**وَلعْنَة الله عَلَيْك إِنْ كُنْت مِنْ الكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَيْتها بِهِ مِنْ الزِّنَا**»، فَفَعَل، ثُمَّ دَعَاهَا رَسُول الله ﷺ فَقَال: «**قُومِي فَاشْهَدِي بِالله إِنَّهُ لِمنْ الكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَاك بِهِ مِنْ الزِّنَا**» فَشَهِدَتْ بِذَلِكَ أَرْبَع شَهَادَات، ثُمَّ قَال لهَا فِي الخَامِسَة: «**وَغَضَب الله عَلَيْك إِنْ كَانَ مِنْ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَاك بِهِ مِنْ الزِّنَا**». قَال: فَلَمَّا كَانَتْ الرَّابِعَة أَوْ الخَامِسَة سَكَتَتْ سَكْتَة حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا سَتَعْتَرِف، ثُمَّ قَالتْ: لا أَفْضَح قَوْمِي سَائِر اليَوْم، فَمَضَتْ عَلى القَوْل، فَفَرَّقَ رَسُول الله ﷺ بَيْنَهمَا، وَقَال: «**انْظُرُوه، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ جَعْدًا حَمْش السَّاقَيْنِ فَهُوَ لِشَرِيك بْن سَحْمَاء، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَبْيَض سَبْطًا قَضِئ العَيْنَيْنِ فَهُوَ لهِلال بْن أُمَيَّة**» فَجَاءَتْ بِهِ آدم جَعْدًا حَمْش السَّاقَيْنِ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**لوْلا مَا نَزَل فِيهِمَا مِنْ كِتَاب الله لكَانَ لي وَلهَا شَأْن**».[1]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

هَذِهِ العَشْر الآيَات كُلّهَا نَزَلتْ فِي شَأْن عَائِشَة أُمّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها حِين رَمَاهَا أَهْل الإِفْك وَالبُهْتَان مِنْ المُنَافِقِينَ بِمَا قَالُوهُ مِنْ الكَذِب البَحْت، وَالفِرْيَة الَّتِي غَارَ الله عز وجل لهَا وَلنَبِيِّهِ ﷺ، فَأَنْزَل الله تَعَالى بَرَاءَتهَا صِيَانَة لعِرْضِ رَسُول الله ﷺ، فَقَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ أَيْ: جَمَاعَة مِنْكُمْ، يَعْنِي: مَا هُوَ وَاحِد وَلا اثْنَانِ بَل جَمَاعَة، فَكَانَ المُقَدَّم فِي هَذِهِ اللَّعْنَة: عَبْد الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول رَأْس المُنَافِقِينَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَجْمَعهُ وَيَسْتَوْشِيه، حَتَّى دخل ذَلكَ فِي أَذْهَان بَعْض المُسْلمِينَ، فتكَلَّمُوا بِهِ وَجَوَّزَهُ آخَرُونَ مِنْهُمْ، وَبَقِيَ الأَمْر كَذَلكَ قَرِيبًا مِنْ شَهْر حَتَّى نَزَل القُرْآن وسياق ذَلكَ فِي الأَحَادِيث الصَّحِيحَة.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ قَال: أَخْبَرَنِي سَعِيد بْن المُسَيِّب، وَعُرْوَة بْن الزُّبَيْر، وَعَلقَمَة بْن وَقَّاص، وَعُبَيْد الله بْن عَبْد الله بْن عُتْبَة بْن مَسْعُود، عَنْ حَدِيث عَائِشَة زَوْج النَّبِيّ ﷺ، حِين قَال لهَا أَهْل الإِفْك مَا قَالُوا فَبَرَّأَهَا الله تَعَالى، وَكُلّهم قَدْ حَدَّثَنِي بِطَائِفَة مِنْ حَدِيثهَا، وَبَعْضهمْ كَانَ أَوْعَى لحَدِيثهَا مِنْ بَعْض، وَأَثْبَت لهُ اقْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْت عَنْ كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الحَدِيث الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَة وَبَعْض حَدِيثهمْ يُصَدِّق بَعْضًا: ذَكَرُوا أَنَّ عَائِشَة رضي الله عنها زَوْج النَّبِيّ ﷺ قَالتْ: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُج لسَفَرٍ أَقْرَعَ بَيْن نِسَائِهِ، فَأَيَّتهنَّ خَرَجَ سَهْمهَا خَرَجَ بِهَا رَسُول الله ﷺ مَعَهُ. قَالتْ عَائِشَة رضي الله عنها: فَأَقْرَعَ بَيْننَا فِي غَزْوَة غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، وَخَرَجْت مَعَ رَسُول الله ﷺ، وَذَلكَ بَعْدَمَا نَزَل الحِجَاب، فَأَنَا أُحْمَل فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَل فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُول الله ﷺ مِنْ غَزْوِه، وَقَفَل وَدَنَوْنَا مِنْ المَدِينَة آذَن لَيْلة بِالرَّحِيل، فَقُمْت حِين آذَنوا بِالرَّحِيل، فَمَشَيْت حَتَّى جَاوَزْت الجَيْش فَلَمَّا قَضَيْت شَأْنِي، أَقْبَلت إِلى الرحل، فَلَمَسْت صَدْرِي، فَإِذَا عِقْد مِنْ جَزْع ظَفَار قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْت فَالتَمَسْت عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، وَأَقْبَل الرَّهْط الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونَنِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلى بَعِيرِي الَّذِي كُنْت أَرْكَب وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنِّي فِيهِ. قَالتْ: وَكَانَ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٩٦)، وأبو يعلى (٢٨٢٤).

النِّسَاء إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبلن وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْم؛ إِنَّمَا يَأْكُلنَ العَلقَة مِنَ الطَّعَام، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْم خِفَّة الهَوْدَج حِين رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْت جَارِيَة حَدِيثَة السِّنّ فبَعَثُوا الجَمَل وَسَارُوا، وَوَجَدْت عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الجَيْش فَجِئْت مَنَازِلهمْ، وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ وَلا مُجِيب، فتَيَمَّمْت مَنْزِلِي الَّذِي كُنْت فِيهِ، وَظَنَنْت أَنَّ القَوْم سَيَفْقِدُونَنِي، فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَة فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْت، وَكَانَ صَفْوَان بْن المُعَطَّل السُّلَمِيّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيّ قَدْ عَرَّسَ مِنْ وَرَاء الجَيْش فَأَدْلَجَ فَأَصْبَحَ عِنْد مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَاد إِنْسَان نَائِم فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِين رَآنِي، وَكَانَ قَدْ رَآنِي قَبْل أن يضرب الحِجَاب، فَاسْتَيْقَظْت بِاسْتِرْجَاعِهِ حِين عَرَفَنِي، فَخَمَّرْت وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَاللهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَة، وَلا سَمِعْت مِنْهُ كَلِمَة غَيْر اسْتِرْجَاعه حتى أَنَاخَ رَاحِلته فَوَطِئَ عَلَى يَدهَا فَرَكِبْتهَا، فَانْطَلَقَ يَقُود بِي الرَّاحِلة حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْش بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْر الظَّهِيرَة، فَهَلكَ مَنْ هَلكَ مِنْ شَأْنِي، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْره عَبْد الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول، فَقَدِمتُ المَدِينَة فَاشْتَكَيْت حِين قَدِمْنَا شَهْرًا، وَالنَّاس يُفِيضُونَ فِي قَوْل أَهْل الإِفْك، وَلا أَشْعُر بِشَيْءٍ مِنْ ذَلكَ، وَهُوَ يَرِيبنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لا أعرف مِنْ رَسُول الله ﷺ اللُّطْف الَّذِي كنت أَرَى مِنْهُ حِين أَشْتكِي، إِنَّمَا يَدْخُل رَسُول الله ﷺ فيُسَلِّم. ثُمَّ يَقُول: «**كيف تِيكُمْ؟**».

فذَلكَ الَّذِي يَرِيبنِي، وَلا أَشْعُر بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْت بَعْدَمَا نَقِهْت وَخَرَجَتْ مَعِي أُمّ مِسْطَح قِبَل المَنَاصِع -وَهُوَ مُتَبَرَّزنَا- وَلا نَخْرُج إِلَّا لَيْلًا إِلى لَيْل، وَذَلكَ قَبْل أَنْ نَتَّخِذ الكُنُف قَرِيبًا مِنْ بُيُوتنَا، وَأَمْرنَا أَمْر العَرَب الأُوَل فِي التَّنَزُّه فِي البَرِّيَّة، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذهَا فِي بُيُوتنَا، فَانْطَلَقْت أَنَا وَأُمّ مِسْطَح وَهِيَ بِنْت أَبِي رُهْم ابْن المُطَّلب بن عبد المطلب بْن عَبْد مَنَاف وَأُمّهَا ابْنَة صَخْر بْن عَامِر خَالة أَبِي بَكْر الصِّدِّيق، وَابْنهَا مِسْطَح بْن أُثَاثَة بْن عَبَّاد بْن عَبْد المُطَّلب فَأَقْبَلت أَنَا وَابْنَة أَبِي رُهْم أُمّ مِسْطَح قِبَل بَيْتِي حِين فَرَغْنَا مِنْ شَأْننَا، فَعَثَرَتْ أُمّ مِسْطَح فِي مِرْطهَا، فَقَالتْ: تَعِسَ مِسْطَح! فَقُلت لهَا: بِئْسَمَا قُلت! تَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ فَقَالتْ: أَيْ هَنْتَاه أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَال؟ قُلت: وَمَاذَا قَال؟ قَالتْ: فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْل أَهْل الإِفْك، فَازْدَدْت مَرَضًا إِلى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْت إِلى بَيْتِي، فدَخَل عَليَّ رَسُول الله ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَال: «**كيف تِيكُمْ؟**». فَقُلت لهُ: أَتَأْذَنُ لي أَنْ آتِي أَبَوَيَّ؟ قَالتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيد أَنْ أَتيَقَّن الخَبَر مِنْ قِبَلهمَا، فَأَذِنَ لي رَسُول الله ﷺ فَجِئْت أَبَوَيَّ، فَقُلت لأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ مَا يَتَحَدَّث النَّاس؟ فَقَالتْ: أَيْ بُنَيَّة هَوِّنِي عَليْك، فَوَاللهِ لقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَة قَطُّ وَضِيئَة عِنْد رَجُل يُحِبّهَا وَلهَا ضَرَائِر إِلَّا أَكْثَرْنَ عَليْهَا. قَالتْ: فَقُلت: سُبْحَان الله، أَوَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاس بِهَا؟ قالت: فَبَكَيْت تِلكَ اللَّيْلة، حَتَّى أَصْبَحْت لا يُرْقَأ لي دَمْع وَلا أَكْتَحِل بِنَوْم ثُمَّ أَصْبَحْت أَبْكِي، قَالتْ: فَدَعَا رَسُول الله ﷺ عَليّ بْن أَبِي طَالب، وَأُسَامَة بْن زَيْد حِين اسْتَلبَثَ الوَحْي يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرهُمَا فِي فِرَاق أَهْله، قَالتْ: فَأَمَّا أُسَامَة بْن زَيْد فَأَشَارَ عَلى رَسُول الله ﷺ بِالَّذِي يَعْلم مِنْ بَرَاءَة أَهْله، وَبِالَّذِي يَعْلم فِي نَفْسه لهُمْ مِنْ الوُدّ، فَقَال: يَا رَسُول الله، هم أَهْلك، وَلا نَعْلم إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا عَليّ بْن أَبِي طَالب فَقَال: لمْ يُضَيِّق الله عَليْك وَالنِّسَاء سِوَاهَا كَثِير، وَإِنْ تَسْأَل الجَارِيَة تَصْدُقك الخَبَر، قَالتْ: فَدَعَا رَسُول الله ﷺ بَرِيرَة فَقَال: «**أَيْ بَرِيرَة؛ هَل رَأَيْت مِنْ شَيْء يَرِيبك مِنْ عَائِشَة**». فَقَالتْ لهُ بَرِيرَة: وَالَّذِي بَعَثَك بِالحَقِّ إِنْ رَأَيْت عليها أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصهُ عَليْهَا أَكْثَر مِنْ أَنَّهَا جَارِيَة حَدِيثَة السِّنّ، تَنَام عَنْ عَجِين أَهْلهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِن فتَأْكُلهُ. فَقَامَ رَسُول الله ﷺ مِنْ يَوْمه فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْد الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول. قَالتْ: فَقَال رَسُول الله ﷺ وَهُوَ عَلى المِنْبَر: «**يَا مَعْشَر المُسْلمِينَ، مَنْ يَعْذرنِي مِنْ رَجُل قَدْ بَلغَنِي أَذَاهُ فِي أهل بيتي، فَوَاللهِ مَا عَلمْت عَلى أَهْلي إِلاَّ خَيْرًا، وَلقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلمْت عَليْهِ إِلاَّ خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُل عَلى أَهْلي إِلاَّ مَعِي**».

فَقَامَ سَعْد بْن مُعَاذ الأَنْصَارِيّ ﷺ فَقَال: أَنَا أَعْذِرك مِنْهُ يَا رَسُول الله، إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْس ضَرَبْنَا عُنُقه، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَج أَمَرْتَنَا فَفَعَلنَا بِأَمْرِك. قَالتْ: فَقَامَ سَعْد بْن عُبَادَة وَهُوَ سَيِّد الخَزْرَج وَكَانَ رَجُلًا صَالِحًا وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّة، فَقَال لِسَعْدِ بْن مُعَاذ: كَذَبْت لعَمْر الله لا تَقْتُلهُ وَلا تَقْدِر عَلى قَتْله، فَقَامَ أُسَيْد بْن حُضَيْر وَهُوَ ابْن عَمّ سَعْد بْن مُعَاذ، فَقَال لِسَعْدِ بْن عُبَادَة: كَذَبْت، لعَمْر الله لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّك مُنَافِق تُجَادِل عَنْ المُنَافِقِين، فَتَثَاوَرَ الحَيَّانِ: الأَوْس وَالخَزْرَج حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُول الله ﷺ قَائِم عَلى المِنْبَر، فَلَمْ يَزَل رَسُول الله ﷺ يُخَفِّضهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ رَسُول الله ﷺ . قَالتْ: وَبَكَيْت يَوْمِي ذَلِكَ لا يُرْقَأ لِي دَمْع وَلا أَكْتَحِل بِنَوْم، وَأَبَوَايَ يَظُنَّانِ أَنَّ البُكَاء فَالِق كَبِدِي. قَالتْ: فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي إِذْ اسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَة مِنَ الأَنْصَار فَأَذِنْت لهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلى ذَلِكَ إِذْ دَخَل عَلَيْنَا رَسُول الله ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ. قَالتْ: وَلَمْ يَجْلس عِنْدِي مُنْذُ قِيل مَا قِيل، وَقَدْ لبِثَ شَهْرًا لا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْء، قَالتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُول الله ﷺ حِين جَلسَ، ثُمَّ قَال: **«أَمَّا بَعْد، يَا عَائِشَة؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلغَنِي عَنْك كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْت بَرِيئَة فَسَيُبَرِّئُك الله، وَإِنْ كُنْت أَلْمَمْت بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي الله، ثم تُوبِي إِليْهِ، فَإِنَّ العَبْد إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثم تَاب، تَابَ الله عَليْهِ»**. قَالتْ: فَلمَّا قَضَى رَسُول الله ﷺ مَقَالته قَلصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسّ مِنْهُ قَطْرَة، فَقُلت لأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُول الله ﷺ ، فَقَال: وَالله مَا أَدْرِي مَا أَقُول لرَسُول الله ﷺ . فَقُلت لأُمِّي: أَجِيبِي رَسُول الله ﷺ ، فَقَالتْ: وَالله مَا أَدْرِي مَا أَقُول لرَسُول الله ﷺ ، قَالتْ: فَقُلت -وَأَنَا جَارِيَة حَدِيثَة السِّنّ لا أَقْرَأ كَثِيرًا مِنْ القُرْآن-: وَالله لقَدْ عرفت إنكم قد سَمِعْتُمْ بِهَذَا الحَدِيث، حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلئِنْ قُلت لكُمْ: إِنِّي بَرِيئَة وَالله يَعْلم أَنِّي بَرِيئَة لا تُصَدِّقُونِي، وَلئِنْ اعْتَرَفْت بِأَمْرٍ -وَالله ﷻ يَعْلم أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَة- تُصَدِّقُونِي، فَوَالله مَا أَجِد لِي وَلكُمْ مَثَلًا إِلَّا كَمَا قَال أَبُو يُوسُف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ قَالتْ: ثُمَّ تَحَوَّلت، فَاضْطَجَعْت عَلى فِرَاشِي، قَالتْ: وَأَنَا وَالله حِينَئِذٍ أَعْلم أَنِّي بَرِيئَة، وَأَنَّ الله تَعَالى مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلكِنْ وَالله مَا كُنْت أَظُنّ أَنْ يَنْزِل فِي شَأْنِي وَحْي يُتْلى، وَلشَأْنِي كَانَ أَحْقَر فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّم الله فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلى، وَلكِنْ كُنْت أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُول الله ﷺ فِي النَّوْم رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي الله بِهَا. قَالتْ: فَوَالله مَا رَامَ رَسُول الله ﷺ مَجْلسه، وَلا خَرَجَ مِنْ أَهْل البَيْت أَحَد حَتَّى أَنْزَل الله تَعَالى عَلى نَبِيّه، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذهُ مِنْ البُرَحَاء عِنْد الوَحْي حَتَّى إِنَّهُ ليَتَحَدَّر مِنْهُ مِثْل الجُمَان مِنْ العَرَق فِي اليوم الشاتي مِنْ ثِقَل القَوْل الَّذِي أُنْزِل عَليْهِ. قَالتْ: فلما سُرِّيَ عَنْ رَسُول الله ﷺ وَهُوَ يَضْحَك، فَكَانَ أَوَّل كَلمَة تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَال: **«أَبْشِرِي يَا عَائِشَة، أَمَّا الله ﷻ فَقَدْ بَرَّأَك»**. قَالتْ: فَقَالتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِليْهِ، فَقُلت: وَالله لا أَقُوم إِليْهِ وَلا أَحْمَد إِلَّا الله ﷻ، هُوَ الَّذِي أَنْزَل بَرَاءَتِي، وَأَنْزَل الله ﷻ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العَشْر الآيَات كُلّهَا، فَلمَّا أَنْزَل الله هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالت: فقال أَبُو بَكْر ﷺ -وَكَانَ يُنْفِق عَلى مِسْطَح بْن أُثَاثَة لقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْره-: وَالله لا أُنْفِق عَليْهِ شَيْئًا أَبَدًا بَعْد الَّذِي قَال لعَائِشَة. فَأَنْزَل الله تَعَالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إِلى قَوْله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فَقَال أَبُو بَكْر: بَلى وَالله إِنِّي لأُحِبّ أَنْ يَغْفِر الله لِي، فَرَجَّعَ إِلى مِسْطَح النَّفَقَة الَّتِي كَانَ يُنْفِق عَليْهِ، وَقَال: وَالله لا أَنْزِعهَا مِنْهُ أَبَدًا.

قَالتْ عَائِشَة: وَكَانَ رَسُول الله ﷺ يَسْأَل زَيْنَب بِنْت جَحْش زَوْج النَّبِيّ ﷺ عَنْ أَمْرِي: **«مَا علمْت أَوْ ما رَأَيْت؟»**. فَقَالتْ: يَا رَسُول الله؛ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَالله مَا عَلمْت إِلَّا خَيْرًا. قَالتْ عَائِشَة: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ ، فَعَصَمَهَا الله تَعَالى بِالوَرَع، وَطَفِقَتْ أُخْتهَا حَمْنَة بِنْت جَحْش تُحَارِب لهَا فَهَلكَتْ

فِيمَنْ هَلكَ. قَال ابْن شِهَاب: فَهَذَا مَا انْتَهَى إِلَيْنَا مِنْ أَمْر هَؤُلاءِ الرَّهْط.[1] أَخْرَجَهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم فِي «صَحِيحَيْهِمَا» مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن إِسْحَاق عَنْ الزُّهْرِيّ كَذَلكَ قَال: وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْن عَبَّاد ابْن عَبْد الله بْن الزُّبَيْر، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة ﵂، وَحَدَّثَنِي عَبْد الله بْن أَبِي بَكْر ابْن مُحَمَّد بْن عَمْرو بْن حَزْم الأَنْصَارِيّ عَنْ عَمْرَة عَنْ عَائِشَة بِنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ، وَالله أَعْلَم.

ثُمَّ قَال البُخَارِيّ: وَقَال أَبُو أُسَامَة، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة قَال: أَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ عَائِشَة ﵂ قَالَتْ: لـمَّا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِي الَّذِي ذُكِرَ وَمَا عَلمْت بِهِ. قَامَ رَسُول الله ﷺ فِيَّ خَطِيبًا فَتَشَهَّدَ فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْله. ثُمَّ قَال: **«أَمَّا بَعْد، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاس أَبَنُوا أَهْلي، وَايْم الله، مَا عَلمْت عَلى أَهْلي مِنْ سُوء. وَأَبَنُوهُمْ بِمَنْ؟ وَالله مَا عَلمْت عَلَيْهِ مِنْ سُوء قَطُّ، وَلا يَدْخُل بَيْتِي قَطُّ إِلاَّ وَأَنَا حَاضِر، وَلا غِبْت فِي سَفَر إِلاَّ غَابَ مَعِي»**. فَقَامَ سَعْد ابْن مُعَاذ الأَنْصَارِيّ فَقَال: ائْذَنْ لِي، يا رسول الله، أَنْ أَضْرِب أَعْنَاقهمْ، فَقَامَ رَجُل مِنَ الخَزْرَج، وَكَانَتْ أُمّ حَسَّان ابْن ثَابِت مِنْ رَهْط ذَلكَ الرَّجُل، فَقَال: كَذَبْت! أَمَا وَالله لوْ كَانُوا مِنَ الأَوْس، مَا أَحْبَبْت أَنْ تَضْرِب أَعْنَاقهمْ. حَتَّى كَادَ أَنْ يَكُون بَيْنَ الأَوْس وَالخَزْرَج شَرّ فِي المَسْجِد وَمَا عَلمْت. فَلَمَّا كَانَ مَسَاء ذَلكَ اليَوْم خَرَجْت لبَعْضِ حَاجَتِي وَمَعِي أُمّ مِسْطَح، فَعَثَرَتْ فَقَالتْ: تَعِسَ مِسْطَح! فَقُلت لهَا: أَيْ أُمّ؛ تَسُبِّينَ ابْنك؟ فَسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرَتْ الثَّانِيَة فَقَالتْ: تَعِسَ مِسْطَح! فَقُلت لهَا: أَيْ أُمّ؛ تَسُبِّينَ ابْنك؟ ثُمَّ عَثَرَتْ الثَّالثَة، فَقَالتْ: تَعِسَ مِسْطَح فَانْتَهَرْتهَا، فَقَالتْ: وَالله مَا أَسُبّهُ إِلَّا فِيك، فَقُلت: فِي أَيّ شَأْنِي؟ قَالتْ: فَبَقَرَتْ لِي الحَدِيث، فَقُلت: وَقَدْ كَانَ هَذَا؟ قَالتْ: نَعَمْ، وَالله. فَرَجَعْت إِلى بَيْتِي كَأَنَّ الَّذِي خَرَجْت لهُ لا أَجِد مِنْهُ قَليلًا وَلا كَثِيرًا، وَوَعَكْت وَقُلت لرَسُول الله ﷺ: أَرْسِلنِي إِلى بَيْت أَبِي، فَأَرْسَل مَعِي الغُلام، فَدَخَلت الدَّار، فَوَجَدْت أُمّ رُومَان فِي السُّفْل، وَأَبَا بَكْر فَوْق البَيْت يَقْرَأ. فَقَالتْ أمي: مَا جَاءَ بِك يَا بُنَيَّة؟ فَأَخْبَرْتهَا، وَذَكَرْت لهَا الحَدِيث، وَإِذَا هُوَ لمْ يَبْلُغ مِنْهَا ما بَلغَ مِنِّي، [فَقَالتْ: يَا بُنَيَّة خَفِّفِي عَليْك الشَّأْن، فَإِنَّهُ وَالله لقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَة قَطُّ حَسْنَاء عِنْد رَجُل يُحِبّهَا لهَا ضَرَائِر إِلَّا حَسَدْنَهَا، وَقِيل فِيهَا][2]. فَقُلت: وَقَدْ عَلمَ بِهِ أَبِي؟ قَالتْ: نَعَمْ. قُلت: وَرَسُول الله ﷺ؟ قَالتْ: نَعَمْ، وَرَسُول الله ﷺ. فَاسْتَعْبَرْت وَبَكَيْت، فَسَمِعَ أَبُو بَكْر صَوْتِي وَهُوَ فَوْق البَيْت يَقْرَأ فَنزَل، فَقَال لأُمِّي: مَا شَأْنهَا؟ قَالتْ: بَلغَهَا الَّذِي ذُكِرَ مِنْ شَأْنهَا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ﵁، فَقَال: أَقْسَمْت عَليْك أي بُنَيَّة إِلَّا ما رَجَعْت إِلى بَيْتك. فَرَجَعْتُ، وَلقَدْ جَاءَ رَسُول الله ﷺ بَيْتِي فَسَأَل عَنِّي خَادِمِي، فَقَالتْ: يَا رَسُول الله، لا وَالله مَا عَلمْت عَليْهَا عَيْبًا إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تَرْقُد حَتَّى تَدْخُل الشَّاة فَتَأْكُل خَمِيرهَا أَوْ عَجِينهَا، وَانْتَهَرَهَا بَعْض أَصْحَابه فَقَال: اصْدُقِي رَسُول الله ﷺ حَتَّى أَسْقَطُوا لهَا بِهِ. فَقَالتْ: سُبْحَان الله! وَالله مَا عَلمْت عَليْهَا إِلَّا مَا يَعْلم الصَّائِغ عَلى تِبْر الذَّهَب الأَحْمَر، وَبَلغَ الأَمْر ذَلكَ الرَّجُل الَّذِي قِيل لهُ. فَقَال: سُبْحَان الله! وَالله مَا كَشَفْت كَنَف أُنْثَى قَطُّ. قَالتْ عَائِشَة ﵂ فَقُتِل شَهِيدًا فِي سَبِيل الله. قَالتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي فَلمْ يَزَالا حَتَّى دَخَل عَليَّ رَسُول الله ﷺ وَقَدْ صَلَّى العَصْر، ثُمَّ دَخَل وَقَدْ اكْتَنَفَنِي أَبَوَايَ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالي، فَحَمِدَ الله تَعَالى وَأَثْنَى عَليْهِ ثُمَّ قَال: **«أَمَّا بَعْد، يَا عَائِشَة، إِنْ كُنْت قَارَفْت سُوءًا أَوْ ظَلمْت فَتُوبِي إِلى الله، فَإِنَّ الله يَقْبَل التَّوْبَة عَنْ عِبَاده»**. قَالتْ: وَقَدْ جَاءَتْ امْرَأَة مِنَ الأَنْصَار فَهِيَ جَالسَة بِالبَابِ، فَقُلت: أَلا تَسْتَحْيِي مِنْ هَذِهِ المَرْأَة أَنْ تَذْكُر شَيْئًا فَوَعَظَ رَسُول الله ﷺ فَالتَفَتّ إِلى، أَبِي فَقُلت لهُ: أَجِبْه. قَال: فَمَاذَا أَقُول؟ فَالتَفَتّ إِلى أُمِّي فَقُلت: أَجِيبِيه. قَالتْ: مَاذَا أَقُول؟ فَلَمَّا لمْ يُجِيبَاهُ تَشَهَّدْت فَحَمِدْت الله وَأَثْنَيْت

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٦١) (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) سقط من [ز].

عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْله، ثُمَّ قُلت: أَمَّا بَعْد فَوَالله إِنْ قُلت لكُمْ: إِنِّي لمْ أَفْعَل وَالله ﷻ يَشْهَد أَنِّي لصَادِقَة- مَا ذَاكَ بِنَافِعِي عِنْدكُمْ، لقَدْ تَكَلَّمْتُمْ بِهِ وَأُشْرِبَتْهُ قُلُوبكُمْ، وَإِنْ قُلت لكُمْ: إِنِّي قَدْ فَعَلت -وَالله يَعْلم أَنِّي لمْ أَفْعَل- لتَقُولُنَّ قَدْ بَاءَتْ بِهِ عَلى نَفْسهَا، وَإِنِّي وَالله مَا أَجِد لي وَلكُمْ مَثَلًا -وَالتَمَسْت اسْم يَعْقُوب فَلمْ أَقْدِر عَلَيْهِ- إِلَّا أَبَا يُوسُف حِين قَال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، وَأَنْزَل الله عَلى رَسُوله ﷺ مِنْ سَاعَته، فَسَكَتْنَا فَرُفِعَ عَنْهُ، وَإِنِّي لأَتَبَيَّن السُّرُور فِي وَجْهه وَهُوَ يَمْسَح جَبِينه، وَيَقُول: «أَبْشِرِي يَا عَائِشَة، فَقَدْ أَنْزَل الله بَرَاءَتك». قَالتْ: وَكُنْت أَشَدّ مَا كُنْت غَضَبًا، فَقَال لي أَبَوَايَ: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلت: لا وَالله لا أَقُوم إِلَيْهِ وَلا أَحْمَدهُ وَلا أَحْمَدكُمَا، وَلكِنْ أَحْمَد الله الَّذِي أَنْزَل بَرَاءَتِي، لقَدْ سَمِعْتُمُوهُ فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ وَلا غَيَّرْتُمُوهُ.

وَكَانَتْ عَائِشَة تَقُول: أَمَّا زَيْنَب بِنْت جَحْش فَعَصَمَهَا الله بِدِينِهَا فَلمْ تَقُل إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا أُخْتهَا حَمْنَة بِنْت جَحْش فَهَلكَتْ فِيمَنْ هَلكَ، وَكَانَ الَّذِي يَتَكَلَّم فِيهِ: مِسْطَح وَحَسَّان بْن ثَابِت، وَالمُنَافِق عَبْد الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيه وَيَجْمَعهُ وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْره مِنْهُمْ هُوَ وَحَمْنَة، قَالتْ: فَحَلفَ أَبُو بَكْر أَنْ لا يَنْفَع مِسْطَحًا بِنَافِعَةٍ أَبَدًا، فَأَنْزَل الله تَعَالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ يَعْنِي: أَبَا بَكْر ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ يَعْنِي: مِسْطَحًا، إِلى قَوْله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؟ فَقَال أَبُو بَكْر: بَلى وَالله يَا رَبّنَا، إِنَّا لنُحِبّ أَنْ تَغْفِر لنَا، وَعَادَ لهُ بِمَا كَانَ يَصْنَع. هَكَذَا رَوَاهُ البُخَارِيّ[1] مِنْ هَذَا الوَجْه مُعَلَّقًا بِصِيغَةِ الجَزْم عَنْ أَبِي أُسَامَة حَمَّاد بْن أُسَامَة أَحَد الأَئِمَّة الثِّقَات. وَقَدْ رَوَاهُ ابْن جَرِير فِي «تَفْسِيره» عَنْ سُفْيَان بْن وَكِيع عَنْ أَبِي أُسَامَة مُطَوَّلًا بِهِ مِثْله أَوْ نَحْوه. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ أَبِي سَعِيد الأَشَجّ عَنْ أَبِي أُسَامَة بِبَعْضِهِ.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هُشَيْم، أَخْبَرَنَا عَمْرو بْن أَبِي سَلمَة، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالتْ: لـمَّا نَزَل عُذْرِي مِنْ السَّمَاء، جَاءَنِي النَّبِيّ ﷺ فَأَخْبَرَنِي بِذَلكَ فَقُلت نَحْمد الله لا نَحْمدك. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عَدِيّ، عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي بَكْر عَنْ عَمْرَة عَنْ عَائِشَة قَالتْ: لـمَّا نَزَل عُذْرِي قَامَ رَسُول الله ﷺ فَذَكَرَ ذَلكَ وَتَلا القُرْآن، فَلمَّا نَزَل أَمَرَ بِرَجُليْنِ وَامْرَأَة فَضُرِبُوا حَدّهمْ.[2] وأخرجه أَهْل السُّنَن الأَرْبَعَة. وَقَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن. وَوَقَعَ عِنْد أَبِي دَاوُد تَسْمِيَتهمْ حَسَّان بْن ثَابِت، وَمِسْطَح بْن أُثَاثَة، وَحَمْنَة بِنْت جَحْش. فَهَذِهِ طُرُق مُتَعَدِّدَة عَنْ أُمّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَة رضي الله عنها فِي المَسَانِيد وَالصِّحَاح وَالسُّنَن وَغَيْرهَا.

وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيث أُمّهَا أُمّ رُومَان رضي الله عنها، فَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَليّ بْن عَاصِم، أَخْبَرَنَا حُصَيْن، عَنْ أَبِي وَائِل، عَنْ مَسْرُوق، عَنْ أُمّ رُومَان؛ قَالتْ: بَيْنَا أَنَا عِنْد عَائِشَة إِذْ دَخَلتْ عَليْنَا امْرَأَة مِنْ الأَنْصَار؛ فَقَالتْ: فَعَل الله بِابْنِهَا وَفَعَل، فَقَالتْ عَائِشَة: وَلمَ؟ قَالتْ: إِنَّهُ كَانَ فِيمَنْ حَدَّثَ الحَدِيث، قَالتْ عائشة: وَأَيّ حَدِيث؟ قَالتْ: كَذَا وَكَذَا. قَالتْ: وَقَدْ بَلغَ ذَلكَ رَسُول الله ﷺ؟ قَالتْ: نَعَمْ، قَالتْ: وَبَلغَ أَبَا بَكْر؟ قَالتْ: نَعَمْ. فَخَرَّتْ عَائِشَة رضي الله عنها مَغْشِيًّا عَليْهَا، فَمَا أَفَاقَتْ إِلَّا وَعَليْهَا حُمَّى بِنَافِضٍ. قَالتْ: فَقُمْت فَدَثَّرْتهَا. قَالتْ: فَجَاءَ النَّبِيّ ﷺ قَال: «مَا شَأْن هَذِهِ؟». قُلت: يَا رَسُول الله؛ أَخَذَتْهَا حُمَّى بِنَافِضٍ، قَال: «فَلعَلَّهُ فِي حَدِيث تُحُدِّثَ بِهِ». قَالتْ: فَاسْتَوَتْ له عَائِشَة قَاعِدَة فَقَالتْ: وَالله لئِنْ حَلفْت لكُمْ لا تُصَدِّقُونِي وَلئِنْ اعْتَذَرْت إِليْكُمْ لا تَعْذِرُونِي، فَمَثَلي وَمَثَلكُمْ كَمَثَل يَعْقُوب وَبَنِيهِ ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ قَالتْ: وَخَرَجَ رَسُول الله ﷺ وَأَنْزَل الله عُذْرهَا، فَرَجَعَ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٥٧)، تعليقًا بصيغة الجزم، ووصله ابن جرير (١٨/ ٧٤)، وإسناده صحيح.
(٢) حسن: أخرجه أحمد (٦/ ٣٠)، وأبو داود (٤٤٧٤)، والترمذي (٣١٨١)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

رَسُول الله ﷺ وَمَعَهُ أَبُو بَكْر فَدَخَل فَقَال: «يَا عَائِشَة إِنَّ الله تَعَالى قَدْ أَنْزَل عُذْرك». فَقَالَتْ: بِحَمْدِ الله لا بِحَمْدِك، فَقَال لها أَبُو بَكْر: تَقُولِينَ هَذَا لرَسُول الله ﷺ ؟ قَالتْ: نَعَمْ، قَالتْ: وَكَانَ فِيمَنْ حَدَّثَ هَذَا الحَدِيث رَجُل كَانَ يَعُولهُ أَبُو بَكْر فَحَلفَ أبو بكر أَنْ لا يَصِلهُ، فَأَنْزَل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إِلى آخِر الآيَة؛ قال أَبُو بَكْر: بَلى، فَوَصَلهُ. تَفَرَّدَ بِهِ البُخَارِيّ دُون مُسْلم مِنْ طَرِيق حُصَيْن.(١)

وَقَدْ رَوَاهُ البُخَارِيّ عَنْ مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، عَنْ أَبِي عَوَانَة، وَعَنْ مُحَمَّد بْن سَلام، عَنْ مُحَمَّد بْن فُضَيْل -كِلاهُمَا- عَنْ حُصَيْن بِهِ. وَفِي لفْظ أَبِي عَوَانَة: حَدَّثَتْنِي أُمّ رُومَان، وَهَذَا صَرِيح فِي سَمَاع مَسْرُوق مِنْهَا، وَقَدْ أَنْكَرَ ذَلكَ جَمَاعَة مِنْ الحُفَّاظ مِنْهُمْ الخَطِيب البَغْدَادِيّ، وَذَلكَ لما ذَكَرَهُ أَهْل التَّارِيخ أَنَّهَا مَاتَتْ فِي زمان النَّبِيّ ﷺ . قَال الخَطِيب: وَقَدْ كَانَ مَسْرُوق يُرْسِلهُ، فَيَقُول: سُئِلتْ أُمّ رُومَان وَيَسُوقهُ، فَلعَلَّ بَعْضهمْ كَتَبَ (سُئِلتْ) بِأَلفٍ فاعْتَقَدَ الرَّاوِي أَنَّهَا (سَأَلتُ) فَظَنَّهُ مُتَّصِلًا، قَال الخَطِيب: وَقَدْ رَوَاهُ البُخَارِيّ، كَذَلكَ وَلمْ تَظْهَر لهُ عِلَّته. كَذَا قَال وَالله أَعْلم. وَرَوَاهُ بَعْضهمْ عَنْ مَسْرُوق عن عَبْد الله بْن مَسْعُود عَنْ أُمّ رُومَان، فَالله أَعْلم.

فَقَوْله تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ أَيْ: الكَذِب وَالبُهْت وَالافْتِرَاء ﴿عُصْبَةٌ﴾ أَيْ: جَمَاعَة مِنْكُمْ ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ أَيْ: يَا آل أَبِي بَكْر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، لسَان صِدْق فِي الدُّنْيَا وَرِفْعَة مَنَازِل فِي الآخِرَة، وَإِظْهَار شَرَف لهُمْ بِاعْتِنَاءِ الله تَعَالى بِعَائِشَة أُمّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها حَيْثُ أَنْزَل الله تعالى بَرَاءَتهَا فِي القُرْآن العَظِيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ وَلهَذَا لـمَّا دَخَل عَليْهَا ابْن عَبَّاس رضي الله عنه وَعَنْهَا، وَهِيَ فِي سِيَاق المَوْت قَال لهَا: أَبْشِرِي؛ فَإِنَّك زَوْجَة رَسُول الله ﷺ وَكَانَ يُحِبّك، وَلمْ يَتَزَوَّج بِكْرًا غَيْرك، وَنَزَلتْ بَرَاءَتك مِنْ السَّمَاء.

وَقَال ابْن جَرِير فِي «تَفْسِيره»: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن عُثْمَان الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن عَوْن، عَنْ المُعْلي بْن [عِرْفَان](٢)، عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن جَحْش قَال: تَفَاخَرَتْ عَائِشَة وَزَيْنَب رضي الله عنهما فَقَالتْ زَيْنَب: أَنَا الَّتِي نَزَل تَزْوِيجِي مِنْ السَّمَاء. قَال: وَقَالتْ عَائِشَة: أَنَا الَّتِي نَزَل عُذْرِي فِي كِتَاب الله، حِين حَمَلنِي صَفْوَان بْن المُعَطَّل عَلى الرَّاحِلة. فَقَالتْ لهَا زَيْنَب: يَا عَائِشَة؛ مَا قُلت حِين رَكِبْتِيهَا؟ قَالتْ: قلت: حَسْبِي الله وَنِعْمَ الوَكِيل، قَالتْ: قُلت كَلمَة المُؤْمِنِينَ.(٣)

وَقَوْله تَعَالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أَيْ: لكُلّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذِهِ القَضِيَّة وَرَمَى أُمّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَة رضي الله عنها بِشَيْءٍ مِنْ الفَاحِشَة نَصِيب عَظِيم مِنْ العَذَاب.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ قِيل: ابْتَدَأَ بِهِ، وَقِيل: الَّذِي كَانَ يَجْمَعهُ وَيَسْتَوْشِيه وَيُذِيعهُ وَيُشِيعهُ.

﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أَيْ: عَلى ذَلكَ، ثُمَّ الأَكْثَرُونَ عَلى أَنَّ المُرَاد بِذَلكَ إِنَّمَا هُوَ عَبْد الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول، قَبَّحَهُ الله وَلعَنَهُ، وَهُوَ الَّذِي تَقَدَّمَ النَّصّ عَليْهِ فِي الحَدِيث، وَقَال ذَلكَ مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد. وَقِيل: بَل المُرَاد بِهِ حَسَّان بْن ثَابِت. وَهُوَ قَوْل غَرِيب، وَلوْلا أَنَّهُ وَقَعَ فِي «صَحِيح البُخَارِيّ» بما قَدْ يَدُلّ عَلى إِيرَاد ذَلكَ لمَا كَانَ لإِيرَادِهِ كَبِير فَائِدَة، فَإِنَّهُ كان مِنْ الصَّحَابَة الَّذِينَ كان لهُمْ فَضَائِل وَمَنَاقِب وَمَآثِر، وَأَحْسَن مَآثِره؛ أَنَّهُ كَانَ يَذُبّ عَنْ رَسُول الله ﷺ بِشِعْرِهِ، وَهُوَ الَّذِي قَال لهُ رَسُول الله ﷺ : «هَاجِهِمْ وَجِبْرِيل مَعَك». وَقَال الأَعْمَش، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوق؛ قَال: كُنْت

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٣١٣٦).
(٢) في (ز) : [عافات].
(٣) ضعيف : أخرجه ابن جرير (١٨/ ٧٠)، وفيه معلى بن عرفان. قال ابن معين: ليس بشيء. وقال البخاري: منكر الحديث.

عِنْد عَائِشَة رضي الله عنها فَدَخل حَسَّان بْن ثَابِت فَأَمَرَتْ فَأُلْقِيَ لهُ وِسَادَة، فَلَمَّا خرَج، قُلت لِعَائِشَة: مَا تَصْنَعِينَ بِهَذَا؟ يَعْنِي يَدْخُل عَلَيْك، وَفِي رِوَايَة قِيل لهَا: أَتَأْذَنِينَ لِهَذَا يَدْخُل عَلَيْك، وَقَدْ قَال الله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ فقَالتْ: وَأَيّ عَذَاب أَشَدّ مِنْ العَمَى -وَكَانَ قَدْ ذَهَبَ بَصَره- لعَلَّ الله أَنْ يَجْعَل ذَلكَ هُوَ العَذَاب العَظِيم. ثُمَّ قَالتْ: إِنَّهُ كَانَ يُنَافِح عَنْ رَسُول الله ﷺ، وَفِي رِوَايَة أَنَّهُ أَنْشَدَهَا عِنْدَمَا دَخل عَلَيْهَا شِعْرًا يَمْتَدِحهَا بِهِ، فَقَال:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ۞ وَتُصْبِح غَرْثَى مِنْ لُحُوم الغَوَافِل

فَقَالتْ: أَمَّا أَنْتَ فَلسْت كَذَلكَ، وَفِي رِوَايَة: لكِنَّك لسْت كَذَلكَ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا الحَسَن بْن قَزَعَة، حَدَّثَنَا سَلمَة بْن عَلقَمَة، حَدَّثَنَا دَاوُد عَنْ عَامِر، عَنْ عَائِشَة أَنَّهَا قَالتْ: مَا سَمِعْت بِشِعْرٍ أَحْسَن مِنْ شِعْر حَسَّان، وَلا تَمَثَّلت بِهِ إِلَّا رَجَوْت لهُ الجَنَّة، قَوْله لأَبِي سُفْيَان [ابْن الحَارِث][1] ابْن عَبْد المُطَّلب:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ ۞ وَعِنْد الله فِي ذَاكَ الجَزَاء
إِنَّ أَبِي وَوَالده وَعِرْضِي ۞ لعِرْضِ مُحَمَّد مِنْكُمْ وِقَاء
أَتَشْتُمهُ وَلسْت لهُ بِكُفْءٍ؟ ۞ فَشَرّكُمَا لخَيْرِكُمَا الفِدَاء
لسَانِي صَارِم لا عَيْب فِيهِ ۞ وَبَحْرِي لا تُكَدِّرهُ الدِّلاء

فَقِيل: يَا أُمّ المُؤْمِنِينَ؛ أَليْسَ هَذَا لغْوًا؟ قَالتْ: لا، إِنَّمَا اللَّغْو مَا قِيل عِنْد النِّسَاء. قِيل: أَليْسَ الله يَقُول: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قَالتْ: أليس قد أصابه عذاب عظيم؟ أَليْسَ قَدْ ذَهَبَ بَصَره [وَكُنِعَ][2] بِالسَّيْفِ؟ تَعْنِي: الضَّرْبَة الَّتِي ضَرَبَهُ إِيَّاهَا صَفْوَان بْن المُعَطَّل السُّلمِيّ حِين بَلغَهُ عَنْهُ أَنَّهُ يَتكَلَّم فِي ذَلكَ فَعلاهُ بِالسَّيْفِ وَكَادَ أَنْ يَقْتُلهُ.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

هَذَا تَأْدِيب مِنْ الله تَعَالى للمُؤْمِنِينَ فِي قِصَّة عَائِشَة رضي الله عنها حِين أَفَاضَ بَعْضهمْ فِي ذَلكَ الكَلام السُّوء وَمَا ذُكِرَ مِنْ شَأْن الإِفْك، فَقَال تَعَالى: ﴿لَّوْلَآ﴾ يَعْنِي: هَلَّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أَيْ: ذَلكَ الكَلام، أي: الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ أُمّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أَيْ: قَاسُوا ذَلكَ الكَلام عَلى أَنْفُسهمْ، فَإِنْ كَانَ لا يَليق بِهِمْ فَأُمّ المُؤْمِنِينَ أَوْلى بِالبَرَاءَةِ مِنْهُ بِطَرِيقِ الأَوْلى وَالأَحْرَى. وَقَدْ قِيل: إِنَّهَا نَزَلتْ فِي أَبِي أَيُّوب خَالد بْن زَيْد الأَنْصَارِيّ وَامْرَأَته رضي الله عنها كَمَا قَال الإِمَام مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ بَعْض رِجَال بَنِي النَّجَّار: أَنَّ أَبَا أَيُّوب خَالد بْن زَيْد الأَنْصَارِيّ قَالتْ لهُ امْرَأَته أُمّ أَيُّوب: يَا أَبَا أَيُّوب؛ أَمَا تَسْمَع مَا يَقُول النَّاس فِي عَائِشَة رضي الله عنها؟ قَال: نَعَمْ، وَذَلكَ الكَذِب، أَكُنْت فَاعِلة ذَلكَ يَا أُمّ أَيُّوب؟ قَالتْ: لا، وَالله مَا كُنْت لأَفْعَلهُ. قَال: فَعَائِشَة وَالله خَيْر مِنْك. قَال: فَلَمَّا نَزَل القُرْآن ذَكَرَ الله عز وجل مَنْ قَال فِي الفَاحِشَة مَا قَال مِنْ أَهْل الإِفْك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ وَذَلكَ حَسَّان وَأَصْحَابه الَّذِينَ قَالُوا مَا قَالُوا، ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآيَة أَيْ: كَمَا قَال أَبُو أَيُّوب وَصَاحِبَته.[3]

وَقَال مُحَمَّد بْن عُمَر الوَاقِدِيّ: حَدَّثَنِي ابْن أَبِي حَبِيب، عَنْ دَاوُد بْن الحُصَيْن، عَنْ أَبِي سُفْيَان، عَنْ أَفْلح مَوْلى أَبِي أَيُّوب: أَنَّ أُمّ أَيُّوب قَالتْ لأَبِي أَيُّوب: أَلا تَسْمَع مَا يَقُول النَّاس فِي عَائِشَة؟ قَال: بَلى، وَذَلكَ الكَذِب، أَفَكُنْت

---

(١) في (ز): [ابن حرب].

(٢) في (ز): [كتع].

(٣) **ضعيف الإسناد**: أخرجه الطبري (١٨/ ٩٦)، من طريق محمد بن إسحاق، وهو صدوق مدلس وقد عنعن، وبقية رجاله ثقات.

يَا أُمَّ أَيُّوب فَاعِلة ذَلِكَ؟ قَالتْ: لا وَالله. قَال: فَعَائِشَة وَالله خَيْر مِنْك. فَلَمَّا نَزَل القُرْآن، وَذَكَرَ أَهْل الإِفْك، قَال الله ﷻ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ يَعْنِي: أَبَا أَيُّوب حِين قَال لأُمِّ أَيُّوب مَا قَال. وَيُقَال: إِنَّمَا قَالهَا أُبَيّ بن كَعْب.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أَيْ: هَلَّا ظَنُّوا الخَيْر، فَإِنَّ أُمَّ المُؤْمِنِينَ أَهْله وَأَوْلى بِهِ، هَذَا مَا يَتَعَلَّق بِالبَاطِن.

﴿وَقَالُوا۟﴾ أَيْ: بِأَلسِنَتِهِمْ ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أَيْ: كَذِب ظَاهِر عَلى أُمِّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها، فَإِنَّ الَّذِي وَقَعَ لَمْ يَكُنْ رِيبَة، وَذَلِكَ أَنَّ مَجِيء أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَاكِبَة جَهْرَة عَلى رَاحِلة صَفْوَان بْن المُعَطَّل فِي وَقْت الظَّهِيرَة، وَالجَيْش بِكَمَالِهِ يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ، وَرَسُول الله ﷺ بَيْن أَظْهُرهِمْ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الأَمْر فِيهِ رِيبَة لَمْ يَكُنْ هكذا جَهْرَة، وَلا كَانَا يُقدِمَان عَلى مِثْل ذَلكَ عَلى رُءُوس الأَشْهَاد، بَل كَانَ يَكُون هذا لوْ قُدِّرَ -خُفْيَة مَسْتُورًا، فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ أَهْل الإِفْك مِمَّا رَمَوْا بِهِ أُمَّ المُؤْمِنِينَ هُوَ الكَذِب البَحْت، وَالقَوْل الزُّور، وَالرُّعُونَة الفَاحِشَة الفَاجِرَة وَالصَّفْقَة الخَاسِرَة. قَال الله تَعَالى: ﴿لَّوْلَا﴾ أَيْ: هَلَّا ﴿جَآءُو عَلَيْهِ﴾ أَيْ: عَلى مَا قَالُوهُ ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يَشْهَدُونَ عَلى صِحَّة مَا جَاءُوا بِهِ ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أَيْ: فِي حُكْم الله كَذَبَةٌ فَاجِرُونَ.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أَيهَا الخَائِضُونَ فِي شَأْن عَائِشَة؛ بِأَنْ قَبل تَوْبَتكُمْ وَإِنَابتكُمْ إِليْهِ فِي الدُّنْيَا، وَعَفَا عَنْكُمْ لإِيمَانِكُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلى الدَّار الآخِرَة ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ مِنْ قَضِيَّة الإِفْك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وَهَذَا فِيمَنْ عِنْده إِيمَان رزقه الله بِسَبَبِهِ التَّوْبَة إليه، كَمِسْطَح وَحَسَّان وَحَمْنَة بِنْت جَحْش أُخْت زَيْنَب بِنْت جَحْش، فَأَمَّا مَنْ خَاضَ فِيهِ مِنْ المُنَافِقِينَ، كَعَبْدِ الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول وَأَضْرَابه، فَلَيْسَ أُولَئِكَ مُرَادِينَ فِي هَذِهِ الآيَة؛ لأَنَّهُ لَيْسَ عِنْدهمْ مِنْ الإِيمَان وَالعَمَل الصَّالح مَا يُعَادِل هَذَا وَلا مَا يُعَارِضهُ، وَهَكَذَا شَأْن مَا يَرِد مِنْ الوَعِيد عَلى فِعْل مُعَيَّن يَكُون مُطْلقًا مَشْرُوطًا بِعَدَم التَّوْبَة، أَوْ مَا يُقَابِلهُ مِنْ عَمَل صَالح يُوَازِنهُ أَوْ يُرَجَّح عَليْهِ.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قَال مُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر: أَيْ: يَرْوِيه بَعْضكُمْ عَنْ بَعْض، يَقُول هَذَا: سَمِعْته مِنْ فُلان وَقَال فُلان: كَذَا، وَذَكَرَ بَعْضهمْ كَذَا، وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿إِذْ تَلِقُونَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾. وَفِي «صَحِيح البُخَارِيّ» عَنْ عَائِشَة أَنَّهَا كَانَتْ تَقْرَؤُهَا كَذَلكَ، وَتَقُول: هِيَ مِنْ وَلق القول يَعْنِي: الكَذِب الَّذِي يَسْتَمِرّ صَاحِبه فيه، تَقُول العَرَب: وَلَقَ فُلان فِي السَّيْر إِذَا اسْتَمَرَّ فِيهِ وَالقِرَاءَة الأُولى أَشْهَر، وَعَليْهَا الجُمْهُور، وَلكِنَّ الثَّانِيَة مَرْوِيَّة عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَة. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَة، عَنْ نَافِع بن عُمَر، عَنْ ابن أبي مليكة عن عَائِشَة أَنَّهَا كَانَتْ تَقْرَأ: ﴿إِذْ تَلِقُونَهُ﴾ وَتَقُول: إنما هو وَلق القَوْل، والولق: الكذب. قَال ابْن أَبِي مُلَيْكَة: هِيَ أَعْلم بِهِ مِنْ غَيْرهَا.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: تقولون ما لا تعلمون. ثم قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أَيْ: تَقُولُونَ مَا تَقُولُونَ فِي شَأْن أُمِّ المُؤْمِنِينَ، وَتَحْسَبُونَ ذَلكَ يَسِيرًا سَهْلًا، وَلوْ لَمْ تَكُنْ زَوْجَة النَّبِيّ ﷺ لمَا كَانَ هَيِّنًا، فَكَيْف وَهِيَ زَوْجَة النَّبِيّ الأُمِّيّ خَاتَم الأَنْبِيَاء وَسَيِّد المُرْسَلِينَ؟ فَعَظِيم عِنْد الله أَنْ يُقَال فِي زَوْجَة نَبِيّه وَرَسُوله مَا قِيل، فَإِنَّ الله سُبْحَانه وَتَعَالى يَغَار لهَذَا، وَهُوَ سُبْحَانه وَتَعَالى لا يُقَدِّر عَلى زَوْجَة نَبِيّ مِنْ الأَنْبِيَاء ذَلكَ، حَاشَا وَكَلَّا، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ ذَلكَ، فَكَيْف يَكُون هَذَا فِي سَيِّدَة نِسَاء الأَنْبِيَاء، زَوْجَة سَيِّد وَلد

آدم على الإطلاق في الدُّنْيا والآخِرَة؟! وَلهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾. وَفي «الصَّحِيحَيْن»: **«إِنَّ الرَّجُل ليَتَكلَّم بالكَلمَةِ مِنْ سَخَط الله لا يَدْرِي مَا تَبْلُغ، يَهْوِي بِهَا فِي النَّار أَبْعَد مِمَّا بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض»**. وَفِي رِوَايَة: **«لا يُلقِي لهَا بَالاً»**.[1]

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

هَذَا تَأْدِيب آخر بَعْد الأَوَّل: الأمر بالظنِّ خيرًا أَيْ: إِذَا ذُكِرَ مَا لا يَليق مِنْ القَوْل فِي شَأْن الخِيرَة، فَأَوْلى يَنْبَغِي الظَّنّ بِهِمْ خَيْرًا، وَأَنْ لا يُشْعِر نَفْسه سِوَى ذَلك، ثُمَّ إِنْ عَلقَ بِنَفْسِهِ شَيْء مِنْ ذَلك -وَسْوَسَة أَوْ خبالًا- فَلا يَنْبَغِي أَنْ يَتكلَّم بِهِ، فَإِنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«إِنَّ الله تَعَالى تَجَاوَزَ لأُمَّتِي عمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسهَا مَا لمْ تَقُل أَوْ تَعْمَل»**[2]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْن».

وَقَال الله تَعَالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ أَيْ: مَا يَنْبَغِي لنَا أَنْ نَتفوَّه بِهَذَا الكَلام وَلا نَذْكُرهُ لأَحَدٍ ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أَيْ: سُبْحَان الله أَنْ يُقَال هَذَا الكَلام عَلى زَوْجَة رَسُوله وَحَليلة خليله!

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أَيْ: يَنْهَاكُمْ الله مُتَوعِّدًا أَنْ يَقَع مِنْكُمْ مَا يُشْبِه هَذَا ﴿أَبَدًا﴾، أَيْ: فِيمَا يُسْتَقْبَل، وَلهَذَا قَال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله وَشَرْعه، وَتُعَظِّمُونَ رَسُوله ﷺ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مُتَّصِفًا بِالكُفْرِ فذاك له حُكْم آخر.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أَيْ: يُوَضِّح لكُمْ الحِكَم الشَّرْعِيَّة، والأَحْكَام القَدَرِيَّة، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ: عَليم بِمَا يُصْلح عِبَاده، حَكِيم فِي شَرْعه وَقَدَره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وهَذَا تَأْدِيب ثَالث لمَنْ سَمِعَ شَيْئًا مِنْ الكَلام السَّيِّئ فَقَامَ بِذِهْنِهِ منه شَيْء وَتَكلَّمَ به؛ فَلا يُكْثِر مِنْهُ، وَلا يُشِيعهُ وَيُذِيعهُ؛ فَقَدْ قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيْ: يَخْتَارُونَ ظُهُور الكَلام عَنْهُمْ بِالقَبِيح ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: بِالحَدِّ. وَفِي الآخِرَة بِالعَذَاب، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: فَرُدُّوا الأُمُور إِليْهِ تَرْشُدُوا. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بكر، حَدَّثَنَا مَيْمُون بْن أبي محمد المَرَئِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبَّاد المَخْزُومِيّ، عَنْ ثَوْبَان عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«لا تُؤْذُوا عِبَاد الله، وَلا تُعَيِّرُوهُمْ وَلا تَطْلُبُوا عَوْرَاتهمْ فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَة أَخِيهِ المُسْلم طَلَبَ الله عَوْرَته حَتَّى يَفْضَحهُ فِي بَيْته»**.[3]

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أَيْ: لوْلا هَذَا؛ لكَانَ أَمْر آخر، وَلكِنَّهُ تَعَالى رَءُوف بِعِبَادِهِ، رَحِيم بِهِمْ، فَتَابَ عَلى مَنْ تَابَ إِليْهِ مِنْ هَذِهِ القَضِيَّة، وَطَهَّرَ مَنْ طَهَّرَ مِنْهُمْ بِالحَدِّ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨).
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٩) وله شواهد.

الَّذِي أُقِيمَ عَلَيْهِمْ. ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يَعْنِي: طَرَائِقه وَمَسَالكه وَمَا يَأْمُر بِهِ، ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ هَذَا تَنْفِير وَتَحْذِير مِنْ ذَلكَ بِأَفْصَح عِبَارَة وَأَبْلغهَا وَأَوْجَزهَا وَأَحْسَنهَا. قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: عَمَله، وَقَال عِكْرِمَة: نَزَغَاته. وَقَال قَتَادَة: كُلّ مَعْصِيَة فَهِيَ مِنْ خُطُوَات الشَّيْطَان. وَقَال أَبُو مِجْلَز: النُّذُور فِي المَعَاصِي مِنْ خُطُوَات الشَّيْطَان. وَقَال مَسْرُوق: سَأَل رَجُل ابْن مَسْعُود؛ فَقَال: إِنِّي حَرَّمْت أَنْ آكُل طَعَامًا فَقَال: هَذَا مِنْ نَزَغَات الشَّيْطَان؛ كَفِّرْ عَنْ يَمِينك وَكُل. وَقَال الشَّعْبِيّ فِي رَجُل نَذَرَ ذَبح وَلده: وهَذَا مِنْ نَزَغَات الشَّيْطَان، وَأَفْتَاهُ أَنْ يَذْبَح كَبْشًا.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا حَسَّان بْن عَبْد الله المِصْرِيّ، حَدَّثَنَا السَّرِيّ بْن يَحْيَى، عَنْ سُلَيْمَان التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِي رَافِع؛ قَال: غَضِبْت عَلَيَّ امْرَأَتِي فَقَالتْ: هِيَ يوم يَهُودِيَّة، ويوم نَصْرَانِيَّة، وَكُلّ مَمْلُوك لهَا حُرّ إِنْ لمْ تُطَلِّق امْرَأَتك، فَأَتَيْت عَبْد الله بْن عُمَر؛ فَقَال: إِنَّمَا هَذِهِ مِنْ نَزَغَات الشَّيْطَان. وَكَذَلكَ قَالتْ زَيْنَب بِنْت أُمّ سَلمَة، وَهِيَ يَوْمئِذٍ أَفْقَه امْرَأَة بِالمَدِينَةِ، وَأَتَيْت عَاصِم بْن عُمَر فَقَال مِثْل ذَلكَ.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أَيْ: لوْلا هُوَ يَرْزُق مَنْ يَشَاء التَّوْبَة وَالرُّجُوع إِليْهِ، وَيُزَكِّي النُّفُوس مِنْ شِرْكهَا وَفُجُورهَا وَدَنَسهَا وَمَا فِيهَا مِنْ أَخْلاق رَدِيئَة، كُلّ بِحَسَبِهِ -لمَا حَصَّل أَحَد لنَفْسِهِ زَكَاة وَلا خَيْرًا، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ أَيْ: مِنْ خَلقه، وَيُضِلّ مَنْ يَشَاء، وَيُرْدِيه فِي مَهَالك الضَّلال وَالغَيّ.

وَقَوْله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: سَمِيع لأَقْوَال عِبَاده، عَليم بِهِم، مَنْ يَسْتَحِقّ مِنْهُمْ الهُدَى وَالضَّلال.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ مِنْ الأَليَة وَهِيَ الحَلف، أَيْ: لا يَحْلف ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أَيْ: الطَّوْل وَالصَّدَقَة وَالإِحْسَان ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ أَيْ: الجِدَّة ﴿أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: لا تَحْلفُوا أَنْ لا تَصِلُوا قَرَابَاتكُمْ المَسَاكِين وَالمُهَاجِرِينَ، وَهَذَا فِي غَايَة التَّرَفُّق وَالعَطْف عَلى صِلة الأَرْحَام؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ أَيْ: عَمَّا تَقَدَّمَ مِنْهُمْ مِنْ الإِسَاءَة وَالأَذَى، وَهَذَا مِنْ حِلمه تَعَالى وَكَرَمه، وَلُطْفه بِخَلقِهِ مَعَ ظُلمهمْ لأَنْفُسِهِمْ.

وَهَذِهِ الآيَة نَزَلتْ فِي الصِّدِّيق ﷺ حِين حَلفَ أَنْ لا يَنْفَع مِسْطَح بْن أُثَاثَة بِنَافِعَةٍ، بَعْدَ مَا قَال فِي عَائِشَة مَا قَال، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الحَدِيث، فَلمَّا أَنْزَل الله بَرَاءَة أُمّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَة، وَطَابَتْ النُّفُوس المُؤْمِنَة وَاسْتَقَرَّتْ، وَتَابَ الله عَلى مَنْ كَانَ تَكَلَّمَ مِنْ المُؤْمِنِينَ فِي ذَلكَ، وَأُقِيمَ الحَدّ عَلى مَنْ أُقِيمَ عَليْهِ؛ شَرَعَ -تَبَارَكَ وَتَعَالى، وَلهُ الفَضْل وَالمِنَّة- يَعْطِف الصِّدِّيق عَلى قَرِيبه وَنَسِيبه وَهُوَ مِسْطَح بْن أُثَاثَة، فَإِنَّهُ كَانَ ابْن خَالة الصِّدِّيق، وَكَانَ مِسْكِينًا لا مَال لهُ؛ إِلَّا مَا يُنْفِق عَليْهِ أَبُو بَكْر ﷺ، وَكَانَ مِنْ المُهَاجِرِينَ فِي سَبِيل الله، وَقَدْ وَلقَ وَلقَة تَابَ الله عَليْهِ مِنْهَا، وَضُرِبَ الحَدّ عَليْهَا. وَكَانَ الصِّدِّيق ﷺ مَعْرُوفًا بِالمَعْرُوف، لهُ الفَضْل وَالأَيَادِي عَلى الأَقَارِب وَالأَجَانِب، فَلمَّا نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة إِلى قَوْله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: كَان الجَزَاء مِنْ جِنْس العَمَل، فَكَمَا تَغْفِر ذَنْب مَنْ أَذْنَبَ إِليْك يَغْفِر الله لك، وَكَمَا تَصْفَح يُصْفَح عَنْك، فَعِنْد ذَلكَ قَال الصِّدِّيق: بَلى، وَالله إِنَّا نُحِبّ أَنْ تَغْفِر لنَا يَا رَبّنَا. ثُمَّ رَجَعَ إِلى مِسْطَح مَا كَانَ يَصِلهُ مِنْ النَّفَقَة، وَقَال: وَالله لا أَنْزِعهَا مِنْهُ أَبَدًا. فِي مُقَابَلة مَا كَانَ قَال: وَالله لا أَنْفَعهُ بِنَافِعَةٍ أَبَدًا؛ فَلهَذَا كَانَ الصِّدِّيق هُوَ الصِّدِّيق ﷺ وَعَنْ بِنْته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٢٣) يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٢٤) يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾.

هَذَا وَعِيد مِنْ الله تَعَالى لِلَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَات الغَافِلات الْمُؤْمِنَات، خَرَجَ مَخْرَج الغَالب فَأُمَّهات الْمُؤْمِنِينَ أَوْلى بِالدُّخُول فِي هَذَا مِنْ كُلّ مُحْصَنَة، وَلاسِيَّما الَّتِي كَانَتْ سَبَب النُّزُول، وَهِيَ عَائِشَة بِنْت الصِّدِّيق رضي الله عنهما.

وَقَدْ أَجْمَعَ العُلَمَاء -رَحِمَهُمْ الله- قَاطِبَة عَلى أَنَّ مَنْ سَبَّهَا بَعْد هَذَا، وَرَمَاهَا بِمَا رَمَاهَا بِهِ الذين ذكروا فِي هَذِهِ الآيَة، فَإِنَّهُ كَافِر؛ لأَنَّهُ مُعَانِد للقُرْآنِ، وَفِي بَقِيَّة أُمَّهات الْمُؤْمِنِينَ قَوْلانِ: أَصَحّهمَا أَنَّهُنَّ كَهِيَ، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾. وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضهمْ إِلى أَنَّهَا خَاصَّة بِعَائِشَة رضي الله عنها؛ فَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن خرَاش، عَنْ العَوَّام، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ نَزَلَتْ فِي عَائِشَة خَاصَّة.[1] وَكَذَا قَال مُقَاتِل بْن حَيَّان، وَقَدْ ذَكَرَهُ ابْن جَرِير عَنْ عَائِشَة فَقَال: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْدة الضَّبِّيّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَة، عَنْ عُمَر بْن أَبِي سَلمَة، عَنْ أَبِيهِ قَال: قالت عَائِشَة: رُمِيت بِمَا رُمِيت بِهِ وَأَنَا غَافِلة، فَبَلغَنِي بَعْد ذَلِكَ، قَالَتْ: فَبَيْنَا رَسُول الله ﷺ جَالس عِنْدِي؛ إِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِ، قَالَتْ: وَكَانَ إِذَا أُوحِيَ إِلَيْهِ أَخَذَهُ كَهَيْئَةِ السُّبَات وَإِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ وَهُوَ جَالس عِنْدِي، ثُمَّ اسْتَوَى جَالسًا يَمْسَح عَلى وَجْهه، وَقَال: «يَا عَائِشَة؛ أَبْشِرِي!». قَالَتْ: فَقُلت: بِحَمْدِ الله لا بِحَمْدِك، فَقَرَأَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ -حَتَّى قرأ- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.[2] هَكَذَا أَوْرَدَهُ وَلَيْس فِيهِ أَنَّ الحُكْم خَاصّ بِهَا، وَإِنَّمَا فِيهِ أَنَّهَا سَبَب النُّزُول دُون غَيْرهَا، وَإِنْ كَانَ الحُكْم يَعُمّهَا كَغَيْرِهَا، وَلعَلَّهُ مُرَاد ابْن عَبَّاس وَمَنْ قَال كَقَوْلِهِ، وَالله أَعْلَم. وَقَال الضَّحَّاك وَأَبُو الجَوْزَاء وَسَلمَة بْن نُبَيْط: الْمُرَاد بِهَا أَزْوَاج النَّبِيّ خَاصَّة دُون غَيْرهنَّ مِنْ النِّسَاء.

وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الآيَة. يَعْنِي: أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ، رَمَاهُنَّ أَهْل النِّفَاق، فَأَوْجَبَ الله لَهُمْ اللَّعْنَة وَالغَضَب، وَبَاءُوا بِسَخَطٍ مِنْ الله، فَكَانَ ذَلِكَ فِي أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ، ثُمَّ نَزَل بَعْد ذَلِكَ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إِلى قَوْله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فَأَنْزَل الله الجَلد وَالتَّوْبَة، فَالتَّوْبَة تُقْبَل، وَالشَّهَادَة تُرَدّ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا الحُسَيْن، حَدَّثَنَا هُشَيْم، أَخْبَرَنَا العَوَّام بْن حَوْشَب، عَنْ شَيْخ مِنْ بَنِي أَسَد، عَنْ ابْن عَبَّاس[3]. قَال: فَسَّرَ سُورَة النُّور، فَلَمَّا أَتَى عَلى هَذِهِ الآيَة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ﴾ الآيَة. قَال فِي شَأْن عَائِشَة وَأَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ، وَهِيَ مُبْهَمَة وَلَيْسَتْ لَهُمْ تَوْبَة، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إِلى قَوْله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ الآيَة. قَال: فَجَعَل هَؤُلاءِ تَوْبَة وَلمْ يَجْعَل لِمَنْ قَذَفَ أُولئِكَ تَوْبَة. قَال: فَهَمَّ بَعْض القَوْم أَنْ يَقُوم إِلَيْهِ فَيُقَبِّل رَأْسه مِنْ حُسْن مَا فَسَّرَ بِهِ سُورَة النُّور. فَقَوْله: وَهِيَ مُبْهَمَة؛ أَيْ: عَامَّة فِي تَحْرِيم قَذْف كُلّ مُحْصَنَة وَلعْنَته فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. وَهَكَذَا قَال

---

(١) ضعيف : في إسناده عبد الله بن خراش: ضعيف.

(٢) إسناده ضعيف : أخرجه أحمد (٦/ ٣٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ١٢١)، ورجاله ثقات عدا عمرو بن أبي سلمة قال الحافظ: صدوق يخطئ.

(٣) ضعيف : أخرجه الطبري (١٨/ ١٠٤)، وفي إسناده رجل مجهول.

عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم: هَذَا فِي عَائِشَة، وَمَنْ صَنَعَ مِثْل هَذَا أَيْضًا اليَوْم فِي المُسْلِمَات فَلَهُ مَا قَال الله تَعَالى، وَلكِنَّ عَائِشَة كَانَتْ إِمَامًا فِي ذَلكَ.

وَقَدْ اخْتَارَ ابْن جَرير عُمُومهَا وَهُوَ الصَّحِيح، وَيَعْضُد العُمُوم مَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْد الرَّحْمَن ابْن أَخِي وَهْب، حَدَّثَنِي عَمِّي، حَدَّثَنَا سُليمَان بْن بِلال، عَنْ ثَوْر بْن زَيْد، عَنْ أَبِي الغَيْث، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة: أَنَّ رَسُول الله ﷺقَال: **«اجْتَنِبُوا السَّبْع المُوبِقَات»**. قِيل: يَا رَسُول الله وَمَا هُنَّ؟ قَال: **«الشِّرْك بِالله، وَالسِّحْر، وَقَتْل النَّفْس الَّتِي حَرَّمَ الله إِلاَّ بِالحَقِّ، وَأَكْل الرِّبَا، وَأَكْل مَال اليَتِيم، وَالتَّوَلِّي يَوْم الزَّحْف، وَقَذْف المُحْصَنَات الغَافِلات المُؤْمِنَات»**[1]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث سُليمَان بْن بِلال بِهِ.

وَقَال الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عمرو بن خَالد الحذاء الحَرَّانِيّ ، حَدَّثَنِي أَبِي /ح/ وَحَدَّثَنَا أَبُو شُعَيْب الحَرَّانِيّ، حَدَّثَنَا جَدِّي أَحْمَد بْن أَبِي شُعَيْب، حَدَّثَنِي مُوسَى بْن أَعْيَن، عَنْ لَيْث، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ صِلَة بْن زُفَر، عَنْ حُذَيْفَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺقَال: «قَذْف المُحْصَنَة يَهْدِم عَمَل مِائَة سَنَة».[2]

وقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو يَحْيَى الرَّازِيّ عَنْ عَمْرو بْن أَبِي قَيْس، عَنْ مُطَرِّف، عَنْ المِنْهَال، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: إِنَّهُمْ -يَعْنِي المُشْرِكِينَ- إِذَا رَأَوْا أَنَّهُ لا يَدْخُل الجَنَّة إِلَّا أَهْل الصَّلاة، قَالُوا: تَعَالَوْا حَتَّى نَجْحَد فَيَجْحَدُونَ، فَيُخْتَم عَلَى أَفْوَاههِمْ وَتَشْهَد أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلهمْ، وَلا يَكْتُمُونَ الله حَدِيثًا.[3]

وقال ابْن جرير: وَابْن أَبِي حاتم أَيْضًا: حَدَّثَنَا يُونُس بْن عَبْد الأَعْلى حَدَّثَنَا ابْن وَهْب أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن الحَارِث عَنْ دَرَّاج عَنْ أَبِي الهَيْثَم عَنْ أَبِي سَعِيد عَنْ رسول الله ﷺقَال: «إِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة، عُرِّفَ الكَافِر بِعَمَلِهِ، فَيَجْحَد وَيُخَاصِم فَيُقَال له: هَؤُلاءِ جِيرَانك يَشْهَدُونَ عَلَيْك، فَيَقُول: كَذَبُوا. فيقول: أَهْلك وَعَشِيرَتك، فَيَقُول: كَذَبُوا. فَيُقَال: احْلِفُوا فَيَحْلِفُونَ ثُمَّ يُصِمّهُمْ الله، فَتَشْهَد عليهم أَيْدِيهمْ وَأَلسِنَتهمْ، ثُمَّ يُدْخِلهُمْ النَّار».[4]

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو شَيْبَة إِبْرَاهِيم بن عَبْد الله بْن أَبِي شَيْبَة الكُوفِيّ، حَدَّثَنَا مِنْجَاب بْن الحَارِث التَّمِيمِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر الأَسَدِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان عن عُبَيْد المُكَتِّب عَنْ فُضَيْل بْن عَمْرو الفُقَيْمِيّ، عَنْ الشَّعْبِيّ عَنْ أَنَس بْن مَالك قَال: كُنَّا عِنْد النَّبِيّ ﷺ فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذه، ثُمَّ قَال: **«تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَك؟»**. قُلنَا: الله وَرَسُوله أَعْلم. قَال: **«مِنْ مُجَادَلة العَبْد لِرَبِّهِ [يوم القيامة]**[5] **يَقُول: يَا رَبّ، أَلمْ تُجِرْنِي مِنْ الظُّلم؟ فَيَقُول: بَلى؛ فَيَقُول: لا أُجِيز عَليَّ إِلاَّ شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي فَيَقُول: كَفَى بِنَفْسِك اليَوْم عَلَيْك شَهِيدًا، وَبِالكِرَام عَلَيْك شُهُودًا، فَيُخْتَم عَلى فِيهِ، وَيُقَال لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي! فَتَنْطِق بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنه وَبَيْن الكَلام، فَيَقُول: بُعْدًا لكُنَّ وَسُحْقًا! فَعَنْكُنَّ كُنْت أُنَاضِل»**[6]. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلم وَالنَّسَائِيّ جَمِيعًا عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي النَّضْر، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْد الله الأَشْجَعِيّ، عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ بِهِ، ثُمَّ قَال النَّسَائِيّ: لا أَعْلم أَحَدًا رَوَى هَذَا الحَدِيث عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ غَيْر الأَشْجَعِيّ، وَهُوَ حَدِيث غَرِيب، وَالله أَعْلم. هَكَذَا قَال. وَقَال قَتَادَة بْن آدَم: وَالله إِنَّ عَلَيْك

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٢٥٦٠، ٦٣٥١)، ومسلم (١٢٩).

(٢) ضعيف : أخرجه الطبري (٣/ ١٩٦)، وفيه ليث بن سليم: متروك، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٣١٨٥).

(٣) حسن : عزاه لابن أبي حاتم وعمرو بن أبي قيس والمنهال كلاهما صدوق، وبقية رجاله ثقات وهو موقوف، ومثله مما لا يقال بالرأي.

(٤) ضعيف : أخرجه ابن جرير (١٨/ ١٠٥) وهو من طريق دراج، وروايته عن أبي الهيثم: ضعيفة.

(٥) زيادة من (ز).

(٦) صحيح : أخرجه مسلم (٢٩٦٩).

لشُهُودًا، غَيْر مُتَّهَمَة مَنْ بدنك، فَرَاقِبْهُمْ وَاتَّقِ الله فِي سِرِّك وَعَلانِيَتك، فَإِنَّهُ لا يَخْفَى عليه خَافِيَة، وَالظُّلْمَة عِنْده ضَوْء، وَالسِّرّ عِنْده عَلانِيَة، فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوت وَهُوَ بِالله حَسَن الظَّنّ فَلْيَفْعَل، وَلا قُوَّة إِلَّا بِالله.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ قَالَ ابْن عَبَّاس: ﴿ دِينَهُمْ ﴾؛ أَيْ: حِسَابهمْ وَكُلّ مَا فِي الْقُرْآن دِينهمْ أَيْ حِسَابهمْ، وَكَذَا قَالَ غَيْر وَاحِد. ثُمَّ إِنَّ قِرَاءَة الْجُمْهُور بِنَصْبِ (الْحَقّ) عَلَى أَنَّهُ صِفَة لِدِينِهِمْ، وَقَرَأَ مُجَاهِد بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ نَعْت الجلالة، وَقَرَأَهَا بَعْض السَّلَف فِي مُصْحَف أُبَيّ بْن كَعْب: (يَوْمئِذٍ يُوَفِّيهِمْ الله الحَقّ دِينهمْ).
وَقَوْله: ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ أَيْ: وَعْده وَوَعِيده، وَحِسَابه هُوَ الْعَدْل الَّذِي لا جَوْر فِيهِ.

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

قَالَ ابْن عَبَّاس: الْخَبِيثَات مِنْ الْقَوْل لِلْخَبِيثِينَ مِنْ الرِّجَال، وَالْخَبِيثُونَ مِنْ الرِّجَال لِلْخَبِيثَاتِ مِنْ الْقَوْل. وَالطَّيِّبَات مِنْ الْقَوْل لِلطَّيِّبِينَ مِنْ الرِّجَال، وَالطَّيِّبُونَ مِنْ الرِّجَال لِلطَّيِّبَاتِ مِنْ الْقَوْل. قَالَ: وَنَزَلَتْ فِي عَائِشَة وَأَهْل الإِفْك. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد وَعَطَاء وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالشَّعْبِيّ وَالْحَسَن بن أبي الحسن الْبَصْرِيّ وَحَبِيب بْن أَبِي ثَابِت وَالضَّحَّاك، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير، وَوَجَّهَهُ بِأَنَّ الْكَلام الْقَبِيح أَوْلَى بِأَهْلِ الْقُبْح مِنْ النَّاس، وَالْكَلام الطَّيِّب أَوْلَى بِالطَّيِّبِينَ مِنْ النَّاس، فَمَا نَسَبَهُ أَهْل النِّفَاق إِلَى عَائِشَة مِنْ كَلام هُمْ أَوْلَى بِهِ، وَهِيَ أَوْلَى بِالْبَرَاءَةِ وَالنَّزَاهَة مِنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم: الْخَبِيثَات مِنْ النِّسَاء لِلْخَبِيثِينَ مِنْ الرِّجَال، وَالْخَبِيثُونَ مِنْ الرِّجَال لِلْخَبِيثَاتِ مِنْ النِّسَاء، وَالطَّيِّبَات مِنْ النِّسَاء لِلطَّيِّبِينَ مِنْ الرِّجَال، وَالطَّيِّبُونَ مِنْ الرِّجَال لِلطَّيِّبَاتِ مِنْ النِّسَاء. وَهَذَا أَيْضًا يَرْجِع إِلَى مَا قَالَهُ أُولَئِكَ بِاللَّازِمِ، أَيْ: مَا كَانَ الله لِيَجْعَل عَائِشَة زَوْجَة لِرَسُولِ الله ﷺ إِلَّا وَهِيَ طَيِّبَة؛ لأَنَّهُ أَطْيَب مِنْ كُلّ طَيِّب مِنْ الْبَشَر، وَلَوْ كَانَتْ خَبِيثَة لَمَا صَلَحَتْ لَهُ، لا شَرْعًا وَلا قَدَرًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾، أَيْ: هُمْ بُعَدَاء عَمَّا يَقُولهُ أَهْل الإِفْك وَالْعُدْوَان؛ ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ مَا قِيلَ فِيهِمْ مِنْ الْكَذِب، ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أَيْ: عِنْد الله فِي جَنَّات النَّعِيم، وَفِيهِ وَعْد بِأَنْ تَكُون زَوْجَة رَسُول الله ﷺ فِي الْجَنَّة.

قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مُسْلِم، حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا عَبْد السَّلام بْن حَرْب. عَنْ يَزِيد بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ الْحَكَم، عن يَحْيَى بْن الْجَزَّار؛ قَالَ: جَاءَ أُسَيْر بْن جَابِر إِلَى عَبْد الله فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْت الْوَلِيد بْن عُقْبَة الْيَوْم تَكَلَّمَ بِكَلامٍ أَعْجَبَنِي، فَقَالَ عَبْد الله: إِنَّ الرَّجُل الْمُؤْمِن يَكُون فِي قَلْبه الْكَلِمَة غير الطَّيِّبَة تَتَجَلْجَل فِي صَدْره مَا تستقر حَتَّى يَلْفِظهَا، فَيَسْمَعهَا الرَّجُل عِنْده يَتُلُّهَا فَيَضُمّهَا إِلَيْهِ، وَإِنَّ الرَّجُل الْفَاجِر يَكُون فِي قَلْبه الْكَلِمَة الطيبة تَتَجَلْجَل فِي صَدْره مَا تَسْتَقِرّ حَتَّى يَلْفِظهَا، فَيَسْمَعهَا الرَّجُل الَّذِي عِنْده يَتُلُّهَا فَيَضُمّهَا إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ عَبْد الله: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾. وَيُشْبِه هَذَا مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد فِي «الْمُسْنَد» مَرْفُوعًا: «مَثَل الَّذِي يَسْمَع الْحِكْمَة ثُمَّ لا يُحَدِّث إِلاَّ بِشَرِّ مَا سَمِعَ، كَمَثَلِ رَجُل جَاءَ إِلَى صَاحِب غَنَم فَقَالَ: اجْزُرْنِي شَاة، فَقَالَ: اذْهَبْ فَخُذْ بِأُذُنِ أَيّهَا شِئْت، فَذَهَبَ فَأَخَذَ بِأُذُنِ كَلْب الْغَنَم»[1]. وَفِي الْحَدِيث الآخَر: «الْحِكْمَة ضَالَّة الْمُؤْمِن من حَيْثُ وَجَدَهَا أَخَذَهَا».[2]

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٢/٣٥٣)، وابن ماجه (٤١٧٢)، وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف وفيه أوس بن خالد مجهول.
(٢) ضعيف جدًا: أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩) وفيه إبراهيم بن الفضل المدني: متروك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾.

هَذِهِ آدَاب شَرْعِيَّة أَدَّبَ الله بِهَا عِبَاده الْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ فِي الاستئذان، أمر الله المؤمنين أَنْ لا يَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْر بُيُوتهمْ حَتَّى يَسْتَأْنِسُوا، أَيْ: يَسْتَأْذِنُوا قَبْل الدُّخُول وَيُسَلِّمُوا بَعْده، وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَأْذِن ثَلاثًا، فَإِنْ أُذِنَ لَهُ وَإِلَّا انْصَرَف، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيح أَنَّ أَبَا مُوسَى حِين اسْتَأْذَنَ عَلَى عُمَر ثَلاثًا فَلَمْ يُؤْذَن لَهُ انْصَرَف، ثُمَّ قَال عُمَر: أَلَمْ أَسْمَع صَوْت عَبْد الله بْن قَيْس يَسْتَأْذِن؟ ائْذَنُوا لَهُ. فَطَلَبُوهُ فَوَجَدُوهُ قَدْ ذَهَبَ، فَلَمَّا جَاءَ بَعْد ذَلِكَ؛ قَال: مَا رَجَعَك؟ قَال: إِنِّي اسْتَأْذَنْت ثَلاثًا فَلَمْ يُؤْذَن لِي، وَإِنِّي سَمِعْت رسول الله ﷺ يَقُول: «**إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدكُمْ ثَلاثًا فَلَمْ يُؤْذَن لَهُ فَلْيَنْصَرِفْ**». فَقَال عُمَر: لَتَأْتِيَنِي عَلَى هَذَا بَيِّنَة وَإِلَّا أَوْجَعْتُك ضَرْبًا. فَذَهَبَ إِلَى مَلإٍ مِنْ الأَنْصَار فَذَكَرَ لَهُمْ مَا قَال عُمَر؛ فَقَالُوا: لا يَشْهَد لك إِلَّا أَصْغَرنَا، فَقَامَ مَعَهُ أَبُو سَعِيد الْخُدْرِيّ، فَأَخْبَرَ عُمَر بِذَلِكَ، فَقَال: أَلْهَانِي عَنْهُ الصَّفْق بِالأَسْوَاقِ.[1]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس أَوْ غَيْره: أَنَّ رسول الله ﷺ اسْتَأْذَنَ عَلَى سَعْد بْن عُبَادَة فَقَال: «**السَّلام عَلَيْك وَرَحْمَة الله**». فَقَال سَعْد: وَعَلَيْك السَّلام وَرَحْمَة الله. وَلَمْ يَسْمَع النَّبِيّ ﷺ حَتَّى سَلَّمَ ثَلاثًا وَرَدَّ عَلَيْهِ سَعْد ثَلاثًا، وَلَمْ يَسْمَعهُ؛ فَرَجَعَ النَّبِيّ ﷺ وَاتَّبَعَهُ سَعْد، فَقَال: يَا رَسُول الله؛ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! مَا سَلَّمْت تَسْلِيمَة إِلَّا وَهِيَ بِأُذُنِي، وَلَقَدْ رَدَدْت عَلَيْك وَلَمْ أُسْمِعْك؛ وَأَرَدْت أَنْ أَسْتَكْثِر مِنْ سَلامك وَمِنْ الْبَرَكَة، ثُمَّ أَدْخَلَهُ الْبَيْت، فَقَرَّبَ إِلَيْهِ زَبِيبًا، فَأَكَل نَبِيّ الله، فَلَمَّا فَرَغَ قَال: «**أَكَل طَعَامكُمْ الأَبْرَار، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلائِكَة، وَأَفْطَرَ عِنْدكُمْ الصَّائِمُونَ**».[2]

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي عَمْرو الأَوْزَاعِيّ: سَمِعْت يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير يَقُول: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن سَعْد بْن زُرَارَة، عَنْ قَيْس بْن سَعْد -هُوَ ابْن عُبَادَة- قَال: زَارَنَا رَسُول الله ﷺ فِي مَنْزِلنَا فَقَال: «السَّلام عَلَيْكُمْ وَرَحْمَة الله». فَرَدَّ سَعْد رَدًّا خَفِيًّا. قَال قَيْس: فَقُلْت: أَلا تَأْذَن لِرَسُول الله ﷺ فَقَال: دَعْهُ يُكْثِر عَلَيْنَا مِنْ السَّلام. فَقَال رَسُول الله ﷺ «السَّلام عَلَيْكُمْ وَرَحْمَة الله». فَرَدَّ سَعْد رَدًّا خَفِيًّا. ثُمَّ قَال رَسُول الله ﷺ «السَّلام عَلَيْكُمْ وَرَحْمَة الله». ثُمَّ رَجَعَ رَسُول الله ﷺ وَاتَّبَعَهُ سَعْد. فَقَال: يَا رَسُول الله؛ إِنِّي كُنْت أَسْمَع تَسْلِيمك وَأَرُدّ عَلَيْك رَدًّا خَفِيًّا لِتُكْثِر عَلَيْنَا مِنْ السَّلام. قَال: فَانْصَرَفَ مَعَهُ رَسُول الله ﷺ وَأَمَرَ لَهُ سَعْد بِغُسْلٍ فَاغْتَسَل، ثُمَّ نَاوَلَهُ بملحفة مَصْبُوغَة بِزَعْفَرَانٍ أَوْ وَرْس فَاشْتَمَل بِهَا، ثُمَّ رَفَعَ رَسُول الله ﷺ يَدَيْهِ وَهُوَ يَقُول: «اللَّهُمَّ اجْعَل صَلاتك وَرَحْمَتك عَلَى آل سَعْد بْن عُبَادَة». قَال: ثُمَّ أَصَابَ رَسُول الله ﷺ مِنْ الطَّعَام، فَلَمَّا أَرَادَ الانْصِرَاف قَرَّبَ إِلَيْهِ سَعْد حِمَارًا قَدْ وَطَّأَ عَلَيْهِ بِقَطِيفَةٍ، فَرَكِبَ رَسُول الله ﷺ فَقَال سَعْد: يَا قَيْس؛ اصْحَبْ رَسُول الله ﷺ قَال قَيْس: فَقَال رَسُول الله ﷺ «ارْكَبْ». فَأَبَيْت فَقَال: «إِمَّا أَنْ تَرْكَب وَإِمَّا أَنْ تَنْصَرِف». قَال: فَانْصَرَفْت.[3] وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مِنْ وجه آخر، فَهُوَ حَدِيث جَيِّد قَوِيّ، وَالله أَعْلَم.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٢٤٥)، ومسلم (٢١٥٣).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٣٨).

(٣) ضعيف: أخرجه أبو داود (٥١٨٥) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

ثُمَّ لِيُعْلم أَنَّهُ يَنْبَغِي للمُسْتَأْذِنِ عَلى أَهْل المَنْزِل أَنْ لا يَقِف تِلقَاء البَاب بِوَجْهِهِ، وَلكِنْ لِيكُنْ البَاب عَنْ يَمِينه أَوْ يَسَاره؛ لَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا مُؤَمَّل بْن الفَضْل الحَرَّانِيّ فِي آخَرِينَ قَالُوا: حَدَّثَنَا بَقِيَّة، حَدَّثَنَا مُحَمَّد ابْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ عَبْد الله بْن بسر قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا أَتَى بَاب قَوْم لمْ يَسْتَقْبِل البَاب مِنْ تِلقَاء وَجْهه وَلكِنْ مِنْ رُكْنه الأَيْمَن أَوْ الأَيْسَر، وَيقُول: «**السَّلام عَلَيْكُمْ، السَّلام عَلَيْكُمْ**». وَذَلكَ أَنَّ الدُّور لمْ يَكُنْ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ سُتُور. انْفَرَدَ بِهِ أَبُو دَاوُد.[1]

وَقَال أَبُو دَاوُد أَيْضًا: حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا جَرِير /ح/ قَال أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا حَفْص، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ طَلحَة، عَنْ هُزَيْل قَال: جَاءَ رَجُل -قَال عُثْمَان: سَعْد- فَوَقَفَ عَلى بَاب النَّبِيّ ﷺ يَسْتَأْذِن، فَقَامَ عَلى البَاب -قَال عُثْمَان: مُسْتَقْبِل البَاب- فَقَال لهُ النَّبِيّ ﷺ : «**هكَذَا عَنْك -أَوْ هكَذَا؛ فَإِنَّمَا الاسْتِئْذَان مِنْ النَّظَر**»[2]. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ، عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ طَلحَة بْن مُصَرِّف، عَنْ رَجُل، عَنْ سَعْد عَنْ النَّبِيّ ﷺ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد مِنْ حَدِيثه. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «**لوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلعَ عَليْك بِغَيْرِ إِذْن؛ فَحذَفْته بِحصَاةٍ ففقَأْتَ عيْنه مَا كَانَ عَليْك مِنْ جُنَاح**»[3]. وَأَخْرَجَ الجَمَاعَة مِنْ حَدِيث شُعْبَة، عَنْ مُحَمَّد بْن المُنْكَدِر، عَنْ جَابِر قَال: أَتَيْت النَّبِيّ ﷺ فِي دَيْن كَانَ عَلى أَبِي، فَدَقَقْت البَاب فَقَال: «**مَنْ ذَا؟**». قُلت: أَنَا. قَال: «**أَنَا أَنَا؟**». كَأَنَّهُ كَرِهَهُ.[4] وَإِنَّمَا كَرِهَ ذَلكَ لأَنَّ هَذِهِ اللَّفْظَة لا يُعْرَف صَاحِبهَا حَتَّى يُفْصِح بِاسْمِهِ أَوْ كُنْيَته الَّتِي هُوَ مَشْهُور بِهَا، وَإِلَّا فَكُلّ أَحَد يُعَبِّر عَنْ نَفْسه بـ «أَنَا» فَلا يَحْصُل بِهَا المَقْصُود مِنْ الاسْتِئْذَان الَّذِي هُوَ الاسْتِئْنَاس المَأْمُور بِهِ فِي الآيَة. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: الاسْتِئْنَاس: الاسْتِئْذَان. وَكَذَا قَال غَيْر وَاحِد.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن بَشَّار، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ أَبِي بِشْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾ قَال: إِنَّمَا هِيَ خَطَأ مِنْ الكَاتِب: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾. وَهَكَذَا رَوَاهُ هُشَيْم عَنْ أَبِي بِشْر وَهُوَ جَعْفَر بْن إِيَاس بِه. وروى معاذ بن سليمان، عن جعفر بن إياس، عَنْ سَعِيد، عَنْ ابْن عَبَّاس بِمِثْلِهِ، وَزَادَ: وَكَانَ ابْن عَبَّاس يَقْرَأ: (**حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا**) وَكَانَ يَقْرَأ عَلى قِرَاءَة أُبَيّ بْن كَعْب رضي الله عنه. وَهَذَا غَرِيب جِدًّا عَنْ ابْن عَبَّاس. وَقَال هُشَيْم: أَخْبَرَنَا مُغِيرَة، عَنْ إِبْرَاهِيم قَال: فِي مُصْحَف ابْن مَسْعُود: (**حَتَّى تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلهَا وَتَسْتَأْذِنُوا**) وَهَذَا أَيْضًا رِوَايَة عَنْ ابْن عَبَّاس، وَهُوَ اخْتِيَار ابْن جَرِير.

وَقَدْ قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا رَوْح، حَدَّثَنَا ابْن جُرَيْج، أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن أَبِي سُفْيَان: أَنَّ عَمْرو بْن أَبِي صَفْوَان أَخْبَرَهُ: أَنَّ كَلدَة بْن الحَنْبَل أَخْبَرَهُ: أَنَّ صَفْوَان بْن أُمَيَّة بَعَثَهُ فِي الفَتْح بِلبَأ وَجدَايَة وَضغَابِيس وَالنَّبِيّ ﷺ بِأَعْلى الوَادِي قَال: فَدَخَلت عليه وَلمْ أُسَلِّم وَلمْ أَسْتَأْذِن. فَقَال النبيُّ ﷺ : «**ارْجِعْ فقُل: السَّلام عَليْكُمْ؛ أَأَدْخُلُ؟**». وَذَلكَ بَعْدَمَا أَسْلمَ صَفْوَان[5]، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ، وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث ابْن جُرَيْج بِهِ، وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن غَرِيب لا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثه. وقال أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر بْن أَبِي شَيْبَة حَدَّثَنَا أَبُو الأَحْوَص، عَنْ مَنْصُور،

---

(١) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٥١٨٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٢) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٥١٧٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٣) **صحيح** : أخرجه البخاري (٦٩٠٢)، ومسلم (٢١٥٨).
(٤) **صحيح** : أخرجه البخاري (٦٢٥٠)، ومسلم (٢١٥٥).
(٥) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٥١٧٦)، والترمذي (٢٧١٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنني أبي داود والترمذي».

عَنْ رِبْعِيّ قَال: حدثنا رَجُل مِنْ بَنِي عَامِر اسْتَأْذَنَ عَلى النبيﷺ وَهُوَ فِي بَيْته فَقَال: أَأَلِجُ؟ فَقَال النَّبِيّﷺ لِخَادِمِهِ: «**اخْرُجْ إِلى هَذَا، فَعَلِّمْهُ الاسْتِئْذَان فَقُل لهُ: قُل السَّلام عَليكُمْ أَأَدْخُلُ؟**». فَسَمِعَهُ الرَّجُل. فَقَال: السَّلام عَليكُمْ أَأَدْخُلُ؟ فَأَذِنَ لهُ النَّبِيّﷺ فَدَخل.(1)

وَقَال هُشَيْم: أَخْبَرَنَا مَنْصُور، عَنْ ابْن سِيرِينَ، وَأَخْبَرَنَا يُونُس بْن عُبَيْد، عَنْ عَمْرو بْن سَعِيد الثَّقَفِيّ: أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلى النَّبِيّﷺ فَقَال: أَأَلِجُ؟ أَوْ أَنَلِجُ؟ فَقَال النَّبِيّﷺ لأَمَةٍ لهُ -يُقَال لهَا: رَوْضَة-: «**قُومِي إِلى هَذَا فَعَلِّمِيهِ؛ فَإِنَّهُ لا يُحْسِن يَسْتَأْذِن، فَقُولي لهُ: يَقُول: السَّلام عَليكُمْ أَأَدْخُلُ؟**». فَسَمِعَهَا الرَّجُل فَقَالها؛ فَقَال: «**ادْخُل**»(2). وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا الفَضْل بْن الصَّبَّاح، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن زَكَرِيَّا، عَنْ عَنْبَسَة بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ مُحَمَّد بْن زَاذَان، عَنْ مُحَمَّد بْن المُنْكَدِر، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله قَال: قَال رَسُول اللهﷺ: «**السَّلام قَبْل الكَلام**»(3). ثُمَّ قَال التِّرْمِذِيّ: عَنْبَسَة ضَعِيف الحَدِيث ذَاهِب، وَمُحَمَّد بْن زَاذَان منكر الحديث. وَقَال هُشَيْم: قَال مُغِيرَة: قَال مُجَاهِد: جَاءَ ابْن عُمَر مِنْ حَاجَة وَقَدْ أَذَاهُ الرَّمْضَاء؛ فَأَتَى فُسْطَاط امْرَأَة مِنْ قُرَيْش فَقَال: السَّلام عَليكُمْ أَأَدْخُل؟ قَالتْ: ادْخُل بِسَلام، فَأَعَادَ فَأَعَادَتْ وَهُوَ يُرَاوِح بَيْن قَدَمَيْهِ قَال: قُولي: ادْخُل. قَالتْ: ادْخُل. فَدَخل.

وقال ابن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم الأَحْوَل حَدَّثَنِي خَالد بْن إِيَاس حَدَّثَتْنِي جَدَّتِي أُمّ إِيَاس قَالتْ: كُنْت فِي أَرْبَع نِسْوَة يسْتَأْذِنَّ على عَائِشَة فَقُلت: نَدْخُل؟ قَالتْ: لا، قُلنَ لصَاحِبَتِكُنَّ: تَسْتَأْذِن. فَقَالتْ: السَّلام عَليكُمْ أَنَدْخُلُ؟ قَالتْ: ادْخُلُوا، ثُمَّ قَالتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾. وَقَال هُشَيْم: أَخْبَرَنَا أَشْعَث بْن سَوَّار، عَنْ كُرْدُوس، عَنْ ابْن مَسْعُود قَال: عَليكُمْ أَنْ تَسْتَأْذِنُوا على أُمَّهَاتكُمْ وَأَخَوَاتكُمْ. وَقَال أَشْعَث عَنْ عَدِيّ بْن ثَابِت: أَنَّ امْرَأَة مِنْ الأَنْصَار قَالتْ: يَا رَسُول الله، إِنِّي أَكُون فِي مَنْزِلي عَلى الحَال الَّتِي لا أُحِبّ أَنْ يَرَانِي أَحَد عَليْهَا لا وَالد، وَلا وَلد، وَإِنَّهُ لا يَزَال يَدْخُل عَليَّ رَجُل مِنْ أَهْلي، وَأَنَا عَلى تِلكَ الحَال. قَال: فَنَزَلتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾.(4)

وَقَال ابْن جُرَيْج: سَمِعْت عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح يُخْبِر عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنه قَال: ثَلاث آيَات جَحَدَها النَّاس؛ قَال الله تَعَالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ قَال: وَيَقُولُونَ: إِنَّ أَكْرَمهمْ عِنْد الله أَعْظَمهمْ بَيْتًا. قَال: والإِذن كُلّه قَدْ جَحَدَهُ النَّاس. قَال: قُلت: أَيَسْتَأْذِنُ عَليَّ أَخَوَاتِي أَيْتَام فِي حِجْرِي مَعِي فِي بَيْت وَاحِد؟ قَال: نَعَمْ. فَرَدَدْت عَليْهِ ليُرَخِّص لي فَأَبَى، فَقَال: تُحِبّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَة؟ قُلت: لا، قَال: فَاسْتَأْذِنْ. قَال: فَرَاجَعْته أَيْضًا فَقَال: أَتُحِبُّ أَنْ تُطِيع الله؟ قَال: قُلت: نَعَمْ. قَال: فَاسْتَأْذِنْ. قَال ابْن جُرَيْج: وَأَخْبَرَنِي ابْن طَاوُس عَنْ أَبِيهِ قَال: مَا مِنْ امْرَأَة أَكْرَه إِليَّ أَنْ أَرَى عَوْرَتهَا مِنْ ذَات مَحْرَم. قَال: وَكَانَ يُشَدِّد فِي ذَلكَ. وَقَال ابْن جُرَيْج عَنْ الزُّهْرِيّ: سَمِعْت هُزَيْل بْن شُرَحْبِيل الأَوْدِيّ الأَعْمَى أَنَّهُ سَمِعَ ابْن مَسْعُود يَقُول: عَليكُمْ الإِذْن عَلى أُمَّهَاتكُمْ. وَقَال ابْن جُرَيْج: قُلت لعَطَاءٍ: أَيَسْتَأْذِنُ الرَّجُل عَلى امْرَأَته؟ قَال: لا. وَهَذَا مَحْمُول عَلى عَدَم الوُجُوب، وَإِلَّا فَالأَوْلى أَنْ يُعْلمهَا بِدُخُوله وَلا يُفَاجِئهَا بِهِ؛ لاحْتِمَال أَنْ تَكُون عَلى هَيْئَة لا تُحِبّ أَنْ يَرَاهَا عَليْهَا. وَقَال أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا القَاسِم،

---

(1) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٥١٧٧، ٥١٧٨، ٥١٧٩)، وأحمد (٥/ ٣٦٨) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(2) **صحيح**: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٨٤).

(3) **حسن**: أخرجه الترمذي (٢٦٩٩)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(4) **مرسل**: أخرجه الطبري (١٨/ ٨٧) بإسناد مرسل.

حَدَّثَنَا الحُسَيْن، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن حَازِم، عن الأَعْمَش، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ يَحْيَى بْن الجَزَّار، عَنْ ابْن أَخِي زَيْنَب امْرَأَة عَبْد الله بْن مَسْعُود عَنْ زَيْنَب رضي الله عنها قَالتْ: كَانَ عَبْد الله إِذَا جَاءَ مِنْ حَاجَة فَانْتَهَى إِلى البَاب تَنَخْنَحَ وَبَزَقَ؛ كَرَاهَة أَنْ يَهْجُم مِنَّا عَلى أَمْر يَكْرَههُ. إِسْنَاده صَحِيح.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن نُمَيْر، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ أَبِي هبيرة قَال: كَانَ عَبْد الله إِذَا دَخَل الدَّار اسْتَأْنَس تَكَلَّمَ وَرَفَعَ صَوْته. وَقَال مُجَاهِد: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ قَال: تَنَحْنَحُوا أَوْ تَنَخَّمُوا. وَعَنْ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَال: إِذَا دَخَل الرَّجُل بَيْته اسْتُحِبَّ لهُ أَنْ يَتَنَحْنَح أَوْ يُحَرِّكَ نَعْليْهِ. وَلِهَذَا جَاءَ فِي «الصَّحِيح» عَنْ رَسُول الله ﷺ: «أَنَّهُ نَهَى أَنْ يَطْرُق الرَّجُل أَهْله طُرُوقًا». وَفِي رِوَايَة: «لَيْلاً يَتَخَوَّنُهُمْ»[1]. وَفِي الحَدِيث الآخَر: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَدِمَ المَدِينَة نَهَارًا فَأَنَاخَ بِظَاهِرِهَا، وَقَال: «**انْتَظِرُوا حَتَّى نَدْخُل عِشَاء -يَعْنِي آخِر النَّهَار- حَتَّى تَمْتَشِط الشَّعِثَة وَتَسْتَحِدّ المُغِيبَة**»[2].

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن سُلَيْمَان، عَنْ وَاصِل بْن السَّائِب، حَدَّثَنِي أَبُو سَوْرَة ابْن أَخِي أَبِي أَيُّوب، عَنْ أَبِي أَيُّوب قَال: قُلت: يَا رَسُول الله؛ هَذَا السَّلام فَمَا الاسْتِئْنَاس؟ قَال: «يَتَكَلَّم الرَّجُل بِتَسْبِيحَةٍ أَوْ تَكْبِيرَة أَوْ تَحْمِيدَة وَيَتَنَحْنَح فَيُؤْذِن أَهْل البَيْت»[3]. هَذَا حَدِيث غَرِيب. وَقَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ قَال: هُوَ الاسْتِئْذَان ثَلاثًا. قَال: وكان يقال: الاستئذان ثلاثًا، فَمَنْ لمْ يُؤْذَن لهُ فيهن فَليَرْجِعْ، أَمَّا الأُولى فَليَسْمَعْ الحَيّ، وَأَمَّا الثَّانِيَة فَليَأْخُذُوا حِذْرهمْ، وَأَمَّا الثَّالثَة فَإِنْ شَاءُوا أَذِنُوا وَإِنْ شَاءُوا رَدُّوا، وَلا تَقِفَنَّ عَلى بَاب قَوْم رَدُّوك عَنْ بَابهمْ، فَإِنَّ للنَّاسِ حَاجَات وَلهُمْ أَشْغَال، وَالله أَوْلى بِالعُذْر.

وَقَال مُقَاتِل بْن حَيَّان فِي قَوْله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ كَانَ الرَّجُل فِي الجَاهِلِيَّة إِذَا لقِيَ صَاحِبه لا يُسَلِّم عَليْهِ وَيَقُول: حَيِيت صَبَاحًا! وَحَيِيت مَسَاء! وَكَانَ ذَلكَ تَحِيَّة القَوْم بَيْنهمْ، وَكَانَ أَحَدهمْ يَنْطَلق إِلى صَاحِبه فَلا يَسْتَأْذِن حَتَّى يَقْتَحِم وَيَقُول: قَدْ دَخَلت وَنَحْو ذَلكَ؛ فَيَشُقّ ذَلكَ عَلى الرَّجُل، وَلعَلَّهُ يَكُون مَعَ أَهْله، فَغَيَّرَ الله ذَلكَ كُلّه فِي سِتْر وَعِفَّة، وَجَعَلهُ نَقِيًّا نَزِيهًا مِنْ الدَّنَس وَالقَذَر وَالدَّرَن، فَقَال تَعَالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾. وَهَذَا الَّذِي قَالهُ مُقَاتِل حَسَن؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ يَعْنِي: الاسْتِئْذَان، خَيْر لكُمْ، بِمَعْنَى هُوَ خَيْر مِنْ الطَّرَفَيْنِ للمُسْتَأْذِنِ وَلأَهْل البَيْت؛ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾ وَذَلكَ لمَا فِيهِ مِنْ التَّصَرُّف فِي مِلك الغَيْر بِغَيْرِ إِذْنه، فَإِنْ شَاءَ أَذِنَ وَإِنْ شَاءَ لمْ يَأْذَن: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ أَيْ: إِذَا رَدُّوكُمْ مِنْ البَاب قَبْل الإِذْن أَوْ بَعْده؛ ﴿فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ أَيْ: رُجُوعكُمْ أَزْكَى وَأَطْهَر لكُمْ، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾. وَقَال قَتَادَة: قَال بَعْض المُهَاجِرِينَ: لقَدْ طَلبْت عُمْرِي كُلّه هَذِهِ الآيَة فَمَا أَدْرَكْتهَا أَنْ أَسْتَأْذِن عَلى بَعْض إِخْوَانِي، فَيَقُول لِي: ارْجِعْ، فَأَرْجِع وَأَنَا مُغْتَبِط، ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾. وَقَال سَعِيد ابْن جُبَيْر: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ﴾ أَيْ: لا تَقِفُوا عَلى أَبْوَاب النَّاس.

وقوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٤٣)، ومسلم (٧١٥).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٤٧).
(٣) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٣٧٠٧)، وفيه أبو سودة: ضعيف والراوي عنه: ضعيف أيضًا.

هذه الآيَة الكَرِيمَة أَخصّ مِنْ الَّتِي قَبْلهَا، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَقْتَضِي جَوَاز الدُّخول إِلى البُيُوت الَّتِي ليْسَ فِيهَا أَحد إِذَا كَانَ لهُ مَتَاع فِيهَا بِغَيْرِ إِذْن، كَالبَيْتِ المُعَدّ للضَّيْفِ إِذَا أُذِنَ لهُ فِيهِ أَوَّل مَرَّة كَفَى. قَال ابْن جُرَيْج: قَال ابْن عَبَّاس: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾، ثُمَّ نُسِخَ وَاسْتُثْنِيَ فَقَال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَة وَالحَسَن البَصْرِيّ. وَقَال آخَرُونَ: هِيَ بُيُوت التُّجَّار كَالخَانَاتِ وَمَنَازِل الأَسْفَار وَبُيُوت مَكَّة وَغَيْر ذَلكَ. وَاخْتَارَ ذَلكَ ابْن جَرِير وَحَكَاهُ عَنْ جَمَاعَة، وَالأَوَّل أَظْهَر، وَالله أَعْلم. وَقَال مَالك عَنْ زَيْد بْن أَسْلم: هِيَ بُيُوت الشَّعْر.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

هَذَا أَمْر مِنْ الله تَعَالى لِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارهمْ عَمَّا حُرِّمَ عَليْهِمْ فَلا يَنْظُرُوا إِلَّا إِلى مَا أَبَاحَ لهُمْ النَّظَر إِليْهِ، وَأَنْ يَغضّوا أَبْصَارهمْ عَنْ المَحَارِم، فَإِنْ اتَّفَقَ أَنْ وَقَعَ البَصَر عَلى مُحَرَّم مِنْ غَيْر قَصْد فَليَصْرِفْ بَصَره عَنْهُ سَرِيعًا، كَمَا رَوَاهُ مُسْلم فِي «صَحِيحه» مِنْ حَدِيث يُونُس بْن عُبَيْد، عَنْ عَمْرو بْن سَعِيد، عَنْ أَبِي زُرْعَة ابْن عَمْرو بْن جَرِير عَنْ جَدّه جَرِير بْن عَبْد الله البَجَلِيّ ﷺ قَال: سَأَلت النَّبِيّ ﷺ عَنْ نَظْرَة الفَجْأَة، فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِف بَصَرِي.[1] وَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، عَنْ هُشَيْم، عَنْ يُونُس بْن عُبَيْد بِهِ. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيثه أَيْضًا، وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح. وَفِي رِوَايَة لبَعْضِهِمْ فَقَال: «**أَطْرِقْ بَصَرك**». يَعْنِي انْظُرْ إِلى الأَرْض، وَالصَّرْف أَعَمّ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُون إِلى الأَرْض وَإِلى جِهَة أُخْرَى، وَالله أَعْلم.

وَقَال أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن مُوسَى الفَزَارِيّ، حَدَّثَنَا شَرِيك، عَنْ أَبِي رَبِيعَة الإِيَادِيّ عَنْ عَبْد الله بْن بُرَيْدَة، عَنْ أَبِيهِ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ لعَلِيّ: «**يَا عَلِيّ؛ لا تُتْبِع النَّظْرَة النَّظْرَة، فَإِنَّ لك الأُولى، وَليْسَ لك الآخِرَة**»[2]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث شَرِيك، وَقَال: غَرِيب لا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثه. وَفِي «الصَّحِيح» عَنْ أَبِي سَعِيد قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالجُلُوس عَلى الطُّرُقَات**». قَالُوا: يَا رَسُول الله؛ لا بُدّ لنَا مِنْ مَجَالسنَا نَتَحَدَّث فِيهَا، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**إِنْ أَبَيْتُمْ فَأَعْطُوا الطَّرِيق حَقّه**». قَالُوا: وَمَا حَقّ الطَّرِيق يَا رَسُول الله؟ قَال: «**غَضّ البَصَر وَكَفّ الأَذَى وَرَدّ السَّلام وَالأَمْر بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ المُنْكَر**».[3]

وَقَال أَبُو القَاسِم البَغَوِيّ: حَدَّثَنَا طَالُوت بْن عَبَّاد، حَدَّثَنَا فُضَيْل بْن جبير، سَمِعْت أَبَا أُمَامَة يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**اكْفُلُوا لي بِسِتّ أَكْفُل لكُمْ بِالجَنَّةِ إِذَا حَدَّثَ أَحَدكُمْ فَلا يَكْذِب، وَإِذَا اؤْتُمِنَ فَلا يَخُنْ، وَإِذَا وَعَدَ فَلا يُخْلف، وَغُضُّوا أَبْصَاركُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيكُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجكُم**»[4]. وَفِي «صَحِيح البُخَارِيّ»: «**مَنْ يَكْفُل لي مَا بَيْن لحْيَيْهِ وَمَا بَيْن رِجْليْهِ؛ أَكْفُل لهُ الجَنَّة**».[5] وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَنْبَأَنَا مَعْمَر عَنْ أَيُّوب عَنْ ابْن سِيرِينَ عَنْ عُبَيْدَة قَال: كُلّ مَا عُصِيَ الله بِهِ فَهُوَ كَبِيرَة، وَقَدْ ذَكَرَ الطَّرَفَيْنِ فَقَال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾.

وَلَمَّا كَانَ النَّظَر دَاعِيَة إِلى فَسَاد القَلب، كَمَا قَال بَعْض السَّلف: النَّظَر سهام سُمّ إِلى القَلب. وَلذَلكَ أَمَرَ الله بِحِفْظِ الفُرُوج كَمَا أَمَرَ بِحِفْظِ الأَبْصَار الَّتِي هِيَ بَوَاعِث إِلى ذَلكَ، فَقَال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ وَحِفْظ الفَرْج تَارَة يَكُون بِمَنْعِهِ مِنْ الزِّنَا، كَمَا قَال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (٢١٥٩)، وأبو داود (٢١٤٨).
(٢) حسن : أخرجه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٣) صحيح : أخرجه البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (١٢٢١).
(٤) حسن لغيره : أخرجه ابن الجوزي في «ذم الهوي»، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد».
(٥) صحيح : أخرجه البخاري (٦٤٧٤).

أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾. وَتَارَة يَكُون بِحِفْظِهِ مِنْ النَّظَر إِلَيْهِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث فِي «مُسْنَد أَحْمَد، وَالسُّنَن»: «احْفَظْ عَوْرَتَك إلاَّ مِنْ زَوْجَتك أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينك».[1]

﴿ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ أَيْ: أَطْهَر لقُلُوبِهِمْ وَأَتْقَى لدِينِهِمْ، كَمَا قِيل: مَنْ حَفِظَ بَصَره أَوْرَثَهُ الله نُورًا فِي بَصِيرَته، وَيُرْوَى: فِي قَلبه.

وقد قال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا عَتَّاب، حَدَّثنَا عَبْد الله بْن المُبَارَك، أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْن أَيُّوب، عَنْ عُبَيْد الله بْن زَحْر، عَنْ عَلِيّ بْن يزيد عَنْ القَاسِم عَنْ أَبِي أُمَامَة ﷺ عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «مَا مِنْ مُسْلم يَنْظُر إِلى مَحَاسِن امْرَأَة أول مرة، ثُمَّ يَغُضّ بَصَره إلاَّ أَخْلفَ الله لهُ عِبَادَة يَجِد حَلاوَتها»[2]. وَرُوِيَ هَذَا مَرْفُوعًا عَنْ ابْن عُمَر وَحُذَيْفَة وَعَائِشَة ﷺ، وَلكِنْ فِي أَسَانِيدهَا ضَعْف؛ إِلَّا أَنَّهَا فِي التَّرْغِيب وَمِثْله يُتَسَامَح فِيهِ. وَفِي الطَّبَرَانِيّ مِنْ طَرِيق عُبَيْد الله بْن زحر عَنْ عَلِيّ بْن يزيد، عَنْ القَاسِم، عَنْ أَبِي أُمَامَة مَرْفُوعًا: «لتَغُضُّنَّ أَبْصَاركُمْ وَلتَحْفَظُنَّ فُرُوجكُمْ وَلتُقِيمُنَّ وُجُوهكُمْ أَوْ لتُكْسَفَنَّ وُجُوهكُمْ».[3]

وَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثنَا أَحْمَد بْن زُهَيْر التُّسْتَرِيّ، قَال: قَرَأْنَا عَلى مُحَمَّد بْن حَفْص بْن عُمَر الضَّرِير المُقْرِئ، حَدَّثنَا يَحْيَى بْن أَبِي بُكَيْر حَدَّثنَا هُرَيْم بْن سُفْيَان، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق، عَنْ القَاسِم بْن عَبْد الرَّحْمَن عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ النَّظَر سَهْم مِنْ سِهَام إِبْلِيس مَسْمُوم مَنْ تَرَكَهَا مَخَافَتِي أَبْدَلته إِيمَانًا يَجِد حلاوته فِي قَلبه».[4]

وَقَوْله تَعَالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾. وَفِي «الصَّحِيح» عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «كُتِبَ عَلى ابْن آدَم حَظّه مِنْ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلكَ لا مَحَالة، فَزِنَا العَيْنَيْنِ النَّظَر، وَزِنَا اللِّسَان النُّطْق، وَزِنَا الأُذُنَيْنِ الاسْتِمَاع، وَزِنَا اليَدَيْنِ البَطْش، وَزِنَا الرِّجْليْنِ الخُطَى، وَالنَّفْس تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالفَرْج يُصَدِّق ذَلكَ أَوْ يُكَذِّبه»[5]. وروَاهُ البُخَارِيّ تَعْليقًا وَمُسْلم مُسْنَدًا مِنْ وَجْه آخَر بِنَحْوِ مَا تقدم. وَقَدْ قَال كَثِير مِنْ السَّلف: إِنَّهُمْ كَانُوا يَنْهَوْنَ أَنْ يُحِدّ الرَّجُل نَظَره إِلى الأَمْرَد، وَقَدْ شَدَّدَ كَثِير مِنْ أَئِمَّة الصُّوفِيَّة فِي ذَلكَ، وَحَرَّمَهُ طَائِفَة مِنْ أَهْل العِلم؛ لمَا فِيهِ مِنْ الافْتِتَان، وَشَدَّدَ آخَرُونَ فِي ذَلك كَثِيرًا جِدًّا. وَقَال ابْن أَبِي الدُّنْيَا: حَدَّثنَا أَبُو سَعِيد المَدَنِيّ، حَدَّثنَا عمرو بْن سَهْل المَازِنِيّ، حَدَّثنِي عُمَر بْن مُحَمَّد بْن صَهْبَان، عَنْ صَفْوَان بْن سُليْم عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «كُلّ عَيْن بَاكِيَة يَوْم القِيَامَة إِلَّا عَيْنًا غَضَّتْ عَنْ مَحَارِم الله، وَعَيْنًا سَهِرَتْ فِي سَبِيل الله، وَعَيْنًا يَخْرُج مِنْهَا مِثْل رَأْس الذُّبَاب مِنْ خَشْيَة الله ﷻ».[6]

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٤٠١٧)، وابن ماجه (١٩٢٠)، والترمذي (٢٧٦٩)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود، وابن ماجه، والترمذي».

(٢) موضوع: أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٤)، وفيه عبيد الله بن زحر، قال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات.

(٣) موضوع: أخرجه الطبراني (٨/ ٢٤٦).

(٤) ضعيف: أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ٢١٤)، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق: ضعيف.

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

(٦) ضعيف جدًا: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٦٣)، وفيه عمر بن صهبان: منكر الحديث. والفقرتان الأخيرتان ثبتت صحتهما.

أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

هَذَا أَمْر مِنَ الله تَعَالى للنِّسَاءِ المُؤْمِنَات، وَغَيْرَة مِنْهُ لأَزْوَاجِهِنَّ عِبَاده المُؤْمِنِينَ، وَتَمْيِيز لَهُنَّ عَنْ صِفَة نِسَاء الجَاهِلِيَّة وَفِعَال المُشْرِكَات. وَكَانَ سَبَب نُزُول هَذِهِ الآيَة الكريمة مَا ذَكَرَهُ مُقَاتِل بْن حَيَّان قَال: بَلَغَنَا -وَالله أَعْلم- أَنَّ جَابِر بْن عَبْد الله الأَنْصَارِيّ حَدَّثَ أَنَّ أَسْمَاء بِنْت مرشدة كانت فِي مَحَلّ لهَا فِي بَنِي حَارِثَة، فَجَعَل النِّسَاء يَدْخُلنَ عَلَيْهَا غَيْر متأزرات فَيَبْدُو مَا فِي أَرْجُلهن مِنْ الخَلاخِل، وَتَبْدُو صُدُورهنَّ وَذَوَائِبهنَّ، فَقَالتْ أَسْمَاء: مَا أَقْبَح هَذَا، فَأَنْزَل الله تَعَالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ الآيَة. فَقَوْله تَعَالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ أَيْ: عَمَّا حَرَّمَ الله عَلَيْهِنَّ مِنْ النَّظَر إِلى غَيْر أَزْوَاجهنَّ؛ وَلهَذَا ذَهَبَ كَثِير مِنْ العُلَماء إِلى أَنَّهُ لا يَجُوز للمَرْأَةِ أن تنظر إِلى الأَجَانِب بِشَهْوَةٍ وَلا بِغَيْرِ شَهْوَة أَصْلًا.

وَاحْتَجَّ كَثِير مِنْهُمْ بِمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ عَنْ نَبْهَان مَوْلى أُمّ سَلمَة أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ أُمّ سَلمَة حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا كَانَتْ عِنْد رَسُول الله ﷺ وَمَيْمُونَة قَالتْ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ عِنْده أَقْبَل ابْن أُمّ مَكْتُوم، فَدَخَل عَلَيْهِ -وَذَلِكَ بَعْدَمَا أُمِرْنَا بِالحِجَابِ-، فَقَال رَسُول الله: «احْتَجِبَا مِنْهُ». فَقُلت: يَا رَسُول الله؛ أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى لا يُبْصِرنَا وَلا يَعْرِفنَا؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «أَوَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا؟ أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ؟»(١). ثُمَّ قَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن صَحِيح. وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنْ العُلَماء إِلى جَوَاز نَظَرهنَّ إِلى الأَجَانِب بِغَيْرِ شَهْوَة، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيح أَنَّ رَسُول الله ﷺ جَعَل يَنْظُر إِلى الحَبَشَة وَهُمْ يَلعَبُونَ بِحِرَابِهِمْ يَوْم العِيد فِي المَسْجِد وَعَائِشَة أُمّ المُؤْمِنِينَ تَنْظُر إِلَيْهِمْ مِنْ وَرَائِهِ، وَهُوَ يَسْتُرهَا مِنْهُمْ، حَتَّى مَلَّتْ وَرَجَعَتْ.(٢)

وَقَوْله: ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ قَال سَعِيد بْن جُبَيْر: عَنْ الفَوَاحِش. وَقَال قَتَادَة وَسُفْيَان: عَمَّا لا يَحِلّ لهُنَّ. وَقَال مُقَاتِل: عَنْ الزِّنَا. وَقَال أَبُو العَالِيَة: كُلّ آيَة أُنْزِلت فِي القُرْآن يُذْكَر فِيهَا حِفْظ الفُرُوج فَهُوَ مِنْ الزِّنَا إِلَّا هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ أَنْ لا يَرَاهَا أَحَد. قَال: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أَيْ: وَلا يُظْهِرْنَ شَيْئًا مِنْ الزِّينَة للأَجَانِبِ إِلَّا مَا لا يُمْكِن إِخْفَاؤُهُ. قَال ابْن مَسْعُود: كَالرِّدَاءِ وَالثِّيَاب. يَعْنِي: عَلى مَا كَانَ يَتَعَاطَاهُ نِسَاء العَرَب مِنْ المِقْنَعَة الَّتِي تُجَلِّل ثِيَابهَا وَمَا يَبْدُو مِنْ أَسَافِل الثِّيَاب فَلا حَرَج عَلَيْهَا فِيهِ؛ لأَنَّ هَذَا لا يمكن إِخْفَاؤُهُ. وَنَظِيره فِي زِيّ النِّسَاء مَا يَظْهَر مِنْ إِزَارهَا وَمَا لا يُمْكِن إِخْفَاؤُهُ. وَقَال بِقَوْل ابْن مَسْعُود: الحَسَن وَابْن سِيرِينَ وَأَبُو الجَوْزَاء وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَغَيْرهمْ.

وَقَال الأَعْمَش عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ قَال: وَجْههَا وَكَفَّيْهَا وَالخَاتَم. وَرُوِيَ عَنْ ابْن عُمَر وَعَطَاء وَعِكْرِمَة وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَأَبِي الشَّعْثَاء وَالضَّحَّاك، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَغَيْرهم نَحْو ذَلك، وَهَذَا يَحْتَمِل أَنْ يَكُون تَفْسِيرًا للزِّينَةِ الَّتِي نُهِينَ عَنْ إِبْدَائِهَا، كَمَا قَال أَبُو إِسْحَاق السَّبِيعِيّ عَنْ أَبِي الأَحْوَص عَنْ عَبْد الله قَال فِي قَوْله: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾: الزِّينَة القُرْط وَالدُّمْلُوج وَالخَلخَال وَالقِلادَة. وَفِي رِوَايَة عَنْهُ بِهَذَا الإِسْنَاد قَال: الزِّينَة زِينَتَانِ؛ فَزِينَة لا يَرَاهَا إِلَّا الزَّوْج: الخَاتَم وَالسِّوَار، وَزِينَة يَرَاهَا الأَجَانِب وَهِيَ الظَّاهِر مِنْ الثِّيَاب. وَقَال الزُّهْرِيّ: لا يُبْدِينَ هَؤُلاءِ الذي سَمَّى الله مِمَّنْ لا تحل لهُ إِلَّا الأَسْوِرَة وَالأَخْمِرَة وَالأَقْرِطَة مِنْ غَيْر حَسْر، وَأَمَّا عَامَّة النَّاس فَلا يَبْدُو مِنْهَا إِلَّا الخَوَاتِم.

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤١١٢)، والترمذي (٢٧٧٨)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنني أبي داود، والترمذي».
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٥٤).

وَقَال مَالك عَنْ الزُّهْرِيّ: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الخَاتَم وَالخلخَال. وَيُحْتَمل أَنَّ ابْن عَبَّاس وَمَنْ تَابعَهُ أَرَادُوا تَفْسِير مَا ظَهَرَ مِنْهَا بِالوَجْهِ وَالكَفَّيْنِ، وَهَذَا هُوَ المَشْهُور عِنْد الجُمْهُور، وَيُسْتَأْنس لهُ بِالحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي «سُنَنه»: حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن كَعْب الأَنْطَاكِيّ، وَمُؤَمَّل بْن الفَضْل الحَرَّانِيّ قَالا: حَدَّثَنَا الوَلِيد عَنْ سَعِيد بْن بَشِير عَنْ قَتَادَة عَنْ خَالد بْن دُرَيْك عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها أَنَّ أَسْمَاء بِنْت أَبِي بَكْر دَخَلتْ عَلى النَّبِيّ ﷺ وَعَليْهَا ثِيَاب رِقَاق فَأَعْرَض عَنْهَا وَقَال: «يَا أَسْمَاء، إِنَّ المَرْأَة إِذَا بَلغَتْ المَحِيض لمْ يَصْلُح أَنْ يُرَى مِنْهَا إِلاَّ هَذَا». وَأَشَارَ إِلى وَجْهه وَكَفَّيْهِ[1] لكِنْ قَال أَبُو دَاوُد وَأَبُو حَاتِم الرَّازِيّ: هذا مُرْسَل. خَالد بْن دُرَيْك لمْ يَسْمَع مِنْ عَائِشَة رضي الله عنها، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يَعْنِي: المَقَانِع يُعْمَل لهَا ضيقات ضَارِبَات عَلى صُدُور النساء لتُوَارِي مَا تَحْتهَا مِنْ صَدْرهَا وَتَرَائِبهَا؛ ليُخَالفْنَ شِعَار نِسَاء أَهْل الجَاهِليَّة، فَإِنَّهُنَّ لمْ يَكُنَّ يَفْعَلنَ ذَلكَ، بَل كَانَتْ المَرْأَة مِنْهُنَّ تَمُرّ بَيْن الرِّجَال مُسَفِّحَة بِصَدْرِهَا لا يُوَارِيه شَيْء، وَرُبَّمَا أَظْهَرتْ عُنُقهَا وَذَوَائِب شَعْرهَا وَأَقْرِطَة آذَانهَا، فَأَمَرَ الله المُؤْمِنَات أَنْ يَسْتَتِرْنَ فِي هَيْئَاتهن وَأَحْوَالهن، كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾، وَقَال فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وَالخُمُر جَمْع خِمَار، وَهُوَ مَا يُخَمَّر -أَيْ يُغَطَّى- بِهِ الرَّأْس وَهِيَ الَّتِي تُسَمِّيهَا النَّاس المَقَانِع.

قَال سَعِيد بْن جُبَيْر: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ وَليَشْدُدْنَ ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يَعْنِي عَلى النَّحْر وَالصَّدْر، فَلا يُرَى مِنْهُ شَيْء. وَقَال البُخَارِيّ: وقال أَحْمَد بْن شَبِيب: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ يُونُس، عَنْ ابْن شِهَاب، عَنْ عُرْوَة، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالتْ: يَرْحَم الله نِسَاء المُهَاجِرَات الأُوَل! لمَّا أَنْزَل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَقْنَ مُرُوطهن فَاخْتَمَرْنَ بِهَا.[2] وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن نَافِع، عَنْ الحَسَن بْن مُسْلم، عَنْ صَفِيَّة بِنْت شَيْبَة أَنَّ عَائِشَة رضي الله عنها كَانَتْ تَقُول: لـمَّا نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أَخَذْنَ أُزُرهن فَشَقَقْنَهَا مِنْ قِبَل الحَوَاشِي فَاخْتَمَرْنَ بِهَا.[3] وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْد الله بْن يُونُس، حَدَّثَنِي الزَّنْجِيّ بْن خَالد، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عُثْمَان بْن خُثَيْم، عَنْ صَفِيَّة بِنْت شَيْبَة قَالتْ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْد عَائِشَة قَالتْ: فَذَكَرْنَ نِسَاء قُرَيْش وَفَضْلهن، فَقَالتْ عَائِشَة رضي الله عنها: إِنَّ لنِسَاءِ قُرَيْش لفَضْلًا، وَإِنِّي وَالله مَا رَأَيْت أَفْضَل مِنْ نِسَاء الأَنْصَار، أَشَدّ تَصْدِيقًا لكِتَابِ الله، وَلا إِيمَانًا بِالتَّنْزِيل، لقَدْ أُنْزِلتْ سُورَة النُّور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ انْقَلبَ رِجَالهن إِليْهِنَّ يَتْلُونَ عَليْهِنَّ مَا أَنْزَل الله إِليْهِمْ فِيهَا، وَيَتْلُو الرَّجُل عَلى امْرَأَته وَابْنَته وَأُخْته وَعَلى كُلّ ذِي قَرَابَته، فَمَا مِنْهُنَّ امْرَأَة إِلَّا قَامَتْ إِلى مُرْطهَا المُرَحَّل فَاعْتَجَرَتْ بِهِ، تَصْدِيقًا وَإِيمَانًا بِمَا أَنْزَل الله مِنْ كِتَابه، فَأَصْبَحْنَ وَرَاء رَسُول الله ﷺ الصبح مُعْتَجِرَات، كَأَنَّ عَلى رُءُوسهن الغِرْبَان.[4] وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ صَفِيَّة بنت شَيْبَة بِهِ.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا يُونُس، أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب: أَنَّ قُرَّة بْن عَبْد الرَّحْمَن، أَخْبَرَهُ عَنْ ابْن شِهَاب عَنْ عُرْوَة عَنْ عَائِشَة أنها قَالتْ: يَرْحَم الله النِّسَاء المُهَاجِرَات الأُوَل! لـمَّا أَنْزَل الله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَقْنَ أكثف مُرُوطهن فَاخْتَمَرْنَ به. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد مِنْ حَدِيث ابْن وَهْب بِهِ.[5] وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ يعني: أَزْوَاجهن ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤١٠٤)، قال أبو داود: هذا مرسل خالد بن دريك لم يدرك عائشة رضي الله عنها. وقتادة: مدلس وقد عنعن.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٥٨).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٥٩).
(٤) إسناده صحيح: أخرجه أبو داود (٤١٠٠، ٤١٠١)، مختصرًا بإسناد صحيح.
(٥) صحيح: تقـدم.

﴿إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ كُلّ هَؤُلاءِ مَحَارِم للمَرْأَةِ يَجُوز لهَا أَنْ تَظْهَر عَلَيْهِمْ بِزِينَتِهَا وَلكِنْ مِنْ غَيْر اقتصاد وتبهرج. وقال ابْن المُنْذر: حَدَّثَنَا مُوسَى -يَعْنِي: ابْن هَارُون- حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر -يَعْنِي ابْن أَبِي شَيْبَة- حَدَّثَنَا عفَّان، حَدَّثنَا حَمَّاد بْن سَلمَة، أَخْبرَنَا دَاوُد، عَنْ الشَّعْبِيّ وَعِكْرِمَة فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا قَال: لمْ يَذْكُر العَمّ وَلا الخَال؛ لأَنَّهُمَا يتبعان لأَبْنَائِهِمَا، وَلا تَضَع خِمَارهَا عِنْد العَمّ وَالخَال، فَأَمَّا الزَّوْج فَإِنَّمَا ذَلِكَ كُلّه مِنْ أَجْله فتَتَصَنَّع لهُ لا يَكُون بِحَضْرَةِ غَيْره.

وَقَوْله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يَعْنِي تُظْهِر زِينَتهَا أَيْضًا للنِّسَاءِ المُسْلمَات دُون نِسَاء أَهْل الذِّمَّة لئَلَّا تَصِفهُنَّ لرِجَالهِنَّ، وَذَلكَ وَإِنْ كَانَ مَحْذُورًا فِي جَمِيع النِّسَاء إِلَّا أَنَّهُ فِي نِسَاء أَهْل الذِّمَّة أَشَدّ، فَإِنَّهُنَّ لا يَمْنَعهُنَّ مِنْ ذَلكَ مَانِع، وأَمَّا المُسْلمَة فَإِنَّهَا تَعْلم أَنَّ ذَلكَ حَرَام فتَنْزَجِر عَنْهُ، وَقَدْ قَال رَسُول الله ﷺ: **«لا تُبَاشِر المَرْأَة المَرْأَة تَنْعَتهَا لزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُر إِليْهَا»**[1]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ ابْن مَسْعُود. وقال سَعِيد بْن مَنْصُور فِي «سُنَنه»: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، عَنْ هِشَام بْن الغَار، عَنْ عُبَادَة بْن نُسَيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الحَارِث بْن قَيْس قال: كتب أمير المؤمنين عُمَر بْن الخَطَّاب إِلى أَبِي عُبَيْدَة: أَمَّا بَعْد، فَإِنَّهُ بَلغَنِي أَنَّ نِسَاء مِنْ نِسَاء المُسْلمِينَ يَدْخُلنَ الحَمَّامَات مَعَ نِسَاء أَهْل الشِّرْك، فَإِنَّهُ مِنْ قِبَلك، فَلا يَحِلّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِن بِالله وَاليَوْم الآخِر أَنْ يَنْظُر إِلى عَوْرَتهَا إِلَّا أَهْل مِلَّتهَا. وَقَال مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ قَال: نِسَاؤُهُنَّ المُسْلمَات ليْسَ المُشْرِكَات مِنْ نِسَائِهِنَّ، وَليْسَ للمَرْأَةِ المُسْلمَة أَنْ تَنْكَشِف بَيْن يَدَيْ مُشْرِكَة. وَرَوَى عَبْدٌ فِي «تَفْسِيره» عَنْ الكَلبِيّ عَنْ أَبِي صَالح عَنْ ابْن عَبَّاس ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ قَال: هُنَّ المُسْلمَات لا تُبْدِيه ليَهُودِيَّةٍ وَلا نَصْرَانِيَّة، وَهُوَ النَّحْر وَالقُرْط وَالوِشَاح وَمَا لا يَحِلّ أَنْ يَرَاهُ إِلَّا مَحْرَم.

وَرَوَى سَعِيد: حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ ليْث عَنْ مُجَاهِد قَال: لا تَضَع المُسْلمَة خِمَارهَا عِنْد مُشْرِكَة؛ لأَنَّ الله تَعَالى يَقُول: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ فَليْسَتْ مِنْ نِسَائِهِنَّ. وَعَنْ مَكْحُول وَعُبَادَة بْن نُسَيّ، أَنَّهُمَا كَرِهَا أَنْ تُقَبِّل النَّصْرَانِيَّة وَاليَهُودِيَّة وَالمَجُوسِيَّة المُسْلمَة. فَأَمَّا مَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَليّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثنَا أَبُو عُمَيْر، حَدَّثَنَا ضَمْرَة قَال: قَال ابْن عَطَاء عَنْ أَبِيهِ قَال: لـمَّا قَدِمَ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ بَيْت المَقْدِس كَانَ قَوَابِل نِسَائِهِم اليَهُودِيَّات وَالنَّصْرَانِيَّات، فَهَذَا إِنْ صَحّ مَحْمُول عَلى حَال الضَّرُورَة أَوْ أَنَّ ذَلكَ مِنْ بَاب الامْتِهَان، ثُمَّ إِنَّهُ ليْسَ فِيهِ كَشْف عَوْرَة وَلابُدّ، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ قَال ابْن جريج: يَعْنِي مِنْ نِسَاء المُشْرِكِينَ، فَيَجُوز لهَا أَنْ تُظْهِر زِينَتهَا لهَا، وَإِنْ كَانَتْ مُشْرِكَة لأَنَّهَا أَمَتهَا. وَإِليْهِ ذَهَبَ سَعِيد بْن المُسَيَّب، وَقَال الأَكْثَرُونَ: بَل يَجُوز لهَا أَنْ تَظْهَر عَلى رَقِيقهَا مِنْ الرِّجَال وَالنِّسَاء، وَاسْتَدَلُّوا بِالحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُد: حدثنَا مُحَمَّد بْن عِيسَى، حَدَّثنَا أَبُو جَمِيع سَالم بْن دِينَار عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس ﷺ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ أَتَى فَاطِمَة بِعَبْدٍ قَدْ وَهَبَهُ لهَا، قَال: وَعَلى فَاطِمَة ثَوْب إِذَا قَنَّعَتْ بِهِ رَأْسهَا لمْ يَبْلُغ رِجْليْهَا، وَإِذَا غَطَّتْ بِهِ رِجْليْهَا لمْ يَبْلُغ رَأْسهَا، فَلمَّا رَأَى النَّبِيّ ﷺ مَا تَلقَى قَال: **«إِنَّهُ ليْسَ عَليْك بَأْس، إِنَّمَا هُوَ أَبُوك وَغُلامك»**[2].

وَقَدْ ذَكَرَ الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي «تَارِيخه» فِي تَرْجَمَة خَدِيج الحصي مَوْلى مُعَاوِيَة أَنَّ عَبْد الله بْن مَسْعَدَة الفَزَارِيّ كَانَ أَسْوَد شَدِيد الأُدْمَة، وَأَنَّهُ قَدْ كَانَ النَّبِيّ ﷺ وَهَبَهُ لابْنَتِهِ فَاطِمَة فَرَبَّته ثُمَّ أَعْتَقَتْهُ، ثُمَّ قَدْ كَانَ بَعْد ذَلك كُلّه مَعَ مُعَاوِيَة أَيَّام صِفِّين، وَكَانَ مِنْ أَشَدّ النَّاس عَلى عَليّ بْن أَبِي طَالب ﷺ. وقال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ نَبْهَان، عَنْ أُمّ سَلمَة ذَكَرَتْ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «إِذَا كَانَ لإِحْدَاكُنَّ مُكَاتَب، وَكَانَ لهُ مَا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٤١).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤١٠٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

يُؤَدِّي فَلتَحْتَجِبْ مِنْهُ»[١]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد عَنْ مُسَدَّد عَنْ سُفْيَان بِهِ. وَقَوْله: ﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ يَعْنِي: كَالأُجَرَاءِ وَالأَتْبَاع الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَكْفَاءٍ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي عُقُولِهِمْ وَلَهٌ وَخَوَثٌ، وَلا هَمَّ لَهُمْ إِلَى النِّسَاء وَلا يَشْتَهُونَهُنَّ. قَال ابْن عَبَّاس: هُوَ المُغَفَّل الَّذِي لا شَهْوَة لَهُ.

وَقَال مُجَاهِد: هُوَ الأَبْله. وَقَال عِكْرِمَة: هُوَ المُخَنَّث الَّذِي لا يَقُوم زُبُّه. وكذا قَال غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف، وَفِي الصَّحِيح مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ عَنْ عُرْوَة عَنْ عَائِشَة أَنَّ مُخَنَّثًا كَانَ يَدْخُل عَلَى أَهْل رَسُول الله ﷺ وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْر أُولِي الإِرْبَة، فَدَخَل النَّبِيّ ﷺ، وَهُوَ يَنْعَت امْرَأَة يَقُول: إِنَّهَا إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ بِأَرْبَع، وَإِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرَتْ بِثَمَانٍ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: **«أَلا أَرَى هَذَا يَعْلَم مَا هَهُنَا لا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُمْ»**[٢]. فَأَخْرَجَهُ فَكَانَ بِالبَيْدَاءِ يَدْخُل كل يَوْم جُمُعَة يَسْتَطْعِم.

وقال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة: حَدَّثَنَا هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ زَيْنَب بِنْت أَبِي سَلَمَة، عَنْ أُمّ سَلَمَة أَنَّهَا قَالَتْ: دَخَل علينا رَسُول الله ﷺ وَعِنْدَهَا مُخَنَّث وَعِنْدَهَا عَبْد الله بْن أَبِي أُمَيَّة -يَعْنِي أَخَاهَا- وَالمُخَنَّث يَقُول: يَا عَبْد الله بن أبي أمية إِنْ فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ الطَّائِف غَدًا فَعَلَيْك بِابْنَةِ غَيْلان، فَإِنَّهَا تُقْبِل بِأَرْبَع وَتُدْبِر بِثَمَانٍ. قَال: فَسَمِعَهُ رَسُول الله ﷺ، فَقَال لأُمّ سَلَمَة: **«لا يَدْخُلَنَّ هَذَا عَلَيْك»**[٣]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث هِشَام بْن عُرْوَة به. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَجُل يَدْخُل عَلَى أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ مُخَنَّث، وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْر أُولِي الإِرْبَة، فَدَخَل النَّبِيّ ﷺ يومًا وَهُوَ عِنْد بَعْض نِسَائِهِ، وَهُوَ يَنْعَت امْرَأَة فَقَال: إِنَّهَا إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ بِأَرْبَع، وَإِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرَتْ بِثَمَانٍ. فَقَال النَّبِيّ ﷺ: **«أَلا أَرَى هَذَا يَعْلَم مَا هَهُنَا؛ لا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُمْ هَذَا»**. فَحَجَبُوهُ.[٤] وَرَوَاهُ مُسْلم وَأَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ مِنْ طَرِيق عَبْد الرَّزَّاق بِهِ.

وَقَوْله: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يَعْنِي: لِصِغَرِهِمْ لا يَفْهَمُونَ أَحْوَال النِّسَاء وَعَوْرَاتهنَّ مِنْ كَلامِهِنَّ الرَّخِيم، وَتَعَطُّفهنَّ فِي المِشْيَة، وَحَرَكَاتهنَّ وَسَكَنَاتهنَّ، فَإِذَا كَانَ الطِّفْل صَغِيرًا لا يَفْهَم ذَلِكَ، فَلا بَأْس بِدُخُولِهِ عَلَى النِّسَاء، فَأَمَّا إِنْ كَانَ مُرَاهِقًا أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ بِحَيْثُ يَعْرِف ذَلِكَ وَيَدْرِيه، وَيُفَرِّق بَيْن الشَّوْهَاء وَالحَسْنَاء، فَلا يُمَكَّن مِنْ الدُّخُول عَلَى النِّسَاء، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: **«إِيَّاكُمْ وَالدُّخُول عَلَى النِّسَاء»**. قِيل: يَا رَسُول الله؛ أَفَرَأَيْت الحَمْو؟ قَال: **«الحَمْو المَوْت»**.[٥]

وَقَوْله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ كَانَتْ المَرْأَة فِي الجَاهِلِيَّة إِذَا كَانَتْ تَمْشِي فِي الطَّرِيق وَفِي رِجْلِهَا خَلخَال صَامِت لا يُسمع صَوْته، ضَرَبَتْ بِرِجْلِهَا الأَرْض فيعلم الرِّجَال طَنِينه، فَنَهَى الله المُؤْمِنَات عَنْ مِثْل ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ شَيْء مِنْ زِينَتهَا مَسْتُورًا، فَتَحَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ لِتُظْهِر مَا هُوَ خَفِيّ دَخَل فِي هَذَا النَّهْي؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾. وَمِنْ ذَلِكَ أيضًا: أَنَّهَا تَنْتَهِي عَنْ التَّعَطُّر وَالتَّطَيُّب عِنْد خُرُوجهَا مِنْ بَيْتهَا لِيَشْتَمَّ الرِّجَال طِيبهَا، فَقَدْ قَال أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد القَطَّان، عَنْ ثَابِت بْن عُمَارَة الحَنَفِيّ، عَنْ غُنَيْم بْن قَيْس عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ

---

(١) **ضعيف** : أخرجه أبو داود (٣٩٢٨)، وفي إسناده نبهان مولى أم سلمة: مقبول. وضعفه الألباني في «الإرواء» (١٧٦٩، ١٨٠٧).
(٢) **صحيح** : أخرجه مسلم (٢١٨١) من حديث عائشة.
(٣) **صحيح** : أخرجه البخاري (٤٣٢٤)، ومسلم (٢١٨٠).
(٤) **صحيح** : أخرجه أحمد (٦/ ١٥٢).
(٥) **صحيح** : أخرجه البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢).

قَال: «كُلّ عَيْن زَانِيَة، وَالمَرْأَة إِذَا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا»[١]. يَعْنِي: زَانِيَة، قال: وَفِي البَاب عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، وَهَذَا حَسَن صَحِيح. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث ثَابِت بْن عُمَارَة بِهِ.

وَقَال أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن كَثِير، أَخْبَرَنَا سُفْيَان، عَنْ عَاصِم بْن عُبَيْد الله، عَنْ عُبَيْد مَوْلى أَبِي رُهْم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: لَقِيَتْهُ امْرَأَة وجد مِنْهَا رِيح الطِّيب وَلِذَيْلهَا إِعْصَار، فَقَال: يَا أَمة الجَبَّار، جِئْت مِنْ المَسْجِد؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَال لَهَا: وله تَطَيَّبْت؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَال: إِنِّي سَمِعْت حِبِّي أَبَا القَاسِم ﷺ يَقُول: «لا يَقْبَل الله صَلاة امْرَأَة تَطَيَّبَتْ لِهَذَا المَسْجِد حَتَّى تَرْجِع فَتَغْتَسِل غُسْلهَا مِنْ الجَنَابَة»[٢]. وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة عَنْ سُفْيَان هُوَ ابْن عُيَيْنَة بِهِ. وَرَوَى التِّرْمِذِيّ أَيْضًا مِنْ حَدِيث مُوسَى بْن عُبَيْدَة عَنْ أَيُّوب بْن خَالد عَنْ مَيْمُونَة بِنْت سَعْد أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «الرَّافِلَة فِي الزِّينَة فِي غَيْر أَهْلهَا كَمَثَل ظُلْمَة يَوْم القِيَامَة لا نُور لَهَا»[٣].

وَمِنْ ذَلكَ أَيْضًا: أَنَّهُنَّ يُنْهَيْنَ عَنْ المَشْي فِي وَسَط الطَّرِيق لِمَا فِيهِ مِنْ التَّبَرُّج.

قَال أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا القعنبي: حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز -يَعْنِي ابْن مُحَمَّد- عَنْ أَبِي اليَمَان، عَنْ شَدَّاد بْن أَبِي عَمْرو ابْن حَمَاس، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ حَمْزَة بْن أَبِي أُسَيْد الأَنْصَارِيّ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ وَهُوَ خَارِج مِنْ المَسْجِد، وَقَدْ اخْتَلَطَ الرجال مَعَ النِّسَاء فِي الطَّرِيق، فَقَال رَسُول الله للنِّسَاءِ: «اسْتَأْخِرْنَ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحقُقن الطَّرِيق، عَلَيْكُنَّ بِحَافَّاتِ الطَّرِيق». فَكَانَتْ المَرْأَة تَلتصق بِالجِدَارِ حَتَّى إِنَّ ثَوْبهَا لَيَتَعَلَّق بِالجِدَارِ مِنْ لُصُوقهَا بِهِ.[٤]

وَقَوْله: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أَيْ: افْعَلُوا مَا آمُرُكُمْ بِهِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَات الجَمِيلة وَالأَخْلاق الجَلِيلة، وَاتْرُكُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْل الجَاهِلِيَّة مِنْ الأَخْلاق وَالصِّفَات الرَّذِيلة، فَإِنَّ الفَلاح كُلّ الفَلاح فِي فِعْل مَا أَمَرَ الله بِهِ وَرَسُوله وَتَرْك مَا نَهَيَا عَنْهُ وَالله تَعَالى هُوَ المُسْتَعَان.

﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

اشْتَمَلتْ هَذِهِ الآيَات الكَرِيمَات المُبِينَة عَلى جُمَل مِنْ الأَحْكَام المُحْكَمَة وَالأَوَامِر المُبْرَمَة، فَقَوْله تَعَالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ﴾ هَذَا أَمْر بِالتَّزْوِيج. وَقَدْ ذَهَبَ طَائِفَة مِنْ العُلَمَاء إِلى وُجُوبه عَلى كُلّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ، وَاحْتَجُّوا بِظَاهِرِ قَوْله ﷺ: «يَا مَعْشَر الشَّبَاب! مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ البَاءَة فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضّ لِلبَصَرِ وَأَحْصَن لِلفَرْجِ، وَمَنْ لمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْم فَإِنَّهُ لهُ وِجَاء».[٥] أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث ابْن مَسْعُود، وَقَدْ جَاءَ فِي «السُّنَن» مِنْ غَيْر وَجْه أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «تَزَوَّجُوا

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٧٨٦)، وأبو داود (٤١٧٣)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤١٧٤)، وابن ماجه (٤٠٠٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (١١٠٧)، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسي بن عبيدة يضعف في الحديث من قبل حفظه وهو صدوق، وقد رواه بعضهم عن موسى بن عبيدة ولم يرفعه. وضعفه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف سنن الترمذي».

(٤) حسن لغيره: أخرجه أبو داود (٥٢٧٢)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٥) صحيح: تقدم.

تَوالدوا تَنَاسَلُوا؛ فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمْ الأُمَم يَوْم القِيَامَة»[١]. وَفِي رِوَايَة: «**حَتَّى بِالسِّقْطِ**»[٢]. الأَيَامَى جَمْع أَيِّم، وَيُقَال ذَلِكَ للمَرْأَةِ الَّتِي لا زَوْج لَهَا، وَللرَّجُل الَّذِي لا زَوْجَة لَهُ، وَسَوَاء كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ ثُمَّ فَارَقَ، أَوْ لَمْ يَتَزَوَّج وَاحِد مِنْهُمَا. حَكَاهُ الجَوْهَرِيّ عَنْ أَهْل اللُّغَة، يُقَال: رَجُل أَيِّم وَامْرَأَة أَيِّم أيضًا.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿**إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ**﴾. قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: رَغَّبَهُمْ الله فِي التَّزْوِيج، وَأَمَرَ بِهِ الأَحْرَار وَالعَبِيد، وَوَعَدَهُمْ عَلَيْهِ الغِنَى، فَقَال: ﴿**إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ**﴾. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي حَدَّثنَا مَحْمُود بْن خَالد الأَزْرَق، حَدَّثنَا عُمَر بْن عَبْد الوَاحِد، عَنْ سَعِيد -يَعْنِي ابْن عَبْد العَزِيز- قَال: بَلغَنِي أَنَّ أَبَا بَكْر الصِّدِّيق ﷺ قَال: أَطِيعُوا الله فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ النِّكَاح يُنْجِز مَا وَعَدَكُمْ مِنْ الغِنَى قَال: ﴿**إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ**﴾. وَعَنْ ابْن مَسْعُود: والتَمِسُوا الغِنَى فِي النِّكَاح، يَقُول الله تَعَالَى: ﴿**إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ**﴾. رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَذَكَرَ البَغَوِيّ عَنْ عُمَر نَحْوه. وَعَنْ اللَّيْث، عَنْ مُحَمَّد بْن عَجْلان، عَنْ سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**ثَلاثَة حَقٌّ عَلى الله عَوْنهمْ: النَّاكِح يُرِيد العَفَاف، وَالمُكَاتَب يُرِيد الأَدَاء، وَالغَازِي فِي سَبِيل الله**»[٣]. رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ. وَقَدْ زَوَّجَ النَّبِيّ ﷺ ذَلكَ الرَّجُل الَّذِي لمْ يَجِد عَليْهِ إِلَّا إِزَاره، وَلمْ يَقْدِر عَلى خَاتَم مِنْ حَدِيد، وَمَعَ هَذَا فَزَوَّجَهُ بِتِلكَ المَرْأَة، وَجَعَل صَدَاقهَا عَليْهِ أَنْ يُعَلِّمهَا مَا يحفظه مِنْ القُرْآن. وَالمَعْهُود مِنْ كَرَم الله تَعَالى وَلُطْفه أَنْ يَرْزُقهُ مَا فِيهِ كِفَايَة لهَا وَله، وَأَمَّا مَا يُورِدهُ كَثِير مِنْ النَّاس عَلى أَنَّهُ حَدِيث: «تَزَوَّجُوا فُقَرَاء يُغْنِكُمْ الله». فَلا أَصْل لهُ، وَلمْ أَرَهُ بِإِسْنَادٍ قَوِيّ وَلا ضَعِيف إِلى الآن، وَفِي القُرْآن غُنْيَة عَنْهُ، وَكَذَا هَذِهِ الأَحَادِيث الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة.

وقوله: ﴿**وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ**﴾ هَذَا أَمْر مِنْ الله تَعَالى لمَنْ لا يَجِد تَزْوِيجًا بِالتَّعَفُّفِ عَنْ الحَرَام، كَمَا قَال ﷺ: «**يَا مَعْشَر الشَّبَاب مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ البَاءَة فَليَتَزَوَّج، فَإِنَّهُ أَغَضّ للبَصَر وَأَحْصَن للفَرْج، وَمَنْ لمْ يَسْتَطِعْ فَعَليْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لهُ وِجَاء**»[٤]. وَهَذِهِ الآيَة مُطْلقَة وَالَّتِي فِي سُورَة النِّسَاء أَخصّ مِنْهَا، وَهِيَ قَوْله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ**﴾ إلى أن قال: ﴿**ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ**﴾ أَيْ: صَبْركُمْ عَنْ تَزَوُّج الإِمَاء خَيْر لكُمْ؛ لأَنَّ الوَلد يَجِيء رَقِيقًا، ﴿**وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ**﴾. قَال عِكْرِمَة فِي قَوْله: ﴿**وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا**﴾ قَال: هُوَ الرَّجُل يَرَى المَرْأَة فَكَأَنَّهُ يَشْتَهِي، فَإِنْ كَانَتْ لهُ امْرَأَة فَليَذْهَبْ إِليْهَا وَليَقْضِ حَاجَته مِنْهَا، وَإِنْ لمْ يَكُنْ لهُ امْرَأَة فَليَنْظُرْ فِي مَلكُوت السَّمَوَات وَالأَرْض حَتَّى يُغْنِيه الله.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ**﴾ هَذَا أَمْر مِنْ الله تَعَالى للسَّادَةِ إِذَا طَلبَ مِنْهُمْ عَبِيدهمْ الكِتَابَة أَنْ يُكَاتِبُوهُمْ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُون للعَبْدِ حِيلة وَكَسْب يُؤَدِّي إِلى سَيِّده المَال الَّذِي شَارَطَهُ عَلى أَدَائِهِ، وَقَدْ ذَهَبَ كَثِير مِنْ العُلمَاء إِلى أَنَّ هَذَا الأَمْر أَمْر إِرْشَاد وَاسْتِحْبَاب، لا أَمْر تَحَتُّم وَإِيجَاب، بَل السَّيِّد مُخَيَّر إِذَا طَلبَ مِنْهُ عَبْده الكِتَابَة إِنْ شَاءَ كَاتَبَهُ وَإِنْ شَاءَ لمْ يُكَاتِبهُ. قَال الثَّوْرِيّ، عَنْ جَابِر، عَنْ

---

(١) **حسن صحيح** : أخرجه الترمذي (٢٠٥٠)، والنسائي (٦/ ٦٥). وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) انظر «ضعيف الجامع» (٣٢٩١).

حسن : أخرجه الترمذي (١٦٥٥)، والنسائي (٦/ ٦١)، وابن ماجه (٢٥١٨)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

حيح : تقدم.

الشَّعْبِيّ: إِنْ شَاءَ كَاتَبَهُ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يُكَاتِبهُ. وقال ابْن وَهْب، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، عَنْ رَجُل، عَنْ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح: إِنْ يَشَأْ كَاتَبَهُ وَإِنْ يَشَأْ لَمْ يُكَاتِبهُ. وَكَذَا قَالَ مُقَاتِل بْن حَيَّان وَالحَسَن البَصْرِيّ. وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهُ يَجِب عَلَى السَّيِّد إِذَا طَلَبَ مِنْهُ عَبْده ذَلِكَ أَنْ يُجِيبهُ إِلَى مَا طَلَبَ أَخْذًا بِظَاهِرِ هَذَا الأَمْر.

وَقَال البُخَارِيّ: وَقَال رَوْح: عَنْ ابْن جُرَيْج قُلت لعَطَاءٍ: أَوَاجِب عَلَيَّ إِذَا عَلمْت لهُ مَالًا أَنْ أُكَاتِبهُ؟ قَال: مَا أَرَاهُ إِلَّا وَاجِبًا. وَقَال عَمْرو بْن دِينَار: قُلت لعَطَاءٍ: أَتَأْثُرُهُ عَنْ أَحَد؟ قَال: لا. ثُمَّ أَخْبَرَنِي أَنَّ مُوسَى بْن أَنَس أَخْبَرَهُ أَنَّ سِيرِينَ سَأَل أَنَسًا المُكَاتَبَة وَكَانَ كَثِير المَال فَأَبَى، فَانْطَلَقَ إِلَى عُمَر ﷺ، فَقَال: كَاتِبْهُ، فَأَبَى فَضَرَبَهُ بِالدِّرَّةِ وَيَتْلُو عُمَر بن الخطاب ﷺ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فَكَاتَبَهُ. هَكَذَا ذَكَرَهُ البُخَارِيّ تعليقًا. وَرَوَاهُ عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا ابْن جُرَيْج قَال: قُلت لعَطَاءٍ: أَوَاجِب عَلَيَّ إِذَا عَلمْت لهُ مَالًا أَنْ أُكَاتِبهُ؟ قَال: مَا أَرَاهُ إِلَّا وَاجِبًا. وقالها عمرو بن دينار، قال: قلت لعطاء: أتأثره عن أحد؟ قال: لا.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَكْر، حَدَّثَنَا سَعِيد، عَنْ قَتَادَة، عَنْ أَنَس بْن مَالك أَنَّ سِيرِينَ أَرَادَ أَنْ يُكَاتِبهُ فَتلكَّأَ عَلَيْهِ، فَقَال لهُ عُمَر: لتُكَاتِبَنَّهُ. إِسْنَاده صَحِيح. وقال سَعِيد بْن مَنْصُور: حَدَّثَنَا هُشَيْم ابْن جُوَيْبِر، عَنْ الضَّحَّاك قَال: هِيَ عَزْمَة، وَهَذَا هُوَ القَوْل القَدِيم مِنْ قَوْلَيْ الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَذَهَبَ فِي الجَدِيد إِلَى أَنَّهُ لا يَجِب؛ لقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يَحِلّ مَال امْرِئٍ مُسْلم إلاَّ بِطِيبٍ من نَفْسه»[1]. وَقَال ابْن وَهْب، قَال مَالك: الأَمْر عِنْدنَا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى سَيِّد العَبْد أَنْ يُكَاتِبهُ إِذَا سَأَلَهُ ذَلكَ، وَلَمْ أَسْمَع أَحَدًا مِنْ الأَئِمَّة أَكْرَهَ أَحَدًا عَلَى أَنْ يُكَاتِب عَبْده. قَال مَالك: وَإِنَّمَا ذَلكَ أَمْر مِنْ الله، وَإِذْن مِنْهُ للنَّاسِ وَلَيْسَ بِوَاجِب. وَكَذَا قَال الثَّوْرِيّ، وَأَبُو حَنِيفَة، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم، وَغَيْرهم، وَاخْتَارَ ابْن جَرِير قَوْل الوُجُوب لظَاهِرِ الآيَة.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قَال بَعْضهمْ: أَمَانَة، وَقَال بَعْضهمْ: صِدْقًا، وَقَال بَعْضهمْ: مَالًا، وَقَال بَعْضهمْ: حِيلة وَكَسْبًا. وَرَوَى أَبُو دَاوُد فِي كتاب «المَرَاسِيل»، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قَال: «إِنْ عَلمْتُمْ فيهم حِرْفَة وَلا تُرْسِلُوهُمْ كلابًا عَلى النَّاس».

وَقَوْله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ اخْتَلفَ المُفَسِّرُونَ فِيهِ: فَقَال قائلون: مَعْنَاهُ اطْرَحُوا لَهُمْ مِنْ الكِتَابَة بَعْضهَا، ثُمَّ قَال بَعْضهمْ: مِقْدَار الرُّبع، وَقِيل: الثُّلث، وَقِيل: النِّصف، وَقِيل: جُزْءًا مِنْ الكِتَابَة مِنْ غَيْر حَدّ.

وَقَال آخَرُونَ: بَل المُرَاد مِنْ قَوْله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ هُوَ النَّصِيب الَّذِي فَرَضَ الله لَهُمْ مِنْ أَمْوَال الزَّكَوات، وَهَذَا قَوْل الحَسَن وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم وَأَبِيهِ، وَمُقَاتِل بْن حَيَّان، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير. وَقَال إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ فِي قَوْله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قَال: حَثَّ النَّاس عَلَيْهِ مَوْلاهُ وَغَيْره، وَكَذَا قَال بُرَيْدَة بْن الحُصَيْب الأَسْلمِيّ وقَتَادَة. وَقَال ابْن عَبَّاس: أَمَرَ الله المُؤْمِنِينَ أَنْ يُعِينُوا فِي الرِّقَاب، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الحَدِيث عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: «ثَلاثَة حَقٌّ عَلى الله عَوْنهمْ»[2]. فَذَكَرَ مِنْهُمْ «المُكَاتَب يُرِيد الأَدَاء» وَالقَوْل الأَوَّل أَشْهَر. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ ابْن شَبِيب، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ عُمَر أَنَّهُ كَاتَبَ عَبْدًا لهُ يُكَنَّى أَبَا أُمَيَّة، فَجَاءَ بِنَجْمِهِ حِين حَلَّ فَقَال: يَا أَبَا أُمَيَّة، اذْهَبْ فَاسْتَعِنْ بِهِ فِي مُكَاتَبَتك، فَقَال: يَا أَمِير المُؤْمِنِينَ، لوْ تَركْته حَتَّى يَكُون مِنْ آخِر نَجْم؟ قَال: أَخَاف أَنْ لا أُدْرِك ذَلكَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قَال عِكْرِمَة: فَكَانَ أَوَّل نَجْم أُدِّيَ فِي الإِسْلام.

---

(١) صحيح: انظر «الإرواء» (١٤٥٩).
(٢) تقدم قريبًا.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا هَارُون بْن الْمُغِيرَة، عَنْ عَنْبَسَة، عَنْ سَالم الأَفْطَس، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر قَال: كَانَ ابْن عُمَر إِذَا كَاتَبَ مُكَاتَب لَمْ يَضَع عَنْهُ شَيْئًا مِنْ أَوَّل نُجُومه مَخَافَة أَنْ يَعْجِز فَتَرْجِع إِلَيْهِ صَدَقَته، وَلكِنَّهُ إِذَا كَانَ فِي آخِر مُكَاتَبَته وَضَعَ عَنْهُ مَا أَحَبَّ. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قَال: ضَعُوا عَنْهُمْ مُكَاتَبَتهمْ. وَكَذَلك قَال مُجَاهِد وَعَطَاء وَالقَاسِم بْن أَبِي بَزَّة وَعَبْد الكَرِيم ابْن مَالك الجَزَرِيّ وَالسُّدِّيّ. وَقَال مُحَمَّد بْن سِيرِينَ فِي قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾: كَانَ يُعْجِبهُمْ أَنْ يَدَع الرَّجُل لِمُكَاتَبِهِ طَائِفَة مِنْ مُكَاتَبَته. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: أَخْبَرَنَا الفَضْل بْن شَاذَان المُقْرِئ، أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيم بْن مُوسَى، أَخْبَرَنَا هِشَام بْن يُوسُف، عَنْ ابْن جُرَيْج، أَخْبَرَنِي عَطَاء بْن السَّائِب أَنَّ عَبْد الله بْن جُنْدُب أَخْبَرَهُ عَنْ عَلِيّ ﷺ عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «رُبْع الكِتَابَة». وَهَذَا حَدِيث غَرِيب وَرَفْعه مُنْكَر، وَالأَشْبَه أَنَّهُ مَوْقُوف عَلى عَلِيّ ﷺ، كَمَا رَوَاهُ عَنْهُ أَبُو عَبْد الرَّحْمَن السُّلمِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآيَة، كَانَ أَهْل الجَاهِلِيَّة إِذَا كَانَ لأَحَدِهِمْ أَمَة أَرْسَلهَا تَزْنِي، وَجَعَل عَليْهَا ضَرِيبَة يَأْخُذهَا مِنْهَا كُلّ وَقْت، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلام نَهَى الله المسلمين عَنْ ذَلكَ. وَكَانَ سَبَب نُزُول هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة -فِيمَا ذَكَرَ غَيْر وَاحِد مِنْ المُفَسِّرِينَ مِنْ السَّلف وَالخَلف- فِي شَأْن عَبْد الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول؛ فَإِنَّهُ كَانَ لهُ إِمَاء فَكَانَ يُكْرِههُنَّ عَلى البِغَاء طَلبًا لِخَرَاجِهِنَّ وَرَغْبَة فِي أَوْلادهنَّ وَرِيَاسَة مِنْهُ فِيمَا يَزْعُم.

ذِكْرَ الآثَار الوَارِدَة فِي ذَلكَ: قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر أَحْمَد بْن عَمْرو بْن عَبْد الخَالق البَزَّار رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مُسْنَده»: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن دَاوُد الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرو اللَّخْمِيّ -يَعْنِي مُحَمَّد بْن الحَجَّاج- حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ الزُّهْرِيّ قَال: كَانَتْ جَارِيَة لعَبْدِ الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول يُقَال لهَا: مُعَاذَة، يُكْرِهها عَلى الزِّنَا، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلام نَزَلتْ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وَقَال الأَعْمَش: عَنْ أَبِي سُفْيَان، عَنْ جَابِر فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ قَال: نَزَلتْ فِي أَمَة لعَبْدِ الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول يُقَال لهَا: مُسَيْكَة، كَانَ يُكْرِههَا عَلى الفُجُور، وَكَانَتْ لا بَأْس بِهَا فَتَأْبَى، فَأَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ إِلى قَوْله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وَرَوَى النَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث ابْن جُرَيْج عَنْ أَبِي الزُّبَيْر عَنْ جَابِر نَحْوه.

وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا عمرو بْن عَلِيّ حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا الأَعْمَش حَدَّثَنِي أَبُو سُفْيَان عَنْ جَابِر قَال: كَانَ لعَبْدِ الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول جَارِيَة يُقَال لهَا: مُسَيْكَة، وَكَانَ يُكْرِههَا عَلى البِغَاء، فَأَنْزَل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ إِلى قَوْله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. صَرَّحَ الأَعْمَش بِالسَّمَاع مِنْ أَبِي سُفْيَان طَلحَة بْن نَافِع فَدَلَّ عَلى بُطْلان قَوْل مَنْ قَال: لمْ يَسْمَع مِنْهُ، إِنَّمَا هُوَ صَحِيفَة؛ حَكَاهُ البَزَّار.

وقال أَبُو دَاوُد الطَّيَالسِيّ: عَنْ سُليمَان بْن مُعَاذ، عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ جَارِيَة لعَبْدِ الله بْن أُبَيّ كَانَتْ تَزْنِي فِي الجَاهِلِيَّة فَوَلدَتْ أَوْلادًا مِنْ الزِّنَا، فَقَال لهَا: مَا لك لا تَزْنِينَ؟ قَالتْ: وَالله لا أَزْنِي، فَضَرَبَهَا؛ فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾.

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر عَنْ الزُّهْرِيّ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ قُرَيْش أُسِرَ يَوْم بَدْر، وَكَانَ عِنْد عَبْد الله بْن أُبَيّ أَسِيرًا، وَكَانَتْ لعَبْدِ الله بْن أُبَيّ جَارِيَة يُقَال لهَا: مُعَاذَة، وَكَانَ القُرَشِيّ الأَسِير يُرِيدهَا عَلى نَفْسهَا، وَكَانَتْ مُسْلمَة، وَكَانَتْ تَمْتَنِع مِنْهُ لإِسْلامِهَا، وَكَانَ عَبْد الله بْن أُبَيّ يُكْرِههَا عَلى ذَلكَ، وَيَضْرِبهَا رَجَاء أَنْ تَحْمِل مِنْ القُرَشِيّ فَيَطْلُب

فِدَاء وَلده. فَقَال تَبَارَكَ وَتَعَالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾. وَقَال السُّدِّيّ: أُنْزِلتْ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة فِي عَبْد الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول رَأْس المُنَافِقِينَ، وَكَانَتْ لهُ جَارِيَة تُدْعَى مُعَاذَة، وَكَانَ إِذَا نَزل بِهِ ضَيْف أَرْسَلهَا إِلَيْهِ لِيُوَاقِعهَا إِرَادَة الثَّوَاب مِنْهُ وَالكَرَامَة لهُ، فَأَقْبَلتْ الجَارِيَة إِلى أَبِي بَكْر رضي الله عنه فَشَكَتْ إِلَيْهِ ذلك، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْر للنَّبِيِّ ﷺ فَأَمَرَهُ بِقَبْضِهَا، فَصَاحَ عَبْد الله بْن أُبَيّ: مَنْ يَعْذِرنَا مِنْ مُحَمَّد؟ يَغْلبنَا عَلى مَمْلُوكَتنَا! فَأَنْزَل الله فِيهم هَذَا. وَقَال مُقَاتِل بْن حَيَّان: بَلغَنِي -وَالله أَعْلم- أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلتْ فِي رَجُليْنِ كَانَا يُكْرِهَانِ أَمَتَيْنِ لهُمَا، إِحْدَاهُمَا اسْمهَا مُسَيْكَة وَكَانَتْ للأَنْصَارِ، وَكَانَتْ أُمَيْمَة أُمّ مُسَيْكَة لعَبْدِ الله بْن أُبَيّ، وَكَانَتْ مُعَاذَة وَأَرْوَى بِتِلْكَ المَنْزِلة فَأَتَتْ مُسَيْكَة وَأُمّهَا النَّبِيّ ﷺ فَذَكَرَتَا ذَلكَ لهُ، فَأَنْزَل الله فِي ذَلكَ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ يَعْنِي: الزِّنَا.

وَقَوْله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ هَذَا خَرَجَ مَخْرَج الغَالب فَلا مَفْهُوم لهُ.

وَقَوْله: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: مِنْ خَرَاجهنَّ وَمُهُورهنَّ وَأَوْلادهنَّ، وَقَدْ نَهَى رَسُول الله ﷺ عَنْ كَسْب الحَجَّام وَمَهْر البَغِيّ وَحُلوَانِ الكَاهِن.[1] وَفِي رِوَايَة: «مَهْر البَغِيّ خَبِيث، وَكَسْب الحَجَّام خَبِيث، وَثَمَن الكَلب خَبِيث».[2]

وَقَوْله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أَيْ: لهُنَّ. كَمَا تَقَدَّمَ فِي الحَدِيث عَنْ جَابِر.

وَقَال ابْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: فَإِنْ فَعَلتُمْ فَإِنَّ الله لهُنَّ غَفُور رَحِيم، وَإِثْمهنَّ عَلى مَنْ أَكْرَههُنَّ، وَكَذَا قَال مُجَاهِد وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ وَالأَعْمَش وَقَتَادَة.

وَقَال أَبُو عُبَيْد: حَدَّثَنِي إِسْحَاق الأَزْرَق، عَنْ عَوْف عَنْ الحَسَن فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. قَال: لهُنَّ وَالله، لهُنَّ وَالله. وَعَنْ الزُّهْرِيّ قَال: غَفُور لهُنَّ مَا أُكْرِهْنَ عَليْهِ. وَعَنْ زَيْد بْن أَسْلم قَال: غَفُور رَحِيم للمُكْرَهَاتِ. حَكَاهُنَّ ابْن المُنْذِر فِي «تَفْسِيره» بِأَسَانِيدِهِ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثنَا يَحْيَى بْن عَبْد الله، حَدَّثَنِي ابْن لهِيعَة، حَدَّثَنِي عَطَاء عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر قَال: فِي قِرَاءَة عَبْد الله بْن مَسْعُود: (فَإِنَّ الله مِنْ بَعْد إِكْرَاههنَّ لهُنَّ غَفُور رَحِيم وَإِثْمهنَّ عَلى مَنْ أَكْرَههُنَّ). وَفِي الحَدِيث المَرْفُوع عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخطَأ وَالنِّسْيَان وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَليْه».

وَلـمَّا فَصَّل تَبَارَكَ وَتَعَالى هَذِهِ الأَحْكَام وَبَيَّنَهَا؛ قَال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾. يَعْنِي: القُرْآن فِي آيَات وَاضِحَات مُفَسِّرَات، ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أَيْ: خَبَرًا عَنْ الأُمَم المَاضِيَة وَمَا حَلَّ بِهِمْ فِي مُخَالفَتهمْ أَوَامِر الله تَعَالى، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ أَيْ: زَاجِرًا عَنْ ارْتِكَاب المَآثِم وَالمَحَارِم، ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ: لمَنْ اتَّقَى الله وَخَافَهُ. قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَالب رضي الله عنه فِي صِفَة القُرْآن: فِيهِ حُكْم مَا بَيْنكُمْ، وَخَبَر مَا قَبْلكُمْ، وَنَبَأ مَا بَعْدكُمْ، وَهُوَ الفَصْل ليْسَ بِالهَزْل، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّار قَصَمَهُ الله، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْره أَضَلَّهُ الله.

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَقُول: هَادِي أَهْل السَّمَوَات

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢٣٧)، ومسلم (١٥٦٧).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٦٨).

وَالأَرْض. قَال ابْن جُرَيْج: قَال مُجَاهِد وَابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: يُدَبِّر الأَمْر فِيهِمَا نُجُومهمَا وَشَمْسهمَا وَقَمَرهمَا.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن عُمَر بْن خَالد الرَّقِّيّ، حَدَّثَنَا وَهْب بْن رَاشِد، عَنْ فَرْقَد، عن أَنَس بْن مَالك قَال: إِنَّ الله يَقُول: نُورِي هداي. وَاخْتَارَ هَذَا القَوْل ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَال أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ الرَّبِيع ابْن أَنَس عَنْ أَبِي العَالِيَة، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب فِي قول الله تَعَالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ قَال: هُوَ المُؤْمِن الَّذِي جَعَل الله الإِيمَان وَالقُرْآن فِي صَدْره، فَضَرَبَ الله مَثَله فَقَال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فَبَدَأَ بِنُورِ نَفْسه، ثُمَّ ذَكَرَ نُور المُؤْمِن، فَقَال: مَثَل نُور مَنْ آمَنَ بِهِ، قَال: فَكَانَ أُبَيّ بْن كَعْب يَقْرَؤُهَا: (مَثَل نُور مَنْ آمَنَ بِهِ) فَهُوَ المُؤْمِن جَعَل الإِيمَان وَالقُرْآن فِي صَدْره. وَهَكَذَا رَوَاهُ سَعِيد بْن جُبَيْر وَقَيْس بْن سَعْد، عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَرَأَهَا كَذَلكَ: (مَثَل نُور مَنْ آمَنَ بالله)، وَقَرَأَ بَعْضهمْ: (الله مُنَوِّر السَّمَوَات وَالأَرْض). وَقَال الضَّحَّاك: (الله نَوَّر السَّمَوَات وَالأَرْض).

وَقَال السُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فَبِنُورِهِ أَضَاءَتْ السَّمَوَات وَالأَرْض، وَفِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق فِي «السِّيرَة» عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَال فِي دُعَائِهِ يَوْم آذَاهُ أَهْل الطَّائِف: «أَعُوذ بِنُورِ وَجْهك الَّذِي أَشْرَقَتْ له الظُّلُمَات، وَصَلحَ عَلَيْهِ أَمْر الدُّنْيَا وَالآخِرَة، أَنْ يَحِلّ بِي غَضَبك، أَوْ يَنْزِل بِي سَخَطك، لك العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلا حَوْل وَلا قُوَّة إلاَّ بِالله»[1]. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنه: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْل يَقُول: **«اللَّهُمَّ لك الحَمْد، أَنْتَ قيوم السَّمَوَات وَالأَرْض وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلك الحَمْد أَنْتَ نُور السَّمَوَات وَالأَرْض وَمَنْ فِيهِنَّ»**. الحَدِيث.[2] وَعَنْ ابْن مَسْعُود رضي الله عنه أنه قَال: إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ عِنْده لَيْل وَلا نَهَار، نُور العَرْش مِنْ نُور وَجْهه.

وَقَوْله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ فِي هَذَا الضَّمِير قَوْلانِ؛ أَحَدهمَا: أَنَّهُ عَائِد إِلى الله عز وجل، أَيْ: مَثَل هُدَاهُ فِي قَلب المُؤْمِن -قَالهُ ابْن عَبَّاس- كَمِشْكَاةٍ. وَالثَّانِي: أَنَّ الضَّمِير عَائِد إِلى المُؤْمِن الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاق الكَلام، تَقْدِيره: مَثَل نُور المُؤْمِن الَّذِي فِي قَلبه كَمِشْكَاةٍ، فَشَبَّهَ قَلب المُؤْمِن وَمَا هُوَ مَفْطُور عَلَيْهِ مِنْ الهُدَى وَمَا يَتَلقَّاهُ مِنْ القُرْآن المُطَابِق لمَا هُوَ مَفْطُور عَلَيْهِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ فَشَبَّهَ قَلب المُؤْمِن فِي صَفَائِهِ فِي نَفْسه بِالقِنْدِيل مِنْ الزُّجَاج الشَّفَّاف الجَوْهَرِيّ وَمَا يستهديه مِنْ القُرْآن وَالشَّرْع بِالزَّيْتِ الجَيِّد الصَّافِي المُشْرِق المُعْتَدِل الَّذِي لا كَدَر فِيهِ وَلا انْحِرَاف.

فَقَوْله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قَال ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَمُحَمَّد بْن كَعْب وَغَيْر وَاحِد: هُوَ مَوْضِع الفَتِيلة مِنْ القِنْدِيل. هَذَا هُوَ المَشْهُور؛ وَلهَذَا قَال بَعْده: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وَهُوَ الزُّبَالة الَّتِي تُضِيء. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وَذَلكَ أَنَّ اليَهُود قَالُوا لمُحَمَّدٍ ﷺ كَيْف يَخْلُص نُور الله مِنْ دُون السَّمَاء؟ فَضَرَبَ الله مثلاً لنُورِهِ، فَقَال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وَالمِشْكَاة كُوَّة فِي البَيْت، قَال: وَهُوَ مَثَل ضَرَبَهُ الله لطَاعَتِهِ فَسَمَّى الله طَاعَته نُورًا، ثُمَّ سَمَّاهَا أَنْوَاعًا شَتَّى. وَقَال ابْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد: الكُوَّة بِلُغَةِ الحَبَشَة، وَزَادَ غيره فَقَال: المِشْكَاة الكُوَّة الَّتِي لا مَنْفَذ لهَا. وَعَنْ مُجَاهِد: المِشْكَاة الحَدَائِد الَّتِي يُعَلَّق بِهَا القِنْدِيل. وَالقَوْل الأَوَّل أَوْلى: وَهُوَ أَنَّ المِشْكَاة هي مَوْضِع الفَتِيلة مِنْ القِنْدِيل؛ وَلهَذَا قَال: ﴿فِيهَا

(١) ضعيف: انظر «الضعيفة» (٢٩٣٣).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

مِصۡبَاحٌۖ ﴾ وَهُوَ النُّور الَّذِي فِي الزُّبَالة. قَال أُبَيّ بن كَعْب: المِصْبَاح النُّور وَهُوَ القُرْآن وَالإِيمَان الَّذِي فِي صَدْره.

وَقَال السُّدِّيّ: هُوَ السِّرَاج.

﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾ أَيْ: هَذَا الضَّوْء مُشْرِق فِي زُجَاجَة صَافِيَة. وَقَال أُبَيّ بْن كَعْب وَغَيْر وَاحِد: وَهِيَ نَظِير قَلب المُؤْمِن.

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ قَرَأَ بَعْضهمْ بِضَمِّ الدَّال مِنْ غَيْر هَمْزَة مِنَ الدُّرّ، أَيْ: كَأَنَّهَا كَوْكَب مِنْ دُرّ. وَقَرَأَ آخَرُونَ دُرِّيء وَدِرِّيء، بِكَسْرِ الدَّال وَضَمِّهَا مَعَ الهَمْزَ مِنَ الدَّرْء وَهُوَ الدَّفْع، وَذَلِكَ أَنَّ النَّجْم إِذَا رُمِيَ بِهِ يَكُون أَشَدّ اسْتِنَارَة مِنْ سَائِر الأَحْوَال، وَالعَرَب تُسَمِّي مَا لا يُعْرَف مِنَ الكَوَاكِب دَرَارِيّ. وَقَال أُبَيّ بْن كَعْب: كَوْكَب مُضِيء. وَقَال قَتَادَة: مُضِيء مُبِين ضَخْم ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ﴾ أَيْ: يُسْتَمَدّ مِنْ زَيْت زَيْتُون شَجَرَة مُبَارَكَة ﴿زَيۡتُونَةٖ﴾ بَدَل أَوْ عَطْف بَيَان.

﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ أَيْ: لَيْسَتْ فِي شَرْقِيّ بُقْعَتهَا فَلا تَصِل إِلَيْهَا الشَّمْس مِنْ أَوَّل النَّهَار، وَلا فِي غَرْبِيهَا، فَيُتَقَلَّص عَنْهَا الفَيْء قَبْل الغُرُوب، بَل هِيَ فِي مَكَان وَسَط تفرعه الشَّمْس مِنْ أَوَّل النَّهَار إِلَى آخِره، فَيَجِيء زَيْتهَا صَافِيًا مُعْتَدِلًا مُشْرِقًا.

وقال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَمَّار، قَال: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْد الله بْن سَعْد، أَخْبَرَنَا عَمْرو بْن أَبِي قَيْس، عَنْ سِمَاك بْن حَرْب عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ قَال: هِيَ شَجَرَة بِالصَّحْرَاءِ لا يُظِلّهَا شَجَر وَلا جَبَل وَلا كَهْف وَلا يُوَارِيهَا شَيْء وَهُوَ أَجْوَد لِزَيْتِهَا. وَقَال يَحْيَى بْن سَعِيد القَطَّان، عَنْ عِمْرَان بْن حُدَيْر عَنْ عِكْرِمَة فِي قَوْله: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ قَال: هِيَ بِصَحْرَاء وذَلِكَ أَصْفَى لِزَيْتِهَا. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا عمرو بْن فَرُّوخ، عَنْ حَبِيب بْن الزُّبَيْر عَنْ عِكْرِمَة وَسَأَلَهُ رَجُل عَنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ قَال: تِلْكَ زَيْتُونَة بِأَرْضٍ فَلاة إِذَا أَشْرَقَتْ الشَّمْس أَشْرَقَتْ عَلَيْهَا، فَإِذَا غَرَبَتْ غَرَبَتْ عَلَيْهَا، فَذَلِكَ أَصْفَى مَا يَكُون مِنْ الزَّيْت. وَقَال مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ قَال: لَيْسَتْ بِشَرْقِيَّة لا تُصِيبهَا الشَّمْس إِذَا غَرَبَتْ وَلا غَرْبِيَّة لا تُصِيبهَا الشَّمْس إِذَا طَلَعَتْ وَلكِنَّهَا شَرْقِيَّة وَغَرْبِيَّة تُصِيبهَا إِذَا طَلَعَتْ وَإِذَا غَرَبَتْ.

وقال سَعِيد بْن جُبَيْر فِي قَوْله: ﴿زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ﴾ قَال: هُوَ أَجْوَد الزَّيْت. قَال: إِذَا طَلَعَتْ الشَّمْس أَصَابَتْهَا مِنْ صَوْب المَشْرِق، فَإِذَا أَخَذَتْ فِي الغُرُوب أَصَابَتْهَا الشَّمْس، فَالشَّمْس تُصِيبهَا بِالغَدَاةِ وَالعَشِيّ، فَتِلْكَ لا تُعَدّ شَرْقِيَّة وَلا غَرْبِيَّة. وَقَال السُّدِّيّ قَوْله: ﴿زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ يَقُول: لَيْسَتْ بِشَرْقِيَّة يَحُوزهَا المَشْرِق، وَلا غَرْبِيَّة يَحُوزهَا المَغْرِب دُون المَشْرِق، وَلكِنَّهَا عَلَى رَأْس جَبَل أَوْ فِي صَحْرَاء تُصِيبهَا الشَّمْس النَّهَار كُلّه. وَقِيل: المُرَاد بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ أَنَّهَا فِي وَسَط الشَّجَر ولَيْسَتْ بَادِيَة لِلمَشْرِقِ وَلا لِلمَغْرِب.

وَقَال أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ أَبِي العَالِيَة، عَنْ أُبَيّ بن كَعْب، فِي قَوْل الله تَعَالَى: ﴿زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ قَال: هِيَ خَضْرَاء نَاعِمَة لا تُصِيبهَا الشَّمْس عَلَى أَيّ حَال كَانَتْ، لا إِذَا طَلَعَتْ وَلا إِذَا غَرَبَتْ. قَال: فَكَذَلِكَ هَذَا المُؤْمِن قَدْ أُجِيرَ مِنْ أَنْ يصله شَيْء مِنْ الفِتَن، وَقَدْ يُبْتَلى بِهَا، فَيُثَبِّتهُ الله فِيهَا، فَهُوَ بَيْن أَرْبَع خِلال؛ إِنْ قَال صَدَق، وَإِنْ حَكَمَ عَدَل، وَإِنْ ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِنْ أُعْطِيَ شَكَرَ، فَهُوَ فِي سَائِر النَّاس كَالرَّجُل الحَيّ يَمْشِي فِي قُبُور الأَمْوَات. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا مُسَدَّد قَال: حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَة، عَنْ أَبِي

بِشْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر فِي قَوْله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قَال: هِيَ وَسَط الشَّجَر لا تُصِيبهَا الشَّمْس شَرْقًا وَلا غَرْبًا. وَقَال عَطِيَّة العَوْفِيّ: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قَال: هِيَ شَجَرَة فِي مَوْضِع مِنْ الشَّجَر يُرَى ظِلّ ثَمَرهَا فِي وَرَقهَا، وَهَذِهِ مِنْ الشَّجَر لا تَطْلُع عَلَيْهَا الشَّمْس وَلا تَغْرُب.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَمَّار حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن [الدَّشْتَكِيّ][1]، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن أَبِي قَيْس عَنْ عَطَاء عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لَيْسَتْ شَرْقِيَّة لَيْسَ فِيهَا غَرْب، وَلا غَرْبِيَّة لَيْسَ فِيهَا شَرْق، وَلَكِنَّهَا شَرْقِيَّة غَرْبِيَّة. وَقَال مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قَال: هِيَ القِبْلِيَّة. وَقَال زَيْد بْن أَسْلم: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قَال: الشَّام. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الشَّجَرَة فِي الأَرْض لكَانَتْ شَرْقِيَّة أَوْ غَرْبِيَّة، وَلَكِنَّهُ مَثَل ضَرَبَهُ الله لنُورِهِ. وَقَال الضَّحَّاك عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ قَال: رَجُل صَالح، ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قَال: لا يَهُودِيّ وَلا نَصْرَانِيّ. وَأَوْلَى هَذِهِ الأَقْوَال القَوْل الأَوَّل وَهُوَ: أَنَّهَا فِي مُسْتَوَى مِنْ الأَرْض فِي مَكَان فَسِيح بارز ظَاهِر ضَاحٍ للشَّمْسِ، تَقْرَعهُ مِنْ أَوَّل النَّهَار إِلى آخِره؛ لِيَكُونَ ذَلكَ أَصْفَى لزَيْتِهَا وَأَلطَف، كَمَا قَاله غَيْر وَاحِد مِمَّنْ تَقَدَّمَ، وَلَهَذَا قَال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ قَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم: يَعْنِي كَضَوْءِ إِشْرَاق الزَّيْت.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي بذَلكَ إِيمَان العَبْد وَعَمَله. وَقَال مُجَاهِد وَالسُّدِّيّ: يَعْنِي: نُور النَّار وَنُور الزَّيْت. وَقَال أُبَيّ بْن كَعْب: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ فَهُوَ يَتَقَلَّب فِي خَمْسَة مِنْ النُّور، فَكَلامه نُور، وَعَمَله نُور، وَمَدْخَله نُور، وَمَخْرَجه نُور، وَمَصِيره إِلى نُور يَوْم القِيَامَة إِلى الجَنَّة. وَقَال شِمْر بْن عَطِيَّة: جَاءَ ابْن عَبَّاس إِلى كَعْب الأَحْبَار، فَقَال: حَدِّثْنِي عَنْ قَوْل الله تَعَالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ قَال: يَكَاد مُحَمَّد ﷺ يُبَيِّن للنَّاسِ، وإِن لمْ يتكلَّم أَنَّهُ نَبِيّ كَمَا يَكَاد ذَلكَ الزَّيْت أن يُضِيء. وَقَال السُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ قَال: نُور النَّار وَنُور الزَّيْت حِين اجْتَمَعَا أَضَاءَا وَلا يُضِيء وَاحِد بِغَيْرِ صَاحِبه، كَذَلكَ نُور القُرْآن وَنُور الإِيمَان حِين اجْتَمَعَا، فَلا يَكُون وَاحِد مِنْهُمَا إِلَّا بِصَاحِبِه.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أَيْ: يُرْشِد الله إِلى هِدَايَته مَنْ يَخْتَاره، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن عَمْرو، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد الفَزَارِيّ، حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيّ، حَدَّثَنِي رَبِيعَة بْن يزيد عَنْ عَبْد الله الدَّيْلَمِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ الله تَعَالى خَلَقَ خَلقه فِي ظُلمَة، ثُمَّ أَلقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُوره يَوْمَئِذٍ، فَمَنْ أَصَابَه مِنْ نُوره يَوْمَئِذٍ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلذَلكَ أَقُول: جَفَّ القَلم عَلى عِلم الله ﷻ».

طَرِيق أُخْرَى عَنْهُ: قَال البَزَّار: حَدَّثَنَا أَيُّوب بن سُوَيْد عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي عَمْرو الشَّيْبَانِيّ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْد الله ابْن عَمْرو سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**إِنَّ الله خَلقَ خَلقه فِي ظُلمَة، فَأَلقَى عَليْهِمْ نُورًا مِنْ نُوره، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلكَ النُّور اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ**»[2]. وَرَوَاهُ البَزَّار عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو مِنْ طَرِيق آخَر بِلفْظِهِ وَحُرُوفه.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لَـمَّا ذَكَرَ تَعَالى هَذَا مَثَلًا لنُورِ هُدَاهُ فِي قَلب المُؤْمِن خَتَمَ الآيَة بِقَوْلهِ: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: هُوَ أَعْلم بِمَنْ يَسْتَحِقّ الهِدَايَة مِمَّنْ يَسْتَحِقّ الإِضْلال.

---

(١) في (ز) : [الدستكي].
(٢) صحيح : تقـدم.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو النَّضر، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة -يعني شَيْبَان- عَنْ لَيْث، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ أَبِي البَخْتَرِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «القُلُوب أَرْبَعَة: قَلب أَجْرَد فِيهِ مِثْل السِّرَاج يُزْهِر، وَقَلب أَغْلف مَرْبُوط عَلى غِلافه، وَقَلب مَنْكُوس، وَقَلب مُصْفَح، فَأَمَّا القَلب الأَجْرَد فَقَلب المُؤْمِن سِرَاجه فِيهِ نُوره. وَأَمَّا القَلب الأَغْلف فَقَلب الكَافِر، وَأَمَّا القَلب المَنْكُوس فَقَلب المُنَافِق؛ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا القَلب المُصْفَح: فَقَلب فِيهِ إِيمَان وَنِفَاق، وَمَثَل الإِيمَان فِيهِ كَمَثَل البَقْلَة يَمُدّهَا المَاء الطَّيِّب، وَمَثَل النِّفَاق فِيهِ كَمَثَل القُرْحَة يَمُدّهَا الدَّم وَالقَيْح. فَأَيّ المُدَّتَيْنِ غَلبَتْ عَلى الأُخْرَى غَلبَتْ عَلَيْهِ»[1]. إِسْنَاده جَيِّد وَلمْ يُخَرِّجُوهُ.

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

لَـمَّا ضَرَبَ الله تَعَالى مَثَل قَلب المُؤْمِن وَمَا فِيهِ مِنْ الهُدَى وَالعِلم بِالمِصْبَاحِ فِي الزُّجَاجَة الصَّافِيَة المُتَوَقِّد مِنْ زَيْت طَيِّب، وَذَلِكَ كَالقِنْدِيل، ذَكَرَ مَحَلّهَا وَهِيَ المَسَاجِد الَّتِي هِيَ أَحَبّ البِقَاع إِلى الله تَعَالى مِنْ الأَرْض، وَهِيَ بُيُوته الَّتِي يُعْبَد فِيهَا وَيُوَحَّد، فَقَال: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ أَيْ: أَمَرَ الله تَعَالى برفعها، أي: بِتَطْهِيرِهَا مِنْ الدَّنَس وَاللَّغْو وَالأَقْوَال وَالأَفْعَال الَّتِي لا تَلِيق فِيهَا، كَمَا قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة. ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ قَال: نَهَى الله سُبْحَانه عَنْ اللَّغْو فِيهَا. وَكَذَا قَال عِكْرِمَة وَأَبُو صَالِح وَالضَّحَّاك وَنَافِع بْن جُبَيْر وَأَبُو بَكْر ابْن سُليْمَان بْن أَبِي حَثْمَة، وَسُفْيَان بْن حُسَيْن وَغَيْرهمْ مِنْ العُلمَاء المُفَسِّرِينَ.

وَقَال قَتَادَة: هِيَ هَذِهِ المَسَاجِد، أَمَرَ الله سُبْحَانه وَتَعَالى بِبِنَائِهَا وَعِمَارَتهَا وَرَفْعهَا وَتَطْهِيرهَا، وَقَدْ ذَكَرَ لنَا أَنَّ كَعْبًا كَانَ يَقُول: إن فِي التَّوْرَاة مكتوبًا: ألا إِنَّ بُيُوتِي فِي الأَرْض المَسَاجِد، وَإِنَّهُ مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءُهُ، ثُمَّ زَارَنِي فِي بَيْتِي، أَكْرَمْته وَحَقَّ عَلى المَزُور كَرَامَة الزَّائِر. رَوَاهُ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي حَاتِم فِي «تَفْسِيره». وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيث كَثِيرَة فِي بِنَاء المَسَاجِد وَاحْتِرَامهَا وَتَوْقِيرهَا وَتَطْيِيبهَا وَتَبْخِيرهَا، وَذَلِكَ لهُ مَحَلّ مُفْرَد يُذْكَر فِيهِ، وَقَدْ كَتَبْت فِي ذَلِكَ جُزْءًا عَلى حِدَة، ولله الحَمْد وَالمِنَّة. وَنَحْنُ بِعَوْنِ الله تَعَالى نَذْكُر هُنَا طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ الله تَعَالى وَبِهِ الثِّقَة وَعَليْهِ التُّكْلان. فَعَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عُثْمَان بْن عَفَّان رضي الله عنه قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْه الله بَنَى الله لهُ مِثْله فِي الجَنَّة»**. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

وَرَوَى ابْن مَاجَهْ عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُذْكَر فِيهِ اسْم الله بَنَى الله لهُ بَيْتًا فِي الجَنَّة»**[2]. وَللنَّسَائِيّ عَنْ عمرو بْن عبسة مِثْله، وَالأَحَادِيث فِي هَذَا كَثِيرَة جِدًّا. وَعَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالتْ: أمر رَسُول الله ﷺ بِبِنَاءِ المَسَاجِد فِي الدُّور وَأَنْ تُنَظَّف وَتُطَيَّب.[3] رَوَاهُ أَحْمَد وَأَهْل السُّنَن إِلَّا النَّسَائِيّ. وَلأَحْمَد وَأَبِي دَاوُد عَنْ سَمُرَة بْن جُنْدُب نَحْوه. وَقَال البُخَارِيّ: قَال عُمَر: ابْنِ للنَّاسِ مَا يُكِنُّهُمْ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَمِّر أَوْ تُصَفِّر فَتَفْتِن النَّاس. وَرَوَى ابْن مَاجَهْ عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَا سَاءَ عَمَل قَوْم قَطُّ إِلاَّ زَخْرَفُوا مَسَاجِدهمْ»[4]. وَفِي إِسْنَاده ضَعْف.

---

(١) **ضعيف**: تقـدم.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣) من حديث عثمان، ورواية ابن ماجه (٧٣٥): سندها ضعيف، ولكن الحديث صحيح كما تقدم.

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٥٥)، والترمذي (٥٩٤)، وابن ماجه (٧٥٩) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٤) **ضعيف جدًا**: أخرجه ابن ماجه (٧٤١)، بسند ضعيف جدًا. وقال الشيخ الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه»: ضعيف جدًا.

وَرَوَى أَبُو دَاوُد، عَنِ ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«مَا أُمِرْت بِتَشْيِيدِ المَسَاجِد»**.[١] قَال ابْن عَبَّاس: لَتُزخرفُنَّها كَمَا زَخْرَفَتْ اليَهُود وَالنَّصَارَى. وَعَنْ أَنَس رضي الله عنه قَالَ: قَال رَسُول الله ﷺ: **«لا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاس فِي المَسَاجِد»**[٢]. رَوَاهُ أَحْمَد وَأَهْل السُّنَن إِلَّا التِّرْمِذِيّ.

وَعَنْ بُرَيْدَة: أَنَّ رَجُلًا أَنْشَدَ فِي المَسْجِد، فَقَال: مَنْ دَعَا إِلى الجَمَل الأَحْمَر؛ فَقَال النَّبِيّ ﷺ: **«لا وَجَدْت إِنَّمَا بُنِيَتْ المَسَاجِد لِمَا بُنِيَتْ لَهُ»**[٣]. رَوَاهُ مُسْلم. وَعَنْ عَمْرو بْن شُعَيْب عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه قَال: نَهَى رَسُول الله ﷺ عَنْ البَيْع وَالابْتِيَاع، وَعَنْ تَنَاشُد الأَشْعَار فِي المَسَاجِد.[٤] رَوَاهُ أَحْمَد وَأَهْل السُّنَن، وَقَال التِّرْمِذِيّ حَسَن.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيع أَوْ يَبْتَاع فِي المَسْجِد فَقُولُوا: لا أَرْبَحَ الله تِجَارَتك، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُد ضَالَّة فَقُولُوا: لا رَدَّ الله عَلَيْك»**.[٥] رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ. وَقَال: حَسَن غَرِيب. وَقَدْ رَوَى ابْن مَاجَهْ وَغَيْره مِنْ حَدِيث ابْن عُمَر مَرْفُوعًا قَال: «خِصَال لا تَنْبَغِي فِي المَسْجِد: لا يُتَّخَذ طَرِيقًا، وَلا يُشْهَر فِيهِ سِلاح، وَلا يُنْبَض فِيهِ بِقَوْسٍ، وَلا يُنْثَر فِيهِ نَبْل، وَلا يُمَرّ فِيهِ بِلَحْم نِيء، وَلا يُضْرَب فِيهِ حَدّ، وَلا يُقْتَصّ فِيهِ من أَحَد، وَلا يُتَّخَذ سُوقًا».[٦] وَعَنْ وَاثِلَة بْن الأَسْقَع عَنْ رَسُول الله ﷺ أنه قَال: «جَنِّبُوا المَسَاجِد صِبْيَانكُمْ، وَمَجَانِينكُمْ، وَشِرَاءَكُمْ، وَبَيْعكُمْ، وَخُصُومَاتكُمْ، وَرَفْع أَصْوَاتكُمْ، وَإِقَامَة حُدُودكُمْ، وَسَلّ سُيُوفكُمْ، وَاتَّخِذُوا عَلَى أَبْوَابهَا المَطَاهِر، وَجَمِّرُوهَا فِي الجُمَع»[٧]. وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ أَيْضًا، وَفِي إِسْنَادهمَا ضَعْف. أَمَّا أَنَّهُ لا يُتَّخَذ طَرِيقًا فَقَدْ كَرِهَ بَعْض العُلَمَاء المُرُور فِيهِ إِلَّا لِحَاجَةٍ إِذَا وَجَدَ مَنْدُوحَة عَنْهُ، وَفِي الأَثَر إِنَّ المَلائِكَة لَتَتَعَجَّب مِنْ الرَّجُل يَمُرّ بِالمَسْجِدِ لا يُصَلِّي فِيهِ! وَأَمَّا أَنَّهُ لا يُشْهَر فِيهِ بسلاح وَلا يُنْبَض فِيهِ بِقَوْسٍ وَلا يُنْثَر فِيهِ نَبْل؛ فَلِمَا يُخْشَى مِنْ إِصَابَة بَعْض النَّاس بِهِ لِكَثْرَةِ المُصَلِّينَ فِيهِ، وَلِهَذَا أَمَرَ رَسُول الله ﷺ: إِذَا مَرَّ أحد بِسِهَام أَنْ يَقْبِض عَلَى نِصَالهَا لِئَلَّا يُؤْذِي أَحَدًا. كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي «الصَّحِيح».[٨] وَأَمَّا النَّهْي عَنْ المُرُور بِاللَّحْم النِّيء فِيهِ، فَلِمَا يُخْشَى مِنْ تَقَاطُر الدَّم مِنْهُ، كَمَا نُهِيَتْ الحَائِض عَنْ المُرُور فِيهِ إِذَا خَافَتْ التَّلوِيث. وَأَمَّا أَنَّهُ لا يُضْرَب فِيهِ حَدّ أو يُقْتَصّ فَلِمَا يُخْشَى مِنْ إِيجَاد النَّجَاسَة فِيهِ مِنْ المَضْرُوب أَوْ المَقْطُوع. وَأَمَّا أَنَّهُ لا يُتَّخَذ سُوقًا؛ فَلِمَا تَقَدَّمَ مِنْ النَّهْي عَنْ البَيْع وَالشِّرَاء فِيهِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا بُنِيَ لِذِكْرِ الله وَالصَّلاة فِيهِ، كَمَا قَال النَّبِيّ ﷺ لِذَلكَ الأَعْرَابِيّ الَّذِي بَال فِي طَائِفَة المَسْجِد: **«إِنَّ المَسَاجِد لَمْ تُبْنَ لِهَذَا، إِنَّمَا بُنِيَتْ لِذِكْرِ الله وَالصَّلاة فِيهَا»**.[٩] ثُمَّ أَمَرَ بِسَجْلٍ مِنْ مَاء فَأُهْرِيق عَلَى بَوْله، وَفِي الحَدِيث الثَّانِي: «جَنِّبُوا مَسَاجِدكُمْ صِبْيَانكُمْ»[١٠]. وَذَلكَ لأَنَّهُمْ يَلعَبُونَ فِيهِ وَلا يُنَاسِبهُمْ. وَقَدْ كَانَ عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه إِذَا رَأَى صِبْيَانًا يَلعَبُونَ فِي المَسْجِد ضَرَبَهُمْ بِالمِخْفَقَةِ -وَهِيَ الدِّرَّة- وَكَانَ يَعُس المَسْجِد بَعْد العِشَاء فَلا يَتْرُك فِيهِ أَحَدًا، «وَمَجَانِينكُمْ» يَعْنِي لأَجْل ضَعْف عُقُولهمْ وَسَخَر النَّاس بِهِمْ، فَيُؤَدِّي إِلى اللَّعِب فِيهَا وَلِمَا

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٤٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٤٩)، والنسائي (٢/ ٣٢)، وابن ماجه (٧٣٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٥٦٩).
(٤) **حسن**: أخرجه أبو داود (١٠٧٩)، والترمذي (٣٢٢)، والنسائي (٢/ ٤٧)، وابن ماجه (٧٤٩)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٥) **صحيح**: أخرجه الترمذي (١٣٢١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٣).
(٦) **ضعيف**: أخرجه ابن ماجه (٧٤٨) بسند ضعيف، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه».
(٧) **ضعيف**: أخرجه ابن ماجه (٧٥٠)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه».
(٨) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٥١)، ومسلم (٥/ ٢٦).
(٩) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٢٠)، ومسلم (٢٨٤).
(١٠) **ضعيف**: تقدم قريبًا.

يُخْشَى مِنْ تَقْذِيرهمْ الْمَسْجِد وَنَحو ذَلِكَ «وَبَيْعكُمْ وَشِرَاءَكُمْ» كَمَا تَقَدَّمَ. «وَخُصُومَاتكُمْ» يَعْنِي: التَّحَاكُم وَالْحُكْم فِيهِ، وَلِهَذَا نَصَّ كَثِير مِنْ الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّ الْحَاكِم لا يَنْتَصِب لِفَصْل الأَقْضِيَة فِي الْمَسْجِد، بَل يَكُون فِي مَوْضِع غَيْره؛ لِمَا فِيهِ مِنْ كَثْرَة الْحُكُومَات وَالتَّشَاجُر والعياط الذي لا يُنَاسِبهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْده: «وَرَفْع أَصْوَاتكُمْ».

وَقَالَ الْبُخَارِيّ: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا الجعيد بْن عَبْد الرَّحْمَن [قَال: حَدَّثَنِي][(١)] يَزِيد بْن خصيفة، عَنْ السَّائِب بْن يَزِيد الْكِنْدِيّ قَال: كُنْت قَائِمًا فِي الْمَسْجِد فَحَصَبَنِي رَجُل، فَنَظَرْت، فَإِذَا عُمَر بْن الْخَطَّاب؛ فَقَال: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهَذَيْنِ، فَجِئْته بِهِمَا فَقَال: مَنْ أَنْتُمَا؟ أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ قَالا: مِنْ أَهْل الطَّائِف. قَال: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْل الْبَلَد لأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتكُمَا فِي مَسْجِد رَسُول الله ﷺ . وَقَال النَّسَائِيّ: حَدَّثَنَا سُوَيْد بْن نَصْر، عَنْ عَبْد الله بْن الْمُبَارَك، عَنْ شُعْبَة، عَنْ سَعْد بْن إِبْرَاهِيم، عَنْ أَبِيهِ إِبْرَاهِيم بْن عَبْد الرَّحْمَن ابْن عَوْف؛ قَال: سَمِعَ عُمَر صَوْت رَجُل فِي الْمَسْجِد، فَقَال: أَتَدْرِي أَيْنَ أَنْتَ؟ وَهَذَا أَيْضًا صَحِيح.

وَقَوْله: «وَإِقَامَة حُدُودكُمْ وَسَلّ سُيُوفكُمْ» تَقَدَّمَا.

وَقَوْله: «وَاتَّخِذُوا عَلَى أَبْوَابهَا الْمَطَاهِر» يَعْنِي: الْمَرَاحِيض الَّتِي يُسْتَعَان بِهَا عَلَى الْوُضُوء وَقَضَاء الْحَاجَة. وَقَدْ كَانَتْ قَرِيبًا مِنْ مَسْجِد رَسُول الله ﷺ آبَار يَسْتَقُونَ مِنْهَا فَيَشْرَبُونَ، وَيَتَطَهَّرُونَ وَيَتَوَضَّئُونَ وَغَيْر ذَلِكَ.

وَقَوْله: «وَجَمِّرُوهَا فِي الْجُمَع» يَعْنِي: بَخِّرُوهَا فِي أَيَّام الْجُمَع لِكَثْرَةِ اجْتِمَاع النَّاس يَوْمئِذٍ. وَقَدْ قَال الْحَافِظ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيّ: حَدَّثَنَا عُبَيْد الله، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر عَنْ نَافِع عَنْ ابْن عُمَر: أَنَّ عُمَر كَانَ يُجَمِّر مَسْجِد رَسُول الله ﷺ كُلّ جُمُعَة. [(٢)] إِسْنَاده حَسَن لا بَأْس بِهِ، وَالله أَعْلَم. وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: عن رَسُول الله ﷺ أنه قَال: **«صَلاة الرَّجُل فِي الْجَمَاعَة تُضَعَّف عَلَى صَلاته فِي بَيْته وَفِي سُوقه خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا؛ وَذَلكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوء، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِد لا يُخْرِجهُ إِلاَّ الصَّلاة، لَمْ يَخْطُ خُطْوَة إِلاَّ رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَة، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَة، فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَل الْمَلائِكَة تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلاَّهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ. وَلا يَزَال فِي صَلاة مَا انْتَظَرَ الصَّلاة»**[(٣)]. وَعِنْد الدَّارَقُطْنِيّ مَرْفُوعًا: «لا صَلاة لِجَارِ الْمَسْجِد إِلَّا فِي الْمَسْجِد»[(٤)]. وَفِي السُّنَن: **«بَشِّرْ الْمَشَّائِينَ إِلَى الْمَسَاجِد فِي الظُّلَم بِالنُّورِ التَّامّ يَوْم الْقِيَامَة»**[(٥)]. وَيُسْتَحَبّ لِمَنْ دَخَل الْمَسْجِد: أَنْ يَبْدَأ بِرِجْلِهِ الْيُمْنَى، وَأَنْ يَقُول كَمَا ثَبَتَ فِي «صحيح البخاري» عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو رضي الله عنهما عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا دَخَل الْمَسْجِد يَقُول: **«أَعُوذ بِالله الْعَظِيم، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيم، وَسُلْطَانه الْقَدِيم، مِنْ الشَّيْطَان الرَّجِيم قَال: أقط؟ قَال: نعم. قَال: فإذا قَال ذَلكَ، قَال الشَّيْطَان: حُفِظَ مِنِّي سَائِر الْيَوْم»**.[(٦)]

وَرَوَى مُسْلم بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي حُمَيْد -أَوْ أَبِي أُسَيْد- قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : **«إِذَا دَخَل أَحَدكُمْ الْمَسْجِد فَلْيَقُل: اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَاب رَحْمَتك. وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُل: اللَّهُمَّ إِنِي أَسالك من فَضْلك»**.[(٧)] وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيّ ﷺ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : **«إِذَا دَخَل أَحَدكُمْ الْمَسْجِد، فَلْيُسَلِّمْ عَلَى**

---

(١) في (ز) : [بن].
(٢) إسناده ضعيف : أخرجه أبو يعلى (١٧٧) بسند ضعيف فيه عبد الله بن عمر العمري: وهو ضعيف.
(٣) صحيح : أخرجه البخاري (٦٤٧)، ومسلم (٦٤٩).
(٤) ضعيف : أخرجه الدارقطني (٤٢٠)، والحاكم (١/ ٣٤٦)، وضعفه الألباني في «الإرواء» (٤٩١).
(٥) صحيح : أخرجه أبو داود (٥٦١)، والترمذي (٢٢٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٦) صحيح : أخرجه أبو داود (٤٦٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٧) صحيح : أخرجه مسلم (٧١٣).

النَّبيِّ ﷺ ، وَليَقُل: اللَّهُمَّ افْتَحْ لي أبْوَاب رَحْمَتك، وَإِذَا خَرَجَ فَليُسَلِّمْ على النَّبِيِّ ﷺ وَليَقُل: اللَّهُمَّ اعْصِمْنِي مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم»[1]. وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ وَابْن خُزَيْمَة وَابْن حِبَّان فِي «صَحِيحَيْهِمَا».

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم، عَنْ عَبْد [الله][2] بْن حسن عَنْ أُمّه فَاطِمَة بِنْت حُسَيْن، عَنْ جَدَّتِهَا فَاطِمَة بِنْت رَسُول الله ﷺ قَالتْ: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا دَخل المَسْجِد صَلَّى عَلى مُحَمَّد وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لي أَبْوَاب رَحْمَتك». وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلى مُحَمَّد وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لي أَبْوَاب فَضْلك»[3]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ، وَقَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن، وَإِسْنَاده لَيْسَ بِمُتَّصِلٍ؛ لأَنَّ فَاطِمَة بِنْت حُسَيْن الصُّغْرَى لمْ تُدْرِك فَاطِمَة الكُبْرَى. فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مَعَ مَا تَرَكْنَاهُ مِنْ الأَحَادِيث الوَارِدَة فِي ذَلِكَ لحال القول كله دَاخِل فِي قَوْله تَعَالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أَيْ: اسْم الله كَقَوْلِهِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، وَقَوْله: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وَقَوْله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ قَال ابْن عَبَّاس يَعْنِي: يُتْلى فيها كِتَابه.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ أَيْ: فِي البُكُرَات وَالعَشِيَّات. وَالآصَال جَمْع أَصِيل وَهُوَ آخِر النَّهَار. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس: كُلّ تَسْبِيح فِي القُرْآن هُوَ الصَّلاة. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي بِالغُدُوِّ: صَلاة الغَدَاة، وَيَعْنِي بِالآصَال: صَلاة العَصْر، وَهُمَا أَوَّل مَا افْتَرَضَ الله مِنْ الصَّلاة؛ فَأَحَبَّ أَنْ يَذْكُرهُمَا، وَأَنْ يُذَكِّر بِهِمَا عِبَاده. وَكَذَا قَال الحَسَن وَالضَّحَّاك: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ﴾ يَعْنِي: الصَّلاة، وَمَنْ قَرَأَ مِنْ القُرَّاء (يُسَبَّح لهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ وَالآصَال) بفَتْحَ البَاء مِنْ (يُسَبَّح) عَلى أَنَّهُ مَبْنِيّ لمَا لمْ يُسَمَّ فَاعِله، وَقَفَ عَلى قَوْله: ﴿وَٱلْأَصَالِ﴾ وَقْفًا تَامًّا، وَابْتَدَأَ بِقَوْلِهِ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وَكَأَنَّهُ مُفَسِّر للفَاعِل المَحْذُوف، كَمَا قَال الشَّاعِر:

لِيُبْكِ يَزِيد ضَارِع لخُصُومَةٍ ❁ وَمُخْتَبِط مِمَّا تَطِيح الطَّوَائِح

كَأَنَّهُ قَال: مَنْ يُبْكِيه؟ قَال: هَذَا يُبْكِيه، وَكَأَنَّهُ قِيل: مَنْ يُسَبِّح لهُ فِيهَا؟ قَال: رِجَال. وَأَمَّا عَلى قِرَاءَة مَنْ قَرَأَ ﴿يُسَبِّحُ﴾ بِكَسْرِ البَاء. فَجَعَلهُ فِعْلًا وَفَاعِله ﴿رِجَالٌ﴾ فَلا يَحْسُن الوَقْف إِلَّا عَلى الفَاعِل لأَنَّهُ تَمام الكَلام، فَقَوْله تَعَالى: ﴿رِجَالٌ﴾ فِيهِ إِشْعَار بِهِمَمِهِمْ السَّامِيَة وَنِيَّاتهمْ وَعَزَائِمهمْ العَالِيَة، الَّتِي بِهَا صَارُوا عُمَّارًا للمَسَاجِدِ الَّتِي هِيَ بُيُوت الله فِي أَرْضه، وَمَوَاطِن عِبَادَته وَشُكْره وَتَوْحِيده وَتَنْزِيهه؛ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾. وَأَمَّا النِّسَاء فَصَلاتهنَّ فِي بُيُوتهنَّ أَفْضَل لهُنَّ؛ لمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُد عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**صَلاة المَرْأَة فِي بَيْتهَا أَفْضَل مِنْ صَلاتهَا فِي حُجْرَتهَا، وَصَلاتهَا فِي مَخْدَعهَا أَفْضَل مِنْ صَلاتهَا فِي بَيْتهَا**»[4].

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن غَيْلان، حَدَّثَنَا رِشْدِين، حَدَّثَنِي عَمْرو، عَنْ أَبِي السَّمْح، عَنْ السَّائِب مَوْلى أُمّ سَلمَة، عن أم سلمة رضي الله عنها عَنْ رَسُول الله ﷺ أنه قَال: «**خَيْر مَسَاجِد النِّسَاء قَعْر بُيُوتهنَّ**»[5]. وَقَال أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا هَارُون أَخْبَرَنِي عَبْد الله بْن وَهْب، حَدَّثَنَا دَاوُد بْن قَيْس، عَنْ عَبْد الله بْن سُوَيْد الأَنْصَارِيّ، عَنْ

---

(١) **صحيح** : أخرجه ابن ماجه (٧٧٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».
(٢) في (ز) : [الرحمن].
(٣) **إسناده ضعيف** : أخرجه الترمذي (٣١٤)، وابن ماجه (٧٧١)، وأحمد (٦/ ٢٨٢) بسند ضعيف.
(٤) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٥٧٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٥) **صحيح** : أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٢٧).

عَمَّته أُمّ حُمَيْد امْرَأَة أَبِي حُمَيْد السَّاعِدِيّ: أَنَّهَا جَاءَتْ إِلى النَّبِيّ ﷺ فَقَالتْ، يَا رَسُول الله، إِنِّي أُحِبّ الصَّلاة مَعَك؟ قَال: **«قَدْ عَلمْت أنَّك تُحِبِّينَ الصَّلاة مَعِي، وَصَلاتك فِي بَيْتك خَيْر مِنْ صَلاتك فِي حُجْرَتك، وَصَلاتك فِي حُجْرَتك، خَيْر مِنْ صَلاتك فِي دَارك، وَصَلاتك فِي دَارك خَيْر مِنْ صَلاتك فِي مَسْجِد قَوْمك، وَصَلاتك فِي مَسْجِد قَوْمك خَيْر مِنْ صَلاتك فِي مَسْجِدِي»**. قَال: فَأَمَرت فَبُنِيَ لَهَا مَسْجِد فِي أَقْصَى بَيْت مِنْ بُيُوتهَا وأظلمه، فَكَانَتْ وَالله تُصَلِّي فِيهِ حَتَّى لَقِيَتْ الله تَعَالى.[1] لمْ يُخَرِّجُوهُ. هَذَا وَيَجُوز لَهَا شُهُود جَمَاعَة الرِّجَال بِشَرْطِ أَنْ لا تُؤْذِي أَحَدًا مِنْ الرِّجَال بِظُهُورِ زِينَة وَلا رِيح طِيب، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحين» عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر أَنَّهُ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : **«لا تَمْنَعُوا إِمَاء الله مَسَاجِد الله»**[2]. رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم، وَلأَحْمد وَأَبِي دَاوُد: **«وَبُيُوتهنَّ خَيْر لهنَّ»**[3]. وَفِي رِوَايَة: **«وَليَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلات»**[4]. أَيْ لا رِيح لهُنَّ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيح مُسْلم» عَنْ زَيْنَب امْرَأَة عَبْد الله بْن مَسْعُود قَالتْ: قَال لنَا رَسُول الله ﷺ : **«إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ المَسْجِد فَلا تَمَسّ طِيبًا»**[5]. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها أَنَّهَا قَالتْ: كَانَ نِسَاء المؤمنات يَشْهَدْنَ الفَجْر مَعَ رَسُول الله ﷺ ثُمَّ يَرْجِعْنَ مُتَلفِّعَات بِمُرُوطِهِنَّ، مَا يُعْرَفْنَ مِنْ الغَلس.[6] وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْهَا أَيْضًا أَنَّهَا قَالتْ: لوْ أَدْرَكَ رَسُول الله ﷺ مَا أَحْدَثَ النِّسَاء لمَنَعَهُنَّ مِنْ المَسَاجِد، كَمَا مُنِعَتْ نِسَاء بَنِي إِسْرَائِيل.[7]

وَقَوْله تَعَالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾. وقال تَعَالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. يَقُول تَعَالى: لا تَشْغَلهُمْ الدُّنْيَا وَزُخْرُفهَا وَزِينَتهَا وَمَلاذّ بَيْعهَا وَرِبْحهَا عَنْ ذِكْر رَبّهمْ الَّذِي هُوَ خَالقهمْ وَرَازِقهمْ، وَالَّذِينَ يَعْلمُونَ أَنَّ الَّذِي عِنْده هُوَ خَيْر لَهُمْ وَأَنْفَع مِمَّا بِأَيْدِيهِمْ، لأَنَّ مَا عِنْدهمْ يَنْفَد وَمَا عِنْد الله بَاقٍ، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أَيْ: يُقَدِّمُونَ طَاعَته وَمُرَاده وَمَحَبَّته على مُرَادهمْ وَمَحَبَّتهمْ. قَال هُشَيْم: عَنْ سيار قَال: حُدِّثْت عَنْ ابْن مَسْعُود أَنَّهُ رَأَى قَوْمًا مِنْ أَهْل السُّوق حَيْثُ نُودِيَ للصَّلاةِ المَكْتُوبَة تَرَكُوا بِيَاعَتهُمْ، وَنَهَضُوا إِلى الصَّلاة، فَقَال عَبْد الله بْن مَسْعُود: هَؤُلاءِ مِنْ الَّذِينَ ذَكَرَ الله فِي كِتَابه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. وَهَكَذَا رَوَى عَمْرو بْن دِينَار القَهْرَمَانِيّ، عَنْ سَالم عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر رضي الله عنهما أَنَّهُ كَانَ فِي السُّوق، فَأُقِيمَتْ الصَّلاة، فَأَغْلقُوا حَوَانِيتهمْ وَدَخَلُوا المَسْجِد؛ فَقَال ابْن عُمَر: فِيهِمْ نَزَلتْ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن بكر الصَّنْعَانِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد مَوْلى بني هَاشِم، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن بُجَيْر، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْد رَبّه قَال: قَال أَبُو الدَّرْدَاء رضي الله عنه: إِنِّي أقمت عَلى هَذَا الدَّرَج أُبَايِع عَليْهِ أَرْبَح كُلّ يَوْم ثَلثمِائَةِ دِينَار، أَشْهَد الصَّلاة فِي كُلّ يَوْم فِي المَسْجِد، أَمَا إِنِّي لا أَقُول: إِنَّ ذَلكَ ليْسَ بِحَلالٍ، وَلكِنِّي أُحِبّ أَنْ أَكُون مِنْ الَّذِينَ قَال الله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. وَقَال عَمْرو بْن دِينَار الأَعْوَر:

---

(١) **حسن**: أخرجه أحمد (٦/ ٢٧١)، وابن خزيمة (١٦٨٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤٠).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٩٠٠)، ومسلم (١٣٦).
(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٥٦٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ١٩٢)، وصححه الألباني.
(٥) **صحيح**: أخرجه مسلم (٤٤٣).
(٦) **صحيح**: أخرجه البخاري (٥٧٨)، ومسلم (٦٤٥).
(٧) **صحيح**: أخرجه البخاري (٨٢٢)، ومسلم (٦٧٦).

كُنت مَعَ سَالم بْن عَبْد الله وَنَحْنُ نُرِيد المَسْجِد فَمَرَرْنَا بِسُوقِ المَدِينَة وَقَدْ قَامُوا إِلى الصَّلاة وَخَمَّرُوا مَتَاعهمْ، فَنَظَرَ سَالم إِلى أَمْتِعَتهمْ لَيْسَ مَعَهَا أَحَد، فَتَلا سَالم هَذِهِ الآيَة: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ثُمَّ قَال: هُمْ هَؤُلاءِ. وَكَذَا قَال سَعِيد بْن أَبِي الحَسَن وَالضَّحَّاك: لا تُلْهِيهِمْ التِّجَارَة وَالبَيْع أَنْ يَأْتُوا الصَّلاة فِي وَقْتهَا. وَقَال مَطَر الوَرَّاق: كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ، وَلكِنْ كَانَ أَحَدهمْ إِذَا سَمِعَ النِّدَاء وَمِيزَانه فِي يَده خَفَضَهُ وَأَقْبَل إِلى الصَّلاة.

وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يَقُول: عَنْ الصَّلاة المَكْتُوبَة. وَكَذَا قَال مُقَاتِل بْن حَيَّان وَالرَّبِيع بْن أَنَس. وَقَال السُّدِّيّ: عَنْ الصَّلاة فِي جَمَاعَة. وَقَال مُقَاتِل بْن حَيَّان: لا يُلْهِيهِمْ ذَلكَ عَنْ حُضُور الصَّلاة وَأَنْ يُقِيمُوهَا كَمَا أَمَرَهُمْ الله، وَأَنْ يُحَافِظُوا على مَوَاقِيتها وَمَا اسْتَحْفَظَهُمْ الله فِيهَا.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة الَّذِي تَتَقَلَّب فِيهِ القُلُوب وَالأَبْصَار، أَيْ: مِنْ شِدَّة الفَزَع وَعَظَمَة الأَهْوَال؛ كما قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾. وقال تعالى هاهنا: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أَيْ: هَؤُلاءِ مِنْ الَّذِينَ يَتَقَبَّل عنهم أحسن ما عملوا من فضله وَيَتَجَاوَز عَنْ سَيِّئَاتهمْ، وَقَوْله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أَيْ: يَتَقَبَّل مِنْهُمْ الحَسَن وَيُضَاعِفهُ لهُمْ؛ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾، وقوله تَعَالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾. وَقَال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾. وَقَال: ﴿وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾، وَقَال هَهُنَا: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾. وَعَنْ ابْن مَسْعُود أَنَّهُ جِيءَ بِلبَنٍ فَعَرَضَهُ على جُلسَائِهِ وَاحِدًا وَاحِدًا، فَكُلّهمْ لمْ يَشْرَبهُ؛ لأَنَّهُ كَانَ صَائِمًا فَتَنَاوَلهُ ابْن مَسْعُود، وكَانَ مُفْطِرًا فَشَرِبَهُ ثُمَّ تَلا قَوْله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾. رَوَاهُ النَّسَائِيّ وَابْن أَبِي حَاتِم، مِنْ حَدِيث الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم عَنْ عَلقَمَة عَنْهُ.

وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا سُوَيْد بْن [سَعِيد](1)، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن مُسْهِر، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ أَسْمَاء بِنْت يَزِيد قَالتْ: قَال رَسُول الله ﷺ «إِذَا جَمَعَ الله الأَوَّلينَ وَالآخِرِينَ يَوْم القِيَامَة جَاءَ مُنَادٍ فَنَادَى بِصَوْتٍ يُسْمِع الخَلائِق: سَيَعْلمُ أَهْل الجَمْع مَنْ أَوْلى بِالكَرَم، ليَقُمْ الَّذِينَ لا تُلهِيهِمْ تِجَارَة وَلا بَيْع عَنْ ذِكْر الله. فَيَقُومُونَ وَهُمْ قَليل، ثُمَّ يُحَاسَب سَائِر الخَلائِق»(2). وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ مِنْ حَدِيث بَقِيَّة، عَنْ إِسْمَاعِيل ابْن عَبْد الله الكِنْدِيّ، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي وَائِل، عَنْ ابْن مَسْعُود، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قَوْله: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ قَال: «أُجُورهمْ: يُدْخِلهُمْ الجَنَّة، وَيَزِيدهُمْ مِنْ فَضْله: الشَّفَاعَة لمَنْ وَجَبَتْ لهُ الشَّفَاعَة لمَنْ صَنَعَ لهُمْ المَعْرُوف فِي الدُّنْيَا».(3)

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾.

---

(1) في (ز) : [شعبة].
(2) إسناده ضعيف : فيه شهر بن حوشب: وهو ضعيف، وفيه أيضًا عبد الرحمن بن إسحاق.
(3) منكر : تقدم.

هَذَانِ مَثَلانِ ضَرَبَهُمَا الله تَعَالى لنَوْعَيْ الكُفَّار، كَمَا ضَرَبَ للمُنَافِقِينَ فِي أَوَّل البَقَرَة مَثَلَيْنِ نَارِيًّا وَمَائِيًّا، وَكَمَا ضَرَبَ لمَا يَقرّ فِي القُلُوب مِنَ الهُدَى وَالعِلم فِي سُورَة الرَّعْد مَثَلَيْنِ مَائِيًّا وَنَارِيًّا، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلى كُلّ مِنْهُمَا فِي مَوْضِعه بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته، ولله الحَمْد وَالمِنَّة. فَأَمَّا الأَوَّل مِنْ هَذَيْنِ المَثَلَيْنِ: فَهُوَ للكُفَّارِ الدُّعَاة إِلى كُفْرهِمْ، الَّذِينَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْء مِنَ الأَعْمَال وَالاعْتِقَادَات، وَلَيْسُوا فِي نَفْس الأَمْر عَلى شَيْء، فَمَثَلهمْ فِي ذَلكَ كَالسَّرَابِ الَّذِي يُرَى فِي القِيعَان، مِنَ الأَرْض عَنْ بُعْد، كَأَنَّهُ بَحْر طَامّ، وَالقِيعَة: جَمْع قَاع كَجَارٍ وَجِيرَة، وَالقَاع أَيْضًا وَاحِد القِيعَان، كَمَا يُقَال: جَار وَجِيرَان، وَهِيَ الأَرْض المُسْتَوِيَة المُتَّسِعَة المُنْبَسِطَة، وَفِيهِ يَكُون السَّرَاب، وَإِنَّمَا يَكُون ذَلكَ بَعْد نِصْف النَّهَار، وَأَمَّا الآل فَإِنَّمَا يَكُون أَوَّل النَّهَار يُرَى كَأَنَّهُ مَاء بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض، فَإِذَا رَأَى السَّرَاب مَنْ هُوَ مُحْتَاج إِلى المَاء فَحَسبه مَاء فقَصَدَهُ ليَشْرَب مِنْهُ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾، فَكَذَلكَ الكَافِر يَحْسَب أَنَّهُ قَدْ عَمِل عَمَلًا، وَأَنَّهُ قَدْ حَصَّل شَيْئًا؛ فَإِذَا وَافَى الله يَوْم القِيَامَة وَحَاسَبَهُ عَلَيْهَا، وَنُوقِشَ عَلى أَفْعَاله لَمْ يَجِد لَهُ شَيْئًا بِالكُلِّيَّةِ قَدْ قُبِل، إِمَّا لعَدَمِ الإِخْلاص، أَوْ لعَدَم سُلُوك الشَّرْع؛ كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، وَقَال هَهُنَا: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب وَابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّهُ يُقَال يَوْم القِيَامَة لليَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُد عُزَيْر ابْن الله. فَيُقَال: كَذَبْتُمْ! مَا اتَّخَذَ الله مِنْ وَلد، مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: أَي ربنا عَطِشْنَا، فَاسْقِنَا. فَيُقَال: أَلا تَرَوْنَ؟ فَتُمَثَّل لَهُمْ النَّار كَأَنَّهَا سَرَاب يُحَطِّم بَعْضهَا بَعْضًا، فَيَنْطَلِقُونَ فَيَتَهَافَتُونَ فِيهَا.[1] وَهَذَا المِثَال مِثَال لذَوِي الجَهْل المُرَكَّب، فَأَمَّا أَصْحَاب الجَهْل البَسِيط وَهُمْ الطَّمَاطِم الأَغْشَام المُقَلِّدُونَ لأَئِمَّةِ الكُفْر الصُّمّ البُكْم الَّذِين لا يَعْقِلُونَ فَمِثْلُهُمْ. كَمَا قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ قَال قَتَادَة: هُوَ العَمِيق ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ﴾ أَيْ: لمْ يُقَارِب رُؤْيَتهَا مِنْ شِدَّة الظَّلام، فَهَذَا مَثَل قَلب الكَافِر الجَاهِل البَسِيط المُقَلِّد الَّذِي لا يعرف أين يذهب، ولا هو يَعْرِف حَال مَنْ يَقُودهُ، وَلا يَدْرِي، بَل كَمَا يُقَال فِي المَثَل للجَاهِل: أَيْنَ تَذْهَب؟ قَال: مَعَهُمْ. قِيل: فَإِلى أَيْنَ يَذْهَبُونَ؟ قَال: لا أَدْرِي.

وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ﴾ يَعْنِي بِذَلكَ: الغِشَاوَة الَّتِي عَلى القَلب وَالسَّمْع وَالبَصَر، وَهِيَ كَقَوْلِهِ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. وَقَال أُبَيّ بْن كَعْب فِي قَوْله: ﴿ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فَهُوَ يَتَقَلَّب فِي خَمْسَة مِنْ الظُّلَم؛ كَلامه ظُلْمَة، وَعَمَله ظُلْمَة، وَمَدْخَله ظُلْمَة، وَمَخْرَجه ظُلْمَة، وَمَصِيره يَوْم القِيَامَة إِلى الظُّلُمَات إِلى النَّار. وَقَال السُّدِّيّ وَالرَّبِيع بْن أَنَس نَحْو ذَلكَ أَيْضًا.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أَيْ: مَنْ لمْ يَهْدِهِ الله فَهُوَ هَالك جَاهِل حَائِر بَائِر كَافِر، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ﴾ وَهَذَا فِي مُقَابَلة مَا قَال فِي مَثَل المُؤْمِنِينَ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾، فَنَسْأَل الله العَظِيم أَنْ يَجْعَل فِي قُلُوبنَا نُورًا، وَعَنْ أَيمَاننَا نُورًا، وَعَنْ شَمَائِلنَا نُورًا، وَأَنْ يُعْظِم لنَا نُورًا.

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣).

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: مِنَ المَلائِكَة وَالأَنَاسِيّ وَالجانّ وَالحيَوان حَتَّى الجمَاد، كَما قَال تَعَالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ أَيْ: فِي حَال طَيَرانها تُسبِّح رَبّهَا وَتَعبُدهُ بِتَسْبِيح أَلهمَهَا وَأَرْشَدَهَا إِلَيْهِ، وَهُوَ يَعْلم مَا هِيَ فَاعِلة، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أَيْ: كُلّ قَدْ أَرْشَدَهُ إِلى طَرِيقَته وَمَسْلكه فِي عِبادَته الله ﷻ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَالم بِجَمِيعِ ذَلكَ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلكَ شَيْء، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالى أَنَّ لَهُ مُلك السَّمَوات وَالأَرْض فَهُوَ الحَاكِم المُتصرِّف، لا مُعقِّب لحُكْمِهِ وهو الإِله المَعْبُود الَّذِي لا تَنْبَغِي العِبَادَة إِلَّا لَه، ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة، فَيحْكُم فِيهِ بِمَا يَشَاء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾. فَهُوَ الخَالق المَالك له الحكَم فِي الدُّنْيَا وَالأُخرَى، وَلهُ الحمْد فِي الأُولى وَالآخِرَة.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾.

يَذْكُر تَعَالى أَنَّهُ بِقُدْرَتِهِ يَسُوق السَّحَاب أَوَّل مَا يُنْشِئهَا وَهِيَ ضَعِيفَة، وَهُوَ الإِزْجَاء: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أَيْ: يَجْمَعهُ بَعْد تَفرُّقه، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أَيْ: مُتَرَاكِمًا، يَرْكَب بَعْضه بَعْضًا، ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أَيْ: المَطَر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أَيْ: مِنْ خُلله. وَكَذَا قَرَأَهَا ابْن عَبَّاس وَالضَّحَّاك. قَال عُبَيْد بْن عُمَيْر اللَّيْثِيّ: يَبْعَث الله المُثِيرَة فَتَقُمّ الأَرْض قَمًّا، ثُمَّ يَبْعَث الله النَّاشِئَة فَتُنْشِئ السَّحَاب، ثُمَّ يَبْعَث الله المُؤَلِّفَة فَتُؤَلِّف بَيْنه، ثُمَّ يَبْعَث الله اللَّوَاقِح فَتُلقِّح السَّحَاب. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير رَحِمَهُمَا الله.

وَقَوْله: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ قَال بَعْض النُّحَاة: (مِنْ) الأُولى لابْتِدَاءِ الغَايَة، وَالثَّانِيَة لِلتَّبْعِيضِ، وَالثَّالثَة لبَيَانِ الجِنْس. وَهَذَا إِنَّمَا يَجِيء عَلى قَوْل مَنْ ذَهَبَ مِنْ المُفَسِّرِينَ إِلى أَنَّ قَوْله: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّ فِي السَّمَاء جِبَال بَرَد يُنَزِّل الله مِنْهَا البَرَد، وَأَمَّا مَنْ جَعَل الجِبَال هَهُنَا عبارة كِنَايَة عَنْ السَّحَاب، فَإِنَّ (مِنْ) الثَّانِيَة عِنْد هَذَا لابْتِدَاءِ الغَايَة أَيْضًا، لكِنَّهَا بَدَل مِنْ الأُولى، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ يُحْتَمَل أَنْ يَكُون المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أَيْ: بِمَا يَنْزِل مِنْ السَّمَاء مِنْ نَوْعَيْ المَطَر وَالبردّ، فَيكُون قَوْله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ رَحْمَة لهُمْ، ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ أَيْ: يُؤَخِّر عَنْهُمْ الغَيْث، وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُون المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أَيْ: بِالبَرَدِ نِقْمَة عَلى مَنْ يَشَاء لَمَا فِيهِ مِنْ نَثْر ثِمَارهِمْ وَإِتْلاف زُرُوعهِمْ وَأَشْجَارهِمْ، ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ أي: رَحْمَة بِهِمْ.

وَقَوْله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ أَيْ: يَكَاد ضَوْء بَرْقه مِنْ شِدَّته يَخْطَف الأَبْصَار إِذَا اتَّبَعَتْهُ وَتَرَاءَتْهُ.

وقوله: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أَيْ: يَتصَرَّف فِيهِمَا، فَيأْخُذ مِنْ طُول هَذَا فِي قِصَر هَذَا حَتَّى يَعْتَدِلا، ثُمَّ يَأْخُذ مِنْ هَذَا فِي هَذَا، فَيطُول الَّذِي كَانَ قَصِيرًا، وَيَقْصُر الَّذِي كَانَ طَوِيلًا، وَالله هُوَ المُتَصرِّف فِي ذَلكَ بِأَمْرِهِ وَقَهْره وَعِزَّته وَعِلمه؛ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أَيْ: لدَليلًا عَلى عَظَمَته تَعالى، كَما قَال الله تَعَالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ وَمَا بَعْدهَا مِنْ الآيَات الكَرِيمَات.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يَذْكُر تَعالى قُدْرَته التَّامَّة وَسُلطَانه العَظِيم فِي خَلقه أَنْوَاع المَخْلُوقَات عَلى اخْتِلاف أَشْكَالهَا وَأَلوانها وَحرَكَاتها وَسكَنَاتها مِنْ مَاء وَاحِد، ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ كَالحيَّةِ وَمَا شَاكَلها، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كَالإِنْسَانِ وَالطَّيْر، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ كَالأَنْعَام وَسَائِر الحيَوَانَات؛ وَلهَذَا قَال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيْ: بِقُدْرَتِهِ لأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لمْ يَشَأْ لمْ يَكُنْ، وَلهَذَا قَال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

يُقَرِّر تَعالى أَنَّهُ أَنْزَل فِي هَذَا القُرْآن مِنْ الحِكَم وَالأَمْثَال البَيِّنَة المُحْكَمَة كَثِيرًا جِدًّا، وَأَنَّهُ يُرْشِد إِلى تَفهُّمهَا وَتَعقُّلهَا أُولِي الأَلبَاب وَالبَصَائِر وَالنُّهى، وَلهَذَا قَال: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ صِفَات المُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ خِلاف مَا يُبْطِنُونَ يَقُولُونَ قَوْلًا بِأَلسِنَتِهِمْ: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: يُخَالِفُونَ أَقْوَالهمْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَيَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾، أَيْ: إِذَا طُلبُوا إِلى اتِّبَاع الهُدَى فِيمَا أَنْزَل الله عَلى رَسُوله أَعرَضُوا عَنْهُ، وَاسْتَكبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ عَنْ اتِّبَاعه، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، إِلى قَوْله: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾. وَفِي الطَّبَرَانِيِّ مِنْ حَدِيث رَوْح بْن عَطَاء، عَنْ أَبِي مَيْمُونَة عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الحَسَن، عَنْ سَمُرَة مَرْفُوعًا: «مَنْ دُعِيَ إِلى سُلطَان فَلمْ يُجِبْ فَهُوَ ظَالم لا حَقّ لهُ».[1]

وقوله: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أَيْ: إِذَا كَانَتْ الحُكُومَة لهُمْ لا عَليْهِمْ جَاءُوا سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْله: ﴿مُذْعِنِينَ﴾، وَإِذَا كَانَتْ الحُكُومَة عَليْهِ أَعرَض وَدَعَا إِلى غَيْر الحَقّ، وَأَحَبَّ أَنْ يَتَحَاكَم إِلى غَيْر النَّبِيّ ﷺ؛ لِيُرَوِّج بَاطِله ثَمَّ، فَإِذْعَانه أَوَّلًا لمْ يَكُنْ عَنْ اعْتِقَاد مِنْهُ أَنَّ ذَلكَ هُوَ الحَقّ، بَل لأَنَّهُ مُوَافِق هَوَاهُ، وَلهَذَا لـمَّا خَالفَ الحَقّ قَصْده عَدَل عَنْهُ إِلى غَيْره، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ يَعْنِي: لا يَخْرُج أَمْرهمْ عَنْ أَنْ يَكُون فِي القُلُوب مَرَض لازِم لهَا أَوْ قَدْ عرض لهَا شَكّ فِي الدِّين، أَوْ يَخَافُونَ أَنْ يَجُور الله وَرَسُوله عَليْهِمْ فِي الحُكْم، وَأَيًّا مَا كَانَ فَهُوَ كُفْر مَحْض، وَالله عَليم بِكُلِّ مِنْهُمْ وَمَا هُوَ مُنْطَوٍ عَليْهِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَات.

وَقَوْله: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أَيْ: بَل هُمْ الظَّالمُونَ الفَاجِرُونَ، وَالله وَرَسُوله مُبَرَّآنِ مِمَّا يَظُنُّونَ وَيَتَوَهَّمُونَ مِنْ الحَيْف وَالجَوْر، تَعَالى الله وَرَسُوله عَنْ ذَلكَ. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا مُبَارَك، حَدَّثَنَا الحَسَن قَال: كَانَ الرَّجُل إِذَا كَانَ بَيْنه وَبَيْن الرَّجُل مُنَازَعَة فَدُعِيَ إِلى النَّبِيّ ﷺ

---

(١) إسناده ضعيف: فيه روح بن عطاء: وهو ضعيف، وفيه انقطاع؛ الحسن لم يسمع من سمرة.

وَهُوَ مُحِقّ أَذْعَنَ، وَعَلِمَ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ سَيَقْضِي لهُ بِالحَقِّ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَظْلم فَدُعِيَ إِلى النَّبِيّ ﷺ أَعْرَضَ، وَقَال: أَنْطَلق إِلى فُلان. فَأَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة. فَقَال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ بَيْنه وَبَيْن أَخِيهِ شَيْء فَدُعِيَ إِلى حَكَم مِنْ حُكام المُسْلِمِينَ فَأَبَى أَنْ يُجِيب فَهُوَ ظَالِم لا حَقّ لهُ»[1]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب وَهُوَ مُرْسَل.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالى عَنْ صِفَة المُؤْمِنِينَ المُسْتَجِيبِينَ لله وَلرَسُولِهِ، الَّذِينَ لا يَبْغُونَ دِينًا سِوَى كِتَاب الله وَسُنَّة رَسُوله، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أَيْ: سَمْعًا وَطَاعَة، وَلِهَذَا وَصَفَهُمْ تَعَالى بِالفَلاح، وَهُوَ نَيْل المَطْلُوب وَالسَّلامَة مِنْ المَرْهُوب، فَقَال تَعَالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. وَقَال قَتَادَة فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ذُكِرَ لنَا أَنَّ عُبَادَة بْن الصَّامِت وَكَانَ عَقَبِيًّا بَدْرِيًّا أَحَد نُقَبَاء الأَنْصَار أَنَّهُ لمَّا حَضَرَهُ المَوْت قَال لابْنِ أَخِيهِ جُنَادَة بْن أَبِي أُمَيَّة: أَلا أُنَبِّئك بِمَاذَا عَليْك وَبِمَاذَا لك؟ قَال: بَلى. قَال: فَإِنَّ عَليْك السَّمْع وَالطَّاعَة فِي عُسْرك وَيُسْرك وَمَنْشَطك وَمَكْرَهك وَأَثَرَة عَليْك، وَعَليْك أَنْ تُقِيم لسَانك بِالعَدْل، وَأَنْ لا تُنَازِع الأَمْر أَهْله إِلَّا أَنْ يَأْمُرُوك بِمَعْصِيَةِ الله بَوَاحًا، فَمَا أُمِرْت بِهِ مِنْ شَيْء يُخَالف كِتَاب الله فَاتَّبِعْ كِتَاب الله.

وَقَال قَتَادَة: وذُكِرَ لنَا أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاء قَال: لا إِسْلام إِلَّا بِطَاعَةِ الله، وَلا خَيْر إِلَّا فِي جَمَاعَة، وَالنَّصِيحَة لله وَلرَسُولِهِ وَللخَلِيفَةِ وَللمُؤْمِنِينَ عَامَّة. قَال: وَقَدْ ذُكِرَ لنَا أَنَّ عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه كَانَ يَقُول: عُرْوَة الإِسْلام شَهَادَة أَنْ لا إِله إِلَّا الله، وَإِقَام الصَّلاة، وَإِيتَاء الزَّكَاة، وَالطَّاعَة لمَنْ وَلَّاهُ الله أَمْر المُسْلِمِينَ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، وَالأَحَادِيث وَالآثَار فِي وُجُوب الطَّاعَة لكِتَابِ الله وَسُنَّة رَسُوله وَللخُلفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالأَئِمَّة إِذَا أَمَرُوا بِطَاعَةِ الله كثيرة جدًا أَكْثَر مِنْ أَنْ تُحْصَر فِي هَذَا المَكَان.

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [قَال قَتَادَة: يُطِعْ الله وَرَسُوله][2] فِيمَا أَمَرَاهُ بِهِ، وَتَرْك مَا نَهَيَاهُ عَنْهُ، ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ فِيمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبه، وَيَتَّقِهِ فِيمَا يُسْتَقْبَل.

وَقَوْله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ يَعْنِي: الَّذِينَ فَازُوا بِكُلِّ خَيْر، وَأَمِنُوا مِنْ كُلّ شَرّ، فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

﴿ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ أَهْل النِّفَاق الَّذِينَ كَانُوا يَحْلفُونَ للرَّسُول ﷺ لئِنْ أَمَرْتهمْ بِالخُرُوجِ ليَخْرُجُنَّ، قَال الله تَعَالى: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾ أَيْ: لا تَحْلفُوا.

وَقَوْله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ قِيل مَعْنَاهُ: طَاعَتكُمْ طَاعَة مَعْرُوفَة، أَيْ: قَدْ عَلمت طَاعَتكُمْ إِنَّمَا هِيَ قَوْل لا فِعْل مَعَهُ، وَكُلَّمَا حَلفْتُمْ كَذَبْتُمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، فَهُمْ مِنْ سَجِيَّتهمْ الكَذِب حَتَّى فِيمَا يَخْتَارُونَهُ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١١ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

وَقِيل: المَعْنَى فِي قَوْله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أَيْ: ليَكُنْ أَمْركُمْ طَاعَة مَعْرُوفَة، أَيْ: بِالمَعْرُوفِ مِنْ غَيْر حَلف وَلا

---

(١) إسناده ضعيف: مرسل.

(٢) سقط من (ز).

إِقْسَام، كَمَا يُطِيع الله وَرَسُوله الْمُؤْمِنُونَ بِغَيْرِ حَلف وَلا إِقْسَام، فَكُونُوا أَنْتُمْ مِثْلهمْ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: هُوَ خَبِير بِكُمْ، وَبِمَنْ يُطِيع مِمَّنْ يَعْصِي، فَالحَلف وَإِظْهَار الطَّاعَة وَالبَاطِن بِخِلافِهِ، وَإِنْ رَاجَ عَلَى المَخْلُوق، فَالخَالِق تَعَالَى يَعْلَم السِّرّ وَأَخْفَى، لا يَرُوج عَلَيْهِ شَيْء مِنَ التَّدْلِيس، بَل هُوَ خَبِير بِضَمَائِر عِبَاده وَإِنْ أَظْهَرُوا خِلافهَا. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أَيْ: اتَّبِعُوا كِتَاب الله وَسُنَّة رَسُوله.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أَيْ: تَتَوَلَّوْا عَنْهُ وَتَتْرُكُوا مَا جَاءَكُمْ بِهِ. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أَيْ: إِبْلاغ الرِّسَالَة وَأَدَاء الأَمَانَة، ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أَيْ: من قَبُول ذَلِكَ وَتَعْظِيمه وَالقِيَام بِمُقْتَضَاهُ، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ وَذَلِكَ لأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾، وَقَوْله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

قَال وَهْب بْن مُنَبِّه: أَوْحَى الله إِلَى نَبِيّ مِنْ أَنْبِيَاء بَنِي إِسْرَائِيل -يُقَال لَهُ: شعياء- أَنْ قُمْ فِي بَنِي إِسْرَائِيل فَإِنِّي سَأُطْلِقُ لِسَانك بِوَحْي. فَقَامَ فَقَال: يَا سَمَاء اسْمَعِي وَيَا أَرْض أَنْصِتِي، فَإِنَّ الله يُرِيد أَنْ يَقْضِي شَأْنًا وَيُدَبِّر أَمْرًا هُوَ مُنْفِذه، إِنَّهُ يُرِيد أَنْ يُحَوِّل الرِّيف إِلَى الفَلاة، وَالآجَام فِي الغِيطَان، وَالأَنْهَار فِي الصَّحَارِي، وَالنِّعْمَة فِي الفُقَرَاء، وَالمُلك فِي الرُّعَاة، وَيُرِيد أَنْ يَبْعَث أُمِّيًّا مِنَ الأُمِّيِّينَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلا غَلِيظ وَلا صَخَّاب فِي الأَسْوَاق، لَوْ يَمُرّ إِلَى جنب السِّرَاج لَمْ يُطْفِئْهُ مِنْ سَكِينَته، وَلَوْ يَمْشِي عَلَى القَصَب وَاليَابِس لَمْ يَسْمَع مَنْ تَحْت قَدَمَيْهِ، أَبْعَثُهُ مبشرًا وَنَذِيرًا، لا يَقُول الخَنَا، أُفَتِّح بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلفًا، وَأُسَدِّدهُ لِكُلِّ أَمْر جَمِيل، وَأَهَب لَهُ كُلّ خلق كَرِيم، وَأَجْعَل السَّكِينَة لِبَاسه، وَالبِرّ شِعَاره، وَالتَّقْوَى ضَمِيره، وَالحِكْمَة مَنْطِقه؛ وَالصِّدْق وَالوَفَاء طَبِيعَته، وَالعَفْو وَالمَعْرُوف خُلُقه، وَالحَقّ شَرِيعَته، وَالعَدْل سِيرَته، وَالهُدَى إِمَامه، وَالإِسْلام مِلَّته، وَأَحْمَد اسْمه، أَهْدِي بِهِ بَعْد الضَّلالَة، وَأُعْلم بِهِ مِنْ الجَهَالَة، وَأَرْفَع بِهِ بَعْد الخَمَالَة، وَأُعَرِّف بِهِ بَعْد النَّكِرَة، وَأُكْثِر بِهِ بَعْد القِلَّة، وَأُغْنِي بِهِ بَعْد العَيْلَة، وَأَجْمَع بِهِ بَعْد الفُرْقَة، وَأُؤَلِّف بِهِ بَيْن أُمَم مُتَفَرِّقَة، وَقُلُوب مُخْتَلِفَة، وَأَهْوَاء مُشَتَّتَة، وَأَسْتَنْقِذ بِهِ فِئَامًا مِنْ النَّاس عَظِيمًا مِنْ الهَلَكَة، وَأَجْعَل أُمَّته خَيْر أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ المُنْكَر، مُوَحِّدِينَ مُؤْمِنِينَ، مُخْلِصِينَ مُصَدِّقِينَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ رسلي. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

هَذَا وَعْد مِنَ الله تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُ أُمَّته خُلَفَاء الأَرْض، أَيْ: أَئِمَّة النَّاس وَالوُلاة عَلَيْهِمْ؛ وَبِهِمْ تَصْلُح البِلاد، وَتَخْضَع لَهُمْ العِبَاد. وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْد خَوْفهمْ من الناس أَمْنًا وَحُكْمًا فِيهِمْ، وَقَدْ فعل تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذلك، وَلَهُ الحَمْد وَالمِنَّة؛ فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يَمُتْ ﷺ حَتَّى فَتَحَ الله عَلَيْهِ مَكَّة وَخَيْبَر وَالبَحْرَيْنِ وَسَائِر جَزِيرَة العَرَب، وَأَرْض اليَمَن بِكَمَالِهَا، وَأَخَذَ الجِزْيَة مِنْ مَجُوس هَجَر وَمِنْ بَعْض أَطْرَاف الشَّام، وَهَادَاهُ هِرَقْل مَلك الرُّوم وَصَاحِب مِصْر وَإِسْكَنْدَرِيَّة وَهُوَ المُقَوْقِس، وَمُلُوك عُمَان وَالنَّجَاشِيّ مَلك الحَبَشَة الَّذِي تَمَلَّكَ بَعْد أصحمة، رَحِمَهُ الله وَأَكْرَمَهُ.

ثُمَّ لَمَّا مَاتَ رَسُول الله ﷺ وَاخْتَارَ الله لَهُ مَا عِنْده مِنَ الكَرَامَة قَامَ بِالأَمْرِ بَعْده خَلِيفَته أَبُو بَكْر الصِّدِّيق فَلَمَّ شَعْث مَا وَهَى عند مَوْته ﷺ وَأَخَذَ جَزِيرَة العَرَب وَمَهَّدَهَا، وَبَعَثَ الجُيُوش الإِسْلامية إِلَى بِلاد فَارِس صُحْبَة

خَالد بْن الوَلِيد ﷺ فَفَتَحُوا طَرَفًا مِنْهَا وَقَتَلُوا خَلقًا مِنْ أَهْلهَا. وَجَيْشًا آخر صُحْبَة أَبِي عُبَيْدَة ﷺ وَمَنْ معه مِنَ الأُمَرَاء إِلى أَرْض الشَّام، وَثَالثًا صُحْبَة عَمْرو بْن العَاص ﷺ إلى بِلاد مِصْر؛ فَفَتَحَ الله للجَيْشِ الشَّامِيّ فِي أَيَّامه بُصْرَى وَدِمَشْق وَمَخَاليفهمَا مِنْ بلاد حَوْرَان وَمَا وَالاهَا، وَتَوَفَّاهُ الله ﷻ وَاخْتَارَ لَهُ مَا عِنْده مِنْ الكَرَامَة.

وَمَنَّ عَلى الإِسْلام وأهله بِأَنْ أَلْهَمَ الصِّدِّيق أَنْ يَسْتَخْلف عُمَر الفَارُوق، فَقَامَ بِالأَمْرِ بَعْده قِيَامًا تَامًّا لَمْ يَدُرْ الفُلك بَعْد الأَنْبِيَاء عَلى مِثْله فِي قُوَّة سِيرَته وَكَمَال عَدْله. وَتَمَّ فِي أَيَّامه فَتْح البِلاد الشَّامِيَّة بِكَمَالهَا، وَدِيَار مِصْر إِلى آخِرهَا، وَأَكْثَر إِقْلِيم فَارِس، وَكَسَرَ كِسْرَى وَأَهَانَهُ غَايَة الهَوَان وَتَقَهْقَرَ إِلى أَقْصَى مَمْلَكته، وَقَصَرَ قَيْصَر وَانْتَزَعَ يَده عَنْ بِلاد الشَّام فانحاز إِلى القُسْطَنْطِينِيَّة، وَأُنْفِقَ أَمْوَالهمَا فِي سَبِيل الله، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلكَ وَوَعَدَ بِهِ رَسُول الله؛ عَلَيْهِ مِنْ رَبّه أَتَمّ سَلام وَأَزْكَى صَلاة.

ثُمَّ لـمَّا كَانَتْ الدَّوْلة العُثْمَانِيَّة امْتَدَّتْ المَمَالك الإِسْلامِيَّة إِلى أَقْصَى مَشَارِق الأَرْض وَمَغَارِبهَا؛ فَفُتِحَتْ بِلاد المَغْرِب إِلى أَقْصَى مَا هُنَالكَ الأَنْدَلُس وَقُبْرُص؛ وَبِلاد القَيْرَوَان وَبِلاد سِبْتَة مِمَّا يَلِي البَحْر المُحِيط، وَمِنْ نَاحِيَة المَشْرِق إِلى أَقْصَى بِلاد الصِّين؛ وَقُتِل كِسْرَى وَبَادَ مُلكه بِالكُلِّيَّة؛ وَفُتِحَتْ مَدَائِن العِرَاق وَخُرَاسَان وَالأَهْوَاز، وَقَتَل المُسْلمُونَ مِنْ التُّرْك مَقْتَلة عَظِيمَة جِدًّا؛ وَخَذَل الله مَلكهمْ الأَعْظَم خَاقَان، وَجُبِيَ الخَرَاج مِنْ المَشَارِق وَالمَغَارِب إِلى حَضْرَة أَمِير المُؤْمِنِينَ عُثْمَان بْن عَفَّان ﷺ، وَذَلكَ بِبَرَكَةِ تِلاوَته وَدِرَاسَته وَجَمْعه الأُمَّة عَلى حِفْظ القُرْآن؛ وَلهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيح عن رَسُول الله ﷺأنه قَال: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْض، فَرَأَيْت مَشَارِقهَا وَمَغَارِبهَا، وَسَيَبْلُغُ مُلك أُمَّتِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا**»[1]. فَهَا نَحْنُ نَتَقَلَّب فِيمَا وَعَدَنَا الله وَرَسُوله، وَصَدَقَ الله وَرَسُوله، فَنَسْأَل الله الإِيمَان بِهِ وَبِرَسُولهِ، وَالقِيَام بِشُكْرِهِ عَلى الوَجْه الَّذِي يُرْضِيه عَنَّا.

قَال الإِمَام مُسْلم بْن الحَجَّاج فِي «صَحِيحه»: حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عُمَر، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَبْد المَلك بْن عُمَيْر، عَنْ جَابِر بْن سَمُرَة قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**لا يَزَال أَمْر النَّاس مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمْ اثْنَا عَشَر رَجُلاً**». ثُمَّ تَكَلَّمَ النَّبِيّ ﷺ بِكَلمَةٍ خَفِيَتْ عَنِّي فَسَأَلت أَبِي: مَاذَا قَال رَسُول الله ﷺ ؟ فَقَال: قَال: «**كُلّهمْ مِنْ قُرَيْش**».[2]

وَرَوَاهُ البُخَارِيّ مِنْ حَدِيث شُعْبَة عَنْ عَبْد المَلك بْن عُمَيْر بِهِ. وَفِي رِوَايَة لمُسْلم أَنَّهُ قَال ذَلكَ عَشِيَّة رَجْم مَاعِز ابْن مَالك، وَذَكَرَ مَعَهُ أَحَادِيث أُخَر. وَفِي هَذَا الحَدِيث دَلالة عَلى أَنَّهُ لابُدّ مِنْ وُجُود اثْنَيْ عَشَر خليفَة عَادِل، وَليْسُوا هُمْ بِأَئِمَّةِ الشِّيعَة الاثْنَيْ عَشَر، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أُولئِكَ لمْ يَكُنْ إِليهم مِنْ الأَمْر شَيْء، فَأَمَّا هَؤُلاءِ فَإِنَّهُمْ يَكُونُونَ مِنْ قُرَيْش يَلُونَ فَيَعْدِلُونَ، وَقَدْ وَقَعَتْ البِشَارَة بِهِمْ فِي الكُتُب المُتَقَدِّمَة، ثُمَّ لا يُشْتَرَط أَنْ يَكُون مُتَتَابِعِينَ، بَل يَكُون وُجُودهمْ فِي الأُمَّة مُتَتَابِعًا وَمُتَفَرِّقًا، وَقَدْ وُجِدَ مِنْهُمْ أَرْبَعَة عَلى الوِلاء وَهُمْ أَبُو بَكْر ثُمَّ عُمَر ثُمَّ عُثْمَان، ثُمَّ عَلِيّ ﷺ، ثُمَّ كَانَتْ بَعْدهمْ فَتْرَة بينهم، ثُمَّ وُجِدَ مِنْهُمْ مَنْ شَاءَ الله، ثُمَّ قَدْ يُوجَد مِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ فِي الوَقْت الَّذِي يَعْلمهُ الله تَعَالى، وَمِنْهُمْ المَهْدِيّ الَّذِي يُطَابِق اسْمه اسْم رَسُول الله ﷺ وَكُنْيَته كُنْيَته، يَمْلأ الأَرْض عَدْلًا وَقِسْطًا، كَمَا مُلئَتْ جَوْرًا وَظُلمًا.

وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَحْمَد وَأَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث سَعِيد بْن جُهْمَان عَنْ سَفِينَة مَوْلى

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٢٢٢)، ومسلم (١٨٢١).

رَسُول الله ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**الخِلافَة بَعْدِي ثَلاثُونَ سَنَة، ثُمَّ تَكُون مُلكًا عَضُوضًا**»[١]. وَقَال الرَّبِيع ابْن أَنَس عَنْ أَبِي العَالِيَة فِي قَوْله: ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًا**﴾ الآيَة، قَال: كَانَ النَّبِيّ ﷺ وَأَصْحَابه بِمَكَّة نَحْوًا مِنْ عَشْر سِنِينَ، يَدْعُونَ إِلى الله وَحْده، وَإِلى عِبَادَته وَحْده لا شَرِيك لهُ سِرًّا، وَهُمْ خَائِفُونَ لا يُؤْمَرُونَ بِالقِتَال حَتَّى أُمِرُوا بِالهِجْرَةِ إِلى المَدِينَة، فَقَدِمُوهَا فَأَمَرَهُمْ الله بِالقِتَال، فَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُمْسُونَ فِي السِّلاح وَيُصْبِحُونَ فِي السِّلاح، فغبَرُوا بذَلكَ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنْ الصَّحَابَة قَال: يَا رَسُول الله؛ أَبَد الدَّهْر نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا؟ أَمَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْم نَأْمَن فِيهِ وَنَضَع عَنَّا السِّلاح؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**لنْ تَغبروا إلاَّ يَسِيرًا حَتَّى يَجْلس الرَّجُل مِنْكُمْ فِي المَلإِ العَظِيم مُحْتَبِيًا ليْسَتْ فيهم حَدِيدَة**». وَأَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة فَأَظْهَرَ الله نَبِيّه عَلى جَزِيرَة العَرَب فَآمَنُوا وَوَضَعُوا السِّلاح. ثُمَّ إِنَّ الله تَعَالى قَبَضَ نَبِيّه ﷺ، فَكَانُوا كَذَلكَ آمِنِينَ فِي إِمَارَة أَبِي بَكْر وَعُمَر وَعُثْمَان حَتَّى وَقَعُوا فِيمَا وَقَعُوا فِيهِ فَأُدْخِل عَليْهِمْ الخَوْف فأدخلوا الحَجْزَ وَالشُّرط، وَغَيَّرُوا فَغُيِّرَ بِهِمْ. وَقَال بَعْض السَّلف: خِلافَة أَبِي بَكْر وَعُمَر رضي الله عنهما حَقّ فِي كِتَابه، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَة.

وَقَال البَرَاء بْن عَازِب: نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة وَنَحْنُ فِي خَوْف شَدِيد. وَهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿**وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ**﴾ إِلى قَوْله: ﴿**لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ**﴾.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿**كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ**﴾ كَمَا قَال تَعَالى عَنْ مُوسَى عليه السلام إِنَّهُ قَال لقَوْمِهِ: ﴿**عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ**﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ**﴾.

وَقَوْله: ﴿**وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا**﴾، كَمَا قَال رَسُول الله ﷺ لعَدِيٍّ بْن حَاتِم حِين وَفَدَ عَليْهِ: «**أَتَعْرِفُ الحِيرَة؟**». قَال: لمْ أَعْرِفهَا وَلكِنْ قَدْ سَمِعْت بِهَا، قَال: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ ليُتِمَّنَّ الله هَذَا الأَمْر حَتَّى تَخْرُج الظَّعِينَة مِنْ الحِيرَة حَتَّى تَطُوف بِالبَيْتِ فِي غَيْر جِوَار أَحَد، وَلتُفْتَحَنَّ كُنُوز كِسْرَى بْن هُرْمُز**». قَلت: كِسْرَى بْن هُرْمُز؟ قَال: «**نَعَمْ كِسْرَى بْن هُرْمُز، وَليُبْذَلنَّ المَال حَتَّى لا يَقْبَلهُ أَحَد**». قَال عَدِيّ بْن حَاتِم: فَهَذِهِ الظَّعِينَة تَخْرُج مِنْ الحِيرَة فَتَطُوف بِالبَيْتِ فِي غَيْر جِوَار أَحَد، وَلقَدْ كُنْت فِيمَنْ افتتح كُنُوز كِسْرَى بْن هُرْمُز، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لتَكُونَنَّ الثَّالثَة؛ لأَنَّ رَسُول الله ﷺ قَدْ قَالهَا.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِي سَلمَة، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ أَبِي العَاليَة، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّة بِالسَّنَاء وَالرِّفْعَة وَالدِّين وَالنَّصْر وَالتَّمْكِين فِي الأَرْض، فَمَنْ عَمِل مِنْهُمْ عَمَل الآخِرَة للدُّنْيَا لمْ يَكُنْ لهُ فِي الآخِرَة نَصِيب**».[٢]

وَقَوْله تَعَالى: ﴿**يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا**﴾ قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا هَمَّام، حَدَّثَنَا قَتَادَة، عَنْ أَنَس، أَنَّ مُعَاذ بْن جَبَل حَدَّثَهُ قَال: بَيْنَا أَنَا رَدِيف رسول الله ﷺ عَلى حِمَار ليْسَ بَيْنِي وَبَيْنه إِلَّا آخِرَة الرَّحْل، قَال: «**يَا مُعَاذ**». قُلت: لبَّيْكَ يَا رَسُول الله وَسَعْدَيْك. قَال: ثُمَّ سَارَ سَاعَة، ثُمَّ قَال: «**يَا مُعَاذ بْن جَبَل**». قُلت: لبَّيْكَ يَا

---

(١) حسن صحيح : أخرجه أبو داود (٤٦٤٦)، والترمذي (٢٢٢٦)، وأحمد (٥/ ٢٢٠)، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: حسن صحيح.

(٢) صحيح : أخرجه أحمد (٥/ ١٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٢٥).

رَسُول الله وَسَعْدَيْك. ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَال: «يَا مُعَاذ بْن جَبَل» قُلت: لبَّيْكَ يَا رَسُول الله وَسَعْدَيْك قَال: «هَل تَدْرِي مَا حَقّ الله عَلى العِبَاد؟». قُلت: الله وَرَسُوله أَعْلم، قَال: «حَقّ الله عَلى العِبَاد أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا». قَال: ثُمَّ سَارَ سَاعَة، ثُمَّ قَال: «يَا مُعَاذ بْن جَبَل». قُلت: لبَّيْكَ يَا رَسُول الله وَسَعْدَيْك، قَال: «فَهَل تَدْرِي مَا حَقّ العِبَاد عَلى الله إِذَا فَعَلُوا ذَلكَ؟». قَال: قُلت: الله وَرَسُوله أَعْلم. قَال: «فَإِنَّ حَقّ العِبَاد عَلى الله أَنْ لا يُعَذِّبهُمْ»[1]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث قَتَادَة.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أَيْ: فَمَنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَتِي بَعْد ذَلكَ فَقَدْ فسق عَنْ أَمْر رَبّه، وَكَفَى بِذَلكَ ذَنْبًا عَظِيمًا، فَالصَّحَابَة رضي الله عنهم لـمَّا كَانُوا أَقْوَم النَّاس بَعْد النَّبِيّ ﷺ بِأَوَامِر الله عز وجل، وَأَطْوَعهمْ لله كَانَ نَصْرهمْ بِحَسْبِهِمْ أَظْهَرُوا كَلمَة الله فِي المَشَارِق وَالمَغَارِب، وَأَيَّدَهُمْ الله تَأْيِيدًا عَظِيمًا، وَتحَكَمُوا فِي سَائِر العِبَاد وَالبِلاد؛ وَلَمَّا قَصَّرَ النَّاس بَعْدهمْ فِي بَعْض الأَوَامِر نَقَصَ ظُهُورهمْ بِحَسْبِهِمْ، وَلكِنْ قَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ غَيْر وَجه عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «لا تَزَال طَائِفَة مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلى الحَقّ لا يَضُرّهُمْ مَنْ خَذَلهُمْ وَلا مَنْ خَالفَهُمْ إِلى يَوْم القِيَامَة». وَفِي رِوَايَة: «حَتَّى يَأْتِيَ أَمْر الله وَهُمْ كَذَلكَ». وَفِي رِوَايَة: «حَتَّى يُقَاتِلُونَ الدَّجَّال». وَفِي رِوَايَة: «حَتَّى يَنْزِل عِيسَى ابْن مَرْيَم وَهُمْ ظَاهِرُونَ»[2]. وَكُلّ هَذِهِ الرِّوَايَات صَحِيحَة وَلا تَعَارُض بَيْنهَا.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

يَقُول تَعَالى آمِرًا عِبَاده المُؤْمِنِينَ بِإِقَامَ الصَّلاة، وَهِيَ عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَإِيتَاء الزَّكَاة وَهِيَ الإِحْسَان إِلى المَخْلُوقِينَ ضُعَفَائِهِمْ وَفُقَرَائِهِمْ، وَأَنْ يَكُونُوا فِي ذَلكَ مُطِيعِينَ للرَسُول ﷺ أَيْ: سَالكِينَ وَرَاءَهُ فِيمَا بِهِ أَمَرَهُمْ، وتاركين مَا عَنْهُ زَجَرَهُمْ لعَلَّ الله يَرْحَمهُمْ بِذَلكَ، وَلا شَكّ أَنَّ مَنْ فَعَل هَذَا أَنَّ الله سَيَرْحَمُهُ، كَمَا قَال تَعَالى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أَيْ: لا تَظُنّ يَا مُحَمَّد أَنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أَيْ: خَالفُوك وَكَذَّبُوك ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: لا يُعْجِزُونَ الله، بَل الله قَادِر عَليْهم وَسَيُعَذِّبُهُمْ على ذَلكَ أَشَدّ العَذَاب، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ أَيْ: فِي الدَّار الآخِرَة ﴿ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أَيْ: بِئْسَ المَآل مَآل الكَافِرِينَ، وَبِئْسَ القَرَار وَبِئْسَ المِهَاد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

هَذِهِ الآيَات الكَرِيمَة اشْتَمَلتْ عَلى اسْتِئْذَان الأَقَارِب بَعْضهمْ عَلى بَعْض، وَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّل السُّورَة فَهُوَ اسْتِئْذَان الأَجَانِب بَعْضهمَ عَلى بَعْض، فَأَمَرَ الله تَعَالى المُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَأْذِنهُمْ خَدَمَهُمْ مِمَّا مَلكَتْ أَيمَانهمْ وَأَطْفَالهمْ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).
(٢) صحيح: تقدم.

الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُم مِنهُمْ، فِي ثَلاثَة أَحْوَال: الأَوَّل: مِنْ قَبْل صَلاة الغَدَاة؛ لأَنَّ النَّاس إِذْ ذَاكَ يَكُونُونَ نِيَامًا فِي فُرُشهمْ، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ أَيْ: فِي وَقْت القَيْلُولة؛ لأَنَّ الإِنْسَان قَدْ يَضَع ثِيَابه فِي تِلْكَ الحَال مَعَ أَهْله، ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ لأَنَّهُ وَقْت النَّوْم، فَيُؤْمَر الخَدَم وَالأَطْفَال أَنْ لا يَهْجُمُوا عَلى أَهْل البَيْت فِي هَذِهِ الأَحْوَال؛ لَمَا يُخْشَى أَنْ يَكُون الرَّجُل عَلى أَهْله أَوْ نَحْو ذَلكَ مِنَ الأَعْمَال، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ أَيْ: إِذَا دَخَلُوا فِي حَال غَيْر هَذِهِ الأَحْوَال فَلا جُنَاح عَلَيكُمْ فِي تَمْكِينكُمْ إِيَّاهُمْ من ذلك، وَلا عَلَيْهِمْ إِنْ رَأَوْا شَيْئًا فِي غَيْر تِلْكَ الأَحْوَال؛ لأَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الهُجُوم، وَلأَنَّهُمْ طَوَّافُونَ عَلَيكُمْ، أَيْ: فِي الخِدْمَة وَغَيْر ذَلكَ. وَيُغْتَفر فِي الطَّوَّافِينَ مَا لا يُغْتَفر فِي غَيْرهمْ؛ وَلِهَذَا رَوَى الإِمَام مَالك وَأَحْمَد بْن حَنْبَل، وَأَهْل السُّنَن أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال فِي الهِرَّة: «إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجِسَةٍ؛ إِنَّهَا مِنَ الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ وَالطَّوَّافَات»[1]. وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الآيَة مُحْكَمَة وَلَمْ تُنْسَخ بِشَيْءٍ، وَكَانَ عَمَل النَّاس بِهَا قَلِيلًا جِدًّا، أَنْكَرَ عَبْد الله بْن عَبَّاس ذَلكَ عَلى النَّاس، كَمَا قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن عَبْد الله بْن بُكَيْر، حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن لَهِيعَة، حَدَّثَنِي عَطَاء بْن دِينَار، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر؛ قَالَ: قَال ابْن عَبَّاس: تَرَكَ النَّاس ثَلاث آيَات فَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾ إِلى آخِر الآيَة، وَالآيَة الَّتِي فِي سُورَة النِّسَاء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾، وَالآيَة الَّتِي فِي الحُجُرَات: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. وروى أَيْضًا مِنْ حَدِيث إِسْمَاعِيل بْن مُسْلم -وَهُوَ ضَعِيف- عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح عَنْ ابن عَبَّاس قَال: غَلَبَ الشَّيْطَان النَّاس عَلى ثَلاث آيَات فَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ إِلى آخِر الآيَة.

وَرَوَى أَبُو دَاوُد، حَدَّثَنَا ابْن الصَّبَّاح وَابْن سُفْيَان وَابْن عَبْدَة -وَهَذَا حَدِيثه- أَخْبَرَنَا سُفْيَان، عَنْ عُبَيْد الله بْن أَبِي يَزِيد، سَمِعَ ابْن عَبَّاس يَقُول: لَمْ يُؤْمِن بِهَا أَكْثَر النَّاس آيَة الإِذْن، وَإِنِّي لآمُر جَارِيَتِي هَذِهِ تَسْتَأْذِن عَلَيَّ. قَال أَبُو دَاوُد: وَكَذَلكَ رَوَاهُ عَطَاء عَنْ ابن عَبَّاس يَأْمُر بِهِ. وَقَالَ الثَّوْرِيّ، عَنْ مُوسَى بْن أَبِي عَائِشَة، سَأَلت الشَّعْبِيّ: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾؟ قَال: لَمْ تُنْسَخ. قُلت: فَإِنَّ النَّاس لا يَعْمَلُونَ بِهَا. فَقَال: الله المُسْتَعَان.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الرَّبِيع بْن سُلَيْمَان، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنَا سُلَيْمَان بْن بِلال، عَنْ عَمْرو بْن أَبِي عَمْرو، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابن عَبَّاس: أَنَّ رَجُلَيْنِ سَأَلاهُ عَنْ الاسْتِئْذَان فِي الثَّلاث عَوْرَات الَّتِي أَمَرَ الله بِهَا فِي القُرْآن؟ فَقَال ابْن عَبَّاس: إِنَّ الله سِتِّير يُحِبّ السَّتْر، كَانَ النَّاس لَيْسَ لَهُمْ ستور عَلى أَبْوَابهمْ وَلا حِجَال فِي بُيُوتهمْ، فَرُبَّمَا فَاجَأَ الرَّجُل خَادِمه أَوْ وَلده أَوْ يَتِيمه فِي حِجْره وَهُوَ عَلى أَهْله، فَأَمَرَهُمْ الله أَنْ يَسْتَأْذِنُوا فِي تِلْكَ العَوْرَات الَّتِي سَمَّى الله، ثُمَّ جَاءَ الله بَعْد بِالسُّتُورِ، فَبَسَطَ الله عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْق فَاتَّخَذُوا السُّتُور وَاتَّخَذُوا الحِجَال، فَرَأَى النَّاس أَنَّ ذَلكَ قَدْ كَفَاهُمْ مِنْ الاسْتِئْذَان الَّذِي أُمِرُوا بِهِ. وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح إِلى ابْن عَبَّاس، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد عَنْ القَعْنَبِيّ عَنْ الدَّرَاوَرْدِيّ عَنْ عَمْرو بْن أَبِي عَمْرو بِهِ.

وَقَال السُّدِّيّ: كَانَ أُنَاس مِنْ الصَّحَابَة رضي الله عنهم يُحِبُّونَ أَنْ يُوَاقِعُوا نِسَاءَهُمْ فِي هَذِهِ السَّاعَات لِيَغْتَسِلُوا، ثُمَّ يَخْرُجُوا إِلى الصَّلاة فَأَمَرَهُمْ الله أَنْ يَأْمُرُوا المَمْلُوكِينَ وَالغِلْمَان أَنْ لا يَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ فِي تِلْكَ السَّاعَات إِلَّا بِإِذْنٍ. وَقَال مُقَاتِل بْن حَيَّان: بَلَغَنَا -وَالله أَعْلَم- أَنَّ رَجُلًا مِنْ الأَنْصَار وَامْرَأَته أَسْمَاء بِنْت مَرْثَد صَنَعَا لِلنَّبِيِّ ﷺ

(١) حسن صحيح : أخرجه أبو داود (٧٥)، والترمذي (٩٥)، والنسائي (١/ ٥٥)، وابن ماجه (٢٦٧)، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: حسن صحيح.

طَعَامًا، فَجَعَلَ النَّاس يَدْخُلُونَ بِغَيْرِ إِذْن. فَقَالَتْ أَسْمَاء: يَا رَسُول الله، مَا أَقْبَح هَذَا! إِنَّهُ لَيَدْخُل عَلَى الْمَرْأَة وَزَوْجهَا وَهُمَا فِي ثَوْب وَاحِد غُلامهمَا بِغَيْرِ إِذْن. فَأَنْزَلَ الله فِي ذَلِكَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾، وَمِمَّا يَدُلّ عَلَى أَنَّهَا مُحْكَمَة لَمْ تُنْسَخ قَوْله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يَعْنِي: إِذَا بَلَغَ الأَطْفَال مِنْكُمْ الْحُلُم الَّذِينَ إِنَّمَا كَانُوا يَسْتَأْذِنُونَ فِي الْعَوْرَات الثَّلاث إِذَا بَلَغُوا الْحُلُم وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا عَلَى كُلّ حَال، يَعْنِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَجَانِبهمْ، وَإِلَى الأَحْوَال الَّتِي يَكُون الرَّجُل عَلَى امْرَأَته، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الأَحْوَال الثَّلاث.

قَالَ الأَوْزَاعِيّ عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير: إِذَا كَانَ الْغُلام رُبَاعِيًّا فَإِنَّهُ يَسْتَأْذِن فِي الْعَوْرَات الثَّلاث عَلَى أَبَوَيْهِ، فَإِذَا بَلَغَ الْحُلُم فَلْيَسْتَأْذِنْ عَلَى كُلّ حَال. وَهَكَذَا قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر. وَقَالَ فِي قَوْله: ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يَعْنِي: كَمَا اسْتَأْذَنَ الْكِبَار مِنْ وَلَد الرَّجُل وَأَقَارِبه. وقوله: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر وَمُقَاتِل بْن حَيَّان وَالضَّحَّاك وَقَتَادَة: هُنَّ اللَّوَاتِي انْقَطَعَ عَنْهُنَّ الْحَيْض وَيَئِسْنَ مِنْ الْوَلَد ﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أَيْ: لَمْ يَبْقَ لَهُنَّ تَشَوُّف إِلَى التَّزَوُّج ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أَيْ: لَيْسَ عَلَيْهِنَّ مِنْ الْحَجْر فِي التَّسَتُّر كَمَا عَلَى غَيْرهنَّ مِنْ النِّسَاء.

قَالَ أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مُحَمَّد الْمَرْوَزِيّ، حَدَّثَنِي عَلِيّ بْن الْحُسَيْن بْن وَاقِد، عَنْ أَبِيهِ عَنْ يَزِيد النَّحْوِيّ، عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ الآيَة، فَنَسَخَ مِنْ ذَلِكَ وَاسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ الآيَة. قَالَ ابْن مَسْعُود فِي قَوْله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ قَالَ: الْجِلْبَاب أَوْ الرِّدَاء. وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس وَابْن عُمَر وَمُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَأَبِي الشَّعْثَاء وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ وَالْحَسَن وَقَتَادَة وَالزُّهْرِيّ وَالأَوْزَاعِيّ وَغَيْرهمْ. وَقَالَ أَبُو صَالِح: تَضَع الْجِلْبَاب وَتَقُوم بَيْن يَدَيْ الرَّجُل فِي الدِّرْع وَالْخِمَار.

وَقَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر وَغَيْره: فِي قِرَاءَة عَبْد الله بْن مَسْعُود (أَنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيَابهنَّ) وَهُوَ الْجِلْبَاب مِنْ فَوْق الْخِمَار، فَلا بَأْس أَنْ يَضَعْنَ عِنْد غَرِيب أَوْ غَيْره بَعْد أَنْ يَكُون عَلَيْهَا خِمَار صَفِيق. وَقَالَ سَعِيد بْن جُبَيْر فِي الآيَة: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ يَقُول: لا يَتَبَرَّجْنَ بِوَضْعِ الْجِلْبَاب لِيُرَى مَا عَلَيْهِنَّ مِنْ الزِّينَة. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا ابْن الْمُبَارَك، حَدَّثَنِي سَوَّار بْن مَيْمُون، حَدَّثَنَا طَلْحَة بْن عَاصِم، عَنْ أُمّ [الضياء][1] أَنَّهَا قَالَتْ: دَخَلت عَلَى عَائِشَة رضي الله عنها فَقُلت: يَا أُمّ الْمُؤْمِنِينَ، مَا تَقُولِينَ فِي الْخِضَاب وَالنِّفَاض وَالصِّبَاغ وَالْقُرْطَيْنِ وَالْخَلْخَال وَخَاتَم الذَّهَب وَثِيَاب الرِّقَاق؟ فَقَالَتْ: يَا مَعْشَر النِّسَاء، قِصَّتكُنَّ كُلّهَا وَاحِدَة، أَحَلَّ الله لَكُنَّ الزِّينَة غَيْر مُتَبَرِّجَات، أَيْ: لا يَحِلّ لَكُنَّ أَنْ يَرَوْا مِنْكُنَّ مُحَرَّمًا.

وَقَالَ السُّدِّيّ: كَانَ شَرِيك لِي يُقَال لَهُ: مُسْلِم، وَكَانَ مَوْلًى لامْرَأَةِ حُذَيْفَة بْن الْيَمَان، فَجَاءَ يَوْمًا إِلَى السُّوق وَأَثَر الْحِنَّاء فِي يَده، فَسَأَلته عَنْ ذَلِكَ؟ فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ خَضَّبَ رَأْس مَوْلاته وَهِيَ امْرَأَة حُذَيْفَة! فَأَنْكَرْت ذَلِكَ. فَقَالَ: إِنْ شِئْت أَدْخَلتُك عَلَيْهَا. فَقُلت: نَعَمْ. فَأَدْخَلنِي عَلَيْهَا فَإِذَا هِيَ امْرَأَة جَلِيلَة. فَقُلت لَهَا: إِنَّ مُسْلِمًا حَدَّثَنِي أَنَّهُ خَضَّبَ رَأْسك. فَقَالَتْ: نَعَمْ يَا بُنَيّ، إِنِّي مِنْ الْقَوَاعِد اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا، وَقَدْ قَالَ الله تَعَالَى فِي ذَلِكَ مَا سَمِعْت.

وَقَوْله: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أَيْ: وَتَرْك وَضْعهنَّ لِثِيَابِهِنَّ -وَإِنْ كَانَ جَائِزًا- خَيْر وَأَفْضَل لَهُنَّ، وَالله سَمِيع عَلِيم.

---

(١) في (ز): [المصاعن].

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ -رَحِمَهُمْ اللهُ- فِي الْمَعْنَى الَّذِي رُفِعَ لأَجْلِهِ الْحَرَج عَنْ الأَعْمَى، وَالأَعْرَج، وَالْمَرِيض هَهُنَا، فَقَال عَطَاء الْخُرَاسَانِيّ وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم: يُقَال إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْجِهَاد. وَجَعَلُوا هَذِهِ الآيَة هَهُنَا كالآيَة التي فِي سُورَة الفَتْح، وَتِلْكَ فِي الْجِهَاد لا مَحَالَة، أَيْ: أَنَّهُمْ لا إِثْم عَلَيْهِمْ فِي تَرْك الْجِهَاد، لِضَعْفِهِمْ وَعَجْزهمْ، وَكَمَا قَال تَعَالَى فِي سُورَة بَرَاءَة: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾.

وَقِيل: الْمُرَاد هَهُنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنْ الأَكْل مَعَ الأَعْمَى، لأَنَّهُ لا يَرَى الطَّعَام وَمَا فِيهِ مِنْ الطَّيِّبَات، فَرُبَّمَا سَبَقَهُ غَيْره إِلى ذَلِكَ، وَلا مَعَ الأَعْرَج؛ لأَنَّهُ لا يَتَمَكَّن مِنْ الْجُلُوس، فيفتات عَلَيْهِ جَلِيسه، وَالْمَرِيض لا يَسْتَوْفِي مِنْ الطَّعَام كَغَيْرِهِ، فَكَرِهُوا أَنْ يُؤَاكِلُوهُمْ لِئَلَّا يَظْلِمُوهُمْ، فَأَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة رُخْصَة فِي ذَلِكَ. هَذَا قَوْل سَعِيد بْن جُبَيْر، وَمِقْسَم.

وَقَال الضَّحَّاك: كَانُوا قَبْل المبعث يَتَحَرَّجُونَ مِنْ الأَكْل مَعَ هَؤُلاءِ تَقَذُّرًا وتَقَزُّزًا وَلِئَلَّا يَتَفَضَّلُوا عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ الآيَة، قَال: كَانَ الرَّجُل يَذْهَب بِالأَعْمَى، أَوْ الأَعْرَج، أَوْ الْمَرِيضِ إِلى بَيْت أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ، أَوْ بَيْت أُخْته، أَوْ بَيْت عَمَّته، أَوْ بَيْت خَالته، فَكَانَ الزَّمْنَى يَتَحَرَّجُونَ مِنْ ذَلِكَ، يَقُولُونَ: إِنَّمَا يَذْهَبُونَ بِنَا إِلى بُيُوت عَشِيرَتهمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة رُخْصَة لَهُمْ. وَقَال السُّدِّيّ: كَانَ الرَّجُل يَدْخُل بَيْت أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ ابْنه؛ فَتُتْحِفهُ الْمَرْأَة بالشيء مِنْ الطَّعَام؛ فَلا يَأْكُل مِنْ أَجْل أَنَّ رَبّ البَيْت لَيْسَ ثَمَّ. فَقَال الله تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ ﴾ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا، وَهُوَ مَعْلُوم، لِيَعْطِف عَلَيْهِ غَيْره فِي اللَّفْظ، وليستأديه مَا بَعْده فِي الْحُكْم، وَتَضَمَّنَ هَذَا بُيُوت الأَبْنَاء، لأَنَّهُ لَمْ يَنُصّ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا اسْتَدَلَّ بِهَذَا مَنْ ذَهَبَ إِلى أَنَّ مَال الوَلد بِمَنْزِلة مَال أَبِيهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْمُسْنَد وَالسُّنَن، مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ».[1]

وَقَوْله: ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾، إِلى قَوْله: ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ ﴾ هَذَا ظَاهِر، وَقَدْ يَسْتَدِلّ بِهِ مَنْ يُوجِب نَفَقَة الأَقَارِب، بَعْضهمْ عَلى بَعْض، كَمَا هُوَ مَذْهَب أَبِي حَنِيفَة وَالإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل فِي الْمَشْهُور عَنْهُمَا.

---

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢٢٩٢)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٨٣٨).

وَأَمَّا قَوْله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ قَال سَعِيد بْن جُبَيْر وَالسُّدِّيّ: هُوَ خَادِم الرَّجُل مِنْ عَبْد وَقَهْرَمَان، فَلا بَأْس أَنْ يَأْكُل مِمَّا اسْتُودِعَهُ مِنْ الطَّعَام بِالْمَعْرُوفِ. وَقَال الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ يرغبون فِي النَّفِير مَعَ رَسُول الله ﷺ، فَيَدْفَعُونَ مَفَاتِحهمْ إِلَى ضُمَنَائِهِمْ، وَيَقُولُونَ: قَدْ أَحْلَلنَا لكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا احْتَجْتُمْ إِلَيْهِ. فَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّهُ لا يَحِلّ لنَا أَنْ نَأْكُل؛ إِنَّهُمْ أَذِنُوا لنَا عَنْ غَيْر طِيب أَنْفُسهمْ، وَإِنَّمَا نَحْنُ أُمَنَاء، فَأَنْزَل الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

وَقَوْله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أَيْ: بُيُوت أَصْدِقَائِكُمْ وَأَصْحَابكُمْ، فَلا جُنَاح عَليْكُمْ فِي الأَكْل مِنْهَا، إِذَا عَلمْتُمْ أَنَّ ذَلكَ لا يَشُقّ عَليْهِمْ وَلا يَكْرَهُونَ ذَلكَ. وَقَال قَتَادَة: إِذَا دَخَلت بَيْت صَدِيقك، فَلا بَأْس أَنْ تَأْكُل بِغَيْرِ إِذْنه.

وَقَوْله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ قَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي هَذِهِ الآيَة: وَذَلكَ لـمَّا أَنْزَل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ قَال الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الله قَدْ نَهَانَا أَنْ نَأْكُل أَمْوَالنَا بَيْننَا بِالبَاطِل، وَالطَّعَام هو أَفْضَل الأَمْوَال، فَلا يَحِلّ لأَحَدٍ مِنَّا أَنْ يَأْكُل عِنْد أَحَد، فَكَفَّ النَّاس عَنْ ذَلكَ. فَأَنْزَل الله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ إِلى قَوْله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾. وَكَانُوا أَيْضًا يَأْنَفُونَ وَيَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَأْكُل الرَّجُل الطَّعَام وَحْده حَتَّى يَكُون مَعَهُ غَيْره، فَرَخَّصَ الله لهُمْ فِي ذَلكَ فَقَال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

وَقَال قَتَادَة: وكَانَ هَذَا الحَيّ مِنْ بَنِي كِنَانَة يَرَى أَحَدهمْ أَنَّ مَخْزَاة عَليْهِ أَنْ يَأْكُل وَحْده فِي الجَاهِليَّة، حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُل ليَسُوق الذَّوْد الحُفَّل وَهُوَ جَائِع، حَتَّى يَجِد مَنْ يُؤَاكِلهُ وَيُشَارِبهُ فَأَنْزَل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾. فَهَذِهِ رُخْصَة مِنْ الله تَعَالى فِي أَنْ يَأْكُل الرَّجُل وَحْده وَمَعَ الجَمَاعَة، وَإِنْ كَانَ الأَكْل مَعَ الجَمَاعَة أَفْضَل وأَبْرك.

كَمَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن عَبْد رَبّه، حَدَّثَنَا الوَليد بْن مُسْلم، عَنْ وَحْشِيّ بْن حَرْب، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه؛ أَنَّ رَجُلًا قَال للنَّبِيّ ﷺ: إِنَّا نَأْكُل وَلا نَشْبَع؛ قَال: **«فلعلّكمْ تأكلون متفرّقِين، اجْتمِعُوا على طعامكمْ، واذْكروا اسْم الله يُبَارك لكمْ فِيهِ»**[1]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث الوَليد بْن مُسْلم بِهِ. وَقَدْ رَوَى ابْن مَاجَهْ أَيْضًا، مِنْ حَدِيث عَمْرو بْن دِينَار القَهْرَمَانِيّ، عَنْ سَالم، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُمَر عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: **«كُلُوا جَمِيعًا وَلا تَفرّقُوا، فَإِنَّ البَرَكَة مَعَ الجمَاعَة»**.[2]

وَقَوْله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾. قَال سَعِيد بْن جُبَيْر وَالحَسَن البَصْرِيّ وَقَتَادَة وَالزُّهْرِيّ: يَعْنِي فَليُسَلِّم بَعْضكُمْ عَلى بَعْض. وَقَال ابْن جُرَيْج: حدثنا أَبُو الزُّبَيْر: سَمِعْت جَابِر بْن عَبْد الله يَقُول: إِذَا دَخَلت عَلى أَهْلك فَسَلِّمْ عَليْهِمْ تَحِيَّة مِنْ عِنْد الله مُبَارَكَة طَيِّبَة. قَال: مَا رَأَيْته إِلَّا يُوجِبهُ. قَال ابْن جُرَيْج: وَأَخْبَرَنِي زِيَاد، عَنْ ابْن طَاوُس أَنَّهُ كَانَ يَقُول: إِذَا دَخَل أَحَدكُمْ بَيْته فَليُسَلِّمْ. قَال ابْن جُرَيْج: قُلت لعَطَاءٍ: أَوَاجِب إِذَا خَرَجْت ثُمَّ دَخَلت أَنْ أُسَلِّم عَليْهِمْ؟ قَال: لا، وَلا أُوثِر وُجُوبه عَنْ أَحَد، وَلكِنْ هُوَ أَحَبّ إِليَّ، وَمَا أَدَعهُ إِلَّا نَاسِيًا.

وَقَال مُجَاهِد: إِذَا دَخَلت المَسْجِد فَقُل: السَّلام عَلى رَسُول الله، وَإِذَا دَخَلت عَلى أَهْلك فَسَلِّمْ عَليْهِمْ، وَإِذَا دَخَلت بَيْتًا ليْسَ فِيهِ أَحَد فَقُل: السَّلام عَليْنَا وَعَلى عِبَاد الله الصَّالحِينَ. وَرَوَى الثَّوْرِيّ، عَنْ عَبْد الكَرِيم الجَزَرِيّ، عَنْ مُجَاهِد: إِذَا دَخَلت بَيْتًا ليْسَ فِيهِ أَحَد فَقُل: بِسْمِ الله، وَالحَمْد لله، السَّلام عَليْنَا مِنْ رَبّنَا، السَّلام عَليْنَا وَعَلى

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجه (٣٢٨٦)، وحسنه الألباني رحمه الله.
(٢) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن ماجه (٣٢٨٧) بسند ضعيف.

عِبَاد الله الصَّالِحِينَ. وَقَال قَتَادَة : إِذَا دَخَلت عَلى أَهْلك، فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، وَإِذَا دَخَلت بَيْتًا لَيْسَ فِيهِ أَحَد، فَقُل: السَّلام عَلَيْنَا وَعَلى عِبَاد الله الصَّالِحِينَ، فَإِنَّهُ كَانَ يُؤْمَر بِذَلكَ، وَحُدِّثْنَا أَنَّ المَلَائِكَة تَرُدّ عَلَيْهِ.

وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، حَدَّثنَا عَوْبَد بْن أَبِي عِمْرَان الجَوْنِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَنَس قَال : أَوْصَانِي النَّبِيّ ﷺ بِخَمْسِ خِصَال قَال: «يَا أَنَس، أَسْبِغ الوُضُوء يُزَدْ فِي عُمُرك، وَسَلِّمْ عَلى مَنْ لَقِيَك مِنْ أُمَّتِي تَكْثُر حَسَنَاتك، وَإِذَا دَخَلت -يَعْنِي: بَيْتك- فَسَلِّمْ عَلى أَهْلك يَكْثُر خَيْر بَيْتك، وَصَلِّ صَلَاة الضُّحَى فَإِنَّهَا صَلَاة الأَوَّابِينَ قَبْلك، يَا أَنَس، ارْحَمْ الصَّغِير، وَوَقِّرْ الكَبِير، تَكُنْ مِنْ رُفَقَائِي يَوْم القِيَامَة».[1]

وَقَوْله: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي دَاوُد بْن الحُصَيْن، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ كَانَ يَقُول: مَا أَخَذْت التَّشَهُّد إِلَّا مِنْ كِتَاب الله، سَمِعْت الله يَقُول: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾، فَالتَّشَهُّد فِي الصَّلَاة: التَّحِيَّات المُبَارَكَات الصَّلَوَات الطَّيِّبَات لله، أَشْهَد أَنْ لا إِله إِلَّا الله، وَأَشْهَد أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْده وَرَسُوله، السَّلام عَلَيْك أَيُّهَا النَّبِيّ وَرَحْمَة الله وَبَرَكَاته، السَّلام عَلَيْنَا وَعَلى عِبَاد الله الصَّالِحِينَ ثُمَّ يَدْعُو لِنَفْسِهِ وَيُسَلِّم. هَكَذَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث ابْن إِسْحَاق. وَالَّذِي فِي صَحِيح مُسْلم عَنْ ابْن عَبَّاس عَنْ رَسُول الله ﷺ يُخَالِف هَذَا، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، لَمَّا ذَكَرَ تَعَالى مَا فِي هذه السُّورَة الكَرِيمَة مِنْ الأَحْكَام المُحْكَمَة، وَالشَّرَائِع المُتْقَنَة المُبْرَمَة، نَبَّهَ تَعَالى عِبَاده عَلى أَنَّهُ يُبَيِّن لِعِبَادِهِ الآيَات بَيَانًا شَافِيًا، لِيَتَدَبَّرُوهَا وَيَتَعَقَّلُوهَا؛ لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَهَذَا أَيْضًا أَدَب أَرْشَدَ الله عِبَاده المُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ، فَكَمَا أَمَرَهُمْ بِالاسْتِئْذَانِ عِنْد الدُّخُول، كَذَلكَ أَمَرَهُمْ بِالاسْتِئْذَانِ عِنْد الانْصِرَاف، لاسِيَّمَا إِذَا كَانُوا فِي أَمْر جَامِع مَعَ الرَّسُول -صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ- مِنْ صَلَاة جُمُعَة أَوْ عِيد أو جَمَاعَة، أَوْ اجْتِمَاع لِمَشورة وَنَحْو ذَلكَ، أَمَرَهُمْ الله تَعَالى أَنْ لا ينصرفوا عَنْهُ وَالحَالة هَذِهِ إِلَّا بَعْد اسْتِئْذَانه وَمُشَاوَرَته، وَأَنَّ مَنْ يَفْعَل ذَلكَ فهو مِنْ المُؤْمِنِينَ الكَامِلِينَ. ثُمَّ أَمَرَ رَسُوله -صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ- إِذَا اسْتَأْذَنَهُ أَحَد مِنْهُمْ فِي ذَلكَ أَنْ يَأْذَن لهُ إِنْ شَاءَ، وَلهَذَا قَال: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وَقَدْ قَال أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن حَنْبَل وَمُسَدَّد قَالا: حَدَّثَنَا بِشْر -هُوَ ابْن المُفَضَّل- عَنْ ابْن عَجْلان، عَنْ سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِذَا انْتَهَى أَحَدكُمْ إِلى المَجْلس فَلْيُسَلِّمْ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُوم فَلْيُسَلِّمْ، فَلَيْسَتْ الأُولى بِأَحَقّ مِنْ الآخِرَة**»[2]. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بْن عَجْلان بِهِ، وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَدِيث حَسَن.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

---

(١) إسناده ضعيف : فيه عَوْبَد بن أبي عمران الجوني: ضعيف.

(٢) حسن صحيح : أخرجه أبو داود (٥٢٠٨)، والترمذي (٢٧٠٦)، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود»: حسن صحيح.

قَال الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس: كَانُوا يَقُولُونَ: «يَا مُحَمَّد»، «يَا أَبَا القَاسِم»، فَنَهَاهُمْ الله ﷻ عَنْ ذَلكَ، إِعْظَامًا لنَبيِّهِ ﷺ قَال: فَقُولُوا: يَا رَسُول الله، يَا نَبِيّ الله. وَهكَذَا قَال مُجَاهِد وَسَعِيد بْن جُبَيْر. وَقَال قَتَادَة: أَمَرَ الله أَنْ يُهَاب نَبيّه ﷺ وَأَنْ يُبجَّل، وَأَنْ يُعظَّم، وَأَنْ [يُسَوَّد][1]. وَقَال مُقَاتِل بن حيان فِي قَوْله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، يَقُول: لا تُسَمُّوهُ إِذَا دَعَوْتُمُوهُ «يَا مُحَمَّد»، وَلا تَقُولُوا: «يَا بْن عَبْد الله»، وَلكِنْ شَرِّفُوهُ فقُولُوا: «يَا نَبِيّ الله»، «يَا رَسُول الله».

وَقَال مَالك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلم فِي قَوْله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ قَال: أَمَرَهُمْ الله أَنْ يُشَرِّفُوهُ. هَذَا قَوْل، وَهُوَ الظَّاهِر مِنْ السِّيَاق، كما قال تَعَالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾.

وَقَوْله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ إِلى قَوْله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ الآيَة، وهَذَا كُلّه مِنْ بَاب الأَدَب فِي مُخَاطَبَة النَّبِيّ ﷺ وَالكَلام مَعَهُ، وَعِنْده كَمَا أُمِرُوا بِتَقْدِيم الصَّدَقَة قَبْل مُنَاجَاته.

وَالقَوْل الثَّانِي فِي ذَلكَ: أَنَّ المَعْنَى فِي: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، أَيْ: لا تَعْتَقِدُوا أَنَّ دُعَاءَهُ عَلى غَيْره كَدُعَاءِ غَيْره، فَإِنَّ دُعَاءَهُ مُسْتَجَاب، فَاحْذَرُوا أَنْ يَدْعُو عَلَيْكُمْ فَتهْلكُوا. حَكَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ ابْن عَبَّاس وَالحَسَن البَصْرِيّ وَعَطِيَّة العَوْفِيّ، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾، قَال مُقَاتِل بْن حَيَّان: هُمْ المُنَافِقُون، كَانَ يَثْقُل عَلَيْهِمْ الحَدِيث فِي يَوْم الجُمُعَة -وَيَعْنِي بِالحَدِيث: الخُطْبَة- فَيَلُوذُونَ بِبَعْضِ أَصْحَاب مُحَمَّد ﷺ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ المَسْجِد، وَكَانَ لا يصلح للرَّجُل أَنْ يَخْرُج مِنْ المَسْجِد إِلَّا بِإِذْنٍ مِنْ النَّبِيّ ﷺ فِي يَوْم الجُمُعَة، بَعْدَ مَا يَأْخُذ فِي الخُطْبَة، وَكَانَ إِذَا أَرَادَ أَحَدهمْ الخُرُوج أَشَارَ بِأُصْبُعِهِ إِلى النَّبِيّ ﷺ فَيأْذَن لهُ مِنْ غَيْر أَنْ يَتكلَّم الرَّجُل؛ لأَنَّ الرَّجُل مِنْهُمْ كَانَ إِذَا تَكلَّمَ وَالنَّبِيّ ﷺ يَخْطُب بَطلَتْ جُمُعَته. وَقَال السُّدِّيّ: كَانُوا إِذَا كَانُوا مَعَهُ فِي جَمَاعَة لاذَ بَعْضهمْ بِبَعْضٍ، حَتَّى يَتَغَيَّبُوا عَنْهُ، فَلا يَرَاهُمْ. وَقَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ يَعْنِي: لوَاذًا عَنْ نَبِيّ الله وَعَنْ كِتَابه. وَقَال سُفْيَان: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾، قَال: مِنْ الصَّفّ. وَقَال مُجَاهِد فِي الآيَة: ﴿لِوَاذًا﴾: خِلافًا.

وَقَوْله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أَيْ: عَنْ أَمْر رَسُول الله ﷺ وَسَبِيله هُوَ وَمِنْهَاجه، وَطَرِيقَته، وَسُنَّته وَشَرِيعَته، فَتُوزَن الأَقْوَال وَالأَعْمَال بِأَقْوَالِهِ وَأَعْمَاله، فَمَا وَافَقَ ذَلكَ قُبِل، وَمَا خَالفَهُ فَهُوَ مَرْدُود عَلى قَائِله وَفَاعِله، كَائِنًا مَنْ كَانَ، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» وَغَيْرهمَا، عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «مَنْ عَمِل عَملاً ليْسَ عَلَيْهِ أَمْرنَا فَهُوَ رَدّ»[2]. أَيْ: فَليَحْذَرْ وَليَخْشَ مَنْ خَالفَ شَرِيعَة الرَّسُول بَاطِنًا أو ظَاهِرًا، ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أَيْ: فِي قُلُوبهمْ، مِنْ كُفْر أَوْ نِفَاق أَوْ بِدْعَة، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أَيْ: فِي الدُّنْيَا بِقَتْلٍ أَوْ حَدّ أَوْ حَبْس، أَوْ نَحْو ذَلكَ. قال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ هَمَّام بْن مُنَبِّه قَال: هَذَا مَا

---

(١) فِي (ز) : [يود].

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

حَدَّثَنَا أبو هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَثَلي وَمَثَلكُمْ كَمَثَل رَجُل اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَل الفَرَاش -وَهي هَذِهِ الدَّوَابّ اللائِي يَقَعْنَ فِي النَّار- يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَل يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ، وَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا، قَال: فَذَلكَ مَثَلي وَمَثَلكُمْ، أَنَا آخُذ بِحُجَزِكُمْ عَنْ النَّار، هَلُمَّ عَنْ النَّار فَتَغْلبُونِي وَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا»[1].

أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّزَّاق.

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾.

يُخبِر تَعَالى أَنَّهُ مَالك السَّمَوَات وَالأَرض، وَأَنَّهُ عَالم غيب السموات والأرض، وَهُوَ عَالم بِمَا العِبَاد عَامِلُونَ فِي سِرّهِمْ وَجَهْرهِمْ، فَقَال: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ «وَقَدْ» للتَّحْقِيق، كَمَا قَال قَبْلهَا: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ وَقَال تَعَالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾. وَقَال: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الآيَة، وَقَال: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ ﴾ فَكُلّ هَذِهِ الآيَات فِيهَا تَحْقِيق الفِعْل بـ «قَدْ»، كما يقول المُؤَذِّن تَحْقِيقًا وَثُبُوتًا: (قَدْ قَامَتْ الصَّلاة، قَدْ قَامَتْ الصَّلاة). فَقَوْله تَعَالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أَيْ: هُوَ عَالم بِهِ، مُشَاهِد لهُ، لا يَعْزُب عَنْهُ مِثْقَال ذَرَّة، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إلى قَوْله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

وَقَوْله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ ﴾ أَيْ: هُوَ شَهِيد عَلى عِبَاده بِمَا هُمْ فَاعِلُونَ مِنْ خَيْر وَشَرّ، وَقَال تَعَالى: ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ ﴾ الآيَة، وَقَال تَعَالى: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾، وَقَال: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ وَالآيَات وَالأَحَادِيث فِي هَذَا كَثِيرَة جِدًّا.

وَقَوْله: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾، أَيْ: وَيَوْم تُرْجَع الخَلائِق إِلى الله -وَهُوَ يَوْم القِيَامَة- ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾، أَيْ: يُخْبِرهُمْ بِمَا فَعَلُوا فِي الدُّنْيَا، مِنْ جَلِيل وَحَقِير، وَصَغِير وَكَبِير، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾، وَقَال: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾، وَلهَذَا قَال هَهُنَا: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾.

وَالحَمْد لله رَبّ العَالمِينَ، وَنَسْأَلهُ التَّمَام

---

(١) صحيح: تقدم.

تفسير سورة الفرقان وهي مكية

ترتيبها ٢٥ — وآياتها ٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

يَقُول تَعَالى حَامِدًا نَفْسَهِ الكَرِيمَة عَلى مَا نَزَّلهُ عَلى رَسُوله الكَرِيم مِنْ القُرْآن العَظِيم، كَمَا قَال تَعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾... الآيَة، وَقَال هَهُنَا: ﴿تَبَارَكَ﴾ وَهُوَ تَفَاعَل، مِنْ البَرَكَة المُسْتَقِرَّة الدَّائِمَة الثَّابِتَة ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ نَزَّل: فِعَّل، مِنْ التَّكَرُّر وَالتَّكَثُّر، كما قال: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾؛ لأَنَّ الكُتُب المُتَقَدِّمَة كَانَتْ تَنْزِل جُمْلة وَاحِدَة، وَالقُرْآن نَزَل مُنَجَّمًا مُفرَّقًا مُفصَّلًا، آيات بَعْد آيات، وَأَحْكَامًا بَعْد أَحْكَام، وَسُوَرًا بَعْد سُوَر، وَهَذَا أَشَدّ وَأَبْلغ، وَأَشَدّ اعْتِنَاء بِمَنْ أُنْزِل عَلَيْهِ، كَمَا قَال فِي أَثْنَاء هَذِهِ السُّورَة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، وَلهَذَا سَمَّاهُ هَهُنَا الفُرْقَان، لأَنَّهُ يَفْرُق بَيْن الحَقّ وَالبَاطِل، وَالهُدَى وَالضَّلال، وَالغَيّ وَالرَّشَاد، وَالحَرَام وَالحَلال.

وَقَوْله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾، هَذِهِ صِفَة مَدْح وَثَنَاء، لأَنَّهُ أَضَافَهُ إِلى عُبُودِيَّته، كَمَا وَصَفَهُ بِهَا فِي أَشْرَف أَحْوَاله، وَهِيَ لَيْلة الإِسْرَاء، فَقَال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾، وَكَمَا وَصَفَهُ بِذَلكَ فِي مَقَام الدَّعْوَة إِليْهِ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، وَكَذَلكَ وَصَفَهُ عِنْد إِنْزَال الكِتَاب عَليْهِ وَنُزُول المَلك إِليْهِ، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

وَقَوْله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، أَيْ: إِنَّمَا خَصَّهُ بِهَذَا الكِتَاب العَظِيم المُبِين المُفَصَّل المُحْكَم، الَّذِي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ الَّذِي جَعَلهُ فُرْقَانًا عَظِيمًا إنما خصه به ليَخُصّهُ بِالرِّسَالةِ إِلى مَنْ يَسْتَظِلّ بِالخَضْرَاءِ، وَيَسْتَقِلّ عَلى الغَبْرَاء، كَمَا قَال ﷺ: **«بُعِثْت إِلى الأَحْمَر وَالأَسْوَد»**[1]. وَقَال: **«أُعْطِيت خَمْسًا لمْ يُعْطَهُنَّ أَحَد مِنْ الأَنْبِيَاء قَبْلي»**. فَذَكَرَ مِنْهُنَّ: أَنَّهُ: **«كَانَ النَّبِيّ يُبْعَث إِلى قَوْمه خَاصَّة وَبُعِثْت إِلى النَّاس عَامَّة»**.[1]

وقَال الله تَعَالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ﴾، أَيْ: الَّذِي أَرْسَلنِي هُوَ مَالك السَّمَوَات وَالأَرْض، الَّذِي يَقُول للشَّيْءِ كُنْ فَيَكُون، وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت، وَهَكَذَا قَال هَهُنَا: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾، فنَزَّهَ نَفْسه عَنْ الوَلد، وَعَنْ الشَّرِيك.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أَيْ: كُلّ شَيْء مِمَّا سِوَاهُ مَخْلُوق مَرْبُوب، وَهُوَ خَالق كُلّ شَيْء وَرَبّه وَمَليكه وَإِلهه، وَكُلّ شَيْء تَحْت قدره، وَتَقْدِيره، وَتَسْخِيره، وَتَدْبِيره.

---

(١) صحيح: تقـدم.

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ جَهْل المُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذهِمْ آلهَة مِنْ دُون الله، الخَالق لكُلِّ شَيْء، المَالك لأَزِمَّةِ الأُمُور، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لمْ يَشَأْ لمْ يَكُنْ، وَمَعَ هَذَا عَبَدُوا مَعَهُ مِنْ الأَصْنَام مَا لا يَقْدِر عَلى خَلق جَنَاح بَعُوضَة، بَل هُمْ مَخْلُوقُونَ، ولا يَمْلكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا، فَكَيْف يَملكُون لعَابِدِيهِمْ؟! ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ أَيْ: ليْسَ إليهم مِنْ ذَلكَ شَيْء، بَل ذَلكَ مَرْجعه كُلّه إِلى الله ﷻ، فهو الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت، وَهُوَ الَّذِي يُعِيد الخَلائِق يَوْم القِيَامَة أَوَّلهمْ وَآخِرهمْ، ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِالْبَصَرِ ﴾، وَقَوْله: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾، ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾، فَهُوَ الله الَّذِي لا إِله غَيْره، وَلا رَبّ سِوَاهُ، وَلا تَنْبَغِي العِبَادَة إِلَّا لهُ، لأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لمْ يَشَأْ لمْ يَكُنْ. وَهُوَ الَّذِي لا وَلد لهُ وَلا وَالد وَلا عَدِيل وَلا نديد وَلا وَزِير وَلا نَظِير، بَل هُوَ الأَحَد الصَّمَد، الَّذِي لمْ يَلد وَلمْ يُولد، وَلمْ يَكُنْ لهُ كُفُوًا أَحَد.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ افْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخبِرًا عَنْ سَخَافَة عُقُول الجَهَلة مِنْ الكُفَّار، فِي قَوْلهمْ عَنْ القُرْآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾، أَيْ: كَذِب ﴿افْتَرَىٰهُ﴾، يَعْنُونَ: النَّبِيّ ﷺ ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾، أَيْ: وَاسْتَعَانَ عَلى جَمْعه بِقَوْم آخَرِينَ؛ فَقَال الله تَعَالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾، أَيْ: فَقَدْ افْتَرَوْا هُمْ قَوْلًا بَاطِلًا، وَهُمْ يَعْلمُونَ أَنَّهُ بَاطِل، وَيَعْرِفُونَ كَذِب أَنْفُسهمْ فِيمَا يزعمون، ﴿ وَقَالُوٓا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ يَعْنُونَ كُتُب الأَوَائِل، أَيْ: اسْتَنْسَخَهَا، ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾، أَيْ: تُقْرَأ عَليْهِ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أَيْ: فِي أَوَّل النَّهَار وَآخِره وَهَذَا الكَلام لسَخَافَتِهِ وَكَذِبه وَبُهْته كُلّ أَحَد يَعْلم مِنْهُمْ بُطْلانه، فَإِنَّهُ قَدْ عُلمَ بِالتَّوَاتُرِ وَبِالضَّرُورَةِ: أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله ﷺ لمْ يَكُنْ يُعَانِي شَيْئًا مِنْ الكِتَابَة، لا فِي أَوَّل عُمْره وَلا فِي آخِره، وَقَدْ نَشَأَ بَيْن أَظْهُرهمْ مِنْ أَوَّل مَوْلده إِلى أَنْ بَعَثَهُ الله نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَة، وَهُمْ يَعْرِفُونَ مَدْخَله وَمَخْرَجه، وَصِدْقه، وَبِرّه وَأَمَانَته وَنَزَاهَته من الكَذِب وَالفُجُور، وَسَائِر الأَخْلاق الرَّذِيلة، حَتَّى إِنَّهُمْ لم يكونوا يُسَمُّونَهُ فِي صِغَره إِلى أَنْ بُعِثَ إلا الأَمِين؛ لَمَا يَعْلمُونَ مِنْ صِدْقه وَبِرّه، فَلَمَّا أَكْرَمَهُ الله بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ، نَصَبُوا لهُ العَدَاوَة، وَرَمَوْهُ بِهَذِهِ الأَقْوَال الَّتِي يَعْلم كُلّ عَاقِل بَرَاءَته مِنْهَا، وَحَارُوا ماذا يَقْذِفُونَهُ بِهِ، فَتَارَة مِنْ إِفْكهمْ يَقُولُونَ: سَاحِر، وَتَارَة يَقُولُونَ: شَاعِر، وَتَارَة يَقُولُونَ: مَجْنُون، وَتَارَة يَقُولُونَ: كَذَّاب، قَال الله تَعَالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ وَقَال تَعَالى فِي جَوَاب مَا عَانَدُوا هَهُنَا وَافْتَرَوْا: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ﴾ الآيَة، أَيْ: أَنْزَل القُرْآن المُشْتَمِل عَلى أَخْبَار الأَوَّلينَ وَالآخِرِينَ إِخْبَارًا حَقًّا صِدْقًا، مُطَابِقًا للوَاقِعِ فِي الخَارِج، مَاضِيًا وَمُسْتَقْبَلًا، ﴿أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أَيْ: الله الَّذِي يَعْلم غَيْب السَّمَوَات وَالأَرْض وَيَعْلم السَّرَائِر كَعِلمِهِ بِالظَّوَاهِر.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، دُعَاء لهُمْ إِلى التَّوْبَة وَالإِنَابَة، وَإِخْبَار لهُمْ بِأَنَّ رَحْمَته وَاسِعَة، وَأَنَّ حِلمه عَظِيم، وأَنَّ مَنْ تَابَ إِليْهِ تَابَ عَليْهِ، فَهَؤُلاءِ مَعَ كَذِبهمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَفُجُورهمْ، وبهتهم وَكُفْرهمْ وَعِنَادهمْ،

وَقَولهمْ عَنْ الرَّسُول وَالقُرْآن مَا قَالُوا يَدْعُوهُمْ إِلى التَّوْبَة وَالإقْلاع عَمَّا هُمْ فِيهِ إِلى الإِسْلام وَالهُدَى؛ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾. قَال الحَسَن البَصْرِيّ: انظُرُوا إِلى هَذَا الكَرَم وَالجُود، قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلى التَّوْبَة وَالرَّحْمَة!

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ تَعَنُّت الكُفَّار وَعِنَادهمْ، وَتَكْذِيبهمْ للحَقِّ بِلا حُجَّة وَلا دَليل مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا تَعَلَّلُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾، يَعْنُونَ: كَمَا نَأْكُلهُ، وَيَحْتَاج إِلَيْهِ كَمَا نَحْتَاج إِليه، ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، أَيْ: يَتَرَدَّد فِيهَا وَإِليْهَا؛ طَلَبًا للاكتساب وَالتِّجَارَة، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾، يَقُولُونَ: هَلَّا أُنْزِل إِلَيْهِ مَلَك مِنْ عِنْد الله، فَيَكُون له شَاهِدًا عَلى صِدْق مَا يَدَّعِيه! وَهَذَا كَمَا قَال فِرْعَوْن: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾. وَكَذَلكَ قَال هَؤُلاءِ عَلى السَّوَاء، تَشَابَهَتْ قُلُوبهمْ، وَلهَذَا قَالُوا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾، أَيْ: عِلم كَنْز يُنْفِق مِنْهُ، ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾، أَيْ: تَسِير مَعَهُ حَيْثُ سَارَ. وَهَذَا كُلّه سَهْل يَسِير عَلى الله، وَلكِنْ لهُ الحِكْمَة فِي تَرْك ذَلكَ وَلهُ الحُجَّة البَالغَة، ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾. قَال الله تَعَالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ﴾ أَيْ: جَاءُوا بِمَا يَقْذِفُونَك وَيَكْذِبُونَ بِهِ عَليْك، مِنْ قَوْلهمْ «سَاحِر، مَسْحُور، مجْنُون، كَذَّاب، شَاعِر»، وَكُلّهَا أَقْوَال بَاطِلة، كُلّ أَحَد مِمَّنْ لهُ أَدْنَى فَهْم وَعَقْل يَعْرِف كَذِبهمْ وَافْتِرَاءَهُمْ فِي ذَلكَ، وَلهَذَا قَال: ﴿فَضَلُّواْ﴾ أي: عَنْ طَرِيق الهُدَى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، وَذَلكَ أَنَّ كُلّ مَنْ خَرَجَ عَنْ الحَقّ، وَطَرِيق الهُدَى فَإِنَّهُ ضَالّ حَيْثُمَا تَوَجَّه، لأَنَّ الحَقّ وَاحِد وَمَنْهَجه مُتَّحِد يُصَدِّق بَعْضه بَعْضًا.

ثُمَّ قَال تَعَالى مُخْبِرًا نَبِيّه، أَنَّهُ لو شَاءَ لأَتَاهُ خَيْرًا مِمَّا يَقُولُونَ فِي الدُّنْيَا، وَأَفْضَل وَأَحْسَن؛ فَقَال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾. قَال مُجَاهِد: يَعْنِي فِي الدُّنْيَا، قَال: وَقُرَيْش يُسَمُّونَ كُلّ بَيْت مِنْ حِجَارَة قَصْرًا، كَانَ كَبِيرًا أَوْ صَغِيرًا. وقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ حَبِيب بْن أَبِي ثَابِت، عَنْ خَيْثَمَة، قِيل للنَّبِيِّ ﷺ: إِنْ شِئْت أَنْ نُعْطِيك خَزَائِن الأَرْض وَمَفَاتِيحهَا مَا لمْ يعطَ نَبِيًّا قَبْلك، وَلا يُعطى أَحَد مِنْ بَعْدك، وَلا يَنْقُص ذَلكَ مِمَّا لك عِنْد الله؟ فَقَال: اجْمَعُوهَا لي فِي الآخِرَة. فَأَنْزَل الله عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلكَ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.(١)

وَقَوْله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾، أَيْ: إِنَّمَا يَقُول هَؤُلاءِ هَكَذَا تَكْذِيبًا وَعِنَادًا، لا أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ ذَلكَ تَبَصُّرًا

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبري (١٨/ ١٨٦) بسند ضعيف.

وَاسْتِرْشَادًا، بَل تَكْذِيبهمْ بِيَوْمِ القِيَامَة يَحْمِلهُمْ عَلى قَوْل مَا يَقُولُونَهُ مِنْ هَذِهِ الأَقْوَال. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، أَيْ: أَرْصَدْنَا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾، أَيْ: عَذَابًا أَلِيمًا حَارًّا لا يُطَاق فِي نَار جَهَنَّم. وقَال الثَّوْرِيّ، عَنْ سَلمَة بْن كُهَيْل، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر: السَّعِير: وَادٍ مِنْ قَيْح جَهَنَّم.

وَقَوْله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾، أَيْ: جَهَنَّم ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، يَعْنِي: فِي مَقَام المَحْشَر. قَال السُّدِّيّ: مِنْ مَسِيرَة مِائَة عَام ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾، أَيْ: حَنَقًا عَليْهِمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، أَيْ: يَكَاد يَنْفَصِل بَعْضهَا مِنْ بَعْض مِنْ شِدَّة غَيْظهَا عَلى مَنْ كَفَرَ بالله.

قال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا إِدْرِيس بْن حَاتِم بْن الأَخْنَف الوَاسِطِيّ -أَنَّهُ سَمِعَ مُحَمَّد بْن الحَسَن الوَاسِطِيّ، عَنْ أَصْبَغ بْن زَيْد، عَنْ خَالد بْن كَثِير، عَنْ خَالد بْن دُرَيْك، عَنْ رَجُل مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**مَنْ يَقُل عَليَّ مَا لمْ أَقُل، أَوْ ادَّعَى إِلى غَيْر وَالدَيْهِ، أَوْ انْتَمَى إِلى غَيْر مَوَاليه فَليَتَبَوَّأْ بَيْن عَيْنَيْ جَهَنَّم مَقْعَدًا**». قِيل: يَا رَسُول الله، وَهَل لهَا مِنْ عَيْنَيْنِ؟ قَال: «أَمَا سَمِعْتُمْ الله يَقُول: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ الآيَة»[1]. رَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْ مُحَمَّد بْن خِدَاش، عَنْ مُحَمَّد بْن يَزِيد الوَاسِطِيّ بِهِ. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَليّ بْن مُحَمَّد الطَّنَافِسِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن عَيَّاش، عَنْ عِيسَى بْن سُليْم، عَنْ أَبِي وَائِل قَال: خَرَجْنَا مَعَ عَبْد الله -يَعْنِي: ابْن مَسْعُود- وَمَعَنَا الرَّبِيع بْن خثيم فَمَرُّوا عَلى حَدَّاد، فَقَامَ عَبْد الله يَنْظُر إِلى حَدِيدَة فِي النَّار، وَنَظَرَ الرَّبِيع بْن خثيم إِليْهَا، فَتَمَايَل الرَّبِيع ليَسْقُط، فَمَرَّ عَبْد الله عَلى أَتُون عَلى شَاطِئِ الفُرَات، فَلمَّا رَآهُ عَبْد الله وَالنَّار تَلتَهِب فِي جَوْفه؛ قَرَأَ هَذِهِ الآيَة: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾، فَصَعِقَ -يَعْنِي: الرَّبِيع بن خثيم- فحَمَلُوهُ إِلى أهله، ورَابَطَهُ عَبْد الله إِلى الظُّهْر فَلمْ يُفِقْ رضي الله عنه.

وَحَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن رَجَاء، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي يَحْيَى، عَنْ مُجَاهِد عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَال: إِنَّ العَبْد ليُجَرّ إِلى النَّار فَتَشْهَق إِليْهِ شَهْقَة البَغْلة إِلى الشَّعِير، ثُمَّ تَزْفِر زَفْرَة لا يَبْقَى أَحَد إِلَّا خَاف، هَكَذَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مُخْتَصَرًا، وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَام أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم الدَّوْرَقِيّ، حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن مُوسَى، أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي يَحْيَى، عَنْ مُجَاهِد، عن ابْن عَبَّاس، قَال: إِنَّ الرَّجُل ليُجَرّ إِلى النَّار، فَتَنْزَوِي وَتَنْقَبِض بَعْضهَا إِلى بَعْض، فَيَقُول لهَا الرَّحْمَن: مَا لك؟ قَالتْ: إِنَّهُ يَسْتَجِير مِنِّي. فَيَقُول: أَرْسِلُوا عَبْدِي. وَإِنَّ الرَّجُل ليُجَرّ إِلى النَّار، فَيَقُول: يَا رَبّ، مَا كَانَ هَذَا الظَّنّ بِك، فَيَقُول: فَمَا كَانَ ظَنّك؟ فَيَقُول: أَنْ تَسَعنِي رَحْمَتك. فَيَقُول: أَرْسِلُوا عَبْدِي. وَإِنَّ الرَّجُل ليُجَرّ إِلى النَّار، فَتَشْهَق إِليْهِ النَّار شهوق البَغْلة إِلى الشَّعِير، وَتَزْفِر زَفْرَة لا يَبْقَى أَحَد إِلَّا خَافَ. وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنا مَعْمَر، عَنْ مَنْصُور، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ عُبَيْد ابْن عُمَيْر فِي قَوْله: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾، قَال: إِنَّ جَهَنَّم تَزْفِر زَفْرَة، لا يَبْقَى مَلك وَلا نَبِيّ إِلَّا خَرَّ تَرْعِد فَرَائِصه، حَتَّى إِنَّ إِبْرَاهِيم عليه السلام ليَجْثُو عَلى رُكْبَتَيْهِ، وَيَقُول: رَبّ لا أَسْأَلك اليَوْم إِلَّا نَفْسِي.

وَقَوْله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾، قَال قَتَادَة، عَنْ أَبِي أَيُّوب، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو قَال: مِثْل الزَّجّ فِي الرُّمْح، أَيْ: مِنْ ضِيقه.

وَقَال عَبْد الله بْن وَهْب: أَخْبَرَنِي نَافِع بْن يَزِيد، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي أُسَيْد يَرْفَع الحَدِيث إِلى رَسُول الله ﷺ أنه

---

(١) إسناده ضعيف : أخرجه الطبري (١٨/ ١٨٧) بسند ضعيف.

سئل عَنْ قَوْل الله: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ﴾، قَال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُمْ لَيُسْتَكْرَهُونَ فِي النَّار، كَمَا يُسْتَكْرَه الوَتَد فِي الحَائِط».[1]

وَقَوْله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، قَال أَبُو صَالح: يَعْنِي: مُكَتَّفِينَ، ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾، أَيْ: بِالوَيْل وَالحَسْرَة وَالخَيْبَة ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾؛ قال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَلِيّ ابْن يَزِيد، عَنْ أَنَس بْن مَالك أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «أَوَّل مَنْ يُكْسَى حُلَّة مِنْ النَّار إِبْلِيس، فَيَضَعهَا عَلى حَاجِبَيْهِ وَيَسْحَبهَا مِنْ خَلفه، وَذُرِّيَّته مِنْ بَعْده، وَهُوَ يُنَادِي: يَا ثُبُورَاه. وَيُنَادُونَ: يَا ثُبُورهمْ! حَتَّى يَقِفُوا عَلى النَّار، فَيَقُول: يَا ثُبُورَاه! وَيَقُولُونَ: يَا ثُبُورهمْ! فَيُقَال لَهُمْ: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾»[2]. لَمْ يُخَرِّجهُ أَحَد مِنْ أَصْحَاب الكُتُب السِّتَّة، وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ أَحْمَد بْن سِنَان، عَنْ عَفَّان بِهِ. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير، مِنْ حَدِيث حَمَّاد بْن سَلَمَة، بِهِ. وَقَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾، أَيْ: لا تَدْعُوا اليَوْم وَيْلًا وَاحِدًا، وَادْعُوا وَيْلًا كَثِيرًا. وَقَال الضَّحَّاك: الثُّبُور: الهَلاك. وَالأَظْهَر أَنَّ الثُّبُور يَجْمَع الهَلاك وَالوَيْل وَالخَسَار وَالدَّمَار، كَمَا قَال مُوسَى لِفِرْعَوْن: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ أَيْ: هَالكًا، وقَال عُبَيْد الله بْن الزِّبَعْرَى:

إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَان فِي سُنَن الغَـ ❁ ـيِّ وَمَنْ مَال مَيْله مَثْبُور

﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾.

يَقُول تَعَالى: يَا مُحَمَّد، هَذَا الَّذِي وَصَفْنَاهُ لك مِنْ حَال هؤلاء الأَشْقِيَاء، الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوههمْ إِلى جَهَنَّم، فَتَتلقَّاهُمْ بِوَجْهٍ عَبُوس، وَبِغَيُّظ وَزَفِير، وَيُلقَوْنَ فِي أَمَاكِنهَا الضَّيقة مُقَرَّنِينَ، لا يَسْتَطِيعُونَ حِرَاكًا، وَلا انتصَارًا، وَلا فِكَاكًا مِمَّا هُمْ فِيهِ؛ أَهَذَا خَيْر أَمْ جَنَّة الخُلد الَّتِي وَعَدَهَا الله للمُتَّقِينَ مِنْ عِبَاده، الَّتِي أَعَدَّهَا لَهُمْ، وَجَعَلهَا لَهُمْ جَزَاء وَمَصِيرًا عَلى مَا أَطَاعُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَجَعَل مَآلَهمْ إِليْهَا. ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ مِنَ المَلاذّ: مِنْ مَآكِل وَمَشَارِب، وَمَلابِس وَمَسَاكِن، وَمَرَاكِب وَمَنَاظِر، وَغَيْر ذَلكَ، مِمَّا لا عَيْن رَأَتْ، وَلا أُذُن سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلى قَلب أَحَد. وَهُمْ فِي ذَلكَ خَالدُونَ دَائِمًا أَبَدًا سَرْمَدًا بِلا انْقِطَاع وَلا زَوَال وَلا انْقِضَاء، وَلا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا. وَهَذَا مِنْ وَعْد الله الَّذِي تَفَضَّل بِهِ عَليْهِمْ، وَأَحْسَنَ بِهِ إِليْهِمْ؛ وَلهَذَا قَال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ أَيْ: لابُدّ أَنْ يَقَع وَأَنْ يَكُون، كَمَا حَكَاهُ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير عَنْ بَعْض عُلمَاء العَرَبِيَّة أَنَّ مَعْنَى قَوْله: ﴿وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ أَيْ: وَعْدًا وَاجِبًا.

قَال ابْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾، يَقُول: سلوا الَّذِي واعدتكم -أو قال: واعدناكم- نُنْجِز. وَقَال مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ فِي قَوْله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾: إِنَّ المَلائِكَة تَسْأَل لَهُمْ ذَلكَ، ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾. وَقَال أَبُو حَازِم: إِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة؛ قَال المُؤْمِنُونَ: رَبَّنَا عَمِلنَا لك بِالَّذِي أَمَرْتنَا، فَأَنْجِزْ لنَا مَا وَعَدْتنَا. فَذَلكَ قَوْله: ﴿وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ وَهَذَا المَقَام فِي هَذِهِ السُّورَة مِنْ ذِكْر النَّار، ثُمَّ التَّنْبِيه عَلى حَال أَهْل الجَنَّة، كَمَا ذَكَرَ تَعَالى فِي «سُورَة الصَّافَّات» حَال أَهْل الجَنَّة، وَمَا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٣٩٦٥).

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ١٥٢)، والطبري (١٨/ ١٨٨) بسند ضعيف.

فِيهَا مِنَ النَّضْرَة وَالحُبُور ثُمَّ قَال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَمَّا يَقَع يَوْم القِيَامَة مِنْ تَقْرِيع الكُفَّار فِي عِبَادَتهمْ مَنْ عَبَدُوا مِنْ دُون الله، مِنَ المَلائِكَة وَغَيْرهِمْ، فَقَال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قَال مُجَاهِد: عِيسَى، وَالعُزَيْر، وَالمَلائِكَة. ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾، أَيْ: فَيَقُول الرب تَبَارَكَ وَتَعَالى: أَأَنْتُمْ دَعَوْتُمْ هؤُلاءِ إِلى عِبَادَتكُمْ مِنْ دُونِي، أَمْ هُمْ عَبَدُوكُمْ مِنْ تِلقَاء أَنْفُسهمْ، مِنْ غَيْر دَعْوَة مِنْكُمْ لَهُمْ؟ كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ ...﴾ إِلى آخر الآيَة، وَلِهَذَا قَال تَعَالى مُخْبِرًا عَمَّا يُجِيب بِهِ المَعْبُودُونَ يَوْم القِيَامَة: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، قَرَأَ الأَكْثَرُونَ بِفَتْحِ «النُّون» مِنْ قَوْله: ﴿نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، أَيْ: لَيْسَ لِلخَلائِقِ كُلّهمْ أَنْ يَعْبُدُوا أَحَدًا سِوَاك، لا نَحْنُ وَلا هُمْ، فَنَحْنُ مَا دَعَوْنَاهُمْ إِلى ذَلكَ، بَل هُمْ قَالُوا ذَلكَ مِنْ تِلقَاء أَنْفُسهمْ مِنْ غَيْر أَمْرنَا وَلا رِضَانَا، وَنَحْنُ بُرَآء مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتهمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نُّتَّخَذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، أَيْ: مَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَعْبُدنَا، فَإِنَّا عَبِيد لك، فُقَرَاء إِليْك. وَهِيَ قَرِيبَة المَعْنَى مِنَ الأُولى.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾، أَيْ: طَال عَليْهِمْ العُمُر، حَتَّى نَسُوا الذِّكْر، أَيْ: نَسُوا مَا أَنْزَلته إِليْهِمْ عَلى أَلسِنَة رُسُلك، مِنَ الدَّعْوَة إِلى عِبَادَتك وَحْدك لا شَرِيك لك.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾، قَال ابْن عَبَّاس: أَيْ: هَلكَى. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ -وَمَالك عَنْ الزُّهْرِيّ-: أَيْ: لا خَيْر فِيهِمْ. وَقَال ابْن الزِّبَعْرَى حِين أَسْلمَ:

يَا رَسُولَ المَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي ❁ رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُور

إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الغَـ ❁ ـيِّ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُور

قَال الله تَعَالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾، أَيْ: فَقَدْ كَذَّبَكُمْ الَّذِينَ عَبَدْتُمْ فِيمَا زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ لكُمْ أَوْلِيَاء، وأنكم اتخذتموهم قربانًا يُقَرِّبُونَكُمْ إليه زُلفَى، كما قال تَعَالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

وَقَوْله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ﴾، أَيْ: لا يَقْدِرُونَ عَلى صَرْف العَذَاب عَنْهُمْ، وَلا الانْتِصَار لأَنْفُسِهِمْ، ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾، أَيْ: يُشْرِك بالله ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ جَمِيع مَنْ بَعَثَهُ مِنَ الرُّسُل المُتَقَدِّمِينَ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ الطَّعَام، وَيَحْتَاجُونَ إِلى التَّغَذِّي بِهِ ﴿وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾، أي: للتَّكَسُّبِ وَالتِّجَارَة، وَلَيْسَ ذَلكَ بِمُنَافٍ لحَالِهِمْ وَمَنْصِبهمْ؛ فَإِنَّ الله جَعَل لَهُمْ مِنْ السِّمَات الحَسَنَة، وَالصِّفَات الجَمِيلة، وَالأَقْوَال الفَاضِلة، وَالأَعْمَال الكَامِلة، وَالخَوَارِق البَاهِرَة، وَالأَدِلَّة الظَّاهِرَة، مَا يَسْتَدِلّ بِهِ كُلّ ذِي لُبّ سَليم وَبَصِيرَة مُسْتَقِيمَة عَلى صِدْق مَا جَاءُوا بِهِ مِنْ الله ﷻ، وَنَظِير هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة قَوْله تَعَالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾. وَقَوْله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾، أَيْ: اخْتَبَرْنَا بَعْضكُمْ بِبَعْضٍ، وَبَلوْنَا بَعْضكُمْ بِبَعْضٍ، لنَعْلم مَنْ يُطِيع مِمَّنْ يَعْصِي؛ وَلهَذَا قَال: ﴿أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾، أَيْ: بِمَنْ يَسْتَحِقّ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، وَمَنْ يَسْتَحِقّ أَنْ يَهْدِيه الله لمَا أَرْسَلهُمْ بِهِ وَمَنْ لا يَسْتَحِقّ ذَلكَ.

وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق فِي قَوْله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ﴾، قَال: يَقُول الله: لوْ شِئْت أَنْ أَجْعَل الدُّنْيَا مَعَ رُسُلي لا يُخَالفُونَ، لفَعَلت، وَلكِنِّي قَدْ أَرَدْت أَنْ أَبْتَليَ العِبَاد بِهِمْ، وَأَبْتَليهِمْ بِهِمْ. وَفِي «صَحِيح مُسْلم» عَنْ عِيَاض بْن حِمَار عَنْ رَسُول الله ﷺ: «**يَقُول الله: إِنِّي مُبْتَليك وَمُبْتَلي بِك**»[1]. وَفِي «المُسْنَد» عَنْ رَسُول الله ﷺ: «**لوْ شِئْت لأَجْرَى الله مَعِي جِبَال الذَّهَب وَالفِضَّة**»[2]. وَفِي «الصَّحِيح» أَنَّهُ -عَليْهِ أَفْضَل الصَّلاة وَالسَّلام- خُيِّرَ بَيْن أَنْ يَكُون نَبِيًّا مَلكًا أَوْ عَبْدًا رَسُولًا، فَاخْتَارَ أَنْ يَكُون عَبْدًا رَسُولًا.[3]

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ تَعَنُّت الكُفَّار فِي كُفْرهِمْ، وَعِنَادهِمْ فِي قَوْلهِمْ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أَيْ: بِالرِّسَالةِ كَمَا نُزِّل عَلى الأَنْبِيَاء، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ تعالى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُون مُرَادهمْ هَهُنَا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فنَرَاهُمْ عِيَانًا، فَيُخْبِرُونَا أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله، كَقَوْلهِمْ: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرهَا فِي سُورَة سُبْحَان؛ وَلهَذَا قَالُوا: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾، وَلهَذَا قَال الله تَعَالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾، وَقَدْ قَال تَعَالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾. وَقَوْله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أَيْ: هُمْ لا يَرَوْنَ المَلائِكَة فِي يَوْم خَيْر لهُمْ، بَل يَوْم يَرَوْنَ الملائكة لا بُشْرَى يَوْمئِذٍ لهُمْ، وَذَلكَ يَصْدُق عَلى وَقْت الاحْتِضَار، حِين تُبَشِّرهُمْ المَلائِكَة بِالنَّارِ، وَغَضَب الجَبَّار، فَتَقُول المَلائِكَة للكَافِرِ عِنْد خُرُوج رُوحه: اخْرُجِي أَيَّتهَا النَّفْس الخَبِيثَة فِي الجَسَد الخَبِيث،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٦٥).
(٢) انظر «الصحيحة» (٦٣٤).
(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٤/ ١٧١).

اخْرُجِي إِلى سَمُوم وَحَمِيم، وَظِلّ مِنْ يَحْمُوم. فتأْبى الخُرُوج وَتتفرَّق فِي البدَن، فَيضرِبُونَهُ، كَما قَال الله تَعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾، وَقَال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ: بِالضَّرْبِ؛ ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ وَلهَذَا قَال فِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ وَهَذَا بِخِلافِ حَال المُؤْمِنِينَ فِي وقت احْتِضَارهِمْ، فَإِنَّهُمْ يُبَشَّرُونَ بِالخَيْرَاتِ، وَحُصُول المَسَرَّات. قَال الله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾. وَفِي الحَدِيث الصَّحِيح عَنْ البَرَاء بْن عَازِب: أَنَّ المَلائِكَة تَقُول لِرُوحِ المُؤْمِن: **«اخْرُجِي أَيَّتهَا النَّفْس الطَّيِّبَة فِي الجَسَد الطَّيِّب، كُنْت تَعْمُرِينَهُ، اخْرُجِي إِلى رَوْح وَرَيْحَان وَربّ غَيْر غَضْبَان»**[1]. وَقَدْ تَقَدَّمَ الحَدِيث فِي «سُورَة إِبْرَاهِيم» عِنْد قَوْله تَعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾. وَقَال آخَرُونَ: بَل المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، يَعْنِي: يَوْم القِيَامَة؛ قَالهُ مُجَاهِد، وَالضَّحَّاك، وَغَيْرهُمَا. وَلا مُنَافَاة بَيْن هَذَا وَبين مَا تَقَدَّمَ؛ فَإِنَّ المَلائِكَة فِي هَذَيْنِ اليَوْمَيْنِ -يَوْم المَمَات وَيَوْم المَعَاد- تَتَجَلَّى لِلمُؤْمِنِينَ وَلِلكَافِرِينَ، فَتُبَشِّر المُؤْمِنِينَ بِالرَّحْمَة وَالرِّضْوَان، وَتُخْبِر الكَافِرِينَ بِالخَيْبَة وَالخُسْرَان، فَلا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلمُجْرِمِينَ.

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أَيْ: وَتَقُول المَلائِكَة لِلكَافِرِينَ: حَرَام مُحَرَّم عَلَيْكُمْ الفَلاح اليَوْم. وَأَصْل «الحَجْر»: المَنْع، وَمِنْهُ يُقَال: حَجَرَ القَاضِي عَلى فُلان، إِذَا مَنَعَهُ التَّصَرُّف إِمَّا لِسَفَهٍ، أَوْ فَلس، أَوْ صِغَر، أَوْ نَحْو ذَلكَ، وَمِنْهُ سُمِّيَ «الحِجْر» عِنْد البَيْت الحَرَام؛ لأَنَّهُ يُمْنَع الطُّوَّاف أَنْ يَطُوفُوا فِيهِ، وَإِنَّمَا يُطَاف مِنْ وَرَائِهِ، وَمِنْهُ يُقَال لِلعَقْل «حِجْرًا»؛ لأَنَّهُ يَمْنَع صَاحِبه عَنْ تَعَاطِي مَا لا يَليق. وَالغَرَض أَنَّ الضَّمِير فِي قَوْله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عَائِد عَلى المَلائِكَة، هَذَا قَوْل مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالضَّحَّاك، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَعَطِيَّة العَوْفِيّ، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَخُصَيْف، وَغَيْر وَاحِد، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثنَا مُوسَى -يَعْنِي: ابْن قَيْس- عَنْ عَطِيَّة العَوْفِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، قَال: حَرَامًا مُحَرَّمًا أَنْ يُبَشَّر بِمَا يُبَشَّر بِهِ المُتَّقُونَ. وَقَدْ حَكَى ابْن جَرِير، عَنْ ابْن جُرَيْج أَنَّهُ قَال: ذَلكَ مِنْ كَلام المُشْرِكِينَ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، [أَيْ: يَتَعَوَّذُونَ مِنَ المَلائِكَة؛ وَذَلكَ أَنَّ العَرَب كَانُوا إِذَا نَزَل بِأَحَدِهِمْ نَازِلة أَوْ شِدَّة][2] يَقُول: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾. وَهَذَا القَوْل -وَإِنْ كَانَ لهُ مَأْخَذ وَوَجْه- وَلكِنَّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلى السِّيَاق فِي الآيَة بَعِيد، وَلاسِيَّمَا وَقَدْ نَصَّ الجُمْهُور عَلى خِلافه، وَلكِنْ قَدْ رَوَى ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد أَنَّهُ قَال فِي قَوْله: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، أَيْ: عَوْذًا مُعَاذًا. فَيُحْتَمَل أَنَّهُ أَرَادَ مَا ذَكَرَهُ ابْن جُرَيْج، وَلكِنْ فِي رِوَايَة ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد أَنَّهُ قَال: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، عَوْذًا مُعَاذًا، المَلائِكَة تقوله، فَالله أَعْلم.

وَقَوْله تَعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، وهَذَا يَوْم القِيَامَة، حِين يُحَاسِب الله العِبَاد عَلى مَا عَمِلُوهُ من خير وشر، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لا يتحصَّل هَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ مِنْ الأَعْمَال -الَّتِي ظَنُّوا أَنَّهَا مَنْجَاة لهُمْ-

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) سقط من (ز).

شَيْءٍ؛ وَذَلِكَ لأَنَّهَا فَقَدَتْ الشَّرْط الشَّرْعِيّ؛ إِمَّا الإِخْلاص فِيهَا، وَإِمَّا الْمُتَابَعَة لِشَرْعِ الله، فَكُلّ عَمَل لا يَكُون خَالِصًا وَعَلَى الشَّرِيعَة الْمَرْضِيَّة، فَهُوَ بَاطِل. فَأَعْمَال الكُفَّار لا تَخْلُو مِنْ وَاحِد مِنْ هَذَيْنِ، وَقَدْ تَجْمَعهُمَا مَعًا، فَتَكُون أَبْعَد مِنْ القَبُول حِينَئِذٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾. قَال مُجَاهِد وَالثَّوْرِيّ: ﴿ وَقَدِمْنَآ ﴾؛ أَيْ: عَمَدْنَا. قَال السُّدِّيّ: قدمنا: عمدنا، وَبَعْضهمْ يَقُول: أَتَيْنَا عَلَيْهِ.

وَقَوْله: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾، قَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ الحَارِث، عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه فِي قَوْله: ﴿ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾، قَال: شُعَاع الشَّمْس إِذَا دَخَل فِي الكُوَّة. وَكَذَا رُوِيَ مِنْ غَيْر هَذَا الوَجْه عَنْ عَلِيّ. وَرُوِيَ مِثْله عَنْ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالسُّدِّيّ، وَالضَّحَّاك، وَغَيْرهمْ. وَكَذَا قَال الحَسَن البَصْرِيّ: هُوَ الشُّعَاع فِي كُوَّة أَحَدكُمْ، وَلَوْ ذَهَبَ يَقْبِض عَلَيْهِ لَمْ يَسْتَطِعْ. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ قَال: هُوَ المَاء الْمُهْرَاق. وَقَال أَبُو الأَحْوَص، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ الحَارِث، عَنْ عَلِيّ: ﴿ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾، قَال: الهَبَاء رَهْج الدَّوَابّ. وَرُوِيَ مِثْله عَنْ ابْن عَبَّاس أَيْضًا وَالضَّحَّاك، وَقَالَهُ عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم.

وَقَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾، قَال: مَا رَأَيْت يبيس الشَّجَر إِذَا أَذْرَته الرِّيح فَهُوَ ذَلِكَ الوَرَق. وَقَال عَبْد الله بْن وَهْب: أَخْبَرَنِي عَاصِم بْن حَكِيم، عَنْ أَبِي سَرِيع الطَّائِيّ، عَنْ عُبَيْد بْن تعْلى قَال: وَإِنَّ الهَبَاء الرَّمَاد. وَحَاصِل هَذِهِ الأَقْوَال التَّنْبِيه عَلَى مَضْمُون الآيَة، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ عَمِلُوا أَعْمَالًا اعْتَقَدُوا أَنَّهَا عَلَى شَيْءٍ، فَلَمَّا عُرِضَتْ عَلَى الْمَلِك الحَكِيم العَدْل، الَّذِي لا يَجُور، وَلا يَظْلم أَحَدًا، إِذَا إِنَّهَا لا شَيْء بِالكُلِّيَّة. وَشُبِّهَتْ فِي ذَلِكَ بِالشَّيْءِ التَّافِه الحَقِير الْمُتَفَرِّق، الَّذِي لا يَقْدِر مِنْهُ صَاحِبه عَلَى شَيْء بِالكُلِّيَّة، كَمَا قَال الله تَعَالَى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾. وَقَال تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ وَتَقَدَّمَ الكَلام عَلَى تَفْسِير ذَلِكَ، وَلله الحَمْد وَالْمِنَّة.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾، أَيْ: يَوْم القِيَامَة لا يَسْتَوِي أَصْحَاب النَّار وَأَصْحَاب الجَنَّة، وَأَصْحَاب الجَنَّة هُمْ الفَائِزُونَ، وَذَلِكَ لأَنَّ أَهْل الجَنَّة يَصِيرُونَ إِلَى الدَّرَجَات العَالِيَات، وَالغُرُفَات الآمِنَات، فَهُمْ فِي مَقَام أَمِين، حَسَن الْمَنْظَر، طَيِّب الْمَقَام ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾، وَأَهْل النَّار يَصِيرُونَ إِلَى الدَّرَكَات السَّافِلات، وَالحَسَرَات الْمُتَتَابِعَات، وَأَنْوَاع العَذَاب وَالعُقُوبَات ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾، أَيْ: بِئْسَ الْمَنْزِل مَنْظَرًا، وَبِئْسَ الْمَقِيل مَقَامًا، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾، أَيْ: بِمَا عَمِلُوهُ مِنْ الأَعْمَال الْمُتَقَبَّلَة، نَالُوا مَا نَالُوا، وَصَارُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ، بِخِلافِ أَهْل النَّار فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ عَمَل وَاحِد يَقْتَضِي لَهُمْ دُخُول الجَنَّة وَالنَّجَاة مِنْ النَّار، فَنَبَّهَ تَعَالَى بِحَال السُّعَدَاء عَلَى حَال الأَشْقِيَاء، وَأَنَّهُ لا خَيْر عِنْدهمْ بِالكُلِّيَّة، فَقَال تَعَالَى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾. قَال الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس: إِنَّمَا هِيَ ضحوة، فَيَقِيل أَوْلِيَاء الله عَلَى الأَسِرَّة مَعَ الحُور العِين، وَيَقِيل أَعْدَاء الله مَعَ الشَّيَاطِين مُقَرَّنِينَ.

وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: يَفْرُغ الله مِنْ الحِسَاب نِصْف النَّهَار، فَيَقِيلُ أَهْل الجَنَّة فِي الجَنَّة، وَأَهْل النَّار فِي النَّار، قَال الله تَعَالَى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾. وَقَال عِكْرِمَة: إِنِّي لأَعْرِف السَّاعَة الَّتِي

يَدْخُل فِيهَا أَهْل الجَنَّة الجَنَّة، وَأَهْل النَّار النَّار؛ هِيَ السَّاعَة الَّتِي تَكُون فِي الدُّنْيَا عِنْد ارْتِفَاع الضُّحَى الأَكْبَر، إِذَا انْقَلَبَ النَّاس إِلَى أَهْلِيهِمْ لِلقَيْلُولَة، فَيَنْصَرِف أَهْل النَّار إِلَى النَّار، وَأَمَّا أَهْل الجَنَّة فَيُنْطَلَق بِهِمْ إِلَى الجَنَّة، فَكَانَتْ قَيْلُولتهمْ فِي الجَنَّة، وَأُطْعِمُوا كَبِد حُوت، فَأَشْبَعَهُمْ ذلك كُلّهمْ، وَذَلِكَ قَوْله: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾. وَقَال سُفْيَان، عَنْ مَيْسَرَة، عَنْ المِنْهَال، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود أنه قَال: لا يَنْتَصِف النَّهَار حَتَّى يقيل هَؤُلاءِ وَهؤُلاءِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾. وَقَرَأَ: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾.

وَقَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾، قَال: قَالُوا فِي الغُرَف مِنْ الجَنَّة، وَكَانَ حِسَابهمْ أن عُرِضُوا عَلى رَبّهِمْ عَرْضَة وَاحِدَة، وَذَلكَ الحِسَاب اليَسِير، وَهُوَ مِثْل قَوْله تَعَالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾. وَقَال قَتَادَة فِي قوله: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أي: مَأْوَى وَمَنْزِلًا. وَقَال قَتَادَة فِي قوله: وَحَدَّث صَفْوَان ابْن مُحْرِز أَنَّهُ قَال: يُجَاء يَوْم القِيَامَة بِرَجُلَيْنِ، كان أَحَدهمَا كَانَ مَلكًا فِي الدُّنْيَا، إِلى الحُمْرَة وَالبَيَاض فَيُحَاسَب، فَإِذَا عَبْد لمْ يَعْمَل خَيْرًا، فَيُؤْمَر بِهِ إِلى النَّار، وَالآخر كَانَ صَاحِب كِسَاء فِي الدُّنْيَا، فَيُحَاسَب. فَيَقُول: يَا رَبّ، مَا أَعْطَيْتنِي مِنْ شَيْء فَتُحَاسِبنِي بِهِ. فَيَقُول الله: صَدَقَ عَبْدِي، فَأَرْسِلُوهُ. فَيُؤْمَر بِهِ إِلى الجَنَّة، ثُمَّ يُتْرَكَانِ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ يُدْعَى صَاحِب النَّار، فَإِذَا هُوَ مِثْل الحُمَمَة السَّوْدَاء، فَيُقَال لهُ: كَيْف وَجَدْت؟ فَيَقُول: شَرّ مَقِيل. فَيُقَال لهُ: عُدْ. ثُمَّ يُدْعَى بِصَاحِبِ الجَنَّة، فَإِذَا هُوَ مِثْل القَمَر ليْلة البَدْر، فَيُقَال لهُ: كَيْف وَجَدْت؟ فَيَقُول: رَبّ، خَيْر مَقِيل. فَيُقَال لهُ: عُدْ. رَوَاهَا ابْن أَبِي حَاتِم كُلّهَا.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يُونُس، أَنْبَأَنَا ابْن وَهْب، أَنْبَأَنَا عَمْرو بْن الحَارِث، أَنَّ سَعِيدًا الصَّوَّاف حَدَّثَهُ، أَنَّهُ بَلغَهُ: أَنَّ يَوْم القِيَامَة يَقْصُر عَلى المُؤْمِن حَتَّى يَكُون كَمَا بَيْن العَصْر إِلى غُرُوب الشَّمْس، وَأَنَّهُمْ ليقيلون فِي رِيَاض الجَنَّة حَتَّى يَفْرُغ مِنْ النَّاس، فذَلكَ قَوْله تَعَالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾.

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ هَوْل يَوْم القِيَامَة، وَمَا يَكُون فِيهِ مِنْ الأُمُور العَظِيمَة، فَمِنْهَا انْشِقَاق السَّمَاء وَتَفَطُّرهَا وَانْفِرَاجهَا بِالغَمَام، وَهُوَ ظُلل النُّور العَظِيم الَّذِي يُبْهِر الأَبْصَار، وَنُزُول مَلائِكَة السَّمَوَات يَوْمئِذٍ، فَيُحِيطُونَ بِالخَلائِق فِي مَقَام المَحْشَر، ثُمَّ يَجِيء الرَّبّ تَبَارَكَ وَتَعَالى لفَصْل القَضَاء. قَال مُجَاهِد: وَهَذَا كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾.

وقَال ابْن أَبِي حَاتِم[1]: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَمَّار بْن الحَارِث، حَدَّثَنَا مُؤَمَّل، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ عَليّ بْن زَيْد عَنْ يُوسُف بْن مِهْرَان، عَنْ ابْن عَبَّاس، أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾، قَال ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما: يَجْمَع الله تَعَالى الخَلق فِي يَوْم القِيَامَة فِي صَعِيد وَاحِد، الجِنّ وَالإِنْس وَالبَهَائِم وَالسِّبَاع وَالطَّيْر وَجَمِيع الخَلق، فَتَنْشَقّ السَّمَاء الدُّنْيَا، فَيَنْزِل أَهْلهَا -وَهُمْ أَكْثَر مِنْ الجِنّ وَالإِنْس وَمِنْ جَمِيع الخَلائق-

(١) في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٢).

فَيُحِيطُونَ بِالجِنِّ وَالإِنس وَبِجَمِيعِ الخَلق، ثُمَّ تَنشَقّ السَّماء الثَّانِيَة فَيَنْزِل أَهْلهَا فَيُحِيطُونَ بِالمَلَائِكَةِ الَّذِينَ نَزَلُوا قَبْلهمْ وَبِالجِنِّ وَالإِنْس وَجَمِيع الخَلق، وَهُمْ أَكْثَر مِنْ أَهْل السَّمَاء الدُّنْيَا وَمِنْ الجن والإنس وجَمِيع الخَلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلق ثُمَّ تَنْشَقّ السَّمَاء الثَّالثَة فَيَنْزِل أَهْلهَا وَهُمْ أَكْثَر مِنْ أَهْل السَّمَاء الثَّانِيَة وَالسَّمَاء الدُّنْيَا وَمِنْ جَمِيع الخَلق، فَيُحِيطُونَ بِالمَلَائِكَةِ الَّذِينَ نَزَلُوا قَبْلهمْ، وَبِالجِنِّ وَالإِنْس وَجَمِيع الخَلق، ثُمَّ كَذَلِكَ كُلّ سَمَاء حَتَّى تَنْشَقّ السَّمَاء السَّابِعَة، فَيَنْزِل أَهْلهَا وَهُمْ أَكْثَر مِمَّنْ نَزَل قَبْلهمْ مِنْ أَهْل السَّمَوَات، وَمِنْ الجِنّ وَالإِنْس، وَمِنْ جَمِيع الخَلق، فَيُحِيطُونَ بِالمَلَائِكَةِ الَّذِينَ نَزَلُوا قَبْلهمْ مِنْ أَهْل السَّمَوَات، وَبِالجِنِّ وَالإِنْس وَجَمِيع الخَلق كُلّهمْ، ورَبّنَا ﷻ فِي ظُلَل مِنْ الغَمَام وَحَوْله الكَرُوبِيُّونَ وَهُمْ أَكْثَر مِنْ أَهْل السَّمَوَات السَّبْع، وَمِنْ الإِنْس والجِنّ ، وَجَمِيع الخَلق، لَهُمْ قُرُون كَأَكْعُب القَنَا وَهُمْ تَحْت العَرْش لَهُمْ زَجَل بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيل وَالتَّقْدِيس لله ﷻ ، مَا بَيْن أَخْمَص قَدَم أَحدهمْ إِلى كَعْبه مَسِيرَة خَمْسمِائَةِ عَام، وَمَا بَيْن كَعْبه إِلى ركبته مَسِيرَة خَمْسمِائَةِ عَام، ومَا بَيْن ركبته إِلى أرنبته مَسِيرَة خَمْسمِائَةِ عَام، وَمَا بَيْن حُجْزَته إِلى تَرْقُوَته مَسِيرَة خَمْسمِائَةِ عَام، وَمَا بَيْن تَرْقُوَته إِلى مَوْضِع القُرْط مَسِيرَة خَمْسمِائَةِ عَام، وَمَا فَوْق ذَلكَ مَسِيرَة خَمْسمِائَةِ عَام، وَجَهَنَّم مجنبته. هَكَذَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم بِهَذَا السِّيَاق.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا الحُسَيْن، حَدَّثَنِي الحَجَّاج، عَنْ مُبَارَك بْن فَضَالة، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد بْن جُدْعَان، عَنْ يُوسُف بْن مِهْرَان، أَنَّهُ سَمِعَ ابْن عَبَّاس يَقُول: إِنَّ هَذِهِ السَّمَاء إِذَا انْشَقَّتْ نَزَل مِنْهَا مِنْ المَلَائِكَة أَكْثَر مِنْ الجِنّ والإِنْس، وَهُوَ يَوْم التَّلَاق، يَوْم يَلتَقِي أَهْل السَّمَاء وَأَهْل الأَرْض، فَيَقُول أَهْل الأَرْض: جَاءَ رَبّنَا؟ فَيَقُولُونَ: لمْ يَجِئْ، وَهُوَ آتٍ، ثُمَّ تَنْشَقّ السَّمَاء الثَّانِيَة، ثُمَّ سَمَاء سَمَاء عَلى قَدْر ذَلكَ مِنْ التَّضْعِيف إِلى السَّمَاء السَّابِعَة، فَيَنْزِل مِنْهَا مِنْ المَلَائِكَة أَكْثَر مِنْ جَمِيع مَنْ نَزَل مِنْ السَّمَوَات وَمِنْ الجِنّ وَالإِنْس. قَال: فَتَنْزِل المَلَائِكَة الكَرُوبِيُّونَ، ثُمَّ يَأْتِي رَبّنَا فِي حَمَلة العَرْش الثَّمَانِيَة، بَيْن كَعْب كُلّ مَلك وَرُكْبته مَسِيرَة سَبْعِينَ سَنَة، وَبَيْن فَخِذه وَمَنْكِبه مَسِيرَة سَبْعِينَ سَنَة. قَال: وَكُلّ مَلك مِنْهُمْ لمْ يَتَأَمَّل وَجْه صَاحِبه، وَكُلّ مَلك مِنْهُمْ وَاضِع رَأْسه بَيْن ثَدْيَيْهِ يَقُول: سُبْحَان المَلك القُدُّوس! وَعَلى رُءُوسهمْ شَيْء مَبْسُوط كَأَنَّهُ القَبَاء، وَالعَرْش فَوْق ذَلكَ. ثُمَّ وَقَفَ. فَمَدَاره عَلى عَلِيّ بْن زَيْد بْن جُدْعَان، وَفِيهِ ضَعْف، وفِي سِيَاقَاته -غَالبًا- نَكَارَة شَدِيدَة، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيث الصُّور المَشْهُور قَرِيب مِنْ هَذَا وَالله أَعْلم. وَقَدْ قَال الله تَعَالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾.

قَال شَهْر بْن حَوْشَب: حَمَلة العَرْش ثَمَانِيَة، أَرْبَعَة مِنْهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانك اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِك، لك الحَمْد عَلى حِلمك بَعْد عِلمك، وَأَرْبَعَة يَقُولُونَ: سُبْحَانك اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِك، لك الحَمْد عَلى عَفْوك بَعْد قُدْرَتك. رَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْهُ. وَقَال أَبُو بَكْر ابْن عَبْد الله: إِذَا نَظَرَ أَهْل الأَرْض إِلى العَرْش يَهْبِط عَليْهِمْ مَنْ فَوْقهمْ، شَخَصَتْ إِليْهِ أَبْصَارهمْ، وَرَجَفَتْ كُلاهُمْ فِي أَجْوَافهمْ، وَطَارَتْ قُلُوبهمْ مِنْ مَقَرّهَا مِنْ صُدُورهمْ إِلى حَنَاجِرهمْ.

وقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا الحُسَيْن، حَدَّثَنَا المُعْتَمِر بْن سُليْمَان، عَنْ عَبْد الجَليل، عَنْ أَبِي حَازِم، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَال: يَهْبِط الله ﷻ حِين يَهْبِط وَبَيْنه وَبَيْن خَلقه سَبْعُونَ أَلف حِجَاب، مِنْهَا النُّور وَالظُّلمَة، فيصوِّت المَاء فِي تِلكَ الظُّلمَة صَوْتًا تَنْخَلع منه القُلُوب. وَهَذَا مَوْقُوف عَلى عَبْد الله بْن عَمْرو مِنْ كَلامه، وَلعَلَّهُ مِنْ الزَّامِلتَيْنِ، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾. وَفِي الصَّحِيح أَنَّ الله تَعَالَى يَطْوِي السَّمَوَات بِيَمِينِهِ، وَيَأْخُذ الأَرَضِينَ بِيَدِهِ الأُخْرَى، ثُمَّ يَقُول: أَنَا المَلِك! أَنَا الدَّيَّان! أَيْنَ مُلُوك الأَرْض؟ أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟[1]

وَقَوْله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾. أَيْ: شَدِيدًا صَعْبًا؛ لأَنَّهُ يَوْم عَدْل وَقَضَاء فَصْل، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾. فَهَذَا حَال الكَافِرِينَ فِي ذَلك اليَوْم. وَأَمَّا المُؤْمِنُونَ فَكَمَا قَال تَعَالَى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

قال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حسن بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا ابْن لِهِيعَة، حَدَّثَنَا دَرَّاج، عَنْ أَبِي الهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ قَال: قِيل: يَا رَسُول الله: ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ مَا أَطْوَل هَذَا اليَوْم! فَقَال رَسُول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّف عَلَى المُؤْمِن حَتَّى يَكُون أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلاة مَكْتُوبَة يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا»[2].

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، يُخْبِر تَعَالَى عَنْ نَدَم الظَّالِم الَّذِي فَارَقَ طَرِيق الرَّسُول ﷺ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْد الله مِنَ الحَقّ المُبِين، الَّذِي لا مِرْيَة فِيهِ، وَسَلكَ طَرِيقًا أُخْرَى غَيْر سَبِيل الرَّسُول، فَإِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة نَدِمَ حَيْثُ لا يَنْفَعهُ النَّدَم وَعَضَّ عَلى يَدَيْهِ حَسْرَة وَأَسَفًا. وَسَوَاء كَانَ سَبَب نُزُولهَا فِي عُقْبَة بْن أَبِي مُعَيْط أَوْ غَيْره مِنَ الأَشْقِيَاء، فَإِنَّهَا عَامَّة فِي كُلّ ظَالِم؛ كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ فَكُلّ ظَالِم يَنْدَم يَوْم القِيَامَة غَايَة النَّدَم، وَيَعَضّ عَلى يَدَيْهِ قَائِلًا: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾. يَعْنِي: لَمنْ صَرَفَهُ عَنْ الهُدَى، وَعَدَل بِهِ إِلى طَرِيق الضَّلالة، وَسَوَاء فِي ذَلكَ أُمَيَّة بْن خَلف، أَوْ أَخُوهُ أُبَيّ بْن خَلف، أَوْ غَيْرهمَا. ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أَيْ: بَعْد بُلُوغه إِليَّ، قَال الله تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾. أَيْ: يَخْذُلهُ عَنْ الحَقّ، وَيَصْرِفهُ عَنْهُ، وَيَسْتَعْمِلهُ فِي البَاطِل وَيَدْعُوهُ إِليْهِ.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ رَسُوله وَنَبِيّه مُحَمَّد -صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين- أَنَّهُ قَال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾. وَذَلكَ أَنَّ المُشْرِكِينَ كَانُوا لا يُصْغُونَ للقُرْآنِ وَلا يَسْمَعُونَهُ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾. فَكَانُوا إِذَا تُلِيَ عَليْهِمْ القُرْآن أَكْثَرُوا اللَّغَط وَالكَلام فِي غَيْره، حَتَّى لا يَسْمَعُوه؛ فَهَذَا مِنْ هِجْرَانه، وَتَرْك الإِيمَان بِهِ وتَصْدِيقه مِنْ هِجْرَانه، وَتَرْك تَدَبُّره وَتَفَهُّمه مِنْ هِجْرَانه، وَتَرْك العَمَل بِهِ وَامْتِثَال أَوَامِره وَاجْتِنَاب زَوَاجِره مِنْ هِجْرَانه، وَالعُدُول عَنْهُ إِلى غَيْره مِنْ شِعْر أَوْ قَوْل أَوْ غِنَاء أَوْ لَهْو أَوْ كَلام أَوْ طَرِيقَة مَأْخُوذَة مِنْ غَيْره مِنْ هِجْرَانه، فَنَسْأَل الله الكَرِيم المَنَّان القَادِر عَلى مَا يَشَاء، أَنْ يُخَلِّصنَا مِمَّا يُسْخِطهُ، وَيَسْتَعْمِلنَا فِيمَا يُرْضِيه، مِنْ حِفْظ كِتَابه وَفَهْمه، وَالقِيَام بِمُقْتَضَاهُ آنَاء اللَّيْل وَأَطْرَاف النَّهَار، عَلى الوَجْه الَّذِي يُحِبّهُ وَيَرْضَاهُ، إِنَّهُ كَرِيم وَهَّاب.

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

(٢) إسناده ضعيف : أخرجه أحمد (٣/ ٧٥) بسند ضعيف فيه ابن لهيعة: وهو ضعيف، ورواية دراج عن أبي الهيثم: ضعيفة.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أَيْ: كَمَا حَصَل لك يَا مُحَمَّد فِي قَوْمك مِنْ الَّذِينَ هَجَرُوا الْقُرْآن، كَذَلِكَ كَانَ فِي الأُمَم المَاضِينَ؛ لأَنَّ الله جَعَل لكُلِّ نَبِيّ عَدُوًّا مِنْ الْمُجْرِمِينَ، يَدْعُونَ النَّاس إِلى ضَلالهمْ وَكُفْرهمْ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى هَهُنَا: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، أَيْ: لِمَنْ اتَّبَعَ رَسُوله وَآمَنَ بِكِتَابِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَهُ، فَإِنَّ الله هَادِيه وَنَاصِره فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَإِنَّمَا قَال: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَصُدُّونَ النَّاس عَنْ اتِّبَاع الْقُرْآن، لِئَلَّا يَهْتَدِيَ أَحَد بِهِ، وَلتَغْلب طَرِيقَتهمْ طَرِيقَة الْقُرْآن، فَلِهَذَا قَال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كَثْرَة اعْتِرَاض الكُفَّار وَتَعَنُّتهمْ، وَكَلامهمْ فِيمَا لا يَعْنِيهِمْ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾. أَيْ: هَلَّا أُنْزِل عَلَيْهِ هَذَا الكِتَاب الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْهِ جُمْلَة وَاحِدَة، كَمَا نُزِّلَتْ الكُتُب قَبْله كَالتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيل وَالزَّبُور، وَغَيْرهَا مِنْ الكُتُب الإِلهِيَّة. فَأَجَابَهُمْ الله تَعَالَى عَنْ ذَلكَ بِأَنَّهُ إِنَّمَا أنزل مُنَجَّمًا فِي ثَلاث وَعِشْرِينَ سَنَة بِحَسَبِ الوَقَائِع وَالحَوَادِث، وَمَا يُحْتَاج إِلَيْهِ مِنْ الأَحْكَام؛ لتثبيت قُلُوب الْمُؤْمِنِينَ بِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾. وَلِهَذَا قَال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾. قَال قَتَادَة: وبَيَّنَّاهُ تَبْيِينًا. وَقَال عبد الرحمن بْن زَيْد بن أسلم: وَفَسَّرْنَاهُ تَفْسِيرًا.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾. أَيْ: بِحُجَّةٍ وَشُبْهَة ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾. أَيْ: وَلا يَقُولُونَ قَوْلًا يُعَارِضُونَ بِهِ الحَقّ إِلَّا أَجَبْنَاهُمْ بِمَا هُوَ الحَقّ فِي نَفْس الأَمْر، وَأَبْيَن وَأَوْضَح وَأَفْصَح مِنْ مَقَالتهمْ.

قَال سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، أَيْ: بِمَا يَلتَمِسُونَ بِهِ عَيْب الْقُرْآن وَالرَّسُول ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أَيْ: إِلَّا نَزَل جِبْرِيل مِنْ الله بِجَوَابِهِمْ. ثم فِي هَذَا اعْتِنَاء كَبِير؛ لِشَرَف الرَّسُول ﷺ، حَيْثُ كَانَ يَأْتِيه الوَحْي مِنْ الله ﷻ بِالقُرْآنِ صَبَاحًا وَمَسَاء، وَلَيْلًا وَنَهَارًا، سَفَرًا وَحَضَرًا، وَكُلّ مَرَّة كَانَ يَأْتِيه المَلَك بِالقُرْآنِ كَإِنْزَال كِتَاب مِمَّا قَبْله مِنْ الكُتُب المُتَقَدِّمَة، فَهَذَا المَقَام أَعْلى وَأَجَلّ، وَأَعْظَم مَكَانَة مِنْ سَائِر إِخْوَانه الأَنْبِيَاء صَلوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. فَالقُرْآن أَشْرَف كِتَاب أَنْزَلهُ الله، وَمُحَمَّد ﷺ أَعْظَم نَبِيّ أَرْسَلهُ الله تَعَالى، وَقَدْ جَمَعَ الله للقُرْآنِ الصِّفَتَيْنِ مَعًا، فَفِي المَلأ الأَعْلى أُنْزِل جُمْلة وَاحِدَة مِنْ اللَّوْح المَحْفُوظ إِلى بَيْت العِزَّة من سَمَاء الدُّنْيَا، ثُمَّ نزل بَعْد ذَلكَ إِلى الأَرْض مُنَجَّمًا بِحَسَبِ الوَقَائِع وَالحَوَادِث. قال أبو عبد الرحمن النَّسَائِيّ: أخبرنا أحمد بن سليمان، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا داود، عن عكرمة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: أُنْزِل القُرْآن جُمْلة [وَاحِدَة][1] إِلى سَمَاء الدُّنْيَا فِي ليْلة القَدْر، ثُمَّ نَزَل بَعْد ذَلكَ فِي عِشْرِينَ سَنَة، قَال الله تَعَالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾. ثُمَّ قَال تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ سُوء حَال الكُفَّار فِي مَعَادهمْ يَوْم القِيَامَة وَحَشْرهمْ إِلى جَهَنَّم، فِي أَسْوَأ الحَالات وَأَقْبَح الصِّفَات:

---

(١) زيادة من نسخة.

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾. وَفِي «الصَّحِيح» عَنْ أَنَس أَنَّ رَجُلًا قَال: يَا رَسُول الله، كَيْف يُحْشَر الكَافِر عَلى وَجْهه يَوْم القِيَامَة؟ فَقَال: «إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلى رِجْلَيْهِ قَادِر أَنْ يُمْشِيه عَلى وَجْهه يَوْم القِيَامَة»[1]. وَهَكَذَا قَال مُجَاهِد وَالحَسَن وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد مِنَ المُفَسِّرِينَ.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿٣٥﴾ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ﴿٣٦﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ﴿٣٨﴾ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾.

يَقُول تَعَالى مُتَوَعِّدًا مَنْ كَذَّبَ رَسُوله مُحَمَّدًا ﷺ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمه وَمَنْ خَالَفَهُ، وَمُحَذِّرهمْ مِنْ عِقَابه وَأَلِيم عَذَابه، مِمَّا أَحَلَّهُ بِالأُمَم المَاضِيَة المُكَذِّبِينَ لِرُسُلِهِ، فَبَدَأَ بِذِكْرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ ابتعثه وَجَعَل مَعَهُ أَخَاهُ هَارُون وَزِيرًا؛ أَيْ: نَبِيًّا مُوَازِرًا وَمُؤَيِّدًا وَنَاصِرًا، فَكَذَّبَهُمَا فِرْعَوْن وَجُنُوده، فـ ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾. وَكَذَلِكَ فَعَل بِقَوْمِ نُوح حِين كَذَّبُوا رَسُوله نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَنْ كَذَّبَ بِرَسُولٍ فَقَدْ كَذَّبَ بِجَمِيعِ الرُّسُل؛ إِذْ لا فَرْق بَيْن رَسُول وَرَسُول، وَلَوْ فُرِضَ أَنَّ الله تَعَالى بَعَثَ إِلَيْهِمْ كُلّ رَسُول فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُكَذِّبُونَه؛ وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾. وَلَمْ يُبْعَث إِلَيْهِمْ إِلَّا نُوح فَقَطْ، وَقَدْ لبثَ فِيهِمْ أَلف سَنَة إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، يَدْعُوهُمْ إِلى الله عَزَّ وَجَلَّ وَيُحَذِّرهُمْ نقمته، فَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيل؛ وَلِهَذَا أَغْرَقَهُمْ الله جَمِيعًا، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلَمْ يبق مِنْ بَنِي آدَم عَلى وَجْه الأَرْض سِوَى أَصْحَاب السَّفِينَة فَقَطْ.

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ﴾. أَيْ: عِبْرَة يَعْتَبِرُونَ بِهَا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾. أَيْ: وَأَبْقَيْنَا لَكُمْ مِنَ السُّفُن مَا تَرْكَبُونَ فِي لُجَج البِحَار، لِتَذْكُرُوا نِعْمَة الله عَلَيْكُمْ فِي إِنْجَائِكُمْ مِنَ الغَرَق، وَجَعَلكُمْ مِنْ ذُرِّيَّة مَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ أَمْره.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الكَلَام عَلى قِصَّتَيْهِمَا فِي غَيْر مَا سُورَة مِنها فِي سُورَة الأَعْرَاف بِمَا أَغْنَى عَنْ الإِعَادَة. وَأَمَّا أَصْحَاب الرَّسّ فَقَال ابْن جُرَيْج: قَال ابْن عَبَّاس: هُمْ أَهْل قَرْيَة مِنْ قُرَى ثَمُود. قَال ابْن جُرَيْج: وَقَال عِكْرِمَة: أَصْحَاب الرَّسّ بِفَلج وَهُمْ أَصْحَاب (يس). وَقَال قَتَادَة: فَلج: مِنْ قُرَى اليَمَامَة. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل، حدثنا الضحاك بن مخلد أبو عاصم، حدثنا شبيب بن بشر، حدثنا عكرمة عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾، قَال: بِئْر بِأَذْرَبِيجَان. وَقَال سفيان الثَّوْرِيّ عَنْ أَبِي بكير عَنْ عِكْرِمَة: الرَّسّ: بِئْر رَسُّوا فِيهَا نَبِيّهمْ. أَيْ: دَفَنُوهُ بها.

وَقَال محمد بْن إِسْحَاق، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القرظي قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: إِنَّ أَوَّل النَّاس يَدْخُل الجَنَّة يَوْم القِيَامَة العَبْد الأَسْوَد، وَذَلِكَ أَنَّ الله تَعَالى بَعَثَ نَبِيًّا إِلى أَهْل قَرْيَة، فَلَمْ يُؤْمِن بِهِ مِنْ أَهْلهَا إِلاَّ ذَلِكَ العَبْد الأَسْوَد، ثُمَّ إِنَّ أَهْل القَرْيَة عَدَوْا عَلى النَّبِيّ، فَحَفَرُوا لهُ بِئْرًا فَأَلْقَوْهُ فِيهَا، ثُمَّ أَطْبَقُوا عَلَيْهِ بِحَجَر أَصَمّ. قَال: فَكَانَ ذَلِكَ العَبْد يَذْهَب فَيَحْتَطِب عَلى ظَهْره، ثُمَّ يَأْتِي بِحَطَبِهِ فَيَبِيعهُ، وَيَشْتَرِي بِهِ طَعَامًا وَشَرَابًا، ثُمَّ يَأْتِي بِهِ إِلى تِلْكَ البِئْر، فَيَرْفَع تِلْكَ الصَّخْرَة، وَيُعِينهُ الله عَلَيْهَا، فَيُدْلِي إِلَيْهِ طَعَامه وَشَرَابه، ثُمَّ يَرُدّهَا كَمَا كَانَتْ. قَال: فَكَانَ كذلك مَا شَاءَ الله أَنْ يَكُون، ثُمَّ إِنَّهُ ذَهَبَ يَوْمًا يَحْتَطِب كَمَا كَانَ يَصْنَع، فَجَمَعَ حَطَبه وَحَزَمَ حُزْمَته وَفَرَغَ مِنْهَا، فَلَمَّا أَرَادَ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦).

أَنْ يَحْتَمِلَهَا وَجَدَ سِنَةً، فَاضْطَجَعَ فَنَامَ. فَضُرِبَ عَلَى أُذُنِهِ سَبْعَ سِنِينَ نائمًا ثُمَّ إِنَّهُ هَبَّ فَتَمَطَّى، فَتَحَوَّلَ لِشِقِّهِ الآخَر فَاضْطَجَعَ، فَضَرَبَ اللهُ عَلَى أُذُنِهِ سَبْعَ سِنِينَ أُخْرَى، ثُمَّ إِنَّهُ هَبَّ وَاحْتَمَلَ حُزْمَته، وَلا يَحْسَب إِلَّا أَنَّهُ نَامَ سَاعَةً مِنْ نَهَار، فَجَاءَ إِلَى القَرْيَة فَبَاعَ حُزْمَته، ثُمَّ اشْتَرَى طَعَامًا وَشَرَابًا كَمَا كَانَ يَصْنَع، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الحَفِيرَة فِي مَوْضِعِهَا الَّذِي كَانَتْ فِيهِ، فَالتَمَسَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ. وَقد كَانَ بَدَا لِقَوْمِهِ فِيهِ بَدَاءٌ فَاسْتَخْرَجُوهُ وَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ. قَال: فَكَانَ نَبِيُّهُمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ الأَسْوَد: مَا فَعَل؟ فَيَقُولُونَ لَهُ: ما نَدْرِي. حَتَّى قَبَضَ اللهُ النَّبِيَّ، وَهَبَّ الأَسْوَد مِنْ نَوْمَته بَعْد ذَلِكَ. فَقَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ ذَلِكَ الأَسْوَد لأَوَّل مَنْ يَدْخُل الجَنَّة»[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ ابْن حُمَيْد، عَنْ سَلَمَة، عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب مُرْسَلًا، وَفِيهِ غَرَابَة وَنَكَارَة وَلَعَلَّ فِيهِ إِدْرَاجًا، وَالله أَعْلَم. وَقَال ابْن جَرِير فقال: لا يَجُوز أَنْ يُحْمَل هَؤُلاءِ عَلَى أَنَّهُمْ أَصْحَاب الرَّسّ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي القُرْآن؛ لأَنَّ الله أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ، وَهَؤُلاءِ قد بدا لهم فآمنوا بِنَبِيِّهِمْ، اللهم أَنْ يَكُون حَدَثَ لَهُمْ أَحْدَاث آمَنُوا بِالنَّبِيِّ بَعْد هَلاك آبَائِهِمْ، وَالله أَعْلَم. وَاخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّ المُرَاد بِأَصْحَابِ الرَّسّ هُمْ أَصْحَاب الأُخْدُود الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي سُورَة البُرُوج، فَالله أَعْلَم.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ أَيْ: وَأُمَمًا بين أَضْعَاف مَنْ ذُكِرَ أَهْلَكْنَاهُمْ كَثِيرَة؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أَيْ بَيَّنَّا لَهُمْ الحُجَج، وَوَضَّحْنَا لَهُمْ الأَدِلَّة. كَمَا قَال قَتَادَة: أَزَحْنَا الأَعْذَار عَنْهُمْ، ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أَيْ: أَهْلَكْنَا إِهْلاكًا؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ وَالقَرْن هُوَ: الأُمَّة مِنْ النَّاس، كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ وَحَدَّهُ بَعْضهمْ بِمِائَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَة، وَقِيل: بِمِائَةِ سنة، وَقِيل: بِثَمَانِينَ سنة، وَقِيل: أَرْبَعِينَ، وَقِيل غَيْر ذَلِكَ، وَالأَظْهَر أَنَّ القَرْن هم الأُمَّة المُتَعَاصِرُونَ فِي الزَّمَن الوَاحِد، وَإِذَا ذَهَبُوا وَخَلَفَهُمْ جِيل فهم قَرْن ثانٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«خَيْر القُرُون قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»**[2]. الحَدِيث.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾. يَعْنِي: قَرْيَة قَوْم لُوط، وَهِيَ سَدُوم ومعاملتها الَّتِي أَهْلَكَهَا بِالقَلْبِ وَبِالمَطَرِ الحِجَارَة مِنْ سِجِّيل. كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾، وَقَال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾، وَقَال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾، وَلِهَذَا قَال: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾، أَيْ: فَيَعْتَبِرُوا بِمَا حَلَّ بِأَهْلِهَا مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال بِسَبَبِ تَكْذِيبهمْ بِالرَّسُول وَمُخَالَفَتِهِمْ أَوَامِر الله.

وقوله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ يَعْنِي المَارِّينَ بِهَا مِنْ الكُفَّار لا يَعْتَبِرُونَ؛ لأَنَّهُمْ لا يَرْجُونَ نُشُورًا؛ أَيْ: مَعَادًا يَوْم القِيَامَة.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبري (١٩/ ١٠) بسند ضعيف مرسل وفيه عنعنة ابن إسحاق وهو مدلس.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٥٠)، ومسلم (٢٥٣٥).

يُخْبِر تَعَالى عَنْ اسْتِهْزَاء الْمُشْرِكِينَ بِالرَّسُولِ ﷺ إِذَا رَأَوْهُ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ يَعْنُونَ بِالعَيْبِ وَالنَّقْص، وَقَال هَهُنَا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ أَيْ: عَلى سَبِيل التَّنَقُّص وَالازْدِرَاء، فَقَبَّحَهُمْ الله، كَمَا قَال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يَعْنُونَ أَنَّهُ كَادَ يُثْنِيهِمْ عَنْ عِبَادَة أصنامهم لوْلا أَنْ صَبَرُوا وَتَجَلَّدُوا وَاسْتَمَرُّوا على عبادتها، قَال الله تَعَالى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمُتَهَدِّدًا: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

ثُمَّ قَال تَعَالى لِنَبِيِّهِ مُنَبِّهًا أَنَّ مَنْ كَتَبَ الله عَلَيْهِ الشَّقَاوَة وَالضَّلال فَإِنَّهُ لا يَهْدِيه أَحَد إِلَّا الله ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أَيْ: مَهْمَا اسْتَحْسَنَ مِنْ شَيْء، وَرَآهُ حَسَنًا فِي هَوَى نَفْسه كَانَ دِينه وَمَذْهَبه، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾. وَلهَذَا قَال هَهُنَا: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾. قَال ابْن عَبَّاس: كَانَ الرَّجُل فِي الجَاهِلِيَّة يَعْبُد الحَجَر الأَبْيَض زَمَانًا فَإِذَا رَأَى غَيْره أَحْسَن مِنْهُ عَبَدَ الثَّانِي وَتَرَكَ الأَوَّل.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾. أَيْ: هُمْ أَسْوَأ حَالًا مِنْ الأَنْعَام السَّارِحَة فَإِنَّ تِلْكَ تَفْعَل مَا خُلِقَتْ لهُ، وَهَؤُلاءِ خُلِقُوا لعِبَادَةِ الله وَحْده لا شَرِيك لهُ وَهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْره، وَيُشْرِكُونَ بِهِ مَعَ قِيَام الحُجَّة عَلَيْهِمْ وَإِرْسَال الرُّسُل إِلَيْهِمْ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾.

مِنْ هَهُنَا شَرَعَ -سُبْحَانه وَتَعَالى- فِي بَيَان الأَدِلَّة الدَّالَّة عَلى وُجُوده وَقُدْرَته التَّامَّة عَلى خَلق الأَشْيَاء المُخْتَلِفَة وَالمُتَضَادَّة، فَقَال تَعَالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾. قَال ابْن عَبَّاس، وَابْن عُمَر، وَأَبُو العَالِيَة، وَأَبُو مَالك، وَمَسْرُوق، وَمُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وإبراهيم النَّخَعِيّ، وَالضَّحَّاك، وَالحَسَن البصري، وَقَتَادَة، والسدي وغيرهم: هُوَ مَا بَيْن طُلُوع الفَجْر إِلى طُلُوع الشَّمْس.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أَيْ: دَائِمًا لا يَزُول كَمَا قَال تَعَالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أَيْ: لوْلا أَنَّ الشَّمْس تَطْلُع عَلَيْهِ لمَا عُرِفَ، فَإِنَّ الضِّدّ لا يُعْرَف إِلَّا بِضِدِّهِ. وَقَال قَتَادَة، وَالسُّدِّيّ: دَلِيلًا يتلوه ويتبعه حَتَّى يأتي عَليْهِ كُلّه.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أَيْ: الظِّلّ. وَقِيل: الشَّمْس ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، أَيْ: سَهْلًا، قَال ابْن عَبَّاس: سَرِيعًا. وَقَال مُجَاهِد: خَفِيًّا. وَقَال السُّدِّيّ: قَبْضًا خَفِيًّا، حَتَّى لا يَبْقَى فِي الأَرْض ظِلّ إِلَّا تَحْت سَقْف أَوْ تَحْت شَجَرَة، وَقَدْ أَظَلَّتْ الشَّمْس مَا فَوْقه. وَقَال أَيُّوب بْن مُوسَى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾. أي: قليلًا قليلًا.

وَقَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾، أَيْ: يَلبَس الوُجُود ويغشيه، كَمَا قَال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، وقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾. ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾، أَيْ: قطعًا للحَرَكَةِ لرَاحَةِ الأَبْدَان، فَإِنَّ الأَعْضَاء وَالجَوَارِح تَكِلّ مِنْ كَثْرَة

الحَرَكَة فِي الانْتِشَار بِالنَّهَارِ فِي المَعَايش، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْل وَسَكَنَ سَكَنَتْ الحَرَكَات، فَاسْتَرَاحَتْ فَحَصَل النَّوْم الَّذِي فِيهِ رَاحَة البَدَن وَالرُّوح مَعًا.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أَيْ: يَنْتَشِر النَّاس فِيهِ لِمَعَايِشِهِمْ وَمَكَاسِبهمْ وَأَسْبَابهمْ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ قُدْرَته التَّامَّة وَسُلطَانه العَظِيم، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى يُرْسِل الرِّيَاح مُبَشِّرَات. أَيْ: بِمَجِيءِ السَّحَاب بَعْدهَا، وَالرِّيَاح أَنْوَاع، فِي صِفَات كَثِيرَة مِنْ التَّسْخِير، فَمِنْهَا مَا يُثِير السَّحَاب، وَمِنْهَا مَا تَحْمِلهُ، وَمِنْهَا مَا تَسُوقهُ، وَمِنْهَا مَا يَكُون بَيْن يَدَيْ السَّحَاب مُبَشِّرًا، وَمِنْهَا مَا يَكُون قَبْل ذَلِكَ يَقُمّ الأَرْض، وَمِنْهَا مَا يُلقِّح السَّحَاب لِيُمْطِر، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾. أَيْ: آلَة يُتَطَهَّر بِهَا، كَالسَّحُورِ والوَقُود وَمَا جَرَى مَجْرَاه. هذا أَصَحّ مَا يُقَال فِي ذَلِكَ. وَأَمَّا مَنْ قَال: إِنَّهُ فَعُول بِمَعْنَى فَاعِل؛ أَوْ: أَنَّهُ مَبْنِيّ للمُبَالغَةِ أو التَّعَدِّي، فَعَلى كُلّ مِنْهُمَا إِشْكَالات مِنْ حَيْثُ اللُّغَة وَالحُكم، لَيْسَ هَذَا مَوْضِع بَسْطهَا، وَالله أَعْلم.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، عن أبي جعفر الرازي، حدثني حُمَيْد الطَّوِيل، عَنْ ثَابِت البُنَانِيّ، قَال: دَخَلت مَعَ أَبِي العَالِيَة فِي يَوْم مَطِير، وَطُرُق البَصْرَة قَذِرَة، فَصَلَّى؛ فَقُلت لهُ، فَقَال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾. قَال: طَهَّرَهُ مَاء السَّمَاء. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو سَلمَة، حَدَّثَنَا وُهَيْب، عَنْ دَاوُد، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيِّب فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ لا يُنَجِّسهُ شَيْء. وَعَنْ أَبِي سَعِيد قَال: قِيل: يَا رَسُول الله؛ أَنَتَوَضَّأُ مِنْ بِئْر بُضَاعَة؟ وَهِيَ بِئْر يُلقَى فِيهَا النَّتْن وَلُحُوم الكِلاب ؟ فَقَال: «**إِنَّ المَاء طَهُور لا يُنَجِّسهُ شَيْء**».[1] رَوَاهُ الشَّافِعِيّ، وَأَحْمَد وَصَحَّحَهُ أَبُو دَاوُد، وَالتِّرْمِذِيّ وَحَسَّنَهُ، وَالنَّسَائِيّ.

وقال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الأَشْعَث، حَدَّثَنَا مُعْتَمِر، سَمِعْت أَبِي يُحَدِّث عَنْ سَيَّار، عَنْ خَالد ابْن يَزِيد؛ قَال: كان عِنْد عَبْد المَلك بْن مَرْوَان، فَذَكَرُوا المَاء، فَقَال خَالد بْن يَزِيد: مِنْهُ مِنْ السَّمَاء وَمِنْهُ مَا يُسْقِيه الغَيْم مِنْ البَحْر فَيُعْذِبه الرَّعْد وَالبَرْق، فَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ البَحْر فَلا يَكُون مِنْهُ نَبَات، فَأَمَّا النَّبَات فَمِمَّا كَانَ مِنْ السَّمَاء. وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَة قَال: مَا أَنْزَل الله مِنْ السَّمَاء قَطْرَة إِلَّا أَنْبَتَ بِهَا فِي الأَرْض عُشْبَة أَوْ فِي البَحْر لُؤْلُؤَة. وَقَال غَيْره: فِي البَرّ بُرّ، وَفِي البَحْر دُرّ.

وَقَوْله: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أَيْ: أَرْضًا قَدْ طَال انْتِظَارهَا للغَيْثِ، فَهِيَ هَامِدَة لا نَبَات فِيهَا وَلا شَيْء، فَلَمَّا جَاءَهَا الحَيَا عَاشَتْ، وَاكْتَسَتْ رُبَاهَا أَنْوَاع الأَزَاهِير وَالأَلوَان كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾، ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أَيْ: وَلِيَشْرَب مِنْهُ الحَيَوَان مِنْ أَنْعَام وَأَنَاسِيّ، مُحْتَاجِونَ إِلَيْهِ غَايَة الحَاجَة، لِشُرْبِهِمْ وَزُرُوعهمْ وَثِمَارهمْ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٦٦)، والترمذي (٦٦)، والنسائي (١/ ٦١)، وأحمد (٣/ ٣١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾. أَيْ: أَمْطَرْنَا هَذِهِ الأَرْض دُون هَذِهِ، وَسُقْنَا السَّحَاب فمَرَّ عَلى الأَرْض وَتَعدَّاهَا وَتجَاوَزهَا إِلى الأَرْض الأُخْرَى، لمْ يَنْزِل فِيهَا قَطْرَة مِنْ مَاء، وَلهُ فِي ذَلِكَ الحُجَّة البَالغَة وَالحِكْمَة القَاطِعَة. قَال ابْن مَسْعُود: وَابْن عَبَّاس ﵄: لَيْسَ عَام بِأَكْثَر مَطَرًا مِنْ عَام، وَلكِنَّ الله يُصَرِّفهُ كَيْف يَشَاء، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾. أَيْ: ليَذَّكَّرُوا بِإِحْيَاءِ الله الأَرْض المَيْتَة أَنَّهُ قَادِر عَلى إِحْيَاء الأَمْوَات وَالعِظَام الرُّفَات. أَوْ: ليَذَّكَّر مَنْ مُنِعَ القَطْر أَنَّمَا أَصَابَهُ ذَلكَ بِذَنْب أَصَابَهُ، فَيُقْلع عَمَّا هُوَ فِيهِ.

وَقَال عُمَر -مَوْلى غفرة-: كَانَ جِبْرِيل ﵇ فِي مَوْضِع الجَنَائِز، فَقَال لهُ النَّبِيّ ﷺ: «يَا جِبْرِيل، إِنِّي أُحِبّ أَنْ أَعْلم أَمْر السَّحَاب»، قَال: فَقَال جِبْرِيل: يَا نَبِيّ الله، هَذَا مَلك السَّحَاب فَسَلهُ. فَقَال: تَأْتِينَا صِكَاك مُخَتَّمَة: اسْقِ بِلاد كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا قَطْرَة.(1) رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، وَهُوَ حَدِيث مُرْسَل.

وَقَوْله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾. قَال عِكْرِمَة: يَعْنِي الَّذِينَ يَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا. وَهَذَا الَّذِي قَالهُ عِكْرِمَة كَمَا صَحَّ فِي الحَدِيث المُخَرَّج فِي «صَحِيح مُسْلم»، عَنْ رَسُول الله ﷺ، أَنَّهُ قَال لأَصْحَابِهِ يَوْمًا، عَلى أَثَر سَمَاء أَصَابَتْهُمْ مِنَ اللَّيْل: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَال رَبّكُمْ؟». قَالُوا: الله وَرَسُوله أَعْلم. قَال: «قَال: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِن بِي وَكَافِر، فَأَمَّا مَنْ قَال: مُطِرْنَا بِفَضْل الله وَرَحْمَته فَذَاكَ مُؤْمِن بِي كَافِر بِالكَوْكَب، وَأَمَّا مَنْ قَال: مُطِرْنَا بِنَوْء كَذَا وَكَذَا فَذَاكَ كَافِر بِي، مُؤْمِن بِالكَوْكَب».(2)

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾، يَدْعُوهُمْ إِلى الله ﷻ، وَلكِنَّا خَصَصْنَاك، يَا مُحَمَّد، بِالبَعْثَةِ إِلى جَمِيع أَهْل الأَرْض، وَأَمَرْنَاك أَنْ تُبَلِّغ النَّاس هَذَا القُرْآن، ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾، ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «بُعِثْت إِلى الأَحْمَر وَالأَسْوَد». وَفِيهِمَا: «وَكَانَ النَّبِيّ يُبْعَث إِلى قَوْمه خَاصَّة وَبُعِثْت إِلى النَّاس عَامَّة»؛ وَلهَذَا قَال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ يَعْنِي: القُرْآن؛ قَالهُ ابْن عَبَّاس: ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾. كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أَيْ: خَلقَ المَاءَيْنِ: الحُلو وَالمِلح، فَالحُلو كَالأَنْهَارِ وَالعُيُون وَالآبَار، وَهَذَا هُوَ البَحْر الحُلو الفُرَات العَذْب الزُّلال؛ قَالهُ ابْن جُرَيْج، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير، وَهَذَا الذي لا شَكّ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الوُجُود بَحْر سَاكِن وَهُوَ عَذْب فُرَات. وَالله سُبْحَانه إِنَّمَا أَخْبَرَ عن الوَاقِع لِيُنَبِّه العِبَاد عَلى نِعَمِه عَلَيْهِمْ لِيَشْكُرُوهُ، فَالبَحْر العَذْب هُوَ هَذَا السَّارِح بَيْن النَّاس، فَرَّقَهُ تَعَالى بَيْن خَلقه لاحْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ أَنْهَارًا وَعُيُونًا فِي كُلّ أَرْض بِحَسَب حَاجَتهمْ وَكِفَايَتهمْ لأَنْفُسِهِمْ وَأَرَاضِيهِمْ.

وَقَوْله: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أَيْ: مَالح مُرّ زُعَاق لا يُسْتَسَاغ، وَذَلكَ كَالبِحَارِ المَعْرُوفَة فِي المَشَارِق وَالمَغَارِب،

---

(١) إسناده ضعيف لإرساله.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٧١).

البَحْر المُحِيط وَمَا يَتَّصِل بِهِ مِنْ الزُّقَاق وَبَحْر القُلْزُم، وَبَحْر اليَمَن، وَبَحْر البَصْرَة، وَبَحْر فَارِس، وَبَحْر الصِّين وَالهِنْد، وَبَحْر الرُّوم، وَبَحْر الخَزَر، وَمَا شَاكَلهَا وَشَابَهَهَا مِنْ البِحَار السَّاكِنَة الَّتِي لا تَجْرِي، وَلكِنْ تتموج وَتَضْطَرِب وَتَلتَطِم فِي زَمَن الشِّتَاء وَشِدَّة الرِّيَاح، وَمِنْهَا مَا فِيهِ مَدّ وَجَزْر، فَفِي أَوَّل كُلّ شَهْر يَحْصُل مِنْهَا مَدّ وَفَيْض، فَإِذَا شَرَعَ الشَّهْر فِي النُّقْصَان جَزَرَتْ، حَتَّى تَرْجِع إِلى غَايَتهَا الأُولى، فَإِذَا اسْتَهَلَّ الهِلال مِنْ الشَّهْر الآخَر شَرَعَتْ فِي المَدّ إِلى اللَّيْلة الرَّابِعَة عَشْرَة ثُمَّ تَشْرَع فِي النَّقْص، فَأَجْرَى الله سُبْحَانه وَتَعَالى -وله القُدْرَة التَّامَّة- العَادَة بِذَلك. فَكُلّ هَذِهِ البِحَار السَّاكِنَة خَلقَهَا الله سُبْحَانه وَتَعَالى مَالِحَة المَاء، لِئَلَّا يَحْصُل بِسَبَبِهَا نَتْن الهَوَاء، فَيَفْسُد الوُجُود بِذَلك، وَلِئَلَّا تَجْوَى الأَرْض بِمَا يَمُوت فِيهَا مِنْ الحَيَوَان. وَلـمَّا كَانَ مَاؤُهَا مِلحًا كَانَ هَوَاؤُهَا صَحِيحًا وَمَيْتَتهَا طَيِّبَة؛ وَلهَذَا قَال رَسُول الله ﷺ وَقَدْ سُئِل عَنْ مَاء البَحْر: أَنَتَوَضَّأُ بِهِ؟ فَقَال: «**هُوَ الطَّهُور مَاؤُهُ، الحِلّ مَيْتَته**».[1] رَوَاهُ الأَئِمَّة: مَالك، وَالشَّافِعِيّ، وَأَحْمَد، وَأَهْل السُّنَن، بِإِسْنَادٍ جَيِّد.

وَقَوْله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا﴾ أَيْ: بَيْن العَذْب وَالمَالح ﴿بَرْزَخًا﴾ أَيْ: حَاجِزًا وَهُوَ اليَبس مِنْ الأَرْض ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أَيْ: مَانِعًا مِنْ أَنْ يَصِل أَحدهمَا إِلى الآخر، كما قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وقال تَعَالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، أَيْ: خَلقَ الإِنْسَان مِنْ نُطْفَة ضَعِيفَة فَسَوَّاهُ وَعَدَّلهُ، وَجَعَلهُ كَامِل الخِلقَة، ذَكَرًا أو أُنْثَى، كَمَا يَشَاء، ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾، فَهُوَ فِي ابْتِدَاء أَمْره وَلد نَسِيب، ثُمَّ يَتَزَوَّج فَيَصِير صِهْرًا، ثم يَصِير لهُ أَصْهَار وَأَخْتَان وَقَرَابَات. وَكُلّ ذَلكَ مِنْ مَاء مَهِين؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ جَهْل المُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتهمْ غَيْر الله مِنْ الأَصْنَام، الَّتِي لا تَمْلك لهم نَفْعًا وَلا ضَرًّا، بِلا دَليل قَادَهُمْ إِلى ذَلكَ، وَلا حُجَّة أَدَّتْهُمْ إِليْهِ، بَل بِمُجَرَّدِ الآرَاء وَالتَّشَهِّي وَالأَهْوَاء، فَهُمْ يُوَالُو هم وَيُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلهمْ وَيُعَادُونَ الله وَرَسُوله فِيهِمْ وَلهَذَا قَال: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾. أَيْ: عَوْنًا فِي سَبِيل الشَّيْطَان عَلى حِزْب الله، وَحِزْب الله هُمْ الغَالبُونَ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾. أَيْ: آلهَتهمْ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُون الله لا تَمْلك لهُمْ نَصْرًا، وَهَؤُلاءِ الجَهَلة للأَصْنَام جُنْد مُحْضَرُونَ يُقَاتِلُونَ عَنْهُمْ، وَيَذُبُّونَ عَنْ حَوْزَتهمْ، وَلكِنَّ العَاقِبَة وَالنُّصْرَة لله وَلرَسُولهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

قَال مُجَاهِد: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ قَال: يُظَاهِر الشَّيْطَان عَلى مَعْصِيَة الله: يُعِينهُ، وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ يَقُول: عَوْنًا للشَّيْطَانِ عَلى رَبّه بِالعَدَاوَةِ وَالشِّرْك. وَقَال زَيْد بْن أَسْلم:

---

(١) صحيح: تقدم.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾، قَال: مُوَاليًا. ثُمَّ قَال تَعَالى لرَسُولهِ صَلوَات الله وَسَلامه عَليْهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أَيْ: بَشِيرًا للمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرًا للكَافِرِينَ، مُبَشِّرًا بِالجَنَّةِ لمَنْ أَطَاعَ الله، وَنَذِيرًا بيْن يَدَيْ عَذَاب شَدِيد لمَنْ خَالفَ أَمْر الله.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾. أي: على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾. أي: طريقًا ومسلكًا ومنهجًا يقتدي فيها بما جئت به.

ثُمَّ قَال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾. أَيْ: فِي أُمُورك كُلّهَا كُنْ مُتَوَكِّلًا عَلى الله الحَيّ الَّذِي لا يَمُوت أَبَدًا، الَّذِي هُوَ ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ الدَّائِم البَاقِي السَّرْمَدِيّ الأَبَدِيّ، الحَيّ القَيُّوم رَبّ كُلّ شَيْء وَمَليكه، اجْعَلهُ ذُخرك وَمَلجَأَك، وَهُوَ الَّذِي يُتَوكَّل عَليْهِ وَيُفْزَع إِليْهِ، فَإِنَّهُ كَافِيك وَنَاصِرك وَمُؤَيِّدك وَمُظَفِّرك، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾.

وقال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثنَا عَبْد الله بْن مُحَمَّد بن عَليّ بْن نُفَيْل قَال: قَرَأْت عَلى مَعْقِل -يَعْنِي: ابْن عُبَيْد الله- عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي حُسَيْن، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب قَال: لقِيَ سَلمَان رسول الله ﷺ فِي بَعْض فِجَاج المَدِينَة فَسَجَدَ لهُ، فقَال: لا تَسْجُد لي يَا سَلمَان، وَاسْجُدْ للحَيِّ الَّذِي لا يَمُوت.[1] وَهَذَا مُرْسَل حَسَن.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ﴾، أَيْ: اقْرِنْ بَيْن حَمْده وَتَسْبِيحه، وَلهَذَا كَانَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «سُبْحَانك اللَّهُمَّ رَبّنَا وَبِحَمْدِك!». أَيْ: أَخْلص لهُ العِبَادَة وَالتَّوكُّل، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، وَقَال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾، ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾، أَيْ: لعِلمِهِ التَّامّ الَّذِي لا يَخْفَى عَليْهِ خَافِيَة، وَلا يَعْزُب عَنْهُ مِثْقَال ذَرَّة. وَقَوْله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، أَيْ: هُوَ الحَيّ الَّذِي لا يَمُوت، وَهُوَ خَالق كُلّ شَيْء وَرَبّه وَمَليكه، الَّذِي خَلقَ بِقُدْرَتِهِ وَسُلطَانه السَّمَوَات السَّبْع، فِي ارْتِفَاعهَا وَاتِّسَاعهَا، وَالأَرْضِينَ السَّبْع فِي سُفُولهَا وَكَثَافَتهَا، ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾، أَيْ: يُدَبِّر الأَمْر وَيَقْضِي الحَقّ، وَهُوَ خَيْر الفَاصِلينَ.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، أَيْ: اسْتَعْلمْ عَنْهُ مَنْ هُوَ خَبِير بِهِ عَالم بِهِ فَاتَّبِعْهُ وَاقْتَدِ بِهِ، وَقَدْ عُلمَ أَنَّهُ لا أَحَد أَعْلم بالله وَلا أَخْبَر بِهِ مِنْ عَبْده وَرَسُوله مُحَمَّد -صَلوَات الله وَسَلامه على سَيِّد وَلد آدَم عَلى الإِطْلاق، فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة- الَّذِي لا يَنْطِق عَنْ الهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْي يُوحَى، فَمَا قَالهُ فَهُوَ الحَقّ وَمَا أَخْبَرَ بِهِ فَهُوَ صِدْق، وَهُوَ الإِمَام المُحَكَّم الَّذِي إِذَا تَنَازَعَ النَّاس فِي شَيْء وَجَبَ رَدّ نِزَاعهمْ إِليْهِ، فَمَا يوافق أَقْوَاله وَأَفْعَاله فَهُوَ الحَقّ، وَمَا يُخَالفَهَا فَهُوَ مَرْدُود عَلى قَائِله وَفَاعِله، كَائِنًا مَنْ كَانَ، قَال الله تَعَالى: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، وَقَال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾، أَيْ: صِدْقًا فِي الإِخْبَار، وَعَدْلًا فِي الأَوَامِر وَالنَّوَاهِي، وَلهَذَا قَال: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، قَال مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، قَال: مَا أَخْبَرْتُك مِنْ شَيْء فَهُوَ كَمَا أَخْبَرْتُك. وَكَذَا قَال ابْن جُرَيْج.

وَقَال شِمْر بْن عَطِيَّة فِي قَوْله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ قال: هَذَا القُرْآن خَبِير بِهِ. ثُمَّ قَال تَعَالى مُنْكِرًا عَلى

(١) ضعيف: تقدم.

المُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَسْجُدُونَ لغَيْرِ الله مِنَ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أَيْ: لا نَعْرِف الرَّحْمَن؟ وَكَانُوا يُنْكِرُونَ أَنْ يُسَمَّى الله بِاسْمِهِ الرَّحْمَن كَمَا أَنْكَرُوا ذَلِكَ يَوْم الحُدَيْبِيَة حِين قَال النَّبِيّ ﷺ للكَاتِبِ: «اكْتُبْ بِسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحِيم». فَقَالُوا: لا نَعْرِف الرَّحْمَن ولا الرحيم، وَلكِنْ اكْتُبْ كَمَا كُنْت تَكْتُب: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ.[1] وَلِهَذَا أَنْزَل الله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أَيْ: هُوَ الله وَهُوَ الرَّحْمَن. وَقَال فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أَيْ: لا نَعْرِفهُ وَلا نُقِرّ بِهِ، ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أَيْ: لِمُجَرَّدِ قَوْلك؟ ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾؛ أَمَّا المُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الله الَّذِي هُوَ الرَّحْمَن الرَّحِيم، وَيُفْرِدُونَهُ بِالإِلَهِيَّةِ وَيَسْجُدُونَ لَهُ. وَقَدْ اتَّفَقَ العُلَمَاء -رَحِمَهُمْ الله- عَلَى أَنَّ هَذِهِ السَّجْدَة الَّتِي فِي الفُرْقَان مَشْرُوع السُّجُود عِنْدَهَا لقَارِئِهَا وَمُسْتَمِعِهَا، كَمَا هُوَ مُقَرَّر فِي مَوْضِعه، وَالله أَعْلَم.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

يَقُول تَعَالى، مُمَجِّدًا نَفْسه، وَمُعَظِّمًا عَلى جَمِيل مَا خَلقَ فِي السَّمَوَات مِنْ البُرُوج -وَهِيَ الكَوَاكِب العِظَام، فِي قَوْل مُجَاهِد، وَسَعِيد بن جُبَيْر، وَأَبِي صَالح، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَقِيل: هِيَ قُصُور فِي السَّمَاء للحَرَسِ، يُرْوَى هَذَا عَنْ عَلِيّ، وَابْن عَبَّاس، وَمُحَمَّد بْن كَعْب، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَسُلَيْمَان بْن مِهْرَان الأَعْمَش، وَهُوَ رِوَايَة عَنْ أَبِي صَالح أَيْضًا، وَالقَوْل الأَوَّل أَظْهَر. اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُون الكَوَاكِب العِظَام هِيَ قُصُور للحَرَسِ، فَيَجْتَمِع القَوْلانِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾، وَهِيَ الشَّمْس المُنِيرَة، الَّتِي هِيَ كَالسِّرَاجِ فِي الوُجُود، كَمَا قَال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾، أَيْ: مُضِيئًا مُشْرِقًا بِنُورٍ آخَر، ونوع وفن آخر غَيْر نُور الشَّمْس، كَمَا قَال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾، وَقَال مُخْبِرًا عَنْ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِنَّهُ قَال لقَوْمِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، ثُمَّ قَال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾، أَيْ: يَخْلُف كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا الآخر، يَتَعَاقَبَانِ، إِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا، وَإِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ ذَاكَ، كَمَا قَال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وَقَال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾. وَقَال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، أَيْ: جَعلهُمَا يَتعَاقَبَانِ، تَوْقِيتًا لعِبَادَةِ عِبَاده لهُ، فَمَنْ فَاتَهُ عَمَل فِي اللَّيْل اسْتَدْرَكَهُ فِي النَّهَار، وَمَنْ فَاتَهُ عَمَل فِي النَّهَار اسْتَدْرَكَهُ فِي اللَّيْل. وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيث الصَّحِيح: **«إِنَّ الله تعالى يَبْسُط يَده بالليْل ليَتُوبَ مُسِيء النَّهَار، وَيَبْسُط يَده بالنَّهَارِ ليَتُوبَ مُسِيء الليْل»**[2]. وَقَال أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو حُرَّة، عَنْ الحَسَن: أَنَّ عُمَر بْن الخَطَّاب أَطَال صَلاة الضُّحَى، فَقِيل لهُ: صَنَعْت اليَوْم شَيْئًا لمْ تَكُنْ تَصْنَعهُ؟ فَقَال: إِنَّهُ بَقِيَ عَلَيَّ مِنْ وِرْدِي شَيْء، فَأَحْبَبْت أَنْ أُتِمَّهُ -أَوْ قَال: أَقْضِيه- وَتَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٥٩).

يَقُول: مَنْ فَاتَهُ شَيْء مِنَ اللَّيْل أَنْ يَعْمَلهُ، أَدْرَكَهُ بِالنَّهَارِ، أَوْ مِنَ النَّهَار أَدْرَكَهُ بِاللَّيْل. وَكَذَا قَال عِكْرِمَة وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالحَسَن. وَقَال مُجَاهِد وَقَتَادَة: ﴿خِلْفَةً﴾، أَيْ: مُخْتَلِفِينَ، هَذَا بِسَوَادِهِ، وَهَذَا بِضِيَائِهِ.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

هَذِهِ صِفَات عِبَاد الله المُؤْمِنِينَ ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أَيْ: بِسَكِينَةٍ وَوَقَار مِنْ غَيْر جَبْرِيَّة وَلا اسْتِكْبَار، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾. فَأَمَّا هَؤُلاءِ فَإِنَّهُمْ يَمْشُونَ مِنْ غَيْر اسْتِكْبَار وَلا مَرح وَلا أَشَر وَلا بَطَر، وَلَيْسَ المُرَاد أَنَّهُمْ يَمْشُونَ كَالمَرْضَى من البضائع وتَصَنُّعًا وَرِيَاء، فَقَدْ كَانَ سَيِّد وَلد آدَم ﷺ، إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطّ مِنْ صَبَب، وَكَأَنَّمَا الأَرْض تُطْوَى لهُ، وَقَدْ كَرِهَ بَعْض السَّلف المَشْي بِتَضَعُّفٍ وَتَصَنُّع حَتَّى رُوِيَ عَنْ عُمَر أَنَّهُ رَأَى شَابًّا يَمْشِي رُوَيْدًا، فَقَال: مَا بَالك؟ أَأَنْت مَرِيض؟ قَال: لا، يَا أَمِير المُؤْمِنِينَ. فَعَلاهُ بِالدِّرَّةِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَمْشِيَ بِقُوَّةٍ. وَإِنَّمَا المُرَاد بِالهَوْنِ ههنا: السَّكِينَة وَالوَقَار، كَمَا قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِذَا أَتَيْتُمْ الصَّلاة فَلا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَة، فَمَا أَدْرَكْتُمْ مِنْهَا فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا**»[1]. وَقَال عَبْد الله بْن المُبَارَك، عَنْ مَعْمَر، عَنْ يحيى بْن المُخْتَار، عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ فِي قَوْله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، قَال: إِنَّ المُؤْمِنِينَ قَوْم ذُلُل ذَلَّتْ مِنْهُمْ وَالله الأَسْمَاع وَالأَبْصَار وَالجَوَارِح، حَتَّى تَحْسَبهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالقَوْمِ مِنْ مَرَض، وَإِنَّهُمْ لأَصِحَّاء، وَلكِنَّهُمْ دَخَلهُمْ مِنَ الخَوْف مَا لمْ يَدْخُل غَيْرهمْ، وَمَنَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا عِلمهمْ بِالآخِرَةِ فَقَالُوا: الحَمْد لله، الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَن. أَمَا وَالله، مَا أَحْزَنَهُمْ حُزْن النَّاس، وَلا تَعَاظَمَ فِي نُفُوسهمْ شَيْء طَلبُوا بِهِ الجَنَّة، أَبْكَاهُمْ الخَوْف مِنَ النَّار إِنَّهُ مَنْ لمْ يَتَعَزَّ بِعَزَاءِ الله تُقَطَّع نَفْسه عَلى الدُّنْيَا حَسَرَات، وَمَنْ لمْ يَرَ لله نِعْمَة إِلَّا فِي مَطْعَم أَوْ مَشْرَب، فَقَدْ قَلَّ عِلمه وَحَضَرَ عَذَابه.

وَقَوْله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أَيْ: إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِمْ الجُهَّال بالسَّيِّئ، لمْ يُقَابِلُوهُمْ عَلَيْهِ بِمِثْلِهِ، بَل يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ، وَلا يَقُولُونَ إِلَّا خَيْرًا، كَمَا كَانَ رَسُول الله ﷺ لا تَزِيدهُ شِدَّة الجهل عَلَيْهِ إِلَّا حِلمًا، وَكَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.
وقال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَسْوَد بْن عَامِر، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي خَالد الوَالبِيّ، عَنْ النُّعْمَان بْن مُقَرِّن المُزَنِيّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ [وَسَبَّ رَجُل رَجُلًا عِنْده قال: فَجَعَل الرجل المَسْبُوب يَقُول: عَليْك السَّلام. قال: فَقَال رَسُول الله ﷺ: «أَمَا][2] **إِنَّ مَلكًا بَيْنكُمَا يَذُبّ عَنك، كُلَّمَا شَتَمَك هَذَا قَال لهُ: بَل أَنْتَ، وَأَنْتَ أَحَقّ بِهِ. وَإِذَا قَال لهُ: وَعَلَيْك السَّلام، قَال: لا، بَل عَليْك وَأَنْتَ أَحَقّ بِهِ**»[3]. إِسْنَاده حَسَن وَلمْ يُخَرِّجُوهُ.

وَقَال مُجَاهِد: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾، يَعْنِي قَالُوا: سَدَادًا. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: رَدُّوا مَعْرُوفًا مِنَ القَوْل. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ قال: حلماء لا يجهلون وإن جَهِل عَلَيْهِمْ حَلُمُوا، يُصَاحِبُونَ عِبَاد الله نَهَارهمْ بِمَا يَسْمَعُونَ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ لَيْلهمْ خَيْر لَيْل.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٥)، ومسلم (٦٠٣).
(٢) سقط من (ز).
(٣) حسن: أخرجه أحمد (٥/ ٤٤٥).

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾، أَيْ: فِي عبادته وطاعته، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾، وقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾. وَقَال: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ الآية. وَلهَذَا قَال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾، أَيْ: مُلازِمًا دَائِمًا، كَمَا قَال الشَّاعِر:

إِنْ يُعَذِّبْ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُعْـ ۞ ـطِ جَزِيلاً فَإِنَّهُ لا يُبَالِي

وَلهَذَا قَال الحَسَن فِي قَوْله: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾: كُلّ شَيْء يُصِيب ابْن آدَم وَيَزُول عَنْهُ فَلَيْس بِغَرَام، وَإِنَّمَا الغَرَام اللَّازِم مَا دَامَتْ السَّمَوَات وَالأَرْض. وَكَذَا قَال سُلَيْمَان التَّيْمِيّ. وَقَال مُحَمَّد بْن كَعْب: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾، يَعْنِي: مَا نَعِمُوا فِي الدُّنْيَا؛ إِنَّ سأل الله الكُفَّار عَنْ النِّعْمَة فَلَمْ يَرُدُّوهَا إِلَيْهِ فَأَغْرَمهُمْ فَأَدْخَلهُمْ النَّار.

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾، أَيْ: بِئْسَ المَنْزِل مَنْظَرًا، وَبِئْسَ المَقِيل مَقَامًا. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم عِنْد قَوْله: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن الرَّبِيع، حَدَّثَنَا أَبُو الأَحْوَص، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ مَالك بْن الحَارِث، قَال: إِذَا طُرِحَ الرَّجُل فِي النَّار هَوَى فِيهَا، فَإِذَا انْتَهَى إِلَى بَعْض أَبْوَابهَا قِيل لهُ: مَكَانك حَتَّى تُتْحِف، قَال: فَيُسْقَى كَأْسًا مِنْ سُمّ الأَسَاوِد وَالعَقَارِب، قَال: فَيَمِيز الجِلد عَلَى حِدَة، وَالشَّعْر عَلَى حِدَة، وَالعَصَب عَلَى حِدَة، وَالعُرُوق عَلَى حِدَة. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن الرَّبِيع، حَدَّثَنَا أَبُو الأَحْوَص، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ عُبَيْد بْن عُمَيْر؛ قَال: إِنَّ فِي النَّار لَجِبَابًا فِيهَا حَيَّات أَمْثَال البُخْت، وَعَقَارِب أَمْثَال البِغَال الدُّلْم، فَإِذَا قُذِفَ بِهِمْ فِي النَّار خَرَجَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَوْطَانهَا، فَأَخَذَتْ بِشِفَاهِهِمْ وَأَبْشَارهِمْ وَأَشْعَارهِمْ، فَكَشَطَتْ لُحُومهمْ إِلَى أَقْدَامهمْ، فَإِذَا وَجَدَتْ حَرّ النَّار رَجَعَتْ.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا الحَسَن بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا سَلَّام -يَعْنِي ابْن مِسْكِين- عَنْ أَبِي ظِلال، عَنْ أَنَس بْن مَالك رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «إِنَّ عَبْدًا فِي جَهَنَّم لَيُنَادِي أَلْف سَنَة: يَا حَنَّان! يَا مَنَّان! فَيَقُول الله لِجِبْرِيل: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِعَبْدِي هَذَا. فَيَنْطَلِق جِبْرِيل فَيَجِد أَهْل النَّار مُنْكَبِين يَبْكُونَ، فَيَرْجِع إِلَى رَبّه، فَيُخْبِرهُ فَيَقُول الله لأ: ائْتِنِي بِهِ فَإِنَّهُ فِي مَكَان كَذَا وَكَذَا. فَيَجِيء بِهِ فَيُوقِفهُ عَلَى رَبّه عز وجل، فَيَقُول لهُ: يَا عَبْدِي، كَيْف وَجَدْت مَكَانك وَمَقِيلك؟ فَيَقُول: يَا رَبّ، شَرّ مَكَان وَشَرّ مَقِيل، فَيَقُول: رُدُّوا عَبْدِي. فَيَقُول: يَا رَبّ، مَا كُنْت أَرْجُو إِذْ أَخْرَجْتنِي مِنْهَا أَنْ تَرُدّنِي فِيهَا! فَيَقُول: دَعُوا عَبْدِي».[1]

وَقَوْله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾، أَيْ: لَيْسُوا بِمُبَذِّرِينَ فِي إِنْفَاقهمْ فَيَصْرِفُونَ فَوْق الحَاجَة، وَلا بُخَلاء عَلَى أَهْلِيهِمْ فَيُقَصِّرُونَ فِي حَقّهمْ فَلا يَكْفُونَهُمْ، بَل عَدْلًا خِيَارًا، وَخَيْر الأُمُور أَوْسَطهَا، لا هَذَا وَلا هَذَا، ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾، كَمَا قَال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عِصَام بْن خَالد، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن عَبْد الله بْن أَبِي مريم الغَسَّانِيّ، عَنْ ضَمْرَة، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «مِنْ فِقْه الرَّجُل رفقه فِي مَعِيشَته»[2]. لمْ يُخَرِّجُوهُ. وَقَال الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدَة الحَدَّاد، حَدَّثَنَا سُكَيْن بْن عَبْد العَزِيز العَبْدِيّ،

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه أحمد (١٢٩٣١)، وسنده ضعيف جدًا.
(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ١٩٤) وسنده ضعيف، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٣٠٨).

حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم الهَجَرِيّ، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَا عَال مَنْ اقْتَصَدَ»(١). لم يُخَرِّجُوهُ.

وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثنا أَحْمَد بْن يَحْيَى، حَدَّثنَا إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد بْن مَيْمُون، حَدَّثَنَا سَعْيد بْن حَكِيم، عَنْ مُسْلم بْن حَبِيب، عَنْ بِلَال -يَعْنِي العَبْسِيّ- عَنْ حُذَيْفَة؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَا أَحْسَن القَصْد فِي الغِنَى، وَأَحْسَن القَصْد فِي الفَقْر، وَأَحْسَن القَصْد فِي العِبَادَة»(٢). ثُمَّ قَال: لا نَعْرِفهُ يُرْوَى إِلَّا مِنْ حَدِيث حُذَيْفَة ﷺ. وَقَال إِيَاس بْن مُعَاوِيَة: مَا جَاوَزْت بِهِ أَمْر الله فَهُوَ سَرَف. وَقَال غَيْره: السَّرَف: النَّفَقَة فِي مَعْصِيَة الله. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: لَيْسَ فِي النَّفَقَة فِي سَبِيل الله سَرَف.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ شَقِيق، عَنْ عَبْد الله -هُوَ ابْن مَسْعُود- قَال: سُئِل رَسُول الله ﷺ أَيّ الذَّنْب أَكْبَر؟ قَال: «**أَنْ تَجْعَل لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك**». قَال: ثُمَّ أَيّ؟ قَال: «**أَنْ تَقْتُل وَلَدك خَشْيَة أَنْ يَطْعَم مَعَك**». قَال: ثُمَّ أَيّ؟ قَال: «**أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِك**». قَال عَبْد الله: وَأَنْزَل الله تَصْدِيق ذَلِكَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾(٣).

وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيّ عَنْ هَنَّاد بْن السَّرِيّ عَنْ أَبِي مُعَاوِيَة، بِهِ. وَقَدْ أَخْرَجَهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم، مِنْ حَدِيث الأَعْمَش وَمَنْصُور -زَادَ البُخَارِيّ: وَوَاصِل- ثَلَاثَتهمْ عَنْ أَبِي وَائِل، شَقِيق بْن سَلَمَة، عَنْ أَبِي مَيْسَرَة عَمْرو بْن شُرَحْبِيل، عَنْ ابْن مَسْعُود، بِهِ. فَالله أَعْلَم، وَلَفْظهمَا عَنْ ابْن مَسْعُود قَال: قُلت: يَا رَسُول الله، أَيّ الذَّنْب أَعْظَم...؟ الحَدِيث، طَرِيق غَرِيب.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن إِسْحَاق الأَهْوَازِيّ، حَدَّثَنَا عَامِر بْن مُدْرِك، حَدَّثَنَا السَّرِيّ -يَعْنِي ابن إِسْمَاعِيل- حَدَّثَنَا الشَّعْبِيّ، عَنْ مَسْرُوق؛ قَال: قَال عَبْد الله: خَرَجَ رَسُول الله ﷺ ذَات يَوْم فَاتَّبَعْته، فَجَلَسَ عَلَى نَشْز مِنْ الأَرْض، وَقَعَدْت أَسْفَل مِنْهُ، وَوَجْهِي حِيَال رُكْبَتَيْهِ، وَاغْتَنَمْت خَلْوَته فَقُلت: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُول الله! أَيّ الذنوب أَكْبَر؟ قَال: «**أَنْ تَدْعُو لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَك**». قُلت: ثُمَّ مَهْ؟ قَال: «**أَنْ تَقْتُل وَلَدك كَرَاهِيَة أَنْ يَطْعَم مَعَك**». قُلت: ثُمَّ مَهْ؟ قَال: «**أَنْ تُزَانِي حَلِيلة جَارك**». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الآيَة.

وَقَال النَّسَائِيّ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَة بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ مَنْصُور، عَنْ هِلَال بْن يَسَاف، عَنْ سَلَمَة بْن قَيْس؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ فِي حَجَّة الوَدَاع: «**أَلَا إِنَّمَا هِيَ أَرْبَع**». فَمَا أَنَا بِأَشَحّ عَلَيْهِنَّ مني مُنْذُ سَمِعْتهنَّ مِنْ رَسُول الله ﷺ: «**لا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْس الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالحَقّ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا**»(٤).

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن المَدِينِيّ رَحِمَهُ اللهُ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن فُضَيْل بْن غَزْوَان، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سعد

---

(١) **ضعيف**: تقدم.

(٢) **ضعيف جدًا**: أخرجه البزار (٣٦٠٤)، وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٩٨٤): ضعيف جدًا.

(٣) **صحيح**: تقدم.

(٤) **صحيح**: أخرجه النسائي (٦/ ٤٢٢).

الأَنْصَارِيّ، سَمِعْت أَبَا طِيبَة الكَلَاعِيّ، سَمِعْت المِقْدَاد بْن الأَسْوَد ﷺ يَقُول: قَال رَسُول الله ﷺ لأَصْحَابِهِ: «مَا تَقُولُونَ فِي الزِّنَا؟». قَالُوا: حَرَّمَهُ الله وَرَسُوله، فَهُوَ حَرَام إِلى يَوْم القِيَامَة، فَقَال رَسُول الله ﷺ لأَصْحَابِهِ: «لأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُل بِعَشْرِ نِسْوَة أَيْسَر عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَاره». قَال: «فَمَا تَقُولُونَ فِي السَّرِقَة؟». قَالُوا: حَرَّمَهَا الله وَرَسُوله، فَهِيَ حَرَام قَال: «لأَنْ يَسْرِق الرَّجُل مِنْ عَشَرَة أَبْيَات أَيْسَر له مِنْ أَنْ يَسْرِق مِنْ جَاره»[1]. وَقَال أَبُو بَكْر ابْن أَبِي الدُّنْيَا: حَدَّثَنَا عَمَّار بْن نَصْر، حَدَّثَنَا بَقِيَّة، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي مَرْيَم، عَنْ الهَيْثَم بْن مَالك الطَّائِيّ عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «مَا مِنْ ذَنْب بَعْد الشِّرْك أَعْظَم عِنْد الله مِنْ نُطْفَة وَضَعَهَا رَجُل فِي رَحِم لا يَحِلّ لهُ»[2].

وَقَال ابْن جُرَيْج: أَخْبَرَنِي يَعْلى، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر: أَنَّهُ سمعه يحدث عن ابْن عَبَّاس: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْل الشِّرْك قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا فَأَكْثَرُوا، ثُمَّ أَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُول وَتَدْعُو إِلَيْهِ لحَسَن، لوْ تُخْبِرنَا أَنَّ لمَا عَمِلنَا كَفَّارَة، فَنَزَلتْ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾، وَنَزَلتْ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عُمَر، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَمْرو، عَنْ أَبِي فَاخِتَة؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ لرَجُلٍ: «**إِنَّ الله يَنْهَاك أَنْ تَعْبُد المَخْلُوق وَتَدَع الخَالق، وَيَنْهَاك أَنْ تَقْتُل وَلدك وَتَغْذُو كَلبك، وَيَنْهَاك أَنْ تَزْنِيَ بِحَليلةِ جَارك**»[3]. قَال سُفْيَان: وَهُوَ قَوْله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾ رُوِيَ عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو أَنَّهُ قَال: ﴿أَثَامًا﴾ وَادٍ فِي جَهَنَّم. وَقَال عِكْرِمَة: ﴿يَلۡقَ أَثَامًا﴾، أَوْدِيَة فِي جَهَنَّم يُعَذَّب فِيهَا الزُّنَاة. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر وَمُجَاهِد. وَقَال قَتَادَة: ﴿يَلۡقَ أَثَامًا﴾ نَكَالًا، كُنَّا نُحَدَّث أَنَّهُ وَادٍ فِي جَهَنَّم.

وَقَدْ ذُكِرَ لنَا أَنَّ لُقْمَان كَانَ يَقُول: يَا بُنَيّ، إِيَّاكَ وَالزِّنَا! فَإِنَّ أَوَّله مَخَافَةٌ، وَآخِرَهُ نَدَامَةٌ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ ابْن جَرِير وَغَيْره، عَنْ أَبِي أُمَامَة البَاهِلِيّ -مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا-: أَنَّ «غَيًّا» وَ«أَثَامًا» بِئْرَانِ فِي قَعْر جَهَنَّم. أَجَارَنَا الله منها بِمَنِّهِ وَكَرَمه! وَقَال السُّدِّيّ: ﴿يَلۡقَ أَثَامًا﴾ جَزَاء. وَهَذَا أَشْبَه بِظَاهِرِ الآيَة، وَبِهَذَا فَسَّرَهُ بِمَا بَعْده مُبْدَلًا مِنْهُ، وَهُوَ قَوْله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أَيْ: يُكَرَّر عَليْهِ وَيُغَلَّظ ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ أَيْ: حَقِيرًا ذَليلًا. وَقَوْله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، أَيْ: جَزَاؤُهُ عَلى مَا فَعَل مِنْ هَذِهِ الصِّفَات القَبِيحَة مَا ذُكِرَ ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ فِي الدُّنْيَا إِلى الله مِنْ جَمِيع ذَلكَ، فَإِنَّ الله يَتُوب عَليْهِ. وَفِي ذَلكَ دَلالة عَلى صِحَّة تَوْبَة القَاتِل، وَلا تَعَارُض بَيْن هَذِهِ وَبَيْن آيَة النِّسَاء: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ فَإِنَّ هَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ مَدَنِيَّة إِلَّا أَنَّهَا مُطْلَقَة، فَتُحْمَل عَلى مَنْ لمْ يَتُبْ؛ لأَنَّ هَذِهِ مُقَيَّدَة بِالتَّوْبَة، ثُمَّ قَدْ قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، وَقَدْ ثَبَتَتْ السُّنَّة الصَّحِيحَة، عَنْ رَسُول الله ﷺ بِصِحَّةِ تَوْبَة القَاتِل، كَمَا ذُكِرَ مُقَرَّرًا مِنْ قِصَّة الَّذِي قَتَل مِائَة رَجُل ثُمَّ تَاب، وقبل منه، وَغَيْر ذَلكَ مِنْ الأَحَادِيث.

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (٦/ ٨) بسند ضعيف.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٣٧) بسند ضعيف مرسل، وفيه أبو بكر ابن أبي مريم: ضعيف.

(٣) إسناده صحيح: وعزاه السيوطي لابن أبي حاتم، ورجاله ثقات، ويشهد له ما تقدم من رواية عبد الله بن مسعود.

وَقَوْله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾. فِي مَعْنَى قَوْله: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ قَوْلانِ: أَحدهما: إِنَّهُمْ بُدِّلُوا مَكَان عَمَل السَّيِّئَات بِعَمَل الحَسَنَات، قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ قَال: هُمْ المُؤْمِنُونَ، كَانُوا مِنْ قَبْل إِيمَانهمْ عَلى السَّيِّئَات، فَرَغِبَ الله بِهِمْ عَنْ السَّيِّئَات فَحَوَّلهُمْ إِلى الحَسَنَات، فَأَبْدَلهُمْ مَكَان السَّيِّئَات الحَسَنَات. وَرَوَي مُجَاهِد عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ كَانَ يُنْشِد عِنْد هَذِهِ الآيَة:

بُـــدِّلنَ بَعْـــد حَـــرِّه خَرِيفًـــا ❁ وَبَعْـــد طُـــول الـــنَّفَس الوَجِيفَـــا

يَعْنِي: تَغَيَّرَتْ تِلكَ الأَحْوَال إِلى غَيْرهَا، وَقَال عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح: هَذَا فِي الدُّنْيَا، يَكُون الرَّجُل عَلى هيئة قَبِيحَة، ثُمَّ يُبْدِلهُ الله بِهَا خَيْرًا. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: أَبْدَلهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَان عِبَادَة الله، وَأَبْدَلهُمْ بِقِتَال المُسْلِمِينَ قِتَالاً مع المسلمين للمُشْرِكِينَ، وَأَبْدَلهُمْ بِنِكَاحِ المُشْرِكَات نِكَاح المُؤْمِنَات. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: أَبْدَلهُمْ الله بِالعَمَل السَّيِّئ العَمَل الصَّالح، وَأَبْدَلهُمْ بِالشِّرْكِ إِخْلاصًا، وَأَبْدَلهُمْ بِالفُجُورِ إِحْصَانًا، وَبِالكُفْرِ إِسْلامًا. وَهَذَا قَوْل أَبِي العَالِيَة وَقَتَادَة وَجَمَاعَة آخَرِينَ.

وَالقَوْل الثَّانِي: إِنَّ تِلكَ السَّيِّئَات المَاضِيَة تَنْقَلب بِنَفْسِ التَّوْبَة النَّصُوح حَسَنَات، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لأَنَّهُ كُلَّمَا تَذَكَّرَ مَا مَضَى نَدِمَ وَاسْتَرْجَعَ وَاسْتَغْفَرَ، فَيَنْقَلب الذَّنْب طَاعَة بِهَذَا الاعْتِبَار. فَيَوْم القِيَامَة وَإِنْ وَجَدَهُ مَكْتُوبًا عَليْهِ لكنه لا يَضُرّهُ وَيَنْقَلب حَسَنَة فِي صَحِيفَته، كَمَا ثَبَتَتْ السُّنَّة بِذَلِكَ، وَصَحَّتْ بِهِ الآثَار المَرْوِيَّة عَنْ السَّلف -رحمهم الله تعالى- وهذا سياق الحديث: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سويد، عن أَبِي ذَرّ ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : **«إِنِّي لأَعْرِف آخِر أَهْل النَّار خُرُوجًا مِنْ النَّار، وَآخِر أَهْل الجَنَّة دُخُولاً إِلى الجَنَّة، يُؤْتَى بِرَجُلٍ فَيَقُول: نَحُّوا كِبَار ذُنُوبه وَسَلُوهُ عَنْ صِغَارهَا، قَال: فَيُقَال لهُ: عَمِلت يَوْم كَذَا وَكَذَا كَذَا، وَعَمِلت يَوْم كَذَا وكَذَا كَذَا؟ فَيَقُول: نَعَمْ -لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِر مِنْ ذَلكَ شَيْئًا- فَيُقَال: فَإِنَّ لك بِكُلِّ سَيِّئَة حَسَنَة. فَيَقُول: يَا رَبّ؛ عَمِلت أَشْيَاء لا أَرَاهَا هَهُنَا»**. قَال: فَضَحِكَ رَسُول الله ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذه.[1] انْفَرَدَ به مُسْلم.

وَقَال الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا هَاشِم بْن يَزِيد، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنِي ضَمْضَم بْن زُرْعَة، عَنْ شُرَيْح بْن عُبَيْد، عَنْ أَبِي مَالك الأَشْعَرِيّ؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «إِذَا نَامَ ابْن آدَم قَال المَلك للشَّيْطَانِ: أَعْطِنِي صَحِيفَتَك. فَيُعْطِيه إِيَّاهَا، فَمَا وَجَدَ فِي صَحِيفَته مِنْ حَسَنَةٍ مَحَا بِهَا عَشْر سَيِّئَات مِنْ صَحِيفَة الشَّيْطَان، وَكَتَبَهُنَّ حَسَنَات، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَام أَحَدكُمْ فَليُكَبِّرْ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ تَكْبِيرَة، وَيَحْمَد أَرْبَعًا وَثَلاثِينَ تَحْمِيدَة، وَيُسَبِّح ثَلاثًا وَثَلاثِينَ تَسْبِيحَة، فَتِلكَ مِائَة».[2]

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا أَبُو سَلمَة وَعَارِم؛ قَالا: حَدَّثَنَا ثَابِت -يَعْنِي ابْن يَزِيد- أَبُو زَيْد، حَدَّثَنَا عَاصِم، عَنْ أَبِي عُثْمَان، عَنْ سَلمَان قَال: يُعْطَى الرَّجُل يَوْم القِيَامَة صَحِيفَته فَيَقْرَأ أَعْلاهَا، فَإِذَا سَيِّئَاته، فَإِذَا كَادَ يَسُوء ظَنّه ينظر فِي أَسْفَلهَا فَإِذَا حَسَنَاته، ثُمَّ يَنْظُر فِي أَعْلاهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ بُدِّلتْ حَسَنَات. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا سليمان بْن مُوسَى الزُّهْرِيّ أَبُو دَاوُد، حَدَّثَنَا أَبُو العَنْبَس، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة؛

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (١٩٠).

(٢) ضعيف : أخرجه الطبراني (٣/ ١٩٦)، وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش: ضعيف.

قَال: ليَأْتِيَنَّ الله ﷻ بِأُنَاسٍ يَوْم القِيَامَة رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ اسْتَكْثَرُوا مِنْ السَّيِّئَات، قِيل: مَنْ هُمْ يَا أَبَا هُرَيْرَة؟ قَال: الَّذِينَ يُبَدِّل الله سَيِّئَاتهمْ حَسَنَات.

وَقَال أَيْضًا: حَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا عَبْد الله بْن أَبِي زِيَاد، حَدَّثنَا سَيَّار، حَدَّثنَا جَعْفَر، حَدَّثنَا أَبُو حَمْزَة، عَنْ أَبِي الضيف -وَكَانَ مِنْ أَصْحَاب مُعَاذ بْن جَبَل- قَال: يَدْخُل أَهْل الجَنَّة الجَنَّة عَلى أَرْبَعَة أَصْنَاف: المُتَّقِينَ، ثُمَّ الشَّاكِرِينَ، ثُمَّ الخَائِفِينَ، ثُمَّ أَصْحَاب اليَمِين. قُلت: لِمَ سُمُّوا أَصْحَاب اليَمِين؟ قَال: لأَنَّهُمْ عَمِلُوا الحَسَنَات والسيئات، فَأُعْطُوا كُتُبهمْ بِأَيْمَانِهِمْ، فَقَرَءُوا سَيِّئَاتهمْ حَرْفًا حَرْفًا -قَالُوا: يَا رَبّنَا، هَذِهِ سَيِّئَاتنَا، فَأَيْنَ حَسَنَاتنَا؟ فَعِنْد ذَلكَ مَحَا الله السَّيِّئَات وَجَعَلهَا حَسَنَات، فَعِنْد ذَلكَ قَالُوا: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ فَهُمْ أَكْثَر أَهْل الجَنَّة!

وَقَال عَليّ بْن الحُسَيْن زَيْن العَابِدِينَ: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ قَال: فِي الآخِرَة. وَقَال مَكْحُول: يَغْفِرهَا لهُمْ فَيَجْعَلهَا حَسَنَات. رَوَاهُمَا ابْن أَبِي حَاتِم. وَرَوَى ابْن جَرِير، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيِّب مِثْله.

وقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن الوَزِير الدِّمَشْقِيّ، حَدَّثنَا الوَلِيد بْن مُسْلم، حَدَّثنَا أَبُو جَابِر: أَنَّهُ سَمِعَ مَكْحُولًا يُحَدِّث قَال: جَاءَ شَيْخ كَبِير هَرِم، قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلى عَيْنَيْهِ، فَقَال: يَا رَسُول الله؛ رَجُل غَدَرَ وَفَجَرَ، لمْ يَدَع حَاجَة وَلا دَاجَة إِلَّا اقْتَطَعهَا بِيَمِينِهِ، لوْ قُسِّمَتْ خَطِيئَته بَيْن أَهْل الأَرْض لأَوْبَقَتْهُمْ، فَهَل لهُ مِنْ تَوْبَة؟ فَقَال النَّبِيّ ﷺ : «أَأَسْلمْت؟». قَال: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَد أَنْ لا إِله إِلَّا الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْده وَرَسُوله. فَقَال النَّبِيّ ﷺ : «فَإِنَّ الله غَافِر لك مَا كُنْت كَذَلكَ، وَمُبَدِّل سَيِّئَاتك حَسَنَات». فَقَال: يَا رَسُول الله، وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ فَقَال: «وَغَدَرَاتك وَفَجَرَاتك». فَوَلَّى الرَّجُل يُهَلِّل وَيُكَبِّر.[1]

وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي المُغِيرَة عَنْ صَفْوَان بْن عُمَر عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر عَنْ أَبِي فَرْوَة -شطب- أَنَّهُ أَتَى رَسُول الله ﷺ فَقَال: أَرَأَيْت رَجُلًا عَمِل الذُّنُوب كُلّهَا، وَلمْ يَتْرُك حَاجَة وَلا دَاجَة، فَهَل لهُ مِنْ تَوْبَة؟ فَقَال: «أَسْلمْت؟». فَقَال: نَعَمْ. قَال: «**فَافْعَل الخَيْرَات، وَاتْرُكْ السَّيِّئَات، فَيَجْعَلهَا الله لك خَيْرَات كُلّهَا**». قَال: وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ قَال: «نَعَمْ». قَال: فَمَا زَال يُكَبِّر حَتَّى تَوَارَى.[2] وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ مِنْ طَرِيق أَبِي فَرْوَة الرَّهَاوِيّ، عَنْ يَاسِين الزَّيَّات، عَنْ أَبِي سَلمَة الحِمْصِيّ، عَنْ يَحْيَى بْن جَابِر، عَنْ سَلمَة بْن نُفَيْل مَرْفُوعًا. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثنَا إِبْرَاهِيم بْن المُنْذِر، حَدَّثنَا عِيسَى بْن شُعَيْب بْن ثَوْبَان، عَنْ فُلَيْح الشَّمَّاس، عن عبيد بن أبي عبيد عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: جَاءَتْنِي امْرَأَة فَقَالتْ: هَل لي مِنْ تَوْبَة؟ إِنِّي زَنَيْت وَوَلدْت وَقَتَلته. فَقُلت: لا، وَلا نِعْمَتْ العَيْن وَلا كَرَامَة. فَقَامَتْ وَهِيَ تَدْعُو بِالحَسْرَة، ثُمَّ صَلَّيْت مَعَ النَّبِيّ ﷺ الصُّبْح، فَقَصَصْت عَليْهِ مَا قَالتْ المَرْأَة وَمَا قُلت لهَا. فَقَال رَسُول الله ﷺ : «بِئْسَمَا قُلت! أَمَا كُنْت تَقْرَأ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إِلى قَوْله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾». فَقَرَأْتهَا عَليْهَا، فَخَرَّتْ سَاجِدَة وَقَالتْ: الحَمْد لله الَّذِي جَعَل لي مَخْرَجًا.[3] هَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه، وَفِي رِجَاله مَنْ لا يُعْرَف، وَالله أَعْلم. وَقَدْ رَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ

---

(١) **صحيح مرسل** : صححه الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٣٥٠).

(٢) **إسناده صحيح** : أخرجه الطبراني (٧/ ٣١٤)، قال الهيثمي في «المجمع»: رجال البزار رجال الصحيح غير محمد بن هارون ثقة. وقال الحافظ في «الإصابة» (٣/ ٣٥٠): هو على شرط الصحيح، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٦٤)، وقال رواه البزار والطبراني واللفظ له وإسناده قوي.

(٣) **ضعيف** : أخرجه الطبري (١٩/ ٢٧)، وقال ابن كثير: فيه من لا يعرف. والحديث ضعفه السيوطي في «الدر المنثور».

حَدِيث إِبْرَاهِيم بْن الْمُنْذِر الحِزَامِيّ بِسَنَدِهِ بِنَحْوِهِ، وَعِنْده: فَخَرَجَتْ تَدْعُو بِالحَسْرَةِ وَتَقُول: يَا حَسْرَتَا! أَخُلِقَ هَذَا الحُسْن للنَّارِ؟! وَعِنْده أَنَّهُ لـمَّا رَجَعَ مِنْ عِنْد رَسُول الله ﷺ تطلّبهَا فِي جَمِيع دُور المَدِينَة فَلمْ يَجِدهَا، فَلَمَّا كَانَ مِنْ اللَّيْلَة الْمُقْبِلة جاءَتْهُ، فَأَخْبَرَهَا بِمَا قَال لهُ رَسُول الله ﷺ فَخَرَّتْ سَاجِدَة وَقَالتْ: الحَمْد لله الَّذِي جَعَل لِي مَخْرَجًا وَتَوْبَة مِمَّا عَمِلت. وَأَعْتَقَتْ جَارِيَة كَانَتْ مَعَهَا وَابْنَتها، وَتَابَتْ إِلى الله ﷻ.

ثُمَّ قَال تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ عُمُوم رَحْمَته لِعِبَادِهِ، وَأَنَّهُ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ تَابَ عَلَيْهِ مِنْ أَيِّ ذَنْب كَانَ، جَلِيل أَوْ حَقِير، كَبِير أَوْ صَغِير، فَقَال: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾، أَيْ: فَإِنَّ الله يَقْبَل تَوْبَته، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، وَقَال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وَقَال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أَيْ: لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ صِفَات عِبَاد الرَّحْمَن أَنَّهُمْ: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، قِيل: هُوَ الشِّرْك وَعِبَادَة الأَوثان. وَقِيل: الكَذِب، وَالفِسْق، وَاللَّغْو، وَالبَاطِل. وَقَال مُحَمَّد ابْن الحَنَفِيَّة: اللَّغْو وَالغِنَاء. وَقَال أَبُو العَالِيَة، وَطَاوُس، وَمحمد بْن سِيرِينَ، وَالضَّحَّاك، وَالرَّبِيع بْنِ أَنَس، وَغَيْرهمْ: هي أَعْيَاد الْمُشْرِكِينَ. وَقَال عَمْرو بْن قَيْس: هِيَ مَجَالس السُّوء وَالخَنَا. وَقَال مَالك عَنْ الزُّهْرِيّ: [شُرْب الخَمْر][1] لا يَحْضُرُونَهُ وَلا يَرْغَبُونَ فِيهِ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِن بالله وَاليَوْم الآخِر فَلا يَجْلس عَلى مَائِدَة يُدَار عَلَيْهَا الخَمْر**»[2].

وَقِيل: الْمُرَاد بِقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، أَيْ: شَهَادَة الزُّور، وَهِيَ الكَذِب مُتَعَمِّدًا عَلى غَيْره، كَمَا ثبت في «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي بَكْرَة؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَر الكَبَائِر؟**». ثَلاثًا، قُلنَا: بَلى، يَا رَسُول الله. قَال: «**الشِّرْك بالله وَعُقُوق الوَالِدَيْنِ**». وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلسَ، فَقَال: «**أَلا وَقَوْل الزُّور، أَلا وَشَهَادَة الزُّور**». فَمَا زَال يُكَرِّرهَا، حَتَّى قُلنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ![3] وَالأَظْهَر مِنْ السِّيَاق أَنَّ الْمُرَاد: لا يَشْهَدُونَ الزُّور، أَيْ: لا يَحْضُرُونَهُ، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾، أَيْ: لا يَحْضُرُونَ الزُّور، وَإِذَا اتَّفَقَ مُرُورهمْ بِهِ مَرُّوا وَلمْ يَتَدَنَّسُوا فيه بِشَيْءٍ؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو الحسين العُكْلِيّ، عَنْ مُحَمَّد بْن مُسْلم، أَخْبَرَنِي إِبْرَاهِيم بْن مَيْسَرَة، أَنَّ ابْن مَسْعُود مَرَّ بِلهْوٍ معرضًا فَقَال النبي ﷺ: «لَقَدْ أَصْبَحَ ابْن مَسْعُود أو أَمْسَى كَرِيمًا». [وَحَدَّثَنَا الحسن بْن مُحَمَّد بْن سَلمَة النَّحْوِيّ، ثَنَا حِبَّان، أَنَا عَبْد الله، أَنَا مُحَمَّد بْن مُسْلم، أَخْبَرَنِي مَيْسَرَة قَال: بَلَغَنِي أَنَّ ابْن مَسْعُود مَرَّ بِلهْوٍ مُعْرِضًا فَلمْ يَقِف، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «لَقَدْ أَصْبَحَ ابْن مَسْعُود أو أَمْسَى كَرِيمًا»][4]. ثُمَّ تَلا إِبْرَاهِيم بْن مَيْسَرَة: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾.[5]

---

(١) في (ز): [المعاصي].
(٢) حسن: تقدم.
(٣) صحيح: تقدم.
(٤) سقط من (ز).
(٥) مرسل: لأنه من رواية إبراهيم بن ميسرة وهو تابعي. وفي الإسناد محمد بن مسلم: صدوق يخطئ.

وَقَوْله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ -وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ صِفَات الْمُؤْمِنِينَ- ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ بِخِلافِ الكَافِرِ فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ كَلام الله لا يُؤَثِّر فِيهِ وَلا يقصر عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، بَل يَبْقَى مُسْتَمِرًّا عَلى كُفْره وَطُغْيَانه وَجَهْله وَضَلاله، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾، فَقَوْله: ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أَيْ: بِخِلافِ الكَافِرِ؛ أي: الَّذِي ذكر بآيات ربه، فَاسْتَمِرّ عَلى حَاله، كَأَنْ لمْ يَسْمَعهَا أَصَمّ أَعْمَى.

قَال مُجَاهِد: قَوْله: ﴿ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ لمْ يَسْمَعُوا وَلمْ يُبْصِرُوا وَلمْ يَفْقَهُوا شَيْئًا. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ ﷺ: كَمْ مِنْ رَجُل يَقْرَؤُهَا وَيَخِرّ عَليْهَا أَصَمّ أَعْمَى! وَقَال قَتَادَة: قَوْله تَعَالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾، يَقُول: لمْ يَصُمُّوا عَنْ الحَقّ وَلمْ يُعْمُوا فِيهِ، فَهُمْ -وَالله- قَوْم عَقَلُوا عَنْ الحَقّ وَانْتَفَعُوا بِمَا سَمِعُوا مِنْ كِتَابه. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أُسَيْد بْن عَاصِم، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن حُمْرَان، حدثَنَا ابْن عَوْن قَال: سَأَلت الشَّعْبِيّ قُلت: الرَّجُل يَرَى القَوْم سُجُودًا وَلمْ يَسْمَع مَا سَجَدُوا، أَيَسْجُدُ مَعَهُمْ؟ قَال: فَتَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ يَعْنِي: أَنَّهُ لا يَسْجُد مَعَهُمْ؛ لأَنَّهُ لمْ يَتَدَبَّر آية السجدة، فلا يَنْبَغِي للمُؤْمِنِ أَنْ يَكُون إِمَّعَة، بَل يَكُون عَلى بَصِيرَة فِي أَمْره، وَيَقِين وَاضِح بَيِّن.

وَقَوْله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾، يَعْنِي: الَّذِينَ يَسْأَلُونَ الله أَنْ يُخْرِج مِنْ أَصْلابِهِمْ وذُرِّيَّاتِهم مَنْ يُطِيعهُ وَيَعْبُدهُ وَحْده لا شَرِيك لهُ. قَال ابْن عَبَّاس: يَعْنُونَ مَنْ يَعْمَل بِطَاعَةِ الله فَتَقَرّ بِهِ أَعْيُنهمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. وقَال عِكْرِمَة: لمْ يُرِيدُوا بِذَلكَ صَبَاحَة وَلا جَمَالًا، وَلكِنْ أَرَادُوا أَنْ يَكُونُوا مُطِيعِينَ. وقال الحَسَن البَصْرِيّ -وسئل عَنْ هَذِهِ الآيَة- قَال: أَنْ يُرِي الله العَبْد المُسْلم مِنْ زَوْجَته، وَمِنْ أَخِيهِ، وَمِنْ حَمِيمه، طَاعَة الله. لا وَالله ما شَيْء أَقَرّ لعَيْنِ المُسْلم مِنْ أَنْ يَرَى وَلدًا، أَوْ وَلد وَلد، أَوْ أَخًا، أو حَمِيمًا، مُطِيعًا لله ﷻ.
قَال ابْن جُرَيْج فِي قَوْله: ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾، قَال: يَعْبُدُونَك ويُحْسِنُونَ عِبَادَتك وَلا يَجُرُّونَ عَلَيْنَا الجَرَائِر. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم: يَعْنِي: يَسْأَلُونَ الله لأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتهم أَنْ يَهْدِيهِمْ للإِسْلام.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مَعْمَر بْن بِشْر، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن المُبَارَك، أَخْبَرَنَا صَفْوَان بْن عَمْرو، حَدَّثَنِي عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر بْن نُفَيْر، عَنْ أَبِيهِ؛ قَال: جَلسْنَا إِلى المِقْدَاد بْن الأَسْوَد يَوْمًا، فَمَرَّ بِهِ رَجُل فَقَال: طُوبَى لِهَاتَيْنِ العَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رأتا رَسُول الله ﷺ، لوَدِدْنَا أَنَّا رَأَيْنَا مَا رَأَيْت، وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْت! فَاسْتَغْضَبَ، فَجَعَلت أَعْجَب، مَا قَال إِلَّا خَيْرًا، ثُمَّ أَقْبَل إِليْهِ فَقَال: مَا يَحْمِل الرَّجُل عَلى أَنْ يَتَمَنَّى مُحْضَرًا غَيَّبَهُ الله عَنْهُ، لا يَدْرِي لوْ شَهِدَهُ كَيْف كان يَكُون فِيهِ؟ وَالله، لقَدْ حَضَرَ رَسُولَ الله ﷺ أَقْوَام أَكَبَّهُمْ الله عَلى مَنَاخِرهِمْ فِي جَهَنَّم لمْ يُجِيبُوهُ وَلمْ يُصَدِّقُوهُ، أَوَ لا تَحْمَدُونَ الله إِذْ أَخْرَجَكُمْ لا تَعْرِفُونَ إِلَّا رَبَّكُمْ مُصَدِّقِينَ بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيّكُمْ، قَدْ كُفِيتُمْ البَلاء بِغَيْرِكُمْ، لقَدْ بَعَثَ الله النَّبِيّ ﷺ عَلى أَشَد حَال بَعَثَ عَليْهَا نَبِيًّا مِنْ الأَنْبِيَاء فِي فَتْرَة من جَاهِلِيَّة، مَا يَرَوْنَ أَنَّ دِينًا أَفْضَل مِنْ عِبَادَة الأَوْثَان. فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْن الحَقّ وَالبَاطِل، وَفَرَّقَ بَيْن الوَالد وَولده، حتى إِنْ كَانَ الرَّجُل ليَرَى وَالده وَولده، أو أَخَاهُ كَافِرًا، وَقَدْ فَتَحَ الله قُفْل قَلبه للإِيمَانِ، يَعْلم أَنَّهُ إِنْ هَلكَ دَخَل النَّار، فَلا تَقَرّ عَيْنه وَهُوَ يَعْلم أَنَّ

حَبِيبه فِي النَّار، وَأَنَّهَا الَّتِي قَالَ الله تَعَالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾.[1]
وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ.

وَقَوْله: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾، قَالَ ابن عَبَّاس، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَالرَّبِيع بْن أَنَس: أَئِمَّة يُقْتَدَى بِنَا فِي الخَيْر. وَقَال غَيْرهمْ: هُدَاة مُهْتَدِينَ، دُعَاة إِلى الخَيْر، فَأَحَبُّوا أَنْ تَكُون عِبَادَتهمْ مُتَّصِلة بِعِبَادَةِ أَوْلادهمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَأَنْ يَكُون هُدَاهُمْ مُتَعَدِّيًا إِلى غَيْرهمْ بِالنَّفْعِ، وَذَلِكَ أَكْثَر ثَوَابًا، وَأَحْسَن مَآبًا، وَهَذَا ورد فِي «صَحِيح مُسْلم»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْن آدَم انْقَطَعَ عَمَله إِلاَّ مِنْ ثَلاث: مِن وَلَد صَالِح يَدْعُو لَهُ، وعِلم يُنْتَفَع بِهِ مِنْ بَعْده، وصَدَقَة جَارِيَة».[2]

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالى مِنْ أَوْصَاف عِبَاده المُؤْمِنِينَ مَا ذَكَرَ مِنَ الصِّفَات الجَمِيلة، وَالأَفْعَال وَالأَقْوَال الجميلة -قَال بَعْد ذَلِكَ كُلّه: ﴿ أُولَئِكَ ﴾، أَيْ: المُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ ﴿ يُجْزَوْنَ ﴾، يَوْم القِيَامَة ﴿ الْغُرْفَةَ ﴾، وَهِيَ الجَنَّة. قَال أَبُو جَعْفَر البَاقِر، وَسَعِيد بن جُبَيْر، وَالضَّحَّاك، وَالسُّدِّيّ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لارْتِفَاعِهَا.

﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾، أَيْ: عَلى القِيَام بِذَلِكَ، ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا ﴾، أَيْ: فِي الجَنَّة ﴿ تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾، أَيْ: يُبْتَدَءونَ فِيهَا بِالتَّحِيَّة وَالإِكْرَام، وَيَلقَوْنَ التَّوْقِير وَالاحْتِرَام، فَلَهُمْ السَّلام وَعَلَيْهِمْ السَّلام، فَإِنَّ المَلائِكَة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلّ بَاب، سَلام عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار. وَقَوْله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَيْ: مُقِيمِينَ لا يَظْعَنُونَ وَلا يُحَوَّلُونَ وَلا يَمُوتُونَ وَلا يَزُولُونَ عَنْهَا، وَلا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾.

وَقَوْله: ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أَيْ: حَسُنَتْ مَنْظَرًا، وَطَابَتْ مَقِيلًا وَمَنْزِلًا.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾. أَيْ: لا يُبَالِي وَلا يَكْتَرِث بِكُمْ إِذَا لَمْ تَعْبُدُوهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَ الخَلق لِيَعْبُدُوهُ وَيُوَحِّدُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ بُكْرَة وَأَصِيلًا. وَقَال مُجَاهِد، وَعَمْرو بْن شُعَيْب: ﴿ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾. يَقُول: مَا يَفْعَل بِكُمْ رَبِّي. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾. يَقُول: لوْلا إِيمَانكُمْ، فَأَخْبَرَ تَعَالى الكُفَّار أَنَّهُ لا حَاجَة لهُ بِهِمْ إِذْ لَمْ يَخْلُقهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَلوْ كَانَ لهُ بِهِمْ حَاجَة لَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ الإِيمَان كَمَا حَبَّبَهُ إِلى المُؤْمِنِينَ.

وَقَوْله: ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أي: أَيُّهَا الكَافِرُونَ، ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أَيْ: فَسَوْفَ يَكُون تَكْذِيبكُمْ لِزَامًا لكُمْ، يَعْنِي: مُقْتَضِيًا لهلاككم وعذابكم وَدَمَاركُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَيَدْخُل فِي ذَلِكَ يَوْم بَدْر، كَمَا فَسَّرَهُ بِذَلِكَ عَبْد الله بْن مَسْعُود، وَأُبَيّ بْن كَعْب، وَمُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، وَمُجَاهِد، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَغَيْرهمْ. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ يعني: يَوْم القِيَامَة. وَلا مُنَافَاة بَيْنهمَا، والله أعلم.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٢). وقال الإمام ابن كثير: وهذا إسناد صحيح، وصححه الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (١٤٠).
(٢) صحيح: تقـدم.

تفسير سُورَةُ الشُّعَرَاءِ وهي مكية

ترتيبها ٢٦ — وآياتها ٢٢٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَوَقَعَ فِي تَفْسِيرِ مَالك المَرْوِيّ عَنْهُ تَسْمِيَتهَا سُورَة الجَامِعَة.

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة.

وَقَوْله: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أَيْ: هَذِهِ آيَات القُرْآن المُبِين، أَيْ: البَيِّن الوَاضِح، الَّذِي يَفْصِل بَيْن الحَقّ وَالبَاطِل، وَالغَيّ وَالرَّشَاد.

وَقَوْله: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾، أَيْ: مُهْلك ﴿ نَّفْسَكَ ﴾، أَيْ: مِمَّا تَحْرِص وَتَحْزَن عَلَيْهِمْ، ﴿ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾. وَهَذِهِ تَسْلِيَة مِنْ الله لِرَسُولِهِ ﷺ فِي عَدَم إِيمَان مَنْ لَمْ يُؤْمِن بِهِ مِنْ الكُفَّار، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾، وقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾. قَال مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَعَطِيَّة، وَالضَّحَّاك: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ أَيْ: قَاتِل نَفْسك، قَال الشَّاعِر:

أَلا أَيُّهَذَا البَاخِع الحُزْن نَفْسه ❁ لِشَيْءٍ نَحَتْهُ عَنْ يَدَيْهِ المَقَادِر

ثُمَّ قَال الله تَعَالَى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ أَيْ: لوْ شئنا لأَنْزلنا آية تَضْطَرّهُمْ إلى الإِيمَان قَهْرًا، وَلكِنَا لا نَفْعَل ذَلكَ، لأَنَّا لا نُرِيد مِنْ أَحَد إِلَّا الإِيمَان الاخْتِيَارِيّ، وَقَال تَعَالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾. وَقَال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾، فَنَفَذَ قَدَره، وَمَضَتْ حِكْمَته؛ وَقَامَتْ حُجَّته البَالِغَة فِي خَلقه بِإِرْسَال الرُّسُل إِلَيْهِمْ، وَإِنْزَال الكُتُب عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ قَال: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أَيْ: كُلَّمَا جَاءَهُمْ كِتَاب مِنْ السَّمَاء أَعْرَض عَنْهُ أَكْثَر النَّاس؛ كَمَا قَال: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾. وَقَال: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾. وَلهَذَا قَال تَعَالى هَهُنَا: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَيْ: فَقَدْ كَذَّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ مِنْ الحَقّ، فَسَيَعْلَمُونَ نَبَأ هَذَا التَّكْذِيب بَعْد حِين، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.

ثُمَّ نَبَّهَ تَعَالى عَلى عظمته فِي سُلطَانه وَجَلالة قَدْره وَشَأْنه، الَّذِين اجْتَرَءُوا عَلى مُخَالفَة رَسُوله وَتَكْذِيب كِتَابه، وَهُوَ القَاهِر العَظِيم القَادِر، الَّذِي خَلقَ الأَرْض، وَأَنْبَتَ فِيهَا مِنْ كُلّ زَوْج كَرِيم مِنْ زُرُوع وَثِمَار وَحَيَوَان.

قَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ رَجُل عَنْ الشَّعْبِيّ: النَّاس مِنْ نَبَات الأَرْض، فَمَنْ دَخَل الجَنَّة فَهُوَ كَرِيم، وَمَنْ دَخَل النَّار فَهُوَ لئِيم.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾، أَيْ: دَلالة عَلى قُدْرَة الخَالق للأَشْيَاءِ، الَّذِي بَسَطَ الأَرْض وَرَفَعَ بِنَاء السَّمَاء، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنَ أَكْثَر النَّاس، بَل كَذَّبُوا بِهِ وَبِرُسُلهِ وَكُتُبه، وَخَالفُوا أَمْره وَارْتَكَبُوا زواجره.

وَقَوْله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾، أَيْ: الَّذِي عَزَّ كُلّ شَيْء وَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ، ﴿الرَّحِيمُ﴾، أَيْ: بِخَلْقِهِ، فَلا يَعْجَل عَلَى مَنْ عَصَاهُ بَل يُنْظِرهُ وَيُؤَجِّلهُ ثُمَّ يَأْخُذهُ أَخْذ عَزِيز مُقْتَدِر.

قَال أَبُو العَالِيَة، وَقَتَادَة، وَالرَّبِيع بْن أَنَس، وَابْن إِسْحَاق: العَزِيز فِي نِقْمَته وَانْتِصَاره مِمَّنْ خَالَفَ أَمْره وَعَبَدَ غَيْره. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: الرَّحِيم بِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

يُخْبِر تَعَالَى عَمَّا أَمَرَ بِهِ عَبْده وَرَسُوله وَكَلِيمه مُوسَى بْن عِمْرَان عَلَيْهِ السَّلَام حَيْث نَادَاهُ مِنْ جَانِب الطُّور الأَيْمَن، وَكَلَّمَهُ وَنَاجَاهُ، وَأَرْسَلهُ وَاصْطَفَاهُ، وَأَمَرَهُ بِالذَّهَابِ إِلى فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ هَذِهِ أَعْذَار سَأَل مِنَ الله إِزَاحَتهَا عَنْهُ، كَمَا قَال فِي سُورَة طه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، أَيْ: بِسَبَبِ مَا كَانَ قَتْل ذَلِك القِبْطِيّ الَّذِي كَانَ سَبَب خُرُوجه مِنْ بِلاد مِصْر ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أَيْ: قَال الله لَهُ: لا تَخَفْ مِنْ شَيْء مِنْ ذَلِكَ؛ كَمَا قَال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾، أَيْ: بُرْهَانًا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أَيْ: مَعَكُمَا بِحِفْظِي وَكِلاءَتِي وَنَصْرِي وَتَأْيِيدِي.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَقَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، أَيْ: كُلّ مِنَّا رَسُول الله إِلَيْك. ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَيْ: أَطْلِقْهُمْ مِنْ إِسَارك وَقَبْضَتك وَقَهْرك وَتَعْذِيبك، فَإِنَّهُمْ عِبَاد الله المُؤْمِنُونَ، وَحِزْبه المُخْلَصُونَ، وَهُمْ مَعَك فِي العَذَاب المُهِين. فَلَمَّا قَال لَهُ مُوسَى ذَلِكَ أَعْرَضَ فِرْعَوْن عَمَّا هُنَالِكَ بِالكُلِّيَّة، وَنَظَرَ بِعَيْنِ الازْدِرَاء وَالغَمْص.

فَقَال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾. أَيْ: أَمَا أَنْتَ الَّذِي رَبَّيْنَاهُ فِينَا وَفِي بَيْتنَا، وَعَلَى فِرَاشنَا وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِ مُدَّة مِنَ السِّنِينَ، ثُمَّ بَعْد هَذَا قَابَلت ذَاكَ الإِحْسَان بِتِلْكَ الفَعْلَة أَنْ قَتَلت مِنَّا رَجُلًا، وَجَحَدْت نِعْمَتنَا عَلَيْك. وَلِهَذَا قَال: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أَيْ: الجَاحِدِينَ. قَالَهُ ابْن عَبَّاس، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير، ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا﴾ أَيْ: فِي تِلْكَ الحَال، ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أَيْ: قَبْل أَنْ يُوحَى إِلَيَّ وَيُنْعِم الله عَلَيَّ بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّة.

قَال ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَمُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَالضَّحَّاك وَغَيْرهم: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أَيْ: الجَاهِلِينَ. قَال ابْن جُرَيْج: وَهِي كَذَلِكَ فِي قِرَاءَة عَبْد الله بْن مَسْعُود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أَيْ: الحال الأوَّل انفصل وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك، فإنْ أطعْته سلمت، وإنْ خالفته عطِبْت.

ثُمَّ قال موسى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أَيْ: وما أحسنْت إليَّ وربَّيْتني مُقابل ما أسأت إلى بني إسْرائيل، فجعلتهمْ عبيدًا وخدمًا، تصرِفهُمْ في أعمالك ومشاقّ رعيَّتك، أفيفي إحْسانك إلى رجل واحد منْهُمْ بما أسأْتَ إلى مجْموعهمْ؟ أيْ: ليس ما ذكرْتهُ شيئًا بالنِّسْبة إلى ما فعلت بهمْ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

يقُول تعالى مُخْبِرًا عنْ كُفْر فِرْعوْن وتمرُّده وطُغْيانه وجُحُوده، في قوْله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وذلك أنَّهُ كان يقُول لقوْمِهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ وكانُوا يجْحدُون الصَّانع -تعالى-، ويعْتقِدُون أنَّهُ لا ربّ لهُمْ سِوى فِرْعوْن. فلمّا قال لهُ مُوسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال لهُ: ومنْ هذا الَّذِي تزْعُم أنَّهُ ربّ العالمِين غيْرِي؟ هكذا فسَّرهُ عُلماء السَّلف وأئِمَّة الخلف، حتَّى قال السُّدِّيّ: هذِهِ الآية كقوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾. ومنْ زعم مِنْ أهْل المنْطِق وغيْرهِمْ أنَّ هذا سُؤال عنْ الماهِيَّة، فقدْ غلط؛ فإِنَّهُ لمْ يكُنْ مُقِرًّا بِالصَّانِع حتَّى يسْأل عنْ الماهِيَّة، بل كان جاحِدًا لهُ بِالكُلِّيَّة فِيما يظْهر، وإنْ كانتْ الحُجج والبراهِين قدْ قامتْ عليْهِ، فعِنْد ذلك قال مُوسى لمّا سألهُ عنْ ربّ العالمِين: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أيْ: خالق جمِيع ذلك ومالكه، والمُتصرِّف فِيهِ وإلهه، لا شرِيك لهُ، هُو الله الَّذِي خلق الأشْياء كُلّها، العالم العُلوِيّ وما فِيهِ مِنْ الكواكِب الثَّوابِت والسَّيَّارات النَّيِّرات، والعالم السُّفْلِيّ وما فِيهِ مِنْ بِحار وقِفار، وجِبال وأشْجار، وحيوان ونبات وثِمار، وما بيْن ذلِك مِنْ الهواء والطُّيور، وما يحْتوِي عليْهِ الجوّ، الجمِيع عبِيد لهُ خاضِعُون ذلِيلُون.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾. أيْ: إنْ كانتْ لكُمْ قُلُوب مُوقِنة، وأبْصار نافِذة. فعِنْد ذلِك التفت فِرْعوْن إلى منْ حوْله مِنْ ملئِهِ ورُؤساء دوْلته قائِلًا لهُمْ، على سبِيل التَّهكُّم والاسْتِهْزاء والتَّكْذِيب لمُوسى فِيما قالهُ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أيْ: ألا تعْجبُون مما يقول هذا فِي زعْمه أنَّ لكُمْ إلهًا غيْرِي؟ فقال لهُمْ مُوسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾. أيْ: خالقكُمْ وخالق آبائِكُمْ الأوائل، الَّذِين كانُوا قبْل فِرْعوْن وزمانه. ﴿قَالَ﴾ أي: فرعون لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أيْ: ليْس لهُ عقْل فِي دعْواهُ أنَّ ثمَّ ربًّا غيْرِي. ﴿قَالَ﴾ أيْ: مُوسى لأُولئِك الَّذِين أوْعز إليْهِمْ فِرْعوْن ما أوْعز مِنْ الشُّبْهة، فأجاب مُوسى بِقوْلِهِ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. أيْ: هُو الَّذِي جعل المشْرِق مشْرِقًا تطْلُع مِنْهُ الكواكِب، والمغْرب مغْرِبًا تغْرُب فِيهِ الكواكِب، ثوابِتها وسيَّاراتها، مع هذا النِّظام الَّذِي سخَّرها فِيهِ وقدَّرها، فإنْ كان هذا الَّذِي يزْعُم أنَّهُ ربّكُمْ وإلهكُمْ صادِقًا فليعْكِس الأمْر، وليجْعل المشْرِق مغْرِبًا، والمغْرب مشْرِقًا، كما أخبر تعالى عنْ: ﴿الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ولهذا لـمّا غُلب فِرْعوْن وانْقطعتْ حُجَّته، عدل إلى اسْتِعْمال جاهه وقُوَّته وسُلطانه، واعْتقد أنَّ ذلِك نافِع لهُ ونافِذ فِي مُوسى عليه السلام، فقال ما أخْبر الله تعالى عنْهُ:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾.

لـمَّا قَامَتْ عَلى فِرْعَوْن الحُجَّة بِالبَيَانِ وَالعَقْل عدَل إِلى أَنْ يَقْهَر مُوسَى بِيَدِهِ وَسُلطَانه، وظَنَّ أَنَّهُ لَيس وَرَاء هَذَا المَقَام مَقَال، فَقَال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾. فَعِنْد ذَلِكَ قَال مُوسَى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾. أَيْ: بُرْهَانٍ قَاطِع وَاضِح، ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، أَيْ: ظَاهِر وَاضِح فِي غَايَة الجَلاء وَالوُضُوح وَالعَظَمَة، ذَات قَوَائِم وَفَم كَبِير، وَشَكْل هَائِل مُزْعِج.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أَيْ: مِنْ جَيْبه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أَيْ: تَتَلأْلأ كَقِطْعَةٍ مِنْ القَمَر. فَبَادَرَ فِرْعَوْن بِشَقَائه إِلى التَّكْذِيب وَالعِنَاد، فَقَال للمَلإِ حَوْله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾. أَيْ: فَاضِل بَارِع فِي السِّحْر. فَرَوَّجَ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْن أَنَّ هَذَا مِنْ قَبِيل السِّحْر لا مِنْ قَبِيل المُعْجِزَة، ثُمَّ هَيَّجَهُمْ وَحَرَّضَهُمْ عَلى مُخَالفَته، وَالكُفْر بِهِ، فَقَال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾. أَيْ: أَرَادَ أَنْ يَذْهَب بِقُلُوبِ النَّاس مَعَهُ بِسَبَبِ هَذَا، فَيُكَثِّر أَعْوَانه وَأَنْصَاره وَأَتْبَاعه، وَيَغْلبكُمْ عَلى دَوْلتكُمْ، فَيَأْخُذ البِلاد مِنْكُمْ، فَأَشِيرُوا عَلَيَّ فِيهِ مَاذَا أَصْنَع بِهِ؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، أَيْ: أَخِّرْهُ وَأَخَاهُ حَتَّى تَجْمَع لَهُ مِنْ مَدَائِن مَمْلكَتك وَأَقَاليم دَوْلتك كُلّ سَحَّار عَليم [يُقَابِلُونَهُ][1]، وَيَأْتُونَ بِنَظِيرِ مَا جَاءَ بِهِ، فَتَغْلبهُ أَنْتَ وَتَكُون لك النُّصْرَة وَالتَّأْيِيد. فَأَجَابَهُمْ إِلى ذَلكَ وَكَانَ هَذَا مِنْ تَسْخِير الله تَعَالى لَهُمْ فِي ذَلكَ، لِيَجْتَمِعَ النَّاس فِي صَعِيد وَاحِد، وَلتظْهَر آيَات الله وَحُجَجه وَبَرَاهِينه عَلى النَّاس فِي النَّهَار جَهْرَة.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

ذَكَرَ الله تَعَالى هَذِهِ المُنَاظرة العقلية بَيْن مُوسَى وَالقِبْط فِي «سُورَة الأَعْرَاف» وَفِي «سُورَة طه»، وَفِي هَذِهِ السُّورَة، وَذَلكَ أَنَّ القِبْط أَرَادُوا أَنْ يُطْفِئُوا نُور الله بِأَفْوَاهِهِمْ، فَأَبَى الله إِلَّا أَنْ يُتِمّ نُوره وَلوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ. وَهَذَا شَأْن الكُفْر وَالإِيمَان، مَا تَوَاجهَا وَتَقَابَلا إِلَّا غَلبَهُ الإِيمَان، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾. وَلهَذَا لـمَّا جَاءَ السَّحَرَة، وَقَدْ جَمَعُوهُمْ مِنْ أَقَاليم بِلاد مِصْر، وَكَانُوا إِذْ ذَاكَ أَسْحَر النَّاس وَأَصْنَعهُمْ وَأَشَدّهمْ تخيُّلاً فِي ذَلكَ، وَكَانَ السَّحَرَة جَمْعًا كَثِيرًا، وَجَمًّا غَفِيرًا، قِيل: كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلفًا، وَقِيل: خَمْسَةَ عَشَرَ أَلفًا، وَقِيل: سَبْعَةَ عَشَرَ أَلفًا، وَقِيل: تِسْعَةَ عَشَرَ أَلفًا، وَقِيل: بِضْعَة وَثَلاثِينَ أَلفًا، وَقِيل: ثَمَانِينَ أَلفًا، وَقِيل غَيْر ذَلكَ، وَالله أَعْلم بِعِدَّتِهِمْ. قَال ابْن إِسْحَاق: وَكَانَ أَمْرهمْ رَاجِعًا إِلى أَرْبَعَة مِنْهُمْ وَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمْ، وَهُمْ: ساتور، وَعَازور، وَحَطْحَط، وَيصَفَّى. وَاجْتَهَد النَّاس فِي الاجْتِمَاع ذَلكَ اليَوْم، وَقَال قَائِلهمْ: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾. وَلمْ يَقُولُوا: نَتَّبع الحَقّ سَوَاء كَانَ مِنْ السَّحَرَة أَوْ مِنْ مُوسَى، بَل الرَّعِيَّة عَلى دِين مَلكِهِمْ. ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾. أَيْ: إِلى مَجْلس فِرْعَوْن

---

(١) في (ز) : [يقاتلونه].

وَقَدْ ضَرَبُوا لهُ وِطَاقًا وَجَمَعَ حشَمه وخدمه وأمراءه وَوُزَرَاءَهُ وَرُؤَسَاء دَوْلته وَجُنُود مَمْلَكته. فَقَامَ السَّحَرَة بَيْن يَدَيْ فِرْعَوْن، يَطْلُبُونَ مِنْهُ الإِحْسَان إِلَيْهِمْ وَالتَّقَرُّب إِلَيْهِ إِنْ غَلبُوا. أَيْ: هَذَا الَّذِي جَمَعْتَنَا مِنْ أَجْله، فَقَالُوا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾. أَيْ: وَأَخصّ مِمَّا تَطْلُبُونَ أَجْعَلكُمْ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدِي وَجُلَسَائِي. فَعَادُوا إِلَى مَقَام الْمُنَاظَرَة: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾ وَقَدْ اخْتُصِرَ هَذَا هَهُنَا. فَقَال: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾. وَهَذَا كَمَا يقوله الجَهَلة مِنْ العَوَامّ إِذَا فَعَلُوا شَيْئًا: هَذَا بِثَوَابِ فُلان. وَقَدْ ذَكَرَ الله فِي «سُورَة الأَعْرَاف»: أَنَّهُمْ ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

وَقَال فِي «سُورَة طه»: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾. وَقَال هَهُنَا: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾. أَيْ: تَخْطَفهُ وَتَجْمَعهُ مِنْ كُلّ بُقْعَة وَتَبْتَلعهُ فَلمْ تَدَع مِنْهُ شَيْئًا.

قَال تَعَالَى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾. وكان هَذَا أَمْرًا عَظِيمًا جِدًّا، وَبُرْهَانًا قَاطِعًا للعُذْرِ وَحُجَّة دَامِغَة، وَذَلكَ أَنَّ الَّذِينَ اسْتَنْصَرَ بِهِمْ وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَغْلبُوا قد غُلبُوا وَخَضَعُوا، وَآمَنُوا بِمُوسَى فِي السَّاعَة الرَّاهِنَة، وَسَجَدُوا لله رَبّ العَالمِينَ، الَّذِي أَرْسَل مُوسَى وَهَارُون بِالحَقِّ وَالْمُعْجِزَةِ البَاهِرَة، فَغُلبَ فِرْعَوْن غَلبًا لمْ يُشَاهِد العَالم مِثْله، وَكَانَ وَقِحًا جَرِيئًا -عَلَيْهِ لعْنَة الله-! فَعَدَل إِلَى الْمُكَابَرَة وَالعِنَاد وَدَعْوَى البَاطِل، فَشَرَعَ يَتَهَدَّدهُمْ وَيَتَوَعَّدهُمْ، وَيَقُول: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾. وَقَال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

تَهَدَّدَهُمْ فَلمْ يَنْفَع ذَلكَ فِيهِمْ، وَتَوَعَّدَهُمْ فَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا، وَذَلكَ أَنَّهُ قَدْ كُشِفَ عَنْ قُلُوبِهِمْ حِجَاب الكُفْر، وَظَهَرَ لَهُمْ الحَقّ بِعِلمِهِمْ مَا جَهِل قَوْمهمْ، مِنْ أَنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لا يَصْدُر عَنْ بَشَر، إِلَّا أَنْ يَكُون الله قَدْ أَيَّدَهُ بِهِ، وَجَعَلهُ لهُ حُجَّة وَدَلالة عَلى صِدْق مَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبّه؛ وَلهَذَا لَمَّا قَال لهُمْ فِرْعَوْن: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أَيْ: كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَسْتَأْذِنُونِي فِيمَا فَعَلتُمْ، وَلا تَفْتَئِتُوا عَليَّ فِي ذَلك، فَإِنْ أَذِنْت لكُمْ فَعَلتُمْ، وَإِنْ مَنَعْتُكُمْ امْتَنَعْتُمْ، فَإِنِّي أَنَا الحَاكِم الْمُطَاع، ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾. وَهَذِهِ مُكَابَرَة يَعْلم كُلّ أَحَد بُطْلانهَا، فَإِنَّهُمْ لمْ يَجْتَمِعُوا بِمُوسَى قَبْل ذَلكَ اليَوْم، فَكَيْف يَكُون كَبِيرهمْ الَّذِي أَفَادَهُمْ صِنَاعَة السِّحْر؟! هَذَا لا يَقُولهُ عَاقِل.

ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْن بِقَطْعِ الأَيْدِي وَالأَرْجُل وَالصَّلب، فَقَالُوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾. أَيْ: لا حَرَج وَلا يَضُرّنَا ذَلكَ وَلا نُبَالي بِهِ؛ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾. أَيْ: المَرْجِع إِلَى الله، وَهُوَ لا يُضِيع أَجْر مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا، وَلا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا فَعَلت بِنَا، وَسَيَجْزِينَا عَلى ذَلكَ أَتَمَّ الجَزَاء؛ وَلهَذَا قَالُوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾. أَيْ: مَا قَارَفْنَاهُ مِنْ الذُّنُوب وَمَا أَكْرَهْتنَا عَليْهِ مِنْ السِّحْر، ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ أَنَّا بَادَرْنَا قَوْمنَا مِنْ القِبْط إِلَى الإِيمَان. فَقَتَلهُمْ كُلّهمْ.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

لـمَّا طَال مُقَام مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبِلادِ مِصْر، وَأَقَامَ بِهَا حُجَج الله وَبَرَاهِينه عَلى فِرْعَوْن وَمَلئِهِ، وَهُمْ مَعَ ذَلكَ يُكَابِرُونَ وَيُعَانِدُونَ، لمْ يَبْقَ لَهُمْ إِلَّا العَذَاب وَالنَّكَال، فَأَمَرَ الله مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَخْرُج بِبَنِي إِسْرَائِيل لَيْلًا مِنْ مِصْر، وَأَنْ يَمْضِي بِهِمْ حَيْثُ يُؤْمَر، فَفَعَل مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا أَمَرَهُ رَبّه عَزَّ وَجَلَّ، خَرَجَ بِهِمْ بَعْدَمَا اسْتَعَارُوا مِنْ قَوْم فِرْعَوْن حُليًّا كَثِيرًا، وَكَانَ خُرُوجه بِهِمْ -فِيمَا ذَكَرَ غَيْر وَاحِد مِنَ الْمُفَسِّرِينَ- وَقْت طُلُوع القَمَر. وَذَكَرَ مُجَاهِد رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ كُسِفَ القَمَر تِلكَ اللَّيْلَة، فَالله أَعْلَم. وَأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَل عَنْ قَبْر يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ فَدَلَّتْهُ امْرَأَة عَجُوز مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل عَلَيْهِ، فَاحْتَمَل تَابُوته مَعَهُمْ، وَيُقَال: إِنَّهُ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُ بِنَفْسِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَكَانَ يُوسُف قَدْ وصَّي بِذَلكَ إِذَا خَرَجَ بَنُو إِسْرَائِيل أَنْ يَحْمِلُوهُ مَعَهُمْ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلكَ حَدِيث رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَال: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عُمَر بْن محمد بن أَبَان بْن صَالح، حَدَّثَنَا ابْن فُضَيْل، عَنْ عبد الله بْن أَبِي إِسْحَاق، عَنْ ابْن أَبِي بُرْدَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي مُوسَى؛ قَال: نَزَل رَسُول الله ﷺ بِأَعْرَابِيٍّ فَأَكْرَمَهُ، فَقَال لهُ رَسُول الله ﷺ: **«تُعَاهِدنَا»**. فَأَتَاهُ الأَعْرَابِيّ فَقَال لهُ رَسُول الله ﷺ: **«حَاجَتكَ؟»**. قَال: نَاقَة بِرَحْلهَا وأعنق يَحْتَلبهَا أَهْلي، فَقَال: **«أَعَجَزْت أَنْ تَكُون مِثْل عَجُوز بَنِي إِسْرَائِيل؟»**. فَقَال لهُ أَصْحَابه: وَمَا عَجُوز بَنِي إِسْرَائِيل يَا رَسُول الله؟ قَال: **«إِنَّ مُوسَى لـمَّا أَرَادَ أَنْ يَسِير بِبَنِي إِسْرَائِيل أَضَلَّ الطَّرِيق، فَقَال لبَنِي إِسْرَائِيل: مَا هَذَا؟ فَقَال لهُ عُلمَاء بَنِي إِسْرَائِيل: نَحْنُ نُحَدِّثكَ: إِنَّ يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ لـمَّا حضره الموت أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنَ الله أَنْ لا نَخْرُج مِنْ مِصْر حَتَّى نَنْقُل تَابُوته مَعَنَا، فَقَال لهُمْ مُوسَى: فَأَيّكُمْ يَدْرِي أَيْنَ قَبْر يُوسُف؟ قَالُوا: مَا يَعْلمهُ إِلاَّ عَجُوز لبني إِسْرَائِيل. فَأَرْسَل إِلَيْهَا فَقَال لهَا: دُلِّينِي عَلى قَبْر يُوسُف. قَالتْ: وَالله لا أَفْعَل حَتَّى تُعْطِينِي حُكْمِي. فَقَال لهَا: وَمَا حُكْمك؟ قَالتْ: حُكْمِي أَنْ أَكُون مَعَك فِي الجَنَّة. فَكَأَنَّهُ ثَقُل عَلَيْهِ ذَلكَ فَقِيل لهُ: أَعْطِهَا حُكْمهَا. قَال: فَانْطَلقَتْ مَعَهُمْ إِلى بُحَيْرَة -مُسْتَنْقَع مَاء- فَقَالتْ لهُمْ: انْضِبُوا هَذَا المَاء. فَلمَّا أَنْضَبُوهُ، قَالتْ: احتفروا. فَلمَّا احتفروا اسْتَخْرَجُوا قَبْر يُوسُف، فَلمَّا احْتَمَلُوهُ إِذَا الطَّرِيق مِثْل ضَوْء النَّهَار»**[1]. وَهَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا وَالأَقْرَب أَنَّهُ مَوْقُوف، وَالله أَعْلم. فَلَمَّا أَصْبَحُوا وَلَيْسَ فِي نَادِيهِمْ دَاعٍ وَلا مُجِيب، غَاظَ ذَلكَ فِرْعَوْن وَاشْتَدَّ غَضَبه عَلى بَنِي إِسْرَائِيل، لَمَا يُرِيد الله بِهِ مِنْ الدَّمَار، فَأَرْسَل سَرِيعًا فِي بِلاده حَاشِرِينَ. أَيْ: مَنْ يَحْشُر الجُنْد وَيَجْمَعهُ، كَالنُّقَبَاءِ، وَالحُجَّاب، وَنَادَى فِيهِمْ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعْنِي: بَنِي إِسْرَائِيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾. أَيْ: لطَائِفَة قَليلة، ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾، أَيْ: كُلّ وَقْت يَصِل لنا مِنْهُمْ مَا يَغِيظنَا، ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾. أَيْ: نَحْنُ كُلّ وَقْت نَحْذَر مِنْ غَائِلتهمْ، وَإِنِّي أُرِيد أَنْ أَسْتَأْصِل شَأْفَتهمْ، وَأُبِيد خَضْرَاءَهُمْ. فَجُوزِيَ فِي نَفْسه وَجُنْده بِمَا أَرَادَ لَهُمْ، قَال الله تَعَالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾. أَيْ: فَخَرَجُوا مِنْ هَذَا النَّعِيم إِلى الجَحِيم، وَتَرَكُوا تِلكَ المَنَازِل العَاليَة، وَالبَسَاتِين وَالأَنْهَار، وَالأَمْوَال، وَالأَرْزَاق، وَالمُلك، وَالجَاه الوَافِر فِي الدُّنْيَا. ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. كما قال تَعَالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾. وَقَال تَعَالى:

---

(١) صحيح: أخرجه أبو يعلى (١٣/ ٢٣٦)، وابن حبان (٧٢٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣١٣).

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

ذَكَرَ ذلك غَيْر وَاحِد مِنْ المُفَسِّرِينَ: أَنَّ فِرْعَوْن خَرَجَ فِي جحفل عَظِيم وَجَمْع كَبِير، هُوَ عِبَارَة عَنْ مَمْلَكَة الدِّيَار المِصْرِيَّة فِي زَمَانه، أُولِي الحَلّ وَالعَقْد وَالدُّوَل، مِنْ الأُمَرَاء وَالوُزَرَاء وَالكُبَرَاء وَالرُّؤَسَاء وَالجُنُود، فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ غَيْر وَاحِد مِنْ الإِسْرَائِيلِيَّات، مِنْ أَنَّهُ خَرَجَ فِي أَلْف أَلْف وَسِتّمِائَةِ أَلْف فَارِس، مِنْهَا مِائَة أَلْف عَلَى خَيْل دُهْم. وَقَال كَعْب الأَحْبَار: فِيهِمْ ثَمَانُمِائَةِ أَلْف حِصَان أَدْهَم -فَفِي ذَلِكَ نَظَر. وَالظَّاهِر أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مُجَازَفَات بَنِي إِسْرَائِيل، وَالله سُبْحَانه وَتَعَالَى أَعْلم. وَالَّذِي أَخْبَرَ بِهِ هُوَ النَّافِع، وَلَمْ يُعَيِّن عِدَّتهمْ إِذْ لا فَائِدَة تَحْته، إلا أنهم خَرَجُوا بِأَجْمَعِهِمْ.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾. أَيْ: وَصَلُوا إِلَيْهِمْ عِنْد شُرُوق الشَّمْس، وَهُوَ طُلُوعها ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أَيْ: رَأَى كُلّ مِنْ الفَرِيقَيْنِ صَاحِبه، فَعِنْد ذَلِكَ ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ انْتَهَى بِهِمْ السَّيْر إِلَى سِيف البَحْر، وَهُوَ بَحْر القُلْزُم، فَصَارَ أَمَامهمْ البَحْر، وفِرْعَوْن قَدْ أَدْرَكَهُمْ بِجُنُودِهِ؛ فلهَذَا قَالُوا: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾. أَيْ: لا يَصِل إِلَيْكُمْ شَيْء مِمَّا تَحْذَرُونَ، فَإِنَّ الله سُبْحَانه هُوَ الَّذِي أَمَرَنِي أَنْ أَسِير هَهُنَا بِكُمْ، وَهُوَ لا يُخْلف المِيعَاد.

وَكَانَ هَارُون عليه السلام فِي المُقَدِّمَة، وَمَعَهُ يُوشَع بْن نُون، وَمُؤْمِن آل فِرْعَوْن وَمُوسَى عليه السلام فِي السَّاقَة، وَقَدْ ذَكَرَ غَيْر وَاحِد مِنْ المُفَسِّرِينَ: أَنَّهُمْ وَقَفُوا لا يَدْرُونَ مَا يَصْنَعُونَ، وَجَعَل يُوشَع بْن نُون، أَوْ مُؤْمِن آل فِرْعَوْن يَقُول لِمُوسَى عليه السلام: يَا نَبِيّ الله، هَهُنَا أَمَرَكَ الله أَنْ تَسِير؟ فَيَقُول: نَعَمْ، واقْتَرَبَ فِرْعَوْن وَجُنُوده، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا القَلِيل. فَعِنْد ذَلكَ أَمَرَ الله نبيه مُوسَى أَنْ يَضْرِب البَحْر بِعَصَاهُ، فَضَرَبَهُ وَقَال: انْفَلِقْ بِإِذْنِ الله.

وقال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا صَفْوَان بْن صَالح، حَدَّثَنَا الوَلِيد، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن حَمْزَة بْن محمد ابن يُوسُف بن عَبْد الله بْن سَلام: أَنَّ مُوسَى عليه السلام لَـمَّا انْتَهَى إِلَى البَحْر قَال: يَا مَنْ كَانَ قَبْل كُلّ شَيْء، وَالمُكَوِّن لِكُلِّ شَيْء، وَالكَائِن بَعْد كُلّ شَيْء، اجْعَل لنَا مَخْرَجًا، فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ: ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾. وَقَال قَتَادَة: أَوْحَى الله تِلكَ اللَّيْلة إِلَى البَحْر: أَنْ إِذَا ضَرَبَك مُوسَى بِعَصَاهُ فَاسْمَعْ لهُ وَأَطِعْ، فَبَاتَ البَحْر تِلكَ اللَّيْلة وَلهُ اضْطِرَاب، وَلا يَدْرِي مِنْ أَيّ جَانِب يَضْرِبهُ مُوسَى، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ مُوسَى قَال لهُ فَتَاهُ يُوشَع بْن نُون: يَا نَبِيّ الله؛ أَيْنَ أَمَرَك رَبّك؟ قَال: أَمَرَنِي أَنْ أَضْرِب البَحْر. قَال: فَاضْرِبْهُ. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: أَوْحَى الله -فِيمَا ذُكِرَ لِي- إِلَى البَحْر: أَنْ إِذَا ضَرَبَك مُوسَى بِعَصَاهُ فَانْفَلِقْ لهُ. قَال: فَبَاتَ البَحْر يَضْرِب بَعْضه بَعْضًا، فَرَقًا مِنْ الله تَعَالَى، وَانْتِظَارًا لِمَا أَمَرَهُ الله، وَأَوْحَى الله إِلَى مُوسَى: ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾. فَضَرَبَهُ بِهَا، وفِيهَا سُلطَان الله الَّذِي أَعْطَاهُ، فَانْفَلَقَ. وَذَكَرَ غير وَاحِد أَنَّهُ كَنَّاهُ فَقَال: انْفَلِقْ عَلَيَّ أَبَا خَالد؛ بحول الله.

قَال الله تَعَالَى: ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾. أَيْ: كَالجَبَل الكَبِير. قَالهُ ابْن مَسْعُود، وَابْن عَبَّاس، وَمُحَمَّد بْن كَعْب، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَغَيْرهمْ. وَقَال عَطَاء الخُرَاسَانِيّ: هُوَ الفَجّ بَيْن الجَبَليْنِ. وَقَال ابْن عَبَّاس: صَارَ البَحْر اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا، لِكُلِّ سِبط طَرِيق. وَزَادَ السُّدِّيّ: وَصَارَ فِيهِ طَاقَات يَنْظُر بَعْضهمْ إِلَى بَعْض، وَقَامَ

الماء على حِيَالِهِ كَالحِيطَانِ، وَبَعَثَ الله الرِّيح إِلى قَعْر البَحْر فَلفَحَتْهُ، فَصَارَ يَبَسًا كَوَجْهِ الأَرْض، قَال الله تَعَالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ . وَقَال فِي هَذِهِ القِصَّة: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ أَيْ: هُنَالكَ ﴿الْآخَرِينَ﴾ قَال ابْن عَبَّاس، وَعطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ: ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾، أَيْ: قَرَّبْنَا فِرْعَوْن وَجُنُوده مِنَ البَحْر، وَأَدْنَيْنَاهُمْ إِلَيْهِ. ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾، أَيْ: أَنْجَيْنَا مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيل وَمَنْ معهم عَلى دِينهمْ فَلمْ يَهْلك مِنْهُمْ أَحَد، وَأُغْرِقَ فِرْعَوْن وَجُنُوده فَلمْ يَبْقَ مِنْهُمْ رَجُل إِلَّا هَلكَ.

وقال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا أَبُو بَكر ابْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا شَبَابَة، حَدَّثَنَا يُونُس بْن أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عَمْرو بْن مَيْمُون، عَنْ عَبْد الله -هُوَ ابْن مَسْعُود-: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِين أَسْرَى بِبَنِي إِسْرَائِيل بَلغَ فِرْعَوْن ذَلكَ، فَأَمَرَ بِشَاةٍ فَذُبِحَتْ، ثم قال: لا، وَالله لا يُفْرَغ مِنْ سَلخهَا حَتَّى يَجْتَمِع إِلَيَّ سِتّمِائَةِ أَلف مِنْ القِبْط. فَانْطَلَقَ مُوسَى حَتَّى انْتَهَى إِلى البَحْر، فَقَال لهُ: انْفَرِقْ. فَقَال البَحْر: لقَدْ اسْتَكْبَرْت يَا مُوسَى؛ وَهَل فرقت لأَحَدٍ مِنْ وَلد آدم فأفرق لك؟ قَال: وَمَعَ مُوسَى رَجُل عَلى حِصَان لهُ، فَقَال لهُ ذَلكَ الرَّجُل: أَيْنَ أُمِرْت يَا نَبِيّ الله؟ قَال: مَا أُمِرْت إِلَّا بِهَذَا الوَجْه -يَعْنِي البَحْر-، فَأَقْحَمَ فَرَسه فَسَبَحَ بِهِ فَخَرَجَ. فَقَال: أَيْنَ أُمِرْت يَا نَبِيّ الله؟ قَال: مَا أُمِرْت إِلَّا بِهَذَا الوَجْه. قَال: وَالله مَا كَذَبْت وَلا كُذِبْت. ثُمَّ اقْتَحَمَ الثَّانِيَة فَسَبَحَ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَال: أَيْنَ أُمِرْت يَا نَبِيّ الله؟ قَال: مَا أُمِرْت إِلَّا بِهَذَا الوَجْه. قَال: وَالله مَا كَذَبْتَ وَلا كَذِبْت. قَال: فَأَوْحَى الله إِلى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ البَحْر فَضَرَبَهُ مُوسَى بِعَصَاهُ، فَانْفَلقَ، فَكَانَ فِيهِ اثْنَا عَشَرَ طَرِيقًا، لكُلِّ سِبْط طَرِيق يَتَرَاءَوْنَ، فَلمَّا خَرَجَ أَصْحَاب مُوسَى وَتَتَامَّ أَصْحَاب فِرْعَوْن، التَقَى البَحْر عَليْهِمْ فَأَغْرَقَهُمْ.

وَفِي رِوَايَة إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ عَمْرو بْن مَيْمُون عَنْ عَبْد الله قَال: فَلمَّا خَرَجَ آخِر أَصْحَاب مُوسَى، وَتَكَامَل أَصْحَاب فِرْعَوْن، [اضطَمَّ][1] عَليْهِمْ البَحْر، فَمَا رُئِيَ سَوَاد أَكْثَر مِنْ يَوْمَئِذٍ، وَغَرِقَ فِرْعَوْن لعَنَهُ الله.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾. أَيْ: فِي هَذِهِ القِصَّة وَمَا فِيهَا مِنْ العَجَائِب وَالنَّصْر وَالتَّأْيِيد لعِبَادِ الله المُؤْمِنِينَ، لدَلالة وَحُجَّة قَاطِعَة وَحِكْمَة بَالغَة، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. تَقَدَّمَ تَفْسِيره.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾.

هَذَا إِخْبَار مِنْ الله تَعَالى عَنْ عَبْده وَرَسُوله وَخَليله إِبْرَاهِيم إِمَام الحُنَفَاء، أَمَرَ الله تَعَالى رَسُوله مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتْلُوهُ عَلى أُمَّته، ليَقْتَدُوا بِهِ فِي الإِخْلاص وَالتَّوَكُّل، وَعِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَالتَّبَرِّي مِنْ الشِّرْك وَأَهْله، فَإِنَّ الله تَعَالى آتَى إِبْرَاهِيم رُشْده مِنْ قَبْل. أَيْ: مِنْ صِغَره إِلى كِبَره، فَإِنَّهُ مِنْ وَقْت نَشَأَ وَشَبَّ، أَنْكَرَ عَلى قَوْمه عِبَادَة الأَصْنَام مَعَ الله عَزَّ وَجَلَّ فَقَال: ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أَيْ: مَا هَذِهِ التَّمَاثِيل الَّتِي أَنْتُمْ لهَا عَاكِفُونَ؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ أَيْ: مُقِيمِينَ عَلى عِبَادَتهَا وَدُعَائِهَا، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. يَعْنِي: اعْتَرَفُوا بِأَنَّ أَصْنَامهمْ لا تَفْعَل شَيْئًا مِنْ ذَلك، وَإِنَّمَا رَأَوْا آبَاءَهُمْ كَذَلكَ يَفْعَلُونَ، فَهُمْ عَلى آثَارهمْ يُهْرَعُونَ. فَعِنْد ذَلكَ قَال لهُمْ إِبْرَاهِيم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الأَصْنَام شَيْئًا وَلهَا تَأْثِير، فَلتَخْلُص إِلَيَّ بِالمَسَاءَة، فَإِنِّي عَدُوّ لهَا لا أُبَاليهَا وَلا أُفَكِّر فِيهَا، وَهَذَا كَمَا قَال تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَجْمِعُوا

---

(١) في نسخة: [انطم].

أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾. وَقَال هُود عليه السلام: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. وَهَكَذَا تبَرَّأَ إِبْرَاهِيم مِنْ آلهتهمْ، وقَال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾.

وَقَال تَعَالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. يَعْنِي لا إِله إِلَّا الله.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

يَعْنِي: لا أَعْبُد إِلَّا الَّذِي يَفْعَل هَذِهِ الأَشْيَاء: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾. أَيْ: هُوَ الخَالق الَّذِي قَدَّر قَدرًا، وَهَدَى الخَلائِق إِلَيْهِ، فَكُلّ يَجْرِي عَلى قَدر، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاء وَيُضِلّ مَنْ يَشَاء، ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾. أَيْ: هُوَ خَالقِي وَرَازِقِي، بِمَا سَخَّرَ وَيَسَّرَ مِنَ الأَسْبَاب السَّمَاوِيَّة وَالأَرْضِيَّة، فَسَاقَ المُزْن، وَأَنْزَل المَاء، وَأَحْيَا بِهِ الأَرْض، وَأَخرَجَ بِهِ مِنْ كُلّ الثَّمَرَات رِزْقًا للعِبَادِ، وَأَنْزَل المَاء عَذْبًا زُلالًا، ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾.

وَقَوْله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أَسْنَدَ المَرَض إِلى نَفْسه، وَإِنْ كَانَ عَنْ قَدَر الله وَقَضَائِهِ وَخَلقه، وَلكِنْ أَضَافَهُ إِلى نَفْسه أَدَبًا، كَمَا قَال تَعَالى آمِرًا للمُصَلِّي أَنْ يَقُول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. فَأَسْنَدَ الإِنْعَام إِلى الله سبحانه وتَعَالى، وَالغَضَب حَذَفَ فَاعِله أَدَبًا، وَأَسْنَدَ الضَّلال إِلى العَبِيد، كَمَا قَالتْ الجِنّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾. ولهذا قَال إِبْرَاهِيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾. أَيْ: إِذَا وَقَعت فِي مَرَض فَإِنَّهُ لا يَقْدِر عَلى شِفَائِي أَحَد غَيْره، بِمَا يُقَدِّر مِنْ الأَسْبَاب المُوَصِّلة إِليْهِ. ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾. أَيْ: هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت، لا يَقْدِر عَلى ذَلكَ أَحَد سِوَاهُ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُبْدِئ وَيُعِيد، ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾. أَيْ: هو الذي لا يَقْدِر عَلى غفر الذُّنُوب فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة إِلَّا هُوَ، وَمَنْ يَغْفِر الذُّنُوب إِلَّا الله، وَهُوَ الفَعَّال لِمَا يَشَاء.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وَهَذَا سُؤَال مِنْ إِبْرَاهِيم عليه السلام أَنْ يُؤْتِيه رَبّه حُكْمًا. قَال ابْن عَبَّاس: وَهُوَ العِلم. وَقَال عِكْرِمَة: هُوَ اللُّبّ. وَقَال مُجَاهِد: هُوَ القُرْآن. وَقَال السُّدِّيّ: هُوَ النُّبُوَّة.

وَقَوْله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. أَيْ: اجْعَلنِي مَعَ الصَّالِحِينَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، كَمَا قَال النَّبِيّ ﷺ عِنْد الاحْتِضَار: [«**اللَّهُمَّ، فِي الرَّفِيق الأَعْلى**»[1].][2] قَالهَا ثَلاثًا. وَفِي الحَدِيث فِي الدُّعَاء: «**اللَّهُمَّ، أَحْيِنَا مُسْلمِينَ، وَأَمِتْنَا مُسْلمِينَ، وَأَلحِقْنَا بالصَّالحِينَ، غَيْر خَزَايَا وَلا مُبَدِّلِينَ**».[3]

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٩)، ومسلم (٢١٩١).
(٢) سقط من (ز).
(٣) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٤٢٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح.

وَقَوْله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾. أَيْ: وَاجْعَل لِي ذِكْرًا جَمِيلًا بَعْدِي أُذْكَرُ بِهِ، وَيُقْتَدَى بِي فِي الخَيْر، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قَال مُجَاهِد وَقَتَادَة: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾. يَعْنِي: الثَّنَاء الحَسَن. قَال مُجَاهِد: وهو كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. وكَقَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. قَال لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم: كُلّ مِلَّة تُحِبّهُ وَتَتَوَلَّاهُ. وَكَذَا قَال عِكْرِمَة. وَقَوْله: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾. أَيْ: أَنْعِمْ عَلَيَّ فِي الدُّنْيَا بِبَقَاءِ الذِّكْر الجَمِيل بَعْدِي، وَفِي الآخِرَة بِأَنْ تَجْعَلنِي مِنْ وَرَثَة جَنَّة النَّعِيم.

وَقَوْله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وَهَذَا مِمَّا رَجَعَ عَنْهُ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾. وَقَدْ قَطَعَ تَعَالى الإِلحَاق فِي اسْتِغْفَاره لأَبِيه، فَقَال تَعَالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾. أَيْ: أَجِرْنِي مِنْ الخِزْي يَوْم القِيَامَة، وَيَوْم يُبْعَث الخَلَائِق أَوَّلهمْ وَآخِرهمْ.

وَقَال البُخَارِيّ فِي قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾: وقَال إِبْرَاهِيم بْن طَهْمَان، عَنْ ابْن أَبِي ذِئْب، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«إن إِبْرَاهِيم رأى أَبَاهُ يوم القيامة عَلَيْهِ الغَبَرَة وَالقَتَرَة»**[1]. حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل حَدَّثَنَا أَخِي، عَنْ ابْن أَبِي ذِئْب، عَنْ سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«يَلقَى إِبْرَاهِيم أَبَاهُ، فَيَقُول: يَا رَبّ، إِنَّك وَعَدْتَنِي أَنْ لا تُخْزِنِي يَوْم يُبْعَثُون، فَيَقُول: إِنِّي حَرَّمْت الجَنَّة عَلى الكَافِرِينَ»**[2]. هَكَذَا رَوَاهُ عِنْد هَذِهِ الآيَة.

وَفِي أَحَادِيث الأَنْبِيَاء بِهَذَا الإِسْنَاد بِعَيْنِهِ مُنْفَرِدًا بِهِ، وَلَفْظه: **«يَلقَى إِبْرَاهِيم أَبَاهُ آزَرَ يَوْم القِيَامَة، وَعَلى وَجْه آزَرَ قَتَرَة وَغَبَرَة، فَيَقُول لهُ إِبْرَاهِيم: أَلمْ أَقُل لك: لا تَعْصِنِي؟ فَيَقُول أَبُوهُ: فَاليَوْم لا أَعْصِيك. فَيَقُول إِبْرَاهِيم: يَا رَبّ، إِنَّك وَعَدْتَنِي أَنْ لا تُخْزِنِي يَوْم يُبْعَثُونَ، فَأَيّ خِزْي أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَد؟ فَيَقُول الله تَعَالى: إِنِّي حَرَّمْت الجَنَّة عَلى الكَافِرِينَ. ثُمَّ يُقَال: يَا إِبْرَاهِيم؛ ما تَحْت رجليك؟ فَيَنْظُر فَإِذَا هُوَ [بِذِيخٍ]**[3] **مُلتَطِخ فَيُؤْخَذ بِقَوَائِمِهِ فَيُلقَى فِي النَّار»**[4]. وقَال أبو عَبْد الرَّحْمَن النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير مِنْ «سُنَنه الكَبِير»: قَوْله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أَخْبَرَنَا أَحْمَد بْن حَفْص بْن عَبْد الله حَدَّثَنِي أَبِي حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيم بْن طَهْمَان، عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ سَعِيد ابْن أَبِي سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : **«إِنَّ إِبْرَاهِيم رَأَى أَبَاهُ يَوْم القِيَامَة عَلَيْهِ الغَبَرَة وَالقَتَرَة، وَقَال لهُ: قَدْ نَهَيْتُك عَنْ هَذَا فَعَصَيْتَنِي. قَال: لكِنِّي اليَوْم لا أَعْصِيك وَاحِدَة. قَال: يَا رَبّ، وَعَدْتَنِي أَنْ لا تُخْزِنِي يَوْم يُبْعَثُون، فَإِنْ أَخْزَيْت أَبَاهُ فَقَدْ أَخْزَيْت الأَبْعَد. قَال: يَا إِبْرَاهِيم، إِنِّي حَرَّمْتهَا عَلى الكَافِرِينَ. فَأُخِذَ مِنْهُ، قَال: يَا إِبْرَاهِيم، أَيْنَ أَبُوك؟ قَال: أَنْتَ أَخَذْته مِنِّي. قَال: انْظُرْ أَسْفَل مِنْك. فَنَظَرَ فَإِذَا [ذِيخ]**[5] **يَتَمَرَّغ فِي نَتْنه، فَأُخِذَ بِقَوَائِمِهِ فَأُلقِيَ فِي النَّار»**. هَذَا إِسْنَاد غَرِيب، وَفِيهِ نَكَارَة.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٦٩، ٣٣٥٠).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٣٩٦).
(٣) في (ز): [بذبح].
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٠١).
(٥) في (ز): [ذبح].

وَ[الذِّيخ][١]: هُوَ الذَّكَر مِنْ الضِّبَاع، كَأَنَّهُ حَوَّل آزَر إِلى صُورَة [ذِيخ][٢] مُتَلطِّخ بِعَذِرَتِهِ، فَيُلقَى فِي النَّار كَذَلكَ. وَقَدْ رَوَاهُ البَزَّار مِنْ حَدِيث حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ أَيُّوب، عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَفِيهِ غَرَابَة. وَرَوَاهُ أَيْضًا مِنْ حَدِيث قَتَادَة، عَنْ جَعْفَر بْن عَبْد الغَافِر، عَنْ أَبِي سَعِيد، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ بِنَحْوِهِ.

وَقَوْله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾. أَيْ: لا يَقِي المَرْء مِنْ عَذَاب الله مَاله، وَلوْ افْتَدَى بِمِلءِ الأَرْض ذَهَبًا ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ وَلوْ افْتَدَى بِمَنْ فِي الأَرْض جَمِيعًا، وَلا يَنْفَع يَوْمَئِذٍ إِلَّا الإِيمَان بِالله، وَإِخْلاص الدِّين لهُ، وَالتَّبَرِّي مِنْ الشِّرْك؛ وَلهَذَا قَال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. أَيْ: سَالم مِنْ الدَّنَس وَالشِّرْك. قَال محمد بْن سِيرِينَ: القَلب السَّليم أَنْ يَعْلم أَنَّ الله حَقّ، وَأَنَّ السَّاعَة آتِيَة لا رَيْب فِيهَا، وَأَنَّ الله يَبْعَث مَنْ فِي القُبُور. وَقَال ابْن عَبَّاس: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾: حيي يَشْهَد أَنْ لا إِله إِلَّا الله. وَقَال مُجَاهِد، وَالحَسَن، وَغَيْرهمَا: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، يَعْنِي: مِنْ الشِّرْك.

وَقَال سَعِيد بْن المُسَيِّب: القَلب السَّليم: هُوَ القَلب الصَّحِيح، وَهُوَ قَلب المُؤْمِن، لأَنَّ قَلب المُنَافِق مَرِيض، قَال الله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾. وقَال أَبُو عُثْمَان النَّيْسَابُورِيّ: هُوَ القَلب السَّالم مِنْ البِدْعَة المُطْمَئِنّ على السُّنَّة.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أَيْ: قُرِّبَتْ الجنة وَأُدْنِيَتْ مِنْ أَهْلهَا مُزَخْرَفَة مُزَيَّنَة لنَاظِرِيهَا، وَهُمْ المُتَّقُونَ الَّذِينَ رَغِبُوا فِيهَا، وَعَمِلُوا لهَا فِي الدُّنْيَا، ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أَيْ: أُظْهِرَتْ وَكُشِفَ عَنْهَا، وَبَدَتْ مِنْهَا عُنُق فَزَفَرَتْ زَفْرَة بَلغَتْ مِنْهَا القُلُوب إِلى الحَنَاجِر، وَقِيل لأَهْلهَا تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾. أَيْ: ليْسَتْ الآلهَة الَّتِي عَبَدْتُمُوهَا مِنْ دُون الله، مِنْ تِلكَ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد تُغْنِي عَنْكُمْ اليَوْم شَيْئًا وَلا تَدْفَع عَنْ أَنْفُسهَا، فَإِنَّكُمْ وَإِيَّاهَا اليَوْم حَصَب جَهَنَّم أَنْتُمْ لهَا وَارِدُونَ.

وَقَوْله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾. قَال مُجَاهِد: يَعْنِي: فَدُهْوِرُوا فِيهَا. وَقَال غَيْره: كُبِّبوا فِيهَا، وَالكَاف مُكَرَّرَة؛ كَمَا يُقَال: صَرْصَر. وَالمُرَاد: أَنَّهُ أُلقِيَ بَعْضهمْ عَلى بَعْض مِنْ الكُفَّار وَقَادَتهمْ الَّذِينَ دَعَوْهُمْ إِلى الشِّرْك، ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾، أَيْ: أُلقُوا فِيهَا عَنْ آخِرهمْ. ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. أَيْ: يَقُول الضُّعَفَاء للَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾. وَيَقُولُونَ وَقَدْ عَادُوا عَلى أَنْفُسهمْ بِالمَلامَةِ: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أَيْ: نَجْعَل أَمْرَكُمْ مُطَاعًا كَمَا يُطَاع أَمْر رَبّ العَالمِينَ، وَعَبَدْنَاكُمْ مَعَ رَبّ العَالمِينَ، ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ أَيْ: مَا دَعَانَا إِلى ذَلكَ إِلَّا المُجْرِمُونَ، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ قَال بَعْضهمْ: يَعْنِي: مِنْ المَلائِكَة، كَمَا يَقُولُونَ: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، وَكَذَا قَالُوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أَيْ: قَرِيب.

قَال قَتَادَة: يَعْلمُونَ -وَالله- أَنَّ الصَّدِيق إِذَا كَانَ صَالحًا نَفَعَ، وَأَنَّ الحَمِيم إِذَا كَانَ صَالحًا شَفَعَ، ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً

---

(١) في (ز): [الذبح].
(٢) في (ز): [ذبح].

فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَتَمَنَّوْنَ أنهم يُرَدُّوا إِلى الدار الدُّنْيَا، لِيَعْمَلُوا بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ فِيمَا يَزْعُمُونَ، وهو سبحانه وتَعَالى يَعْلم أَنَّهُ لَوْ رَدَّهم إِلى الدار الدُّنْيَا لعَادُوا لمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لكَاذِبُونَ. وَقَدْ أَخْبَرَ الله تَعَالى عَنْ تَخاصُم أَهْل النَّار فِي سُورَة «ص»، ثُمَّ قَال: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾. ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾. أَيْ: أَنَّ فِي مُحَاجَّة إِبْرَاهِيم لقَوْمِهِ وَإِقَامَة الحُجَج عَلَيْهِمْ فِي التَّوْحِيد لآيَة ودَلالة وَاضِحَة جَلِيَّة عَلى أَنَّه لا إِله إِلَّا الله. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

هَذَا إِخْبَار مِنْ الله ﷻ عَنْ عَبْده وَرَسُوله نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَوَّل رَسُول بُعث إِلى الأَرْض بَعْدَمَا عُبِدَتْ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد بَعَثَهُ الله نَاهِيًا عَنْ ذَلكَ، وَمُحَذِّرًا مِنْ وَبِيل عِقَابه، فَكَذَّبَهُ قَوْمه واسْتَمَرُّوا عَلى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الفِعَال الخَبِيثَة فِي عِبَادَتهمْ أَصْنَامهمْ، ويتنزل تَكْذِيبهمْ لهُ بمنزلة تَكْذِيب جَمِيع الرُّسُل؛ [فَلهَذَا][1] قَال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾. أَيْ أَلا تَخافُونَ الله فِي عِبَادَتكُمْ غَيْره؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أَيْ: إِنِّي رَسُول مِنْ الله إِليْكُمْ، أَمِين فِيمَا بَعَثَنِي الله بِهِ، أُبَلِّغكُمْ رسالة الله وَلا أَزِيد فِيهَا وَلا أُنْقِص مِنْهَا، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾. أَيْ: لا أَطْلُب مِنْكُمْ جَزَاء عَلى نُصْحِي لكُمْ، بَل أَدَّخِر ثَوَاب ذَلكَ عِنْد الله. ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾. فَقَدْ وَضَحَ لكُمْ وَبَانَ صِدْقِي وَنُصْحِي وَأَمَانَتِي فِيمَا بَعَثَنِي الله بِهِ وَائْتَمَنَنِي عَليْهِ.

﴿ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

يَقُولُونَ: أَنُؤْمِن لك ونَتَّبِعك ونتساوي فِي ذَلكَ بِهَؤُلاءِ الأراذل الَّذِينَ اتَّبَعُوك وَصَدَّقُوك، وَهُمْ أَرَاذِلنَا؟ وَلهَذَا: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أَيْ: وَأَيّ شَيْء يَلزَمنِي مِنْ اتِّبَاع هَؤُلاءِ لي، وَلوْ كَانُوا عَلى أَيّ شَيْء كَانُوا عَليْهِ لا يَلزَمنِي التَّنْقِيب عَنْهُ والفَحْص وَالبَحْث، إِنَّمَا عَليَّ أَنْ أَقْبَل مِنْهُمْ تَصْدِيقهمْ إِيَّايَ، وَأَكِل سَرَائِرهمْ إِلى الله ﷻ، ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كَأَنَّهُمْ سَأَلُوا مِنْهُ أَنْ يُبْعِدهُمْ عَنْهُ ليتابعوه، فَأَبَى عَليْهِمْ ذَلكَ، وَقَال: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾. أَيْ: إِنَّمَا بُعِثْت نَذِيرًا؛ فَمَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَنِي وَصَدَّقَنِي كَانَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، سَوَاء كَانَ شَرِيفًا أَوْ وَضِيعًا، أو جَليلًا أَوْ حَقِيرًا.

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

لـمَّا طَال مُقَام نَبِيّ الله بَيْن أَظْهُرهم يَدْعُوهُمْ إِلى الله ليْلًا وَنَهَارًا، وجهرًا وإسرارًا، وَكُلَّمَا كَرَّرَ عَليْهِمْ الدَّعْوَة صَمَّمُوا عَلى الكُفْر الغَليظ، وَالامْتِنَاع الشَّدِيد، وَقَالُوا فِي الآخِر: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ أَيْ: عَنْ دَعْوَتك إِيَّانَا إِلى دِينك يا نوح ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾. أَيْ: لنرجمنك. فَعِنْد ذَلكَ دَعَا عَليْهِمْ دَعْوَة اسْتَجَابَ الله مِنْهُ، فَقَال: ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾. وَقَال هَهُنَا: ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ

---

(١) في نسخة: [ولهذا].

ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾. وَالمَشْحُون: هُوَ المَمْلُوء بِالأَمْتِعَةِ وَالأَزْوَاج الَّتِي حُمِلَ فِيه مِنْ كُلّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، أَيْ: نجيناه ومن معه كلهم، وأغرقنا من كذبه، وخالف أمره كلهم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

وَهَذَا إِخْبَار مِنْ الله تَعَالَى عَنْ عَبْده وَرَسُوله هُود عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ دَعَا قَوْمه عَادًا وكانوا قومًا يَسْكُنُونَ الأَحْقَاف، وَهِيَ جِبَال الرَّمَل قَرِيبًا مِنْ بلاد حَضْرَمَوْت بلاد مُتَاخِمَة لِبلاد اليَمَن، وَكَانَ زَمَانهمْ بَعْد قَوْم نُوح، كَمَا قَالَ فِي «سُورَة الأَعْرَاف»: ﴿وَٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾. وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي غَايَة مِنْ قُوَّة التَّرْكِيب وَالقُوَّة وَالبَطْش الشَّدِيد، وَالطُّول المَدِيد، وَالأَرْزَاق الدَّارَّة، وَالأَمْوَال، وَالجَنَّات والعيون، وَالأَبْنَاء وَالزُّرُوع وَالثِّمَار. وَكَانُوا مَعَ ذَلِكَ يَعْبُدُونَ غَيْر الله مَعَهُ، فَبَعَثَ الله إِلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْهُمْ رَسُولًا وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَدَعَاهُمْ إِلَى الله وَحْده، وَحَذَّرَهُمْ نِقْمَته وَعَذَابه فِي مُخَالَفَته، فَقَال لَهُمْ كَمَا قَال نُوح لِقَوْمِهِ، إِلى أن قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾. اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي الرِّيع بِمَا حَاصِله: أَنَّهُ المَكَان المُرْتَفِع عِنْد جَوَادّ الطُّرُق المَشْهُورَة، تبْنُونَ هُنَاكَ بُنْيَانًا مُحْكَمًا بَاهِرًا هَائِلًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾. أَيْ: مَعْلَمًا بِنَاء مَشْهُورًا، ﴿تَعْبَثُونَ﴾، وَإِنَّمَا تَفْعَلُونَ ذَلِكَ عَبَثًا لا لِلاحْتِيَاج إِلَيْهِ، بَل لِمُجَرَّدِ اللَّعِب وَاللَّهْو وَإِظْهَار القُوَّة؛ وَلِهَذَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ نَبِيّهمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ، لأَنَّهُ تَضْيِيع لِلزَّمَانِ وَإِتْعَاب لِلأَبْدَانِ فِي غَيْر فَائِدَة، وَاشْتِغَال بِمَا لا يُجْدِي فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَة.

ثم قَال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾. قَال مُجَاهِد: المَصَانِع: البُرُوج المُشَيَّدَة، وَالبُنْيَان المُخَلَّد. وَفِي رِوَايَة عَنْهُ: بُرُوج الحَمَام.

وَقَال قَتَادَة: هِيَ مآخذ المَاء. قَال قَتَادَة: وَقَرَأَ بَعْض القراء: (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِع كَأَنَّكُمْ خَالِدُونَ). وَفِي القِرَاءَة المَشْهُورَة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾. أَيْ: لِكَيْ تُقِيمُوا فِيهَا أَبَدًا، وَذَلِكَ لَيْسَ بِحَاصِلٍ لكُمْ، بَل زَائِل عَنْكُمْ، كَمَا زَال عَمَّنْ كَانَ قَبْلكُمْ. وقال ابْن أَبِي حَاتِم رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الحَكَم بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا الوَلِيد، حَدَّثَنَا ابْن عَجْلان، حَدَّثَنِي عَوْن بْن عَبْد الله بْن عُتْبَة، أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا رَأَى مَا أَحْدَثَ المُسْلِمُونَ فِي الغُوطَة مِنْ البُنْيَان وَنَصْب الشَّجَر، قَامَ فِي مَسْجِدهمْ فَنَادَى: يَا أَهْل دِمَشْق، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَال: أَلا تَسْتَحْيُونَ! أَلا تَسْتَحْيُونَ! تَجْمَعُونَ مَا لا تَأْكُلُونَ، وَتَبْنُونَ مَا لا تَسْكُنُونَ، وَتَأْمُلُونَ مَا لا تُدْرِكُونَ، إِنَّهُ كَانَتْ قَبْلكُمْ قُرُون، يَجْمَعُونَ فَيُوعُونَ وَيَبْنُونَ فَيُوثِقُونَ، وَيَأْمُلُونَ فَيُطِيلُونَ، فَأَصْبَحَ أَمَلهمْ غُرُورًا، وَأَصْبَحَ جَمْعهمْ بُورًا، وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنهمْ قُبُورًا، أَلا إِنَّ عَادًا مَلَكَتْ مَا بَيْن عَدَن وَعُمَان خَيْلًا وَرِكَابًا، فَمَنْ يَشْتَرِي مِنِّي مِيرَاث عَاد بِدِرْهَمَيْنِ؟

وَقَوْله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾. وَصَفَهُمْ بِالقُوَّة وَالغِلْظَة وَالجَبَرُوت، ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. أَيْ: اعْبُدُوا رَبّكُمْ، وَأَطِيعُوا رَسُولكُمْ. ثُمَّ شَرَعَ يُذَكِّرهُمْ نِعَم الله عَلَيْهِمْ فَقَال: ﴿وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. أَيْ: إِنْ كَذَّبْتُمْ وَخَالَفْتُمْ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الله بِالتَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب، فَمَا نَفَعَ فِيهِمْ.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ جَوَاب قَوْم هُود لَهُ، بَعْدَمَا حَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ، وَرَغَّبَهُمْ وَرَهَّبَهُمْ، وَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقّ وَوَضَّحَهُ: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أَيْ: لا نَرْجِع عَمَّا نَحْنُ فيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وَهَكَذَا الأَمْر فَإِنَّ الله تَعَالى قَال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

وَقَوْلهمْ: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾. قَرَأَ بَعْضهمْ: (إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ) -بِفَتْح الخَاء وَتَسْكِين اللَّام. قَال ابْن مَسْعُود، وَالعَوْفِيّ عَنْ عَبْد الله بْن عَبَّاس، وَعَلْقَمَة وَمُجَاهِد: يَعْنُونَ مَا هَذَا الَّذِي جِئْتَنَا بِهِ إِلَّا أَخْلاق الأَوَّلين؛ كَمَا قَال المُشْرِكُونَ مِنْ قُرَيْش: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، وَقَال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وَقَال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ -بِضَمِّ الخَاء وَاللَّام- يَعْنُونَ: دِينهمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الأَمْر هُوَ دِين الأَوَّلِينَ مِنَ الآبَاء وَالأَجْدَاد، وَنَحْنُ تَابِعُونَ لَهُمْ، سَالِكُونَ وَرَاءَهُمْ، نَعِيش كَمَا عَاشُوا، وَنَمُوت كَمَا مَاتُوا، وَلا بَعْث وَلا مَعَاد؛ وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ يَقُول: دِين الأَوَّلِينَ. وَقَالَهُ عِكْرِمَة، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَقَتَادَة، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾. أَيْ: فاسْتَمَرُّوا عَلى تَكْذِيب نَبِيّ الله هُود وَمُخَالفته وَعِنَاده، فَأَهْلَكَهُمُ الله. وَقَدْ بَيَّنَ سَبَب إِهْلاكه إِيَّاهُمْ فِي غَيْر مَوْضِع مِنْ القُرْآن بِأَنَّهُ أَرْسَل عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا عَاتِيَة، أَيْ: رِيحًا شَدِيدَة الهُبُوب، ذَات بَرْد شَدِيد جِدًّا، فَكَانَ إِهْلاكهمْ مِنْ جِنْسهمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَعْتَى شَيْء وَأَجْبَرَهُ، فَسَلَّطَ الله عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَعْتَى مِنْهُمْ وَأَشَدّ قُوَّة، كَمَا قَال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ﴾ -وَهُمْ عَاد الأُولى كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾. وَهُمْ مِنْ نَسْل إِرَم بْن سَام بْن نُوح- ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ العُمُد. وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ «إِرَم» مَدِينَة، فَإِنَّمَا أَخَذَ ذَلِكَ مِنَ الإِسْرَائِيلِيَّات مِنْ كَلام كَعْب وَوَهْب، وَلَيْسَ لِذَلِكَ أَصْل أَصِيل؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾. أَيْ: لَمْ يُخْلَق مِثْل هَذِهِ القَبِيلَة فِي قُوَّتهمْ وَشِدَّتهمْ وَجَبَرُوتهمْ، وَلَوْ كَانَ المُرَاد بِذَلِكَ مَدِينَة لَقَال: الَّتِي لَمْ يُبْنَ مِثْلهَا فِي البِلاد. وَقَال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾. وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الله تَعَالى لَمْ يُرْسِل عَلَيْهِمْ مِنْ الرِّيح إِلَّا بِمِقْدَار أَنْف الثَّوْر، عَتَتْ عَلى الخَزَنَة بِإِذْنِ الله لَهَا فِي ذَلِكَ، وَسَلَكَتْ حَصَبَتْ بِلادهمْ، فَحَصَبَتْ كُلّ شَيْء لَهُمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ الآيَة. وَقَال تَعَالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾. أَيْ: كَامِلَة، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾. أَيْ: بَقُوا أَبْدَانًا بِلا رُءُوس؛ وَذَلِكَ أَنَّ الرِّيح كَانَتْ تَأْتِي الرَّجُل مِنْهُمْ فَتَقْتَلِعهُ وَتَرْفَعهُ فِي الهَوَاء، ثُمَّ تُنَكِّسهُ عَلى أُمّ رَأْسه، فَتَشْدَخ دِمَاغه وَتَكْسِر رَأْسه وَتُلْقِيه، كَأَنَّهُمْ أَعْجَاز نَخْل مُنْقَعِر. وَقَدْ كَانُوا تَحَصَّنُوا فِي الجِبَال وَالكُهُوف وَالمَغَارَات، وَحَفَرُوا لَهُمْ فِي الأَرْض إِلى أَنْصَافهمْ، فَلَمْ يُغْنِ ذَلِكَ عن أَمْر الله شَيْئًا: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾. وَلِهَذَا قَال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهَذَا إِخْبار مِنْ الله ﷻ عَنْ عَبْده وَرَسُوله صَالح عليه السلام: أَنَّهُ بَعَثَهُ إِلى قَوْمه ثَمُود، وَكَانُوا عَرَبًا يَسْكُنُونَ مَدِينَة الحِجْر، الَّتِي بَيْن وَادِي القُرَى وَبِلاد الشَّام، وَمَسَاكِنهمْ مَعْرُوفَة مَشْهُورَة. وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي سُورَة «الأَعْرَاف» الأَحَادِيث المَرْوِيَّة فِي مُرُور رَسُول الله ﷺ بِهِمْ حِين أَرَادَ غَزْو الشَّام، فَوَصَل إِلى تَبُوك، ثُمَّ عَادَ إِلى المَدِينَة لِيَتَأَهَّب لِذَلِكَ. وَقد كَانُوا بَعْد عَاد وَقَبْل الخَلِيل عليه السلام، فَدَعَاهُمْ نَبِيّهمْ صَالح إِلى الله ﷻ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْده لا شَرِيك لَهُ، وَأَنْ يُطِيعُوهُ فِيمَا بَلَّغَهُمْ مِنْ الرِّسَالَة، فَأَبَوْا عَلَيْهِ وَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لا يَبْتَغِي بِدَعْوَتِهِمْ أَجْرًا مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا يَطْلُب ثَوَاب ذَلِكَ مِنْ الله ﷻ ثُمَّ ذَكَّرَهُمْ آلاء الله عَلَيْهِمْ، فَقَال:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

يَقُول لَهُمْ وَاعِظًا لَهُمْ وَمُحَذِّرًا إياهم نِقَم الله أَنْ تَحِلّ بِهِمْ، وَمُذَكِّرًا بِأَنْعُم الله عَلَيْهِمْ فِيمَا رَزَقَهُمْ مِنْ الأَرْزَاق الدَّارَّة، وَجَعلهُمْ فِي أَمْن مِنْ المَحْذُورَات، وَأَنْبَتَ لَهُمْ مِنْ الجَنَّات، وأنبع لَهُمْ مِنَ العُيُون الجَارِيَات، وَأَخْرَجَ لَهُمْ مِنْ الزُّرُوع وَالثَّمَرَات؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. قَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: أَيْنَعَ وَبَلَغَ فَهُوَ هَضِيم. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، يَقُول: مُعْشِبَة. وَقَال إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالد، عَنْ عَمْرو بْن أَبِي عَمْرو -وَقَدْ أَدْرَكَ الصَّحَابَة- عَنْ ابْن عَبَّاس، فِي قَوْله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. قَال: إِذَا رَطُبَ وَاسْتَرْخَى. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. قَال: وَرُوِيَ عَنْ أَبِي صَالح نَحْو هَذَا.

وَقَال أَبُو إِسْحَاق عَنْ أَبِي العَلاء: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قَال: هُوَ المُذَنَّب مِنْ الرُّطَب، وَقَال مُجَاهِد: هُوَ الَّذِي إِذَا كبس تَهَشَّمَ وَتَفَتَّتَ وَتَنَاثَرَ. وَقَال ابْن جُرَيْج: سَمِعْت عَبْد الكَرِيم أبا أُمَيَّة، سَمِعْت مُجَاهِدًا يَقُول: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. قَال: حِين يَطْلُع تَقْبِض عَلَيْهِ فَتَهْضِمهُ، فَهُوَ مِنْ الرُّطْب الهَضِيم، وَمِنْ اليَابِس الهَشِيم، تَقْبِض عَلَيْهِ فَتُهَشِّمهُ. وَقَال عِكْرِمَة وَقَتَادَة: الهَضِيم: الرَّطْب اللَّين. وَقَال الضَّحَّاك: إِذَا كَثُرَ حَمْل الثَّمَرَة، وَرَكِبَ بَعْضهَ بَعْضًا، فَهُوَ هَضِيم. وَقَال مُرَّة: هُوَ الطَّلع حِين يَتَفَرَّق وَيَخْضَرّ. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: هُوَ الَّذِي لا نَوَى لَهُ. وَقَال أَبُو صَخْر: مَا رَأَيْت الطَّلع حِين يُشَقّ عَنْهُ الكُمّ؛ فَتَرَى الطَّلع قَدْ لصِقَ بَعْضه بِبَعْضٍ، فَهُوَ الهَضِيم.

وَقَوْله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾. قَال ابْن عَبَّاس، وَغَيْر وَاحِد: يَعْنِي: حَاذِقِينَ. وَفِي رِوَايَة عَنْهُ: شَرِهِينَ أَشِرِينَ. وَهُوَ اخْتِيَار مُجَاهِد وَجَمَاعَة، وَلا مُنَافَاة بَيْنهمَا، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ تِلكَ البُيُوت المَنْحُوتَة فِي الجِبَال أَشَرًا وَبطَرًا وَعَبَثًا، مِنْ غَيْر حَاجَة إِلى سُكْنَاهَا، وَكَانُوا حَاذِقِينَ مُتْقِنِينَ لنَحْتِهَا وَنَقْشهَا، كَمَا هُوَ المُشَاهَد مِنْ حَالهمْ لمَنْ رَأَى مَنَازِلهمْ؛ وَلهَذَا قَال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. أَيْ: أَقْبِلُوا عَلى عمل مَا يَعُود نَفْعه عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، مِنْ عِبَادَة رَبّكُمْ الَّذِي خَلقَكُمْ وَرزَقَكُمْ لتوحّدوه وتعبدوه وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَة وَأَصِيلاً، ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يَعْنِي: رُؤَسَاءَهُمْ وَكُبَرَاءَهُمْ، الدُّعَاة لهُمْ إِلى الشِّرْك وَالكُفْر، وَمُخَالفَة الحَقّ.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ ثَمُود فِي جَوَابهم لنَبِيِّهِمْ صَالح عليه السلام حِين دَعَاهُمْ إِلى عِبَادَة رَبِّهِمْ، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ

ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾، قَال مُجَاهِد وَقَتَادَة: يَعْنُونَ مِنْ المَسْحُورِينَ. وَرَوَى أَبُو صَالِح، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ يَعْنِي: مِنْ المَخْلُوقِينَ. وَاسْتَشْهَدَ بَعْضهمْ عَلَى هَذَا القول بما قال الشَّاعِر:

فَـإِنْ تَـسْأَلِينَا فِـيمَ نَحْـنُ فَإِنَّنَـا ❁ عَـصَافِير مِـنْ هَـذَا الأَنَـام المُسَحَّر

يَعْنِي: الَّذِينَ لَهُمْ سحور. وَالسَّحر هُوَ الرِّئَة، وَالأَظْهَر فِي هَذَا قَوْل مُجَاهِد وَقَتَادَة أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّمَا أَنْتَ فِي قَوْلك هَذَا مَسْحُور لا عَقْل لك.

ثُمَّ قَالُوا: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾. يَعْنِي: فَكَيْف أُوحِيَ إِلَيْك دُوننَا؟ كَمَا قَالُوا فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾. ثُمَّ إِنَّهُمْ اقْتَرَحُوا عَلَيْهِ آيَة يَأْتِيهِمْ بِهَا، لِيَعْلَمُوا صِدْقه بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبّهمْ فطَلَبُوا مِنْهُ -وَقَدْ اجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ- أَنْ يُخْرِج لَهُمْ الآن مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَة -وَأَشَارُوا إِلَى صَخْرَة عِنْدهمْ- نَاقَة عُشَرَاء مِنْ صِفَتهَا كَذَا وَكَذَا. فَعِنْد ذَلِكَ أَخَذَ عَلَيْهِمْ نَبِيّ الله صَالِح العُهُود وَالمَوَاثِيق، لَئِنْ أَجَابَهُمْ إِلَى مَا سَأَلُوا لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَتَّبِعُنَّهُ، فأنعموا بذلك. فَقَامَ نَبِيّ الله صَالِح عَلَيْهِ السَّلَامُ فَصَلَّى ثُمَّ دَعَا الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُجِيبهُمْ إِلَى سُؤَالهمْ، فَانْفَطَرَتْ تِلْكَ الصَّخْرَة الَّتِي أَشَارُوا إِلَيْهَا عَنْ نَاقَة عُشَرَاء، عَلَى الصِّفَة الَّتِي وَصَفُوهَا، فَآمَنَ بَعْضهمْ وَكَفَرَ أَكْثَرهمْ، ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾. يَعْنِي: تَرِد مَاءَكُمْ يَوْمًا، وَيَوْمًا تَرِدُونَهُ أَنْتُمْ، ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾. فَحَذَّرَهُمْ نِقْمَة الله إِنْ أَصَابُوهَا بِسُوءٍ، فَمَكَثَتْ النَّاقَة بَيْن أَظْهُرهمْ حِينًا مِنْ الدَّهْر تَرِد المَاء، وَتَأْكُل الوَرَق وَالمَرْعَى، وَيَنْتَفِعُونَ بِلَبَنِهَا، يَحْلُبُونَ مِنْهَا مَا يَكْفِيهِمْ شُرْبًا وَرِيًّا، فَلَمَّا طَال عَلَيْهِمْ الأَمَد وَحَضَرَ شقاؤهم، تَمَالَئُوا عَلَى قَتْلهَا وَعَقْرهَا، ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾. وَهُوَ أَنَّ أَرْضهمْ زُلْزِلَتْ زِلْزَالًا شَدِيدًا، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَة عَظِيمَة اقْتَلَعَتْ القُلُوب عن مَحَالِّهَا، وَأَتَاهُمْ مِنْ الأَمْر مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ، وَأَصْبَحُوا فِي دِيَارهمْ جَاثِمِينَ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْده وَرَسُوله لُوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ: لُوط بْن هَارَان بْن آزَر، وَهُوَ ابْن أَخِي إِبْرَاهِيم الخَلِيل، وَكَانَ الله تَعَالَى قَدْ بَعَثَهُ إِلَى أُمَّة عَظِيمَة فِي حَيَاة إِبْرَاهِيم، وَكَانُوا يَسْكُنُونَ «سَدُوم» وَأَعْمَالهَا الَّتِي أَهْلَكَهَا الله بِهَا، وَجَعَل مَكَانهَا بُحَيْرَة مُنْتِنَة خَبِيثَة، وَهِيَ مَشْهُورَة بِبِلَادِ الغَوْر، مُتَاخِمَة لِجِبَال البَيْت المُقَدَّس، بَيْنهَا وَبَيْن بِلَاد الكَرْك والشوبك. فَدَعَاهُمْ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْده لا شَرِيك لَهُ، وَأَنْ يُطِيعُوا رَسُولهمْ الَّذِي بَعَثَهُ الله إِلَيْهِمْ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَة الله، وَارْتِكَاب مَا كَانُوا قَدْ ابْتَدَعُوهُ فِي العَالَم، مِمَّا لَمْ يَسْبِقهُمْ الخَلَائِق إِلَى فِعْله، مِنْ إِتْيَان الذُّكُور دُون الإِنَاث؛ ولهذا قال تعالى:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

لَـمَّا نَهَاهُمْ نَبِيّ الله عَنْ إتيانهم الفَوَاحِش، وَغَشَيَانهمْ الذُّكُور، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى إِتْيَان نِسَائِهِمْ اللَّاتِي خَلَقَهُنَّ الله لَهُمْ، مَا كَانَ جَوَاب قومه لهُ إِلَّا أَنْ قَالُوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ يعنون: عَمَّا جِئْتنَا بِهِ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾، أَيْ:

نَنْفِيك مِنْ بَيْن أَظْهُرِنَا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لا يَرْتَدِعُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ، وَأَنَّهُمْ مُسْتَمِرُّونَ عَلى ضَلالهِمْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ فقال: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أَيْ: المُبْغِضِينَ، لا أُحِبُّهُ وَلا أَرْضَى بِهِ، وأنا بَرِيء مِنْكُمْ. ثُمَّ دَعَا الله عَلَيْهِمْ؛ قَال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾. قَال الله تَعَالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾. أَيْ: كُلّهمْ، ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، وَهِيَ امْرَأَته، وَكَانَتْ عَجُوزَ سَوْء، بَقِيَتْ فَهلكَتْ مَعَ مَنْ بَقِيَ مِنْ قَوْمهَا، وَذَلكَ كَمَا أَخْبَرَ الله تَعَالى عَنْهُمْ فِي «سُورَة الأَعْرَاف» وَ«هُود»، وَكَذَا فِي «الحِجْر» حِين أَمَرَهُ الله أَنْ يُسْرِي بِأَهْلِهِ إِلَّا امْرَأَته، وَأَنَّهُمْ لا يَلتَفِتُوا إِذَا سَمِعُوا الصَّيْحَة حِين تَنْزِل عَلى قَوْمه، فَصَبَرُوا لأَمْرِ الله وَاسْتَمَرُّوا، وَأَنْزَل الله عَلى أُولئِكَ العَذَاب الَّذِي عَمَّ جَمِيعهمْ، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمْ حِجَارَة مِنْ سِجِّيل مَنْضُود، وَلهَذَا قَال: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

هَؤُلاءِ -أعني: أَصْحَاب الأَيْكَة- هُمْ أصحاب مَدْيَن عَلى الصَّحِيح. وَكَانَ نَبِيّ الله شُعَيْب مِنْ أَنْفُسهمْ، وَإِنَّمَا لمْ يَقُل هَهُنَا: أَخُوهُمْ شُعَيْب، لأَنَّهُمْ نُسِبُوا إِلى عِبَادَة الأَيْكَة، وَهِيَ شَجَرَة، وَقِيل: شَجَر مُلتَفّ كَالغَيْضَةِ، كَانُوا يَعْبُدُونهَا، فَلهَذَا لمَّا قَال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، لمْ يَقُل: «إِذْ قَال لهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْب». وإِنَّمَا قَال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾. فَقَطَعَ نسبة الأُخُوَّة بَيْنهمْ؛ للمَعْنَى الَّذِي نُسِبُوا إِليْهِ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُمْ نَسَبًا. وَمِنْ النَّاس مَنْ لمْ يتفطن لهَذِهِ النُّكْتَة، فَظَنَّ أَنَّ أَصْحَاب الأَيْكَة غَيْر أَهْل مَدْيَن، فَزَعَمَ أَنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعَثَهُ الله إِلى أُمَّتَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَال: ثَلاث أُمَم. وَقَدْ رَوَى إِسْحَاق بْن بِشْر الكَاهِلِيّ -وَهُوَ ضَعِيف- حَدَّثَنِي ابْن السُّدِّيّ، عَنْ أَبِيهِ وَزَكَرِيَّا ابْن عَمْر، عَنْ خُصَيْف، عَنْ عِكْرِمَة، قَال: مَا بَعَثَ الله نَبِيًّا مَرَّتَيْنِ إِلَّا شُعَيْبًا، مَرَّة إِلى مَدْيَن فَأَخَذَهُمْ الله بِالصَّيْحَةِ، وَمَرَّة إِلى أَصْحَاب الأَيْكَة فَأَخَذَهُمْ الله بِعَذَابِ يَوْم الظُّلَّة. وَرَوَى أَبُو القَاسِم البَغَوِيّ، عَنْ هُدْبَة، عَنْ هَمَّام، عَنْ قَتَادَة فِي قَوْله تَعَالى: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾: قَوْم شُعَيْب، وَقَوْله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾: قَوْم شُعَيْب. وَقَالهُ إِسْحَاق بْن بِشْر. وَقَال غَيْر جُوَيْبِر: أَصْحَاب الأَيْكَة وَمَدْيَن هُمَا وَاحِد، وَالله أَعْلم. وَقَدْ رَوَى الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة «شُعَيْب» مِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن عُثْمَان بْن أَبِي شَيْبَة، عَنْ أَبِيهِ عَنْ مُعَاوِيَة بْن هِشَام، عَنْ هِشَام بْن سعد، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي هِلال، عَنْ رَبِيعَة بْن سيف، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ قَوْم مَدْيَن وَأَصْحَاب الأَيْكَة أُمَّتَانِ، فبَعَثَ الله إِليْهِمَا شُعَيْبًا النَّبِيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ»[1]. وَهَذَا غَرِيب، وَفِي رَفْعه نَظَر، وَالأَشْبَه أَنْ يَكُون مَوْقُوفًا. وَالصَّحِيح أَنَّهُمْ أُمَّة وَاحِدَة، وُصِفُوا فِي كُلّ مَقَام بِشَيْءٍ. وَلهَذَا وَعَظَ هَؤُلاءِ وَأَمَرَهُمْ بِوَفَاءِ المِكْيَال وَالمِيزَان، كَمَا فِي قِصَّة مَدْيَن سَوَاء بِسَوَاءٍ، فَدَلَّ ذَلكَ عَلى أنهم أُمَّة وَاحِدَة.

﴿۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

يَأْمُرهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِيفَاءِ المِكْيَال وَالمِيزَان، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ التَّطْفِيف فِيهِمَا، فَقَال: ﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾

---

(١) قال الإمام ابن كثير: وهذا غريب، وفي رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفًا. والصحيح أنهم أمة واحدة وُصفوا في كل مقام بشيء واحد.

أَيْ: إِذَا دَفَعْتُمْ لِلنَّاسِ فَكَمِّلُوا الكَيْلَ لَهُمْ، وَلا تَبْخَسُوا الكَيْلَ فَتُعْطُوهُ نَاقِصًا، وَتَأْخُذُوهُ -إِذَا كَانَ لَكُمْ- تَامًّا وَافِيًا، وَلكِنْ خُذُوا كَمَا تُعْطُونَ، وَأَعْطُوا كَمَا تَأْخُذُونَ.

﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ وَالقِسْطَاسُ هُوَ: المِيزَانُ، وَقِيلَ: القَبَّانُ. قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مُعَرَّبٌ مِنَ الرُّومِيَّةِ. وقَالَ مُجَاهِدٌ: القِسْطَاسُ المُسْتَقِيمُ: العَدْلُ بِالرُّومِيَّةِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: القِسْطَاسُ: العَدْلُ.

وَقَوْلُه: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾، أَيْ: لا تُنْقِصُوهُمْ أَمْوَالَهُمْ، ﴿ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾، يَعْنِي: قَطْعَ الطَّرِيقِ، كَمَا قَالَ فِي الآيَةِ الأُخْرَى: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ ﴾.

وَقَوْلُه: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، يُخَوِّفُهُمْ بَأْسَ اللهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ آبَاءَهُمُ الأَوَائِلَ، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَالسُّدِّيُّ، وَسُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: ﴿ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، يَقُولُ: خَلْقَ الأَوَّلِينَ. وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾.

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَوَابِ قَوْمِهِ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَجَابَتْ بِهِ ثَمُودُ لِرَسُولِهَا -تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ- حَيْثُ قَالُوا: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾، يَعْنُونَ: مِنَ المَسْحُورِينَ، كَمَا تَقَدَّمَ. ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أَيْ: تَتَعَمَّدُ الكَذِبَ فِيمَا تَقُولُهُ، لا أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ إِلَيْنَا، ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، قَالَ الضَّحَّاكُ: جَانِبًا مِنَ السَّمَاءِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: قِطَعًا مِنَ السَّمَاءِ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: عَذَابًا مِنَ السَّمَاءِ. وَهَذَا شَبِيهٌ بِمَا قَالَتْ قُرَيْشٌ فِيمَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾، إِلَى أَنْ قَالُوا: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾، وَقَوْلُه: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، وَهَكَذَا قَالَ هَؤُلاءِ الكَفَرَةُ الجَهَلَةُ: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾. ﴿ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، يَقُولُ: اللهُ أَعْلَمُ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ جَازَاكُمْ بِهِ غَيْرَ ظَالِمٍ لَكُمْ. وكذلك وَقَعَ بِهِمْ كَمَا سَأَلُوا جَزَاءً وِفَاقًا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾. وَهَذَا مِنْ جِنْسِ مَا سَأَلُوا مِنْ إِسْقَاطِ الكِسَفِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ عُقُوبَتَهُمْ أَنْ أَصَابَهُمْ حَرٌّ شَدِيدٌ جِدًّا مُدَّةَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ لا يُكِنُّهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ إِلَيْهِمْ سَحَابَةٌ أَظَلَّتْهُمْ فَجَعَلُوا يَنْطَلِقُونَ إِلَيْهَا يَسْتَظِلُّونَ بِظِلِّهَا مِنَ الحَرِّ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَحْتَهَا أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنْهَا شَرَرًا مِنْ نَارٍ وَلَهَبًا وَوَهَجًا عَظِيمًا، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الأَرْضُ، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ أَزْهَقَتْ أَرْوَاحَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾. وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى صِفَةَ إِهْلاكِهِمْ فِي ثَلاثَةِ مَوَاطِنَ، كُلَّ مَوْطِنٍ بِصِفَةٍ تُنَاسِبُ ذَلِكَ السِّيَاقَ، فَفِي الأَعْرَافِ ذَكَرَ أَنَّهُ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ، وَذَلِكَ لأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ﴾. فَأَرْجَفُوا بِنَبِيِّ اللهِ وَمَنِ اتَّبَعَهُ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ. وَفِي سُورَةِ هُودٍ قَالَ: ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وَذَلِكَ لأَنَّهُمُ اسْتَهْزَءُوا بِنَبِيِّ اللهِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾. قَالُوا ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ وَالازْدِرَاءِ، فَنَاسَبَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ صَيْحَةٌ تُسْكِتُهُمْ، فَقَالَ: ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾. وَهَهُنَا قَالُوا: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾. عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ وَالعِنَادِ، فَنَاسَبَ أَنْ يَحِقَّ عَلَيْهِمْ مَا اسْتَبْعَدُوا وُقُوعَهُ: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

قَال قَتَادَة: قَال عَبْد الله بْن عَمْرو رضي الله عنه: إِنَّ الله سَلَّطَ عَلَيْهِمْ الحَرّ سَبْعَة أَيَّام حَتَّى مَا يُظِلّهُمْ مِنْهُ شَيْء، ثُمَّ إِنَّ الله أَنْشَأَ لَهُمْ سَحَابَة، فَانْطَلَقَ إِلَيْهَا أَحدهمْ واسْتَظَلَّ بِهَا، فَأَصَابَ تَحْتهَا بَرْدًا وَرَاحَة، فَأَعْلَمَ بِذَلِكَ قَوْمه، فَأَتَوْهَا جَمِيعًا فَاسْتَظَلُّوا تَحْتهَا، فَأُجِّجَتْ عَلَيْهِمْ نَارًا. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَة وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَالحَسَن وَقَتَادَة وَغَيْرهمْ.
وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ: بَعَثَ الله إِلَيْهِمْ الظُّلَّة، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا كُلّهمْ كَشَفَ الله عَنْهُمْ الظُّلَّة، وَأَحْمَى عَلَيْهِمْ الشَّمْس فَاحْتَرَقُوا كَمَا يَحْتَرِق الجَرَاد فِي المَقْلى. وَقَال مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ: إِنَّ أَهْل مَدْين عُذِّبُوا بِثَلاثَةِ أَصْنَاف مِنْ العَذَاب: أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَة فِي دَارهمْ حَتَّى خَرَجُوا مِنْهَا، فَلَمَّا خَرَجُوا مِنْهَا أَصَابَهُمْ فَزَع شَدِيد، فَفَرَقُوا أَنْ يَدْخُلُوا إِلَى البُيُوت فَتَسْقُط عَلَيْهِمْ، فَأَرْسَل الله عَلَيْهِمْ الظُّلَّة، فَدَخَل تَحْتهَا رَجُل فَقَال: مَا رَأَيْت كَاليَوْم ظِلًّا أَطْيَب وَلا أَبْرَد مِنْ هَذَا، هَلُمُّوا أَيُّهَا النَّاس. فَدَخَلُوا جَمِيعًا تَحْت الظُّلَّة، فَصَاحَ فيهم صَيْحَة وَاحِدَة، فَمَاتُوا جَمِيعًا. ثُمَّ تَلا مُحَمَّد بْن كَعْب: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي الحَارِث، حَدَّثَنِي الحَسَن، حَدَّثَنِي سَعِيد بْن زَيْد -أَخُو حَمَّاد بْن زَيْد- حدثني حَاتِم بْن أَبِي صَغِيرَة، حَدَّثَنِي [يَزِيد][1] البَاهِلِيّ: سَأَلت ابْن عَبَّاس عَنْ هَذِهِ الآيَة: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. قَال: بَعَثَ الله عَلَيْهِمْ رَعْدًا وَحَرًّا شَدِيدًا فَأَخَذَ بِأَنْفَاسِهِمْ، فَخَرَجُوا مِنْ البُيُوت هرابًا إِلَى البَرِّيَّة؛ فَبَعَثَ الله سَحَابَة فَأَظَلَّتْهُمْ مِنْ الشَّمْس، فَوَجَدُوا لَهَا بَرْدًا وَلَذَّة، فَنَادَى بَعْضهمْ بَعْضًا، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا تَحْتهَا أرسلها الله عَلَيْهِمْ نَارًا. قَال ابْن عَبَّاس: فَذَلكَ عَذَاب يَوْم الظُّلَّة، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أَيْ: العَزِيز فِي انْتِقَامه مِنْ الكَافِرِينَ، الرَّحِيم بِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ الكِتَاب الَّذِي أَنْزَلهُ عَلى عَبْده وَرَسُوله مُحَمَّد ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ﴾، أَيْ: القُرْآن الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْره فِي أَوَّل السُّورَة فِي قَوْله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾، ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: أَنْزَلهُ الله عَلَيْك وَأَوْحَاهُ إِلَيْك، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾، وَهُوَ جِبْرِيل عليه السلام؛ قَالهُ غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلف: ابْن عَبَّاس، وَمُحَمَّد بْن كَعْب، وَقَتَادَة، وَعَطِيَّة العَوْفِيّ، وَالسُّدِّيّ، وَالضَّحَّاك، وَالزُّهْرِيّ، وَابْن جُرَيْج، وَهَذَا ما لا نِزَاع فِيهِ. قَال الزُّهْرِيّ: وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآيَة. وَقَال مُجَاهِد: مَنْ كَلَّمَهُ الرُّوح الأَمِين لا تَأْكُلهُ الأَرْض. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أَيْ: نَزَل بِهِ مَلك كَرِيم أَمِين، ذُو مَكَانَة عِنْد الله، مُطَاع فِي المَلأ الأَعْلى، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، يَا مُحَمَّد، سَالمًا مِنْ الدَّنَس وَالزِّيَادَة وَالنَّقْص.

﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أَيْ: لتُنْذِرَ بِهِ بَأْس الله وَنِقْمَته عَلى مَنْ خَالفَهُ وَكَذَّبَهُ، وَتُبَشِّر بِهِ المُؤْمِنِينَ المُتَّبِعِينَ لهُ.

وَقَوْله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، أَيْ: هَذَا القُرْآن الَّذِي أَنْزَلنَاهُ إِلَيْك أَنْزَلنَاهُ بلسانك العَرَبِيّ الفَصِيح الكَامِل الشَّامِل، ليَكُونَ بَيِّنًا وَاضِحًا ظَاهِرًا، قَاطِعًا للعُذْرِ، مُقِيمًا للحُجَّةِ، دَليلًا إِلى المَحَجَّة. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن أَبِي بَكْر العَتَكِيّ، حَدَّثَنَا عَبَّاد بْن عَبَّاد المُهَلَّبِيّ، عَنْ مُوسَى بْن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ عَنْ أَبِيهِ؛ قَال: بَيْنَمَا رَسُول الله ﷺ مَعَ أَصْحَابه فِي يَوْم دَجْن إِذْ قَال لهُمْ: «كَيْف تَرَوْنَ بَوَاسِقهَا؟». قَالُوا: مَا أَحْسَنهَا وَأَشَدّ تَرَاكُمهَا! قَال: «فَكَيْف تَرَوْنَ قَوَاعِدهَا؟». قَالُوا: مَا أَحْسَنهَا وَأَشَدّ تَمَكُّنهَا! قَال: «فَكَيْف تَرَوْنَ جونها؟».

(١) في (ز): [سريد].

قَالُوا: مَا أَحْسَنه وَأَشَدّ سَوَاده! قَالَ: «فَكَيْف تَرَوْنَ رَحَاهَا اسْتَدَارَتْ؟». قَالُوا: مَا أَحْسَنهَا وَأَشَدّ اسْتَدَارَتَهَا! قَالَ: «فَكَيْف تَرَوْنَ بَرْقهَا؟ أَوَمِيض، أَمْ خَفْق، أَمْ يَشُقّ شَقًّا؟». قَالُوا: بَلْ يَشُقّ شَقًّا. قَالَ: «الحَيَاء الحَيَاء إِنْ شَاءَ الله». قَالَ: فَقَالَ رَجُل: يَا رَسُول الله، بِأَبِي وَأُمِّي مَا أَفْصَحك! مَا رَأَيْت الَّذِي هُوَ أَعْرَب مِنْك. قَالَ: فَقَالَ: «حُقَّ لِي، وَإِنَّمَا أُنْزِل القُرْآن بِلِسَانِي، وَالله يَقُول: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾»[1]. وَقَالَ سُفْيَان الثَّوْرِيّ: لَمْ يَنْزِل وَحْي إِلَّا بِالعَرَبِيَّة، ثُمَّ تَرْجَم كُلّ نَبِيّ لِقَوْمِهِ، وَاللِّسَان يَوْم القِيَامَة بِالسُّرْيَانِيَّة، فَمَنْ دَخَل الجَنَّة تَكَلَّمَ بِالعَرَبِيَّة. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾.

يَقُول تَعَالَى: وَإِنَّ ذِكْر هَذَا القُرْآن وَالتَّنْوِيه بِهِ لَمَوْجُود فِي كُتُب الأَوَّلِينَ المَأْثُورَة عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ الَّذِينَ بَشَّرُوا بِهِ فِي قَدِيم الدَّهْر وَحَدِيثه، كَمَا أَخَذَ الله عَلَيْهِمْ المِيثَاق بِذَلِكَ حَتَّى قَامَ آخِرهمْ خَطِيبًا فِي مَلَئِهِ بِالبِشَارَة بِأَحْمَد: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾. وَالزُّبُر هَهُنَا هِيَ الكُتُب وَهِيَ جَمْع زَبُور، وَكَذَلِكَ الزَّبُور هُوَ كِتَاب دَاوُد، وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾، أَيْ: مَكْتُوب عَلَيْهِمْ فِي صُحُف المَلَائِكَة.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، أَيْ: أَوَلَيْسَ يَكْفِيهِمْ مِنَ الشَّاهِد الصَّادِق عَلَى ذَلِكَ: أَنَّ العُلَمَاء مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل يَجِدُونَ ذِكْر هَذَا القُرْآن فِي كُتُبهمْ الَّتِي يَدْرُسُونَهَا؟ وَالمُرَاد العُدُول مِنْهُمْ، الَّذِينَ يَعْتَرِفُونَ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ صِفَة مُحَمَّد ﷺ وَمَبْعَثه وَأُمَّته، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ كَعَبْدِ الله بْن سَلَام، وَسَلْمَان الفَارِسِيّ، عَمَّنْ أَدْرَكَهُ مِنْهُمْ وَمَنْ شَاكَلَهُمْ. وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ الآيَة.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ شِدَّة كُفْر قُرَيْش وَعِنَادهمْ لِهَذَا القُرْآن أَنَّهُ لَوْ نَزَلَ عَلَى رَجُل مِنَ الأَعَاجِم، مِمَّنْ لَا يَدْرِي مِنَ العَرَبِيَّة كَلِمَة، وَأُنْزِل عَلَيْهِ هَذَا الكِتَاب بِبَيَانِهِ وَفَصَاحَته، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهَذَا قَالَ: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾، وَقَالَ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾.

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾.

يَقُول تَعَالَى: كَذَلِكَ سَلَكْنَا التَّكْذِيب وَالكُفْر وَالعِنَاد وَالجُحُود، أَيْ: أَدْخَلْنَاهُ فِي قُلُوب المُجْرِمِينَ، ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أَيْ: بِالحَقّ ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾، أَيْ: حَيْثُ لَا يَنْفَع الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتهمْ، وَلَهُمْ اللَّعْنَة وَلَهُمْ سُوء الدَّار. ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أَيْ: عَذَاب الله بَغْتَة، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ أَيْ: يَتَمَنَّوْنَ حِين

(١) مرســل : أخرجه الرامهرمزي (١٢٣)، ومحمد بن إبراهيم من التابعين، فالإسناد مرسل.

يُشَاهِدُونَ العَذَاب أَنْ لوْ أُنْظِرُوا قَلِيلًا لِيَعْمَلُوا بِطَاعَةِ الله؛ كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ فَكُلّ ظَالم وَفَاجِر وَكَافِر إِذَا شَاهَدَ عُقُوبَته نَدِمَ نَدَمًا شَدِيدًا؛ هَذَا فِرْعَوْن لـمَّا دَعَا عَلَيْهِ الكَلِيم بِقَوْلِهِ: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ فَأَثَّرَتْ هَذِهِ الدَّعْوَة فِي فِرْعَوْن، فَمَا آمَنَ حَتَّى رَأَى العَذَاب الأَلِيم، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩٠) ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾، وَقَال: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ ﴾ الآيَة.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ إِنْكَار عَلَيْهِمْ، وَتَهْدِيد لَهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ للرَّسُول تَكْذِيبًا وَاسْتِبْعَادًا: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾. ثُمَّ قَال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾، أَيْ: ولوْ أَخَّرْنَاهُمْ وَأَنْظَرْنَاهُمْ وَأَمْلَيْنَا لَهُمْ بُرْهَة مِنْ الدَّهْر وَحِينًا مِنْ الزَّمَان وَإِنْ طَال، ثُمَّ جَاءَهُمْ أَمْر الله، أَيّ شَيْء يُجْدِي عَنْهُمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ النَّعِيم: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾. وَقَال تَعَالَى: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾. وَقَال تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾. وَلِهَذَا قَال: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾.

وَفِي الحَدِيث الصَّحِيح: «**يُؤْتَى بِالكَافِرِ فَيُغْمَس فِي النَّار غَمْسَة، ثُمَّ يُقَال لَهُ: هَل رَأَيْت خَيْرًا قَطُّ؟ هَل رأيت نَعِيمًا قَطُّ؟ فَيَقُول: لا وَالله يَا رَبّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدّ النَّاس بُؤْسًا -كَانَ فِي الدُّنْيَا- فَيُصْبَغ فِي الجَنَّة صَبْغَة، ثُمَّ يُقَال لَهُ: هَل رَأَيْت بُؤْسًا قَطُّ؟ فَيَقُول: لا وَالله يَا رَبّ**»[١]. أَيْ: مَا كَأَنَّ شَيْئًا كَانَ، وَلِهَذَا كَانَ عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه يَتَمَثَّل بِهَذَا البَيْت:

كَأَنَّك لمْ تُوتر مِنْ الدَّهْر لَيْلَة ۞ إِذَا أَنْتَ أَدْرَكْت الَّذِي [أَنْتَ][٢] تَطْلُب

ثُمَّ قَال تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَدْله فِي خَلقه: إِنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّة مِنْ الأُمَم إِلَّا بَعْد الإِعْذَار إِلَيْهِمْ وَالإِنْذَار لَهُمْ وبعثة الرُّسُل إِلَيْهِمْ وَقِيَام الحُجَّة عَلَيْهِمْ. وَلِهَذَا قَال: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾. كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾.

﴿ **وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ** ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابه العَزِيز الَّذِي لا يَأْتِيه البَاطِل مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلفه تَنْزِيل مِنْ حَكِيم حَمِيد: إِنهُ نَزَل بِهِ الرُّوح الأَمِين المُؤَيَّد مِنْ الله، ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ يَمْتَنِع عَلَيْهِمْ مِنْ ثَلاثَة أَوْجُه، أَحَدهَا: أَنَّهُ لا يَنْبَغِي لَهُمْ، أَيْ: لَيْسَ هُوَ مِنْ بُغْيَتهمْ وَلا مِنْ طِلبَتهمْ؛ لأَنَّ مِنْ سَجَايَاهُمْ الفَسَاد وَإِضْلال العِبَاد، وَهَذَا فِيهِ الأَمْر بِالمَعْرُوف وَالنَّهْي عَنْ المُنْكَر، وَنُور وَهُدَى وَبُرْهَان عَظِيم، فَبَيْنه وَبَيْن الشَّيَاطِين مُنَافَاة عَظِيمَة؛ وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ ﴾.

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) في نسخة: [كنت].

وَقَوْله: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، أَيْ: وَلَوْ انْبَغَى لَهُمْ لَمَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ لَوْ انْبَغَى لَهُمْ وَاسْتَطَاعُوا حَمْله وَتَأْدِيَته، لَمَا وَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ؛ لأَنَّهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ حَال نُزُوله، لأَنَّ السَّمَاء مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا فِي مُدَّة إِنْزَال الْقُرْآن عَلَى رَسُوله فَلَمْ يَخْلُص أَحَد مِنْ الشَّيَاطِين إِلَى اسْتِمَاع حَرْف وَاحِد مِنْهُ؛ لِئَلَّا يَشْتَبِه الأَمْر. وَهَذَا مِنْ رَحْمَة الله بِعِبَادِهِ، وَحِفْظه لِشَرْعِهِ، وَتَأْيِيده لِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ الْجِنّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

يَقُول تَعَالَى آمِرًا بِعِبَادَتِهِ وَحْده لا شَرِيك لَهُ، وَمُخْبِرًا أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِهِ عَذَّبَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى آمِرًا لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُنْذِر عَشِيرَته الأَقْرَبِينَ، أَيْ: الأَدْنَيْنَ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ لا يُخَلِّص أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا إِيمَانه بِرَبِّهِ ﷻ. وَأَمَرَهُ أَنْ يُلِين جَانِبه لِمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ عِبَاد الله الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ عَصَاهُ مِنْ خَلْق الله كَائِنًا مَنْ كَانَ فَلْيَتَبَرَّأْ مِنْهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وَهَذِهِ النِّذَارَة الْخَاصَّة لا تُنَافِي الْعَامَّة، بَلْ هِيَ فَرْد مِنْ أَجْزَائِهَا، كَمَا قَالَ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وَقَالَ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وَقَالَ: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾، وَقَالَ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾. وَفِي «صَحِيح مُسْلم»: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَسْمَع بِي أَحَد مِنْ هَذِهِ الأُمَّة، يَهُودِيّ وَلا نَصْرَانِيّ، ثُمَّ لا يُؤْمِن بِي إِلاَّ دَخَل النَّار»**.[1]

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيث كَثِيرَة فِي نُزُول هَذِهِ الآيَة الْكَرِيمَة، فَلْنَذْكُرْهَا: **الْحَدِيث الأَوَّل:** قَالَ الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن نُمَيْر، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا أَنْزَل الله ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، أَتَى النَّبِيّ ﷺ الصَّفَا فَصَعِدَ عَلَيْهِ، ثُمَّ نَادَى: **«يَا صَبَاحَاهُ»**. فَاجْتَمَعَ النَّاس إِلَيْهِ بَيْن رَجُل يَجِيء إِلَيْهِ، وَبَيْن رَجُل يَبْعَث رَسُوله، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: **«يَا بَنِي عَبْد الْمُطَّلِب، يَا بَنِي فِهْر، يَا بَنِي لُؤَيّ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَل تُرِيد أَنْ تُغِير عَلَيْكُمْ، صَدَّقْتُمُونِي؟»**. قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: **«فَإِنِّي نَذِير لَكُمْ، بَيْن يَدَيْ عَذَاب شَدِيد»**. فَقَالَ أَبُو لَهَب: تَبًّا لَك سَائِر الْيَوْم! أَمَا دَعَوْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟ وَأَنْزَل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.[2] وَرَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسْلم وَالنَّسَائِيّ وَالتِّرْمِذِيّ، مِنْ طُرُق، عَنْ الأَعْمَش، بِهِ.

الْحَدِيث الثَّانِي: قَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا هِشَام، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة؛ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، قَامَ رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: **«يَا فَاطِمَة بِنْت مُحَمَّد، يَا صَفِيَّة بِنْت عَبْد الْمُطَّلِب، يَا بَنِي عَبْد الْمُطَّلِب، لا أَمْلِك لَكُمْ مِنْ الله شَيْئًا سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ»**[3]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلم.

الْحَدِيث الثَّالِث: قَالَ أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن عَمْرو، حَدَّثَنَا زَائِدَة، حَدَّثَنَا عَبْد الْمَلِك بْن عُمَيْر، عَنْ مُوسَى

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨)، والترمذي (٣٣٦٣).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٥).

ابْن طَلْحَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: لـمَّا نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، دَعَا رَسُول الله ﷺ قُرَيْشًا فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَال: «**يَا مَعْشَر قُرَيْش؛ أَنْقِذُوا أَنْفُسكُمْ مِنْ النَّار. يَا مَعْشَر بَنِي كَعْب، أَنْقِذُوا أَنْفُسكُمْ مِنْ النَّار، يا معشر بني عبد مناف؛ أنقذوا أنفسكم من النار، يَا مَعْشَر بَنِي هَاشِم، أَنْقِذُوا أَنْفُسكُمْ مِنْ النَّار، يَا مَعْشَر بَنِي عَبْد المُطَّلب، أَنْقِذُوا أَنْفُسكُمْ مِنْ النَّار، يَا فَاطِمَة بِنْت مُحَمَّد أَنْقِذِي نَفْسك مِنْ النَّار فَإِنِّي وَالله مَا أَمْلك لكُمْ مِنْ الله شَيْئًا إلاَّ أَنَّ لكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلالهَا**»(١). وَرَوَاهُ مُسْلم وَالتِّرْمِذِيّ، مِنْ حَدِيث عَبْد المَلك بْن عُمَيْر بِهِ، وَقَال التِّرْمِذِيّ: غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث مُوسَى بْن طَلْحَة مُرْسَلًا، وَلمْ يَذْكُر فِيهِ أَبَا هُرَيْرَة. وَالمَوْصُول هُوَ الصَّحِيح. وَأَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيِّب وَأَبِي سَلمَة ابْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا يَزِيد حَدَّثنَا مُحَمَّد -يَعْنِي ابْن إِسْحَاق- عَنْ أَبِي الزِّنَاد، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «**يَا بَنِي عَبْد المُطَّلب، اشْتَرُوا أَنْفُسكُمْ مِنْ الله، يَا صَفِيَّة عَمَّة رَسُول الله، وَيَا فَاطِمَة بِنْت رَسُول الله، اشْتَرِيَا أَنْفُسكُمَا مِنْ الله، لا أُغْنِي عَنْكُمَا مِنْ الله شَيْئًا، سَلانِي مِنْ مَالي مَا شِئْتُمَا**»(٢). تَفَرَّدَ بِهِ مِنْ هَذَا الوَجْه. وَتَفَرَّدَ بِهِ أَيْضًا، عَنْ مُعَاوِيَة، عَنْ زَائِدَة، عَنْ أَبِي الزِّنَاد، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِنَحْوِهِ. وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ حَسَن، ثَنَا ابْن لهِيعَة، عَنْ الأَعْرَج: سمعت أبا هُرَيْرَة مَرْفُوعًا. وَقَال أَبُو يَعْلى: حَدَّثنَا سُوَيْد بْن سَعِيد، حَدَّثنَا ضِمام بْن إِسْمَاعِيل، عَنْ مُوسَى بْن وَرْدَان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ : «يَا بَنِي قُصَيّ، يَا بَنِي هَاشِم، يَا بَنِي عَبْد مَنَاف، أَنَا النَّذِير وَالمَوْت المُغِير، وَالسَّاعَة المَوْعِد».(٣)

الحَدِيث الرَّابِع: قَال أَحْمَد: حَدَّثنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثنَا التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِي عُثْمَان، عَنْ قَبِيصَة بْن مُخَارِق وَزُهَيْر ابْن عَمْرو؛ قَالا: لـمَّا نَزَلتْ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، صَعِدَ رَسُول الله ﷺ رَضْمَة مِنْ جَبَل عَلى أَعْلاهَا حجَرًا، فَجَعَل يُنَادِي: «**يَا بَنِي عَبْد مَنَاف، إِنَّمَا أَنَا نَذِير، إِنَّمَا مَثَلي وَمَثَلكُمْ كَرَجُلٍ رَأَى العَدُوَّ، فَذَهَبَ يَرْبَأُ أَهْله -يَخْشَى أَنْ يَسْبِقُوهُ- فَجَعَل يُنَادِي وَيَهْتِف: يَا صَبَاحَاهُ**»(٤) وَرَوَاهُ مُسْلم وَالنَّسَائِيّ، مِنْ حَدِيث سُليْمَان بْن طَرْخَان التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِي عُثْمَان عَبْد الرَّحْمَن بْن مُل النَّهْدِيّ، عَنْ قَبِيصَة وَزُهَيْر بْن عَمْرو الهِلاليّ، بِهِ.

الحَدِيث الخَامِس: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا أَسْوَد بْن [عَامِر](٥)، حَدَّثنَا شَرِيك، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ المِنْهَال، عَنْ عَبَّاد بْن عَبْد الله الأَسَدِيّ، عَنْ عَليّ ﷺ قَال: لـمَّا نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ جَمَعَ النَّبِيّ ﷺ مِنْ أَهْل بَيْته، فَاجْتَمَعَ ثَلاثُونَ فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا، قَال: وَقَال لهُمْ: «**مَنْ يَضْمَن عَنِّي دَيْنِي وَمَوَاعِيدِي، وَيَكُون مَعِي فِي الجَنَّة، وَيَكُون خَليفَتِي فِي أَهْلي؟**». فَقَال رَجُل -لمْ يُسَمِّهِ شَرِيك-: يَا رَسُول الله، أَنْتَ كُنْت بحرًا مَنْ يَقُوم بِهَذَا؟ قَال: ثُمَّ قَال لآخَر قَال: فَعَرَضَ ذَلكَ عَلى أَهْل بَيْته. فَقَال عَليّ: أَنَا.(٦)

طَرِيق أُخْرَى: بِأَبْسَطَ مِنْ هَذَا السِّيَاق، قَال أَحْمَد: حَدَّثنَا عَفَّان، حَدَّثنَا أَبُو عَوَانَة، عن عُثْمَان بْن المُغِيرَة،

---

(١) **صحيح** : أخرجه البخاري (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٤).

(٢) **حسن صحيح** : أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٨)، ورجاله ثقات عدا محمد بن إسحاق، فهو صدوق مدلس، ويشهد للحديث الروايات السابقة.

(٣) **ضعيف** : أخرجه أبو يعلى (٦١٤٩)، وفيه سويد بن سعيد: ضعيف.

(٤) **صحيح** : أخرجه مسلم (٢٠٧)، وأحمد (٥/ ٦٠).

(٥) في (ز) : [حامد].

(٦) **حسـن** : أخرجه أحمد (١/ ١١١)، ورجاله ثقات عدا شريك بن عبد الله أبي نمر: صدوق يخطئ.

عَنْ أَبِي صَادِق، عَنْ رَبِيعَة بْن ناجذ، عَنْ عَلِيّ ﵁ قَال: جَمَعَ رَسُول الله ﷺ أَوْ دَعَا رَسُول الله ﷺ بَنِي عَبْد المُطَّلب، وَهُمْ رَهْط وَكُلّهمْ يَأْكُل الجَذَعَة وَيَشْرَب الفَرَق. قال: وصَنَعَ لَهُمْ مُدًّا مِنْ طَعَام فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا. قال: وَبقِيَ الطَّعَام كَمَا هُوَ كَأَنَّهُ لمْ يُمَسّ، ثُمَّ دَعَا بغمر فَشَرِبُوا حَتَّى رَوَوْا، وَبقِيَ الشَّرَاب كَأَنَّهُ لمْ يُمَسّ -أَوْ لمْ يُشْرَب- وَقَال: **«يَا بَنِي عَبْد المُطَّلب، إِنِّي بُعِثْت إِلَيْكُمْ خَاصَّة وَإِلَى النَّاس عَامَّة، وقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ هَذِهِ الآيَة مَا رَأَيْتُم، فَأَيّكُمْ يُبَايعنِي عَلى أَنْ يَكُون أَخِي وَصَاحِبِي»**. قَال: فَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ أَحَد. قَال: فَقُمْت إِلَيْهِ -وَكُنْت أَصْغَر القَوْم- قَال: فَقَال: **«اجْلسْ»**. ثُمَّ قَال ثَلاث مَرَّات، كُلّ ذَلِكَ أَقُوم إِلَيْهِ فَيَقُول لِي: **«اجْلسْ»**. حَتَّى كَانَ فِي الثَّالثَة ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلى يَدِي.[1]

طَرِيق أُخْرَى: أَغْرَب وَأَبْسَط مِنْ هَذَا السِّيَاق بِزِيَادَاتٍ أُخَر، قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ فِي «دَلائِل النُّبُوَّة»: أَخْبَرَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله الحَافِظ، حدثنا أَبُو العَبَّاس مُحَمَّد بْن يَعْقُوب، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْد الجَبَّار، حَدَّثَنَا يُونُس بْن بُكَيْر عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق قَال: فحَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ عَبْد الله بْن الحَارِث بْن نَوْفَل -وَاسْتَكْتَمَنِي اسْمه- عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالب ﵁ قَال: لَـمَّا نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة عَلى رَسُول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. قَال رَسُول الله ﷺ: **«عَرَفْت أَنِّي إِنْ بَادَأْت بِهَا قَوْمِي، رَأَيْت مِنْهُمْ مَا أَكْرَه فَصَمَتُّ، فَجَاءَنِي جِبْرِيل ﵇ فَقَال: يَا مُحَمَّد، إِنْ لمْ تَفْعَل مَا أمرك بِهِ ربك عَذَّبَك رَبّك»**. قَال عَلِيّ ﵁ فَدَعَانِي فَقَال: «يَا عَلِيّ، إِنَّ الله قَدْ أَمَرَنِي: أَنْ أُنْذِر عَشِيرَتِي الأَقْرَبِينَ، فَعَرَفْت أَنِّي إِنْ بَادَأْتهمْ بِذَلكَ رَأَيْت مِنْهُمْ مَا أَكْرَه. فَصَمَتُّ عَنْ ذَلكَ، ثُمَّ جَاءَنِي جِبْرِيل فَقَال: يَا مُحَمَّد؛ إِنْ لمْ تَفْعَل مَا أمرك بِهِ ربك عَذَّبَك رَبّك. فَاصْنَعْ لنَا يَا عَلِيّ شَاةً عَلى صَاعٍ مِنْ طَعَام، وَأَعِدَّ لنَا عُسّ لبَن، ثُمَّ اجْمَعْ لِي بَنِي عَبْد المُطَّلب». فَفَعَلت. فَاجْتَمَعُوا له وَهُمْ يَوْمئِذٍ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، يَزِيدُونَ رَجُلًا أَوْ يَنْقُصُونَ رَجُلًا، فِيهِمْ أَعْمَامه: أَبُو طَالب، وَحَمْزَة وَالعَبَّاس، وَأَبُو لَهَب الكَافِر الخَبِيث، فَقَدَّمْت إِلَيْهِمْ تِلكَ الجَفْنَة، فَأَخَذَ رَسُول الله ﷺ مِنْهَا حذية فَشَقَّهَا بِأَسْنَانِهِ ثُمَّ رَمَى بِهَا فِي نَوَاحِيهَا، وَقَال: «كُلُوا بِسْمِ الله». فَأَكَل القَوْم حَتَّى نَهِلُوا عَنْهُ مَا يَرَى إِلَّا آثَار أَصَابِعهمْ، وَالله إِنْ كَانَ الرَّجُل مِنْهُمْ ليَأْكُل مِثْلهَا.

ثُمَّ قَال رَسُول الله ﷺ: «اسْقِهِمْ يَا عَلِيّ». فَجِئْت بِذَلكَ القَعْب فَشَرِبُوا مِنْهُ حَتَّى نَهِلُوا جَمِيعًا، وَايْم الله، إِنْ كَانَ الرَّجُل مِنْهُمْ ليَشْرَب مِثْله. فَلَمَّا أَرَادَ رَسُول الله ﷺ أَنْ يُكَلِّمهُمْ، بَدَرَهُ أَبُو لَهَب إِلى الكَلام فَقَال: لَهَدَّمَا سَحَرَكُمْ صَاحِبكُمْ. فَتَفَرَّقُوا وَلمْ يُكَلِّمهُمْ رَسُول الله ﷺ، فَلَمَّا كَانَ الغَد قَال رَسُول الله ﷺ: «يَا عَلِيّ، عُدْ لنَا بِمِثْل الَّذِي كُنْت صَنَعْت بِالأَمْسِ مِنْ الطَّعَام وَالشَّرَاب، فَإِنَّ هَذَا الرَّجُل قَدْ بَدَرَنِي إِلى مَا سَمِعْت قَبْل أَنْ أُكَلِّم القَوْم». فَفَعَلت، ثُمَّ جَمَعْتهمْ لهُ، فَصَنَعَ رَسُول الله ﷺ كَمَا صَنَعَ بِالأَمْسِ، فَأَكَلُوا حَتَّى نَهِلُوا عَنْهُ، وَايْم الله إِنْ كَانَ الرَّجُل مِنْهُمْ ليَأْكُل مِثْلهَا.

ثُمَّ قَال رَسُول الله ﷺ: «اسْقِهِمْ يَا عَلِيّ». فَجِئْت بِذَلكَ القَعْب فَشَرِبُوا مِنْهُ حَتَّى نَهِلُوا جَمِيعًا. وَايْم الله إِنْ كَانَ الرَّجُل مِنْهُمْ ليَشْرَب مِثْله. فَلَمَّا أَرَادَ رَسُول الله ﷺ أَنْ يُكَلِّمهُمْ بَدَرَهُ أَبُو لَهَب بِالكَلام فَقَال: لَهَدَّمَا سَحَرَكُمْ صَاحِبكُمْ! فَتَفَرَّقُوا وَلمْ يُكَلِّمهُمْ رَسُول الله ﷺ.

فَلَمَّا كَانَ مِنْ الغَد قَال رَسُول الله ﷺ: «يَا عَلِيّ، عُدْ لنَا بِمِثْل الَّذِي كُنْت صَنَعْت لنَا بِالأَمْسِ مِنْ الطَّعَام وَالشَّرَاب، فَإِنَّ هَذَا الرَّجُل قَدْ بَدَرَنِي إِلى مَا سَمِعْت قَبْل أَنْ أُكَلِّم القَوْم». فَفَعَلت، ثُمَّ جَمَعْتهمْ لهُ، فَصَنَعَ رَسُول الله ﷺ

---

(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد (١/ ١٥٩) بسند حسن.

كَمَا صَنَعَ بِالأَمْسِ، فَأَكَلُوا حَتَّى نَهِلُوا عنه، ثُمَّ سَقَيْتهمْ مِنْ ذَلكَ القَعْب حَتَّى نَهِلُوا عَنْهُ، وَايْم الله إِنْ كَانَ الرَّجُل مِنْهُمْ لَيَأْكُل مِثْلهَا وَيَشْرَب مِثْلهَا، ثُمَّ قَال رَسُول الله ﷺ: «يَا بَنِي عَبْد المُطَّلب، إِنِّي -وَالله- مَا أَعْلم شَابًّا مِنَ العَرَب جَاءَ قَوْمه بِأَفْضَل مِمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ، إِنِّي قَدْ جِئْتكُمْ بأمر الدُّنْيَا وَالآخِرَة». قَال أَحْمَد بْن عَبْد الجَبَّار: بَلَغَنِي أَنَّ ابْن إِسْحَاق إِنَّمَا سَمِعَهُ مِنْ عَبْد الغَفَّار بْن القَاسِم أَبِي مَرْيَم، عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ عَبْد الله بْن الحَارِث.

وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير، عَنْ ابْن حُمَيْد عَنْ سَلمَة، عَنْ ابْن إِسْحَاق، عَنْ عَبْد الغَفَّار بْن القَاسِم، عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ عَبْد الله بْن الحَارِث، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالب فَذَكَرَ مِثْله.

وَزَادَ بَعْد قَوْله: «إِنِّي جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَة»: «وَقَدْ أَمَرَنِي الله أَنْ أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، فَأَيّكُمْ يُؤَازِرنِي عَلى هَذَا الأَمْر عَلى أَنْ يَكُون أَخِي، وَكَذَا وَكَذَا؟». قَال: فَأَحْجَمَ القَوْم عَنْهَا جَمِيعًا، وَقُلت - وَإِنِّي لأَحْدَثهمْ سِنًّا وأرمصهم عَيْنًا، وَأَعْظَمهمْ بَطْنًا، وَأَحْمَشهمْ سَاقًا-: أَنَا يَا نَبِيّ الله، أَكُون وَزِيرك عَلَيْهِ. فَأَخَذَ يرقبني، ثُمَّ قَال: «إِنَّ هَذَا أَخِي وَكَذَا وَكَذَا، فَاسْمَعُوا لهُ وَأَطِيعُوا». قَال: فقام القَوْم يَضْحَكُونَ وَيَقُولُونَ لأَبِي طَالب: قَدْ أَمَرَكَ أَنْ تَسْمَع لابْنِك وَتُطِيع![1] تَفَرَّدَ بِهَذَا السِّيَاق عَبْد الغَفَّار بْن القَاسِم أَبِي مَرْيَم، وَهُوَ مَتْرُوك كَذَّاب شِيعِيّ، اتَّهَمَهُ عَلِيّ ابْن المَدِينِيّ وَغَيْره بِوَضْع الحَدِيث، وَضَعَّفَهُ الأَئِمَّة رَحِمَهُمْ الله.

طَرِيقٌ أُخْرَى: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حدثنا الحُسَيْن بن عِيسَى بْن مَيْسَرَة الحَارِثِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عَبْد القُدُّوس، عَنْ الأَعْمَش عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو عَنْ عَبْد الله بْن الحَارِث قَال: قَال عَلِيّ رضي الله عنه: لَـمَّا نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، قَال لِي رَسُول الله ﷺ: «اصْنَعْ لِي رِجْل شَاة بِصَاع مِنْ طَعَام وَإِنَاء لبَنًا». قَال: ففعلت، ثُمَّ قَال: «ادْعُ بَنِي هَاشِم». قَال: فَدَعَوْتهمْ وَإِنَّهُمْ يَوْمئِذٍ أَرْبَعُونَ غَيْر رَجُل -أَوْ: أَرْبَعُونَ وَرَجُل- قَال: وَفِيهِمْ عَشَرَة كُلّهمْ يَأْكُل الجَذَعَة بِإِدَامِهَا. قَال: فَلَمَّا أُتُوا بِالقَصْعَةِ أَخَذَ رَسُول الله ﷺ مِنْ ذُرْوَتهَا ثُمَّ قَال: «كُلُوا». فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَهِيَ عَلى هَيْئَتهَا لمْ يرزءوا مِنْهَا إِلَّا يسيرًا، قَال: ثُمَّ أَتَيْتهمْ بِالإِنَاءِ فَشَرِبُوا حَتَّى رَوَوْا. قَال: وَفَضَل فَضْل، فَلَمَّا فَرَغُوا أَرَادَ رَسُول الله ﷺ أَنْ يَتكَلَّم فَبَدَرُوهُ الكَلام، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا كَاليَوْم فِي السِّحْر. فَسَكَتَ رَسُول الله ﷺ ثُمَّ قَال لِي: «اصْنَعْ رِجْل شَاة بِصَاع مِنْ طَعَام». فَصَنَعْت، قَال: فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا أَكَلُوا وَشَرِبُوا قَال: فَبَدَرُوهُ فَقَالُوا مِثْل مَقَالتهمْ الأُولى، فَسَكَتَ رَسُول الله ﷺ ثُمَّ قَال لِي: «اصْنَعْ رِجْل شَاة بِصَاعٍ مِنْ طَعَام». فَصَنَعْت، قَال: فَجَمَعْتهمْ، فَلَمَّا أَكَلُوا وَشَرِبُوا بَدَرَهُمْ رَسُول الله ﷺ الكَلام فَقَال: «أَيّكُمْ يَقْضِي عَنِّي دَيْنِي وَيَكُون خَليفَتِي فِي أَهْلِي؟». قَال: فَسَكَتُوا وَسَكَتَ العَبَّاس خَشْيَة أَنْ يُحِيط ذَلكَ بِمَالِهِ، قَال: وَسَكَتُّ أَنَا لِسِنِّ العَبَّاس. ثُمَّ قَالهَا مَرَّة أُخْرَى فَسَكَتَ العَبَّاس، فَلَمَّا رَأَيْت ذَلكَ قُلت: أَنَا يَا رَسُول الله. قَال: وَإِنِّي يَوْمئِذٍ لأَسْوَأُهُمْ هَيْئَة وَإِنِّي لأَعْمَش العَيْنَيْنِ ضَخْم البَطْن خَمْش السَّاقَيْنِ.[2] فَهَذِهِ طُرُق مُتَعَدِّدَة لهَذَا الحَدِيث عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه. وَمَعْنَى سُؤَاله -عليه الصلاة والسلام- لأَعْمَامِهِ وَأَوْلادهمْ أَنْ يَقْضُوا عَنْهُ دِينه، وَيَخْلُفُوهُ فِي أَهْله، يَعْنِي: إِنْ قتل فِي سَبِيل الله، كَأَنَّهُ خَشِيَ إِذَا قَامَ بِأَعْبَاءِ الإِنْذَار أَنْ يُقْتَل، ولَمَّا أَنْزَل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾. فَعِنْد ذَلكَ أَمِنَ، وَكَانَ أَوَّلَا يُحْرَس حَتَّى نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾، وَلمْ يَكُنْ فِي بَنِي هَاشِم إِذْ ذَاكَ أَشَدّ إِيمَانًا وَإِيقَانًا وَتَصْدِيقًا

---

(١) ضعيف جدًا : أخرجه البيهقي في «الدلائل»، والطبري (١٩/ ٤٠)، وفيه عبد الغفار بن القاسم: رافضي ليس بثقة. وقال ابن كثير: متروك كذاب.

(٢) ضعيف جدًا : عزاه لابن أبي حاتم: وفيه عبد الله بن عبد القدوس: ضعيف. وقال يحيى: ليس بشيء رافضي خبيث.

لرَسُول الله ﷺ مِنْ عَليّ ﷺ، وَلهَذَا بَدَرَهُمْ إِلى التِزَام مَا طَلب مِنهُمْ رَسُول الله ﷺ، ثُمَّ كَانَ بَعْد هَذَا -وَالله أَعْلم- دُعَاؤُهُ النَّاس جَهْرَة عَلى الصَّفَا، وَإِنْذَاره لبُطُونِ قُرَيْش عُمُومًا وَخُصُوصًا، حَتَّى سَمَّى مَنْ سَمَّى مِنْ أَعْمَامه وَعَمَّاته وَبَنَاته لِيُنَبِّهَ بِالأَدْنَى عَلى الأَعْلى، أَيْ: إِنَّمَا أَنَا نَذِير، وَالله يَهْدِي مَنْ يَشَاء إِلى صِرَاط مُسْتَقِيم.

وَقَدْ رَوَى الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة عَبْد الوَاحِد الدِّمَشْقِيّ -غير منسوب- مِنْ طَرِيق عَمْرو بْن سَمُرَة. عَنْ مُحَمَّد بْن سُوقَة، عَنْ عَبْد الوَاحِد الدِّمَشْقِيّ؛ قَال: رَأَيت أَبَا الدَّرْدَاء ﷺ يُحَدِّث النَّاس وَيُفْتِيهِمْ، وَوَلده إِلى جَنْبه، وَأَهْل بَيْته جُلُوس فِي جَانِب المَسْجِد يَتَحَدَّثُونَ، فَقِيل لهُ: مَا بَال النَّاس يَرْغَبُونَ فِيمَا عِنْدك مِنْ العِلم، وَأَهْل بَيْتك جُلُوس لاهِينَ؟ فَقَال: لأَنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «أَزْهَد النَّاس فِي الدُّنْيَا الأَنْبِيَاء، وَأَشَدّهمْ عَلَيْهِمْ الأَقْرَبُونَ»[1]. وَذَلكَ فِيمَا أَنْزَل الله ﷻ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ الآية، ثم قال: إن أزهد الناس في العالم أهله حتى يفارقهم؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

وَقَوْله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾. أَيْ: فِي جَمِيع أُمُورك، فَإِنَّهُ مُؤَيِّدك وَنَاصِرك وَحَافِظك وَمُظَفِّرك وَمُعْلٍ كَلمَتك.

وَقَوْله: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾. أَيْ: هُوَ مُعْتَنٍ بِك، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾. قَال ابْن عَبَّاس: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾. يَعْنِي: إِلى الصَّلاة. وَقَال عِكْرِمَة: يَرَى قِيَامه وَرُكُوعه وَسُجُوده. وَقَال الحَسَن: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾: إِذَا صَلَّيْت وَحْدك. وَقَال الضَّحَّاك: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾. أَيْ: مِنْ فِرَاشك أَوْ مَجْلسك. وَقَال قَتَادَة: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ ﴾ قَائِمًا وَجَالسًا وَعَلى حَالاتك.

وَقَوْله: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾. قَال قَتَادَة: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾. قَال: فِي الصَّلاة، يَرَاك وَحْدك وَيَرَاك فِي الجمِيع. وَهَذَا قَوْل عِكْرِمَة، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَالحَسَن البَصْرِيّ. وَقَال مُجَاهِد: كَانَ رَسُول الله ﷺ يَرَى مَنْ خَلفه كَمَا يَرَى مَنْ أَمَامه، وَيَشْهَد لهَذَا مَا صَحَّ فِي الحَدِيث: «سَوُّوا صُفُوفكُمْ، فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاء ظَهْرِي».[2] وَرَوَى البَزَّار وَابْن أَبِي حَاتِم، مِنْ طَرِيقَيْنِ عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَال فِي هَذِهِ الآيَة: يَعْنِي تَقَلُّبه مِنْ صُلب نَبِيّ إِلى صُلب نَبِيّ حَتَّى أَخْرَجَهُ نَبِيًّا. وَقَوْله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾. أَيْ: السَّمِيع لأَقْوَال عِبَاده، العَليم بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتهمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ الآيَة.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخَاطِبًا لمَنْ زَعَمَ مِنَ المُشْرِكِينَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول ﷺ لَيْسَ حقًا، وَأَنَّهُ شَيْء افْتَعَلهُ مِنْ تِلقَاء نَفْسه، أَوْ أَنَّهُ أَتَاهُ بِهِ رَئِيٌّ مِنْ الجَانّ فَنَزَّهَ الله -سُبْحَانه- جَنَاب رَسُوله عَنْ قَوْلهمْ وَافْتِرَائِهِمْ، وَنَبَّهَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْد الله، وَأَنَّهُ تَنْزِيله وَوَحْيه، نَزَل بِهِ مَلك كَرِيم أَمِين عَظِيم، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قبيل الشَّيَاطِين، فَإِنَّهُمْ لَيْسَ

---

(١) موضوع : عزاه المصنف لابن عساكر، وقال الألباني: (موضوع). انظر «ضعيف الجامع الصغير» (٧٩٥).

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (١٧٢٣).

لهُمْ رَغْبَة فِي مِثْل هَذَا القُرْآن العَظِيم، وَإِنَّمَا يَنْزِلُونَ عَلى مَنْ يُشَاكِلهُمْ وَيُشَابِهُهُمْ مِنَ الكُهَّان الكَذَبَة؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أَيْ: أُخْبِرُكُمْ. ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أَيْ: كَذُوب فِي قَوْله، وَهُوَ الأَفَّاك الأَثِيم، أي الفَاجِر فِي أَفْعَاله. فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَنْزِل عَلَيْهِ الشَّيَاطِين كالكُهَّان وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمْ مِنْ الكَذَبَة الفَسَقَة، فَإِنَّ الشَّيَاطِين أَيْضًا كَذَبَة فَسَقَة.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾. أَيْ يَسْتَرِقُونَ السَّمْع مِنَ السَّمَاء، فَيَسْمَعُونَ الكَلمَة مِنْ عِلم الغَيْب، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَة كَذْبَة، ثُمَّ يُلقُونَهَا إِلى أَوْليَائِهِمْ مِنَ الإِنْس فَيُحَدِّثُونَ بِهَا، فَيُصَدِّقهُمْ النَّاس فِي كُلّ مَا قَالُوهُ، بِسَبَب صِدْقهمْ فِي تِلكَ الكَلمَة الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاء، كَمَا صَحَّ بِذَلكَ الحَدِيث؛ كَمَا رَوَاهُ البُخَارِي، مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، أَخْبَرَنِي يَحْيَى بْن عُرْوَة بْن الزُّبَيْر أَنَّهُ سَمِعَ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر يَقُول: قَالتْ عَائِشَة رضي الله عنها: سَأَل نَاس النَّبِيّ ﷺ عَنْ الكُهَّان فَقَال: «**إِنَّهُمْ ليْسُوا بشَيْءٍ**». قَالُوا: يَا رَسُول الله، فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ بِالشَّيْءِ يَكُون حَقًّا؟ فَقَال النَّبِيّ ﷺ : «**تِلكَ الكَلمَة مِنْ الحَقّ يَخْطَفهَا الجِنِّيّ، فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُن وَليِّه كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجة، فَيَخْلطُونَ مَعَهَا أَكْثَر مِنْ مائة كَذْبَة**».[1] وقال البُخَارِيّ أَيْضًا: حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان، حَدَّثَنَا عَمْرو قَال: سَمِعْت عِكْرِمَة سَمِعْت أَبَا هُرَيْرَة يَقُول: إِنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**إِذَا قَضَى الله الأَمْر فِي السَّمَاء ضَرَبَتْ المَلائِكَة بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لقَوْلهِ كَأَنَّه سِلسِلة عَلى صَفْوَان، حتى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبهمْ قَالُوا: مَاذَا قَال رَبّكُمْ؟ قالوا للذي قَالَ: الحَقّ وَهُوَ العَليّ الكَبِير. فَيَسْمَعهَا مُسْتَرِقُو السَّمْع. وَمُسْتَرِقُو السَّمْع هَكَذَا بَعْضهمْ فَوْق بَعْض، -ووصف سُفْيَان بِيَدِهِ فَحَرَّفَهَا، وَبَدَّدَ بَيْن أَصَابِعه- فَيَسْمَع الكَلمَة، فَيُلقِيهَا إِلى مَنْ تَحْته، ثُمَّ يُلقِيهَا الآخَر إِلى مَنْ تَحْته، حَتَّى يُلقِيهَا عَلى لسَان السَّاحِر -أَوْ: الكَاهِن- فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَاب قَبْل أَنْ يُلقِيهَا، وَرُبَّمَا أَلقَاهَا قَبْل أَنْ يُدْرِكه، فَيَكْذِب مَعَهَا مَائَة كَذْبَة. فَيُقَال: أَليْسَ قَدْ قَال لنَا يَوْم كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّق بِتِلكَ الكَلمَة الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاء**»[2]. انفَرَّدَ بِهِ البُخَارِيّ. وَرَوَى مُسْلم مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، عَنْ عَليّ بْن الحُسَيْن، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ رِجَال مِنْ الأَنْصَار قَرِيبًا مِنْ هَذَا، وَسَيَأْتِي عِنْد قَوْله تَعَالى فِي سَبَأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ الآيَة.

وَقَال البُخَارِيّ: وَقَال اللَّيْث: حَدَّثَنِي خَالد بْن يَزِيد، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي هِلال، أَنَّ أَبَا الأَسْوَد أَخْبَرَهُ عَنْ عُرْوَة، عَنْ عَائِشَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: «**إِنَّ المَلائِكَة تُحَدِّث فِي العَنَان -وَالعَنَان: الغَمَام- بِالأَمْر يكون فِي الأَرْض، فَتَسْمَع الشَّيَاطِين الكَلمَة، فَتَقُرُّهَا فِي أُذُن الكَاهِن كَمَا تُقَرّ القَارُورَة، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَة كَذْبَة**».[3] وروى البُخَارِيّ فِي مَوْضِع آخَر مِنْ كِتَاب «بَدْء الخَلق» عَنْ سَعِيد بْن أَبِي مريم، عَنْ اللَّيْث، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي جَعْفَر، عَنْ أَبِي الأَسْوَد مُحَمَّد بن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ عُرْوَة، عَنْ عَائِشَة بِنَحْوِهِ.[3]

وَقَوْله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ قَال عَليّ بن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي الكُفَّار يَتَّبِعهُمْ ضُلَّال الإِنْس وَالجِنّ. وَكَذَا قَال مُجَاهِد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم، وَغَيْرهمَا. وَقَال عِكْرِمَة: كَانَ الشَّاعِرَانِ يَتَهَاجَيَانِ فَيَنْتَصِر لهَذَا فِئَام مِنْ النَّاس، وَلهَذَا فِئَام مِنْ النَّاس، فَأَنْزَل الله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا قُتَيْبَة، حَدَّثَنَا ليْث، عَنْ ابْن الهَادِ، عَنْ يُحَنّس -مَوْلى مُصْعَب بْن الزُّبَيْر- عَنْ أَبِي سَعِيد؛ قَال:

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٧٥٦١)، ومسلم (٢٢٢٨).
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٤٨٠٠).
(٣) صحيح : أخرجه البخاري (٢٢١٠، ٣٢٨٨).

بَيْنَمَا نَحْنُ نَسِير مَعَ رَسُول الله ﷺ بِالعَرْج، إِذْ عَرَضَ شَاعِر يُنْشِد، فَقَال النَّبِيّ ﷺ: «خُذُوا الشَّيْطَان -أَوْ: أَمْسِكُوا الشَّيْطَان- لأَنْ يَمْتَلِئ جَوْف أَحَدكُمْ قَيْحًا خَيْر لهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئ شِعْرًا».[1]

وَقَوْله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: فِي كُلّ لغْو يَخُوضُون. وَقَال الضَّحَّاك عَنْ ابْن عَبَّاس: فِي كُلّ فَنّ مِنْ الكَلام. وَكَذَا قَال مُجَاهِد وَغَيْره. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: قَدْ -وَالله- رَأَيْنَا أَوْدِيَتهمْ الَّتِي يهيمون فِيهَا، مَرَّة فِي شتمة فُلان، وَمَرَّة فِي مدحة فُلان. وَقَال قَتَادَة: الشَّاعِر يَمْدَح قَوْمًا بِبَاطِلٍ، وَيَذُمّ قَوْمًا بِبَاطِلٍ.

وَقَوْله: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: كَانَ رَجُلانِ عَلى عَهْد رَسُول الله، أَحَدهمَا مِنْ الأَنْصَار وَالآخَر مِنْ قَوْم آخَرِينَ، وَأَنَّهُمَا تَهَاجَيَا، فَكَانَ مَعَ كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا غُوَاة مِنْ قَوْمه -وَهُمْ السُّفَهَاء- فَقَال الله تَعَالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَكْثَر قَوْلهمْ يَكْذِبُونَ فِيهِ. وَهَذَا الَّذِي قَالهُ ابْن عَبَّاس رضي الله عنه هُوَ الوَاقِع فِي نَفْس الأَمْر؛ فَإِنَّ الشُّعَرَاء يَتَبَجَّحُونَ بِأَقْوَالٍ وَأَفْعَال لمْ تَصْدُر مِنْهُمْ؛ وَلا عَنْهُمْ، فَيَتَكَثَّرُونَ بِمَا لَيْسَ لهُمْ. وَلهَذَا اخْتَلفَ العُلمَاء -رَحِمَهُمْ الله- فِيمَا إِذَا اعْتَرَفَ الشَّاعِر فِي شِعْره بِمَا يُوجِب حَدًّا: هَل يُقَام عَليْهِ بِهَذَا الاعْتِرَاف أَمْ لا -لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ- عَلى قَوْليْنِ. وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، وَمُحَمَّد بْن سَعْد فِي «الطَّبَقَات»، وَالزُّبَيْر بْن بَكَّار فِي «كِتَاب الفُكَاهَة»: أَنَّ أَمِير المُؤْمِنِينَ عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه اسْتَعْمَل النُّعْمَان بْن عَدِيّ بْن نَضْلة عَلى «مَيْسَان» -مِنْ أَرْض البَصْرَة- وَكَانَ يَقُول الشِّعْر، فَقَال:

أَلا هَـل أَتَـى الحَسْنَاء أَنَّ حَليلـهَا ۞ بِمَيْسَان يُسْقَى فِـي زُجَاج وَحَنْتَم

إِذَا شِـئْت غَنَّتْنِـي دَهَـاقِين قَرْيَـة ۞ وَرَقَّاصَة [تَحْنُو][2] عَلى كُلّ مَنْسِم

فَإِنْ كُنْت نَدْمَانِي فَبِالأَكْبَرِ اسْقِنِي ۞ وَلا تَسْقِنِي بِالأَصْغَرِ المُتَثَلِّم

لعَـلَّ أَمِـير المُـؤْمِنِينَ يَسُـوءهُ ۞ تَنَادُمُنَـا بِالجَوْسَـقِ المُتَهَـدِّم

فَلمَّا بَلغَ أَمِير المُؤْمِنِينَ قَال: إِيْ وَالله، إِنَّهُ ليَسُوءُنِي ذَلكَ، وَمَنْ لقِيَهُ فَليُخْبِرْهُ أَنِّي قَدْ عَزَلته وَكَتَبَ إِليْهِ: بِسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحِيم: ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾. أَمَّا بَعْد فَقَدْ بَلغَنِي قَوْلك:

لعَـلَّ أَمِـير المُـؤْمِنِينَ يَسُـوءهُ ۞ تَنَادُمُنَـا بِالجَوْسَـقِ المُتَهَـدِّم

وَايْم الله، إِنَّهُ ليَسُوءنِي وَقَدْ عَزَلتُك. فَلمَّا قَدِمَ عَلى عُمَر بَكَّتَهُ بِهَذَا الشِّعْر فَقَال: وَالله يَا أَمِير المُؤْمِنِينَ، مَا شَرِبْتهَا قَطُّ، وَمَا ذَاكَ الشِّعْر إِلَّا شَيْء طَفَحَ عَلى لسَانِي. فَقَال عُمَر: أَظُنّ ذَلكَ، وَلكِنْ -وَالله- لا تَعْمَل لي على عمل أَبَدًا وَقَدْ قُلت مَا قُلت. فَلمْ يُذْكَر أَنَّهُ حَدَّهُ عَلى الشَّرَاب، وَقَدْ ضَمَّنَهُ شِعْره، لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ، وَلكِنَّه ذَمَّهُ عُمَر رضي الله عنه وَلامَهُ عَلى ذَلكَ وَعَزَلهُ بِهِ؛ وَلهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيث: **«لأَنْ يَمْتَلئ جَوْف أَحَدكُمْ قَيْحًا، يَرِيَهُ خَيْر لهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلئ شِعْرًا»**[3]. وَالمُرَاد مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّسُول ﷺ الَّذِي أُنْزِل عَليْهِ هَذِهِ القُرْآن ليْسَ بِكَاهِنٍ وَلا بِشَاعِرٍ؛ لأَنَّ حَالهُ مُنَافٍ لحَالهِمْ مِنْ وُجُوه ظَاهِرَة؛ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٨)، وفي الإسناد ليث بن أبي سليم: ضعيف، وبقية رجاله ثقات.
(٢) في نسخة: [تحدوا].
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٥٧).

لَهُۥٓ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴾. وَقَال تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. وَهَكَذَا قَال هَهُنَا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾.. إِلَى أَنْ قَال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ إِلَى أَنْ قَال: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ يَزِيد بْن عَبْد الله بْن قُسَيْط، عَنْ أَبِي الحَسَن سَالم البَرَّاد مَوْلى تَمِيم الدَّارِيّ، قَال: لـمَّا نَزَلتْ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾، جَاءَ حَسَّان بْن ثَابِت وَعَبْد الله بْن رَوَاحَة، وَكَعْب بْن مَالك، إِلى رَسُول الله ﷺ وَهُمْ يَبْكُونَ فقَالُوا: قَدْ عَلمَ الله حِين أَنْزَل هَذِهِ الآيَة أَنَّا شُعَرَاء، فَتلا النَّبِيّ ﷺ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قَال: «أَنْتمْ»، ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾، قَال: «أَنْتمْ». ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾، قَال: «أَنْتُمْ». رَوَاهُ ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم مِنْ رِوَايَة ابْن إِسْحَاق. وَقَدْ رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم أَيْضًا، عَنْ أَبِي سَعِيد الأَشَجّ، عَنْ أَبِي أُسَامَة، عَنْ الوَليد بْن كَثِير، عَنْ يزيد بْن عَبْد الله، عَنْ أَبِي الحَسَن مَوْلى بَنِي نَوْفَل: أَنَّ حَسَّان بْن ثَابِت، وَعَبْد الله بْن رَوَاحَة أَتَيَا رَسُول الله ﷺ حِين نزلت: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ يَبْكِيَانِ، فَقَال رَسُول الله ﷺ وَهُوَ يَقْرَؤُهَا عَليْهِمَا: «﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾، حَتَّى بَلغَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قَال: أَنْتُمْ».[1]

وَقَال أَيْضًا: حَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا أَبُو سلمة، حَدَّثنَا حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ عُرْوَة قَال: لـمَّا نَزَلتْ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ إِلى قَوْله: ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾، قَال عَبْد الله بْن رَوَاحَة: يَا رَسُول الله؛ قَدْ عَلمَ الله أَنِّي مِنهُمْ. فَأَنْزَل الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إِلى قوله: ﴿يَنقَلِبُونَ﴾[2]. وَهَكَذَا قَال ابْن عَبَّاس، وَعِكْرِمَة، وَمُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَزَيْد بْن أَسْلم، وَغَيْر وَاحِد: إِنَّ هَذَا اسْتِثْنَاء مِمَّا تَقدَّمَ. وَلا شَكّ أَنَّهُ اسْتِثْنَاء، وَلكِنَّ هَذِهِ السُّورَة مَكِّيَّة، فَكَيْف يَكُون سَبَب نُزُول هَذِهِ الآيَة فِي شُعَرَاء الأَنْصَار؟ وَفِي ذَلكَ نَظَر، وَلمْ يَتَقَدَّم إِلَّا مُرْسَلات لا يُعْتَمَد عَليْهَا، وَالله أَعْلم. وَلكِنَّ هَذَا الاسْتِثْنَاء يَدْخُل فِيهِ شُعَرَاء الأَنْصَار وَغَيْرهمْ، حَتَّى يَدْخُل فِيهِ مَنْ كَانَ مُتَلبِّسًا مِنْ شُعَرَاء الجَاهِليَّة بِذَمِّ الإِسْلام وَأَهْله ثُمَّ تَاب وَأَنَاب، وَرَجَعَ وَأَقْلعَ، وَعَمِل صَالحًا، وَذَكَرَ الله كَثِيرًا فِي مُقَابَلة مَا تَقدَّمَ مِنْ الكَلام السَّيِّئ، فَإِنَّ الحَسَنَات يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات، وَامْتَدَحَ الإِسْلام وَأَهْله مُقَابَلة مَا كذب بذمه، كَمَا قَال عَبْد الله بْن الزِّبَعْرَى حِين أَسْلمَ:

يَـا رَسُـول المَليـك، إِنَّ لـسَانِي	۞	رَاتِـق مَـا فَتَقْـت إِذْ أَنَـا بُـور
إِذْ [أُبَارِي][3] الشَّيْطَان فِي سَنَن الغَـ	۞	ـيِّ وَمَـنْ مَـال مَيْلـه مَثْبُـور

وَكَذَلكَ أَبُو سُفْيَان ابْن الحَارِث بْن عَبْد المُطَّلب، كَانَ مِنْ أَشَدّ النَّاس عَدَاوَة للنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ ابْن عَمّه، وَأَكْثَرهمْ لهُ هَجْوًا، فَلمَّا أَسْلمَ لمْ يَكُنْ أَحَد أَحَبّ إِليْهِ مِنْ رَسُول الله ﷺ وَكَانَ يَمْدَح رَسُول الله ﷺ بَعْدَمَا كَانَ يَهْجُوهُ، وَيَتَوَلَّاهُ بَعْدَمَا كَانَ قَدْ عَادَاهُ. وَهَكَذَا رَوَى مُسْلم فِي «صَحِيحه»، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ أَبَا سُفْيَان صَخْر بْن

---

(١) ضعيف: إسناده مرسل، وأبو الحسن: مقبول، ولم يتابع.
(٢) ضعيف: إسناده مرسل، فعروة بن الزبير لم يسنده إلى الصحابة.
(٣) في نسخة: [أجاري].

حَرْب لـمَّا أَسْلمَ قَال: يَا رَسُول الله؛ ثَلاث أَعْطِنِيهِنَّ. قَال: «نَعَمْ». قَال: مُعَاوِيَة تَجْعَلهُ كَاتِبًا بَيْن يَدَيْك. قَال: «نَعَمْ». قَال: وَتُؤَمِّرنِي حَتَّى أُقَاتِل الكُفَّار، كَمَا كُنْت أُقَاتِل المُسْلمِينَ. قَال: «نَعَمْ». وَذَكَرَ الثَّالثَة[1]؛ وَهَذَا قَال تَعَالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾. قِيل: مَعْنَاهُ ذَكَرُوا الله كَثِيرًا فِي كَلامهمْ. وَقِيل: فِي شِعْرهمْ، وَكِلاهُمَا صَحِيح مُكَفِّر لمَا سَبَقَ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ قَال ابْن عَبَّاس: يَرُدُّونَ عَلى الكُفَّار الَّذِينَ كَانُوا يَهْجُونَ بِهِ المُؤْمِنِينَ. وَكَذَا قَال مُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد. وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيح» أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال لحَسَّان: «اهْجُهُمْ -أَوْ قَال: هَاجِهِمْ- وَجِبْرِيل مَعَك»[2]. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن كَعْب بْن مَالك، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَال للنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ الله ﷻ قَدْ أَنْزَل فِي الشعر مَا أَنْزَل، فَقَال: «إِنَّ المُؤْمِن يُجَاهِد بِسَيْفِهِ وَلسَانه، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْح النَّبْل»[3].

وَقَوْله: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾، كما قال تَعَالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾. وَفِي «الصَّحِيح» أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «إِيَّاكُمْ وَالظُّلم، فَإِنَّ الظُّلم ظُلُمَات يَوْم القِيَامَة»[4]. وَقَال قَتَادَة ابْن دِعَامَة فِي قَوْله: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ يَعْنِي: مِنْ الشُّعَرَاء وَغَيْرهمْ. وَقَال أَبُو دَاوُد الطَّيَالسِيّ: حَدَّثَنَا إِيَاس بْن أَبِي تَمِيمَة، قَال: حَضَرْت الحَسَن وَمُرَّ عَليْهِ بِجِنَازَةِ نَصْرَانِيّ، فَقَال الحسن: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾. وقَال عَبْد الله بْن رَبَاح، عَنْ صَفْوَان بْن مُحْرِز: أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الآيَة بَكَى حَتَّى أَقُول: قَدْ انْدَقَّ قَضِيب زَوْره: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾.

وَقَال ابْن وَهْب: أَخْبَرَنِي ابن سريح الإِسْكَنْدَرانِيّ، عَنْ بَعْض المَشْيَخَة: أَنَّهُمْ كَانُوا بِأَرْضِ الرُّوم، فَبَيْنَمَا هُمْ ليْلة عَلى نَار يَشْتَوُونَ عَليْهَا -أَوْ يَصْطَلُونَ- إِذَا بركاب قَدْ أَقْبَلُوا، فَقَامُوا إِليْهِمْ، فَإِذَا فَضَالة بْن عُبَيْد فِيهِمْ، فَأَنْزَلُوهُ فَجَلسَ مَعَهُمْ -قَال: وَصَاحِب لنَا قَائِم يُصَلِّي- قال: حَتَّى مَرَّ بِهَذِهِ الآيَة: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾. قَال فَضَالة بْن عُبَيْد: هَؤُلاءِ الَّذِينَ يُخَرِّبُونَ البَيْت. وَقِيل: المُرَاد بِهِمْ أَهْل مَكَّة. وَقِيل: الَّذِينَ ظَلمُوا مِنْ المُشْرِكِينَ. وَالصَّحِيح أَنَّ هَذِهِ الآيَة عَامَّة فِي كُلّ ظَالم، كَمَا قَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذُكِرَ عَنْ زَكَرِيَّا بْن يَحْيَى الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنِي الهَيْثَم بْن مَحْفُوظ أَبُو سَعْد النَّهْدِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن المُجبِّر، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالتْ: كَتَبَ أَبِي وَصِيَّته سَطْرَيْنِ: «بِسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، هَذَا مَا أَوْصَى بِهِ أَبُو بَكْر ابْن أَبِي قُحَافَة، عِنْد خُرُوجه مِنْ الدُّنْيَا، حِين يُؤْمِن الكَافِر، وَيَنْتَهِي الفَاجِر، وَيُصَدِّق الكَاذِب: إِنِّي اسْتَخْلفْت عَليْكُمْ عُمَر بْن الخَطَّاب، فَإِنْ يَعْدِل فَذَاكَ ظَنِّي بِهِ وَرَجَائِي فِيهِ، وَإِنْ يَجُرْ وَيُبَدِّل فَلا أَعْلم الغَيْب، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾».

آخِر تَفْسِير سُورَة الشُّعَرَاء، وَالحَمْد لله رَبّ العَالمِينَ

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٠٢).
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٣٨٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٣١).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

تفسير سورة النمل وهي مكية

ترتيبها ٢٧ — وآياتها ٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

قد تقدم الكلام في «سورة البقرة» على الحروف المتقطعة في أوائل السور.

وَقَوْله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ أَيْ: هَذِهِ آيَات ﴿ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: بَيِّن وَاضِح، ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: إِنَّمَا تَحْصُل الهِدَايَة وَالبِشَارَة مِنْ القُرْآن لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، وَعَمِل بِمَا فِيهِ، وَأَقَامَ الصَّلاة المَكْتُوبَة، وَآتَى الزَّكَاة المَفْرُوضَة، وآمن بِالدَّارِ الآخِرَة وَالبَعْث بَعْد المَوْت، وَالجَزَاء عَلَى الأَعْمَال، خَيْرهَا وَشَرّهَا، وَالجَنَّة وَالنَّار؛ كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، وَقَال: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾، ولهذا قال ها هنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أَيْ: يُكَذِّبُونَ بِهَا، وَيَسْتَبْعِدُونَ وُقُوعهَا ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾. أَيْ: حَسَّنَّا لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ، وَمَدَدْنَا لَهُمْ فِي غَيّهمْ فَهُمْ يَتِيهُونَ فِي ضَلالهمْ. وَكَانَ هَذَا جَزَاء عَلَى مَا كَذَّبُوا به مِنْ الدَّار الآخِرَة؛ كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾. أَيْ: لَيْس يَخْسَر أَنْفُسهمْ وَأَمْوَالهمْ سِوَاهُمْ مِنْ أَهْل المَحْشَر.

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، أَيْ: ﴿وَإِنَّكَ﴾ -يَا مُحَمَّد- قال قتادة: ﴿لَتُلَقَّى﴾ أَيْ: لتَأْخذ ﴿ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أَيْ: مِنْ عِنْد حَكِيم عَلِيم، أَيْ: حَكِيم فِي أوامره ونواهيه، عَلِيم بِالأُمُورِ جَلِيلهَا وَحَقِيرهَا، فَخَبَره هُوَ الصِّدْق المَحْض، وَحُكْمه هُوَ العَدْل التَّامّ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

يَقُول تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ مُذَكِّرًا لَهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْر مُوسَى، كَيْف اصْطَفَاهُ الله، وَكَلَّمَهُ وَنَاجَاهُ، وَأَعْطَاهُ مِنْ الآيَات العَظِيمَة البَاهِرَة، وَالأَدِلَّة القَاهِرَة، وَابْتَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ، فَجَحَدُوا بِهَا وَكَفَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا عن اتِّبَاعه وَالانْقِيَاد لَهُ، فَقَال تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ أَيْ: اذْكُرْ حِين سَارَ مُوسَى بِأَهْلِهِ، فَأَضَلَّ الطَّرِيق، وَذَلِكَ فِي لَيْل وَظَلام، فَآنَس مِنْ جَانِب الطُّور نَارًا، أَيْ: رَأَى نَارًا تَتَأَجَّجُ وَتَضْطَرِم، فَقَال: ﴿لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، أَيْ: عن الطَّرِيق، ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أَيْ: تَتَدَفَّئُونَ بِهِ. وَكَانَ كَمَا قَال، فَإِنَّهُ رَجَع

مِنْهَا بِخَبَرٍ عَظِيم، وَاقْتَبَس مِنْهَا نُورًا عَظِيمًا، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي: فَلَمَّا أَتَاهَا رَأَى مَنْظَرًا هَائِلًا عَظِيمًا، حَيْثُ انْتَهَى إِلَيْهَا، وَالنَّار تَضْطَرِم فِي شَجَرَة خَضْرَاء، لا تَزْدَاد النَّار إِلَّا تَوَقُّدًا، وَلا تَزْدَاد الشَّجَرَة إِلَّا خُضْرَة وَنَضْرَة، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسه فَإِذَا نُورهَا مُتَّصِل بِعَنَانِ السَّمَاء. قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْرُه: ولمْ تَكُنْ نَارًا، إِنَّمَا كَانَتْ نُورًا يَتَوَهَّج. وَفِي رِوَايَة عَنْ ابْن عَبَّاس: نُور رَبّ العَالَمِينَ. فَوَقَفَ مُوسَى مُتَعَجِّبًا مِمَّا رَأَى، فنودي: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾. قَال ابْن عَبَّاس: أي قُدِّسَ ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَيْ: مِنْ المَلائِكَة. قَالَهُ ابْن عَبَّاس، وَعِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالحَسَن، وَقَتَادَة.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا يُونُس بْن حَبِيب، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد -هُوَ الطَّيَالِسِيّ- حَدَّثَنَا شُعْبَة وَالمَسْعُودِيّ، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، سَمِعَ أَبَا عُبَيْدَة يُحَدِّث عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ الله لا يَنَام، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَام، يَخْفِض القِسْط وَيَرْفَعه، يُرْفَع إِلَيْهِ عَمَل اللَّيْل قَبْل النَّهَار، وَعَمَل النَّهَار قَبْل اللَّيْل**»[1]. زَادَ المَسْعُودِيّ: «**وَحِجَابه النُّور أَوْ النَّار لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَات وَجْهه كُلّ شَيْء أَدْرَكَهُ بَصَره**».[2] ثُمَّ قَرَأَ أَبُو عُبَيْدَة: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. وَأَصْل هذا الحَدِيث مُخَرَّج فِي «الصَّحِيح» لِمُسْلِم، مِنْ حَدِيث عَمْرو بْن مُرَّة، به.[3]

وَقَوْله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. أَيْ: الَّذِي يَفْعَل مَا يَشَاء، وَلا يُشْبِه شيئًا مِنْ مَخْلُوقَاته، وَلا يُحِيط بِهِ شَيْء مِنْ مَصْنُوعَاته، وَهُوَ العَلِيّ العَظِيم، المُبَايِن لِجَمِيعِ المَخْلُوقَات، ولا يَكْتَنِفهُ الأَرْض وَالسَّمَوَات، بَل هُوَ الأَحَد الصَّمَد، المُنَزَّه عَنْ مُمَاثَلَة المُحْدَثَات.

وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أَعْلَمَهُ أَنَّ الَّذِي يُخَاطِبهُ وَيُنَاجِيه هُوَ رَبّه الله العَزِيز الحَكِيم، الَّذِي عَزَّ كُلّ شَيْء وَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ، الحَكِيم فِي أَفْعَاله وأَقْوَاله. ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يُلْقِي عَصَاهُ مِنْ يَده؛ لِيُظْهِر لَهُ دَلِيلًا وَاضِحًا عَلَى أَنَّهُ الفَاعِل المُخْتَار، القَادِر عَلَى كُلّ شَيْء، فَلَمَّا أَلْقَى مُوسَى تِلْكَ العَصَا مِنْ يَده انْقَلَبَتْ فِي الحَال حَيَّة عَظِيمَة هَائِلَة فِي غَايَة الكِبَر، وَسُرْعَة الحَرَكَة مَعَ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، وَالجَانّ: ضَرْب مِنْ الحَيَّات أَسْرَعه حَرَكَة وَأَكْثَرهُ اضْطِرَابًا، وَفِي الحَدِيث: «نَهَى عَنْ قَتْل جِنَان البُيُوت».[4] فَلَمَّا عَايَنَ مُوسَى ذَلِكَ: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أَيْ: لَمْ يَلْتَفِت مِنْ شِدَّة فَرَقه. ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، أَيْ: لا تَخَفْ مِمَّا تَرَى، فَإِنِّي أُرِيد أَنْ أَصْطَفِيك رَسُولًا، وَأَجْعَلك نَبِيًّا وَجِيهًا.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاء مُنْقَطِع وَفِيهِ بِشَارَة عَظِيمَة لِلبَشَر، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ كَانَ عَلَى شَيْء ثُمَّ أَقْلَعَ عَنْهُ، وَرَجَعَ وَتَابَ وَأَنَابَ، فَإِنَّ الله يَتُوب عَلَيْهِ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾. وَقَال تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة جِدًّا.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، هَذِهِ آيَة أُخْرَى، وَدَلِيل بَاهِر عَلَى قُدْرَة الله الفَاعِل المُخْتَار، وَصِدْق مَنْ جَعَل لهُ مُعْجِزَة، وَذَلِكَ أَنَّ الله تَعَالَى أَمَرَهُ أَنْ يُدْخِل يَده فِي جَيْب دِرْعه، فَإِذَا أَدْخَلهَا وَأَخْرَجَهَا خَرَجَتْ بَيْضَاء سَاطِعَة، كَأَنَّهَا قِطْعَة قَمَر، لهَا لَمَعَان يتلألأ كَالبَرْقِ الخَاطِف.

---

(١) صححه الألباني في «تخريج الطحاوية» (٢١٤).
(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٩٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٤).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٦٦، ٣٧١٣)، ومسلم (٤١٤٣).

وَقَوْله تَعَالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أَيْ: هَاتَانِ ثِنْتَانِ مِنْ تِسْع آيَات أُؤَيِّدك بِهِنَّ، وَأَجْعَلهُنَّ بُرْهَانًا لك إلى فِرْعَوْن وَقَوْمه، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾. وَهَٰذِهِ هِيَ الآيَات التِّسْع الَّتِي قَال الله تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِير ذَٰلكَ هُنَالكَ.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾، أَيْ: بَيِّنَة وَاضِحَة ظَاهِرَة ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وَأَرَادُوا مُعَارَضَته بِسِحْرِهِمْ فَغُلبُوا وَانْقَلبُوا صَاغِرِينَ ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ أَيْ: فِي ظَاهِر أَمْرهِمْ، ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أَيْ: عَلمُوا فِي أَنْفُسهمْ أَنَّهَا حَقّ مِنْ عِنْد الله، وَلكِنْ جَحَدُوهَا وَعَانَدُوهَا وَكَابَرُوهَا ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، أَيْ: ظُلمًا مِنْ أَنْفُسهمْ، سَجِيَّة مَلعُونَة، ﴿وَعُلُوًّا﴾ أَيْ: اسْتِكْبَارًا عَنْ اتِّبَاع الحَقّ؛ وَلهَٰذَا قَالَ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أَيْ: انْظُرْ يَا مُحَمَّد كَيْف كَانَ عَاقِبَة كفرهم، فِي إِهْلاك الله إِيَّاهُمْ، وَإِغْرَاقهمْ عَنْ آخِرهِمْ فِي صَبِيحَة وَاحِدَة. وَفَحْوَى الخِطَاب يَقُول: احْذَرُوا أَيُّهَا المُكَذِّبُونَ بمحمد، الجَاحِدُونَ لمَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبّه، أَنْ يُصِيبكُمْ مَا أَصَابَهُمْ بِطَرِيقِ الأَوْلى وَالأَحْرَى، فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَشْرَف وَأَعْظَم مِنْ مُوسَى، وَبُرْهَانه أَدَلّ وَأَقْوَى مِنْ بُرْهَان مُوسَى، بِمَا آتَاهُ الله تعالى مِنَ الدَّلائِل المُقْتَرِنَة بِوُجُودِهِ فِي نَفْسه وَشَمَائِله، وَمَا سَبَقَهُ مِنَ البِشَارَات مِنَ الأَنْبِيَاء بِهِ، وَأَخْذ المَوَاثِيق لهُ، عَلَيْهِ مِنْ رَبّه أَفْضَل الصَّلاة وَالسَّلام.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلى عَبْدَيْهِ وَنَبِيَّيْهِ دَاوُد وَابْنه سُليمَان -عَليْهِمَا من الله السَّلام- مِنَ النِّعَم الجَزِيلة، وَالمَوَاهِب الجَليلة، وَالصِّفَات الجَمِيلة، وَمَا جَمَعَ لهُمَا بَيْنَ سَعَادَة الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَالمُلك وَالتَّمْكِين التَّامّ فِي الدُّنْيَا، وَالنُّبُوَّة وَالرِّسَالة فِي الدِّين؛ وَلهَٰذَا قَال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذُكِرَ عَنْ إِبْرَاهِيم بْن يَحْيَى بْن تمام: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي؛ قَال: كَتَبَ عُمَر بْن عَبْد العَزِيز: إِنَّ الله لمْ يُنْعِم عَلى عبد نِعْمَة فَحَمد الله عَليْهَا، إِلَّا كَانَ حَمْده أَفْضَل مِنْ نِعَمه، لوْ كُنْت لا تَعْرِف ذَٰلكَ إِلَّا من كِتَاب الله المُنَزَّل، قَال الله تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأَيّ نِعْمَة أَفْضَل مِمَّا أُوتِيَ دَاوُد وَسُليمَان عليهما السلام؟

وقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أَيْ: فِي المُلك وَالنُّبُوَّة، وَليْسَ المُرَاد وِرَاثَة المَال؛ إِذْ لوْ كَانَ كَذَٰلكَ لمْ يُخَصّ سُليمَان وَحْده مِنْ بَيْن سَائِر أَوْلاد دَاوُد، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لدَاوُدَ مِائَة امْرَأَة. وَلكِنْ المُرَاد بِذَٰلكَ وِرَاثَة المُلك وَالنُّبُوَّة، فَإِنَّ الأَنْبِيَاء لا تُورَث أَمْوَالهمْ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَٰلكَ رَسُول الله ﷺ: «نَحْنُ مَعَاشِر الأَنْبِيَاء لا نُورَث، مَا تَرَكْنَا صَدَقَة».[1]

وَقَال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، أَيْ: أَخْبَرَ سُليمَان بِنِعَم الله عَليْهِ، فِيمَا وَهَبَهُ لهُ مِنَ المُلك التَّامّ، وَالتَّمْكِين العَظِيم، حَتَّى إِنَّهُ سَخَّرَ لهُ الإِنْس وَالجِنّ وَالطَّيْر، وَكَانَ يَعْرِف لُغَة الطَّيْر وَالحَيَوَان أَيْضًا، وَهَٰذَا شَيْء لمْ يُعْطَهُ أَحَد مِنَ البَشَر -فِيمَا عَلمْنَاهُ- مِمَّا أَخْبَرَ الله بِهِ وَرَسُوله. وَمَنْ زَعَمَ مِنَ الجَهَلة وَالرَّعَاع أَنَّ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧).

الحَيَوَانَات كَانَتْ تَنْطِق كَنُطْقِ بَنِي آدَم قَبْل سُلَيْمَان بْن دَاوُد -كَمَا يَتَفَوَّه بِهِ كَثِير مِنْ النَّاس- فَهُوَ قَوْل بِلا عِلم، وَلَوْ كَانَ الأَمْر كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِتَخْصِيصِ سُلَيْمَان بِذَلِكَ فَائِدَة؛ إِذْ كُلّهمْ يَسْمَع كَلام الطُّيُور وَالبَهَائِم، وَيَعْرِف مَا تَقُول، فلَيْسَ الأَمْر كَمَا زَعَمُوا وَلا كَمَا قَالُوا، بَل لَمْ تَزَل البَهَائِم وَالطُّيُور وَسَائِر المَخْلُوقَات مِنْ وَقْت خُلقَتْ إِلى زَمَاننَا هَذَا عَلى هَذَا الشَّكْل وَالمِنْوَال، وَلكِنَّ الله -سُبْحَانه وتعالى- كَانَ قَدْ أَفْهَمَ سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا يَتَخَاطَب بِهِ الطُّيُور فِي الهَوَاء، وَمَا تَنْطِق بِهِ الحَيَوَانَات عَلى اخْتِلاف أَصْنَافهَا، وَلهَذَا قَال: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أَيْ: مِمَّا يَحْتَاج إِلَيْهِ المُلك؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾، أَيْ: الظَّاهِر البَيِّن لله عَلَيْنَا.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا قُتَيْبَة، حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ عَمْرو بْن أَبِي عَمْرو، عَنْ المُطَّلب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «كَانَ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِ غَيْرَة شَدِيدَة، فَكَانَ إِذَا خَرَجَ أُغْلقَتْ الأَبْوَاب، فَلمْ يَدْخُل عَلى أَهْله أَحَد حَتَّى يَرْجِع، قَال: فَخَرَجَ ذَات يَوْم وَأُغْلقَتْ الأَبْوَاب، فَأَقْبَلتْ امْرَأَته تَطَّلع إِلى الدَّار، فَإِذَا رَجُل قَائِم وَسَط الدَّار، فَقَالتْ لِمَنْ فِي البَيْت: مِنْ أَيْنَ دَخَل هَذَا الرَّجُل، وَالدَّار مُغْلقَة؟ وَالله لَنُفْتَضَحَنَّ بِدَاوُد، فَجَاءَ دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِذَا الرَّجُل قَائِم وَسَط الدَّار، فَقَال لهُ دَاوُد: مَنْ أَنْتَ؟ قَال: الَّذِي لا يَهَاب المُلُوك، وَلا يَمْتَنِع مِنْ الحُجَّاب، فَقَال دَاوُد: أَنْتَ وَالله إِذن مَلك المَوْت، مَرْحَبًا بِأَمْرِ الله، فَتَزَمَّل دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكَانه حَتَّى قُبِضَتْ نَفْسه، حَتَّى فَرَغَ مِنْ شَأْنه وَطَلعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْس، فَقَال سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ للطَّيْر: أَظِلِّي عَلى دَاوُد. فَأَظلت عَلَيْهِ الطَّيْر حَتَّى أَظْلمَتْ عَليهما الأَرْض، فَقَال لهَا سُلَيْمَان: اقْبِضِي جَنَاحًا جَنَاحًا». قَال أَبُو هُرَيْرَة: يَا رَسُول الله، كَيْف فَعَلتْ الطَّيْر؟ فَقَبَضَ رَسُول الله ﷺ يَده، وَغَلبَتْ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ المَضْرَحِيَّة.(١) قَال أَبُو الفَرَج ابْن الجَوْزِيّ: المَضْرَحِيَّة: النُّسُور الحُمْر.

وقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، أَيْ: وَجُمِعَ لِسُلَيْمَانَ جُنُوده مِنْ الجِنّ وَالإِنْس وَالطَّيْر، يَعْنِي: رَكِبَ فِيهِمْ فِي أُبَّهَة وَعَظَمَة كَبِيرَة فِي الإِنْس، وَكَانُوا هُمْ الَّذِينَ يَلُونَهُ، وَالجِنّ وَهُمْ بَعْدهمْ فِي المَنْزِلة، وَالطَّيْر وَمَنْزِلتهَا فَوْق رَأْسه، فَإِنْ كَانَ حَرٌّ أَظَلَّتْهُ مِنْهُ بِأَجْنِحَتِهَا.

قَوْله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أَيْ: يُكَفّ أَوَّلهمْ عَلى آخِرهمْ لِئَلَّا يَتَقَدَّم أَحَد عَنْ مَنْزِلته الَّتِي هِيَ مُرَتَّبَة لهُ. قَال مُجَاهِد: جَعَل عَلى كُلّ صِنْف وَزَعَة، يَرُدُّونَ أُولاهَا عَلى أُخْرَاهَا، لِئَلَّا يَتَقَدَّمُوا فِي المَسِير، كَمَا يَفْعَل المُلُوك اليَوْم.

وَقَوْله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ أَيْ: حَتَّى إِذَا مَرَّ سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ الجُيُوش وَالجُنُود عَلى وَادِي النَّمْل، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. أَوْرَدَ ابْن عَسَاكِر مِنْ طَرِيق إِسْحَاق بْن بِشْر، عَنْ سَعِيد، عَنْ قَتَادَة، عَنْ الحَسَن: أَنَّ اسْم هَذِهِ النَّمْلة: حَرْس، وَأَنَّهَا مِنْ قَبِيلة يُقَال لهُمْ: بَنُو الشِّيصَان، وَأَنَّهَا كَانَتْ عَرْجَاء، وَكَانَتْ بِقَدْرِ الذِّئْب. أَيْ: خَافَتْ عَلى النَّمْل أَنْ تُحَطِّمهَا الخُيُول بِحَوَافِرِهَا، فَأَمَرَتْهُمْ بِالدُّخُول إِلى مَسَاكِنِهما فَفَهِمَ ذَلكَ سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ عنها، ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أَيْ: أَلهِمْنِي أَنْ أَشْكُر نِعْمَتك الَّتِي مَنَنْت بِهَا عَليَّ مِنْ تَعْليمِي مَنْطِق الطَّيْر وَالحَيَوَان، وَعَلى وَالدَيَّ بِالإِسْلامِ لك، وَالإِيمَان بِك ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾، أَيْ: عَمَلًا تُحِبّهُ وَتَرْضَاهُ، ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أَيْ: إِذَا

---

(١) إسناده ضعيف : أخرجه أحمد (٢/ ٤١٩) فيه عبد المطلب بن حنطب: صدوق كثير التدليس والإرسال.

تَوَفَّيْتني فَأَلحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادك، وَالرَّفِيق الأَعْلى مِنْ أَوْلِيَائك. وَمَنْ قَال مِنْ المُفَسِّرِينَ: إِنَّ هَذَا الوَادِي كَانَ بِأَرْضِ الشَّام أَوْ بِغَيْرِهِ، وَإِنَّ هَذِهِ النَّمْلة كَانَتْ ذَات جَنَاحَيْنِ كَالذُّبَابِ، أَوْ غَيْر ذَلكَ مِنْ الأَقَاوِيل، فَلا حَاصِل لهَا.

وَعَنْ نَوْف البِكَالِيّ أَنَّهُ قَال: كَانَ نَمْل سُلَيْمان أَمْثَال الذِّيَاب. هَكَذَا رَأَيْته مَضْبُوطًا بِاليَاءِ المُثَنَّاة مِنْ تَحْت، وَإِنَّمَا هُوَ بِالبَاءِ المُوَحَّدَة، وذاك تَصْحِيف، وَالله أَعْلم. وَالغَرَض أَنَّ سُلَيْمان عليه السلام فَهِمَ قَوْلهَا، وَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ ذَلكَ، وَهَذَا أَمْر عَظِيم جِدًّا. وَقَدْ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، أَنْبَأَنَا مِسْعَر، عَنْ زَيْد العَمِّيّ، عَنْ أَبِي الصِّدِّيق النَّاجِيّ قَال: خَرَجَ سُلَيْمان عليه السلام يَسْتَسْقِي، فَإِذَا هُوَ بِنَمْلةٍ مُسْتَلقِيَة عَلى ظَهْرهَا، رَافِعَة قَوَائِمهَا إِلى السَّمَاء، وَهِيَ تَقُول: اللَّهُمَّ، إِنَّا خَلق مِنْ خَلقك، وَلا غِنَى بِنَا عَنْ سُقْيَاك، وَإِلَّا تَسْقِنَا تُهْلكنَا. فَقَال سُلَيْمان عليه السلام: «ارْجِعُوا فَقَدْ سُقِيتُمْ بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ»[1]. وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيح» -عِنْد مُسْلم- مِنْ طَرِيق عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ هَمَّام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ: «قَرَصَتْ نَبِيًّا مِنْ الأَنْبِيَاء نَمْلة فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْل فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى الله إِليْهِ: أَفِي أَنْ قَرَصَتْك نَمْلة أَهْلكْت أُمَّة مِنْ الأُمَم تُسَبِّح؟ فهلا نَمْلة وَاحِدَة».[2]

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

قَال مُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَغَيْرهمَا عَنْ ابْن عَبَّاس وَغَيْره: كَانَ الهُدْهُد مُهَنْدِسًا، يَدُلّ سُلَيْمان عليه السلام عَلى المَاء، إِذَا كَانَ بِأَرْضٍ فَلاة طَلبَهُ فَنَظَرَ لهُ المَاء فِي تُخُوم الأَرْض، كَمَا يَرَى الإِنْسَان الشَّيْء الظَّاهِر عَلى وَجْه الأَرْض، وَيَعْرِف كَمْ مِسَاحَة بُعْده مِنْ وَجْه الأَرْض، فَإِذَا دَلَّهُمْ عَليْهِ أَمَرَ سُلَيْمان عليه السلام الجَانّ فَحَفَرُوا له ذَلكَ المَكَان، حَتَّى يَسْتَنْبِطوا المَاء مِنْ قَرَاره، فَنَزَل سُلَيْمان عليه السلام بِفَلاةٍ مِنْ الأَرْض، فَتَفَقَّدَ الطَّيْر ليَرَى الهُدْهُد، فَلمْ يَرَهُ: ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾.

حَدَّثَ يَوْمًا عَبْد الله بْن عَبَّاس بِنَحْوِ هَذَا، وَفِي القَوْم رَجُل مِنْ الخَوَارِج، يُقَال لهُ: «نَافِع بْن الأَزْرَق»، وَكَانَ كَثِير الاعْتِرَاض عَلى ابْن عَبَّاس، فَقَال لهُ: قِفْ يَا بْن عَبَّاس، غُلبْت اليَوْم! قَال: وَلمَ؟ قَال: إِنَّك تُخْبِر عَنْ الهُدْهُد أَنَّهُ يَرَى المَاء فِي تُخُوم الأَرْض، وَإِنَّ الصَّبِيّ ليَضَع لهُ الحَبَّة فِي الفَخّ وَيَحْثُو عَلى الفَخّ تُرَابًا، فَيَجِيء الهُدْهُد فَيَأْخُذهَا فَيَقَع فِي الفَخّ، فَيَصِيدهُ الصَّبِيّ. فَقَال ابْن عَبَّاس: لوْلا أَنْ يَذْهَب هَذَا فَيَقُول: رَدَدْت عَلى ابْن عَبَّاس، لمَا أَجَبْته. فقَال لهُ: وَيْحك! إِنَّهُ إِذَا نَزَل القَدَر عَمِيَ البَصَر، وَذَهَبَ الحَذَر. فَقَال لهُ نَافِع: وَالله لا أُجَادِلُك فِي شَيْء مِنْ القُرْآن أَبَدًا.

وَقَدْ ذَكَرَ الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة أَبِي عَبْد الله البَرْزِيّ مِنْ أَهْل «بَرْزَة» مِنْ غُوطَة دِمَشْق، وَكَانَ مِنْ الصَّالِحِينَ يَصُوم الاثْنَيْنِ وَالخَمِيس، وَكَانَ أَعْوَر قَدْ بَلغَ الثَّمَانِينَ، فَرَوَى ابْن عَسَاكِر بِسَنَدِهِ إِلى أَبِي سُليْمان ابْن يَزِيد: أَنَّهُ سَأَلهُ عَنْ سَبَب عَوَره، فَامْتَنَعَ عَليْهِ، فَأَلحَّ عَليْهِ شُهُورًا، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ رَجُليْنِ مِنْ أَهْل خُرَاسَان نَزَلا عِنْده جُمْعَة فِي قَرْيَة بَرْزَة، وَسَأَلاهُ عَنْ وَادِيهَا، فَأَرَيْتهمَا إِيَّاهُ، فَأَخْرَجَا مَجَامِر وَأَوْقَدَا فِيهَا بَخُورًا كَثِيرًا، حَتَّى عَجْعَجَ الوَادِي بِالدُّخَانِ، فَأَخَذَا يُعَزِّمَانِ وَالحَيَّات تُقْبِل مِنْ كُلّ مَكَان إِليْهِمَا، فَلا يَلتَفِتَانِ إِلى شَيْء مِنْهَا، حَتَّى أَقْبَلتْ حَيَّة نَحْو الذِّرَاع، وَعَيْنَاهَا تَوَقَّدَانِ مِثْل الدِّينَار، فَاسْتَبْشَرَا بِهَا عَظِيمًا، وَقَالا: الحَمْد لله الَّذِي لمْ يُخَيِّب سَفَرنَا مِنْ سَنَة،

---

(١) ضعيف : فيه زيد العمي: ضعيف، وأبو الصديق الناجي: تابعي ولم يوصل الإسناد إلى النبي ﷺ.

(٢) صحيح : أخرجه مسلم (٢٢٤١).

وَكَسَرَا المَجَامِر، وَأَخَذَا الحَيَّة فَأَدْخَلا فِي عَيْنِهَا مِيلًا فَاكْتَحَلا بِهِ، فَسَأَلتهمَا أَنْ يُكَحِّلانِي، فَأَبَيَا، فَأَلْحَحْت عَلَيْهِمَا وَقُلت: لابُدّ مِنْ ذَلِكَ، وَتَوَعَّدْتهمَا بِالدَّوْلَةِ، فَكَحَّلا عَيْنِي الوَاحِدَة اليُمْنَى، فَحِين وَقَعَ فِي عَيْنِي نَظَرْت إِلى الأَرْض تَحْتِي مِثْل المِرْآة، أَنْظُر مَا تَحْتَهَا كَمَا تُورِي المِرْآة، ثُمَّ قَالا لِي: سِرْ مَعَنَا قَلِيلًا، فَسِرْت مَعَهُمَا وَهُمَا يُحَدِّثَانِي، حَتَّى إِذَا بَعُدْت عَنْ القَرْيَة، أَخَذَانِي فَكَتَّفَانِي، وَأَدْخَل أَحَدهمَا يَده فِي عَيْنِي فَفَقَأَهَا، وَرَمَى بِهَا وَمَضَيَا، فَلَمْ أَزَل كَذَلِكَ مُلقًى مَكْتُوفًا، حَتَّى مَرَّ بِي نَفَر فَفَكَّ وَثَاقِي. فَهَذَا مَا كَانَ مِنْ خَبَر عَيْنِي.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا صَدَقَة بْن عَمْرو الغَسَّانِيّ، حَدَّثَنَا عَبَّاد بْن مَيْسَرَة المِنْقَرِيّ، عَنْ الحَسَن قَال: اسْم هُدْهُد سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ: عَنْبَر. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: كَانَ سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا غَدَا إِلى مَجْلِسه الَّذِي كَانَ يَجْلِس فِيهِ تَفَقَّدَ الطَّيْر، وَكَانَ فِيمَا يَزْعُمُونَ يَأْتِيه نُوَب مِنْ كُلّ صِنْف مِنْ الطَّيْر، كُلّ يَوْم طَائِر، فَنَظَرَ فَرَأَى مِنْ أَصْنَاف الطَّيْر كُلّهَا مَنْ حَضَرَهُ إِلّا الهُدْهُد، ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، أَخْطَأَهُ بَصَرِي مِنْ الطَّيْر، أَمْ غَابَ فَلَمْ يَحْضُر؟

وقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قَال الأَعْمَش، عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ سَعِيد، عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي نَتْف رِيشه. وَقَال عَبْد الله بْن شَدَّاد: نَتْف رِيشه وَتَشْمِيسه. وَكَذَا قَال غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف: إِنَّهُ نَتْف رِيشه، وَتَرْكه مُلقًى يَأْكُلهُ الذَّرّ وَالنَّمْل.

وَقَوْله: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ يَعْنِي: قَتْله، ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بِعُذْرٍ وَاضِح بَيِّن. قَال سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، وَعَبْد الله بْن شَدَّاد: لَـمَّا قَدِمَ الهُدْهُد قَال لَهُ الطَّيْر: مَا خَلَّفَك، فَقَدْ نَذَرَ سُلَيْمَان دَمك! فَقَال: هَل اسْتَثْنَى؟ فقَالُوا: نَعَمْ. قَال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾، فقَال: نَجَوْتُ إِذًا.

قَال مُجَاهِد: إِنَّمَا دُفِعَ عَنْهُ بِبِرِّهِ بِأُمِّهِ.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾.

يقول تعالى: ﴿فَمَكَثَ﴾ الهُدْهُد ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أَيْ: غَابَ زَمَانًا يَسِيرًا، ثُمَّ جَاءَ فَقَال لِسُلَيْمَانَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، أَيْ: اطَّلَعْت عَلى مَا لَمْ تَطَّلِع عَلَيْهِ أَنْتَ وَلا جُنُودك، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أَيْ: بِخَبَرِ صِدْق حَقّ يَقِين، وَسَبَأ: هُمْ حِمْيَر، وَهُمْ مُلُوك اليَمَن.

ثم قَال: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، قَال الحَسَن البَصْرِيّ: وَهِيَ بِلقِيس بِنْت شَرَاحِيل مَلكَة سَبَأ. وَقَال قَتَادَة: كَانَتْ أُمّهَا جِنِّيَّة، وكان مُؤَخِّر قَدَمَيْهَا مِثْل حَافِر الدَّابَّة، مِنْ بَيْت مَمْلَكَة. وَقَال زُهَيْر بْن مُحَمَّد: هِيَ بِلقِيس بِنْت شَرَاحِيل بْن مَالك بْن الرَّيَّان، وَأُمّهَا فارعة الجِنِّيَّة. وَقَال ابْن جُرَيْج: بِلقِيس بِنْت ذِي شَرْخ وَأُمّهَا بلتقة.

وَقَال ابْن أَبى حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحَسَين، حَدَّثَنَا مُسَدَّد، حَدَّثَنَا سُفْيَان -يعني ابْن عُيَيْنَة- عَنْ عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَال: كَانَ مَعَ صَاحِبَة سُلَيْمَان أَلف قَيْل، تَحْت كُلّ قَيْل مِائَة أَلف. وَقَال الأَعْمَش، عَنْ مُجَاهِد: كَانَ تَحْت يَدَيْ مَلكَة سَبَأ اثْنَا عَشَرَ أَلف قَيْل، تَحْت كُلّ قَيْل: مِائَة أَلف مُقَاتِل. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَنْبَأَنَا مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة، فِي قَوْله: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، كَانَتْ مِنْ بَيْت مَمْلَكَة، وَكَانَ أُولُو

مَشُورَتِهَا ثَلثِمِائَةٍ وَاثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، كُلّ رَجُل مِنْهُمْ عَلى عَشَرَة آلاف رَجُل. وَكَانَتْ بِأَرْضٍ يُقَال لَهَا: مَأْرِب، عَلى ثَلاثَة أَمْيَال مِنْ صَنْعَاء. وَهَذَا القَوْل هُوَ أَقْرَب عَلى أَنَّهُ كَثِير عَلى مَمْلَكَة اليَمَن، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، أَيْ: مِنْ مَتَاع الدُّنْيَا مِمَّا يَحْتَاج إِلَيْهِ المَلِك المُتَمَكِّن، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، يَعْنِي: سَرِير تَجْلس عَلَيْهِ عَظِيم هَائِل مُزَخْرَف بِالذَّهَبِ، وَأَنْوَاع الجَوَاهِر وَاللَّآلئ. قَال زُهَيْر بْن مُحَمَّد: كَانَ مِنْ ذَهَب صفحتاه مَرْمُولة بِاليَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَد طُوله ثَمَانُونَ ذِرَاعًا، وَعَرْضه أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: كَانَ مِنْ ذَهَب مُفَصَّص بِاليَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَد وَاللُّؤْلُؤ، وَكَانَ إِنَّمَا يَخْدُمهَا النِّسَاء، لَهَا سِتُّمِائَةِ امْرَأَة تليها الخِدْمَة. قَال عُلَمَاء التَّارِيخ: وَكَانَ هَذَا السَّرِير فِي قَصْر عَظِيم مُشَيَّد رَفِيع البِنَاء مُحْكَم، وَكَانَ فِيهِ ثَلثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ طَاقَة شرقه وَمِثْلهَا مِنْ غربه، قَدْ وُضِعَ بِنَاؤُهُ عَلى أَنْ تَدْخُل الشَّمْس كُلّ يَوْم مِنْ طَاقَة، وَتَغْرُب مِنْ مُقَابِلتهَا، فَيَسْجُدُونَ لَهَا صَبَاحًا وَمَسَاء، ولهذا قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أَيْ: عن طريق الحَقّ، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾. معناه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي: لا يعرفون سبيل الحَقّ الَّتِي هِيَ إِخْلاص السُّجُود لله وَحْده دُون مَا خَلَقَ من شيء مِنْ الكَوَاكِب وَغَيْرِهَا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، وَقَرَأَ بَعْض القُرَّاء: (أَلَا يَا اسْجُدُوا لله)، جَعَلَهَا: «أَلا» الاسْتِفْتَاحِيَّة، وَ«يَا» النِّدَاءِ، وَحُذِفَ المُنَادَى، تَقْدِيره عِنْده: «أَلا يَا قَوْم، اسْجُدُوا لله».

وَقَوْله: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْلم كُلّ خَبِيئَة فِي السَّمَاء وَالأَرْض. وَكَذَا قَال عِكْرِمَة، وَمُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَقَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد، وَقَال سَعِيد بْن المُسَيِّب: الخَبْء: المَاء. وَكَذَا قَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم: خَبْء السَّمَوَات وَالأَرْض: مَا جُعِل فيها مِنْ الأَرْزَاق؛ المَطَر مِنْ السَّمَاء وَالنَّبَات مِنْ الأَرْض. وَهَذَا مُنَاسِب مِنْ كَلام الهُدْهُد، الَّذِي جَعَل فِيهِ مِنْ الخَاصِّيَّة مَا ذَكَرَهُ ابْن عَبَّاس وَغَيْره: مِنْ أَنَّهُ يَرَى المَاء يَجْرِي فِي تُخُوم الأَرْض وَدَوَاخِلهَا.

وَقَوْله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أَيْ: يَعْلم مَا يُخْفِيه العِبَاد، وَمَا يُعْلِنُونَهُ مِنْ الأَقْوَال وَالأَفْعَال؛ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أَيْ: هُوَ المَدْعُوّ الله، وهو الَّذِي لا إله إِلَّا هُوَ رَبّ العَرْش العَظِيم، الَّذِي لَيْسَ فِي المَخْلُوقَات أَعْظَم مِنْهُ. وَلَـمَّا كَانَ الهُدْهُد دَاعِيًا إِلى الخَيْر، وَعِبَادَة الله وَحْده وَالسُّجُود لَهُ، نُهِيَ عَنْ قَتْله، كَمَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَأَبُو دَاوُد وَابْن مَاجَهْ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: نَهَى النَّبِيّ ﷺ عَنْ قتل أَرْبَع مِنْ الدَّوَابّ: النَّمْلة، وَالنَّحْلة، وَالهُدْهُد، وَالصُّرَد.[1] وَإِسْنَاده صَحِيح.

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٢٦٧)، وابن ماجه (٣٢٢٤)، وأحمد (٩/ ١٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود وابن ماجه».

يخبر تعالى عَنْ قَوْل سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ للهُدْهُدِ حِين أَخْبَرَهُ عَنْ أَهْل سَبأ وَمَلكتهم: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾، أَيْ: أَصَدَقْت فِي إِخْبَارك هَذَا، ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ فِي مَقَالتك، فَتتخلَّص مِنْ الوَعِيد الَّذِي أَوْعَدْتُك ﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾. وَذَلكَ أَنَّ سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كَتَبَ كِتَابًا إِلى بِلقِيس وَقَوْمهَا، وَأَعْطَاهُ ذَلكَ الهُدْهُد فَحَمَلهُ -قِيل: فِي جَنَاحه كَمَا هو عَادَة الطَّيْر، وَقِيل: بِمِنْقَارِهِ- وذهب إِلى بِلادهمْ فَجَاءَ إِلى قَصْر بِلقِيس، إِلى الخَلوَة الَّتِي كَانَتْ تَختَلِي فِيهَا بِنَفْسِهَا، فَأَلقَاهُ إِلَيْهَا مِنْ كُوَّة هُنَالك بَيْن يَدَيْهَا، ثُمَّ تَوَلَّى ناحية أَدَبًا وَرِيَاسَة، فَتَحَيَّرَتْ مِمَّا رَأَتْ، وَهَالهَا ذَلكَ، ثُمَّ عَمَدَتْ إِلى الكِتَاب فَأَخَذَتْهُ، فَفَتَحَتْ خَتْمه وَقَرَأَتْهُ، فَإِذَا فِيهِ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾. فَجَمَعَتْ عِنْد ذَلكَ أُمَرَاءَهَا وَوُزَرَاءَهَا وَكُبَرَاء دَوْلتها وَمَمْلكتهَا، ثُمَّ قَالتْ لَهُمْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾، تَعْنِي بِكَرَمِهِ مَا رَأَتْهُ مِنْ عَجِيب أَمْره، كَوْن طَائِر أَتي بِهِ فَأَلقَاهُ إِلَيْهَا، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهَا أَدَبًا. وَهَذَا أَمْر لا يَقْدِر عَلَيْهِ أَحَد مِنْ المُلُوك، وَلا سَبِيل لَهُمْ إِلى ذَلكَ، ثُمَّ قَرَأَتْهُ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾؛ فَعَرَفُوا أَنَّهُ مِنْ نَبِيّ الله سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ لا قِبَل لَهُمْ بِهِ، وَهَذَا الكِتَاب فِي غَايَة البَلاغَة وَالوَجَازَة وَالفَصَاحَة، فَإِنَّهُ حَصَل المَعْنَى بِأَيْسَرِ عِبَارَة وَأَحْسَنهَا.

قَال العُلَمَاء: ولمْ يَكْتُب أَحَد ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَبْل سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَدْ رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم فِي ذَلكَ حَدِيثًا فِي تَفْسِيره، حَيْثُ قَال: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هَارُون بْن الفَضْل أَبُو يَعْلى الحناط، حَدَّثَنَا أَبُو يُوسُف، عَنْ سَلمَة بْن صَالح، عَنْ عَبْد الكَرِيم أَبِي أُمَيَّة عَنْ ابن بُرَيْدَة، عَنْ أَبِيهِ قَال: كُنْت أَمْشِي مَعَ رَسُول الله ﷺ فَقَال: «إِنِّي أَعْلم آيَة لمْ تَنْزِل عَلى نَبِيّ قَبْلي بَعْد سُليمان بْن دَاوُد». قَال: قُلت: يَا نَبِيّ الله، أَيّ آيَة؟ قَال: «سَأُعَلِّمُكهَا قَبْل أَنْ أَخْرُج مِنْ المَسْجِد». قَال: فَانْتَهَى إِلى البَاب، فَأَخْرَجَ إِحْدَى قَدَمَيْهِ، فَقُلت: نَسِيَ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ فقَال: «﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾»[1]. هَذَا حَدِيث غَرِيب وَإِسْنَاده ضَعِيف.

وَقَال مَيْمُون بْن مِهْرَان: كَانَ رَسُول الله ﷺ يَكْتُب: بِاسْمِك اللَّهُمَّ، حَتَّى نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة، فَكَتَبَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[2]. وقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾، يَقُول قَتَادَة: لا تَجَبَّرُوا عَلَيَّ، وَأْتُونِي مُسْلمِينَ. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن ابْن زَيْد بْن أَسْلم: لا تَمْتَنِعُوا وَلا تَتَكَبَّرُوا عَلَيَّ ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، قَال ابْن عَبَّاس: مُوَحِّدِينَ، وَقَال غَيْره: مُخْلصِينَ. وَقَال سُفْيَان بْن عُيَيْنَة: طَائِعِينَ.

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

لَـمَّا قَرَأَتْ عَليْهِمْ كِتَاب سُليمان اسْتَشَارَتْهُمْ فِي أَمْرهَا، وَمَا قَدْ نَزَل بِهَا؛ وَلهَذَا قَالتْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾، أَيْ: حَتَّى تَحْضُرُونِ وَتُشِيرُونِ. ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أَيْ: مَنَّوْا إِلَيْهَا بِعَدَدِهِمْ وَعُدَدهمْ وَقُوَّتهمْ، ثُمَّ فَوَّضُوا إِلَيْهَا بَعْد ذَلكَ الأَمْر فَقَالُوا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أَيْ: نَحْنُ لَيْسَ لنَا عَاقَة، وَلا بِنَا بَأْس إِنْ شِئْت أَنْ تَقْصِدِيهِ وَتُحَارِبِيهِ، فَمَا لنَا عَاقَة عَنْهُ، وَبَعْد هَذَا فَالأَمْر إِلَيْك، مُرِي فِينَا: رَأْيك نَمْتَثِلهُ وَنُطِعهُ.

---

(١) ضعيف: تقدم.

(٢) مرسل: ولم يذكر إسناده.

قَال الحَسَن البَصْرِيّ رَحِمَهُ اللهُ: فَوَّضُوا أَمْرهمْ إِلى عِلجَة يضْطَرِب ثَدْيَاهَا، فَلَمَّا قَالُوا لهَا مَا قَالُوا، كَانَتْ هِيَ أَحْزَم رَأْيًا مِنْهُمْ، وَأَعْلم بِأَمْرِ سُلَيْمَان، وَأَنَّهُ لا قِبَل لهَا بِجُنُودِهِ وَجُيُوشه، وَمَا سُخِّرَ لهُ مِنْ الجِنّ وَالإِنْس وَالطَّيْر، وَقَدْ شَاهَدَتْ مِنْ قَضِيَّة الكِتَاب مَعَ الهُدْهُد أَمْرًا عَجِيبًا بَدِيعًا، فَقَالتْ لهُمْ: إِنِّي أَخْشَى أَنْ نُحَارِبهُ وَنَمْتَنِع عَليْهِ، فيَقْصِدنَا بِجُنُودِهِ، وَيُهْلكنَا بِمَنْ مَعَهُ، وَيَخْلُص إِليَّ وَإِليكُمْ الهَلاك وَالدَّمَار دُونَ غَيْرنَا؛ ولهذا قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾. قَال ابْن عَبَّاس: أَيْ: إِذَا دَخَلُوا بَلدًا عَنْوَة أَفْسَدُوهُ، أَيْ: خَرَّبُوهُ، ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾، أَيْ: وَقَصَدُوا مَنْ فِيهَا مِنْ الوُلاة وَالجُنُود، فَأَهَانُوهُمْ غَايَة الهَوَان، إِمَّا بِالقَتْل أَوْ بِالأَسْر. قَال ابْن عَبَّاس: قَالتْ بِلقِيس: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾، قَال الرَّبّ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. ثُمَّ عَدَلتْ إِلى المُهَادَنَة وَالمُصَالحَة وَالمُسَالمَة وَالمُخَادَعَة وَالمُصَانَعَة، فقالت: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أَيْ: سَأَبْعَثُ إِليْهِ بِهَدِيَّةٍ تَليق به، وَأَنْظُر مَاذَا يَكُون جَوَابه بَعْد ذَلكَ، فَلعَلَّهُ يَقْبَل ذَلك وَيَكُفّ عَنَّا، أَوْ يَضْرِب عَليْنَا خَرَاجًا نَحْمِلهُ إِليْهِ فِي كُلّ عَام، وَنَلتَزِم لهُ بِذَلكَ وَيَتْرُك قِتَالنَا وَمُحَارَبَتنَا. قَال قَتَادَة: رحمها الله ورضي عنها مَا كَانَ أَعْقَلهَا فِي إِسْلامهَا وَفِي شِرْكهَا! عَلمَتْ أَنَّ الهَدِيَّة تَقَع مَوْقِعًا مِنْ النَّاس. وَقَال ابْن عَبَّاس وَغَيْر وَاحِد: قَالتْ لقَوْمِهَا: إِنْ قَبِل الهَدِيَّة فَهُوَ مَلك فَقَاتِلُوهُ، وَإِنْ لمْ يَقْبَلهَا فَهُوَ نَبِيّ فَاتَّبِعُوهُ.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾.

ذَكَرَ غَيْر وَاحِد مِنْ المُفَسِّرِينَ، مِنْ السَّلف وَغَيْرهمْ: أَنَّهَا بَعَثَتْ إِليْهِ بِهَدِيَّةٍ عَظِيمَة مِنْ ذَهَب وَجَوَاهِر وَلآلئ وَغَيْر ذَلكَ. وَقَال بَعْضهمْ: أَرْسَلتْ إليه بِلبِنَةٍ مِنْ ذَهَب، وَالصَّحِيح أَنَّهَا أَرْسَلتْ إِليْهِ بِآنِيَةٍ مِنْ ذَهَب. قَال مُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَغَيْرهمَا: وأَرْسَلتْ جِوَارِي فِي زِيّ الغِلمَان، وَغِلمَان فِي زِيّ الجَوَارِي، وقَالتْ: إِنْ عَرَفَ هَؤُلاءِ مِنْ هَؤُلاءِ فَهُوَ نَبِيّ. قَالُوا: فَأَمَرَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يَتَوَضَّئُوا، فَجَعَلتْ الجَارِيَة تُفْرِغ عَلى يَدهَا مِنْ المَاء، وَجَعَل الغُلام يَغْتَرِف، فَمَيَّزَهُمْ بِذَلكَ. وَقِيل: بَل جَعَلتْ الجَارِيَة تَغْسِل بَاطِن جلدها قَبْل ظَاهِره، وَالغُلام بِالعَكْسِ. وَقِيل: بَل جَعَلتْ الجَوَارِي يغتسلن مِنْ أَكُفِّهِنَّ إِلى مَرَافِقهنَّ، وَالغِلمَان مِنْ مَرَافِقهمْ إِلى أكفهم. وَلا مُنَافَاة بَيْن ذَلكَ كُلّه، وَالله أَعْلم. وَذَكَرَ بَعْضهمْ: أَنَّهَا أَرْسَلتْ إِليْهِ بِقَدَحٍ ليَمْلأهُ مَاء رِوَاء، لا مِنْ السَّمَاء وَلا مِنْ الأَرْض، فَأَجْرَى الخَيْل حَتَّى عَرِقَتْ، ثُمَّ مَلأَهُ مِنْ ذَلكَ. وَبِخَرَزَةٍ وَسِلك فيَجْعَلهُ فِيهَا فَفَعَل ذَلكَ. وَالله أَعْلم أَكَانَ ذَلكَ أَمْ لا، وَأَكْثَره مَأْخُوذ مِنْ الإِسْرَائِيليَّات، وَالظَّاهِر أَنَّ سُليْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ لمْ يَنْظُر إِلى مَا جَاءُوا بِهِ بِالكُليَّةِ، وَلا اعْتَنَى بِهِ، بَل أَعْرَضَ عَنْهُ، وَقَال مُنْكِرًا عَليْهِمْ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أَيْ: أَتُصَانِعُونَنِي بِمَالٍ لأَتْرُككُمْ عَلى شِرْككُمْ وَمُلككُمْ؟! ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أَيْ: الَّذِي أَعْطَانِي الله مِنْ المُلك وَالمَال وَالجُنُود -خَيْر مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ، ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، أَيْ: أَنْتُمْ الَّذِينَ تَنْقَادُونَ للهَدَايَا وَالتُّحَف، وَأَمَّا أَنَا فَلا أَقْبَل مِنْكُمْ إِلَّا الإِسْلام أَوْ السَّيْف.

قَال الأَعْمَش، عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَمَرَ سُليْمَان الشَّيَاطِين فَمَوَّهُوا لهُ أَلف قَصْر مِنْ ذَهَب وَفِضَّة. فَلمَّا رَأَتْ رُسُلهَا ذَلكَ قَالُوا: مَا يَصْنَع هَذَا بِهَدِيَّتِنَا، وَفِي هَذَا دلالة على جَوَاز تَهَيُّؤ المُلُوك وَإِظْهَارهمْ الزِّينَة للرُّسُل وَالقُصَّاد.

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ: بِهَدِيَّتِهِمْ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أَيْ: لا طَاقَة لهُمْ بِقِتَالهِمْ، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾، أَيْ مِنْ بلدهم ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، أَيْ: مُهَانُونَ مَدْحُورُونَ. فَلمَّا رَجَعَتْ إِليْهَا رُسُلهَا بِهَدِيَّتِهَا، وَبِمَا قَال سُليْمَان،

سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ هِيَ وَقَوْمهَا، وَأَقْبَلتْ تَسِير إِلَيْهِ فِي جُنُودهَا خَاضِعَة ذَلِيلة، مُعَظِّمَة لسُلَيْمَان، نَاوِيَة مُتَابَعته فِي الإِسْلام، وَلَـمَّا تَحَقَّق سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ قُدُومهمْ عليهِ، وَوُفُودهمْ إِلَيْهِ، فَرِح بِذَلِكَ وَسَرَّهُ.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ يَزِيد بْن رُومَان، قَال: فَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَيْهَا الرُّسُل بِمَا قَال سُلَيْمَان قَالتْ: قَدْ، وَاللهِ، عَرَفْت مَا هَذَا بِمَلِكٍ، وَمَا لنَا بِهِ مِنْ طَاقَة، وَمَا نَصْنَع بِمُكَابَرَتِهِ شَيْئًا. وَبَعَثَتْ إِلَيْهِ: إِنِّي قَادِمَة عَلَيْك بِمُلُوكِ قَوْمِي، لأَنْظُرَ مَا أَمْرك وَمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مِنْ دِينِك. ثُمَّ أَمَرَتْ بِسَرِيرِ مُلكهَا الَّذِي كَانَتْ تَجْلس عَلَيْهِ -وَكَانَ مِنْ ذَهَب مُفَصَّص بِاليَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَد وَاللُّؤْلُؤ- فَجُعِل فِي سَبْعَة أَبْيَات، بَعْضهَا فِي بَعْض، ثُمَّ أَقْفَلتْ عَلَيْهِ الأَبْوَاب، ثُمَّ قَالتْ لمَنْ خَلَّفَتْ عَلى سُلطَانهَا، احْتَفِظْ بِمَا قِبَلك وَسَرِير مُلكِي، فَلا يُخْلَص إِلَيْهِ أَحَد مِنْ عِبَاد اللهِ، وَلا يَرَيَنَّهُ أَحَد حَتَّى آتِيك. ثُمَّ شَخَصَتْ إِلى سُلَيْمَان فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلفَ قَيْلٍ مِنْ مُلُوك اليَمَن، تَحْت يَدَيْ كُلِّ قَيْل مِنهم أُلُوف كَثِيرَة. فَجَعَل سُلَيْمَان يَبْعَث الجِنّ يَأْتُونَهُ بِمَسِيرِهَا وَمُنْتَهَاهَا كُلّ يَوْم وَلَيْلة، حَتَّى إِذَا دَنَتْ جَمَعَ مَنْ عِنْده مِنْ الجِنّ وَالإِنْس، مِمَّنْ تَحْت يديه، فَقَال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

وَقَال قَتَادَة: لـمَّا بَلغَ سُلَيْمَان أَنَّهَا جَائِيَة، وَكَانَ قَدْ ذُكِر لهُ عَرْشهَا فَأَعْجَبَهُ، وَكَانَ مِنْ ذَهَب، وَقَوَائِمه لُؤْلُؤ وَجَوْهَر، وَكَانَ مُسَتَّرًا بِالدِّيبَاج وَالحَرِير، وكَانَتْ عَليْهِ تِسْعَة مَغَالِيق، فَكَرِهَ أَنْ يَأْخُذهُ بَعْد إِسْلامهمْ. وَقَدْ عَلمَ نَبِيّ الله أَنَّهُمْ مَتَى أَسْلمُوا تَحْرُم أَمْوَالهمْ مع دمائهم فَقَال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

وَهَكَذَا قَال عَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَالسُّدِّيّ، وَزُهَيْر بْن مُحَمَّد: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، فَتَحْرُم عَليَّ أَمْوَالهمْ بِإِسْلامِهِمْ.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، قَال مُجَاهِد: أَيْ مَارِد مِنْ الجِنّ. قَال شُعَيْب الجُبَّائِيّ: وَكَانَ اسْمه كوزن. وَكَذَا قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ يَزِيد بْن رُومَان، وَكَذَا قَال أَيْضًا وَهْب بْن مُنَبِّه. قَال أَبُو صَالح: وَكَانَ كَأَنَّهُ جَبَل.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، قَال ابْن عَبَّاس: يَعْنِي قَبْل أَنْ تَقُوم مِنْ مَجْلسك. وَقَال مُجَاهِد: مَقْعَدك. وَقَال السُّدِّيّ وَغَيْره: كَانَ يَجْلس للنَّاسِ للقَضَاءِ وَالحُكُومَات وَللطَّعَامِ مِنْ أَوَّل النَّهَار إِلى أَنْ تَزُول الشَّمْس.

﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ قَال ابْن عَبَّاس: أَيْ قَوِيّ عَلى حَمْله، أَمِين عَلى مَا فِيهِ مِنْ الجَوْهَر. فَقَال سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ: أُرِيد أَعْجَل مِنْ ذَلكَ. وَمِنْ هَهُنَا يَظْهَر أَنَّ النبي سُلَيْمَان أَرَادَ بِإِحْضَارِ هَذَا السَّرِير إِظْهَار عَظَمَة مَا وَهَبَه الله تعالى لهُ مِنْ المُلك، وسَخَّرَ لهُ مِنْ الجُنُود، الَّذِي لمْ يُعْطَهُ أَحَد قَبْله، وَلا يَكُون لأَحَدٍ مِنْ بَعْده، وَليَتَّخِذَ ذَلكَ حُجَّة عَلى نُبُوَّته عِنْد بِلقِيس وَقَوْمهَا؛ لأَنَّ هَذَا خَارِق عَظِيم أَنْ يَأْتِي بِعَرْشِهَا كَمَا هُوَ مِنْ بِلادهَا قَبْل أَنْ يَقْدَمُوا عَليْهِ. هَذَا وَقَدْ حَجَبَتْهُ بِالأَغْلاقِ وَالأَقْفَال وَالحَفَظَة. فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، قَال ابْن عَبَّاس: وَهُوَ آصَف كَاتِب سُلَيْمَان. وَكَذَا رَوَى مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ يَزِيد بْن رُومَان: أَنَّهُ آصَف بْن بَرْخِيَاء، وَكَانَ صِدِّيقًا يَعْلم الاسْم الأَعْظَم.

وَقَال قَتَادَة: كَانَ مُؤْمِنًا مِنْ الإِنْس، وَاسْمه آصَف. وَكَذَا قَال أَبُو صَالح، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة: إِنَّهُ كَانَ مِنْ الإِنْس. زَادَ قَتَادَة: مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل. وَقَال مُجَاهِد: كَانَ اسْمه أَسْطُوم. قَال قَتَادَة فِي رِوَايَة عَنْهُ: كَانَ اسْمه

بليخا. وَقَال زُهَيْر بْن مُحَمَّد: هُوَ رَجُل مِنْ الإِنْس يُقَال لهُ: ذُو النُّور. وَزَعَمَ عَبْد الله بْن لِهِيعَة: أَنَّهُ الخَضِر، وَهُوَ غَرِيب جِدًّا.

وَقَوْله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أَيْ: ارْفَعْ بَصَرك وَانْظُرْ مَدّ بَصَرك مِمَّا تَقْدِر عَلَيْهِ، فَإِنَّك لا يَكِلّ بَصَرك إِلَّا وَهُوَ حَاضِر عِنْدك. وَقَال وَهْب بْن مُنَبِّه: امْدُدْ بَصَرك فَلا يَبْلُغ مَدَاهُ حَتَّى آتِيك بِهِ. فَذَكَرُوا أَنَّهُ أَمَرَهُ أَنْ يَنْظُر نَحْو اليَمَن الَّتِي فِيهَا هَذَا العَرْش المَطْلُوب، ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ، وَدَعَا الله ﷻ. قَال مُجَاهِد: قَال: يَا ذَا الجَلال وَالإِكْرَام. وَقَال الزُّهْرِيّ: قَال: يَا إِلهنَا وَإِله كُلّ شَيْء إِلهًا وَاحِدًا، لا إِله إِلَّا أَنْتَ، ائْتِنِي بِعَرْشِهَا. قَال: فتمثل له بَيْن يَدَيْهِ. قَال مُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق، وَزُهَيْر بْن مُحَمَّد، وَغَيْرهمْ: لَـمَّا دَعَا الله ﷻ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْتِيه بِعَرْشِ بِلقِيس -وَكَانَ فِي اليَمَن وَسُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبَيْتِ المَقْدِس- غَابَ السَّرِير، وَغَاصَ فِي الأَرْض، ثُمَّ نَبَعَ مِنْ بَيْن يَدَيْ سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم، لمْ يَشْعُر سُلَيْمَان إِلَّا وَعَرْشهَا يُحْمَل بَيْن يَدَيْهِ. قَال: وَكَانَ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ عُبَّاد البَحْر، فَلَمَّا عَايَنَ سُلَيْمَان وملَؤُه ذَلِكَ، وَرَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْده، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أَيْ: هَذَا مِنْ نِعَم الله عَلَيَّ، ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ﴾، أَيْ: ليَخْتَبِرَنِي ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾، أَيْ: هُوَ غَنِيّ عَنْ العِبَاد وَعِبَادَتهمْ، ﴿كَرِيمٌ﴾ أَيْ: كَرِيم فِي نَفْسه، وإِنْ لمْ يَعْبُدهُ أَحَد، فَإِنَّ عَظَمَته ليْسَتْ مُفْتَقِرَة إِلى أَحَد، وَهَذَا كَمَا قَال مُوسَى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾. وَفِي «صَحِيح مُسْلم»: «يَقُول الله تَعَالى: يَا عِبَادِي، لوْ أَنَّ أَوَّلكُمْ وَآخِركُمْ، وَإِنْسكُمْ وَجِنّكُمْ، كَانُوا عَلى أَتْقَى قَلب رَجُل مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لوْ أَنَّ أَوَّلكُمْ وَآخِركُمْ، وَإِنْسكُمْ وَجِنّكُمْ، كَانُوا عَلى أَفْجَر قَلب رَجُل مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالكُمْ أُحْصِيهَا لكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَليَحْمَدْ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْر ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسه».[1]

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

لَـمَّا جِيءَ سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ بِعَرْشِ بِلقِيس قَبْل قُدُومهَا، أَمَرَ بِهِ أَنْ يُغَيِّر بَعْض صِفَاته، ليَخْتَبِرَ مَعْرِفَتهَا وَثَبَاتهَا عِنْد رُؤْيَته، هَل تُقْدِم عَلى أَنَّهُ عَرْشهَا أَوْ أَنَّهُ ليْسَ به، فَقَال: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾. قَال ابْن عَبَّاس: نَزَعَ عَنهُ فُصُوصه وَمَرَافِقه. وَقَال مُجَاهِد: أَمَرَ بِهِ فَغُيِّرَ، مَا كَانَ فِيهِ أَحْمَر جُعِل أَصْفَر، وَمَا كَانَ أَصْفَر جُعِل أَحْمَر، وَمَا كَانَ أَخْضَر جُعِل أَحْمَر، غُيِّرَ كُلّ شَيْء عَنْ حَاله. وَقَال عِكْرِمَة: زَادُوا فِيهِ وَنَقَصُوا. وَقَال قَتَادَة: جَعَل أَسْفَله أَعْلاهُ وَمُقَدِّمه مُؤَخِّره، وَزَادُوا فِيهِ وَنَقَصُوا.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ﴾ أَيْ: عُرِضَ عَليْهَا عَرْشهَا، وَقَدْ غُيِّرَ وَنُكِّرَ، وَزِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ مِنْهُ، فَكَانَ فِيهَا ثَبَات وَعَقْل، وَلهَا لُبّ وَدَهَاء وَحَزْم، فَلمْ تُقْدِم عَلى أَنَّهُ هُوَ لبُعْدِ مَسَافَته عَنْهَا، وَلا أَنَّهُ غَيْره، لمَا رَأَتْ مِنْ آثَاره وَصِفَاته، وَإِنْ غُيِّرَ وَبُدِّل وَنُكِّرَ، فَقَالتْ: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾ أَيْ: يُشْبِههُ وَيُقَارِبهُ. وَهَذَا غَايَة فِي الذَّكَاء وَالحَزْم.

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

وَقَوْله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قَال مُجاهد: سُليمان يَقُولهُ.

وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ هَذَا مِنْ تَمَام كَلام سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي قَوْل مُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر -رَحِمَهُمَا الله-، أَيْ: قَال سُليمان: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، وهي كانت قد صدها، أي: منعها من عبادة الله وحده ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾. وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد — حسنٌ، وقاله ابن جرير أيضًا. ثم قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون في قوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾، ضَمِير يَعُود إِلى سُليمان، أَوْ إِلى الله عَزَّ وَجَلَّ تَقْدِيره: وَمَنَعَهَا: ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. أَيْ: صَدَّهَا عَنْ عِبَادَة غَيْر الله ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

قُلت: وَيُؤَيِّد قَوْل مُجَاهِد: أَنَّهَا إِنَّمَا أَظْهَرَتْ الإِسْلام بَعْد دُخُولهَا إِلى الصَّرْح، كَمَا سَيَأْتِي.

وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾، وَذَلِكَ أَنَّ سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمَرَ الشَّيَاطِين فَبَنَوْا لهَا قَصْرًا عَظِيمًا مِنْ قَوَارِير، أَيْ: مِنْ زُجَاج، وَأَجْرَى تَحْته المَاء، فَالَّذِي لا يَعْرِف أَمْره يَحْسِب أَنَّهُ مَاء، وَلكِنَّ الزُّجَاج يَحُول بَيْن المَاشِي وَبَيْنه، وَاخْتَلَفُوا فِي السَّبَب الَّذِي دَعَا سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلى اتِّخَاذه، فَقِيل: إِنَّهُ لما عَزَمَ عَلى تَزَوُّجهَا وَاصْطِفَائِهَا لنَفْسِهِ، ذُكِرَ لهُ جَمَالهَا وَحُسْنهَا، وَلكِنْ فِي سَاقَيْهَا هُلب عَظِيم، وَمُؤَخّر أَقْدَامهَا كَمُؤَخّر الدَّابَّة، فَسَاءَهُ ذَلكَ، فَاتَّخَذَ هَذَا ليَعْلمَ صِحَّته أَمْ لا؛ هَذَا قَوْل مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ وَغَيْره. فَلمَّا دَخَلتْ وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا، رَأَى أَحْسَن النَّاس سَاقًا، وَأَحْسَنهمْ قَدَمًا، لكِنْ رَأَى عَلى رِجْليْهَا شَعَرًا، لأَنَّهَا مَلكَة ليْسَ لهَا بعل، فَأَحَبَّ أَنْ يُذْهِب ذَلكَ عَنْهَا، فَقِيل لهَا: المُوسَى؟ فَقَالتْ: لا أَسْتَطِيع ذَلكَ. وَكَرِهَ سُليمان ذَلكَ، وَقَال للجِنّ: اصْنَعُوا شَيْئًا غَيْر المُوسَى يَذْهَب بِهِ هَذَا الشَّعَر، فَصَنَعُوا لهُ النَّوْرَة. وَكَانَ أَوَّل مَنْ اتُّخِذَتْ لهُ النَّوْرَة. قَالهُ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَمُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، وَالسُّدِّيّ، وَابْن جُرَيْج، وَغَيْرهمْ.

وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ يَزِيد بْن رُومَان: ثُمَّ قَال لهَا: ادْخُلِي الصَّرْح، ليُرِيَهَا مُلكًا هُوَ أَعَزّ مِنْ مُلكهَا، وَسُلطَانًا هُوَ أَعْظَم مِنْ سُلطَانهَا. فَلمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّة وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا، لا تَشُكّ إِلا أَنَّهُ مَاء تَخُوضهُ، فَقِيل لهَا: إِنَّهُ صَرْح مُمَرَّد مِنْ قَوَارِير، فَلمَّا وَقَفَتْ عَلى سُليمان دَعَاهَا إِلى عِبَادَة الله، وَعَاتَبَهَا فِي عِبَادَتهَا الشَّمْس مِنْ دُون الله. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: لمَّا رَأَتْ العِلجَة الصَّرْح عَرَفَتْ -وَالله- أَنْ قَدْ رَأَتْ مُلكًا أَعْظَم مِنْ مُلكهَا. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق عَنْ بَعْض أَهْل العِلم، عَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه قَال: أَمَرَ سُليمان بِالصَّرْحِ، وَقَدْ عَمِلتْهُ لهُ الشَّيَاطِين مِنْ زُجَاج، كَأَنَّهُ المَاء بَيَاضًا. ثُمَّ أَرْسَل المَاء تَحْته، ثُمَّ وُضِعَ لهُ فِيهِ سَرِيره، فَجَلسَ عَليْهِ، وَعَكَفَتْ عَليْهِ الطَّيْر وَالجِنّ وَالإِنْس، ثُمَّ قَال: ادْخُلِي الصَّرْح، ليُرِيَهَا مُلكًا هُوَ أَعَزّ مِنْ مُلكهَا، وَسُلطَانًا هُوَ أَعْظَم مِنْ سُلطَانهَا، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾، لا تَشُكّ أَنَّهُ مَاء تَخُوضهُ، قِيل لهَا: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، فَلمَّا وَقَفَتْ عَلى سُليمان، دَعَاهَا إِلى عِبَادَة الله عَزَّ وَجَلَّ، وَعَاتَبَهَا فِي عِبَادَتهَا الشَّمْس مِنْ دُون الله، فَقَالتْ بِقَوْل الزَّنَادِقَة، فَوَقَعَ سُليمان سَاجِدًا إِعْظَامًا لمَا قَالتْ، وَسَجَدَ مَعَهُ النَّاس، فَسُقِطَ فِي يَدَيْهَا حِين رَأَتْ سُليمان صَنَعَ مَا صَنَعَ، فَلمَّا رَفَعَ سُليمان رَأْسه قَال: وَيْحَك! مَاذَا قُلت؟ قَال: وأُنسِيتْ مَا قالت، فَقَالتْ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فَأَسْلمَتْ وَحَسُنَ إِسْلامهَا. وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة فِي هَذَا أَثَرًا غَرِيبًا عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: حَدَّثَنَا الحُسَيْن بْن عَليّ، عَنْ زَائِدَة، حَدَّثَنِي عَطَاء بْن السَّائِب، حَدَّثَنَا مُجَاهِد -وَنَحْنُ فِي الأَزْد- قَال: حَدَّثَنَا ابْن عَبَّاس، قَال: كَانَ سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يَجْلس عَلى سَرِيره، ثُمَّ تُوضَع كَرَاسِيّ حَوْله، فَيَجْلس عَليْهَا الإِنْس، ثُمَّ يَجْلس الجِنّ، ثُمَّ الشَّيَاطِين، ثُمَّ تَأْتِي الرِّيح فَتَرْفَعهُمْ، ثُمَّ تُظِلّهُمْ الطَّيْر، ثُمَّ يَغْدُونَ قَدْر مَا يَشْتَهِي

الرَّاكِب، أَنْ يَنْزِل شَهْرًا وَرَوَاحهَا شَهْرًا، قَال: فَبَيْنَمَا هُوَ ذَات يَوْم فِي مَسِير لهُ، إِذْ تَفَقَّدَ الطَّيْر فَفَقَدَ الهُدْهُد فقَال: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، قَال: فكَانَ عَذَابه إِيَّاهُ أَنْ يَنْتِفهُ، ثُمَّ يُلقِيهِ فِي الأَرْض فَلا يَمْتَنِع مِنْ نَمْلة، وَلا مِنْ شَيْء مِنْ هَوَامّ الأَرْض.

قَال عَطَاء: وَذَكَرَ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْنِ عَبَّاس مِثْل حَدِيث مُجَاهِد. ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ فَقَرَأَ حَتَّى انْتَهَى إِلى قَوْله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ وَكَتَبَ: بِسْم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، إِلى بِلقِيس، ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، فلَمَّا أَلْقَى الهُدْهُد الكِتَاب إِلَيْهَا، أُلقِيَ فِي رَوْعهَا: إِنَّهُ كِتَاب كَرِيم، وَإِنَّهُ مِنْ سُليْمَان، وَأَنْ لا تَعْلُو عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالُوا: نَحْنُ أُولُو قُوَّة. قَالَتْ: إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَة أَفْسَدُوهَا، وَإِنِّي مُرْسِلة إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّة. فَلَمَّا جَاءَتْ الهَدِيَّة سُليْمَان قَال: أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ. فَلَمَّا نَظَرَ إِلى الغُبَار -أَخْبَرَنَا ابْن عَبَّاس قَال: وَكَانَ بَيْن سُليْمَان وَبَيْن مَلكَة سَبَأ وَمَنْ مَعَهَا حِين نَظَرَ إِلى الغُبَار كَمَا بَيْننَا وَبَيْن الحِيرَة، قَال عَطَاء: وَمُجَاهِد حِينَئِذٍ فِي الأَزْد.

قَال سُليْمَان: أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا؟ قَال: وَبَيْن عَرْشهَا وَبَيْن سُليْمَان حِين نَظَرَ إِلى الغُبَار مَسِيرَة شَهْرَيْنِ، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، قَال: وَكَانَ لسُليْمَانَ مَجْلس يَجْلس فِيهِ للنَّاس، كَمَا يَجْلس الأُمَرَاء ثُمَّ يَقُوم، قَال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، قَال سُليْمَان: أُرِيد أَعْجَل مِنْ ذَلكَ. فَقَال الَّذِي عِنْده عِلم مِنْ الكِتَاب: أَنَا أَنْظُر فِي كِتَاب رَبِّي، ثُمَّ آتِيك بِهِ قَبْل أَنْ يَرْتَدّ إِلَيْك طَرْفك. قَال: فَنَظَرَ إِلَيْهِ سُليْمَان، فَلَمَّا قَطَعَ كَلامه رَدَّ سُليْمَان بَصَره، فَنَبَعَ عَرْشهَا مِنْ تَحْت قَدَم سُليْمَان، مِنْ تَحْت كُرْسِيّ كَانَ لسُليْمَان، يَضَع عَلَيْهِ رِجْله، ثُمَّ يَصْعَد إِلى السَّرِير. قَال: فَلَمَّا رَأَى سُليْمَان عَرْشهَا قَال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾، ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾، فَلَمَّا جَاءَتْ قِيل لها: أَهَكَذَا عَرْشك؟ قَالَتْ: كَأَنَّهُ هُوَ. قَال: فَسَأَلَتْهُ حِين جَاءَتْهُ عَنْ أَمْرَيْنِ: قَالَتْ لسُليْمَانَ: أُرِيد مَاء لَيْسَ مِنْ أَرْض وَلا سَمَاء -وَكَانَ سُليْمَان إِذَا سُئِل عَنْ شَيْء، سَأَل الإِنْس ثُمَّ الجِنّ ثُمَّ الشَّيَاطِين- فَقَالتْ الشَّيَاطِين: هَذَا هَيِّن، أَجْرِ الخَيْل ثُمَّ خُذْ عَرَقهَا، ثُمَّ امْلأْ مِنْهُ الآنِيَة. قَال: فَأَمَرَ بِالخَيْل فَأُجْرِيَتْ، ثُمَّ أَخَذَ عَرَقهَا فَمَلأَ مِنْهُ الآنِيَة. قَال: وَسَأَلتْ عَنْ لوْن الله ﷻ؟ قَال: فَوَثَبَ سُليْمَان عَنْ سَرِيره، فَخَرَّ سَاجِدًا، فَقَال: يَا رَبّ، لقَدْ سَأَلتْنِي عَنْ أَمْر إِنَّهُ يتكايد فِي قَلبِي أَنْ أَذْكُرهُ لك. قَال: ارْجِعْ فَقَدْ كفيتكهم. قَال: فَرَجَعَ إِلى سَرِيره فقَال: مَا سَأَلتِ عَنْهُ؟ قَالتْ: مَا سَأَلتُك إِلَّا عَنْ المَاء. فَقَال لجُنُودِهِ: مَا سَأَلتْ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: مَا سَأَلتَك إِلَّا عَنْ المَاء. قَال: وَنَسُوهُ كُلّهمْ. قَال: وَقَالتْ الشَّيَاطِين لسُليْمَان: تُرِيد أَنْ تَتَّخِذهَا لنَفْسِك؟ فَإِنْ اتَّخَذَهَا لنَفْسِهِ ثُمَّ وُلدَ بَيْنهَا وَلد، لمْ نَنْفَكّ مِنْ عُبُودِيَّته. قَال: فَجَعَلُوا صَرْحًا مُمَرَّدًا مِنْ قَوَارِير، فِيهِ السَّمَك. قَال: فَقِيل لهَا: ادْخُلِي الصَّرْح. فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّة، وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا، فَإِذَا هِيَ شَعْرَاء. فَقَال سُليْمَان: هَذَا قَبِيح، ما يُذْهِبهُ؟ فقَالُوا: تُذْهِبهُ المواسِي. فَقَال: أَثَر المواسِي قَبِيح! قَال: فَجَعَلتْ الشَّيَاطِين النَّوْرَة. قَال: فَهُوَ أَوَّل مَنْ جُعِلتْ لهُ النَّوْرَة. ثُمَّ قَال أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة: مَا أَحْسَنه مِنْ حَدِيث!

قُلت: بَل هُوَ مُنْكَر غَرِيب جِدًّا، وَلعَلَّهُ مِنْ أَوْهَام عَطَاء بْن السَّائِب عَلى ابْن عَبَّاس، وَالله أَعْلم.

وَالأَقْرَب فِي مِثْل هَذِهِ السِّيَاقَات أَنَّهَا مُتَلقَّاة عَنْ أَهْل الكِتَاب، مِمَّا يوجد فِي صُحُفهمْ، كَرِوَايَاتِ كَعْب وَوَهْب -سَامَحَهُمَا الله تَعَالى- فِيمَا نَقَلا إِلى هَذِهِ الأُمَّة مِنْ أَخْبَار بَنِي إِسْرَائِيل، مِنْ الأَوَابِد وَالغَرَائِب وَالعَجَائِب، مِمَّا كَانَ وَمَا لمْ يَكُنْ وَمِمَّا حُرِّفَ وَبُدِّل وَنُسِخَ. وَقَدْ أَغْنَانَا الله سُبْحَانه عَنْ ذَلكَ بِمَا هُوَ أَصَحّ مِنْهُ وَأَنْفَع وَأَوْضَح وَأَبْلَغ، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة.

أَصْل الصَّرْح فِي كَلام العَرَب: هُوَ القَصْر، وَكُلّ بِنَاء مُرْتَفِع، قَال الله سُبْحَانه وَتَعَالى إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْن -لعَنَهُ الله- أَنَّهُ قَال لوَزِيرِهِ هَامَان: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ الآيَة. وَالصَّرْح: قَصْر فِي اليَمَن عَالي البِنَاء: وَالمُمَرَّد أي: المُبْنَى بِنَاء مُحْكَمًا أَمْلس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ أَيْ: زُجَاج. وَتَمْرِيد البِنَاء: تَمْليسه. وَمَارِد: حِصْن بِدَوْمَةِ الجَنْدَل. وَالغَرَض أَنَّ سُليمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ اتَّخَذَ قَصْرًا عَظِيمًا مُنِيفًا مِنْ زُجَاج لِهَذِهِ المَلِكَة، لِيُرِيهَا عَظَمَة سُلطَانه وَتَمَكُّنه، فلما رَأَتْ مَا آتَاهُ الله -تعالى- وَجَلالة مَا هُوَ فِيهِ، وَتَبَصَّرَتْ فِي أَمْره -انْقَادَتْ لأَمْرِ الله، وَعَرَفَتْ أَنَّهُ نَبِيّ كَرِيم، وَمَلك عَظِيم، وَأَسْلمَتْ لله عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالتْ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أَيْ: بِمَا سَلفَ مِنْ كُفْرهَا، وَشِرْكهَا، وَعِبَادَتهَا وَقَوْمهَا الشَّمْسَ مِنْ دُون الله، ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أَيْ: مُتَابِعَة لِدِينِ سُليمَان فِي عِبَادَته لله وَحْده، لا شَرِيك لهُ، الَّذِي خلقَ كُلّ شَيْء فقدَّرَهُ تَقْدِيرًا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ ثَمُود وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرهَا مَعَ نَبِيّهَا صَالح عَلَيْهِ السَّلَامُ حِين بَعَثَهُ الله إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ إِلى عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، قَال مُجَاهِد: مُؤْمِن وَكَافِر، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾، أَيْ: لِمَ تَدْعُونَ بِحُضُورِ العَذَاب، وَلا تَطْلُبُونَ مِنْ الله رَحْمَته؟! ولهذا قال: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، أَيْ: مَا رَأَيْنَا عَلَى وَجْهك وَوُجُوه مَنْ اتَّبَعَك خيْرًا. وَذَلكَ أَنَّهُمْ -لِشَقَائِهِمْ- كَانَ لا يُصِيب أَحَدًا مِنْهُمْ سُوء؛ إِلَّا قَال: هَذَا مِنْ قِبَل صَالح وَأَصْحَابه.

قَال مُجَاهِد: تَشَاءَمُوا بِهِمْ. وَهَذَا كَمَا قَال الله تَعَالى إِخْبَارًا عَنْ قَوْم فِرْعَوْن: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: بقدر الله وقَضَائِهِ. وَقَال مُخْبِرًا عَنْ أَهْل القَرْيَة إِذْ جَاءَهَا المُرْسَلُونَ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾. وَقَال هَؤُلاءِ: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: الله يُجَازِيكُمْ عَلى ذَلكَ ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، قَال قَتَادَة: تُبْتَلوْنَ بِالطَّاعَةِ وَالمَعْصِيَة. وَالظَّاهِر أَنَّ المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أَيْ: تُسْتَدْرَجُون فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ الضَّلال.

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ طُغَاة ثَمُود وَرُءُوسهمْ، الَّذِينَ كَانُوا دُعَاة قَوْمهمْ إِلى الضَّلالة وَالكُفْر وَتَكْذِيب صَالح، وَآل

بِهِمْ الحَال إِلى أَنَّهُمْ عَقَرُوا النَّاقَة، وَهَمُّوا بِقَتْل صَالح أَيْضًا، بِأَنْ يُبَيِّتُوهُ فِي أَهْله لَيْلًا فَيَقْتُلُوهُ غِيلة، ثُمَّ يَقُولُوا لأَوْلِيَائِهِ مِنْ أَقْرَبِيهِ: إِنَّهُمْ مَا عَلمُوا بِشَيْءٍ مِنْ أَمْره، وَإِنَّهُمْ لصَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ، مِنْ أَنَّهُمْ لمْ يُشَاهِدُوا ذَلك. فَقَال تَعَالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾، أَيْ: مَدِينَة ثَمُود ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾، أَيْ: تِسْعَة نَفَر، ﴿ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾، وَإِنَّمَا غَلبَ هَؤُلاءِ عَلى أَمْر ثَمُود؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا كُبَرَاءَ فيهم وَرُؤَسَاءَهُمْ. قَال العَوْفِيّ عَنْ ابْنِ عَبَّاس: هَؤُلاءِ هُمْ الَّذِينَ عَقَرُوا النَّاقَة، أَيْ: الَّذِي صَدَرَ ذَلكَ عَنْ رَأْيهِمْ وَمَشُورَتهِمْ، قَبَّحَهُمْ الله وَلعَنَهُمْ وَقَدْ فَعَل ذَلكَ.

وَقَال السُّدِّيّ، عَنْ أَبِي مَالك، عَنْ ابْن عَبَّاس: كَانَ أَسْمَاء هَؤُلاءِ التِّسْعَة: دعمى ودعيم، وهرما، وهريم، وداب، وصواب، ورياب، ومسطع، وَقِدَار بْن سَالف -عَاقِر النَّاقَة- أَيْ: الَّذِي بَاشَرَ ذَلكَ بِيَدِهِ. قَال الله تَعَالى: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾.

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَنْبَأَنَا يحيى بْن رَبِيعَة الصَّنْعَانِيّ، سَمِعْت عَطَاء -هُوَ ابْن أَبِي رَبَاح- يَقُول: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾، قَال: كَانُوا يَقْرِضُونَ الدَّرَاهِم. يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهَا، وَكَأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَعَامَلُونَ بِهَا عَدَدًا، كَمَا كَانَ العَرَب يَتَعَامَلُونَ. وَقَال الإِمَام مَالك: عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيِّب أَنَّهُ قَال: قَطْع الذَّهَب وَالوَرِق مِنْ الفَسَاد فِي الأَرْض. وَفِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْره: أَنَّ رَسُول الله ﷺ نَهَى عَنْ كَسْر سِكَّة المُسْلِمِينَ الجَائِزَة بَيْنهمْ إِلَّا مِنْ بَأْس.[1] وَالغَرَض أَنَّ هَؤُلاءِ الكَفَرَة الفَسَقَة، كَانَ مِنْ صِفَاتهمْ الإِفْسَاد فِي الأَرْض بِكُلِّ طَرِيق يَقْدِرُونَ عَليْهَا، فَمِنْهَا مَا ذَكَرَهُ هَؤُلاءِ الأَئِمَّة، وَغَيْر ذَلكَ.

وقوله: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾، أَيْ: تَحَالفُوا وَتَبَايَعُوا عَلى قَتْل نَبِيّ الله صَالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْ لَقِيَهُ لَيْلًا غِيلة، فَكَادَهُمْ الله، وَجَعَل الدَّائِرَة عَليْهِمْ. قَال مُجَاهِد: ﴿ تَقَاسَمُوا ﴾ تَحَالفُوا عَلى هَلاكه، فَلمْ يَصِلُوا إِليْهِ حَتَّى هَلكُوا وَقَوْمهمْ أَجْمَعِينَ. قَال قَتَادَة: تَوَاثَقُوا عَلى أَنْ يَأْخُذُوهُ لَيْلًا فَيَقْتُلُوهُ، وَذُكِرَ لنَا أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ مَعَانِيق إِلى صَالح ليَفْتِكُوا بِهِ، إِذْ بَعَثَ الله عَليْهِمْ صَخْرَة فَأَهْمَدَتْهُمْ. قَال العَوْفِيّ: عَنْ ابْن عَبَّاس: هُمْ الَّذِينَ عَقَرُوا النَّاقَة قَالُوا حِين عَقَرُوهَا: نُبَيِّت صَالحًا وقومه فَنَقْتُلهُم، ثُمَّ نَقُول لأَوْليَاءِ صَالح: مَا شَهِدْنَا مِنْ هَذَا شَيْئًا، وَمَا لنَا بِهِ عِلم؛ فَدَمَّرَهُمْ الله أَجْمَعِينَ. وقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: قَال هَؤُلاءِ التِّسْعَة بَعْدَمَا عَقَرُوا النَّاقَة: هَلُمَّ فَلنَقْتُل صَالحًا، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا عَجَّلنَاهُ قَبْلنَا، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا كُنَّا قَدْ أَلحَقْنَاهُ بِنَاقَتِهِ! فَأَتَوْهُ لَيْلًا ليُبَيِّتُوهُ فِي أَهْله، فَدَمَغَتهمْ المَلائِكَة بِالحِجَارَةِ، فَلمَّا أَبْطَئُوا عَلى أَصْحَابهمْ، أَتَوْا مَنْزِل صَالح، فَوَجَدُوهُمْ مُنْشَدِخِينَ قَدْ رُضِخُوا بِالحِجَارَةِ، فَقَالُوا لصَالح: أَنْتَ قَتَلتهمْ؟ ثُمَّ هَمُّوا بِهِ، فَقَامَتْ عَشِيرَته دُونه، وَلبِسُوا السِّلاح، وَقَالُوا لهُمْ: وَالله لا تَقْتُلُونهم أَبَدًا، وَقَدْ وَعَدَكُمْ أَنَّ العَذَاب نَازِل بِكُمْ فِي ثَلاث، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَلا تَزِيدُوا رَبّكُمْ عَليْكُمْ غَضَبًا، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَأَنْتُمْ مِنْ وَرَاء مَا تُرِيدُونَ، فَانْصَرَفُوا عَنْهُمْ ليْلتَهُمْ تِلكَ.

وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي حَاتِم: لـمَّا عَقَرُوا النَّاقَة وقَال لهُمْ صَالح: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾، قَالُوا: زَعَمَ صَالح أَنَّهُ يَفْرُغ مِنَّا إِلى ثَلاثَة أَيَّام، فَنَحْنُ نَفْرُغ مِنْهُ وَأَهْله قَبْل ثَلاث. وَكَانَ لصَالحٍ مَسْجِد فِي الحِجْر عِنْد شِعْب هُنَاكَ يُصَلِّي فِيهِ، فَخَرَجُوا إِلى كَهْف -أَيْ: غَار- هُنَاكَ لَيْلًا، فَقَالُوا: إِذَا جَاءَ

---

(١) ضعيف : أخرجه أبو داود (٣٤٤٩)، وابن ماجه (٢٢٦٣)، وفيه محمد بن فضاء: ضعيف، وأبوه: مجهول. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود وابن ماجه».

يُصلِّي قتلناهُ، ثُمَّ رَجعْنَا إذَا فرَغنَا منهُ إلى أَهْله، فَفرَغْنا منهُم، فَبعثَ الله صَخْرَة منَ الهضب حِيالهمْ، فَخشَوْا أَنْ تَشْدَخهُمْ فتبادرُوا، فَانطَبقتْ عليهمُ الصَّخرَة وَهُمْ فِي ذَلكَ الغَار، فَلا يَدرِي قَوْمهمْ أَيْنَ هُمْ، وَلا يَدْرُونَ مَا فُعِل بِقوْمِهِمْ، فَعذَّبَ الله هَؤُلاءِ هَهُنَا، وَهؤُلاءِ هَهُنَا، وَأَنجى الله صَالحًا وَمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾، أَيْ: فَارِغَة ليسَ فِيهَا أَحد ﴿بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾.

يُخبِر تَعالى عَنْ عَبده لُوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ أَنْذَرَ قَوْمه نِقْمَةَ الله بِهِمْ، فِي فِعْلهمْ الفَاحِشَة الَّتِي لمْ يَسْبِقهُمْ إِلَيْهَا أَحَد مِنْ بَنِي آدَم، وَهِيَ إِتْيَان الذُّكُور دُون الإِنَاث، وَذلكَ فَاحِشَة عَظِيمَة: اسْتَغْنَى الرِّجَال بِالرِّجَال، وَالنِّساء بِالنِّسَاءِ. فَقَال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، أَيْ: يرَى بَعْضكُمْ بَعْضًا، وتأتون فِي ناديكم المنكر؟ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، أَيْ: لا تَعرِفُونَ شَيْئًا لا طَبْعًا وَلا شَرْعًا، كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخرَى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، أَيْ: يَتحرَّجُونَ مِنْ فِعْل مَا تَفعلُونَهُ، وَمِنْ إِقْرارِكُمْ على صَنِيعكُمْ، فَأَخرِجُوهُمْ مِنْ بَيْن أَظْهُركُمْ، فَإِنَّهُمْ لا يَصْلُحُونَ لمُجاورَتكُمْ فِي بِلادكُمْ، فعزَمُوا على ذَلكَ، فَدمَّرَ الله عَليْهِمْ وَللكَافِرِينَ أَمْثالهَا، قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، أَيْ: مِنْ الهالكِينَ مَعَ قَوْمهَا، لأَنَّهَا كَانَتْ رِدْءًا لهُمْ عَلى دِينهمْ، وَعَلى طَرِيقتهمْ فِي رِضَاهَا بِأَفعَالهِمْ القَبيحَة، فَكَانَتْ تَدُلّ قَوْمهَا عَلى ضِيفَان لُوط، ليأْتُوا إِلَيْهِمْ، لا أَنَّهَا كَانَتْ تَفعَل الفَوَاحِش تَكْرِمَة لنَبِيِّ الله ﷺ لا كَرَامَة لهَا.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، أَيْ: حِجَارَة مِنْ سِجِّيل مَنْضُود مُسَوَّمَة عِنْد رَبّك، وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ؛ وَلهَذَا قَال: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾، أَيْ: الَّذِينَ قَامَتْ عَليْهِمْ الحُجَّة، وَوَصَل إِلَيْهِمْ الإِنْذَار، فَخَالفُوا الرَّسُول وَكَذَّبُوهُ، وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِهِ مِنْ بَيْنهمْ.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

يَقُول تَعالى آمِرًا رَسُوله ﷺ أَنْ يَقُول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أَيْ: عَلى نِعَمه عَلى عِبَاده، مِنْ النِّعَم الَّتِي لا تُعَدّ وَلا تُحْصَى، وَعَلى مَا اتَّصَفَ بِهِ مِنْ الصِّفَات العُلى وَالأَسْمَاء الحُسْنَى، وَأَنْ يُسلِّم عَلى عِبَاد الله الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ وَاخْتَارَهُمْ، وَهُمْ رُسُله وَأَنْبِيَاؤُهُ الكِرَام -عَلَيْهِمْ مِنْ الله الصَّلاة وَالسَّلام- هَكَذَا قَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم، وَغَيْره: إِنَّ المُرَاد بِعِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى: هُمْ الأَنْبِيَاء، قَال: وَهُوَ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وَقَال الثَّوْرِيّ وَالسُّدِّيّ: هُمْ أَصْحَاب مُحَمَّد ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَرُوِيَ نَحْوه عَنْ ابْن عَبَّاس. وَلا مُنَافَاة، فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مِنْ عباده الَّذِينَ اصْطَفَى، فَالأَنْبِيَاء بِطَرِيقِ الأَوْلى وَالأَحْرَى، وَالقَصْد أَنَّ الله تَعَالى أَمَرَ رَسُوله وَمَنْ اتَّبَعَهُ بَعْد ما ذكر لَهُمْ مَا فَعَل بِأَوْلِيَائِهِ مِنْ النَّجَاة وَالنَّصْر وَالتَّأْيِيد، وَمَا أَحَلَّ بِأَعْدَائِهِ مِنْ الخِزْي وَالنَّكَال وَالقَهْر، أَنْ يَحْمَدُوهُ عَلى جَمِيع أَفْعَاله، وَأَنْ يُسَلِّمُوا عَلى عِبَاده المُصْطَفَيْنَ الأَخْيَار.

وَقَدْ قَال أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُمَارَة بْن صُبَيْح، حَدَّثَنَا طَلق بْن غَنَّام، حَدَّثَنَا الحَكَم بْن ظُهَيْر عَنْ السُّدِّيّ -إِنْ شَاءَ الله- عَنْ أَبِي مَالك، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، قَال: هُمْ أَصْحَاب مُحَمَّد ﷺ اصْطَفَاهُمْ الله لِنَبِيِّهِ رضي الله عنهم. وَقَوْله تَعَالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ اسْتِفْهَام إِنْكَار عَلى المُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ مَعَ الله آلهَة أُخْرَى، ثم شرع تعالى يبين أنه المتفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أَيْ: تِلكَ السَّمَوَات فِي ارْتِفَاعهَا وَصَفَائِهَا، وَمَا جَعَل فِيهَا مِنْ الكَوَاكِب النَّيِّرَة، وَالنُّجُوم الزَّاهِرَة، وَالأَفْلاك الدَّائِرَة، والأرض باسْتِفَالهَا وَكَثَافَتهَا، وَمَا جَعَل فِيهَا مِنْ الجِبَال وَالأَوْعَار وَالسُّهُول، وَالفَيَافِي وَالقِفَار، وَالأَشْجَار وَالزُّرُوع، وَالثِّمَار والبحور، وَالحَيَوَان عَلى اخْتِلاف الأَصْنَاف وَالأَشْكَال وَالأَلوَان وَغَيْر ذَلكَ.

وَقَوْله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أَيْ: جَعَلهُ رِزْقًا للعِبَادِ، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾، أَيْ: بَسَاتِين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾، أَيْ: مَنْظَر حَسَن وَشَكْل بَهِيّ ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾، أَيْ: لمْ تَكُونُوا تَقْدِرُونَ عَلى إِنْبَات شَجَرِهَا، وَإِنَّمَا يَقْدِر عَلى ذَلكَ الخَالق الرَّازِق، المُسْتَقِل بِذَلكَ المُنْفَرد بِهِ دُون مَا سِوَاهُ مِنْ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد، كَمَا يعْتَرِف بِهِ هَؤُلاءِ المُشْرِكُون، كَمَا قَال تَعَالى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، أَيْ: هُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الفَاعِل لجَمِيع ذَلكَ وَحْده لا شَرِيك لهُ، ثُمَّ هُمْ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْره مِمَّا يَعْتَرِفُون أَنَّهُ لا يَخْلُق وَلا يَرْزُق، وَإِنَّمَا يَسْتَحِقّ أَنْ يُفْرَد بِالعِبَادَةِ مَنْ هُوَ المُتَفَرِّد بِالخَلقِ وَالرِّزْق، وَلهَذَا قَال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: أَإِله مَعَ الله يُعْبَد؟! وَقَدْ تبَيَّنَ لكُمْ وَلكُلِّ ذِي لُبّ مِمَّا يَعْتَرِفُونَ بِهِ أَيْضًا أَنَّهُ الخَالق الرَّازِق؟

وَمِنْ المُفَسِّرِينَ مَنْ يَقُول: مَعْنَى قَوْله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أإله مع الله فَعَل هَذَا؟! وَهُوَ يَرْجِع إِلى مَعْنَى الأَوَّل، لأَنَّ تَقْدِير الجَوَاب أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ليْسَ ثَمَّ أَحَد فَعَل هَذَا مَعَهُ، بَل هُوَ المُتَفَرِّد بِهِ. فَيُقَال: فَكَيْف تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْره، وَهُوَ المُسْتَقِلّ المُتَفَرِّد بِالخَلقِ وَالتَّدْبِير؟ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾. وَقَوْله هَهُنَا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ﴿أَمَّنْ﴾ فِي هَذِهِ الآيَات تَقْدِيره: أَمَنْ يَفْعَل هَذِهِ الأَشْيَاء كَمَنْ لا يَقْدِر عَلى شَيْء مِنْهَا؟ هَذَا مَعْنَى السِّيَاق وَإِنْ لمْ يُذْكَر الآخَر؛ لأَنَّ فِي قُوَّة الكَلام مَا يُرْشِد إِلى ذَلك، وَقَدْ قَال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثُمَّ قَال فِي آخر الآيَة: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، أَيْ: يَجْعَلُونَ لله عِدْلًا، وَنَظِيرًا، وَهَكَذَا قَال تَعَالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، أَيْ: أَمَّنْ هُوَ هَكَذَا كَمَنْ ليْسَ كَذَلكَ؟ وَلهَذَا قَال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾، أَيْ: أَمَّنْ هُوَ شَهِيد عَلى أَفْعَال الخَلق، حَرَكَاتهمْ وَسَكَنَاتهمْ، يَعْلم الغَيْب جَليله وَحَقِيره، كَمَنْ هُوَ لا يَعْلم، وَلا يَسْمَع، وَلا يُبْصِر مِنْ هَذِهِ الأَصْنَام الَّتِي عَبَدُوهَا؟ وَلهَذَا قَال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ وَهَكَذَا هَذِهِ الآيَات الكَرِيمَات كُلّهَا.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يقول: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾، أَيْ: قَارَّة سَاكِنَة ثَابِتَة، لا تَمِيد وَلا تَتَحَرَّك بِأَهْلِهَا وَلا تَرْجُف بِهِمْ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لَمَا طَابَ عَلَيْهَا العَيْش وَالحَيَاة، بَل جَعَلَهَا مِنْ فَضْله وَرَحْمَته مِهَادًا بِسَاطًا ثَابِتَة لا تَتَزَلْزَل وَلا تَتَحَرَّك، كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾.

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾، أَيْ: جَعَل فِيهَا الأَنْهَار العَذْبَة الطَّيِّبَة تشُقُّهَا فِي خِلالهَا، وَصَرَّفَهَا فِيهَا مَا بَيْن أَنْهَار كِبَار وَصِغَار وَبَيْن ذَلِكَ، وَسَيَّرَهَا شَرْقًا وَغَرْبًا وَجَنُوبًا وَشَمَالًا، بِحَسَبِ مَصَالح عِبَاده فِي أَقَالِيمهمْ وَأَقْطَارهمْ، حَيْثُ ذَرَأَهُمْ من أَرْجَاء الأَرْض، وَسَيَّرَ إِلَيهم أَرْزَاقهمْ بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾ أَيْ: جِبَالًا شَامِخَة تُرْسِي الأَرْض وَتُثَبِّتهَا لِئَلَّا تَمِيد بِكُمْ، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾، أَيْ: جَعَل بَيْن المِيَاه العَذْبَة وَالمَالِحَة حَاجِزًا، أَيْ: مَانِعًا يَمْنَعهَا مِنْ الاخْتِلاط، لِئَلَّا يَفْسُد هَذَا بِهَذَا، وَهَذَا بِهَذَا، فَإِنَّ الحِكْمَة الإِلَهِيَّة تَقْتَضِي بَقَاء كُلّ مِنْهُمَا عَلَى صِفَته المَقْصُودَة مِنْهُ، فَإِنَّ البَحْر الحُلو هُوَ هَذِهِ الأَنْهَار السَّارِحَة الجَارِيَة بَيْن النَّاس، وَالمَقْصُود مِنْهَا أَنْ تَكُون عَذْبَة زُلالًا تَسْقِي الحَيَوَان وَالنَّبَات وَالثِّمَار مِنْهَا؛ وَالبِحَار المَالِحَة هِيَ المُحِيطَة بِالأَرْجَاءِ وَالأَقْطَار مِنْ كُلّ جَانِب، وَالمَقْصُود مِنْهَا أَنْ يَكُون مَاؤُهَا مِلحًا أُجَاجًا، لِئَلَّا يَفْسُد الهَوَاء بِرِيحِهَا، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، وَلِهَذَا قَال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: فَعَل هَذَا وبعْد هذا عَلى القَوْل الآخَر، وَكِلاهُمَا مُتَلازِم صَحِيح. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أَيْ: فِي عِبَادَتهمْ غَيْره.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

يُنَبِّه تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ المَدْعُوّ عِنْد الشَّدَائِد، المَرْجُوّ عِنْد النَّوَازِل، كَمَا قَال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾، وَهَكَذَا قَال هَهُنَا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، أَيْ: مَنْ هُوَ الَّذِي لا يَلجَأ المُضطَرّ إِلَّا إِلَيْهِ، وَالَّذِي لا يَكْشِف ضُرّ المَضْرُورِينَ سِوَاهُ. قَال الإِمَام أَحْمَد: حدثنا عَفَّان، حدثنا وُهَيْب، حدثنا خَالد الحَذَّاء، عَنْ أَبِي تَمِيمَة الهُجَيْمِيّ، عَنْ رَجُل مِنْ بَلهُجَيْم، قَال: قُلت: يَا رَسُول الله، إِلامَ تَدْعُو؟ قَال: **«أَدْعُو إِلى الله وَحْده، الَّذِي إِنْ مَسَّك ضُرّ فَدَعَوْته كَشَفَ عَنْك، وَالَّذِي إِنْ أَضْلَلت بِأَرْضٍ قَفْر فَدَعَوْته رَدَّ عَلَيْك، وَالَّذِي إِنْ أَصَابَتْك سَنَة فَدَعَوْته أَنْبَتَ لَك»**. قَال: قُلت: أَوْصِنِي، قَال: **«لا تَسُبَّنَّ أَحَدًا، وَلا تَزْهَدَنَّ فِي المَعْرُوف، وَلوْ أَنْ تَلقَى أَخَاك وَأَنْتَ مُنْبَسِط إِلَيْهِ وَجْهك، وَلوْ أَنْ تُفْرِغ مِنْ دَلوك فِي إِنَاء المُسْتَقِي، وَاتَّزِرْ إِلى نِصف السَّاق، فَإِنْ أَبَيْت فَإِلى الكَعْبَيْنِ. وَإِيَّاكَ وَإِسْبَال الإِزَار، فَإِنَّ إِسْبَال الإِزَار مِنْ المَخِيلة، وَإِنَّ الله تبارك وتعالى لا يُحِبّ المَخِيلة»**.(١)

وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد مِنْ وَجْه آخَر، فَذَكَرَ اسْم الصَّحَابِيّ فَقَال: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلمَة، حَدَّثَنَا يُونُس -هُوَ ابْن عُبَيْد- حَدَّثَنَا عُبَيْدَة الهُجَيْمِيّ، عَنْ أَبِي تَمِيمَة الهُجَيْمِيّ، عَنْ جَابِر بْن سُلَيْم الهُجَيْمِيّ، قَال: أَتَيْت رَسُول الله ﷺ وَهُوَ مُحْتَبٍ بِشَمْلَةٍ، وَقَدْ وَقَعَ هُدْبهَا عَلى قَدَمَيْهِ، فَقُلت: أَيُّكُمْ مُحَمَّد -أو: رَسُول الله؟- فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلى نَفْسه، فَقُلت: يَا رَسُول الله، أَنَا مِنْ أَهْل البَادِيَة، وَفِيَّ جَفَاؤُهُمْ، فَأَوْصِنِي. فقَال: **«لا تَحْقِرَنَّ مِنْ المَعْرُوف**

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٩٨).

شَيْئًا، وَلوْ أَنْ تَلقَى أَخَاك وَوَجْهك مُنْبَسِط، وَلوْ أَنْ تُفْرِغ مِنْ دَلوك فِي إِنَاء المُسْتَقِي، وَإِنْ امْرُؤٌ شَتَمَك بِمَا يَعْلم فِيك فَلا تَشْتُمهُ بِمَا تَعْلم فِيهِ، فَإِنَّهُ يَكُون لك أَجْره وَعَلَيْهِ وِزْره، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَال الإِزَار، فَإِنَّ إِسْبَال الإِزَار مِنْ المَخِيلة، وَإِنَّ الله لا يُحِبّ المَخِيلة، وَلا تَسُبَّنَّ أَحَدًا». قَال: فَمَا سَبَبْت بَعْدُ أَحَدًا، وَلا شَاة وَلا بَعِيرًا.[1] وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ لِهَذَا الحَدِيث طُرُقًا، وَعِنْدهمَا طَرَف صَالح مِنْهُ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن هاشم، حَدَّثَنَا عَبْدَة بْن نُوح، عَنْ عُمَر بْن الحَجَّاج، عَنْ عُبَيْد الله بْن أَبِي صَالح قَال: دَخَل عَلَيَّ طَاوُس يَعُودنِي، فَقُلت لهُ: ادْعُ الله لِي، يَا أَبَا عَبْد الرَّحْمَن، فَقَال: ادْعُ لنَفْسِك؛ فَإِنَّهُ يُجِيب المُضطَرّ إِذَا دَعَاهُ.

وَقَال وَهْب بْن مُنَبِّه: قَرَأْت فِي الكِتَاب الأَوَّل: إِنَّ الله يَقُول: «بِعِزَّتِي، إِنَّهُ مَنْ اعْتَصَمَ بِي فَإِنْ كَادَتْهُ السَّمَوَات ومَنْ فِيهِنَّ، وَالأَرْض بِمَنْ فِيها؛ فَإِنِّي أَجْعَل لهُ مِنْ بَيْن ذَلكَ مَخْرَجًا، وَمَنْ لمْ يَعْتَصِم بِي؛ فَإِنِّي أَخْسِف بِهِ مِنْ تَحْت قَدَمَيْهِ الأَرْض، فَأَجْعَلهُ فِي الهَوَاء. فَأَكِلُهُ إِلى نَفْسه». وَذَكَرَ الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة رَجُل -حَكَى عَنْهُ أَبُو بَكْر مُحَمَّد بْن دَاوُد الدِّينَوَرِيّ، المَعْرُوف بِالدُّقِّيّ الصُّوفِيّ- قَال هَذَا الرَّجُل: كُنْت أُكَارِي عَلى بَغْل لِي مِنْ دِمَشْق إِلى بَلد الزُّبْدَانِيّ، فَرَكِبَ مَعِي ذَات مَرَّة رَجُل، فَمَرَرْنَا عَلى بَعْض الطَّرِيق، على طَرِيق غَيْر مَسْلُوكَة، فَقَال لِي: خُذْ فِي هَذِهِ، فَإِنَّهَا أَقْرَب. فَقُلت: لا خبرة لِي فِيهَا، فَقَال: بَل هِيَ أَقْرَب. فَسَلكْنَاهَا فَانْتَهَيْنَا إِلى مَكَان وَعْر وَوَادٍ عَمِيق، وَفِيهِ قَتْلى كَثِير، فَقَال لِي: أَمْسِكْ رَأْس البَغْل حَتَّى أَنْزِل. فَنَزَل وَتَشَمَّرَ، وَجَمَعَ عَليْهِ ثِيَابه، وَسَلَّ سِكِّينًا مَعَهُ وَقَصَدَنِي، فَفَرَرْت مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَتَبِعَنِي، فَنَاشَدْته الله، وَقُلت: خُذْ البَغْل بِمَا عَليْهِ. فَقَال: هُوَ لِي، وَإِنَّمَا أُرِيد قَتْلك. فَخَوَّفْته الله وَالعُقُوبَة فَلمْ يَقْبَل، فَاسْتَسْلمْت بَيْن يَدَيْهِ، وَقُلت: إِنْ رَأَيْت أَنْ تَتْرُكنِي حَتَّى أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ؟ فَقَال: وعَجِّل. فَقُمْت أُصَلِّي فَأُرْتِجَ عَليَّ القُرْآن فَلمْ يَحْضُرنِي مِنْهُ حَرْف وَاحِد، فَبَقِيت وَاقِفًا مُتَحَيِّرًا وَهُوَ يَقُول: هِيهِ! افْرُغْ. فَأَجْرَى الله عَلى لسَانِي قَوْله تَعَالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، فَإِذَا أَنَا بِفَارِسٍ قَدْ أَقْبَل مِنْ فَم الوَادِي، وَبِيَدِهِ حَرْبَة، فَرَمَى بِهَا الرَّجُل فَمَا أَخْطَأَتْ فُؤَاده، فَخَرَّ صَرِيعًا، فَتَعَلَّقْت بِالفَارِسِ وَقُلت: بِالله، مَنْ أَنْتَ؟ فَقَال: أَنَا رَسُول الَّذِي يُجِيب المُضطَرّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِف السُّوء. قَال: فَأَخَذْت البَغْل وَالحِمْل وَرَجَعْت سَالمًا.

وَذَكَرَ فِي تَرْجَمَة فَاطِمَة بِنْت الحَسَن أُمّ أَحْمَد [العُجَيْلة][2]، قَالتْ: هَزَمَ الكُفَّارُ يَوْمًا المُسْلمِينَ فِي غَزَاة، فَوَقَف جَوَاد جَيِّد بِصَاحِبِهِ، وَكَانَ مِنْ ذَوِي اليَسَار وَمِنْ الصُّلحَاء، فَقَال للجَوَادِ: مَالك؟ وَيْلك! إِنَّمَا كُنْت أُعِدّك لمِثْل هَذَا اليَوْم. فَقَال لهُ الجَوَاد: وَمَا لِي لا أُقَصِّر وَأَنْتَ تَكِل علوفتي إِلى السُّوَّاس فَيَظْلمُونَنِي وَلا يُطْعِمُونَنِي إِلَّا القَليل؟ فَقَال: لك عَليَّ عَهْد الله أن لا أَعلفك بَعْد هَذَا اليَوْم إِلَّا فِي حِجْرِي. فَجَرَى الجَوَاد عِنْد ذَلكَ، وَنَجَّى صَاحِبه، وَكَانَ لا يَعْلفهُ بَعْد ذَلكَ إِلَّا فِي حِجْره. وَاشْتُهِرَ أَمْره بَيْن النَّاس، وَجَعَلُوا يَقْصِدُونَهُ ليَسْمَعُوا مِنْهُ ذَلكَ وَبَلغَ مَلك الرُّوم أَمْره، فَقَال: مَا تُضَام بَلدَة يَكُون هَذَا الرَّجُل فِيهَا. وَاحْتَال ليَحْصُلهُ فِي بَلده، فَبَعَثَ إِليْهِ رَجُلًا مِنْ المُرْتَدِّينَ عِنْده، فَلمَّا انْتَهَى إِليْهِ أَظْهَرَ لهُ أَنَّهُ قَدْ حَسُنَتْ نِيَّته فِي الإِسْلام وَقَوْمه، حَتَّى اسْتَوْثَقَ، ثُمَّ خَرَجَا يَوْمًا يَمْشِيَانِ عَلى جَنْب السَّاحِل، وَقَدْ أَوْعَدَ شَخْصًا آخَر مِنْ جِهَة مَلك الرُّوم ليَتَسَاعَدَا عَلى أَسْره، فَلمَّا اكْتَنَفَاهُ ليَأْخُذَاهُ رَفَعَ طَرْفه إِلى السَّمَاء وَقَال: اللَّهُمَّ، إِنَّهُ إِنَّمَا خَدَعَنِي بِك فَاكْفِنِيهِمَا بِمَا شِئْت، قَال: فَخَرَجَ سَبُعَانِ إِليهما فَأَخَذَاهُمَا، وَرَجَعَ الرَّجُل سَالمًا.

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٤٠٣)، وأبو داود (٤٠٧٥)، والترمذي (٢٧٢١).
(٢) في نسخة: [العجلية].

وَقَوْله تَعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، أَيْ: يَخْلُف قَرْنًا لقَرْنٍ قَبْلهمْ، وَخلفًا لسَلفٍ؛ كَمَا قَال تَعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾، وَقَال تَعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾، وَقَال تَعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أَيْ: قَوْمًا يَخْلُف بَعْضهمْ بَعْضًا كَمَا قَدَّمْنا تَقْرِيره. وَهَكَذَا هَذِهِ الآيَة: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، أَيْ: أُمَّة بَعْد أُمَّة، وَجِيلًا بَعْد جِيل، وَقَوْمًا بَعْد قَوْم. وَلوْ شَاءَ لأَوْجَدَهُمْ كُلّهمْ فِي وَقت وَاحِد، وَلمْ يَجْعَل بَعْضهمْ مِنْ ذُرِّيَّة بَعْض، بَل لوْ شَاءَ لخَلقَهُمْ كُلّهمْ أَجْمَعِينَ، كَمَا خَلقَ آدَم مِنْ تُرَاب. وَلوْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلهُمْ بَعْضهمْ مِنْ ذُرِّيَّة بَعْض، وَلكِنْ لا يُمِيت أَحَدًا حَتَّى تَكُون وَفَاة الجَمِيع فِي وَقت وَاحِد، فكَانَتْ تَضِيق عليهم الأَرْض، وَتَضِيق عَليْهِمْ مَعَايِشهمْ وَأَكْسَابهمْ، وَيَتَضَرَّر بَعْضهمْ بِبَعْضٍ، وَلكِنْ اقْتَضَتْ حِكْمَته وَقُدْرَته أَنْ يَخْلُقهُمْ مِنْ نَفس وَاحِدَة، ثُمَّ يُكَثِّرهُمْ غَايَة الكَثْرَة، وَيَذْرَأهُمْ فِي الأَرْض، وَيَجْعَلهُمْ قُرُون بَعْد قُرُون، وَأُممًا بَعْد أُمَم، حَتَّى يَنْقَضِي الأَجَل وَتَفْرُغ البَشرية، كَمَا قَدَّرَ ذَلكَ تَبَارَكَ وَتَعَالى، وَكَمَا أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا، ثُمَّ يُقِيم القِيَامَة، وَيُوَفِّي كُلّ عَامِل عَمَله إِذَا بَلغَ الكِتَاب أَجَله؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، أَيْ: يَقْدِر عَلى ذَلكَ، أَوْ: أَإِله مَعَ الله يُعْبَد، وَقَدْ عُلمَ أَنَّ الله هُوَ المنفرد بِفِعْل ذَلكَ، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ: مَا أَقَلّ تَذَكُّرهمْ فِيمَا يُرْشِدهُمْ إِلى الحَقّ، وَيَهْدِيهِمْ إِلى الصِّرَاط المُسْتَقِيم.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

يقول: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أَيْ: بِمَا خَلقَ مِنْ الدَّلائِل السَّمَاوِيَّة وَالأَرْضِيَّة، كَمَا قَال: ﴿وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أَيْ: بَيْن يَدَيْ السَّحَاب الَّذِي فِيهِ مَطَر، يُغِيث بِهِ عِبَاده المُجْدِبِينَ الأَزِلِّينَ القَانِطِينَ ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أَيْ: هُوَ الَّذِي بِقُدْرَتِهِ وَسُلطَانه يَبْدَأ الخَلق ثُمَّ يُعِيدهُ، كَمَا قَال تَعَالى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أَيْ: بِمَا يُنْزِل مِنْ مَطَر السَّمَاء، وَيُنْبِت مِنْ بَرَكَات الأَرْض، كَمَا قَال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾. وَقَال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾. فَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالى يُنْزِل مِنْ السَّمَاء مَاء مُبَارَكًا فَيُسْكِنه فِي الأَرْض، ثُمَّ يُخْرِج بِهِ أَنْوَاع الزُّرُوع وَالثِّمَار وَالأَزَاهِير، وَغَيْر ذَلكَ مِنْ أَلْوَان شَتَّى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾، وَلهَذَا قَال: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، أَيْ: فَعَل هَذَا؟ وَعَلى القَوْل الآخَر: بَعْد هَذَا، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ عَلى صِحَّة مَا تَدَّعُونَهُ مِنْ عِبَادَة آلهَة أُخْرَى، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي ذَلكَ، وَقَدْ عَلمَ أَنَّهُ لا حُجَّة لهُمْ وَلا بُرْهَان، كَمَا قَال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

يَقُول تَعالَى آمِرًا رَسُوله ﷺ أَنْ يَقُول مُعَلِّمًا لجَمِيعِ الخَلق: إِنَّهُ لا يَعْلم أَحَد مِنْ أَهْل السَّمَوَات وَالأَرض الغَيْب. وَقَوْله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ اسْتِثْنَاء مُنْقَطِع، أَيْ: لا يَعْلَم أَحَد ذَلكَ إِلَّا الله ﷻ، فَإِنَّهُ المُنْفَرِد بِذَلك وَحْده، لا شَرِيك لهُ، كَمَا قَال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الآيَة، وَقَال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة.

وَقَوْله تَعالَى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أَيْ: وَمَا يَشْعُر الخَلائِق السَّاكِنُونَ فِي السَّمَوَات وَالأَرْض بِوَقْتِ السَّاعَة، كَمَا قَال: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أَيْ: ثَقُل عِلمهَا عَلى أَهْل السَّمَوَات وَالأَرْض.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا عَلِيّ بْن الجَعْد، حَدَّثنَا أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ دَاوُد بْن أَبِي هِنْد، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ مَسْرُوق، عَنْ عَائِشَة ﵂ قَالتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْلم -يَعْنِي النَّبِيّ ﷺ- مَا يَكُون فِي غَد؛ فَقَدْ أَعْظَم عَلى الله الفِرْيَة؛ لأَنَّ الله تَعالَى يَقُول: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.[1] وَقَال قَتَادَة: إن الله إِنَّمَا جَعَل هَذِهِ النُّجُوم لثَلاثِ خصلات: جَعَلهَا زِينَة للسَّمَاءِ، وَجَعَلهَا يُهْتَدَى بِهَا، وَجَعَلهَا رُجُومًا للشَّيَاطِين، فَمَنْ تَعَاطَى فِيهَا غَيْر ذَلكَ فَقَدْ قَال بِرَأْيِهِ، وَأَخْطَأَ حَظّه، وَأَضَاعَ نَصِيبه، وَتَكَلَّفَ مَا لا عِلم لهُ بِهِ. وَإِنَّ نَاسًا جَهَلة بِأَمْرِ الله، قَدْ أَحْدَثُوا مِنْ هَذِهِ النُّجُوم كَهَانَة: مَنْ أَعْرَسَ بِنَجْم كَذَا وَكَذَا، كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ سَافَرَ بِنَجْم كَذَا وَكَذَا، كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ وُلدَ بِنَجْم كَذَا وَكَذَا، كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلعَمْرِي، مَا مِنْ نَجْم إِلَّا يُولد بِهِ الأَحْمَر وَالأَسْوَد، وَالقَصِير وَالطَّوِيل، وَالحَسَن وَالدَّمِيم، وَمَا عَلمَ هَذَا النَّجْم، وَهَذِهِ الدَّابَّة، وَهَذَا الطَّيْر -بِشَيْءٍ مِنْ الغَيْب! وَقَضَى الله: أَنَّهُ لا يَعْلم مَنْ فِي السَّمَوَات وَالأَرْض الغَيْب إِلَّا الله، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْهُ بِحُرُوفِهِ، وَهُوَ كَلام جَلِيل مَتِين صَحِيح.

وقوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾، أَيْ: انْتَهَى عِلمهمْ وَعَجَزَ عَنْ مَعْرِفَة وَقْتهَا. وَقَرَأَ آخَرُونَ: (بَل أَدْرَكَ عِلمهمْ) أَيْ: تَسَاوَى عِلمهمْ فِي ذَلكَ، كَمَا فِي «الصَّحِيح» لمُسْلم: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال لجِبْرِيل -وَقَدْ سَأَلهُ عَنْ وَقْت السَّاعَة-: «**مَا المَسْئُول عَنْهَا بِأَعْلمَ مِنْ السَّائِل**»[2]. أَيْ: تَسَاوَى فِي العَجْز عَنْ دَرْك ذَلكَ عِلم المَسْئُول وَالسَّائِل. قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، أَيْ: غَابَ علمهم في الآخرة. وَقَال قَتَادَة: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يَعْنِي: بِجَهْلهِمْ بِرَبِّهِمْ، يَقُول: لمْ يَنْفُذ لهُمْ إِلى الآخِرَة عِلم. هَذَا قَوْل. وَقَال ابْن جُرَيْج: عَنْ عَطَاء الخُرَاسَانِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، حِين لمْ يَنْفَع العِلم. وَبِهِ قَال عَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَالسُّدِّيّ: أَنَّ عِلمهمْ إِنَّمَا يُدْرِك وَيَكْمُل يَوْم القِيَامَة حَيْثُ لا يَنْفَعهُمْ ذَلكَ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وَقَال سُفْيَان: عَنْ عَمْرو ابْن عُبَيْد، عَنْ الحَسَن: أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأ: (بَل أَدْرَكَ عِلمهمْ) قَال: اضْمَحَلَّ عِلمهمْ فِي الدُّنْيَا حِين عَايَنُوا الآخِرَة.

وَقَوْله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾، عَائِد عَلى الجِنْس، وَالمُرَاد: الكَافِرُونَ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١١٧).

(٢) صحيح: تقدم.

جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾، أَيْ: الكَافِرُونَ مِنكُمْ. وَهَكَذَا قَال هَهُنَا: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾، أَيْ: شَاكُّونَ فِي وُجُودهَا وَوُقُوعهَا، ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾، أَيْ: فِي عَمَايَة وَجَهْل كَبِير فِي أَمْرهَا وَشَأْنهَا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُنْكِرِي البَعْث مِنْ المُشْرِكِينَ: إِنَّهُمْ اسْتَبْعَدُوا إِعَادَة الأَجْسَاد بَعْد صَيْرُورَتهَا عِظَامًا وَرُفَاتًا وَتُرَابًا، ثم قال: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، أَيْ: مَا زِلنَا نَسْمَع بِهَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا، وَلا نَرَى لَهُ حَقِيقَة وَلا وُقُوعًا.

وَقَوْلهمْ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يَعْنُونَ: مَا هَذَا الوَعْد بِإِعَادَةِ الأَبْدَانِ ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، أَيْ: أَخَذَهُ قَوْم عَمَّنْ قَبْلهمْ، منْ قبلهم يَتَلَقَّاهُ بَعْضهم عَنْ بَعْض، وَلَيْسَ لهُ حَقِيقَة. قال الله تعالى مجيبًا لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد: ﴿قُلْ﴾ -يَا مُحَمَّد- هَؤُلاءِ: ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أَيْ: المُكَذِّبِينَ بِالرُّسُل وَمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ أَمْر المَعَاد وَغَيْره، كَيْف حَلَّتْ بِهِمْ نِقَمَ الله وَعَذَابه وَنَكَاله، وَنَجَّى الله مِنْ بَيْنهمْ رُسُله الكِرَام وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنْ المُؤْمِنِينَ؛ فَدَلَّ ذَلكَ عَلى صِدْق مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُل وَصِحَّته. ثُمَّ قَال تَعَالى مُسَلِّيًا لنَبِيِّه ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: المُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْت بِهِ، وَلا تَأْسَف عَلَيْهِمْ وَتَذْهَب نَفْسك عَلَيْهِمْ حَسَرَات، ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، أَيْ: فِي كَيْدِك وَرَدّ مَا جِئْت بِهِ، فَإِنَّ الله مُؤَيِّدك وَنَاصِرك، وَمُظْهِر دِينك عَلى مَنْ خَالفَهُ وَعَانَدَهُ فِي المَشَارِق وَالمَغَارِب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ المُشْرِكِينَ، فِي سُؤَالهمْ عَنْ يَوْم القِيَامَة، وَاسْتِبْعَادهمْ وُقُوع ذَلكَ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. قال الله مجيبًا لهم: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾، [قَال ابْن عَبَّاس: أَنْ يَكُون قَرُبَ -أَوْ: أَنْ يَقْرُب- لكُمْ بَعْض الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ][(١)]. وَهَكَذَا قَال مُجَاهِد وَالضَّحَّاك، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ، وَهَذَا هُوَ المُرَاد، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾. وَقَال تَعَالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وَإِنَّمَا دَخَلتْ «اللَّام» فِي قَوْله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ لأَنَّهُ ضُمِّنَ مَعْنَى «عَجِّل لكُمْ»، كَمَا قَال مُجَاهِد فِي رِوَايَة عَنْهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾: عَجَّل لكُمْ.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: فِي إِسْبَاغه نِعَمه عَليْهِمْ مَعَ ظُلمهمْ لأَنْفُسِهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلكَ لا يَشْكُرُونَهُ عَلى ذَلكَ إِلَّا القَليل مِنْهُمْ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، أَيْ: يَعْلم السَّرَائِر والضمائر، كَمَا يَعْلم الظَّوَاهِر، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

---

(١) سقط من: (ز).

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالى بِأَنَّهُ عَالم غَيْب السَّمَوَات وَالأَرْض، وَأَنَّهُ عَالم الغَيْب وَالشَّهَادَة -وَهُوَ مَا غَابَ عَنْ العِبَاد وَمَا شَاهَدُوهُ، فَقَال: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قَال ابْن عبَّاس: يَعْنِي وَمَا مِنْ شَيْء ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ كِتَابه العَزِيز، وَمَا اشْتَمَل عَلَيْهِ مِنَ الهُدَى والبينات وَالفُرْقَان: إِنَّهُ يَقُصّ عَلى بَنِي إِسْرَائِيل -وَهُمْ حَمَلة التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل- ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، كَاخْتِلافِهِمْ فِي عِيسَى وَتَبَايُنهمْ فِيهِ، فَاليَهُود افْتَرَوْا، وَالنَّصَارَى غَلَوْا، فَجَاءَ القُرْآن بِالقَوْل الوَسَط الحَقّ العَدْل: أَنَّهُ عَبْد مِنْ عِبَاد الله وَأَنْبِيَائِهِ وَرُسُله الكِرَام -عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلام- كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾. وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أَيْ: هُدًى لِقُلُوبِ المُؤْمِنِينَ بِهِ وَرَحْمَة لَهُمْ فِي العَمَلِيَّات.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾، أَيْ: يَوْم القِيَامَة ﴿بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أَيْ: فِي انْتِقَامه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بِأَفْعَال عِبَاده وَأَقْوَالهمْ.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: فِي أُمُورك، وَبَلِّغْ رِسَالة رَبّك، ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾، أَيْ: أَنْتَ عَلى الحَقّ المُبِين وَإِنْ خَالفَك مَنْ خَالفَك مِمَّنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ الشَّقَاوَة، وحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلمَة رَبّك أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلّ آيَة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أَيْ: لا تُسْمِعهُمْ شَيْئًا يَنْفعهُمْ، فَكَذَلكَ هَؤُلاءِ عَلى قُلُوبهمْ غِشَاوَة، وَفِي آذَانهمْ وَقْر الكُفْر؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيب لك مَنْ هُوَ سَمِيع بَصِير، السَّمْع وَالبَصَر النَّافِع فِي القَلب وَالبَصِيرَة، الخَاضِع لله، وَلمَا جَاءَ عَنْهُ عَلى أَلسِنَة الرُّسُل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

هَذِهِ الدَّابَّة تَخْرُج فِي آخِر الزَّمَان عِنْد فَسَاد النَّاس، وَتَرْكهمْ أَوَامِر الله، وَتَبْدِيلهمْ الدِّين الحَقّ، يُخْرِج الله لَهُمْ دَابَّة مِنْ الأَرْض -قِيل: مِنْ مَكَّة، وَقِيل: مِنْ غَيْرهَا- كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيله فَتُكَلِّمَ النَّاس عَلى ذَلكَ.

قَال ابْن عَبَّاس وَالحَسَن وَقَتَادَة -وروى عَنْ عَليّ رضي الله عنه-: تُكَلِّمهُمْ كَلامًا، أَيْ: تُخَاطِبهُمْ مُخَاطَبَة. وَقَال عَطَاء الخُرَاسَانِيّ: تُكَلِّمهُمْ فتَقُول لَهُمْ: إِنَّ النَّاس كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ. وَيُرْوَى هَذَا عَنْ عَليّ، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير، وَفِي هَذَا نَظَر لا يَخْفَى، وَالله أَعْلم.

وَقَال ابْن عَبَّاس فِي رِوَايَة: تَجْرَحهُمْ، وَعَنْهُ رِوَايَة، قَال: كُلاًّ تَفْعَل، يَعْنِي هَذَا وَهَذَا. وَهُوَ قَوْل حَسَن وَلا مُنَافَاة، وَالله أَعْلم. وَقَدْ وَرَدَ فِي ذِكْر الدَّابَّة أَحَادِيث وَآثَار كَثِيرَة، فَلنَذْكُرْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهَا، وَبِالله المُسْتَعَان: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ فُرَات، عَنْ أَبِي الطُّفَيْل، عَنْ حُذَيْفَة بْن أَسِيد الغِفَارِيّ، قَال: أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُول الله ﷺ مِنْ غُرْفَة وَنَحْنُ نَتَذَاكَر أَمْر السَّاعَة فَقَال: **«لا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى تَرَوْا عَشْر آيَات: طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا، وَالدُّخَان، وَالدَّابَّة، وَخُرُوج يَأْجُوج وَمَأْجُوج، وَخُرُوج عِيسَى ابْن مَرْيَم، وَالدَّجَّال، وَثَلاثَة خُسُوف:**

خَسْف بِالمَغْرِبِ، وَخَسْف بِالمَشْرِقِ، وَخَسْف بِجَزِيرَةِ العَرَب، وَنَار تَخْرُج مِنْ قَعْر عَدَن تَسُوق -أَوْ: تَحْشِر- النَّاس، تَبِيت مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيل مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا»(١). وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلم وَأَهْل السُّنَن، مِنْ طُرُق، عَنْ فُرَات القَزَّاز، عَنْ أَبِي الطُّفَيْل عَامِر بْن وَاثِلَة، عَنْ حُذَيْفَة به مَرْفُوعًا، وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح. وَرَوَاهُ مُسْلم أَيْضًا مِنْ حَدِيث عَبْد العَزِيز بْن رُفَيْع، عَنْ أَبِي الطُّفَيْل، عَنْهُ مَوْقُوفًا، والله أَعْلَم.

طَرِيق أُخْرَى: قَال أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ، عَنْ طَلحَة بْن عَمْرو، وَجَرِير بْن حَازِم؛ فَأَمَّا طَلحَة فَقَال: أَخْبَرَنِي عَبْد الله بْن عَبِيد الله بْن عُمَيْر اللَّيْثِي: أَنَّ أَبَا الطُّفَيْل حَدَّثَهُ، عَنْ حُذَيْفَة بْن أَسِيد الغِفَارِيّ أَبِي سَرِيحَة؛ وَأَمَّا جَرِير فَقَال: عَنْ عَبْد الله بْن عُبَيْد، عَنْ رَجُل مِنْ آل عَبْد الله بْن مَسْعُود -وَحَدِيث طَلحَة أَتَمّ وَأَحْسَن- قَال: ذَكَرَ رَسُول الله ﷺ الدَّابَّة فَقَال: «لَهَا ثَلاث خَرْجَات مِنْ الدَّهْر، فَتَخْرُج خَرْجَة مِنْ أَقْصَى البَادِيَة، وَلا يَدْخُل ذِكْرهَا القَرْيَة -يَعْنِي مَكَّة- ثُمَّ تَكْمُن زمانًا طويلاً ثُمَّ تَخْرُج خَرْجَة أُخْرَى دُون تِلكَ، فَيَعْلُو ذِكْرهَا فِي أَهْل البَادِيَة، وَيَدْخُل ذِكْرهَا القَرْيَة». -يَعْنِي مَكَّة- قَال رَسُول الله ﷺ : «ثُمَّ بَيْنَمَا النَّاس فِي أَعْظَم المَسَاجِد عَلى الله حُرْمَة وَأَكْرَمهَا: المَسْجِد الحَرَام، لَمْ يَرُعْهُمْ إِلَّا وَهِيَ تَرْغُو بَيْن الرُّكْن وَالمَقَام، تَنْفُض عَنْ رَأْسهَا التُّرَاب. فَارْفَضَّ النَّاس عَنْهَا شَتَّى وَمَعًا، وَبَقِيَتْ عِصَابَة مِنْ المُؤْمِنِينَ، وَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يُعْجِزُوا الله، فَبَدَأَتْ بِهِمْ فَجَلَتْ وُجُوههمْ حَتَّى جَعَلَتْهَا كَأَنَّهَا الكَوْكَب الدُّرِّيّ، وَوَلَّتْ فِي الأَرْض لا يُدْرِكهَا طَالب، وَلا يَنْجُو مِنْهَا هَارِب، حَتَّى إِنَّ الرَّجُل لَيَتَعَوَّذ مِنْهَا بِالصَّلاة، فَتَأْتِيه مِنْ خَلفه فَتَقُول: يَا فُلان، الآن تُصَلِّي؟ فَيُقْبِل عَلَيْهَا فَتَسِمُهُ فِي وَجْهه، ثُمَّ تَنْطَلق، وَيَشْتَرِك النَّاس فِي الأَمْوَال، وَيَصْطَحِبُونَ فِي الأَمْصَار، يُعْرَف المُؤْمِن مِنْ الكَافِر، حَتَّى إِنَّ المُؤْمِن لَيَقُول: يَا كَافِر، اقْضِنِي حَقِّي. وَحَتَّى إِنَّ الكَافِر لَيَقُول: يَا مُؤْمِن، اقْضِنِي حَقِّي»(٢). وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ طَرِيقَيْنِ عَنْ حُذَيْفَة بْن أَسِيد مَوْقُوفًا، فالله أَعْلَم. وَرَوَاهُ مِنْ رِوَايَة حُذَيْفَة بْن اليَمَان مَرْفُوعًا، وَإِنَّ ذَلكَ فِي زَمَان عِيسَى ابْن مَرْيَم، وَهُوَ يَطُوف بِالبَيْتِ، وَلكِنْ إِسْنَاده لا يَصِحّ.

حَدِيث آخَر: قَال مُسْلم بْن الحَجَّاج: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بِشْر، عن أبي حيَّان، عن أبي زُرْعة، عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنسه بعد: سَمِعْت رسول الله ﷺ يَقُول: **«إِنَّ أَوَّل الآيَات خُرُوجًا: طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا، وَخُرُوج الدَّابَّة عَلى النَّاس ضُحًى، وَأَيَّتهمَا مَا كَانَتْ قَبْل صَاحِبَتهَا، فَالأُخْرَى عَلى إِثْرهَا قَرِيبًا»**.(١)

حَدِيث آخَر: رَوَى مُسْلم فِي «صَحِيحه» مِنْ حَدِيث العَلاء بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن يَعْقُوب -مَوْلى الحُرَقَة- عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«بَادِرُوا بِالأَعْمَال سِتًّا: طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا، أَوْ الدُّخَان، أَوْ الدَّجَّال، أَوْ الدَّابَّة، أو خَاصَّة أَحَدكُمْ أو أَمْر العَامَّة»**(٣). وله مِنْ حَدِيث قَتَادَة، عَنْ الحَسَن، عَنْ زِيَاد بْن رَبَاح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«بَادِرُوا بِالأَعْمَال سِتًّا: الدُّخَان أَوْ الدَّجَّال، وَدَابَّة الأَرْض، وَطُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبهَا، وَأَمْر العَامَّة، وَخُوَيْصَة أَحَدكُمْ»**.(٤)

---

(١) صحيح : تقـدم.
(٢) ضعيف : أخرجه الطيالسي في «مسنده» (١٠٦٩) الطريق الأولى، وفيها طلحة بن عمرو المكي: متروك. والطريق الثانية فيها جهالة الرجل من آل ابن مسعود.
(٣) صحيح : أخرجه مسلم (٥٢٤٠).
(٤) صحيح : أخرجه مسلم (٥٢٤١).

حَدِيث آخَر: قَال ابْن مَاجَهْ: حَدَّثَنَا حَرْمَلة بْن يَحْيَى، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي عَمْرو بْن الحَارِث وَابْن لِهِيعَة، عَنْ يَزِيد بْن أَبِي حَبِيب، عَنْ سِنَان بْن سَعِد، عَنْ أَنَس بْن مَالِك ﷺ عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: **«بَادِرُوا بِالأَعْمَال سِتًّا: طُلُوع الشَّمْس مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَان، ودابّة الأرض، وَالدَّجَّال، وَخُوَيْصَة أَحَدِكُمْ، وَأَمْر العَامَّة»**. تَفَرَّدَ بِهِ.[1]

حَدِيث آخَر: قَال أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ أيضًا: حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ أَوْس بْن خَالِد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «تَخْرُج دَابَّة الأَرْض، وَمَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَاتَم سُلَيْمَان عليه السلام، فتخْطِم أَنْف الكَافِر بِالعَصَى، وَتُجْلِي وَجْه المُؤْمِن بِالخَاتَم، حَتَّى يَجْتَمِع النَّاس عَلَى الخِوَان، يُعْرَف المُؤْمِن مِنَ الكَافِر»[2]. وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، عَنْ بَهْز وَعَفَّان وَيَزِيد بْن هَارُون، ثَلاثَتهمْ عَنْ حَمَّاد بْن سَلمَة، بِهِ. وَقَال: «فتخْطِم أَنْف الكَافِر بِالخَاتَم، وَتَجْلُو وَجْه المُؤْمِن بِالعَصَا، حَتَّى إِنَّ أَهْل الخِوَان الوَاحِد ليَجْتَمِعُونَ فيَقُول هَذَا: يَا مُؤْمِن، وَيَقُول هَذَا: يَا كَافِر». وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ، عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، عَنْ يُونُس بْن مُحَمَّد المُؤَدِّب، عَنْ حَمَّاد بْن سَلمَة بِهِ.[3]

حَدِيث آخَر: قَال ابْن مَاجَهْ: حَدَّثَنَا أَبُو غَسَّان مُحَمَّد بْن عَمْرو، حَدَّثَنَا أَبُو تُمَيْلة، حَدَّثَنَا خَالد بْن عُبَيْد، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن بُرَيْدَة، عَنْ أَبِيهِ؛ قَال: ذَهَبَ بِي رَسُول الله ﷺ إِلَى مَوْضِع بِالبَادِيَة، قَرِيب مِنْ مَكَّة، فَإِذَا أَرْض يَابِسَة حَوْلهَا رَمْل، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «تَخْرُج الدَّابَّة مِنْ هَذَا المَوْضِع. فَإِذَا فِتْر فِي شِبْر». قَال ابْن بُرَيْدَة: فَحَجَجْت بَعْد ذَلِكَ بِسِنِينَ، فَأَرَانَا عَصَا لهُ، فَإِذَا هُوَ بِعَصَايَ هَذِهِ. كَذَا وَكَذَا.[4] وَقَال عَبْد الرَّزَّاق، عن مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة: أَنَّ ابْن عَبَّاس قَال: هِيَ دَابَّة ذَات زُغْب، لهَا أَرْبَع قَوَائِم، تَخْرُج مِنْ بَعْض أَوْدِيَة تِهَامَة.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن رَجَاء، حَدَّثَنَا فُضَيْل بْن مَرْزُوق، عَنْ عَطِيَّة، قَال: قَال عَبْد الله: تَخْرُج الدَّابَّة مِنْ صَدْع مِنَ الصَّفَا كَجَرْيِ الفَرَس ثَلاثَة أَيَّام، لمْ يَخْرُج ثُلُثهَا. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ أَبَان بْن صَالح، قَال: سُئِل عَبْد الله بْن عَمْرو عَنْ الدَّابَّة، فَقَال: الدَّابَّة تَخْرُج مِنْ تَحْت صَخْرَة بِجِيَادٍ، وَالله لوْ كُنْت مَعَهُمْ، أَوْ لوْ شِئْت بِعَصَايَ الصَّخْرَة الَّتِي تَخْرُج الدَّابَّة مِنْ تَحْتهَا. قِيل: فَتَصْنَع مَاذَا يَا عَبْد الله بْن عَمْرو؟ قَال: تَسْتَقْبِل المَشْرِق فَتَصْرُخ صَرْخَة تَنْفُذهُ، [ثُمَّ تَسْتَقْبِل الشَّام فَتَصْرُخ صَرْخَة تَنْفُذهُ، ثُمَّ تَسْتَقْبِل المَغْرِب فَتَصْرُخ صَرْخَة تَنْفُذهُ][5]، ثُمَّ تَسْتَقْبِل اليَمَن فَتَصْرُخ صَرْخَة تَنْفُذهُ، ثُمَّ تَرُوح مِنْ مَكَّة فَتُصْبِح بِعُسْفَانَ. قِيل: ثُمَّ مَاذَا؟ قَال: لا أَعْلم. وَعَنْ عَبْد الله بْن عُمَر أَنَّهُ قَال: تَخْرُج الدَّابَّة ليْلة جَمْع. ورَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، وَفِي إِسْنَاده ابْن البَيْلمَان.

وَعَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه: أَنَّهُ حَكَى مِنْ كَلام عُزَيْر عليه السلام أَنَّهُ قَال: «وَتَخْرُج مِنْ تَحْت سَدُوم دَابَّة تُكَلِّم

---

(١) صحيح : أخرجه ابن ماجه (٤٠٥٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».
(٢) ضعيف : أخرجه الطيالسي (٢/ ٢٩٥)، وابن ماجه (٤٠٦٦)، وفيه علي بن زيد: ضعيف. وأوس بن خالد: مجهول. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه».
(٣) ضعيف : تقدم.
(٤) ضعيف جدًا : أخرجه ابن ماجه (٤٠٦٧)، وقال الألباني: ضعيف جدًا. انظر «ضعيف سنن ابن ماجه».
(٥) سقط من : (ز).

النَّاس، كُلّ يَسْمَعهَا، وَتَضَع الحَبَالى قَبْل التَّمَام، وَيَعُود المَاء العَذْب أُجَاجًا، وَيَتَعَادَى الأَخِلاَّء، وَتُحْرَق الحِكْمَة، وَيُرْفَع العِلم، وَتُكَلِّم الأَرْض الَّتِي تَلِيهَا. وَفِي ذَلِكَ الزَّمَان يَرْجُو النَّاس مَا لا يَبْلُغُونَ، ويَتَعَنَّون فِيمَا لا يَنَالُونَ، وَيَعْمَلُونَ فِيمَا لا يَأْكُلُونَ». رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْهُ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو صَالح كَاتِب اللَّيْث، حَدَّثَنِي مُعَاوِيَة بْن صَالح، عَنْ أَبِي مَرْيَم أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَة ﷺ يَقُول: إِنَّ الدَّابَّة فِيهَا مِنْ كُلّ لوْن، مَا بَيْن قَرْنَيْهَا فَرْسَخ للرَّاكِب.

وَقَال ابْن عبَّاس: هِيَ مِثْل الحَرْبَة الضَّخْمَة. وَعَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عَليّ بْن أَبِي طَالب ﷺ أَنَّهُ قَال: إِنَّهَا دَابَّة لهَا رِيش وَزُغْب وَحَافِر، وَمَا لهَا ذَنَب، وَلهَا لحْيَة، وَإِنَّهَا لتَخْرُج حُضْر الفَرَس الجَوَاد ثَلاثًا وَمَا خَرَجَ ثُلُثَاهَا. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَال ابْن جُرَيْج، عَنْ أَبِي الزُّبَيْر، أَنَّهُ وَصَفَ الدَّابَّة فَقَال: رَأْسهَا رَأْس ثَوْر، وَعَيْنهَا عَيْن خِنْزِير، وَأُذُنهَا أُذُن فِيل، وَقَرْنهَا قَرْن أَيِّل، وَعُنُقهَا عُنُق نَعَامَة، وَصَدْرهَا صَدْر أَسَد، وَلوْنهَا لوْن نَمِر، وَخَاصِرَتهَا خَاصِرَة هِرّ، وَذَنبهَا ذَنَب كَبْش، وَقَوَائِمهَا قَوَائِم بَعِير، بَيْن كُلّ مَفْصِليْنِ اثْنَا عَشَرَ ذِرَاعًا، تَخْرُج مَعَهَا عَصَا مُوسَى وَخَاتَم سُليْمَان، فَلا يَبْقَى مُؤْمِن إِلَّا نَكَتَتْ فِي وَجْهه بِعَصَا مُوسَى نُكْتَة بَيْضَاء، فَتَفْشُو تِلْكَ النُّكْتَة حَتَّى يَبْيَضّ لهَا وَجْهه، وَلا يَبْقَى كَافِر إِلَّا نَكَتَتْ فِي وَجْهه نُكْتَة سَوْدَاء بِخَاتَم سُليْمَان، فَتَفْشُو تِلْكَ النُّكْتَة حَتَّى يَسْوَدّ لها وَجْهه، حَتَّى إِنَّ النَّاس يَتَبَايَعُونَ فِي الأَسْوَاق: بِكَمْ ذَا يَا مُؤْمِن؟ بِكَمْ ذَا يَا كَافِر؟ وَحَتَّى إِنَّ أَهْل البَيْت يَجْلسُونَ عَلى مَائِدَتهمْ، فَيَعْرِفُونَ مُؤْمِنهمْ مِنْ كَافِرهمْ، ثُمَّ تَقُول لهُمْ الدَّابَّة: يَا فُلان، أَبْشِرْ، أَنْتَ مِنْ أَهْل الجَنَّة. وَيَا فُلان، أَنْتَ مِنْ أَهْل النَّار؛ فَذَلكَ قَوْل الله تَعَالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ يَوْم القِيَامَة، وَحَشْر الظَّالِمِينَ المُكَذِّبِينَ بِآيَاتِ الله وَرُسُله إِلى بَيْن يَدَيْ الله ﷻ، ليَسْأَلهُمْ عَمَّا فَعَلُوهُ فِي الدَّار الدُّنْيَا، تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا، وَتَصْغِيرًا وَتَحْقِيرًا، فَقَال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾، أَيْ: مِنْ كُلّ قَوْم وَقَرْن فَوْجًا، أَيْ: جَمَاعَة، ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾. وَقَوْله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، قَال ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما: يُدْفَعُونَ. وَقَال قَتَادَة: وَزَعَةٌ تَرُدّ أَوَّلهمْ عَلى آخِرهِمْ.

وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم: يُسَاقُونَ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾، أَي: أُوقِفُوا بَيْن يَدَيْ الله ﷻ فِي مَقَام المُسَاءَلة، ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: وَيُسْئَلُونَ عَنْ اعْتِقَادهمْ، وَأَعْمَالهمْ، فَلَمَّا لمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْل السَّعَادَة، وَكَانُوا كَمَا قَال الله عَنْهُمْ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، فَحِينَئِذٍ قَامَتْ عَليْهِمْ الحُجَّة، وَلمْ يَكُنْ لهُمْ عُذْر يَعْتَذِرُونَ بِهِ؛ كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾، أَيْ: بُهِتُوا فَلمْ يَكُنْ لهُمْ جَوَاب؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّار الدُّنْيَا ظَلَمَة لأَنْفُسِهِمْ، وَقَدْ رُدُّوا إِلى عَالم الغَيْب وَالشَّهَادَة الَّذِي لا تَخْفَى عَليْهِ خَافِيَة.

وقَال تَعَالى مُنبِّهًا عَلى قُدْرَته التَّامَّة، وَسُلطَانه العَظِيم، وَشَأْنه الرَّفِيع الَّذِي تَجِب طَاعَته، وَالانْقِيَاد لأَوَامِرِه، وَتَصْدِيق أَنْبِيَائِهِ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ الحَقّ الَّذِي لا مَحِيد عَنْهُ، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، أَيْ: فيه ظَلام تَسْكُنَ بسببه حَرَكَاتهمْ، وَتَهْدَأ أَنْفَاسهمْ، وَيَسْتَرِيحُونَ مِنْ نَصَب التَّعَب فِي نَهَارهمْ. ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أَيْ: مُنِيرًا مَشْرِقًا، فَبِسَبَبِ ذَلِكَ يَتَصَرَّفُونَ فِي المَعَايِش وَالمَكَاسِب، وَالأَسْفَار وَالتِّجَارَات، وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ شُئُونِهِمْ الَّتِي يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ هَوْل يَوْم نَفْخَة الفَزَع فِي الصُّور وَهُوَ كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «قَرْن يُنْفَخ فِيهِ». وَفِي حَدِيث الصُّور إِنَّ إِسْرَافِيل هُوَ الَّذِي يَنْفُخ فِيهِ بِأَمْرِ الله تَعَالى، فَيَنْفُخ فِيهِ أَوَّلًا نَفْخَة الفَزَع وَيُطَوِّلهَا، وَذَلِكَ فِي آخِر عُمُر الدُّنْيَا، حِين تَقُوم السَّاعَة عَلى شِرَار النَّاس مِنْ الأَحْيَاء، فَيَفْزَع مَنْ فِي السَّمَوَات وَمَنْ فِي الأَرْض: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وَهُمْ الشُّهَدَاء، فَإِنَّهُمْ أَحْيَاء عِنْد رَبّهمْ يُرْزَقُونَ. قَال الإِمَام مُسْلم بْن الحَجَّاج: حَدَّثَنَا عبيد الله بْن مُعَاذ العَنْبَرِيّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ النُّعْمَان بْن سَالم: سَمِعْت يَعْقُوب بْن عَاصِم بْن عُرْوَة بْن مَسْعُود الثَّقَفِيّ، سَمِعْت عَبْد الله بْن عَمْرو ﷺ وَجَاءَهُ رَجُل فَقَال: مَا هَذَا الحَدِيث الَّذِي تُحَدِّث أَنَّ السَّاعَة تَقُوم إِلى كَذَا وَكَذَا؟ فَقَال: سُبْحَان الله -أَوْ: لا إِله إِلَّا الله- أَوْ: كَلمَة نَحْوهمَا لقَدْ هَمَمْت أَنْ لا أُحَدِّث أَحَدًا شَيْئًا أَبَدًا، إِنَّمَا قُلت: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْد قَليل أَمْرًا عَظِيمًا يُخَرِّب البَيْت، وَيَكُون وَيَكُون؛ ثُمَّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «يَخْرُج الدَّجَّال فِي أُمَّتِي فَيَمْكُث أَرْبَعِينَ -لا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا- فَيَبْعَث الله عِيسَى ابْن مَرْيَم كَأَنَّهُ عُرْوَة بْن مَسْعُود، فَيَطْلُبهُ فَيُهْلكه، ثُمَّ يَمْكُث النَّاس سَبْع سِنِينَ، ليْسَ بَيْن اثْنَيْنِ عَدَاوَة، ثُمَّ يُرْسِل الله رِيحًا بَارِدَة مِنْ قِبَل الشَّام، فَلا يَبْقَى عَلى وَجْه الأَرْض أَحَد فِي قَلبه مِثْقَال ذَرَّة مِنْ خَيْر أَوْ إِيمَان إِلاَّ قَبَضَتْهُ، حَتَّى لوْ أَنَّ أَحَدهمْ دَخَل كَبِد جَبَل لدَخَلتْهُ عَليْهِ حَتَّى تَقْبِضهُ». قَال: سَمِعْتهَا مِنْ رَسُول الله ﷺ، قَال: «فَيَبْقَى شِرَار النَّاس فِي خِفَّة الطَّيْر وَأَحْلام السِّبَاع، لا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّل لهُمْ الشَّيْطَان فَيَقُول: أَلا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرنَا؟ فَيَأْمُرهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَان، وَهُمْ فِي ذَلكَ دَارّ رِزْقهمْ، حَسَن عَيْشهمْ، ثُمَّ يُنْفَخ فِي الصُّور، فَلا يَسْمَعهُ أَحَد إِلاَّ أَصْغَى ليتًا وَرَفَعَ ليتًا». قَال: «وَأَوَّل مَنْ يَسْمَعهُ رَجُل يَلُوط حَوْض إِبِله». قَال: «فَيُصْعَق وَيُصْعَق النَّاس، ثُمَّ يُرْسِل الله -أَوْ قَال: يُنْزِل الله- مَطَرًا، كَأَنَّهُ الطَّلّ -أَوْ قَال: الظِّلّ- نُعْمَان الشَّاكّ -فَتَنْبُت مِنْهُ أَجْسَاد النَّاس ثُمَّ يُنْفَخ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَام يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَال: يَا أَيّهَا النَّاس؛ هَلُمُّوا إِلى رَبّكُمْ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ. ثُمَّ يُقَال: أَخْرِجُوا بَعْث النَّار. فَيُقَال: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَال: مِنْ كُلّ أَلف تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَة وَتِسْعِينَ، قَال: فَذَلكَ يَوْم يَجْعَل الوِلدَان شِيبًا، وَذَلكَ يَوْم يُكْشَف عَنْ سَاق»[1].

(١) صحيح: تقدم.

وَقَوْله: «ثُمَّ يُنْفَخ فِي الصُّور فَلا يَسْمَعهُ أَحَد إلاَّ أَصْغَى ليتًا وَرَفَعَ ليتًا». اللِّيت: هُوَ صَفْحَة العُنُق، أَيْ: أَمَال عُنُقه لِيَسْتَمِعهُ مِنْ السَّمَاء جَيِّدًا. فَهَذِهِ نَفْخَة الفَزَع، ثُمَّ بَعْد ذَلِكَ نَفْخَة الصَّعْق، وَهُوَ المَوْت، ثُمَّ بَعْد ذَلِكَ نَفْخَة القِيَام لِرَبِّ العَالِمِينَ، وَهُوَ النُّشُور مِنْ القُبُور لِجَمِيعِ الخَلَائِق؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾: قُرِئَ بِالمَدِّ، وَبِغَيْرِهِ عَلَى الفِعْل، وَكُلّ بِمَعْنًى وَاحِد وَ﴿دَاخِرِينَ﴾ أَيْ: صَاغِرِينَ مُطِيعِينَ، لا يَتَخَلَّف أَحَد عَنْ أَمْره، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾. وَقَال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

وَفِي حَدِيث الصُّور: أَنَّهُ فِي النَّفْخَة الثَّالِثَة يَأْمُر الله الأَرْوَاح، فَتُوضَع فِي ثُقْب فِي الصُّور، ثُمَّ يَنْفُخ إِسْرَافِيل فِيهِ بَعْدَمَا تَنْبُت الأَجْسَاد فِي قُبُورهَا وَأَمَاكِنهَا، فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّور طَارَتْ الأَرْوَاح، تَتَوَهَّج أَرْوَاح المُؤْمِنِينَ نُورًا، وَأَرْوَاح الكَافِرِينَ ظُلْمَة، فَيَقُول الله ﷻ: «وَعِزَّتِي وَجَلالِي لَتَرْجِعَنَّ كُلّ رُوح إِلَى جَسَدهَا» فَتَجِيء الأَرْوَاح إِلَى أَجْسَادهَا، فَتَدِبّ فِيهَا كَمَا يَدِبّ السُّمّ فِي اللَّدِيغ، ثُمَّ يَقُومُونَ فَيَنْفُضُونَ التُّرَاب مِنْ قُبُورهمْ، قَال الله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾، أَيْ: تَرَاهَا كَأَنَّهَا ثَابِتَة بَاقِيَة عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، وَهِيَ تَمُرّ مَرّ السَّحَاب، أَيْ: تَزُول عَنْ أَمَاكِنهَا، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾، وَقَال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾. وَقَال تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

وَقَوْله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أَيْ: يَفْعَل ذَلِكَ بِقُدْرَتِهِ العَظِيمَة الَّذِي قد أَتْقَنَ كُلّ مَا خلق، وَأَوْدَعَ فِيهِ مِنْ الحِكْمَة مَا أَوْدَعَ، ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أَيْ: هُوَ عَلِيم بِمَا يَفْعَل عِبَاده مِنْ خَيْر وَشَرّ فَسَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ.

ثم بيَّن تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾، قَال قَتَادَة: بِالإِخْلاصِ.

وَقَال زَيْن العَابِدِينَ: هِيَ لا إِله إِلَّا الله. وَقَدْ بَيَّنَ فِي المكان الآخر أَنَّ لهُ عَشر أَمْثَالهَا. ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾، كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾. وَقَال: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وَقَال: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾، أَيْ: مَنْ لَقِيَ الله مُسِيئًا لا حَسَنَة لهُ، أَوْ: قَدْ رَجَحَتْ سَيِّئَاته عَلَى حَسَنَاته، كُلّ بِحَسَبِهِ؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وَقَال ابْن مَسْعُود وَابْن عَبَّاس وَأَبُو هُرَيْرَة وَأَنَس بْن مَالِك رضي الله عنهم، وَعَطَاء، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَعِكْرِمَة، وَمُجَاهِد، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَأَبُو وَائِل، وَأَبُو صَالِح، وَمُحَمَّد بْن كَعْب، وَزَيْد بْن أَسْلم، وَالزُّهْرِيّ، وَالسُّدِّيّ، وَالضَّحَّاك، وَالحَسَن، وَقَتَادَة وَابْن زَيْد، فِي قَوْله: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾، يَعْنِي: بِالشِّرْك.

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

يَقُول تَعالى مُخبِرًا عن رَسُوله وَآمِرًا لهُ أَنْ يَقُول: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾، كَما قَال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾. أَضَاف الرُّبُوبِيَّة إِلى البَلدَة عَلى سَبِيل التَّشْرِيف لَها وَالاعْتِناء بِها، كَما قَال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾.

وَقَوْله تَعالى: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾، أَيْ: الَّذِي إِنَّما صارَتْ حَرامًا قَدَرًا وشَرْعًا، بِتَحْرِيمِهِ لَها، كَما ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: قَال رَسُول اللهِ ﷺ يَوْم فَتْح مَكَّة: «إِنَّ هَذا البَلد حَرَّمَهُ الله يَوْم خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْض، فَهُوَ حَرام بِحُرْمَةِ الله إِلى يَوْم القِيامَة، لا يُعْضَد شَوْكه، وَلا يُنَفَّر صَيْده، وَلا يَلْتَقِط لُقَطَته إِلاَّ مَنْ عَرَّفَها، وَلا يُخْتَلى خَلاها...»[1]. الحَدِيث بِتَمامِهِ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصِّحَاح وَالحِسَان وَالمَسَانِيد مِنْ طُرُق جَماعَة تُفِيد القَطْع، كَما هُوَ مُبَيَّن فِي مَوْضِعه مِنْ «كِتاب الأَحْكام»، وَللهِ الحَمْد.

وَقَوْله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾، مِنْ بَاب عَطْف العَامّ عَلى الخَاصّ، أَيْ: هُوَ رَبّ هَذِهِ البَلْدَة، وَرَبّ كُلّ شَيْء وَمَلِيكه، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أَيْ: المُوَحِّدِينَ المُخْلِصِينَ المُنْقَادِينَ لأَمْرِهِ المُطِيعِينَ لهُ.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أَيْ: عَلى النَّاس أُبَلِّغهُمْ إِيَّاهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وَكَقَوْلِهِ: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أَيْ: أَنَا مُبَلِّغ وَمُنْذِر، ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، أَيْ: لِي سوية بِالرُّسُل الَّذِينَ أَنْذَرُوا قَوْمهمْ، وَقَامُوا بِما عَلَيْهِمْ مِنْ أَداء الرِّسَالة إِلَيْهِمْ، وَخَلَصُوا مِنْ عُهْدَتهمْ، وَحِسَاب أُمَمهمْ عَلى الله، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾، وَقَال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ﴾، أَيْ: للهِ الحَمْد الَّذِي لا يُعَذِّب أَحَدًا إِلَّا بَعْد قِيَام الحُجَّة عَلَيْهِ، وَالإِعْذَار إِلَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ﴾، كَما قَال تَعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، أَيْ: بَل هُوَ شَهِيد عَلى كُلّ شَيْء. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذُكِرَ عَنْ أَبِي عُمَر الحَوْضِيّ حَفْص بْن عُمَر: حَدَّثَنا أَبُو أُمَيَّة ابْن يَعْلى الثَّقَفِيّ، حَدَّثَنا سعيد بْن أَبِي سَعِيد، سَمِعْت أَبا هُرَيْرَة يَقُول: قَال رَسُول اللهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاس، لا يَغْتَرَّنَّ أَحدكُمْ بِالله، فَإِنَّ الله لَوْ كَانَ غَافِلًا شَيْئًا لأَغْفَل البَعُوضَة وَالخَرْدَلة وَالذَّرَّة»[2]. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنا مُحَمَّد بْن يَحْيَى، حَدَّثَنا نَصْر بْن عَلِيّ، قَال أَبِي: أَخْبَرَنِي خَالد بْن قَيْس، عَنْ مَطَر، عَنْ عُمَر بْن عَبْد العَزِيز قَال: فَلَوْ كَانَ الله مُغْفِلًا شَيْئًا لأَغْفَل مَا تَعْفِي الرِّيَاح مِنْ أَثَر قَدَمَيْ ابْن آدَم. وَقَدْ ذُكِرَ عَنْ الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ كَانَ يُنْشِد هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ، إِمَّا لهُ أو لغَيْرِهِ:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْر يَوْمًا فَلا تَقُل ❁ خَلَوْتُ، وَلَكِنْ قُل: عَلَيَّ رَقِيب

وَلا تَحْسَبَنَّ الله يَغْفُل سَاعَة ❁ وَلا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيب

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) ضعيف: إسناده معلق لم يذكر أول سنده، وفيه أبو أمية ابن يعلى: ضعفه الدارقطني.

تفسير سُورَةُ القَصَصِ وهي مكية

ترتيبها ٢٨ — وآياتها ٨٨

قَال الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن آدَم، حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ أَبِيه، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ مَعْدِيكَرِب قَال: أَتَيْنَا عَبْد الله فَسَأَلْنَاهُ أَنْ يَقْرَأ علَيْنَا ﴿طسٓمٓ﴾ المِائَتَيْنِ، فَقَال: مَا هِيَ مَعِي، وَلَكِنْ عليكُمْ مَنْ أَخَذَهَا مِنْ رَسُول الله ﷺ خَبَّاب بْن الأَرَتّ. قَال: فَأَتَيْنَا خَبَّاب بْن الأَرَتّ، فَقَرَأَهَا علَيْنَا رضي الله عنه.[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة.

وَقَوْله: ﴿تِلْكَ﴾، أَيْ: هَذِهِ ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، أَيْ: الوَاضِح الجَلِيّ الكَاشِف عَنْ حَقَائِق الأُمُور، وَعِلم مَا قَدْ كَانَ وَمَا هُوَ كَائِن.

وَقَوْله: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، أَيْ: نَذْكُر الأَمْر كما كَانَ عَلَيْهِ كَأَنَّك شَاهِد وَكَأَنَّك حَاضِره. ثم قَال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أَيْ: تَكَبَّرَ وَتَجَبَّرَ وَطَغَى ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، أَيْ: أَصْنَافًا، قَدْ صَرَّفَ كُلّ صِنْف فِيمَا يُرِيد مِنْ أُمُور دَوْلته.

وَقَوْله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾، يَعْنِي: بَنِي إِسْرَائِيل، وَكَانُوا فِي ذَلِكَ الوَقْت خِيَار أَهْل زَمَانهمْ، هَذَا، وَقَدْ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ هَذَا المَلِك الجَبَّار العَنِيد، يَسْتَعْمِلهُمْ فِي أَخَسّ الأَعْمَال، وَيَكُدّهُمْ لَيْلًا وَنَهَارًا فِي أَشْغَاله وَأَشْغَال رَعِيَّته، وَيُقَتِّل مَعَ هَذَا أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ؛ إِهَانَة لَهُمْ وَاحْتِقَارًا، وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يُوجَد مِنْهُمْ الغُلَام الَّذِي كَانَ قَدْ تَخَوَّفَ هُوَ وَأَهْل مَمْلَكته مِنْ أَنْ يُوجَد مِنْهُمْ غُلَام يَكُون سَبَب هَلَاكه وَذَهَاب دَوْلته عَلَى يَدَيْهِ، وَكَانَتْ القِبْط قَدْ تَلَقَّوْا هَذَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل فِيمَا كَانُوا يَدْرُسُونَهُ مِنْ قَوْل إِبْرَاهِيم الخَلِيل، حِين وَرَدَ الدِّيَار المِصْرِيَّة، وَجَرَى لَهُ مَعَ جَبَّارهَا مَا جَرَى، حِين أَخَذَ سَارَّة لِيَتَّخِذَهَا جَارِيَة، فَصَانَهَا الله مِنْهُ، وَمَنَعَهُ مِنْهَا بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانه، فَبَشَّرَ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَده أَنَّهُ سَيُولَدُ مِنْ صُلْبه وَذُرِّيَّته مَنْ يَكُون هَلَاك مُلْك مِصْر عَلَى يَدَيْهِ، وكَانَتْ القِبْط تتحدث بِهَذَا عِنْد فِرْعَوْن فَاحْتَرَزَ فِرْعَوْن مِنْ ذَلِكَ وَأَمَرَ بِقَتْل ذُكُور بَنِي إِسْرَائِيل، وَلَنْ يَنْفَع حَذَر مِنْ قَدَر؛ لأَنَّ أَجَل الله إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّر وَلِكُلِّ أَجَل كِتَاب، ولهذا قَال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾، وَقَدْ فَعَل تَعَالَى بِهِمْ ذَلِكَ، كَمَا قَال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أَرَادَ فِرْعَوْن بِحَوْلِهِ وَقُوَّته أَنْ يَنْجُو

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (١/ ٤١٩)، وفيه أبو إسحاق: مدلس. ومعديكرب لم يوثقه غير ابن حبان.

مُوسَى، فَمَا نَفَعَهُ ذَلكَ مَعَ قَدَر المَلك العَظِيم الَّذِي لا يُخَالف أَمْره القَدَرِيّ، بَل نَفَذَ حُكْمه وَجَرَى قَلمه فِي القِدَم بِأَنْ يَكُون إهلاك فِرْعَوْن عَلى يَدَيْهِ، بَل يَكُون هَذَا الغُلام الَّذِي احْتَرَزْتَ مِنْ وُجُوده وَقَتلتَ بِسَبَبِهِ أُلُوفًا مِنَ الوِلْدَان إنَّمَا مَنْشَؤُهُ وَمُرَبَّاهُ عَلى فِرَاشك، وَفِي دَارك وَغِذَاؤُهُ مِنْ طَعَامك، وَأَنْتَ تُرَبِّيه وتدُلله وَتَتَفَدَّاهُ، وَحَتْفك وَهَلاكك وَهَلاك جُنُودك عَلى يَدَيْهِ؛ لتَعْلمَ أَنَّ رَبّ السَّمَوَات العُلا هُوَ القَاهِر الغَالب العَظِيم العَزِيز القَوِيّ الشَّدِيد المِحَال، الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ذَكَرُوا أَنَّ فِرْعَوْن لَمَّا أَكْثَرَ مِنْ قَتْل ذُكُور بَنِي إِسْرَائِيل، خَافَتْ القِبْط أَنْ يَفْنَى بَنِي إِسْرَائِيل، فَيَلُونَ هُمْ مَا كَانُوا يَلُونَهُ مِنْ الأَعْمَال الشَّاقَّة، فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: إِنَّهُ يُوشِك -إِنْ اسْتَمَرَّ هَذَا الحَال- أَنْ يَمُوت شُيُوخهمْ، وَغِلمانهمْ لا يعيشون، وَنِسَاؤُهُمْ لا يُمْكِن أَنْ يَقُمْنَ بِمَا يَقُوم بِهِ رِجَالهمْ مِنْ الأَعْمَال، فَيَخْلُص إِلَيْنَا ذَلكَ؛ فَأَمَرَ بِقَتْل الوِلْدَان عَامًا وَتَرْكهمْ عَامًا، فَوُلدَ هَارُون عَلَيْهِ السَّلامُ فِي السَّنَة الَّتِي يَتْرُكُونَ فِيهَا الوِلْدَان، وَوُلدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ فِي السَّنَة الَّتِي يُقَتِّلُونَ فِيهَا الوِلْدَان، وَكَانَ لِفِرْعَوْنَ أُنَاس مُوَكَّلُونَ بِذَلكَ، وَقَوَابِل يَدُرنَ عَلى النِّسَاء، فَمَنْ رَأَيْنَهَا قَدْ حَمَلتْ أَحْصَوْا اسْمهَا، فَإِذَا كَانَ وَقْت وِلادَتهَا لا يَقْبَلهَا إِلَّا نِسَاء القِبْط، فَإِنْ وَلدَتْ المَرْأَة جَارِيَة تَرَكْنهَا وَذَهَبْنَ، وَإِنْ وَلدَتْ غُلامًا دَخَل أُولئِكَ الذَّبَّاحُونَ، بِأَيْدِيهِمْ الشِّفَار المُرْهَفَة، فَقَتَلُوهُ وَمَضَوْا قَبَّحَهُمْ الله. فَلَمَّا حَمَلتْ أُمّ مُوسَى بِهِ عَلَيْهِ السَّلامُ لَمْ يَظْهَر عَليْهَا مَخَايِل الحَمْل كَغَيْرِهَا، وَلَمْ تَفْطِن لهَا الدَّايَات، وَلكِنْ لَمَّا وَضَعَتْهُ ذَكَرًا ضَاقَتْ بِهِ ذَرْعًا، وَخَافَتْ عَليْهِ خَوْفًا شَدِيدًا وَأَحَبَّتْهُ حُبًّا زَائِدًا، وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ لا يَرَاهُ أَحَد إِلَّا أَحَبَّهُ، فَالسَّعِيد مَنْ أَحَبَّهُ طَبْعًا وَشَرْعًا، قَال الله تَعَالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾، فَلَمَّا ضَاقَتْ ذَرْعًا بِهِ أُلْهِمَتْ فِي سِرّهَا، وَأُلْقِيَ فِي خَلدهَا وَنُفِثَ فِي رُوعهَا، كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وَذَلكَ أَنَّهُ كَانَتْ دَارهَا عَلى حَافَّة النِّيل، فَاتَّخَذَتْ تَابُوتًا، وَمَهَّدَتْ فِيهِ مَهْدًا وَجَعَلتْ تُرْضِع وَلدهَا، فَإِذَا دَخَل عَليْهَا أَحَد مِمَّنْ تَخَافهُ جعلته فِي ذَلكَ التَّابُوت، وَسَيَّرَتْهُ فِي البَحْر، وَرَبَطَتْهُ بِحَبْلٍ عِنْدهَا. فَلَمَّا كَانَ فِي بعض الأيام دَخَل عَليْهَا أحد ممن تَخَافهُ، فَذَهَبَتْ فَوَضَعَتْهُ فِي ذَلكَ التَّابُوت، وَأَرْسَلتْهُ فِي البَحْر وَذَهِلتْ عن أَنْ تَرْبِطهُ، فَذَهَبَ مَعَ المَاء وَاحْتَمَلهُ، حَتَّى مُرَّ بِهِ عَلى دَار فِرْعَوْن، فَالتَقَطَهُ الجَوَارِي فَاحْتَمَلنَهُ، فَذَهَبْنَ بِهِ إِلى امْرَأَة فِرْعَوْن، وَلا يَدْرِينَ مَا فِيهِ، وَخَشِينَ أَنْ يُفْتَتَنَّ عَليْهَا فِي فَتْحه دُونهَا، فَلَمَّا كَشَفَتْ عَنْهُ إِذَا هُوَ غُلام مِنْ أَحْسَن الخَلق وَأَجْمَله وَأَحْلاهُ وَأَبْهَاهُ، فَأَوْقَعَ الله مَحَبَّته فِي قَلبهَا حِين نَظَرَتْ إِليْهِ، وَذَلكَ لسَعَادَتِهَا وَمَا أَرَادَ الله مِنْ كَرَامَتهَا وَشَقَاوَة بَعْلهَا. وَلهَذَا قَال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾.

قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق وَغَيْره: «اللامُ» هُنَا لام العَاقِبَة، لا لام التَّعْليل، لأَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا بِالتِقَاطِهِ ذَلكَ. وَلا شَكّ أَنَّ ظَاهِر اللَّفْظ يَقْتَضِي مَا قَالُوهُ، وَلكِنْ إِذَا نُظِرَ إِلى مَعْنَى السِّيَاق فَإِنَّهُ تَبْقَى اللَّام للتَّعْليل؛ لأَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ الله تَعَالى قَيَّضَهُمْ لالتِقَاطِهِ ليَجْعَلهُ لهم عَدُوًّا وَحَزَنًا، فَيَكُون أَبْلغ فِي إِبْطَال حَذَرهمْ مِنْهُ؛ وَلهَذَا قَال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ﴾. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عُمَر بْن عَبْد العَزِيز أَنَّهُ كَتَبَ كِتَابًا إِلى قَوْم مِنْ القَدَرِيَّة، فِي تَكْذِيبهمْ بِكِتَابِ الله وَبِأَقْدَارِهِ النَّافِذَة فِي عِلمه السَّابِق: وَمُوسَى فِي عِلم الله السَّابِق لِفِرْعَوْنَ عَدُوّ

وَحزَن، قَال الله تَعَالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾، وَقُلتُمْ أَنْتُمْ: لوْ شَاءَ فِرْعَوْن أَنْ يَكُون لمُوسَى وَليًّا وَنَاصِرًا، وَالله يَقُول: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

وقَوْله تَعَالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يَعْنِي: أَنَّ فِرْعَوْن لَمَّا رَآهُ هَمَّ بِقَتْلِهِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكُون مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، فجعلت امْرَأَته آسِيَة بِنْت مُزَاحِم تحاجُّ عَنْهُ وَتَذُبّ دُونه، وَتُحَبِّبهُ إِلى فِرْعَوْن، فَقَالتْ: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، فَقَال: أَمَّا لك فَنَعَمْ، وَأَمَّا لي فَلا، فَكَانَ كَذَلكَ؛ فهَدَاهَا الله به، وَأَهْلكَهُ الله عَلى يَدَيْهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيث الفُتُون فِي «سُورَة طه» هَذِهِ القِصَّة بِطُولهَا فِي رِوَايَة ابْن عَبَّاس مَرْفُوعًا عِنْد النَّسَائِيّ وَغيْره.

وَقَوْله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، وَقَدْ حَصَل لهَا ذَلكَ وَهَدَاهَا الله بِهِ، وَأَسْكَنهَا الجَنَّة بِسَببِهِ.

وَقَوْله: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، أَيْ: أَرَادتْ أَنْ تَتَّخِذهُ وَلدًا وَتَتبَنَّاهُ، وَذَلكَ أنها لمْ يَكُنْ لهَا وَلد مِنْهُ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أَيْ: لا يَدْرُونَ مَا أَرَادَ الله مِنْهُ بِالتِقَاطِهِمْ إِيَّاهُ مِنْ الحِكْمَة العَظِيمَة البَالغَة وَالحُجَّة القَاطِعَة.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ فُؤَاد أُمّ مُوسَى، حِين ذَهَبَ وَلدهَا فِي البَحْر: أَنَّهُ أَصْبَحَ فَارِغًا، أَيْ: مِنْ كُلّ شَيْء مِنْ أُمُور الدُّنْيَا إِلَّا مِنْ مُوسَى؛ قَالهُ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَأَبُو عُبَيْدَة، وَالضَّحَّاك، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَقَتَادَة وَغيْرهمْ.

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾، أَيْ: إِنْ كَادَتْ مِنْ شِدَّة وَجْدهَا وَحُزْنهَا وَأَسَفهَا لتُظْهِر أَنَّهُ ذَهَبَ لهَا وَلد، وَتُخْبِر بِحَالهَا، لوْلا أَنَّ الله ثَبَّتَهَا وَصَبَّرَهَا؛ قَال الله تَعَالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾، أَيْ: أمرت ابنتها -وكانت كبيرة تعي ما يقال لها- فقالت لها: ﴿قُصِّيهِ﴾، أي: اتَّبِعِي أَثَره وَخُذِي خَبَره وَتَطَلَّبِي شَأْنه مِنْ نَوَاحِي البَلد. فَخَرَجَتْ لذَلكَ، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾، قَال ابْن عَبَّاس: عَنْ جَانِب. وَقَال مُجَاهِد: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ عَنْ بُعْيد.

وَقَال قَتَادَة: جَعَلتْ تَنْظُر إِليْهِ وَكَأَنَّهَا لا تُرِيدهُ. وَذَلكَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتَقَرَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَارِ فِرْعَوْن وَأَحَبَّتْهُ امْرَأَة المَلك، وَاسْتَطْلقَتْهُ مِنْهُ، عَرَضُوا عَليْهِ المَرَاضِع الَّتِي فِي دَارهمْ، فَلمْ يَقْبَل مِنْهَا ثَدْيًا، وَأَبَى أَنْ يَقْبَل شَيْئًا مِنْ ذَلكَ. فَخَرَجُوا بِهِ إِلى سُوق لعَلَّهُمْ يَجِدُونَ امْرَأَة تَصْلُح لرِضَاعَتِهِ، فَلمَّا رَأَتْهُ بِأَيْدِيهِمْ عَرَفَتْهُ، وَلمْ تُظْهِر ذَلكَ وَلمْ يَشْعُرُوا بِهَا، قَال الله تَعَالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾، أَيْ: تَحْرِيمًا قَدَرِيًّا، وَذَلكَ لكرامة الله له، صانه عن أَنْ يَرْتَضِع غَيْر ثَدْي أُمّه، وَلأَنَّ الله سُبْحَانه جَعَل ذَلكَ سَبَبًا إِلى رُجُوعه إِلى أُمّه، لتُرْضِعهُ وَهِيَ آمِنَة بَعْدَمَا كَانَتْ خَائِفَة، فَلمَّا رَأَتْهُمْ حَائِرِينَ فِيمَنْ يُرْضِعهُ ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ﴾.

قَال ابْن عَبَّاس: لـمَّا قَالتْ ذَلكَ أَخَذُوهَا، وَشَكُّوا فِي أَمْرهَا، وَقَالُوا لهَا: وَمَا يُدْرِيك نُصْحِهِمْ لهُ وَشَفَقَتهمْ عَليْهِ؟ فَقَالتْ: نُصْحهمْ لهُ وَشَفَقَتهمْ عَليْهِ رَغْبَتهمْ فِي ظئورة المَلك وَرَجَاء مَنْفَعَته. فَأَرْسَلُوهَا، فَلمَّا قَالتْ لهُمْ ذَلكَ وَخَلصَتْ مِنْ أَذَاهُمْ. ذَهَبُوا مَعَهَا إِلى مَنْزِلهمْ، فَدَخَلُوا بِهِ عَلى أُمّه، فَأَعْطَتْهُ ثَدْيهَا فَالتَقَمَهُ، فَفَرِحُوا بِذَلكَ،

فَرَحًا شَدِيدًا. وَذَهَبَ البَشِير إِلى امْرَأَة الملك، فَاسْتَدْعَتْ أُمّ مُوسَى وَأَحْسَنَتْ إِلَيْهَا وَأَعْطَتْهَا عَطَاء جَزِيلًا، وَهِيَ لا تَعْرِف أَنَّهَا أُمّه فِي الحقِيقَة، وَلكِنْ لكَوْنِهِ وَافَق ثَدْيهَا. ثُمَّ سَأَلَتْهَا آسِيَة أَنْ تُقِيم عِنْدهَا فَتُرْضِعهُ فَأَبَتْ عَلَيْهَا وَقَالَتْ: إِنَّ لِي بَعْلًا وَأَوْلادًا، وَلا أَقْدِر عَلى المُقَام عِنْدك، وَلكِنْ إِنْ أَحْبَبْت أَنْ أُرْضِعهُ فِي بَيْتِي فَعَلت. فَأَجَابَتْهَا امْرَأَة فِرْعَوْن إِلى ذَلِكَ، وَأَجْرَتْ عَلَيْهَا النَّفَقَة وَالصِّلات وَالكَسَاوِي وَالإِحْسَان الجَزِيل. فَرَجَعَتْ أُمّ مُوسَى بِوَلدِهَا رَاضِيَة مَرْضِيَّة قَدْ أَبْدَلهَا الله بَعْد خَوْفهَا أَمْنًا فِي عِزّ وَجَاه وَرِزْق دَارّ وَلهَذَا جَاءَ فِي الحدِيث: «مَثَل الَّذِي يَعْمَل وَيَحْتَسِب فِي صَنْعَته الخَيْر كَمَثَل أُمّ مُوسَى تُرْضِع وَلدهَا وَتَأْخُذ أَجْرهَا». وَلَمْ يَكُنْ بَيْن الشِّدَّة وَالفَرَج إِلَّا القَلِيل: يَوْم وَلَيْلة، أَوْ نَحْوه، وَالله أَعْلم، فَسُبْحَان مَنْ بِيَدِهِ الأَمْر! مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لمْ يَشَأْ لمْ يَكُنْ، الَّذِي يَجْعَل لمَنْ اتَّقَاهُ بَعْد كُلّ هَمّ فَرَجًا، وَبَعْد كُلّ ضِيق مَخْرَجًا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، أَيْ: بِهِ، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾، أَيْ: عَلَيْهِ ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، أَيْ: فِيمَا وَعَدَهَا مِنْ رَدّه إِلَيْهَا، وَجَعْله مِنْ المُرْسَلِينَ، فَحِينَئِذٍ تَحَقَّقَتْ بِرَدِّهِ إِلَيْهَا أَنَّهُ كَائِن مِنْهُ رَسُول مِنْ المُرْسَلِينَ، فَعَامَلَتْهُ فِي تَرْبِيَته مَا يَنْبَغِي لهُ طَبْعًا وَشَرْعًا.

وَقَوْله: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أَيْ: حِكَمَ الله فِي أَفْعَاله وَعَوَاقِبهَا المَحْمُودَة، الَّتِي هُوَ المَحْمُود عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، فَرُبَّمَا يَقَع الأَمْر كَرِيهًا إِلى النُّفُوس، وَعَاقِبَته مَحْمُودَة فِي نَفْس الأَمْر، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

لـمَّا ذَكَرَ تَعَالى مَبْدَأ أَمْر مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرَ أَنَّهُ لـمَّا بَلغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى، آتَاهُ الله حُكْمًا وَعِلْمًا. قَال مُجَاهِد: يَعْنِي النُّبُوَّة، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالى سَبَب وُصُوله إِلى مَا كَانَ تَعَالى قَدَّرَ لهُ مِنْ النُّبُوَّة وَالتَّكْلِيم: قَضِيَّة قَتْله ذَلكَ القِبْطِيّ، الَّذِي كَانَ سَبَب خُرُوجه مِنْ الدِّيَار المِصْرِيَّة إِلى بِلاد مَدْيَن، فقَال تَعَالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، قَال ابْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء الخُرَاسَانِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: وَذَلكَ بَيْن المَغْرِب وَالعِشَاء. وَقَال ابْن المُنْكَدِر، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ ابْن عَبَّاس: كَانَ ذَلكَ نِصْف النَّهَار. وكذلك قَال سَعِيد بْن جُبَيْر، وَعِكْرِمَة، وَالسُّدِّيّ، وَقَتَادَة.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾، أَيْ: يَتَضَارَبَانِ وَيَتَنَازَعَانِ، ﴿هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾، أَيْ: من بني إسرائيل، ﴿وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، أَيْ: قِبْطِيّ؛ قَالهُ ابْن عَبَّاس، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق. فَاسْتَغَاثَ الإِسْرَائِيليّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَوَجَدَ مُوسَى فُرْصَة، وَهِيَ غَفْلة النَّاس، فَعَمَدَ إِلى القِبْطِيّ، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾. قَال مُجَاهِد: وَكَزَهُ، أَيْ: طَعَنَهُ بِجُمْع كَفّه. وَقَال قَتَادَة: وَكَزَهُ بِعَصًا كَانَتْ مَعَهُ.

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، أَيْ: كَانَ فِيهَا حَتْفه فَمَاتَ، ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ أَيْ: بِمَا جَعَلت لِي مِنْ الجَاه وَالعِزّ والمنعة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾، أَيْ: مُعِينًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، أَيْ: الكَافِرِينَ بِك، المُخَالِفِينَ لأَمْرِك.

﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾.

يَقُول تَعالى مُخبِرًا عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لـمَّا قَتَل ذَلكَ القِبْطِيّ: أَنَّهُ أَصْبَحَ ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾، أَيْ: مِنْ مَعَرَّة مَا فَعَل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾، أَيْ: يَتَلفَّت وَيَتَوقَّع مَا يَكُون مِنْ هَذَا الأَمْر، فَمَرَّ فِي بَعْض الطُّرُق، فَإِذَا ذَلكَ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ عَلى ذَلكَ القِبْطِيّ يُقَاتِل آخر، فَلَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ مُوسَى اسْتَصْرَخَهُ عَلى الآخر، فَقَال لهُ مُوسَى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، أَيْ: ظَاهِر الغِوَايَة كَثِير الشَّرّ، ثُمَّ عَزَمَ عَلى البَطْش بِذَلكَ القِبْطِيّ، فَاعْتَقَدَ الإِسْرَائِيليّ لِخَوَرِه وَضَعْفه وَذِلَّته أَنَّ مُوسَى إِنَّمَا يُرِيد قَصْده لَمَّا سَمِعَهُ يَقُول ذَلكَ، فَقَال يَدْفَع عَنْ نَفْسه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾؟ وَذَلكَ لأَنَّهُ لمْ يَعْلم بِهِ إِلَّا هُوَ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا سَمِعَهَا ذَلكَ القِبْطِيّ لَقِفَهَا مِنْ فَمه، ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلى بَاب فِرْعَوْن فأَلقَاهَا عِنْدهم فَعَلمَ بِذَلكَ فَاشْتَدَّ حَنَقه وَعَزَمَ عَلى قَتْل مُوسَى فَطَلبُوهُ وبَعَثُوا وَرَاءَهُ لِيُحْضِرُوهُ لِذَلكَ.

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾.

قَال تَعَالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾، وَصَفَهُ بِالرُّجُوليَّة، لأَنَّهُ خَالفَ الطَّرِيق، فَسَلكَ طَرِيقًا أَقْرَب مِنْ طَرِيق الَّذِينَ بُعِثُوا وَرَاءَهُ، فَسَبَقَ إِلى مُوسَى، فَقَال لهُ يَا مُوسَى: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾، أَيْ: يَتَشَاوَرُونَ فِيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾، أَيْ: مِنْ البَلد ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾.

لـمَّا أَخْبَرَهُ ذَلكَ الرَّجُل بِمَا تَمَالأَ عَليْهِ فِرْعَوْن وَدَوْلته فِي أَمْره، خَرَجَ مِنْ مِصْر وَحْده، وَلمْ يَأْلف ذَلكَ قَبْله، بَل كَانَ فِي رَفَاهِيَة وَنِعْمَة وَرِيَاسَة، ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، أَيْ: يَتَلفَّت ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أَيْ: مِنْ فِرْعَوْن وَمَلئِهِ. فَذَكَرُوا أَنَّ الله -سُبْحَانه وَتَعَالى- بَعَثَ إِليْهِ مَلكًا عَلى فَرَس، فَأَرْشَدَهُ إِلى الطَّرِيق، فَالله أَعْلم.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾، أَيْ: أَخَذَ طَرِيقًا سَالكًا مَهْيَعًا. فَرِحَ بِذَلكَ، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، أَيْ: إِلى الطَّرِيق الأَقْوَم. فَفَعَل الله بِهِ ذَلكَ، وَهَدَاهُ إِلى الطريق المُسْتَقِيم فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، فَجُعِل هَادِيًا مَهْدِيًّا.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أَيْ: ولـمَّا وَصَل إِلى مَدْيَن وَوَرَدَ مَاءَهَا، وَكَانَ لهَا بِئْر تَرِدهُ رِعَاء الشَّاء.

﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: جَمَاعَة ﴿يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، أَيْ: تُكَفْكِفَانِ غَنَمهمَا أَنْ تَرِد مَعَ غَنَم أُولئِكَ الرِّعَاء لِئَلَّا يُؤْذَيَا. فَلَمَّا رَآهُمَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَقَّ لَهُمَا وَرَحِمَهُمَا، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾، أَيْ: مَا خَبَرُكُمَا لا تَرِدَانِ مَعَ هَؤُلاءِ؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾، أَيْ: لا يَحْصُل لنَا سَقْي إِلَّا بَعْد فَرَاغ هَؤُلاءِ، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، أَيْ: فَهَذَا الحَال المُلجِئ لنَا إِلى مَا تَرَى. قَال الله تَعَالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾. قَال أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة: حَدَّثَنَا عبد الله، أَنْبَأَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِى إِسْحَاق، عَنْ عَمْرو بن مَيْمُون الأَوْدِيّ، عَنْ عُمَر ابْن الخَطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لـمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَن، وَجَدَ عَليْهِ أُمَّة مِنْ النَّاس يَسْقُونَ، قَال: فَلَمَّا فَرَغُوا

أَعَادُوا الصَّخْرَة عَلى البِئْر، وَلا يُطِيق رَفْعهَا إِلَّا عَشَرَة رِجَال، فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ، قَال: مَا خَطْبُكُمَا؟ فَحَدَّثَتَاهُ، فَأَتَى الحَجَر فَرَفَعَهُ، ثُمَّ لمْ يَسْتَقِ إِلَّا ذَنُوبًا وَاحِدًا حَتَّى رَوِيَتْ الغَنَم. إِسْنَاد صَحِيح.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٖ فَقِيرٞ﴾، قَال ابْن عَبَّاس: سَارَ مُوسَى مِنْ مِصْر إِلى مَدْيَن، لَيْسَ لهُ طَعَام إِلَّا البَقْل وَوَرَق الشَّجَر، وَكَانَ حَافِيًا فَمَا وَصَل إِلى مَدْيَن حَتَّى سَقَطَتْ نَعْل قدمه وَجَلسَ فِي الظِّلّ، وَهُوَ صَفْوَة الله مِنْ خَلقه وَإِنَّ بَطْنه لاصِق بِظَهْرِهِ مِنْ الجُوع، وَإِنَّ خُضْرَة البَقْل لتُرَى مِنْ دَاخِل جَوْفه، وَإِنَّهُ لَمُحْتَاج إِلى شِقّ تَمْرَة.

وَقَوْله: ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ قَال ابْن عَبَّاس وَابْن مَسْعُود وَالسُّدِّيّ: جَلسَ تَحْت شَجَرَة.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي الحُسَيْن بْن عَمْرو العَنْقَزِيّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق عَنْ عَمْرو ابْن مَيْمُون عَنْ عَبْد الله -هُوَ ابْن مَسْعُود- قَال: حَثَثْت عَلى جَمَل لَيْلَتَيْنِ حَتَّى صَبَّحَتْ مَدْيَن، فَسَأَلت عَنْ الشَّجَرَة الَّتِي أَوَى إِلَيْهَا مُوسَى، فَإِذَا شَجَرَة خَضْرَاء تَرِفّ فَأَهْوَى إِلَيْهَا جَمَلِي -وَكَانَ جَائِعًا- فَأَخَذَهَا جَمَلِي فَعَالجَهَا سَاعَة، ثُمَّ لَفَظَهَا، فَدَعَوْت الله لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ انْصَرَفْت. وَفِي رِوَايَة عَنْ ابْن مَسْعُود: أَنَّهُ ذَهَبَ إِلى الشَّجَرَة الَّتِي كَلَّمَ الله مِنْهَا مُوسَى، كَمَا سَيَأْتِي، والله أَعْلم. وَقَال السُّدِّيّ: كَانَتْ مِنْ شَجَر السَّمُر. وَقَال عَطَاء بْن السَّائِب: لَـمَّا قَال مُوسَى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٖ فَقِيرٞ﴾، أَسْمَعَ المَرْأَة.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٖ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرٗا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾.

لَـمَّا رَجَعَتْ المَرْأَتَانِ سراعًا بِالغَنَم إِلى أَبِيهِمَا، أَنْكَرَ حَالهُمَا وَمَجِيئهُمَا سَرِيعًا، فَسَأَلهُمَا عَنْ خَبَرهمَا، فَقَصَّتَا عَلَيْهِ مَا فَعَل مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَبَعَثَ إِحْدَاهُمَا إِلَيْهِ لتَدْعُوهُ إِلى أَبِيهَا. قَال الله تَعَالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٖ﴾، أَيْ: مَشْي الحَرَائِر؛ كَمَا رُوِيَ عَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَال: كانت مُسْتَتِرَة بِكُمِّ دِرْعهَا. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حدثنا أَبِي حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق عَنْ عَمْرو بْن مَيْمُون قَال: قَال عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: جَاءَتْ تَمْشِي عَلى اسْتِحْيَاء، قَائِلة بِثَوْبِهَا عَلى وَجْههَا، لَيْسَتْ بِسَلفَع خَرَّاجَة وَلَّاجَة. هَذَا إِسْنَاد صَحِيح. قَال الجَوْهَرِيّ: السَّلفَع مِنْ الرجال: الجَسُور، وَمِنْ النِّسَاء: الجريئة السَّلِيطَة، وَمِنْ النُّوق: الشَّدِيدَة.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾، وَهَذَا تَأَدُّب فِي العِبَارَة، لمْ تَطْلُبهُ طَلبًا مُطْلَقًا لئَلَّا يُوهِم رِيبَة، بَل قَالتْ: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾، يَعْنِي: ليُثِيبك وَيُكَافِئك عَلى سَقْيك لغَنَمِنَا. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾، أَيْ: ذَكَرَ لهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْره، وَمَا جَرَى لهُ مِنْ السَّبَب الَّذِي خَرَجَ مِنْ أَجْله مِنْ بَلده، ﴿قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. يَقُول: طِبْ نَفْسًا وَقَرَّ عَيْنًا، فَقَدْ خَرَجْت مِنْ مَمْلَكَتهمْ فَلا حُكْم لهُمْ فِي بِلادنَا؛ وَلهَذَا قَال: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وَقَدْ اخْتَلفَ المُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الرَّجُل: مَنْ هُوَ؟ عَلى أَقْوَال؛ أَحَدهَا: أَنَّهُ شُعَيْب النَّبِيّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي أُرْسِل إِلى أَهْل مَدْيَن. وَهَذَا هُوَ المَشْهُور عِنْد كَثِيرِين، وَقَدْ قَالهُ الحَسَن البَصْرِيّ وَغَيْر وَاحِد، وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابن عَبْد العَزِيز الأويسي، حَدَّثَنَا مَالك بْن أَنَس: أَنَّهُ بَلغَهُ أَنَّ شُعَيْبًا هُوَ الَّذِي قَصَّ عَلَيْهِ مُوسَى

القَصَص، قَال: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وَقَدْ رَوَى الطَّبَرَانِيّ عَنْ سَلمَة بْن سَعْد العنزي، أَنَّهُ وَفَدَ عَلى رَسُول الله ﷺ فَقَال لَهُ: «مَرْحَبًا بِقَوْم شُعَيْب وَأَخْتَان مُوسَى؛ هُدِيت»[1]. وَقَال آخَرُونَ: بَل كَانَ ابْن أَخِي شُعَيْب. وَقِيل: رَجُل مُؤْمِن مِنْ قَوْم شُعَيْب. وَقَال آخَرُونَ: كَانَ شُعَيْب قَبْل زَمَان مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمُدَّةٍ طَوِيلة لأَنَّهُ قَال لقَوْمِهِ: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾. وَقَدْ كَانَ هَلاك قَوْم لُوط فِي زَمَن الخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَصِّ القُرْآن، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ كَانَ بَيْن الخَلِيل وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مُدَّة طَوِيلة تَزِيد عَلى أَرْبَعمِائَةِ سَنَة، كَمَا ذَكَرَهُ غَيْر وَاحِد. وَمَا قِيل: إِنَّ شُعَيْبًا عَاشَ مُدَّة طَوِيلة، إِنَّمَا هُوَ وَالله أَعْلم احْتِرَاز مِنْ هَذَا الإِشْكَال. ثُمَّ مِنَ المُقَوِّي لكَوْنِهِ لَيْسَ بِشُعَيْبٍ أَنَّهُ لَوْ كَانَ إِيَّاهُ لأَوْشَكَ أَنْ يَنُصَّ عَلى اسْمه فِي القُرْآن هَهُنَا، وَمَا جَاءَ فِي بَعْض الأَحَادِيث مِنَ التَّصْرِيح بِذِكْرِهِ فِي قِصَّة مُوسَى، لمْ يَصِحّ إِسْنَاده، كَمَا سَنَذْكُرُهُ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ الله. ثُمَّ مِنَ المَوْجُود فِي كُتُب بَنِي إِسْرَائِيل أَنَّ هَذَا الرَّجُل اسْمه: «ثيرون»، وَالله أَعْلم. وقَال أَبُو عُبَيْدَة ابْن عَبْد الله بْن مَسْعُود: وأثرون هُوَ ابْن أَخِي شُعَيْب عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَعَنْ أَبِي [حَمْزَة][2]، عَنْ ابْن عَبَّاس: الَّذِي اسْتَأْجَرَ مُوسَى يَثْرَى صَاحِب مَدْيَن. رَوَاهُ ابْن جَرِير، ثُمَّ قَال: وَالصَّوَاب أَنَّ هَذَا لا يُدْرَك إِلَّا بِخَبَرٍ، وَلا خَبَرَ تَجِب بِهِ الحُجَّة فِي ذَلكَ.

وَقَوْله: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾، أَيْ: قَالتْ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَذَا الرَّجُل –قِيل: هِيَ الَّتِي ذَهَبَتْ وَرَاء مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ– قَالتْ لأَبِيهَا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾، أَيْ: لرَعِيَّةِ هَذِهِ الغَنَم. قَال عُمَر، وَابْن عَبَّاس، وَشُرَيْح القَاضِي، وَأَبُو مَالك وَقَتَادَة، وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق، وَغَيْر وَاحِد: لـمَّا قَالتْ: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾. قَال لها أَبُوهَا: وَمَا عِلمك بِذَلكَ؟ قَالتْ: إِنَّهُ رَفَعَ الصَّخْرَة الَّتِي لا يُطِيق حَمْلهَا إِلَّا عَشَرَة رِجَال، وإنه لـمَّا جِئْت مَعَهُ تَقَدَّمْت أَمَامه، فَقَال لِي: كُونِي مِنْ وَرَائِي، فَإِذَا اجتنبت الطَّرِيق فَاحْذِفِي بِحَصَاةٍ أَعْلم بِهَا كَيْف الطَّرِيق لأَهْتَدِيَ إِلَيْهِ. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله –هُوَ ابْن مَسْعُود– قَال: أَفْرَس النَّاس ثَلاثَة: أَبُو بَكْر حِين تَفَرَّسَ فِي عُمَر، وَصَاحِب يُوسُف حِين قَال: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾، وَصَاحِبَة مُوسَى حِين قَالتْ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾.

قَال: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾، أَيْ: طَلبَ إِلَيْهِ هَذَا الرَّجُل الشَّيْخ الكَبِير أَنْ يَرْعَى عَنْه، وَيُزَوِّجهُ إِحْدَى ابْنَتَيْهِ هَاتَيْنِ. قَال شُعَيْب الجُبَّائِيّ: وَهُمَا صفورا وليا. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: صفورا وشرقا، وَيُقَال: ليا. وَقَدْ اسْتَدَلَّ أَصْحَاب أَبِي حَنِيفَة بِهَذِهِ الآيَة عَلى صِحَّة البَيْع فِيمَا إِذَا قَال: بِعْتُك أَحَد هَذَيْنِ العَبْدَيْنِ بِمِائَةٍ. فَقَال: اشْتَرَيْت؛ أَنَّهُ يَصِحّ، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾، أَيْ: عَلى أَنْ تَرْعَى عليَّ ثَمانِي سِنِينَ، فَإِنْ تَبَرَّعْت بِزِيَادَةِ سَنَتَيْنِ فَهُوَ إِلَيْك، وَإِلَّا فَفِي ثمانٍ كِفَايَة، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: لا أُشَاقّك، وَلا أُؤَاذِيكَ، وَلا أُمَارِيك. وَقَدْ اسْتَدَلُّوا بِهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة لمَذْهَب الأَوْزَاعِيّ فِيمَا إِذَا قَال: بِعْتُك هَذَا بِعَشَرَةٍ نَقْدًا، أَوْ بِعِشْرِينَ نَسِيئَة، أَنَّهُ يَصِحّ، وَيَخْتَار المُشْتَرِي بِأَيِّهمَا أَخَذَهُ صَحَّ، وَحُمِل الحَدِيث المَرْوِيّ فِي «سُنَن أَبِى دَاوُد»: «مَنْ بَاعَ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَة، فَلهُ أَوْكَسهمَا أَوْ الرِّبَا»[3]. عَلى هَذَا المَذْهَب، وَفِي الاسْتِدْلال بِهَذِهِ الآيَة وَهَذَا الحَدِيث عَلى هَذَا المَذْهَب –نَظَر، لَيْسَ هَذَا مَوْضِع بَسْطه لطُوله، وَالله أَعْلم.

ثُمَّ قَدْ اسْتَدَلَّ أَصْحَاب الإِمَام أَحْمَد وَمَنْ تَبِعَهُمْ، فِي صِحَّة اسْتِئْجَار الأَجِير بِالطُّعْمَةِ وَالكِسْوَة بِهَذِهِ الآيَة،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧/ ٥٥/ ٦٣٦٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١٠/ ٢١) وفيه من لم أعرفهم.
(٢) في (ز): [سمره].
(٣) حسن: أخرجه أبو داود (٣٤٦١)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

وَاسْتَأْنَسُوا فِي ذَلكَ بِمَا رَوَاهُ أَبُو عَبْد الله مُحَمَّد ابْن يَزِيد بْن مَاجَهْ فِي كِتَابه «السُّنَن»، حَيْثُ قَال: بَاب اسْتِئْجَار الأَجِير عَلى طَعَام بَطْنه: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن الْمُصَفَّى الحِمْصِيّ، حَدَّثَنَا بَقِيَّة بْن الوَلِيد، عَنْ مَسْلمَة بْن عَلِيّ، عَنْ سَعِيد ابْن أَبِي أَيُّوب، عن الحَارِث بْن يَزِيد، عَنْ عَلِيّ بْن رَبَاح، قَال: سَمِعْت عُتْبَة بْن النُّدر يَقُول: كُنَّا عِنْد رَسُول الله ﷺ فَقَرَأَ ﴿طسٓمٓ﴾، حَتَّى إِذَا بَلَغَ قِصَّة مُوسَى قَال: «إِنَّ مُوسَى آجَرَ نَفْسه ثَمَانِي سِنِينَ -أَوْ: عَشْرَ سِنِينَ- عَلى عِفَّة فَرْجه وَطَعَام بَطْنه»[1]. وَهَذَا الحَدِيث مِنْ هَذَا الوَجْه ضَعِيف؛ لأَنَّ مَسْلمَة بْن عَلِيّ -وَهُوَ الخُشَنِيّ الدِّمَشْقِيّ البَلَّاطِيّ- ضَعِيف الرِّوَايَة عِنْد الأَئِمَّة، وَلكِنْ قَدْ رُوِيَ مِنْ وَجْه آخر، وَفِيهِ نَظَر أَيْضًا.

فقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا صَفْوَان، حَدَّثَنَا الوَلِيد، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن لِهِيعَة، عَنْ الحَارِث بْن يَزِيد الحَضْرَمِيّ، عَنْ عَلِيّ بْن رَبَاح اللَّخْمِيّ، قَال: سَمِعْت عُتْبَة بْن النُّدر السُّلمِيّ صَاحِب رَسُول الله ﷺ يُحَدِّث أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «إِنَّ مُوسَى آجَرَ نَفْسه بِعِفَّةِ فَرْجه، وَطُعْمَة بَطْنه».

وَقَوْله تَعَالى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، يَقُول: إِنَّ مُوسَى قَال لِصِهْرِهِ: الأَمْر عَلى مَا قُلت مِنْ أَنَّك اسْتَأْجَرْتنِي عَلى ثَمَان سِنِينَ، فَإِنْ أَتْمَمْتُ عشْرًا فَمِنْ عِنْدِي، فَأَنَا مَتَى فَعَلت أَقَلّهمَا فَقَدْ بَرِئْت مِنْ العَهْد، وَخرَجْت مِنْ الشَّرْط، وَلِهَذَا قَال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾، أَيْ: فَلا حَرَج عَلِيَّ مَعَ أَنَّ الكَامِل -وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا- لكِنَّهُ فَاضِل مِنْ جِهَة أُخْرَى، بِدَلِيلِ مِنْ خَارِج، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. وَقَال رَسُول الله ﷺ لِحَمْزَة بْن عَمْرو الأَسْلمِيّ رضي الله عنه وَكَانَ كَثِير الصِّيَام، وَسَأَلهُ عَنْ الصَّوْم فِي السَّفَر فَقَال: «إِنْ شِئْت فَصُمْ، وَإِنْ شِئْت فَأَفْطِرْ»[2]. مَعَ أَنَّ فِعْل الصِّيَام رَاجِح مِنْ دَلِيل آخر، هَذَا وَقَدْ دَلَّ الدَّلِيل عَلى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا فَعَل أَكْمَل الأَجَليْنِ وَأَتَمّهمَا.

قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحِيم، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن سُليْمَان، حَدَّثَنَا مَرْوَان بْن شُجَاع، عَنْ سَالم الأَفْطَس، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر قَال: سَأَلنِي يَهُودِيّ مِنْ أَهْل الحِيرَة: أَيّ الأَجَليْنِ قَضَى مُوسَى؟ فَقُلت: لا أَدْرِي حَتَّى أَقْدَم عَلى حَبْر العَرَب فَأَسْأَلهُ. فَقَدِمْت فسألت ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما فَقَال: قَضَى أَكْثَرهمَا وَأَطْيَبهمَا، إِنَّ رَسُول الله إِذَا قَال فَعَل.[3] هَكَذَا رَوَاهُ البخاري، وهَكَذَا رواه حَكِيم بْن جُبَيْر وَغَيْره، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر. وَوَقَعَ فِي «حَدِيث الفُتُون»، رِوَايَة القَاسِم بْن أَبِي أَيُّوب، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر: أَنَّ الَّذِي سَأَلهُ رَجُل مِنْ أَهْل النَّصْرَانِيَّة، وَالأَوَّل أَشْبَه، وَالله أَعْلم. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيث ابْن عَبَّاس مَرْفُوعًا.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مُحَمَّد الطُّوسِيّ حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيّ حَدَّثَنَا سُفْيَان حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيم بْن يَحْيَى بْن أَبِي يَعْقُوب عَنْ الحَكَم بْن أَبَان عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**سَأَلت جِبْرِيل: أَيّ الأَجَليْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَال: أَتَمّهمَا وَأَكْمَلهمَا**»[4]. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الحُمَيْدِيّ، عَنْ سُفْيَان -وَهُوَ ابْن عُيَيْنَة- حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيم بْن يَحْيَى بْن أَبِي يَعْقُوب -وَكَانَ مِنْ أَسْنَانِي أَوْ أَصْغَر مِنِّي- فَذَكَرَهُ. **قلت:** وَإِبْرَاهِيم هَذَا لَيْسَ بِمَعْرُوفٍ. وَرَوَاهُ البَزَّار عَنْ أَحْمَد بْن أَبَان القُرَشِيّ، عَنْ سُفْيَان بْن عُيَيْنَة عَنْ إِبْرَاهِيم بْن أَعْيَن، عَنْ الحَكَم بْن أَبَان

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٤)، وفيه بقية: مدلس وقد عنعن. وسلمة بن علي: متروك. وقال الألباني: «ضعيف جدًا»، انظر «ضعيف سنن ابن ماجه».
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٨٤).
(٤) صحيح: صححه الألباني في «الصحيحة» (١٨٨٠).

عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابن عَبَّاس عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَهُ، ثُمَّ قَال: لا نَعْرِفهُ مَرْفُوعًا عَنْ ابن عَبَّاس إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه.
وقَال ابْن أَبِي حَاتِم: قُرِئَ عَلى يُونُس بْن عَبْد الأَعْلى، أَنبأَنَا ابْن وَهْب، أَنبأَنَا عَمْرو بْن الحَارِث، عَنْ يَحْيَى بْن مَيْمُون الحَضْرَمِيّ، عَنْ يُوسُف بْن سَرْح، أَنَّ رَسُول الله ﷺ سُئِل: أَيّ الأَجَليْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَال: «لا عِلم لي». فَسَأَل رَسُول الله ﷺ جِبْرِيل، فَقَال جِبْرِيل: لا عِلم لي. فَسَأَل جِبْرِيل مَلكًا فَوْقه، فَقَال: لا عِلم لي. فَسَأَل ذَلكَ المَلك رَبّه ﷻ عَمَّا سَأَلهُ عَنْهُ جِبْرِيل عَمَّا سَأَلهُ عَنْهُ مُحَمَّد ﷺ فَقَال الرَّبّ سبحانه وتعالى: «قَضَى أَبَرّهمَا وَأَبْقَاهُمَا -أَوْ قَال: أَزْكَاهُمَا-»[1]. وَهَذَا مُرْسَل: وَقَدْ جَاءَ مُرْسَلًا مِنْ وَجْه آخر، قَال سُنَيْد: حَدَّثَنَا حَجَّاج، عَنْ ابْن جُرَيْج، قَال: قَال مُجَاهِد: إِنَّ النَّبِيّ ﷺ سَأَل جِبْرِيل: «أَيّ الأَجَليْنِ قَضَى مُوسَى؟ فَقَال: سَوْفَ أَسْأَل إِسْرَافِيل. فَسَأَلهُ فَقَال: سَوْفَ أَسْأَل الرَّبّ ﷻ. فَسَأَلهُ فَقَال: أَبَرّهمَا وَأَوْفَاهُمَا».

طَرِيق أُخْرَى مُرْسَلة أَيْضًا: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن وَكِيع، حَدَّثَنَا أَبِي، حدثنا أبو مَعْشَر، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، قَال: سُئِل رَسُول الله ﷺ : أَيّ الأَجَليْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَال: «أَوْفَاهُمَا وَأَتَمّهمَا». فَهَذِهِ طُرُق مُتَعَاضِدَة، ثُمَّ قَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا مِنْ رِوَايَة أَبِي ذَرّ ﷺ؛ قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْد الله يَحْيَى بْن مُحَمَّد بْن السَّكَن، حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِدْرِيس، حَدَّثَنَا عويد بْن أَبى عِمْرَان الجَوْنِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْد الله بْن الصَّامِت، عَنْ أَبِي ذَرّ ﷺ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ سُئِل: أَيّ الأَجَليْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَال: «أَوْفَاهُمَا وَأَبَرّهمَا». قَال: «وَإِنْ سُئِلت: أَيّ المَرْأَتَيْنِ تَزَوَّجَ؟ فَقُل: الصُّغْرَى مِنْهُمَا»[2]. ثُمَّ قَال البَزَّار: لا نَعْلم يُرْوَي عَنْ أَبِي ذَرّ إِلَّا بِهَذَا الإِسْنَاد. وَقَدْ رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث عويد بْن أَبِي عِمْرَان -وَهُوَ ضَعِيف-.

ثُمَّ قَدْ رُوِيَ أَيْضًا نَحْوه مِنْ حَدِيث عُتْبَة بْن الندر بِزِيَادَةٍ غَرِيبَة جِدًّا، فَقَال أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا عُمَر بْن الخَطَّاب السِّجِسْتَانِيّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن بُكَيْر، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، حَدَّثَنَا الحَارِث بْن يَزِيد، عَنْ عَلِيّ بْن رَبَاح اللَّخْمِيّ قَال: سَمِعْت عُتْبَة بْن الندر يَقُول: إِنَّ رَسُول الله ﷺ سُئِل: أَيّ الأَجَليْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَال: «أَبَرّهمَا وَأَوْفَاهُمَا». ثُمَّ قَال النَّبِيّ ﷺ : «إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام لَمَّا أَرَادَ فِرَاق شُعَيْب عَلَيْهِ السَّلَام أَمَرَ امْرَأَته أَنْ تَسْأَل أَبَاهَا أَنْ يُعْطِيهَا مِنْ غَنَمه مَا يَعِيشُونَ بِهِ، فَأَعْطَاهَا مَا وَلَدَتْ غَنَمه فِي ذَلكَ العَام مِنْ قَالب لَوْن». قَال: «فَمَا مَرَّتْ شَاة إِلَّا ضَرَبَ جَنْبهَا مُوسَى بِعَصَاهُ، فَوَلَدَتْ قَوَالب أَلْوَان كُلّهَا وَوَلَدَتْ ثِنْتَيْنِ وَثَلَاثًا كُلّ شَاة لَيْسَ فِيهَا فَشُوش وَلا ضَبُوب وَلا كَمِيشَة تَفُوت الكَفّ، وَلا ثَعُول». وَقَال رَسُول الله ﷺ : «إِذَا افتتحتم الشَّام فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ بَقَايَا مِنْهَا، وَهِيَ السَّامِرِيَّة»[3]. هَكَذَا أَوْرَدَهُ البَزَّار.

وَقَدْ رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم بِأَبْسَطَ مِنْ هَذَا فَقَال: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن عَبْد الله بْن بُكَيْر، حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن لَهِيعَة /ح/ ، وَحَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا صَفْوَان، حَدَّثَنَا الوَلِيد، حدثنا عَبْد الله بْن لَهِيعَة، عَنْ الحَارِث ابْن يَزِيد الحَضْرَمِيّ عَنْ عَلِيّ بْن رَبَاح اللَّخْمِيّ، قَال: سَمِعْت عُتْبَة بْن النذر السُّلَمِيّ صَاحِب رَسُول الله ﷺ يُحَدِّث أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام آجَرَ نَفْسه بِعِفَّةِ فَرْجه وَطُعْمَة بَطْنه. فَلَمَّا وَفَّى الأَجَل». قِيل: يَا رَسُول الله؛ أَيّ: الأَجَليْنِ؟ قَال: «أَبَرّهمَا وَأَوْفَاهُمَا، فَلَمَّا أَرَادَ فِرَاق شُعَيْب أَمَرَ امْرَأَته أَنْ تَسْأَل أَبَاهَا أَنْ يُعْطِيهَا مِنْ غَنَمه مَا يَعِيشُونَ بِهِ، فَأَعْطَاهَا مَا وَلَدَتْ غَنَمه مِنْ قَالب لَوْن مِنْ وَلد ذَلكَ العَام، وَكَانَتْ غَنَمه سَوْدَاء حَسْنَاء،

---

(١) **مرسل :** أخرجه البزار (٢٢٤٥) «كشف» عن يوسف بن سرح، ورجاله ثقات، لكنه مرسل.
(٢) **ضعيف الإسناد :** أخرجه البزار (٢٢٤٤)، وفيه إسحاق بن إدريس: متروك.
(٣) **ضعيف :** أخرجه البزار (٢٢٤٦)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف.

فَانْطَلَقَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلى عَصَاهُ فسملها مِنْ طَرَفِهَا، ثُمَّ وَضَعَهَا فِي أَدْنَى الحَوْض، ثُمَّ أَوْرَدَهَا فَسَقَاهَا، وَوَقَفَ مُوسَى بِإِزَاءِ الحَوْض، فَلَمْ تَصْدُر مِنْهَا شَاة إلاَّ ضَرَبَ جَنْبهَا شَاة شَاة، قَال: فَأَتْأَمَتْ وأثلثت، وَوَضَعَتْ كُلّهَا قَوَالب أَلْوَان، إلاَّ شَاة أَوْ شَاتَيْنِ لَيْسَ فِيهَا فَشُوش -قَال يَحْيَى: وَلا ضَبُون. وَقَال صَفْوَان: وَلا ضبُوب. قَال أَبُو زُرْعَة: الصَّوَاب ضبوب- وَلا عَزُوز وَلا ثَعُول وَلا كَمِيشة تَفُوت الكَفّ». قَال النَّبِيّ ﷺ : «لَوْ افْتَتَحْتُمْ الشَّام وَجَدْتُمْ بَقَايَا تِلكَ الغَنَم وَهِيَ السَّامِرِيَّة».

وَحَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا صَفْوَان، قَال: سَمِعْت الوَلِيد قَال: سَأَلت ابْن لهِيعَة: مَا الفَشُوش؟ قَال: الَّتِي تَفُشّ بِلبَنِهَا وَاسِعَة الشَّخْب. قُلت: فَمَا الضَّبُوب؟ قَال: الطَّوِيلة الضَّرْع تَجُرّه، قُلت: فَمَا العَزُوز؟ قَال: ضَيِّقَة الشَّخْب. قُلت: فَمَا الثَّعُول؟ قَال: الَّتِي لَيْسَ لهَا ضَرْع إِلَّا كَهَيْئَةِ حلمَتَيْنِ. قُلت: فَمَا الكَمِيشَة؟ قَال: الَّتِي تَفُوت الكَفّ، كَمِيشَة الضَّرْع، صَغِير لا يُدْرِكهُ الكَفّ. مدار هَذَا الحَدِيث عَلى عَبْد الله بْن لهِيعَة المِصْرِيّ -وَفِي حِفْظه سُوء- وَأَخْشَى أَنْ يَكُون رَفْعه خَطَأً، وَالله أَعْلم. وَيَنْبَغِي أَنْ يُرْوَى: لَيْسَ فِيهَا فَشُوش وَلا عَزُوز، وَلا ضَبُوب وَلا ثَعُول وَلا كَمِيشَة؛ لِتُذْكَر كل صِفَة نَاقِصَة مع مَا يُقَابلهَا مِنْ الصِّفَات النَّاقِصَة. وَقَدْ رَوَى ابْن جَرِير مِنْ كَلام أَنَس بْن مَالك -مَوْقُوفًا عَليْهِ- مَا يُقَارِب بَعْضه بِإِسْنَادٍ جَيِّد، فَقَال: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا مُعَاذ بْن هِشَام، حَدَّثَنَا أَبِي، عن قَتَادَة، حَدَّثَنَا أَنَس بْن مَالك رضي الله عنه قَال: لـمَّا دَعَا نَبِيّ الله مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ صَاحِبه إِلى الأَجَل الَّذِي كَانَ بَيْنهمَا، قَال لهُ صَاحِبه: كُلّ شَاة وَلدَتْ عَلى غَيْر لوْنهَا ذلك وَلدهَا لك. فَعَمَدَ فَرَفَعَ حِبَالًا عَلى المَاء، فَلمَّا رَأَتْ الخَيَال فَزِعَتْ فَجَالتْ جَوْلة، فَوَلدْنَ كُلّهنَّ بُلقًا إِلَّا شَاة وَاحِدَة، فَذَهَبَ بِأَوْلادِهِنَّ كُلّهنَّ ذَلكَ العَام.

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾.

قَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِير الآيَة قَبْلهَا أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَضَى أَتَمّ الأَجَلَيْنِ وَأَوْفَاهُمَا وَأَبَرّهمَا وَأَكْمَلهمَا وَأَنْقَاهُمَا. وَقَدْ يُسْتَفَاد هَذَا أَيْضًا مِنْ الآيَة الكَرِيمَة من قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾، أَيْ: الأَكْمَل مِنْهُمَا، وَالله أَعْلم. قَال ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد: قَضَى عَشْر سِنِينَ وَبَعْدهَا عَشْرًا أُخَر. وَهَذَا القَوْل لمْ أَرَهُ لغَيْرِهِ، وَقَدْ حَكَاهُ عَنْهُ ابن جرير وابْن أَبِي حَاتِم، والله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾، قَالُوا: كَانَ مُوسَى قَدْ اشْتَاقَ إِلى بِلاده وَأَهْله، فَعَزَمَ عَلى زِيَارَتهمْ فِي خُفْيَة مِنْ فِرْعَوْن وَقَوْمه، فَتَحَمَّل بِأَهْلِهِ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ الغَنَم الَّتِي وَهَبَهَا لهُ صِهْره، فَسَلكَ بِهِمْ فِي لَيْلة مَطِيرَة مُظْلمَة بَارِدَة، فَنَزَل مَنْزِلًا، فَجَعَل كُلَّمَا أَوْرَى زَنْده لا يُضِيء شَيْئًا، فَتَعَجَّبَ مِنْ ذَلكَ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلكَ إِذ: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾، أَيْ: رَأَى نَارًا تُضِيء لهُ عَلى بُعْد، فَـ ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أَيْ: حَتَّى أَذْهَب إِليْهَا، ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾. وَذَلكَ لأَنَّهُ قَدْ أَضَلَّ الطَّرِيق، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، أَيْ: قِطْعَة مِنْهَا، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، أَيْ: تَتَدَفَّئون بِهَا مِنْ البَرْد. قَال الله تَعَالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، أَيْ: مِنْ جَانِب الوَادِي مِمَّا يَلِي الجَبَل عَنْ يَمِينه مِنْ نَاحِيَة الغَرْب؛ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ

قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾، فَهَذَا مِمَّا يُرْشِد إِلَى أَنَّ مُوسَى قَصَدَ النَّار إِلَى جِهَة القِبْلَة، وَالجَبَل الغَرْبِيّ عَنْ يَمِينه، وَالنَّار وَجَدَهَا تَضْطَرِم فِي شَجَرَة خَضْرَاء فِي لحف الجَبَل مِمَّا يَلِي الوَادِي، فَوَقَفَ بَاهِتًا فِي أَمْرِهَا، فَنَادَاهُ رَبّه: ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن وَكِيع، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ أَبِي عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله؛ قَال: رَأَيْت الشَّجَرَة الَّتِي نُودِيَ مِنْهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَمُرَة خَضْرَاء تَرِفّ. إِسْنَاده مُقَارِب. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ بَعْض مَنْ لا يُتَّهَم، عَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه قَال: شَجَرَة مِنْ العُلَّيْق، وَبَعْض أَهْل الكِتَاب يَقُول: مِنْ العَوْسَج.

وَقَال قَتَادَة: هِيَ مِنْ العَوْسَج، وَعَصَاهُ مِنْ العَوْسَج. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أَيْ: الَّذِي يُخَاطِبك وَيُكَلِّمك هُوَ رَبّ العَالَمِينَ، الفَعَّال لِمَا يَشَاء، لا إِله غَيْره وَلا رَبّ سِوَاهُ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ مُمَاثَلَة المَخْلُوقَات فِي ذَاته وَصِفَاته، وَأَقْوَاله وَأَفْعَاله، سُبْحَانه.

وقَوْله: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾، أَيْ: الَّتِي فِي يَدك. كَمَا قَرَّرَهُ عَلَى ذَلِكَ فِي قَوْله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾. وَالمَعْنَى: أَمَا هَذِهِ عَصَاك الَّتِي تَعْرِفهَا؟ ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، فَعَرَفَ وَتَحَقَّق أَنَّ الَّذِي يُخَاطِبهُ وَيُكَلِّمهُ هُوَ الَّذِي يَقُول لِلشَّيْءِ: كُنْ، فَيَكُون. كَمَا تَقَدَّمَ بَيَان ذَلِكَ فِي «سُورَة طه» وَقَال هَهُنَا: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾، أَيْ: تَضْطَرِب ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، أَيْ: فِي حَرَكَتهَا السَّرِيعَة مَعَ عِظَم خلقة قَوَائِمهَا وَاتِّسَاع فَمهَا وَاصْطِكَاك أَنْيَابهَا وَأَضْرَاسهَا، بِحَيْثُ لا تَمُرّ بِصَخْرَةٍ إِلَّا ابْتَلَعَتْهَا، فَتَنْحَدِر فِي فِيهَا تَقَعْقَع كَأَنَّهَا حَادِرَة فِي وَادٍ. فَعِنْد ذَلِكَ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾. أَيْ: وَلَمْ يَلْتَفِت، لأَنَّ طَبْع البَشَرِيَّة يَنْفِر مِنْ ذَلِكَ. فَلَمَّا قَال الله لَهُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾، رَجَعَ فَوَقَفَ فِي مَقَامه الأَوَّل، ثم قَال الله له: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾. أَيْ: إِذَا أَدْخَلت يَدك فِي جَيْب دِرْعك، ثُمَّ أَخْرَجْتهَا فَإِنَّهَا تَخْرُج تَتَلأْلأ، كَأَنَّهَا قِطْعَة قَمَر فِي لَمَعَان البَرْق. وَلِهَذَا قَال: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، أَيْ: مِنْ غَيْر بَرَص.

وَقَوْله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، قَال مُجَاهِد: مِنْ الفَزَع. وَقَال قَتَادَة: مِنْ الرُّعْب. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم، وَابْن جَرِير: مِمَّا حَصَل لك مِنْ خَوْفك مِنْ الحَيَّة. وَالظَّاهِر أَنَّ المُرَاد أَعَمّ مِنْ هَذَا، وَهُوَ أَنَّهُ أُمِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا خَافَ مِنْ شَيْء أَنْ يَضُمّ إِلَيْهِ جَنَاحه مِنْ الرَّهْب وهي يَده، فَإِذَا فَعَل ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدهُ مِنْ الخَوْف، وَرُبَّمَا إِذَا اسْتَعْمَل أَحد ذَلِكَ عَلَى سَبِيل الاقْتِدَاء فَوَضَعَ يَده عَلَى فُؤَاده، فَإِنَّهُ يَزُول عَنْهُ مَا يَجِدهُ أَوْ يَخِفّ إِنْ شَاءَ الله وَبِهِ الثِّقَة. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا الرَّبِيع بْن ثعلب الشَّيْخ الصَّالح، أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْمَاعِيل المُؤَدِّب عَنْ عَبْد الله بْن مُسْلم، عَنْ مُجَاهِد قَال: كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ مُلِئَ قَلبه رُعْبًا مِنْ فِرْعَوْن، فَكَانَ إِذَا رَآهُ قَال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْرَأ بِك فِي نَحْره، وَأَعُوذ بِك مِنْ شَرّه، ففرغ الله مَا كَانَ فِي قَلب مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَعَلهُ فِي قَلب فِرْعَوْن، فَكَانَ إِذَا رَآهُ بَال كَمَا يَبُول الحِمَار.

وَقَوْله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾، يَعْنِي: إِلقَاءه العَصَا وَجَعْلهَا حَيَّة تَسْعَى، وَإِدْخَاله يَده فِي جَيْبه فَتَخْرُج بَيْضَاء مِنْ غَيْر سُوء، دَلِيلانِ قَاطِعَانِ وَاضِحَانِ عَلى قُدْرَة الفَاعِل المُخْتَار، وَصِحَّة نُبُوَّة مَنْ جَرَى هَذَا الخَارِق عَلى يَدَيْهِ، وَلِهَذَا قَال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ أَيْ: وَقَوْمه مِنْ الرُّؤَسَاء وَالكُبَرَاء وَالأَتْبَاع ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أَيْ: خَارِجِينَ عَنْ طَاعَة الله، مُخَالِفِينَ لدين الله.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

لـمَّا أَمَرَهُ الله تَعالى بِالذَّهابِ إِلى فِرْعَوْن، الَّذي إِنَّما خَرَجَ مِنْ دِيار مِصْر فِرارًا مِنْهُ وَخَوْفًا مِنْ سَطْوَته، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾، يَعْني ذَلكَ القِبْطِيّ، ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أَيْ: إِذَا رَأَوْنِي. ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وَذَلكَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي لِسَانه لُثْغَة، بِسَبَبِ مَا كَانَ تَنَاوَل تِلْكَ الجَمْرَة، حِين خُيِّرَ بَيْنَهَا وَبَيْن التَّمْرَة أَوِ الدُّرَّة، فَأَخَذَ الجَمْرَة فَوَضَعَهَا عَلى لِسَانه، فَحَصَل فِيهِ شِدَّة فِي التَّعْبِير، وَلهَذَا قَال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾، أَيْ: يُؤْنِسني فِيمَا أَمَرْتَني بِهِ مِنْ هَذَا المَقَام العَظِيم وَهُوَ القِيَام بِأَعْبَاءِ النُّبُوَّة وَالرِّسَالة إِلى هَذَا المَلك المُتَكَبِّر الجَبَّار العَنِيد، وَلهَذَا قَال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾، أَيْ: وَزِيرًا وَمُعِينًا وَمُقَوِّيًا لأَمْرِي، يُصَدِّقني فِيمَا أَقُولهُ وَأُخْبِر بِهِ عَنْ الله ﷻ، لأَنَّ خَبَر الاثْنَيْنِ أَنْجَع فِي النُّفُوس مِنْ خَبَر وَاحِد؛ وَلهَذَا قَال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

وَقَال مُحَمَّد بن إِسْحَاق: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أَيْ: يُبَيِّن لَهُمْ عَنِّي مَا أُكَلِّمهُمْ بِهِ فَإِنَّهُ يَفْهَم مَا لا يَفْهَمُون. فلَمَّا سَأَل ذَلكَ مُوسَى قَال الله تَعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، أَيْ: سَنُقَوِّي أَمْرك وَنُعِزّ جَانِبك بِأَخِيك الَّذِي سَأَلت لَهُ أَنْ يَكُون نَبِيًّا مَعَك، كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾، وَقَال تَعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ وَلهَذَا قَال بَعْض السَّلَف: لَيْسَ أَحَد أَعْظَم مِنَّة عَلى أَخِيهِ مِنْ مُوسَى عَلى هَارُون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَإِنَّهُ شَفَعَ فِيهِ حَتَّى جَعَلهُ الله نَبِيًّا وَرَسُولًا مَعَهُ إِلى فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ، وَلهَذَا قَال فِي حَقّ مُوسَى: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.

وَقَوْله تَعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أَيْ: حُجَّة قَاهِرَة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ أَيْ: لا سَبِيل لَهُمْ إِلى الوُصُول إِلى أَذَاكُمَا بِسَبَبِ إِبْلاغكُمَا آيَات الله، كَمَا قَال الله تَعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، إِلى قَوْله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وَقَال تَعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾، أَيْ: وَكَفَى بِالله نَاصِرًا وَمُعِينًا وَمُؤَيِّدًا. وَلهَذَا أَخْبَرَهُمَا أَنَّ العَاقِبَة لَهُمَا وَلِمَنْ اتَّبَعَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، فَقَال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾، كَمَا قَال تَعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، وَقَال تَعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، وَوَجَّهَ ابْن جَرِير عَلى أَنَّ المَعْنَى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، ثُمَّ يَبْتَدِئ فَيَقُول: ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾، تَقْدِيره: أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ بِآيَاتِنَا. وَلا شَكَّ أَنَّ هَذَا المَعْنَى صَحِيح، وَهُوَ حَاصِل مِنَ التَّوْجِيه الأَوَّل، فَلا حَاجَة إِلى هَذَا، وَالله أَعْلم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ۝٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

يُخْبِر تَعالى عَنْ مَجِيء مُوسَى وَأَخِيهِ هَارُون إِلى فِرْعَوْن وَمَلَئِهِ، وَعَرْضه مَا آتَاهُمَا الله مِنَ المُعْجِزَات البَاهِرَة وَالدَّلالات القَاهِرَة، عَلى صِدْقهمَا فِيمَا أَخْبَرَا بِهِ عَنْ الله ﷻ من تَوْحِيده وَاتِّبَاع أَوَامِره، فَلَمَّا عَايَنَ فِرْعَوْن وَمَلَؤُهُ ذَلكَ وَشَاهَدُوهُ وَتَحَقَّقُوهُ، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ مِنْ عِند الله، عَدَلُوا بِكُفْرِهِمْ وَبَغْيهمْ إِلى العِنَاد وَالمُبَاهَتَة، وَذَلكَ لِطُغْيَانِهِمْ وَتَكَبُّرهِمْ عَنْ اتِّبَاع الحَقّ فَقَالُوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أَيْ: مُفْتَعَل مَصْنُوع. أَرَادُوا مُعَارَضَته بِالحِيلَة وَالجَاه فَمَا صَعِدَ مَعَهُمْ ذَلكَ.

وَقَوْله: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، يَعْنُونَ عِبَادَةَ اللهِ وَحْده لا شَرِيك لهُ، يَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا أَحَدًا مِنْ آبَائِنَا عَلَى هَذَا الدِّين، وَلَمْ نَرَ النَّاس إِلَّا يُشْرِكُونَ مَعَ اللهِ آلهَة أُخْرَى. فَقَال مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾، يَعْنِي: مِنِّي وَمِنكُمْ، وَسَيَفْصِلُ بَيْنِي وَبَيْنكُمْ، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، أَيْ النُّصْرَة وَالظَّفَر وَالتَّأْيِيد؛ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أَيْ: الْمُشْرِكُونَ بِالله.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾.

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ كُفْر فِرْعَوْن وَطُغْيَانه وَافْتِرَائِهِ فِي دَعْوَاهُ الإِلَهِيَّة لِنَفْسِهِ القَبِيحَة -لَعَنَهُ الله- كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، وَذَلِكَ لأَنَّهُ دَعَاهُمْ إِلى الاعْتِرَاف لهُ بِالإِلهِيَّةِ، فَأَجَابُوهُ إِلى ذَلِكَ بِقِلَّةِ عُقُولِهِمْ وَسَخَافَة أَذْهَانِهِمْ، وَلِهَذَا قَال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وَقَال تَعَالى إِخْبَارًا عَنْهُ: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾. يَعْنِي: أَنَّهُ جَمَعَ قَوْمه وَنَادَى فِيهِمْ بِصَوْتِهِ العَالِي مُصَرِّحًا لَهُمْ بِذَلِك، فَأَجَابُوهُ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ؛ وَلِهَذَا انْتَقَمَ الله تَعَالى مِنْهُ، فَجَعَلهُ عِبْرَة لِغَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَحَتَّى أَنَّهُ وَاجَهَ مُوسَى الكَلِيم بِذَلِكَ قَال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾.

وَقَوْله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي: أَمَرَ وَزِيره هَامَان وَمُدَبِّر رَعِيَّته وَمُشِير دَوْلته أَنْ يُوقِد لهُ عَلى الطِّين، لِيَتَّخِذ لهُ آجُرًّا لِبِنَاءِ الصَّرْح، وَهُوَ القَصْر المُنِيف الرَّفِيع- كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾، وَذَلِكَ لأَنَّ فِرْعَوْن بَنَى هَذَا الصَّرْح الَّذِي لَمْ يُرَ فِي الدُّنْيَا بِنَاء أَعْلى مِنْهُ، إِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا أَنْ يُظْهِر لِرَعِيَّتِهِ تَكْذِيب مُوسَى فِيمَا زَعَمَهُ مِنْ دَعْوَى إِله غَيْر فِرْعَوْن؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾. أَيْ: فِي قَوْله أَنَّ ثَمَّ رَبًّا غَيْرِي، لا أَنَّهُ كَذَّبَهُ فِي أَنَّ الله أَرْسَلهُ، لأَنَّهُ لمْ يَكُنْ يَعْتَرِف بِوُجُودِ الصَّانِع، فَإِنَّهُ قَال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَقَال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، وَقَال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وَهَذَا قَوْل ابْن جَرِير.

وَقَوْله: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾، أَيْ: طَغَوْا وَتَجَبَّرُوا، وَأَكْثَرُوا فِي الأَرْض الفَسَاد، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ لا مَعَاد وَلا قِيَامَة، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾. ولهذا قال هَهُنَا: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾، أَيْ: أَغْرَقْنَاهُمْ فِي البَحْر فِي صَبِيحَة وَاحِدَة، فَلَمْ يَبْقَ منهم أَحَد، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾. أَيْ: لِمَنْ سَلكَ وَرَاءَهُمْ وَأَخَذَ بِطَرِيقَتِهِمْ، فِي تَكْذِيب الرُّسُل وَتَعْطِيل الصَّانِع ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أَيْ: فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ خِزْي الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِذُلِّ الآخِرَة، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾، أَيْ: وَشَرَعَ الله لَعْنَتهمْ وَلَعْنَة مَلِكهمْ فِرْعَوْن عَلى أَلْسِنَة الْمُؤْمِنِينَ مِنْ

عِباده المُتَّبِعِينَ رُسُلِهِ، وكَما أَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا مَلعُونُونَ عَلَى أَلسِنَة الأَنْبِياء وَأَتْبَاعهمْ، وكَذَلكَ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾، قَال قَتَادَة: وَهَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالَى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلى عَبْده وَرَسُوله مُوسَى الكَلِيم -عَلَيْهِ مِنْ رَبّه الصَّلاة وَالتَّسْلِيم- مِنْ إِنْزَال التَّوْرَاة عَلَيْهِ بَعْدَمَا أَهْلكَ فِرْعَوْن وَمَلأَهُ. وَقَوْله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾، يَعْنِي: أَنَّهُ بَعْد إِنْزَال التَّوْرَاة لَمْ يُعَذِّب أُمَّة بِعَامَّةٍ، بَل أَمَرَ المُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا أَعْدَاء الله مِنْ المُشْرِكِينَ، كَمَا قَال: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن بَشَّار، حَدَّثَنَا مُحَمَّد وعَبْد الوَهَّاب قَالا: حَدَّثَنَا عَوْف، عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ قَال: مَا أَهْلَكَ الله قَوْمًا بِعَذَابٍ مِنْ السَّمَاء وَلا مِنْ الأَرْض بَعْدَمَا أُنْزِلتْ التَّوْرَاة عَلى وَجه الأَرْض، غَيْر القَرْيَة الَّذِينَ مُسِخُوا قِرَدَة، أَلم تر أن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث عَوْف بْن أَبِي [جميلة][1] الأَعْرَابِيّ بِنَحْوِهِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو بَكْر البَزَّار فِي «مُسْنَده» عَنْ عَمْرو بْن عَلِيّ الفَلَّاس، عَنْ يَحْيَى القَطَّان، عَنْ عَوْف عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ أَبِي سَعِيد مَوْقُوفًا.

ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ نَصْر بْن عَلِيّ، عَنْ عَبْد الأَعْلى، عَنْ عَوْف، عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ أَبِي سَعِيد رَفَعَهُ إِلى النَّبِيّ ﷺ قَال: **«مَا أَهْلَكَ الله قَوْمًا بِعَذَابٍ مِنْ السَّمَاء وَلا مِنْ الأَرْض إِلاَّ قَبْل مُوسَى»**[2]. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

وَقَوْله: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أَيْ: مِنْ العَمَى وَالغَيّ، ﴿وَهُدًى﴾ إِلى الحَقّ، ﴿وَرَحْمَةً﴾ أَيْ: إِرْشَادًا إِلى الأَعمال الصَّالحة؛ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ: لعَلَّ النَّاس يَتَذَكَّرُونَ بِهِ، وَيَهْتَدُونَ بِسَبَبِهِ.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ۝٤٤ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٤٥ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٦ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُنَبِّهًا عَلى بُرْهَان نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ حَيْثُ أَخْبَرَ بِالغُيُوبِ المَاضِيَة، خَبَرًا كَأَنَّ سَامِعه شَاهِدٌ وَرَاءٍ لِمَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ رَجُل أُمِّيّ لا يَقْرَأ شَيْئًا مِنْ الكُتُب، نَشَأَ بَيْن قَوْم لا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِك، كَمَا أَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَهُ عَنْ مَرْيَم وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهَا، قَال تَعَالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. أَيْ: مَا كُنْت حَاضِرًا لذَلكَ، وَلكِنَّ الله أَوْحَاهُ إِليْك، وَهَكَذَا لـمَّا أَخْبَرَهُ عَنْ نُوح وَقَوْمه وَمَا كَانَ مِنْ إِنْجَاء الله لهُ وَإِغْرَاق قَوْمه.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وَقَال فِي آخِر السُّورَة: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ﴾، وَقَال بَعْد ذِكْر قِصَّة يُوسُف:

---

(١) في (ز): [حميد].

(٢) صحيح: أخرجه البزار (٢٢٤٨)، وقال الهيثمي: رواه البزار موقوفًا، ومرفوعًا ورجالهما رجال الصحيح. «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٨)، وأخرجه الطبري (٢٠/ ٨٠).

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾، وَقَال فِي سُورَة طه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾، وَقَال هَهُنَا بَعْدَمَا أَخْبَرَ عَنْ قِصَّة مُوسَى مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا وَكَيْف كَانَ ابْتِدَاء إِيحَاء الله إِلَيْهِ وَتَكْلِيمه لَهُ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾، يَعْنِي: يَا مُحَمَّد، مَا كُنْت بِجَانِبِ الجَبَل الغَرْبِيّ الَّذِي كَلَّمَ الله مُوسَى مِنْ الشَّجَرَة الَّتِي هِيَ شرقِيه عَلَى شَاطِئِ الوَادِي ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لذَلكَ، وَلكِنَّ الله سُبْحَانه وَتَعَالَى أَوْحَى إِلَيْك ذَلكَ؛ ليجعله حُجَّة وَبُرْهَانًا عَلى قُرُون قَدْ تَطَاوَل عَهْدهَا، وَنَسَوْا حُجَج الله عَلَيْهِمْ، وَمَا أَوْحَاهُ إِلَى الأَنْبِيَاء المُتَقَدِّمِين.

وَقَوْله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أَيْ: وَمَا كُنْت مُقِيمًا فِي أَهْل مَدْيَن تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتنَا حِين أُخْبِرْتَ عَنْ نَبِيِّهَا شُعَيْب، وَمَا قَال لقَوْمِهِ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْهِ، ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾، أَيْ: وَلكِنْ نَحْنُ أَوْحَيْنَا إِلَيْك ذَلكَ، وَأَرْسَلنَاك إِلَى النَّاس رَسُولًا.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾. قَال أَبُو عَبْد الرَّحْمَن النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير مِنْ «سُنَنه»: أَخْبَرَنَا عَلِيّ بْن حُجْر، أَخْبَرَنَا عِيسَى -وهو ابْن يُونُس- عَنْ حَمْزَة الزَّيَّات، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ عَلِيّ بْن مُدْرِك، عَنْ أَبِي زُرْعَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾، قَال: نُودُوا أَنْ: يَا أُمَّة مُحَمَّد، أَعْطَيْتُكُمْ قَبْل أَنْ تَسْأَلُونِي، وَأَجَبْتُكُمْ قَبْل أَنْ تَدْعُونِي. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم، مِنْ حَدِيث جَمَاعَة، عَنْ حَمْزَة -وَهُوَ ابْن حَبِيب الزَّيَّات- عَنْ الأَعْمَش.

وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث وَكِيع وَيَحْيَى بْن عِيسَى، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ عَلِيّ بْن مُدْرِك، عَنْ أَبِي زُرْعَة -وَهُوَ ابْن عَمْرو بْن جَرِير- أَنَّهُ قَال ذَلكَ مِنْ كَلامه، وَالله أَعْلَم.

وَقَال مُقَاتِل بْن حَيَّان: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾: أُمَّتك فِي أَصْلاب آبَائِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بك إِذَا بُعِثْت.

وَقَال قَتَادَة: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾: مُوسَى. وَهَذَا وَالله أَعْلَم أَشْبَه بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾. ثُمَّ أَخْبَرَ هَهُنَا بِصِيغَةٍ أُخْرَى أَخَصّ مِنْ ذَلكَ، وَهُوَ النِّدَاء، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾، وَقَال: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾، وَقَال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾، أَيْ: مَا كُنْت مُشَاهِدًا لشَيْءٍ مِنْ ذَلكَ، وَلكِنَّ الله أَوْحَاهُ إِلَيْك وَأَخْبَرَك بِهِ؛ رَحْمَة مِنْهُ لك وَبِالعِبَادِ بِإِرْسَالك إِلَيْهِمْ؛ ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ: لعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ بِمَا جِئْتهمْ بِهِ مِنْ الله ﷻ.

﴿ وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أَيْ: وَأَرْسَلنَاك إِلَيْهِمْ لتُقِيمَ عَلَيْهِمْ الحُجَّة ولتقطع عُذْرهمْ إِذَا جَاءَهُمْ عَذَاب مِنْ الله بِكُفْرِهِمْ، فَيَحْتَجُّوا بِأَنَّهُمْ لمْ يَأْتِهِمْ رَسُول وَلا نَذِير؛ كَمَا قَال تَعَالَى بَعْد ذِكْره إِنْزَال كِتَابه المُبَارَك وَهُوَ القُرْآن: ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾، وَقَال: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ٤٨ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ

صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخبِرًا عَنْ القَوْم الَّذِينَ لوْ عَذَّبهُمْ قَبْل قِيَام الحُجَّة عَليْهِمْ، لاحْتَجُّوا بِأَنَّهُمْ لمْ يَأْتِهِمْ رَسُول: أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَهُمْ الحَقّ مِنْ عِنْده عَلَى لسَان مُحَمَّد ﷺ؛ قَالُوا عَلى وَجه التَّعَنُّت وَالعِنَاد وَالكُفْر وَالجَهْل وَالإِلحَاد: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ﴾ يَعْنُونَ -وَالله أَعْلم- مِنْ الآيَات الكَثِيرَة مِثْل العَصَا، وَاليَد وَالطُّوفَان، وَالجَرَاد، وَالقُمَّل، وَالضَّفَادِع، وَالدَّم، وتنقص الزُّرُوع وَالثِّمَار، مِمَّا يُضَيِّق عَلى أَعْدَاء الله، وَكَفَلقِ البَحْر وَتَظْلِيل الغَمَام وَإِنْزَال المَنّ وَالسَّلوَى، إِلى غَيْر ذَلكَ مِنْ الآيَات البَاهِرَة وَالحُجَج القَاهِرَة، الَّتِي أَجْرَاهَا الله عَلى يَدَيْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حُجَّة وبراهين لهُ عَلى فِرْعَوْن وَمَلئِهِ وَبَنِي إِسْرَائِيل، ومَعَ هَذَا كُلّه لمْ يَنْجَع فِي فِرْعَوْن وَمَلئِهِ، بَل كَفَرُوا بِمُوسَى وَأَخِيهِ هَارُون، كَمَا قَالُوا لهُمَا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾، وَلهَذَا قَال هَهُنَا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ﴾، أَيْ: أَوَلمْ يَكفُر البَشَر بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ تِلكَ الآيَات العَظِيمَة ﴿قَالُوا۟ سَاحِرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، أَيْ: تَعَاوَنَا، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾، أَيْ: بِكُلٍّ مِنْهُمَا كَافِرُونَ. وَلشِدَّةِ التَّلازُم وَالتَّصَاحُب وَالمُقَارَنة بَيْن مُوسَى وَهَارُون، دَلَّ ذِكْر أَحَدهمَا عَلى الآخَر، كَمَا قَال الشَّاعِر:

فَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا ۞ أُرِيدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

أَيْ: فَمَا أَدْرِي أَيَلِينِي الخَيْر أَوْ الشَّرّ؟ قَال مُجَاهِد بن جبر: أَمَرَتْ اليَهُود قُرَيْشًا أَنْ يَقُولُوا لِمُحَمَّدٍ ﷺ ذَلكَ، فَقَال الله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سَاحِرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، قَال: يَعْنِي مُوسَى وَهَارُون صَلَّى الله عَليْهِمَا وَسَلَّمَ: ﴿تَظَٰهَرَا﴾، أَيْ :تَعَاوَنَا وَتَنَاصَرَا، وَصَدَّقَ كُلّ منهما الآخَر. وَبِهَذَا قَال سَعِيد بْن جُبَيْر وَأَبُو رَزِين فِي قَوْله: ﴿سِحْرَانِ﴾. يَعْنُونَ: مُوسَى وَهَارُون. وَهَذَا قَوْل جَيِّد قَوِيّ، وَالله أَعْلم. وَقَال مُسْلم بْن [يَسَار][1]، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، يعني: مُوسَى وَمُحَمَّدًا -صلوات الله وسلامه عَليْهِمَا- وهذه رِوَايَة عن الحَسَن البَصْرِيّ. وَقَال الحَسَن وَقَتَادَة: يَعْنِي عِيسَى وَمُحَمَّد -صَلَّى الله عَليْهِمَا وَسَلَّمَ- وَهَذَا فِيهِ بُعْد، لأَنَّ عِيسَى لمْ يَجْرِ لهُ ذِكْر هَهُنَا، وَالله أَعْلم.

وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، فَقَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة وَالعَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنُونَ التَّوْرَاة وَالقُرْآن. وَكَذَا قَال عَاصِم الجُنْدِيّ، وَالسُّدِّيّ، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم، قَال السُّدِّيّ: يَعْنِي صَدَّقَ كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا الآخَر. وَقَال عِكْرِمَة: يَعْنُونَ التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل، وَهُوَ رِوَايَة عَنْ أَبِي زُرْعَة، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير. وَقَال الضَّحَّاك وَقَتَادَة: الإِنْجِيل وَالقُرْآن. وَالله سُبْحَانه وَتَعَالى أَعْلم بِالصَّوَاب. وَالظَّاهِر عَلى قِرَاءَة: ﴿سِحْرَانِ﴾ أَنَّهُمْ يَعْنُونَ التَّوْرَاة وَالقُرْآن؛ لأَنَّهُ قَال بَعْده: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾. وَكَثِيرًا مَا يَقْرِن الله بَيْن التَّوْرَاة وَالقُرْآن، كَمَا فِي قَوْله تَعَالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ﴾، إِلى أَنْ قَال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾، وَقَال فِي آخِر السُّورَة: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾، إلى أن قَال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. وَقَالتْ الجِنّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾. وَقَال وَرَقَة بْن نَوْفَل: هَذَا النَّامُوس الَّذِي أُنْزِل عَلى مُوسَى. وَقَدْ عُلِمَ بِالضَّرُورَةِ لذَوِي الأَلبَاب أَنَّ الله تَعَالى لمْ يُنْزِل كِتَابًا مِنْ السَّمَاء -فِيمَا أَنْزَل مِنْ الكُتُب المُتَعَدِّدَة عَلى أَنْبِيَائِهِ- أَكْمَل وَلا أَشْمَل وَلا أَفْصَح وَلا أَعْظَم وَلا أَشْرَف مِنْ الكِتَاب الَّذِي أَنْزَل عَلى مُحَمَّد ﷺ وَهُوَ القُرْآن، وَبَعْده فِي الشَّرَف وَالعَظَمَة الكِتَاب الَّذِي أَنْزَلهُ

(١) في (ز): [بشار].

عَلى مُوسَى بن عِمْرَان عَلَيْهِ السَّلَامُ [وَهُوَ الكِتَاب الَّذِي][1] قَال الله فِيهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾، وَالإِنْجِيل إِنَّمَا نزل مُتَمِّمًا للتَّوْرَاةِ، وَمُحِلًّا لبَعْضِ مَا حُرِّمَ عَلى بَنِي إِسْرَائِيل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أَيْ فِيمَا تُدَافِعُونَ بِهِ الحَقّ وَتُعَارِضُونَ بِهِ مِنْ البَاطِل.

قَال الله تَعَالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾، أَيْ: فَإِنْ لمْ يُجِيبُوك عَمَّا قُلت لهُمْ وَلمْ يَتَّبِعُوا الحَقّ، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾، أَيْ: بِلا دَليل وَلا حُجَّة، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: بِغَيْرِ حُجَّة مَأْخُوذَة مِنْ كِتَاب الله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ قَال مُجَاهِد: فَصَّلنَا لهُمْ القَوْل. وَقَال السُّدِّيّ: بَيَّنَّا لهُمْ القَوْل. وَقَال قَتَادَة: يَقُول تَعَالى: أَخْبَرَهُمْ كَيْف صَنَعَ بِمَنْ مَضَى وَكَيْف هُوَ صَانِع، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قَال مُجَاهِد وَغَيْره: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾، يَعْنِي: قُرَيْشًا. وَهَذَا هُوَ الظَّاهِر. لكِنْ قَال حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ يَحْيَى بْن جَعْدَة، عَنْ رِفَاعَة -رِفَاعَة هَذَا هُوَ ابْن قَرَظَة القَرَظِيّ، وَجَعَلهُ ابْن مَنْدَهْ: رِفَاعَة بْن سموال، خَال صَفِيَّة بِنْت حُيَيّ، وَهُوَ الَّذِي طَلَّقَ تَمِيمَة بِنْت وَهْب الَّتِي تَزَوَّجَهَا بَعْده عَبْد الرَّحْمَن بْن الزُّبَيْر بْن بَاطَا، كَذَا ذَكَرَهُ ابْن الأَثِير- قَال: نَزَلتْ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ فِي عَشَرَة، أَنَا أَحَدهمْ[2]. رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم فِي حَدِيثه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ العُلمَاء الأَلبَاء مِنْ أَهْل الكِتَاب أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالقُرْآنِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، وَقَال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾، وَقَال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾، وَقَال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

قَال سَعِيد بْن جُبَيْر: نَزَلتْ فِي سبعين مِنْ القِسِّيسِينَ بَعَثَهُمْ النَّجَاشِيّ، فَلمَّا قَدِمُوا عَلى النَّبِيّ ﷺ قَرَأَ عَليْهِمْ: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾، حَتَّى خَتَمَهَا، فَجَعَلُوا يَبْكُونَ وَأَسْلمُوا، وَنَزَلتْ فِيهِمْ هَذِهِ الآيَة الأُخْرَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾، يَعْنِي: مِنْ قَبْل هَذَا القُرْآن كُنَّا مُسْلمِينَ، أَيْ: مُوَحِّدِينَ مُخْلصِينَ مُسْتَجِيبِينَ لهُ. قَال الله تَعَالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾، أَيْ: هَؤُلاءِ المُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَة الَّذِينَ آمَنُوا بِالكِتَابِ الأَوَّل ثُمَّ بِالثَّانِي، وَلهَذَا قَال: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾، أَيْ: عَلى اتِّبَاع الحَقّ، فَإِنَّ تَجَشُّم مِثْل هَذَا شَدِيد عَلى النُّفُوس. وَقَدْ وَرَدَ فِي «الصحيحين» مِنْ حَدِيث عَامِر الشَّعْبِيّ، عَنْ أَبِي بُرْدَة عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «ثلاثة يُؤْتَوْنَ أَجْرهمْ مرَّتَيْنِ: رَجُل مِنْ أَهْل الكِتَاب آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ آمَنَ بِي، وَعَبْد مَمْلُوك أَدَّى حَقّ الله وَحَقّ مَوَاليه، وَرَجُل

(١) في نسخة: [وهو التوراة التي].

(٢) صحيح: أخرجه الطبري (٢٠/ ٨٨).

كَانَتْ لهُ أَمَة فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا»[١]. وَقَال الإمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن إِسْحَاق السَّيْلحِينِيّ، حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة، عَنْ سُليْمَان بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ القَاسِم بْن أَبِي أُمَامَة قَال: إِنِّي لتَحْتَ رَاحِلة رَسُول الله ﷺ يَوْم الفَتْح، فَقَال قَوْلًا حَسَنًا جَمِيلًا، وَقَال فِيمَا قَال: «مَنْ أَسْلمَ مِنْ أَهْل الكِتَابَيْنِ فَلهُ أَجْره مَرَّتَيْنِ، وَلهُ مَا لنَا وَعَليْهِ مَا عَليْنَا، ومن أسلم من المشركين فله أجره وله ما لنا وعليه ما علينا».[٢]

وَقَوْله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، أَيْ: لا يُقَابِلُونَ السَّيِّئ بِمِثْلِهِ، وَلكِنْ يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ؛ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، أَيْ: وَمِنْ الَّذِي رَزَقَهُمْ مِنْ الحَلال يُنْفِقُونَ عَلى خَلق الله فِي النَّفَقَات الوَاجِبَة لأَهْلِهِمْ وَأَقَارِبهمْ، وَالزَّكَاة المَفْرُوضَة وَالمُسْتَحَبَّة مِنْ التَّطَوُّعَات وَصَدَقَات النَّفْل وَالقُرُبَات.

وَقَوْله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، أَيْ: لا يُخَالطُونَ أَهْله وَلا يُعَاشِرُونَهُمْ، بَل كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾. ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أَيْ: إِذَا سَفِهَ عَليْهِمْ سَفِيه، وَكَلَّمَهُمْ بِمَا لا يَليق بِهِمْ الجَوَاب عَنْهُ، أَعْرَضُوا عَنْهُ وَلمْ يُقَابِلُوهُ بِمِثْلهِ مِنْ الكَلام القَبِيح، وَلا يَصْدُر عَنْهُمْ إِلَّا كَلام طَيِّب؛ وَلهَذَا قَال عَنْهُمْ: إِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أَيْ: لا نُرِيد طَرِيق الجَاهِلينَ وَلا نُحِبّهَا.

قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق فِي «السِّيرَة»: ثُمَّ قَدِمَ عَلى رَسُول الله ﷺ، وَهُوَ بِمَكَّةَ عِشْرُونَ رَجُلًا، أَوْ قَرِيب مِنْ ذَلكَ، مِنْ النَّصَارَى، حِين بَلغَهُمْ خَبَره مِنْ الحَبَشَة؛ فَوَجَدُوهُ فِي المَسْجِد، فَجَلسُوا إِليْهِ وَكَلَّمُوهُ وَسَأَلُوهُ -وَرِجَال مِنْ قُرَيْش فِي أَنْدِيَتهمْ حَوْل الكَعْبَة-، فَلمَّا فَرَغُوا مِنْ مُسَاءَلة رَسُول الله ﷺ عَمَّا أَرَادُوا، دَعَاهُمْ إِلى الله تَعَالى وَتَلا عَليْهِمْ القُرْآن، فَلمَّا سَمِعُوا القُرْآن فَاضَتْ أَعْيُنهمْ مِنْ الدَّمْع، ثُمَّ اسْتَجَابُوا وَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَعَرَفُوا مِنْهُ مَا كَانَ يُوصَف لهُمْ فِي كِتَابهمْ مِنْ أَمْره. فَلمَّا قَامُوا عَنْهُ اعْتَرَضَهُمْ أَبُو جَهْل ابْن هِشَام فِي نَفَر مِنْ قُرَيْش، فَقَالُوا لهُمْ: خَيَّبَكُمْ الله مِنْ رَكْب! بَعَثَكُمْ مَنْ وراءكم مِنْ أَهْل دِينكُمْ تَرْتَادُونَ لهُمْ لتَأْتُوهُمْ بِخَبَرِ الرَّجُل، فَلمْ تَطْمَئِنّ مَجَالسكُمْ عِنْده حَتَّى فَارَقْتُمْ دِينكُمْ وَصَدَّقْتُمُوهُ فِيمَا قَال: مَا نَعْلم رَكْبًا أَحْمَق مِنْكُمْ -أَوْ كَمَا قَالُوا لهُمْ- فَقَالُوا: سَلام عَليْكُمْ، لا نُجَاهِلُكُمْ، لنَا مَا نَحْنُ عَليْهِ، وَلكُمْ مَا أَنْتُمْ عَليْهِ، لمْ نَأْلُ أَنْفُسنَا خَيْرًا. قَال: وَيُقَال: إِنَّ النَّفَر النَّصَارَى مِنْ أَهْل نَجْرَان، فَالله أَعْلم، أَيُّ ذَلكَ كَانَ. قَال: وَيُقَال -وَالله أَعْلم-: إِنَّ فِيهِمْ نَزَلتْ هَذِهِ الآيَات: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ إِلى قَوْله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. قَال: وَقد سَأَلت الزُّهْرِيّ عَنْ هَذِهِ الآيَات فِيمَنْ نَزَلتْ؟ فقَال: مَا زِلت أَسْمَع مِنْ عُلمَائِنَا أَنَّهُنَّ أنزلن فِي النَّجَاشِيّ وَأَصْحَابه رضي الله عنهم، وَالآيَات اللَّاتِي فِي سُورَة المَائِدَة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ إِلى قَوْله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى لرَسُولهِ ﷺ: إِنَّك يَا مُحَمَّد ﴿لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أَيْ: ليْسَ إِليْك ذَلكَ، إِنَّمَا عَليْك البَلاغ، وَالله يَهْدِي مَنْ يَشَاء، وَلهُ الحِكْمَة البَالغَة وَالحُجَّة الدَّامِغَة، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى

---

(١) **صحيح**: تقدم.

(٢) **ضعيف الإسناد**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٩)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف، ويشهد له الحديث السابق.

مَن يَشَآءُ ﴾. وَقَال: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾. وَهَذِهِ الآيَة أَخَصّ مِنْ هَذَا كُلّه فَإِنَّهُ قَال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ أَيْ: هُوَ أَعْلم بِمَنْ يَسْتحِقّ الهِدَايَة مِمَّنْ يَسْتَحِقّ الغِوَايَة، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالب عَمّ رَسُول الله ﷺ ، وَقَدْ كَانَ يَحُوطهُ وَيَنْصُرهُ، وَيَقُوم فِي صَفّه، وَيُحِبّهُ حُبًّا طَبْعِيًّا لا شَرْعِيًّا، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاة وَحَانَ أَجَله، دَعَاهُ رَسُول الله ﷺ إِلَى الإِيمَان وَالدُّخُول فِي الإِسْلام، فَسَبَقَ القَدَر فِيهِ، وَاخْتُطِفَ مِنْ يَده، فَاسْتَمَرَّ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْر، ولله الحِكْمَة التَّامَّة. قَال الزُّهْرِيّ: حَدَّثَنِي سَعِيد بْن المُسَيَّب، عَنْ أَبِيهِ، وَهُوَ المُسَيَّب بْن حَزْن المَخْزُومِيّ ﷺ قَال: لَـمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالب الوَفَاة جَاءَهُ رَسُول الله ﷺ فَوَجَدَ عِنْده أَبَا جَهْل ابْن هِشَام، وَعَبْد الله بْن أَبِي أُمَيَّة ابْن المُغِيرَة، فَقَال رَسُول الله ﷺ : **«يَا عَمّ، قُل: لا إِله إِلاّ الله، كَلِمَة أشهد لك بهَا عِنْد الله»**. فَقَال أَبُو جَهْل، وَعَبْد الله بْن أَبِي أُمَيَّة: يَا أَبَا طَالب، أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّة عَبْد المُطَّلب؟ فَلَمْ يَزَل رَسُول الله ﷺ يَعْرِضهَا عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ لَهُ بِتِلْكَ المَقَالة، حَتَّى قال آخِر مَا قَال: هُوَ عَلَى مِلَّة عَبْد المُطَّلب. وَأَبَى أَنْ يَقُول: لا إِله إِلَّا الله. فَقَال رَسُول الله ﷺ : **«أما لأَسْتَغْفِرَنَّ لك مَا لمْ أُنْهَ عَنْك»**. فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ﴾، وَأَنْزَل فِي أَبِي طَالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾.[1] أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلم فِي صَحِيحه، وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث يَزِيد بْن كَيْسَان، عَنْ أَبِي حَازِم عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: لَـمَّا حَضَرَتْ وَفَاة أَبِي طَالب؛ أَتَاهُ رَسُول الله ﷺ فَقَال: **«يَا عَمَّاهُ، قُل: لا إِله إِلاّ الله، أَشْهَد لك بهَا يَوْم القِيَامَة»**. فَقَال: لوْلا أَنْ يُعَيِّرَنِي بِهَا قُرَيْش، يَقُولُونَ: مَا حَمَلهُ عَلَيْهِ إِلَّا جَزَع المَوْت، لأَقْرَرْت بِهَا عَيْنك، لا أَقُولهَا إِلَّا لأَقِرّ بِهَا عَيْنك. فَأَنْزَل الله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن غَرِيب، لا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيث يَزِيد بْن كَيْسَان.[2]

وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد، عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد القَطَّان، عَنْ يَزِيد بْن كَيْسَان، حَدَّثَنِي أَبُو حَازِم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة فَذَكَرَهُ بِنَحْوِهِ. وَهَكَذَا قَال ابْن عَبَّاس، وَابْن عُمَر، وَمُجَاهِد، وَالشَّعْبِيّ، وَقَتَادَة: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالب حِين عَرَضَ عَلَيْهِ رَسُول الله ﷺ أَنْ يَقُول: **«لا إِله إِلاّ الله»**، فَأَبَى عَلَيْهِ ذَلكَ، وَقَال: أَيْ بْن أَخِي، مِلَّة الأَشْيَاخ. وَكَانَ آخِر مَا قَال: هُوَ عَلَى مِلَّة عَبْد المُطَّلب.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو سَلمَة، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلمَة، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عُثْمَان بْن خُثَيْم، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي رَاشِد، قَال: كَانَ رَسُول قَيْصَر جَاءَ إِلَيَّ قَال: كَتَبَ مَعِي قَيْصَر إِلَى رَسُول الله ﷺ كِتَابًا فَأَتَيْته فَدَفَعْت الكِتَاب، فَوَضَعَهُ فِي حِجْره، ثُمَّ قَال: **«مِمَّنْ الرَّجُل؟»**. قُلت: مِنْ تَنُوخ. قَال: **«هَل لك فِي دِين أَبِيك إِبْرَاهِيم الحَنِيفِيَّة؟»**. قُلت: إِنِّي رَسُول قَوْم وَعَلَى دِينهمْ حَتَّى أَرْجِع إِلَيْهِمْ. فَضَحِكَ رَسُول الله ﷺ وَنَظَرَ إِلَى أَصْحَابه فقَال: «﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾».[3]

وَقَوْله: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ ﴾، يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ اعْتِذَار بَعْض الكُفَّار فِي عَدَم اتِّبَاع الهُدَى حَيْثُ قَالُوا لرَسُول الله ﷺ : ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ ﴾ أَيْ: نَخْشَى إِنْ اتَّبَعْنَا مَا جِئْت بِهِ مِنْ الهُدَى، وَخَالفْنَا مَنْ حَوْلنَا مِنْ أَحْيَاء العَرَب المُشْرِكِينَ، أَنْ يَقْصِدُونَا بِالأَذَى وَالمُحَارَبَة، وَيَتَخَطَّفُونَا أَيْنَمَا كُنَّا، فقَال الله تَعَالى مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يَعْنِي: هَذَا الَّذِي اعْتَذَرُوا بِهِ كَذِب وَبَاطِل؛ لأَنَّ

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).
(٢) صحيح : أخرجه مسلم (٢٥)، والترمذي (٣١٨٨).
(٣) حسن : أخرجه أحمد (٣/ ٤٤١)، وفيه عبد الله بن خيثم: صدوق وبقية رجاله ثقات.

الله جَعَلهُمْ فِي بَلد أَمِين وَحَرَم مُعَظَّم آمِن مُنْذُ وُضِعَ، فَكَيْف يَكُون هَذَا الحَرَم آمِنًا لَهُمْ فِي حَال كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ، وَلا يَكُون آمِنًا لَهُمْ وَقَدْ أَسْلَمُوا وَتَابَعُوا الحَقّ؟!

وَقَوْله: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، أَيْ: مِنْ سَائِر الثِّمَار مِمَّا حَوْله مِنْ الطَّائِف وَغَيْره، وَكَذَلِكَ المَتَاجِر وَالأَمْتِعَة، ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أَيْ: مِنْ عِنْدنَا، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَلِهَذَا قَالُوا مَا قَالُوا.

وَقَدْ قَالَ النَّسَائِيّ: أَنْبَأَنَا الحَسَن بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا حَجَّاج عَنْ ابْن جُرَيْج، أَخْبَرَنِي ابْن أَبِي مُلَيْكَة، قَال: قَال عَمْرو بْن شُعَيْب، عَنْ ابْن عَبَّاس -وَلَمْ يَسْمَعهُ مِنْهُ-: إن الحَارِث بْن عَامِر بْن نَوْفَل الَّذِي قَال: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُعَرِّضًا بِأَهْل مَكَّة فِي قَوْله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾، أَيْ: طَغَتْ وَأَشِرَتْ وَكَفَرَتْ نِعْمَة الله، فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ الأَرْزَاق، كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، وَلِهَذَا قَال: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيْ: دَثَرَتْ دِيَارهمْ، فَلا تُرَى إِلَّا مَسَاكِنهمْ.

وَقَوْله: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أَيْ: رَجَعَتْ خَرَابًا لَيْسَ فِيهَا أَحَد.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ ابْن مَسْعُود، أَنَّهُ سَمِعَ كَعْبًا يَقُول لِعُمَرَ: إِنَّ سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَام قَال لِلهَامَّةِ -يَعْنِي: البُومَة- مَا لك لا تَأْكُلِينَ الزَّرْع؟ قَالَتْ: لأَنَّهُ أُخْرِجَ آدَم بِسَبَبه مِنْ الجَنَّة. قَال: فَمَا لك لا تَشْرَبِينَ المَاء؟ قَالَتْ: لأَنَّ الله أَغْرَقَ قَوْم نُوح بِهِ. قَال: فَمَا لك لا تَأْوِينَ إِلَّا إِلَى الخَرَاب؟ قَالَتْ: لأَنَّهُ مِيرَاث الله عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ تَلا: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾. ثُمَّ قَال مُخْبِرًا عَنْ عَدْله، وَأَنَّهُ لا يُهْلِك أَحَدًا ظَالِمًا لَهُ، وَإِنَّمَا يُهْلِك مَنْ أَهْلَكَ بَعْد قِيَام الحُجَّة عَلَيْهِمْ؛ ولهذا قَال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾، وَهِيَ مَكَّة ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾، فِيهِ دَلالَة عَلَى أَنَّ النَّبِيّ الأُمِّيّ -وَهُوَ مُحَمَّد ﷺ- المَبْعُوث مِنْ أُمّ القُرَى رَسُول إِلَى جَمِيع القُرَى مِنْ عَرَب وَأَعْجَام؛ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وَقَال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾. وَقَال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾. وَتَمَام الدَّلِيل: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾. فَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيُهْلِكُ كُلّ قَرْيَة قَبْل يَوْم القِيَامَة، وَقَدْ قَال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. فَجَعَل تَعَالى بَعْثَة النَّبِيّ الأُمِّيّ شَامِلَة لِجَمِيعِ القُرَى؛ لأَنَّهُ مَبْعُوث إِلَى أُمّهَا وَأَصْلهَا الَّتِي تَرْجِع إِلَيْهَا. وَثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَال: «بُعِثْت إِلَى الأَحْمَر وَالأَسْوَد».[1] وَلِهَذَا خُتِمَ بِهِ الرِّسَالَة وَالنُّبُوَّة، فَلا نَبِيّ بَعْده وَلا رَسُول، بَل شَرْعه بَاقٍ بَقَاء اللَّيْل وَالنَّهَار إِلَى يَوْم القِيَامَة. وَقِيل: المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أَيْ: أَصْلهَا وَعَظِيمَتهَا، كَأُمَّهَاتِ الرَّسَاتِيق وَالأَقَالِيم. حَكَاهُ الزَّمَخْشَرِيّ وَابْن الجَوْزِيّ وَغَيْرهمَا، وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ.

---

(١) صحيح: تقدم.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ حَقَارَة الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا مِنْ الزِّينَة الدَّنِيئَة وَالزَّهْرَة الْفَانِيَة بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَعَدَّهُ الله لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ فِي الدَّار الآخِرَة مِنْ النَّعِيم الْعَظِيم الْمُقِيم، كَمَا قَال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾، وَقَال: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾، وَقَال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾. وَقَال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، وَقَال رَسُول الله ﷺ: «**وَالله مَا الْحَيَاة الدُّنْيَا فِي الآخِرَة إِلاَّ كَمَا يَغْمِس أَحَدكُمْ أُصْبُعه فِي الْيَمّ فَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِع إِلَيْهِ؟**».[1]

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ: أَفَلا يَعْقِل مَنْ يُقَدِّم الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَة.

وَقَوْله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾، يَقُول: أَفَمَنْ هُوَ مُؤْمِن مُصَدِّق بِمَا وَعَدَهُ الله عَلَى صَالِح أَعْمَاله مِنْ الثَّوَاب الَّذِي هُوَ صَائِر إِلَيْهِ لا مَحَالَة، كَمَنْ هُوَ كَافِر مُكَذِّب بِلِقَاءِ الله وَوَعْده وَوَعِيده، فَهُوَ مُمَتَّع فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا أَيَّامًا قَلائِل، ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾، قَال مُجَاهِد، وَقَتَادَة: مِنْ الْمُعَذَّبِينَ. ثُمَّ قَدْ قِيل: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَسُول الله ﷺ وَفِي أَبِي جَهْل.

وَقِيل: فِي حَمْزَة، وَعَلِيّ، وَأَبِي جَهْل، وَكِلاهُمَا عَنْ مُجَاهِد. وَالظَّاهِر أَنَّهَا عَامَّة، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ ذَلِكَ الْمُؤْمِن حِين أَشْرَفَ عَلَى صَاحِبه، وَهُوَ فِي الدَّرَجَات وَذَاكَ فِي الدَّرَكَات: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا يُوَبِّخ بِهِ الْكُفَّار الْمُشْرِكِينَ يَوْم الْقِيَامَة، حَيْثُ يُنَادِيهِمْ فَيَقُول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، يَعْنِي: أَيْنَ الآلِهَة الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا فِي الدَّار الدُّنْيَا، مِنْ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد، هَل يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ؟ وَهَذَا عَلَى سَبِيل التَّقْرِيع وَالتَّهْدِيد؛ كَمَا قَال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾، يَعْنِي: مِن الشَّيَاطِين وَالْمَرَدَة وَالدُّعَاة إِلَى الْكُفْر ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فَشَهِدُوا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَغْوَوْهُمْ فَاتَّبَعُوهُمْ، ثُمَّ تَبَرَّءُوا مِنْ عِبَادَتهمْ، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾، وَقَال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾، وَقَال الْخَلِيل عَلَيْهِ السَّلام لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ

---

(١) صحيح: تقدم.

عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ لِيُخَلِّصُوكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ كَمَا كُنْتُمْ تَرْجُون مِنهُمْ فِي الدَّار الدُّنْيَا، ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أَيْ: وَتيَقَّنُوا أَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلى النَّار لا مَحَالة.

وَقَوْله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أَيْ: فَوَدُّوا حِين عَايَنُوا العَذَاب لوْ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ فِي الدَّار الدُّنْيَا. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾. وَقَوْله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾، النِّدَاء الأَوَّل عَنْ سُؤَال التَّوْحِيد، وَهَذَا فِيهِ إِثْبَات النُّبُوَّات: مَاذَا كَانَ جَوَابكُمْ للمُرْسَلينَ إِليْكُمْ؟ وَكَيْف كَانَ حَالكُمْ مَعَهُمْ؟ وَهَذَا كَمَا يُسْأَل العَبْد فِي قَبْره: مَنْ رَبّك؟ وَمَنْ نَبِيّك؟ وَمَا دِينك؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِن: فَيَشْهَد أَنَّهُ لا إِله إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْده، وَرَسُوله. وَأَمَّا الكَافِر فَيَقُول: هَاهْ ... هَاهْ ... لا أَدْرِي؛ وَلهَذَا لا جَوَاب لهُ يَوْم القِيَامَة غَيْر السُّكُوت؛ لأَنَّ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَة أَعْمَى وَأَضلّ سَبِيلًا؛ ولهذا قَال تَعَالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾. وقَال مُجَاهِد: فَعَمِيَتْ عَليْهِمْ الحُجَج فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ بِالأَنْسَاب.

وَقَوْله: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، أَيْ: فِي الدُّنْيَا ﴿فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾، أَيْ: يَوْم القِيَامَة. «وَعَسَى» مِنْ الله مُوجِبَة، فَإِنَّ هَذَا وَاقِع بِفَضْل الله ومَنّه لا مَحَالة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ الْمُنْفَرِد بِالخَلقِ وَالاخْتِيَار، وَأَنَّهُ لَيْس لهُ فِي ذَلكَ مُنَازِع وَلا مُعَقِّب، فقَال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾، أَيْ: مَا يَشَاء، فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لمْ يَشَأْ لمْ يَكُنْ، فَالأُمُور كُلّهَا خَيْرهَا وَشَرّهَا بِيَدِهِ، وَمَرْجِعهَا إِليْهِ.

وَقَوْله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾، نَفْي عَلى أَصَحّ القَوْليْنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، وَقَدْ اخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّ (مَا) هَهُنَا بِمَعْنَى «الَّذِي»، تَقْدِيره: وَيَخْتَار الَّذِي لهُمْ فِيهِ خِيَرَة. وَقَدْ احْتَجَّ بِهَذَا الْمَسْلك طَائِفَة الْمُعْتَزِلة عَلى وُجُوب مُرَاعَاة الأَصْلح. وَالصَّحِيح أَنَّهَا نَافِية، كَمَا نَقَلهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ ابْن عَبَّاس وَغَيْره أَيْضًا، فَإِنَّ الْمَقَام فِي بَيَان انْفِرَاده تَعَالى بِالخَلقِ وَالتَّقْدِير وَالاخْتِيَار، وَأَنَّهُ لا نَظِير لهُ فِي ذَلكَ؛ وَلهَذَا قَال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أَيْ: مِنْ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد الَّتِي لا تَخْلُق وَلا تَخْتَار شَيْئًا.

ثُمَّ قَال: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أَيْ: يَعْلم [مَا تُكِنّ][1] الضَّمَائِر وَمَا تَنْطَوِي عَليْهِ السَّرَائِر، كَمَا يَعْلم مَا تُبْدِيه الظَّوَاهِر مِنْ سَائِر الخَلائِق، ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾. وقَوْله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أَيْ: هُوَ الْمُنْفَرِد بِالإِلهِيَّة، فَلا مَعْبُود سِوَاهُ، كَمَا لا رَبّ يَخْلُق وَيَخْتَار سِوَاهُ، ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾، أَيْ: فِي جَمِيع مَا يَفْعَلهُ هُوَ الْمَحْمُود عَليْهِ، بِعَدْلِهِ وَحِكْمَته، ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾، أَيْ: الَّذِي لا مُعَقِّب لهُ، لقَهْرِهِ وَغَلبَته وَحِكْمَته وَرَحْمَته، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أَيْ: جَمِيعكُمْ يَوْم القِيَامَة فيجازي كُلّ عَامِل بِعَمَله، مِنْ خَيْر وَشَرّ، وَلا يَخْفَى عَليْهِ مِنْهُمْ خَافِيَة فِي سَائِر الأَعْمَال.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ

---

(١) في نسخة: [مكتمة].

يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُمتنًّا عَلى عِبَاده بِمَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَار، اللَّذَيْنِ لا قِوَام لَهُمْ بدُونهما، وَبَيَّنَ أَنَّهُ لوْ جَعَل اللَّيْل دَائِمًا عَليْهِمْ سَرْمَدًا إلى يَوْم القِيَامَة، لأَضَرَّ ذَلكَ بِهِمْ، وَلسَئِمَتْهُ النُّفُوس وَانْحَصَرَتْ مِنْهُ؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾، أَيْ: تُبْصِرُونَ بِهِ وَتَسْتَأْنِسُونَ بِسَبَبِهِ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؟ ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمدًا دائمًا مستمرًا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلّت من كثرة الحركات والأشغال؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾، أَيْ: بِكُمْ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أَيْ: خَلقَ هَذَا وَهَذَا، ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ أَيْ: فِي اللَّيْل، ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أَيْ: فِي النَّهَار بِالأَسْفَارِ وَالتَّرْحَال، وَالحَرَكَات وَالأَشْغَال، وَهَذَا مِنْ بَاب اللَّفِّ وَالنَّشْر.

وَقَوْله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أَيْ: تَشْكُرُونَ الله بِأَنْوَاع العِبَادَات فِي اللَّيْل وَالنَّهَار، وَمَنْ فَاتَهُ شَيْء بِاللَّيْل اسْتَدْرَكَهُ بِالنَّهَارِ، أَوْ بِالنَّهَارِ اسْتَدْرَكَهُ بِاللَّيْل، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

وَهَذَا أَيْضًا نِدَاء عَلى سَبِيل التَّقْرِيع وَالتَّوْبِيخ لِمَنْ عَبَدَ مَعَ الله إلهًا آخر يُنَادِيهِمْ الرَّبّ -تبارك وتَعَالى- عَلى رُءُوس الأَشْهَاد فَيَقُول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾. أَيْ: فِي دَار الدُّنْيَا. ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، قَال مُجَاهِد: يَعْنِي رَسُولًا ﴿فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أَيْ: عَلى صِحَّة مَا ادَّعَيْتُمُوهُ مِنْ أَنَّ لله شُرَكَاء، ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أَيْ: لا إله غَيْره، أي: فلم يَنْطِقُوا ولم يُجِيرُوا جَوَابًا، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾. أَيْ ذَهَبُوا فَلَمْ يَنْفَعُوهُمْ.

﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

قَال الأَعْمَش: عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ سعيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابن عَبَّاس؛ قَال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾: كَانَ ابْن عَمّه. وَهَكَذَا قَال إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَعَبْد الله بْن الحَارِث بْن نَوْفَل، وَسِمَاك بْن حَرْب، وَقَتَادَة وَمَالك بْن دِينَار، وَابْن جُرَيْج، وَغَيْرهمْ: أَنَّهُ كَانَ ابْن عَمّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَال ابْن جُرَيْج: هُوَ قَارُون بن يصهر ابْن قاهث، وَمُوسَى بْن عِمْرَان بْن قاهث. وَزَعَمَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار: أَنَّ قَارُون كَانَ عَمّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَال ابْن جَرِيْر: وَأَكْثَر أَهْل العِلم عَلى أَنَّهُ كَانَ ابْن عَمّه، وَالله أَعْلم. وَقَال قَتَادَة بْن دِعَامَة: كُنَّا نُحَدَّث أَنَّهُ كَانَ ابْن عَمّ مُوسَى، وَكَانَ يُسَمَّى المُنَوِّر لِحُسْنِ صَوْته بِالتَّوْرَاة، وَلكِنَّ عَدُوّ الله نَافَقَ كَمَا نَافَقَ السَّامِرِيّ، فَأَهْلكَهُ البَغْي لكَثْرَة مَاله. وَقَال شَهْر بْن حَوْشَب: زَادَ فِي ثِيَابه شِبْرًا طُولًا تَرَفُّعًا عَلى قَوْمه.

وَقَوْله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾، أَيْ: الأَمْوَال ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾، أَيْ: ليُثْقِل حَمْلهَا الفِئَام مِنْ النَّاس لكَثْرَتِهَا. قَال الأَعْمَش: عَنْ خَيْثَمَة: كَانَتْ مَفَاتِيح كُنُوز قَارُون مِنْ جُلُود، كُلّ مِفْتَاح مِثْل الإِصْبَع، كُلّ مِفْتَاح عَلى خِزَانَة عَلى حِدَته، فَإِذَا رَكِبَ حُمِلتْ عَلى سِتِّينَ بَغْلًا أَغَرّ مُحَجَّلًا، وَقِيل غَيْر ذَلكَ، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أَيْ: وَعَظَهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ صَالِحُو قَوْمه، فَقَالُوا عَلَى سَبِيل النُّصْح وَالإِرْشَاد: لا تَفْرَح بِمَا أَنْتَ فِيهِ، يَعْنُونَ لا تَبْطَر بِمَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الأموال؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾. قَال ابْن عَبَّاس: يَعْنِي المَرِحِينَ، وَقَال مُجَاهِد يَعْنِي: الأَشِرِينَ البَطِرِينَ الَّذِينَ لا يَشْكُرُونَ الله عَلَى مَا أَعْطَاهُمْ.

وَقَوْله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾، أَيْ: اسْتَعْمِل مَا وَهَبَك الله مِنْ هَذَا المَال الجَزِيل وَالنِّعْمَة الطَّائِلة فِي طَاعَة رَبّك، وَالتَّقَرُّب إِلَيْهِ بِأَنْوَاعِ القُرُبَات، الَّتِي يَحْصُل لك بِهَا الثَّوَاب فِي الدار الآخِرَة، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾، أَيْ: مِمَّا أَبَاحَ الله فِيهَا مِنْ المَآكِل وَالمَشَارِب وَالمَلابِس وَالمَسَاكِن وَالمَنَاكِح، فَإِنَّ لِرَبّك عَلَيْك حَقًّا، وَلِنَفْسِك عَلَيْك حَقًّا، وَلأَهْلك عَلَيْك حَقًّا، وَلِزَوْرِك عَلَيْك حَقًّا؛ فَآتِ كُلّ ذِي حَقّ حَقّه.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾، أَيْ أَحْسِنْ إِلَى خَلقه كَمَا أَحْسَنَ هُوَ إِلَيْك، ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾، أَيْ: لا تَكُنْ هِمَّتك بِمَا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تُفْسِد بِهِ فِي الأَرْض، وَتُسِيء إِلَى خَلق الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ جَوَاب قَارُون لِقَوْمِهِ، حِين نَصَحُوهُ وَأَرْشَدُوهُ إِلَى الخَيْر، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾، أَيْ: أَنَا لا أَفْتَقِر إِلَى مَا تَقُولُونَ، فَإِنَّ الله تَعَالَى إِنَّمَا أَعْطَانِي هَذَا المَال لِعِلمِهِ بِأَنِّي أَسْتَحِقّهُ، وَلِمَحَبَّتِهِ لِي، فَتَقْدِيره: إِنَّمَا أَعْطَيْته لِعِلم الله فِي أَنِّي أَهْل لَهُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ﴾، أَيْ: عَلَى عِلم مِنْ الله بِي، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ أَيْ: هَذَا أَسْتَحِقّهُ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضهمْ أَنَّهُ أَرَادَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾، أَيْ: أَنَّهُ كَانَ يُعَانِي عِلم الكِيمْيَاء. وَهَذَا القَوْل ضَعِيف، لأَنَّ عِلم الكِيمْيَاء فِي نَفْسه عِلم بَاطِل، لأَنَّ قَلب الأَعْيَان لا يَقْدِر أَحَد عَلَيْهَا إِلَّا الله ﷻ، قَال الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾. وَفِي «الصَّحِيح» عن النبي ﷺ قَال: «**يَقُول الله تعالى: وَمَنْ أَظلم مِمَّنْ ذَهَبَ يَخلُق كَخَلقِي، فَلْيَخلُقُوا ذَرَّة، فَلْيَخلُقُوا شَعِيرَة**»[1]. وَهَذَا وَرَدَ فِي المُصَوِّرِينَ الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ بِخَلق الله فِي مُجَرَّد الصُّورَة الظَّاهِرَة أَوْ الشَّكْل، فَكَيْف بِمَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ يُحِيل مَاهِيَّة هَذِهِ الذَّات إِلَى مَاهِيَّة ذَات أُخْرَى، هَذَا زُور وَمُحَال، وَجَهْل وَضَلال. وَإِنَّمَا يَقْدِرُونَ عَلَى الصَّبْغ فِي الصُّورَة الظَّاهِرَة، وهو كَذِب وَزَغَل وَتَمْوِيه، وَتَرْوِيج أَنَّهُ صَحِيح فِي نَفْس الأَمْر، وَلَيْسَ كَذَلكَ قَطْعًا لا مَحَالَة، وَلَمْ يَثْبُت بِطَرِيقٍ شَرْعِيّ أَنَّهُ صَحّ مَعَ أَحَد مِنْ النَّاس مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَة الَّتِي يَتَعَانَاهَا هَؤُلاءِ الجَهَلة الفَسَقَة الأَفَّاكُونَ، فَأَمَّا مَا يُجْرِيه الله -تعالى- مِنْ خَرْق العَوَائِد عَلَى يَدَيْ بَعْض الأَوْلِيَاء مِنْ قَلب بَعْض الأَعْيَان ذَهَبًا أَوْ فِضَّة أَوْ نَحْو ذَلكَ، فَهَذَا أَمْر لا يُنْكِرهُ مُسْلم، وَلا يَرُدّهُ مُؤْمِن، وَلكِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ قَبِيل الصِّنَاعَات، وَإِنَّمَا هَذَا عَنْ مَشِيئَة رَبّ الأَرْض وَالسَّمَاوَات، وَاخْتِيَاره وَفِعْله، كَمَا رُوِيَ عَنْ حَيْوَة بْن شُرَيْح المِصْرِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ سَأَلَهُ سَائِل، فَلَمْ يَكُنْ عِنْده مَا يُعْطِيه وَرَأَى ضَرُورَته، فَأَخَذَ حَصَاة مِنْ الأَرْض فَأَجَالَهَا فِي كَفّه، ثُمَّ أَلقَاهَا إِلَى ذَلكَ السَّائِل فَإِذَا هِيَ ذَهَب أَحْمَر. وَالأَحَادِيث وَالآثَار كَثِيرَة جِدًّا يَطُول ذِكْرهَا.

وَقَال بَعْضهمْ: إِنَّ قَارُون كَانَ يعلم الاسْم الأَعْظَم، فَدَعَا الله بِهِ فَتَمَوَّل بِسَبَبِهِ. وَالصَّحِيح المَعْنَى الأَوَّل وَلِهَذَا قَال الله -تَعَالى- رَادًّا عَلَيْهِ فِيمَا ادَّعَاهُ مِنْ اعْتِنَاء الله بِهِ فِيمَا أَعْطَاهُ مِنْ المَال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾، أَيْ: قَدْ كَانَ مَنْ هُوَ أَكْثَر مِنْهُ مَالًا وَمَا كَانَ ذَلكَ عَنْ مَحَبَّة مِنَّا لهُ، وَقَدْ أَهْلَكَهُمْ الله مَعَ ذَلكَ بِكُفْرِهِمْ وَعَدَم شُكْرهِمْ؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾، أَيْ: لكَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ.

قَال قَتَادَة: ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ عَلى خَيْر عِنْدِي: وَقَال السُّدِّيّ: عَلى عِلم أَنِّي أَهْل لذَلكَ.

وَقَدْ أَجَادَ فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة الإِمَام عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم، فَإِنَّهُ قَال فِي قَوْله: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾، قَال: لوْلا رِضَا الله عَنِّي، وَمَعْرِفته بِفَضْلِي، مَا أَعْطَانِي هَذَا المَال، وَقَرَأَ: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ قَارُون: إِنَّهُ خَرَجَ ذَات يَوْم عَلى قَوْمه فِي زِينَة عَظِيمَة، وَتَجَمُّل بَاهِر، مِنْ مَرَاكِب وَمَلابِس عَلَيْهِ وَعَلى خَدَمه وَحَشَمه، فَلَمَّا رَآهُ مَنْ يُرِيد الحَيَاة الدُّنْيَا وَيَمِيل إِلى زخرفها وَزِينَتهَا، تَمَنَّوْا أَنْ لوْ كَانَ لهُمْ مِثْل الَّذِي أُعْطِيَ، قالوا: ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾، أَيْ: ذُو حَظّ وَافِر مِنْ الدُّنْيَا، فَلَمَّا سَمِعَ مَقَالتهمْ أَهْل العِلم النَّافِع. قالوا لهم: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾، أَيْ: جَزَاء الله لعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ فِي الدَّار الآخِرَة خَيْر مِمَّا تَرَوْنَ. كَمَا فِي الحَدِيث الصَّحِيح: «يَقُول الله تَعَالى: أَعْدَدْت لعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْن رَأَتْ، وَلا أُذُن سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلى قَلب بَشَر. وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾»[1].

وَقَوْله: ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾، قَال السُّدِّيّ: وما يُلقَّى الجَنَّة إِلَّا الصَّابِرُونَ. كَأَنَّهُ جَعَل ذَلكَ مِنْ تَمَام كَلام الَّذِينَ أُوتُوا العِلم، قَال ابْن جَرِير: وما يُلقَّى هَذِهِ الكَلمَة إِلَّا الصَّابِرُونَ عَنْ مَحَبَّة الدُّنْيَا، الرَّاغِبُونَ فِي الدَّار الآخِرَة. وَكَأَنَّهُ جَعَل ذَلكَ [مَقْطُوعًا][2] مِنْ كَلام أُولئِكَ، وَجَعَلهُ مِنْ كَلام الله ﷻ وَإِخْبَاره بِذَلكَ.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾.

لـمَّا ذَكَرَ تَعَالى اخْتِيَال قَارُون فِي زِينَته، وَفَخْره عَلى قَوْمه وَبَغْيه عَلَيْهِمْ -عَقَّبَ ذَلكَ بِأَنَّهُ خَسَفَ بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْض، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيح» عِنْد البُخَارِيّ مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، عَنْ سَالم، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «بَيْنَا رَجُل يَجُرّ إِزَاره إِذْ خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلجَل فِي الأَرْض إِلى يَوْم القِيَامَة»[3]. ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ حَدِيث جَرِير ابْن زَيْد، عَنْ سَالم عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ نَحْوه. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا النَّضْر بْن إِسْمَاعِيل أَبُو المُغِيرَة القَاصّ، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ عَطِيَّة، عَنْ أَبِي سَعِيد قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُل فِيمن كَانَ قَبْلكُمْ، خَرَجَ فِي بُرْدَيْنِ أَخْضَرَيْنِ يَخْتَال فِيهِمَا، أَمَرَ الله الأَرْض فَأَخَذَتْهُ، فَإِنَّهُ ليَتَجَلجَل فِيهَا إِلى يَوْم القِيَامَة»[4]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد، وَإِسْنَاده حَسَن.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٤٤، ٧٤٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤).
(٢) في (ز): [معطوفًا].
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٩٠)، ومسلم (٢٠٨٨)، من حديث أبي هريرة.
(٤) إسناده حسن: أخرجه أحمد (٣/ ٤٠) بإسناد حسن.

وَقَال الحَافِظ أَبُو يَعْلى المَوْصِليّ: حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمَة، حَدَّثَنَا معلى بْن مَنْصُور، أَخْبَرَنِي مُحَمَّد بْن مُسْلم، سَمِعْت زِيَادًا النُّمَيْرِيّ يُحَدِّث عَنْ أَنَس بْن مَالك ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُل فيمن كَانَ قَبْلكُمْ خَرجَ فِي بُرْدَيْنِ فَاخْتَال فِيهِمَا، فَأَمَرَ الله الأَرْض فَأَخذَتْه، فهُوَ يَتجلجَل فِيهَا إِلى يَوْم القِيَامَة»[1]. وَقَدْ ذَكَرَ الحَافِظ مُحَمَّد بْن المُنْذِر شَكَّر فِي كِتَاب «العَجَائِب الغَرِيبَة» بِسَنَدِهِ عَنْ نَوْفَل بْن مُسَاحِق قَال: رَأَيْت شَابًّا فِي مَسْجِد نَجْرَان، فَجَعَلت أَنْظُر إِلَيْهِ وَأَتَعجَّب مِنْ طُوله وَتَمَامه وَجَمَاله، فَقَال: مَا لك تَنْظُر إِلَيَّ؟ فَقُلت: أَعْجَب مِنْ جَمَالك وَكَمَالك. فَقَال: إِنَّ الله ليَعْجَب مِنِّي. قَال: فَمَا زَال يَنْقُص وَيَنْقُص حَتَّى صَارَ بِطُول الشِّبْر فَأَخذَهُ بَعْض قَرَابَته فِي كُمّه وَذَهَبَ.

وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ هَلاك قَارُون كَانَ عن دَعْوَة نَبِيّ الله مُوسَى عليه السلام وَاخْتُلفَ فِي سَببه، فَعَنْ ابْن عَبَّاس وَالسُّدِّيّ: أَنَّ قَارُون أَعْطَى امْرَأَة بَغِيًّا مَالًا عَلى أَنْ تَبْهت مُوسَى بِحَضْرَةِ المَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، وَهُوَ قَائِم فِيهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ كِتَاب الله، فَتَقُول: يَا مُوسَى، إِنَّك فَعلت بِي كَذَا وَكَذَا، فَلَمَّا قَالتْ فِي المَلإِ ذَلكَ لمُوسَى عليه السلام أَرْعَدَ مِنْ الفَرَق، وَأَقْبَل عَلَيْهَا، وصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَال: أَنْشُدك بِالله الَّذِي فَرَقَ البَحْر، وَأَنْجَاكُمْ مِنْ فِرْعَوْن، وَفَعَل كَذَا وَكَذَا، لَمَا أَخْبَرْتنِي بِالَّذِي حَمَلك عَلى مَا قُلت؟ فَقَالتْ: أَمَا إذ نَشَدْتنِي فَإِنَّ قَارُون أَعْطَانِي كَذَا وَكَذَا، عَلى أَنْ أَقُول لك، وَأَنَا أَسْتَغْفِر الله وَأَتُوب إِلَيْهِ. فَعِنْد ذَلكَ خَرَّ مُوسَى لله عز وجل سَاجِدًا، وَسَأَل الله فِي قَارُون. فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ أني قَدْ أَمَرْت الأَرْض أَنْ تُطِيعك فِيهِ، فَأَمَرَ مُوسَى الأَرْض أَنْ تَبْتَلعهُ وَدَاره، فكَانَ ذَلكَ. وَقِيل: إِنَّ قَارُون لَمَّا خَرَجَ عَلى قَوْمه فِي زِينَته تِلكَ، وَهُوَ رَاكِب عَلى البِغَال الشُّهْب، وَعَليْهِ وَعَلى خَدَمه ثِيَاب الأُرْجُوَان المُصَبَّغَة فَمَرَّ فِي جحفله ذَلكَ عَلى مَجْلس نَبِيّ الله مُوسَى عليه السلام وَهُوَ يُذَكِّرهُمْ بِأَيَّام الله، فَلَمَّا رَأَى النَّاس قَارُون انْصَرَفَتْ وُجُوه النَاس حوله يَنْظُرُونَ إِلى مَا هُوَ فِيهِ فَدَعَاهُ مُوسَى عليه السلام وَقَال: مَا حَمَلكَ عَلى مَا صَنَعْت؟ فَقَال: يَا مُوسَى، أَمَا لئِنْ كُنْت فُضِّلت عَليَّ بِالنُّبُوَّةِ، فَلقَدْ فُضِّلت عَلَيْك بِالدُّنْيَا، وَلئِنْ شِئْت لنخْرُجَنَّ، فَلتَدْعُوَنَّ عَليَّ وَأَدْعُو عَلَيْك. فَخَرَجَ وَخَرَجَ قَارُون فِي قَوْمه فَقَال مُوسَى عليه السلام: تَدْعُو أو أَدْعُو أَنَا؟ قَال: بَل أنا أَدْعُو. فَدعَا قَارُون فَلمْ يُجَبْ لهُ ثُمَّ قَال مُوسَى: أَدْعُو؟ قَال: نَعَمْ. فَقَال مُوسَى: اللَّهُمَّ، مُرْ الأَرْض أَنْ تُطِيعنِي اليَوْم. فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ أَنِّي قَدْ فَعلت، فَقَال مُوسَى: يَا أَرْضِ، خُذِيهِمْ. فَأَخذَتْهُمْ إِلى أَقْدَامهمْ. ثُمَّ قَال: خُذِيهِمْ. فَأَخذَتْهُمْ إِلى رُكَبهمْ، ثُمَّ إِلى مَنَاكِبهمْ. ثُمَّ قَال: أَقْبِلِي بِكُنُوزِهِمْ وَأَمْوَالهمْ. قَال: فَأَقْبَلتْ بِهَا حَتَّى نَظَرُوا إِلَيْهَا. ثُمَّ أَشَارَ مُوسَى بِيَدِهِ فقَال: اذْهَبُوا بَنِي لاوَى فَاسْتَوَتْ بِهِمْ الأَرْض. وَعَنْ ابْن عَبَّاس أنه قَال: خُسِفَ بِهِمْ إِلى الأَرْض السَّابِعَة. وَقَال قَتَادَة: ذُكِرَ لنَا أَنَّهُ يُخْسَف بِهِمْ كُلّ يَوْم قَامَة. فَهُمْ يَتَجلجَلُونَ فِيهَا إِلى يَوْم القِيَامَة، وَقَدْ ذُكِرَ هَهُنَا إِسْرَائِيلِيَّات أَضْرَبْنَا عَنْهَا صَفْحًا.

وَقَوْله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾، أَيْ: مَا أَغْنَى عَنْهُ مَاله وَلا جَمْعه، وَلا خَدَمه وَحَشَمه. وَلا دَفَعُوا عَنْهُ نِقْمَة الله وَعَذَابه وَنَكَاله به، وَلا كَانَ هُوَ فِي نَفْسه مُنْتَصِرًا لنَفْسِهِ فَلا نَاصِر لهُ مِنْ نَفْسه وَلا مِنْ غَيْره. وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾، أَيْ: الَّذِين لَمَّا رَأَوْهُ فِي زِينَته ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، فَلَمَّا خُسِفَ بِهِ أَصْبَحُوا يَقُولُونَ: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾، أَيْ: ليْسَ المَال بِدَالٍّ عَلى رِضَا الله عَنْ صَاحِبه؛ فَإِنَّ الله يُعْطِي وَيَمْنَع، وَيُضَيِّق وَيُوَسِّع، وَيَخْفِض وَيَرْفَع، وَلهُ الحِكْمَة التَّامَّة وَالحُجَّة البَالغَة. وَهَذَا كَمَا فِي الحَدِيث المَرْفُوع عَنْ ابْن مَسْعُود: «إِنَّ الله قَسَمَ بَيْنكُمْ أَخْلاقكُمْ، كَمَا قَسَمَ أَرْزَاقكُمْ، وَإِنَّ الله يُعْطِي المَال مَنْ يُحِبّ، وَمَنْ لا يُحِبّ، وَلا يُعْطِي الإِيمَان إِلاَّ مَنْ يُحِبّ»[2].

---

(١) ضعيف الإسناد: أخرجه أبو يعلى (٤٣٠٢)، وفي إسناده زياد النميري: ضعيف، ويشهد له الروايتان السابقتان.

(٢) ضعيف: تقدم.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾، أَيْ: لوْلا لُطْف الله بِنَا وَإِحْسَانه إِلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا كَمَا خَسَفَ بِهِ، لأَنَّا وَدِدْنَا أَنْ نَكُون مِثْله.

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، يَعْنُونَ أَنَّهُ كَانَ كَافِرًا، وَلا يُفْلح الكَافِر عِنْد الله، لا فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَة. وَقَدْ اخْتَلَفَ النُّحَاة فِي مَعْنَى قَوْله تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾.

فَقَال بَعْضهمْ: مَعْنَاهَا: «وَيْلك اعْلَمْ أَنَّ» وَلكِنَّ خُفِّفَت فَقِيل: «وَيْكَ»، وَدَلَّ فَتْح «أَنَّ» عَلى حَذْف «اعْلَمْ». وَهَذَا القَوْل ضَعَّفَهُ ابْن جَرِير، وَالظَّاهِر أَنَّهُ قَوِيّ، وَلا يُشْكِل عَلى ذَلِكَ إِلَّا كِتَابَتهَا فِي المَصَاحِف مُتَّصِلة «وَيْكَأَنَّ». وَالكِتَابَة أَمْر وَضْعِيّ اصْطِلاحِيّ، وَالمَرْجع إِلى اللَّفْظ العَرَبِيّ، وَالله أَعْلم. وَقِيل: مَعْنَاهَا: وَيْكَأَنَّ، أَيْ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ؛ قَالهُ قَتَادَة. وَقِيل: مَعْنَاهَا: «وَيْ كَأَنَّ»، فَفَصَلهَا، وَجَعَل حَرْف «وَيْ» للتَّعَجُّبِ أَوْ للتَّنْبِيهِ، وَ«كَأَنَّ»: بِمَعْنَى: أَظُنّ وَأَحْتَسِب.

قَال ابْن جَرِير: وَأَقْوَى الأَقْوَال فِي هَذَا قَوْل قَتَادَة: إنها بِمَعْنَى: «أَلمْ تَرَ أَنَّ»، وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْل الشَّاعِر:

سَأَلَتَانِي الطَّلاق إِذْ رَأَتَانِي ✽ قَلَّ مَالي، [وقَدْ جِئْتُمَانِي بِنُكْر][1]

وَيْكَأَنَّ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَب يُحْـ ✽ ـبَبْ وَمَنْ يَفْتَقِر يَعِشْ عَيْش ضُرّ

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّ الدَّار الآخِرَة وَنَعِيمهَا المُقِيم الَّذِي لا يَحُول وَلا يَزُول جَعَلهَا لعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ المُتَوَاضِعِينَ، الَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْض، أَيْ: تَرَفُّعًا عَلى خَلق الله، وَتَعَاظُمًا عَلَيْهِمْ، وَتَجَبُّرًا بِهِمْ، وَلا فَسَادًا فِيهِمْ. كَمَا قَال عِكْرِمَة: العُلُوّ: التَّجَبُّر. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: العُلُوّ: البَغْي. وَقَال سُفْيَان بْن سَعِيد الثَّوْرِيّ: عَنْ مَنْصُور، عَنْ مُسْلم البَطِين: العُلُوّ فِي الأَرْض: التَّكَبُّر بِغَيْرِ حَقّ. وَالفَسَاد: أَخْذ المَال بِغَيْرِ حَقّ. وَقَال ابْن جُرَيْج: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، تَعَظُّمًا وَتَجَبُّرًا ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: عَمَلًا بِالمَعَاصِي.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابن وَكِيع، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَشْعَث السَّمَّان عَنْ أَبِى سَلَّام الأَعْرَج، عَنْ عَلِيّ، قَال: إِنَّ الرَّجُل لَيُعْجِبهُ مِنْ شِرَاك نَعْله أَنْ يَكُون أَجْوَد مِنْ شِرَاك صَاحِبه، فَيَدْخُل فِي قَوْله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وَهَذَا مَحْمُول عَلى مَا إِذَا أَرَادَ الفَخْر عَلى غَيْره، فَإِنَّ ذَلكَ مَذْمُوم كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيح»، عَنْ النَّبِيّ ﷺ: «**إِنَّهُ أُوحِيَ إِليَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لا يَفْخَر أَحَد عَلى أَحَد، وَلا يَبْغِي أَحَد عَلى أَحَد**»[2]. وَأَمَّا إِذَا أَحَبَّ ذَلكَ لمُجَرَّدِ التجمُّل فَهَذَا لا بَأْس بِهِ، فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَجُلًا، قَال: يَا رَسُول الله ﷺ إِنِّي أُحِبّ أَنْ يَكُون رِدَائِي حَسَنًا وَنَعْلي حَسَنَة، أَفَمِنْ الكِبْر ذَلكَ؟ فَقَال: «**لا، إِنَّ الله جَمِيل يُحِبّ الجَمَال**»[3]. وقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾، أَيْ: يَوْم القِيَامَة ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، أَيْ: ثَوَاب الله خَيْر مِنْ حَسَنَة العَبْد، فَكَيْفَ وَالله يُضَاعِفهُ أَضْعَافًا كَثِيرَة فهَذَا مَقَام الفَضْل. ثُمَّ قَال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَهَذَا مَقَام الفَصْل العَدْل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ

---

(١) في (ز) : [إن جئتماني ببكر].

(٢) صحيح : أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) صحيح : أخرجه مسلم (٩١)، وأحمد (٤/ ١٣٣).

عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى آمِرًا رَسُوله -صَلَوات الله وَسَلامه عَلَيْهِ- بِبَلاغ الرِّسَالة وَتِلاوَة القُرْآن عَلى النَّاس، وَمُخْبِرًا لهُ بِأَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلى مَعَاد وَهُوَ يَوْم القِيَامَة، فَيَسْأَلُهُ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ مِنْ أَعْبَاء النُّبُوَّة، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أَيْ: افْتَرَضَ عَلَيْك أَدَاءَهُ إِلى النَّاس ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أَيْ: إِلى يَوْم القِيَامَة فَيَسْأَلك عَنْ ذَلكَ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وَقَال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾، وَقَال: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾.

وَقَال السُّدِّيّ: عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، يَقُول: لرَادُّكَ إِلى الجَنَّة، ثُمَّ سَائِلك عَنْ القُرْآن. قَال السُّدِّيّ: وَقَال أَبُو سَعِيد مِثْلهَا. وَقَال الحَكَم بْن أَبَان: عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قَال: إِلى يَوْم القِيَامَة. وَرَوَاهُ مَالك، عَنْ الزُّهْرِيّ. وَقَال الثَّوْرِيّ عَنْ الأَعْمَش عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: إِلى المَوْت، وَلهَذَا طُرُق عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما، وَفِي بَعْضهَا: لرَادّك إِلى مَعْدِنك مِنْ الجَنَّة. وَقَال مُجَاهِد: يُحْيِيك يَوْم القِيَامَة. وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَة، وَعَطَاء، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَأَبِي قَزَعَة، وَأَبِي مَالك، وَأَبِي صَالح. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: إِيْ وَالله، إِنَّ لهُ لَمَعَادًا يَبْعَثهُ الله يَوْم القِيَامَة ثُمَّ يُدْخِلهُ الجَنَّة. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس غَيْر ذَلكَ.

كَمَا قَال البُخَارِيّ فِي التَّفْسِير مِنْ «صَحِيحه»: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مُقَاتِل، أَنْبَأَنَا يَعْلى، حَدَّثَنَا سُفْيَان العُصْفُرِيّ، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، قَال: إِلى مَكَّة. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي تَفْسِير سُنَنه، وَابْن جَرِير مِنْ حَدِيث يَعْلى -وَهُوَ ابْن عُبَيْد الطَّنَافِسِيّ- بِهِ. وَهَكَذَا رَوَى العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أَيْ: لرَادّك إِلى مَكَّة كَمَا أَخْرَجَك مِنْهَا. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: إِلى مَوْلدك بِمَكَّة. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: وَقَدْ رَوَى ابْن عَبَّاس، وَيَحْيَى بْن الجَزَّار، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَعَطِيَّة، وَالضَّحَّاك، نَحْو ذَلكَ.

وَحَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عُمَر، قَال: قَال سُفْيَان: وَسَمِعْنَاهُ مِنْ مُقَاتِل مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَة عَنْ الضَّحَّاك، قَال: لـمَّا خَرَجَ النَّبِيّ ﷺ مِنْ مَكَّة، فَبَلغَ الجُحْفَة اشْتَاقَ إِلى مَكَّة، فَأَنْزَل الله عَليْهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إِلى مَكَّة.[1] وَهَذَا مِنْ كَلام الضَّحَّاك يَقْتَضِي أَنَّ هَذِهِ الآيَة مَدَنِيَّة، وَإِنْ كَانَ مَجْمُوع السُّورَة مَكِّيًّا، وَالله أَعْلم.

وَقَدْ قَال عَبْد الرَّزَّاق: حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة، فِي قَوْله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، قَال: هَذِهِ مِمَّا كَانَ ابْن عَبَّاس يَكْتُمهَا.

وَقَدْ رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم بِسَنَدِهِ عَنْ نُعَيْم [القَارِئ][2] أَنَّهُ قَال فِي قَوْله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قَال: إِلى بَيْت المَقْدِس. وَهَذَا -وَالله أَعْلم- يَرْجِع إِلى قَوْل مَنْ فَسَّرَ ذَلكَ بِيَوْم القِيَامَة، لأَنَّ بَيْت المَقْدِس هُوَ أَرْض المَحْشَر وَالمَنْشَر، وَالله المُوَفِّق للصَّوَاب. وَوَجْه الجَمْع بَيْن هَذِهِ الأَقْوَال أَنَّ ابْن عَبَّاس فَسَّرَ ذَلكَ تَارَة بِرُجُوعِهِ إِلى مَكَّة، وَهُوَ الفَتْح الَّذِي هُوَ عِنْد ابْن عَبَّاس أَمَارَة عَلى اقْتِرَاب أَجَله ﷺ كَمَا فَسَّره ابْن عَبَّاس بِسُورَة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾: أَنَّهُ أَجَل رَسُول الله ﷺ نُعِيَ إِليْهِ، وَكَانَ ذَلكَ بِحَضْرَةِ عُمَر بْن الخَطَّاب، وَوَافَقَهُ عُمَر عَلى ذَلكَ، وَقَال: لا أَعْلم مِنْهَا غَيْر الَّذِي تَعْلم. وَلهَذَا فَسَّرَ ابْن عَبَّاس تَارَة أُخْرَى قَوْله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ بِالمَوْتِ، وَتَارَة بِيَوْمِ

---

(١) مرسل: من رواية الضحاك ولم يسنده.

(٢) في (ز): [القاهري].

القِيَامَة الَّذِي هُوَ بَعْد المَوْت، وَتَارَة بِالجَنَّةِ الَّتِي هِيَ جَزَاؤُهُ وَمَصِيره عَلَى أَدَاء رِسَالَة الله، وَإِبْلاغهَا إِلَى الثَّقَلَيْنِ الإِنْس وَالجِنّ، وَلأَنَّهُ أَكْمَل خَلق الله وَأَفْصح خَلق الله وَأَشْرَف خَلق الله عَلَى الإِطْلاق.

وَقَوْله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أَيْ: قُل لمَنْ خَالفَك وَكَذَّبَك يَا مُحَمَّد مِنْ قَوْمك مِنْ المُشْرِكِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ -قُل: رَبِّي أَعْلَم بِالْمُهْتَدِي مِنْكُمْ وَمِنِّي، وَسَتَعْلَمُونَ لَمَنْ تَكُون عَاقِبَة الدَّار، وَلمَنْ تَكُون العَاقِبَة وَالنُّصْرَة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُذَكِّرًا لنَبِيِّهِ نِعْمَته العَظِيمَة عَلَيْهِ وَعَلَى العِبَاد إِذْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، أَيْ: مَا كُنْت تَظُنّ قَبْل إِنْزَال الوَحْي إِلَيْك أَنَّ الوَحْي يَنْزِل عَلَيْك، ﴿وَلَٰكِن رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾، أَيْ: إِنَّمَا أُنْزِل الوَحْي عَلَيْك مِنْ الله مِنْ رَحْمَته بِك وَبِالعِبَادِ بِسَبَبِك، فَإِذْ مَنَحَك بِهَذِهِ النِّعْمَة العَظِيمَة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا﴾، أَيْ: مُعِينًا ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾، وَلكِنْ فَارِقْهُمْ وَنَابِذْهُمْ وَخَالِفْهُمْ.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ﴾، أَيْ: لا تَتَأَثَّر لمُخَالفَتِهِمْ لك وَصَدّهمْ النَّاس عَنْ طَرِيقك، ولا تَلْوِي عَلَى ذَلكَ وَلا تُبَالِهِ؛ فَإِنَّ الله مُعْلٍ كَلمَتك، وَمُؤَيِّد دِينك، وَمُظْهِر مَا أُرْسِلتَ بِهِ عَلَى سَائِر الأَدْيَان، وَلهَذَا قَالَ: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾، أَيْ: إِلَى عِبَادَة رَبّك وَحْده لا شَرِيك لهُ، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

وقَوْله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، أَيْ: لا تَليق العِبَادَة إِلَّا لهُ، وَلا تَنْبَغِي الإِلهِيَّة إِلَّا لعَظَمَتِهِ.

وَقَوْله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ إِخْبَار بِأَنَّهُ الدَّائِم البَاقِي الحَيّ القَيُّوم الَّذِي تَمُوت الخَلائِق وَلا يَمُوت؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ فَعَبَّرَ بِالوَجْهِ عَنْ الذَّات، وَهَكَذَا قَوْله هَهُنَا: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ أَيْ: إِلَّا إِيَّاهُ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيح، مِنْ طَرِيق أَبِي سَلمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «أَصْدَق كَلمَة قَالهَا الشَّاعِر كلمة لبيد:

أَلا كُلّ شَيْء مَا خَلا الله بَاطِل»[1]

وَقَال مُجَاهِد وَالثَّوْرِيّ فِي قَوْله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ أَيْ: إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهه، وَحَكَاهُ البُخَارِيّ فِي «صَحِيحه» كَالمُقَرِّرِ لهُ.

قَال ابْن جَرِير: وَيَسْتَشْهِد مَنْ قَال ذَلكَ بِقَوْل الشَّاعِر:

أَسْتَغْفِر الله ذَنْبًا لسْت مُحْصِيه ۞ رَبّ العِبَاد، إِلَيْهِ الوَجْه وَالعَمَل

وَهَذَا القَوْل لا يُنَافِي القَوْل الأَوَّل، فَإِنَّ هَذَا إِخْبَار عَنْ كُلّ الأَعْمَال بِأَنَّهَا بَاطِلة إِلَّا مَا أُرِيدَ بها وَجْه الله ﷻ مِنْ الأَعْمَال الصَّالحَة المُطَابِقَة للشَّرِيعَةِ. وَالقَوْل الأَوَّل مُقْتَضَاهُ أَنَّ كُلّ الذَّوَات فَانِيَة وهالكة وَزَائِلة إِلَّا ذَاته -تَعَالى-، فَإِنَّهُ الأَوَّل وَالآخِر الَّذِي هُوَ قَبْل كُلّ شَيْء وَبَعْد كُلّ شَيْء. قَال أَبُو بَكْر عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَاب «التَّفَكُّر وَالاعْتِبَار»: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن أَبِي بَكْر، حَدَّثَنَا مُسْلم بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا عَمْرو ابْن سُلَيْم البَاهِلِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيد، قَال: كَانَ ابْن عُمَر إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَعَاهَد قَلبه، يَأْتِي الخَرِبَة فَيَقِف عَلَى بَابهَا، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ حَزِين فَيَقُول: أَيْنَ أَهْلك؟ ثُمَّ يَرْجِع إِلَى نَفْسه فَيَقُول: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾. وَقَوْله: ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾، أَيْ: المُلْك وَالتَّصَرُّف وَلا مُعَقِّب لحُكْمِهِ ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾. أَيْ: يَوْم مَعَادكُمْ فَيَجْزِيكُمْ بِأَعْمَالكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ.

آخِر تَفْسِير سُورَة القَصَص، ولله الحَمْد وَالمِنَّة

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦).

تفسير سورة العنكبوت وهي مكية

ترتيبها ٢٩ — وآياتها ٦٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول «سورة البقرة».

وقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ اسْتِفْهَام إِنْكَار، وَمَعْنَاهُ أَنَّ الله -سُبْحَانه وَتَعَالَى- لابُدّ أَنْ يَبْتَلِي عِبَاده الْمُؤْمِنِينَ بِحَسَبِ مَا عِنْدهمْ مِنْ الإِيمَان، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيث الصَّحِيح: «أَشَدّ النَّاس بَلاء: الأَنْبِيَاء، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَل فَالأَمْثَل، يُبْتَلى الرَّجُل عَلَى حَسَب دِينه، فَإِنْ كَانَ فِي دِينه صَلابَة زِيدَ فِي الْبَلاء»[1]. وَهَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وَمِثْلهَا فِي «سُورَة بَرَاءَة». وَقَالَ فِي الْبَقَرَة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾؛ وَلِهَذَا قَال هَهُنَا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، أَيْ: الَّذِينَ صَدَقُوا فِي دعواهم الإِيمَان مِمَّنْ هُوَ كَاذِب فِي قَوْله وَدَعْوَاهُ. وَالله -سُبْحَانه وَتَعَالَى- يَعْلم مَا كَانَ وَمَا يَكُون وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْف كَان يَكُون. وَهَذَا مُجْمَع عَلَيْهِ عِنْد أَئِمَّة السُّنَّة وَالْجَمَاعَة؛ ولهذا يَقُول ابْن عَبَّاس وَغَيْره فِي مِثْل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ إِلَّا لنَرَى؛ وَذَلِكَ لأَنَّ الرُّؤْيَة إِنَّمَا تَتَعَلَّق بِالْمَوْجُود، وَالعِلم أَعَمّ مِنْ الرُّؤْيَة، فَإِنَّهُ يَتَعَلَّق بِالْمَعْدُوم وَالْمَوْجُود.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، أَيْ: لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلُوا فِي الإِيمَان أَنَّهُمْ يَتَخَلَّصُونَ مِنْ هَذِهِ الْفِتْنَة وَالامْتِحَان، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِمْ مِنْ الْعُقُوبَة وَالنَّكَال مَا هُوَ أَغْلَظ مِنْ هَذَا وَأَطَمّ، وَلِهَذَا قَال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾، أَيْ: يَفُوتُونَا ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَيْ: بِئْسَ مَا يَظُنُّونَ!

﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

يَقُول تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: فِي الدَّار الآخِرَة، وَعَمِلَ الصَّالِحَات رجاء مَا عِنْد الله مِنْ الثَّوَاب الْجَزِيل، فَإِنَّ الله سَيُحَقِّقُ لَهُ رَجَاءَهُ، وَيُوَفِّيه عَمَله كَامِلًا موفورًا، فَإِنَّ ذَلِكَ كَائِن لا مَحَالَة لأَنَّهُ سَمِيع الدُّعَاء، بَصِير بِكُلِّ الْكَائِنَات، وَلِهَذَا قَال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾: أَيْ: مَنْ عَمِل صَالِحًا فَإِنَّمَا يَعُود نَفْع عَمَله عَلَى نَفْسه. فَإِنَّ الله غَنِيّ عَنْ أَفْعَال الْعِبَاد، وَلَوْ كَانُوا كُلّهمْ عَلَى أَتْقَى قَلْب رَجُل مِنْهُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكه شَيْئًا؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قَال الْحَسَن الْبَصْرِيّ: إِنَّ الرَّجُل لَيُجَاهِد وَمَا ضَرَبَ يَوْمًا مِنْ الدَّهْر بِسَيْفٍ. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَعَ غِنَاهُ عَنْ الْخَلائِق جَمِيعهمْ من إحسانه وبره بِهِمْ يُجَازِي الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات أَحْسَن الْجَزَاء، وَهُوَ أَنَّهُ يُكَفِّر عَنْهُمْ أَسْوَأ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ أَجْرهمْ بِأَحْسَنِ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَيَقْبَل الْقَلِيل مِنْ الْحَسَنَات وَيُثِيب عَلَيْهَا الْوَاحِدَة بِعَشْرِ أَمْثَالهَا إِلَى سَبْعِمِائَة

---

(١) صحيح: تقدم.

ضِعْف، وَيَجْزِي عَلى السَّيِّئَة بِمِثْلِهَا أَوْ يَعْفُو وَيَصْفَح، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وَقَال هَهُنَا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾.

يَقُول تَعَالى آمِرًا عِبَاده بِالإِحْسَانِ إلى الوَالدَيْنِ بَعْد الحَثّ عَلى التَّمَسُّك بِتَوْحِيدِهِ، فَإِنَّ الوَالدَيْنِ هُمَا سَبَب وُجُود الإِنْسَان، وَلَهُمَا عَلَيْهِ غَايَة الإِحْسَان، فَالوَالد بِالإِنْفَاقِ وَالوَالدَة بِالإِشْفَاقِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ وَمَعَ هَذِهِ الوَصِيَّة بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَة وَالإِحْسَان إِلَيْهِمَا فِي مُقَابَلَة إِحْسَانِهِمَا المُتَقَدِّم؛ قَال: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، أَيْ: وَإِنْ حَرِصَا عَلَيْكَ أَنْ تُتَابِعَهُمَا فِي دِينِهِمَا إِذَا كَانَا مُشْرِكَيْنِ، فَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُمَا، لا تُطِعْهُمَا فِي ذَلِك، فَإِنَّ مَرْجِعَكُمْ إِلَيَّ يَوْم القِيَامَة فَأَجْزِيك بِإِحْسَانِك إِلَيْهِمَا وَصَبْرك عَلى دِينِك، وَأَحْشُرك مَعَ الصَّالِحِينَ لا فِي زُمْرَة وَالدَيْك، وَإِنْ كُنْت أَقْرَب النَّاس إِلَيْهِمَا فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ المَرْء إِنَّمَا يُحْشَر يَوْم القِيَامَة مَعَ مَنْ أَحَبَّ، أَيْ: حُبًّا دِينِيًّا؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾.

وَقَال التِّرْمِذِيّ عِنْد تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار وَمُحَمَّد بْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة عَنْ سِمَاك بْن حَرْب قَال: سَمِعْت مُصْعَب بْن سَعْد يُحَدِّث عَنْ أَبِيهِ سَعْد، قَال: نَزَلَتْ فِيَّ أَرْبَع آيَات. فَذَكَر قِصَّة وَقَالَتْ أُمّ سَعْد: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَكَ الله بِالبِرِّ؟ وَالله لا أَطْعَم طَعَامًا وَلا أَشْرَب شَرَابًا حَتَّى أَمُوت أَوْ تَكْفُر، قَال: فَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُطْعِمُوهَا شَجَرُوا فَاهَا، فأنزل الله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ﴾[1] الآيَة.
وَهَذَا الحَدِيث رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَمُسْلم؟ وَأَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ أَيْضًا، وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ صِفَات قَوْم مِنَ المُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الإِيمَان بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَلَمْ يَثْبُت الإِيمَان فِي قُلُوبِهِمْ، بِأَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ فِتْنَة وَمِحْنَة فِي الدُّنْيَا اعْتَقَدُوا أَنَّ هَذَا مِنْ نِقْمَة الله تَعَالى بِهِمْ، فَارْتَدُّوا عَنْ الإِسْلام؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾. قَال ابْن عَبَّاس: يَعْنِي فِتْنَته أَنْ يَرْتَدّ عَنْ دِينه إِذَا أُوذِيَ فِي الله. وَكَذَا قَال غَيْره مِنْ عُلَمَاء السَّلَف. وَهَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾. ثُمَّ قَال: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أَيْ: وَلَئِنْ جَاءَ نَصْر قَرِيب مِنْ رَبّك -يَا مُحَمَّد- وَفَتْح وَمَغَانِم، لَيَقُولَنَّ هَؤُلاءِ لَكُمْ: إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَيْ إِخْوَانكُمْ فِي الدِّين، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾، وَقَال تَعَالى

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في «فضائل الصحابة» (١٧٤٨)، وأبو داود (٢٧٤٠).

مُخْبِرًا عَنْهُمْ هَهُنَا: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾، ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أَيْ: أَوَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَمَا تُكِنّهُ ضَمَائِرهمْ وَإِنْ أَظْهَرُوا لكُمْ المُوافَقَة؟

وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، أَيْ: وَلَيَخْتَبِرَنَّ الله النَّاس بِالضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاء، لِيَتَمَيَّزَ هَؤُلاءِ مِنْ هَؤُلاءِ، وَمَنْ يُطِيع الله فِي الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء، وَمَنْ إِنَّمَا يُطِيعهُ فِي حَظّ نَفْسه، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾، وَقَال تَعَالى بَعْد وَقْعَة أُحُد الَّتِي كَانَ فِيهَا مَا كَانَ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ الآيَة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ كُفَّار قُرَيْش: إِنَّهُمْ قَالُوا لمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الهُدَى: ارْجِعُوا عن دِينكُمْ إِلى دِينِنَا وَاتَّبِعُوا سَبِيلنَا، ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، أَيْ: وَآثَامكُمْ -إِنْ كَانَتْ لكُمْ آثَام فِي ذَلِكَ- عَلَيْنَا وَفِي رِقَابنَا، كَمَا يَقُول القَائِل: «افْعَل هَذَا وَخَطِيئَتك فِي رَقَبَتِي». قَال الله تَكْذِيبًا لهُمْ: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، أَيْ: فِيمَا قَالُوهُ إِنَّهُمْ يَحْتَمِلُونَ عَنْ أُولئِكَ خَطَايَاهُمْ؛ فَإِنَّهُ لا يَحْمِل أَحَد وِزْر أَحَد، ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ﴾.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ إِخْبَار عَنْ الدُّعَاة إِلى الكُفْر وَالضَّلالة أَنَّهُمْ يَوْم القِيَامَة يَحْمِلُونَ أَوْزَار أَنْفُسهمْ، وَأَوْزَارًا أُخْرَى بِسَبَبِ مَا أَضَلُّوا مِنْ النَّاس مِنْ غَيْر أَنْ يَنْقُص مِنْ أَوْزَار أُولئِكَ شَيْئًا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

وَفِي «الصَّحِيح»: «**مَنْ دَعَا إِلى هُدًى، كَانَ لهُ مِنْ الأَجْر مِثْل أُجُور مَنْ اتَّبَعَهُ إِلى يَوْم القِيَامَة مِنْ غَيْر أَنْ يُنْقِص مِنْ أُجُورهمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلى ضَلالة كَانَ عَليْهِ مِنْ الإِثْم مِثْل آثَام مَنْ اتَّبَعَهُ إِلى يَوْم القِيَامَة مِنْ غَيْر أَنْ يُنْقِص مِنْ آثَامهمْ شَيْئًا**»[1]. وَفِي «الصَّحِيح»: «**مَا قُتِلتْ نَفْس ظُلمًا إِلاَّ كَانَ على ابْن آدم الأَوَّل كِفْل مِنْ دَمهَا، لأَنَّهُ أَوَّل مَنْ سَنَّ القَتْل**»[1].

وَقَوْله: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ: يَكْذِبُونَ وَيَخْتَلِقُونَ، مِنْ البُهْتَان. وَقَدْ ذَكَرَ ابْن أَبِي حَاتِم هَهُنَا حَدِيثًا فَقَال: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا هِشَام بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا صَدَقَة، حَدَّثَنَا عُثْمَان أبو حَفْص بْن أَبِي العاتكة حَدَّثَنِي سُليْمَان بْن حَبِيب المُحَارِبِيّ، عَنْ أَبِي أُمَامَة ﷺ قال: إِنَّ رَسُول الله ﷺ بَلَّغَ مَا أُرْسِل بِهِ، ثُمَّ قَال: إِيَّاكُمْ وَالظُّلم فَإِنَّ الله يَعْزِم يَوْم القِيَامَة فَيَقُول: وَعِزَّتِي لا يَجُوزُنِي اليَوْم ظُلم! ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ فَيَقُول: أَيْنَ فُلان ابْن فُلان؟ فَيَأْتِي يَتْبَعهُ مِنْ الحَسَنَات أَمْثَال الجِبَال. فَيُشْخِص النَّاس إِليْهَا أَبْصَارهمْ حَتَّى يَقُوم بَيْن يَدَيْ الله الرَّحْمَن ﷻ، ثُمَّ يَأْمُر المُنَادِي فَيُنَادِي: مَنْ كَانَتْ لهُ تِبَاعَة -أَوْ ظَلامَة- عِنْد فُلان ابْن فُلان، فَهَلُمَّ. فَيُقْبِلُونَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا قِيَامًا بَيْن يَدَيْ الرَّحْمَن. فَيَقُول الرَّحْمَن: اقْضُوا عَنْ عَبْدِي. فَيَقُولُونَ: كَيْف نَقْضِي عَنْهُ؟ فَيَقُول لهُمْ: خذوا لهم مِنْ حَسَنَاته. فَلا يَزَالُونَ يَأْخُذُونَ مِنْهَا حَتَّى لا يَبْقَى له حَسَنَة، وَقَدْ بَقِيَ مِنْ أَصْحَاب الظَّلامَات. فَيَقُول: اقْضُوا عَنْ عَبْدِي. فَيَقُولُونَ: لمْ يَبْقَ لهُ حَسَنَة. فَيَقُول: خُذُوا مِنْ سَيِّئَاتهمْ فَاحْمِلُوهَا عَليْهِ. ثُمَّ نَزَعَ النَّبِيّ ﷺ بِهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.[2]

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) إسناده حسن: ويشهد له الحديث الصحيح: «أتدرون من المفلس».

وَهَذَا الحَدِيث لهُ شَاهِد فِي «الصَّحِيح» مِنْ غَيْر هَذَا الوَجْه. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حدثني أَحْمَد بْن أَبِي الحَوَارِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو بِشْر الحَذَّاء عَنْ أَبِي حَمْزَة البيساني، عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل ﷺ قَال: قَال لِي رَسُول الله ﷺ: «يَا مُعَاذ، إِنَّ المُؤْمِن يُسْأَل يَوْم القِيَامَة عَنْ جَمِيع سَعْيه، حَتَّى عَنْ كَحْل عَيْنَيْهِ، وَعَنْ فُتَات الطِّينَة بِأُصْبُعَيْهِ، فَلا أَلفِيَنَّكَ تَأْتِي يَوْم القِيَامَة وَأَحد أَسْعَد بِمَا آتَاكَ الله مِنْك».[1]

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

هَذِهِ تَسْلِيَة مِنْ الله تَعَالَى لعَبْدِهِ وَرَسُوله مُحَمَّد ﷺ يُخْبِرهُ عَنْ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ مَكَثَ فِي قَوْمه هَذِهِ المُدَّة يَدْعُوهُمْ إِلَى الله لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَجِهَارًا، وَمَعَ هَذَا مَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَارًا عَنْ الحَقّ، وَإِعْرَاضًا عَنْهُ وَتَكْذِيبًا لَهُ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيل، وَلهَذَا قَال: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾، أَيْ: بَعْد هَذِهِ المُدَّة الطَّوِيلة مَا نَجعَ فِيهِمْ البَلاغ وَالإِنْذَار، فَأَنْتَ -يَا مُحَمَّد- لا تَأْسَف عَلى مَنْ كَفَرَ بِك مِنْ قَوْمك، وَلا تَحْزَن عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشَاء، وَيُضِلّ مَنْ يَشَاء، وَبِيَدِهِ الأَمْر، وَإِلَيْهِ تُرْجَع الأُمُور، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾. وَاعْلمْ أَنَّ الله سَيُظْهِرُك وَيَنْصُرك وَيُؤَيِّدك وَيُذِلّ عَدُوّك وَيَكْبِتهُمْ وَيَجْعَلهُمْ أَسْفَل السَّافِلِينَ.

قَال حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ يُوسُف بْن مَاهَك، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: بُعِثَ نُوح وَهُوَ لأَرْبَعِينَ سَنَة، وَلبِثَ فِي قَوْمه أَلف سَنَة إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَعَاشَ بَعْد الطُّوفَان سِتِّينَ عَامًا، حَتَّى كَثُرَ النَّاس وَفَشَوْا. وَقَال قَتَادَة: يُقَال: إِنَّ عُمْره كُلّه أَلف سَنَة إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا لبِثَ فِيهِمْ قَبْل أَنْ يَدْعُوهُمْ ثَلاث مِائَة سَنَة، وَدَعَاهُمْ ثَلاث مِائَة، وَلبِثَ بَعْد الطُّوفَان ثَلاثمِائَةٍ وَخَمْسِينَ سنة. وَهَذَا قَوْل غَرِيب، وَظَاهِر السِّيَاق مِنْ الآيَة أَنَّهُ مَكَثَ فِي قَوْمه يَدْعُوهُمْ إِلَى الله أَلف سَنَة إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا.

وَقَال عَوْن بْن أَبِي شَدَّاد: إِنَّ الله أَرْسَل نُوحًا إِلَى قَوْمه وَهُوَ ابْن خَمْسِينَ وَثَلاثمِائَة سَنَة، فَدَعَاهُمْ أَلف سَنَة إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، ثُمَّ عَاشَ بَعْد ذَلكَ ثَلاث مِائَة وَخَمْسِينَ سَنَة. وَهَذَا أَيْضًا غَرِيب، رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير. وَقَوْل ابْن عَبَّاس أَقْرَب، وَالله أَعْلم.

وَقَال الثَّوْرِيّ، عَنْ سَلمَة بْن كُهَيْل، عَنْ مُجَاهِد قَال: قَال لِي ابْن عُمَر: كَمْ لبِثَ نُوح فِي قَوْمه؟ قَال: قُلت: أَلف سَنَة إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا. قَال: فَإِنَّ النَّاس لمْ يَزَالُوا فِي نُقْصَان مِنْ أَعْمَارهمْ وَأَحْلامهمْ وَأَخْلاقهمْ إِلَى يَوْمك هَذَا.

وَقَوْله: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ أَيْ: الَّذِينَ آمَنُوا بِنُوحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْر ذَلكَ مُفَصَّلًا فِي «سُورَة هُود» وَتَقَدَّمَ تَفْسِيره بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته.

وَقَوْله: ﴿ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾، أَيْ: وَجَعَلنَا تِلكَ السَّفِينَة بَاقِيَة إِمَّا عَيْنهَا، كَمَا قَال قَتَادَة: إِنَّهَا بَقِيَتْ إِلَى أَوَّل الإِسْلام عَلى جَبَل الجُودِيّ، أَوْ نَوْعهَا جَعَلهُ للنَّاسِ تَذْكِرَة لنِعَمِهِ عَلى الخَلق كَيْف نَجَّاهم زمن الطُّوفَان، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾، وَقَال هَهُنَا: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ وَهَذَا مِنْ بَاب التَّدْرِيج مِنْ الشَّخْص إِلَى الجِنْس، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾،

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣١)، وفيه أبو حمزة الثمالي: رافضي.

أَيْ: وَجَعَلْنَا نَوْعهَا، فَإِنَّ الَّتِي يُرْمَى بِهَا لَيْسَتْ هِيَ التي زِينَة للسَّماءِ. وَقَال تَعَالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ وَلهَذَا نَظَائِر كَثِيرَة.

وَقَال ابْن جَرِير: لوْ قِيل إِنَّ الضَّمِير فِي قَوْله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ عَائِد إِلى العُقُوبَة، لكَانَ وَجْهًا، وَالله أَعْلم.

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ عَبْده وَرَسُوله وَخَليله إِبْرَاهِيم إِمَام الحُنَفَاء: أَنَّهُ دَعَا قَوْمه إِلى عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَالإِخْلاص لهُ فِي التَّقْوَى، وَطَلب الرِّزْق مِنْهُ وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَتَوْحِيده فِي الشُّكْر، فَإِنَّهُ المَشْكُور عَلى النِّعَم لا مُسْدِي لهَا غَيْره فَقَال لقَوْمِهِ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ﴾ أَيْ: أَخْلصُوا لهُ فِي العِبَادَة وَالخَوْف؛ ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: إِذَا فَعَلتُمْ ذَلكَ حَصَل لكُمْ الخَيْر فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة وَانْدَفَعَ عَنْكُمْ الشَّرّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. ثُمَّ أَخْبَرَهم أَنَّ الأَصْنَام الَّتِي يَعْبُدُونَهَا والأوثان، لا تَضُرّ وَلا تَنْفَع، وَإِنَّمَا اخْتَلقْتُمْ أَنْتُمْ لهَا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا آلهَة وَإِنَّمَا هِيَ مَخْلُوقَة مِثْلكُمْ. هَكَذَا رَوَى العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس. وبه قال مُجَاهِد وَالسُّدِّيّ، وَرَوَى الوَالبِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: وَتَصْنَعُونَ إِفْكًا، أَيْ: تَنْحِتُونَهَا أَصْنَامًا. وَبِهِ قَال مُجَاهِد -فِي رِوَايَة- وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن، وَقَتَادَة وَغَيْرهمْ، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وَهِيَ لا تَمْلك لكُمْ رِزْقًا، ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ وَهَذَا أَبْلغ فِي الحَصْر، كَقَوْلهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾؛ وَلهَذَا قَال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟﴾، أَيْ: فَاطْلُبُوا ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾، أَيْ: لا تعبدوا غَيْره فَإِنَّ غَيْره لا يَمْلك شَيْئًا، ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أَيْ: كُلُوا مِنْ رِزْقه وَاعْبُدُوهُ وَحْده، وَاشْكُرُوا لهُ عَلى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَليْكُمْ، ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أَيْ: يَوْم القِيَامَة، فَيُجَازِي كُلّ عَامِل بِعَمَلهِ.

وَقَوْله: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ﴾، أَيْ: فَبلغَكُمْ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال فِي مُخَالفَة الرُّسُل، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، يَعْنِي: إِنَّمَا عَلى الرَّسُول أَنْ يُبَلِّغكُمْ مَا أَمَرَهُ الله -تَعَالى- بِهِ مِنْ الرِّسَالة، وَالله يُضِلّ مَنْ يَشَاء وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء، فَاحْرِصُوا لأَنْفُسِكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنْ السُّعَدَاء. وَقَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ﴾، قَال: يُعَزِّي نَبِيّه ﷺ. وَهَذَا -مِنْ قَتَادَة- يَقْتَضِي أَنَّهُ قَدْ انْقَطَعَ الكَلام الأَوَّل، واعترض بِهَذَا إِلى قَوْله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾. وَهَكَذَا نَصَّ عَلى ذَلكَ ابْن جَرِير أَيْضًا. وَالظَّاهِر مِنْ السِّيَاق أَنَّ كُلّ هَذَا مِنْ كَلام إِبْرَاهِيم الخَليل عَلَيْهِ السَّلَامُ يَحْتَجّ عَليْهِمْ لإِثْبَاتِ المَعَاد؛ لقَوْلهِ بَعْد هَذَا كُلّه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾، وَالله أَعْلم.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ الخَليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ أَرْشَدَهُمْ إِلى إِثْبَات المَعَاد الَّذِي يُنْكِرُونَهُ، بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي أَنْفُسهمْ مِنْ خَلق الله إِيَّاهُمْ، بَعْد أَنْ لمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا، ثُمَّ وُجِدُوا وَصَارُوا أُنَاسًا سَامِعِينَ مُبْصِرِينَ. فَالَّذِي بَدَأَ هَذَا قَادِر عَلى إِعَادَته، فَإِنَّهُ سَهْل عَليْهِ يَسِير لدَيْهِ. ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلى الاعْتِبَار بِمَا فِي الآفَاق مِنْ الآيَات المُشَاهَدَة مِنْ خَلق الله

الأَشْيَاء: السَّمَوَات وَمَا فِيهَا مِنْ الكَوَاكِب النَّيِّرَة الثَّوَابِت، وَالسَّيَّارَات، وَالأَرَضِينَ وَمَا فِيهَا مِنْ مِهَاد وَجِبَال، وَأَوْدِيَة وَبَرَارِي وَقِفَار، وَأَشْجَار وَأَنْهَار، وَثِمَار، وَبِحَار. كُلّ ذَلِكَ دَالّ عَلَى حُدُوثِهَا فِي أَنْفُسهَا، وَعَلى وُجُود صَانِعهَا الفَاعِل المُخْتَار، الَّذِي يَقُول للشَّيْء: كُنْ فَيَكُون، وَلهَذَا قَال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾. ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾، أَيْ: يَوْم القِيَامَة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وَهَذَا المَقَام شَبِيه بِقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، وَكَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾، أَيْ: هُوَ الحَاكِم المُتَصَرِّف، الَّذِي يَفْعَل مَا يَشَاء وَيَحْكُم مَا يُرِيد، لا مُعَقِّب لِحُكْمِهِ، وَلا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَل وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فَلهُ الخَلق وَالأَمْر، مَهْمَا فَعَل فَعَدْلٌ، لأَنَّهُ المَالك الَّذِي لا يَظْلم مِثْقَال ذَرَّة، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ أَهْل السُّنَن: «**إِنَّ الله لوْ عَذَّبَ أَهْل سَمَاوَاته وَأَهْل أَرْضه، لعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْر ظَالم لهُمْ**»[1]. وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾، أَيْ: تُرْجَعُونَ يَوْم القِيَامَة.

وَقَوْله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، أَيْ: لا يُعْجِزهُ أَحَد مِنْ أَهْل سَمَاوَاته وَأَرْضه، بَل هُوَ القَاهِر فَوْق عِبَاده، وَكُلّ شَيْء خَائِف مِنْهُ فَقِير إِليْهِ، وَهُوَ الغَنِيّ عَمَّا سِوَاهُ. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾، أَيْ: جَحَدُوهَا وَكَفَرُوا بِالمَعَادِ، ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾، أَيْ: لا نَصِيب لهُمْ فِيهَا، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أَيْ: مُوجِع فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ قَوْم إِبْرَاهِيم فِي كُفْرهِمْ وَعِنَادهِمْ وَمُكَابَرَتهِمْ، وَدَفْعهِمْ الحَقّ بِالبَاطِل: إِنه مَا كَانَ لهُمْ جَوَاب بَعْد مَقَالة إِبْرَاهِيم هَذِهِ المُشْتَمِلة عَلى الهُدَى وَالبَيَان ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، وَذَلكَ لأَنَّهُمْ قَامَ عَليْهِمْ البُرْهَان، وَتَوَجَّهَتْ عَليْهِمْ الحُجَّة، فَعَدَلُوا إِلى اسْتِعْمَال جَاههِمْ وَقُوَّة مُلكهِمْ، فـ ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾، وَذَلكَ أَنَّهُمْ حَشَدُوا فِي جَمْع أَحطَاب عَظِيمَة مُدَّة طَوِيلة، وَحَوَّطُوا حَوْلهَا ثُمَّ أَضْرَمُوا فِيهَا النَّار فَارْتَفَعَ لهَا لهَب إِلى عَنَان السَّمَاء. وَلمْ [تُوقَد][2] نَار قَطُّ أَعْظَم مِنْهَا، ثُمَّ عَمَدُوا إِلى إِبْرَاهِيم فَكَتَّفُوهُ وَأَلقَوْهُ فِي كِفَّة المَنْجَنِيق، ثُمَّ قَذَفُوا به فِيهَا، فَجَعَلهَا الله عَليْهِ بَرْدًا وَسَلامًا، وَخَرَجَ مِنْهَا سَالمًا بَعْدَ مَا مَكَثَ فِيهَا أَيَّامًا، وَلهَذَا وَأَمْثَاله جَعَلهُ الله للنَّاسِ إِمَامًا. فَإِنَّهُ بَذَل نَفْسه للرَّحْمَنِ، وَجَسَده للنِّيرَانِ، وَسَخَا بِوَلدِهِ للقُرْبَانِ، وَجَعَل مَاله للضِّيفَانِ، وَلهَذَا اجْتَمَعَ عَلى مَحَبَّته جَمِيع أَهْل الأَدْيَان.

وَقَوْله: ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أَيْ: سَلَّمَهُ مِنْهَا، بِأَنْ جَعَلهَا عَليْهِ بَرْدًا وَسَلامًا، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يَقُول لقَوْمِهِ مُقَرِّعًا لهُمْ وَمُوَبِّخًا عَلى سُوء صَنِيعهِمْ فِي عِبَادَتهِمْ الأَوْثَانِ: إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ هَذِهِ لتَجْتَمِعُوا عَلى عِبَادَتهَا فِي الدُّنْيَا صَدَاقَة وَأُلفَة مِنْكُمْ بَعْضكُمْ لبَعْضٍ فِي الحَيَاة الدُّنْيَا، وَهَذَا عَلى قِرَاءَة مَنْ نَصَبَ ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾، عَلى أَنَّهُ مَفْعُول لهُ، وَأَمَّا عَلى قِرَاءَة

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود وابن ماجه».
(٢) في (ز): [توحد].

الرَّفْع فَمَعْنَاهُ: إِنَّمَا اتِّخَاذُكُمْ هَذَا لِيحْصُل لكُمْ المَوَدَّة فِي الدُّنْيَا فَقَطْ، ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، يَنْعَكِس هَذَا الحَال، فَتَبْقَى هَذِهِ الصَّدَاقَة وَالمَوَدَّة بُغْضًا وَشَنَآنًا، فـ ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أَيْ: تَتَجَاحَدُونَ مَا كَانَ بَيْنَكُمْ ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أَيْ: يَلعَن الأَتْبَاع المَتْبُوعِينَ، وَالمَتْبُوعُونَ الأَتْبَاع، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، وَقَال تَعَالَى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وَقَال هَهُنَا: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾، أَيْ: وَمَصِيرُكُمْ وَمَرْجِعكُمْ بَعْد عَرَصَات القِيَامَة إِلى النَّار، وَمَا لكُمْ مِنْ نَاصِر يَنْصُركُمْ، وَلا مُنْقِذ يُنْقِذكُمْ مِنْ عَذَاب الله وَهَذَا حَال الكَافِرِينَ فَأَمَّا المُؤْمِنُونَ فَبِخِلافِ ذَلِكَ.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل [الأَحْمَسِيّ][1]، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِم الثَّقَفِيّ الرَّبِيع بْن [إِسْمَاعِيل][2] عن عَمْرو بْن سَعِيد بْن جَعْدَة بْن هُبَيْرَة المَخْزُومِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه، عَنْ أُمّ هَانِئ -أُخْت عَلِيّ بْن أَبِي طَالب- قَالتْ: قَال لِي النَّبِيّ ﷺ: «أُخْبِرك أَنَّ الله تَعَالى يَجْمَع الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْم القِيَامَة فِي صَعِيد وَاحِد، فَمَنْ يَدْرِي أَيْنَ الطَّرَفَانِ؟ فقَالتْ: الله وَرَسُوله أَعْلم. ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ تَحْت العَرْش: يَا أَهْل التَّوْحِيد، فَيَشْرَئِبُّونَ -قَال أَبُو عَاصِم: يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ- ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْل التَّوْحِيد. ثُمَّ يُنَادِي الثَّالِثَة: يَا أَهْل التَّوْحِيد، إِنَّ الله قَدْ عَفَا عَنْكُمْ. قَال: فَيَقُوم النَّاس قَدْ تَعَلَّقَ بَعْضهمْ بِبَعْضٍ فِي ظُلُمَات الدُّنْيَا -يَعْنِي: المَظَالم- ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْل التَّوْحِيد، لِيَعْفُ بَعْضكُمْ عَنْ بَعْض، وَعَلى الله الثَّوَاب».[3]

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ إِبْرَاهِيم: إِنَّهُ آمَنَ لهُ لُوط، يُقَال: إِنَّهُ ابْن أَخِي إِبْرَاهِيم، يَقُولُونَ هُوَ: لُوط بْن هَارَان بْن آزَر. يَعْنِي: وَلمْ يُؤْمِن بِهِ مِنْ قَوْمه سِوَاهُ، وَسَارَة امْرَأَة إِبْرَاهِيم الخَلِيل. لكِنْ يُقَال: كَيْف الجَمْع بَيْن هَذِهِ الآيَة، وَبَيْن الحَدِيث الوَارِد فِي «الصَّحِيح»: «**أَنَّ إِبْرَاهِيم حِين مَرَّ على ذَلكَ الجبَّار، فسَأَل إِبْرَاهِيم عَنْ سَارَة: مَا هِيَ مِنْهُ؟ فقَال: أُخْتِي. ثُمَّ جَاءَ إِليْهَا فقَال لهَا: إِنِّي قَدْ قُلت لهُ: إِنَّك أُخْتِي فلا تُكَذِّبِينِي، فَإِنَّهُ ليْسَ على وَجْه الأَرْض مُؤْمِن غَيْرك وغَيْرِي، فَأَنْتِ أُخْتِي فِي الدِّين**»[4]. وَكَأَنَّ المُرَاد مِنْ هَذَا -وَالله أَعْلم- أَنَّهُ لَيْسَ عَلى وَجْه الأَرْض زَوْجَانِ عَلى الإِسْلام غَيْرِي وَغَيْرك؛ فَإِنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَام آمَنَ بِهِ مِنْ قَوْمه، وَهَاجَرَ مَعَهُ إِلى بِلاد الشَّام، ثُمَّ أُرْسِل فِي حَيَاة الخَلِيل إِلى أَهْل «سَدُوم» وإِقليمها، وَكَانَ مِنْ أَمْرهمْ مَا تَقَدَّمَ وَمَا سَيَأْتِي.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾، يَحْتَمِل عَوْد الضَّمِير فِي قَوْله: ﴿وَقَالَ﴾ عَلى لُوط، لأَنَّهُ هُوَ أَقْرَب المَذْكُورَيْنِ، وَيَحْتَمِل عَوْده إِلى إِبْرَاهِيم. قَال ابْن عَبَّاس وَالضَّحَّاك: هُوَ المُكَنَّى عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أَيْ: مِنْ قَوْمه، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُ بِأَنَّهُ اخْتَارَ المُهَاجَرَة مِنْ بَيْن أَظْهُرهمْ، ابْتِغَاء إِظْهَار الدِّين وَالتَّمَكُّن مِنْ ذَلكَ، وَلهَذَا قَال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، أَيْ: لهُ العِزَّة وَلرَسُولِهِ وَللمُؤْمِنِينَ بِهِ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي أَقْوَاله وَأَفْعَاله وَأَحْكَامه القَدَرِيَّة وَالشَّرْعِيَّة.

وَقَال قَتَادَة: هَاجَرَا جَمِيعًا مِنْ «كوثى» وَهِيَ مِنْ سَوَاد الكُوفَة إِلى الشَّام. قَال: وَذُكِرَ لنَا أَنَّ نَبِيّ الله ﷺ قَال:

---

(١) في (ز): [الأخمصي].
(٢) في (ز): [سليمان].
(٣) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٨٠٣)، وفيه أبو عاصم الربيع بن إسماعيل، قال أبو حاتم: منكر الحديث.
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١).

«إِنَّهَا سَتَكُونُ هِجْرَة بَعْد هِجْرَة، يَنْحَاز أَهْل الأَرْض إلى مُهَاجَر إِبْرَاهِيم، وَيَبْقَى فِي الأَرْض شِرَار أَهْلهَا حَتَّى تَلفِظهُمْ أَرْضهم، وَتَقْذَرُهُمْ رُوح الله، وَتَحْشِرهُمْ النَّار مَعَ القِرَدَة وَالخَنَازِير، تَبِيت مَعَهُمْ إِذَا بَاتُوا، وَتَقِيل مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا، وَتَأْكُل مَا سَقَطَ مِنْهُمْ».[1]

- وَقَدْ أَسْنَدَ الإِمَام أَحْمَد هَذَا الحَدِيث، فَرَوَاهُ مُطَوَّلًا مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاصِ، فقَال: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ قَتَادَة، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب قَال: لـمَّا جَاءَتْنَا بَيْعَة يَزِيد بْن مُعَاوِيَة، قَدِمْت الشَّام فَأُخْبِرْت بِمَقَام يَقُومهُ نَوْف البِكَالِيّ، فَجِئْته إِذْ جَاءَ رَجُل، فَانْتَبَذَ النَّاس، وَعَلَيْهِ خَمِيصَة وإِذَا هُوَ عَبْد الله ابْن عَمْرو ابْن العَاصِ. فَلَمَّا رَآهُ نَوْف أَمْسَكَ عَنْ الحَدِيث، فَقَال عَبْد الله: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ هِجْرَة بَعْد هِجْرَة، فَيَنْحَاز النَّاس إِلى مُهَاجَر إِبْرَاهِيم، لا يَبْقَى فِي الأَرْض إلاَّ شِرَار أَهْلهَا، فَتَلفِظهُمْ أَرْضوهم، تَقْذَرُهُمْ نَفْس الرَّحْمَن، تَحْشُرهُمْ النَّار مَعَ القِرَدَة وَالخَنَازِير، تَبِيت مَعَهُمْ إِذَا بَاتُوا، وَتَقِيل مَعَهُمْ إِذَا قَالُوا، وَتَأْكُل منهم مَنْ تَخلَّفَ**»[2]. قَال: وَسَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**سَيَخْرُجُ أُنَاس مِنْ أُمَّتِي مِنْ قِبَل المَشْرِق، يَقْرَءُونَ القُرْآن لا يُجَاوِز تَرَاقِيهِمْ -كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْن قُطِعَ، كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْن قُطِعَ، حَتَّى عَدَّهَا زِيَادَة عَلَى عِشْرِينَ مَرَّة: -كُلَّمَا خَرَجَ مِنْهُمْ قَرْن قُطِعَ، حَتَّى يَخْرُج الدَّجَّال فِي بَقِيَّتهمْ**»[3]. وَرَوَاهُ أَحْمَد عَنْ أَبِي دَاوُد وَعَبْد الصَّمَد؛ كِلاهُمَا عَنْ هِشَام الدَّسْتُوَائِيّ عَنْ قَتَادَة بِهِ. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سُنَنه، فَقَال فِي كِتَاب الجِهَاد: بَاب مَا جَاءَ فِي سُكْنَى الشَّام. حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن عُمَر، حَدَّثَنَا مُعَاذ بْن هِشَام، حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ قَتَادَة، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو قَال: سَمِعْت رسول الله ﷺ يَقُول: «سَتَكُونُ هِجْرَة بَعْد هِجْرَة، فخيار أَهْل الأَرْض أَلْزَمهُمْ مُهَاجَر إِبْرَاهِيم، وَيَبْقَى فِي الأَرْض شِرَار أَهْلهَا تَلفِظهُمْ أَرْضهمْ، وَتَقْذَرُهُمْ نَفْس الرَّحْمَن، وَتَحْشُرهُمْ النَّار مَعَ القِرَدَة وَالخَنَازِير».[4]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد أيضًا: حَدَّثَنَا يَزِيد، أَخْبَرَنَا أَبُو جَنَاب يَحْيَى بْن أَبِي حَيَّة، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب قَال: سَمِعْت عَبْد الله بْن عُمَر قال: لَقَدْ رَأَيْتنَا وَمَا صَاحِب الدِّينَار وَالدِّرْهَم بِأَحَقّ مِنْ أَخِيهِ المُسْلم، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتنَا بِآخِرَةِ الآن وَالدِّينَار وَالدِّرْهَم أَحَبّ إِلى أَحَدنَا مِنْ أَخِيهِ المُسْلم، وَلَقَدْ سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «لِئِنْ أنتم اتَّبَعْتُمْ أَذْنَاب البَقَر، وَتَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، وَتَرَكْتُمْ الجِهَاد فِي سَبِيل الله، لَيُلزِمَنَّكُمْ الله مَذَلَّة فِي أَعْنَاقكُمْ، ثم لا تُنْزَع مِنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ، وَتَتُوبُوا إِلَى الله ﷻ».[5] وَسَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «لتكُونَنَّ هِجْرَة بَعْد هِجْرَة إِلى مُهَاجَر أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيم، حَتَّى لا يبقي فِي الأرضين إلاَّ شِرَار أَهْلهَا، وَتَلفِظهُمْ أَرْضُوهُمْ، وَتَقْذَرُهُمْ رُوح الرَّحْمَن، وَتَحْشُرهُمْ النَّار مَعَ القِرَدَة وَالخَنَازِير، تَقِيل حَيْثُ يقيلون وَتَبِيت حَيْثُ يَبِيتُونَ، وَمَا سَقَطَ مِنْهُمْ فَلهَا». وَلقَدْ سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «يَخْرُج قَوْم مِنْ أُمَّتِي يُسِيئُونَ الأَعْمَال، يَقْرَءُونَ القُرْآن لا يُجَاوِز حَنَاجِرهمْ -قَال يَزِيد: لا أَعْلمهُ إلاَّ قَال: يُحَقِّر أَحَدكُمْ عِلمه مَعَ عِلمهمْ-، يَقْتُلُونَ أَهْل الإِسْلام، فَإِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، فَطُوبَى لِمَنْ قَتلهُمْ وَطُوبَى لِمَنْ قَتَلُوهُ. كُلَّمَا طَلعَ مِنْهُمْ قَرْن قطعه الله». فَرَدَّدَ ذَلِكَ رَسُول الله ﷺ عِشْرِينَ مَرَّة، أَوْ أَكْثَر، وَأَنَا أَسْمَع.

---

(١) حسن لغيره: أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٩)، وأبو داود (٢٤٨٢)، وفيه شهر بن حوشب: كثير الإرسال والأوهام، ويشهد له ما بعده.
(٢) انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠٩١) للألباني.
(٣) حسن لغيره: أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠/ ٢٠٩).
(٤) ضعيف: أخرجه أبو داود (٢٤٨٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».
(٥) ضعيف: أخرجه أحمد (٢/ ٨٤) وفيه شهر بن حوشب: كثير الإرسال والأوهام، وأبو جناب الكلبي: ضعيف كثير التدليس.

وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ: أخبرنا أَبُو الحسين ابن الفَضل، أَخْبَرَنَا عَبْد الله بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن سُفْيَان، حَدَّثَنَا أَبُو النَّضر إِسْحَاق بْن يَزِيد، وَهِشَام بْن عَمَّار الدِّمَشْقِيَّانِ قَالا: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن حَمْزَة، حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيّ عَنْ نَافِع -وَقَال أَبُو النَّضْر، عَمَّنْ حَدَّثَهُ، عَنْ نَافِع- عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «سَيُهَاجِرُ أَهْل الأَرْض هِجْرَة بَعْد هِجْرَة، إِلى مُهَاجَر إِبْرَاهِيم، حَتَّى لا يَبْقَى إِلاَّ شِرَار أَهْلهَا، تَلفِظُهُمْ الأَرْضُون وَتَقْذَرُهُمْ رُوح الرَّحْمَن؛ وَتَحْشُرهُمْ النَّار مَعَ القِرَدَة وَالخَنَازِير، تَبِيت مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيل مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، لهَا مَا سَقَطَ مِنْهُمْ»[1] غَرِيب مِنْ حَدِيث نَافِع. وَالظَّاهِر أَنَّ الأَوْزَاعِيّ قَدْ رَوَاهُ عَنْ شَيْخ لهُ مِنْ الضُّعَفَاء، وَالله أَعْلم. وَرِوَايَته مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاصِ أَقْرَب إِلى الحِفْظ.

وَقَوْله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾. أَيْ: أَنَّهُ لَمَّا فَارَقَ قَوْمه أَقَرَّ الله عَيْنه بِوُجُودِ وَلد صَالح نَبِيّ، وَوُلِدَ لهُ وَلد صَالح نَبِيّ فِي حَيَاة جَدّه. وَكَذَلكَ قَال الله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ ﴾، أَيْ: زِيَادَة، كَمَا قَال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾، أَيْ: ويُولد لهَذَا الوَلد وَلد فِي حَيَاتكُمَا تَقَرّ بِهِ أَعْيُنكُمَا. وَكَوْن يَعْقُوب وَلد لإِسْحَاق نَصَّ عَليْهِ القُرْآن، وَثَبَتَتْ بِهِ السُّنَّة النَّبَوِيَّة، قَال الله: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «إِنَّ الكَرِيم ابْن الكَرِيم ابْن الكَرِيم: يُوسُف بْن يَعْقُوب بْن إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم»[2].

فَأَمَّا مَا رَوَاهُ العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ قَال: هُمَا وَلدَا إِبْرَاهِيم. فَمَعْنَاهُ أَنَّ وَلد الوَلد بِمَنْزِلةِ الوَلد، فَإِنَّ هَذَا أَمر لا يَكَاد يَخْفَى عَلى مَنْ هُوَ دُون ابْن عَبَّاس.

وَقَوْله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، هَذِهِ خِلعَة سَنِيَّة عَظِيمَة، مَعَ اتِّخَاذ الله إِيَّاهُ خَليلًا وَجَعْله للنَّاسِ إِمَامًا، أَنْ جَعَل فِي ذُرِّيَّته النُّبُوَّة وَالكِتَاب، فَلمْ يُوجَد نَبِيّ بَعْد إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا وَهُوَ مِنْ سُلالته، فَجَمِيع أَنْبِيَاء بَنِي إِسْرَائِيل مِنْ سُلالة يَعْقُوب بْن إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم، حَتَّى كَانَ آخِرهمْ عِيسَى ابْن مَرْيَم، فَقَامَ فِي مَلئِهِمْ مُبَشِّرًا بِالنَّبِيِّ العَرَبِيّ القُرَشِيّ الهَاشِمِيّ، خَاتَم الرُّسُل عَلى الإِطْلاق، وَسَيِّد وَلد آدَم فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. الَّذِي اصْطَفَاهُ الله مِنْ صَمِيم العَرَب العَرْبَاء، مِنْ سُلالة إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَلمْ يُوجَد نَبِيّ مِنْ سُلالة إِسْمَاعِيل سِوَاهُ، عَليْهِ أَفْضَل الصَّلاة وَالسَّلام.

وَقَوْله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أَيْ: جَمَعَ الله لهُ بَيْن سَعَادَة الدُّنْيَا المَوْصُولة بِسَعَادَةِ الآخِرَة، فَكَانَ لهُ فِي الدُّنْيَا الرِّزْق الوَاسِع الهَنِيّ، وَالمَنْزِل الرَّحْب، وَالمَوْرِد العَذْب، وَالزَّوْجَة الحَسَنَة الصَّالحَة، وَالثَّنَاء الجَمِيل وَالذِّكْر الحَسَن، فكُلّ أَحَد يُحِبّهُ وَيَتَوَلَّاهُ، كَمَا قَال ابْن عَبَّاس وَمُجَاهِد وَقَتَادَة وَغَيْرهمْ، مَعَ القِيَام بِطَاعَةِ الله مِنْ جَمِيع الوُجُوه، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾، أَيْ: قَامَ بِجَمِيع مَا أُمِرَ وَكَمَّل طَاعَة رَبّه؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

---

(١) إسناده ضعيف: وعلته جهالة الراوي عن نافع، وهذه الرواية فيها انقطاع.

(٢) صحيح: تقـدم.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخبِرًا عَنْ نَبِيّه لُوط عليه السلام أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلى قَوْمه سُوء صَنِيعهمْ، وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ مِنْ قَبِيح الأَعْمَال، فِي إِتْيَانهمْ الذُّكْرَان مِنْ العَالِمِينَ، وَلَمْ يَسْبِقهُمْ إِلى هَذِهِ الفِعْلَة أَحَد مِنْ بَنِي آدَم قَبْلهمْ، وَكَانُوا مَعَ هَذَا يَكْفُرُونَ بِالله وَيُكَذِّبُونَ رَسُوله وَيُخَالِفُونَ وَيَقْطَعُونَ السَّبِيل، أَيْ: يَقِفُونَ فِي طَرِيق النَّاس يَقْتُلُونَهُمْ وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالهمْ، ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، أَيْ: يَفْعَلُونَ مَا لا يَلِيق مِنْ الأَقْوَال وَالأَفْعَال فِي مَجَالِسهمْ الَّتِي يَجْتَمِعُونَ فِيهَا، لا يُنْكِر بَعْضهمْ عَلى بَعْض شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَمِنْ قَائِل: كَانُوا يَأْتُونَ بَعْضهمْ بَعْضًا فِي المَلأ. قَالَهُ مُجَاهِد. وَمِنْ قَائِل: كَانُوا يَتَضَارَطُونَ وَيَتَضَاحَكُونَ. قَالَتْهُ عَائِشَة رضي الله عنها وَالقَاسِم. وَمِنْ قَائِل: كَانُوا يُنَاطِحُونَ بَيْن الكِبَاش، وَيُنَاقِرُونَ بَيْن الدُّيُوك، وَكُلّ ذَلِكَ كَانَ يَصْدُر عَنْهُمْ، وَكَانُوا شَرًّا مِنْ ذَلِكَ.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن أُسَامَة، أَخْبَرَنِي حَاتِم بْن أَبِي صَغِيرَة، حَدَّثَنَا سِمَاك بْن حَرْب، عَنْ أَبِي صَالِح -مَوْلى أُمّ هَانِئ- عَنْ أُمّ هَانِئ، قَالَتْ: سَأَلت رَسُول الله ﷺ عَنْ قَوْله ﷻ: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، قَال: «يَخْذِفُونَ أَهْل الطَّرِيق، وَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ المُنْكَر الَّذِي كَانُوا يَأْتُونَهُ».[1] وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، وَابْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم، مِنْ حَدِيث أَبِي أُسَامَة حَمَّاد بْن أَسَامَة، عَنْ أَبِي يُونُس القُشَيْرِيّ -حَاتِم بْن أَبِي صَغِيرَة- بِهِ. ثُمَّ قَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن لا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيث حَاتِم بْن أَبِي صَغِيرَة، عَنْ سِمَاك. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الحَسَن بْن عَرَفَة، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن كَثِير، عَنْ عَمْرو بْن قَيْس، عَنْ الحَكَم، عَنْ مُجَاهِد: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، قَال: الصَّفِير، وَلِعب الحَمَام، وَالجُلاهِق وَالسُّؤَال فِي المَجْلِس وَحَلّ أَزْرَار القَبَاء.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وَهَذَا مِنْ كُفْرهمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ وَعِنَادهمْ، وَلِهَذَا اسْتَنْصَرَ عَلَيْهِمْ نَبِيّ الله فَقَال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

لَـمَّا اسْتَنْصَرَ لُوطٌ عليه السلام الله عَلَيْهِمْ بَعَثَ الله لِنُصْرَتِهِ مَلائِكَة، فَمَرُّوا عَلى إِبْرَاهِيم عليه السلام فِي هَيْئَة أَضْيَاف، فَجَاءَهُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لا هِمَّة لَهُمْ إِلى الطَّعَام نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَة، فَشَرَعُوا يُؤَانِسُونَهُ وَيُبَشِّرُونَهُ بِوُجُودِ وَلَد صَالِح مِنْ امْرَأَته سَارَة -وَكَانَتْ حَاضِرَة- فَتَعَجَّبَتْ مِنْ ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانه فِي سُورَة «هُود» وَ«الحِجْر» فَلَمَّا جَاءَتْ إِبْرَاهِيم البُشْرَى، وَأَخْبَرُوهُ بِأَنَّهُمْ أُرْسِلُوا لِهَلاكِ قَوْم لُوط، أَخَذَ يُدَافِع لَعَلَّهُمْ يُنْظَرُونَ، لَعَلَّ الله أَنْ يَهْدِيَهُمْ، وَلَـمَّا قَالُوا: إِنَّا مُهْلِكُو أَهْل هَذِهِ القَرْيَة ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أَيْ: مِنْ الهَالِكِينَ؛ لأَنَّهَا كَانَتْ تُمَالِئهُمْ عَلى كُفْرهمْ

---

(١) ضعيف جدًا : أخرجه أحمد (٦/ ٣٤١)، والترمذي (٣١٩٠)، وفيه أبو صالح مولى أم هانئ واسمه باذام: ضعيف يرسل. وقال الألباني: ضعيف جدًا، انظر «ضعيف سنن الترمذي».

وَبَغْيِهِمْ وَدَبْرِهِمْ ثُمَّ سَارُوا مِنْ عِنْده فَدَخَلُوا عَلَى لُوط فِي صُورَة شَبَاب حِسَان، فَلَمَّا رَآهُمْ كَذَلِكَ ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أَيْ: اغْتَمَّ بِأَمْرِهِمْ، إِنْ هُوَ أَضَافَهُمْ خَافَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمه، وَإِنْ لَمْ يُضِفْهُمْ خَشِيَ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَعْلَم بِأَمْرِهِمْ فِي السَّاعَة الرَّاهِنَة. ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾، وَذَلِكَ أَنَّ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ اقْتَلَعَ قُرَاهُمْ مِنْ قَرَار الأَرْض، ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَى عَنَان السَّمَاء ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ. وَأَرْسَل الله عَلَيْهِمْ حِجَارَة مِنْ سِجِّيل مَنْضُود مُسَوَّمَة عِنْد رَبّك، وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ، وَجَعَل مَكَانَهَا بُحَيْرَة خَبِيثَة مُنْتِنَة، وَجَعَلَهُمْ عِبْرَة إِلَى يَوْم التَّنَادِ، وَهُمْ مِنْ أَشَدّ النَّاس عَذَابًا يَوْم المَعَاد، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً﴾، أَيْ: وَاضِحَة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ عَبْده وَرَسُوله شُعَيْب عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ أَنْذَرَ قَوْمه أَهْل مَدْيَن، فَأَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ الله وَحْده لا شَرِيك لَهُ، وَأَنْ يَخَافُوا بَأْس الله وَنِقْمَته وَسَطْوَته يَوْم القِيَامَة، فَقَالَ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ﴾. قَال ابْن جَرِير: قَال بَعْضهمْ: مَعْنَاهُ: وَاخْشَوْا اليَوْم الآخِر. وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ﴾، ثم نَهَاهُمْ عَنْ العَيْث فِي الأَرْض بِالفَسَادِ، وَهُوَ السَّعْي فِيهَا وَالبَغْي عَلى أَهْلِهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُنْقِصُونَ المِكْيَال وَالمِيزَان، وَيَقْطَعُونَ الطَّرِيق عَلَى النَّاس، هَذَا مَعَ كُفْرهمْ بِالله وَرَسُوله، فَأَهْلَكَهُمْ الله بِرَجْفَةٍ عَظِيمَة زَلْزَلَتْ عَلَيْهِمْ بِلادهمْ، وَصَيْحَة أَخْرَجَتْ القُلُوب مِنْ حَنَاجِرهَا، وَعَذَاب يَوْم الظُّلَّة الَّذِي أَزْهَقَ الأَرْوَاح مِنْ مُسْتَقَرّهَا، إِنَّهُ كَانَ عَذَاب يَوْم عَظِيم. وَقَدْ تَقَدَّمَتْ قِصَّتهمْ مَبْسُوطَة فِي «سُورَة الأَعْرَاف»، وَ«هُود»، وَ«الشُّعَرَاء».

وَقَوْله: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ قَال قَتَادَة: مَيِّتِينَ. وَقَال غَيْره: قَدْ أُلْقِيَ بَعْضهمْ عَلى بَعْض.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ هَؤُلاءِ الأُمَم المُكَذِّبَة لِلرُّسُل كَيْف أَبَادَهُمْ وَتَنَوَّعَ فِي عَذَابِهِمْ، فَأَخَذَهُمْ بِالانْتِقَام مِنْهُمْ، فَعَاد قَوْم هُود، وكَانُوا يَسْكُنُونَ الأَحْقَاف وَهِيَ قَرِيبَة مِنْ حَضْرَمَوْت بِبِلادِ اليَمَن، وَثَمُود قَوْم صَالِح وكَانُوا يَسْكُنُونَ الحِجْر قَرِيبًا مِنْ وَادِي القُرَى، وَكَانَتْ العَرَب تَعْرِف مَسَاكِنهمَا جَيِّدًا، وَتَمُرّ عَلَيْهَا كَثِيرًا. وَقَارُون صَاحِب الأَمْوَال الجَزِيلَة وَمَفَاتِيح الكُنُوز الثَّقِيلَة، وَفِرْعَوْن مَلِك مِصْر فِي زَمَان مُوسَى وَوَزِيره هَامَان القِبْطِيَّانِ الكَافِرَانِ بِالله وَرَسُولِهِ، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ أَيْ: كَانَتْ عُقُوبَته بِمَا يُنَاسِبهُ، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، وَهُمْ عَاد، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: مَنْ أَشَدّ مِنَّا قُوَّة؟!! فَجَاءَتْهُمْ رِيح صَرْصَر بَارِدَة شَدِيدَة البَرْد، عَاتِيَة شَدِيدَة الهُبُوب جِدًّا، تَحْمِل عَلَيْهِمْ حَصْبَاء الأَرْض فتقلبها عَلَيْهِمْ، وَتَقْتَلِعهُمْ مِنْ الأَرْض، فَتَرْفَع الرَّجُل مِنْهُمْ إِلَى عَنَان السَّمَاء ثُمَّ تُنَكِّسهُ عَلى أُمّ رَأْسه فَتَشْدَخهُ، فَيَبْقَى بَدَنًا بِلا رَأْس، كَأَنَّهُمْ أَعْجَاز نَخْل مُنْقَعِر. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وَهُمْ ثَمُود، قَامَتْ عَلَيْهِمْ الحُجَّة وَظَهَرَتْ لَهُمْ الدَّلالَة، مِنْ تِلْكَ النَّاقَة الَّتِي انْفَلَقَتْ عَنْهَا الصَّخْرَة،

مِثْل مَا سَأَلُوا سَوَاء بِسَوَاءٍ، وَمَعَ هَذَا مَا آمَنُوا، بَل اسْتَمَرُّوا عَلى طُغْيَانهمْ وَكُفْرهمْ، وَتهَدَّدُوا نَبِيّ الله صَالحًا وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، وَتوَعَّدُوهُمْ بِأَنْ يُخْرِجُوهُمْ وَيَرْجُمُوهُمْ، فَجَاءَتْهُمْ صَيْحَة أَخْمَدَتْ الأَصْوَات مِنْهُمْ وَالحَرَكَات. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، وَهُوَ قَارُون الَّذِي طَغَى وَبَغَى وَعَتَا وَعَصَى الرَّبّ الأَعْلَى، وَمَشَى فِي الأَرْض مَرَحًا، وَفَرِحَ وَمَرِحَ وَتَاهَ بِنَفْسِهِ، وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ أَفْضَل مِنْ غَيْره، وَاخْتَال فِي مِشْيَته، فَخَسَفَ الله بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْض، فَهُوَ يَتَجَلْجَل فِيهَا إِلى يَوْم القِيَامَة. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، وهم فِرْعَوْن وَوَزِيره هَامَان، وَجُنُوده عَنْ آخِرهِمْ، أُغْرِقُوا فِي صَبِيحَة وَاحِدَة، فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ مُخْبِر، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، أَيْ: فِيمَا فَعَل بِهِمْ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أَيْ: إِنَّمَا فَعَل ذَلِكَ بِهِمْ جَزَاء وِفَاقًا بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ.

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ظَاهِر سِيَاق الآيَة، وَهُوَ مِنْ بَاب اللَّفّ وَالنَّشْر، وَهُوَ أَنَّهُ ذَكَرَ الأُمَم المُكَذِّبَة، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، أَيْ: مِنْ هَؤُلاءِ المَذْكُورِينَ، وَإِنَّمَا نَبَّهْت عَلى هَذَا لأَنَّهُ قَدْ رُوِيَ أن ابْن جُرَيْج قَالَ: قَال ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، قَال: قَوْم لُوط. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ قَال: قَوْم نُوح. وَهَذَا مُنْقَطِع عَنْ ابْن عَبَّاس؛ فَإِنَّ ابْن جُرَيْج لَمْ يُدْرِكهُ. ثُمَّ قَدْ ذَكَرَ الله فِي هَذِهِ السُّورَة إِهْلاكَ قَوْم نُوح بِالطُّوفَانِ، وَقَوْم لُوط بِإِنْزَال الرِّجْز مِنْ السَّمَاء، وَأَطَال السِّيَاق وَالفَصْل بَيْن ذَلكَ وَبَيْن هَذَا السِّيَاق. وَقَال قَتَادَة: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، قَال: قَوْم لُوط، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾: قَوْم شُعَيْب. وَهَذَا بَعِيد أَيْضًا لمَا تَقَدَّمَ، وَالله أَعْلم.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

هَذَا مَثَل ضَرَبَهُ الله تَعَالى للمُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذهمْ آلهَة مِنْ دُون الله، يَرْجُونَ نَصْرهمْ وَرِزْقهمْ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِهِمْ فِي الشَّدَائِد، فَهُمْ فِي ذَلكَ كَبَيْتِ العَنْكَبُوت فِي ضَعْفه وَوَهَنه، فَلَيْسَ فِي أَيْدِي هَؤُلاءِ مِنْ آلهَتهمْ إِلَّا كَمَنْ يَتَمَسَّك بِبَيْتِ العَنْكَبُوت فَإِنَّهُ لا يُجْدِي عَنْهُ شَيْئًا، فَلَوْ عَلمُوا هَذَا الحَال لمَا اتَّخَذُوا مِنْ دُون الله أَوْلِيَاء. وَهَذَا بِخِلافِ المُسْلم المُؤْمِن قَلبه لله، وَهُوَ مَعَ ذَلكَ يُحْسِن العَمَل فِي اتِّبَاع الشَّرْع، فَإِنَّهُ مُسْتمسك بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لا انْفِصَام لهَا، لقُوَّتِهَا وَثَبَاتهَا.

ثُمَّ قَال تَعَالى مُتَوَعِّدًا لمَنْ عَبَدَ غَيْره وَأَشْرَكَ بِهِ: أَنَّهُ تَعَالى يَعْلم مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الأَعْمَال، وَيَعْلم مَا يُشْرِكُونَ بِهِ مِنْ الأَنْدَاد، وَسَيَجْزِيهِمْ وَصْفهمْ إِنَّهُ حَكِيم عَلِيم. ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾، أَيْ: وَمَا يَفْهَمهَا وَيَتَدَبَّرهَا إِلَّا الرَّاسِخُونَ فِي العِلم المُتَضَلِّعُونَ مِنْهُ. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن عِيسَى، حَدَّثَنِي ابْن لهِيعَة، عَنْ أَبِي قُبَيْل، عَنْ عَمْرو بْن العَاصِ رضي الله عنه قَال: عَقَلت عَنْ رَسُول الله ﷺ أَلف مَثَل.[1] وَهَذِهِ مَنْقَبَة عَظِيمَة لعَمْرو بْن العَاصِ رضي الله عنه حَيْثُ يَقُول الله تَعَالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حدثنَا أَحْمَد بْن عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْن سِنَان، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، قَال: مَا مَرَرْت بِآيَةٍ مِنْ كِتَاب الله لا أَعْرِفهَا إِلَّا أَحْزَنَنِي، لأَنِّي سَمِعْت الله تَعَالى يَقُول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٣)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَته العَظِيمَة: إِنَّهُ خَلقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض بِالحَقِّ، يَعْنِي: لا عَلى وَجْه العَبَث وَاللَّعِب؛ ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. أَيْ: لدَلالة وَاضِحَة عَلى أَنَّهُ تَعَالى المُتَفَرِّد بِالخَلقِ وَالتَّدْبِير وَالإِلهِيَّة.

ثُمَّ قَال تَعَالى آمِرًا رَسُوله وَالمُؤْمِنِينَ بِتِلاوَةِ القُرْآن وَهُوَ قِرَاءَته وَإِبْلاغه للنَّاسِ، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، يَعْنِي: أَنَّ الصَّلاة تَشْتَمِل عَلى شَيْئَيْنِ: عَلى تَرْك الفَوَاحِش وَالمُنْكَرَات، أَيْ: إِن مُوَاظَبَتهَا تَحْمِل عَلى تَرْك ذَلكَ، وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيث مِنْ رِوَايَة عِمْرَان، وَابْن عَبَّاس، مَرْفُوعًا: «مَنْ لمْ تَنْهَهُ صَلاته عَنْ الفَحْشَاء وَالمُنْكَر، لمْ تُزِدْهُ مِنْ الله إلاَّ بُعْدًا».

ذِكْر الآثَار الوَارِدَة فِي ذَلكَ: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن هَارُون المَخْرَمِيّ الفَلَّاس، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن نَافِع أَبُو زِيَاد، حَدَّثَنَا عُمَر بْن أَبِي عُثْمَان، حَدَّثَنَا الحَسَن، عَنْ عِمْرَان بْن حُصَيْن، قَال: سُئِل النَّبِيّ ﷺ عَنْ قَوْل الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، قَال: «مَنْ لمْ تَنْهَهُ صَلاته عَنْ الفَحْشَاء وَالمُنْكَر فَلا صَلاة لهُ». وَحَدَّثَنَا عَليّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَبِي طَلحَة اليَرْبُوعِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، عَنْ ليْث، عَنْ طَاوُس، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ لمْ تَنْهَهُ صَلاته عَنْ الفَحْشَاء وَالمُنْكَر، لمْ يَزْدَدْ بِهَا مِنْ الله إلاَّ بُعْدًا»[1]. وَرواه الطَّبَرَانِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي مُعَاوِيَة.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا الحُسَيْن، حَدَّثَنَا خَالد بْن عَبْد الله، عَنْ العَلاء بْن المُسَيِّب، عَمَّنْ ذَكَرَهُ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، قَال: «فَمَنْ لمْ تَأْمُرهُ صَلاته بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَهُ عَنْ المُنْكَر، لمْ يَزْدَدْ بِصَلاتِهِ مِنْ الله إِلَّا بُعْدًا». فَهَذَا مَوْقُوف.

قَال ابْن جَرِير: وَحَدَّثَنَا القَاسِم، حَدَّثَنَا الحُسَيْن، حَدَّثَنَا عَليّ بْن هَاشِم بْن البَرِيد، عَنْ جُوَيْبِر، عَنْ الضَّحَّاك، عَنْ ابْن مَسْعُود، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: لا صَلاة لمَنْ لمْ يُطِعْ الصَّلاة. وَطَاعَة الصَّلاة أَنْ تَنْهَى عَنْ الفَحْشَاء وَالمُنْكَر[2]. قَال: وقَال سُفْيَان: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾؟ قَال: فَقَال سُفْيَان: إِي وَالله، تَأْمُرهُ وَتَنْهَاهُ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالد، عَنْ جُوَيْبِر، عَنْ الضَّحَّاك، عَنْ عَبْد الله قَال: قَال رَسُول الله ﷺ –وَقَال أَبُو خَالد مَرَّة عَنْ عَبْد الله–: «لا صَلاة لمَنْ لمْ يُطِعْ الصَّلاة، وَطَاعَة الصَّلاة تَنْهَاهُ عَنْ الفَحْشَاء وَالمُنْكَر». وَالمَوْقُوف أَصَحّ كَمَا رَوَاهُ الأَعْمَش، عَنْ مَالك بْن الحَارِث، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن يَزِيد، قَال: قِيل لعَبْدِ الله: إِنَّ فُلانًا ليُطِيل الصَّلاة؟ قَال: إِنَّ الصَّلاة لا تَنْفَع إِلَّا مَنْ أَطَاعَهَا.

وَقَال ابْن جَرِير: قال عَليّ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن مُسْلم، عَنْ الحَسَن، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلاة لمْ تَنْهَهُ عَنْ الفَحْشَاء وَالمُنْكَر، لمْ يَزْدَدْ بِهَا مِنْ الله إلاَّ بُعْدًا». وَالأَصَحّ فِي هَذَا كُلّه المَوْقُوفَات عَنْ ابْن مَسْعُود، وَابْن عَبَّاس، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَالأَعْمَش، وَغَيْرهم، وَالله أَعْلم.

وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا يُوسُف بْن مُوسَى، حدثنا جَرِير –يَعْنِي ابْن عَبْد الحَمِيد– عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالح، قَال: أَرَاهُ عَنْ جَابِر –شَكَّ الأَعْمَش– قَال: قَال رَجُل للنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ فُلانًا يُصَلِّي، فَإِذَا أَصْبَحَ

---

(١) ضعيف: ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٥٨٣٤).

(٢) ضعيف جدًا: أخرجه الطبري (٢٠/ ١٥٥)، وفيه جويبر: متروك.

سَرَق، قَال: «**سَيَنْهَاهُ مَا يَقُول**»[1]. وَحَدَّثَنَاه مُحَمَّد بْن مُوسَى الحرشي، حدثنا زِيَاد بْن عَبْد الله، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ جَابِر، عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِنَحْوِهِ -وَلَمْ يَشُكّ- ثُمَّ قَال: وَهَذَا الحَدِيث قَدْ رَوَاهُ غير واحد عَنْ الأَعْمَش، وَاخْتَلَفُوا فِي إِسْنَاده، فَرَوَاهُ غَيْر وَاحِد عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَوْ غَيْره، وَقَال قَيْس: عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي سُفْيَان، عَنْ جَابِر، قَال جَرِير وَزِيَاد: عَنْ عَبْد الله، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح عَنْ جَابِر.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا الأَعْمَش قَال أبو صَالِح أخبرنا عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: جَاءَ رَجُل إِلى النَّبِيّ ﷺ فَقَال: إِنَّ فُلانًا يُصَلِّي بِاللَّيْل فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَق، فَقَال: «**إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُول**». وَتَشْتَمِل الصَّلاة أَيْضًا عَلى ذِكْر الله تَعَالى، وَهُوَ المَطْلُوب الأَكْبَر، وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، أَيْ: أَعْظَم مِنْ الأَوَّل، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أَيْ: يَعْلم جَمِيع أقوالكم وأعمالكم. وَقَال أَبُو العَالِيَة فِي قَوْله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ قَال: إِنَّ الصَّلاة فِيهَا ثَلاث خِلال، فَكُلّ صَلاة لا يَكُون فِيهَا شَيْء مِنْ هَذِهِ الخِلال فَلَيْسَتْ بِصَلاةٍ: الإِخْلاص، وَالخَشْيَة، وَذِكْر الله. فَالإِخْلاص يَأْمُرُهُ بِالمَعْرُوف، وَالخَشْيَة تَنْهَاهُ عَنْ المُنْكَر، وَذِكْر الله القُرْآن يَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ. وَقَال ابْن عَوْن الأَنْصَارِيّ: إِذَا كُنْت فِي صَلاة فَأَنْتَ فِي مَعْرُوف، وَقَدْ حَجَزَتْك عَنْ الفَحْشَاء وَالمُنْكَر، وَالَّذِي أَنْتَ فِيهِ مِنْ ذِكْر الله أَكْبَر.

وَقَال حَمَّاد بْن أَبِي سُلَيْمَان: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ يَعْنِي: مَا دُمْت فِيهَا. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، يَقُول: وَلَذِكْر الله لِعِبَادِهِ إِذَا ذَكَرُوهُ أَكْبَر مِنْ ذِكْرهمْ إِيَّاهُ، وَكَذَا رَوَى غَيْر وَاحِد عَنْ ابْن عَبَّاس. وَبِهِ قَال مُجَاهِد وَغَيْره. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا أَبُو خَالد الأَحْمَر، عَنْ دَاوُد بْن أَبِي هِنْد، عَنْ رَجُل، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، قَال: ذِكْر الله عِنْد طَعَامك وَعِنْد مَنَامك. قُلت: فَإِنَّ صَاحِبًا لي فِي المَنْزِل يَقُول غَيْر الَّذِي تَقُول؟ قَال: وَأَيّ شَيْء يَقُول؟ قُلت: قَال: يَقُول الله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، فَلَذِكْر الله إِيَّانَا أَكْبَر مِنْ ذِكْرنَا إِيَّاهُ. قَال: صَدَق. قَال: وَحَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا النُّفَيْلِيّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل عَنْ خَالد، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، قَال: لَهَا وَجْهَانِ، قَال: ذِكْر الله عِنْد مَا حَرَّمَهُ، قَال: وَذِكْر الله إِيَّاكُمْ أَعْظَم مِنْ ذِكْركُمْ إِيَّاهُ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، أَخْبَرَنَا هُشَيْم، أَخْبَرَنَا عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ عَبْد الله بْن رَبِيعَة قَال: قَال لِي ابْن عَبَّاس: هَل تَدْرِي مَا قَوْله تَعَالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟ قَال: قُلت: نَعَمْ. قَال: فَمَا هُوَ؟ قُلت: التَّسْبِيح وَالتَّحْمِيد وَالتَّكْبِير فِي الصَّلاة، وَقِرَاءَة القُرْآن، وَنَحْو ذَلِكَ. قَال: لَقَدْ قُلت قَوْلًا عجبًا، وَمَا هُوَ كَذَلِك، وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا يَقُول: ذِكْر الله إِيَّاكُمْ عِنْدَ مَا أَمَرَ بِهِ أَوْ نَهَى عَنْهُ -إِذَا ذَكَرْتُمُوهُ- أَكْبَر مِنْ ذِكْركُمْ إِيَّاهُ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ ابْن عَبَّاس. وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ ابْن مَسْعُود، وَأَبِي الدَّرْدَاء، وَسَلْمَان الفَارِسِيّ، وَغَيْرهِمْ، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

قَال قَتَادَة وَغَيْر وَاحِد: هَذِهِ الآيَة مَنْسُوخَة بِآيَةِ السَّيْف، وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُمْ مُجَادَلَة، وَإِنَّمَا هُوَ الإِسْلام أَوْ الجِزْيَة أَوْ السَّيْف. وَقَال آخَرُونَ: بَل هِيَ بَاقِيَة أو مُحْكَمَة لِمَنْ أَرَادَ الاسْتِبْصَار مِنْهُمْ فِي الدِّين، فَيُجَادِل بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن، لِيَكُونَ أَنْجَع فِيهِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٢٣٧).

رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، وَقَال تَعَالى لِمُوسَى وَهَارُون حِين بَعَثَهُمَا إِلى فِرْعَوْن: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، وَهَذَا القَوْل اخْتَارَهُ ابْن جَرِير، وَحَكَاهُ عَنْ ابْن زَيْد.

وَقَوْله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾، أَيْ: حَادُوا عَنْ وَجْه الحَقّ، وَعَمُوا عَنْ وَاضِح المَحَجَّة، وَعَانَدُوا وَكَابَرُوا، فَحِينَئِذٍ يَنْتَقِل عن الجِدَال إِلى الجِلاد، وَيُقَاتَلُونَ بِمَا يردعهم ويمنعهم، قَال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾، قَال جَابِر: أُمِرْنَا مَنْ خَالفَ كِتَاب الله أَنْ نَضْرِبهُ بِالسَّيْفِ. قَال مُجَاهِد: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾، يَعْنِي: أَهْل الحَرْب، وَمَنْ امْتَنَعَ مِنْهُمْ مِنْ أَدَاء الجِزْيَة.

وَقَوْله: ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾، يَعْنِي: إِذَا أَخْبَرُوا بِمَا لا يُعْلَم صِدْقه وَلا كَذِبه، فَهَذَا لا نُقْدِم عَلى تَكْذِيبه؛ لأَنَّهُ قَدْ يَكُون حَقًّا، وَلا على تَصْدِيقه فَلعَلَّهُ أَنْ يَكُون بَاطِلًا، وَلكِنْ نُؤْمِن بِهِ إِيمَانًا مُجْمَلًا مُعَلَّقًا عَلى شَرْط، وَهُوَ أَنْ يَكُون مُنَزَّلًا لا مُبَدَّلًا وَلا مُؤَوَّلًا.

قَال البُخَارِيّ رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن عُمَر، ثنا عَلِيّ بْن المُبَارَك، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي كَثِير، عَنْ أَبِي سَلَمَة عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: كَانَ أَهْل [الكِتَاب][1] يَقْرَءُونَ التَّوْرَاة بِالعِبْرَانِيَّة، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالعَرَبِيَّة لأَهْل الإِسْلام، فَقَال رَسُول الله ﷺ: **«لا تُصَدِّقُوا أَهْل الكِتَاب وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بالله وما أُنْزِل إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِل إِلَيْكُمْ، وَإِلهنَا وَإِلهكُمْ وَاحِد وَنَحْنُ لهُ مُسْلِمُونَ»**[2]. وَهَذَا الحَدِيث تَفَرَّدَ بِهِ البُخَارِيّ. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن عُمَر أَخْبَرَنَا يُونُس، عَنْ الزُّهْرِيّ، أَخْبَرَنِي ابْن أَبِي نَمْلة أَنَّ أَبَا نَمْلة الأَنْصَارِيّ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ بينما هُوَ جَالِس عِنْد رَسُول الله ﷺ جَاءَهُ رَجُل مِنْ اليَهُود، فَقَال: يَا مُحَمَّد، هَل تَتَكَلَّم هَذِهِ الجِنَازَة؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: **«الله أَعْلم»**. قَال اليَهُودِيّ: أَنَا أَشْهَد أَنَّهَا تَتَكَلَّم. فَقَال رَسُول الله ﷺ: **«إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْل الكِتَاب فَلا تُصَدِّقُوهُمْ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بالله وَرُسُله وَكُتُبه، فَإِنْ كَانَ حَقًّا لمْ تُكَذِّبُوهُمْ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلاً لمْ تُصَدِّقُوهُمْ»**[2].

قُلت: وَأَبُو نَمْلة هَذَا هُوَ: [عُمَارَة][3]. وَقِيل: عَمَّار. وَقِيل: عَمْرو بْن مُعَاذ بْن زُرَارَة الأَنْصَارِيّ رضي الله عنه، ثُمَّ لِيُعْلَم أَنَّ أَكْثَر مَا يُحَدِّثُون بِهِ غَالبه كَذِب وَبُهْتَان، لأَنَّهُ قَدْ دَخَلهُ تَحْرِيف وَتَبْدِيل وَتَغْيِير وَتَأْوِيل، وَمَا أَقَلّ الصِّدْق فِيهِ! ثُمَّ مَا أَقَلّ فَائِدَة كَثِير مِنْهُ لوْ كَانَ صَحِيحًا.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن بَشَّار، حَدَّثَنَا [أَبُو عَاصِم][4]، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ سُليْمَان بْن عَامِر، عَنْ عُمَارَة بْن عُمَيْر، عَنْ حُرَيْث بْن ظُهَيْر عَنْ عَبْد الله -هُوَ ابْن مَسْعُود- قَال: لا تَسْأَلُوا أَهْل الكِتَاب عَنْ شَيْء، فَإِنَّهُمْ لنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، إِمَّا أَنْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ أَوْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، فَإِنَّهُ ليْسَ أَحَد مِنْ أَهْل الكِتَاب إِلَّا وَفِي قَلبه تَالِيَة تَدْعُوهُ إِلى دِينه كَتَالِيَةِ المَال. وَقَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن سَعْد، أَخْبَرَنَا ابْن شِهَاب عَنْ عبيد الله بْن عَبْد الله، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كَيْف تَسْأَلُوا أَهْل الكِتَاب عَنْ شَيْء، وَكِتَابكُمْ الَّذِي أُنْزِل إِليْكُمْ عَلى رَسُول ﷺ أَحْدَث، تَقْرَءُونَهُ مَحْضًا لمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْل الكِتَاب بَدَّلُوا كتاب الله وَغَيَّرُوه وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ الكِتَاب، وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْد الله؛ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَليلًا؟ أَلا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ العِلم عَنْ مَسْأَلتهمْ؟ لا وَالله مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا يَسْأَلكُمْ عَنْ الَّذِي أُنْزِل عَليْكُمْ.

---

(١) في (ز): [التوراة].
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) في (ز): [أبو عمارة].
(٤) في (ز): [عاصم].

وَقَال البُخَارِيّ: وَقَال أَبُو اليَمان: أَخْبَرَنَا شُعَيْب، عَنْ الزُّهْرِيّ، أَخْبَرَنِي [حُمَيْد][1] بن عَبْد الرَّحْمَن أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَة يُحَدِّث رَهْطًا مِنْ قُرَيْش بِالمَدِينَةِ -وَذَكَرَ كَعْب الأَحْبَار- فَقَال: إِنْ كَانَ مِنْ أَصْدَق هَؤُلاءِ المُحَدِّثِينَ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ عَنْ أَهْل الكِتَاب، وَإِنْ كُنَّا مَعَ ذَلِكَ لَنَبْلُو عَلَيْهِ الكَذِب.

قُلت: مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَقَع مِنْهُ الكَذِب لُغَة مِنْ غَيْر قَصْد، لأَنَّهُ يُحَدِّث عَنْ صُحُف هُوَ يُحْسِن بِهَا الظَّنّ، وَفِيهَا أَشْيَاء مَوْضُوعَة وَمَكْذُوبَة، لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ فِي مِلَّتهمْ حُفَّاظ مُتْقِنُونَ كَهَذِهِ الأُمَّة العَظِيمَة، وَمَعَ ذَلِكَ وَقُرْب العَهْد وُضِعَتْ أَحَادِيث كَثِيرَة فِي هَذِهِ الأُمَّة، لا يَعْلَمهَا إِلَّا الله ﷻ، وَمَنْ مَنَحَهُ الله عِلْمًا بِذَلِكَ، كُلّ بِحَسَبِهِ، ولله الحَمْد وَالمِنَّة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

قَال ابْن جَرِير: يَقُول الله تَعَالَى: كَمَا أَنْزَلنَا الكتب عَلى مَنْ قَبْلك -يَا مُحَمَّد- مِنْ الرُّسُل، كَذَلِكَ أَنْزَلنَا إِلَيْك هَذَا الكِتَاب. وَهَذَا الَّذِي قَالهُ حَسَن وَمُنَاسَبَة وَارْتِبَاط جَيِّد.

وَقَوْله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، أَيْ: الَّذِينَ أَخَذُوهُ فَتَلَوْهُ حَقّ تِلاوَته مِنْ أَحْبَارهمْ العُلَمَاء الأَذْكِيَاء، كَعَبْدِ الله بْن سَلام وَسَلمَان الفَارِسِيّ، وَأَشْبَاههمَا. وَقَوْله: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾. يَعْنِي: العَرَب مِنْ قُرَيْش وَغَيْرهمْ، ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أَيْ: مَا يُكَذِّب بِهَا وَيَجْحَد حَقّهَا إِلَّا مَنْ يَسْتُر الحَقّ بِالبَاطِل، وَيُغَطِّي ضَوْء الشَّمْس بِالوَصَائِل، وَهَيْهَاتَ!

ثُمَّ قَال تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، أَيْ: قَدْ لَبِثْت فِي قَوْمك -يَا مُحَمَّد- مِنْ قَبْل أَنْ تَأْتِي بِهَذَا القُرْآن عُمْرًا لا تَقْرَأ كِتَابًا وَلا تُحْسِن الكِتَابَة، بَل كُلّ أَحَد مِنْ قَوْمك وَغَيْرهمْ يَعْرِف أَنَّك رَجُل أُمِّيّ لا تَقْرَأ وَلا تَكْتُب. وَهَكَذَا صِفَته فِي الكُتُب المُتَقَدِّمَة، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ الآيَة. وَهَكَذَا كَانَ ﷺ -إِلى يَوْم القِيامة- لا يُحْسِن الكِتَابَة وَلا يَخُطّ سَطْرًا وَلا حَرْفًا بِيَدِهِ، بَل كَانَ لهُ كُتَّاب يَكْتُبُونَ بَيْن يَده الوَحْي وَالرَّسَائِل إِلى الأَقَالِيم.

وَمَنْ زَعَمَ مِنْ مُتَأَخِّرِي الفُقَهَاء كَالقَاضِي أَبِي الوَلِيد البَاجِيّ وَمَنْ تَابَعَهُ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَتَبَ يَوْم الحُدَيْبِيَة: «**هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّد بْن عَبْد الله**» فَإِنَّمَا حَمَلهُ عَلى ذَلِكَ رِوَايَة فِي «صَحِيح البُخَارِيّ»: «**ثُمَّ أَخَذَ فَكَتَبَ**». وَهَذِهِ مَحْمُولة عَلى الرِّوَايَة الأُخْرَى: «**ثُمَّ أَمَرَ فَكُتِبَ**». وَلِهَذَا اشْتَدَّ النَّكِير مِنْ فُقَهَاء المَغْرِب وَالمَشْرِق عَلى مَنْ قَال بِقَول البَاجِيّ، وَتَبَرَّءُوا مِنْهُ، وَأَنْشَدُوا فِي ذَلِكَ أَقْوَالًا وَخَطَبُوا بِهِ فِي مَحَافِلهِمْ. وَإِنَّمَا أَرَادَ الرَّجُل -أَعْنِي البَاجِيّ، فِيمَا يَظْهَر عَنْهُ- أَنَّهُ كَتَبَ ذَلِكَ عَلى وَجْه المُعْجِزَة، لا أَنَّهُ كَانَ يُحْسِن الكِتَابَة، كَمَا قَال -عليه الصلاة والسلام- إِخْبَارًا عَنْ الدَّجَّال: «**مَكْتُوب بَيْن عَيْنَيْهِ كَافِر- وَفِي رِوَايَة: ك ف ر-، يَقْرَؤُهَا كُلّ مُؤْمِن**». وَمَا أَوْرَدَهُ بَعْضهمْ مِنْ الحَدِيث أَنَّهُ لَمْ يَمُتْ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى تَعَلَّمَ الكِتَابَة، فَضَعِيف لا أَصْل لهُ؛ قَال الله تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟﴾، أَيْ: تَقْرَأ ﴿مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ لتَأْكِيدِ النَّفْي، ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، تَأْكِيد أَيْضًا، وَخَرَجَ مَخْرَج الغَالب، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾.

وَقَوْله: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أَيْ: لوْ كُنْت تخطها لارْتَابَ بَعْض الجَهَلة مِنْ النَّاس، فَيَقُول: إِنَّمَا تَعَلَّمَ

---

(١) فِي (ز): [عبيد].

هَذَا مِنْ كُتُب قَبْله مَأْثُورَة عَنْ الأَنْبِيَاء، مَعَ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلكَ مَعَ عِلمهمْ بِأَنَّهُ أُمِّيّ لا يُحْسِن الكِتَابَة: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾، قَال الله تَعَالى: ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾، وَقَال هَهُنَا: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ ﴾، أَيْ: القُرْآن آيَات بَيِّنَة وَاضِحَة فِي الدَّلالة عَلى الحَقّ أَمْرًا وَنَهْيًا وَخَبَرًا، يَحْفَظهُ العُلَماء، يَسَّرَهُ الله عَلَيْهِمْ حِفْظًا وَتِلاوَة وَتَفْسِيرًا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾، وَقَال رَسُول الله ﷺ: **«مَا مِنْ نَبِيّ إلاَّ وَقَدْ أُعْطِيَ مَا آمَنَ عَلى مِثْله البَشَر، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيته وَحْيًا أَوْحَاهُ الله إِليَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَكْثَرهمْ تَابِعًا»**[1]. وَفِي حَدِيث عِيَاض بْن حمار فِي «صَحِيح مُسْلم»: **«يَقُول الله تَعَالى: إِنِّي مُبْتَلِيك وَمُبْتَلٍ بِك، وَمُنَزِّل عَلَيْك كِتَابًا لا يَغْسِلهُ المَاء، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا يَقْظَان»**[2]. أَيْ: لَوْ غَسَل المَاء المَحَلّ المَكْتُوب فِيهِ لَمَا احْتِيجَ إِلى ذَلكَ المَحَلّ، كَما جَاءَ فِي الحَدِيث الآخَر: **«لوْ كَانَ القُرْآن فِي إِهَاب لما أَحْرَقَتْهُ النَّار»**[3]. لأَنَّهُ مَحْفُوظ فِي الصُّدُور، مُيَسَّر عَلى الأَلْسِنَة، مُهَيْمِن عَلى القُلُوب، مُعْجِز لفْظًا وَمَعْنًى. وَلهَذَا جَاءَ فِي الكُتُب المتقدمة فِي صِفَة هَذِهِ الأُمَّة: «أَنَاجِيلهمْ فِي صُدُورهمْ».

وَاخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّ المَعْنَى فِي قَوْله تَعَالى: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ ﴾، بَل العِلم بِأَنَّك مَا كُنْت تَتْلُو مِنْ قَبْل هَذَا الكِتَاب كِتَابًا وَلا تَخُطّهُ بِيَمِينِك آيَات بَيِّنَات فِي صُدُور الَّذِينَ أُوتُوا العِلم مِنْ أَهْل الكِتَاب. وَنَقَلهُ عَنْ قَتَادَة وَابْن جُرَيْج، وَحَكَى الأَوَّل عَنْ الحَسَن فَقَطْ. **قُلت:** وَهُوَ الَّذِي رَوَاهُ العَوْفِيّ عَنْ عبد الله ابن عَبَّاس وَقَالهُ الضَّحَّاك، وَهُوَ الأَظْهَر، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، أَيْ: مَا يُكَذِّب بِهَا وَيَبْخَس حَقّهَا وَيَرُدّهَا إِلّا الظَّالمُونَ، أَيْ: المُعْتَدُونَ المُكَابِرُونَ، الَّذِينَ يَعْلمُونَ الحَقّ وَيَحِيدُونَ عَنْهُ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥١ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ المُشْرِكِينَ فِي تَعَنُّتهمْ وَطَلبهمْ آيَات -يَعْنُونَ- تُرْشِدهُمْ إِلى أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله كَمَا أَتَى صَالح بِنَاقَتِهِ.

قَال الله تَعَالى: ﴿قُلۡ﴾ يَا مُحَمَّد: ﴿إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: إِنَّمَا أَمْر ذَلكَ إِلى الله، فَإِنَّهُ لوْ عَلمَ أَنَّكُمْ تَهْتَدُونَ لأَجَابَكُمْ إِلى سُؤَالكُمْ، لأَنَّ ذلك سَهْل عَليْهِ يَسِير لدَيْهِ، وَلكِنَّهُ يَعْلم مِنْكُمْ أَنَّمَا قَصَدْكم التَّعَنُّت وَالامْتِحَان فَلا يُجِيبكُمْ إِلى ذَلكَ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ أَيْ: إِنَّمَا بُعِثْت نَذِيرًا لكُمْ بَيِّن النِّذَارَة، فَعَليَّ أَني أُبَلِّغكُمْ رِسَالة الله، و ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) حسن: حسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٥٢٨٢).

مَن يَشَآءُ ﴾. ثُمَّ قَال تَعَالى مُبَيِّنًا كَثْرَة جَهْلهِمْ، وَسَخَافَة عَقْلهِمْ، حَيْثُ طَلبُوا آيَات تَدُلّهُمْ عَلى صِدْق مُحَمَّد فِيمَا جَاءَهُمْ وَقَدْ جَاءَهُمْ بِالكِتَابِ العَزِيز، الَّذِي لا يَأْتِيه البَاطِل مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلفه، تنزيل من حكيم حميد، الَّذِي هُوَ أَعْظَم مِنْ كُلّ مُعْجِزَة، إِذْ عَجَزَتْ الفُصَحَاء وَالبُلغَاء عَنْ مُعَارَضَته، بَل عَنْ مُعَارَضَة عَشْر سُوَر مِنْ مِثْله، بَل عَنْ مُعَارَضَة سُورَة مِنْهُ فَقَال تَعَالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾، أَيْ: أَوَلمْ يَكْفِهِمْ آيَة أَنَّا أَنْزَلنَا عَليْك هذا الكِتَاب العَظِيم الَّذِي فِيهِ خَبَر مَا قَبْلهمْ وَنَبأ مَا بَعْدهمْ وَحُكْم مَا بَيْنهمْ، وَأَنْتَ رَجُل أُمِّيّ لا تَقْرَأ وَلا تَكْتُب ولا تُخَالط أَحَدًا مِنْ أَهْل الكِتَاب، فَجِئْتهمْ بِأَخْبَارِ مَا فِي الصُّحُف الأُولى بِبَيَانِ الصَّوَاب مِمَّا اخْتَلفُوا فِيهِ وَبِالحَقِّ الوَاضِح البَيِّن الجَليّ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا حَجَّاج، حَدَّثنَا ليْث، حَدَّثنِي سَعِيد بْن أَبِي سَعِيد، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَا مِنْ الأَنْبِيَاء مِنْ نَبِيّ إلاَّ وقَدْ أُعْطِيَ مِنْ الآيَات مَا مِثْله آمَنَ عَليْهِ البَشَر، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيته وَحْيًا أَوْحَاهُ الله إِليَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَكْثَر تَابعًا يَوْم القِيَامَة»[1]. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث اللَّيْث.

وقال الله تَعَالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾، أَيْ: إِنَّ فِي هَذَا القُرْآن ﴿ لَرَحْمَةً ﴾، أَيْ: بيَانًا للحَقِّ وَإِزَاحَة للبَاطِل، ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ بِمَا فِيهِ حُلُول النِّقْمَات وَنُزُول العِقَاب بِالمُكَذِّبِينَ وَالعَاصِينَ، ﴿ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ أَيْ: هُوَ أَعْلم بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيب، وَيَعْلم مَا أَقُول لكُمْ مِنْ إِخْبَارِي عَنْهُ بِأَنَّهُ أَرْسَلنِي، فَلوْ كُنْت كَاذِبًا عَليْهِ لانْتَقَمَ مِنِّي، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾، وَإِنَّمَا أَنَا صَادِق عَليْهِ فِيمَا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ؛ وَلهَذَا أَيَّدَنِي بِالمُعْجِزَاتِ الوَاضِحَات، وَالدَّلائِل القَاطِعَات.

﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لا تَخْفَى عَليْهِ خَافِيَة، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾، أَيْ: يَوْم مَعَادهم سَيَجْزِيهِمْ عَلى مَا فَعَلُوا، وَيُقَابِلهُمْ عَلى مَا صَنَعُوا، من تَكْذِيبهمْ بِالحَقِّ وَاتِّبَاعهمْ البَاطِل، كَذَّبُوا بِرُسُل الله مَعَ قِيَام الأَدِلَّة عَلى صِدْقهمْ، وَآمَنُوا بِالطَّوَاغِيتِ وَالأَوْثَان بِلا دَليل، سيجازيهم عَلى ذَلِكَ، إِنَّهُ حَكِيم عَليم.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ جَهْل المُشْرِكِينَ فِي اسْتِعْجَالهمْ عَذَاب الله أَنْ يَقَع بِهِمْ، وَبَأْس الله أَنْ يَحِلّ عَليْهِمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، وَقَال هَهُنَا: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾، أَيْ: لوْلا مَا حَتَّمَ الله مِنْ تَأْخِير العَذَاب إِلى يَوْم القِيَامَة لجَاءَهُمْ العَذَاب قَرِيبًا سَرِيعًا كَمَا اسْتَعْجَلُوهُ.

ثُمَّ قَال: ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ أَيْ: فَجْأَة، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أَيْ: يَسْتَعْجِلُونَ العَذَاب، وَهُوَ وَاقِع بِهِمْ لا مَحَالة.

---

(١) صحيح: تقدم.

قَال شُعْبَة: عَنْ سِماك، عَنْ عِكْرِمَة قَال فِي قَوْله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، قَال: البَحْر. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا عُمَر بْن إِسْمَاعِيل بْن مُجَالد، حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ مجالد، عَنْ الشَّعْبِيّ: أَنَّهُ سَمِعَ ابْن عَبَّاس يَقُول: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وَجَهَنَّم هُوَ هَذَا البَحْر الأَخْضَر، تَنْتَثِر الكَوَاكِب فِيهِ، وَتُكَوَّر فِيهِ الشَّمْس وَالقَمَر، ثُمَّ يستوقد فَيَكُون هُوَ جَهَنَّم. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِم؛ حدثنا عَبْد الله ابْن أُمَيَّة، حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن [حُيَيّ][1]، حدثنا صَفْوَان بْن يَعْلى، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال: «البَحْر هُوَ جَهَنَّم»[2]. قَالُوا لِيَعْلى، فَقَال: أَلا تَرَوْنَ أَنَّ الله يَقُول: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، قَال: لا، وَالَّذِي نَفْس يَعْلى بِيَدِهِ لا أَدْخُلهَا أَبَدًا حَتَّى أُعْرَض عَلَى الله، وَلا يُصِيبنِي مِنْهَا قَطْرَة حَتَّى أُعْرَض عَلى الله ﷻ. هَذَا تَفْسِير غَرِيب، وَحَدِيث غَرِيب جِدًّا، وَالله أَعْلَم.

ثُمَّ قَال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، وَقَال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، وَقَال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ فَالنَّار تَغْشَاهُمْ مِنْ سَائِر جِهَاتهمْ، وَهَذَا أَبْلغ فِي العَذَاب الحِسِّيّ.

وَقَوْله: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، تَهْدِيد وَتَقْرِيع وَتَوْبِيخ، وَهَذَا عَذَاب مَعْنَوِيّ عَلى النُّفُوس، كَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾، وَقَال: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

هَذَا أَمْر مِنْ الله لعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ بِالهِجْرَةِ مِنْ البَلد الَّذِي لا يَقْدِرُونَ فِيهِ عَلى إِقَامَة الدِّين، إِلى أَرْض الله الوَاسِعَة، حَيْثُ يُمْكِن إِقَامَة الدِّين، بِأَنْ يُوَحِّدُوا الله وَيَعْبُدُوهُ كَمَا أَمَرَهُمْ، وَلهَذَا قَال: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن عَبْد رَبّه، حَدَّثَنَا بَقِيَّة بْن الوَلِيد، حَدَّثَنِي جُبَيْر بْن عَمْرو القُرَشِيّ، حَدَّثَنِي أَبُو سَعْد الأَنْصَارِيّ، عَنْ أَبِي [يحيي][3] مَوْلى الزُّبَيْر بْن العَوَّام، عَنْ الزُّبَيْر بْن العَوَّام قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «البِلاد بِلاد الله، وَالعِبَاد عِبَاد الله، فَحَيْثُمَا أَصَبْت خَيْرًا فَأَقِمْ»[4]. وَلهَذَا لـمَّا ضَاقَ عَلى المُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مُقَامهمْ بِهَا خَرَجُوا مُهَاجِرِينَ إِلى أَرْض الحَبَشَة لِيَأْمَنُوا عَلى دِينهمْ هُنَاكَ، فَوَجَدُوا هناك خَيْر المُنْزِلِيْنِ، أَصْحَمَة النَّجَاشِيّ مَلك الحَبَشَة رَحِمَهُ اللهُ آوَاهُمْ وَأَيَّدَهُمْ بِنَصْرِهِ، وَجَعَلهُمْ سُيُومًا بِبِلادِهِ، ثُمَّ بَعْد ذَلكَ هَاجَرَ رَسُول الله ﷺ وأصحابه البَاقُونَ إِلى المَدِينَة النَّبَوِيَّة يَثْرِب المُطَهَّرَة.

ثُمَّ قَال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، أَيْ: أَيْنَمَا كُنْتُمْ يُدْرِككُمْ المَوْت، فَكُونُوا فِي طَاعَة الله وَحَيْثُ أَمَرَكُمْ الله، فَهُوَ خَيْر لكُمْ، فَإِنَّ المَوْت لابُدّ مِنْهُ، وَلا مَحِيد عَنْهُ، ثُمَّ إِلى الله المَرْجِع، فَمَنْ كَانَ مُطِيعًا لهُ جَازَاهُ

---

(١) في (ز) : [جني].
(٢) ضعيف : أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٣)، وفيه محمد بن يحيى: مقبول. وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٠٢٣).
(٣) في نسخة: [بحر].
(٤) ضعيف : أخرجه أحمد (١/ ١٦٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٢٣٨١).

أَفْضَل الجَزَاء، وَوَافَاهُ تمام الثَّوَاب؛ وَلهَذَا قَال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾، أَيْ: لنُسْكِنَنَّهُمْ مَنَازِل عَاليَة فِي الجَنَّة تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الأَنْهَار عَلى اخْتِلاف أَصْنَافهَا، مِنْ مَاء وَخَمْر وَعَسَل وَلبَن يَصْرِفُونهَا وَيُجْرُونهَا حَيْثُ شَاءُوا. ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ﴾، أَيْ: مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا، لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا، ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ نِعْمَتْ هَذِهِ الغُرَف أَجْرًا عَلى أَعْمَال المُؤْمِنِينَ، ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ أَيْ: عَلى دِينهمْ وَهَاجَرُوا إِلى الله، وَنَابَذُوا الأَعْدَاء، وَفَارَقُوا الأَهْل وَالأَقْرِبَاء، ابْتِغَاء وَجْه الله، وَرَجَاء مَا عِنْده وَتَصْدِيق مَوْعُوده.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا صَفْوَان المُؤَذِّن، حدثنا الوَليد بْن مُسْلم، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن سَلَّام، عَنْ أَخِيهِ زَيْد بْن سَلَّام، عَنْ جَدّه أَبِي سَلَّام الأَسْوَد، حَدَّثَنِي أَبُو [معانق][1] الأَشْعَرِيّ: أَنَّ أَبَا مَالك الأَشْعَرِيّ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُول الله ﷺ حَدَّثَهُ: **«أَنَّ فِي الجنَّة غُرَفًا يُرَى ظَاهِرهَا مِنْ بَاطِنهَا وَبَاطِنهَا مِنْ ظَاهِرهَا، أَعدَّهَا الله لمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَام، وَأَطَابَ الكَلام، وأباح الصيام، وأقام الصلاة وَالنَّاس نِيَام»**.[2]

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فِي أَحْوَالهمْ كُلّهَا فِي دِينهمْ وَدُنْيَاهُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ تَعَالى أَنَّ الرِّزْق لا يَخْتَصّ بِبُقْعَةٍ، بَل رِزْقه تَعَالى عَامّ لخَلقِهِ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا، بَل كَانَتْ أَرْزَاق المُهَاجِرِينَ حَيْثُ هَاجَرُوا أَكْثَر وَأَوْسَع وَأَطْيَب، فَإِنَّهُمْ بَعْد قَليل صَارُوا حُكَّام البِلاد فِي سَائِر الأَقْطَار وَالأَمْصَار، وَلهَذَا قَال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾، أَيْ: لا تُطِيق جَمْعه وَتَحْصِيله، وَلا تؤخر شَيْئًا لغَدٍ، ﴿ ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾ أَيْ: الله يُقَيِّض لهَا رِزْقهَا عَلى ضَعْفهَا، وَيُيَسِّرهُ عَليْهَا، فَيَبْعَث إِلى كُلّ مَخْلُوق مِنْ الرِّزْق مَا يُصْلحهُ حَتَّى الذَّرّ فِي قَرَار الأَرْض، وَالطَّيْر فِي الهَوَاء وَالحِيتَان فِي المَاء. قَال الله تَعَالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحْمَن الهَرَوِيّ، حَدَّثَنَا يَزِيد -يَعْنِي ابْن هَارُون- حَدَّثَنَا الجَرَّاح بْن مِنْهَال الجَزَرِيّ -هُوَ أَبُو العُطُوف- عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ رَجُل، عَنْ ابْن عُمَر قَال: خَرَجْت مَعَ رَسُول الله ﷺ حَتَّى دَخَل بَعْض حِيطَان المَدِينَة، فَجَعَل يَلتَقِط مِنْ التَّمْر وَيَأْكُل، فَقَال لي: «يَا بْن عُمَر؛ مَا لك لا تَأْكُل؟». قَال: قُلت: لا أَشْتَهِيه يَا رَسُول الله. قَال: «لكِنِّي أَشْتَهِيه، وهذه صُبْح رَابِعَة مُنْذُ لمْ أَذُق طَعَامًا وَلمْ أَجِدهُ، وَلوْ شِئْت لدَعَوْت رَبِّي فَأَعْطَانِي مِثْل مُلك قَيْصَر وكِسْرَى، فَكَيْف بِك يَا بْن عُمَر؛ إِذَا بَقِيت فِي قَوْم يُخَبِّئُونَ رِزْق سَنَتهمْ بِضَعْفِ اليَقِين؟». قَال: فَوَالله مَا بَرِحْنَا وَلا رُمْنَا حَتَّى نَزَلتْ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾. فَقَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الله لمْ يَأْمُرنِي بِكَنْزِ الدُّنْيَا وَلا بِاتِّبَاع الشَّهَوَات، فَمَنْ كَنَزَ دُنْيَاهُ يُرِيد بِهَا حَيَاة بَاقِيَة، فَإِنَّ الحَيَاة بِيَدِ الله، أَلا وَإِنِّي لا أَكْنِز دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا وَلا أُخَبِّئ رِزْقًا [لغَدٍ][3]»[4]. هَذَا حَدِيث غَرِيب، وَأَبُو العُطُوف الجَزَرِيّ ضَعِيف. وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ الغُرَاب إِذَا فَقَسَ عَنْ فِرَاخه البَيْض، خَرَجُوا وَهُمْ بِيض، فَإِذَا رَآهُمْ أَبَوَاهُمْ كَذَلكَ، نَفَرَا عَنْهُمْ أَيَّامًا حَتَّى يَسْوَدّ الرِّيش، فَيَظَلّ الفَرْخ فَاتِحًا فَاهُ يَتَفَقَّد أَبَوَيْهِ، فَيُقَيِّض الله له طَيْرًا صِغَارًا كَالبَرْغَش فَيَغْشَاهُ، فَيَتَقَوَّت بِهِ تِلكَ الأَيَّام حَتَّى يَسْوَدّ رِيشه، وَالأَبَوَانِ يَتَفَقَّدَانِهِ كُلّ وَقْت، فَكُلَّمَا رَأَوْهُ أَبْيَض الرِّيش نَفَرَا عَنْهُ، فَإِذَا رَأَوْهُ قد اسْوَدَّ رِيشه عَطَفَا عَليْهِ بِالحَضَانَة والزَّق، وَلهَذَا قَال الشَّاعِر:

يَا رَازِق النَّعَّاب فِي عُشّه ۞ وَجَابِر العَظْم الكَسِير المَهِيض

(١) في نسخة: [معاوية].
(٢) صحيح لغيره: تقدم.
(٣) في (ز): [لأحد].
(٤) ضعيف جدًا: فيه أبو العطوف الجزري الجراح بن منهال: ضعيف. وقال البخاري ومسلم: «منكر الحديث».

وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيّ فِي جُمْلَة كَلام لهُ فِي الأَوَامِر، كَقَوْل النَّبِيّ ﷺ: «**سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتُرْزَقُوا**». قَال البَيْهَقِيّ: أخبرناه إِمْلاء أَبُو [الحَسَن][1] عَلِيّ بْن محمد بْن عَبْدَان أَخْبَرَنَا أَحْمَد بْن عُبَيْد، أَخْبَرَنَا مُحَمَّد بْن غَالب، حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن سِنَان، حدثنا مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن [رداد][2] -شَيْخ مِنْ أَهْل المَدِينَة- حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن دِينَار، عَنْ ابْن عُمَر قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتَغْنَمُوا»[3]. قَال: وَرَوَيْنَاهُ عَنْ ابْن عَبَّاس. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا قتيبة، حدثنا ابْن لهِيعَة، عَنْ دَرَّاج، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن [حُجَيْرة][4]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**سَافِرُوا تَرْبَحُوا، وَصُومُوا تَصِحُّوا، وَاغْزُوا تَغْنَمُوا**».[5] وَقَدْ وَرَدَ مِثْل حَدِيث ابْن عُمَر عَنْ ابْن عَبَّاس مَرْفُوعًا، وَعَنْ مُعَاذ بْن جَبَل مَوْقُوفًا، وَفِي لفْظ: «سَافِرُوا مَعَ ذَوِي الجدود وَالمَيْسَرَة».[6]

وَقَوْله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أَيْ: السَّمِيع لأَقْوَال عِبَاده، العَلِيم بِحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتهمْ.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُقَرِّرًا أَنَّهُ لا إِله إِلَّا هُوَ؛ لأَنَّ المُشْرِكِينَ -الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْره- مُعْتَرِفُونَ أَنَّهُ المُسْتَقِلّ بِخَلق السَّمَاوَات وَالأَرْض وَالشَّمْس وَالقَمَر، وَتَسْخِير اللَّيْل وَالنَّهَار، وَأَنَّهُ الخَالق الرَّازِق لعِبَادِهِ، وَمُقَدِّر آجَالهمْ وَاخْتِلافهَا وَاخْتِلاف أَرْزَاقهمْ. فَتَفَاوَتَ بَيْنهمْ، فَمِنْهُمْ الغَنِيّ وَالفَقِير، وَهُوَ العَلِيم بِمَا يُصْلح كُلًّا مِنْهُمْ، وَمَنْ يَسْتَحِقّ الغِنَى مِمَّنْ يَسْتَحِقّ الفَقْر، فَذَكَرَ أَنَّهُ المستبد بِخَلقِ الأَشْيَاء المتفرد بِتَدْبِيرِهَا، فَإِذَا كَانَ الأَمْر كَذَلكَ فَلِمَ يُعْبَد غَيْره؟ وَلِمَ يُتَوَكَّل عَلى غَيْره؟ فَكَمَا أَنَّهُ الوَاحِد فِي مُلكه فَليَكُنْ الوَاحِد فِي عِبَادَته، وَكَثِيرًا مَا يُقَرِّر تَعَالى مَقَام الإِلهِيَّة بِالاعْتِرَاف بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّة. وَقَدْ كَانَ المُشْرِكُونَ يَعْتَرِفُونَ بِذَلكَ، كَمَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلبِيَتهمْ: «لبَّيْكَ لا شَرِيك لك، إلاَّ شَرِيكًا هُوَ لك تَمْلكهُ وَمَا مَلكَ».

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد.

وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالى عَنْ المُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ عِنْد الاضْطِرَار يَدْعُونَهُ وَحْده لا شَرِيك لهُ، فَهَلَّا يَكُون هَذَا مِنْهُمْ دَائِمًا، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾، وَقَال هَهُنَا: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ عِكْرِمَة بْن أَبِي جَهْل: أَنَّهُ لَمَّا فَتَحَ

---

(١) في (ز): [الحسين].
(٢) في (ز): [وراد].
(٣) منكر: أخرجه البيهقي (٧/ ١٠٢)، والخطيب في «تاريخه» (١٠/ ٣٨٧)، وقال أبو حاتم: حديث منكر. وقال الألباني حديث منكر؛ انظر «الضعيفة» (٢٥٥).
(٤) في (ز): [حجير].
(٥) ضعيف: أخرجه أحمد (٢/ ٣٨٠)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف.
(٦) موضوع: انظر «الضعيفة» (٣٦٨٤).

رَسُول الله ﷺ مَكَّة ذَهَبَ فَارًّا مِنْهَا، فَلَمَّا رَكِبَ فِي البَحْر لِيَذْهَبَ إِلى الحَبَشَة اضْطَرَبَتْ بِهِمْ السَّفِينَة، فَقَال أَهْلهَا: يَا قَوْم؛ أَخْلصُوا لرَبِّكُمْ الدُّعَاء، فَإِنَّهُ لا يُنَجِّي هَهُنَا إِلَّا هُوَ. فَقَال عِكْرِمَة: وَالله إن كَانَ لا يُنَجِّي فِي البَحْر غَيْره، فَإِنَّهُ لا يُنَجِّي أيضًا غيره فِي البَرّ، اللَّهُمَّ؛ لك عَلَيَّ عَهْد لئِنْ خَرَجْت لأَذْهَبَنَّ فَلأَضَعَنَّ يَدِي فِي يَد مُحَمَّد فَلأَجِدَنَّهُ رَءُوفًا رَحِيمًا. وكَانَ كَذَلكَ.

وَقَوْله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾، هَذِهِ «**اللام**» يُسَمِّيهَا كَثِير مِنْ أَهْل العَرَبِيَّة وَالتَّفْسِير وَعُلَماء الأُصُول «**لام العَاقِبَة**»، لأَنَّهُمْ لا يَقْصِدُونَ ذَلكَ، وَلا شَكّ أَنَّهَا كَذَلكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ، وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلى تَقْدِير الله عَلَيْهِمْ ذَلكَ وَتَقْيِيضه إِيَّاهُمْ لذَلكَ فَهِيَ «**لام التَّعْليل**»، وَقَدْ قَدَّمْنَا تَقْرِير ذَلكَ فِي قَوْله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُمْتَنًّا عَلى قُرَيْش فِيمَا أَحَلَّهُمْ مِنْ حَرَمه الَّذِي جَعَلَهُ للنَّاسِ سَوَاء العَاكِف فِيهِ والبادي، وَمَنْ دَخَلهُ كَانَ آمِنًا، فَهُمْ فِي أَمْن عَظِيم، وَالأَعْرَاب حَوْله يَنْهَب بَعْضهمْ بَعْضًا، وَيَقْتُل بَعْضهمْ بَعْضًا، كَمَا قَال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾. وَقَوْله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾، أَيْ: أَفَكَانَ شُكْرهمْ عَلى هَذِهِ النِّعْمَة العَظِيمَة أَنْ أَشْرَكُوا بِهِ، وَعَبَدُوا مَعَهُ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد، وَ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾، وكَفَرُوا بِنَبِيِّ الله، وَعَبْده، وَرَسُوله، فَكَانَ اللَّائِق بِهِمْ إِخْلاص العِبَادَة لله، وَأَنْ لا يُشْرِكُوا بِهِ وَتَصْدِيق الرَّسُول وَتَعْظِيمه وَتَوْقِيره، فَكَذَّبُوهُ وقَاتَلُوهُ وأَخْرَجُوهُ مِنْ بَيْن ظَهْرهمْ، وَلهَذَا سَلَبَهُمْ الله مَا كَانَ أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَقُتِل مَنْ قُتِل مِنْهُمْ بِبَدْرٍ، وصَارَتْ الدَّوْلَة لله وَلرَسُولِهِ وَللمُؤْمِنِينَ، فَفَتَحَ الله عَلى رَسُوله مَكَّة، وَأَرْغَمَ آنَافهمْ وَأَذَلَّ رِقَابهمْ.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾، أَيْ: لا أَحَد أَشَدّ عُقُوبَة مِمَّنْ كَذَبَ عَلى الله فَقَال: إِنَّ الله أَوْحَى إِلَيْهِ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ. وَمَنْ قَال: سَأُنْزِلُ مِثْل مَا أَنْزَل الله. وَهَكَذَا لا أَحَد أَشَدّ عُقُوبَة مِمَّنْ كَذَّبَ بِالحَقِّ لَـمَّا جَاءَهُ، فَالأَوَّل مُفْتَرٍ، وَالثَّانِي مُكَذِّب، وَلهَذَا قَال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟ ثُمَّ قَال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾، يَعْنِي الرَّسُول -صلوات الله وسلامه عليه وَأَصْحَابه وَأَتْبَاعه إِلى يَوْم الدِّين- ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أَيْ: لَنُبَصِّرَنَّهُمْ سُبُلنَا، أَيْ: طُرُقنَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي حَدَّثنَا أَحْمَد بْن أَبِي الحَوَارِيّ، حدثنا عَبَّاس الهَمْدَانِيّ أَبُو أَحْمَد -مِنْ أَهْل عَكَّا- فِي قَوْل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، قَال: الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ، يَهْدِيهِمْ لِمَا لا يَعْلَمُونَ. قَال أَحْمَد بْن أَبِي الحَوَارِيّ: فَحَدَّثْت بِهِ أَبَا سُلَيْمَان الدَّارَانِيّ فَأَعْجَبَهُ، وَقَال: لَيْسَ يَنْبَغِي لِمَنْ أُلْهِمَ شَيْئًا مِنَ الخَيْر أَنْ يَعْمَل بِهِ حَتَّى يَسْمَعهُ فِي الأَثَر، فَإِذَا سَمِعَهُ فِي الأَثَر عَمِل بِهِ، وَحَمِدَ الله حين وَافَقَ مَا فِي نفسه.

وَقَوْله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا عِيسَى بْن جَعْفَر قَاضِي الرَّيّ، حَدَّثنَا أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ المُغِيرَة عَنْ الشَّعْبِيّ قَال: قَال عِيسَى ابْن مَرْيَم عَلَيْهِ السَّلَام: إِنَّمَا الإِحْسَان أَنْ تُحْسِن إِلى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْك، ولَيْسَ الإِحْسَان أَنْ تُحْسِن إِلى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْك. وَالله أَعْلم.

آخِر تَفْسِير سُورَة العَنْكَبُوت ولله الحَمْدُ وَالمِنَّة

تفسير سورة الروم وهي مكية

ترتيبها ٣٠ وآياتها ٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ (٣) فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (٤) بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٦) يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

نَزَلتْ هَذِهِ الآيَات حِين غَلبَ سَابُور مَلك الفُرْس عَلى بِلاد الشَّام وَمَا وَالاهَا مِنْ بِلاد الجَزِيرَة وَأَقَاصِي بِلاد الرُّوم، واضْطرَّ هِرَقْل مَلك الرُّوم حَتَّى أَلجَأَهُ إِلى القُسْطَنْطِينِيَّة، وَحَاصَرَهُ فِيهَا مُدَّة طَوِيلة، ثُمَّ عَادَتْ الدَّوْلة لِهِرَقْل كَمَا سَيَأْتِي.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن عَمْرو، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاق، عَنْ سُفْيَان، عَنْ حَبِيب بْن أَبِي عَمْرَة، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما فِي قَوْله تَعَالى: ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، قَال: غُلبَتْ وَغَلبَتْ. قَال: كَانَ المُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَر فَارِس عَلى الرُّوم، لأَنَّهُمْ أَصْحَاب أَوْثَان. وَكَانَ المُسْلمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَر الرُّوم عَلى فَارِس، لأَنَّهُمْ أَهْل كِتَاب، فَذُكِرَ ذَلكَ لأَبِي بَكْر، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْر لرَسُول الله ﷺ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلبُونَ**». فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْر لَهُمْ، فَقَالُوا: اجْعَل بَيْننَا وَبَيْنك أَجَلًا، فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لنَا كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لكُمْ كَذَا وَكَذَا. فَجَعَل أَجَل خَمْس سِنِينَ، فَلمْ يَظْهَرُوا، فَذَكَرَ ذَلكَ أَبُو بَكْر للنبي ﷺ فَقَال: «**أَلا جَعَلتهَا إِلى دُون** -أَرَاهُ قَال- **العَشْر**». قَال سَعِيد بْن جُبَيْر: البِضْع مَا دُون العَشْر. ثُمَّ ظَهَرَتْ الرُّوم بَعْدُ، قَال: فَذَلكَ قَوْله: ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ (٣) فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (٤) بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.[1] هَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ جَمِيعًا عَنْ الحُسَيْن بْن حُرَيْث، عَنْ مُعَاوِيَة بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي إِسْحَاق الفَزَارِيّ، عَنْ سُفْيَان بن سعيد الثَّوْرِيّ بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَدِيث حَسَن غَرِيب إِنَّمَا نَعْرِفهُ مِنْ حَدِيث سُفْيَان عَنْ حَبِيب، وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق [الصاغاني][2]، عَنْ مُعَاوِيَة بْن عَمْرو، بِهِ.

وَرَوَاهُ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن أَسْعد -أَوْ سَعِيد التغلبي- الَّذِي يُقَال لهُ أَبُو [سعيد][3] مِنْ أَهْل طَرَسُوس- حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاق الفَزَارِيّ، فَذَكَرَهُ. وَعِنْدهمْ: قَال سُفْيَان: فَبَلغَنِي أَنَّهُمْ غَلبُوا يَوْم بَدْر.

حَدِيث آخَر: قَال سُليْمَان بْن مِهْرَان الأَعْمَش: عَنْ مُسْلم، عَنْ مَسْرُوق، قَال: قَال عَبْد الله: خَمْس قَدْ مَضَيْنَ: الدُّخَان وَاللِّزَام وَالبَطْشَة وَالقَمَر وَالرُّوم. أَخْرَجَاهُ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثنَا ابْن وَكِيع، حَدَّثَنَا المُحَارِبِيّ، عَنْ دَاوُد بْن أَبِي هِنْد، عَنْ عَامِر -هُوَ الشَّعْبِيّ- عَنْ عَبْد الله -هو ابن مَسْعُود- رضي الله عنه قَال: كَانَتْ فَارِس ظَاهِرَة عَلى الرُّوم وَكَانَ المُشْرِكُون يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَر فَارِس عَلى الرُّوم. وَكَانَ المُسْلمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ تَظْهَر الرُّوم عَلى فَارِس؛ لأَنَّهُمْ أَهْل كِتَاب، وَهُمْ أَقْرَب إِلى دِينهمْ، فَلمَّا نَزَلتْ: ﴿الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ (٣) فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾، قَالُوا: يَا

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣١٩٣)، وأحمد (١/ ٢٧٦)، والطبري (٢١/ ١٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٢) في (ز): [الصنعاني].
(٣) في (ز): [أسعد].

أَبَا بَكْر، إِنَّ صَاحِبك يَقُول: إِنَّ الرُّوم تَظْهَر عَلى فَارِس فِي بِضْع سِنِينَ؟! قَال: صَدَقَ. قَالُوا: هَل لك أَنْ نُقَامِرك: فَبَايَعُوهُ عَلى أَرْبَع قَلائِص إِلى سَبْع سِنِينَ، فَمَضَتْ السَّبْع وَلَمْ يَكُنْ شَيْء، فَفَرِحَ الْمُشْرِكُون بِذَلك وشَقَّ عَلى الْمُسْلِمِينَ، فَذَكَرَ ذَلكَ للنَّبِيِّ ﷺ فَقَال: «مَا بِضْع سِنِينَ عِنْدَكُمْ؟». قَالُوا: دُون العَشْر. قَال: «اذْهَبْ فَزَايِدْهُمْ وَازْدَدْ سَنَتَيْنِ فِي الأَجَل». قَال: فَمَا مَضَتْ السَّنَتَانِ حَتَّى جَاءَتْ الرُّكْبَان بِظُهُورِ الرُّوم عَلى فَارِس، فَفَرِحَ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلك وَأَنْزَل الله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، إِلى قَوْله: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.[1]

حَدِيث آخَر: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عُمَر الوَكِيعِيّ، حَدَّثَنَا مُؤَمَّل، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ البَرَاء قَال: لـمَّا نَزَلتْ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾، قَال الْمُشْرِكُونَ لأَبِي بَكْر: أَلا تَرَى إِلى مَا يَقُول صَاحِبك؟ يَزْعُم أَنَّ الرُّوم تَغْلب فَارِس! قَال: صَدَقَ صَاحِبِي. قَالُوا: هَل لك أَنْ نُخَاطِرك؟ فَجَعَل بَيْنه وَبَيْنهمْ أَجَلًا، فَحَلَّ الأَجَل قَبْل أَنْ تَغْلب الرُّوم فَارِس، فَبَلَغَ ذَلكَ النَّبِيّ ﷺ فَسَاءَهُ ذَلك وَكَرِهَهُ، وَقَال لأَبِي بَكْر: «مَا دَعَاك إِلى هَذَا؟». قَال: تَصْدِيقًا لله وَلرَسُوله، فقَال: «تَعَرَّضْ لهُمْ وَأَعْظِمْ الخَطَر، وَاجْعَلهُ إِلى بِضْع سِنِينَ». فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْر فَقَال لهم: هَل لَكُمْ فِي العَوْد، فَإِنَّ العَوْد أَحْمَد؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَلَمْ تَمْضِ تِلكَ السِّنِينَ حَتَّى غَلبَتْ الرُّوم فَارِس، وَرَبَطُوا خُيُولهمْ بِالْمَدَائِنِ وَبَنَوْا الرُّومِيَّة، فَجَاءَ بِه أَبُو بَكْر إِلى النَّبِيّ ﷺ، فَقَال: هَذَا السُّحْت، قَال: «تَصَدَّقْ بِهِ».[2]

حَدِيث آخَر: قَال أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن أَبِي أُوَيْس، أَخْبَرَنِي بْن أَبِي الزِّنَاد، عَنْ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر، عَنْ نِيَار بْن مُكْرَم الأَسْلمِيّ قَال: لـمَّا نَزَلتْ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾، وكَانَتْ فَارِس يَوْم نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة قَاهِرِينَ للرُّوم، وَكَانَ الْمُسْلمُونَ يُحِبُّونَ ظُهُور الرُّوم عليْهِمْ، لأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْل كِتَاب، وَفِي ذَلكَ قول الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وَكَانَتْ قُرَيْش تُحِبّ ظُهُور فَارِس؛ لأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ ليْسُوا بِأَهْل كِتَاب وَلا إِيمَان بِبَعْثٍ، فَلَمَّا أَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة؛ خَرَجَ أَبُو بَكْر يَصِيح فِي نَوَاحِي مَكَّة: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾، فَقَال نَاس مِنْ قُرَيْش لأَبِي بَكْر: فَذَاكَ بَيْننَا وَبَيْنكُ، زَعَمَ صَاحِبكَ أَنَّ الرُّوم سَتَغْلبُ فَارِس فِي بِضْع سِنِينَ، أَفَلا نُرَاهِنك عَلى ذَلكَ؟ قَال: بَلى -وَذَلكَ قَبْل تَحْرِيم الرِّهَان- فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْر وَالْمُشْرِكُونَ وَتَوَاضَعُوا الرِّهَان، وَقَالُوا لأَبِي بَكْر: كَمْ تَجْعَل البِضْع؟ ثَلاث سِنِينَ إِلى [تِسْع][3] سِنِينَ فَسَمِّ بَيْننَا وَبَيْنك وَسَطًا نَنْتَهِي إِليْهِ. قَال: فَسَمُّوا بَيْنهمْ سِتّ سِنِينَ. قَال: فَمَضَتْ السِّنِينَ السِّت قَبْل أَنْ يَظْهَرُوا، فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ رَهْن أَبِي بَكْر، فَلَمَّا دَخَلتْ السَّنَة السَّابِعَة ظَهَرَتْ الرُّوم عَلى فَارِس، فَعَابَ الْمُسْلمُونَ عَلى أَبِي بَكْر تَسْمِيَته سِتّ سِنِينَ. قَال: لأَنَّ الله قَال: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾. قَال: فَأَسْلمَ عِنْد ذَلكَ نَاس كَثِير. هَكَذَا سَاقَهُ التِّرْمِذِيّ، ثُمَّ قَال: هَذَا حَدِيث حَسَن صَحِيح، لا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي الزِّنَاد.

وَقَدْ رُوِيَ نَحو هَذَا مُرْسَلًا عَنْ جَمَاعَة مِنْ التَّابِعِينَ، مِثْل: عِكْرِمَة، وَالشَّعْبِيّ، وَمُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَالزُّهْرِيّ، وَغَيْرهمْ. وَمِنْ أَغْرَب هَذِهِ السِّيَاقَات مَا رَوَاهُ الإِمَام سُنَيْد بْن دَاوُد فِي «تَفْسِيره» حَيْثُ قَال: حَدَّثَنِي

---

(١) **حسن لغيره** : أخرجه الطبري (٢١/ ١٨)، وفيه ابن وكيع: ضعيف، وبقية رجاله ثقات، ويشهد له ما تقدم.

(٢) **حسن لغيره** : أخرجه أبو يعلى كما في «المطالب العالية» (٣٦٩٣)، من طريق المؤمل بن إسماعيل: وهو صدوق سيئ الحفظ، وأبو إسحاق: يرسل.

(٣) في (ز) : [سبع].

حَجَّاج، عَنْ أَبِي بَكْر ابن عبد الله، عَنْ عِكْرِمَة قَال: كَانَت فِي فَارِس امْرَأَة لا تَلد إِلَّا المُلُوك وَالأَبْطَال، فَدعَاهَا كِسْرَى فَقَال: إِنِّي أُرِيد أَنْ أَبْعَث إِلى الرُّوم جَيْشًا، وَأَسْتَعْمِل عليهم رَجُلًا مِنْ بَنِيك فَأَشِيرِي عَلَيَّ، أَيّهمْ أَسْتَعْمِل؟ فَقَالتْ: هَذَا فُلان، وَهُوَ أَرْوَغ مِنْ ثَعْلب، وَأَحْذَر مِنْ صَقْر. وَهَذَا فرخان، وَهُوَ أَنْفَذ مِنْ سِنَان. وَهَذَا شهربراز وَهُوَ أَحْلم مِنْ كَذَا -تَعْنِي أَوْلادهَا الثَّلاثَة-، فَاسْتَعْمِل أَيّهمْ شِئْت. قَال: فَإِنِّي اسْتَعْمَلت الحَلِيم. فَاسْتَعْمَل شهربراز فَسَارَ إِلى الرُّوم بِأَهْل فَارِس، فَظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَقَتَلهُمْ، وَخَرَّبَ مَدَائِنهمْ، وَقَطَعَ زَيْتُونهمْ. قَال أَبُو بَكْر ابْن عَبْد الله: فَحَدَّثَ بِهَذَا الحَدِيث عَطَاء الخُرَاسَانِيّ فَقَال: أَمَا رَأَيْت بِلاد الشَّام؟ قُلت: لا، قَال: أَمَا إِنَّك لوْ رَأَيْتهَا لرَأَيْت المَدَائِن الَّتِي خُرِّبَتْ وَالزَّيْتُون الَّذِي قُطِّعَ. فَأَتَيْت الشَّام بَعْد ذَلكَ فَرَأَيْته.

قَال عَطَاء الخُرَاسَانِيّ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْن يَعْمَر أَنَّ قَيْصَر بَعَثَ رَجُلًا يُدْعَى بطنة بِجَيْشٍ مِنْ الرُّوم، وَبَعَثَ كِسْرَى شهربراز فَالتَقَيَا بِأَذْرِعَات وَبُصْرَى، وَهِيَ أَدْنَى الشَّام إِلَيْكُمْ، فَلقِيَتْ فَارِس الرُّوم، فَغلبَتْهُمْ فَارِس. فَفَرِحَتْ بِذَلكَ كُفَّار قُرَيْش وَكَرِهَهُ المُسْلمُونَ. قَال عِكْرِمَة: وَلقِيَ المُشْرِكُونَ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ فقَالُوا: إِنَّكُمْ أَهْل كِتَاب وَالنَّصَارَى أَهْل كِتَاب، وَنَحْنُ أُمِّيُّونَ وَقَدْ ظَهَرَ إِخْوَانَنا مِنْ أَهْل فَارِس عَلى إِخْوَانكُمْ مِنْ أَهْل الكِتَاب، وَإِنَّكُمْ إِنْ قَاتَلتُمُونَا لنَظْهَرَنَّ عَليْكُمْ. فَأَنْزَل الله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾، فَخَرَجَ أَبُو بَكْر الصِّدِّيق إِلى الكُفَّار فَقَال: أَفَرِحْتُمْ بِظُهُورِ إِخْوَانكُمْ عَلى إِخْوَانِنَا، فَلا تَفْرَحُوا. وَلا يُقِرَّن الله أَعْيُنكُمْ، فَوَالله ليُظْهِرَنَّ الله الرُّوم عَلى فَارِس، أَخْبَرَنَا بِذَلكَ نَبِيّنَا ﷺ. فَقَامَ إِلَيْهِ أُبَيّ بْن خَلف فَقَال: كَذَبْت يَا أَبَا فُضَيْل. فَقَال لهُ أَبُو بَكْر: أَنْتَ أَكْذَب يَا عَدُوّ الله. قَال: أُنَاحِبك عَشْر قَلائِص مِنِّي وَعَشْر قَلائِص مِنْك، فَإِنْ ظَهَرَتْ الرُّوم عَلى فَارِس غَرِمْت وَإِنْ ظَهَرَتْ فَارِس غَرِمْت، إِلى ثَلاث سِنِينَ. ثُمَّ جَاءَ أَبُو بَكْر إِلى النَّبِيّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَال: مَا هَكَذَا ذَكَرْت، إِنَّمَا البِضْع مَا بَيْن الثَّلاث إِلى التِّسْع. فَزَايِدْهُ فِي الخَطَر وَمَادّهُ فِي الأَجَل. فَخَرَجَ أَبُو بَكْر فَلقِيَ أُبَيًّا فَقَال: لعَلَّك نَدِمْت؟ فَقَال: لا، تَعَال أُزَايِدك فِي الخَطَر وَأُمَادّك فِي الأَجَل، فَاجْعَلهَا مِائَة قَلُوص إِلى تِسْع سِنِينَ. قَال: قَدْ فَعَلت. فَظَهَرَتْ الرُّوم عَلى فَارِس قَبْل ذَلكَ، فَغَلبَهُمْ المُسْلمُونَ.

قَال عِكْرِمَة: لـمَّا أَنْ ظَهَرَتْ فَارِس عَلى الرُّوم، جَلسَ فرخان يَشْرَب -وَهُوَ أَخُو شهربراز- فَقَال لأَصْحَابِهِ: لقَدْ رَأَيْت كَأَنِّي جَالس عَلى سَرِير كِسْرَى. فَبَلغَتْ كِسْرَى، فَكَتَبَ كِسْرَى إِلى شهربراز: إِذَا أَتَاك كِتَابِي فَابْعَثْ إِلَيَّ بِرَأْسِ فرخان. فَكَتَبَ إِليْهِ: أَيّهَا المَلك؛ إِنَّك لنْ تَجِد مِثْل فرخان، لهُ نِكَايَة وَصَوْت فِي العَدُوّ، فَلا تَفْعَل. فَكَتَبَ إِليْهِ: إِنَّ فِي رِجَال فَارِس خَلفًا مِنْهُ، فَعَجِّل إِلَيَّ بِرَأْسِهِ. فَرَاجَعَهُ، فَغَضِبَ كِسْرَى فَلمْ يُجِبْهُ، وَبَعَثَ بَرِيدًا إِلى أَهْل فَارِس: إِنِّي قَدْ نَزَعْت عَنْكُمْ شهربراز، وَاسْتَعْمَلت عَليْكُمْ فرخان. ثُمَّ دفع إِلى البَرِيد صَحِيفَة لطِيفَة صَغِيرَة فَقَال: إِذَا وُلِّيَ فرخان المُلك، وَانْقَادَ لهُ أَخُوهُ، فَأَعْطِهِ هَذِهِ. فَلمَّا قَرَأَ شهربراز الكِتَاب قَال: سَمْعًا وَطَاعَة، وَنَزَل عَنْ سَرِيره وَجَلسَ فرخان ودفع إِليْهِ الصَّحِيفَة قَال: ائْتُونِي بشهربراز، وَقَدَّمَهُ ليَضْرِبَ عُنُقه، قَال: لا تَعْجَل حَتَّى أَكْتُب وَصِيَّتِي، قَال: نَعَمْ. فَدَعَا بِالسَّفَطِ فَأَعْطَاهُ الثَلاث صحائف وقَال: كُلّ هَذَا رَاجَعْت فِيك كِسْرَى، وَأَنْتَ أَرَدْت أَنْ تَقْتُلنِي بِكِتَاب وَاحِد. فَرَدَّ المُلك إِلى أَخِيهِ شهربراز وَكَتَبَ شهربراز إِلى قَيْصَر مَلك الرُّوم: إِنَّ لي إِليْك حَاجَة لا تَحْمِلهَا البُرُد وَلا تَحْمِلهَا الصُّحُف، فَالقَنِي وَلا تَلقَنِي إِلَّا فِي خَمْسِينَ رُومِيًّا، فَإِنِّي أَلقَاك فِي خَمْسِينَ فَارِسِيًّا. فَأَقْبَل قَيْصَر فِي خَمْسِمِائَةِ أَلف رُومِيّ، وَجَعَل يَضَع العُيُون بَيْن يَدَيْهِ فِي الطَّرِيق، وَخَافَ أَنْ يَكُون قَدْ مَكَرَ بِهِ، حَتَّى أَتَاهُ عُيُونه أَنَّهُ ليْسَ مَعَهُ إِلَّا خَمْسُونَ رَجُلًا. ثُمَّ بُسِطَ لهُمَا وَالتَقَيَا فِي قُبَّة دِيبَاج ضُرِبَتْ لهُمَا مَعَ كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا سِكِّين، فَدَعَيَا تُرْجُمَانًا بَيْنهمَا، فَقَال شهربراز: إِنَّ الَّذِينَ خَرَّبُوا مَدَائِنك أَنَا وَأَخِي بِكَيْدِنَا وَشَجَاعَتنَا، وَإِنَّ كِسْرَى حَسَدَنَا، وَأَرَادَ أَنْ أَقْتُل أَخِي فَأَبَيْت،

ثُمَّ أَمَرَ أَخِي أَنْ يَقْتُلَنِي. وقد خلعناه جَمِيعًا فنحنُ نُقَاتِلهُ معك. قَال: وقَدْ أَصَبْتُما. ثُمَّ أَشَارَ أَحدهما إلى صَاحِبه أَنَّ السِّرّ بَيْن اثْنَيْنِ، فَإِذَا جاوزَ اثْنَيْنِ فشا. قَال: أَجل. فقتلا التُّرْجُمان جَمِيعًا بِسِكِّينيْهِما، فَأَهْلَكَ الله كِسْرَى، وَجَاءَ الخَبَر إلى رَسُول الله ﷺ يَوْم الحُدَيْبِيَة، ففَرِحَ والمُسْلمُونَ مَعَهُ. فهَذَا سِيَاق غَرِيب، وبِنَاء عَجِيب.

وَلنتكلَّمْ عَلى كَلمات هَذِهِ الآيَات الكَرِيمَة: فَقَوْله تَعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، قَدْ تَقدَّمَ الكَلام عَلى الحُرُوف المُقَطَّعَة فِي أَوَائِل السُّوَر، فِي أَوَّل سُورَة البَقَرَة، وَأَمَّا الرُّوم فَهُمْ مِنْ سُلالة العِيص بْن إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم، وَهُمْ أَبْنَاء عَمّ بَنِي إِسْرَائِيل، وَيُقَال لَهُمْ: بَنُو الأَصْفَر. وَكَانُوا عَلى دِين اليُونَان، وَاليُونَان مِنْ سُلالة يَافِث بْن نُوح أَبْنَاء عَمّ التُّرْك. وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الكَوَاكِب السَّيَّارَة السَّبْعَة، وَيُقَال لَهَا: المُتَحيِّرَة، وَيُصَلُّونَ إِلى القُطْب الشَّمَالِيّ، وَهُمْ الَّذِينَ أَسَّسُوا دِمَشْق، وَبَنَوْا مَعْبَدهَا، وَفِيهِ مَحَارِيب إِلى جِهَة الشَّمَال، فَكَانَ الرُّوم عَلى دِينهمْ إِلى بَعْد مَبْعَث المَسِيح بِنَحْوٍ مِنْ ثَلاثمِائَة سَنَة، وَكَانَ مَنْ مَلكَ الشَّام مَعَ الجَزِيرَة مِنْهُمْ يُقَال لَهُ: قَيْصَر. فَكَانَ أَوَّل مَنْ دَخَل فِي دِين النَّصَارَى مِنَ المُلُوك قُسْطَنْطِين بْن قسطس، وَأُمّه مَرْيَم الهيلانية الشدقانية مِنْ أَرْض حَرَّان، كَانَتْ قَدْ تَنَصَّرَتْ قَبْله، فَدَعَتْهُ إِلى دِينهَا، وَكَانَ قَبْل ذَلِكَ فَيْلسُوفًا، فَتَابَعَهَا -يُقَال: تَقِيَّة- وَاجْتَمَعَتْ بِهِ النَّصَارَى، وَتَنَاظَرُوا فِي زَمَانه مَعَ عَبْد الله بْن أريوس، وَاخْتَلَفُوا اخْتِلافًا مُنْتَشِرًا مُتَشَتِّتًا لا يَنْضَبِط، إِلَّا أَنَّهُ اتَّفَقَ مِنْ جَمَاعَتهمْ ثَلاث مِائَة وَثَمَانِيَة عَشَرَ أُسْقُفًا، فَوَضَعُوا لِقُسْطَنْطِين العَقِيدَة، وَهِيَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا: الأَمَانَة الكَبِيرَة، وَإِنَّمَا هِيَ الخِيَانَة الحَقِيرَة، وَوَضَعُوا لهُ القَوَانِين -يَعْنُونَ كتب الأَحْكَام- مِنْ تحليل وتحريم وَغَيْر ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَغَيَّرُوا دِين المَسِيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وَزَادُوا فِيهِ وَنَقَصُوا مِنْهُ. وصَلَّوْا إِلى المَشْرِق وَاعْتَاضُوا عَنْ السَّبْت بِالأَحَد، وَعَبَدُوا الصَّلِيب وَأَحَلُّوا الخِنْزِير، وَاتَّخَذُوا أَعْيَادًا أَحْدَثُوهَا، كَعِيدِ الصَّلِيب وَالقُدَّاس، وَالغِطَاس، وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ البَوَاعِيث وَالشَّعَانِين، وَجَعَلُوا لهُ البَاب وَهُوَ كَبِيرهمْ ثُمَّ البَتَارِكَة، ثُمَّ المَطَارِنَة، ثُمَّ الأَسَاقِفَة، وَالقَسَاقِسَة، ثُمَّ الشَّمَامِسَة. وَابْتَدَعُوا الرَّهْبَانِيَّة. وَبَنَى لهُمْ المَلك الكَنَائِس وَالمَعَابِد، وَأَسَّسَ المَدِينَة المَنْسُوبَة إِلَيْهِ وَهِيَ القُسْطَنْطِينِيَّة، يُقَال: إِنَّهُ بَنَى فِي أَيَّامه اثْنَيْ عَشَرَ أَلف كَنِيسَة، وَبَنَى بَيْت لحْم بِثَلاثَة مَحَارِيب، وَبَنَتْ أُمّه القُمَامَة، وَهَؤُلاءِ هُمْ المَلكِيَّة، يَعْنُونَ الَّذِينَ هُمْ عَلى دِين المَلك.

ثُمَّ حَدَثَتْ بَعْدهمْ اليَعْقُوبِيَّة أَتْبَاع يَعْقُوب الإِسْكَاف. ثُمَّ النُّسْطُورِيَّة أَصْحَاب نُسْطُورا، وَهُمْ فِرَق وَطَوَائِف كَثِيرَة، كَمَا قَال رَسُول الله ﷺ : «**إِنَّهُمْ افْتَرَقُوا على اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَة**»[1]. وَالغَرَض أَنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا عَلى النَّصْرَانِيَّة، كُلَّمَا هَلكَ قَيْصَر خلفَهُ آخر بَعْده. حَتَّى كَانَ آخِرهمْ هِرَقْل، وَكَانَ مِنْ عُقَلاء الرِّجَال، وَمِنْ أَحْزَم المُلُوك وَأَدْهَاهُمْ، وَأَبْعَدهمْ غَوْرًا وَأَقْصَاهُمْ رَأْيًا، فَتَمَلَّكَ عَلَيْهِمْ فِي رِيَاسَة عَظِيمَة وَأُبَّهَة كبيرة، فَنَاوَأَهُ كِسْرَى مَلك الفُرْس، وَمَلك البِلاد كَالعِرَاقِ وَخُرَاسَان وَالرَّيّ، وَجَمِيع بِلاد العَجَم، وَهُوَ سابور ذُو الأَكْتَاف، وَكَانَتْ مَمْلَكته أَوْسَعَ مِنْ مَمْلَكَة قَيْصَر، وَلهُ رِيَاسَة العَجَم وَحَمَاقَة الفُرْس، وَكَانُوا مَجُوسًا يَعْبُدُونَ النَّار.

فَتَقَدَّمَ عَنْ عِكْرِمَة أَنَّهُ قَال بَعَثَ إِلَيْهِ نُوَّابه وَجَيْشه فَقَاتَلُوهُ، وَالمَشْهُور أَنَّ كِسْرَى غَزَاهُ بِنَفْسِهِ فِي بِلاده فَقَهَرَهُ وَكَسَرَهُ وَقَصَرَهُ، حَتَّى لمْ يَبْقَ مَعَهُ سِوَى مَدِينَة قُسْطَنْطِينِيَّة؛ فَحَاصَرَهُ بِهَا مُدَّة طَوِيلة حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ النَّصَارَى تُعَظِّمهُ تَعْظِيمًا زَائِدًا، وَلمْ يَقْدِر كِسْرَى عَلى فَتْح البَلد، وَلا أَمْكَنَهُ ذَلِكَ لحَصَانَتِهَا، لأَنَّ نِصْفهَا مِنْ نَاحِيَة البَرّ وَنِصْفهَا الآخَر مِنْ نَاحِيَة البَحْر، فَكَانَتْ تَأْتِيهِمْ المِيرَة وَالمَدَد مِنْ هُنَالكَ. فَلَمَّا طَال الأَمْر دَبَّرَ قَيْصَر مَكِيدَة، وَرَأَى فِي نَفْسه خَدِيعَة، فَطَلَبَ مِنْ كِسْرَى أَنْ يُقْلع عن بِلاده عَلى مَال يُصَالحهُ عَلَيْهِ، وَيَشْتَرِط عَلَيْهِ مَا شَاءَ.

---

(١) صحيح : صححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٩٢).

فَأَجَابَهُ إِلى ذَلكَ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَمْوَالًا عَظِيمَة لا يَقْدِر عَلَيْهَا أَحَد مِنْ مُلُوك الدُّنْيَا، مِنْ ذَهَب، وَجَوَاهِر، وَأَقْمِشَة، وَجَوَارٍ، وَخُدَّام، وَأَصْنَاف كَثِيرة. فَطَاوَعَهُ قَيْصَر، وَأَوْهَمَهُ أَنَّ عِنْده جَمِيع مَا طَلَب، وَاسْتَقَلَّ عَقْله لَـمَّا طَلَبَ مِنْهُ مَا طَلَبَ، وَلَوْ اجْتَمَعَ هُوَ وَإِيَّاهُ لعَجَزَتْ قُدْرَتهمَا عَنْ جَمْع عُشْره، وَسَأَل مِنْ كِسْرَى أَنْ يُمَكِّنهُ مِنَ الخُرُوج إِلى بِلاد الشَّام وَأَقَالِيم مَمْلَكَته، لِيَسْعَى فِي تَحْصِيل ذَلكَ مِنْ ذَخَائِره وَحَوَاصِله وَدَفَائِنه، فَأَطْلَقَ سَرَاحه، فَلَمَّا عَزَمَ قَيْصَر عَلى الخُرُوج عن مَدِينَة قُسْطَنْطِينِيَّة، جَمَعَ أَهْل مِلَّته وَقَال: إِنِّي خَارِج فِي أَمْر قَدْ أَبْرَمْته، فِي جُنْد قَدْ عَيَّنْته مِنْ جَيْشِي، فَإِنْ رَجَعْت إِلَيْكُمْ قَبْل الحَوْل فَأَنَا مَلككُمْ، وَإِنْ لمْ أَرْجِع إِلَيْكُمْ قَبْلهَا فَأَنْتُمْ بِالخِيَارِ، إِنْ شِئْتُمْ اسْتَمَرَرْتُمْ عَلى بَيْعَتِي، وَإِنْ شِئْتُمْ وَلَّيْتُمْ عليْكُمْ غَيْرِي. فَأَجَابُوهُ بِأَنَّك مَلكنَا مَا دُمْت حَيًّا وَلوْ غِبْت عَشَرَة أَعْوَام. فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ القُسْطَنْطِينِيَّة خَرَجَ جَرِيدَة فِي جَيْش مُتَوَسِّط، هَذَا وَكِسْرَى مُخَيِّم عَلى القُسْطَنْطِينِيَّة يَنْتَظِرهُ لِيَرْجِع، فَرَكِبَ قَيْصَر مِنْ فَوْره وَسَارَ مُسْرِعًا حَتَّى انْتَهَى إِلى بِلاد فَارِس فَعَاثَ فِي بِلادها قَتْلًا لرِجَالهَا وَمَنْ بِهَا مِنَ المُقَاتِلة أَوَّلًا فَأَوَّلًا، وَلمْ يَزَل يَقْتُل حَتَّى انْتَهَى إِلى المَدَائِن، وَهِيَ كُرْسِيّ مَمْلَكَة كِسْرَى، فَقَتَل مَنْ بِهَا وَأَخَذَ جَمِيع حَوَاصِله وَأَمْوَاله، وَأَسَرَ نِسَاءَهُ وَحَرِيمه، وَحَلقَ رَأْس وَلده، وَرَكَّبَهُ عَلى حِمَار وَبَعَثَ مَعَهُ مِنَ الأَسَاوِرَة مِنْ قَوْمه فِي غَايَة الهَوَان وَالذِّلَّة، وَكَتَبَ إِلى كِسْرَى يَقُول: هَذَا مَا طَلَبْت فَخُذْهُ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلكَ كِسْرَى أَخَذَهُ مِنَ الغَمّ مَا لا يُحْصِيه إِلَّا الله ﷻ، وَاشْتَدَّ حَنَقه عَلى البَلَد فاشتد فِي حِصَارهَا بِكُلِّ مُمْكِن فَلمْ يَقْدِر عَلى ذَلكَ. فَلَمَّا عَجَزَ رَكِبَ لِيَأْخُذ عَلَيْهِ الطَّرِيق مِنْ مَخَاضَة جَيْحُون، الَّتِي لا سَبِيل لقَيْصَرَ إِلى القُسْطَنْطِينِيَّة إِلَّا مِنْهَا، فَلَمَّا عَلمَ قَيْصَر بِذَلكَ احْتَال بِحِيلةٍ عَظِيمَة لمْ يُسْبَق إِليْهَا، وَهُوَ أَنَّهُ أَرْصَدَ جُنْده وَحَوَاصِله الَّتِي مَعَهُ عِنْد فَم المَخَاضَة وَرَكِبَ فِي بَعْض الجَيْش، وَأَمَرَ بِأَحْمَالٍ مِنْ التِّبْن وَالبَعْر وَالرَّوْث فَحُمِلتْ مَعَهُ، وَسَارَ إِلى قَرِيب مِنْ يَوْم فِي المَاء مُصَعِّدًا، ثُمَّ أَمَرَ بِإِلقَاءِ تِلكَ الأَحْمَال فِي النَّهَر، فَلَمَّا مَرَّتْ بِكِسْرَى ظن هو وَجُنْده أَنَّهُمْ قَدْ خَاضُوا مِنْ هُنَالكَ، فَرَكِبُوا فِي طَلَبهمْ فَشَغَرَتْ المَخَاضَة عَنْ الفُرْس، وَقَدِمَ قَيْصَر فَأَمَرَهُمْ بِالنُّهُوضِ فِي الخَوْض، فَخَاضُوا وَأَسْرَعُوا السَّيْر فَفَاتُوا كِسْرَى وَجُنُوده، وَدَخَلُوا القُسْطَنْطِينِيَّة. وكَانَ ذَلكَ يَوْمًا مَشْهُودًا عِنْد النَّصَارَى. وَبَقِيَ كِسْرَى وجنوده حَائِرِينَ لا يَدْرُونَ مَاذَا يَصْنَعُونَ لمْ يَحْصُلُوا عَلى بِلاد قَيْصَر، وَبِلادهمْ قَدْ خَرَّبَتْهَا الرُّوم وَأَخَذُوا حَوَاصِلهمْ، وَسَبَوْا ذَرَارِيّهمْ وَنِسَاءَهُمْ. فهذا ما كان مِنْ غَلب الرُّوم فَارِسَ، وَكَانَ ذَلكَ بَعْد تِسْع سِنِينَ مِنْ غَلب الفرس للرُّوم. وَكَانَتْ الواقعة الكَائِنَة بَيْن فَارِس وَالرُّوم حِين غَلبَتْ الرُّوم بَيْن أَذْرِعَات وَبُصْرَى، عَلى مَا ذَكَرَهُ ابْن عَبَّاس وَعِكْرِمَة وَغَيْرهمَا، وَهِيَ طَرَف بِلاد الشَّام مِمَّا يَلِي بِلاد الحِجَاز. وَقَال مُجَاهِد: كَانَ ذَلكَ فِي الجَزِيرَة وَهِيَ أَقْرَب بِلاد الرُّوم مِنْ فَارِس. فَالله أَعْلم.

ثُمَّ كَانَ غَلبُ الرُّوم لفَارِسَ بَعْد بِضْع سِنِينَ، وَهِيَ تِسْع؛ فَإِنَّ البِضْع فِي كَلام العَرَب مَا بَيْن الثَّلاث إِلى التِّسْع، وَكَذَلكَ جَاءَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن جَرِير وَغَيْرهمَا، مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن عَبْد الرَّحْمَن الجُمَحِيّ، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُبَيْد الله بْن عَبْد الله، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال لأَبِي بَكْر فِي مُنَاحَبَة: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾: **«أَلا احْتَطْت يَا أَبَا بَكْر، فَإِنَّ البِضْع مَا بَيْن ثَلاث إِلى تِسْع؟»**[1]. ثُمَّ قَال: هَذَا حَدِيث حَسَن غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه. وَرَوَى ابْن جَرِير عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو أَنَّهُ قَال ذَلكَ.

وقَوْله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾، أَيْ: مِنْ قَبْل ذَلكَ وَمِنْ بَعْده، فَبُنِيَ عَلى الضَّمّ لمَّا قُطِعَ المُضَاف، وَهُوَ قَوْله: ﴿قَبۡلُ﴾ عَنْ الإِضَافَة وَنُوِيَتْ. ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أَيْ: للرُّوم أَصْحَاب قَيْصَر مَلك الشَّام، عَلى فَارِس أَصْحَاب كِسْرَى، وَهُمْ المَجُوس. وَقد كَانَتْ نُصْرَة الرُّوم عَلى فَارِس

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣١٩٤)، وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني في «صحيح جامع الترمذي».

يَوْم وَقْعَة بَدْر فِي قَوْل طَائِفَة كبيرة مِنْ الْعُلَمَاء، كَابْنِ عَبَّاس، وَالثَّوْرِيّ، وَالسُّدِّيّ، وَغَيْرهمْ. وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم وَالْبَزَّار، مِنْ حَدِيث الأَعْمَش، عَنْ عَطِيَّة، عَنْ أَبِي سَعِيد قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْم بَدْر، ظَهَرَتْ الرُّوم عَلَى فَارِس، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ فَفَرِحُوا بِهِ، وَأَنْزَلَ الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.[1]

وَقَال آخرون: بَل كَانَ نُصْرة الرُّوم عَلَى فَارِس عَام الْحُدَيْبِيَة، قَالَهُ عِكْرِمَة، وَالزُّهْرِيّ، وَقَتَادَة، وغيرهم. وَوَجَّهَ بَعْضهمْ هَذَا الْقَوْل بِأَنَّ قَيْصَر كَانَ قَدْ نَذَرَ لَئِنْ أَظْفَرَهُ الله بِكِسْرَى لَيَمْشِيَنَّ مِنْ حِمْص إِلَى إِيلِيَا -وَهُوَ بَيْت الْمَقْدِس- شُكْرًا لله ﷻ فَفَعَل، فَلَمَّا بَلَغَ بَيْت الْمَقْدِس لَمْ يَخْرُج منها حَتَّى وَافَاهُ كِتَاب رَسُول الله ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ مَعَ دِحْيَة بْن خَلِيفَة، فَأَعْطَاهُ دِحْيَة لِعَظِيم بُصْرَى، فَدَفَعَهُ عَظِيم بُصْرَى إِلَى قَيْصَر. فَلَمَّا وَصَل إِلَيْهِ سَأَل: مَنْ بِالشَّام مِنْ عَرَب الْحِجَاز؟ فَأُحْضِرَ لهُ أَبُو سُفْيَان صَخْر بْن حَرْب الأُمَوِيّ فِي جَمَاعَة مِنْ كفار قُرَيْش وَكَانُوا فِي غَزَّة، فَجِيءَ بِهِمْ إِلَيْهِ، فَجَلَسُوا بَيْن يَدَيْهِ، فَقَال: أَيّكُمْ أَقْرَب نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُل الَّذِي يَزْعُم أَنَّهُ نَبِيّ؟ فَقَال أَبُو سُفْيَان: أَنَا، فَقَال لأَصْحَابِهِ -وَأَجْلَسَهُمْ خلفه-: إِنِّي سَائِل هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُل، فَإِنْ كَذَبَ فَكَذِّبُوهُ. فَقَال أَبُو سُفْيَان: فَوَالله لَوْلا أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ الْكَذِب لَكَذَبْت. فَسَأَلَهُ هِرَقْل عَنْ نَسَبه وَصِفَته، فَكَانَ فِيمَا سَأَلَهُ أَنْ قَال: فَهَل يَغْدِر؟ قَال: قُلت: لا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّة لا نَدْرِي مَا هُوَ صَانِع فِيهَا -يَعْنِي بِذَلِكَ الْهُدْنَة الَّتِي كَانَتْ قَدْ وَقَعَتْ بَيْن رَسُول الله ﷺ وَكُفَّار قُرَيْش يوم الْحُدَيْبِيَة- عَلَى وَضْع الْحَرْب بَيْنهمْ عَشْر سِنِينَ، فَاسْتَدَلُّوا بِهَذَا عَلَى أَنَّ نَصْر الرُّوم عَلَى فَارِس كَانَ عَام الْحُدَيْبِيَة، لأَنَّ قَيْصَر إِنَّمَا وَفَّى بِنَذْرِهِ بَعْد الْحُدَيْبِيَة، وَالله أَعْلَم.

وَلأَصْحَاب الْقَوْل الأَوَّل أَنْ يُجِيبُوا عَنْ هَذَا بِأَنَّ بِلاده كَانَتْ قَدْ خَرِبَتْ وتشعثت، فَمَا تَمَكَّنَ مِنْ وَفَاء نَذْره حَتَّى أَصْلَحَ مَا يَنْبَغِي لهُ إِصْلاحه وَتَفَقَّدَ بِلاده، ثُمَّ بَعْد أَرْبَع سِنِينَ مِنْ نُصْرَته وَفَّى بِنَذْرِهِ، وَالله أَعْلَم. وَالأَمْر فِي هَذَا سَهْل قَرِيب إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا انْتَصَرَتْ فَارِس عَلَى الرُّوم سَاءَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا انْتَصَرَتْ الرُّوم عَلَى فَارِس فَرِحَ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، لأَنَّ الرُّوم أَهْل كِتَاب فِي الْجُمْلَة، فَهُمْ أَقْرَب إِلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ الْمَجُوس، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وَقَال تَعَالَى هَهُنَا: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا صَفْوَان، حَدَّثَنَا الْوَلِيد، حَدَّثَنِي أَسِيد الْكِلابِيّ، قَال: سَمِعْت الْعَلاء بْن الزُّبَيْر الْكِلابِيّ يُحَدِّث عَنْ أَبِيهِ، قَال: رَأَيْت غَلَبَة فَارِس الرُّوم، ثُمَّ رَأَيْت غَلَبَة الرُّوم فَارِس، ثُمَّ رَأَيْت غَلَبَة الْمُسْلِمِينَ فَارِس وَالرُّوم، كُلّ ذَلِكَ فِي خَمس عشرة سَنَة.

وَقَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أَيْ: فِي انْتِصَاره وَانْتِقَامه مِنْ أَعْدَائِهِ، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. وقَوْله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي أَخْبَرْنَاك بِهِ -يَا مُحَمَّد- مِنْ أَنَّا سَنَنْصُرُ الرُّوم عَلَى فَارِس، وَعْد مِنْ الله حَقّ، وَخَبَر صِدْق لا يُخْلف، وَلابُدّ مِنْ كَوْنه وَوُقُوعه؛ لأَنَّ الله قَدْ جَرَتْ سُنَّته أَنْ يَنْصُر أَقْرَب الطَّائِفَتَيْنِ الْمُقْتَتِلَتَيْنِ إِلَى الْحَقّ، وَيَجْعَل لهَا الْعَاقِبَة؛ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أَيْ: بِحُكْم الله فِي كَوْنه وَأَفْعَاله الْمُحْكَمَة الْجَارِيَة عَلَى وَفْق الْعَدْل.

وقَوْله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أَيْ: أَكْثَر النَّاس لَيْسَ لَهُمْ عِلم إِلَّا بِالدُّنْيَا وَأَكْسَابهَا وَشُؤُونهَا وَمَا فِيهَا، فَهُمْ حُذَّاق أَذْكِيَاء فِي تَحْصِيلهَا وَوُجُوه مَكَاسِبهَا، وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يَنْفَعهُمْ فِي الدَّار

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣١٩٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

الآخِرَة، كَأَنَّ أَحدهمْ مُغَفَّل لا ذِهْن لهُ وَلا فِكْرَة. قَال الحَسَن البَصْرِيّ: وَالله لَبَلَغ مِنْ أَحدهمْ بِدُنْيَاهُ أَنَّهُ يُقلِّب الدِّرْهَم عَلى ظُفُره، فَيُخْبِرك بِوَزْنِهِ، وَمَا يُحسِن أَنْ يُصَلِّي. وَقَال ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾. يَعْنِي: الكُفَّار، يَعْرِفُونَ عُمْرَان الدُّنْيَا، وَهُمْ فِي أَمْر الدِّين جُهَّال.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

يَقُول تَعالى مُنبِّهًا عَلى التَّفكُّر فِي مَخْلُوقَاته، الدَّالَّة عَلى وُجُوده وَانْفِرَاده بِخَلقِهَا، وَأَنَّهُ لا إِله غَيْره، وَلا رَبّ سِوَاهُ، فَقَال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ﴾ يَعْنِي بِهِ: النَّظَر، وَالتَّدبُّر، وَالتَّأمُّل لِخَلقِ الله الأَشْيَاء مِنْ العَالم العُلوِيّ وَالسُّفْلِيّ، وَمَا بَيْنهمَا مِنَ المَخْلُوقَات المُتنوِّعَة، وَالأَجْنَاس المُخْتلفَة، فَيَعْلَمُوا أَنَّهَا مَا خُلقَتْ سُدًى وَلا بَاطِلًا، بَل بِالحَقِّ وَأَنَّهَا مُؤَجَّلة إِلى أَجَل مُسَمًّى، وَهُوَ يَوْم القِيَامَة، وَلهَذَا قَال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾. ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلى صِدْق رُسُله فِيمَا جَاءُوا بِهِ عَنْهُ، بِمَا أَيَّدَهُمْ بِهِ مِنَ المُعْجِزَات وَالدلالات الوَاضِحَات، مِنْ إِهْلاك مَنْ كَفَرَ بِهِمْ، وَنَجَاة مَنْ صَدَّقَهُمْ فقال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: بِأَفْهَامِهِمْ وَعُقُولهِمْ وَنَظَرهِمْ وَسَمَاع أَخْبَار المَاضِينَ، وَلهَذَا قَال: ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أَيْ: كَانَتْ الأُمَم المَاضِيَة وَالقُرُون السَّالفَة أَشَدّ مِنْكُمْ -أَيُّهَا المَبْعُوث إِلَيْهِمْ مُحَمَّد ﷺ- وَأَكْثَر أَمْوَالًا وَأَوْلادًا، وَمَا أُوتِيتُمْ مِعْشَار مَا أُوتُوا، وَمُكِّنُوا فِي الدُّنْيَا تَمْكِينًا لمْ تَبْلُغُوا إِلَيْهِ، وَعُمِّرُوا فِيهَا أَعْمَارًا طِوَالًا، فَعَمَرُوهَا أَكْثَر مِنْكُمْ. وَاسْتَغَلُّوهَا أَكْثَر مِنْ اسْتِغْلالكُمْ، وَمَعَ هَذَا فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلهمْ بِالبَيِّنَاتِ وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا، أَخَذَهُمْ الله بِذُنُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ لهُمْ مِنَ الله مِنْ وَاقٍ، وَلا حَالتْ أَمْوَالهمْ وَلا أَوْلادهمْ بَيْنَهمْ وَبَيْن بَأْس الله، وَلا دَفَعُوا عَنْهُمْ مِثْقَال ذَرَّة، وَمَا كَانَ الله لِيَظْلمهُمْ فِيمَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أَيْ: وَإِنَّمَا أُوتُوا مِنْ أَنْفُسهمْ حَيْثُ كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله، وَاسْتَهْزَءُوا بِهَا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِسَبَبِ ذُنُوبهمْ السَّالفَة فِي تَكْذِيبهمْ المُتقدِّم، ولهذا قَال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾، كَمَا قَال تَعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وَقَال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾، وَقَال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ﴾، وَعَلى هَذَا تَكُون ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مَنْصُوبَة مَفْعُولًا لأَسَاءُوا، وَقِيل: بَل المَعْنَى فِي ذَلكَ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أَيْ: كَانَتْ السُّوأَى عَاقِبَتهمْ، لأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله، وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ. فَعَلى هَذَا تَكُون ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ مَنْصُوبَة خَبَر كَانَ. هَذَا تَوْجِيه ابْن جَرِير وَنَقَلهُ عَنْ ابْن عَبَّاس وَقَتَادَة. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْهُمَا، وَعَنْ الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم، وَهُوَ الظَّاهِر -وَالله أَعْلَم- لِقَوْلهِ: ﴿وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أَيْ: كَمَا هُوَ قَادِر عَلى بُدَاءَته فَهُوَ قَادِر عَلى إِعَادَته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أَيْ: يَوْم القِيَامَة، فَيُجَازِي كُلّ عَامِل بِعَمَلهِ. ثم قَال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَيْأَسُ الْمُجْرِمُونَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَفْتَضِحُ الْمُجْرِمُونَ. وَفِي رِوَايَةٍ: يَكْتَئِبُ الْمُجْرِمُونَ. ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ ﴾، أَيْ: مَا شَفَعَتْ فِيهِمْ الآلِهَةُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ، وَكَفَرُوا بِهِمْ، وَخَانُوهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِمْ. ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: هِيَ وَاللهِ الْفُرْقَةُ الَّتِي لَا اجْتِمَاعَ بَعْدَهَا. يَعْنِي: أَنَّهُ إِذَا رُفِعَ هَذَا إِلَى عِلِّيِّينَ، وَخُفِضَ هَذَا إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، فَذَلِكَ آخِرُ الْعَهْدِ بَيْنَهُمَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: يَنْعَمُونَ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ: يَعْنِي: سَمَاعَ الْغِنَاءِ. وَالْحَبْرَةُ أَعَمُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ. قَالَ الْعَجَّاجُ:

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَعْطَى الْحَبَرْ ❁ مَوَالِي الْحَقِّ، إِنَّ الْمَوْلَى شَكَرْ

﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾.

هَذَا تَسْبِيحٌ مِنْهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ، وَإِرْشَادٌ لِعِبَادِهِ إِلَى تَسْبِيحِهِ وَتَحْمِيدِهِ، فِي هَذِهِ الأَوْقَاتِ الْمُتَعَاقِبَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، عِنْدَ الْمَسَاءِ، وَهُوَ إِقْبَالُ اللَّيْلِ بِظَلَامِهِ، وَعِنْدَ الصَّبَاحِ، وَهُوَ إِسْفَارُ النَّهَارِ عَنْ ضِيَائِهِ.

ثُمَّ اعْتَرَضَ بِحَمْدِهِ مُنَاسَبَةً لِلتَّسْبِيحِ وَهُوَ التَّحْمِيدُ، فَقَالَ: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، أَيْ: هُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى مَا خَلَقَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾، فَالْعِشَاءُ هُوَ: شِدَّةُ الظَّلَامِ، وَالإِظْهَارُ: قُوَّةُ الضِّيَاءِ. فَسُبْحَانَ خَالِقِ هَذَا وَهَذَا، فَالِقِ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلِ اللَّيْلِ سَكَنًا، كَمَا قَالَ: ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾، وَقَالَ: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾، وَقَالَ: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾، وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ. وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حَسَنٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ، حَدَّثَنَا زَبَّانُ بْنُ فَائِدٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ لِمَ سَمَّى اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَهُ الَّذِي وَفَّى؟ لِأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ كُلَّمَا أَصْبَحَ وَأَمْسَى: سُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ»(١). وَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ: حَدَّثَنَا مُطَّلِبُ بْنُ شُعَيْبٍ الأَزْدِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنِي اللَّيْثُ ابْنُ سَعْدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ [الْبَيْلَمَانِيِّ](٢)، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ الآيَةَ بِكَمَالِهَا، أَدْرَكَ مَا فَاتَهُ فِي يَوْمِهِ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي أَدْرَكَ مَا فَاتَهُ فِي لَيْلَتِهِ»(٣). إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ».

وَقَوْلُهُ: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾، هُوَ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ الأَشْيَاءِ الْمُتَقَابِلَةِ، وَهَذِهِ الآيَاتُ الْمُتَتَابِعَةُ الْكَرِيمَةُ كُلُّهَا مِنْ هَذَا النَّمَطِ، فَإِنَّهُ يَذْكُرُ فِيهَا خَلْقَهُ الأَشْيَاءَ وَأَضْدَادَهَا، لِيَدُلَّ خَلْقُهُ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ إِخْرَاجُ النَّبَاتِ مِنَ الْحَبِّ، وَالْحَبِّ مِنَ النَّبَاتِ. وَالْبَيْضِ مِنَ الدَّجَاجِ، وَالدَّجَاجِ مِنَ الْبَيْضِ، وَالإِنْسَانِ مِنَ النُّطْفَةِ، وَالنُّطْفَةِ مِنَ الإِنْسَانِ، وَالْمُؤْمِنِ مِنَ الْكَافِرِ، وَالْكَافِرِ مِنَ الْمُؤْمِنِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾، وَقَالَ: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ

---

(١) موضوع: تقدم.
(٢) في (ز): [السلماني].
(٣) ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني (١٢/ ٢٣٩)، وأبو داود (٥٠٧٦)، وقال الألباني ضعيف جدًا: انظر «ضعيف سنن أبي داود».

ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾. وَقَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدَّالَّة عَلَى عَظَمَته وَكَمَال قُدْرَته أَنَّهُ خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَم مِنْ تُرَاب، ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾، فَأَصْلكُمْ مِنْ تُرَاب، ثُمَّ مِنْ مَاء مَهِين، ثُمَّ تَصَوَّرَ فَكَانَ عَلَقَة، ثُمَّ مُضْغَة، ثُمَّ صَارَ عِظَامًا مشكَّلة عَلَى شَكْل الإِنْسَان، ثُمَّ كَسَا الله تِلْكَ العِظَام لَحْمًا، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوح، فَإِذَا هُوَ سَمِيع بَصِير، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَطْن أُمّه صَغِيرًا ضَعِيف القُوَى وَالحَرَكَة، ثُمَّ كُلَّمَا طَال عُمُره تَكَامَلتْ قُوَاهُ وَحَرَكَاته، حَتَّى آل بِهِ الحَال إِلَى أَنْ صَارَ يَبْنِي المَدَائِن وَالحُصُون، وَيُسَافِر فِي أَقْطَار الأَقَالِيم، وَيَرْكَب مَتْن البُحُور، وَيَدُور أَقْطَار الأَرْض، وَيَكْتَسِب وَيَجْمَع الأَمْوَال، وَلهُ فِكْرَة وَغَوْر، وَدَهَاء وَمَكْر، وَرَأْي وَعِلم، وَاتِّسَاع فِي أُمُور الدُّنْيَا وَالآخِرَة كُلّ بِحَسَبِهِ. فَسُبْحَان مَنْ أَقْدَرَهُمْ وَسَيَّرَهُمْ وَسَخَّرَهُمْ وَصَرَّفَهُمْ فِي فُنُون المَعَايِش وَالمَكَاسِب، وَفَاوَتَ بَيْنَهمْ فِي العُلُوم وَالفِكْرَة وَالحُسْن وَالقُبْح، وَالغِنَى وَالفَقْر، وَالسَّعَادَة وَالشَّقَاء، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد وَغُنْدَر قَالا: حَدَّثَنَا عَوْف، عَنْ قَسَامَة بْن زُهَيْر، عَنْ أَبِي مُوسَى قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ الله خَلَقَ آدَم مِنْ قَبْضَة قَبَضَهَا مِنْ جَمِيع الأَرْض، فَجَاءَ بَنُو آدَم عَلَى قَدْر الأَرْض جَاءَ مِنْهُمْ الأَبْيَض وَالأَحْمَر وَالأَسْوَد وَبَيْن ذَلِكَ، وَالخَبِيث وَالطَّيِّب، وَالسَّهْل وَالحَزْن، وَبَيْن ذَلِكَ**».[1] وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ طُرُق، عَنْ عَوْف الأَعْرَابِيّ، بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن صَحِيح.

وَقَوْله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أَيْ: خَلَقَ لَكُمْ مِنْ جِنْسكُمْ إِنَاثًا يَكُنَّ لَكُمْ أَزْوَاجًا، ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾، يَعْنِي بِذَلِكَ حَوَّاء خَلَقَهَا الله مِنْ آدَم مِنْ ضِلعه الأَقْصَر الأَيْسَر. وَلَوْ أَنَّهُ جَعَل بَنِي آدَم كُلّهمْ ذُكُورًا، وَجَعَل إِنَاثهمْ مِنْ جِنْس آخَر، إِمَّا مِنْ جَانّ أَوْ حَيَوَان لَمَا حَصَل هَذَا الائْتِلاف بَيْنهمْ وَبَيْن الأَزْوَاج، بَل كَانَتْ تَحْصُل نُفْرَة وَلوْ كَانَتْ الأَزْوَاج مِنْ غَيْر الجِنْس، ثُمَّ مِنْ تَمَام رَحْمَته بِبَنِي آدَم أَنْ جَعَل أَزْوَاجهمْ مِنْ جِنْسهمْ، وَجَعَل بَيْنهمْ وَبَيْنهنَّ مَوَدَّة: وَهِيَ المَحَبَّة، وَرَحْمَة: وَهِيَ الرَّأْفَة، فَإِنَّ الرَّجُل يُمْسِك المَرْأَة إِمَّا لمَحَبَّتِهِ لهَا أَوْ لرَحْمَةٍ بِهَا، بِأَنْ يَكُون لهَا مِنْهُ وَلد، أَوْ مُحْتَاجَة إِليْهِ فِي الإِنْفَاق، أَوْ للأُلْفَةِ بَيْنهمَا وَغَيْر ذَلِكَ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

يَقُول تَعَالَى: وَمِنْ آيَات قُدْرَته العَظِيمَة ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: خَلق السَّمَاوَات فِي ارْتِفَاعهَا وَاتِّسَاعهَا، وشفوف أَجْرَامهَا، وَزَهَارَة كَوَاكِبهَا وَنُجُومهَا الثَّوَابِت وَالسَّيَّارَات، والأَرْض فِي انْخِفَاضهَا وَكَثَافَتهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَال وَأَوْدِيَة وَبِحَار وَقِفَار، وَحَيَوَان وَأَشْجَار. وَقَوْله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يَعْنِي: اللُّغَات، فَهَؤُلاءِ بِلُغَةِ العَرَب، وَهَؤُلاءِ تَتَر لهُمْ لُغَة أُخْرَى، وَهَؤُلاءِ كرج، وَهَؤُلاءِ رُوم، وَهَؤُلاءِ إِفْرِنْج، وَهَؤُلاءِ

---

(١) صحيح: تقدم.

بَرْبَر، وَهَؤُلاءِ تكرور، وَهَؤُلاءِ حَبَشَة، وَهَؤُلاءِ هُنُود، وَهَؤُلاءِ عَجَم، وَهَؤُلاءِ صَقَالِبَة، وَهَؤُلاءِ خزر، وَهَؤُلاءِ أَرْمَن، وَهَؤُلاءِ أَكْرَاد، إِلى غَيْر ذَلكَ مِمَّا لا يَعْلمهُ إِلَّا الله تَعَالى مِنْ اخْتِلاف لُغَات بَنِي آدَم، وَاخْتِلاف أَلْوَانهم وَهِيَ حُلاهُمْ، فَجَمِيع أَهْل الأَرْض -بَل أَهْل الدُّنْيَا- مُنْذُ خَلقَ الله آدَم إِلى قِيَام السَّاعَة: كُلّ لهُ عَيْنَانِ وَحَاجِبَانِ، وَأَنْف وَجَبِين، وَفَم وَخَدَّانِ. وَليْسَ يُشْبِه وَاحِد مِنْهُمْ الآخَر، بَل لا بُدّ أَنْ يُفَارِقهُ بِشَيْءٍ مِنَ السَّمْت أَوْ الهَيْئَة أَوْ الكَلام، ظَاهِرًا كَانَ أَوْ خَفِيًّا، يَظْهَرُ عِنْد التَّأَمُّل، كُلُّ وَجْه مِنْهُمْ أُسْلُوب بِذَاتِهِ، وَهَيْئَة لا تُشْبِه أُخْرَى. وَلوْ تَوَافَقَ جَمَاعَة فِي صِفَة مِنْ جَمَال أَوْ قُبح لابُدّ مِنْ فَارِق بَيْن كُلّ وَاحِد مِنْهُمْ وَبَيْن الآخَر، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾، أَيْ: وَمِنْ الآيَات مَا جَعَل لكم مِنْ صِفَة النوم فِي اللَّيْل وَالنَّهار، فَبِهِ تَحْصُل الرَّاحَة وَسُكُون الحَرَكَة، وَذَهَاب الكَلال وَالتَّعَب، وَجَعَل لكُمْ الانْتِشَار وَالسَّعْي فِي الأَسْبَاب وَالأَسْفَار فِي النَّهار وَهَذَا ضِدّ النَّوْم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أَيْ: يَعُونَ.

قَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن عِمْرَان السَّدُوسِيّ، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن الحُصَيْن العُقَيْلِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن عُلاثَة، حدَّثني ثَوْر بْن يَزِيد، عَنْ خَالد بْن مَعْدَان، سَمِعْت عَبْد المَلك بْن مَرْوَان، يُحَدِّث عَنْ أَبِيهِ عَنْ زَيْد بْن ثَابِت ﷺ قَال: أَصَابَنِي أَرَق مِنْ اللَّيْل، فَشَكَوْت ذَلكَ إِلى رَسُول الله ﷺ فَقَال: **«قُل اللَّهُمَّ غَارَتْ النُّجُوم، وَهَدَأَتْ العُيُون، وَأَنْتَ حَيّ قَيُّوم، يَا حَيّ يَا قَيُّوم، أَنِمْ عَيْنِي وَأَهْدِئْ ليْلي»**[1]. فَقُلْتهَا، فَذَهَبَ عَنِّي.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾، الدَّالَّة عَلى عَظَمَته أَنَّهُ ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أَيْ: تَارَة تَخَافُونَ مِمَّا يَحْدُث بَعْده مِنْ أَمْطَار مُزْعِجَة، وَصَوَاعِق مُتْلفَة، وَتَارَة تَرْجُونَ وَمِيضه وَمَا يَأْتِي بَعْده مِنْ المَطَر المُحْتَاج إِليْهِ، وَلهَذَا قَال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، أَيْ: بَعْدَمَا كَانَتْ هَامِدَة لا نَبَات فِيهَا وَلا شَيْء، فَلَمَّا جَاءَهَا المَاء ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾. وَفِي ذَلكَ عِبْرَة وَدَلالة وَاضِحَة عَلى المَعَاد وَقِيَام السَّاعَة، وَلهَذَا قَال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ثم قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾، كَقَوْلهِ: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وَقَوْله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾.

وَكَانَ عُمَر بْن الخَطَّاب ﷺ إِذَا اجْتَهَدَ فِي اليَمِين يقول: «لا، وَالَّذِي تَقُوم السَّمَاء وَالأَرْض بِأَمْرِهِ». أَيْ: هِيَ قَائِمَة ثَابِتَة بِأَمْرِهِ لهَا وَتَسْخِيره إِيَّاهَا، ثُمَّ إِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة بُدِّلتْ الأَرْض غَيْر الأَرْض وَالسَّماوَات وَخَرَجَتْ الأَمْوَات مِنْ قُبُورهَا أَحْيَاء بِأَمْرِهِ تَعَالى وَدُعَائِهِ إِيَّاهُمْ. وَلهَذَا قَال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾، وَقَال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: مِلكُهُ وَعَبِيدُهُ، ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾، أَيْ: خَاضِعُونَ

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني (٥/ ١٢٤)، وفيه عمرو بن الحصين: متروك، ومحمد بن علاثة: فيه ضعف. وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٣٢٨).

خَاشِعُونَ طَوْعًا وَكَرْهًا. وَفِي حَدِيث دَرَّاج عَنْ أَبِي الهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد مَرْفُوعًا: «كُلّ حَرْف فِي القُرْآن يُذْكَر فِيهِ القُنُوت فَهُوَ الطَّاعَة»[1]. وقَوْله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، قَال علي بن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي أَيْسَر عَلَيْهِ. وَقَال مُجَاهِد: الإِعَادَة أَهْوَن عَلَيْهِ مِنْ البَدَاءَة، وَالبَدَاءَة عَلَيْهِ هَيِّنَ. وَكَذَا قَال عِكْرِمَة وَغَيْره. وقال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَان، أَخْبَرَنَا شُعَيْب، أَخْبَرَنَا أَبُو الزِّنَاد، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ عن النبي ﷺ قَال: «**قال الله: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَم وَلَمْ يَكُنْ لهُ ذَلكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ له ذَلكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبه إِيَّايَ فَقَوْله: لنْ يُعِيدنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَليْسَ أَوَّل الخَلق بِأَهْوَنَ عَليَّ مِنْ إِعَادَته. وَأَمَّا شَتْمه إِيَّايَ فَقَوْله: اتَّخَذَ الله وَلدًا، وَأَنَا الأَحَد الصَّمَد، الَّذِي لمْ يَلد وَلمْ يُولد، وَلمْ يَكُنْ له كُفُوًا أَحَد**»[2]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ البُخَارِيّ، كَمَا انْفَرَدَ بِرِوَايَتِهِ أَيْضًا مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ هَمَّام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة بِهِ. وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد مُنْفَرِدًا بِهِ عَنْ [حَسَن][3] ابْن مُوسَى، عَنْ ابْن لَهِيعَة، حَدَّثَنَا أَبُو يُونُس سُليْم بْن جُبَيْر عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِنَحْوِهِ أَوْ مِثْله.

وَقَال آخَرُونَ: كِلاهُمَا بِالنِّسْبَةِ إِلى القُدْرَة عَلى السَّوَاء. وَقَال العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس: كُلّ عَليْهِ هَيِّن. وَكَذَا قَالهُ الرَّبِيع بْن خُثَيْم. وَمَال إِليْهِ ابْن جَرِير، وَذَكَرَ عَليْهِ شَوَاهِد كَثِيرَة، قَال: وَيَحْتَمِل أَنْ يَعُود الضَّمِير فِي قَوْله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ إِلى الخَلق، أَيْ: وَهُوَ أَهْوَن عَلى الخَلق. وَقَوْله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قَال عَليّ ابْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: كَقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾. وَقَال قَتَادَة: مِثْلهُ أَنَّهُ لا إِله إِلَّا هُوَ، وَلا رَبّ غَيْره، وَقَال مِثْل هَذَا ابْن جَرِير. وَقَدْ أَنْشَدَ بَعْض المُفَسِّرِينَ عِنْد ذِكْر هَذِهِ الآيَة لبَعْضِ أَهْل المَعَارِف:

إِذَا سَكَنَ الغَدِير عَلى صَفَاء ❁ وَجُنِّبَ أَنْ يُحَرِّكَهُ النَّسِيم

تَرَى فِيهِ السَّمَاء بِلا امْتِرَاء ❁ كَذَاك الشَّمْس تَبْدُو وَالنُّجُوم

كَذَاك قُلُوب أَرْبَاب التَّجَلِّي ❁ يُرَى فِي صَفْوهَا الله العَظِيم

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الَّذِي لا يُغَالب وَلا يُمَانَع، بَل قَدْ غَلبَ كُلّ شَيْء، وَقَهَرَ كُلّ شَيْء بِقُدْرَتِهِ وَسُلطَانه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي أَقْوَاله وَأَفْعَاله شَرْعًا وَقَدَرًا. وَعَنْ مَالك فِي «تَفْسِيره» المَرْوِيّ عَنْهُ، عَنْ مُحَمَّد بْن المُنْكَدِر فِي قَوْله تَعَالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، قَال: لا إِله إِلَّا الله.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

هَذَا مَثَل ضَرَبَهُ الله تَعَالى للمُشْرِكِينَ بِهِ، العَابِدِينَ مَعَهُ غَيْره، الجَاعِلِينَ لهُ شُرَكَاء، وَهُمْ مَعَ ذَلكَ مُعْتَرِفُونَ أَنَّ شُرَكَاءَهُ مِنْ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد عَبِيد لهُ مِلك لهُ، كَمَا كَانُوا فِي تلبيتهم يَقُولُونَ: لبَّيْكَ لا شَرِيك لك، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لك، تَمْلكهُ وَمَا مَلكَ. فَقَال تَعَالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أَيْ: تَشْهَدُونَهُ وَتَفْهَمُونَهُ مِنْ أَنْفُسكُمْ: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾، أَيْ: لا يَرْتَضِي أَحَد منكُمْ أَنْ يَكُون عَبْده شَرِيكًا لهُ فِي مَاله، فَهُوَ وَهُوَ فِيهِ عَلى السَّوَاء ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أَيْ: تَخَافُونَ أَنْ يُقَاسِمُوكُمْ الأَمْوَال. قَال أَبُو مِجْلز: إِنَّ مَمْلُوكك لا تَخَاف أَنْ يُقَاسِمك مَالك وَليْسَ لهُ ذَاكَ، كَذَلكَ الله لا شَرِيك لهُ. وَالمَعْنَى أَنَّ أَحَدكُمْ يَأْنَف مِنْ ذَلكَ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لله الأَنْدَاد مِنْ خَلقه؟ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٧٥)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤١٠٥).

(٢) صحيح: تقدم.

(٣) في (ز): [الحسين].

أَيْ: مِنْ البَنَات، حَيْثُ جَعَلُوا المَلَائِكَة الَّذِينَ هُمْ عِبَاد الرَّحْمَن إِنَاثًا، وَجَعَلُوهَا بَنَات الله، وَقَدْ كَانَ أَحَدهمْ إِذَا بُشِّرَ ﴿بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾؟ فَهُمْ يَأْنَفُونَ مِنْ البَنَات، وَجَعَلُوا المَلَائِكَة بَنَات الله، فَنَسَبُوا إِلَيْهِ مَا لا يَرْتَضُونَهُ لأَنْفُسِهِمْ، فَهَذَا أَغْلَظ الكُفْر. وَهَكَذَا فِي هَذَا المَقَام جَعَلُوا لهُ شُرَكَاء مِنْ عَبِيده وَخَلقه، وَأَحَدهمْ يَأْبَى غَايَة الإِبَاء وَيَأْنَف غَايَة الأَنَفَة مِنْ ذَلكَ، أَنْ يَكُون عَبْده شَرِيكه فِي مَاله، يُسَاوِيه فِيهِ، وَلَوْ شَاءَ لقَاسَمَهُ عَلَيْهِ، تَعَالى الله عَنْ ذَلكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

قَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مَحْمُود بْن الفَرَج الأَصْبَهَانِيّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَمْرو البَجَلِيّ، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن شُعَيْب، عَنْ حَبِيب بْن أَبِي ثَابِت، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كَانَ يُلَبِّي أَهْل الشِّرْك: لبَّيْكَ اللَّهُمَّ، لبَّيْكَ لا شَرِيك لك، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لك، تَمْلكهُ وَمَا مَلكَ. فَأَنْزَل الله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾[1] وَلمَّا كَانَ التَّنْبِيه بِمِثْل هَذَا المَثَل عَلى بَرَاءَته تَعَالى -وَنَزَاهَته بِطَرِيقِ الأُولى وَالأُخْرَى- قَال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. ثم قَال تَعَالى مُبَيِّنًا أَنَّ المُشْرِكِينَ إِنَّمَا عَبَدُوا غَيْره سَفَهًا مِنْ أَنْفُسهمْ وَجَهْلًا: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾، أَيْ: المُشْرِكُونَ ﴿أَهْوَآءَهُم﴾، أَيْ: فِي عِبَادَتهمْ الأَنْدَاد بِغَيْرِ عِلم ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ﴾، أَيْ: فَلا أَحَد يَهْدِيهِمْ إِذَا كَتَبَ الله ضَلالهمْ، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، أَيْ: ليْسَ لهُمْ عن ذلك مُنْقِذ وَلا مُجِير، وَلا مَحِيد لهُمْ عَنْهُ، لأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لمْ يَشَأْ لمْ يَكُنْ.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى: فَسَدِّدْ وَجْهك وَاسْتَمِرَّ عَلى الدِّين الَّذِي شَرَعَهُ الله لك مِنْ الحَنِيفِيَّة مِلَّة إِبْرَاهِيم، الَّذِي هَدَاكَ الله لهَا، وَكَمَّلهَا لك غَايَة الكَمَال، وَأَنْتَ مَعَ ذَلكَ لازِم فِطْرَتك السَّلِيمَة، الَّتِي فَطَرَ الله الخَلق عَليْهَا، فَإِنَّهُ تَعَالى فَطَرَ خَلقه عَلى مَعْرِفَته وَتَوْحِيده، وَأَنَّهُ لا إِله غَيْره، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْد قَوْله تَعَالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾، وَفِي الحَدِيث: «إِنِّي خَلقْتُ عِبَادِي حُنَفَاء، فَاجْتَالتْهُمْ الشَّيَاطِين عَنْ دِينهمْ»[2]. وَسَنَذْكُرُ فِي الأَحَادِيث أَنَّ الله -تَعَالى- فَطَرَ خَلقه عَلى الإِسْلام، ثُمَّ طَرَأَ عَلى بَعْضهمْ الأَدْيَان الفَاسِدَة كَاليَهُودِيَّة أو النَّصْرَانِيَّة أو المَجُوسِيَّة.

وَقَوْله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾، قَال بَعْضهمْ: مَعْنَاهُ لا تُبَدِّلُوا خَلق الله، فَتُغَيِّرُوا النَّاس عَنْ فِطْرَتهمْ الَّتِي فَطَرَهُمْ الله عَليْهَا. فَيَكُون خَبَرًا بِمَعْنَى الطَّلب، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ وَهُوَ مَعْنَى حَسَن صَحِيح. وَقَال آخَرُونَ: هُوَ خَبَر عَلى بَابه، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ -تَعَالى- سَاوَى بَيْن خَلقه، كُلّهمْ فِي الفِطْرَة عَلى الجِبِلَّة المُسْتَقِيمَة، لا يُولد أَحَد إِلَّا عَلى ذَلكَ، وَلا تَفَاوُت بَيْن النَّاس فِي ذَلكَ. وَلهَذَا قَال ابْن عَبَّاس، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَقَتَادَة، وَالضَّحَّاك، وَابْن زَيْد فِي قَوْله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾، أَيْ: لدِينِ الله. وَقَال البُخَارِيّ: قَوْله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾: لدِينِ الله، خُلُق الأَوَّلينَ: دِين الأَوَّلينَ، وَالفِطْرَة: الإِسْلام.

حَدَّثَنَا عَبْدَان، أَخْبَرَنَا عَبْد الله، أَخْبَرَنَا يُونُس، عَنْ الزُّهْرِيّ، أَخْبَرَنِي أَبُو سَلمَة ابْن عَبْد الرَّحْمَن: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُود يُولد إلاَّ عَلى الفِطْرَة، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِه، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَج البَهِيمَة بَهِيمَة جَمْعَاء، هَل تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاء؟». ثُمَّ يَقُول: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني (١٢/ ٢٠)، وفيه حماد بن شعيب: ضعيف.
(٢) صحيح: تقـدم.

تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾»[١]. وَرَوَاهُ مُسْلم مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن وَهْب، عَنْ يُونُس بْن يَزِيد الأَيْلِيّ، عَنْ الزُّهْرِيّ بِهِ. وَأَخْرَجَاهُ أَيْضًا مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر عَنْ هَمَّام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ عَنْ النَّبِيّ ﷺ. وَفِي مَعْنَى هَذَا الحَدِيث قَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيث عَنْ جَمَاعَة مِنْ الصَّحَابَة.

فَمِنْهُمْ الأَسْوَد بْن سَرِيع التَّمِيمِيّ: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا يُونُس عَنْ الحَسَن، عَنْ الأَسْوَد ابْن سَرِيع قَال: أَتَيْت رَسُول الله ﷺ وَغَزَوْت مَعَهُ، فَأَصَبْت ظَفَرًا، فَقَاتَل النَّاس يَوْمئِذٍ، حَتَّى قَتَلُوا الوِلْدَان. فَبَلَغَ ذَلكَ رَسُول الله ﷺ فَقَال: **«مَا بَالُ أَقْوَام جَاوَزَهُمْ القَتْل اليَوْم حَتَّى قَتَلُوا الذُّرِّيَّة؟»**. فَقَال رَجُل: يَا رَسُول الله، إنما هُمْ أَبْنَاء المُشْرِكِينَ؟ فَقَال: **«أَلا إِنَّمَا خِيَارُكُمْ أَبْنَاء المُشْرِكِينَ»**. ثُمَّ قَال: **«لا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّة، لا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّة»**. وَقَال: **«كُلّ نَسَمَة تُولد عَلَى الفِطْرَة، حَتَّى يُعْرِب عَنْهَا لسَانهَا، فَأَبَوَاهَا يُهَوِّدَانِهَا أَوْ يُنَصِّرَانِهَا»**[٢]. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي كِتَاب السِّيَر، عَنْ زِيَاد بْن أَيُّوب، عَنْ هُشَيْم، عَنْ يُونُس -وَهُوَ ابْن عُبَيْد- عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ بِهِ.

وَمِنْهُمْ جَابِر بْن عَبْد الله الأَنْصَارِيّ: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هَاشِم، حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَر، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس عَنْ الحَسَن، عَنْ جَابِر بن عَبْد الله قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«كُلّ مَوْلُود يُولد عَلَى الفِطْرَة، حَتَّى يُعْرِب عَنْهُ لسَانه، فَإِذَا عَبَّرَ عَنْهُ لسَانه إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا»**.[٣]

وَمِنْهُمْ عَبْد الله بْن عَبَّاس الهَاشِمِيّ: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَة، حَدَّثَنَا أَبُو بِشْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما أَنَّ رَسُول الله ﷺ سُئِل عَنْ أَوْلاد المُشْرِكِينَ، فَقَال: **«الله أَعْلم بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ إِذْ خَلَقَهُمْ»**[١]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، مِنْ حَدِيث أَبِي بِشْر جَعْفَر بْن إِيَاس اليَشْكُرِيّ، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس مَرْفُوعًا كَذَلكَ. وَقَدْ قَال أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا حَمَّاد -يَعْنِي: ابْن سَلمَة- أَنْبَأَنَا عَمَّار بن أَبِي عَمَّار، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: أَتَى عَلَيَّ زَمَان وَأَنَا أَقُول: أَوْلاد المُسْلِمِينَ مَعَ المُسْلِمِينَ، وَأَوْلاد المُشْرِكِينَ مَعَ المُشْرِكِينَ. حَتَّى حَدَّثَنِي فُلان عَنْ فُلان، أَنَّ رَسُول الله ﷺ سُئِل عنهم فَقَال: **«الله أَعْلم بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ»**. قَال: فَلَقِيت الرَّجُل فَأَخْبَرَنِي، فَأَمْسَكْت عَنْ قَوْلِي.

وَمِنْهُمْ عِيَاض بْن حِمَار المُجَاشِعِيّ: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا هِشَام، حدثنا قَتَادَة، عَنْ مُطَرِّف، عَنْ عِيَاض بْن حِمَار أَنَّ رَسُول الله ﷺ خَطَبَ ذَات يَوْم، فَقَال فِي خُطْبَته: **«إِنَّ رَبِّي عز وجل أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا: كُلّ مَال نَحَلته عِبَادِي حَلال، وَإِنِّي خَلَقْت عِبَادِي حُنَفَاء كُلّهمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِين فَأَضَلَّتْهُمْ عَنْ دِينهمْ، وَحَرَّمَتْ عَليْهِمْ مَا أَحْللت لهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لمْ أُنَزِّل بِهِ سُلطَانًا، ثُمَّ إِنَّ الله عز وجل نَظَرَ إِلى أَهْل الأَرْض فَمَقَتَهُمْ، عَرَبِهمْ وَعَجَمهمْ، إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْل الكِتَاب، وَقَال: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِي بِكَ، وَأَنْزَلتْ عَليْكَ كِتَابًا لا يَغْسِلهُ المَاء تَقْرَؤُهُ نَائِمًا ويقظان. ثُمَّ إِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّق قُرَيْشًا، فقلت: يا رَبّ؛ إِذًا يَثْلغُوا رَأسِي فيَدَعُوهُ خُبْزَة. فقَال: اسْتَخْرِجْهُمْ كمَا اسْتَخْرَجُوك، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ عليهم فَسَنُنْفِقُ عَليْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَث خَمْسَة مِثْله، وَقَاتِل بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاك. قَال: وَأَهْل الجَنَّة ثَلاثَة: ذُو سُلطَان مُقْسِط مُتَصَدِّق مُوَفَّق، وَرَجُل رَحِيم رَقِيق القَلب لكُلّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلم، وَرَجُل عَفِيف فقير متصدق. وَأَهْل النَّار خَمْسَة: الضَّعِيف الَّذِي لا زَبْرَ لهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَع، لا يَبْتَغُونَ أَهْلاً وَلا**

---

(١) صحيح : تقـدم.
(٢) صحيح : أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٠٢).
(٣) صحيح لغيره : أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٣).

مَالاً، وَالخَائِن الَّذِي لا يَخْفَى لهُ طَمَع وَإنْ دَقَّ إلاّ خَانَهُ، وَرَجُل لا يُصْبِح وَلا يُمْسِي إلاّ وَهُوَ يُخَادِعك عَنْ أَهْلك وَمَالك»[1]. وَذَكَرَ البخل والكذب وَالشِّنْظِير الفاحش. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلم فَرَوَاهُ مِنْ طُرُق عَنْ قَتَادَة بِهِ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، أَيْ: التَّمَسُّك بِالشَّرِيعَةِ وَالفِطْرَة السَّلِيمَة هُوَ الدِّين القويم المُسْتَقِيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أَيْ: ولهَذَا لا يَعْرِفهُ أَكْثَر النَّاس فَهُمْ عَنْهُ نَاكِبُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

وقَوْله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾، قَال ابْن زَيْد وَابْن جُرَيْج: أَيْ رَاجِعِينَ إِليْهِ، ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، أَيْ: خَافُوهُ وَرَاقِبُوهُ ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وَهِيَ الطَّاعَة العَظِيمَة، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أَيْ: بَل مِنْ المُوَحِّدِينَ المُخْلِصِينَ لهُ العِبَادَة، لا يُرِيدُونَ بِهَا سِوَاهُ.

قَال ابْن جَرِير: حدثنا ابن حميد حدثنا يَحْيَى بْن وَاضِح، حَدَّثَنَا يُونُس بن أبي إِسْحَاق، عَنْ يَزِيد بْن أَبِي مَرْيَم، قَال: مَرَّ عُمَر ﷺ بِمُعَاذِ بْن جَبَل فَقَال: مَا قِوَام هَذِهِ الأُمَّة؟ قَال مُعَاذ: ثَلاث، وَهُنَّ المُنْجِيَات: الإِخْلاص، وَهِيَ الفِطْرَة فِطْرَة الله الَّتِي فَطَرَ النَّاس عَليْهَا، وَالصَّلاة وَهِيَ المِلَّة، وَالطَّاعَة وَهِيَ العِصْمَة. فَقَال عُمَر: صَدَقْت. حَدَّثَنِي يَعْقُوب، حَدَّثَنَا ابْن عُليَّة، حَدَّثَنَا أَيُّوب، عَنْ أَبِي قِلابَة: أَنَّ عُمَر ﷺ قَال لمُعَاذ: مَا قِوَام هَذَا الأَمْر؟ فَذَكَرَ نَحْوه.

وَقَوْله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، أَيْ: لا تَكُونُوا مِنْ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَدْ فَرَّقُوا دِينهمْ، أَيْ: بَدَّلُوهُ وَغَيَّرُوهُ، وَآمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ. وَقَرَأَ بَعْضهمْ: (فَارَقُوا دِينهمْ) أَيْ: تَرَكُوهُ وَرَاء ظُهُورهمْ، وَهَؤُلاءِ كَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالمَجُوس وَعَبَدَة الأَوْثَان، وَسَائِر أَهْل الأَدْيَان البَاطِلة، مِمَّا عَدَا أَهْل الإِسْلام، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾. فَأَهْل الأَدْيَان قَبْلنَا اخْتَلفُوا فِيمَا بَيْنهمْ عَلى آرَاء وملل بَاطِلة، وَكُلّ فِرْقَة مِنْهُمْ تَزْعُم أَنَّهُمْ عَلى شَيْء، وَهَذِهِ الأُمَّة أَيْضًا اخْتَلفُوا فِيمَا بَيْنهمْ عَلى نِحَل كُلّهَا ضَلالة إِلَّا وَاحِدَة، وَهُمْ أَهْل السُّنَّة وَالجَمَاعَة المُتَمَسِّكُونَ بِكِتَاب الله وَسُنَّة رَسُوله ﷺ، وَبِمَا كَانَ عَليْهِ الصَّدْر الأَوَّل مِنْ الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّة المُسْلِمِينَ فِي قَدِيم الدَّهْر وَحَدِيثه، كَمَا رَوَاهُ الحَاكِم فِي «مُسْتَدْرَكه» أَنَّهُ سُئِل عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ الفِرْقَة النَّاجِيَة مِنْهُمْ، فَقَال: **«مَا أَنَا عَليْهِ وَأَصْحَابِي»**.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ النَّاس، أَنَّهُمْ فِي حَال الاضْطِرَار يَدْعُونَ الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَأَنَّهُ إِذَا أَسْبَغَ عَليْهِمْ النِّعَم إِذَا فَرِيق مِنْهُمْ فِي حَالة الاخْتِيَار يُشْرِكُونَ بِالله، وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْره. وقَوْله: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾، هِيَ «لام العَاقِبَة» عِنْد بَعْضهمْ، وَ«لام التَّعْليل» عِنْد آخَرِينَ، وَلكِنَّهَا تَعْليل لتَقْيِيضِ الله لهُمْ ذَلكَ. ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، قَال بَعْضهمْ: وَالله لوْ تَوَعَّدَنِي حَارِس دَرْب لخِفْت مِنْهُ، فَكَيْف وَالمُتَوَعِّد هاهنا هُوَ الَّذِي يَقُول للشَّيْء: كُنْ فَيَكُون. ثُمَّ قَال تَعَالى مُنْكِرًا عَلى المُشْرِكِينَ فِيمَا اختلفوه مِنْ عِبَادَة الأوثان بِلا دَليل وَلا حُجَّة وَلا بُرْهَان: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ أَيْ: حُجَّة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ أَيْ: يَنْطِق ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ وَهَذَا اسْتِفْهَام إِنْكَار، أَيْ: لمْ يَكُنْ لهُمْ شَيْء مِنْ ذَلكَ.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢).

ثم قَال: ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴾، هَذَا إِنْكَار عَلى الإِنْسَان مِنْ حَيْثُ هُوَ، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ الله وَوَفَّقَهُ؛ فَإِنَّ الإِنْسَان إِذَا أَصَابَتْهُ نِعْمَة بَطِرَ. وَقَال: ﴿ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴾، أَيْ: يَفْرَح فِي نَفْسه وَيَفْخَر عَلى غَيْره، وَإِذَا أصابته شِدَّة قَنِطَ، وَأَيِسَ أَنْ يَحْصُل لهُ بَعْد ذَلكَ خَيْر بِالكُلِّيَّةِ، قَال الله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، أَيْ: صَبَرُوا فِي الضَّرَّاء، وَعَمِلُوا الصَّالحَات فِي الرَّخَاء، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيح: «عَجَبًا للمُؤْمِنِ، لا يَقْضِي الله لهُ قَضَاء إلاَّ كَانَ خَيْرًا له، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاء شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا له، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاء صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لهُ»[1]. وقَوْله تَعَالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ ﴾، أَيْ: هُوَ المُتَصَرِّف الفَاعِل لذَلكَ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْله، فَيُوَسِّع عَلى قَوْم وَيُضَيِّق عَلى آخَرِينَ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾.

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾.

يَقُول تَعَالى آمِرًا بِإِعْطَاءِ ذي ﴿ ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾، أَيْ: مِنْ البِرّ وَالصِّلة، ﴿ وَٱلۡمِسۡكِينَ ﴾، وَهُوَ: الَّذِي لا شَيْء لهُ يُنْفَق عَليْهِ، أَوْ لهُ شَيْء لا يَقُوم بِكِفَايَتِهِ، ﴿ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ﴾، وَهُوَ المُسَافِر المُحْتَاج إِلى نَفَقَة، وَمَا يَحْتَاج إِليْهِ فِي سَفَره، ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ ﴾، أَيْ: النَّظَر إِليْهِ يَوْم القِيَامَة، وَهُوَ الغَايَة القُصْوَى، ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾، أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. ثم قَال: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ ﴾، أَيْ: مَنْ أَعْطَى عَطِيَّة يُرِيد أَنْ يَرُدّ عَليْهِ النَّاس أَكْثَر مِمَّا أَهْدَى لهُمْ فَهَذَا لا ثَوَاب لهُ عِنْد الله. بِهَذَا فَسَّرَهُ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَعِكْرِمَة، وَمُحَمَّد بْن كَعْب، وَالشَّعْبِيّ. وَهَذَا الصَّنِيع مُبَاح، وَإِنْ كَانَ لا ثَوَاب فِيهِ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ رَسُول الله ﷺ خَاصَّة، قَالهُ الضَّحَّاك، وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ﴾، أَيْ: لا تُعْطِ العَطَاء تُرِيد أَكْثَر مِنْهُ.

وَقَال ابْن عَبَّاس: الرِّبَا [رِبَاءَانِ][2]، فَرِبًا لا يَصِحّ -يَعْنِي: رِبَا البَيْع- وَرِبًا لا بَأْس بِهِ، وَهُوَ هَدِيَّة الرَّجُل يُرِيد فَضْلهَا وَأَضْعَافهَا. ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ ﴾.

وإنما الثواب عند الله فِي الزكاة، ولهذا قال: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴾. أَيْ: الَّذِينَ يُضَاعِف الله لهُمْ الثَّوَاب وَالجَزَاء، كَمَا جَاءَ فِي «الصَّحِيح»: «وَمَا تَصَدَّقَ أَحَد بِعِدْل تَمْرَة مِنْ كَسْب طَيِّب إلاَّ أَخَذَهَا الرَّحْمَن بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا لصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيله، حَتَّى تَصِير التَّمْرَة أَعْظَم مِنْ أُحُد»[1].

وقَوْله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ﴾، أَيْ: هُوَ الخَالق الرزاق، يُخْرِج الإِنْسَان مِنْ بَطْن أُمّه عُرْيَانًا، لا عِلم لهُ، وَلا سَمْع، وَلا بَصَر، وَلا قُوة، ثُمَّ يَرْزُقهُ جَمِيع ذَلكَ بَعْد ذَلكَ، وَالرِّيَاش وَاللِّبَاس وَالمَال وَالأَمْلاك وَالمَكَاسِب. كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ سَلَّام أَبِي شُرَحْبِيل، عَنْ حَبَّة وَسَوَاء ابْنَيْ خَالد قَالا: دَخَلنَا عَلى النَّبِيّ ﷺ وَهُوَ يُصْلح شَيْئًا فَأَعَنَّاهُ، فَقَال: «لا تَيْأَسَا مِنْ الرِّزْق مَا تَهَزَّزَت رُءُوسُكُمَا؛ فَإِنَّ الإِنْسَان تَلدهُ أُمّه أَحْمَر ليْسَ عَليْهِ قِشْرَة ثُمَّ يَرْزُقهُ الله ﷻ»[3].

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) في (ز): [ربان].
(٣) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٩)، وفيه سلام بن شرحبيل: مقبول، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٢٩٥).

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، أَيْ: بَعْد هَذِهِ الحَيَاة، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أَيْ: يَوْم القِيَامَة.

وَقَوْله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾، أَيْ: الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُون الله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾؟ أَيْ: لا يَقْدِر أَحَد مِنْهُمْ عَلى فِعْل شَيْء مِنْ ذَلكَ، بَل الله -سُبْحَانه وَتَعَالى- هُوَ المُسْتَقِلّ بِالخَلق وَالرِّزْق، وَالإِحْيَاء وَالإِمَاتَة، ثُمَّ يَبْعَث الخَلائِق يَوْم القِيَامَة. وَلهَذَا قَال بَعْد هَذَا كُلّه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أَيْ: تَعَالى وَتَقَدَّس وَتَنَزَّه وَتَعَاظَمَ وَجَلَّ وَعَزَّ عَنْ أَنْ يَكُون لهُ شَرِيك أَوْ نَظِير أَوْ مُسَاوٍ، أَوْ وَلد أَوْ وَالد. بَل هُوَ الأَحَد الفَرْد الصَّمَد الَّذِي لمْ يَلد وَلمْ يُولد، وَلمْ يَكُنْ لهُ كُفُوًا أَحَد.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

قَال ابْن عَبَّاس، وَعِكْرِمَة، وَالضَّحَّاك، وَالسُّدِّيّ، وَغَيْرهمْ: المُرَاد بِالبَرِّ هَهُنَا: الفَيَافِي، وَبِالبَحْرِ: الأَمْصَار وَالقُرَى، وَفِي رِوَايَة عَنْ ابْن عَبَّاس وَعِكْرِمَة: البَحْر: الأَمْصَار وَالقُرَى، مَا كَانَ منها عَلى جَانِب نَهَر. وَقَال آخَرُونَ: بَل المُرَاد بِالبَرِّ، هُوَ البَرّ المَعْرُوف، وَبِالبَحْرِ، البَحْر المَعْرُوف. وَقَال زَيْد بْن رُفَيْع: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾، يَعْنِي: انْقِطَاع المَطَر عَنْ البَرّ يَعْقُبهُ القَحْط، وَعَنْ البَحْر [تعمى][1] دَوَابّه. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، وَقَال: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن يَزِيد بْن المُقْرِي، عَنْ سُفْيَان، عَنْ حُمَيْد بْن قَيْس الأَعْرَج عَنْ مُجَاهِد: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قَال: فَسَاد البَرّ قَتْل ابْن آدَم، وَفَسَاد البَحْر: أَخْذ السَّفِينَة غَصْبًا.

وَقَال عَطَاء الخُرَاسَانِيّ: المُرَاد بِالبَرِّ مَا فِيهِ مِنْ المَدَائِن وَالقُرَى، وَبِالبَحْرِ: جَزَائِره. وَالقَوْل الأَوَّل أَظْهَر، وَعَلَيْهِ الأَكْثَر، وَيُؤَيِّدهُ مَا ذكره مُحَمَّد بْن إِسْحَاق فِي «السِّيرَة»: أَنَّ رَسُول الله ﷺ وَصَالحَ مَلك أَيْلة، وَكَتَبَ له بِبَحْرِهِ يَعْنِي بِبَلدِهِ. وَمَعْنَى قَوْله تَعَالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾، أَيْ: بَانَ النَّقْص فِي الثمار وَالزُّرُوع بِسَبَبِ المَعَاصِي. وَقَال أَبُو العَالِيَة: مَنْ عَصَى الله فِي الأَرْض فَقَدْ أَفْسَدَ فِي الأَرْض، لأَنَّ صَلاح الأَرْض وَالسَّماء بِالطَّاعَةِ، وَلهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُد: «**لحَدٌّ يُقَامُ فِي الأَرْض أَحَبّ إِلى أَهْلهَا مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا**»[2]. وَالسَّبَب فِي هَذَا أَنَّ الحُدُود إِذَا أُقِيمَتْ، انكف النَّاس -أَوْ أَكْثَرهمْ أَوْ كَثِير مِنْهُمْ- عَنْ تَعَاطِي المُحَرَّمَات، وَإِذَا ارتكبت المَعَاصِي كَانَ سَبَبًا فِي محاق البَرَكَات مِنْ السَّماء وَالأَرْض.

وَلهَذَا إِذَا نَزَل عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِر الزَّمَان فحكم بِهَذِهِ الشَّرِيعَة المُطَهَّرَة فِي ذَلكَ الوَقْت مِنْ قَتْل الخِنْزِير، وَكَسْر الصَّلِيب، وَوَضْع الجِزْيَة، وَهُوَ تَرْكهَا -فَلا يَقْبَل إِلَّا الإِسْلام أَوْ السَّيْف، فَإِذَا أَهْلكَ الله فِي زَمَانه الدَّجَّال وَأَتْبَاعه، وَيَأْجُوج وَمَأْجُوج، قِيل للأَرْضِ: أَخْرِجِي بركاتك. فَيَأْكُل مِنْ الرُّمَّانَة الفِئَام مِنْ النَّاس، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَحْفِهَا، وَيَكْفِي لبَن اللِّقْحَة الجَماعَة مِنْ النَّاس. وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِبَرَكَةِ تنفيذه شَرِيعَة رسول الله ﷺ، فَكُلَّما أُقِيمَ العَدْل كَثُرَتْ البَرَكَات وَالخَيْر. وثَبَتَ فِي «الصَّحِيح»: «**أَنَّ الفَاجِر إِذَا مَاتَ تَسْتَرِيح العِبَاد وَالبِلاد، وَالشَّجَر وَالدَّوَابّ**».[3]

ولهذا قال الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل: حَدَّثَنَا مُحَمَّد وَالحُسَيْن قَالا: حَدَّثَنَا عَوْف عَنْ أَبِي قحذم قَال: وَجَدَ رَجُل فِي زَمَان زِيَاد -أَوْ ابْن زِيَاد- صُرَّة فِيهَا حَبّ، يَعْنِي: مِنْ بُرّ أَمْثَال النَّوَى عليه مَكْتُوب: هَذَا نَبْت فِي زَمَان كَانَ يُعْمَل فِيهِ بِالعَدْل. وَرَوَى مَالك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلم: أَنَّ المُرَاد بِالفَسَادِ هَهُنَا: الشِّرْك وَفِيهِ نَظَر. وَقَوْله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أَيْ: يَبْتَلِيهِمْ بِنَقْصِ الأَمْوَال وَالأَنْفُس وَالثَّمَرَات، اخْتِبَارًا مِنْهُ، وَمُجَازَاة عَلى صَنِيعهمْ،

---

(١) في (ز) : [يعني].

(٢) حسن : تقدم.

(٣) صحيح : أخرجه البخاري (٦٥١٢).

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبلكم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾، أي: فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

يقول تعالى آمرًا عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته، والمبادرة إلى الخيرات: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾، أي: يوم القيامة، إذا أراد كونه فلا راد له، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرقون، ففريق في الجنة وفريق في السعير، ولهذا قال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾، أي: يجازيهم مجازاة الفضل: الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾. ومع هذا هو العادل فيهم، الذي لا يجور.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يذكر تعالى نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها، ولهذا قال: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾، أي: المطر الذي ينزله فيحيي به العباد والبلاد، ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾، أي: في البحر وإنما سيرها بالريح، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾، أي: في التجارات والمعايش، والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾، هذه تسلية من الله لعبده ورسوله محمد ﷺ بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس، فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاءوا أممهم به من الدلائل الواضحات، ولكن الله انتقم ممن كذبهم وخالفهم، وأنجى المؤمنين بهم، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، هو حق أوجبه على نفسه الكريمة، تكرمًا وتفضلًا، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا موسى بن أعين، عن ليث عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه، إلا كان حقًا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة». ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.[1]

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منها الماء، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، إما من البحر على ما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله عز وجل، ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، أي: يمده فيكثره وينميه، ويجعل من القليل كثيرًا، ينشئ سحابة فترى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق،

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٨)، وفيه ليث بن أبي سليم: متروك، وشهر بن حوشب: صدوق كثير الإرسال والأوهام.

وَتَارَة يَأْتِي السَّحَاب مِنْ نَحْو البَحْر ثِقَالًا مَمْلُوءَة ماء، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وَكَذَلِكَ قَال هَهُنَا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قَال مُجَاهِد، وَأَبُو عَمْرو ابْن العَلاء، وَمَطَر الوَرَّاق، وَقَتَادَة: يَعْنِي قِطَعًا. وَقَال غَيْرهم: مُتَرَاكِمًا. قَالَهُ الضَّحَّاك. وَقَال غَيْره: أَسْوَد مِنْ كَثْرَة المَاء، تَرَاهُ مُدْلَهِمًّا ثَقِيلًا، قَرِيبًا مِنْ الأَرْض.

وَقَوْله: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ﴾، أَيْ: فَتَرَى المَطَر -وَهُوَ القَطْر- يَخْرُج مِنْ بَيْن ذَلِكَ السَّحَاب، ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، أَيْ: لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ يَفْرَحُونَ بِنُزُولِهِ عَلَيْهِمْ، وَوُصُوله إِلَيْهِمْ.
وقَوْله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾، مَعْنَى الكَلام أَنَّ هَؤُلاءِ القَوْم الَّذِينَ أَصَابَهُمْ هَذَا المَطَر كَانُوا أَزَلِّينَ قَانِطِينَ مِنْ نُزُول المَطَر إِلَيْهِمْ قَبْل ذَلِكَ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ جَاءَهُمْ عَلَى فَاقَة فَوَقَعَ مِنْهُمْ مَوْقِعًا عَظِيمًا.

وَقَدْ اخْتَلَفَ النُّحَاة فِي قَوْله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾؛ فَقَال ابْن جَرِير: هُوَ تَأْكِيد. وَحَكَاهُ عَنْ بَعْض أَهْل العَرَبِيَّة. وَقَال آخَرُونَ: مِنْ قَبْل أَنْ يُنَزَّل عَلَيْهِمْ المَطَر، ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾، أَيْ: الإِنْزَال ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾. وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون ذَلِكَ مِنْ دَلالَة التَّأْسِيس، وَيَكُون مَعْنَى الكَلام: أَنَّهُمْ كَانُوا مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ قَبْل نُزُوله، وَمِنْ قَبْله أَيْضًا قَدْ فَاتَ عِنْدهمْ نُزُوله وَقْتًا بَعْد وَقْت، فَتَرَقَّبُوهُ فِي إِبَّانه فَتَأَخَّرَ، فَمَضَتْ فَتَرَقَّبُوهُ فَتَأَخَّرَ، ثُمَّ جَاءَهُمْ بَغْتَة بَعْد الإِيَاس مِنْهُ وَالقُنُوط، فَبَعْدَمَا كَانَتْ أَرْضهمْ مُقْشَعِرَّة هَامِدَة، أَصْبَحَتْ وَقَدْ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ. وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلّ زَوْج بَهِيج. ولهذا قَال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾، يَعْنِي: المَطَر ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ﴾. ثُمَّ نَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى إِحْيَاء الأَجْسَاد بَعْد مَوْتهَا وَتَفَرُّقهَا وَتَمَزُّقهَا، فَقَال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ﴾، أَيْ: إِنَّ الَّذِي فَعَل ذَلِكَ لَقَادِر عَلَى إِحْيَاء الأَمْوَات، ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. ثم قَال تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾، يَقُول: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ يَابِسَة عَلَى الزَّرْع الَّذِي زَرَعُوهُ وَنَبَتَ وَشَبَّ وَاسْتَوَى عَلَى سُوقه، فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا، أَيْ: قَدْ اصْفَرَّ وَشَرَعَ فِي الفَسَاد، ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أَيْ: بَعْد هَذَا الحَال، ﴿يَكْفُرُونَ﴾ أَيْ: يَجْحَدُونَ مَا تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ مِنْ النِّعَم، كما قَال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عِيسَى بْن الطَّبَّاع، حَدَّثَنَا هُشَيْم، عَنْ يَعْلَى بْن عَطَاء، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو قَال: الرِّيَاح ثَمَانِيَة، أَرْبَعَة مِنْهَا رَحْمَة، وَأَرْبَعَة عَذَاب، فَأَمَّا الرَّحْمَة: فَالنَّاشِرَات، وَالمُبَشِّرَات، وَالمُرْسَلات، وَالذَّارِيَات. وَأَمَّا العَذَاب: فَالعَقِيم، وَالصَّرْصَر، وَهُمَا فِي البَرّ، وَالعَاصِف، وَالقَاصِف، وَهُمَا فِي البَحْر.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أبو عُبَيْد الله ابْن أَخِي ابْن وَهْب، حَدَّثَنَا عَمِّي، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عَيَّاش، حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن سُلَيْمَان، عَنْ دَرَّاج، عن عِيسَى بْن هِلال الصَّدَفِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «الرِّيح مُسَخَّرَة من الثَّانِيَة -يَعْنِي: من الأَرْض الثَّانِيَة- فَلَمَّا أَرَادَ الله أَنْ يُهْلك عَادًا، أَمَرَ خَازِن الرِّيح أَنْ يُرْسِل عَلَيْهِمْ رِيحًا تُهْلك عَادًا، فَقَال: يَا رَبّ، أَرْسِل عَلَيْهِمْ من الرِّيح قَدْر مَنْخِر الثَّوْر. قَال لَهُ الجَبَّار تَبَارَكَ وَتَعَالَى: لا، إِذًا تُكْفَأ الأَرْض وَمَنْ عَلَيْهَا، وَلَكِنْ أَرْسِل عَلَيْهِمْ بِقَدْرِ خَاتَم، فَهِيَ الَّتِي قَال الله فِي كِتَابه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾»[1]. هَذَا حَدِيث غَرِيب وَرَفعه مُنْكَر، وَالأَظْهَر أَنَّهُ مِنْ كَلام عَبْد الله بْن عَمْرو رضي الله عنه.

---

(١) ضعيف : وفي إسناده عبد الله بن سليمان الطويل: صدوق يخطئ، وعبد الله بن عياش: صدوق يغلط.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

يَقول تَعالى: كَما أَنَّك ليْسَ فِي قُدْرَتك أَنْ تُسْمِع الأَمْوَات فِي أَجْدَاثها، وَلا تُبْلغ كَلامك الصُّمّ الَّذِينَ لا يَسْمَعُونَ، وَهُمْ مَعَ ذَلكَ مُدْبِرُونَ عَنْك، كَذَلكَ لا تَقْدِر عَلَى هِدَايَة العُمْيَان عَنْ الحَقّ، وَرَدّهمْ عَنْ ضَلالتهمْ، بَل ذَلكَ إِلى الله تَعَالى، فَإِنَّهُ بِقُدْرَتِهِ يُسْمِع الأَمْوَات أَصْوَات الأَحْيَاء إِذَا شَاءَ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء وَيُضِلّ مَنْ يَشَاء، وَليْسَ ذَلكَ لأَحَدٍ سِوَاهُ، ولهذا قَال: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾، أَيْ: خَاضِعُونَ مُسْتَجِيبُونَ مُطِيعُونَ، فَأُولئِكَ هُمْ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الحَقّ وَيَتَّبِعُونَهُ، وَهَذَا حَال الْمُؤْمِنِينَ، وَالأَوَّل مِثْل الكَافِرِينَ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾. وَقَدْ اسْتَدَلَّتْ أُمّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَة رضي الله عنها بِهَذِهِ الآيَة: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾، عَلَى تَوْهِيم عَبْد الله بْن عُمَر فِي رِوَايَته مُخَاطَبَة النَّبِيّ ﷺ القَتْلى الَّذِينَ أُلْقُوا فِي القليب: قَليب بَدْر، بَعْد ثَلاثَة أَيَّام، وَمُعَاتَبته إِيَّاهُمْ، وَتَقْرِيعه لهُمْ، حَتَّى قَال لهُ عُمَر: يَا رَسُول الله، مَا تُخَاطِب مِنْ قَوْم قَدْ جَيَّفُوا؟ فَقَال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُول مِنْهُمْ، وَلكِنْ لا يُجِيبُونَ**».[1] وَتَأَوَّلتْهُ عَائِشَة عَلى أَنَّهُ قَال: إِنَّهُمْ الآن ليَعْلمُونَ أَنَّ مَا كُنْت أَقُول لهُمْ حَقّ. وَقَال قَتَادَة: أَحْيَاهُمْ الله لهُ حَتَّى سَمِعُوا مَقَالته تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا وَنِقْمَة. وَالصَّحِيح عِنْد العُلمَاء رِوَايَة ابن عُمَر، لمَا لهَا مِنْ الشَّوَاهِد عَلى صِحَّتهَا مِنْ وُجُوه كَثِيرَة، مِنْ أَشْهَر ذَلكَ مَا رَوَاهُ ابْن عَبْد البَرّ مُصَحِّحًا، عَنْ ابْن عَبَّاس مَرْفُوعًا: «مَا مِنْ أَحَد يَمُرّ بِقَبْرِ أَخِيهِ الْمُسْلم، كَانَ يَعْرِفهُ فِي الدُّنْيَا، فَيُسَلِّم عَليْهِ، إِلَّا رَدَّ الله عَليْهِ رُوحه، حَتَّى يَرُدّ عَليه السَّلامَ».[2]

[وثبت عنه ﷺ لأمته إذا سلَّموا علي أهل القبور أن يُسلموا عليهم سلام من يخاطبونه، فيقول المسلِّم: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحي له ويستبشر، فروى ابن أبي الدنيا في كتاب «القبور» عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به وردَّ عليه حتى يقوم**».

ورُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا مرَّ رجل بقبر يعرفه فسلَّم عليه، رد عليه السلام، وروي ابن أبي الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجحدري قال: رأيت عاصمًا الجحدري في منامي بعد موته بسنتين، فقلت: أليس قد مِتَّ؟ قال: بلى، قلت: فأين أنت؟ قال: أنا والله في روضة من رياض الجنة، أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني، فنتلقى أخباركم قال: قلت: أجسامكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات! قد بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح، قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قال: قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته.

قال: وحدثنا محمد بن الحسين، ثنا بكر بن محمد، ثنا حسن القصاب قال: كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبتٍ حتى نأتي أهل الجبَّان، فنقف علي القبور فنسلِّم عليهم وندعو لهم ثم ننصرف، فقلتُ ذات يوم: لو صيَّرت هذا اليوم يوم الاثنين؟ قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوَّارهم يوم الجمعة ويومًا قبلها ويومًا بعدها. قال: ثنا محمد، ثنا عبد العزيز بن أبان. قال: ثنا سفيان الثوري قال: بلغني عن الضحاك أنه قال: من زار قبرًا يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته، فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة.

---

(١) صحيح: تقـدم.
(٢) ضعيف: ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٤٩٣).

حدثنا خالد بن خداشٍ، ثنا جعفر بن سليمان عن أبي التيَّاح يقول: كان مطرِّف يغدو، فإذا كان يوم الجمعة أدلج. قال: وسمعت أبا التياح يقول: بلغنا أنه كان ينزل بغوطةٍ، فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه، فرأى أهل القبور كل صاحب قبرٍ جالسًا على قبره، فقالوا: هذا مطرِّف يأتي الجمعة ويصلون عندكم يوم الجمعة؟ قالوا: نعم، ونعلم ما يقول فيه الطير. قلت: وما يقولون؟ قال: يقولون: سلام عليكم؛ حدثني محمد بن الحسن، ثنا يحيى بن أبي بكر، ثنا الفضل بن الموفَّق ابن خال سفيان بن عيينة قال: لما مات أبي جزعت عليه جزعًا شديدًا، فكنت آتي قبره في كل يوم، ثم قصَّرت عن ذلك ما شاء الله، ثم إني أتيته يومًا، فبينا أنا جالس عند القبر غلبتني عيناي فنمتُ، فرأيت كأن قبر أبي قد انفرج، وكأنه قاعد في قبره متوشح أكفانه، عليه سحنة الموتى، قال: فكأني بكيتُ لما رأيته قال: يا بني ما أبطأ بك عني؟ قلت: وإنك لتعلم بمجيئي؟ قال: ما جئت مرة إلا علمتها، وقد كنتَ تأتيني فأُسرّ بك ويُسر مَنْ حولي بدعائك، قال: فكنتُ آتيه بعد ذلك كثيرًا.

حدثني محمد، حدثنا يحيى بن بسطام، ثنا عثمان بن سويد الطفاوي قال: وكانت أمه من العابدات، وكان يقال لها راهبة، قال: لما احتُضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت: يا ذخري وذخيرتي مَنْ عليه اعتمادي في حياتي وبعد موتي، لا تخذلني عند الموت ولا توحشني. قال: فماتت فكنت آتيها في كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور، فرأيتها ذات يوم في منامي، فقلت لها: يا أمي كيف أنتِ؟ قالت: أي بُني إن للموت لكربة شديدة، وإني بحمد الله لفي برزخ محمود يُفرش فيه الريحان، ونتوسد السندس والإستبرق إلى يوم النشور، فقلت لها: ألك حاجة؟ قالت: نعم، قلتُ: وما هي؟ قالت: لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا، فإني لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك، يقال لي: يا راهبة هذا ابنك، قد أقبل فأُسرّ ويُسرّ بذلك من حولي من الأموات.

حدثني محمد، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن سليمان، حدثنا بشر بن منصور قال: لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبَّان، فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال: آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم، وتجاوز عن مسيئكم، وقبل حسناتكم، لا يزيد على هؤلاء الكلمات، قال: فأمسيتُ ذات ليلة وانصرفتُ إلى أهلي ولم آتِ المقابر فأدعو كما كنت أدعو، قال: فبينا أنا نائمٌ إذا بخلق قد جاءوني، فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، قلت: ما حاجتكم؟ قالوا: إنك عوَّدتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك، قلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنتَ تدعو بها، قال: قلتُ: فإني أعود لذلك، قال: فما تركتها بعد. وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحي من أقاربه وإخوانه. قال عبد الله بن المبارك: حدثني ثور بن يزيد عن إبراهيم عن أيوب قال: تعرض أعمال الأحياء على الموتى، فإذا رأوا حسنًا فرحوا واستبشروا، وإن رأوا سُوءًا قالوا: اللهم راجع به.

وذكر ابن أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الحواري قال: ثنا محمد أخي، قال: دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فَلَسْطين فقال: عظني، قال: بم أعظك أصلحك الله؟ بلغني أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك، فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته. قال ابن أبي الدنيا: وحدثني محمد بن الحسين، ثني خالد بن عمرو الأموي، ثنا صدقة بن سليمان الجعفري. قال: كانت لي شرة سمجة، فمات أبي فتبتُ وندمتُ علي ما فرطت، ثم زللت أيَّما زلةٍ، فرأيتُ أبي في المنامِ، فقال: أيْ بني ما كان أشد فرحي بك وأعمالك تعرض علينا، فنشبهها بأعمال الصالحين، فلما كانت هذه المرة استحييتُ لذلك حياءً شديدًا، فلا تُخزني فيمن حولي من الأموات؛ قال: فكنتُ أسمعه بعد ذلك يقول في دعائه في السَّحَر وكان جارًا لي بالكوفة: أسألك إيابةً لا رجعة فيها ولا حَوَر يا مصلح الصالحين ويا هادي المضلين، ويا أرحم الراحمين.

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة. وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول: اللهم إني أعوذُ بك من عمل أخزي به عند عبد الله بن رواحة، كان يقول ذلك بعد أنْ استُشهد عبد الله. وقد شُرع السلام على الموتى، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلِّم محالٌ، وقد علَّم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا: سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجودٍ يسمع ويخاطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلِّم الرد، والله أعلم][1].

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾.

يُنبِّه تَعَالى عَلى تَنقُّل الإِنْسَان فِي أَطْوَار الخَلق حَالاً بَعْد حَال، فَأَصْله مِنْ تُرَاب، ثُمَّ مِنْ نُطْفَة، ثُمَّ مِنْ عَلقَة، ثُمَّ مِنْ مُضْغَة، ثُمَّ يَصِير عِظَامًا، ثُمَّ يُكْسَى العِظَام لحمًا، وَيُنْفَخ فِيهِ الرُّوح، ثُمَّ يُخْرَج مِنْ بَطْن أُمّه ضَعِيفًا نَحِيفًا وَاهِن القُوَى، ثُمَّ يَشِبّ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى يَكُون صَغِيرًا، ثُمَّ حَدَثًا، ثُمَّ مُرَاهِقًا، ثُمَّ شَابًّا. وَهُوَ القُوَّة بَعْد الضَّعْف، ثُمَّ يَشْرَع فِي النَّقْص، فَيَكْتَهِل ثُمَّ يَشِيخ ثُمَّ يَهْرَم، وَهُوَ الضَّعْف بَعْد القُوَّة، فَتَضْعُف الهِمَّة وَالحَرَكَة وَالبَطْش، وَتَشِيب اللِّمَّة، وَتَتَغَيَّر الصِّفَات الظَّاهِرَة وَالبَاطِنَة، وَلِهَذَا قَال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، أَيْ: يَفْعَل مَا يَشَاء، وَيَتَصَرَّف فِي عَبِيده بِمَا يُرِيد، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ [فُضَيْل][2] وَيَزِيد، حَدَّثَنَا فُضَيْل بْن مَرْزُوق، عَنْ عَطِيَّة العَوْفِيّ قَال: قَرَأْتُ عَلى ابْن عُمَر: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾، ثُمَّ قَال: قَرَأت عَلى رَسُول الله ﷺ كَمَا قَرَأْت عَلَيَّ فَأَخَذَ عَلَيَّ كَمَا أَخَذْت عَلَيْك.[3] وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَالتِّرْمِذِيّ وَحَسَّنَهُ مِنْ حَدِيث فُضَيْل، بِهِ. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد من حَدِيث عَبْد الله بْن جَابِر، عَنْ عَطِيَّة، عَنْ أَبِي سَعِيد، بِنَحْوِهِ.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ جَهْل الكُفَّار فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، فَفِي الدُّنْيَا فَعَلُوا مَا فَعَلُوا مِنْ عِبَادَة الأَوْثَان، وَفِي الآخِرَة يَكُون مِنْهُمْ جَهْل عَظِيم أَيْضًا، فَمِنْهُ إِقْسَامهمْ بِالله أَنَّهُمْ مَا لَبِثُوا فِي الدُّنْيَا إلا سَاعَة وَاحِدَة، وَمَقْصُودهمْ بِذَلكَ عَدَم قِيَام الحُجَّة عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ لمْ يُنْظَرُوا حَتَّى يُعْذَر إِلَيْهِمْ. قَال الله تَعَالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ أَيْ: فَيَرُدّ عَلَيْهِمْ المُؤْمِنُونَ العُلَمَاء فِي الآخِرَة، كَمَا أَقَامُوا عَلَيْهِمْ حُجَّة الله فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُونَ لهُمْ حِين يَحْلفُونَ مَا لبِثُوا غَيْر سَاعَة: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: فِي كِتَاب الأَعْمَال ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾، أَيْ: مِنْ يَوْم خُلقْتُمْ إِلى أَنْ بُعِثْتُمْ، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. قَال الله تَعَالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾، أَيْ: يَوْم القِيَامَة ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾، أَيْ: اعْتِذَارهمْ عَمَّا فَعَلُوا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، أَيْ: وَلا هُمْ يَرْجِعُونَ إِلى الدُّنْيَا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

---

(١) سقط من (ز).
(٢) في (ز) : [فضل].
(٣) حسن : أخرجه أحمد (٢/ ٥٨)، وأبو داود (٣٩٧٨)، والترمذي (٢٩٣٦)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾، أَيْ: قَدْ بَيَّنَّا لهُمْ الحَقّ، وَوَضَّحْنَاهُ لهُمْ، وَضَرَبْنَا لهُمْ، فِيهِ الأَمْثَال، ليتَبِينُوا الحقّ وَيَتَّبِعُوهُ. ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾، أَيْ: لوْ رَأَوْا أَيّ آيَة كَانَتْ، سَوَاء كَانَتْ بِاقْتِرَاحِهِمْ أَوْ غَيْره لا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا سِحْر وَبَاطِل، كَمَا قَالُوا فِي انْشِقَاق القَمَر وَنَحوه، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾، ولهذا قَال هَهُنَا: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾، أَيْ: اصْبِرْ عَلى مُخَالفَتهمْ وَعِنَادهمْ، فَإِنَّ الله تَعَالى مُنْجِز لك مَا وَعَدَكَ مِنْ نَصْره إِيَّاكَ، وَجَعْله العَاقِبَة لك، ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة. ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾، أي: بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مِرْيَة فِيهِ وَلا تَعْدِل عَنْهُ، وَلَيْسَ فِيمَا سِوَاهُ هُدًى يُتَّبَع، بَل الحَقّ كُلّه مُنْحَصِر فِيهِ. قَال سَعِيد، عَنْ قَتَادَة: نَادَى رَجُل مِنْ الخَوَارِج عَلِيًّا ﷺ وَهُوَ فِي الصلاة صَلاة الغَدَاة، فَقَال: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾، فَأَنْصَتَ لهُ عَلِيّ حَتَّى فَهِمَ مَا قَال، فَأَجَابَهُ وَهُوَ فِي الصَّلاة: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾. رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَدْ رَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ وَجْه آخَر فَقَال: حَدَّثَنَا ابن وَكِيع، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن آدَم، عَنْ شَرِيك، عَنْ عُثْمَان عَنْ أَبِي زُرْعَة، عَنْ عَلِيّ بْن رَبِيعَة قَال: نَادَى رَجُل مِنْ الخَوَارِج عَلِيًّا وَهُوَ فِي صَلاة الفَجْر، فَقَال: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾، فَأَجَابَهُ عَلِيّ وَهُوَ فِي الصَّلاة: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾.

طَرِيق أُخْرَى: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الجَعْد، أَخْبَرَنَا شَرِيك، عَنْ عِمْرَان بْن ظَبْيَان، عَنْ أبي تحيا قَال: صَلَّى عَلِيّ ﷺ صَلاة الفَجْر، فَنَادَاهُ رَجُل مِنْ الخَوَارِج: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾، فَأَجَابَهُ عَلِيّ، وَهُوَ فِي الصَّلاة: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾.

مَا رُوِيَ فِي فَضْل هَذِهِ السُّورَة الشَّرِيفَة وَاسْتِحْبَاب قِرَاءَتهَا فِي الفَجْر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، عَنْ شُعْبَة، عَنْ عَبْد المَلك بْن عُمَيْر، سَمِعْت شبيبًا أبا رَوْح، يُحَدِّث عَنْ رَجُل مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ صَلَّى بِهِمْ الصُّبْح فَقَرَأَ فِيهَا الرُّوم فَأَوْهَمَ، فقَال: «إِنَّهُ يَلبِس عَلَيْنَا القُرْآن، فإِنَّ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يُصَلُّونَ مَعَنَا لا يُحْسِنُونَ الوُضُوء، فَمَنْ شَهِدَ الصَّلاة مَعَنَا فَلْيُحْسِنْ الوُضُوء»[1]. وَهَذَا إِسْنَاد حَسَن وَمَتْن حَسَن، وَفِيهِ سِرّ عَجِيب، وَنَبَأ غَرِيب، وَهُوَ أَنَّهُ عليه السلام تَأَثَّر بِنُقْصَانِ وُضُوء مَنْ ائْتَمَّ بِهِ، فَدَلَّ ذَلكَ عَلى أَنَّ صَلاة المَأْمُوم مُتَعَلِّقَة بِصَلاةِ الإِمَام.

آخِر تَفْسِير سُورَة الرُّوم، ولله الحَمْد وَالمِنَّة

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٤٧١)، والنسائي (٩٤٧)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن النسائي».

تفسير سورة لقمان وهي مكية

ترتيبها ٣١ — وآياتها ٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

تَقَدَّمَ فِي أَوَّل «سُورَة البَقَرَة» عَامَّة الكَلام عَلى مَا يَتَعَلَّق بِصَدْرِ هَذِهِ السُّورَة، وَهُوَ أَنَّهُ -تَعَالى- جَعَل هَذَا القُرْآن هُدًى وَشِفَاء وَرَحْمَة للمُحْسِنِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ أَحْسَنُوا العَمَل فِي اتِّبَاع الشَّرِيعَة، فَأَقَامُوا الصَّلاة المَفْرُوضَة بِحُدُودِهَا وَأَوْقَاتهَا، وَمَا يَتْبَعهَا مِنْ نَوَافِل رَاتِبَة وَغَيْر رَاتِبَة، وَآتَوْا الزَّكَاة المَفْرُوضَة عَلَيْهِمْ إِلى مُسْتَحِقِّيهَا، وَوَصَلُوا قَرَابَاتهمْ وأَرْحَامهمْ، وَأَيْقَنُوا بِالجَزَاءِ فِي الدَّار الآخِرَة، فَرَغِبُوا إِلى الله فِي ثَوَاب ذَلِكَ، لمْ يُرَاءُوا بِهِ، وَلا أَرَادُوا جَزَاء مِنْ النَّاس وَلا شُكُورًا، فَمَنْ فَعَل ذَلكَ كَذَلكَ فَهُوَ مِنْ الَّذِينَ قَال الله تَعَالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، أَيْ: عَلى بَصِيرَة وَبَيِّنَة وَمَنْهَج وَاضِح جَليّ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

لـمَّا ذَكَرَ تَعَالى حَال السُّعَدَاء، وَهُمْ الَّذِينَ يَهْتَدُونَ بِكِتَاب الله وَيَنْتَفِعُونَ بِسَمَاعِهِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ عَطَفَ بِذِكْرِ حَال الأَشْقِيَاء، الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْ الانْتِفَاع بِسَمَاعِ كَلام الله، وَأَقْبَلُوا عَلى اسْتِمَاع المَزَامِير وَالغِنَاء بِالأَلحَانِ وَآلات الطَّرَب، كَمَا قَال ابْن مَسْعُود فِي قَوْله تَعَالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾، قَال: هُوَ -وَالله- الغِنَاء.

قال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يُونُس بْن عَبْد الأَعْلى، أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي يَزِيد عن يُونُس، عَنْ أَبِي صَخْر، عَنْ أَبِي مُعَاوِيَة البَجَليّ، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ أَبِي الصَّهْبَاء البَكْرِيّ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْد الله بْن مَسْعُود، وَهُوَ يُسْأَل عَنْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فَقَال عَبْد الله: الغِنَاء، وَالله الَّذِي لا إِله إِلَّا هُوَ، يُرَدِّدهَا ثَلاث مَرَّات.[1] حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَليّ، حَدَّثَنَا صَفْوَان بْن عِيسَى، أَخْبَرَنَا حُمَيْد الخَرَّاط، عَنْ عَمَّار، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ أَبِي الصَّهْبَاء، أَنَّهُ سَأَل ابْن مَسْعُود عَنْ قَوْل الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾، قَال: الغِنَاء. وَكَذَا قَال ابْن عَبَّاس، وَجَابِر، وَعِكْرِمَة، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَمُجَاهِد، وَمَكْحُول، وَعَمْرو بْن شُعَيْب، وَعَليّ بْن بذِيمَة.

وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: أَنَزلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فِي الغِنَاء وَالمَزَامِير. وَقَال قَتَادَة: قَوْله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وَالله لعَلَّهُ لا يُنْفِق فِيهِ مَالًا، وَلكِنْ شِرَاؤُهُ استحبابه، بِحَسْب المَرْء مِنْ الضَّلالة أَنْ يَخْتَار حَدِيث البَاطِل عَلى حَدِيث الحَقّ، وَمَا يَضُرّ عَلى مَا يَنْفَع. وَقِيل: عني بِقَوْلِهِ: ﴿يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ اشْتِرَاء المُغَنِّيَات مِنْ الجَوَارِي.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل الأَحْمَسِيّ، حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ خَلَّاد الصَّفَّار، عَنْ عُبَيْد الله بْن

---

(١) **صحيح موقوف** : أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره».

زحر، عَنْ عَلِيّ بْن يَزِيد، عَنْ [القَاسِم][1] بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: **«لا يَحِلّ بَيْع المُغَنِّيَات، وَلا شِرَاؤُهُنَّ، وَأَكْل أَثْمَانهنَّ حَرَام، وَفِيهِنَّ أَنْزَل الله ﷻ عَلَيَّ:** ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾»[2].

وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن جَرِير، مِنْ حَدِيث عُبَيْد الله بْن زحر بِنَحْوِهِ، ثُمَّ قَالَ التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث غَرِيب، وَضُعِّفَ عَلِيّ بْن يَزِيد المَذْكُور.

قُلت: عَلِيّ وَشَيْخه وَالرَّاوِي عَنْهُ، كُلّهمْ ضُعَفَاء، وَالله أَعْلَم.

وَقَال الضَّحَّاك فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾: يَعْنِي الشِّرْك. وَبِهِ قَال عَبْد الرَّحْمَن ابْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، وَاخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّهُ كُلّ كَلام يَصُدّ عَنْ آيَات الله وَاتِّبَاع سَبِيله. وَقَوْله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: إِنَّمَا يَصْنَع هَذَا لِلتَّخَالُفِ لِلإِسْلام وَأَهْله. وَعَلَى قِرَاءَة فَتْح اليَاء، تَكُون اللَّام لامَ العَاقِبَة، أَوْ تَعْلِيلًا لِلأَمْرِ القَدَرِيّ، أَيْ: قُيِّضُوا لِذَلِكَ لِيَكُونُوا كَذَلِكَ. وَقَوْله: ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قَال مُجَاهِد: وَيَتَّخِذ سَبِيل الله هُزُوًا يَسْتَهْزِئ بِهَا. وَقَال قَتَادَة: يَعْنِي وَيَتَّخِذ آيَات الله هُزُوًا. وَقَوْل مُجَاهِد أَوْلَى.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾، أَيْ: كَمَا اسْتَهَانُوا بِآيَاتِ الله وَسَبِيله، أُهِينُوا يَوْم القِيَامَة فِي العَذَاب الدَّائِم المُسْتَمِرّ. ثُمَّ قَال تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾، أَيْ: هَذَا المُقْبِل عَلَى اللَّهْو وَاللَّعِب وَالطَّرَب، إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ الآيَات القُرْآنِيَّة، وَلَّى عَنْهَا وَأَعْرَض وَأَدْبَرَ وَتَصَامَمَ وَمَا بِهِ مِنْ صَمَم، كَأَنَّهُ مَا يَسْمَعهَا، لأَنَّهُ يَتَأَذَّى بِسَمَاعِهَا، إِذْ لا انْتِفَاع لَهُ بِهَا، وَلا أَرَب لَهُ فِيهَا، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، أَيْ: يَوْم القِيَامَة يُؤْلِمهُ، كَمَا تَأَلَّمَ بِسَمَاع كِتَاب الله وَآيَاته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

هَذَا ذِكْر مَآل الأَبْرَار مِنْ السُّعَدَاء فِي الدَّار الآخِرَة، الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ، وَعَمِلُوا الأَعْمَال الصَّالِحَة المُتَابِعَة لِشَرِيعَةِ الله، ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾، أَيْ: يَتَنَعَّمُونَ فِيهَا بِأَنْوَاع المَلاذّ وَالمَسَارّ، مِنْ المَآكِل وَالمَشَارِب، وَالمَلابِس وَالمَسَاكِن، وَالمَرَاكِب وَالنِّسَاء، وَالنَّضْرَة وَالسَّمَاع الَّذِي لَمْ يَخْطُر بِبَال أَحَد، وَهُمْ فِي ذَلِكَ مُقِيمُونَ دَائِمًا فِيهَا، لا يَظْعَنُونَ وَلا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا.

وَقَوْله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾، أَيْ: هَذَا كَائِن لا مَحَالَة، لأَنَّهُ مِنْ وَعْد الله، وَالله لا يُخْلِف المِيعَاد، لأَنَّهُ الكَرِيم المَنَّان، الفَعَّال لِمَا يَشَاء، القَادِر عَلَى كُلّ شَيْء، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، الَّذِي قَد قَهَرَ كُلّ شَيْء، وَدَانَ لَهُ كُلّ شَيْء. ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴾ فِي أَقْوَاله وَأَفْعَاله، الَّذِي جَعَل القُرْآن هُدًى لِلمُؤْمِنِينَ، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

يُبَيِّن سُبْحَانه بِهَذَا قُدْرَته العَظِيمَة عَلَى خَلْق السَّمَاوَات وَالأَرْض، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنهمَا، فَقَال: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾، قَال الحَسَن وَقَتَادَة: لَيْسَ لَهَا عَمَد مَرْئِيَّة وَلا غَيْر مَرْئِيَّة. وَقَال ابْن عَبَّاس، وَعِكْرِمَة، وَمُجَاهِد: لَهَا عَمَد لا تَرَوْنَهَا. وَقَدْ تَقَدَّمَ تَقْرِير هَذِهِ المَسْأَلَة فِي أَوَّل «**سُورَة الرَّعْد**» بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته. ﴿وَأَلْقَىٰ فِى

---

(١) في (ز) : [القسم].

(٢) حسن : أخرجه الترمذي (١٢٨٢)، وابن ماجه (٢١٦٨)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾، يَعْنِي: الجِبَال أَرْسَتْ الأَرْض وَثَقَّلتْهَا؛ لئَلَّا تَضطَرِب بِأَهْلِهَا عَلى وَجْه المَاء، وَلهَذَا قَال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾، أَيْ: لئَلَّا تَمِيد بِكُمْ.

وَقَوْله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾، أَيْ: وَذَرَأَ فِيهَا مِنْ أَصْنَاف الحَيَوَانَات مِمَّا لا يَعْلم عَدَد أَشْكَالهَا وَأَلوَانهَا إِلَّا الَّذِي خَلقَهَا. وَلـمَّا قَرَّرَ أَنَّهُ الخَالق، نَبَّهَ عَلى أَنَّهُ الرَّازِق بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾، أَيْ: مِنْ كُلِّ زَوْج مِنْ النَّبَات كَرِيم، أَيْ: حَسَن المَنْظَر. وَقَال الشَّعْبِيّ: وَالنَّاس أَيْضًا مِنْ نَبَات الأَرْض، فَمَنْ دَخَل الجَنَّة فَهُوَ كَرِيم، وَمَنْ دَخَل النَّار فَهُوَ لئِيم. وَقَوْله: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ تَعَالى مِنْ خَلق السَّمَاوَات وَالأَرْض وَمَا بَيْنهمَا، صَادِر عَنْ فِعْل الله وَخَلقه وَتَقْدِيره، وَحْده لا شَرِيك لهُ فِي ذَلكَ، وَلهَذَا قَال: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، أَيْ: مِمَّا تَعْبُدُونَ وَتَدْعُونَ مِنْ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد، ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، يَعْنِي: المُشْرِكِينَ بِالله العَابِدِينَ مَعَهُ غَيْره، ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾، أَيْ: جَهْل وَعَمًى، ﴿مُّبِينٖ﴾، أَيْ: وَاضِح ظَاهِر لا خَفَاء بِهِ.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾.

اخْتَلفَ السَّلف فِي لُقْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ هَل كَانَ نَبيًّا، أَوْ عَبْدًا صَالحًا مِنْ غَيْر نُبُوَّة؟ عَلى قَوْليْنِ، الأَكْثَرُونَ عَلى الثَّانِي. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ الأَشْعَث، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كَانَ لُقْمَان عَبْدًا حَبَشِيًّا نَجَّارًا. وَقَال قَتَادَة، عَنْ عَبْد الله بْن الزُّبَيْر قُلت لجَابِرِ بْن عَبْد الله: مَا انْتَهَى إِليْكُمْ مِنْ شَأْن لُقْمَان؟ قَال: كَانَ قَصِيرًا أَفْطَس، مِنْ النُّوبَة. وَقَال يَحْيَى بْن سَعِيد الأَنْصَارِيّ، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيِّب قَال: كَانَ لُقْمَان مِنْ سُودَان مِصْر، ذُا مَشَافِر، أَعْطَاهُ الله الحِكْمَة، وَمَنَعَهُ النُّبُوَّة. وَقَال الأَوْزَاعِيّ رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنِي عَبْد الرَّحْمَن بْن حَرْمَلة قَال: جَاءَ أَسْوَد إِلى سَعِيد بْن المُسَيِّب يَسْأَلهُ، فَقَال لهُ سَعِيد بْن المُسَيِّب: لا تَحْزَن مِنْ أَجْل أَنَّك أَسْوَد، فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَخْيَر النَّاس ثَلاثَة مِنْ السُّودَان: بِلال، وَمِهْجَع مَوْلى عُمَر بْن الخَطَّاب، وَلُقْمَان الحَكِيم، كَانَ أَسْوَد نُوبِيًّا ذَا مَشَافِر.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابن وَكِيع، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَبِي الأَشْهَب، عَنْ خَالد الرَّبَعِيّ قَال: كَانَ لُقْمَان عَبْدًا حَبَشِيًّا نَجَّارًا، فَقَال لهُ مَوْلاهُ: اذْبَحْ لنَا هَذِهِ الشَّاة، فَذَبَحهَا، فقَال: أَخرِجْ أَطْيَب مُضْغَتَيْنِ فِيهَا. فَأَخرَجَ اللِّسَان وَالقَلب، فمَكَثَ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ قَال: اذْبَحْ لنَا هَذِهِ الشَّاة. فَذَبَحهَا، فقَال: أَخْرِجْ أَخْبَث مُضْغَتَيْنِ فِيهَا. فَأَخرَجَ اللِّسَان وَالقَلب، فقَال لهُ مَوْلاهُ: أَمَرْتُك أَنْ تُخْرِج أَطْيَب مُضْغَتَيْنِ فِيهَا فَأَخرَجْتهمَا، وَأَمَرْتُك أَنْ تُخْرِج أَخْبَث مُضْغَتَيْنِ فِيهَا فَأَخْرَجْتهمَا؟ فَقَال لُقْمَان: إِنَّهُ ليْسَ مِنْ شَيْء أَطْيَب مِنْهُمَا إِذَا طَابَا، وَلا أَخْبَث مِنْهُمَا إِذَا خَبُثَا. وَقَال شُعْبَة، عَنْ الحَكَم، عَنْ مُجَاهِد: كَانَ لُقْمَان عَبْدًا صَالحًا وَلمْ يَكُنْ نَبيًّا.

وَقَال الأَعْمَش: قَال مُجَاهِد: كَانَ لُقْمَان عَبْدًا أَسْوَد عَظِيم الشَّفَتَيْنِ، مُشَقَّق القَدَمَيْنِ. وَقَال حَكَّام بْن سلم، عَنْ سَعِيد الزُّبَيْدِيّ، عَنْ مُجَاهِد: كَانَ لُقْمَان الحَكِيم عَبْدًا حَبَشِيًّا، غَليظ الشَّفَتَيْنِ، مُصَفَّح القَدَمَيْنِ، قَاضِيًا عَلى بَنِي إِسْرَائِيل. وَذَكَرَ غَيْره: أَنَّهُ كَانَ قَاضِيًا عَلى بَنِي إِسْرَائِيل فِي زَمَان دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا الحَكَم، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن قَيْس قَال: كَانَ لُقْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ عَبْدًا أَسْوَد غَليظ الشَّفَتَيْنِ، مُصَفَّح القَدَمَيْنِ، فَأَتَاهُ رَجُل وَهُوَ فِي مَجْلس نَاس يُحَدِّثهُمْ، فَقَال لهُ: أَلسْت الَّذِي كُنْت تَرْعَى مَعِي الغَنَم فِي مَكَان كَذَا وَكَذَا؟ قَال: نَعَمْ، فقَال: فَمَا بَلغَ بِك مَا أَرَى؟ قَال: صِدْق الحَدِيث، وَالصَّمْت عَمَّا لا يَعْنِينِي.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثَنَا صَفْوَان، حَدَّثَنَا الوَليد، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن يَزِيد، عَنْ جَابر قَال: إِنَّ الله رَفَعَ لُقْمَان الحَكِيم بِحِكْمَتِهِ، فَرَآهُ رَجُل كَانَ يَعْرِفهُ قَبْل ذَلكَ، فَقَال لهُ: أَلسْت عَبْد بَنِي فُلان الَّذِي كُنْت تَرْعَى بِالأَمْسِ؟ قَال: بَلى، قَال: فَمَا بَلغَ بِك مَا أَرَى؟ قَال: قَدَر الله، وَأَدَاء الأَمَانَة، وَصِدْق الحَدِيث، وَتَرْكِي

مَا لا يَعْنِينِي.[١] فَهَذِهِ الآثَار مِنْهَا مَا هُوَ مُصَرَّح فِيهِ بِنَفْيِ كَوْنه نَبِيًّا، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُشْعِر بِذَلِكَ، لأَنَّ كَوْنه عَبْدًا قَدْ مَسَّهُ الرِّقّ يُنَافِي كَوْنه نَبِيًّا، لأَنَّ الرُّسُل كَانَتْ تُبْعَث فِي أَحْسَاب قَوْمهَا. وَلِهَذَا كَانَ جُمْهُور السَّلَف عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، وَإِنَّمَا يُنْقَل كَوْنه نَبِيًّا عَنْ عِكْرِمَة، إِنْ صَحَّ السَّنَد إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث وَكِيع، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ جَابِر، عَنْ عِكْرِمَة، قَالَ: كَانَ لُقْمَان نَبِيًّا. وَجَابِر هَذَا هُوَ ابْن يَزِيد الجُعْفِيّ، وَهُوَ ضَعِيف، وَالله أَعْلَم.

وَقَالَ عَبْد الله بْن وَهْب: أَخْبَرَنِي عَبْد الله بْن عَيَّاش القِتْبَانِيّ، عَنْ عُمَر مَوْلَى غفرة قَالَ: وَقَفَ رَجُل عَلَى لُقْمَان الحَكِيم فَقَالَ: أَنْتَ لُقْمَان، أَنْتَ عَبْد بَنِي الحَسْحَاس؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَنْتَ رَاعِي الغَنَم؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَنْتَ الأَسْوَد؟ قَالَ: أَمَّا سَوَادِي فَظَاهِر، فَمَا الَّذِي يُعْجِبك مِنْ أَمْرِي؟ قَالَ: وَطْء النَّاس بِسَاطَك، وَغَشْيهمْ بَابَك، وَرِضَاهُمْ بِقَوْلك. قَالَ: يَا ابْن أَخِي، إِنْ صَغِيت إِلَى مَا أَقُول لك كُنْت كَذَلِكَ. قَالَ لُقْمَان: غَضِّي بَصَرِي، وَكَفِّي لِسَانِي، وَعِفَّة طُعْمَتِي، وَحِفْظِي فَرْجِي، وَقَوْلِي بِصِدْقِي، وَوَفَائِي بِعَهْدِي، وَتَكْرِمَتِي ضَيْفِي، وَحِفْظِي جَارِي، وَتَرْكِي مَا لا يَعْنِينِي، فَذَاكَ الَّذِي صَيَّرَنِي إِلَى مَا تَرَى. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْن فُضَيْل، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن وَاقد، عَنْ عبدة بْن رَبَاح، عَنْ رَبِيعَة، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء ﷺ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا وَذَكَرَ لُقْمَان الحَكِيم فَقَالَ: مَا أُوتِيَ مَا أوتي عَنْ أَهْل وَلا مَال، وَلا حَسَب وَلا خِصَال، وَلَكِنَّهُ كَانَ رَجُلًا صَمْصَامَة سِكِّيتًا، طَوِيل التَّفَكُّر، عَمِيق النَّظَر، لَمْ يَنَم نَهَارًا قَطُّ، وَلَمْ يَرَهُ أَحَد قَطُّ يَبْزُق، وَلا يَتَنَخَّع، وَلا يَبُول وَلا يَتَغَوَّط، وَلا يَغْتَسِل، وَلا يَعْبَث، وَلا يَضْحَك، وَكَانَ لا يُعِيد مَنْطِقًا نَطَقَهُ إِلَّا أَنْ يَقُول حِكْمَة يَسْتَعِيدهَا إِيَّاهُ أَحَد، وَكَانَ قَدْ تَزَوَّج وَوُلِدَ لَهُ أَوْلاد، فَمَاتُوا فَلَمْ يَبْكِ عَلَيْهِمْ. وَكَانَ يَغْشَى السُّلْطَان، وَيَأْتِي الحُكَّام، لِيَنْظُر وَيَتَفَكَّر وَيَعْتَبِر، فَبِذَلِكَ أُوتِيَ مَا أُوتِيَ.[٢]

وَقَدْ وَرَدَ أَثَر غَرِيب عَنْ قَتَادَة رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم فَقَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا العَبَّاس بْن الوَلِيد، حَدَّثَنَا زَيْد بْن يَحْيَى بْن عُبَيْد الخُزَاعِيّ، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن بَشِير، عَنْ قَتَادَة قَالَ: خَيَّرَ الله لُقْمَان الحَكِيم بَيْن النُّبُوَّة وَالحِكْمَة، فَاخْتَارَ الحِكْمَة عَلَى النُّبُوَّة. قَالَ: فَأَتَاهُ جِبْرِيل وَهُوَ نَائِم فَذَرّ عَلَيْهِ الحِكْمَة -أَوْ: رَشّ عَلَيْهِ الحِكْمَة-، فَأَصْبَحَ يَنْطِق بِهَا. قَالَ سَعِيد: فَسَمِعْت عَنْ قَتَادَة يَقُول: قِيل لِلُقْمَان: كَيْف اخْتَرْت الحِكْمَة عَلَى النُّبُوَّة وَقَدْ خَيَّرَك رَبّك؟ فَقَالَ: إِنَّهُ لَوْ أَرْسَل إِلَيَّ بِالنُّبُوَّةِ عَزْمَة لَرَجَوْت فِيهِ الفَوْز مِنْهُ، وَلَكُنْت أَرْجُو أَنْ أَقُوم بِهَا، وَلَكِنَّهُ خَيَّرَنِي فَخِفْت أَنْ أَضْعَف عَنْ النُّبُوَّة، فَكَانَتْ الحِكْمَة أَحَبّ إِلَيَّ. فَهَذَا مِنْ رِوَايَة سَعِيد بْن بَشِير وَفِيهِ ضَعْف، وقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ بِسَبَبِهِ، فَالله أَعْلَم. وَالَّذِي رَوَاهُ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة عَنْ قَتَادَة، فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، أَيْ: الفِقْه فِي الإِسْلام، وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ.

وَقَوْله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، أَيْ: الفَهْم وَالعِلْم وَالتَّعْبِير، ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾، أَيْ: أَمَرْنَاهُ أَنْ يَشْكُر الله ﷻ عَلَى مَا أَتَاهُ الله وَمَنَحَهُ وَوَهَبَهُ مِنْ الفَضْل؛ الَّذِي خَصَّهُ بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ مِنْ أَبْنَاء جِنْسه وَأَهْل زَمَانه. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، أَيْ: إِنَّمَا يَعُود نَفْع ذَلِكَ وَثَوَابه عَلَى الشَّاكِرِينَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾، وَقَوْله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾، أَيْ: غَنِيّ عَنْ العِبَاد، لا يَتَضَرَّر بِذَلِكَ، وَلَوْ كَفَرَ أَهْل الأَرْض كُلّهمْ جَمِيعًا فَإِنَّهُ الغَنِيّ عَمَّنْ سِوَاهُ، فَلا إِله إِلَّا الله، وَلا نَعْبُد إِلَّا إِيَّاهُ.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ

---

(١) ضعيف : فيه صفوان بن صالح والوليد بن مسلم، كلاهما يدلس تدليس تسوية، وقد عنعنا في الإسناد.
(٢) ضعيف جدًا : في إسناده عمرو بن واقد: متروك.

﴿بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ وَصِيَّة لُقْمَان لوَلدِهِ، وَهُوَ لُقْمَان بْن عَنْقَاء بْن سدون، وَاسْم ابْنه: ثاران، فِي قَوْل حَكَاهُ السُّهَيْلِيّ. وَقَدْ ذَكَرَهُ تَعَالى بِأَحْسَن الذِّكْر، فإنه آتَاهُ الحِكْمَة، وَهُوَ يُوصِي وَلده الَّذِي هُوَ أَشْفَق النَّاس عَلَيْهِ وَأَحَبّهمْ إِلَيْهِ، فَهُوَ حَقِيق أَنْ يَمْنَحهُ أَفْضَل مَا يَعْرِف، وَلهَذَا أَوْصَاهُ أَوَّلًا بِأَنْ يَعْبُد الله وَحْده ولا يُشْرِك بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ قَال مُحَذِّرًا لهُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾، أَيْ: هُوَ أَعْظَم الظُّلم. قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَة، حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ عَلقَمَة، عَنْ عَبْد الله قَال: لـمَّا نَزَلتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾، شَقَّ ذَلكَ عَلى أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ وَقَالُوا: أَيّنَا لمْ يَلبِس إِيمَانه بظُلم؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ بذاك، أَلا تَسْمَع إِلى قول لُقْمَان: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾»[1] وَرَوَاهُ مُسْلم مِنْ حَدِيث الأَعْمَش بِهِ. ثُمَّ قَرَنَ بِوَصِيَّتِهِ إِيَّاهُ بِعِبَادَةِ الله وَحْده البِرّ بِالوَالدَيْنِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾. وَكَثِيرًا مَا يَقْرِن تَعَالى بَيْن ذَلكَ فِي القُرْآن، وَقَال هَهُنَا: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ قَال مُجَاهِد: مَشَقَّة وَهْن الوَلد. وَقَال قَتَادَة: جَهْدًا عَلى جَهْد. وَقَال عَطَاء الخُرَاسَانِيّ: ضَعْفًا عَلى ضَعْف.

وَقَوْله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾، أَيْ: تَرْبِيَته وَإِرْضَاعه بَعْد وَضْعه فِي عَامَيْنِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾، وَمِنْ هَهُنَا اسْتَنْبَطَ ابْن عَبَّاس وَغَيْره مِنْ الأَئِمَّة أَنَّ أَقَلّ مُدَّة الحَمْل سِتَّة أَشْهُر، لأَنَّهُ قَال تعالى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾، وَإِنَّمَا يَذْكُر تَعَالى تَرْبِيَة الوَالدَة وَتَعبهَا وَمَشَقَّتهَا فِي سَهَرهَا ليْلًا وَنَهَارًا، ليُذَكِّر الوَلد بِإِحْسَانِهَا المُتَقَدِّم إِليْهِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾، وَلهَذَا قَال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أَيْ: فَإِنِّي سَأَجْزِيك عَلى ذَلكَ أَوْفَر جَزَاء.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أبو زُرْعَة، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن أَبِي شَيْبَة، وَمَحْمُود بْن غَيْلان قَالا: حَدَّثَنَا عُبَيْد الله، أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ سَعِيد بْن وَهْب قَال: قَدِمَ عَلَيْنَا مُعَاذ بْن جَبَل، وَكَانَ بَعَثَهُ النَّبِيّ ﷺ فَقَامَ فِي حَمْدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَال: إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ الله ﷺ إِليْكُمْ: «أَنْ تَعْبُدُوا الله وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تُطِيعُونِي لا آلُوكُمْ خَيْرًا، وَإِنَّ المَصِير إِلى الله، وإِلى الجَنَّة أَوْ إِلى النَّار، إِقَامَة فَلا ظَعْن وَخُلُود فَلا مَوْت».[2]

وَقَوْله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾، أَيْ: إِنْ حَرَصَا عَلَيْك كُلّ الحِرْص عَلى أَنْ تُتَابِعهُمَا عَلى دِينهمَا، فَلا تَقْبَل مِنْهُمَا ذَلكَ، وَلا يَمْنَعنك ذَلكَ مِنْ أَنْ تُصَاحِبهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا، أَيْ: مُحْسِنًا إِليْهِمَا ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾، يَعْنِي المُؤْمِنِينَ، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾. قَال الطَّبَرَانِيّ فِي «كِتَاب العَشَرَة»: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْد الرَّحْمَن عَبْد الله بْن أَحْمَد بْن حَنْبَل، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن أَيُّوب بْن رَاشِد، حَدَّثَنَا مَسْلمَة بْن عَلقَمَة، عَنْ دَاوُدَ بْن أَبِي هِنْد، أَنَّ سَعْد بْن مَالك قَال: أُنْزِلتْ فِيَّ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ الآيَة، قَال: كُنْت رَجُلًا بَرًّا بِأُمِّي، فَلمَّا أَسْلمْت

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) صحيح: رجاله ثقات عدا أبي إسحاق فهو مدلس وقد عنعن، وأصل الحديث في «الصحيحين».

قَالتْ: يَا سَعْد، مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكَ قَدْ أَحْدَثْت؟ لتَدَعَنَّ دِينك هَذَا، أَوْ لا آكُل وَلا أَشْرَب حَتَّى أَمُوت، فَتُعَيَّر بِي، فَيُقَال: «يَا قَاتِل أُمّه». فَقُلت: لا تَفْعَلِي يَا أُمّه، فَإِنِّي لا أَدَعُ دِينِي هَذَا لشَيْءٍ. فَمَكَثَتْ يَوْمًا وَلَيْلة لم تَأْكُل فَأَصْبحَتْ قَدْ جَهِدَتْ، فَمَكَثَتْ يَوْمًا آخر وَلَيْلة أُخْرَى لا تَأْكُل، فَأَصْبحَتْ قَدْ اشْتَدَّ جَهْدهَا، فَلَمَّا رَأَيْت ذَلكَ قُلت: يَا أُمَّهْ، تَعْلمِينَ وَالله لوْ كَانَتْ لك مِائَة نَفْس فَخَرَجَتْ نَفْسًا نَفْسًا، مَا تَرَكْت دِينِي هَذَا لشَيْءٍ، فَإِنْ شِئْت فَكُلِي، وَإِنْ شِئْت لا تَأْكُلِي، فَأَكَلتْ.[1]

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾.

هَذِهِ وَصَايَا نَافِعَة قَدْ حَكَاهَا الله تعالى عَنْ لُقْمَان الحَكِيم، ليَمْتَثِلهَا النَّاس وَيَقْتَدُوا بِهَا، فَقَال: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾، أَيْ: إِنَّ المَظْلمَة أَوْ الخَطِيئَة لوْ كَانَتْ مِثْقَال حَبَّة خَرْدَل. وَجوَّزَ بَعْضهمْ أَنْ يَكُون الضَّمِير فِي قَوْله: ﴿إِنَّهَآ﴾ ضَمِير الشَّأْن وَالقِصَّة. وَجَوَّزَ عَلى هَذَا رَفْع ﴿مِثْقَالَ﴾ وَالأَوَّل أَوْلى. وَقَوْله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾، أَيْ: أَحْضَرَهَا الله يَوْم القِيَامَة حِين يَضَع المَوَازِين القِسْط، وَجَازَى عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ. كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ وَلوْ كَانَتْ تِلكَ الذَّرَّة مُحَصَّنَة مُحَجَّبَة فِي دَاخِل صَخْرَة صَمَّاء، أَوْ غَائِبَة ذَاهِبَة فِي أَرْجَاء السَّمَاوَات أو الأَرْض، فَإِنَّ الله يَأْتِي بِهَا، لأَنَّهُ لا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَة، وَلا يَعْزُب عَنْهُ مِثْقَال ذَرَّة فِي السَّمَاوَات وَلا فِي الأَرْض، وَلهَذَا قَال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾، أَيْ: لطِيف العِلم، فَلا تَخْفَى عَليْهِ الأَشْيَاء وَإِنْ دَقَّتْ وَلطُفَتْ وَتَضَاءَلتْ، ﴿خَبِيرٌ ﴾ بِدَبِيبِ النَّمْل فِي اللَّيْل البَهِيم.

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضهمْ أَنَّ المُرَاد بِقَوْلهِ: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾، أَنَّهَا صَخْرَة تَحْت الأَرَضِينَ السَّبْع، ذَكَرَهُ السُّدِّيّ بِإِسْنَادِهِ ذَلكَ المَطْرُوق عَنْ ابْن مَسْعُود وَابْن عَبَّاس وَجَمَاعَة مِنْ الصَّحَابَة إِنْ صَحَّ ذَلكَ، وَيُرْوَى هَذَا عَنْ عَطِيَّة العَوْفِيّ، وَأَبِي مَالك، وَالثَّوْرِيّ، وَالمِنْهَال بْن عَمْرو، وَغَيْرهمْ. وَهَذَا وَالله أَعْلم، كَأَنَّهُ مُتَلقًّى مِنْ الإِسْرَائِيليَّات الَّتِي لا تُصَدَّق وَلا تُكَذَّب، وَالظَّاهِر -وَالله أَعْلم- أَنَّ المُرَاد أَنَّ هَذِهِ الحَبَّة فِي حَقَارَتهَا لوْ كَانَتْ دَاخِل صَخْرَة فَإِنَّ الله سَيُبْدِيهَا وَيُظْهِرهَا بِلطِيفِ عِلمه، كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة، حَدَّثَنَا دَرَّاج، عَنْ أَبِي الهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ ﷺ عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «لوْ أَنَّ أَحَدكُمْ يَعْمَل فِي صَخْرَة صَمَّاء، ليْسَ لهَا بَاب وَلا كَوَّة، لخَرَجَ عَمَله للنَّاس كَائِنًا مَا كَانَ».[2]

ثُمَّ قَال: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، أَيْ: بِحُدُودِهَا وَفُرُوضهَا وَأَوْقَاتهَا، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، أَيْ: بِحَسَبِ طَاقَتك وَجَهْدك، ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾. عَلمَ أَنَّ الآمِر بِالمَعْرُوفِ النَّاهِي عَنْ المُنْكَر، لابُدَّ أَنْ يَنَالهُ مِنْ النَّاس أَذًى فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ. وَقَوْله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: إِنَّ الصَّبْر عَلى أَذَى النَّاس لمِنْ عَزْم

---

(١) صحيح : تقـدم.
(٢) ضعيف : تقـدم.

الأُمُور. وَقَوْله: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾، يَقُول: لا تُعْرِض بِوَجْهِك عَنْ النَّاس إِذَا كَلَّمْتهمْ أَوْ كَلَّمُوك، احْتِقَارًا مِنْك لَهُمْ، وَاسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ، وَلكِنْ أَلِنْ جَانِبك، وَابْسُطْ وَجْهك إِلَيْهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: **«وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاك وَوَجْهك إِلَيْهِ مُنْبَسِط، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَال الإِزَار فَإِنَّهَا مِنْ المَخِيلَة، وَالمَخِيلَة لا يُحِبّهَا الله»**.[1]

قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾، يَقُول: لا تَتَكَبَّر فَتَحْقِر عِبَاد الله وَتُعْرِض عَنْهُمْ بِوَجْهِك إِذَا كَلَّمُوك. وَكَذَا رَوَى العَوْفِيّ وَعِكْرِمَة عَنْهُ. وَقَال مَالك عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾، لا تَكَلَّم وَأَنْتَ مُعْرِض، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَيَزِيد بْن الأَصَمّ، وَأَبِي الجَوْزَاء، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالضَّحَّاك، وَابْن زَيْد، وَغَيْرهمْ. وَقَال إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ: يَعْنِي بِذَلكَ التَّشْدِيق فِي الكَلام. وَالصَّوَاب القَوْل الأَوَّل.

قَال ابْن جَرِير: وَأَصْل الصَّعَر دَاء يَأْخُذ الإِبِل فِي أَعْنَاقهَا أَوْ رُءُوسهَا، حَتَّى تلفت أَعْنَاقهَا عَنْ رُءُوسهَا، فَشُبِّهَ بِهِ الرَّجُل المُتَكَبِّر، وَمِنْهُ قَوْل عَمْرو بْن حُني التَّغْلبِيّ:

وَكُنَّا إِذَا الجَبَّار صَعَّرَ خَدَّه ۞ أَقَمْنَا لَهُ مِنْ مَيْله فَتَقَوَّمَا

وَقَال أَبُو طَالب فِي شِعْره:

وَكُنَّا قَدِيمًا لا نُقِرّ ظُلامَة ۞ إِذَا مَا ثَنَوْا صَعْر الرُّءُوس نُقِيمهَا

وَقَوْله: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾، أَيْ: جذلاً مُتَكَبِّرًا جَبَّارًا عَنِيدًا، لا تَفْعَل ذَلكَ يُبْغِضك الله، وَلهَذَا قَال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾، أَيْ: مُخْتَال مُعْجَب فِي نَفْسه، فَخُور، أَيْ: عَلى غَيْره. وَقد قَال تَعَالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلام عَلى ذَلكَ فِي مَوْضِعه. وَقَال الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله الحَضْرَمِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عِمْرَان بْن أَبِي ليْلى، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ ابْن أَبِي ليْلى، عَنْ عِيسَى، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي ليْلى، عَنْ ثَابِت بْن قَيْس بْن شَمَّاس قَال: ذُكِرَ الكِبْر عِنْد رَسُول الله ﷺ فَشَدَّدَ فِيهِ، فَقَال: **«إِنَّ الله لا يُحِبّ كُلّ مُخْتَال فَخُور»**. فَقَال رَجُل مِنْ القَوْم: وَالله يَا رَسُول الله؛ إِنِّي لأَغْسِل ثِيَابِي فَيُعْجِبنِي بَيَاضهَا، وَيُعْجِبنِي شِرَاك نَعْلِي، وَعَلاقَة سَوْطِي، فقال: **«ليْسَ ذَلكَ الكِبْر، إِنَّمَا الكِبْر أَنْ تُسَفِّه الحَقّ، وَتَغْمِط النَّاس»**[2]. وَرَوَاهُ مِنْ طَرِيق أُخْرَى بِمِثْلِهِ، وَفِيهِ قِصَّة طَوِيلة، وَمَقْتَل ثَابِت وَوَصِيَّته بَعْد مَوْته.

وَقَوْله: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾، أَيْ: امْشِ مَشْيًا مُقْتَصِدًا ليْسَ بِالبَطِيءِ المُتَثَبِّط، وَلا بِالسَّرِيعِ المُفْرِط، بَل عَدْلًا وَسَطًا بَيْن بَيْن. وَقَوْله: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾، أَيْ: لا تُبَالغ فِي الكَلام، وَلا تَرْفَع صَوْتك فِيمَا لا فَائِدَة فِيهِ؛ وَلهَذَا قَال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾. قَال مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد: إِنَّ أَقْبَح الأَصْوَات لصَوْت الحَمِير. أَيْ: غَايَة مَنْ رَفَعَ صَوْته أَنَّهُ يُشَبَّه بِالحَمِيرِ فِي عُلُوِّهِ وَرَفْعه، وَمَعَ هَذَا هُوَ بَغِيض إِلى الله تعالى. وَهَذَا التَّشْبِيه فِي هَذَا بِالحَمِيرِ يَقْتَضِي تَحْرِيمه وَذَمّه غَايَة الذَّمّ، لأَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«ليْسَ لنَا مَثَلُ السَّوْء، العَائِد فِي هِبَته كَالكَلبِ يَقِيء ثُمَّ يَعُود فِي قَيْئِهِ»**.[1]

وَقَال النَّسَائِيّ عِنْد تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا قُتَيْبَة بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا اللَّيْث، عَنْ جَعْفَر بْن رَبِيعَة، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاح الدِّيَكَة فَاسْأَلُوا الله مِنْ فَضْله، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيق الحَمِير فَتَعَوَّذُوا بِالله مِنْ الشَّيْطَان، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا»**. وَقَدْ أَخْرَجَهُ بَقِيَّة الجَمَاعَة سِوَى ابْن مَاجَهْ مِنْ طُرُق عَنْ جَعْفَر

---

(١) صحيح: تقــدم.

(٢) أخرجه الطبراني (٢/ ٦٩/ ١٣١٧)، و(٢/ ٧٠/ ١٣٢٠)، وله شاهد صحيح بمعناه أخرجه مسلم (٩١).

ابْن رَبِيعَة بِهِ[١]، وَفِي بَعْض الأَلْفَاظ: «**بِاللَّيْل**». فَالله أَعْلَم. فَهَذِهِ وَصَايَا نَافِعَة جِدًّا، وَهِيَ مِنْ قَصَص القُرْآن العَظِيم عَنْ لُقْمَان الحَكِيم. وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ مِنْ الحِكَم وَالمَوَاعِظ أَشْيَاء كَثِيرَة، فَلنَذْكُرْ مِنهَا أُنْمُوذَجًا وَدُسْتُورًا إِلَى ذَلِكَ.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن إِسْحَاق، أَخْبَرَنَا ابْن المُبَارَك، أَخْبَرَنَا سُفْيَان، أَخْبَرَنِي نَهْشَل بْن مُجَمِّع الضَّبِّيّ، عَنْ قَزَعَة عَنْ ابْن عُمَر ﷺ قَال: أَخْبَرَنَا رَسُول الله ﷺ قَال: «إِنَّ لُقْمَان الحَكِيم كَانَ يَقُول: إِنَّ الله إِذَا اسْتُوْدِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ».[٢] وقال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الأَشَجّ، حَدَّثَنَا عِيسَى بْن يُونُس، عَنْ الأَوْزَاعِيّ، عَنْ مُوسَى بْن سُلَيْمَان، عَنْ القَاسِم يحدِّث عَنْ أبي موسَى الأشعري أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «قَال لُقْمَان الحَكِيم لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظهُ: يا بُنَيّ، إِيَّاكَ وَالتَّقَنُّع فَإِنَّهُ مَخُوفَة بِاللَّيْل مذلة بِالنَّهَارِ».[٣]

وَقَال: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عُثْمَان، عن ضَمْرَة، حَدَّثَنَا السَّرِي بْن يَحْيَى قَال: قَال لُقْمَان لابْنِهِ: يا بُنَيّ، إِنَّ الحِكْمَة أَجْلَسَتْ المَسَاكِين مَجَالس المُلُوك. وَقَال: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدَة بْن سُلَيْمَان، أَخْبَرَنَا ابْن المُبَارَك، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن المَسْعُودِيّ، عَنْ عَوْن بْن عَبْد الله قَال: قَال لُقْمَان لابْنِهِ: يا بُنَيّ؛ إِذَا أَتَيت نَادِيَ قَوْم فَارْمِهِمْ بِسَهْم الإِسْلام -يَعْنِي السَّلام-، ثُمَّ اجْلِسْ فِي نَاحِيَتهمْ، فَلا تَنْطِق حَتَّى تَرَاهُمْ قَدْ نَطَقُوا. فَإِنْ أَفَاضُوا فِي ذِكْر الله فَأَجِّل سَهْمك مَعَهُمْ، وَإِنْ أَفَاضُوا فِي غَيْر ذَلكَ فَتحَوَّل عَنْهُمْ إِلَى غَيْرهم.[٤] وحَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عُثْمَان ابْن سَعِيد بْن كَثِير بْن دِينَار، حَدَّثَنَا ضَمْرَة، عَنْ حَفْص بْن عُمَر ﷺ قَال: وَضَعَ لُقْمَان جِرَابًا مِنْ خَرْدَل إِلَى جَانِبه، وَجَعَل يَعِظ ابْنه وَعْظَة وَيُخْرِج خَرْدَلَة، حَتَّى نَفَد الخَرْدَل، فَقَال: يا بُنَيّ، لقَدْ وَعَظْتُك مَوْعِظَة لوْ وُعِظَهَا جَبَل تَفَطَّرَ. قَال: فَتَفَطَّرَ ابْنه.[٥]

وَقَال أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن عَبْد البَاقِي المِصِّيصِيّ، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْد الرَّحْمَن الحراني، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن عَبْد الرَّحْمَن الطَّرَائِفِيّ، حَدَّثَنَا أَيمن بْن سُفْيَان المَقْدِسِيّ، عَنْ خليفَة بْن سَلَّام، عَنْ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «اتَّخِذُوا السُّودَان، فَإِنَّ ثَلاثَة مِنْهُمْ مِنْ سَادَات أَهْل الجَنَّة لُقْمَان الحَكِيم، وَالنَّجَاشِيّ، وَبِلال المُؤَذِّن»[٦]. قَال أبو القاسم الطَّبَرَانِيّ: أَرَادَ الحَبَش.

فَصْلٌ فِي الخُمُول وَالتَّوَاضُع

وَذَلكَ مُتَعَلِّق بِوَصِيَّةِ لُقْمَان عَلَيْهِ السَّلَام لابْنِهِ وَقَدْ جَمَعَ فِي ذَلكَ الحَافِظ أَبُو بَكْر ابْن أَبِي الدُّنْيَا كِتَابًا مُفْرَدًا، نَحْنُ نَذْكُر مِنْهُ مَقَاصِده. قَال: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن المُنْذِر، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن مُوسَى المَدَنِيّ، عَنْ أُسَامَة بْن زَيْد، عن حَفْص بْن عبيد الله بْن أَنَس، عَنْ جَدّه أَنَس بْن مَالك: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**رُبَّ أَشْعَث ذِي طِمْرَيْن يُصْفَح عَنْ أَبْوَاب النَّاس، إِذَا أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّه**». ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ حَدِيث جَعْفَر بْن سُلَيْمَان، عَنْ ثَابِت وَعَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ أَنَس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فَذَكَره، وَزَادَ: «**مِنْهُمْ البَرَاء بْن مَالك**».[٧]

وَقَال أَبُو بَكْر ابْن سَهْل التَّمِيمِيّ: حَدَّثَنَا ابْن أَبِي مَرْيَم، حَدَّثَنَا نَافِع بْن يَزِيد، عَنْ عَيَّاش بْن عَبَّاس، عَنْ عِيسَى بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُمَر ﷺ أَنَّهُ دَخَل المَسْجِد فَإِذَا هُوَ بِمُعَاذِ بْن جَبَل يَبْكِي

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٣٠٣)، ومسلم (٢٧٢٩)، وأبو داود (٥١٠٢).
(٢) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٢/ ٨٧)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٣١٩١).
(٣) **ضعيف**: أخرجه الحاكم (٢/ ٤١١)، وفيه موسى بن سليمان القرشي: مقبول.
(٤) **ضعيف**: في إسناده المسعودي: اختلط بآخره، وإسناده مرسل لم يصله.
(٥) **لا يصح**: لأنه لم يسنده للنبي ﷺ.
(٦) **ضعيف جدًا**: أخرجه الطبراني (١١/ ١٩٨)، وفيه أيمن بن سفيان، قال البخاري: لا يكتب حديثه.
(٧) **صحيح**: صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢١٢).

عِنْد قَبْر رَسُول الله ﷺ فَقَال لهُ: مَا يُبْكِيك يَا مُعَاذ؟ قَال: حَدِيث سَمِعْته مِنْ رَسُول الله ﷺ، سَمِعْته يَقُول: «إِنَّ الْيَسِير مِنْ الرِّيَاء شِرْك، وَإِنَّ الله يُحِبّ الأَتْقِيَاء الأَخْفِيَاء الأَثْرِيَاء، الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، وَإِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، قُلُوبهمْ مَصَابِيح الهُدَى، يَنْجُونَ مِنْ كُلّ غَبْرَاء مُظْلِمَة». [١]

حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن شُجَاع، حَدَّثَنَا عثَّام بْن عَليّ، عَنْ حُمَيْد بْن عَطَاء الأَعْرَج، عَنْ عَبْد الله بْن الحَارِث، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لهُ، لوْ أَقْسَمَ عَلى الله لأَبَرَّهُ، لوْ قَال: اللَّهُمَّ؛ إِنِّي أَسْأَلُك الجَنَّة، لأَعْطَاهُ الجَنَّة، وَلمْ يُعْطِهِ مِنْ الدُّنْيَا شَيْئًا». [٢]

وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ سَالم بْن أَبِي الجَعْد قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لوْ أَتَى بَاب أَحَدكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَارًا أَوْ دِرْهَمًا أَوْ فَلسًا لمْ يُعْطِهِ، وَلوْ سَأَل الله الجَنَّة لأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، وَلوْ سَأَلهُ الدُّنْيَا لمْ يُعْطِهِ إِيَّاهَا، وَلمْ يَمْنَعهَا إِيَّاهُ لهَوَانِهِ عَليْهِ، ذُو طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لهُ، لوْ أَقْسَمَ عَلى الله لأَبَرَّهُ». [٣] وَهَذَا مُرْسَل مِنْ هَذَا الوَجْه.

وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم، أَخْبَرَنَا جَعْفَر بْن سُليْمَان، حَدَّثَنَا عَوْف قَال: قَال أَبُو هُرَيْرَة: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ مُلُوك الجَنَّة كل أَشْعَث أَغْبَر ذي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لهُ، الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلى الأُمَرَاء لمْ يُؤْذَن لهُمْ، وَإِذَا خَطَبُوا النِّسَاء لمْ يُنْكَحُوا، وَإِذَا قَالُوا لمْ يُنْصَت لهُمْ حَوَائِج أَحَدهمْ تَتَجلجَل فِي صَدْره، لوْ قُسِمَ نُوره يَوْم القِيَامَة بَيْن النَّاس لوَسِعَهُمْ» [٤]. قَال: وَأَنْشَدَنِي عُمَر بْن شبة عَنْ ابْن عَائِشَة قَال: قَال عَبْد الله بْن المُبَارَك:

أَلا رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ فِي مَنْزِل غَدًا ۞ زَرَابِيّه مَبْثُوثَة وَنَمَارِقه
قَدْ اطَّرَدَتْ أنهاره حَوْل قَصْره ۞ وَأَشْرَقَ، وَالتَفَّتْ عَليْهِ حَدَائِقه

وَرُوِيَ أَيْضًا مِنْ حَدِيث عُبَيْد الله بْن زَحْر، عَنْ عَليّ بْن يزيد، عَنْ القَاسِم، عَنْ أَبِي أُمَامَة مَرْفُوعًا: «قَال الله: مِنْ أَغْبَط أَوْليَائِي عِنْدِي مُؤْمِن خَفِيف الحَاذ، ذُو حَظّ مِنْ صَلاة، أَحْسَنَ عِبَادَة رَبّه، وَأَعْطَاهُ فِي السِّرّ، وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاس، لا يُشَار إِليْهِ بِالأَصَابِع إِنْ صَبَرَ عَلى ذَلكَ. قَال: ثُمَّ نفر. رَسُول الله ﷺ بِيَدِهِ، وَقَال: «عُجِّلتْ مَنِيَّته، وَقَلَّ تُرَاثه، وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ» [٥]. وَعَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو قَال: أَحَبّ عِبَاد الله إِلى الله الغُرَبَاء، قِيل: وَمَنْ الغُرَبَاء؟ قَال: الفَرَّارُونَ بِدِينِهِمْ، يُجْمَعُونَ يَوْم القِيَامَة إِلى عِيسَى ابْن مَرْيَم. [٦]

وَقَال الفُضَيْل بْن عِيَاض: بَلغَنِي أَنَّ الله تَعَالى يَقُول للعَبْدِ يَوْم القِيَامَة: «أَلمْ أُنْعِم عَليْك؟ أَلمْ أُعْطِك؟ أَلمْ أَسْتُرك؟ أَلمْ..؟ أَلمْ..؟ أَلمْ أُخْمِل ذِكْرك؟». ثُمَّ قَال الفُضَيْل: إِنْ اسْتَطَعْت أَنْ لا تُعْرَف فَافْعَل، وَمَا عَليْك أَنْ لا يُثْنَى عَليْك، وَمَا عَليْك أَنْ تَكُون مَذْمُومًا عِنْد النَّاس محمودًا عِنْد الله. وَكَانَ ابْن مُحَيْرِيز يَقُول: اللَّهُمَّ؛ إِنِّي أَسْأَلُك ذِكْرًا خَامِلًا. وَكَانَ الخَليل بْن أَحْمَد يَقُول: اللَّهُمَّ؛ اجْعَلنِي عِنْدك مِنْ أَرْفَع خَلقِك، وَاجْعَلنِي فِي نَفْسِي مِنْ أَوْضَع خَلقِك، وَعِنْد النَّاس مِنْ أَوْسَط خَلقك. [٧] ثم قال:

---

(١) **ضعيف جدًا**: أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٨)، وابن ماجه (٣٩٨٩)، وفيه عيسى بن عبد الرحمن الزرقي: متروك. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه».

(٢) **ضعيف عدا الفقرة الأولى**: وفي إسناده حميد الأعرج: ضعيف.

(٣) **مرسل**: أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٨).

(٤) **رجاله ثقات**: ولكنه منقطع، فعوف لم يسمع من أبي هريرة.

(٥) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٢٣٤٧)، وأحمد (٥/ ٢٥٢)، وفيه علي بن زيد الألهاني: ضعيف. وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

(٦) **ضعيف**: أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٨)، وفيه محمد بن سالم: ضعيف.

(٧) **ضعيف**: أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٧)، وفيه إبراهيم بن الأشعث: ضعيف.

بَاب مَا جَاءَ فِي الشُّهْرَة

حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عِيسَى المِصْرِيّ، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب عَنْ عمرو بْن الحَارِث وَابْن لَهِيعَة، عَنْ يَزِيد بْن أَبِي حَبِيب، عَنْ سِنَان بْن سَعْد، عَنْ أَنَس عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «حَسْب امْرِئٍ مِنْ الشَّرّ -إلاَّ مَنْ عَصَمَ الله- أَنْ يُشِير النَّاس إِلَيْهِ بِالأَصَابِع فِي دِينه وَدُنْيَاهُ، وَإِنَّ الله لا يَنْظُر إِلى صُوَركُمْ وَلكِنْ إِلى قُلُوبكُمْ وَأَعْمَالكُمْ»[1]. وَرُوِيَ مِثْله عَنْ إِسْحَاق بْن البُهْلُول، عَنْ ابْن أَبِي فُدَيْك، عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الوَاحِد الأَخْنَسِيّ، عَنْ عَبْد الوَاحِد بْن أَبِي كَثِير، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله مَرْفُوعًا، مِثْله. وَرُوِيَ عَنْ الحَسَن مُرْسَلًا نَحْوه، فَقِيل للحَسَنِ: فَإِنَّهُ يُشَار إِلَيْك بِالأَصَابِع؟ فَقَال: إِنَّمَا المُرَاد مَنْ يُشَار إِلَيْهِ فِي دِينه بِالبِدْعَة، وَفِي دُنْيَاهُ بِالفِسْق.

وَعَنْ عَلِيّ رضي الله عنه قَال: لا تَبْدَأ لأَنْ تَشْتَهِر، وَلا تَرْفَع شَخْصك لِتُذْكَر، وَتُعْلم وَاكْتُم، وَاصْمُتْ تَسْلم، تَسُرّ الأَبْرَار، وَتَغِيظ الفُجَّار. وَقَال إِبْرَاهِيم بْن أَدْهَم رَحِمَهُ اللهُ: مَا صَدَقَ الله مَنْ أَحَبَّ الشُّهْرَة. وَقَال أَيُّوب: مَا صَدَقَ الله عَبْد إِلَّا سَرَّهُ أَنْ لا يُشْعَر بِمَكَانِهِ. وَقَال مُحَمَّد بْن العَلاء: مَنْ أَحَبَّ الله أَحَبَّ أَنْ لا يَعْرِفهُ النَّاس. وَقَال سِمَاك ابْن سَلمَة: إِيَّاكَ وَكَثْرَة الأَخِلَّاء. وَقَال أَبَان بْن عُثْمَان: إِنْ أَحْبَبْت أَنْ يَسْلم لك دِينك فَأَقِلّ مِنْ المَعَارِف. كَانَ أَبُو العَالِيَة إِذَا جَلَسَ إِلَيْهِ أَكْثَر مِنْ ثَلاثَة نَهَضَ وَتَرَكَهُمْ.

وَقَال: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الجَعْد، أَخْبَرَنَا شُعْبَة، عَنْ عَوْف، عَنْ أَبِي رَجَاء قَال: رَأَى طَلحَة قَوْمًا يَمْشُونَ مَعَهُ، فَقَال: ذُبَاب طَمَع، وَفَرَاش النَّار.

وَقَال ابْن إِدْرِيس، عَنْ هَارُون [بن عنترة][2]، عَنْ سُلَيْم بْن حَنْظَلَة قَال: بَيْنَا نَحْنُ حَوْل أَبِي إِذْ عَلاهُ عُمَر بْن الخَطَّاب بِالدِّرَّةِ، وَقَال: إِنَّهَا مَذَلَّة للتَّابِع، وَفِتْنَة للمَتْبُوع. وَقَال ابْن عَوْن عَنْ الحَسَن: خَرَجَ ابْن مَسْعُود فَاتَّبَعَهُ أُنَاس، فَقَال: وَالله لوْ تَعْلمُونَ مَا أُغْلق عَليْهِ بَابِي، مَا اتَّبَعَنِي مِنْكُمْ رَجُلانِ. وَقَال حَمَّاد بْن زَيْد: كُنَّا إِذَا مَرَرْنَا عَلى المَجْلس وَمَعَنَا أَيُّوب، فَسَلَّمَ، رَدُّوا رَدًّا شَدِيدًا، فَكَانَ ذَلكَ يغمه. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر: كَانَ أَيُّوب يُطِيل قَمِيصه، فَقِيل لهُ فِي ذَلكَ، فَقَال: إِنَّ الشُّهْرَة فِيمَا مَضَى كَانَتْ فِي طُول القَمِيص، وَاليَوْم فِي تَشْمِيره. وَاصْطَنَعَ مَرَّة نَعْليْنِ عَلى حَذْو نَعْليْ النَّبِيّ ﷺ فَلبِسَهُمَا أَيَّامًا ثُمَّ خَلعَهُمَا، وَقَال: لمْ أَرَ النَّاس يَلبَسُونَهُمَا. وَقَال إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ: لا تلبسوا مِنْ الثِّيَاب مَا يشتهرك الفقهاء، وَلا مَا يَزْدَرِيك السُّفَهَاء. وَقَال الثَّوْرِيّ: كَانُوا يَكْرَهُونَ مِنْ الثِّيَاب الجِيَاد، الَّتِي يُشْتَهَر بِهَا وَيَرْفَع النَّاس إِليْهِ فِيهَا أَبْصَارهمْ، وَالثِّيَاب الرَّدِيئَة الَّتِي يُحْتَقَر فِيهَا، وَيُسْتَذَلّ دِينه.

وَحَدَّثَنَا خَالد بْن خِدَاش: حَدَّثَنَا حَمَّاد، عَنْ أَبِي حَسَنَة -صَاحِب الزِّيَادِيّ- قَال: كُنَّا عِنْد أَبِي قِلابَة إِذْ دَخَل عَليْهِ رَجُل عَليْهِ أَكْسِيَة، فَقَال: إِيَّاكُمْ وَهَذَا الحِمَار النَّهَّاق! وَقَال الحَسَن رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّ قَوْمًا جَعَلُوا الكِبْر فِي قُلُوبهمْ، وَالتَّوَاضُع فِي ثِيَابهمْ، فَصَاحِب الكِسَاء بِكِسَائِهِ أعظم مِنْ صَاحِب المِطْرَف بِمِطْرَفه، مَا لهُمْ تَفَاقروا. وَفِي بَعْض الأَخْبَار: أَنَّ مُوسَى عليه السلام قَال لبَنِي إِسْرَائِيل: مَا لكُمْ تَأْتُونِي عَليْكُمْ ثِيَاب الرُّهْبَان، وَقُلُوبكُمْ قُلُوب الذِّئَاب؟ البَسُوا ثِيَاب المُلُوك، وَأَلِينُوا قُلُوبكُمْ بِالخَشْيَةِ.

فَصْل فِي حُسْن الخُلُق

قَال أَبُو التَّيَّاح عن أنس رضي الله عنه: كَانَ رَسُول الله ﷺ مِنْ أَحْسَن النَّاس خُلُقًا.[3] وَعَنْ عَطَاء، عَنْ ابْن عُمَر،

---

(١) حسن: أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع» بإسناد حسن.
(٢) في نسخة: [بن أبي عيسى].
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).

قِيل: يَا رَسُول الله؛ أَيّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَل؟ قَال: «أَحْسَنهمْ خُلُقًا»[١]. وَعَنْ نُوح بْن عَبَّاد عَنْ ثَابِت عَنْ أَنَس مَرْفُوعًا: «إِنَّ العَبْد لَيَبْلُغ بِحُسْنِ خُلُقه دَرَجَات الآخِرَة وَشَرَف المَنَازِل، وَإِنَّهُ لَضَعِيف العِبَادَة. وَإِنَّهُ لَيَبْلُغ بِسُوءِ خُلُقه دَرْك جَهَنَّم وَهُوَ عَابِد»[٢]. وَعَنْ سنان بْن هَارُون، عَنْ حُمَيْد، عَنْ أَنَس مَرْفُوعًا: «ذَهَبَ حُسْنُ الخُلُق بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَة». والمطلب، عَنْ عَائِشَة مَرْفُوعًا: «إِنَّ العَبْد لَيَبْلُغ بِحُسْنِ خُلُقه دَرَجَة قَائِم اللَّيْل صَائِم النَّهَار».[٣]

وَقَال ابْن أَبِي الدُّنْيَا: حَدَّثَنِي أَبُو مُسْلم عَبْد الرَّحْمَن بْن يُونُس، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن إِدْرِيس، أَخْبَرَنِي أَبِي وَعَمِّي، عَنْ جَدِّي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﵁ سُئِل رَسُول الله ﷺعَنْ أَكْثَر مَا يُدْخِل النَّاس الجَنَّة؟ فَقَال: «تَقْوَى الله، وَحُسْن الخُلُق». وَسُئِل عَنْ أَكْثَر مَا يُدْخِل النَّاس النَّار، فَقَال: «الأَجْوَفَانِ: الفَم وَالفَرْج».[٤] وَقَال أُسَامَة بْن شَرِيك: كُنْت عِنْد رَسُول الله ﷺ، فَجَاءَتْهُ الأَعْرَاب مِنْ كُلّ مَكَان، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، مَا خَيْر مَا أُعْطِي الإِنْسَان؟ قَال: «حُسْن الخُلُق».[٥]

وَقَال يَعْلى بْن سِمَاك، عَنْ أُمّ الدَّرْدَاء، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء -يَبْلُغ بِهِ- قَال: «مَا شَيْء أَثْقَل فِي المِيزَان مِنْ حُسْن الخُلُق».[٦] وَكَذَا رَوَاهُ عَطَاء، عَنْ أُمّ الدَّرْدَاء، بِهِ. وَعَنْ مَسْرُوق عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحَاسنكم أَخْلَاقًا»[٧]. حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن أَبِي بدر، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عبيد، عَنْ مُحَمَّد بْن أَبِي سَارَّة، عَنْ الحَسَن بْن عَلِيّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «إِنَّ الله لَيُعْطِي العَبْد مِنْ الثَّوَاب عَلى حُسْن الخُلُق، كَمَا يُعْطِي المُجَاهِد فِي سَبِيل الله، يَغْدُو عَلَيْهِ الأَجْر وَيَرُوح»[٨]. وَعَنْ مَكْحُول، عَنْ أَبِي ثَعْلبَة مَرْفُوعًا: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلسًا أَحَاسِنكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِليَّ وَأَبْعَدكُمْ مِنِّي مَنْزِلاً فِي الجَنَّة مَسَاوِيكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرْثَارُونَ المُتَشَدِّقُونَ المُتَفَيْهِقُونَ»[٩]. وَعَنْ أَبِي أُوَيْس، عَنْ مُحَمَّد بْن المُنْكَدِر، عَنْ جَابِر مَرْفُوعًا: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَكْمَلكُمْ إِيمَانًا؟ أَحَاسِنكُمْ أَخْلَاقًا، المُوَطَّئُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يُؤْلفُونَ وَيَأْلفُونَ».[١٠]

وَقَال اللَّيْث: عَنْ يَزِيد بْن عَبْد الله بْن أُسَامَة، عَنْ بَكْر بْن أَبِي الفُرَات قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «مَا حَسَّنَ الله خُلُق رَجُل وَخَلقه فَتَطْعَمهُ النَّار»[١١]. وَعَنْ عَبْد الله بْن غَالب الحَدَّانِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد مَرْفُوعًا: «خَصْلتَانِ لا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِن: البُخْل وَسُوء الخُلُق».[١٢] وَقَال مَيْمُون بْن مِهْرَان، عَنْ رَسُول الله ﷺ : «مَا مِنْ ذَنْب أَعْظَم

---

(١) **حسن بمجموع طرقه** : أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٦٥)، وابن ماجه (٤٢٥٩)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

(٢) **حسن لشواهده** : أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٦٨) بإسناد لا بأس به.

(٣) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٣٥٠٠)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٠٨٢).

(٤) **حسن الإسناد** : أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وحسن إسناده الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٢).

(٦) **صحيح** : أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٧) **صحيح** : أخرجه البخاري (٣٥٥٩، ٣٧٥٩)، ومسلم (٢٣٢١).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٧٦).

(٩) **صحيح** : أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(١٠) **حسن** : أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٧٦)، وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري؛ وأخرجه الطبراني في «الصغير» (١٢٥) وإسناده حسن.

(١١) **موضوع** : في إسناده أبو سعيد العدوي وخراش: وكلاهما كذاب.

(١٢) **ضعيف** : أخرجه الترمذي (١٩٦٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٦) وفيه صدقة بن موسى: ضعيف، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١١١٩).

عِنْد الله مِنْ سُوء الخُلُق، وَذَلكَ أَنَّ صَاحِبه لا يَخْرُج مِنْ ذَنْب إلاَّ وَقَعَ فِي آخَر»[١]. حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الجَعْد، حَدَّثَنَا أَبُو المُغِيرَة الأَحْمَسِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق، عَنْ رَجُل مِنْ قُرَيْش قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الخُلُق الحَسَن لَيُذِيب الذُّنُوب كَمَا تُذِيب الشَّمْس الجَليد، وَإِنَّ الخُلُق السَّيِّئ لَيُفْسِد العَمَل كَمَا يُفْسِد الخَلّ العَسَل».[٢] وَقَال عَبْد الله بْن إِدْرِيس، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَرْفُوعًا: «إِنَّكُمْ لا تَسَعُونَ النَّاس بِأَمْوَالكُمْ، وَلَكِنْ يَسَعهُمْ مِنْكُمْ بَسْط وُجُوه وَحُسْن خُلُق».[٣] وَقَال مُحَمَّد بْن سِيرِينَ: حُسْن الخُلُق عَوْن عَلَى الدِّين.

فَصْل فِي ذَمّ الكِبْر

قَال عَلقَمَة، عَنْ ابْن مَسْعُود -رَفَعَهُ-: **«لا يَدْخُل الجنَّة مَنْ كَانَ فِي قَلبه مِثْقَال حبة مِنْ كِبْر، وَلا يَدْخُل النَّار مَنْ فِي قلبه مِثْقَال حبة مِنْ إِيمَان»**[٤]. وَقَال إِبْرَاهِيم بْن أَبِي عَبْلَة، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو مَرْفُوعًا: **«مَنْ كَانَ فِي قَلبه مِثْقَال ذَرَّة مِنْ كِبْر، أَكَبَّهُ الله عَلَى وَجْهه فِي النَّار»**.[٥] حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، عَنْ عُمَر بْن رَاشِد، عَنْ إِيَاس بْن سَلَمَة، عَنْ أَبِيهِ مَرْفُوعًا: «لا يَزَال الرَّجُل يَذْهَب بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَب عِنْد الله مِنْ الجَبَّارِينَ، فَيُصِيبهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ العَذَاب».[٦]

وَقَال مَالك بْن دِينَار: رَكِبَ سُلَيْمَان بْن دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ذَات يَوْم البِسَاط فِي مِائَتَيْ أَلف مِنْ الإِنْس، وَمِائَتَيْ أَلف مِنْ الجِنّ، فَرُفِعَ حَتَّى سَمِعَ تَسْبِيح المَلَائِكَة فِي السَّمَاء، ثُمَّ خفضوه حَتَّى مَسَّتْ قَدَمه مَاء البَحْر، فَسَمِعُوا صَوْتًا: لَوْ كَانَ فِي قَلب صَاحِبكُمْ مِثْقَال ذَرَّة مِنْ كِبْر لَخُسِفَ بِهِ أَبْعَد مِمَّا رُفِعَ. حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمَة، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، عَنْ حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس قَال: كَانَ أَبُو بَكْر يَخْطُبنَا فَيَذْكُر بَدْء خَلق الإِنْسَان، حَتَّى إِنَّ أَحَدنَا لَيُقَذِّر نَفْسه، يَقُول: خَرَجَ مِنْ مَجْرَى البَوْل، مَرَّتَيْنِ.

وَقَال الشَّعْبِيّ: مَنْ قَتَل اثْنَيْنِ فَهُوَ جَبَّار، ثُمَّ تَلا: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾. وَقَال الحَسَن: عَجَبًا لابْنِ آدَم! يَغْسِل الخُرْء بِيَدِهِ فِي اليَوْم مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَتَكَبَّر! يُعَارِض جَبَّار السَّمَاوَات. قَال: حَدَّثَنَا خَالد بْن خِدَاش، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد، عَنْ عَلِيّ عن الحَسَن، عَنْ الضَّحَّاك بْن سُفْيَان، فَذَكَرَ حَدِيث: «ضَرْب مَثَل الدُّنْيَا بِمَا يَخْرُج مِنْ ابْن آدَم»[٧]. وَقَال الحَسَن: عَنْ عتي، عَنْ أُبَيّ قَال: إِنَّ مَطْعَم ابن آدَم ضُرِبَ مَثَلًا للدُّنْيَا، وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ. وَقَال مُحَمَّد بْن الحُسَيْن بْن عَلِيّ -من ولد علي رضي الله عنه-: مَا دَخَل قَلب رَجُل شَيْء مِنْ كِبْر إِلَّا نَقَصَ مِنْ عَقْله بِقَدْرِ ذَلكَ.

وَقَال يُونُس بْن عُبَيْد: لَيْسَ مَعَ السُّجُود كِبْر، وَلا مَعَ التَّوْحِيد نِفَاق. وَنَظَرَ طَاوُس إِلى عُمَر بْن عَبْد العَزِيز، وَهُوَ يَخْتَال فِي مِشْيَته، وَذَلكَ قَبْل أَنْ يُسْتَخْلف، فَطَعَنَ طَاوُس فِي جَنْبه بِأُصْبُعِهِ، وَقَال: لَيْسَ هَذَا شَأْن مَنْ فِي بَطْنه خُرْء؟ فَقَال لهُ كَالمُعْتَذِرِ إِلَيْهِ: يَا عَمّ؛ لَقَدْ ضُرِبَ كُلّ عُضو مِنِّي عَلى هَذِهِ المِشْيَة حَتَّى تَعَلَّمْتهَا. قَال أَبُو بَكْر ابْن أَبِي الدُّنْيَا: كانت بَنُو أُمَيَّة يَضْرِبُونَ أَوْلادهمْ حَتَّى يَتَعَلَّمُوا هَذِهِ المِشْيَة.

---

(١) مرسل: من رواية ميمون بن مهران ولم يسنده إلى الصحابة.
(٢) ضعيف: أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع» (١٨٩)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» ص (٦)، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبة الواسطي: ضعيف.
(٣) إسناده ضعيف: أخرجه البزار (١٩٧٩).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٩١)، وأبو داود (٤٠٩١)، والترمذي (١٩٩٨).
(٥) حسن: انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٠٩).
(٦) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٠٠٠) بسند ضعيف، وقال: هذا حديث حسن غريب، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».
(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٤٥٢) بسند ضعيف.

فَصْلٌ فِي الاخْتِيَال

عَنْ ابْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ ابْن بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ مَرْفُوعًا: «مَنْ جَرّ ثَوْبه خُيَلاء لمْ يَنْظُر الله إِلَيْهِ»[1]. وَرَوَاهُ عَنْ إِسْحَاق بْن إِسْمَاعِيل، عَنْ سُفْيَان، عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ، عَنْ ابْن عُمَر مَرْفُوعًا مِثْله. وَحَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَكَّار، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي الزِّنَاد، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَرْفُوعًا: «لا يَنْظُر الله يَوْم القِيَامَة إلى مَنْ جَرّ إِزَاره». وَ«بَيْنَمَا رَجُل يَتَبَخْتَر فِي بُرْدَيْهِ، أَعْجَبَتْهُ نَفْسه، خَسَفَ الله بِهِ الأَرْض، فَهُوَ يَتَجَلْجَل فِيهَا إلى يَوْم القِيَامَة».[2] وَرَوَى الزُّهْرِيّ عَنْ سَالم عَنْ أَبِيهِ: «بَيْنَمَا رَجُل...» إِلى آخِره.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

يَقُول تَعَالى مُنَبِّهًا خَلقه عَلى نِعَمه عَليْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، بِأَنَّهُ سَخَّرَ لهُمْ مَا فِي السَّمَاوَات مِنْ نُجُوم يَسْتَضِيئُونَ بِهَا فِي ليْلهمْ وَنَهَارهمْ، وَمَا يَخْلُق فِيهَا مِنْ سَحَاب وَأَمْطَار وَثَلج وَبَرَد، وَجَعْله إِيَّاهَا لهُمْ سَقْفًا مَحْفُوظًا، وَمَا خَلقَ لهُمْ فِي الأَرْض مِنْ قَرَار وَأَنْهَار وَأَشْجَار وَزُرُوع وَثِمَار. وَأَسْبَغَ عَليْهِمْ نِعَمه الظَّاهِرَة وَالبَاطِنَة مِنْ إِرْسَال الرُّسُل وَإِنْزَال الكُتُب، وَإِزَاحَة الشبهة وَالعِلل، ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلّه مَا آمَنَ النَّاس كُلّهمْ، بَل مِنْهُمْ مَنْ يُجَادِل فِي الله، أَيْ: فِي تَوْحِيده وَإِرْسَال الرُّسُل. وَمُجَادَلته فِي ذَلكَ بِغَيْرِ عِلم وَلا مُسْتَنَد مِنْ حُجَّة صَحِيحَة، وَلا كِتَاب مَأْثُور صَحِيح، وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، أَيْ: مُبِين مُضِيء. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾، أَيْ: لهَؤُلاءِ المُجَادِلينَ فِي تَوْحِيد الله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، أَيْ: عَلى رَسُوله مِنْ الشَّرَائِع المُطَهَّرَة، ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، أَيْ: لمْ يَكُنْ لهُمْ حُجَّة إِلّا اتِّبَاع الآبَاء الأَقْدَمِينَ، قَال الله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، أَيْ: فَمَا ظَنّكُمْ أَيُّهَا المُحْتَجُّونَ بِصَنِيع آبَائِهِمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا عَلى ضَلالة، وَأَنْتُمْ خَلف لهُمْ فِيمَا كَانُوا فِيهِ؛ وَلهَذَا قَال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَمَّنْ أَسْلمَ وَجْهه لله، أَيْ: أَخْلصَ لهُ العَمَل، وَانْقَادَ لأَمْرِهِ، وَاتَّبَعَ شَرْعه، وَلهَذَا قَال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أَيْ: فِي عَمَله، بِاتِّبَاع مَا بِهِ أُمِرَ، وَتَرْك مَا عَنْهُ زُجِرَ، ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، أَيْ: فَقَدْ أَخَذَ مَوْثِقًا مِنْ الله مَتِينًا، أَنَّهُ لا يُعَذِّبهُ، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾. أَيْ: لا تَحْزَن يَا مُحَمَّد عَليْهِمْ فِي كُفْرهمْ بِالله وَبِمَا جِئْت بِهِ، فَإِنَّ قَدَر الله نَافِذ فِيهِمْ، إِلى الله ﴿مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾، أَيْ: فَيَجْزِيهِمْ عَليْهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فَلا تَخْفَى عَليْهِ خَافِيَة. ثُمَّ قَال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾، أَيْ: فِي الدُّنْيَا، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾، أَيْ: نُلجِئُهُمْ ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، أَيْ: فَظِيع صَعْب شاق عَلى النُّفُوس، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٥٧٨٣)، ومسلم (٢٠٨٥) من حديث ابن عمر.
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٥٣٤٣).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ بِهِ: إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ الله خَالق السَّماوَات وَالأَرْض، وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَمَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ شُرَكَاء، يَعْتَرِفُونَ أَنَّهَا خَلق لهُ وَمِلك لهُ، وَلهَذَا قَال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أَيْ: إذ قَامَتْ عَلَيْكُمْ الحُجَّة بِاعْتِرَافِكُمْ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم قال: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: هو خلقه وملكه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، أي: الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق، له الحمد في السماوات والأرض على ما خلق وشرع وهو الحميد في الأمور كلها.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَظَمَته وَكِبْرِيَائِهِ وَجَلاله، وَأَسْمَائِهِ الحُسْنَى وَصِفَاته العُلا، وَكَلماته التَّامَّة الَّتِي لا يُحِيط بِهَا أَحَد، وَلا اطِّلاع لِبَشَرٍ عَلى كنهها وَإِحْصَائِهَا، كَمَا قَال سَيِّد البَشَر وَخَاتَم الرُّسُل: «**لا أُحْصِي ثَنَاء عَلَيْك، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْت عَلى نَفْسك**».[1] فَقَال تَعَالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: وَلوْ أَنَّ جَمِيع أَشْجَار الأَرْض جُعِلتْ أَقْلامًا، وَجُعِل البَحْر مِدَادًا وَأَمَدَّهُ سَبْعَة أَبْحُر مَعَهُ، فَكُتِبَتْ بِهَا كَلِمَات الله الدَّالَّة عَلى عَظَمَته وَصِفَاته وَجَلاله لتَكَسَّرَتْ الأَقْلام، وَنَفِدَ مَاء البَحْر، وَلوْ جَاءَ أَمْثَالهَا مَدَدًا. وَإِنَّمَا ذُكِرَتْ «السَّبْعَة» عَلى وَجْه المُبَالغَة، وَلمْ يُرِدْ الحَصْر، وَلا أَنَّ ثَمَّ سَبْعَة أَبْحُر مَوْجُودَة مُحِيطَة بِالعَالم، كَمَا يَقُولهُ مَنْ تَلقَّاهُ مِنْ كلام الإسرائيليين الَّتِي لا تُصَدَّق وَلا تُكَذَّب، بَل كَمَا قَال تَعَالى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾، فَليْسَ المُرَاد بِقَوْلهِ: ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ آخر فَقَطْ، بَل بِمِثْلهِ ثُمَّ بِمِثْلهِ ثُمَّ بِمِثْلهِ، ثُمَّ هَلُمَّ جَرًّا، لأَنَّهُ لا حَصْر لآيَاتِ الله وَكَلمَاته.

وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: لوْ جُعِل شَجَر الأَرْض أَقْلامًا، وَجُعِل البَحْر مِدَادًا، وَقَال الله: إِنَّ مِنْ أَمْرِي كَذَا، وَمِنْ أَمْرِي كَذَا. لنَفِدَ [مَاء البَحْر][2]، وَتَكَسَّرَتْ الأَقْلام. وَقَال قَتَادَة: قَال المُشْرِكُونَ: إِنَّمَا هَذَا كَلام يُوشِك أَنْ يَنْفَد. فَقَال الله تَعَالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾. أَيْ: لوْ كَانَ شَجَر الأَرْض أَقْلامًا، وَمَعَ البَحْر سَبْعَة أَبْحُر، مَا كَانَ لتَنْفَد عَجَائِب رَبِّي وَحِكْمَته وَخَلقه وَعِلمه. وَقَال الرَّبِيع بْن أَنَس: إِنَّ مَثَل عِلم العِبَاد كُلّهمْ فِي عِلم الله كَقَطْرَةٍ مِنْ مَاء البُحُور كُلّهَا، وَقَدْ أَنْزَل الله ذَلكَ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآيَة. يَقُول: لوْ كَانَ ذَلك البَحْر مِدَادًا لكَلمَاتِ الله، وَالأَشْجَار كُلّهَا أَقْلامًا، لانْكَسَرَتْ الأَقْلام، وَفَنِيَ مَاء البَحْر، وَبَقِيَتْ كَلمَات الله قَائِمَة لا يُفْنِيهَا شَيْء، لأَنَّ أَحَدًا لا يَسْتَطِيع أَنْ يَقْدُر قَدْره، وَلا يُثْنِي عَليْهِ كَمَا يَنْبَغِي، حَتَّى يَكُون هُوَ الَّذِي يُثْنِي عَلى نَفْسه، إِنَّ رَبّنَا كَمَا يَقُول وَفَوْق مَا نَقُول.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلتْ جَوَابًا لليَهُودِ، قَال ابْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي ابْن أَبِي مُحَمَّد، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر أَوْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ أَحْبَار يَهُود قَالُوا لرَسُول الله ﷺ بِالمَدِينَةِ: يَا مُحَمَّد، أَرَأَيْت قَوْلك: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٥١).
(٢) في نسخة: [ما في البحور].

ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، إِيَّانَا تُرِيد أَمْ قَوْمك؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «كلاًّ»، قَالُوا: أَلَسْت تَتْلُو فِيمَا جاءَك أَنَّا قَدْ أُوتِينَا التَّوْرَاة فِيهَا تِبْيَان لِكُلِّ شَيْء؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّهَا فِي عِلم الله قَلِيل، وَعِنْدكُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا يَكْفِيكُمْ». وَأَنْزَل الله فِيمَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ ﴾.(١) وَهَكَذَا رُوِي عن عِكْرِمَة، وَعَطَاء ابْن يَسَار: وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ هَذِهِ الآيَة مَدَنِيَّة لا مَكِّيَّة، وَالمَشْهُور أَنَّهَا مَكِّيَّة، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، أَيْ: عَزِيز قَدْ عَزَّ كُلّ شَيْء وَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ، فَلا مَانِع لِمَا أَرَادَ، وَلا مُخَالِف، وَلا مُعَقِّب لِحُكْمِهِ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي خَلْقه وَأَمْره، وَأَقْوَاله وَأَفْعَاله، وَشَرْعه وَجَمِيع شُئُونِهِ. وَقَوْله: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾، أَيْ: مَا خَلْق جَمِيع النَّاس وَبَعْثهمْ يَوْم المَعَاد -بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَته- إِلَّا كَنِسْبَةِ خَلْق نَفْس وَاحِدَة، الجَمِيع هَيِّن عَلَيْهِ، ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ أَيْ: لا يَأْمُر بِالشَّيْء إِلَّا مَرَّة وَاحِدَة، فَيَكُون ذَلِكَ الشَّيْء لا يَحْتَاج إِلَى تَكَرُّره وتوكُّده. ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾. وَقَوْله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾، أَيْ: كَمَا هُوَ سَمِيع لِأَقْوَالِهِمْ بَصِير بِأَفْعَالِهِمْ، كَسَمْعِهِ وَبَصَره بِالنِّسْبَةِ إِلَى نَفْس وَاحِدَة، كَذَلِكَ قُدْرَته عَلَيْهِمْ كَقُدْرَتِهِ عَلَى نَفْس وَاحِدَة؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

يُخْبِر تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ ﴾، بمعنى يَأْخُذ مِنْهُ فِي النَّهَار، فَيَطُول ذَاكَ وَيَقْصُر هَذَا، وَهَذَا يَكُون زَمَن الصَّيْف يَطُول النَّهَار إِلَى الغَايَة، ثُمَّ يَشْرَع فِي النَّقْص فَيَطُول اللَّيْل وَيَقْصُر النَّهَار، وَهَذَا يَكُون فِي زَمَن الشِّتَاء، ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، قِيل: إِلَى غَايَة مَحْدُودَة، وَقِيل: إِلَى يَوْم القِيَامَة. وَكِلا المَعْنَيَيْنِ صَحِيح. وَيُسْتَشْهَد لِلقَوْل الأَوَّل بِحَدِيثِ أَبِي ذَرّ رضي الله عنه الَّذِي فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَب هَذِهِ الشَّمْس؟». قُلت: الله وَرَسُوله أَعْلَم، قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَب فَتَسْجُد تَحْت العَرْش، ثُمَّ تَسْتَأْذِن رَبَّهَا فَيُوشِك أَنْ يُقَال لهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْت».(٢)

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو صَالِح، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَيُّوب، عَنْ ابْن جُرَيْج، عَنْ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح، عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَال: الشَّمْس بِمَنْزِلَةِ السَّاقِيَة، تَجْرِي بِالنَّهَارِ فِي السَّمَاء فِي فَلَكهَا، فَإِذَا غَرَبَتْ جَرَتْ بِاللَّيْل فِي فَلَكهَا تَحْت الأَرْض حَتَّى تَطْلُع مِنْ مَشْرِقهَا، قَال: وَكَذَلِكَ القَمَر. إِسْنَاده صَحِيح.

وَقَوْله: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ تَعَالَى الخَالِق العَالِم بِجَمِيعِ الأَشْيَاء، كَقَوْلِهِ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾. وَقَوْله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ ﴾، أَيْ: إِنَّمَا يُظْهِر لَكُمْ آيَاته لِتَسْتَدِلُّوا بِهَا عَلَى أَنَّهُ الحَقّ، أَيْ: المَوْجُود الحَقّ الإِله الحَقّ، وَأَنَّ كُلّ مَا سِوَاهُ بَاطِل، فَإِنَّهُ الغَنِيّ عَمَّا سِوَاهُ، وَكُلّ شَيْء فَقِير إِلَيْهِ، لأَنَّ كُلّ مَا فِي السَّمَاوَات وَالأَرْض الجَمِيع خَلْقه وَعَبِيده، لا يَقْدِر أَحَد مِنْهُمْ عَلَى تَحْرِيك ذَرَّة إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَوْ اجْتَمَعَ كُلّ أَهْل الأَرْض عَلَى أَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا لَعَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ. وَلِهَذَا قَال:

---

(١) إسناده ضعيف: فيه محمد بن أبي محمد، وهو مجهول.
(٢) صحيح: تقدم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، أَيْ: العَلِيّ: الَّذِي لا أَعْلى مِنْهُ، الكَبِير: الَّذِي هُوَ أَكْبَر مِنْ كُلّ شَيْء، فَكُلّ شَيْء خَاضِع حَقِير بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ البَحْر لتَجْرِيَ فِيهِ الفُلك بِأَمْرِهِ، أَيْ: بِلُطْفِهِ وَتَسْخِيره، فَإِنَّهُ لوْلا مَا جَعَل فِي المَاء مِنْ قُوَّة يَحْمِل بِهَا السُّفُن لَمَا جَرَتْ، وَلهَذَا قَال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾، أَيْ: مِنْ قُدْرَته، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، أَيْ: صَبَّار فِي الضَّرَّاء، شَكُور فِي الرَّخَاء. ثُمَّ قَال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾، أَيْ: كَالجِبَال وَالغَمَام ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وَقَال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

ثم قَال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾، قَال مُجَاهِد: أَيْ كَافِر. كَأَنَّهُ فَسَّرَ المُقْتَصِد هَهُنَا بِالجَاحِدِ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾، وَقَال ابْن زَيْد: هُوَ المُتَوَسِّط فِي العَمَل، وَهَذَا الَّذِي قَالهُ ابْن زَيْد هُوَ المُرَاد فِي قَوْله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾. فَالمُقْتَصِد هَهُنَا هُوَ: المُتَوَسِّط فِي العَمَل. وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون مُرَادًا هُنَا أَيْضًا، وَيَكُون مِنْ بَاب الإِنْكَار عَلى مَنْ شَاهَدَ تِلكَ الأَهْوَال وَالأُمُور العِظَام، وَالآيَات البَاهِرَات فِي البَحْر، ثُمَّ بَعْدَمَا أَنْعَم عَليْهِ من الخَلاصِ، كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُقَابِل ذَلكَ بِالعَمَل التَّامّ، وَالدُّءُوب فِي العِبَادَة، وَالمُبَادَرَة إِلى الخَيْرَات. فَمَنْ اقْتَصَدَ بَعْد ذَلكَ كَانَ مُقْتَصِرًا وَالحَالة هَذِهِ، وَالله أَعْلم. وَقَوْله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، فَالخَتَّار: هُوَ الغَدَّار. قَالهُ مُجَاهِد، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَمَالك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ، وَهُوَ الَّذِي كُلَّمَا عَاهَدَ نَقَضَ عَهْده، وَالخَتْر: أَتَمّ الغَدْر وَأَبْلغه، قَال عُمَر بْن مَعْد يَكْرِب:

وَإِنَّـكَ لَـوْ رَأَيْـتَ أَبَـا عُمَيْـر ❁ مَـلأْتَ يَـدَيْكَ مِـنْ غَـدْرٍ وَخَتْـرِ

وَقَوْله: ﴿كَفُورٍ﴾، أَيْ: جَحُود للنِّعَم لا يَشْكُرهَا، بَل يَتَنَاسَاهَا وَلا يَذْكُرهَا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

يَقُول تَعَالى مُنْذِرًا للنَّاسِ يَوْم المَعَاد، وَآمِرًا لهُمْ بِتَقْوَاهُ وَالخَوْف مِنْهُ، وَالخَشْيَة مِنْ يَوْم القِيَامَة، حَيْثُ ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾، أَيْ: لوْ أَرَادَ أَنْ يَفْدِيه بِنَفْسِهِ لَمَا قُبِل مِنْهُ. وَكَذَلكَ الوَلد لوْ أَرَادَ فِدَاء وَالده بِنَفْسِهِ لمْ يتقبل مِنْهُ. ثُمَّ عَادَ بِالمَوْعِظَةِ عَليْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، أَيْ: لا تُلهِيَنَّكُمْ بِالطُّمَأْنِينَةِ فِيهَا عَنْ الدَّار الآخِرَة، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، يَعْنِي: الشَّيْطَان. قَالهُ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة. فَإِنَّهُ يَغُرّ ابْن آدَم وَيَعِدهُ وَيُمَنِّيه، وَليْسَ مِنْ ذَلكَ شَيْء، بَل كَمَا قَال تَعَالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

قَال وَهْب بْن مُنَبِّه: قَال عُزَيْر عَلَيْهِ السَّلَام: «لَمَّا رَأَيْت بَلاء قَوْمِي اشْتَدَّ حُزْنِي وَكَثُرَ هَمِّي، وَأَرِقَ نَوْمِي، فَتَضَرَّعْت إِلى رَبِّي وَصَلَّيْت وَصُمْت، فَأَنَا فِي ذَلكَ التَّضَرُّع أَبْكِي؛ إِذْ أَتَانِي المَلك، فَقُلت لهُ: أَخْبِرْنِي، هَل تَشْفَع أَرْوَاح الصِّدِّيقِينَ للظَّلمَةِ، أَوْ الآبَاء لأَبْنَائِهِمْ؟ قَال: إِنَّ القِيَامَة فِيهَا فَصْل القَضَاء وَمِلك ظَاهِر، ليْسَ فِيهِ رُخْصَة، لا يَتَكَلَّم فِيهِ أَحَد إِلَّا بِإِذْنِ الرَّحْمَن، وَلا يُؤْخَذ فِيهِ وَالد عَنْ وَلده، وَلا وَلد عَنْ وَالده، وَلا أَخ عَنْ أَخِيهِ، وَلا عَبْد

عَنْ سَيِّده، وَلا يَهْتَمّ أَحَد بهم غَيْره، وَلا يَحْزَن لِحُزْنِهِ، وَلا أَحَد يَرْحَمهُ، كُلّ مُشْفِق عَلَى نَفْسه، وَلا يُؤْخَذ إِنْسَان عَنْ إِنْسَان، كُلّ يُهِمّهُ هَمّه، وَيَبْكِي عَوْله، وَيَحْمِل وِزْره، وَلا يَحْمِل وِزْره مَعَهُ غَيْره». رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾.

هَذِهِ مَفَاتِيح الغَيْب الَّتِي اسْتَأْثَرَ الله تَعَالَى بِعِلمِهَا، فَلا يَعْلمهَا أَحَد إِلَّا بَعْد إِعْلامه تَعَالَى بِهَا، فَعِلم وَقْت السَّاعَة لا يَعْلمهُ نَبِيّ مُرْسَل، وَلا مَلك مُقَرَّب، ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾، وَكَذَلِكَ إِنْزَال الغَيْث لا يَعْلمهُ إِلَّا الله، وَلكِنْ إِذَا أَمَرَ بِهِ عَلمَتْهُ المَلائِكَة المُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ، وَمَنْ شَاءَ الله مِنْ خَلقه. وَكَذَلِكَ لا يَعْلم مَا فِي الأَرْحَام مِمَّا يُرِيد أَنْ يَخْلُقهُ تَعَالَى سِوَاهُ، وَلكِنْ إِذَا أَمَرَ بِكَوْنِهِ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، أَوْ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا؛ عَلمَ المَلائِكَة المُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ، وَمَنْ شَاءَ الله مِنْ خَلقه. وَكَذَلِكَ لا تَدْرِي نَفْس مَاذَا تَكْسِب غَدًا فِي دُنْيَاهَا وَأُخْرَاهَا، ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾، أَفِي بَلدهَا أَم غَيْره مِنْ أَيِّ بِلاد الله كَانَ، لا عِلم لأَحَدٍ بِذَلِكَ، وَهَذِهِ شَبِيهَة بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ الآيَة. وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّة بِتَسْمِيَةِ هَذِهِ الخَمْس مَفَاتِيح الغَيْب.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا زَيْد بْن الحُبَاب، حَدَّثَنِي حُسَيْن بْن وَاقد، حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن بُرَيْدَة، سَمِعْت أَبِي بُرَيْدَةَ يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**خَمْس لا يَعْلمهُنَّ إِلاَّ الله** ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾»[1]. هَذَا حَدِيث صَحِيح الإِسْنَاد، وَلمْ يُخَرِّجُوهُ.

حَدِيث ابْن عُمَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عَبْد الله بْن دِينَار، عَنْ ابْن عُمَر قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**مَفَاتِيح الغَيْب خَمْس لا يَعْلمهُنَّ إِلاَّ الله**: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾».[2] انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ البُخَارِيّ، فَرَوَاهُ فِي كِتَاب «**الاسْتِسْقَاء**» فِي صَحِيحه، عَنْ مُحَمَّد بْن يُوسُف الفِرْيَابِيّ، عَنْ سُفْيَان بْن سَعِيد الثَّوْرِيّ، بِهِ. وَرَوَاهُ فِي التَّفْسِير مِنْ وَجْه آخَر فَقَال: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سُليْمَان، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب، حَدَّثَنِي عُمَر بْن مُحَمَّد بْن زَيْد بْن عَبْد الله بْن عُمَر: أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ، أَنَّ عَبْد الله بْن عُمَر قَال: قَال رسول الله ﷺ: «مَفَاتِيح الغَيْب خَمْس، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ ﴾» انْفَرَدَ بِهِ أَيْضًا. وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد عَنْ غُنْدَر، عَنْ شُعْبَة، عَنْ عُمَر بْن مُحَمَّد: أَنَّهُ سَمِعَ أَبَاهُ يُحَدِّث، عَنْ ابْن عُمَر، عَنْ النبي الله ﷺ قَال: «أُوتِيت مَفَاتِيح كُلّ شَيْء إِلاَّ الخَمْس: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾».[3]

حَدِيث ابْن مَسْعُود ﷺ: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَة، حدثَنِي عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ عَبْد الله بْن سَلمَة قَال: قَال عَبْد الله: «أُوتِيَ نَبِيّكُمْ ﷺ مَفَاتِيح كُلّ شَيْء غَيْر خَمْس: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾»[4] وَكَذَا

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٥٥).
(٢) صحيح : تقدم.
(٣) ضعيف : أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٤٩٤)، برقم (١٣١٦٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢١١٠).
(٤) إسناده ضعيف : أخرجه أحمد (١/ ٣٨٦) بسند ضعيف.

رَوَاهُ عَنْ مُحَمَّد بْن جَعْفَر، عَنْ شُعْبَة، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة بِهِ. وَزَادَ فِي آخِره: «قَال: قُلت لهُ: أَنْتَ سَمِعْته مِنْ عَبْد الله؟ قَال: نَعَمْ. أَكْثَر مِنْ خَمْسِينَ مَرَّة».[١] وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ وَكِيع عَنْ مِسْعَر عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة بِهِ.[٢] وَهَذَا إِسْنَاد حَسَن عَلَى شَرْط أصحاب السُّنَن وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ.

حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة: قَال البُخَارِيّ عِنْد تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا إِسْحَاق، عَنْ جَرِير، عَنْ أَبِي حَيَّان عَنْ أَبِي زُرْعَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا للنَّاسِ، إِذْ أَتَاهُ رَجُل يَمْشِي، فَقَال: يَا رَسُول الله، مَا الإِيمَان؟ قَال: «**الإِيمَان أَنْ تُؤْمِن بِالله وَمَلائِكَته وَكُتُبه وَرُسُله وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِن بِالبَعْثِ الآخِر**». قَال: يَا رَسُول الله، مَا الإِسْلام؟ قَال: «**الإِسْلام أَنْ تَعْبُد الله وَلا تُشْرِك بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيم الصَّلاة، وَتُؤْتِي الزَّكَاة المَفْرُوضَة وَتَصُوم رَمَضَان**». فقَال: يَا رَسُول الله، مَا الإِحْسَان؟ قَال: «**الإِحْسَان أَنْ تَعْبُد الله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك**». قَال: يَا رَسُول الله مَتَى السَّاعَة؟ قَال: «**مَا المَسْئُول عَنْهَا بِأَعْلم مِنْ السَّائِل، وَلكِنْ سَأُحَدِّثُك عَنْ أَشْرَاطهَا: إِذَا وَلدَتْ الأَمَة رَبَّتهَا، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطهَا، وَإِذَا كَانَ الحُفَاة العُرَاة رُءُوس النَّاس، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطهَا، فِي خَمْس لا يَعْلمهُنَّ إلاَّ الله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾». ثُمَّ انْصَرَفَ الرَّجُل فَقَال: «**رُدُّوهُ عَليَّ**». فَأَخَذُوا ليَرُدُّوهُ، فَلمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَال: «**هَذَا جِبْرِيل جَاءَ ليُعَلِّم النَّاس دِينهمْ**».[٣] وَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي كِتَاب الإِيمَان أَيْضًا، وَمُسْلم مِنْ طُرُق، عَنْ أَبِي حَيَّان، بِهِ. وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَليْهِ فِي أَوَّل «شَرْح البُخَارِيّ». وَذَكَرْنَا ثَمَّ حَدِيث أَمِير المُؤْمِنِينَ عُمَر بْن الخَطَّاب فِي ذَلكَ بِطُوله، وَهُوَ مِنْ أَفْرَاد مُسْلم.

حَدِيث ابْن عَبَّاس: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْر، حَدَّثَنَا عَبْد الحَمِيد، حَدَّثَنَا شهر، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عَبَّاس رضي الله عنهما قَال: جَلسَ رَسُول الله ﷺ مَجْلسًا له، فَأَتَاهُ جِبْرِيل فَجَلسَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُول الله ﷺ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلى رُكْبَتَيْ النَّبِيّ ﷺ، فَقَال: يَا رَسُول الله، حدِّثني مَا الإِسْلام؟ قَال رَسُول الله ﷺ: «الإِسْلام أَنْ تُسْلم وَجْهك لله عَزَّ وَجَلَّ وَتَشْهَد أَنْ لا إِله إلاَّ الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْده وَرَسُوله». قَال: فَإِذَا فَعَلتُ ذَلكَ فَقَدْ أَسْلمْت؟ قَال: «إِذَا فَعَلتَ ذَلكَ فَقَدْ أَسْلمْتَ». قَال: يَا رَسُول الله، حَدِّثْنِي مَا الإِيمَان؟ قَال: «الإِيمَان أَنْ تُؤْمِن بِالله وَاليَوْم الآخِر وَالمَلائِكَة وَالكِتَاب وَالنَّبِيِّينَ، وَتُؤْمِن بِالمَوْتِ وَبِالحَيَاةِ بَعْد المَوْت، وَتُؤْمِن بِالجَنَّةِ وَالنَّار وَالحِسَاب وَالمِيزَان، وَتُؤْمِن بِالقَدَرِ كُلّه خَيْره وَشَرّه». قَال: فَإِذَا فَعَلتُ ذَلكَ فَقَدْ آمَنْتُ؟ قَال: «إِذَا فَعَلت ذَلكَ فَقَدْ آمَنْت». قَال: يَا رَسُول الله، حَدِّثْنِي مَا الإِحْسَان؟ قَال رَسُول الله ﷺ: «الإِحْسَان أَنْ تَعْمَل لله كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ كُنْت لا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك». قَال: يَا رَسُول الله، فَحَدِّثْنِي مَتَى السَّاعَة؟ قَال رَسُول الله ﷺ: «سُبْحَان الله! فِي خَمْس لا يَعْلمهُنَّ إلاَّ هو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ وَلكِنْ إِنْ شِئْت حَدَّثْتُك بِمَعَالم لهَا دُون ذَلكَ». قَال: أَجَل يَا رَسُول الله، فَحَدِّثْنِي. قَال رَسُول الله ﷺ: «إِذَا رَأَيْت الأَمَة وَلدَتْ رَبَّتهَا -أَوْ رَبّهَا- وَرَأَيْت أَصْحَاب الشاء يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَان، وَرَأَيْت الحُفَاة الجِيَاع العَالة كانوا رُءُوس النَّاس، فَذَلكَ مِنْ مَعَالم السَّاعَة وَأَشْرَاطهَا». قَال: يَا رَسُول الله، وَمَنْ أَصْحَاب الشاء والحُفَاة الجِيَاع العَالة؟ قَال: «العَرَب»[٤]. حَدِيث غَرِيب وَلمْ يُخَرِّجُوهُ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٨).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٤٥).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠) (٤٧٧٧)، ومسلم (٩).
(٤) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (١/ ٣١٨) بسند ضعيف.

حَدِيث رَجُل مِنْ بني عَامِر: رَوَى الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ مَنْصُور، عَنْ رِبْعِيّ ابْن حِرَاش، عَنْ رَجُل مِنْ بَنِي عَامِر: أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلى النَّبِيّ ﷺ فَقَال: أَأَلِجُ؟ فَقَال النَّبِيّ ﷺ لِخَادِمِهِ: **«اخْرُجِي إِلَيْهِ فَإِنَّهُ لا يُحْسِن الاسْتِئْذَان، فَقُولِي لَهُ: فَلْيَقُل: السَّلام عَلَيْكُمْ. أَأَدْخُلُ؟»**. قَال: فَسَمِعْته يَقُول ذَلِكَ، فَقُلت: السَّلام عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟ فَأَذِنَ فَدَخَلت، فَقُلت: بِمَ أَتَيْتنَا به؟ قَال: **«لمْ آتِكُمْ إلاَّ بِخَيْرٍ، أَتَيْتُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا الله وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَأَنْ تَدَعُوا اللات وَالعُزَّى، وَأَنْ تُصَلُّوا بِاللَّيْل وَالنَّهَار خَمْس صَلَوَات، وَأَنْ تَصُومُوا مِنْ السَّنَة شَهْرًا، وَأَنْ تَحُجُّوا البَيْت، وَأَنْ تَأْخُذُوا الزَّكَاة مِنْ مالِ أَغْنِيَائِكُمْ فَتَرُدُّوهَا عَلى فُقَرَائِكُمْ»**. قَال: فَقَال: فَهَل بَقِيَ مِنْ العِلم شَيْء لا تَعْلمهُ؟ قَال: **«قَدْ عَلَّمَ الله ﷻ خَيْرًا، وَإِنَّ مِنْ العِلم مَا لا يَعْلمهُ إلاَّ الله ﷻ: الخَمْس:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾»[1] وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح.

وَقَال ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد: جَاءَ رَجُل مِنْ أَهْل البَادِيَة فَقَال: إِنَّ امْرَأَتِي حُبْلى، فَأَخْبِرْنِي مَا تَلد؟ وَبِلادنَا مُجْدِبَة فَأَخْبِرْنِي مَتَى يَنْزِل الغَيْث؟ وَقَدْ عَلِمْت مَتَى وُلِدْت فَأَخْبِرْنِي مَتَى أَمُوت؟ فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إِلى قَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾. قَال مُجَاهِد: وَهِيَ مَفَاتِيح الغَيْب الَّتِي قَال الله تَعَالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير. وَقَال الشَّعْبِيّ، عَنْ مَسْرُوق، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها أَنَّهَا قَالتْ: مَنْ حَدَّثَك أَنَّهُ يَعْلم مَا فِي غَد فَقَدْ كذب، ثُمَّ قَرَأَت: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾، قَال قَتَادَة: أَشْيَاء اسْتَأْثَرَ الله بِهِنَّ، فَلمْ يُطْلِع عَليْهِنَّ مَلكًا مُقَرَّبًا، وَلا نَبِيًّا مُرْسَلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، فَلا يَدْرِي أَحَد مِنْ النَّاس مَتَى تَقُوم السَّاعَة، فِي أَيّ سَنَة أَوْ فِي أَيّ شَهْر، أَوْ ليْل أَوْ نَهَار، ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فَلا يَعْلم أَحَد مَتَى يَنْزِل الغَيْث، ليْلًا أَوْ نَهَارًا، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ﴾، فَلا يَعْلم أَحَد مَا فِي الأَرْحَام، أَذَكَر أَمْ أُنْثَى، أَحْمَر أَوْ أَسْوَد، وَمَا هُوَ. ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ﴾، أَخَيْر أَمْ شَرّ، وَلا تَدْرِي يَا بْن آدَم مَتَى تَمُوت؟ لعَلَّك المَيِّت غَدًا، لعَلَّك المُصَاب غَدًا، ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾، ليْسَ أَحَد مِنْ النَّاس يَدْرِي أَيْنَ مَضْجَعه مِنْ الأَرْض، أَفِي بَحْر أَمْ بَرّ، أَوْ سَهْل أَوْ جَبَل. وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيث: **«إِذَا أَرَادَ الله قَبْض عَبْد بِأَرْضٍ، جَعَل لهُ إِليْهَا حَاجَة»**. فَقَال الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ فِي «مُعْجَمه الكَبِير»، فِي مُسْنَد أُسَامَة بْن زَيْد: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم، أَخْبَرَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ أَيُّوب، عَنْ أَبِي المَلِيح، عَنْ أُسَامَة بْن زَيْد قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«مَا جَعَل الله مِيتَة عَبْد بِأَرْضٍ إِلاَّ جَعَل لهُ فِيهَا حَاجَة»**.[2]

وَقَال عَبْد الله ابْن الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ الحَفْرِيّ، عَنْ سُفْيَان، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ مَطَر بْن عُكَامِسٍ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«إِذَا قَضَى الله مِيتَة عَبْد بِأَرْضٍ، جَعَل لهُ إِليْهَا حَاجَة»**[3]. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي «القَدَر»، مِنْ حَدِيث سُفْيَان الثَّوْرِيّ بِهِ؛ ثُمَّ قَال: حَسَن غَرِيب، وَلا يُعْرَف لِمَطَرٍ عَنْ النَّبِيّ ﷺ غَيْر هَذَا الحَدِيث. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «المَرَاسِيل» فَالله أَعْلم.

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ١٩٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٠٦).
(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٤٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

وَقَال الإمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا أَيُّوب، عَنْ أَبِي المَلِيح ابْن أُسَامَة، عَنْ أَبِي عَزَّة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إذَا أَرَادَ الله قَبْض رُوح عَبْد بِأَرْضٍ جَعَل لهُ فِيهَا -أَوْ قَال: بِهَا- حَاجَة».[1] وَأَبُو عَزَّة هَذَا هُوَ: يسار بْن عبد الله، وَيُقَال: ابْن عَبْد الهُذَلِيّ. وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم وَهُوَ ابْن عُلَيَّة وَقَال: صَحِيح.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عِصَام الأَصْفَهَانِيّ، حَدَّثَنَا المُؤَمَّل بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن أَبِي حُمَيْد، عَنْ أَبِي المَلِيح، عَنْ أَبِي عَزَّة الهُذَلِيّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إذَا أَرَادَ الله قَبْض عَبْد بِأَرْضٍ، جَعَل لهُ إِلَيْهَا حَاجَة، فَلَمْ يَنْتَهِ حَتَّى يَقْدَمهَا». ثُمَّ قَرَأَ رَسُول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾.

حَدِيث آخَر: قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن ثَابِت الجَحْدَرِيّ وَمُحَمَّد بْن يَحْيَى القَطْعِيّ قَالا: حَدَّثَنَا عُمَر بْن عَلِيّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل، عَنْ قَيْس، عَنْ عَبْد الله قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إذَا أَرَادَ الله قَبْض عَبْد بِأَرْضٍ جَعَل لهُ إِلَيْهَا حَاجَة». ثُمَّ قَال البَزَّار: وَهَذَا الحَدِيث لا نَعْلَم أَحَدًا يَرْفَعهُ إِلَّا عُمَر بْن عَلِيّ المُقَدَّمِيّ. وَقَال ابْن أَبِي الدُّنْيَا: حَدَّثَنِي سُلَيْمَان بْن أَبِي مَسِيح قَال: أَنْشَدَنِي مُحَمَّد بْن الحَكَم لأَعْشَى هَمْدَان:

فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ	سِوَى حَنُوط غَدَاة البَيْن مَعَ خِرَق
وَغَيْر نَفْحَة أَعْوَاد تُشَبّ لَهُ	وَقَلَّ ذَلِكَ مِنْ زَاد لِمُنْطَلِق
لا تَأْسَيَنَّ عَلَى شَيْءٍ، فَكُلّ فَتًى	إِلى مَنِيَّتِهِ سَيَّار فِي [عَنَق][2]
وَكُلّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ المَوْت يُخْطِئهُ	مُعَلَّل بِأَعَالِيل مِنَ الحُمْق
بِأَيَّمَا بَلْدَة تُقْدَر مَنِيَّتهُ	إِنْ لا يَسِير إِلَيْهَا طَائِعًا يُسَق

أَوْرَدَهُ الحَافِظ ابْن عَسَاكِر رَحِمَهُ اللهُ فِي تَرْجَمَة عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْد الله بْن الحَارِث، وَهُوَ أَعْشَى هَمْدَان، وَكَانَ الشَّعْبِيّ زَوْج أُخْته، وَهُوَ مُزَوَّج بِأُخْتِ الشَّعْبِيّ أَيْضًا، وَقَدْ كَانَ مِمَّنْ طَلَب العِلْم وَتَفَقَّهُ، ثُمَّ عَدَل إِلى صِنَاعَة الشِّعْر فَعُرِفَ بِهِ. وَقَدْ رواه ابْن مَاجَهْ عَنْ أَحْمَد بْن ثَابِت وَعُمَر بْن شَبَّة، كِلاهُمَا عَنْ عُمَر بْن عَلِيّ مَرْفُوعًا: «إذَا كَانَ أَجَل أَحَدكُمْ بِأَرْضٍ أَتَتْ لهُ إِلَيْهَا حَاجَة، فَإِذَا بَلَغَ أَقْصَى أَثَره قَبَضَهُ الله ﷻ، فَتَقُول الأَرْض يَوْم القِيَامَة: رَبّ؛ هَذَا مَا أَوْدَعْتَنِي». قَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ أَيُّوب، عَنْ أَبِي المَلِيح، عَنْ أُسَامَة أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «مَا جَعَل الله مَنِيَّة عَبْد بِأَرْضٍ، إِلاَّ جَعَل لهُ إِلَيْهَا حَاجَة».

آخِر تَفْسِير سُورَة لُقْمَان، وَالحَمْد لله رَبّ العَالَمِينَ، وَهو حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيل

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٤٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٢) في (ز): [عنسق].

تفسير سورة الم السجدة وهي مكية

ترتيبها ٣٢ — وآياتها ٣٠

قال البُخَارِيّ فِي «كِتَاب الجُمُعَة»: حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ سَعْد بْن إِبْرَاهِيم، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن هُرْمُز الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: «كَانَ النَّبِيّ ﷺ يَقْرَأ فِي الفَجْر يَوْم الجُمُعَة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدَة، وَ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾».[1] وَرَوَاهُ مُسْلم أَيْضًا مِنْ حَدِيث سُفْيَان الثَّوْرِيّ، بِهِ. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَسْوَد ابْن عَامِر، أَخْبَرَنَا الحَسَن بْن صَالح، عَنْ لَيْث، عَنْ أَبِي الزُّبَيْر، عَنْ جَابِر؛ قَال: «كَانَ النَّبِيّ ﷺ لا يَنَام حَتَّى يَقْرَأ: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدَة وَ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»[2]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته. وَقَوْله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَيْ: لاشَكَّ فِيهِ وَلا مِرْيَة أَنَّهُ نَزَّل ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾. ثُمَّ قَال مُخْبِرًا عَنْ المُشْرِكِينَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ﴾، أَيْ: اخْتَلَقَهُ مِنْ تِلْقَاء نَفْسه، ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أَيْ: يَتَّبِعُونَ الحَقّ.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ الخَالق للأَشْيَاءِ، فَخَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض وَمَا بَيْنهمَا فِي سِتَّة أَيَّام، ثُمَّ اسْتَوَى عَلى العَرْش، وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلام عَلى ذَلكَ. ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ﴾، أَيْ: بَل هُوَ المَالك لأَزِمَّةِ الأُمُور، الخَالق لكُلّ شَيْء المُدَبّر لكُلّ شَيْء، القَاهِر عَلى كُلّ شَيْء، فَلا وَلِيّ لخَلقِهِ سِوَاهُ، وَلا شَفِيع إِلَّا مِنْ بَعْد إِذْنه. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾، يَعْنِي: أَيُّهَا العَابِدُونَ غَيْره، المُتَوَكِّلُونَ عَلى مَنْ عَدَاهُ، تَعَالى وَتَقَدَّس وَتَنَزَّه أَنْ يَكُون لهُ نَظِير أَوْ شَرِيك أَوْ نَدِيد أَوْ وَزِير أَوْ عَدِيل لا إِله إِلَّا هُوَ وَلا رَبّ سِوَاهُ.

وَقَدْ أَوْرَدَ النَّسَائِيّ هَهُنَا حَدِيثًا فَقَال: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن يَعْقُوب، حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن الصَّبَاح، حَدَّثَنَا أَبُو عُبَيْدَة الحَدَّاد، حَدَّثَنَا الأَخْضَر بْن عَجْلان، عَنْ أَبِي جُرَيْج المَكِّيّ، عَنْ عَطَاء، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة: أَنَّ رَسُول الله ﷺ أَخَذَ بِيَدِي فَقَال: **«إِنَّ الله خَلقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض وَمَا بَيْنهمَا فِي سِتَّة أَيَّام، ثُمَّ اسْتَوَى عَلى العَرْش فِي اليَوْم السَّابِع، فَخَلقَ التُّرْبَة يَوْم السَّبْت، وَالجِبَال يَوْم الأَحَد، وَالشَّجَر يَوْم الاثْنَيْنِ، وَالمَكْرُوه يَوْم الثُّلاثَاء، وَالنُّور يَوْم الأَرْبِعَاء، وَالدَّوَابّ يَوْم الخَمِيس، وَآدَم يَوْم الجُمُعَة فِي آخِر سَاعَة مِنْ النَّهَار بَعْد العَصْر، [وَخَلقَ]**[3] **مِنْ أَدِيم الأَرْض،**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٨٠).
(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٨٩٢)، وأحمد (٣/ ٣٤٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٣) في نسخة: [وخلقه].

باحْمَرِهَا وَأَسْوَدِهَا، وَطَيِّبِهَا وَخَبِيثِهَا، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جَعَلَ اللهُ مِنْ بَنِي آدَمَ الخبيثَ والطَّيِّبَ»[1] هَكَذَا أُورِد هَذَا الحَدِيث إِسْنَادًا وَمَتْنًا. وَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِم وَالنَّسَائِيّ أَيْضًا مِنْ حَدِيث الحَجَّاج بْن مُحَمَّد الأَعْوَر، عَنْ ابْن جُرَيْج عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أُمَيَّة عَنْ أَيُّوب بْن خَالِد، عَنْ عَبْد الله بْن رَافِع، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِنَحْوٍ مِنْ هَذَا السِّيَاق. وَقَدْ عَلَّلَهُ البُخَارِيّ فِي كِتَاب «التَّارِيخ الكَبِير» فَقَال: وَقَال بَعْضهمْ: أَبُو هُرَيْرَة عَنْ كَعْب الأَحْبَار - وَهُوَ أَصَحّ. وَكَذَا عَلَّلَهُ غَيْر وَاحِد مِنْ الحُفَّاظ، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾، أَيْ: يَتَنَزَّل أَمْره مِنْ أَعْلَى السَّمَاوَات إِلَى أَقْصَى تُخُوم الأَرْض السَّابِعَة، كَمَا قَال الله تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾، وَتُرْفَع الأَعْمَال إِلَى دِيوَانهَا فَوْق سَمَاء الدُّنْيَا، وَمَسَافَة مَا بَيْنهَا وَبَيْن الأَرْض مَسِيرَة خَمْسِمِائَةِ سَنَة، وَسُمْك السَّمَاء خَمْسِمِائَةِ سَنَة. وَقَال مُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَالضَّحَّاك: النُّزُول مِنْ المَلَك فِي مَسِيرَة خَمْسِمِائَةِ عَام، وَصُعُوده فِي مَسِيرَة خَمْسِمِائَةِ عَام، وَلَكِنَّهُ يَقْطَعهَا فِي طَرْفَة عَيْن. وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾. ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أَيْ: المُدَبِّر لِهَذِهِ الأُمُور، الَّذِي هُوَ شَهِيد عَلَى أَعْمَال عِبَاده، يَرْفَع إِلَيْهِ جَلِيلهَا وَحَقِيرهَا، وَصَغِيرهَا وَكَبِيرهَا، هُوَ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الَّذِي قَدْ عَزَّ كُلّ شَيْء فَقَهَرَهُ وَغَلَبَهُ، وَدَانَتْ لَهُ العِبَاد وَالرِّقَاب، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ فَهُوَ عَزِيز فِي رَحْمَته، رَحِيم فِي عِزَّته.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

يَقُول تَعَالَى: إِنَّهُ الَّذِي أَحْسَنَ خَلْق الأَشْيَاء، وأتقنها وَأَحْكَمَهَا. وَقَال مَالِك: عَنْ زَيْد بْن أَسْلَم: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، وقَال: «أَحْسَنَ خَلْق كُلّ شَيْء». كَأَنَّهُ جَعَلَهُ مِنْ المُقَدَّم وَالمُؤَخَّر. ثُمَّ لَمَّا ذَكَرَ خَلْق السَّمَاوَات وَالأَرْض، شَرَعَ فِي ذِكْر خَلْق الإِنْسَان فَقَال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾، يَعْنِي: خَلْقَ أَبِي البَشَر آدَم مِنْ طِين. ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أَيْ: يَتَنَاسَلُونَ كَذَلِكَ مِنْ نُطْفَة تَخْرُج مِنْ بَيْن صُلْب الرَّجُل وَتَرَائِب المَرْأَة، ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ يَعْنِي: آدَم لَمَّا خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب خَلَقَهُ سَوِيًّا مُسْتَقِيمًا، ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، يَعْنِي: العُقُول، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، أَيْ: بِهَذِهِ القُوَى الَّتِي رَزَقَكُمُوهَا الله ﷻ، فَالسَّعِيد مَنْ اسْتَعْمَلَهَا فِي طَاعَة رَبّه ﷻ.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ المُشْرِكِينَ فِي اسْتِبْعَادهمْ المَعَاد حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أَيْ: تَمَزَّقَتْ أَجْسَامنَا، وَتَفَرَّقَتْ فِي أَجْزَاء الأَرْض وَذَهَبَتْ، ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾؟ أَيْ: أَئِنَّا لَنَعُود بَعْد تِلْكَ الحَال؟! يَسْتَبْعِدُونَ تلك الحال، وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ بَعِيد بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدَرِهِمْ العَاجِزَة، لا بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَة الَّذِي بَدَأَهُمْ وَخَلَقَهُمْ مِنْ العَدَم، الَّذِي إِنَّمَا أَمْره إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُول لَهُ: كُنْ فَيَكُون، وَلِهَذَا قَال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾. ثُمَّ قَال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾، الظَّاهِر مِنْ هَذِهِ الآيَة أَنَّ مَلَك المَوْت شَخْص مُعَيَّن مِنْ المَلائِكَة، كَمَا هُوَ

---

(١) **ضعيف الإسناد**: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٢٧) بسند ضعيف. فيه عطاء بن أبي رباح. قال الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (٧/ ٢٠٢)، ثقة فقيه فاضل كثير الإرسال وقيل تغير بآخره، وفيه أيضًا عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج القرشي الأموي. قال الحافظ في «التهذيب» (٦/ ٤٠٥) ثقة فقيه فاضل، وكان يدلس ويرسل. وقال الدارقطني: تجنب تدليس ابن جريج فإنه قبيح، لا يدلس إلا فيما سمع من مجروح.

المُتَبادَر مِنْ حَدِيث البَرَاء المُتَقَدِّم ذِكْرهُ فِي «سُورَة إِبْرَاهِيم»، وَقَدْ سُمِّيَ فِي بَعْض الآثَار بعزرائيل، وَهُوَ المَشْهُور؛ قَالهُ قَتَادَة وَغَيْر وَاحِد، وَلهُ أَعْوَان. وَهَكَذَا وَرَدَ فِي الحَدِيث أَنَّ أَعْوَانه يَنْتَزِعُونَ الأَرْوَاح مِنْ سَائِر الجَسَد، حَتَّى إِذَا بَلغَتْ الحُلقُوم تناولها مَلك المَوْت. قَال مُجَاهِد: حُوِيَتْ لهُ الأَرْض فَجُعِلتْ مِثْل الطَّسْت، يتَنَاوَل مِنْهَا مَتَى يَشَاء. وَرَوَاهُ زُهَيْر بْن مُحَمَّد عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِنَحْوِهِ مُرْسَلًا، وَقَالهُ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما.

وقال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَبِي يَحْيَى المُقْرِي، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن شمر عَنْ جَعْفَر بْن مُحَمَّد قَال: سَمِعْت أَبِي يَقُول: نَظَر رَسُول الله ﷺ إِلى مَلك المَوْت عِنْد رَأْس رَجُل مِنْ الأَنْصَار، فَقَال لهُ النَّبِيّ ﷺ: «يَا مَلك المَوْت، أَرْفِقْ بِصَاحِبِي فَإِنَّهُ مُؤْمِن. فَقَال مَلك المَوْت: يَا مُحَمَّد، طِبْ نَفْسًا، وَقَرَّ عَيْنًا، فَإِنِّي بِكُلِّ مُؤْمِن رَفِيق، وَاعْلمْ أَنَّ مَا فِي الأَرْض بَيْت مَدَر وَلا شَعَر، فِي بَرّ وَلا بَحْر، إِلاَّ وَأَنَا أَتَصَفَّحُهُمْ فِي كُلّ يَوْم خَمْس مَرَّات، حَتَّى أَنِّي أَعْرَف بِصَغِيرِهِمْ وَكَبِيرهمْ مِنْهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَالله يَا مُحَمَّد، لوْ أَنِّي أَرَدْت أَنْ أَقْبِض رُوح بَعُوضَة مَا قَدَرْت عَلى ذَلكَ حَتَّى يَكُون الله هُوَ الآمِر بِقَبْضِهَا».[1] قَال جَعْفَر: بَلغَنِي أَنَّهُ إِنَّمَا يَتَصَفَّحُهُمْ عِنْد مَوَاقِيت الصَّلاة، فَإِذَا حَضَرَهُمْ عِنْد المَوْت فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ يُحَافِظ عَلى الصَّلاة دَنَا مِنْهُ المَلك، وَدَفَعَ عَنْهُ الشَّيْطَان، وَلقَّنَهُ المَلك: «لا إِله إِلاَّ الله، مُحَمَّد رَسُول الله» فِي تِلكَ الحَال العَظِيمَة. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مُسْلم، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن مَيْسَرَة؛ قَال: سَمِعْت مُجَاهِدًا يَقُول: مَا عَلى ظَهْر الأَرْض مِنْ بَيْت شَعَر أَوْ مَدَر إِلَّا وَمَلك المَوْت [يَطُوف][2] بِهِ كُلّ يَوْم مَرَّتَيْنِ. وَقَال كَعْب الأَحْبَار: وَالله مَا مِنْ بَيْت فِيهِ أَحَد مِنْ أَهْل الدُّنْيَا إِلَّا وَمَلك المَوْت يطيف به كل يوم مرتين يَقُوم عَلى بَابه كُلّ يَوْم سَبْع مَرَّات، يَنْظُر هَل فِيهِ أَحَد أُمِرَ أَنْ يَتَوَفَّاهُ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَوْله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أَيْ: يَوْم مَعَادكُمْ وَقِيَامكُمْ مِنْ قُبُوركُمْ لجَزَائِكُمْ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ حَال المُشْرِكِينَ يَوْم القِيَامَة وَقالهمْ حِين عَايَنُوا البَعْث، وَقَامُوا بَيْن يَدَيْ الله عز وجل حَقِيرِينَ ذَليلينَ ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ أَيْ: مِنْ الحَيَاء وَالخَجَل، يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، أَيْ: نَحْنُ الآن نَسْمَع قَوْلك، وَنُطِيع أَمْرك، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾. وَكَذَلكَ يَعُودُونَ عَلى أَنْفُسهمْ بِالمَلامَةِ إِذَا دَخَلُوا النَّار بِقَوْلهِمْ: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾. وَهَكَذَا هَؤُلاءِ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾، أَيْ: إِلى الدار الدُّنْيَا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، أَيْ: قَدْ أَيْقَنَّا وَتَحَقَّقْنَا أَنَّ وَعْدك حَقّ وَلقَاءَك حَقّ، وَقَدْ عَلمَ الرَّبّ تَعَالى مِنْهُمْ أَنَّهُ لوْ أَعَادَهُمْ إِلى دَار الدُّنْيَا لكَانُوا كَمَا كَانُوا فِيهَا كُفَّارًا، يُكَذِّبُونَ آيَاتِ الله وَيُخَالفُونَ رُسُله؛ كَمَا قَال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾. وقَال هَهُنَا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾. ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أَيْ: مِنْ الصِّنْفَيْنِ، فَدَارهمْ النَّار لا مَحِيد لهُمْ عَنْهَا، وَلا مَحِيص لهُمْ مِنْهَا، نَعُوذ بِالله وَكَلمَاته التَّامَّة مِنْ ذَلكَ. ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾، أَيْ: يُقَال

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤/ ٢٢٠) بسند ضعيف جدًا، فيه عمرو بن شمر الجعفي: وهو متروك الحديث.
(٢) في نسخة: [يطيف].

لأَهْل النَّار -عَلى سَبِيل التَّقْرِيع وَالتَّوْبِيخ-: ذُوقُوا العَذَاب بِسَبَبِ تَكْذِيبكُمْ بِهِ، وَاسْتِبْعَادكُمْ وُقُوعه، وَتَنَاسِيكُمْ لَهُ، إذ عَامَلْتُمُوهُ مُعَامَلة مَنْ هُوَ نَاس لَهُ، ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾، أَيْ: سَنُعَامِلُكُمْ مُعَامَلة النَّاسِي، لأَنَّهُ تَعَالى لا يَنْسَى شَيْئًا وَلا يَضِلّ عَنْهُ شَيْء، بَل مَنْ بَاب المُقَابَلة، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

وَقَوْله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أَيْ: بِسَبَبِ كُفْرهمْ وَتَكْذِيبهمْ كَمَا قَال فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أَيْ: إِنَّمَا يُصَدِّق بِهَا ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾، أَيْ: اسْتَمَعُوا لَهَا وَأَطَاعُوهَا قَوْلًا وَفِعْلًا، ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عَنْ اتِّبَاعهَا وَالانْقِيَاد لَهَا، كَمَا يَفْعَلهُ الجَهَلة مِنْ الكَفَرَة الفَجَرَة؛ قَال الله تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾، يَعْنِي: بذلك قِيَام اللَّيْل، وَتَرْك النَّوْم وَالاضْطِجَاع عَلى الفُرُش الوَطِيئَة. قَال مُجَاهِد وَالحَسَن فِي قَوْله تَعَالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: قِيَام اللَّيْل. وَعَنْ أَنَس، وَعِكْرِمَة، وَمُحَمَّد بْن المُنْكَدِر، وَأَبِي حَازِم، وَقَتَادَة: هُوَ الصَّلاة بَيْن العِشَاءَيْنِ. وَعَنْ أَنَس أَيْضًا: هُوَ انْتِظَار صَلاة العَتَمَة. رَوَاهُ ابْن جَرِير بِإِسْنَادٍ جَيِّد. وَقَال الضَّحَّاك: وَهُوَ صَلاة العِشَاء فِي جَمَاعَة، وَصَلاة الغَدَاة فِي جَمَاعَة.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أَيْ: خَوْفًا مِنْ وَبَال عِقَابه، وَطَمَعًا فِي جَزِيل ثَوَابه. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، فَيَجْمَعُونَ بَيْن فِعْل القُرُبَات اللَّازِمَة وَالمُتَعَدِّيَة، وَمُقَدَّم هَؤُلاءِ، وَسَيِّدهمْ، وَفَخْرهمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة رَسُول الله ﷺ كَمَا قَال عَبْد الله بْن رَوَاحَة رضي الله عنه:

وَفِينَا رَسُول الله يَتْلُو كِتَابه ۞ إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوف مِنْ الصُّبْح سَاطِع

أَرَانَا الهُدَى بَعْد العَمَى، فَقُلُوبنَا ۞ بِهِ مُوقِنَات أَنَّ مَا قَال وَاقِع

يَبِيت يُجَافِي جَنْبه عَنْ فِرَاشه ۞ إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالمُشْرِكِينَ المَضَاجِع

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا رَوْح وَعَفَّان قَالا: حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلمَة، أَخْبَرَنَا عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ مُرَّة الهَمْدَانِيّ، عَنْ ابْن مَسْعُود، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**عَجِبَ رَبّنَا مِنْ رَجُليْنِ: رَجُل ثَارَ مِنْ وِطَائِهِ وَلِحَافه، مِنْ بَيْن أهله وحيه إلى صلاته، فيقول ربنا: أيا ملائكتي، انظروا إلى عبدي، ثار من فراشه ووطائه، ومن بين حيّه وأهله إلى صلاته، رَغْبَة فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَة مِمَّا عِنْدِي. وَرَجُل غَزَا فِي سَبِيل الله عز وجل فَانْهَزَمُوا، فَعَلمَ مَا عَليْهِ مِنْ الفِرَار، وَمَا لهُ فِي الرُّجُوع، فَرَجَعَ حَتَّى أُهْرِيقَ دَمه، رَغْبَة فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَة مِمَّا عِنْدِي. فَيَقُول الله عز وجل للمَلائِكَةِ: انْظُرُوا إِلى عَبْدِي رَجَعَ رَغْبَة فِيمَا عِنْدِي، وَرَهْبَة مِمَّا عِنْدِي، حَتَّى أُهْرِيقَ دَمه**»[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي الجِهَاد، عَنْ مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، عَنْ حَمَّاد بْن سَلمَة، بِهِ بِنَحْوِهِ.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ عَاصِم بْن أَبِي النَّجُود، عَنْ أَبِي وَائِل، عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل قَال: كُنْت مَعَ النَّبِيّ ﷺ فِي سَفَر، فَأَصْبَحْت يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ، وَنَحْنُ نَسِير، فَقُلْت: يَا رسول الله، أَخْبِرْنِي

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (١/ ٤١٦)، وأبو داود (٢٥٣٦)، وحسنه الألباني.

بِعَمَلٍ يُدْخِلنِي الجَنَّة وَيُبَاعِدنِي مِنْ النَّار. قَال: «لقَدْ سَأَلت عَنْ عَظِيم، وَإِنَّهُ ليَسِير على مَنْ يَسَّرَهُ الله عَليْهِ: تَعْبُد الله وَلا تُشْرِك بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيم الصَّلاة، وَتُؤْتِي الزَّكَاة، وَتَصُوم رَمَضَان، وَتَحُجّ البَيْت». ثُمَّ قَال: «أَلا أَدُلّك عَلى أَبْوَاب الخَيْر؟ الصَّوْم جُنَّة، وَالصَّدَقَة تُطْفِئُ الخَطِيئَة، وَصَلاة الرَّجُل فِي جَوْف اللَّيْل ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾، حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ ﴾. ثُمَّ قَال: «أَلا أُخْبِرك بِرَأْسِ الأَمْر وَعَمُوده وَذِرْوَة سَنَامه؟». فَقُلت: بَلى، يَا رَسُول الله، فَقَال: «رَأْس الأَمْر الإِسْلام، وَعَمُوده الصَّلاة، وَذِرْوَة سَنَامه الجِهَاد فِي سَبِيل الله». ثُمَّ قَال: «أَلا أُخْبِرك بِمَلاكِ ذَلِكَ كُلّه؟». فَقُلت: بَلى، يَا نَبِيّ الله، فَأَخَذَهُ بِلِسَانِهِ ثُمَّ قَال: «كُفَّ عَلَيْك هَذَا»، فَقُلت: يَا رَسُول الله، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّم بِهِ، فَقَال: «ثَكِلَتْك أُمّك يَا مُعَاذ، وَهَل يَكُبّ النَّاس فِي النَّار عَلى وُجُوههمْ -أَوْ قَال: عَلى مَنَاخِرهمْ- إِلاَّ حَصَائِد أَلسِنَتهمْ؟»[1]. رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ، وَالنَّسَائِيّ، وَابْن مَاجَهْ فِي «سُنَنهمْ»، مِنْ طُرُق عَنْ مَعْمَر، بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح.

وَقد رَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث شُعْبَة عَنْ الحَكَم؛ قَال: سَمِعْت عُرْوَة بْن النزال يُحَدِّث عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال لهُ: «أَلا أَدُلّك على أَبْوَاب الخَيْر: الصَّوْم جُنَّة، وَالصَّدَقَة تُكَفِّر الخَطِيئَة، وَقِيَام العَبْد فِي جَوْف اللَّيْل». وَتَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[2]. وَرَوَاهُ أَيْضًا مِنْ حَدِيث الثَّوْرِيّ، عَنْ مَنْصُور بْن المُعْتَمِر، عَنْ الحَكَم، عَنْ مَيْمُون بْن أَبِي شَبِيب، عَنْ مُعَاذ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِنَحْوِهِ، وَمِنْ حَدِيث الأَعْمَش، عَنْ [حَبِيب بْن أَبِي ثَابِت][3]، وَالحَكَم، عَنْ مَيْمُون بْن أَبِي شَبِيب، عَنْ مُعَاذ مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ. وَمِنْ حَدِيث حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ عَاصِم بْن أَبِي النَّجُود، عَنْ شَهْر، عَنْ مُعَاذ بن جبل، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قَوْله تَعَالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾، قَال: «قِيَام العَبْد مِنْ اللَّيْل».[4]

وقال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، حَدَّثَنَا فطر بْن خليفَة، عَنْ حَبِيب بْن أَبِي ثَابِت، وَالحَكَم، وَحَكِيم بْن جبير، عَنْ مَيْمُون بْن أَبِي شَبِيب، عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل قَال: كُنْت مَعَ النَّبِيّ ﷺ فِي غَزْوَة تَبُوك فَقَال: «إِنْ شِئْت أَنْبَأْتُكَ بِأَبْوَابِ الخَيْر: الصَّوْم جُنَّة، وَالصَّدَقَة تُطْفِئُ الخَطِيئَة، وَقِيَام الرَّجُل فِي جَوْف اللَّيْل. ثُمَّ تَلا رَسُول الله ﷺ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾». ثُمَّ قَال: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا سُوَيْد بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن مُسْهِر، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب، عَنْ أَسْمَاء بِنْت يَزِيد قَالتْ: قَال رَسُول الله ﷺ : «إِذَا جَمَعَ الله الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْم القِيَامَة، جَاءَ مُنَادٍ فَنَادَى بِصَوْتٍ يُسْمِع الخَلائِق: سَيَعْلمُ أَهْل الجَمْع اليَوْم مَنْ أَوْلى بِالكَرَمِ. ثُمَّ يَرْجِع فَيُنَادِي: ليَقُمْ الَّذِينَ كَانَتْ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ الآيَة، فَيَقُومُونَ وَهُمْ قَليل».[5]

وَقَال البَزَّار: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن شَبِيب، حَدَّثَنَا الوَليد بْن عَطَاء بْن الأَغَرّ، حَدَّثَنَا عَبْد الحَمِيد بْن سُليْمَان، حَدَّثَنِي مُصْعَب، عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ، عَنْ أَبِيهِ قَال: قَال بِلال: لمَّا نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾، كُنَّا نَجْلس فِي المَجْلس، وَنَاس مِنْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ ، يُصَلُّونَ بَعْد المَغْرِب إِلى العِشَاء، فَنَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾. ثُمَّ قَال: لا نَعْلم رَوَى أَسْلم عَنْ بِلال سِوَاهُ، وَليْسَ لهُ طَرِيق عَنْ بِلال غَيْر هَذِهِ الطَّرِيق.

---

(١) صحيح : تقدم.
(٢) صحيح : انظر السابق.
(٣) في (ز) : [أبي حبيب بن ثابت].
(٤) سنده ضعيف : فيه شهر بن حوشب: وهو ضعيف.
(٥) ضعيف : تقدم.

وَقَوْله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، أَيْ: فَلا يَعْلم أَحد عَظَمَة مَا أَخْفَى الله لَهُمْ فِي الجَنَّات مِنْ النَّعِيم المُقِيم، وَاللَّذَّات الَّتِي لَمْ يَطَّلع عَلى مِثْلهَا أَحَد، لَـمَّا أَخْفَوْا أَعْمَالهمْ أَخْفى الله لَهُمْ مِنْ الثَّوَاب، جَزَاء وِفَاقًا، فَإِنَّ الجَزَاء مِنْ جِنْس العَمَل. قَال الحَسَن: أَخْفَى قَوْم عَمَلهمْ فَأَخْفَى الله لَهُمْ مَا لَمْ تَرَ عَيْن، ولا يَخْطُر عَلى قَلب بَشَر. رَوَاهُ ابن أَبِي حَاتِم.

قَال البُخَارِيّ: قَوْله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآيَة، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِي الزِّنَاد، عَنْ الأَعْرَج عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «**قَال الله تَعَالى: أَعْدَدْت لعِبَادِي الصَّالحِينَ مَا لا عَيْن رَأَتْ، وَلا أُذُن سَمِعْت، وَلا خَطَر على قَلب بَشَر**». قَال أَبُو هُرَيْرَة: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾.[1] قَال: وَحَدَّثَنَا سُفْيَان، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَاد، عَنْ الأَعْرَج، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال الله تعالى مِثْلهُ. قِيل لسُفْيَان: رِوَايَةً؟ قَال: فَأَيّ شَيْء؟! وَرَوَاهُ مُسْلم وَالتِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، بِهِ، وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح. ثُمَّ قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن نَصْر، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَة، عَنْ الأَعْمَش، عن أبي صَالح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ عَنْ النَّبِيّ ﷺ : «**يَقُول الله تَعَالى: أَعْدَدْت لعِبَادِي الصَّالحِينَ مَا لا عَيْن رَأَتْ، وَلا أُذُن سَمِعْت، وَلا خَطَر عَلى قَلب بَشَر، ذُخْرًا من بَلهَ مَا أُطْلعْتُمْ عَليْهِ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾**». قَال أَبُو مُعَاوِيَة، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالح: قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَة: (قُرَّات أَعْيُن). انْفَرَدَ بِهِ البُخَارِيّ مِنْ هَذَا الوَجْه.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ هَمَّام بْن مُنَبِّه قَال: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَة عَنْ رَسُول الله ﷺ : «**إِنَّ الله تَعَالى قَال: أَعْدَدْت لعِبَادِي الصَّالحِينَ مَا لا عَيْن رَأَتْ، وَلا أُذُن سَمِعْت، وَلا خَطَر عَلى قَلب بَشَر**». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ رِوَايَة عَبْد الرَّزَّاق، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير، وَابْن جَرِير، مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّحِيم بْن سُليْمَان، عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي سَلمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ عَنْ رَسُول الله ﷺ بِمِثْلهِ. ثُمَّ قَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن صَحِيح. وَقَال حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ ثَابِت بْن أَبِي رَافِع، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ -قَال حَمَّاد: أَحْسِبهُ عَنْ النَّبِيّ ﷺ- قَال: «**مَنْ يَدْخُل الجَنَّة يُنَعَّم لا يَبْأَس، لا تَبْلى ثِيَابه، وَلا يَفْنَى شَبَابه، فِي الجَنَّة مَا لا عَيْن رَأَتْ، وَلا أُذُن سَمِعْت، وَلا خَطَر عَلى قَلب بَشَر**»[2]. رَوَاهُ مُسْلم مِنْ حَدِيث حَمَّاد بْن سَلمَة بِهِ.

وقال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هَارُون، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب، حَدَّثَنِي أَبُو صَخْر، أَنَّ أَبَا حَازِم حَدَّثَهُ قَال: سَمِعْت سَهْل بْن سَعْد السَّاعِدِيّ ﷺ يَقُول: شَهِدْت مِنْ رَسُول الله ﷺ مَجْلسًا وَصَفَ فِيهِ الجَنَّة، حَتَّى انْتَهَى، ثُمَّ قَال فِي آخِر حَدِيثه: «**فِيهَا مَا لا عَيْن رَأَتْ، وَلا أُذُن سَمِعْت، وَلا خَطَر عَلى قَلب بَشَر**». ثُمَّ اقترأ هَذِهِ الآيَة: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾، إِلى قَوْله: ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾[3]. وَأَخْرَجَهُ مُسْلم فِي «صَحِيحه» عَنْ هَارُون بْن مَعْرُوف، وَهَارُون بْن سَعِيد، كليهما عَنْ ابْن وَهْب بِهِ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي العَبَّاس بْن أَبِي طَالب، حَدَّثَنَا معلى بْن أَسَد، حَدَّثَنَا سَلَّام بْن أَبِي مُطِيع، عَنْ قَتَادَة، عَنْ عُقْبَة بْن عَبْد الغَافِر، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ، عَنْ رَسُول الله ﷺ يَرْوِي عَنْ رَبّه ﷻ، قَال: «**أَعْدَدْت لعِبَادِي الصَّالحِينَ مَا لا عَيْن رَأَتْ، وَلا أُذُن سَمِعْت، وَلا خَطَر عَلى قَلب بَشَر**». لمْ يُخَرِّجُوهُ. وَقَال مُسْلم أَيْضًا فِي

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٣٦).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٢٥).

«صَحِيحه»: حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عُمَر وَغَيْره، حَدَّثَنَا سُفْيَان، [حَدَّثَنَا][١] مُطَرِّف بْن طَرِيف، وَعَبْد المَلِك بْن سَعِيد، سَمِعَا الشَّعْبِيّ يُخْبِر عَنْ المُغِيرَة بْن شُعْبَة قَال: سَمِعْته عَلَى المِنْبَر -يَرْفَعهُ إِلَى النَّبِيّ ﷺ قَال: «سَأَل مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام رَبّه عَزَّ وَجَلَّ: مَا أَدْنَى أَهْل الجَنَّة مَنْزِلة؟ قَال: هُوَ رَجُل يَجِيء بَعْدَمَا أُدْخِل أَهْل الجَنَّة الجَنَّة، فَيُقَال لَهُ: ادْخُل الجَنَّة. فَيَقُول: أَيْ رَبّ، كَيْف وَقَدْ نَزَل النَّاس مَنَازِلهمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتهمْ؟ فَيُقَال لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُون لَك مِثْل مُلْكِ مَلِك مِنْ مُلُوك الدُّنْيَا؟ فَيَقُول: رَضِيت رَبّ. فَيَقُول: لَك ذَلِك، وَمِثْله، وَمِثْله، وَمِثْله، وَمِثْله، فَقَال فِي الخَامِسَة: رَضِيت رَبِّ. فَيَقُول: هَذَا لَك وَعَشَرَة أَمْثَاله، وَلَك مَا اشْتَهَتْ نَفْسك، وَلَذَّتْ عَيْنك. فَيَقُول: رَضِيت رَبّ. قَال: رَبّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلة؟ قَال: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْت، غَرَسْت كَرَامَتهمْ بِيَدَيَّ، وَخَتَمْت عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْن، وَلَمْ تَسْمَع أُذُن، وَلَمْ يَخْطُر عَلَى قَلْب بَشَر، قَال: وَمِصْدَاقه مِنْ كِتَاب الله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾».[٢] وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ ابْن أَبِي عُمَر، وَقَال: حَسَن صَحِيح، قَال: وَرَوَاهُ بَعْضهمْ عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ المُغِيرَة وَلَمْ يَرْفَعهُ، وَالمَرْفُوع أَصَحّ.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن منير المَدَائِنِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو بَدْر شُجَاع بْن الوَلِيد، حَدَّثَنَا زِيَاد بْن خَيْثَمَة، عَنْ مُحَمَّد بْن جُحَادَة، عَنْ عَامِر بْن عَبْد الوَاحِد قَال: بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُل مِنْ أَهْل الجَنَّة يَمْكُث فِي مَكَانه سَبْعِينَ سَنَة، ثُمَّ يَلْتَفِت فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَةٍ أَحْسَن مِمَّا كَانَ فِيهِ، فَتَقُول لَهُ: قَدْ أنى لك أَنْ يَكُون لَنَا مِنْك نَصِيب؟ فَيَقُول: مَنْ أَنْتِ؟ فَتَقُول: أَنَا مِنْ المَزِيد. فَيَمْكُث مَعَهَا سَبْعِينَ سَنَة، ثُمَّ يَلْتَفِت فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَةٍ أَحْسَن مِمَّا كَانَ فِيهِ، فَتَقُول لَهُ: قَدْ آن لك أَنْ يَكُون لَنَا مِنْك نَصِيب، فَيَقُول: مَنْ أَنْتِ؟ فَتَقُول: أَنَا الَّتِي قَال الله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾.[٣]

وَقَال ابْن لَهِيعَة: حَدَّثَنِي عَطَاء بْن دِينَار، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر قَال: تَدْخُل عَلَيْهِمْ المَلَائِكَة فِي مِقْدَار كُلّ يَوْم مِنْ أَيَّام الدُّنْيَا ثَلَاث مَرَّات، مَعَهُمْ التُّحَف مِنْ الله مِنْ جَنَّات عَدْن مَا لَيْسَ فِي جَنَّاتهمْ، وَذَلِكَ قَوْله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾، وَيُخْبَرُونَ أَنَّ الله عَنْهُمْ رَاضٍ. وقال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا سَهْل بْن مُوسَى الرَّازِيّ، حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن مُسْلم، عَنْ صَفْوَان بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي اليَمَان الهَوْزَنِيّ -أَوْ غَيْره- قَال: الجَنَّة مِائَة دَرَجَة، أَوَّلهَا دَرَجَة فِضَّة، وَأَرْضهَا فِضَّة، وَمَسَاكِنهَا فِضَّة، وَآنِيَتهَا فِضَّة وَتُرَابهَا المِسْك. وَالثَّانِيَة ذَهَب، وَأَرْضهَا ذَهَب، وَمَسَاكِنهَا ذَهَب، وَآنِيَتهَا ذَهَب، وَتُرَابهَا المِسْك. وَالثَّالِثَة لُؤْلُؤ، وَأَرْضهَا لُؤْلُؤ، وَمَسَاكِنهَا اللُّؤْلُؤ، وَآنِيَتهَا اللُّؤْلُؤ، وَتُرَابهَا المِسْك. وَسَبْع وَتِسْعُونَ بَعْد ذَلِكَ، مَا لَا عَيْن رَأَتْ، وَلَا أُذُن سَمِعَتْ، وَلَا خَطَر عَلَى قَلْب بَشَر. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَة: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا مُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان، عَنْ الحَكَم بْن أَبَان، عَنْ الغِطْرِيف، عَنْ جَابِر بْن زَيْد، عَنْ ابْن عَبَّاس عَنْ النَّبِيّ ﷺ عَنْ الرُّوح الأَمِين قَال: «يُؤْتَى بِحَسَنَاتِ العَبْد وَسَيِّئَاته، يُنْقَص بَعْضهَا مِنْ بَعْض، فَإِنْ بَقِيَتْ حَسَنَة وَاحِدَة وَسَّعَ الله لَهُ فِي الجَنَّة». قَال: فَدَخَلت عَلَى «يزداد» فَحَدَّثَ بِمِثْل هَذَا الحَدِيث، قَال: فَقُلت: فَأَيْنَ ذَهَبَتْ الحَسَنَة؟ قَال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾، قُلت: قَوْله تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾، قَال: العَبْد يَعْمَل سِرًّا أَسَرَّهُ إِلَى الله لَمْ يَعْلَم بِهِ النَّاس، فَأَسَرَّ الله لَهُ يَوْم القِيَامَة قُرَّة أَعْيُن.[٤]

(١) في (ز) : [بن].
(٢) صحيح : أخرجه مسلم (١٨٩)، والترمذي (٣١٩٨).
(٣) إسناده ضعيف : فيه عامر بن عبد الواحد فيه ضعف، وهذا مع إرساله.
(٤) إسناده ضعيف : أخرجه الطبري (٢١/ ٦٧) بسند ضعيف.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالَى عَنْ عَدْله، أَنَّهُ لا يُسَاوِي فِي حُكْمه يَوْم القِيَامَة مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِآيَاتِهِ مُتَّبِعًا لِرُسُلِه، بِمَنْ كَانَ فَاسِقًا، أَيْ: خَارِجًا عَنْ طَاعَة رَبّه، مُكَذِّبًا لِرُسُله إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ أَيْ: عِنْد الله يَوْم القِيَامَة. وَقَدْ ذَكَرَ عَطَاء بْن يَسَار وَالسُّدِّيّ وَغَيْرهمَا: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب، وَعُقْبَة بْن أَبِي مُعَيْطٍ.

وَلِهَذَا فَصَّل حُكْمهمْ فَقَالَ: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أَيْ: صَدَّقَتْ قُلُوبهمْ بِآيَاتِ الله وَعَمِلُوا بِمُقْتَضَاهَا، وَهِيَ الصَّالِحَات ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، أَيْ: الَّتِي فِيهَا المَسَاكِن وَالدُّور وَالغُرَف العَالِيَة، ﴿نُزُلًۢا﴾، أَيْ: ضِيَافَة وَكَرَامَة. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟﴾ أَيْ: خَرَجُوا عَنْ الطَّاعَة، ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ الآيَة. قَالَ الفُضَيْل ابْن عِيَاض: وَالله إِنَّ الأَيْدِي لَمُوثَقَة، وَإِنَّ الأَرْجُل لَمُقَيَّدَة، وَإِنَّ اللَّهَب لَيَرْفَعهُمْ وَالمَلائِكَة تَقْمَعهُمْ. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أَيْ: يُقَال لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا.

وَقَوْله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾، قَالَ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي بِالعَذَابِ الأَدْنَى مَصَائِب الدُّنْيَا وَأَسْقَامهَا وَآفَاتهَا، وَمَا يَحِلّ بِأَهْلِهَا مِمَّا يَبْتَلِي الله بِهِ عِبَاده لِيَتُوبُوا إِلَيْهِ. وَرُوِيَ مِثْله عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، وَأَبِي العَالِيَة وَالحَسَن وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَالضَّحَّاك، وَعَلْقَمَة، وَعَطِيَّة، وَمُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَعَبْد الكَرِيم الجَزَرِيّ، وَخُصَيْف. وَقَال ابْن عَبَّاس فِي رِوَايَة عَنْهُ: يَعْنِي بِهِ إِقَامَة الحُدُود عَلَيْهِمْ. وَقَال البَرَاء بْن عَازِب، وَمُجَاهِد، وَأَبُو عُبَيْدَة: يَعْنِي بِهِ عَذَاب القَبْر. وَقَال النَّسَائِيّ: أَخْبَرَنَا عَمْرو بْن عَلِيّ، أَخْبَرَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي الأَحْوَص وَأَبِي عُبَيْدَة، عَنْ عَبْد الله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾، قَالَ: سُنُونَ أَصَابَتْهُمْ.

وَقَالَ عَبْد الله ابْن الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنِي عبيد الله بْن عُمَر القَوَارِيرِيّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ شُعْبَة، عَنْ قَتَادَة، عَنْ عزرة، عَنْ الحَسَن العُرَنِي، عَنْ يَحْيَى بْن الجَزَّار، عَنْ ابْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾، قَالَ: القَمَر وَالدُّخَان قَدْ مَضَيَا، وَالبَطْشَة وَاللِّزَام. وَرَوَاهُ مُسْلِم مِنْ حَدِيث شُعْبَة بِهِ مَوْقُوفًا نَحْوه. وَعِنْد البُخَارِيّ عَنْ ابْن مَسْعُود، نَحْوه. وَقَالَ عَبْد الله بْن مَسْعُود أَيْضًا فِي رِوَايَة عَنْهُ: العَذَاب الأَدْنَى: مَا أَصَابَهُمْ مِنْ القَتْل وَالسَّبْي يَوْم بَدْر. وَكَذَا قَالَ مَالِك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ. قَالَ السُّدِّيّ وَغَيْره: لَمْ يَبْقَ بَيْت بِمَكَّة إِلَّا دَخَلَهُ الحُزْن عَلَى قَتِيل لَهُمْ أَوْ أَسِير، فَأُصِيبُوا أَوْ غَرِمُوا، وَمِنْهُمْ مَنْ جُمِعَ لَهُ الأَمْرَانِ.

وَقَوْله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾، أَيْ: لا أَظْلَم مِمَّنْ ذَكَّرَهُ الله بِآيَاتِهِ، وَبَيَّنَهَا لَهُ وَوَضَّحَهَا، ثُمَّ بَعْد ذَلِكَ تَرَكَهَا وَجَحَدَهَا وَأَعْرَضَ عَنْهَا وَتَنَاسَاهَا، كَأَنَّهُ لا يَعْرِفهَا. قَالَ قَتَادَة رَحِمَهُ اللَّهُ: إِيَّاكُمْ وَالإِعْرَاض عَنْ ذِكْر الله! فَإِنَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْره فَقَدْ اغْتَرَّ أَكْبَر الغِرَّة، وَأَعْوَز أَشَدّ العَوَز، وَعَظُمَ مِنْ أَعْظَم الذُّنُوب. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾، أَيْ: سَأَنْتَقِمُ مِمَّنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَشَدّ

الانْتِقام. قال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي عِمْرَان بْن بَكَّار الكُلاعِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن المُبَارك، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن عُبَيْد الله، عَنْ عُبَادَة بْن نَسِيّ، عَنْ جُنَادَة بْن أبي أُمَيَّة، عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل قَال: سَمِعْت رَسُول اللهﷺ يَقُول: «ثَلاث مَنْ فَعَلهُنَّ فَقَدْ أَجْرَمَ، مَنْ عَقَدَ لوَاء فِي غَيْر حَقّ، أَوْ عَقَّ وَالدَيْه، أَوْ مَشَى مَعَ ظَالم يَنْصُره، فَقَدْ أَجْرَمَ». يَقُول الله تَعَالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.[1] وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث إِسْمَاعِيل ابْن عَيَّاش، بِهِ، هَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ عَبْده وَرَسُوله مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ آتَاهُ الكِتَاب، وَهُوَ التَّوْرَاة. وَقَوْله: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، قَال قَتَادَة: يَعْنِي بِهِ لَيْلَة الإِسْرَاء. ثُمَّ رُوِيَ عَنْ أَبِي العَالِيَة الرِّيَاحِيّ قَال: حَدَّثَنِي ابْن عَمّ نَبِيّكُمْ -يَعْنِي ابْن عَبَّاس- قَال: قَال رَسُول اللهﷺ : **«أُرِيت لَيْلَة أُسْرِيَ بِي مُوسَى بْن عِمْرَان، رَجُلاً آدَمَ طُوَالاً، جَعْدًا، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَال شَنُوءَة، وَرَأَيْت عِيسَى رَجُلاً مَرْبُوع الخَلْق، إِلى الحُمْرَة وَالبَيَاض، سَبِطَ الرَّأْس، وَرَأَيْت مَالِكًا خَازِن النَّار وَالدَّجَّال».** فِي آيَات أَرَاهُنَّ الله إِيَّاهُ، ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، أَنَّهُ قَدْ رَأَى مُوسَى، وَلقِيَ مُوسَى لَيْلَة أُسْرِيَ به.[2]

وَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُثْمَان بْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن عَلِيّ الحُلْوَانِيّ، حَدَّثَنَا رَوْح بْن عُبَادَة، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة، عَنْ أَبِي العَالِيَة، عَنْ ابْن عَبَّاس عَنْ النَّبِيّﷺ فِي قَوْله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، قَال: «جَعَل مُوسَى هُدًى لبَنِي إِسْرَائِيل»، وَفِي قَوْله: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾، قَال: **«مِنْ لقَاء مُوسَى رَبّه عَزَّ وَجَلَّ»**[3]. وَقَوْله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾، أَيْ: الكِتَاب الَّذِي آتَيْنَاهُ موسى ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، كَمَا قَال تَعَالى فِي سُورَة الإِسْرَاء: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾.

وقَوْله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أَيْ: لَـمَّا كَانُوا صَابِرِينَ عَلى أَوَامِر الله وَتَرْك زَوَاجِره، وَتَصْدِيق رُسُله، وَاتِّبَاعهمْ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ -كَانَ مِنْهُمْ أَئِمَّة يَهْدُونَ إِلى الحَقّ بِأَمْر الله، وَيَدْعُونَ إِلى الخَيْر، وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوف، وَيَنْهَوْنَ عَنْ المُنْكَر. ثُمَّ لَمَّا بَدَّلُوا وَحَرَّفُوا وَأَوَّلُوا، سُلبُوا ذَلكَ المَقَام، وَصَارَتْ قُلُوبهمْ قَاسِيَة، يُحَرِّفُونَ الكَلم عَنْ مَوَاضِعه، فَلا عَمَلًا صَالحًا، وَلا اعْتِقَادًا صَحِيحًا. وَلهَذَا قَال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾، قَال قَتَادَة وَسُفْيَان: لَـمَّا صَبَرُوا عَنْ الدُّنْيَا. وَكَذَلكَ قَال الحَسَن ابْن صَالح. قَال سُفْيَان: هَكَذَا كَانَ هَؤُلاءِ، وَلا يَنْبَغِي للرَّجُل أَنْ يَكُون له إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ حَتَّى يَتَحَامَى عَنْ الدُّنْيَا. قَال وَكِيع: قَال سُفْيَان: لابُدّ للدِّين مِنْ العِلم، كَمَا لابُدّ للجَسَد مِنْ الخُبْز. وَقَال ابْن بِنْت الشَّافِعِيّ: قَرَأَ أَبِي عَلى عَمِّي -أَوْ عَمِّي عَلى أَبِي- سُئِل سُفْيَان عَنْ قَوْل عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الصَّبْر مِنْ الإِيمَان بِمَنْزِلة الرَّأْس مِنْ الجَسَد، أَلمْ تَسْمَع قَوْله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ قَال: لَـمَّا أَخَذُوا بِرَأْس الأَمْر صَارُوا رُءُوسًا. قَال بَعْض العُلمَاء: بِالصَّبْر وَاليَقِين تُنَال الإِمَامَة فِي الدِّين؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، كَمَا قَال هُنَا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أَيْ: مِنْ الاعْتِقَادَات وَالأَعْمَال.

---

(١) ضعيف : أخرجه الطبري (٢١/ ٦٩)، بسند ضعيف. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٥٤٥).

(٢) تقدم.

(٣) إسناده ضعيف : أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٠١) وفيه عنعنة قتادة.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾.

يَقُول تَعالى: أَوَلَمْ يَهْدِ هَٰؤُلاءِ المُكَذِّبِينَ بِالرُّسُل مَا أَهْلَكَ الله قَبْلهمْ مِنْ الأُمَم المَاضِيَة، بِتَكْذِيبِهِمْ بالرُّسُل، وَمُخَالفتهمْ إِيَّاهُمْ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ قَوِيم السُّبُل، فَلمْ يُبْقِ مِنْهُمْ مِنْ بَاقِيَة وَلا عَيْن وَلا أَثَر؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾؟ وَلهَذَا قَال: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾، أَيْ: وَهَؤُلاءِ المُكَذِّبُونَ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِن أُولئِكَ المُكَذِّبِينَ، فَلا يَرَوْنَ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنهَا وَيَعْمُرهَا، ذَهَبُوا مِنْهَا ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾، كَمَا قَال: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾، وَقَال: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾، وَلهَذَا قَال هَهُنَا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾، أَيْ: إِنَّ فِي ذَهَاب أُولئِكَ القَوْم وَدَمَارهمْ وَمَا حَلَّ بِهِمْ بِسَبَبِ تَكْذِيبهمْ الرُّسُل، وَنَجَاة مَنْ آمَنَ بِهِمْ لآيَاتٍ وَعِبَرًا وَمَوَاعِظ، وَدَلائِل [مُتَنَاظِرَة][1] ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أَيْ: أَخْبَار مَنْ تَقَدَّم، كَيْف كَانَ أَمْرهمْ؟

وقَوْله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾، يُبَيِّن تَعَالى لُطْفه بِخَلْقِهِ، وَإِحْسَانه إِلَيْهِمْ فِي إِرْسَاله المَاء، إِمَّا مِنْ السَّمَاء أَوْ مِنْ السَّيْح، وَهُوَ: مَا تَحْمِلهُ الأَنْهَار وَيَتَحَدَّر مِنْ الجِبَال، إِلى الأَرَاضِي المُحْتَاجَة إِلَيْهِ فِي أَوْقَاته، وَلهَذَا قَال: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾، وَهِيَ: الَّتِي لا نَبَات فِيهَا؛ كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾، أَيْ: يَبَسًا لا تُنْبِت شَيْئًا. وَلَيْسَ المُرَاد مِنْ قَوْله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾، أَرْض مِصْر فَقَطْ، بَل هِي بَعْض المَقْصُود، وَإِنْ مَثَّل بِهَا كَثِير مِنْ المُفَسِّرِينَ فَلَيْسَتْ المَقْصُودَة وَحْدهَا، وَلكِنَّهَا مُرَادَة قَطْعًا مِنْ هَذِهِ الآيَة، فَإِنَّهَا فِي نَفْسهَا أَرْض رِخْوَة غَلِيظَة، تَحْتَاج مِنْ المَاء مَا لوْ نَزَل عَلَيْهَا مَطَرًا لتَهَدَّمَتْ أَبْنِيَتهَا، فَيَسُوق الله إِلَيْهَا النِّيل بِمَا يَتَحَمَّلهُ مِنْ الزِّيَادَة الحَاصِلة مِنْ أَمْطَار بِلاد الحَبَشَة، وَفِيهِ طِين أَحْمَر، فَيَغْشَى أَرْض مِصْر، وَهِيَ أَرْض سَبِخَة مُرْمِلة، مُحْتَاجَة إِلى ذَلكَ المَاء، وَذَلكَ الطِّين أَيْضًا؛ لِيَنْبُت الزَّرْع فِيهِ، فَيَسْتَغِلُّونَ كُلّ سَنَة عَلى مَاء جَدِيد مَمْطُور فِي غَيْر بِلادهمْ، وَطِين جديد مِنْ غَيْر أَرْضهمْ، فَسُبْحَان الحَكِيم الكَرِيم المَنَّان، المَحْمُود ابتداءً.

وَقَال ابْن لِهِيعَة، عَنْ قَيْس بْن حَجَّاج، عَمَّنْ حَدَّثَهُ قَال: لَمَّا فُتِحَتْ مِصْر، أَتَى أَهْلهَا عَمْرو بْن العَاص حِين دَخَل بَؤُونَة -مِنْ أَشْهُر العَجَم- فَقَالُوا: أَيُّهَا الأَمِير، إِنَّ لِنِيلنَا سُنَّة لا يَجْرِي إِلَّا بِهَا، قَال: وَمَا ذَاكَ؟ قَالُوا: إِذَا كَانَتْ ثِنْتَا عَشْرَة لَيْلَة خَلتْ مِنْ هَذَا الشَّهْر عَمَدْنَا إِلى جَارِيَة بِكْر بَيْن أَبَوَيْهَا، فَأَرْضَيْنَا أَبَوَيْهَا، وَجَعَلنَا عَليْهَا مِنْ الحُلِيّ وَالثِّيَاب أَفْضَل مَا يَكُون، ثُمَّ أَلقَيْنَاهَا فِي هذا النِّيل. فَقَال لهُمْ عَمْرو: إِنَّ هَذَا ما لا يَكُون فِي الإِسْلام، إِنَّ الإِسْلام يَهْدِم مَا كَانَ قَبْله. فَأَقَامُوا بَؤُونَة وَالنِّيل لا يَجْرِي، حَتَّى هَمُّوا بِالجَلاءِ، فَكَتَبَ عَمْرو إِلى عُمَر بْن الخَطَّاب بِذَلكَ، فَكَتَبَ إِليْهِ: إِنَّك قَدْ أَصَبْت بِالَّذِي فَعَلت وَقَدْ بَعَثْت إِلَيْك بِبِطَاقَةٍ دَاخِل كِتَابِي هَذَا فَأَلقِهَا فِي النِّيل. فَلمَّا قَدِمَ كِتَابه، أَخَذَ عَمْرو البِطَاقَة فَفَتَحَهَا فَإِذَا فِيهَا: مِنْ عَبْد الله عُمَر أَمِير المُؤْمِنِينَ إِلى نِيل أَهْل مِصْر، أَمَّا بَعْد، فَإِنَّك إِنْ كُنْت إِنَّمَا تَجْرِي مِنْ قِبَلك فَلا تَجْرِ، وَإِنْ كَانَ الله الوَاحِد القهار هُوَ الَّذِي يُجْرِيك؛ فَنَسْأَل الله أَنْ يُجْرِيك. قَال: فَأَلقَى البِطَاقَة فِي النِّيل، فَأَصْبَحُوا يَوْم السَّبْت وَقَدْ أَجْرَى الله النِّيل سِتَّة عَشَر ذِرَاعًا فِي لَيْلة وَاحِدَة، وقَطَعَ الله تِلكَ السُّنَّة عَنْ أَهْل مِصْر إِلى اليَوْم.[2] رَوَاهُ

---

(١) في نسخة: [متظاهرة].

(٢) إسناده ضعيف : أخرجه اللالكائي (٦٦)، وسنده ضعيف، فيه ابن لهيعة: وهو ضعيف، وكذا عبد الله بن صالح كاتب الليث: سيئ الحفظ.

الحافظ أبو القاسم اللالكائي الطبري في كتاب «السنة» له. ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقال ابن أبي نجيح عن رجل، عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾، قال: هي التي لا تمطر إلا مطرًا لا يغني عنها شيئًا، إلا ما يأتيها من السيول. وعن ابن عباس ومجاهد: هي أرض باليمن. وقال الحسن رحمه الله: هي قرى فيما بين اليمن والشام. وقال عكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدي، وابن زيد: الأرض الجرز التي لا نبات فيها وهي مغبرة. قلت: وهذا كقوله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعادًا وتكذيبًا وعنادًا ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾؟ أي: متى تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتًا تدال علينا، وينتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين! قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾، أي: إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الأخرى، ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾. ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريبًا من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم؛ لقوله: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾، وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل؛ كقوله تعالى: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وكقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، وقال: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقال: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾.

ثم قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾، أي: أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، وانتظر، فإن الله سينجز لك ما وعدك وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾، أي: أنت منتظر، وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم، وعلى أداء رسالة الله، في نصرتك وتأييدك، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك، من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

آخر تفسير سورة السجدة، ولله الحمد والمنة

تفسير سُورَةُ الأَحْزَابِ وهي مدنية

ترتيبها ٣٣ — وآياتها ٧٣

قَال عبد الله ابن الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا خَلف بْن هِشَام، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد، عَنْ عَاصِم ابْن بَهْدَلة، عَنْ زِرّ قَال: قَال لي أُبَيّ بْن كَعْب: كَأَيِّنْ تَقْرَأ سُورَة الأَحْزَاب؟ أَوْ كَأَيِّنْ تَعُدّهَا؟ قَال: قُلت: ثَلاثًا وَسَبْعِينَ آيَة. فَقَال: قَطُّ! لَقَدْ رَأَيْتهَا وَإِنَّهَا لتُعَادِل «سُورَة البَقَرَة»، وَلَقَدْ قَرَأْنَا فِيهَا: «**الشَّيْخ وَالشَّيْخَة إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا أَلبتَّة، نَكَالاً مِنْ الله. وَالله عليم حَكِيم**»[1]. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ مِنْ وَجْه آخر، عَنْ عَاصِم -وَهُوَ ابْن أَبِي النَّجُود، وَهُوَ ابن بَهْدَلة بِهِ. وَهَذَا إِسْنَاد حَسَن، وَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ فِيهَا قُرْآن ثُمَّ نُسِخَ لَفْظه وَحُكْمه أَيْضًا، وَالله أَعْلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

هَذَا تَنْبِيه بِالأَعْلَى عَلَى الأَدْنَى، فَإِنَّهُ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَأْمُر عَبْده وَرَسُوله بِهَذَا فَلأَنْ يَأْتَمِر مِنْ دُونه بِذَلِكَ بِطَرِيق الأَوْلَى وَالأَحْرَى. وَقَدْ قَال طَلْق بْن حَبِيب: التَّقْوَى أَنْ تَعْمَل بِطَاعَةِ الله، عَلَى نُور مِنْ الله، تَرْجُو ثَوَاب الله، وَأَنْ تَتْرُك مَعْصِيَة الله، عَلَى نُور مِنْ الله، لله مَخَافَة عَذَاب الله. وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ﴾، أَيْ: لا تَسْمَع مِنْهُمْ وَلا تَسْتَشِرْهُمْ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَيْ: فَهُوَ أَحَقّ أَنْ تَتَّبِع أَوَامِره وَتُطِيعهُ، فَإِنَّهُ عَلِيم بِعَوَاقِب الأُمُور، حَكِيم فِي أَقْوَاله وَأَفْعَاله، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ﴾، أَيْ: مِنْ قُرْآن وَسُنَّة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، أَيْ: فَلا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَة. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، أَيْ: فِي جَمِيع أُمُورك وَأَحْوَالك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أَيْ: وَكَفَى بِهِ وَكِيلًا لِمَنْ تَوَكَّل عَلَيْهِ وَأَنَاب إِلَيْهِ.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

يَقُول تَعَالَى مُوَطِّئًا قَبْل المَقْصُود المَعْنَوِيّ أَمْرًا حِسِّيًّا مَعْرُوفًا، وَهُوَ أَنَّهُ كَمَا لا يَكُون لِلشَّخْصِ الوَاحِد قَلْبَانِ فِي جَوْفه، وَلا تَصِير زَوْجَته الَّتِي يُظَاهِر مِنْهَا بِقَوْلِهِ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي -أُمًّا لَهُ، كَذَلِكَ لا يَصِير الدَّعِيّ وَلَدًا لِلرَّجُل إِذَا تَبَنَّاهُ فَدَعَاهُ ابْنًا لَهُ، فَقَال: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ﴾. وَقَوْله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ﴾، هَذَا هُوَ المَقْصُود بِالنَّفْي، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْن زَيْد بْن حَارِثَة مَوْلَى النَّبِيّ ﷺ كَانَ النَّبِيّ ﷺ قَدْ تَبَنَّاهُ قَبْل النُّبُوَّة، وَكَانَ يُقَال لَهُ: «زَيْد بْن مُحَمَّد»، فَأَرَادَ الله تَعَالَى أَنْ يَقْطَع هَذَا الإِلْحَاق وَهَذِهِ النِّسْبَة بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ﴾، كَمَا قَال فِي أَثْنَاء السُّورَة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾. وَقَال هَهُنَا: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ﴾، يَعْنِي تَبَنِّيكُمْ لَهُمْ قَوْل لا

---

(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد (٥/ ١٣٢)، والنسائي في «الكبرى» (٧١٥٠)، وحسَّن إسناده الحافظ ابن كثير كما في «المتن» وإن كان في سنده كلام؛ لأن عاصم بن أبي النجود وإن كان إمامًا في القراءات ولكن فيه ضعف.

يَقْتَضِي أَنْ يَكُون ابْنًا حَقِيقِيًّا، فَإِنَّهُ مَخْلُوق مِنْ صُلب رَجُل آخر، فَمَا يُمْكِن أَنْ يَكُون لهُ أَبَوَانِ، كَمَا لا يُمْكِن أَنْ يَكُون للبَشَرِ الوَاحِد قَلبَانِ. ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، قَال سَعِيد بْن جُبَيْر: ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، أَيْ: العَدْل. وَقَال قَتَادَة: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، أَيْ: الصِّرَاط المُسْتَقِيم.

وَقَدْ ذَكَرَ غَيْر وَاحِد: أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلتْ فِي رَجُل مِنْ قُرَيْش، كَانَ يُقَال لهُ: «ذُو القَلبَيْنِ»، وَأَنَّهُ كَانَ يَزْعُم أَنَّ لهُ قَلبَيْنِ، كُل مِنْهُمَا بِعَقْلٍ وَافِر. فَأَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة رَدًّا عَليْهِ. هَكَذَا رَوَى العَوْفِيّ عَنْ ابن عَبَّاس. وَقَالهُ مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن، وَقَتَادَة. وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن، حَدَّثَنَا زُهَيْر، عَنْ قَابُوس -يَعْنِي ابْن أَبِي ظَبْيَان- قَال: أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ قَال: قُلت لابْنِ عَبَّاس: أَرَأَيت قَوْل الله تَعَالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾، مَا عَنَى بِذَلكَ؟ قَال: قَامَ رَسُول الله ﷺ يَوْمًا يُصَلِّي، فَخَطَرَ خَطْرَة. فَقَال المُنَافِقُونَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ مَعَهُ: أَلا تَرَوْنَ لهُ قَلبَيْنِ، قَلبًا مَعَكُمْ وَقَلبًا مَعَهُمْ؟ فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ عَبْد الله بْن عَبْد الرَّحْمَن الدَّارِمِيّ، عَنْ صَاعِد الحَرَّانِيّ، وعَنْ عَبْد بْن حُمَيْد، وَعَنْ أَحْمَد بْن يُونُس كليهما عَنْ زُهَيْر وَهُوَ ابْن مُعَاوِيَة بِهِ، ثُمَّ قَال: وَهَذَا حَدِيث حَسَن. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث زُهَيْر، بِهِ.

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، فِي قَوْله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾، قَال: بَلغَنَا أَنَّ ذَلكَ كَانَ فِي زَيْد بْن حَارِثَة، ضُرِبَ لهُ مَثَل، يَقُول: ليْسَ ابْن رَجُل آخر ابْنك. وَكَذَا قَال مُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَابْن زَيْد: أَنَّهَا نَزَلتْ فِي زَيْد بْن حَارِثَة وَهَذَا يُوَافِق مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ التَّفْسِير، والله أَعْلم. وَقَوْله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، هَذَا أَمْر نَاسِخ لمَا كَانَ فِي ابْتِدَاء الإِسْلام مِنْ جَوَاز ادِّعَاء الأَبْنَاء الأَجَانِب، وَهُمْ الأَدْعِيَاء، فَأَمَرَ تَعَالى بِرَدِّ نَسَبهمْ إلى آبَائِهِمْ فِي الحَقِيقَة، وَأَنَّ هَذَا هُوَ العَدْل وَالقِسْط.

قَال البُخَارِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا معلى بْن أَسَد، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن المُخْتَار، حدثنا مُوسَى بْن عُقْبَة قَال: حَدَّثَنِي سَالم عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر: أن زَيْد بْن حَارِثَة رضي الله عنه مَوْلى رَسُول الله ﷺ مَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا زَيْد بْن مُحَمَّد، حَتَّى نَزَل القُرْآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.[2] وَأَخْرَجَهُ مُسْلم وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ مِنْ طُرُق عَنْ مُوسَى بْن عُقْبَة بِهِ. وَقَدْ كَانُوا يُعَامِلُونَهُمْ مُعَامَلة الأَبْنَاء مِنْ كُلّ وَجْه، فِي الخَلوَة بِالمَحَارِم وَغَيْر ذَلكَ؛ وَلهَذَا قَالتْ سَهْلة بِنْت سُهَيْل امْرَأَة أَبِي حُذَيْفَة رضي الله عنها: يَا رَسُول الله إِنَّا كُنَّا نَدْعُو سَالمًا ابْنًا، وَإِنَّ الله قَدْ أَنْزَل مَا أَنْزَل، وَإِنَّهُ كَانَ يَدْخُل عَليَّ، وَإِنِّي أَجِد فِي نَفْس أَبِي حُذَيْفَة مِنْ ذَلكَ شَيْئًا، فَقَال ﷺ: **«أَرْضِعِيهِ تَحْرُمِي عَليْهِ...»**[3] الحَدِيث. وَلهَذَا لـمَّا نُسِخَ هَذَا الحُكْم أَبَاحَ تَعَالى زَوْجَة الدَّعِيّ، وَتَزَوَّجَ رَسُول الله ﷺ بِزَيْنَب بِنْت جَحْش مُطَلَّقَة زَيْد بْن حَارِثَة، وَقَال: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾، وَقَال فِي آيَة التَّحْرِيم: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ احْتِرَازًا عَنْ زَوْجَة الدَّعِيّ، فَإِنَّهُ ليْسَ مِنْ الصُّلب، فَأَمَّا الابْن مِنْ الرَّضَاعَة فَمُنَزَّل بِمَنْزِلة ابْن الصُّلب شَرْعًا، بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: **«حَرِّمُوا مِنْ الرَّضَاعَة مَا يَحْرُم مِنْ النَّسَب»**[4]. فَأَمَّا دَعْوَة الغَيْر ابْنًا عَلى سَبِيل التَّكْرِيم وَالتَّحْبِيب، فَليْسَ مِمَّا نَهَى عَنْهُ فِي هَذِهِ الآيَة، بِدَليل مَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَأَهْل السُّنَن إِلَّا التِّرْمِذِيّ، مِنْ حَدِيث سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ سَلمَة بْن كُهَيْل،

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣١٩٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٨٢)، ومسلم (٢٤٢٥).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٥٣).
(٤) صحيح: تقدم.

عَنْ الحَسَن العرني، عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما قَال: قَدِمْنَا عَلى رَسُول الله ﷺ أُغَيْلمَة بَنِي عَبْد المُطَّلب عَلى حُمُرَات لنَا مِنْ جَمْع. فَجَعَل يَلطَخ أَفْخَاذنَا ويَقُول: «**أُبَيْنِيَّ لا تَرْمُوا الجَمْرَة حَتَّى تَطلُع الشَّمْس**»[1]. قَال أَبُو [عُبَيْدَة][2] وَغَيْره: «أُبَيْنِيّ: تَصْغِير ابْنِي». وَهَذَا ظَاهِر الدَّلالة، فَإِنَّ هَذَا كَانَ فِي حَجَّة الوَدَاع سَنَة عَشر.

وَقَوْله: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾، فِي شَأْن زَيْد بْن حَارِثَة رضي الله عنه، وَقَدْ قُتِل فِي يَوْم مُؤْتَة سَنَة ثَمَان، وَأَيْضًا فَفِي «صَحِيح مُسْلم»، مِنْ حَدِيث أَبِي عَوَانَة الوَضَّاح بْن عَبْد الله اليَشْكُرِيّ، عَنْ الجَعْد أَبِي عُثْمَان البَصْرِيّ، عَنْ أَنَس ابْن مَالك رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «**يَا بُنَيَّ**»[3]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ. وَقَوْله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ ﴾، أَمَرَ تَعَالى بِرَدِّ أَنْسَاب الأَدْعِيَاء إِلى آبَائِهِمْ، إِنْ عُرِفُوا، فَإِنْ لمْ يَعْرِفُوا أباءَهم فَهُمْ إِخْوَانهمْ فِي الدِّين وَمَوَاليهمْ، أَيْ: عِوَضًا عَمَّا فَاتَهُمْ مِنْ النَّسَب؛ وَلهَذَا قَال رَسُول الله ﷺ يَوْم خَرَجَ مِنْ مَكَّة عَام عُمْرَة القَضَاء، وَتَبِعَتْهُمْ ابْنَة حَمْزَة رضي الله عنها تُنَادِي: يَا عَمّ، يَا عَمّ. فَأَخَذَهَا عَليّ رضي الله عنه وَقَال لفَاطِمَة: دُونَك ابْنَة عَمّك فَاحْتَمَليهَا فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَليّ، وَزَيْد، وَجَعْفَر رضي الله عنهم فِي أَيِّهِمْ يَكْفُلهَا، فَكُلّ أَدْلى بِحُجَّةٍ، فَقَال عَليّ: أَنَا أَحَقّ بِهَا وَهِيَ ابْنَة عَمِّي. وَقَال زَيْد: ابْنَة أَخِي. وَقَال جَعْفَر بْن أَبِي طَالب: ابْنَة عَمِّي، وَخَالتهَا تَحْتِي - يَعْنِي أَسْمَاء بِنْت عُمَيْس - فَقَضَى بِهَا النَّبِيّ ﷺ لخَالتِهَا وَقَال: «**الخَالة بِمَنْزِلةِ الأُمّ**».[4] وَقَال لعَليّ: «**أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْك**»[5]. وَقَال لجَعْفَر: «**أَشْبَهْتَ خَلقِي وَخُلُقِي**»[6]. وَقَال لزَيْدٍ: «**أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلانَا**»[7]. فَفِي هَذَا الحَدِيث أَحْكَام كَثِيرَة مِنْ أَحْسَنهَا أَنَّهُ عليه السلام حَكَمَ بِالحَقِّ، وَأَرْضَى كُلًّا مِنْ المُتَنَازِعِينَ، وَقَال لزَيْدٍ: «**أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلانَا**»، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ ﴾.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا ابْن عُليَّة، عَنْ عُيَيْنَةَ بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ أَبِيهِ قَال: قَال أَبُو بَكْرَة رضي الله عنه: قَال الله عز وجل: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ ﴾، فَأَنَا مِمَّنْ لا يُعْرَف أَبُوهُ، وأَنَا مِنْ إِخْوَانكُمْ فِي الدِّين. قَال أَبِي: وَالله، إِنِّي لأَظُنّهُ أَنَّهُ لوْ عَلمَ أَنَّ أَبَاهُ كَانَ حِمَارًا لانْتَمَى إِليْهِ. وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيث: «**مَنْ ادَّعَى إِلى غَيْر أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلمه إِلاَّ كَفَر**».[8] وَهَذَا تَشْدِيد وَتَهْدِيد، وَوَعِيد أَكِيد، فِي التَّبَرِّي مِنْ النَّسَب المَعْلُوم؛ وَلهَذَا قَال: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ ﴾.

ثُمَّ قَال: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ ﴾، أَيْ: إِذَا نَسَبْتُمْ بَعْضهمْ إِلى غَيْر أَبِيهِ فِي الحَقِيقَة خَطَأً، بَعْد الاجْتِهَاد وَاسْتِفْرَاغ الوُسْع، فَإِنَّ الله قَدْ وَضَعَ الحَرَج فِي الخَطَأ وَرَفَعَ إِثْمه، كَمَا أَرْشَدَ إِليْهِ فِي قَوْله آمِرًا عِبَاده أَنْ يَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ ﴾. وَثَبَتَ فِي «صَحِيح مُسْلم» أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**قَال الله:**

---

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (١٩٤٠)، والنسائي (٥/ ٢٧٠)، وابن ماجه (٣٠٢٥)، وأحمد (١/ ٢٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) في (ز) : [عبيد].

(٣) صحيح : أخرجه مسلم (٢١٥١)، وأبو داود (٤٩٦٤)، والترمذي (٢٨٣١).

(٤) صحيح : أخرجه البخاري (٢٦٩٩)، والترمذي (١٩٠٤).

(٥) صحيح : أخرجه الترمذي (٣٧١٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٦) صحيح : أخرجه الترمذي (٣٧٦٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٧) صحيح : أخرجه أحمد (١/ ٨٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٤٧).

(٨) صحيح : أخرجه البخاري (٤/ ٢١٩).

قَدْ فَعَلتُ»[١]. وَفِي «صَحِيح البُخَارِيّ»، عَنْ عَمْرو بْن العَاص رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «إذَا اجْتَهَدَ الحَاكِم فَأَصَابَ فَلهُ أَجْرَانِ، وَإنْ اجْتَهَدَ فَأخْطَأَ فَلهُ أَجْر»[١]. وَفِي الحَدِيث الآخَر: «إنَّ الله رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَان وما يُكْرَهُونَ عَليْهِ»[١]. وَقَال هَهُنَا: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أَيْ: وَإِنَّمَا الإِثْم عَلى مَنْ تَعَمَّدَ البَاطِل، كَمَا قَال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. وَفِي الحَدِيث المُتَقَدِّم: «مَنْ ادَّعَى إلى غَيْر أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلمهُ، إلاَّ كَفَرَ»[٢]. وَفِي القُرْآن المَنْسُوخ: «فإن كفرًا بكُمْ أَنْ تَرْغبُوا عَنْ آبَائِكُمْ».

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُبَيْد الله بْن عَبْد الله بْن عُتْبَة بْن مَسْعُود، عَنْ ابْن عَبَّاس عَنْ عُمَر رضي الله عنه أَنَّهُ قَال: بَعَثَ الله مُحَمَّدًا ﷺ بِالحَقِّ، وَأَنْزَل مَعَهُ الكِتَاب، فَكَانَ فِيمَا أُنْزِل عَليْهِ آيَة الرَّجْم، فَرَجَمَ رَسُولُ الله ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْده. ثُمَّ قَال: قَدْ كُنَّا نَقْرَأ: «وَلا تَرْغبُوا عَنْ آبَائِكُمْ فَإنَّهُ كُفر بكُم -أو: إن كفرًا بكم- أَنْ تَرْغبُوا عَنْ آبَائِكُمْ». وَإِنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «لا تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِي عِيسَى ابْن مَرْيَم، فَإنَّمَا أنَا عَبْد، فَقُولُوا: عَبْده وَرَسُوله». وَرُبَّمَا قَال مَعْمَر: «كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْن مَرْيَم»[١]. ورواه فِي الحَدِيث الآخَر: «ثَلاث فِي النَّاس كُفْر: الطَّعْن فِي النَّسَب، وَالنِّيَاحَة على المَيِّت، وَالاسْتِسْقَاء بِالنُّجُوم».[٣]

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾.

قَدْ عَلمَ الله تَعَالى شَفَقَة رَسُوله ﷺ على أُمَّته، وَنُصْحه لهُمْ، فَجَعَلهُ أَوْلى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسهمْ، وَحُكْمه فِيهِمْ مُقَدَّمًا على اخْتِيَارهمْ لأَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾. وَفِي «الصَّحِيح»: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُؤْمِن أَحَدكُمْ حَتَّى أَكُون أَحَبّ إِليْهِ مِنْ نَفْسه وَمَاله وَوَلده وَالنَّاس أَجْمَعِينَ»[١]. وَفِي «الصَّحِيح» أَيْضًا أَنَّ عُمَر رضي الله عنه قَال: يَا رَسُول الله، وَالله لأَنْتَ أَحَبّ إِليَّ مِنْ كُلّ شَيْء إِلَّا مِنْ نَفْسِي. فَقَال: «لا يَا عُمَر، حَتَّى أَكُون أَحَبّ إِليْك مِنْ نَفْسك». فَقَال: يَا رَسُول الله، لأَنْتَ أَحَبّ إِليَّ مِنْ كُلّ شَيْء حَتَّى مِنْ نَفْسِي. فَقَال: «الآن يَا عُمَر»[٤]. وَلهَذَا قَال تَعَالى فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

وَقَال البُخَارِيّ عِنْدها: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن المُنْذِر، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن فُليْح، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ هِلال بْن عَليّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي عَمْرَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «مَا مِنْ مُؤْمِن إلاَّ وَأَنَا أَوْلى النَّاس بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فَأَيّمَا مُؤْمِن تَرَكَ مَالاً فَليَرِثْهُ عَصَبَته مَنْ كَانُوا، وَإِنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا، فَليَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلاهُ».[٥] تَفَرَّدَ بِهِ البُخَارِيّ. وَرَوَاهُ أَيْضًا فِي «الاسْتِقْرَاض»، وَابْن جَرِير، وَابْن أَبِي حَاتِم، مِنْ طُرُق، عَنْ فُليْح، بِهِ مِثْله. وَرَوَاهُ الإمام أَحْمَد، مِنْ حَدِيث أَبِي حُصَيْن، عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه عَنْ رَسُول الله ﷺ بِنَحْوِهِ.

---

(١) صحيح : تقدم.
(٢) صحيح : تقدم قريبًا.
(٣) صحيح : أخرجه مسلم (٩٣٤)، وأحمد (٥/ ٣٤٢).
(٤) صحيح : أخرجه البخاري (٦٦٣٢).
(٥) صحيح : أخرجه البخاري (٤٧٨١).

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ مَعْمَر، عَنْ الزُّهْرِيِّ فِي قَوْله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ عَنْ أَبِي سَلمَة، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله ﷺ عَنْ النَّبِيّ ﷺ كَانَ يَقُول: «**أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِه، فَأَيمَا رَجُل مَاتَ وَتَرَكَ دَيْنًا فَإِلَيَّ، وَمَنْ تَرَكَ مَالاً فَهُوَ لِوَرَثَتِهِ**»[1]. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَحْمَد بْن حَنْبَل بِهِ نَحْوه.

وَقَوْله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، أَيْ: فِي الحُرْمَة وَالاحْتِرَام، وَالتَّوْقِير وَالإِكْرَام وَالإِعْظَام، وَلكِنْ لا تَجُوز الخَلوَة بِهِنَّ، وَلا يَنْتَشِر التَّحْرِيم إِلى بَنَاتِهِنَّ وَأَخَوَاتِهِنَّ بِالإِجْمَاع، وَإِنْ سَمَّى بَعْض العُلَماء بَنَاتِهِنَّ أَخَوَات المُؤْمِنِينَ، كَما هُوَ مَنْصُوص الشَّافِعِيّ ﷺ فِي «المُخْتَصَر»، وَهُوَ مِنْ بَاب إِطْلاق العِبَارَة لا إِثْبَات الحُكْم. وَهَل يُقَال لِمُعَاوِيَة وَأَمْثَاله: خَال المُؤْمِنِينَ؟ فِيهِ قَوْلانِ لِلعُلَماءِ، وَنَصّ الشَّافِعِيّ عَلى أَنَّهُ يُقَال ذَلِكَ. وَهَل يُقَال لهُنَّ: أُمَّهَات المُؤْمِنَات، فَيَدْخُل النِّسَاء فِي جَمْع المُذَكَّر السَّالِم تَغْلِيبًا؟ فِيهِ قَوْلانِ، صَحَّ عَنْ عَائِشَة ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: لا يُقَال ذَلِكَ. وَهَذَا أَصَحّ الوَجْهَيْنِ فِي مَذْهَب الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، وَابْن عَبَّاس أَنَّهُمَا قَرَآ: ﴿**النَّبِيّ أَوْلى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسهمْ وَأَزْوَاجه أُمَّهَاتهمْ وَهُوَ أَب لهُمْ**﴾. وَرُوِيَ نَحْو هَذَا عَنْ مُعَاوِيَة، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن، وَهُوَ أَحَد الوَجْهَيْنِ فِي مَذْهَب الشَّافِعِيّ. حَكَاهُ البَغَوِيّ وَغَيْره. وَاسْتَأْنَسُوا عَلَيْهِ بِالحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن مُحَمَّد النُّفَيْلِيّ، حَدَّثَنَا ابْن المُبَارَك، عَنْ مُحَمَّد بْن عَجْلان، عَنْ القَعْقَاع بْن حَكِيم، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الوَالِد أُعَلِّمكُمْ، فَإِذَا أَتَى أَحَدكُمْ الغَائِط فَلا يَسْتَقْبِل القِبْلَة وَلا يَسْتَدْبِرهَا، وَلا يَسْتَطِبْ بِيَمِينِهِ**». وَكَانَ يَأْمُر بِثَلاثَةِ أَحْجَار وَيَنْهَى عَنْ الرَّوْث وَالرِّمَّة.[2] وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث ابْن عَجْلان. وَالوَجْه الثَّانِي: أَنَّهُ لا يُقَال ذَلِكَ، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾.

وَقَوْله: ﴿ وَأُولُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾، أَيْ: فِي حُكْم الله ﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ أَيْ: القَرَابَات أَوْلى بِالتَّوَارُثِ مِنْ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار. وَهَذِهِ نَاسِخَة لِمَا كَانَ قَبْلهَا مِنْ التَّوَارُث بِالحِلْفِ وَالمُؤَاخَاة الَّتِي كَانَتْ بَيْنهمْ، كَما قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْره: كَانَ المُهَاجِرِيّ يَرِث الأَنْصَارِيّ دُون قَرَابَاته وَذَوِي رَحِمه، لِلأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى بَيْنهمَا رَسُول الله ﷺ. وَكَذَا قَال سَعِيد بْن جُبَيْر، وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف وَالخَلَف. وَقَدْ أَوْرَدَ فِيهِ ابْن أَبِي حَاتِم حَدِيثًا عَنْ الزُّبَيْر بْن العَوَّام ﷺ فَقَال: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن أَبِي بَكْر المُصْعَبِيّ -مِنْ سَاكِنِي بَغْدَاد- عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي الزِّنَاد، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الزُّبَيْر بْن العَوَّام قَال: أَنْزَل الله ﷻ فِينَا خَاصَّة مَعْشَر قُرَيْش وَالأَنْصَار: ﴿ وَأُولُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾، وَذَلِكَ أَنَّا -مَعْشَر قُرَيْش- لَـمَّا قَدِمْنَا المَدِينَة قَدِمْنَا وَلا أَمْوَال لَنَا، فَوَجَدْنَا الأَنْصَار نِعْمَ الإِخْوَان، فَوَاخَيْنَاهُمْ وَوَارَثْنَاهُمْ، [فَآخَى][3] أَبُو بَكْر ﷺ خَارِجَة بْن زَيْد، وَآخَى عُمَر فُلانًا، وَآخَى عُثْمَان ﷺ رَجُلًا مِنْ بَنِي زُرَيْق سَعْد الزُّرَقِيّ -وَيَقُول بَعْض النَّاس غَيْره- قَال الزُّبَيْر ﷺ: وَوَاخَيْت أَنَا كَعْب بْن مَالك، فَجِئْته فَابْتَعَلْتُهُ فَوَجَدْت السِّلاح قَدْ ثَقَّلهُ فِيمَا يَرَى، فَوَالله يَا بُنَيَّ، لَوْ مَاتَ يَوْمَئِذٍ عَنْ الدُّنْيَا مَا وَرِثَهُ غَيْرِي، حَتَّى أَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة فِينَا مَعْشَر قُرَيْش وَالأَنْصَار خَاصَّة، فَرَجَعْنَا إِلى مَوَارِيثنَا. وَقَوْله: ﴿ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ﴾، أَيْ: ذَهَبَ المِيرَاث، وَبَقِي النَّصْر وَالبِرّ وَالصِّلة وَالإِحْسَان وَالوَصِيَّة. وَقَوْله: ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾، أَيْ: هَذَا الحُكْم، وَهُوَ أَنَّ أُولِي الأَرْحَام بَعْضهمْ أَوْلى بِبَعْضٍ، حُكْم مِنْ الله مُقَدَّر مَكْتُوب فِي الكِتَاب الأَوَّل، الَّذِي لا

---

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (٢٩٥٦)، وأحمد (٣/ ٢٩٦) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٢) حسن : أخرجه أبو داود (٨)، والنسائي (١/ ٣٨)، وابن ماجه (٣١٣)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٣) في نسخة: [فواخي].

يُبَدَّل، وَلا يُغَيَّر. قَالهُ مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد. وَإِنْ كَانَ قد يقال: قَدْ شَرَعَ خِلافه فِي وَقْت لَمَا لهُ فِي ذَلكَ مِنَ الحِكْمَة البَالغَة، وَهُوَ يَعْلم أَنَّهُ سينسخه إِلى مَا هُوَ جَارٍ فِي قَدَره الأَزَلِيّ، وَقَضَائِهِ القَدَرِيّ الشَّرْعِيّ.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عن أُولِي العَزْم الخَمْسَة، وَبَقِيَّة الأَنْبِيَاء: أَنَّهُ أَخَذَ عَلَيْهِمْ العَهْد وَالمِيثَاق فِي إِقَامَة دِين الله، وَإِبْلاغ رِسَالته، وَالتَّعَاوُن وَالتَّنَاصُر وَالاتِّفَاق، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾. فَهَذَا العَهْد وَالمِيثَاق أُخِذَ عَلَيْهِمْ بَعْد إِرْسَالهِمْ، وَكَذَلكَ هَذَا. وَنَصَّ مِنْ بَيْنهمْ عَلى هَؤُلاءِ الخَمْسَة، وَهُمْ أُولُوا العَزْم، وَهُوَ مِنْ بَاب عَطْف الخَاصّ عَلى العَامّ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذِكْرِهِمْ أَيْضًا فِي هَذِهِ الآيَة. وَفِي قَوْله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ﴾، فَذَكَرَ الطَّرَفَيْنِ وَالوَسَط، الفَاتِح وَالخَاتَم، وَمَنْ بَيْنهمَا عَلى التَّرْتِيب. فَهَذِهِ هِيَ الوَصِيَّة الَّتِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ المِيثَاق بِهَا، كَمَا قَال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ﴾، فَبَدَأَ فِي هَذِهِ الآيَة بِالخَاتَم، لشَرَفِهِ -صَلوَات الله عَليْهِ- ثُمَّ رَتَّبَهُمْ بِحَسَبِ وُجُودهمْ صَلوَات الله عَلَيْهِمْ.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة الدِّمَشْقِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَكَّار، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن بَشِير، حَدَّثَنِي قَتَادَة، عَنْ الحَسَن، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي قَوْل الله تَعَالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾. الآيَة قَال النَّبِيّ ﷺ: «كُنْت أَوَّل النَّبِيِّينَ فِي الخَلق وَآخِرهمْ فِي البَعْث، فَبُدِئ بِي قَبْلهمْ»[1]. سَعِيد بْن بَشِير فِيهِ ضَعْف. وَقَدْ رَوَاهُ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة عَنْ قَتَادَة مُرْسَلًا، وَهُوَ أَشْبَه، وَرَوَاهُ بَعْضهمْ عَنْ قَتَادَة مَوْقُوفًا، وَالله أَعْلم.

وَقَال أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَلِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَد، حَدَّثَنَا حَمْزَة الزَّيَّات، حَدَّثَنَا عَدِيّ بْن ثَابِت، عَنْ أَبِي حَازِم عَنْ أَبِى هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: خِيَار وَلد آدَم خَمْسَة: نُوح، وَإِبْرَاهِيم، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّد، صَلَّى الله عَلَيْهِمْ وَسَلَّم أَجْمَعِينَ. مَوْقُوف، وَحَمْزَة فِيهِ ضَعْف. وَقَدْ قِيل: إِنَّ المُرَاد بِهَذَا المِيثَاق الَّذِي أُخِذَ مِنْهُمْ حِين أُخْرِجُوا فِي صُورَة الذَّرّ مِنْ صُلب آدَم، كَمَا قَال أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ أَبِي العَالِيَة، عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب قَال: وَرَفَعَ أَبَاهُمْ آدَم، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ -يَعْنِي: ذُرِّيَّته- وَأَنَّ فِيهِمْ الغَنِيّ وَالفَقِير، وَحَسَن الصُّورَة، وَدُون ذَلكَ، فَقَال: رَبّ، لوْ سَوَّيْت بَيْن عِبَادك؟ فَقَال: إِنِّي أَحْبَبْت أَنْ أُشْكَر. وأرى فِيهِمْ الأَنْبِيَاء مِثْل السُّرُج عَلَيْهِمْ كالنُّور، وَخُصُّوا بِمِيثَاقٍ آخَر مِنْ الرِّسَالة وَالنُّبُوَّة وَهُوَ الَّذِي يَقُول الله تَعَالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ الآيَة. وَهَذَا قَوْل مُجَاهِد أَيْضًا. وَقَال ابْن عَبَّاس: المِيثَاق الغَلِيظ: العَهْد.

وَقَوْله: ﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ﴾، قَال مُجَاهِد: المُبَلِّغِينَ المُؤَدِّينَ عَنْ الرُّسُل. وَقَوْله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾، أَيْ: مِنْ أُمَمِهِمْ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أَيْ: مُوجِعًا، فَنَحْنُ نَشْهَد أَنَّ الرُّسُل قَدْ بَلَّغُوا رِسَالات رَبّهمْ، وَنَصَحُوا الأُمَم وَأَفْصَحُوا لهُمْ عَنْ الحَقّ المُبِين، الوَاضِح الجَلِيّ، الَّذِي لا لبْس فِيهِ وَلا شَكّ وَلا امْتِرَاء، وَإِنْ كَذَّبَهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ الجَهَلة وَالمُعَانِدِينَ وَالمَارِقِينَ وَالقَاسِطِينَ، فَمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُل هُوَ الحَقّ، وَمَنْ خَالفَهُمْ فَهُوَ عَلى الضَّلال.

---

(١) ضعيف: انظر «الضعيفة» (٦٦١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ نِعْمَته وَفَضْله وَإِحْسَانه إِلى عِبَاده الْمُؤْمِنِينَ، فِي صَرْفه أَعْدَاءَهُمْ وَهَزْمه إِيَّاهُمْ عَام تَأَلَّبُوا عَلَيْهِمْ وَتَحَزَّبُوا، وَذَلكَ عَام الخَنْدَق، وَذَلكَ فِي شَوَّال سَنَة خَمْس مِنْ الهِجْرَة عَلى الصَّحِيح المَشْهُور.

وَقَال مُوسَى بْن عُقْبَة وَغَيْره: كانت فِي سَنَة أَرْبَع. وَكَانَ سَبَب قُدُوم الأَحْزَاب أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَشْرَاف يَهُود بَنِي النَّضِير، الَّذِينَ كَانُوا قَدْ أَجلاهُمْ رَسُول الله ﷺ مِنْ المَدِينَة إِلى خَيْبَر، مِنْهُمْ: سَلَّام بْن أَبِي الحَقِيق، وَسَلَّامُ بْن مشكم، وَكِنَانَة بْن الرَّبِيع، خَرَجُوا إِلى مَكَّة، واجْتَمَعُوا بِأَشْرَافِ قُرَيْش، وَأَلَّبُوهُمْ عَلى حَرْب رسول الله ﷺ وَوَعَدُوهُمْ مِنْ أَنْفُسهمْ النَّصْر وَالإِعَانَة، فَأَجَابُوهُمْ إِلى ذَلكَ. ثُمَّ خَرَجُوا إِلى غَطَفَان فَدَعَوْهُمْ فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ أَيْضًا. وَخَرَجَتْ قُرَيْش فِي أَحَابِيشهَا وَمَنْ تَابَعَهَا، وَقَائِدهمْ أَبُو سُفْيَان صَخْر بْن حَرْب، وَعَلى غَطَفَان عُيَيْنَة بْن حِصْن بْن بَدْر، وَالجَمِيع قَرِيب مِنْ عَشَرَة آلاف، فَلَمَّا سَمِعَ رَسُول الله ﷺ بِمَسِيرِهِمْ أَمَرَ المُسْلِمِينَ بِحَفْرِ الخَنْدَق حَوْل المَدِينَة مِمَّا يَلِي الشَّرْق، وَذَلكَ بِإِشَارَةِ سَلمَان الفَارِسِيّ رضي الله عنه، فَعَمِل المُسْلِمُونَ فِيهِ وَاجْتَهَدُوا، وَنَقل مَعَهُمْ رَسُول الله ﷺ، التُّرَاب وَحَفَرَ، وَكَانَ فِي حَفْره ذَلكَ آيَات بينات وَدَلائِل وَاضِحَات. وَجَاءَ المُشْرِكُونَ فَنَزَلُوا شَرْقِيّ المَدِينَة قَرِيبًا مِنْ أُحُد، وَنَزَلتْ طَائِفَة مِنْهُمْ فِي أَعَالي أراضي المَدِينَة، كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، وَخَرَجَ رَسُول الله ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَهُمْ نَحْو ثَلاثَة آلاف -وَقِيل: سَبْعمِائَةِ- فَأَسْنَدُوا ظُهُورهمْ إِلى سَلع وَوُجُوههمْ إِلى نَحْو العَدُوّ، وَالخَنْدَق حَفِير لَيْسَ فِيهِ مَاء بَيْنهمْ وَبَيْنهمْ يَحْجُب الرجَّالة والخَيَّالة أَنْ تَصِل إِليْهِمْ، وَجَعَل النِّسَاء وَالذَّرَارِيّ فِي آطَام المَدِينَة، وَكَانَتْ بَنُو قُرَيْظَة -وَهُمْ طَائِفَة مِنْ اليَهُود- لَهُمْ حِصْن [شَرْق][1] المَدِينَة، وَلَهُمْ عَهْد مِنْ النَّبِيّ، وَذِمَّة، وَهُمْ قَرِيب مِنْ ثَمانِمائَةِ مُقَاتِل، فَذَهَبَ إِليْهِمْ حُيَيّ بْن أَخْطَبَ النَّضْرِيّ، فَلَمْ يَزَل بِهِمْ حَتَّى نَقَضُوا العَهْد، وَمَالئُوا الأَحْزَاب عَلى رَسُول الله ﷺ فَعَظُمَ الخَطْب وَاشْتَدَّ الأَمْر، وَضَاقَ الحَال؛ كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا﴾. وَمَكَثُوا مُحَاصِرِينَ للنَّبِيّ ﷺ، وَأَصْحَابه قَرِيبًا مِنْ شَهْر، إِلَّا أَنَّهُمْ لا يَصِلُونَ إِليْهِمْ، وَلمْ يَقَع بَيْنهمْ قِتَال إِلَّا أَنَّ عَمْرو بْن عَبْد وُدّ العَامِرِيّ -وَكَانَ مِنْ الفُرْسَان الشُّجْعَان المَشْهُورِينَ فِي الجَاهِلِيَّة- رَكِبَ وَمَعَهُ فَوَارِس فَاقْتَحَمُوا الخَنْدَق، وَخَلصُوا إِلى نَاحِيَة المُسْلِمِينَ، فَنَدَبَ رَسُول الله ﷺ خَيْل المُسْلِمِينَ إِليْهِ، فلمْ يَبْرُز إِليْهِ أَحَد، فَأَمَرَ عَليًّا رضي الله عنه فَخَرَجَ إِليْهِ، فَتَجَاوَلا سَاعَة، ثُمَّ قَتَلهُ عَليّ رضي الله عنه، فَكَانَ عَلامَة عَلى النَّصْر.

ثُمَّ أَرْسَل الله عز وجل عَلى الأَحْزَاب رِيحًا شَدِيدَة الهُبُوب قَوِيَّة، حَتَّى لمْ تبق لهُمْ خَيْمَة وَلا شَيْء وَلا تُوقَد لهُمْ نَار، ولم يَقِرّ لهُمْ قَرَار حَتَّى ارْتَحَلُوا خَائِبِينَ خَاسِرِينَ؛ كَمَا قَال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾. قَال مُجَاهِد: وَهِيَ الصَّبَا. وَيُؤَيِّدهُ الحَدِيث الآخَر: «نُصِرْت بِالصَّبَا وَأُهْلكَتْ عَاد بِالدَّبُورِ».

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْد الأَعْلى، حَدَّثَنَا دَاوُد، عَنْ عِكْرِمَة قَال: قَالتْ الجَنُوب للشِّمَال ليْلة الأَحْزَاب: انْطَلِقِي نَنْصُر رَسُول الله ﷺ. فَقَالتْ الشِّمَال: إِنَّ الحُرَّة لا تَسْرِي بِاللَّيْل. قَال: فَكَانَتْ الرِّيح الَّتِي أُرْسِلتْ عَليْهِمْ الصَّبَا. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ أَبِي سَعِيد الأَشَجّ، عَنْ حَفْص بْن غِيَاث، عَنْ دَاوُد،

(١) في نسخة: [شرقي].

عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فَذَكَرَه. وَقَال ابْن جَرِير أَيْضًا: حَدَّثَنَا يُونُس، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب، حَدَّثَنِي عُبَيْد الله بْن عُمَر، عَنْ نَافِع، عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر ﭫ قَال: أَرْسَلَنِي خَالِي عُثْمَان بْن مَظْعُون ﭬ لَيْلَة الخَنْدَق فِي بَرْد شَدِيد وَرِيح إِلى المَدِينَة، فَقَال: ائْتِنَا بِطَعَام وَلحَاف، قَال: فَاسْتَأْذَنْت رَسُول الله ﷺ فَأَذِنَ لِي، وَقَال: «مَنْ أَتَيْت مِنْ أَصْحَابِي فَمُرْهُمْ يَرْجِعُوا». قَال: فَذَهَبْتُ وَالرِّيح تَسْفِي كُلّ شَيْء، فَجَعَلت لا أَلْقَى أَحَدًا إِلَّا أَمَرْته بِالرُّجُوع إِلى النَّبِيّ ﷺ قَال: فَمَا يَلوِي أَحَد مِنْهُمْ عُنُقه. قَال: وَكَانَ مَعِي تُرْس لِي، فَكَانَتْ الرِّيح تَضْرِبهُ عَلَيَّ، قَال: وَكَانَ فِيهِ حَدِيد، قَال: فَضَرَبَتْهُ الرِّيح حَتَّى وَقَعَ بَعْض ذَلِكَ الحَدِيد عَلى كَفِّي، فَأنفدها إِلى الأَرْض.[1]

وَقَوْله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ﴾، وهُمْ المَلائِكَة، زَلزَلتهمْ وَأَلقَتْ فِي قُلُوبهمْ الرُّعْب وَالخَوْف، فَكَانَ رَئِيس كُلّ قَبِيلة يَقُول: يَا بَنِي فُلان إِلَيَّ. فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ فَيَقُول: النَّجَاء، النَّجَاء، لَمَا أَلقَى الله تعالى فِي قُلُوبهمْ مِنْ الرُّعْب.

وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ يَزِيد بْن زِيَاد، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ قَال: قَال فَتًى مِنْ أَهْل الكُوفَة لِحُذَيْفَة بْن اليَمَان: يَا أَبَا عَبْد الله، رَأَيْتُمْ رَسُول الله ﷺ وَصَحِبْتُمُوهُ؟ قَال: نَعَمْ يَا بْن أَخِي. قَال: وَكَيْف كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَال: وَالله لَقَدْ كُنَّا نُجْهَد. قَال الفَتَى: وَالله لوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلى الأَرْض وَلحَمَلنَاهُ عَلى أَعْنَاقنَا. قَال: قَال حُذَيْفَة: يَا بْن أَخِي، وَالله لوْ رَأَيْتنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ بِالخَنْدَق، وَصَلَّى رَسُول الله ﷺ، هَوِيًّا مِنْ اللَّيْل، ثُمَّ التَفَتَ فَقَال: **«مَنْ رَجُل يَقُوم فَيَنْظُر لنَا مَا فَعَل القَوْم؟ -يشرط لهُ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِع- أَدْخَلهُ الله الجَنَّة»**. قال: فَمَا قَامَ رَجُل. ثُمَّ صَلَّى رَسُول الله ﷺ هَوِيًّا مِنْ اللَّيْل، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْنَا، فَقَال مِثْله، فَمَا قَامَ مِنَّا رَجُل ثُمَّ صَلَّى رَسُول الله ﷺ هَوِيًّا مِنْ اللَّيْل، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْنَا فَقَال: **«مَنْ رَجُل يَقُوم فَيَنْظُر لنَا مَا فَعَل القَوْم ثُمَّ يَرْجِع -يشرط لهُ رَسُول الله ﷺ الرَّجْعَة- أَسْأَل الله أَنْ يَكُون رَفِيقِي فِي الجَنَّة»**. فَمَا قَامَ رَجُل مِنْ القَوْم؛ مِنْ شِدَّة الخَوْف، وَشِدَّة الجُوع، وَشِدَّة البَرْد، فَلَمَّا لمْ يَقُمْ أَحَد، دَعَانِي رَسُول الله ﷺ فَلمْ يَكُنْ لِي بُدّ مِنْ القِيَام حِين دَعَانِي فَقَال: **«يَا حُذَيْفَة، اذْهَبْ فَادْخُل فِي القَوْم فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلا تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِينَا»**.

قَال: فَذَهَبْت فَدَخَلت فِي القَوْم، وَالرِّيح وَجُنُود الله ﷻ تَفْعَل بِهِمْ مَا تَفْعَل، لا تُقِرّ لهُمْ [قَرَارًا][2] وَلا نَارًا وَلا بِنَاء، فَقَامَ أَبُو سُفْيَان فَقَال: يَا مَعْشَر قُرَيْش، لِيَنْظُر امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسه. قَال حُذَيْفَة: فَأَخَذْت بِيَدِ الرَّجُل الَّذِي إِلى جَنْبِي، فَقُلت: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَال: أَنَا فُلان ابْن فُلان، ثُمَّ قَال أَبُو سُفْيَان: يَا مَعْشَر قُرَيْش، إِنَّكُمْ وَالله مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مَقَام، لقَدْ هَلكَ الكُرَاع وَالخُفّ، وَأَخْلفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَة، وَبَلغَنَا عَنْهُمْ الَّذِي نَكْرَه، وَلقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيح الذي تَرَوْنَ، وَالله مَا تَطْمَئِنّ لنَا قِدْر، وَلا تَقُوم لنَا نَار، وَلا يَسْتَمْسِك لنَا بِنَاء، فَارْتَحِلُوا فَإِنِّي مُرْتَحِل، ثُمَّ قَامَ إِلى جَمَله وَهُوَ مَعْقُول، فَجَلسَ عَليْهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ، فَوَثَبَ بِهِ عَلى ثَلاث، فَمَا أَطْلقَ عِقَاله إِلَّا وَهُوَ قَائِم، وَلوْلا عَهْد رَسُول الله ﷺ إِلَيَّ: **«أَنْ لا تُحْدِث شَيْئًا حَتَّى تَأْتِينا»** ثم شِئْت لقَتَلته بِسَهْم.

قَال حُذَيْفَة: فَرَجَعْت إِلى رَسُول الله ﷺ وَهُوَ قَائِم يُصَلِّي فِي مِرْط لبَعْض نِسَائِهِ مُرَحَّل -فَلمَّا رَآنِي أَدْخَلنِي بَيْن رِجْليْهِ، وَطَرَحَ عَليَّ طَرَف المِرْط، ثُمَّ رَكَعَ، وَسَجَدَ، وَإِنِّي لفِيهِ، فَلمَّا سَلَّمَ أَخْبَرْته الخَبَر، وَسَمِعَتْ غَطَفَان بِمَا فَعَلتْ قُرَيْش، فَانْشَمَرُوا رَاجِعِينَ إِلى بِلادهمْ.

وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلم فِي «صَحِيحه» مِنْ حَدِيث الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِيهِ قَال: كُنَّا عِنْد حُذَيْفَة ابْن اليَمَان ﭬ فَقَال لهُ رَجُل: لوْ أَدْرَكْت رَسُول الله ﷺ قَاتَلت مَعَهُ وَأَبْليْت. فَقَال لهُ حُذَيْفَة: أَنْتَ كُنْت تَفْعَل ذَلكَ؟ لقَدْ رَأَيْتنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ، ليْلة الأَحْزَاب فِي ليْلة ذَات رِيح شَدِيدَة وَقُرّ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: **«أَلا**

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبري (٢١/ ١٢٧)، بسند ضعيف، فيه عبد الله بن عمر العمري؛ وهو ضعيف.
(٢) في نسخة: [قدرًا].

رَجُل يَأْتِي بِخَبَرِ القَوْم، يَكُون مَعِي يَوْم القِيَامَة». فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَد، ثُمَّ الثَّانِيَة، ثُمَّ الثَّالِثَة مِثْله. ثُمَّ قَالَ ﷺ: «يَا حُذَيْفَة قُمْ فَأْتِنَا بِخَبَرٍ مِنْ القَوْم». فَلَمْ أَجِد بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُوم، فَقَال: «ائْتِنِي بِخَبَرِ القَوْم، وَلا تَذْعَرهُمْ عَليَّ». قَال: فَمَضَيْت كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّام، حَتَّى أَتَيْتهمْ، فَإِذَا أَبُو سُفْيَان يُصْلي ظَهْره بِالنَّارِ، فَوَضَعْت سَهْمًا فِي كَبِد قَوْسِي وَأَرَدْت أَنْ أَرْمِيه، ثُمَّ ذَكَرْت قَوْل رَسُول الله ﷺ: «لا تَذْعَرهُمْ عَليَّ». وَلَوْ رَمَيْته لأَصَبْته. قَال: فَرَجَعْت كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّام، فَأَتَيْت رَسُول الله ﷺ ثُمَّ أَصَابَنِي البَرْد حِين فَرَغْت وَقَرَرْت، فَأَخْبَرْت رَسُول الله ﷺ، وَأَلْبَسَنِي مِنْ فَضْل عَبَاءَة كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَل نَائِمًا حَتَّى الصُّبْح، فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْت قَال رَسُول الله ﷺ: «قُمْ يَا نَوْمَان».[1]

وَرَوَاهُ يُونُس بْن بُكَيْر، عَنْ هِشَام بْن سَعْد، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ: أن رَجُلًا قَال لحُذَيْفَة رضي الله عنه: نَشْكُو إِلى الله صُحْبَتَكُمْ لرَسُول الله ﷺ إِنَّكُمْ أَدْرَكْتُمُوهُ وَلمْ نُدْرِكه، وَرَأَيْتُمُوهُ وَلمْ نَرَهُ. فَقَال حُذَيْفَة رضي الله عنه: وَنَحْنُ نَشْكُو إِلى الله إِيمَانكُمْ بِهِ وَلمْ تَرَوْهُ، وَالله لا تَدْرِي يَا بْن أَخِي لوْ أَدْرَكْته كَيْف كُنْت تَكُون؛ لَقَدْ رَأَيْتنَا مَعَ رَسُول الله ﷺ لَيْلة الخَنْدَق فِي لَيْلة بَارِدَة مَطِيرَة ... ثُمَّ ذَكَرَ نَحْو مَا تَقَدَّمَ مُطَوَّلًا. وَرَوَى بِلال بْن يَحْيَى العَبْسِيّ عَنْ حُذَيْفَة رضي الله عنه نَحْو ذَلكَ أَيْضًا. وَقَدْ أَخْرَجهُ الحَاكِم وَالبَيْهَقِيّ فِي «الدَّلائِل»، مِنْ حَدِيث عِكْرِمَة بْن عَمَّار، عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الله الدُّؤَلِيّ، عَنْ عَبْد العَزِيز ابْن أَخِي حُذَيْفَة قَال: ذَكَرَ حُذَيْفَة مَشَاهِدهمْ مَعَ رَسُول الله ﷺ، فَقَال جُلسَاؤُهُ: أَمَا وَالله لوْ شَهِدْنَا ذَلكَ لكُنَّا فَعَلنَا وَفَعَلنَا. فَقَال حُذَيْفَة: لا تَمَنَّوْا ذَلكَ. لقَدْ رَأَيْتنَا لَيْلة الأَحْزَاب وَنَحْنُ صَافُّونَ قُعُود: وَأَبُو سُفْيَان وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الأَحْزَاب فَوْقنَا، وَقُرَيْظَة لليَهُودِ أَسْفَل مِنَّا نَخَافهُمْ عَلى ذَرَارِيِّنَا، وَمَا أَتَتْ عَليْنَا ليلة قَطُّ أَشَدّ ظُلمَة وَلا أَشَدّ رِيحًا، فِي أَصْوَات رِيحهَا أَمْثَال الصَّوَاعِق، وَهِيَ ظُلمَة مَا يَرَى أَحَدنَا أُصْبُعه. فَجَعَل المُنَافِقُونَ يَسْتَأْذِنُونَ النَّبِيّ ﷺ وَيَقُولُونَ: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾. فَمَا يَسْتَأْذِنهُ أَحَد مِنْهُمْ إِلَّا أَذِنَ لهُ، وَيَأْذَن لهُمْ فَيَتَسَلَّلُونَ، وَنَحْنُ ثَلثُمِائَةٍ أَوْ نَحْو ذَلكَ، إِذْ اسْتَقْبَلنَا رَسُول الله ﷺ رَجُلًا رَجُلًا حَتَّى أَتَى عَليَّ، وَمَا عَليَّ جُنَّة مِنْ العَدُوّ وَلا مِنْ البَرْد إِلَّا مِرْط لامْرَأَتِي، لا يُجَاوِز رُكْبَتَيَّ. قَال: فَأَتَانِي ﷺ وَأَنَا جَاثٍ عَلى رُكْبَتَيَّ فَقَال: «مَنْ هَذَا؟». فَقُلت: حُذَيْفَة. قَال: «حُذَيْفَة». فَتَقَاصَرْتُ بِالأَرْض، فَقُلت: بَلى يَا رَسُول الله، كَرَاهِيَة أَنْ أَقُوم. فَقُمْت فَقَال: «إِنَّهُ كَائِن فِي القَوْم خَبَر فَأْتِنِي بِخَبَرِ القَوْم». قَال: وَأَنَا مِنْ أَشَدّ النَّاس فَزَعًا، وَأَشَدّهمْ قُرًّا، قَال: فَخَرَجْتُ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ، احْفَظْهُ مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلفه، وَعَنْ يَمِينه وَعَنْ شِمَاله، وَمِنْ فَوْقه وَمِنْ تَحْته». قَال: فَوَالله مَا خَلقَ الله فَزَعًا وَلا قُرًّا فِي جَوْفِي إِلَّا خَرَجَ مِنْ جَوْفِي، فَمَا أَجِد فِيهِ شَيْئًا. قَال: فَلَمَّا وَلَّيْت قَال: «يَا حُذَيْفَة، لا تُحْدِثَنَّ فِي القَوْم شَيْئًا حَتَّى تَأْتِينِي». قَال: فَخَرَجْت حَتَّى إِذَا دَنَوْت مِنْ عَسْكَر القَوْم نَظَرْت فِي ضَوْء نَار لهُمْ تُوقَد، وإِذَا رَجُل أَدْهَم ضَخْم يَقُول بِيَدِهِ عَلى النَّار، وَيَمْسَح خَاصِرَته، وَيَقُول: الرَّحِيل الرَّحِيل. وَلمْ أَكُنْ أَعْرِف أَبَا سُفْيَان قَبْل ذَلكَ، فَانْتَزَعْت سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي أَبْيَض الرِّيش، فَأَضَعهُ فِي كَبِد قَوْسِي لأَرْمِيَهُ بِهِ فِي ضَوْء النَّار، فَذَكَرْت قَوْل رَسُول الله ﷺ: «لا تُحْدِثَنَّ فِيهِمْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِينِي». فَأَمْسَكْت وَرَدَدْت سَهْمِي إِلى كِنَانَتِي، ثُمَّ إِنِّي شَجَّعْت نَفْسِي حَتَّى دَخَلت العَسْكَر، فَإِذَا أَدْنَى النَّاس مِنِّي بَنُو عَامِر يَقُولُونَ: يَا آل عَامِر؛ الرَّحِيل الرَّحِيل! لا مَقَام لكُمْ. وَإِذَا الرِّيح فِي عَسْكَرهِمْ مَا تُجَاوِز عَسْكَرهِمْ شِبْرًا، فَوَالله إِنِّي لأَسْمَع صَوْت الحِجَارَة فِي رِحَالهِمْ وفَرَسَتهم الرِّيح تَضْرِبهُمْ بِهَا، ثُمَّ خَرَجْت نَحْو النَّبِيّ ﷺ، فَلَمَّا انْتَصَفْت فِي الطَّرِيق أَوْ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٨٨).

نَحْوًا مِنْ ذَلكَ إِذَا أَنَا بِنَحْوٍ مِنْ عِشْرِينَ فَارِسًا أَوْ نَحْو ذَلكَ مُعْتَمِّينَ، فَقَالوا: أَخْبِرْ صَاحِبك أَنَّ الله تَعَالى كَفَاهُ القَوْم. فَرَجَعْت إِلى رَسُول الله ﷺ، وَهُوَ مُشْتَمِل فِي شَمْلة يُصَلِّي، فَوَالله مَا عَدَا أَنْ رَجَعْت رَاجَعَنِي القُرّ، وَجَعَلت أُقَرْقِف، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ رَسُول الله ﷺ بِيَدِهِ وَهُوَ يُصَلِّي، فَدَنَوْت مِنْهُ، فَأَسْبَلَ عَلَيَّ شَمْلته، وَكَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْر صَلَّى، فَأَخْبَرْته خَبَرَ القَوْم، وَأَخْبَرْته أَنِّي تَرَكْتهمْ يترحلون، وَأَنْزَل الله تَعَالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾.[1]

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنه» مِنْهُ: «كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْر...».[2] مِنْ حَدِيث عِكْرِمَة بْن عَمَّار، بِهِ.

وَقَوْله: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ أَيْ: الأَحْزَاب ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾، تَقَدَّمَ عَنْ حُذَيْفَة أَنَّهُمْ بَنُو قُرَيْظَة، ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾، أَيْ: مِنْ شِدَّة الخَوْف وَالفَزَع، ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾.

قَال ابْن جَرِير: ظَنَّ بَعْض مَنْ كَانَ مَعَ رَسُول الله ﷺ أَنَّ الدَّائِرَة عَلى المُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ الله سَيَفْعَلُ ذَلكَ. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق فِي قَوْله: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾: ظَنَّ المُؤْمِنُونَ كُلّ ظَنّ، وَنَجَمَ النِّفَاق حَتَّى قَال مُعَتِّب بْن بشير -أَخُو بَنِي عَمْرو بْن عَوْف-: كَانَ مُحَمَّد يَعِدنَا أَنْ نَأْكُل كُنُوز كِسْرَى وَقَيْصَر، وَأَحدنَا لا يَقْدِر عَلى أَنْ يَذْهَب إِلى الغَائِط.

وَقَال الحَسَن فِي قَوْله: ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾: ظُنُون مُخْتَلفَة، ظَنَّ المُنَافِقُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابه سيسْتَأْصَلُونَ، وَأَيْقَنَ المُؤْمِنُونَ أَنَّ مَا وَعَدَ الله وَرَسُوله حَقّ. وَأَنَّهُ سَيُظْهِرُهُ عَلى الدِّين كُلّه وَلوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَحْمَد بْن عصام الأَنْصَارِيّ. حَدَّثنَا أَبُو عَامِر /ح/ وَحَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا أَبُو عَامِر العَقَدِيّ، حَدَّثنَا الزُّبَيْر -يَعْنِي ابْن عَبْد الله، مَوْلى عُثْمَان بن عفان رضي الله عنه- عَنْ ربيح بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي سَعِيد عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيد رضي الله عنه قَال: قُلنَا يَوْم الخَنْدَق: يَا رَسُول الله، هَل مِنْ شَيْء نَقُول، فَقَدْ بَلغَتْ القُلُوب الحَنَاجِر؟ قَال ﷺ: «نَعَمْ، قُولُوا: اللَّهُمَّ، اسْتُرْ عَوْرَاتنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتنَا»[3]. قَال: فَضَرَبَ وُجُوه أَعْدَائِهِ بِالرِّيح، فَهَزَمَهُمْ الرِّيح. وَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل عَنْ أَبِي عَامِر العَقَدِيّ.

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ ذَلكَ الحَال، حِين نزلت الأَحْزَاب حَوْل المَدِينَة، وَالمُسْلمُونَ مَحْصُورُونَ فِي غَايَة الجَهْد وَالضِّيق، وَرَسُول الله ﷺ بَيْن أَظْهُرهمْ، إِنَّهُمْ ابْتُلُوا وَاخْتُبِرُوا وَزُلزِلُوا زِلزَالا شَدِيدًا، فَحِينَئِذٍ ظَهَرَ النِّفَاق، وَتَكَلَّمَ الَّذِينَ فِي قُلُوبهمْ مَرَض بِمَا فِي نفوسهم، ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾، أَمَّا المُنَافِق فَنَجَمَ نِفَاقه، وَالَّذِي فِي قَلبه شُبْهَة أَوْ حَسِيكَة، ضَعُفَ حَاله فَتَنَفَّسَ بِمَا يَجِدهُ مِنْ الوَسْوَاس فِي نَفْسه، لضَعْفِ إِيمَانه، وَشِدَّة مَا هُوَ فِيهِ مِنْ ضِيق الحَال. وَقَوْم آخَرُونَ قَالُوا كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾، يَعْنِي: المَدِينَة كَمَا جَاءَ فِي «الصَّحِيح»: «أُرِيت فِي المَنَام دَار هِجْرَتكُمْ أَرْض بَيْن حَرَّتَيْنِ فَذَهَب

---

(١) حسن: أخرجه الحاكم (٣/ ٣١)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٥١).

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٥/ ٣٨٨)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٣) وفيه الزبير بن عبد الله، وربيح بن أبي سعيد: كلاهما ضعيف.

وَهَلي أَنَّهَا هَجَر، فَإِذَا هِيَ يَثْرِب». وَفِي لَفْظٍ: «المَدِينَة». فَأَمَّا الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مَهْدِيّ، حَدَّثَنَا صَالح بْن عُمَر، عَنْ يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي لَيْلى، عَنْ البَرَاء ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ سَمَّى المَدِينَة يَثْرِب فَلْيَسْتَغْفِرْ الله؛ هِيَ طَابَة، هِيَ طَابَة»[1]. تَفَرَّدَ بِهِ الإِمَام أَحْمَد، فَفِي إِسْنَاده ضَعْف، وَالله أَعْلم. وَيُقَال: إِنَّمَا كَانَ أَصْل تَسْمِيَتهَا «يَثْرِب» بِرَجُلٍ نَزَلَهَا مِنْ العَمَالِيق، يُقَال لَهُ: يَثْرِب بْن عُبَيْد بْن مهلاييل بْن عَوْص بْن عِمْلاق بْن لاوذ بْن إِرَم بْن سَام بْن نُوح. قَالَهُ السُّهَيْلِيّ، قَال: وَرُوِيَ عَنْ بَعْضهمْ أَنَّهُ قَال: إِنَّ لَهَا أَحَد عَشَر اسْمًا: المَدِينَة، وَطَابَة، وَطَيْبَة، وَالمِسْكِينَة، وَالجَابِرَة، وَالمُحَبَّة، وَالمَحْبُوبَة، وَالقَاصِمَة، وَالمَجْبُورَة، وَالعَذْرَاء، وَالمَرْحُومَة. وَعَنْ كَعْب الأَحْبَار قَال: إِنَّا نَجِد فِي التَّوْرَاة: يَقُول الله لِلمَدِينَةِ: يَا طَيْبَة، وَيَا طَابَة، وَيَا مِسْكِينَة، لا تُقِلِّي الكُنُوز، أَرْفَع أَحَاجِرك عَلَى أَحَاجِر القُرَى.

وَقَوْله: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾، أَيْ، هَهُنَا، يَعْنُونَ عِنْد النَّبِيّ ﷺ فِي مَقَام المُرَابَطَة، ﴿فَارْجِعُوا﴾، أَيْ: إِلى بُيُوتكُمْ وَمَنَازِلكُمْ، ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾، قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما: هُمْ بَنُو حَارِثَة قَالُوا: بُيُوتنَا نَخَاف عَلَيْهَا السُّرَّق. وَكَذَا قَال غَيْر وَاحِد. وَذَكَر ابْن إِسْحَاق أَنَّ القَائِل لِذَلِكَ هُوَ أَوْس بْن قَيْظِيّ، يَعْنِي: اعْتَذَرُوا فِي الرُّجُوع إِلى مَنَازِلهمْ بِأَنَّهَا عَوْرَة، أَيْ: لَيْس دُونهَا مَا يَحْجُبهَا عن العَدُوّ، فَهُمْ يَخْشَوْنَ عَلَيْهَا مِنْهُمْ. قَال الله تَعَالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾، أَيْ: لَيْسَتْ كَمَا يَزْعُمُونَ، ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، أَيْ: هَرَبًا مِنْ الزَّحْف.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ هَؤُلاءِ الَّذِينَ ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾: أَنَّهُمْ لَوْ دَخَل عَلَيْهِمْ الأَعْدَاء مِنْ كُلّ جَانِب مِنْ جَوَانِب المَدِينَة، وَقُطْر مِنْ أَقْطَارهَا، ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَة -وَهِيَ الدُّخُول فِي الكُفْر- لَكَفَرُوا سَرِيعًا، وَهُمْ لا يُحَافِظُونَ عَلى الإِيمَان، وَلا يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ مَعَ أَدْنَى خَوْف وَفَزَع. هَكَذَا فَسَّرَهَا قَتَادَة وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد، وَابْن جَرِير، وَهَذَا ذَمّ لَهُمْ فِي غَايَة الذَّمّ. ثُمَّ قَال تَعَالى يُذَكِّرهُمْ بِمَا كَانُوا عَاهَدُوا الله مِنْ قَبْل هَذَا الخَوْف، أَنْ لا يُوَلُّوا الأَدْبَار وَلا يَفِرُّوا مِنْ الزَّحْف؛ ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾، أَيْ: وَإِنَّ الله تَعَالى سَيَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ العَهْد لابُدّ مِنْ ذَلِكَ، ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم، ولا يطول أعمارهم، بل ربما كان ذلك سببًا في تعجيل أخذهم غرة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: بعد هربكم وفراركم ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾. ثُمَّ قَال: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم﴾، أَيْ: يَمْنَعكُمْ ﴿مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ وَلا لِغَيْرِهِمْ مِنْ دون الله مُجِير وَلا مُغِيث.

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ إِحَاطَة عِلمه بِالمُعَوِّقِينَ لِغَيْرِهِمْ عَنْ شُهُود الحَرْب، وَالقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ، أَيْ أَصْحَابهمْ

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٥)، وفيه يزيد بن أبي زياد: ضعيف.

وَعُشَرَائِهِمْ وَخُلطَائِهِمْ: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، أَيْ: إِلى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ الإِقَامَة فِي الظِّلال وَالثِّمار، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، أَيْ: بُخلاء بِالمَوَدَّةِ وَالشَّفقة عليكُم. وَقَال السُّدِّيّ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: فِي الغَنَائِم. ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، أَيْ: مِنْ شِدَّة خَوْفه وَجزَعه، وَهكَذَا خَوْف هَؤُلاءِ الجُبَنَاء مِنْ القِتَال، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾، أَيْ: فَإِذَا كَانَ الأَمْن تكَلَّمُوا كَلامًا بَليغًا فَصِيحًا عَالِيًا، وَادَّعَوْا لأَنْفُسِهِمْ المَقَامَات العَالِيَة فِي الشَّجَاعَة وَالنَّجْدَة، وَهُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذُلّك. وَقَال ابْن عَبَّاس: ﴿سَلَقُوكُم﴾ أَيْ: اسْتَقْبَلُوكُمْ. وَقَال قَتَادَة: أَمَّا عِنْد الغَنِيمَة فَأَشَحّ قَوْم، وأَسْوَؤُهُ مُقَاسَمَة: أَعْطُونَا، أَعْطُونَا، قَدْ شَهِدْنَا مَعَكُمْ. وَأَمَّا عِنْد البَأْس فَأَجْبَن قَوْم، وَأَخْذَله للحَقِّ وَهُمْ مَعَ ذَلكَ أَشِحَّة عَلى الخَيْر، أَيْ: لَيْسَ فِيهِمْ خَيْر، قَدْ جَمَعُوا الجُبْن وَالكَذِب، وَقِلَّة الخَيْر، فَهُمْ كَمَا قَال فِي أَمْثالهِمْ الشَّاعِر:

أَفِي السِّلم أَعْيَار جَفَاء وَغِلظَة ۞ وَفِي الحَرْب أَمْثَال النِّسَاء العَوارِكِ

أَيْ: فِي حَال المُسَالَمَة كَأَنَّهُمْ الحمير. وَالأَعْيَار: جَمْع عِير، وَهُوَ الحِمَار. وَفِي الحَرْب كَأَنَّهُمْ النِّسَاء الحُيَّض؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، أَيْ: سَهْلًا هَيِّنًا عِنْده.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ صِفَاتهِمْ القَبِيحَة فِي الجُبْن وَالخَوْف وَالخَوَر، ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾، بَل هُمْ قَرِيب مِنْهُمْ، وَإِنَّ لهُمْ عَوْدَة إِلَيْهِمْ ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾، أَيْ: وَيَوَدُّونَ إِذَا جَاءَتْ الأَحْزَاب أَنَّهُمْ لا يَكُونُونَ حَاضِرِينَ مَعَكُمْ فِي المَدِينَة بَل فِي البَادِيَة، يَسْأَلُونَ عَنْ أَخْبَارِكُمْ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ مَعَ عَدُوّكُمْ، ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾. أَيْ: وَلوْ كَانُوا بَيْن أَظْهُرِكُمْ لَمَا قَاتَلُوا مَعَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا؛ لكَثْرَةِ جُبْنهِمْ وَذِلَّتهِمْ، وَضَعْف يَقِينهِمْ.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة أَصْل كَبِير فِي التَّأَسِّي بِرَسُول الله ﷺ، فِي أَقْوَاله وَأَفْعَاله وَأَحْوَاله؛ وَلهَذَا أَمَرَ النَّاس بِالتَّأَسِّي بِالنَّبِيِّ ﷺ يَوْم الأَحْزَاب، فِي صَبْرِه وَمُصَابَرَته وَمُرَابطَته وَمُجَاهَدَته وَانْتِظَاره الفَرَج مِنْ رَبّه عَزَّ وَجَلَّ، صَلوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ دَائِمًا إِلى يَوْم الدِّين؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى للَّذِينَ تَقَلَّقُوا وَتَضَجَّرُوا وَتَزَلْزَلُوا وَاضْطَرَبُوا فِي أَمْرِهِمْ يَوْم الأَحْزَاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، أَيْ: هَلَّا اقْتَدَيْتُمْ بِهِ وَتَأَسَّيْتُمْ بِشَمَائِلهِ ﷺ، وَلهَذَا قَال: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ثُمَّ قَال تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ عِبَاده المُؤْمِنِينَ المُصَدِّقِينَ بموعود الله لهُمْ، وَجَعْله العَاقِبَة حَاصِلة لهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، فَقَال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾. قَال ابْن عَبَّاس وَقَتَادَة: يَعْنُونَ قَوْله تَعَالى فِي «سُورَة البَقَرَة»: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾. أَيْ: هَذَا مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُوله مِنْ الابْتِلاء وَالاخْتِبَار وَالامْتِحَان الَّذِي يَعْقُبهُ النَّصْر القَرِيب؛ وَلهَذَا قَالوا: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾. وَقَوْله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾، دَليل عَلى زِيَادَة الإِيمَان وَقُوَّته بِالنِّسْبَة إِلى النَّاس وَأَحْوَالهِمْ، كَمَا قَاله جُمْهُور الأَئِمَّة: إِنَّهُ

يَزِيد وَيَنْقُص. وَقَدْ قَرَّرْنَا ذَلِكَ فِي أَوَّل «شَرْح الْبُخَارِيّ»، ولله الحَمْد وَالمِنَّة. وَمَعْنَى قَوْله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الحَال وَالضِّيق وَالشِّدَّة ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أَيْ: انْقِيَادًا لأَوَامِرِهِ، وَطَاعَة لرَسُوله ﷺ.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

لَـمَّا ذَكَرَ عَنْ المُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ نَقَضُوا العَهْد الَّذِي كَانُوا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَار؛ وَصَفَ المُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا عَلَى العَهْد وَالمِيثَاق، وَ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، قَالَ بَعْضهمْ: أَجَله. وَقَالَ الْبُخَارِيّ: عَهْده، وَهُوَ يَرْجِع إِلَى الأَوَّل. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾، أَيْ: وَمَا غَيَّرُوا عَهْد الله، وَلا نَقَضُوهُ وَلا بَدَّلُوهُ. قَالَ الْبُخَارِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَان، أَخْبَرَنَا شُعَيْب، عَنْ الزُّهْرِيّ؛ قَالَ: أَخْبَرَنِي خَارِجَة بْن زَيْد بْن ثَابِت، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَـمَّا نَسَخْنَا المُصْحَف فُقِدَتْ آيَة مِنْ سُورَة الأَحْزَاب كُنْت أَسْمَع رَسُول الله ﷺ يَقْرَؤُهَا، لَمْ أَجِدهَا مع أحد إِلَّا مَعَ خُزَيْمَةَ بْن ثَابِت الأَنْصَارِيّ الَّذِي جَعَل رَسُول الله ﷺ شَهَادَته بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1]. انفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيّ دُون مُسْلِم. وَأَخْرَجَهُ أَحْمَد فِي «مُسْنَده»، وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ -فِي التَّفْسِير مِنْ «سُنَنهمَا»- مِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح.

وَقَال الْبُخَارِيّ أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بَشَّار، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله الأَنْصَارِيّ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ ثُمَامَة، عَنْ أَنَس بْن مَالك قَال: نَرَى هَذِهِ الآيَة نَزَلَتْ فِي أَنَس بْن النَّضر: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾. انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيّ مِنْ هَذَا الوَجْه، وَلكِنْ لَهُ شَوَاهِد مِنْ طُرُق أُخَر، قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هَاشِم بْن القَاسِم، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن المُغِيرَة، عَنْ ثَابِت قَال: قَال أَنَس: عَمِّي أَنَس بْن النَّضْر سُمِّيت بِهِ، لَمْ يَشْهَد مَعَ رَسُول الله ﷺ يَوْم بَدْر، فَشَقَّ عَلَيْهِ وَقَال: أَوَّل مَشْهَد شَهِدَهُ رَسُول الله ﷺ غُيِّبْتُ عَنْهُ، لَئِنْ أَرَانِي الله تَعَالَى مَشْهَدًا فِيمَا بَعْد مَعَ رَسُول الله ﷺ لَيَرَيَنَّ الله مَا أَصْنَع. قَال: فَهَابَ أَنْ يَقُول غَيْرهَا، فَشَهِدَ مَعَ رَسُول الله ﷺ يَوْم أُحُد، فَاسْتَقْبَل سَعْد بْن مُعَاذ فَقَال لَهُ أَنَس: يَا أَبَا عَمْرو؛ أَيْنَ؟ وَاهًا لرِيح الجَنَّة، أَجِدهُ دُون أُحُد! قَال: فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِل، قَال: فَوُجِدَ فِي جَسَده بِضْع وَثَمَانُونَ من ضَرْبَة وَطَعْنَة وَرَمْيَة، فَقَالَتْ أُخْته عَمَّتِي الرُّبَيِّع بْنَة النَّضْر: فَمَا عَرَفْت أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ. قَال: فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ قَال: فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابه.[2] وَرَوَاهُ مُسْلِم وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ، مِنْ حَدِيث سُلَيْمَان بْن المُغِيرَة. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ أَيْضًا وَابْن جَرِير، مِنْ حَدِيث حَمَّاد بْن سَلَمَة، عَنْ ثَابِت عَنْ أَنَس، بِهِ نَحْوه.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان، حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، حَدَّثَنَا حُمَيْد، عَنْ أَنَس رضي الله عنه: أَنَّ عَمّه -يَعْنِي أَنَس بْن النَّضْر- غَابَ عَنْ قِتَال بَدْر فَقَال: غُيِّبْتُ عَنْ أَوَّل قِتَال قَاتَلَهُ رَسُول الله ﷺ، المُشْرِكِينَ، لَئِنْ الله أَشْهَدَنِي قِتَالًا للمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ الله مَا أَصْنَع. قَال: فَلَمَّا كَانَ يَوْم أُحُد انْكَشَفَ المُسْلِمُونَ، فَقَال: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعْتَذِر إِلَيْك مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ -يَعْنِي أَصْحَابه-، وَأَبْرَأ إِلَيْك مِمَّا جَاءَ بِهِ هَؤُلاءِ -يَعْنِي المُشْرِكِينَ- ثُمَّ تَقَدَّمَ فَلَقِيَهُ سَعْد -يَعْنِي ابْن مُعَاذ- دُون أُحُد، فَقَال: أَنَا مَعَك. قَال سَعْد: فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَصْنَع مَا صَنَعَ. قَال: فَوُجِدَ فِيهِ بِضْع وَثَمَانُونَ ضَرْبَة سَيْف، وَطَعْنَة رُمْح، وَرَمْيَة سَهْم. وَكَانُوا يَقُولُونَ فِيهِ وَفِي أَصْحَابه: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٨٤)، والترمذي (٣١٠٤).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٠١)، وأحمد (٣/ ١٩٤).

وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾.[١] وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير عَنْ عَبْد بْن حُمَيْد، وَالنَّسَائِيّ فِيهِ أَيْضًا عَنْ إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم، كِلاهُمَا، عَنْ يَزِيد بْن هَارُون، بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن. وَقَدْ رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي المَغَازِي عَنْ حَسَّان بْن حَسَّان، عَنْ مُحَمَّد بْن طَلْحَة بن مُصَرِّف، عَنْ حُمَيْد، عَنْ أَنَس بِهِ. وَلَمْ يَذْكُر نُزُول الآيَة. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث المُعْتَمِر بْن سُلَيْمَان، عَنْ حُمَيْد، عَنْ أَنَس، بِهِ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن الفَضْل العَسْقَلانِيّ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن أَيُّوب بْن سُلَيْمَان بن عِيسَى بْن مُوسَى بْن طَلْحَة بْن عُبَيْد الله، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ مُوسَى بْن طَلْحَة، عَنْ أَبِيهِ طَلْحَة قَال: لَـمَّا أَنْ رَجَعَ النبي ﷺ مِنْ أُحُد صَعِدَ المِنْبَر، فَحَمِدَ الله تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَعَزَّى المُسْلِمِينَ بِمَا أَصَابَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا لَهُمْ فِيهِ مِنْ الأَجْر وَالذُّخْر، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَة: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآيَة كُلَّهَا. فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُل مِنَ المُسْلِمِينَ فَقَال: يَا رَسُول الله، مَنْ هَؤُلاءِ؟ فَأَقْبَلت وَعَلَيَّ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ حَضْرَمِيَّانِ فَقَال: **«أَيُّهَا السائل هَذَا مِنْهُمْ»**[٢]. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث سُلَيْمَان بْن أَيُّوب الطَّلْحِيّ بِهِ.

وَأَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير وَالمَنَاقِب أَيْضًا، وَابْن جَرِير، مِنْ حَدِيث يُونُس بْن بُكَيْر، عَنْ طَلْحَة بْن يَحْيَى عَنْ مُوسَى وَعِيسَى ابْنَيْ طَلْحَة، عَنْ أَبِيهِمَا، به. وَقَال: حسن غَرِيب، لا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيث يُونُس.

وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عِصَام الأَنْصَارِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر -يَعْنِي العَقَدِيّ- حَدَّثَنا إِسْحَاق -يَعْنِي ابْن طَلْحَة ابْن عُبَيْد الله- عَنْ مُوسَى بْن طَلْحَة قَال: دَخَلت عَلى مُعَاوِيَة رضي الله عنه، فَلَمَّا خَرَجْت دَعَانِي فَقَال: أَلا أَضَع عِنْدك يَا ابْن أَخِي حَدِيثًا سَمِعْته مِنْ رَسُول الله ﷺ؟ أَشْهَد لسَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«طَلْحَة مِمَّنْ قَضَى نَحْبه»**.[٣]

وَرَوَاهُ ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا عَبْد الحَمِيد الحِمَّانِيّ، عَنْ إِسْحَاق بْن يَحْيَى بْن طَلْحَة الطَّلْحِيّ، عَنْ مُوسَى بْن طَلْحَة قَال: قَامَ مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان رضي الله عنه فَقَال: إِنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«طَلْحَة مِمَّنْ قَضَى نَحْبه»**. وَلِهَذَا قَال مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾، قَال: عَهْده، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾، قَال: يَوْمًا فِيهِ القِتَال فَيَصْدُق فِي اللِّقَاء. وَقَال الحَسَن: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾، يَعْنِي مَوْته عَلى الصِّدْق وَالوَفَاء، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ المَوْت عَلى مِثْل ذَلكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُبَدِّل تَبْدِيلًا، وَكَذَا قَال قَتَادَة وَابْن زَيْد. وَقَال بَعْضهمْ: ﴿نَحْبَهُ﴾: نَذْره.

وَقَوْله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ أَيْ: وَمَا غَيَّرُوا عَهْدهمْ، وَبَدَّلُوا الوَفَاء بِالغَدْر، بَل اسْتَمَرُّوا عَلى مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ، وَمَا نَقَضُوهُ كَفِعْل المُنَافِقِينَ الَّذِين قَالُوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾.

وَقَوْله: ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، أَيْ: إِنَّمَا يَخْتَبِر عِبَاده بِالخَوْفِ وَالزِّلْزَال فَيَمِيزَ الخَبِيث مِنْ الطَّيِّب، فَيُظْهِر أَمْر هَذَا بِالفِعْل، وَأَمْر هَذَا بِالفِعْل. مَعَ أَنَّهُ تَعَالى يَعْلم الشَّيْء قَبْل كَوْنه، وَلكِنْ لا يُعَذِّب الخَلق بِعِلمِهِ فِيهِمْ، حَتَّى يَعْمَلُوا بِمَا يَعْلمهُ فيهم، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾، فَهَذَا عِلم بِالشَّيْءِ بَعْد كَوْنه وَإِنْ كَانَ العِلم السَّابِق حَاصِلًا بِهِ قَبْل وُجُوده. وَكَذَا قَال تَعَالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾، وَلِهَذَا قَال هَهُنَا: ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾، أَيْ: بِصَبْرِهِمْ عَلى مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ، وَقِيَامهمْ

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٠٤٨)، وأحمد (٣/ ٢٠١)، والترمذي (٣٢٠١).
(٢) **حسن**: أخرجه الطبري (٢١/ ١٤٧)، والترمذي (٣٧٤٢).
(٣) **حسن**: أخرجه الترمذي (٣٧٤٥)، وابن ماجه (١٢٧)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

بِهِ، وَمُحَافَظَتهمْ عَلَيْهِ. ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وَهُمْ النَّاقِضُونَ لعَهْدِ الله، المُخَالِفُونَ لأَوَامِرِهِ، فَاسْتَحَقُّوا بِذَلِكَ عِقَابه وَعَذَابه، وَلكِنْ هُمْ تَحت مَشِيئَته فِي الدُّنْيَا، إِنْ شَاءَ اسْتَمَرَّ بِهِمْ عَلى مَا فَعَلُوا حَتَّى يَلقَوْهُ به فَيُعَذِّبهُمْ عَلَيْهِ، وَإِنْ شَاءَ تَابَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ أَرْشَدهمْ إِلى النُّزُوع عَنْ النِّفَاق إِلى الإِيمَان، [وَالعَمَل][1] الصَّالح بَعْد الفُسُوق وَالعِصْيَان. وَلَمَّا كَانَتْ رَحْمَته وَرَأْفته بِخَلقِهِ هِيَ الغَالبَة لغَضَبِهِ قَال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ الأَحْزَاب، لَـمَّا أَجْلاهُمْ عَنْ المَدِينَة، بِمَا أَرْسَل عَلَيْهِمْ مِنْ الرِّيح وَالجُنُود الإِلهِيَّة، ولولا أَنَّ جَعَل الله رَسُوله رَحْمَة للعَالمِينَ؛ لكَانَتْ هَذِهِ الرِّيح عَلَيْهِمْ أَشَدّ مِنْ الرِّيح العَقِيم عَلى عَادٍ، وَلكِنْ قَال تَعَالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾، فَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ هَوَاء فَرَّق شَمْلهمْ، كَمَا كَانَ سَبَب اجْتِمَاعهمْ مِنْ الهَوَى، وَهُمْ أَخْلاط مِنْ قَبَائِل شَتَّى، أَحْزَاب وَآرَاء، فَنَاسَبَ أَنْ يُرْسِل عَلَيْهِمْ الهَوَاء الَّذِي فَرَّق جَمَاعَتهمْ، وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ بِغَيْظِهِمْ وَحَنَقهمْ، لمْ يَنَالُوا خَيْرًا لا فِي الدُّنْيَا، مِمَّا كَانَ فِي أَنْفُسهمْ مِنْ الظَّفَر وَالمَغْنَم، وَلا فِي الآخِرَة بِمَا تَحَمَّلُوهُ مِنْ الآثَام فِي مُبَارَزَة الرَّسُول ﷺ، بِالعَدَاوَةِ، وَهَمّهمْ بِقَتْلِهِ، وَاسْتِئْصَال جَيْشه. وَمَنْ هَمَّ بِشَيْءٍ وَصَدَّق هَمَّهُ بِفِعْلِهِ فَهُوَ فِي الحَقِيقَة كَفَاعِلِهِ.

وَقَوْله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾، أَيْ: لمْ يَحْتَاجُوا إِلى مُنَازَلتهمْ وَمُبَارَزَتهمْ حَتَّى يُجْلُوهُمْ عَنْ بِلادهمْ؛ بَل كَفَى الله وَحْده، وَنَصَرَ عَبْده، وَأَعَزّ جُنْده؛ وَلهَذَا قال رَسُول الله ﷺ: **«لا إله إلا الله وَحْده، صَدَقَ وَعْده، وَنَصر عَبْده، وَأَعزّ جُنْده، وَهَزَمَ الأَحْزَاب وَحْده، فَلا شَيْء بَعْده»**.[2] أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالد، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي أَوْفَى قَال: دَعَا رَسُول الله ﷺ عَلى الأَحْزَاب فَقَال: «**اللهُمَّ، مُنَزِّل الكِتَاب، سَرِيع الحِسَاب، اهْزِمْ الأَحْزَاب، اللهُمَّ، اهْزِمْهُمْ وَزَلزِلهُمْ**».[3] وَفِي قَوْله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾ إِشَارَة إِلى وَضع الحَرْب بَيْنهمْ وَبَيْن قُرَيْش، وَهَكَذَا وَقَعَ بَعْدهَا، لمْ يَغْزُهُمْ المُشْرِكُونَ بَل غَزَاهُمْ المُسْلمُونَ فِي بِلادهمْ. قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: لَـمَّا انْصَرَفَ أَهْل الخَنْدَق عَنْ الخَنْدَق؛ قَال رَسُول الله ﷺ فِيمَا بَلغَنَا: «**لنْ تَغْزُوكُمْ قُرَيْش بَعْد عَامكُمْ هَذَا، وَلكِنَّكُمْ تَغْزُونَهُمْ**». فَلَمْ تَغْزُ قُرَيْش بَعْد ذَلكَ، وَكَانَ هُوَ يَغْزُوهُمْ بَعْد ذَلكَ حَتَّى فَتَحَ الله عليه مَكَّة. وَهَذَا الحَدِيث الَّذِي ذَكَرَهُ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، حَدِيث صَحِيح كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ سُفْيَان حَدَّثَنِي أَبُو إِسْحَاق قَال: سَمِعْت سُليْمَان بْن صُرَد رضي الله عنه يَقُول: قَال رَسُول الله ﷺ يَوْم الأَحْزَاب: «**الآن نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَا**».[4] وَهَكَذَا رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي «صَحِيحه» مِنْ حَدِيث الثَّوْرِيّ وَإِسْرَائِيل عَنْ أَبِي إِسْحَاق بِهِ. وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، أَيْ: بِحَوْلِهِ وَقُوَّته، رَدَّهُمْ خَائِبِينَ، لمْ يَنَالُوا خَيْرًا، وَأَعَزّ الله الإِسْلام وَأَهْله، وَصَدَقَ وَعْده، وَنَصَرَ رَسُوله وَعَبْده، فَلهُ الحَمْد وَالمِنَّة.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ بَنِي قُرَيْظَة لَـمَّا قَدِمَتْ جُنُود الأَحْزَاب وَنَزَلُوا عَلى المَدِينَة، نَقَضُوا مَا كَانَ بَيْنهمْ وَبَيْن رَسُول الله ﷺ

---

(١) في نسخة: [وعمل].
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤١١٣)، ومسلم (٢٧٢٤).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢٢٣) (٤١١٥)، ومسلم (١٧٤١).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٤١٩)، وأحمد (٢٦٤).

مِنْ العَهْد، وَكَانَ ذَلكَ بِسِفَارَةِ حُيَيّ بْن أَخْطَبَ النَّضْرِيّ -لعَنَهُ اللهُ- دَخل حِصْنهمْ، وَلمْ يَزَل بِسَيِّدِهِمْ كَعْب بْن أَسَد حَتَّى نَقَضَ العَهْد، وَقَال لهُ فِيمَا قَال: وَيْحك. قَدْ جِئْتُك بِعِزِّ الدَّهْر، أَتَيْتُك بِقُرَيْشٍ وَأَحَابيشهَا، وَغطَفَان وَأَتْبَاعهَا، ولا يَزَالُونَ هَهُنَا حَتَّى يَسْتَأْصِلُوا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابه. فَقَال لهُ كَعْب: بَل وَالله أَتَيْتَنِي بِذُلِّ الدَّهْر، وَيْحك يَا حُيَيّ، إِنَّك مَشْئُوم، فَدَعْنَا مِنْك. فَلمْ يَزَل يَفْتِل فِي الذُّرْوَة وَالغَارِب حَتَّى أَجَابَهُ، وَاشْتَرَطَ لهُ حُيَيّ إِنْ ذَهَبَ الأَحْزَاب، وَلمْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْء، أَنْ يَدْخُل مَعَهُمْ فِي الحِصْن، فَيَكُون لهُ أُسْوَتهمْ، فَلمَّا نَقَضَتْ قُرَيْظَة، وَبَلغَ ذَلكَ رَسُول الله ﷺ سَاءَهُ، وَشَقَّ عَليْهِ وَعَلى المُسْلِمِينَ جِدًّا، فَلمَّا أَيَّدَهُ الله وَنَصرَهُ، وَكَبَتَ الأَعْدَاء وَرَدَّهُمْ خَائِبِينَ بِأَخْسَر صَفْقَة، وَرَجَعَ رَسُول الله ﷺ إِلى المَدِينَة مُؤَيَّدًا مَنْصُورًا، وَوَضَعَ النَّاس السِّلاح، فَبَيْنَمَا رَسُول الله ﷺ ، يَغْتَسِل مِنْ وَعْثَاء تِلكَ المُرَابَطَة فِي بَيْت أُمّ سَلمَة إِذْ تَبَدَّى لهُ جِبْرِيل مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَق، عَلى بَغْلة عَليْهَا قَطِيفَة مِنْ دِيبَاج، فَقَال: أَوَضَعْت السِّلاح يَا رَسُول الله؟ قَال ﷺ : «**نعم**». قَال: لكِنَّ المَلائِكَة لمْ تَضع أَسْلِحَتهَا، وَهَذَا الآن رُجُوعِي مِنْ طَلب القَوْم. ثُمَّ قَال: إِنَّ الله يَأْمُرك أَنْ تَنْهَض إِلى بَنِي قُرَيْظَة -وَفِي رِوَايَة فَقَال لهُ: عَذِيرك مِنْ مُقَاتِل، أَوَضَعْتُمْ السِّلاح؟ قَال: «**نعم**». قَال: لكِنَّا لمْ نَضع أَسْلِحَتنَا بَعْد، انْهَضْ إِلى هَؤُلاءِ، قَال ﷺ : «**أَيْنَ؟**». قَال: بَنِي قُرَيْظَة، فَإِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أُزَلزِل عَليْهِمْ. فَنَهَضَ رَسُول الله ﷺ مِنْ فَوْره، وَأَمَرَ النَّاس بِالمَسِير إِلى بَنِي قُرَيْظَة، وَكَانَتْ عَلى أَمْيَال مِنْ المَدِينَة، وَذَلكَ بَعْد صَلاة الظُّهْر، وَقَال: «**لا يُصَلِّيَنَّ أَحد مِنْكُمْ العَصْر إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَة**». فَسَارَ النَّاس، فَأَدْرَكَتْهُمْ الصَّلاة فِي الطَّرِيق فَصَلَّى بَعْضهمْ فِي الطَّرِيق وَقَالُوا: لمْ يُرِدْ مِنَّا رَسُول الله ﷺ ، إِلَّا تَعْجِيل السير. وَقَال آخَرُونَ: لا نُصَلِّيهَا إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَة. فَلمْ يُعَنِّف وَاحِدًا مِنْ الفَرِيقَيْنِ.

وَتَبِعَهُمْ رَسُول الله ﷺ ، وَقَدْ اسْتَخْلَفَ عَلى المَدِينَة ابْن أُمّ مَكْتُوم، وَأَعْطَى الرَّايَة لعَلِيّ بْن أَبِي طَالب. ثُمَّ نَازَلهُمْ رَسُول الله ﷺ وَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ ليْلة، فَلمَّا طَال عَليْهِمْ الحَال نَزَلُوا عَلى حُكْم سَعْد بْن مُعَاذ سَيِّد الأَوْس، لأَنَّهُمْ كَانُوا حُلفَاءَهُمْ فِي الجَاهِلِيَّة، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ يُحْسِن إِليْهِمْ فِي ذَلكَ، كَمَا فَعَل عَبْد الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول فِي مَوَاليه بَنِي قَيْنُقَاع، حِين اسْتَطْلقَهُمْ مِنْ رَسُول الله ﷺ ، فَظَنَّ هَؤُلاءِ أَنَّ سَعْدًا سَيَفْعَل فِيهِمْ كَمَا فَعَل ابْن أُبَيّ فِي أُولئِكَ، وَلمْ يَعْلمُوا أَنَّ سَعْدًا رضي الله عنه كَانَ قَدْ أَصَابَهُ سَهْم فِي أَكْحَله أَيَّام الخَنْدَق، فَكَوَاهُ رَسُول الله ﷺ فِي أَكْحَله، وَأَنْزَلهُ فِي قُبَّة فِي المَسْجِد ليَعُودَهُ مِنْ قَرِيب. وَقَال سَعْد فِيمَا دَعَا بِهِ: اللَّهُمَّ، إِنْ كُنْت أَبْقَيْت مِنْ حَرْب قُرَيْش شَيْئًا فَأَبْقِنِي لهَا. وَإِنْ كُنْت وَضَعْت الحَرْب بَيْننَا وَبَيْنهمْ، فَافْجُرْهَا وَلا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَة. فَاسْتَجَابَ الله دُعَاءَهُ، وَقَدَّرَ عَليْهِمْ أن نَزَلُوا عَلى حُكْمه بِاخْتِيَارِهِمْ طَلبًا مِنْ تِلقَاء أَنْفُسهمْ، فَعِنْد ذَلكَ اسْتَدْعَاهُ رَسُول الله ﷺ مِنْ المَدِينَة ليَحْكُم فِيهِمْ، فَلمَّا أَقْبَل وَهُوَ رَاكِب عَلى حِمَار قَدْ وَطِئُوا لهُ عَليْهِ؛ جَعَل الأَوْس يَلُوذُونَ بِهِ، وَيَقُولُونَ: يَا سَعْد؛ إِنَّهُمْ مَوَاليك، فَأَحْسِنْ فِيهِمْ، وَيُرَقِّقُونَهُ عَليْهِمْ وَيُعَطِّفُونَهُ، وَهُوَ سَاكِت لا يَرُدّ عَليْهِمْ، فَلمَّا أَكْثَرُوا عَليْهِ قَال: لقَدْ آنَ لسَعْدٍ أَنْ لا تَأْخُذهُ فِي الله لوْمَة لائِم. فَعَرَفُوا أَنَّهُ غَيْر مُسْتَبْقِيهِمْ. فَلمَّا دَنَا مِنْ الخَيْمَة الَّتِي فِيهَا رَسُول الله ﷺ ، قَال رَسُول الله ﷺ : «**قُومُوا إِلى سَيِّدكُمْ**». فَقَامَ إِليْهِ المُسْلمُونَ، فَأَنْزَلُوهُ إِعْظَامًا وَإِكْرَامًا وَاحْتِرَامًا لهُ فِي مَحَلّ وِلايَته، ليَكُونَ أَنْفَذ لحُكْمِهِ فِيهِمْ، فَلمَّا جلسَ قَال لهُ رَسُول الله ﷺ : «**إِنَّ هَؤُلاءِ** -وَأَشَارَ إِليْهِمْ- **قَدْ نَزَلُوا عَلى حُكْمك، فَاحْكُمْ فِيهِمْ بِمَا شِئْت**».

قَال: وَحُكْمِي نَافِذ عَليْهِمْ؟ قَال: «**نعم**». قَال: وَعَلى مَنْ فِي هَذِهِ الخَيْمَة؟ قَال: «**نعم**». قَال: وَعَلى مَنْ هَهُنَا. وَأَشَارَ إِلى الجَانِب الَّذِي فِيهِ رَسُول الله ﷺ ، وَهُوَ مُعْرِض بِوَجْهِهِ عَنْ رَسُول الله ﷺ إِجْلالًا وَإِكْرَامًا وَإِعْظَامًا، فَقَال لهُ رَسُول الله ﷺ : «**نعم**». فَقَال: إِنِّي أَحْكُم أَنْ تُقْتَل مُقَاتِلتهمْ، وَتُسْبَى ذُرِّيَّتهمْ وَأَمْوَالهمْ. فَقَال لهُ رَسُول الله ﷺ : «**لقَدْ حَكَمْت بِحُكْمِ الله مِنْ فَوْق سَبْعَة أَرْقِعَة**». وَفِي رِوَايَة: «**لقَدْ حَكَمْت بِحُكْمِ الملك**». ثُمَّ أَمَرَ

رَسُول الله ﷺ، بِالأَخَادِيدِ فَخُدَّتْ فِي الأَرْض، وَجِيءَ بِهِمْ مُكَتَّفِينَ، فَضَرَبَ أَعْنَاقهمْ، وَكَانُوا مَا بَيْن السَّبْعمِائَةِ إِلى الثَّمانمِائَةِ، وَسَبَى مَنْ لمْ يُنْبت مِنْهُمْ مَعَ النِّسَاء وَأَمْوَالهمْ. وَهَذَا كُلّه مُقَرَّر مُفَصَّل بِأَدِلَّتِهِ وَأَحَادِيثه وَبَسْطهُ فِي كِتَاب «السِّيرَة»، الَّذِي أَفْرَدْنَاهُ مُوجَزًا ومقتصًا، ولله الحَمْد وَالمِنَّة. وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾، أَيْ: عَاوَنُوا الأَحْزَاب وَسَاعَدُوهُمْ عَلى حَرْب رَسُول الله ﷺ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يَعْنِي: بَنِي قُرَيْظَة مِنْ اليَهُود، مِنْ بَعْض أَسْبَاط بَنِي إِسْرَائِيل، كَانَ قَدْ نَزَل آبَاؤُهُمْ الحِجَاز قَدِيمًا، طَمَعًا فِي اتِّبَاع النَّبِيّ الأُمِّيّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدهمْ فِي التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ فَعَلَيْهِمْ لعْنَة الله.

وَقَوْله: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يَعْنِي: حُصُونهمْ. كَذَا قَال مُجَاهِد وَعِكْرِمَة، وَعَطَاء وَالسُّدِّيّ، وقتادة، وَغَيْرهمْ، وَمِنْهُ سُمِّيت صَيَاصِي البَقَر، وَهِيَ قُرُونهَا لأَنَّهَا أَعْلى شَيْء فِيهَا ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، وَهُوَ الخَوْف، لأَنَّهُمْ كَانُو مَالئُوا المُشْرِكِينَ عَلى حَرْب رسول الله ﷺ، وَليْسَ مَنْ يَعْلم كَمَنْ لا يَعْلم، وَأَخَافُوا المُسْلِمِينَ وَرَامُوا قَتْلهمْ ليَعِزُّوا فِي الدُّنْيَا فَانْعَكَسَ عَليْهِمْ الحَال، وَانْقَلبَ الفال، انْشَمَرَ المُشْرِكُون فَفَازُوا بِصَفْقَةِ المَغْبُون، فَكَمَا رَامُوا العِزّ أُذلوا، وَأَرَادُوا اسْتِئْصَال المُسْلمِينَ فَاسْتُؤْصِلُوا، وَأُضِيفَ إِلى ذَلكَ شَقَاوَة الآخِرَة، فَصَارَتْ الجُمْلة أَنَّ هَذِهِ هِيَ الصَّفْقَة الخَاسِرَة؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾، فَالَّذِينَ قُتِلُوا هُمْ المُقَاتِلة، وَالأُسَرَاء هُمْ الأصاغر وَالنِّسَاء.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هُشَيْم بْن بَشِير، أَخْبَرَنَا عَبْد المَلك بْن عُمَيْر، عَنْ عَطِيَّة القُرَظِيّ قَال: عُرِضْت عَلى النَّبِيّ ﷺ يَوْم قُرَيْظَة فَشَكُّوا فِيَّ فَأَمَرَ بِي النَّبِيّ ﷺ أَنْ يَنْظُرُوا: هَل أَنْبَتُّ بَعْد؟ فَنَظَرُوا فَلمْ يَجِدُونِي أَنْبَتّ بعد. فَخَلَّى عَنِّي وَأَلحَقَنِي بِالسَّبْي.(1) وَكَذَا رَوَاهُ أَهْل السُّنَن كُلّهمْ مِنْ طُرُق، عَنْ عَبْد المَلك بْن عُمَيْر، بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ أَيْضًا، مِنْ حَدِيث ابْن جُرَيْج، عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد عَنْ عَطِيَّة بِنَحْوِهِ. وَقَوْله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾، أَيْ: جَعَلهَا لكُمْ مِنْ قَتْلكُمْ لهُمْ ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾، قِيل: خَيْبَر. وَقِيل: مَكَّة. رَوَاهُ مَالك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ، وَقِيل: فَارِس وَالرُّوم. وَقَال ابْن جَرِير: يَجُوز أَنْ يَكُون الجَمِيع مُرَادًا. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، أَخْبَرَنَا مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه عَلقَمَة بْن وَقَّاص قَال: أَخْبَرَتْنِي عَائِشَة قَالتْ: خَرَجْت يَوْم الخَنْدَق أَقْفُو النَّاس، فَسَمِعْت وَئِيد الأَرْض وَرَائِي، فَإِذَا أَنَا بِسَعْدِ بْن مُعَاذ وَمَعَهُ ابْن أَخِيهِ الحَارِث بْن أَوْس يَحْمِل مِجَنّه، قَالتْ: فَجَلسْت إِلى الأَرْض، فَمَرَّ سَعْد وَعَليْهِ دِرْع مِنْ حَدِيد قَدْ خَرَجْت مِنْهُ أَطْرَافه، فَأَنَا أَتَخَوَّف عَلى أَطْرَاف سَعْد، قَالتْ: وَكَانَ سَعْد رضي الله عنه مِنْ أَعْظَم النَّاس وَأَطْوَلهمْ، فَمَرَّ وَهُوَ يَرْتَجِز وَيَقُول:

لبِّث قَليلاً يَشْهَد الهَيْجَا حَمَل ۞ مَا أَحْسَنَ المَوْت إِذَا حَانَ الأَجَل!

قَالتْ: فَقُمْت فَاقْتَحَمْت حَدِيقَة فَإِذَا فِيهَا نَفَر مِنْ المُسْلمِينَ، وَإِذَا فِيهَا عُمَر بْن الخَطَّاب، وَفِيهِمْ رَجُل عَليْهِ تسبغة لهُ -تَعْنِي المِغْفَر- فَقَال عُمَر: مَا جَاءَ بِك؟ لعَمْرِي وَالله إِنَّك لجَرِيئَة، وَمَا يُؤْمِنك أَنْ يَكُون بَلاء أَوْ يَكُون تَحَوُّز. قَالتْ: فَمَا زَال يَلُومنِي حَتَّى تَمَنَّيْت أَنَّ الأَرْض انْشَقَّتْ بِي سَاعَتئِذٍ، فَدَخَلت فِيهَا. فَرَفَعَ الرَّجُل التسبغة عَنْ وَجْهه، فَإِذَا هُوَ طَلحَة بْن عُبَيْد الله، فَقَال: يَا عُمَر، وَيْحك! إِنَّك قَدْ أَكْثَرْت مُنْذُ اليَوْم، وَأَيْنَ التَّحَوُّز أَوْ الفِرَار إِلَّا إِلى الله تَعَالى؟ قَالتْ: [وَرَمَى](2) سَعْدًا رَجُل مِنْ قُرَيْش، يُقَال لهُ: ابْن العرقة بِسَهْمٍ لهُ، وَقَال لهُ: خُذْهَا وَأَنَا

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٤٠٤)، والترمذي (١٥٨٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٢) في نسخة: [ويرمي].

ابْن العرقة! فَأَصَابَ أَكْحله فَقَطَعَهُ، فَدَعَا الله سَعْدٌ فَقَال: اللَّهُمَّ؛ لا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرّ عَيْنِي مِنْ قُرَيْظَة. قَالتْ: وَكَانُوا حُلفَاءَهُ وَمَوَاليه فِي الجَاهِليَّة، قَالتْ: فرقأ كَلمُه، وَبَعَثَ الله الرِّيح عَلى المُشْركِينَ، وَكَفَى الله المُؤْمِنِينَ القِتَال، وَكَانَ الله قَوِيًّا عَزِيزًا. فَلحِقَ أَبُو سُفْيَان وَمَنْ مَعَهُ بِتِهَامَة، وَلحِقَ عُيَيْنَةَ بْن بَدْر وَمَنْ مَعَهُ بِنَجْدٍ، وَرَجَعَتْ بَنُو قُرَيْظَة فَتَحَصَّنُوا فِي صَيَاصِيهِمْ، وَرَجَعَ رَسُول الله ﷺ إِلى المَدِينَة، وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِنْ أُدْمٍ فَضُرِبَتْ عَلى سَعْد فِي المَسْجِد، قَالتْ: فَجَاءَهُ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِنَّ عَلى ثَنَايَاهُ لنَقْع الغُبَار، فَقَال: أَوَقَدْ وَضَعْتَ السِّلاح؟ لا، وَالله مَا وَضَعَتْ المَلائِكَة بَعْد السِّلاح، اخْرُجْ إِلى بَنِي قُرَيْظَة فَقَاتِلهُمْ. قَالتْ: فَلبِسَ رَسُول الله ﷺ لأْمَته، وَأَذَّنَ فِي النَّاس بِالرَّحِيل أَنْ يَخْرُجُوا، فَمَرَّ عَلى بَنِي غنم وَهُمْ جِيرَان المَسْجِد حوله فَقَال: مَنْ مَرَّ بِكُمْ؟ قَالُوا: مَرَّ بِنَا دِحْيَة الكَلبِيّ - وَكَانَ دِحْيَة الكَلبِيّ تشبه لحْيَته وَسِنّه وَوَجْهه جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَأَتَاهُمْ رَسُول الله ﷺ فَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلة، فَلَمَّا اشْتَدَّ حِصَارهمْ وَاشْتَدَّ البَلاء قِيل لهُمْ: انْزِلُوا عَلى حُكْم رَسُول الله ﷺ فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَة ابْن عَبْد المُنْذِر، فَأَشَارَ إِليهِمْ أَنَّهُ الذَّبح. قَالُوا: نَنْزِل عَلى حُكْم سَعْد بْن مُعَاذ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**انْزِلُوا عَلى حُكْم سَعْد بْن مُعَاذ**». فَنَزَلُوا وَبَعَثَ رَسُول الله ﷺ، إِلى سَعْد بْن مُعَاذ فَأُتِيَ بِهِ عَلى حِمَار عَليْهِ إِكَاف مِنْ لِيف قَدْ حُمِل عَليْهِ، وَحَفَّ بِهِ قَوْمه، فَقَالُوا: يَا أَبَا عَمْرو، حُلفَاؤُك وَمَوَاليك وَأَهْل النكاية وَمَنْ قَدْ عَلمْت. قَالتْ: ولا يُرْجِع إِليْهِمْ شَيْئًا، وَلا يَلتَفِت إِليْهِمْ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ دُورهمْ التَفَتَ إِلى قَوْمه فَقَال: قَدْ آنَ لِي أَنْ لا أُبَالِي فِي الله لوْمَة لائِم، قَال: قَال أَبُو سَعِيد: فَلمَّا طَلعَ قَال رَسُول الله ﷺ: «**قُومُوا إِلى سَيِّدكُمْ فَأَنْزِلُوهُ**». فَقَال عُمَر رضي الله عنه: سَيِّدنَا الله. قَال: «**أَنْزِلُوهُ**». فَأَنْزَلُوهُ، قَال رَسُول الله ﷺ: «**احْكُمْ فِيهِمْ**». قَال سَعْد: فَإِنِّي أَحْكُم فِيهِمْ أَنْ تُقْتَل مُقَاتِلتهمْ، وَتُسْبَى ذَرَارِيّهمْ، وَتُقْسَم أَمْوَالهمْ، فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**لقَدْ حَكَمْت فِيهِمْ بِحُكْمِ الله وَحُكْم رَسُوله**». ثُمَّ دَعَا سَعْد فَقَال: اللَّهُمَّ؛ إِنْ كُنْت أَبْقَيْت عَلى نَبِيّك مِنْ حَرْب قُرَيْش شَيْئًا فَأَبْقِنِي لهَا، وَإِنْ كُنْت قَطَعْت الحَرْب بَيْنه وَبَيْنهمْ فَاقْبِضْنِي إِليْك. قَال: فَانْفَجَرَ كَلمُه، وَكَانَ قَدْ بَرِئَ مِنْهُ إِلَّا مِثْل الخُرْص، وَرَجَعَ إِلى قُبَّته الَّتِي ضَرَبَ عَليْهِ رَسُول الله ﷺ. قَالتْ عَائِشَة: فَحَضَرَهُ رَسُول الله ﷺ وَأَبُو بَكْر، وَعُمَر. قَالتْ: فَوَالَّذِي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ، إِنِّي لأَعْرِف بُكَاء أَبِي بَكْر مِنْ بُكَاء عُمَر، وَأَنَا فِي حُجْرَتِي، وَكَانُوا كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

قَال علقَمَة: فَقُلت: أَيْ أُمَّهْ؛ فَكَيْف كَانَ رَسُول الله ﷺ يَصْنَع؟ قَالتْ: كَانَتْ عَيْنه لا تَدْمَع عَلى أَحَد، وَلكِنَّهُ كَانَ إِذَا وَجِدَ فَإِنَّمَا هُوَ آخِذ بِلحْيَتِهِ.[1] وَقَدْ أَخْرَجَ البُخَارِيّ وَمُسْلم مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن نُمَيْر، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَة نَحْوًا مِنْ هَذَا، وَلكِنَّهُ أَخْصَر مِنْهُ، وَفِيهِ [دَعَا][2] سَعْد رضي الله عنه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

هَذَا أَمْر مِنَ الله لرَسُولِهِ ﷺ، بِأَنْ يُخَيِّر نِسَاءَهُ بَيْن أَنْ يُفَارِقهُنَّ، فَيَذْهَبْنَ إِلى غَيْره مِمَّنْ يَحْصُل لهُنَّ من عِنْده الحَيَاة الدُّنْيَا وَزِينَتهَا، وَبَيْن الصَّبْر عَلى مَا عِنْده مِنْ ضِيق الحَال، وَلهُنَّ عِنْد الله فِي ذَلكَ الثَّوَاب الجَزِيل، فَاخْتَرْنَ -رَضِيَ الله عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ- الله وَرَسُوله وَالدَّار الآخِرَة، فَجَمَعَ الله لهُنَّ بَعْد ذَلكَ بَيْن خَيْر الدُّنْيَا وَسَعَادَة الآخِرَة. قَال

---

(١) رجاله ثقات : عدا عمرو بن علقمة: مقبول. وأصل الحديث مختصر في «الصحيحين» انظر «صحيح البخاري» (٤١٦٢)، ومسلم (١٧٦٩).

(٢) في نسخة: [دعاء].

البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَان، أَخْبَرَنَا شُعَيْب، عَنْ الزُّهْرِيّ، قَال: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَة ابْن عَبْد الرَّحْمَن، أَنَّ عَائِشَة ﵂ زَوْج النَّبِيّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ جَاءَهَا حِين أَمَرَهُ الله أَنْ يُخَيِّر أَزْوَاجه، فَبَدَأَ بِي رَسُول الله ﷺ فَقَال: «**إِنِّي ذَاكِر لك أَمْرًا، فَلا عَلَيْك أَنْ لا تَسْتَعْجِلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْك**». وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالَتْ: ثُمَّ قَال: إِنَّ الله قَال: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ** ﴾ إِلى تَمَام الآيَتَيْنِ، فَقُلت لَهُ: فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِر أَبَوَيَّ، فَإِنِّي أُرِيد الله وَرَسُوله وَالدَّار الآخِرَة؟[1] وَكَذَا رَوَاهُ مُعَلَّقًا عَنْ اللَّيْث: حَدَّثَنِي يُونُس، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ عَائِشَة، فَذَكَرَهُ وَزَادَ، قَالَتْ: ثُمَّ فَعَل أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ مِثْل مَا فَعَلتْ. وَقَدْ حَكَى البُخَارِيّ أَنَّ مَعْمَرًا اضْطَرَب، فَتَارَة رَوَاهُ عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ أَبِي سَلَمَة، وَتَارَة رَوَاهُ عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة، عَنْ عَائِشَة.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْدَة الضَّبِّيّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَة، عَنْ عُمَر بْن أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِيهِ قَال: قَالَتْ عَائِشَة ﵂: لَـمَّا نَزَل الخِيَار قَال لِي رَسُول الله ﷺ: «**إِنِّي أُرِيد أَنْ أَذْكُر لك أَمْرًا، فَلا تَقْضِي فِيهِ شَيْئًا حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْك**». قَالَتْ: قُلت: وَمَا هُوَ يَا رَسُول الله؟ قَال: فَرَدَّهُ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: فَمَا هُوَ يَا رَسُول الله؟ قَالَتْ: فَقَرَأَ عليها: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا** ﴾ إِلى آخِر الآيَة، قَالَتْ: فَقُلت: بَل نَخْتَار الله وَرَسُوله وَالدَّار الآخِرَة. قالت: فَفَرِحَ بِذَلكَ النَّبِيّ ﷺ.

وَحَدَّثَنَا ابْن وَكِيع، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بِشر، عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي سَلمَة، عَنْ عَائِشَة ﵂ قَالَتْ: لَـمَّا نَزَلتْ آيَة التَّخْيِير، بَدَأَ بِي رَسُول الله ﷺ فَقَال: «**يَا عَائِشَة؛ إِنِّي عَارِض عَلَيْك أَمْرًا، فَلا تَفْتَاتِي فِيهِ بِشَيْءٍ حَتَّى تَعْرِضِيهِ عَلى أَبَوَيْك أَبِي بَكْر وَأُمّ رُومَان**». فَقُلت: يَا رَسُول الله؛ وَمَا هُوَ؟ قَال: قَال الله ﷻ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا** ﴾. قَالَتْ: فَإِنِّي أُرِيد الله وَرَسُوله وَالدَّار الآخِرَة، وَلا أُؤَامِر فِي ذَلكَ أَبَوَيَّ أَبَا بَكْر وَأُمّ رُومَان، فَضَحِكَ رَسُول الله ﷺ، ثُمَّ اسْتَقْرَأَ الحُجَر، فَقَال: «**إِنَّ عَائِشَة قَالتْ كَذَا وَكَذَا**». فَقُلنَ: وَنَحْنُ نَقُول مِثْل مَا قَالتْ عَائِشَة. رَضِيَ الله عَنْهُنَّ كُلّهنَّ. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ أَبِي سَعِيد الأَشَجّ، عَنْ أَبِي أُسَامَة، عَنْ مُحَمَّد بن عَمْرو، بِهِ.

قَال ابْن جَرِير: وَحَدَّثَنَا سَعِيد بْن يَحْيَى الأُمَوِيّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي بَكْر، عَنْ عَمْرَة، عَنْ عَائِشَة ﵂: أن رَسُول الله ﷺ لَـمَّا نَزَل إِلى نِسَائِهِ أُمِرَ أَنْ يُخَيِّرهُنَّ، فَدَخَل عَلَيَّ فَقَال: «**سَأَذْكُرُ لك أَمْرًا فَلا تَعْجَلي حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَاك**». فَقُلت: وَمَا هُوَ يَا نبي الله؟ قَال: «**إِنِّي أُمِرْت أَنْ أُخَيِّرَكُنَّ**». وَتَلا عَليْهَا آيَة التَّخْيِير، إِلى آخِر الآيَتَيْنِ. قَالتْ: فَقُلت: وَمَا الَّذِي تَقُول لا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَاك؟ فَإِنِّي أَخْتَار الله وَرَسُوله. فَسُرَّ بِذَلكَ، وَعَرَضَ عَلى نِسَائِهِ فَتَتَابَعْنَ كُلّهنَّ، فَاخْتَرْنَ الله وَرَسُوله.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن سِنَان البَصْرِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو صَالح عَبْد الله بْن صَالح، حَدَّثَنِي اللَّيْث، حَدَّثَنِي عُقَيْل، عَنْ الزُّهْرِيّ، أَخْبَرَنِي عبيد الله بْن عَبْد الله بْن أَبِي ثَوْر عَنْ ابْن عَبَّاس ﵄ قَال: قَالتْ عَائِشَة ﵂: أُنْزِلتْ آيَة التَّخْيِير، فَبَدَأَ بِي أَوَّل امْرَأَة مِنْ نِسَائِهِ، فَقَال ﷺ: «**إِنِّي ذَاكِر لك أَمْرًا، فَلا عَلَيْك أَنْ لا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْك**». قَالتْ: وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ، قَالتْ: ثُمَّ قَال: إِنَّ الله قَال: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ** ﴾ الآيَتَيْنِ. قَالتْ عَائِشَة: فَقُلت: أَفِي هَذَا أَسْتَأْمِر أَبَوَيَّ؟ فَإِنِّي أُرِيد الله وَرَسُوله وَالدَّار

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٨٥)، ومسلم (١٤٧٥).

الآخِرَة. ثُمَّ خَيَّرَ نِسَاءَهُ كُلّهنَّ، فَقُلنَ مِثْل مَا قَالتْ عَائِشَة رَضِيَ الله عَنْهُنَّ. وَأَخْرَجَهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم جَمِيعًا عَنْ قُتَيْبَة عَنْ اللَّيْث عَنْ الزُّهْرِيّ عَنْ عُرْوَة عَنْ عَائِشَة مِثْله.[1]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ مُسْلم بْن صُبَيْح، عَنْ مَسْرُوق، عَنْ عَائِشَة قَالتْ: «خَيَّرَنَا رَسُول الله ﷺ فَاخْتَرْنَاهُ، فَلَمْ يُعِدْهَا عَلَيْنَا شَيْئًا». أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث الأَعْمَش. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر عَبْد المَلك بْن عمرو، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْن إِسْحَاق، عَنْ أَبِي الزُّبَيْر، عَنْ جَابِر قَال: أَقْبَل أَبُو بَكْر رضي الله عنه يَسْتَأْذِن عَلى رَسُول الله ﷺ وَالنَّاس بِبَابِهِ جُلُوس، وَالنَّبِيّ ﷺ جَالس. فَلَمْ يُؤْذَن لهُ. ثُمَّ أَقْبَل عُمَر فَاسْتَأْذَنَ فَلَمْ يُؤْذَن لهُ. ثُمَّ أَذِنَ لأَبِي بَكْر وَعُمَر فَدَخَلا، وَالنَّبِيّ ﷺ جَالس وَحَوْله نِسَاؤُهُ، وَهُوَ سَاكِت، فَقَال عُمَر: لأُكَلِّمَنَّ النَّبِيّ ﷺ لعَلَّهُ يَضْحَك، فَقَال عُمَر: يَا رَسُول الله لوْ رَأَيْت ابْنَة زَيْد -امْرَأَة عُمَر- سَأَلَتْنِي النَّفَقَة آنِفًا، فَوَجَأْت عُنُقهَا، فَضَحِكَ النَّبِيّ ﷺ حَتَّى بدا ناجذه. وَقَال: «**هُنَّ حَوْلي يَسْأَلنَنِي النَّفَقَة**». فَقَامَ أَبُو بَكْر رضي الله عنه إِلى عَائِشَة لِيَضْرِبهَا، وَقَامَ عُمَر رضي الله عنه إِلى حَفْصَة، كِلاهُمَا يَقُولانِ: تَسْأَلانِ النَّبِيّ ﷺ مَا ليْسَ عِنْده! فَنَهَاهُمَا رَسُول الله ﷺ فَقُلنَ نساؤه: وَالله لا نَسْأَل رَسُول الله بَعْد هَذَا المَجْلس مَا ليْسَ عِنْده. قَال: وَأَنْزَل الله عز وجل الخِيَار، فَبَدَأَ بِعَائِشَة فَقَال: «**إِنِّي أَذْكُر لك أَمْرًا مَا أُحِبّ أَنْ تَعْجَلي فِيهِ حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْك**». قَالتْ: وَمَا هُوَ؟ قَال: فَتَلا عَليْهَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ﴾ الآيَة. قَالتْ عَائِشَة رضي الله عنها: أَفِيك أَسْتَأْمِر أَبَوَيَّ، بَل أَخْتَار الله وَرَسُوله، وَأَسْأَلك أَنْ لا تَذْكُر لامْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِك مَا اخْتَرْت. فَقَال: «**إِنَّ الله تَعَالى لمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّفًا، وَلكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا، لا تَسْأَلنِي امْرَأَة مِنْهُنَّ عَمَّا اخْتَرْتِ إِلاَّ أَخْبَرْتهَا**»[2]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلم دُون البُخَارِيّ، فَرَوَاهُ هُوَ وَالنَّسَائِيّ، مِنْ حَدِيث زَكَرِيَّا بْن إِسْحَاق المَكِّيّ بِهِ.

وَقَال عَبْد الله ابْن الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سريج بْن يُونُس، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن هَاشِم بْن البَرِيد، عَنْ مُحَمَّد بْن عُبَيْد الله ابْن عَلِيّ بْن أَبِي رَافِع، عَنْ عُثْمَان بْن عَلِيّ بْن الحُسَيْن، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُول الله ﷺ خَيَّرَ نِسَاءَهُ الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَلمْ يُخَيِّرْهُنَّ الطَّلاق.[3] وَهَذَا مُنْقَطِع، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ الحَسَن وَقَتَادَة وَغَيْرهمَا نَحْو ذَلكَ. وَهُوَ خِلاف الظَّاهِر مِنْ الآيَة فَإِنَّهُ قَال: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أَيْ: أُعْطِيكُنَّ حُقُوقكُنَّ، وَأُطْلق سَرَاحكُنَّ. وَقَدْ اخْتَلفَ العُلَمَاء فِي جَوَاز تزويج غَيْره لهُنَّ لوْ طَلَّقَهُنَّ، عَلى قَوْليْنِ، أَصَحّهمَا: نَعَمْ لوْ وَقَعَ، ليَحْصُل المَقْصُود مِنْ السَّرَاح، وَالله أَعْلم. قَال عِكْرِمَة: وَكَانَ تَحْته يَوْمئِذٍ تِسْع نِسْوَة، خَمْس مِنْ قُرَيْش: عَائِشَة، وَحَفْصَة، وَأُمّ حَبِيبَة، وَسَوْدَة، وَأُمّ سَلمَة، وَكَانَتْ تَحْته ﷺ صَفِيَّة بِنْت حُيَيّ النَّضِيرِيَّة، وَمَيْمُونَة بِنْت الحَارِث الهِلاليَّة، وَزَيْنَب بِنْت جَحْش الأَسَدِيَّة، وَجُوَيْرِيَة بِنْت الحَارِث المُصْطَلقِيَّة، رَضِيَ الله عَنْهُنَّ وَأَرْضَاهُنَّ.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

يَقُول تَعَالى وَاعِظًا نِسَاء النَّبِيّ ﷺ اللاَّتِي اخْتَرْنَ الله وَرَسُوله وَالدَّار الآخِرَة، وَاسْتَقَرَّ أَمْرهنَّ تَحْت رَسُول الله ﷺ فَنَاسَبَ أَنْ [يُخْبِرهُنَّ][4] بِحُكْمِهِنَّ وَتَخْصِيصهنَّ دُون سَائِر النِّسَاء، بِأَنَّ مَنْ يَأْتِ مِنْهُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَة. قَال ابْن

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٥٢٦٢)، ومسلم (١٤٧٧)، وأحمد (٦/ ٤٥، ٤٧).
(٢) صحيح : أخرجه مسلم (١٤٧٨)، وأحمد (٣/ ٣٢٨).
(٣) ضعيف جدًا : أخرجه أحمد (١/ ٧٨)، وفيه محمد بن عبيد الله أبي رافع: منكر الحديث.
(٤) في (ز) : [يخترن].

عبَّاس: وَهِيَ النُّشوز وَسُوء الخُلُق -وَعلى كُلّ تَقْدِير فَهُوَ شَرْط، وَالشَّرْط لا يَقْتَضِي الوُقُوع، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾، ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ فلَمَّا كَانَتْ مَحَلَّتهنَّ رَفِيعَة، نَاسَبَ أَنْ يَجْعَل الذَّنْب لَوْ وَقَعَ مِنْهُنَّ مُغَلَّظًا، صِيَانَة لِجَنَابِهِنَّ وَحِجَابهنَّ الرَّفِيع؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾. قَال مَالك عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾. قَال: فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. وَعَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد مِثْله. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أَيْ: سَهْلًا هَيِّنًا ثُمَّ ذَكَرَ عَدْله وَفَضْله فِي قَوْله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أَيْ: يطيع الله وَرَسُوله وَتَسْتَجِيب ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾، أَيْ: فِي الجَنَّة، فَإِنَّهُنَّ فِي مَنَازِل رَسُول الله ﷺ فِي أَعْلى عِلِّيِّينَ فَوْق مَنَازِل جَمِيع الخَلائِق فِي الوَسِيلة الَّتِي هِيَ أَقْرَب مَنَازِل الجَنَّة إِلى العَرْش.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

هَذِهِ آدَاب أَمَرَ الله بِهَا نِسَاء النَّبِيّ ﷺ، وَنِسَاء الأُمَّة تَبع لَهُنَّ فِي ذَلِكَ، فَقَال مُخَاطِبًا لِنِسَاءِ النَّبِيّ ﷺ بِأَنَّهُنَّ إِذَا اتَّقَيْنَ الله كَمَا أَمَرَهُنَّ، فَإِنَّهُ لا يُشْبِهُهُنَّ أَحَد مِنْ النِّسَاء، وَلا يَلحَقهُنَّ فِي الفَضِيلة وَالمَنْزِلة، ثُمَّ قَال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾. قَال السُّدِّيّ وَغَيْره: يَعْنِي بِذَلِكَ تَرْقِيق الكَلام إِذَا خَاطَبْنَ الرِّجَال، وَلِهَذَا قَال: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾، أَيْ: دَغَل، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾. قَال ابْن زَيْد: قَوْلًا حَسَنًا جَمِيلًا مَعْرُوفًا فِي الخَيْر، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهَا تُخَاطِب الأَجَانِب بِكَلام لَيْسَ فِيهِ تَرْخِيم، أَيْ: لا تُخَاطِب المَرْأَة الأَجَانِب كَمَا تُخَاطِب زَوْجهَا.

وَقَوْله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾، أَيْ: الزَمْنَ بُيُوتكُنَّ فَلا تَخْرُجْنَ لِغَيْرِ حَاجَة. وَمِنْ الحَوَائِج الشَّرْعِيَّة الصَّلاة فِي المَسْجِد بِشَرْطِهِ، كَمَا قَال رَسُول الله ﷺ: **«لا تَمْنَعُوا إِمَاء الله مَسَاجِد الله، وَلْيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلات»**. وَفِي رِوَايَة: **«وَبُيُوتهنَّ خَيْر لَهُنَّ»**(١). وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا حُمَيْد بْن [مَسْعَدَة](٢)، حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاء الكَلْبِيّ: رَوْح بْن المُسَيِّب -ثِقَة- حَدَّثَنَا ثَابِت البُنَانِيّ، عَنْ أَنَس ﷺ قَال: جِئْنَ النِّسَاء إِلى رَسُول الله ﷺ فَقُلْنَ: يَا رَسُول الله؛ ذَهَبَ الرِّجَال بِالفَضْل وَالجِهَاد فِي سَبِيل الله تَعَالى، فَمَا لَنَا عَمَل نُدْرِك بِهِ عَمَل المُجَاهِدِينَ فِي سَبِيل الله؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ قَعَدَ -أَوْ كَلِمَة نَحْوهَا- مِنْكُنَّ فِي بَيْتهَا فَإِنَّهَا تُدْرِك عَمَل المُجَاهِدِ فِي سَبِيل الله»(٣). ثُمَّ قَال: لا نَعْلم رَوَاهُ عَنْ ثَابِت إِلَّا رَوْح بْن المُسَيِّب وَهُوَ رَجُل مِنْ أَهْل البَصْرَة مَشْهُور.

وَقَال البَزَّار أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَاصِم، حَدَّثَنَا هَمَّام، عَنْ قَتَادَة، عَنْ مُورِق، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ عَبْد الله، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«إِنَّ المَرْأَة عَوْرَة، فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَان وَأَقْرَب مَا تَكُون بِرَوْحَةِ رَبِّهَا وَهِيَ فِي قَعْر بَيْتهَا»**(٤). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ بُنْدَار عَنْ عَمْرو بْن عَاصِم بِهِ نَحْوه. وَرَوَى البَزَّار

---

(١) **صحيح**: تقدم.
(٢) في (ز): [مسعود].
(٣) **ضعيف الإسناد**: فيه روح بن المسيب الكلبي. قال الحافظ بن حجر في «لسان الميزان» (٢/ ٤٦٨) قال ابن عدي: أحاديثه غير محفوظة. وقال ابن معين: صويلح الحديث. وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الثقات لا تحل الرواية عنه.
(٤) **صحيح**: أخرجه ابن خزيمة (١٦٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن خزيمة».

بِإِسْنَادِهِ الْمُتَقَدِّم، وَأَبُو دَاوُدَ أَيْضًا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَال: «**صَلاة المَرْأَة فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَل مِنْ صَلاتهَا فِي بَيْتِهَا، وَصَلاتهَا فِي بَيْتهَا أَفْضَل مِنْ صَلاتهَا فِي حُجْرَتها**»[1]. وَهَذَا إِسْنَاد جَيِّد.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، قَال مُجَاهِد: كَانَتْ المَرْأَة تَخْرُج تَمْشِي بَيْن يَدَيْ الرِّجَال، فَذَلكَ تَبَرُّج الجَاهِلِيَّة. وَقَال قَتَادَة: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يَقُول: إِذَا خَرَجْتُنَّ مِنْ بُيُوتكُنَّ -وَكَانَتْ لَهُنَّ مِشْيَة وَتَكَسُّر وَتَغَنُّج- فَنَهَى الله عَنْ ذَلكَ. وَقَال مُقَاتِل بْن حَيَّان: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، وَالتَّبَرُّج: أَنَّهَا تُلقِي الخِمَار عَلى رَأْسهَا، وَلا تَشُدّهُ فَيُوَارِي قَلائِدهَا وَقُرْطهَا وَعُنُقهَا، وَيَبْدُو ذَلكَ كُلّه مِنْهَا، وَذَلكَ التَّبَرُّج، ثُمَّ عَمَّتْ نِسَاء المُؤْمِنِينَ فِي التَّبَرُّج.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي ابْن زُهَيْر، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا دَاوُدُ -يَعْنِي ابْن أَبِي الفُرَات- حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن أَحْمَر، عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: تَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قَال: كَانَتْ فِيمَا بَيْن نُوح وَإِدْرِيس وَكَانَتْ أَلْف سَنَة، وَإِنَّ بَطْنَيْنِ مِنْ وَلد آدَم كَانَ أَحَد يَسْكُن السَّهْل، وَالآخَر يَسْكُن الجَبَل، وَكَانَ رِجَال الجَبَل صِبَاحًا وَفِي النِّسَاء دَمَامَة، وَكَانَ نِسَاء السَّهْل صِبَاحًا وَفِي الرِّجَال دَمَامَة، وَإِنَّ إِبْلِيس أَتَى رَجُلًا مِنْ أَهْل السَّهْل فِي صُورَة غُلام، فَآجَرَ نَفْسه مِنْهُ، فَكَانَ يَخْدِمه فَاتَّخَذَ إِبْلِيس شَيْئًا مِثْل الَّذِي يُزَمِّر فِيهِ الرِّعَاء، فَجَاءَ فِيهِ بِصَوْتٍ لمْ يَسْمَع النَّاس مِثْله، فَبَلَغَ ذَلكَ مَنْ حَوْله، فَانْتَابُوهُمْ يَسْمَعُونَ إِلَيْهِ، وَاتَّخَذُوا عِيدًا يَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ فِي السَّنَة، فَيَتَبَرَّج النِّسَاء للرِّجَال، قَال: وَيَتَزَيَّن الرِّجَال لهُنَّ، وَإِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْل الجَبَل هَجَمَ عَلَيْهِمْ فِي عِيدهمْ ذَلكَ، فَرَأَى النِّسَاء وَصَبَاحَتهنَّ، فَأَتَى أَصْحَابه فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلكَ، فَتَحَوَّلُوا إِلَيْهِنَّ. فَنَزَلُوا مَعَهُنَّ وَظَهَرَتْ الفَاحِشَة فِيهِنَّ، فَهُوَ قَوْله تَعَالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.[2]

وَقَوْله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ نَهَاهُنَّ أَوَّلًا عَنْ الشَّرّ ثُمَّ أَمَرَهُنَّ بِالخَيْر، مِنْ إِقَامَة الصَّلاة -وَهِيَ: عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لهُ- وَإِيتَاء الزَّكَاة، وَهِيَ: الإِحْسَان إِلى المَخْلُوقِينَ، ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وَهَذَا مِنْ بَاب عَطْف العَامّ عَلى الخَاصّ. وَقَوْله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وَهَذَا نَصّ فِي دُخُول أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ فِي أَهْل البَيْت هَهُنَا. لأَنَّهُنَّ سَبَب نُزُول هَذِهِ الآيَة، وَسَبَب النُّزُول دَاخِل فِيهِ قَوْلًا وَاحِدًا إِمَّا وَحْده عَلى قَوْل أَوْ مَعَ غَيْره عَلى الصَّحِيح. وَرَوَى ابْن جَرِير، عَنْ عِكْرِمَة أَنَّهُ كَانَ يُنَادِي فِي السُّوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، نَزَلتْ فِي نِسَاء النَّبِيّ ﷺ خَاصَّة، وَهَكَذَا رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم قَال: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن حَرْب المَوْصِلِيّ، حَدَّثَنَا زَيْد بْن الحُبَاب، حَدَّثَنَا حُسَيْن بْن وَاقِد، عَنْ يَزِيد النَّحْوِيّ، عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، قَال: نَزَلتْ فِي نِسَاء النَّبِيّ ﷺ خَاصَّة.[3] وَقَال عِكْرِمَة: مَنْ شَاءَ بَاهَلته أَنَّهَا نَزَلتْ فِي أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ. فَإِنْ كَانَ المُرَاد أَنَّهُنَّ كُنَّ سَبَب النُّزُول دُون غَيْرهنَّ فَصَحِيح، وَإِنْ أُرِيد أَنَّهُنَّ المُرَاد فَقَطْ دُون غَيْرهنَّ، فَفِي هَذَا نَظَر؛ فَإِنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيث تَدُلّ عَلى أَنَّ المُرَاد أَعَمّ مِنْ ذَلكَ:

الحَدِيث الأَوَّل: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا حَمَّاد، أَخْبَرَنَا عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ أَنَس بْن مَالك رضي الله عنه قَال: إِنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يَمُرّ بِبَاب فَاطِمَة رضي الله عنها سِتَّة أَشْهُر إِذَا خَرَجَ إِلى صَلاة الفَجْر، يَقُول: الصَّلاة يَا

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) أخرجه الطبري (٢٢/ ٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٥١).
(٣) إسناده حسن: رجاله ثقات عدا زيد بن الحباب: صدوق.

أَهْل البَيْت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.[١] وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ عَبْد ابْن حُمَيْد عَنْ عَفَّان بِهِ، وَقَال: حَسَن غَرِيب.

حَدِيث آخَر: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن وَكِيع، حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا يُونُس عَنْ أَبِي إِسْحَاق، أَخْبَرَنِي أَبُو دَاوُدَ، عَنْ أَبِي الحَمْرَاء قَال: رَابَطْت المَدِينَة سَبْعَة أَشْهُر عَلى عَهْد رَسُول الله ﷺ، قَال: رَأَيت رَسُول الله ﷺ إِذَا طَلَعَ الفَجْر، جَاءَ إِلى بَاب عَلِيّ وَفَاطِمَة فَقَال: «الصَّلاة الصَّلاة، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»[٢]. أَبُو دَاوُدَ الأَعْمَى هُوَ نُفَيْع بْن الحَارِث كَذَّاب.

حَدِيث آخَر: وَقَال الإِمَام أحمد أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مُصْعَب، حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيّ، حَدَّثَنَا شَدَّاد أبو عَمَّار قَال: دَخَلت عَلى وَاثِلة بْن الأَسْقَع وَعِنْده قَوْم، فَذَكَرُوا عَلِيًّا ﷺ، فَلَمَّا قَامُوا قَال لِي: أَلا أُخْبِرك بِمَا رَأَيْت مِنْ رَسُول الله ﷺ؟ قُلت: بَلى. قَال: أَتَيْت فَاطِمَة أَسْأَلهَا عَنْ عَلِيّ فَقَالتْ: تَوَجَّهَ إِلى رَسُول الله ﷺ، فَجَلسْت أَنْتَظِرُهُ حَتَّى جَاءَ رَسُول الله ﷺ وَمَعَهُ عَلِيّ وَحَسَن وَحُسَيْن، آخِذ كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا بِيَدِهِ حَتَّى دَخَل، فَأَدْنَى عَلِيًّا وَفَاطِمَة وَأَجْلسَهُمَا بَيْن يَدَيْهِ، وَأَجْلسَ حَسَنًا وَحُسَيْنًا كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا عَلى فَخِذه، ثُمَّ لفَّ عَلَيْهِمْ ثَوْبه -أَوْ قَال: كِسَاءَهُ- ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وَقَال: **«اللَّهُمَّ؛ هَؤُلاءِ أَهْل بَيْتِي، وَأَهْل بَيْتِي أَحَقّ»**.[٣]

وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير عَنْ عَبْد الكَرِيم بْن أَبِي عُمَيْر، عَنْ الوَلِيد بْن مُسْلم، عَنْ أَبِي عَمْرو الأَوْزَاعِيّ بِسَنَدِهِ نَحْوه، زَادَ فِي آخِره: قَال وَاثِلة: فَقُلْت: وَأَنَا، يَا رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْك مِنْ أَهْلك؟ قَال ﷺ: **«وَأَنْتَ مِنْ أَهْلِي»**. قَال وَاثِلة: وَإِنَّهَا مِنْ أَرْجَى مَا أَرْتَجِي. ثُمَّ رَوَاهُ أَيْضًا عَنْ عَبْد الأَعْلى بْن وَاصِل، عَنْ الفَضْل بْن دُكَيْن، عَنْ عَبْد السَّلام بْن حَرْب، عَنْ كُلْثُوم المُحَارِبِيّ، عَنْ شَدَّاد أَبِي عَمَّار قَال: إِنِّي لجَالس عِنْد وَاثِلة بْن الأَسْقَع، إِذْ ذَكَرُوا عَلِيًّا فَشَتَمُوهُ، فَلَمَّا قَامُوا قَال: اجْلسْ حَتَّى أُخْبِرك عَنْ الَّذِي شَتَمُوهُ: إِنِّي عِنْد رَسُول الله ﷺ إِذْ جَاءَ عَلِيّ وَفَاطِمَة وَحَسَن وَحُسَيْن فَأَلْقَى ﷺ عَليْهِمْ كِسَاء لهُ ثُمَّ قَال: **«اللَّهُمَّ؛ هَؤُلاءِ أَهْل بَيْتِي، اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْس وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا»**. قُلت: يَا رَسُول الله؛ وَأَنَا؟ قَال ﷺ: **«وَأَنْتَ»**. قَال: فَوَالله إِنَّهَا لأَوْثَق عملي عِنْدِي.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن نُمَيْر، حَدَّثَنَا عَبْد المَلك بْن أَبِي سُليْمَان، عَنْ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح، حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ أُمّ سَلمَة تَذْكُر أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كَانَ فِي بَيْتهَا، فَأَتَتْهُ فَاطِمَة ﷺ بِبُرْمَة فِيهَا خَزِيرَة، فَدَخَلتْ عَليْهِ بِهَا فَقَال لهَا ﷺ: **«ادْعِي زَوْجك وَابْنَيْك»**. قَالتْ: فَجَاءَ عَلِيّ وَحَسَن وَحُسَيْن فَدَخَلُوا عَليْهِ، فَجَلسُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تِلكَ الخَزِيرَة، وَهُوَ عَلى مَنَامَة لهُ على دكان تَحْته كِسَاء خَيْبَرِيّ، قَالتْ: وَأَنَا فِي الحُجْرَة أُصَلِّي، فَأَنْزَل الله ﷻ هَذِهِ الآيَة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، قَالتْ: فَأَخَذَ فَضْل الكِسَاء فَغَطَّاهُمْ بِهِ، ثُمَّ أَخْرَج يَده فَأَلْوَى بِهَا إِلى السَّمَاء، ثُمَّ قَال: **«اللَّهُمَّ؛ هَؤُلاءِ أَهْل بَيْتِي وحامَّتي فَأَذْهِبْ عَنهُمْ الرِّجْس وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا»**. قَالتْ: فَأَدْخَلت رَأْسِي البَيْت، فَقُلت: وَأَنَا مَعَكُمْ يَا رَسُول الله؟ فَقَال: **«إِنَّك إلى خَيْر، إِنَّك إلى خَيْر»**[٤]. فِي إِسْنَاده مَنْ لمْ يُسَمَّ وَهُوَ شَيْخ عَطَاء، وَبَقِيَّة رِجَاله ثِقَات.

طَرِيق أُخْرَى: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا عَوْف، عَنْ أَبِي المُعَدَّل عَطِيَّة الطَّفَاوِيّ، عَنْ

---

(١) **ضعيف** : أخرجه الترمذي (٣٢٠٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

(٢) **موضوع** : أخرجه الطبري (٢٢/ ٦)، وفيه أبو داود نفيع بن الحارث: كذاب.

(٣) **صحيح** : أخرجه أحمد (٤/ ١٠٧)، ويشهد له ما رواه الطبري (٢٢/ ٦، ٧).

(٤) **صحيح لغيره** : أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٢)، وبمجموع الطرق التي تليه فالحديث صحيح.

أَبِيهِ قَال: أن أُمّ سَلمَة حَدَّثَتْهُ قَالت: بَيْنَما رَسُول الله ﷺ فِي بَيْتِي يَوْمًا، إِذْ قَالتْ الخَادِم: إِنَّ فَاطِمَة وَعَليًّا بِالسُّدَّةِ قَالتْ: فَقَال لِي: قُومِي فَتَنَحَّي عَنْ أَهْل بَيْتِي. قَالتْ: فَقُمْت فَتَنَحَّيْت فِي البَيْت قَرِيبًا، فَدَخل عَليّ وَفَاطِمَة، وَمَعَهُمَا الحَسَن وَالحُسَيْن، وَهُمَا صَبِيَّانِ صَغِيرَانِ، فَأَخَذَ الصَّبِيَّيْنِ فَوَضَعَهَا فِي حِجْره فَقَبَّلهُما، وَاعْتَنَق عَليًّا بِإِحْدَى يَدَيْهِ وَفَاطِمَة بِاليَدِ الأُخْرَى، وَقَبَّل فَاطِمَة وَقَبَّل عَليًّا، وَأَغْدَف عَلَيْهِمْ خَمِيصَة سَوْدَاء وَقَال: «**اللَّهُمَّ؛ إِليْك لا إِلى النَّار أَنَا وَأَهْل بَيْتِي**». قَالتْ: قلت: وَأَنَا يَا رَسُول الله صلى الله عليك! قَال: «**وَأَنْتِ**».[1]

طَرِيق أُخْرَى: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن عَطِيَّة، حَدَّثَنَا فُضَيْل بْن مَرْزُوق، عَنْ عَطِيَّة، عَنْ أَبِي سَعِيد، عَنْ أُمّ سَلمَة أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلتْ فِي بَيْتِها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، قَالتْ: وَأَنَا جَالسَة عَلى بَاب البَيْت فَقُلت: يَا رَسُول الله؛ أَلسْت مِنْ أَهْل البَيْت؟ فَقَال: «**إِنَّك إِلى خَيْر، أَنْتِ مِنْ أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ**». قَالتْ: وَفِي البَيْت رَسُول الله ﷺ وَعَليّ، وَفَاطِمَة، وَالحَسَن، وَالحُسَيْن رضي الله عنهم.

طَرِيق أُخْرَى: رَوَاهَا ابْن جَرِير أَيْضًا، عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ وَكِيع، عَنْ عَبْد الحَمِيد بْن بَهْرَامَ، عَنْ شَهْر بْن حَوْشَب عَنْ أُمّ سَلمَة بِنَحْوِهِ.

طَرِيق أُخْرَى: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا خَالد بْن مَخْلد، حَدَّثَنِي مُوسَى بْن يَعْقُوب، حَدَّثَنِي هَاشِم بْن هَاشِم بْن عُتْبَة بْن أَبِي وَقَّاص، عَنْ عَبْد الله بْن وَهْب بْن زَمْعَة قَال: أَخْبَرَتْنِي أُمّ سَلمَة رضي الله عنها أَنَّ رَسُول الله ﷺ جَمَعَ عليًا وفَاطِمَة وَالحَسَن وَالحُسَيْن، ثُمَّ أَدْخَلهُمْ تَحْت ثَوْبه، ثُمَّ جَأَرَ إِلى الله عز وجل، ثُمَّ قَال: «**هَؤُلاءِ أَهْل بَيْتِي**». قَالتْ أُمّ سَلمَة: فَقُلت: يَا رَسُول الله؛ أَدْخِلنِي مَعَهُمْ. فَقَال: «**أَنْتِ مِنْ أَهْلِي**».

طَرِيق أُخْرَى: رَوَاهَا ابْن جَرِير أَيْضًا عَنْ أَحْمَد بْن مُحَمَّد الطُّوسِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن صَالح، عَنْ مُحَمَّد بْن سُليْمان الأَصْبَهَانِيّ، عَنْ يَحْيَى بْن عُبَيْد المَكِّيّ، عَنْ عطَاء، عَنْ عُمَر بْن أَبِي سَلمَة، عَنْ أُمّه بِنَحْوِ ذَلكَ.

طَرِيق أُخْرَى: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا مُصْعَب بْن المِقْدَام، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن زربي، عَنْ مُحَمَّد بْن سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ أُمّ سَلمَة رضي الله عنها قَالتْ: جَاءَتْ فَاطِمَة رضي الله عنها إِلى رَسُول الله ﷺ بِبُرْمَةٍ لهَا، قَدْ صَنَعَتْ فِيهَا عَصِيدَة تَحْمِلهَا عَلى طَبَق، فَوَضَعَتْهَا بَيْن يَدَيْهِ فَقَال: «**أَيْنَ ابْن عمك وَابْنَاك؟**». فَقَالتْ: فِي البَيْت. فَقَال: «**ادْعِيهِمْ**». فَجَاءَتْ إِلى عَليّ فَقَالتْ: أَجِبْ رَسُول الله أَنْتَ وَابْنَاك. قَالتْ أُمّ سَلمَة: فَلمَّا رَآهُمْ مُقْبِلينَ مَدّ يَده إِلى كِسَاء كَانَ عَلى المَنَامَة، فَمَدّه وَبَسَطَهُ، وَأَجْلسَهُمْ عَليْهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِأَطْرَافِ الكِسَاء الأَرْبَعَة بِشِمَالهِ، فَضَمَّهُ فَوْق رُءُوسهِمْ، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ اليُمْنَى إِلى رَبّه عز وجل فَقَال: «**اللَّهُمَّ؛ هَؤُلاءِ أَهْل البيت، فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْس وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا**».

طَرِيق أُخْرَى: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عَبْد القُدُّوس، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ حَكِيم ابْن سَعْد قَال: ذَكَرْنَا عَليّ بْن أَبِي طَالب عِنْد أُمّ سَلمَة، فَقَالتْ: فِي بَيْتِي نَزَلتْ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. قَالتْ أُمّ سَلمَة: جَاءَ رَسُول الله ﷺ إِلى بَيْتِي فَقَال: «**لا تَأْذَنِي لأَحَدٍ**». فَجَاءَتْ فَاطِمَة فَلمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْجُبهَا عَنْ أَبِيهَا. ثُمَّ جَاءَ الحَسَن فَلمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أحجبه عن أمه وجده. ثم جَاءَ الحُسَيْن فَلمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْجُبهُ، ثُمَّ جَاءَ عَليّ فَلمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْجُبهُ. فَاجْتَمَعُوا فَجَلَّلهُمْ رَسُول الله ﷺ بِكِسَاءٍ كَانَ عَليْهِ، ثُمَّ قَال: «**هَؤُلاءِ أَهْل بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْس وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا**». فَنَزَلتْ هَذِهِ الآيَة حِين اجْتَمَعُوا عَلى البِسَاط، قَالتْ: فَقُلت: يَا رَسُول الله، وَأَنَا؟ قَالتْ: فَوَالله مَا أَنْعَمَ. وَقَال: «**إِنَّك إِلى خَيْر**».

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٨١، ٢٤٢٤)، والطبري (٢٢/ ٦).

حديث آخر: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن وَكِيع، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بِشْر، عَنْ زَكَرِيَّا، عَنْ مُصْعَب بْن شَيْبَة، عَنْ صَفِيَّة بِنْت شَيْبَة قَالَتْ: قَالَتْ عَائِشَة رضي الله عنها: خَرَجَ رسول الله ﷺ ذَات غَدَاة، وَعَلَيْهِ مِرْط مُرَحَّل مِنْ شَعْر أَسْوَد، فَجَاءَ الحَسَن فَأَدْخَلهُ مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَ الحُسَيْن فَأَدْخَلهُ مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَة فَأَدْخَلهَا مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَ عَلِيّ فَأَدْخَلهُ مَعَهُ، ثُمَّ قَال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]. وَرَوَاهُ مُسْلم عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة عَنْ مُحَمَّد بْن بِشْر بِهِ.

طَرِيق أُخْرَى: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا سريج بْن يُونُس أَبُو الحَارِث، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَزِيد، عَنْ العَوَّام -يَعْنِي ابْن حَوْشَب- عَنْ عَمّ لهُ قَال: دَخَلت مَعَ أَبِي عَلى عَائِشَة، فَسَأَلتهَا عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه فَقَالتْ رضي الله عنها: تَسْأَلنِي عَنْ رَجُل كَانَ مِنْ أَحَبّ النَّاس إِلى رَسُول الله ﷺ، وَكَانَتْ تَحْته ابْنَته وَأَحَبّ النَّاس إِليْهِ؟ لقَدْ رَأَيْت رَسُول الله ﷺ دَعَا عَليًّا وَفَاطِمَة وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا. فَأَلقَى عَليْهِمْ ثَوْبًا فَقَال: **«اللَّهُمَّ؛ هَؤُلاءِ أَهْل بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْس وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا»**. قَالتْ: فَدَنَوْت مِنْهُمْ فَقُلت: يَا رَسُول الله؛ وَأَنَا مِنْ أَهْل بَيْتك؟ فَقَال: **«تَنَحَّي فَإِنَّك عَلى خَيْر»**.

حَدِيث آخَر: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا بَكْر بْن يَحْيَى بْن زبان [العَنَزِيّ][2]، حَدَّثَنَا مَنْدَل، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ عَطِيَّة، عَنْ أَبِي سَعِيد، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة فِي خَمْسَة: فِيَّ، وَفِي عَلِيّ، وَحَسَن، وَحُسَيْن، وَفَاطِمَة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»[3] وقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ فُضَيْل بْن مَرْزُوق رَوَاهُ عَنْ عَطِيَّة عَنْ أَبِي سَعِيد عَنْ أُمّ سَلمَة كَمَا تَقَدَّمَ. وَرَوَى ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث هَارُون بْن سَعْد العِجْلِيّ عَنْ عَطِيَّة، عَنْ أَبِي سَعِيد مَوْقُوفًا، فالله أَعْلم.

حَدِيث آخَر: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر الحَنَفِيّ، حَدَّثَنَا بُكَيْر بْن مِسْمَار قَال: سَمِعْت عَامِر بْن [سَعْد][4] قَال: قَال سَعْد: قَال رَسُول الله ﷺ حِين نَزَل عَليْهِ الوَحْي، فَأَخَذَ عَليًّا وَابْنَيْهِ وَفَاطِمَة فَأَدْخَلهُمْ تَحْت ثَوْبه، ثُمَّ قَال: **«رَبّ هَؤُلاءِ أَهْلي وَأَهْل بَيْتِي»**.

حَدِيث آخَر: وَقَال مُسْلم فِي «صَحِيحه»: حَدَّثَنِي زُهَيْر بْن حَرْب، وَشُجَاع بْن مَخْلد جَمِيعًا عَنْ ابْن عُليَّة -قَال زُهَيْر: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم-، حَدَّثَنِي أَبُو حَيَّان، حَدَّثَنِي يَزِيد بْن حيان قَال: انْطَلقْت أَنَا وَحُصَيْن بْن سبرة وَعُمَر بْن مُسْلم إِلى زَيْد بْن أَرْقَم، فَلمَّا جَلسْنَا إِليْهِ قَال لهُ حُصَيْن: لقَدْ لقِيت يَا زَيْد خَيْرًا كَثِيرًا؛ رَأَيْت رَسُول الله ﷺ وَسَمِعْت حَدِيثه، وَغَزَوْت مَعَهُ، وَصَلَّيْت خَلفه، لقَدْ لقِيت يَا زَيْد خَيْرًا كَثِيرًا حَدِّثْنَا يَا زَيْد مَا سَمِعْت مِنْ رَسُول الله ﷺ. قَال: يَا بْن أَخِي؛ وَالله لقَدْ كَبِرَتْ سِنِّي، وَقَدُمَ عَهْدِي، وَنَسِيت بَعْض الَّذِي كُنْت أَعِي مِنْ رَسُول الله ﷺ، فَمَا حَدَّثْتُكُمْ فَاقْبَلُوا، وَمَا لا فَلا تُكَلِّفُونيه. ثُمَّ قَال: قَامَ فِينَا رَسُول الله ﷺ يَوْمًا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا -بَيْن مَكَّة وَالمَدِينَة- فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَليْهِ، وَوَعَظَ وَذَكَّرَ، ثُمَّ قَال: **«أَمَّا بَعْد، أَلا أَيُّهَا النَّاس؛ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَر يُوشِك أَنْ يَأْتِي رَسُول رَبِّي فَأُجِيب، وَأَنَا تَارِك فِيكُمْ ثَقَليْن، وَأَوَّلهمَا كِتَاب الله فِيهِ الهُدَى وَالنُّور، فَخُذُوا بِكِتَابِ الله وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ»**. فَحَثّ عَلى كِتَاب الله وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَال: **«وَأَهْل بَيْتِي، أُذَكِّركُمْ الله فِي أَهْل بَيْتِي، أُذَكِّركُمْ الله فِي أَهْل بَيْتِي»**. ثَلاثًا، فَقَال لهُ حُصَيْن: وَمَنْ أَهْل بَيْته يَا زَيْد؟ أَليْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْل

---

(١) صحيح: انظر الحديث السابق.
(٢) في (ز): [العربي].
(٣) ضعيف: أخرجه الطبري (٢٢/ ٨)، وفيه عطية العوفي: مدلس كثير الخطأ.
(٤) في (ز): [سعيد].

بَيْته قَال: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْته، وَلكِنَّ أَهْل بَيْته مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَة بَعْده. قَال: وَمَنْ هُمْ؟ قَال: هُمْ آلُ عَلِيّ، وَآلُ عَقِيل، وَآلُ جَعْفَر، وَآلُ عبَّاس. قَال: كُلّ هَؤُلاءِ حُرِمَ الصَّدَقَة؟ قَال: نَعَمْ.[١] ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ مُحَمَّد بْن بكار بن الرَّيَّان، عَنْ حَسَّان بْن إِبْرَاهِيم، عَنْ سَعِيد بْن مَسْرُوق، عَنْ يَزِيد بْن حَيَّان، عَنْ زَيْد بْن أَرْقَم، فَذَكَرَ الحَدِيث بِنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ، وَفِيهِ: فَقُلنا لهُ: مَنْ أَهْل بَيْته نِسَاؤُهُ؟ قَال: لا وَايْم الله، إِنَّ المَرْأَة تَكُون مَعَ الرَّجُل العَصْر مِنَ الدَّهْر ثُمَّ يُطَلِّقهَا فَتَرْجِع إلى أَبِيهَا وَقَومِهَا، أَهْل بَيْته أَصْله وَعَصَبَته الَّذِينَ حُرِمُوا الصَّدَقَة بَعْده.

هَكَذَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَة، وَالأُولى أَوْلى، وَالأَخْذ بِهَا أَحْرَى. وَهَذِهِ الثَّانِيَة تَحْتَمِل أَنَّهُ أَرَادَ تَفْسِير الأَهْل المَذْكُورِينَ فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ، إِنَّمَا المُرَاد بِهِمْ آله الَّذِينَ حُرِمُوا الصَّدَقَة، أَوْ أَنَّهُ لَيسَ المُرَاد بِالأَهْل الأَزْوَاج فَقَطْ، بَل هُمْ مَعَ آله، وَهَذَا الاحْتِمَال أَرْجَح، جَمْعًا بَيْنهَا وَبَيْن الرِّوَايَة الَّتِي قَبْلهَا، وَجَمْعًا أَيْضًا بَيْن القُرْآن وَالأَحَادِيث المُتَقَدِّمَة إِنْ صَحَّتْ، فَإِنَّ فِي بَعْض أَسَانِيدهَا نَظَرًا، وَالله أَعْلم. ثُمَّ الَّذِي لا يَشُكّ فِيهِ مَنْ تَدَبَّرَ القُرْآن أَنَّ نِسَاء النَّبِيّ ﷺ دَاخِلات فِي قَوْله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فَإِنَّ سِيَاق الكَلام مَعَهُنَّ؛ وَلهَذَا قَال بَعْد هَذَا كُلّه: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾، أَيْ: وَاعْمَلنَ بِمَا نَزَّل الله عَلى رَسُوله ﷺ فِي بُيُوتكُنَّ مِنْ الكِتَاب وَالسُّنَّة، قَالهُ قَتَادَة وَغَيْر وَاحِد. وَاذْكُرْنَ هَذِهِ النِّعْمَة الَّتِي خُصِّصْتُنَّ بِهَا مِنْ بَيْن النَّاس، إِنَّ الوَحْي يَنْزِل فِي بُيُوتكُنَّ دُون سَائِر النَّاس، وَعَائِشَة بِنْت الصِّدِّيق أَوْلاهُنَّ بِهَذِهِ النِّعْمَة، وَأَحْظَاهُنَّ بِهَذِهِ الغَنِيمَة، وَأَخَصّهنَّ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَة العَمِيمَة، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْزِل عَلى رَسُول الله ﷺ الوَحْي فِي فِرَاش امْرَأَة سِوَاهَا، كَمَا نَصَّ عَلى ذَلكَ ﷺ. قَال بَعْض العُلمَاء رَحِمَهُ اللهُ: لأَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّج بِكْرًا سِوَاهَا، وَلَمْ يَنَمْ مَعَهَا رَجُل فِي فِرَاشهَا سِوَاهُ، فَنَاسَبَ أَنْ تُخَصَّص بِهَذِهِ المَزِيَّة، وَأَنْ تَفَرَّد بِهَذِهِ الرتبة العَليَّة، وَلكِنْ إِذَا كَانَ أَزْوَاجه مِنْ أَهْل بَيْته، فَقَرَابَته أَحَقّ بِهَذِهِ التَّسْمِيَة، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الحَدِيث: «وَأَهْل بَيْتِي أَحَقّ». وَهَذَا يُشْبِه مَا ثَبَتَ فِي «صَحِيح مُسْلم»: أَنَّ رَسُول الله ﷺ لَمَّا سُئِل عَنْ المَسْجِد الَّذِي أُسِّسَ عَلى التَّقْوَى مِنْ أَوَّل يَوْم، فَقَال: «هُوَ مَسْجِدِي هَذَا».[٢] فَهَذَا مِنْ هَذَا القَبِيل؛ فَإِنَّ الآيَة إِنَّمَا نَزَلتْ فِي مَسْجِد قُبَاء، كَمَا وَرَدَ فِي الأَحَادِيث الأُخَر. وَلكِنْ إِذَا كَانَ ذَاكَ أُسِّسَ عَلى التَّقْوَى مِنْ أَوَّل يَوْم، فَمَسْجِد رَسُول الله ﷺ أَوْلى بِتَسْمِيَتِهِ بِذَلكَ، وَالله أَعْلم.

وَقَدْ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيد، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَة، عَنْ حُصَيْن بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ أَبِي جَمِيلة قَال: إِنَّ الحَسَن بْن عَلِيّ اسْتُخْلفَ حِين قُتِل عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَال: فَبَيْنَمَا هُوَ يُصَلِّي إِذْ وَثَبَ عَليْهِ رَجُل فَطَعَنَهُ بِخَنْجَرِهِ، وزعم حُصَيْن أَنَّهُ بَلغَهُ أَنَّ الَّذِي طَعَنَهُ رَجُل مِنْ بَنِي أَسَد، وَحَسَن سَاجِد، قَال: فَيَزْعُمُونَ أَنَّ الطَّعْنَة وَقَعَتْ فِي وَرِكه، فَمَرِضَ مِنْهَا أَشْهُرًا ثُمَّ بَرَأَ فَقَعَدَ عَلى المِنْبَر، فَقَال: يَا أَهْل العِرَاق اتَّقُوا الله فِينَا، فَإِنَّا أُمَرَاؤُكُمْ وَضِيفَانكُمْ وَنَحْنُ أَهْل البَيْت الَّذِي قَال الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، قَال: فَمَا زَال يَقُولهَا حَتَّى مَا بَقِيَ أَحَد مِنْ أَهْل المَسْجِد إِلَّا وَهُوَ يَحِنّ بُكَاء.

وَقَال السُّدِّيّ، عَنْ أَبِي الدَّيْلم قَال: قَال عَلِيّ بْن الحُسَيْن لرَجُل مِنْ أَهْل الشَّام: أَمَا قَرَأْت فِي الأَحْزَاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، قَال: نَعَمْ، وَلأَنْتُمْ هُمْ؟ قَال: نَعَمْ.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، أَيْ: بِلُطْفِهِ بِكُنَّ بَلغْتُنَّ هَذِهِ المَنْزِلة، وَبِخِبْرَتِهِ بِكُنَّ وَأَنَّكُنَّ أَهْل لذَلكَ أَعْطَاكُنَّ ذَلكَ وَخَصَّكُنَّ بِذَلكَ. قَال ابْن جَرِير، رَحِمَهُ اللهُ: وَاذْكُرْنَ نِعْمَة الله عَليْكُنَّ بِأَنْ جَعَلكُنَّ فِي بُيُوت تُتْلى فِيهَا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٠٨).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٧٧).

آيَات الله وَالحِكْمَة، فَاشْكُرْنَ الله عَلى ذَلكَ وَاحْمَدْنَهُ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، أَيْ: ذَا لُطْف بِكُنَّ، إِذْ جَعلكُنَّ فِي البُيُوت الَّتِي تُتلى فِيهَا آيَاته وَالحِكْمَة، وَهِيَ السُّنَّة، خَبِيرًا بِكُنَّ إِذْ اخْتَارَكُنَّ لِرَسُولِهِ أَزْوَاجًا. وَقَال قَتَادَة: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾، قَال: «يَمْتَنّ عَلَيْهِنَّ بِذلكَ». رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَقَال عَطِيَّة العَوْفِيّ فِي قَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، يَعْنِي: لطيف بِاسْتِخْرَاجِهَا، خَبِير بِمَوْضِعِهَا. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، ثُمَّ قَال: وَكَذَا رُوِيَ عن الرَّبِيع بْن أَنَس، وقَتَادَة.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا عَبْد الوَاحِد بْن زِيَاد، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن حَكِيم، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن شَيْبَة، سَمِعْت أُمّ سَلمَة زَوْج النَّبِيّ ﷺ تَقُول: قُلت للنَّبِيِّ ﷺ: مَا لنَا لا نُذْكَر فِي القُرْآن كَمَا يُذْكَر الرِّجَال؟ قَالتْ: فَلَمْ يَرُعْنِي مِنْهُ ذَات يَوْم إِلَّا وَنِدَاؤُهُ عَلى المِنْبَر، قَالتْ: وَأَنَا أُسَرِّح شَعْرِي، فَلَفَفْت شَعْرِي، ثُمَّ خَرَجْت إِلى حُجْرَة مِنْ حُجَر بَيْتِي، فَجَعَلت سَمْعِي عِنْد الجَرِيد، فَإِذَا هُوَ يَقُول عِنْد المِنْبَر: «**يَا أَيُّهَا النَّاس، إِنَّ الله يَقُول:** ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾»[1] إِلى آخِر الآيَة. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيّ وَابْن جَرِير مِنْ حَدِيث عَبْد الوَاحِد بْن زِيَاد، بِهِ مِثْله.

طَرِيق أُخْرَى عَنْهَا: قَال النَّسَائِيّ أَيْضًا: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن حَاتِم، حَدَّثَنَا سويد، أَخْبَرَنَا عَبْد الله عن شَرِيك، عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ أُمّ سلمَة رضي الله عنها أَنَّهَا قَالتْ للنَّبِيِّ ﷺ: يَا نَبِيّ الله؛ مَا لي أَسْمَع الرِّجَال يُذْكَرُونَ فِي القُرْآن، وَالنِّسَاء لا يُذْكَرنَ؟ فَأَنْزَل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾. وَقَدْ رَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ أَبِي مُعَاوِيَة، عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي سَلَمَة: أَنَّ يَحْيَى بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن حَاطِب، حَدَّثَهُ عَنْ أُمّ سَلمَة رضي الله عنها قَالتْ: قُلت: يَا رَسُول الله؛ أَيُذْكَرُ الرِّجَال فِي كُلّ شَيْء وَلا نُذْكَر؟ فَأَنْزَل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ﴾ الآيَة.

طَرِيق أُخْرَى: قَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد قَال: قَالتْ أُمّ سَلمَة: يَا رَسُول الله؛ يُذْكَر الرِّجَال وَلا نُذْكَر؟ فَأَنْزَل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ﴾ الآيَة.

حَدِيث آخَر: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، قَال: حَدَّثَنَا سِنَان بْن مُظَاهِر العنزي، حَدَّثَنَا أَبُو كُدَيْنَة يَحْيَى بْن المُهَلَّب، عَنْ قَابُوس بْن أَبِي ظَبْيَان، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: قَال النِّسَاء للنَّبِيِّ ﷺ: مَا لهُ يَذْكُر المُؤْمِنِينَ وَلا يَذْكُر المُؤْمِنَات؟ فَأَنْزَل الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ﴾ الآيَة. وَحَدَّثَنَا بِشْر، حَدَّثَنَا يزِيد، حَدَّثَنَا سَعِيد عَنْ قَتَادَة، قَال: دَخَل نِسَاء عَلى نِسَاء النَّبِيّ ﷺ، فَقُلنَ: قَدْ ذَكَرَكُنَّ الله فِي القُرْآن، وَلمْ نُذْكَر بِشَيْءٍ، أَمَا فِينَا مَا يُذْكَر؟ فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ﴾ الآيَة. فَقَوْله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾، دَليل عَلى أَنَّ الإِيمَان غَيْر الإِسْلام، وَهُوَ أَخَصّ مِنْهُ، لقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «**لا يَزْنِي الزَّانِي حِين يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِن**» فَسَلبَهُ الإِيمَان، وَلا يَلزَم مِنْ ذَلكَ كُفْره بِإِجْمَاعِ المُسْلِمِينَ، فَدَلَّ عَلى أَنَّهُ أَخَصّ مِنْهُ كَمَا قَرَّرْنَاهُ فِي أَوَّل شَرْح البُخَارِيّ.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٣٠١)، وصححه الحاكم، وأقره الذهبي (٢/ ٤١٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٢١١).

﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ القُنُوت: هُوَ الطَّاعَة فِي سُكُون، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾، ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾. فَالإِسْلام بَعْده مَرْتَبَة يَرْتَقِي إِلَيْهَا، ثُمَّ القُنُوت نَاشِئ عَنْهُمَا.

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ هَذَا فِي الأَقْوَال، فَإِنَّ الصِّدْق خَصْلة مَحْمُودَة؛ وَلهَذَا كَانَ بَعْض الصَّحَابَة لَمْ تُجَرَّب عَلَيْهِ كَذْبَة لا فِي الجَاهِلِيَّة وَلا فِي الإِسْلام، وَهُوَ عَلامَة عَلَى الإِيمَان، كَمَا أَنَّ الكَذِب أَمَارَة عَلَى النِّفَاق، وَمَنْ صَدَقَ نَجَا، «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْق يَهْدِي إِلى البِرّ، وَإِنَّ البِرّ يَهْدِي إِلى الجَنَّة، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِب؛ فَإِنَّ الكَذِب يَهْدِي إِلى الفُجُور، وَإِنَّ الفُجُور يَهْدِي إِلى النَّار، وَلا يَزَال الرَّجُل يَصْدُق وَيَتَحَرَّى الصِّدْق حَتَّى يُكْتَب عِنْد الله صِدِّيقًا، وَلا يَزَال الرَّجُل يَكْذِب وَيَتَحَرَّى الكَذِب حَتَّى يُكْتَب عِنْد الله كَذَّابًا**».[1] وَالأَحَادِيث فِيهِ كَثِيرَة جِدًّا.

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾، هَذِهِ [سَجِيَّة][2] الأَثْبَاتِ، وَهِيَ الصَّبْر عَلى المَصَائِب، وَالعِلم بِأَنَّ المقدور كَائِن لا مَحَالة، وَتَلَقِّي ذَلِكَ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَات، وَإِنَّمَا الصَّبْر عِنْد الصَّدْمَة الأُولى، أَيْ: أَصْعَبه فِي أَوَّل وَهْلَة، ثُمَّ مَا بَعْده أَسْهَل مِنْهُ، وَهُوَ صِدْق السَّجِيَّة وَثَبَاتها. ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾، الخُشُوع: السُّكُون وَالطُّمَأْنِينَة، وَالتُّؤَدَة وَالوَقَار وَالتَّوَاضُع. وَالحَامِل عَلَيْهِ الخَوْف مِنْ الله وَمُرَاقَبَته، «**اعْبُدْ الله كَأَنَّك تَرَاهُ فَإِنْ لمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك**»[3].

﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾، الصَّدَقَة: هِيَ الإِحْسَان إِلى النَّاس المَحَاوِيج الضُّعَفَاء، الَّذِينَ لا كَسْب لَهُمْ وَلا كَاسِب، يُعْطَوْنَ مِنْ فُضُول الأَمْوَال طَاعَة لله، وَإِحْسَانًا إِلى خَلقه، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «**سَبْعَة يُظِلّهُمْ الله فِي ظِلّه يَوْم لا ظِلّ إلاَّ ظِلّه** -فَذَكَرَ مِنْهُمْ-: **وَرَجُل تَصَدَّقَ بِصَدَقَة فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لا تَعْلم شِمَاله مَا تُنْفِق يَمِينه**»[1]. وَفِي الحَدِيث الآخَر: «وَالصَّدَقَة تُطْفِئُ الخَطِيئَة، كَمَا يُطْفِئ المَاء النَّار»[4]. وَالأَحَادِيث فِي الحَثّ عَلَيْهَا كَثِيرَة جِدًّا لَهُ مَوْضِع بِذَاتِهِ. ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾، فِي الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ: «**وَالصَّوْم زَكَاة البَدَن**». أَيْ: تزَكِّيه وَتطَهِّرهُ وَتُنَقِّيه مِنْ الأَخْلاط الرَّدِيئَة طَبْعًا وَشَرْعًا. قَال سَعِيد بْن جُبَيْر: مَنْ صَامَ رَمَضَان، وَثَلاثَة أَيَّام مِنْ كُلّ شَهْر؛ دَخَل فِي قَوْله: ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾. وَلـمَّا كَانَ الصَّوْم مِنْ أَكْبَر العَوْن عَلى كَسْر الشَّهْوَة -كَمَا قَال رَسُول الله ﷺ : «**يَا مَعْشَر الشَّبَاب؛ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ البَاءَة فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضّ لِلبَصَر، وَأَحْصَن لِلفَرْج، وَمَنْ لمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لهُ وِجَاء**»[1]- نَاسَبَ أَنْ يَذْكُر بَعْده: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾، أَيْ: عَنْ المَحَارِم وَالمَآثِم إِلَّا عَنْ المُبَاح، كَمَا قَال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عُبَيْد الله، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَابِر، عَنْ عَلِيّ بْن الأَقْمَر، عَنْ الأَغَرّ أَبِي مُسْلم، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ ﷺ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُل امْرَأَته مِنْ اللَّيْل، فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ، كُتِبَا تِلكَ اللَّيْلة مِنْ الذَّاكِرِينَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَات**»[5]. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ، مِنْ حَدِيث الأَعْمَش عَنْ الأَغَرّ أَبِي مُسْلم، عَنْ أَبِي سَعِيد وَأَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِمِثْلِهِ. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، حَدَّثَنَا دَرَّاج،

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) في (ز): [نتيجه].
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).
(٤) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٤٢١٠) وفيه عيسى: متروك الحديث وضعفه الألباني انظر «الضعيفة» (١٩٠١).
(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (١٣٠٩)، وابن ماجه (١٣٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

عَنْ أَبِي الهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ ﷺ أنه قَال: قُلت: يَا رَسُول الله؛ أَيّ العِبَاد أَفْضَل دَرَجَة عِنْد الله يَوْم القِيَامَة؟ قَال: «الذَّاكِرُونَ الله كَثِيرًا وَالذَّاكِرَات». قَال: قُلت: يَا رَسُول الله؛ وَمِنْ الغَازِي فِي سَبِيل الله ؟ قَال: «لَوْ ضَرَبَ بِسَيْفِهِ فِي الكُفَّار وَالمُشْرِكِينَ حَتَّى يَنْكَسِر وَيَخْتَضِب دَمًا؛ لكَانَ الذَّاكِرُونَ الله أَفْضَل مِنْهُ».[1]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا [عَبْد الرَّحْمَن بْن إِبْرَاهِيم][2]، عَنْ العَلاء، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: كَانَ النبي ﷺ يَسِير فِي طَرِيق مَكَّة، فَأَتَى عَلى جُمْدَان. فَقَال: هَذَا جُمْدَان، سِيرُوا فَقَدْ سَبَقَ المُفَرِّدُونَ قَالُوا: وَمَا المُفَرِّدُونَ؟ قَال: «**الذَّاكِرُونَ الله كَثِيرًا**». ثُمَّ قَال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ للمُحَلِّقِينَ**». قَالُوا: وَالمُقَصِّرِينَ؟ قَال: «**اللَّهُمَّ؛ اغْفِرْ للمُحَلِّقِينَ**». قَالُوا: وَالمُقَصِّرِينَ؟ قَال: «**وَالمُقَصِّرِينَ**».[3] تَفَرَّدَ بِهِ مِنْ هَذَا الوَجْه، وَرَوَاهُ مُسْلم دُون آخِره.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حُجَيْنُ بْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن أَبِي سَلمَة، عَنْ زِيَاد بْن أَبِي زِيَاد -مَوْلى عَبْد الله بْن [عَيَّاش][4] بْن أَبِي رَبِيعَة- أنه بلغه عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل ﷺ أَنَّهُ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَا عَمِل آدَمِيّ عَمَلاً قَطُّ أَنْجَى لهُ مِنْ عَذَاب الله مِنْ ذِكْر الله»[5]. وَقَال مُعَاذ: قَال رَسُول الله ﷺ: «**أَلا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْد مَلِيككُمْ، وَأَرْفَعهَا فِي دَرَجَاتكُمْ، وَخَيْر لكُمْ مِنْ تَعَاطِي الذَّهَب وَالفِضَّة، وَمِنْ أَنْ تَلقَوْا عَدُوّكُمْ غَدًا فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقهمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقكُمْ؟**». قَالُوا: بَلى، يَا رَسُول الله. قَال: «**ذِكْر الله** ﷻ».[6]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن، حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة، حَدَّثَنَا زَبَّانُ بْن فَائِد، عَنْ سَهْل بْن مُعَاذ بْن أَنَس الجُهَنِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَسُول الله ﷺ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلهُ فَقَال: أَيّ المُجَاهِدِينَ أَعْظَم أَجْرًا يَا رَسُول الله؟ فَقَال: «أَكْثَرهمْ لله ذِكرًا». قَال: فَأَيّ الصَّائِمِينَ أَكْثَر أَجْرًا؟ قَال: «أَكْثَرهمْ لله ذِكْرًا». ثُمَّ ذَكَرَ الصَّلاة وَالزَّكَاة وَالحَجّ وَالصَّدَقَة، كُلّ ذَلكَ يَقُول رَسُول الله ﷺ: «أَكْثَرهمْ لله ذِكْرًا». فَقَال أَبُو بَكْر لعُمَر ﷺ: ذَهَبَ الذَّاكِرُونَ بِكُلِّ خَيْر! فَقَال رَسُول الله ﷺ: «أَجَل»[7]. وَسَنَذْكُرُ بَقِيَّة الأَحَادِيث الوَارِدَة فِي كَثْرَة الذِّكْر عِنْد قَوْله تَعَالى فِي هَذِهِ السُّورَة: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا**﴾ الآيَة. إِنْ شَاءَ الله تَعَالى. وَقَوْله: ﴿**أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا**﴾، أَيْ: هَيَّأَ لهُمْ مِنْهُ لذُنُوبِهِمْ مَغْفِرَة وَأَجْرًا عَظِيمًا وَهُوَ الجَنَّة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾.

قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَوْله: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ**﴾ الآيَة. وَذَلكَ أَنَّ رَسُول الله ﷺ انْطَلَق ليَخْطُب عَلى فَتَاهُ زَيْد بْن حَارِثَة، فَدَخَل عَلى زَيْنَب بِنْت جَحْش الأَسَدِيَّة فَخَطَبَهَا، فَقَالتْ: لسْت بِنَاكِحَتِهِ. فَقَال رَسُول الله ﷺ: «بَل فَانْكِحِيهِ». قَالتْ: يَا رَسُول الله؛ أُؤَامَر فِي نَفْسِي؟ فَبَيْنَمَا هُمَا يَتَحَدَّثَانِ أَنْزَل الله هَذِهِ الآيَة عَلى رَسُوله ﷺ: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا**﴾ الآيَة. قَالتْ: قَدْ رَضِيتَه لي منكحًا يَا رَسُول الله؟ قَال: نَعَمْ. قَالتْ: إِذًا لا أَعْصِي رَسُول الله ﷺ قَدْ أَنْكَحْته نَفْسِي.[8]

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٣/ ٧٥)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف ورواية دراج عن أبي الهيثم: ضعيفة.
(٢) في (ز): [إبراهيم بن عبد الرحمن].
(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٦٧٦) دون آخره، والزيادة صحيحة.
(٤) في (ز): [عباس].
(٥) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٩) فيه زياد بن أبي زياد: لم يلق معاذًا فالإسناد منقطع لكنه ثابت موقوفًا من كلام معاذ.
(٦) **حسن بشواهده**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٩)، (٥/ ١٩٥)، والترمذي (٣٣٧٧).
(٧) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٨)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف وزبان بن فائد: ضعيف.
(٨) **ضعيف الإسناد**: أخرجه ابن جرير (٢٢/ ١١) وفيه ابن لهيعة: ضعيف.

وَقَال ابْن لِهِيعَة، عَنْ أَبِي عَمْرَة، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: خَطَبَ رَسُول الله ﷺ زَيْنَب بِنْت جَحْش لِزَيْدِ بْن حَارِثَة، فَاسْتَنْكَفَتْ مِنْهُ، وَقَالَتْ: أَنَا خَيْر مِنْهُ حَسَبًا -وَكَانَتْ امْرَأَة فِيهَا حِدَّة- فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآيَة كُلّهَا. وَهَكَذَا قَال مُجاهِد، وَقَتَادَة، وَمُقَاتِل بْن حَيَّان: إِنَّهَا نَزَلتْ فِي زَيْنَب بِنْت جَحْش حِين خَطَبَهَا رَسُول الله ﷺ عَلى مَوْلاهُ زَيْد بْن حَارِثَه، امْتَنَعَتْ ثُمَّ أَجَابَتْ. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: نَزَلتْ فِي أُمّ كُلثُوم بِنْت عُقْبَة بْن أَبِي مَعِيطٍ، وَكَانَتْ أَوَّل مَنْ هَاجَرَ مِنْ النِّسَاء -يَعْنِي بَعْد صُلح الحُدَيْبِيَة- فَوَهَبَتْ نَفْسهَا للنَّبِيِّ ﷺ ، فَقَال: قَدْ قَبِلت. فَزَوَّجهَا زَيْد بْن حَارِثَة -يَعْنِي، وَالله أَعْلم، بَعْد فِرَاقه زَيْنَب- فَسَخِطَتْ هِيَ وَأَخُوهَا، وَقَالا: إِنَّمَا أَرَدْنَا رَسُول الله ﷺ فَزَوَّجْنَا عَبْده، قَال: فَنَزَل القُرْآن: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾[1] إِلى آخِر الآيَة. قَال: وَجَاءَ أَمْر أَجْمَع مِنْ هَذَا: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، قَال: فَذَاكَ خَاصّ، وَهَذَا جماع.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ ثَابِت البُنَانِيّ، عَنْ أَنَس، قَال: خَطَبَ النَّبِيّ ﷺ عَلى جُليْبِيب امْرَأَة مِنْ الأَنْصَار إِلى أَبِيهَا، فَقَال: حَتَّى أَسْتَأْمِر أُمّهَا. فَقَال النَّبِيّ ﷺ : «فَنعَمْ إِذًا». قَال: فَانْطَلَقَ الرَّجُل إِلى امْرَأَته فَذَكَرَ ذَلِكَ لهَا، فَقَالتْ: لاهَا الله ذا، مَا وَجَدَ رَسُول الله ﷺ إِلَّا جُليْبِيبًا، وَقَدْ مَنَعْنَاهَا مِنْ فُلان وَفُلان. قَال: وَالجَارِيَة فِي سِتْرِهَا تَسْمَع، قَال: فَانْطَلَقَ الرَّجُل يُرِيد أَنْ يُخْبِر النبي ﷺ بِذَلِكَ. فَقَالتْ الجَارِيَة: أَتُرِيدُونَ أَنْ تَرُدُّوا عَلى رَسُول الله ﷺ أَمْره، إِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَهُ لكُمْ فَأَنْكِحُوهُ. قَال: فَكَأَنَّهَا جَلَّتْ عَنْ أَبَوَيْهَا، وَقَالا: صَدَقْت فَذَهَبَ أَبُوهَا إِلى رَسُول الله ﷺ فَقَال: إِنْ كُنْت رَضِيته فَقَدْ رَضِينَاهُ. قَال: «فَإِنِّي قَدْ رَضِيته». قَال: فَزَوَّجهَا، ثُمَّ فُزِّعَ أَهْل المَدِينَة، فَرَكِبَ جُليْبِيبٌ فَوَجَدُوهُ قَدْ قُتِل، وَحَوْله نَاس مِنْ المُشْرِكِينَ قَدْ قَتَلهُمْ، قَال أَنَس: فَلقَدْ رَأَيْتهَا وَإِنَّهَا لمِنْ أَنْفق بَيْت بِالمَدِينَة.[2]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا حَمَّاد -يَعْنِي ابْن سَلمَة- عَنْ ثَابِت، عَنْ كِنَانَة بْن نُعَيْم العَدَوِيّ، عَنْ أَبِي بَرْزَة الأَسْلمِيّ: أن جُليْبِيبًا كَانَ امْرَأً يَدْخُل عَلى النِّسَاء يَمُرّ بِهِنَّ وَيُلاعِبهُنَّ، فَقُلت لامْرَأَتِي: لا يَدْخُلنَّ اليوم عَليْكُنَّ جُليْبِيب، فَإِنَّهُ إِنْ دَخَل عَليْكُنَّ لأَفْعَلنَّ وَلأَفْعَلنَّ. قَالتْ: وَكَانَتْ الأَنْصَار إِذَا كَانَ لأَحَدِهِمْ أَيِّم لمْ يُزَوِّجهَا حَتَّى يَعْلم: هَل لنبي الله ﷺ فِيهَا حَاجَة أَمْ لا؟ فَقَال رسول الله ﷺ لرَجُلٍ مِنْ الأَنْصَار: «زَوِّجْنِي ابْنَتك». قَال: نِعِمَّ، وَكَرَامَة يَا رَسُول الله، وَنُعْمَة عَيْنٍ. فَقَال: «إِنِّي لسْت أُرِيدهَا لنَفْسِي». قَال: فَلمَنْ يَا رَسُول الله؟ قَال: «لجُليْبِيبٍ». فَقَال: يَا رَسُول الله؛ أُشَاوِر أُمّهَا. فَأَتَى أُمّهَا فَقَال: رَسُول الله ﷺ يَخْطُب ابْنَتك؟ فَقَالتْ: نِعِمَّ وَنُعْمَةُ عَيْنٍ. فَقَال: إِنَّهُ ليْسَ يَخْطُبهَا لنَفْسِهِ، إِنَّمَا يَخْطُبهَا لجُليْبِيبٍ. فَقَالتْ: أَجُليْبِيبٌ إنيه؟ أَجُليْبِيبٌ إنيه؟ لا، لعَمْر الله لا نُزَوِّجهُ. فَلمَّا أَرَادَ أَنْ يَقُوم ليأتي رَسُول الله ﷺ فَيُخْبِرهُ بِمَا قَالتْ أُمّهَا، قَالتْ الجَارِيَة: مَنْ خَطَبَنِي إِليْكُمْ؟ فَأَخْبَرَتْهَا أُمّهَا. قَالتْ: أَتَرُدُّونَ عَلى رَسُول الله ﷺ أَمْره؟ ادْفَعُونِي إِليْهِ، فَإِنَّهُ لنْ يُضَيِّعنِي. فَانْطَلقَ أَبُوهَا إِلى رَسُول الله ﷺ فَقَال: شَأْنك بِهَا. فَزَوَّجهَا جُليْبِيبًا. قَال: فَخَرَجَ رَسُول الله ﷺ فِي غزاة لهُ، فَلمَّا أَفَاءَ الله عَليْهِ قَال لأَصْحَابِهِ: «هَل تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَد؟». قَالُوا: نَفْقِد فُلانًا وَنَفْقِد فُلانًا. قَال: «انْظُرُوا هَل تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَد؟». قَالُوا: لا. قَال: «لكني أَفْقِد جُليْبِيبًا». قَال: «فَاطْلُبُوهُ فِي القَتْلى». فَطَلَبُوهُ فَوَجَدُوهُ إِلى جَنْب سَبْعَة قَدْ قَتَلهُمْ

---

(١) مـرسـل : لأنه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لم يسنده إلى الصحابة.
(٢) صحيح : أخرجه أحمد (٣/ ١٣٦).

ثُمَّ قَتَلُوهُ. فَقَالُوا: يَا رَسُول الله، هَا هُوَ ذَا إِلَى جَنْب سَبْعَة قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَأَتَاهُ رَسُول الله ﷺ فَقَامَ عَلَيْهِ، فَقَال: «**قَتَل سَبْعَة وَقَتَلُوهُ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ**». -مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا-، ثُمَّ وَضَعَهُ رَسُول الله ﷺ عَلَى سَاعِدِيه وَحَفَر لَهُ، مَا لَهُ سَرِير إِلَّا سَاعِد النَّبِيّ ﷺ، ثُمَّ وَضَعَهُ فِي قَبْرِه، وَلَمْ يُذْكَر أَنَّهُ غَسَّلَهُ ﷺ، قَال ثَابِت: فَمَا كَانَ فِي الأَنْصَار أَيِّم أَنْفَق مِنْهَا. وَحَدَّثَ إِسْحَاق بْن عَبْد الله بْن أَبِي طَلْحَة ثَابِتًا: هَل تَعْلَم مَا دَعَا لَهَا رَسُول الله ﷺ؟ فَقَال: «**اللَّهُمَّ: صُبَّ عَلَيْهَا الخير صَبًّا، وَلا تَجْعَل عَيْشَهَا كَدًّا**». كَذَا قَال: فَمَا كَانَ فِي الأَنْصَار أَيِّم أَنْفَق مِنْهَا.[1] هَكَذَا أَوْرَدَهُ الإِمَام أَحْمَد بِطُولِهِ، وَأَخْرَجَ مِنْهُ مُسْلم وَالنَّسَائِيّ فِي الفَضَائِل قِصَّة قَتْله. وَذَكَرَ الحَافِظ أَبُو عُمَر ابْن عَبْد البَرّ فِي «الاسْتِيعَاب» أَنَّ الجَارِيَة لَمَّا قَالَتْ فِي خِدْرِهَا: أَتَرُدُّونَ عَلَى رَسُول الله ﷺ أَمْره؟ تلت هَذِهِ الآيَة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

وَقَال ابْن جُرَيْج: أَخْبَرَنِي عَامِر بْن مُصْعَب، عَنْ طَاوُس، قَال: إِنَّهُ سَأَل ابْن عَبَّاس عَنْ رَكْعَتَيْنِ بَعْد العَصْر، فَنَهَاهُ، وَقَرَأَ ابْن عَبَّاس ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. فَهَذِهِ الآيَة عَامَّة فِي جَمِيع الأُمُور، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا حَكَمَ الله وَرَسُوله بِشَيْءٍ، فَلَيْسَ لأَحَدٍ مُخَالَفَته وَلا اخْتِيَار لأَحَدٍ هَهُنَا وَلا رَأْي وَلا قَوْل، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾. وَفِي الحَدِيث: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُؤْمِن أَحَدكُمْ حَتَّى يَكُون هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْت بِهِ**».[2] وَلِهَذَا شَدَّدَ فِي خِلاف ذَلِكَ، فَقَال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيه ﷺ: إنه قال لِمَوْلاهُ زَيْد بْن حَارِثَة، وَهُوَ الَّذِي ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾، أَيْ: بِالإِسْلام وَمُتَابَعَة الرَّسُول عليه أفضل الصلاة والسلام: ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾، أَيْ: بِالعِتْقِ مِنْ الرِّقّ، وَكَانَ سَيِّدًا كَبِير الشَّأْن جَلِيل القَدْر، حَبِيبًا إِلَى النَّبِيّ ﷺ يُقَال لَهُ: الحِبّ، وَيُقَال لابْنِهِ أُسَامَة: الحِبّ ابْن الحِبّ. قَالَتْ عَائِشَة ﷺ: مَا بَعَثَهُ رَسُول الله ﷺ فِي سَرِيَّة إِلَّا أَمَّرَهُ عَلَيْهِمْ، وَلَوْ عَاشَ بَعْده لاسْتَخْلَفَهُ. رَوَاهُ أَحْمَد، عَنْ سَعِيد بْن مُحَمَّد الوَرَّاق وَمُحَمَّد بْن عُبَيْد، عَنْ وَائِل بْن دَاوُد، عَنْ عَبْد الله البَهِيّ، عَنْهَا.[3]

وَقَال البَزَّار: حَدَّثَنَا خَالد بْن يُوسُف، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَة /ح/ وَحَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مَعْمَر، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَة، أَخْبَرَنِي عُمَر بْن أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِيهِ: حَدَّثَنِي أُسَامَة بْن زَيْد، قَال: كُنْت فِي المَسْجِد، فَأَتَانِي العَبَّاس وَعَلِيّ بْن أَبِي طَالب ﷺ فَقَالا: يَا أُسَامَة؛ اسْتَأْذِنْ لَنَا عَلَى رَسُول الله ﷺ. قَال: فَأَتَيْت رَسُول الله فَأَخْبَرْته، فَقُلت: عَلِيّ وَالعَبَّاس يَسْتَأْذِنَانِ. فَقَال: «**أَتَدْرِي مَا حَاجَتهمَا؟**». فَقُلت: لا يَا رَسُول الله. فَقَال: «**لَكِنِّي أَدْرِي**». قَال: «**فَأْذَنْ لهُمَا**». قَالا: يَا رَسُول الله، جِئْنَاك لِتُخْبِرنَا: أَيّ أَهْلك أَحَبّ إِلَيْك؟ فقال: «**أَحَبّ أَهْلِي إِلَيَّ فَاطِمَة بِنْت مُحَمَّد**». قَالا: يَا رَسُول الله، مَا نَسْأَلُك عَنْ فَاطِمَة. قَال: «**فَأُسَامَة بْن زَيْد بْن حَارِثَة، الَّذِي أَنْعَمَ**

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٤٢)، وأصله في مسلم (٢٤٧٢).

(٢) صحيح: تقدم.

(٣) ضعيف الإسناد: أخرجه أحمد (٦/ ٢٨١)، وفيه عبد الله البهي: صدوق يخطئ.

الله عَلَيْهِ وَأَنْعَمْت عَلَيْهِ».[١] وَكَانَ رَسُول الله ﷺ قَدْ زَوَّجَهُ بِابْنَةِ عَمَّته زَيْنَب بِنْت جَحْش الأَسَدِيَّة -وَأُمّهَا أُمَيْمَة بِنْت عَبْد الْمُطَّلِب- وَأَصْدَقَهَا عَشَرَة دَنَانِير، وَسِتِّينَ دِرْهَمًا، وَخِمَارًا وَمِلحفَة، وَدِرْعًا، وَخَمْسِينَ مُدًّا مِنْ طَعَام، وَعَشَرَة أَمْدَاد مِنْ تَمْر. قَالَهُ مُقَاتِل بْن حَيَّان -فَمَكَثَتْ عِنْده قَرِيبًا مِنْ سَنَة أَوْ فَوْقهَا، ثُمَّ وَقَعَ بَيْنهمَا، فَجَاءَ زَيْد يَشْكُوهَا إِلَى رَسُول الله ﷺ ، فَجَعَل رَسُول الله ﷺ يَقُول لَهُ: «**أَمْسِكْ عَلَيْك زَوْجك، وَاتَّقِ الله**». قَال الله تَعَالَى: ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ**﴾. ذَكَرَ ابْن جَرِير، وابْن أَبِي حَاتِم هَهُنَا آثَارًا عَنْ بَعْض السَّلَف رضي الله عنهم ، أَحْبَبْنَا أَنْ نَضْرِب عَنْهَا صَفْحًا لعَدَم صِحَّتهَا فَلا نُورِدهَا.

وَقَدْ رَوَى الإِمَام أَحْمَد هَهُنَا أَيْضًا حَدِيثًا، مِنْ رِوَايَة حَمَّاد بْن زَيْد، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس، فِيهِ غَرَابَة تَرَكْنَا سِيَاقه أَيْضًا. وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيّ أَيْضًا بَعْضه مُخْتَصَرًا فَقَال: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحِيم، حَدَّثَنَا معلَّى بْن مَنْصُور، عَنْ حَمَّاد بْن زَيْد، حَدَّثَنَا ثَابِت، عَنْ أَنَس بْن مَالك، قَال: إِنَّ هَذِهِ الآيَة: ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ**﴾ نَزَلَتْ فِي شَأْن زَيْنَب بِنْت جَحْش، وَزَيْد بْن حَارِثَة رضي الله عنهما .[٢] وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن هَاشِم بْن مَرْزُوق، حَدَّثَنَا ابْن عُيَيْنَة، عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد بْن جُدْعَانَ، قَال: سَأَلَنِي عَلِيّ بْن الحُسَيْن مَا يَقُول الحَسَن فِي قَوْله: ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ**﴾؟ فَذَكَرْت لَهُ فَقَال: لا، وَلكِنَّ الله أَعْلَمَ نَبِيّه أَنَّهَا سَتَكُونُ مِنْ أَزْوَاجه قَبْل أَنْ يَتَزَوَّجهَا، فَلَمَّا أَتَاهُ زَيْد لِيَشْكُوهَا إِلَيْهِ قَال: «**اتَّقِ الله، وَأَمْسِكْ عَلَيْك زَوْجك**». فَقَال: قَدْ أَخْبَرْتُك أَنِّي مُزَوِّجُكَهَا، وَتُخْفِي فِي نَفْسك مَا الله مُبْدِيه. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ السُّدِّيّ أَنَّهُ قَال نَحْو ذَلِكَ.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي إِسْحَاق بْن شَاهِين، حَدَّثَنِي خَالد عَنْ دَاوُد، عَنْ عَامِر، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: لَوْ كَتَمَ مُحَمَّد ﷺ شَيْئًا مِمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنْ كِتَاب الله لكَتَمَ: ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ**﴾.[٣]

وَقَوْله: ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا**﴾، الوَطَر: هُوَ الحَاجَة وَالأَرَب، أَيْ: لَمَّا فَرَغَ مِنْهَا وَفَارَقَهَا زَوَّجْنَاكهَا، وَكَانَ الَّذِي وُلِّيَ تَزْوِيجهَا مِنْهُ هُوَ الله عز وجل، بِمَعْنَى: أَنَّهُ أَوْحَى إِليه أَنْ يَدْخُل عَلَيْهَا بِلا وَلِيّ وَلا مَهْر وَلا عَقْد وَلا شُهُود مِنْ البَشَر.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هَاشِم -يَعْنِي: ابْن القَاسِم- أبو النَّضْر، حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن الْمُغِيرَة، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس رضي الله عنه قَال: لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّة زَيْنَب قَال رَسُول الله ﷺ لِزَيْدِ بْن حَارِثَة: «**اذْهَبْ فَاذْكُرْهَا عَلَيَّ**». فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَاهَا وَهِيَ تُخَمِّر عَجِينهَا، قَال: فَلَمَّا رَأَيْتهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي، حَتَّى مَا أَسْتَطِيع أَنْ أَنْظُر إِلَيْهَا؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ ذَكَرَهَا، فَوَلَّيْتهَا ظَهْرِي وَنَكَصْت عَلى عَقِبَيَّ، وَقُلت: يَا زَيْنَب؛ أَبْشِرِي، أَرْسَلَنِي رَسُول الله ﷺ يَذْكُرك. قَالَتْ: مَا أَنَا بِصَانِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أُوَامِر رَبِّي عز وجل. فَقَامَتْ إِلَى مَسْجِدهَا، وَنَزَل القُرْآن، وَجَاءَ رَسُول الله ﷺ فَدَخَل عَلَيْهَا بِغَيْرِ إِذْن. وَلَقَدْ رَأَيْتنَا حِين دَخَلتُ عَلَى رَسُول الله ﷺ أُطْعِمْنَا عَلَيْهَا الخُبْز وَاللَّحْم، فَخَرَجَ النَّاس وَبَقِيَ رِجَال يَتَحَدَّثُونَ فِي البَيْت بَعْد الطَّعَام، فَخَرَجَ رَسُول الله وَاتَّبَعْته فَجَعَل يَتَتَبَّع حُجَر نِسَائِهِ يُسَلِّم عَلَيْهِنَّ، وَيَقُلْنَ: يَا رَسُول الله؛ كَيْف وَجَدْت أَهْلك؟ فَمَا أَدْرِي أَنَا أَخْبَرْته أَنَّ القَوْم قَدْ خَرَجُوا أَوْ أُخْبِرَ- قَال: فَانْطَلَقَ حَتَّى دَخَل البَيْت، فَذَهَبْت أَدْخُل مَعَهُ، فَأُلْقِيَ السِّتْر بَيْنِي وَبَيْنه، وَنَزَل الحِجَاب، وَوُعِظَ القَوْم بِمَا وُعِظُوا بِهِ:

---

(١) **صحيح** : أورد الحافظ ابن كثير سنده وعزاه للبزار والإسناد صحيح.
(٢) **صحيح** : أخرجه البخاري (٤٧٨٧)، (٧٤٢٠).
(٣) **صحيح** : أخرجه مسلم (٢٢٨)، والطبري (٢٢/ ١٣).

﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[1] الآيَة. وَرَوَاهُ مُسْلم وَالنَّسَائِيّ مِنْ طُرُق عَنْ سُلَيْمَان بْن الْمُغِيرَة بِهِ.
وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَنَس بْن مَالك ﷺ: أن زَيْنَب بِنْت جَحْش كَانَتْ تَفْخَر عَلَى أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ فَتَقُول: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي الله مِنْ فَوْق سَبْع سَمَاوَات.[2] وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي «سُورَة النُّور» عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن جَحْش قَال: تَفَاخَرَتْ زَيْنَب وَعَائِشَة، فَقَالَتْ زَيْنَب رضي الله عنها: أَنَا الَّتِي نَزَل تَزْوِيجِي مِنْ السَّمَاء. وَقَالَتْ عَائِشَة: أَنَا الَّتِي نَزَل عُذْرِي مِنْ السَّمَاء. فَاعْتَرَفَتْ لَهَا زَيْنَب رضي الله عنها.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا جَرِير، عَنْ الْمُغِيرَة، عَنْ الشَّعْبِيّ، قَال: كَانَتْ زَيْنَب تَقُول لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي لأُدْلِي عَلَيْك بِثَلاثٍ مَا مِنْ نِسَائِك امْرَأَة تُدْلِي بِهِنَّ: إِنَّ جَدِّي وَجَدّك وَاحِد، وَإِنِّي أَنْكَحَنِيكَ الله مِنْ السَّمَاء، وَإِنَّ السَّفِير جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام.

وَقَوْله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾، أَيْ: إِنَّمَا أَبَحْنَا لك تَزْوِيجهَا وَفَعَلنَا ذَلِكَ، لِئَلَّا يَبْقَى حَرَج عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَزْوِيج مُطَلَّقَات الأَدْعِيَاء، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ قَبْل النُّبُوَّة قَدْ تَبَنَّى زَيْد بْن حَارِثَة، فَكَانَ يُقَال له: «زَيْد بْن مُحَمَّد»، فَلَمَّا قَطَعَ الله هَذِهِ النِّسْبَة بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝٤ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾، ثُمَّ زَادَ ذَلِكَ بَيَانًا وَتَأْكِيدًا بِوُقُوع تَزْوِيج رَسُول الله ﷺ بِزَيْنَب بِنْت جَحْش لَـمَّا طَلَّقَهَا زَيْد بْن حَارِثَة، وَلِهَذَا قَال فِي آيَة التَّحْرِيم: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ لِيَحْتَرِز مِنْ الابْن الدَّعِيّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ كَثِيرًا فِيهِمْ. وَقَوْله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾، أَيْ: وَكَانَ هَذَا الأَمْر الَّذِي وَقَعَ قَدْ قَدَّرَهُ الله تَعَالَى وَحَتَّمَهُ، وَهُوَ كَائِن لا مَحَالَة، كَانَتْ زَيْنَب فِي عِلم الله سَتَصِيرُ مِنْ أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

يَقُول تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾، أَيْ: فِيمَا أَحَلَّ لهُ وَأَمَرَهُ بِهِ مِنْ تَزْوِيج زَيْنَب الَّتِي طَلَّقَهَا دَعِيّه زَيْد بْن حَارِثَة.

وَقَوْله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾، أَيْ: هَذَا حُكْم الله فِي الأَنْبِيَاء قَبْله، لَمْ يَكُنْ لِيَأْمُرهُمْ بِشَيْءٍ وَعَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ حَرَج، وَهَذَا رَدّ عَلَى مَنْ تَوَهَّمَ مِنْ الْمُنَافِقِينَ نَقْصًا فِي تَزْوِيجه امْرَأَة زَيْد مَوْلاهُ وَدَعِيّه الَّذِي كَانَ قَدْ تَبَنَّاهُ. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، أَيْ: وَكَانَ أَمْره الَّذِي يُقَدِّرهُ كَائِنًا لا مَحَالَة، وَوَاقِعًا لا مَحِيد عَنْهُ وَلا مَعْدِل، فَمَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

يَمْدَح تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾، أَيْ: إِلَى خَلقه وَيُؤَدُّونَهَا بِأَمَانَتِهَا، ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ أَيْ: يَخَافُونَهُ وَلا يَخَافُونَ أَحَدًا سِوَاهُ، فَلا تَمْنَعهُمْ سَطْوَة أَحَد عَنْ إِبْلاغ رِسَالات الله، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾، أَيْ: وَكَفَى بِالله نَاصِرًا وَمُعِينًا. وَسَيِّد النَّاس فِي هَذَا الْمَقَام -بل وَفِي كُلّ مَقَام- مُحَمَّد رَسُول الله ﷺ، فَإِنَّهُ قَامَ بِأَدَاءِ الرِّسَالة وَإِبْلاغهَا إِلَى أَهْل الْمَشَارِق وَالْمَغَارِب، إِلَى جَمِيع أَنْوَاع بَنِي آدَم، وَأَظْهَر الله كَلِمَته وَدِينه وَشَرْعه عَلَى جَمِيع الأَدْيَان وَالشَّرَائِع، فَإِنَّهُ

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (١٤٢٨)، وأحمد (٣/ ١٩٥)، والنسائي (٦/ ٧٩).
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٧٤٢١).

قَدْ كَانَ النَّبِيّ يُبْعَث إِلى قَوْمه خَاصَّة، وَأَمَّا هُوَ -صلوات الله وسلامه عليه- فَإِنَّهُ بُعِثَ إِلى جَمِيع الخَلق عَرَبهمْ وَعَجَمهمْ، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، ثُمَّ وَرِثَ مَقَام البَلاغ عَنْهُ أُمَّته مِنْ بَعْده، فَكَانَ أَعْلَى مَنْ قَامَ بِهَا بَعْده أَصْحَابه رضي الله عنهم، بَلَّغُوا عَنْهُ كَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِي جَمِيع أَقْوَاله وَأَفْعَاله وَأَحْوَاله، فِي لَيْله وَنَهَاره، وَحَضَره وَسَفَره، وَسِرّه وَعَلانِيَته، فَرَضِيَ الله عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ. ثُمَّ وَرِثَهُ كُلّ خَلف عَنْ سَلفهمْ إِلى زَمَاننَا هَذَا، فَبِنُورِهِمْ يَقْتَدِي المُهْتَدُونَ، وَعَلى مَنْهَجهمْ يَسْلُك المُوَفَّقُونَ. فَنَسْأَل الله الكَرِيم المَنَّان أَنْ يَجْعَلنَا مِنْ خَلفهمْ.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا ابْن نُمَيْر أَخْبَرَنَا الأَعْمَش، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة عَنْ أَبِي البَخْتَرِيّ عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «لا يَحْقِرَنَّ أَحَدكُمْ نَفْسه أَنْ يَرَى أَمْر الله فِيهِ مَقَال ثُمَّ لا يَقُولهُ، فَيَقُول الله: مَا يَمْنَعك أَنْ تَقُول فيه؟ فَيَقُول: رَبّ، خَشِيت النَّاس، فَيَقُول: فَأَنَا أَحَقّ أَنْ يُخْشَى».[1] وَرَوَاهُ أَيْضًا عَبْد الرَّزَّاق عَنْ الثَّوْرِيّ عَنْ زبيد عَنْ عَمْرو بن مُرَّة. وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ عَنْ أَبِي كُرَيْب عَنْ عَبْد الله بْن نُمَيْر وَأَبِي مُعَاوِيَة؛ كِلاهُمَا عَنْ الأَعْمَش بِهِ.

وَقَوْله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، نَهَى أَنْ يُقَال بَعْد هَذَا: «زَيْد بْن مُحَمَّد»، أَيْ: لَمْ يَكُنْ أَبَاهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَبَنَّاهُ فَإِنَّهُ -صلوات الله عليه وسلامه- لَمْ يَعِشْ لهُ وَلد ذَكَر حَتَّى بَلَغَ الحُلُم، فَإِنَّهُ وُلِدَ لهُ القَاسِم، والطَّيِّب، وَالطَّاهِر، مِنْ خَدِيجَة فَمَاتُوا صِغَارًا، وَوُلِدَ لهُ إِبْرَاهِيم مِنْ مَارِيَة القِبْطِيَّة، فَمَاتَ أَيْضًا رَضِيعًا. وَكَانَ لهُ ﷺ مِنْ خَدِيجَة أَرْبَع بَنَات: زَيْنَب وَرُقَيَّة وَأُمّ كُلْثُوم وَفَاطِمَة رَضِيَ الله عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، فَمَاتَ فِي حَيَاته ثَلاث وَتَأَخَّرَتْ فَاطِمَة حَتَّى أُصِيبَتْ بِهِ ﷺ، ثُمَّ مَاتَتْ بَعْده لِسِتَّةِ أَشْهُر.

وَقَوْله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ فَهَذِهِ الآيَة نَصّ فِي أَنَّهُ لا نَبِيّ بَعْده، وَإِذَا كَانَ لا نَبِيّ بَعْده فَلا رَسُول بطريق الأَوْلى وَالأَحْرَى؛ لأَنَّ مَقَام الرِّسَالة أَخَصّ مِنْ مَقَام النُّبُوَّة، فَإِنَّ كُلّ رَسُول نَبِيّ، وَلا يَنْعَكِس. وَبِذَلِكَ وَرَدَتْ الأَحَادِيث المُتَوَاتِرَة عَنْ رَسُول الله ﷺ مِنْ حَدِيث جَمَاعَة مِنْ الصَّحَابَة. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر الأَزْدِيّ، حَدَّثَنَا زُهَيْر بْن مُحَمَّد، عَنْ عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن عَقِيل، عَنْ الطُّفَيْل بْن أُبَيّ بْن كَعْب عَنْ أَبِيهِ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«مَثَلِي فِي النَّبِيِّينَ كَمَثَل رَجُل بَنَى دَارًا فَأَحْسَنَهَا وَأَكْمَلهَا، وَتَرَكَ فِيهَا مَوْضِع لَبِنَة لَمْ يَضَعهَا، فَجَعَل النَّاس يَطُوفُونَ بِالبُنْيَان وَيَعْجَبُونَ مِنْهُ، وَيَقُولُونَ: لَوْ تَمَّ مَوْضِع هَذِهِ اللَّبِنَة! فَأَنَا فِي النَّبِيِّينَ مَوْضِع تِلكَ اللَّبِنَة»**[2]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ بُنْدَار عَنْ أَبِي عَامِر العَقَدِيّ بِهِ، وَقَال: حَسَن صَحِيح.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان حَدَّثَنَا عَبْد الوَاحِد بْن زِيَاد، حَدَّثَنَا المُخْتَار بْن فُلفُل، قال حَدَّثَنَا أَنَس ابْن مَالك، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«إِنَّ الرِّسَالة وَالنُّبُوَّة قَدْ انْقَطَعَتْ، فَلا رَسُول بَعْدِي وَلا نَبِيّ»**. قَال: فَشَقَّ ذَلكَ عَلى النَّاس، قال: **«وَلكِنَّ المُبَشِّرَات»**. قَالُوا: يَا رَسُول الله؛ وَمَا المُبَشِّرَات؟ قَال: **«رُؤْيَا الرَّجُل المُسْلِم، وَهِيَ جُزْء مِنْ أَجْزَاء النُّبُوَّة»**[3]. وَهَكَذَا رَوَى التِّرْمِذِيّ، عَنْ الحَسَن بْن مُحَمَّد الزَّعْفَرَانِيّ، عَنْ عَفَّان بْن مُسْلِم، بِهِ. وَقَال: صَحِيح غَرِيب مِنْ حَدِيث المُخْتَار بْن فُلفُل.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٣/ ٣٠)، وابن ماجه (٤٠٠٨)، وفيه انقطاع لأن أبا البختري لم يدرك أبا سعيد الخدري، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٦٣٣٢).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٥/ ١٣٦)، والترمذي (٣٦١٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٧)، والترمذي (٢٢٧٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

حَدِيث آخَر: قَال أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا سليم بْن حَيَّان، عَنْ سَعِيد بْن مِينَاء، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَل الأَنْبِيَاء كَمَثَل رَجُل بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلاَّ مَوْضِع لَبِنَة، فَكَانَ مَنْ دَخَلَهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا قَال: مَا أَحْسَنَهَا إِلاَّ مَوْضِع هَذِهِ اللَّبِنَة! فَأَنَا مَوْضِع اللَّبِنَة، خُتِمَ بِي الأَنْبِيَاء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»[١]. وَرَوَاهُ البُخَارِيّ، وَمُسْلِم، وَالتِّرْمِذِيّ، مِنْ طُرُق، عَنْ سُلَيْم بْن حَيَّان، بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: صَحِيح غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَل النَّبِيِّينَ من قبلي كَمَثَل رَجُل بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا إِلاَّ لَبِنَة وَاحِدَة، فَجِئْتُ أَنَا فَأَتْمَمْتُ تِلْكَ اللَّبِنَة»[٢]. انْفَرَدَ بِإِخراجه مُسْلِم مِنْ رِوَايَة الأَعْمَش بِهِ.

حَدِيث آخَر: قَال أَحْمَد: حَدَّثَنَا يُونُس بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن عُبَيْد الرَّاسِبِي، قَال: سَمِعْت أَبَا الطُّفَيْل قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «لا نُبُوَّة بَعْدِي إِلاَّ المُبَشِّرَات». قَال: قِيل: وَمَا المُبَشِّرَات يَا رَسُول الله؟ قَال: «الرُّؤْيَا الحَسَنَة». أَوْ قَال: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَة».[٣]

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ هَمَّام بْن مُنَبِّه، قَال: هَذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَل الأَنْبِيَاء مِنْ قَبْلِي كَمَثَل رَجُل ابْتَنَى بُيُوتًا فأحسنها وأكملها وَأَجْمَلَهَا، إِلاَّ مَوْضِع لَبِنَة مِنْ زَاوِيَة مِنْ زَوَايَاهَا، فَجَعَل النَّاس يَطُوفُونَ وَيُعْجِبهُمْ البُنْيَان وَيَقُولُونَ: أَلا وُضِعَتْ هَهُنَا لَبِنَة فَيَتِمّ بُنْيَانك؟!». قَال رَسُول الله ﷺ: «فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَة»[٤]. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث عَبْد الرَّزَّاق.

حَدِيث آخَر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَيْضًا؛ قَال الإِمَام مُسْلِم: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَيُّوب وَقُتَيْبَة وَعَلِيّ بْن حُجْر، قَالُوا: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن جَعْفَر، عَنْ العَلاء، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «فُضِّلْت عَلَى الأَنْبِيَاء بِسِتٍّ: أُعْطِيت جَوَامِع الكَلِم، وَنُصِرْت بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِم، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْض طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلت إِلَى الخَلْق كَافَّة، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ»[٥]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث إِسْمَاعِيل بْن جَعْفَر، وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالِح، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَل الأَنْبِيَاء مِنْ قَبْلِي، كَمَثَل رَجُل بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا إِلاَّ مَوْضِع لَبِنَة وَاحِدَة، فَجِئْت أَنَا فَأَتْمَمْت تِلْكَ اللَّبِنَة». وَرَوَاهُ مُسْلِم عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة وَأَبِي كُرَيْب كليهما عَنْ أَبِي مُعَاوِيَة بِهِ.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن صَالِح، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن سُوَيْد الكَلْبِيّ، عَنْ عَبْد الأَعْلَى بْن هِلال السُّلَمِيّ، عَنْ العِرْبَاض بْن سَارِيَة قَال: قَال النَّبِيّ ﷺ: «إِنِّي عِنْد الله لَخَاتَم النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَم لَمُنْجَدِل فِي طِينَته».[٦]

حَدِيث آخَر: قَال الزُّهْرِيّ: أَخْبَرَنِي مُحَمَّد بْن جُبَيْر بْن مُطْعِم، عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٣٥٣٤)، ومسلم (٢٢٨٧).
(٢) صحيح : أخرجه مسلم (٢٢٨٦).
(٣) صحيح : أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٤).
(٤) صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ٣١٢)، ومسلم (٢٨٦٩).
(٥) صحيح : أخرجه مسلم (٥٢٣)، والترمذي (١٥٥٣).
(٦) ضعيف : تقدم.

يَقُول: **«إنَّ لي أَسْمَاء: أَنَا مُحَمَّد، وَأَنَا أَحْمَد، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو الله بي الكُفْر، وَأَنَا الحَاشِر الَّذِي يُحْشَر النَّاس عَلى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِب الَّذِي لَيْسَ بَعْده نَبِيّ»**. أَخْرَجَاه فِي «الصَّحِيحَيْنِ». [1]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، عَنْ عَبْد الله بْن هُبَيْرَة، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر، قَال: سَمِعْت عَبْد الله بْن عَمْرو يَقُول: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُول الله ﷺ يَوْمًا كَالْمُوَدِّع، فَقَال: «أَنَا مُحَمَّد النَّبِيّ الأُمِّيّ -ثَلاثًا- وَلا نَبِيّ بَعْدِي، أُوتِيت فَوَاتِح الكَلِم وَجَوَامِعه وَخَوَاتِمه، وَعَلِمْت كَمْ خَزَنَة النَّار وَحَمَلَة العَرْش، وَتُجُوِّزَ بِي، وَعُوفِيت وَعُوفِيَتْ أُمَّتِي؛ فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْت فِيكُمْ، فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ الله، أَحِلُّوا حَلاله وَحَرِّمُوا حَرَامه». تَفَرَّدَ بِهِ الإِمَام أَحْمَد. [2]

وَرَوَاهُ أَحْمَد أَيْضًا عَنْ يَحْيَى بْن إِسْحَاق، عَنْ ابْن لَهِيعَة، عَنْ عَبْد الله بْن هُبَيْرَة، عَنْ عَبْد الله بْن مريج، الخَوْلانِيّ، عَنْ أَبِي قَيْس -مَوْلى عَمْرو بْن العَاص- عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، فَذَكَرَ مِثْله سَوَاء.

. وَالأَحَادِيث فِي هَذَا كَثِيرَة، فَمِنْ رَحْمَة الله تَعَالى بِالعِبَادِ إِرْسَال مُحَمَّد ﷺ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ مِنْ تَشْرِيفه لَهُمْ خَتْم الأَنْبِيَاء وَالمُرْسَلِينَ بِهِ، وَإِكْمَال الدِّين الحَنِيف لَهُ. وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالى فِي كِتَابه، وَرَسُوله فِي السُّنَّة المُتَوَاتِرَة عَنْهُ: أَنَّهُ لا نَبِيّ بَعْده؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ كُلّ مَنْ ادَّعَى هَذَا المَقَام بَعْده فَهُوَ كَذَّاب أَفَّاك، دَجَّال ضَالّ مُضِلّ، وَلَوْ تَحرق وَشَعْبَذَ، وَأَتَى بِأَنْوَاعِ السِّحْر وَالطَّلاسِم والنيرنجيات، فَكُلّهَا مُحَال وَضَلال عِنْد أُولِي الأَلْبَاب، كَمَا أَجْرَى الله سُبْحَانه وَتَعَالى عَلى يَدِي الأَسْوَد العَنْسِيّ بِاليَمَنِ، وَمُسَيْلِمَة الكَذَّاب بِاليَمَامَةِ، مِنْ الأَحْوَال الفَاسِدَة وَالأَقْوَال البَارِدَة، مَا عَلِمَ كُلّ ذِي لُبّ وَفَهْم وَحِجًا أَنَّهُمَا كَاذِبَانِ ضَالَّانِ، لَعَنَهُمَا الله. وَكَذَلِكَ كُلّ مُدَّعٍ لِذَلِكَ إِلى يَوْم القِيَامَة حَتَّى يُخْتَمُوا بِالمَسِيحِ الدَّجَّال، يَخْلُق الله مَعَهُ مِنْ الأُمُور مَا يَشْهَد العُلَمَاء وَالمُؤْمِنُونَ بِكَذِبِ مَنْ جَاءَ بِهَا. وَهَذَا مِنْ تَمَام لُطْف الله تَعَالى بِخَلْقِهِ، فَإِنَّهُمْ بِضَرُورَةِ الوَاقِع لا يَأْمُرُونَ بِمَعْرُوفٍ وَلا يَنْهَوْنَ عَنْ مُنْكَر إِلَّا عَلى سَبِيل الاتِّفَاق، أَوْ لِمَا لَهُمْ فِيهِ مِنْ المَقَاصِد إِلى غَيْره، وَيَكُون فِي غَايَة الإِفْك وَالفُجُور فِي أَقْوَالهمْ وَأَفْعَالهمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الآيَة. وَهَذَا بِخِلافِ حَال الأَنْبِيَاء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَإِنَّهُمْ فِي غَايَة البِرّ وَالصِّدْق وَالرُّشْد وَالاسْتِقَامَة فِيمَا يَقُولُونَهُ ويفعلونه وَيَأْمُرُونَ بِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ، مَعَ مَا يُؤَيَّدُونَ بِهِ مِنْ الخَوَارِق لِلعَادَاتِ، وَالأَدِلَّة الوَاضِحَات، وَالبَرَاهِين البَاهِرَات. فَصَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِمْ دَائِمًا مُسْتَمِرًّا مَا دَامَتْ الأَرْض وَالسَّمَاوَات.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

يَقُول تَعَالى آمِرًا عِبَاده المُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ ذِكْرهمْ لِرَبِّهِمْ تَعَالى المُنْعِم عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ النِّعَم وأصناف المِنَن، لِمَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ جَزِيل الثَّوَاب، وَجَمِيل المَآب. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن سَعِيد، عَنْ عَبْد الله بْن سَعِيد، حَدَّثَنِي مَوْلى [ابن عياش][3]، عَنْ أَبِي بَحْرِيَّة، عَنْ أَبِى الدَّرْدَاء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«ألا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْد مَلِيككُمْ، وَأَرْفَعهَا فِي دَرَجَاتكُمْ، وَخَيْر لَكُمْ مِنْ إِعْطَاء الذَّهَب وَالوَرِق، وَخَيْر لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلقَوْا**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤).
(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٢/ ١٧٢)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف.
(٣) في نسخة: [ابن عباس].

عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقهمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقكُمْ؟». قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا رَسُول الله؟ قَال: «**ذِكْر الله** ﷻ»[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ، مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن سَعِيد بْن أَبِي هِنْد، عَنْ زِيَاد -مَوْلى ابْن عياش- عَنْ أَبِي بَحْرِيَّة وَاسْمه عَبْد الله بْن قَيْس التراغِمِيّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء بِهِ. قَال التِّرْمِذِيّ: وَرَوَاهُ بَعْضهمْ عَنْهُ فَأَرْسَلهُ. **قُلت**: وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا الحَدِيث عِنْد قَوْله تَعَالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ فِي «مُسْنَد أَحْمَد»، مِنْ حَدِيث زِيَاد بْن أَبِي زِيَاد مَوْلى عَبْد الله بْن عياش أَنَّهُ بَلَغَهُ عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل، عَنْ رَسُول الله ﷺ بِنَحْوِهِ، فَالله أَعْلَم.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا فرج بْن فَضَالة، عَنْ أَبِي سَعِيد الحِمْصِيّ، قَال: سَمِعْت أَبَا هُرَيْرَة يَقُول: دُعَاء سَمِعْته مِنْ رَسُول الله ﷺ لا أَدَعهُ: «اللَّهُمَّ؛ اجْعَلنِي أُعْظِم شُكْرك، وَأَتْبَع نَصِيحَتك، وَأُكْثِر ذِكْرك، وَأَحْفَظ وَصِيَّتك»[2]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ يَحْيَى بْن مُوسَى، عَنْ وَكِيع، عَنْ أَبِي فَضَالة الفَرَج بْن فَضَالة، عَنْ أَبِي سَعِيد الحِمْصِيّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة فَذَكَرَ مِثْله، وَقَال: غَرِيب. وَهَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا عَنْ أَبِي النَّضْر هَاشِم بْن القَاسِم، عَنْ فَرَج بْن فَضَالة، عَنْ أَبِي سَعِيد المدني، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة فَذَكَرَه.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، عَنْ مُعَاوِيَة بْن صَالح، عَنْ عَمْرو بْن قَيْس، قَال: سَمِعْت عَبْد الله بْن بُسْر يَقُول: جَاءَ أَعْرَابِيَّانِ إِلى رَسُول الله ﷺ، فَقَال أَحَدهمَا: يَا رَسُول الله، أَيّ النَّاس خَيْر؟ قَال: «**مَنْ طَال عُمُره وَحَسُنَ عَمَله**»[3]. وَقَال الآخَر: يَا رَسُول الله؛ إِنَّ شَرَائِع الإِسْلام قَدْ كَثُرَتْ عَليْنَا، فَمُرْنِي بِأَمْرٍ أَتَشَبَّث بِهِ. قَال: «**لا يَزَال لسَانك رَطْبًا بِذِكْرِ الله**»[4]. وَرَوَى التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ الفَصْل الثَّانِي، مِنْ حَدِيث مُعَاوِيَة ابْن صَالح بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن غَرِيب.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سريج، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب، عَنْ عَمْرو بْن الحَارِث، قَال: إِنَّ دَرَّاجًا أَبَا السَّمْح حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِي الهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «أَكْثِرُوا ذِكْر الله حَتَّى يَقُولُوا: مَجْنُون»[5]. وَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن أَحْمَد، حَدَّثَنَا عُقْبَة بْن مُكَرَّم العَمِّيّ، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن سُفْيَان الجَحْدَرِيّ، حَدَّثَنَا الحَسَن بْن أَبِي جَعْفَر، عَنْ عُقْبَة بْن أَبِي ثبيت الرَّاسِبِيّ، عَنْ أَبِي الجَوْزَاء، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا حَتَّى يَقُول المُنَافِقُون: تُرَاءُونَ»[6].

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد مَوْلى بَنِي هَاشِم، حَدَّثَنَا شَدَّاد أَبُو طَلحَة الرَّاسِبِيّ، سَمِعْت أَبَا الوزاع جَابِر بْن عَمْرو يُحَدِّث عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**مَا مِنْ قَوْم جَلسُوا مَجْلسًا لمْ يَذْكُرُوا الله فِيهِ إِلاَّ رَأَوْهُ حَسْرَة يَوْم القِيَامَة**»[7]. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾: إِنَّ الله تَعَالى لمْ يَفْرِض عَلى عِبَاده فَرِيضَة إِلَّا جَعَل لهَا حَدًّا مَعْلُومًا، ثُمَّ عَذَرَ أَهْلهَا فِي حَال عذر، غَيْر الذِّكْر، فَإِنَّ الله لمْ يَجْعَل لهُ حَدًّا يَنْتَهِي إِليْهِ، وَلمْ يَعْذُر أَحَدًا فِي تَرْكه، إِلَّا مَغْلُوبًا عَلى تَرْكه، فَقَال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾، بِاللَّيْل وَالنَّهَار، فِي البَرّ وَالبَحْر، وَفِي السَّفَر وَالحَضَر، وَالغِنَى وَالفَقْر، وَالصِّحَّة

---

(١) حسن: تقدم.
(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٢/ ٤٧٧) وفيه فرج بن فضالة: ضعيف.
(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٢٩)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».
(٥) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٦٨) وفيه دراج: ضعيف في روايته عن أبي الهيثم.
(٦) ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني (١٢/ ١٦٩)، وفيه الحسن بن أبي جعفر الجعفري: ضعيف. وقال الألباني ضعيف جدًا انظر «ضعيف الجامع الصغير» (٧٣٨).
(٧) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٤)، وفيه شداد أبو طلحة: صدوق يخطئ: وصححه الألباني، انظر «الصحيحة» (٨٠).

وَالسَّقَم، وَالسِّرّ وَالعَلانِيَة، وَعَلى كُلّ حَال، وَقَال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. فَإِذَا فَعَلتُمْ ذَلكَ صَلَّى عَليكُمْ هُوَ وَمَلائِكَته. وَالأَحَادِيث وَالآيَات وَالآثَار فِي الحَثّ عَلى ذِكْر الله كَثِيرَة جِدًّا، وَفِي هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة الحَثّ عَلى الإِكْثَار مِنْ ذَلكَ، وَقَدْ صَنَّفَ النَّاس فِي الأَذْكَار المُتَعلِّقَة بِآنَاءِ اللَّيْل وَالنَّهَار كَالنَّسَائِيِّ وَالمَعْمَرِيّ وَغَيْرهمَا، وَمِنْ أَحْسَن الكُتُب المُؤَلَّفَة فِي ذَلكَ كِتَاب «الأَذْكَار» للشَّيْخ مُحْيِي الدِّين النَّوَوِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَوْله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، أَيْ: عِنْد الصَّبَاح وَالمَسَاء، كَقَوْلِهِ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾. وَقَوْله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾، هَذَا تَهْيِيج إِلى الذِّكْر، أَيْ: إِنَّهُ سُبْحَانه يَذْكُركُمْ فَاذْكُرُوهُ أَنْتُمْ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، وَقَال النَّبِيّ ﷺ: «**يَقُول الله: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسه ذَكَرْته فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأ ذَكَرْته فِي مَلأ خَيْر مِنْهُم**»[1]. وَالصَّلاة مِنْ الله ثَنَاؤُهُ عَلى العَبْد عِنْد المَلائِكَة. حَكَاهُ البُخَارِيّ عَنْ أَبِي العَالِيَة، وَرَوَاهُ أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس عَنْهُ. وَقَال غَيْره: الصَّلاة مِنْ الله الرَّحْمَة. وَقَدْ يُقَال: لا مُنَافَاة بَيْن القَوْلَيْنِ، وَالله أَعْلم.

وَأَمَّا الصَّلاة مِنْ المَلائِكَة فَبِمَعْنَى الدُّعَاء للنَّاسِ وَالاسْتِغْفَار، كَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ الآيَة. وَقَوْله: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، أَيْ: بِسَبَب رَحْمَته بِكُمْ وَثَنَائِهِ عَليكُمْ وَدُعَاء مَلائِكَته لكُمْ، يُخْرِجكُمْ مِنْ ظُلُمَات الجَهْل وَالضَّلال إِلى نُور الهُدَى وَاليَقِين. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ هَدَاهُمْ إِلى الحَقّ الَّذِي جَهِلهُ غَيْرهمْ، وَبَصَّرَهُمْ الطَّرِيق الَّذِي ضَلَّ عَنْهُ وَحَادَ عَنْهُ مَنْ سِوَاهُمْ من الدُّعَاة إِلى الكُفْر أَوْ البِدْعَة وأشياعهم مِنْ الطَّغَام. وَأَمَّا رَحْمَته بِهِمْ فِي الآخِرَة فَأَمَّنَهُمْ مِنْ الفَزَع الأَكْبَر، وَأَمَرَ مَلائِكَته يَتَلقَّوْنَهُمْ بِالبِشَارَةِ بِالفَوْزِ بِالجَنَّةِ وَالنَّجَاة مِنْ النَّار، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لمَحَبَّتِهِ لهُمْ وَرَأْفَته بِهِمْ.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي عَدِيّ، عَنْ حُمَيْد، عَنْ أَنَس رضي الله عنه قَال: مَرَّ رَسُول الله ﷺ فِي نَفَر مِنْ أَصْحَابه وَصَبِيّ فِي الطَّرِيق، فَلمَّا رَأَتْ أُمّه القَوْم خَشِيَتْ عَلى وَلدهَا أَنْ يُوطَأ، فَأَقْبَلتْ تَسْعَى وَتَقُول: ابْنِي! ابْنِي! وَسَعَتْ فَأَخَذَتْهُ، فَقَال القَوْم: يَا رَسُول الله، مَا كَانَتْ هَذِهِ لتُلقِي ابْنهَا فِي النَّار. قَال: فَخَفَضَهُمْ رَسُول الله ﷺ وَقَال: «**لا وَالله لا يُلقِي حَبِيبه فِي النَّار**»[2]. إِسْنَاده عَلى شَرْط «الصَّحِيحَيْنِ»، وَلمْ يُخَرِّجهُ أَحَد مِنْ أَصْحَاب الكُتُب السِّتَّة، وَلكِنْ فِي صَحِيح الإِمَام البُخَارِيّ، عَنْ أَمِير المُؤْمِنِينَ عُمَر بْن الخَطَّاب أَنَّ رَسُول الله ﷺ رَأَى امْرَأَة مِنْ السَّبْي قَدْ أَخَذَتْ صَبِيًّا لهَا، فأَلصقته إِلى صَدْرهَا، وَأَرْضَعَتْهُ فَقَال: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ تُلقِي وَلدهَا فِي النَّار وَهِيَ تَقْدِر عَلى ذَلكَ؟**». قَالُوا: لا. قَال: «**فَوَالله للهُ أَرْحَم بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلدِهَا**».[3]

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٠٤)، والحاكم (٤/ ١٧٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٤٠٧).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٥٩٩٩).

وَقَوْله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾، الظَّاهِر أَنَّ الْمُرَاد -وَالله أَعْلَم- ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أَيْ: مِنْ الله تَعَالَى يَوْم يَلْقَوْنَهُ ﴿سَلَٰمٌ﴾، أَيْ: يَوْم يُسَلِّم عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾. وَزَعَمَ قَتَادَة أَنَّ الْمُرَاد أَنَّهُمْ يتحون بَعْضهمْ بَعْضًا بِالسَّلامِ يَوْم يَلْقَوْنَ الله فِي الدَّار الآخِرَة، وَاخْتَارَهُ ابْن جَرِير.

قُلت: وَقَدْ يُسْتَدَلّ لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وَقَوْله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾، يَعْنِي: الجَنَّة وَمَا فِيهَا مِنْ المَآكِل وَالمَشَارِب، وَالمَلابِس وَالمَسَاكِن، وَالمَنَاكِح وَالمَلاذّ وَالمَنَاظِر، وما لا عَيْن رَأَتْ، وَلا أُذُن سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْب بَشَر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُوسَى بْن دَاوُدَ، حَدَّثَنَا فُلَيْح بْن سُلَيْمَان، عن هِلال بْن عَلِيّ، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، قَال: لَقِيت عَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاص فَقُلت: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَة رَسُول الله ﷺ فِي التَّوْرَاة. قَال: أَجَل، وَالله إِنَّهُ لَمَوْصُوف فِي التَّوْرَاة بِصِفَته فِي القُرْآن: يَا أَيُّهَا النَّبِيّ إِنَّا أَرْسَلنَاك شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَحِرْزًا للأُمِّيِّينَ، أنت عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُك المُتَوَكِّل لست بِفَظٍّ وَلا غَلِيظ وَلا سَخَّاب فِي الأَسْوَاق، وَلا يَدْفَع السَّيِّئَة بِالسَّيِّئَة، وَلكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِر، وَلنْ يَقْبِضهُ الله حَتَّى يُقِيم بِهِ المِلَّة العَوْجَاء، بِأَنْ يَقُولُوا: لا إِله إِلَّا الله، فَيَفْتَح بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلفًا.[1] وَقَدْ رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي «البُيُوع» عَنْ مُحَمَّد بْن سِنَان، عَنْ فُلَيْح بْن سُلَيْمَان، عَنْ هِلال ابْن عَلِيّ، بِهِ. وَرَوَاهُ فِي التَّفْسِير عَنْ عَبْد الله -قِيل: ابْن رَجَاء، وَقِيل: ابْن صَالح- عَنْ عَبْد العَزِيز بْن أَبِي سَلمَة، عَنْ هِلال، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْد الله بْن رَجَاء، عَنْ عَبْد العَزِيز بْن أَبِي سَلمَة المَاجِشُون بِهِ.

وَقَال البُخَارِيّ فِي البُيُوع: وَقَال سَعِيد عَنْ هِلال عَنْ عَطَاء عَنْ عَبْد الله بْن سَلَّام. وَقَال وَهْب بْن مُنَبِّه: إِنَّ الله تَعَالى أَوْحَى إِلى نَبِيّ مِنْ أَنْبِيَاء بَنِي إِسْرَائِيل -يُقَال لَهُ: شعياء-: «أَنْ قُمْ فِي قَوْمك بَنِي إِسْرَائِيل، فَإِنِّي مُنْطِق لِسَانك بِوَحْيٍ وَأَبْعَث أُمِّيًّا مِنْ الأُمِّيِّينَ، أَبْعَثهُ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلا غَلِيظ وَلا سَخَّاب بالأَسْوَاق، لَوْ يَمُرّ إِلى جَنْب سِرَاج لمْ يُطْفِئهُ، مِنْ سَكِينَته، وَلوْ يَمْشِي عَلى القَصَب لمْ يَسْمَع مَنْ تَحْت قَدَمَيْهِ، أَبْعَثهُ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، لا يَقُول الخَنَا، أَفْتَح بِهِ أَعْيُنًا كُمْهًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلفًا، أُسَدِّدهُ لكُلّ أَمْر جَمِيل، وَأَهَب لهُ كُلّ خُلُق كَرِيم، وَأَجْعَل السَّكِينَة لبَاسه، وَالبِرّ شِعَاره، وَالتَّقْوَى ضَمِيره، وَالحِكْمَة مَنْطِقه، وَالصِّدْق وَالوَفَاء طَبِيعَته، وَالعَفْو وَالمَعْرُوف خُلُقه، وَالحَقّ شَرِيعَته، وَالعَدْل سِيرَته، وَالهُدَى إِمَامه، وَالإِسْلام مِلَّته، وَأَحْمَد اسْمه، أَهْدِي بِهِ بَعْد الضَّلالة، وَأُعْلم بِهِ بَعْد الجَهَالة، وَأَرْفَع بِهِ بَعْد الخَمَالة، وَأُعَرِّف بِهِ بَعْد النَّكِرَة، وَأُكَثِّر بِهِ بَعْد القِلَّة، وَأُغْنِي بِهِ بَعْد العَيْلة، وَأَجْمَع بِهِ بَعْد الفُرْقَة، وَأُؤَلِّف بِهِ بَيْن أُمَم مُتَفَرِّقَة، وَقُلُوب مُخْتَلفَة، وَأَهْوَاء مُتَشَتِّتَة، وَأَسْتَنْقِذ بِهِ فِئَامًا مِنْ النَّاس عَظِيمَة مِنْ الهَلكَة، وَأَجْعَل أُمَّته خَيْر أُمَّة أُخْرِجَتْ للنَّاسِ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ المُنْكَر، مُوَحِّدِينَ مُؤْمِنِينَ مُخْلِصِينَ، مُصَدِّقِينَ لمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلِي، أُلهِمهُمْ التَّسْبِيح وَالتَّحْمِيد، وَالثَّنَاء وَالتَّكْبِير وَالتَّوْحِيد، فِي مَسَاجِدهمْ وَمَجَالسهمْ، وَمَضَاجِعهمْ وَمُنْقَلبهمْ وَمَثْوَاهُمْ، يُصَلُّونَ لي قِيَامًا وَقُعُودًا، وَيُقَاتِلُونَ فِي سَبِيل الله صُفُوفًا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢١٢٥)، وأحمد (٢/ ١٧٤).

وَزَحُوفًا، وَيَخْرُجُونَ مِنْ دِيَارِهِمْ ابْتِغَاء مَرْضَاتِي أُلُوفًا، يُطَهِّرُون الوُجُوه وَالأَطْرَاف، وَيَشُدُّونَ الثِّيَاب فِي الأَنْصَاف، قُرْبَانهمْ دِمَاؤُهُمْ، وَأَنَاجِيلهمْ فِي صُدُورهمْ، رُهْبَان بِاللَّيْل لُيُوث بِالنَّهَار، وَأَجْعَل فِي أَهْل بَيْته وَذُرِّيَّته السَّابِقِينَ، وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ، أُمَّته مِنْ بَعْده يَهْدُونَ بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ، أُعِزّ مَنْ نَصَرَهُمْ، وَأُؤَيِّد مَنْ دَعَا لَهُمْ، وَأَجْعَل دَائِرَة السَّوْء عَلى مَنْ خَالَفَهُمْ أَوْ بَغَى عَلَيْهِمْ، أَوْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَزِع شَيْئًا مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ، أَجْعَلهُمْ وَرَثَة لِنَبِيِّهِمْ، وَالدَّاعِيَة إِلى رَبِّهِمْ، يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ المُنْكَر، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاة وَيُؤْتُونَ الزَّكَاة وَيُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ، أَخْتِم بِهِمْ الخَيْر الَّذِي بَدَأْته بِأَوَّلِهِمْ، ذَلِكَ فَضْلِي أُؤْتِيه مَنْ أَشَاء، وَأَنَا ذُو الفَضْل العَظِيم». هَكَذَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه اليَمَانِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثُمَّ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن صَالِح، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مُحَمَّد بْن عُبَيْد الله العرزمي، عَنْ شَيْبَان النَّحْوِيّ، أَخْبَرَنِي قَتَادَة، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾، وَقَدْ كَانَ أَمَرَ عَلِيًّا وَمُعَاذًا أَنْ يَسِيرَا إِلى اليَمَن فَقَال: «**انْطَلِقَا فَبَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا، إِنَّهُ قَدْ أُنْزِل عَلَيَّ**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾». وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ عَنْ مُحَمَّد بْن نَصْر بْن حُمَيْد البَزَّاز البَغْدَادِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن صَالِح الأَزْدِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن مُحَمَّد بْن عُبَيْد الله العَرْزَمِيّ، بِإِسْنَادِهِ مِثْله، وَقَال فِي آخِره: «فَإِنَّهُ قَدْ أُنْزِل عَلَيَّ: يَا أَيُّهَا النَّبِيّ إِنَّا أَرْسَلْنَاك شَاهِدًا عَلى أُمَّتك وَمُبَشِّرًا بِالجَنَّة، وَنَذِيرًا مِنْ النَّار، وَدَاعِيًا إِلى شَهَادَة أَنْ لا إِله إِلاَّ الله بِإِذْنِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا بِالقُرْآنِ».[1] فَقَوْله تَعَالى: ﴿شَٰهِدًا﴾، أَيْ: لله بِالوَحْدَانِيَّة، وَأَنَّهُ لا إِله غَيْره، وَعَلى النَّاس بِأَعْمَالِهِمْ يَوْم القِيَامَة، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾. وَقَوْله: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾، أَيْ: بَشِيرًا لِلمُؤْمِنِينَ بِجَزِيل الثَّوَاب، وَنَذِيرًا لِلكَافِرِينَ مِنْ وَبِيل العِقَاب. وَقَوْله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أَيْ: دَاعِيًا لِلخَلْقِ إِلى عِبَادَة رَبّهِمْ عَنْ أَمْره لَك بِذَلِكَ ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾، أَيْ: وَأَمْرك ظَاهِر فِيمَا جِئْت بِهِ مِنْ الحَقّ، كَالشَّمْسِ فِي إِشْرَاقهَا وَإِضَاءَتهَا، لا يَجْحَدهَا إِلَّا مُعَانِد.

وَقَوْله: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾، أَيْ: لا تُطِعْهُمْ وَتَسْمَع مِنْهُمْ فِي الَّذِي يَقُولُونَهُ، ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾، أَيْ: اصْفَحْ وَتَجَاوَزْ عَنْهُمْ، وَكِل أَمْرهمْ إِلى الله، فَإِنَّ فِيهِ كِفَايَة لَهُمْ، وَلِهَذَا قَال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾.

هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة فِيهَا أَحْكَام كَثِيرَة، مِنْهَا: إِطْلَاق النِّكَاح عَلى العَقْد وَحْده، وَلَيْسَ فِي القُرْآن آيَة أَصْرَح فِي ذَلِكَ مِنْهَا، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي النِّكَاح: هَل هُوَ حَقِيقَة فِي العَقْد وَحْده، أَوْ فِي الوَطْء، أَوْ فِيهِمَا؟ عَلى ثَلَاثَة أَقْوَال، وَاسْتِعْمَال القُرْآن إِنَّمَا هُوَ فِي العَقْد وَالوَطْء بَعْده، إِلَّا فِي هَذِهِ الآيَة فَإِنَّهُ اسْتُعْمِل فِي العَقْد وَحْده، لِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾، وَفِيهَا دَلَالَة لِإِبَاحَةِ طَلَاق المَرْأَة قَبْل الدُّخُول بِهَا.

وَقَوْله: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خَرَجَ مَخْرَج الغَالِب؛ إِذْ لا فَرْق فِي الحُكْم بَيْن المُؤْمِنَة وَالكِتَابِيَّة فِي ذَلِكَ بِالاتِّفَاقِ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ ابْن عَبَّاس، وَسَعِيد بْن المُسَيِّب، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَعَلِيّ بْن الحُسَيْن زَيْن العَابِدِينَ، وَجَمَاعَة مِنْ السَّلَف

---

(١) ضعيف : أخرجه الطبراني (١١/ ٣١٢)، وفيه عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي: ضعيف.

بِهَذِهِ الآيَة عَلى أَنَّ الطَّلاق لا يَقَع إِلَّا إِذَا تَقَدَّمَهُ نِكَاح، لأَنَّ الله تَعَالى قَال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، فَعقَّبَ النِّكَاح بِالطَّلاقِ، فَدَلَّ عَلى أَنَّهُ لا يَصِحّ وَلا يَقَع قَبْله. وَهَذَا مَذْهَب الشَّافِعِيّ، وَأَحْمَد بْن حَنْبَل، وَطَائِفَة كبيرة مِنْ السَّلف وَالخَلف رَحِمَهمْ الله تَعَالى. وَذَهَبَ مَالك وَأَبُو حَنِيفَة رَحِمَهمَا الله إِلى صِحَّة الطَّلاق قَبْل النِّكَاح؛ فِيمَا إِذَا قَال: إِنْ تَزَوَّجْت فُلانَة فَهِيَ طَالق. فَعِنْدهما مَتَى تَزَوَّجَهَا طَلُقَتْ مِنْهُ. وَاخْتَلفَا فِيمَا إِذَا قَال: كُلّ امْرَأَة أَتزَوَّجهَا فَهِيَ طَالق. فَقَال مَالك: لا تَطْلُق حَتَّى يُعَيِّن المَرْأَة. وَقَال أَبُو حَنِيفَة رَحِمَهُ اللهُ: كُلّ امْرَأَة يَتَزَوَّجها بَعْد هَذَا الكَلام تَطْلُق مِنْهُ. فَأَمَّا الجُمْهُور فَاحْتَجُّوا عَلى عَدَم وُقُوع الطَّلاق بِهَذِهِ الآيَة.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَحْمَد بْن مَنْصُور المَرْوَزِيّ، حَدَّثَنَا النَّضر بْن شُمَيْلٍ، حَدَّثنَا يُونُس -يَعْنِي: ابْن أَبِي إِسْحَاق- سَمِعْت آدَم مَوْلى خَالد، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: إِذَا قَال: كُلّ امْرَأَة أَتزَوَّجهَا فَهِيَ طَالق. قَال: لَيْس بِشَيْءٍ مِنْ أَجْل أَنَّ الله تَعَالى يَقُول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ الآيَة. وَحَدَّثنَا مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل الأَحْمَسِيّ، حَدَّثنَا وَكِيع، عَنْ مَطَر، عَنْ الحَسَن بْن مُسْلم بْن يَنَّاق، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَال: إِنَّمَا قَال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، أَلا تَرَى أَنَّ الطَّلاق بَعْد النِّكَاح.

وَهَكَذَا رَوَى مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ دَاوُدَ بْن الحُصَيْن، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَال: قَال الله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فَلا طَلاق قَبْل النِّكَاح. وَقَدْ وَرَدَ الحَدِيث بِذَلكَ عَنْ عَمْرو بْن شُعَيْب، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«لا طَلاق لابْنِ آدَم فِيمَا لا يَمْلك»**.[1] رَوَاهُ الإِمام أَحْمَد وَالتِّرْمِذِيّ وَأَبُو دَاوُدَ، وَابْن مَاجَهْ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن، وَهُوَ أَحْسَن شَيْء رُوِيَ فِي هَذَا البَاب. وَهَكَذَا رَوَى ابْن مَاجَهْ عَنْ عَلِيّ والمِسْوَر بْن مَخْرَمَةَ عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: **«لا طَلاق قَبْل النِّكَاح»**.[2]

وَقَوْله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾، هَذَا أَمْر مُجْمَع عَلَيْهِ بَيْن العُلَماء: أَنَّ المَرْأَة إِذَا طُلِّقَتْ قَبْل الدُّخُول بِهَا لا عِدَّة عَلَيْهَا فَتَذْهَب فَتَتَزَوَّج فِي فَوْرهَا مَنْ شَاءَتْ، وَلا يُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا إِلَّا المُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجهَا، فَإِنَّهَا تَعْتَدّ مِنْهُ أَرْبَعَة أَشْهُر وَعَشْرًا، وَإِنْ لمْ يَكُنْ دَخَل بِهَا بِالإِجْمَاع أَيْضًا. وَقَوْله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ المُتْعَة هَهُنَا أَعَمّ مِنْ أَنْ تَكُون نِصْف الصَّدَاق المُسَمَّى، أَوْ المُتْعَة الخَاصَّة، إِنْ لمْ يَكُنْ قَدْ سَمَّى لهَا.

قَال الله تَعَالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾. وَقَال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وَفِي «صَحِيح البُخَارِيّ»، عَنْ سَهْل بْن سَعْد وَأَبِي أُسَيْدٍ أَنَّ رَسُول الله ﷺ تَزَوَّجَ أُمَيْمَة بِنْت شَرَاحِيل، فَلَمَّا أَنْ دَخَلتْ عَلَيْهِ بَسَطَ يَده إِلَيْهَا، فَكَأَنَّهَا كَرِهَتْ ذَلكَ، فَأَمَرَ أَبَا أُسَيْدٍ أَنْ يُجَهِّزهَا وَيَكْسُوهَا ثَوْبَيْنِ رَازِقِيَّيْنِ.[3] قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إِنْ كَانَ سَمَّى لهَا صَدَاقًا فَلَيْسَ لهَا إِلَّا النِّصْف، وَإِنْ لمْ يَكُنْ سَمَّى لهَا صَدَاقًا فَأَمْتَعَهَا عَلى قَدْر عُسْره وَيُسْره، وَهُوَ السَّرَاح الجَمِيل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا

---

(١) حسـن : أخرجه أبو داود (٢١٩٠)، وابن ماجه (٢٠٤٧)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود وابن ماجه».
(٢) حسن صحيح : أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٨)، وقال الألباني: حسن صحيح في «صحيح سنن ابن ماجه».
(٣) صحيح : أخرجه البخاري (٥٢٥٦).

﴿لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخَاطِبًا نَبِيّه ﷺ بِأَنَّهُ قَدْ أَحَلَّ لهُ مِنَ النِّسَاء أَزْوَاجه اللَّاتِي أَعْطَاهُنَّ مُهُورهنَّ، وَهِيَ الأُجُور هَهُنَا. كَمَا قَالهُ مُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد، وَقَدْ كَانَ مَهْره لِنِسَائِهِ اثْنَتَيْ عَشْرَة أُوقِيَّة وَنَشًا وَهُوَ نِصْف أُوقِيَّة، فَالجَمِيع خَمْسمِائَة دِرْهَم. إِلَّا أُمّ حَبِيبَة بِنْت أَبِي سُفْيَان فَإِنَّهُ أَمْهَرَهَا عَنْهُ النَّجَاشِيّ -رحمه الله- أَرْبَعمِائَة دِينَار، وَإِلَّا صَفِيَّة بِنْت حُيَيّ فَإِنَّهُ اصْطَفَاهَا مِنْ سَبْي خَيْبَر، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَجَعَل عِتْقهَا صَدَاقهَا. وَكَذَلِكَ جُوَيْرِيَة بِنْت الحَارِث المُصْطَلِقِيَّة، أَدَّى عَنْهَا كِتَابَتهَا إِلَى ثَابِت بْن قَيْس بْن شَمَّاس وَتَزَوَّجهَا، رَضِيَ الله عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ.

وَقَوْله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾، أَيْ: وَأَبَاحَ لك التَّسَرِّي مِمَّا أَخَذْت مِنَ المَغَانِم، وَقَدْ مَلَكَ صَفِيَّة وَجُوَيْرِيَة فَأَعْتَقَهُمَا وَتَزَوَّجَهُمَا. وَمَلَك رَيْحَانَة بِنْت شَمْعُون النَّضْرِيَّة، وَمَارِيَة القِبْطِيَّة أُمّ ابْنه إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَتَا مِنْ السَّرَارِيّ رضي الله عنهما. وَقَوْله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، هَذَا عَدْل وَسَط بَيْن الإِفْرَاط وَالتَّفْرِيط، فَإِنَّ النَّصَارَى لا يَتَزَوَّجُونَ المَرْأَة إِلَّا إِذَا كَانَ الرَّجُل بَيْنه وَبَيْنهَا سَبْعَة أَجْدَاد فَصَاعِدًا، وَاليَهُود يَتَزَوَّج أَحَدهمْ بِنْت أَخِيهِ وَبِنْت أُخْته، فَجَاءَتْ هَذِهِ الشَّرِيعَة الكَامِلة الطَّاهِرَة بِهَدْم إِفْرَاط النَّصَارَى، فَأَبَاحَ بِنْت العَمّ وَالعَمَّة، وَبِنْت الخَال وَالخَالة، وَتَحْرِيم مَا فَرَّطَتْ فِيهِ اليَهُود مِنْ إِبَاحَة بِنْت الأَخ وَالأُخْت، وَهَذَا [شَنِيع][1] فَظِيع. وَإِنَّمَا قَال: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ فَوَحَّدَ لَفْظ الذَّكَر لِشَرَفِهِ، وَجَمَعَ الإِنَاث لِنَقْصِهِنَّ، كَقَوْلِهِ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وَلهُ نَظَائِر كَثِيرَة.

وَقَوْله: ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قَال ابْن أَبِي حَاتِم رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَمَّار بْن الحَارِث الرَّازِيّ، حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل، عَنْ السُّدِّيّ، عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ أُمّ هَانِئ قَالتْ: خَطَبَنِي رَسُول الله ﷺ فَاعْتَذَرْت إِلَيْهِ فَعَذَرَنِي، ثُمَّ أَنْزَل الله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، قَالتْ: فَلمْ أَكُنْ أَحِلّ لهُ، ولمْ أَكُنْ مِمَّنْ هَاجَرَ مَعَهُ، كُنْت مِنْ الطُّلَقَاء.[2] وَرَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ عُبَيْد الله بْن مُوسَى بِهِ. ثُمَّ رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالد عَنْ أَبِي صَالح، عَنْهَا بِنَحْوِهِ. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي «جَامِعه». وَهَكَذَا قَال أَبُو رَزِين وَقَتَادَة: إِنَّ المُرَاد: مَنْ هَاجَرَ مَعَهُ إِلَى المَدِينَة. وَفِي رِوَايَة عَنْ قَتَادَة: ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أَيْ: أَسْلمْنَ. وَقَال الضَّحَّاك: قَرَأَ ابْن مَسْعُود: (واللاتي هاجرت مِنْ مَعَك).

وَقَوْله: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾، أَيْ: وَيُحِلّ لك -يا أَيّهَا النَّبِيّ- المَرْأَة المُؤْمِنَة إذا وَهَبَتْ نَفْسهَا لك أَنْ تَتَزَوَّجها بِغَيْرِ مَهْر إِنْ شِئْت ذَلكَ. وَهَذِهِ الآيَة تَوَالى فِيهَا شَرْطَانِ، كَقَوْلِهِ تَعَالى إِخْبَارًا عَنْ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قَال لقَوْمِهِ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾، وَكَقَوْل مُوسَى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾، وَقَال هَهُنَا: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾.

---

(١) في نسخة: [بشع].

(٢) ضعيف جدًا: أخرجه الطبري (٢٢/ ١٥)، والترمذي (٣٢١٤)، وقال الألباني: ضعيف جدًا. وانظر «ضعيف سنن الترمذي».

وَقَدْ قَال الإمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْحَاق، أَخْبَرَنَا مَالك، عَنْ أَبِي حَازِم، عَنْ سَهْل بْن سَعْد السَّاعِدِيّ: أَنَّ رَسُول الله ﷺ جَاءَتْهُ امْرَأَة فَقَالتْ: يَا رَسُول الله؛ إِنِّي قَدْ وَهَبْت نَفْسِي لك. فَقَامَتْ قِيَامًا طَوِيلًا، فَقَامَ رَجُل فَقَال: يَا رَسُول الله؛ زَوِّجْنِيهَا إِنْ لمْ يَكُنْ لك بِهَا حَاجَة! فَقَال رَسُول الله ﷺ : **«هَل عِنْدك مِنْ شَيْء تُصْدِقهَا إِيَّاهُ؟»**. فَقَال: مَا عِنْدِي إِلَّا إِزَارِي هَذَا! فَقَال رَسُول الله ﷺ : **«إِنْ أَعْطَيْتهَا إِزَارك جَلَسْت لا إِزَار لك، فَالتَمِسْ شَيْئًا»**. فَقَال: لا أَجِد شَيْئًا. فَقَال: **«التَمِسْ وَلوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيد»**. فَالتَمَسَ فَلمْ يَجِد شَيْئًا، فَقَال لهُ النَّبِيّ ﷺ : **«هَل مَعَك مِنْ القُرْآن شَيْء؟»**. قَال: نَعَمْ، سُورَة كَذَا، وَسُورَة كَذَا -لِسُوَر يُسَمِّيهَا- فَقَال لهُ رسول الله ﷺ : **«زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَك مِنْ القُرْآن»**[1]. أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيث مَالك.

وَقَال الإمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَفَّان، حَدَّثَنَا مَرْحُوم، سَمِعْت ثَابِتًا يَقُول: كُنْت مَعَ أَنَس جَالسًا وَعِنْده ابْنَة لهُ، فَقَال أَنَس: جَاءَتْ امْرَأَة إِلى النَّبِيّ ﷺ فَقَالتْ: يَا نَبِيّ الله، هَل لك فِيَّ حَاجَة؟ فَقَالتْ ابْنَته: مَا كَانَ أَقَلّ حَيَاءَهَا فَقَال: هِيَ خَيْر مِنْك، رَغِبَتْ فِي النَّبِيّ ﷺ فَعَرَضَتْ عَليْهِ نَفْسهَا[2]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ البُخَارِيّ، مِنْ حَدِيث مَرْحُوم ابْن عَبْد العَزِيز، عَنْ ثَابِت البُنَانِيّ، عَنْ أَنَس بِهِ. وَقَال أَحْمَد أَيْضًا: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن بُكَر، حَدَّثَنَا سِنَان بْن رَبِيعَة، عَنْ الحَضْرَمِيّ، عَنْ أَنَس بْن مَالك، أَنَّ امْرَأَة أَتَتْ النَّبِيّ ﷺ فَقَالتْ: يَا رَسُول الله، ابْنَة لِي كَذَا وَكَذَا. فَذَكَرَتْ مِنْ حُسْنهَا وَجَمَالهَا، فَآثَرْتُك بِهَا. فَقَال: **«قَدْ قَبِلتهَا»**. فَلمْ تَزَل تَمْدَحهَا حَتَّى ذَكَرَتْ أَنَّهَا لمْ تَصْدَع وَلمْ تَشْتَكِ شَيْئًا قَطُّ، فَقَال: **«لا حَاجَة لِي فِي ابْنَتك»**[3]. لمْ يُخَرِّجُوهُ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مَنْصُور بْن أَبِي مُزَاحِم، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي الوَضَّاح -يَعْنِي مُحَمَّد بْن مُسْلم- عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة قَالتْ: الَّتِي وَهَبَتْ نَفْسهَا للنَّبِيِّ ﷺ خَوْلة بِنْت حَكِيم.[4]

وَقَال ابْن وَهْب، عَنْ سَعِيد بْن عَبْد الرَّحْمَن وَابْن أَبِي الزِّنَاد، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ خَوْلة بِنْت حَكِيم ابْن الأَوْقَص، مِنْ بَنِي سَليم، كَانَتْ مِنْ اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسهنَّ لرَسُول الله ﷺ . وَفِي رِوَايَة لهُ عَنْ سَعِيد بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ هِشَام عَنْ أَبِيهِ، كُنَّا نَتَحَدَّث أَنَّ خَوْلة بِنْت حَكِيم كَانَتْ وَهَبَتْ لرَسُول الله ﷺ ، وَكَانَتْ امْرَأَة صَالحَة. فَيَحْتَمِل أَنَّ أُمّ سُليْم هِيَ خَوْلة بِنْت حَكِيم أَوْ هِيَ امْرَأَة أُخْرَى.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل الأَحْمَسِيّ، حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ مُحَمَّد ابْن كَعْب، وَعُمَر بْن الحَكَم، وَعَبْد الله بْن عُبَيْدَة؛ قَالُوا: تَزَوَّجَ رَسُول الله ثَلاث عَشْرَة امْرَأَة، سِتّ مِنْ قُرَيْش، خَدِيجَة، وَعَائِشَة، وَحَفْصَة، وَأُمّ حَبِيبَة، وَسَوْدَة، وَأُمّ سَلمَة، وثلاث مِنْ بَنِي عَامِر بْن صَعْصَعَة، وَامْرَأَتَان مِنْ بَنِي هِلال بْن عَامِر: مَيْمُونَة بِنْت الحَارِث، وَهِيَ الَّتِي وَهَبَتْ نَفْسهَا للنَّبِيِّ ﷺ ، وَزَيْنَب أُمّ المَسَاكِين، وَامْرَأَة مِنْ بَنِي أَبِي بَكْر ابْن كِلاب مِنْ القُرَطَاء، وَهِيَ الَّتِي اخْتَارَتْ الدُّنْيَا. وَامْرَأَة مِنْ بَنِي الجَوْن، وَهِيَ الَّتِي اسْتَعَاذَتْ مِنْهُ، وَزَيْنَب بِنْت جَحْش الأَسَدِيَّة، وَالسَّبِيَّتَان صَفِيَّة بِنْت حُيَيّ بْن أَخْطَب، وَجُوَيْرِيَة بِنْت الحَارِث بْن عَمْرو بْن المُصْطَلق الخُزَاعِيَّة. وَقَال سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة، عَنْ قَتَادَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، قَال: هِيَ مَيْمُونَة بِنْت الحَارِث. فِيهِ انْقِطَاع، هذا مُرْسَل، وَالمَشْهُور أَنَّ زَيْنَب

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٢٣١٠)، ومسلم (١٤٢٥)، وأحمد (٥/ ٣٣٨).
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٥١٢٠)، وأحمد (٣/ ٢٦٨).
(٣) حسن : أخرجه أحمد (٣/ ١٥٥)، وأبو يعلي (٤٢٣٤)، والهيثمي (٢/ ٢٩٤).
(٤) صحيح : أخرجه البيهقي (٧/ ٥٥)، والطبري (٢٢/ ٢٣)، وفيه محمد بن مسلم: صدوق.

الَّتِي كَانَتْ تُدْعَى أُمّ المساكين هِيَ زَيْنَب بِنْت خُزَيْمَةَ الأَنْصارِيَّة، وَقَدْ مَاتَتْ عِنْد النَّبِيّ ﷺ فِي حَيَاته، فَالله أَعْلم. وَالغَرَض مِنْ هَذَا أَنَّ اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسهنَّ للنَّبِيِّ ﷺ كَثِير، كَمَا قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْن يَحْيَى، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَة قَال هِشَام بْن عُرْوَة: حَدَّثَنَا عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة قَالتْ: كُنْت أَغَار مِنْ اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسهنَّ للنَّبِيِّ ﷺ، وَأَقُول: أَتهَبُ المَرْأَة نَفْسهَا؟ فَلَمَّا أَنْزَل الله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾، قُلت: مَا أَرَى رَبّك إِلَّا يُسَارِع فِي هَوَاك.[١]

وَقَدْ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مَنْصُور الجُعْفِيّ، حَدَّثَنَا يُونُس بْن بُكَيْر، عَنْ عَنْبَسَة بْن الأَزْهَر، عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: لمْ يَكُنْ عِنْد رَسُول الله ﷺ امْرَأَة وَهبَتْ نَفْسهَا لهُ.[٢] وَرَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ أَبِي كُرَيْب عَنْ يُونُس بْن بُكَيْر. أَيْ: أَنَّهُ لمْ يَقْبَل وَاحِدَة مِمَّنْ وَهبَتْ نَفْسهَا لهُ، وَإِنْ كَانَ ذَلكَ مُبَاحًا لهُ وَمَخْصُوصًا بِهِ؛ لأَنَّهُ مَرْدُود إِلى مَشِيئَته، كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾، أَيْ: إِنْ اخْتَار ذَلكَ.

وَقَوْله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾، قَال عِكْرِمَة: أَيْ لا تَحِلّ المَوْهُوبَة لغَيْرِك، وَلوْ أَنَّ امْرَأَة وَهبَتْ نَفْسهَا لرَجُلٍ لمْ تَحِلّ لهُ حَتَّى يُعْطِيهَا شَيْئًا. وَكَذَا قَال مُجَاهِد وَالشَّعْبِيّ وَغَيْرهمَا. أَيْ: أَنَّهَا إِذَا فَوَّضَتْ المَرْأَة نَفْسهَا إِلى رَجُل فَإِنَّهُ مَتَى دَخَل بِهَا وَجَبَ لها عَليْهِ مَهْر مِثْلهَا، كَمَا حَكَمَ بِهِ رَسُول الله ﷺ فِي بَرْوع بِنْت وَاشِق لـمَّا فَوَّضَتْ، فَحَكَمَ لها رَسُول الله ﷺ بِصَدَاقِ مِثْلهَا لمَّا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجهَا، وَالمَوْت وَالدُّخُول سَوَاء فِي تَقْرِير المَهْر، وَثُبُوت مَهْر المِثْل فِي المُفَوِّضَة لغَيْرِ النَّبِيّ ﷺ، فَأَمَّا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُ لا يَجِب عَليْهِ للمُفَوِّضَةِ شَيْء وَلوْ دَخَل بِهَا؛ لأَنَّ لهُ أَنْ يَتَزَوَّج بِغَيْرِ صَدَاق وَلا وَليّ وَلا شُهُود، كَمَا فِي قِصَّة زَيْنَب بِنْت جَحْش رضي الله عنها؛ وَلهَذَا قَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ﴾، يَقُول: ليْسَ لامْرَأَةٍ تَهَب نَفْسهَا لرَجُلٍ بِغَيْرِ وَليّ وَلا مَهْر إِلَّا للنَّبِيِّ ﷺ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، قَال أُبَيّ بْن كَعْب، وَمُجَاهِد، وَالحَسَن، وَقَتَادَة وَابْن جَرِير فِي قَوْله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾، أَيْ: مِنْ حَصْرهمْ فِي أَرْبَع نِسْوَة حَرَائِر وَمَا شَاءُوا مِنْ الإِمَاء، وَاشْتِرَاط الوَليّ وَالمَهْر وَالشُّهُود عَليْهِمْ، وَهُمْ الأُمَّة، وَقَدْ رَخَّصْنَا لك فِي ذَلك، فَلمْ نُوجِب عَليْك شَيْئًا مِنْهُ، ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن بِشْر، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها: أَنَّهَا كَانَتْ تُعير النِّسَاء اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسهنَّ لرَسُول الله ﷺ قَالتْ: أَلا تَسْتَحْيِي المَرْأَة أَنْ تَعْرِض نَفْسهَا بِغَيْرِ صَدَاق؟ فَأَنْزَل الله عز وجل: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾، قَالتْ: إِنِّي أَرَى رَبّك يُسَارِع لك فِي هَوَاك.[٣] وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ البُخَارِيّ رَوَاهُ مِنْ حَدِيث أَبِى أُسَامَة، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، فَدَلَّ هَذَا عَلى أَنَّ المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿تُرْجِي﴾، أَيْ: تُؤَخِّر ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾، أَيْ: مِنْ الوَاهِبَات ﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ﴾، أَيْ: مَنْ شِئْت قَبِلتهَا، وَمَنْ شِئْت رَدَدْتهَا، وَمَنْ رَدَدْتهَا فَأَنْتَ فِيهَا أَيْضًا بِالخِيَارِ بَعْد ذَلكَ، إِنْ شِئْت عُدْت فِيهَا فَأَوَيْتهَا؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾.

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤).
(٢) ضعيف : من رواية سماك عن عكرمة وروايته عنه مضطربة.
(٣) صحيح : تقـدم.

قَال عَامِر الشَّعْبِيّ فِي قَوْله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ كُنَّ نِسَاءً وَهَبْنَ أَنْفُسهنَّ للنَّبِيِّ ﷺ، فَدَخَل بِبَعْضِهِنَّ وَأَرْجَأَ بَعْضهنَّ لَمْ يُنْكَحْنَ بَعْده، مِنْهُنَّ أُمّ شَرِيك. وَقَال آخَرُونَ: بَل المُرَاد بِقَوْلِهِ: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾، أَيْ: مِنْ أَزْوَاجِك، لا حَرَج عَلَيْك أَنْ تَتْرُك القَسْم لَهُنَّ، فَتُقَدِّم مَنْ شِئْت، وَتُؤَخِّر مَنْ شِئْت، وَتُجَامِع مَنْ شِئْت، وَتَتْرُك مَنْ شِئْت. هَكَذَا يُرْوَى عَنْ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَأَبِي رَزِين، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، وَغَيْرهمْ، وَمَعَ هَذَا كَانَ ﷺ يَقْسِم لَهُنَّ؛ وَلِهَذَا ذَهَبَ طَائِفَة مِنْ الفُقَهَاء مِنَ الشَّافِعِيَّة وَغَيْرهمْ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ القَسْم وَاجِبًا عَلَيْهِ ﷺ، وَاحْتَجُّوا بِهَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة.

وَقَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا حِبَّان بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا عَبْد الله -هُوَ ابْن المُبَارَك- أَخْبَرَنَا عَاصِم الأَحْوَل، عَنْ مُعَاذَة، عَنْ عَائِشَة: أن رَسُول الله ﷺ كَانَ يَسْتَأْذِن فِي اليَوْم المَرْأَة مِنَّا بَعْد أَنْ نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فَقُلت لهَا: مَا كُنْت تَقُولِينَ؟ فَقَالتْ: كُنْت أَقُول: إِنْ كَانَ ذَلكَ إِليَّ فَإِنِّي لا أُرِيد يَا رَسُول الله؛ أَنْ أُوْثِر عَلَيْك أَحَدًا.[1] فَهَذَا الحَدِيث عَنْهَا يَدُلّ عَلى أَنَّ المُرَاد مِنْ ذَلكَ عَدَم وُجُوب القَسْم، وَحَدِيثهَا الأَوَّل يَقْتَضِي أَنَّ الآيَة نَزَلتْ فِي الوَاهِبَات، وَمِنْ هَهُنَا اخْتَارَ ابْن جَرِير أَنَّ الآيَة عَامَّة فِي الوَاهِبَات، وَفِي النِّسَاء اللَّاتِي عِنْده، أَنَّهُ مُخَيَّر فِيهِنَّ، إِنْ شَاءَ قَسَمَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَقْسِم، وَهَذَا الَّذِي اخْتَارَهُ حَسَن جَيِّد قَوِيّ، وَفِيهِ جَمْع بَيْن الأَحَادِيث، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾، أَيْ: إِذَا عَلِمْنَ أَنَّ الله قَدْ وَضَعَ عَنْك الحَرَج فِي القَسْم، فَإِنْ شِئْت قَسَمْت، وَإِنْ شِئْت لَمْ تَقْسِم، لا جُنَاح عَلَيْك فِي أَيّ ذَلكَ فَعَلت، ثُمَّ مَعَ هَذَا أنت تَقْسِم لَهُنَّ اخْتِيَارًا مِنْك، لا أَنَّهُ عَلى سَبِيل الوُجُوب، فَرِحْنَ بِذَلكَ وَاسْتَبْشَرْنَ بِهِ، وَحَمَلنَ جَمِيلك فِي ذَلكَ، وَاعْتَرَفْنَ بِمِنَّتِك عَلَيْهِنَّ فِي قَسْمِك لَهُنَّ وَتَسْوِيَتك بَيْنهنَّ وَإِنْصَافك لَهُنَّ وَعَدْلك فِيهِنَّ.

وَقَوْله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾، أَيْ: مِنَ المَيْل إِلى بَعْضهنَّ دُون بَعْض، مِمَّا لا يُمْكِن دَفْعه، كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ أَيُّوب، عَنْ أَبِي قِلابَة، عَنْ عَبْد الله بْن يَزِيد، عَنْ عَائِشَة قَالتْ: كَانَ رَسُول الله ﷺ يَقْسِم بَيْن نِسَائِهِ فَيَعْدِل، ثُمَّ يَقُول: «اللَّهُمَّ هَذَا فِعْلي فِيمَا أَمْلك، فَلا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلك وَلا أَمْلك».[2] وَرَوَاهُ أَهْل السُّنَن الأَرْبَعَة، مِنْ حَدِيث حَمَّاد بْن سَلمَة -وَزَادَ أَبُو دَاوُدَ بَعْد قَوْله: «فَلا تَلُمْنِي فِيمَا تملك ولا أَمْلك». يَعْنِي القَلب. وَإِسْنَاده صَحِيح، وَرِجَاله كُلّهمْ ثِقَات. وَلِهَذَا عَقَّبَ ذَلكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾، أَيْ: بِضَمَائِر السَّرَائِر، ﴿حَلِيمًا﴾، أَيْ: يَحْلُم وَيَغْفِر.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾.

ذَكَرَ غَيْر وَاحِد مِنْ العُلمَاء -كَابْنِ عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَابْن زَيْد، وَابْن جَرِير، وَغَيْرهمْ- أَنَّ هَذِهِ الآيَة نَزَلتْ مُجَازَاة لأَزْوَاجِ النَّبِيّ ﷺ وَرِضًا عَنْهُنَّ، عَلى حُسْن صَنِيعهنَّ فِي اخْتِيَارهنَّ الله وَرَسُوله وَالدَّار الآخِرَة، لـمَّا خَيَّرَهُنَّ رَسُول الله ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الآيَة. فَلمَّا اخْتَرْنَ رَسُول الله ﷺ كَانَ جَزَاؤُهُنَّ أَنَّ قَصَرَهُ عَليْهِنَّ، وَحَرَّمَ عَليْهِ أَنْ يَتَزَوَّج بِغَيْرِهِنَّ، أَوْ يَسْتَبْدِل بِهِنَّ أَزْوَاجًا غَيْرهنَّ، وَلوْ أَعْجَبَهُ حُسْنهنَّ إِلَّا الإِمَاء وَالسَّرَارِيّ فَلا

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٤٧٨٩).

(٢) ضعيف : أخرجه النسائي (٣٩٤٣)، وابن ماجه (١٩٧١)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن النسائي وابن ماجه».

حَرَج عَلَيْهِ فِيهِنَّ. ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالى رَفَعَ عَنْهُ الحجر فِي ذَلِكَ وَنَسَخَ حُكْم هَذِهِ الآيَة. وَأَبَاحَ لَهُ التَّزَوُّج، وَلكِنْ لمْ يَقَع مِنْهُ بَعْد ذَلِكَ تَزَوُّج لتَكُونَ المِنَّة للرَسُول ﷺ عَلَيْهِنَّ.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثنَا سُفْيَان، عَنْ عَمْرو، عَنْ عَطَاء، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالتْ: مَا مَاتَ رَسُول الله ﷺ حَتَّى أَحَلَّ الله لهُ النِّسَاء.[1] وَرَوَاهُ أَيْضًا مِنْ حَدِيث ابْن جُرَيْج عَنْ عَطَاء عَنْ عُبَيْد بْن عُمَيْر عَنْ عَائِشَة. وَرَوَاهُ التِّرمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي «سُنَنَيْهِمَا». وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبُو زُرْعَة، حَدَّثنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْد المَلك بْن شَيْبَة، حَدَّثنِي عُمَر بْن أَبِي بَكْر، حَدَّثَنِي المُغِيرَة بْن عَبْد الرَّحْمَن الحزامي، عَنْ أَبِي النَّضْر -مَوْلى عُمَر بْن عبيد الله- عن عَبْد الله بْن وَهْب بْن زَمْعَةَ، عَنْ أُمّ سَلمَة أَنَّهَا قَالتْ: لمْ يَمُتْ رَسُول الله ﷺ حَتَّى أَحَلَّ الله لهُ أَنْ يَتَزَوَّج مِنْ النِّسَاء مَا شَاءَ، إِلَّا ذَات مَحْرَم، وَذَلكَ قَوْل الله عز وجل: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾. فَجُعِلتْ هَذِهِ نَاسِخَة للَّتِي بَعْدهَا فِي التِّلاوَة كَآيَتَيْ عِدَّة الوَفَاة فِي البَقَرَة الأُولى نَاسِخَة للَّتِي بَعْدهَا، فالله أَعْلم.

وَقَال آخَرُونَ: بَل مَعْنَى الآيَة: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، أَيْ: مِنْ بَعْد مَا ذَكَرْنَا لك مِنْ صِفَة النِّسَاء اللَّاتِي أَحْللنَا لك مِنْ نِسَائِك اللَّاتِي آتَيْت أُجُورهنَّ وَمَا مَلكَتْ يَمِينك، وَبَنَات العَمّ وَالعَمَّات وَالخَال وَالخَالات وَالوَاهِبَة وَمَا سِوَى ذَلكَ مِنْ أَصْنَاف النِّسَاء فَلا يَحِلّ لك، هَذَا مَا رُوِيَ عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب، وَمُجَاهِد، فِي رِوَايَة عَنْهُ وَعِكْرِمَة وَالضَّحَّاك -فِي رِوَايَة- وَأَبِي رَزِين -فِي رِوَايَة عَنْهُ- وَأَبِي صَالح، وَالحَسَن، وَقَتَادَة -فِي رِوَايَة- وَالسُّدِّيّ، وَغَيْرهمْ.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثنَا يَعْقُوب، حَدَّثنَا ابْن عُليَّة، عَنْ دَاوُد بْن أَبِي هِنْد، حَدَّثنِي مُحَمَّد بْن أَبِي مُوسَى، عَنْ زِيَاد -رَجُل مِنْ الأَنْصَار- قَال: قُلت لأُبَيّ بْن كَعْب: أَرَأَيْت لوْ أَنَّ أَزْوَاج النَّبِيّ ﷺ تُوفِّيْنَ، أَمَا كَانَ لهُ أَنْ يَتَزَوَّج؟ فَقَال: وَمَا يَمْنَعهُ مِنْ ذَلكَ؟ قَال: قُلت: قَوْله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾. فَقَال: إِنَّمَا أَحَلَّ الله لهُ ضَرْبًا مِنْ النِّسَاء، فَقَال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾، إِلى قَوْله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾. ثُمَّ قِيل لهُ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾. وَرَوَاهُ عَبْد الله بْن أَحْمَد مِنْ طُرُق عَنْ دَاوُد بِهِ.[2]

وَرَوَى التِّرمِذِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما قَال: نُهِيَ رَسُول الله ﷺ عَنْ أَصْنَاف النِّسَاء، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ المُؤْمِنَات المُهَاجِرَات بِقَوْلهِ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، فَأَحَلَّ الله فتيَاتكُمْ المُؤْمِنَات ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، وَحَرَّمَ كُلّ ذَات دِين غَيْر الإِسْلام، ثُمَّ قَال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.[3]

وَقَال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ إِلى قَوْله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وَحَرَّمَ مَا سِوَى ذَلكَ مِنْ أَصْنَاف النِّسَاء. وَقَال مُجَاهِد: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أَيْ: مِنْ بَعْد مَا سَمَّى لك، مِنْ مُسْلمَة وَلا يَهُودِيَّة وَلا نَصْرَانِيَّة وَلا كَافِرَة. وَقَال أَبُو صَالح: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، أَمْر أَنْ لا يَتَزَوَّج أَعْرَابِيَّة وَلا عَرَبِيَّة، وَيَتَزَوَّج بَعْد مِنْ نِسَاء تِهَامَة، وما شاء مِنْ بَنَات العَمّ وَالعَمَّة، وَالخَال وَالخَالة، إِنْ شَاءَ ثَلاثمِائَة. وَقَال عِكْرِمَة: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، أَيْ: الَّتِي سَمَّى الله.

وَاخْتَارَ ابْن جَرِير رَحِمَهُ الله أَنَّ الآيَة عَامَّة فِيمَنْ ذُكِرَ مِنْ أَصْنَاف النِّسَاء، وَفِي النِّسَاء اللَّوَاتِي فِي عِصْمَته وَكُنَّ تِسْعًا. وَهَذَا الَّذِي قَالهُ جَيِّد، وَلعَلَّهُ مُرَاد كَثِير مِمَّنْ حَكَيْنَا عَنْهُ مِنْ السَّلف؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ رُوِيَ عَنْهُ هَذَا وَهَذَا،

---

(١) **صحيح** : أخرجه النسائي (٣٢٠٤)، والترمذي (٣٢١٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي والترمذي».
(٢) **ضعيف** : أخرجه الطبري (٢٢/ ٢١)، ومداره على محمد بن أبي موسى: مجهول.
(٣) **ضعيف** : أخرجه الترمذي (٣٢١٥)، وفيه شهر بن حوشب: كثير الإرسال والأوهام.

وَلا مُنافَاة، وَالله أَعْلم. ثُمَّ أَوْرَدَ ابْن جَرِير عَلى نَفْسه مَا رُوِيَ أَنَّ رَسُول الله ﷺ طَلَّقَ حَفْصَة ثُمَّ رَاجَعَهَا، وَعَزَمَ عَلى فِرَاق سَوْدَة حَتَّى وَهَبَتْه يَوْمهَا لعَائِشَة[1]، ثُمَّ أَجَابَ بِأَنَّ هَذا كَانَ قَبْل نُزُول قَوْله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، وَهَذَا الَّذِي قَاله مِنْ أَنَّ هَذا كَانَ قَبْل نُزُول الآيَة صَحِيح، وَلكِنْ لا يُحْتَاج إِلى ذَلكَ؛ فَإِنَّ الآيَة إِنَّمَا دَلَّتْ عَلى أَنَّهُ لا يَتَزَوَّج بِمَنْ عَدَا اللَّوَاتِي فِي عِصْمَته، وَأَنَّهُ لا يَسْتَبْدِل بِهِنَّ غَيْرهنَّ، وَلا يَدُلّ ذَلكَ عَلى أَنَّهُ لا يُطَلِّق وَاحِدَة مِنْهُنَّ مِنْ غَيْر اسْتِبْدَال، والله أَعْلم. فَأَمَّا قَضِيَّة سَوْدَة فَفِي «الصَّحِيح» عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها وَهِيَ سَبَب نُزُول قَوْله تَعَالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ الآيَة.[2] وَأَمَّا قَضِيَّة حَفْصَة فَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ وَابْن حِبَّان فِي «صَحِيحه»، مِنْ طُرُق عَنْ يَحْيَى بْن زَكَرِيَّا بْن أَبِي زَائِدَة، عَنْ صَالح بْن صَالح بْن حَيّ، عَنْ سَلمَة بْن كهيل، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ عُمَر: أَنَّ رَسُول الله ﷺ طَلَّقَ حَفْصَة ثُمَّ رَاجَعَهَا. وَهَذَا إِسْنَاد قَوِيّ. وَقَال الحَافِظ أَبُو يَعْلى: حَدَّثنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثنَا يُونُس بْن بُكَيْر، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالح، عَنْ ابْن عُمَر قَال: دَخل عُمَر عَلى حَفْصَة وَهِيَ تَبْكِي، فَقَال: مَا يُبْكِيك؟ لعَلَّ رَسُول الله ﷺ طَلَّقَك؟ إِنَّهُ قد كَانَ طَلَّقَك مَرَّة ثُمَّ رَاجَعَك مِنْ أَجْلي، وَالله لئِنْ كَانَ طَلَّقَك مَرَّة أُخْرَى لا أُكَلِّمك أَبَدًا. وَرِجَاله عَلى شَرْط «الصَّحِيحَيْنِ».

وَقَوْله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، فَنَهَاهُ عَنْ الزِّيَادَة عَليْهِنَّ، أو طلاق وَاحِدَة مِنْهُنَّ وَاسْتِبْدَال غَيْرهَا بِهَا إِلَّا مَا مَلكَتْ يَمِينه. وَقَدْ رَوَى الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار حَدِيثًا مُنَاسِبًا ذَكَرَهُ هَهُنَا، فَقَال: حَدَّثنَا إِبْرَاهِيم بْن نَصْر، حَدَّثنَا مَالك بْن إِسْمَاعِيل، حدثنا عَبْد السَّلام بْن حَرْب، عَنْ إِسْحَاق بْن عَبْد الله القُرَشِيّ، عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ، عَنْ عَطَاء بْن يَسَار، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: كَانَ البَدَل فِي الجَاهِلِيَّة أَنْ يَقُول الرَّجُل للرَّجُل: بَادِلنِي امْرَأَتك وَأُبَادِلُك بِامْرَأَتِي. أَيْ: تَنْزِل لِي عَنْ امْرَأَتك. وَأَنْزِل لك عَنْ امْرَأَتِي. فَأَنْزَل الله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾. قَال: فَدَخل عُيَيْنَةُ بْن حِصْن عَلى النَّبِيّ ﷺ ، وَعِنْده عَائِشَة، فَدَخل بِغَيْرِ إِذْن، فَقَال لهُ رَسُول الله ﷺ : «فَأَيْنَ الاسْتِئْذَان؟». فَقَال: يَا رَسُول الله، مَا اسْتَأْذَنْت عَلى رَجُل مِنْ مُضَر مُنْذُ أَدْرَكْت. ثُمَّ قَال: مَنْ هَذِهِ الحُمَيْرَاء إِلى جَنْبك؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ : «هَذِهِ عَائِشَة أُمّ المُؤْمِنِينَ». قَال: أَفَلا أَنْزِل لك على أَحْسَن الخَلق؟ قَال: «يَا عُيَيْنَةُ إِنَّ الله قَدْ حَرَّمَ ذَلكَ». فَلَمَّا أَنْ خَرَجَ قَالتْ عَائِشَة: مَنْ هَذَا؟ قَال: «هَذَا أَحْمَق مُطَاع وإنه عَلى مَا تَرَيْنَ لسَيِّد قَوْمه»[3]. ثُمَّ قَال البَزَّار: إِسْحَاق بْن عَبْد الله: ليِّن الحَدِيث جِدًّا، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهُ؛ لأَنَّا لمْ نَحْفَظهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه، وَبَيَّنَّا العِلَّة فِيهِ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

هَذِهِ آيَة الحِجَاب، وَفِيهَا أَحْكَام وَآدَاب شَرْعِيَّة، وَهِيَ مِمَّا وَافَقَ تَنْزِيلهَا قَوْل عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه كَمَا ثَبَتَ

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٢٨٣)، والنسائي (٦/ ٢١٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) صحيح لغيره: تقدم.

(٣) ضعيف: أخرجه البزار (٢٢٥١) «كشف»، وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة متروك.

ذَلكَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْهُ أَنَّهُ قَال: وَافقْت رَبِّي فِي ثَلاث فقُلت: يَا رَسُول الله؛ لوْ اتَّخَذْت مِنْ مَقَام إِبْرَاهِيم مُصَلًّى؟ فَأَنْزَل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وَقُلت: يَا رَسُول الله، إِنَّ نِسَاءَكَ لِيَدْخُل عَلَيْهِنَّ البَرّ وَالفَاجِر، فَلوْ حَجَبْتهنَّ؟ فَأَنْزَل الله آيَة الحِجَاب. وَقُلت لأَزْوَاجِ النَّبِيّ ﷺ لـمَّا تَمالأْنَ عَليْهِ فِي الغَيْرَة: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، فَنَزَلتْ كَذَلكَ.[1] وَفِي رِوَايَة لمُسْلم ذكَرَ أُسَارَى بَدْر وَهِيَ قَضِيَّة رَابِعَة.

وَقَدْ قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُسَدَّد، عَنْ يَحْيَى، عَنْ حُمَيْد، عن أَنَس بْن مَالك قَال: قَال عُمَر بْن الخَطَّاب: يَا رَسُول الله؛ يَدْخُل عَليْك البَرّ وَالفَاجِر، فَلوْ أَمَرْت أُمَّهَات المُؤْمِنِينَ بِالحِجَابِ؟ فَأَنْزَل الله آيَة الحِجَاب.[2] وَكَانَ وَقْت نُزُولهَا فِي صَبِيحَة عُرْس رَسُول الله ﷺ بِزَيْنَب بِنْت جَحْش، الَّتِي تَوَلَّى الله تَعَالى تَزْوِيجهَا بِنَفْسِهِ، وَكَانَ ذَلكَ فِي ذِي القَعْدَة مِنْ السَّنَة الخَامِسَة، فِي قَوْل قَتَادَة وَالوَاقِدِيّ وَغَيْرهمَا. وَزَعَمَ أَبُو عُبَيْدَة مَعْمَر بْن المُثَنَّى، وَخَليفَة بْن خَيَّاط: أَنَّ ذَلكَ كَانَ فِي سَنَة ثَلاث، فَالله أَعْلم.

قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الله الرَّقَاشِيّ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِر بْن سُليْمَان، سَمِعْت أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو مِجْلز، عَنْ أَنَس بْن مَالك رضي الله عنه قَال: لـمَّا تَزَوَّجَ رَسُول الله ﷺ زَيْنَب بِنْت جَحْش، دَعَا القَوْم فطَعِمُوا ثُمَّ جَلسُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَإِذَا هُوَ كأنه يَتَهَيَّأ للقِيَامِ فَلمْ يَقُومُوا، فَلمَّا رَأَى ذَلكَ قَامَ، فَلمَّا قَامَ قَامَ مَنْ قَامَ، وَقَعَدَ ثَلاثَة نَفَر. فَجَاءَ النَّبِيّ ﷺ ليَدْخُل، فَإِذَا القَوْم جُلُوس، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا. فَانْطَلقتُ فَجِئْت فَأَخْبَرْت النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ انْطَلقُوا فَجَاءَ حَتَّى دَخَل، فَذَهَبْت أَدْخُل، فَأُلقِي الحِجَاب بَيْنِي وَبَيْنه، فَأَنْزَل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾[3] الآيَة. وَقَدْ رَوَاهُ أَيْضًا فِي مَوْضِع آخَر وَمُسْلم وَالنَّسَائِيّ، مِنْ طُرُق عَنْ مُعْتَمِر بْن سُليْمَان بِهِ.

ثُمَّ رَوَاهُ البُخَارِيّ متفردًا بِهِ مِنْ حَدِيث أَيُّوب عَنْ أَبِي قِلابَة، عَنْ أَنَس بن مالك رضي الله عنه بِنَحْوِهِ. ثُمَّ قَال: حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَر، حَدَّثَنَا عَبْد الوَارِث، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن صُهَيْب، عَنْ أَنَس بْن مَالك قَال: بَنَى النَّبِيّ ﷺ بِزَيْنَب بِنْت جَحْش بِخُبْزٍ وَلَحْم، فَأُرْسِلتُ عَلى الطَّعَام دَاعِيًا، فَيَجِيء قَوْم فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيء قَوْم فَيَأْكُلُون وَيَخْرُجُونَ. فَدَعَوْت حَتَّى مَا أَجِد أَحَدًا أَدْعُوهُ، فَقُلت: يَا نبي الله، مَا أَجِد أَحَدًا أَدْعُوهُ. قَال: **«ارْفَعُوا طَعَامكُمْ»**. وَبَقِيَ ثَلاثَة رَهْط يَتَحَدَّثُونَ فِي البَيْت، فَخَرَجَ النَّبِيّ ﷺ فَانْطَلقَ إِلى حُجْرَة عَائِشَة، فَقَال: **«السَّلام عليْكُمْ -أَهْل البَيْت- وَرَحْمَة الله وَبَرَكَاته»**. فقَالتْ: وَعَليْك السَّلام وَرَحْمَة الله، كَيْف وَجَدْت أَهْلك، بَارَكَ الله لك؟ فَتَقَرَّى حُجَر نِسَائِهِ كُلّهنَّ، ويَقُول لهُنَّ كَمَا يَقُول لعَائِشَة، وَيَقُلنَ لهُ كَمَا قَالتْ عَائِشَة. ثُمَّ رَجَعَ رسول الله ﷺ فَإِذَا رَهْط ثَلاثَة فِي البَيْت يَتَحَدَّثُونَ. وَكَانَ النَّبِيّ ﷺ شَدِيد الحَيَاء، فَخَرَجَ مُنْطَلقًا نَحْو حُجْرَة عَائِشَة، فَمَا أَدْرِي أَخْبَرْته أَمْ أُخْبِرَ أَنَّ القَوْم خَرَجُوا؟ فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْله فِي أُسْكُفَّة البَاب دَاخِله وَالأُخْرَى خَارِجَه، أَرْخَى السِّتْر بَيْنِي وَبَيْنه وَأُنْزِلتْ آيَة الحِجَاب.[4] انْفَرَدَ بِهِ البُخَارِيّ مِنْ بَيْن أَصْحَاب الكُتُب السِّتَّة سِوَى النَّسَائِيّ فِي «اليَوْم وَاللَّيْلة» مِنْ حَدِيث عَبْد الوَارِث. ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ إِسْحَاق -هُوَ ابْن مَنْصُور- عَنْ عَبْد الله بْن بكر السَّهْمِيّ، عَنْ حُمَيْد، عَنْ أَنَس بِنَحْوِ ذَلكَ، وَقَال: **«رَجُلانِ»**. انْفَرَدَ بِهِ مِنْ هَذَا الوَجْه. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَفْرَاد مُسْلم مِنْ حَدِيث سُليْمَان بْن المُغِيرَة، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو المظفر، حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن سُليْمَان، عَنْ الجَعْد -أَبِي عُثْمَان اليَشْكُرِيّ-

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٨٧).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤١٦).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٩١)، ومسلم (١٤٢٨).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤١٩).

عَنْ أَنَس بْن مَالك قَال: أَعْرَسَ رَسُول الله ﷺ بِبَعْضِ نِسَائِهِ، فَصَنَعَتْ أُمّ سَليم حَيْسًا، ثُمَّ وضعته فِي تَوْر، فَقَالتْ: اذْهَبْ بِهَذَا إِلى رَسُول الله ﷺ ، وَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلام، وَأَخْبِرْهُ أَنَّ هَذَا مِنَّا لهُ قَليل، قَال أَنَس: وَالنَّاس يَوْمئِذٍ فِي جَهْد، فَجِئْت بِهِ فَقُلت: يَا رَسُول الله، بَعَثَتْ بِهَذَا أُمّ سَليم إِلَيْك، وَهِيَ تُقْرِئك السَّلام، وَتَقُول: أَخْبِرْهُ أَنَّ هَذَا مِنَّا لهُ قَليل فَنَظَرَ إِلَيْهِ، ثم قَال: «**ضَعْهُ**» فَوَضَعْته فِي نَاحِيَة البَيْت، ثُمَّ قَال: «**اذْهَبْ فَادْعُ لي فُلانًا وَفُلانًا**»، وسَمَّى رِجَالًا كَثِيرًا، وَقَال: «**وَمَنْ لقيت مِنْ المُسْلمِينَ**». فَدَعَوْت مَنْ قَال لِي، وَمَنْ لَقِيت مِنَ المُسْلِمِينَ، فَجِئْت وَالبَيْت وَالصُّفَّة وَالحُجْرَة مَلأَى مِنْ النَّاس، فَقُلت: يَا أَبَا عُثْمَان؛ كَمْ كَانُوا؟ فَقَال: كَانُوا زُهَاء ثَلاثِمِائَة.

قَال أَنَس: فَقَال لِي رَسُول الله ﷺ : «**جِئْ بِهِ**». فَجِئْت بِهِ إِلَيْهِ، فَوَضَعَ يَده عَلَيْهِ، وَدَعَا وَقَال مَا شَاءَ الله. ثُمَّ قَال: «**ليَتَحلَّق عَشَرَة عَشَرَة، وَليُسَمُّوا، وَليَأْكُل كُلّ إِنْسَان مِمَّا يَليه**». فَجَعَلُوا يُسَمُّونَ وَيَأْكُلُونَ، حَتَّى أَكَلُوا كُلّهمْ. فَقَال لِي رَسُول الله ﷺ : «**ارْفَعْهُ**». قَال: فَجِئْت فَأَخَذْت التَّوْر فَمَا أَدْرِي أَهُوَ حِين وَضَعْت أَكْثَر أَمْ حِين أَخَذْت؟ قَال: وَتَخَلَّفَ رِجَال يَتَحَدَّثُونَ فِي بَيْت رَسُول الله ﷺ ، وَزَوْج رَسُول الله ﷺ الَّتِي دَخَل بِهَا مَعَهُمْ مُوَلِّيَة وَجْهَهَا إِلى الحَائِط، فَأَطَالُوا الحَدِيث، فَشَقُّوا عَلى رَسُول الله ﷺ وَكَانَ أَشَدّ النَّاس حَيَاء وَلَوْ أُعْلمُوا كَانَ ذَلكَ عَلَيْهِمْ عَزِيزًا، فَقَامَ رَسُول الله ﷺ فَخرج فسلم عَلى حُجَره وَعَلى نِسَائِهِ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَدْ جَاءَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ ثَقُلُوا عَلَيْهِ، ابْتَدَرُوا البَاب فَخَرَجُوا، وَجَاءَ رَسُول الله ﷺ حَتَّى أَرْخَى السِّتْر، وَدَخَل البَيْت وَأَنَا فِي الحُجْرَة، فَمَكَثَ رَسُول الله ﷺ فِي بَيْته يَسِيرًا، وَأَنْزَل الله عَلَيْهِ القُرْآن، فَخَرَجَ وَهُوَ [يَتْلُو][1] هَذِهِ الآيَة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ إلى قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾. قَال أَنَس: فَقَرَأَهُنَّ عَليَّ قَبْل النَّاس، فَأَنَا أَحْدَث النَّاس بِهِنَّ عَهْدًا.[2] وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلم وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِي جَمِيعًا عَنْ قُتَيْبَة عَنْ جَعْفَر بْن سُليْمَان بِهِ. وَقَال التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح. وَعَلَّقَهُ البُخَارِيّ فِي كِتَاب النِّكَاح، فَقَال: وَقَال إِبْرَاهِيم بْن طَهْمَان، عَنْ الجَعْد أَبِي عُثْمَان، عَنْ أَنَس، فَذَكَرَ نَحْوه. وَرَوَاهُ مُسْلم أَيْضًا عَنْ مُحَمَّد بْن رَافِع عَنْ عَبْد الرَّزَّاق عَنْ معمر عَنْ الجَعْد بِهِ. وَقَدْ رَوَى هَذَا الحَدِيث عَبْد الله بْن المُبَارَك عَنْ شَرِيك عَنْ بَيَان بْن بِشْر عَنْ أَنَس بِنَحْوِهِ. وَرَوَاهُ البُخَارِيّ وَالتِّرْمِذِيّ، مِنْ طَرِيقَيْنِ آخَرَيْنِ، عَنْ بَيَان بْن بِشْر الأَحْمَسِيّ الكُوفِيّ، عَنْ أَنَس بِنَحْوِهِ. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم أَيْضًا، مِنْ حَدِيث أَبِي نَضْرَة العَبْدِيّ، عَنْ أَنَس بْن مَالك، بِنَحْوِه. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث عَمْرو بْن سَعِيد، وَمِنْ حَدِيث الزُّهْرِيّ، عَنْ أَنَس بِنَحْوِ ذَلكَ.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا بَهْز وَهَاشِم بْن القَاسِم قَالا: حَدَّثَنَا سُليْمَان بْن المُغِيرَة، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس قَال: لـمَّا انْقَضَتْ عِدَّة زَيْنَب قَال رَسُول الله ﷺ لزَيْدٍ: «**اذْهَبْ فَاذْكُرْهَا عَليَّ**». قَال: فَانْطَلَقَ زَيْد حَتَّى أَتَاهَا، قَال: وهي تُخَمِّر عَجِينهَا، فَلَمَّا رَأَيْتهَا عَظُمَتْ فِي صَدْرِي... وَذَكَرَ تَمَام الحَدِيث كَمَا قَدَّمْنَاهُ عِنْد قَوْله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾، وَزَادَ فِي آخِره بَعْد قَوْله: وَوَعَظَ القَوْم بِمَا وُعِظُوا بِهِ. قَال هَاشِم فِي حَدِيثه: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[3]. وقد أَخْرَجَهُ مُسْلم وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث سُليْمَان بن المغيرة.

---

(١) في نسخة: [يقرأ].
(٢) صحيح : أخرجه مسلم (١٤٢٨)، والترمذي (٣٢١٨).
(٣) صحيح : تقـدم.

قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي أَحْمَد بْن عَبْد الرَّحْمَن ابْن أَخِي ابْن وَهْب، حَدَّثَنِي عَمِّي عَبْد الله بْن وَهْب، حَدَّثَنِي يُونُس، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة، عَنْ عَائِشَة قَالَتْ: إِنَّ أَزْوَاج رسول الله ﷺ كُنَّ يَخْرُجْنَ بِاللَّيْل إِذَا تَبَرَّزْنَ إِلى المَنَاصِع -وَهُوَ صَعِيد أَفْيَح- وَكَانَ عُمَر يَقُول لرَسُول الله ﷺ : احْجُبْ نِسَاءَك. فَلَمْ يَكُنْ رَسُول الله ﷺ لِيَفْعَل. فَخَرَجَتْ سَوْدَة بِنْت زَمْعَةَ زَوْج النبي ﷺ ، وَكَانَتْ امْرَأَة طَوِيلة، فَنَادَاهَا عُمَر بِصَوْتِهِ الأَعْلَى: قَدْ عَرَفْنَاكَ يَا سَوْدَة، حِرْصًا أَنْ يَنْزِل الحِجَاب، قَالتْ: فَأَنْزَل الله الحِجَاب.[1]

هَكَذَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَة، وَالمَشْهُور أَنَّ هَذَا كَانَ بَعْد نُزُول الحِجَاب، كَمَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَالبُخَارِيّ وَمُسْلم، مِنْ حَدِيث هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالتْ: خَرَجَتْ سَوْدَة بَعْدَمَا ضُرِبَ الحِجَاب لحَاجَتِهَا، وَكَانَتْ امْرَأَة جَسِيمَة لا تَخْفَى عَلى مَنْ يَعْرِفهَا، فَرَآهَا عُمَر بْن الخَطَّاب فَقَال: يَا سَوْدَة؛ أَمَا وَالله مَا تَخْفَيْنَ عَلينَا، فَانْظُرِي كَيْف تَخْرُجِينَ؟ قَالتْ: فَانْكَفَأَتْ رَاجِعَة، وَرَسُول الله ﷺ فِي بَيْتِي، وَإِنَّهُ لَيَتَعَشَّى، وَفِي يَده عَرْق، فَدَخَلت فقالت: يَا رَسُول الله؛ إِنِّي خَرَجْت لبَعْضِ حَاجَتِي، فَقَال لِي عُمَر كَذَا وَكَذَا. قَالتْ: فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ، ثُمَّ رُفِعَ عَنْهُ وَإِنَّ العَرْق فِي يَده، مَا وَضَعَهُ. فَقَال: «**إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لحَاجَتِكُنَّ**».[2] لَفْظ البُخَارِيّ.

فَقَوْله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ حَظَر عَلى المُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَنَازِل رَسُول الله ﷺ بِغَيْرِ إِذْن، كَمَا كَانُوا قَبْل ذَلكَ يَصْنَعُونَ فِي بُيُوتهمْ فِي الجَاهِلِيَّة وَابْتِدَاء الإِسْلام، حَتَّى غَار الله لِهَذِهِ الأُمَّة، فَأَمَرَهُمْ بِذَلك، وَذَلكَ مِنْ إِكْرَامه تَعَالى على هَذِهِ الأُمَّة؛ وَلِهَذَا قَال رَسُول الله ﷺ : «**إِيَّاكُمْ وَالدُّخُول عَلى النِّسَاء**».[3] ثُمَّ اسْتَثْنَى مِنْ ذَلكَ فَقَال: ﴿إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾. قَال مُجَاهِد وَقَتَادَة وَغَيْرهمَا: أَيْ غَيْر مُتَحَيِّنِينَ نُضْجه وَاسْتِوَاءَهُ، أَيْ: لا تَرْقُبُوا الطَّعَام حَتَّى إِذَا قَارَبَ الاسْتِوَاء تَعَرَّضْتُمْ للدُّخُول، فَإِنَّ هَذَا يَكْرَههُ الله وَيَذُمّهُ. وَهَذَا دَلِيل عَلى تَحْرِيم التَّطْفِيل، وَهُوَ الَّذِي تُسَمِّيهِ العَرَب الضَّيْفَن، وَقَدْ صَنَّفَ الخَطِيب البَغْدَادِيّ فِي ذَلكَ كِتَابًا فِي ذَمّ الطُّفَيْلِيِّينَ، وَذَكَرَ مِنْ أَخْبَارهمْ أَشْيَاء يَطُول إِيرَادهَا.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾، وَفِي «صَحِيح مُسْلم» عَنْ ابْن عُمَر رضي الله عنهما قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «**إِذَا دَعَا أَحَدكُمْ أَخَاهُ فَلْيُجِبْ عُرْسًا كَانَ أَوْ غَيْره**»[4]. وَأَصْله فِي «الصَّحِيحَيْن».

وَفِي «الصَّحِيح» أَيْضًا، عَنْ رَسُول الله ﷺ : «**لَوْ دُعِيت إِلى ذِرَاع لأَجَبْت، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاع لقَبِلت. فَإِذَا فَرَغْتُمْ مِنْ الَّذِي دُعِيتُمْ إِليْهِ فَخَفِّفُوا عَنْ أَهْل المَنْزِل، وَانْتَشِرُوا فِي الأَرْض**».[5] وَلِهَذَا قَال: ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾، أَيْ: كَمَا وَقَعَ لأُولئِكَ النَّفَر الثَّلاثَة الَّذِينَ اسْتَرْسَل بِهِمْ الحَدِيث، وَنَسُوا أَنْفُسهمْ، حَتَّى شَقَّ ذَلكَ عَلى رَسُول الله ﷺ ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾. وَقِيل: المُرَاد أَنَّ دُخُولكُمْ مَنْزِله بِغَيْرِ إِذْنه كَانَ يَشُقّ عَلَيْهِ وَيَتَأَذَّى بِهِ، لكن كَانَ يَكْرَه أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلكَ مِنْ شِدَّة حَيَائِهِ عليه السلام، حَتَّى أَنْزَل الله عَلَيْهِ النَّهْي عَنْ ذَلكَ، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾، أَيْ: ولهذا نَهَاكُمْ عَنْ ذلكم وَزَجَرَكُمْ عَنْهُ.

ثُمَّ قَال تَعَالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، أَيْ: وَكَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ الدُّخُول عَلَيْهِنَّ، كَذَلكَ لا تَنْظُرُوا إِلَيْهِنَّ بِالكُلِّيَّةِ، وَلَوْ كَانَ لأَحَدِكُمْ حَاجَة يُرِيد تَنَاوُلهَا مِنْهُنَّ فَلا يَنْظُر إِلَيْهِنَّ، وَلا يَسْأَلهُنَّ حَاجَة

---

(١) رجاله ثقات: وآخره لا يصح.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٦)، ومسلم (٢١٧٠)، وأحمد (٦/ ٥٦).

(٣) صحيح: تقدم.

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٢٥٦٨).

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٢٩).

إِلَّا مِنْ وَرَاء حِجَاب. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثنَا ابْن أَبِي عُمَر، حَدَّثنَا سُفْيَان، عَنْ مِسْعَر، عَنْ مُوسَى ابْن أَبِي كَثِير، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ عَائِشَة قَالتْ: كُنْت آكُل مَعَ النَّبِيّ ﷺ حَيْسًا فِي قَعْب، فَمَرَّ عُمَر فَدَعَاهُ فَأَصَاب أُصْبُعه أُصْبُعِي، فَقَال: حَسّ -أَوْ: أُوهِ- لَوْ أُطَاع فِيكُنَّ مَا رَأَتْكُنَّ عَيْن. فَنَزَل الحِجَاب. ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[1] أَيْ: هَذَا الَّذِي أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَشَرَعْته لكُمْ مِنْ الحِجَاب أَطْهَر وَأَطْيَب.

وَقَوْله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثنَا مُحَمَّد بْن أَبِي حَمَّاد، حَدَّثنَا مِهْرَان، عَنْ سُفْيَان، عَنْ دَاوُدَ ابْن أبِي هِنْد، عَنْ عِكْرِمَة عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، قَال: نَزَلتْ فِي رَجُل هَمَّ أَنْ يَتَزَوَّج بَعْض نِسَاء النَّبِيّ ﷺ. قَال رَجُل لسُفْيَان: أَهِيَ عَائِشَة؟ قَال: قَدْ ذَكَرُوا ذاك. وَكَذَا قَال مُقَاتِل بْن حَيَّان، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم، وَذَكَرَ بِسَنَدِهِ عَنْ السُّدِّيّ: أَنَّ الَّذِي عَزَمَ عَلى ذَلك طَلحَة ابْن عُبَيْد الله رضي الله عنه، حَتَّى نَزَل التَّنْبِيه عَلى تَحْرِيم ذَلكَ؛ وَلِهَذَا أَجْمَعَ العُلَمَاء قَاطِبَة عَلى أَنَّ مَنْ تُوُفِّيَ عَنْهَا رَسُول الله ﷺ مِنْ أَزْوَاجه أَنَّهُ يَحْرُم عَلى غَيْره تزويجها مِنْ بَعْده؛ لأَنَّهُنَّ أَزْوَاجه فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة وَأُمَّهَات المُؤْمِنِينَ كَمَا تَقَدَّمَ. وَاخْتَلفُوا فِيمَنْ دَخَل بِهَا ثُمَّ طَلَّقَهَا فِي حَيَاته هَل يَحِلّ لغَيْرِهِ أَنْ يَتَزَوَّجهَا؟ عَلى قَوْليْنِ: مَأْخَذهمَا: هَل دَخَلتْ هَذِهِ فِي عُمُوم قَوْله: ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أَمْ لا؟ فَأَمَّا مَنْ تَزَوَّجهَا ثُمَّ طَلَّقَهَا قَبْل أَنْ يَدْخُل بِهَا، فَمَا نَعْلم فِي حِلّهَا لغَيْرِهِ -وَالحَالة هَذِهِ- نِزَاعًا. وَالله أَعْلم.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثنِي مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، حَدَّثنَا عَبْد الوَهَّاب، حَدَّثنَا دَاوُدُ، عَنْ عَامِر: أَنَّ نَبِيّ الله ﷺ مَات وَقَدْ مَلك قَيْلة بنت الأَشْعَث -يَعْنِي ابْن قَيْس- فَتَزَوَّجَهَا عِكْرِمَة بْن أَبِي جَهْل بَعْد ذَلكَ، فَشَقَّ ذَلكَ عَلى أَبِي بَكْر مَشَقَّة شَدِيدَة؛ فَقَال لهُ عُمَر: يَا خَلِيفَة رَسُول الله إِنَّهَا ليْسَتْ مِنْ نِسَائِهِ، إِنَّهَا لمْ يُخَيِّرْهَا رَسُول الله ﷺ وَلمْ يَحْجُبهَا، وَقَدْ بَرَّأَهَا الله مِنْهُ بِالرِّدَّةِ الَّتِي ارْتَدَّتْ مَعَ قَوْمِهَا. قَال: فَاطْمَأَنَّ أَبُو بَكْر رضي الله عنهما وَسَكَنَ. وَقَدْ عَظَّمَ تَبَارَكَ وَتَعَالى ذَلكَ، وَشَدَّدَ فِيهِ وَتَوَعَّدَ عَليْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، ثُمَّ قَال: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، أَيْ: مَهْمَا تُكِنّهُ ضَمَائِركُمْ وَتَنْطَوِي عَليْهِ سَرَائِركُمْ، فَإِنَّ الله يَعْلمهُ، فَإِنَّهُ لا تَخْفَى عَليْهِ خَافِيَة، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

لـمَّا أَمَرَ تَعَالى النِّسَاء بِالحِجَابِ مِنْ الأَجَانِب، بَيَّنَ أَنَّ هَؤُلاءِ الأَقَارِب لا يَجِب الاحْتِجَاب مِنْهُمْ، كَمَا اسْتَثْنَاهُمْ فِي «سُورَة النُّور»، عِنْد قَوْله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ إلى آخرها، وَفِيهَا زِيَادَات عَلى هَذِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرهَا وَالكَلام عَليْهَا بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَته.

وَقَدْ سَأَل بَعْض السَّلف فَقَال: لمَ لمْ يَذْكُر العَمّ وَالخَال فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ؟ فَأَجَاب عِكْرِمَة وَالشَّعْبِيّ بِأَنَّهُمَا لمْ يُذْكَرَا لأَنَّهُمَا قَدْ يَصِفَانِ ذَلكَ لبَنِيهِمَا. قَال ابْن جَرِير: حَدَّثنِي مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، حَدَّثنَا حَجَّاج بْن مِنْهَال، حَدَّثنَا حَمَّاد، حَدَّثنَا دَاوُدُ، عَنْ الشَّعْبِيّ وَعِكْرِمَة فِي قَوْله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ

---

(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (١٠٥٣).

﴿وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾، قُلت: مَا شَأن العَمّ وَالخَال لَمْ يُذْكَرَا؟ قَالا: هما يَنْعَتَانِهَا لأَبْنَائِهِمَا. وَكَرِهَا أَنْ تَضع خِمَارهَا عِنْد خَالهَا وَعَمّهَا.

وَقَوْله: ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ يَعْنِي بِذَلكَ عَدَم الاحْتِجَاب مِنْ النِّسَاء المُؤْمِنَات. وَقَوْله: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يَعْنِي: بِهِ أَرِقَّاءَهُنَّ مِنْ الذُّكُور وَالإِنَاث كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيه عَلَيْهِ وَإِيرَاد الحَدِيث فِيهِ. قَال سَعِيد بْن المُسَيِّب: إِنَّمَا يَعْنِي بِهِ الإِمَاء فَقَطْ. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَوْله: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾، أَيْ: وَاخْشَيْنَهُ فِي الخَلْوَة وَالعَلَانِيَة، فَإِنَّهُ شَهِيد عَلَى كُلِّ شَيْء، لا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَة، فَرَاقِبْنَ الرَّقِيب.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

قَال البُخَارِيّ: قَال أَبُو العَالِيَة: صَلَاة الله: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْد المَلَائِكَة، وصَلَاة المَلَائِكَة: الدُّعَاء، وَقَال ابْن عَبَّاس: يُصَلُّونَ: يُبَرِّكُونَ. هَكَذَا عَلَّقَهُ البُخَارِيّ عَنْهُمَا. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو جَعْفَر الرَّازِيّ، عَنْ الرَّبِيع بْن أَنَس، عَنْ أَبِي العَالِيَة كَذَلِكَ. وَرُوِيَ مِثْله عَنْ الرَّبِيع أَيْضًا، وَرَوَى عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس كَمَا قَالَهُ سَوَاء. رَوَاهُمَا ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَال أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيّ: وَرُوِيَ عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ وَغَيْر وَاحِد مِنْ أَهْل العِلم قَالُوا: صَلَاة الرَّبّ: الرَّحْمَة، وَصَلَاة المَلَائِكَة: الاسْتِغْفَار.

ثُمَّ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَمْرو الأَوْدِيّ، حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، قَال الأَعْمَش عَنْ عَطَاء بْن أَبِي رَبَاح: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾، قَال: صَلَاته تَبَارَكَ وَتَعَالى: سُبُّوح قُدُّوس، سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي. وَالمَقْصُود مِنْ هَذِهِ الآيَة أَنَّ الله سُبْحَانه أَخْبَرَ عِبَاده بِمَنْزِلَةِ عَبْده وَنَبِيّه عِنْده فِي المَلَأ الأَعْلَى، بِأَنَّهُ يُثْنِي عَلَيْهِ عِنْد المَلَائِكَة المُقَرَّبِينَ، وَأَنَّ المَلَائِكَة تُصَلِّي عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالى أَهْل العَالَم السُّفْلِيّ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيم عَلَيْهِ. لِيَجْتَمِع الثَّنَاء عَلَيْهِ مِنْ أَهْل العَالَمَيْنِ العُلْوِيّ وَالسُّفْلِيّ جَمِيعًا.

وَقَدْ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَشْعَث بْن إِسْحَاق، عَنْ جَعْفَر -يَعْنِي: ابْن المُغِيرَة- عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيل قَالُوا لِمُوسَى عليه السلام: هَل يُصَلِّي رَبّك؟ فَنَادَاهُ رَبّه: «يَا مُوسَى، سَأَلُوك: هَل يُصَلِّي رَبّك؟ فَقُل: نَعَمْ، إِنما أُصَلِّي أَنا وَمَلَائِكَتِي عَلَى أَنْبِيَائِي وَرُسُلِي». فَأَنْزَل الله عز وجل عَلَى نَبِيّه ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]. وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانه وَتَعَالى بِأَنَّهُ يُصَلِّي عَلَى عِبَاده المُؤْمِنِينَ فِي قَوْله تَعَالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾. وَفِي الحَدِيث: «إِنَّ الله وَمَلَائِكَته يُصَلُّونَ عَلَى مَيَامِن الصُّفُوف».[2] وَفِي الحَدِيث الآخَر: «اللَّهُمَّ؛ صَلِّ عَلَى آل أَبِي أَوْفَى»[3]. وَقَال رَسُول الله ﷺ لِامْرَأَةِ جَابِر وَقَدْ سَأَلَتْهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهَا وَعَلَى زَوْجِهَا: «صَلَّى الله عَلَيْك، وَعَلَى زَوْجِك»[3]. وَقَدْ جَاءَتْ الأَحَادِيث المُتَوَاتِرَة عَنْ رَسُول الله ﷺ بِالأَمْرِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَكَيْفِيَّة الصَّلَاة عَلَيْهِ، وَنَحْنُ نَذْكُر مِنْهَا إِنْ شَاءَ الله تعالى مَا تَيَسَّرَ وبالله المُسْتَعَان.

---

(١) ضعيف: تقـدم.

(٢) حسـن: أخرجه أبو داود (٦٧٦)، وابن ماجه (١٠٠٥)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»

(٣) صحيح: تقـدم.

قَال البُخَارِيّ عِنْد تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا سَعِيد بْن يَحْيَى بْن سَعِيد، حدثنا أَبِي، عَنْ مِسْعَر، عَنْ الحَكَم، عَنْ ابْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ كَعْب بْن عُجْرَة قَال: قِيل: يَا رَسُول الله، أَمَّا السَّلام عَلَيْك فَقَدْ عَرَفْنَاهُ، فَكَيْف الصَّلاة؟ فقال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ؛ صَلِّ عَلى مُحَمَّد، وَعَلى آل مُحَمَّد، كَمَا صَلَّيْت عَلى آل إِبْرَاهِيم، إِنَّك حَمِيد مَجِيد. اللَّهُمَّ؛ بَارِكْ عَلى مُحَمَّد وَعَلى آل مُحَمَّد، كَمَا بَارَكْت عَلى آل إِبْرَاهِيم، إِنَّك حَمِيد مَجِيد».[1]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ الحَكَم قَال: سَمِعْت ابْن أَبِي لَيْلَى قَال: لَقِيَنِي كَعْب بْن عُجْرَة فَقَال: أَلا أُهْدِي لك هَدِيَّة؟ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُول الله ﷺ فَقُلْنَا: يَا رَسُول الله؛ قَدْ عَلِمْنَا -أَوْ: عَرَفْنَا- كَيْف السَّلام عَلَيْك، فَكَيْف الصَّلاة؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَعَلى آل مُحَمَّد، كَمَا صَلَّيْت عَلى آل إِبْرَاهِيم إِنَّك حَمِيد مَجِيد، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلى مُحَمَّد وَعَلى آل مُحَمَّد، كَمَا بَارَكْت عَلى آل إِبْرَاهِيم، إِنَّك حَمِيد مَجِيد».[2] وَهَذَا الحَدِيث قَدْ أَخْرَجَهُ الجَمَاعَة فِي كُتُبهمْ، مِنْ طُرُق مُتَعَدِّدَة عَنْ الحَكَم وَهُوَ ابْن عُتَيْبَة، زَادَ البُخَارِيّ: وَعَبْد الله بْن عِيسَى، كِلاهُمَا عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي لَيْلَى، فَذَكَرَه.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا الحسن بْن عَرَفَة، حَدَّثَنَا هُشَيْم بْن بَشِير، عَنْ يَزِيد بْن أَبِي زِيَاد، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن ابْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ كَعْب بْن عُجْرَة، قَال: لَـمَّا نَزَلَتْ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾. قَال: قُلنَا: يَا رَسُول الله؛ قَدْ عَلِمْنَا السَّلام، فَكَيْف الصَّلاة عَلَيْك؟ قَال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ؛ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَعَلى آل مُحَمَّد، كَمَا صَلَّيْت عَلى إِبْرَاهِيم وَعَلى آل إِبْرَاهِيم، إِنَّك حَمِيد مَجِيد. وَبَارِكْ عَلى مُحَمَّد وعلى آل محمد كَمَا بَارَكْت عَلى إِبْرَاهِيم وَعَلى آل إِبْرَاهِيم، إِنَّك حَمِيد مَجِيد». وَكَانَ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي لَيْلَى يَقُول: «وَعَلَيْنَا مَعَهُمْ». وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ بِهَذِهِ الزِّيَادَة.[3] وَمَعْنَى قَوْلهمْ: أَمَّا السَّلام عَلَيْك فَقَدْ عَرَفْنَاهُ، هُوَ الَّذِي فِي التَّشَهُّد الَّذِي كَانَ يُعَلِّمهُمْ إِيَّاهُ، كَمَا كَانَ يُعَلِّمهُمْ السُّورَة مِنْ القُرْآن، وَفِيهِ: «السَّلام عَلَيْك أَيُّهَا النَّبِيّ وَرَحْمَة الله وَبَرَكَاته».

حَدِيث آخَر: قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن يُوسُف، حَدَّثَنَا اللَّيْث، عَنْ ابْن الهَادِ، عَنْ عَبْد الله بْن خَبَّاب، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ ﷺ قَال: قُلنَا: يَا رَسُول الله؛ هَذَا السَّلام، فَكَيْف نُصَلِّي عَلَيْك؟ قَال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّد عَبْدك وَرَسُولك، كَمَا صَلَّيْت عَلى آل إِبْرَاهِيم. وَبَارِكْ عَلى مُحَمَّد وَعَلى آل مُحَمَّد كَمَا بَارَكْت عَلى إِبْرَاهِيم». قَال أَبُو صَالح عَنْ اللَّيْث: «عَلى مُحَمَّد وَعَلى آل مُحَمَّد، كَمَا بَارَكْت عَلى آل إِبْرَاهِيم».[4] حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن حَمْزَة، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي حَازِم والدراوردي عَنْ يَزِيد -يَعْنِي ابْن الهَادِ- قَال: «كَمَا صَلَّيْت عَلى إِبْرَاهِيم، وَبَارِكْ عَلى مُحَمَّد وَآل مُحَمَّد، كَمَا بَارَكْت عَلى إِبْرَاهِيم وَآل إِبْرَاهِيم». وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث ابْن الهَادِ بِهِ.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: قَرَأْت عَلى عَبْد الرَّحْمَن: مَالك، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي بَكْر، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَمْرو بْن سُلَيْم أَنَّهُ قَال: أَخْبَرَنِي أَبُو حُمَيْد السَّاعِدِيّ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُول الله، كَيْف نُصَلِّي عَلَيْك؟ قَال: قُولُوا: «اللَّهُمَّ صَلِّ

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٣٣٧٠، ٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).
(٢) صحيح : أخرجه أحمد (١٠١٠)، وابن ماجه (٩٠٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن بن ماجه».
(٣) صحيح : صححه الألباني في «صحيح فضل الصلاة على النبي» (٦٤).
(٤) صحيح : أخرجه البخاري (٤٤٢٤).

عَلَى مُحَمَّد وَأَزْوَاجه وَذُرِّيَّته، كَمَا صَلَّيْت عَلَى آل إِبْرَاهِيم، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّد وَأَزْوَاجه وَذُرِّيَّته، كَمَا بَارَكْت عَلَى آل إِبْرَاهِيم؛ إِنَّك حَمِيد مَجِيد». وَقَدْ أَخْرَجَهُ بَقِيَّة الْجَمَاعَة سِوَى التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث مَالِك، بِهِ.[1]

حَدِيث آخَر: قَالَ مُسْلِم: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن يَحْيَى التَّمِيمِيّ قَالَ: قَرَأْت عَلَى مَالِك، عَنْ نُعَيْم بْن عَبْد الله المجمر، أَخْبَرَنِي مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن زَيْد الْأَنْصَارِيّ -قَالَ: وَعَبْد الله بْن زَيْد هُوَ الَّذِي كَانَ أُرِيَ النِّدَاء بِالصَّلَاةِ- أَخْبَرَهُ عَنْ أَبِي مَسْعُود الْأَنْصَارِيّ، قَالَ: أَتَانَا رَسُول الله ﷺ وَنَحْنُ فِي مَجْلِس سَعْد بْن عُبَادَة، فَقَالَ لَهُ بَشِير بْن سَعْد: أَمَرَنَا الله أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْك يَا رَسُول الله، فَكَيْف نُصَلِّي عَلَيْك؟ قَالَ: فَسَكَتَ رَسُول الله ﷺ حَتَّى تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُول الله ﷺ: **«قُولُوا: اللَّهُمَّ؛ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد، وَعَلَى آل مُحَمَّد، كَمَا صَلَّيْت عَلَى آل إِبْرَاهِيم، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّد، وَعَلَى آل مُحَمَّد، كَمَا بَارَكْت عَلَى آل إِبْرَاهِيم، فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّك حَمِيد مَجِيد، وَالسَّلَام كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ»**. وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَالتِّرْمِذِيّ، وَالنَّسَائِيّ، مِنْ حَدِيث مَالِك بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ: حَسَن صَحِيح.[2]

وَرَوَى الْإِمَام أَحْمَد، وَأَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ، وَابْن خُزَيْمَةَ، وَابْن حِبَّان، وَالْحَاكِم فِي «مُسْتَدْرَكه»، مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ، عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الله بْن زَيْد بْن عَبْد رَبّه، عَنْ أَبِي مَسْعُود الْبَدْرِيّ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُول الله؛ أَمَّا السَّلَام فَقَدْ عَرَفْنَاهُ، فَكَيْف نُصَلِّي عَلَيْك إِذَا نَحْنُ صَلَّيْنَا فِي صَلَاتنَا؟ فَقَالَ: **«قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَعَلَى آل مُحَمَّد...»**[3] وَذَكَرَهُ. وَرَوَاهُ الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مُسْنَده» عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، بِمِثْلِهِ. وَمِنْ هَهُنَا ذَهَبَ الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ إِلَى أَنَّهُ يَجِب عَلَى الْمُصَلِّي أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى رَسُول الله ﷺ فِي التَّشَهُّد الْأَخِير، فَإِنْ تَرَكَهُ لَمْ تَصِحّ صَلَاته. وَقَدْ شَرَعَ بَعْض الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمَالِكِيَّة وَغَيْرهمْ يُشَنِّع عَلَى الْإِمَام الشَّافِعِيّ فِي اشْتِرَاطه ذَلِكَ فِي الصَّلَاة، وَيَزْعُم أَنَّهُ قَدْ تَفَرَّدَ بِذَلِكَ، وَحَكَى الْإِجْمَاع عَلَى خِلَافه أَبُو جَعْفَر الطَّبَرِيّ وَالطَّحَاوِيّ وَالْخَطَّابِيّ وَغَيْرهم فِيمَا نَقَلَهُ الْقَاضِي عِيَاض عَنْهُمْ، وَقَدْ تَعَسَّفَ الْقَائِل فِي رَدّه عَلَى الشَّافِعِيّ وَتَكَلَّفَ فِي دَعْوَاهُ الْإِجْمَاع فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ قَدْ رُوِّينَا وُجُوب ذَلِكَ وَالْأَمْر بِالصَّلَاةِ عَلَى رَسُول الله ﷺ فِي الصَّلَاة كَمَا هُوَ ظَاهِر الْآيَة، وَمُفَسَّر بِهَذَا الْحَدِيث عَنْ جَمَاعَة مِنَ الصَّحَابَة، مِنْهُمْ ابْن مَسْعُود وَأَبُو مَسْعُود الْبَدْرِيّ وَجَابِر بْن عَبْد الله، وَمِنَ التَّابِعِينَ: الشَّعْبِيّ، وَأَبُو جَعْفَر الْبَاقِر، وَمُقَاتِل بْن حَيَّان. وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الشَّافِعِيّ، لَا خِلَاف عَنْهُ فِي ذَلِكَ وَلَا بَيْن أَصْحَابه أَيْضًا، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ أَحْمَد أَخِيرًا فِيمَا حَكَاهُ عَنْهُ ابْن زُرْعَة الدِّمَشْقِيّ. وَبِهِ قَالَ إِسْحَاق بْن رَاهَوَيْهِ، وَالْفَقِيه الْإِمَام مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم الْمَعْرُوف بِابْنِ الْمَوَّاز الْمَالِكِيّ، رَحِمَهُمْ الله، حَتَّى إِنَّ بَعْض أَئِمَّة الْحَنَابِلَة أَوْجَبَ أَنْ يُقَال فِي الصَّلَاة عَلَيْهِ ﷺ كَمَا عَلَّمَهُمْ أَنْ يَقُولُوا لَمَّا سَأَلُوهُ، وَحَتَّى أَنَّ بَعْض أَصْحَابنَا أَوْجَبَ الصَّلَاة عَلَى آلِهِ، وَمِمَّنْ حَكَاهُ الْبَنْدَنِيجِيّ وَسُلَيْم الرَّازِيّ وَصَاحِبه نَصْر بْن إِبْرَاهِيم الْمَقْدِسِيّ، وَنَقَلَهُ إِمَام الْحَرَمَيْنِ وَصَاحِبه الْغَزَالِيّ قَوْلًا عَنْ الشَّافِعِيّ، وَالصَّحِيح أَنَّهُ وَجْه، عَلَى أَنَّ الْجُمْهُور عَلَى خِلَافه، وَحَكَوْا الْإِجْمَاع عَلَى خِلَافه، وَلِلْقَوْل بِوُجُوبِهِ ظَوَاهِر الْحَدِيث، وَالله أَعْلَم.

وَالْغَرَض أَنَّ الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ لِقَوْلِهِ بِوُجُوبِ الصَّلَاة عَلَى النَّبِيّ ﷺ فِي الصَّلَاة سَلَفًا وَخَلَفًا كَمَا تَقَدَّمَ، وَلله الْحَمْد وَالْمِنَّة فَلَا إِجْمَاع عَلَى خِلَافه فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَة لَا قَدِيمًا وَلَا حَدِيثًا، وَالله أَعْلَم. وَمِمَّا يُؤَيِّد ذَلِكَ الْحَدِيث الْآخَر الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَام أَحْمَد وَأَبُو دَاوُد، وَالتِّرْمِذِيّ، وَصَحَّحَهُ وَالنَّسَائِيّ، وَابْن خُزَيْمَةَ وَابْن حِبَّان فِي «صَحِيحَيْهِمَا»،

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٩٧٩)، وابن ماجه (٩٠٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود وابن ماجه».
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٦١٣).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٤٠٥)، وأبو داود (٩٨٠).

مِنْ رِوَايَة حَيْوَةَ بْن شُرَيْح المِصْرِيّ، عَنْ أَبِي هَانِئ حُمَيْد بْن هَانِئ، عَنْ عَمْرو بْن مَالك أَبِي عَلِيّ الجَنْبي، عَنْ فَضَالة بْن عُبَيْد ﷺ قَال: سَمِعَ رَسُول الله ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلاته، لَمْ يُمَجِّد الله وَلَمْ يُصَلِّ عَلى النَّبِيّ ﷺ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «عَجِل هَذَا». ثُمَّ دَعَاهُ فَقَال لَهُ أَوْ لغَيْرِهِ: «**إِذَا صَلَّى أَحَدكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ الله ﷻ وَالثَّنَاء عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلى النَّبِيّ، ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْد بِمَا شَاءَ**»[1]. وَكَذَا الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ، مِنْ رِوَايَة عَبْد المُهَيْمِن بْن عَبَّاس بْن سَهْل بْن سَعْد السَّاعِدِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه، عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «لا صَلاة لِمَنْ لا وُضُوء لهُ، وَلا وُضُوء لِمَنْ لَمْ يَذْكُر اسْم الله عَلَيْهِ، وَلا صَلاة لِمَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلى النَّبِيّ، وَلا صَلاة لِمَنْ لَمْ يُحِبّ الأَنْصَار»[2]. وَلكِنَّ عَبْد المُهَيْمِن هَذَا مَتْرُوك. وَقَدْ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ مِنْ رِوَايَة أَخِيهِ «أُبَيّ بْن عَبَّاس»، وَلكِنْ فِي ذَلكَ نَظَر، وَإِنَّمَا يُعْرَف مِنْ رِوَايَة «عَبْد المُهَيْمِن»، وَالله أَعْلم.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيل، عَنْ أَبِي دَاوُدَ الأَعْمَى، عَنْ بُرَيْدَةَ قَال: قُلْنَا: يَا رَسُول الله؛ قَدْ عَلِمْنَا كَيْف نُسَلِّم عَلَيْك، فَكَيْف نُصَلِّي عَلَيْك؟ قَال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ اجْعَل صَلوَاتك وَرَحْمَتك وَبَرَكَاتك عَلى مُحَمَّد وَعَلى آل مُحَمَّد، كَمَا جَعَلتهَا عَلى إِبْرَاهِيم وَآل إِبْرَاهِيم، إِنَّك حَمِيد مَجِيد»[3]. أَبُو دَاوُدَ الأَعْمَى اسْمه: نُفَيْع بْن الحَارِث مَتْرُوك.

حَدِيث آخَر مَوْقُوف: رُوِّينَاهُ مِنْ طَرِيق سَعِيد بْن مَنْصُور وَزَيْد بْن الحُبَاب وَيَزِيد بْن هَارُون، ثَلاثَتهمْ عَنْ نُوح بْن قَيْس: حَدَّثَنَا سَلامَة الكِنْدِيّ أَنَّ عَلِيًّا ﷺ كَانَ يُعَلِّم النَّاس هَذَا الدُّعَاء: اللَّهُمَّ دَاحِي المَدْحُوَّات، وَبَارِئ المَسْمُوكَات، وَجَبَّار القُلُوب عَلى فِطْرَتِهَا شَقِيّهَا وَسَعِيدهَا. اجْعَل شَرَائِف صَلوَاتك، وَنَوَامِي بَرَكَاتك، وَرَأْفَة تَحَنُّنك، عَلى مُحَمَّد عَبْدك وَرَسُولك، الخَاتَم لِمَا سَبَقَ، والفَاتِح لِمَا أُغْلِقَ، وَالمُعْلن الحَقّ بِالحَقّ، وَالدَّامِغ لِجَيْشَاتِ الأَبَاطِيل كَمَا حَمَل فَاضْطَلَعَ بِأَمْرِك بِطَاعَتِك مُسْتَوْفِزًا فِي مَرْضَاتك، غَيْر نَكِل فِي قَدَم وَلا وَهَن فِي عَزْم، دَاعِيًا بِوَحْيِك حَافِظًا لعَهْدِك، مَاضِيًا عَلى نَفَاذ أَمْرِك، حَتَّى أَوْرَى قَبَسًا لقَابِس، آلاء الله تَصِل بِأَهْلِهِ أَسْبَابه، بِهِ هُدِيَتْ القُلُوب بَعْد خَوْضَات الفِتَن وَالإِثْم وأقام مُوَضِّحَات الأَعْلام، ومُنِيرَات الإِسْلام، وَنَائِرَات الأَحْكَام، فَهُوَ أَمِينك المَأْمُون، وَخَازِن عِلمك المُخْزُونَ، وَشَهِيدك يَوْم الدِّين، وَبَعِيثُك نِعْمَة، وَرَسُولُك بِالحَقِّ رَحْمَة. اللَّهُمَّ؛ أَفْسِحْ لهُ مفسحات فِي عَدْلك، وَاجْزِهِ مُضَاعَفَات الخَيْر مِنْ فَضْلك مُهَنَّآت له غَيْر مُكَدَّرَات مِنْ فَوْز ثَوَابك المَعْلُول وَجَزِيل عَطَائِك المجمول، اللَّهُمَّ أَعْل عَلى بِنَاء البانين بنيانه، وَأَكْرِمْ مَثْوَاهُ لَدَيْك وَنُزُله، وَأَتْمِمْ لهُ نُوره، وَاجْزِهِ مِنْ ابْتِعَاثك لهُ مَقْبُول الشَّهَادَة مَرْضِيّ المَقَالة، ذَا مَنْطِق عَدْل، وَخُطَّة فَصْل، وَحُجَّة وَبُرْهَان عَظِيم. هَذَا مَشْهُور مِنْ كَلام عَلِيّ ﷺ، وَقَدْ تَكَلَّمَ عَلَيْهِ ابْن قُتَيْبَة فِي مُشْكِل الحَدِيث، وَكَذَا أَبُو الحسين أَحْمَد بْن فَارِس اللُّغَوِيّ فِي جُزْء جَمَعَهُ فِي فَضْل الصَّلاة عَلى النَّبِيّ ﷺ، إِلَّا أَنَّ فِي إِسْنَاده نَظَرًا.

قَال شَيْخنَا الحَافِظ أَبُو الحَجَّاج المِزِّيّ: سَلامَة الكِنْدِيّ هَذَا لَيْسَ بِمَعْرُوف، وَلَمْ يُدْرِك عَلِيًّا -كَذَا قَال- وَقَدْ رَوَى الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ هَذَا الأَثَر عَنْ مُحَمَّد بْن عَلِيّ الصَّائِغ، عَنْ سَعِيد بْن مَنْصُور حَدَّثَنَا نُوح بْن قَيْس، عَنْ سَلامَة الكِنْدِيّ قَال كَانَ عَلِيّ ﷺ يُعَلِّمنَا الصَّلاة عَلى النَّبِيّ ﷺ فَيَقُول: «اللَّهُمَّ دَاحِي المَدْحُوَّات». وَذَكَرَهُ.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٦٥)، وصححه الألباني في «فضل الصلاة على النبي».
(٢) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٤٠٠)، وفيه عبد المهيمن: متروك، وانظر «الضعيفة» للألباني (٤٨٠٦).
(٣) ضعيف جدًا: أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٣)، وفيه أبو داود الأعمى واسمه نفيع بن الحارث: متروك.

حَدِيث آخَر موقوف: قَال ابْن مَاجَهْ: حدثنا الحسين بن بيان، حَدَّثَنَا زِيَاد بن عَبْد الله، حَدَّثَنَا الْمَسْعُودِيّ، عَنْ عَوْن بْن عَبْد الله، عَنْ أَبِي فَاخِتَة، عَنْ الأَسْوَد بْن يَزِيد، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود ﷺ قَال: إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلى رَسُول الله ﷺ فَأَحْسِنُوا الصَّلاة عَلَيْهِ؛ فَإِنَّكُمْ لا تَدْرُونَ لعَلَّ ذَلكَ يُعْرَض عَلَيْهِ. قَال: فقَالُوا لهُ: فعلِّمْنَا. قَال: قُولُوا: اللَّهُمَّ؛ اجْعَل صَلوَاتك وَرَحْمَتك وبركاتك عَلى سَيِّد الْمُرْسَلين، وَإِمَام الْمُتَّقِين، وَخَاتَم النَّبِيِّين، مُحَمَّد عَبْدك وَرَسُولك، إِمَام الخَيْر وَقَائِد الخَيْر، وَرَسُول الرَّحْمَة. اللَّهُمَّ؛ ابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا يَغْبِطهُ بِهِ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ. اللَّهُمَّ؛ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَعَلى آل مُحَمَّد، كَمَا صَلَّيْت عَلى إِبْرَاهِيم وَعَلى آل إِبْرَاهِيم، إِنَّك حَمِيد مَجِيد. اللَّهُمَّ؛ بَارِكْ عَلى مُحَمَّد وَعَلى آل مُحَمَّد، كَمَا بَارَكْت عَلى إِبْرَاهِيم وَعَلى آل إِبْرَاهِيم، إِنَّك حَمِيد مَجِيد. وَهَذَا مَوْقُوف، وَقَدْ رَوَى إِسْمَاعِيل القَاضِي عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو -أَوْ: عُمَر، عَلى الشَّكّ مِنْ الرَّاوِي- قَرِيبًا مِنْ هَذَا.

حَدِيث آخَر: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا مَالك بْن إِسْمَاعِيل، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْرَائِيل، عَنْ يُونُس بْن خَبَّاب قَال: خَطَبَنَا بِفَارِس فَقَال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، فَقَال: أَنْبَأَنِي مَنْ سَمِعَ ابْن عَبَّاس يَقُول: هَكَذَا أُنْزِل. فَقُلنَا -أَوْ: قَالُوا-: يَا رَسُول الله، عَلمْنَا السَّلام عَلَيْك، فَكَيْف الصَّلاة عَلَيْك؟ فقَال: «اللَّهُمَّ؛ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَعَلى آل مُحَمَّد، كَمَا صَلَّيْت عَلى إِبْرَاهِيم، وَآل إِبْرَاهِيم، إِنَّك حَمِيد مَجِيد، وَارْحَمْ مُحَمَّدًا وَآل مُحَمَّد، كَمَا رَحِمْت آل إِبْرَاهِيم إِنَّك حَمِيد مَجِيد، وَبَارِكْ عَلى مُحَمَّد وَعَلى آل مُحَمَّد، كَمَا بَارَكْت عَلى إِبْرَاهِيم إِنَّك حَمِيد مَجِيد».[1] فَيَسْتَدِلّ بِهَذَا الحَدِيث مَنْ ذَهَبَ إِلى جَوَاز التَّرَحُّم عَلى النَّبِيّ ﷺ، كَمَا هُوَ قَوْل الجُمْهُور، وَيُعَضِّدهُ حَدِيث الأَعْرَابِيّ الَّذِي قَال: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلا تَرْحَم مَعَنَا أَحَدًا. فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**لقد حَجَّرْتَ وَاسِعًا**»[2]. وَحَكَى القَاضِي عِيَاض عَنْ جُمْهُور المَالكِيَّة مَنْعه، قَال: وَأَجَازَهُ أَبُو مُحَمَّد ابْن أَبِي زَيْد.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، أَخْبَرَنَا شُعْبَة، عَنْ عَاصِم بْن عُبَيْد الله قَال: سَمِعْت عَبْد الله بْن عَامِر بْن رَبِيعَة يُحَدِّث عَنْ أَبِيهِ قَال: سَمِعْت النَّبِيّ ﷺ يَقُول: «**مَنْ صَلَّى عَليَّ صَلاة لمْ تَزَل المَلائِكَة تُصَلِّي عَليْهِ مَا صَلَّى عَليَّ، فَليُقِلّ عَبْد مِنْ ذَلكَ أَوْ ليُكْثِرْ**»[3]. وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث شُعْبَة بِهِ.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو سَلمَة مَنْصُور بْن سَلمَة الخُزَاعِيّ، وَيُونُس -هُوَ ابْن مُحَمَّد- قَالا: حَدَّثَنَا ليْث، عَنْ يَزِيد بْن الهَادِ، عَنْ عَمْرو بْن أَبِي عُمَرو، عَنْ أَبِي الحُوَيْرِثِ، عَنْ مُحَمَّد بْن جُبَيْر بْن مُطْعِم، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف قَال: خَرَجَ رَسُول الله ﷺ فَاتَّبَعْته حَتَّى دَخَل نَخْلًا، فَسَجَدَ فَأَطَال السُّجُود، حَتَّى خِفْت أَوْ خَشِيت أَنْ يَكُون الله قَدْ تَوَفَّاهُ أَوْ قَبَضَهُ. قَال: فَجِئْت أَنْظُر. فَرَفَعَ رَأْسه فَقَال: «**مَا لك يَا عَبْد الرَّحْمَن؟**». قَال: فَذَكَرْت ذَلكَ لهُ. فَقَال: «**إِنَّ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام قَال لي: أَلا أُبَشِّرك؟ إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُول: مَنْ صَلَّى عَليْك صَلَّيْت عَليْهِ، وَمَنْ سَلَّمَ عَليْك سَلَّمْت عَليْهِ**».[4]

طَرِيق أُخْرَى: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد مَوْلى بَنِي هَاشِم، حَدَّثَنَا سُليْمَان بْن بِلال، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن أَبِي عُمَرو، عَنْ عَبْد الوَاحِد بْن مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف قَال: خرج رَسُول الله ﷺ فَتَوَجَّهَ نَحْو صَدَقته، فَدَخَل فَاسْتَقْبَل القِبْلة، فَخَرَّ سَاجِدًا فَأَطَال السُّجُود، حَتَّى ظَنَنْت أَنَّ الله قَدْ قَبَضَ نَفْسه

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٢٢/ ٣١)، وفيه جهالة من سمع من ابن عباس.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠١٠)، وأبو داود (٣٨٠).
(٣) حسن: حسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (١٦٦٩).
(٤) حسن: حسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٩٣٧).

فِيهَا، فَدَنَوْت مِنْهُ ثُمَّ جَلسْت، فَرَفَعَ رَأْسه فَقَال: «مَنْ هَذَا؟». فقُلت: عَبْد الرَّحْمَن، قَال: «مَا شَأْنك؟». قُلت: يَا رَسُول الله، سَجَدْت سَجْدَة خَشِيت أَنْ يَكُون الله ﷻ قَبَض نفسك فِيهَا. فَقَال: «إِنَّ جِبْرِيل أَتَانِي فَبَشَّرَنِي أَنَّ الله ﷻ يَقُول لك: مَنْ صَلَّى عَلَيْك صَلَّيْت عَلَيْهِ، وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيْك سلمت عَلَيْهِ، فَسَجَدْت لله ﷻ شُكْرًا».[(١)]

حَدِيث آخَر: قَال أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحِيم بْن بحير بْن عَبْد الله بْن مُعَاوِيَة بْن بحير ابْن رَيَّسان، نا عمرو بن الربيع بن طارق، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَيُّوب حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن عُمَر، عَنْ الحَكَم بْن عتيبة، عَنْ إِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، عَنْ الأَسْوَد بْن يَزِيد عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب ﷺ قَال: خَرَجَ رَسُول الله ﷺلحَاجَةٍ فَلَمْ يَجِد أَحَدًا يَتْبَعهُ، فَفَزِعَ عُمَر، فَأَتَاهُ بِمَطْهَرَةٍ مِنْ خَلفه، فَوَجَدَ النَّبِيّ ﷺسَاجِدًا فِي مَشْرُبَة، فَتَنَحَّى عَنْهُ مِنْ خَلفه حَتَّى رَفَعَ النَّبِيّ ﷺرَأْسه، فَقَال: «أَحْسَنْت يَا عُمَر حِين وَجَدْتنِي سَاجِدًا فَتَنَحَّيْت عَنِّي، إِنَّ جِبْرِيل أَتَانِي فَقَال: مَنْ صَلَّى عَلَيْك مِنْ أُمَّتك وَاحِدَة، صَلَّى الله عَلَيْهِ عَشْرًا، وَرَفَعَهُ عَشْر دَرَجَات»[(٢)]. وَقَدْ اخْتَارَ هَذَا الحَدِيث الحَافِظ الضِّيَاء المَقْدِسِيّ فِي كِتَابه «المُسْتَخْرَج عَلى الصَّحِيحَيْنِ». وَقَدْ رَوَاهُ إِسْمَاعِيل القَاضِي، عَنْ القَعْنَبِيّ عَنْ سَلمَة بْن وَرْدَان، عَنْ أَنَس عَنْ عُمَر بِنَحْوِهِ. وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ يَعْقُوب بْن حُمَيْد، عَنْ أَنَس بْن عِيَاض، عَنْ سَلمَة بْن وَرْدَان، عَنْ مَالك بْن أَوْس بْن الحَدَثَان، عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب، بِنَحْوِهِ.

حَدِيث آخَر: قَال أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا بُنْدَار، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن خَالد بْن عَثْمَة، حَدَّثَنِي مُوسَى بْن يَعْقُوب الزَّمْعِيّ، حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن كَيْسَان، أَنَّ عَبْد الله بْن شَدَّاد أَخْبَرَهُ، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود أَنَّ رَسُول الله ﷺقَال: «أَوْلى النَّاس بِي يَوْم القِيَامَة أَكْثَرهمْ عَليَّ صَلاة»[(٣)]. تَفَرَّدَ بِرِوَايَتِهِ التِّرْمِذِيّ رَحِمَهُ اللهُ، ثُمَّ قَال: هَذَا حَدِيث حَسَن غَرِيب.

حَدِيث آخَر: قَال إِسْمَاعِيل القَاضِي: حَدَّثَنَا عَليّ بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ يَعْقُوب بْن زَيْد بْن طَلحَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي فَقَال لِي: مَا مِنْ عَبْد يُصَلِّي عَلَيْك صَلاة إِلاَّ صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا». فَقَامَ رَجُل فَقَال: يَا رَسُول الله، أَلا أَجْعَل نِصْف دُعَائِي لك؟ قَال: «إِنْ شِئْت». قَال: أَلا أَجْعَل ثُلُثَي دُعَائِي لك؟ قَال: «إِنْ شِئْت». قَال: أَلا أَجْعَل دُعَائِي كله لك؟ قَال: «إِذَنْ يَكْفِيك الله هَمَّ الدنيا وَهَمَّ الآخِرَة».[(٤)] فَقَال شَيْخ كَانَ بِمَكَّة يُقَال لهُ: مَنِيع لسُفْيَان: عَمَّنْ أَسْنَدَهُ قَال: لا أَدْرِي.

حَدِيث آخَر: قَال إِسْمَاعِيل القَاضِي: حَدَّثَنَا سَعِيد بْن سَلَّام العَطَّار، حَدَّثَنَا سُفْيَان -يعني: الثَّوْرِيّ- عَنْ عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن عَقِيل، عَنْ الطُّفَيْل بْن أُبَيّ بْن كَعْب عَنْ أَبِيهِ قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ يَخْرُج فِي جَوْف اللَّيْل فَيَقُول: «جَاءَتْ الرَّاجِفَة، تَتْبَعهَا الرَّادِفَة، جَاءَ المَوْت بِمَا فِيهِ». قَال أُبَيّ: يَا رَسُول الله؛ إِنِّي أُصَلِّي مِنْ اللَّيْل أَفَأَجْعَل لك ثُلُث صَلاتِي؟ قَال رَسُول الله ﷺ: «الشَّطْر». قَال: أَفَأَجْعَل لك شَطْر صَلاتِي؟ قَال رَسُول الله ﷺ: «الثُّلُثَانِ». قَال: أَفَأَجْعَل لك صَلاتِي كُلّهَا؟ قَال: «إِذَنْ يَغْفِر الله ذَنْبك كُلّه».[(٥)]

وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ بِنَحْوِهِ فَقَال: حَدَّثَنَا هَنَّاد، حَدَّثَنَا قَبِيصَة، حَدَّثَنَا سُفْيَان عَنْ عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن عَقِيل، عَنْ الطُّفَيْل بْن أُبَيّ بْن كَعْب، عَنْ أَبِيهِ قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْل قَامَ فَقَال: «يَا أَيهَا النَّاس؛

---

(١) صحيح لغيره: قال الألباني: صحيح لغيره، انظر «فضل الصلاة على النبي» (١/ ٢٤) رقم (٥).
(٢) إسناده ضعيف: انظر «فضل الصلاة على النبي» (٤) بتحقيق الألباني.
(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (٤٥٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».
(٤) صحيح مرسل: أخرجه الترمذي (٢٤٥٧)، وأحمد (٤/ ٣٠)، وقال الألباني: صحيح مرسل. انظر «فضل الصلاة على النبي».
(٥) حسن صحيح: أخرجه الألباني في «فضل الصلاة على النبي» (٢٩).

اذْكُرُوا الله، اذْكُرُوا الله، جَاءَتْ الرَّاجِفَة تَتْبَعهَا الرَّادِفَة، جَاءَ المَوْت بِمَا فِيهِ، جَاءَ المَوْت بِمَا فِيهِ». قَال أُبَيّ: قُلت: يَا رَسُول الله؛ إِنِّي أُكْثِر الصَّلاة عَلَيْك، فَكَمْ أَجْعَل لك مِنْ صَلاتِي؟ قَال: «مَا شِئْت». قُلت: الرُّبع؟ قَال: «مَا شِئْت، فَإِنْ زِدْت فَهُوَ خَيْر لك». قُلت: فَالنِّصْف؟ قَال: «مَا شِئْت، فَإِنْ زِدْت فَهُوَ خَيْر لك». قُلت: فَالثُّلُثَيْنِ؟ قَال: «مَا شِئْت، فَإِنْ زِدْت فَهُوَ خَيْر لك». قُلت: أَجْعَل لك صَلاتِي كُلّهَا؟ قَال: «إِذَنْ تُكْفَى هَمَّك، وَيُغْفَر لك ذَنْبك».[1] ثُمَّ قَال: هَذَا حَدِيث حَسَن. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، حَدَّثَنَا سُفْيَان عَنْ عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن عَقِيل، عَنْ الطُّفَيْل بْن أُبَيّ، عَنْ أَبِيهِ قَال: قَال رَجُل: يَا رَسُول الله؛ أَرَأَيْت إِنْ جَعَلت صَلاتِي كُلّهَا عَلَيْك؟ قَال: «إِذَنْ يَكْفِيك الله مَا أَهَمَّك مِنْ دُنْيَاك وَآخِرَتك».

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو كَامِل، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ ثَابِت بْن سُلَيْمَان مَوْلَى الحَسَن بْن عَلِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُول الله ﷺ جَاءَ ذَات يَوْم، وَالسُّرُور يُرَى فِي وَجْهه، فَقَالُوا: يَا رَسُول الله؛ إِنَّا لنَرَى السُّرُور فِي وَجْهك. فَقَال: «إِنَّهُ أَتَانِي المَلك فَقَال: يَا مُحَمَّد؛ أَمَا يُرْضِيك أَنَّ رَبّك ﷻ يَقُول: إِنَّهُ لا يُصَلِّي عَلَيْك أَحَد مِنْ أُمَّتك إِلاَّ صَلَّيْت عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلا يُسَلِّم عَلَيْك أَحَد مِنْ أُمَّتك إِلاَّ سَلَّمْت عَلَيْهِ عَشْرًا؟ قَال: بَلَى».[2] وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث حَمَّاد بْن سَلمَة بِهِ. وَقَدْ رَوَاهُ إِسْمَاعِيل القَاضِي، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي أُوَيْس، عَنْ أَخِيهِ، عَنْ سُلَيْمَان بْن بِلال، عَنْ عُبَيْد الله بْن عُمَر، عَنْ ثَابِت، عَنْ أَنَس، عَنْ أَبِي طَلحَة، بِنَحْوِهِ.

طَرِيق أُخْرَى: قَال أَحْمَد: حَدَّثَنَا سريج، حَدَّثَنَا أَبُو مَعْشَر، عَنْ إِسْحَاق بْن كَعْب بْن عُجْرَة، عَنْ أَبِي طَلحَة الأَنْصَارِيّ قَال: أَصْبَحَ رَسُول الله ﷺ يَوْمًا طَيِّب النَّفْس، يُرَى فِي وَجْهه البِشْر قَالُوا: يَا رَسُول الله؛ أَصْبَحْت اليَوْم طَيِّب النَّفْس، يُرَى فِي وَجْهك البِشْر؟ قَال: «أَجَل، أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي ﷻ فَقَال: مَنْ صَلَّى عَلَيْك مِنْ أُمَّتك صَلاة، كَتَبَ الله لهُ بِهَا عَشْر حَسَنَات، وَمَحَا عَنْهُ عَشْر سَيِّئَات، وَرَفَعَ لهُ عَشْر دَرَجَات، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلهَا».[3] هَذَا أَيْضًا إِسْنَاد جَيِّد وَلمْ يُخَرِّجُوهُ.

حَدِيث آخَر: رَوَى مُسْلم وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ، مِنْ حَدِيث إِسْمَاعِيل بْن جَعْفَر، عَنْ العَلاء بْن عَبْد الرَّحْمَن، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَة صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»[4]. قَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن صَحِيح، وَفِي البَاب عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف، وَعَامِر بْن رَبِيعَة، وَعَمَّار، وَأَبِي طَلحَة وَأَنَس، وَأُبَيّ بْن كَعْب. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حُسَيْن بْن مُحَمَّد، حَدَّثَنَا شَرِيك، عَنْ ليْث، عَنْ كَعْب عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهَا زَكَاة لكُمْ. وَسَلُوا الله لِي الوَسِيلة، فَإِنَّهَا دَرَجَة فِي أَعْلَى الجَنَّة، لا يَنَالهَا إِلاَّ رَجُل، وَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَنَا هُوَ»[5]. تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَد. وَقَدْ رَوَاهُ البَزَّار مِنْ طَرِيق مُجَاهِد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة بِنَحْوِهِ فَقَال: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق البِكَالِيّ، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن سَعِيد، حَدَّثَنَا زِوَاد بْن عُلبَة، عَنْ ليْث، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهَا زَكَاة لكُمْ، وَسَلُوا الله لِي الدَّرَجَة الوَسِيلة مِنْ الجَنَّة». فَسَأَلنَاهُ -أَوْ: أَخْبَرَنَا- فَقَال: «هِيَ دَرَجَة فِي أَعْلَى الجَنَّة، وَهِيَ لرَجُل، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُون ذَلكَ الرَّجُل». فِي إِسْنَاده بَعْض مَنْ تُكُلِّمَ فِيهِ.

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٤٥٧)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٢) إسناده ضعيف: قاله الألباني في «فضل الصلاة على النبي» (٢).
(٣) صحيح لغيره: انظر «فضل الصلاة على النبي» (١).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٤٠٨)، وأبو داود (١٥٣٠).
(٥) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٥)، والبزار (٣٦٣) «كشف»، وفيه ليث بن أبي سليم: لم تتميز أحاديثه فترك، والجزء الأخير من الحديث صحيح.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنا ابْن لِهِيعَة، عن عبد الله بن هبيرة، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن ابْن مريج الخَوْلانِيّ، سَمِعْت أَبَا قَيْس -مَوْلى عَمْرو بْن العَاص- سَمِعْت عَبْد الله بْن عَمْرو يَقُول: «مَنْ صَلَّى عَلى رَسُول اللهِ ﷺ صَلاة صَلَّى الله عَلَيْهِ وَمَلائِكَته لها سَبْعِينَ صَلاة، فَلْيُقِلّ عَبْد مِنْ ذَلكَ أَوْ لِيُكْثِرْ». وَسَمِعْت عَبْد الله بْن عَمْرو يَقُول: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُول اللهِ ﷺ يَوْمًا كَالْمُوَدِّع فَقَال: «أَنَا مُحَمَّد النَّبِيّ الأُمِّيّ -قَالهُ ثَلاث مَرَّات- وَلا نَبِيّ بَعْدِي، أُوتِيت فَوَاتِح الكَلام وَخَوَاتِمه وَجَوَامِعه، وَعُلِّمْت كَمْ خَزَنَة النَّار وَحَمَلة العَرْش، وَتُجُوِّز بِي، وعُوفِيتُ وَعُوفِيَتْ أُمَّتِي، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا دُمْت فِيكُمْ، فَإِذَا ذُهِبَ بِي فَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ الله، أَحِلُّوا حَلاله، وَحَرِّمُوا حَرَامه».[1]

حَدِيث آخَر: قَال أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو سَلمَة الخُرَاسَانِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاق، عَنْ أَنَس قَال: قَال رَسُول اللهِ ﷺ : **«مَنْ ذُكِرت عِنْده فَلْيُصَلّ عَلَيّ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيّ مَرَّة وَاحِدَة صَلَّى الله عَلَيْهِ عَشْرًا»**.[2] وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي **«اليَوْم وَاللَّيْلة»** مِنْ حَدِيث أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ، عَنْ أَبِي سَلمَة -وَهُوَ الْمُغِيرَة بْن مُسْلم الخُرَاسَانِيّ- عَنْ أَبِي إِسْحَاق عَمْرو بْن عَبْد الله السَّبِيعِيّ، عَنْ أَنَس بِهِ. وقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن فُضَيْل، حَدَّثَنَا يُونُس ابْن عَمْرو، عَنْ يُونُس بْن أَبِي إِسْحَاق، عَنْ بريد بْن أَبِي مَرْيَم، عَنْ أَنَس قَال: قَال رَسُول اللهِ ﷺ : **«مَنْ صَلَّى عَلَيّ صَلاة وَاحِدَة، صَلَّى الله عَلَيْهِ عَشْر صَلَوَات، وَحَطّ عَنْهُ عَشْر خَطِيئَات»**.[3]

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد المَلك بْن عَمْرو وَأَبُو سَعِيد؛ قالا: حَدَّثَنَا سُليْمَان بْن بِلال، عَنْ عُمَارَة بْن غَزِيَّة، عَنْ عَبْد الله بْن عَلِيّ بْن الحُسَيْن، عَنْ أَبِيهِ عَلِيّ بْن الحُسَيْن عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَال: **«البَخِيل مَنْ ذُكِرت عِنْده، ثُمَّ لمْ يُصَلّ عَلَيّ»**. وَقَال أَبُو سَعِيد: **«فَلَمْ يُصَلّ عَلَيّ»**[4]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث سُليْمَان بْن بِلال، ثُمَّ قَال: هَذَا حَدِيث حَسَن غَرِيب صَحِيح. وَمِنْ الرُّوَاة مَنْ جَعَلهُ مِنْ مسند «الحُسَيْن بْن عَليّ»، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلهُ مِنْ مُسْنَد «عَلِيّ» نَفْسه.

حَدِيث آخَر: قَال إِسْمَاعِيل القَاضِي: حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن مِنْهَال، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ مَعْبَد بْن هلال العَنَزِيّ، حَدَّثَنِي رَجُل مِنْ أَهْل دِمَشْق، عَنْ عَوْف بْن مَالك، عَنْ أَبِي ذَرّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَال: **«إِنَّ أَبْخَل النَّاس مَنْ ذُكِرت عِنْده فَلمْ يُصَلّ عَلَيّ»**.[5]

حَدِيث آخَر مُرْسَل: قَال إِسْمَاعِيل: وَحَدَّثَنَا سُليْمَان بْن حَرْب، حَدَّثَنَا جَرِير بْن حَازِم، سَمِعْت الحَسَن يَقُول: قَال رَسُول اللهِ ﷺ : **«بِحَسْب امْرِئٍ مِنْ البُخْل أَنْ أُذْكَر عِنده فَلا يُصَلِّي عَلَيّ»**.[6] صلوات الله عليه.

حَدِيث آخَر: قَال التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم الدَّوْرَقِيّ، حَدَّثَنَا رِبْعِيّ بْن إِبْرَاهِيم، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة؛ قَال: قَال رَسُول اللهِ ﷺ : **«رَغِمَ أَنْف رَجُل ذُكِرت عِنْده فَلَمْ يُصَلّ عَلَيّ. وَرَغِمَ أَنْف رَجُل دَخَل عَلَيْهِ شَهْر رَمَضَان ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْل أَنْ يُغْفَر لهُ، وَرَغِمَ أَنْف رَجُل أَدْرَك**

---

(١) ضعيف: تقـدم.
(٢) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٦٢٤٦).
(٣) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٦٤٣).
(٤) صحيح: صححه الألباني في «الإرواء» (٥).
(٥) صحيح: صححه الألباني في «فضل الصلاة على النبي» (٤١).
(٦) صحيح: صححه الألباني في «فضل الصلاة على النبي» (٤٢).

عِنْده أَبَوَاهُ الكِبَر فَلَمْ يُدْخِلاهُ الجَنَّة»[1]. ثُمَّ قَال: حَسَن غَرِيب. **قُلت**: وَقَدْ رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي **«الأَدَب المفرد»** عَنْ مُحَمَّد بْن عُبَيْد الله، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي حَازِم، عَنْ كَثِير بْن زَيْد عَنْ الوَلِيد بْن رَبَاح، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَرْفُوعًا، بِنَحْوِهِ، ورويناه مِنْ حَدِيث مُحَمَّد بْن عَمْرو، عَنْ أَبِي سَلمَة، عَنْ أَبِى هُرَيْرَة، به. قَال التِّرْمِذِيّ: وَفِي البَاب عَنْ جَابِر وَأَنَس. **قُلت**: وَابْن عَبَّاس، وَكَعْب بْن عُجْرَة، وَقَدْ ذَكَرْت طُرُق هَذَا الحَدِيث فِي أَوَّل كِتَاب الصِّيَام، عِنْد قَوْله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾. وَهَذَا الحَدِيث وَالَّذِي قَبْله دَلِيل عَلَى وُجُوب الصَّلاة عليه ﷺ كلما ذُكِر، وَهُوَ مَذْهَب طَائِفَة مِنْ العُلَماء. وَيَتقَوَّى بِالحَدِيثِ الآخر الَّذِي رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ: حَدَّثَنَا جبارة ابْن المُغَلِّس، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن زَيْد، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن دِينَار، عَنْ جَابِر بْن زَيْد، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«مَنْ نَسِيَ الصَّلاة عَلَيَّ خَطِئَ طَرِيق الجَنَّة»**[2]. جبارة ضَعِيف. وَلكِنْ رَوَاهُ إِسْمَاعِيل القَاضِي مِنْ غَيْر وَجْه، عَنْ أَبِي جَعْفَر مُحَمَّد بْن عَلِيّ البَاقِر قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«مَنْ نَسِيَ الصَّلاة عَلَيَّ خَطِئَ طَرِيق الجَنَّة»**. وَهَذَا مُرْسَل يَتقَوَّى بِالَّذِي قَبْله. وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهُ تَجِب الصَّلاة عَلَيْهِ فِي المَجْلس مَرَّة وَاحِدَة، ثُمَّ لا تَجِب فِي بَقِيَّة ذَلِكَ المَجْلس، بَل تُسْتَحَبّ. نَقَلهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ بَعْضهمْ، وَيَتَأَيَّد بِالحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد ابْن بَشَّار، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ صَالح -مَوْلى التَّوْأَمَة- عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«مَا جَلسَ قَوْم مَجْلسًا لمْ يَذْكُرُوا الله فِيهِ، وَلمْ يُصَلُّوا عَلى نَبِيِّهِمْ إِلاَّ كَانَ عَليْهِمْ تِرَة، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لهُمْ»**[3]. تَفَرَّدَ بِهِ التِّرْمِذِيّ مِنْ هَذَا الوَجْه. وَرَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد عَنْ حَجَّاج [وَيَزِيد][4] بْن هَارُون، كِلاهُمَا عَنْ ابْن أَبِي ذِئْب، عَنْ صَالح -مَوْلى التَّوْأَمَة- عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، مَرْفُوعًا مِثْله. ثُمَّ قَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حَسَن.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ مِنْ غَيْر وَجْه. وَقَدْ رَوَاهُ إِسْمَاعِيل القَاضِي مِنْ حَدِيث شُعْبَة عَنْ سُليْمَان، عَنْ ذَكْوَان، عَنْ أَبِي سَعِيد قَال: «مَا مِنْ قَوْم يَقْعُدُون ثُمَّ يَقُومُونَ وَلا يُصَلُّونَ عَلى النَّبِيّ ﷺ، إِلَّا كَانَ عَليْهِمْ حَسْرَة، وَإِنْ دَخَلُوا الجَنَّة لمَا يَرَوْنَ مِنْ الثَّوَاب». وَحُكِيَ عَنْ بَعْضهمْ أَنَّهُ إِنَّمَا تَجِب الصَّلاة عَليْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي العُمْر مَرَّة وَاحِدَة، امْتِثَالًا لأَمْرِ الآيَة، ثُمَّ هِيَ مُسْتَحَبَّة فِي كُلّ حَال. وَهَذَا هُوَ الَّذِي نَصَرَهُ القَاضِي عِيَاض بَعْدَمَا حَكَى الإِجْمَاع عَلى وُجُوب الصَّلاة عَليْهِ ﷺ فِي الجُمْلة. قَال: وَقَدْ حَكَى الطَّبَرِيّ أَنَّ مَحْمَل الآيَة عَلى النَّدْب، وَادَّعَى فِيهِ الإِجْمَاع. قَال: وَلعَلَّهُ فِيمَا زَادَ عَلى المَرَّة، وَالوَاجِب منه مَرَّة كَالشَّهَادَةِ لهُ بِالنُّبُوَّةِ، وَمَا زَادَ عَلى ذَلِكَ فَمَنْدُوب وَمُرَغَّب فِيهِ مِنْ سُنَن الإِسْلام، وَشِعَار أَهْله.

قُلت: وَهَذَا قَوْل غَرِيب، فَإِنَّهُ قَدْ وَرَدَ الأَمْر بِالصَّلاةِ عَليْهِ فِي أَوْقَات كَثِيرَة، فَمِنْهَا وَاجِب وَمِنْهَا مُسْتَحَبّ عَلى مَا نُبَيِّنهُ: **فَمِنْهُ بَعْد النِّدَاء للصَّلاةِ**؛ للحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا حَيْوَةُ، حَدَّثَنَا كَعْب بْن عَلقَمَة أَنَّهُ سَمِعَ عَبْد الرَّحْمَن بْن جُبَيْر يَقُول: إِنَّهُ سَمِعَ عَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاص يَقُول: إِنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ يقول: **«إِذَا سَمِعْتُمْ مُؤَذِّنًا فَقُولُوا مِثْل مَا يَقُول ثُمَّ صَلُّوا عَليَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَليَّ صَلاة صَلَّى الله عَليْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا الله لي الوَسِيلة، فَإِنَّهَا مَنْزِلة فِي الجَنَّة لا تَنْبَغِي إِلاَّ لعَبْدٍ مِنْ عِبَاد الله، وَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَل لي الوَسِيلة حَلَّتْ عَليْهِ الشَّفَاعَة»**.[1] وَأَخْرَجَهُ مُسْلم وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ، مِنْ حَدِيث كَعْب بْن عَلقَمَة.

---

(١) صحيح : تقـدم.
(٢) حسن صحيح : أخرجه ابن ماجه (٩٠٨) وقال الألباني: حسن صحيح. انظر «صحيح ابن ماجه».
(٣) صحيح : أخرجه الترمذي (٣٣٨٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٤) في (ز) : [زيد].

طَرِيق أُخْرَى: قَال إِسْمَاعِيل القَاضِي: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي [بَكْر][١]، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَلِيّ، عَنْ أَبِي بَكْر الجُشَمِيّ، عَنْ صَفْوَان بْن سُلَيْم، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو قَال: قَال رَسُول اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَأَل الله لي الوَسِيلَة، حلَّت عَلَيْهِ شَفَاعَتِي يَوْم القِيَامَة**».

حَدِيث آخَر: قَال إِسْمَاعِيل القَاضِي: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن حَرْب، حَدَّثَنَا [سَعِيد بْن زَيْد، عَنْ لَيْث][٢]، عَنْ كَعْب -هُوَ كَعْب الأَحْبَار- عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: قَال رَسُول اللهِ ﷺ: «صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلاتكُمْ عَلَيَّ زَكَاة لكُمْ، وَسَلُوا الله لِي الوَسِيلة». قَال: فَإِمَّا حَدَّثَنَا وَإِمَّا سَأَلْنَاهُ؛ فقَال: «الوَسِيلة أَعْلَى دَرَجَة فِي الجَنَّة، لا يَنَالهَا إلاَّ رَجُل، وَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَنَا ذَلكَ الرَّجُل».[٣] ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ مُحَمَّد بْن أَبِي بَكْر عَنْ مُعْتَمِر، عَنْ لَيْث -وَهُوَ ابْن أَبِي سُلَيم- بِهِ. وَكَذَا الحَدِيث الآخَر. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة، حَدَّثَنَا بَكْر بْن سَوَادَة، عَنْ زِيَاد بْن نُعَيْم، عَنْ وفاء الحَضْرَمِيّ، عَنْ رُوَيْفِع بْن ثَابِت الأَنْصَارِيّ: أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَال: «مَنْ صَلَّى عَلَى مُحَمَّد وَقَال: اللَّهُمَّ أَنْزِلهُ المَقْعَد المُقَرَّب عِنْدك يَوْم القِيَامَة؛ وَجَبَتْ لهُ شَفَاعَتِي».[٤] وَهَذَا إِسْنَاد لا بَأْس بِهِ، وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ.

أَثَر آخر: قَال إِسْمَاعِيل القَاضِي: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا سُفْيَان، حَدَّثَنِي مَعْمَر عَنْ ابْن طَاوُس، عَنْ أَبِيهِ سَمِعْت ابْن عَبَّاس يَقُول: اللَّهُمَّ تَقَبَّل شَفَاعَة مُحَمَّد الكُبْرَى، وَارْفَعْ دَرَجَته العُلْيَا، وَأَعْطِهِ سُؤْله فِي الآخِرَة وَالأُولى، كَمَا آتَيْت إِبْرَاهِيم وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلام. إِسْنَاد جَيِّد قَوِيّ صَحِيح.

وَمِنْ ذَلكَ: عِنْد دُخُول المَسْجِد وَالخُرُوج مِنْهُ؛ للحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم، عَنْ عَبْد الله بْن [الحَسَن][٥]، عَنْ أُمّه فَاطِمَة بِنْت الحُسَيْن، عَنْ جَدَّته فَاطِمَة بِنْت رَسُول الله ﷺ قَالتْ: كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ إِذَا دَخَل المَسْجِد صَلَّى عَلَى مُحَمَّد وَسَلَّمَ وقَال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لي أَبْوَاب رَحْمَتك**». وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّد وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَال: «**اللَّهُمَّ؛ اغْفِرْ لي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لي أَبْوَاب فَضْلك**».[٦]

وَقَال إِسْمَاعِيل القَاضِي: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن عَبْد الحَمِيد، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن عُمَر التَّمِيمِيّ، عَنْ سُلَيْمَان الضَّبِّيّ، عَنْ عَلِيّ بْن الحُسَيْن قَال: قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَالب ﷺ: إِذَا مَرَرْتُمْ بِالمَسَاجِدِ فَصَلُّوا عَلى النَّبِيّ ﷺ. وَأَمَّا الصَّلاة عَلَيْهِ ﷺ فِي الصَّلاة؛ فَقَدْ قَدَّمْنَا الكَلام عَلَيْهَا فِي التَّشَهُّد الأَخِير، وَمَنْ ذَهَبَ إِلى ذَلكَ مِنَ العُلَمَاء مع الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ. وَأَمَّا التَّشَهُّد الأَوَّل فَلا تَجِب فِيهِ قَوْلًا وَاحِدًا وَهَل تُسْتَحَبّ؟ عَلى قَوْلَيْنِ للشَّافِعِيّ.

وَمِنْ ذَلكَ: الصَّلاة عَلَيْهِ ﷺ فِي صَلاة الجِنَازَة، فَإِنَّ السُّنَّة أَنْ يَقْرَأ فِي التَّكْبِيرَة الأُولى فَاتِحَة الكِتَاب، وَفِي الثَّانِيَة أَنْ يُصَلِّيَ عَلى النَّبِيّ ﷺ، وَفِي الثَّالثَة يَدْعُو للمَيِّتِ، وَفِي الرَّابِعَة يَقُول: اللَّهُمَّ لا تَحْرِمنَا أَجْره وَلا تَفْتِنَّا بَعْده.[٧] قَال الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا مُطَرِّف بْن مَازِن، عَنْ مَعْمَر عَنْ الزُّهْرِيّ: أَخْبَرَنِي أَبُو أُمَامَة ابْن سَهْل بْن حُنَيف أَنَّهُ أَخْبَرَهُ رَجُل مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ: أَنَّ السُّنَّة فِي الصَّلاة عَلى الجِنَازَة أَنْ يُكَبِّر الإِمَام، ثُمَّ يَقْرَأ بِفَاتِحَةِ الكِتَاب بَعْد التَّكْبِيرَة الأُولى سِرًّا فِي نَفْسه، ثُمَّ يُصَلِّي عَلى النَّبِيّ ﷺ وَيُخْلص الدُّعَاء للجِنَازَةِ، وَفِي التَّكْبِيرَات لا يَقْرَأ فِي شَيْء مِنْهَا، ثُمَّ يُسَلِّم سِرًّا فِي نَفْسه. وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ عَنْ أَبِي أُمَامَة نَفْسه أَنَّهُ قَال: مِنْ السُّنَّة ... فَذَكَرَه. وَهَذَا

---

(١) فِي (ز): [بكير].
(٢) فِي (ز): [سعيد بن ليث].
(٣) **ضعيف**: تقدم.
(٤) **ضعيف بهذا اللفظ**: أخرجه أحمد (٤/ ١٠٨)، وفيه ابن لهيعة: ضعيف.
(٥) فِي (ز): [الحسين].
(٦) **صحيح**: صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٤٧١٤).
(٧) **صحيح**: صححه الألباني في «إرواء الغليل» (٧٣٤).

مِنْ الصَّحَابِيّ فِي حُكْم المَرْفُوع عَلى الصَّحِيح. وَرَوَاهُ إِسْمَاعِيل القَاضِي، عَنْ مُحَمَّد بْن المُثَنَّى، عَنْ عَبْد الأَعْلَى، عَنْ مَعْمَر عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ابْن سَهْل، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيِّب أَنَّهُ قَال: السُّنَّة فِي الصَّلاة عَلى الجِنَازَة ... فَذَكَرَه. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة وَابْن عُمَر وَالشَّعْبِيّ.

وَمِنْ ذَلِكَ: فِي صَلاة العِيد، قَال إِسْمَاعِيل القَاضِي: حَدَّثَنَا مُسْلم بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا هِشَام الدُّسْتُوَائِيّ، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن أَبِي سُلَيْمَان، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ عَلقَمَة، أَنَّ ابْن مَسْعُود وَأَبَا مُوسَى وَحُذَيْفَة خَرَجَ عَلَيْهِمْ الوَلِيد بْن عُقْبَة يَوْمًا قَبْل العِيد، فَقَال لَهُمْ: إِنَّ هَذَا العِيد قَدْ دَنَا فَكَيْف التَّكْبِير فِيهِ؟ قَال عَبْد الله: تبدأ فَتُكَبِّر تَكْبِيرَة تَفْتَتِح بِهَا الصَّلاة، وَتَحْمَد رَبّك وَتُصَلِّي عَلى النَّبِيّ، ثُمَّ تَدْعُو وَتُكَبِّر وَتَفْعَل مِثْل ذَلِكَ، ثُمَّ تُكَبِّر وَتَفْعَل مِثْل ذَلِكَ، ثُمَّ تُكَبِّر وَتَفْعَل مِثْل ذَلِكَ، ثُمَّ تَقْرَأ ثُمَّ تُكَبِّر، وَتَرْكَع، ثُمَّ تَقُوم فَتَقْرَأ وَتَحْمَد رَبّك وَتُصَلِّي عَلى النَّبِيّ ﷺ ثُمَّ تَدْعُو وَتُكَبِّر، وَتَفْعَل مِثْل ذَلِكَ ثُمَّ تَرْكَع، فَقَال حُذَيْفَة وَأَبُو مُوسَى: صَدَقَ أَبُو عَبْد الرَّحْمَن. إِسْنَاده صَحِيح.(١)

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ يُسْتَحَبّ خَتْم الدُّعَاء بِالصَّلاةِ عَلَيْهِ ﷺ ، قَال التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد، حَدَّثَنَا النَّضْر بْن شميل، عَنْ أَبِي قُرَّة الأَسَدِيّ، عَنْ سَعِيد بْن المُسَيِّب، عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب قَال: الدُّعَاء مَوْقُوف بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض، لا يَصْعَد مِنْهُ شَيْء حَتَّى تُصَلِّي عَلى نَبِيّك.(٢) وهكذا رَوَاهُ أَيُّوب بْن مُوسَى عَنْ سَعِيد بْن المُسَيِّب عَنْ عُمَر بْن الخَطَّاب قوله. وَرَوَاهُ مُعَاذ بْن الحَارِث، عَنْ أَبِي قُرَّة، عن سَعِيد بْن المُسَيِّب، عَنْ عُمَر مَرْفُوعًا. وَكَذَا رَوَاهُ رَزِين بْن مُعَاوِيَة فِي «كِتَابه» مَرْفُوعًا، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «الدُّعَاء مَوْقُوف بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض، لا يَصْعَد حَتَّى يُصَلَّى عَلَيَّ، فَلا تَجْعَلُونِي كَغُمَرِ الرَّاكِب، صَلُّوا عَلَيَّ أَوَّل الدُّعَاء وَأَوْسَطه وَآخِره». وَهَذِهِ الزِّيَادَة إِنَّمَا تُرْوَى مِنْ رِوَايَة جَابِر بْن عَبْد الله فِي «مُسْنَد الإِمَام عَبْد بْن حُمَيْد الكَشِّيّ» قَال: حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن عَوْن أَخْبَرَنَا مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد بْن إِبْرَاهِيم، عَنْ أَبِيهِ قَال: قَال جَابِر: قَال لَنَا رَسُول الله ﷺ : «لا تَجْعَلُونِي كَقَدَح الرَّاكِب، إِذَا عَلَّقَ تَعَالِيقه أَخَذَ قَدَحه فَمَلأَهُ مِنْ المَاء، فَإِنْ كَانَ لَهُ حَاجَة فِي الوُضُوء تَوَضَّأَ، وَإِنْ كَانَ لَهُ حَاجَة فِي الشُّرْب شَرِبَ، وَإِلاَّ أَهْرَقَ مَا فِيهِ، اجْعَلُونِي فِي أَوَّل الدُّعَاء، وَفِي وَسَط الدُّعَاء، وَفِي آخِر الدُّعَاء»(٣). فَهَذَا حَدِيث غَرِيب، وَمُوسَى بْن عُبَيْدَة ضَعِيف الحَدِيث.

وَمِنْ ذَلِكَ: دُعَاء القُنُوت، لِمَا رَوَاهُ أَحْمَد وَأَهْل السُّنَن، وَابْن خُزَيْمَةَ، وَابْن حِبَّان، وَالحَاكِم، مِنْ حَدِيث أَبِي الجَوْزَاء، عَنْ الحَسَن بْن عَلِيّ رضي الله عنهما قَال: عَلَّمَنِي رَسُول الله ﷺ كَلِمَات أَقُولهُنَّ فِي الوِتْر: **«اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْت، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْت، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْت، وَبَارِكْ لي فِيمَا أَعْطَيْت، وَقِنِي شَرّ مَا قَضَيْت، فَإِنَّك تَقْضِي وَلا يُقْضَى عَلَيْك، وَإِنَّهُ لا يَذِلّ مَنْ وَالَيْت، تَبَارَكْت رَبَّنَا وَتَعَالَيْت»**(٤). وَزَادَ النَّسَائِيّ فِي «سُنَنه» بَعْد هَذَا: **«وَصَلَّى الله عَلى النبي مُحَمَّد».**

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ يُسْتَحَبّ الإِكْثَار مِنْ الصَّلاة عَلَيْهِ يَوْم الجُمُعَة وَلَيْلَة الجُمُعَة. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حُسَيْن بْن عَلِيّ الجُعْفِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن يَزِيد بْن جَابِر، عَنْ أَبِي الأَشْعَث الصَّنْعَانِيّ عَنْ أَوْس بْن أَوْس الثَّقَفِيّ رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : **«مِنْ أَفْضَل أَيَّامكُمْ يَوْم الجُمُعَة، فِيهِ خُلِقَ آدَم، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَة، وَفِيهِ الصَّعْقَة، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنْ الصَّلاة فِيهِ، فَإِنَّ صَلاتكُمْ مَعْرُوضَة عَلَيَّ».** قَالُوا: يَا رَسُول الله؛ وَكَيْف تُعْرَض

---

(١) **صحيح** : أخرجه النسائي (٤/ ٣٩)، والقاضي (٩٤)، وصححه الألباني في «فضل الصلاة على النبي» (٨٨).

(٢) **ضعيف موقوف** : انظر «الإرواء» (٤٣٢).

(٣) **ضعيف** : وفيه موسى بن عبيدة: ضعيف الحديث.

(٤) **صحيح** : أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والنسائي (١٧٤٥)، والترمذي (٤٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

عَلَيْك صَلاتنَا وَقَدْ أَرَمْت؟ -يَعْنِي: وَقَدْ بَلِيت- قَالَ: «**إِنَّ الله حَرَّمَ عَلى الأَرْض أَنْ تَأْكُل أَجْسَاد الأَنْبِيَاء**»[1]. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث حُسَيْن بْن عَلِيّ الجُعْفِيّ. وَقَدْ صَحَّحَ هَذَا الحَدِيث ابْن خُزَيْمَةَ، وَابْن حِبَّان، وَالدَّارَقُطْنِيّ، وَالنَّوَوِيّ فِي «الأَذْكَار».

حَدِيث آخَر: قَال أَبُو عَبْد الله ابْن مَاجَهْ: حَدَّثَنَا عَمْرو بْن سَوَادَ المِصْرِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن وَهْب، عَنْ عَمْرو بْن الحَارِث، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي هِلال، عَنْ زَيْد بْن أَيْمَن، عَنْ عُبَادَة بْن نَسِيّ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «أَكْثِرُوا الصَّلاة عَلَيَّ يَوْم الجُمُعَة، فَإِنَّهُ مَشْهُود تَشْهَدهُ المَلائِكَة. وإن أَحَدًا لن يُصَلِّي عَلَيَّ إلاَّ عُرِضَتْ عَلَيَّ صَلاته حَتَّى يَفْرُغ مِنْهَا». قَال: قُلت: وَبَعْد المَوْت؟ قَال: «وبعد الموت؛ إِنَّ الله حَرَّمَ عَلى الأَرْض أَنْ تَأْكُل أَجْسَاد الأَنْبِيَاء». فَنَبِيّ الله حَيّ يُرْزَق[2]. هَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه وَفِيهِ انْقِطَاع بَيْن عُبَادَة بْن نَسِيّ وَأَبِي الدَّرْدَاء فَإِنَّهُ لَمْ يُدْرِكهُ، وَالله أَعْلَم.

وَقَدْ رَوَى البَيْهَقِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي أُمَامَةَ وَابْن مَسْعُود، عَنْ النَّبِيّ ﷺ فِي الأَمْر بِالإِكْثَار مِنْ الصَّلاة عَلَيْهِ لَيْلَة الجُمُعَة ويوم الجُمُعَة، وَلَكِنْ فِي إِسْنَادهمَا ضَعْف، وَالله أَعْلَم. وَرُوِيَ مُرْسَلًا عَنْ الحَسَن البَصْرِيّ فَقَال إِسْمَاعِيل القَاضِي: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن حَرْب، حَدَّثَنَا جَرِير بْن حَازِم، سَمِعْت الحَسَن -هو البَصْرِيّ- يَقُول: قَال رَسُول الله ﷺ: «لا تَأْكُل الأَرْض جَسَد مَنْ كَلَّمَهُ رُوح القُدُس». مُرْسَل حَسَن. وَقَال الشَّافِعِيّ: أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيم ابْن مُحَمَّد، أَخْبَرَنَا صَفْوَان بْن سُلَيْم أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال: «إِذَا كَانَ يَوْم الجُمُعَة وَلَيْلَة الجُمُعَة، فَأَكْثِرُوا الصَّلاة عَلَيّ»[3]. هَذَا مُرْسَل. وَهَكَذَا يَجِب عَلى الخَطِيب أَنْ يُصَلِّيَ عَلى النَّبِيّ ﷺ يَوْم الجُمُعَة عَلى المِنْبَر فِي الخُطْبَتَيْنِ، وَلا تَصِحّ الخُطْبَتَانِ إِلَّا بِذَلِكَ لأَنَّهَا عِبَادَة، وَذِكْر الله فِيهَا شَرْط، فَوَجَبَ ذِكْر الرَّسُول ﷺ فِيهَا كَالأَذَانِ وَالصَّلاة. هَذَا مَذْهَب الشَّافِعِيّ وَأَحْمَد رَحِمَهُمَا الله.

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ يُسْتَحَبّ الصَّلاة وَالسَّلام عَلَيْهِ عِنْد زِيَارَة قَبْره ﷺ؛ قَال أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا ابْن عَوْف -هُوَ مُحَمَّد- حدثنا المُقْرِي، حَدَّثَنَا حَيْوَةُ، عَنْ أَبِي صَخْر حُمَيْد بْن زِيَاد، عَنْ يَزِيد بْن عَبْد الله بْن قُسَيْط، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «مَا مِنْ أَحَد يُسَلِّم عَلَيَّ إلاَّ رَدَّ الله عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدّ عليه السَّلامَ».[4] تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ النَّوَوِيّ فِي «الأَذْكَار»، ثُمَّ قَال أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن صَالح؛ قَال: قَرَأْت عَلى عَبْد الله بْن نَافِع أَخْبَرَنِي ابْن أَبِي ذِئْب، عَنْ سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**لا تَجْعَلُوا بُيُوتكُمْ قُبُورًا، وَلا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاتكُمْ تَبْلُغنِي حَيْثُمَا كُنْتُمْ**».[5] تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا. وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد عَنْ سريح، عَنْ عَبْد الله بْن نَافِع -وَهُوَ الصَّائِغ- بِهِ. وَصَحَّحَهُ النَّوَوِيّ أَيْضًا.

وَقَدْ رُوِيَ مِنْ وَجْه آخر عَنْ عَلِيّ رضي الله عنه؛ قَال القَاضِي إِسْمَاعِيل بْن إِسْحَاق فِي كِتَابه «فَضْل الصَّلاة عَلى النَّبِيّ ﷺ»: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن أَبِي أُوَيْس، حَدَّثَنَا جَعْفَر بْن إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد بْن عَلِيّ بن عَبْد الله بْن جَعْفَر بْن أَبِي طَالب عَمَّنْ أَخْبَرَهُ مِنْ أَهْل بَيْته، عَنْ عَلِيّ بْن الحُسَيْن بْن عَلِيّ، أَنَّ رَجُلًا كَانَ يَأْتِي كُلّ غَدَاة فَيَزُور قَبْر النَّبِيّ ﷺ وَيُصَلِّي

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن ماجه (١٦٣٧)، وفيه انقطاع بين عبادة بن نسي وأبي الدرداء فإنه لم يدركه، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه».
(٣) **حسن**: حسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٧٧٦).
(٤) **حسن**: حسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٥٦٧٩).
(٥) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٢٠٤٢) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

عَلَيْهِ، وَيَصْنَع مِنْ ذَلكَ مَا اشْتُهِرَ عَلَيْهِ عَليّ بْن الحُسَيْن، فَقَال لهُ عَليّ بْن الحُسَيْن: مَا يَحْمِلك عَلى هَذَا؟ قَال: أُحِبّ السَّلام عَلى النَّبِيّ ﷺ. فَقَال لهُ عَليّ بْن الحُسَيْن: هَل لك أَنْ أُحَدِّثك حَدِيثًا عَنْ أَبِي؟ قَال: نَعَمْ. فَقَال لهُ عَليّ بْن الحُسَيْن: أَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي أَنَّهُ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**لا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلا تَجْعَلُوا بُيُوتكُمْ قُبُورًا، وصَلُّوا عَليَّ وَسَلِّمُوا حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَتَبْلُغنِي صَلاتكُمْ وَسَلامكُمْ**»[1]. فِي إِسْنَاده رَجُل مُبْهَم لمْ يُسَمَّ. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ وَجْه آخَر مُرْسَلًا قَال عَبْد الرَّزَّاق فِي «مُصَنَّفه»، عَنْ الثَّوْرِيّ، عَنْ ابْن عَجْلان، عَنْ رَجُل يُقَال لهُ: سُهَيْل عَنْ الحَسَن بْن الحَسَن بْن عَليّ، أنه رَأَى قَوْمًا عِنْد القَبْر فنهَاهُمْ، وَقَال: إِنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال: «**لا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلا تَتَّخِذُوا بُيُوتكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَليَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلاتكُمْ تَبْلُغنِي**». فَلعَلَّهُ رَآهُمْ يُسِيئُونَ الأَدَب بِرَفْعِ أَصْوَاتهمْ، فنَهَاهُمْ. وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَنْتَاب القَبْر فَقَال: يَا هَذَا؛ مَا أَنْتَ وَرَجُل بِالأَنْدَلُسِ مِنْهُ إِلَّا سَوَاء. أَيْ: الجَمِيع يَبْلُغهُ. صَلوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِ دَائِمًا إِلى يَوْم الدِّين.

وَقَال الطَّبَرَانِيّ فِي «مُعْجَمه الكَبِير»: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن [رِشْدِين][2] المِصْرِيّ، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن أَبِي مَرْيَم، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، أَخْبَرَنِي حُمَيْد بْن أَبِي زَيْنَب، عَنْ حَسَن بْن حَسَن بْن عَليّ بْن أَبِي طَالب رضي الله عنهم عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**صَلُّوا عَليَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّ صَلاتكُمْ تَبْلُغنِي**». ثُمَّ قَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا العَبَّاس بْن حَمْدَان الأَصْبَهَانِيّ، حَدَّثَنَا شُعَيْب بْن عَبْد الحَمِيد الطَّحَّان، أَخْبَرَنَا يَزِيد بْن هَارُون، أنا شَيْبَان، عَنْ الحَكَم بْن عَبْد الله بْن الخَطَّاف، عَنْ أُمّ أُنَيْسٍ بِنْت الحَسَن بْن عَليّ، عَنْ أَبِيهَا؛ قَال: قَالوا: يا رَسُول الله ﷺ أَرَأَيْت قَوْل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾؟ فَقَال: «إِنَّ هَذَا من المَكْتُوم، وَلوْلا أَنَّكُمْ سَأَلتُمُونِي عَنْهُ لما أَخْبَرْتُكُمْ، إِنَّ الله وَكَّل بِي مَلكَيْنِ لا أُذْكَر عِنْد عَبْد مُسْلم فَيُصَلِّي عَليَّ إلاَّ قَال ذَانِك المَلكَانِ: غَفَرَ الله لك. وَقَال الله وَمَلائِكَته جَوَابًا لذَيْنِك المَلكَيْنِ: آمِينَ، وَلا يُصَلِّي عَليَّ أَحَد إلاَّ قَال ذَانِك المَلكَانِ: لا غَفَرَ الله لك. وقال الله وَمَلائِكَته جَوَابًا لذَيْنِك المَلكَيْنِ: آمِينَ».[3] غَرِيب جِدًّا، وَإِسْنَاده فيه ضَعْف شَدِيد.

وَقَدْ قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا وَكِيع، عَنْ سُفْيَان، عَنْ عَبْد الله بْن السَّائِب، عَنْ زَاذَانَ، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود رضي الله عنه أَنَّ رَسُول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ للَّهِ مَلائِكَة سَيَّاحِينَ فِي الأَرْض، يُبَلِّغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلام**»[4]. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث سُفْيَان الثَّوْرِيّ وَسُليْمَان بْن مِهْرَان الأَعْمَش، كِلاهُمَا عَنْ عَبْد الله بْن السَّائِب بِهِ. فَأَمَّا الحَدِيث الآخَر: «مَنْ صَلَّى عَليَّ عِنْد قَبْرِي سَمِعْته، وَمَنْ صَلَّى عَليَّ مِنْ بَعِيد بُلِّغْته».[5] فَفِي إِسْنَاده نَظَر. تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّد بْن مَرْوَان السُّدِّيّ الصَّغِير، وَهُوَ مَتْرُوك، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالح عَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَرْفُوعًا. قَال أَصْحَابنَا: وَيُسْتَحَبّ للمُحْرِمِ إِذَا لبَّى وَفَرَغَ مِنْ تَلبِيَته أَنْ يُصَلِّيَ عَلى النَّبِيّ ﷺ؛ لَمَا روى الشَّافِعِيّ وَالدَّارَقُطْنِيّ مِنْ رِوَايَة صَالح بْن مُحَمَّد بْن زَائِدَة، عَنْ القَاسِم بْن مُحَمَّد بْن أَبِي بَكْر الصِّدِّيق؛ قَال: كَانَ يُؤْمَر الرَّجُل إِذَا فَرَغَ مِنْ تَلبِيَته أَنْ يُصَلِّيَ عَلى النَّبِيّ ﷺ على كُلّ حَال. وَقَال إِسْمَاعِيل القَاضِي: حَدَّثَنَا عَارِم بْن الفَضْل، حَدَّثَنَا عَبْد الله ابْن المُبَارَك، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ وَهْب بْن الأَجْدَع؛ قَال: سَمِعْت عُمَر بْن الخَطَّاب رضي الله عنه؛ يَقُول: إِذَا

---

(١) **صحيح لغيره**: انظر «فضل الصلاة على النبي» (٣٣) بتحقيق الألباني.
(٢) في (ز): [رشد].
(٣) **موضوع**: أخرجه الطبراني (٣/ ٨٩) وفيه الحكم بن عبد الله بن خطاب: كذاب.
(٤) **صحيح**: أخرجه النسائي (١٢٨٢) وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي».
(٥) **ضعيف جدًا**: أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٣/ ٢٩٢) وفيه محمد بن مروان السدي: متروك.

قَدِمْتُمْ فَطُوفُوا بِالبَيْتِ سَبْعًا وَصَلُّوا عِنْد المَقَام رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ ائْتُوا الصَّفَا فَقُومُوا عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ تَرَوْنَ البَيْت، فَكَبِّرُوا سَبْع تكبيرات، تَكْبِيرًا بَيْن حَمْد الله وَثَنَاء عَلَيْهِ، وَصَلاة عَلى النَّبِيّ ﷺ وَمَسْأَلة لنَفْسِك، وَعَلى المَرْوَة مِثْل ذَلكَ.[1] إِسْنَاد جَيِّد حَسَن قَوِيّ.

وقَالُوا: وَيُسْتَحَبّ الصَّلاة عَلى النَّبِي ﷺ مَعَ ذِكْر الله عِنْد الذَّبْح، وَاسْتَأْنَسُوا بِقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

قَال بَعْض المُفَسِّرِينَ: يَقُول الله تَعَالى: «لا أُذْكَر إِلاَّ ذُكِرْت مَعِي». وَخَالَفَهُمْ فِي ذَلكَ الجُمْهُور، وَقَالُوا: هَذَا مَوْطِن يُفْرَد فِيهِ ذِكْر الرب تَعَالى، كَمَا عِنْد الأَكْل، وَالدُّخُول، وَالوِقَاع وَغَيْر ذَلكَ، مِمَّا لَمْ تَرِد فِيهِ السُّنَّة بِالصَّلاةِ عَلى النَّبِيّ ﷺ.

حَدِيث آخَر: قَال القَاضِي إِسْمَاعِيل: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَبِي بَكْر المُقَدَّمِيّ، حَدَّثَنَا عُمَر بْن هَارُون، عَنْ مُوسَى بْن عُبَيْدَة، عَنْ مُحَمَّد بْن ثَابِت، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «صَلُّوا عَلى أَنْبِيَاء الله وَرُسُله، فَإِنَّ الله بَعَثَهُمْ كَمَا بَعَثَنِي»[2]. فِي إِسْنَاده ضَعِيفَانِ، وَهُمَا عُمَر بْن هَارُون وَشَيْخه، وَالله أَعْلم. وَقَدْ رَوَاهُ عَبْد الرَّزَّاق، عَنْ الثَّوْرِيّ، عَنْ مُوسَى بْن عُبَيْدَة الربذي بِهِ.

وَمِنْ ذَلكَ: **أَنَّهُ يُسْتَحَبّ الصَّلاة عَلَيْهِ عِنْد طَنِين الأُذُن**، إِنْ صَحَّ الخَبَر فِي ذَلكَ، عَلى أَنَّ الإِمَام أَبَا بَكْر مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن خُزَيْمَةَ قَدْ رَوَاهُ فِي «صَحِيحه»؛ فَقَال: حَدَّثَنَا زِيَاد بْن يَحْيَى، حَدَّثَنَا مَعْمَر بْن مُحَمَّد بْن عُبَيْد الله، عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي رَافِع، عَنْ أَبِيهِ أَبِي رَافِع؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِذَا طَنَّتْ أُذُن أَحَدكُمْ فَلْيَذْكُرْنِي وَلْيُصَلِّ عَلَيَّ، وَلْيَقُل: ذَكَرَ الله مَنْ ذَكَرَنِي بِخَيْر»[3]. إِسْنَاده غَرِيب، وَفِي ثُبُوته نَظَر، وَالله أَعْلم.

مَسْأَلة: وَقَدْ اسْتَحَبَّ أَهْل الكِتَابَة أَنْ يُكَرِّر الكَاتِب الصَّلاة عَلى النَّبِيّ ﷺ كُلَّمَا كَتَبَهُ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الحَدِيث مِنْ طَرِيق كَادِح بْن رَحْمَة، عَنْ نَهْشَل عَنْ الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَاب، لَمْ تَزَل الصَّلاة جَارِيَة لَهُ مَا دَامَ اسْمِي فِي ذَلكَ الكِتَاب»[4]. وَلَيْسَ هَذَا الحَدِيث بِصَحِيح مِنْ وُجُوه كَثِيرَة. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة، وَلا يَصِحّ أَيْضًا، قَال الحَافِظ أَبُو عَبْد الله الذَّهَبِيّ شَيْخنَا: أَحْسِبهُ مَوْضُوعًا. وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُهُ عَنْ أَبِي بَكْر، وَابْن عَبَّاس. وَلا يَصِحّ مِنْ ذَلكَ شَيْء. وَالله أَعْلم. وَقَدْ ذَكَرَ الخَطِيب البَغْدَادِيّ فِي كِتَابه: «الجَامِع لآدَابِ الرَّاوِي وَالسَّامِع». قَال: رَأَيْت بِخَطِّ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَل رَحِمَهُ الله كَثِيرًا مَا يَكْتُب اسْم النَّبِيّ ﷺ مِنْ غَيْر ذِكْر الصَّلاة عَلَيْهِ كِتَابَة، قَال: وَبَلَغَنِي أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي عَلَيْهِ لَفْظًا.

فَصْل: وَأَمَّا الصَّلاة عَلى غَيْر الأَنْبِيَاء فَإِنْ كَانَتْ عَلى سَبِيل التَّبَعِيَّة كَمَا تَقَدَّمَ فِي الحَدِيث: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّد وَآله وَأَزْوَاجه وَذُرِّيَّته**»، فَهَذَا جَائِز بِالإِجْمَاع، وَإِنَّمَا وَقَعَ النِّزَاع فِيمَا إِذَا أَفْرَدَ غَيْر الأَنْبِيَاء بِالصَّلاةِ عَلَيْهِمْ فَقَال قَائِلُونَ: يَجُوز ذَلكَ. وَاحْتَجُّوا بِقَوْله تَعَالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾، وَبِقَوْلِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، وَبِقَوْلِهِ تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، وَبِحَدِيث عَبْد الله بْن أَبِي أَوْفَى؛ قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ إِذَا أَتَاهُ قَوْم بِصَدَقَتِهِمْ قَال: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ**». وَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَال: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلى آل أَبِي أَوْفَى**»[5]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ». وَبِحَدِيث جَابِر: أَنَّ امْرَأَته

(١) **صحيح**: أخرجه إسماعيل القاضي (٨١) وصححه الألباني في «فضل الصلاة على النبي» (٧١).
(٢) **ضعيف جدًا**: أخرجه إسماعيل القاضي (٤٥)، وفيه عمر بن هارون: متروك، وموسى بن عبيدة: ضعيف.
(٣) **ضعيف جدًا**: أخرجه ابن عدي (٦/ ٤٥١)، وفيه معمر بن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع: منكر الحديث.
(٤) **لا يصح**: وقال الذهبي: أحسبه موضوعًا.
(٥) **صحيح**: تقـدم.

قَالَتْ: يَا رَسُول الله؛ صَلِّ عَلَيَّ وَعَلَى زَوْجِي. فَقَالَ: «صَلَّى الله عَلَيْكِ وَعَلَى زَوْجِكِ»[١]. وقَال الجُمْهُور مِنَ العُلَمَاء: لا يَجُوز إِفْرَاد غَيْر الأَنْبِيَاء بِالصَّلاةِ، لأَنَّ هَذَا قَدْ صَارَ شِعَارًا للأَنْبِيَاء إِذَا ذُكِرُوا، فلا يُلحَق بِهِمْ غَيْرهمْ، فَلا يُقَال: (قَال أَبُو بَكْر صلى الله عليه). أَوْ (قَال عَلِيّ صلى الله عليه). وَإِنْ كَانَ المَعْنَى صَحِيحًا. كَمَا لا يُقَال: قَال مُحَمَّد ﷺ، وَإِنْ كَانَ عَزِيزًا جَلِيلًا، لأَنَّ هَذَا مِنْ شِعَار ذِكْر الله ﷻ. وَحَمَلُوا مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنْ الكِتَاب وَالسُّنَّة عَلَى الدُّعَاء لَهُمْ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَثْبُت شعارًا لآل أَبِي أَوْفَى، وَلا لجَابِر وَامْرَأَته. وَهَذَا مَسْلك حَسَن.

وَقَال آخَرُونَ: لا يَجُوز ذَلِكَ؛ لأَنَّ الصَّلاة عَلَى غَيْر الأَنْبِيَاء قَدْ صَارَتْ مِنْ شِعَار أَهْل الأَهْوَاء، يُصَلُّونَ عَلَى مَنْ يَعْتَقِدُونَ فِيهِمْ، فَلا يُقْتَدَى بِهِمْ فِي ذَلِكَ، وَالله أَعْلَم.

ثُمَّ اخْتَلَفَ المَانِعُونَ مِنْ ذَلِكَ: هَل هُوَ مِنْ بَاب التَّحْرِيم، أَوْ الكَرَاهَة التَّنْزِيهِيَّة؛ أَوْ خِلاف الأَوْلَى؟ عَلَى ثَلاثَة أَقْوَال، حَكَاهُ الشَّيْخ أَبُو زَكَرِيَّا النَّوَوِيّ فِي كِتَاب «الأَذْكَار». ثُمَّ قَال: وَالصَّحِيح الَّذِي عَلَيْهِ الأَكْثَرُونَ أَنَّهُ مَكْرُوه كَرَاهَة تَنْزِيه، لأَنَّهُ شِعَار أَهْل البِدَع، وَقَدْ نُهِينَا عَنْ شِعَارهِمْ، وَالمَكْرُوه هُوَ مَا وَرَدَ فِيهِ نَهْي مَقْصُود. قَال أَصْحَابنَا: وَالمُعْتَمَد فِي ذَلكَ أَنَّ الصَّلاة صَارَتْ مَخْصُوصَة فِي اللسان بِالأَنْبِيَاءِ -صلوات الله وسلامه عليهم- كَمَا أَنَّ قَوْلنَا (ﷻ)، مَخْصُوص بالله سبحانه وتَعَالى، فَكَمَا لا يُقَال: (مُحَمَّد ﷻ)، وَإِنْ كَانَ عَزِيزًا جَلِيلًا، لا يُقَال: (أَبُو بَكْر -أَوْ: عَلِيّ- صلى الله عليه). هَذَا لَفْظه بِحُرُوفِهِ. قَال: وَأَمَّا السَّلام، فَقَال الشَّيْخ أَبُو مُحَمَّد الجُوَيْنِيّ مِنْ أَصْحَابنَا: هُوَ فِي مَعْنَى الصَّلاة، فَلا يُسْتَعْمَل فِي الغَائِب، وَلا يُفْرَد بِهِ غَيْر الأَنْبِيَاء، فَلا يُقَال: (عَلِيّ عليه السلام) وَسَوَاء فِي هَذَا الأَحْيَاء وَالأَمْوَات، وَأَمَّا الحَاضِر فَيُخَاطَب بِهِ، فَيُقَال: سَلام عَلَيْكُمْ، أَوْ سَلام عَلَيْكَ، أو السلام عليك أو عليكم. وَهَذَا مُجْمَع عَلَيْهِ. انْتَهَى مَا ذَكَرَهُ.

قُلت: وَقَدْ غَلَبَ هَذَا فِي عِبَارَة كَثِير مِنَ النُّسَّاخ للكُتُب، أَنْ يُفْرَد عَلِيّ رضي الله عنه بِأَنْ يُقَال: (عليه السلام) مِنْ دُون سَائِر الصَّحَابَة؛ أَوْ: (كَرَّمَ الله وَجْهه) وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مَعْنَاهُ صَحِيحًا، لكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُسَوَّى بَيْن الصَّحَابَة فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ بَاب التَّعْظِيم وَالتَّكْرِيم، فَالشَّيْخَانِ وَأَمِير المُؤْمِنِينَ عُثْمَان أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهُ، رَضِيَ الله عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

قَال إِسْمَاعِيل القَاضِي: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عَبْد الوهاب، حَدَّثَنَا عَبْد الوَاحِد بْن زِيَاد، حَدَّثَنِي عُثْمَان بْن حَكِيم بن عباد بْن حَنِيف، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابن عَبَّاس أَنَّهُ قَال: لا تَصلح الصَّلاة عَلَى أَحَد إِلَّا عَلَى النَّبِيّ ﷺ، وَلكِنْ يُدْعَى للمُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَات بالاستغفار.[٢] وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْر بْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا حُسَيْن بْن عَلِيّ، عَنْ جَعْفَر بْن بُرْقَان قَال: كَتَبَ عُمَر بْن عَبْد العَزِيز رَحِمَهُ اللهُ: أَمَّا بَعْد، فَإِنَّ أناسًا مِنَ النَّاس قَدْ التَمَسُوا الدُّنْيَا بِعَمَل الآخِرَة، وَإِنَّ نَاسًا مِنَ القُصَّاص قَدْ أَحْدَثُوا فِي الصَّلاة عَلَى خُلَفَائِهِمْ وَأُمَرَائِهِمْ عِدْل الصَّلاة عَلَى النَّبِيّ ﷺ، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِي هَذَا، فَمُرْهُمْ أَنْ تَكُون صَلاتهم عَلَى النَّبِيِّينَ وَدُعَاؤُهُمْ للمُسْلِمِينَ عَامَّة، وَيَدَعُوا مَا سِوَى ذَلكَ.[٣] أَثَر حَسَن.

قَال إِسْمَاعِيل القَاضِي: حَدَّثَنَا مُعَاذ بْن أَسَد، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن المُبَارَك، حَدَّثَنَا ابْن لهِيعَة، حَدَّثَنِي خَالد بْن يَزِيد، عَنْ سَعِيد بْن أَبِي هِلال، عَنْ نَبِيه بْن وَهْب: أَنَّ كَعْبًا دَخَل عَلَى عَائِشَة رضي الله عنها، فَذَكَرُوا رَسُول الله ﷺ، فَقَال كَعْب:

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: أخرجه إسماعيل القاضي (٧٥).
(٣) صحيح: أخرجه إسماعيل القاضي (٧٦).

مَا مِنْ فَجْرٍ يَطْلُع إِلَّا نَزَل سَبْعُونَ أَلفًا مِنَ المَلائِكَة حَتَّى يَحُفُّوا بِالقَبْرِ يَضْرِبُونَ بِأَجْنِحَتِهِمْ ويُصَلُّونَ على النَّبِيِّ ﷺ سَبْعُونَ أَلفًا بِاللَّيل، وَسَبْعُونَ أَلفًا بِالنَّهارِ، حَتَّى إِذَا انْشَقَّتْ عَنْهُ الأَرْض خَرَجَ فِي سَبْعِينَ أَلفًا مِنَ المَلائِكَة يَزُفُّونَه».[1]

فَـرْع: قَال النَّوَوِيّ: إِذَا صَلَّى عَلَى النَّبِيّ ﷺ فَلْيَجْمَعْ بَيْنَ الصَّلاة وَالتَّسْليم، فَلا يَقْتَصِر عَلى أَحدهِمَا، فَلا يقل: (صلى الله عليه) فَقطْ. وَلا: (عَلَيْهِ السَّلام) فَقطْ. وَهَذَا الَّذِي قَالهُ مُنْتَزَع مِنْ هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة وَهِيَ قَوْله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾، فَالأَوْلى أَنْ يُقَال: صلى الله عليه وسلم تَسْليمًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

يَقول تَعالى مُتهَدِّدًا وَمُتَوَعِّدًا مَنْ أَذَاهُ، بِمُخالفَةِ أَوامِره وَارْتِكاب زَواجِره وَإِصْراره عَلى ذَلك، وآذي رَسُوله بِعَيْبٍ أَوْ تنقص، عِيَاذًا بِالله مِنْ ذَلكَ. قَال عِكْرِمَة: فِي قَوْله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، نَزلتْ فِي المُصَوِّرِينَ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»، مِنْ حَدِيث سُفْيَان بْن عُيَيْنَةَ، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ سَعِيد بن المُسَيِّب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**يَقُول الله ﷻ: يُؤْذِينِي ابْن آدَم، يَسُبّ الدَّهْر، وَأَنَا الدَّهْر، أُقَلِّب ليْله وَنَهاره**»[2]. وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الجَاهِلِيَّة كَانُوا يَقُولُونَ: يَا خَيْبَة الدَّهْر؛ فَعَل بِنَا كَذَا وَكَذَا. فَيُسْنِدُونَ أَفْعَال الله تَعَالى إِلى الدَّهْر وَيَسُبُّونَهُ، وَإِنَّمَا الفَاعِل لذَلكَ هُوَ الله ﷻ، فَنَهَى عَنْ ذَلكَ. هَكَذَا قَرَّرَهُ الشَّافِعِيّ وَأَبو عُبَيْدَ وَغَيْرهمَا مِنَ العُلَمَاء رَحِمَهُمْ الله.

وَقَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، نَزَلتْ فِي الَّذِينَ طَعَنُوا فِي تَزْوِيجه صَفِيَّة بِنْت حُيَيّ بْن أَخْطَبَ. وَالظَّاهِر أَنَّ الآيَة عَامَّة فِي كُلّ مَنْ آذَاهُ بِشَيْءٍ، وَمَنْ آذَاهُ فَقَدْ آذَى الله، وَمَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ الله، كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يُونُس، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن سَعْد، عَنْ عُبَيْدَة بْن أَبِي رَائِطَة الحَذَّاء التميمي، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن زِيَاد، عَنْ عَبْد الله بْن المُغَفَّل المُزَنِيّ قَال: قَال النبي ﷺ: «**الله الله فِي أَصْحَابِي، لا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحِبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضهمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضهمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى الله، وَمَنْ آذَى الله يُوشِك أَنْ يَأْخُذهُ**».[3] وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ مِنْ حَدِيث عُبَيْدَة بن أَبِي رَائِطَة، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بن زِيَاد، عَنْ عَبْد الله بن المُغَفَّل بِهِ. ثُمَّ قَال: وَهَذَا حَدِيث غَرِيب، لا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه.

وَقَوْله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾، أَيْ: يَنْسُبُونَ إِلَيْهِمْ مَا هُمْ بُرَآء مِنْهُ لَمْ يَعْمَلُوهُ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ، ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، وَهَذَا هُوَ البَهْت البين: أَنْ يُحْكَى أَوْ يُنْقَل عَنْ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَات مَا لَمْ يَفْعَلُوهُ، عَلى سَبِيل العَيْب وَالتَّنَقُّص لَهُمْ، وَمِنْ أَكْثَر مَنْ يَدْخُل فِي هَذَا الوَعِيد الكَفَرَة بِالله وَرَسُوله، ثُمَّ الرَّافِضَة الَّذِينَ يَتَنَقَّصُونَ الصَّحَابَة وَيَعِيبُونَهُمْ بِمَا قَدْ بَرَّأَهُمْ الله مِنْهُ، وَيَصِفُونَهُمْ بِنَقِيضِ مَا أَخْبَرَ الله عَنْهُمْ، فَإِنَّ الله ﷻ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار وَمَدَحَهُمْ، وَهَؤُلاءِ الجَهَلَة الأَغْبِيَاء يَسُبُّونَهُمْ وَيَتَنَقَّصُونَهُمْ، وَيَذْكُرُونَ عَنْهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ وَلا فَعَلُوهُ أَبَدًا، فَهُمْ فِي الحَقِيقَة مَنْكُوسو القُلُوب، يَذُمُّونَ المَمْدُوحِينَ، وَيَمْدَحُونَ المَذْمُومِينَ.

وَقَال أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا القَعْنَبِيّ، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز -يَعْنِي ابْن مُحَمَّد- عَنْ العَلاء، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّهُ قِيل: يَا رَسُول الله، مَا الغِيبَة؟ قَال: «**ذِكْرك أَخَاك بِمَا يَكْرَه**». قِيل: أَفَرَأَيْت إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُول؟ قَال: «إِنْ

---

(١) **رجاله ثقات** : أخرجه إسماعيل القاضي (١٠٢) رجاله ثقات، لكنه من رواية كعب الأحبار وهو ينقل من كتب أهل الكتاب فلا يعتمد عليه.

(٢) **صحيح** : أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٣) **ضعيف** : أخرجه الترمذي (٣٨٦٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

كَانَ فِيهِ مَا تَقُول فَقَدْ اغْتَبْته، وَإِنْ لمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُول فَقَدْ بهتّه».[١] وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ قُتَيْبَة، عَنْ الدَّرَاوَرْدِيّ، بِهِ. ثُمَّ قَالَ: حَسَن صَحِيح. وَقَدْ قَالَ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سَلَمَة، حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن هِشَام، عَنْ عَمَّار بْن أَنَس، عَنْ ابْن أَبِي مُلَيْكَة، عَنْ عَائِشَة قَالَتْ: قَال رَسُول الله ﷺ لأَصْحَابِهِ: «أيّ الرِّبَا أَرْبَى عِنْد الله؟» قَالُوا: الله وَرَسُوله أَعْلَم. قَالَ: «أَرْبَى الرِّبَا عِنْد الله اسْتِحْلال عِرض امْرِئ مُسْلِم»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.[٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

يَقُول تَعَالَى آمِرًا رَسُوله -صلى الله عليه وسلم تَسْلِيمًا- أَنْ يَأْمُر النِّسَاء الْمُؤْمِنَات -خَاصَّة أَزْوَاجه وَبَنَاته لِشَرَفِهِنَّ- بِأَنْ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبهنَّ، لِيَتَمَيَّزْنَ عَنْ سِمَات نِسَاء الجَاهِلِيَّة وَسِمَات الإِمَاء. وَالجِلْبَاب هُوَ: الرِّدَاء فَوْق الخِمَار. قَالَهُ ابْن مَسْعُود، وَعَبِيدَة، وَقَتَادَة، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَغَيْر وَاحِد. وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الإِزَار اليَوْم. قَال الجَوْهَرِيّ: الجِلْبَاب: المِلحَفَة، قَالَتْ امْرَأَة مِنْ هُذَيْل تَرْثِي قَتِيلًا لَهَا:

تَمْشِي النُّسُور إِلَيْهِ وَهْيَ لاهِيَة ۞ مَشْيَ العَذَارَى عَلَيْهِنَّ الجَلابِيب

قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَمَرَ الله النساء المؤمنات إِذَا خَرَجْنَ مِنْ بُيُوتهنَّ فِي حَاجَة أَنْ يُغَطِّينَ وُجُوههنَّ مِنْ فَوْق رُءُوسهنَّ بِالجَلابِيبِ، وَيُبْدِينَ عَيْنًا وَاحِدَة. وَقَال مُحَمَّد بْن سِيرِينَ: سَأَلت عُبَيْدَة السَّلْمَانِيّ عَنْ قَوْل الله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، فَغَطَّى وَجْهه وَرَأْسه وَأَبْرَزَ عَيْنه اليُسْرَى. وَقَال عِكْرِمَة: تُغَطِّي ثُغْرَة نَحْرهَا بِجِلْبَابِهَا تُدْنِيه عَلَيْهَا. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْد الله الطَّبَرَانِيّ فِيمَا كَتَبَ إِلَيَّ، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، أَخْبَرَنَا مَعْمَر عَنْ ابْن خُثَيْم، عَنْ صَفِيَّة بِنْت شَيْبَة، عَنْ أُمّ سَلَمَة قَالَتْ: لَـمَّا نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، خَرَجَ نِسَاء الأَنْصَار كَأَنَّ عَلى رُءُوسهنَّ الغِرْبَان مِنْ السَّكِينَة، وَعَلَيْهِنَّ أَكْسِيَة سُود يَلبَسْنَهَا.[٣]

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو صَالح، حَدَّثَنِي اللَّيْث حَدَّثَنَا يُونُس بْن يَزِيد قَال: وَسَأَلنَاهُ -يَعْنِي الزُّهْرِيّ-: هَل عَلى الوَلِيدَة خِمَار مُتَزَوِّجَة أَوْ غَيْر مُتَزَوِّجَة؟ قَال: عَليْهَا الخِمَار إِنْ كَانَتْ مُتَزَوِّجَة وَتُنْهَى عَنْ الجِلبَاب؛ لأَنَّهُ يُكْرَه لَهُنَّ أَنْ يَتَشَبَّهْنَ بِالحَرَائِرِ إلا محصنات، وَقَدْ قَال الله تَعَالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾. وَرُوِيَ عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ أَنَّهُ قَال: لا بَأْس بِالنَّظَرِ إِلى زِينَة نِسَاء أَهْل الذِّمَّة، وَإِنَّمَا نُهِيَ عَنْ ذَلِكَ لِخَوْفِ الفِتْنَة لا لِحُرْمَتِهِنَّ. وَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وَقَوْله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾، أَيْ: إِذَا فَعَلنَ ذَلِكَ عُرِفنَ أَنَّهُنَّ حَرَائِر لسْنَ بِإِمَاءٍ وَلا عَوَاهِر.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٨٧٤) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٢) صحيح: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧١٦).
(٣) صحيح: رجاله ثقات عدا خثيم: صدوق، وأخرجه البخاري من حديث عائشة (٤٧٥٩) دون قوله: «كأن على رؤوسهن الغربان».

قَال السُّدِّيّ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ﴾، قَال: كَانَ نَاس مِنْ فُسَّاق أَهْل الْمَدِينَة يَخْرُجُونَ بِاللَّيْل حِين يَخْتَلط الظَّلَام إِلى طُرُق الْمَدِينَة، يتعرضون للنِّسَاءِ، وَكَانَتْ مَسَاكِن أَهْل الْمَدِينَة ضَيِّقَة، فَإِذَا كَانَ اللَّيْل خَرَجَ النِّسَاء إِلى الطُّرُق يَقْضِينَ حَاجَتهنَّ، فَكَانَ أُولئِكَ الفُسَّاق يَبْتَغُونَ ذَلكَ مِنْهُنَّ، فَإِذَا رَأَوْا امرأة عَليْهَا جِلبَاب قَالُوا هَذِهِ حُرَّة، كُفُّوا عَنْهَا. فَإِذَا رَأَوْا الْمَرْأَة ليْسَ عَليْهَا جِلبَاب، قَالُوا: هَذِهِ أَمَة. فَوَثَبُوا إليها. وَقَال مُجَاهِد: يَتجلْببنَ فَيُعْلم أَنَّهُنَّ حَرَائِر فَلا يعرض لهُنَّ فَاسِق بِأَذًى وَلا رِيبَة.

وَقَوْله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أَيْ: لمَا سَلف فِي أَيَّام الجَاهِليَّة حَيْثُ لمْ يَكُنْ عِنْدهنَّ عِلم بِذَلك. ثُمَّ قَال تَعَالى مُتَوَعِّدًا للمُنَافِقِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الإِيمَان وَيُبْطِنُونَ الكُفْر: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، قَال عِكْرِمَة وَغَيْره: هُمْ الزُّنَاة هَهُنَا ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، يَعْنِي: الَّذِينَ يَقُولُونَ: «جَاءَ الأَعْدَاء»، وَ«جَاءَتْ الحُرُوب». وَهُوَ كَذِب وَافْتِرَاء -لئِنْ لمْ يَنْتَهُوا عَنْ ذَلكَ وَيَرْجِعُوا إِلى الحَقّ ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، قَال عَليّ بْن أَبِي طَلحَة عَنْ ابْن عَبَّاس: أَيْ لنُسَلِّطَنَّك عَليْهِمْ. وَقَال قَتَادَة رَحِمَهُ اللَّهُ: لنُحَرِّشَنَّك بِهِمْ. وَقَال السُّدِّيّ: لنُعْلمَنَّك بِهِمْ. ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾، أَيْ: فِي الْمَدِينَة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ﴾ حَال مِنْهُمْ فِي مُدَّة إِقَامَتهمْ فِي الْمَدِينَة مُدَّة قَرِيبَة مَطْرُودِينَ مُبْعَدِينَ، ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾، أَيْ: وُجِدُوا، ﴿أُخِذُواْ﴾ لذِلَّتِهِمْ وَقِلَّتهمْ، ﴿وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾. ثُمَّ قَال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ﴾، أَيْ: هَذِهِ سُنَّته فِي الْمُنَافِقِينَ إِذَا تَمَرَّدُوا عَلى نِفَاقهمْ وَكُفْرهمْ وَلمْ يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ. إِنَّ أَهْل الإِيمَان يُسَلَّطُونَ عَليْهِمْ وَيَقْهَرُونَهُمْ، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، أَيْ: وَسُنَّة الله فِي ذَلكَ لا تُبَدَّل وَلا تُغَيَّر.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا لرَسُولِهِ ﷺ أَنَّهُ لا عِلم لهُ بِالسَّاعَةِ، وَإِنْ سَأَلهُ النَّاس عَنْ ذَلكَ. وَأَرْشَدَهُ أَنْ يَرُدّ عِلمهَا إِلى الله ﷻ، كَمَا قَال له فِي «سُورَة الأَعْرَاف». وَهِيَ مَكِّيَّة وَهَذِهِ مَدَنِيَّة، فَاسْتَمَرَّ الحَال فِي رَدّ عِلمهَا إِلى الَّذِي يُقِيمهَا، لكِنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهَا قَرِيبَة بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، كَمَا قَال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، وَقَال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، وَقَال: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ﴾. ثُمَّ قَال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أَيْ: أَبْعَدهمْ عَنْ رَحْمَته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾، أَيْ: فِي الدَّار الآخِرَة، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ﴾ أَيْ: مَاكِثِينَ مُسْتَمِرِّينَ، فَلا خُرُوج لهُمْ مِنْهَا وَلا زَوَال لهُمْ عَنْهَا ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، أَيْ: وَليْسَ لهُمْ مُغِيث وَلا مُعِين يُنْقِذهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ. ثُمَّ قَال: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾، أَيْ: يُسْحَبُونَ فِي النَّار عَلى وُجُوههمْ، وَتُلوَى وُجُوههمْ عَلى جَهَنَّم، يَقُولُونَ وَهُمْ كَذَلكَ، يَتَمَنَّوْنَ أَنْ لوْ كَانُوا فِي الدَّار الدُّنْيَا مِمَّنْ أَطَاعَ الله وَأَطَاعَ الرَّسُول، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي حَال العَرَصَات بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ

وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾. وَقَال تَعَالَى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾. وَهَكَذَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي حَالتهمْ هَذِهِ أَنَّهُمْ يَوَدُّونَ أَنْ لوْ كَانُوا أَطَاعُوا الله وَأَطَاعُوا الرَّسُول فِي الدُّنْيَا، ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾، وَقَال طَاوُس: سَادَتَنَا يَعْنِي الأَشْرَاف، وَكُبَرَاءَنَا يَعْنِي العُلَماء رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. أَيْ: اتَّبَعْنَا السَّادَة وَهُمْ الأُمَرَاء وَالكُبَرَاء مِنْ المَشْيَخَة، وَخَالفْنَا الرُّسُل وَاعْتَقَدْنَا أَنَّ عِنْدهمْ شَيْئًا، وَأَنَّهُمْ عَلَى شَيْء فَإِذَا هُمْ ليْسُوا عَلى شَيْء. ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾، أَيْ: بِكُفْرِهِمْ وَإِغْوَائِهِمْ إِيَّانَا، ﴿ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ قَرَأَ بَعْض القُرَّاء بِالبَاءِ المُوَحَّدَة. وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالثَّاءِ المُثَلَّثَة، وَهُمَا قَرِيبَا المَعْنَى، كَمَا فِي حَدِيث عَبْد الله ابْن عَمْرو: أَنَّ أَبَا بَكْر قَال: يَا رَسُول الله، عَلِّمْنِي دُعَاء أَدْعُو بِهِ فِي صَلاتِي. قَال: «**قُل: اللَّهُمَّ، إِنِّي ظَلَمْت نَفْسِي ظُلمًا كَثِيرًا، وَلا يَغْفِر الذُّنُوب إِلاَّ أَنْتَ، فَاغْفِرْ لي مَغْفِرَة مِنْ عِنْدك، وَارْحَمْنِي إِنَّك أَنْتَ الغَفُور الرَّحِيم**»[1]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، يُرْوَى «كَبِيرًا»، وَ«كَثِيرًا» وَكِلاهُمَا بِمَعْنًى صَحِيح. وَاسْتَحَبَّ بَعْضهمْ أَنْ يَجْمَع الدَّاعِي بَيْن اللَّفْظَيْنِ فِي دُعَائِهِ، وَفِي ذَلكَ نَظَر. بَل الأَوْلى أَنْ يَقُول هَذَا تَارَة، وَهَذَا تَارَة، كَمَا أَنَّ القَارِئ مُخَيَّر بَيْن القِرَاءَتَيْنِ أَيَّتهمَا قَرَأَ فَحَسَن، وَليْسَ لهُ الجَمْع بَيْنهمَا، وَالله أَعْلم.

وَقَال أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُثْمَان بْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا ضِرَار بْن صُرَد، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن هَاشِم، عَنْ عُبَيْد الله بْن أَبِي رَافِع، عَنْ أَبِيهِ فِي تَسْمِيَة مَنْ شَهِدَ مَعَ عَلِيّ رضي الله عنه: الحَجَّاج بْن عَمْرو بْن غَزِيَّة، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَقُول عِنْد اللِّقَاء: يَا مَعْشَر الأَنْصَار، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا لرَبِّنَا إِذَا لقِينَاهُ: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾.

قَال البُخَارِيّ عِنْد تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا رَوْح بْن عُبَادَة، حَدَّثَنَا عَوْف، عَنْ الحَسَن وَمُحَمَّد وَخِلاس، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا، وَذَلكَ قَوْله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾»[2]. هَكَذَا أُوْرَد هَذَا الحَدِيث هَهُنَا مُخْتَصَرًا جِدًّا، وَقَدْ رَوَاهُ فِي أَحَادِيث «الأَنْبِيَاء» بِهَذَا السَّنَد بِعَيْنِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة قَال: قَال رَسُول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ مُوسَى عليه السلام كَانَ رجلاً حَيِيًّا سِتِّيرًا، لا يُرَى مِنْ جِلده شَيْء اسْتِحْيَاء مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، فَقَالُوا: مَا يَتَسَتَّر هَذَا التَّسَتُّر إِلاَّ مِنْ عَيْب بجِلده، إِمَّا بَرَص وَإِمَّا أُدْرَة وَإِمَّا آفَة. وَإِنَّ الله عز وجل أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لمُوسَى عليه السلام، فَخَلا يَوْمًا وَحْده، فَخَلَعَ ثِيَابه عَلى حَجَر، ثُمَّ اغْتَسَل، فَلمَّا فَرَغَ أَقْبَل إِلى ثِيَابه ليَأْخُذهَا، وَإِنَّ الحَجَر عَدَا بِثَوْبِهِ فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ وَطَلَب الحَجَر، فَجَعَل يَقُول: ثَوْبِي حَجَر، ثَوْبِي حَجَر، حَتَّى انْتَهَى إِلى مَلإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل، فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَن مَا خَلقَ الله عز وجل وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الحَجَر، فَأَخَذَ ثَوْبه فَلبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَالله إِنَّ بِالحَجَرِ لنَدَبًا مِنْ أَثَر ضَرْبه ثَلاثَة أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا قَال فَذَلك قَوْله تَعَالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾**».[3] وَهَذَا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٩٩)، وأحمد (٢/ ١٥٤).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٠٤).

سِيَاق حَسَن مُطَوَّل. وَهَذَا الحَدِيث مِنْ أَفْرَاد البُخَارِيّ دُون مُسْلم. وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا رَوْح، حَدَّثَنَا عَوْف، عَنْ الحَسَن عَنْ النَّبِيّ ﷺ وَخِلاس وَمُحَمَّد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾ قَال: قَال النبي ﷺ : **«إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلاً حَيِيًّا سِتِّيرًا، لا يَكَاد يُرَى مِنْ جِلده شَيْء استِحْيَاء مِنْهُ ...»**. ثُمَّ سَاقَ الحَدِيث كَمَا رَوَاهُ البُخَارِيّ مُطَوَّلًا. وَرَوَاهُ فِي «تَفْسِيره» عَنْ رَوْح، عَنْ عَوْف، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث الثَّوْرِيّ، عَنْ جَابِر الجُعْفِيّ، عَنْ عَامِر الشَّعْبِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِنَحْوِ هَذَا. وَهَكَذَا رَوَاهُ مِنْ حَدِيث سُلَيْمَان بْن مِهْرَان الأَعْمَش، عَنْ المِنْهَال بْن عَمْرو، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، وَعَبْد الله بْن الحَارِث، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾، قَال: قَال قَوْمه لَهُ: إِنَّك آدَر، فَخَرَجَ ذَات يَوْم يَغْتَسِل، فَوَضَعَ ثِيَابه عَلَى صَخْرَة، فَخَرَجَتْ الصَّخْرَة تَشْتَدّ بِثِيَابِهِ، وَخَرَجَ يَتْبَعهَا عُرْيَانًا حَتَّى انْتَهَتْ بِهِ مَجَالِس بَنِي إِسْرَائِيل، قَال: فَرَأَوْهُ لَيْسَ بِآدَر، فَذَلِكَ قَوْله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾. وَهَكَذَا رَوَى العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس سَوَاء.

وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا رَوْح بْن حَاتِم وَأَحْمَد بْن المُعَلَّى الآدَمِيّ قَالا: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن حَمَّاد، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن سَلَمَة عَنْ عَلِيّ بْن زَيْد، عَنْ أَنَس عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام رَجُلاً حَيِيًّا، وَأَنَّهُ أَتَى أَحْسِبهُ قَال: المَاء لِيَغْتَسِل، فَوَضَعَ ثِيَابه عَلَى صَخْرَة، وَكَانَ لا يَكَاد تَبْدُو عَوْرَته، فَقَال بَنُو إِسْرَائِيل: إِنَّ مُوسَى آدَر أَوْ بِهِ آفَة، يَعْنُونَ أَنَّهُ لا يَضَع ثِيَابه، فَاحْتَمَلَتْ الصَّخْرَة ثِيَابه حَتَّى صَارَتْ بِحِذَاء مَجَالِس بَنِي إِسْرَائِيل، فَنَظَرُوا إِلَى مُوسَى كَأَحْسَن الرِّجَال، أَوْ كَمَا قَال، فَذَلِكَ قَوْله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾»**.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن سُلَيْمَان، حَدَّثَنَا عَبَّاد بْن العَوَّام، عَنْ سُفْيَان بْن حُسَيْن، حدثنا الحَكَم، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي قَوْله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾. قَال: صَعِدَ مُوسَى وَهَارُون الجَبَل، فَمَاتَ هَارُون عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَال بَنُو إِسْرَائِيل لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام : أَنْتَ قَتَلته، كَانَ أَلْيَن لَنَا مِنْك وَأَشَدّ حَيَاء. فَآذَوْهُ مِنْ ذَلِكَ فَأَمَرَ الله المَلائِكَة فَحَمَلته، فَمَرُّوا به عَلَى مَجَالِس بَنِي إِسْرَائِيل، فَتَكَلَّمَتْ بِمَوْتِهِ، فَمَا عَرَفَ مَوْضِع قَبْره إِلَّا الرَّخَم، وَإِنَّ الله جَعَلَهُ أَصَمّ أَبْكَم[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْ عَلِيّ بْن مُوسَى الطُّوسِيّ عَنْ عَبَّاد بْن العَوَّام بِهِ. ثُمَّ قَال: وَجَائِز أَنْ يَكُون هَذَا هُوَ المُرَاد بِالأَذَى، وَجَائِز أَنْ يَكُون الأَوَّل هُوَ المُرَاد، فَلا قَوْل أَوْلَى مِنْ قَوْل الله عَزَّ وَجَلَّ. **قُلت:** يُحْتَمَل أَنْ يَكُون الكُلّ مُرَادًا، وَأَنْ يَكُون مَعَهُ غَيْره، وَالله أَعْلَم.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ شَقِيق، عَنْ عَبْد الله قَال: قَسَمَ رَسُول الله ﷺ ذَات يَوْم قَسْمًا فَقَال رَجُل مِنْ الأَنْصَار: إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَة مَا أُرِيد بِهَا وَجْه الله. قَال: فَقُلت: يَا عَدُوّ الله، أَمَا لأُخْبِرَنَّ رَسُول الله ﷺ بِمَا قُلت. قال: فذكر ذَلِكَ لِلنَّبِيّ ﷺ فَاحْمَرَّ وَجْهه. ثُمَّ قَال: **«رَحْمَة الله عَلَى مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَر مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»**[2]. أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْن» مِنْ حَدِيث سُلَيْمَان بْن مِهْرَان الأَعْمَش بِهِ.

طَرِيق أُخْرَى: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَجَّاج، سَمِعْت إِسْرَائِيل بْن يُونُس، عَنْ الوَلِيد بْن أَبِي هاشم -مَوْلى

---

(١) **رجاله ثقات**: أخرجه الطبري (٢٢/ ٣٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٤٠٥)، ومسلم (١٠٦٢).

الهمداني- عَنْ زَيْد بْن أبي زَائِدَ، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود قَال: قَال رَسُول الله ﷺ لأَصْحَابِهِ: «لا يُبَلِّغنِي أَحَد مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَد شَيْئًا، فَإِنِّي أُحِبّ أَنْ أَخْرُج إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيم الصَّدْر». فَأَتَى رَسُول الله ﷺ مَال فقسمَهُ، قَال: فَمَرَرْت بِرَجُلَيْنِ وَأَحَدهمَا يَقُول لصَاحِبِهِ: وَالله مَا أَرَادَ مُحَمَّد بِقِسْمَتِهِ وَجْه الله وَلا الدَّار الآخِرَة. قَال: فتثبت حَتَّى سَمِعْت مَا قَالا، ثُمَّ أَتَيْت رَسُول الله ﷺ، فَقُلت: يَا رَسُول الله، إِنَّك قُلت لنَا: «لا يُبَلِّغنِي أَحَد عَنْ أَصْحَابِي شَيْئًا». وَإِنِّي مَرَرْت بِفُلانٍ وَفُلان، وَهُمَا يَقُولانِ كَذَا وَكَذَا. فَاحْمَرَّ وَجْه رَسُول الله ﷺ وَشَقَّ عَليْهِ، ثُمَّ قَال: «دَعْنَا مِنْك، لقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَر مِنْ هَذَا، فَصَبَرَ».(١)

وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي الأَدَب، عَنْ مُحَمَّد بْن يَحْيَى الذُّهْلِيّ، عَنْ مُحَمَّد بْن يُوسُف الفِرْيَابِيّ، عَنْ إِسْرَائِيل عَنْ الوَلِيد بْن أَبِي هاشم بِهِ مُخْتَصَرًا: «لا يُبَلِّغنِي أَحَد من أصحابي عَنْ أَحَد شَيْئًا؛ إِنِّي أُحِبّ أَنْ أَخْرُج إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيم الصَّدْر». وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي «المَنَاقِب» عَنْ الذُّهْلِيّ سَوَاء، إِلَّا أَنَّهُ قَال: «زَيْد بْن زَائِدَة». وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل، عَنْ عَبْد الله بْن مُحَمَّد، عَنْ عُبَيْد الله بْن مُوسَى وَحُسَيْن بْن مُحَمَّد، كِلاهُمَا عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ السُّدِّيّ عَنْ الوَلِيد بْن أَبِي هاشم، بِهِ مُخْتَصَرًا أَيْضًا، فَزَادَ فِي إِسْنَاده السُّدِّيّ، ثُمَّ قَال: غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه.

وَقَوْله: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾. أَيْ: لهُ وَجَاهَة وَجَاه عِنْد رَبّه ﷻ. قَال الحَسَن البَصْرِيّ: كَانَ مُسْتَجَاب الدَّعْوَة عِنْد الله. وَقَال غَيْره مِنْ السَّلف: لمْ يَسْأَل الله شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، وَلكِنْ مُنِعَ الرُّؤْيَة لمَا يَشَاء الله ﷻ. وَقَال بَعْضهمْ: مِنْ وَجَاهَته العَظِيمَة: أَنَّهُ شَفَعَ فِي أَخِيهِ هَارُون أَنْ يُرْسِلهُ الله مَعَهُ، فَأَجَابَ الله سُؤْله، فَقَال: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾.

يَقُول تَعَالى آمِرًا عِبَاده المُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ، وَأَنْ يَعْبُدُوهُ عِبَادَة مَنْ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، وَأَنْ يَقُولُوا: ﴿قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ أَيْ: مُسْتَقِيمًا لا اعْوِجَاج فِيهِ وَلا انْحِرَاف. وَوَعَدَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلكَ، أَثَابَهُمْ عَليْهِ بِأَنْ يُصْلح لهُمْ أَعْمَالهمْ، أَيْ: يُوَفِّقهُمْ للأَعْمَال الصَّالحَة، وَأَنْ يَغْفِر لهُمْ الذُّنُوب المَاضِيَة. وَمَا قَدْ يَقَع مِنْهُمْ فِي المُسْتَقْبَل يُلهِمهُمْ التَّوْبَة مِنْهَا. ثُمَّ قَال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾، وَذَلكَ أَنَّهُ يُجَار مِنْ النار وَيَصِير إِلى النَّعِيم المُقِيم. وقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن عَوْن، حَدَّثَنَا خَالد، عَنْ ليْث، عَنْ أَبِي بُرْدَة، عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ قَال: صَلَّى بِنَا رَسُول الله ﷺ صَلاة الظُّهْر، فَلمَّا انْصَرَفَ أَوْمَأَ إِليْنَا بِيَدِهِ فَجَلسْنَا، فَقَال: «إِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ آمُركُمْ، أَنْ تَتَّقُوا الله وَتَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا». ثُمَّ أَتَى النِّسَاء فَقَال: «إِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ آمُركُنَّ: أَنْ تَتَّقِينَ الله وَتَقُلنَ قَوْلاً سَدِيدًا».(٢)

وَقَال ابْن أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَاب «التَّقْوَى»: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبَّاد بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن عِمْرَان الزُّهْرِيّ. حَدَّثَنَا عِيسَى بْن سمُرة، عَنْ هِشَام بْن عُرْوَة، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة رضي الله عنها قَالتْ: مَا قَامَ رَسُول الله ﷺ عَلى المِنْبَر إِلَّا سَمِعْته يَقُول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ الآيَة. غَرِيب جِدًّا. وَرُوِي من حديث عَبْد الرَّحِيم بْن زَيْد العَمِّيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب عَنْ ابْن عَبَّاس مَوْقُوفًا: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُون أَكْرَم النَّاس

---

(١) ضعيف : أخرجه أبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».
(٢) ضعيف : أخرجه أحمد (٥/ ٣٩١) وفيه ليث بن أبي سليم متروك.

فَلْيَتَّقِ الله. قال عكرمة: القول السديد (لا إله إلا الله). وقال غيره: السَّدِيد: الصِّدْق. وَقَال مُجَاهِد: هُوَ السَّدَاد. وَقَال غَيْره: هُوَ الصَّوَاب. وَالكُلّ حَقّ.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي بِالأَمَانَةِ: الطَّاعَة، وعَرَضَهَا عَلَيْهِمْ قَبْل أَنْ يَعْرِضهَا عَلى آدَم، فَلَمْ يُطِقْنَهَا. فَقَال لآدَم: إِنِّي قَدْ عَرَضْت الأَمَانَة عَلى السَّمَاوَات وَالأَرْض وَالجِبَال فَلَمْ يُطِقْنَهَا، فَهَل أَنْتَ آخِذ بِمَا فِيهَا؟ قَال: يَا رَبّ، وَمَا فِيهَا؟ قَال: إِنْ أَحْسَنْت جُزِيت، وَإِنْ أَسَأْت عُوقِبْت، فَأَخَذَهَا آدَم فَتَحَمَّلهَا، وذلك قَوْله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: الأَمَانَة: الفَرَائِض، عَرَضَهَا الله عَلى السَّمَاوَات وَالأَرْض وَالجِبَال إِنْ أَدَّوْهَا أَثَابَهُمْ، وَإِنْ ضَيَّعُوهَا عَذَّبَهُمْ الله، فَكَرِهُوا ذَلِكَ وَأَشْفَقُوا مِنْ غَيْر مَعْصِيَة، وَلكِنْ تَعْظِيمًا لِدِينِ الله أَنْ لا يَقُومُوا بِهَا، ثُمَّ عَرَضَهَا عَلى آدَم فَقَبِلهَا بِمَا فِيهَا، وَهُوَ قَوْله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، يعني: غِرًّا بِأَمْرِ الله.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن بَشَّار، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة عَنْ أَبِي بِشْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ قَال فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾. قَال: عُرِضَتْ عَلى آدَم فَقَال: خُذْهَا بِمَا فِيهَا، فَإِنْ أَطَعْت غَفَرْت لك، وَإِنْ عَصَيْت عَذَّبْتُك. قَال: قَبِلت. فَمَا كَانَ إِلَّا قَدْر مَا بَيْن العَصْر إِلى اللَّيْل مِنْ ذَلِكَ اليَوْم، حَتَّى أَصَابَ الخَطِيئَة. وَقَدْ رَوَى الضَّحَّاك، عَنْ ابْن عَبَّاس، قَرِيبًا مِنْ هَذَا. وَفِيهِ نَظَر وَانْقِطَاع بَيْن الضَّحَّاك وَبَيْنه، وَالله أَعْلم. وَهَكَذَا قَال مُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَالضَّحَّاك، وَالحَسَن البَصْرِيّ، وَغَيْر وَاحِد: إِنَّ الأَمَانَة هِيَ الفَرَائِض. وَقَال آخَرُونَ: هِيَ الطَّاعَة. وَقَال الأَعْمَش، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوق: قَال أُبَيّ بْن كَعْب: مِنْ الأَمَانَة أَنَّ المَرْأَة اؤْتُمِنَتْ عَلى فَرْجهَا. وَقَال قَتَادَة: الأَمَانَة الدِّين وَالفَرَائِض وَالحُدُود. وَقَال بَعْضهمْ: الغُسْل مِنْ الجَنَابَة. وَقَال مَالك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ قَال: الأَمَانَة ثَلاثَة: الصَّلاة، وَالصَّوْم، وَالاغْتِسَال مِنْ الجَنَابَة. وَكُلّ هَذِهِ الأَقْوَال لا تَنَافِي بَيْنهَا، بَل هِيَ مُتَّفِقَة وَرَاجِعَة إِلى أَنَّهَا التَّكْلِيف، وَقَبُول الأَوَامِر وَالنَّوَاهِي بِشَرْطِهَا، وَهُوَ أَنَّهُ إِنْ قَامَ بِذَلِكَ أُثِيب، وَإِنْ تَرَكَهَا عُوقِبَ، فَقَبِلهَا الإِنْسَان عَلى ضَعْفه وَجَهْله وَظُلمه، إِلَّا مَنْ وَفَّقَ الله، وَبِالله المُسْتَعَان.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن المُغِيرَة، حَدَّثَنَا حَمَّاد بْن وَاقِد -يَعْنِي أَبَا عُمَر الصَّفَّار- سَمِعْت أَبَا مَعْمَر -يَعْنِي عَوْن بْن مَعْمَر- يُحَدِّث عَنْ الحَسَن -يَعْنِي البَصْرِيّ- أَنَّهُ تَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾، قَال: عَرَضَهَا عَلى السَّبْع الطِّبَاق الطَّرَائِق الَّتِي زُيِّنَتْ بِالنُّجُوم، وَحَمَلة العَرْش العَظِيم، فَقِيل لَهَا: هَل تَحْمِلِينَ الأَمَانَة وَمَا فِيهَا؟ قَالتْ: وَمَا فِيهَا؟ قَال: قِيل لَهَا: إِنْ أَحْسَنْت جُزِيت، وَإِنْ أَسَأْت عُوقِبْت. قَالتْ: لا. ثُمَّ عَرَضَهَا عَلى الأَرَضِينَ السَّبْع الشِّدَاد، الَّتِي شُدَّتْ بِالأَوْتَادِ، وَذُلِّلتْ بِالمِهَادِ، قَال: فَقِيل لَهَا: هَل تَحْمِلِينَ الأَمَانَة وَمَا فِيهَا؟ قَالتْ: وَمَا فِيهَا؟ قَال: قِيل لَهَا: إِنْ أَحْسَنْت جُزِيت، وَإِنْ أَسَأْت عُوقِبْت، قَالتْ: لا. ثُمَّ عَرَضَهَا عَلى الجِبَال الشُّمّ الشَّوَامِخ الصِّعَاب الصِّلاب، قَال: قِيل لَهَا: هَل تَحْمِلِينَ الأَمَانَة وَمَا فِيهَا؟ قَالتْ: وَمَا فِيهَا؟ قَال قيل لَهَا: إِنْ أَحْسَنْت جُزِيت، وَإِنْ أَسَأْت عُوقِبْت، قَالتْ: لا.

وَقَال مُقَاتِل بْن حَيَّان: إِنَّ الله حِين خلقَ خَلقه، جَمَعَ بَيْنَ الإِنْس وَالجِنّ، وَالسَّماوَات وَالأَرْض وَالجِبَال، فَبَدَأَ بِالسَّماوَاتِ فعَرَض عليْهِنَّ الأَمَانَة وَهِيَ الطَّاعَة، فَقَال لهُنَّ: أَتَحْمِلنَ هَذِهِ الأَمَانَة، وَلكِنْ عليّ الفَضْل وَالكَرَامَة وَالثَّوَاب فِي الجَنَّة؟ فَقُلنَ: يَا رَبّ، إِنَّا لا نَسْتَطِيع هَذَا الأَمْر، وَلَيْسَ بِنَا قُوَّة، وَلكِنَّا لك مُطِيعِينَ. ثُمَّ عَرَض الأَمَانَة عَلى الأَرَضِينَ، فَقَال لهُنَّ: أَتَحْمِلنَ هَذِهِ الأَمَانَة وَتَقبلنهَا مِنِّي، وَأُعْطِيكُنَّ الفَضْل وَالكَرَامَة؟ فَقُلنَ: لا صَبْر لنَا عَلى هَذَا يَا رَبّ وَلا نُطِيق، وَلكِنَّا لك سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، لا نَعْصِيك فِي شَيْء تأمرنا بِهِ. ثُمَّ قَرَّبَ آدم فَقَال لهُ: أَتَحْمِلُ هَذِهِ الأَمَانَة وَتَرْعَاهَا حَقّ رِعَايَتهَا؟ فَقَال عِنْد ذَلكَ آدَم: مَا لِي عِنْدك؟ قَال: يَا آدَم، إِنْ أَحْسَنْت وَأَطَعْت وَرَعَيْت الأَمَانَة، فَلك عِنْدِي الكَرَامَة وَالفَضْل وَحُسْن الثَّوَاب فِي الجَنَّة. وَإِنْ عَصَيْت وَلمْ تَرْعَهَا حَقّ رِعَايَتهَا وَأَسَأْت؛ فَإِنِّي مُعَذِّبك وَمُعَاقِبك وَأُنْزِلُك النَّارَ. قَال: رَضِيت رَبّ. وَتَحَمَّلهَا، فَقَال الله ﷻ: قَدْ حَمَّلتُكهَا. فَذَلكَ قَوْله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَعَنْ مُجَاهِد أَنَّهُ قَال: عَرَضَهَا عَلى السَّماوَات فَقَالتْ: يَا رَبّ، حَمَّلتنِي الكَوَاكِب وَسُكَّان السَّماء وَمَا ذَكَر، وَمَا أُرِيد ثَوَابًا وَلا أَحْمِل فَرِيضَة. قَال: وَعَرَضَهَا عَلى الأَرْض، فَقَالتْ: يَا رَبّ غَرَسْت فِيَّ الأَشْجَار، وَأَجْرَيْت فِيَّ الأَنْهَار وَسُكَّان الأَرْض وَمَا ذَكَر، وَمَا أُرِيد ثَوَابًا وَلا أَحْمِل فَرِيضَة. وَقَالتْ الجِبَال مِثْل ذَلكَ، قَال الله تَعَالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ فِي عَاقِبَة أَمْره. وَهَكَذَا قَال ابْن جُرَيْج. وَعَنْ ابْن أَشْوع أَنَّهُ قَال: لـمَّا عَرَضَ الله عليْهِنَّ حَمْل الأَمَانَة، ضَجَجْنَ إِلى الله ثَلاثَة أَيَّام وَليَاليهِنَّ، وَقُلنَ: رَبَّنَا، لا طَاقَة لنَا بِالعَمَل وَلا نُرِيد الثَّوَاب.

ثُمَّ قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا هَارُون بْن زَيْد بْن أَبِي الزَّرْقَاء المَوْصِليّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَام بْن سَعْد، عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾، فَقَال الإِنْسَان: بَيْن أُذُنِي وَعَاتِقِي. فَقَال الله تعالى: إِنِّي مُعِينك عَليْهَا، أَي: مُعِينك عَلى عَيْنَيْك بِطبَقَتَيْنِ، فَإِذَا نَازَعَاك إِلى مَا أَكْرَه فَأَطْبِقْ. وَمُعِينك عَلى لسَانك بِطَبَقَتَيْنِ، فَإِذَا نَازَعَك إِلى مَا أَكْرَه فَأَطْبِقْ. وَمُعِينك عُلى فَرْجك بِلبَاسٍ، فَلا تَكْشِفهُ إِلى مَا أَكْرَه. ثُمَّ رُوِيَ عَنْ أَبِي حَازِم نَحْو هَذَا.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا يُونُس، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب، قَال: قَال ابْن زَيْد فِي قَوْل الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾، قَال: إِنَّ الله عَرَض عليْهِنَّ الأَمَانَة أَنْ يَفْتَرِض عليْهِنَّ الدِّين، وَيَجْعَل لهُنَّ ثَوَابًا وَعِقَابًا، وَيَسْتَأْمِنهُنَّ عَلى الدِّين. فَقُلنَ: لا، نَحْنُ مُسَخَّرَات لأَمْرِك لا نُرِيد ثَوَابًا وَلا عِقَابًا، قَال: وَعَرَضَهَا الله عَلى آدَم. فَقَال: بَيْن أُذُنِي وَعَاتِقِي. قَال ابْن زَيْد: فَقَال الله تَعَالى لهُ: أَمَّا إِذَا تَحَمَّلت هَذَا فَسأُعِينُك: أَجْعَل لبَصَرِك حِجَابًا، فَإِذَا خَشِيت أَنْ تَنْظُر إِلى مَا لا يَحِلّ لك فَأَرْخِ عَليْهِ حِجَابه، وَأَجْعَل للسَانِك بَابًا وَغَلقًا، فَإِذَا خَشِيت فَأَغْلقْ. وَأَجْعَل لفَرْجِك لبَاسًا فَلا تَكْشِفهُ إِلَّا عَلى مَا أَحْللت لك.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي سَعِيد بْن عَمْرو السُّكُونِيّ، حَدَّثَنَا بَقِيَّة، حَدَّثَنَا عِيسَى بْن إِبْرَاهِيم، عَنْ مُوسَى بْن أَبِي حَبِيب، عَنْ الحَكَم بْن عُمَيْر رضي الله عنه -وَكَانَ مِنْ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ- قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الأَمَانَة وَالوَفَاء نَزَلا عَلى ابْن آدَم مَعَ الأَنْبِيَاء، فَأَرْسَلُوا بِهِ، فَمِنْهُمْ رَسُول الله وَمِنْهُمْ نَبِيّ، وَمِنْهُمْ نَبِيّ رَسُول، وَنَزَل القُرْآن وَهُوَ كَلام الله، وَنَزَلتْ العَرَبِيَّةُ وَالعَجَمِيَّة، فَعَلمُوا أَمْر القُرْآن وَعَلمُوا أَمْر السُّنَن بِأَلسِنَتِهِمْ، وَلمْ يَدَعْ الله شَيْئًا مِنْ أَمْره مِمَّا يَأْتُونَ وَمَا يَجْتَنِبُونَ وَهِيَ الحُجَج عَليْهِمْ، إِلاَّ بَيَّنَهُ لهُمْ. فَليْسَ أَهْل لسَان إِلاَّ وَهُمْ يَعْرِفُونَ الحَسَن

وَالقَبِيح، ثُمَّ الأَمَانَة أَوَّل شَيْء يُرْفَع، وَيَبْقَى أَثَرهَا فِي جُذُور قُلُوب النَّاس، ثُمَّ يُرْفَع الوَفَاء وَالعَهْد وَالذِّمَم وَتَبْقَى الكُتُب، فَعَالِم يَعْمَل، وَجَاهِل يَعْرِفهَا وَيُنْكِرهَا وَلا يَحْمِلهَا، حَتَّى وَصَل إِلَيَّ وَإِلَى أُمَّتِي، وَلا يَهْلك عَلَى الله إِلاَّ هَالك، وَلا يَغْفُله إِلاَّ تَارِك. فَالحَذَر أَيهَا النَّاس. وَإِيَّاكُمْ وَالوَسْوَاس الخَنَّاس، فَإِنَّمَا يَبْلُوكُمْ أَيكُمْ أَحْسَن عَمَلاً»[1].

هَذَا حَدِيث غَرِيب جِدًّا، وَلَهُ شَوَاهِد مِنْ وُجُوه أُخَر.

ثُمَّ قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن خَلف العَسْقَلانِيّ، حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن عَبْد المَجِيد الحَنَفِيّ، أخبرنا أَبُو العَوَّام القَطَّان، حَدَّثَنَا قَتَادَة، وَأَبَان بْن أَبِي عَيَّاش، عَنْ خُلَيْد العَصَرِيّ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«خَمْس مَنْ جَاءَ بِهِنَّ يَوْم القِيَامَة مَعَ إِيمَان دَخَل الجَنَّة: مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَات الخَمْس عَلَى وُضُوئِهِنَّ وَرُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيتِهِنَّ، وَأَعْطَى الزَّكَاة مِنْ مَاله طَيِّب النَّفْس بِهَا، وَكَانَ يَقُول: وَايْم الله لا يَفْعَل ذَلِكَ إِلاَّ مُؤْمِن، وَصَام رَمَضَانَ، وحجَّ البَيْتَ إِنْ اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً، وَأَدَّى الأَمَانَة»**. قَالُوا: يَا أَبَا الدَّرْدَاء؛ وَمَا أَدَاء الأَمَانَة؟ قَال: الغُسْل مِنْ الجَنَابَة، فَإِنَّ الله لَمْ يَأْمَن ابْن آدَم عَلَى شَيْء مِنْ دِينه غَيْره.[2] وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحْمَن العَنْبَرِيّ، عَنْ أَبِي عَلِيّ عُبَيْد الله بْن عَبْد المَجِيد الحَنَفِيّ، عَنْ أَبِي العَوَّام عمران ابْن داور القَطَّان بِهِ.

وَقَال ابْن جَرِير أَيْضًا: حَدَّثَنَا تَمِيم بْن المُنْتَصِر، أَخْبَرَنَا إِسْحَاق، عَنْ شَرِيك عَنْ الأَعْمَش، عَنْ عَبْد الله بْن السَّائِب، عَنْ زَاذَانَ عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: «القَتْل فِي سَبِيل الله يُكَفِّر الذُّنُوب كُلّهَا – أَوْ قَال: يُكَفِّر كُلّ شَيْء – إِلاَّ الأَمَانَة، يُؤْتَى بِصَاحِبِ الأَمَانَة فَيُقَال لَهُ: أَدِّ أَمَانَتك فَيَقُول: أَنَّى يَا رَبّ وَقَدْ ذَهَبَتْ الدُّنْيَا؟ فَيُقَال لَهُ: أَدِّ أَمَانَتك. فَيَقُول: أَنَّى يَا رَبّ وَقَدْ ذَهَبَتْ الدُّنْيَا؟ فَيُقَال لَهُ: أَدِّ أَمَانَتك فَيَقُول: أَنَّى يَا رَبّ وَقَدْ ذَهَبَتْ الدُّنْيَا؟ فَيَقُول: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى أُمّه الهَاوِيَة فَيُذْهَب بِهِ إِلَى الهَاوِيَة. فَيَهْوِي فِيهَا حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى قَعْرهَا، فَيَجِدهَا هُنَالِكَ كَهَيْئَتِهَا، فَيَحْمِلهَا فَيَضَعهَا عَلَى عَاتِقه، فَيَصْعَد بِهَا إِلَى شَفِير جَهَنَّم، حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ زَلَّتْ، فَيهوي فِي أَثَرهَا أَبَد الآبِدِينَ. قَال: وَالأَمَانَة فِي الصَّلاة، وَالأَمَانَة فِي الصَّوْم، وَالأَمَانَة فِي الوُضُوء، وَالأَمَانَة فِي الحَدِيث، وَأَشَدّ ذَلِكَ الوَدَائِع».[3] فَلَقِيت البَرَاء فَقُلت: أَلا تَسْمَع مَا يَقُول أَخُوك عَبْد الله؟ فَقَال: صَدَقَ. قَال شَرِيك: وَحَدَّثَنَا عَيَّاش العَامِرِيّ، عَنْ زَاذَانَ عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود ﷺ، عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِنَحْوِهِ وَلَمْ يَذْكُر «الأَمَانَة فِي الصَّلاة وَفِي كُلّ شَيْء». إِسْنَاده جَيِّد، وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ.

وَمِمَّا يَتَعَلَّق بِالأَمَانَةِ الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ زَيْد بْن وَهْب، عَنْ حُذَيْفَة قَال: حَدَّثَنَا رَسُول الله ﷺ حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْت أَحَدهمَا وَأَنَا أَنْتَظِر الآخَر، حَدَّثَنَا: **«أَنَّ الأَمَانَة نَزَلتْ فِي جَذْر قُلُوب الرِّجَال، ثُمَّ نَزَل القُرْآن فَعَلمُوا مِنْ القُرْآن وَعَلمُوا مِنْ السُّنَّة»**. ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْع الأَمَانَة. فَقَال: **«يَنَام الرَّجُل النَّوْمَة فَتُقْبَض الأَمَانَة مِنْ قَلبه. فَيَظَلّ أَثَرهَا مِثْل أَثَر الوَكْت، فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِه، فَيَظَلُّ**

---

(١) إسناده ضعيف جدًا : أخرجه الطبري (٢٢/ ٣٩) وفيه عيسى بن إبراهيم القرشي: متروك، وموسى بن حبيب: ضعفه أبو حاتم.

(٢) حسن : أخرجه أبو داود (٤٢٩)، والطبري (٢٢/ ٣٩)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣) ضعيف : أخرجه الطبري (٢٢/ ٤٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٠١)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤٠٧١).

أَثَرِها مِثْل أَثَرِ المَجْل كَجَمْرٍ دَحْرَجْته على رِجْلك تَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ». قَال: ثُمَّ أَخَذَ حَصًى فَدَحْرَجَهُ عَلى رِجْله، قَال: «فَيُصْبِح النَّاس يَتَبَايَعُونَ لا يَكَاد أَحَد يُؤَدِّي الأَمَانَة، حَتَّى يُقَال: إِنَّ فِي بَنِي فُلان رَجُلًا أَمِينًا، حَتَّى يُقَال للرَّجُل: مَا أَجْلده وَأَظْرَفه وَأَعْقَله، وَمَا فِي قَلبه حَبَّة خَرْدَل مِنْ إِيمَان». وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَان وَمَا أُبَالِي أَيّكُم بَايَعْت، إِنْ كَانَ مُسْلِمًا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ دِينه، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَهُودِيًّا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيه، فَأَمَّا اليَوْم فَمَا كُنْت أُبَايِع مِنْكُمْ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا. وَأَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث الأَعْمَش بِهِ.(١)

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، عَنْ الحَارِث بْن يَزِيد الحَضْرَمِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو، رضي الله عنهما أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «أَرْبَع إِذَا كُنَّ فِيك فَلا عَلَيْك مَا فَاتَك مِنْ الدُّنْيَا: حِفْظ أَمَانَة، وَصِدْق حَدِيث، وَحُسْن خَلِيقَة، وَعِفَّة طُعْمَة»(٢). هَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَد عَبْد الله بْن عَمْرو بْن العَاص. وَقَدْ قَال الطَّبَرَانِيّ فِي مُسْنَد عَبْد الله بْن عُمَر بْن الخَطَّاب: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن أَيُّوب العَلَّاف المِصْرِيّ، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن أَبِي مَرْيَم، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة عَنْ الحَارِث بْن يَزِيد، عَنْ ابْن حُجَيْرَة، عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر رضي الله عنهما قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «أَرْبَع إِذَا كُنَّ فِيك فَلا عَلَيْك مَا فَاتَك مِنْ الدُّنْيَا: حِفْظ أَمَانَة، وَصِدْق حَدِيث، وَحُسْن خَلِيقَة، وَعِفَّة طُعْمَة»(٣). فَزَادَ فِي الإِسْنَاد: «ابْن حُجَيْرَة»، وَجَعَلَهُ من مُسْنَد ابْن عُمَر.

وَقَدْ وَرَدَ النَّهْي عَنْ الحَلف بِالأَمَانَةِ، قَال عَبْد الله بْن المُبَارَك فِي «كِتَاب الزُّهْد»: حَدَّثَنَا شَرِيك، عَنْ أَبِي إِسْحَاق الشَّيْبَانِيّ، عَنْ خَنَّاس بْن سُحَيْم -أَوْ قَال: جَبَلَة بْن سُحَيْم- قَال: أَقْبَلت مَعَ زِيَاد بْن حُدَيْر مِنْ الجَابِيَة فَقُلت فِي كَلامِي: لا وَالأَمَانَة. فَجَعَل زِيَاد يَبْكِي وَيَبْكِي، فَظَنَنْت أَنِّي أَتَيْت أَمْرًا عَظِيمًا، فَقُلت لَهُ: أَكَانَ يُكْرَه هَذَا؟ فَقَال: نَعَمْ، كَانَ عُمَر بْن الخَطَّاب يَنْهَى عَنْ الحَلف بِالأَمَانَةِ أَشَدّ النَّهْي. وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلكَ حَدِيث مَرْفُوع، قَال أَبُو دَاوُدَ: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن عَبْد الله بْن يُونُس، حَدَّثَنَا زُهَيْر، حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن ثَعْلبَة الطَّائِيّ، عَنْ ابْن بُرَيْدَة، عَنْ أَبِيهِ؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ حَلفَ بِالأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا»(٤). تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُدَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾، أَيْ: إِنَّمَا حَمَّل ابن آدم الأَمَانَة -وَهِيَ التَّكَاليف- لِيُعَذِّب الله المُنَافِقِينَ مِنْهُمْ وَالمُنَافِقَات، وَهُمْ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الإِيمَان خَوْفًا مِنْ أَهْله، وَيُبْطِنُونَ الكُفْر مُتَابَعَة لأَهْلِهِ، ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾، وَهُمْ الَّذِينَ ظَاهِرهمْ وَبَاطِنهمْ عَلى الشِّرْك بِالله عز وجل وَمُخَالفَة رُسُله، ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، أَيْ: وَليَرْحَم المُؤْمِنِينَ مِنْ الخَلق الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَمَلائِكَته وَكُتُبه وَرُسُله العَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

آخِر تَفْسِير سُورَة الأَحْزَاب، ولله الحَمْد وَالمِنَّة

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٩٧)، ومسلم (١٤٣).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧١٨).
(٣) صحيح: تقدم.
(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٢٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

تفسير سُورَةُ سَبَإٍ وهي مكية

ترتيبها ٣٤ — وآياتها ٥٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾.

يُخبِر تَعَالى عَنْ نَفْسه الكَرِيمَة؛ أَنَّ لهُ الحَمْد المُطْلق فِي الدُّنْيا وَالآخِرَة، لأَنَّهُ المُنْعِم المُتَفضِّل على أَهْل الدُّنْيا وَالآخِرَة، المَالك لجَمِيع ذَلكَ، الحَاكِم فِي جَمِيع ذَلك، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، وَلهَذَا قَال هَهُنَا: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾، أَيْ: الجَمِيع مُلكه وَعَبِيده وَتَحْت قهْره وتَصرُّفه. كما قَال: ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾. ثُمَّ قَال: ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ فَهُوَ المَعْبُود أَبَدًا، المَحْمُود عَلى طُول المَدَى.

وقال: ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾، أَيْ: فِي أَقْوَاله وَأَفْعَاله وَشَرْعه وَقَدَره، ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ الَّذِي لا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَة، وَلا يَغِيب عَنْهُ شَيْء. وَقَال مَالك عَنْ الزُّهْرِيّ: خَبِير بِخَلقِهِ، حَكِيم بِأَمْرِهِ؛ وَلهَذَا قَال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾، أَيْ: يَعْلم عَدَد القَطْر النَّازِل فِي أَجْزَاء الأَرْض، وَالحَبّ المَبْذُور وَالكَامِن فِيهَا، وَيَعْلم مَا يَخْرُج مِنْ ذَلكَ: عَدَده وَكَيْفِيَّته وَصِفَاته. ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾، أَيْ: مِنْ قَطْر وَرِزْق، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾، أَيْ: مِنَ الأَعْمَال الصَّالحَة وَغَيْر ذَلكَ، ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾، أَيْ: الرَّحِيم بِعِبَادِهِ فَلا يُعَاجِل عُصَاتهمْ بِالعُقُوبَةِ، الغَفُور عَنْ ذُنُوب التَّائِبِينَ إِلَيْهِ المُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ.

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

هَذِهِ إِحْدَى الآيَات الثَّلاث الَّتِي لا رَابع لهُنَّ، مِمَّا أَمَرَ الله رَسُوله ﷺ أَنْ يُقْسِم بِرَبِّهِ العَظِيم عَلى وُقُوع المَعَاد لَمَّا أَنْكَرَهُ مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْ أَهْل الكُفْر وَالعِنَاد، فَإِحْدَاهُنَّ فِي «سُورَة يُونُس»: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾، وَالثَّانِيَة هَذِهِ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾، وَالثَّالثَة فِي «التَّغَابُن» ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾، فَقَوله: ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾، ثُمَّ وَصَفَهُ بِمَا يُؤَكِّد ذَلكَ وَيُقَرِّرهُ: ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾. قَال مُجَاهِد وَقَتَادَة: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾، لا يَغِيب عَنْهُ، أَيْ: الجَمِيع مُنْدَرِج تَحْت عِلمه فَلا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنه شَيْء، فَالعِظَام -وَإِنْ تَلاشَتْ وَتَفَرَّقَتْ وَتَمَزَّقَتْ- فَهُوَ عَالم أَيْنَ ذَهَبَتْ وَأَيْنَ تَفَرَّقَتْ، ثُمَّ يُعِيدهَا كَمَا بَدَأَهَا أَوَّل مَرَّة فَإِنَّهُ بِكُلِّ شَيْء عَليم. ثُمَّ بَيَّنَ حِكْمَته فِي إِعَادَة الأَبْدَانِ وَقِيَام السَّاعَة بقوله: ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا

﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾، أي: سَعَوْا في الصدّ عن سبيل الله وتكذيب رُسُله، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، أي: ليُنعِم السُّعداء من المُؤمنين، ويُعذِّب الأشقياء من الكافرين، كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

وقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾، هذه حِكمة أُخرى معطوفة على التي قبلها. وهي أنّ المُؤمنين بما أُنزل على الرُّسل إذا شاهدوا قيام السّاعة ومُجازاة الأبرار والفُجّار بالّذي كانوا قد علموه من كُتب الله في الدُّنيا رأوه حينئذٍ عين اليقين، ويقولون يومئذٍ أيضًا: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، ويُقال أيضًا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ العزيز هو: المَنيع الجَناب، الّذي لا يُغالب ولا يُمانع بل قد قهر كُلّ شيْء، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وهو المحمود في ذلك كُلّه.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة المُلحدين قيام السّاعة واستهزائهم بالرّسول ﷺ في إخباره بذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، أي: تفرّقت أجسادكم في الأرض وذهبت فيها كُلّ مذهب، وتمزّقت كُلّ مُمزّق: ﴿إِنَّكُمْ﴾، أي: بعد هذا الحال ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي: تعودون أحياء تُرزقون بعد ذلك. وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين: إمّا أن يكون قد تعمّد الافتراء على الله أنّه قد أوحى إليه ذلك. أو أنّه لم يتعمّد لكن لُبِّس عليه كما يُلبّس على المعتوه والمجنون؛ ولهذا قالوا: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾؟ قال الله تعالى رادًّا عليهم: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾، أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل مُحمّد ﷺ هو الصادق البارّ الرّاشد الّذي جاء بالحقّ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾، أي: الكُفر المُفضي بهم إلى عذاب الله: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ من الحقّ في الدُّنيا. ثُمّ قال مُنبّهًا لهم على قُدرته في خلق السّماوات والأرض، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: حيثُما توجّهوا وذهبوا فالسّماء مظلّة عليهم، والأرض تحتهم، كما قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾.

قال عبد بن حُميد: أخبرنا عبد الرّزّاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال: إنّك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك، أو من بين يديك أو من خلفك، رأيت السّماء والأرض. وقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك؛ لظُلمهم وقُدرتنا عليهم، ولكن نُؤخّر ذلك لحلمنا وعفونا. ثُمّ قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، قال معمر عن قتادة: ﴿مُّنِيبٍ﴾ تائب. وقال سُفيان عن قتادة: المُنيب: المُقبل إلى الله ﷻ. أي: إنّ في النّظر إلى خلق السّماء والأرض لدلالة لكُلّ عبد فطن لبيب رجّاع إلى الله، على قُدرة الله على بعث الأجساد ووُقوع المعاد، لأنّ من قدر على خلق هذه السّماوات في ارتفاعها واتّساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها

وَأَعْرَاضِهَا، إِنَّهُ لَقَادِر عَلَى إِعَادَة الأَجْسَام وَنَشْر الرَّمِيم مِنْ العِظَام، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾، وَقَال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَمَّا أَنْعَمَ بِهِ عَلى عَبْده وَرَسُوله دَاوُدَ -صلوات الله وسلامه عليه- مِمَّا آتَاهُ مِنَ الفَضْل المُبِين، وَجَمَعَ لهُ بَيْن النُّبُوَّة وَالمُلك المُتَمَكِّن، وَالجُنُود ذَوِي العَدَد وَالعُدَد، وَمَا أَعْطَاهُ وَمَنَحَهُ مِنَ الصَّوْت العَظِيم، الَّذِي كَانَ إِذَا سَبَّحَ بِهِ تُسَبِّح مَعَهُ الجِبَال الرَّاسِيَات، الصُّمّ الشَّامِخَات، وَتَقِف لهُ الطُّيُور السَّارِحَات، وَالغَادِيَات وَالرَّائِحَات، وَتُجَاوِبه بِأَنْوَاعِ اللُّغَات. وَفِي «الصَّحِيح» أَنَّ رَسُول الله ﷺ سَمِعَ صَوْت أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ يَقْرَأ مِنْ اللَّيْل، فَوَقَفَ فَاسْتَمَعَ لِقِرَاءَتِهِ ثُمَّ قَال: «**لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِير آل دَاوُدَ**»[1]. وَقَال أَبُو عُثْمَان النَّهْدِيّ: مَا سَمِعْت صَوْت صَنْج وَلا بَرْبَطٍ وَلا وَتَر أَحْسَن مِنْ صَوْت أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ رضي الله عنه. وَمَعْنَى قَوْله: ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾، أَيْ: سَبِّحِي. قَالهُ ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَغَيْر وَاحِد. وَزَعَمَ أَبُو مَيْسَرَة أَنَّهُ بِمَعْنَى سَبِّحِي بِلِسَانِ الحَبَشَة، وَفِي هَذَا نَظَر، فَإِنَّ التَّأْوِيب فِي اللُّغَة هُوَ التَّرْجِيع، فَأُمِرَتْ الجِبَال وَالطَّيْر أَنْ تُرَجِّع مَعَهُ بِأَصْوَاتِهَا.

وَقَال أَبُو القَاسِم عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق الزَّجَّاجِيّ فِي كِتَابه «الجُمَل» فِي بَاب النِّدَاء مِنْهُ ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾، أَيْ: سِيرِي مَعَهُ بِالنَّهَارِ كُلّه، وَالتَّأْوِيب: سَيْر النَّهَار كُلّه، وَالإِسْآد: سَيْر اللَّيْل كُلّه. وَهَذَا لَفْظه، وَهُوَ غَرِيب جِدًّا لَمْ أَجِده لِغَيْرِهِ، وَإِنْ كَانَ لهُ مُسَاعَدَة مِنْ حَيْثُ اللَّفْظ فِي اللُّغَة، لَكِنَّهُ بَعِيد فِي مَعْنَى الآيَة هَهُنَا. وَالصَّوَاب أَنَّ المَعْنَى فِي قَوْله تَعَالى: ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾، أَيْ: رَجِّعِي مُسَبِّحَة مَعَهُ كَمَا تَقَدَّمَ، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾، قَال الحَسَن البَصْرِيّ، وَقَتَادَة وَالأَعْمَش وَغَيْرهمْ: كَانَ لا يَحْتَاج أَنْ يُدْخِلهُ نَارًا وَلا يَضْرِبهُ بِمِطْرَقَةٍ، بَل كَانَ يَفْتِلهُ بِيَدِهِ مِثْل الخُيُوط، وَلِهَذَا قَال: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾، وَهِيَ: الدُّرُوع، قَال قَتَادَة: وَهُوَ أَوَّل مَنْ عَمِلهَا مِنْ الخَلق، وَإِنَّمَا كَانَتْ قَبْل ذَلكَ صَفَائِح. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا ابْن سِمَاعَة، حَدَّثَنَا ابْن ضَمْرَة، عَنْ ابْن شَوْذَب؛ قَال: كَانَ دَاوُدُ عليه السلام يَرْفَع فِي كُلّ يَوْم دِرْعًا فَيَبِيعهَا بِسِتَّةِ آلاف دِرْهَم: أَلفَيْنِ لهُ ولأهله، وَأَرْبَعَة آلاف دِرْهَم يُطْعِم بِهَا بَنِي إِسْرَائِيل خُبْز الحَوَارِيّ. ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾، هَذَا إِرْشَاد مِنْ الله لنَبِيِّهِ دَاوُدَ عليه السلام، فِي تَعْليمه صَنْعَة الدُّرُوع. قَال مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾: لا تَدُقّ المِسْمَار فَيَقْلق فِي الحَلقَة، وَلا تُغَلِّظهُ فَيَفْصِمهَا، وَاجْعَلهُ بِقَدَرٍ. وَقَال الحَكَم بْن عتينة: لا تُغَلِّظهُ فَيَفْصِم، وَلا تُدِقّهُ فَيَقْلق. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ قَتَادَة، وَغَيْر وَاحِد. وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: السَّرْد: حِلق الحَدِيد. وَقَال بَعْضهمْ: يُقَال دِرْع مَسْرُودَة: إِذَا كَانَتْ مَسْمُورَة الحِلَق، وَاسْتُشْهِدَ بِقَوْل الشَّاعِر:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا ۞ «دَاوُدُ»، أَوْ صَنَعَ السَّوَابِغ «تُبَّع»

وَقَدْ ذَكَرَ الحَافِظ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة دَاوُدَ عليه السلام مِنْ طَرِيق إِسْحَاق بْن بِشْر، وَفِيهِ كَلام عَنْ أَبِي إِليَاس، عَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه مَا مَضْمُونه: أَنَّ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَخْرُج مُتَنَكِّرًا، فَيَسْأَل الرُّكْبَان عَنْهُ وَعَنْ سِيرَته، فَلا يَسْأَل أَحَدًا إِلَّا أَثْنَى عَلَيْهِ خَيْرًا فِي عِبَادَته وَسِيرَته ومعدلته -صلوات الله وسلامه عليه-، قَال وَهْب: حَتَّى بَعَثَ الله

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٢٣٦).

مَلكًا فِي صُورَة رَجُل، فَلقِيَهُ دَاوُدُ فَسَأَلَهُ كَمَا كَانَ يَسْأَل غَيْره، فقَال: هُوَ خَيْر النَّاس لنَفْسِهِ وَلأُمَّتِهِ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ خَصْلة لوْ لمْ تَكُنْ فِيهِ كَانَ كَامِلًا. قَال: مَا هِيَ؟ قَال: يَأْكُل وَيُطْعِم عِيَاله مِنْ مَال المُسْلِمِينَ -يَعْنِي بَيْت المَال-، فَعِنْد ذَلكَ نَصَبَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلى رَبِّه فِي الدُّعَاء أَنْ يُعَلِّمهُ عَمَلًا بِيَدِهِ يَسْتَغْنِي بِهِ وَيُغْنِي بِهِ عِيَاله، فَأَلَانَ لهُ الحَدِيد، وَعَلَّمَهُ صَنْعَة الدُّرُوع، فَعَمِل الدِّرع ، وَهُوَ أَوَّل مَنْ عَمِلهَا، فَقَال الله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾، يَعْنِي: مَسَامِير الحلق، قَال: وَكَانَ يعَمِل الدِّرْع، فَإِذَا ارْتَفَعَ مِنْ يعمل دِرْع بَاعَهَا فتَصَدَّقَ بِثُلُثِهَا وَاشْتَرَى بِثُلُثِهَا مَا يَكْفِيه وَعِيَاله، وَأَمْسَكَ الثُّلُث يَتَصَدَّق بِهِ يَوْمًا بِيَوْمٍ إِلى أَنْ يَعْمَل غيْرهَا. وَقَال: إِنَّ الله أَعْطَى دَاوُدَ شَيْئًا لمْ يُعْطِهِ غَيْره مِنْ حُسْن الصَّوْت، إِنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَ الزَّبُور تسمع الوحش حَتَّى يُؤْخَذ بِأَعْنَاقِهَا وَمَا تَنْفِر، وَمَا صَنعَتْ الشَّيَاطِين المَزَامِير وَالبَرَابِط وَالصُّنُوج إِلَّا عَلى أَصْنَاف صَوْته. وَكَانَ شَدِيد الاجْتِهَاد، وَكَانَ إِذَا افْتَتَحَ الزَّبُور بِالقِرَاءَةِ كَأَنَّمَا يَنْفُخ فِي المَزَامِير، وَكَانَ قَدْ أُعْطِيَ سَبْعِينَ مِزْمَارًا فِي حَلقه. وَقَوْله: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾، أَيْ: فِي الَّذِي أَعْطَاكُمْ الله تَعَالى مِنْ النِّعَم، ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أَيْ: مُرَاقِب لكُمْ، بَصِير بِأَعْمَالكُمْ وَأَقْوَالكُمْ، لا يَخْفَى عَليَّ مِنْ ذَلكَ شَيْء.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.

لـمَّا ذَكَرَ تَعَالى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلى دَاوُدَ، عَطَفَ بِذِكْرِ مَا أَعْطَى سُليْمَان بن داود، مِنْ تَسْخِير الرِّيح لهُ تَحْمِل بِسَاطه، غُدُوُّهَا شَهْر وَرَوَاحهَا شَهْر. قَال الحَسَن البَصْرِيّ: كَانَ يَغْدُو عَلى بِسَاطه مِنْ دِمَشْق فَينْزِل بِإِصْطَخْر يَتَغَدَّى بِهَا، وَيَذْهَب رَائِحًا مِنْ إِصْطَخْر فَيَبِيت بِكَابُل، وَبَيْن دِمَشْق وَإِصْطَخْر شَهْر كَامِل للمُسْرِع، وَبَيْن إِصْطَخْر وَكَابُل شَهْر كَامِل للمُسْرِع.

وَقَوْله: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾، قَال ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَمَالك عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ، وَغَيْر وَاحِد: القِطْر النُّحَاس. قَال قَتَادَة: وَكَانَتْ بِاليَمَنِ، فكُلّ مَا يَصْنَع النَّاس مِمَّا أَخْرَجَ الله تَعَالى لسُليْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَال السُّدِّيّ: وَإِنَّمَا أُسِيلتْ لهُ ثَلاثَة أَيَّام.

وَقَوْله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾، أَيْ: وَسَخَّرْنَا لهُ الجِنّ يَعْمَلُونَ بَيْن يَدَيْهِ بِإِذْنِ الله، أَيْ: بِقَدَرِهِ، وَتَسْخِيره لهُمْ بِمَشِيئَتِهِ مَا يَشَاء مِنْ البِنَايَات وَغَيْر ذَلكَ. ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾، أَيْ: وَمَنْ يَعْدِل وَيَخْرُج مِنْهُمْ عَنْ الطَّاعَة ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وَهُوَ الحَرِيق.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْن أَبِي حَاتِم هَهُنَا حَدِيثًا غَرِيبًا فَقَال: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو صَالح، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَة بْن صَالح، عَنْ أَبِي الزَّاهِرِيَة، عَنْ جُبَيْر بْن نُفَيْر عَنْ أَبِي ثَعْلبَة الخُشَنِيّ؛ أَنَّ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال: **«الجِنّ عَلى ثَلاثَة أَصْنَاف: صِنْف له أَجْنِحَة يَطِيرُونَ فِي الهَوَاء، وَصِنْف حَيَّات وَكِلاب، وَصِنْف يَحِلُّونَ وَيَظْعَنُونَ».**[1] رَفَعَه غَرِيب جِدًّا. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا حَرْمَلة، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب، أَخْبَرَنِي بَكْر بْن مُضَر، عَنْ مُحَمَّد عَنْ ابْن أَنْعَم؛ أَنَّهُ قَال: الجِنّ ثَلاثَة: أَصْنَاف صِنْف لهُمْ الثَّوَاب وَعَليْهِمْ العِقَاب، وَصِنْف طَيَّارُونَ فِيمَا بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض، وَصِنْف حَيَّات وَكِلاب. قَال بَكْر بْن مُضَر: وَلا أَعْلم إِلَّا أَنَّهُ قَال: حَدَّثَنِي أَنَّ الإِنْس ثَلاثَة: صِنْف يُظِلّهُمْ الله بِظِلِّ عَرْشه يَوْم

---

(١) حسـن : أخرجه الطبراني (٢٢/ ٥٧٣)، والحاكم (٢/ ٤٥٦).

القِيَامَة، وَصِنْف كَالأَنْعَامِ بَل هُمْ أَضَلّ سَبِيلًا، وَصِنْف فِي صُوَر النَّاس عَلى قُلُوب الشَّيَاطِين. وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن هَاشِم بْن مَرْزُوق، حَدَّثَنَا سَلمَة -يَعْنِي ابْن الفَضْل- عَنْ إِسْمَاعِيل عَنْ الحَسَن، قَال: الجِنّ وَلد إِبْلِيس، وَالإِنْس وَلد آدَم، وَمِنْ هَؤُلاءِ مُؤْمِنُونَ وَمِنْ هَؤُلاءِ مُؤْمِنُونَ، وَهُمْ شُرَكَاؤُهُمْ فِي الثَّوَاب وَالعِقَاب، وَمَنْ كَانَ مِنْ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مُؤْمِنًا فَهُوَ وَلِيّ الله، وَمَنْ كَانَ مِنْ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ كَافِرًا فَهُوَ شَيْطَان.

وَقَوْله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾، أَمَّا المَحَارِيب فَهِيَ البِنَاء الحَسَن، وَهُوَ أَشْرَف شَيْء فِي المَسْكَن وَصَدْره. وَقَال مُجَاهِد: المَحَارِيب بُنْيَان دُون القُصُور. وَقَال الضَّحَّاك: هِيَ المَسَاجِد. وَقَال قَتَادَة: هِيَ المساجد والقصور. وَقَال ابْن زَيْد: هِيَ المَسَاكِن. وَأَمَّا التَّمَاثِل فَقَال عَطِيَّة العَوْفِيّ، وَالضَّحَّاك وَالسُّدِّيّ: التَّمَاثِيل: الصُّوَر. قَال مُجَاهِد: وَكَانَتْ مِنْ نُحَاس. وَقَال قَتَادَة: مِنْ طِين وَزُجَاج. وَقَوْله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾، الجَوَاب: جَمْع جَابِيَة، وَهِيَ الحَوْض الَّذِي يُجْبَى فِيهِ المَاء، كَمَا قَال الأَعْشَى مَيْمُون بْن قَيْس:

تَـرُوح عَلـى آل المُحلَّـق جَفْنَـة ۞ كَجَابِيَـةِ الشَّيْخ العِرَاقِـيّ تَفْهَـق

وَقَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾، أَيْ: كَالجَوْبَةِ مِنْ الأَرْض. وَقَال العَوْفِيّ، عَنْهُ: كَالحِيَاضِ. وَكَذَا قَال مُجَاهِد، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَالضَّحَّاك وَغَيْرهمْ. وَالقُدُور الرَّاسِيَات: أَيْ الثَّابِتَات فِي أَمَاكِنهَا لا تتحوَّل ولا تتحرَّك عَنْ أَمَاكِنهَا لِعِظَمِهَا. كَذَا قَال مُجَاهِد وَالضَّحَّاك، وَغَيْرهمَا. وَقَال عِكْرِمَة: أَثَافِيّهَا مِنْهَا. وَقَوْله: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾، أَيْ: وَقُلنَا لَهُمْ اعْمَلُوا شُكْرًا عَلى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالدِّين. وَشُكْرًا: مَصْدَر مِنْ غَيْر الفِعْل، أَوْ أَنَّهُ مَفْعُول لهُ، وَعَلى التَّقْدِيرَيْنِ فِيهِ دَلالة عَلى أَنَّ الشُّكْر يَكُون بِالفِعْل كَمَا يَكُون بِالقَوْل وَالنِّيَّة، كَمَا قَال:

أَفَـادَتْكُمْ النَّعْمَـاء مِنِّـي ثَلاثَـة ۞ يَـدِي وَلِـسَانِي وَالـضَّمِير المُحَجَّبَـا

قَال أَبُو عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِي: الصَّلاة شُكْر، وَالصِّيَام شُكْر، وَكُلّ خَيْر تَعْمَلهُ لله شُكْر. وَأَفْضَل الشُّكْر الحَمْد. رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَرَوَى هُوَ وَابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ؛ قَال: الشُّكْر تَقْوَى الله وَالعَمَل الصَّالح. وَهَذَا يُقَال لِمَنْ هُوَ مُتَلبِّس بِالفِعْل، وَقَدْ كَانَ آلُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَذَلِكَ قَائِمِينَ بِشُكْرِ الله قَوْلًا وَعَمَلًا. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن أَبِي بَكْر، حَدَّثَنَا جَعْفَر -يَعْنِي ابْن سُليْمَان- عَنْ ثَابِت البُنَانِيّ؛ قَال: كَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ جَزَّأَ عَلى أَهْله وَوَلده وَنِسَائِهِ الصَّلاة، فَكَانَ لا تَأْتِي عَلَيْهِمْ سَاعَة مِنْ اللَّيْل وَالنَّهَار إِلَّا وَإِنْسَان مِنْ آل دَاوُدَ قَائِم يُصَلِّي، فَغَمَرَتْهُمْ هَذِهِ الآيَة: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾. وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: **«إِنَّ أَحَبَّ الصَّلاة إِلى الله صَلاة دَاوُدَ، كَانَ يَنَام نِصْف اللَّيْل وَيَقُوم ثُلُثه وَيَنَام سُدُسه، وَأَحَبّ الصِّيَام إِلى الله صِيَام دَاوُدَ، كَانَ يَصُوم يَوْمًا وَيُفْطِر يَوْمًا، وَلا يَفِرّ إِذَا لاقَى»**.(١)

وَقَدْ رَوَى أَبُو عَبْد الله ابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث [سنيد](٢) بْن دَاوُدَ، حَدَّثَنَا يُوسُف بْن مُحَمَّد بْن المُنْكَدِر، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَابِر قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «قَالتْ أُمّ سُليْمَان بْن دَاوُدَ لِسُليْمَان: يَا بُنَيّ؛ لا تُكْثِر النَّوْم بِاللَّيْل، فَإِنَّ كَثْرَة النَّوْم بِاللَّيْل تَتْرُك الرَّجُل فَقِيرًا يَوْم القِيَامَة»(٣). وَرَوَى ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَهُنَا أَثَرًا غَرِيبًا مُطَوَّلًا جِدًّا، وَقَال أَيْضًا: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عِمْرَان بْن مُوسَى حَدَّثَنَا أَبُو زَيْد قَبِيصَة بْن إِسْحَاق الرَّقِّيّ قَال: قَال فُضَيْل

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).
(٢) في نسخ: [سعيد].
(٣) ضعيف : أخرجه ابن ماجه (١٣٣٢)، وفيه سنيد بن داود: ضعيف، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه».

فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾. قَال دَاوُدُ: يَا رَبّ؛ كَيْف أَشْكُرك، وَالشُّكْر نِعْمَة مِنْك؟ قَال: «الآن شَكَرْتنِي حِين علمت أن النِّعْمَة مِنِّي». وَقَوْله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، إِخْبَار عَنْ الوَاقِع.

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾.

يَذْكُر تَعَالَى كَيْفِيَّة مَوْت سُلَيْمَان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَيْف عَمَّى الله مَوْته عَلَى الجَانّ المُسَخَّرِينَ لهُ فِي الأَعْمَال الشَّاقَة، فَإِنَّهُ مَكَثَ مُتَوَكِّئًا عَلى عَصَاهُ، وَهِيَ مِنْسَأَته -كَمَا قَال ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَالحَسَن، وَقَتَادَة وَغَيْر وَاحِد- مُدَّة طَوِيلة نَحْوًا مِنْ سَنَة، فَلَمَّا أَكَلَتْهَا دَابَّة الأَرْض، وَهِيَ الأَرَضَة، ضَعُفَتْ وَسَقَطَ إِلى الأَرْض، وَعُلِمَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ قَبْل ذَلكَ بِمُدَّةٍ طَوِيلة -تَبَيَّنَتْ الجِنّ وَالإِنْس أَيْضًا: أَنَّ الجِنّ لا يَعْلمُونَ الغَيْب، كَمَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ وَيُوهِمُونَ النَّاس ذَلكَ. وقَدْ وَرَدَ فِي ذَلكَ حَدِيث مَرْفُوع غَرِيب، وَفِي صِحَّته نَظَر.

وقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن مَنْصُور، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن مَسْعُود أَبُو حُذَيْفَة، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن طَهْمَان، عَنْ عَطَاء بن السَّائِب، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «كَانَ سُلَيْمَان نَبِيّ الله ؛ إِذَا صَلَّى رَأَى شَجَرَة نَابِتَة بَيْن يَدَيْهِ فَيَقُول لهَا: مَا اسْمك؟ فَتَقُول: كَذَا. فَيَقُول: لأَيِّ شَيْء أَنْتِ؟ فَإِنْ كَانَتْ تُغْرَس غُرِسَتْ، وَإِنْ كَانَتْ لدَوَاءٍ كُتِبَتْ. فَبَيْنَمَا هُوَ يُصَلِّي ذَات يَوْم إِذْ رَأَى شَجَرَة بَيْن يَدَيْهِ، فَقَال لهَا: مَا اسْمك؟ قَالَتْ: الخَرُّوب. قَال: لأَيِّ شَيْء أَنْتِ؟ قَالتْ: لخَرَابِ هَذَا البَيْت. فَقَال سُلَيْمَان: اللَّهُمَّ، عَمّ عَلى الجِنّ مَوْتِي حَتَّى يَعْلم الإِنْس أَنَّ الجِنّ لا يَعْلمُونَ الغَيْب. فَنَحَتَهَا عَصًا، فَتَوَكَّأَ عَليْهَا حَوْلاً مَيِّتًا، وَالجِنّ تَعْمَل. فَأَكَلتْهَا الأَرَضَة، فَتَبَيَّنَتْ الإِنْس أَنَّ الجِنّ لوْ كَانُوا يَعْلمُونَ الغَيْب مَا لبِثُوا حَوْلاً فِي العَذَاب المُهِين. قَال: وَكَانَ ابْن عَبَّاس يَقْرَؤُهَا كَذَلكَ قَال: فَشَكَرْت الجِنّ الأَرَضَةِ، فَكَانَتْ تَأْتِيهَا بِالمَاءِ»[1]. وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، مِنْ حَدِيث إِبْرَاهِيم بْن طَهْمَان بِهِ. وَفِي رَفْعه غَرَابَة وَنَكَارَة، وَالأَقْرَب أَنْ يَكُون مَوْقُوفًا، وَعَطَاء بْن أَبِي مُسْلم الخُرَاسَانِيّ لهُ غَرَابَاتٌ، وَفِي بَعْض حَدِيثه نَكَارَة.

وَقَال السُّدِّي، فِي حَدِيث ذَكَرَهُ عَنْ أَبِي مَالك وعَنْ أَبِي صَالح، عَنْ ابْن عَبَّاس وَعَنْ مُرَّة الهَمْدَانِيّ، عَنْ ابْن مَسْعُود، وَعَنْ نَاس مِنْ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ قَال: كَانَ سُليْمَان يَتَحَرَّد فِي بَيْت المَقْدِس السَّنَة وَالسَّنَتَيْنِ وَالشَّهْر وَالشَّهْرَيْنِ، وَأَقَلّ مِنْ ذَلكَ وَأَكْثَر، فَيَدْخُل فِيهِ وَمَعَهُ طَعَامه وَشَرَابه، فَأَدْخَلهُ فِي المَرَّة الَّتِي تُوُفِّيَ فِيهَا، فَكَانَ بَدْء ذَلكَ أَنَّهُ لمْ يَكُنْ يَوْم يُصْبِح فِيهِ إِلَّا نبتت فِي بَيْت المَقْدِس شَجَرَة، فَيَأْتِيهَا فَيَسْأَلهَا، فَيَقُول: مَا اسْمك؟ فَتَقُول: اسْمِي كَذَا وَكَذَا. فَإِنْ كَانَتْ لغَرْسٍ غَرَسَهَا، وَإِنْ كَانَتْ نبت دَوَاء قَالتْ: نَبَتّ دَوَاء لكَذَا وَكَذَا. فَيَجْعَلهَا كَذَلكَ، حَتَّى نَبَتَتْ شَجَرَة يُقَال لهَا: الخَرُّوبَة، فَسَأَلهَا: مَا اسْمك؟ فَقَالتْ: أَنَا الخَرُّوبَة. قَال: وَلأَيِّ شَيْء نَبَتّ؟ قَالتْ: نَبَتّ لخَرَابِ هَذَا المَسْجِد. قَال سُليْمَان: مَا كَانَ الله ليُخَرِّبهُ وَأَنَا حَيّ؟ أَنْتِ الَّتِي عَلى وَجْهك هَلاكِي وَخَرَاب بَيْت المَقْدِس. فَنَزَعَهَا وَغَرَسَهَا فِي حَائِط لهُ، ثُمَّ دَخَل المِحْرَاب فَقَامَ يُصَلِّي مُتَكِئًا عَلى عَصَاهُ، فَمَاتَ ولا تَعْلم بِهِ الشَّيَاطِين، وَهُمْ فِي ذَلكَ يَعْمَلُونَ لهُ، يَخَافُونَ أَنْ يَخْرُج فَيُعَاقِبهُمْ، وَكَانَتْ الشَّيَاطِين تَجْتَمِع حَوْل المِحْرَاب، وَكَانَ المِحْرَاب لهُ كُوَى بَيْن يَدَيْهِ وَخَلفه، فَكَانَ الشَّيْطَان الَّذِي يُرِيد أَنْ يَخْلع يَقُول: أَلسْت جَلدًا إِنْ دَخَلت فَخَرَجْت مِنْ ذَلكَ الجَانِب؟ فَيَدْخُل حَتَّى يَخْرُج مِنْ الجَانِب الآخَر، فَدَخَل شَيْطَان مِنْ أُولئِكَ فَمَرَّ، وَلمْ

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٢٢/ ٧٤)، وفيه موسى بن مسعود: صدوق سيئ الحفظ، وعطاء بن السائب: صدوق اختلط.

يَكُنْ شَيْطَانٌ يَنْظُرُ إِلَى سُلَيْمَانَ فِي الْمِحْرَابِ إِلَّا احْتَرَقَ. فَمَرَّ وَلَمْ يَسْمَعْ صَوْتَ سُلَيْمَانَ، ثُمَّ رَجَعَ فَلَمْ يسمع ثُمَّ رَجَعَ فَوَقَعَ فِي الْبَيْتِ وَلَمْ يَحْتَرِقْ وَنَظَرَ إِلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قد سَقَطَ مَيِّتًا. فَخَرَجَ فَأَخْبَرَ النَّاسَ أَنَّ سُلَيْمَانَ قَدْ مَاتَ، فَفَتَحُوا عَلَيْهِ فَأَخْرَجُوهُ، وَوَجَدُوا مِنْسَأَتَهُ -وَهِيَ: الْعَصَا بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ- قَدْ أَكَلَتْهَا الْأَرَضَةُ، وَلَمْ يَعْلَمُوا مُنْذُ كَمْ مَاتَ؟ فَوَضَعُوا الْأَرَضَةَ عَلَى الْعَصَا، فَأَكَلَتْ مِنْهَا يَوْمًا وَلَيْلَةً، ثُمَّ حَسَبُوا عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ، فَوَجَدُوهُ قَدْ مَاتَ مُنْذُ سَنَةٍ. وَهِيَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (فَمَكَثُوا يدأبون لَهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ حَوْلًا كَامِلًا) فَأَيْقَنَ النَّاسُ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْجِنَّ كَانُوا يَكْذِبُونَهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ يَطَّلِعُونَ عَلَى الْغَيْبِ؛ لَعَلِمُوا بِمَوْتِ سُلَيْمَانَ، وَلَمْ يَلْبَثُوا فِي الْعَذَابِ، يَعْمَلُونَ لَهُ سنة وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾، يَقُولُ: تَبَيَّنَ أَمْرُهُمْ لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْذِبُونَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ الشَّيَاطِينَ قَالُوا لِلْأَرَضَةِ: لَوْ كُنْتِ تَأْكُلِينَ الطَّعَامَ أَتَيْنَاكِ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ، وَلَوْ كُنْتِ تَشْرَبِينَ الشَّرَابَ سَقَيْنَاكِ أَطْيَبَ الشَّرَابِ، وَلَكِنَّا سَنَنْقُلُ إِلَيْكِ الْمَاءَ وَالطِّينَ -قَالَ: فَهُمْ يَنْقُلُونَ إِلَيْهَا ذَلِكَ حَيْثُ كَانَتْ- قَالَ: أَلَمْ تَرَ إِلَى الطِّينِ الَّذِي يَكُونُ فِي جَوْفِ الْخَشَبِ؟ فَهُوَ مَا تَأْتِيهَا بِهِ الشَّيَاطِينُ، شُكْرًا لَهَا. وَهَذَا الْأَثَرُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- إِنَّمَا هُوَ مِمَّا تُلُقِّيَ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهِيَ وَقْفٌ، لَا يُصَدَّقُ مِنْهُ إِلَّا مَا وَافَقَ الْحَقَّ، وَلَا يُكَذَّبُ مِنْهَا إِلَّا مَا خَالَفَ الْحَقَّ، وَالْبَاقِي لَا يُصَدَّقُ وَلَا يُكَذَّبُ.

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ وَأَصْبَغُ بْنُ الْفَرَجِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾، قَالَ: قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَلَكِ الْمَوْتِ: إِذَا أُمِرْتَ بِي فَأَعْلِمْنِي. فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا سُلَيْمَانُ؛ قَدْ أُمِرْتُ بِكَ، قَدْ بَقِيَتْ لَكَ سُوَيْعَةٌ؟ فَدَعَا الشَّيَاطِينَ فَبَنَوْا عَلَيْهِ صَرْحًا مِنْ قَوَارِيرَ، وَلَيْسَ لَهُ بَابٌ، فَقَامَ يُصَلِّي فَاتَّكَأَ عَلَى عَصَاهُ، قَالَ: فَدَخَلَ عَلَيْهِ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَبَضَ رُوحَهُ وَهُوَ مُتَوَكِّئٌ عَلَى عَصَاهُ، وَلَمْ يَصْنَعْ ذَلِكَ فِرَارًا مِنْ مَلَكِ الْمَوْتِ، قَالَ: وَالْجِنُّ يَعْمَلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، يَحْسَبُونَ أَنَّهُ حَيٌّ. قَالَ: فَبَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ دَابَّةَ الْأَرْضِ، قَالَ: وَالدَّابَّةُ تَأْكُلُ الْعِيدَانَ -يُقَالُ لَهَا: الْقَادِحُ- فَدَخَلَتْ فِيهَا فَأَكَلَتْهَا، حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ جَوْفَ الْعَصَا ضَعُفَتْ، وَثَقُلَ عَلَيْهَا فَخَرَّ مَيِّتًا، فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ الْجِنُّ انْفَضُّوا وَذَهَبُوا، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾. قَالَ أَصْبَغُ: بَلَغَنِي عَنْ غَيْرِهِ أَنَّهَا قَامَتْ سَنَةً تَأْكُلُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَخِرَّ. وقد ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ نَحْوًا مِنْ هَذَا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

كَانَتْ سَبَأٌ مُلُوكَ الْيَمَنِ وَأَهْلَهَا، وَكَانَتِ التَّبَابِعَةُ مِنْهُمْ، وَبَلْقِيسُ صَاحِبَةُ سُلَيْمَانَ مِنْهُمْ، وَكَانُوا فِي نِعْمَةٍ وَغِبْطَةٍ فِي بِلَادِهِمْ وَعَيْشِهِمْ، وَاتِّسَاعِ أَرْزَاقِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَثِمَارِهِمْ. وَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ تَأْمُرُهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ، وَيَشْكُرُوهُ بِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَكَانُوا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَعْرَضُوا عَمَّا أُمِرُوا بِهِ، فَعُوقِبُوا بِإِرْسَالِ السَّيْلِ وَالتَّفَرُّقِ فِي الْبِلَادِ أَيْدِي سَبَأٍ، شَذَرَ مَذَرَ؛ كَمَا يَأْتِي تَفْصِيلُهُ وَبَيَانُهُ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى وَبِهِ الثِّقَةُ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ هُبَيْرَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ وَعْلَةَ؛ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ سَبَأٍ: مَا هُوَ؟ أَرَجُلٌ أَمِ امْرَأَةٌ أَمْ أَرْضٌ؟ قَالَ ﷺ: **«بَلْ هُوَ رَجُلٌ، وَلَدَ عَشَرَةً، فَسَكَنَ الْيَمَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَبِالشَّامِ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ، فَأَمَّا الْيَمَانِيُّونَ فَمَذْحِجُ، وَكِنْدَةُ، وَالْأَزْدُ، وَالْأَشْعَرِيُّونَ وَأَنْمَارُ، وَحِمْيَرُ، وَأَمَّا الشَّامِيَّةُ فَلَخْمٌ، وَجُذَامُ، وَعَامِلَةُ، وَغَسَّانُ»**[1]. وَرَوَاهُ عَبْدٌ، عَنْ

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣١٦)، بسند ضعيف فيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

الحَسَن بْن مُوسَى، عَنْ ابْن لِهيعَة بِهِ. وَهَذَا إِسْنَاد حَسَن، وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ. وَقَدْ رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو عُمَر ابْن عَبْد البَرّ فِي كِتَاب «القَصْد وَالأُمَم، بِمَعْرِفَةِ أُصُول أَنْسَاب العَرَب وَالعَجَم». مِنْ حَدِيث ابْن لِهيعَة، عَنْ عَلقَمَة بْن وَعْلة، عَنْ ابْن عَبَّاس فَذَكَرَ نَحْوه. وَقَدْ رُوِيَ نَحْوه مِنْ وَجْه آخَر.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد أَيْضًا وَعَبْد بْن حُمَيْد: حَدَّثَنَا يَزِيد بْن هَارُون، حَدَّثَنَا أَبُو جناب يَحْيَى بْن أَبِي حَيَّة الكَلبِيّ، عَنْ يحيي بن هانئ بن عُرْوَة عَنْ فَرْوَة بْن مُسَيْك، قَال: أَتَيْت رَسُول الله ﷺ فَقُلت: يَا رَسُول الله؛ أُقَاتِل بِمُقْبِل قَوْمِي مُدْبِرهمْ؟ قَال: **«نَعَمْ، فَقَاتِل بِمُقْبِل قَوْمِك مُدْبِرهمْ»**. فَلَمَّا وَلَّيْت دَعَانِي فَقَال: **«لا تُقَاتِلهُمْ حَتَّى تَدْعُوَهُمْ إِلى الإِسْلام»**. فَقُلت: يَا رَسُول الله؛ أَرَأَيْت سَبَأ أَوَادٍ هُوَ، أَوْ رجل، أَوْ مَا هُوَ؟ قَال ﷺ: **«بَل رَجُل مِنْ العَرَب، وُلدَ لهُ عَشَرَة فَتَيَامَنَ سِتَّة وَتَشَاءَمَ أَرْبَعَة، تَيَامَنَ الأَزْد، وَالأَشْعَرِيُّونَ، وَحِمْيَر، وَكِنْدَة، وَمُذْحَج، وَأَنْمَار الَّذِينَ يُقَال لهُمْ: بَجِيلة، وَخَثْعَم، وَتَشَاءَمَ: لخْم، وَجُذَام، وَعَامِلة، وَغَسَّان»**[1]. وَهَذَا أَيْضًا إِسْنَاد جيد، وَإِنْ كَانَ فِيهِ أَبُو جَنَاب الكَلبِيّ، وَقَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ. لكِنْ رَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْ أَبِي كُرَيْب، عَنْ العنقزي، عَنْ أَسْبَاط بْن نَصْر، عَنْ يَحْيَى بْن هَانِئ المُرَادِيّ، عَنْ عَمّه أَوْ عَنْ أَبِيهِ -يشُكّ أَسْبَاط- قَال: قَدِمَ فَرْوَة بْن مُسَيْك رضي الله عنه عَلى رَسُول الله ﷺ فَذَكَرَه.

طَرِيق أُخْرَى لهَذَا الحَدِيث: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا يُونُس بْن عَبْد الأَعْلى، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب، حَدَّثَنِي ابْن لِهيعَة، عَنْ تَوْبَة بْن نمر، عَنْ عَبْد العَزِيز بْن يَحْيَى أَنَّهُ أَخْبَرَهُ قَال: كُنَّا عِنْد عُبَيْدَة بْن عَبْد الرَّحْمَن بِأَفْرِيقِيَّة فَقَال يَوْمًا: مَا أَظُنّ قَوْمًا بِأَرْضٍ إِلَّا وَهُمْ مِنْ أَهْلهَا. فَقَال عَليّ بْن أَبِي رَبَاح: كَلَّا، قَدْ حَدَّثَنِي فُلان أَنَّ فَرْوَة ابْن مُسَيْك الغطيفي قَدِمَ عَلى رَسُول الله ﷺ فَقَال: يَا رَسُول الله، إِنَّ سَبَأ قَوْم كَانَ لهُمْ عِزّ فِي الجَاهِليَّة، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَرْتَدُّوا عَنْ الإِسْلام، أَفَأُقَاتِلهُمْ فَقَال ﷺ: **«مَا أُمِرْت فِيهِمْ بِشَيْءٍ بَعْد»**. فَأُنْزِلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ الآيَات، فَقَال لهُ رَجُل: يَا رَسُول الله؛ مَا سَبَأ؟ فَذَكَر مِثْل هذا الحَدِيث الَّذِي قَبْله: أَنَّ رَسُول الله ﷺ سُئِل عَنْ سَبَإٍ؟ مَا هُوَ؟ أَبَلد، أَمْ رَجُل أَمْ امْرَأَة؟ قَال ﷺ: **«بَل رَجُل، وَلدَ عَشَرَة، فَسكَنَ اليَمَن مِنْهُمْ سِتَّة، وَالشَّام أَرْبَعَة، أَمَّا اليَمَانِيُّونَ فَمُذْحَج، وَكِنْدَة، وَالأَزْد، وَالأَشْعَرِيُّونَ، وَأَنْمَار وَحِمْيَر غَيْر مَا حلَّهَا. وَأَمَّا الشَّام فَلخْم، وَجُذَام، وَغسَّان، وَعَامِلة»**. فِيهِ غَرَابَة مِنْ حَيْثُ ذِكْر نُزُول الآيَة بِالمَدِينَةِ، وَالسُّورَة مَكِّيَّة كُلّهَا، وَالله أَعْلم.

طَرِيق أُخْرَى: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَة، حدثني الحَسَن بْن الحَكَم، حَدَّثَنَا أَبُو سَبْرَة النَّخَعِيّ، عَنْ فَرْوَة بْن مُسَيْك الغطِيفي؛ قال: قَال رَجُل: يَا رَسُول الله؛ أَخْبِرْنِي عَنْ سَبَأ: مَا هُوَ؟ أَرْض، أَمْ امْرَأَة؟ قَال: **«ليْسَ بِأَرْضٍ وَلا امْرَأَة، وَلكِنَّهُ رَجُل وَلدَ عَشَرَة مِنْ الوَلد، فَتَيَامَنَ سِتَّة وَتَشَاءَمَ أَرْبَعَة، فَأَمَّا الَّذِينَ تَشَاءَمُوا فَلخْم وَجُذَام وَعَامِلة وَغَسَّان، وَأَمَّا الَّذِينَ تَيَامَنُوا فَكِنْدَة، وَالأَشْعَرِيُّونَ، وَالأَزْد، وَمُذْحَج، وَحِمْيَر، وَأَنْمَار»**. فَقَال رَجُل: مَا أَنْمَار؟ قَال: **«الَّذِينَ مِنْهُمْ خَثْعَمُ وَبَجِيلة»**[2]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي «جَامِعه»، عَنْ أَبِي كُرَيْب وَعَبْد بْن حُمَيْد؛ قالا: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَة... فَذَكَرَه أَبْسَط مِنْ هَذَا، ثُمَّ قَال: هَذَا حَدِيث حَسَن غَرِيب.

وَقَال أَبُو عُمَر ابْن عَبْد البَرّ: حَدَّثَنَا عَبْد الوَارِث بْن سُفْيَان، حَدَّثَنَا قَاسِم بْن أَصْبُغ، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن زُهَيْر،

---

(١) **حسن صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٢٢٢)، والطبري (٢٢/ ٧٧)، وقال الألباني: حسن صحيح، انظر صحيح سنن الترمذي (٢٥٧٤).

(٢) **حسن صحيح**: تقـدم.

حَدَّثَنَا عَبْد الوَهَّاب بْن نَجْدَة الحَوْطِيّ، حَدَّثَنَا ابْن كَثِير -هُوَ عُثْمَان بْن كَثِير- عَنْ اللَّيْث بْن سَعْد، عَنْ مُوسَى بْن عَلِي، عَنْ يَزِيد بْن حُصَيْن، عَنْ تَمِيم الدَّارِيّ؛ أَنَّ رَجُلًا أَتَى رَسُول اللهﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ سَبَإٍ... فَذَكَرَ مِثْله، فَقَوِيَ هَذَا الحَدِيث وَحَسُنَ. قَال عُلَمَاء النَّسَب مِنْهُمْ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: اسْم سَبَأ: عَبْد شَمْس بْن يَشْجُب بْن يَعْرُب بْن قَحْطَان. وَإِنَّمَا سُمِّيَ سَبَأ لأَنَّهُ أَوَّل مَنْ سَبَأَ فِي العَرَب، وَكَانَ يُقَال لَهُ: الرَّائِش؛ لأَنَّهُ أَوَّل مِنْ غَنِمَ فِي الغَزْو فَأَعْطَى قَوْمه، فَسُمِّيَ الرَّائِش، وَالعَرَب تُسَمِّي المَال: رِيشًا وَرِيَاشًا. وَذَكَرُوا أَنَّهُ بَشَّرَ بِرَسُول اللهﷺ فِي زَمَانه المُتَقَدِّم، وَقَال فِي ذَلِكَ شِعْرًا:

سَيَمْلكُ بَعْدنَا مُلكًا عَظِيمًا ❁ نَبِيّ لا يُرَخِّص فِي الحَرَام
وَيملك بَعْده مِنْهُمْ مُلُوك ❁ يَدِينُون العبادَ بغير ذام
وَيَمْلك بَعْدهمْ مِنَّا مُلُوك ❁ يَصِير المُلك فِينَا باقْتِسَام
وَيَمْلك بَعْد قَحْطَان نَبِيّ ❁ تَقِيّ خبتة خَيْر الأَنَام
وسُمِّي أَحْمَدًا يَا لَيْتَ أَنِّي ❁ أُعَمِّر بَعْد مَبْعَثه بعَامِ
فَأَعْضِدهُ وَأَحْبُوهُ بنَصْرِي ❁ بكُلِّ مُدَجَّج وَبِكُلِّ رَامِ
مَتَى يَظْهَر فَكُونُوا نَاصِرِيهِ ❁ وَمَنْ يَلقَاهُ يُبْلغهُ سَلامِي

ذَكَرَ ذَلكَ الهَمَذَانِيّ فِي كِتَاب «الإِكْلِيل». وَاخْتَلفُوا فِي قَحْطَان عَلى ثَلاثَة أَقْوَال:

أَحَدهَا: أَنَّهُ مِنْ سُلالة إِرَم بْن سَام بْن نُوح، وَاخْتَلفُوا فِي كَيْفِيَّة اتِّصَال نَسَبه بِهِ عَلى ثَلاث طَرَائِق.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ مِنْ سُلالة عَابِر، وَهُوَ هُود عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلام، وَاخْتَلفُوا فِي كَيْفِيَّة اتِّصَال نَسَبه بِهِ عَلى ثَلاث طَرَائِق أَيْضًا.

وَالثَّالث: أَنَّهُ مِنْ سُلالة إِسْمَاعِيل بْن إِبْرَاهِيم الخليل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَاخْتَلفُوا فِي كَيْفِيَّة اتِّصَال نَسَبه بِهِ عَلى ثَلاث طَرَائِق أَيْضًا. وَقَدْ ذَكَرَ ذَلكَ مُسْتَقْصًى الحَافِظ أَبُو عُمَر ابْن عَبْد البَرّ النَّمِرِيّ رَحِمَهُ اللهُ، فِي كِتَابه: «الإِنْبَاه عَلى ذِكْر أُصُول القَبَائِل الرُّوَاة».

وَمَعْنَى قَوْله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**كَانَ رَجُلاً مِنْ العَرَب**»، يَعْنِي: العَرَب العَارِبَة الَّذِينَ كَانُوا قَبْل الخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ سُلالة سَام بْن نُوح. وَعَلى القَوْل الثَّالث: كَانَ مِنْ سُلالة الخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَيْسَ هَذَا بِالمَشْهُورِ عِنْدهمْ، وَالله أَعْلم. وفِي «صَحِيح البُخَارِيّ» أَنَّ رَسُول اللهﷺ مَرَّ بِنَفَرٍ مِنْ «أَسْلمَ» يَنْتَضِلُونَ، فَقَال: «**ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيل، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا**»[1]. فَأَسْلمَ قَبِيلة مِنْ الأَنْصَار، وَالأَنْصَار أَوْسهَا وَخَزْرَجهَا مِنْ غَسَّان مِنْ عَرَب اليَمَن مِنْ سَبَإٍ نَزَلُوا بِيَثْرِب لَـمَّا تَفَرَّقَتْ سَبَأ فِي البِلاد، حِين بَعَثَ الله عَلَيْهِمْ سَيْل العَرِم، وَنَزَلتْ طَائِفَة مِنْهُمْ بِالشَّام، وَإِنَّمَا قِيل: لَهُمْ: غَسَّان بِمَاءٍ نَزَلُوا عَليْهِ؛ قِيل: بِاليَمَنِ. وَقِيل: إِنَّهُ قَرِيب مِنْ المُشَلَّل، كَمَا قَال حَسَّان بْن ثَابِت:

إِمَّا سَأَلت فَإِنَّا مَعْشَر نُجُب ❁ الأَزْد نِسبَتنَا وَالمَاء غَسَّان

وَمَعْنَى قَوْلهﷺ : «**وُلدَ لهُ عَشَرَة مِنْ العَرَب**»، أَيْ: كَانَ مِنْ نَسْله هَؤُلاءِ العَشَرَة الَّذِينَ يَرْجِع إِليْهِمْ أُصُول القَبَائِل مِنْ عَرَب اليَمَن، لا أَنَّهُمْ وُلدُوا مِنْ صُلبه، بَل مِنْهُمْ مَنْ بَيْنه وَبَيْنه الأَبَوَانِ وَالثَّلاثَة وَالأَقَل وَالأَكْثَر، كَمَا هُوَ مُقَرَّر مُبَيَّن فِي مَوَاضِعه مِنْ كُتُب النَّسَب. وَمَعْنَى قَوْلهﷺ : «**فَتَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّة وَتَشَاءَمَ مِنْهُمْ أَرْبَعَة**»، أَيْ: بَعْدَمَا

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٣٥٠٧).

أَرْسَلَ الله عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ، مِنْهُمْ مَنْ أَقَامَ بِبِلادِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَزَحَ عَنْهَا إِلى غَيْرِهَا. وَكَانَ مِنْ أَمْرِ السَّدِّ أَنَّهُ كَانَ المَاء يَأْتِيهِمْ مِنْ بَيْن جبلَيْنِ، وَتَجْتَمِع إِلَيْهِ أَيْضًا سُيُول أَمْطَارهِمْ وَأَوْدِيَتهِمْ، فَعَمَد مُلُوكهمْ الأَقَادِم، فَبَنَوْا بَيْنهما سَدًّا عَظِيمًا مُحْكَمًا حَتَّى ارْتَفَعَ المَاء، وَحُكِمَ عَلى حَافَّات ذَيْنك الجَبلَيْنِ، فَغَرَسُوا الأَشْجَار وَاسْتَغَلُّوا الثِّمَار فِي غَايَة مَا يَكُون مِنْ الكَثْرَة وَالحُسْن. كَمَا ذكره غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف، مِنْهُمْ قَتَادَة: أَنَّ المَرْأَة كَانَتْ تَمْشِي تَحْت الأَشْجَار وَعَلى رَأْسهَا مِكْتَل أَوْ زِنْبِيل، وَهُوَ الَّذِي تُخْتَرَف فِيهِ الثِّمَار، فَيَتَسَاقَط مِنْ الأَشْجَار فِي ذَلِكَ مَا يَمْلَؤُهُ مِنْ غَيْر أَنْ يَحْتَاج إِلى كُلفَة وَلا قِطَاف، لِكَثْرَتِهِ وَنُضْجه وَاسْتِوَائِهِ. وَكَانَ هَذَا السَّدّ بِمَأْرِب: بَلدَة بَيْنهَا وَبَيْن صَنْعَاء ثَلاث مَرَاحِل، وَيُعْرَف بِسَدِّ مَأْرِب. وَذَكَرَ آخَرُونَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِبَلدِهِمْ شَيْء مِنْ الذُّبَاب وَلا البَعُوض وَلا البَرَاغِيث، وَلا شَيْء مِنْ الهَوَامّ، وَذَلِكَ لاعْتِدَال الهَوَاء وَصِحَّة المِزَاج وَعِنَايَة الله بِهِمْ؛ لِيُوَحِّدُوهُ وَيَعْبُدُوهُ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾، أَيْ: مِنْ نَاحِيَتَيْ الجَبلَيْنِ وَالبَلدَة بَيْن ذَلِكَ، ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، أَيْ: غَفُور لكُمْ إِنْ اسْتَمْرَرْتُمْ عَلى التَّوْحِيد.

وَقَوْله: ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾، أَيْ: عَنْ تَوْحِيد الله وَعِبَادَته وَشُكْره عَلى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَعَدَلُوا إِلى عِبَادَة الشَّمْس، كَمَا قَال هدهد سُليْمَان: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾. وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه: بَعَثَ الله إِليْهِمْ ثَلاثَة عَشَر نَبِيًّا. وَقَال السُّدِّيّ: أَرْسَل الله إِليْهِمْ اثْنَيْ عَشَر أَلف نَبِيّ. وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾، قيل المُرَاد بِالعَرِمِ المِيَاه. وَقِيل: الوَادِي. وَقِيل: الجُرَذ، وَقِيل: المَاء الغَزِير. فَيَكُون مِنْ بَاب إِضَافَة الاسْم إِلى صِفَته، مِثْل: «مَسْجِد الجَامِع». وَ«سَعِيد كرز» حَكَى ذَلكَ السُّهَيْلِيّ.

وَذَكَر غَيْر وَاحِد مِنْهُمْ ابْن عَبَّاس، وَوَهْب بْن مُنَبِّه، وَقَتَادَة، وَالضَّحَّاك: أَنَّ الله ﷻ لَـمَّا أَرَادَ عُقُوبَتهم بِإِرْسَال العَرِم عَلَيْهِمْ، بَعَثَ عَلى السَّدّ دَابَّة مِنْ الأَرْض، يُقَال لهَا: «الجُرَذ» نَقَبَتْهُ. قَال وَهْب بْن مُنَبِّه: وَقَدْ كَانُوا يَجِدُونَ فِي كُتُبهمْ أَنَّ سَبَب خَرَاب هَذَا السَّدّ هُوَ الجُرَذ، فَكَانُوا يَرْصُدُونَ عِنْده السَّنَانِير بُرْهَة مِنْ الزَّمَان، فَلَمَّا جَاءَ القَدَر غَلبَتْ الفَأْر السَّنَانِير وَوَلجَتْ إِلى السَّدّ فَنَقَبَتْهُ فَانْهَارَ عَلَيْهِمْ. وَقَال قَتَادَة وَغَيْره: الجُرَذ: هُوَ الخُلد، نَقَبتْ أَسَافِله حَتَّى إِذَا ضَعُفَ وَوَهِيَ، وَجَاءَتْ أَيَّام السُّيُول، صَدَمَ المَاء البِنَاء فَسَقَطَ، فَانْسَابَ المَاء فِي أَسْفَل الوَادِي، وَخَرِبَ مَا بَيْن يَدَيْهِ مِنْ الأَبْنِيَة وَالأَشْجَار وَغَيْر ذَلكَ، وَنَضَبَ المَاء عَنْ الأَشْجَار الَّتِي فِي الجَبلَيْنِ عَنْ يَمِين وَشِمَال، فَيَبِسَتْ وَتَحَطَّمَتْ، وَتَبَدَّلتْ تِلكَ الأَشْجَار المُثْمِرَة [الأَفِيقَة][1] النَّضِرَة، كَمَا قَال الله تَعَالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾. قَال ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ: وَهُوَ الأَرَاك، وَأُكْلة البَرْبَر. ﴿وَأَثْلٍ﴾، قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: هُوَ الطَّرْفَاء. وَقَال غَيْره: هُوَ شَجَر يُشْبِه الطَّرْفَاء. وَقِيل: هُوَ السَّمَر. وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، لَـمَّا كَانَ أَجْوَد هَذِهِ الأَشْجَار المُبَدَّل بِهَا هُوَ السِّدْر قَال: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، فَهَذَا الَّذِي صَارَ أَمْر تَيْنِك الجَنَّتَيْنِ إِلَيْهِ، بَعْد الثِّمَار النَّضِيجَة وَالمَنَاظِر الحَسَنَة، وَالظِّلال العَمِيقَة وَالأَنْهَار الجَارِيَة، تَبَدَّلتْ إِلى شَجَر الأَرَاك وَالطَّرْفَاء وَالسِّدْر ذِي الشَّوْك الكَثِير وَالثَّمر القَليل. وَذَلكَ بِسَبَبِ

---

(١) في نسخة: [الأنيقة].

كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ بِاللهِ، وَتَكْذِيبِهِمُ الْحَقَّ وَعُدُولِهِمْ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾؟ أَيْ: عَاقَبْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ. قَالَ مُجَاهِدٌ: وَلَا يُعَاقَبُ إِلَّا الْكَفُورُ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: صَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ. لَا يُعَاقَبُ بِمِثْلِ فِعْلِهِ إِلَّا الْكَفُورُ. وَقَالَ طَاوُسٌ: لَا يُنَاقَشُ إِلَّا الْكَفُورُ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ ابْنُ الْحُسَيْنِ، حَدَّثَنَا أَبُو عُمَرَ بْنُ النَّحَّاسِ الرَّمْلِيُّ، حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا أَبُو الْبَيْدَاءِ، عَنْ هِشَامِ بْنِ صَالِحٍ التَّغْلِبِيِّ عَنِ ابْنِ خَيْرَةَ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: جَزَاءُ الْمَعْصِيَةِ الْوَهَنُ فِي الْعِبَادَةِ وَالضِّيقُ فِي الْمَعِيشَةِ، وَالتَّعَسُّرُ فِي اللَّذَّةِ. قِيلَ: وَمَا التَّعَسُّرُ فِي اللَّذَّةِ؟ قَالَ: لَا يُصَادِفُ لَذَّةً حَلَالًا إِلَّا جَاءَهُ مَنْ يُنَغِّصُهُ إِيَّاهَا.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْغِبْطَةِ وَالنِّعْمَةِ، وَالْعَيْشِ الْهَنِيءِ الرَّغِيدِ، وَالْبِلَادِ الرَّخِيَّةِ، وَالْأَمَاكِنِ الْآمِنَةِ، وَالْقُرَى الْمُتَوَاصِلَةِ الْمُتَقَارِبَةِ، بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، مَعَ كَثْرَةِ أَشْجَارِهَا وَزُرُوعِهَا وَثِمَارِهَا، بِحَيْثُ إِنَّ مُسَافِرَهُمْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى حَمْلِ زَادٍ وَلَا مَاءٍ، بَلْ حَيْثُ نَزَلَ وَجَدَ مَاءً وَثَمَرًا، وَيَقِيلُ فِي قَرْيَةٍ وَيَبِيتُ فِي أُخْرَى، بِمِقْدَارِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي سَيْرِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: هِيَ قُرًى بِصَنْعَاءَ. وَكَذَا قَالَ أَبُو مَالِكٍ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ: يَعْنِي قُرَى الشَّامِ. يَعْنُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ فِي قُرًى ظَاهِرَةٍ مُتَوَاصِلَةٍ.

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا بَيْتُ الْمَقْدِسِ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْهُ أَيْضًا: هِيَ قُرًى عَرَبِيَّةٌ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ. ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾، أَيْ: بَيِّنَةً وَاضِحَةً، يَعْرِفُهَا الْمُسَافِرُونَ، يَقِيلُونَ فِي وَاحِدَةٍ، وَيَبِيتُونَ فِي أُخْرَى؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ﴾، أَيْ: جَعَلْنَاهَا بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ الْمُسَافِرُونَ إِلَيْهِ، ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾، أَيْ: الْأَمْنُ حَاصِلٌ لَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ لَيْلًا وَنَهَارًا. ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، وَقَرَأَ آخَرُونَ: ﴿بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بَطِرُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَأَحَبُّوا مَفَاوِزَ وَمَهَامِهَ يَحْتَاجُونَ فِي قَطْعِهَا إِلَى الزَّادِ وَالرَّوَاحِلِ وَالسَّيْرِ فِي الْحَرُورِ وَالْمَخَاوِفِ، كَمَا طَلَبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ مُوسَى أَنْ يُخْرِجَ اللهُ لَهُمْ مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ، مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي عَيْشٍ رَغِيدٍ فِي مَنٍّ وَسَلْوَى وَمَا يَشْتَهُونَ مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَلَابِسَ مُرْتَفِعَةٍ، وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَاۖ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾، وَقَالَ فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، أَيْ: بِكُفْرِهِمْ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ أَيْ: جَعَلْنَاهُمْ حَدِيثًا لِلنَّاسِ، وَسَمَرًا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ مِنْ خَبَرِهِمْ، وَكَيْفَ مَكَرَ اللهُ بِهِمْ، وَفَرَّقَ شَمْلَهُمْ بَعْدَ الِاجْتِمَاعِ وَالْأُلْفَةِ وَالْعَيْشِ الْهَنِيءِ، تَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ هَهُنَا وَهَهُنَا؛ وَلِهَذَا تَقُولُ الْعَرَبُ فِي الْقَوْمِ إِذَا تَفَرَّقُوا: «تَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَأٍ»، «وَأَيَادِي سَبَأٍ»، وَ«تَفَرَّقُوا شَذَرَ مَذَرَ».

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ ابْنُ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْقَطَّانِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَبِيبِ بْنِ الشَّهِيدِ، سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ يُحَدِّثُ بِحَدِيثِ أَهْلِ سَبَأٍ، قَالَ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ﴾ إِلَى

قَوْله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾: وَكَانَتْ فِيهِمْ كَهَنَة، وَكَانَتْ الشَّيَاطِين يَسْتَرِقُونَ السَّمْع، فَأَخْبَرُوا الكَهَنَة بِشَيْءٍ مِنْ أَخْبَار السَّمَاء، فَكَانَ فِيهِمْ رَجُل كَاهِن شَرِيف كَثِير المَال، وإِنَّهُ خُبِّرَ أَنَّ زَوَال أَمْرهمْ قَدْ دَنَا، وَأَنَّ العَذَاب قَدْ أَظَلَّهُمْ. فَلَمْ يَدْرِ كَيْف يَصْنَع، لأَنَّهُ كَانَ لهُ مَال كَثِير مِنْ عَقَار، فَقَال لرَجُلٍ مِنْ بَنِيهِ -وَهُوَ أَعَزّهمْ أَخْوَالًا-: إِذَا كَانَ غَدًا وَأَمَرْتُك بِأَمْرٍ فَلا تَفْعَل، فَإِذَا انْتَهَرْتُك فَانْتَهِرْنِي، فَإِذَا تناولتك فَالطِمْنِي. فقَال: يَا أَبَت؛ لا تَفْعَل، إِنَّ هَذَا أَمْر عَظِيم وَأَمْر شَدِيد. قَال: يَا بُنَيّ؛ قَدْ حَدَث أَمْر لابُدّ مِنْهُ. فَلَمْ يَزَل بِهِ حَتَّى وَافَاهُ عَلى ذَلك. فَلَمَّا أَصْبَحُوا وَاجْتَمَعَ النَّاس، قَال: يَا بُنَيّ؛ افْعَل كَذَا وَكَذَا. فَأَبَى، فَانْتَهَرَهُ أَبُوهُ، فَأَجَابَهُ، فَلمْ يَزَل ذَلكَ بَيْنهمَا حَتَّى تَنَاوَلهُ أَبُوهُ، فَلطَمَهُ فَوَثَبَ عَلى أَبِيهِ فَلطَمَهُ، فقَال: ابْنِي يَلطِمنِي؟ عَليَّ بِالشَّفْرَةِ، قَالُوا: ومَا تَصْنَع بِالشَّفْرَةِ؟ قَال: أَذْبَحهُ. قَالُوا: تَذْبَح ابْنك؟ الطِمْهُ أَوْ اصْنَعْ مَا بَدَا لك. قَال: فَأَبَى، قَال: فَأَرْسَلُوا إِلى أَخْوَاله فَأَعْلمُوهُمْ ذَلكَ، فَجَاءَ أَخْوَاله فَقَالُوا: خُذْ مِنَّا مَا بَدَا لك فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَذْبَحهُ. قَالُوا: فَلتَمُوتَنَّ قَبْل أَنْ تَذْبَحهُ. قَال: فَإِذَا كَانَ الحَدِيث هَكَذَا فَإِنِّي لا أَرَى أَنْ أُقِيم بِبَلَدٍ يُحَال بَيْنِي وَبَيْن ولدي فِيهِ، اشْتَرُوا مِنِّي دُورِي، اشْتَرُوا مِنِّي أَرْضِي. فَلمْ يَزَل حَتَّى بَاعَ دُوره وأراضيه وَعقَاره، فَلمَّا صَارَ الثَّمَن فِي يَده وَأَحْرَزَهُ، قَال: أَيْ قَوْم؛ إِنَّ العَذَاب قَدْ أَظَلَّكُمْ، وَزَوَال أَمْركُمْ قَدْ دَنَا، فَمَنْ أَرَادَ مِنكُمْ دَارًا جَدِيدًا، وجملاً شَدِيدًا، وَسَفَرًا بَعِيدًا، فَليَلحَقْ بِعمَّان. وَمَنْ أَرَادَ مِنكُمْ الخَمْر وَالخَمِير وَالعَصِير وَكَلمَة، -قَال إِبْرَاهِيم: لمْ أَحْفَظهَا- فَليَلحَقْ بِبُصْرَى، وَمَنْ أَرَادَ الرَّاسِخَات فِي الوَحْل، والمُطْعِمَات فِي المَحْل، المقيمات فِي الضحْل، فَليَلحَقْ بِيَثْرِب ذَات نَخْل. فَأَطَاعَهُ قَوْمه، فَخَرَجَ أَهْل عمَّان إِلى عمَّان. وَخَرَجَتْ غَسَّان إِلى بُصْرَى. وَخَرَجَتْ الأَوْس وَالخَزْرَج وَبَنُو عُثْمَان إِلى يَثْرِب ذَات النَّخْل. قَال: فَأَتَوْا عَلى بَطْن مر، فَقَال بَنُو عُثْمَان: هَذَا مَكَان صَالح، لا نَبْغِي بِهِ بَدَلًا. فَأَقَامُوا بِهِ، فَسُمُّوا لذَلكَ خُزَاعَة؛ لأَنَّهُمْ انْخَزَعُوا مِنْ أَصْحَابِهِمْ، وَاسْتَقَامَتْ الأَوْس وَالخَزْرَج حَتَّى نَزَلُوا المَدِينَة، وَتَوَجَّهَ أَهْل عمَّان إِلى عمَّان، وَتَوَجَّهَتْ غَسَّان إِلى بُصْرَى. هَذَا أَثَر غَرِيب عَجِيب، وَهَذَا الكَاهِن هُوَ عَمْرو بن عَامِر أَحَد رُؤَسَاء اليَمَن وَكُبَرَاء سَبَأ وَكُهَّانهمْ. وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن يَسَار فِي أَوَّل «السِّيرَة» مَا كَانَ مِنْ أَمْر عَمْرو بْن عَامِر الَّذِي كَانَ أَوَّل مَنْ خَرَجَ مِنْ بِلاد اليَمَن، بِسَبَبِ اسْتِشْعَاره بِإِرْسَال العَرِم فَقَال: وَكَانَ سَبَب خُرُوج عَمْرو بْن عَامِر مِنْ اليَمَن -فِيمَا حَدَّثَنِي بِهِ أَبُو زَيْد الأَنْصَارِيّ- أَنَّهُ رَأَى جُرَذًا يَحْفِر فِي سَدّ مَأْرِب، الَّذِي كَانَ يَحْبِس عَنْهُمْ المَاء فَيَصْرِفُونَهُ حَيْثُ شَاءُوا مِنْ أَرْضهِمْ، فَعَلمَ أَنَّهُ لا بَقَاء للسَّدِّ عَلى ذَلكَ، فَاعْتَزَمَ عَلى النَّقْلة عَنْ اليَمَن فكَادَ قَوْمه، فَأَمَرَ أَصْغَر أولاده إِذَا أَغْلظَ لهُ ولطَمَهُ أَنْ يَقُوم إِليْهِ فَيلطِمهُ، ففَعَل ابْنه مَا أَمَرَهُ بِهِ.

فَقَال عَمْرو: لا أُقِيم بِبلَدٍ لطَمَ وَجْهِي فِيهَا أَصْغَر وَلدِي. وَعَرَضَ أَمْوَاله، فَقَال أَشْرَاف مِنْ أَشْرَاف اليَمَن: اغْتَنِمُوا غَضْبَة عَمْرو. فَاشْتَرُوا مِنْهُ أَمْوَاله. وَانْتَقَل فِي وَلده وَوَلد وَلده. وَقَالتْ الأَزد: لا نَتَخَلَّف عَنْ عَمْرو بْن عَامِر. فَبَاعُوا أَمْوَالهمْ، وَخَرَجُوا مَعَهُ فَسَارُوا حَتَّى نَزَلُوا بِلاد «عَكّ» مُجْتَازِينَ يَرْتَادُونَ البُلْدَان، فَحَارَبَتْهُمْ عَكّ، وَكَانَتْ حَرْبهمْ سِجَالًا. فَفِي ذَلكَ يَقُول عَبَّاس بْن مِرْدَاس السُّلمِيّ:

وَعَكّ بْن عَدْنَان الَّذِينَ تَغَلَّبُوا ❁ بِغَسَّان، حَتَّى طُرِّدُوا كُلّ مُطْرَد

وَهَذَا البَيْت مِنْ قَصِيدَة لهُ. قَال: ثُمَّ ارْتَحَلُوا عَنْهُمْ فَتفَرَّقُوا فِي البلاد، فَنَزَل آلُ جَفْنَة بْن عَمْرو بْن عَامِر الشَّام، وَنَزَلتْ الأَوْس وَالخَزْرَج يَثْرِب، وَنَزَلتْ خُزَاعَة مُرًّا. وَنَزَلتْ أَزْد السَّرَاة السَّرَاة، وَنَزَلتْ أَزْد عمَّان عُمَان، ثُمَّ أَرْسَل الله عَلى السَّدّ السَّيْل فَهَدَمَهُ، وَفِي ذَلكَ أَنْزَل الله ﷻ هَذِهِ الآيَات. وَقَدْ ذَكَرَ السُّدِّيّ قِصَّة عَمْرو بْن عَامِر بِنَحْو ما ذَكَرَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، إِلَّا أَنَّهُ قَال: «فَأَمَرَ ابْن أَخِيهِ»، مَكَان «ابْنه»، إِلى قَوْله: «فَبَاعَ مَالهُ وَارْتَحَل

بِأَهْلِهِ، فَتَمَزَّقُوا». رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، أَخْبَرَنَا سَلمَة، عَنْ ابْن إِسْحَاق؛ قَال: يَزْعُمُونَ أَنَّ عَمْرو بْن عَامِر، وَهُوَ عَمّ القَوْم كَانَ كَاهِنًا، فَرَأَى فِي كِهَانَته أَنَّ قَوْمه سَيُمَزَّقُونَ وَيُبَاعَد بَيْن أَسْفَارهمْ. فَقَال لَهُمْ: إِنِّي قَدْ عَلمْت أَنَّكُمْ سَتُمَزَّقُونَ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ ذَا هَمّ بَعِيد وَجمل شَدِيد، وَمَزَاد جَدِيد فَليَلحَقْ بِكَاسٍ أَوْ كرود. قَال: فَكَانَتْ وَادِعَة بْن عَمْرو. وَمَنْ كَانَ مِنْكُم ذَا هَمّ مُدْن، وَأَمْر دَعِن، فَليَلحَقْ بِأَرْضِ شَنّ. فَكَانَتْ عَوْف بْن عَمْرو، وهُمْ الَّذِينَ يُقَال لَهُمْ: بَارِق. وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُرِيد عَيْشًا آنِيًّا، وَحَرَمًا آمِنًا، فَليَلحَقْ بالأرزين. فَكَانَتْ خُزَاعَة، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُرِيد الرَّاسِيَات فِي الوَحْل، والمُطْعِمَات فِي المَحْل، فَليَلحَقْ بِيَثْرِب ذَات النَّخْل. فَكَانَتْ الأَوْس وَالخَزْرَج، وَهُمَا هَذَانِ الحَيَّانِ مِنْ الأَنْصَار. وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُرِيد خَمْرًا وَخَمِيرًا، وَذَهَبًا، وَحَرِيرًا، وَمُلكًا وَتَأْمِيرًا، فَليَلحَقْ بكوثى وَبُصْرَى، فَكَانَتْ غَسَّان بَنُو جَفْنَة مُلُوك الشَّام، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِالعِرَاقِ. قَال ابْن إِسْحَاق: وَقَدْ سَمِعْت بَعْض أَهْل العِلم يَقُول: إِنَّمَا قَالتْ هَذِهِ المَقَالة طَرِيفة امْرَأَة عَمْرو بْن عَامِر، وَكَانَتْ كَاهِنَة، فَرَأَتْ فِي كَهَانَتهَا ذَلكَ، فَالله أَعْلم أَيّ ذَلكَ كَانَ. وَقَال سَعِيد، عَنْ قَتَادَة، عَنْ الشَّعْبِيّ: أَمَّا غَسَّان فَلحِقُوا بِالشَّام، وَأَمَّا الأَنْصَار فَلحِقُوا بِيَثْرِب، وَأَمَّا خُزَاعَة فَلحِقُوا بِتِهَامَة، وَأَمَّا الأَزْد فَلحِقُوا بِعَمَّان، فَمَزَّقَهُمْ الله كُلّ مُمَزَّق. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير. ثُمَّ قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي أَبُو عُبَيْدَة؛ قَال: قَال الأَعْشَى -أَعْشَى بَنِي قَيْس بْن ثَعْلبَة- وَاسْمه: مَيْمُون بْن قَيْس:

وَفِي ذَاكَ للمُؤْتَسِي أُسْوَة ❁ وَمَأْرِب عفَى عليْهَا العَرِم

رِخَام بَنَتْه لهُمْ حِمْيَر ❁ إِذَا جَاءَ مَواره لمْ يَرِم

فَأَرْوَى الزُّرُوع وَأَعْنَابهَا ❁ عَلى سَعَةٍ مَاؤُهُمْ إِذْ قُسِمَ

فَصَارُوا أَيَادِي مَا يَقْدِرُو ❁ نَ مِنْهُ عَلى شُرْب طِفْل فَطِم

وَقَوْله تَعَالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، أَيْ: إِنَّ فِي هَذَا الَّذِي حَلَّ بِهَؤُلاءِ مِنْ النِّقْمَة وَالعَذَاب، وَتَبْدِيل النِّعْمَة وَتَحْوِيل العَافِيَة، عُقُوبَة عَلى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ الكُفْر وَالآثَام لعِبْرَة وَدَلالة لكُلِّ عَبْد صَبَّار عَلى المَصَائِب، شَكُور عَلى النِّعَم.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن وَعَبْد الرَّزَّاق المعني، قَالا: أَخْبَرَنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ العِيزَارِ ابْن حُرَيْث عَنْ عُمَر بْن سَعْد، عَنْ أَبِيهِ -هُوَ سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص-، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«عَجِبْت مِنْ قَضَاء الله للمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَهُ خَيْر حَمِدَ رَبّه وَشَكَرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَة حَمِدَ رَبّه وَصَبَرَ، يُؤْجَر المُؤْمِن فِي كُلّ شَيْء، حَتَّى فِي اللُّقْمَة يَرْفَعهَا إِلى فِي امْرَأَته»**.[1]

وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي «اليَوْم وَاللَّيْلة»، مِنْ حَدِيث أَبِي إِسْحَاق السَّبِيعِيّ بِهِ، وَهُوَ حَدِيث عَزِيز مِنْ رِوَايَة عُمَر ابْن سَعْد، عَنْ أَبِيهِ. وَلكِنْ لهُ شَاهِد فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة: **«عَجبًا للمُؤْمِنِ، لا يَقْضِي الله لهُ قَضَاء إلاَّ كَانَ خَيْرًا، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاء شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاء صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لهُ، وَليْسَ ذَلك لأَحَدٍ إلاَّ للمُؤْمِنِ»**.[2]

قَال عَبْد: حَدَّثَنَا يُونُس، عَنْ شيبان عَنْ قَتَادَة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، قَال: كَانَ مُطَرِّف يَقُول: نِعْمَ العَبْد الصَّبَّار الشَّكُور، الَّذِي إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ.

---

(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد (١/ ١٧٣).
(٢) صحيح: تقدم.

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾.

لَـمَّا ذَكَرَ تَعالى قِصَّة سَبأ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي اتِّباعهمْ الهَوَى وَالشَّيْطَان، أَخْبَرَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَمْثَالهمْ مِمَّنْ اتَّبَعَ إِبْليس وَالهَوَى، وَخَالفَ الرَّشَاد وَالهُدَى، فَقَال: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾. قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْره: هَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ تَعَالى إِخْبَارًا عَنْ إِبْليس حِين امْتَنَعَ مِنْ السُّجُود لآدَم، ثُمَّ قَال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، ثم قَال: ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾... وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة.

وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: لـمَّا أَهْبَطَ الله آدَم مِنْ الجَنَّة وَمَعَهُ حَوَّاء هَبطَ إِبْليس فَرِحًا بِمَا أَصَاب مِنْهُمَا، وَقَال: إِذَا أَصَبْت مِنْ الأَبَوَيْنِ مَا أَصَبْت، فَالذُّرِّيَّة أَضْعَف وَأَضْعَف. وَكَانَ ذَلِكَ ظَنًّا مِنْ إِبْليس، فَأَنْزَل الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فَقَال عِنْد ذَلِكَ إِبْليس: «لا أُفَارِق ابْن آدَم مَا دَامَ فِيهِ الرُّوح، أَعِدُهُ وَأُمَنِّيه وَأَخْدَعهُ». فَقَال الله: «وَعِزَّتِي، لا أَحْجُب عَنْهُ التَّوْبَة مَا لمْ يُغَرْغِر بِالمَوْتِ، وَلا يَدْعُونِي، إلاَّ أَجَبْته، وَلا يَسْأَلنِي إلاَّ أَعْطَيْته، وَلا يَسْتَغْفِرنِي إلاَّ غَفَرْت لهُ». رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَوْله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ قَال ابْن عَبَّاس: أَيْ مِنْ حُجَّة. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: وَالله مَا ضَرَبَهُمْ بِعَصًا، وَلا أَكْرَهَهُمْ عَلى شَيْء، وَمَا كَانَ إِلَّا غُرُورًا وَأَمَانِيّ دَعَاهُمْ إِلَيْهَا فَأَجَابُوهُ.

وَقَوْله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾، أَيْ: إِنَّمَا سَلَّطْنَاهُ عَلَيْهِمْ لِيَظْهَر أَمْر مَنْ هُوَ مُؤْمِن بِالآخِرَةِ وَقِيَامهَا وَالحِسَاب فِيهَا وَالجَزَاء، فَيُحْسِن عِبَادَة رَبِّه ﷻ فِي الدُّنْيَا، مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكّ.

وَقَوْله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾، أَيْ: وَمَعَ حِفْظه ضَلَّ مَنْ ضَلَّ مِنْ أَتباع إِبْليس، وَبِحِفْظِهِ وَكِلاءَته سَلمَ مَنْ سَلمَ مِنْ المُؤْمِنِينَ أَتْبَاع الرُّسُل.

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

يبيِّن تَعَالى أَنَّهُ الإِله الوَاحِد الأَحَد، الفَرْد الصَّمَد، الَّذِي لا نَظِير لهُ وَلا شَرِيك لهُ، بَلْ هُوَ المُسْتَقِلّ بِالأَمْرِ وَحْده، مِنْ غَيْر مُشَارِك وَلا مُنَازِع وَلا مُعَارِض، فَقَال: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، أَيْ: مِنْ الآلِهَة الَّتِي عُبِدَتْ مِنْ دُونه ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، كَمَا قَال تَبَارَكَ وَتَعَالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾.

وَقَوْله: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ أَيْ: لا يَمْلكُونَ شَيْئًا اسْتِقْلالًا وَلا عَلى سَبِيل الشَّرِكَة، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾، أَيْ: وَليْسَ لله مِنْ هَذِهِ الأَنْدَاد مِنْ ظَهِير يَسْتَظْهِر بِهِ فِي الأُمُور، بَل الخَلق كُلّهمْ فُقَرَاء إِلَيْهِ عَبِيد لدَيْهِ. قَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾، مِنْ عَوْن يُعِينهُ بِشَيْء.

وقَال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ أَيْ: لعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ لا يَجْتَرِئ أَحَد أَنْ يَشْفَع عِنْده تَعَالى فِي شَيْء، إِلَّا بَعْد إِذْنه لهُ فِي الشَّفَاعَة، كَمَا قَال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾، وَقَال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ ﴾، وَقَال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾. وَلهَذَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، مِنْ غَيْر وَجْه عَنْ رَسُول الله ﷺ وَهُوَ سَيِّد وَلد آدَم، وَأَكْبَر

شَفِيع عِنْد الله أَنَّهُ حِين يَقُوم المَقَام المَحْمُود لِيَشْفَع فِي الخَلق كُلّهمْ أَنْ يَأْتِي رَبّهمْ لفَصْل القَضَاء، قَال: «**فَأَسْجُد لله فَيَدَعنِي مَا شَاءَ الله أَنْ يَدَعنِي، وَيَفْتَح عَلَيَّ بِمَحَامِد لا أُحْصِيهَا الآن، ثُمَّ يُقَال: يَا مُحَمَّد؛ ارْفَعْ رَأْسك، وَقُل يُسْمَع، وَسَل تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّع**». الحَدِيث بِتَمَامِهِ.

وَقَوْله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾. وَهَذَا أَيْضًا مَقَام رَفِيع فِي العَظَمَة. وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى إِذَا تَكَلَّمَ بِالوَحْيِ، فَسَمِعَ أَهْل السَّمَاوَات كَلامه، أُرْعِدُوا مِنْ الهَيْبَة حَتَّى يَلحَقهُمْ مِثْل الغَشْي. قَالَهُ ابْن مَسْعُود وَمَسْرُوق وَغَيْرهمَا. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، أَيْ: زَال الفَزَع عَنْهَا، قَال ابْن عَبَّاس، وَابْن عُمَر، وَأَبُو عَبْد الرَّحْمَن السُّلمِيّ، وَالشَّعْبِيّ، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَالضَّحَّاك وَالحَسَن، وَقَتَادَة فِي قَوْله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، يَقُول: جَلَّى عَنْ قُلُوبهمْ. وَقَرَأَ بَعْض السَّلف -وَجَاءَ مَرْفُوعًا-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُرِّغَ﴾ بِالغَيْنِ المُعْجَمَة، وَيَرْجِع إِلى الأَوَّل. فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ يسأل بَعْضهمْ بَعْضًا: مَاذَا قَال رَبّكُمْ؟ فَيُخْبِر بِذَلِكَ حَمَلة العَرْش الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ لِمَنْ تَحْتهمْ، حَتَّى يَنْتَهِيَ الخَبَر إِلى أَهْل السَّمَاء الدُّنْيَا؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾، أَيْ: أَخْبَرُوا بِمَا قَال مِنْ غَيْر زِيَادَة وَلا نُقْصَان، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وَقَال آخَرُونَ: بَل مَعْنَى قَوْله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، يَعْنِي المُشْرِكِينَ عِنْد الاحْتِضَار، وَيَوْم القِيَامَة حتى إِذَا اسْتَيْقَظُوا مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ الغَفْلة فِي الدُّنْيَا، وَرَجَعَتْ إِلَيْهِمْ عُقُولهمْ يَوْم القِيَامَة، قَالُوا: مَاذَا قَال رَبّكُمْ؟ فَقِيل لَهُمْ: الحَقّ وَأَخْبَرُوا بِهِ مِمَّا كَانُوا عَنْهُ لاهِينَ فِي الدُّنْيَا. قَال ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، كُشِفَ عَنْهَا الغِطَاء يَوْم القِيَامَة. وَقَال الحَسَن: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، يَعْنِي: مَا فِيهَا مِنْ الشَّكّ وَالتَّكْذِيب. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، يَعْنِي: مَا فِيهَا مِنْ الشَّكّ، قَال: فَزَّعَ الشَّيْطَان عَنْ قُلُوبهمْ ومآربهم وَأَمَانِيّهمْ وَمَا كَانَ يُضِلّهُمْ، ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، قَال: وَهَذَا فِي بَنِي آدَم هَذَا عِنْد المَوْت، أَقَرُّوا حِين لا يَنْفَعهُمْ الإِقْرَار. وَقَدْ اخْتَار ابْن جَرِير القَوْل الأَوَّل: أَنَّ الضَّمِير عَائِد عَلى المَلائِكَة. هَذَا هُوَ الحَقّ الَّذِي لا مِرْيَة فِيهِ، لِصِحَّةِ الأَحَادِيث فِيهِ وَالآثَار، وَلنَذْكُرْ مِنْهَا طَرَفًا يَدُلّ عَلى غَيْره.

قَال البُخَارِيّ عِنْد تَفْسِير هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة فِي «صَحِيحه»: حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان، حَدَّثَنَا عَمْرو، سَمِعْت عِكْرِمَة، سَمِعْت أَبَا هُرَيْرَة يَقُول: إِنَّ نَبِيّ الله ﷺ قَال: «**إِذَا قَضَى الله الأَمْر فِي السَّمَاء، ضَرَبَتْ المَلائِكَة بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلسِلة عَلى صَفْوَان، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبهمْ قَالُوا: مَاذَا قَال رَبّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَال: الحَقّ وَهُوَ العَلِيّ الكَبِير، فَيَسْمَعهَا مُسْتَرِق السَّمْع، وَمُسْتَرِق السَّمْع هَكَذَا بَعْضه فَوْق بَعْض** -وَوَصَفَ سُفْيَان بِيَدِهِ فَحَرَّفَهَا وبدد بَيْن أَصَابِعه- **فَيَسْمَع الكَلِمَة فَيُلقِيهَا إِلى مَنْ تَحْته، ثُمَّ يُلقِيهَا الآخَر إِلى مَنْ تَحْته، حَتَّى يُلقِيهَا عَلى لِسَان السَّاحِر أَوْ الكَاهِن. فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَاب قَبْل أَنْ يُلقِيهَا، وَرُبَّمَا أَلقَاهَا قَبْل أَنْ يُدْرِكهُ، فَيَكْذِب مَعَهَا مِائَة كَذْبَة، فَيُقَال: أَلَيْسَ قَدْ قَال لَنَا يَوْم كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّق بِتِلكَ الكَلِمَة الَّتِي سُمِعَتْ مِنْ السَّمَاء**»[1]. انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ البُخَارِيّ دُون مُسْلم مِنْ هَذَا الوَجْه. وَقَدْ رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيّ، وَابْن مَاجَهْ، مِنْ حَدِيث سُفْيَان بْن عُيَيْنَة بِهِ.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر ثنا معمر. وَعَبْد الرَّزَّاق أخبرنا مَعْمَر، أَخْبَرَنَا الزُّهْرِيّ،

---

(١) صحيح: تقـدم.

عَنْ عَلِيّ بْن الحُسَيْن، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَال: كَانَ رَسُول الله ﷺ جَالسًا فِي نَفَر مِنْ أَصْحَابه -قَال عَبْد الرَّزَّاق: مِنَ الأَنْصَار- فَرُمِيَ بِنَجْم فَاسْتَنَارَ فَقَال ﷺ: **«مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا كَانَ مِثْل هَذَا فِي الجَاهِلِيَّة؟»**. قَالُوا: كُنَّا نَقُول يُولد عَظِيم، أَوْ يَمُوت عَظِيم. قُلت للزُّهْرِيِّ: أَكَانَ يُرْمَى بِهَا فِي الجَاهِلِيَّة؟ قَال: نَعَمْ، ولكن غَلُظَتْ حِين بُعِثَ النَّبِيّ ﷺ قَال: فَقَال رَسُول الله ﷺ: **«فَإِنَّهَا لا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لحيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالى-، إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَة العَرْش، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْل السَّمَاء الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغ التَّسْبِيح هذه الدُّنْيَا، ثُمَّ يَسْتَخْبِر أَهْل السَّمَاء الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَة العَرْش، فَيَقُول الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَة العَرْش لحَمَلَةِ العَرْش: مَاذَا قَال رَبّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ، وَيُخْبِر أَهْل كُلّ سَمَاء سَمَاء، حَتَّى يَنْتَهِي الخَبَر إِلى هَذِهِ السَّمَاء، وَتَخْطَف الجِنّ السَّمْع فَيُرْمَونَ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلى وَجْهه فَهُوَ حَقّ، وَلَكِنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ»**[1]. هَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد.

وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلم فِي صَحِيحه، مِنْ حَدِيث صَالح بْن كَيْسَان، وَالأَوْزَاعِيّ، وَيُونُس وَمَعْقِل بْن عُبَيْد الله، أَرْبَعَتهمْ عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عَلِيّ بْن الحُسَيْن، عَنْ ابْن عَبَّاس عَنْ رَجُل مِنْ الأَنْصَار بِهِ. وَقَال يُونُس: عَنْ رِجَال مِنْ الأَنْصَار. وَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي «التَّفْسِير» مِنْ حَدِيث الزُّبَيْدِيّ، عَنْ الزُّهْرِيّ بِهِ. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِيهِ عَنْ الحُسَيْن بْن حُرَيْث، عَنْ الوَلِيد بْن مُسْلم، عَنْ الأَوْزَاعِيّ، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُبَيْد الله بْن عَبْد الله، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ رَجُل مِنْ الأَنْصَار ﵁، وَالله أَعْلَم.

حَدِيث آخَر: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَوْف، وَأَحْمَد بْن مَنْصُور بْن سَيَّار الرَّمَادِيّ -وَالسِّيَاق لمُحَمَّدِ بْن عَوْف- قَالا: حَدَّثَنَا نُعَيْم بْن حَمَّاد، حَدَّثَنَا الوَلِيد، هُوَ ابْن مُسْلم، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن يَزِيد بْن جَابِر، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي زَكَرِيَّاء، عَنْ رَجَاء بْن حَيْوَة، عَنْ النَّوَّاس بْن سَمْعَان؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«إِذَا أَرَادَ الله أَنْ يُوحِيَ بِأَمْرِهِ تَكَلَّمَ بالوَحْيِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ أَخَذَتْ السَّمَاوَات مِنْهُ رَجْفَة -أَوْ قَال: رِعْدَة شَدِيدَة مِنْ خَوْف الله، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلك أَهْل السَّمَاوَات صَعِقُوا وَخَرُّوا لله سُجَّدًا، فَيَكُون أَوَّل مَنْ يَرْفَع رَأْسه جِبْرِيل، فَيُكَلِّمهُ الله مِنْ وَحْيه بِمَا أَرَادَ، فَيَمْضِي بِهِ جِبْرِيل عَلى المَلائِكَة، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَمَاء سأله مَلائِكَتهَا: مَاذَا قَال رَبّنَا يَا جِبْرِيل؟ فَيَقُول: قَال الحَقّ، وَهُوَ العَلِيّ الكَبِير. فَيَقُولُونَ كُلّهمْ مِثْل مَا قَال جِبْرِيل، فَيَنْتَهِي جِبْرِيل بالوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ الله مِنْ السَّمَاء وَالأَرْض»**[2]. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير وَابْن خُزَيْمَة، عَنْ زَكَرِيَّا بْن أَبَانَ المِصْرِيّ عَنْ نُعَيْم بْن حَمَّاد بِهِ.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: سَمِعْت أَبِي يَقُول: لَيْسَ هَذَا الحَدِيث بالشام عَنْ الوَلِيد بْن مُسْلم رَحِمَهُ اللهُ. وَقَدْ رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث العَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس، وَعَنْ قَتَادَة: أَنَّهُمَا فَسَّرَا هَذِهِ الآيَة بِابْتِدَاءِ إِيحَاء الله سبحانه إِلى مُحَمَّد ﷺ بَعْد الفَتْرَة الَّتِي كَانَتْ بَيْنه وَبَيْن عِيسَى. وَلا شَكَّ أَنَّ هَذَا أَوْلى مَا دَخَل فِي هَذِهِ الآيَة.

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

يَقُول تَعَالى مُقَرِّرًا تَفَرُّده بِالخَلْقِ وَالرِّزْق، وَانْفِرَاده بِالإِلَهِيَّة أَيْضًا، فَكَمَا كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ لا يَرْزُقهُمْ مِنْ السَّمَاء وَالأَرْض -أَيْ: بِمَا يَنْزِل مِنْ المَطَر وَيَنْبُت مِنْ الزَّرْع- إِلَّا الله، فَكَذَلكَ فَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُ لا إِله غَيْره. وَقَوْله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، هَذَا مِنْ بَاب اللَّفّ وَالنَّشْر، أَيْ: وَاحِد مِنْ الفَرِيقَيْنِ مُبْطِل، وَالآخَر

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٢٢٩)، وأحمد (١/ ٢١٨).

(٢) **ضعيف**: ضعفه الألباني في «ظلال الجنة» (٥١٥).

مُحِقّ، لا سَبِيل إِلى أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ وَنَحْنُ عَلى الهُدَى أَوْ عَلى الضَّلال، بَل وَاحِد مِنَّا مُصِيب، وَنَحْنُ قَدْ أَقَمْنَا البُرْهَان عَلى التَّوْحِيد، فَدَلَّ عَلى بُطْلان مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْك بالله؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾. قَال قَتَادَة: قَدْ قَال ذَلِكَ أَصْحَاب مُحَمَّد ﷺ لِلمُشْرِكِينَ: وَالله مَا نَحْنُ وَإِيَّاكُمْ عَلى أَمْر وَاحِد، إِنَّ أَحَد الفَرِيقَيْنِ لَمُهْتَدٍ. وَقَال عِكْرِمَة، وَزِيَاد بن أَبِي مَرْيَم: مَعْنَاه: إِنَّا نَحْنُ لَعَلى هُدًى، وَإِنَّكُمْ لَفِي ضَلال مُبِين.

وَقَوْله: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، مَعْنَاهُ التَّبَرِّي مِنْهُمْ، أَيْ: لَسْتُمْ مِنَّا وَلا نَحْنُ مِنْكُمْ، بَل نَدْعُوكُمْ إِلى الله وَإِلى تَوْحِيده وَإِفْرَاد العِبَادَة لهُ، فَإِنْ أَجَبْتُمْ فَأَنْتُمْ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْكُمْ، وَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَنَحْنُ بُرَآء مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ بُرَآء مِنَّا. كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وَقَال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمْ ٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

وَقَوْله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾، أَيْ: يَوْم القِيَامَة، يَجْمَع بَيْن الخَلائِق فِي صَعِيد وَاحِد، ثُمَّ يَفْتَح بَيْننَا بِالحَقِّ، أَيْ: يَحْكُم بَيْننَا بِالعَدْل، فَيَجْزِي كُلّ عَامِل بِعَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْر وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ. وَسَتَعْلَمُونَ يَوْمَئِذٍ لِمَنْ العِزَّة وَالنُّصْرَة وَالسَّعَادَة الأَبَدِيَّة، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٖ يُحْبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، وَلهَذَا قَال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾، أَيْ: الحَاكِم العَادِل العَالِم بِحَقَائِق الأُمُور.

وَقَوْله: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ﴾، أَيْ: أَرُونِي هَذِهِ الآلهَة الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا لله أَنْدَادًا وَصَيَّرْتُمُوهَا لهُ عَدْلًا؟ كَلَّا، أَيْ: لَيْسَ لهُ نَظِير وَلا نَدِيد وَلا شَرِيك وَلا عَدِيل؛ وَلهَذَا قَال: ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾، أَيْ: الوَاحِد الأَحَد الَّذِي لا شَرِيك لهُ العَزِيز الحَكِيم، أَيْ: ذُو العِزَّة الَّذِي قَدْ قَهَرَ بِهَا كُلّ شَيْء، وَغَلَبَتْ كُلّ شَيْء، الحَكِيم فِي أَفْعَاله وَأَقْوَاله، وَشَرْعه وَقَدَره، تعالى وَتَقَدَّسَ.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٨ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٖ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى لِعَبْدِهِ وَرَسُوله مُحَمَّد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾، أَيْ: إِلَّا إِلى جَمِيع [الخَلائِق][1] مِنَ المُكَلَّفِينَ، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾، أَيْ: تُبَشِّر مَنْ أَطَاعَك بِالجَنَّة، وَتُنْذِر مَنْ عَصَاك بِالنَّار. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

قَال مُحَمَّد بن كَعْب فِي قَوْله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾، يَعْنِي إِلى النَّاس عَامَّة. وَقَال قَتَادَة فِي هَذِهِ الآيَة: أَرْسَل الله مُحَمَّدًا ﷺ إِلى العَرَب وَالعَجَم، فَأَكْرَمهمْ عَلى الله أَطْوَعهمْ لله ﷻ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبو عَبْد الله الطِّهْرَانِيّ، حَدَّثَنَا حَفْص بْن عُمَر العَدَنِيّ، حَدَّثَنَا الحَكَم -يَعْنِي ابْن أَبَانَ- عَنْ عِكْرِمَة، قَال: سَمِعْت ابْن عَبَّاس؛ يَقُول: إِنَّ الله فَضَّل مُحَمَّدًا ﷺ عَلى أَهْل السَّمَاء وَعَلى الأَنْبِيَاء. قَالُوا: يَا بْن عَبَّاس؛ فَبِمَ فَضَّلهُ الله عَلى الأَنْبِيَاء؟ قَال: إِنَّ الله قَال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ﴾.

---

(١) في نسخة: [الخلق].

وَقَال للنَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾، فَأَرْسَلَهُ الله إِلى الجِنّ وَالإِنْس. وَهَذَا الَّذي قَالَهُ ابْن عَبَّاس قَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» رَفْعَه عَنْ جَابِر؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«أُعْطِيت خَمْسًا لمْ يُعْطَهُنَّ أَحَد مِنَ الأَنْبِيَاء قَبْلي: نُصِرْت بِالرُّعْبِ مَسِيرَة شَهْر، وَجُعِلَتْ لي الأَرْض مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيّمَا رَجُل مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاة فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لي الغَنَائِم، وَلمْ تَحِلّ لأَحَدٍ قَبْلي، وَأُعْطِيت الشَّفَاعَة، وَكَانَ النَّبِيّ يُبْعَث إِلى قَوْمه وَبُعِثْت إِلى النَّاس عَامَّة»**.[1] وَفِي «الصَّحِيح» أَيْضًا أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: **«بُعِثْت إِلى الأَسْوَد وَالأَحْمَر»**.[2] قَال مُجَاهِد: يَعْنِي الجِنّ وَالإِنْس. وَقَال غَيْره: يَعْنِي العَرَب وَالعَجَم. وَالكُلّ صَحِيح.

ثُمَّ قَال تعالى مُخْبِرًا عَنْ الكُفَّار فِي اسْتِبْعَادهمْ قِيَام السَّاعَة: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ الآيَة. ثُمَّ قَال: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾، أَيْ: لكُمْ مِيعَاد مُؤَجَّل معدود محرر، لا يُزْداد وَلا يُنْتقص، فَإِذَا جَاءَ فَلا يُؤَخَّر سَاعَة وَلا يُقدَّم، كَمَا قَال تَعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ﴾.

وَقَال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ تَمَادِي الكُفَّار فِي طُغْيَانهمْ وَعِنَادهمْ وَإِصْرَارهمْ عَلى عَدَم الإِيمَان بِالقُرْآنِ وما أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَمْر المَعَاد؛ وَلهَذَا قَال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾، قَال الله تعالى مُتَهَدِّدًا لهُمْ وَمُتَوَعِّدًا، وَمُخْبِرًا عَنْ مَوَاقِفهمْ الذَّلِيلة بَيْن يَدَيْهِ فِي حَال تَخَاصُمهمْ وَتَحَاجّهمْ: ﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾، منهم وهم الأَتْبَاع ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، وَهُمْ قَادَتهمْ وَسَادَتهمْ: ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾، أَيْ: لوْلا أَنْتُمْ تَصُدُّونَا لكُنَّا اتَّبَعْنَا الرُّسُل وَآمَنَّا بِمَا جَاءُونَا بِهِ. فَقَال لهُمْ القَادَة وَالسَّادَة، وَهُمْ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم﴾، أَيْ: نَحْنُ مَا فَعَلنَا بِكُمْ ذلك أَكْثَر مِنْ أَنَّا دَعَوْنَاكُمْ فَاتَّبَعْتُمُونَا مِنْ غَيْر دَلِيل وَلا بُرْهَان، وَخَالفْتُمْ الأَدِلَّة وَالبَرَاهِين وَالحُجَج الَّتِي جَاءَتْ بها الأنبياء لشَهْوَتكُمْ وَاخْتِيَاركُمْ لذَلكَ، وَلهَذَا قَالُوا: ﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أَيْ: بَل كُنْتُمْ تَمْكُرُونَ بِنَا ليْلًا وَنَهَارًا، وَتَغُرُّونَا وَتُمَنُّونَا، وَتُخْبِرُونَا أَنَّا عَلى هُدًى وَأَنَّا عَلى شَيْء، فَإِذَا جَمِيع ذَلكَ بَاطِل وَكَذِب وَمَيْن.

قَال قَتَادَة، وَابْن زَيْد: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، يَقُول: بَل مَكْرهمْ بِاللَّيْل وَالنَّهَار. وَكَذَا قَال مَالك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلمَ: مَكْرهمْ بِاللَّيْل وَالنَّهَار. ﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾، أَيْ: نُظَرَاء وَآلهَة مَعَهُ، وَتُقِيمُوا لنَا شُبَهًا وَأَشْيَاء مِنْ المُحَال، تُضِلُّونَا بِهَا. ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾، أَيْ: الجَمِيع مِنْ السَّادَة وَالأَتْبَاع، كُلّ نَدِمَ عَلى مَا سَلف مِنْهُ. ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾، وَهِيَ السَّلاسِل الَّتِي تَجْمَع

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٠٩).

(٢) صحيح: تقدم.

أَيْدِيهِمْ مَعَ أَعْنَاقهِمْ، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أَيْ: إِنَّمَا نُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالكُمْ، كُلّ بِحَسَبِهِ للقَادَةِ عَذَاب بِحَسَبِهِمْ، وَللأَتْبَاعِ بِحَسَبِهِمْ؛ ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا فَرْوَة بْن أَبِي المِغْرَاء، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سُلَيْمَان بْن الأَصْبَهَانِيّ، عَنْ أَبِي سِنَان ضِرَار بْن صُرَد، عَنْ عَبْد الله بْن أَبِي الهُذَيْل، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ جَهَنَّم لَـمَّا سِيقَ إِلَيْهَا أَهْلهَا تَلَقَّاهُمْ لَهَبهَا، ثُمَّ لَفَحَتْهُمْ لفْحَة؛ فَلَمْ يَبْقَ لَحْم إِلاَّ سَقَطَ عَلَى العُرْقُوب».[1] وَحَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن أَبِي الحَوَارِيّ، حَدَّثَنَا الطَّيِّب أبو الحَسَن، عَنْ الحَسَن بْن يَحْيَى الخُشَنِيّ؛ قَال: مَا فِي جَهَنَّم دَار وَلا مَغَار وَلا غُلّ وَلا سِلسِلة وَلا قَيْد، إِلَّا اسْم صَاحِبهَا عليه مَكْتُوب. قَال: فَحَدَّثْته أَبَا سُلَيْمَان -يَعْنِي الدَّارَانِيّ، رَحْمَة الله عَلَيْهِ، فَبَكَى ثُمَّ قَال: وَيْحك! فَكَيْف بِهِ لوْ جُمِعَ هَذَا كُلّه عَلَيْهِ، فَجُعِل القَيْد فِي رِجْليْهِ، وَالغُلّ فِي يَدَيْه، وَالسِّلسِلة فِي عُنُقه، ثُمَّ أُدْخِل الدار وَأُدْخِل المَغَار.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾.

يَقُول تَعَالَى مُسَلِّيًا لنَبِيِّه ﷺ وَآمِرًا لهُ بِالتَّأَسِّي بِمَنْ قَبْله مِنْ الرُّسُل، وَمُخْبِره بِأَنَّهُ مَا بَعَثَ نَبِيًّا فِي قَرْيَة إِلَّا كَذَّبَهُ مُتْرَفُوهَا، وَاتَّبَعَهُ ضُعَفَاؤُهُمْ، كَمَا قَال قَوْم نُوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾، وَقَال الكُبَرَاء مِنْ قَوْم صَالح: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾، وَقَال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾، وَقَال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾. وَقَال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾. وَقَال هَهُنَا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾، أَيْ: نَبِيّ أَوْ رَسُول ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾، وَهُمْ أُولُوا النِّعْمَة وَالحِشْمَة وَالثَّرْوَة وَالرِّيَاسَة. قَال قَتَادَة: هُمْ جَبَابِرَتهمْ وَقَادَتهمْ وَرُءُوسهمْ فِي الشَّرّ. ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾، أَيْ: لا نُؤْمِن بِهِ وَلا نَتَّبِعهُ.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا هَارُون بْن إِسْحَاق، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد الوَهَّاب، عَنْ سُفْيَان، عَنْ عَاصِم، عَنْ أَبِي رَزِين؛ قَال: كَانَ رَجُلانِ شَرِيكَيْن، خَرَجَ أَحَدهمَا إِلَى السَّاحِل وَبَقِيَ الآخَر، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيّ ﷺ كَتَبَ إِلَى صَاحِبه يَسْأَلُهُ: مَا فَعَل؟ فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لمْ يَتَّبِعهُ أَحَد مِنْ قُرَيْش، إِنَّمَا اتَّبَعَهُ أَرَاذِل النَّاس وَمَسَاكِينهمْ. قَال: فَتَرَكَ تِجَارَته ثُمَّ أَتَى صَاحِبه فَقَال: دُلَّنِي عَلَيْهِ -قَال: وَكَانَ يَقْرَأ الكُتُب أَوْ بَعْض الكُتُب- قَال: فَأَتَى النَّبِيّ ﷺ فَقَال: إِلامَ تَدْعُو؟ فقَال: إِلَى كَذَا وَكَذَا. قَال: أَشْهَد أَنَّك رَسُول الله. قَال: «**وَمَا عِلمك بِذَلك؟**». قَال: إِنَّهُ لمْ يُبْعَث نَبِيّ إِلَّا اتَّبَعَهُ رذالة النَّاس وَمَسَاكِينهمْ. قَال: فَنَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾، قَال: فَأَرْسَل إِلَيْهِ النَّبِيّ ﷺ: إِنَّ الله قَدْ أَنْزَل تَصْدِيق مَا

(١) ضعيف: تقدم.

قُلت. وَهَكَذَا قَال هِرَقْل لأَبِي سُفْيَان حِين سَأَلهُ عَنْ تِلكَ المَسَائِل، قَال فِيهَا: وَسَأَلتُك: أَضُعفَاء النَّاس اتَّبعَهُ أَمْ أَشْرَافهمْ؟ فَزعَمْت: بَل ضُعفَاؤُهُمْ وَهُمْ أَتْبَاع الرُّسُل.

وَقَوْله تَعَالى إِخْبَارًا عَنْ المُتْرَفِينَ المُكَذِّبِينَ: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، أَيْ: افْتَخَرُوا بِكَثْرَةِ الأَمْوَال وَالأَوْلاد، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ ذَلكَ دَلِيل عَلى مَحَبَّة الله لهُمْ وَاعْتِنَائِهِ بِهِمْ، وَأَنَّهُ مَا كَانَ ليُعْطِيَهُمْ هَذَا فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُعَذِّبهُمْ فِي الآخِرَة، وَهَيْهَاتَ لهُمْ ذَلكَ. قَال الله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

وَقَال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾، وَقَال تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾. وَقَدْ أخبر الله عَنْ صَاحِب تَيْنِك الجَنَّتَيْنِ؛ أَنَّهُ كَانَ ذَا مَال وَولد وَثَمر، ثُمَّ لمْ يُغْنِ عَنْهُ شَيْئًا، بَل سُلبَ ذَلكَ كُلّه فِي الدُّنْيَا قَبْل الآخِرَة، وَلهَذَا قَال تعالى هَاهُنَا: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَيْ: يُعْطِي المَال لمَنْ يُحِبّ وَمَنْ لا يُحِبّ، فَيُفْقِر مَنْ يَشَاء، وَيُغْنِي مَنْ يَشَاء، وَلهُ الحِكْمَة التَّامَّة البَالغَة وَالحُجَّة الدامغة القَاطِعَة، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثُمَّ قَال: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾، أَيْ: ليْسَتْ هَذِهِ دَليلًا عَلى مَحَبَّتنَا لكُمْ، وَلا اعْتِنَائِنَا بِكُمْ. قَال الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا كَثِير، حَدَّثَنَا جَعْفَر حَدَّثَنَا يَزِيد بْن الأَصَمّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْظُر إِلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالكُمْ، ولكِنْ إِنَّمَا يَنْظُر إِلى قُلُوبكُمْ وَأَعْمَالكُمْ**»[1]. وَرَوَاهُ مُسْلم وَابْن مَاجَهْ، مِنْ حَدِيث كَثِير بْن هِشَام، عَنْ جَعْفَر بْن بُرْقَان بِهِ. وَلهَذَا قَال: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾، أَيْ: إِنَّمَا يُقَرِّبكُمْ عِنْدنَا زُلفَى الإِيمَان وَالعَمَل الصَّالح، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾، أَيْ: تُضَاعَف لهُمْ الحَسَنَة بِعَشْر أَمْثَالهَا، إِلى سَبْعِمِائَة ضِعْف. ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ﴾. أَيْ: فِي مَنَازِل الجَنَّة العَاليَة آمِنُونَ مِنْ كُلّ بَأْس وَخَوْف وَأَذًى وَمِنْ كُلّ شَرّ يُحْذَر مِنْهُ.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا فَرْوَة بْن أَبِي المِغْرَاء الكِنْدِيّ، حَدَّثَنَا القَاسِم وَعَليّ بْن مُسْهِر، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق، عَنْ النُّعْمَان بْن سَعْد، عَنْ عَليّ رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**إِنَّ فِي الجنَّة لغُرَفًا تُرَى ظُهُورهَا مِنْ بُطُونهَا، وَبُطُونهَا مِنْ ظُهُورهَا**». فَقَال أَعْرَابِيّ: لمَنْ هِيَ؟ قَال: «**لمَنْ طَيَّبَ الكَلام، وَأَطْعَمَ الطَّعَام، وَأَدَامَ الصِّيَام**»[2]. ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾، أَيْ: يَسْعَوْنَ فِي الصَّدّ عَنْ سَبِيل الله، وَاتِّبَاع رُسُله وَالتَّصْدِيق بِآيَاتِهِ؛ فَـ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، أَيْ: جَمِيعهمْ مَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالهِمْ فِيهَا بِحَسَبِهِمْ.

وَقَوْله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ أَيْ: بِحَسَب مَا لهُ فِي ذَلكَ مِنْ الحِكْمَة، يَبْسُط عَلى هَذَا مِنْ المَال كَثِيرًا، وَيُضَيِّق عَلى هَذَا وَيُقَتِّر عليه رِزْقه جِدًّا، وَلهُ فِي ذَلكَ مِنْ الحِكْمَة مَا لا يُدْركهَا غَيْره، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، أَيْ: كَمَا هُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي الدُّنْيَا: هَذَا فَقِير مُدْقِع، وَهَذَا غَنِيّ مُوَسَّع عَليْهِ، فَكَذَلكَ هُمْ فِي الآخِرَة: هَذَا فِي الغُرُفَات فِي أَعْلى الدَّرَجَات، وَهَذَا فِي الغَمَرَات فِي أَسْفَل الدَّرَكَات. وَأَطْيَب النَّاس فِي الدُّنْيَا كَمَا قَال رسول الله ﷺ: «**قَدْ أَفلحَ مَنْ أَسْلمَ وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ الله بِمَا آتَاهُ**»[3]. رَوَاهُ مُسْلم مِنْ حَدِيث ابْن عَمْرو.

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٥٦٤)، وابن ماجه (٤١٤٣).

(٢) **صحيح لغيره**: تقـدم.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم (١٠٥٤)، وأحمد (٢/ ٢٩٨).

وَقَوْله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾، أَيْ: مَهْمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَأَبَاحَهُ لكُمْ، فَهُوَ يُخْلفهُ عَليْكُمْ فِي الدُّنْيَا بِالبَدَل، وَفِي الآخِرَة بِالجَزَاءِ وَالثَّوَاب، كَمَا ثَبَتَ فِي الحَدِيث: «**يَقُول الله تَعَالى: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَليْك**».[1] وَفِي الحَدِيث: «**أَنَّ مَلَكَيْنِ يَصِيحانِ كُلّ يَوْم، يَقُول أَحَدهمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلفًا، وَيَقُول الآخَر: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلفًا**»[2]. وَقَال رَسُول الله ﷺ: «**أَنْفِقْ بِلال، وَلا تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْش إِقْلالاً**».[3]

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذكر عَنْ يَزِيد بْن عَبْد العَزِيز الفَلَّاس حَدَّثَنَا هُشَيْم عَنْ الكَوْثَر بْن حَكِيم، عَنْ مَكْحُول قَال: بَلغَنِي عَنْ حُذَيْفَة قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «**أَلا إِنَّ بعدكم زَمَان عَضُوض، يَعَضّ المُوسِر عَلى مَا فِي يديه حَذَار الإِنْفَاق**». ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

وَقَال الحَافِظ أَبُو يَعْلى المَوْصِليّ: حَدَّثَنَا رَوْح بْن حَاتِم، حَدَّثَنَا هُشَيْم، عَنْ الكَوْثَر بْن حَكِيم، عَنْ مَكْحُول قَال: بَلغَنِي عَنْ حُذَيْفَة أَنَّهُ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «أَلا إِنَّ بَعْد زَمَانكُمْ هَذَا زَمَان عَضُوض، يَعَضّ المُوسِر عَلى مَا فِي يديه حَذَار الإِنْفَاق. قَال الله تَعَالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وَيَنْهَل شِرَار النَّاس يُبَايِعُونَ كُلّ مُضْطَرّ، أَلا إِنَّ بَيْع المُضْطَرِّينَ حَرَام، أَلا إِنَّ بَيْع المُضْطَرِّينَ حَرَام، المُسْلم أَخُو المُسْلم، لا يَظْلمهُ وَلا يَخْذُلهُ، إِنْ كَانَ عِنْدك مَعْرُوف، فَعُدْ بِهِ عَلى أَخِيك، وَإِلَّا فَلا تَزِدْه هَلاكًا إِلى هَلاكه»[4]. هَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه، وَفِي إِسْنَاده ضَعْف.

وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي يُونُس الحَسَن بْن يَزِيد قَال: قَال مُجَاهِد: لا يَتَأَوَّلَنَّ أَحَدكُمْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾: إِذَا كَانَ عِنْد أَحَدكُمْ مَا يُقِيمهُ فَليَقْصِدْ فِيهِ، فَإِنَّ الرِّزْق مَقْسُوم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ يُقَرِّع المُشْرِكِينَ يَوْم القِيَامَة عَلى رُءُوس الخَلائِق، فَيَسْأَل المَلائِكَة الَّذِينَ كَانَ المُشْرِكُون يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الأَنْدَاد الَّتِي هِيَ عَلى صُوَر الملائكة ليُقَرِّبُوهُمْ إِلى الله زُلفَى، فَيَقُول للمَلائِكَة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾، أَيْ: أَنْتُمْ أَمَرْتُمْ هَؤُلاءِ بِعِبَادَتِكُمْ؟ كَمَا قَال فِي سُورَة الفُرْقَان: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾، وَكَمَا يَقُول لعِيسَى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾. وهكذا تقول الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، أَيْ: تَعَاليْت وَتَقَدَّسْت عَنْ أَنْ يَكُون مَعَك إِله. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾، أَيْ: نَحْنُ عَبِيدك وَنَبْرَأ إِليْك مِنْ هَؤُلاءِ، ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾، يَعْنُونَ الشَّيَاطِين؛ لأَنَّهُمْ هُمْ الَّذِينَ يزينون لهُمْ عِبَادَة الأَوْثَان ويضلونهم، ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾.

قَال الله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أَيْ: لا يَقَع لكُمْ نَفْع مِمَّنْ كُنْتُمْ تَرْجُونَ نَفْعه اليَوْم

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٠٢)، ومسلم (٩٩٢).
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) حسن: تقدم.
(٤) ضعيف جدًا: فيه انقطاع بين مكحول وحذيفة، وفيه هشيم: كثير التدليس وقد عنعن، والكوثر بن حكيم: ضعيف. وقال الدارقطني: متروك.

مِنْ الأَنْدَاد وَالأَوْثَان، الَّتِي ادَّخَرْتُمْ عِبَادَتهَا لشَدَائِدِكُمْ وَكَرْبكُمْ اليَوْم لا يَمْلكُون لكُمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا، ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ -وَهُمْ المُشْرِكُونَ- ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، أَيْ: يُقَال لهُمْ ذَلِكَ، تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ الكُفَّار أَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهُ العُقُوبَة وَالأَلِيم مِنْ العَذَاب، لأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تُتْلى عَلَيْهِمْ آيَاته بَيِّنَات يَسْمَعُونَهَا غَضَّة طَرِيَّة مِنْ لسَان رَسُوله ﷺ: ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾، يَعْنُونَ أَنَّ دِين آبَائِهِمْ هُوَ الحَقّ، وَأَنَّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُول عِنْدهمْ بَاطِل -عَلَيْهِمْ وَعَلى آبَائِهِمْ لعَائِن الله- ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾، يَعْنُونَ القُرْآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أَيْ: مَا أَنْزَل الله عَلى العَرَب مِنْ كِتَاب قَبْل القُرْآن، وَمَا أَرْسَل إِلَيْهِمْ نَبِيًّا قَبْل مُحَمَّد ﷺ وَقَدْ كَانُوا يَوَدُّونَ ذَلِكَ وَيَقُولُونَ: لوْ جَاءَنَا نَذِير أَوْ أُنْزِل عَليْنَا كِتَاب لكُنَّا أَهْدَى مِنْ غَيْرنَا، فَلَمَّا مَنَّ الله عَلَيْهِمْ بِذَلكَ كَذَّبُوهُ وَعَانَدُوهُ وَجَحَدُوهُ. ثُمَّ قَال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أَيْ: مِنْ الأُمَم، ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾، قَال ابْن عَبَّاس: أَيْ مِنْ القُوَّة فِي الدُّنْيَا. وكذلك قَال قَتَادَة وَالسُّدِّيّ وَابْن زَيْد. كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أَيْ: وَمَا دَفَعَ ذَلكَ عَنْهُمْ عَذَاب الله وَلا رَدَّهُ، بَل دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ لـمَّا كَذَّبُوا رُسُله، وَلهَذَا قَال: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أَيْ: كَيْف كَانَ نَكَالِي وعِقَابِي وَانْتِصَارِي لرُسُلي؟

﴿۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

يَقُول تَعَالى: قُل يَا مُحَمَّد لهَؤُلاءِ الكَافِرِينَ الزَّاعِمِينَ أَنَّك مَجْنُون: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾، أَيْ: إِنَّمَا آمُرُكُمْ بوَاحِدَةٍ وَهِيَ: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾، أَيْ: تَقُومُوا قِيَامًا خَالصًا لله، مِنْ غَيْرِ هَوًى وَلا عَصَبِيَّة، فَيَسْأَل بَعْضكُمْ بَعْضًا: هَل بِمُحَمَّدٍ مِنْ جُنُون؟ فَيَنْصَح بَعْضكُمْ بَعْضًا، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾، أَيْ: يَنْظُر الرَّجُل لنَفْسِهِ فِي أَمْر مُحَمَّد ﷺ، وَيَسْأَل غَيْره مِنْ النَّاس عَنْ شَأْنه إِنْ أَشْكَل عَليْهِ، وَيَتفكَّر فِي ذَلكَ، وَلهَذَا قَال: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾. هَذَا مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ مُجَاهِد، وَمُحَمَّد بْن كَعْب، وَالسُّدِّيّ، وَقَتَادَة، وَغَيْرهمْ، وَهَذَا هُوَ المُرَاد مِنْ الآيَة.

فَأَمَّا الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حدثنا هِشَام بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا صَدَقَة بْن خَالد، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن أَبِي العَاتِكَة، عَنْ عَليّ بْن يَزِيد، عَنْ القَاسِم، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ: أَن رَسُول الله ﷺ كَانَ يَقُول: «أُعْطِيت ثَلاثًا لمْ يُعْطَهُنَّ مَنْ قَبْلي وَلا فَخْر: أُحِلَّتْ لي الغَنَائِم، وَلمْ تَحِل لمَنْ قَبْلي، كَانُوا قَبْلي يَجْمَعُونَ غَنَائِمهمْ فَيُحْرِقُونَهَا. وَبُعِثْت إِلى كُلّ أَحْمَر وَأَسْوَد، وَكَانَ كُلّ نَبِيّ يُبْعَث إِلى قَوْمه، وَجُعِلتْ لي الأَرْض مَسْجِدًا وَطَهُورًا، أَتَيَمَّم بِالصَّعِيد، وَأُصَلِّي حَيْثُ أَدْرَكَتْنِي الصَّلاة، قَال الله: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾، وَأُعِنْت بِالرُّعْب مَسِيرَة شَهْر بَيْن

يَدَيَّ»[1]. فَهُوَ حَدِيث ضَعِيف الإِسْنَاد. وَتَفْسِير الآيَة بِالقِيَامِ فِي الصَّلاة فِي جَمَاعَة وَفُرَادَى، بَعِيد، وَلَعَلَّهُ مُقْحَم فِي الحَدِيث مِنْ بَعْض الرُّوَاة، فَإِنَّ أَصْله ثَابِت فِي الصِّحَاح وَغَيْرهَا، وَالله أَعْلَم.

وَقَوْله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قَال البُخَارِيّ عِنْدهَا: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَبْد الله، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن حَازِم، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: صَعِدَ النَّبِيّ ﷺ الصَّفَا ذَات يَوْم، فَقَال: «يَا صَبَاحَاه!» فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْش، فَقَالُوا: مَا لك؟ فَقَال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ العَدُوّ يُصَبِّحكُمْ أَوْ يُمَسِّيكُمْ، أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟» قَالُوا: بَلَى؟ قَال ﷺ: «فَإِنِّي نَذِير لَكُمْ بَيْن يَدَيْ عَذَاب شَدِيد» فَقَال أَبُو لَهَب: تَبًّا لك! أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَأَنْزَل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾.[2] وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْد قَوْله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا بَشِير بْن المهاجر، حَدَّثَنِي عَبْد الله بْن بُرَيْدَة، عَنْ أَبِيهِ قَال: خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُول الله ﷺ يَوْمًا فَنَادَى ثَلاث مَرَّات فَقَال: «أَيُّهَا النَّاس تَدْرُونَ مَا مَثَلِي وَمَثَلكُمْ؟». قَالُوا: الله وَرَسُوله أَعْلَم. قَال ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلكُمْ مَثَل قَوْم خَافُوا عَدُوًّا يَأْتِيهِمْ، فَبَعَثُوا رَجُلاً يَتَرَاءَى لهُمْ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ أَبْصَرَ العَدُوّ، فَأَقْبَل لِيُنْذِرهُمْ وَخَشِيَ أَنْ يُدْرِكهُ العَدُوّ قَبْل أَنْ يُنْذِر قَوْمه، فَأَهْوَى بِثَوْبِهِ: أَيُّهَا النَّاس، أُتِيتُمْ. أَيُّهَا النَّاس، أُتِيتُمْ؛ ثَلاث مَرَّات»[3]. وَبِهَذَا الإِسْنَاد قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «بُعِثْت أَنَا وَالسَّاعَة جَمِيعًا، إِنْ كَادَتْ لَتَسْبِقنِي»[4]. تَفَرَّدَ بِهِ الإِمَام أَحْمَد فِي مُسْنَده.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

يَقُول تَعَالَى آمِرًا رَسُوله ﷺ أَنْ يَقُول لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، أَيْ: لا أُرِيد مِنْكُمْ جُعْلًا وَلا عَطَاء عَلَى أَدَاء رِسَالَة الله إِلَيْكُمْ، وَنُصْحِي إِيَّاكُمْ، وَأَمْركُمْ بِعِبَادَةِ الله ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، أَيْ: إِنَّمَا أَطْلُب ثَوَاب ذَلِكَ عِنْد الله، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، أَيْ: عَالِم بِجَمِيعِ الأُمُور، بِمَا أَنَا عَلَيْهِ مِنْ إِخْبَارِي عَنْهُ بِإِرْسَالِهِ إِيَّايَ إِلَيْكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ.

وَقَوْله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾. أَيْ: يُرْسِل المَلَك إِلَى مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَاده مِنْ أَهْل الأَرْض، وَهُوَ عَلَّام الغُيُوب، فَلا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَة فِي السَّمَاوَات وَلا فِي الأَرْض. وَقَوْله: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، أَيْ: جَاءَ الحَقّ مِنْ الله وَالشَّرْع العَظِيم، وَذَهَبَ البَاطِل وَزَهَقَ وَاضْمَحَلَّ، كَقَوْلِهِ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾، وَلِهَذَا لَمَّا دَخَل رَسُول الله ﷺ المَسْجِد الحَرَام يَوْم الفَتْح وَوَجَدَ تِلْكَ الأَصْنَام مَنْصُوبَة حَوْل الكَعْبَة جَعَل يَطْعَن الصَّنَم بِسِيَةِ قَوْسه، وَيَقْرَأ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.[5] رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ وَحْده عِنْد هَذِهِ الآيَة، كُلّهمْ مِنْ حَدِيث الثَّوْرِيّ، عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح،

---

(١) **ضعيف بهذا السياق**: في إسناده علي بن زيد: ضعيف، وأصل الحديث صحيح من حديث جابر.
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨)، والترمذي (٣٣٦٣).
(٣) **صحيح لغيره**: تقـدم.
(٤) **حسن لغيره**: أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨)، وإسناده حسن.
(٥) **صحيح**: تقـدم.

عَنْ مُجَاهِد، عَنْ أَبِي مَعْمَر عَبْد الله بْن سَخْبَرَة عَنْ ابْن مَسْعُود بِهِ. أَيْ: لَمْ يَبْقَ للبَاطِل مَقَالة وَلا رِيَاسَة وَلا كَلِمَة. وَزَعَمَ قَتَادَة وَالسُّدِّيّ: أَنَّ الْمُرَاد بِالبَاطِل هَا هُنَا إِبْلِيس، أي: إِنَّهُ لا يَخْلُق أَحَدًا وَلا يُعِيدهُ، وَلا يَقْدِر عَلَى ذَلِكَ. وَهَذَا. وَإِنْ كَانَ حَقًّا وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ الْمُرَاد هَهُنَا وَالله أَعْلَم.

وقوله: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾، أَيْ: الْخَيْر كُلّه مِنْ عِنْد الله، وَفِيمَا أَنْزَلَهُ الله ﷻ مِنَ الوَحْي وَالحَقّ المُبِين فِيهِ الهُدَى وَالبَيَان وَالرَّشَاد، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلّ مِنْ تِلْقَاء نَفْسه، كَمَا قَال عَبْد الله بْن مَسْعُود رضي الله عنه لَـمَّا سُئِل عَنْ تِلْكَ المَسْأَلَة فِي الْمُفَوِّضَة: أَقُول فِيهَا بِرَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ الله، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنْ الشَّيْطَان، وَالله وَرَسُوله بَرِيئَانِ مِنْهُ.

وَقَوْله: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾، أَيْ: سَمِيع لأَقْوَال عِبَاده قَرِيب يُجِيب دَعْوَة الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ، وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيّ هَهُنَا حَدِيث أَبِي مُوسَى الَّذِي فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: **«إِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا مُجِيبًا»**.[1]

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾.

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ -يَا مُحَمَّد-؛ إِذْ فَزِعَ هَؤُلاءِ الْمُكَذِّبُونَ يَوْم القِيَامَة، ﴿فَلَا فَوْتَ﴾، أَيْ: فَلا مَفَرّ لَهُمْ وَلا وَزَر لَهُمْ وَلا مَلجَأ. ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، أَيْ: لَمْ يُمَكَّنُوا أَنْ يُمْعِنُوا فِي الهَرَب، بَل أُخِذُوا مِنْ أَوَّل وَهْلَة. قَال الحَسَن البَصْرِيّ: «حِين خَرَجُوا مِنْ قُبُورهمْ». وَقَال مُجَاهِد، وَعَطِيَّة العَوْفِيّ، وَقَتَادَة: «مِنْ تَحْت أَقْدَامهمْ». وَعَنْ ابْن عَبَّاس وَالضَّحَّاك: «يَعْنِي عَذَابهمْ فِي الدُّنْيَا». وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد: «يَعْنِي قَتْلهمْ يَوْم بَدْر». وَالصَّحِيح أَنَّ الْمُرَاد بِذَلِكَ يَوْم القِيَامَة، وَهُوَ الطَّامَّة العُظْمَى، وَإِنْ كَانَ مَا ذُكِرَ مُتَّصِلًا بِذَلِكَ. وَحَكَى ابْن جَرِير عَنْ بَعْضهمْ قَال: إِنَّ الْمُرَاد بِذَلِكَ جَيْش يُخْسَف بِهِمْ بَيْن مَكَّة وَالمَدِينَة فِي أَيَّام بَنِي العَبَّاس، ثُمَّ أَوْرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثًا مَوْضُوعًا بِالكُلِّيَّة. ثُمَّ لَمْ يُنَبِّه عَلى ذَلِكَ، وَهَذَا أَمْر عَجِيب غَرِيب مِنْهُ. ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أَيْ: يَوْم القِيَامَة يَقُولُونَ: آمَنَّا بالله وبكتبه وَرُسُله. كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، وَلِهَذَا قَال تَعَالَى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، أَيْ: وكَيْف لَهُمْ تَعَاطِي الإِيمَان وَقَدْ بَعُدُوا عَنْ مَحَلّ قَبُوله مِنْهُمْ وَصَارُوا إِلَى الدَّار الآخِرَة، وَهِيَ دَار الجَزَاء لا دَار الابْتِلاء، فَلَوْ كَانُوا آمَنُوا فِي الدُّنْيَا لكَانَ ذَلِكَ نَافِعهمْ، وَلَكِنْ بَعْد مَصِيرهمْ إِلَى الدَّار الآخِرَة، لا سَبِيل لَهُمْ إِلَى قَبُول الإِيمَان، كَمَا لا سَبِيل إِلَى حُصُول الشَّيْء لِمَنْ يَتَنَاوَلهُ مِنْ بَعِيد.

قَال مُجَاهِد: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾، قَال: التَّنَاوُل لذَلِكَ. وَقَال الزُّهْرِيّ: التَّنَاوُش: تَنَاوُلهمْ الإِيمَان وَهُمْ فِي الآخِرَة وَقَدْ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ الدُّنْيَا. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: أَمَا إِنَّهُمْ طَلبُوا الأَمْر مِنْ حَيْثُ لا يُنَال، تَعَاطَوْا الإِيمَان مِنْ مَكَان بَعِيد. وَقَال ابْن عَبَّاس: طَلَبُوا الرَّجْعَة إِلى الدُّنْيَا وَالتَّوْبَة مِمَّا هُمْ فِيهِ، وَلَيْسَ بِحِينِ رَجْعَة وَلا تَوْبَة. وَكَذَا قَال مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ رَحِمَهُ اللهُ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤)، وأحمد (٤/ ٤٠٢).

وَقَوْله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾، أَيْ: كَيْف يَحْصُل لَهُمْ الإِيمَان فِي الآخِرَة وَقَدْ كَفَرُوا بِالحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَكَذَّبُوا الرُّسُل؟ ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ قَال مَالك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾. قَال: بِالظَّنِّ. قُلت: كَمَا قَال تَعَالى: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾، فَتَارَة يَقُولُونَ: شَاعِر. وَتَارَة يَقُولُونَ: كَاهِن. وَتَارَة يَقُولُونَ: سَاحِر، وَتَارَة يَقُولُونَ: مَجْنُون، إِلى غَيْر ذَلكَ مِنْ الأَقْوَال البَاطِلة، وَيُكَذِّبُونَ بالغيب وَالنُّشُور وَالمَعَاد، ويقولون: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾. قَال قَتَادَة: يَرْجُمُونَ بِالظَّنِّ لا بَعْث وَلا جَنَّة وَلا نَار.

وَقَوْله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، قَال الحَسَن البَصْرِيّ، وَالضَّحَّاك، وَغَيْرهمَا: يَعْنِي الإِيمَان. وَقَال السُّدِّيّ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، وَهِيَ: التَّوْبَة. وَهَذَا اخْتِيَار ابْن جَرِير، رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وَقَال مُجَاهِد: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا، مِنْ مَال وَزَهْرَة وَأَهْل. وَرُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس وَابْن عُمَر وَالرَّبِيع بْن أَنَس. وَهُوَ قَوْل البُخَارِيّ وَجَمَاعَة. وَالصَّحِيح أَنَّهُ لا مُنَافَاة بَيْن القَوْليْنِ فَإِنَّهُ قَدْ حِيل بَيْنهم وَبَيْن شَهَوَاتهمْ فِي الدُّنْيَا وَبَيْن مَا طَلَبُوهُ فِي الآخِرَة، فَمُنِعُوا مِنْهُ.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْن أَبِي حَاتِم هَهُنَا أَثَرًا غَرِيبًا عَجِيبًا جِدًّا، فَلنَذْكُرْهُ بِطُوله فَإِنَّهُ قَال: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَحْيَى، حَدَّثَنَا بِشْر بْن حُجْر السامي، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن مَنْصُور الأَنْبَارِيّ، عَنْ الشرقي بْن قُطَامِيّ، عَنْ سَعد بْن طَرِيف عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْل الله ﷻ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ إِلى آخِر الآيَة، قَال: كَانَ رَجُل مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل فَاتِحًا أي: فتح الله لهُ مَالًا -فَمَاتَ فَوَرِثَهُ ابْن لهُ تَافِهٌ- أَيْ: فَاسِد - فَكَانَ يَعْمَل فِي مَال الله بِمَعَاصِي الله. فَلَمَّا رَأَى ذَلكَ إخوان أَبِيهِ أَتَوْا الفَتَى فَعَذَلُوهُ وَلامُوهُ، فَضَجِرَ الفَتَى فَبَاعَ عَقَاره بِصَامِتٍ، ثُمَّ رَحَل فَأَتَى عَيْنًا ثجاجة فَسَرَّحَ فِيهَا مَاله، وَابْتَنَى قَصْرًا، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَات يَوْم جَالس إِذْ شَمَلتْ عَليْهِ رِيح بِامْرَأَةٍ مِنْ أَحْسَن النَّاس وَجْهًا وَأَطْيَبهمْ أَرْجًا -أَيْ: رِيحًا- فَقَالتْ: مَنْ أَنْتَ يَا عَبْد الله؟ فَقَال: أَنَا امْرُؤٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل. قَالتْ: فَلك هَذَا القَصْر، وَهَذَا المَال؟ قَال: نَعَمْ، قَالتْ: فَهَل لك مِنْ زَوْجَة؟ قَال: لا. قَالتْ: فَكَيْف يَهْنِيك العَيْش وَلا زَوْجَة لك؟ قَال: قَدْ كَانَ ذلك. قَال فَهَل لك مِنْ بَعْل؟ قَالتْ: لا. قَال: فَهَل لك إِلى أَنْ أَتَزَوَّجك؟ قَالتْ: إِنِّي امْرَأَة مِنْك عَلى مَسِيرَة مِيل، فَإِذَا كَانَ غَد فَتَزَوَّدْ زَادَ يَوْم وأتني، وَإِنْ رَأَيْت فِي طَرِيقك هَوْلًا فَلا يَهُولَنَّكَ. فَلَمَّا كَانَ مِنْ الغَد تَزَوَّدَ زَادَ يَوْم، وَانْطَلَقَ فَانْتَهَى إِلى قَصْر، فَقَرَعَ رِتَاجه فَخَرَجَ إِليْهِ شَابّ مِنْ أَحْسَن النَّاس وَجْهًا وَأَطْيَبهمْ أَرْجًا -أَيْ: رِيحًا- فَقَال: مَنْ أَنْتَ يَا عَبْد الله؟ فَقَال: أَنَا الإِسْرَائِيليّ. قَال: فَمَا حَاجَتك؟ قَال: دَعَتْنِي صَاحِبَة هَذَا القَصْر إِلى نَفْسهَا. قَال: صَدَقْت، قَال: فَهَل رَأَيْت فِي الطَّرِيق هَوْلًا؟ قَال: نَعَمْ، وَلوْلا أَنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنْ لا بَأْس عَليَّ لهَالنِي الَّذِي رَأَيْت. قَال: مَا رَأَيْت؟ قَال: أَقْبَلت حَتَّى إِذَا انْفَرَجَ بِي السَّبِيل إِذَا أَنَا بِكَلبَةٍ فَاتِحَة فَاهَا، فَفَزِعْت، فَوَثَبْت فَإِذَا أَنَا مِنْ وَرَائِهَا، وَإِذَا جِرَاؤُهَا يَنْبَحْنَ فِي بَطْنهَا، فَقَال لهُ الشَّاب: لسْت تُدْرِك هَذَا، هَذَا يَكُون فِي آخِر الزَّمَان، يُقَاعِد الغُلام المَشْيَخَة فِي مَجْلسهمْ ويبتزهم حَدِيثهم.

قَال: ثُمَّ أَقْبَلت حَتَّى إِذَا انْفَرَجَ بِي السَّبِيل، إِذَا أَنَا بِمِائَةِ عَنْز حُفْل، وَإِذَا فِيهَا جَدْي يَمُصّهَا، فَإِذَا أَتَى عَليْهَا وَظَنَّ أَنَّهُ لمْ يَتْرُك شَيْئًا، فَتَح فَاهُ يَلتَمِس الزِّيَادَة. فَقَال: لسْت تُدْرِك هَذَا، هَذَا يَكُون فِي آخِر الزَّمَان، مَلك يَجْمَع صَامِت النَّاس كُلّهمْ، حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ لمْ يَتْرُك شَيْئًا فَتَح فَاهُ يَلتَمِس الزِّيَادَة.

قَال: ثُمَّ أَقْبَلت حَتَّى إِذَا انْفَرَجَ بِي السَّبِيل إِذَا أَنَا بِشَجَرٍ، فَأَعْجَبَنِي غُصْن مِنْ شَجَرَةٍ مِنْهَا نَاضِرَ، فَأَرَدْت قَطْعَه، فَنَادَتْنِي شَجَرَة أُخْرَى: «يَا عَبْد الله، مِنِّي فَخُذْ». حَتَّى نَادَانِي الشَّجَر أَجْمَع: «يَا عَبْد الله؛ مِنَّا فَخُذْ». قَال: لسْت تُدْرِك هَذَا، هَذَا يَكُون فِي آخِر الزَّمَان، يَقِلّ الرِّجَال وَيَكْثُر النِّسَاء، حَتَّى إِنَّ الرَّجُل ليَخْطُب المَرْأَة فَتَدْعُوهُ العَشْر وَالعِشْرُونَ إِلى أَنْفُسهنَّ.

قَال: ثُمَّ أَقْبَلت حَتَّى إِذَا انْفَرَجَ بِي السَّبِيل، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ قَائِم عَلى عَيْن، يَغْرِف لكُلِّ إِنْسَان مِنْ المَاء، فَإِذَا تَصَدَّعُوا عَنْهُ صَبَّ فِي جَرَّته فَلمْ تَعْلق جَرَّته مِنْ المَاء بِشَيْءٍ. قَال: لسْت تُدْرِك هَذَا، هَذَا يَكُون فِي آخِر الزَّمَان، القَاصّ يُعَلِّم النَّاس العِلم، ثُمَّ يُخَالفهُمْ إِلى مَعَاصِي الله.

قَال: ثُمَّ أَقْبَلت حَتَّى إِذَا انْفَرَجَ بِي السَّبِيل إِذَا أَنَا بِعَنْزٍ، وَإِذَا قومٌ قَدْ أَخَذُوا بِقَوَائِمِهَا، وَإِذَا رَجُل قَدْ أَخَذَ بِقَرْنَيْهَا، وَإِذَا رَجُل قَدْ أَخَذَ بِذَنَبِهَا، وَإِذَا رجل قَدْ رَكِبَهَا، وَإِذَا رَجُل يحلبها. فَقَال: أَمَّا العَنْز فَهِيَ الدُّنْيَا، وَالَّذِينَ أَخَذُوا بِقَوَائِمِهَا يَتَسَاقَطُونَ مِنْ عَيْشهَا، وَأَمَّا الَّذِي قَدْ أَخَذَ بِقَرْنَيْهَا فَهُوَ يُعَالج مِنْ عَيْشهَا ضِيقًا، وَأَمَّا الَّذِي أَخَذَ بِذَنَبِهَا فَقَدْ أَدْبَرَتْ عَنْهُ، وَأَمَّا الَّذِي رَكِبَهَا فَقَدْ تَرَكَهَا. وَأَمَّا الَّذِي يَحْلُبهَا فَبَخٍ بَخٍ ذَهَبَ ذَلكَ بِهَا. قَال: ثُمَّ أَقْبَلت حَتَّى إِذَا انْفَرَجَ بِي السَّبِيل، وإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ يَمْتَح عَلى قَليب، كُلَّمَا أَخْرَجَ دَلوه صَبَّهُ فِي الحَوْض، فَانْسَابَ المَاء رَاجِعًا إِلى القَليب. قَال: هَذَا رَجُل رَدَّ الله صَالح عَمَله، فَلمْ يَقْبَلهُ.

قَال: ثُمَّ أَقْبَلت حَتَّى إِذَا انْفَرَجَ بِي السَّبِيل، إِذَا أَنَا بِرَجُلٍ يَبْذُر بَذْرًا فَيَسْتَحْصِد، فَإِذَا حِنْطَة طَيِّبَة. قَال: هَذَا رَجُل قَبِل الله صَالح عَمَله وَأَزْكَاهُ لهُ. قَال: ثُمَّ أَقْبَلت حَتَّى إِذَا انْفَرَجَ بِي السَّبِيل، إِذَا أَنَا بِرَجُلٍ مُسْتَلقٍ عَلى قَفَاهُ، قَال: يَا عَبْد الله، ادْنُ مِنِّي فَخُذْ بِيَدِي وَأَقْعِدْنِي، فوالله مَا قَعَدْت مُنْذُ خَلقَنِي الله ﷻ فَأَخَذْت بِيَدِهِ، فَقَامَ يَسْعَى حَتَّى مَا أَرَاهُ. فَقَال لهُ الفَتَى: هَذَا عُمُر الأَبْعَد نَفِدَ، أَنَا مَلك المَوْت وَأَنَا المَرْأَة الَّتِي أَتَتْك، أَمَرَنِي الله ﷻ بِقَبْضِ رَوْح الأَبْعَد فِي هَذَا المَكَان، ثُمَّ أُصَيِّرهُ إِلى نَار جَهَنَّم. قَال: فَفِيهِ نَزَلتْ هَذِهِ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ الآيَة.

هَذَا أَثَر غَرِيب، وَفِي صِحَّته نَظَر، وَتَنْزِيل الآيَة عَليْهِ وَفِي حَقّه بِمَعْنَى أَنَّ الكُفَّار كُلّهمْ يُتَوَفَّوْنَ وَأَرْوَاحهمْ مُتَعَلِّقَة بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَمَا جَرَى لهَذَا المَغْرُور المَفْتُون، ذَهَبَ يَطْلُب مُرَاده فَجَاءَهُ المَوْت فَجْأَة بَغْتَة، وَحِيل بَيْنه وَبَيْن مَا يَشْتَهِي.

وَقَوْله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾، أَيْ: كَمَا جَرَى للأُمَمِ المَاضِيَة المُكَذِّبَة للرُّسُل، لـمَّا جَاءَهُمْ بَأْس الله تَمَنَّوْا أَنْ لوْ آمَنُوا فَلمْ يُقْبَل مِنْهُمْ، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾، أَيْ: كَانُوا فِي الدُّنْيَا فِي شَكّ وَرِيبَة، فَلهَذَا لمْ يُتَقَبَّل مِنْهُمْ الإِيمَان عِنْد مُعَايَنَة العَذَاب. قَال قَتَادَة: إِيَّاكُمْ وَالشَّكّ وَالرِّيبَة! فَإِنَّه مَنْ مَاتَ عَلى شَكّ بُعِثَ عَليْهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلى يَقِين بُعِثَ عَليْهِ.

آخِر تَفْسِير سُورَة سَبَأ، ولله الحمد والمنة

تفسير سُورَةُ فَاطِر وهي مكية

ترتيبها ٣٥ — وآياتها ٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ إِبْرَاهِيم بْن مُهَاجِر، عَنْ مُجَاهِد عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: كُنْت لا أَدْرِي مَا فَاطِر السَّماوَات وَالأَرْض، حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بِئْر، فَقَال أَحَدهمَا: أَنَا فَطَرْتهَا، أَنا بَدَأْتهَا. فقَال ابْن عَبَّاس أَيْضًا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، بَدِيع السَّماوَات وَالأَرْض. وَقَال الضَّحَّاك: كُلّ شَيْء فِي القُرْآن: فَاطِر السَّماوَات وَالأَرْض؛ فَهُوَ خَالق السَّماوَات وَالأَرْض. وَقَوْله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾، أَيْ: بَيْنه وَبَيْن أَنْبِيَائِهِ، ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾، أَيْ: يَطِيرُونَ بِهَا لِيُبَلِّغُوا مَا أُمِرُوا بِهِ سَرِيعًا، ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، أَيْ: مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَنَاحَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ ثَلاثَة، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَرْبَعَة، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ أَكْثَر مِنْ ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: أَنَّ رَسُول الله ﷺ رَأَى جِبْرِيل لَيْلَة الإِسْرَاء وَلَهُ سِتّمِائَةِ جَنَاح، بَيْن كُلّ جَنَاحَيْنِ كَمَا بَيْن المَشْرِق وَالمَغْرِب. وَلهَذَا قَال: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. قَال السُّدِّيّ: يَزِيد فِي الأَجْنِحَة وَخَلقهمْ مَا يَشَاء. وَقَال الزُّهْرِيّ، وَابْن جُرَيْج فِي قَوْله: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾، يَعْنِي: حُسْن الصَّوْت. رَوَاهُ عَنْ الزُّهْرِيّ البُخَارِيّ فِي «الأَدَب»، وَابْن أَبِي حَاتِم فِي «تَفْسِيره». وَقُرِئَ فِي الشَّاذّ: (يَزِيد فِي الحَلق)، بِالحَاءِ المُهْمَلة، وَالله أَعْلَم.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ لا مَانِع لمَا أَعْطَى، وَلا مُعْطِي لمَا مَنَعَ. قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَاصِم، حَدَّثَنَا مُغِيرَة، أَخْبَرَنَا عَامِر، عَنْ وَرَّاد مَوْلى المُغِيرَة بْن شُعْبَة قَال: كَتَبَ مُعَاوِيَة إِلى المُغِيرَة ابْن شُعْبَة: اكْتُبْ إِلَيَّ بِمَا سَمِعْت مِنْ رَسُول الله ﷺ فَدَعَانِي المُغِيرَة فَكَتَبْت إِلَيْهِ: إِنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ الصَّلاة قَال: **«لا إِله إِلاَّ الله، وَحْده لا شَرِيك لهُ، لهُ المُلك وَلهُ الحَمْد، وَهُو عَلى كُلّ شَيْء قَدِير، اللَّهُمَّ لا مَانِع لمَا أَعْطَيْت، وَلا مُعْطِي لمَا مَنَعْت، وَلا يَنْفَع ذَا الجَدّ مِنْك الجَدّ»**. وَسَمِعْته يَنْهَى عَنْ: **«قِيل وَقَال، وَكَثْرَة السُّؤَال وَإِضَاعَة المَال، وَعَنْ وَأْد البَنَات وَعُقُوق الأُمَّهَات وَمَنَعَ وَهَاتِ»**[1]. وَأَخْرَجَاهُ مِنْ طُرُق عَنْ وَرَّاد بِهِ.

وَثَبَتَ فِي «صَحِيح مُسْلم» عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه: أن رَسُول الله ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسه مِنْ الرُّكُوع يَقُول: **«سَمِعَ الله لمَنْ حَمِدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لك الحَمْد، مِلء السَّمَاء وَملء الأَرْض، وَمِلء مَا شِئْت مِنْ شَيْء بَعْد. اللَّهُمَّ، أَهْل الثَّنَاء وَالمَجْد. أَحَقّ مَا قَال العَبْد -وَكُلّنَا لك عَبْد- اللَّهُمَّ لا مَانِع لمَا أَعْطَيْت، وَلا مُعْطِيَ لمَا مَنَعْت، وَلا يَنْفَع ذَا الجَدّ مِنْك الجَدّ»**[2]. وَهَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾، ولهذا نَظَائِر كَثِيرَة. وَقَال الإِمَام مَالك: كَانَ أَبُو هُرَيْرَة إِذَا مُطِرُوا يَقُول: مُطِرْنَا بِنَوْءِ الفَتْح، ثُمَّ يَقْرَأ هَذِهِ الآيَة: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، عَنْ يُونُس، عَنْ ابْن وَهْب، عَنْهُ.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٧).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

يُنبِّه تعالى عِباده ويُرْشِدهُمْ إلى الاسْتِدْلال على توْحِيده في إفْراد العِبادَة لهُ، كما أنَّهُ المُسْتقِلّ بِالخَلقِ والرِّزْق، فكذلكَ فليُفْرَدْ بالعِبادَةِ، ولا يُشْرَك بِهِ غَيْره مِنْ الأصْنام والأنْداد والأوْثان. ولهذا قال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾، أيْ: فكيْف تُؤْفكون بعْد هذا البيان، ووُضوح هذا البُرْهان، وأنْتمْ بعْد هذا تعْبُدونَ الأنْداد والأوْثان؟

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٤ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

يقُول: وإنْ يُكذِّبُوك -يا مُحمَّد- هؤُلاءِ المُشْرِكُونَ باللهِ ويُخالفُوك فيما جِئْتهمْ بِهِ مِنْ التَّوْحِيد، فلك فِيمَنْ سَلفَ قبْلك مِنْ الرُّسُل أُسْوَة؛ فإنَّهُمْ كذلكَ جاءُوا قوْمهمْ بالبيِّناتِ وأمرُوهُمْ بالتَّوْحِيدِ فكذَّبُوهُمْ وخالفُوهُمْ، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، أيْ: وسَنجْزِيهمْ على ذلكَ أوْفر الجزاء. ثُمَّ قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، أيْ: المَعاد كائِن لا مَحالة، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، أيْ: العِيشَة الدَّنِيئَة بِالنِّسْبَةِ إلى ما أعدَّ الله لأوْلِيائِهِ وأتْباع رُسُله مِنْ الخيْر العظِيم فلا تتلهَّوْا عنْ ذلكَ الباقِي بِهذِهِ الزَّهْرة الفانِيَة، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾، وهُوَ الشَّيْطان، قالهُ ابن عبَّاس. أيْ: لا يَفْتِننَّكُمْ الشَّيطان ويَصْرِفنَّكُمْ عنْ اتباع رُسُل الله وتَصْدِيق كلِماته، فإنَّهُ غرَّار كذَّاب أفَّاك. وهذِهِ الآيَة كالآيَةِ الَّتِي في آخِر لُقْمان: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾. قال مالك، عنْ زيْد بن أسْلمَ: هُوَ الشَّيْطان. كما قال: يقول المُؤْمِنونَ للمُنافِقِينَ يوْم القِيامَة حِين يُضْرب ﴿بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

ثُمَّ بيَّنَ تعالى عداوَة إبْليس لابْنِ آدم فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، أيْ: هُوَ مُبارِز لكُم بالعَداوَةِ، فعادُوهُ أنْتُمْ أشدّ العَداوَة وخالفُوهُ وكذِّبُوهُ فِيما يُغرّكُمْ بِهِ، ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، أيْ: إنَّما يقْصِد أنْ يُضِلّكُمْ حتَّى تدْخُلُوا معَهُ إلى عذاب السَّعِير، فهذا هُوَ العدُوّ المُبين. فنسْأل الله القَوِيّ العَزِيز أنْ يَجْعلنا أعْداء الشَّيْطان، وأنْ يرْزُقنا اتِّباع كِتابه، والاقْتِفاء بِطَرِيقِ رَسُوله، إنَّهُ على ما يَشاء قَدِير، وبالإجابَةِ جدِير. وهذِهِ كقوْلِهِ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

لـمَّا ذكَرَ تعالى أنَّ أتْباع إبْليس مَصِيرهمْ إلى السَّعِير، ذكَرَ بعْد ذلكَ أنَّ الَّذِينَ كفَرُوا لهُمْ عذاب شَدِيد، لأنَّهُمْ أطاعُوا الشَّيْطان وعَصَوْا الرَّحْمن، وأنَّ الَّذِينَ آمنُوا باللهِ ورُسُله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾، أيْ: لما كانَ مِنْهُمْ مِنْ ذنْب، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عمِلُوهُ مِنْ خيْر. ثُمَّ قال: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾، يَعْنِي كالكُفَّارِ والفُجَّار، يَعْمَلُونَ أعْمالًا سَيِّئَة، وهُمْ فِي ذلكَ يَعْتَقِدُونَ ويَحْسِبُونَ أنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، أيْ: أفَمَنْ كانَ هكذا قدْ أضَلَّهُ الله، ألك فِيهِ حِيلة؟ لا حِيلة لك فِيهِ، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، أيْ: بِقدَرِهِ كانَ ذلكَ

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، أَيْ: لا تَأْسَف عَلى ذَلِكَ، فَإِنَّ الله حَكِيم فِي قَدَره إِنَّمَا يُضِلّ مَنْ يُضِلّ وَيَهْدِي مَنْ يَهْدِي، لِمَا لهُ فِي ذَلِكَ مِنْ الحُجَّة البَالغَة، وَالعِلم التَّامّ، وَلهَذَا قَال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم عِنْد هَذِهِ الآيَة: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَوْف الحِمْصِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن كَثِير، عَنْ الأَوْزَاعِيّ، عَنْ يَحْيَى بْن أَبِي عَمْرو السيباني أَوْ رَبِيعَة، عَنْ عَبْد الله بْن الدَّيْلَمِيّ قَال: أَتَيْت عَبْد الله بْن عَمْرو، وَهُوَ فِي حَائِط بِالطَّائِفِ يُقَال لهُ: الوهط، قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**إِنَّ الله تَعَالى خَلقَ خَلقه فِي ظُلمَة، ثُمَّ أَلقَى عَليْهِمْ مِنْ نُوره، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُوره يَوْمئِذٍ فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ مِنْهُ ضَلَّ، فَلذَلك أَقُول: جَفَّ القَلم عَلى مَا عَلمَ الله ﷻ**»[1]. ثُمَّ قَال: حَدَّثَنَا [يحيي][2] بن عبدك القَزْوِينِيّ، حَدَّثَنَا حَسَّان بْن حَسَّان البَصْرِيّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن بِشْر، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْن مَعِن، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم القُرَشِيّ عَنْ سَعِيد بْن شُرَحْبِيل، عَنْ زَيْد ابْن أَبِي أَوْفَى قَال: خَرَجَ عَليْنَا رَسُول الله ﷺ فَقَال: «الحَمْد لله الَّذِي يَهْدِي مِنْ الضَّلالة، وَيُلبِس الضَّلالة عَلى مَنْ أَحَبَّ»[3]. وَهَذَا أَيْضًا حَدِيث غَرِيب جِدًّا.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

كَثِيرًا مَا يَسْتَدِلّ تَعَالى عَلى المَعَاد بِإِحْيَائِهِ الأَرْض بَعْد مَوْتهَا -كَمَا فِي سُورَة الحَجّ يُنَبِّه عِبَاده أَنْ يَعْتَبِرُوا بِهَذَا عَلى ذَلك، فَإِنَّ الأَرْض تَكُون مَيِّتَة هَامِدَة لا نَبَات فِيهَا، فَإِذَا أَرْسَل إِليْهَا السَّحَاب تَحْمِل المَاء وَأَنْزَلهُ عَليْهَا، ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾، كَذَلكَ الأَجْسَاد إِذَا أَرَادَ الله سبحانه بَعْثهَا وَنُشُورهَا، أَنْزَل مِنْ تَحْت العَرْش مَطَرًا يَعُمّ الأَرْض جَمِيعًا فتنبت الأَجْسَاد فِي قُبُورهَا كَمَا [تَنْبُت الحَبَّة][4] فِي الأَرْض وَلهَذَا جَاءَ فِي «الصَّحِيح»: «**كُلّ ابْن آدَم يَبْلى إِلاَّ عَجَبُ الذَّنَب، مِنْهُ خُلقَ وَمِنْهُ يُرَكَّب**»[5]. وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾. وَتَقَدَّمَ فِي «الحَجّ» حَدِيث أَبِى رَزِين قُلت: يَا رَسُول الله، كَيْف يُحْيِي الله المَوْتَى؟ وَمَا آيَة ذَلكَ فِي خَلقه؟ قَال: «**يَا أَبَا رَزِين أَمَّا مَرَرْت بِوَادِي قَوْمك مَحِلاً ثُمَّ مَرَرْت بِهِ يَهْتَزّ خَضِرًا؟**» قُلت: بَلى. قَال: «**فَكَذَلك يُحْيِي الله المَوْتَى**».[6]

وَقَوْله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ﴾، أَيْ: مَنْ كَانَ يُحِبّ أَنْ يَكُون عَزِيزًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة فَليَلزَمْ طَاعَة الله؛ فَإِنَّهُ يَحْصُل لهُ مَقْصُوده، لأَنَّ الله مَالك الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَلهُ العِزَّة جَمِيعًا، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. وَقَال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ﴾، وَقَال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. قَال مُجَاهِد:

---

(١) **صحيح**: تقدم.
(٢) في نسخ: [محمد].
(٣) **ضعيف الإسناد**: في إسناده إبراهيم بن بشر: مجهول، ويحيي بن معن: مجهول أيضًا. وأخرجه الطبراني في «الكبير» عن رجل من قريش لم يسمه.
(٤) في نسخة: [ينبت الحب].
(٥) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).
(٦) **حسن**: تقدم.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾، بِعِبَادَةِ الأَوْثَان ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. وَقَال قَتَادَة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، أَيْ: فَليَتَعزَّزْ بِطَاعَةِ الله ﷻ. وَقِيل: مَنْ كَانَ يُرِيد عِلم العِزَّة لَمِنْ هِيَ؟ ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، حَكَاهُ ابْن جَرِير.

وَقَوْله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، يَعْنِي: الذِّكر وَالتِّلاوَة وَالدُّعَاء، قَالهُ غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلف.

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْمَاعِيل الأَحْمَسِيّ، أَخْبَرَنِي جَعْفَر بْن عَوْن، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْد الله المَسْعُودِيّ عَنْ عَبْد الله بْن المُخَارِق، عَنْ أَبِيهِ المُخَارِق بْن سُلَيْم قَال: قَال لَنَا عَبْد الله -هُوَ ابْن مَسْعُود- إِذَا حَدَّثْنَاكُمْ حديثًا أَتَيْنَاكُم بِتَصْدِيقِ ذَلكَ مِنْ كِتَاب الله: إِنَّ العَبْد المُسْلم إِذَا قَال: «سُبْحَان الله وَبِحَمْدِهِ، وَالحَمْد لله، وَلا إِله إِلَّا الله، وَالله أَكْبَر، تَبَارَكَ الله»، أَخَذَهُنَّ مَلك فَجَعَلَهُنَّ تَحْت جَنَاحه، ثُمَّ صَعِدَ بِهِنَّ إِلى السَّمَاء فَلا يَمُرّ بِهِنَّ عَلى جَمْع مِنْ المَلائِكَة إِلَّا اسْتَغْفَرُوا لقَائِلِهِنَّ، حَتَّى يَجِيء بِهِنَّ وَجْه الرحمن ﷻ، ثُمَّ قَرَأَ عَبْد الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾. وَحَدَّثَنِي يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا ابْن عُلَيَّة، أَخْبَرَنَا سَعِيد الجُرَيْرِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن شَقِيق قَال: قَال كَعْب الأَحْبَار: إِنَّ لـ «سُبْحَان الله، وَالحَمْد لله، وَلا إِله إِلَّا الله، وَالله أَكْبَر» لدَوِيًّا حَوْل العَرْش كَدَوِيِّ النَّحْل، يُذَكِّرْنَ بصَاحِبِهِنَّ، وَالعَمَل الصَّالح فِي الخَزَائِن. وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح إِلى كَعْب الأَحْبَار رحمه الله، وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا ابْن نُمَيْر حَدَّثَنَا مُوسَى -يَعْنِي ابْن مُسْلم الطَّحَّان- عَنْ عَوْن بْن عَبْد الله، عَنْ أَبِيهِ -أَوْ: عَنْ أَخِيهِ- عَنْ النُّعْمَان بْن بَشِير قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله مِنْ جَلال الله، مِنْ تَسْبِيحه وَتَكْبِيره وَتَحْمِيده وَتَهْلِيله، يَتَعَاطَفْنَ حَوْل العَرْش، لهُنَّ دَوِيّ كَدَوِيِّ النَّحْل يُذَكِّرون بصَاحِبِهِنَّ، أَلا يُحِبّ أَحَدكُمْ أَنْ لا يَزَال لهُ عِنْد الله شَيْء يُذَكِّر بِهِ».**[1] وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ عَنْ أَبِى بِشْر بَكْر بْن خَلف، عَنْ يَحْيَى بْن سَعِيد القَطَّان، عَنْ مُوسَى بْن أَبِي عيسي الطَّحَّان، عَنْ عَوْن بْن عَبْد الله بْن عُتْبَة بْن مَسْعُود عَنْ أَبِيهِ -أَوْ: عَنْ أَخِيهِ- عَنْ النُّعْمَان بْن بَشِير بِهِ.

وَقَوْله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس: الكَلم الطَّيِّب: ذِكْر الله، يُصْعَد بِهِ إِلى الله ﷻ، وَالعَمَل الصَّالح أَدَاء فرائضه، ومن ذَكَرَ الله وَلمْ يُؤَدِّ فَرَائِضه، رُدَّ كَلامه عَلى عَمَله فَكَانَ أَوْلى بِهِ. وَكَذَا قَال مُجَاهِد: العَمَل الصَّالح يَرْفَع الكَلام الطَّيِّب. وَكَذَا قَال أَبُو العَالِيَة، وَعِكْرِمَة، وَإِبْرَاهِيم النَّخَعِيّ، وَالضَّحَّاك، وَالسُّدِّيّ، وَالرَّبِيع بْن أَنَس، وَشَهْر بْن حَوْشَب، وَغَيْر وَاحِد. وَقَال إِيَاس بْن مُعَاوِيَة القَاضِي: لوْلا العَمَل الصَّالح لمْ يُرْفَع الكَلام. وَقَال الحَسَن، وَقَتَادَة: لا يُقْبَل قَوْل إِلَّا بِعَمَل.

وَقَوْله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، قَال مُجَاهِد، وَسَعِيد بْن جُبَيْر، وَشَهْر بْن حَوْشَب: هُمْ المُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، يَعْنِي يَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ، يُوهِمُونَ أَنَّهُمْ فِي طَاعَة الله، وَهُمْ بُغَضَاء إِلى الله ﷻ، يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ: هُمْ المُشْرِكُونَ. وَالصَّحِيح أَنَّهَا عَامَّة، وَالمُشْرِكُونَ دَاخِلُونَ بِطَرِيق الأَوْلى. وَلهَذَا قَال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، أَيْ: يَفْسُد وَيَبْطُل وَيَظْهَر زَيْفهمْ عَنْ قَرِيب لأُولي البَصَائِر وَالنُّهَى، فَإِنَّهُ مَا أَسَرَّ أَحَد سَرِيرَة إِلَّا أَبْدَاهَا الله عَلى صَفَحَات وَجْهه وَفَلتَات لسَانه، وَمَا أَسَرَّ أَحَد سَرِيرَة إِلَّا كَسَاهُ الله رِدَاءَهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْر وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ، فَالمُرَائِي لا يَرُوج أَمْره وَيَسْتَمِرّ إِلَّا عَلى غَبِيّ، أَمَّا المُؤْمِنُونَ المُتَفَرِّسُونَ فَلا يَرُوج ذَلكَ عَليْهِمْ، بَل يكشف لهُمْ عَنْ قَرِيب وَعَالم الغَيْب لا تَخْفَى عَليْهِ خَافِيَة.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٨)، وابن ماجه (٣٨٠٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

وَقَوْله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾، أَيْ: ابْتَدَأَ خلق أَبِيكُمْ آدم مِنْ تُرَاب، ثُمَّ جَعَل نَسْله مِنْ سُلالة مِنْ مَاء مَهِين، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أَيْ: ذَكَرًا وَأُنْثَى لُطْفًا مِنْهُ وَرَحْمَة أَنْ جَعَل لكُمْ أَزْوَاجًا مِنْ جِنْسكُمْ لتَسْكُنُوا إِلَيْهَا. وَقَوْله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾، أَيْ: هُوَ عَالم بِذَلِكَ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلكَ شَيْء، بَل ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾. وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلام عَلى قَوْله تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُتَعَالِ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، أَيْ: مَا يُعْطَى بَعْض النُّطَف مِنْ العُمُر الطَّوِيل يَعْلمهُ، وَهُوَ عِنْده فِي الكِتَاب الأَوَّل، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾، الضَّمِير عَائِد عَلى الجِنْس لا عَلى العَيْن، لأَنَّ العين الطَّوِيل العُمُر فِي الكِتَاب وَفِي عِلم الله لا يُنْقَص مِنْ عُمُره، وَإِنَّمَا عَادَ الضَّمِير عَلى الجِنْس.

قَال ابْن جَرِير: وَهَذَا كَقَوْلِهِمْ: «عِنْدِي ثَوْب وَنِصفه»، أَيْ: وَنِصْف آخر. وَرُوِيَ مِنْ طَرِيق العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما فِي قَوْله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، يَقُول: لَيْسَ أَحَد قَضَيْت لهُ طُول عُمُر وحياة إِلَّا وَهُوَ بَالغ مَا قَدَّرْت لهُ مِنْ العُمُر، وَقَدْ قَضَيْت ذَلكَ لهُ فَإِنَّمَا يَنْتَهِي إِلى الكِتَاب الَّذِي قَدَّرْت لا يُزَاد عَلَيْهِ، وَلَيْسَ أَحَد قضيت لهُ أَنَّهُ قَصِير العُمُر، وَالحَيَاة بِبَالغ العُمُر، وَلكِنْ يَنْتَهِي إِلى الكِتَاب الَّذِي كَتَبْت لهُ، فَذَلكَ قَوْله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، يَقُول: كُلّ ذَلكَ فِي كِتَاب عِنْده. وَهَكَذَا قَال الضَّحَّاك بْن مُزَاحِم.

وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلمَ، عَنْ أَبِيهِ: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، قَال: مَا لفَظَت الأَرْحَام مِنْ الأَوْلاد مِنْ غَيْر تَمَام. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن فِي تَفْسِيرهَا: أَلا تَرَى النَّاس يَعِيش الإِنْسَان مِائَة سَنَة، وَآخر يَمُوت حِين يُولد، فَهَذَا هَذَا.

وَقَال قَتَادَة: وَالَّذِي يُنْقَص مِنْ عُمُره فَالَّذِي يَمُوت قَبْل سِتِّينَ سَنَة. وَقَال مُجَاهِد: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، أَيْ: فِي بَطْن أُمّه يُكْتَب لهُ ذَلكَ، لمْ يُخْلق الخَلق عَلى عُمُر وَاحِد، بَل لهَذَا عُمُر وَلهَذَا عُمُر هُوَ أَنْقَص مِنْ عُمُره، فَكُلّ ذَلكَ مَكْتُوب لصَاحِبِهِ بَالغ مَا بَلغَ. وَقَال بَعْضهمْ: بَل مَعْنَاهُ ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾، أَيْ: مَا يُكْتَب مِنْ الأَجَل ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾، وَهُوَ ذَهَابه قَليلًا قَليلًا، الجَمِيع مَعْلُوم عِنْد الله سَنَة بَعْد سَنَة، وَشَهْرًا بَعْد شَهْر وَجُمُعَة بَعْد جُمُعَة، وَيَوْمًا بَعْد يَوْم، وَسَاعَة بَعْد سَاعَة، الجَمِيع مَكْتُوب عِنْد الله فِي كِتَابه. نَقَلهُ ابْن جَرِير عَنْ أَبِي مَالك، وَإِليْهِ ذَهَبَ السُّدِّيّ، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ. وَاخْتَارَ ابْن جَرِير الأَوَّل، وَهُوَ كَمَا قَال.

وَقَال النَّسَائِيّ عِنْد تَفْسِير هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن يَحْيَى بْن أَبِي زَيْد ابْن سُليْمَان، سَمِعْت ابْن وَهْب، يَقُول: حَدَّثَنِي يُونُس، عَنْ ابْن شِهَاب، عَنْ أَنَس بْن مَالك رضي الله عنه قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَط لهُ فِي رِزْقه، وَيُنْسَأ لهُ فِي أجله فَليَصِل رَحِمَهُ**».[1] وَقَدْ رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسْلم وَأَبُو دَاوُد، مِنْ حَدِيث يُونُس بْن يَزِيد الأَيْليّ بِهِ.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَليّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا الوَليد بْن عَبْد المَلك بْن عُبَيْد الله أَبُو مسرح، حَدَّثَنَا عُثْمَان ابْن عَطَاء، عَنْ [مُسْلمَة][2] بْن عَبْد الله عَنْ عَمّه أَبِي مشجعة ابن رِبْعِيّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء رضي الله عنه قَال: ذُكِرْنَا عِنْد رَسُول الله ﷺ فَقَال: «إِنَّ الله لا يُؤَخِّر نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلهَا، وَإِنَّمَا زِيَادَة العُمُر بِالذُّرِّيَّةِ الصَّالحَة يُرْزَقهَا العَبْد،

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).
(٢) في (ز): [سلمة].

فَيَدْعُونَ لهُ مِنْ بَعْده، فَيلحقهُ دُعَاؤُهُمْ فِي قَبْره فَذَلكَ زِيَادَة العُمُر»[١]. وَقَوْله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أَيْ: سَهل عَلَيْهِ، يَسِير لدَيْهِ علمه بِذَلكَ وَبتَفْصِيلهِ فِي جَمِيع مَخْلُوقَاته، فَإِنَّ عِلمه شَامِل [للجَمِيع][٢] لا يَخْفَى عَلَيْهِ منه شَيْء.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُنَبِّهًا عَلى قُدْرَته العَظِيمَة فِي خَلقه الأَشْيَاء المُخْتَلفَة: وخَلقَ البَحْرَيْنِ العَذْب الزُّلال، وَهُوَ هَذِهِ الأَنْهَار السَّارِحَة بَيْن النَّاس، مِنْ كِبَار وَصِغَار، بِحَسَب الحَاجَة إِليْهَا فِي الأَقَاليم وَالأَمْصَار، وَالعُمْرَانِ وَالبَرَارِيّ وَالقِفَار، وَهِيَ عَذْبَة سَائِغ شَرَابهَا لمَنْ أَرَادَ ذَلكَ، ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، وَهُوَ البَحْر السَّاكِن الَّذِي تَسِير فِيهِ السُّفُن الكِبَار، وَإِنَّمَا تَكُون مَالحَة زُعَافًا مُرَّة، وَلهَذَا قَال: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أَيْ: مُرّ. ثُمَّ قَال: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، يَعْنِي: السَّمَك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، كَمَا قَال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾، أَيْ: تَمْخُرهُ وَتَشُقّهُ بِحَيْزُومِهَا، وَهُوَ مُقَدَّمهَا المُسَنَّم الَّذِي يُشْبِه جُؤْجُؤ الطَّيْر وَهُوَ صَدْره. وَقَال مُجَاهِد: تَمْخُر الرِّيح السُّفُن، وَلا يَمْخَر الرِّيح مِنْ السُّفُن إِلَّا العِظَام. وَقَوْله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، أَيْ: بِأَسْفَارِكُمْ بِالتِّجَارَة، مِنْ قُطْر إِلى قُطْر، وَإِقْليم إِلى إِقْليم؛ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أَيْ: تَشْكُرُونَ رَبّكُمْ عَلى تَسْخِيره لكُمْ هَذَا الخَلق العَظِيم، وَهُوَ البَحْر، تَتَصَرَّفُونَ فِيهِ كَيْف شِئْتُمْ، وَتَذْهَبُونَ أَيْنَ أَرَدْتُمْ، وَلا يَمْتَنِع عَليْكُمْ شَيْء مِنْهُ، بَل بِقُدْرَتِهِ قَدْ سَخَّرَ لكُمْ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْض الجَمِيع مِنْ فَضْله وَمن رَحْمَته.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

وَهَذَا أَيْضًا مِنْ قُدْرَته التَّامَّة وَسُلطَانه العَظِيم، فِي تَسْخِيره اللَّيْل بِظَلامِهِ وَالنَّهَار بِضِيَائِهِ، وَيَأْخُذ مِنْ طُول هَذَا فَيَزِيدهُ على قِصَر هَذَا فَيَعْتَدِلانِ. ثُمَّ يَأْخُذ مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَطُول هَذَا وَيَقْصُر هَذَا، ثُمَّ يَتَقَارَضَانِ صَيْفًا وَشِتَاء، ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أَيْ: وَالنُّجُوم السَّيَّارَات وَالثَّوَابِت الثَّاقِبَات بِأَضْوَائِهِنَّ أَجْرَام السَّمَاوَات، الجَمِيع يَسِيرُونَ بِمِقْدَارِ مُعَيَّن، وَعَلى مِنْهَاج مُقَنَّن مُحَرَّر، تَقْدِيرًا مِنْ عَزِيز عَليم. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أَيْ: إِلى يَوْم القِيَامَة. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، أَيْ: الَّذِي فَعَل هَذَا هُوَ الرَّبّ العَظِيم الَّذِي لا إِله غَيْره، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، أَيْ: مِنْ الأَنْدَاد والأَصْنَام الَّتِي هِيَ عَلى صُورَة مَنْ تَزْعُمُونَ مِنْ المَلائِكَة المُقَرَّبِينَ، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾. قَال ابْن عَبَّاس، وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَعَطَاء، وَعَطِيَّة العَوْفِيّ، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَغَيْرهمْ: القِطْمِير: هُوَ اللِّفَافَة الَّتِي تَكُون عَلى نَوَاة التَّمْرَة. أَيْ: لا يَمْلكُونَ مِنْ السَّمَاوَات وَالأَرْض شَيْئًا، وَلا بِمِقْدَارِ هَذَا القِطْمِير.

ثُمَّ قَال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾، يَعْنِي: الآلهَة الَّتِي تَدْعُونَهَا مِنْ دُون الله لا يسمعون دُعَاءَكُمْ، لأَنَّهَا جَمَاد لا أَرْوَاح فِيهَا. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾، أَيْ: لا يَقْدِرُونَ عَلى ما تَطْلُبُونَ مِنْهَا، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، أَيْ: يَتَبَرَّءُونَ مِنْكُمْ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ

---

(١) منكر: تقدم.
(٢) في نسخة: [لجميع ذلك].

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾. وَقَال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، أَيْ: وَلا يُخْبِرك بِعَوَاقِب الأُمُور وَمَآلهَا وَمَا تَصِير إِلَيْهِ؛ مِثْل خَبِير بِهَا. قَال قَتَادَة: يَعْنِي نَفْسه تَبَارَكَ وَتَعَالى، فإنه أَخْبَرَ بِالوَاقِع لا مَحَالة.

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

يخبر تعالى بغنائه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو الغني عنهم بالذات، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، أي: هو المتفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله، ويقدره ويشرعه.

وَقَوْله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أَيْ: لَوْ شَاءَ لأَذْهَبكُمْ أَيهَا النَّاس وَأَتَى بِقَوْمٍ غَيْركُمْ، وَمَا هَذَا عَلَيْهِ بِصَعْبٍ وَلا مُمْتَنِع؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أَيْ: يَوْم القِيَامَة ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾، أَيْ: وَإِنْ تَدْعُ نَفْس مُثْقَلة بِأَوْزَارِهَا إِلى أَنْ تُسَاعَد عَلى حَمْل مَا عَلَيْهَا مِنْ الأَوْزَار أَوْ بَعْضه، ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾، أَيْ: وَإِنْ كَانَ قَرِيبًا إِلَيْهَا حَتَّى وَلَوْ كَانَ أَبَاهَا أَوْ ابْنهَا، كُلّ مَشْغُول بِنَفْسِهِ وَحَاله. قَال عِكْرِمَة فِي قَوْله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ الآيَة، قَال: هُوَ الجَار يَتَعَلَّق بِجَارِهِ يَوْم القِيَامَة، فَيَقُول: يَا رَبّ، سَل هَذَا: لِمَ كَانَ يُغْلق بَابه دُونِي؟ وَإِنَّ الكَافِر لَيَتَعَلَّق بِالمُؤْمِنِ يَوْم القِيَامَة، فَيَقُول لَهُ: يَا مُؤْمِن، إِنَّ لِي عِنْدك يَدًا، قَدْ عَرَفْت كَيْف كُنْت لك فِي الدُّنْيَا، وَقَدْ احْتَجْت إِلَيْك اليَوْم. فَلا يَزَال المُؤْمِن يَشْفَع لَهُ إِلى رَبّه ﷻ حَتَّى يَرُدّهُ إِلى مَنْزِل دُون مَنْزِله وَهُوَ فِي النَّار. وَإِنَّ الوَالد لَيَتَعَلَّق بِوَلَدِهِ يَوْم القِيَامَة، فَيَقُول: يَا بُنَيّ، أَيّ وَالد كُنْت لك؟ فَيُثْنِي خَيْرًا، فَيَقُول لَهُ: يَا بُنَيّ؛ إِنِّي قَدْ احْتَجْت إِلى مِثْقَال ذَرَّة مِنْ حَسَنَاتك أَنْجُو بِهَا مِمَّا تَرَى. فَيَقُول لَهُ وَلده: يَا أَبَت، مَا أَيْسَر مَا طَلَبْت! وَلكِنِّي أَتَخَوَّف مِثْل مَا تَتَخَوَّف، فَلا أَسْتَطِيع أَنْ أُعْطِيك شَيْئًا. ثُمَّ يَتَعَلَّق بِزَوْجَتِهِ فَيَقُول: يَا فُلانَة -أَوْ: يَا هَذِهِ- أَيّ زَوْج كُنْت لك؟ فَتُثْنِي خَيْرًا، فَيَقُول لَهَا: إِنِّي أَطْلُب إِلَيْك حَسَنَة وَاحِدَة تَهبِينهَا لِي، لَعَلِّي أَنْجُو بِهَا مِمَّا تَرَيْنَ. فَتَقُول: مَا أَيْسَر مَا طَلَبْت! وَلكِنِّي لا أُطِيق أَنْ أُعْطِيك شَيْئًا، إِنِّي أَتَخَوَّف مِثْل الَّذِي تَتَخَوَّف، يَقُول الله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ الآيَة، وَيَقُول الله: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾، وَيَقُول تَعَالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عَنْ أَبِي عَبْد الله الطهراني، عَنْ حَفْص بْن عُمَر، عَنْ الحَكَم بْن أَبَانَ عَنْ عِكْرِمَة بِهِ.

ثُمَّ قَال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أَيْ: إِنَّمَا يَتَّعِظ بِمَا جِئْت بِهِ أُولُو البَصَائِر وَالنُّهَى، الخَائِفُونَ مِنْ رَبّهمْ، الفَاعِلُونَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾، أَيْ: وَمَنْ عَمِل صَالحًا فَإِنَّمَا يَعُود نَفْعه عَلى نَفْسه، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، أَيْ: وَإِلَيْهِ المَرْجِع وَالمَآب، وَهُوَ سَرِيع الحِسَاب، وَسَيَجْزِي كُلّ عَامِل بِعَمَلِهِ: إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

يَقُول تَعَالى: كَمَا لا تَسْتَوِي هَذِهِ الأَشْيَاء المُتَبَايِنَة المُخْتَلفَة، كَالأَعْمَى وَالبَصِير لا يَسْتَوِيَانِ، بَل بَيْنهمَا فَرْق وَبَوْن كَثِير، وَكَمَا لا تَسْتَوِي الظُّلُمَات وَلا النُّور وَلا الظِّلّ وَلا الحَرُور، كَذَلكَ لا تَسْتَوِي الأَحْيَاء وَلا الأَمْوَات، وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ الله للمُؤْمِنِينَ وَهُمُ الأَحْيَاء، وَللكَافِرِينَ وَهُمْ الأَمْوَات، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، وَقَال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، فَالمُؤْمِن سَمِيع بَصِير فِي نُور، يَمْشِي عَلى صِرَاط مُسْتَقِيم فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، حَتَّى يَسْتَقِرّ بِهِ الحَال فِي الجَنَّات ذَات الظِّلال وَالعُيُون، وَالكَافِر أَعْمَى وَأَصَمّ، فِي ظُلُمَات يَمْشِي، لا خُرُوج له مِنْهَا، بَل هُوَ يَتِيه فِي غَيّه وَضَلاله فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، حَتَّى يُفْضِي بِهِ ذَلكَ إِلى الحَرُور وَالسَّمُوم وَالحَمِيم، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾.

وَقَوْله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾، أَيْ: يَهْدِيهِمْ إِلى سَمَاع الحُجَّة وَقَبُولهَا وَالانْقِيَاد لهَا، ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾، أَيْ: كَمَا لا يَنْتَفِع الأَمْوَات بَعْد مَوْتهمْ وَصَيْرُورَتهمْ إِلى قُبُورهمْ، وَهُمْ كُفَّار بِالهِدَايَةِ وَالدَّعْوَة إِليْهَا، كَذَلكَ هَؤُلاءِ المُشْرِكُونَ الَّذِينَ كُتِبَ عَليْهِمْ الشَّقَاوَة لا حِيلة لك فِيهِمْ، وَلا تَسْتَطِيع هِدَايَتهمْ. ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، أَيْ: إِنَّمَا عَليْك البَلاغ وَالإِنْذَار، وَالله يُضِلّ مَنْ يَشَاء وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أَيْ: بَشِيرًا للمُؤْمِنِينَ وَنَذِيرًا للكَافِرِينَ، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أَيْ: وَمَا مِنْ أُمَّة خَلتْ مِنْ بَنِي آدَم إِلَّا وَقَدْ بَعَثَ الله إِليْهِمْ النُّذُر، وَأَزَاحَ عَنْهُمْ العِلل، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، وَكَمَا قَال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ الآيَة، وَالآيَات فِي هَذَا كَثِيرَة.

وَقَوْله تبارك وتَعَالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وَهِيَ: المُعْجِزَات البَاهِرَات، وَالأَدِلَّة القَاطِعَات ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾، وَهِيَ الكُتُب، ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أَيْ: الوَاضِح البَيِّن. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أَيْ: وَمَعَ هَذَا كُلّه كَذَّبَ أُولئِكَ رُسُلهمْ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ، فَأَخَذْتُمْ أَيْ بِالعِقَابِ وَالنَّكَال، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أَيْ: فَكَيْف رَأَيْت إِنْكَارِي عَليْهِمْ، يعني: عَظِيمًا شَدِيدًا بَلِيغًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

يَقُول تَعَالى مُنَبِّهًا عَلى كَمَال قُدْرَته فِي خَلقه الأَشْيَاء المُتَنَوِّعَة المُخْتَلفَة مِنْ الشَّيْء الوَاحِد، وَهُوَ المَاء الَّذِي يُنَزِّلهُ مِنْ السَّمَاء ويُخْرِج بِهِ ثَمَرَات مُخْتَلفًا أَلوَانهَا، مِنْ أَصْفَر وَأَحْمَر وَأَخْضَر وَأَبْيَض، إِلى غَيْر ذَلكَ مِنْ أَلوَان الثِّمَار، كَمَا هُوَ [مُشَاهَد][1] مِنْ تَنَوُّع أَلوَانهَا وَطُعُومهَا وَرَوَائِحهَا، كَمَا قَال تَعَالى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ

---

(١) في نسخة: [الشاهد].

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. وَقَوْله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾، أَيْ: وَخَلقَ الجِبَال كَذَلِكَ مُخْتَلفَة الأَلْوَان، كَمَا هُوَ المُشَاهَد أَيْضًا مِنْ بِيض وَحُمْر، وَفِي بَعْضهَا طَرَائِق -وَهِيَ: الجُدَد جَمْع جُدَّة- مُخْتَلفَة الأَلْوَان أَيْضًا. قَال ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما: الجُدَد: الطَّرَائِق. وَكَذَا قَال أَبُو مَالك وَالحَسَن وَقَتَادَة وَالسُّدِّيّ، وَمِنْهَا ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾، قَال عِكْرِمَة: الغَرَابِيب: الجِبَال الطِّوَال السُّود. وَكَذَا قَال أَبُو مَالك، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ، وَقَتَادَة.

وَقَال ابْن جَرِير: وَالعَرَب إِذَا وَصَفُوا الأَسْوَد بِكَثْرَةِ السَّوَاد، قَالُوا: أَسْوَد غِرْبِيب. وَلِهَذَا قَال بَعْض المُفَسِّرِين فِي هَذِهِ الآيَة: هَذَا مِنْ المُقَدَّم وَالمُؤَخَّر فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾، أَيْ: سُود غَرَابِيب، وَفِيمَا قَالهُ نَظَر.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾، أَيْ: وكَذَلكَ الحَيَوَانَات مِنْ الأَناسِي وَالدَّوَابّ -وَهُوَ: كُلّ مَا دَبَّ عَلى قَوَائِم- وَالأَنْعَام: مِنْ بَاب عَطْف الخَاصّ عَلى العَامّ. كَذَلكَ هِيَ مُخْتَلفَة أَيْضًا، فَالنَّاس مِنْهُمْ بَرْبَر وَحُبُوشٌ وَطِمَاطِم فِي غَايَة السَّوَاد، وَصَقَالبَة وَرُوم فِي غَايَة البَيَاض، وَالعَرَب بَيْن ذَلكَ، وَالهُنُود دُون ذَلكَ؛ وَلِهَذَا قَال تَعَالى فِي الآيَة الأُخْرَى: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾. وَكَذَلكَ الدَّوَابّ وَالأَنْعَام مُخْتَلفَة الأَلْوَان، حَتَّى فِي الجِنْس الوَاحِد، بَل النَّوْع الوَاحِد منهن مُخْتَلف الأَلْوَان، بَل الحَيَوَان الوَاحِد يَكُون أَبْلق، فِيهِ مِنْ هَذَا اللَّوْن وَهَذَا اللَّوْن، فَتَبَارَكَ الله أَحْسَن الخَالِقِينَ.

وَقَدْ قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار فِي «مُسْنَده»: حَدَّثَنَا الفَضْل بْن سَهْل، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عُمَر بْن أَبَانَ بْن صَالح، حَدَّثَنَا زِيَاد بْن عَبْد الله، عَنْ عَطَاء بْن السَّائِب، عَنْ سعيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَال: جَاءَ رَجُل إِلى النَّبِيّ ﷺ فَقَال: أَيَصْبُغُ رَبّك؟ فقَال: «نَعَمْ صَبْغًا لا يُنْفَض، أَحْمَر وَأَصْفَر وَأَبْيَض»[1]. وَرُوِيَ مُرْسَلًا وَمَوْقُوفًا، وَالله أَعْلم. وَلِهَذَا قَال تَعَالى بَعْد هَذَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، أَيْ: إِنَّمَا يَخْشَاهُ حَقّ خَشْيَته العُلَمَاء العَارِفُونَ بِهِ؛ لأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتْ المَعْرِفَة للعَظِيم القَدِير العَلِيم المَوْصُوف بِصِفَاتِ الكَمَال المَنْعُوت بِالأَسْمَاءِ الحُسْنَى؛ كُلَّمَا كَانَتْ المَعْرِفَة بِهِ أَتَمّ، وَالعِلم بِهِ أَكْمَل؛ كَانَتْ الخَشْيَة لهُ أَعْظَم وَأَكْثَر.

قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، قَال: الَّذِينَ يَعْلمُونَ أَنَّ الله عَلى كُلّ شَيْء قَدِير. وَقَال ابْن لهِيعَة، عَنْ ابْن أَبِي عَمْرَة، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس قَال: العَالم بِالرَّحْمَنِ مَنْ لمْ يُشْرِك شَيْئًا، وَأَحَلَّ حَلاله، وَحَرَّمَ حَرَامه، وَحَفِظَ وَصِيَّته، وَأَيْقَنَ أَنَّهُ مُلاقِيه وَمُحَاسِبه بِعَمَلهِ. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: الخَشْيَة هِيَ الَّتِي تَحُول بَيْنك وَبَيْن مَعْصِيَة الله عز وجل. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: الإِيمَان مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالغَيْب، وَرَغِبَ فِيمَا رَغَّبَ الله فِيهِ، وَزَهِدَ فِيمَا سَخَّطَ الله فِيهِ، ثُمَّ تَلا الحَسَن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

وَعَنْ ابْن مَسْعُود رضي الله عنه أَنَّهُ قَال: ليْسَ العِلم عَنْ كَثْرَة الحَدِيث، وَلَكِنَّ العِلم عَنْ كَثْرَة الخَشْيَة. وَقَال أَحْمَد بْن صَالح المِصْرِيّ، عَنْ ابْن وَهْب عَنْ مَالك؛ قَال: «إِنَّ العِلم ليْسَ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَة، وَإِنَّمَا العِلم نُور يَجْعَلهُ الله فِي القَلب». قَال أَحْمَد بْن صَالح المِصْرِيّ: مَعْنَاهُ أَنَّ الخَشْيَة لا تُدْرَك بِكَثْرَةِ الرِّوَايَة، وأما العِلم الَّذِي فَرَضَ الله عز وجل أَنْ يُتَّبَع فَإِنَّمَا هُوَ الكِتَاب وَالسُّنَّة، وَمَا جَاءَ عَنْ الصَّحَابَة رضي الله عنهم وَمَنْ بَعْدهمْ مِنْ أَئِمَّة المُسْلمِينَ، فَهَذَا لا يُدْرَك إِلَّا بِالرِّوَايَةِ، وَيَكُون تَأْوِيل قَوْله: (نُور) يُرِيد بِهِ فَهْم العِلم، وَمَعْرِفَة مَعَانِيه. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي حَيَّان عَنْ رَجُل؛ قَال: كَانَ يُقَال: العُلمَاء ثَلاثَة: عَالم بِالله، عَالم بأمر الله، وَعَالم بِالله ليْسَ بِعَالمٍ بِأَمْرِ الله. وَعَالم بِأَمْرِ الله

---

(١) ضعيف: أخرجه البزار (١١٨٤) «كشف»، وفيه عطاء بن السائب، وقد اختلط.

لَيْسَ بِعَالِمٍ بِالله. فَالعَالِمُ بِالله وَبِأَمْرِ الله: الَّذِي يَخْشَى الله وَيَعْلم الحُدُود وَالفَرَائِض. وَالعَالِم بِالله لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ الله: الَّذِي يَخْشَى الله وَلا يَعْلم الحُدُود وَلا الفَرَائِض. وَالعَالِم بِأَمْرِ الله لَيْسَ بِعَالِمٍ بِالله: الَّذِي يَعْلم الحُدُود وَالفَرَائِض وَلا يَخْشَى الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ عِبَاده المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابه وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ، مِنْ إِقَام الصَّلاة، وَالإِنْفَاق مِمَّا رَزَقَهُمْ الله تَعَالى فِي الأَوْقَات المَشْرُوعَة لَيْلًا وَنَهَارًا، سِرًّا وَعَلانِيَة، ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾، أَيْ: يَرْجُونَ ثَوَابًا عِنْد الله لابُدّ مِنْ حُصُوله. كَمَا قَدَّمْنَا فِي أَوَّل «التَّفْسِير» عِنْد فَضَائِل القُرْآن أَنَّهُ يَقُول لِصَاحِبِهِ: «إِنَّ كُلّ تَاجِر مِنْ وَرَاء تِجَارَته، وَإِنَّك اليَوْم مِنْ وَرَاء كُلّ تِجَارَة». وَلِهَذَا قَال تَعَالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾، أَيْ: لِيُوَفِّيَهُمْ ثَوَاب مَا فعلوه وَيُضَاعِفهُ لَهُمْ بِزِيَادَاتٍ لَمْ تَخْطُر لَهُمْ، ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ ﴾، أَيْ: لِذُنُوبِهِمْ، ﴿شَكُورٌ﴾ لِلقَلِيل مِنْ أَعْمَالهمْ. قَال قَتَادَة: كَانَ مُطَرِّف رَحِمَهُ الله إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الآيَة يَقُول: هَذِهِ آيَة القُرَّاء.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا حَيْوَةُ، حَدَّثَنَا سَالِم بْن غَيْلان: أنه سَمِعَ دَرَّاجًا أَبَا السَّمْح يُحَدِّث عَنْ أَبِي الهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه: أنه سَمِعَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم يَقُول: «إِنَّ الله تَعَالى إِذَا رَضِيَ عَنْ العَبْد أَثْنَى عَلَيْهِ سبعة أَصْنَاف مِنْ الخَيْر لَمْ يَعْمَلهُ، وَإِذَا سَخِطَ عَلى العَبْد أَثْنَى عَلَيْهِ سبعة أَصْنَاف مِنْ الشَّرّ لَمْ يَعْمَلهُ»[1]. غَرِيب جِدًّا.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾.

يَقُول تَعَالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾، يَا مُحَمَّد مِنَ الكِتَاب، وَهُوَ القُرْآن ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ ﴾، أَيْ: مِنْ الكُتُب المُتَقَدِّمَة بِصِدْقِهَا، كَمَا شَهِدَتْ لهُ بالنبوة، وَأَنَّهُ مُنَزَّل مِنْ رَبّ العَالَمِينَ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾، أَيْ: هُوَ خَبِير بِهِمْ بَصِير بِمَنْ يَسْتَحِقّ مَا يُفَضِّلهُ بِهِ عَلى مَنْ سِوَاهُ، وَلِهَذَا فَضَّل الأَنْبِيَاء وَالرُّسُل عَلى جَمِيع البَشَر، وَفَضَّل النَّبِيِّينَ بَعْضهمْ عَلى بَعْض، وَرَفَعَ بَعْضهمْ دَرَجَات، وَجَعَل مَنْزِلة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم فَوْق جَمِيعهمْ، صَلَوَات الله وَسَلامه عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

يَقُول تَعَالى: ثُمَّ جَعَلنَا القَائِمِينَ بِالكِتَابِ العَظِيم، المُصَدِّق لِمَا بَيْن يَدَيْهِ مِنْ الكُتُب، الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادنَا، وَهُمْ هَذِهِ الأُمَّة، ثُمَّ قَسَّمَهُمْ إِلى ثَلاثَة أَنْوَاع، فَقَال: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾، وَهُوَ: المُفَرِّط فِي فِعْل بَعْض الوَاجِبَات، المُرْتَكِب لِبَعْضِ المُحَرَّمَات. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾، وهُوَ: المُؤَدِّي لِلوَاجِبَاتِ، التَّارِك لِلمُحَرَّمَاتِ، وَقَدْ يَتْرُك بَعْض المُسْتَحَبَّات، وَيَفْعَل بَعْض المَكْرُوهَات. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾، وَهُوَ: الفَاعِل لِلوَاجِبَاتِ وَالمُسْتَحَبَّات التَّارِك لِلمُحَرَّمَاتِ وَالمَكْرُوهَات وَبَعْض المُبَاحَات.

قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا ﴾، قَال هُمْ أُمَّة مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، وَرَّثَهُمْ الله كُلّ كِتَاب أَنْزَلهُ فَظَالِمهمْ يُغْفَر لهُ وَمُقْتَصِدهمْ يُحَاسَب حِسَابًا يَسِيرًا وَسَابِقهمْ يَدْخُل الجَنَّة بِغَيْرِ

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٣٨) من رواية دراج أبي السمح عن أبي الهيثم، وروايته عنه ضعيفة.

حِسَاب. وَقَال ابْن القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حدثني يَحْيَى بن عُثْمَان بْن صَالح وَعَبْد الرَّحْمَن بْن مُعَاوِيَة العُتْبِيّ قَالا: حَدَّثَنَا أَبُو الطَّاهِر بْن السَّرْح حَدَّثَنَا مُوسَى بْن عَبْد الرَّحْمَن الصَّنْعَانِيّ، حَدَّثَنِي ابْن جُرَيْج عَنْ عَطَاء عَنْ ابْن عَبَّاس عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال ذَات يَوْم: «**شَفَاعَتِي لأَهْل الكَبَائِر مِنْ أُمَّتِي**»[1]. قَال ابْن عَبَّاس: السَّابِق بِالخَيْرَاتِ يَدْخُل الجَنَّة بِغَيْرِ حِسَاب، وَالمُقْتَصِد يَدْخُل الجَنَّة بِرَحْمَةِ الله، وَالظَّالِم لِنَفْسِهِ وَأَصْحَاب الأَعْرَاف يَدْخُلُونَ الجَنَّة بِشَفَاعَةِ مُحَمَّد ﷺ. وَهكَذَا رُوِيَ عَنْ غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف: أَنَّ الظَّالِم لِنَفْسِهِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّة مِنْ المُصْطَفَيْنَ، عَلَى مَا فِيهِ مِنْ عِوَج وَتَقْصِير. وَقَال آخَرُونَ: بَل الظَّالِم لِنَفْسِهِ لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الأُمَّة، وَلا مِنْ المُصْطَفَيْنَ الوَارِثِينَ لِلكِتَاب.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن هَاشِم بْن مَرْزُوق، حَدَّثَنَا ابْن عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرو عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾، قَال: هُوَ الكَافِر. وَكَذَا رَوَى عَنْهُ عِكْرِمَة، وَبِهِ قَال عِكْرِمَة أَيْضًا فِيمَا رَوَاهُ ابْن جَرِير. وَقَال ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾، قَال: هُمْ أَصْحَاب المَشْأَمَة. وَقَال مَالك عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ وَالحَسَن، وَقَتَادَة: هُوَ المُنَافِق. ثُمَّ قَدْ قَال ابْن عَبَّاس، وَالحَسَن وَقَتَادَة: وَهَذِهِ الأَقْسَام الثَّلاثَة كَالأَقْسَامِ الثَّلاثَة المَذْكُورَة فِي أَوَّل «سُورَة الوَاقِعَة» وَآخِرهَا. وَالصَّحِيح أَنَّ الظَّالِم لِنَفْسِهِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّة. وَهَذَا اخْتِيَار ابْن جَرِير كَمَا هُوَ ظَاهِر الآيَة، وَكَمَا جَاءَتْ بِهِ الأَحَادِيث عَنْ رَسُول الله ﷺ مِنْ طُرُق يَشُدّ بَعْضهَا بَعْضًا، وَنَحْنُ نُورِد مِنْهَا مَا تَيَسَّرَ.

الحَدِيث الأَوَّل: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جَعْفَر حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ الوَلِيد بْن العِيزَارِ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا مِنْ ثَقِيف يُحَدِّث عَنْ رَجُل مِنْ كِنَانَة عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال فِي هَذِهِ الآيَة: «﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾، قَال: هَؤُلاءِ كُلّهمْ بِمَنْزِلة وَاحِدَة وَكُلّهمْ فِي الجَنَّة»[2]. هَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه، وَفِي إِسْنَاده مَنْ لَمْ يُسَمَّ. وَقَدْ رَوَاهُ ابْن جَرِير وَابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث شُعْبَة، بِهِ نَحْوه. وَمَعْنَى قَوْله: «بِمَنْزِلة وَاحِدَة» أَيْ: فِي أَنَّهُمْ مِنْ هَذِهِ الأُمَّة، وَأَنَّهُمْ مِنْ أَهْل الجَنَّة، وَإِنْ كَانَ بَيْنهمْ فَرْق فِي المَنَازِل فِي الجَنَّة.

الحَدِيث الثَّانِي: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن عِيسَى، حَدَّثَنَا أَنَس بْن عِيَاض اللَّيْثِيّ أَبُو ضمرة، عَنْ مُوسَى بْن عُقْبَة، عَنْ عَلِيّ بْن عَبْد الله الأَزْدِيّ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء رضي الله عنه قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: قَال الله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾، فَأَمَّا الَّذِينَ سَبَقُوا فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّة بِغَيْرِ حِسَاب، وَأَمَّا الَّذِينَ اقْتَصَدُوا فَأُولَئِكَ يُحَاسَبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا، وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسهمْ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُحْبَسُونَ فِي طُول المَحْشَر، ثُمَّ هُمْ الَّذِينَ تَلافَاهُمْ بِرَحْمَتِهِ، فَهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾».[3]

طَرِيق أُخْرَى: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أُسَيْد بْن عَاصِم، حدثنَا الحُسَيْن بْن حَفْص، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ الأَعْمَش عَنْ رَجُل، عَنْ أَبِي ثَابِت، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء رضي الله عنه قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، قَال: فَأَمَّا الظَّالِم لِنَفْسِهِ فَيُحْبَس حَتَّى يُصِيبهُ الهَمّ وَالحَزَن، ثُمَّ

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٧٨)، والترمذي (٣٢٢٣)، وفيه من لم يسم.
(٣) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ١٩٨)، وإسناده ضعيف لانقطاعه بين علي بن عبد الله وأبي الدرداء.

يَدْخُل الجَنَّة». وَرَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ حَدِيث سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَنْ الأَعْمَش؛ قَال: ذَكَرَ أَبُو ثَابِت أَنَّهُ دَخَل المَسْجِد، فَجَلَسَ إِلى جَنْب أَبِي الدَّرْدَاء، فَقَال: اللَّهُمَّ، آنِسْ وَحْشَتِي، وَارْحَمْ غُرْبَتِي، وَيَسِّرْ لِي جَلِيسًا صَالحًا. قَال أَبُو الدَّرْدَاء: لَئِنْ كُنْت صَادِقًا لأَنَا أَسْعَد بك مِنْك، سَأُحَدِّثُك حَدِيثًا سَمِعْته مِنْ رَسُول الله ﷺ لَمْ أُحَدِّث بِهِ مُنْذُ سَمِعْته مِنْهُ، ذَكَرَ هَذِهِ الآيَة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾: «فَأَمَّا السَّابِق بِالخَيْرَاتِ فَيَدْخُلهَا بِغَيْرِ حِسَاب، وَأَمَّا المُقْتَصِد فَيُحَاسَب حِسَابًا يَسِيرًا، وَأَمَّا الظَّالِم لِنَفْسِهِ فَيُصِيبهُ فِي ذَلِكَ المَكَان مِنْ الغَمّ وَالحَزَن، وَذَلِكَ قَوْله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾».

الحَدِيث الثَّالث: قَال الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن العَبَّاس، حَدَّثَنَا ابْن مَسْعُود، أَخْبَرَنَا سَهْل بْن عَبْد رَبّه الرَّازِيّ، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن أَبِي قَيْس عَنْ ابْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ أَخِيهِ عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن أَبِي لَيْلَى، عَنْ أُسَامَة بْن زَيْد: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ...﴾ الآيَة، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «كُلّهمْ مِنْ هَذِهِ الأُمَّة».[1]

الحَدِيث الرَّابع: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حدثنا مُحَمَّد بْن عَزِيز، حَدَّثَنَا سَلامَة، عَنْ عُقَيْل عَنْ ابْن شِهَاب عَنْ عَوْف بْن مَالك، عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «أُمَّتِي ثَلاثَة أَثْلات: فَثُلُث يَدْخُلُونَ الجَنَّة بِغَيْرِ حِسَاب وَلا عَذَاب، وَثُلُث يُحَاسَبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا ثُمَّ يَدْخُلُونَ الجَنَّة، وَثُلُث يُمَحَّصُونَ وَيُكْشِفُونَ، ثُمَّ تَأْتِي المَلائِكَة فَيَقُولُونَ: وَجَدْنَاهُمْ يَقُولُونَ: لا إِله إلاَّ الله وَحْده، يَقُول الله ﷻ: صَدَقُوا لا إِله إلاَّ أَنَا، أَدْخِلُوهُمْ الجَنَّة بِقَوْلِهِمْ: لا إِله إلاَّ الله وَحْده وَاحْمِلُوا خَطَايَاهُمْ عَلى أَهْل النَّار». وَهِيَ الَّتِي قَال الله تَعَالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، وَتَصْدِيقهَا فِي الَّتِي فِيهَا ذِكْر المَلائِكَة، قَال الله تَعَالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، فَجَعَلَهُمْ ثَلاثَة أنواع، وَهُمْ أَصْنَاف كُلّهمْ، فَمِنْهُمْ ظَالم لِنَفْسِهِ، فَهَذَا الَّذِي يكشف ويُمَحَّص.[2] غَرِيب جِدًّا.

أَثَر عَنْ ابْن مَسْعُود: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا الحَكَم بْن بَشِير، عَنْ عَمْرو بْن قَيْس، عَنْ عَبْد الله بْن عِيسَى، عَنْ يَزِيد بْن الحَارِث، عَنْ شَقِيق أَبِي وَائِل، عَنْ عَبْد الله بْن مَسْعُود؛ أنه قَال: هَذِهِ الأُمَّة ثَلاثَة أَثْلاث يَوْم القِيَامَة، ثُلُث يَدْخُلُونَ الجَنَّة بِغَيْرِ حِسَاب، وَثُلُث يُحَاسَبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا، وَثُلُث يَجِيئُونَ بِذُنُوب عِظَام حَتَّى يَقُول: مَا هَؤُلاءِ -وَهُوَ أَعْلم تَبَارَكَ وَتَعَالى-؟ فَتَقُول المَلائِكَة: هَؤُلاءِ جَاءُوا بِذُنُوب عِظَام إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يُشْرِكُوا بِك. فَيَقُول الرَّبّ ﷻ: أَدْخِلُوا هَؤُلاءِ فِي سَعَة رَحْمَتِي. وَتَلا عَبْد الله هَذِهِ الآيَة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾. الآيَة.

أَثَر آخَر: قَال أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ، عَنْ الصَّلت بْن دِينَار أبو شُعيب، عَنْ عُقْبَة بْن صُهْبَانَ الهُنَائِيّ، قَال: سَأَلت عَائِشَة رضي الله عنها عَنْ قَوْل الله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ...﴾ الآيَة، فَقَالتْ لِي: يَا بُنَيّ، هَؤُلاءِ فِي الجَنَّة، أَمَّا السَّابِق بِالخَيْرَاتِ فَمَنْ مَضَى عَلى عَهْد رَسُول الله ﷺ شَهِدَ لَهُ رَسُول الله ﷺ بِالحَيَاةِ وَالرِّزْق. وَأَمَّا المُقْتَصِد فَمَنْ اتَّبَعَ أَثَره مِنْ أَصْحَابه حَتَّى لَحِقَ بِهِ. وَأَمَّا الظَّالم لِنَفْسِهِ فَمِثْلِي وَمِثْلكُمْ. قَال: فَجَعَلَتْ نَفْسهَا مَعَنَا. وَهَذَا مِنْهَا رضي الله عنها، مِنْ بَاب الهَضْم وَالتَّوَاضُع، وَإِلَّا فَهِيَ مِنْ أَكْبَر السَّابِقِينَ بِالخَيْرَاتِ؛ لأَنَّ فَضْلهَا عَلى النِّسَاء كَفَضْل الثَّرِيد عَلى سَائِر الطَّعَام. وَقَال عَبْد الله بْن المُبَارَك رَحِمَهُ اللهُ: قَال أَمِير

---

(١) إسناده ضعيف : أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢١٦)، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلي وهو سيئ الحفظ.

(٢) إسناده ضعيف : أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢١٥)، وفيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات. قال أبو زرعة: ضعيف منكر الحديث.

الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَان بْن عَفَّان رضي الله عنه فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، قَالَ: هِيَ لأَهْل بَدْونَا، وَمُقْتَصِدنَا أَهْل حَضَرنَا، وَسَابِقنَا أَهْل الجِهَاد. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم.

وَقَال عَوْف الأَعْرَابِيّ: حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن الحَارِث بْن نَوْفَل، قَال حَدَّثَنَا كَعْب الأَحْبَار؛ قَال: إِنَّ الظَّالِم لنَفْسِهِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّة، وَالْمُقْتَصِد وَالسَّابِق بِالخَيْرَاتِ كُلّهمْ فِي الجَنَّة، أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله تَعَالَى قَال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، إِلى قَوْله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، قَال: فَهَؤُلاءِ أَهْل النَّار. رَوَاهُ ابْن جَرِير مِنْ طُرُق، عَنْ عَوْف بِهِ. ثُمَّ قَال: حَدَّثَنِي يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا ابْن عُلَيَّة أَخْبَرَنَا حُمَيْد، عَنْ إِسْحَاق بْن عَبْد الله بْن الحَارِث، عَنْ أَبِيهِ: أن ابْن عَبَّاس سَأَل كَعْبًا عَنْ قَوْله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ﴾، إِلى قَوْله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾، فقَال: تَمَاسَّتْ مَنَاكِبهمْ وَرَبّ كَعْب، ثُمَّ أُعْطُوا الفَضْل بِأَعْمَالِهِمْ.

ثُمَّ قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا الحَكَم بْن بَشِير، حَدَّثَنَا عَمْرو بْن قَيْس، عَنَّ أَبِي إِسْحَاق السَّبِيعِيّ فِي هَذِهِ الآيَة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ ...﴾ الآيَة، قَال أَبُو إِسْحَاق: أَمَّا مَا سَمِعْت منذ سِتِّينَ سَنَة فَكُلّهمْ نَاجٍ. ثُمَّ قَال: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا الحَكَم، حَدَّثَنَا عَمْرو عَنْ مُحَمَّد ابْن الحَنَفِيَّة، قَال: إِنَّهَا أُمَّة مَرْحُومَة، الظَّالِم مَغْفُور لهُ، وَالْمُقْتَصِد فِي الجِنَان عِنْد الله، وَالسَّابِق بِالخَيْرَاتِ فِي الدَّرَجَات عِنْد الله. وَرَوَاهُ الثَّوْرِيّ، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن سُمَيْع، عَنْ رَجُل، عَنْ مُحَمَّد ابْن الحَنَفِيَّة بِنَحْوِهِ.

وَقَال أَبُو الجَارُود: سَأَلت مُحَمَّد بْن عَلِيّ -يَعْنِي البَاقِر- عَنْ قَوْله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾، فَقَال: هُوَ الَّذِي خَلطَ عَمَلًا صَالحًا وَآخر سَيِّئًا. فَهَذَا مَا تَيَسَّرَ مِنْ إِيرَاد الأَحَادِيث وَالآثَار الْمُتَعَلِّقَة بِهَذَا المَقَام. وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَإِنَّ الآيَة عَامَّة فِي جَمِيع الأَقْسَام الثَّلاثَة فِي هَذِهِ الأُمَّة، فَالعُلَمَاء أَغْبَط النَّاس بِهَذِهِ النِّعْمَة، وَأَوْلى النَّاس بِهَذِهِ الرَّحْمَة، فَإِنَّهُمْ كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن يَزِيد، حَدَّثَنَا عَاصِم بْن رَجَاء بْن حَيْوَةَ، عَنْ قَيْس بْن كَثِير؛ قَال: قَدِمَ رَجُل مِنْ أَهْل المَدِينَة إِلى أَبِي الدَّرْدَاء وَهُوَ بِدِمَشْق؛ فَقَال: مَا أَقْدَمَك أَيْ أَخِي؟ قَال: حَدِيث بَلَغَنِي أَنَّك تُحَدِّث بِهِ عَنْ رَسُول الله ﷺ . قَال: أَمَا قَدِمْت لِتِجَارَةٍ؟ قَال: لا. قَال: أَمَا قَدِمْت لحَاجَةٍ؟ قَال: لا؟ قَال: أَمَا قَدِمْت إِلَّا فِي طَلَب هَذَا الحَدِيث؟ قَال: نَعَمْ. قَال: فَإِنِّي سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: **«مَنْ سَلكَ طَرِيقًا يَطْلُب فيه عِلمًا، سَلكَ الله بِهِ طَرِيقًا إِلى الجَنَّة، وَإِنَّ المَلائِكَة لتَضَع أَجْنِحَتهَا رِضًا لطَالبِ العِلم، وَإِنَّهُ ليَسْتَغْفِر للعَالمِ مَنْ فِي السَّمَاوَات وَالأَرْض حَتَّى الحِيتَان فِي المَاء، وَفَضْل العَالم عَلى العَابِد كَفَضْل القَمَر عَلى سَائِر الكَوَاكِب، إِنَّ العُلمَاء هُمْ وَرَثَة الأَنْبِيَاء، وَإِنَّ الأَنْبِيَاء لمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلم، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»**[1]. وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ، مِنْ حَدِيث كَثِير بْن قَيْس وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُول: قَيْس بْن كَثِير، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء رضي الله عنه. وَقَدْ ذَكَرْنَا طُرُقه وَاخْتِلاف الرُّوَاة فِيهِ فِي شَرْح «كِتَاب العِلم» مِنْ «صَحِيح البُخَارِيّ»، وَلله الحَمْد وَالمِنَّة. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّل «سُورَة طَه» حَدِيث ثَعْلَبَة بْن الحَكَم، عَنْ رَسُول الله ﷺ قَال: «يَقُول الله تَعَالى يَوْم القِيَامَة للعُلَمَاءِ: إِنِّي لمْ أَضَع عِلمِي وَحِكْمَتِي فِيكُمْ إِلاَّ وَأَنَا أُرِيد أَنْ أَغْفِر لكُمْ، عَلى مَا كَانَ مِنْكُمْ، وَلا أُبَالي».[2]

---

(١) حسن لغيره : أخرجه أحمد (١٩٦/٥) بسند ضعيف.
(٢) ضعيف : تقــدم.

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴾.

يُخْبِر تَعَالى أَنَّ مأوي هَؤُلاءِ المُصْطَفَيْنَ مِنْ عِباده، الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَاب المُنَزَّل مِنْ رَبّ العَالِمِينَ مأواهم يَوْم القِيَامَة مَأْوَاهُمْ ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾، أَيْ: جَنَّات الإِقَامَة، يَدْخُلُونَهَا يَوْم مَعَادهمْ وَقُدُومهمْ عَلى ربهم ﷻ: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيح» عَنْ أَبِى هُرَيْرَة رضي الله عنه عَنْ رَسُول الله ﷺ أَنَّهُ قَال: «**تَبْلُغ الحِلْيَة مِنْ المُؤْمِن حَيْثُ يَبْلُغ الوُضُوء**»[1]. ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾، وَلِهَذَا كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَأَبَاحَهُ الله لَهُمْ فِي الآخِرَة، وَثَبَتَ فِي «الصَّحِيح» أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**مَنْ لبِسَ الحَرِير فِي الدُّنْيَا لمْ يلبَسهُ فِي الآخِرَة**». وَقَال: «**هِيَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلكُمْ فِي الآخِرَة**».[2]

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا عَمْرو بْن سَوَاد السَّرْحِيّ، أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب عَنْ ابن لِهِيعَة، عَنْ عُقَيْل بْن خَالد، عَنْ الحَسَن عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه: أن أَبَا أُمَامَة حَدَّث أَنَّ رَسُول الله ﷺ حَدَّثَهُمْ وَذَكَرَ حُلِيّ أَهْل الجَنَّة فَقَال: «**مُسَوَّرُون بِالذَّهَبِ وَالفِضَّة مُكَلَّلة بِالدُّرّ، وَعَليْهِمْ أَكَالِيل مِنْ دُرّ وَيَاقُوت مُتَوَاصِلة، وَعَليْهِمْ تَاج كَتَاج المُلُوك، شَبَاب جُرْد مُرْد مُكَحَّلون**»[3]. ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾، وَهُوَ الخَوْف مِنْ المَحْذُور، أَزَاحَهُ عَنَّا وَأَرَاحَنَا مِمَّا كُنَّا نَتَخَوَّفهُ، وَنَحْذَرهُ مِنْ هُمُوم الدُّنْيَا وَالآخِرَة. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْن عُمَر؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «لَيْسَ عَلى أَهْل لا إِله إِلَّا الله وَحْشَة فِي قُبُورهمْ وَلا فِي مَنْشرهمْ، وَكَأَنِّي بِأَهْل لا إِله إِلَّا الله يَنْفُضُونَ التُّرَاب عَنْ رُءُوسهمْ، وَيَقُولُونَ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾»[4]. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيثه.

وَقَال الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثنَا جَعْفَر بْن مُحَمَّد الفِرْيَابِيّ، حَدَّثنَا مُوسَى بْن يَحْيَى المَرْوَزِيّ، حَدَّثنَا سُليْمَان بْن عَبْد الله بْن وَهْب الكُوفِيّ، عَنْ عَبْد العَزِيز بْن حَكِيم، عَنْ ابْن عُمَر؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «**لَيْسَ عَلى أَهْل لا إِله إِلَّا الله** وَحْشَة فِي المَوْت وَلا فِي [القُبُور][5]. وَلا فِي النُّشُور، وَكَأَنِّي أَنْظُر إِليْهِمْ عِنْد الصَّيْحَة يَنْفُضُونَ رُءُوسهمْ مِنْ التُّرَاب، يَقُولُونَ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾»[6]. قَال ابْن عَبَّاس، وَغَيْره: غَفَرَ لَهُمْ الكَثِير مِنْ السَّيِّئَات وَشَكَرَ لَهُمْ اليَسِير مِنْ الحَسَنَات. ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، يَقُولُونَ: الَّذِي أَعْطَانَا هَذِهِ المَنْزِلة، وَهَذَا المَقَام مِنْ فَضْله وَمَنِّهِ وَرَحْمَته، لمْ تَكُنْ أَعْمَالنَا تُسَاوِي ذَلكَ. كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيح» أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «**لنْ يُدْخِل أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّة**». قَالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُول الله؟ قَال: «**وَلا أَنَا، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْل**»[7]. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾، أَيْ: لا يَمَسّنَا فِيهَا عَنَاء وَلا إِعْيَاء. وَالنَّصَب وَاللُّغُوب: كُلّ مِنْهُمَا يُسْتَعْمَل فِي التَّعَب. وَكَأَنَّ المُرَاد بِنَفْيِ هَذَا وَهَذَا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لا تَعَب عَلى أَبْدَانهمْ وَلا

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (٢٥٠)، والنسائي (١/ ٢٣).
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣).
(٣) رجاله ثقات : غير أن الحسن البصري مدلس، والحديث رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢٦٧).
(٤) ضعيف : ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (١٠٣٦٦).
(٥) في نسخة: [قبورهم].
(٦) إسناده ضعيف : قال العراقي: أخرجه أبو يعلى والطبراني والبيهقي في «الشعب» من حديث ابن عمر بسند ضعيف. «تخريج الإحياء» (١/ ٢٤١).
(٧) صحيح : أخرجه البخاري (٥٣٤٩)، ومسلم (٢٨١٦).

أَرْوَاحهمْ، وَالله أَعْلَمُ. فَمِنْ ذَلكَ: أَنَّهُمْ كَانُوا يُدْئِبُون أَنْفُسهمْ فِي العِبَادَة فِي الدُّنْيَا، فَسَقَطَ عَنْهُمْ التَّكْليف بِدُخُولهَا، وَصَارُوا فِي رَاحَة دَائِمَة مُسْتَمِرَّة. قَال الله تَعَالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾.

لـمَّا ذَكَرَ تَعَالى حَال السُّعَدَاء، شَرَعَ فِي بَيَان مَآل الأَشْقِيَاء، فَقَال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾. وَثَبَتَ فِي «صَحِيح مُسْلم» أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «أَمَّا أَهْل النَّار الَّذِينَ هُمْ أَهْلهَا فَلا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلا يَحْيَوْنَ». قَال الله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾. فَهُمْ فِي حَالهمْ ذَلكَ يَرَوْنَ مَوْتهمْ رَاحَة لهُمْ وَلكِنْ لا سَبِيل إِلى ذَلكَ، قَال الله تَعَالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، كَمَا قَال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾، وَقَال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾، ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾. ثُمَّ قَال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾، أَيْ: هَذَا جَزَاء كُلّ مَنْ كَفَرَ بِرَبِّه، وَكَذَّبَ بالحَقّ.

وَقَوْله: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾، أَيْ: يُنَادُونَ فِيهَا، يَجْأَرُونَ إِلى الله عَزَّ وَجَلَّ بِأَصْوَاتِهِمْ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، أَيْ: يَسْأَلُونَ الرَّجْعَة إِلى الدُّنْيَا ليَعْمَلُوا غَيْر عَمَلهمْ الأَوَّل، وَقَدْ عَلمَ الرَّبّ جَلَّ جَلاله أَنَّهُ لوْ رَدَّهُمْ إِلى الدَّار الدُّنْيَا لعَادُوا لمَا نُهُوا عَنْهُ، وَإِنَّهُمْ لكَاذِبُونَ. فَلهَذَا لا يُجِيبهُمْ إِلى سُؤَالهمْ، كَمَا قَال تَعَالى مُخْبِرًا عَنْهُمْ فِي قَوْلهمْ: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾، أَيْ: لا يُجِيبكُمْ إِلى ذَلكَ لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ كَذَلكَ وَلوْ رُدِدْتُم لعُدْتُمْ إِلى مَا نُهِيتُمْ عَنْهُ، ولهذا قَال هَهُنَا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، أَيْ: أَوَمَا عِشْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَعْمَارًا لوْ كُنْتُمْ مِمَّنْ يَنْتَفِع بِالحَقِّ لانْتَفَعْتُمْ بِهِ فِي مُدَّة عُمُرِكُمْ؟ وَقَدْ اخْتَلفَ المُفَسِّرُونَ فِي مِقْدَار العُمُر المُرَاد هَهُنَا، فَرُوِيَ عَنْ عَليّ بْن الحُسَيْن زَيْن العَابِدِينَ؛ أَنَّهُ قَال: مِقْدَار سَبْع عَشْرة سَنَة.

وَقَال قَتَادَة: اعْلمُوا أَنَّ طُول العُمُر حُجَّة فَنَعُوذ بِالله أَنْ نُعَيَّر بِطُول العُمُر، قَدْ نَزَلتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، وَإِنَّ فِيهِمْ لابْن ثَمَانِي عَشْرَة سَنَة. وَكَذَا قَال أَبُو غَالب الشَّيْبَانِيّ. وَقَال عَبْد الله بْن المُبَارَك عَنْ مَعْمَر، عَنْ رَجُل عَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه فِي قَوْله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، قَال: عِشْرِينَ سَنَة. وَقَال هُشَيْم، عَنْ مَنْصُور، عَنْ زَاذَانَ عَنْ الحَسَن فِي قَوْله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، قَال: أَرْبَعِينَ سَنَة. وَقَال هُشَيْم، عَنْ مُجَالد، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ مَسْرُوق أَنَّهُ كَانَ يَقُول: إِذَا بَلغَ أَحَدكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَة؛ فَليَأْخُذْ حِذْره مِنْ الله ﷻ. وَهَذا رِوَايَة عَنْ ابْن عَبَّاس فِيمَا قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن عَبْد الأَعْلى، حَدَّثَنَا بِشْر بْن المُفَضَّل، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن عُثْمَان بْن خُثَيْم، عَنْ مُجَاهِد؛ قَال: سَمِعْت ابْن عَبَّاس، يَقُول: العُمُر الَّذِي أَعْذَرَ الله إِلى ابن آدَم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أَرْبَعُونَ سَنَة. هَكَذَا رَوَاهُ مِنْ هَذَا الوَجْه عَنْ ابْن عَبَّاس، وَهَذَا القَوْل هُوَ اخْتِيَار ابْن جَرِير. ثُمَّ رَوَاهُ مِنْ طَرِيق الثَّوْرِيّ وَعَبْد الله بْن إِدْرِيس، كليهما عَنْ عَبْد الله بْن عُثْمَان بْن خُثَيْم عَنْ مُجَاهِد عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَال: العُمُر الَّذِي أَعْذَرَ الله فِيهِ لابْنِ آدَم فِي قَوْله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾؛ سِتُّونَ سَنَة. فَهَذِهِ الرِّوَايَة أَصَحّ عَنْ ابْن عَبَّاس، وَهِيَ الصَّحِيحَة فِي نَفْس الأَمْر أَيْضًا، لمَا ثَبَتَ فِي ذَلكَ مِنْ الحَدِيث كَمَا سَنُورِدُهُ لا كَمَا زَعَمَهُ ابْن جَرِير مِنْ أَنَّ الحَدِيث لمْ يَصِح؛ لأَنَّ «فِي

إسْناده مَنْ يَجب التَّثَبُّت فِي أَمْره». وَقَدْ رَوَى أَصْبَغ بْن نُبَاتَةَ عَنْ عَلِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: العُمُر الَّذِي عَيَّرَهُمْ الله بِهِ فِي قَوْله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ سِتُّونَ سَنَة.

وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا دُحَيْمٌ، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي فُدَيْك، حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيم بْن الفَضْل المَخْزُومِيّ، عَنْ ابْن أَبِي حُسَيْن المَكِّيّ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ عَطَاء -هُوَ ابْن أَبِي رَبَاح- عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما؛ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَال: «إِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة قِيل: أَيْنَ أَبْنَاء السِّتِّينَ؟ وَهُوَ العُمُر الَّذِي قَال الله فِيهِ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾»[1]. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ عَلِيّ بْن شُعَيْب، عَنْ محمد بن إِسْمَاعِيل بْن أَبِي فُدَيْك بِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ مِنْ طَرِيق ابْن أَبِي فُدَيْك بِهِ. وَهَذَا الحَدِيث فِيهِ نَظَر، لحَال إِبْرَاهِيم بْن الفَضْل، وَالله أَعْلَم.

حَدِيث آخَر: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّزَّاق، حَدَّثَنَا مَعْمَر، عَنْ رَجُل مِنْ بَنِي غِفَار، عَنْ سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَال: «لقَدْ أَعْذَرَ الله إِلى عَبْد أَحْيَاهُ حَتَّى بَلغَ سِتِّينَ أَوْ سَبْعِينَ سَنَة، لقَدْ أَعْذَرَ الله إِليْهِ، لقَدْ أَعْذَرَ الله إِليْهِ»[2]. وَهَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام البُخَارِيّ فِي «كِتَاب الرِّقَاق» مِنْ «صَحِيحه»: حَدَّثَنَا عَبْد السَّلام بْن مطهر، عَنْ عُمَر بْن عَلِيّ، عَنْ مَعْن بْن مُحَمَّد الغِفَارِيّ، عَنْ سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «أَعْذَرَ الله ﷻ إِلى امْرِئٍ أَخَّرَ عُمُره حَتَّى بلَّغه سِتِّينَ سَنَة»[3]. ثُمَّ قَال البُخَارِيّ: تَابَعَهُ أَبُو حَازِم وَابْن عَجْلان عَنْ سَعِيد المَقْبُرِيّ. فَأَمَّا أَبُو حَازِم فَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا أَبُو صَالح الفَزَارِيّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن سِوَار، أَخْبَرَنَا يَعْقُوب بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن عَبْد القاري الإِسْكَنْدَرِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو حَازِم، عَنْ سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «[مَنْ عَمَّرَهُ الله][4] سِتِّينَ سَنَة، فَقَدْ أَعْذَرَ إِليْهِ فِي العُمُر»[5].

وَقَدْ رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد وَالنَّسَائِيّ فِي الرِّقَاق جَمِيعًا عَنْ قُتَيْبَة عَنْ يَعْقُوب بْن عَبْد الرَّحْمَن بِهِ.

وَرَوَاهُ البَزَّار قَال: حَدَّثَنَا هِشَام بْن يُونُس، حَدَّثَنَا عَبْد العَزِيز بْن أَبِي حَازِم، عَنْ أَبِيهِ عَنْ سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: «العُمُر الَّذِي أَعْذَرَ الله فِيهِ إِلى ابْن آدَم سِتُّونَ سَنَة». يَعْنِي: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾. وَأَمَّا مُتَابَعَة ابْن عَجْلان فَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو السَّفْر يَحْيَى بْن مُحَمَّد بْن عَبْد المَلك بْن قُرْعَة بِسَامِرَّاء، حَدَّثَنَا أَبُو عَبْد الرَّحْمَن المُقْبِري، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن أَبِي أَيُّوب، حَدَّثَنِي مُحَمَّد بْن عَجْلان، عَنْ سَعِيد المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ أَتَتْ عَليْهِ سِتُّونَ سَنَة فَقَدْ أَعْذَرَ الله ﷻ إِليْهِ فِي العُمُر»[6]. وَكَذَا رَوَاهُ الإِمَام أَحْمَد عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن هُوَ المُقْرِئ بِهِ. وَرَوَاهُ أَحْمَد أَيْضًا، عَنْ خَلف عَنْ أَبِي مَعْشَر عَنْ سَعِيد المَقْبُرِيّ.

طَرِيق أُخْرَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنِي أَحْمَد بْن الفَرَج أَبُو عُتْبَة الحِمْصِيّ، حَدَّثَنَا بَقِيَّة بْن الوَليد، حَدَّثَنَا المُطَرِّف بْن مَازِن الكِنَانِيّ، حَدَّثَنِي مَعْمَر بْن رَاشِد؛ قَال: سَمِعْت مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحْمَن الغِفَارِيّ يَقُول: سَمِعْت أَبَا هُرَيْرَة؛ يَقُول: قَال رَسُول الله ﷺ: «لقَدْ أَعْذَرَ الله ﷻ فِي العُمُر إِلى صَاحِب السِّتِّينَ سَنَة

---

(١) إسناده ضعيف جدًا : أخرجه الطبري (١٠/ ٤١٨)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ١٧٧)، قال الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٦٨): ضعيف جدًا.

(٢) صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ٢٧٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١١٨).

(٣) صحيح : أخرجه البخاري (٦٤١٩)، وأحمد (٢/ ٢٧٥).

(٤) في (ز) : [إذا أحيي الله تعالى ابن آدم].

(٥) إسناده صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ٤١٧)، والطبري (١٠/ ٤١٨).

(٦) صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٤٥).

وَالسَّبْعِينَ»[1]. فَقَدْ صَحَّ هَذَا الحَدِيث مِنْ هَذِهِ الطُّرُق، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا الطَّرِيق الَّتِي ارْتَضَاهَا أَبُو عَبْد الله البُخَارِيّ شَيْخ هَذِهِ الصِّنَاعَة لَكَفَتْ. وَقَوْل ابْن جَرِير: «إِنَّ فِي رِجَاله بَعْض مَنْ يَجِب التَّثَبُّت فِي أَمْره»، لا يُلتَفَت إِلَيْهِ مَعَ تَصْحِيح البُخَارِيّ، وَالله أَعْلم. وَذَكَرَ بَعْضهمْ أَنَّ العُمُر الطَّبِيعِيّ عِنْد الأَطِبَّاء مِائَة وَعِشْرُونَ سَنَة، فَالإِنْسَان لا يَزَال فِي ازْدِيَاد إِلَى كَمَال السِّتِّينَ، ثُمَّ يَشْرَع بَعْد هَذَا فِي النَّقْص وَالهَرَم، كَمَا قَال الشاعر:

إِذَا بَلَـغَ الفَتَـى سِـتِّينَ عَامًـا ❁ فَقَـدْ ذَهَـبَ المَـسَرَّة وَالفَتَـاء

وَلَـمَّا كَانَ هَذَا هُوَ العُمُر الَّذِي يَعْذُرُ الله إِلَى عِبَادِهِ بِهِ، وَيُزِيح بِهِ عَنْهُمْ العِلَل، كَانَ هُوَ الغَالِب عَلَى أَعْمَار هَذِهِ الأُمَّة، كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الحَدِيث، قَال الحَسَن بْن عَرَفَة رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مُحَمَّد [المُحَارِبِيّ][2]، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَمْرو عَنْ أَبِي سَلَمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : **«أَعْمَار أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقَلّهمْ مَنْ يَجُوز ذَلِكَ»**.[3] وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَابْن مَاجَهْ جَمِيعًا فِي كِتَاب الزُّهْد، عَنْ الحَسَن بْن عَرَفَة بِهِ. ثُمَّ قَال التِّرْمِذِيّ: هَذَا حَدِيث حسن غَرِيب، لا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْه. وَهَذَا عَجَب مِنْ التِّرْمِذِيّ، فَإِنَّهُ قَدْ رَوَاهُ أَبُو بَكْر ابْن أَبِي الدُّنْيَا مِنْ وَجْه آخر وَطَرِيق أُخْرَى، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، حَيْثُ قَال: حَدَّثَنَا سُلَيْمَان بْن عَمْر، عَنْ مُحَمَّد بْن رَبِيعَة، عَنْ كَامِل أَبِي العَلاء، عَنْ أَبِي صَالِح عَنْ أَبِي هُرَيْرَة؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«أَعْمَار أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقَلّهمْ مَنْ يَجُوز ذَلِكَ»**[4]. وَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي «كِتَاب الزُّهْد» أَيْضًا عَنْ إِبْرَاهِيم بْن سَعِيد الجَوْهَرِيّ، عَنْ مُحَمَّد بْن رَبِيعَة بِهِ. ثُمَّ قَال: هَذَا حَدِيث حَسَن غَرِيب، مِنْ حَدِيث أَبِي صَالِح عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْر وَجْه عَنْهُ. هَذَا نَصّه بِحُرُوفِهِ فِي المَوْضِعَيْنِ، وَالله أَعْلم.

وَقَال الحَافِظ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا أَبُو مُوسَى الأَنْصَارِيّ، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي فُدَيْك، حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيم بْن الفَضْل مَوْلَى بَنِي مَخْزُوم، عَنْ المَقْبُرِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مُعْتَرَك المَنَايَا مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ»[5].

وَبِهِ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«أَقَلّ أُمَّتِي أَبْنَاء سَبْعِينَ»**. إِسْنَاده ضَعِيف.

حَدِيث آخَر فِي مَعْنَى ذَلِكَ: قَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار فِي «مُسْنَده»: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن هَانِئ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مَهْدِيّ، حدثنا عُثْمَان بْن مَطَر، عَنْ أَبِي مَالك، عَنْ رِبْعِيّ، عَنْ حُذَيْفَة، أَنَّهُ قَال: يَا رَسُول الله، أَنْبِئْنَا بِأَعْمَارِ أُمَّتك. قَال: «مَا بَيْنَ الخَمْسِينَ إِلَى السِّتِّينَ». قَالُوا: يَا رَسُول الله، فَأَبْنَاء السَّبْعِينَ؟ قَال: «قَلَّ مَنْ يَبْلُغهَا مِنْ أُمَّتِي، رَحِم الله أَبْنَاء السَّبْعِينَ وَرَحِم الله أَبْنَاء الثَّمَانِينَ»[6]. ثُمَّ قَال البَزَّار: لا يُرْوَى بِهَذَا اللَّفْظ إِلَّا بِهَذَا الإِسْنَاد، وَعُثْمَان بْن مَطَر مِنْ أَهْل البَصْرَة لَيْسَ بِقَوِيّ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيح أَنَّ رَسُول الله ﷺ عَاشَ ثَلاثًا وَسِتِّينَ سَنَة، قِيل: سِتِّينَ. وَقِيل: خَمْسًا وَسِتِّينَ سنة. والمشهور الأَوَّل، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾، رُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس، وَعِكْرِمَة، وَأَبِي جَعْفَر البَاقِر، وَقَتَادَة، وَسُفْيَان بْن عُيَيْنَة أَنَّهُمْ قَالُوا: يَعْنِي الشَّيْب. وَقَال السُّدِّيّ، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلَم: يَعْنِي بِهِ الرسول ﷺ، وَقَرَأَ ابْن زَيْد: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾. وَهَذَا هُوَ الصَّحِيح عَنْ قَتَادَة، فِيمَا رَوَاهُ شَيْبَان عَنْهُ أَنَّهُ قَال: احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِالعُمُرِ

---

(١) **ضعيف جدًا: أخرجه الطبري** (١٠/ ٤١٨) فيه مطرف بن مازن: كذبه يحيى بن معين. وقال النسائي: ليس بثقة.
(٢) **في (ز): [البخاري].**
(٣) **صحيح: أخرجه** الترمذي (٢٥٥٠)، وابن ماجه (٤١٣٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٠٧٣).
(٤) **صحيح: أخرجه** ابن ماجه (٤٢٢٦)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٢٨٠).
(٥) **ضعيف**: أخرجه أبو يعلي (١١/ ٤٢٢)، وفيه إبراهيم بن الفضل: متروك.
(٦) ضعيف: أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٤٣) وفيه عثمان بن مطر: ضعيف.

وَالرُّسل. وَهَذَا اختِيَار ابْن جَرِير، وَهُوَ الأَظْهَر، لقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾، أَيْ: لقَدْ بَيَّنَّا لكُمْ الحَقّ عَلى أَلسِنَة الرُّسل، فَأَبَيْتُمْ وَخَالفْتُمْ، وَقَال تَعَالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وَقَال تبَارَكَ وَتعَالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾. وَقَوْله: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، أَيْ: فَذُوقُوا عَذَاب النَّار جَزَاء عَلى مُخَالفتكُمْ للأَنْبِيَاءِ فِي مُدَّة أَعْمَارِكُمْ، فَما لكُمْ اليَوْم نَاصِر يُنْقِذكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ العَذَاب وَالنَّكَال وَالأَغْلال.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

يُخْبِر تَعَالى بِعِلمِهِ غَيْب السَّمَاوَات وَالأَرْض، وَأَنَّهُ يَعْلم مَا تُكِنّهُ السَّرَائِر وَمَا تَنْطَوِي عَليْهِ الضَّمَائِر، وَسَيُجَازِي كُلّ عَامِل بِعَمَلهِ. ثُمَّ قَال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾، أَيْ: يَخْلُف قَوْم لآخَرِينَ قَبْلهمْ، وَجِيل لجِيلٍ قَبْلهِمْ، كَما قَال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾، أَيْ: فَإِنَّما يَعُود وَبَال ذَلكَ عَلى نَفْسه دُون غَيْره، ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾، أَيْ: كُلَّما اسْتَمَرُّوا عَلى كُفْرهمْ أَبْغَضهمْ الله، وَكُلَّما اسْتَمَرُّوا فِيهِ خَسِرُوا أَنْفُسهمْ وَأَهْليهِمْ يَوْم القِيَامَة، بِخِلافِ المُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُمْ كُلَّما طَال عُمُر أَحَدهمْ وَحَسُنَ عَمَله؛ ارْتَفَعتْ دَرَجَته وَمَنْزِلته فِي الجَنَّة، وَزَادَ أَجْره، وَأَحَبَّهُ خَالقه وَبَارِئُهُ رَبّ العَالمِينَ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

يَقُول تَعَالى لرَسُولهِ ﷺ أَنْ يَقُول للمُشْرِكِينَ: ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أَيْ: مِنْ الأَصْنَام وَالأَنْدَاد، ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾؟ أَيْ: ليْس لهُمْ شَيْء مِنْ ذَلكَ، مَا يَمْلكُونَ مِنْ قِطْمِير.

وَقَوْله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾، أَيْ: أَمْ أَنْزَلنَا عَليْهِمْ كِتَابًا بِما يَقُولُونَهُ مِنْ الشِّرْك وَالكُفْر؟ ليْسَ الأَمْر كَذَلكَ، ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾، أَيْ: بَل إِنَّما اتَّبَعُوا فِي ذَلكَ أَهْوَاءَهُمْ وَآرَاءَهُمْ وَأَمَانِيّهِمْ الَّتِي تَمَنَّوْهَا لأَنْفُسِهِمْ، وَهِيَ غُرُور وَبَاطِل وَزُور.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالى عَنْ قُدْرَته العَظِيمَة الَّتِي بِهَا تَقُوم السَّماء وَالأَرْض عَنْ أَمْره، وَمَا جَعَل فِيهِما مِنْ القُوَّة المَاسِكَة لهُما، فَقَال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾، أَيْ: أَنْ تَضْطَرِبَا عَنْ أَمَاكِنهِما، كَما قَال: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾. ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ أَيْ: لا يَقْدِر عَلى دَوَامهِما وَإِبْقَائِهِما إِلَّا هُوَ، وَهُوَ مَعَ ذَلكَ حَلِيم غَفُور، أي: يَرَى عِبَاده وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِهِ وَيَعْصُونَهُ وَهُوَ يَحْلُم فَيُؤَخِّر وَيُنْظِر وَيُؤَجِّل وَلا يُعَجِّل، وَيَسْتُرُ آخَرِينَ وَيَغْفِر، وَلهَذَا قَال: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وَقَدْ أَوْرَدَ ابْن أَبِي حَاتِم هَهُنَا حَدِيثًا غَرِيبًا بَل مُنْكَرًا، فَقَال: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن بْن الجُنَيْد، حَدَّثنَا إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنِي هِشَام بْن يُوسُف، عَنْ أُمَيَّة بن شبل، عَنْ الحَكَم بْن أَبَانَ عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة؛ قَال: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَحْكِي عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلى المِنْبَر قَال: «وَقَعَ فِي نَفْس مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَل يَنَام الله عَزَّ وَجَلَّ؟ فَأَرْسَل الله إِليْهِ مَلكًا، فَأَرَّقَهُ ثَلاثًا، وَأَعْطَاهُ قَارُورَتَيْنِ، فِي كُلّ يَد قَارُورَة، وَأَمَرَهُ أَنْ يَحْتَفِظ بِهِما، قَال: فَجَعَل يَنَام وَتَكَاد

يَدَاهُ تَلتَقِيَانِ، ثُمَّ يَسْتَيْقِظ فيحبس إِحْدَاهُمَا عَنْ الأُخْرَى، حَتَّى نَامَ نَوْمَه فَاصْطَفَقَتْ يَدَاهُ فتكسرت القَارُورَتَانِ، وقَال: ضَرَبَ الله لهُ مَثَلاً: أَنَّ الله لوْ كَانَ يَنَام لمْ تَسْتَمْسِك السَّماء وَالأَرْض»[1]. وَالظَّاهِر أَنَّ هَذَا الحَدِيث لَيْسَ بِمَرْفُوع، بَل مِنْ الإِسْرَائِيلِيَّات المُنْكَرَة، فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَجَلّ مِنْ أَنْ يُجَوِّز عَلى الله سُبْحَانه وَتَعَالى النَّوْم، وَقَدْ أَخْبَرَ الله تعالى فِي كِتَابه العَزِيز بِأَنَّهُ: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وَثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«إِنَّ الله لا يَنَام، وَلا يَنْبَغِي لهُ أَنْ يَنَام، يَخْفِض القِسْط وَيَرْفَعهُ، يُرْفَع إِليْهِ عَمَل اللَّيْـل قَبْل النَّهَار، وَعَمَل النَّهَار قَبْل اللَّيْل، حِجَابه النُّور -أَوْ النَّار-، لوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَات وَجْهه مَا انْتَهَى إِليْهِ بَصَره مِنْ خَلقه»**.[2]

وَقَدْ قَال أَبُو جَعْفَر ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن بَشَّار، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا سُفْيَان عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي وَائِل؛ قَال: جَاءَ رَجُل إِلى عَبْد الله -هُوَ ابْن مَسْعُود- فَقَال: مِنْ أَيْنَ جِئْت؟ قَال: مِنْ الشَّام. قَال: مَنْ لقِيت؟ قَال: لقِيت كَعْبًا. قَال: مَا حَدَّثَك كعب؟ قَال: حَدَّثَنِي أَنَّ السَّمَاوَات تَدُور عَلى مَنْكِب مَلك. قَال: أَفَصَدَّقْته أَوْ كَذَّبْته؟ قَال: مَا صَدَّقْته وَلا كَذَّبْته. قَال: لوَدِدْت أَنَّك افْتَدَيْت مِنْ رِحْلتك إِليْهِ بِرَاحِلتك وَرَحْلهَا، كَذَبَ كَعْب. إِنَّ الله تَعَالى يَقُول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾. وَهَذَا إِسْنَاد صَحِيح إِلى كَعْب وَإِلى ابْن مَسْعُود.

ثُمَّ رَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْ ابْن حُمَيْد عَنْ جَرِير عَنْ مُغِيرَة، عَنْ إِبْرَاهِيم؛ قَال: ذَهَبَ جُنْدُب البَجَلِيّ إِلى كَعْب بِالشَّام فَذَكَرَ نَحْوه. وَقَدْ رَأَيْت فِي مُصَنَّف للفَقِيهِ يَحْيَى بْن إِبْرَاهِيم بْن مزين الطُّلَيْطِلِيّ، سَمَّاهُ «سِيَر الفُقَهَاء»، أَوْرَدَ هَذَا الأَثَر عَنْ مُحَمَّد بْن عِيسَى بْن الطَّبَّاع، عَنْ وَكِيع، عَنْ الأَعْمَش، بِهِ. ثُمَّ قَال: وَأَخْبَرَنَا زُونَان -يَعْنِي عَبْد المَلك بْن الحُسْن-، عَنْ ابْن وَهْب عَنْ مَالك؛ أَنَّهُ قَال: السَّماء لا تَدُور. وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الآيَة وَبِحَدِيث: **«إِنَّ بِالمَغْرِب بَابًا للتَّوْبَةِ لا يَزَال مَفْتُوحًا حَتَّى تَطلُع الشَّمْس مِنْهُ»**[3]. **قُلت:** وَهَذَا الحَدِيث فِي الصَّحِيح، وَالله أَعْلم.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ قُرَيْش وَالعَرَب أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا بِالله جَهْد أَيْمَانهمْ، قَبْل إِرْسَال الرَّسُول إِليْهِمْ: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾، أَيْ: مِنْ جَمِيع الأُمَم الَّذِينَ أُرْسِل إِليْهِمْ الرُّسُل. قَالهُ الضَّحَّاك وَغَيْره، كَقَوْلهِ تَعَالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، وَكَقَوْلهِ تَعَالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. قَال الله تَعَالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾، وَهُوَ مُحَمَّد ﷺ بِمَا أُنْزِل مَعَهُ مِنْ الكِتَاب العَظِيم، وَهُوَ القُرْآن المُبِين، ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، أَيْ: مَا ازْدَادُوا إِلَّا كُفْرًا إِلى كُفْرهمْ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلكَ بِقَوْلهِ: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى

---

(١) منكر: تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٩)، وأحمد (٤/ ٣٩٥).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٣٠)، وأحمد (٤/ ٢٤٠).

ٱلْأَرْضِ ﴾، أَيْ: اسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاع آيَات الله ﴿ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾، أَيْ: وَمَكَرُوا بِالنَّاسِ فِي صَدّهمْ إِيَّاهُمْ عَنْ سَبِيل الله، ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾، أَيْ: وَمَا يَعُود وَبَال ذَلِكَ إِلَّا عَلَيْهِمْ أَنْفُسهمْ دُون غَيْرهمْ.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: ذَكَرَ عَلِيّ بْن الحُسَيْن، حَدَّثَنَا ابْن أَبِي عُمَر، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ أَبِي زَكَرِيَّا الكُوفِيّ، عَنْ رَجُل حَدَّثَهُ، أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «إِيَّاكَ وَمَكْر السَّيِّئ، فَإِنَّهُ لا يَحِيق المَكْر السَّيِّئ إلاَّ بِأَهْله، وَلَهُمْ مِنْ الله طَالب»[1].

وَقد قَال مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ: ثَلاث مَنْ فَعَلهُنَّ لَمْ يَنْجُ حَتَّى يَنْزِل بِهِ مِنْ مَكْر أَوْ بَغْي أَوْ نَكْث، وَتَصْدِيقهَا فِي كِتَاب الله: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾، ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾، ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾.

وَقَوْله: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، يَعْنِي: عُقُوبَة الله لَهُمْ عَلى تَكْذِيبهمْ رُسُله وَمُخَالَفَتهمْ أَمْره، ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾، أَيْ: لا تُغَيَّر وَلا تُبَدَّل، بَل هِيَ جَارِيَة كَذَلِكَ فِي كُلّ مُكَذِّب، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾، أَيْ: ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾، وَلا يَكْشِف ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيُحَوِّلهُ عَنْهُمْ أَحَد.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾.

يَقُول تَعَالى: قُل يَا مُحَمَّد لهَؤُلاءِ المُكَذِّبِينَ بِمَا جِئْتهمْ بِهِ مِنْ الرِّسَالة: سِيرُوا فِي الأَرْض، فَانْظُرُوا كَيْف كَانَ عَاقِبَة الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُل، كَيْف دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ وَللكَافِرِينَ أَمْثَالهَا، فَخُلِّيت مِنْهُمْ مَنَازِلهمْ، وَسُلِبُوا مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ النَّعِيم بَعْد كَمَال القُوَّة، وَكَثْرَة العَدَد والعُدَد، وَكَثْرَة الأَمْوَال وَالأَوْلاد، فَمَا أَغْنَى ذَلكَ شَيْئًا، وَلا دَفَعَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَاب الله مِنْ شَيْء، لَـمَّا جَاءَ أَمْر رَبّك؛ لأَنَّهُ تَعَالى لا يُعْجِزهُ شَيْء، إِذَا أَرَادَ كَوْنه فِي السَّمَاوَات وَالأَرْض، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾. أَيْ: عَلِيم بِجَمِيعِ الكَائِنَات قَدِير عَلى مَجْمُوعهَا. ثُمَّ قَال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾، أَيْ: لَوْ آخَذَهُمْ بِجَمِيعِ ذُنُوبهمْ؛ لأَهْلكَ جَمِيع أَهْل السَّمَاوَات وَالأَرْض، وَمَا يَمْلكُونَهُ مِنْ دَوَابّ وَأَرْزَاق.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن سِنَان، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن، حَدَّثَنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ أَبِي الأَحْوَص، عَنْ عَبْد الله؛ قَال: كَادَ الجُعَل أَنْ يُعَذَّب فِي جُحْره بِذَنْبِ ابْن آدَم، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾.

وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر، وَالسُّدِّيّ فِي قَوْله: ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾، أَيْ: لَمَا سَقَاهُمْ المَطَر، فَمَاتَتْ جَمِيع الدَّوَابّ. ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، أَيْ: وَلكِنْ يُنْظِرهُمْ إِلى يَوْم القِيَامَة، فَيُحَاسِبهُمْ يَوْمئِذٍ، وَيُوَفِّي كُلّ عَامِل بِعَمَلهِ فَيُجَازِي بِالثَّوَابِ أَهْل الطَّاعَة، وَبِالعِقَابِ أَهْل المَعْصِيَة؛ وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾.

آخِر تَفْسِير سُورَة فَاطِر، وَلله الحَمْدُ وَالمِنَّة

---

(١) **ضعيف** : أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم البغي» (٣) رواه مرسلاً.

تفسير سُورَةُ يسٓ وهي مكية

ترتيبها ٣٦ — وآياتها ٨٣

قَال أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيّ: حَدَّثَنَا قُتَيْبَة وَسُفْيَان بْن وَكِيع، حَدَّثَنَا حُمَيْد بْن عَبْد الرَّحْمَن الرُّؤاسِيّ، عَنْ الحَسَن بْن صَالح، عَنْ هَارُون أَبِي مُحَمَّد، عَنْ مُقَاتِل بْن حَيَّان، عَنْ قَتَادَة عَنْ أَنَس؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «إِنَّ لِكُلِّ شَيْء قَلبًا، وَقَلب القُرْآن يس. وَمَنْ قَرَأَ يس كَتَبَ الله لهُ بِقِرَاءَتِهَا قِرَاءَة القُرْآن عَشْر مَرَّات»[1]. ثُمَّ قَال: هَذَا حَدِيث غَرِيب، لا نَعْرِفهُ إِلَّا مِنْ حَدِيث حُمَيْد بْن عَبْد الرَّحْمَن، وَهَارُون أَبُو مُحَمَّد شَيْخ مَجْهُول، وَفِي البَاب عَنْ أَبِي بَكْر الصِّدِّيق ﷺ، وَلا يَصِحّ لضَعْفِ إِسْنَاده، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَة مَنْظُور فِيهِ. أَمَّا حَدِيث الصِّدِّيق فَرَوَاهُ الحَكِيم التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه «نَوَادِر الأُصُول»، وَأَمَّا حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة فَقَال أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن الفَضْل، حَدَّثَنَا زَيْد -هُوَ ابْن الحُبَاب- حَدَّثَنَا حُمَيْد -هُوَ المَكِّيّ مَوْلى آل عَلقَمَة-، عَنْ عَطَاء -هو ابْن أَبِي رَبَاح- عَنْ أَبِي هُرَيْرَة؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «إِنَّ لِكُلِّ شَيْء قَلبًا، وَقَلب القُرْآن يس». ثُمَّ قَال: لا نَعْلم رَوَاهُ إِلَّا زَيْد، عَنْ حُمَيْد.

وَقَال الحَافِظ أَبُو يَعْلى: حَدَّثَنَا إِسْحَاق بْن أَبِي إِسْرَائِيل، حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن مُحَمَّد، عَنْ هِشَام بْن زِيَاد، عَنْ الحَسَن؛ قَال: سَمِعْت أَبَا هُرَيْرَة يَقُول: قَال رَسُول الله ﷺ : «مَنْ قَرَأَ يس فِي لَيْلَة أَصْبَحَ مَغْفُورًا لهُ. وَمَنْ قَرَأَ: «حم» الَّتِي يُذْكَر فِيهَا الدُّخَان فى ليلة الجمعة أَصْبَحَ مَغْفُورًا لهُ»[2] إِسْنَاد جَيِّد. وَقَال ابْن حِبَّان فِي «صَحِيحه»: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم مَوْلى ثَقِيف، حَدَّثَنَا الوَلِيد بْن شُجَاع بْن الوَلِيد السَّكُونِيّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا زِيَاد بْن خَيْثَمَة، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن جُحَادَة عَنْ الحَسَن، عَنْ جُنْدُب بْن عَبْد الله، قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «مَنْ قَرَأَ يس فِي لَيْلَة ابْتِغَاء وَجه الله غُفِرَ لهُ».[3]

وَقَدْ قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَارِم، حَدَّثَنَا مُعْتَمِر، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ رَجُل، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مَعْقِل بْن يَسَار ﷺ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «البَقَرَة سَنَام القُرْآن وَذِرْوَته، نَزَل مَعَ كُلّ آيَة مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلكًا، وَاسْتُخْرِجَتْ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، مِنْ تَحْت العَرْش فَوُصِلتْ بِهَا -أَوْ فَوُصِلتْ بِسُورَةِ البَقَرَة-، وَيس قَلب القُرْآن، لا يَقْرَؤُهَا رَجُل يُرِيد الله وَالدَّار الآخِرَة، إلاَّ غُفِرَ لهُ، وَاقْرَءُوهَا عَلى مَوْتَاكُمْ».[4] وَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي «اليَوْم وَاللَّيْلة»، عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد الأَعْلى، عَنْ مُعْتَمِر بْن سُليمَان بِهِ.

ثُمَّ قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَارِم، حَدَّثَنَا ابْن المُبَارَك، حَدَّثَنَا سُليمَان التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِي عُثْمَان -وَليْسَ بِالنَّهْدِيّ- عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مَعْقِل بْن يَسَار؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ : «اقْرَءُوهَا عَلى مَوْتَاكُمْ»[5]. يَعْنِي: يس. وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد، وَالنَّسَائِيّ فِي «اليَوْم وَاللَّيْلة»، وَابْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث عَبْد الله بْن المُبَارَك، بِهِ. إِلَّا أَنَّ فِي رِوَايَة النَّسَائِيّ: عَنْ أَبِي عُثْمَان، عَنْ مَعْقِل بْن يَسَار. وَلهَذَا قَال بَعْض العُلمَاء: مِنْ خَصَائِص هَذِهِ السُّورَة أَنَّهَا لا تُقْرَأ عِنْد أَمْر عَسِير إِلَّا يَسَّرَهُ الله. وَكَأَنَّ قِرَاءَتهَا عِنْد المَيِّت لتَنْزِل الرَّحْمَة وَالبَرَكَة، وَليَسْهُل عَليْهِ خُرُوج الرُّوح، وَالله أَعْلم.

قَال الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللهُ: حَدَّثَنَا أَبُو المُغِيرَة، حَدَّثَنَا صَفْوَان؛ قَال: كَانَ المَشْيَخَة يَقُولُونَ: إِذَا قُرِئَتْ -يَعْنِي: يس- عِنْد المَيِّت خُفِّفَ عَنْهُ بِهَا. وَقَال البَزَّار: حَدَّثَنَا سَلمَة بْن شَبِيب، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن الحَكَم بْن أَبَان عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَال: قَال النَّبِيّ ﷺ : «لوَدِدْت أَنَّهَا فِي قَلب كُلّ إِنْسَان مِنْ أُمَّتِي»[6] يَعْنِي يس.

---

(١) موضوع : أخرجه الترمذي (٥٤٣)، وقال الألباني: موضوع، انظر «ضعيف الجامع الصغير» (١٩٣٥)، و«الضعيفة» (١٦٩).
(٢) موضوع : أخرجه ابن الجوزي في «تذكرة الموضوعات» (١/ ٥٧٣).
(٣) ضعيف : أخرجه ابن حبان (٢٥٧٤)، وفيه الحسن البصري: مدلس وقد عنعن.
(٤) ضعيف : تقدم.
(٥) ضعيف : أخرجه أحمد (٥/ ٢٦) بإسناد ضعيف؛ لجهالة أبي عثمان وأبيه.
(٦) ضعيف : أخرجه البزار (٢٣٠٥) «كشف»، وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان: ضعيف، والهيثمي في «الزوائد» (٧/ ٢٧٠).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قَدْ تَقَدَّمَ الكلام على الحُرُوف المُقَطَّعَة فِي أَوَّل «سُورَة البَقَرَة». وَرُوِيَ عَنْ ابن عَبَّاس وَعِكْرِمَة، وَالضَّحَّاك، وَالحَسَن، وَسُفْيَان بْن عُيَيْنَة: أَنَّ «يس» بِمَعْنَى: يَا إِنْسَان. وَقَال سَعِيد بْن جُبَيْر: هُوَ كَذَلِكَ فِي لُغَة الحَبَشَة. وَقَال مَالك، عَنْ زَيْد بْن أَسْلم: هُوَ اسْم مِنْ أَسْمَاء الله تَعَالى. ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾، أَيْ: المُحْكَم الَّذِي لا يَأْتِيه البَاطِل مِنْ بَيْن يَدَيْه وَلا مِنْ خَلفه، ﴿إِنَّكَ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيْ: عَلى مَنْهَج وَدِين قَوِيم، وَشَرْع مُسْتَقِيم، ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾، أَيْ: هَذَا الصِّرَاط وَالمَنْهَج وَالدِّين الَّذِي جِئْت بِهِ تَنْزِيل مِنْ رَبِّ العِزَّة، الرَّحِيم بِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾، يَعْنِي بِهِمْ العَرَب، فَإِنَّهُ مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِير مِنْ قَبْله. وَذِكْرهمْ وَحْدهمْ لا يَنْفِي مَنْ عَدَاهُمْ، كَمَا أَنَّ ذِكْر بَعْض الأَفْرَاد لا يَنْفِي العُمُوم. وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْر الآيَات وَالأَحَادِيث المُتَوَاتِرَة فِي عُمُوم بَعْثَته صلوات الله وسلامه عليه عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. وَقَوْله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾. قَال ابْن جَرِير: لَقَدْ وَجَبَ العَذَاب عَلى أَكْثَرهمْ بِأَنْ حَتَمَ عَلَيْهِمْ فِي أُمِّ الكِتَاب أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، وَلا يُصَدِّقُون رُسُله.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾.

يَقُول تَعَالى: إِنَّا جَعَلنَا هَؤُلاءِ المَخْتُوم عَلَيْهِمْ بِالشَّقَاءِ نِسْبَتهمْ إِلى الوُصُول إِلى الهُدَى كَنِسْبَةِ مَنْ جُعِل فِي عُنُقه غُلّ، فَجَمَعَ يَدَيْهِ مَعَ عُنُقه تَحْت ذَقَنه، فَارْتَفَعَ رَأْسه، فَصَارَ مُقْمَحًا، وَلِهَذَا قَال: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾، وَالمُقْمَح هُوَ الرَّافِع رَأْسه، كَمَا قَالَتْ أُمّ زَرْع فِي كَلامهَا: «وَأَشْرَب فَأَتَقَمَّح»، أَيْ: أَشْرَب فَأَرْوَى، وَأَرْفَع رَأْسِي تهينًا وَتَرَوِّيًا، وَاكْتَفَى بِذِكْرِ الغُلّ فِي العُنُق عَنْ ذِكْر اليَدَيْنِ وَإِنْ كَانَتَا مُرَادَتَيْنِ، كَمَا قَال الشَّاعِر:

فَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا ❁ أُرِيدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

أَأَلخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ ❁ أَمْ الشَّرُّ الَّذِي لا يَأْتَلِينِي

فَاكْتَفَى بِذِكْرِ الخَيْر عَنْ ذِكْر الشَّرّ لَمَّا دَلَّ الكَلام وَالسِّيَاق عَلَيْهِ، وَهَكَذَا هَذَا، لَـمَّا كَانَ الغُلّ إِنَّمَا يُعْرَف فِيمَا جَمَعَ اليَدَيْنِ مَعَ العُنُق، اكْتَفَى بِذِكْرِ العُنُق عَنْ اليَدَيْنِ. قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾، قَال: هُوَ كَقَوْل الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، يَعْنِي: بِذَلكَ أَنَّ أَيْدِيهِمْ مُوثَقَة إِلى أَعْنَاقهمْ، لا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَبْسُطُوهَا بِخَيْر.

وَقَال مُجَاهِد: ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾، قَال: رافعو رُءُوسهمْ، وَأَيْدِيهِمْ مَوْضُوعَة عَلى أَفْوَاههمْ، فَهُمْ مَغْلُولُونَ عَنْ كُلّ خَيْر. وَقَوْله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾، قَال مُجَاهِد: عَنْ الحَقّ: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾، قَال مُجَاهِد: عَنْ الحَقّ، فَهُمْ يَتَرَدَّدُونَ. وَقَال قَتَادَة: فِي الضَّلالات. وَقَوْله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾، أَيْ: أَغْشَيْنَا أَبْصَارهمْ عَنْ الحَقّ، ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، أَيْ: لا يَنْتَفِعُونَ بِخَيْرٍ وَلا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ. قَال ابْن جَرِير: وَرُوِيَ عَنْ ابْن عَبَّاس أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأ

(فَأَعْشَيْنَاهُمْ)، بِالعَيْنِ المُهْمَلة، مِنْ العَشَا وَهُوَ دَاء فِي العَيْن. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم: جَعَل الله هَذَا السَّدّ بَيْنهمْ وَبَيْن الإِسْلام وَالإِيمَان، فَهُمْ لا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِ، وَقَرَأَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾. ثُمَّ قَال: مَنْ مَنَعَهُ الله لا يَسْتَطِيع. وَقَال عِكْرِمَة: قَال أَبُو جَهْل: لَئِنْ رَأَيْت مُحَمَّدًا لأَفْعَلنَّ وَلأَفْعَلنَّ. فَأُنْزِلتْ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾، إِلَى قَوْله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾. قَال: وَكَانُوا يَقُولُونَ: هَذَا مُحَمَّد. فَيَقُول: أَيْنَ هُوَ؟ أَيْنَ هُوَ؟ لا يُبْصِرهُ. رَوَاهُ ابْن جَرِير.

وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق: حَدَّثَنِي يَزِيد بْن زِيَاد، عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب؛ قَال: قَال أَبُو جَهْل وَهُمْ جُلُوس: إِنَّ مُحَمَّدًا يَزْعُم أَنَّكُمْ إِنْ تَابَعْتُمُوهُ كُنْتُمْ مُلُوكًا، فَإِذَا مُتُّمْ بُعِثْتُمْ بَعْد مَوْتكُمْ، وَكَانَتْ لكُمْ جِنَان خَيْر مِنْ جِنَان الأُرْدُن. وَأَنَّكُمْ إِنْ خَالفْتُمُوهُ كَانَ لكُمْ مِنْهُ ذَبْح، ثُمَّ بُعِثْتُمْ بَعْد مَوْتكُمْ وَكَانَتْ لكُمْ نَار تُعَذَّبُونَ بِهَا. وَخَرَجَ رَسُول الله ﷺ عِنْد ذَلكَ. وَفِي يَده حَفْنَة مِنْ تُرَاب، وَقَدْ أَخَذَ الله عَلَى أَعْيُنهمْ دُونه، فَجَعَل يَذُرّهَا عَلَى رُءُوسهمْ، وَيَقْرَأ: ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وَانْطَلقَ رَسُول الله ﷺ لحَاجَتِهِ، وَبَاتُوا رُصَدَاء عَلَى بَابه حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِمْ بَعْد ذَلكَ خَارِج مِنْ الدَّار، فَقَال: مَا لكُمْ؟ قَالُوا: نَنْتَظِر مُحَمَّدًا. قَال: قَدْ خَرَجَ عَليْكُمْ، فَمَا بَقِيَ مِنْكُمْ مِنْ رَجُل إِلَّا وَضَعَ عَلَى رَأْسه تُرَابًا، ثُمَّ ذَهَبَ لحَاجَتِهِ. فَجَعَل كُلّ رَجُل مِنْهُمْ يَنْفُض مَا عَلَى رَأْسه مِنْ تراب. قَال: وَقَدْ بَلغَ النَّبِيّ ﷺ قَوْل أَبِي جَهْل فَقَال: «**وَأَنَا أَقُول ذَلكَ: إِنَّ لهُمْ مِنِّي لذَبْحًا، وَإِنَّهُ أَحدهم**».

وَقَوْله: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أَيْ: قَدْ خَتَمَ الله عَلَيْهِمْ بِالضَّلالةِ، فَمَا يُفِيد فِيهِمْ الإِنْذَار وَلا يَتَأَثَّرُونَ بِهِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرهَا فِي أَوَّل «سُورَة البَقَرَة»، وَكَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾. ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾، أَيْ: إِنَّمَا يَنْتَفِع بِإِنْذَارِكَ المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الذِّكْر، وَهُوَ القُرْآن العَظِيم، ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾، أَيْ: حَيْثُ لا يَرَاهُ أَحَد إِلَّا الله، يَعْلم أَنَّ الله مُطَّلع عَليْهِ، وَعَالم بِمَا يَفْعَله، ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أَيْ: لذُنُوبِهِ، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾، أَيْ: كَبِير وَاسِع حَسَن جَمِيل، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. ثُمَّ قَال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾، أَيْ: يَوْم القِيَامَة، وَفِيهِ إِشَارَة إِلَى أَنَّ الله تَعَالى يُحْيِي قَلب مَنْ يَشَاء مِنْ الكُفَّار الَّذِينَ قَدْ مَاتَتْ قُلُوبهمْ بِالضَّلالةِ، فَيَهْدِيهِمْ بَعْد ذَلكَ إِلى الحَقّ، كَمَا قَال بَعْد ذِكْر قَسْوَة القُلُوب: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وَقَوْله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾، أَيْ: مِنْ الأَعْمَال. وَفِي قَوْله: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ قَوْلانِ:

أَحَدهمَا: نَكْتُب أَعْمَالهمْ الَّتِي بَاشَرُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَآثَارهمْ الَّتِي أَثَّرُوهَا مِنْ بَعْدهمْ، فَنَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلكَ أَيْضًا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ؛ كَقَوْلهِ ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلام سُنَّة حَسَنَة، كَانَ لهُ أَجْرهَا وَأَجْر مَنْ عَمِل بِهَا مِنْ بَعْده، مِنْ غَيْر أَنْ يُنْقَص مِنْ أُجُورهمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلام سُنَّة سَيِّئَة كَانَ عَليْهِ وِزْرهَا وَوِزْر مَنْ عَمِل بِهَا مِنْ بَعْده، مِنْ غَيْر أَنْ يُنْقَص مِنْ أَوْزَارهمْ شَيْئًا**»[1]. رَوَاهُ مُسْلم، مِنْ رِوَايَة شُعْبَة، عَنْ عَوْن بْن أَبِي جُحَيْفَة عَنْ المُنْذِر بْن جَرِير، عَنْ أَبِيهِ جَرِير بْن عَبْد الله البَجَليّ رضي الله عنه وَفِيهِ قِصَّة المُجْتَابِي النِّمَار المُضَرِيِّينَ. وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم عَنْ أَبِيهِ، عَنْ يَحْيَى بْن سُليْمَان الجُعْفِيّ، عَنْ أَبِي المُحَيَّاة يَحْيَى بْن يَعْلى، عَنْ عَبْد المَلك بْن عُمَيْر، عَنْ جَرِير بْن عَبْد الله رضي الله عنه فَذَكَرَ الحَدِيث بِطُوله، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَة: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلم مِنْ رِوَايَة أَبِي عَوَانَة، عَنْ عَبْد المَلك بْن عُمَيْر، عن المُنْذِر بْن جَرِير، عَنْ أَبِيهِ، فَذَكَرَهُ. وَهَكَذَا الحَدِيث الآخَر الَّذِي فِي «صَحِيح مُسْلم»

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٠١٧)، وأحمد (٤/ ٣٥٨).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَة ﷺ؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: **«إِذَا مَاتَ ابْن آدَم انْقَطَعَ عَمَله إلاَّ مِنْ ثَلاث: مِنْ عِلم يُنْتَفَع بِهِ، أَوْ وَلد صَالح يَدْعُو لهُ، أَوْ صَدَقَة جَارِيَة مِنْ بَعْده»**(١). وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي سَعِيد؛ قَال: سَمِعْت مُجَاهِدًا يَقُول فِي قَوْله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، قَال: مَا أَوْرَثُوا مِنْ الضَّلالة.

وَقَال ابْن لَهِيعَة، عَنْ عَطَاء بْن دِينَار، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر فِي قَوْله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، يَعْنِي: مَا أَثَّرُوا، يَقُول: مَا سَنُّوا مِنْ سُنَّة، فَعَمِل بِهَا قَوْم مِنْ بَعْد مَوْته، فَإِنْ كَانَتْ خَيْرًا فَلهُمْ مِثْل أُجُورهمْ، لا يُنْقَص مِنْ أَجْر مَنْ عَمِل بِهِ شَيْئًا، وَإِنْ كَانَتْ شَرًّا فَعَلَيْهِمْ مِثْل أَوْزَارهمْ، وَلا يُنْقَص مِنْ أَوْزَار مَنْ عَمِل بِهَا شَيْئًا. ذَكَرَهُمَا ابْن أَبِي حَاتِم. وَهَذَا القَوْل هُوَ اخْتِيَار البَغَوِيّ.

وَالقَوْل الثَّانِي: أَنَّ المُرَاد بِذَلِكَ آثَارَ خُطَاهُمْ إِلى الطَّاعَة أَوْ المَعْصِيَة. قَال ابْن أَبِي نَجِيح وَغَيْره، عَنْ مُجَاهِد: ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾: أَعْمَالهمْ، ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾؛ قَال: خُطَاهُمْ بِأَرْجُلِهِمْ. وَكَذَا قَال الحَسَن وَقَتَادَة: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، يَعْنِي: خُطَاهُمْ. قَال قَتَادَة: لَوْ كَانَ الله تعالى مُغْفِلًا شَيْئًا مِنْ شَأْنك يَا بْن آدَم؛ أَغْفَل مَا تَعْفِي الرِّيَاح مِنْ هَذِهِ الآثَار، وَلكِنْ أَحْصَى عَلى ابْن آدَم أَثَره وَعَمَله كُلّه، حَتَّى أَحْصَى هَذَا الأَثَر فِيمَا هُوَ مِنْ طَاعَة الله أَوْ مِنْ مَعْصِيَته، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكْتُب أَثَره فِي طَاعَة الله فَلْيَفْعَل. وَقَدْ وَرَدَتْ فِي هَذَا المَعْنَى أَحَادِيث:

الحَدِيث الأَوَّل: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عَبْد الصَّمَد، حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا الجُرَيْرِيّ، عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ جَابِر بْن عَبْد الله؛ قَال: خَلتْ البِقَاع حَوْل المَسْجِد، فَأَرَادَ بَنُو سَلمَة أَنْ يَنْتَقِلُوا قُرْب المَسْجِد، فَبَلغَ ذَلِكَ رَسُول الله ﷺ فَقَال لهُمْ: **«إِنَّه بلغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْب المَسْجِد؟»**. قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُول الله؛ قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ؛ فَقَال: **«يَا بَنِي سَلمَة؛ دِيَاركُمْ تُكْتَب آثَاركُمْ، دِيَاركُمْ تُكْتَب آثَاركُمْ»**(٢). وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلم، مِنْ حَدِيث سَعِيد الجُرَيْرِيّ وَكَهْمَس بْن الحَسَن كليهما عَنْ أَبِي نَضْرَة وَاسْمه المُنْذِر بْن مَالك بْن قِطْعَة العَبْدِيّ عَنْ جَابِر بِهِ.

الحَدِيث الثَّانِي: قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن الوَزِير الوَاسِطِيّ، حَدَّثَنَا إِسْحَاق الأَزْرَق، عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ أَبِي سُفْيَان، عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ أَبِي سَعِيد الخُدْرِيّ ﷺ؛ قَال: كَانَتْ بَنُو سَلمَة فِي نَاحِيَة مِنْ المَدِينَة، فَأَرَادُوا أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلى قَرِيب مِنْ المَسْجِد؛ فَنَزَلتْ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، فَقَال لهُمْ النَّبِيّ ﷺ: **«إِنَّ آثَاركُمْ تُكْتَب»**.(٣) فَلمْ يَنْتَقِلُوا. انفرد بِإِخْرَاجِهِ التِّرْمِذِيّ عِنْد تَفْسِير هَذِهِ الآيَة الكَرِيمَة، عَنْ مُحَمَّد بْن الوَزِير بِهِ. ثُمَّ قَال: حَسَن غَرِيب مِنْ حَدِيث الثَّوْرِيّ. وَرَوَاهُ ابْن جَرِير، عَنْ سُليْمَان بْن عُمَر بْن خَالد الرَّقِّيّ عَنْ ابْن المُبَارَك، عَنْ سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَنْ طَرِيف - وَهُوَ ابْن شِهَاب [أَبُو سُفْيَان](٤) السَّعْدِيّ - عَنْ أَبِي نَضْرَة بِهِ. وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْر طَرِيق الثَّوْرِيّ فَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا عَبَّاد بْن زِيَاد السَّاجِيّ، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن عُمَر، حَدَّثَنَا شُعْبَة، عَنْ سَعِيد الجُرَيْرِيّ، عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ أَبِي سَعِيد ﷺ قَال: إِنَّ بَنِي سَلمَة شَكَوْا إِلى رَسُول الله ﷺ بُعْد مَنَازِلهمْ مِنْ المَسْجِد؛ فَنَزَلتْ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾، فَأَقَامُوا فِي مَكَانهمْ. وَحَدَّثَنَاه ابْن المُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْد الأَعْلى، حَدَّثَنَا الجُرَيْرِيّ عَنْ أَبِي نَضْرَة، عَنْ أَبِي سَعِيد ﷺ عَنْ النَّبِيّ ﷺ بِنَحْوِهِ. وَفِيهِ غَرَابَة مِنْ [حَيْثُ](٥) ذِكْر نُزُول هَذِهِ الآيَة، وَالسُّورَة بِكَمَالهَا مَكِّيَّة، فَالله أَعْلم.

الحَدِيث الثَّالث: قَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا نَصْر بْن عَليّ الجَهْضَمِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَد الزُّبَيْرِيّ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيل،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣١)، وأحمد (٢/ ٣١٦).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٦٦٥)، وأحمد (٣/ ٣٣٢).
(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٢٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».
(٤) في (ز): [بن سفيان].
(٥) في (ز): [حديث].

عَنْ سِمَاك عَنْ عِكْرِمَة، عَنِ ابْنِ عَبَّاس؛ قَال: كَانَتْ مَنَازِل الأَنْصَار مُتَبَاعِدَة مِنَ المَسْجِد فَأَرَادُوا أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلى المَسْجِد، فَنَزَلتْ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْۚ﴾، فَقَالُوا: نَثْبُت مَكَانَنَا. هَكَذَا رَوَاهُ، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْء مَرْفُوع. وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ عَنْ عَبْد الله بْن مُحَمَّد بْن سَعِيد بْن أَبِي مَرْيَم، عَنْ مُحَمَّد بْن يُوسُف الفِرْيَابِيّ، عَنْ إِسْرَائِيل، عَنْ سِمَاك، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنِ ابْنِ عَبَّاس؛ قَال: كَانَتْ الأَنْصَار بَعِيدَة مَنَازِلهمْ مِنَ المَسْجِد؛ فَأَرَادُوا أَنْ يَتَحَوَّلُوا إِلى المَسْجِد، فَنَزَلتْ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْۚ﴾، فَثَبَتُوا فِي مَنَازِلهمْ.

الحَدِيث الرَّابِع: قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا حَسَن، حَدَّثَنَا ابْن لَهِيعَة، حَدَّثَنِي حُيَيّ بْن عَبْد الله، عَنْ أَبِي عَبْد الرَّحْمَن الحُبُلِيّ، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو؛ قَال: تُوُفِّيَ رَجُل بِالمَدِينَة، فَصَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيّ ﷺ وَقَال: **«يَا لَيْتَهُ مَاتَ فِي غَيْر مَوْلده»**؛ فَقَال رَجُل مِنَ النَّاس: وَلِمَ يَا رَسُول الله؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: **«إِنَّ الرَّجُل إِذَا تُوُفِّيَ فِي غَيْر مَوْلده، قِيسَ لَهُ مِنْ مَوْلده إِلى مُنْقَطَع أَثَره فِي الجَنَّة»**.[1] وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ عَنْ يُونُس بْن عَبْد الأَعْلى، وَابْن مَاجَهْ عَنْ حَرْمَلة، كِلاهُمَا عَنِ ابْن وَهْب، عَنْ حُيَيّ بْن عَبْد الله بِهِ. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا ابْن حُمَيْد، حَدَّثَنَا أَبُو تُمَيْلة، حَدَّثَنَا الحُسَيْن، عَنْ ثَابِت، قَال: مَشَيْت مَعَ أَنَس فَأَسْرَعْت المَشْي، فَأَخَذَ بِيَدِي فَمَشَيْنَا رُوَيْدًا، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلاة؛ قَال أَنَس: مَشَيْت مَعَ زَيْد بْن ثَابِت فَأَسْرَعْت المَشْي، فَقَال: يَا أَنَس، أَمَا شَعَرْت أَنَّ الآثَار تُكْتَب؟ أما شعرت أن الآثار تكتب؟

وَهَذَا القَوْل لا تَنَافِي بَيْنه وَبَيْن الأَوَّل، بَل فِي هَذَا تَنْبِيه وَدَلالة عَلى ذَلكَ بِطَرِيقِ الأَوْلى وَالأَحْرَى، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الآثَار تُكْتَب، فَلأَنْ تُكْتَب تِلكَ الَّتِي فِيهَا قُدْوَة بِهِمْ مِنْ خَيْر أَوْ شَرّ بِطَرِيقِ الأَوْلى، وَالله أَعْلم.

وَقَوْله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، أَيْ: جَمِيع الكَائِنَات مَكْتُوب فِي كِتَاب مَسْطُور مَضْبُوط فِي لَوْح مَحْفُوظ، وَالإِمَام المُبِين هُنَا هُوَ أُمّ الكِتَاب. قَالهُ مُجَاهِد، وَقَتَادَة، وَعَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم. وَكَذَا فِي قَوْله تَعَالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ﴾، أَيْ: بِكِتَاب أَعْمَالهمْ الشَّاهِد عَلَيْهِمْ بِمَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْر وَشَرّ، كَمَا قَال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾، وَقَال تَعَالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

يَقُول تَعَالى: وَاضْرِبْ -يَا مُحَمَّد- لِقَوْمِك الَّذِينَ كَذَّبُوك ﴿مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. قَال ابْن إِسْحَاق فِيمَا بَلَغَهُ عَنِ ابْن عَبَّاس، وَكَعْب الأَحْبَار، وَوَهْب بْن مُنَبِّه: إِنَّهَا مَدِينَة أَنْطَاكِيَة، وَكَانَ بِهَا مَلك يُقَال لهُ: أنطيخس بْن أنطيخس بْن أنطيخس، وَكَانَ يَعْبُد الأَصْنَام، فَبَعَثَ الله إِلَيْهِ ثَلاثَة مِنَ الرُّسُل، وَهُمْ: صَادِق وَصَدُوق وَشَلُوم، فَكَذَّبَهُمْ. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ بُرَيْدَة بْن الحصيب، وَعِكْرِمَة، وَقَتَادَة، وَالزُّهْرِيّ: أَنَّهَا أَنْطَاكِيَة. وَقَدْ اسْتَشْكَل بَعْض الأَئِمَّة كَوْنهَا أَنْطَاكِيَة، بِمَا سَنَذْكُرُهُ بَعْد تَمَام القِصَّة، إِنْ شَاءَ الله تَعَالى. وَقَوْله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾، أَيْ: بَادَرُوهُمَا بِالتَّكْذِيب ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾، أَيْ: قَوَّيْنَاهُمَا وَشَدَدْنَا أَزْرهمَا بِرَسُولٍ ثَالِث. قَال ابْن جُرَيْج، عَنْ وَهْب بْن سُلَيْمَان، عَنْ شُعَيْب الجَبَائِي؛ قَال: كَانَ اسْم الرَّسُولَيْنِ الأَوَّلَيْنِ شَمْعُون وَيُوحَنَّا، وَاسْم الثَّالِث بُولُص، وَالقَرْيَة أَنْطَاكِيَة.

﴿فَقَالُوٓا۟﴾ أَيْ: لأَهْل تِلكَ القَرْيَة: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾، أَيْ: مِنْ رَبّكُمْ الَّذِي خَلقَكُمْ نَأْمُركُمْ بِعِبَادَتِهِ وَحْده لا شَرِيك لهُ. قَالهُ أَبُو العَالِيَة. وَزَعَمَ قَتَادَة ابن دعامة: أَنَّهُمْ كَانُوا رُسُل المَسِيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلى أَهْل أَنْطَاكِيَة.

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧)، وابن حبان (٧/ ١٩٦)، وابن ماجه (١٣٠٩)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه».

﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾، أَيْ: فَكَيْفَ أُوحِيَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ بَشَر وَنَحْنُ بَشَر، فَلِمَ لا أُوحِيَ إِلَيْنَا مِثْلكُمْ؟ وَلَوْ كُنْتُمْ رُسُلًا لَكُنْتُمْ مَلائِكَة. وَهَذِهِ شُبه كَثِير مِنْ الأُمَم المُكَذِّبَة، كَمَا أَخْبَرَ الله تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾؟ فاسْتَعْجَبُوا مِنْ ذَلِكَ وَأَنْكَرُوهُ، وَقَوْله: ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾، وَقَوْله حِكَايَة عَنْهُمْ فِي قَوْله: ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾، ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾. وَلِهَذَا قَال هَؤُلاءِ: ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾، أَيْ: أَجَابَتْهُمْ رُسُلهمْ الثَّلاثَة قَائِلِينَ: الله يَعْلم أَنَّا رُسُله إِلَيْكُمْ، وَلَوْ كُنَّا كَذَبَة عَلَيْهِ لانْتَقَمَ مِنَّا أَشَدّ الانْتِقَام، وَلَكِنَّهُ سَيُعِزُّنَا وَيَنْصُرنَا عَلَيْكُمْ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُون عَاقِبَة الدَّار، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾. ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ يَقُولُونَ: إِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نُبَلِّغكُمْ مَا أُرْسِلنَا بِهِ إِلَيْكُمْ، فإِن أَطَعْتُمْ كَانَتْ لَكُمْ السَّعَادَة فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَإِنْ لمْ تُجِيبُوا فَسَتَعْلَمُونَ غِبّ ذَلِكَ.

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾.

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَال لَهُمْ أَهْل القَرْيَة: ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾، أَيْ: لمْ نَر عَلى وُجُوهكُمْ خَيْرًا فِي عَيْشنَا. وَقَال قَتَادَة: يَقُولُونَ: إِنْ أَصَابَنَا شَرّ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلكُمْ. وَقَال مُجَاهِد: يَقُولُونَ: لمْ يَدْخُل مِثْلكُمْ إِلى قَرْيَة إِلَّا عُذِّبَ أَهْلهَا. ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾، قَال قَتَادَة: بِالحِجَارَة. وَقَال مُجَاهِد: بِالشَّتْم. ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَيْ: عُقُوبَة شَدِيدَة فَقَالتْ لهُمْ رُسُلهم: ﴿ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ أَيْ: مَرْدُود عَلَيْكُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالى فِي قَوْم فِرْعَوْن: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾، وَقَال قَوْم صَالِح: ﴿ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾. وَقَال قَتَادَة وَوَهْب بْن مُنَبِّه: أَيْ أَعْمَالكُمْ مَعكُمْ. وَقَال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾. وَقَوْله: ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أَيْ: مِنْ أَجْل أَنَّا ذَكَّرْنَاكُمْ وَأَمَرْنَاكُمْ بِتَوْحِيدِ الله وَإِخْلاص العِبَادَة لهُ، قَابَلتُمُونَا بِهَذَا الكَلام، وَتَوَعَّدْتُمُونَا وَتَهَدَّدْتُمُونَا؟ بَل أَنْتُمْ قَوْم مُسْرِفُونَ. وَقَال قَتَادَة: أَيْ: إِنْ ذَكَّرْنَاكُمْ بِالله تَطَيَّرْتُم بنا، بَل أَنْتُمْ قَوْم مُسْرِفُونَ.

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾.

قَال ابْن إِسْحَاق -فِيمَا بَلغَهُ عَنْ ابْن عَبَّاس وَكَعْب الأَحْبَار وَوَهْب بْن مُنَبِّه-: إِنَّ أَهْل القَرْيَة هَمُّوا بِقَتْل رُسُلهمْ، فَجَاءَهُمْ رَجُل مِنْ أَقْصَى المَدِينَة يَسْعَى، أَيْ: لِيَنْصُرهُمْ مِنْ قَوْمه قَالُوا: وَهُوَ حَبِيب، وَكَانَ يَعْمَل الجرير -وَهُوَ الحبال- وَكَانَ رَجُلًا سَقِيمًا، قَدْ أَسْرَعَ فِيهِ الجُذَام، وَكَانَ كَثِير الصَّدَقَة، يَتَصَدَّق بِنِصْفِ كَسْبه، مُسْتَقِيم النظرة. وَقَال ابْن إِسْحَاق عَنْ رَجُل سَمَّاهُ، عَنْ الحَكَم عَنْ مِقْسَم -أَوْ: عن مُجَاهِد- عَنْ ابْن عَبَّاس: كان اسْم صَاحِب يس حَبِيب وَكَانَ الجُذَام قَدْ أَسْرَعَ فِيهِ. وَقَال الثَّوْرِيّ، عَنْ عَاصِم الأَحْوَل، عَنْ أَبِي مِجْلَز: كَانَ اسْمه حَبِيب بْن مريّ. وَقَال شَبِيب بْن بِشْر، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَال: اسْم صَاحِب يس حَبِيب النَّجَّار، فَقَتَلهُ قَوْمه. وَقَال السُّدِّيّ: كَانَ قَصَّارًا. وَقَال عُمَر بْن الحَكَم: كَانَ إِسْكَافًا. وَقَال قَتَادَة: كَانَ يَتَعَبَّد فِي غَار هُنَاكَ.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، يَحُضّ قَوْمه عَلى اتِّبَاع الرُّسُل الَّذِينَ أَتَوْهُمْ، ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا﴾ أَيْ: عَلى إِبْلاغ الرِّسَالة، ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾، فِيمَا يَدْعُونكُمْ إِلَيْهِ، مِنْ عِبَادَة الله وَحْده لا شَرِيك لهُ. ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، أَيْ: وَمَا يَمْنَعنِي مِنْ إِخْلاص العِبَادَة للَّذِي خَلقَنِي وَحْده لا شَرِيك لهُ، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، أَيْ: يَوْم المَعَاد، فَيُجَازِيكُمْ عَلى أَعْمَالكُمْ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْر، وَإِنْ شَرًّا فَشَرّ. ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾، اسْتِفْهَام إِنْكَار وَتَوْبِيخ وَتَقْرِيع، ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾، أَيْ: هَذِهِ الآلِهَة الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونه لا يَمْلكُونَ مِنَ الأَمْر شَيْئًا، فَإِنَّ الله لوْ أَرَادَنِي بِسُوءٍ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ وَهَذِهِ الأَصْنَام لا تَمْلك دَفْع ذَلكَ وَلا مَنْعه وَلا يُنْقِذُونَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ. ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: إِنْ اتَّخَذْتهَا آلِهَة مِنْ دُون الله. وَقَوْله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾، قَال ابْن إِسْحَاق -فِيمَا بَلغَهُ عَنْ ابْن عَبَّاس وَكَعْب وَوَهْب- يَقُول لقَوْمِهِ: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾، الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾، أَيْ: فَاسْمَعُوا قَوْلي. وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون خِطَابه للرُّسُل بِقَوْلهِ: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾، أَيْ: الَّذِي أَرْسَلكُمْ ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾، أَيْ: فَاشْهَدُوا لي بِذَلك عِنْده. وَقَدْ حَكَاهُ ابْن جَرِير فَقَال: وَقَال آخَرُونَ: بَل خَاطَبَ بِذَلكَ الرُّسُل، وَقَال لهُمْ: اسْمَعُوا قَوْلي، لتَشْهَدُوا لي بِمَا أَقُول لكُمْ عِنْد رَبِّي، إِنِّي آمَنْت بِرَبِّكُمْ وَاتَّبَعْتكُمْ. وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ عَنْ هَؤُلاءِ أَظْهَر فِي المَعْنَى، وَالله أَعْلم.

قَال ابْن إِسْحَاق -فِيمَا بَلغَهُ عَنْ ابْن عَبَّاس وَكَعْب وَوَهْب-: فَلمَّا قَال ذَلكَ وَثَبُوا عَليْهِ وَثْبَة رَجُل وَاحِد فَقَتَلُوهُ، وَلمْ يَكُنْ لهُ أَحَد يَمْنَع عَنْهُ. وَقَال قَتَادَة: جَعَلُوا يَرْجُمُونَهُ بِالحِجَارَةِ، وَهُوَ يَقُول: **«اللهُمَّ، اهْدِ قَوْمِي، فَإِنَّهُمْ لا يَعْلمُونَ»**. فَلمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَقْعَصُوهُ وَهُوَ يَقُول كَذَلكَ. فَقَتَلُوهُ رَحِمَهُ اللهُ.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾.

قَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ بَعْض أَصْحَابه، عَنْ ابْن مَسْعُود: إنهم وَطِئُوهُ بِأَرْجُلهِمْ حَتَّى خَرَجَ قصبه مِنْ دُبُره. وَقَال الله لهُ: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾، فَدَخَلهَا فَهُوَ يُرْزَق منها، قَدْ أَذْهَبَ الله عَنْهُ سَقَم الدُّنْيَا وَحُزْنهَا وَنَصَبهَا. وَقَال مُجَاهِد: قِيل لحَبِيب النَّجَّار: ادْخُل الجَنَّة. وَذَلكَ أَنَّهُ قُتِل فَوَجَبَتْ لهُ، فَلمَّا رَأَى الثَّوَاب ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾. قَال قَتَادَة: لا تَلقَى المُؤْمِن إِلَّا نَاصِحًا، لا تَلقَاهُ غَاشًّا، لـمَّا عَايَنَ مَا عَايَنَ مِنْ كَرَامَة الله: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾، تَمَنَّى على الله أَنْ يَعْلم قَوْمه ما عَايَنَ مِنْ كَرَامَة الله، وَمَا هَجَمَ عَليْهِ.

وَقَال ابْن عَبَّاس: نَصَحَ قَوْمه فِي حَيَاته بِقَوْلهِ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وَبَعْد مَمَاته فِي قَوْله: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم. وَقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ عَاصِم الأَحْوَل، عَنْ أَبِي مِجْلز: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ بِإِيمَانِي بِرَبِّي، وَتَصْدِيقِي المُرْسَلينَ.

وَمَقْصُوده: أَنَّهُمْ لوْ اطَّلعُوا عَلى مَا حَصَل لي مِنْ الثَّوَاب وَالجَزَاء وَالنَّعِيم المُقِيم، لقَادَهُمْ ذَلكَ إِلى اتِّبَاع الرُّسُل، فَرَحِمَهُ الله وَرَضِيَ عَنْهُ، فَلقَدْ كَانَ حَرِيصًا عَلى هِدَايَة قَوْمه. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَام ابْن عُبَيْد الله، حَدَّثَنَا ابْن جَابِر وهُوَ مُحَمَّد -عَنْ عَبْد المَلك- يَعْنِي: ابْن عُمَيْر- قَال: قَال عُرْوَة بْن مَسْعُود الثَّقَفِيّ للنَّبِيِّ ﷺ: ابْعَثْنِي إِلى قَوْمِي أَدْعُوهُمْ إِلى الإِسْلام؛ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «إِنِّي أَخَاف أَنْ يَقْتُلُوك». فَقَال: لوْ وَجَدُونِي نَائِمًا مَا أَيْقَظُونِي، فَقَال لهُ رَسُول الله ﷺ: «انْطَلقْ». فَانْطَلقَ فَمَرَّ عَلى اللَّاتِ وَالعُزَّى، فَقَال: لأُصَبِّحَنَّكِ غَدًا بِمَا يَسُوءك. فَغَضِبَتْ ثَقِيف؛ فَقَال: يَا مَعْشَر ثَقِيف، إِنَّ اللَّاتَ لالات، وَإِنَّ العُزَّى لا عُزَّى، أَسْلمُوا تَسْلمُوا. يَا مَعْشَر الأَحْلاف؛ إِنَّ العُزَّى لا عُزَّى، وَإِنَّ اللَّاتَ لالات، أَسْلمُوا تَسْلمُوا. قَال ذَلكَ ثَلاث

مَرَّات، فَرَمَاهُ رَجُل فَأَصَابَ أَكْحَله فَقَتَلَهُ، فَبَلغَ رَسُول الله ﷺ فَقَال: «هَذَا مَثَله كَمَثَل صَاحِب يس ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾».[1] وَقَال مُحَمَّد بْن إِسْحَاق، عَنْ عَبْد الله بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن مَعْمَر بْن حَزْم: أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ كَعْب الأَحْبَار: أَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ حَبِيب بْن زَيْد بْن عَاصِم -أَخُو بَنِي مَازِن بْن النَّجَّار- الَّذِي كَانَ مُسَيْلِمَة الكَذَّاب قَطَّعَهُ بِاليَمَامَةِ، حِين جَعَل يَسْأَلهُ عَنْ رَسُول الله ﷺ، فَجَعَل يَقُول: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله؟ فَيَقُول: نَعَمْ. ثُمَّ يَقُول: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُول الله؟ فَيَقُول: لا أَسْمَع. فَيَقُول لَهُ مُسَيْلِمَة: أَتَسْمَعُ هَذَا وَلا تَسْمَع ذَاكَ؟ فَيَقُول: نَعَمْ. فَجَعَل يُقَطِّعهُ عُضْوًا عُضْوًا، كُلَّمَا سَأَلَهُ لَمْ يَزِدْهُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى مَاتَ فِي يَدَيْهِ، فَقَال كَعْب حِين قِيل لَهُ: اسْمه حَبِيب، وَكَانَ وَالله صَاحِب يس اسْمه حَبِيب.

وَقَوْله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾، يُخْبِر تَعَالَى أَنَّهُ انْتَقَمَ مِنْ قَوْمه بَعْد قَتْلهمْ إِيَّاهُ، غَضَبًا مِنْهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ؛ لأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُله، وَقَتَلُوا وَلِيّه. وَيَذْكُر تعالى: أَنَّهُ مَا أَنْزَل عَلَيْهِمْ، وَمَا احْتَاجَ فِي إِهْلاكه إِيَّاهُمْ إِلَى إِنْزَال جُنْد مِنْ المَلائِكَة عَلَيْهِمْ، بَل الأَمْر كَانَ أَيْسَر مِنْ ذَلِكَ. قَالَهُ ابْن مَسْعُود، فِيمَا رَوَاهُ ابْن إِسْحَاق، عَنْ بَعْض أَصْحَابه أَنَّهُ قَال فِي قَوْله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾، أَيْ: مَا كَاثَرْنَاهُمْ بِالجُمُوعِ. الأَمْر كَانَ أَيْسَر عَلَيْنَا مِنْ ذَلِكَ، ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ قَال: فَأَهْلَكَ الله ذَلِكَ المَلك، وَأَهلكَ أَهْل أَنْطَاكِيَّة، فَبَادُوا عَنْ وَجْه الأَرْض فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَة. وَقِيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾، أَيْ: وَمَا كُنَّا نُنَزِّل المَلائِكَة عَلَى الأُمَم إِذَا أَهْلَكْنَاهُمْ، بَل نَبْعَث عَلَيْهِمْ عقابًا يُدَمِّرهُمْ. وَقِيل: المَعْنَى فِي قَوْله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أَيْ: مِنْ رِسَالة أُخْرَى إِلَيْهِمْ؛ قَالَهُ مُجَاهِد وَقَتَادَة. قَال قَتَادَة: فَلا وَالله مَا عَاتَبَ الله قَوْمه بَعْد قَتْله، ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾.

قَال ابْن جَرِير: وَالأَوَّل أَصَحّ؛ لأَنَّ الرِّسَالة لا تُسَمَّى جُنْدًا. قَال المُفَسِّرُونَ: بَعَثَ الله تَعَالى إِلَيْهِمْ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخَذَ بِعِضَادَتَيْ بَاب بَلدهمْ، ثُمَّ صَاحَ فِيهِمْ صَيْحَة وَاحِدَة فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ عَنْ آخِرهمْ، لَمْ تبق فِيهِمْ رُوح تَتَرَدَّد فِي جَسَد. وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ كَثِير مِنْ السَّلف أَنَّ هَذِهِ القَرْيَة هِيَ أَنْطَاكِيَّة، وَأَنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثَة كَانُوا رُسُلًا مِنْ عِنْد المَسِيح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كَمَا نَصّ عَلَيْهِ قَتَادَة وَغَيْره، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يُذْكَر عَنْ وَاحِد مِنْ مُتَأَخِّرِي المُفَسِّرِينَ غَيْره، وَفِي ذَلِكَ نَظَر مِنْ وُجُوه:

أَحَدهَا: أَنَّ ظَاهِر القِصَّة يَدُلّ عَلَى أَنَّ هَؤُلاءِ كَانُوا رُسُل الله عَزَّ وَجَلَّ، لا مِنْ جِهَة المَسِيح، كَمَا قَال تَعَالَى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ إِلَى أَنْ قَالُوا: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وَلَوْ كَانَ هَؤُلاءِ مِنْ الحَوَارِيِّينَ لَقَالُوا عِبَارَة تُنَاسِب أَنَّهُمْ مِنْ عِنْد المَسِيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالله أَعْلَم. ثُمَّ لَوْ كَانُوا رُسُل المَسِيح لَمَا قَالُوا لَهُمْ: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾.

الثَّانِي: أَنَّ أَهْل أَنْطَاكِيَّة آمَنُوا بِرُسُل المَسِيح إِلَيْهِمْ، فَكَانُوا أَوَّل مَدِينَة آمَنَتْ بِالمَسِيح؛ وَلِهَذَا كَانَتْ عِنْد النَّصَارَى إِحْدَى المَدَائِن الأَرْبَعَة اللاتِي فِيهِنَّ بَتَارِكَة، وَهُنَّ القُدْس لأَنَّهَا بَلد المَسِيح، وَأَنْطَاكِيَّة لأَنَّهَا أَوَّل بَلدَة آمَنَتْ بِالمَسِيح عَنْ آخِر أَهْلهَا. وَالإِسْكَنْدَرِيَّة لأَنَّ فِيهَا اصْطَلَحُوا عَلَى اتِّخَاذ البَتَارِكَة وَالمَطَارِنَة وَالأَسَاقِفَة وَالقَسَاوِسَة وَالشَّمَامِسَة وَالرَّهَابِين. ثُمَّ رُومِيَّة لأَنَّهَا مَدِينَة المَلك قُسْطَنْطِين الَّذِي نَصَرَ دِينهمْ وَأَطَّدَهُ. وَلَمَّا ابْتَنَى القُسْطَنْطِينِيَّة نَقَلُوا البَتْرَك مِنْ رُومِيَّة إِلَيْهَا، كَمَا ذَكَرَهُ غَيْر وَاحِد مِمَّنْ ذَكَرَ تَوَارِيخهمْ كَسَعِيد بْن بِطْرِيق وَغَيْره مِنْ أَهْل الكِتَاب وَالمُسْلِمِينَ، فَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ أَنْطَاكِيَّة أَوَّل قرية آمَنَتْ. فَأَهْل هَذِهِ القَرْيَة قد ذَكَرَ الله تَعَالى أَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلهم، وَأَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ بِصَيْحَةٍ وَاحِدَة أَخْمَدَتْهُمْ، وَالله أَعْلَم.

---

(١) **إسناده ضعيف** : أخرجه الهيثمي في «الزوائد» (٩/ ٦٤٤)، وفيه محمد بن جابر: صدوق، قال الحافظ: ذهبت كتبه فساء حفظه وخلط وعمي فصار يلقن.

الثَّالث: أَنَّ قِصَّة أَنْطَاكِيَّة مَعَ الحَوَارِيِّينَ أَصْحَاب المَسِيح بَعْد نُزُول التَّوْرَاة، وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو سَعِيد الخُدْرِيّ وَغَيْر وَاحِد مِنَ السَّلَف: أَنَّ الله تَعَالَى بَعْد إِنْزَاله التَّوْرَاة لَمْ يُهْلِك أُمَّة مِنَ الأُمَم عَنْ آخِرهمْ بِعَذَابٍ يَبْعَثهُ عَلَيْهِمْ، بَل أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بَعْد ذَلِكَ بِقِتَال المُشْرِكِينَ، ذَكَرُوهُ عِنْد قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾. فَعَلَى هَذَا يَتَعَيَّن أَنَّ هَذِهِ القَرْيَة المَذْكُورَة فِي القُرْآن قَرْيَة أُخْرَى غَيْر أَنْطَاكِيَّة، كَمَا أَطْلَقَ ذَلِكَ غَيْر وَاحِد مِنَ السَّلَف أَيْضًا. أَوْ تَكُون أَنْطَاكِيَّة -إِنْ كَانَ لَفْظهَا مَحْفُوظًا فِي هَذِهِ القِصَّة- مَدِينَة أُخْرَى غَيْر هَذِهِ المَشْهُورَة المَعْرُوفَة، فَإِنَّ هَذِهِ لَمْ يُعْرَف أَنَّهَا أُهْلِكَتْ لا فِي المِلَّة النَّصْرَانِيَّة وَلا قَبْل ذَلِكَ، وَالله سُبْحَانه وَتَعَالَى أَعْلَم.

فَأَمَّا الحَدِيث الَّذِي رَوَاهُ الحَافِظ أَبُو القَاسِم الطَّبَرَانِيّ: حَدَّثَنَا الحُسَيْن بْن إِسْحَاق التُّسْتَرِيّ، حَدَّثَنَا الحُسَيْن بْن أَبِي السَّرِيّ العَسْقَلَانِيّ، حَدَّثَنَا حُسَيْن الأَشْقَر، حَدَّثَنَا ابْن عُيَيْنَة، عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِد، عَنْ ابْن عَبَّاس، عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «السَّبَق ثَلَاثَة: فَالسَّابِق إِلَى مُوسَى يُوشَع بْن نُون، وَالسَّابِق إِلَى عِيسَى صَاحِب يس، وَالسَّابِق إِلَى مُحَمَّد عَلِيّ بْن أَبِي طَالِب»[1]. فَإِنَّهُ حَدِيث مُنْكَر، لا يُعْرَف إِلَّا مِنْ طَرِيق حُسَيْن الأَشْقَر، وَهُوَ شِيعِيّ مَتْرُوك.

﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾، أَيْ: يَا وَيْل العِبَاد. وَقَال قَتَادَة: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾، أَيْ: يَا حَسْرَة العِبَاد عَلَى أَنْفُسهمْ، عَلَى مَا ضَيَّعَتْ مِنْ أَمْر الله، وَفَرَّطَتْ فِي جَنْب الله. قَال: وَفِي بَعْض القِرَاءَات: (**يَا حَسْرَة العِبَاد عَلَى أَنْفُسهَا**). وَمَعْنَى هَذَا: يَا حَسْرَتهمْ وَنَدَامَتهمْ يَوْم القِيَامَة إِذَا عَايَنُوا العَذَاب، كَيْفَ كَذَّبُوا رُسُل الله، وَخَالَفُوا أَمْر الله، فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدَّار الدُّنْيَا المُكَذِّبُونَ مِنْهُمْ. ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أَيْ: يُكَذِّبُونَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، وَيَجْحَدُونَ مَا أُرْسِل بِهِ مِنَ الحَقّ.

ثُمَّ قَال تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، أَيْ: أَلَمْ يَتَّعِظُوا بِمَنْ أَهْلَكَ الله قَبْلهمْ مِنَ المُكَذِّبِينَ لِلرُّسُل كَيْفَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا كَرَّة وَلا رَجْعَة، وَلَمْ يَكُنْ الأَمْر كَمَا زَعَمَ كَثِير مِنْ جَهَلَتهمْ وَفَجَرَتهمْ مِنْ قَوْلهمْ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، وَهُمْ القَائِلُونَ بِالدَّوْر مِنْ الدُّهْرِيَّة، وَهُمْ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ جَهْلًا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَعُودُونَ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا كَانُوا فِيهَا، فَرَدَّ الله تَعَالَى عَلَيْهِمْ بَاطِلهمْ، فَقَال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، أَيْ: وَإِنَّ جَمِيع الأُمَم المَاضِيَة وَالآتِيَة سَتُحْضَر لِلْحِسَاب يَوْم القِيَام بَيْن يَدَيْ الله ﷻ، فَيُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ كُلّهَا خَيْرهَا وَشَرّهَا، وَمَعْنَى هَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾. وَقَدْ اخْتَلَفَ القُرَّاء فِي أَدَاء هَذَا الحَرْف، فَمِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَا﴾ بِالتَّخْفِيف، فَعِنْده أَنَّ «إِنْ» لِلإِثْبَات، وَمِنْهُمْ مَنْ شَدَّدَ ﴿لَّمَّا﴾ وَجَعَل «إِنْ» نَافِيَة، وَ«لَمَّا» بِمَعْنَى (إِلَّا) تَقْدِيره: وَمَا كُلّ إِلَّا جَمِيع لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ، وَمَعْنَى القِرَاءَتَيْنِ وَاحِد، وَالله أَعْلَم.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يَقُول تَعَالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾، أَيْ: دَلَالَة لَهُمْ عَلَى وُجُود الصَّانِع وَقُدْرَته التَّامَّة وَإِحْيَائِهِ المَوْتَى ﴿ٱلْأَرْضُ

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٢٤)، وفيه حسين الأشقر: متروك. وقال الألباني: ضعيف جدًا، انظر «الضعيفة» (٣٥٨).

﴿ٱلۡمَيۡتَةُ﴾، أَيْ: إِذَا كَانَتْ مَيْتَة هَامِدَة لا شَيْء فِيهَا مِنَ النَّبَات، فَإِذَا أَنْزَل الله عَلَيْهَا المَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلّ زَوْج بَهِيج، وَلهَذَا قَال: ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾ أَيْ: جَعَلنَاه رِزْقًا لهُمْ وَلأَنْعَامِهِمْ، ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾، أَيْ: جَعلنَا فِيهَا أَنْهَارًا سَارِحَة فِي أَمْكِنَة، يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ. لـمَّا امْتَنَّ عَلى خَلقه بِإِيجَادِ الزُّرُوع لهُمْ عَطَفَ بِذِكْرِ الثِّمَار وَتَنَوُّعهَا وَأَصْنَافهَا.

وَقَوْله: ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾، أَيْ: وَمَا ذَاكَ كُلّه إِلَّا مِنْ رَحْمَة الله بِهِمْ، لا بِسَعْيِهِمْ وَلا كَدّهِمْ، وَلا بِحَوْلِهِمْ وَلا بِقُوَّتهِمْ. قَالهُ ابْن عَبَّاس وَقَتَادَة. وَلهَذَا قَال: ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾، أَيْ: فَهَلَّا يَشْكُرُونَهُ عَلى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ النِّعَم الَّتِي لا تُعَدّ وَلا تُحْصَى. وَاخْتَارَ ابْن جَرِير -بَل جَزَمَ بِهِ، وَلمْ يَحْكِ غَيْره إِلَّا احْتِمَالًا- أَنَّ «مَا» فِي قَوْله: ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾، بِمَعْنَى «الَّذِي»، تَقْدِيره: لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَره وَمِمَّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ، أَيْ: غَرَسُوهُ وَنَصَبُوهُ، قَال: وَهِيَ كَذَلِكَ فِي قِرَاءَة ابْن مَسْعُود: (**لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَره وَمِمَّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ**).

ثُمَّ قَال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾، أَيْ: مِنْ زُرُوع وَثِمَار وَنَبَات، ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ فَجَعَلهُمْ ذَكَرًا وَأُنْثَى، ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أَيْ: مِنْ مَخْلُوقَات شَتَّى لا يَعْرِفُونَهَا، كَمَا قَال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى وَمِنَ الدَّلالة لهُمْ عَلى قُدْرَته -تَعَالى- العَظِيمَة خَلق اللَّيْل وَالنَّهَار، هَذَا بِظَلامِهِ وَهَذَا بِضِيَائِهِ، وَجَعْلُهُمَا يَتَعَاقَبَانِ، يَجِيء هَذَا فَيَذْهَب هَذَا، وَيَذْهَب هَذَا فَيَجِيء هَذَا، كَمَا قَال: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾، وَلهَذَا قَال هَهُنَا: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾، أَيْ: نَصْرِمهُ مِنْهُ فَيَذْهَب فَيُقْبِل اللَّيْل وَلهَذَا قَال: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾، كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيث: «**إِذَا أَقْبَل اللَّيْل مِنْ هَهُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَار مِنْ هَهُنَا، وَغَرَبَتْ الشَّمْس، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِم**»[1]. هَذَا هُوَ الظَّاهِر مِنْ الآيَة، وَزَعَمَ قَتَادَة أَنَّهَا كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾. وَقَدْ ضَعَّفَ ابْن جَرِير قَوْل قَتَادَة هَهُنَا، وَقَال: إِنَّمَا مَعْنَى الإِيلاج الأَخْذ مِنْ هَذَا فِي هَذَا، وَليْسَ هَذَا مُرَادًا فِي هَذِهِ الآيَة، وَهَذَا الَّذِي قَالهُ ابْن جَرِير حَقّ. وَقَوْله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، فِي مَعْنَى قَوْله: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾، قَوْلانِ: أَحَدهمَا: أَنَّ المُرَاد مُسْتَقَرّهَا المَكَانِيّ، وَهُوَ تَحْت العَرْش مِمَّا يَلِي الأَرْض من ذَلكَ الجَانِب، وَهِيَ أَيْنَمَا كَانَتْ فَهِيَ تَحْت العَرْش هي وَجَمِيع المَخْلُوقَات، لأَنَّهُ سَقْفهَا، وَليْسَ بِكُرَةٍ كَمَا يَزْعُمهُ كَثِير مِنْ أَرْبَاب الهَيْئَة، وَإِنَّمَا هُوَ قُبَّة ذَات قَوَائِم تَحْمِلهُ المَلائِكَة، وَهُوَ فَوْق العَالم مِمَّا يَلِي رُءُوس النَّاس، فَالشَّمْس إِذَا كَانَتْ فِي قُبَّة الفَلك وَقْت الظَّهِيرَة تَكُون أَقْرَب مَا تَكُون إِلى العَرْش، فَإِذَا اسْتَدَارَتْ فِي فَلكهَا الرَّابِع إِلى مُقَابَلة هَذَا المَقَام، وَهُوَ وَقْت نِصْف اللَّيْل صَارَتْ أَبْعَد مَا تَكُون إِلى العَرْش، فَحِينَئِذٍ تَسْجُد وَتَسْتَأْذِن فِي الطُّلُوع، كَمَا جَاءَتْ بِذَلكَ الأَحَادِيث.

قَال البُخَارِيّ: حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرّ ﵁؛ قَال: كُنْت مَعَ النَّبِيّ ﷺ فِي المَسْجِد عِنْد غُرُوب الشَّمْس، فَقَال: «**يَا أَبَا ذَرّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُب الشَّمْس؟**». قُلت: الله وَرَسُوله أَعْلم. قَال: «**فَإِنَّهَا تَذْهَب حَتَّى تَسْجُد تَحْت العَرْش فَذَلك قَوْله:** ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾»[2].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٨٥٣، ١٨٥٤، ١٨٥٥، ١٨٥٧، ٤٩٩١)، ومسلم (١١٠٠-١١٠١).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٣٩٩)، ومسلم (١٥٩).

حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن الزُّبَيْر الحُمَيْدِيّ، حَدَّثَنَا وَكِيع عَنْ الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرّ؛ قَالَ: سَأَلت رَسُول الله ﷺ عَنْ قَوْله: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾، قَالَ: «**مُسْتَقَرُّهَا تَحْت العَرْش**».[1] كَذَا أَوْرَدَهُ هَهُنَا. وَقَدْ أَخْرَجَهُ فِي أَمَاكِن مُتَعَدِّدَة، وَرَوَاهُ بَقِيَّة الجَمَاعَة إِلَّا ابْن مَاجَهْ، مِنْ طُرُق، عَنْ الأَعْمَش بِهِ. وَقَالَ الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عُبَيْد، حدثنا الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرّ؛ قَالَ: كُنْت مَعَ رَسُول الله ﷺ فِي المَسْجِد حِين وجبت الشَّمْس فَقَال ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرّ: أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَب الشَّمْس؟**». قُلت: الله وَرَسُوله أَعْلم. قَال ﷺ: «**فَإِنَّهَا تَذْهَب حَتَّى تَسْجُد بَيْن يَدَيْ رَبِّهَا ﷻ، فَتَسْتَأْذِن فِي الرُّجُوع فَيُؤْذَن لهَا، وَكَأَنَّهَا قَدْ قِيل لهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْت. فَتَرْجِع إِلى مَطْلعهَا، وَذَلكَ مُسْتَقَرّهَا، ثُمَّ قرأَ:** ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾». وقَال سُفْيَان الثَّوْرِيّ، عَنْ الأَعْمَش، عَنْ إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرّ رضي الله عنه قَال: قَال رَسُول الله ﷺ لأَبِي ذَرّ حِين غَرَبَتْ الشَّمْس: «**أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَب؟**». قُلت: الله وَرَسُوله أَعْلم. قَال: «**فَإِنَّهَا تَذْهَب حَتَّى تَسْجُد تَحْت العَرْش، فَتَسْتَأْذِن فَيُؤْذَن لهَا، وَيُوشِك أَنْ تَسْجُد فَلا يُقْبَل مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِن فَلا يُؤْذَن لهَا، وَيُقَال لهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْت. فَتَطْلُع مِنْ مَغْرِبهَا، ذَلكَ قَوْله:** ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾».

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ أَبِي إِسْحَاق، عَنْ وَهْب بْن جَابِر، عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو؛ قَال فِي قَوْله: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾، قَال: إِنَّ الشَّمْس تَطْلُع فَتَرُدّهَا ذُنُوب بَنِي آدَم، حَتَّى إِذَا غَرَبَتْ سَلَّمَتْ وَسَجَدَتْ وَاسْتَأْذَنَتْ فَيُؤْذَن لهَا، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْم غَرَبَتْ فَسَلَّمَتْ وَسَجَدَتْ، وَاسْتَأْذَنَتْ فَلا يُؤْذَن لهَا، فَتَقُول إِنَّ المَسِير بَعِيد وَإِنِّي إِنْ لا يُؤْذَن لِي لا أَبْلُغ، فَتُحْبَس مَا شَاءَ الله أَنْ تُحْبَس، ثُمَّ يُقَال لهَا: «**اطْلُعِي مِنْ حَيْثُ غَرَبْت**» قَال: فَمِنْ يَوْمئِذٍ إِلى يَوْم القِيَامَة لا يَنْفَع نَفْسًا إِيمَانهَا، لمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْل، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانهَا خَيْرًا. وَقِيل: المُرَاد: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، هُوَ انْتِهَاء سَيْرهَا وَهُوَ غَايَة ارْتِفَاعهَا فِي السَّمَاء فِي الصَّيْف وَهُوَ أَوْجهَا، ثُمَّ غَايَة انْخِفَاضهَا فِي الشِّتَاء وَهُوَ الحَضِيض.

وَالقَوْل الثَّانِي: أَنَّ المُرَاد بِمُسْتَقَرّهَا هُوَ: مُنْتَهَى سَيْرهَا، وَهُوَ يَوْم القِيَامَة، يَبْطُل سَيْرهَا وَتَسْكُن حَرَكَتهَا وَتُكَوَّر، وَيَنْتَهِي هَذَا العَالم إِلى غَايَته، وَهَذَا هُوَ مُسْتَقَرّهَا الزَّمَانِيّ. قَال قَتَادَة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، أَيْ: لوَقْتِهَا وَلأَجَلٍ لا تَعْدُوهُ. وَقِيل: المُرَاد أَنَّهَا لا تَزَال تَنْتَقِل فِي مَطَالعهَا الصَّيْفِيَّة إِلى مُدَّة لا تَزِيد عَليْهَا، ثُمَّ تَنْتَقِل فِي مَطَالع الشِّتَاء إِلى مُدَّة لا تَزِيد عَليْهَا، يُرْوَى هَذَا عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو. وَقَرَأَ ابْن مَسْعُود، وَابْن عَبَّاس: ﴿**والشمس تجري لا مُسْتَقَرَ لها**﴾ أَيْ: لا قَرَار لهَا وَلا سُكُون، بَل هِيَ سَائِرَة ليْلًا وَنَهَارًا، لا تَفْتُر وَلا تَقِف. كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ أَيْ: لا يَفْتُرَانِ وَلا يَقِفَانِ إِلى يَوْم القِيَامَة. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ أَيْ: الَّذِي لا يُخَالف وَلا يُمَانَع، ﴿ٱلْعَلِيمِ ﴾، بِجَمِيع الحَرَكَات وَالسَّكَنَات، وَقَدْ قَدَّرَ ذَلكَ وقنَّنه عَلى مِنْوَال لا اخْتِلاف فِيهِ وَلا تَعَاكُس، كَمَا قَال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾. وَهَكَذَا خَتَمَ آيَة «حم السَّجْدَة» بِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾. ثُمَّ قَال: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أَيْ: جَعَلنَاهُ يَسِير سَيْرًا آخر يُسْتَدَلّ بِهِ عَلى مُضِيّ الشُّهُور، كَمَا أَنَّ الشَّمْس بِهَا يُعْرَف اللَّيْل وَالنَّهَار، وكَمَا قَال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾، وَقَال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ الآيَة. وَقَال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾. فَجَعَل

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٤٥٢٥).

الشَّمْس لها ضَوْء يَخُصّها وَالقَمَر لهُ نُور يَخُصّهُ، وَفَاوَتَ بَيْن سَيْر هَذِهِ وَهَذَا، فَالشَّمْس تَطْلُع كُلّ يَوْم وَتَغْرُب فِي آخِره عَلَى ضَوْء وَاحِد، وَلَكِنْ تَنْتَقِل فِي مَطَالعهَا وَمَغَارِبهَا صَيْفًا وَشِتَاء، يَطُول بِسَبَبِ ذَلِكَ النَّهَار وَيَقْصُر اللَّيْل ثُمَّ يَطُول اللَّيْل وَيَقْصُر النَّهَار، وَجَعَل سُلطَانهَا بِالنَّهَارِ، فَهِيَ كَوْكَب نَهَارِيّ. وَأَمَّا القَمَر فَقَدَّرَهُ مَنَازِل، يَطْلُع فِي أَوَّل لَيْلَة مِنْ الشَّهْر ضَئِيلًا قَلِيل النُّور، ثُمَّ يَزْدَاد نُورًا فِي اللَّيْلَة الثَّانِيَة، وَيَرْتَفِع مَنْزِلَة ثُمَّ كُلَّمَا ارْتَفَعَ ازْدَادَ ضِيَاء، وَإِنْ كَانَ مُقْتَبَسًا مِنْ الشَّمْس، حَتَّى يَتَكَامَل نُوره فِي اللَّيْلَة الرَّابِعَة عَشْرَة، ثُمَّ يَشْرَع فِي النَّقْص إِلَى آخِر الشَّهْر حَتَّى يَصِير كَالعُرْجُونِ القَدِيم. قَال ابْن عَبَّاس: وَهُوَ أَصْل العِذْق.

وَقَال مُجَاهِد: العُرْجُون القَدِيم، أَيْ: العِذْق اليَابِس. يَعْنِي ابْن عَبَّاس أَصْل العُنْقُود مِنْ الرُّطَب، إِذَا عَتُقَ وَيَبِسَ وَانْحَنَى، وَكَذَا قَال غَيْرهمَا. ثُمَّ بَعْد هَذَا يُبْدِيه الله جَدِيدًا فِي أَوَّل الشَّهْر الآخِر، وَالعَرَب تُسَمِّي كُلّ ثَلَاث لَيَالٍ مِنْ الشَّهْر بِاسْم بِاعْتِبَارِ القَمَر، فَيُسَمُّونَ الثَّلَاث الأُوَل «غُرَر»، وَاللَّوَاتِي بَعْدهَا «نفل»، وَاللَّوَاتِي بَعْدهَا «تُسَع» لِأَنَّ أُخْرَاهُنَّ التَّاسِعَة، وَاللَّوَاتِي بَعْدهَا «عُشَر» لِأَنَّ أُولاهُنَّ العَاشِرَة، وَاللَّوَاتِي بَعْدهَا «البِيض» لِأَنَّ ضَوْء القَمَر فِيهِنَّ إِلَى آخِرهنَّ، وَاللَّوَاتِي بَعْدهنَّ «دُرَع» جَمْعَ دَرْعَاء، لِأَنَّ أَوَّلهنَّ سود، لِتَأَخُّرِ القَمَر فِي أَوَّلهنَّ، وَمِنْهُ الشَّاة الدَّرْعَاء وَهِيَ الَّتِي رَأْسهَا أَسْوَد. وَبَعْدهنَّ ثَلَاث «ظُلَم» ثُمَّ ثَلَاث «حَنَادِس». وَثَلَاث «وآدئ»، وَثَلَاث «مِحَاق»، لانْمِحَاقِ القَمَر أَوَاخِر الشَّهْر فِيهِنَّ. وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَ يُنْكِر التُّسَع وَالعُشَر. كَذَا قَال فِي كِتَاب «غَرِيب المُصَنَّف».

وَقَوْله: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ قَال مُجَاهِد: لِكُلٍّ مِنْهُمَا حَدّ لا يَعْدُوهُ وَلا يُقَصِّر دُونه، إِذَا جَاءَ سُلطَان هَذَا ذَهَبَ هَذَا، وَإِذَا ذَهَبَ سُلطَان هَذَا جَاءَ سُلطَان هَذَا. وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ الحَسَن فِي قَوْله: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾، قَال: ذَلِكَ لَيْلَة الهِلال. وَرَوَى ابْن أَبِي حَاتِم هَهُنَا عَنْ عَبْد الله ابْن المُبَارَك، أَنَّهُ قَال: إِنَّ لِلرِّيح جَنَاحًا، وَإِنَّ القَمَر يَأْوِي إِلَى غِلَاف مِنْ المَاء. وَقَال الثَّوْرِيّ عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالِد، عَنْ أَبِي صَالِح: لا يُدْرِكُ هَذَا ضَوْء هَذَا، وَلا هَذَا ضَوْء هَذَا. وَقَال عِكْرِمَة: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾، يَعْنِي: أَنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمَا سُلطَانًا، فَلا يَنْبَغِي لِلشَّمْسِ أَنْ تَطْلُع بِاللَّيْل. وَقَوْله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾، يَقُول: لا يَنْبَغِي إِذَا كَانَ اللَّيْل أَنْ يَكُون لَيْل آخَر حَتَّى يَكُون النَّهَار، فَسُلطَان الشَّمْس بِالنَّهَارِ وَسُلطَان القَمَر بِاللَّيْل. وَقَال الضَّحَّاك: لا يَذْهَب اللَّيْل مِنْ هَهُنَا حَتَّى يَجِيء النَّهَار مِنْ هَهُنَا. وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى المَشْرِق. وَقَال مُجَاهِد: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾، يَطْلُبَانِ حَثِيثَيْنِ نسلخ أَحَدهمَا مِنْ الآخَر. وَالمَعْنَى فِي هَذَا: أَنَّهُ لا فَتْرَة بَيْن اللَّيْل وَالنَّهَار، بَل كُلّ مِنْهُمَا يَعْقُب الآخَر بِلا مُهْلة وَلا تَرَاخٍ؛ لِأَنَّهُمَا مُسَخَّرَانِ دَائِبَيْنِ يَتَطَالَبَانِ طَلَبًا حَثِيثًا.

وَقَوْله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾، يَعْنِي: اللَّيْل وَالنَّهَار وَالشَّمْس وَالقَمَر، كُلّهم يَسْبَحُونَ، أَيْ: يَدُورُونَ فِي فَلك السَّمَاء. قَالهُ ابْن عَبَّاس، وَعِكْرِمَة، وَالضَّحَّاك، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَعَطَاء الخُرَاسَانِيّ. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد بْن أَسْلم: فِي فَلك بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض. رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم، وَهُوَ غَرِيب جِدًّا بَل مُنْكَر. قَال ابْن عَبَّاس وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف: فِي فَلْكَة كَفَلْكَةِ المِغْزَل. وَقَال مُجَاهِد: الفَلك كَحَدِيدَة الرَّحَى، أَوْ كَفَلْكَةِ المِغْزَل لا يَدُور المِغْزَل إِلَّا بِهَا، وَلا تَدُور إِلَّا بِهِ.

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ٤٢ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ٤٣ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾.

يَقُول تَعَالَى: وَدَلالة لَهُمْ أَيْضًا عَلَى قُدْرَته تَعَالَى تَسْخِيره البَحْر لِيَحْمِل السُّفُن، فَمِنْ ذَلِكَ -بَل أَوَّله- سَفِينَة نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي أَنْجَاهُ الله فِيهَا بِمَنْ مَعَهُ مِنْ المُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْه الأَرْض مِنْ ذُرِّيَّة آدم غَيْرهمْ، وَلِهَذَا قَال: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾، أَيْ: آبَاءَهُمْ، ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾، أَيْ: فِي السَّفِينَة المَمْلُوءَة مِنْ الأَمْتِعَة

وَالحَيَوَانَات، الَّتِي أَمَرَهُ الله أَنْ يَحْمِل فِيهَا مِنْ كُلّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ. قَال ابْن عَبَّاس: المَشْحُون: المُوقَّر. وَكَذَا قَال سَعِيد ابْن جُبَيْر، وَالشَّعْبِيّ، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ. وَقَال الضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَابْن زَيْد: وَهِيَ سَفِينَة نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَقَوْله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾، قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: يَعْنِي بِذَلكَ الإِبِل، فَإِنَّهَا سُفُن البَرّ يَحْمِلُونَ عَلَيْهَا وَيَرْكَبُونَهَا. وَكَذَا قَال عِكْرِمَة، وَمُجَاهِد، وَالحَسَن وَقَتَادَة فِي رِوَايَة، وَعَبْد الله بْن شَدَّاد، وَغَيْرهم. وَقَال السُّدِّيّ فِي رِوَايَة: هِيَ الأَنْعَام. وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا الفَضْل بْن الصَّبَّاح، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن فُضَيْل، عَنْ عَطَاء، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَال: تَدْرُونَ مَا ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾؟ قُلْنَا: لا. قَال: السُّفُن، جُعِلتْ مِنْ بَعْد سَفِينَة نُوح عَلى مِثْلهَا. وَكَذَا قَال أَبُو مَالك، وَالضَّحَّاك، وَقَتَادَة، وَأَبُو صَالح، وَالسُّدِّيّ أَيْضًا: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾، أَيْ: السُّفُن. وَيُقَوِّي هَذَا المَذْهَب فِي المَعْنَى قَوْله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

وَقَوْله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾، يَعْنِي الَّذِينَ فِي السُّفُن ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾، أَيْ: فَلا مُغِيث لَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أَيْ: مِمَّا أَصَابَهُمْ، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾. وَهَذَا اسْتِثْنَاء مُنْقَطِع، تَقْدِيره: وَلكِنْ بِرَحْمَتِنَا نُسَيِّرُكُمْ فِي البَرّ وَالبَحْر، وَنُسَلِّمكُمْ إِلى أَجَل مُسَمًّى، وَلهَذَا قَال: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾، أَيْ: إِلى وَقْت مَعْلُوم عِنْد الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٥ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤٦ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَنْ تَمَادِي المُشْرِكِينَ فِي غَيِّهِمْ وَضَلالهِمْ، وَعَدَم اكْتِرَاثِهِمْ بِذُنُوبِهِمْ الَّتِي أَسْلفُوهَا، وَمَا هم يَسْتَقْبِلُونَ بَيْن أَيْدِيهِمْ يَوْم القِيَامَة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾، قَال مُجَاهِد: مِنْ الذُّنُوب. وَقَال غَيْره: بِالعَكْس ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أَيْ: لعَلَّ الله بِاتِّقَائِكُمْ ذَلكَ يَرْحَمكُمْ وَيُؤَمِّنكُمْ مِنْ عَذَابه. وَتَقْدِير الكَلام: أَنَّهُمْ لا يُجِيبُونَ إِلى ذَلكَ وَيُعْرِضُونَ عَنْهُ. وَاكْتَفَى عَنْ ذَلكَ بِقَوْلهِ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، أَيْ: عَلى التَّوْحِيد وَصِدْق الرُّسُل ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، أَيْ: لا يَتَأَمَّلُونَهَا وَلا يَنْتَفِعُونَ بِهَا.

وَقَوْله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: وَإِذَا أُمِرُوا بِالإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمْ الله عَلى الفُقَرَاء وَالمَحَاوِيج مِنْ المُسْلِمِينَ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، أَيْ: عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الفُقَرَاء، أَيْ: قَالُوا لمَنْ أَمَرَهُمْ مِنْ المُؤْمِنِينَ بِالإِنْفَاقِ مُحَاجِّينَ لَهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾، أَيْ: هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَمَرْتُمُونَا بِالإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ، لوْ شَاءَ الله لأَغْنَاهُمْ وَلأَطْعَمَهُمْ مِنْ رِزْقه، فَنَحْنُ نُوَافِق مَشِيئَة الله فِيهِمْ، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أَيْ: فِي أَمْرِكُمْ لنَا بِذَلكَ. قَال ابْن جَرِير: وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون مِنْ قَوْل الله للكُفَّارِ حِين نَاظَرُوا المسلمين وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ، فَقَال لَهُمْ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وَفِي هَذَا نَظَر.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ اسْتِبْعَاد الكَفَرَة لقِيَام السَّاعَة فِي قَوْلهِمْ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾. قَال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾، أَيْ: مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا صَيْحَة وَاحِدَة، وَهَذِهِ -وَالله أَعْلم- نَفْخَة الفَزَع، يُنْفَخ فِي الصُّور نَفْخَة الفَزَع، وَالنَّاس فِي أَسْوَاقهمْ وَمَعَايِشهمْ يَخْتَصِمُونَ وَيَتَشَاجَرُونَ عَلى عَادَتهمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلكَ إِذْ أَمَرَ الله تعالى إِسْرَافِيل فَنَفَخَ فِي الصُّور نَفْخَة يُطَوِّلهَا وَيَمُدّهَا، فَلا يَبْقَى أَحَد عَلى وَجْه الأَرْض إِلَّا أَصْغَى ليتًا، وَرَفَعَ ليتًا -وَهِيَ صَفْحَة العُنُق- يَتَسَمَّع الصَّوْت مِنْ

قبل السَّماء. ثُمَّ يُساق المَوْجُودُونَ مِنَ النَّاس إلى مَحْشَر القِيَامَة بالنَّارِ، تُحِيط بِهِمْ مِنْ جَوَانِبِهِمْ، وَلِهَذَا قَال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾، أيْ: عَلى مَا يَمْلكُونَهُ، الأَمْر أَهَمّ مِنْ ذَلكَ، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وَقَدْ وَرَدَتْ هَهُنَا آثَار وَأَحَادِيث ذَكَرْنَاهَا فِي مَوْضِع آخر، ثُمَّ تكُون بَعْد هَذَا نَفْخَة الصَّعْق، الَّتِي تَمُوت بِهَا الأَحْيَاء كُلّهمْ مَا عَدَا الحَيّ القَيُّوم، ثُمَّ بَعْد ذَلكَ نَفْخَة البَعْث.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

هَذِهِ هِيَ النَّفْخَة الثَّالِثَة، وَهِيَ نَفْخَة البَعْث وَالنُّشُور للقِيَام مِنْ الأَجْدَاث وَالقُبُور، وَلِهَذَا قَال: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، وَالنَّسلان هُوَ: المَشْي السَّرِيع، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾. ﴿قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ يَعْنُونَ قُبُورهمْ الَّتِي كَانُوا يَعْتَقِدُونَ فِي الدَّار الدُّنْيَا أَنَّهُمْ لا يُبْعَثُونَ مِنْهَا، فَلَمَّا عَايَنُوا مَا كَذَّبُوه فِي مَحْشَرهمْ ﴿قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، وَهَذَا لا يَنْفِي عَذَابهمْ فِي قُبُورهمْ، لأَنَّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلى مَا بَعْده فِي الشِّدَّة كَالرُّقَادِ. قَال أُبَيّ بْن كَعْب، وَمُجَاهِد، وَالحَسَن، وَقَتَادَة: يَنَامُونَ نَوْمَة قَبْل البَعْث. قَال قَتَادَة: وَذَلكَ بَيْن النَّفْخَتَيْنِ. فَلذَلكَ يَقُولُونَ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، فَإِذَا قَالُوا ذَلكَ أَجَابَهُمْ المُؤْمِنُونَ -قَالهُ غَيْر وَاحِد مِنْ السَّلف-: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. وَقَال الحَسَن: إِنَّمَا يُجِيبهُمْ بِذَلكَ المَلائِكَةُ. وَلا مُنَافَاة إِذْ الجَمْع مُمْكِن، وَالله أَعْلم. وَقَال عَبْد الرَّحْمَن بْن زَيْد: الجَمِيع مِنْ قَوْل الكُفَّار: ﴿يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

نَقَلهُ ابْن جَرِير، وَاخْتَارَ الأَوَّل، وَهُوَ أَصَحّ، وَذَلكَ كَقَوْلِهِ تَعَالى فِي الصَّافَّات: ﴿وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وَقَال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. وَقَوْله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾، وَقَال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، وَقَال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾. أَيْ: إِنَّمَا يأْمُرهُمْ أَمْرًا وَاحِدًا، فَإِذَا الجَمِيع مُحْضَرُونَ، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾، أَيْ: مِنْ عَمَلهَا، ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ أَهْل الجَنَّة، أَنَّهُمْ يَوْم القِيَامَة إِذَا ارْتَحَلُوا مِنْ العَرَصَات، فَنَزَلُوا فِي رَوْضَات الجَنَّات، أَنَّهُمْ فِي شُغُل عَنْ غَيْرهمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ النَّعِيم المُقِيم وَالفَوْز العَظِيم. قَال الحَسَن البَصْرِيّ، وَإِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالد: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ عَمَّا فِيهِ أَهْل النَّار مِنْ العَذَاب. وَقَال مُجَاهِد: ﴿فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ﴾، أَيْ: فِي نَعِيم مُعْجَبُونَ، أَيْ: بِهِ. وَكَذَا قَال قَتَادَة. وَقَال ابْن عَبَّاس: ﴿فَـٰكِهُونَ﴾، أَيْ: فَرِحُونَ. وَقَال عَبْد الله بْن مَسْعُود، وَابْن عَبَّاس، وَسَعِيد بْن المُسَيَّب، وَعِكْرِمَة، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَالأَعْمَش، وَسُليْمَان التَّيْمِيّ، وَالأَوْزَاعِيّ فِي قَوْله: ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ﴾، قَالُوا: شُغُلهمْ افْتِضَاض الأَبْكَار. وَقَال ابْن عَبَّاس فِي رِوَايَة عَنْهُ: ﴿فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ﴾، أَيْ: بِسَمَاع الأَوْتَار. وَقَال أَبُو حَاتِم: لعَلَّهُ غَلط مِنْ المُسْتَمِع، وَإِنَّمَا هُوَ افْتِضَاض الأَبْكَار.

وَقَوْله: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾. قَال مُجَاهِد: وَحَلائِلهمْ ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾، أَيْ: فِي ظِلال الأَشْجَار، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ

مُتَّكِـُٔونَ ﴾. قَال ابْن عَبَّاس: وَمُجَاهِد، وَعِكْرِمَة، وَمُحَمَّد بْن كَعْب، وَالحَسَن، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ، وَخُصَيْف: ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾، هِيَ: السُّرُر تَحْت الحِجَال. قُلت: نَظِيره فِي الدُّنْيَا هَذِهِ التُّخُوت تَحْت البَشَاخِين، وَالله أَعْلَم. وَقَوْله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾، أَيْ: مِنْ جَمِيع أَنْوَاعهَا، ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾، أَيْ: مَهْمَا طَلَبُوا وَجَدُوا مِنْ جَمِيع أَصْنَاف المَلاذّ.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَوْف الحِمْصِيّ، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن سَعِيد بْن كَثِير بْن دِينَار، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن مُهَاجِر، عَنْ الضَّحَّاك المَعَافِرِيّ، عَنْ سُلَيْمَان بْن مُوسَى، حَدَّثَنِي كُرَيْب أَنَّهُ سَمِعَ أُسَامَة بْن زَيْد، يَقُول: قَال رَسُول الله ﷺ: «أَلا هَل مُشَمِّر إِلى الجَنَّة؟ فَإِنَّ الجَنَّة لا خَطَر لهَا، هِيَ وَرَبّ الكَعْبَة نُور كُلّهَا تَتلأْلأ، وَرَيْحَانَة تَهْتَزّ، وَقَصْر مَشِيد، وَنَهْر مُطَّرِد، وَثَمَرَة نَضِيجَة، وَزَوْجَة حَسْنَاء جَمِيلة، وَحُلل كَثِيرَة، وَمُقَام فِي أَبَد، فِي دَار سَلامَة، وَفَاكِهَة خَضِرَة وحَبرة وَنِعْمَة، ومَحَلَّة عَالِيَة بَهِيَّة». قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُول الله؛ نَحْنُ المُشَمِّرُونَ لهَا. قَال: قُولُوا: «إِنْ شَاءَ الله». قال القوم: إن شاء الله. وَكَذَا رَوَاهُ ابْن مَاجَهْ فِي «كِتَاب الزُّهْد» مِنْ سُنَنه مِنْ حَدِيث الوَلِيد ابْن مُسْلم عَنْ مُحَمَّد بْن مُهَاجِر بِهِ.(١)

وَقَوْله: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، قَال ابْن جُرَيْج: قَال ابْن عَبَّاس فِي قَوْله: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾: فَإِنَّ الله نَفْسه سَلام عَلى أَهْل الجَنَّة. وَهَذَا الَّذِي قَال ابْن عَبَّاس كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ﴾.

وَقَدْ رَوَى ابْن أَبِي حَاتِم هَهُنَا حَدِيثًا فِي إِسْنَاده نَظَر؛ فَإِنَّهُ قَال: حَدَّثَنَا مُوسَى بْن يُوسُف، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن عَبْد المَلك بْن أَبِي الشَّوَارِب، حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِم العَبْدَانِيّ، حَدَّثَنَا الفَضْل الرَّقَاشِيّ، عَنْ مُحَمَّد بْن المُنْكَدِر، عَنْ جَابِر ابْن عَبْد الله رضي الله عنه؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «بَيْنَا أَهْل الجَنَّة فِي نَعِيمهمْ، إِذْ سَطَعَ لهم نُور، فَرَفَعُوا رُءُوسهمْ فَإِذَا الرَّبّ تَعَالى قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقهمْ، فَقَال: السَّلام عَلَيْكُمْ يَا أَهْل الجَنَّة. فَذَلكَ قَوْله: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، قَال: فَيَنْظُر إِلَيْهِمْ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَلا يَلتَفِتُونَ إِلى شَيْء مِنْ النَّعِيم مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى يَحْتَجِب عَنْهُمْ، وَيَبْقَى نُوره وَبَرَكَته عَلَيْهِمْ وَفِي دِيَارهمْ». وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ فِي «كِتَاب السُّنَّة» مِنْ «سُنَنه»، عَنْ مُحَمَّد بْن عَبْد المَلك بْن أَبِي الشَّوَارِب بِهِ.(٢)

وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا يُونُس بْن عَبْد الأَعْلى، أَخْبَرَنَا ابْن وَهْب، حَدَّثَنَا حَرْمَلة، عَنْ سُلَيْمَان بْن حُمَيْد، قَال: سَمِعْت مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ يُحَدِّث عَنْ عُمَر بْن عَبْد العَزِيز؛ قَال: إِذَا فَرَغَ الله مِنْ أَهْل الجَنَّة وَالنَّار، أَقْبَل فِي ظُلل مِنْ الغَمَام وَالمَلائِكَة. قَال: فَيُسَلِّم عَلى أَهْل الجَنَّة، فَيَرُدُّونَ عليه السلام. قَال القُرَظِيّ: وَهَذَا فِي كِتَاب الله: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، فَيَقُول: سَلُونِي، فَيَقُولُونَ: مَاذَا نَسْأَلك أَيْ رَبّ؟ قَال: بَلى سَلُونِي. قَالُوا: نَسْأَلك أَيْ رَبّ؛ رِضَاك. قَال: رِضَائِي أَحَلَّكُمْ دَار كَرَامَتِي. قَالُوا: يَا رَبّ، فَمَا الَّذِي نَسْأَلك، فَوَعِزَّتِك وَجَلالك وَارْتِفَاع مَكَانك، لوْ قَسَمْت عَلَيْنَا رِزْق الثَّقَلَيْنِ لأَطْعَمْنَاهُمْ وَلأَسْقَيْنَاهُمْ وَلأَلبَسْنَاهُمْ وَلأَخْدَمْنَاهُمْ، لا يُنْقِصنَا ذَلكَ شَيْئًا. قَال: إِنَّ لدَيَّ مَزِيدًا. قَال: فَيَفْعَل ذَلكَ بِهِمْ فِي دَرَجهمْ، حَتَّى يَسْتَوِي فِي مَجْلسه. قَال: ثُمَّ تَأْتِيهِمْ التُّحَف مِنْ الله عز وجل تَحْمِلهَا إِلَيْهِمْ المَلائِكَة ثُمَّ ذَكَرَ نَحْوه. وَهَذَا أَثَر غَرِيب، أَوْرَدَهُ ابْن جَرِير مِنْ طُرُق.

﴿وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُخْبِرًا عَمَّا يَئُول إِلَيْهِ حَال الكُفَّار يَوْم القِيَامَة مِنْ أَمْره لهُمْ أَنْ يَمْتَازُوا، بِمَعْنَى يَتَمَيَّزُونَ عَنْ المُؤْمِنِينَ فِي مَوْقِفهمْ. كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، وَقَال

---

(١) ضعيف: تقـدم.

(٢) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٣٣).

تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾، أَيْ: يَصِيرُونَ صَدْعَيْنِ فِرْقَتَيْنِ، ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: هَذَا تَقْرِيع مِنْ الله للكَفَرَةِ مِنْ بَنِي آدَم، الَّذِينَ أَطَاعُوا الشَّيْطَان وَهُوَ عَدُوّ لَهُمْ مُبِين، وَعَصَوْا الرَّحْمَن، وَهُوَ الَّذِي خلقهُمْ وَرزقَهُمْ؛ وَلِهَذَا قَال: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، أَيْ: قَدْ أَمَرْتُكُمْ فِي [دَار][1] الدُّنْيَا بِعِصْيَانِ الشَّيْطَان، وَأَمَرْتُكُمْ بِعِبَادَتِي، وَهَذَا هُوَ الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم، فَسلكْتُمْ غَيْر ذَلكَ وَاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَان فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَلهَذَا قَال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾، يُقَال: «جِبِلاًّ» بِكَسْرِ الجِيم، وَتَشْدِيد اللاَّم. وَيُقَال: «جُبُلاً» بِضَمِّ الجِيم وَالبَاء، وَتَخْفِيف اللاَّم، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَكِّن البَاء. وَالْمُرَاد بِذَلكَ الخَلق الكَثِير قَالهُ مُجَاهِد، وَالسُّدِّيّ، وَقَتَادَة، وَسُفْيَان بْن عُيَيْنَة.

وَقَوْله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾، أَيْ: أَفَمَا كَانَ لَكُمْ عَقْل فِي مُخَالفَة رَبّكُمْ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَته وَحْده لا شَرِيك لهُ، وَعُدُولكُمْ إِلى اتِّبَاع الشَّيْطَان. قَال ابْن جرير: حَدَّثَنَا أبو كُرَيْب، حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مُحَمَّد الْمُحَارِبِيّ، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن رَافِع، عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنْ مُحَمَّد بْن كَعْب القُرَظِيّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «إِذَا كَانَ يَوْم القِيَامَة أَمَرَ الله تَعَالى جَهَنَّم فَيَخْرُج مِنْهَا عُنُق سَاطِع مُظْلم ثم يَقُول: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾. فَيَتَمَيَّز النَّاس وَيَجْثُون، وَهِيَ الَّتِي يَقُول الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.»[2]

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾

يُقَال للكَفَرَةِ مِنْ بَنِي آدَم يَوْم القِيَامَة، وَقَدْ بُرِّزَتْ الجَحِيم لَهُمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، أَيْ: هَذِهِ الَّتِي حَذَّرَتْكُمْ الرُّسُل فَكَذَّبْتُمُوهُمْ، ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

وَقَوْله تَعَالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، هَذَا حَال الكُفَّار وَالْمُنَافِقِينَ يَوْم القِيَامَة، حِين يُنْكِرُونَ مَا اجْتَرَمُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَحْلفُونَ مَا فَعَلُوهُ، فَيَخْتِم الله عَلى أَفْوَاههِمْ، وَيَسْتَنْطِق جَوَارِحهِمْ بِمَا عَمِلتْ. قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا أَبُو شَيْبَة إِبْرَاهِيم بْن عَبْد الله بْن أَبِي شَيْبَة، حَدَّثَنَا مُنْجَاب بْن الحَارِث التَّمِيمِيّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَامِر الأسدي، حَدَّثَنَا سُفْيَان، عَنْ عُبَيْد الْمُكْتِب، عَنْ الفَضْيل بْن عَمْرو، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ أَنَس بْن مَالك؛ قَال: كُنَّا عِنْد النَّبِيّ ﷺ فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذه، ثُمَّ قَال ﷺ: «أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَك؟». قُلنَا: الله وَرَسُوله أَعْلم. قَال ﷺ: **«مِنْ مُجَادَلة العَبْد رَبّه يَوْم القِيَامَة، يَقُول: يا رَبّ، أَلمْ تُجِرْنِي مِنْ الظُّلم؟ فَيَقُول: بَلى. فَيَقُول: لا أُجِيز عَليَّ إلاَّ شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي. فَيَقُول: كَفَى بِنَفْسِك اليَوْم عَليْك حَسِيبًا، وَبِالكِرَامِ الكَاتِبِينَ شُهُودًا. فَيُخْتَم عَلى فِيهِ، وَيُقَال لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، فتنطق بعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخلَّى بَيْنه وَبَيْن الكَلام، فَيَقُول: بُعْدًا لكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْت أُنَاضِل»**[3]. وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلم وَالنَّسَائِيّ، كِلاهُمَا عَنْ أَبِي بَكْر بْن

---

(١) فِي نسخة: [الدار].
(٢) إسناده ضعيف : أخرجه الطبري (١٠/ ٤٥٦)، وفيه شيخ إسماعيل بن رافع ولم يسم.
(٣) صحيح : أخرجه مسلم (٢٩٦٩).

أَبِي النَّضْر، عَنْ أَبِي النَّضْر، عَنْ عُبَيْد الله بْن عَبْد الرَّحْمَن الأَشْجَعِيّ، عَنْ سُفْيَان -هُوَ الثَّوْرِيّ- بِهِ. ثُمَّ قَال النَّسَائِيّ: لا أَعْلم أَحَدًا رَوَى هَذَا الحَدِيث عَنْ سُفْيَان غَيْر الأَشْجَعِيّ، وَهُوَ حَدِيث غَرِيب، وَالله تَعَالَى أَعْلم. كَذَا قَال، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْ رِوَايَة أَبِي عَامِر عَبْد المَلِك بْن عَمْرو الأَسَدِيّ -وَهُوَ العَقَدِيّ- عَنْ سُفْيَان.

وَقَال عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر، عَنْ بَهْز بْن حَكِيم، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدّه عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَال: **«إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ مُفَدَّمة أَفْوَاهكُمْ بِالفِدَامِ، فَأَوَّل مَا يُسْأَل عَنْ أَحَدكُمْ فَخِذه وَكَتِفه»**[1]. رَوَاهُ النَّسَائِيّ عَنْ مُحَمَّد بْن رَافِع عَنْ عَبْد الرَّزَّاق بِهِ. وَقَال سُفْيَان بْن عُيَيْنَةَ عَنْ سُهَيْل، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه، عَنْ رَسُول الله ﷺ فِي حَدِيث القِيَامَة الطَّوِيل، قَال فِيهِ: **«ثُمَّ يَلقَى الثَّالث فَيَقُول: مَا أَنْتَ؟ فَيَقُول: أَنَا عَبْدك، آمَنْت بِك وَبِنَبِيِّك وَبِكِتَابك، وَصُمْت وَصَلَّيْت وَتَصَدَّقْت وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، قَال: فَيُقَال لَهُ: أَلا نَبْعَث عَلَيْك شَاهِدنَا؟ قَال: فَيُفَكِّر فِي نَفْسه، مَنْ الَّذِي يَشْهَد عَلَيْهِ، فَيُخْتَم عَلى فِيهِ، وَيُقَال لِفَخِذِهِ: انْطِقِي. قَال: فَتَنْطِق فَخِذه وَلَحْمه وَعِظَامه بِمَا كَانَ يَعْمَل، وَذَلِكَ المُنَافِق، وَذَلِكَ لِيُعْذَر مِنْ نَفْسه. وَذَلِكَ الَّذِي سخط الله عَلَيْهِ»**[2]. وَرَوَاهُ مُسْلم وَأَبُو دَاوُد، مِنْ حَدِيث سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، بِهِ بِطُولِهِ. ثُمَّ قَال ابْن أَبِي حَاتِم رحمه الله: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَام بْن عَمَّار، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، حَدَّثَنَا ضَمْضَم بْن زُرْعَة، عَنْ شُرَيْح بْن عُبَيْد، عَنْ عُقْبَة بْن عَامِر؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ؛ يَقُول: «إِنَّ أَوَّل عَظْم مِنْ الإِنْسَان يَتَكَلَّم يَوْم يُخْتَم عَلى الأَفْوَاه، فَخِذه مِنْ الرِّجْل اليُسْرَى». وَرَوَاه ابْن جَرِير عَنْ مُحَمَّد بْن عَوْف، عَنْ عَبْد الله بْن المُبَارَك، عَنْ إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، بِهِ مِثْله. وَقَدْ جَوَّدَ إِسْنَاده الإِمَام أَحْمَد رحمه الله فَقَال: حَدَّثَنَا الحَكَم بْن نَافِع، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيل بْن عَيَّاش، عَنْ ضَمْضَم بْن زُرْعَة، عَنْ شُرَيْح بْن عُبَيْد الحَضْرَمِيّ، عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنْ عُقْبَة بْن عَامِر؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُول الله ﷺ يَقُول: «إِنَّ أَوَّل عَظْم مِنْ الإِنْسَان يَتَكَلَّم يَوْم يُخْتَم عَلى الأَفْوَاه، فَخِذه مِنْ الرِّجْل الشِّمَال»[3] وَقَال ابْن جَرِير: حَدَّثَنَا يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، حَدَّثَنَا ابْن عُلَيَّة، حَدَّثَنَا يُونُس بْن عُبَيْد، عَنْ حُمَيْد ابْن هِلال، قَال: قَال أَبُو بُرْدَة: قَال أَبُو مُوسَى -هُوَ الأَشْعَرِيّ رضي الله عنه-: يُدْعَى المُؤْمِن لِلحِسَابِ يَوْم القِيَامَة، فَيَعْرِض عَلَيْهِ رَبّه عَمَله فِيمَا بَيْنه وَبَيْنه فَيَعْتَرِف فَيَقُول: نَعَمْ أَيْ رَبّ؛ عَمِلت عَمِلت عَمِلت. قَال: فَيَغْفِر الله لَهُ ذُنُوبه، وَيَسْتُرُهُ مِنْهَا. قَال: فَمَا عَلى الأَرْض خَلِيقَة تَرَى مِنْ تِلكَ الذُّنُوب شَيْئًا، وَتَبْدُو حَسَنَاته، فَوَدَّ أَنَّ النَّاس كُلّهمْ يَرَوْنَهَا، وَيُدْعَى الكَافِر وَالمُنَافِق لِلحِسَابِ، فَيَعْرِض رَبّه عَلَيْهِ عَمَله، فَيَجْحَده فَيَقُول: أَيْ رَبّ؛ وَعِزَّتك لَقَدْ كَتَبَ عَلَيَّ هَذَا المَلَك مَا لَمْ أَعْمَل. فَيَقُول لَهُ المَلَك: أَمَا عَمِلت كَذَا، فِي يَوْم كَذَا، فِي مَكَان كَذَا؟ فَيَقُول: لا، وَعِزَّتك أَيْ رَبّ؛ مَا عَمِلته. فَإِذَا فَعَل ذَلِكَ خُتِمَ عَلى فِيهِ. قَال أَبُو مُوسَى الأَشْعَرِيّ: فَإِنِّي أَحْسَب أَوَّل مَا يَنْطِق مِنْهُ الفَخِذ اليُمْنَى، ثُمَّ تَلا: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

وَقَوْله: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾، قَال عَلِيّ بْن أَبِي طَلحَة، عَنْ ابْن عَبَّاس فِي تَفْسِيرهَا: يَقُول: وَلوْ نَشَاء لأَضْللنَاهُمْ عَنْ الهُدَى، فَكَيْفَ يَهْتَدُونَ؟ وَقَال مَرَّة: أَعْمَيْنَاهُمْ. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ: وَلوْ شَاءَ الله لطَمَسَ عَلى أَعْيُنهمْ، فَجَعَلهُمْ عُمْيًا يَتَرَدَّدُونَ.

قَال السُّدِّيّ: لوْ شئنا أَعْمَيْنَا أَبْصَارهمْ. قَال مُجَاهِد، وَأَبُو صَالح، وَقَتَادَة، وَالسُّدِّيّ: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ ﴾، يَعْنِي الطَّرِيق. وَقَال ابْن زَيْد: يَعْنِي بِالصِّرَاطِ هَهُنَا الحق، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾، وَقَدْ طَمَسْنَا عَلى أَعْيُنهمْ. وَقَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾: لا يُبْصِرُونَ الحَقّ.

---

(١) **إسناده حسن** : أخرجه النسائي في «الكبرى» (٤/ ٤٥١) بسند حسن.

(٢) **صحيح** : أخرجه مسلم (٢٩٦٨).

(٣) **إسناده ضعيف** : أخرجه أحمد (٤/ ١٥١)، بسند ضعيف، فيه إبهام شيخ شريح بن عبيد الحضرمي.

وَقَوْله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾، قَال العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس: أَهْلَكْنَاهُمْ. وَقَال السُّدِّيّ: يَعْنِي لغَيَّرْنَا خَلقهمْ. وَقَال أَبُو صَالح: لجَعَلنَاهُمْ حِجَارَة. وَقَال الحَسَن البَصْرِيّ، وَقتَادَة: لأَقْعَدهُمْ عَلى أَرْجُلهمْ. وَلهَذَا قَال تَعَالى: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾، أَيْ: إِلى أَمَام، ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾، أي: إِلى وَرَاء، بَل يَلزَمُونَ حَالًا وَاحِدًا لا يَتَقَدَّمُونَ وَلا يَتَأَخَّرُونَ.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

يُخْبِر تَعَالى عَنْ ابْن آدَم أَنَّهُ كُلَّمَا طَال عُمْره رُدَّ إِلى الضَّعْف بَعْد القُوَّة، وَالعَجْز بَعْد النَّشَاط، كَمَا قَال تَعَالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾. وَقَال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾. وَالمُرَاد مِنْ هَذَا وَالله أَعْلم: الإِخْبَار عَنْ هَذِهِ الدَّار بِأَنَّهَا دَار زَوَال وَانْتِقَال، لا دَار دَوَام وَاسْتِقْرَار، وَلهَذَا قَال: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، أَيْ: يَتفكَّرُونَ بِعُقُولِهِمْ فِي ابْتِدَاء خَلقهمْ، ثُمَّ صَيْرُورَتهمْ إِلى سِنّ الشَّيْبَة، ثُمَّ إِلى الشَّيْخُوخَة؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ خُلقُوا لدَارٍ أُخْرَى، لا زَوَال لهَا وَلا انْتِقَال مِنْهَا، وَلا مَحِيد عَنْهَا، وَهِيَ الدَّار الآخِرَة.

وَقَوْله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، يَقُول تعالى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيّه مُحَمَّد ﷺ: إِنَّهُ مَا عَلَّمَهُ الشِّعْر، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، أَيْ: ومَا هُوَ فِي طَبْعه، فَلا يُحْسِنهُ وَلا يُحِبّهُ، وَلا تَقْتَضِيه جِبِلَّته، وَلهَذَا وَرَدَ أَنَّهُ عليه السلام كَانَ لا يَحْفَظ بَيْتًا عَلى وَزْن مُنْتَظِم، بَل إِنْ أَنْشَدَهُ زَحَّفَهُ أَوْ لمْ يُتِمّهُ.

وَقَال أَبُو زُرْعَة الرَّازِيّ: حُدِّثت عن إِسْمَاعِيل بْن مُجَالد، عَنْ أَبِيهِ عَنْ الشَّعْبِيّ أَنَّهُ قَال: مَا وَلدَ عَبْد المُطَّلب ذَكَرًا وَلا أُنْثى إِلَّا يَقُول الشِّعْر، إِلَّا رَسُول الله ﷺ. ذَكَرَهُ ابْن عَسَاكِر فِي تَرْجَمَة «عُتْبَة بْن أَبِي لهَب» الَّذِي أَكَلهُ السبع بِالزَّرْقَاءِ.

قَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثنَا أَبِي، حَدَّثنَا أَبُو سَلمَة، حَدَّثنَا حَمَّاد بْن سَلمَة، عَنْ عَليّ بْن زَيْد، عَنْ الحَسَن -هُوَ البَصْرِيّ-، قَال: إِنَّ رَسُول الله ﷺ كَانَ يَتَمَثَّل بِهَذَا البَيْت:

❁ كَفَى بِالإِسْلامِ وَالشَّيْب للمَرْءِ نَاهِيًا ❁

فَقَال أَبُو بَكْر: يَا رَسُول الله:

❁ كَفَى الشَّيْب وَالإِسْلام للمَرْءِ نَاهِيًا ❁

قَال أَبُو بَكْر، أَوْ عُمَر: أَشْهَد أَنَّك رَسُول الله، يَقُول الله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.[1]

وَهَكَذَا رَوَى البَيْهَقِيّ فِي «الدَّلائِل»، أَنَّ رَسُول الله ﷺ؛ قَال للعَبَّاسِ بْن مِرْدَاس السُّلمِيّ: «أَنْتَ القَائِل:

أَتجْعَلُ نَهْبي وَنَهْبَ العُبَيْد ❁ بَيْنَ الأَقْرَع وعُيَيْنَةَ»

فَقَال: إِنَّمَا هُوَ: «بَيْن عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَع» فَقَال: «الكُلّ سَوَاء». يَعْنِي فِي المَعْنَى، صَلوَات الله وَسَلامه عَليْهِ. وَقَدْ ذَكَرَ السُّهَيْليّ فِي «الرَّوْض الأُنُف» لهَذَا التَّقْدِيم وَالتَّأْخِير الَّذِي وَقعَ فِي كَلامه ﷺ فِي هَذَا البَيْت مُنَاسَبَة أَغْرَبَ فِيهَا، حَاصِلهَا شَرَف الأَقْرَع بْن حَابِس عَلى عُيَيْنَةَ بْن بَدْر الفَزَارِيّ، لأَنَّهُ ارْتَدَّ فِي أَيَّام الصِّدِّيق، بِخِلافِ ذَاكَ، وَالله أَعْلم. وَهَكَذَا رَوَى الأُمَوِيّ فِي «مَغَازِيه»؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ، جَعَل يَمْشِي بَيْن القَتْلى يَوْم بَدْر، وَهُوَ يَقُول:

نُفَلِّق هَامًا .... ❁ ....

فَيَقُول الصِّدِّيق رضي الله عنه مُتَمِّمًا للبَيْتِ:

.... مِنْ رِجَال أَعِزَّة ❁ عَليْنَا، وَهُمْ كَانُوا أَعَقّ وَأَظْلمَا

(١) ضعيف: فيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٣٠٨٥).

وَهَذَا لبَعْضِ شُعَرَاء العَرَب فِي قَصِيدَة لهُ، وَهِيَ فِي «الحَمَاسَة». وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا هُشَيْم، حَدَّثَنَا مُغِيرَة، عَنْ الشَّعْبِيّ، عَنْ عَائِشَة ﵂، قَالتْ: كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَرَابَ الخَبَر، تَمَثَّل فِيهِ بِبَيْتِ طَرَفَة:

❁ وَيَـأْتِيـك بالأَخْـبَـارِ مَنْ لـمْ تُـزَوِّدِ ❁ [1]

وَهكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي «اليَوْم وَاللَّيْلَة» مِنْ طَرِيق إِبْرَاهِيم بْن مُهَاجِر، عَنْ الشَّعْبِيّ عَنْهَا وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ أَيْضًا مِنْ حَدِيث المِقْدَام بْن شُرَيْح بْن هَانِئ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَة ﵂، كَذَلِكَ. ثُمَّ قَال التِّرْمِذِيّ: «هَذَا حَدِيث حَسَن صَحِيح». وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَزَّار: حَدَّثَنَا يُوسُف بْن مُوسَى، حَدَّثَنَا أبو أُسَامَة، عَنْ زَائِدَة، عَنْ سِمَاك، عَنْ عِكْرِمَة، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ قَال: كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ يَتَمَثَّل مِنْ الأَشْعَار:

❁ وَيَـأْتِيـك بالأَخْـبَـارِ مَنْ لـمْ تُـزَوِّدِ ❁ [2]

ثُمَّ قَال: رَوَاهُ غَيْر زَائِدَة عَنْ سِمَاك، عَنْ عكرمة عَنْ عَائِشَة. وَهَذَا فِي شِعْر طَرَفَة بْن العَبْد، فِي مُعَلَّقَته المَشْهُورَة، وَهَذَا المَذْكُور مِنْهَا، أَوَّله:

سَتُبْدِي لكَ الأَيَّام مَا كُنْت جَاهِلاً ❁ وَيَأْتِيك بالأَخْبَارِ مَنْ لمْ تُزَوِّد

وَيَأْتِيك بالأَخْبَارِ مَنْ لمْ تَبِعْ لهُ ❁ بَتَاتًا، وَلمْ تَضْرِب لهُ وَقْت مَوْعِد

وَقَال الحَافِظ أَبُو بَكْر البَيْهَقِيّ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْد الله الحَافِظ، حَدَّثَنَا أَبُو حَفْص عُمَر بْن أَحْمَد بْن نُعَيْم -وَكِيل المُتَّقِي بِبَغْدَاد- حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّد عَبْد الله بْن هِلال النَّحْوِيّ الضَّرِير، حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن عَمْرو الأَنْصَارِيّ، حَدَّثَنَا سُفْيَان بْن عُيَيْنَة، عَنْ الزُّهْرِيّ، عَنْ عُرْوَة، عَنْ عَائِشَة ﵂؛ قَالتْ: مَا جَمَعَ رَسُول اللهِ ﷺ بَيْت شِعْر قَطُّ، إِلَّا بَيْتًا وَاحِدًا: [3]

تَفَاءَل بِمَا تَهْوَى يَكُنْ، فَلقَلَّمَا ❁ يُقَال لشَيْءٍ كَانَ إِلاَّ تَحَقَّقَا

سَأَلت شَيْخَنَا الحَافِظ أَبَا الحَجَّاج المِزِّيّ عَنْ هَذَا الحَدِيث؛ فَقَال: هُوَ مُنْكَر. وَلمْ يُعْرَف شَيْخ الحَاكِم، وَلا الضَّرِير.

وَقَال سَعِيد بْن عُرْوَة عَنْ قَتَادَة: قِيل لعَائِشَة: هَل كَانَ رَسُول الله ﷺ يَتَمَثَّل بِشَيْءٍ مِنْ الشِّعْر؟ قَالتْ: كَانَ أَبْغَض الحَدِيث إِليْهِ، غَيْر أَنَّهُ كَانَ يَتَمَثَّل بِبَيْتِ أَخِي بَنِي قَيْس، فَيَجْعَل أَوَّله آخِره، وَآخِره أَوَّله. فَقَال أَبُو بَكْر: ليْسَ هَكَذَا. فَقَال رَسُول الله ﷺ : «**إِنِّي وَالله مَا أَنَا بِشَاعِرٍ وَمَا يَنْبَغِي لي**».[4] رَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم وَابْن جَرِير، وَهَذَا لفْظه. وَقَال مَعْمَر عَنْ قَتَادَة: بَلغَنِي أَنَّ عَائِشَة سُئِلتْ: هَل كَانَ رَسُول الله ﷺ يَتَمَثَّل بِشَيْءٍ مِنْ الشِّعْر؟ فَقَالتْ: لا، إِلَّا بَيْت طَرَفَة:

سَتُبْدِي لكَ الأَيَّام مَا كُنْت جَاهِلاً ❁ وَيَأْتِيك بالأَخْبَارِ مَنْ لمْ تُزَوِّد

فَجَعَل ﷺ يَقُول: «**مَنْ لمْ تُزَوِّد بالأَخْبَارِ**». فَقَال أَبُو بَكْر: ليْسَ هَذَا هَكَذَا. فَقَال: «**إِنِّي لسْت بشَاعِرٍ، وَلا يَنْبَغِي لي**». وَثَبَتَ فِي «الصَّحِيحين» أَنَّهُ ﵇ تَمَثَّل يَوْم حَفْر الخَنْدَق بِأَبْيَاتِ عَبْد الله بْن رَوَاحَة، وَلكِنْ تَبَعًا لقَوْل أَصْحَابه، فَإِنَّهُمْ كانوا يَرْتَجِزُونَ وَهُمْ يَحْفِرُونَ، فَيَقُولُونَ:

لاهُمَّ لوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ❁ وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلنْ سَكِينَة عَليْنَا ❁ وَثَبِّتْ الأَقْدَام إِنْ لاقَيْنَا

إِنَّ الأُولى قَدْ بَغَوْا عَليْنَا ❁ إِذَا أَرَادُوا فِتْنَة أَبَيْنَا

(١) حسن : أخرجه أحمد (٦/ ٣١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٦٦٥).

(٢) إسناده ضعيف : أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٢٨٨) بسند ضعيف.

(٣) إسناده ضعيف : أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٧/ ٤٣) بسند ضعيف، قال البيهقي: ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد، وفيهم من يجهل حاله.

(٤) صحيح : أخرجه الترمذي (٢٨٤٨)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

وَيَرْفَع صوته بِقَوْلِهِ: «أَبَيْنَا» وَيَمُدّهَا.[١] وَقَدْ رُوِيَ هَذَا بِزِحَافٍ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَيْضًا. وَكَذَلِك ثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ قَال يَوْم حُنَيْن وَهُوَ رَاكِب البَغْلة، يُقْدِم بِهَا فِي نُحُور العَدُوّ:

أَنَــا النَّبِــيّ لا كَــذِب ۞ أَنَــا ابْــن عَبْــد المُطَّلِــب[٢]

لكِنْ قَالُوا: هَذَا وَقَعَ اتِّفَاقًا مِنْ غَيْر قَصْد لوَزْنِ شِعْر، بَل جَرَى عَلَى اللِّسَان مِنْ غَيْر قَصْد إِلَيْهِ. وَكَذَلكَ مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ جُنْدُب بْن عَبْد الله؛ قَال: كُنَّا مَعَ رَسُول الله ﷺ فِي غَار فَنُكِبَتْ أُصْبُعه، فَقَال:

هَــل أَنْــتِ إلاَّ أُصْــبُع دَمِيــتِ ۞ وَفِــي سَــبِيل الله مَــا لقِيــتِ

وَسَيأْتِي عِنْد قَوْله تَعَالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ إِنْشَاد:

إِنْ تَغْفِــر اللَّهُــمَّ تَغْفِــر جَمًّــا ۞ وَأَيّ عَبْــد لــك مَــا أَلَــمَّا

وَكُلّ هَذَا لا يُنَافِي كَوْنه ﷺ مَا عُلِّمَ شِعْرًا وَلا يَنْبَغِي لهُ، فَإِنَّ الله تَعَالى إِنَّمَا عَلَّمَهُ القُرْآن العَظِيم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، وَليْسَ هُوَ بِشِعْرٍ كَمَا زَعَمَهُ طَائِفَة مِنْ جَهَلة كُفَّار قُرَيْش، وَلا كِهَانَة، وَلا مُفْتَعَل، وَلا سِحْر يُؤْثَر، كَمَا تَنَوَّعَتْ فِيهِ أَقْوَال الضُّلَّال وَآرَاء الجُهَّال. وَقَدْ كَانَتْ سَجِيَّته ﷺ تَأْبَى صِنَاعَة الشِّعْر طَبْعًا وَشَرْعًا، كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاود؛ قَال: حَدَّثَنَا عُبَيْد الله بْن عَمْر، حَدَّثَنَا عَبْد الله بْن يَزِيد، حَدَّثَنَا سَعِيد بْن أَبِي أَيُّوب، حَدَّثَنَا شُرَحْبِيل بْن يَزِيد المَعَافِرِيّ، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن رَافِع التَّنُوخِيّ؛ قَال: سَمِعْت عَبْد الله بْن عَمْرو؛ يَقُول: سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول: «مَا أُبَالِي مَا أُوتِيت إِنْ أَنَا شَرِبْت تِرْيَاقًا، أَوْ تَعَلَّقْت تَمِيمَة، أَوْ قُلت الشِّعْر مِنْ قِبَل نَفْسِي». تَفَرَّدَ بِهِ أَبُو دَاوُد.[٣]

وَقَال الإِمَام أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ، عَنْ الأَسْوَد بْن شَيْبَان، عَنْ أَبِي نَوْفَل؛ قَال: سَأَلت عَائِشَة: أَكَانَ رَسُول الله ﷺ يتسامع عِنْده الشِّعْر؟ فَقَالَتْ: كَانَ أَبْغَض الحَدِيث إِلَيْهِ.[٤] وَقَال عَنْ عَائِشَة: كَانَ رَسُول الله ﷺ يُعْجِبهُ الجَوَامِع مِنْ الدُّعَاء، وَيَدَع مَا بَيْن ذَلكَ.

وَقَال أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيد الطَّيَالِسِيّ، حَدَّثَنَا شُعْبَة عَنْ الأَعْمَش، عَنْ أَبِي صَالح عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه عَنْ النَّبِيّ ﷺ: «**لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْف أَحَدكُمْ قَيْحًا خَيْر لهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**».[٥] تفرد بِهِ مِنْ هَذَا الوَجْه، وَإِسْنَاده عَلى شَرْط الشَّيْخَيْنِ، وَلمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا يزيد، حَدَّثَنَا قَزَعَة بْن سُوَيْد البَاهِلِيّ، عَنْ عَاصِم بْن مَخْلد، عَنْ أَبِي الأَشْعَث الصَّنْعَانِيّ، / ح / وَحَدَّثَنَا الأَشْيَب فَقَال: عَنْ أَبِي عَاصِم، عَنْ [أَبِي الأَشْعَث][٦]، عَنْ شَدَّاد بْن أَوْس؛ قَال: قَال رَسُول الله ﷺ: «مَنْ قَرَضَ بَيْت شِعْر بَعْد العِشَاء الآخِرَة، لمْ تُقْبَل لهُ صَلاة تِلكَ اللَّيْلة».[٧] وَهَذَا حَدِيث غَرِيب مِنْ هَذَا الوَجْه.

وَلمْ يُخَرِّجهُ أَحَد مِنْ أَصْحَاب الكُتُب السِّتَّة. وَالمُرَاد بِذَلكَ نَظْمه لا إِنْشَاده، وَالله أَعْلم. عَلى أَنَّ الشِّعْر فِيهِ مَا هُوَ مَشْرُوع، وَهُوَ هِجَاء المُشْرِكِينَ الَّذِي كَانَ يَتَعَاطَاهُ شُعَرَاء الإِسْلام، كَحَسَّانِ بْن ثَابِت، وَكَعْب بْن مَالك وَعَبْد الله

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤١٠١)، ومسلم (١٨٠٣).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٦٤).
(٣) ضعيف: أخرجه أبو داود (٣٨٦٩) بسند ضعيف وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».
(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ١٨٨)، انظر «الصحيحة» (٣٠٩٥).
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٢٥٧).
(٦) في (ز): [الأشعث].
(٧) ضعيف: أخرجه أحمد (٤/ ١٢٥) بسند ضعيف وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٧٩٠).

ابْن رَوَاحَة، وَأَمْثَالهمْ وَأَضْرَابهمْ، رَضِيَ الله عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، وَمِنْهُ مَا فِيهِ حِكَم وَمَوَاعِظ وَآدَاب، كَمَا يُوجَد فِي شِعْر جَمَاعَة مِنَ الجَاهِلِيَّة، وَمِنْهُمْ أُمَيَّة بْن أَبِي الصَّلت الَّذِي قَال فِيهِ النبي ﷺ: «آمَنَ شِعْره وَكَفَرَ قَلبه».[1]

وَقَدْ أَنْشَدَ بَعْض الصَّحَابَة منه للنَّبِيِّ ﷺ مِائَة بَيْت، يَقُول ﷺ عَقِب كُلّ بَيْت: «هِيهِ»؛ يَعْنِي يَسْتَطْعِمهُ، فَيَزِيدهُ مِنْ ذَلِكَ. وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد مِنْ حَدِيث أُبَيّ بْن كَعْب، وَبُرَيْدَة بْن الحُصَيْب، وَعَبْد الله بْن عَبَّاس؛ أَنَّ رَسُول الله ﷺ قَال: «إِنَّ مِنْ البَيَان سِحْرًا، وَإِنَّ مِنْ الشِّعْر حِكَمًا».[2] وَلهَذَا قَال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾، ويَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ مَا عَلَّمَهُ الله شعرًا، ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، أَيْ: وَمَا يَصْلُح لهُ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾، أَيْ: مَا هَذَا الَّذِي عَلَّمْنَاهُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾، أَيْ: بَيِّن وَاضِح جَلِيّ لِمَنْ تَأَمَّلهُ وَتَدَبَّرَهُ؛ وَلهَذَا قَال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾، أَيْ: ليُنْذِر هَذَا القُرْآن البين كُلّ حَيّ عَلى وَجْه الأَرْض، كَقَوْلِهِ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، وَقَال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾. وَإِنَّمَا يَنْتَفِع بِنِذَارَتِهِ مَنْ هُوَ حَيّ القَلب، مُسْتَنِير البَصِيرَة، كَمَا قَال قَتَادَة: حَيّ القَلب، حَيّ البَصَر.

وَقَال الضَّحَّاك: يَعْنِي عَاقِلًا، ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، أَيْ: هُوَ رَحْمَة للمُؤْمِنِ وَحُجَّة عَلى الكَافِرِ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

يَذْكُر تَعَالى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلى خَلقه مِنْ هَذِهِ الأَنْعَام الَّتِي سَخَّرَهَا لهُمْ، ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾، قَال قَتَادَة: مُطِيقُونَ؛ أَيْ: جَعَلهُمْ يَقْهَرُونَهَا وَهِيَ ذَلِيلَة لهُمْ، لا تَمْتَنِع مِنْهُمْ، بَل لوْ جَاءَ صَغِير إِلى بَعِير لأَنَاخَهُ، وَلوْ شَاءَ لأَقَامَهُ وَسَاقَهُ، وَذَاكَ ذَلِيل مُنْقَاد مَعَهُ. وَكَذَا لوْ كَانَ القِطَار مِائَة بَعِير أَوْ أَكْثَر، لسَارَ الجَمِيع بِسَيْرِ صَغِير.

وَقَوْله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، أَيْ: مِنْهَا مَا يَرْكَبُونَ فِي الأَسْفَار، وَيَحْمِلُونَ عَليْهِ الأَثْقَال، إِلى سَائِر الجِهَات وَالأَقْطَار. وَمِنْهَا ما يَأْكُلُونَ إِذَا شَاءُوا نَحَرُوا وَاجْتَزَرُوا، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ﴾، أَيْ: مِنْ أَصْوَافهَا وَأَوْبَارهَا وَأَشْعَارهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلى حِين، ﴿وَمَشَارِبُ﴾، أَيْ: مِنْ أَلبَانهَا وَأَبْوَالهَا لمَنْ يَتَدَاوَى، وَنَحْو ذَلك، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، أَيْ: أَفَلا يُوَحِّدُونَ خَالق ذَلكَ وَمُسَخِّره، وَلا يُشْرِكُونَ بِهِ غَيْره؟

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُنْكِرًا عَلى المُشْرِكِينَ فِي اتِّخَاذهمْ الأَنْدَاد آلهَة مَعَ الله، يَبْتَغُونَ بِذَلكَ أَنْ تَنْصُرهُمْ تِلكَ الآلهَة وَتَرْزُقهُمْ، وَتُقَرِّبهُمْ إِلى الله زُلفَى. قَال الله تَعَالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، أَيْ: لا تَقْدِر الآلهَة عَلى نَصْر عَابِدِيهَا، بَل هِيَ أَضْعَف مِنْ ذَلكَ وَأَقَل وَأَذَل وَأَحْقَر وَأَدْحَر، بَل لا تَقْدِر عَلى الانتصار لأَنْفُسِهَا، وَلا الانْتِقَام مِمَّنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ، لأَنَّهَا جَمَاد لا تَسْمَع وَلا تَعْقِل. وَقَوْله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾، قَال مُجَاهِد: يَعْنِي عِنْد الحِسَاب يُرِيد أَنَّ هَذِهِ الأَصْنَام مَحْشُورَة مَجْمُوعَة يَوْم القِيَامَة، مُحْضَرَة عِنْد حِسَاب عَابِدِيهَا، ليَكُونَ ذَلكَ أَبْلغ فِي حُزْنهمْ، وَأَدَلّ عَليْهِمْ فِي إِقَامَة الحُجَّة عَليْهِمْ.

وَقَال قَتَادَة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾، يَعْنِي: الآلهَة، ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾، وَالمُشْرِكُون يَغْضَبُونَ للآلهَةِ فِي الدُّنْيَا، وَهِيَ لا تَسُوق إِليْهِمْ خَيْرًا، وَلا تَدْفَع عَنْهُمْ سوءًا، وإِنَّمَا هِيَ أَصْنَام. وَهَكَذَا قَال الحَسَن البَصْرِيّ. وَهَذَا القَوْل حَسَن، وَهُوَ اخْتِيَار ابْن جَرِير رَحِمَهُ اللهُ.

---

(١) ضعيف: انظر «الضعيفة» (١٥٤٦).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٤٥).

وَقَوْله: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾، أَيْ: تَكْذِيبهمْ لك وَكُفْرهمْ بالله، ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾، أَيْ: نَحْنُ نَعْلم جَمِيع مَا هُمْ عليه، وَسَنَجْزِيهِمْ وَصْفهمْ وَنُعَامِلهُمْ عَلَى ذَلِكَ، يَوْم لا يَفْقِدُونَ مِنْ أَعْمَالهمْ جليلًا وَلا حَقِيرًا، وَلا صَغِيرًا وَلا كَبِيرًا، بَل يُعْرَض عَلَيْهِمْ جَمِيع مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾.

قَال مُجَاهِد، وَعِكْرِمَة وَعُرْوَة بْن الزُّبَيْر، وَالسُّدِّيّ، وَقَتَادَة: جَاءَ أُبَيّ بْن خَلف إِلَى رَسُول الله ﷺ وَفِي يَده عَظم رَمِيم وَهُوَ يفتته ويذريه فِي الهَوَاء، وَهُوَ يَقُول: يَا مُحَمَّد؛ أَتَزْعُمُ أَنَّ الله يَبْعَث هَذَا؟! فقَال: «**نَعَمْ؛ يُمِيتك الله تَعَالى، ثُمَّ يَبْعَثك، ثُمَّ يَحْشُرك إِلى النَّار**». وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَات مِنْ آخِر «يس»: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إِلى آخِرهنَّ. وَقَال ابْن أَبِي حَاتِم: حَدَّثَنَا عَلِيّ بْن الحُسَيْن بْن الجُنَيْد، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن العَلاء، حَدَّثَنَا عُثْمَان بْن سَعِيد الزَّيَّات، عَنْ هُشَيْم، عَنْ أَبِي بِشْر عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر، عَنْ ابْن عَبَّاس: أن العَاص بْن وَائِل أَخَذ عَظْمًا مِنْ البَطْحَاء فَفَتَّهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَال لِرَسُول الله ﷺ: أَيُحْيِي الله تعالى هَذَا بَعْد مَا أَرَى؟ فَقَال رَسُول الله ﷺ: «**نَعَمْ، يُمِيتك الله ثُمَّ يُحْيِيك، ثُمَّ يُدْخِلك جَهَنَّم**»[1]. قَال: ونَزَلَتْ الآيَات مِنْ آخِر «يس». وَرَوَاهُ ابْن جَرِير عَنْ يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم، عَنْ هُشَيْم، عَنْ أَبِي بِشْر، عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر فَذَكَرَهُ وَلَمْ يَذْكُر «ابْن عَبَّاس».

وَرُوِيَ مِنْ طَرِيق العَوْفِيّ، عَنْ ابْن عَبَّاس؛ أنه قَال: جَاءَ عَبْد الله بْن أُبَيّ بِعَظْم فَفَتَّهُ وَذَكَرَ نَحْو مَا تَقَدَّمَ، وَهَذَا مُنْكَر؛ لأَنَّ السُّورَة مَكِّيَّة، وَعَبْد الله بْن أُبَيّ ابْن سَلُول، إِنَّمَا كَانَ بِالمَدِينَةِ. وَعَلَى كُلّ تَقْدِير، سَوَاء كَانَتْ هَذِهِ الآيَات نَزَلَتْ فِي أُبَيّ بْن خَلف، أَوْ فِي العَاص، أَوْ فِيهِمَا، فَهِيَ عَامَّة فِي كُلّ مَنْ أَنْكَرَ البَعْث، وَالأَلف وَاللَّام فِي قَوْله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ للجِنْسِ، يَعُمّ كُلّ مُنْكِر للبَعْثِ. ﴿أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾، أَيْ: أَوَلَمْ يَسْتَدِلّ مَنْ أَنْكَرَ البَعْث بِالبَدَاءِ عَلَى الإِعَادَة، فَإِنَّ الله ابْتَدَأَ خَلق الإِنْسَان مِنْ سُلالة مِنْ مَاء مَهِين، فَخَلَقَهُ مِنْ شَيْء حَقِير ضَعِيف مَهِين، كَمَا قَال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾. وَقَال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾، أَيْ: مِنْ نُطْفَة مِنْ أَخْلاط مُتَفَرِّقَة، فَالَّذِي خَلقَهُ مِنْ هَذِهِ النُّطْفَة الضَّعِيفَة أَلَيْسَ بِقَادِرٍ عَلَى إِعَادَته بَعْد مَوْته.

كَمَا قَال الإِمَام أَحْمَد فِي «مُسْنَده»: حَدَّثَنَا أَبُو المُغِيرَة، حَدَّثَنَا [جَرِيز][2] حَدَّثَنِي عَبْد الرَّحْمَن بْن مَيْسَرَة عَنْ جُبَيْر ابْن نُفَيْر، عَنْ بُسْر بْن جِحَاش: أن رَسُول الله ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفّه، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعه، ثُمَّ قَال: «**قَال الله تَعَالى: ابن آدَم، أَنَّى تُعْجِزنِي وَقَدْ خَلَقْتُك مِنْ مِثْل هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُك وَعَدَلْتُك، مَشَيْت بَيْن بُرْدَيْك وَللأَرْضِ مِنْك وَئِيد، فَجَمَعْت وَمَنَعْت حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ قُلت: أَتَصَدَّق. وَأَنَّى أَوَان الصَّدَقَة؟**»[3]. وَرَوَاهُ ابْن مَاجَهْ عَنْ أَبِي بَكْر ابْن أَبِي شَيْبَة، عَنْ يَزِيد بْن هَارُون، عَنْ [جَرِير][2] بْن عُثْمَان بِهِ. وَلِهَذَا قَال: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾؟ أَيْ: اسْتَبْعَدَ إِعَادَة الله تَعَالى -ذِي القُدْرَة العَظِيمَة الَّتِي خَلقَتْ السَّمَوَات وَالأَرْض- للأَجْسَادِ وَالعِظَام الرَّمِيمَة، وَنَسِيَ نَفْسه، وَأَنَّ الله خَلقَهُ مِنْ العَدَم، فَعَلِمَ مِنْ نَفْسه مَا هُوَ

---

(١) صحيح: أخرجه الطبري (١٠/ ٤٦٣)، والحاكم (٢/ ٤٢٩)، وصححه، ووافقه الذهبي.
(٢) في (ز): [جرير].
(٣) حسن: تقدم.

أَعْظَم مِمَّا اسْتَبْعَدَهُ وَأَنْكَرَهُ وَجَحَدَهُ؛ وَلهَذَا قَال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، أَيْ: يَعْلم العِظَام فِي سَائِر أَقْطَار الأَرْض وَأَرْجَائِهَا، أَيْنَ ذَهَبَتْ، وَأَيْنَ تَفرَّقَت وَتَمَزَّقَت؟

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا عفَّان، حَدَّثَنَا أَبُو عوَانَة، عَنْ عَبْد المَلك بْن عُمَيْر، عَنْ رِبْعِيّ؛ قَال: قَال عُقْبَة بْن عَمْرو لِحُذَيْفَة: أَلا تُحَدِّثنَا مَا سَمِعْت مِنْ رَسُول الله ﷺ؟ فَقَال: سَمِعْته يَقُول: «**إِنَّ رَجُلاً حَضَرَهُ المَوْت، فَلمَّا أيس مِنْ الحيَاة أَوْصَى أَهْله: إِذَا أَنَا مُتّ فَاجْمَعُوا لي حَطَبًا كَثِيرًا جَزْلاً، ثُمَّ أَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا، حَتَّى إِذَا أَكَلتْ لحْمِي وَخَلصَتْ إِلى عَظْمِي فَامْتَحَشَتْ فَخُذُوهَا فَذُرُّوهَا فِي اليَمّ، فَفعَلُوا، فَجَمَعَهُ الله إِلَيْهِ فقَال لَهُ: لمَ فَعَلت ذَلك؟ قَال: مِنْ خَشْيَتك، فَغَفَرَ الله لَهُ**». فَقَال عُقْبَة بْن عَمْرو: وَأَنَا سَمِعْته يَقُول ذَلِكَ. وَكَانَ نَبَّاشًا.

وَقَدْ أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، مِنْ حَدِيث عَبْد المَلك بْن عُمَيْر، بِأَلفَاظٍ كَثِيرَة، مِنْهَا: «**أَنَّهُ أَمَرَ بَنِيهِ أَنْ يُحَرِّقُوهُ ثُمَّ يَسْحَقُوهُ، ثُمَّ يَذْرُوا نِصْفه فِي البَرّ وَنِصْفه فِي البَحْر، فِي يَوْم رَائِح، أَيْ: كَثِير الهَوَاء -فَفَعَلُوا ذَلكَ، فَأَمَرَ الله البَحْر فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ البَرّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَال لَهُ: كُنْ. فَإِذَا هُوَ رَجُل قَائِم، فَقَال لَهُ: مَا حَمَلك عَلى مَا صَنَعْت؟ فقَال: مَخَافَتك وَأَنْتَ أَعْلم ؛ فَمَا تَلافَاهُ أَنْ غَفَرَ لَهُ**».[1]

وَقَوْله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾، أَيْ: الَّذِي بَدَأَ خلق هَذَا الشَّجر مِنْ مَاء حَتَّى صَارَ خَضِرًا نَضِرًا ذَا ثَمَر وَيَنْع، ثُمَّ أَعَادَهُ إِلى أَنْ صَارَ حَطَبًا يَابِسًا، تُوقَد بِهِ النَّار، كَذَلكَ هُوَ فعَّال لمَا يَشَاء قَادِر عَلى مَا يُرِيد لا يَمْنَعهُ شَيْء. قَال قَتَادَة فِي قَوْله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾، يَقُول: الَّذِي أَخْرَجَ هَذِهِ النَّار مِنْ هَذَا الشَّجر قَادِر أَنْ يَبْعَثهُ. وَقِيل: المُرَاد بِذَلكَ سرح المَرْخ وَالعَفَار، يَنْبُت فِي أَرْض الحِجَاز فَيَأْتِي مَنْ أَرَادَ قَدْح نَار وَليْسَ مَعَهُ زِنَاد، فَيَأْخُذ مِنْهُ عُودَيْنِ أَخْضَرَيْنِ، وَيَقْدَح أَحدهمَا بِالآخر، فَتَتَوَلَّد النَّار مِنْ بَيْنهمَا، كَالزِّنَادِ سَوَاء. رُوِيَ هَذَا عَنْ ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما. وَفِي المَثَل: «لِكُلِّ شَجَر نَار، وَاسْتَمْجَدَ المَرْخ وَالعَفَار» وَقَال الحُكَمَاء: فِي كُلّ شَجَر نَار إِلّا الغاب.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

يَقُول تَعَالى مُنَبِّهًا عَلى قُدْرَته العَظِيمَة فِي خلقه السَّمَوَات السَّبْع، بِمَا فِيهَا مِنْ الكَوَاكِب السَّيَّارَة وَالثَّوَابِت، وَالأَرَضِينَ السَّبْع وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَال وَرِمَال وَبِحَار وَقِفَار وَمَا بَيْن ذَلكَ، وَمُرْشِدًا إِلى الاسْتِدْلال عَلى إِعَادَة الأَجْسَاد بِخَلقِ هَذِهِ الأَشْيَاء العَظِيمَة، كَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾. وَقَال هَهُنَا: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾؟، أَيْ: مِثْل البَشَر، فَيُعِيدهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ. قَالهُ ابْن جَرِير. وَهَذِهِ الآيَة كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. وقال هاهنا: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، أَيْ: إِنَّمَا يَأْمُر بِالشَّيْءِ أَمْرًا وَاحِدًا، لا يَحْتَاج إِلى تَكْرَار:

إِذَا مَا أَرَادَ الله أَمْرًا فَإِنَّمَا ❁ يَقُول لَهُ «كُنْ» قَوْلَة فَيَكُون

وَقَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا ابْن نُمَيْر، حَدَّثَنَا مُوسَى بْن المُسَيَّب، عَنْ شَهْر، عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بن غنْم، عَنْ أَبِي ذَرّ رضي الله عنه: أن رَسُول الله ﷺ قَال: «إِنَّ الله يَقُول: يَا عِبَادِي، كُلّكُمْ مُذْنِب إِلاَّ مَنْ عَافَيْت، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِر لكُمْ. وَكُلّكُمْ فَقِير إِلاَّ مَنْ أَغْنَيْت، إِنِّي جَوَاد مَاجِد وَاجِد، أَفْعَل مَا أَشَاء، عَطَائِي كَلام، وَعَذَابِي كَلام، إِذَا أَرَدْت

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٣٤٥٢).

شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقُول لهُ كُنْ فَيكُون»[١]. وَقَوْله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أَيْ: تَنْزِيه وَتَقْدِيس وَتَبْرِئَة مِنْ السُّوء للحَيِّ القَيُّوم، الَّذِي بِيَدِهِ مَقَاليد السَّمَوَات وَالأَرْض وَإِلَيْهِ يرجع الأَمْر كُلّه، وَلهُ الخَلق وَالأَمْر، وَإِليْهِ ترجع العِبَاد يَوْم القيامة، فَيُجَازِي كُلّ عَامِل بِعَمَلِهِ، وَهُوَ العَادِل المُنْعِم المُتَفَضِّل.

وَمَعْنَى قَوْله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿قُلْ مَنْۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وَكَقَوْلِهِ تَعَالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، فَالمُلك وَالمَلكُوت وَاحِد فِي المَعْنَى، كَرَحْمَةٍ وَرَحَمُوت، وَرَهْبَة وَرَهَبُوت، وَجَبْر وَجَبَرُوت. وَمِنْ النَّاس مَنْ زَعَمَ أَنَّ المُلك هُوَ عَالم الأَجْسَام، وَالمَلكُوت هُوَ عَالم الأَرْوَاح، وَالأول هو الصَّحِيح، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الجُمْهُور مِنْ المُفَسِّرِينَ وَغَيْرهمْ.

قَال الإِمَام أَحْمَد: حَدَّثَنَا سريج بْن النُّعْمَان، حَدَّثَنَا حَمَّاد، عَنْ عَبْد المَلك بْن عُمَيْر، حَدَّثَنِي ابْن عَمّ لحُذَيْفَة، عَنْ حُذَيْفَة -وهو ابن اليمان رضي الله عنه-؛ قَال: قُمْت مَعَ رَسُول الله ﷺ ذَات ليْلة، فَقَرَأَ السَّبْع الطُّوَل فِي سَبْع رَكَعَات، وَكَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسه مِنْ الرُّكُوع قَال: «سَمِعَ الله لمَنْ حَمِدَهُ». ثُمَّ قَال: «الحَمْد لله ذِي المَلكُوت وَالجَبَرُوت وَالكِبْرِيَاء وَالعَظَمَة». وَكَانَ رُكُوعه مِثْل قِيَامه، وَسُجُوده مِثْل رُكُوعه، فَأَنْصَرَفَ وَقَدْ كَادَتْ تَنْكَسِر رِجْلايَ.[٢]

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد، وَالتِّرْمِذِيّ فِي «الشَّمَائِل»، وَالنَّسَائِيّ، مِنْ حَدِيث شُعْبَة، عَنْ عَمْرو بْن مُرَّة عَنْ أَبِي حَمْزَة -مَوْلى الأَنْصَار- عَنْ رَجُل مِنْ بَنِي عَبْس، عَنْ حُذَيْفَة رضي الله عنه؛ أَنَّهُ رَأَى رَسُول الله ﷺ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْل، وَكَانَ يَقُول: «الله أَكْبَر -ثَلاثًا- ذو المَلكُوت وَالجبَرُوت وَالكِبْرِيَاء وَالعَظَمَة»[٣]. ثُمَّ اسْتَفْتَحَ فَقَرَأَ البَقَرَة، ثُمَّ رَكَعَ فَكَانَ رُكُوعه نَحْوًا مِنْ قِيَامه، وَكَانَ يَقُول فِي رُكُوعه: «سُبْحَان رَبِّيَ العَظِيم». ثُمَّ رَفَعَ رَأْسه مِنْ الرُّكُوع، فَكَانَ قِيَامه نَحْوًا مِنْ رُكُوعه، يَقُول: «لرَبِّيَ الحَمْد» ثُمَّ سَجَدَ، فَكَانَ سُجُوده نَحْوًا مِنْ قِيَامه، وَكَانَ يَقُول فِي سُجُوده: «سُبْحَان رَبِّيَ الأَعْلى». ثُمَّ رَفَعَ رَأْسه مِنْ السُّجُود، وَكَانَ يَقْعُد فِيمَا بَيْن السَّجْدَتَيْنِ نَحْوًا مِنْ سُجُوده، وَكَانَ يَقُول: «رَبِّ اغْفِرْ لي، رَبِّ اغْفِرْ لي». فَصَلَّى أَرْبَع رَكَعَات، فَقَرَأَ فِيهِنَّ البَقَرَة، وَآل عِمْرَان، وَالنِّسَاء، وَالمَائِدَة -أَوْ الأَنْعَام شَكَّ شُعْبَة-. هَذَا لفْظ أَبِي دَاوُد.

وَقَال النَّسَائِيّ: أَبُو حَمْزَة عِنْدنَا طَلحَة بْن يَزِيد، وَهَذَا الرَّجُل يُشْبِه أَنْ يَكُون صِلة. كَذَا قَال، وَالأَشْبَه أَنْ يَكُون ابْن عَمّ حُذَيْفَة، كَمَا تَقَدَّمَ فِي رِوَايَة الإِمَام أَحْمَد، فَأَمَّا رِوَايَة صِلة بْن زُفَر، عَنْ حُذَيْفَة، فَإِنَّهَا فِي «صَحِيح مُسْلم»، وَلكِنْ ليْسَ فِيهَا المَلكُوت وَالجَبَرُوت وَالكِبْرِيَاء وَالعَظَمَة.

وَقَال أَبُو دَاوُد: حَدَّثَنَا أَحْمَد بْن صَالح، حَدَّثَنَا ابْن وَهْب، حَدَّثَنِي مُعَاوِيَة بْن صَالح، عَنْ عَمْرو بْن قَيْس، عَنْ عَاصِم بْن حُمَيْد، عَنْ عَوْف بْن مَالك الأَشْجَعِيّ؛ قَال: قُمْت مَعَ رَسُول الله ﷺ ليْلةً فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَة البَقَرَة، لا يَمُرّ بِآيَةِ رَحْمَة إِلَّا وَقَفَ فَسَأَل، وَلا يَمُرّ بِآيَةِ عَذَاب إِلَّا وَقَفَ وَتَعَوَّذَ، قَال: ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيَامه، يَقُول فِي رُكُوعه: «سُبْحَان ذِي الجبَرُوت وَالمَلكُوت وَالكِبْرِيَاء وَالعَظَمَة». ثُمَّ سَجَدَ بِقَدْرِ قِيَامه، ثُمَّ قَال فِي سُجُوده مِثْل ذَلكَ، ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ بِآل عِمْرَان ثُمَّ قَرَأَ سُورَة سُورَة.[٤] وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي «الشَّمَائِل»، وَالنَّسَائِيّ مِنْ حَدِيث مُعَاوِيَة بْن صَالح بِهِ.

آخِر تَفْسِير سُورَة يس، ولله الحَمْد وَالمِنَّة

تم الجزء الثالث من تفسير ابن كثير ويليه الجزء الرابع وأوله (سورة الصافات)

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ١٧٧)، وابن ماجه (٤٢٥٧)، بسند ضعيف، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه».
(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨) بسند ضعيف فيه إبهام شيخ عبد الملك بن عمير.
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٨٧٤)، والنسائي (١١٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».
(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١٠٤٩) وأحمد (٦/ ٢٤) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

فهرس

سورة الفرقان ٣٩٤

سورة الشعراء ٤٢٤

سورة النمل ٤٥٤

سورة القصص ٤٨٣

سورة العنكبوت ٥١٢